موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الأول

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الأول (مرآة مكة)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

إهـــداء

إلى الصديق البحرينى
الدكتور على المدنى ، أبو حمزة
تقديراً لوفائه المتميز
ولدوره العلمى والثقافى والإنسانى
ولخدماته للعروبة والإسلام

قصة هذا العمل

فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى ، حصلت من احدى المكتبات التجارية فى انقرة وهى مكتبة صالح الخان على نسخة كاملة من خمسة أجزاء من الأصل التركى العثمانى لكتاب أيوب صبرى باشا الذى عنوانه مرآة مكة المكرمة ومرآة المدينة المنورة ومرآة جزيرة العرب وكانت نسخة نادرة ، واشتريتها أملا فى ترجمتها إلى اللغة العربية . ثم كانت المشاغل العلمية وكثرة السفر فتأخر التفكير فى الترجمة .

ولما أراد الله ، تكون فريق عمل متخصص فى اللغة التركية وفى التاريخ لترجمة هذا الكتاب وفريق آخر لمراجعة الترجمة . والجدير بالتسجيل هنا أن جميع من أسهم فى هذا العمل . من مترجمين ومراجعين ومشرفين ، قنعوا بالرمز والقليل فى أداء دورهم وأنتهت علاقتنا المادية بترجمة هذا الكتاب ولكن كان من الضرورى نشر الكتاب ، فاستشرنا الأستاذة الدكتورة / ماجدة مخلوف فدلتنا على دار الآفاق العربية وصاحبها الأستاذ/ سليم عبد الحى سليم الذى وجدنا منه كل ترحيب بالنشر ، وشكرناه كثيراً وقدرنا له هذا . وقدر هو لنا أن لم تكن لنا شروطا مادية فى نشر الطبعة الورقية من هذا الكتاب . واهتم بالطباعة وكرس لها الشيخ محمود جيرة الله لهذا أهنى المكتبة العربية والمستفدين من ظهور هذا السفر العظيم

محمد حرب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب من درر التراث العثمانى وهو تراث إسلامى مكتوب باللغة التركية العثمانية وهى لغة أسهمت إسهاماً واضحاً فى مسيرة التراث الإسلامى، ومعلوم أن التراث الإسلامى لا يقتصر على التراث المكتوب باللغة العربية فحسب، إنما تتنازعه الفارسية والتركية: الشرقية والغربية وغير ذلك من لغات المسلمين مثل هذه اللغات فى ذلك مثل اللغة العربية، بالإضافة إلى التراث الشفاهى لهذه الشعوب.

ومصنف هذا الكتاب هو أيوب صبرى باشا، وهو مؤرخ عثمانى توفى فى استانبول عام ١٨٩٠م ولما كان ـ يرحمه الله ـ قد تَنَقَّل فى السلك العسكرى حتى وصل إلى رتبة أميرلاى فى البحرية العثمانية وأقام فترة طويلة بالحرمين الشريفين مكة والمدينة أتاح له ذلك أن يثرى علمه ومشاهداته ورؤيته الشخصية ومعرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامى؛ وبدا هذا واضحًا فى تصنيفه لكتابه هذا المشهور جداً والذى يتفوق كثيراً على ما كتب فى فنه فى كل اللغات.

وأهم مصنفات أيوب صبرى باشا هذا العالم المؤرخ الأديب:

١- محمود السير ١٨٧٠م

٢- تكملة المناسك ١٨٧٥م

٣- أسباب العناية فى ترجمة بداية النهاية ١٨٨٩م

٤- شرح قصيدة بانت سعاد ١٨٨٤م

٥- مرآة مكة ١٨٨٤ م

٦- مرآة المدينة ١٨٨٧م

٧- مرآة جزيرة العرب ١٨٨٩م

وتمثل هذه المرايا الثلاثة هذه الموسوعة التى بين يديك عزيزى القارئ ولما كان أيوب صبرى باشا - بهذا العمل الموسوعى الضخم - يمثل عهد السلطان عبد الحميد صاحب سياسة الجامعة الإسلامية والتقارب الإسلامى، لذلك وجد هذا الكتاب على ضخامته طريقه إلى المطبعة، وقد جاء هذا الكتاب موسوعة جامعة شاملة عن هذه البقعة الطيبة قلما توجد فى كتاب واحد وبهذه الصورة الرائعة التى صنف الباشا بها كتابه.

قسم أيوب صبرى باشا كتابه إلى ثلاثة مجلدات فى خمسة أجزاء:

الأول: مرآة مكة فى جزأين

الثانى: مرآة المدينة فى جزأين أيضاً

الثالث: جزيرة العرب فى جزء واحد

ويقع الكتاب فى ٣٠٠٠ صفحة تقريباً، من القطع الكبير.

إن هذا المصنَّف الذى يعد - بحق - موسوعة علمية وثقافية بما حواه من المعارف والفنون والتاريخ والقصص والشعر والإحصاءات قد استغرق تأليفه سبعة عشر عاماً فقد قام المؤلف بتنقيح مادة كتابه، وانتقاها جيداً إذ إنه بجانب اعتماده على المصادر والمراجع كان يسأل الأحياء من الناس من كبار السن يستوثق لمادة كتابه.

يقول المصنف: «تم تأليف المجلد الأول (مكة المكرمة) من أثر مرآة الحرمين الذى شغلت بتأليفه منذ سنة ١٢٨٩. وتم تأليف كل الكتاب وطبعه فى أوائل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثمائة وألف من هجرة النبى الأعظم».

هل كانت كلمة المرآة مقصودة من المؤلف؟

وماذا أراد المؤلف باستخدام كلمة المرآة ودلالتها؟

كذلك يقول أيوب صبرى باشا: «ومن البديهى أن الذين يسمعون لفظ المرآة سيلقون نظرة على سطور صفحاتها ثم يظنون أنهم سيرون فيها صور أنفسهم، يدل لفظ المرآة على الآلة التى تعكس الصورة ولكنهم إذا ما تذكروا أن من وظائف المرآة ومهماتها تقريب البعيد سيقنعون بأن مرآة الحرمين تاريخ كثير المنافع جامع لأحوال البلاد الحجازية العامة».

والغريب أن الترتيب الداخلى لفهرست كل جزء من الأجزاء الثلاثة: (مرآة مكة ـ مرآة المدينة ـ مرآة جزيرة العرب) مكون من ثلاثة أقسام كل قسم منها مقسم تقسيماً داخلياً إلى ما يسميه المصنف: الوجهة والصورة بحيث تحتوى كل وجهة على عدد معين من الصور.

ودلالة كلمة المرآة ليست ببعيدة عن دلالة كلمة الوجهة وكلمة الصورة.

أسباب تصنيف الموسوعة:

أولا:-

رأى أيوب صبرى باشا أن علماء كثيرين ألفوا فى تاريخ هذه البلاد لكن لم يتوفر لهذه المؤلفات أو لبعضها صفة الجمع أو الشمول لتتحدث عن هذه البلاد الثلاثة مجتمعة معاً، فمن ألف قبله فى تاريخ مكة أو تاريخ المدينة أو تاريخ كليهما أو تاريخ جزيرة العرب على حده، لم يتوفر لأعمالهم صفة الإحاطة بكافة جوانب الموضوع الذي تكتب عنه وكذلك ينقصها الدقة العلمية.

ثانيا:-

ما لهذه البلاد من مكانة وقدسية فى قلوب كل المسلمين على السواء سواء أكانوا عرباً أم غير عرب خدمة لأبناء هذا الدين يقول المصنف: «وأردت أن أخدم الذين ينتمون إلى ديننا».

إِذَنْ فالهدف الأساسى من تأليف الكتاب هو نفع الإسلام وبمعنى أصح نفع المسلمين فى شتى بقاع الأرض عن طريق تعريفهم بأقدس بقعة على وجه الأرض فهى كانت قبلتهم ووجهة حجهم وموطن أشرف خلق الله.

الكتاب المصنَّف:

ينقسم هذا السفر الضخم فى أصله العثمانى إلى ثلاثة أجزاء كبار هى مرآة مكة ويشغل الصفحات من ١ - ١١٤٥، ومرآة المدينة وهى من صفحة ١١٤٦ - ٢٥٠٢، ومرآة جزيرة العرب من صفحة ٢٥٠٣ - ٢٩٠٦.

فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ـ وهو مرآة مكة ـ تحدث أيوب صبرى باشا عن كل شئ يمت بصلة إلى مكة سواء من بعيد أو قريب، فهو يحدثنا عن تاريخها منذ بدء الخليقة إلى زمن تأليف الكتاب (عهد السلطان عبد الحميد الثانى)، وعن ساكنيها وعاداتهم، وموقعها الجغرافى وحدودها، ووصف منازلها ودورها وطرقها، وما سيأتى فى الحديث عن مرآة مكة وهو حديث مستقل.

وفى الجزء الثانى من هذه الموسوعة ـ وهو مرآة المدينة ويماثل فى الحجم الجزء الأول ـ يتحدث فيه عن مراجعه ومعلوماته الشخصية وما حصل عليه من الأخبار من تحقيقاته الذاتية. ومع هذا فهو أول كتاب يتضمن الأحوال العامة والخاصة للمدينة المنورة باللغة العثمانية ومن هنا حاز شرف السبق والأولية ويصح أن نصف هذا الجزء بأنه دائرة معارف كبيرة عن المدينة المنورة.

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فهو يعد أصغر جزء فى الموسوعة إذا ما قورن بالجزأين السابقين مرآة مكة ومرآة المدينة فهو يبلغ حوالى ٤٠٠ صفحة بينما يربو كل جزء من السابقين على ١٢٥٠ صفحة.

وفى مرآة جزيرة العرب الحديث المستفيض عنها من حيث الموقع الجغرافى والحدود الطبيعية وتاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور وذكر الملوك والحكام الذين

تولوا زمامها وكذلك قبائلها ورسومهم وعاداتهم وأحوال ساكنيها وكيف تقلبت بهم الأحداث.

ويبين المصنف فى بداية هذا الجزء أنه جعله ذيلاً لكل من مرآة مكة ومرآة المدينة ومن ثم وجب إلحاقه بهما واعتباره جزءاً ثالثاً للكتاب، إذ إن معرفة أحوال جزيرة العرب وتاريخها من الأهمية بمكان لمن يريد أن يتعرف على صورة الحرمين حتى تكتمل الصورة فى ذهننا فيقول: «ولكنه من المحال أن نحيط الإنسان علماً بأحوال الخريطة الحجازية الواسعة وحقائقها التاريخية بمطالعة بعض التوضيحات التى قدمت عن الأماكن المقدسة والمآثر الفخمة للحرمين الشريفين مطالعة سطحية قبل أن يعرف الأحوال التاريخية والتقسيمات الجغرافية لجزيرة العرب، ولذلك كتبتُ هذا التاريخ المختصر وضمنته أحوال قطعة جزيرة العرب وألحقته بالمرآة.

وهذا الجزء يعتبر الخلاصة لمن أراد أن يتعرف على أحوال جزيرة العرب ورغم قلة حجمه عن الجزأين السابقين إلا أنه كتب على ستة أجزاء. ولا تخلو هذه الموسوعة من نزعة أدب الرحلات وخاصة فى الأجزاء التى يذكر فيها الأماكن المقدسة ومواقعه الحربية ووصف الحرمين الشريفين وينبغى العلم أن المصنف زار هذه الأماكن المباركة وهو يصف ذلك لنا من خلال زياراته ولهذا اتضحت لنا صورة البلاد وخريطتها وأحوالها.

يتمتع أيوب صبرى باشا بقوة وكثرة مراجعه، ودقة رؤيته، وصواب تحليلاته، كما يتسم بالتواضع الجم فهو يصر على وضع نفسه موضع تساؤل من جهة القارئ وموضع التقصير أيضاً فهو كثيراً ما يصف نفسه بالتقصير والعجز.

كما تتصف هذه الموسوعة بالروح العلمية التى تعتمد التوثيق أساساً لها. ويظهر هذا حرصه كل الحرص على الأمانة العلمية التى تمثلت فى أمور منها:

١- حرصه أن يذكر لنا مصادره ينص على ذلك فى مقدمة مصنفه وفى ثناياه.

٢- حرصه على زيارة الأماكن التى يتحدث عنها غير مكتف بما جمعه من مادة علمية عنها.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المصنَّف كتب بلغة واضحة فى أسلوب سهل وبعيد عن التعقيد اللغوى، وبذلك فقد ناسب هذا الأسلوب مستويات الكثير من القراء.

كذلك يعد من مميزات هذا المصنف احتوائه على قدر من الطرافة والجدة فى آن واحد. فهو مع ضخامة مادته العلمية يدفع عن القارئ الملل بكل الطرق بذكر موضوع آخر أو حكاية غريبة أو حادثة نادرة وأحيانا تطالع القارئ أبيات من الشعر.

١- مرآة مكة: هو المجلد الأول من هذه الموسوعة وقد تحدث المؤلف فيه عن كل شىء عرفه يمت بصلة لمكة سواء من بعيد أو من قريب، فهو يحدثنا عن تاريخها منذ بدء الخليقة إلى زمن تأليف مؤلفه هذا، وعن ساكنيها وعاداتهم، وموقعها الجغرافى وحدودها، ثم يصف لنا مكة ومنازلها ودورها وطرقها.

بعد ذلك يحدثنا المؤلف عن أسماء مكة الكثيرة وألقابها وسبب كل لقب من هذه الألقاب، ثم يعرج على أحوال بناء الكعبة المشرفة فى مرآتها ويعرض لنا ـ بشئ من التفصيل ـ ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ ثم يقص قصة تجديد بيت الله الحرام ـ فى مرآتها ـ التى وصلت إلى إحدى عشرة مرة.

ويواصل المؤلف حديثه بعرضه الجهود التى بذلت فى توسعة بيت الله الحرام منذ القِدم حتى زمنه، وكذا الجهود التى بذلت فى تعميره وإنارته وتزيينه ليظهر فى أكمل صورة تليق ببيت الله الحرام.

ويتحدث بعد ذلك عن كسوة الكعبة المشرفة، وعمن أهدوا الكسوة إليها، ونوع القماش الذى كانت تصنع منه، وكيف تعلق الستائر على الكعبة، ووصف البيت الحرام وأجزائه الشريفة، والأبواب، وأسماء كل منها والأعمدة وعددها والقباب وعددها ووضعها، والمآذن وأسماء كل منها، ثم يتحدث بعد ذلك عن فضائل مكة ومساجدها، وجبالها ودروبها.

وينقسم هذا المجلد من الكتاب إلى سبعة أبواب وواحد وأربعين فصلا:

تحدث المؤلف فى الفصل الأول عن موقع مكة الجغرافى والإستراتيجى، فى داخل إقليم الحجاز وهى مركز إدارته وحكمه، ويحدها من الشمال المدينة المنورة وصحارى الشام، ومن الجنوب جبال نجد واليمن ومن الشرق البحرين، ومن الغرب البحر الأحمر.

وتنقسم نواحى مكة إلى منطقتين كبيرتين هما: نجد وتهامة.

ففى نجد تقع الطائف، وتمتاز، وقرن، ونجران، والظهران، وعكاظ، ومنحره، ونعم، وجرعش، وسراة.

أما النواحى التابعة لتهامة فهى: نعم، وزعك، وخنكان، ويشى، ووادى نخلة، ،وذات عرق، ويليل.

أما من الناحية البشرية فإن أهل مكة يتمتعون بروح تجارية عالية نظراً لموقها الخاص، وكذلك يبين لنا القرآن فى حديثه عن قريش أنها تقع فى ملتقى مناطق ودول كثيرة أضف إلى ذلك الموقع الإستراتيجى بحكم قدسيتها وحج جميع العرب إليها.

ومن الفقرات الهامة فى هذا الفصل التى تحدث عنها المؤلف أديان العرب فى الجاهلية، ففيها يتحدث عن أديان العرب وعباداتهم قبل الإسلام والتى كانت تتمثل فى اليهودية والمسيحية، والمجوسية، وكذلك الأصنام التى كانت تعبدها بعض القبائل فذكر أن بنى حنيفة من قريش اتخذت إلها من طعام اسمه «حيس» وظلوا يعبدونه مذة طويلة، وعندما حدثت المجاعة والقحط قاموا بتقسيمه ثم أكله، وفى ذلك يقول شاعرهم:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إِعْوَازِ

ومن النقاط الطريفة فى هذا الفصل والتى تعد من أهم ما ذكر المؤلف فيه حديثه عن مكة، وأسمائها، وألقابها، وسبب تلقيبها وتسميتها بهذه الأسماء

معددا ما يقرب من ١٢٩ اسما وخمسة ألقاب معللاً فى كل ذلك سبب التسمية، واللقب، وكذلك يرجع بالتسمية إلى أصلها اللغوى يستعين به فى التفسير والتعليل.

عن أسماء مكة يقول المؤلف: «عدد الأسماء ذات الدلالة الباهرة التى أطلقت على مدينة مكة المعظمة فى الكتب المقدسة كثيرة وهى: «مكة، بكة، بلد، قرية، أم القرى، بلدة، البلد الأمين، صلاح، باس، البساسة، ناسة، الساسة، حاطمة، رأس، كوثى، عرش، عريش، عرش، قادس، القادسية، سبوحة، حرام، البلد الحرام، المسجد الحرام، معطشة، برة، رتاج، رحم، أم رحم، أم الرحمة، كوثى، أمينة، أم الصفا، مروية، أم المشاعر، متخفية، البلدة المرزوقة، تهامة الحجاز، طيبة، مدينة الرب، عاقر، فاران»، وعددها خمسة وأربعون اسما جليلا. ولها ثمانية ألقاب جليلة مثل «المشرفة، المكرمة، المفخمة، المهابة، الوالدة، النادرة، الجامعة، المباركة».

سبب إطلاق هذه الأسماء على مكة:

ورد فى أقوال علماء اللغة أن اسم مكة المكرمة يطلق على هذه المدينة المقدسة فقط أو مجموع الحرم الشريف، أى المناطق الواقعة داخل المواقيت المحدودة، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب متعددة: على قول أنه مأخوذ من معنى «النفض» وكأنها تنفض جميع الآثام، وعلى رأى آخر أنها تنفض الظلم وتهلك أهل الجور، وعلى رأى ثالث أن الأرض المقدسة قليلة المياه، وسكانها كأنهم يمتصون المياه من أراضيها بأفواههم..

أو أنه مأخوذ من لفظة «مكاكة» التى تعنى النخاع والمخ فى وسط العظام، وكأن مكة كعبة الله فى وسط الدنيا وخلاصتها، وعلى قول، أن الأرض المباركة بيت الله تمتص ذنوب العصاة وأوزارهم وتخرجها ثم تمحوها، وكأنها تمتص النخاع من العظام، وكانت هذه البقعة مشهورة بقداستها حتى قبل الإسلام وإبان مجئ الإمبراطورية الرومانية وكانت تذكر باسم «مقربة» وتعرف به.

بكة: وهناك اختلاف حول هذا الاسم وعند البعض أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد ومترادفان، وبما أن حرفى الباء والميم متقاربان من ناحية النطق والمخرج الصوتى كان كل واحد منهما يحل مكان الآخر، ويدعون أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد؛ مع أن «بكة» في نظر البعض هو اسم المدينة المقدسة «مكة المكرمة»، وعند البعض الآخر أنه اسم البقعة الجليلة الكعبة المشرفة فقط.

والقول الصحيح أن مكة هو اسم الأماكن المباركة داخل حدود الحرم خارج المسجد الحرام، وبكة هو اسم البقعة التى عليها بيت الله وحرم المسجد الحرام المبارك.

وحسب قول ابن عباس أن سبب إطلاق اسم مكة أنها كانت تذل الملاعين والجبابرة الذين يعادونها.

أم القرى: وسميت بهذا الاسم لكونها أقدم بقعة على وجه البسيطة وقول الشاعر يؤكد أن أقدم الأراضى هى هذه البقعة المباركة. وإن كان هذا دليلاً لا يتسرب إليه الشك وسندا كافيا لتصديق تسميتها «بأم القرى»، إلا أن كون مكة المكرمة قبلة الجميع وامتيازها على بلاد الأرض كلها بالفخامة والعظمة ولاحتوائها على الكعبة الشريفة وخلو الأرض من تراب بقعة الله المباركة يجعلها جديرة بإطلاق هذا الاسم عليها وتبعا لهذا التوضيح لابد وأن يكون (أم القرى) هو اسم الأرض المقدسة التى تقع ضمن مواقيتها.

قال عبد الله بن عباس، وهو أعلم الناس (أطلق اسم أم القرى على مكة لأنها أعظم بلاد الأرض شأنا وكرامة ولأن الأرض قد بسطت من التراب الذى تحتها).

أما ابن عادل فقد وضح الموضوع فى تفسيره قائلا: إن موضع الكعبة المعظمة كان غثاء قبل أن يخلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض والسماوات وعندما بدأ خلق مكوناتها خلق الأرض وبسطها من تحت الكعبة قبل أن يخلق السماء، وهذا هو سبب تسميتها «بأم القرى» لأنها هى الأصل.

والفصل الثانى يصف لنا منازل مكة وبيوتها وطرز أبنيتها، وكذلك فرش البيوت ومتاعها فيصف لنا المبانى بعضها مبنىٌ من الحجارة والطوب، وبعضها أكواخ مصنوعة من الأعشاب والحصر يطلق على الواحد منها عشة.

ثم يتحدث عن طبيعة الجو والمناخ في مكة وحرارته المرتفعة التى من جرائها يذهب السكان إلى حديقة «المعلا» ويذكر لنا كذلكْ الخضر والفواكه التى تخرجها أرض مكة المعظمة ويبين أى هذه الفواكه ضار بسكان البلاد الباردة الذين يزورون البلاد الحارة وينبه إلى ما لا يجب تناوله فى الأراضى الحجازية ومنها:

الخوخ: وهو صعب الهضم.

المشمش: فهو يصيب من يتناوله بإفراط بالإسهال.

التين: ينبت فى الطائف وهو لذيذ الطعم لكن الإفراط فى تناوله يسبب الفتور.

السفرجل: وهو لذيذ الطعم، طيب الرائحة، إلا أن أكله قبل نضجه ضار.

الكمثرى: والإفراط فى أكلها يصيب المعدة بالضعف.

التفاح: مذاقه مزز من ـ ذو مزازة ـ وإذا طهى بالسكر وأكل منه الإنسان قدرا معتدلا فإنه يساعد على الهضم.

البرقوق: وهو يوجد بالطائف واسمه «برقوق مردم»، وأكله غير مرغوب لأنه يسبب الإسهال.

العنب: يرى الأطباء أن الطازج منه يبرد الدم ورغم أن ضرره أقل من الفواكه الأخرى فإن الإفراط فى أكله يسبب إسهالا مؤلماً.

اللوز: وهو بطئ الهضم، لكن له منقوع يمنع الحرارة ويسكن الألم.

التوت: لا يوجد بها إلا التوت الأسود وهو سريع التلف.

العناب: يجلب من الشام، وهو مفيد لمرض الصدر.

البطيخ: وأكل البطيخ فى الأيام الحارة يرطب الجسم ويسكن فورة الدم.

الشمام: أكله يسبب أحيانا تعبا فى القلب، لذا ينصح بعدم أكله طالما كان غير ناضج.

البرتقال: ثمر طيب يجلب من مصر، وشرب عصيره لا مثيل له فى خفض الحرارة، وإزالة جفاف الحلق، وتنقية الدم.

الرمان: فائدته كبيرة إذا ما شرب معصورا، فشرب الحامض منه يرطب الدم ويسكن السخونة، ومع هذا فإن أكل الحلو منه ببذور يفسد المعدة.

الموز: ويشبه فى الطول والعرض الخيار الروسى الطازج والذى يسمى الخيار البرى أفضله ما يزرع فى الأراضى اليمنية. والموز الذى يزرع فى منطقة الحجاز ويستساغ أكله بعد نزع قشرة الناضج منه مع السكر، والإفراط فى أكله مضر لصعوبة هضمه.

ويتعرض المؤلف فى الفصل الثالث لسبب تسمية البيت المعظم باسم الكعبة حيث بين أنه فى الزمن الماضى كان يمنع أن ترتفع الأبنية أعلى من البيت المعظم فيما يبنى حوله من أبنية، واستمر هذا الاعتقاد حتى دخول الإسلام الجزيرة العربية، ولذا فلم تظهر فى مكة لعدة قرون أبنية تعلو البيت المعظم لذا أطلق اسم الكعبة على البيت المعظم.

وفضائل الكعبة المكرمة أكثر من أن تحصى فهى بيت الله، وقبلة كل المسلمين فى شتى بقاع الأرض وكذا هى مربط حبهم، وهى أفضل كل بلاد الدنيا ويقارن المؤلف بين منزلة مكة ومنزلة المدينة المنورة فيقرر بناءاً على الحديث الشريف أن مكة أجل منزلة حيث قال ﷺ إن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وكذا هى أعلى مكانة لأن ماء الحياة الطاهر تفجر من هذا النبع، وأن نور الإسلام الذى أشرق على هذا الكون من ذلك البرج الرفيع.

كما أن الكعبة المباركة هى مهبط الوحى الجليل ومجمع الأنبياء، وفيها قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (سورة آل عمران: الآية٩٦) ومن الطريف جدا فى هذا الفصل حديث المؤلف عن البيئة القاسية الصحراوية لمكة المكرمة ووقوعها فى مكان غير ذى زرع، فالمؤلف يذكر كذلك خمس حكم هى:

الحكمة الأولى: أن مجاورى البيت الحرام يقطعون الأمل من التعلق بغير الله وذلك بإظهار التوكل التام عليه سبحانه وتعالى تقدست ذاته.

الحكمة الثانية: عدم طمع أحدٍ من الأكاسرة ملوك الدنيا والحكام الجبابرة، فى الإقامة حول بيت الله، والواقعُ أن أحدًا من جبابرة الزمان والأكاسرة ملوك الدنيا لم يتمكنوا من السكنى بجوار كعبة الله.

ولا يمكن لهؤلاء الجبابرة أن يجدوا المتعة واللذة الدنيوية التى يسعون إليها فى واد غير ذى زرع. وهكذا طهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة الشريفة ونزهها من لوث بنى البشر الذين يعبدون الدنيا.

الحكمة الثالثة: حتى لا تتحول الكعبة إلى متجر لأنها خلقت للحج والزيارة فقط.

الحكمة الرابعة: لتقديس مكانة الفقر وشرفه.

الحكمة الخامسة: من أجل إبراز أن كعبة المعرفة لا تحل إلا فى قلب خال من حب الدنيا وزخرفها.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الخامس عن الإقامة فى مكة المكرمة وحكم ذلك لأن كثرة الإقامة في مكة يفقدها الحرمة الموكلة إليها ويورد في ذلك آراء وأقوال فقهاء الإسلام فيقول: «ولما كان أخذ إيجار المنازل من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ليس حلالا لذا كان الأوائل يأخذون ثمن الإيجار في السر والخفاء حتى أن

عمر بن الخطاب أمر أن تترك أبواب بيوت مكة مفتوحة فى موسم الحج حتى يسكن الحجاج فى المنازل الخالية، كما كانت لعمر بن عبد العزيز أوامر مشددة إلى أمراء الإمارة الجليلة مكة المكرمة بألا تؤجر بيوت مكة إلى الحجاج.

وقد أجاز الإمام محمد و الإمام أبو يوسف أن تباع بيوت مكة مع الكراهة، إلا أن الإمام الأعظم قال إنه مكروه في كل الأحوال».

ويتحدث الباب الثانى ـ والذى تضمن ثلاثة عشر فصلاً ـ عن بناء الكعبة وتجديدها فيتحدث الفصل الأول عن أوليات بناء الكعبة الشريفة منذ الأزل فيذكر أن بعض الأقوال ترجح أن بداية بناء الكعبة كان من الملائكة المشرفين. وفى الفصل الثانى يتحدث عن بناء الكعبة لأول مرة حتى خاطب الله الملائكة بأنه سوف يجعل فى الأرض خليفة فبينوا المعارضة ثم ما لبثوا أن تابوا وتضرعوا إلى الله أن يغفر لهم ولاذوا بالعرش العظيم فأمرهم الله أن يطوفوا بالبيت المعمور وأن يقام بيت مقدس على وجه الأرض لذا أرسل سبحانه وتعالى عددا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر وخاطب الملائكة بقوله «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما، وعندما يطاف بالبيت المعمور في السماء، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض».

وفى الفصل الثالث يتعرض المؤلف لذكر وقائع بناء الكعبة للمرة الثانية والذى قام بهذا العمل هو أبو البشر سيدنا آدم (عليه السلام)؛ ذلك أن سيدنا آدم لم يستطع سماع صوت تسبيح الملائكة وتهليلهم بعد هبوطه بمدة، فاغتم لذلك بذلك فعرف ما فى ضميره حضرة علام السر والخفايا وجأر بالشكوى قائلا: «يا إلهى لا أسمع صوت تسبيح وتهليل الملائكة الكرام».

وبناء على هذه الشكوى صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل: «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا، وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق الأرض، واستخدم في هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال لبنان وطور سيناء، وطور زيتا، والجودى، وحراء، ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة.

أما تجديد البيت للمرة الثالثة فكان من نصيب أبناء سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم ـ عليهما السلام ـ وأولاده وأحفاده، ذلك أنه بعد غرق الأرض فى الطوفان العظيم زالت آثار البيت الحرام ولكن بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف وقام أحفاد شيث ـ عليه السلام ـ بتعميره وتجديده من حين لآخر.

وفى الفصل الخامس يستعرض المؤلف بالتفصيل ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ من بداية مولده ونشأته ثم مرورا بنبوته، ثم ما حدث له فى الحريق العظيم وكيف أنجاه العظيم ـ جل شأنه ـ من هذا الخطر العظيم، وكذلك يحدثنا عن قصة سيدنا إسماعيل وواقعة فدائه بكبش عظيم من قبل الحق سبحانه، بين لنا فيها كيف كان خلق الأنبياء تجاه ربهم وهى الطاعة الأصيلة، الطاعة الواثقة فى قدرة الله ورحمته وكيف أطاع إسماعيل أمر ربه وأمر أبيه بتكليفه بذبحه وكيف صبر الإثنان على هذا الأمر واحتملاه.

ومن الطريف بمكان فى هذا الفصل حديث المؤلف عن بئر زمزم وأسمائها وسبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، فقد أحصى العلماء لبئر زمزم ثلاثين اسما وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها وهنا أمثلة على ذلك:

١- **زمزم**: سبب التسمية قوة ماء البئر وتدفقها فزمزم اسم للبئر، وليس للماء الشريف.

٢- **همزة**: ومعناها الضرب إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحه على قول آخر فانفجر ذلك الماء.

٣- **شباعة عيال**: لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم حتى يرتووا .

٤- **مضنونة**: وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.

٥- **بشرى**: لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.

٦- **ميمونة**: وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة، كما أنها اتباع للسنة الكريمة للمصطفى ﷺ.

٧- **مؤنسة**: لأنها تؤنس سكان حرم كعبة الله.

ومن الأشياء الهامة التى تعرض لها المؤلف فى هذا الفصل اختلاف العلماء فى مسألة الذبح، فعندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح ولده فلذة كبده، كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال فى الثالثة عشرة من عمره، واختلفت الأقوال على حد قوله بينه وبين أخيه إسحاق هل الذبيح هو إسماعيل أم إسحاق وبعد أن يقارن بين أقوال الشيوخ والعلماء يقر فى النهاية الرأى الراجح وهو أن الذبيح كان سيدنا إسماعيل.

ويتحدث المصنف فى الباب الثالث عن عدد المرات التى تم فيها توسعة المسجد الحرام وكان أول توسعة للمسجد الحرام فى عهد الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه فقد كثر عدد المسلمين فاشترى عمر ـ رضى الله عنه ـ الأكواخ والدويرات التى حول المسجد والملاصقة له وضمها إلى المسجد الحرام لكن هذا التوسيع لم يف بالغرض مما أدى إلى ضم بعض المنازل الأخرى إلى الحرم الشريف، وفى هذه الحالة اعترض أصحاب المنازل وذهبوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفاوضوه فى هذا الأمر، فقال لهم: «لم يبن بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم حوله وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله الحرام.

والتوسعة الثانية للمسجد الحرام كانت فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بعد سيل «أم نهشل»، وأراد سيدنا عثمان توسعة ساحة المسجد الحرام بشراء كثير من المنازل التى تحيط بالمسجد الحرام.

وحدثت التوسعة للمرة الثالثة فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور حين أراد أن يجد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى، ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح فاشترى المنازل القريبة

من الجدار الشرقى وهدمها وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا مثيل لها.

وفى الفصل الرابع يحدثنا أيوب صبرى باشا عن التوسعة الرابعة والتى تمت على يد محمد المهدى العباسى ذلك حين رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسع حين كان مسافرا للحج وزيارة الروضة الشريفة.

ويحدثنا المصنف فى الباب الرابع من الكتاب عن الكعبة المشرفة، وتزيينها وكسوتها، وستائرها فاستعرض فى هذا الباب عمليات تزيين الكعبة على مدى العصور، وكذلك نوع القماش الذى كانت تصنع منه الستائر، وكسوة الكعبة وشرف من نالوا هذه الكرامة بأن أهدوا هذه الكسوة إلى الكعبة الشريفة وبيت الله الحرام.

أما وصف المسجد وحاله التى كان عليها فى العهد القديم فهذا ما يعرضه المؤلف فى الباب الخامس فيوضح أن البيت الحرام حين وضع قواعده سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يكن حوله بيوت ولا منازل ولا محال.

ثم يتحدث فى الفصل الثانى عن أعمدة المسجد الحرام وعددها فيبين أنه كان للمسجد الحرام قبل تجديده ٤٩٦ عمود بإخراج أعمدة دار الندوة، سبعة وعشرون منها فى أبواب المسجد، ٤٦٩ تسعة وستون وأربعمائة، ثمانية وثمانون عمودا من تلك الأعمدة فى الجهة الشرقية، و خمس وأربعون ومائة منها فى الجهة الشمالية، وسبعة وثمانون منها فى الجهة الغربية و سبعة وثمانون من أعمدة الجهة الشرقية كانت من قطعة واحدة من الرخام وعمود كان من الطوب اللبن المحروق.

وفى الفصل الثالث يستعرض المؤلف عدد شرفات المسجد الحرام وصفتها فالشرفات جمع شرفة وهى نوع من أنواع الزينة فى المبنى وتطلق على الأماكن البارزة والعالية فوق جدران القلاع.

وكان للمسجد الحرام قبل التجديد عدد أربعمائة من الشرفات الكاملة وسبع

من الشرفات النصفية الداخلية، اثنتان وخمسون من الشرفات الخارجية الكاملة وشرفة واحدة خارجية غير تامة.

ثم يذكر لنا أبواب المسجد الحرام وأسمائها فى الفصل الرابع والأخير وقد كان للمسجد مقدما تسعة عشر بابا عاليا مبنيَّةً على عقدين، وكان باب أقيم على كمرتين يشبه جسراً له فتحتان، لا تزال بعض هذه الأبواب محتفظة بأشكالها القديمة وهى معروفة للناس.

ويحدثنا المؤلف فى الباب السادس عن قباب المسجد الحرام ومآذنه، فللمسجد الحرام خمسائة قبة لطيفة، يطلق أهل مكة على (خمسين ومائة) منها «قبة»، وعلى (ثمانين ومائتين) منها «طواحن» وعلى (اثنتين وستين) منها «مصليات» ويذكر لنا كذلك أبواب المسجد الحرام.

فالمسجد الحرام به تسعة عشر بابا عظيما ويفتح أربعة من هذه الأبواب إلى الجهة الشرقية وسبعة منها إلى الجنوب، وثلاثة منها إلى الغرب، وخمسة منها إلى الجهة الشمالية **فالأبواب الشرقية:**

باب السلام ـ باب النبى ﷺ ـ باب العباس رضى الله عنه ـ باب على كرم الله وجهه.

ولكل باب من هذه الأبواب تسع درجات خارجية، وخمس درجات داخلية

أما الأبواب الجنوبية فهى:

باب بازان ـ باب البغلة ـ باب الصفا ـ باب الجياد ـ باب المجاهد ـ باب مدرسة خجلان ـ باب أم هانئ رضى الله عنها.

والأبواب الغربية:

باب خدورة ـ باب إبراهيم ـ باب العمرة.

والأبواب الشمالية:

باب السدة ـ باب العجلة ـ باب القطب ـ باب دار الندوة الزائد ـ باب الدريبة.

وفى الفصل الخامس يعرض لنا المؤلف فى مرآة مكة مآذن المسجد وعددها فللمسجد الحرام في زماننا سبعة مآذن وتسمى:

مئذنة باب العمرة، مئذنة باب السلام، مئذنة باب على ، مئذنة باب الوداع، مئذنة باب الزيارة، مئذنة قايتباى، مئذنة السليمانية.

٢- مرآة المدينة

هو المجلد الثانى من هذه الموسوعة، وهو يماثل فى الحجم أصله العثمانى.

ويقول المؤلف فى مقدمة هذا الجزء حاكيا عن ظروف تأليفه: «وإننى أقبلت على هذا العمل مدركا بعض قدرتى وقلة حيلتى ومستمدا من كتاب الإمام السمهودى «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» هذا الكتاب الذى انتشر فى أرجاء العالم الأربعة حاويا الأفكار البديعة والأخبار الشيقة، مستمدا منه رأس المال اللازم لكتابى مضيفا إليه معلوماتى الشخصية وما حصلت عليه من الأخبار من تحقيقاتى الذاتية، وبهذا ألبست تلك المحبوبة الجميلة ما قمت بتفصيله من الزى العثمانى، وبما أنه سيعكس أنوار عيون أصحاب الدين سميته: مرآة المدينة».

هكذا يوضح لنا المؤلف الظروف التى أدت به إلى تصنيف المجلد الثانى من الكتاب، وكيف استفاد من كتاب الإمام السمهودى مضيفا إليه خبراته الشخصية.

وواضح أن هذا الجزء صنف للإحاطة بأخبار المدينة المنورة وأحوالها على غرار سابقه «مرآة مكة» فهو يقول: «وإن هذا الكتاب الذى لا يخلو من الأخطاء نتيجة لقلة بضاعتى يبدو عديم القيمة والأهمية، ومع هذا فهو أول كتاب يتضمن الأحوال العامة والخاصة بالمدينة المنورة باللغة التركية ومن هنا حاز شرف الأولية».

ويعد هذا الجزء كسابقه فهو دائرة معارف كبيرة عن المدينة المنورة كل شىء فيها، وكل شىء يمت لها بصلة فهو يحوى الأحوال الجغرافية للمدينة المنورة، وحدودها، وتاريخها منذ القدم إلى ظهور الإسلام، وهجرة الرسول ﷺ إليها إلى زمن السلطان عبد الحميد الثانى، ويحدثنا عن فضائلها، وطبيعة المناخ

فيها والحرارة، وسكانها وعاداتهم وتاريخهم وما تعرضوا له من أحوال وما عرض لهم من حوادث، وعن أهم المحاصيل فى المدينة، وعن سورها الذى يحيط بها وطوله البالغ ١٤٠٠ ذراعا، ثم يعرض لتقسيمات المدينة إلى ثلاثة أقسام هى: المحال، وخارج السوق، وداخل السوق.

ثم يتحدث عن عادات ساكنيها وكيف يستقبلون شهر رمضان الكريم بالبشر وكثرة العبادة، ثم يتحدث عن موكب الشموع فى مسجد السعادة الكريم، ووصف الحجرة الشريفة ثم يتحدث عن المسجد وموقعه، ومساحته، وحوائطه وأبوابه الخمسة وهى: باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، وباب النساء وكذلك نوافذه، ومآذنه، ومحاريبه ثم يحدثنا عن صلاة الجمعة فى المسجد الشريف، وفضائله وشد الرحال إليه.

ويحدثنا عن أسماء المدينة المنورة، وسبب إطلاق هذه التسميات كما فعل سالفاً مع مكة المكرمة، وفضلها على سائر الممالك، ويذكر القبائل التى كانت فيها، وعن أيام العرب المشهورة.

ويحدثنا كذلك بالتفصيل عن حادث الهجرة وسنتها وتفصيلاتها، وبيعة السابقين من الأنصار، وكذلك يحدثنا عن الحجرة النبوية وحجرة السيدة الشريفة فاطمة (رضى الله عنها) وتوسعة المسجد لمرات عديدة، وكذلك يحدثنا عن الأسواق العربية وأيام قيامها.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الأول من فصول «مرآة المدينة» عن الأحوال الجغرافية للمدينة المباركة فيذكر أنها من البلاد المعمورة وأنه ليس كمثلها فى البلاد من حيث الخصب والمياه الجارية.

أما من حيث موقعها فهى تقع فوق واد مسطح مرتفع بين درجة ٢٠، ٢٥ دقيقة فى الشمال عرضا، وبين درجة ٣٧، و٣ دقائق فى الشرق طولا، ويحدها من الشمال «جبل أحد» ومن الشرق جبل «الطبرى».

ويبلغ عدد سكان ضواحيها ثلاثون ألف نسمة لم يبق فيهم من الذرية المباركة إلا عدد قليل.

وهى محاطة بسور على شكل قطع ناقص جميل من جهاتها الأربع، طول هذا السور أربعة عشر ألف ذراع، وارتفاعه عشرون ذراعا، وسمكه عشرة أذرع، وتنقسم المدينة المنورة إلى ثلاثة أقسام: المحال، وداخل السوق، وخارج السوق.

وفى داخل السور وخارجه ما يقرب من عشرة الآف منزل، وكلها مبنية من الطوب وسكانها مشهورون بكرم ضيافتهم، وجميع المنازل منتظمة ومبنية على طرز مرتفعة، ولها منافذ ضيقة تشبه منافذ بلاد الروم.

وفى الفصل الثانى يتحدث المؤلف عن مناخ المدينة المنورة وحرارة جوها، فمن المعروف أن جو المدينة المنورة مائل إلى البرودة فى الشتاء وحار فى الصيف تقرب حرارتها من حرارة أرض مكة فبرودتها تعود لوقوعها فى وسط واد فسيح لطيف تحيط به الجبال المتسلسلة، ويعد الشهران «يونيو ويوليو» من أشد المواسم حرارة ويتوالى اشتداد حرارتها إلى شهر أغسطس حيث تبدأ الحرارة بعد ذلك فى الأنخافض.

ثم يتحدث بعد ذلك عن أنواع الخضراوات التى تنمو فى المدينة المنورة وهى خضروات متنوعة فيها كل أنواع الخضراوات المعروفة عدا «الكرنب، القرنبيط والكراث والخرشوف» ولا سيما « البطيخ والخوخ والتين والليمون والعجور، العنب، التفاح، الرمان، الموز، والبلح» وجميع أنواع الفواكه المتنوعة بأجناسها المختلفة ما عدا «الفراولة والكريز» وهى موجودة فى كل وقت وكل موسم بكثرة، والتمر الذى يطلق عليه «البلدى» لا مثيل له في أى بلد آخر من حيث اللذة وجمال الشكل وهو نوعان: أحمر، وأصفر، هو أكثر من ٩٠ نوعا.

ويحدثنا المؤلف فى الفصل الثالث عن موضوع طريف وشائق، وهو كيف يضع الآباء أبناءهم داخل الغطاء القماشى لقبر رسول الله ﷺ بعد صلاة الجنازة.

وفى الفصل الرابع يعرفنا الكاتب كيف يستقبل أهل المدينة شهر رمضان

المعظم، فيبين كيف يجتمع أطفال المدينة ـ كنوع من ألعاب الأطفال ـ فى ميدان ما فى التاسع والعشرين من شهر شعبان وينصبون من بينهم شيخا للحرم طليق اللسان وتعرف هذه اللعبة بـ «استقبال الأطفال لرمضان الشريف».

وعندما يحل وقت الإفطار تطلق المدافع ويؤذن فوق المآذن يدعو أصحاب طعام الإفطار من فى يمينهم ويسارهم لاسيما الضيوف إلى الطعام بأفضل تعبير قائلين: «تفضلوا».

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن طريقة أداء صلاة الفجر وصلاة العيد فى شهر رمضان، ويصلى فيها جميع من قاموا بحمل الشمعدان ثم يبدأون بقراءة القرآن والأوراد اللطيفة الشريفة قبل أذان الفجر بنصف ساعة، إلى أن يحين وقت الصلاة فيؤذن لها، ثم يقومون إلى الصلاة، وبعدها يستمعون إلى الدروس والمواعظ.

أما صلاة العيد فهى معروفة، وليس فيها أشياء خاصة إلا أنهم بعد تأديتها يتجهون إلى الحجرة المعطرة للدعاء والتضرع.

أما الفصل السابع فيتحدث فيه المؤلف عن المسجد النبوى الشريف حدوده ومساحته، فعرضه يقدر بخمسين ومائتى ذراعٍ، وعرضه من الجدار الشرقى إلى جداره الغربى خمسون ومائة ذراعٍ إلا أن طوله وعرضه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كل واحد منهما مائة ذراع.

وللمسجد الشريف خمسة أبواب هى:

باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، باب النساء، باب التوسل. ونافذتان تعرفان باسم «نافذة جبريل»، «ونافذة مواجهة»، وله أربعة محاريب تعرف باسم: محراب النبى ﷺ، محراب عثمان، المحراب السليمانى، محراب التهجد.

ولمسجد السعادة فى جهاته الأربع خمس مآذن وفى داخل الحرم الشريف ثلاثة وعشرون وأربعمائة عمودٍ، وله اثنتان وأربعون ومائتى قبة، وله واحد وتسعون وسبعمائة وألف قنديلٍ.

والفصل الثامن يتحدث فيه المؤلف عن الحجرة النبوية المعطرة على صاحبها أفضل صلاة وأتم تسليم، وللحجرة الشريفة أربعة أبواب هى: باب فاطمة رضى الله عنها، الباب الشامى، باب الروضة، باب الوفود، ولها أربع وثمانون قنديلا مثل النجوم.

والفصل التاسع فى وصف صلاة الجمعة فى الحرم النبوى الشريف، فحينما تحين صلاة الجمعة يرفع الأذان، وتصلى صلاة الجمعة، ويقوم السيد الخطيب الذى عليه الدور من مكانه المخصوص ويقرأ أمام سيد البشر فائض النور ثلاث آيات مستأذنا ثم يتوجه بتؤدة رويدا رويدا نحو منبر السعادة الذى قد هيئ ويتجه أحد خدم الحجرة الشريفة نحو المنبر الشريف، وبكل تعظيم وتوقير يرفع ستارة المنبر وينشر الرايتين اللتين على جانبى المنبر، وينتظر قدوم السيد الخطيب، وفى خلال ذلك يصلى ويسلم المؤذنون الذين فى المحفل معًا، ويصعد الشيخ الخطيب فوق المنبر وقد لف رأسه بشال قيم وقد سار أمامه الأغا الذى يطلق عليه «مؤذن المنبر» وفى يده عصا مؤذن المنبر ثم يرفع الأذان الداخلى فى مكانين بصوت رخيم، ثم يقوم الخطيب فيخطب ثم بعد ذلك يصلى وبعد الصلاة يستغفر الحق ـ سبحانه ـ ثم يثنى عليه ـ سبحانه ـ ويصلى على المصطفى أفضل صلاة ثم يدعو الله ما شاء له من الدعاء.

أما الباب الثانى فيتحدث فى فصوله عن فضائل المسجد النبوى الشريف ففى الفصل الأول يتحدث ويذكر الأحاديث الشريفة التى حثت على شد الرحال إلى المسجد النبوى الشريف ومنها الحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد».

وفى الفصل الثانى يتحدث المؤلف عن فضائل المسجد الشريف، والمنبر اللطيف، والروضة النبوية المنيفة، فالصلاة فى المسجد النبوى الشريف أفضل من حيث الأجر من ألف وألف من الصلوات التى تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجد الأقصى، وأفضل من ألف صلاة تؤدى فى المسجد الأقصى.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رواية: «من صلى فى مسجدى أربعين صلاة وعلى رواية ـ لا تفوته صلاة كُنَّ له براءة من النار وبراءة من العذاب وبراءة من النفاق».

وفى الباب الثالث يتحدث المؤلف عن أسماء المدينة وفضائلها، ففى الفصل الأول يتحدث عن أسماء المدينة المنورة فيذكر أن العلماء ذكروا لها أكثر من سبعة وتسعين اسما مستخرجين إياها من الكتب المقدسة والأحاديث الشريفة، ومن الواضح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وهى لكثرتها فقد رتبها المؤلف على حسب ترتيب الحروف الأبجدية ومنها:

ـ أثرب: وهذه الكلمة على وزن أسعد بفتح الهمزة، وفى فترة ما أبدلوها بياء وقالوا يثرب. وأثرب اسم شخص من أبناء سام بن نوح ـ عليه السلام ـ الذى يقال إنه أول مَنْ سكن فى أرض المدينة.

ـ أرض الله، أرض الهجرة: وهذا الاسم اللطيف ثبت بالآية: . . . . ؟

ـ أكالة البلدان، أكالة القرى: إن هذين الاسمين يدلان على أن المدينة الطاهرة تفوق المدن الأخرى فى الفضل.

ـ البارة فهى منبع فيض ورحمة وبركات.

ـ الجليلة: تسميتها بهذا الاسم، تبين مدى حب حبيب الله لهذه المدينة.

ـ ذات الحجر: لأنها توجد داخل جبال حجرية.

ـ سيدة البلاد: فهى أفضل البلاد لوجود المبعوث رحمة للعالمين فيها.

ـ شافية: وهو مأخوذ من الحديث الشريف: «ترابها دواء من كل داء».

ـ طِيبَة وطَيِّبَة: فهى تسعد بجوار النبى صلى الله عليه وسلم وطابت لطهارته وفضله.

ـ عذراء: فهى مصونة من الأشرار محفوظة ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وكذا فهى رحبت بالنبى الكريم ولم يدخلها بحرب أو قتال.

ـ فاضحة: سميت بذلك لأنها تفضح أهل البدعة.

ـ مؤمنة: فأهلها وهى آمنون من كل شر وسوء.

وفى الفصل الثانى يذكر المؤلف فضائل المدينة المنورة على سائر البلدان فتحدث عن فضلها على سائر البلدان، وكذا قارن بينها وبين مكة المكرمة من حيث الأفضلية، فبها مرقد أفضل خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولذا بارك الله لها وفيها، وحفظها من سائر الشرور لوجود مرقد النبى الكريم بها.

وفى الفصل الثالث يحدثنا المؤلف عن الذين فضلوا واختاروا الإقامة فى المدينة المنورة ويذكر المؤلف فى الفصل الرابع محاصيل المدينة المنورة من فواكه وخضروات، ويتحدث كذلك عن طهارة ترابها وكيف يشفى من أمراض خطيرة كالجذام والبرص.

وفى الفصل الخامس: يتحدث عن نجاة المدينة ـ ذاتها ـ من فتنة الدجال، ومرض الطاعون ببركة دعوة النبى الكريم ـ صلوات الله عليه وتسليمه ـ لها بالسلام من كل شر ففى رواية أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «يا رب كل من يقصد أهل المدينة بالسوء فأذبه كما يذيب الملح الماء»، وكذا دعوته المباركة من على المنبر قائلا: «اللهم انقل عنا الوباء» يقصد الطاعون والحمى.

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن حدود الحرم اللطيف وحرمته.

وفى الفصل السابع يحدثنا عن أحكام الحرم النبوى الشريف، فهو حرم لتحريم الصيد فيه أى صيد الحيوان والطير، وقال الإمام الأعظم: إن التحريم هنا بمعنى التعظيم والاحترام وليس التحريم المطلق وعلى ذلك فبعض الفقهاء أجاز صيد الطيور، وقطف الثمار داخل الحرم فهو ليس كحرم مكة المنيف.

وفى الفصل الثامن يذكر خصائص البلدة الكريمة ومنها: عدم قطع أعشابها وأشجارها، وعدم حمل السلاح من أجل القتال، وعدم جواز نقل ترابها إلى بلاد أخرى.

وفى الفصل التاسع يتحدث المؤلف عن المدينة المنورة وحوادثها المتفرقة الغريبة فيذكر أن الحق ـ سبحانه ـ خلق أرض المدينة المنورة بعد خلق أرض مكة المعظمة ثم يتحدث عن اتساع مدينة الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد رحيله، حتى انزعج سكانها وأخذوا يهاجرون منفردين إلى البلاد الأخرى.

وفى الفصل العاشر يحدثنا المؤلف عن وقوع نار المدينة وانطفائها ففى الحديث الشريف قوله: «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز» وبهذا الحديث أخبر أصحابه بأنه تندلع نار فى تراب المدينة المنورة نار كالجبال ذات أشعة قوية وأن القيامة لن تقوم حتى تظهر هذه النار، كما بين موقع ظهور النار وانطفائها.

وفى الباب الرابع يحدثنا المؤلف عن المدينة المنورة تاريخها وقراها وعادات سكانها.

ففى الفصل الأول يحدثنا عن أحوال المدينة منذ سالف الأزمان وبعد الطوفان كما حدثنا المؤرخون فقد هاجر شخص يدعى «يثرب بن عبيل» بعد الطوفان إلى جحفة ـ مكان بالمدينة المنورة ـ وكانت حينئذ مكانا لا اسم له، ثم يحكى كيف نشأت الحكومة فى يثرب فى عهد كنعان بن حام، ويحكى حكاية أقوام بنى إسرائيل وتاريخهم فى المدينة المنورة.

ثم يحكى لنا فى الفصل الثانى قصة الأوس والخزرج والقبائل التى هاجرت إلى المدينة، وقت وجود الأوس والخزرج ابنا ثعلبة إلى المدينة المنورة، ويذكر أسماء بعض هذه القبائل مثل: بنو الجذماء، بنو قصيص، بنو عقبة، بنو هلال، بنو عمرو، بنو نفير، بنو ثعلبة... إلخ.

وفى الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن حالة قرى ومنازل المدينة التى أسسها بنو الأوس حول المدينة، فقد نزلت قبائل بنى الأوس المدينة وتفرقوا فيها واختار كل قوم ما راق لهم وناسبهم من الأماكن، فعلى سبيل المثال اختار بنو عبد الأشهل الإقامة فى دار تسمى بـ «دار عبد الدار» فى ربوة عالية من المدينة تحميهم

من هجوم أى أعداء، ويحكى نحو هذه الأخبار مثل إقامة وسكنى بنى سعد بن مرة بن مالك بن الأوس فى ناحية تسمى «رابح».

وفى الفصل الرابع يعرض لنا كيفية إدارة قرى ومنازل المدينة المنورة وأماكن سكنى بعض القبائل مرة أخرى.

أما الفصل الخامس والأخير فهو يعد من الفصول الشيقة من فصول الكتاب حيث حدثنا المؤلف عما يسمى بأيام العرب وحروبهم وملاحمهم بين قبائل الأنصار وغيرها ومن أشهر هذه الأيام:

١ـ سلمى: وكانت هذه الحادثة سببا فى اشتهار سلمى بـ«المتدلية» حيث ربطت نفسها بحبل وتدلت من الحصن لتخبر قومها بأخبار الحصن وأخبار الواقعة.

٢ـ فارع: وكان قائد القبائل الأوسية فى يوم فارع معاذ بن نعمان بن امرئ القيس، وكان قائد القبائل الخزرجية عامر بن الإطنابة ودارت الحرب بينهما سجالا ولم تنته لذا رفعا المخاصمة من بينهما بعد يوم فارع واتفقا ضد اليهود وعقدت روابط الصداقة بينهما وتركا العداوة بينهما وعاشا متآخين مدة طويلة.

أما الباب الخامس فهو خاص بأحداث الهجرة النبوية الشريفة، وتفصيلاتها وجاء على ثلاثة فصول تعرض المؤلف فى الفصل الأول لذكر بيعة السابقين من الأنصار للإسلام، ودعوة مصعب بن عمير (رضى الله عنه) أهل المدينة للإسلام.

أما الفصل الثانى فهو يعرض لهجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

وفى الفصل الثالث يتحدث عن بيان وقائع سنن الهجرة الشريفة وتفصيلاتها بالإجمال.

أما الباب السادس فهو الباب الخاص بالحديث عن المسجد النبوى الشريف من حيث بداية بنائه وكذلك تجديده وتوسعته ففى الفصل الأول يتحدث المؤلف عن

الظروف التى بنى فى ظلها المسجد الشريف حيث وقفت ناقة الرسول عليه السلام ـ القصواء ـ فى مكان وربطت فيه فأراد النبى ﷺ أن يتخذ هذا المكان مسجدا فعرض على مالكى قطعة الأرض أن يشتريها منهم فلبى أصحاب الأرض دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجوه أن يتفضل بقبولها بدون ثمن ورجوا النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك وألحوا، فقبلها النبى وبدأ تعلية وتأسيس المسجد الشريف.

وفى الفصل الثانى يحدثنا عن توسعة المسجد الشريف فبين أن ذلك كان بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة، وفى الفصل الثالث يذكر الأماكن التى أدى فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة وهذا نتيجة لأن المسجد لم يكن له محراب خاص به إلى عهد الخلفاء الراشدين فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤدى الصلاة فى اسطوانة يطلق عليها «الأسطوانة المحلقة» فى الجهة الشامية، ثم تفضل ـ عليه السلام ـ بأداء الصلاة فى المكان الذى عرف بـ «محراب النبى ﷺ» وهذا المكان فى وسط الحجرة اللطيفة.

وفى الفصل الرابع يعرفنا بجزعة المسجد النبوى الشريف وهى التى كانت فى الجهة الجنوبية لصندوق المصحف الشريف قبل أن يحترق المسجد النبوى، لوحة مصنوعة من الخشب تسمى «جزعة» وكانت كبيرة، وكان يطلق عليها فى تلك الأوقات «خرزة فاطمة الزهراء».

وفى الفصل الخامس يتحدث عن سبب تأسيس المسجد النبوى ومنبره، ولما كان مسجد المدينة خاليا من المنبر لإلقاء الخطبة وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف على رجليه فى أثناء إلقائه الخطبة ويتعب كثيرا، وتأثر بعض الصحابة الكرام بذلك فوجدوا نخلة وركزوها فى المحل الذى يلقى فيه الخطبة، ورجوه عليه السلام أن يتكئ عليها فى أثناء إلقائه الخطبة، ثم فكر سعيد بن العاص أن يقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن فكرة المنبر وصنعه، وأخذ الإذن من الرسول الكريم وصنعه وأعجب به النبى صلى الله عليه وسلم.

وفى الفصل السادس والسابع يعرض لعدد مرات تجديد المسجد النبوى وكذا عدد الأعمدة الموجودة به فيذكر أنها ثمانية أعمدة (أساطين) موزونة ومتساوية.

وفى الفصل الثامن والتاسع يعرض لوصف المقام النبوى الشريف، ووصف الحجرة النبوية الشريفة، فيذكر مكان ومقام أهل الصفة من المسجد النبوى وأنها كانت تقع فى آخر ونهاية المسجد النبوى الشريف، ثم يأخذ بعد ذلك فى تعريف أهل الصفة ووصف أحوال فقرهم وزهدهم وتقواهم وحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم، ثم يحدثنا فى الفصل التاسع عن حجرات بيت النبى ﷺ وحجرات زوجاته الطاهرات البررة، فهى حجرات تسع بناها النبى صلى الله عليه وسلم لهن بالحجر والطين اللبن، وبعضها من خشب النخلة، وأسقفها جميعا من فروع النخيل، وارتفاعها ثلاثة أذرع.

وفى الفصل العاشر فى وصف دار السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كانت هذه الدار مائلة نحو حجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هنا كانت قريبة له، فكان كثير الاستفسار عنها وعن حالها، وهى حاليا بين مربع القبر الجليل وأسطوانة محراب التهجد.

وفى الباب السابع يتحدث المؤلف عن توسيع المسجد النبوى الشريف فبين أن توسعته كانت فى عهد الصديق أبى بكر رضى الله عنه نظرًا لتكاثر الجماعة الإسلامية وازدياد عددها فأصبح المسجد لا يحتملها فأرسل إلى عمر بن الخطاب وكبار الصحابة أنه لابد من توسعة المسجد النبوى الشريف فكانت الثانية بعد الأولى بثلاثة عشر عامًا لما طرأ على عدد المسلمين من كثرة وزيادة وكانت فى عهد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ، وفى المرة الثالثة وسعه الوليد بن عبد الملك وجدده، ثم يعرض بعد ذلك لوصف حجرة المصطفى والقبور الثلاثة فكان ارتفاعها فى عهد الرسول ﷺ ثمانية أذرع، وأكثر من ستة أذرع فى العرض وكان لها بابٌ هو باب الرحمة وبنيت الحجرة الشريفة من اللبن وخشب النخلة وظلت على هذه الحال إلى أن أحاطها عمر الفاروق ـ رضى الله عنه بسور وجدار جديد.

وفى الباب الثامن يحدثنا المؤلف عن مقام الرسول الكريم ﷺ فيذكر العلامة المميزة لرأس النبى الشريف ووصفه، ثم يتحدث بعد ذلك عن علامة جهة رأس النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى جهة المسمار الذى يبعد عن الجهة الغربية، قدر خمسة أذرع ثم يحدثنا عن مقام جبريل ومكانه بالقرب من مربع القبر الشريف.

ثم يحدثنا عن حجر إبراهيم وهو الحجر الملاصق للقبر الجليل وبعد ذلك يحدثنا عن ستارة الحجرة النبوية المعطرة التى كانت مزركشة ومصنوعة من الحرير المنسوج المسطور عليه سورة يس، وبعد ذلك يذكر لنا قناديل الحجرة الشريفة وهى قناديل من الذهب والفضة معلقة على جوانب وسقف الحجرة الشريفة.

وفى الباب التاسع يحدثنا المؤلف عن مقتنيات الحجرة الشريفة وما يوجد بها من المصاحف أو الشمعدانات، والفضيات والستائر والأشياء الجميلة المتبرع بها للحجرة المعطرة فيذكر أنه يوجد بها ١٣٣ مصحفا، وعدد من المسابح وعدد من كتب الأدعية المأثورة وأقراص من الذهب والفضة، وبعض اللوحات الذهبية والمرمرية ولوحة مرصعة بالماس ولوحة من الزمرد والعقيق وبعض التعليقات المرصعة المهداة من بعض الباشوات.

وفى الباب العاشر يعود المؤلف فيصف المؤلف الحجرة الشريفة بالتفصيل كما فعل من قبل.

وفى الباب الحادى عشر يتحدث عن احتراق المسجد النبوى وتجديده، وكان سبب الاحتراق اشتعال أحد القنابل التى توجد بالمسجد فى عصر الصديق أبى بكر - رضى الله عنه - وسرى الحريق من قفص القنديل إلى سائر الأقفاص الأخرى وبقية أجزاء المسجد.

وفى الباب الثانى عشر يعرض المؤلف لفرش الحجرة النبوية، وكيف كان يعتنى بهذه الحجرة الشريفة من تنظيف وتعطير وتزيين وصيانة وكيف فرش المسجد الحرام بعد أن انهالت عليه الأمطار فى ليلة من ليالى الشتاء الممطر فسالت المياه المتراكمة ودخلت إلى داخله وجاء الصحابة لتأدية الصلاة فلم يستطيعوا نظرا

لامتلائه بالمياه فأتى رجل بمقدار من الرمل وفرش المسجد به وصلى الناس بعد ذلك، وبعد ذلك يحدثنا عن تعطير المسجد النبوى وذكر الذين عطروه بالعطر والبخور والرياحين والأزهار الجميلة الرائحة فكانت بداية العناية منذ عصر أبى بكر الصديق إلى الذين جاءوا بعده وفى كل مرحلة جديدة كانت تزداد درجة العناية بالمسجد النبوى الشريف.

ويحدثنا بعد ذلك عما يحيط بالمسجد الشريف من منازل وديار وأرصفة المسجد وسوق أهل المدينة الذى بدأ فى سوق «بنى قينقاع» ثم سوق المدينة والذى عنده ضرب النبى برجله الكريمة قائلا «هاهنا سوقكم».

وفى الباب الرابع عشر يحدثنا المؤلف عن المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم، ووصف مسجد قباء، وكذلك المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم.

وبعده يحدثنا عن قبر البقيع المشهور وفضائله واسمه بقيع الغرقد نسبة إلى الأشجار التى تنبت فيه وتسمى أشجار الغرقد، وهى مكان يحيط به الأشجار والزهور وأنه مكان مبارك كريم شريف، ثم بعد ذلك يذكر لنا من دفن فيه من الصحابة وسادات أهل البيت، فيذكر أنه دفن به من الصحابة الكرام اثنا عشر ألفا.

وفى الفصل الرابع يحدثنا عن جبل أحد فيذكر أنه خلق منفصلا عن الجبال التى حوله ولذا سمى بجبل أحد وكان النبى يقول عنه: «أحد يحبنا، ونحن نحب أحد» و«أحد جبل فوق جنان الجنة».

وفى الباب السادس عشر يتحدث عن أسواق المدينة المنورة وآبارها وعيونها فيذكر الأوقات التى تقام فيها الأسواق، ويذكر كذلك الشهور والأيام التى تقام فيها الأسواق من هذه الشهور مثل أسواق وأيام شهر محرم: يوم الزينة، وورود المحمل العراقى، صفر الخير (فى بداية شهر صفر).

وفى الفصل الثالث يذكر لنا اسم العيون المنسوبة إلى النبى ـ صلى الله عليه

وسلم ـ ومنها: عين كهف حرام، عين الخيف، عين الأزرق، عين النبى، عين الوادى.

وفى الباب السابع عشر يحدثنا المؤلف عما ينسب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مساجد فى طريق مكة والحرمين الشريفين، والمساجد التى صلى فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ينسب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صدقات فيذكر أن جميع الصدقات النبوية تتكون مما ترك وتبرع «مخيريق» من أحبار اليهود.

وفى فصل آخر يحدثنا المؤلف عن المساجد التى بين الحرمين الشريفين فيذكر أن هذه المساجد تقع فى الطريق الذى سلكه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة ومنها: مسجد الشجرة، مسجد المغرس، مسجد شرف الروحاء، مسجد عرق الطيبة، مسجد المنصرف، مسجد الروثية، مسجد الإثالة إلى أن يصل بها إلى ثلاثين مسجدا.

وفى الباب الآخر من أبواب الكتاب وهو الثالث عشر يحدثنا المؤلف عن أودية المدينة ومنها وادى العقيق، وأحراش المدينة وجبالها، فيذكر وادى العقيق وكيف يمتد من موقع قصر المراجل إلى البقيع، ويسمى «عقيق الأرض» ثم يذكر بعد ذلك أسماء وديان المدينة ومنها: وادى البطحان، وادى رانوناء، وادى قناة، وادى زينب، وادى مهزو، مع التعريف المجمل بكل واد.

وبعد ذلك يحدثنا عن أحراش المدينة المنورة ـ وهى أماكن رعى الدواب والجمال ـ والمراعى مثل: حمى البقيع وأحراشه، ومرعى حمى الربذة. ثم بعد ذلك يذكر لنا آكام وقرى المدينة المنورة مرتبة على حسب الحروف الهجائية ومنها «آوة، آبار، أبلى، . .».

ثم يصل بنا الحديث إلى مرآة جزيرة العرب. . يعد هذا المجلد أصغر مجلد فى هذه الموسوعة إذا قورن بالمجلدين السابقين ـ مرآة مكة، ومرآة المدينة ـ فهو يبلغ حوالى ٤٠٠ صفحة بينما يربو كل مجلد من السابقين على ١٢٥٠ صفحة.

وفى هذا المجلد يحدثنا المؤلف عن جزيرة العرب من كل الجوانب: الموقع

الجغرافى والحدود الطبيعية، وتاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور حتى عصر السلطان عبد الحميد الثانى، والملوك والحكام الذين تولوا زمامها، وكذا أحوال ساكنيها وكيف تقلبت بهم الأحداث وتاريخهم وعاداتهم.

ويبين المؤلف فى بداية هذا المجلد أنه يعده ذيلاً لكل من: مرآة مكة، ومرآة المدينة.

كما أن هذا المجلد يعتبر الخلاصة لمن أراد أن يتعرف على أحوال جزيرة العرب، ويحتوى هذا الجزء على ستة أبواب، الباب الأول منها عن تاريخ جزيرة العرب، ويحوى فصلين.

يتحدث أيوب صبرى باشا فى الفصل الأول عن أنساب العرب القدامى ساكنى الجزيرة العربية فوضح أن أقوام العرب هى: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب المستعجمة ـ وهؤلاء هم أقسام العرب ذات أربع طبقات، فطبقة العرب البائدة هى أولى القبائل العربية التى وجدت بعد أن انقسمت الأقوام شعوبًا وقبائل بعد نوح عليه السلام، وهذه الطبقة ليس لدينا عنهم معلومات صحيحة بخصوص أحوالهم وتاريخهم ومنهم عاد الأولى، وثمود، وعمالقة، وطسم، وجديس، وحضرموت.

أما العرب العاربة فهم الطبقة التى تنتهى بجميع قبائلها إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، ولما اختلط هؤلاء بأفراد العرب البائدة وتلقوا عنهم اللغة العربية وتعلموها منهم قيل لهم «العرب العاربة».

أما العرب المستعربة فظهرت مع كثرة اختلاط أفراد العرب المستعربة بأفراد الممالك الأجنبية وأهاليها عندها ظهرت الأخطاء فى لغتهم التى يتحدثون بها لأن القبائل العربية انتشرت إلى البلاد التى استولت عليها فى الجزيرة العربية لإعلاء كلمة الله عقب سطوع نور الإسلام.

والقبائل العربانية التى تسكن اليوم الجزيرة العربية تنتسب كافة لطبقة العرب المستعجمة. والقبائل العربية التى تكون هذه الطبقة وإن لم تترك وطنها الأصلى

جزيرة العرب إلا أنها عاشت مختلطة بالملل المسلمة والعربان الأجنبية لذا فقد طرأ بعض التغير على لغتهم.

أما حالة العرب الحضارية قبل الإسلام وبعده فهم ينقسمون إلى:

١ـ أهل المدر:

وهم أهل المدن والأمصار وهم النوع الأول من أهل الجزيرة والذين يعرفون فيما بينهم بـ (حفدى ـ بلدى) ويسكنون فى المدن والقرى، ويعملون ـ على قدر ما يساعد مناخ بلدهم واستعدادهم ـ بالزراعة وتربية أشجار النخيل والعناية بالحدائق والبساتين، ويبذلون جهودهم على تأمين معيشتهم بما ينتجون من المحاصيل كما أنهم يؤمنون معيشتهم من جهة أخرى بالأخذ والعطاء مع سكان البلاد المجاورة وبالتجارة.

٢ـ أهل الوبر:

وهم سكان البادية الذين يعيشون تحت الخيم ودائمى التنقل والترحال من مكان لآخر وراء الطعام والماء، وهم النوع الثانى من العرب وهم البدو الذين يمضون حياتهم بين الجبال والصخور والتلال والفيافى والصحارى ولما كان عرب الوبر دائمى التحرك والتنقل أضحوا عديمى الرغبة فى اكتساب العلوم والمعارف والفنون فهم يختلفون اختلافًا كليًا عن أهل المدر فى سبيل تأمين وسائل معيشتهم. فالمساكن فقط لتقى أجسامهم من شدة حرارة الشمس خالية تمامًا من علامات التجمل.

وفى الفصل الثالث: يذكر مؤلفنا الملوك والجبابرة الذين حكموا الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ومنهم:

ملوك عاد الأولى ـ كانت بلدتى حضرموت وشحر دارى ملوك عاد الأولى وكانت رعاياهم القبائل العربية التى تسكن فى الصحارى الواقعة بين البلاد اليمانية وعمان.

وقد حكم قوم ثمود سكان حجر وادى القرى بعد هلاك قوم عاد، وعصوا الله وأخذوا يعبدون الأصنام التى صنعوها بأيديهم وهكذا طغوا فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم صالحًا ـ عليه السلام ـ نبيًا لهم.

ثم يحكى عن سد مأرب وسبب بنائه لحماية بلدة مأرب من السيول التى كانت تنزل بها فلا تبقى ولا تذر، وبلدة مأرب التى مدحت فى القرآن الكريم بلدة طيبة كانت تبعد عن صنعاء ثلاث مراحل، واختلاف الروايات حول بانى السد وطوله وعرضه وما إلى ذلك.

ويعرض الباب الثانى للخلفاء والملوك المسلمين الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام يعرض فى الفصل الأول لسيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه ولد بعد ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ بخمسمائة تسعة وستين عامًا فى اثنى عشر من شهر ربيع الأول والسابع عشر من شهر أبريل، وبعث نبيًا فى الحادى والأربعين من عمره الشريف.

وهاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة عام ستمائة اثنين وعشرين من الميلاد والسادس عشر من شهر يوليو مبدأ التاريخ الهجرى من قبل المؤرخين، مدة نبوته ثلاثة وعشرون عامًا، عمره ثلاث وستون سنة.

ثم يتحدث بعد ذلك عن الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ الذين حكموا بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر منهم أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وعمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ومن بعدهم خلفاء الدولة الأموية، وأمراء بنى العباس.

ثم يتحدث بعد ذلك عن الأمراء الذين حكموا مكة المكرمة وهو يقسمهم إلى أربع طبقات.

١ـ الطبقة الأولى: طبقة سادات بنى حسن ويطلق عليهم بنو «أخيضر» وقد

حكموا تسعًا وتسعين سنة وظهروا فى سنة خمسين ومائتين للهجرة وانقرضوا فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين هجرية.

٢ـ الطبقة الثانية: من طبقات أمراء مكة الأربع السلسلة السليلة، لأولاد موسى الذين ينتهى نسبهم إلى الحسن بن على رضى الله عنهما، والأشراف الكرام والذين يكنون هذه الطبقة هم الأشراف الكرام الذين يطلق عليهم المؤرخون «الموسويين» و«بنى موسى» وأول من تولى منهم الإمارة هو الشريف موسى، والثانى عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله، وعدد أفراد الموسويين الذين حكموا البلاد الحجازية أحد عشر أميرًا.

٣ـ الطبقة الثالثة: ويطلق عليهم السادة الأشراف الذين يكونون الطبقة الثالثة من الطبقات الأربع «الهواشم» وأشراف طبقة «الهواشم» الذين عرفوا بـ «بنى فليته» ظهروا سنة (٤٥٣هـ) وانقرضت حكومتهم سنة (٥٩٨هـ) وحكم منهم فى خلال هذه الفترة ثلاثة عشر أميرًا.

٤ـ الطبقة الرابعة: شكل الطبقة الرابعة من أمراء مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسنى وسلسلة نسبه.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الثالث عن ظهور طبقة القرامطة باعتبارها من الفرق الخارجة فى البلاد الحجازية التى اشتعلت شرارتها فى زمن المعتمد بن عباد، وفى رواية فى عهد الخليفة المنتصر بالله، وأخمدت شرارتها سنة (٣٧٣هـ) أى فى عصر الطائع بالله وعلى قول سنة (٣٨٤هـ) فى ابتداء خلافة القادر بالله واستمروا فى شقاوتهم ثمانين عامًا أو ثلاثًا وعشرين ومائة عامٍ إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا حكومة قوية فى هذه المدة.

وأول من خرج من القرامطة أبو سعيد حسن بن بهرام جنابى من قرية جنالة القريبة من أهواز وكان يعمل بالبصرة وزانًا، ثم ذهب إلى البحرين حيث تظاهر بالتقوى والدين واخترع اعتقادات عجيبة باطلة وضعها وخدع بها الناس وتبعه بعض الحمقى من العربان والبلهاء.

وكانت غاية ابن سعيد هذا أن يحلل ما حرمه الشرع وأن يخرج بهذه الدسيسة ما فى نفسه إلى حيز العمل، لأن التمرد الذى فى ضميره لم يكن جائزًا شرعًا.

ولقد فعل الكثير من الجرائم واستولى على أقاليم نجد، يمامة، واليمن واعتدوا على حجاج المسلمين سنة (٣١٧هـ) بغتة وذبحوا من قبضوا عليهم من الحجاج وبعد ذلك هجموا على مكة المكرمة وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه، وحملوه إلى بلادهم واحتفظوا به عندهم.

وهناك اختلاف كثير فى بيان حقيقة عقائد القرامطة الباطلة، وبناء على قول فريق من المؤرخين فإن أول شخص ظهر فيهم قد تجرأ أن يدعى النبوة وحاول أن يقنع الناس بكتاب ألفه من الكتب السماوية، وبناء على قول فريق آخر من المؤرخين أن أول من ظهر من القرامطة هو من الأئمة الإسماعيلية وأنه مبعوث من قبل الإمام المهدى وأراد أن يقنع الناس بذلك، وهؤلاء الخبثاء يروجون لمذهب الرفض والإلحاد.

ومن عقائدهم أنهم يقتنعون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ ويعلنون أنهم ينتمون للطائفة الإسماعيلية إلا أنهم يستحلون المحرمات الشرعية ويعتقدون أن سفك دماء المسلمين مباح، كما يقولون بكفر من لا يعتنق المذهب القرمطى.

ومن جملة عقائدهم الباطلة حصر الصوم ليومين فى السنة، وعدم الغسل والاغتسال من الجنابة وجعل الخمر حلالاً وقولهم «أشهد أن محمدًا بن الحنفية رسول الله».

وفى الباب الثالث يحدثنا المؤلف عن أحوال جزيرة العرب الجغرافية فهى تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وتسكنها القبائل البدوية العربية منذ القدم وهى شبه جزيرة كبيرة.

يحدها شمالاً الشام وصحراء الجزيرة وشرق خليج البصرة، وجنوبًا المحيط الهندى وغربًا البحر الأحمر، ومضيق باب المندب.

وطولها تقريبًا من الطرف الشمالى إلى جنوبها ألفان وخمسمائة كيلو متر تقريبًا، وعرضها من الجهة الغربية إلى جهتها الشرقية ألفا كيلو متر تقريبًا وتتسع عرضًا من جهتها الجنوبية ومساحتها ثلاثة ملايين وست وخمسين ومائة ألف كيلو مترًا مربعًا وسكانها اثنا عشر مليونًا.

ثم يحدثنا بعد ذلك عن البحار والمحيطات التى تحيط بالجزيرة العربية فى الفصل الثانى من الكتاب فالبحار والمحيطات تحدها من جهاتها الثلاثة ـ البحر الأحمر ـ وهو يعرف بالخليج العربى، وبحر القلزم، وبحر شيب الشعب أو بحر جدة، وهو بحر قليل الجزر وإن كان به شعب مرجانية إلا أنها غير مفيدة، وهذه الشعب منتشرة بجانب الشواطئ مما يسبب الكثير من الحوادث لاصطدام السفن بها.

بحر الشب ـ ويصل بحر عمان الذى يعد جزءًا من المحيط الهندى بالشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب من باب المندب إلى مضيق هرمز.

وتنقسم الجزيرة العربية إلى ست قطع وتطلق على الأراضى التى فى الجهة الغربية الشمالية «الحجاز» والتى فى الجهة الجنوبية الغربية «اليمن» والجهة الجنوبية «حضرموت» وعلى الأراضى التى فى الجنوب الشرقى «عمان» والأماكن التى فى الجهة الشرقية «الأحساء»، «البحرين»، هجر، والأراضى التى فى وسط الجزيرة العربية «نجد».

وفى الفصل الثالث يحدثنا عن الأحوال الجغرافية لبلدتى جدة والطائف فجدة: من مدن الحجاز المشهورة وهى مدينة، وتقع فى الجهة المعمورة فى الجهة الغربية لمكة المكرمة وعلى تسعين كيلو متر منها، وعلى ساحل بحر السويس فى درجة خط الطول الحادية عشرة وتسع وعشرون دقيقة فى خط العرض الشمالى وهى أكبر موانى الحجاز ازدحامًا بالسفن.

وصادراتها: «جلد البقر، والبن، والصمغ العربى، والعطور المتنوعة، ريش

النعام، سن الفيل، الصبارة، اللؤلؤ، الصدف، البلح، الحناء، اليسر، الباغة، العسل».

وارداتها وهى التى تستورد من مصر، وأفريقية، وأوربا هى: «الأرز، والقمح، الشعير، الدقيق، الزجاج، الصابون، الأقمشة الصوفية، والقطنية».

ويبلغ عدد سكانها مع مجاورى وتجار مصر والشام والهند واليمن وكلهم مسلمون إلى خمسة وعشرون ألف نسمة، وأهالى جدة عمومًا يحبون العمل وأغلبهم أغنياء، ويشتغلون بجميع أنواع التجارة قد اكتسب ميناء جدة أهمية عظمى لموقعه الجغرافى الطبيعى.

وكافة أهليها، غير بضعة من الأوروبيين مسلمون، ويتاجر بعضهم بالهند والمستعمرات الأجنبية الأخرى.

الطائف: تقع بلدة الطائف والتى تسمى أيضًا «وادى عباس» على الجانب الشرقى من مكة وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة، ترتفع عن سطح البحر ١٥٧٥ مترًا، عدد سكانها ألف نسمة تقريبًا.

ولما كانت أرض الطائف أكثر ارتفاعا من أرض مكة المكرمة فتقل درجة حرارتها عن درجة حرارة مكة المكرمة ست أو سبع درجات ويجود هواؤها، لأجل ذلك يصعد معظم أهل مكة إلى الطائف عندما تشتد درجة الحرارة فى أشهر الصيف، ويقيمون هناك إلى أن تزول درجة الحرارة.

ويعرض المؤلف فى الباب الخامس للقبائل التى سكنت الجزيرة العربية حاكيًا تاريخ كل قبيلة وطبيعة عاداتها وشعوبها ومن هذه القبائل.

- بنو هاشم - ويطلق بنو هاشم على الأشراف والسادات الذين تسلسلوا من أصلاب الإمامين الحسن والحسين (رضى الله عنهما).

- قبيلة عنزة - وهى التى تستوطن فى شمال الجزيرة العربية، وخاصة الأقطار الحجازية ويعيش أهلها حياة البداوة وتنقسم إلى أربع قبائل:

١ـ أولاد على

٢ـ الحسنة

٣ـ حلال

٤ـ بشر

والفصل الثانى: يحدثنا عن قبيلتى حويطات وجهينة.

وتقيم أفراد قبيلة حويطات فى سواحل البحر الأحمر الشرقية التى تمتد من العقبة، وقلعة «الأزلم» إلى السويس، والأماكن التى تسكنها أراضيها قليلة الإنبات ومجدبة وعندما يجدبون يتجهون إلى عنزة.

ثم يذكر بعد ذلك فروع قبيلة حويطات والتى وصلت إلى اثنتى عشرة قبيلة.

ثم يذكر بعد ذلك فروع قبيلة جهينة التى تسكن شاطئ البحر من جبل حساين إلى ينبع البحر، وتنقسم هذه القبيلة إلى القسمين اللذين يعرفان بـ (أولاد مالك)، (أولاد موسى).

وفى الفصل الثالث يتحدث عن عربان قبائل بجاله وبنى حرب، وقبيلة نحاولة قبيلة فى غاية الاحتقار على حد وصفه بين أهالى الحرمين ذلك لتأصل عادات السلب والنهب والكر والفر فيهم منذ القدم على عهد يزيد بن معاوية.

قبيلة حرب ـ وانقسمت قبيلة حرب إلى قبيلتين كبيرتين وهما بنو سالم وبنو مسروح، كما أن بنى سالم انقسموا إلى شعبتين وهما «ميمون ومراوحة».

وفى الفصل الرابع يذكر قبيلة مطير، وبنى سليم وبنى عتيبة، وقريش، وثقيف، وبنى عدوان.

وفى الفصل الخامس يحدثنا عن القبائل التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفذة، وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءاً من تهامة الحجاز.

بنو لحيان: يقيم عربان قبيلة بنى لحيان فى الأماكن الواقعة بين مكة المكرمة

وجدة، وتقتصر معيشة بعض هؤلاء على ما يحصلون من المبالغ من المسافرين والحاج الذين يسلكون هذه الطرق.

وهناك قبيلة (بنى فهم) غير القبائل المذكورة وتقيم فى وادى خضر، وقبيلة (يزيد)، والتى تقيم فى وادى يزيد، وقبيلتا (بجالة وبنى متعان).

ويتحدث الكتاب فى الفصل السادس عن اليمن وحدوده ووصفه، والقبائل المستقرة فيه.

واليمن قطعة كبيرة من جزيرة العرب تقع فى الطول الشرقى من درجة ثلاث وأربعين إلى درجة خمسة وأربعين، وفى العرض الشمالى، فى درجة اثنتى عشرة وتقع على الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة العرب.

ويحيط بها من الجانب الغربى البحر الأحمر وفى الطرف الجنوبى خليج عدن ويحيط بها من الشرق حضرموت، ومن الشمال الحجاز، ومسافتها الطولية خمسة وخمسون وسبعمائة كيلو متر، ومسافتها العرضية خمسون وثلاثمائة كيلو متر، عدد سكانها مليونان وخمسمائة ألف نسمة تقريبًا، وتنقسم جغرافيًا بالإجمالى إلى قسمين: والقسم الأول من الخطة اليمانية: الأراضى الواسعة المستوية على ساحل البحر الأحمر ويسمى «تهامة» وتمتد من شاطئ البحر إلى الداخل ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة وهى أراضى سهلة مستوية.

والقسم الثانى من الأراضى المقابلة لتهامة وهى أراضى مرتفعة يطلق عليها نفس اليمن وهى فوق جبال متسلسلة تسمى جبال «سروات» وتمتد من الطائف إلى صنعاء.

أما سكانها فهم يسكنون القرى والمدن ويقومون بكسب قوتهم بالزراعة والتجارة، لذا نجد أن العرب الرحل يقلون فيها بالنسبة إلى الأماكن الأخرى لجزيرة العرب.

ومن ضمن ما تشتهر به اليمن من زراعة شجرة البن وكانت قديمًا خاصة

باليمن ولكنها نقلت فيما بعد إلى البلاد الأخرى حيث أنبتت فيها وقد جربها أول مرة أهل اليمن وعرفوا بعد التجربة خواصها النافعة فأخذوا يستعملونها ويشربونها فتبعهم بعد ذلك أهالى البلاد الأخرى.

والقهوة اليوم وسيلة رئيسية لإكرام الضيوف وتحيتهم، ومن أجود أنواعها البن الذى ينبت فى أرض اليمن.

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى أمتع أبواب الكتاب وأطرفها على الإطلاق وهو الباب السادس الذى تعرض فيه المؤلف بالحديث لعادات أهل الجزيرة وتقاليدهم والذى تفرد ببعض الفصول التى لم ترد فى كتب غيره.

ففى الفصل الأول يذكر عادات سكان الجزيرة العربية منها العادات التى اخترعها عمرو بن لحى ومنها عادات خاصة بالنوق مثل إذا ولدت عشرة صغار يفقئون إحدى عينيها ويمنعون ركوبها ويسمونها «حام».

والعادات القديمة كان منها وأسوأ ما يكون منها: عادة وأد البنات التى حكاها القرآن الكريم حين قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. [النحل: ٥٨]

ومنها أيضًا: الوشم، والتعمية، وبكاء المعتزلين، التفقية، رمى السن، خضاب النحر، نصب الراية، جز النواصى، الالتفات، النهق. . . .إلخ وهذه أيضًا يروى أنها من اختراعات عمرو بن لحى وهى من العادات التى لم ينزل الله بها من سلطان فجاء الإسلام الكريم وأبطل هذه الخرافات والخزعبلات وبين أنها من دعاوى الجاهلية.

وقد ظهر بينهم بعض السحرة، والكهنة، وأخذوا يخبرونهم عن المغيبات ولما صادف أن تحقق بعضها وأخبروه فانخدعوا بهم وأخذوا يستعينون بهم فى حل مسائل دينهم ومشكلات حياتهم.

أما عن عقائدهم فكانوا على عقائد وملل شتى كثيرة متفرقة منها:

١ـ فرقة منكرة: كانت تنكر الخالق والبعث والحساب وتحاول أن تثبت أن الطبيعة هى التى تحيى وتميت والدهر يفنى فكانوا يقولون: «ما يهلكنا إلا الدهر».

ومن ذلك قول شاعرهم:

حيـاة ثـم مـوت ثـم بعـث حـديـث خـرافـة يـا أم عـمرو

ومن ذلك قولهم:

ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، نموت ونحيا، ولا يهلكنا إلا الدهر.

٢ـ الفرقة الثانية: كانت تعترف بالخالق، وابتداء الخلق ولكنها تنكر المعاد.

٣ـ الفرقة الثالثة: تعترف بالخالق وابتداء الخلق ونوعًا من البعث ثم أنكروا ذلك وعبدوا الأوثان ظانين أنها ستكون شفيعًا لهم لدى الله ـ سبحانه وتعالى.

وكان من بينهم من يعبد النجوم والكواكب مثل الأشوريين، ومن يعبد الحيوانات مثل المصريين، ومن يعبد الملائكة والجن وكان منهم من انحرف لمذهب من يعتقد فى تناسخ الأرواح.

ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن كرم العرب وسخائهم وتحملهم للجوع والعطش فالقبائل البدوية تشتهر شهرة واسعة بين العرب بالكرم، والكرم البدوى معروف لدى البسيطة كلها، حتى الفقراء منهم يتصفون بهذه الصفة وهم يقدمون لضيوفهم أفضل ما يكون عندهم من طعام أو شراب وإن لم يجد الواحد منهم ما عنده لذلك فقد يذبح حصانه وناقته وهو أحوج ما يكون إليهما، وهم لشهرتهم بالكرم، فالكرماء منهم ممدوحون أبدًا، والبخلاء مَذْمومُون نادمون أبد الدهر.

ولما كان بعض العربان يفرحون بقدوم الضيف فرحًا شديدًا فينتظرون كل صباح ورود الضيف، ويناجون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبعث لهم ضيفًا وسواء أكان الضيف معروفًا أم غير معروف فالواجب يحتم إكرامه بغض النظر

عـن معرفتـه أو عدمها، بل هم يتنافسون فى بذل هذا الشرف والترحيب بالضيف الغريب ويأخذونه إلى منازلهم حيث يعدون لهم أجود أنواع الطعام والشراب.

ومن عاداتهم تقديم ثلاثة فناجين قهوة متتالية ولكن بن هذه القهوة لابد أن ينضج بعد ورود الضيف ويطحن فى المطحن ويسوى فى إبريق من الفخار، وقد يضحى صاحب البيت فى سبيل حماية ضيفه بنفسه وماله وعلى الضيف أن يعد نفسه واحداً من أهل البيت وأن يدافع عنهم إذا ما تعرضوا للأذى.

ومن صفاتهم أيضاً تحمل الجوع والعطش والجو الشديد الحرارة وليس فى العالم قوم يتحملون هذه الأشياء مثلهم والذى يشبع منهم مرة فى أربع وعشرين ساعة يعد نفسه سعيداً.

وهم يعيشون على تناول الأعشاب التى تنمو بجانب الغدران التى تكونت من أثر الأمطار، وعندما يتجهون إلى مكان ما للإغارة على بعضهم بما أنهم لا يملكون كثيراً من الزاد فإنهم يطحنون الدخن وشيئاً من الدقيق وكلما يجوعون يضعون فى أفواههم قدرًا منه ويشربون ماء.

ومع كل هذا التحمل فصحتهم جيدة وأجسامهم قوية إلا أن قوة أجسامهم لا تكتمل فبنية أجسامهم نحيفة وهم فى غاية من خفة الدم.

وفى الفصل الرابع من الباب السادس يحدثنا المصنف عن باب من الأبواب الطريفة والنادرة وهى عادات العرب وأساليبهم فى السلب والإغارة والعرب الذين يخرجون للسلب والنهب يتخذون أحدهم رئيساً وقائداً ولا يخرجون عن طاعته ورأيه، ومن أحكام السلب والنهب عندهم أن يكون نصف الخارجين ركباناً، والنصف الآخر من المترجلين وفى أثناء قتالهم لا يستخدمون الأسلحة النارية، ولكنهم يقاتلون بالأسلحة البيضاء مثل السيف والرماح وما يشبهها من الآلات.

وبعدما يهيئون مهماتهم الحربية ويتخذون تدابيرهم القتالية ويقتربون من مقر

القبيلة التى يريدون أن يقتحموها، يختفون فى مكان ما ثم يبعثون باثنين منهم للتجسس ويصعد الجاسوسان على قمة جبل ويرصدون أحوال العدو وأغنامهم وكل ما يملكون من أموال، وإذا قنعوا بقدرتهم على العدو أغاروا عليهم واقتحموا القبيلة صباحاً ونهبوا أموالهم وأغنامهم، وإذا كانت الإغارة ليلاً قيدوا الرعاة على جذع الشجر ثم يسوقون ما نهبوا فى سرعة شديدة.

وفى الفصل الخامس يحدثنا المؤلف عن عادات العرب فى تربية أطفالهم وكذلك عاداتهم فى الوليمة والختان.

تربية الأطفال

يكلف العربان أولادهم إذا بلغوا سن الثالثة برعى الجدى والحملان حول قريتهم، وعندما يبلغون السنة الرابعة يرعون الحمير والحملان فى أماكن أبعد من ذلك.

وإذا بلغوا الخامسة من عمرهم يعلمونهم الجلوس على ظهور الجمال، فإذا بلغوا السادسة يعلمونهم ركوب الجمال بمفردهم.

ويكتسب أطفال البدو مهارة عظيمة فى ركوب الخيول والجمال حتى إنهم يستطيعون أن يركبوا جملاً مهما جرى سريعاً، ومهما كان الحصان العربى سريعاً فركوبه والجرى به يعتبر بالنسبة للطفل العربى من قبيل اللهو.

وتظل الصبايا إلى أن يبلغن السنة العاشرة من عمرهن مع الأطفال يعملن معهم فى رعى الغنم والمعز، ويعلموهن فى هذه السِّن حلب النعاج والمعزات وصنع اللبن الرائب والجبن.

الزواج وعاداته

يعد أبناء العم وأبناء الأخوات أكفاء للبنات العربيات إذا كان الواحد من هؤلاء غير مقيد بالزواج أو متزوجاً غير راضٍ بزواج البنت من طالب يدها فمثل هذه البنت لا تتزوج.

والمهر بالنسبة للأغنياء عبارة عن «بسط» (سجادة أو كليم) كبير من الصوف، وسوارين للمعصم من الذهب وفساتين وبعض الإبل والأغنام.

وليمة العرس:

ويقدم فى وليمة العرس الأرز المطبوخ وعليه لحم الغنم الذى ذبح من قبل وأعد للضيوف، وهذا من العادات العربية الجارية.

حفل الختان

يختن العرب أولادهم الذكور فى اليوم السابع من ولادتهم، وبعضهم في يوم الأربعين، وبعضهم فيما بعد، كما يقرر عرب من هذيل الذين يسكنون بجانب مكة المكرمة ألا يختنوا أبناءهم إلا عند الزواج فعندما يقررون عقد زواجهم عندئذ يختنونهم، وعندما يقرر ختان ذلك الفتى فمن عادة هؤلاء القوم أن يدعوا لحفل ختانه أحباءه وأقاربه وجماعات القرى المتجاورة، وكل واحد من المدعوين يهدون لصاحب الحفل على حسب قدرته خروفاً واحداً أو أكثر وجملاً ومعزة أو ثورا.

كما أن من عاداتهم أن يسوق كل فرد ما يريد أن يهديه من الحيوانات أمامه وأن يذهب إلى القرية التى سيحتفل فيها قبل الختان بيوم أو بيومين.

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن سبب حب العرب للنخيل والجياد الأصيلة، وصورة الأوسمة التى تطبع على الجمال فى الأراضى الحجازية وبما أن هذه الأشجار المباركة لا تنمو فى كل أماكن الحجاز لذلك يحرص غارسوها أن يغرسوها على أطراف ممرات السيول، وحيث الماء قريب من سطح الأرض والأماكن الرطبة، ثم يتعَهَّدونها بالسُّقيا أربعين يوماً حتى تتمكن جذورها فى الأرض ثم يتركونها لحالها.

يقال للتمر أول ما يظهر «زهواً» وعندما يحمر ويبدأ فى النضج يطلق عليه «رطب»، والتمر فاكهة مغذية قوية، والبدو وأهل المدينة يفضلون أكل الطازج منه، ويبيعون الرطب.

الخيل:-

يطلق فى بلاد العرب على ذكر الحصان (الخيل) ولأنثاه يُقال (فرس) وهم يربون الخيل ليأخذوا ذريته فقط، لذا لا يحتفظون بذكر المهر بل يبيعونها للبلاد المجاورة لهم ولكنهم يحتفظون بأنثى المهور ليركبوها فى الحروب ويحرصون على الاحتفاظ بها ولا يستطيع أن يمتلك هذه الفرس إلا الأغنياء، أو يشترك عدة أشخاص في ملكيتها.

ويمكننا تلخيص موضوعات هذا الجزء فى:

١- الموقع الجغرافى والواقع الاجتماعى للجزيرة العربية.

٢- التاريخ السياسى والاجتماعى لجزيرة العرب

٣- القبائل التى سكنتها قديماً وحديثاً، وتاريخها.

٤- عادات أهل الجزيرة وأخلاقهم وصفاتهم.

والحق أن هذا الجزء تفرد ببعض الموضوعات الطريفة والشيقة والتى قلما تجتمع فى غيره من المصادر ومنها:

١- حديثه عن الأصول والقواعد الخاصة بالحروب عند العرب والتدابير الحربية واللصوصية، وهو كذلك من الموضوعات التى تخلو منها كثير من الكتب.

٢- سرده لعادات العرب فى تربية أطفالهم، وعادات الختان، والوليمة.

عناصر مجلد «مرآة جزيرة العرب»:

تاريخ وخبر جزيرة العرب ـ خلفاء وملوك الجزيرة العربية ـ الخارجين فى البلاد اليمنية ـ طائفة القرامطة وخبرهم.

أحوال الجزيرة الجغرافية والمناخية ـ ما يحيط بالجزيرة من بحار ومحيطات ـ جده وأحوالها الجغرافية ـ أماكن المدينة، وحدودها.

طرق المدينة ـ الطريق السلطانى ـ طريق فرع ـ طريق غاير ـ طريق مكة والمدينة ـ طريق ينبع ـ طرق مؤدية لمكة.

قبائل الجزيرة العربية ـ قبيلة حويطات وجهينة ـ قبائل بجاولة، وأحوالها ـ قبائل مطير وبنى سليم ـ قبائل مكة المكرمة، والمدينة ـ وصف اليمن وحدوده.

وعادات وتقاليد أهل الجزيرة العربية ومذاهبهم ـ وصف وتعريف «سمية وخمسة ومنن» من قوانين العرب ـ وصف كرم العرب وصلابتهم ـ ذكر تقاليد العرب الحربية ـ تربية أطفال العرب ـ حب العرب للنخيل والجياد.

* * *

مرآة الحرمـــين
مرآة مكـــة

إن الحمد والشكر والثناء بالصدق والإخلاص لأعظم المستحقين سبحانه «تعالى شأنه عما يقولون» حمداً يفوق فى الكثرة أنفاس قوافل الحجاج المتقاطرة وشكرا يزيد عن حاجة الأرامل فى مختلف المراحل.

له الحمد والشكر إذْ أنشأ مبنى العزة الكعبة المعظمة فى مدينة (مكة المكرمة) مهتدى الضالين فى صحراء العصيان، ودعا لدار الضيافة عميم النوال، دعا جميع سكان بلاد الموحدين أطعمهم من المائدة العظيمة الفائدة والنفع من قوله ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) وأحاط بالعظمة والفخامة جميع السلاطين والحكام الذين وقفوا فى تجديد قبلة جميع الرسل والأنبياء وتعمير بيت الله العظيم.

وأعرض الصلوات الصافيات المتنوعات لنبينا خاتم الرسل والأنبياء نتيجة مقدمة الأكوان والشئون «عليه وعلى آله سلام الله المنان» وأفرش حجرة نبينا الطاهرة وروضته المضيئة بالصلاة والسلام.

وأخص منير مضاجع آل البيت وأهله والأصحاب الكرام برفع تحياتى الوافرة إذ بينوا لنا فضائل المآثر المبروكة والمساجد المسعودة التى عينها لهم نبى الإنس والجن «عليه صلوات الله الرحمن» وهكذا أبرزوا خدماتهم فى سبيل الدين المبين وحبيب الله رب العالمين وزادوا فى أجر جموع الحجاج الكرام ومثوبتهم بزيارة هذه الأماكن المقدسة.

وبعد فيعرف أهل النُهى، جيداً أن كل قطعة من حجارة البلدتين الطيبتين أغلى وأكرم من جواهر ملك سليمان، وكل ذرة من ترابهما المطوية بالغفران أعز من إكسير العظمة وجوهرها، ومن هنا فَإنَّ أفضليَّة البلدتين الطيبتين على جميع الممالك على وجه البسيطة ظاهرة للعيان. ووجوب زيارتهما على كل مسلم قادر أمرٌ بديهيٌّ وَاضِحٌ، يزورهما فيستطلع فوائدهما وفضائلهما ويستكشف خصالهما وخصائصهما، وهذه الزيارة لها شديد اللزوم لكل موحد يلبى الدعوة الروحانية الإبراهيمية «على نبينا وعليه التحية» بالصلاة والسلام وعلى الذين يأتون لهذا المكان مثل حمائم الحرم طالبين الراحة النفسية.

وقد ألف العلماء الكرام كثيراً من الكتب ليبرهنوا على أن الأرض المضيئة التى تحتوى على الأقطار الحجازية المنجية أقدس مكان على وجه الأرض ونشروا هذه الكتب وليعرفوا الخلف ما تمتاز به الأراضى الحجازية من فضل وقدسية في نشأتها. كما أن شعراء القبائل البدوية قد أنشدوا قصائد بليغة وفقرات مسجوعة فى ذات الموضوع تناقلتها الألسن.

إلا أنه لا يخفى على أصحاب الاطلاع والبحث والتدقيق أن تلك الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع والقصائد التى قيلت فيه ظلت فى زاوية منسية في أصونة دور الكتب.

وبما أنه لم يكتب إلى الآن فى لغتنا التركية كتاب مستقل خاص بهذا الموضوع فالروايات التى تتناقلها الألسن وتسمعها الآذان من البديهى ألا تخلو من التناقض، وهذا ما يجعل التأكد من حقائق الأمور من الصعوبة بمكان، وبناء على هذا فكل أبناء الوطن الذين يريدون أن يطلعوا على حقائق الأماكن المشحونة بالمحاسن ـ حقائق الحرمين الشريفين ـ ومواقع آثارهما وفضائلهما لا يجدون مراجع يستقون منها ما تتوق أنفسهم إلى معرفته من حقائق الحرمين الشريفين، فأحس هذا الفقير العاجز بالحاجة إلى أثر فوائد موائده لم ير ولم يسمع بمثله إلى الآن، أثر عظيم القدر لا يستغنى عنه، وإننى كنت قد عرضت على أنظار العامة

فى ظل الكرم السلطانى المؤلفات الآتية: محمود السير ـ عزيز الآثار ـ تكملة المناسك ـ تاريخ الوهابيين ـ رياض الموقنين ـ ترجمة الشمائل.

وقد رأيت بعين الفخر والابتهاج مدى ما حازته هذه الكتب من حسن القبول لدى أهل الكمال الذين يتجاوزون عن الأخطاء، وهذا ما شجعنى على أن أطلع على الوقائع المبروكة لمكة ذات الفيوض والمدينة المفخمة ذات السعادة المدوية، وذلك من الكتب القيمة الموثوق فيها والتى تحتوى على أحوال الأوائل، تسطر أوصاف تلك المدينتين التى زخرفت على سطور حريرية، كما أننى ذكرت فى كتابى عادات أهل الجاهلية في ذلك بأقلام الفحول والرسائل النادرة من المصنفات العربية والفارسية، فأمعنت النظر فى ثناياها لأستنبط من فحواها ما يفيد معظم الملة العثمانية.

أنشر منها ما هو نافع ومفيد وهكذا أردت بأن أكتب تاريخا باللغة التركية عن البلاد الحجازية المتسعة، أبين فيه أحداثها الماضية وأحوالها التاريخية جامعها كلها فى مجلدات خاصة، وأقدم لأبناء الوطن ما يفيدهم وينفعهم.

إن الخاطر الذى طرأ على ذهنى كان فى حاجة للتنظيم والترتيب مع قلة المعلومات فى الموضوع. كما أن الأقوال التاريخية المتباينة فى مواقع «يثرب» و «بطحاء» وإعمال الفكر والتدقيق والبحث فيها كانت مرهونة بالسفر إلى الأراضى الحجازية السعيدة للمشاهدة والتفقد. ولكن المشكلات التى صادفتنى فى هذا السبيل أدت إلى التردد والتراخى فترة ما لإجراء ما فى الضمير.

فى النهاية قدر للعاجز السفر إلى الحجاز وتيسرت له هذه السياحة وتحقق المرام، ومما ساعد على تحقيق مثل هذه الغاية المرجوة، ما يضمره الإنسان من إفادة أهل الإيمان من مثل هذه الأعمال المؤيدة بالأدلة العقلية القطعية والبراهين النقلية القوية، كما أنَّ تصحيح ما يتوقع من الأخطاء فى أثرى من قبل أصحاب المروءة فى زماننا ساعدنى علي إنجاز ما فى ضميرى وعلى المضى قدما إلى إتمام هذا العبء الثقيل الذى جعلته على عاتقى وإن كان فوق قدرتى فقد مضيت فى

إنجاز ما بدأته مستظلا بالحماية السلطانية دون خوف أو رهبة في عهد السلطان التركى منير الفؤاد ومحمود السير ملك الملوك حميد الخصال، ممدوح السريرة، خادم الحرمين الشريفين خليفة رسول الثقلين، السلطان ابن السلطان الغازى «عبد الحميد» خان الثانى ابن السلطان الغازى عبد المجيد وفى عهده الذى تميز بإنجاز الأعمال الخيرية واستكمالها وانتشار العلوم والمعارف تحت ظل الأمن والأمان والطمأنينة.

وإننى أقدمت على إنجاز هذا العمل نازلا لحكم المصراع الشعرى المعروف:

«لا تبقى تحت هذه القبة إلا ذكرى طيبة ولحن عذب».

لذلك رغبت فى أن أترك ذكرى طيبة تدفع الناس للدعاء بالخير لصاحبها وهكذا جمعت ورتبت ما عزمت عليه، بعد أن دققت النظر بعمق شديد فى الكتب التى سيأتى ذكرها والتى اتخذتها مرجعا واستصوبت أن أنقل من الأدب العثمانى بعض المباحث ولا سيما من الرسالة التى ألفها الدكتور (رائف أفندى) وضمنها تدقيقاته الواقعية الشاملة، ثم توكلت على هادى السبل وبعونه شرعت فى كتابة الوقائع والأحداث لأرض بيت الله المنيرة من بدء الخليقة إلى عصرنا هذا، عصر الخلافة العثمانية، عصر العناية بالمعارف، مستعينا فى ذلك بالكتب التى اتخذتها مراجع ولم أهمل أن أضمن كتابى أقوال الذين شاهدوا المواقع التى يمكن مشاهدتها رؤية العين والتى يمكن التأكد من صحتها.

وكانت غايتى الخيرة من هذا العمل ترغيب الذين حجوا فى الحج مرة أخرى وحث وترغيب الذين لم يحجوا بعد فى الحج.

وحاولت أن تكون لغتى واضحة وعباراتى سلسة على قدر الإمكان وضمنت كتابى صور بعض المآثر وخريطة الحرمين الأنورين المسطحة.

وقسمت أثرى هذا القاصر إلى ثلاثة أقسام وسميته بـ (مرآة الحرمين) وقدمته للعتبة السلطانية الناشرة للعدل وللسلطان الذى يرفع رأسه عاليا مفتخراً بخدمة الحرمين الشريفين، وبحفظ الخرقة النبوية الشريفة ـ على صاحبها أفضل

التحيات ـ ويرفع علم سيّد بنى آدم المعظم ﷺ، وقدمته لإمام المسلمين وخليفة خلفاء الدين.

وإننى آمُلُ أن ينال مؤلفى هذا حسن القبول، وأين هذا الأثر من المؤلفات العثمانية المتنوعة التى تحير العقول، إلا أننى أردت أن أخدم الذين ينتمون إلى دينى مستفيدا من عهد السلطان الفاروقى الشعار ومن العهد المصون من الجور والظلم.

وبما أننى من موظفى القصر وقرناء السلطان الذين يعرضون أفكارهم بإخلاص فى العتبة السلطانية لأعد نفسى من أعظم السعداء إذا ما نال أثرى هذا شرف مطالعة السلطان المفطور على الرحمة، وإن هذا العاجز الذى لا ملجأ له سوى ظل السلطان يرجو ألا يتعرض للخجل، وأن يحظى مؤلفه بعطف السلطان وكرمه ولطفه.

وإننى أرجو من الفضلاء الذين سيمعنون النظر بين سطور مؤلفى هذا المتواضع أن يغضوا النظر عما سيظهر فيه من سهو وخطأ وكفى أن هذه الصفحات تحتوى على الجواهر القدسية.

والله ولى التوفيق

تحتوى هذه الوجهة على خمسة صور تتعلق بتعريفات أحوال مكة المعظمة الجغرافية الأولية، وأوضاع بيوتها وأشكال دورها وهيئاتها وأحوال إيجار بيوتها والمسائل المهمة حول مجاورة البيت، كذلك درجات حرارتها وبرودتها وسبب إطلاق اسم الكعبة على البيت الشريف وفضائل الكعبة الجليلة وخواصها وتعريف حدودها بالتفصيل.

إفادة مخصوصة:

الكتب التى اتخذت مراجع لكتابة «مرآة الحرمين» هى:

القسطلانى على البخارى، شروح الشفاء، روح البيان، التفسير الكبير، تفسير الكشاف، تفسير لأبى السعود، القاضى على الشهاب، تفسير الخازن، تفسير النسفى، تفسير ابن كثير، تفسير ابن عادل، فتاوى قاضى خان، منظومة ابن وهبان، روح التوشيح، صحيح مسلم، الطحاوى، درجات مرقات الصعود، تاريخ الإمام الأزرقى، تاريخ الإمام الفاكهى، خلاصة الوفا بأخبار مدينة المصطفى، مسلك المتقسط على منسك المتوسط، وفاء الوفاء، تاريخ نفيس خميس، أنس جليل، تاريخ ابن هشام مسامرات الشيخ محيى الدين، خبر البشر بخير البشر، خطابات أحمدية، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، العقد الثمين فى فضائل البلد الأمين، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تدقيقات الدكتور رائف أفندى، تحقيقات الدكتور بكر أفندى، روضة الصفاء لمحمد خاوند شاه، فتوح الحرمين، التواريخ التركية، فضائل بيت الله، ذراع الكعبة المشرفة، ذراع المدينة المنورة، مضبطة سهيلى أفندى، تاريخ نوح أفندى، سراج الملوك، الأحكام

السلطانية، فذلكة كاتب جلبى، كتاب النسب، تاريخ رضوان باشا، سبل الرشاد، شفاء الغرام، خلاصة الكلام فى بناء بيت الله الحرام، تحفة الكرام، الزهر الباسم، المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة، استقصاء البيان في مسألة الشاذروان، كتاب المعارف، التحفة المرضية فى الأخبار القدسية، نور العين فى مشهد الحسين، قرة العين فى أخذ ثأر الحسين، كتاب حكم الإسكندرى.

المباحث التى تحتوى عليها «المرآة» هى خلاصة ما أخذ واقتبس من الكتب التى ذكرت أسماؤها آنفاً.

وإننى كنت تصورت أن أكتب تاريخا عن الخطة الحجازية أبين أحداثها الماضية وأحوالها التاريخية بنية تقديمه لأبناء الوطن باللغة التركية فى مجلدات خاصة. وأن أبين فيه ما حدث لأبنيتها المقدسة إلى هذا العصر الذى نفتخر بإدراكه من حيث كم مرة جددت وعمرت المبانى المقدسة ومن الذين قاموا بهذا العمل؟ وما الجهد الذى بذل فى سبيل توسيعها وتعميرها؟ وكيف كانت أشكالها القديمة وهيئاتها السابقة؟ وكيف أصبحت فيما بعد؟ وما الأماكن التى تحظى بشرف الزيارة إلى البلاد الحجازية؟ وما المآثر المبروكة فى البلاد الحجازية؟ وأين تقع؟ والأحوال الجغرافية للمسجد الحرام والروضة المطهرة لسيد الأنام مستقرها الأساسى؟ وآثارها العتيقة ومحاصيلها الزراعية وأحوال مجاورة البيت الحرام وكيفية إيجار بيوت مكة، وتقسيم الكسوة المباركة للكعبة الشريفة.

ومن هؤلاء الملاعين سكان الجحيم الذين تجرؤا على هدم بيت الله وتخريبه؟ وما العوامل التى دفعتهم إلى ذلك؟ وماذا كان مصير كل من أراد أن يحقر أيًّا من الحرمين الشريفين؟ وما مصير سفهاء الأسلاف والملاحدة الظالمين؟ ومتى اتخذ إرسال الصرة عادة؟ وفى عهد من من السلاطين؟ وكم كان مقدار المبلغ الذى تحتويه الصرة السلطانية فى العصور السابقة؟ وكيف ترسل الآن؟ وما مقدار

النقود التى ترسل؟ وما معنى المحمل الشريف؟ ومتى ابتدع إرسال المحمل وما دواعيه؟ وكم ظلت كعبة الله العلام بيتا للأوثان والأصنام؟

والحاصل أنه قد كتبت جميع الأحداث والوقائع والانقلابات الخاصة بالأقطار الحجازية، واختصصت أحداث مكة بمجلد، كما اختصصت أحداث المدينة بمجلد وإتمامًا لهذين المجلدين كتبت تاريخا للجزيرة العربية.

وإن كانت المرآة لا يمكنُ أن تبين تاريخ تأسيس بيت الله وزمنه بحيث تطمئن إليه جميع قلوب الناس، ولكنها تبين جميع الحقائق والأحوال متسلسلة بالنقل والروايات والأحداث التى ثبت وقوعها تاريخيا من عهده ﷺ إلى عصرنا هذا، وتذكر جميع الانقلابات والوقائع بعد التدقيق والبحث بعمق ومع كل واقعة تعريفها وأحداثها.

إن ما ستعرضه المرآة أمام القراء عبارة عن الصور التى عرضت أعلاه وما يتفرع من هذه الصور.

ولم تجمع محتويات الكتاب حسب أدوار الملوك والسلاطين ولكنها قسمت لبعض الوجهات والصور.

وكان الغرض من هذا التفريق أن نبين بالترتيب ما حدث فى البقعة المفخمة لكعبة الله الحرام والمسجد الشريف لرسول الله العلام منذ تأسيسهما إلى يومنا هذا، وما شاهدته الأقطار الحجازية من ثورات وانقلابات وما تحملته المواقع المسعودة من الصدمات والأحداث.

ومن البديهى أن الذين يسمعون لفظ المرآة، سيلقون نظرة على سطور صفحاتها ثم يظنون أنهم سيرون فيها صور أنفسهم بدليل لفظ المرآة التى تعكس الصور، ولكنهم إذا ما تذكروا أن من معانى المرآة ومهماتها تقريب البعيد حينئذ سيقولون بأن مرآة الحرمين كتاب تاريخ كثير المنافع جامع لأحوال عامة البلاد الحجازية.

الخلاصة:

قد بينا فيما سلف أن هدفنا من تأليف مرآة مكة: أن نعرف إخواننا فى الدين ببيت الله وما حوله من المواقع وأشكالها وأحوالها وما لهذه الأماكن والمآثر من الفضائل.

ويتحقق هذا الهدف على الوجهة الآتية والصور المقبلة؛ كلما يأتى دور موقع مقدس نقوم بتعريفه بالتفصيل وحتى نصل إلى الهدف المرجو رأسا رئى أن نرتب خلاصة مجملة.

بيت الله (الكعبة):

ويطلق على ظاهر الكعبة «بيت الله» وترتفع جدران البيت الشريف ابتداء من أرض المطاف سبعة وعشرين ذراعا وإصبعا وعرضها ذراعان[1].

ويطلق على زاوية منها اسم «ركن الحجر الأسود» وعلى الأخرى «الركن اليمانى» وعلى الثالثة «الركن الشامى» والرابعة «الركن العراقى». وطولها من ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقى اثنان وثلاثون ذراعا. ومن الركن اليمانى إلى الركن الشامى واحد وثلاثون ذراعا، ومن الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود عشرون ذراعا ومن الركن العراقى إلى الركن الشامى اثنان وعشرون ذراعا.

ويوجد باب فى الجدار الشرقى للكعبة المشرفة، وآخر فى الجدار الغربى، وقد سد هذا الباب الآن ومازال الباب الشرقى مفتوحا. وطول الباب الشرقى ستة أذرع وأربعة أصابع وعرضه ثلاثة أذرع وثمانية عشر إصبعا، وجناحا الباب مثبتان بالمسامير، وهما من شجر (الساج) الذى ينبت فى الهند، وارتفاع عتبة الباب الشريف المذكور من الأرض أربعة أذرع وثمانية أصابع، واتساعه ثلاثة أذرع وثمانية عشر أصبعا.

(١) إن الذراع المذكورة فى الصفحات من المرآة هى الذراع التى تستعمل فى مكة للقياس ويطلق عليها الذراع الهاشمية، وطولها (٦٤) أربعة وستون سنتيمتراً.

وللبيت الشريف مآثر عديدة تقع فى أماكن مقدسة مبروكة، تزار حتى الآن وهذه المآثر هى: الملتزم، المستجار، الحجر الأسود، داخل الكعبة، حجر إسماعيل، حفرة المعجن، ستار الكعبة، المطاف الشريف، المقام الشريف، المقامات الأربعة، قبة الفراشين وقبة السقاية.

الملتزم:

ويطلق على الجزء الواقع بين ركن الحجر الأسود والباب الشرقى الشريف، وسبب تسميته بهذا الاسم التزام الحجاج بالدعاء في هذا المكان المبارك بعد الطواف.

وقد أخبرنا المخبر الصادق عليه سلام الله الخالق حضرة رسولنا ﷺ أن المكان المذكور موضع استجابة، لذا يقف الحجاج بمحاذاة هذا الموقع المبارك ويجأرون بالدعاء ويمسحون حوائط الكعبة بأيديهم ويناجون الله تعالى فى تضرع.

المستجار:

هو موضع الباب الغربى المسدود الذى يقع بين الركن الشامى والركن العراقى فى مواجهة الملتزم الذى ذكر فيما سبق، وعندما حددت قريش بيت الله أغلقوا هذا الباب المبارك بالحجارة، ومازال مغلقا من ذلك العهد. وعرض المستجار أربعة أذرع وخمسة أصابع أما عرض الباب المسدود فثلاثة أذرع، وسبب تسميته بالمستجار لاستجارة الحجاج عنده من ذنوبهم ولأنهم يسألون الله سبحانه وتعالى المغفرة لاصقين صدورهم به.

الحجر الأسود:

ويطلق على الحجر الأسود الموضوع فى الزاوية التى يحاذى فيها باب الكعبة المعظمة المقام الحنبلى وهو مبتدأ الطواف، والمكان الموضوع به الحجر الأسود يرتفع عن الطواف بثلاثة أذرع وأربعة أصابع أو يزيد، والغرض من وضع الحجر الأسود فى هذا الموضع إبرازه بحيث يمكن رؤيته.

لقد استلم الملائكة المقربون الحجر الأسود ولمسته شفاه كل الأنبياء لذا فإن استلام هذا الحجر الشريف أو تقبيله يجب أن يتم بمنتهى الخشوع والخضوع، ويقتضى من الطائفين مزيدا من الدقة والعناية حتى لا يؤذوا المتزاحمين.

داخل الكعبة:

يطلق على المكان الطاهر المقدس الموجود داخل جدران بيت الله، ورغم أن الوجه الداخلى لهذه الجدران من الرخام المصقول فإن رؤيتها أصبحت مستحيلة فى وقتنا الحالى لما علق عليها من الأستار المزركشة.

وعندما كان يجلس سلطان جديد على العرش كانت تغير هذه الأستار والزينات، والهدف من هذا العمل توفير هذا المكان وتقديره بتزيينه بالذهب وغيره إلا أن العلماء لم يجيزوا أن تزين الكعبة الشريفة بالزينات الظاهرة، كما أن أوائل العلماء المسلمين لم يحسروا عن الإفتاء بجواز تزيين داخل بيت الله تزييناً مبالغا فيه، ولقد أرسل أثرياء المسلمين وأغنياؤهم هدايا مصنوعة من الذهب والفضة إلا أن علماء الحرمين الأجلاء رفضوا قبولها.

والواقع أن هذه البقعة الطاهرة المليئة بالفضائل الذاتية غنية عن مثل هذه الزينات.

وبما أن اهتمام أهل الصلاح بالزينات الظاهرة مستحيل فعلى العاقل أن يهتم بما حازته الكعبة من تقدير وتبجيل عند الله سبحانه وتعالى، ولو كان تزيين الكعبة المكرمة بالذهب والفضة جائزا شرعاً لأصبحت جدران حرم المسجد الحرام وأرضه موشاة بالذهب والفضة.

وليته لم يسمح بوجود الزينات الحالية حتى يخلو حرم كعبة الله من كل ما يرمز إلى طغيان العزة الدنيوية.

وهل يأمل المسلمون إرضاء الله بتزيين الكعبة الشريفة بشىء بغيض عند الله سبحانه وتعالى؟ والأجدر بالمؤمنين اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ومادام الله

سبحانه وتعالى قد أمر بتعظيم بيت الله وتوقيره يجب أن يوجه التوقير والتعظيم لحجارة الكعبة الشريفة وترابها ورعاية جيرانها.

وهذا العرض الموجز تعريف وبيان للبيت الشريف أول بيت وضع للناس لعبادة الله سبحانه وتعالى.

(محاضرة الأوائل).

فى الطرف الغربى من جدران داخل بيت الله جذع شجرة ملون بالأبيض والأسود طوله اثنا عشر ذراعا وكذلك عرضه، وفى أعلى الجذع كمر اتساعه ثلاثة أصابع.

ويروى أن لحية سيدنا صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ قد لامست هذا الجذع.

حجر إسماعيل:

وهو اسم آخر للحطيم الكريم، ويقع فى الطرف الشمالى من الكعبة المعظمة ويمتاز بجدار على هيئة نصف الدائرة وطرفه الداخلى مغطى بالرخام.

والموضع المبارك الممتد من جدار الحطيم الشريف حتى حائط الكعبة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع منها حوالى ستة أو سبعة أذرع تعد من داخل الكعبة المعظمة والباقى كان حظيرة لماعز إسماعيل ـ عليه السلام ـ وفيما بعد أدخل فى الحجر، تمتد حدود الحطيم من الركن العراقى إلى الركن الشامى والمساحة بين هذين الركنين عشرون ذراعا.

وللحطيم بابان أحدهما عند الركن الشامى والآخر عند الركن العراقى، وارتفاع جدران الحطيم ثلاثة أذرع ومساحته من الداخل ثمان وثلاثون ذراعاً.

ميزاب الكعبة:

هو اسم الميزاب الذى يقع بين الركنين سالفى الذكر ـ أى وسط الجدار المفعم بالنور ـ الذى يلى حجر إسماعيل ويلتصق بسقف الكعبة.

حفرة المعجن:

ويسمى أيضا مقام جبريل، وهى عبارة عن الحفرة الموجودة فى جهة الركن العراقى من الجدار الشرقى للكعبة المعظمة عند مقام إبراهيم. على مسافة ثلاثة أصابع من الكعبة، وطول حفرة المعجن ثمانية أشبار وثمانية أصابع، وعرضها خمسة أذرع، وعمقها أربعة أصابع، ويروى أن سيدنا إبراهيم أعد فى هذه الحفرة الطين الذى استخدمه فى بناء الكعبة.

ويروى أنه حينما فرضت الصلاة على المسلمين صلى إمام الأنبياء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ الصلوات الخمس فى هذا المكان المبارك.

الشادروان:

ويطلق هذا الاسم على الأماكن البارزة المتصلة بأسس جدران الكعبة المعظمة وعلى هذه الأجزاء البارزة حلقات كثيرة يربطون بها أستار الكعبة الشريفة.

الستارة الشريفة:

هو اسم القماش الذى يغطى الكعبة الشريفة. وهذه الستارة منسوجة من الحرير الأسود.

وقد نقش فوقها ـ بخط جميل ـ بعض الكلمات الطيبة والآيات الكريمة. ويوجد وسط الستارة حزام معروف بحزام بيت الله وهذا كحزام يحيط بستارة الكعبة المفخمة من جوانبها الأربعة، وقد كتب عليه بخط جلى نفيس السورة الكريمة سورة الفتح كاملة.

المطاف الشريف:

وهو الموضع المبارك الذى يسير فيه حجاج الكعبة المكرمة فى أثناء الطواف.

والجهة الشرقية لهذا المطاف المبارك تمتد من سياج المقام الشريف إلى شادروان الكعبة بمقدار أربعة وأربعين قدماً(١)، والجهة الشمالية تمتد من جدار الكعبة إلى المقام

(١) القدم: وحدة قياس توازى ثُلُثَ ياردة، وهى ما بين (٣٢سم ـ ٣٥سم).

الحنفى بطول ثمان وأربعين قدماً، والجانب الغربى يمتد إلى الرصيف الذى يتصل بحدود المطاف خمسة وستين قدما، والجانب الجنوبى يمتد من زاويتى الركن اليمانى وركن الحجر الأسود إلى حدود رصيف المطاف الشريف بطول سبعة وأربعين قدما.

المقام الشريف:

هو الحجارة التى استخدمها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمثابة منصة فى أثناء قيامه برفع بناء الكعبة، وأعلى مقام إبراهيم مربع بقطر ثلث ذراع.

وروى الشيخ عز الدين وهو من مجاورى البيت فى سنة سبعمائة وخمسين هجرية أن المقام الشريف يرتفع عن الأرض واحدا وعشرين أصبعا. وقد رفع أثر القدم المبارك لسيدنا إبراهيم من فوق المقام وغطى بطبقة من الفضة. وأدخلت هذه الفضة من خلف آثار قدم خليل الرحمن بسبعة خطوط ونصف.

والمقام الشريف الذى وصفنا شكله صندوق متين بلوحات قامة رجل وجوانبه الأربعة ذات شبكة حديدية. وهذا الصندوق مكسو بلوحات من الفضة ومغطى بقماش لامع موشى غاية فى الجمال، وقد شيدت قبة من الخشب فوق صندوق مقام إبراهيم وزينت هذه القبة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة، وزيد على واجهتها الشرقية سقف يؤدى تحته الحجاج ركعتين بعد الطواف، وهى صلاة واجبة، وإذا لم يجد الطائفون مكانا تحته لإقامة الصلاة فإنهم يؤدونها داخل الحطيم، وعرض هذا السقف خمسة أذرع وثمانية أصابع يمتد من المقام الشريف إلى شادروان الكعبة بطول عشرين ذراعا ونصف ذراع.

فقد المقام الشريف منذ طوفان نوح إلى عهد «إلياس بن مضر». وبعد أن عثر عليه إلياس بن مضر عرضه على أهل الحجاز الذين أخذوا فى توقيره وتعظيمه وبالتالى حذا أهل الإيمان حذوهم فى التكريم والتعظيم.

(محاضرة الأوائل).

المنبر اللطيف:

يقع فى الجهة الشمالية للمقام الشريف عند الطرف الجنوبى لبئر زمزم وبين مقام إبراهيم والمنبر تسعة أذرع، وبين زمزم والمنبر اللطيف عشرون ذراعا والمسافة من مقام إبراهيم إلى الحجر الأسود سبعة وعشرون ذراعا، وعمق بئر زمزم الشريف بدءاً من حافته يبلغ سبعة وستين ذراعا.

المقامات الأربعة:

فى الجهات الأربعة من كعبة الله أربع مقامات لأئمة المذاهب الأربعة واجبة الاحترام حيث يؤم إمام المذهب جماعته فى أوقات الصلوات الخمسة.

المقام الحنفى: يقع هذا المقام فى شمال بيت الله أمام ميزاب الرحمة، ويستقبل أهل المدينة المنورة والشام والقدس الشريف هذه الناحية من الكعبة عند الصلاة كذلك سكان بلاد المسلمين الواقعة فى ناحيتها.

المقام الشافعى: ويقع فى مواجهة الكعبة فى الجهة الشرقية من بيت الله، خلف مقام إبراهيم الشريف، وهذه الجهة من الكعبة هى قبلة أهالى ما وراء النهرين والصين وأكثر بلاد خراسان.

المقام الحنبلى: ويقع فى الجنوب من الكعبة مع ميل قليل فى اتجاه الشرق، وهو قبلة سكان بلاد الهند، وكان المقام الحنبلى قريبا جدا من بناء بئر زمزم ويكاد يتصل به، لكن هذا الموقع قد تغيَّرَ فى عهد السلطان المعظم بهمة عثمان باشا والى الحجاز المشهود له بالخدمات الجليلة التى قام بها لتعمير البلاد المباركة وأصبح ـ الآن ـ فاصل معقول بين المقام المذكور وأبنية بئر زمزم إذ جعل المقام الحنبلى فى مواجهة المقام الحنفى. وذلك فى سنة ١٢٩٧.

المقام المالكى: ويقع فى الجانب الغربى من الكعبة خلف بيت الله، وهذه الجهة قبلة مسلمى بلاد المغرب وبلاد الحبشة. وكل المقامات الأربعة المذكورة تقع خارج حدود المطاف.

لم يكن هناك مكان خاص بالمؤذنين وكانوا كلهم يؤدون مهامهم فى المحفل الشافعى الموجود فوق بئر زمزم، والمحفل الواقع فوق المقام الحنفى، وكان المؤذنون حتى عصر هارون الرشيد يجلسون فوق سطح المسجد تحت وهج الشمس، وعندما صدر الأمر إلى عبد الله بن محمد بن عمر أمير مكة ـ المشار إليه ـ بضرورة إيجاد محفل خاص بالمؤذنين، استراح المؤذنون بإنشاء محفل خاص بهم فى ذلك العهد، وبعد ذلك تقرر أن يؤدى المؤذنون مهام وظيفتهم في المحافل السالفة التعريف. (محاضرة الأوائل).

قبة الفراشيين:

وتقع قرب بئر زمزم وتسمى أيضاً قبلة الخزانة، وتوضع فى هذه الخزانة الأشياء اللازمة والقناديل والسُّرُج والمسابح الموقوفة ويحفظ كذلك بداخل القبة المذكورة كل ما يحتاجه المسجد.

قبة السقاية:

وهذه أيضاً تقع قريبا من قبة الخزانة وتسمى أيضا سقاية الحج، وقد تأسست سقاية الحج على يد العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ واعتاد أن يقدم ماء زمزم إلى الحجاج ويسقيهم. وتحيط القباب بكل جوانب الكعبة ولها تسعة عشر بابا وسبع مآذن، المسافة من باب السلام إلى باب العمرة أربعمائة ذراع، وعرضها من باب الصفا إلى باب الندوة ستون وثلاثمائة ذراع.

مسألة:

إذا كانت قبلة المسلمين الموحدين لدى أئمة الشافعية هى مبانى الكعبة المعظمة التى سبق تعريفها. فإنها عند علماء الحنفية تبدأ من الأرض التى أقيمت عليها مبانى الكعبة الشريفة وترتفع فى الهواء إلى عنان السماء.

***

التعريف بالأحوال الجغرافية للبلدة المعظمة مكة المكرمة
وأحوال الأوائل ووضع المبانى الفخمة للبيت المعظم شكلا وصورة

من البلاد التى تحكمها الدولة العَلِيَّة فى قارة آسيا الجزيرة العربية وتنقسم إلى قسمين: الرقعة الحجازية والرقعة اليمانية.

ومنطقة الحجاز كبيرة متسعة وتشمل ربع جزيرة العرب، وقد عرفناها فى موضوع الحجاز الوارد فى الصورة الثانية من الوجهة الثالثة من المجلد الثالث من مرآة الجزيرة وتقع فى الشمال والشمال الغربى من جزيرة العرب وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر الممتد من السويس إلى اليمن.

يحدها شرقا بلاد نجد وصحراء الأحفال وغربا البحر الأحمر، وجنوبا الرقعة اليمانية وشمالا الفرات وبادية الشام وسوريا العرب، وتحيط بها جبال وأودية.

ولأن هذه المنطقة السعيدة تحجز بين تهامة ونجد وتفصل بين المنطقتين؛ لهذا سميت الحجاز، ومنطقة الحجاز المباركة تغلب عليها الصحارى الفيافى[1].

ولا تسقط فيها الأمطار بالدرجة المطلوبة ولذا فإن نباتاتها الأرضية من العشب الجاف تكاد لا تكفى حاجات قبائل البدو وحاجات دوابهم.

ومع هذا ففى جبالها ووديانها، حيث المياه الجارية والآبار، والينابيع الوفيرة تنبت الأشجار المثمرة والمحاصيل النافعة المتنوعة، وبما أن الهواء فى مناطق الوديان والصحارى شديد الحرارة فإن القادمين من المناطق الباردة يتضررون من هذه الحرارة ولذا فإن السكنى فى المناطق الجبلية المرتفعة حيث الجو المعتدل يبدو

(١) الفيافى: الصحراء الواسعة المستوية. واحدتها: الفَيْفَاءُ.

أصلح لهم، ورغم هطول الأمطار بغزارة فى فصل الشتاء فإنها لا تؤثر فى تغير طقس أى من المناطق باستثناء بلدة الطائف.

والمعروف أنه مع نزول المطر تنمو كل أنواع الحبوب لكن رياح السموم دائمة الهبوب تدمر وتحرق كل النباتات والثمار ما عدا الحمص والعدس والأشجار التى تقل حاجتها إلى الماء لذا فليس من الممكن أن تنمو الخضراوات والحبوب فى أى مكان سوى الأودية والجبال القابلة للزراعة.

ومناطق الشمال الغربى والجنوب مناطق خصبة بالنسبة لبقية مناطق الجزيرة. لذا فإن هواءها طيب وأراضيها صالحة للزراعة، وتزدان الجبال والمرتفعات بكثير من البساتين والحدائق الجميلة.

وفى مثل هذه المناطق تنمو نباتات كثيرة مثل السفرجل، التفاح، الخوخ، الصفصاف، الليمون، والتين، النارنج، واللوز، التمر الهندى، الطرفاء، الفستق، والنخيل، الورد، والياسمين، النرجس، الحناء، الزنجبيل، شقائق النعمان، والتيلو، القمح، الشعير، جذور الدهان الأحمر، البن، الدخان، الفلفل الأسود، الباذنجان، نبات النيلة، نبات القنب، ونباتات أخرى شبيهة لما ذكرناها.

البلدة المعظمة مكة المكرمة

البيت السامى المنير الذى ولد فيها سيد الثقلين الإنس والجن عليه الصلاة والسلام، وعاش فيها نخبة من كبار العلماء ذوى البيان الذين أضاءوا الكون بعلمهم بين فخر الكائنات عليه أتم التسليمات، مكة المكرمة التى شرفها الله تعالى إلى يوم الدين. وتقع هذه المدينة الشهيرة فى داخل إقليم الحجاز السعيد ذى المغفرة الذى عرفناه منذ قليل ومعظمه فى داخل الجزيرة العربية ومكة المكرمة مقر إدارة الحجاز وعاصمته.

وموقعها وسط منطقتى الشام واليمامة؛ لذا يبعد كل من البلدين عن مكة المعظمة مسافة ثلاثين ـ المقصود بها ٣٠ منزلاً للراحة أثناء السفر ـ والطرف

الشمالى للبلدة المباركة مكة المكرمة تحده جبال يثرب والمدينة المنورة وصحارى الشام، والطرف الجنوبى تحده جبال اليمن، والطرف الشرقى تحده وديان البحرين والبصرة ونجد والحجاز، والطرف الغربى يحده البحر الأحمر وتبعد مكة المعظمة عن مدينة إستانبول عاصمة الدولة العثمانية ـ باعتبار مبدأ الطول ـ ٣٠ دقيقة ١٥ درجة طول شرقا، وتبعد عن ميناء جدة الواقع فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر المعروف باسم «بحر الشب» مسافة ثلاثين ميلا أى ٦٧٦٧٤ ذراعا فى جهة هبوب الرياح الجنوبية بإحدى عشرة درجة «بحساب البوصلة».

وتنقسم النواحى الملحقة بمكة المعظمة إلى قسمين هما: نجد وتهامة.

والنواحى التابعة لنجد هى: «الطائف، تمنار، قرن، نجران، مر الظهران، عكاظ، منجرة، كنبة جرش، سراة، أما النواحى التابعة لتهامة فهى نعم، عك، خنكان، ويشى، وادى نخلة، ذات عرق، يليل.

وكل ناحية من هذه النواحى تقع فى واد مستقل، ولها مصادر مياهها المعروفة ومزارعها الوفيرة. وقد تجاوز سكانها ثمانين ألف لعدة قرون، ثم تضاءل عددهم بالتدريج ولكن فى الوقت الحاضر تجاوز عددهم كل العصور السابقة، وذلك بضم سكان البادية وسكان البلاد الساحلية إليها والبلاد الساحلية هى جدة، حلى سوسين، هجم، ثرجة، أبيات حسنين.

وقد أجرى رائف أفندى دراسات كاملة فى هذا الشأن حينما كان موظفًا فى ديوان الصحة ما يقرب من ثمانى سنوات أو عشر فى مكة والمدينة، وأمضى وقته فى دراسة أحوال البدو، وقام بالإحصاء الدقيق وأخبر أن عدد سكان مكة المعظمة من الأشراف والأهالى، والمجاورين يصل تقريبا إلى سبعين ألفا. ولما كانت الأمطار لا تسقط بوفرة سواء فى مكة المكرمة أو فيما يجاورها كما يحدث فى الروملى والأناضول لعدم وجود المياه الجارية أصبح سكان هذه البلدة المباركة مضطرين إلى السفر لجلب المؤن الغذائية والبضائع من البلاد الأخرى، وكان من

عاداتهم إرسال القوافل فى فصل الشتاء إلى نواحى اليمن وفى فصل الصيف إلى الشام لاستيراد البضائع اللازمة من تلك المناطق.

وقد أثبتت السورة الجليلة «سورة قريش» ذهاب أهل قريش فى الجاهلية إلى اليمن مع حلول الشتاء وإلى الشام مع دخول فصل الصيف. وقد أسهب المفسرون العظام فى عرض تفاصيل تتعلق بهذا البحث فى تفسيرهم للسورة الكريمة.

واستمر تردد القرشيين على الشام واليمن بغية جلب البضائع حتى عصر النبوة، وبعد ذلك أخذ الحجاج المسلمون يترددون أفواجا على مكة والمدينة لأداء فريضة الحج ومناسك العمرة، واشتغل أهالى مكة بأعمال الدلالة والإرشاد وسقاية ماء زمزم الشريف وسائر الخدمات التى تقدم للحجيج والعيش عليها مهما كان مقدار ما تدره من نقود. لذلك لم تعد لهم حاجة إلى التردد إلى تلك المناطق.

وغالبية أهالى مكة المفخمة من حضرموت، واليمن والهند والسند والشام ومصر وبلاد المغرب وبلاد الروم وكردستان ومجاورى سائر البلاد على وجه الأرض؛ أى أن كل سكان مكة المعظمة ماعدا الأشراف الكرام من أبناء بنى زبير وأحفاد بنى مخزوم وأولاد بنى شيبة ممن دخلوا الإسلام الذين جاءوا من خارج الحجاز واستقروا بها؛ لذا أصبح أهل مكة الأصليين قلة نادرة.

وولاية الحجاز الجليلة ولاية كبيرة مثل سائر الولايات السلطانية وقد أسندت الإمارة ـ للأشراف من أجل الإشراف على العربان والآخرين ـ لشخصية جليلة القدر وقدرة عالية على القيام بالنظارة، كما أسندت إدارة الأمور المدنية والمسائل المالية وأشياء أخرى تتعلق بالإدارة إلى شخص حكيم هو من المختارين من المشيرين العظام. واتخذت مدينة مكة المفخمة مقرًا للإمارة ومركزا للحكومة.

إن الموقع السعيد للبلدة المباركة ـ مكة المكرمة ـ عبارة عن واد مقوس ومقدس

تمتد بالطول بين سلسلة جبال تتكون من أحجار سوداء. يشمل هذا الوادى السعيد الذى تقع فيه هذه المدينة المقدسة على مبتدأ واحد ونهايتين: بدايته مقبرة المعلى ونهايته من ناحية جدة الشيخ محمود ونهايته من ناحية اليمن «مسجد حمزة» وهذه المواقع السامية تزين الخريطة بهذه الأسماء.

ومدينة مكة الشهيرة تتكون من أحياء: حارة الباب، الشبيكة، جياد، المسفلة، المدعا، المعلى، شعب على، مولد النبى، الكشاشية، المسعى، الشامية جبل قبيس، جبل عمر والسليمانية. وأنشئت بيوت هذه الأحياء ومنازلها وفقًا لانحراف الوادى الوعر.

وبسبب استحالة السير بالحيوانات ونقل الأثقال والأحمال بالإبل والدواب بداخل هذه الأحياء حيث اصطفت بعضها فوق بعض حتى منتصف هذه الجبال الواقعة فى كلا جانبى الوادى، فإنه يتم إدخال المؤن والبضائع الواردة إليها من الخارج من شوارع أحياء «المعلا» والشبيكة والمسفلة.

والمكان المزين بالحوانيت والبيوت فى الوادى السالف الذكر يمتد بطول المدينة من باب «المعلا» إلى باب «مغازة»، وكذلك يمتد من ناحية المعلا إلى «الشبيكة» ومنها إلى «الشيخ محمود» حتى السويقة بمسافة تبلغ ٦١٩٣ قدم وثمانى بوصات أى ما يعادل ٤٣٧٢ ذراع، وعرضه يمتد من سفح جبل «جزل» حتى منتصف جبل أبى قبيس بمقدار ٣٠٩٦ قدم وأربع بوصات أى ما يعادل مسافة ٣١٨٦ ذراع. أى أن مساحته طولا من ناحية الشمال إلى الجنوب تبلغ ميلين، ومساحته عرضا تمتد من سفح جبل «أبو قبيس» الواقع فى الجهة الشرقية من المدينة إلى جبل «جزل» الواقع فى الجهة الغربية من المدينة ومساحته السطحية قدر ميل واحد.

وطرق الأحياء المذكورة ليست على ما يرام من ناحية الاتساع والعظم، ورغم هذا فإن مبانيها المبنية بالحجر والطوب غاية فى الرصانة ويطلق اسم «الأخشبين» على جبال جزل وأبى قبيس والجبل الأحمر. وجبل أبى قبيس هو الجبل الكائن

فوق جبل الفا، حيث أن الجبال المذكورة غير منفصلة بل هى سلسلة من الجبال يتصل كل منها بالآخر.

وبالنظر إلى تعريف الأزرقى فإنه يلزم أن يكون اسم الجبل المقابل لجبل «أبى قبيس» قعيقعان ولما انتهى إليه تدقيق صاحب معجم البلدان وتحقيقه أنه يقتضى العثور على اسم جبل يظهر من قمته مسافة المسجد الحرام جليا.

وعلى هذا التقدير فإن الاسم الأصلى لجبل «جزل» قعيقعان، ولما كان أقرب من ناحية الغرب من طائفة «جزل» التى تنصب خيامها فوق الجبل المذكور عند ترددهم إليه من حين إلى آخر وتقيم به فترة للاستراحة أطلق عليه اسم «جبل جزل».

والبقعة المشرفة للكعبة المكرمة قصر عزة الملك العلام، وقبلة قبائل الإسلام تقع وسط المدينة المقدسة التى أسهبنا فى تعريفها، كما تتوسط المسجد الحرام دائرة الفيوضات الإلهية، وتحيط بالموضع المقدس وتحده مجموعة من البيوت والمنازل العالية الرصينة الأركان وسلسلة الجبال سالفة البيان.

إن البيت المعظم قد بناه الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما ـ صلوات الله الجليل ـ صدعا بالأمر الإلهى المشرف فى البقعة التى لا مثيل لها ولا نظير، حسبما سنوضح ونعرف به فى الصورة الخامسة من الوجهة الثانية، ويقال إن بناءها تم فى المحاولة الأولى وعلى قول فى المحاولة الرابعة. وبعد أن انتهى من بنائه دعوا جميع الخلق إلى الطواف حوله وزيارته.

إن أغلب العرب المنتسبين إلى السلالة التى ينتهى إليها نسب إسماعيل ـ عليه السلام ـ عكفوا على أداء فريضة الحج كل عام بعد وفاة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ووالده خليل الرب الجليل، وبذلوا جهدهم لأداء الفرائض الأخرى، ورأوا أن أداء مثل هذه الأمور الشرعية والواجبات الدينية فرض عليهم.

واستمرت هذه الحمية الدينية عند العرب إلى أن انتقلت إدارة مكة إلى بنى خزاعة، حيث إن عمرو بن عامر الخزاعى (فصلت سيرته فى الوضع الخاص به) قام قبل البعثة النبوية بخمسمائة عام بانتزاع حكم مكة المكرمة من يد أجداد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذوى النسب العريق، بمساعدة قومه، ودفع العرب لعبادة الأصنام وبهذا أصبح جميع سكان مكة المكرمة ومن بجوارها من عبدة الأوثان.

وبعد ظهور عمرو بن عامر بثلاثمائة سنة وقبل الهجرة النبوية بمائتى سنة دارت الحرب بين قصى بن كلاب «أحد أجداد النبى» لإمالة العرب إلى قبول دين إبراهيم الحنيف وبين بنى خزاعة وكان النصر حليفه، وأخرج كل بنى خزاعة من مكة، غير أن عبادة الأصنام تلك العادة الباطلة كانت قد تمكنت من قلوبهم، فاستمرت بينهم حتى عصر النبوة والهداية عصر سيد البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسبب-شكل العبادة المشئومة التى جلبها عمرو بن عامر قامت قريش وقد اعتنقت عبادة الأوثان بإدخال الأصنام إلى المسجد الحرام حينما سمح الزمان به، وصنعت ثلاثمائة وست وستين صنما مجسما من الحجر والشجر ووضعتها داخل الكعبة المعظمة التى تمثل قطعة من الجنة.

وظلت هذه الأصنام داخل البقعة المقدسة «الكعبة المشرفة» إلى أن تم فتح مكة على يد سيد الأنبياء الذى كانت بعثته ورسالته رحمة خالصة.

أديان العرب فى الجاهلية

كان للعرب فى جاهليتهم عدة أديان مثل المسيحية، اليهودية، المجوسية، والزندقة، فكانت قبائل ربيعة بن غسان وبعض آل قضاعة على دين المسيحية، وأهل حمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وأهل كندة على اليهودية، وبنو تميم على المجوسية، وكانت قريش على الزندقة.

ومن المخذولين الذين اعتنقوا المجوسية آنذاك زرارة بن عدس وابنه حاجب

بن زرارة، وبدافع من هذه المجوسية تزوج زرارة من ابنته التى من صلبه، ثم ندم بعد ذلك وخجل من فعلته وطلقها.

وكان الأقرع بن حابس وأبو سود من المجوس وأبو سود هذا جد وكيع بن حسان. وقد صنع بنو حنيفة من قريش إلهًا لهم من طعام اسمه (حبس) وظلوا يعبدونه لمدة طويلة، وعندما حدثت المجاعة والقحط قاموا بتقسيمه ثم أكلوه. وقد سجل أحد شعراء بنى تميم هذه الواقعة فى بيت من الشعر قال فيه:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن عوز

وقال آخر:

أكلت حنيفة ربها زمن التفحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والنياعة[1]

ورغم أن هذه الواقعة حدثت قبل البعثة النبوية الجليلة فقد كان هناك من يسعى فى طلب الدين الحق ومن جملة هؤلاء: أرباب بن رئاب، وكان يعتنق المسيحية دين عيسى عليه السلام، وابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ أى ورقة بن نوفل ـ الذى انصرف عن عبادة الأوثان واعتنق المسيحية التى لم تكن قد تبدلت تماما، وذلك للوصول إلى الدين الحق، كذلك زيد بن عمرو بن نفيل أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، والذى استشهد فى رحلته إلى الشام طلبا للدين الحق. كذلك أمية بن أبى الصلت الذى تظاهر فى بادئ الأمر بطلب الدين الحق لكنه فيما بعد، اختار الكفر حسدا للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على نبوته. فإذا ما جئنا إلى أسعد بن أبى كرب الحميرى فقد أسلم قبل البعثة النبوية بسبعمائة عام. كذلك كان كلاً من قس بن ساعدة الإيادى و«أبو قيس» صرمة بن أبى أنس أيضا من المسلمين فى الجاهلية. وكان قس بن ساعدة من مشاهير حكماء العرب واعتاد أن يخطب فى الناس من فوق ظهر الجمل فى سوق عكاظ. وقد أدرك أبو قيس الإسلام وأسلم.

(١) النياعة: العطش.

وقد عرفت الخطابة من فوق ظهور الحيوانات فى بادئ الأمر مع قس بن ساعدة «كتاب المعارف».

لقد امتد العمر طويلا بقس بن ساعدة المشهود له بالفصاحة وقد أنبأ وبشر بمجيء الرسول خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام قبل البعثة.

وقد حضر الرسول فخر العالم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات مرة إحدى خطب قس بن ساعدة قبل بعثته فى سوق عكاظ بدون علم منه، هذه الخطبة التى نالت شهرة واسعة بين بلغاء العرب. وحفظها ورددها كل الكبار والصغار فى ذلك العصر.

فى ذلك اليوم اعتلى «قس بن ساعدة» ظهر جمله الأحمر وقال خطبته التالية أيها الناس: اسمعوا واعوا:

من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، المطر يسقط، والعشب ينبت، والأطفال يولدون ويقومون مقام الأمهات والآباء وبعد ذلك كل هذا يفنى، وتتابع الأحداث، ويتبع الواحد الآخر، أنصتوا وانتبهوا ففى السماء خبر، وفى الأرض عبر، وجه الأرض فرش إيوان ووجه السماء سقف عال، النجوم تتحرك والبحار تقف، القادم لا يبقى والذاهب لا يأتى، هل يا ترى يبقون حيث يذهبون معجبين به أم يحجزون هناك ويغشاهم يوم طويل! إننى أقسم أن عند الله دين أحب من دينكم الذى أنتم عليه، وهناك رسول سيأتى أوشك زمان ظهوره.

وقد أظلكم زمانه، فما أسعد من يؤمن به ويهتدى وما أشقى من يعصيه ويخالفه، زمانه يا للأسى على الأمم التى قضت عمرها فى الغفلة.

يا قوم إياد.. أين آباؤكم وأجدادكم؟ بالله أين قصوركم المزينة؟ أين عاد وثمود الذين نحتوا بيوتا من الحجارة؟ وأين فرعون؟ أين النمرود الذى غرته الدنيا وقال لقومه إنى أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم ثروة وقوة وقدرة؟ ألم يكونوا أكثر منكم عددا؟ لقد طوتهم هذه الأرض فى دورانها، فأصبحوا ترابا تَذْرُوهُ الرياح، وبليت عظامهم وصارت رمادا وتهدمت بيوتهم فأصبحت خاوية

الكلاب تعوى فى أراضيهم وبلادهم. احذروا من الغفلة ولا تكونوا مثلهم، ولا تسلكوا طريقهم، كل شىء فان ولن يبقى إلا الحق الواحد الذى لا شريك له ولا نظير هو وحده المعبود، لم يلد ولم يولد، وما أكثر الأحداث الجارية لنا فيها عبرة. نهر الموت مداخله كثيرة، لكن ليس له مخرج، الكل سيمضى الكبير والصغير الذاهب لا يعود وأوقن أن ما يجرى لعامة الناس سيصيبنى أيضا.

«قصص الأنبياء ـ لجوتب باش»

استمرت عادات العرب الباطلة فى الجاهلية إلى ما بعد الإسلام ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلطان عرش الدين المبين قام ـ مؤيدا بالوحى الإلهى ـ بتمزيق العقائد الباطلة والقضاء عليها وعلى العبادات البدوية الفاسدة. وأبقى على بعض أحكام دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيف التى توافق فطرة الإنسان وتعاليم الإسلام الجليلة، وأيدها وجعلها من أحكام الشريعة الإسلامية.

ومن الأحكام الشرعية التى أخذت من إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما ينص عليه القول الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧).

الذى يدعو إلى الأخوة الإسلامية التى تتحقق باتحاد الأمة المحمدية والذى يدعو إلى وحدة المسلمين حتى تتحقق للأمة الإسلامية قوة الشوكة، وهكذا فرض الحج ليجتمع المسلمون متحابين فى الأرض الطاهرة المباركة «مكة المكرمة» حيث يطلعون على الأسرار الخفية الحقيقية للدعوة، ويجتمعون فى عرفات فى يوم أخضر قدسى لتزداد الأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية، وهكذا انتشرت أنوار الجماعة الإسلامية التى تحمى المدينة الطاهرة.

وإنه لمن المسلم به لدى ذوى التجارب وأهل البصيرة من الملل الأخرى أن الاتحاد الدينى يؤدى إلى التقدم المدنيَّة والقوة. وإننا نشكر الله مع أمتنا أنه شرفنا بالإسلام الذي كان مبعث سعادتنا وسلامتنا ومبعث قوة حضارتنا وشوكتها فى الدنيا والآخرة.

أسماء مكة الله السامية

عدد الأسماء ذات الدلالة الباهرة التى أطلقت على مدينة مكة المعظمة فى الكتب المقدسة كثيرة وهى: «مكة، بكة، بلد، قرية، أم القرى، بلدة، البلد الأمين، صلاح، باس، البساسة، ناسة، النساسة، حاطمة، رأس، كوثى، أم عرش، عريش، عرش، قادس، القادسية، سبوحة، حرام، البلد الحرام، المسجد الحرام، معطشة، برة، رتاج، رحم، أم، أم رحم، أم الرحمة، أم كوثى، أمينة، أم الصفا، مروية، أم المشاعر، متحفة، البلدة المرزوقة، تهامة، الحجاز، طيبة، مدينة الرب، عاقر، فاران» وعددها خمسة وأربعون اسما جليلا. ولها ثمانية ألقاب جليلة مثل «المشرفة، المكرمة، المفخمة، المهابة، الوالدة، النادرة، الجامعة، المباركة».

ولا يجوز الدخول بلا إحرام داخل حدود مكة الميمونة التى وضحناها فى المقالة الرابعة.

منظومة

تذكر الأخبار خمسة وأربعين اسما للكعبة
ألا فاحفظها لتنير قلبك بها
بلد، أم رحم، أم القرى، مكة، بكة
صلاح، قرية، باسم، رأس، ناسة،
بلدة الستار
حجاز، قادسية، قادسى، طيبة، متحفة
تهامة، مروية،
أم المشاعر أم عرش،
عرش، عريش، حاطمة، أم الصفا، كوثى
رتاج، البساسة، نساسة، سبوحة،

بـــــرة مقـدســـــــــــــة،

حـرام، أم رحمـة، البلـد الحـــــرام،

مـدينـــــة الـــــــــــــرب،

أم كوثـى، معطشـة، مـرزوقـــــــة

باسة، رحم وكذلك المسجد الحرام، أمينـة،

عـــاقـــــر فـــــــــــــاران

فـإن حسبتها يـا طالـب الأخبـار ألفيتهـــا

خمســـــــا وأربعـــــــــين.

سبب إطلاق هذه الأسماء على الكعبة

اسم مكة المكرمة يطلق على هذه المدينة المقدسة فقط أو مجموع الحرم الشريف أى المناطق الواقعة داخل المواقيت المحدودة، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب متعددة:

على قول أنه مأخوذ من معنى «النفض» وكأنها تنفض أى تفنى جميع الآثام.

وعلى رأى آخر أنها تنفض الظلم وتهلك أهل الجور.

وعلى رأى ثالث أن الأرض المقدسة قليلة المياه وسكانها كأنهم يمتصون المياه من أرضها بأفواههم، أو أنه مأخوذ من معنى «المص» والرشف، وكأنها تمتص الناس كل سنة من جميع الجهات وتجذبهم إليها، أو أنها تمحو وتدفع عصيان العصاة. أو أنه مأخوذ من لفظ «مكاكة» التى تعنى النخاع والمخ فى وسط العظام، وكأن كعبة الله فى وسط الدنيا وخلاصتها.

وعلى قول، إن الأرض المباركة بيت الله تمتص ذنوب العصاة وأوزارهم وتخرجها ثم تمحوها، وكأنها تمتص النخاع من العظام. وكانت هذه البقعة

مشهورة بقداستها حتى قبل الإسلام وإبان مجد الإمبراطورية الرومانية وكانت تذكر باسم «مقربة» وتعرف به.

رواية:

خلق تراب بيت العزة العاطر قبل خلقة وجه الأرض وأن الكرة الأرضية قد بسطت من ذيل بقعة الكعبة المعظمة وخلقت.

نظم:

أكثر من أهل الدنيا وفى كثير لا خباب * لها الحصين المستحكم من الأبواب
ويمر عام ثم أعوام لا يحدها إحصاء * ومن مادتها تنبسط الغبراء
أول بناء أقيم من بعده * إنما كان على أساس له
يطوف حولها من يطوفون * وهم الأقمار يشبهون
حينما خلقت مكة على وجه الغبراء * ما كان إلا الجبل والصحراء
وكان لمكة على الماء قرار * وما كان للدنيا إلا الخراب أثار
وبها الأرض اتسعت * أصبحت وكأنها مجلس أنس
ولما الأرض بسطا جعلت * دارت الأفلاك من بعد ودارت
صبحت وكأنها مجلس أنس * دارت الأفلاك من بعد ودارت

(فتوح الحرمين لجامى)»

حسب رواية ابن عباس، أن العرش الرفيع المقام كان فوق بحر كبير اسمه «صاد» وفى أثناء رفعه إلى أعلى تموج البحر وثارت زبدة وخلقت أرض مكة المباركة من هذا الزبد، وخلق وجه السماء من بخاره. وبعد هذا أخذت الأرض تنسحب من أسفل أرض الكعبة المعظمة واتسعت قدر ما أمرت به.

وكان موضع البيت المعظم آنذاك فوق مكان يرتفع قليلا ذى تربة حمراء تزوره

الملائكة، وقد قبلت توبة سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ بعد زيارته هذه الأرض الطاهرة. وبنى البيت المعمور فوق ذلك الموضع الملئ بالأنوار المرتفع لكى يزول الخوف ورهبة الفراق من نفس آدم ـ عليه السلام.

بكة:

وهناك اختلاف حول هذا الاسم، وعند البعض أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد ومترادفان، وبما أن حرفى الباء والميم متقاربان من ناحية النطق والمخرج الصوتى كان البعض يحل كلا منهما مكان الآخر، ويدعون أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد مع أن «بكة» فى نظر البعض هو اسم المدينة المقدسة «مكة المكرمة» وعند البعض الآخر أنه اسم البقعة الجليلة الكعبة المشرفة فقط.

والقول الصحيح أن مكة هو اسم الأماكن المباركة داخل حدود الحرم خارج المسجد الحرام. وبكة هو اسم البقعة التى عليها بيت الله وحرم المسجد الحرام المبارك. وحسب قول ابن عباس أن سبب إطلاق اسم مكة أنها كانت تذل الملاعنة والجبابرة الذين يعادونها.

بلد:

يقول اللغويون إن لفظ بلد يعنى صدر البلاد وإن لفظ بلد يطلق على مكة المكرمة، لأن كل البلاد والممالك مخلوقة من تراب مكة المعظمة، وبما أن الآية الجليلة ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (سورة البلد: ١) تؤكد التسمية، فمن المحقق أن لفظ البلد اسم مكة المكرمة.

قرية:

سبب تسميتها بهذا كونها مكان اجتماع الجموع الغفيرة.

أم القرى:

وسميت بهذا الاسم لكونها أقدم بقعة على وجه البسيطة. وقول الشاعر:

أقدم مكان الحرم الأكبر ** جعل الله لقبه أم القرى

يؤكد أن أقدم الأراضى هى هذه البقعة المباركة. وإن كان هذا دليلا لا يَتَسَرَّبُ إليه الشك وسندا كافيا لتصديق تسميتها بـ «أم القرى»، إلا أن كون مكة المكرمة قبلة الجميع وامتيازها على بلاد الأرض كلها بالفخامة والعظمة ولاحتوائها على الكعبة الشريفة، وخلو الأرض من تراب بقعة الله المباركة يجعلها جديرة بإطلاق هذا الاسم عليها وتبعا لهذا التوضيح لابد وأن يكون أم القرى هو اسم الأرض المقدسة التى تقع ضمن مواقيتها.

قال عبد الله بن عباس، وهو أعلم الناس «أنه أطلق اسم أم القرى على مكة، لأنها أعظم بلاد الأرض شأنا وكرامة، ولأن الأرض قد بسطت من التراب الذى تحتها». أما ابن عادل فقد وضح الموضوع فى تفسيره قائلا: إن موضع الكعبة المعظمة كان غثاء قبل أن يخلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض والسموات، وعندما بدأ خلق مكوناتها خلق الأرض وبسطها من تحت الكعبة قبل أن يخلق السماء وهذا هو سبب تسميتها «بأم القرى» لأنها هى الأصل.

البلد:

البلد الأمين من الأسماء الشريفة للكعبة التى ذكرت فى القرآن الكريم، وسبب تسميتها بهذا الاسم مجهول وعلمه عند الله.

أم رحم:

ومعناها عند الإمام مجاهد: (أم بمعنى أصل ورحم بمعنى الرحمة) ولأن مكة المشرفة هى أصل الرحمة وموضع حب كل الموحدين الذين يحرصون على تسميتها بهذا الاسم.

باسة:

وسميت بهذا الاسم لكونها تفتت الذنوب وتجعلها هباء وتسمى أيضا «الساسة».

صلاح:

لكونها موضع الصلاح والفلاح.

ناسة:

أطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت فى الجاهلية قليلة المياه لدرجة انعدام الرطوبة بها. وكان الملاحدة الذين يظلمون ويسرقون بداخلها يطردون خارج حدودها وينفون منها، وتسمى أيضا «نساسة».

حاطمة:

لأن ذنوب الحجاج وأوزارهم تحطم فيها وتكسر كما تحطم الملاحدة الذين يكفرون بالدين المبين.

رأس:

وذلك لأنها تشبه رأس الإنسان من حيث الشرف، ويزعم العلماء أنها تتوسط الدنيا، أو أن سماءها خلقت قبل سائر البلاد لذا سميت بهذا الاسم.

والواقع أن رأس الإنسان أشرف من جميع الجسم كما أن هذا العضو عجيب الخلقة يعد أفضل من سائر أجزاء الجسم الإنسانى، كذلك تعد مكة المعظمة أشرف البقاع على وجه الأرض، وتشبه رأس الإنسان لوقوعها فى وسط الدنيا.

كوثى:

على وزن طوبى، وكوثى هو اسم حى بنى عبد الدار فى مدينة «مكة المعظمة» لأنهم توارثوا حجابة البيت لفترة طويلة لهذا السبب أطلق عليها اسم «كوثى».

عرش وعريش وعُرش:

وهى أسماء مترادفة، وسبب إطلاق هذا الاسم أن بيوت مكة فيما مضى كانت تصنع من مجموعة من غصون الأشجار ومن أشياء مثل أعواد القصب، وكانت عبارة عن منازل ذات أسقف دون جدران.

وتسمى المظلة على الإطلاق باسم عرش، أما العريش فهى البيوت الصغيرة التى تبنى على هيئة المظلة. كما أن عرش جمع كلمة عريش ولدى البعض أن

عرش هو اسم الأحياء الموجودة فى أطراف مكة المعظمة والعرش والعريش يطلق على البيوت القديمة والعرش أيضا اسم كل بيت قديم.

قادس، قادسية:

سميت بذلك لوجودها فى الأرض المقدسة.

سبوحة:

وهو اسم أرض منخفضة قريبة من جبل الرحمة «جبل عرفات» وسميت بهذا الاسم لأن وقفة عرفات هى من أعظم مناسك الحج.

حرام:

البلد الحرام والمسجد الحرام ـ من الأسماء المذكورة فى القرآن الكريم وسميت بهذا لحرمة أراضى الكعبة المقدسة.

معطشة:

وذلك لأن الكعبة تقع فى مكان قليل الماء.

برة:

لكونها بلد الأبرار.

رتاج:

بمعنى الباب العظيم وسميت بهذا الاسم لأن باب المعلى مدخل البيت الأكرم وله علاقة بلقب مكة المعظمة.

أم:

بمعنى الأصل، وسبب التسمية أن قدر ومكان الكعبة المعظمة وشرفها يفوق كل البلاد والقرى، أو أنها قبلة كل الأمم ومقصدها، أو أن الموقع الأنور لبيت الله العزيز يقع ـ على ما زعم ـ فى النقطة المفخمة فى وسط الكرة الأرضية.

رحم وأم الرحمة:

من الأسماء المترادفة وقد ذكر سبب تسميتها بهذا الاسم.

أم كوثى:

وقد بينا سبب إطلاق هذا الاسم.

أمينة:

وسبب إطلاق هذا الاسم أنها مطلع شمس وجود النبى الأمين عليه وعلى آله صلاة المعين.

أم الصفا:

وسبب التسمية أن الذين يؤدون الحج بصدق نية وخلاص طوية يتحصلون على هدوء الخاطر وصفاء البال.

مروية:

وسبب إطلاق هذا الاسم هو لما يرويه الخلف عن السلف عن عظمة قدر هذا المكان ومزاياه، والواقع أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قص فى القرآن المبين وبين قدر كعبة الله الجليل، وأن كل الأنبياء العظام والرسل الكرام قاموا بالحج الشريف إليها ووصفوها وأثنوا عليها ثناء جميلا.

متحفة:

وسبب التسمية ما أنعم به الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من بر وإحسان على جيران بيت الله.

أم المشاعر:

وسبب التسمية أنها أصل مشاعر الحج ومركز الأماكن المسعودة التى تؤدى بها مناسك الحج.

البلدة المرزوقة:

وسبب إطلاق هذا الاسم هو الدعاء الذى تفضل به سيدنا إبراهيم «على نبينا وعليه السلام» بالمنهج بقوله: ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ (البقرة: ١٢٦).

رواية:

(يروى أنه عند ترديد سيدنا إبراهيم هذا الدعاء أصدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمره إلى جبريل ـ عليه السلام ـ بأن ينقل إلى جوار كعبة الله أوفر قرى أرض فلسطين فاكهة، فاقتلع جبريل الأمين قرية كثيرة الفواكه من الأرض المذكورة وطاف بها سبع مرات حول بيت الله العزيز ثم تركها فى مكان يقع على بعد ثلاث مراحل من مكة.

وكانت هذه القرية المنقولة هى بلدة الطائف ذات اللطائف وسميت بهذا الاسم لأن جبريل ـ عليه السلام ـ طاف بها حول البيت المعظم) انتهى.

ومنذ ذلك الزمان الذى حددته الرواية وفواكه أراضى كعبة الله وثمارها فى نمو وازدياد، ومع هذا فإن فاكهة مكة لم تقتصر على الطائف بل تزيد ببركة دعاء الخليل ـ عليه صلاة الله الجليل ـ وبركة الله المعظم بما يتوارد عليها من كل أنواع الفواكه من أقطار الشرق والغرب.

ومدينة «مكة» المعظمة المكرمة مليئة بالفواكه حتى أن كل أنواع فواكه الفصول الأربعة توجد بها فى الفصل الواحد.

حكمة:

كل إنسان يدخل مكة فى أى ساعة من ساعات الليل يجد من غير عناء كل الأشياء التى يعانى فى الحصول عليها فى أثناء النهار، ولا ينام إنسان أبدا فى مكة المعظمة جائعا.

حكاية مليئة بالعبر:

يحكى فى رواية موثوق بها أن رجلاً من بلاد الشام، جاء إلى مكة المكرمة

لأداء فريضة الحج، فشاهد قوافل الإبل لا تنقطع عن حمل كل أنواع الفواكه والثمار إلى تلك البلدة المقدسة ليل نهار، فاعتراه العجب والتأمل.

وجلس الرجل الشامى فى ركن يتعجب ويتفكر فيما بينه وبين نفسه عاجزا عن تفهم هذا الأمر. وقال لنفسه: «لابد أن وراء هذا الأمر العجيب سرًّا، فرغم ما تحفل به بلاد الشام من حدائق وبساتين فى كل أطرافها، ومع هذا لا يتوفر فيها هذا القدر من الفواكه، بل من المحال أن يرى فى الشام دابة تحمل فاكهة فى أحد الشوارع بعد وقت الضحى، يبدو أن حدائق هذه البلدة وغاباتها وبساتينها تفوق حدائق وغابات وبساتين ولايتنا «الشام» وبعد أن أمعن فى التفكير فى هذا الأمر فترة طويلة خرج خارج المدينة بغرض مشاهدة بساتين هذا البلد الإلهى حسبما صور له خياله وذلك ليتحقق من صدق النتيجة التى انتهى إليها تفكيره، لكنه لم ير حول المدينة سوى جبال عارية جرداء، فازداد حيرة وتعجبا واستغرق فى التفكير وطاف من جبل إلى جبل حائرا حتى دخل المساء، فأقام حيثما كان، وراح فى النوم، ثم استيقظ فجأة وكان الوقت فجرا، وإذا به يرى حوله مجموعة من الجمالين يحملون إبلهم أحجارا.

اندهش الرجل الشامى واعترته الحيرة لما رآه من تصرف هؤلاء الجمالين الذين صعدوا إلى الجبال فى هذه الظلمة الدامسة، وأخذوا فى تحميل إبلهم الحجارة.

وبعد فترة وجيزة عاد الجمالون، وسار الرجل فى أعقابهم واستمر الجمالون فى السير إلى أن وصلوا إلى المدينة الشهيرة مكة الله.

وأنزلوا أحمال إبلهم ووزعوها على أصحاب الحوانيت وبدءوا فى جمع ثمنها من النقود، وإذا بالأحجار المحمولة على ظهور الإبل كانت نوعا من الفواكه اللذيذة الطعم.

وظن الشامى أن ما جمعه الجمالون من الجبل وحملوا ظهور إبلهم أحجارا لم يكن سوى أنواع من الفاكهة ذات المذاق الطيب التى تثير بمذاقها الطيب تعجب الإنسان. عندما رأى هذا تذكر الآيات الجليلة: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰٓ

إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (القصص: ٥٧) و﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش: ٤) واقتنع بأن الذين يسكنون مكة المعظمة يكون رزقهم على الله، فطابت نفسه.

تهامة:

وهذه التسمية ترجع إلى شدة ارتفاع درجة حرارتها.

الحجاز:

وسميت بهذا الاسم لوجود الكعبة المعظمة داخل المنطقة التى تضم نواحى مكة والمدينة والطائف.

البلدة الطيبة:

لكونها مكانا طيبا ومباركًا لعباد الله من المسلمين.

مدينة الرب:

ومعناه البيت الحرام. وهو من الأسماء المذكورة فى الإنجيل الشريف.

عاقر:

وهذا الاسم مذكور فى كتاب شعيا ـ عليه السلام ـ بمعنى المسجد الحرام.

فاران:

من الأسماء المذكورة فى التوراة.

ورغم أن هذه الكلمة بمعنى المسجد الحرام فإنها اسم أحد الجبال فى مكة أيضا، ويلزم أن يكون هذا الجبل أحد الجبال التى تسمى جبال بنى هاشم. وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتعبد فوق هذا الجبل.

وقد التقى جبريل ـ عليه السلام ـ أول مرة بسلطان الرسل نبينا ـ عليه السلام ـ فى هذا الجبل حينما أتى حاملا الوحى الإلهى إليه، وهذا الجبل مكون من ثلاثة أجزاء وثلاثتها من الجبال المبجلة المعروفة يقال لأحدها جبل أبو قبيس،

والآخر جبل قعيقعان، والثالث جبل فاران، ويطلق شعب بنى هاشم على المكان الواقع فى الجانب الشرقى من جبل أبى قبيس فى مواجهة جبل قعيقعان، ويروى أن النبى ـ عليه صلاة الله الأكبر ـ ولد هناك.

عندما حرفت طائفة اليهود التوراة الشريفة اتفق أحبار اليهود على نسخة جديدة وجاءت فى هذه النسخة عبارة (تجلى الله من «سيناء» وأشرق من «ساعير» واستعلن من «فاران»).

والمقصود من كلمات: تجلى، أشرق، استعلن: الظهور، والانكشاف، لأن التوراة نزلت على موسى فى طور سيناء والإنجيل نزل على عيسى فى «ساعير» كما نزل القرآن الكريم على نبينا عليه الصلاة والسلام، فى جبل فاران. وطور سيناء اسم الجبل الذى تجلى فيه ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لنبيه موسى كليم الله. ساعير اسم المكان الذى كُلِّم فيه سيدنا عيسى. قد بشر موسى ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى «سيناء» كما بشر عيسى ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى مكان يسمى «ساعير».

وقد أطلق اسم «النصارى» على الذين يدينون بدين عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك لأن المسيح كان يقطن فى قرية الناصرة الموجودة فى أرض الخليل فى ساعير.

وإن كان أهل الكتاب يؤولون «فاران» بمعان مختلفة، فإن ما تفيده الآية الكريمة الواردة فى التوراة «إن الله أسكن هاجر وإسماعيل فاران» تؤكد بلا شك أنه جبل «فاران» المبارك فى مكة المعظمة.

عتيق:

وهو اسم من أسماء البيت المعظم ويقول حسن البصرى إن سبب إطلاق هذا الاسم، أن البيت المعظم هو أول بيت أسس ليزوره من بنى البشر، وعند الإمام مجاهد أن الله تفضل بإسباغ حمايته عليه من الجبابرة الذين يريدون هدمه وتخريبه، وعند قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن الله حماه من طوفان نوح.

أسباب تلقيب بيت الله بالألقاب الجميلة

المشرفة:

وذلك لأن مدينة مكة المشهورة هى أشرف وأجمل وأفضل من كل البلاد.

ويكفى دليلا على أن هذه المدينة المقدسة أشرف الممالك وأسعدها على وجه الأرض، أنها كانت مهد إشراق نور سيد الكونين، وأنها مطاف طوائف الموحدين.

مكرمة:

وذلك لأنها كرمت بالذكر الجميل فى الكتاب المبين، ولأنها كانت مزارا لجميع الرسل والأنبياء وكل الأولياء والصالحين لصدور الأمر الإلهى بزيارة كعبة الله الكائنة داخل مكة السعيدة والحج إليها.

مهابة:

حيث لا يجرؤ أحد من الملحدين على دخول حرم الله، وبما أنَّ الملاحدة والجبابرة ذوى المهابة يخافون كعبة الله ويتحاشونها؛ لذا سميت بهذا الاسم.

والدة:

حيث إنها مرجع الحجاج والزوار بعد قضاء مناسك الحج.

نادرة:

اتساع مكة تلك البلدة المقدسة من حين لآخر سبب تسميتها بهذا الاسم.

وحسب ما يروى أن هذه المدينة المباركة تمتلئ أحيانا كما تمتلئ بطون النساء بالحمل، وبدء الامتلاء والزيادة فى شهر رجب الشريف أو فى شهر ربيع الأول، ففى بداية هاذين الشهرين تبدأ المدينة فى الاتساع، وتزداد كل لحظة حتى اليوم الثالث عشر من شهر ذى الحجة، وبعد ذلك يعود الحجاج ذوى الابتهاج فوجا تلو فوج.

فى الواقع أن من يرى كثرة سكان مدينة مكة المعظمة فى غير أيام الحج يظن أن الحجاج الذين يغدون إليها من أجل أداء فريضة الحج لن يجدوا داخل المدينة

مكانًا للإقامة والاستراحة، وأداء العبادات والطاعات داخل دائرة الفيوض الباهرة لحرم المسجد الحرام، ولكن عند حلول موسم الحج ومع تدفق وفود الحجيج من البر والبحر، يرى أنهم يجدون أماكن للراحة والإقامة فى بيوت الأحياء ويقيمون الصلاة بلا عناء فى كل أرجاء الحرم الشريف، ويطوفون حول كعبة الله المقدسة فى جماعات كبيرة ويعبدون الله خفى الألطاف، أدرك أنه كلما ازداد زوار تلك البلدة النادرة اتسع الحرم الشريف حسب الحاجة.

ومهما زاد عدد الحجاج فلا يبقى فى مكة المفخمة شخص واحد يبيت فى العراء، والحجيج يستطيعون أن يؤدوا العبادات فى حرية تامة وراحة كاملة داخل حرم بيت الله الموقر مثلهم مثل السكان والمجاورين الذين يقيمون فيها فى غير أوقات الحج. وهذا الواقع حقيقة مسلمة.

وقد وصلت ـ أنا الفقير جامع هذه الحروف ـ إلى مكة المشرفة فى منتصف شعبان الشريف سنة ١٢٨٩، وعندما رأيت ازدحام الحرم الشريف تصورت أنه لن يكون هناك مكان لإقامة الصلاة لمن سيأتى بعد ذلك من الحجاج.

حيث بلغ الزحام فى هذه البلدة المكرمة مبلغا عظيما، حتى إنه إذا ألقيت إبرة فى الأسواق والأماكن التجارية لن تسقط على الأرض من شدة الزحام. ولم يعد هناك مكان واحد خاليا داخل المسجد الحرام ليجلس فيه إنسان، وبعد مرور فترة قصيرة تبينت أن ضيق مساحة البلدة لا يمكن أن يمنع الحجاج من الطواف والزيارة فصححت أفكارى.

وقرب حلول ساعة الخير والبركة للوقوف فى عرفات، وفد إلى مكة المكرمة كل أسبوع ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف حاج وزائر وسكنوا فى دور الأحياء المختلفة ووجدوا أماكن لأداء الطاعات والعبادات فى فخر وسرور.

كانت السنة المذكورة سنة الحج الأكبر وتجاوز عدد الحجاج خمسمائة ألف حاج حسب تخمينى وقد أدى جميعهم مناسك الطواف والعبادة بدون مشقة، كما أدوا

الصلوات المفروضة كلها فى جماعة واحدة فى يسر وتَنَزَّهُوا فى الأسواق والشوارع بكل راحة.

جامعة:

وسميت بذلك لأنها نقطة تجمع كل طوائف المسلمين على اختلاف قبائلهم وأجناسهم.

وبما أن كل المسلمين من أجناس مختلفة على وجه الأرض ملزمين دينيا بزيارة أرض الحجاز للمشاهدة والفرحة؛ فالذين يأتون محرمين لأداء فريضة الحج إلى الحجاز ذات الفيوضات الإلهية يسعدون برؤية أجناس المسلمين المختلفة فى مكان واحد ونقطة واحدة.

ومن الطبيعى أن تنطوى هذه الجماعات العظيمة على أولياء الله الصالحين المستغرقين فى التفكر فى الله وعظمته، وتنطوى كذلك على الذين غرتهم الدنيا بزينتها من أولاد وأملاك وأموال.

والأمر يقتضى أن ينظر كل عاقل نال شرف التواجد فى هذا الجمع الكبير، بعين الاعتبار إلى عجائب المخلوقات الإلهية وبديع صنع الله وأن يستيقظوا من غفلتهم.

المباركة:

وسبب إطلاق هذا الاسم واضح ومفهوم.

المفخمة:

وسبب التسمية له علاقة بقدر ومزية وعظم كعبة الله المشرفة، وذلك لما فى معنى الكلمة من التفخيم انتهى.

المشرفة:

فى المعلومات التى تلقيناها عن كبار شيوخ مكة وتصفح الصحائف القديمة

والتواريخ التى تتضمن أحوال المسجد الحرام، نعرف أن البلدة المباركة كانت محدودة باثنين من الأسوار الضخمة فى الأزمنة القديمة، ويفهم من بقايا هاذين السورين اللذين كانا قائمين إلى وقت قريب أن هاذين السورين ـ كما جاء فى الأخبار ـ كانا ليصلان بين جبل عبد الله بن عمر الواقع ناحية معلى بسفح الجبل الواقع أمامه بجدار متين ذى أبواب عديدة ومنافذ لمجارى السيول، لكنها كلها خربت بمرور الوقت.

وقد أخبر بعض المكيين أن هناك بعض خرائب الجدران التى تعد من الآثار العتيقة، كما أكد ذلك تاريخ «قطب مكى» وقيل إن هناك خرابة جدار عتيق بجانب السبيل الفخم الذى أنشأه السلطان «سليمان خان» ابن السلطان سليم خان، جانب جدول حسنين، إلا أنه لم يبق فى عصرنا الحالى سوى المبانى القديمة للسبيل المذكور. وهذا السبيل فى مكان مرتفع بقصر متشابك من جهاته الأربعة، وهذا القصر أصبح طريقا لأقدام سكان الخيم الذين أقاموا بجانبه، وتقرر كتب التاريخ أن للأسوار سالفة الذكر جداران وبابين فى ناحية الشبيكة وقد ظلت أكمار هذه الأبواب قائمة حتى وقت قريب. والسور الواقع ناحية المسفلة هو سور آخر لاسيما أن الإمام الفاسى أثبت أنه يوجد سور بين الجبل المسمى لعلع الذى يقع على مقربة من مسجد الراية والجبل المقابل له. فقال (لقد رأيت أطلال وبقايا هذه الأسوار على الجبل المذكور وفهمت أن مكة المعظمة كانت بين أسوار متعددة متصل بعضها ببعض ولكنى لم أستطع معرفة بانى هذه الأسوار) وهذا دليل على أن كل هذه الأسوار قد انمحت ولم يبقى لها أثر.

لقد عد الإمام الفاكهى فى كتابه «ران أنبيا» أن أبنية المسجد الشريف الذى بنى فى الموقع اللطيف الذى أمر الرسول بنصب الراية فيه يوم فتح مكة من الآثار العتيقة، فكتب فى تاريخه (يوجد مسجد يزوره الناس وهو قريب من بئر جبير، والمنازل والبيوت التى بجواره خالية خاوية) ولكن الآن فى عصر السلطان العالى القدر قد امتدت البيوت والمنازل حتى خارج مقبرة المعلا، ولهذا فإن المنازل والبيوت التى قال عليها الإمام الفاكهى أنها خالية، ليست كذلك الآن.

إن الأسوار التى قال الإمام الفاكهى إنه رأى أطلالها بنى أحدها المرحوم أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسينى وهو من الأجداد العظام لأشراف مكة. وظلت آثار هذا السور مرئية حتى انتهت الخلافة العباسية فى مصر القاهرة.

إن أبا عزيز قتادة قد عزز وأكثر من قوته فى عهد الأمير مكثر من بنى فليتة التى كانت تحكم ينبع البحر لمدة، وفى خلال عام ٥٩٧ انتزعوا الإدارة من بنى هاشم عنوة. إن الجد الخامس لأبى عزيز المشار إليه هو الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ الغالب.

فى زماننا هذا من الصعب حتى توضيح علامة يمكن القول إنها من بقايا الأسوار التى عرفها المؤرخون، وتوجد ثلاثة قلاع صغيرة بأسماء قلعة الجياد، قلعة الفلفل، قلعة الهندى فى الوادى الكائن بين جبل جياد وجبل عمر، حيث يوجد مقر المدفعية والمعسكر الهمايونى وهذه الأشياء جديدة جدا. إن قلعة جياد تقع على جبل جياد وقلعة فلفل تقع على طريق قرارة، وقلعة هندى أسست على قمة جبل هندى الواقع ناحية حمام العمرة، بعد واقعة دلخراشنى الوهابية لحماية مكة المعظمة المفخمة من هجمات العربان.

لاسيما فى الفترة التى كان فيها المرحوم حالت باشا والى الحجاز والمرحوم حسين باشا أمراء لمكة، إذْ أحسوا بالحاجة إلى توسيع قلعة فلفل، وجعلوا بها مستشفى عسكرى، فهدم عثمان باشا والى الحجاز قلعة هندى وأسس هذا المعسكر على أصول جديدة ولأن هذا المكان دفعت نفقات إنشائه من قبل أهل كريت أطلق عليه اسم غريتية عام ١٣٩٧. كما هدم قلعة جياد وأنشأ مكانها قلعة متينة على الطراز الحديث عام ١٣٠١.

أعلام قلاع الحرمين الشريفين

إن السلاطين العظام يطلق عليهم اللقب المستلزم للفخر وهو لقب خادم الحرمين المحترمين، وتشكل الحكومة فيهما باسم السلطنة العلية، ومع هذا لم

ترفع الرايات ـ رمز سطوة الدولة العثمانية فوق المبانى العسكرية والقلاع ولم ترفرف عليها فى الحرمين الشريفين.

وإذا كانت تقاليد الاحترام تقتضى عدم رفع الألوية السلطانية فوق قلاع الحرمين الشريفين، إلا أنه من غير المناسب حسب مقتضيات العصر ضياع العلاقة التى تدل على التبعية المشروعة للحرمين الشريفين التى هى قبلة الموحدين، إلى دولة الخلافة، وبناء على هذا الرأى الصائب قد قرر السلطان عبد العزيز فى أواسط حكمه رفع الراية العثمانية فوق معسكرات مكة المكرمة، والمدينة المنورة وفوق قلاعهما مثل سائر البلاد التابعة للدولة العثمانية.

وجهزت الأدوات اللازمة والبيارق، وأرسلت إلى ذلك المكان السامى جالب الفيض الإلهى وبذلك أصبح المعتاد رفع الأعلام فى المدينة المنورة، لكن تأخر هذا التقليد بالنسبة لمكة المكرمة وتأجل آنذاك لبعض الأسباب.

وكان سكان البلاد الإسلامية الواقعة تحت سيادة دول غير مسلمة يترددون على الحرمين الشريفين وكان بعض هؤلاء يفضلون الإقامة فى أحد الحرمين الشريفين ومجاورتهما بعد أداء الحج لذا اتخذ الإنجليز والفرنسيون والروس والبرتغاليون والهولنديون الذين يستعمرون الهند وآسيا الوسطى والجزائر وجاوه وغيرها قنصليات فى جدة لخدمة رعاياهم فى ظاهر الأمر وقضاء مصالحهم ولكنها فى الحقيقة للتجسس.

وكان لتدخل المسلمين من رعايا الدول الأجنبية فى شئون أهالى الحرمين عواقب وخيمة حاليا، ولاسيما أن أفرادا كثيرين من جماعات القبائل البدوية والعشائر المجاورة وأهالى الحرمين أنفسهم يدعون أنهم لا يعرفون لهم مرجعًا سوى الإمارة الجليلة للحرمين؛ لذا رئى أنه من الحكمة رفع الراية العثمانية على قلاع مكة المكرمة ليعرف الحاقدون والأعداء أن مكة المكرمة من الأجزاء المقدسة المتممة لأراضى الممالك السلطانية.

وقد روعى اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ما قد يعكر الصفو.

أولاً: قد استدعى لذلك سرا محمد جاويد أغا من قدماء ضباط القلاع وأمر بأن تجلب الأعلام وأن تتخذ التدابير العسكرية لمواجهة ما يحدث من مشاغبات.

ثانيًا: صدر الأمر بسرعة اتخاذ التدابير والتحفظات وتوفير الأعلام اللازمة وصواريها وأوصالها السميكة والحبال الرفيعة التى تسحب بها الأعلام، وتم إعداد كل شئ وتجهيزه وتهيئة الجند اللازم للمحافظة على الأمن، وأن يذهب إلى دائرة الإدارة الجليلة لمقابلة الأمير السابق الشريف عبد المطلب والقيام بالخدمات اللازمة لإقناع الأمير بأن رفع العلم لن يسبب أى إزعاج. وأن تعد الأدلة المقنعة على أن رفع العلم لن يؤدى إلى اضطرابات ومشاغبات فى الإمارة فى ظل الاستعدادات العسكرية التى تم اتخاذها للحفاظ على الإمارة ويؤخذ موافقته على ذلك.

كما يؤخذ منه الإذن بارتداء الملابس الرسمية فى أثناء إطلاق المدافع بعد رفع الأعلام والتوجه إلى المسجد الحرام.

لترديد الأدعية بطول العمر لجلالة السلطان، بعد ذلك يعود إلى المواقع العسكرية وفى الصباح الباكر ترفع الرايات العثمانية على القلاع كلها فى لحظة، واحدة وتطلق المدافع إحدى وعشرين طلقة، بينما تعزف الموسيقى فى أثناء ذلك، ويصطف عدد من الجنود السلطانية على هيئة طابور ويتحركون مع قواتهم من معسكر المدفعية العثمانى متوجهين إلى الحرم الشريف للمسجد الحرام وفق الأوامر الصادرة.

وفى اليوم التالى عندما رفعت الأعلام على القلاع فى وقت السحر، وأخذت المدافع فى إطلاق طلقاتها، ارتدى الباشا المشار إليه ملابسه الرسمية على الفور وتوجه ومعه العدد اللازم من الجنود السلطانية، قاصدا قصر الشريف عبد المطلب أفندى واصطحبه معه وكان متهيئا للتحرك وقفل راجعا مع الموكب العظيم إلى الحرم الشريف للمسجد الحرام. وكان فى معية الشريف المذكور أشراف مكة وساداتها الممثلون للإمارة وتفضل الباشا بإلقاء خطبة بليغة أمام الجمع الغفير من السادة وأهالى مكة الكرام وبعد ذلك أم القضاة الأربعة الكرام وكل العلماء

المعروفين وخاصة عمر شيبى أفندى حاجب بيت رب الأرباب وكل الحضور فى داخل بيت الله قاموا كلهم بترديد الأدعية المناسبة لحضرة الخليفة ثم انصرف الجميع شاكرين فرحين وذلك فى عام ١٢٩٦هـ.

وهذا الخوف الذى شغل بال الجميع لسنوات طويلة من سوء عاقبة رفع العلم لم يظهر له أثر، بل إن الأهالى الكرام والمجاورين ذوى الاحترام شعروا بالسعادة والافتخار، وإن رفع العلم فى الواقع كان عملا موفقا وينتظر منه فوائد جمة فى المستقبل. ونحن بالنيابة عن الأمة الإسلامية العظيمة نقدم شكرنا للباشا المشار إليه على هذه الخدمة الجليلة.

إن مكة المفخمة بلدة مباركة ومقدمة سعيدة تفوق كل بلاد الدنيا عظمة ويمنا، ولحكمة ما كانت ممرا لكثير من الأحداث المفزعة المؤلمة والانقلابات الدامية والمصادمات التي عانتها تفوق كل وصف وحصر؛ لذا رأينا أن نذكر بعضها للتدليل على صحة ادعائنا.

استيلاء طائفة القرامطة المفسدين على مكة المعظمة

ظهرت بوادر طائفة القرامطة الباغية المفسدة ولم تنج هذه البلدة المباركة من فسادهم وشرهم وفوضاهم، بل إن فرقة «ابن زكرويه» التى استولت على منطقة الشام هاجمت إحدى قوافل الحجاج المتجهة إلى المدينة المنورة وأعملوا فيهم سيوفهم حتى لم يبق واحد منهم على قيد الحياة، وذلك فى عام ٢٨٩هـ.

يروى أن عدد الحجاج والمسلمين الذين قتلتهم سيوف أجداد القرامطة من هذه القافلة تجاوز عشرين ألف حاج، أما الفرقة الملعونة التى تسلطت على الأراضى الحجازية المباركة والتى تنتسب إلى أبى طاهر القرمطى فقد هجموا على مكة المعظمة بغتة وعاثت أقدامها فسادًا وشؤما فى الحرم المطهر للمسجد الحرام.

عندما هجم أبو طاهر على مكة المعظمة كان بداخل المسجد الحرام ثلاثون ألفا من الأبرياء وكان أكثرهم فى ملابس الإحرام وكان القليل منهم داخل كعبة الله فلم ينج أحد منهم من سطوة سيف الغدر والعذاب، وهدموا كثيرا من المبانى

العالية فى هذه المدينة المشهورة وخربوها واقتلعوا الحجر الأسود لينقلوه إلى ناحية هجر التى هى مسقط رأس أبى طاهر الملعون ثم انزاحوا إلى بلادهم مدحورين سنة ٣١٧هـ.

وكان هدف أبى طاهر من اقتلاع الحجر الأسود من الركن الجليل لكعبة الله وأخذه إلى ديار هجر هو أن يصرف الناس من التوجه إلى الكعبة وأن يحرمهم من الفيض الإلهى. وأن يوجه طريق الحج المفروش بالفيض الإلهى إلى ناحية هجر بل إنه أنشأ فى هجر دار شقوة أسماها دار الهجرة وحجز الحجر الأسود فى دار الهجرة عشرين سنة.

وفى اليوم الذى أجرى فيه أبو طاهر المذبحة فى ساحة المسجد الحرام اقتلع بيده ـ شلت يده ـ اللوحات المزينة التى على باب الكعبة مستقر الرحمة، وانتزع أيضًا الستارة الشريفة والهدايا القيمة الموجودة فى خزانة البيت انتزاع الطيف وقام بتوزيعها على جنده. وعندما أراد خلع الميزاب الذهبى أمر بعض أتباعه بذلك، ولكن القرامطة الملحدين الذين تسلقوا السقف وقعوا على الأرض وماتوا وهكذا لم ينجح فى سعيه.

وأخذ ذلك الخائن الكافر الحجر الأسود ووصل ناحية هجر، وقضى أربه ثم أبلغ عبد الله المهتدى جد ملوك الفاطميين بالطريقة التى وصل بها إلى تحقيق ما يصبو إليه. وعرض عليه تبعيته وأنه سيقرأ اسمه فى خطبة الجمعة ولكنه تلقى منه جوابا مفاده لقد وجدت فى نفسك الجرأة على نقل الحجر الأسود إلى هجر بعد هتكك ستار وحرمة بيت الله الذى ظل موضع الإعزاز والتكريم دائما فى الجاهلية والإسلام وبعد ذلك تريد أن تقرأ الخطبة باسمى! فأعلن القرمطى عصيانه عليه أيضا.

* * *

فى ذكر وصف شكل وطراز بيوت مكة المعظمة ومنازلها ودرجات الحرارة والبرودة فى هذه المدينة المقدسة وفوائد الفواكه والخضر ومضارها التى توجد بها وأسباب ظهور الأمراض التى يروى تفشيها فى الأراضى الحجازية المنوّرة.

معظم مبانى مكة المشرفة مبنية بالحجارة والطوب وهى متينة وبعضها أكواخ مصنوعة من الأعشاب والحصير يطلق عليها عشة «بضم العين» وسقوف أغلب المبانى المصنوعة من الحجر والطوب مسطحة ومملوءة بالتراب وسقوف القليل منها حجرات بعضها مغطاة بمادة الطابطات الأسمنت وأغلب النوافذ مغطاة بحصير معروف باسم «كيريته».

استطراد

بعض الأوربيين الذين نجحوا فى الدخول إلى مكة المكرمة والتجول فيها أشاروا فى ما كتبوا عن رحلاتهم إلى أن نوافذ بيوت مكة مصنوعة من الحصير الخشن، استخدموا فى إيماءاتهم ألفاظا غير مناسبة وأشاروا إلى فساد ذوق أهالى مكة الكرام، إلا أن ما تصوره السياح المشار إليهم فى هذا الخصوص ليس صحيحًا فأكثر بيوت مكة المعظمة ومنازلها تطل مباشرة على الحرم الشريف للكعبة وتتعرض لسخونة الشمس وحرارتها القوية.

ولذا استصوب أهل السلف بعد طول تفكير أن يعلقوا أشياء من الحصير على نوافذ البيوت حتى تحمى الناس من تأثير حرارة الشمس، وفى نفس الوقت تصون الحرم الشريف للمسجد الحرام من جلبة المنازل وأصداء أصواتها، وقرروا تنفيذ هذا العمل. ولما كان هذا القرار يعبر عن مدى تعظيم الأهالى لكعبة الله

واحترامها فإنه أيضا يشير إلى مصانة بيوت مكة ومتانتها وأن نساء الحرمين أهل حياء وعفاف لا يتجاوزن الدائرة التى حددتها لهم الشريعة، لأن حصر «الكيريتة» التى تبدو خارج نوافذ بيوت مكة لا تقوم مقام الستار ولكنها تقوم مقام المشربيات.

ويوجد فى الطرف الداخلى من «الكيريتة» ستار مصنوع من الخشب وهو ما نسميه فى بلادنا «الجناح» وعندما يزداد الهواء سخونة فإن أهل البيت يغلقون هذا الجناح لحماية أنفسهم من حرارة الشمس. وتختلف هذه الستارة الخشبية تبعا لشكل المبنى وحجمه وبما أن الحصول على خشب البناء فى مكة صعب فإن الستائر الخشبية لنوافذ المبانى الكبيرة الفخمة تصنع من خشب شجر الساج المشهور فى الهند وتنقش عليها نقوش فى منتهى الدقة والجمال. ويصل ثمن كل جناح من الأجنحة إلى ألفين وخمسمائة ليرة وأقله ثمنا يكون بألف وخمسمائة ليرة. وأرخصها يباع بليرتين ونصف وثلاث ليرات يصنع من خشب الصنوبر الرخيص. وإنفاق هذا القدر من النقود فى ستارة نافذة يدل على طبع الكرم عند أهل مكة وجودهم مما يجعل تطاول سياح أوربا وأقوالهم واهية لا أسس لها.

والبيوت التى صنعت سقفها من «الطابطاب» الأسمنت أقل تأثراً بحرارة الشمس من المنازل التى صنعت من التراب في أثناء النهار، ولن تسخن غرف الأدوار العليا المغطاة «بالطابطاب» كما تسخن الغرف المغطاة بالتراب فقط بدرجة مخيفة ومن هنا تختلف المنازل المغطاة بالطابطاب عن المنازل غير المغطاة من حيث القواعد الصحية.

والمساكن المغطاة بالطابطاب أقل رطوبة من المنازل غير المغطاة بهذه المادة، كما أنها أسهل فى التنظيف ولا يعرف المقيمون فيها قدر المساكن الأخرى.

إخطار:

وهذه المادة المسماة بطابطاب عبارة عن خليط جامد مصنوع من رماد المواقد والطين والرمل والجير وهو نوع من الرخام الصناعى، وهو غير مادة الأسمنت

التى تصنع بها الأرصفة فى دار السعادة استانبول، والأكواخ المصنوعة من الحصير والعشب مهما تم بناؤها بعناية فإنها تسخن بحرارة الشمس ولا تخلو من الرطوبة.

والذين يسكنون فى هذه الأكواخ لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن الأخطار، كما أن السكن فى مثل هذه المبانى يكون تصرفاً مغايراً لأحكام وقواعد المحافظة على الصحة، وبناء عليه فإنه لا يجوز لأهل البلاد الباردة أن يستأجروا مثل هذه الأكواخ لأن شدة الحرارة تستدعى تبريد الجسم بالخروج إلى الأماكن ذات الهواء الطلق ويؤدى هذا إلى إصابتهم بنزلات البرد لجلوسهم غير مستورين شبه عراة، كما يؤدى إلى تَفَشِّى العلل والأمراض بينهم.

وبما أن الحرارة ترتفع فى أيام الصيف فى المدينة المعظمة إلى حدّ يصعب تحمله يذهب أغلب الأغنياء من أهلها إلى بلدة الطائف اللطيفة، والكثير منهم يقضى وقته فى حدائق المعلى، وفي أيام الشتاء يتجولون في مناطق الحسينية ووادى فاطمة، وفى كل الأماكن المخضرة التى تبعث الرضى فى النفس ويتنزهون فيها، وأيام الشتاء فى خط العرض لمنطقة الحجاز المقدسة تشبه أيام فصل الربيع فى مناطق الروملى والأناضول.

الحسينية

وتقع المنطقة المسماة بالحسينية فى الطريق من مكة إلى اليمن، خلف جبل ثور الواقع على مسافة ساعتين من مكة وهو مكان جميل يتكون من حوالى خمس أو ست حدائق مخضرة وينمو على المياه الجارية الواقعة حول هذا المكان البطيخ والليمون وكل أنواع الخضر والمحاصيل مثل التمر والبرسيم.

وادى فاطمة:

يقع وادى فاطمة على مسافة خمس أو ست ساعات من مكة من ناحية المدينة المنورة، وبها عدد من الحدائق المنتجة للمحاصيل وبضع قرى وما يعرف من عيون الماء الجارية وهى (ماء الجموم، ماء خضرة، ماء هنية، ماء حسينية، ماء أبو

عوردة، وماء روضة، ماء حيف، ماء تونذوب، ماء قورفه، ماء بان، ماء مبارك، ماء جديدة، ماء جفح ماء سعلة، ماء مضيق، ماء غريمه، ماء أبو شعب، ماء مدرار، ماء فيدة، ماء سماشه، ماء جديدة، ماء هيمه، ماء حرامز، ماء بحرين، ماء قريز، ماء حامدة، ماء بربر، ماء حديدة، ماء سروعة، ماء ربكان وأنقى هذه المياه وأخفها هو ماء هنية وأقلها قبولا فى المذاق أعسرها هضما هو ماء الجموم. وينمو فى الحدائق التى حول مصادر المياه: الشمام والبطيخ.

وأنواع مختلفة من التمر والخضر واعتاد أهالى القرى المجاورة صيد دودة العلق الموجودة في المياه ذات المجارى الواسعة بكثرة ويحملونها إلى مدينة مكة المعظمة ويبيعونها هناك.

وتقع على مسافة ثمانى عشرة ساعة من مكة المعظمة منطقتا «سويلة» «ومضيق» وتبعد كل واحدة عن الأخرى ساعة ونصف وتمتازان بلطف جوهما، كما أنهما تزدانان بالأشجار الجميلة والحدائق البديعة، وتنمو فيها أشجار الليمون الحلو (النارنج) والموز وينبت فى حدائق جبل كرا والطائف أشجار العنب والرمان والسفرجل والتين، الكمثرى والخوخ والمشمش، واللوز، والجوز، والتوت الأسود. وتقع على بعد من الطائف بخمس أو ست مراحل مياه جارية وحقول خصبة وأشجار اللوز والياسمين البرى وأشجار الزيتون البرى والصفصاف.

تنبيه:-

يوجد فى الأراضى الحجازية نوع من العنكبوت السام اسمه «لاديغ» فإذا لدغت هذه الحشرة أى إنسان لابد وأن يموت خلال ثلاث أو أربع ساعات ورغم وجود هذا العنكبوت فى كل مكان إلا أنه يكثر فى وادى فاطمة، لذا يجب على الذين ينزلون به أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة ضده. وأقدام هذا العنكبوت اللادغ كثيرة الشعر ويوجد فى قمته أربع شوكات سوداء خشنة كل اثنتين منهما متشابكتان ويعتبر سمه كثيرا أو شديداً بالنسبة لحجم جسمه ويصعب أن يلحق به الإنسان إذا هرب من أمامه.

العلاج:

ليحفظنا الله جميعا من شره إذا لدغ هذا العنكبوت إنسانا ما، فإذا لم يتم كى المكان الملدوغ على الفور وبشكل جيد فمن المستحيل أن ينجو هذا الإنسان، وهذا لأن سمه قاتل فتاك لدرجة كافية انتهى.

ويقضى العنكبوت المذكور نهاره مختبئا بين الصخور وفى الليل يزحف حيث الضوء فعندما يرى الضوء فى أى مكان ليلا ومهما كان الزحام يهاجم فريسته دون تردد. وبناء عليه فعلى من يحل فى أى بقعة من الأراضى المقدسة واضطر لإيقاد النار ليلا يجب عليه الجلوس بعيدا عن النار. ولاسيما من يوقد نارا أو يشعل سراجا أو شمعة فى وادى فاطمة فعليه أن يحرص أن يكون بعيدا عن مصدر الضوء. ورغم أن هذه الحشرة هى نفس الحشرة الموجودة فى الأراضى العثمانية حيث يسمونها «بوى»، فحشرة الأراضى الحجازية لحكمة ما ذات سم أكثر وأفتك ويكثر في وادى فاطمة خاصة. لذا يجب على الذين يعيشون فى هذه المنطقة أو ينزلون إليها أن يحذروا هذه الحشرة كثيرا.

درجات الحرارة

بما أن مدينة «مكة المعظمة» تقع فى مكان منخفض وتحيط بها سلاسل الجبال كما سبق أن بيناه، فهى شديدة الحرارة بالنسبة للأماكن ذات المناخ المعتدل التى ذكرناها وتستمر شدة حرارتها ستة أشهر أو سبعة متواصلة، وتشتد حرارتها خلال أربعة أشهر ويطرد تأثيرها من ساعة إلى أخرى.

درجة الحرارة فيها بميزان (زومبورك) فى شهر يونيو ٢٩ درجة وفى يوليو ٢٩ درجة وفى أغسطس ٣٠ درجة وتصل درجة الحرارة فى أشد أيام شهر أغسطس حرارة إلى ٣٦,٣٥ درجة ولكنها لا تستمر طويلا وتهبط إلى ٣٢ و ٣٣ درجة، وتظل لفترة ما حول هذا المعدل. وبعد هذه الشهور تأخذ درجة الحرارة فى الهبوط من يوم إلى آخر إلى أن تصل درجة الحرارة فى سبتمبر إلى ٢٨ درجة وفى أكتوبر إلى ٢٥ درجة.

ويقضى أهل مكة نهارهم فى الشهور المذكورة داخل المبانى، ويمضون ليلهم فوق الأسطح ويتراوح الفرق بين بعض هذه الأماكن وبعضها الآخر فى درجات الحرارة ما بين درجة إلى أربع درجات، لذا تكون الحجرات في النهار أبرد من الأسطح وتكون الأسطح أبرد من الحجرات فى الليل بمقدار أربع درجات. وفى بداية نوفمبر تكون درجة الحرارة ٢٤ درجة وبعد خمسة عشر يوماً منه تهبط درجة الحرارة إلى ٢٢ درجة فينام السكان فى الحجرات.

وفى بداية ديسمبر تكون درجة الحرارة ٢١ درجة وبعد اليوم الخامس والعشرين منه تنخفض درجة الحرارة إلى ١٩ درجة وتستقر عند هذه الدرجة ويروى أنها قد تهبط إلى ١٧ درجة وهذا من الأمور النادرة. وبعد الخامس والعشرين من شهر يناير تهبط درجة الحرارة فى الصباح إلى ١٨ درجة لكن وقت الظهر ترتفع بمقدار درّجة ونصف درجة وأحيانا درجتين.

وإذا كان انخفاض درجة الحرارة بين المساء والصباح في كل فصل يصل إلى درجتين مما يلطف من حرارة الجو فإن درجة الحرارة بين الظهر والعصر ترتفع أيضا درجتين وتزيد درجة الحرارة نسبيا عن الصباح. وفى بدايات أيام شهر فبراير تكون درجة الحرارة ٢٠ درجة، وترتفع عند الظهر إلى ٢٢ درجة، وفى صبح أيام شهر مارس تقل درجة الحرارة عن ٢٣ درجة، ويحدث التفاوت بمقدار درجة واحدة فى أثناء نهاية هذا الشهر، وتصل فى شهر أبريل إلى ٢٤ درجة.

وترتفع درجة الحرارة فى شهر مايو إلى ٢٧ درجة وتزيد فى وقت الظهر والعصر من شهر مايو لتصل إلى ٢٩ درجة.

وتهب فى أغلب أراضى الحجاز الرياح الجنوبية ونظرا لسخونة هذه الرياح لا يوجد فى البلدة المعظمة مكة المكرمة ماء بارد. ومن يتجول قليلا لا يستطيع أن يمنع جسمه من التبلل بالعرق.

وإذا لم تهب الرياح لا يمكن للإنسان أن يشعر بالراحة أما إذا هبت رياح الشمال تبرد المياه ويعتدل الجو ويستريح الأهالى.

إفادة خاصة:-

ارتفاع درجة الحرارة إلى هذا الحد يرجع إلى أنَّ مدينة مكة المكرمة محاطة بسلسلة من الجبال المرتفعة.

حيث تعكس أحجار هذه الجبال الحرارة التى تكتسبها من الشمس على البلدة، وفى فصول الصيف تستمر هذه الحرارة حتى منتصف الليل.. لذا احتاج الأمر إلى مساحة خضراء تقلل من تأثير الحرارة على البلدة وتجلى العيون بخضرتها.

وهذا ممكن بالنسبة لمكة المعظمة بحيث تغرس على واجهات الجبال المحيطة ببلدة الله والمطلة عليها أشجار مناسبة وتبذر عليها بذور الأشجار البرية التى تنمو سريعا لتتحول الجبال إلى ما يشبه الغابات وفى الواقع أن هذه الغابات لا تنمو فى ظرف عام أو عامين إلا أن الروابى تكتسب اللون الأخضر فى العام الأول وتساعد على تقليل ارتفاع درجة سخونة الأحجار، وتمنح البلدة نوعا من البرودة وبعد خمسة عشر عاماً تصبح هذه المدينة وسط غابة كبيرة، ويستحسن أن تكون هذه الأشجار والبذور من نوع الصنوبر الموجود بقارة أمريكا الذى ينمو كل سنة بارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار أو من أنواع الصنوبريات الشبيهة بها، وهو ما يؤدى إلى تحسين الجو.

كما يزين طريق العمرة بغرس أشجار مناسبة على جانبيه. وإذا تم تسوية الأرض وتعبيد الطريق يسمح بسير العربات عليه ذهابا وإيابا، ويرتاح المعتمرون الكرام وتتحول تلك المنطقة إلى مُتَنَزَّهات ومن الإصلاحات المرجوة بغرض إراحة الحجاج وتأمينهم تزيين طريق عرفات بغرس الأشجار المناسبة، وإيجاد أنفار كافية من قوة الشرطة في أماكن مثل «مأزمين» وغيره حيث يجتمع اللصوص ويحتشد قطاع الطرق.

تنبيه:-

يجب على الذين يقميون فى مكة المكرمة فى فصل الصيف الإقامة فى الأماكن ذات التهوية الجيدة، وأكثر مناطق مكة المكرمة هواء هى الأماكن المتصلة

بالمسعى الشريف من حرم المسجد الحرام، وسفوح جبل أبى قبيس وفوق جبل الصفا وأطراف قلعة فلفل من حى غرارة. وأعلى مناطق مكة المعظمة هى المناطق التى ذكرناها بإضافة نواحى «قشاشية».

إن أرض هذه الأماكن فى مكة المكرمة أعلى من الجهات الأخرى وبما أن أزقتها أوسع وأراضيها أعلى فلا تخلو هذه الأماكن من نسمات الهواء فى أى وقت من الأوقات.

وهواء أحياء «المعلى» و «القشاشية» و «الشبيكة» أفضل من هواء الأحياء الأخرى، لذا لا يتأثر أبداً سكان هذه المناطق من سوء الجو. ومع هذا فإن نوافذ بيوت هذه الأماكن يلزم أن تكون مواجهة للرياح الجنوبية فى جميع الحالات.

والمنازل الكائنة فى أحياء أخرى غير التى ذكرناها تكون الشوارع فيها ضيقة وساخنة مثل مستوقد الحمامات، ومملوءة بالقمامات المتراكمة والقاذورات. مما يؤدى إلى ظهور مجموعة من الأمراض ومن هنا يجب على الأغنياء الذين يسكنون فى هذه المناطق وخاصة الحجاج الذين استأجروا البيوت بالوكالة فيها أن يذهبوا إلى الوظائف بغية تغير الجو ومع اقتراب موعد الحج يعودون إلى مكة المكرمة فيؤدون مناسك الحج ويحافظون على صحة أبدانهم.

وفى مكة المكرمة فواكه مثل: الخوخ، المشمش، التين، السفرجل، الكمثرى، التفاح، البرقوق، التمر هندى، العنب، التمر، اللوز، الجوز، التوت، العناب، الشمام، البطيخ، البرتقال، الليمون، الليم، الرمان، الموز، الخيار، العجور، وأشياء أخرى مثل: الخس، الخرشوف، البامية، الكرفس، الفاصوليا الخضراء، السلق، الجزر اليمانى، الطماطم، الباذنجان، الفاصوليا الناشفة، والفول الناشف، الحمص، الفجل، الشبت، البقدونس، الثوم، الكمون الكراث، القرنبيط، والكرنب وجميع أنواع الخضروات وكل رأس من الكرنب يصل إلى ١٤ أقة ولا يمكن أن ينبت كرنب كبير بهذا الحجم إلا فى الحجاز فقط.

استطراد

بالرغم من وجود الفواكه من كل نوع فى الأراضى الحجازية إلا أن أكثر هذه الفواكه ضار بسكان البلاد الباردة الذين يزورون البلاد الحارة، لذا لزم أن نوجز في هذا المقام ذكر أنواع الفواكه والخضر التي يجب أن يتجنب أكلها ويحترز منها في الأراضى الحجازية.

الخوخ: رغم أن طعمه لذيذ وشكله الخارجى لطيف، إلا أن الإفراط في أكله ضار لصعوبة هضمه.

المشمش: طعمه لذيذ ورائحته تسيل اللعاب، ومع هذا فإن الإفراط في أكله بشكل دائم فى الأراضى المقدسة ضار ويسبب الإسهال. وإذا أكل النوع الصغير من المشمش دون طبخه بسكر يؤدى إلى الإصابة بالحمى الصفراء وفساد المعدة.

التين: ينبت فى الطائف، ورغم أنه ليس بحجم التين الذى يزرع فى بلاد الروم إلا أنه لذيذ الطعم، لكن الإفراط في تناوله يصيب الجسم بالفتور.

السفرجل: يبدو في حالة نضجه التام لذيذ الطعم، طيب الرائحة وبما أن له تأثيراً قابضًا فأكله نيئا قبل طبخه ضار.

الكمثرى: وليست بحجم الكمثرى فى بلاد الروم وهى فى حجم كمثرى مدينة أخلاط. والإفراط في أكلها يصيب المعدة بالضغط.

التفاح: وأكبر حجم للتفاح فى تلك الأراضى يكون فى حجم الخوخ العادي ونظرا لجنيه قبل نضجه تماما فمذاقه مزز، وإذا طهى بالسكر وأكل قدر كافٍ منه يساعد على هضم الطعام.

البرقوق: ويوجد فى الطائف ما يسمى بـ «برقوق مردم» فقط وأكله غير مرغوب لأنه يسبب الإسهال.

التمرهندى: الجاف منه مثل قشر الشجر الأحمر إذا بلل بعضه في الماء يصبح لونه أحمر ويكون شرابا ذا طعم حمضى وشرابه الممزوج بالسكر خافض للحرارة.

العنب: يرى الأطباء أن الطازج منه يبرد الدم ورغم أن ضرره أقل من الفواكه الأخرى فإن الإفراط فى أكله يسبب إسهالا مؤلما. والعنب الموجود فى مكة المزروع فى الطائف له قشرة سميكة بعض الشيء وهو لذيذ الطعم.

التمر: رغم أنه لذيذ الطعم ولزج فإذا ما أكله سكان البلاد الباردة بكثرة وشربوا الماء عقب أكله شعروا مباشرة باضطراب فى القلب فأكله بإفراط مضر.

اللوز: وهو بطئ الهضم لكن منقوعه يمنع الحرارة ويسكن الألم.

الجوز: ويزرع فى الطائف وأكل قدر كاف منه بعد نزع قشرته الداخلية لا ضرر منه ومع هذا فإن أكل الجاف منه مضر فى الأراضى الحجازية.

التوت: يمكن أن يعثر فى الحجاز على التوت الأسود فقط وبما أنه سريع التلف لابد من توخى الحرص عند أكله.

العناب: ويجلب من الشام الجاف المطبوخ منه مفيد لمرضى الصدر، يطبخه أهل جدة ومكة مع الكمون الأسود أو الكزبرة ليتناوله من يصاب بالحمى الصفراء.

البطيخ والشمام: وأكل البطيخ فى الأيام الحارة يرطب الجسم ويسكن فورة الدم وسخونته، ومع هذا فإن الإسراف فى أكله يسبب الانتفاخ والضيق للإنسان.

أما بالنسبة للشمام فإن أكله أحيانا يسبب تعبا فى القلب، لذا لا يصح أكله طالما أنه غير ناضج.

البرتقال: رغم أنه يزرع فى الأراضى الحجازية منذ عدة سنوات إلا أن أغلبه يجلب من مصر وأكل ثمرته أمر طيب وشرب عصيره فى أوقات القوة والصحة لا مثيل له فى خفض الحرارة وإزالة جفاف الحلق وتنقية الدم.

الليمون: ويضاف إلى الأطعمة المناسبة له ويعمل منه عصير الليمون ويشرب. ولكن الإفراط في أكل الليمون الحلو ضار.

الليم: نوع من النارنج، وفير الماء حامض الطعم وتختص به مكة المكرمة ويستعمل بها بدلا من الليمون.

وليكن معلوما لدى الذين يشربون «الليمونادة» المعمولة من الليم أن هذا المشروب أفضل من عصير الليمون من حيث الرائحة وملائمته للمعدة. وعند عصره ينزع قشره الخارجي وإذا لم ينزع القشرة تزيد من مرارة الشراب.

الرمان: وفائدته كبيرة إذا ما شرب معصورا سواء المر منه أو الحلو، فشراب المر منه يرطب الدم ويسكن السخونة. ومع هذا فإن أكل الحلو منه ببذوره يفسد المعدة.

الموز: ويشبه فى الطول والعرض الخيار الروسى الطازج والذى يسمى الخيار البرى أفضله ما يزرع فى الأراضى اليمنية. والموز الذى يزرع فى منطقة الحجاز ويستساغ أكله بعد نزع قشرة الناضج منه مع السكر. الإفراط فى أكله مضر لصعوبة هضمه.

الخيار: ملين وملطف وأكله أثناء الطعام مع السلاطة فاتح للشهية.

العجور: وهو من فصيلة الخيار وتأثيره يشبه تأثير الخيار ويستعمل الطازج منه فى جزيرة العرب فى «السلاطة» مثل الخيار ويؤكل بعض أنواعه مطبوخا مثل القرع.

ويصنع منه نوع من المحشى، لكن نظرا لصعوبة هضمه، فالإكثار من تناوله ضار بأهل البلاد الباردة.

الهندباء: أحد أنواع الخضر في مكة المعظمة، وطعمها لطيف وهضمها سهل وجيد، ورغم مرارة مذاقها بعض الشيء عند أكلها فإنها تكسب المعدة قوة لأنها تساعد على هضم الطعام.

الخرشوف: رغم حداثة زراعته فى حدائق الطائف فإن أهل مكة يعتبرونه من الخضر وهو مستساغ الطعم. وإذا طبخ جيدا يلذ مذاقه ولا ضرر منه لسرعة هضمه.

البامية: وهى ملينة وإذا طبخ الطازج منها بطريقة جيدة لا ضرر من أكلها وذلك

لسرعة هضمها. ولا تخلو منها مكة المكرمة صيفا وشتاء وهى مستساغة بين أهل مكة.

الكرفس: إذا طهيت جذوره وأوراقه بشكل جيد يكون طعمه مستساغا وسريع الهضم.

الفاصوليا الخضراء: وهضم الطازج منها ليس عسيرا وإذا طبخت بطريقة جيدة فأكلها شهى جدا.

السلق: يجب الحذر من أكله بسبب بطء هضمه.

الجزر اليمانى: هو الخضار المعروف باسم «الجزر اليمانى» وبما أنه يحتوى على مادة الدقيق لذا يشعر الإنسان بالشبع عند أكله. ويؤكل مسلوقا أو مطبوخا وفى كلتا الحالتين يشبه مذاقه مذاق الكستناء. ومع هذا فإن الإكثار فى أكل النوع البرى منه المسمى «جزر المدينة» يوجع البطن لأنه بطئ الهضم.

الباذنجان: بما أنه بطئ الهضم فهو يسبب عسر الهضم، لذا وجب التحرز من أكله فى الأراضى المباركة.

الفاصوليا الجافة والفول الجاف: والحبوب المذكورة إذا أكلت قبل طهيها جيدا تسبب الانتفاخ فى البطن وعسر الهضم، كما أن أكلها مطبوخة يسبب الرياح لذا أكلها فى الأراضى الحجازية ضار.

الفجل: رغم أنه مهضم إلا أنه مدر للبول ومسبب للرياح لذا فأكله بكثرة مضر حتى لو كان فى «السلطة».

شبت: مصلح للمعدة، إذا أضيف إلى أى نوع من الأطعمة يكسبها نكهة لذيذة ورائحة طيبة. ويساعد على سرعة الهضم لأنه يفقد خواصه عند طبخه يجب إضافته إلى الطعام بعد طهيه.

الثوم: رغم أنه عند طبخه يساعد على هضم الطعام؛ إلا أن رائحته قوية ولا

تزول بسرعة. كما يحظر أكله فى المناطق الحارة وذلك لأنه يكسب الجسم حرارة عند تناوله.

الكمون: عندما يضاف إلى الأطعمة فإنه يقوى المعدة ويفتح الشهية.

أسباب ظهور الأمراض فى مكة المفخمة

فيما مضى كان الحجاج الذين يأتون مع المحمل الشامى ينصبون خيامهم بجانب الآبار التى فى طريق العمرة، كما كان حجاج المحمل المصرى ينصبون الخيام فى السطح أى المسطح الذى أمام الموقع المسمى «الشيخ محمود»، وكانوا يتركون فى الميدان مخلفات الأغنام التى يذبحونها مكشوفة، كما كانوا يتركون بين الخيام جيف الإبل والخيول التى تنفق من المرض والتعب فى أثناء الطريق.

وكان الحجاج الذين يهبطون إلى منى لرمى الجمرات فى أثناء عودتهم من عرفات يتركون مخلفات الأضحيات فى المكان المخصص للذبح أمام الخيام، وأما من يذبحون الماعز فكانوا يتركون أجساد الماعز كاملة فى المكان الذى كانوا يذبحونها فيه وكانوا يتركون جيف الإبل التى تنحر خلف الجمرة الكبرى فى مكان نحرها وعند ما يتفق وجود الفضلات المتراكمة والقمامات من جيف الحيوانات وسط الخيام المنصوبة بين طريق العمرة وساحة «الشيخ محمود» كان المارة يعجزون عن المرور بسبب الرائحة الكريهة المنبعثة منها، ويصاب أغلب سكان الخيام بالأمراض مثل الصداع والغثيان. ولهذا كان الحجاج المساكين يعانون بجانب شدة الحرارة من تعفن جثث الأضحيات الملقاة هنا وهناك بين الخيام، وهذه الحالة الكئيبة يعجز القلم عن وصفها.

وهكذا كان الحجاج يتعذبون ثلاثة أيام مدة مكثهم فى منى. ولا يخلون من الشعور بالغثيان ويظلهم الخوف والتفكير فى الموت.

ولما كان المراد أن يقضى الحجاج الكرام فى هذا المكان الكئيب الموبوء الأيام الثلاثة فى صفاء الخاطر وطمأنينة، وأن يؤدوا مناسكهم فى هدوء بال وراحة وأن يصانوا من المخاطر القاتلة، اقترحت بعض الجهات المهتمة بالأمور ـ نتيجة

للتصور الحكيم السابق أن يحفر بجانب كل خيمة بئر يلقى فيها مخلفات الأضحيات ثم تغطى بعد ذلك؛ ولكن هذا الاقتراح لم يحظ بالقبول بين جماعات الحجاج ـ لأنه من قبيل ـ التكليف بما لا يطاق ـ ورفضوه قائلين إننا لن نظل هنا بصفة دائمة.

وقد فطن فى النهاية إلى أن الإصابة بالعلل الضارة مثل: الحمى والغثيان والصداع كان نتيجة لعدم الاهتمام بالأمور الصحية وعدم المبالاة بالنظافة والطهارة.

لذا كان من الإرادة السنية العادلة الكثيرة المحامد أمر السلطان «عبد المجيد» ـ جعل الله مثواه الجنة ـ أن تحل جميع المشكلات التى يشاع وقوعها فى أثناء موسم الحج، وأن يبحث عن حلول مناسبة للقضاء على جميع متاعب الحجاج الكرام الطالبى المغفرة.

وبما أن أغلب الحجاج ـ فى زماننا ـ يذهبون لأداء فريضة الحج عن طريق البحر فقد قل عدد الحجاج المشتركين فى قوافل المحامل، كما أنه قد تم حفر كثير من الحفر فى أماكن الحجاج بين طريق العمرة وميدان «الشيخ محمود»، ودفن فيها مخلفات الأضاحى المذبوحة فى «منى» عند العودة من «عرفات» ابتداء من سنة ١٢٦٧ هـ، وهكذا خلت أماكن تجمع الحجاج من المخلفات التى كانت تفسد الهواء فى الماضى.

والآن قد اختفت تماما آثار التعفن ولم يعد لها أدنى أثر فى أماكن تجمع الناس فى مدينة مكة المعظمة، فى عهد السلطان ـ ظل الله على أرضه ـ واستراح الحجاج المسلمون وسكان البلد الأمين من المنغصات، وأصبحوا فى مأمن من كل الأمراض.

ومع هذا فإن أغلب الحجاج الذين يتوجهون لأداء فريضة الحج جهلة لا يعرفون أن كل ما ينفق فى سبيل زيارة أراضى الحجاز المقدسة تعد بمثابة صدقة. كما لا يعرفون أن الإقامة فى الأماكن المكشوفة الجيدة التهوية للمحافظة على

صحة الأبدان، قدر المستطاع والاهتمام بنظافة أماكن إقامتهم وتطهيرها من القاذورات من الأمور التى أوجبها دينهم.

ونتيجة لهذا الجهل وطمعا فى تقليل النفقات يستأجرون غرفا صغيرة ضيقة، ويسكن سبعة وثمانية منهم فى هذه الغرف السيئة التهوية، حيث لا يستطيعون أن يتنفسوا إلا بصعوبة، ويأخذون فى طهى طعامهم فوق «الكانون» وهم أحرص الناس على شراء العطور والهدايا التى سيحملونها إلى بلادهم.

نعم يطبخون ويرمون فضلات أطعمتهم أمام الباب لكنهم يغفلون عن أن هذه الفضلات ستفسد بفعل الرطوبة وتصيبهم بالعلل والأمراض فيمرض الواحد منهم تلو الآخر. وهكذا يحرمون من زيارة أكثر الأماكن المقدسة.

إن ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف من لحظة لأخرى ورائحة الطعام المطبوخ فوق «الكانون» فضلا عن حرارة الموقد كل هذا يجعل الغرف تلتهب مثل الآسن المسلوق، ومع زيادة آثار الروائح العطرية والماء القذر الذى يسكب أمام الأبواب، مع القاذورات التى تتراكم بعضها فوق بعض تفسد وتتحلل بتأثير الرطوبة فتزيد عفونة المكان، فتنتشر جميع أنواع الحمى وكل الأمراض الضارة وسرعان ما تنتقل العدوى من أحد المقيمين فى هذه الحجرات إلى زملائه فيمرضوا كلهم دفعة واحدة ويعانون من قسوة المرض.

وبناء على هذا الوصف فإن مكة المعظمة لا تخلو فى أى وقت من الأوقات من الحمى، ويلزم أن يتعرض أكثر الحجاج لهذا المرض ويصبحون على مشارف الموت. إلا أن هواء هذه البقعة المقدسة جاف ونقى وصحى لذا، فمن النادر أن يتطور المرض تطورا شديدا فيتحول إلى الحمى المهلكة كما يحدث فى الأماكن الرطبة، وذلك بلطف الله وفضله.

وبالرغم من أن أمراض الرقعة الحجازية السعيدة كلها من أنواع الحمى؛ فإن هذه الأمراض تنتشر فى أوقات الجفاف عندما يقل معدل هبوط الأمطار. وعلى العكس من هذا إذا انهمر المطر بغزارة وتصادف معه ظهور الأمراض فإن المطر

يقضى عليها لأن المطر عندما ينزل كالرذاذ يبلل القمامات والمخلفات المتراكمة حول الأحياء السكنية، فتتخمر بتأثير الحرارة وتتصاعد منها أبخرة ضارة وعندما تغيب الشمس فإن المواد الضارة المذكورة تهبط فى الليل على هيئة الندى فتصيب الذين يتعرضون لها بالعلل والأمراض.

ولكن إذا ما انهمر المطر بغزارة فإن السيل الناجم عنه يدفع القمامات والمخلفات المتراكمة من الطرقات إلى أماكن بعيدة ولا يبقى أثر للعفونة. كان فيما مضى ناحية «المعلى» حوض كبير قديم خرب يسمى «بركة مصر» وكان هذا الحوض الواسع جديراً بأن يسمى منبع مرض الحمى، فقد كانت قمامة البيوت والحوانيت الموجودة بجواره وجثث الحيوانات النافقة مثل الإبل والخيل والقطط والكلاب التى تهلك فى المناطق القريبة منه تلقى فى هذا الحوض، وأصبح هذا الأمر بمثابة العادة المرعية لدى الناس؛ لذا كلما هطلت الأمطار تتراكم المياه فى الحوض وتؤدى بتأثير حرارة الشمس إلى تحلل الجيف وتتصاعد منها رائحة العفن، وتنتشر الأبخرة فى كل الأماكن مما يفسد نقاء الهواء وصفاء الجو فى تلك المنطقة ويكون سببا في ظهور الأمراض القاتلة.

ولما كان مصطفى جامى باشا ـ المغفور له صاحب التصانيف التى لا حصر لها ـ ياورًا فى إمارة الحجاز، قام بسد الحوض المذكور ومقالب القمامة القريبة منه وملأها بالحجارة والتراب، واقتلع تماما الأسباب التى تؤدى إلى ظهور كل أنواع الأمراض، التى يروى أنها تظهر فى مكة المكرمة متبعا القواعد الصحية فى هذا ولهذا لم يبق في الأرض العطرة لكعبة الله أى من الأسباب الظاهرة التى تؤدى إلى انتشار الحمى وكل أنواع الأمراض.

نصائح لمن يذهبون إلى الحجاز:

أن يكون طعام الإنسان وشرابه ولبسه وتنزهه ونومه وقيامه يوافق عادات موطنه الذى تربى فيه، بل إن مزاجه وميوله وطباعه تكون متوافقة لهواء هذا الموطن. وبناء على هذا عندما يغادر الإنسان المكان الذى ولد فيه وعاش وتربى

فيه فعليه أن يتخذ الاحتياطات التى تنجيه من المخاطر والمهلكات، وأن يحرص على قضاء مدة رحلته بالشكل الذى اعتاده جسمه فى وطنه لأن جسمه قد يضطرب بسبب التغيرات التى سيتعرض لها.

واتخاذ كل الإجراءات السابقة أوجب بالنسبة للذين اتجهوا محرمين إلى أرض الحجاز أرض المغفرة، حتى لا يقضى على آمالهم وحلمهم بالحج إلى الأراضى المقدسة تعريضُ أنفسهم للأمراض المهلكة.

وبعض الأشخاص من أهل البلاد الباردة لا يراعون اتباع التوجيهات المذكورة فى تلك المناطق فيعرضون للإصابة بكل صنوف الأمراض والعلل فى الأراضى الحجازية المباركة، وبالتالى يعجزون عن زيارة الأماكن المقدسة.

ويتعرض المسافرون إلى أرض الحجاز لتعب شديد، لأنهم عزموا على زيارة بلاد لم يمروا بها من قبل عن طريق البحر أو البر، بلاد يتعرضون فيها لتقلب الجو برودة وحرارة ويضيقون ذرعا كذلك من كثرة النوم أو قلته.

أما بالنسبة للطعام فإن الحجاج يعانون مشقة فائقة يعجزون عن الحفاظ على صحة أبدانهم؛ وينجم عن هذا الأمر تغيرات كبيرة وخيمة فى أبدانهم مما يؤدى إلى اضطراب أمزجتهم وفساد أمعائهم، وبما أن كل إنسان ينام ويستيقظ وفق نظام اعتاده فى بلده ويأكل ويشرب حسبما يرغب إلا أنه فى هذا الطريق يتعرض لحرارة لم يعتدها فى بلده ويظل لمدة عشرين أو ثلاثين يوما على التوالى يأكل الجبن والزيتون وما شابههما من أنواع الطعام فعليه أن يراعى ما اعتاده.

عند وصول الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة من الطبيعى أن يستفيدوا من جودة الهواء ونقائه، لكن لانعدام المعلومات عندهم عن طبيعة المنطقة الحجازية وجوها، واستغراقهم فى العبادة بشكل مبالغ فيه يفوق التحمل وبتناولهم الأطعمة الضارة بهم والفواكه المتنوعة بدون نظام فإن ذلك يسبب أضرارا كثيرة للحجاج ذوى الابتهاج ويعرضهم للأخطار.

وقد ثبت فى الآثار الصحيحة والأخبار المتوافرة تضاعف ثواب أداء العبادات

فى الحرمين وتزايد ثوابه ولما كانت عبادة الله الواحد الأحد تعتمد على صحة الجسم يلزم الحفاظ على صحة الجسم وقوته للمواظبة على أداء العبادات.

وبناء عليه يجب على الحجاج الكرام أن يحملوا معهم ملابس مناسبة لجميع الأجواء، وأن يرتدوا من الملابس ما يناسب طقس كل مكان يحلون فيه، وأن يبذلوا عناية فائقة للحفاظ على أبدانهم حتى لا يصابوا بالمرض المفاجئ فى أثناء ذهابهم أو عودتهم.

ويجب عليهم أن يأخذوا معهم أشياء مثل: الحبوب الملينة والأدوية القابضة للإسهال وأنواع الشاى وزهور التليو وأن يواظبوا على شرب الشاى فى الصباح والمساء فى البر والبحر.

وإذا أمكنهم المواظبة على تناول الماء والأطعمة المطبوخة صباحا ومساء يجب ألا يمتنعوا كما اعتادوا ذلك فى بلادهم.

وإذا حدث نوع من الإسهال أو الإمساك بتقصير الجسم فى وظيفته الطبيعية يجب أن يقضى على أسبابه قبل أن تمر ٢٤ ساعة.

وإذا شعر الحاج بالتدهور فى صحته على الباخرة بتأثير البرودة أو الحرارة يجب عليه أن يدخل القمرة فورا، ولا يلتفت إلى الأموال التى سينفقها فى استئجار القمرة محافظة على صحته، أليس هذا أفضل من ضياع صحته فلا يستطيع تحقيق أمله فى أداء فريضة الحج، إن النقود التى تنفق من أجل المحافظة على صحة الجسم والبدن تدخل ضمن المبالغ التى تدخر لأداء فريضة الحج كما سبق أن ذكرناه من قبل.

ولا يتطرق أدنى شك إلى الحاج فى أن الحافظ والحامى الحقيقى هو «الله عز وجل»، لكن الأخذ بالأسباب فى كل شىء شرط أساسى؛ لذا يجب بعد الإحرام الامتناع عن النوم فى العراء، وعند الوصول إلى جدة يجب عدم تناول الأطعمة بلا داع.

ويجب للحفاظ على صحة المعدة وسلامتها سلق اللحم فى الماء وتناول حسائه والامتناع عن تناول الفاكهة التى لا يوجد منها فى وطنه، ويجب أن يحترس فى كل الأحوال من الإفراط فى أكل الأطعمة مثل البلح والفطائر.

وبمجرد أن تظهر علامات المرض على الجسم أو المعدة يجب عليه أن يسرع فورا وبلا تراخ إلى الأطباء المتخصصين والذين لهم دراسة بمياه تلك المناطق وهوائها والانصياع بعد ذلك لنصائحهم.

وعند الخروج للطريق للذهاب من جدة إلى مكة المعظمة يجب على الحاج المداومة على تناول الماء والأرز واللحم المقلى، ويجب الاحتراس والتريث أثناء ركوب الجمل أو النزول منه حتى لا يؤلم أحد أطرافه أو يصيبها بأذى.

وعندما يتيسّر الوصول إلى مكة المكرمة يتحلل من الإحرام بعد الانتهاء من أداء شعائر الطواف والسعى.

وحسب عادات هذه البلدة يقيم السادة الأدلاء والسقاة مأدبة.

ولأن هذه المآدب قد تكون ضارة بالحجاج لما تحتويه من أنواع الطعام الشهية والتى يعدونها على أكمل وجه؛ يجب الاحتراس من تناول الأطعمة مثل الفطائر والحلوى والأطعمة التى تحتوى على دهون زائدة، ويكتفى بتناول أقل القليل منها، وإذا ظهر اضطراب فى معدته يجب عليه أن يحرص على علاج معدته دون إضاعة وقت وذلك بتناول الأدوية المناسبة.

ولأن الإمساك ضار بذوى البدانة لذا يجب عليهم الامتناع عن تناول الأطعمة التى تفسد المعدة والعناية بهذا الأمر أعظم عناية فى هذه البلاد.

ويحدث اضطراب المعدة من تناول مختلف الأطعمة والمشروبات بغير نظام. ولأن شدة الحرارة تعطش الإنسان لذا يجب الابتعاد عن تناول الطعام بلا داع وكذلك عن شرب الماء أكثر من اللازم ويشرب الشاى من حين إلى آخر على ألا يؤدى إلى الإصابة بالإمساك.

وعلى الحجاج ـ ليلا ونهارا ـ الاكتفاء بتناول طعام مفيد للجسم والابتعاد عن النوم تحت الشمس.

ومن الأمور الجديرة بالعناية اختيار حجرات ذات تهوية جيدة وفى الطبقات العليا أو الوسطى من المبنى عند الاستئجار وألا يزيد عدد المقيمين فى حجرة واحدة عن ثلاثة أشخاص، ويجب على الحاج عدم شرب الماء عند العرق وكذلك عدم النوم فوق الأسطح ليلا كما يجب مراعاة المداومة على الاستحمام.

ولأن أجسام المقيمين فى منطقة الحجاز تتعرض للعرق كثيرا ويؤدى هذا العرق إلى ظهور مادة دهنية فوق سطح الجلد. فتنغلق مسام الجلد وتحول دون خروج العرق إلى سطح الجلد.

وبالتالى تظهر على الجلد حبوب حمراء دقيقة تؤدى إلى ظهور بثور ممتلئة بالماء.

وحتى لا تتحول هذه البثور الصغيرة إلى قراح (خراج) يجب الاستحمام مرتين أو ثلاث مرات على الأقل فى الأسبوع والاهتمام بتغيير الملابس باستمرار.

وطوال فترة الإقامة فى وادى عرفات ومنى يجب الجلوس فى الخيام، وعدم تناول الفاكهة والأطعمة الضارة بالجسم وعليه تجنب السير تحت أشعة الشمس وهذا من الأمور اللازمة للحفاظ على صحة الجسم. وعند الإقامة فى منى لا بأس من الأكل من لحم الأضحية لكن من اللحم المشوى فى السفود بلا دهون وسلق اللحم فى الماء مع الأرز وتجنب أكل اللحم فى الزيت وكل أنواع الطعام الأخرى لضررها ويجب إحضار اللحم الذى يؤكل فى هذا المكان المقدس من عرفات أو من مكة المعظمة لأن لحم الماشية التى ترعى فى هذه الصحراء المباركة يؤدى إلى الإصابة بالإسهال؛ لأن صحراء منى ينتشر بها عشب السنامكى.

ولأن الإنسان يتردد فى الطريق بين الحرمين بصورة دائمة لذا يجب قبل التحرك من مكة المكرمة أو المدينة المنورة إعداد القدر الكافى من اللحم المقلى والأرز ويكون الطعام الذى يؤكل أثناء الطريق عبارة عن ماء اللحم المقلى والليمونادة وما شابههما من أنواع الأطعمة.

ونتعرض فيها لتعريف وذكر لماذا أطلق على البيت المعظم اسم الكعبة وما كانت عليه الأحوال في البلدة المفخمة مكة المكرمة في العصور الأولى.

فى الأزمنة القديمة كانت القاعدة المرعية أنه ممنوع بناء أبنية داخل المدينة المقدسة مكة المكرمة أعلى من البناء الشريف لكعبة الله. وقد سمع من الحجاج الذين يترددون على تلك الأماكن أن من يخالف هذه القاعدة سرعان ما يتهدم ما شيدوه من مبانى ويصير جزازا.

اتخذ هذا المنع حكم الاعتقاد العام بين أهل مكة لذا كانوا يمنعون إقامة أى أبنية ترتفع عن بناء البيت المعظم وقوى هذا الاعتقاد عندهم وأن من يتجرءون على إقامة أبنية تعلو على الكعبة ممن يرفضون هذا الاعتقاد كانوا يرون أن ما يشيدون سرعان ما يتهدم ويصير جزازا.

واستمر هذا الاعتقاد سائدا لفترة بين أهل مكة فى صدر الإسلام أن ابنًا لشيبة بن عثمان ـ رضى الله عنه المنان ـ صعد جبل أبى قبيس، وأمر بهدم المبانى التى رآها أعلى من بناء الكعبة المعظمة، كما أمر بهدم المنزل الفخم الذى بناه محمد بن على بن عبد الله بن عباس أمام الحرم المحترم فى شارع المسعى الشريف، لأنه يرتفع على البناء السعيد للبيت الأكرم. واهتم أهل مكة بالمحافظة على هذا الاعتقاد القديم السائد بينهم بشأن البناء الفخم للبيت المعظم.

وبناء على هذا الاعتقاد لم تظهر فى مكة المعظمة طوال عدة قرون أى مبان تعلو على بناء البقعة المشرفة للكعبة المكرمة. ولأنها ظلت تتميز على كافة الأبنية الموجودة لأزمنة طويلة بعلوها وارتفاعها، لذا أطلق اسم الكعبة على البيت الأعظم. وذكروا أن هذا الاسم الشريف مشتق من كلمة كعب وإذْ يوجد بعض

الرواة ممن يقول بأن تسمية الكعبة يرجع إلى أنها ذات أربعة زوايا أو أنها مرتفعة عن سطح الأرض مثل كعب الرجل، لكن جمهور المؤرخين يصدقون القول الأول. ولأن الكعبة هى أشرف من كل البيوت والقصور الموجودة على وجه الأرض.

كما أنها من ناحية القدم الأفضل والأقدم كان ذلك سبب إطلاق هذا الاسم الشريف «البيت العتيق» على البيت المحترم وهو الدليل المطلق على شرف وارتفاع مكانة هذه البقعة المقدسة لأن البيت العتيق أحد أسماء البيت المكرم.

ويروى الحسن البصرى أن سبب إطلاق هذا الاسم أنه أول بيت أسس ليزوره بنو البشر، وهو عند الإمام مجاهد أن الله حفظه وحماه من الجبابرة الذين أرادوا هدمه وتخريبه، وفى قول قتادة سببه أن الله حفظه من طوفان نوح عليه السلام. وقال الفخر الرازى إن هناك عدة وجوه لاشتقاق هذا الاسم والقول أنه قديم له علاقة بكونه أقدم البيوت على وجه الأرض والسماء، وأن الله قد حفظه من الطوفان وأهلك كل من أراده بسوء وأنه وجد قبل أن يكون لأحد مكان. والله تعالى يعتق من نار جهنم عباده الذين يزورون هذه البقعة المباركة.

وهذه الأقوال وما شابهها من أسباب كانت تقتضى أن يطلق على البيت المحترم اسم البيت العتيق.

وإلى أن انتقل حكم مكة المكرمة من أجداد حضرة الرسول عريق الأصول ذوى المعالى إلى قصى بن كلاب لم يكن فى هذه المدينة المعظمة بيوت أو مساكن. وكما وضحنا فى الصورة الثانية من الوجهة الثانية أنه عندما أصبح ابن كلاب حاكمًا لمكة المكرمة ارتضى بإنشاء بيوت حول الكعبة، وإذا كان رضاء ابن كلاب هذا قد جاء شديد الوطأة على الناس. ولم يجرؤ أهل مكة على بناء منازل بجوار كعبة الله دفعة واحدة رعاية للقاعدة القديمة إلى حد ما فإن عمرو بن السهمى لم يرع هذه القاعدة فَبَنَى لنفسه منزلا خاصا بناه بناء على رأى وتصويب قصى بن كلاب واتبعه آخرون بعد ذلك فى هذه الخطوة الجريئة. وبدأ واحد تلو

الآخر فى بناء بيوت لهم. وسرعان ما أقيمت بيوت وحوانيت كثيرة لا مثيل لها واتسعت هذه المدينة المقدسة وملأها العمران.

الشكل الأول:

لم يكن العمران فى المدينة المقدسة مكة المشرفة عمرانًا دائما، فكانت فى بعض العصور حافلة بالعمران وفى البعض الآخر تعانى من الخواء وتصبح منازلها خاوية مهجورة، وفى أوقات خلوها تكون خالية من الأهالى لدرجة أن حركة البيع والشراء فى الحوانيت التى فى شارع المسعى الشريف تتوقف تماما، فتهبط الظباء من الجبال وتدخل الحرم الشريف ثم تخرج منه بعد الطواف وتعود من حيث أتت، حتى إن قوافل بجيلة لا تجد إنسانا واحدا حتى تبيع له بضاعتها التى أتت محملة بها فتضعها فى مكان ما وترجع.

أما سبب كل هذا الفراغ فيرجع إلى أن أهل مكة لا يستطيعون تحمل ارتفاع درجة الحرارة؛ فيهجرونها إلى الأطراف المحيطة بها.

وتراوحت أحوال هذه البلدة المشرفة بين القحط والرخاء والبركة والغلاء، ولم يكن الأمر فيها يسير على وتيرة واحدة فتارة لا يوجد بها شىء يؤكل وتارة أخرى لا تستوعب الأسواق ما يرد إليها من حبوب ومواد غذائية. ويذكر فى تاريخ القطب المكى أحد مؤرخى مكة وهو يصف ويذكر أحوال مكة المعظمة قائلا: «إنى فى مرحلة الصبا كنت كثيرا ما أرى المطاف السعيد خاليا من الناس فكنت أطوف بمفردى»..، وهو يريد بهذه العبارة الإشارة إلى الفترات التى كانت مكة المكرمة خاوية بشكل ملحوظ، وإلى المعاناة الكبيرة التى قاستها من القحط والغلاء فى الأوقات التى ذكرها القطب المكى، كان أهل مكة قلة قليلة، وكانت النقود المتداولة التى تزين الصناديق نادرة، لذا لم يكن فى حوزة أحد من الأهالى قطعة نقود واحدة، كما انتهت البضائع التى فى الأسواق ولم يكن يوجد فيها شىء من البضائع والأغذية.

واستمرت هذه الحال إلى عام ٩٥٠ هـ وعندما انتقلت الإدارة المقدسة

للحرمين الشريفين إلى سلاطين آل عثمان، بدأ الأهالى المجاورون فى التقاطر عليها يوما بعد يوم فتوفرت الأطعمة والبضائع بالتدبير وأصبحت هذه البلدة المشرفة فى موسم الحج تستوعب كل قوافل الحجاج التى ترد إليها واتسعت أرجاؤها وأصبحت قادرة على إيواء وإسكان كل الحجاج الذين يفدون إليها.

الشكل الثانى:

ما يقصده القطب المكى من قوله «إننى كنت أطوف بمفردى» هو إيضاح أن أجره وثوابه يكون أكبر لكونه يطوف منفردا، والواقع أن الطواف عبادة خاصة فإذا استطاع إنسان أن يوفق فى طواف البيت الأكرم منفردا فلا شك أنه لن يحرم من ثواب كبير يكفى لطواف كل المؤمنين، وخلو الحرم الشريف يكون قاصرا على بنى البشر فقط إنما لا يمكن أن تمر دقيقة واحدة عليه يكون خاليا من تدفق الملائكة الكرام وأصحاب الأجسام الشفافة اللطيفة، ومن الأولياء ذوى الاحترام الذين تخطوا مراتب الزمان والمكان العالية.

ولأن هذه الحال فى الظاهر مخالفة لعادات واعتقاد أهل الاستدلال، فإن كثيرا من الأشخاص قضوا أعمارهم كلها للحصول على لحظة واحدة للطواف بمفردهم حول الكعبة الشريفة.

لما كانت جميع العبادات وأقسام الطاعة الإلهية يشترك فيها الناس، فطواف الكعبة منفردا يعتبر عبادة لله بدون شريك وإذا استطاع إنسان ما أن يطوف الكعبة بمفرده يكون قد عبد الله تعالى بدون أن يشاركه فيها أحد حسب ظاهر الأمر.

حكاية: يروى أن واحدا من الأولياء كانت لديه رغبة حقيقية فى أن يطوف بالكعبة المعظمة بمفرده، وظل يتحين الفرصة لمدة أربعين سنة وفى النهاية وجد المطاف خاليا ذات ليلة فأخذ يطوف بمفرده. وفجأة رأى حية ضخمة تطوف معه فسألها قائلا «من أنت»؟ فأجابته الحية «إننى أتحين الفرصة التى تنتظرها من أربعين عاما بمائة عام من قبلك.

فأجابها الرجل الصالح: «أنت لست من بنى البشر لذا أعتبر من المحظوظين بنيل هذه الأمنية، ثم أكمل طوافه.

ينقل أهل مكة هذه الحكاية ويروونها بشكل آخر فيقولون إن عبد القادر الجيلانى ـ قدس الله روحه ـ ظل يقيم بجوار العمود الأحمر الواقع أمام باب الزيارة لمدة سبع سنوات، حتى يتمكن من الطواف بمفرده ولم يستطع أن يبلغ مراده طول هذه المدة وفى النهاية حدث سيل عظيم وبلغ ارتفاع الماء داخل المطاف السعيد حوالى ثلاثة أذرع، ووجدها القطب الجيلانى الوقت المناسب لتحقيق أمنيته وبدأ الطواف سابحا لكنه رأى ثعبانا كبيرا يطوف معه سابحا فتأسف قائلا» وأسفاه لم أتمكن من تحقيق أملى».

ويروى محيى الدين بن عربى فى المسامرات نقلا عن طلق بن حبيب رواية قريبة من هذه الرواية، يقول ابن حبيب بينما كان يجلس معه عبد الله بن عمرو بن العاص فى الحجر العظيم بدأ فجأة ظلام شبح داخل الحرم الشريف وأثار الموجودين فيه، وإذا بثعبان عظيم دخل من باب شيبة، واتجه نحو البيت الأكرم، وخاف الذين شاهدوه وأفسحوا الطريق أمامه، فطاف الثعبان سبع مرات ثم وقف خلف مقام إبراهيم مدة أداء ركعتين ثم بعد ذلك انصرف إلى جهة، واقترب ابن حبيب وعبد الله بن عمرو بن العاص من الثعبان وقالا: أيها المعتمر تقبل الله نُسُكَكَ وعبادتك، فى بلدتنا بعض السفهاء ونحن ننذرك من عدم حذرك شرهم.

ما إن قلت هذا حتى راح واختفى فى طرفة عين ولم يعد له أى أثر وما كان الطواف حول الكعبة المشرفة للبشر وحدهم بل للحيوان كذلك، كان يطوف طبق أصول مرعية.

(الإمام الأزرقى).

ولكى يثبت هذا الأمر فى تاريخه المسلسل الذى كتبه عن أحوال مكة، يذكر صورة غريبة نقلها عمن رأوه يطوف بالبيت المحترم كما يطوف الناس.

طواف طائر بالبيت المعظم:

يقول الإمام إنه فى يوم السبت السابع والعشرين من شهر ذى القعدة فى العام السادس والعشرين بعد المائتين من الهجرة بينما الحجاج يطوفون فى وقت السحر إذا بطائر عجيب الهيئة يخطف البصر يدخل الحرم الشريف للمسجد الحرام مع طلوع الشمس عن طريق أجياد الصغير ويحط بجوار أحد قناديل زمزم الشريف الذى يقع بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم، ويظل واقفا لمدة طويلة وأكثر الظن أنه من طيور البحر، وبعد ذلك طاف وحط فى مكان بين الحجر الأسود الذى فى الكعبة والركن اليمانى، ولكنه كان أقرب إلى الحجر الأسود. وكانت أجنحة هذا الطائر سوداء ممزوجة بالحمرة، وكانت قدماه طويلتان دقيقتان وكذلك منقاره وعنقه. وطار من المكان المذكور يحط فوق كتف حاج يقف بمحاذاة الحجر الأسود ثم طار من فوق كتفه ليحط فوق الكتف الأيمن لحاج من حجاج خراسان. وبما أن الخراسانى كان محرمًا أخذ يلبى بصوت مرتفع وعند اللزوم يجرى ويدور فى وسط الحجاج.

وظل الطائر فوق كتف الخراسانى غير خائف من الحجاج وكان الحجاج الذين يطوفون مع الخراسانى ينظرون إلى تصرفاته بتعجب أما الطائر فكان يزداد سكونا وهدوءا رغم ازدياد تعجب الناس ودهشتهم، ويبدو أن حال الطائر قد أثر فى الخراسانى لأن المسكين كان يطوف ويبكى والدموع التى تسيل من عيونه تبلل لحيته وتسقط على الأرض.

قال محمد بن أبى عبد الله بن ربيعة الذى رأى بنفسه هذا الحادث الغريب: «لقد رأيت ذلك الطائر فوق الكتف الأيمن للحاج الخراسانى وكان الناس يتدافعون لرؤيته. أما هو فلم ينفر ممن يتفرجون عليه بل أنه لم يُولِ لهم أى اهتمام.

وكنت فى ذلك اليوم من الطائفين وكنت كل سبع مرات من الطواف أصلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ثم أستأنف الطواف حتى أكملت واحدا وعشرين

شوطا حول الكعبة، وكنت فى كل مرة أرى الطائر فوق كتف الخراسانى، ومد أحد الطائفين يده ليلمس الطائر لكنه لم يطر، وفى النهاية طار من تلقاء نفسه واستقر فى مكان بالجانب الأيمن من بناء المقام الشريف، وحشر منقاره تحت جناحه ووقف لفترة طويلة، واجتمع الناس حوله ليتفرجوا عليه وفجأة مد أحد أغاوات بيت الله يده وأمسك به ليريه لأحد أصدقائه، فخاف الطائر وصاح صيحة مفزعة، وكان الصوت لا يشبه صيحة الطائر.

وفزع الرجل من صوت الطائر وأطلقه فطار الطائر وحط فوق العمود الأحمر القريب من دار الندوة، ثم طار من بين باب «زيادة الندوة» وباب العجلة فتوجه إلى نواحى جبل قعيقعان.

طواف الجن:

جاء فى رواية أبى الطفيل المدرجة فى كتاب المسامرات، أن الكعبة كانت مطافا للإنس والجن قبل البعثة النبوية قال: كانت امرأة من الجن ساكنة فى الجاهلية فى مكان يسمى. «ذى طوى» ولم يكن لهذه المرأة سوى ابن واحد فقط وربت المرأة المذكورة ابنها حتى كبر وأصبح من أشراف القوم وتزوج، وبعد سبعة أيام من ليلة زفافه أراد أن يدخل مدينة مكة المعظمة ليطوف بالبيت العزيز.

وأرادت الأم ألا تأذن لابنها بالذهاب فقالت «يا ولدى إننى أحفظك من سفهاء» قريش وأضن بك» ولكنها فى النهاية سمحت له استجابة لتوسلاته، وبما أنها كانت تحب ابنها حبا جما ولن تستطيع على فراقه صبرا فقالت.

أعيذه بالكعبة المستورة ودعوات ابن أبى محذورة

وما تلا محمد من سورة إنى إلى حياته فقيرة

وإننى بعيشه مسرورة

وما أن أخذ الابن الإذن من والدته وسمحت له بالذهاب حتى تحولت هيئته إلى جنى وتوجه إلى الحرم الشريف، وبعد الطواف عاد من طريق حى «بنى

سهم» فقابل فى الحى المذكور رجلا أحمر الوجه أحول العينين، مفتوح الحاجبين، أعسر اليد فقتله بدون وجه حق.

وعندما علمت الأم بقتل ابنها وموته دعت أبناء قومها وشرحت لهم الأمر، وحرضتهم على أهل مكة فانطلق داخل مكة فجأة ضجيج مدو وغمر المدينة تراب كثيف ودخان أسود واختفت تحته كل البيوت والجبال، فلم يعد يرى شىء.

وكانت طوائف الجن وراء هذا العمل، ضد قبيلة «بنى سهم» حتى إن رجال هذه القبيلة كانوا يموتون فجأة وهم فى فرشهم.

وأخيرًا أدرك ما يقرب من سبعين شيخا أولى بأس لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم حقيقة الأمر، فجمعوا أفراد قبائلهم وصعدوا الجبال وظلوا هناك ثلاثة أيام متتالية، مشغولين بقتل كل ما يرونه من الحيات والعقارب وسائر الحيوانات المؤذية وفى الليلة الثالثة سمعوا نداء من فوق جبل أبى قبيس يقول:

الإنصاف يا معشر قريش أصلحوا بيننا وبين رجال «بنى سهم» فقد قتل رجال القبيلة المذكورة الغالبية منا. بناء على هذا النداء عقد أكابر قريش صلحا بين «بنى سهم» وقبيلة الجان وأخذوا من كل واحد فيها العهد والميثاق على الآخر بألا يتعدى أحد على الآخر، وقد أطلق بنى سهم على هذه الواقعة اسم عياطلة.

* * *

التعريف بحدود كعبة الله بالفضائل الجليلة لمكة المكرمة

اتفق جمهور العلماء على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق البلدة المفخمة مكة المعظمة، كما خلق المدينة المنورة، وهما أفضل من كل بلاد الدنيا وممالكها وبالتالي فليس هناك بلد على وجه الأرض أجمل وأشرف من هاتين المدينتين المشهورتين.

يقول القاضي عياض في مؤلفه «الشفاء الشريف»: إن المدينة المنورة دار حضرة صاحب الرسالة هي أفضل وأشرف من كل البلاد والممالك ومن بعدها البلدة المفخمة «مكة المكرمة» وهو بهذا القول يريد أن يرجح «المدينة المنورة» على «مكة المعظمة» جاعلا حجته بأنها تضم قبر الرسول.

نظم

جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاط ذات المصطفي وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت مأواها

وإذا كان هناك من يؤيد القاضى المشار إليه فى هذا الشعر الصحيح المعنى، إلا أن علماء السلف يختلفون فى تحديد صحة هذه المشاركة أى فى ترجيح كفة أى من «مكة المشرفة» والمدينة المنورة على الأخرى.

فيرى الإمام الأعظم أبو حنيفة والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل وكل التابعين لهم، أن الحديث الصحيح القائل «بأن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، والصلاة فى المسجد

الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى مسجدى» هذا يعنى أن مكة المكرمة أفضل من المدينة المنور.

ويقولون إنها أفضل لأن ماء الحياة الطاهر تفجر من هذا المنبع، وأن نور الإسلام الذى أشرق على الكون من ذلك البرج الرفيع انتشر وأضاء ولقد أنعم خالق الكون على هذه البقعة المقدسة بكثير من الفضائل الجليلة والخصال الحميدة.

كما أن المسجد الحرام سيد كل المساجد، وكما أن موضع الكعبة المباركة قبلة الأحياء والأموات وهى سيدة كل البيوت المقدسة. وهو مهبط الوحى الجليل ومجمع الأنبياء وفيه دفن الرسل والأنبياء كما أنه يفضل كل البلدان بموجب الآية الآتية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (سورة آل عمران: ٩٦).

وفى هذا المقام لا تستطيع أن تستبعد هذا السؤال الذى قد يجول بذهننا وهو هل يمكن الجمع بين هذه الآية الكريمة والآية العظيمة ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٥).

بمعنى أن ملكية البيت المعظم أضيفت إلى الناس فى الآية الأولى وفى الثانية أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا أمعنا النظر فى هذا الموضوع وفكرنا قليلا يمكننا الإجابة على هذا السؤال على النحو الآتى:-

كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يشير فى هاتين الآيتين إلى الآتى: «أيها المؤمن الموحد إذا كان البيت الحرام هو بيتى فإننى لم أضعه ولم أقمه لنفعى لأننى لست بحاجة إليه بل إننى وضعته لك أنت حتى يكون قبلتك عندما تتوجه إلى بالدعاء.

ويذكر البيت الشريف فى الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ (سورة آل عمران: ٩٦) بلفظ مبارك ويفهم من هذا أن للبيت الأكرم أفضال أكثر من أى بيت.

ويقول سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ «ومن دخله كان آمنا» أنه أول مكان اختصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالأمان وبالبركة ويقول الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ إن البيت الأكرم هو أول بيت خلق للعبادة على وجه الأرض ويقول الإمام مطرف إن البيت المحترم جعل أول قبلة للناس.

وكل هذه الأقوال تؤكد أن فضائل الكعبة المعظمة لا تعد ولا تحصى.

وفى الآية الكريمة ـ سالفة الذكر ـ كلمة «مبارك» الشريفة وهذا اللفظ الجليل يعنى أن هذه البقعة الشريفة مباركة إلى الأبد وأن بركتها فى تزايد مستمر فى كل لحظة وفى كل زمان وستدوم إلى الأبد.

ولأن الماء يدخلها باستمرار يشبهونها بحوض ماء العرض الإلهى، من استخدام لفظ البركة وتشبيه البيت الأعظم بالحوض هو الإخبار عن دوام وبقاء وزيادة ونمو خيرات بيت الله والفضائل التى تدل على ذلك لا حدود لها وإنه بركة ونمو وتزايد.

وفضل الطاعة والعبادة بها يفوق أداء الطاعات والعبادات فى بقية البلدان وهذه الزيادة سمة جليلة يختص بها البيت الحرام.

هناك أحاديث كثيرة تفيد هذا المعنى والأحاديث الآتية التى سنذكرها تبين اثنان منها تزايد بركة الصلاة، والآخران يبينان تزايد بركة الحج. وهذه الأحاديث هى قوله ﷺ فيما معناه.

«أن فضل المسجد الحرام بالنسبة لمسجدى هذا كفضل مسجدى على سائر المساجد» و «أن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه» و «من حج فلم يفسق ولم يرفث خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» و «وأجر الحج المبرور الجنة» (حديث شريف).

وعلى هذا التقدير يجب علينا أن نتصور أن المؤمنين الذين يقفون للصلاة جاعلين الكعبة الشريفة نقطة التوجه ويحيطون بها فى صفوف متلاحقة، يجب

أن نتخيل ونتذكر أن المسلمين فى جميع أنحاء العالم، متوجهين إلى تلك النقطة للصلاة فيزيد من عدد الصفوف فى أذهاننا قدر ما نستطيع.

بناء على هذا الحساب فإن الدوائر التى تحيط بالكعبة تخرج عن حصر عددها. وإن بين هؤلاء المحيطين بالكعبة مكان وجود بعض الصالحين المتوجهين نحو كعبة المعرفة.

لذا يجب على كل مصل عندما يقف للصلاة أن يعرف أنه يقف بين كثير من أولياء الله الذين يتجهون بقلوبهم إلى كعبة المعرفة، بينما يتجهون بأجسادهم لتلك النقطة المحسوسة، وعليه أن يستفيد من أنوار أرواحهم العلوية.

إن هؤلاء الذوات الذين أردنا أن نحترمهم يتمتعون بنيات منيرة وقلوب وضمائر مقدسة طاهرة، وأنهم بأجسادهم الظاهرة يتوجهون إلى تلك النقطة الموهومة أى الكعبة المشرفة بينما تتجه أرواحهم الضالة إلى كعبة المعرفة.

وأى إنسان نالت روحه فضل الاتصال بهذه الأرواح النيرة تزيد فى قلبه الأنوار الإلهية، وتعظم فى أعماقه لمعات احتوائه للروحانية وأسرارها، وهذا أكبر دليل على أن بيت الله مكان مبارك، بما يحتوى من أسرار الهيبة وبقاؤه دائم وأبدى.

لأنه لا يخلو لحظة من العاكفين والساجدين والراكعين من الموحدين المؤمنين. وفى كل لحظة وآن يتجه الناس إلى كعبة الله للصلاة وقد قرر بقاؤه منذ أن خلق.

إذا ما تناولنا بالبحث لفظ «هدى» فكعبة الله كانت هدى للعالم بصورتين.

الصورة الأولى: أنها قبلة العالم التى يهتدى إليها فى الصلاة أو دلالتها على وجود صانع مختار، وصدق نبوة نبى الله، أو أنها تهدى إلى جنة الفردوس لأن الصلاة التى تؤدى بالتوجه إلى ناحية الكعبة الشريفة تدخل الجنة.

الصورة الثانية: لأنها تحتوى على الآيات البينات، وإن كان المقصود بالآيات

البينات أن كل من وجد فى داخل حدود حرم كعبة الله المحرمة يتمتع بالأمن والذين يهتكون حرمة بيت الله يهلكون. . إلا أن الآيات المذكورة عبارة عن مقام إبراهيم عليه السلام.

وإن كان المقام الشريف قطعة من الحجر، إلا أنها تجمع كثيرا من الآيات من هذه الآيات وجود آثار أقدام خليل الله فوق قطعة الحجر، وانغراس قدميه الشريفتين فى هذا الحجر إلى الكعبين.

وبقاؤه محفوظا آلاف السنين خلافا لمعجزات الأنبياء الآخرين، رغما على وجود كثير من الأعداء مثل اليهود والنصارى والمشركين والملحدين وكل ما ذكرناه من الآيات العجيبة الخاصة بالمقام الشريف، يدل على أن المقام الشريف يشتمل على آيات كثيرة.

هناك ثلاث روايات عن مقام إبراهيم

الرواية الأولى: عندما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يبنى الكعبة، استخدم حجرا كسقالة وقد طبع عليه آثار أقدامه.

الرواية الثانية: عندما ذهب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الشام للحجاز لرؤية ابنه إسماعيل غسلت زوجة ابنه قميصه وهو واقف على حجر آثار قدميه المباركتين فوق الحجر.

الرواية الثالثة: أنه هو الحجر الذى صعد فوقه إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما دعا الناس لأداء الحج والذى أطلق عليه مقام إبراهيم وقد انطبعت آثار قدميه المباركتين فوق الحجر.

النتيجة: وتبعا للأبحاث التى قام المفسر «القفال» رحمة الله عليه، يقرر أن هذه الوقائع الثلاث كلها صحيحة لأنها كلها وقعت فوق حجر واحد، لكن الرواة لم يستطيعوا أن يبينوا الحقيقة فى أثناء نقل الروايات.

انتهى.

والذين يزورون المشاعر ويؤدون مناسك الحج ثم يعودون، وعد الله برفع وإعلاء درجاتهم ومحو ذنوبهم.

والحج مرة واحدة فرض عين على المستطيعين وحج جميع الناس فرض كفاية ولقد جعل الله المسجد الحرام حرماً يوم خلق السموات والأرض.

والمقام الشريف لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ من المسجد الحرام، ومكة المكرمة هى مسقط الرأس الشريف لمفخرة الأنبياء ﷺ.

أقام النبى ـ ﷺ ـ فى هذه البلدة، ونشر الدعوة فيها بعد البعثة مدة ثلاثة عشر عاما على اختلاف الروايات وقد أشرقت شمس أفق الإيمان في هذه المدينة المشهورة، ونزلت فيها أكثر آيات القرآن الكريم.

وهذه المدينة مقر «الحجر الأسود» والحجر السعيد وبئر زمزم، ومع أنه فى واد غير ذى زرع إلا أن الأرزاق فيه متوفرة تأتيه من كل أقطار العالم وأهله فى تزايد مطرد يوما بعد يوم.

إخطار:

تكمن حكم كثيرة خفية وراء وجود مكة المكرمة فى واد غير ذى زرع، ولكن العلماء الأعلام اكتفوا بذكر الحِكَم الخمس التالية.

الحكمة الأولى:

أن مجاورى البيت الحرام يقطعون الأمل من التعلق بغير الله، وذلك بإظهار التوكل التام عليه سبحانه وتعالى تقدست ذاته.

الحكمة الثانية:

عدم طمع أحد من الأكاسرة وملوك الدنيا والحكام والجبابرة، فى الإقامة حول بيت الله أو من السكنى بجوار كعبة الله.

ولا يمكن لهؤلاء الجبابرة أن يجدوا المتعة واللذة الدنيوية التى يسعون إليها فى واد غير ذى زرع.

وهكذا طهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة الشريفة، ونزهها من لوث بنى البشر الذين يعبدون الدنيا.

الحكمة الثالثة:

حتى لا تتحول الكعبة إلى متجر لأنها خلقت للحج والزيارة فقط.

الحكمة الرابعة:

لتقديس مكانة الفقر وشرفه.

الحكمة الخامسة:

من أجل إبراز أن كعبة المعرفة لا تحل إلا فى قلب خال من حب الدنيا وزخرفها، وهذا يدل على علو فضل الكعبة المباركة علوا فوق العادة انتهى.

وإذا وضع مفتاح باب المعلا مفتاح مصباح السعادة فى فم طفل ألثغ[1] فبقدرة الله تحل عقدة لسان هذا الطفل.

ولا تحلق طيور السماء فوق الكعبة، والحمام المريض يرقد فوق الكعبة فيشفى. تظل ساكنة بلا حركة فوق الكعبة المعظمة إلى أن تشفى. وبعضها يرقد فوق ميزاب الرحمة ليشفى، وإذا هبطت الأمطار من أى جهة من أركان الكعبة المعظمة تعم البركة، وتفيض بالخير والنماء البلاد التى فى تلك الجهة.

وأقصى ما يستوعبه بيت الله ـ المملوء بالفيض ـ خمسمائة شخص كما ذكرنا فى الصورة السادسة من الوجهة السادسة لأن مساحته ٦٥٦ قدم مربع، ومع هذا إذا دخله بضعة آلاف من البشر دفعة واحدة، فإنه يستوعبهم ويمكنهم أن يؤدوا عبادتهم فرحين فخورين.

وفى موسم الحج تدخله أعداد غفيرة من البشر، ولو دخلت هذه الأعداد الكبيرة إلى أى مكان آخر لابد أن يموت عدد منهم بأى حال من الأحوال. أما

(١) اللَّثَغُ: فِعْلُهُ لَثِغَ فُلانٌ لَثَغًا: تَحَوَّلَ لسانه من حرف إلى حَرف غيره، كأن يجعل السين ثاءً أو الراء غَيْنا.

فى البيت الحرام، فلم يحدث هذا إلا فى عام ٥٨١ هـ فقط، ولأسباب قهرية توفى فيه أربعة وثلاثون شخصا.

ويقول «نورشتى» رحمه الله من شراح «المصابيح» فى إطار حديثه عن فضائل بيت العزة: «لقد رأيت الكثير من كرامات البيت الكريم فى فترة وجيزة منها: أن حمام الحرم الشريف لا يحلق فوق كعبة الله في أثناء طيره لا يعلو أكثر من ارتفاع تلك البقعة المباركة وبعد التقاط الحبوب التى تلقى له فى كل وقت يحلق فى الهواء، ويطوف بالكعبة الشريفة ولا يرتفع بأى حال من الأحوال أعلى من بيت الله، ومع هذا فإنه يقف فوق الشرفات والقباب التى بداخل الحرم الشريف. ولا يحط فوق سطح الكعبة الشريفة.

وقد رأيت عدة مرات أن المريض من هذا الحمام يرتفع فوق الأرض ارتفاعا مساويا لسطح بيت الله ويحلق بجناحيه. ويقف فوق الميزاب الذهبى أو فوق أحد أركان الكعبة، ويظل واقفا هناك لفترة فى خشوع تام وخضوع.

وهو يرتعد. وبعد ذلك يتحرك معافى فيسلم تماما لكنه لا يطير أعلى من مستوى السقف الشريف» انتهى.

وفى أثناء الطوفان كان السمك الكائن في داخل حدود الله كان الكبير منه لا يأكل الصغير.

وعند حلول أوقات الصلاة، وفى النصف الأخير من ليالى الأعياد وفى المناسبات التى يكثر فيها الناس فإن الحرم الشريف للمسجد الحرام يستوعب طولا وعرضا أية جماعة من الناس مهما زاد عددهم. كما لا ينبعث دخان من النيران التى توقد فى الشوارع وخاصة في البيوت والمساكن.

ومبانى بيت العزة مازالت قائمة إلى الآن على صورتها وهيئتها التى أسسها عليها سيدنا إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا التكريم ـ وهذا فى نظر أهل الاستدلال علامة وإشارة وضاءة تسترعى الانتباه يرتجف معها الوجدان، لأن المبانى التى لم توضع تحت غطاء لا يمكن أن تحتمل تأثير الرياح والأمطار بضع مئات من السنين،

مهما كانت درجة متانتها وقوتها. وإذا تم تجديدها مرة فإنها لا تبنى على نفس الشكل السابق لها.

ومازالت الأبنية المفخمة الشريفة حتى هذه اللحظة عرضة للرياح العاصفة والأمطار الغزيرة المستمرة، وقد تم تجديدها لمسوغ شرعى إحدى عشرة مرة، فلم يحدث أى خلل فى جدرانها كما لم يتغير شكل أصغر حجر وضعه عند التجديد فالركن اليمانى قد ارتج فى سنوات ٤٣٣، ٥١٥، ٥٩٢، ورغم أنه فى المرة الأولى سنة ٤٣٣، سقط منه قدر أصبع بعد أن تشقق؛ إلا أنه لم يتغير أى طرف منه اكتفى فقط بإصلاح الموضع الذى سقط منه الحجر.

ومن خواص الكعبة المقدسة أن مَنْ يراها أول مرة إما يضحك أو يبكى.

وقد انتابنى البكاء ـ أنا الفقير كاتب هذه الحروف ـ عند رؤيتى الكعبة وظللت أبكى فترة. وكل من يتواجد حدود حرم الله، سواء كان إنسانا أو شجرا، أو حيوانا ينعم بالأمن التام بفضل الله تعالى.

وقال المفسر «النقاش» عليه رحمة القادر: «يا إلهى إنك تفضلت قائلا إن الداخل فى حرم المسجد الحرام يكون آمنا، ولقد تحيرت فى فهم هذا الأمر!! فمم أكون آمنا؟! ودار هذا الخاطر فى وجدانى ذات ليلة؟ وعقب ذلك سمعت من ورائى من يقول «آمنا من النار» وعندما لم أجد خلفى أو حولى أحدا أدركت أنه جواب من عند الله».

هذه الرواية تشير إلى المعنى الحقيقى للآية الكريمة: ﴿مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) ويرى فحول العلماء فى هذه الآية معان كثيرة مثل: من اعتمر بنية التقرب إلى الله فهو يأمن نار جهنم يوم القيامة وقال خاتم الأنبياء ـ عليه أفضل السلام: «كل من يموت فى أحد الحرمين يحشر يوم القيامة فى زمرة الآمنين». (حديث شريف).

«وكل من يصبر على حر مكة المكرمة ساعة واحدة فى اليوم يباعد بينه وبين نار جهنم مسافة مائتى سنة».

«من حج فلم يرفث، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (حديث شريف). وأن الله تعالى يلقى الرحمة والشفقة بقلوب الناس تجاه من يلجئون إلى كعبة الله.

ومن هذا القبيل: أن صحابة الرسول الكرام الذين كانوا فى معيته المباركة السعيدة ـ ﷺ ـ عند أداء العمرة، أمنوا عند دخولهم الكعبة من أذى المشركين والذين يحجون مرة واحدة فى العمر لا يعاقبون على ذنوبهم التى ارتكبوها قبل الحج. أما من أمن الحيوانات والأشجار، فإن قطع النباتات والأشجار وصيد الحيوانات حرام تماما فى أرض حرم الله السعيدة.

وعلى هذا فالحيوانات الموجودة داخل الحرم الشريف. لا تخاف ولا تنفر من بعضها البعض، فعلى الحيوانات أيضا أن تراعى الحكم الإلهى، ولو أن كلبا تعقب غزالا وطارده، واستطلع الغزال أن يلوذ بحدود الحرم، فإن الكلب ينصرف عن مطاردة الغزال وينتظر إلى أن يخرج بعيدا عن الحرم. وإذا دخل الكلب أيضا أرض الحرم، فإنه يمشى بجانب الغزال، يتحاشى أن يصيبه بأذى.

ومن يدخل فى حدود الحرم من بنى البشر لا يحاسب على ذنبه وهو داخل الحرم.

وبما أن هذا الأمر كان مرعيا فى صدر الإسلام وكذلك فى الجاهلية، فلو ارتكب شخص إثما أو قتل إنسانا ثم دخل المسجد الحرام لائذا به فيكون فى أمن من سلطة الدولة، أو من ورثة القتيل وهكذا ينجو من المطاردة والفزع، وتقى الحيوانات إضرار بعضها بعض فما بالك بإضرار بنى البشر، وفى أيام «منى» التى هى أيام رمى الجمرات لا يهاجم النمل. والحشرات الطعام الملقى هنا وهناك ولا يلوثه، رغم وجود كل أنواع الطعام مثل: العسل، والمربى، فإنها تلف حوله ولكنها لا تدخل فيه.

ومهما زاد عدد الحجاج، فإن الأحجار التى يلقونها والجمرات، لا تزيد، ومعروف أن هذه الجمرات ترمى منذ آلاف السنين. ففى كل سنة، يلقى حوالى

ستمائة ألف إنسان بالجمار أى يلقون حوالى سبعين حجرًا لكل منهم ومع هذا فإنه لا تتراكم هناك الجمرات.

وإذا افترضنا أن الأماكن التى تتجمع فيها الجمرات في مجرى السيل أو فى مهب الرياح الشديدة، لقلنا إن الماء الذى يسيل والرياح التى تهب تحمل الحجارة التى يلقيها الحجاج بعيدا إلا أن هذا المكان ممر ضيق بين سلسلة جبال ولا يتعرض للسيول ولا للرياح الشديدة العاصفة.

وهذه المميزات تدل على الأفضال المعنوية التامة لكعبة الله وهى مؤيدة بالخبر الصحيح الذى يقول: «كل من كان حجه مبرورا مقبولا فالجمرات التى يلقيها ترفع إلى السماء» (حديث شريف). بناء على بحث عبد الله المرجانى أنه لو نزف أنف إنسان وكتب على جبهته بدمه عبارة «مكة وسط الدنيا والله رؤف بالعباد» فإن النزيف ينقطع بإذن الله.

لو إن كان اليهود والنصارى يقدمون بيت المقدس على الكعبة فإن بانى بيت المقدس سليمان ـ عليه السلام ـ وبانى الكعبة خليل الرحمن الذى يفوق من حيث المناقب سيدنا سليمان، ويلزم أن تكون الكعبة أشرف وأفضل من بيت المقدس.

أليس من الخطأ المحض أن يتصور أن هناك بيت أشرف وأفضل من بيت مالكه هو صاحب الجلالة الرب الكريم، ومهندسه جبريل ـ عليه السلام ـ وبانى جدرانه خليل الرحمن، وجالب أحجاره ولوازم بنائه وخادمه. إسماعيل عليه السلام.

استطراد

الميزات الخاصة ببيت الله ـ الكعبة ـ لا تعد ولا تحصى. ومما يختص به هذا البلد الأمين أن أحدا من السياح الأجانب لا يجرؤ على اقتحام حدودها.

وفى الرسالة التى نشرها سائح أوربى اسمه «جبون» تحامل على الإسلام واستخدم لهجة شديدة إذ قال «بما أن أهل مكة لا يسمحون للسياح الأجانب بالدخول إليها فإنهم يضطرون فى الكتابة عن وقائع الحجاز أن يستمدوا أخبارهم

من التواريخ الإسلامية، أو من هؤلاء الذين يترددون على الحجاز «غير أن عددا من السياح المشهورين مثل: برق جارد من إيطاليا، لودو ويقو بارتاما من روما وجوزيف تبس من أهل اكستر[1] قد زاروا المناطق الحجازية، وسجلوا مشاهداتهم، ووصفوا مشاهداتهم وصفا كاملا. وهذا يبين كذب ادعاء المدعو «جبون» من أخطائه. وترهاته نجمت عن تعصبه الفطرى الشديد.

لودو ويقو بارتاما ـ قد طاف فى عام ٩٢٠ هجرية بالأراضى الحجازية المباركة، و وكذلك «جوزيف تبس» فى عام ١١٠٧ هجرية وتجولا فى كل أرجائها وبعد عودتهما، سجل كل منهما رسالة شاملة، مفصلة فى معلوماتها عن أحوال منطقة الحجاز.

وكانت رسالة لودو ويقو بارتاما» التى طبعها عام ٩٢٨ هـ مكتوبة باللغة الإيطالية، وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية، وطبعت ونشرت عام ٩٧٢ هـ، كما طبعت رحلة «جوزيف تبس» باللغة الإنجليزية ونشرت فى إنجلترا عام ١١١٧.

وقد جاء فى رسالة «لودو ويقو بارتاما» أنه تظاهر بالإسلام ودفع إلى أحد الجمالين أموالا كثيرة، ليرافق قافلة الشام إلى الحجاز حتى يستطيع أن يطلع بنفسه على أحوال الحجاز.

أما «جوزيف تبس» فقد ذكر فى رسالته أنه وقع أسيرا فى طفولته فى يد أحد الجزائريين، وظل لفترة طويلة فى خدمته، ثم رافق سيده فى رحلة الحج إلى الحجاز، وعند عودته سجل مشاهداته كلها.

وقال «برق جارد» فى كتابه الذى نشره: « فى أثناء عودتى من واد فاطمة، إلى مكة مررت بمكان يسمى وادى النعمان، وكان مزدحما أشد الازدحام بالمترددين هناك من الحجاج أو المعتمرين، رغم أنه مكان موحش مخيف وهبت عاصفة فاحتميت بسفح جَبَلٍ لعدم استطاعتى الاستمرار فى السير، وبقيت محتميا بسفح الجبل إلى أن هدأت شدة السيل والعاصفة».

(١) اكستر اسم مدينة مشهورة فى إنجلترا.

ويقول مؤرخ آخر هو (يوما): «لا يسمح لغير المسلمين بدخول مكة»، ونحن شاكرون لهذا لأن برق جارد، ذهب إلى هناك، وجاء فى رسالته أن مكة المكرمة محاطة بمجموعة من الجبال السوداء والوديان خالية من الأشجار والأزهار.

والذى يرى منازل مكة وبيوتها ـ لأول وهلة ـ بعد الخروج من بين الجبال لا يستطيع إلا أن يشبه هذه المدينة بخزينة مجوهرات وضعت فى داخل محفظة خشنة غليظة سوداء، لا يستطيع أن يقدر قيمة هذه الخزينة إلا المسلمون.

فشوارعها متوسطة، ومبانيها منتظمة عالية والذى يرى مكة بعد رؤيته لبلاد أخرى لا يمكنه إلا أن يعجب ويتحير من انتظام مبانيها ودقة ترتيبها. وهذا القول منه يوضح خطأ ما ادعيناه فى هذا الأمر. وهذه العبارة المليئة بالثناء الجميل توضح كذب ادعاء الأوربيين.

وبناء على الفقرة الواضحة لبرق جارد والإفادة المفصلة لـ «يوما» نستطيع أن نحكم أن الدخول فى مكة المعظمة ليس ممنوعا، سواء كان من قبل الحكومة أو من قبل الأهالى. فإذا كان بعض السياح الأجانب لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة الكافية لدخول حدود مواقيت مكة المكرمة فإن ذلك يرجع إلى الرهبة الإلهية المعنوية للبيت المعظم.

نعم لم يمنع أحد من زيارة الحرمين المعظمين، حتى لو كان هدف الزائر هو الخيالة والسخرية والاستهزاء، لكن فى هذه الحالة تأديب ذلك الشخص ومنعه من الزيارة يكون أمرا واجبا.

نعم باب الزيارة مفتوح فى كل لحظة وساعة، إلا أن الزائر يجب أن يراعى لبس ملابس أرض الحجاز مثل الجبة والعباءة الطويلة والعمامة والكوفية حتى يحظى باحترام الناس، وأما الأجانب بملابسهم الغربية لا ينالون التوقير بل يتعرضون للسخرية والاستهانة بهم وهذا أمر طبيعى.

لذا فالأمر يتطلب ممن يذهبون إلى تلك البقعة المباركة أن يلبسوا ملابسهم وهذا الأمر لمن يجوبون الوديان والصحارى فى غير أوقات الحج، ولكن الذين

يقيمون فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة يستطيعون أن يرتدوا الملابس الخاصة ببلدانهم دون أن يتعرضوا لسوء معاملة من الأهالى بل على العكس يلقون منهم ترحيبا واحتراما.

وكل أهالى الحرمين الكرام مجبولون على حسن استقبال الضيف فهذا من طباعهم الفطرية، وهو أمر لا مجال لإنكاره ومن ينكر هذا فعليه أن يتذكر مجاورى الحرمين.

ورغم تحقيق الإمام مالك ـ رحمة الله عليه ـ صحة ما ذكر عن فضائل مكة المكرمة وآثارها المتدثرة بآيات الحكم، إلا أنه يرى أن المدينة المنورة أفضل من «مكة المكرمة» ويؤيد رأيه قائلا: «إن المدينة المنورة مدفن رسول الرحمن أفضل من مكة المكرمة، لأن رسولنا باعث خلق العالم ـ ﷺ ـ دعا الله بقوله يارَبِّ أنت تعلم أن قريشاً أخرجتنى من البلدة التى أحبها فأسكنى يارب البلدة التى تحبها» وكرر هذا الدعاء فاختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ معطى العطايا المدينة المنورة داراً للهجرة النبوية. وإذا كان المكان هذا أحب البلدان إلى الله ـ عز وجل ـ فلابد أن يكون ذلك المكان أفضل وأشرف من سائر البلدان.

وقد رأينا أنه من الأفضل التزام الصمت بخصوص هذه المسألة قائلين: الله سبحانه وتعالى أعلم ببواطن الأمور.

شعر

مكـة الـتى هـى قبـلة أهـل النجـاة
حرسهـا الله مـن الحادثـات
ترابهـا يبعـث الحيـاة فـى المـوات
إن الورد خجـل مـن شوكـه وغثائـه
لأن حصـباء أرضـه نجـوم سمائـه
حقـا إنـه لمـن ضـل الطريـق دليلـه

جعـــل الأرض القـاحلـــة جنـــــــــة
جمـع الـدر وأصبـح نعيـم الجنـــــــة
ليـس وردا ولكن نسيم سحـره ينفـح عطـرا
ليس خمـرا ولكـن حانتـه تمـوج بالضجّـة
ليس زرعـا ولكـن بيـدره يهـب الحـب
ليس عرشـا ولكـن طوبـاه وارفـة الظـلال
ليـس بستانـا ولكـن ثمـره موفـور
ليس سـهلا ولـكـن زرعـه مخضوضـر
ليس زهرة حمراء مشتعلة ولكـن فيـه نبراسـا
فـى قلبـه جراحـات مـن الحسـرات

حدود حرم الله ومواقيت كعبة الله المكانية:

قال المؤرخون: إن حدود الحرم الشريف لكعبة الله، تبلغ ستة أميال من ناحية الشرق، وثمانية عشر ميلا من ناحية الغرب، واثنى عشر ميلا من ناحية الشمال وأربعة وعشرين ميلا من ناحية الجنوب.

أما مؤلف «تاريخ خميس»، فقد قال: «لقد قست بنفسى بقياس المسافة، ووجدتها ثلاثة أميال من طريق المدينة المنورة وتسعة أميال، من طريق شعب آل عبد الله بن خالد الواقع ناحية جِعِرَّانة».

وفى قول آخر: «عشرة أميال وسبعة أو تسعة أميال من طريق عرفات المسمى بطن نمرة».

وكتب مؤلف «نخبة الدهر» فى كتابه المذكور:

أنها ثلاثة أميال من جهة مدينة الرسول ﷺ وعشرة من طريق جدة، وأحد

عشر ميلاً من طريق الطائف، وستة أميال من ناحية العراق. والأرض التى خارج هذه الحدود ليست من الحرم[1]».

وهذا الاختلاف لم يكن فيما يتعلق بتحديد أماكن ومواقيت مكانية أو تعريف نقاطها وإنما فى مقياس المساحة، لذا فالمساحة بالنسبة لكل واحد منهم تخضع لحسابه وكلها صحيحة بالنسبة لحساب كل واحد منهم.

ويقول على بن بلبان الفارسى الحنفى مؤلف الكتاب المستطاب المسمى «عمرة السالك فى المناسك» نقلا عن الإمام الأزرقى[2]: إن ميقات أهل المدينة عند التنعيم وهو مكان قريب من «بيوت تغاره» الواقعة جهة المدينة على مسافة ثلاثة أميال من مكة المعظمة.

ويقول: الإمام مالك رضى الله عنه: إن أهل المدينة المنورة يحرصون ويبدءون فى التلبية من قرية ذى الحليفة.

وهذا المكان اللطيف يقع عند البئر المسمى بئر على ومسجد الشجرة وهو على مسافة تسع ـ وعلى رواية عشر ـ مراحل من مكة المعظمة من ناحية المدينة المنورة ويقول البعض عن سبب تسمية بئر على أن الكرار ـ عليه رحمة الله ـ قاتل الجن هناك، لذا أطلق على هذا البئر اسم بئر على، لكنها رواية مختلقة لا أصل لها.

و «ذو الحليفة» أبعد مكان عن مكة من ناحية الميقات وهى أطلال قرية مشهورة، وقد أراد رسول الملك المتعال أن يُحرم أهل المدينة هناك تعظيما لأجرهم

(١) الجبال والوديان والصحارى.

(٢) الإمام الأزرقى هو الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الكريم المكى، المعروف بالأزرقى وهو من أعلم العلماء وهو أول من كتب عن تاريخ مكة. وتلاه فى كتابة التاريخ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى. وثالثهم سيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسينى وبعده الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد الشافعى، ثم الشيخ عز الدين بن عبد العزيز وهو ابن الحافظ نجم الدين وآخرهم القطب المكى. وقد كتب كل منهم كتابا فى التاريخ باللغة العربية أما القطب المكى فى تاريخه فقد نقل وروى بالذات عن الشيخ عز الدين ونقل وروى بالواسطة عن سائر المؤرخين.

وثوابهم وقد ذكر «ابن بلبان الفارسى» فى صدد تعريفه وتعيينه لميقات أهل اليمن أن المكان الذى يحرم عنده اليمنيون هو منطقة «أضاة اللبن» الواقعة على مسافة سبعة أميال من مكة المفخمة من جهة اليمن، وقد ركز هناك علمان لتعيين هذا المكان الذى يبدأ عنده ارتداء ملابس الإحرام.

و «أضاة اللبن» لابد وأنه الموضع المسمى «يلملم» على مسافة مرحلتين من مكة المعظمة. ومكان إحرام المصريين هو مدينة «رابغ» القريبة من الجحفة ميقات أهل الشام. أما المكان الذى يحرم منه أهل نجد فهو أعلى ربوة فى تهامة، أما الذيت يتوجهون للحج عن طريق الشام الشريف فإنهم يحرمون في المكان المسمى جحفة، وجحفة هذه أطلال قرية تقع على مسافة خمس مراحل وعلى قول ست مراحل من مكة المكرمة، والاسم الأصلى لقرية جحفة كان على وزن مهيعة، ذلك أن جماعة من العمالقة سكنوا فيه وذات ليلة اجتاحهم السيل وقضى عليهم تماما، لذا أطلقوا على سكان أطلال هذه القرية اسم جحفة.

قال ابن بلبان الفارسى: رغم أن الرواية تقول إن الحجاج القادمين من طريق العراق يحرمون من نقطة «ثنية الهيك» الواقعة على بعد سبعة أميال من مكة المعظمة، إلا أن الإمام مالك قال ـ كما جاء فى كتاب ـ أحسن المسالك: إن قوافل حجاج العراق تحرم من موقع قرية قرن وهو المكان المسمى قرن المنازل. وقد استقر حول المكان المذكور جماعة «قرن» التى انفصلت من قبيلة «مراد» وحضرة «أويس القرنى»[1] من أفراد هذه الجماعة.

وإذا قرئ لفظ قرن بسكون الراء فهو اسم جبل، وإذا قرئ بفتح الراء فهو اسم طريق يقع بجوار الجبل المذكور، وتقع مكة المشرفة شرق الجبل المذكور بمرحلتين. ورغم أن الإمام الفاكهى قد ذكر أنه يوجد جبل باسم قرن على بعد

(١) سيد التابعين: له ذكر فى صحيح مسلم وكان ـ رحمه الله بَرًّا بأمه، قال ﷺ لأصحابه: «مَنْ لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم»، الحديث. لقى الله شهيداً يوم صفين مع على رضى الله عنه. ترجمته مطولة فى الإصابة ١/١١٨ ـ ١٢٠ رغيرها.

ألف وخمسمائة ذراع من مسجد الخيف[1] إلا أنه غير «قرن المنازل» لأن ذلك الجبل يسمى، قرن الثعلب.

وقد قام شخص بترتيب ونظم الأبيات الآتية للتوفيق بين الروايات المختلفة.

شعر

عرق العراق يلملم اليمنى

وذى الحليفة يحرم المدنى

للشام جحفة إن مررت بها

ولأهل نجد قرن فاستبن

وقد ذكر فى هذه الأبيات اسم الميقات الخاص بأهل كل جهة، وفى الأبيات التالية سنعرف أبعاد كل ميقات فى مكة.

شعر

وللحرم التحديد من أرض طيبة

ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه

وسبعة أميال عراق وطائف

وجدة عشر، ثم تسع جعرانة[2]

فتوح الحرمين

إن جبل رابغ، هو ميقات حجاج بلاد الروم والأناضول ومن يتوجهون للحج بحرا عن طريق قناة السويس، وكل باخرة تحمل الحجاج عندما تصل إلى محاذاة جبال رابغ، يبلغ الحجاج الذين على ظهرها مبدأ الإحرام ويستخدم مرشد ماهر من أبناء العرب فوق كل باخرة للقيام بهذه المهمة.

(١) يقع هذا المسجد أمام مسجد المرسلات فى «منى».

(٢) هذه الأبيات لشخص يدعى ابن الملقن.

أسماء الذين جددوا أميال المواقيت:

إن حدود حرم كعبة الله هى المواقيت التى ذكرت وعرفت فيما سبق، يقول الإمام الأزرقى أنه عندما هبط آدم ـ عليه السلام ـ على الأرض انتابه إحساس بالخوف والرهبة من وحشة الفراغ، واستعاذ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ولجأ إليه فأنزل الله إلى الأرض ملائكة كثيرين لإزالة هذا الخوف والرهبة من نفس آدم ـ عليه السلام ـ وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة أن يقيموا حول مكة المعظمة، وبذلك تعين حدود حرم كعبة الله، وهو المكان الذى أحاط به الملائكة من كل الجهات.

وفى قول آخر أنه عندما أنزل الحجر الأسود من خزائن الجنان فى البلدة المقدسة لكعبة الله، تحددت حدود الحرم بما بلغه من النور والضياء المنعكس من الحجر الأسود فى كل الاتجاهات، وهذه الحدود هى المواقيت المكانية السابق ذكرها.

ويقول الإمام الأزرقى: إن آدم ـ عليه السلام ـ ثبت علامات فى المواقع المذكورة لتعين حدود حرم الله، وللحفاظ على هذه الحدود أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ كثيرا من الملائكة العظام للقيام بهذه المهمة.

وقد طمست هذه العلامات التى وضعها آدم ـ عليه السلام ـ ولم ير لها أثر، فعرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ حضرة الخليل الأماكن التى وضعت فيها هذه العلامات من قبل أبى البشر ـ عليه السلام ـ فأعاد إقامة الأحجار فيها مرة أخرى. وكان برفقة إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما أعاد وضع العلامات ابنه إسماعيل ـ عليه السلام.

وبمرور الوقت طمست الرمال الأحجار التى وضعها إبراهيم ـ على نبينا وعليه التفخيم ـ وغابت عن العيون، وفى عهد عدنان بن أد أصبح من الضرورى تعيين هذه الحدود بين مناطق الحل والحرم، لذا تقصى عدنان بن أد المشار إليه أماكن الأحجار التى وضعها خليل الرب الجليل حتى وجدها فأقام فى أماكنها مبان قوية

من الطين والحجارة هى تلك العلامات لكى لا تطمس بسهولة وبعد ذلك قام قصى بن كلاب بن مرة بإعادة ترميم العلامات وتجديد بناءها وجعلها أمتن وأقوى.

وبعد قصى بن كلاب لم يتم ترميم العلامات وتعميرها، وفى يوم فتح مكة «ذلك اليوم الميمون» كلف الرسول - ﷺ - بوحى من قبل الله بترميم مبانى المواقيت وتقويتها.

وبعد ارتحال النبى - ﷺ - قام عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان ومن بعده معاوية بن أبى سفيان ومن بعده عبد الملك بن مروان، قاموا كلهم بتقوية مبانى العلامات التى بناها عدنان بن أد وذلك لتحديد المواقيت المكانية الشريفة.

وفى عهد خلافة المقتدر بالله العباسى تم إصلاح وتصويب علامات مسافات الأميال المذكورة. وفى سنة ٣٢٥ هـ قام الراضى بالله من خلفاء العباسيين بوضع علامات «العمرة كما قام بعده بفترة مظفر حاكم أربل بوضع علامات «عرفات» وهذا لأنه لم تكن قبل عهد «الراضى بالله» علامات للعمرة، ولم تكن هناك علامات لتحديد أماكن عرفات قبل حكم المظفر. وكان للسلطان» أحمد خان الأول العثمانى - طيب الله ثراه - شرف تجديد علامات عرفات.

ومن ذلك الوقت يطلقون اسم الحرم على المكان الذى داخل حدود العلامات الموضوعة لتحديد حدود الميقات، ويطلق اسم الحل على خارجها.

* * *

فى توضيح المسائل الهامة الخاصة بإيجار واستئجار بيوت هذه المدينة المفخمة للإقامة فى مدينة مكة المعظمة

الإقامة فى مكة المكرمة مكروهة عند العلماء، وقد قيل فى هذا أن طول فترة البقاء يورث فقدان حرمة بيت الله فى النفوس. وبمقارنة ما يشعره الإنسان من ألفة واستئناس عندما يسكن فترة طويلة فى البلاد الأخرى يخشى أن الإقامة الطويلة قد تزيل من القلوب ما يجب من التعظيم والتوقير نحو كعبة مكة المعظمة، وهذا شيء طبيعى فى الناس. والأولى بأهل الإيمان أن يقيموا فى بلادهم مبدين الشوق والحب لكعبة الله من بعيد.

وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى زمن خلافته يأمر أن يعود الحجاج إلى بلادهم بمجرد عودتهم من عرفات حتى يحافظ على حرمة الكعبة فى قلوب الناس وهيبتها. وكان يستحث القوافل على الرحيل مرددا النداء يا أهل اليمن، يا أهل الشام، يا أهل العراق، سيروا إلى بلدكم، فإنه أبقى لحرمة بيت ربكم» وكأنه كان يعيد معنى الحديث الشريف: «من فرغ من حجه فليعجل بالرجوع إلى أهله» (حديث شريف).

أصح مثال الذين يرومون مجاورة الحرم الشريف يستأنسون بغير الله بينما يقيم الرجال الصالحون في بلاد بعيدة وممالك نائية وقلوبهم أكثر قربًا لبيت الله ممن يطوفون حول المقام السعيد.

وحيثما يكون الإنسان فى أى مكان وتغويه نفسه بعصيان الله بارتكاب ما يحرمه ثم ينصرف عن هذه النية قبل أن يشرع فى تنفيذها أو القيام بما جال بخاطره فلا تكتب عليه سيئة. أما من يقيم فى مكة المكرمة ويجول بخاطره القيام

بما حرمه الله فيكون آثما، وإن لم يرتكب ما جال بخاطره وتكتب عليه سيئة فى صحيفة أعماله.

وبناء على هذا الأمر استوطن عبد الله بن عباس الطائف، وقال ابن مسعود: «لا يوجد بلد غير مكة يؤاخذ فيه بالهَمِّ قبل الفعل ـ يعنى فعل السوء».

حكاية: يقال إن رجلا استودع أحد أحبابه أمانة ليحفظها له لفترة، ولكنه كان امرأ سوء فقرر ألا يعيد الأمانة إلى صاحبها وأنكر أنه أخذها بل اجترأ على القسم بذلك أمام كعبة الله. وفي نفس الليلة التى أقسم فيها مات وتحول وجهه إلى وجه كلب.

حكاية أخرى: يروى أن رجلا آخر فى أثناء طوافه بالكعبة لمح معصم امرأة جميلة كانت تطوف بجواره، فمد يده لذراع المرأة ليتلذذ بملامستها. ولأن المرأة كانت عفيفة صالحة فقد تضايقت من تصرف الرجل، وتعلقت بجدار الكعبة وهى تنوى أن تشكو هذا الأمر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب البيت المشرف.

ولكن الرجل لم يقتنع بالوقاحة التى ارتكبها، وسار فى أعقابها ومد يده إلى المرأة للمرة الثانية وعلى الفور شلت يده التى مدها فصار أكتع «نعوذ بالله تعالى» انتهت.

وهكذا تكون نهاية من يرتكبون الآثام فى الحرم الشريف ويلقون جزاءهم بما اقترفوا ـ حفظنا الله جميعا ـ آمين. الحرم الشريف للمسجد الحرام ليس مكانا خاصا لأداء الصلاة فقط مثل سائر المساجد ولا يحد بجدران المسجد، بل يمتد ليحتوى كل الأراضى المقدسة داخل المواقيت المكانية المعلومة، لذا فإن الباحثين المدققين من الأسلاف الذين اختاروا المجاورة فى مكة المكرمة، كانوا يخدمونه بتبصرة تامة وانتباه كامل.

قصة غريبة: كان وهب بن رودكى أحد أولياء الله الذين لهم باع طويل بحقائق المسجد الحرام، انتهز الفرصة المناسبة لتنبيه الذين اختاروا المجاورة في مكة المكرمة فقال: «كنت أصلى ذات ليلة فى حجر إسماعيل، وفجأة سمعت صوتا

من وراء ستار الكعبة، فأنصت إليه فإذا بالكعبة ذاتها تقول: «يا جبريل أشكو إليك بعد الشكوى إلى الله الحق من أهل الهوى الذين يتفوهون بكلمات تدل على انصرافهم للهو ولغو الكلام فى أثناء وطول مصاحبتهم، فإن لم يستغفروا ويتولوا عن ذنوبهم ويتخلصوا مما اقترفوا فسوف أنتفض انتفاضة قوية بحيث يتطاير كل حجر من أحجارى إلى الجبل الذى أخذ منه وهكذا أزول فى الحال «وما إن سمعت هذه الشكوى والحوار بين الكعبة والرسول الجليل حتى اعترانى الاضطراب والرجفة.

ويتناقل هذه الحكاية الغريبة من سمعوها من وهب نفسه، ويوصون الحجاج بألا يحرصوا على الإقامة بمكة بعد الرجوع من عرفة.

وقد أجاب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ على سؤال طرح عليه لتوضيح هذه المسألة وكان السؤال: هل العودة بعد الحج أفضل أم الإقامة بمكة للمجاورة؟

فأجاب: إن العودة بعد الحج أفضل.

وإذا كان الإمام مالك يرى أنه يكره المجاورة، فإن الإمام أبا حنيفة يروى عنه فى رواية صحيحة أنه قال «يجب على الذين ينتهون من أداء الحج أن يعودوا إلى بلادهم وأولادهم وزوجاتهم» غير أن الإمام أبا يوسف والإمام محمدا والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل لم يتشددوا فى هذا الأمر اتفقوا بأن مجاورة مكة أمر مستحب.

أما الإمام الأعظم فأفتى بكراهية مجاورة مكة المكرمة، وذلك لملاحظة أن عامة الناس يعجزون عن رعاية حقوق الحرم المحترم، وفى الواقع أن طوائف العامة لا يراعون حرمة الكعبة المعظمة حق رعايتها.

والمقصود من كراهة المجاورة بالنسبة للإمام الأعظم ليس مجرد الإقامة في مكة المكرمة، بل إنه يذكر محظورين يجب اجتنابهما أحدهما: أنه كلما طالت الإقامة فيها يأنس القلب بالبيت ويألفه لأن تكرار المشاهدة وكثرتها تؤدى إلى

التقليل من حرمة بيت الله عند النظر إليه. والآخر الخوف من ارتكاب المعاصى التى تؤدى إلى فساد الأخلاق والفسق فى حرم الله نعوذ بالله تعالى من هذا وما أتعس المؤمن الذى تعرض لارتكاب هذين المحظورين. وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥) وما تفيده الآية الكريمة أن كل من يعدل عن الحق ويرتكب الظلم والجور قاصدا معصية الله فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيذيقه عذابا أليما.

أما من كانوا مفطورين على إعزاز البيت الشريف وإجلاله عندما يرونه كل مرة يعتريهم الخشوع والمهابة والدهشة. كأنهم يرونه أول مرة إذا كانوا قادرين على ذلك فمما لا شك فيه ولا شبهة أن نعمة المجاورة سعادة فوق الوصف ومبعث الفخر والسرور.

ومع هذا فإن كراهية مجاورة مكة خاصة بالمسلمين الذين عاشوا فى العصور السابقة، وأما الآن فقد تغيرت الدنيا واضطر المسلمون أن يختلطوا بالأجانب وأن يتأثروا بأخلاقهم، كما أن أسباب المعيشة اضطرت الناس إلى المقابلة بالتقى والشقى، لذا فأولى بالنسبة لصفاء النفوس أن يلجئوا إلى بلدة الله أو إلى البلدة الطيبة لرسول الله حيث يلوذون إلى الله الغفار راجين عونه ورحمته.

وبما أن الكعبة وما حولها مقر الأنبياء والأولياء فمن المرجو أن يتأثر هؤلاء الضعاف من المسلمين بهم ويقتدوا بهم وهم يداومون فى الطواف حول بيت الله.

يقول الإمام اليافعى فى كتابه المسمى «روض الرياحين»:

«يرى أحيانا الملائكة الكرام والأنبياء العظام وخاصة الأولياء الكرام ذوى الاحترام حول الكعبة وجوارها، وأكثر ما يرى فى ليالى أيام الاثنين والخميس والجمعة، ويروى أنه يشاهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولاده عيسى عليه السلام وجماعته فى حجر إسماعيل وفرق الملائكة عند الحجر الأسود، وسيد الأنبياء عليه وعليهم التحيات، وأهل بيته والصحابة والأولياء أمام الركن اليمانى.

وقد ثبت تضاعف الأجر والمثوبة الحسنة عند الأكثر فى مكة المكرمة، إلا أن السيئة تظل سيئة واحدة بينما الحسنة يضاعف ثوابها.

ومن المتفق عليه أن أولياء الله يترددون على المسجد الحرام عندما يكون خاليا، ومن يحظى بنظرة أو التفاتة من هؤلاء الصالحين ينل سعادة عظيمة كما برهن عليه كبار العلماء. نفعنا الله ببركات أنفاسهم.

وقصر النظر على البقعة المقدسة للكعبة المعظمة هو عين العبادة، وتغفر ذنوب الذين ينظرون إليها بمحبة كاملة وإيمان صادق واحتساب، ومن يقصرون نظرهم على الكعبة وحدها فلهم أجر طاعة وعبادة سنة كاملة.

وينظر الله الحق إلى الخلائق ٣٦٠ مرة كل يوم، وأول من يكون محط نظره ـ سبحانه وتعالى ـ هم أهل مكة، ومن ينل من هؤلاء نظرة الله وهو قائم يصلى أو فى حالة طواف أو حال استقبال الكعبة يغفر لهم ذنوبهم، أو حتى النائمين يلحقون بزمرة المغفور لهم.

وثواب من يكون فى مكة المفخمة ويقضى أيام رمضان صائما ولياليه قائما يعادل ثواب من يقضى الليل قائما والنهار صائما فى رمضان مائة ألف رمضان فى غيرها من البلدان، وسوف تحشر مكة المعظمة يوم القيامة مثل العروس عند الزفاف ويتعلق بأستارها الحجاج والطائفون ويدخلون رياض الجنة وهم يطوفون حولها.

نظم

بما أنك تسكن هذا الدير بأدب
فعليك أن ترعى أصول الأدب
إن الشوق يزداد لأن ما كان إنما كان نارا
أيما امرئ كان مجاورا في هذه المحلة

كـــان زواره أكثـــر مـن أحجارهـــا
يجـــدر بمـــن هـــو كامـــل الأدب
أن يصـل الليـل بالنهـــار بشوقـــه
يحكـــى أنـــه أكثـــر مـــن ذلـــك
مـــن كثـــرة مـــا خربـــت بالـــدره
مـــن خلـــف عـــن قافلـــة الحـــج
فلـــن يتســـع العـــذر لذلـــك
ولا يحتـــرم حرمـــة هـــذا البيـــت
حينمـــا يفكـــر فـــى الطـــواف بـــه
لا يـــرعـــــى أصـــــول الأدب
أنـــت تتغافـــل عـــن التشكيـــك
وأصبحـت بذلـك آثمـــا عاصيـــا
لقـــد تجاوزتـــنا فـــى ســـوء الأدب
وليس لـنا موضـع مـن هـذا الوضـع

(فتوح الحرمين).

خلاصة مسألة إيجار البيوت:

بمراجعة الكتب الفقهية لمعرفة ما إذا كان إيجار البيوت والمنازل فى مكة المكرمة جَائِزًا أو غير جائز شرعا، وإن فهم هذا الموضوع يكون ممكنا بالرجوع إلى الكتب الفقهية.

ولما كان أخذ إيجار المنازل من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ليس حلالا، لذا كان الأوائل يأخذون ثمن الإيجار فى السر والخفاء حتى أن عمر بن الخطاب أمر

أن تترك أبواب بيوت مكة مفتوحة فى موسم الحج حتى يسكن الحجاج فى المنازل الخالية، كما كان لعمر بن عبد العزيز أوامر مشددة إلى أمراء الإمارة الجليلة لمكة المكرمة بألا تؤجر بيوت مكة إلى الحجاج.

وقد أجاز الإمام محمد والإمام أبو يوسف أن تباع بيوت مكة مع الكراهة، إلا أن الإمام الأعظم قال إنه مكروه فى كل الأحوال. وقد أفتى صاحب الواقعات فى هذه المسألة ورجح القول الأول.

وحسب قول مؤلف «عيون المسائل» إن الإمام الأعظم قال فى رواية: «إن بيع بيوت مكة جائز». كما أن الإمام أبا يوسف قد رجح هذا القول على ما عداه من أقوال. وبالنظر إلى قول المرحوم «قوام الدين» فى شرح الهداية أن بيع بيوت مكة جائز باتفاق العلماء. وبما أن كل بناء ملك بانيه وأن المبانى التى أقامها الأشخاص على أراض موقوفة يستطيعون بيعها شرعا فبيع بيوت مكة جائز أيضا.

وطبقا لما نقله ورواه صاحب التقريب، فقد رأى الإمام الأعظم أن إيجار بيوت مكة مكروه، وقال: والذين يفدون إلى مكة من خارجها. إذا لم يجدوا مبانى خالية لسكناهم أفلا يسكنوا فى بيت بالإيجار، كما أيد الإمام محمد هذا القول بما ورد فيما معناه «أن من يعيش حتى يأكل من ثمن إيجار بيوت مكة يدخل النار». إلا أن الدار قطنى عد هذا الحديث من الأحاديث الموقوفة.

وفى رواية أخرى للإمام الأعظم عن كراهية الإيجار لمن يأتون فى مواسم الحج وليس للمقيم. فبما أنه لا توجد ضرورة بالنسبة للمقيم فمن الجائز إيجار المنازل لهم. ولا يجوز إيجار البيوت لمن تتبين حاجتهم الضرورية فى موسم الحج. وقال لنسكن هؤلاء فى المنازل الخالية رحمة الله ـ تعالى ـ عليه وعلى سائر الأئمة أجمعين رحمة واسعة.

وفى عصرنا الحالى يؤجر أهل مكة بيوتهم للحجاج ويسكنون هم فى وقت الحج فوق أسطح منازلهم، وبهذه الطريقة يكسبون أموالا تكفى لإعاشتهم وأولادهم سنة كاملة.

تحتوى على ثلاث عشرة صورة مرتبة تضم أقوال المؤرخين التى ذكرت حول تفاصيل بناء مكة المعظمة وعمارتها، وعن الذين قاموا ببناء هذه البقعة المقدسة المباركة، وأسباب تجديدها وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها.

الصورة الأولى

تعرض الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء الكعبة

ذكر مؤرخو السلف أقوالا متباينة كثيرة حول عدد مرات تجديد بناء كعبة الله العليا، واختلفوا فى أقوالهم وأطالوا فيها وقرروا أخيرا أنها جددت سبع مرات على قول بعضهم، وعشر مرات بناء على أقوال الآخرين.

واعتمادا على الرواية المنقولة عن زين العابدين والد الإمام الباقر ـ رضى الله عنه ـ قال المؤرخون: «إن الملائكة هم البناة الأوائل لهذه البقعة المقدسة».

والذين يقولون إنه تم تجديدها سبع مرات يذكرون أن تجديدها تم على النحو التالى: المرة الأولى بناها الملائكة الكرام، وفى الثانية جددها سيدنا إبراهيم، وفى الثالثة جددها العماليق، وفى الرابعة طائفة الجراهمة، وفى الخامسة قبيلة قريش، وفى السادسة عبد الله بن الزبير، وفى السابعة جددها الحجاج الظالم.

أما الذين يقولون إنها أعيد بناؤها عشر مرات فيذكرون أن الملائكة العظام بنوها فى المرة الأولى وفى الثانية بناها أبو البشر آدم ـ عليه السلام ـ وفى الثالثة سيدنا شيث وأولاده وأحفاده. وفى المرة الرابعة إبراهيم الخليل، وفى الخامسة أفراد قبيلة العماليق وفى السادسة عشائر جرهم، وفى السابعة قصى بن كلاب بن مرة وفى الثامنة قريش قبل البعثة النبوية وفى التاسعة عبد الله بن الزبير، وفى العاشرة جددها الحجاج بن يوسف الثقفى الظالم، كما قام السلطان مراد خان الرابع من سلاطين العثمانيين العدول بتجديد البناء الرصين الأركان لكعبة الله فى المرة الحادية عشرة، ومازالت على تلك الصورة التى جددها عليها إلى الآن.

شعر

بنيت الكعبة أحد عشر مرة فاعلم
الملائكة وآدم وأولاده والرابع إبراهيم
والعمالقة وجرهم وقصى وقريش أقاموها
وتاسعهم الزبير الذى أقامها وكرمها
كذلك الحجاج شىء أتمه
لقد فرق الحطيم وكأنما رممه
وأرادها السلطان مراد التجديد
وكان الحادى عشر بتاريخه المجيد
سنة ١٠٤٠

فى تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الأولى

خاطب خالق الأرضين والأفلاك تعالى شأنه عن الفهم والإدراك الملائكة العظام بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)، وذلك ليبدى لهم بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ سيخلق أبا البشر آدم ليكون خليفة فى الأرض وأدركت الملائكة بشفافية وجدانهم الملائكة أو بإلهام رب العزة أو بالنظر فى اللوح المحفوظ، أن بنى البشر سيسفكون الدماء ويفسدون على وجه البسيطة، وأرادت أن تعرف الحكمة من إعطاء خلافة الأرض إلى بنى آدم الميالين إلى الظلم وسفك الدماء، ولم تعط إلى طائفة معصومة وتساءلت: لماذا تخلق من يفسد فى الأرض؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدسك بذكرك فأجابهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ حاسما الأمر بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولم يكن الغرض من تساؤل الملائكة الاعتراض على أفعال الله حسب تقديرهم، ولكن فى هذا السؤال نوعا من الاحتجاج كما يفهم من قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ولذا ندم الملائكة ولاذوا بالعرش الأعظم يبكون ويتضرعون طلبا للعفو والصفح عما اقترفوه ليتجنبوا الغضب الإلهى، واستمروا لمدة ثلاث ساعات يطوفون بالعرش الإلهى ويستعطفون فى تذلل وخضوع وهم فى قلق وخشوع زائدين، وفى النهاية بلغ منهم الرجاء والتضرع العفو والمغفرة واستجلبت توسلاتهم شفقة ورحمة صاحب الكبرياء، وأمرهم أن يطوفوا بالبيت المعمور الواقع تحت العرش الأعظم، ثم أمرهم بأن يبنوا على وجه الأرض بقعة مقدسة فصدعوا بالأمر الإلهى، وقاموا ببناء ورفع بنيان الكعبة المعظمة التى أصبحت مطافا إلى الآن.

تفصيل:

شاء خالق العالم أن يقام بيت مقدس على وجه الأرض، وأرسل كثيرا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر، وخاطب الملائكة آنذاك بقوله: «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما وعندما يطاف بالبيت المعمور فى السماء الدنيا، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض، بناء على ذلك قام الملائكة الكرام الذين هبطوا إلى الأرض ببناء بقعة مفخمة مباركة فى الموقع المقدس للكعبة المعظمة.

وعندما صدر الأمر الإلهى للملائكة الذين سكنوا على وجه الأرض ببناء البيت الشريف تحت مستوى البيت المعمور ومحاذاته، وأن يقوموا بالزيارة والطواف حول هذا البيت لم يكن آدم ـ عليه السلام ـ قد هبط على وجه الأرض.

وإذا كانت هذه الروايات تشير إلى أن بناء البيت المعظم كان بعد خلق الأرضين فإن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال: إن البيت الشريف خلق قبل خلق الأرض والسماء بأربعين سنة، وكان فوق الماء مثل فقاعة بيضاء أو رغوة وبسطت الأرض من تحته وحفظ، وقال الإمام مجاهد مصدقا ما قاله الإمام على «إن خلق موقع بيت الله كان قبل خلق الأرض بألفى سنة، ثم بسطت الأرض تحت الكعبة» بناء على هذا فلاشك فى أن الموضع الطيب لبيت العزة خلق قبل الأرض وأن كعبة الله المقدسة قد شيدت بعد خلق السموات والأرض. وحسبما جاء فى الكتب الموثوق بها أن حضرة الخالق المطلق عندما أراد خلق وجه الأرض وإيجادها بسط بيد الجلال وقبضة القدرة التى لا نظير لها تراب الموقع المبارك لكعبة الله بعد خلق وجه الأرض، وهكذا ظلت الكعبة المعظمة فى وسط الأرض تحيط بها القشرة الأرضية من جميع الجهات.

وفى الواقع أن الساحة المفخمة للكعبة المعظمة كانت موجودة قبل خلق وجه

الأرض وقبل خلق طبقات الأرضين، وقام ملكان بأمر الله بالتسبيح والتقديس لله تعالى وتهليله لمدة ألفى عام فوق المساحة المباركة.

ونقلت هذه الرواية من قبل الإمام الفاكهى عن طريق عبد الله بن أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ لذا لاشك في صحتها.

قد نقل حضرة أبو هريرة الكيفية بهذه الصورة: خلقت الكعبة المعظمة قبل الأرضين وكان تراب موقع الكعبة المعظمة من نفس تراب الأرض، وكان عليها ملكان عظيمان وكانا يسبحان الله ـ سبحانه وتعالى ـ لفترة ألفى سنة وعندما تعلقت إرادة الله بخلق الأرض بسطها تحت الكعبة وجعل مكة فى وسط الأرض.

وقال ابن خلدون مستشهدا بالحديث الصحيح لما سئل النبى ـ ﷺ ـ الواقف على أسرار الكتاب عن خلق مكة المكرمة والمدة بين خلقها وخلق بيت المقدس، أجاب بما يفيد بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق البيت قبل السموات والأرض بأربعين سنة وهذا يدل على أن بين خلق البيت المعظم وخلق الأرض فترة أربعين عاما.

ملاحظة: وبمقتضى هذه الإجابة السامية، لابد وأن يكون بيت المقدس قد خلق بعد الكعبة المعظمة بأربعين سنة. والواقع أن حوالى ألف سنة تفصل بين سيدنا إبراهيم وسليمان بن داوود عليهما صلوات الله الودود.

وإذا جال بالخاطر نوع من الالتباس بين ظاهر إحالة الرسول الجليل وبين هذا السؤال، فإن عقدة هذا الالتباس ليست صعبة الحل لأن ما يعنيه صاحب الرسالة ـ ﷺ ـ أنه لم يكن البناء الظاهر للكعبة المعظمة، إنما المكان المخصص للعبادة على وجه الأرض، فقد تم تعيين بيت المقدس ليكون مكانا للعبادة قبل حوالى ١٠٠٠ سنة من سليمان وبعد البيت الأكرم بأربعين سنة.

وفى تلك الأثناء وضعت القبائل الصابئة هيكل الزهرة على الصخرة وعبدوها.

وصادف هذا الأمر عصر الخليل الشريف، لذا يكون الفارق بين اتخاذ البيت المعظم قبلة واتخاذ البيت المقدس قبلة هو أربعين سنة. وكانت أرض الصخرة آنذاك خالية لا يبعد أن تبقى على هذه لصورة مدة من الزمن إلى أن قام سليمان ببناء المسجد الأقصى.

* * *

توضح صورة بناء الكعبة المعظمة فى المرة الثانية

قام أبو البشر سيدنا آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ بتجديد البيت المعظم فى المرة الثانية.

إجمالـ بناء على رواية الإمام أبو الوليد أحمد الأزرقى عن المرحوم ابن عباس، أن سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ أنزل به على وجه الأرض قبل الهجرة النبوية بـ ٦٢١٦ عام.

ولأنه لم يستطع سماع صوت تسبيح وتهليل ملائكة السماء بعد هبوطه بمدة اغتم لذلك فعرض ما فى ضميره على حضرة عالم السر والخفايا، وجأر بالشكوى قائلا: «يا إلهى، فضلا عن بقائى وحيدا فريدا على وجه الأرض، أصبحت لا أسمع صوت تسبيح وتهليل الملائكة الكرام».

وبناء على هذه الشكوى، صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع من سماع صوت الملائكة المسبحين».

لكن لى بيت على وجه الأرض، عليك أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا وبعد ذلك قَدِّسْنِى وطف حوله دائما فقام سيدنا آدم على الفور سائحا على وجه الأرض باحثا عن البيت إلى أن وصل إلى مكة المكرمة وعثر على أساس البيت الحرام فابتدر مع جبريل الأمين الذى نزل إلى الأرض لمعاونته ـ بتجهيز أساس كعبة الله وتعميقه.

وفى قول آخر، إن جبريل ـ عليه السلام ـ حفر حفرة بضربة من جناحه فشوهدت أحجار الأساس التى وضعها الملائكة الكرام فى الحفرة.

وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق وجه الأرض. واستخدم فى هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال» لبنان

وطور سيناء وطور زيتا وجودى، وحراء» ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة. وقد ضبط» وهب بن منبه[1] «الجبال الخمسة المذكورة بحيث تكون جبال: لبنان، وطور سيناء، طور زيتا، أحد، وثبير» ووضع بعض الرواة فيما نقلوا جبل جودى مكان جبل «أحد» وجبل حراء مكان جبل ثبير.

ويروى المؤرخون أن الحجر الأسود نزل أيضا مع البيت المعمور ليكون كرسى أبى البشر عليه السلام.

تفصيل: كتب المؤرخون كلمات كثيرة فى كيفية تكليف سيدنا آدم ببناء البيت وتحديد الصورة التى سيكون عليها بناء بيت العزة وبمعاونة من سيكون تأسيس تلك البقعة السعيدة؟ وكيف حج سيدنا آدم عليه السلام؟

ولما كان هذا الموجز لا يكفى لاستيعاب كل الروايات المنقولة فقد رئى أنه من الصواب نقل وبيان الروايات باختصار، مازجا بين مختلف الروايات.

عندما أمر موجد الكائنات ـ تنزهت ذاته عن الإدراك والإثبات ـ ببناء الكعبة المكرمة بواسطة أبى البشر ـ عليه السلام ـ خاطبه قائلاً: يا آدم ابن لى بيتا تحت العرش، وعليك بالطواف حول البيت الذى أمرتك ببنائه، مثل طواف ملائكة السماء بالعرش الأعظم، وإننى أستجيب لدعاء أولادك وأحفادك المطيعين والمنقادين الذين يتوجهون بالدعاء إلى بجوار هذا البيت الذى لا مثيل له».

وعندما تأوه سيدنا آدم مظهرا عجزه قائلا: «يا إلهى كيف يمكننى ـ بمفردى أن أبنى وأؤسس البيت الشريف الذى أمرت ببنائه وأنى لى أن أجد محاذاة العرش الأعلى؟! إن عجزى وعدم قدرتى واضح فى تنفيذ هذا الأمر».

فأوحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ له وأمره بالنهوض فوراً والذهاب إلى وادى غير ذى زرع. فى مكة المكرمة برفقة ملاك وألهمه بالشكل الذى سيبنى عليه البيت الحرام.

وبناء على ذلك تحرك آدم ـ عليه السلام ـ من المكان الذى كان به، وكلما مر بمكان يرى فيه بدائع خلق الله وحسن تنسيقه والأشكال العجيبة كان يبدى رغبته

(١) كنى وهب بأبى عبد الله الزمارى وتوفى سنة ١١٤ هـ أو ١١٦ منها.

للملك الذى يصاحبه بالبقاء فى هذا المكان ويفصح عما فى نفسه قائلا: «أيها الملك اتركنى هنا» فيتلقى الجواب منه: «المكان الذى أمرنا بالنزول فيه مازال بعيدا أمامنا». وفى النهاية، وصلا إلى مكة المكرمة وسارعا بنقل الأحجار من الجبال الخمسة على الوجه المذكور آنفا وقاما ببناء وتأسيس بيت الله قوى الأركان.

وبعد الانتهاء ذهبا إلى عرفات، وأديا مناسك الحج وفقا لشروطه ورجعا. وفى أثناء عودة آدم ـ عليه السلام ـ من عدفات. خرج الملائكة الأرض لاستقباله فى وادى «أبطح»[1] وقالوا: «يا آدم: كنا فى انتظار قدومك الموسوم باليمن. وقد كان لنا فخر الزيارة والحج والطواف بالبيت الشريف قبلك بألفى سنة.

وبعد أن التقى حضرة أبو البشر بالملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح، ذهب إلى مكة المكرمة، وأدى طواف الوداع بصحبة الملك الذى رافقه، ثم ذهب إلى بلاد الهند، وبعد ذلك اعتاد أن يأتى كل سنة للحج وزيارة كعبة الله.

وقد كتب فى ترجمة الشفاء الشريف أن آدم ـ عليه السلام ـ قد حج أربعين مرة سيرا على الأقدام، وكان طول قامته ستين شبرا، وعرض جسمه ستة أذرع أى تسعة أقدام وإحدى عشرة بوصة. ومع ذلك قال مؤلف «زين المجالس» لقد حج سيدنا آدم ثلاثمائة مرة واعتمر ألفى مرة إلى أن قبلت توبته.

هل كان يحج سيدنا آدم راكبا أم ماشيا؟ وجه هذا السؤال إلى ابن عباس رضى الله عنهما فأجاب بقوله «كيف يمكن لحيوان أن يتحمل حضرة أبى البشر عند ركوبه؟! فقد كان يحج ماشيا وكان يقطع فى كل خطوة مسافة مسيرة ثلاثة أيام.

وعندما صدر الأمر إلى آدم ـ عليه السلام ـ بتأسيس بناء الكعبة كان فى بلاد الهند التى تشرفت بموطئ قدميه مناطق عامرة والمكان الذى كان يطأه بقدميه أصبح بعد ذلك قرية، والأماكن التى أقام بها قليلا أقيمت بها مدن صغيرة

(١) وادى أبطح: اسم مجرى عظيم من مجارى سيول مكة المكرمة، وهذا المجرى واسع جدا، ويقع بين منى. ومكة المكرمة ويتصل بجبل حجون، وحبات رماله كبيرة بعض الشيء ومثل الحصى.

وكبيرة. والأماكن التى صلى بها أقيمت فيها الجوامع والمدارس والمساجد وكان فى كل خطوة يقطع فرسخا، إذ كانت الأرض تطوى تحت قدميه طيا، والأراضى التى لم يطأها بقدميه تحولت إلى الصحارى.

قال كعب الأحبار عن البيت المعمور الذى أرسل من الجنة وهو يخبر سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بهذا الأمر:

وعندما هبط آدم ـ عليه السلام ـ إلى وجه الأرض، أنزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطعة ياقوت حمراء، ذات بابين من الزمرد الأخضر، تفتح إلى الشرق والغرب وكانت الياقوتة على شكل خيمة. وبعث معها رسالة تقول: «يا آدم هذه الياقوتة هى بيتى، وكلما طيف بالعرش الأعلى وصلى حوله فليطاف ويصلى كذلك حول بيتى».

وبعد إكمال آدم ـ عليه السلام ـ قواعد بيت الله بمعاونة الملائكة وضع عليها الياقوتة المجوفة الحمراء المذكورة وأخذ يعبد الله حولها فى ذلّة وخضوع. وكان فى أركان الياقوتة الحمراء، أربعة أعمدة مستوية موزونة وكان داخلها مجوفا كقبة جامع. وقد استخدم فى إنزال هذه الياقوتة المجوفة على وجه الأرض سبعين ألفا من الملائكة العظام.

أقوال الجمهور فى تعريف البيت المعمور:

أقدم المفسرون الكرام على وصف البيت المعمور بنقل روايات مختلفة متباينة. وقد رئى أنه من المناسب تثبيت بعض هذه الروايات فى هذا الموضع على أمل نفع أهل الإطلاع.

وهكذا بنى حضرة خالق الكاف والنون ـ تعالى شأنه عما يقولون ـ مقاما عاليا فوق أربعة أعمدة مستوية موزونة تحت العرش من أجل الملائكة الذين يطوفون بالعرش الأعظم، أعمدته من الزبرجد وغطاؤه من الياقوت الأحمر وسماه باسم «البيت المعمور» وبعده ـ كما ذكر من قبل ـ أوجد بواسطة الملائكة الكرام على وجه الأرض، وبمحاذاة البيت المعمور بيتا مكرما، وأمر أهل الأرض وسكانها

بزيارته والطواف حوله. وأصل اسم البيت المعمور «صراح» واسم خادمه الخاص «رزين» وأطلق عليه البيت المعمور لكونه مقر الملائكة، وبناء على ما كتب فى تفسير «السمر قندى» أن الملائكة الكرام بنوا البيت المعمور على وجه الأرض قبل خلق آدم عليه السلام، أو أن سيدنا آدم قد بناه بنفسه. وفى قول آخر أن البيت المعمور أرسل من الجنة لرفع وحشة فراق سيدنا آدم ليأتنس به وكان قطعة واحدة من الياقوت الأحمر، وقد أنزل فوق ساحة الكعبة المشرفة، ورفع إلى السماء فى طوفان نوح وكان ارتفاعه مثل ما بين الأرض والسماء[1].

وحسب ما يفيده حديث المعراج الذى ورد فى صحيحى مسلم والبخارى، أنه الآن فى السماء السابعة، وتبعاً لتفسير البيضاوى والكشاف، فى السماء الرابعة.

وبالنظر إلى تحقيق تفسير «الكواشى» أنه فى السماء الثالثة أو فى السماء السادسة أو فى السماء السابعة.

ويقول مؤلف تفسير (الواحدى) مؤيدا قوله بحديث خاص: ـ «إن البيت المعمور فى السماء الدنيا، وأن سيدنا جبريل يغوص كل يوم فى نهر الحياة الكائن فى السماء الرابعة ثم يخرج وينتفض فتنقطر من أجنحته حين يهزها سبعون ألف قطرة ماء، ويخلق من كل قطرة منها ملك ويقوم هؤلاء الملائكة المأمورين بزيارة البيت المعمور وأداء الصلاة ثم يعودون.

والملائكة المشار إليهم لا يعدون ولا يحصون لدرجة أن من أدى الصلاة مرة واحدة هناك لا يأتى عليه الدور مرة أخرى إلى الأبد.

وبناء على قول آخر أن اسم البيت الذى كان فى السماء الدنيا هو «صراح» وهو فوق الكعبة المشرفة وبمحاذاتها بحيث لو فرض سقوطه يسقط فوق السطح الشريف لبيت الله.

وقد سطر فى تفسير «اللباب»: كان البيت المعمور بقعة مثيرة لامعة مصنوعة

(١) هو القول المرجح على الأقوال الأخرى.

من الياقوت الأحمر، ولها بابان من الزمرد يفتحان: أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب.

وكان الحجر الأسود ـ أيضا ـ من ياقوتة بيضاء، وسبب تحوله إلى السواد هو لمس النساء الحائضات فأطلق عليه الحجر الأسود. وقد أنزل حضرة الحق البيت المعمور والحجر الأسود إلى وجه الأرض قبل هبوط أبى البشر بألفى سنة، وبعد هبوطه كان آدم يجئ من الهند ويحج ويطوف بالبيت المعمور ثم يعود، وقد تكرر منه ذلك أربعين مرة.

وعند البعض أن البيت المعمور بنى فى السماء، وفى النهاية صدر الأمر ببناء البيت الحرام على سطح الأرض بمحاذاة موضعه فى السماء وبنفس الحجم. وحسب قول صاحب «المواهب» إن الملائكة المسبحين بجوار البيت المعمور لا يحصى عددهم وبعدد تسبيحات كل واحد منهم يخلق ملك.

ويقول مؤلف «تفسير بحر العلوم،» أنزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على وجه الأرض، خيمة من خيام الجنة المتلألئة بالأشعة وأمر بوضعها فوق ساحة البيت المعظم فى مكة المكرمة، ولم يكن البيت الحرام قد بنى ـ بعد ـ آنذاك، وكانت الخيمة المذكورة قناديل واحدة حمراءمجوفة من يواقيت الجنان، وكان بالقرب منها ثلاثة قناديل من الذهب يعادل نورها مجموعة الثريا من النجوم، وبابا هذه الخيمة كانا مرصعين بلآلئ الجنة وكان أحدهما يفتح إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وكان نور الجنان يلمع ويتلألأ فى داخلها. وقد أرسل مع الخيمة المذكورة الحجر الأسود لكى يكون كرسيا لسيدنا آدم يجلس عليه وهو من ياقوتة وضاءة ناصعة البياض شديدة اللمعان.

وجاء فى الحديث الصحيح «أن البيت المعمور ياقوتة حمراء من قطعة واحدة لها بابان فى الجهتين مصنوعان من الزمرد، وداخلها مزين بالياقوت والجواهر بما يعادل عشرة آلاف قنديل مثل الثريا. وأمام بابها منبر ومئذنة من الفضة الخام الخالصة، وفى كل يوم يغوص سبعون ألفا من الملائكة فى بحر النور ويرتدون

ملابس الإحرام المنسوجة من خيوط النور فيزورون البيت ويطوفون به. مرددين «لبيك ، لبيك» ثم يذهبون والملك الذى يطوف مرة لا يرجع مرة أخرى.

ويحكى مؤلف «معارج النبوة»، ناقلا من بعض الكتب المعتمدة فيقول: اعتاد الملائكة العظام على الاجتماع داخل البيت المعمور فى أيام الجمعة. وفى أيام الاجتماع يصعد سيدنا جبريل فوق المئذنة، ويؤذن، ويخطب سيدنا إسرافيل، ويؤمهم سيدنا ميكائيل ـ عليهم السلام.

ويتفاخر كل واحد منهم ملقيا خطبة مؤثرة تتضمن ما يهبونه إلى الأمة الإسلامية وبعد أداء الصلاة يقف جبريل الأمين ويهب ثواب آذانه إلى مؤذنى الأمة المحمدية، ويهب سيدنا إسرافيل ثواب خطبته إلى خطباء الأمة الإسلامية، ويقف سيدنا ميكائيل ويهب الأجر الجزيل الناتج عن إمامته إلى أئمة الأمة الإسلامية، يعلنون ذلك مفتخرين مباهين فى خطب بليغة مؤثرة، كما أن الملائكة الكرام يهبون ثواب صلواتهم التى أدوها إلى الأمة المحمدية ويشهدون على ذلك المقربين الكرام من الملائكة.

وعندئذ يصدر الخطاب الإلهى إلى الملائكة ـ يا أصناف الملائكة!! هل أنتم تنفقون جواهر السماء التى أنعمت بها عليكم بالمباهاة والفخر بكرمكم وجودكم؟ ألا فاشهدوا أننى حفظت الأمة المحمدية من عذاب الآخرة، وهذا مقرونا برحمتى وعفوى الإلهى.

وهكذا يعود الملائكة إلى أماكنهم محاطين بالألطاف الإلهية، وتنتهى إلى هنا أقوال المفسرين.

وعلى حد قول الإمام الأزرقى أنه عندما وطأت قدم آدم سطح الأرض صدر إليه الأمر الجليل من رب العزة قائلا: يا آدم إن لى بيتا فى الأرض فى حذاء بيتى الذى فى السماء. وإذا كانت الملائكة الكرام يطوفون حول عرشى فطف أنت و أولادك وأحفادك كذلك حول بيتى فى الأرض، وصل وتعبد حوله.

يا آدم إنى أقمت أول بيت وضع للناس فى بطن مكة، يأتى الناس من كل فج

عميق لزيارته، وكل من جاءه معتمرا لا يبتغى إلا وجهى فقد زارنى وأكرمنى.

يا آدم اعتمر ما دمت حيا، وسوف يعتمر أنبياء وأمم القرون القادمة من بعدك، وقد اخترت موضع ذلك البيت قبل خلق السموات والأرض، ونفخت فيه من جلالى وكرامتى.

ولأن الله أرسل طائفة من الملائكة لمعاونة أبى البشر فى بناء البيت الشريف، ملأ آدم حفرة الأساس التى ذكرناها آنفا، ثم أقام على هذا الأساس الياقوتى هذا الجدار المتين الذى ارتفع عن الأرض قليلا.

ويروى أئمة الحديث أن فى كل سماء بيتًا يعلو البيت المعظم حتى السماء السابعة، وبيتا فى كل أرض تحته حتى الأض السابعة.

طبق هذا الحساب فإن «كعبة الله العليا» هى دار العبادة الخامسة عشرة.

وإذا افترضنا أن سقط أحد هذه البيوت حل محله غيره على سطحها.

لكل كعبة منها مخلوقات تطوف حولها من أهل السماء والأرض، ولا يمكن أن تخلو ممن يطوفون حولها.

البيت المعمور الذى اشتهر بـ «رضاض» أو «صراخ» حسب القول المشهور يعلو الكعبة المعظمة ويأتيه كل يوم سبعون ألف ملك لزيارته والطواف حوله بنية عدم العودة حتى تقوم الساعة، ثم يعودون بعد الطواف.

وعلى الرغم من أن الروايات التى جاءت بشأن تأسيس الكعبة المعظمة للمرة الثانية مخالفة الإفادة إلى الآن، فإنه سواء ما قاله الأزرقى أو كعب الأحبار صفوة الرواة فهم يؤيدون قول عبد الله بن عباس سالف الذكر.

وبعد أن أسس آدم ـ عليه السلام ـ البقعة المقدسة للكعبة الشريفة على نحو ما سلف ذكره، التمس رحمة الله داعيا: يارب إن كل من حج بيتك المعظم الذى بنيته امتثالا لأمرك وطاف حوله هل هو مثاب مأجور؟

فقال الله تعالى:

يا آدم لقد تجاوزت عن ذنبك كما تجاوزت كذلك عن ذنوب أولادك الذين سوف يحجون بيتى.

عاد آدم إلى بلاد الهند بعد أن تلقى جواب الرحمة هذا من الله.

وجاء فى رواية أخرى أنه بعد أن أتم آدم ـ عليه السلام ـ بناء الكعبة طلب مثوبة معطى العطايا مانح النعم، ولما كان آدم قد تلقى من رب العزة قوله: «سل منى أجرك حتى أعطيك».

فإذا بآدم ـ عليه السلام ـ يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: «يا آدم سوف أدخلك الجنة وكل من زار الكعبة من ذريتك وسأدخل الجنة كل من يزورون بيتى هذا» فظهرت علامات السرور عليه.

فائدة: بعد الطواف صلى آدم ـ عليه السلام ـ ركعتى الطواف ثم دعا فى مواجهة الملتزم[1] الشريف وقال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم ما فى نفسى، وما عندى، فاغفر لى ذنبى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى. اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيت على.

فتلقى خطاب ربه ذى العزة «يا آدم لقد قبلت دعاءك وكل من يعرض على من أولادك وأحفادك حاجة له، وهو يقرأ هذا الدعاء فإننى أستجيب لدعائه وأقضى حاجاته، كما أزيل همه وغمه وألبى له حاجات الدنيا والآخرة، وإذا لم يقبل هذا الدعاء فى الدنيا سيجده فى الدنيا والآخرة.

ولأن هذا الطواف هو أول طواف لجنس بنى البشر فقد اتخذ آدم ـ عليه السلام ـ الملائكة قدوة فى طواف بيت الله.

(١) الملتزم: يطلق على ما بين باب بيت الله والحجر الأسود.

وعندما أنهى أبو البشر ـ على نبينا وعليه صلاة الله ـ البناء الأول للبيت الشريف وبدأ الطواف. هنأه[1] الملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح قائلين: حجك مبرور يا آدم وسعيك مشكور لقد طفنا بالبيت الحرام قبلك بألفى سنة.

فإذا بآدم ـ عليه السلام ـ يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: فلما سألهم سيدنا آدم قائلا: «وماذا كنتم ترددون فى أثناء الطواف؟»

أجابوا: «كنا نردد فى أثناء الطواف التسبيح الجليل: «سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، وبناء على هذا ردد آدم ـ عليه السلام ـ التسبيح المذكور وبدأ الطواف لمدة أسبوع وكان يطوف ليلا سبع مرات، وفى النهار خمس مرات، وبهذا الحساب يكون قد طاف ببيت الله تسعا وأربعين مرة ليلا وخمس وثلاثين مرة بالنهار لأن كل سبعة أشواط حول الكعبة المعظمة تعد طوافا واحدا.

ويروى أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت فى أثناء الحج لمدة أسبوع، سبع مرات ليلا وخمس مرات نهارا وذلك عملا بسنة أبى البشر.

بشرى:

إذا طاف أى إنسان سبع مرات بكعبة الله، مرددا التسبيح سابق الذكر غير متفوه بكلام متعلق بالدنيا إلى أن يكمل الطواف يعطى عشر حسنات ويرفع عشر درجات وتحط عشر من سيئاته. أما إذا تكلم فإنه فى تلك الحالة أيضا يدخل حوض الرحمة كأنه يغوص بالماء، وهذه البشرى هى مضمون الحديث الشريف الذى نقله و رواه الصحابى الجليل أبو هريرة: كما أنه منقول بالآثار الصحيحة، ويروى بسند موثوق به «إن ثواب الذين يصلون بعد الطواف ركعتى الطواف مثل ثواب تحرير رقبة»،.

إخطار:

لما كان طواف بيت الله عبادة خاصة مثل إقامة الصلاة، لذا يجب الامتناع عن الكلام فى أثناء الطواف وإذا اقتضى الأمر التكلم فيجب أن يقول خيرا» انتهى.

(١) الملائكة إذن هم الذين علموا سيدنا آدم دعاء الطواف كما علمه جبريل الأمين أصول المناسك.

وفيما يتعلق باستقبال الملائكة الكرام لمن يدخلون المدينة المباركة مكة المكرمة قاصدين أداء حج البيت الحرام، فإن الملائكة الكرام يقومون فقط بإلقاء السلام عليهم وتكريم الذين يدخلونها وهم يركبون الإبل ويحيون من يدخلونها وهم يركبون الحمير بمصافحتهم، أما الذين يدخلونها سائرين على أقدامهم يظهرون لهم الترحيب الحار ويعلون قدرهم بمعانقتهم.

وبناء على هذا الأساس فإن السلف الصالح كانوا عند استقبال الحجاج ذوى الابتهاج يسارعون بتقبيل عيونهم حتى ينالوا دعواتهم الصالحة قبل أن يتدنوا بارتكاب المعاصى والآثام.

* * *

توضح كيفية تجديد الكعبة المحرمة فى المرة الثالثة

بنى سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم ـ عليهما السلام ـ بيت الله العالى المقام فى المرة الثالثة، وقام أولاد وأحفاد المشار إليه بتعميره إلى طوفان نوح.

لأنه عندما وضع آدم ـ عليه السلام ـ قدميه على وجه الأرض، كانت ياقوتة منيرة على شكل الخيمة موضوعة فوق الموضع المبارك المقدس للبيت الأكرم على نحو ما أوضحت سالفا. وعندما رفعت هذه الخيمة إلى السماء عقب وفاة أبى البشر ـ عليه السلام ـ بنى سيدنا شيث بن آدم ـ عليهما السلام ـ بيتا من الحجر ليحل مكان الخيمة المذكورة.

وإذا كانت واقعة الطوفان الهائلة التى أغرقت أقطار العالم قد دمرت أيضا البيت الحجرى الذى بناه سيدنا شيث وأزالت آثاره فإنه بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف المذكور. وكان أولاد وأحفاد المشار إليه يقومون بتعميره وترميمه من حين لآخر.

حكمة:

لدى وصول نوح ـ عليه السلام ـ إلى أرض مكة، كان الموضع المبارك الذى كان فيه الأساس المنهار لبيت العزة معلوما وأكثر من هذا أن سفينة نوح ـ عليه السلام ـ عندما وصلت إلى حدود حرم الله، أخذت تطوف بالموضع السعيد لكعبة الله. وقد طاف سبع مرات كاملة، وفى أثناء هذا شرح سيدنا نوح طريقة الطواف للموجودين داخل السفينة وأمر ألا يقترب أى إنسان من زوجته تعظيما لبيت الله. وعندما خالف حام بن نوح أمر والده، دعا نوح على ابنه حام بالسوء فتغيرت نطفة حام على أثر هذا الدعاء وبدأ فى إنجاب أبناء ذوى بشرة سوداء.

ونسى العباد طوفان نوح مع مرور الوقت، واتخذوا الأصنام آلهة وأهملوا العناية ببيت الله فقد غطت الرمال الأساس القديم لبيت الله الذى ظهر بعد الطوفان واختفى تماما عن الأنظار.

والموقع اللطيف لبيت الله أصبح ربوة من الرمال الحمراء ومع هذا ظل الناس يعتقدون أن هذه الربوة الحمراء مكان مقدس، لذا كانوا يسعدون بالطواف حوله وزيارته وبهذا التقدير يحتمل أن الخيمة المذكورة الموضوعة فوق الأساس الذى بناه أبو البشر كانت البيت المعمور، أو أن فوق البيت المعمور خيمة مثل الخيمة المذكورة ويفهم من هذا أن الخيمة قد رفعت عقب وفاة آدم ـ عليه السلام ـ وأن البيت المعمور ظل على الأرض حتى قبيل الطوفان، ورفع فى أثناء الطوفان حتى لا يتلوث بمياه الأرض القذرة.

* * *

فى بيان ترجمة حال سيدنا إبراهيم عليه التحية والتكريم الذى وفق فى تجديد الكعبة المعظمة فى المرة الرابعة، وسبب ذهابه إلى مكة المكرمة، والقصة الهامة لذبح إسماعيل، والمهمة التى كلف بها لتأسيس البيت الحرام، وإقامة أولاد إسماعيل فى تلك البلدة المقدسة، وبيان أحوال تلك الأيام وكيفية معيشة الناس

قال سيدنا على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ دون أن يخوض فى أوليات بناء البيت قبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ «أول من بنى البيت الشريف سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه التعظيم».

وقد كذب ابن كثير وخرج الروايات التى تقول «إن الكعبة المفخمة قد جددت ثلاث مرات قبل بناء إبراهيم، كما جاء فى تفسيره الشريف[1] وبهذا صدق قول على بن أبى طالب، إلا أن الروايات المشهورة تؤكد أن سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ قد بنى البيت المعظم للمرة الرابعة. وسواء صح القول الأول أو القول الأشهر فلاشك فى أن النبى المشار إليه قد جدد مقر العزة الإلهية.

وهناك أسئلة كثيرة ترد فى الخاطر ومنها: كيف ترك إبراهيم ـ عليه السلام ـ مسقط رأسه بابل؟ وكيف اتجه نحو واد غير ذى زرع؟ وأين قضى أوقاته قبل تشريفه إلى مكة المكرمة؟ وأين أقام بعد تأسيس البيت الشريف واستراح؟ وبما أن هذه الأسئلة فى حاجة إلى الحل والإجابة، وذلك يحتاج إلى تلخيص الأخبار الطويلة المبسوطة فى الكتب لذا رأينا أننا مضطرون لكتابة تاريخ حياة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وترجمة حاله ملخصين تلك الأخبار الطويلة.

(١) هناك إيضاحات مقنعة فى هذا الخصوص فى بحث مقام إبراهيم.

ترجمة حال سيدنا الخليل عليه سلام الله الجليل:

سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه التفخيم ـ من الأنبياء أولى العزم من الرسل، يصل نسبه العالى إلى البطن الخامس من هود ـ عليه السلام.

ولد إبراهيم عليه السلام فى قرية كوثى على وزن طوبا ـ مهد زينة الوجود ـ وكانت تابعة لمدينة «بابل» أو «برسد» الملحقة بالكوفة، وولد بعد هبوط الذات النبوية المتصفة بالهداية أبى البشر آدم عليه السلام ـ على وجه الأرض بـ ٣٣٢٣ سنة وعلى قول بـ ٣٣٦٣ سنة، وبعد واقعة طوفان نوح المفجعة بـ١٧١١ سنة، وقبل الهجرة النبوية بـ٢٨٩٣ سنة.

وهناك من يقول إنه ولد قبل الهجرة النبوية بـ٢٥٩٦ سنة. ويخمن جماعة من المؤرخين الأجانب أن مولده كان قبل ميلاد عيسى بـ٢٣٦٦، أو بـ٢١٢٢ عند جماعة أخرى. ويروى أنه ولد فى مدينة حران وبعد ذلك هاجر إلى «بابل» وفى رواية أخرى أنه ولد فى مدينة «أورفة» فى تركيا ثم هاجر إلى حران ومنها إلى بابل. وقال بعض المؤرخين أيضا إنه ولد فى قرية برزة «من قرى دمشق بالشام، وأصبحت المغارة التى ولد فيها مزارا للعارفين، بل هناك من يقول إن الدعاء فى هذه المغارة يستجاب من الله سبحانه وتعالى.

(بدايع الزهور)[1].

كان وجهه الشريف أحمرَ مائلاً للبياض، قامته متوسطة موزونة معتدلة أشهل العينين ضخم السرة، عظيم الصدر مستوى المنكبين.

ولد فى زمن هاصر بن كوفى بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ أو فى عهد نمرود بن كنعان الذى كان من جبابرة الملوك وتصادف ليلة ميلاده ليلة الجمعة فى يوم عاشوراء.

وفى ذلك التاريخ خرج النمرود التعس عن الطريق المستقيم وجادة الصواب

(١) هذه الرواية من الروايات المرجحة لدى صاحب بدايع الزهور.

بمساعدة الظروف، وأقام مجموعة من الأصنام على أشكال مختلفة وادعى الألوهية ودعا الناس إلى عبادته، وهكذا أضل الناس عن عبادة الملك المتعال جل جلاله. وكان يقول: «إن الذين يعبدون صورتى، سواء خفية أو علانية ويتقربون إلي ينالون درجة الكمال وأعلى المناصب». وذات ليلة رأى فى منامه أن كوكبا لامعا براقا يضئ حتى أن نوره حجب ضياء القمر المنير فاختفى، فقلق قلقاً شديداً وأحضر كبار الكهنة والمنجمين وأمرهم بتفسير ما تدل عليه الرؤيا وبناء عليه قال المنجمون: سيولد مولود ذو طالع ميمون مرتفع محمود العاقبة، وسيكون سببا فى تحطيم بنيان سلطنتك حتى تصير خراباً وأن هذا الطفل مازال فى صلب أبيه.

وتبعا لقول آخر أن (جليد بن عاص) وهو من أشهر الحكماء ومجموعة البؤساء الأشقياء التابعين له والذين اختصوا بتفسير رؤيا النمرود قالوا: «بالنظر فى أحكام كتبنا المتداولة، فإنه سيولد هذه السنة غلام محظوظ سعيد فى عاصمة بلدكم، وبعد أن يكبر هذا الغلام سيأتى بدين جديد وسيدعى أنه رسول لهذا الدين، وسيدعونا لاتباعه وإذا عجزنا عن إيجاد حل لهذا الأمر من الآن، فإن دولة النماردة ستزول وتمحى بلا ريب.

وتحير النمرود التعس من هذه المعلومات الفلكية التى تلقاها من كهنته، وبدافع من حماقته وبلاهته هب ليغير حكم القضاء وأصدر أوامره بالتفريق بين الرجال والنساء لكى يحول دون اجتماع الأزواج فى الفترة التى جددها الكهنة، وعين لكل عشرة رجال رقيبا عليهم، وعلاوة على هذا التضييق على الناس أمر بقتل كل الأطفال الذين سيولدون في تلك السنة».

وفى الواقع أنه لم يستطع تغيير القدر الإلهى، إذ التقى آزر[1] فى تلك الليلة بزوجته[2] (أدنى بنت نمرة) وانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

(١) آزر هو لقب لتارخ أبو سيدنا إبراهيم لقب بهذا الاسم للإله الذى يعبده على قول، وفى قول آخر هو عمه أخو أبيه. وهذا ما رجحه الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ رحمه الله ـ من العلماء المعاصرين.

(٢) هناك اختلاف فى اسم «أدنى» فبعض الرواة يصرون على أن اسم والدة إبراهيم عليه السلام «أدنى» بينما يقول الثانى أن اسمها «ملكا» ويدعى الثالث أنه «نونا» بينما يقول الرابع أنه «ليوثا».

رباعية:

إذا المولى أمرا مـــن الأمـــور شـــاء
فلا قدرة لأحد علي رده ولا القضـاء
ويثبـــت ذلـــك لمـــن أنكـــــــر
حكاية البيت والولـد وهمـة العنقـاء

عرف المنجمون تلك الساعة التى انتقل فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى رحم أمه ليلا، وأبلغوا توا النمرود بالخبر، فقام الشقى متهوراً وقد تحول إلى قطعة نار تحرق ـ فأمر بقتل آلاف من الأبرياء إذ أدرك أن المولود ذا العاقبة المحمودة سوف يولد ولم يقنع بهذا، بل عين موظفاً لفحص السيدات الحوامل، وذلك بغية قتل كل طفل ذكر سيولد مستقبلا إلا أن حداثة حمل (ادنى ابنه نمرة) ساعدها على إخفاء علامات الحمل وبذلك نجت من تلك المعاينة الجبرية من أتباع نمرود، ورغم أن والدة سيدنا إبراهيم استطاعت إخفاء حملها[1] بسبب شبابها ونجت من الذين فحصوها، فإنها عندما أتمت مدة حملها وبدأت مظاهر الحمل في الظهور عليها وكانت تعرف مصير فلذات الأكباد الذكور من القتل، حدثت نفسها قائلة: «إننى إذا وضعت غلاماً فسوف يقتلونه، لذا يجب على أن أضعه فى مكان خال بعيدا عن العيون «وبناء عليه ذهبت إلى حافة واد بين جبلين خارج المدينة وبعد أن وضعت حملها، لفت ذلك المولود السعيد في قطعة قماش وتركته فى كهف داخل هذا الوادى، حتى لا يقتل، ثم رجعت وأقنعت زوجها آزر بأن قالت له «فى أثناء وجودى فى وادى بيابان وضعت غلاماً، لكنه توفى فقمت بدفنه هناك ورجعت.

أما آزر فقد أظهر السرور وقد اقتنع بما قالته الزوجة وشكر الأصنام التى كان يعبدها، وتمتم ببعض الكلمات مسريا عن نفسه.

(١) لم يستطع أحد كائنا مَنْ كان أن يلحظ أمارات الحمل على أم نبينا إبراهيم عليه السلام، لأنه لم يظهر عليها شيء من علامات الحمل.

فى الليلة تركت (أدنى ابنة نمرة) إبراهيم عليه السلام ـ فى الغار، ذهبت إليه وهى تردد سراً يا ترى كيف حال فلذة كبدى ألا أذهب إليه ثانية لأرى ما إذا كان حيا فأرضعه، وقد وجدته على قيد الحياة، فأرضعته ورجعت.

وكان جبريل الأمين قد قطع حبل سرة سيدنا إبراهيم، وألبس على ظهره حلة بيضاء وأذن فى أذنه وأجرى الأصول الإسلامية المعتادة.

ولدى مجئ أم سيدنا إبراهيم كان ـ عليه السلام ـ يضع أصابعه فى فمه ويرضع منها وكان يقطر من أحد أصابعه عسل ومن الآخر ماء ومن الثالث سمن، ومن الرابع لبن، ومن الخامس لبن التمر. وتعجبت الأم من هذا الحال وسعدت به.

وكانت تذهب دائما إلى الغار المذكور لإرضاع ابنها، لكنها اجتهدت فى كتم ما يحدث وإخفائه حتى عن زوجها آزر.

أما سبب هذا التكتم والإخفاء، فقد كان لسلوك آزر غير المناسب، فعندما علم بحمل زوجته ـ بدافع من إخلاصه للنمرود ـ فقرر تسليم المولود إذا كان غلاما للنمرود، وأخذ من زوجته عهداً وميثاقا في هذا الشأن.

أما زوجته وبدافع من طبيعتها كامرأة، فقد اتبعت آزر وعقدت معه هذا العهد، ولكنها ندمت بعد ذلك وأخذت تفكر تفكيرا عميقا وتحدث نفسها قائلة: يا ترى كيف يمكننى أن أجد حلا لهذا الأمر؟ وكيف يمكننى أن أخلص فلذة كبدى ـ إذا جاء غلاما ـ من يد آزر.

ولعلمها بمدى محبة آزر لها وميله نحوها، ولتأمن أيضا من قتل وليدها إذا جاء غلاما من قبل أبيه، أخذت تحدث نفسها عندما اقترب أوان وضع حملها قائلة وإننى إذا وضعت غلاما فإنه سيقتل ساعة ولادته وهذا سيؤدى لفرط عطفى عليه وشدة حبى له لقتل نفسى ولاشك فى ذلك. وبدلا من التعرض لمخاطرة كهذه أقول فبحق الحب السائد بيننا أن تتجه إلى آلهتك وترجوهم ساجداً ألا أضع غلاما بل أنثى «وهكذا أرسلت آزر[1] إلى دار الأصنام معبد آلهتهم، بينما ذهبت

(١) كان هدف أدنى بنت نمرة من هذه الحيلة أن تحفظ مولد سيدنا إبراهيم بعيدا عن أبيه آزر وإنها كانت حيلة فى محلها.

هى إلى حافة الوادى حيث وضعت حملها ـ كما سبق الذكر ـ وكانت قد أقنعت زوجها بما حدثت به نفسها.

وبناء على ذلك كلما ذهب آزر إلى ديوان النمرود كانت (أدنى)، تذهب إلى الغار الذى به فلذة كبدها وترضعه لفترة ثم تعود. وقد امتد هذا الحال لمدة سنتين وحسب قول مؤلف «بدايع الزهور» استمر سنة واحدة.

تفصيل

فى هذا الموجز الذى كتبناه إلى هنا فإن أكثر الرواة يتفقون عليه فى لسان واحد، لكن صاحب الكتاب القيم المسمى «الأنس الجليل» الذى قام بالبحث والتدقيق أضاف إلى الموضوع رواية موثوقة إذ يقول: إن رئيس كهنة الشقى (حليد بن عاص) ذهب من رفقائه الضالين إلي ديوان النمرود فى تلك الليلة العجيبة التى انتقل فيها سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه وقالوا له: «إن كل جهودنا إلى الآن لم تثمر، حيث إن ذلك الكيان الذى يجب أن نتخلص منه سينتقل هذه الليلة إلى رحم أمه، فإذا اتخذت جميع الاحتياطات الشديدة هذه الليلة وبذلنا كل جهدنا محاولين تغيير خط سير القدر ربما حققنا آمالنا».

بناء على تحريض «حليد بن العاص» وأتباعه من الكهنة الضالين وحثهم المستمر للنمرود» أمرا قاطعا بأن يخرج من عاصمة ملكه كل الذكور ويبعدوا عنها، وأن يعين على كل بوابة من مداخل المدينة مراقبون من أهل الثقة، وأمرهم بألا يسمحوا بدخول أى رجل إلى داخل المدينة فى ذلك اليوم ليلا ونهارا، حتى لا يجتمع زوج بزوجته. وفى أثناء تلك الفترة المذكورة أبعد كل الذكور عن مساكنهم وبيوتهم، وكلف المنجمون بتحرى دقائق أحكام النجوم. واختبأت (أدنى بنت نمرة) لفترة بجوار باب المدينة الواقع بمحاذاة البيت الذى تسكن فيه وركزت تفكيرها لفهم نتائج ما يجرى ورآها زوجها آزر بطريقة ما وضاجعها فانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

وعرف (حليد) الشقى من رؤية إشارات النجوم وعلامات الكواكب أن سيدنا

إبراهيم قد انتقل إلى رحم أمه فذهب إلى قصر «النمرود» عقب افتراق (أدنى) عن آزر صائحا صارخا يخبر جماعة النماردة الضالين وقال: «مولانا يائسا» لقد قضى الأمر ـ الآن وذهبت جميع الجهود والمساعى هباء، فذلك الكيان محمود العاقبة قد انتقل فى هذه الساعة ـ إلى رحم أمه، وأشار إلى نجم لامع ليريه للنمرود[1]. وكانت أضواء شعاع هذا النجم قد غطت الشرق والغرب ما بين السماء والأرض، ولم يكن قد رأى أو سمع ـ حتى ذلك اليوم المنير ـ عن بزوغ كوكب سعيد كهذا.

وأفاق نمرود بعد فترة من دهشته وسارع بإجراء التحقيقات والبحث اللازم وسعى للقبض على الرجل الذى ضاجع امرأته فى اللحظة التى أنبأ عنها حليد بن عاص الشقى.

ولما لم يستطع أن يتبين ما جرى رأى أن يترك هذا الأمر لحين ولادة الغلام، مع اتخاذ جميع الاحتياطات. وقال: «إذا كنا لم ننجح فى منع انتقال هذا الكيان السعيد إلى رحم أمه فعلى الأقل علينا أن نبذل كل الجهود لنهتدى إليه فى وقت ولادته».

وعندما آن أوان ولادة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ علم المنجمون الأمر، وأبلغو النمرود اللعين قائلين: «سيولد ذلك الكيان السليم الجسم فى أسبوع كذا وفى يوم كذا وساعة كذا».

ورغم الاستمرار فى اتخاذ لوازم الحيطة؛ إلا أن أدنى عندما أحست بآلام الوضع وأوجاعه ومقدمات الولادة أرسلت زوجها آزر إلى بيت الأصنام لكى

(١) وقد ظهر نجم يشبه لهذا النجم عندما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار إلا انه لم يكن مثل الكوكب الذى طلع عندما استقر إبراهيم فى رحم أمه؛ ولكنه كان مثل الكوكب الذى ظهر فى زمن نوح عليه السلام.
يقول الإمام ربانى فى رسالته الثامنة والستين من رسائله «هناك مذنب سيره نحو الشرق وظهره نحو الغرب لامع، ويشرق عموديا ثم يميل إن هذا المذنب قد ظهر عندما هلك قوم نوح والقى إبراهيم إلى النار، وعندما قوم فرعون وعندما استشهد سيدنا يحيى، ويحتمل أن يطلع عندما يظهر الإمام المهدى.

يتضرع للآلهة على الوجه الذى أوضحناه آنفا، وخرجت من بيتها عازمة على وضع حملها فى حافة واد جاف يقع خارج المدينة.

وفى طريقها قابلت ملكا منير الوجه، جميل المنظر، قادها إلى الغار وقال لها: «كونى يقظة ولا تقلقى من أن ينال الطفل الذى ستضعينه أى أذى أو ضرر، فهذا الطفل خليل صاحب الكبرياء، والجد الجليل لخير الأنبياء، لذا فهو مصون فى كل الأحوال من ضرر ومن كيد الأعداء، ثم انسحب من الغار بعد أن أعد لها كل لوازم الوضع».

واستقر حضرة خليل الله على مهده المزين الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ وقرأ الأذان فى أذنه بعد أن قطع حبل سرته وألبسه الحلة. وبعد أن ألبسه الرداء الذى أتى به من الجنة، دخل الملك سالف الذكر إلى الغار وظل لفترة بجوار (أدنى ابنة نمرة). وفى الساعة التى ولد فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ تزلزل القصر الذى أقامه النمرود العنيد، وسمع هاتف بصورة تثير الفزع والدهشة قال: «لقد اقترب أوان هلاك ذلك الخبيث الذى أنكر إبراهيم» وجن جنون جماعة الشرك النماردة.

وتبعا للبحوث التى قام بها مؤلف «بدايع الزهور» فقد نتج عن اهتزاز قصر «النمرود» سقوط بعض شرفاته فجأة كما انقلبت الأصنام الموجودة به رأسا على عقب. وقد سمع صوت ذلك الهاتف عدة مرات فى ذلك اليوم المذكور وبعد هذا اليوم كان نمرود يسمع مقولة الهاتف فى كل مكان يذهب إليه.

وذات ليلة رأى فى رؤياه أن ضوء قمر يسطع من ضلع «آزر» ويغمر الأرض والسماء، نور بهى وأقلق سكان الأرض، وترددت فى أنحاء العالم وسمعت (جاء الحق وزهق الباطل) فأسقطت معابد الأصنام على الأرض.

وأوقعت النماردة ـ ذوى العاقبة السيئة ـ فى يأس وحرمان، وطاش صواب النمرود من هذه الرؤيا المخيفة وعندما أفاق واسترد وعيه استدعى «آزر» وبادره بقص تفاصيل حلمه المخيف الذى رآه. إلا أن «آزر» دفع الهواجس عنه إذ قال: إن رؤياك تشير وتلمح إلى شدة عبوديتى لكوكب القمر.

بقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المغارة المذكورة مدة خمسة عشر شهرا ـ على اختلاف الروايات. وعندما بلغ سن التمييز وجال بخاطره فكرة الخروج من المغارة قال لوالدته جاء الأوان للخروج من هذه المغارة.

يقول مؤلف «بدايع الزهور» بقى سيدنا إبراهيم فى الغار اثنى عشر شهرا، ولما كان يكبر فى كل شهر مقدار سنة، كان مظهره فى مظهر الأطفال البالغين عشرة أعوام من عمرهم عندما أراد الخروج من الغار. وبهذا أيد الرواية السابقة.

ولما رجا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أمه أن تخرجه من الغار، رجعت (أدنى) إلى بيتها وبعد تأمل عميق قالت لزوجها: قد ذكرت لك فيما مضى أن ابنك مات، ولم أكن صادقة فابنك لم يمت، وقد أصبح الآن شابا ملائكيا جميل الطلعة وهو الآن فى الغار وشرحت له الأمر كله.

وذهب آزر إلى الغار المذكور ولما رأى إبراهيم أعجب به وأحبه لجماله وكماله وقال لأمه: أخرجي الآن هذا الطفل لنقدمه للنمرود. وأخرجت الأم ذلك الغلام الموسوم بهداية البشر إلى خارج الغار. ولما خرج إبراهيم من الغار تأمل فى الكون، ورأى عجايب الأرض والسموات وأدرك بعلم اليقين وأذعن أن هناك مبدع وموجد حقيقى للأجرام العلوية والسفلية، فسارع بالاعتراف والإقرار بوجود الحق الذى ليس له مثيل من خلال هذا القول: «إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى الذى ليس لى إله غيره. ولم يكن فى ذلك الوقت فرد واحد على وجه الأرض يعترف بوجود إله واحد قهار».

وكان آزر كغيره من بنى البشر فى تلك الأوقات يعبدون النمرود ويشربون من كأس الندامة المتصف بالكفر. وكانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والأصنام المنحوتة ويقدمون نجوم السماء ويهتمون بعبادة الكواكب لتوهمهم أن لها تأثيراً فى سير الكون وإحداث الأشياء.

وكان أهل بابل ـ آنذاك على دين الصابئة يعبدون الشمس وضوء النجوم ويسجدون لنهرى دجلة والفرات.

كما أنهم عبدوا حكامهم وأقاموا لهم التماثيل، واتخذوا هذه التماثيل آلهة وشغلوا بعبادتهم كانوا يعتقدون أن الروح شمعة فريدة منبثقة من النور الأصلى.

والطائفة الخبيثة التى كانت تعيش في بابل فى زمن النمرود هم جماعة معلومة متفرعة من أولاد سام وكانت لغتهم السريانية ودينهم الصابئة.

وكان الصابئة قديما تابعين لشريعة شيث وإدريس ـ عليهما السلام ـ وكانت كتبهم فى الصحف الشريفة التى نزلت على سيدنا شيث، وكان كتاب شيث ـ عليه السلام ـ يتضمن محاسن الأخلاق، ويدعو إلى الصدق والشجاعة ونجدة الغريب، وينهى أهل الإيمان عن الميل إلى الباطل والانغماس فى الرذائل.

ويصلى الصابئة علاوة على الأوقات الخمسة فى وقت الضحى الأولى، وفى الساعة السادسة من الليل ويصلون على الجنازة بدون ركوع أو سجود ويصومون فى السنة ثلاثين يوما وأحيانا تسعة وعشرين يوما. وبالنسبة لوقت الصوم يحرصون على أن يبدأ من الثلث الأخير من الليل حتى غروب الشمس.

والعيد عندهم فى ختام الصوم، ويهتمون بمكة المعظمة وتفخيمها. ويحرصون على أداء الحج، بزيارة مكان فى مدينة حران ويقدرون قبرين فى مصر، إذ يظنون أن أحد هذين القبرين لسيدنا «شيث» والآخر قبل الصابئى «ابن شيث».

ولما كان الدين الذى ينتسبون إليه غاية في القدم وكان دينا حقا لم يستطيعوا أن يستمروا على مبادئه، بل ضلوا فى النهاية وأخذوا يعبدون الأصنام والشمس والنجوم وتماثيل الحكام. ولما لم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجد بين الصابئة مرشدا يدله على الطريق المستقيم راح يبحث بنفسه عن حقيقة وحدانية الله.

وقد رأى أولا «الزهرة» أو الكوكب المضئ و «المشترى» ومن بعده «القمر» ثم رأى بعد ذلك «الشمس المشرقة»، وقال بأسلوب الاستفهام الإنكارى: هذا ربى؟!

وعندما رأى أن هذه الكواكب قد توارت خلف حجاب الأُفُول وغابت، اتجه

إلى حضرة الواحد واجب الوجود ـ تعالى شأنه عن الولد والمولود ـ وهو حزين على الذى صدر منه بغير اعتقاد، وهو لا معنى له، وعبر بقول جليل وجميل المبنى: «لا أحب الآفلين».

وتبعا لبعض الروايات، أن سيدنا الخليل بعد بقائه فى الغار مدة اثنتى عشرة سنة، قال لأمه ـ ذات يوم من يكون ربى؟! وعندما أجابته أمه: ربك ربى.. بادرها بالسؤال التالى، ومن يكون ربك.

قالت (أدنى) ربى هو أبوك «آزر» فلما سألها ومن يكون ربه؟ قالت: رب «آزر» هو «النمرود» وبالتالى سألها: ومن يكون رب النمرود؟!

وهنا نهرته بقوله: «يا ولدى هذه الأسئلة لا ضرورة لها، واحذر أن تقول كلمة واحدة أخرى حول هذا الأمر ورغم أنها بهذا أرادت تهديد سيدنا إبراهيم، إلا أنه قال: «يا أمى، هل وجهى أجمل أم وجهك؟ وهل وجهك أجمل أم وجه أبى «آزر»؟.

وهل وجه والدى أجمل أم وجه النمرود؟

وعندما أجابته بقولها: يابنى وجهك أجمل وأحسن من وجهى ووجهى أجمل وأحسن من وجه آزر ووجه آزر أجمل وأحسن من وجه النمرود.

وقال: «مادمت أنت خالقتى، وأبى خالقك والنمرود خالق أبى فلماذا لم تخلقى نفسك أجمل منى؟ ولم يخلق آزر نفسه أجمل منك؟ ولم يخلق النمرود نفسه أجمل من آزر؟

ورغم أنه قد وضح بيان بطلان اعتقاد أمه بهذه الملاحظة الدقيقة، فإن أمه كررت نفس الإجابة السابقة وصحبته إلى المدينة، نقلت الحادثة التى وقعت بالتفصيل إلى زوجها آزر، وقالت له: أظن أن ابنك هذا سيكون ذلك الكيان الهادى الذى أخبر عنه بأن ظهوره سيكون سببا فى خراب وانهيار بناء سلطنة النمرود من أساسه، وأنه سيقضى على أديان أهل الأرض الباطلة.

ويظن البعض أن الذى أخرج سيدنا إبراهيم من الغار هو والده آزر، إذ ذهب إلى الغار عندما علم من زوجته بوجود ابنه هناك وفى نيته قتله، وذلك لكى يثبت إخلاصه للنمرود. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقلب القلوب جعل آزر يخاطب ابنه ـ وقد رأى جماله الآسر فعامله برفق ورقة وأظهر له المودة والعطف، وذلك من حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخفية.

قطعة

سلبتنى قلبى يا إبراهيم وهو نـــار
بالحسن وليس لى فى ذلك اختيـار
وفـــــى نار تركتنـــــــــى
وليس لنار النمـــرود مـن شـــرار

وبينما يبدى آزر محبته على ذلك النحو، أبصر سيدنا إبراهيم من خلال باب الغار مجموعة من الإبل وقطعان خيل وغنم وقال ما هذا؟.

فأشار «آزر» إلى كل واحد منها على حدة، وأجابه هذا يسمى غنم، وذلك يسمى جمل، وذلك يسمى خيل وعندئذ سأله: لا مخلوق بغير خالق، ترى من يكون خالقى؟ فلما أجابه آزر خالقك هو أمك. وإذا سألت عن خالقها فأنا خالقها وخالقى هو نمرود. وعندئذ قال إبراهيم إذن فمن يكون خالق النمرود؟ وهنا غضب ولطمه بكفه على وجهه المبارك وأخرجه من الغار.

وعندما خرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الغار، رأى كوكب الزهرة، أو «المشترى» ثم «القمر» ومن بعده «الشمس» وقال وهو يشير إلى كل واحد منها «هذا ربى» أبى أليس هذا ربى؟ وعندما غابت كل الكواكب المذكورة واحد تلو الآخر، وأفلت كلها، أفهم والده أنه على الدين الباطل وقال مقولته البليغة التالية «ياقومى أنا لست على دينكم، إنكم تشركون بالله وأنا أتوجه إلى خالق السموات والأرض ـ سبحانه وتعالى ـ وأنا لست من المشركين». ولم يستطع «آزر» أن

يحس وأن يفهم صحة ما ذهب إليه ابنه فيما يعتقده، وأخذه إلى قصر النمرود وقدمه للنمرود وهو شخص كريه المنظر قائلا: ها هو ذا النمرود ربنا كلنا.

وقال بعض المؤرخين إن آزر تأثر من تمسك ابنه إبراهيم برأيه وإصراره عليه وهو ضد دينه فبكى. ولما أدركت (أدنى بنت نمرة) أن النمرود الشقى عندما يرى إصرار ابنه على رأيه سيقتله بدون شك. راحت تبكى هى الأخرى. فقال سيدنا إبراهيم وهو يسرى عنهما لا تحزنا من أجلى ولا تقلقا فالحافظ الحق الذى تكفل بحفظى وحمايتى فى صغرى، يحمينى ويحفظنى أيضا فى كبرى.

ورغم أنه أراد أن يطمئن أباه وأمه بأنه لا يوجد احتمال تمكن النمرود من إصابته بضرر ما فى أى وقت من الأوقات، إلا أن آزر فكر فى أن أعداءه سيزيدون من كراهية النمرود للطفل، وعدائه عن طريق الوشاية، ولذا عزم أن يبلغ النمرود الخبر بنفسه وأمر ابنه إبراهيم. فذهب إليه وقال: أيها الملك إن الطفل الذى كنت تخشى من ولادته هو ابنى إبراهيم، لقد ولد فيما مضى خارج بيتى ولم أعلم بالأمر إلا اليوم. والآن وقد علمت أقدمه لك وافعل به ما تود أن تفعله، حتى لا تلومنى أو ترجمنى بعد ذلك.

وأخذ ابنه ـ بناء على الأمر الصادر من النمرود ـ إلى قصره ولما كان النمرود قبيح الوجه أشد القبح، ويستخدم في حاشيته كثيرا من الشباب ذوى الشكل الملائكى فى الجمال فتعجب سيدنا إبراهيم من هذا الوضع الغريب وبدأ فى السخرية والاستهزاء بالنمرود تحقيرا له وقال: «ياله من خالق عجيب! فقد خلق نفسه غاية فى القبح وسوء المنظر وخلق هؤلاء الفتيان غاية فى الجمال».

وتبعا لبحث وتحقيق مؤلف «بدايع الزهور» فبرغم غضب النمرود على سيدنا إبراهيم بسبب كلماته تلك فإنه صمت فترة لحكمة يجهلها بنو البشر، وأمر بحبسه إلى الصباح وأن يمثل أمامه فى المجلس الذى سيعقد بعد يوم وفى اليوم التالى أتو بإبراهيم إلى المجلس المنعقد فى حضور النمرود وعندما رآه فى هذه المرة غضب لأنه لم يستطع أن يقنعه بترك دينه.

ورغم أنه أظهر علامات الحدة والغضب وبالغ فيهما إلا أن حسن جمال إبراهيم ولطف مقاله أوجد فى القلوب ـ سواء قلب النمرود أو غيره من الموجودين فى المجلس ـ محبة عميقة خالصة فأظهر لسيدنا إبراهيم الود وقال لأبيه يا آزر ابنك هذا صغير السن ولا يعرف ما يقول ومن العيب أن يظهر حاكم عظيم القدر مثلى، معاملة غير لائقة لصبى صغير السن كهذا.

خذ ابنك إلى بيتك وأحسن معاملته وبين له قدرى وعظمتى، وحذره من مغبة شدة غضبى وعظمة عقابى فأخذ آزر ابنه إلى بيته.

وكان آزر يسترزق من نحت الأصنام زاعما بالباطل كسب المال الحلال ولم ينس وصية النمرود فى تحذير ابنه وتهديده من غضبه. وأشرك إبراهيم ابنه فى عمله وكان يأخذ الأصنام التى يصنعها الأب ليلا إلى السوق نهارا ويبيعها وفق أوامر أبيه، وتحمل حضرة الخليل لفترة مهمة القيام بهذه الخدمة الكريهة وهى بيع الأصنام رعاية لحقوق الأبوة، وكان إذا خرج إلى الطريق لبيع الأصنام التى سلمت له يظهر أنواع التحقير والاستهانة والكراهية لهذه الأصنام وكان ينادى «من يشترى هذه الأصنام التى لا تضر ولا تفيد؟ وكان يربطها أحيانا ـ ويجرها فى الأسواق ممرغا وجوهها بالتراب كالجيفة القذرة. ويأخذها إلى حافة الماء ويقول اشربى الماء ويقلب رؤوسها إلى الأسفل.

وكان لابد أن تثير هذه الأعمال النماردة المتعصبين، إلا أنهم لم يقدروا أن يتعرضوا له بسوء، احتراما لآزر وخوفا منه لأنه كان يشغل منصب «حارس الأصنام» وهو بحكم منصبه هذا يتمتع بمكانة لدى موظفى حكومة النمرود وكان له رأى مسموع وحكم نافذ.

وكانوا يشترونها منه حيثما يرونه. ورغم أن هذا الأمر وصل إلى سمع «النمرود» إلا أنه كان قد نسى الرؤيا وتحذيرات الكهنة، لذا لم يهتم بما ظنه شائعات مغرضة إلى أن حل عيد النماردة المشهور.

وكلما كان يحل هذا العيد يقوم كل إنسان بإعداد كل ما يستطيع إعداده فى

بيته من أنواع الأطعمة اللذيذة، ويضعونها حول الأصنام التى فى المعابد ويذهبون إلى الصحراء، ولدى العودة مساء يسعون لعبادة أصنام المعبد ويأخذون بقايا الطعام المتروك فى المعبد.

ويقسمونه فيما بينهم. وكانوا يعتقدون أن أكل الأطعمة التى أخذوها من هناك ستجلب الخير والبركة لمنازلهم. وكان الفئران وسائر الحيوانات تلتف حول الأطعمة وتأكل أكثرها. وكان أفراد النماردة الذين يرون نقص الطعام يقولون إن آلهتنا قد رضيت عنا إذ أكلت من طعامنا ويظهرون السعادة والسرور والفخر لهذا.

وكان هذا المعبد فى ذلك العصر من أمتن المعابد وأجملها حيث توضع الأصنام فيها وقد غطيت جدرانه بالرخام الأبيض والأخضر. وكان فى داخل هذا المعبد ثلاثة وسبعون صنما مصنوعا من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والحجر والأشجار وقد وضع كل واحد منها فى مكانه اللائق.

وكان كل صنم من الأصنام المذكورة موضوعا فوق كرسى من الذهب، كما وضع على رأس أكبرها ـ ويسمى «بهو» تاج مرصع بالجواهر الفاخرة، وكانت عيناه مصنوعة من الياقوت الأحمر[1]. ورصت بقية الأصنام عن يمينه وشماله. «بدايع الزهور».

وعند حلول العيد المذكور، شغل صغار النماردة وكبارهم بإعداد وترتيب لوازم العيد، وذهب جمع غفير من الناس إلى حضرة الخليل وطلبوا منه مرافقتهم قائلين: «يا إبراهيم سنذهب غدا إلى ساحة العيد الواقعة فى صحراء كذا فإذا ذهبت معنا ورأيت ما أقيم من الزينات وآلهتنا بعد العودة ستؤمن بأننا على دين أفضل، ومنهج مرغوب ومستحسن ولكن الخليل تمتم قائلا سأحطمها وعزم فيما بينه وبين نفسه على عدم الذهاب إلى الصحراء مع هؤلاء الكفرة ونظر إلى السماء ـ مثل العارفين بعلم الفلك مسايرا لما يعتقده النماردة وقال: يبدو فى اتصال

(1) إن صنع عينيه من الياقوت كان يغرى الحمقى المشركين بتصديق الكهنة بسرعة.

الكواكب أن مرض الطاعون قد يلم بى واستأذن من والده آزر أن يسمح له بالبقاء فى المدينة وادعى المرض.

وتركه النماردة خوفا من أن يعديهم بالطاعون وذهبوا إلى الصحراء. وخلت المدينة من الناس.

وذهب إبراهيم وحيدا فريدا إلى معبد الآلهة التى كانوا يقدسونها ويعتزون بها ودخل فيه، وأخذ يسخر من الأصنام قائلا: ألا تأكلون هذا الطعام؟ ماذا أصابكم حتى لا تجيبوا؟ ثم أسقط الأصنام الاثنين والسبعين المرصعة والأوثان المزينة بطلاء الذهب من فوق كراسيها فصارت جزازا وعلق الفأس فى رقبة أكبر صنم منها وهو «بهو» وبعد أن فعل هذا رجع إلى بيته[1].

وكانت حكمة سيدنا إبراهيم من تعليق الفأس فى رقبة «بهو» أن يقول للنماردة «سلوا الأصنام التى تعبدونها وقد صارت ألف قطعة ليقولوا من الذى فعلها، وجعلهم على هذه الحال» فهو يريد أن يعرفهم بأن الأصنام لا يمكنها أن تتكلم حتى يشعر النماردة المتعصبون بالحقارة ويستحيوا من أنفسهم.

ورجع النماردة الضالون من ساحة العيد وذهبوا إلى معبد آلهتهم كعادتهم. وعندما رأوا الأصنام المطلية بالذهب التى يعبدونها ويقدسونها منذ سنوات طوال - وقد تحطمت جزازا بكوا بحزن وحرقة وتألموا، وارتموا على الأرض من شدة الخوف وتأوهوا، وأخذ كل واحد منهم يبدى رأيه فيما حدث. وقال أحدهم: «لقد سمعت ابن آزر يهدد بتحطيمها فمن المحتمل أن ينفذ ما عقد عليه العزم ليحقر ديننا، واتفقوا كلهم على هذا الرأى وقالوا «إن إبراهيم بن آزر حطم آلهتنا وسحبوا المشار إليه إلى النمرود لاستجوابه وبدءوا فى تحقيق الأمر بسؤاله أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ وبعبارة بليغة أجاب سيدنا إبراهيم» بالنظر إلى الفأس المعلق فى رقبة «بهو» لابد وأن يكون هذا التصرف الحقير قد بدر منه، فاسألوه

(!) عندما دخل حضرة الخليل إلى ذلك المعبد وحطم الأصنام إلى ألف قطعة كان فى السابعة عشرة من عمره - بدايع الزهور.

عما حدث إذا كان فى استطاعته أن ينطق، وهو بهذا قد ألمح وصرح بأنه لا يليق بهم أن يعبدوا هذه الحجارة العاجزة عن إخبارهم بالضرر الذى أصابهم ولجأ النمرود وآزر إلى التهديد الذى لا يليق بالإنسانية لكى يسكتوا ذلك الرسول سعيد الطالع وتجرءوا على تعذيبه، لإجباره على الكلام واشتدوا عليه فى القول وأغلظوا عليه حتى يعترف بما فعل. وأصروا فى حوار غير لائق لاستنطاقه.

ولما رأى النماردة إصرار النبى الجليل على ترديد الفقرات التى تشمل على حقائق ثابتة «أتعبدون ما صنعت أيديكم، فى حين أنها وأنتم من خلق الحق سبحانه وتعالى».

عندئذ أدركوا أنهم لن يستطيعوا إجبار سيدنا إبراهيم على السكوت، وبعد مناقشات مطولة ظهر عجزهم فى اتخاذ القرار اللازم، واضطروا لحبسه وسجنه مدة ثلاث عشرة سنة وفى النهاية قرر النمرود ـ وفى قول آخر عمل برأى رجل قبيح المظهر من أكبر بلاد فارس اسمه «هيوم» ـ وعزم على إحراقه فى النار. وبنى مبنى ذا جدران عالية أمام الجبل الواقع مقابل قرية «كوثى[1]» من ملحقات الكوفة أو البصرة ونقل إليه حطبا يكفى حرقه لأربعين يوما وعلى رواية لثلاثمائة وست وستين يومًا[2].

وكذلك أشياء أخرى قابلة للحرق وملئوا بها المبنى المذكور وسكبوا عليها الزيت وأضرموا النار فيها من الجهات الأربعة.

استطراد

نظرا لوجود حى فى مدينة «أورفة» معروف باسم «كوثى» وبه مزار على اعتبار أنه المكان الذى ولد به سيدنا إبراهيم وبناء على هذا يتحتم أن يكون موقد النار المعد لحرق سيدنا إبراهيم فى «أورفة» وقد عرف أن هناك صندوقًا أخضر على أنه مهد حضرة الخليل وهو داخل الغار الواقع أسفل قلعة «أورفة» وهم

(!) اسم هذه القرية حسب بحوث المؤرخ «سُدِّى» هو غوطة ـ بدايع الزهور.

(٢) هذه المدة حسب رواية سُدِّى هى ثلاثة أشهر كاملة. بدائع الزهور.

يطلقون اسم «كوثى» على الحى الواقع بمحاذاة هذا الغار وهو متصل به كما يوجد فى هذه المدينة خرابة يطلق عليها قصر النمرود.

ويوجد غير هذا فى أحد الأبراج أطلال قلعة «أورفة» أطلال عمودين من الحجر يبعد أحدهما عن الآخر مسافة خمسين ذراعا.

وهذان العمودان معروفان بين الأهالى على أنهما المنجنيق الذى أعد لسيدنا إبراهيم.

وحسبما سمع من أهل أورفة، فقد مد إلى هذه الأعمدة حبلان سميكان، مثل الحبال التى تمتد بين المآذن ثم علقت هذه الحبال بشجرة وتركت فجأة وهكذا ألقى سيدنا إبراهيم فى خرائب المنجنيق الذى سنبين شكله فيما بعد. انتهى.

كان طول المبنى الذى أعد موقدا لسيدنا إبراهيم ستين ذراعا (٨٥ قدما) وعرضه أربعين ذراعا (٥٦ قدما و٨ بوصات) وكان ارتفاع الجدران ٨٥ أو ٤٢ قدما وعلى قول ٢٨ قدما وأربع بوصات.

بيت

أيها الواعظ ما فى جهنم من نار بها تفزعنا

إنهم يأتـون منها بالنـار ليـحرقوا كـلا منا

وحسب مضمون هذا البيت، فإن كل الدواب التى نقلت المحروقات إلى المحرقة كانت تتحرك ببطء ما عدا فصيلة البغال، فقد كانت تسير بسرعة، ومنذ ذلك الوقت حرم عليه التوالد والتناسل.

وكذلك الحيوان المسمى بالضب فقد أصبح قتله واجبا شرعا، لأنه ساعد النماردة الضالين فى إشعال حطب المحرقة المذكورة.

أضرمت النيران فى الحطب ـ الذي يملأ المحرقة ـ مدّة أربعين يوما متتالية، واشتدت حرارتها لدرجة أنها لفحت وجه السماء وكانت الطيور التى تحلق مرتفعة تتساقط إلى الأرض مثل قطرات المطر، حتى إن سكان المدن والقرى المجاورة أشرفوا على الهلاك من شدة دخان النيران المشتعلة.

وأعد بعض الأفراد سراديب تحت الأرض لحماية أنفسهم من شدة الحرارة، فقد كان لهيب النيران يمتد إلى الأماكن المتناهية فى البعد. «بدايع الزهور» عندما بلغت حرارة المحرقة منتهاها، جردوا سيدنا إبراهيم من ملابسه، وربطوا يديه وقدميه بسلسلة من الحديد بشكل محكم ـ ثم أجلسوه فى كفة المنجنيق الذى

صنعه النماردة بوحى شيطانى، وكان عمر سيدنا الخليل ـ آنذاك ـ قد تجاوز السابعة عشرة. وفى قول آخر التاسعة والعشرين.

وعندما أراد النماردة ـ المشركين ـ أن يجردوه من لباسه الذى يستخدمه كسروال داخلى لجسمه الشريف، ليكشفوا عورته للنيران شلت الأيدى التى امتدت للباسه الشريف. ولم تتحرك، وجاء النمرود وهو فى غمار هذه الحال التى تبعث الدهشة واستدعى حضرة الخليل ـ على نبينا وعليه التبجيل ـ وقال له: يا إبراهيم إننى سألقى بك فى هذه النار فلترى إلى أى إله ستتضرع وينجيك؟ فلما أجاب ربى الذى يحيى ويميت. واستدعى اثنين من المحكوم عليهما بالقتل، فعفا عن أحدهما وأطلقه، وقتل الآخر، كأنه يقول أنا أحيى وأميت مثل ربك.

وعندما ما تلقى سيدنا إبراهيم هذا الرد الذى يوحى بالبلاهة تعجب من حماقة النمرود وبمقتضى المثل عديم المثيل قال: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فسكت النمرود ولم يستطع الرد، وبهت.

ولكن النمرود المغرور العاتى العنيد لم يتعظ من هذا الحوار وأمر بإلقاء إبراهيم فى النار المشتعلة الملتهبة.

وفى نفس اللحظة جاء ملكان وأمسكا بحضرة الخليل من جانبيه وأنزلاه وسط النار بمنتهى الهدوء والوقار. وجاء جبريل ـ عليه السلام ـ بخلعة من خزانة الجنة وألبسها له. وأعد ـ بأمر الخالق ـ بساطا مزركشا لا مثيل له وفرشه فى المكان الذى سيقيم فيه ونمت خمائل كثيرة فى الجهات الأربعة، عرضها وطولها عشرون ذراعا (٢٨ قدما و٤ بوصات).

وفى وسط هذه الخميلة التى تفوق الخيال، وعلى حافة المكان الذى جلس فيه سيدنا إبراهيم كان يجرى ماء فرات يبعث الحياة.

أبيات

شاء النمرود الدون للخليل إحراقا

إلا أن تلك النار أصبحت نورا براقا

ولما بلغت النار عابد الرحمن

أصبحت روضة تبدو سعيراً للعيان

وفى أثناء وضع سيدنا إبراهيم على كفة المنجنيق لإلقائه فى النار، أجهش ساكنو الملأ الأعلى بالبكاء وكذلك العالم الأسفل، ودعوا الله قائلين:

«يا مالك الملك على الإطلاق، إن أعداءك يلقون بحضرة الخليل فى النار، فبعد هذا لن يبقى على وجه الأرض من يعبدك، لأنه لا يعترف بوحدة وجودك ـ على الأرض ـ سوى سيدنا إبراهيم، فإذا أذنت فإننا ننصره» بلغ طنين النداء عنان قبة السماء والأفلاك واسودت طبقات أعتاب السماء وأضحت مثل لون الأرض ولكن الخطاب الإلهى دوى: (إبراهيم خليلى، وليس لى خليل سواه وأنا ربه وليس له رب سواى فإذا طلب منكم النصرة فساعدوه، فقد أذنت لكم. ولكننى متأكد بأنه لن يدعو سواى) وهكذا سعى الكل إلى عرض نصرته وعونه لسيدنا إبراهيم بصورة ما، فأجابهم سيدنا إبراهيم: «حسبى الله ونعم الوكيل».

فأصبحوا فى حزن وهم وقد سمعوا هذا الجواب من إبراهيم. وفى أثناء إلقاء الخليل فى النار كان يردد:

«لا إله إلا أنت، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك»

فانصهرت السلاسل الحديدية التى كبلت جسمه النبوى المغمور بالنور وسقطت على الأرض، من شدة حرارة لهيب النار التى لم تستطع أن تؤثر فى جسمه الميمون ـ عليه التعظيم وفى وقت إلقائه فى النار ـ ظهر جبريل الأمين وخاطبه قائلا: يا إبراهيم، إذا كان لديك طلب منى فقله، فالوقت قد ضاق فأجابه قائلا: لقد وجهت وجهى إلى واهب الآمال الذى هو قبلة المحتاجين فى العالم ولا حاجة لدى أعرضها عليك فقال: إذا كان الأمر كذلك فاعرض ما فى ضميرك لكى تنال مرامك، فأجاب إبراهيم عليه السلام: إننى أعتبر الدعاء فى هذه الحالة سماجة، فعلم الله بحالى يغنى عن سؤالى.

بناء على هذا، فإن النار الموقدة منذ أربعين يوما أصبحت بأمر الله روضة أزهار يانعة، تنعش الروح، وتأسر القلب بمقتضى الخطاب الكريم الجليل.

(يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) (الأنبياء: ٦٩) وبالخطاب الإلهى تحول داخل المحرقة إلى عالم آخر، وانقلبت نار النمرود إلى هواء عليل، وفقدت النار قوة إحراقها وإن بقى لهيبها عاليا. وتفجر داخل هذه المحرقة التى تشبه جهنم ماء عذب بارد، ونبتت فى جهاتها الأربعة فصائل الأزهار المختلفة الألوان وتزينت بكل أنواع الرياحين. وخلق ملك، له شكل وصفات سيدنا إبراهيم - عليه التحية والتعظيم وأخذ يؤنسه بالتحدث معه.

(شمس التبريزى).

ذكـــرهـــا الخـلـيـــل محبـــــورا

وأصـبحت نـــــار الخليـــل كلهـــا

النســـــريـن حمـــــراء كالـــــورد

لخـــــليـل رب الـــــوجـــــود

إذا جال التساؤل الآتى بالخاطر ما الحكمة من امتحان الله تعالى نبيه إبراهيم بإلقائه فى نار النمرود؟! مع أنه خليله؟ بينما لم يمتحن مخلوق قط، حتى زمن إبراهيم بإلقائه فى النار؟! يكون الجواب.

إن إبراهيم - عليه السلام - كان يخاف من نار جهنم خوفا شديدا، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أن النار لا تستطيع أن تضر أحدا إلا بإذنه، لذا ابتلاه بإلقائه فى النار.

(بدايع الزهور).

بعد هذه الواقعة بأربعين يوما، كانت النار التى انشغل النمرود بإيقادها مدة طويلة يراها من نافذة قصره المنيف وقد أصبحت روضة من بساط أخضر، وصحراء تبهج القلب وتسعد الفؤاد، مزينة بزهور النسرين الندية، وكان سيدنا إبراهيم يجلس على حافة المياه التى تجرى داخل روضة الأزهار النادرة، والحديقة

الغناء وهو يرتدى القميص الذى جلب له من خزانة الجنان، وقد غرق فى بحر المحبة والصحبة مع الملاك الذى يشبهه قلبا وقالبا واستولى على النمرود قلق وحيرة مما يرى، وقال مخاطبا إبراهيم لو أن المكان الذى أنت فيه كما يتراءى لعينى يدل على أن ربك إله عظيم ذو مقدرة خارقة وعظمة هائلة فأنا أومن به، وإن أمكنك التحرك من هذا المكان الذى تحيط به النار وتحرق ما حولك. فتعالى، وجاء الجواب نعم إن النار لا تستطيع أن تحرق قدمى، فناداه قائلا إذا كان الأمر كذلك فتعال إلى لأرى فخرج سيدنا إبراهيم من النار التى تشبه الجحيم وهو حافى القدمين وذهب إلى ناحية النمرود.

حكمة

قال مؤلف بدايع الزهور عندما كان نمرود يمعن النظر من قصره إلى حضرة الخليل، تطايرت شرارة من المحرقة، فأحرقت كل الملابس التى كان يرتديها النمرود المشئوم الطالع الملعون، لكنها لم تمس جسده بضرر وهذه إشارة لطيفة توضح أن النار لا يمكن أن تصيب أى إنسان بضرر، طالما لم يأذن الله القادر بالأذى.

وعندما رأى النمرود أن النار لم تصب حضرة الخليل بضرر أو أذى قال: يا إبراهيم كنت تتحدث مع شخص يشبهك، وأنت بداخل هذه الروضة، من كان هذا الشخص؟ ولماذا كان يطوف حولك؟ وتلقى جواب إبراهيم: هو ملك الظل أرسله إلىَّ حضرة القادر لأتحدث معه، عندئذ كف يده عن إيذائه وإرهابه وقال: يا إبراهيم لا يمكننى أن أقبل دينك وأترك كل هذه الرفاهية والأبهة والسلطنة ولكننى سأنحر القرابين تقربا لإلهك لأنال رضاءه وأذبح أربعة آلاف ثور ومثلها من الشياه.

إلا أنه زاد طغيانه فيما بعد وهبَّ لتحدى خالق الإنس والجن ومحاربته، فسلطت عليه بعوضة وهى أضعف مخلوقات الله فكان موته من قرصتها.

وفى تلك الأوقات كانت النار تحرق الحيوانات التى يذبحها الأفراد قربانا لله

دليل قبوله. وعندما رأى النمرود أن القرابين التى ذبحها لم تلق قبولا عند الله، لأن النار لم تمسها خجل من الذين يعبدونه ودخل داره ولم يسمح لأحد بالدخول إليه. أما تصرفه هذا كان سببا فى دخول كثيرين من أتباعه فى الإسلام وهكذا لاذ هؤلاء السعداء بقلعة الإسلام المتينة.

وكان للنمرود بنت تسمى «رغفت[1]» وكان نور الهدى والسعادة يتألق فى جبين هذه البنت. وقد استأذنت «رغفت» والدها فى الذهاب إلى حافة المحرقة لرؤية إلقاء حضرة الخليل فى النار. وأراد النمرود أن يمنع «رغفت» من الذهاب فادعى كذبا موت إبراهيم قائلا: «يا ابنتى لم يبق أثر حتى لرماد إبراهيم».

لكن «رغفت» ألحت فى الرجاء، وأخذت الإذن من والدها وذهبت إلى حافة المحرقة التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم حضرة الخليل وسط روضة عجيبة الأزهار، فقالت:

«يا إبراهيم، ما أحسن حالك النار لم تحرقك» فلما أجابها «إن النار لا يمكن أن تحرق أولئك الذين فى قلوبهم معرفة الله الكريم وفى لسانهم الكلمة المنجية» بسم الله الرحمن الرحيم فقالت «إذا أذنت لى أن أذهب إلى جوارك» ودخلت وسط النار وهى تردد الكلمات المنجيات بلسان الصدق والإخلاص على النحو الذى علمها حضرة إبراهيم «لا إله، إلا الله إبراهيم خليل الله.

ولما لم تحترق أقرت واعترفت بلا تردد بوجود الله موجد الوجود وسعدت بنيل الوصول إلى سعادة الإيمان السرية. وعندما ضاق والدها النمرود وتكدر من إيمان «رغفت» بإله إبراهيم، ولم تؤثر فيها النصائح التى ظل ينصحها بها كثيرا لكى ترتد فقيدها من يديها وقدميها، ولكنه لم ينجح فى صرف ابنته عن دين إبراهيم، لأن حضرة الخليل نقل «رغفت» إلى مكان آخر، صور الله سبحانه وتعالى القادر المطلق إحدى بنات النماردة ممن أمعن فى الكفر والشرك على هيئة «رغفت» فقتلها النمرود ظنًا منه بأنها «رغفت».

(!) يروى أيضًا أن اسمها رعفه.

وبعد هذا نقلت «رغفت» إلى المكان الذى هاجر إليه سيدنا إبراهيم، وتزوجت من مدين بن إبراهيم، وأصبح لها من مدين عشرون ابنا وحفيدا واكتسى أكثر هؤلاء خلع النبوة الفاخرة.

وعندما نجا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ضغوط النمرود، صدق بنبوته لوط بن هارون والآخرون من الوجهاء وسعدوا بنيل مرامهم، أما سارة بنت هارون فسبقت الجميع فى الاعتراف بنبوة إبراهيم وردت على تساؤل (أدنى) يا سارة ألا تخافين أن يقتلوك؟

أجابت: كيف أخشى وقد آمنت بإله ابنك خليل الله، ولابد أن يكون هدف (أدنى) من هذا السؤال هو اختبار مدى قوة إيمان سارة، لأن الحافظ السهيلى. نقل رواية تتصل بهذا الموضوع والتى تبين أن (أدنى) كانت من أهل الإيمان لكنها أخفت إيمانها وكتمته عن النماردة.

وقد اختلف المؤرخون السابقون فى تحديد شخصية هارون، فقال بعضهم إن هارون كان ملكا على مدينة حران.

وقد تزوج حضرة الخليل من ابنته سارة لما هاجر إلى حران، وقال بعض المؤرخين إن هارون كان أخا إبراهيم.

وقال الآخرون: إنه كان عمه الأكبر، وكان الزواج من ابنة الأخ جائزا شرعا فى تلك الأوقات.

وهناك من يدعى أن أخا إبراهيم وعمه يحملان اسما واحدا وهو هارون وأن ناحور جد سيدنا لقمان بن باعور أخو هارون ويفهم من هذه الرواية أن السيدة سارة كانت ابنة ناحور، والله أعلم بالصواب.

إخطار:

على رغم عدم وجود المعلومات الصحيحة حول ما إذا كان المنجنيق الذى علمهم صنعه إبليس ذو التلبيس لإلقاء سيدنا إبراهيم فى النار هو نفس الآلة التى بينا شكلها أم لا. ولكننا نستطيع أن نحكم أنها تشبه المنجنيق الذى اخترع فى زمن النمرود الشقى، خاصة أن هذه الآلة من الآلات الحربية القديمة المستعملة فى الحروب قبل اختراع الأسلحة النارية.

ونقول فى وصف شكل الآلة المذكورة، إنها عبارة عن قطعتين من الخشب قويتين ورصينتين، وربطت كل منهما بالأخرى فى شكل أفقى، ومدت بينهما أحبال وغرست فيها ـ فى نهاية الخشبتين والموضوعتين بشكل أفقى، بواسطة وتر طويل بقدر كاف مثل الملعقة، وقد ربطت بوتر أفقى ثالث من أطرافها العلوية.

أما طريقة استعمال هذه الآلة، فإن الوتر «م» ينتقل إلى الوضع الأفقى بواسطة البكرة «دد» مرميها وتوضع الأشياء التى ستلقى فى الوتر (م) المذكور ويتم إرخاء ذلك المسمار وتلك البكرة وهكذا تصطدم الخشبة (م) بالوتر ق وتلقى الأشياء إلى النقطة المطلوبة.

صورة هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر:

بعون الحق وعناية فيض الله المطلق نجا إبراهيم من نار النمرود، وتزوج بسارة ابنة أخيه وعلى قول ابنة عمه، وظل لفترة طويلة منتحيا جانبا، يعالج الآلاف من أهل معقل العصيان مرضى القلوب من خلال إرشاداته الشافية.

ولما أخبره ابن أخيه لوط أن النمرود يريد أن يزعجه[1] بالكيد والإساءة إلى

(!) كان سيدنا إبراهيم آنذاك على اختلاف الروايات فى الخامسة والسبعين من عمره.

الآخرين، اصطحب سارة وابن أخيه واتجهوا نحو مصر ليبتعدوا عن شرور النماردة المستحقين اللوم واللعنة. وقبل ذلك أقاموا قليلا فى حران، ثم فى بعلبك الشام ولم يمكثوا فى مصر ذات الأهرامات طويلاً، وغادروا راكبين إلى الشام ونزلوا فى وادى السبع وكان قد اصطحب معه أمه مع والده آزر، غير أن آزر انتقل إلى دار الآخرة فى مدينة حران وقد بلغ الخمس بعد المائة.

إضافة:

وادى السبع موضع فى «طريق الرقة» وقد قال «وائل بن قاسط» عن سبب تسميته «ما أدرى عن هذا شيئا إلا أنه وادى السباع» ووائل هذا رجل من مشاهير العرب دخل بالصدفة إلى خيمة أسماء ابنة ريم فى أثناء عبوره من المكان المذكور. وكانت أسماء فائقة الحسن ونظرا لوجودها بمفردها فى خيمتها عند مجئ «وائل بن قاسط» فطمع فى أن يقضى وطره منها فامتنعت وهى تدافع عن نفسها قائلة: «إذا لم تكف يدك عنى فإننى سأستدعى سباعى، ولم يكن وائل يرى أحدا سواها، وعندما قال لها يا ترى أين سباعك؟!

نادت أسماء بصوت عال: يا كليب يا ذئب، يادب، يا فهد، يا سرحوف، يا أسد، يا ضبع، يا نمر.

وهذه الأسماء كانت أسماء أبنائها فظهر كل واحد منهم من ناحية وهو شاهر سيفه فخاف وائل منهم وظل يقول «ما أدرى هذا إلا وادى السباع»، لذا أطلق اسم «وادى السباع» على الموضع المذكور.

وقلة من المؤرخين الذين بينوا سبب هجرة سيدنا إبراهيم: «فى اللحظة التى نجا فيها حضرة الخليل من نار النمرود صدق بنبوته لوط بن أخيه هارون وسيويل بن ناحور ابن أخيه الآخر وسارة ابنة هارون ابنة عمه وسارعوا بالاعتراف والإقرار بوجود واجد الوجود.

وتكاثر أتباع خليل الرحمن بإقبال الناس على الإيمان بوحدانية الله ـ سبحانه

وتعالى ـ أما صناديد النماردة فكانوا قلقين من تزايد عدد المسلمين وأخذوا يبحثون عن وسيلة للقضاء على حضرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإبعاده من كل بابل وما حولها.

وأخذ النماردة يؤسسون الجمعيات فى كل مكان ويوسعون دائرة الشر ويعملون على تقوية أنفسهم حينئذ عثر النمرود على حضرة الخليل، وقال له:

«يا إبراهيم! أصبحت إقامتك هنا غير مأمونة الآن، وربما ستكون خطيرة، لذا يستحسن أن تهاجر إلى مكان أمين تقيم هناك فترة وتستريح.

ووافقت فكرة الهجرة فكر إبراهيم أيضا فترك مدينة بابل متجها إلى مصر، وعند دخول حضرة إبراهيم إلى الحدود المصرية علم أن شرفه وعرضه لن يسلم من اعتداء فرعون. وبناء عليه وضع السيدة «سارة» فى داخل صندوق فى أثناء دخوله إلى مصر ولكن الموظفين المنتشرين خارج المدينة وداخلها كسروا هذا الصندوق بالقوة، وأخرجوا السيدة سارة رضى الله عنها.

ولما أعجبوا بحسنها الأخاذ وجمالها أبلغوا فرعون بالأمر وتكفل به الجواسيس الذين كانوا معهم إذ أسرعوا إلى فرعون قائلين: قد جاء إلى مقر عرشك رجل وزوجته تمتاز بجمال فريد وحسن لم ير أو يسمع عن مثله حتى هذه اللحظة وسهلوا له استدعاء إبراهيم.

وبناء على هذا أحضروا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته إلى فرعون.

إخطار:

كان فراعنة مصر فى ذلك الوقت يقيمون فى بلدة منف. وكانوا يأخذون الرسوم والضرائب من المسافرين الذاهبين والقادمين بواسطة حراس الطرق وفق نظم موضوعة.

رغم وجود أقوال كثيرة ومختلفة حول السن التى كان بلغها حضرة الخليل عند هجرته إلى مصر، فإن صاحب تاريخ العالم قد قبل الرواية التى تخبر أن سيدنا

إبراهيم كان فى السبعين من عمره، كما اتفق المؤرخون على أن فرعون مصر فى ذلك الوقت كان «سنان بن علوان» من أبناء سام بن نوح عليه السلام.

ومع هذا يدعى صاحب «بدائع الزهور» أن اسم فرعون الملك هو طوطيس «انتهى».

عندما رأى فرعون جمال سارة وحسنها ـ رضى الله عنها ـ سحر بهذا الجمال الذى وصف بأنه قطعة من نور السماء. تحركت رغبته الشهوانية، استدعى خليل الرحمن وسأله ما صلة سارة بك؟ وسرعان ما أدرك نيته تجاه أمنا سارة.

ولم يكن فى ذلك الوقت فى مصر من يعبد الله الحق، لذا خاف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من تعرض «سارة» لسوء فأجاب قائلا: «إن سارة أختى وبهذا كان يريد أن يلمح أن سارة أخته فى الدين ولم يكن هنا أحد يعرف حقيقة الأمور.

وإن كان فرعون اقتنع بأن سارة أخت إبراهيم من بطن واحد إلا أنه قرر فى قرارة نفسه ألا يمنعه هذا الأمر من ارتكاب ما صمم عليه، وأمر بأن يخرج إبراهيم من قصره. وتدخل «سارة» إليه فى خلوته، وبدأ رأسا تنفيذ ما فى نفسه قائلا: «وإن كان إبراهيم أخاك فأنا لست أخاك» ومد يده إليها وتوهم أنه سينال منها. وبما أن زوجات الأنبياء مصونات لا تمسهم أيادى الأجانب والأعداء فلما أراد أن ينفذ ما يريده وإذا بجدران القصر المشيد وأسقفه تهتز وإذا باليد التى مدت إليها تشل[1] رأى (سنان بن علوان) هذا الحادث الشريف المخيف المرعب فاستولى عليه الخوف والفزع وطلب من السيدة سارة أن تدعو الله لتعود يده إلى حالتها الأولى. وأخذت السيدة «سارة» تدعو إلى الله وتبتهل فترة دون أن تنظر لما ارتكبه فرعون مصر. وإذا باليد التى شلت وجمدت تعود إليها الحياة كما كانت من قبل.

(١) سنان بن علوان هو أخو ضحاك من ملوك القبط واسمه عند البعض «صاروق» وإن الشخص الدنئ الذى أراد أن يسيئ إلى سارة هو «حلاون» ملك الأردن.

وكان هذا الفرعون الذى إنكب على الظلم والإهانة وأصر عليها، قد تكررت محاولته ثلاث مرات وعلى رأى مؤلف ـ بدائع الزهور ـ سبع مرات، فاندهش فرعون وسألها ما هذه الحال؟ وكان جوابها إن الرجل الصالح إبراهيم زوجى. وفهم فرعون حقيقة الأمر.

فأخذ يستعطفها وقال لها معظما موقرا: «يا سارة إننى لن أحاول أن أتعدى عليك مرة أخرى وإننى تخليت عن شهواتى النفسية» لذا أطلب منك أن تدعو ربك مرة أخرى حتى تعود يدى لحالتها الأولى. وقامت سارة تدعو الله سبحانه وتعالى قائلة: «إذا كان فرعون صادقا فى قوله أعد يده إلى حالتها الأولى» وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائها فرجعت يد فرعون لحالتها الأولى.

إتعظ (سنان بن علوان) من هذه الحادثة المليئة بالحكم، وأهداها جارية قبطية لا نظير لها وملكها لسارة ثم تركها تذهب إلى زوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى كان خارج القصر يعانى من القلق والاضطراب والحيرة كأنه غارق بين أمواج البحر المتلاطم.

إخطار:

بناء على بعض الروايات أن هاجر لم تكن جارية رقيقة بل كانت من بنات ملوك القبط. وقد أهداها فرعون لسارة قائلا: «ها أجر دعائك» وهذا يفيد سبب تسميتها «بهاجر».

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فحينما أخذت سارة إلى خلوة فرعون أصيب الزوج حسب بشريته بالهم والغم واضطرب اضطرابا شديدا فلم يكن منه إلا أن يتوجه إلى عتبة قاضى الحاجات داعيا. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يخلص إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أوهامه ووساوسه، فحول جدران قصر فرعون الكثيفة إلى زجاجة شفافة لطيفة كأنها مرآة تعكس ما فى داخلها وهكذا رفعت من أنظار إبراهيم ـ عليه السلام ـ ستائر الظلام والحجاب وهكذا قد اطلع على ما جرى بين (سنان بن علوان) وبين سارة زوجته. ولما جاءت المشار إليها.

أبيات

مـرت فـى بحـر الحسـن هـاجـر

والصـدف يجـدر بـالـدر

وصـلب الخـلـيـل الطـاهـر

وهبهـا ذلـك الجـوهـر

فظهـر عـلى الفـور حملهـا

كـانت درة، لا درة مثلهـا

كابـن مـن جـوهـر ينفـق فـى أيـام

أمـا هـى فوديعـة عـلى الـدوام

رغم أن المشهور هو أن ولادة سيدنا إسماعيل ـ باهر السعادة ـ كانت عام ٢٧٨٢ قبل الهجرة النبوية، وعلى قول إنه كان سنة ٢٧٦٣، فإن هناك من يدعى أن ولادته كانت عام ٢٥٢٨ أو ٢٩٠٢ قبل الهجرة النبوية، وكان سيدنا إبراهيم آنذاك فى السادسة والستين من عمره.

سبب سفر خليل الرب الجليل إلى واد غير ذى زرع ومكة وطريقة سفره

سكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى قرية تسمى «فسط» تقع بين البلدة المسماة «رملة»[١] و«أيلة»[٢] فى أرض فلسطين[٣].

وأصبح واسع الثراء مما ساعده على استضافة المسافرين الغادين منهم والرائحين.

(١) أيلة تضم ولايتى القدس وغزة.

(٢) اسم بلدة فى الشام.

(٣) اسم آخر للقدس الشريف تعنى فى اللغة السريانية بيت الله.

وعندما اقترب وقت هلاك قوم لوط الخبثاء أخرج سيدنا لوط من بين الطائفة الخبيثة. ونزلت الملائكة ضيوفا على بيت خليل الله، وبعثت السعادة فى نفس السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بتبشيرها بولادة سيدنا إسحاق باهر السعادة.

ويروى أن هؤلاء الملائكة كانوا اثنى عشر ملكا، وفى رواية أخرى أن الملائكة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ عليهم السلام.

لم يعرف سيدنا إبراهيم أن ضيوفه كانوا الملائكة وقام بنفسه بخدمتهم وتوفير ما يلزمهم وذلك تعظيما لشأنهم.

وأعد لطعامهم عجلا صغيرا سمينًا، ولما رأى أن الضيوف لا يمدون أياديهم إلى الطعام علاه الخوف والوهم وبدت عليه مظاهر الخشية والرهبة فخاطبه الملائكة قائلين: «لا تخف يا إبراهيم إننا مرسلون لقوم لوط» (إبراهيم: ٧٠)

حينئذ أدرك أنهم رسل مكلفون من عند الله، وصرح الملائكة بحقيقة الأمر وأفهموه أنهم نزلوا من السماء لكى يقهروا ويدمروا قوم لوط الذين زاد فجورهم وبغيهم، كما بشروه بأن السيدة «سارة» ستلد له غلاما سعيد الطالع اسمه إسحاق.

كان هذا الحوار قبل هجرة نبينا عليه أفضل التحية بـ ٢٧٩٢ سنة، وفى قول آخر ٢٧٧٣، وفى قول ثالث بـ ٢٥٣٨ سنة وفى رابع أنه كان قبل الهجرة بـ ٢٩١٢ سنة.

كانت السيدة «سارة» فى ذلك الوقت تقف بجوار زوجها المكرم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسمعت ما قاله الملائكة الكرام، ولكنها استبعدت أن يكون لها ولزوجها أولاد، فهى ترى نفسها عجوزاً كما أن زوجها شيخ كبير.

فقد كانت فى التسعين من عمرها، وكان سيدنا إبراهيم فى السادسة والتسعين من عمره، ولذلك تبسمت لبشرى الملائكة هذه، ومع ذلك فقد جاءها الحيض، وبعد انقضائه حملت ثم ولدت إسحاق ـ عليه السلام ـ بعد عشر سنوات من ولادة إسماعيل.

استطراد

فى الليلة التى سيولد فيها سيدنا إسحاق رأى سيدنا إبراهيم فى الرؤيا، أن ألف كوكب مضئ يجتمع فى برج واحد، وقص ما رأى على جبريل الأمين ورجاه أن يفسر له دلالة هذه الرؤيا. فقال له جبريل الأمين فى تفسير رؤياه إنها تشير إلى أنه سيخرج من الصلب الطاهر لابنك إسحاق الذى سيولد من زوجتك سارة، ألف رسول سيكونون زينة الدنيا.

سر إبراهيم ـ عليه السلام ـ من التأويل وأخذ فى التضرع إلى الله قائلا: «اللهم اجعل لابنى إسماعيل أيضا نصيبا من هذه النعم الجليلة» وبمجرد ما انتهى من دعائه استمع إلى صوت هاتف يتردد بصداه يا إبراهيم، سيأتى من نسل إسماعيل الطاهر نبى عظيم القدر، كريم الخلق واجب التعظيم، وسيكون هذا النبى بداية رسالة المرسلات وخاتم باب النبوة، وهو مخلوق محمود، وسبب وجود الرسل والأنبياء واسمه الشريف (محمد المصطفى).

فبدت عليه علامات السعادة، وكان سببا فى ظهور تلك الساحة المزينة بالأنبياء وشكر الله معربا عن امتنانه وحمد الله على نهج الآية الكريمة: «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء» (إبراهيم: ٣٨).

(قصص النيسابورى)

إن السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ قد أنعم الله عليها بابن تسعى السعادة فى ركابه، عالى القدر مثل إسحاق عليه السلام، وقد غلبت عليها فى نهاية عمرها نوازع غيرة النساء بصورة تجاوزت كل الحدود. وكانت تغار من السيدة هاجر أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ولما رأت أن سيدنا إبراهيم يحب امرأته هاجر وابنه إسماعيل حبا جما قررت «سارة» ألا تألو جهدا لتكدير زوجها باستخدام جميع الأساليب المؤذية.

لم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يتحمل أعباء الشيخوخة وظلم «سارة» وسخريتها فأراد أن يجأر بالشكوى من تصرفات «سارة» ولكنه قال فى نفسه «سارة ناقصة العقل وأنت من فحول العقلاء فعليك أن تتحمل سلوك غير المتزن كالرجال الشهماء» وعزم على السكوت. ومع ذلك حدث ذات يوم أن أعرب عن حبه لإسماعيل ابنه الأكبر فى وجود أخيه الأصغر إسحاق.

غار إسحاق من كلام أبيه بحكم صغر سنه، وغضب من والده وخاصمه فأثار هذا غضب أمه سارة، ولهذا أقسمت بالله أن تشوه جاريتها هاجر بقطع جزء من لحمها.

عندما سمعت هاجر قسم السيدة سارة ملأها خوف شديد فأسرعت بالخروج إلى الوادى وقررت الهرب إلى مكان تأمن فيه على نفسها ثم ربطت فى خصرها[1] وتركت ذيل ثيابها يجر على الأرض ليخفى آثار أقدامها.

وعندما هدأت غيرة النساء فى نفس السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بعد فترة ندمت على ما بدر منها من قسم فى حق السيدة هاجر، ووجهت كل أفكارها واجتهادها لتجد سبيلا للوفاء بقسمها دون أن تؤذى هاجر.

فقال لها زوجها المكرم: «يا سارة» اقطعى جزءًا من اللحم الزائد من عضو هاجر المستور ليكون ختانا، وافتحى ثقبا فى الموضع الرقيق من أذنها، فإذا علقت به قرطا تكونى قد وفيت بقسمك. فختنت السيدة سارة السيدة هاجر وثقبت أذنها وعلقت بها قرطا وهكذا برت بقسمها.

إخطار:

كان هدف سارة ـ رضى الله عنها ـ من هذا القسم أن تنفر سيدنا إبراهيم من جاريته هاجر. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن يجعل ختان هاجر سنة يتبعها المسلمون فاختتن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته «سارة» أما ما يتعلق بثقب أذن

(١) يروى أن ربط النساء وسطهم بزنار هى عادة اكتسبنها من هاجر.

هاجر فقد أصبح ـ بالنسبة لسائر النساء ـ وسيلة من الوسائل للتزين والتحلى باللآلئ والجواهر. وتثقب النساء ـ الآن ـ آذانهن، ويلبسن الأقراط، بل إن هذه العادة تعتبر من مكملات الزينة لدى النساء.

وبعد فترة جد نزاع ـ من نزاعات الصبية ـ بين الأخوين، جعل السيدة سارة فى ضيق وقلق دفعاها لإظهار ما فى قلبها صراحة وقالت لزوجها المكرم «إننى لن أستطيع بعد اليوم أن أعيش مع هاجر فى مكان واحد فخذها إلى مكان بعيد واتركها هناك».

وبناء على هذا أخذ حضرة الخليل زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى أرض الحجاز العطرة وتركهما هناك.

وفى اللحظة التى أعربت فيها السيدة سارة عما فى ضميرها، وأقسمت على عدم قدرتها على الحياة مع هاجر فى بيت واحد هبط براق من السماء كريح الصبا، وقال إنه مأمور من الله بحمل حضرة إبراهيم إلى مكة. فما كان من النبى إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن يركب البراق حاملا ابنه أمامه وزوجته خلفه، وطاروا صوب مكة المكرمة؛ وفق إرادة الله.

وفى أثناء الرحلة كان جبريل الأمين دليلهم، وكلما مروا بمكان فى أثناء الطريق سأله حضرة الخليل هل سنهبط هنا؟ يجيبه جبريل الأمين: «لا سنذهب إلى مكان أبعد» وقابلوا فى مكان قرب حدود مكة المعظمة طائفة من قوم العمالقة أحبت هذه الطائفة سيدنا إسماعيل ولاطفوه وأعطوا له عشرة من الغنم[1].

والمعروف بين المؤرخين أن سلالة الماعز الموجودة الآن فى مكة وما حولها هى بقية نسل الماعز الذى أهداه العمالقة ـ آنذاك إلى سيدنا إسماعيل.

وعندما وصلوا إلى جبل «كدا» المواجه لجبل «حجون»[2] قال جبريل الأمين:

(١) هذه طبقا لتحقيقات بعض المؤرخين أهداها الجراهمة إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعد السيدة هاجر.

(٢) حجون: على وزن حبور، وهو اسم جبل من الجبال الموجودة فى الناحية المسماة «المعلا من معلاة الكعبة، أى من مدينة مكة.

«ستهبطون هنا فهذا المكان مقام عال. وهنا سيخرج من ذريتك رسول له شأن عظيم وبه تتم كلمة الإسلام».

ثم أنزل سيدنا الخليل فى المكان المقدس للبيت الشريف وكانت أرض مكة فى ذلك الوقت بيئة مليئة بأشجار البلوط وكانت خالية من الناس وتشبه الغابة ومحاطة بأشجار السنط المسماة «أم غيلان» من أشجار البوادى وكانت هادئة ساكنة.

وكان المكان المقدس للبيت الحرام مكانا مباركا مرتفعًا بعض الشىء مغطى بالرمال الحمراء.

نظم

وفـى النهايـة خليـل اللـه
عمـر هـذا البنـاء وأعـلاه
وبقـدم هـاجـر المهـاجـرة
أصبـحت بهـا الصـحراء عامـرة
وشاهـدت عيـون تسـعة أبنـاء
أن حمـل الفـلك كبـش الفـداء
تبعـه عـين مـاء الحيـاة التـى سـالت
وجـرى المـاء وجرى قدم الحوض ليسلم
فتفـجر مـاء زمـزم

وبعد أن أعطى سيدنا إبراهيم للسيدة هاجر جرة ماء ومقدارا من التمر، وعلى قول، إنه أعطاها ملء كيل من الدقيق وبين لها المكان الذى فيه حجر إسماعيل الجوهرة الخضراء داخل المطاف السعيد الآن. أو مكان بئر زمزم[1] الشريف وقال «يا هاجر، أقيمى خيمة هناك، واسكنى فيها ـ فهذا ما جرى به أمر قضاء الله».

(١) ذلك المكان الشريف كان مكانا لا نظير له، يحتوى على أشجار غير مثمرة ذات ظلال وأفرع تحمى من حرارة الشمس.

فأجابته: «إذا كان هذا هو أمر الحق؟ فإن الله خير الحافظين سيحمينا ويحفظنا، فتلقى إبراهيم هذه الإجابة من زوجته ورجع ـ وكان سيدنا إسماعيل فى ذلك الوقت فى الثانية عشرة من عمره.

تنبيه:

لا يجوز لأى إنسان أن يترك أولاده وزوجته فى البرية والخلاء تقليدًا لسيدنا إبراهيم، فحضرة الخليل عمل بالوحى الإلهى وتوكل على الله وهو يعلن أن الله خير الحافظين سيتولى حفظهم.

وتوكل عامة الناس لا يمكن أن يشبه توكل الرسل الكرام أولى العزم، الذين ذكروا فى هذا البيت:

أولـــو العـــزم نـــوح والخليـــل بـــن آزر

ومـــوسى وعيســـى والحـــبيب محمـــد

وتقليد هذا العمل غير مشروع، وجاء فى بعض الروايات أن السيدة هاجر عندما رأت نفسها وقد تركت وحيدة فى ذلك الوادى الغير ذى زرع تتبعت زوجها وقالت له: «هل تتركنا وتمضى عائدا؟ ولم تتلق منه إجابة بنعم أو لا فسارت وراءه حتى جبل» «كدا» وعندما وصل سيدنا إبراهيم إلى الجبل المذكور التفت وقال: يا هاجر، إننى أستودعك الله أمانة عنده؛ فقالت له: إذا كان قد أوحى إليك بهذا. فإن الله الواحد الأحد ـ الذى تركتنا فى كنفه ـ كافينا وكافلنا.. ثم عادت إلى جانب إسماعيل وصعد زوجها المكرم إلى قمة الجبل سالف الذكر.

فلما رأى أنه ترك زوجه وابنه فى مكان موحش خال من آثار العمران والزرع، تأثر من فرط الرحمة والشفقة ودعا الله قائلا:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(إبراهيم: ٣٧) ثم رجع إلى الشام.

وفى قول آخر، إن السيدة «سارة» أصابتها الغيرة من إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقالت: يا إبراهيم، إذا كنت تريد لى راحة البال وهدوء الحال فاحمل هاجر وابنها إلى مكان قفر بلا ماء واتركهما هناك. ولما كان الوحى الجليل قد نزل آنذاك بأن يعمل تبعًا لرأى سارة فإن، حضرة الخليل ترك المشار إليهما مع جرة ماء فى واد غير ذى زرع بمكة، ودعا على النحو السابق.

ولما كان دعاؤه مقبولا مجابا؟ فقد ظهرت قبائل «جرهم» و «قطورا» وعمرت مكة المكرمة، وأصبحت آهلة.

كيف ظهر بئر زمزم الشريف:

عندما نفذ الماء من الجرة التى تركها الزوج المكرم ـ عليه السلام ـ فى ثلاثة أيام، ورأت السيدة هاجر أن ابنها إسماعيل أصبح على وشك الموت من العطش ولا حيلة له، وهى أيضا لا حيلة لها ولا قوة، فلبن ثدييها قد انقطع[1].

وبعد أن تأملت وبكت لفترة، وهى فزعة جزعة من وحدتها فى ذلك الوادى الموحش، تركت ابنها إسماعيل أسفل الخيمة التى أقامتها من قبل وصعدت فوق قمة جبل الصفا للبحث عن الماء. ومن فوق هذا الجبل نظرت تجاه ابنها، حيث لا أثر لماء، أو لإنسان يروح أو يغدو، ونزلت إلى بطن الوادى، وكان المكان المنخفض الذى تركت فيه ابنها يوارى ويحول دون رؤيته فألقت فوق كتفيها بالزائد من الملابس الموجودة وراء ظهرها، وصعدت بسرعة فوق ربوة جبل المروة، فرأت ابنها من هناك ثم نزلت إلى الوادى ومع ذلك لم تستطع أن ترى ابنها، فأسرعت بالصعود إلى أعلى قمة جبل الصفا وابتهجت عيناها برؤية ابنها الذى يبعث السعادة فى النفوس. استمرت على هذا المنوال سبع مرات[2] تذهب وتغدو من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا، بنحو لم يفعله مخلوق من بنى البشر وهى تقول «ليس من الممكن أن يوجد هنا ماء أو أن أقابل بشرا

(١) هذه الرواية تختلف عما يدعيه المؤرخون بأن سيدنا إسماعيل أثناء الهجرة، كان فى الثانية عشرة من عمره.

(٢) لم يكن هناك من سعى بين الصفا والمروة قبل السيدة هاجر. لذا فإنها أول الساعين.

ورجعت إلى إسماعيل وقد امتلأت يأسا وخيبة أمل. وهناك سمعت صوتا يشبه صدى صوت إنسان فأحست بالفرح، لكنها لم تستطع أن تحدد ناحية مصدر الصوت وتحيرت، فماذا تفعل؟! وقد كف الصوت المذكور وبدأت تتلفت حولها وهى حزينة.

بعد ما أفاقت بفترة قالت: «يا صاحب الصوت الندى الذى شغف سمعى. عندما سمعت صوتك الملائكى غرقت فى بحر الأمل، إذا كنت نصيرًا إلى فعجل، لأننى وابنى قد استولى علينا الألم واليأس. فقد بلغنا درجة الموت عندئذ اضطر صاحب الصوت أن يظهر، وكان جبريل الأمين وأن يظهر ماء زمزم بضربة من جناحه.

وسرت السيدة هاجر بظهور الماء سرورًا عظيما وبعد أن شربت[1] وارتوت أخذ ضرعاها اللذان جف لبنهما فى الإدرار، وأحاطت الماء بالرمال حتى لا يسيل الماء فى الوادى، وفى قول آخر إنها عندما حفظت بعض الماء للإدخار أظهرت نوعا من عدم التوكل، لذلك غاض الماء فى الحال فى باطن الأرض وكان هذا سببا فى توارى[2] الماء عن وجه الأرض بعد ما كان الماء جاريا.

لو لم تحاول هاجر ـ رضى الله عنها ـ أن تمنع الماء من الجريان بإحاطته بالرمال، لظل جاريا إلى يوم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف. ظهر ماء زمزم على النحو المذكور وكانت السيدة هاجر فى أمان وسعادة ولما رأى ذلك جبريل الأمين خاطب هاجر قائلا: «يا هاجر لا يحزن قلبك من هذا المكان الساكن هما وغما ولا يجول بخاطرك أن هذا الماء ينضب، فقد انفجر هذا الماء الذى يهب الحياة لحرمة ماء وجه إسماعيل الذى يزين حضنك، وإن ابنك هذا سيتشرف بشرف النبوة وسوف يبنى مع زوجك إبراهيم هذه الساحة المباركة التى تزيل الهم

(١) يروى أن السيدة هاجر سقت ابنها قبل أن تشرب.

(٢) لم يكن حول بئر زمزم حتى زمن أبى جعفر المنصور خرزة من الحجارة والرخام ولم يوجد حول فوهته خرزة يحيط بها وفى زمن خلافة المشار إليه أقاموا خرزة كما غطى ما حولها بالرخام.

والغم وهى بقعة مفخمة مشرفة، وبناء على هذا سيزيد عمران هذا الوادى من سنة إلى أخرى.

سيق أفراد من الأقوام والقبائل ليزوروا هذا المكان المقدس الذي سيعمره المشار إليهما.

وبما أن هذا المقال قد أزال الحزن من نفس هاجر وبشرها بأن هذا المكان سيكون فى دائرة المسجد الحرام الذى سيسبب الفرح والإبتهاج فى النفوس. فما كان منها إلا أن قامت وأدت فرائض العبودية والشكر لله ـ تعالى ـ وقررت أن تمضى حياتها فى هذا المكان المبارك المقدس.

وقد اختلف العلماء فى بيان كيفية تفجر ماء زمزم الشريف، فقال فريق إنها ظهرت من أثر ضربة جناح جبريل ـ عليه السلام ـ وذهبت جماعة إلى أنها ظهرت من أثر ضربة كعب سيدنا إسماعيل، ولكن القول الأرجح حسبما ذكرنا أن جبريل ضرب الأرض بجناحه فتفجرت المياه وأحاطتها هاجر ـ رضى الله عنها ـ بما حولها من رمال، ثم قام إبراهيم بعد ذلك بحفرها وتعميقها حتى أصبحت على شكل بئر وهذا ما قرره الجمهور.

كما اختلف المؤرخون فى تعريف سبب تسمية زمزم الشريف أيضا، ففى بعض الأقوال إنها سميت زمزم لكثرة تدفقها، وعند البعض أن تسميتها تعود إلى معنى «اجر بطيئًا بطيئًا» أى زم زم[1] وثبت هذا الاسم على البئر وعرف به.

وإننا سنبين فى موضوع كيفية انتقال الحكم من يد حكومة مكة إلى أيادى بنى خزاعة، أن هذا الماء ضاع وغاب فى زمن الجراهمة الذين كانوا عنوانا للضلال والطغيان، وبمرور الأيام نسى اسمه وجسمه ومكان وجوده.

وبالصدفة أقام أهل مكة صنمين لهما عند طرفى بئر زمزم الشريف الذي كان مجهول المكان.

(1) إذا عرفنا أن معنى زمزم باللغة اليونانية «قف» يجب علينا أن نحمل التسمية لهذا السبب.

فأقاموا نائلة فى طرف وإساف فى الجانب الآخر. وكانوا يذبحون القرابين بين هذين الصنمين فوق فوهة بئر زمزم الشريف وعندما آل حكم مكة ورئاسة قريش إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وكان قد اقترب الزمن الذى ستجد فيه قلوب عطاش الجاهلية ماء حياة الهداية وستتحول أرض يثرب البطحاء القاحلة إلى جنات مأوى بفضل الماء الزلال الذى يفيض من نور النبوة.

وفى زمن عمرو بن حارث الجرهمى، كان زمزم قد اختفى عن العيون وظل خفيا مدة خمسمائة عام بعيدا عن العيون. وصدرت الإرادة الإلهية لحكمة ما بظهور زمزم الشريف، وكلف عبد المطلب ذات ليلة من الليالى فى رؤياه بأن يقوم بحفر زمزم مفتخرا.

ورغم أن عبد المطلب قد أمر بهذه المهمة، إلا أن مكان البئر المذكور كان غير معروف فى ذلك الوقت، لذا رأى أنه لن يستطيع بمفرده القيام بهذا العمل واضطر للاستعانة بقريش قديما ورؤساء قبائل قريش ووجه إليهم هذا السؤال «قد كلفت بحفر بئر زمزم وإظهارها فهل تعينونى فى هذا العمل؟».

فسألوه هل تعرف مكان بئر زمزم؟ فقال: لم ألهم بذلك أيضا يعنى لم أعرفه فقال الرؤساء: «يا عبد المطلب يجب أن تستخير هذه الليلة إذا كنت مأمورا بهذا العمل من قبل الرحمن فإنه سيخبرك بمكانه، وإذا كانت الرؤيا شيطانية فلن ترى مثل هذه الرؤيا مرة أخرى.

وقد أعجب عبد المطلب برأى الرؤساء وأسرع بكل إخلاص وتوكل يستخير فى تلك الليلة.

وبناء على هذه الاستخارة ظهر لعبد المطلب فى رؤياه فى تلك الليلة شخص تحدث بهذه العبارات المسجوعة: «احفر زمزم إن حفرتها لن تندم وهو تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبدا ولا تندم فسقى الحجيج الأعظم ليس كبعض ما تقدم وهى بين الفرث والدم» ولما رجا عبد المطلب من الهاتف أن يبين له المكان القديم للبئر المذكورة، فأشار له قائلا «عند قرية النمل حيث ينقر الغراب» وكأنه أراد من

عبد المطلب أن يحفر فى مكان يعيش فيه النمل حيث يأتى غراب فى الصباح وينقر فوق بيت النمل وينكشه. ورغم هذا لم يستطع عبد المطلب أن يهتدى إلى المقصود من هذا الرمز والإشارة ثم وصاه بأن يبدأ فى الحفر مسترشدا بهذه الأقوال إذ قال له بعد ليلة «زمزم وما زمزم هزمه جبريل برجله وسقياء إسماعيل وأهله زمزم البركات روى الرماق الواردات شفاء سقم وخير طعام»، وفى الليلة التالية قال «احفر تكتم بين الفرث والدم وعند نقر الأعصم وفى قرية النمل مستقبل الأصنام الأحمر» تكتم اسم من أسماء زمزم المكرم بمعنى «مكتوم» كما سيبين فيما بعد.

الغراب الأعصم:

يطلق على غراب إحدى رجليه حمراء على قول ابن شيبه. وبناء على رأى حاكم يطلق على غراب أحمر الرجلين والمنقار، وبناء على قول صاحب الإحياء يطلق على غراب بطنه بيضاء، وبناء على تدقيق صاحب حياة الحيوان يطلق على غراب أبيض الجناحين أو أبيض الرجلين أو يطلق على غراب أبرش.

على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بناء على القول الموثوق الذى يروى عن على بن أبى طالب بن عبد المطلب عندما رأى الرؤيا السابقة الذكر، غشيته الرهبة والدهشة وتحير فيما يفعله، ولم يستطع أن يبدأ فى حفر البئر، وبعد فترة رأى عبد المطلب فى رؤياه أن شخصا يقول له «أحفر بئر طيبة. وبعد ليلة يقول له احفر بئر مضنونة وعمقها وفى ليلة أخرى بعد أن ذكر الفقرات السابقة المسجوعة عرفه بموقع البئر وبين بعض خواصها؟ ولكن عبد المطلب لم يستطع أن يفهم معنى هذه العبارات المبهمة وراح فى تفكير عميق. وفى ليلة من الليالى استغرق فى النوم ورأسه مشغول بهذه الأفكار فى حجر إسماعيل. وإذا به رأى فى منامه أن هذا الرجل المبارك يقول له: «هل تعرف معنى زمزم، زمزم بئر الماء الذى فجره جبريل عليه السلام بضربة من رجله وهو اسم ماء إسماعيل ـ عليه السلام ـ وأتباعه. وهو البركة ذاتها وإنه يروى العطاش الذين يردون للشرب ويشفى

المرضى، وهو أنفس أنواع الطعام، وبهذا الإيضاح وضح شأن بئر زمزم وخواص مائها».

عبد المطلب ـ عرف عبد المطلب بدلالة هذه الرؤيا معنى زمزم لدرجة ما؟ ولكنه لم يستطع أن يعرف موقعه بالضبط.

لذا توجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ متضرعا مبتهلا قائلا: «يا ربى العليم ومولاى الكريم، دلنى على موقع البئر الذى كلفت بحفره. وقد أصاب سهم دعاته هدفه ونال قبولا إذ رأى فى رؤياه من يقول له: يا عبد المطلب احفر بئر زمزم وإذا أردت أن تعرف مكانها فإنها بين صنمى «إساف» و «نائلة»، حيث يذبح فيه القرشيون قرابينهم وفوق بيت نمل. وغدا سيأتى غراب أبرش وينبش بمنقاره فضع علامة حيث ينبش ثم عجل بحفر وتعميق المكان الذى فيه بيت النمل فتنال مطلبك».

وهكذا وضحت الرؤيا الأمر، ولم يَبْقَ أدنى شك فى مكان زمزم، واستيقظ عبد المطلب من نومه واتجه صوب المسجد الحرام ورأى الغراب ينبش ما بين إساف ونائلة فى وقت السحر، وذهب هناك حيث وجد بيت النمل وبدأ مع ابنه الحفر فى هذا المكان ومعه أدوات الحفر مثل الفأس والمجرفة.

حينما رأى أفراد قبيلة قريش أن عبد المطلب يحفر المكان المذكور شاع الخبر سريعا فيما بينهم وهجموا على عبد المطلب قائلين:

«إننا لن نتركك تحفر المكان الذى نذبح فيه القرابين وخاصة المكان الذى يوجد فيه إساف ونائلة. وأرادوا أن يمنعوه من الحفر، وقد زادت جلبتهم وصياحهم حتى إنهم قد أطالوا الكلام والجدال وتحول الموقف إلى ما يشبه القتال فمات كثيرون».

لم يكن لعبد المطلب حينذاك أبناء غير الحارث وقد رأى أنه لن يستطيع أن يقاوم القرشيين مع ابنه، لذا ترك مقاومتهم واتجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخلصا يائسا «يا إلهى، إذا ما نصرتنى على قريش وأبلغت عدد أولادى إلى عشرة فإننى أفدى واحدا منهم قربانا لك» وكان هذا نذر منه.

وبظهور بعض العلامات أدرك عبد المطلب أن دعاءه قد حاز القبول فتوكل على الله وقام بأداء ما كلف به، وغلب هو وابنه الوحيد كل قبائل قريش وكفت القبائل المعتدية يدها عنه ووقفوا فى موقف المشاهدة والتفرج.

وفى اليوم الثالث عندما ظهرت العلامات التى تشير إلى وجود بئر زمزم مثل[1] الأسلحة وتماثيل صغار الغزلان[2] التى ألقاها الجراهمة فى بئر زمزم، عندما أجبروا على ترك مكة المكرمة والجلاء عنها، عندئذ قال عبد المطلب: «إن كل هذه الأشياء لدليل كاف للإثبات أن بئر زمزم فى هذا المكان» ومن فرط سروره أخذ يكبر بصوت مرتفع.

عندما سمع القرشيون تكبير عبد المطلب اجتمعوا كلهم حوله وأدركوا أنه نال مراده ورأوا الأشياء القيمة التى أخرجها من البئر فطمعوا فيها وظهرت عليهم بوادر النزاع والخصومة وقالوا «يا عبد المطلب إن لنا نصيبا فى الأشياء التى أخرجتها من داخل البئر».

لأن البئر بئر جدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهذا يوجب تقسيم ما وجدته بين أفراد قبائل قريش فقال لهم لاحق لكم فى هذه الدفينة لأنكم لم تساعدونى فى حفر البئر بل أردتم منعى من الحفر مما أدى إلى إراقة الدماء، ولكنهم اعترضوا عليه مهددين بتجدد النزاع وقالوا: «إذا رفضت إشراكنا فى المال كله فعلى الأقل نقسمه مناصفة بينك وبين القبائل، فإذا رفضت هذا الحل أيضا فإننا نقاتلك من جديد».

ولما رأى عبد المطلب أن المعارضة قد استفحلت وأنها قد تؤدى إلى قتل بعض الأشخاص، خاطب الذين استمروا فى الضغط عليه «عليكم أن تختاروا حكمًا نافذ الكلمة ليفصل بيننا فى هذا الأمر» وقد ارتضت قريش هذا الرأى الصائب وقرروا اللجوء إلى كاهنة قبيلة «بنى سعد بن هذيم» التى تسكن قريبا من بلاد

(١) عندما ألقى الجراهمة هذه الأشياء الثمينة فى بئر زمزم ألقوها ليخفوها عن أعدائهم ثم سدوها بالحجارة والتراب حتى يجبروا أعداءهم على ترك المكان تحت وطأة العطش.

(٢) صغار الغزلان هذه كانت مصنعة من الذهب الخالص ومرصعة بأنواع الجواهر.

الشام العامرة لتحكم بينهم، وخرجوا جميعا للذهاب إلى حيث تقيم الكاهنة المشار إليها، ولما كانت منطقة الحجاز فى ذلك الوقت خالية من الطرق المنتظمة وليس بها قرى متقاربة أو عيون ماء أو آبار ممرات ضيقة لدفع الوحشة. ولاشك أن السير فى مثل هذه الطرق أمر مخيف، كما أن السير فى تلك الصحارى الخالية من المياه من الصعوبة بمكان، لذا حمل عبد المطلب ومن معه من صناديد قبيلة قريش ما يحتاجون إليه من أطعمة ومال يكفيهم إلى أن يصلوا إلى حدود الشام.

وعندما ابتعدوا عن مكة ووصلوا إلى واد موحش عديم الماء نفد الماد الذى كان مع عبد المطلب وفتته وأوشكوا على الهلاك، وبعد أن احترقت أكبادهم من العطش. وطلبوا بعض الماء من خصومهم حتى ينجو من هذه المصيبة العظيمة، ولكنهم رفضوا قائلين: «نحن الآن فى واد تنعدم فيه فرصة العثور على نقطة ماء فإذا ما أعطينا لكم الماء فإننا سنتعرض للعطش الذى تعرضتم له كما أن الماء الذى معنا قليل يكاد أن يكفينا وهذا عذر مقنع فى عدم إمدادكم. فزادت حيرة عبد المطلب وجماعته وقلقهم عندما تلقوا هذا الرد.

وعندما رأى عبد المطلب هذا الجحود والإساءة من معارضيه سأل من معه مستطلعا رأيهم «ما رأيكم فى هذا الأمر؟! فقالوا نحن طوع أمرك، ننفذ ما تراه. عندئذ قال: «رأيى أن يحفر كل واحد منكم قبرًا لنفسه فى انتظار الموت، ومن يموت أولا يدفنه الذى مازال على قيد الحياة، فإذا دفن كل من يموت يبقى فى النهاية جثمان شخص واحد بدون دفن والأفضل أن يبقى جثمان واحد فقط بدون دفن من أن تبقى أجسادنا جميعا فى العراء مكشوفة فليحفر كل واحد منكم قبرا طالما فيه القدرة على الحفر. وافق رفاقه على رأيه وحفر كل واحد منهم قبرا لنفسه وانتظر حلول أجله.

وبعد مدة قال عبد المطلب: «يا رفاقى ـ إن حفر قبر انتظارًا للموت شىء عجيب لم يحدث منذ عهد آدم ـ عليه السلام ـ ويدل على عجزنا وضعف هممنا، فإذا قمنا وسرنا ربما يكتب الله لنا النجاة بأن نصل إلى بلدة أو قرية ويبعث لنا ماء

الحياة برحمته، هيا انهضوا لتستمروا فى الطريق سنستعين بالله تعالى»، وبتأثير هذه الكلمات المشجعة التى كانت كالماء الزلال، انبعث فى أبدان أصدقائه الذين كادوا أن يهلكوا قوة كافية، وجهز كل واحد منهم دابته للسير.

أما رجال القبائل المعارضة كانوا يراقبون حركاتهم متيقظين مبتهجين وهم يرون المصيبة الشديدة التى تعرض لها عبد المطلب وأصحابه بسبب قلة الماء ويتحدثون فى استهزاء.

وعندما امتطى عبد المطلب جواده وأراد أن يستمر فى السير تفجر من تحت قدمى دابته التى تحركت للسير ماء عذب سائغ ولما رأى عبد المطلب وأنصاره هذه النعمة غير المنتظرة فرحوا فرحا شديدا بالماء وكبروا كلهم فى صوت واحد ونزلوا عن جيادهم وشربوا الماء مكبرين حتى ارتووا وملئوا جرارهم، وقربهم ودعوا معارضيهم الذين كانوا قالوا لهم، إننا نرفض أن نعطيكم شربة ماء وقالوا لهم، إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد سقانا وأحيانا بظهور هذا الماء وهو يكفى لنا ولكم اشربوا كما تشاءون واملئوا قربكم، ربما لا نتمكن من العثور على الماء فى المسافة الباقية من الطريق.

وتحير القرشيون مما ناله عبد المطلب من نعمة غير مرتقبة واستغربوا ثم تذكروا موقفهم منه وإساءتهم إليه بمنع الماء عنه فعلاهم الخجل واستحيوا وقالوا لعبد المطلب لقد فصل الله فى قضيتنا بظهور هذا الماء لم يعد لنا حق المعارضة فى ماء زمزم.

وما دام الله الوهاب الذى لا يمن عليه ـ جل شأنه ـ قد من عليك بإظهار هذا الماء وأنقذك من العطش فلا شك أنه قد أنعم عليك بزمزم المكرم والأشياء القيمة التى ظهرت فى بئر زمزم.

فكل هذه الأشياء حقك الحلال فتصرف فيها كما تشاء، ولم تعد هناك حاجة إلى حكم الكاهنة. ثم رجعوا جميعا بعد ما أقنعوا عبد المطلب بالعودة.

سعد عبد المطلب مما أظهره أفراد القبائل المختلفة من احترام وندموا على ما بدر منهم، لذا دعاهم كلهم بمجرد عودته إلى مكة المعظمة وخطب فيهم قائلا:

«إذا كان لاحق لكم فى الأشياء الثمينة التى أخرجت من بئر زمزم بسبب معارضتكم لى فإننى بما أتصف به من مروءة وشهامة أود أن يكون لكم نصيب منها فلتقسم هذه الأشياء إلى قسمين» وتسحب القرعة، وكل من تصيبه القرعة تكون هذه الأشياء من نصيبه.

وعقب قوله هذا، جعل صغار الغزلان حصة، وبقية الأشياء حصة أخرى وأجرى القرعة بين قريش والبيت الأعظم وبينه فخرجت الغزلان من نصيب الكعبة وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب ولحكمة ما خرج القرشيون صفر اليدين من هذه القرعة، وقد باع عبد المطلب نصيبه من هذه الأشياء وأنفق ثمنها على أعمال الكعبة، وفى قول آخر أنه صهر الغزلان وزين باب المعلا من الكعبة، وفى قول ثالث إنها ظلت كما هى وعلقها على باب الكعبة الشريفة».

وعندما خرج القرشيون من القرعة بلا نصيب فلم يسعهم إلا أن يتفرقوا وأن يقفوا موقف المتفرج، ولما فهموا أنه لم يعد لهم من الأمر شىء تغاضوا تماما عن منازعة عبد المطلب حول بئر زمزم.

ورأى عبد المطلب أن الأمور هدأت واستمر فى تعميق البئر على النحو الذى يريده، ونجح فى إظهار ماء زمزم العذب الذى قد اختفى منذ خمسمائة سنة وبما أن الناس والحجاج والأهالى يلقون مشقة إحضار الماء من الآبار البعيدة ويتكبدون فى سبيل ذلك مشقات بالغة زادت مكانته وقدره بين الناس. مما حمله على أن يرفع يديه بالشكر لله ـ سبحانه وتعالى ـ من فرط سعادته وفخره ونذر نذرا بقوله «يارب لو أنعمت على بعشرة من الأبناء الذكور وبلغوا جميعا مبلغ الرجال فى حياتى لأذبحن أحدهم قربانا وفداء لك وعندما بلغ عدد أبنائه عشرا، أوفى بنذره على النحو المذكور في الصورة الثانية من الوجهة الثانية.

ويدعى بعض المؤرخين أن نذر عبد المطلب كان عندما عارضته قريش فى حفر البئر، والبعض الآخر يقول إنه كان فى أثناء ظهور ماء زمزم.

ولكن ليس ببعيد أن يكون عبد المطلب قد نذر مرتين مرة حينما كان يدعو الله لينصره على قريش ومرة ثانية عندما ظهر ماء زمزم شكرا لله.

أسماء زمزم الشريف

ولزمزم ثلاثون اسما مشهورا عند العلماء وهى «زمزم» همزة، هزمة جبريل، ظبية، طيبة، برة، عصمة، مضنونة، شباعة العيال، عونة، سقيا الله إسماعيل، بركة سيدة نافعة، بشرى، صافية، معذبة، طاهرة، حرمية، مروية، سالمة، ميمونة، مباركة كافية، عافية، طعام طعم، مونسة، شفاء سقم، شراب الأبرار، تكتم».

سبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، أحصى الشيوخ الكرام فى مكة المشرفة ثلاثين اسما لماء زمزم المكرم وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها على الوجه التالى:

١- **زمزم:** رغم أن المؤرخين من السلف يقولون إن إطلاق اسم زمزم لأنه يفيد معنى «اجر بطيئا» فهذه الرواية ليس لها قيمة كبيرة، وحسب أرجح الأقوال وأقواها للعلماء أن وفرة ماء البئر وتدفقه بقوة سبب تسميته بزمزم وعلى هذا التقدير فزمزم اسم للبئر وليس للماء الشريف.

٢- **همزة:** ومعناها الضرب، إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحيه وعلى قول آخر بجناحه.

٣- **هزمة جبريل:** هزمة بمعنى تعميق، بما أن جبريل ـ عليه السلام ـ عمق البئر بجناحه وتسبب فى ظهور الماء وهذا هو وجه التسمية.

٤- **ظبية:** وسبب التسمية أن حفرة البئر تشبه الجراب.

٥- **طيبة:** وسبب التسمية ظاهر من المعنى.

٦- **برة:** سميت بهذا الاسم لأن تفجرها كان من أجل الأبرار.

٧- **عصمة:** وسبب التسمية أنها غابت واختفت عن الكفار الفجرة.

٨- **مضنونة:** وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.

٩- **شباعة العيال:** لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم بهذا الماء المبارك.

١٠- **عونة:** لأن الناس فى الجاهلية اتخذوا هذا الماء الصافى الشفاف وسيلة لإشباع أولادهم وأزواجهم، لأن الجوعى كانوا يشبعون بشرب ماء زمزم.

١١- **سقيا الله إسماعيل:** بما أنه لا يوجد ماء غير زمزم فى مكة المكرمة فقد تكرم الله - سبحانه وتعالى - بسقيا إسماعيل بهذا الماء المبارك وهذا هو سبب التسمية.

١٢- **بركة:** سبب التسمية ظاهر من اللفظ.

١٣- **سيدة:** وسبب التسمية أن ماء زمزم الشريفة، سيدة كل المياه ماعدا ماء الحياة الذى نبع من الأنامل النبوية الشريفة.

١٤- **نافعة:** سبب إطلاق هذا الاسم أنه ذو فائدة عظيمة للمؤمنين الموحدين.

١٥- **بشرى:** لأن الله - سبحانه وتعالى - بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.

١٦- **صافية:** سبب هذه التسمية صفاء مائه وشفافيته.

١٧- **معذبة:** ويرجع هذا الاسم لعذوبتها وحلاوتها.

١٨- **طاهرة:** وسبب التسمية هو الإشارة القرآنية إلى هذا الماء الشريف حسبما جاء فى الآية الجليلة: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان: ٢١).

١٩- **حرمية:** وذلك لوجوده داخل الحرم الشريف لكعبة الله.

٢٠- **مروية:** ووجه التسمية أنها تبعث فى كل أعضاء الجسم الصفاء كما تولد الإحساس بالشبع مثل الطعام.

٢١- **سالمة:** ووجه التسمية أنها لا تتعفن ولا تفسد.

٢٢- **ميمونة:** وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة كما أنها اتباع للسنة السنية للرسول الكريم صاحب السعادة.

٢٣- **مباركة:** وسبب إطلاق هذه التسمية واضح من اللفظ.

٢٤- **كافية:** لأنه يقوم مقام الطعام.

٢٥- **عافية:** لأنه يكسب شاربه الصحة والعافية.

٢٦- **طعام طعم:** مفهوم من اللفظ.

٢٧- **شفاء سقم:** إنه شفاء من المرض كما سيرد فى الحديث الشريف الآتى فيما بعد.

٢٨- **مؤنسة:** أنه يؤنس سكان حرم كعبة الله.

٢٩- **شراب الأبرار:** ذلك لأن جميع الأنبياء وأولياء الله الكرام شربوا مرتوين من هذا الماء كما أن ماء زمزم اكتسب شرفا وقيمة حينما امتزج ماءه بريق النبى ﷺ.

٣٠- **تكتم:** سبب تسميته بهذا الاسم اختفاؤه وانقطاعه فى زمن «مضاض بن عمرو».

نظم

لـزمـزم ثـلاثـون اسـما فـاذكـر
منهـا خلـوص إيمانـك يظهـر
همـزة وهزمـة شـفاء سـقم ميمونـة
طاهـرة مـروية سـقيا وشـراب الأبـرار
سـيدة بـركـة ومضنونـة مبارك عصمة
عافيـة معذبـة طعـام طعـم أحـرار
مونسـة تكتـم وبـرة، حرميـة عونـه
ظبيـه، زمـزم وطيبـة، وبشـرى كبـار
صافيـة، كافيـة، وأيضـا نافعـة وسالمـة
وأيضـا شـباعة كمـا قـال عنها شيوخنا الأخيار

وقد جاء فى الخبر واتفق عليه جمهور العلماء أن زمزم الشريف أفضل ماء وأعذبه بعد الماء الزلال الذى نبع من أصابع النبى المباركة وهو معجزة من معجزاته عليه السلام.

تفضلت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ حاضنة النبى ـ ﷺ ـ وقالت طول مدة قيامى بحضانة وخدمة مستوجب المغفرة الدر اليتيم الرسول ـ ﷺ ـ لم أجده يشكو من الجوع والعطش فى أى وقت من الأوقات، وكان فى الصباح يأكل قليلا من الطعام ثم يشرب عليه من زمزم المبارك وبعد ذلك كلما أردت أن أطعمه كان يجيبنى قائلا إننى شبعان.

ويجب أن يقال فى أثناء شرب ماء زمزم: «اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء وسقم» يروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن نفع ماء زمزم يتوقف على نية شاربه «إذا شرب بنية الشفاء فالله سبحانه وتعالى، ينعم بالشفاء وإذا شرب بنية الاستعاذة فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يحفظ شاربه من كل سوء. وإذا شرب بنية إزالة الحرارة تنطفئ.

وهى تكون هكذا بالنسبة لمن يشربونها بصدق نية وسلامة طوية بدون أن يكون شربهم لتجربة مدى صحة الحديث الشريف. لأن الخصائص المذكورة لماء زمزم الشريف موجودة الآن وباقية وظاهرة إلى قيام الساعة، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفضح المجرمين الذين يشربونه بقصد التجربة وقد قال النبى ـ ﷺ ـ ذات مرة وهو يوضح الخواص الجليلة لذلك الماء المبارك إنها مباركة وذات مرة قال إنها طعام طعم وفى مرة إنها طعام طعم وشفاء سقم، وذات مرة: «إن ماء زمزم لما شرب له»، وذات مرة قال: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق» وقال مرة: «لا يجتمع ماء زمزم المكرم ونار جهنم فى جوف عبد أبدا»، وفي مرة «خمس من العبادة، النظر فى المصحف، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى الوالدين، والنظر فى زمزم وهى تحط الخطايا، والنظر إلى وجه العالم ومرة: «خير بئر على وجه الأرض ماء زمزم». ومرة أخرى: «من جاء هذا البيت، حاجا

فطاف به ثم أتى مقام إبراهيم عليه السلام فصلى عنده ركعتين ثم أتى إلى زمزم، ثم شرب من مائها أخرجه الله من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ذهب عبد الله بن المبارك ذات يوم إلى بئر زمزم الشريف، وطلب جرعات من ماء زمزم وأخذ كوبا منه وتوجه إلى كعبة الله وقال: «إلهى إن حبيبك محمد المصطفى عليه وعلى آله من التحيات أذكاها، قال إن ماء زمزم لما شرب له، وأنا أشرب هذا الماء بنية إزالة عطش يوم القيامة هذا اليوم الملئ بالهول وإطفاء نار حرارة هذا اليوم، وشرب كوب الماء.

بناء على تعريف صاحب كتاب «البحر العميق ومناسك ابن العجمى».

إن الذين يشربون ماء زمزم الشريف طلبا للمغفرة قائلين «اللهم إنه بلغنى أن رسولك ـ ﷺ ـ قال: «ماء زمزم لما شرب له» (حديث شريف) اللهم إنى أشربه لتغفر لى، اللهم اغفر لى فيغفر له ذنوبه، والذين يشربونه طلبا للشفاء من العلل والأمراض يجب أن يقولوا «اللهم إنى أشربه مستشفيا به اللهم فاشفنى».

قال محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق (رضى الله عنهم) بينما كنت يوما فى مجلس عبد الله بن عباس جاء رجل وقال له ابن عباس من أين أتيت فأجابه من بئر زمزم، فقال ابن عباس هل استطعت أن تشرب من الماء المبارك وفقا للطريقة المسنونة؟ فقال الرجل: «إنى شربت من ماء زمزم وسوف أشكركم إذا ما بينتم لى الطريقة المسنونة لشرب زمزم» ـ فقال له: «عندما تشرب ماء زمزم استقبل القبلة واذكر الله واشرب حتى ترتوى وتنفس ثلاث مرات فى أثناء الشرب وبعد الشرب احمد الله سبحانه وتعالى»، لأن الرسول ﷺ قد قال: الفرق بين المسلمين والمنافقين أن المنافقين لا يشربون ماء زمزم حتى يبلغ حلوقهم وبذلك بين الطريقة المثلى لشرب ماء زمزم.

وقد صدق الدارقطنى والحاكم قول ابن عباس وبَيَّنَا أنه يطابق تماما الأحاديث النبوية الشريفة وشرحا أن زمزم يشرب على ثلاث دفعات ويبدأ كل مرة بالبسملة وتنتهى بحمد الله. والمقصود بكلمة حتى تبلغ الحلق أنه لابد أن يملأ البطن بماء

زمزم حتى تصل إلى ما بين عظام الضلوع ومن الجائز نقل ماء زمزم الزلال إلى خارج الحرم أى يؤخذ إلى بلاد المسلمين للتبرك به. والتوضؤ بماء زمزم غير مكروه ويجوز الاغتسال به، لكن من يستنجون به يصابون بمرض البواسير.

وبما أن الرسول ـ ﷺ ـ منبع الحكمة قد نقل ماء زمزم الشريف إلى خارج الحرم، فمن السنة السنية الأحمدية نقل الحجيج ماء زمزم معهم عند العودة.

من عجائب زمزم المكرم من الأمور المجربة إذا شرب إنسان ما من ماء زمزم حتى بلغ حلقه وقد أخلص النية ثم قال «يا زمزم زمى» شفى من مرض الشراهة فى الأكل.

قال أحد الصالحين للإمام اليافعى عليه رحمة الله: كنت أجلس ذات يوم عند كعبة الله، وفجأة جاء رجل غطى وجهه بشال ودخل إلى مبنى بئر زمزم وملأ جرته ماء وشرب قدرا من الماء ورجع، وعندما جاء إلى جانبى طلبت منه الجرة المذكورة، وعندما شربت الماء المتبقى بداخلها أحسست بلذة عجيبة لم أتذوقها طوال عمرى فكان ماء زمزم بداخل الجرة كأنه شرابا حلوا ممزوجا بالعسل المصفى، وعندما أردت أن أنظر إلى وجه الرجل لأتبين من هو فإذا به يأخذ الجرة من يدى وانصرف.

وفى اليوم الثانى ذهبت إلى المسجد الحرام من الفجر وجلست بجانب بئر زمزم عسى أن أراه مرة أخرى وبعد مرور وقت قصير ظهر الرجل بوجهه المغطى وتقدم إلى داخل مبنى بئر زمزم وملأ دلو ماء من زمزم وشرب منه وشربت ما تبقى فى الدلو وكأن ما شربته لم يكن ماء زمزم المكرم إنما كان حليبا ممزوجا بالسكر.

وينقل أن رسولنا سيد الكائنات عليه ألطف التحيات، شرف بئر زمزم ذات يوم وسحب السقاة دلو ماء، وقدموه له فشرب الرسول ـ ﷺ ـ القليل منه ومزج الباقى بريقه المبارك وسكب السقاة ذلك الماء الممزوج داخل بئر زمزم للتبرك، فقال الرسول ـ ﷺ ـ إن ماء زمزم يشفى المرض ويدفع الجوع عن الذى يشربه بنية الطعام.

وعن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه البارى ـ أنه فى الأيام التى لا يجد طعاما صالحا للأكل يشرب ماء زمزم الشريف ويكسب طاقة وهكذا كان يدفع الجوع والحرارة. إن خواص زمزم الموضحة أعلاه يصدقها الأطباء أيضا.

وحسبما قال المجربون. إنه يقوى المعدة ويسهل هضم الطعام وإذا شرب والمعدة خاوية، فإنه يطهر الأمعاء. ويهدئ سخونة الجسم بناء على هذا يجب الارتواء منه والمعدة خاوية والتبرك به.

وقد ثبت بالحديث الصحيح أن ماء زمزم الشريف أفضل من الكوثر ويزيل من شاربه الحرص والطمع، ويسهل هضم الطعام، ويبرئ الأمراض المزمنة وغير المزمنة ويحث على الطاعة والعبادات، ويزيد نور البصيرة ويقوى الفهم والطاعة والعلم، ويزيل أمراض الجسم وغضب الله واجد الوجود، ويضفى على القلب رقة، والذين يشربونه اتباعًا للسنة السنية الأحمدية يرضون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويغيظون الجن والشيطان الرجيم ويؤلمونهما ويبعثون فى إيمانهم القوة والنضارة.

وقد كتب الإمام السمهودى فى كتابه (خلاصة الوفاء)، وهو من مؤرخى المدينة المنورة المشهورين المتأخرين: يوجد مثل هذا الماء فى المدينة المنورة أيضا حتى أنه يطلق على بئره «بئر زمزم»، ويحمل ماؤه إلى البلاد الأخرى بقصد التبرك به.

* * *

هجرة قبائل الجراهمة وقطورا إلى مكة المكرمة

بعد مدة من ظهور زمزم الشريف لسقى هاجر ـ رضى الله عنها ـ كما سبق توضيحه، حدث أن مرت قبائل جرهم وهى من الأقوام اليمنية المرتحلين إلى الشام بالقرب من مكة المكرمة، وباتوا هناك حتى إن بعضهم صعدوا فوق جبل أبى قبيس ورأوا بعض الطيور.

وفى قول: إن شابين من طائفة العمالقة التى كانت تسكن فى وادى عرفات آنذاك فى خيمها، صعدا فوق الجبل المذكور للبحث عن إبلهم الضائعة، وبينما كانا يجولان رأيا بضعة طيور[1] بالوادى فتساءلا قائلين: «وجود الطيور تنبئ عن وجود ماء، يا ترى أين ذلك الماء؟ وتنقلا من جبل إلى جبل بحثا عن الماء، وإذا بهما يريان فى وسط الوادى تماما امرأة تحتضن طفلا، فاقتربا منها وأخذا يسألانها عن وقت ظهور ماء زمزم وكيف كان ظهوره بقولهما «يا أنت هل أنت من طائفة الجن»؟ أم من جميلات الجن التى تسكن هذا المكان الخالى؟ ومتى وكيف ظهر هذا الماء الجارى الذى أنت بجواره؟!.

فلما أجابت السيدة هاجر قائلة: هذا الطفل قرة عين إبراهيم خليل الله، قد أنعم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فأجرى هذا الماء الذى يمنح الحياة إكراما لماء وجهه. وقد أنبأنى بواسطة جبريل الأمين أن هذا الوادى سيصبح بعد فترة عامرا ومأهولا.

لما عرفا القصة رجواها أن تسمح لقبيلتهما بالإقامة فى هذا المكان، قالوا لها إذا أذنت لنا أن نحضر أهل قبيلتنا ليعيشوا بجوارك بعد أن يقيموا خيامهم فى هذا المكان الموحش ويشربوا من ماء الحياة هذا، ويزيلوا آلام هذا المكان وأكداره، لأن

(١) هذا الوادى هو المكان الذى أسست فيه كعبة الله.

هذا الماء ماؤك وملك يمينك فأذنت لهما، وما كان منهما إلا أن ذهبا إلى قومهما وعادوا جميعا[1].

وكانت هذه الطائفة من أبناء عمومة سيدنا إبراهيم وكان رئيسهم مضاض بن عمرو، وكان بصحبة القبيلة المذكورة عشيرة قطورا أيضا وكانت برئاسة سميدع بن هوشك أو سميدع بن العاص وكان كل أفراد هذه العشيرة من أقارب أفراد القبيلة التى تحت رئاسة مضاض بن عمرو.

وبعد مدة استدعى مضاض بن عمرو وسميدع بن العاص أقاربهما من اليمن وأقاموا جميعا بجوار زمزم الشريف، وبدأوا جميعا فى تأسيس مكة المكرمة، وزراعة ما حولها رعاية لسيدنا إسماعيل وهكذا تحول الوادى غير ذى الزرع إلى مدينة.

ورغم أن سيدنا الخليل قد ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل وانقطع عنهما فترة، إلا أنه كان يعلم أخبارهما من جبريل ـ عليه السلام ـ ويشكر لله لذلك.

وأخذ إبراهيم يتردد على مكة المكرمة بعد الاستئذان من سارة زوجته ـ كما سيذكر فيما بعد ـ ثم أمر بزيارتهما بالوحى الإلهى، وكان يزورهما أول كل شهر تنفيذا للوحى أو بناء على قول آخر كان يزورهما كلما خطرا على باله، ولما رأى تزايد الجماعات المهاجرة إلى تلك البقعة المقدسة من يوم لآخر، ملأته السعادة إذ رأى زوال وحشة العزلة فى هذا الوادى.

وكان يذهب لزيارتهما بعد تناول الإفطار مع السيدة سارة ويرجع قبل أن يحل وقت القيلولة.

زواج سيدنا إسماعيل وذهاب سيدنا إبراهيم إلى مكة لمقابلة ابنه

تربى سيدنا إسماعيل وسط أطفال الجراهمة وتعلم لغة العرب العذبة وقبيل انتقال[2] أمه الرحيمة السيدة هاجر ـ رضى الله عنها ـ إلى جنات النعيم تزوج من

(١) القبيلة المذكورة من الجراهمة أول من سكنت مكة المعظمة.

(٢) عندما توفيت السيدة هاجر كان ابنها إسماعيل فى الخامسة عشرة من عمره وفى قول آخر كان قد بلغ العشرين من عمره وكان عمرها آنذاك قد بلغ ستين سنة.

سيدة[1] بنت مضاض بن عمرو ولكنه تأثر بوفاة والدته هاجر أشد التأثر ولم يكن هناك شيء يسرى عنه، لذلك انغمس فى الخروج للصيد، وكان يتوهم أن الصيد سيدفع عنه الآلام والأحزان.

وذات يوم ذهب سيدنا إبراهيم إلى مكة المعظمة مستأذنا من زوجته السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بنية العودة سريعا ليطمئن على ابنه دون أن يترجل من على ظهر حصانه.

ولما وصل إلى مكة المكرمة عرف أن السيدة هاجر قد انتقلت إلى دار البقاء، وأن سيدنا إسماعيل ذهب إلى صحراء بعيدة بعض الشئ من أجل الصيد، ولما كان جائعا طلب من زوجة ابنه «سيدة بنت مضاض بن عمرو» قليلا من الطعام فلما أجابته المذكورة قائلة: لا يوجد عندى طعام قال لها: عندما يعود زوجك أقرئيه منى السلام، وقولى له أن يغير عتبة بيته ومضى.

وعندما رجع إسماعيل ـ عليه السلام ـ من الصحراء قالت له زوجته «جاءنا اليوم شيخ صالح وقد ألمح إلى مسألة غريبة بقوله: إنه يقرئك السلام وعليك أن تغير عتبة بيتك» بناء على هذا طلَّق سيدنا إسماعيل زوجته سيدة، وتزوج من «رعلة بنت عمرو الجرهمى» وأنجب منها أولادًا كثيرين.

يطلق اسم العرب المستعربة على القبائل العربية المنحدرة من صلب سيدنا إسماعيل، واسم العرب العاربة أو العرب العرباء على القبائل التى ينتهى نسبها إلى قبائل قحطان وجرهم.

واستمر سيدنا الخليل بعد ذلك لفترة يستأذن من السيدة سارة. ويذهب إلى مكة كما كان يذهب من قبل ليطمئن على أحوال ابنه إسماعيل. وفى زيارة من زياراته لم يجد ابنه إسماعيل وسأل عنه زوجته. وكانت[2] رعلة بنت عمرو بحق الزوجة الوفية المخلصة اللائقة بإسماعيل، إذ أخبرت عن ذهاب زوجها إلى واد قفر من أجل الصيد.

(١) وفى قول آخر إنه تزوج عمارة بنت سعيد بن أسامة بن اكيلى من رؤساء العمالقة.
(٢) يروى على قول أنها سيدة بنت مضاض بن عمرو.

وبعد ذلك أطعمت والد زوجها بطعام لذيذ مكون من اللحم واللبن السهل الهضم، وبذلك أظهرت له مظاهر التعظيم والإجلال والاحترام، وبعد الطعام قالت له وهى ترجوه «يبدو أنكم أشرفتم من مكان بعيد فإذا تفضلت بالوقوف على هذا الحجر لكى أغسل لك رأسك وأمشط شعرك تكن قد أنعمت على جاريتكم بسرور بالغ، وأشارت إلى الحجر الذى استخدم فيما بعد بمثابة الوصلة عند بناء بيت الله المقدس».

وكان الطعام الذى أتت به رعلة مكون من قطعة من اللحم المطبوخ ومقدارا كافيا من لبن وتمر، ونظرا لصعوبة توفير الخبز قالت وهى تقدم له هذا الطعام، لو كان هناك خبزا لقدمته فأرجوك أن تعذرنى، فرد عليها قائلا: فليبارك الله فيكم وفى طعامكم هذا واستجيب لهذا الدعاء من قبل الله فأثره باق إلى الآن فالتمر واللحم متوفران بكثرة فى مكة المعظمة.

نظم

إنهـــا امـــرأة ذلـــك الشـــاب الأغـــــر

أهـــــل البيـــت بالنعمـــــة غمـــــــر

بعينيهـــــا أنهـــا رجـــــلا تطهـــــــر

فبوجهـــــين العـــــــورة تســـــــتر

وسر سيدنا إبراهيم من المعاملة الطيبة التى أظهرتها رعلة بنت عمرو نحوه.

وعندما وقف فوق الحجر الذى أشارت إليه قامت السيدة «رعلة» بغسل جانبه الأيمن، ثم الأيسر وبعد ذلك غسلت كل جسمه المبارك فقال لها حموها: «أقرئى زوجك السلام، وأبلغيه أنه ليس عليه أن يغير عتبة بيته ثم انصرف».

وبعد فترة قصيرة شرف سيدنا إسماعيل بيته، واشتم رائحة والده العزيز المباركة وسأل عمن جاء، فأجابته قائلة جاء شيخ كريم، ذو جمال باهر وذو رائحة عطرة، وأبديت له ما يستحقه مقامه الرفيع من آيات التكريم وأحضرت له

الموجود من الطعام، وبعد الطعام غسلت له جسمه المغمور بالنور فوق هذا الحجر، فسر وقال: «قولى لإسماعيل ألا يبدل عتبة بيته بعد الآن وأقرأك السلام، ثم قفل راجعا وترك أثرا فوق الحجر الذى وطأت قدماه الشريفتان توأم السعادة. فقال لها شارحا وموضحا ذلك الشيخ ذو السمات الجليلة هو أبى ويقصد بقوله: لا تغير عتبة بيتك. يأمرنى بأن أقضى بقية عمرى معك واتجه إلى الحجر الذى ترك فوقه أثر قدميه فقبله ووضعه فوق مكان مرتفع قليلا.

وقد أصبح ذلك الحجر المبارك التى غسلت فوقه رعلة والد زوجها فى ذلك اليوم هو الحجر المبارك الذى صعد فوقه إبراهيم عند بناء الكعبة المعظمة، وهو الآن فى مكة ومحفوظ داخل شبكة من حديد. وقد ذكر هذا الحجر فى القرآن الكريم باسم (مقام إبراهيم)، واشتهر بين الناس بهذا الاسم والحجاج الكرام يزورونه بكل لهفة وحماس. ومازالت آثار قدمى إبراهيم - ﷺ - ، فالحجاج يضعون ماء زمزم عليه ويشربونه تبركا والحجر المذكور والحجر الأسود. هما ياقوتتان سعيدتان من يواقيت خزانة الجنان وقد أزال الحق - سبحانه وتعالى - نورهما المشع، لأنهما لو ظلا محتفظين بنورهما الذى تفضل الله بإنزالهما به من الجنة لأضاء نورهما ما بين الشرق والغرب.

مسألة:

اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح الهامة

عندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح فلذة كبده كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال، قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. وقد اختلف العلماء فى الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟ كما أن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع مشتبه فيها وأعلن بعضهم أن الذبيح هو إسحاق، وقال الآخرون إنه إسماعيل.

ورغم أن مؤرخى اليهود والنصارى يسوقون مجموعة من الأدلة، ويؤيدون العلماء الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق، فإن جماعة الصحابة الكرام والتابعين منهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وكعب الأحبار

وسعيد بن جبير ومسروق وأبو الهذيل والزهرى وعبد الله بن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو الطفيل عامر بن واثلة ومقاتل وعبد الله بن مسعود وقتادة وعكرمة وعباس بن عبد المطلب «رضى الله عنهم أجمعين وكذلك كبار التابعين مثل: الإمام جعفر الصادق وسعيد بن المسيب و مجاهد والحسن البصرى والشعبى رحمهم الله، يذهبون إلى أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو ذبيح الله كما أن ابن كثير قد حكم بصحة الرأى القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

لأن أصحابه يستندون بالاتفاق إلى أقوال صحيحة فيما يعلنون أما بالنسبة لنا نقول: «إن كون إسماعيل ـ عليه السلام ـ المقصود بالذبيح قد بلغ إلى درجة اليقين بالأدلة العقلية، لأن سيدنا إبراهيم بلغ السادسة والثمانين من عمره ولم يكن قد أنجب ولدا بعد، لذا كان من الطبيعى حسب النزعة البشرية أن تكون ولادة سيدنا إسماعيل زينة الوجود موضع حب والده لهذا ابتلى إبراهيم فى أعز شىء عنده، ولأن السيدة سارة كانت عاقرا وانكسر فؤادها لمولد إسماعيل فخر العالمين وقد أدى هذا إلى صدور أمر الذبح الجليل والإشارات الإلهية حول ولادة سيدنا إسحاق ويعقوب زدلة قاطعة لكون الذبيح إسماعيل عليه السلام.

إذ أن سيدنا إسحاق لو كان قد ذبح، لكان يلزم ألا تتشرف الدنيا بسيدنا يعقوب، وبغض النظر عن هذا فإن الأمر المؤكد أن سيدنا إسحاق لم يقطن مكة والكعبة المعظمة وكان مقيما فى الشام. كما أن قرون الكبش السماوى قد ظلت معلقة في ميزاب كعبة بيت الله حتى حادثة ابن الزبير المؤلمة وقد انتقلت مهمة حراستها إلى أولاد وأحفاد إسماعيل بطناً تلو بطن وكل هذه الأحداث أدلة كافية لإثبات أن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

وقال مولانا الصنهاجى نقلا عن الإمام الثعلبى: «بينما أنا فى مجلس سيدنا معاوية بن أبى سفيان ودار الحديث طويلا فى القيل والقال بين بعض الناس حول الاختلاف فى قصة الذبح، فخاطبهم سيدنا معاوية قائلا: «كنت ذات يوم فى حضرة المجلس النبوى الرفيع ـ عليه أفضل التحية ـ وجاء واحد من الأعراب

وصاح قائلا: «يا ابن الذبيحين «فتبسم الرسول الكريم ـ ﷺ ـ تصديقا على قول القائل ابن الذبيحين فتفضل ذاته العالية بالتصديق على قول الأعرابى المذكور تلميح وتصريح بأن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

لأن عبد الله بن عبد المطلب والد سيدنا رسول الله رفيع المقام كان أيضا ذبيحا مثل جده إسماعيل عليه السلام. وإذا كان سيدنا إسماعيل قد افتدى بكبش فإن عبد الله قد نجا بمائة ناقة.

وفى الحديث الشريف «أنا ابن الذبيحين» تأكيد على أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو الذبيح حيث أنه مما لا شك فيه عند أحد قط فى أن المشار إليه هو جد النبى العظيم ومع أن علماء اليهود يعلمون يقينا أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل ورغما عن هذا ادعو أن سيدنا إسحاق هو ذبيح الله كما أن بعض مؤرخى النصارى أيدوا اليهود فى ادعاءاتهم ولكنهم لم يستطيعوا حتى أن يجدوا دليلاً واحدا على صحة أقوالهم.

والرواية التالية تدل دلالة واضحة على بطلان ادعاءات اليهود، الرواية تقول: أسلم واحد من علماء اليهود فى عهد عمر بن عبد العزيز. وسأله الخليفة الأموى مستفسرا «هل الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟» وبما أن سيدنا إسماعيل هو جد العرب فإنهم ينكرون أن يكون هو ذبيح الله ويدعون أن جدهم إسحاق ـ عليه السلام ـ هو الذبيح.

كيفية حدوث قصة الذبح الجليلة

نقل عن كعب الأحبار أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أمر حضرة الخليل ـ على نبينا وعليه التبجيل قبل بناء الكعبة المشرفة[1] بسبع أو ثلاث عشرة سنة، عن طريق الرؤيا، أن يذبح إسماعيل ـ عليه السلام ـ قربانا. وكان سيدنا إسماعيل فى ذلك الوقت فى الثالثة عشرة وحسب قول بدائع الزهور أنه كان فى العشرين[2]

(١) القول الأول مرجح على القول الثانى.

(٢) القول الأول مرجح على الثانى.

من عمره وأن سيدنا إسحاق قد ولد بعد هذه الواقعة بسبع عشرة سنة، وحسب رواية بدائع الزهور، ولد بعد عشر[1] سنوات وأنه مات سنة سبع وثلاثين بعد المائة.

ولما أدرك سيدنا إبراهيم أن ما رآه ليس وساوس الشيطان صدع بالأمر، وقال لزوجته هاجر وقد عقد على إنفاذ حكم الله وقضائه ـ هيأ إسماعيل بغسل رأسه وتمشيط شعره وإلباسه ملابس جديدة بعد أن عطر كل أعضاء جسمه بعطور ذات رائحة طيبة ثم خاطب فلذة كبده بقوله: «يا بنى هات حبلا وسكينا حادا لنذهب معا لإحضار الحطب من ذلك الجبل وحسب قول بدائع الزهور «لنذبح شاة» وأحضر سيدنا إسماعيل الحبل والسكين اللذين أمر والده بإحضارهما وصحبه معه إلى المكان المسمى مذبح إسماعيل فى منى.

فى هذا الوقت ظهر إبليس ذو الوساوس متوهما أنه وقت غواية وإضلال إبراهيم عن طريق زوجته فذهب إلى هاجر وقال لها: «هل تعلمين أين أخذ إبراهيم إسماعيل؟ فلما ردت قائلة: نعم أخذه إلى الجبل لنقل الحطب، قال لها» لا أخذه للذبح».

فردت عليه قائلة: إن إسماعيل محبوب من والده، حتى إن والده ينفر من الذين يعادونه ويبغضهم حاشا أن يرتكب هذا الفعل غير المشروع.

فقال لها: «ربما يذبحه ظنا أنه أمر الله؟ ردت السيدة هاجر ـ رضى الله عنها ـ وقالت: «مادامت هذه هى إرادة الله الحكيمة فهو ملزم بتنفيذها إذن فليعمل على تنفيذ أمر الله «ولم تفتنها غواية الشيطان!.

نظم

ولما تخوف الشيطان فى الحال

التقى بأمه للإضلال

(١) الرواية الثانية أقوى من الرواية الأولى.

فقال لها لا تفعلى وإلا ندمت خذى حذرك

خليـــل الله يجعـــل القربـــان ولـــــدك

فهجمت فى الحال بما وجدتـــه قريـــــب

أما شمـس عقلهـا فأوشكت على المغيـب

اتجهـت بحينهـا والقلـب إلـــى الـــرب

قائلة الق إلى سمعا هذا أولـى وأنســب

الحذر من أن تبعدى تلك الروح من يدك

لانطفـــــى: ســـــراج الأنبيـــــــاء

لا ترضـى أن يذهـب معـه حيـث شـاء

عندما أدرك الشيطان أنه لن يستطيع أن يضل السيدة هاجر ذهب إلى إسماعيل.

وقال: يا إسماعيل لقد حملك أبوك إلى الجبل لكى يذبحك، فأجاب إسماعيل: إنى أطيع أمر الله وأوافق على رأى والدى العزيز وأخضع لما يقرره فانصرف الشيطان عنه.

وغشى اليأس الشيطان بسبب عجزه عن خداع إسماعيل ـ عليه السلام ـ فأسرع إلى حضرة الخليل وقال له متسائلا:

«أيها الشيخ مضئ القلب إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا تتصور أنك فاعل؟ فلما أجابه حضرة الخليل «لدى أمر هام وأنا ذاهب لإنجازه» فقال له: أتظن أن الشيطان يضلك عن طريق الرؤيا ويفسد عليك عقلك وإحساسك ويدفعك لقتل ابنك فإذا انخدعت بوساوسه وما يلقيه فى نفسك فإنك ستفقد ثمرة فؤادك الذي هو برعم بستان مناك !! ولا شك أنك ستتجرع كأس الندم وستضل عن طريق السلامة».

لكن الخليل فاجأه قائلا «أيها الملعون انصرف عني إننى أنفذ إرادة الله وأمره» فظل الشيطان ناشرا من خلفه.

وبعد أن صرف نبينا سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه التعظيم ـ الشيطان من عنده ووصل إلى جبل ثبير ووجه حديثه إلى فلذة كبده إسماعيل عليه السلام قائلا:

نظم

قال اعلم يا ولدى البر يا خير ولد
إن الله يدعوك إلى جنة الخلد
بمال عمرك يا ولدى لا تبخلن
وفى تردد طريق الحق لا تسلكن
اطرح عنك تراب جسمك وعجل بروحك
يخف عنكا عليك من ثقلك
اجعل الجسد الترابى فى الأرض طريح
وانعم وانفض التراب عن عين الروح
لا تلق الروح فى فزع وهلع
وحذار من أن يكون ثوبك أبقع
جد فى سبيل الحبيب بروحك
لا لا تكترث بعمرك

«أى» يا قرة عينى وجودى، رأيت فى منامى أننى مأمور بذبحك، لذا فإننى مضطر لإنقاذ إرادة الله ذى الكبرياء فانظر ماذا ترى؟! وبهذا الأسلوب يهىء ابنه زهرة عمره فى إنفاذ ما أمر به «فلما أجابه سيدنا إسماعيل بما جاء فى الآية الجليلة: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وقال: «يا والدى العظيم فاصدع بالأمر الذى كلفت به ستجدنى إن شاء الله صابرا وأحتمل ما جرى به حكم الله». وبعد هذا قال لوالده طائعا مختارا «اعلم أن بذل الروح أمر عسير، لذا شد وثاق يدى وقدمى حتى لا أضطرب فينتقص أجرى أو يحرك اضطرابى رقة قلبك فتتألم وألقنى على وجهى حتى لا تدعوك رؤية وجهى عند الذبح إلى عدم القدرة على تنفيذ أمر الله ذى الجلال فإن توافق خذ قميصى أيضا إلى أمى هاجر كى يكون لها سلوى وأقرئها منى السلام وقل لها أن تَتَّسِم بالصبر فى تحمل أمر الله وقد يساعدها هذا القميص الذى أرسله لها على ذلك «وبهذا القول أظهر طاعته لأمر الله بوضوح».

نظم

وقال إسماعيل للخليل الآن
يا خير من خلق الرحمن
قيد اليد والقدم منى
علنى لا أشعر وأنت تذبحنى
علني لا أشعر وأنت تذبحنى
فإذا ما صعدت منى الروح إلى السماء
لا يصبح جسدى بحرا يتلاطم فيه الماء
عر جسدى وسربالى
لئلا يكون حائلا عن وصالى
جرد جسدى من ثمر وورق
وضمها كلها فى غض متسق
بردائك استر منى الجبين
لا تنظر إلى وجهى أكره لك أن تكون حزين
وإذا ما أطرقتنى كالعنقاء

فاجعل لهـا عشـــا فـــى الخفـــاء
عندما تشاهد فى تصعد زفرتك فى ألـم
وفى التو تنـــدم كـــل النـــدم
احذر يا من أنت ظـــل الرحمـــن
أن تنـال النبـوة بـأى ســوء كـــان
أنت بكل رحمـــة تغمرنـــى
لكـــن فـى تلك اللحظـة لا ترحمنـى
أتعلم مـا سـوف تـؤول إليـه الحـال
وإذا ما لـم تطـع أمـر الله فـى الحـال

عندما سمع إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذا الجواب من ابنه قال:

«يا بنى ما أجمل استسلامك لإرادة الله. وأوثق رباط قدمى ابنه ويديه ثم ألقاه على وجهه، ثم أغلق عينيه ووضع السكين الحار على رقبته البلورية وسحبها بقوة؟ لكن جبريل الأمين بأمر ربه قلب حد السكين فلم يقطع رقبة إسماعيل البيضاء كالفضة.

وفى قول آخر إن سيدنا إبراهيم قيد سيدنا إسماعيل على النحو المذكور وعندما قلبه على وجهه، قال إسماعيل ـ عليه السلام ـ يا أبتى! حل رباط يدى وقدمى، حتى لا أكون قد استجبت لأمر الله مجبراً، فحل والده وثاق يديه ورجليه، وأوقفه على قدميه عندئذ نام إسماعيل على جنبه الأيمن وقال: يا والدى الآن ضع سكينك على رقبتى دون أن تشفق على حتى يرى الملائكة أن ابنك إسماعيل قد انقاد لأمر الله وأطاعه كما أطاع والده ويشهدوا بذلك.

وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة سيدنا إسماعيل ليذبحه وضغط عليه بشدة لكن السكين لم يقطع فغضب حضرة الخليل من السكين وضرب حده فى صخرة عظيمة فشطرها نصفين فتعجب إبراهيم وقال: «ترى ما الحكمة؟ وأخذ يفكر فى الأمر وبينما هو كذلك سمع هاتفا ذا خطاب مستطاب» يا إبراهيم قد

صدقت الرؤيا وقد أرسلنا لك كبشا ليكون بدلا وفداء لابنك، وظهر جبريل الأمين عند صفح جبل ثبير ومعه كبش عظيم وحمل سيدنا إبراهيم الكبش إلى مكان مسجد المنحر وبعد أن كبر هو أولا والكبش ثانيا ثم سيدنا إسماعيل أرقده على الأرض وذبحه قربانا لله!!.

نظم

أخذ الفزع كل مأخذ من نبى الله
وسرعان ما ستر وجهه وأخفاه
وفى هيبة أخرج شفرة كالهلال
ليذبح من هو البدر فى الجمال
الشفرة على رقبة إسماعيل وضعها
فما أثرت فيها وما قطعها
وشحذه على الحجر فانشطر فى الحال
وأصبح جزءين من النّخالة
وأنزل من السماء كبشا جميلا
فذبحه بدلا منه فى الحال

وفى رواية أخرى «بينما كان سيدنا إبراهيم مندهشا مما حدث كان ابنه المطيع على الدوام لكل أوامر الله سبحانه يقول يا أبى ما بك حتى إنك تتكاسل عن إنفاذ أمر الله سبحانه؟ فلما أجابه «إن السكين لا يقطع» قال له إذا كان الأمر كذلك فاضرب رأسى بمقبضه حتى تنفذ مهمتك بهذه الصورة»، وبهذا بين له ابنه الطريقة التى يتبعها فى إنجاز مهمته وبينما كان الأب الرحيم يهم بفداء ابنه بأن يضرب على رأسه بمقبض ذلك السكين الذى فى يده إذ جاءه الهاتف. «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا لقد أرسلنا لك كبشا ليكون فداء لابنك ـ دع إسماعيل وأمسك بهذا الكبش الذى تراه فى ذلك الجبل واذبحه بدل ابنك وفى لحظة سماع عبارة يا

إبراهيم قد صدقت الرؤيا سقط السكين الذى فى يد الخليل الجليل على الأرض من رهبة الصوت المذكور.

وكان سيدنا جبريل مُمْسِكًا بالكبش سابق الذكر من أذنه، وأراه لسيدنا إبراهيم وبإشارة من الرسول الجليل كبر الكبش كما بينا سابقا، وقد نبه هذا التكبير إسماعيل عليه السلام فرفع رأسه من الأرض التى يرقد عليها، وقال بلسان عذب العبارة المنجية (الله أكبر ولله الحمد) وأمسك سيدنا إبراهيم الكبش الذى أراه إياه جبريل الأمين وذبحه. وفى رواية أخرى إذ رأى سيدنا الخليل مدى طاعة إسماعيل الذى هو ثمرة بستان عمره واستسلامه لأوامر الله سبحانه وتعالى غشيته الحيرة وقال وهو حزين «يا إلهى، لقد أنعمت على وأسعدتنى فى آخر عمرى بابن وبعد ذلك أحزنتنى بفراقه إذ أمرتنى بذبحه ولو أن هذه الرؤيا التى رأيتها مصونة من وساوس الشيطان ومقرونة برحمتك ورضائك الشريف سأبدأ فى تنفيذها، أما إذا كانت ضد إرادتك الإلهية فإننى أنصرف عنها وأستغفرك لك.

ثم وضع حد السكين الذى فى يده على عنق إسماعيل عليه السلام الذى يرقد على الأرض مقيد اليدين والقدمين وسحب السكين ثلاث مرات ولكن فى كل مرة كان حد السكين ينقلب وتنجو رقبة إسماعيل عليه السلام من الذبح وغضب نبينا إبراهيم عليه التحية والتكريم وضرب بالسكين صخرة كبيرة لا يقدر ثلاثون أو أربعون رجلا على تحريكها فانشطرت تلك[1] الصخرة السوداء الضخمة من شدة الضرب إلى نصفين وتدحرج أحد النصفين فى جانب والثانى إلى جانب آخر.

* * *

(١) هذه الصخرة موجودة أمام المزار المسمى مذبح إسماعيل ويظهر عليها أثر السكين حتى الآن.

بينما وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة ابنه واجتهد أن يذبحه أظهر سيدنا إسماعيل لوالده نهاية الطاعة ومنتهى الاستسلام الذى يفوق كل ما أصف. وإذا بصوت مثير للشوق يقول «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ولقد أرسلنا كبشا فداء لابنك فأمسك به واذبحه».

شمس التبريزى

إسماعيل قد جاء به
وجعله قربان كبش له

فاستدار إبراهيم عليه السلام على عقبيه بمجرد أن وصل الصوت إلى مسامعه ورأى عند سفح جبل ثبير كبشا فريدا متناسق التكوين ومن فرط سعادته ترك ابنه إسماعيل ملقى على الأرض مقيد اليدين وذهب للإمساك بالكبش الذى رآه ولكن الكبش المذكور انطلق ناحية مسجد الحنيفة متبعه وألقى فى ثلاثة أماكن سبع جمرات وأمسك به بالقرب من جمرة العقبة، وأخذه إلى مكان مسجد المنحر وذبحه.

والمواضع التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم بالحجارة على الكبش هى الأماكن التى يوجد بها الآن: الجمرة الأولى، والجمرة الثانية وجمرة العقبة.

وكان الشيطان اللعين قد ظهر لإبراهيم فى تلك الأماكن وحاول أن يصرفه عن تنفيذ الأمر الإلهى ولكن لما رأى نفسه لا يستطيع أن يحقق أمله انسحب إلى ناحية ما خائبا مدحورا. وإشارة إلى هذه الحادثة يرمى الحجاج الكرام الجمرات الثلاث.

قطعة

ما يرمى به إبليس من حجر
إما حصى وإما جمر
وفى المآل إذا قلبت الكلمتان

فالرجمة تكون جمرة

بينما كان سيدنا إبراهيم منهمكا فى ذبح الكبش عند مسجد المنح، حل جبريل الأمين وثاق يدى إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقدميه وقال له «يا إسماعيل اطلب من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما تشاء فى هذا الموقف المبارك الذى يستجاب فيه كل الأدعية. وقف سيدنا إسماعيل بين يدى عتبة الرب الجليل وأخذ فى الدعاء قائلا: «يا إلهى أدعوك وأتوسل إليك أن تغفر للمؤمنين الذين أتو إلى الدنيا ثم ذهبوا إلى الآخرة حتى هذه اللحظة» وخلال دعائه جاء والده المكرم وقال: يا بنى أنت مؤيد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد سمع فى الآفاق صوت الهاتف يقول يا خليل يا أصدق القائلين ويا إسماعيل يا أصبر الصابرين.

حكمة:

إذا قيل ما الحكمة فى إرسال «كبش» فداء لإسماعيل ـ عليه السلام ـ وعدم إرسال ثور أو جمل مثلا؟ نقول إنه أرسل كبش لكى لا يكذب والده إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنه إذا أرسل جمل أو أى حيوان آخر لما صدق سيدنا الخليل، لأنه عندما أخذ إسماعيل ـ عليه السلام ـ طلب منه أن يأتى بحبل وسكين، ولما سأله إسماعيل عن سبب ذلك قال له أبوه لأننا سنذبح شاة. لذا أنزل كبش دون سائر الحيوانات.

يقول عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إن الكبش الذي جاء به جبريل الأمين آنذاك كان القربان الذى تقبله الله من هابيل بن آدم ـ عليه السلام ـ ، وقد أخرج من فرعى الجنان قبل واقعة ذبح إسماعيل بأربعين سنة وامتنع عن الطعام والشراب أربعين سنة كاملة إلى أن أنزل إلى مراعى البسيطة.

وكان الكبش المذكور كبير القرنين أسود العينين ولونه يميل إلى السواد وظل القرنان معلقين فوق ميزاب الكعبة المعظمة، وعلى قول آخر فوق باب المعلا، إلى وقعة الحجاج الظالم واحترقا فى أثنائها.

وكان المكان الذى شوهد فيه جبريل الأمين مع الكبش فى مضيق منى. وسفح جبل «ثبير» حيث توجد صخور كثيرة. وقد بنى فوقه قبة من الحجر على أربعة قوائم ظنا أن الحجاج يزورون هذا المكان ويطلق على هذه القبة «قبة الكبش» من قبل سكان مكة.

* * *

استطراد

إن أسلافنا من المؤرخين تناولوا بالبحث الكيفية التى تم بها أمر إسماعيل بالذبح واختلفوا فى هذا الموضوع كثيرا ولكنهم بعد ذلك اتفقوا على كلمة واحدة، وقالوا: «إن بلوغ خليل الله إبراهيم الرابعة والثمانين من عمره دون أن يكون له ولد مما أحزنه وآلمه. ولذا توجه لربه قائلا: إذا أنعمت على بولد نجيب حليم ـ حتى لا ينقطع نسبى فلكنت أفديه طالباً رضاك وكان هذا نذرًا منه ومن فرط سعادته بولادة سيدنا إسماعيل ذا السعادة الباهرة غاب عن ذهنه أن يوفى النذر، وبعد ثلاث عشرة سنة من الواقعة اقتضى صدور الخطاب الإلهى تنفيذ إبراهيم نذره إذ قال الله سبحانه وتعالى: «يا إبراهيم كنت ستذبح إسماعيل قربانا فلماذا لا توفى بنذرك».

وتردد إبراهيم فى تصديق هذه الرؤيا وظل فى ذلك اليوم حتى المساء يفكر فى هذا الموضوع! لذا أطلقوا على اليوم المذكور يوم التروية».

وإن كان معنى التروية لغة التفكير إلا أنه قد اصطلح على أن يطلق هذا الاسم على اليوم الثامن وأخذ يفكر بعمق فى صباح تلك الليلة وكان اليوم التاسع من شهر ذى الحجة إسماعه الصوت الهاتف: «يا إبراهيم إن إبليس يبعدك عن طاعة الله، فقرر أن ينفذ أمر القضاء، وقد عرف أن الهاتف الإلهى يوحى له بإنفاذ الأمر، ولذا أطلق على هذا اليوم اسم «عرفة». واليوم الثالث وكان اليوم العاشر من ذى الحجة وأطلق عليه يوم النحر لأن إبراهيم عليه السلام بادر فيه بذبح فلذة كبده.

لاحقة:

الحكمة من أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يذبح ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ كما ينقلها على بن أبى طالب ـ رحمه الله ـ وقد قال العالم الواقف على سرائر نبينا ﷺ: إنه بينما كان خالق السموات والأرضين يرى سيدنا إبراهيم عليه السلام السموات والأرض ويوقفه على جمالهما وما فيهما رأى حضرة الخليل ـ عليه السلام ـ رجلاً يرتكب معصية، فلما دعا الله أن يهلكه هلك ذلك الرجل، وبعد قليل دعا على بضعة أشخاص من المذنبين فلما هلكوا صدر خطاب رب العزة له يا إبراهيم إن دعاءك مستجاب دائما فلا تدع على عبادى فإنهم مجبولون على ثلاث خصال: إما أن يتوبوا وإما أن يسبحوا وإما أن يفوضوا أمورهم، فإذا شئت غفرت لهم وإذا لم أشأ عاقبتهم، ويرى البعض أن سبب صدور الأمر لسيدنا إبراهيم أن يذبح إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو إظهاره القسوة على العباد وأنه لم يرحمهم.

وقال جماعة من المفسرين العظام عقب تفسير الآية الجليلة ﴿كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥) إنه ذات ليلة فى أثناء عروج إبراهيم عليه السلام إلى السماء رأى عبداً عاصيا يرتكب ذنبا فقال: يارب إن هذا العبد يأكل رزقك ويمشى ويتحرك فوق الأرض التى خلقتها، ومع هذا يخالف أوامرك فأهلكه!! ولما كان دعاؤه مستجابا فقد هلك ذلك الرجل ثم رأى بعد ذلك مذنبا آخر فلما دعا الله أن يهلكه، خاطبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاتبا يا إبراهيم لا تدع على عبادى أمهلهم وأمنحهم فرصة، فإنهم يا إبراهيم كثيرا ما يقترفون الذنوب. وفى تلك الليلة أمر فى رؤياه بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ولكى ينفذ سيدنا الخليل الجليل «عليه التحية والتبجيل» ما رآه فى رؤياه ألقى ابنه على الأرض وهو مقيد اليدين فى سفح جبل ثبير على النحو الذى ذكرناه مفصلا فى موضعه، وعندما أمسك السكين بيده غلبت عليه رقته فقال: «يارب

إن هذا الابن الذى استعد لوضع السكين على عنقه هو ثمرة فؤادى وابنى الغالى. وإنه أحب الناس إلى»، وكان قصده من هذا أن يعرض على أرحم الراحمين ما بقلبه من رقة وشفقة، ولما انتهى من كلامه إذا به يسمع هاتفًا من الوحى يقول: «يا إبراهيم أنسيت الليلة التى دعوت فيها بهلاك عبادى؟! إذا كنت رحيما بابنك على هذا النحو وأنا أيضا رحيم وشفيق على عبادى ألا تعرف أننى أنا الرحيم؟! لقد أردت هلاك عبادى وأنا فى المقابل أريد ذبح ابنك.

تكليف حضرة الخليل ببناء الكعبة المعظمة:

كانت إقامة إسماعيل ـ عليه السلام ـ مع أمه السيدة هاجر فى الوادى المقدس غير ذى زرع مقدمة لتأسيس قواعد البيت المعظم، لذا تحمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كل ما سبق ذكره من الصدمات تحملها صابرا دون قنوط. قد أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتأسيس كعبة الله. قبل ولادة إسحاق ـ عليه السلام ـ بثمانية أو (١٤) أو (١٨) أو (١٧) عاما[١] وبعد حادثة الذبح بسبعة أو (١٣)، أو (١٧) أو (١٦)[٢] عاما[٣].

وبما أنهم لا يعرفون حسب عجزهم البشرى مكان بيت الله فقال رب العزة «يا إبراهيم اتبع سكينة» وهى ستدلك على مكان الكعبة.

ذلك لأن الموضع المقدس لكعبة الله كان معروفاً للبشر حتى طوفان نوح الذى أغرق الدنيا غطَّى الطوفان بِبَحْرِ رماله مكان البيت فتركه مجهولا بدون أية علامة، ومع هذا فإن السيول التى تكونت من شدة هطول الأمطار كانت تتحاشى الأرض المباركة للبيت الشريف وتطوف من حول أركانها الأربعة. والذين رأوا هذه العلامة الميمونة عرفوا أن هذا المكان بالذات مكان مبارك مقدس واعتقدوا

(١) القول الثالث مرجح على القول الأول والثانى.

(٢) الرواية الثالثة مرجحة على الروايات الأخرى.

(٣) كان عمر إسماعيل فى ذاك الوقت ثلاثين أو عشرين عاما كما أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان قد دخل فى المائة من عمره المبارك.

فى ذلك. حتى إن المرضى والمظلومين والمهمومين كانوا يطوفون بهذا المكان ويرون أن أدعيتهم قد استجيبت.

عندما كلف سيدنا إبراهيم ببناء وتشييد كعبة الله بوحى من الله الكريم وتشرف بخطاب رب العزة أن اتبع السكينة ركب البراق الذى نزل من السماء وسار مستظلا بظل السكينة سالفة الذكر.

وكانت «السكينة» المذكورة ريح[1] عجيبة الآثار فى صورة حية ذات رأسين أسمها حجون. كما أن لها رأس وأيضا جناحان وقد ظهرت على شكل سحابة ذات أربعة أركان وكانت بحجم الكعبة المعظمة وأوصلت «السكينة» إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة ووقفت فوق أرض وساحة البيت الشريف وقالت بلسان حالها إن المكان الذى تظله هو الموضع الأنور لبيت الله المقدس.

وكانت السكينة المذكورة تبدو أحيانا على هيئة أسد أو على هيئة جمل، وكانت تجيب على أسئلة إبراهيم ـ عليه السلام . سارع حضرة الخليل بمعاونة ابنه إسمّاعيل تحت إرشاد السكينة التى بينت لهما حجم البيت ومكانه أسرعا فى حفر وتعميق أسس البيت المعظم.

وعندما عزم إبراهيم ـ عليه السلام ـ على الذهاب[2] إلى مكة المكرمة متتبعاً «السكينة رجته زوجته المحترمة السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ ألا يقابل السيدة هاجر ولا يكلمها، وعندما اهتدى إلى الموقع الأنور للبيت الأعظم الذى دلته عليه السكينة وعرفه، ذهب إلى دار ابنه السعيدة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ودق الباب فردت زوجة ابنه قائلة ماذا تريد؟ سألها عن سيدنا إسماعيل وأمه الرحيمة هاجر، وعرف منها بخروج إسماعيل إلى الصحراء للصيد كما علم بوفاة[3] هاجر

(!) يقول الإمام الكلبى إن هذه الريح كانت سحابة على شكل رأس إنسان.

(٢) هذه هى المرة الثالثة التى يذهب فيها حضرة الخليل إلى مكة.

(٣) كانت السيدة هاجر عند وفاتها فى الستين من عمرها، وكان ابنها إسماعيل قد بلغ العشرين من العمر.

ودفنها فى المكان المسمى[1] حجر إسماعيل، رجع إلى الحرم الشريف، واغتسل بماء زمزم ثم انتحى وجلس ينتظر قدوم ابنه.

وعندما رجع إسماعيل ـ عليه السلام ـ من الصيد وجد والده فى انتظاره عند بئر زمزم فصافحه وقبَّل يده، ثم أحضر مقداراً من الحليب واللحم المطبوخ واستضافه. وبعد أن أكل سيدنا إبراهيم الطعام الذى أعده ابنه إسماعيل قال له: «يا بنى إن الله قد أمرنى برفع قواعد بيته ـ عز وجل ـ فوق تلك الربوة الحمراء، فساعدنى فى إنجاز هذا الأمر وأفهمه أنه مكلف بوضع أساس بناء كعبة الله، وشرع بسم الله فى تعميق الحفرة بعون إسماعيل عليه السلام.

وفى قول آخر إنه عندما خرج سيدنا الخليل من بيته السعيد كلف الله «السكينة» سالفة الذكر وطائراً سريع الطيران وملكا ليرشدوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى موضع الكعبة المباركة، وعندما وصلوا إلى مكة المشرفة وقفت «السكينة» المذكورة فوق ساحة البيت المعظم وقالت لإبراهيم: «إن كعبة الله التى أمرت بتأسيسها وبنائها فى المكان الذى يحيط به ظلى». وهكذا رأى مكان بيت الله المقدس وعينه.

وكان مع حضرة إبراهيم سبع من الملائكة يعاونون فى ذلك الوقت. وكان الموضع الذى أرته إياه «السكينة» ذا أربعة أركان غير متساوى الأضلاع. وبعد مدة قد أطلقوا على أحد أركانه الركن الشرقى يعنى الحجر الأسود وعلى الركن الآخر الركن العراقى وعلى الركن الثالث الركن الشامى وعلى الركن الرابع الركن اليمانى.

إخطار:

إن الموضع الحقيقى لبيت الله كان ذا ثلاثة أركان وذلك إيماء إلى أن فى قلوب الأنبياء العظام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ثلاث خواطر وهى «إلهية وملكية ونفسية» وأن قلوبهم لن تفتح لأية خاطرة أخرى غيرها ثم شاءت الإرادة الإلهية

(١) يوجد داخل الحطيم الكريم وتحت الميزاب الذهبى ويشار إلى مكانه بعلامة وهى حجر أخضر.

أن يشيد بناؤه أربعة أركان وكان هذا إشارة إلى إمكان وجود أربع خواطر فى قلوب المؤمنين.

(روح البيان).

والطرف الشرقى لكعبة الله فيما بين ركنى الحجر الأسود والعراقى يميل قليلا إلى الشمال وفى هذه الجهة من بيت الله مقام إبراهيم، بئر زمزم، باب بنى شيبة.

وجهة الشمال ما بين الركن العراقى والركن الشامى تميل بعض الشئ ناحية الغرب ويقع حجر إسماعيل والميزاب الذهبى والمقام الحنفى الكائن محل دار الندوة فى هذا الجانب من البيت الأعظم، والجانب الغربى ما بين الركن الشامى والركن اليمانى يميل قليلا ناحية الجنوب ويقع فى هذا الجانب من بيت الله عز وجل الباب المسدود الغربى، وباب العمرة باب الوداع، وباب إبراهيم.

وجهة الجنوب ما بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود، وهى مائلة بعض الشىء ناحية الشرق ويوجد فى هذه الجهة من الكعبة المعظمة باب الصفا وكل الأبواب الجنوبية وبناء على ما يتضح من الشكل التالى للساحة المطهرة للكعبة المعظمة نجد أن طول المسافة بين ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقى ٣١ ذراعا ومن الركن الشامى إلى الركن اليمانى ٣٢ ذراعا والطول من الركن العراقى إلى الركن الشامى ٢٢ ذراعا ومن الركن اليمانى إلى ركن حجر الأسود ٢٠ ذراعا.

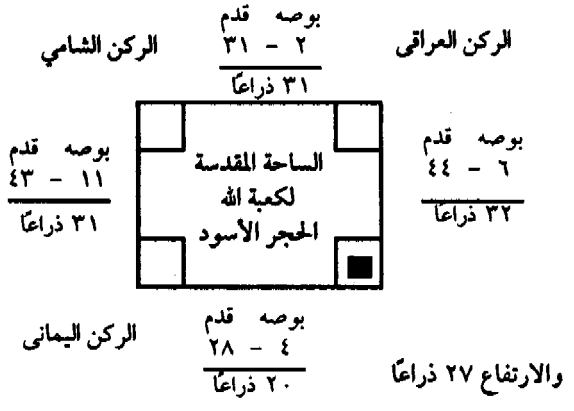

مساحة هذا الشكل قد قيست بالمقياس المسمى «ذراع اليد» والمقياس المذكور يساوى المسافة ما بين مرفق الرجل إلى طرف الإصبع الأوسط فى يده.

وبما أن كل الذين قاموا بقياس المسجد الحرام قد استخدم كل واحد منهم ذراعه الشخصى لذا لم يوافق مقياس أحدهم الآخر.

مثلا: إن صاحب تشويق الساجد وجد أن ارتفاع «الكعبة المعظمة» الأعلى ٢٧ ذراعا وستة أصابع بينما وجد الإمام النووى ارتفاعها ٢٧ ذراعا فقط كما ضع فى كتاب الإيضاح ووافق مؤلف تاريخ خميس على مقياس الإمام السابق، لأن ذراع اليد يختلف من شخص إلى آخر. ولا يعد مقياسا متفقًا عليه.

يقول مؤلف هذا الكتاب إننى قد اختبرت كثيرا من الأذرع وقمتها فوجدتها مساوية لسبع عشرة بوصة إنجليزية واعتبرت هذا هو المقياس المتوسط للذراع وحولت متوسط طول الأذرع إلى القدم الإنجليزى وقست به الأماكن المقدسة، وبما أن المقياس الذى يطلق عليه «ذراع اليد» لا يشبه الذراع الحديدى ولا الذراع العادى، يجد الإنسان صعوبة فى تعيين المقياس الصحيح ولكن القدم الإنجليزى يمكن تحويله بسهولة لأى نوع من أنواع الأذرع وبهذا التقدير يقتضى أن يكون الطول الشرقى للكعبة المعظمة الذي يظهر في الشكل المذكور أعلاه وهو ٤٤ قدما و ٦ بوصات والطول الغربى أيضا ٤٣ قدما ١١ بوصة وعرض الجانب الشمالى ٣١ قدما وبوصتان وعرض الجانب الجنوبى ٢٨ قدما و ٤ بوصات.

ابتدأ نبينا حضرة الخليل «عليه الصلاة والسلام» فى حفر المكان الذى بينته له السكينة بمقتضى الإرادة الإلهية الحكيمة، ونقل الأحجار من جبال لبنان، وطور سينا، طور زتيا، والجودى، وحراء[1] بمساعدة الملائكة وبعد أن انتزع صخورا ضخمة لا يستطيع ثلاثون أو أربعون رجلا أن يرفعوها من مكانها إلى أن وصلوا إلى الأساس القديم الذى وضعه سيدنا آدم أبو البشر. وأخذ فى بناء الجدران جاعلاً مبدأ الطواف المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود الذى أتى به جبريل الأمين من جبل أبى قبيس ـ ومازال فى مكانه إلى الآن.

(!) قد وضع أبو البشر اساس البيت الحرام بالحجارة من نفس الجبال المذكورة.

وكان الحجر الأسود قد أودع أمانة فوق جبل أبى قبيس فى واقعة طوفان نوح.

وقد أخذه جبريل الأمين من الجبل المذكور وأحضره إلى سيدنا إبراهيم الذى رأى أن يجعله بتفكيره الصائب والرفيع علامة بداية الطواف فوضعه فى جدار الركن الشرقى للكعبة المعظمة.

ومازال إلى الآن فى المسجد الذي فوق قمة جبل أبى قبيس حجر أمام المحراب يزوره الناس على أنه كان الموضع الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى وقت طوفان نوح.

وفى قول آخر إن إسماعيل ـ عليه السلام ـ وجد حجرا رآه مناسبا ليكون علامة بداية الطواف بناء على رأى والده ومشورته ولكن الحجر لم يعجب سيدنا إبراهيم وذهب للبحث عن حجر آخر وفى هذه اللحظة نطق جبل أبو قبيس وقال: «يا إبراهيم لدى حجر محفوظ أمانة لك وأظنه الحجر الذى تبحث عنه ليكون بداية الطواف ولابد أنه الأمانة الكبرى المحفوظة عندى» وأخذ حضرة الخليل عليه صلاة الله الجليل، الحجر المذكور بنفسه ووضعه فى المكان الذى أعده.

قطعة:

الخليل الجليل الذى أرسله الحق

إن شمل الجماد برحمة فنطق

ولا ريب أن بيت الله

إذا تكلم حجر الركن بالكلام فاه

ونار الشوق أبو قبيس تحرق

أمام جمال الكعبة فذاك أليق

نظم

تقـوم الـدار بحجـر فـوق حجـر
وبـذاك اللـون أو بلـون آخـر
محل برعم تفتح فـى روضـة الخليل
أنـار بـه للخليـل الجليـل
ونـادى أبـو قبيـس فـى العـلاء
قائـلا سـمعت منـه ذاك النـداء
إن طوفـان هـذه الدنيـا مسـح
وهذا البيت للسماء تفتـح
ذلك البيـت وجبريـل الـذى أنزلـه
إن لـدى حجـراً وديعـة أحملـه
وبيعـتى حـتى تسلموهـا
وفـى موضـع شـئتم ضعوهـا

(فتوح الحرمين).

ارتفعت جدران البناء المبارك للكعبة المعظمة، و وعندما رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه فى حاجة إلى استخدام إسقالة عثر على حجر واستخدمه في مكان الإسقالة وهذا الحجر الشريف هو الحجر القيم الذى غسلت فوقه رعلة بنت عمرو بن جرهم حماها إبراهيم عليه السلام.

ويعرف هذا الحجر المبارك في ساحة المسجد الحرام باسم مقام إبراهيم الآن وقد استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إسقالة عند بناء البيت وارتفعت جدران

البناء السعيد لبيت الله وكان المقام الشريف المذكور يرتفع مع ارتفاع البناء وعندما ينزل إبراهيم إلى الأرض كان يعود إلى هيئته الأصلية

وقد ذكر شكل وصورة الأبنية التى أقيمت فوق المقام الشريف المذكور فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

وعندما وصل ارتفاع جدران الأبنية الشريفة لبيت العزة إلى تسعة أذرع ترك حضرة الخليل سقفه مفتوحا وألحق جانب باب المعلا إلى أرض المطاف وصنع سقفا من الخشب متصلا بالبيت والمسمى بحظيرة أغنام إسماعيل. وحفر حفرة كبيرة العمق ثلاثة أذرع فى الأرض التى تقع جهة يمين الداخل فى بيت الله، لكى يوضع بها الهدايا التى ترسل من الأطراف والأكناف وبذلك أتم بناء كعبة الله المعظمة سنة ٣٥٧٤ ق.م.

والمكان المسمى حظيرة أغنام إسماعيل يطلق عليه الآن اسم «حجر إسماعيل» وهذا المكان الشريف هو مدفن السيدة هاجر.

ويروى المؤرخون الكرام أن البقعة السعيدة للكعبة المعظمة ظل بابها دون مصراع ولما مر بها الملك الحميرى قام بأداء الحج والزيارة ولما رأى باب الكعبة بدون مصراع ركب بابا خشبيا عليه مفتاحه كما علق فوق البناء المقدس كسوة مزينة، كما جاء بيانه فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة.

وفى أثناء قيام سيدنا إبراهيم ـ عليه التحية والتكريم ـ بحفر أساس الكعبة المعظمة رأى حجرا بين أحجار الأساس القديم وكان مكتوبا عليه العبارة البديعة التالية «أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من أسمائى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته». وترجمة هذه الفقرة المترجمة للعربية باللغة التركية» أنا الله صاحب مكة خلقت الرحم وجعلته اسما من أسمائى وهو الرحمن. وكل من يتصف بهذه الصفة ويعمل بمقتضاها أجزيه جزاء حسنا، وكل من يخالفها أعاقبه أشد العقاب».

ويروى «الإمام الواقدى» أن الحجر المذكور حجر أخضر اللون وكتب عليه السطور الآتية ونقلها على أنها من جملة تدقيقاته.

السطور التى نقلها إلينا الإمام الواقدى هى:

١ـ **السطر الأول:** «لا إله إلا أنا رب البيت مغلبها وهى قرار ومرخيها وهى قفار».

٢ـ **السطر الثانى:** «لا إله إلا أنا رب البيت مهلك الطغاة ومفقر الزناة ومخزى تارك الصلاة».

٣ـ **السطر الثالث:** «أنا الله لا إله إلا أنا رازق من لا حيلة له حتى يعلم من له حيلة أن لا حيلة له».

وبعد أن فرغ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بناء كعبة الله المقدسة رفع يديه وابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ متجهين إلى أبواب رحمة الله راجين منه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون ما قاموا به رهن قبول معطى العطايا.

وبعد هذا نزل جبريل ـ عليه السلام ـ باسطًا أجنحته وقال «إن عملكم قد حاز القبول عند الله» ثم تقدمهما وعلمهما مناسك الحج.

وأدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ مقتديًا بجبريل ـ عليهما السلام ـ فريضة الحج، وثبت جميع شروط الحج ومناسكه فى خزينة حافظة ثم ودع ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ عازما على العودة وصعد فوق قمة جبل الرحمة ونظر مرة إلى جهة بلاد الشام وأخرى إلى ناحية مكة المعظمة السعيدة وتذكر جودة جو الشام ولطافة هوائها وعذوبة مائها ومر بخاطره حرارة الحجاز الشديدة المتعبة فتأسف على بقاء ابنه فى هذا المكان الذى تحيط به الحجارة ودعا له طويلا. ثم ضغط برجليه على المهماز قاصدا ناحية الشام. وفى هذه الفترة صدرت الإرادة الإلهية «أذن فى الناس بالحج» وهكذا أمر بدعوة الناس إلى الحج فأخرج رجليه من المهماز وقال مخاطبا ربه: «يا رَبِّ قد فرضت طواف البيت على عبيدك وأمرت عبدك المطيع هذا بدعوة هؤلاء جميعا لينالوا من هذه المائدة العامة نصيبهم ولكننى كيف

أستطيع أن أدعو هؤلاء جميعا حتى يؤدوا مناسك الحج والطواف آتين من الشرق والغرب» فتلقى هذا الجواب ذا الحكمة: «يا إبراهيم؟ فإذا ما دعوتهم بصيحة عالية فإننا نوصل صوتك إلى آذان الخلائق كلهم».

حينئذ اتجه للجهة اليمنى من باب الكعبة السعيدة حيث كان قد ترك المقام الشريف وصعد فوق الحجر حتى صار مساويًا للجوهر وسد أذنه بأصابعه وصاح متجها إلى الشرق والغرب: «يا عباد الله إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمركم أن تحجوا إلى الكعبة الشريفة التى أمرنى ببنائها وأن تطوفوا حولها، فأسرعوا إلى إيفاء هذا الغرض تكونوا قد استجبتم للدعوة الإلهية التى تستوجب المغفرة.

وبهذا القول البليغ ذاع الأمر الإلهى وأعلنه على العالم وقد سمع نداء الخليل سواء من كان حاضرًا فى وقتها أو من كانوا فى أصلاب آبائهم أو فى أرحام أمهاتهم والذين قدر حجهم فى العالم الأزلى من الأمة واستجابوا قائلين «لبيك».

رواية: قد سر حضرة الخليل من استجابة الأمة المحمدية قائلين «لبيك» وقال «يا رَبِّ إننى أريد أن أستضيف هؤلاء» وبالأمر الإلهى أخذ قبضة من تراب الأرض ونثره إلى الجهات الأربعة وفى الأماكن التى أصابها التراب المنثور ظهر الملح وإن هذا المعدن سيكون وليمة مقدمة إلى أهل الأرض إلى يوم القيامة بطلب من إبراهيم وباستجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعائه وحيا.

وإذا قيل ألم يكن قبل ذلك ملح؟ يجاب عليه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ علق ظهور المعادن لسبب ما وكان نثر إبراهيم ـ عليه السلام ـ التراب سببا فى ظهور الملح. **«محاضرة الأوائل»**.

كان أول من أحس بصيحة دعوة إبراهيم أهل اليمن وعند البعض أن جرهم كان أو أول من سمع الدعوة ومع ذلك فجرهم من أهل اليمن.

نظم

ما العمل إنه جاءه على أنه التواب
وجاءه الأمر «أذن فى الناس»
ما لم يكن بيت القلب من طين وماء
فلتكن الضجة منها حتى تسمع أذن القلب
إن كل من كان فى الأصلاب والأرحام
سمع منه ذبذبة الصيت
إن كل سامع معجل
جعل من رأسه قدما للعبودية
إن الخلق منذ القدم فى هذه المحبة
وبلا سبب لم يسلكوا هذا الطريق

(فتوح الحرمين).

بناء على ما يروى أن عدد مرات حج شخص يتوقف على عدد إجابته لصيحة خليل الرحمن وكان الذى سيحج مرة واحدة قال «لبيك» مرة واحدة والذى قدر حجه مرتين قال «لبيك» مرتين وهكذا.

إذا ما نظرنا إلى حج الأمة المحمدية اليمنية كل عام يدل على أنهم فاقوا جميع المسلمين فى البلاد الأخرى فى التلبية. قال بعض المؤرخين إن إبراهيم عليه السلام عندما أراد أن يدعو الناس للحج لم يَدْعُهُم من فوق المقام الشريف بل صعد فوق جبل أبى قبيس أو جبل «ثبير» ونفذ أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن القول الأول هو المصدق عند الجمهور ومرجح على الأقوال الأخرى.

وبهذه الصورة أتم سيدنا إبراهيم مهمته ونزل من فوق المقام الشريف نزل جبريل ـ عليه السلام ـ وأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه إلى جبل الصفا ومن

هناك إلى جبل المروة وأراهما حدود المسجد الحرام وأوصى بأن يوضع حجر كعلامة فارقة في الأماكن التى عينها. ووضع خليل الرحمن[1] العلامات فى الأماكن التى بينها الرسول الجليل. وفى السابع من شهر ذى الحجة تلا إبراهيم - عليه السلام - خطبة بليغة مقابل البيت الشريف. والآن تلقى الخطبة فى السابع من ذى الحجة من فوق منبر المسجد الحرام تشرح فيها بالتفصيل مناسك الحج والمسائل الخاصة بالحج.

وفى أثناء الخطبة كان إسماعيل - عليه السلام - يستمع إلى خطبة أبيه فى خضوع وخشوع وصدق وأدب جم.

وفى اليوم الثانى أحرما من الحرم الشريف بنية الحج وسارا إلى منى ملبين ومهللين، وقضيا ليلهما فى الموقع الذى يوجد فيه الآن مسجد «الخيف» وكلما يحين وقت الصلاة كانا يؤديان الفرائض الخمسة فى أوقاتها وأطلق على هذا اليوم يوم «التروية» والحكمة من إطلاق هذا الاسم أنه قد كان انتظاره قبل وقعة ذبح إسماعيل بيومين مترويا كما سبق أن بيناه.

وبعد ذلك بيوم كان اليوم التاسع من ذى الحجة وبعد أن أديا صلاة الصبح وانتشر ضوء الشمس فوق جبل «ثبير» ذهبا إلى وادى الفيوضات «عرفات» ووقفا فى المكان الذى يسمى الآن مسجد «نمرة».

وأحد أسماء هذا المسجد «مسجد إبراهيم» ويؤدى الحجاج فرضى الظهر والعصر جمع تقديم.

وفى اليوم المذكور صحبهما جبريل الأمين ليريهما الجبال التى فى الوادى وليعرفهما مناسك الحج وفعلاً بين لهما الحدود المطهرة والجبلين اللذين يقطعان حدود «عرفات».

وبعد ذلك دخل إبراهيم - عليه السلام - فى مكان يطلق عليه الآن مسجد «الصخرة»، وأجلس ابنه إسماعيل - عليه السلام - فى مكان ما، وتمتم ببعض الكلمات وهو واقف على قدميه وصلى هو وابنه صلاتى الظهر والعصر متصلتين جمعا، وأخذا يذكران الله ويسبحانه وعادا بعد الغروب إلى وادى «المزدلفة».

(!) قد بين فى بحث الميقات كيفية وضع هذه العلامات وإلى أى وقت ظلت معروفة.

ويروى أن المكان الذى جلس فيه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان عاليا وغير مستو بين الصبخور، وإنه الآن المكان الذى وقف فيه رئيس قافلة الأنبياء على نبينا وعليهم التحايا، والمحل الذى تمتم فيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكلمات وهو المحل الذى يلقى فيه الآن قضاة مكة خطبة عرفات.

وقد أدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو وابنه صلاتى المغرب والعشاء متصلتين جمعًا جمع تأخير، ثم أخذا يجمعان الحصى كل واحد منهما (٤٩) حصاة لرمى الجمرات وقضيا ليلتهما تلك فى المزدلفة، وبعد أن صليا صلاة الصبح نهضا وواصلا سيرهما نحو مكان يسمى وادى الـمُحَسِّر[١] وسارا فى هذا الوادى قدر خمسمائة ذراع سيرًا سريعًا.

وبعد ذلك أعدّا ذبيحة وذبحاها فى مكان يسمى مسجد «منحر»، وهو مسجد لطيف فى ناحية مسجد «الخيف» من منى.

وفى اليوم الثالث من وصولهم إلى «منى» رميا الجمرات التى جمعاها من المزدلفة بعد الزوال حسب الأسس الشرعية ثم توجها إلى مكة المكرمة بعد أن استراحا فترة فى وادى «محصب»[٢] وصليا فيه صلاة الظهر ثم عادا إلى مكة المكرمة.

وأخيرا عاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الشام وفى العام التالى أدى مع زوجته سارة وابنه إسحاق ـ عليهم السلام ـ فريضة الحج الشريف.

---

(١) المحسر اسم واد بين «منى والمزدلفة» وطوله خمسة وأربعون وخمسمائة ذراع. يقال إن أصحاب الفيل قد تعبوا فى هذا المكان وأصبحوا غير قادرين على السير، لذا سمى الوادى بهذا الاسم وبما أن السير فى هذا الوادى ببطء سنة نبوية فإن الحجاج يسيرون فيه بتؤدة وبطء ولا يجوز وقوف وقفة عرفات فى هذا الوادى أو فى وادى عرنة.

(٢) ويقال لهذا المكان أبطح أيضا وهو مكان ذو حجارة فى مدخل مكة المكرمة وبالقرب من مقبرة حجون ومن السنة السنية أن يقف فيه الحجاج الكرام ويصلوا الظهر والعصر والمغرب والعشاء وأن يقضوا ليلهم فيه ثم يدخلون مكة المكرمة.

وفى هذه الرحلة نالت سارة الرعاية التامة والاحترام الفائق من إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكلما تذكرت ما صدر منها نحو إسماعيل ـ عليه السلام ـ فيما مضى خجلت وندمت، إلى أن توفيت أظهرت نحو إسماعيل ـ عليه السلام ـ الود والمحبة.

واستمر حضرة الخليل طول حياته يذهب إلى مكة المكرمة ويعود مستصحبا ابنه إسحاق ـ عليه السلام ـ وكذلك فعل ابنه ـ إسحاق ـ بعد وفاة والده[1] إذ كان يذهب كل عام إلى أرض الحجاز العطرة ويتلاقى مع أخيه وهكذا يشيد بنيان الحب والمودة بينهما ويوالى فى المصافاة.

قطعة

كـــان فـــى الرســـالـــة أخـــــــوان
كـلاهمـــا نهـج الخليـل منتهجـــان
أولهمـــا فـى الشـام بـــدر يتألـــق
والثـانـى فـى الحجـاز شمـس تشـــرق
أولهما كـان فى آيـة حسـن سـارة يرغـب
والثانـى معجـزة هجـرة هاجـر يطـــلب
أحدهمـــا جـــده أمجـد الأطهـــار
والآخـــر مـــن الأســباط المختـــار
ذكرهمـــا فـــى لســـانـــنا
عـلـى الـــدوام فـــى صلواتنـــا

وقد واظب المتوجون بتاج النبوة بعد إسحاق ـ عليه السلام ـ وكل من آمن بنبوتهم ورسالتهم على الحج الشريف حتى سيدنا المسيح كانوا عندما يصلون إلى حدود المسجد الحرام ينزلون من فوق دوابهم تعظيما له ويسيرون حفاة.

(١) وقد توفى إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل الهجرة النبوية بـ ٢٧١٨ سنة.

لائحة فى ذكر كيف قدمت وتشكلت حكومة العمالقة والجراهمة فى مكة المكرمة.

لإسماعيل ـ عليه السلام ـ من رعلة ابنة مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن حسن بن نبت بن جرهم بن قحطان اثنا عشر ابنا كانوا زينة الحياة الدنيا.

ويروى فحول المؤرخين أن أسماءهم مجهولة باستثناء نابت وقيدار وقطورا، وكل طوائف العرب صحيحة النسب هم من شجرة سلالة قيدار ونابت.

ورغم أن ابن هشام عدد بالترتيب أسماء أبناء إسماعيل فى السيرة التى كتبها، على أنهم:

ثابت أو نابت، قيدار، ذيل، منشى، مسمع، ماش، دماء، طيما، انطور، أزر، تيش، قبذها، فإن صاحب مفتاح العبر أيضا، قد صححها على أن تكون: «نابت أو نبت، قيدرا، أدييل، بسام، مشمع، ذومان، ما، حراه، تيما، بطور، ناقش، قدما».

وكلتا الروايتين خاليتان من جلية الصدق والقبول.

كما اختلف المؤرخون أيضا فى تعريف وبيان قحطان أبى جرهم فقد اعتقد بعض المؤرخين أن قحطان كان فى الأصل ملكا.

وقد خلعت منه صفة الملائكة بسبب ما اقترفه من ذنوب وأخطاء وأهبط به على وجه الأرض على شكل إنسان!!

وعندما هبط إليها تزوج واحدة من كريمات العمالقة فأنجب منها جرهم ـ سالف الذكر ـ لكن خطأ من يعتقدون صحة هذه الرواية بيِّنٌ واضح.

فإن قحطان الذى يقال إنه ملك هو عابر بن شالح من أبناء نوح ـ عليه السلام ـ وعند حدوث تبلبل ألسنة الناس ذهب إلى أرض اليمن حيث أصبح حاكما على من قبلوا الدخول فى طاعته أصبح أول حاكم على اليمن.

وعندما بلغ إسماعيل ـ عليه السلام ـ التاسعة والثمانين من عمره كان والده قد توفى.

كما توفى هو أيضا وترك الحياة الدنيا بعد مرور واحد وأربعين عاما على وفاة والده[1].

وأسندت إدارة حكومة مكة الجليلة إلى قيدار ونابت وقطورا ورغم أن نابت بن إسماعيل ـ عليه سلام الله الجليل ـ قد نجح فى حسن إدارة حكومة مكة المكرمة التى ورثها بعد وفاة والده، فإنه عندما توفى، تولى الحكومة الجليلة لبلدة الله مضاض بن عمرو الجرهمى والد رعلة، وصهر إسماعيل ـ عليه السلام ـ واشترط عليه أن يضم إلى كنفه أولاد نابت المتوفى وهكذا تولى رياسة قبيلة وحكومة مكة برضا القبائل الكبيرة وصعد فوق جبل «قعيقعان» الواقع ناحية شعب أبى طالب من جيل أبى قبيس، والتلال الواقعة حول هذا الجبل، ونصب الخيام هناك حيث أقام وأخذ سميدع بن هوش رئيس قبيلة قطورا[2] جماعة العمالقة التى كانت تحت إمرته ثم توجه بهم إلى أسفل مكة وبعد فترة قصيرة صعد بهم فوق قمم جبال أجياد[3] وبهذا تكونت داخل مكة المعظمة حكومتان صغيرتان وتم الاتفاق ـ بعد فترة ـ على أن يقوم مضاض بأخذ عشر البضائع التى تأتى من ناحيتى الشرق والشام ويأخذ سميدع رسوم البضائع التى ترد من ناحيتى الغرب واليمن بشرط ألا يتدخل أحدهما فى شئون الآخر.

وفيما بعد زاد عدد جماعة مضاض بن عمرو وعدد أتباع وأشياع سميدع بن هوش، وبمقتضى الحكمة القائلة «إن وجود حكومتين فى بلدة واحدة مضر»، نشب بين الجراهمة وقوم قطورا نوع من النزاع حول الملك.

(١) حدود الجبال المحاذية للحجر الأسود المقام الشريف لإبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت مقر قبيلة مضاض بن عمرو أيضا.

(٢) كان قطورا والجراهمة أولاد عمومة وقد هاجروا مع أفراد قبيلتهم من بلاد اليمن إلى الحجاز. وفى أثناء الهجرة اختار الجراهمة مضاض بن عمرو رئيسا لهم كما اختار أفراد قبيلة قطورا سميدع رئيسا لهم ولما كانت مكة المكرمة فى تلك الأوقات مكانا كثير الماء وفير الأشجار اختاروا النزول بجوارها وسكنت الجراهمة فوق جبل قعيقعان فى أعلى مكة كما سكنت أفراد قطورا جبل جياد حذاء جبل قعيقعان.

(٣) الجهات الواقعة فى ناحية جدة من البيت المحترم كانت ضمن مقر الجماعة التى تحت رياسة سميدع بن هوش.

وبظهور بعض الأشرار من الجانبين كان يقوم نزاع من حين إلى الآخر بينهما. واستمرت هذه الحالة غير المستقرة فترة قصيرة ثم اتحد الجراهمة وهزموا جماعة قطورا وقتل سميدع، لذا عقد مضاض صلحا مع من بقى حيا من قوم قطورا الذين طلبوا الصلح وهكذا أصبح مضاض الحاكم الأوحد لمكة المفخمة.

وحتى هذه الواقعة ـ أى تاريخ استقلال مضاض بن عمرو الجرهمى بالحكم كانت حجابة الكعبة وسدانتها لبنى إسماعيل وكانت إدارة حكم البلدة المشرفة ـ مكة المكرمة لرؤساء الجراهمة وعقب وفاة نابت، ومقتل سميدع بن هوش استولى الجراهمة على سدانة بيت الله أيضاً. ورأينا إدراج هذه الأبيات الصريحة فيما يتعلق بهذا الأمر.

نظم

وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بتلك البيت والخير ظاهر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العواصر

والأبيات المذكورة من قصيدة طويلة نظمها عمرو بن الحارث الجرهمى وتحكى طرد وإخراج الجراهمة من مكة المعظمة وانتقال حكومة مكة الجليلة إلى بنى خزاعة.

وعندما اختلت نظم إدارة حكومة جرهم وقطورا أخذ مضاض بن عمرو أبناء قبيلته المسلحين ونزل من جبل قعيقعان، كما اصطحب سميدع أيضا قومه المقاتلين ونزل من جبل أجياد، عازما ملاقاة مضاض الجرهمى والتقى الجمعان فى المكان المسمى «فاضح».

وكانت سيوف وسهام وحراب الجراهمة تقعقع وتصدر صوتا، ولهذا سمى الجبل الذى صعدوا عليه باسم «قعيقعان».

كما أن جند سميدع هبطوا من جبل «أجياد» وهم متفرقون ثم أطلقوا على الجبل المذكور اسم أجياد.

وقد التحم جند الطرفين فى القتال فى موقع «فاضح» سالف الذكر وفى النهاية قتل سميدع، وتعرض أفراد عشيرة «قطورا» للإذلال والإهانة كما أنهم لم يستطيعوا حماية رئيسهم لذلك سمى ذلك المكان «فضيح» لأنهم فضحوا بين العرب.

وعندما تشتت شمل جماعة «قطورا» أرسلوا رجلاً إلى مضاض بن عمرو وطلبوا الصلح.

فقرر أن ينتخب رجالاً ذوى ثقة من الجانبين ليحددوا شروط الصلح وأرسلوا إلى مكان يسمى «مطابخ»[1].

وبعد أن تداول هؤلاء المبعوثون شروط الصلح وتشاوروا لمدة طويلة، تقرر إسناد أمر إدارة الطرفين إلى عمرو بن جرهم.

فرح عمرو الجرهمى بهذا القرار، واستدعى جند الطرفين إلى الوادى المسمى «مطابخ» وأقام لهم جميعا مأدبة كبيرة.

وأول حرب وقعت فى المدينة المقدسة مكة الفخمة هى حرب مضاض بن عمرو وأول من قتل فيها هو رأس عشيرة قطورا.

وبالتدريج قوى نظام الحكومة المستقلة التى تشكلت بحكمة مضاض بن عمرو وزادت مكانتها. وتكاثر أبناء وأحفاد قبائل الجراهمة التى كانت ترعى بنى إسماعيل وتحترمهم، لهذا اكتسبت حكومة مكة المكرمة قوة واسعة فى وقت قصير، وأصبح رؤساؤها من الملوك أصحاب الصولات فى ذلك العصر.

ورغم هذا لم تتسع أرض مكة الله المقدسة بالقدر الذى يليق لاستيعاب أهلها، ولهذا اضطرت القبائل للجلاء عن موطنها وانتشرت جماعات فى أطراف الممالك وبسبب صلة النسب، أظهر الجراهمة الرعاية والاحترام إلى أحفاد بنى إسماعيل،

(١) مطابخ: مكان واسع فى أعلى مكة المعظمة وسبب تسميتها أنه تم فى هذا المكان طهى طعام المأدبة التى أقامها مضاض بن عمرو الجرهمى للجند.

ولهذا لم يرسلو جندا إلى أى مكان قط إلا وحققوا النصر والظفر ونالوا القوة والعظمة حتى طردوا عدوهم القديم، طائفة العمالقة الباغية وأخرجوهم من البلدان، والطائفة المذكورة من الأمم السامية، ومن أحفاد «عمليق» بن لاو بن آد بن سام بن نوح ـ عليه السلام، وعندما تفرقت الألسنة نزلوا بساحة صنعاء اليمن، ثم رحلوا بعد ذلك إلى منطقة الحرمين الشريفين وانتصروا على كل من أظهر لهم العداوة وأهلكوهم وقد أقامت جماعة منهم فى بوادى الشام وعندما عصوا الله أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى ويوشع ـ عليهما السلام ـ بقتالهم.

ورغم أن الملوك الجبابرة الذين استولوا على يثرب وخيبر وتلك النواحى وحكموها، كذلك فراعنة مصر كانوا من هذه الطائفة، إلا أن بنى إسرائيل قضوا عليهم جميعا وحكموا البلاد التى كانوا يحكمونها حتى قبيل مجئ الأوس والخزرج. وكان ديانة طائفة العماليق عبادة الأحجار والأشجار.

ورغم أن الجراهمة طردوا العمالقة الطغاة الغدارين وأخرجوهم من أرض الحجاز الطاهرة إلا أنهم انقسموا إلى قبائل متعددة وحكموا كل أرجاء مكة المكرمة لفترات طويلة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن العمالقة كانوا من الأقوام الجبارة ويتصفون بشجاعة فطرية هذه الشجاعة التي غطت شهرتها الآفاق.

ولكنهم لما بدأوا فى الاستخفاف بحرمة الحرم الشريف الواجب التعظيم، وقصروا في رعاية بيت الله وفسقوا فيه ابتلاهم الله باليأس والحرمان فسلط عليهم الجراهمة الذين كانوا يستصغرونهم ويحقرونهم فغلبهم الجراهمة وأخرجوهم من منطقة الحجاز.

تفاصيل هذا البحث موجودة فى الصورة الثانية من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

انتقال حكومة مكة إلى يد بنى خزاعة

بعد أن نجحت قبائل الجراهمة الباغية فى طرد طائفة العمالقة من الأراضى الحجازية المقدسة، نكلوا بهم واختار الجند مضاض بن عمرو أميراً لأنفسهم.

وبعد فترة من مقتل سميدع اتخذت عشيرة قطورا مضاض بن عمرو رئيسا لها بعد الانتصار عليها وزادت قوتهم وقاموا ببدع لا تليق بالمكانة الرفيعة لكعبة الله واتسموا بسوء الخلق وقاموا بما يستدعى غضب الله الجليل عليهم وظهرت آثار البغض والشقاوة والطغيان بانقطاع ماء زمزم الذى غار تماما.

واستخفوا بحرمة كعبة الله الشريفة، واستحلوا المحارم وما نهى عنه، وجرأوا على الاستيلاء على الأموال والهدايا التى يرسلها الملوك والحكام إلى البيت الشريف.

أحلوا الحرام وأخذوا يظلمون الناس ويعتدون عليهم بل تجاوزوا ذلك بأن منعوا الناس من زيارة مكة المعظمة فى خِسَّة ودناءة.

وكان مضاض بن عمرو رئيس هؤلاء المشئومين من الجراهمة قد جمعهم ذات يوم وخطب فيهم واعظا فقال: «يا طائفة الجراهمة اجتنبوا المظالم والمعاصى فى جوار بيت الله الشريف، وقوموا بالأفعال الخيرة تنالوا القبول والرضا عند صاحب الكبرياء. فقد سلطكم الله القادر على العمالقة البغاة، عندما انتهكوا حرمة الحرم الشريف وقد تم طرد هؤلاء المشئومين من دائرة الفيض الإلهى ورأيتم كيف حرموا من دخول دائرة الحرم الشريف وسمعتم ما ابتلى به قوم هود وصالح وشعيب ـ عليهم السلام ـ من النوازل وأنواع البلاء.

وإذا تمسكتم بما أنتم عليه من رذائل الأخلاق فليس ببعيد وجود طائفة أقوى منكم فتطردكم وتخرجكم ـ مثل العمالقة ـ من حدود أرض الحجاز الميمونة «فأجابوه بقول يملأه الغرور[1] وهل يوجد بين العرب قوم أشجع وأجرأ منا، وهل

(١) اسم الشقى الجرهمى الذى هذا القول لمضاض بن عمرو هو مجدع.

هناك من لديهم الرجال الأقوياء والأسلحة البتارة الأكثر والأكمل منا؟ حتى تجرؤ على حربنا وقتالنا وطردنا وإخراجنا من أرض مكة؟ فلماذا تزعجنا بهموم الحرب والقتال واحتمال طردنا من ساحة مكة الله؟!

وعندما شعر مضاض بن عمرو أن إصلاح أحوال القبيلة الضالة أمر غير ممكن وأن هذا الحال مقدمة لداهية كبرى، قام ذات ليلة وأخذ الغزالين الذهب وكانا محفوظين فى خزينة بيت الله، وبقية الهدايا القيمة وألقى بها كلها فى بئر زمزم الذى قد نضب ماؤها، ثم سد البئر المذكور بالحجارة والتراب. ثم اصطحب أولاد وأحفاد إسماعيل وأسرع راحلاً إلى الأطراف حتى لا يتعرضوا للخذلان.

كما أوضحنا سابقاً فى الوجهة الخاصة أن الأشياء القيمة التى أخفاها مضاض بن عمرو فى بئر زمزم أخرجها عبد المطلب بن هاشم فيما بعد فى أثناء حفره للبئر وأجريت قرعة بالاتفاق مع الرأى العام وكانت نتيجتها أن الغزالين كانا من نصيب البيت الأعظم وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب.

وقد قام عبد المطلب بتعليق الغزالين على جانبى باب الكعبة فزين بهما الكعبة وباع بقية الأشياء أنفق ثمنها كله على بيت الله، وأظهر بهذا مدى إخلاصه وعبوديته.

عقب خروج مضاض بن عمرو مصطحبا أحفاد بنى إسماعيل إلى أطراف البلدان اشتد بغى وطغيان الجراهمة، وتصرفوا حسب هواهم.

وعندما أدرك بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقبائل غبشان الخزاعى، قلة عدد الجراهمة، استعانوا بالقبائل المجاورة المقيمة فى البوادى لكى يغيروا على الجراهمة وكونوا جمعا كبيرا وأعلنوا الحرب على الجراهمة.

وبعد معارك كثيرة، حاصروا مكة المعظمة وضيقوا الخناق على الجراهمة البغاة، وطردوهم خارج حدود كعبة الله المحفوفة بالهدى.

وأول من تبوأ مقعد الحكم فى مكة المكرمة بعد الجراهمة هو غبشان الخزاعى.

ومن بعده أصبح عمرو بن الحارث الغبشانى أميرا لمكة، وقد توارث أبناؤه وأحفاده الولاية الجليلة لحكومة مكة حتى مجئ خليل بن حبشة بن سلولة صهر قصى بن كلاب.

وكان بنو خزاعة من ساكنى بلدة مأرب الواقعة على بعد ثلاث مراحل من مدينة صنعاء اليمن المشهورة.

وعندما علموا أنها ستنهار نتيجة لخرق السدود والنقب وسيهجم سيل العرم ويغرق سكان بلاد «سبأ» ويمحوهم.

ولما قضت هذه الشائعة راحة الناس وكان منهم عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان فخرج وقد أخذ معه قبيلته المنقادة له وباع أملاكه ومتاعه وأسرع يبحث عن بلدة يسكنها. وكان يقابل أهل البلاد التى يمر بها ويغلبهم، مع هذا لم يستطع التكيف والتآلف مع ماء البلاد وهوائها التى يمر بها، لهذا عزم على الذهاب إلى أرض الحجاز المقدسة بناء على ما أخبرته به كاهنة تسمى ظريفة وبعد فترة وصل إلى حدود ميقات مكة.

وفى أثناء إقامته بلغه أن قبائل الجراهمة مصرون على رأيهم بمنع غيرهم من دخول مكة، فتشاور مع حكماء القبيلة. ورأى أن يرسل برسالة إلى الجراهمة يستأذنهم فى البقاء بأرض مكة المشرفة لفترة قصيرة، ولكن الجراهمة رفضوا رجاء عمرو بن عامر. ولما بلغ قولهم إنه يتحتم عليه ـ فى كل الأحوال ـ أن يزيل خيامه من عند حدود كعبة الله، وأن يرتحلوا إلى أى بلد آخر عندئذ قال لهم عمرو بن عامر: إننى أرى البقاء فى أرض مكة بلا قيد أو شرط، فإذا كان هذا ملائما لكم فحددوا لنا مكانا مناسبا بجانبكم نكن إخوة لكم نعاونكم وننصركم، حسبما يقتضى الأمر. أما إذا صممتم على المعارضة والرفض، فسأسلب راحتكم وأستعمل معكم أساليب العنف والسيطرة والقوة القهرية، فأخرجكم من مساكنكم وبيوتكم وأطردكم خارج الحدود، وإذا تصديتم لقتالى فسأنتصر عليكم بعون الله وسأهين رجالكم بقتلهم بالسيف وأقيد أطفالكم ونساءكم بأصفاد الأسر.

ومع هذا القول فإنهم عارضوه فاستجمع كل قوته وحاربهم ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة، وفى النهاية لاذ الجراهمة بالفرار فدخل مكة المكرمة، واستولى عليها وقضى على جماعات الجراهمة الذين قبض عليهم وقهرهم.

واشترك فى هذه الحرب غبشان الخزاعى مع أبناء بكر بن عبد مناة بن كنانة.

وقد هلك وقتل كثير من الجراهمة، جزاء وفاقا لما اقترفوه من مظالم ومساوئ وكانت عاقبتهم جميعا أن أخرجوا من مكة وأبعدوا مطرودين إلى جبال اليمن.

والواقع أنه ما من حاكم اعتاد على أن يظلم داخل مكة إلا وهلك، وأخرج هو وقومه وقبيله منها! حتى أطلق على مكة اسم بكة نظراً لأن المدينة المباركة تبك أعناق الجبابرة.

وعلى الذين يرغبون فى معرفة تفاصيل هذه الواقعة الرجوع إلى الصورة الرابعة من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

وخرجت حكومة مكة المشرفة من أيدى الجراهمة، وما أن أصبحت فى قبضة الخزاعيين وتصرفهم حتى رجع إليها بنو إسماعيل المنتشرون فى الممالك والبلدان وأقاموا داخل الأرض المقدسة لكعبة الله، بعد أن استأذنوا الخزاعيين فى هذا.

وبعد فترة قصيرة التمس مضاض بن عمرو الجرهمى إذنا بالإقامة فى مكة المكرمة فلم يوافق أفراد بنى خزاعة علي إقامة مضاض أو أى فرد من الجراهمة فى أرض مكة الطاهرة وأجابوه إذا تجاوز أحد منكم حدود الحرم الشريف سنقتله بلا تردد.

واستقبل مضاض بن عمرو رد بنى خزاعة بالصمت وحدث نفسه قائلا: «سأجد لى حيلة فيما بعد لأقيم فى مكة».

وذات يوم صعد فوق جبل أبى قبيس يبحث عن إبله. فرأى إبله المفقودة بين يدى بنى خزاعة يذبحونها ويقسمونها بينهم، فراقبهم لفترة طويلة ثم قطع الأمل فى استرداد إبله وقال فى نفسه: «إذ هبطت إلى الوادى لن تسلم من القتل كما

سبق أن هددوك من قبل «ثم أخذ أنصاره وأتباعه وشيعته الذين معه ووجه رجاله تجاه اليمن وخرج من أرض الحجاز المقدسة».

وكما يفهم من قصيدة عمرو بن الحارث بن مضاض التالى ذكرها أنه عندما خرجت البلدة السعيدة المباركة من يد مضاض بن عمرو الجرهمى البلدة التى لا مثيل لها فإنه سقط من فوق كرسى الحكم، وأصبح شيخ قبيلة عادية أصابه الحزن والألم الشديد.

ومضاض بن عمرو هو الحادى والعشرون من ملوك الجراهمة الذين تولوا أمر السلطة فى البلاد الحجازية المقدسة.

وأول من تبوأ مقعد الحكم من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان، عاد وقد استولى على الأراضى الحجازية عندما كان أخوه يعرب يتولى الحكم فى أرض اليمن مكان والده قحطان وهزم جرهم العمالقة واستولى على زمام الحكم.

وعندما توفى جرهم بن قحطان آلت حكومة الحجاز إلى ابنه عبد ياليل بن جرهم وعند وفاته آلت إلى جرشم بن عبد ياليل وعندما توفى جرشم آلت إلى عبد المدان بن جرشم، ومن بعده إلى ثقيلة بن عبد المدان وفى النهاية إلى عبد المسيح بن ثقيلة ومن بعده إلى مضاض بن عبد المسيح ومن بعده إلى عمرو بن مضاض وعندما توفى عمرو آلت إلى أخيه حارث بن مضاض بن عمرو بن الحارث ولما توفى عمرو آلت إلى أخيه الحارث بن مضاض ومن بعده إلى عمرو بن الحارث وبعد وفاة عمرو آلت إلى أخيه بشر بن الحارث وبعده إلى مضاض بن عمرو بن مضاض وفى حياة مضاض هذا خرج حكم مكة من يد الجراهمة كما فصلنا القول فيه أعلاه. وأخذ بنو خزاعة حكم مكة فى أيديهم.

وهذه القصيدة من نظم عمرو بن الحارث وتحكى انتقال حكومة مكة المشرفة إلى إدارة بنى خزاعة.

القصيدة:

وقائلة والدمع سكـيب مبـــادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجـر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامـــر
فقلت لها والقلب منى كأنهـــا
يلجلجه من الجناحين طائـــر
بلى نحن كنا أهلهـــا فأزالنـــا
صـروف الليالـى والحـدود العواثـر
وكنا ولاة البيـت مـن بعـد نابـت
نطوف بـذاك البيـت والخـير ظاهـر
ونحن ولينا البيت من بعـد نابـت
بعـز يخطـى لنـا المكاثـر
ملكـنا فعززنـا فأعظـم بملكـنا
فليـس لحـى غيرنـا كإثـم فاخـر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته
فأبنـاؤه منـا ونحـن الأصاهـر
فإن تنثنى الدنيـا علينـا بحالهـا
كذلك بالنـاس تجـرى مقـادر
أقول إذا نام الخليل ولـم أنـم
إذ العـرش لا يبعـد سـهيل وعامـر

وبـدأة منهـــا أوجهـــا لا أحصاهـــا

قبائـــل منهـــا حميـــر ويحابـــــر

وصرنـــا أحاديثـــا وكنـــا يغبطـــــه

بذلـك عفتـنا السنـــون الغوايـــــر

فسحت دمـوع العـين تبكـــى لبلـــدة

بهـا حـــرم آمـــن وفيهـــا المشاعـــــر

وتبكـى لبيـت ليـس يـــؤذى حمامـــه

يظـــل بـه آمنـا وفيـــه العصـــــافر

وفيـه وحـــوش لا تـــرام أنيســـــة

إذا خرجـت منـــه فليسـت تغـــادر

وآلت الحكومة الجليلة مكة المكرمة إلى يد بنى خزاعة على النحو المذكور

واستقل بنو خزاعـة بزمـام إدارتهـا وبعـد ذلك أصابـت الحمـى كـل أفـراد القبيلة المنسوبة إلى عمرو بن عامر، وأدركوا أنهم لا مقام لهم بعد ذلك فى أرض مكة.

وبرأى ومشورة الكاهنة «ظريفة» هاجر «آزر» إلى «عمان» وثعلبة بن عمرو بن عامر إلى الشام و الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام إلى جوار «المدينة المنورة».

وبقى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر المشهور بلقب (لحى) داخل مكة وتولى القيام بمهام حكومة مكة وأمور حجابة الكعبة.

إخطار:

تولى بنو خزاعة إدارة حكومة مكة المكرمة لمدة ثلاثمائة عام، وخلال هذه الفترة هزموا الجند الذين أرسلهم ملوك اليمن لتخريب بيت الله شجاعة فى الدفاع عنه.

ورغم أن بنى إسماعيل طوال فترة إقامتهم فى مكة المعظمة كانوا تحت إدارة الحكومة المستقلة لبنى خزاعة، ولم يتدخلوا فى مسائل الحكم، ولم يخالفوا أحدا قط إلا أن قصى بن كلاب بن مرة بعد ثلاثمائة سنة من حكم بنى خزاعة استطاع أن يحقق قوة وسطوة ويتولى إدارة حكومة مكة، وجمع كل أفراد القبيلة التى ينتسب إليها وأسكنهم داخل حدود مكة، وعززهم وأكرمهم. وبناء على ذلك أطلق عليه بين القبائل لقب «المجمع» وأصبحت قريش التى تنتسب إليه تشكل القبيلة الغالبة.

وقبيلة قريش الجليلة هى جماعة تنتهى إلى النضر بن كنانة وبناء على الجرائم التى ارتكبها الجراهمة كما ذكرنا سالفا تفرقوا فى أطراف البلاد حتى لا يتعرضوا لغضب الله ذى الجلال.

وكما ذكرنا فى الصورة الثامنة من هذه الوجهة أنه بجهد قصى بن كلاب تجمعوا وتقرشوا في مكة المكرمة ولهذا أطلق عليهم اسم «قريش».

* * *

توضح كيف تم تجديد البيت العتيق فى المرة الخامسة وكيف نجح العمالقة فى تجديده

على الرغم من أن بعض المؤرخين قالوا: إن بناء العمالقة حدث فى المرة الخامسة، إلا أن الرواية التى نقلها الإمام الأزرقى عن عبد الله بن عباس تلمح وتشير إلى أن بناء الجراهمة حدث بعد عمارة العمالقة للكعبة، حيث يقول الإمام الأزرقى فى تاريخه: فى الأزمنة القديمة، توطنت فى مكة المكرمة طائفة تسمى العمالقة وكان كل أفرادها ـ بصفة عامة ـ مفرطين فى الثراء، وكانوا أقوى الطوائف على وجه الأرض وكانت حكومة البلدة فى أيديهم.

هذه الطائفة المذكورة، كانت كلها تملك الخيول الأصيلة المرغوبة لدى العرب، وكذلك الإبل وسائر الدواب الجميلة والمرغوبة يشتغلون برعى الدواب فى المراعى بضواحى مكة. أما قوتهم وقدرتهم فكانت مفرطة. وفى زمانهم كانت البقعة المقدسة التى بناها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أوشكت على الخراب والانهيار وذلك بعد انقضاء زمن طويل على عصر الخليل الجليل.

وبناء على ذلك اتفق رؤساء القبائل فيما بينهم على تجديد ما تهالك من بيت العزة وفى أثناء ذلك كان الجراهمة أيضا فى مكة، لكن حكومة مكة الله وسدنتها كانت مقصورة على رؤساء العمالقة. وعندما حازت هذه الطائفة القوة والثروة وأصبحت جوانب مكة المكرمة الأربعة مزدانة بالمروج الخضراء والأشجار المثمرة التى تثير البهجة مالت الطائفة المذكورة إلى متع الحياة واللهو وغاصوا فى الفجور والفسوق، وسار الأمر على هذا المنوال فطغوا وبغوا باعتيادهم الظلم والفساد.

وبلغت مفاسدهم إلى الحد الذى لا يستطيع فيه الرجل أن يستظل بظل شجرة، أو أن يأخذ شربة ماء من أية عين للماء ما لم يدفع نقودا وكانت عاقبة

الأمر أن زالت دولتهم وشوكتهم وأفل نجمهم وأدبر سعدهم حيث تسلط عليهم نوع من النمل فاضطروا للرحيل.

ورحلوا إلى ديار اليمن حيث مساكنهم ومبانيهم القديمة ولم يستطيعوا العيش هناك، وهلكوا جميعا وطوال فترة قيامهم بالمحافظه على البناء المقدس لبيت الله، ولهذا فإن الجدران العالية[1] للبقعة المقدسة لبيت الله ـ التى جددوها ـ خربت تماما ومحيت كلها، وبقيت بقية الحجارة التى وضعت فوق الأساس الخالد الذى وضعه إبراهيم ومنها عرف الناس الموضع المبارك لبيت الله فأصبحوا يطوفون به وفى النهاية حددته طائفة الجراهمة.

* * *

(١) كانت جدران كعبة الله التى جددها العمالقة مرتفعة جدا وكانت مزينة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة.

تبين طريقة تجديد البيت الأكرم فى المرة السادسة

قام الحارث بن مضاض الأصغر[1] من طوائف الجراهمة بتجديد البناء القديم لكعبة الله فى المرة السادسة، فقام بتركيب مصراعين لباب المعلا بالكعبة ثم وضع عليه قفلا. أما سبب هذا التجديد فهو السيل الذى روى عنه أبو جهم بن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ أنه خرب بيت العزة. وقد نزل السيل المذكور من أعلى مكة ودخل البيت الشريف وهدم البناء الكريم لبيت الله الذى سبق وأقامه العمالقة والملوك الذين جاءوا بعد قيام الحارث بن مضاض بتجديده على النحو السابق.

عمر الجراهمة الكعبة المعظمة ورمموها مرة تلو مرة، ولما ضلت قبائل بنى جرهم بمرور الأيام وانحرفوا، ظلموا وفسقوا وفجروا وعمتهم الفوضى، مثل العمالقة البغاة.

وكما ذكرنا فى البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى بنى خزاعة فإنهم لم يصمدوا لهجوم بنى خزاعة، وتركوا البلدة المكرمة.

وبعد فترة من انتقال حكومة مكة إلى بنى خزاعة، خرب ودمر بيت الله بسيل عظيم اجتاح مكة المكرمة.

وقد سمى هذا السيل «القارة» إشارة إلى غرق امرأة اسمها «قارة» من قبيلة بنى بكر.

وبعد انحسار مياه السيل أقام بنو خزاعة جدارا منخفضا حول البيت الشريف للوقاية من السيول التى تكررت من بعد وتركوا البيت الحرام على حاله القديم وظل البيت على نفس الحال حتى زمن قصى بن كلاب.

(١) هو الحارث بن مضاض ـ تاسع ملوك الجراهمة.

الصورة الثامنة

فى ذكر طريقة تجديد وبناء كعبة الله فى المرة السابعة

بنى قصى بن كلاب بن مرة البيت المعظم فى المرة السابعة وقصى بن كلاب بن مرة من الأجداد الكرام لحضرة النبى صلوات الله عليه وسلامه. وهو الجد الرابع لسلطان الأنبياء عليه وعليهم التحية والذى علا بنسبهم.

إخطار:

إن إحصاء أجداد النبى حتى الجد الواحد والعشرين ومعرفتهم بالترتيب أمر جائز، وقد قام به المرحوم عثمان عريانى أفندى الكليسى فى شرح القصيدة النونية التى أطلق عليها اسم «جبر القلائد فى شرح جوهر العقائد». ليس من شروط صحة الإيمان معرفة أسماء آباء وأجداد وحفدة سيدنا النبى عليه أكمل التحيات ويكفى لصحة الإيمان معرفة اسمه الشريف فقط.

وعدنان هو الجد الحادى والعشرون من الأجداد المعروفين لحضرة النبى، وأنه آخر الأشخاص الجائز تعدادهم من أجداد حضرة نبينا ﷺ ـ ولا يوجد مسوغ شرعى لتعداد من سبقوه.

وحسب ما جاء فى كتاب النسب الذى ألفه زيد بن بكار أن قصى بن كلاب بن مرة، عندما استقل بحكومة مكة المشرفة شرع فى هدم البيت العتيق بعد أن أعد كل ما يلزم لبنائه.

وقام ببنائه وتجديده وجعله بناء ضخما رصين الأركان وكان تجديده له على نسق وشكل لم يسبقه إليه أحد.

ولم يكن هدفه من هذا تزيين بيت الله محط الإخلاص وبناءه وإنما أراد أن ينقذ تلك البقعة المقدسة من حالة الخراب.

ولم يعترف مجموعة من المؤرخين السابقين بالانهيار الذي حدث للكعبة فى

المدة ما بين حضرة الخليل وقصى بن كلاب وقالوا: إن قصى بن كلاب هو أول من هدم البناءَ المقدس لبيت الله الأكرم وبناه من جديد.

وقال أيضا الإمام الماوردى هذا القول وذكر فى كتابه «الأحكام السلطانية» رأيه مفصلا وقال: «إنه بعد سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ قام قصى بن كلاب بن مرة بهدمه وتجديده ودعمه ببناء مسقوف بأشجار النخيل ومن أخشاب بلاد الروم وكان ارتفاع جدرانه يزيد تسعة أذرع عن بناء الخليل، وبنى كل مواضعه فى صورة جميلة لطيفة وفق الأسلوب القديم لسيدنا إبراهيم.

وعلى هذا التقدير فإن العمالقة والجراهمة لم يجددوا بناء البيت العتيق بل رمموه وأصلحوه مرة أو مرتين فقط.

انتقال حكومة مكة المكرمة إلى قصى بن كلاب بن مرة:

عندما توفى كلاب بن مرة بن كعب، كان ابنه قصى صغير السن أما والدته فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جشعمة بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نضر بن الأزد فى أعقاب وفاة زوجها سالف الذكر تزوجت من شخص يدعى ربيعة بن خرام بن حبة بن عبد بن كبير بن عذرة بن زيد بن سعد الذى جاء إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة وذهبت مع ابنها قصى بن كلاب إلى أراضى الشام حيث يقيم زوجها الجديد[1].

وسعد هذا الذى يعتبر من بين أجداد ربيعة بن خرام كتب عنه واحد من شعراء عصره أنه أجرأ وأشجع أبطال عصره ومدحه وأثنى عليه بهذه القطعة.

لا أرى فى الناس شخصا واحداً	فاعلموا ذاك كسعد بن سيل
فارس أضبط فيه عسرة	وإذا ما عاين القرن نزل
فارس يستدرج الخيل كما	يدرج الحر الفطام الجمل

(١) كان ربيعة بن خرام يسكن فى أرض عذره من ملحقات الشام.

وعندما بلغ قصى بن كلاب سن التمييز وأصبح قادرا على التفوق بين الحسن والرديء - إذ نمت قوة إدراكه - نشبت نار النزاع واشتد الاضطراب بين القبائل واشتعلت الفتنة بين جماعة آل ربيعة التى ينتمى إليها زوج أمه اضطرب مزاجه وسلبت منه راحته وطمأنينته، ذلك لأنه لم يكن من قبيلة ربيعة رجل يعرف أن كلاب بن مرة هو والد قصى سوى ربيعة، ولهذا كان أرباب السوء من القبيلة يؤلمونه ويعيرونه بأقوال مثل: إن والدك غير معلوم لنا وما ألجأك إلى قبيلتنا سوى انتسابك إلى قبيلة مجهولة لا اسم لها ولا شهرة فلو كان قومك معروفين لك لكنت تحتمى بهم تستنصرهم لتنجو من شرنا.

وقد التوى ابن كلاب من هذا الأمر وانزعج من نباح كلاب بنى ربيعة وقص ما جرى بالتفصيل على أمه فاطمة وشكا لها باكيا متألما وأبدى ما أصيب به من جرح فى نفسه.

وكانت فاطمة أم قصى من أعقل النساء فقالت لابنها لكى تطفئ نار حزنه وتسرى عنه وكأنها تصب عليه ماء الحياة: يا بنى أنت من الصلب الشريف لكلاب بن مرة فأنت أكرم من أبناء آل ربيعة ومن كل الوجوه وأنت أشرف نسبا وأعظم حسبا من كل قبائل العرب، إن قومك وقبيلتك يقيمون فى نواحى مكة المعظمة ويسكنون منذ زمن طويل حول حرم الله.

وهكذا أخبرته أنه ينتسب إلى قبيلة كبيرة من أشرف القبائل العربية.

وعندما سمع «قصى» هذا الكلام من أمه أراد أن يلحق بقبيلته ويذهب إلى مكة المكرمة وعزم على ألا يعود إلى أرض قضاعة بعد ذلك أبدا فنصحته أمه قائلة: يا بنى لا تتعجل وانتظر إلى أن يحل الشهر الحرام واذهب آنذاك - مع قوافل الحجاج العرب فأنا لا أحبذ سفرك بمفردك ولما حان وقت الحج ذهب إلى منطقة الحجاز برفقة حجاج قبيلة قضاعة وبعد انتهاء الحج أقام خيمة حول كعبة الله وأقام فيها.

وكان قصى حازما بارعا جلدا، وبعد فترة من إقامته فى مكة عرف أهلها شرف حسبه وفضل نسبه فأكرموه كرما شديدا.

وزاد توقير الناس له وتعظيمهم إذ تزوج ابنة حليل بن خبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى وهو من أعظم رجال بنى خزاعة آنذاك تولى حجابة البيت بعد أن استولى على حكم مكة المكرمة ورئاسة القبائل.

وعلى قول آخر إنه تزوج من عاتكة ابنة فالخ بن مليك بن قالخ بن ذكوان السليمى وحظى منهم بكل مظاهر التوقير والاحترام والقول الأول مرجح على الثانى وقد ثبت أن حليل بن خبشية صهر قصى بن كلاب حقا وعلى هذا فإن «حبا» هى الجدة الرابعة من جدات الرسول ﷺ.

وبعد هذه المصاهرة بين قصى بن كلاب وحليل بن خبشية اتسع نطاق قدرته ومكانته بالتدريج وتزايد أبناؤه وخدمه وحشمه وأصبح واحدا من صناديد القبائل العظام. وفى أثناء مرض صهره حليل بن خبشية، ترك مفتاح البيت تبعا للقواعد المرعية فى ذلك الوقت وأوصى به إلى ابنته «حبا» زوجة قصى بن كلاب.

ولما كانت «حبا» عاجزة عن إدارة أمور البيت وزوجها ليس من أفراد بنى خزاعة فهى لا تتجرأ أن تعطى مفتاح البيت الشريف لزوجها، ولكن لطول مدة مرض والدها كلفت زوجها قصى بن كلاب مهمة فتح وإغلاق بيت الله. وعلى قول آخر أنها أسندت هذه المهمة إلى أبنائها. ولما اتضح لحليل بن خبشية أنه أصبح على قاب قوسين من الموت عين زوج ابنته ولى عهد له وسلمه مفتاح بيت الله.

وبالرغم من هذا، أخذ صناديد خزاعة المفتاح من قصى بن كلاب عقب وفاة صهره وأعطوه ـ حسب العادة ـ إلى أبى غبشان سليم بن عمرو بن لؤى بن ملكان من كبار طائفة بنى خزاعة، وفوضوه فى أمور حجابة وسدنة وخدمة كعبة الله المقدسة. وكان أبو غبشان رجلا فاسدا مدمنا للخمر لا يهتم بأمور الدنيا وهمومها وفى يوم من الأيام وهو فى بلدة الطائف غارق فى ملذاته حسب عادته فقد وعيه ونفذ صبره وثرثر بكلام كثير فقال من ضمن ما قاله

لرفاقه فى مجلس اللهو، إنه لا يهمه أن يبادل مفتاح كعبة الله الأمانة الكبرى بقدح من خمر.

وتداولت الألسن هذه الشائعة حتى بلغت سمع قصى بن كلاب فأخذ لتوه قربة شراب وأعطاها[1] لأبى غبشان وأخذ منه المفتاح الشريف فى حضور عدة أشخاص وأرسل ابنه عبد الدار ليلا إلى مكة المباركة، يبلغ أهلها بالأمر فأصبح بهذا صاحب المفتاح الشريف، وسعد أعظم سعادة.

وعندما أفاق أبو غبشان واسترد وعيه أراد أن يسترد مفتاح الكعبة من ابن كلاب، ولكن الأمر كان قد شاع بين أهل مكة ولما رفع الأمر إلى ما يشبه المحاكمة بين المتخاصمين ثبت بشهادة الشهود أن أبا غبشان قد أضاع المفتاح وليس له أحقية فى استرداده وضربت الأمثال فى ذلك إذ يقال «أحمق من أبى غبشان» و«أخسر من أبى غبشان».

ويضرب العرب ـ الآن ـ مثل «أخسر صفقة من أبى غبشان» للذين يخدعون فى البيع والشراء والذين يتعرضون لمصيبة كبيرة.

وقد انزعج أشرار بنى خزاعة لامتلاك ابن كلاب للمفتاح الشريف، وكثر القيل والقال فى هذا الموضوع وأخذت نار الخصام تشتعل بينهم لأتفه الأسباب فى مبدأ الأمر إلى أن اندلعت فتنة عظيمة أدت إلى الحرب.

ولما كان طالع الحرب فى عون قصى، فقد سعد بشرف الحصول على إدارة حكومة مكة.

وفى أثناء اتحاد آل خزاعة ضد ابن كلاب، جمع قصى قومه من قريش وبنى إسماعيل للتصالح والاتفاق مع آل خزاعة فى مجلس صلح، ولكن بمجرد النقاش فى الموضوع ارتفعت الأصوات وتحول النقاش الجارى بينهما إلى نزاع وشجار.

(١) يروى أيضا أن «قصى» أعطى أبا غبشان فى تلك الليلة مع قربة مملوءة بالخمر خروفا أيضا.

وأعد كلا الطرفين من فى جانبهما من المتحاربين وتهيئا للقتال والمبارزة والحرب ووجهوا كل ما فى طاقتهما للصراع الشرس وتشابكا.

ولاحت علامات النصر والظفر فى جانب قصى بن كلاب بن مرة وانفرد ابن كلاب بإدارة الحكومة الجليلة للحرم الشريف ورئاسة القبائل، وطرد آل خزاعة من أرض مكة المباركة العطرة وأقصاهم عنها، وتأمر ذوو الشأن وكبار القبائل التى انطوت تحت جناح ابن كلاب، برئاسته واستقلاله فأظهروا له الولاء والتبعية والاستسلام.

وقد أورد مؤلف كتاب «الاكتفاء» هذه القصة بطريقة أخرى إذ قال: «عندما توفى كلاب بن مرة» كان ابنه قصى حديث الفطام من الرضاعة وتزوجت أمه فاطمة بنت سعد من ربيعة بن خرام من قبيلة قضاعة. واصطحب ربيعة هذا فاطمة أم قصى. إلى بلاد بنى قضاعة وأنجبت من زوجها الجديد غلاما اسمه «زراح».

تربى ابن كلاب مع أخيه من الأم «زراح» وعندما بلغ سن الرشد، ذهب إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة للزيارة وبعد الحج أقام بجوار حرم الله وأعلن لأهل مكة أنه من فروع نسل إسماعيل وتزوج من «حبى» ابنة حليل بن خبشية وهو من رؤساء آل خزاعة وهناك قول أن اسمها «حسبا» وفى رأى أنها عاتكة بنت فالج فأصبح بذلك ذا عزة وشأن.

وأنجب قصى أربعة أبناء يتصفون بالشجاعة هم: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وبعد ذلك انتزع سدانة الكعبة المباركة وإمارة مكة المكرمة من أيدى بنى خزاعة وكانت حكرا لهم.

وأخذ يفكر فى وسيلة لإلغاء نظام «الإجازة» الجائرة التى كانت مرعية بين العرب لكنه كتم آماله فى قلبه إلى أن يجد طريقة لتنفيذها فى ذهنه. وأدرك أن هذا الأمر فى حاجة إلى إعداد قوة عسكرية كبيرة وتهيئة الأسباب التى تحقق هذا.

كما أنه مثوقف على عقد أوهام الإتحاد والائتلاف والاتفاق مع شيخ قبيلة قريش وبنى كنانة وعرض ما فى ضميره على رؤساء القبائل المذكورة.

وبرأى ومشورة أكبر حكماء هذه القبائل أبلغ أخاه من الأم «زراح» ابن ربيعة الذى يقيم فى بادية بلاد قضاعة ونشر «زراح» أفكار أخيه قصى العادلة وأبلغه بأن أبطال قبيلة قضاعة سيساندونه. وفى الميعاد المحدد انطلق زراح نحو مكة، ومعه عدد كبير من الأبطال الذين جمعهم إخوته من الأب حسن ومحمود وجمعهم تحت لوائهم وقد أعدوا أقوى أسلحة ذلك العصر مستعدين للهجوم والحرب.

وفى ذلك الوقت كانت قبيلة صوفة التى تنسب إلى غوث بن مرة قد تولت ـ كابرا عن كابر ـ إجازة عرفات ورمى الجمار وكذلك الأمر بالنسبة للقبيلة التى تنتهى إلى عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان إذ كانت مختصة بإجازة المزدلفة، وكانوا يتولون توصيل حجاج بقية القبائل فى موسم الحج إلى عرفات ويعودون بهم كما كانت قبائل بنى خزاعة تقوم بحفظ وحراسة البقعة المفخمة للكعبة المشرفة.

وقد بلغ هذا التحكم والطغيان مداه لدرجة أن قبيلة صوفة وهى تضم من بقى من الجراهمة ـ لم تكن تسمح لأحد من الحجاج بالصعود إلى عرفات ثم العودة إلى المزدلفة، ما لم تكمل أفراد القبيلة رمى الجمرات وكذلك طائفة «عدوان» لم تكن تسمح بالمرور طالما لم تكمل الوقوف بالمزدلفة.

حتى إن قبيلة «صوفة» فى يوم رجوعها إلى مكة، كانوا بموجب ميثاق مكتوب يقطعون عمرة منى ولا يفسحون الطريق إلى حجاج بقية القبائل طالما لم يمروا هم جميعًا من الممر.

استطراد:

ولفظ «**صوفة**» هو لقب «غوث بن أد» الذى ينتسب آباؤه إلى جماعة قبيلة مضر، وعلى قول، إنه لقب غوث بن مرة بن قرة بن طابخة بن إلياس بن مضر.

والأفراد الذين ينتسبون إلى هذه الجماعة توارثوا خدمة الكعبة المشرفة منذ الجاهلية على النحو الذى وضحناه آنفا. وقد انتقلت إلى أفراد هذه القبيلة مهام الإجازة والإفاضة من عرفات واقتصرت عليهم لهذا يقف أحد أفراد هذه الجماعة بعد الوقوف بعرفات ويصيح بصوت عال «أجيزى صوفة» ويعقبه آخر صائحا «أجيزى خندف».

بناء على هذا تتحرك من عرفات كل البطون التى تنتسب إلى هاتين الجماعتين ثم يتحرك بعدهم بقية الحجاج.

نشأة الإجازة:

ابتدعت وظيفة الإجازة فى زمن غوث، وحصل غوث على هذه الوظيفة من قبل أمه.

كانت أم غوث امرأة من الجراهمة وقد ظلت لفترة طويلة عاقرا بدون أبناء وذات يوم نذرت قائلة: «يا رب إن أنجبت ولداً سوف أنذره للكعبة» وسرعان ما حملت وعندما وضعت غوثا بعد مرور تسعة أشهر قدمته لخدام الكعبة المفخمة وفاء بنذرها وكبر غوث وعندما بلغ السن الذى يقدر فيها على العمل أخذ يقوم بخدمة الكعبة المشرفة لفترة طويلة. وهكذا اكتسب حب الناس واحترامهم وزادت مكانته فى أعينهم وكان وفيا بعهده، لذا كان الناس يستشيرونه فى كل أمر ويعملون وفق مشورته.

وزاد نفوذ غوث بالتدريج حتى أصبح أمر الذهاب إلى عرفات والعودة منها مقصورا عليه.

وفى تلك الأثناء وضع قواعد الإجازة وعندما وهبت أم غوث ابنها للكعبة المشرفة وفاءًا بنذرها أنشد والدها مرة أو أد هذه الأبيات

إنـــى جعلـت رب مـــن بنـــية ... ربيطـــة بمكـــة العليـــــة

فبـاركـــن لـــى بهـــا إليـــه ... واجعلـه لـى مـن صالـح البريـــة

وكان غوث يقول عندما يعطى أمر القيام من عرفات:

لا هـم إلـى تـابـع بتـاعـه وإن كـان إثـم فعلـى قضاعـة

وبعد وفاة غوث انتقل السماح للحجاج بالتحرك من عرفات والبدء فى رمى الجمرات إلى أبنائه وأحفاده.

ولما أوشكت هذه القبيلة على الانقراض أخذ أمر الإجازة أبناء بنى سعد بن زيد مناة بن تميمة إلى أن انتقلت هذه المهمة إلى أيدى بنى سعد وكان رؤساء الجماعة سواء من جاءوا من صلب غوث، أو من نسل أبنائه وأحفاده كلهم يقال لهم، صوفة.

وجماعة بنى سعد هم الذين ذكرناهم من قبل أفراد قبيلة تنتهى إلى آل صفوان بن شحنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وصفوان بن شحنة أول من تولى من هذه القبيلة وظيفة إعطاء الإجازة إلى الحجاج فى عرفات.

وسلسلة نسب كرز بن صفوان الذى تشرف بإدراك عصر النبوة الميمون ترتبط بشجرة هذه القبيلة وتحكم آل صفوان فى ممارسة مهمة الإجازة إلى الحجاج لم يكن يقل عن استبداد قبيلة صوفة.

لم يكن باستطاعة أحد من الحجاج أن يتجرأ على العودة من عرفات ورمى الجمار فى صحراء منى قبل أفراد آل صفوان حتى ضاق بهم الناس أشد الضيق واستاءوا أشد استياء.

وكان الحجاج كلما ألحوا فى الرجاء والتوسل إلى رجال بنى صفوان فى أيام رمى الجمار قائلين أغيثونا إن الوقت يمضى. كانوا يجيبون عليهم بكلمات غير لائقة قائلين: «كلا كلا مازال الوقت مبكرا فلم تمل الشمس بعد إلى الغروب» فإذا رجوهم وتوسلوا إليهم أن يستعجلوا بعض الشىء كانوا يمعنون فى التأخر

ولم يكن الحجاج فى فترة الانتظار يكفون عن الشتائم والسباب والدعاء عليهم كما كان إحساسهم بالانكسار مفرطا.

وكانوا يماطلونهم، فى ممر منى ويسمحون بالمرور أولا لأتباعهم ببطء ثم يأذنون للناس بالمرور.

وقد تحمل الحجاج هذه المضايقات التى توغر الصدور رضوا بها أم لم يرضوا حتى انقرضت سلالة «آل صوفة» أو «آل صفوان».

يكفى لإثبات مدى تحكم آل صفوان واستبدادهم هذه الأبيات التى قالها (أوس بن تميم السعدى) فى أثناء توليهم ممارسة إعطاء الإجازة للحجاج.

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

وبناء على ما قيل أعلاه ـ عندما كان رؤساء آل صوفة وآل صفوان يضيقون على الحجاج ويتحكمون فيهم كما ذكر كانت الإفاضة من المزدلفة، وإعطاء الأمر والإجازة فى يد بنى عدوان وحكرًا عليهم كما يتضح ذلك من الأبيات الآتية كيف أنهم توارثوا كابرًا عن كابر مهمة الإجازة.

غدير الحى من عدوان كانوا حية الأرض
بغى بعضهم ظلما فلم يرع على بعض
والموفون بالفرض والموفون بالفرض
بالسنة والفرض بالسنة والفرض
فلا ينقض ما يقضى فلا ينقض ما يقضى

كان أبو سيارة عُمَيْلَةُ بن الأعزل مِمَّنْ بقى من أفراد قبيلة عدوان. وقد أدرك عصر النبوة[1].

(١) عميلة (مصغرًا) بن خالد بن سعد بن الحارث بن عابس بن زيد بن عدوان العدوانى، أبو سيارة. ذكر الفاكهى أن أبا سيارة كان قبل أن يغلب قصى على مكة. فهذا يدل على تقدم عصره عن زمن البعثة.
وهو غير أبى سيارة المُتَعِىّ (بضم الميم وفتح التاء) الذى ذكره ابن السكن وغيره فى الصحابة. أخرج حديثه أحمد والبغوى وابن ماجه.
راجع الإصابة للحافظ ابن حجر ٧/ ٩٤، ترجمة رقم (٥٨٠).

وفى العصر الذى أشرقت فيه شمس الإسلام وأصبحت تبعث الضوء فى عيون الأنام، كان أبو سيارة هذا يتولى إجازة المزدلفة كما يفهم من خلال هذه القطعة الشعرية التالية.

نحن دفعنا عن أبى سيارة
وعن مواليه بنى فزارة
حتى أجاز سالما حماره[1]
مستقبل القبلة يدعو جاره

قوله «سالما حماره» يشير إلى إعطاء أبى سيارة رخصة الإفاضة من المزدلفة للناس، من فوق ظهر الحمار وهو مطابق تماما لرواية سيرة ابن هشام.

وقد قلنا فى بداية الاستطراد إنه عقب وقفة عرفات، يقف واحد من آل صفوان، ويقول أجيزى صوفة ثم يقف شخص آخر بعده يصيح قائلا «أجيزى خندف»، وقد عرفنا من الذى يلقب صوفه والآن يجب أن نعرف ما المقصود بخندف.

و«**خندف**»: هو لقب سيدة تسمى ليلى بنت حلوان بن عمران وهذه السيدة هى زوجة إلياس بن مضر[2] من أجداد النبى الكرام.

وتبعا لما ذكره الذين نقلوا أو تحدثوا عن سبب تسمية ليلى بنت حلوان باسم خندف[3] مسوق فى الرواية الآتية: إن ليلى هذه أنجبت ثلاثة أبناء من إلياس هم: عمرو وعامر وعميرة. وذات يوم وبينما كان هؤلاء يرعون إبل أبيهم إلياس جفلت الإبل من وثبة أرنب نافر. وعندما رأى عمرو جفول الإبل وتفرقها، قفز سريعا من داخل الخيمة وجرى من خلف الأرنب حتى أدركه وأمسك به فسمى مدركة.

(١) قيل إن حماره هذا عُمِّر أربعين سنة من غير مرض حتى ضربوا به المثل فقالوا: «أصح من عير أبى سيارة». الإصابة ٧/ ٩٤.

(٢) هو الشخص الذى أهدى أول قربان للكعبة المعظمة.

(٣) عندما يسير الإنسان ضاما أصابع قدميه كاشفا كعبه مديرا باطن قدميه يقال له خندف.

ولما أخذ عامر الأرنب وطبخه فأسموه طابخة ولـمَّـا فضل عمير البقاء فى داخل الخيمة والانقماع فيها قيل له قمعه، ولما رأت الأم ليلى ابنيها خرجا مسرعين من الخيمة أسرعت تجرى خلفهما، وفى أثناء الطريق قابلت زوجها «إلياس» الذى سألها قائلا: إلى أين أنت ذاهبة؟ فلما أجابت: قد جئت من خلفكم مخندفة أطلقوا عليها خندف، لأنه كان من عادات العرب فى الجاهلية تلقيب الناس اقترانًا بالأحداث.

جاهلية العرب:

أطلق على جميع العرب الذين عاشوا قبل البعثة المحمدية أهل الجاهلية وذلك لشدة جهالتهم.

وبناء على بعض الأقوال يطلق الجاهلية للفترة التى خلت من الأنبياء. وادعى بعض المؤرخين أن فترة الجاهلية تطلق على الفترة التى سبقت الذين عاشوا بعد هذه الحادثة التى وقعت بسبب جهل العرب وهى أن «كنانة بن خزيمة» تزوج من مطلقة والده وزوجة ابنه «مرة» وأنجب منها نضر والظاهر أن هذه الرواية خاطئة وأثر من آثار البلاهة.

وتبعا لما نقل وروى المرحوم الشيخ (تاج الدين اليمنى أبو عثمان عمرو بن بحر) الذى حقق هذا الأمر بدقة وكذلك كل أئمة السير يؤكدون أن برة التى تزوجها كنانة ـ سالفة الذكر ـ فيما بعد ليست هى برة زوجة أبيه ومطلقة ولده خزيمة.

وإن كان كنانة قد تزوج مرة ثانية من امرأة اسمها برة إلا أنها كانت بنت أخ امرأته الأولى برة أخت مرة بن أد. لم ينجب كنانة من زوجته الأولى برة ولأجل ذلك تزوج مرة أخرى بموافقة زوجته وتصويبها لرأيه تزوج برة بنت مرة بن أد أخو امرأته الأولى وأنجب منها كنانة.

وبما أن بنت مرة التى تزوجها كنانة كانت تشترك فى اسم برة مع امرأة أبيه خزيمة ولوجود صلة القرابة بين الاثنتين قد أدى إلى وقوع الخطأ فى أقوال كثير من المؤرخين.

وبناء على ما قرره أئمة علم الأنساب الذين صاغوا لآلئ بحر نسب معلم الكائنات ـ عليه أطيب الصلوات ـ أن الجوهر النقى لحضرة سيد الكائنات نبينا ـ عليه أطيب الصلوات ـ انتقل من مستودع الأصلاب الطاهرة وقوة ظهر العرب العرباء إلى درة وشاح ظهور الأمهات إلى أن آلت إلى الصلب الطاهر لعبد الله بن عبد المطلب ووصلت منه إلى رحم أمه آمنة بنت وهب، وكل هذه السلسلة من الآباء والأجداد من أعرق الأصول من جهة الآباء والأمهات لذا خلا من دم فاسد إذ تم زواج هؤلاء وفق الشريعة الغراء لعصرهم وجاء طاهر النسب بعيداً من دنس السفاح. انتهى.

ولابد أن وصول زراح بن ربيعة ـ أخى قصى بن كلاب من أمه ـ إلى مكة المكرمة مع القوة العسكرية الكافية، قد صادف موسم الحج، حيث أعلن ابن كلاب بن مرة على الناس أنه لا يجوز إبقاء عادة الإجازة، ورأى ذلك فرصة مناسبة لطرد بنى خزاعة عن الحدود الميمونة لحرم الله.

وأسرع بمطالبة أصحاب الإجازة أن يكفّوا أيديهم عن تنفيذ ما يأملونه ووجه الحديث إلى رؤساء قبيلة صوفه الذين قطعوا الطريق على الحجاج ليمنعوهم من المرور فى مضيق منى يوم رجوع الحجاج إلى مكة المكرمة وقال لهم: يا معشر قبيلة صوفة إن المطلعين منكم على علم الأنساب يعلمون أن حبل نسبى المتين يتصل بعدنان وأن وشيجة نسب عدنان تتصل بـ قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل التسليم ـ ولهذا فإننى أرى أن كتفى يليق بخلعة الإجازة الموشاة وإننى أستحق أعلى المناصب، ولذا أرى أنه قد حان الوقت لإزالة العادة غير المشروعة لنظام[1] الإجازة واعتبارا من هذا اليوم، فإن لكل إنسان الحق فى أن يجتاز ممر منى وقتما يريد.

وإننى إذ أعلن هذا أبين لكم أننى فى صدد اصطحاب أتباعى الشجعان وأمر من ممر منى قبلكم وأخذ جنود قبيلة قضاعة الذين لا يحصى عددهم ولا يعد وتحرك صوب مكة المكرمة.

(١) الإجازة: ترخيص يتضمن مرور وعبور أبناء السبيل من مكان ما بأمن وسلام ويقال إنه المرشد الذى يرافق جماعة لكى تعبر من طريق مخيف ومعناها اللغوى هو الإذن لرجل بالعبور من مكان إلى مكان.

وأراد فتيان قبيلة صوفة الشجعان أن يعترضوا طريقهم ولكن قصى قد مر بالقوة وشدة البأس.

وقد أدرك وجهاء قبائل بنى خزاعة ورؤساؤهم وقد أصابهم القلق الشديد أن الأمر يكاد أن يخرج من أيديهم وأنهم سيفقدون حكومة مكة فيما بعد، لذا تعقبوا مجموعة ابن كلاب معهم قبيلة بنى بكر والتقى الجمعان فى وادى أبطح وافتعل بنو خزاعة أسباب التحرش ودخلوا[1] فى معركة لا داعى لها.

والتحم الفريقان وتداخلا وتقاتلا ونال كل واحد منهما من الآخر ومات كثيرون من الجانبين. وكان حجاج العرب القادمين من اليمن وأنحاء الجزيرة لأداء الحج واقفين لمشاهدتهم.

وأخيرا طلب آل خزاعة الصلح، وعينوا رجلا انتخبوه للفصل فى قضيتهم وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن ليت بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وتدخلت القبائل العربية الأخرى حتى رضى ابن كلاب بالصلح.

وعندما قبل الطرفان الصلح جمع يعرب جنود الطرفين ودخل بينهما وحكم أن تدخل سدانة الكعبة المعظمة ورئاسة وإمارة مكة المكرمة فى عهدة «ابن كلاب» وقال:

إن وجود الكعبة المعظمة وسدانتها وإمارة مكة المكرمة فى يد وعهدة ابن كلاب خير من استيلاء بنى خزاعة وبنى بكر على الأماكن المقدسة.

وقد قبل جميع رجال كل القبائل هذا الحكم قبولا حسنا وهكذا تحققت آمال ابن كلاب ونال مرامه.

الذيل:

عقب فصل «يعمر بن عوف» فى هذا الأمر تمت كتابة وثيقة صلح تتضمن ما اتفق عليه رؤساء قبائل الطرفين وتقرر الاحتفاظ بنسخة معتمدة منها لدى قصى بن كلاب.

(١) كان القتال فى موقع بين منى ومأزمين وقد أطلق على ذلك المكان اسم مفجر لأن آل خزاعة كانوا يجرأون على ممارسة الفسق والفجور وسفك الدماء، وهتك حرمة بيت الله فى هذا المكان.

ومن جملة الشروط التى تضمنتها وثيقة الصلح هذه أن يرفع الظلم والتعدى عن أى إنسان داخل حدود حرم الله وألا يمر ناحية مكة المعظمة وألا يتجاوز بطن مر أى إنسان من جماعات البطون التى تنتسب إلى قبائل خزاعة، ولكن يسمح لمن يريدون منهم أن يسكنوا فوق سلسلة جبال البلد الحرام بشرط عدم دخول مدينة مكة الشهيرة.

وقد حوفظ على الأحكام المدرجة فى وثيقة الصلح المذكورة حتى صلح الحديبية.

وبناء على رجاء بنى خزاعة وطلبهم فى الواقعة المذكورة تفضل سيدنا سلطان الأنبياء ـ عليه وعليهم أفضل التحية ـ بقبول انضمام بقية القبائل التى تنتسب إلى بنى خزاعة فى حلف مع المسلمين.

وأدرجوا فقرات إلى وثيقة الصلح التى عقدت فى الحديبية تضمن السماح لجماعات قبائل بنى خزاعة بالدخول إلى مكة المكرمة.

امتدت الفترة المشئومة التى قامت فيها قبيلة بنى خزاعة بحكم مكة المكرمة حوالى ثلاثمائة سنة كاملة.

وكانت الأقوام المنتسبة إلى قبائل خزاعة فى ذلك الوقت تعبد كوكبا لامعا أطلق عليه اسم الشِّعْرَى اليمانى.

والمعروف أن الشِّعْرَى هما كوكبان منيران فى الفلك يسمى أحدهما الشِّعْرَى العبور والآخر الشِّعْرَى الغميضا وهذه النجوم كما يزعم العرب هى أخوات كوكب سهيل أحدهما الشِّعْرَى اليمانى[1] والآخر الشِّعْرَى الشامى[2] وموضعهما حيث

(١) قد قسم علماء الفلك النجوم إلى أقدار وأشعتها إلى درجات. ووفق هذا التفسير أن الشِّعْرَى اليمانى نجم القدر الأول لبرج الكلب الأكبر من البروج الجنوبية وكذلك الشِّعْرَى الشامى نجم القدر الأول من برج الكلب الأصغر من البروج الجنوبية ومن حيث اللمعان يعتبر الشِّعْرَى اليمانى فى الدرجة الأولى بين الكواكب الثابتة والشِّعْرَى الشامى يعتبر فى الدرجة الثامنة الجوزاء، وبرج مشهور من أبراج النصف الشمالى من الكرة ويتكون من ثمانين عددا من الكواكب. كما يعد علماء الفلك كوكبا يسمى رجل الجوزاء وهذا الكوكب يعتبر النجم الأول لبرج الجبار من الكواكب الجنوبية ومن حيث الضوء يعد فى الدرجة الخامسة.

(٢) هذا النجم هو الشِّعْرَى العبور.

يبزغان بعد الجوزاء ويبعد أحدهما عن الآخر طول رمحين. وإذا نظرنا إلى صورتهما، نجد أحدهما كبيرا جدا لامعا ومائلا إلى الجنوب والآخر صغير ومائل نحو الشمال ويسمى المائل نحو الجنوب الشِّعْرَى اليمانى والمائل إلى الشمال الشِّعْرَى الشامى وحسب اعتقاد العرب القدامى فإن الشِّعْرَى اليمانى عبر ذات ليلة خفية مع سهيل المجرة واغترب وإن الشِّعْرَى الشامى بكى لفراقهما إلى أن أصيب بغمض العين لذا أطلقوا على هذا النجم اسم الشِّعْرَى الغميض[1].

وأول من عبد الشِّعْرَى من طائفة خزاعة أحمق يدعى أبو كبش وكان من أشراف بنى خزاعة. وقد وقف ذات يوم على رأس قومه وقال: إن كل النجوم التى فى السماء تتحرك بشكل عرضى، ما عدا كوكب الشِّعْرَى فإنه يتحرك بشكل طولى، يعنى أنه يشير إلى أن الشِّعْرَى ليس كبقية النجوم. وإننى الآن سأترك عبادة الأوثان وأعبد الشِّعْرَى وأصبح كل من يتبعونه يعبدون الشِّعْرَى وخالفوا فى هذا آل قريش.

وقد أطلق مشركو قريش لقب أبو كبش على نبينا ﷺ إيماء إلى هذا السر ويريدون بهذا أن يشبهوه بأبى كبش لأنه أتى بدين جديد يخالف قريش.

والواقع أن نبينا ﷺ بهجة العالم، قد خالف قريش فى أمر عدم عبادة الأصنام وأبو كبش خالفها فى أمر عدم عبادة الأوثان انتهى.

تأسيس مدينة مكة المعظمة المشهورة

كان بنو خزاعة الذين استولوا على مكة المعظمة يتحاشون ويتجنبون الإقامة داخل حدود الحرم تعظيمًا للبيت الحرام، فكانوا يقيمون نهارهم حول الكعبة ويخرجون فى ليلهم خارج حدودها حيث يبيتون.

وكانوا يقولون إنه من الحرام المطلق اقتراف ما نهى عنه داخل حدود الحرم المحترم بناء عليه كانوا يبنون المنازل حول بيت الله.

(١) يسمى هذا الكوكب الشِّعْرَى الغميضا.

وعندما بلغ «قصى بن كلاب» مرامه بالحكومة الجليلة لأم القرى أتى بقومه وقبيلته وجمعهم وقال لهم: أيها القوم الكرام إذا بنيتم بيوتا ومساكن حول كعبة الله، لن تتمكن بقية الطوائف من طردكم وإبعادكم عن الأراضى الحجازية المباركة، بناء عليه أوصيكم أن يبدأ كل واحد منكم فى تهيئة مسكن له وبنائه حول بيت الله من جميع جوانبه فلما أجابه ذوى الأمر والنهى من جماعات قبائل قريش بقولهم أنت رئيسنا وسيدنا، ونحن نوافق على كل ما تأمر به ونتقبله قبولا حسنا فبادر بنفسه ببناء دار الندوة[1] بعد أن أعلن أنه سيتخذ من هذه الدار مقرا للحكم وقسم جوانب البيت الشريف الأربعة على طوائف قريش وعينها لهم، وأمر أن يقوم أفراد القبائل على الفور بوضع أساس البيوت والمنازل وأن يتركوا مكانا خاليا حول بيت الله للطواف. ولما استصوبت قريش رأى قصى بن كلاب، قدحوا زناد فكرهم وبدءوا فى بناء منازل وتزيينها فى الأماكن التى بينها لهم. ولم يبنوها حول أطراف بيت الله الأربعة، وجعلوا أبواب البيوت كلها تفتح فى اتجاه الكعبة المعظمة، وتركوا طريقا واسعا بين كل منزلين يسمح بالدخول إلى المطاف السعيد.

والمكان الخالى الشريف الذى تركوه بين بيت الله وبين البيوت التى بنوها هو المكان المقدس الذى يطلق عليه الآن اسم المطاف السعيد.

وبقيت البيوت التى بنيت فى عهد ابن كلاب على شكلها وطرازها الذى شيدت عليه فى البداية حتى عصر الفاروق الأعظم، وفى زمن خلافة سيدنا (عمر بن الخطاب) هدمها كلها وأدخل أراضيها ضمن ساحة المسجد الحرام، ووسع (عثمان بن عفان) وبقية أصحاب البر والإحسان دائرة الفيوضات الباهرة للحرمين الشريفين على النحو الذى سنذكره بالتفصيل فى موضعه، وجددوه على الصورة التى عليها الآن.

* * *

(١) رغم أن مجموعة من المؤرخين يقولون إن كعب بن لؤى قد بنى دار الندوة إلا أن ظنهم هذا غير صحيح.

ولما لم يكن فى أولاد كعب بن لؤى حتى مجئ ابن كلاب رجلاً متبوئا مقعد السلطة لذا جمع قصى بن كلاب كل مناصب الجاهلية: الحجابة ـ السقاية ـ اللواء ـ الندوة ـ النظارة[1] ـ صاحب القبة ـ الأزلام ـ خازن الأموال ـ الرفادة ـ القيادة. وأصبح صاحب المقعد والرياسة والحكم. ولكنه لم يستطع أن ينجح فى تغيير عادات الجاهلية التى تعد بين العرب من الأحكام الدينية، لذا ظلت العادات المذكورة حتى بعثة نور الهدى فى يد آل صفوان وآل عدوان وآل نسئة وآل مرة بن عوف.

استطراد:

أهل «نسئة»، كما ذكر المفسرون العظام بالبحث والتعريف، هم طائفة من عرب الجاهلية احترفوا القتل والسطو واعتادوا الصيد والقنص وحياة القلق. وحسبما تقضى شرائع إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بمنع الحرب والجدال فى شهور رجب وذى القعدة وذى الحجة ومحرم، وكان ترك العادات المألوفة لمدة ثلاثة شهور متصلة أمرا ثقيلا على هذه الطائفة المذكورة فإنهم قالوا: لا طاقة لنا ولا نستطيع الصبر على ترك الحرب والقتال من ذى القعدة إلى صفر بشكل متصل.

أى الجلوس فى الخيام والاستراحة لمدة ثلاثة أشهر متصلة. وأعلنوا وأشاعوا بغير تردد عن ضيقهم من حكم هذه الشريعة الإبراهيمية (على رسولنا وعليه التحيات).

(قلمس بن عبد بن فقيم) الذى ينتسب إلى جماعة قبيلة ينتهى نسبها إلى كنانة، لجأ هذا الرجل إلى طريقة غريبة لكى يبطل ويفسد حكم عدم القتال فى

(١) وتسمى أيضا ركز القبة.

الشهور المذكورة، إذ ركب ناقة فى موسم الحج السنوى الذى يعلن فيه البدو عن أفكارهم وخاطب أفراد القبائل الموجودة بالقرب منه وهو يريد أن يختبر درجة قوة عقيدة الذين هم على دين إبراهيم وإخلاصهم لها، فقال ما معناه: يا معشر العرب إن إلهكم قد أحل لكم هذه السنة شهر محرم ونقل حرمته إلى شهر صفر، وعلى الفور قامت مجموعة ممن أخذوا برأى قلمس وقوله بالإغارة وقتل قبائل البدو اعتبارا من تلك اللحظة، وعندما رأى قلمس أن حكمه فى هذا الأمر قد استقبل باستحسان وعرف أن فكره سيروج وقف فى موسم الحج فى السنة التالية خطيبا بينهم وأعلن أن حرمة شهر محرم قد تأجلت بأمر الله إلى شهر صفر، أى أن شهر محرم حلال وأن شهر صفر سيكون حراما بدلا منه واستقبل هذا الأمر عند أفراد جميع القبائل بسرور زائد.

وتصديقًا لهذا اعتاد أن يخطب فى كل موسم حج ويؤجل حرمة الشهر الذى يريده إلى شهر آخر.

وبعد قلمس انتقلت هذه العادة السيئة إلى ابنه عبادة وبعد وفاته إلى «قلع بن عبادة»، ومن بعده أيضا إلى «أمية بن قلع» ومن بعده إلى «عوف بن أميه» وعندما توفى عوف انتقلت إلى ابنه «أبى ثمامة جنادة بن عوف» وعندما أشرقت شمس الإسلام وظهرت أشعتها فى الأفق فى زمان أبى ثمامة جاءت الآية الجليلة لتبطل العادة المذكورة وتلغيها.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٣٧).

واختلف المفسرون فى تحديد اسم الشخص الذى تجرأ وابتدع هذه العادة القبيحة فادعى بعضهم أنه نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة، وادعى البعض الآخر أنه جنادة بن عوف وبعضهم ادعى أنه قلمس بن عبد بن فقيم، والذين قالوا إنه قلمس بن عبد بن فقيم يؤيدون ادعاءهم بذكر قول الشاعر:

وفينا ناسئ الشهر قلمس

والقول الأخير مصدق عند الجمهور وجدير بالقبول والشخص المدعو قلمس[1] هو الجد الخامس لجنادة بن عوف الذى أدرك عصر النبوة.

ورغم أنه يوجد من يقولون بما ذهب إليه عبد الله بن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهما، أن من وضع العادة السيئة بتأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، هو عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف إلا أن المفسرين اتفقوا على صحة القول الأول ورواة القول الثانى لم يستطيعوا أن يرتقوا بقولهم إلى مرتبة الصحة والتواتر.

وقد نقلنا هذه التفصيلات التاريخية عن أهل السنة من التفسير القيم للإمام فخر الدين الرازى ـ عليه رحمة الله الهادى ـ ويقول الإمام الرازى قبل أن ينقل ويروى الأخبار والدراسات المتواترة للمفسرين إن حسابات عرب الجاهلية كانت مرتبة حسب السنة القمرية، ولهذا فإن شهور العرب فى زمن الجاهلية، كانت تعد اعتبارا من رؤية الهلال وقد اعتادوا أداء فريضة الحج فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة اتباعا لسنة سيدنا الخليل. وبهذا الحساب كان موسم الحج لا يتفق مع فصل بعينه كل سنة فكان أيضا يصادف أبرد أيام الشتاء وأحيانا يصادف أكثر أوقات فصل الصيف حرارة ولهذا فإن بعض المتأخرين من زمن الجاهلية لم يكونوا يجرأون على الذهاب أو المجئ إلى مكة المكرمة فى أوقات اشتداد البرودة والحرارة، وكان من يترددون عليها بسبب التجارة لا يتمكنون من البيع والشراء فى هذه الأوقات التى توافق وقت التجارة بسبب قلة عدد الحجاج.

وفى النهاية أحيل الأمر إلى مجلس قومى[2] يتكون من ممثل لكل قبيلة لإيجاد حل مناسب لهذا الأمر. وذهبت الهيئة المذكورة إلى أن الشهور المرتبة للسنة القمرية دخل بالمصالح الدنيوية ورأوا حلول موسم الحج فى وقت معتدل ومثمر حيث تزدهر حركة البيع والشراء على الوجه المطلوب ويسهل التردد على الأسواق والملاهى التى تقام عند أطراف مكة وقالوا: فإن أضيف شهر إلى شهور

(١) اسمه حذيفة وهو ممن اشتركوا فى واقعة أصحاب الفيل.

(٢) إن إمكان إحالة رياسة هذا المجلس إلى قلمس بن عبد بن فقيم بعيد الاحتمال لذا لا يوجد بين أقوال المفسرين وبين رواية الإمام الرازى.

هذه السنة نسأ أفراد القبائل شهرا. وأنه إذا روعيت هذه الأصول مرة كل ثلاث سنوات، فإن موسم الحج سيأتى فى كل سنة فى فصل ثم واحد من المحاصيل وبناء عليه يأتى الناس بمحاصيلهم فيكون حجا وزيارة وفى الوقت نفسه تجارة ورتبوا الشهور وفقا للسنة الشمسية ولأن السنة الشمسية تفترق قليلا عن السنة القمرية، احتاجوا إلى إضافة أيام فجمعوا الفروق التى تحدث بينهما وأضافوا شهرا إلى بعض السنوات واعتبروا أن شهور تلك السنوات ثلاثة عشر شهرا. وبعد هذا الترتيب صادف الحج فى بعض السنوات بشهر ذى الحجة ونقل من شهر إلى آخر.

وظهر نتيجة هذا النقل أمران هما زيادة شهر على بعض السنوات من فائض الأيام التى تنتج عن تجميع أيام السنة الكبيسة وتأخير شهر حرام إلى شهر آخر ولأن العبادات المرتبطة بالسنة القمرية تخل بالمصالح الدنيوية على زعمهم، تركوا حساب السنة القمرية وربطوا عباداتهم بحساب السنة الشمسية وأخروا ونقلوا شهرًا حرامًا إلى أشهر أخر.

والواقع رغم أنه قد تبدو فائدة دنيوية فى تركهم هذا إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أمر باتباع حساب الشهور القمرية منذ عهد إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ عهد الهداية.

وبينما الحال يجرى على هذا الوضع ترك أهل الجاهلية الأمر الإلهى باتباع حساب السنة القمرية من أجل أن يحققوا حسن سير المصالح الدنيوية، وأخذوا بترتيب السنة الشمسية ونتيجة لحدوث هذا الترتيب بدئ فى تأدية الحج فى شهور غير الأشهر الحرم وكانت هذه الجرأة الجاهلية سببا فى إمعانهم فى الكفر، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد حدد حجهم فى الأشهر الحرم وحدها وإنهم فضلوا مصالحهم الدنيوية على التعليمات الدينية، إذ اتبعوا العمل بالسنة الشمسية وحجوا فى غير شهور الحج بوجود أيام كبيسة فى السنة الشمسية وتجرأوا على القول لحمل أتباعهم على قبول فكرتهم والعمل بحسابهم وليس باتباع حساب الشهور القمرية.

وازداد كفرهم بترك وإنكار أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى تطيعه كل الكائنات، وقد قام نبينا صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ بأداء الحج الشريف فى شهر ذى الحجة من السنة التى تكمل فترة دور النسئ[1] ولكى ترجع الأشهر الحرم إلى وضعها القديم أى لكى يصادف الحج اليوم العاشر من شهر ذى الحجة بعد مرور اثنى عشر شهرًا من موسم الحج فقد قال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب الذى بين جمادى وشعبان» أو كما قال.

والمناصب التى جمعها «قصى بن كلاب» كانت كلها محترمة ومرغوبة عند عرب الجاهلية وتعتبر كل وظيفة منها من أقدس وأعظم الوظائف بين القبائل وكانت كل الوظائف المذكورة مسندة إلى أكثر الرجال مكانة وثراء من قبائل قريش، وكانوا يتوارثونها أبا عن جد بطنا بعد بطن.

الحجابة:

وكان أهل الجاهلية يطلقونها على مهمة حفظ أستار باب الكعبة المعظمة.

وفى زمن جاهلية العرب كانت خدمة بيت الله مفتاح مصباح السعادة، لذا استحوذت على الحجابة الأيادى القوية الخيرة وأخيرا انحصر منصب سدانة كعبة الله فى أسرة بنى عبد الدار بن قصى بن كلاب.

وأشرق نور نبينا كاسر الأصنام والأوثان وناشر أنوار الإيمان عليه صلوات الله المنان، وسدانة الكعبة المعظمة فى يد «عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى.

وتلطف ـ ﷻ ـ بعثمان بن طلحة ـ رضى الله عنه ـ وأسعده بأن أعاد إليه وأنعم عليه مرة أخرى بالمفتاح الشريف لكعبة الله بموجب الآية الكريمة التى نزلت بأن يطهر الحرم الشريف من الداخل والخارج من رجس الأصنام.

(١) سنة حجة الوداع.

وسبب الخدمة الجليلة لحجابة كعبة الله، فى أولاد عبد الدار هو الآتى: عندما تقدم العمر بقصى بن كلاب وصار شيخًا كان ابنه الثانى «عبد مناف» قد أصبح له من الشرف والمكانة بين قبائل العرب القدر الكبير ولم يتمكن أحد أن ينال مثل هذا الشرف وهذه المكانة ليس فقط من بين إخوته بل من بين صناديد أشراف قريش قبل والده وبعده.

ولما كان ابن كلاب يحب ابنه الأكبر عبد الدار من بين أولاده حبا جما واتفق مع زوجته «حبى» فى هذا الحب، لذا كانا يأملان أن ينال من الشرف والمكانة مثل ما ناله أخوه الأصغر عبد مناف.

واستبدت رغبة «حبى» بهذا الأمر حتى لم تعد تطيق صبرا على كتمانها، فقالت ذات يوم لزوجها قصى إننى سأغضب منك إن لم تؤمن لعبد الدار فى أثناء حياتك ما يجعله يحظى بالفخر والشرف بين القبائل فقال لها: بل اسعدى، فإننى سأسند إليه أمرا يجعله يشرف من يقوم به بين الناس، أتريدين أن تعرفى أية خدمة جليلة هى؟ إنها حجابة الكعبة العظمى ورئاسة دار الندوة حيث لا يستطيع أحد من أشراف قريش وسادات القبائل أن يدخل البقعة المقدسة لكعبة الله طالما لم يحصل على إذن من صاحب هذا المنصب. كما لا يمكن أن يرسل الجند إلى أية ناحية ما لم يصدر، وبناء على هذا قام قصى بن كلاب بتقسيم مناصب السنة المكرمة المعززة بين الناس وهى «السدانة والرئاسة والسقاية والرفادة والقيادة واللواء» بين ولديه عبد الدار وعبد مناف فأعطى عبد الدار سدانة الكعبة، ورئاسة دار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف خدمات السقاية والرفادة والقيادة.

وظل قصى يؤدى بنفسه هذه الخدمات الجليلة إلى أن وافته المنية، وعند وفاته أصبحت هذه الخدمات بموافقة صناديد القبائل لابنه عبد الدار وعند وفاة عبد الدار أصبحت سدانة الكعبة لعثمان بن عبد الدار، ورئاسة دار الندوة لعبد مناف بن عبد الدار، وقد تولى رئاسة دار الندوة أيضًا أبناء عبد مناف بن عبد الدار فى

حياة أعمامهم وذلك بأمر وتكليف منهم، ولهذا إذا أراد أحد من قريش أن يتناقش فى أمر مشكل كان يرجع إلى «عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار»، فيفتح دار الندوة ويرأس الأشراف الصناديد المجتمعين وكان أمر الرئاسة مسندا أحيانا إلى أبناء هاشم بن عبد مناف، وأحيانا أخرى إلى أبناء أخيه.

وقد انتقلت حجابة كعبة الله بعد عثمان بن عبد الدار إلى أبنائه وفى النهاية انتقلت إلى «عبد العزى بن عبد الدار» وعند وفاته انتقلت إلى «أبى طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار» ثم إلى أولاده وأحفاده بعد وفاته.

عندما هاجر «عثمان بن طلحة» إلى المدينة المنورة وانفرد ابن عمه «شيبة بن عثمان» بمفتاح الكعبة الشريفة ومازال إلى الآن فى حوزة يد أولاد وأحفاد شيبة بن عثمان.

السقاية:

على وزن النهاية وكانت وظيفة خاصة بتقديم الماء العذب إلى الحجاج القادمين وذلك فى الجاهلية.

وفى نهاية فترة الجاهلية وبداية صدر عصر الإسلام ونتيجة لقلة الماء العذب فى مكة المكرمة كانوا يجلبون المياه من أماكن بعيدة، ويخلطونها بأشياء مثل التمر والزبيب، ثم يوزعونها على الحجاج كالشراب. وكان القيام بهذه المهمة الجليلة يسند إلى من يتولى المنصب الجليل «سقاية الحج».

وكان الذين يوكل إليهم سقاية الحجيج إلى ظهور ماء زمزم المكرم كما ذكرنا يملئون قربا كثيرة بالماء الذى يحصلون عليه ويتخذون لهم مكانا فى جانب الكعبة ويقدمون الماء لسقاية العطاش من الحجاج وكان السبب الرئيسى لابتداع هذه المهمة فقدان الماء فى مكة.

ذلك لأنه فى أواخر العهد الجاهلى لم يكن فى مكة المعظمة آبار للماء سوى الآبار التى أمر بحفرها «عبد شمس بن عبد مناف» فى ذى طوى وهاشم بن عبد

مناف فى المكان المسمى (شعب أبى طالب ومطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف فى المسفلة)، والآبار الآتى ذكرها والتى خص أصحابها بها أنفسهم وهم أمية بن عبد شمس، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو الحجاج وبنو سهم ومرة بن كعب[1] وبنو كلاب بن مرة. ولهذا كان سواء الأهالى أو الحجاج يعانون من متاعب كثيرة بسبب قلة الماء، بناء عليه أنشأ قصى بن كلاب وظيفة سقاية الحج. وأنقذ أهل مكة إلى حد كبير من أزمة المياه.

(١) كانت بئر مُرّة بن كعب خارج المدينة.

الآبار الموجودة فى مكة المعظمة
قبل ظهور بئر زمزم الشريف

كان يوجد فى مكة المكرمة قبل ظهور زمزم الشريف ثمانية آبار معروفة مخصصة لسقاية الأهالى وهى: طوى، بذر، سجله، حفر، سقية، أم حراد، سنبلة، غمر.

ولهذا كان المكلفون بمهمة السقاية يأتون بالماء من هذه العيون ويعدون الشراب على النحو الذى وضحناه آنفا وكانوا يسارعون لسقاية الحجيج القادمين.

طوى:

اسم البئر التى حفرها عبد شمس بن عبد مناف على النحو الذى سبق التعريف به. وكانت هذه البئر تقع بجوار قصر محمد بن يوسف الثقفى المعروف باسم «بيضاء» الواقع فى الطرف العلوى من مكة المقدسة. وهى الآن من الآثار القديمة والتى تقع فى مكان يسمى «ذى طوى».

بذر:

اسم البئر التى حفرها هاشم بن عبد مناف، ويروى أنها كانت تقع فى ميدان شعب أبى طالب فى جبل خندمة وهى مندثرة الآن.

سجله:

هى البئر التى حفرها مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وحسب ظن واعتقاد بنى نوفل أن مطعم بن عدى قد اشترى هذه البئر من أسد بن هاشم، ويقرر بنو هاشم أنه عندما ظهر زمزم الشريف وأغنى عن سائر الآبار قدم هاشم بن عبد مناف البئر المذكورة هبة منه إلى مطعم بن عدى.

حفر، سقية، أم أحراد، سنبلة، غمر:

هذه الآبار لا تعرف الجهات الكائنة بها، وبناء على الروايات التى تقول أن «حفر» هى البئر التى حفرها أمية بن عبد شمس وبئر بنى أسد «سقية» حفرها بنو أسد بن عبد العزى، و«أم أحراد» حفرها بنو عبد الدار، وسنبلة «بئر خلف بن وهب حفرها بنو جمح، و«غمر» حفرها بنو سهم لأنفسهم، وهذا يقتضى أن هذه الآبار موجودة فى عصر الصحابة.

وكانت الآبار الثلاثة المسماة «رم»، «خم» و«حفر» خارج مدينة مكة الشهيرة. وقد أمر مرة بن كعب بن لؤى بحفر بئر رم. وكلاب بن مرة بحفر خم، وحذيفة بن غانم بحفر بئر حفر، وأصبح فى حكم العادة فى مكة أن يجلب كبراء قريش الماء الذى يشربونه من هذه الآبار.

وعندما ظهر ماء زمزم وكان أصفى وأحلى من كل المياه، بدأ الناس فى الامتناع عن شرب مياه الآبار المذكورة ليس فقط لعذوبة مائه ولكن لقرب موقعه أيضا.

وفى الواقع فإن بئر زمزم الشريف الذى هو أحلى من مياه كل الآبار والعيون؛ لأنه بئر سيدنا إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام.

وعندما توفى عبد مناف بن قصى انتقلت مهمة سقاية الحجيج الجليلة، وخدمة الرفادة إلى ابنه هاشم بن عبد مناف، قام هاشم بمهمة السقاية هذه على أكمل وجه طوال فترة حياته، وبعد وفاة هاشم بن عبد مناف أسندت هذه الخدمة إلى أمية بن عبد المطلب، وقد استمر فى القيام بمهمته حتى ظهور بئر زمزم الشريف.

وبما أن عبد المطلب كان يملك كثيرا من الإبل، فقد كان يحلب ألبانها فى موسم الحج ويمزج لبنها بالعسل، ويمزج ماء زمزم بالزبيب، يقدمه للحجاج ليشربوا منه ويرتووا. وعندما توفى عبد المطلب بن مناف، انتقلت مهمة سقاية الحج إلى ابنه الأصغر عباس «رضى الله عنه».

وعندما انتفت الحاجة إلى سقاية الحجاج على النحو السالف لوجود ماء زمزم، كان عباس يجفف عنب الحدائق التى اشتراها فى الطائف ويمزج ماء زمزم بالزبيب، ويقدمه للحجاج وذلك اقتفاء لأثر والده.

ولما كان القيام بمهمة سقاية الحج فى زمن الهادى الذى منح النضارة لقلوب الناس القاحلة بماء حياة الإسلام، موكلة إلى عباس بن عبد المطلب بن هاشم، فقد تفضل النبى ﷺ بإلقاء هذه المهمة فى يده بإسنادها إليه رضى الله عنه.

مسألة:

ـ هل يجوز سحب السقاية من بنى عباس؟

والجواب: لا يجوز لأنها أسندت إليهم من قبل نبينا صاحب الشريعة عليه أجمل التحية وإذا كان إسناد خدمة السقاية المستقلة فى ظل نور الإسلام حقه أن يسند إلى أبى طالب بن عبد المطلب، فإنه كما سنوضح فيما بعد، فإن أبا طالب عندما استبدت به الحاجة، اقترض مبلغا من المال من سيدنا عباس ولما لم يستطع سداد هذا المال، ترك سقاية الحج المسندة إليه عن طيب خاطر وتبرع بها إلى عباس بن عبد المطلب تسوية للدين.

وعندما كان عباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ على قيد الحياة، كان يتولى بنفسه متابعة مهام سقاية الحجيج، وبعد وفاته انتقلت هذه الخدمة المقدسة إلى أولاده وأحفاده ثم إلى خلفاء بغداد، وفى النهاية انتقلت إلى يد أبناء الزبير ابن العوام.

لاحقة:

فى أثناء خلافة وليد بن عبد الملك عين خالد بن عبد الله القسرى واليا على مكة، وبناء على رأيه المجانب للصواب أصدر الأوامر بأن يحفر بئرًا فى كل من «ذى طوى» و«حجون» وذلك ليخفف عن الناس أزمة المياه[1].

وبما أن مياه هذه الآبار التى تم حفرها كانت أعذب من مياه بقية الآبار، فقد

(١) فيما يتعلق بانتقال السقاية إلى الزبيرانظر ما جاء فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

سعد أهل مكة من حفر هذه الآبار واعتادوا على شرب مياهها دون أن يشربوا من مياه الآبار الأخرى.

وعندما رأى خالد بن عبد الله ميل الأهالى وتعلقهم بمياه هذه الآبار صعد المنبر على الفور وقال: «أيها الناس من الأعظم، الخليفة الذى تم اختياره وعين لإدارة شئون الأهالى أم الرسول الذى بعثه الله، فمن الممكن ألا تعرفوا عظمة الخليفة بينما سقى خليل الله إبراهيم ـ عليه التحية والتعظيم ـ ملح أجاج قد سقى خليفتكم ماء عذب فرات.

وبهذا كان يريد أن يفضل مياه هذه الآبار على ماء زمزم الشريف وأمر بصنع حوض من الجلد المدبوغ فى الحرم الشريف، وأن يملأ بماء هذه الآبار التى حفروها، وكأنه كان يريد أن يشير إلى أن مياه هذه الآبار أفضل من ماء زمزم الشريف.

والحال أنه بعد فترة انقطع ماء الآبار المذكورة تماما وانطمست الآبار ولا يوجد الآن من يعرف مكان هذه الآبار.

اللواء:

هو اسم مهمة فى الجاهلية مشهورة بين القبائل باسم اللواء.

وإن كانت هذه المهمة مقصورة على رجال أسرة بنى أمية، إلا أن ألوية قبائل قريش المسماة (العقاب) كانت مع حامل اللواء الذى يتولى المهمة المذكورة.

ومن جملة عادات الجاهلية أنه إذا استدعى الأمر تعبئة الجنود وتوجيههم إلى مكان ما، كان الشخص الذى يتباهى بالقيام بهذه المهمة يعقد مجلس الحرب. ويغرس الراية المذكورة حيث يشاء فيحتشد حولها أبطال قريش وكانت تعلن الحرب بغرس اللواء المذكور فى المكان الذى حدده عاقد اللواء عند وقوع الحرب ويجتمع الرجال المسلحون عند اللواء المذكور ويتم توجيههم إلى المكان الذى ستدور فيه الحرب.

وقد ظهر لواء الإسلام السعيد أثناء تولى أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس مهمة حمل لواء قريش.

وقد انتقلت مهمة حمل اللواء بعد قصى بن كلاب إلى أبيه عبد الدار وعندما توفى انتقلت إلى أولاده وأحفاده. وظلت فى حوزة أكثر أفراد هذه الأسرة نفوذا حتى زمن غزوة أحد الجليلة، أيا من كان هذا الشخص، لكن جميع أفراد هذه الأسرة قتلوا جميعا فى الغزوة المذكورة.

الندوة.معناها الاجتماع:

وكانت الندوة تطلق على المجلس الذي يجتمع فى دار الندوة[1] التى بناها قصى بن كلاب فى الجاهلية. وكانت القرارات التى تصدر عن هيئة هذا المجلس تلقى قبولا حسنا بين القبائل بدون النظر إلى هذه القرارات هل هى صحيحة أم خاطئة، حسنة أم قبيحة؟

وبما أن المسائل الهامة المتعلقة بأهالى مكة المعظمة كان يتم بحثها فى هذا المجلس حتى إعطاء الإذن بزواج البنات كان يصدر من الهيئة المجتمعة فى دار الندوة، لذا كان ممنوعا منعا باتا أن يحضر الاجتماع فى دار الندوة من لم يبلغ العقد الرابع من عمره أى لم يبلغ أربعين سنة من عمره من رجال القبائل باستثناء أبناء قصى بن كلاب.

وكانت إدارة الهيئة المذكورة مسندة إلى أحد أصحاب النفوذ من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب رئيسا وعدد محدود من الأعضاء.

ولما كانت رئاسة هيئة دار الندوة موكلة إلى يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فقد أذن سيدنا محمد النبى رئيس مجالس الأنبياء أن يستمر يزيد فى أداءه مهمته بادئا بالبسملة فى اتخاذ الإجراءات الشرعية.

السفارة:

تم إنشاء هذه الوظيفة لإصلاح ذات البين، فإذا وقع نزاع بين أى قبيلتين أو جرى شجار أو نزاع بين رجلين، فإن الشخص القائم بمهمة السفارة يقوم مقام الحد الفصل فى القضية. وحكمه وقراره الذى يصدره لا يرد مهما كان القرار. وبذلك ينتهى النزاع.

(١) يطلق عليه أيضا منصب مشورة الأمور.

وكان منصب السفارة حكرا على أسرة بنى عدى بن كعب وعندما آل منصب السفارة إلى سيدنا عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب رضى الله عنه تولاه بنفسه وقد حان الوقت السعيد الذى ظهر فيه الذى أظهر المعجزات فى حل أصعب المشكلات ـ ﷺ.

النظارة:

كانت وظيفة مثل إدارة الرسوم فإذا نقلت أحمال أو أثقال أو البضائع من مكان إلى آخر، كان من الأصول المرعية فى الجاهلية أخذ رخصة حمولتها أو موقعة من الموظف الذى يتولى مهمة النظارة.

وقد بُعِثَ النبى ﷺ وأبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ لنظارة قبائل بنى تيم، يتولى هذه المهمة.

صاحب القبة ومعناه ناصب الخيمة:

وكانت هذه الوظيفة وظيفة متواضعة فالذى يكلف بها كان ينصب خيمة لعظماء قريش.

إذا ما حدث شىء يشغل قريشا أو يحزنها أو إذا أيد بعث حملة عسكرية إلى جهة ما أو إذا اقتضى الأمر المشورة فى حادث مهم فكان صاحب القبة بحكم وظيفته ينصب خيمة فيجتمع فيها زعماء قريش يديرون الأقداح ويتشاورون.

ولما ثبت النبى ـ ﷺ ـ روح خيمة الإيمان كان هذا المنصب فى بنى مخزوم بن نقيط بن مرة وكان خالد بن الوليد بن المغيرة يتباهى ويفتخر بمنصب نصب الخيمة هذا.

الأزلام:

جمع زلم يطلق على سهام القرعة، كان العرب فى الجاهلية يقتسمون أموالهم بالسهام التى تسمى «الأزلام» ويتفاءلون بها.

وكانت وظيفة استخدام السهام وحفظها وظيفة مهمة إلى حد ما، لذا كانت لاتسند إلى أى شخص. وكل من يريد القيام بعمل ما كان يرجع إلى هذا الموظف ليعرف وجه الخير أو الشر. فى هذا الأمر وكانوا يعملون برأى هذا الموظف بعد إجراء القرعة.

طريقة التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام:

كان يؤتى بالسهمين ويوضعان فى جراب وقد كتب على واحد منهما كلمة «أمر» وعلى الآخر كلمة «نهى» ثم يكلف الشخص الذى يريد أن يتفاءل أن يخرج سهما من الجراب اعتباطا. وكان يلزم العمل بما كتب على السهم الذى أخرجه.

وكان يحتكر هذه الوظيفة بنو جمح بن عمرو بن كعب ويديرونها، وكان أفراد القبائل الأخرى يحبذون طريقتهم فى إجراء القرعة ويرضون بها.

وقد بعث خاتم الأنبياء ـ عليه صلوات الله الرحمن ـ وصفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يتولى هذه العملية.

قرعة العرب فى الجاهلية

إن وظيفة التفاؤل بالأزلام كانت وظيفة مهمة عند العرب وكانوا يتفاءلون بثلاثة سهام؛ إلا أن العرب فى الجاهلية كانوا يقومون بإجراء أنواع أخرى من القرعة، وإنهم كانوا يلعبون القمار بالسهام فى شكل غريب.

من أشهر أنواع القمار عندهم كانت القرعة التى تسحب بالأزلام الكائنة عند «هبل» وكان يجمع بين هذه السهام وسهام الطالع وهو الذى كان يطلق عليه الميسر.

لأن العرب فى الجاهلية كانوا يحتفظون بجانب «هبل» صنمهم الكبير بسبعة سهام، وعند اللزوم كانوا يقترعون بهذه السهام ويعملون بموجبها.

وكان مسطورا على كل سهم من السهام كلمات مختلفة مثل: «دية المقتول» أو

«نعم الأمر» أو «لا» أو «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فإذا ما اختلف فى دية المقتول كانت تجرى القرعة بين أسماء المظنونين وبين سهم «دية المقتول» وكان الشخص الذى تصيبه «دية المقتول» يضطر لدفع الدية.

وكان أهل الجاهلية يقترعون بسهام «نعم ولا» فإذا ظهر سهم «نعم» يحكمون أن هذا العمل خير وعند ظهور «لا» يحكمون بأنه شر، وفى الحالة الأولى يمضون رأسا فى عملهم، وفى الحالة الثانية يؤجلون العمل سنة أخرى، ويجددون القرعة لنفس العمل.

إذا ما شك فى نسب شخص ما كانوا يقترعون بسهام «منكم ـ من غيركم ـ ملصق»، فإذا أصابت قرعة منكم، فيكرمون ذلك الشخص ويعزونه ويسعدونه، فإذا أصابت القرعة «من غيركم» يعتقدون أن القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الشخص فى حلف معهم، أما إذا أصابت القرعة «ملصق» يحكمون بأن ذلك الشخص مجهول النسب، وإنهم يثقون ثقة تامة فى نتائج الاقتراع بتلك السهام.

وإذا أرادوا أن يحفروا بئرا أو أن يكشفوا عن منبع ماء كان يكتب على السهم كلمة «مياه» وكانوا يقترعون به لتعيين محل الحفر أو الكشف.

وإذا أرادوا أن يختنوا طفلا أو أن يزوجوا بنتا أو يدفنوا ميتا كانوا يقترعون كما ذكرناه من قبل، ويعملون بموجب تلك القرعة.

إن الاقتراع بتلك النيات لم يكن يجرى فى أى مكان بل كان يجرى أمام هبل المنصوب داخل الكعبة، ويقوم به خادم ذلك الصنم.

وكان على الشخص الذى يرغب فى إجراء القرعة إعطاء خادم هبل مائة درهم وعدة رءوس من الإبل أو الغنم أو حيوانات أخرى، لتذبح قربانا، ثم يتجه إلى هبل قائلا: إن فلان بن فلان قد اشتبه فى نسبه، أو نريد أن نختنه ـ أو نزوجها ـ فدلنا على الحقيقة ووجهنا إلى ما يجب عمله.

وبعد ما يلهج بمثل هذه الكلمات يذكر الأمر الذى من أجله يريد أن يجرى القرعة، ويتضرع لهبل طالبا منه أن يظهر الحق والصواب فيما هو مقدم عليه،

وبعدما يذبح الحيوانات التى جلبها معه ويوزعها على الفقراء ثم يشير بإجراء القرعة، وهذه من جملة شروط القرعة ومن هنا كان على الذين يريدون إجراء القرعة أن يوفروا مقدارا من النقود، وأن يعدوا بعض الحيوانات ليقدموها لخادم هبل الذى يذبح الحيوانات ويوزع لحمها للفقراء، ثم يأمر بإجراء القرعة وكانوا يعملون بما جاء فى القرعة.

ولا يقتصر مكان إجراء القرعة على هبل بل يجوز لأى واحد من أهل الجاهلية إجراء القرعة فى أى مكان كان، وهذا نوع من أنواع قراءة الطالع، وكانت هذه القرعة تتم ـ أيضا ـ باستقسام الأزلام وقطع الخشب سالفة الذكر.

وكان يطلق سواء على قطع الخشب التى بجانب هبل أو قطع الخشب التى فى حوزة الناس أزلام ـ أقلام ـ أقداح. وإذا ما ترجمناها إلى اللغة التركية فمعناها سهام، إن الأخشاب التى يستعملها قارئ الطالع ثلاث قطع كتب على أحدها «أمرنى ربى» وعلى الثانية «نهانى ربى» وترك الثالث بدون كتابة أو إشارة. وكان قارئ الطالع فى الجاهلية يباشر عمله؛ ليبين للذين يلجأون إليه طالبين حكم الأزلام فيما يقدمون عليه من عمل، فيقوم بخلط الأسهم الثلاثة ثم يضعها فى جراب ويختار أحد الأشخاص الذين يثق فيه أصحاب الشأن، ويطلب منه أن يدخل يده فى الجراب ويخرج السهام واحدا تلو الآخر، ويقرأ ما كتب عليها ويبين حكم القرعة.

وكان لابد أن يعتقد أهل الجاهلية إذا أصابت القرعة كلمة «أمرنى ربى» أن هذا العمل خير وإذا أصابت القرعة السهم الذى يكتب عليه «نهانى ربى» أن هذا الفعل شر، وإذا أصابت القرعة السهم الخالى من الكتابة كانت إعادة إجراء القرعة بعد مرور سنة من الضرورات الدينية.

وبناء على هذا فالذين يريدون القيام بعمل ما ويريدون أن يعرفوا وجه الخير أو الشر فى هذا العمل، يلجأون إلى قراءة الطالع ويجرون القرعة بثلاثة أسهم يضعونها فى جراب بعد أن يخلطوها، ثم يكلفون أحد الذين يثق بهم صاحب

الشأن فى حسن طويته ويجعلونه يمد يده داخل الجراب، ويخرج السهام واحدًا واحدًا وينظرون على المسطور فوق السهام وينطقون ببعض الكلمات يبينون إذا ما كان فعل هذا الأمر خيرا فيمضون فى فعله أو شرا يمتنعون عنه.

ومن جملة شروط إجراء القرعة أن يلف الرجل الذى يدخل يده فى الجراب قطعة من الجلد المدبوغ الناعم حول يده تسمى ريانة والغرض من هذا ألا يحس الرجل بعلامة ما على السهم فيخرجه ويجامل الأشخاص الذين يحبهم ويخرج لهم ما يريدون من السهام.

وكانت مهمة الرجل الذى يقوم بإجراء القرعة بالأزلام مهمة رسمية يقوم بحل الخلافات التى تحدث بين الحكومة والقبائل، ويفصل بينهما بينما يقوم الآخر بالفصل فى الخلافات التى تحصل بين الأفراد بعضهم بعضا ومن هنا كان يختلف كل منهما عن الآخر.

وذهب بعض المؤرخين فيما نقلوه من روايات، أن الاستقسام بالأزلام هو إنه عند ما يهم إنسان بالقيام بعمل مهم يأخذ معه ثلاثة سهام أو سبعة منها ويضعها فوق الحجارة التى نصبت حول المسجد الحرام والتى يقال لها نصب[1] ويستمد من هذه الحجارة المعونة فى تحقق تلك الأعمال، ويذبحون لها قرابين طلبا لرضاها.

لعب القمار فى الجاهلية

كان الناس فى الجاهلية يلعبون القمار بضم وجمع عشرة سهام واسم هذه اللعبة «ميسر» وهذا بناء على تدقيق علماء التفسير العظام ـ رحمهم الله العلى ـ وأخبارهم، وإطلاق لفظ ميسر لهذه اللعبة، لأنه يمكن كسب المال بيسر وسهولة فيها.

وكان يجتمع عدة من أغنياء الجاهلية ويشترون بالدين كثيرا من الجمال على أن تدفع أثمانها فيما بعد ويذبحون هذه الإبل ويقسمون لحومها ثمانية وعشرين جزءا

(١) ومن الروايات الموثوقة أن هذه النصب كانت أصناما وكان عندها ثلاثمائة وستين قطعة.

ثم يقسمون هذه الأجزاء على عشرة سهام وهذه السهام هى ١ـ فذ ٢ـ توام ٣ـ رقيب ٤ـ حلس ٥ـ نافس ٦ـ مسبل ٧ـ معلى ٨ـ منيح ٩ـ سقيح ١٠ـ وغد.

وبناء على أصول لعبة الميسر يجعل ويفرز لكل سهم أنصبة معينة وتترك بعضها من غير نصيب وكان لفذ نصيب واحد وللتوأم نصيبان وللرقيب ثلاثة أنصبة ولحلس أربعة ولنافس خمسة ولمسبل ستة ولمعلى سبعة وتترك سهام منيح وسقيح وغد بدون أنصبة.

ويذبح المقامرون الأغنياء هذه الإبل ويقسمونها أنصبة حسب حصص الأسهم المذكورة، ويضعون كل نصيب فى مكان معين ثم يضعون السهام فى جراب أو إناء بعد أن يخصص لكل مشترك جرابا باسمه، ثم يسحبون بواسطة رجل موثوق سهما من جراب كل مشترك ويعطون نصيب كل واحد منهم حسب ما جاء فى السهم.

والشخص الذى أصابه سهم من السهام التى لا نصيب لها لا يأخذ شيئا من لحوم الإبل ولكنه يجبر على دفع نصيبه من ثمن الإبل.

وبعد سحب القرعة وجمع نقود الإبل وتوزيعها وتسليمها إلى أصحابها، يقوم كل واحد منهم بتوزيع كل اللحم الذى كسبه على الفقراء مباهيا مفتخرا.

وكانوا يذمون الذين لا يشتركون فى اللعبة ويصفونهم بالبخل والتقتير، بل وينشدون قصائد الهجاء فى ذمهم. «انتهى»

خازن الآلات والأموال:

هذه الوظيفة عبارة عن نظارة الخزانة[1] العامة وكانت الأموال والأسلحة التى تدخر للحرب توضع تحت عهدة هذا الموظف، وظهرت شوكة الإسلام حينما كانت هذه الوظيفة فى عهدة حارث بن قيس بن عدى بن سهم من بنى سهم بن عمرو بن هصيص، ورفعت حجب الكفر والظلام عن الأنظار.

رفادة:

على وزن إفادة وتأتى بمعنى المسئول عن نفقات أصحاب الحرف وكانت وظيفة هامة وذات مكانة وقد ابتدعها قصى بن كلاب بن مرة.

(١) يطلق عليها بيت المال أيضًا.

وكانت قريش بناء على تصويب ابن كلاب وترتيبه تجمع مقدارا من النقود وتشترى بها التمر والزبيب والحبوب وتقدمه تحية لقوافل الحجاج فى مواسم الحج.

وكان فقراء الحجاج حتى زمن قصى بن كلاب يعانون من مشكلة كبيرة، لهذا فكر ابن كلاب بينه وبين نفسه فى سبيل لحل هذه المشكلة وقرر ترتيب هذه الرفادة.

إذ جمع رجال قبيلته يوما وقال لهم يا معشر قريش إنكم تسكنون حول كعبة الله وتتميزون بلقب سكان أهل البيت، وتتمتعون بالإقامة داخل حدود بلد الله، لذا فأنتم مدينون بإطعام الحجاج الذين يأتون استجابة لدعوة الله.

ولكى تظهروا للضيوف القادمين مظاهر الاحترام على الشكل اللائق بهم، عليكم أن تسارعوا فى مد موائد المآدب لفقراء الحجاج فى كل عام أما إقامة هذه المآدب فيكون بتخصيص مقدارا من المال سنويا وإعطائه إلى وكيل الصرف ليشترى به البضائع اللازمة لإطعام الحجاج. وبما أنه كان نافذ الكلمة بين القبائل العربية فقد استحسن اقتراحه وهكذا وضع نظام الرفادة الشامل النفع وبناء على ذلك أخذت قريش تجمع فيما بينها النفقات اللازمة لهذا الغرض، وكأنها ضرائب مفروضة، وتسلمها لابن كلاب، وهو بدوره يتولى توفير البضائع اللازمة لإطعام فقراء الحجاج فى مواسم الحج وهكذا برزت مظاهر كرمه واحترامه للحجاج.

وقد بعث النبى ﷺ ونظام الرفادة فى يد الحارث بن عامر بن عبد مناف.

وقد أطعم الحجاج فى السنة التاسعة الهجرية بواسطة أبى بكر الصديق وقد أطعم الحجاج فى حجة الوداع بلا واسطة.

وقد قام سادتنا الخلفاء الراشدين بمراسم الرفادة على الوجه الأكمل فى سنوات خلافتهم.

إن نظام الرفادة أو عادة إطعام الفقراء من الحجاج قد انتقلت إلى الخلفاء العباسيين وإلى سلاطين البلاد الإسلامية وكانت تتم بواسطة ولاة ولاية الحجاز الجليلة فى سوق منى فى مواسم الحج.

حكى المرحوم تقى الفاسى من مؤرخى مكة المكرمة ومن الذين شاهدوا رأىَ العين إقامة سماط الرفادة وكتب فى كتابه «تاريخ مكة» وقال: كانت الرفادة فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وأوائل الدول الإسلامية من الأصول المقررة والمرعية وقد رأيت أنا أيضا إقامة موائد الرفادة. كان الطعام الذى سيقدم إلى فقراء الحجاج يطبخ فى صحراء منى السعيدة ويطعم الحجاج إلى نهاية الحج، وذلك بناء على أوامر السلاطين وقد ألغى هذا النظام فيما بعد ولكننى لا أعرف تاريخ إلغائه ولا أتذكر فى عهد مَنْ مِنَ الحكام قد ألغى.

وظلت عادة الرفادة ملغاة إلى يومنا هذا إلا أن القائمين بإمارة مكة يقومون بتوزيع مختلف أنواع الأغذية ومقدار كاف من اللحوم على جنود السلطان وخاصة الحجاج الفقراء الموجودين فى منى منذ عودتهم من المزدلفة حتى يوم توجههم إلى مكة المكرمة.

وفى الليلة الثانية للعودة من المزدلفة تقام احتفالات كبيرة أمام خيام شريف مكة ووالى الحجاز ويتم إطلاق الألعاب النارية خارج خيام المحمل الشامى والمصرى ليبعث الفرح والسرور فى قلوب الحجاج ذوى الابتهاج بمشاهدة هذه المناظر. وفى اليوم الأول من عيد الفطر يقوم شريف مكة كرما منه بمد سماط المآدب الرفيعة إلى رجال الأهالى وموظفى الدولة الموجودين وقد بلغت هذه المآدب من الفخامة ما يفوق الوصف.

وقد حضرت مأدبة سنة ١٢٨٩. قد مدت مائدة يطلق عليها «السماط» فى غرفة مستطيلة وتزينت بكل ما يمكن توفيره من أنواع الأطعمة اللذيذة والفواكه النادرة وقد جلس حولها أمير مكة ووالى المدينة والضيوف.

وكانت المائدة ترتفع عن الأرض مقدار قدم ونصف قدم وكان طولها ٣٩ قدما وكان عرضها تسعة أقدام.

وترك للمدعوين حرية اختيار الطعام الذى يرغبون فى تناوله حسب الأصول وبالتالى كان كل شخص حرا فى القيام أو الجلوس وفق رأيه.

وقد استمر إطعام الضيوف إلى المساء إلا أن حضرة الشريف لم يمكث إلى نهاية الطعام بجانب المائدة.

وقد تم إطعام الضيوف جماعَة بعد جماعة ثم أكرم الضيوف بحضور الأمير بتقديم فنجان قهوة لهم.

وفى هذا اليوم الذى بسط فيه السماط لم يبق إنسان فى مكة إلا وأكل وشبع من هذه النعم، وبما أن هذه الضيافة تقام كل سنة من قبل شريف مكة فإن ما يصرف فيها يساوى ما كان ينفق من أجل الرفادة.

إن كل لقمة مما أعد لإطعام الناس تفوق من حيث الفخامة ما كان يقدم فى العصور السابقة عدة مرات ومع هذا فإن ما يقدم من طعام فى سماط مكة وما يقدم لجنود السلطنة والفقراء من اللحوم والأغذية فى منى لا يوافق أصول الرفادة لأن الأصول المرعية فى الرفادة إطعام الحجاج وبدون استثناء. ويجب ألا تقتصر هذه الضيافة على إطعام الفرقة العسكرية وبعض الفقراء.

ولكننا لو تذكرنا أن عدد الحجاج الواقفين على جبل الرحمة كانوا قلة قليلة فى العصر الجاهلى وكان ما يقدم لهم فى أثناء ضيافتهم التمر والزبيب فإن القيام بمثل هذا العمل غير ممكن فى عصرنا هذا.

فعدد الحجاج فى عصرنا الراهن تجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة ألف، ومأدبة الرفادة من تمر وزبيب قد تحولت إلى أطعمة متنوعة ولحوم مطبوخة لذا فإن القيام بهذا العمل حسب أصول الرفادة فى العصر الجاهلى يكاد يكون مستحيلاً وغير قابل للتنفيذ.

وبما أن مأدبة الضيافة التى أقيمت من جانب الإمارة السنية قد عمت المعايدة الرسمية وكانت سببا فى اختلاط الفقراء مع الأغنياء والوجهاء والأشراف فحسناتها زادت مرات ومرات على أصول الرفادة ونظامها.

شكل السماط

أصول المعايدة: يبدأ أهالى مكة المكرمة مع حلول مواسم الأعياد فى تحسين صلتهم بعضهم مع البعض، وبهذا يجددون علاقات المودة والإخاء فيما بينهم.

ومن العادات القديمة المرعية أن أهل مكة المكرمة يقسمون أيام عيد الفطر، بحيث يكون الاحتفال به فى أحد الأحياء إذ يعلن أصحاب الشأن أن العيد اليوم فى حى فلان ويستقبل أعيان وعظماء هذا الحى فلان وفلان وفلان زوارهم فى منازلهم. وفى هذا اليوم يتفق الأعيان والعظماء والأغنياء فيما بينهم ويحددون الشخص الذى سيستقبل الزوار للمعايدة. لذا يسرع سكان الأحياء الأخرى إلى الحى الذى سيحتفل فيه بالعيد.

كما أن سكان هذا الحى يذهبون فى اليوم التالى إلى بيوت أعيان الحى وأثريائهم وهكذا يسرعون فى أداء مراسم المعايدة المتبعة. إن سكان مكة المكرمة يهتمون بهذه العادة ويرعونها أعظم الرعاية حتى إنه لا يبقى فى مكة أفراد صغارا كانوا أو كبارا إلا لقى بعضهم بعضا ويدعون لهم بالخير.

وتشمل هذه المعايدة، أصحاب القبور من الموتى، لذا يذهب الرجال ثم النساء فى اليوم الأول من عيد الفطر الشريف للمعايدة ويظلون هناك إلى وقت الزوال فى مقبرة المعلى وسائر المقابر حيث يزورون أقاربهم ويتلون بعض السور القرآنية ثم يعودون إلى منازلهم.

ومما لاشك فيه أن هذا الأمر من السنن السنية الحسنة إلا أنه قد أسئ استغلال هذه العادة إذ أصبح اختلاط الرجال بالنساء فى المقابر حكم عادة وبما أن هذه العادة ستؤدى إلى الاختلاط والفساد فمن الواجب منع اختلاط الرجال بالنساء هناك. انتهى.

إن طريقة المعايدة الحسنة التى ذكرناها من العادات المتبعة فى بعض بلاد الأناضول والروملى.

إننى قد حضرت العيد فى بعض ولايات الأناضول وكذلك فى ولايات الروملى كما حضرت مراسم العيد فى مكة المعظمة، إذ إن المعايدة فى تلك الولايات لا تطابق تماما المعايدة فى مكة المكرمة[1].

(١) لا يحتفل بعيد الأضحى بهذه الصورة لأن الأهالى فى أيام عيد الأضحى يتواجدون فى عرفات ومنى يؤدون الشعائر.

ولما كان أهالى كل قرية فى تلك الولايات يذهبون إلى القرى الأخرى يتزاورون للمعايدة فيمكن أن نعتبر ذلك مُشَابهًا لأصول معايدة مكة المكرمة.

القيادة:

تعنى إمارة الجيش وهى عبارة عن قيادة الجيش فى الحرب والقتال.

إن هذه المناصب كانت خاصة بقريش لذا فإنها تتفوق على القبائل الأخرى بهذا المنصب وتفتخر به.

لما أسند ابن كلاب مهام الحجابة والسقاية واللواء والرفادة الهامة إلى ابنه عبد مناف وهو مازال على قيد الحياة فكأنه اختاره وليا للعهد.

وأسند إلى ابنه الكبير عبد الدار مهمة إدارة دار الندوة لتسوية نزاعات قريش.

وقد أوصى عبد مناف بإدارة حجابة البيت واللواء والسقاية والرفادة بموافقة بقية أخوته وخاطب عبد الدار قائلا « يا بنى إننى أجعلك رئيسا على القبيلة، حيث لا يستطيع أى إنسان من أشراف القبائل أن يدخل كعبة الله طالما لم تفتح لهم بابها، ولا يستطيع إنسان أن يعقد لواء الحرب دونك، واللواء المزمع عقده يجب أن يكون فى يدك بلا منازع ولا يستطيع إنسان فى مكة أن يشرب من ماء زمزم إلا إذا سقيته أنت ولا يستطيع إنسان أن يأكل طعاما فى موسم الحج إلا إذا أكل من طعامك. ولا يبت فى أمر من أمور قريش الهامة إلا إذا تم الحكم بذلك فى بيتك.

اختلاف قريش:

بعد وفاة «قصى بن كلاب» أدار أبناؤه بموجب وصيته لعبد الدار حكومة مكة متفقين، ولكن فيما بعد ظهر بينهم الخلاف، فإن بنى عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس وعبد المطلب ونوفل تباحثوا عن شرفهم وفضلهم وفكروا فى انتزاع مناصب الحجابة والسقاية واللواء والرفادة من أيدى بنى عبد الدار فدبت بينهم الخصومة، وتباهوا وقالوا: إنهم أجدر وأحق منهم بالقيام بهذه الخدمة الجليلة وادعوا أنهم الأفضل والأشرف - فى كل الجوانب - من أبناء عمهم عبد الدار، وأخذوا يتحرشون ببعضهم باستمرار، وفى النهاية اتفقوا على أن يحال الفصل فى النزاع الدائر بينهم إلى زعماء القبائل للحكم فيه.

أما زعماء القبائل فقد اختلفوا فى أمر هذا النزاع إذ التزمت جماعة منهم جانب بنى عبد الدار حتى لا يخالفوا وصية قصى بن كلاب، والتزم البعض الآخر جانب بنى عبد مناف تحكمهم فى ذلك بعض المصالح العصرية.

وعندما ظهر هذا النزاع كان صاحب النفوذ فى أبناء عبد الدار هو عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أما صاحب الكلمة النافذة والأمر فى أبناء عبد مناف فهو عبد شمس بن عبد مناف.

وبعد مناقشات ومجادلات ومحاورات بين رجال القبائل المختلفة التى التزمت جانبا من الجانبين، قرروا إسناد مناصب السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف وتظل إدارة دار الندوة فى يد بنى عبد الدار وهكذا أسكتوا الجانبين وألزموهما بهذا الاتفاق وأجبروا الطرفين على توقيع معاهدة بهذا الأمر.

وبناء على هذا الاتفاق أعطيت مهمة السقاية والرفادة إلى أبناء بنى هاشم بن عبد مناف وبقية المناصب إلى بنى عبد الدار وقد أظهر كلا الطرفين رضاهما وموافقتهما على هذا الحكم، إلى أن توصلوا إلى هذا الحكم والنتيجة كانت ست بطون من قريش قد اتفقت وتعاهدت على أن تحمى بنى عبد الدار من غدر بنى عبد مناف وأطلق على هؤلاء أحلاف قريش وهذه البطون الست هى: بنو عبد الدار وبنو عمرو بن هصيص بن كعب وبنو جمح عمرو بن هصيص ابن كعب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو عدى بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر. وقد سعى كل هؤلاء على أن يصطحبوا أحد أبناء عبد الدار وأن يكونوا عونا ونصرا لهم حتى لا يهزموا أمام بنى عبد مناف.

واتفقت قبائل بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة ابن كلاب وبنى تيم بن مرة بن كعب، مع أبناء عبد شمس بن عبد مناف أما قبائل عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فقد بقيت على الحياد ووقفوا موقف المتفرج انتظارا لما سينتهى إليه الأمر.

وأقسمت كل جماعة من الجماعات المتفقة على ألا يتخلوا أو ألا يتراجعوا عما أقسموا واتفقوا عليه.

وعقب ذلك أحضرت نساء عبد مناف إناءًا مملوءًا بالطيب الرطب، وتركته أمام الجماعة الموجودة عند كعبة الله وتبعا لعادة الجاهلية غمس رجال الجماعة المتفقة أيديهم فى هذا الإناء ومسحوا أيديهم الملطخة بالطيب على جدران الكعبة المشرفة تأكيدا لقسمهم وأقسموا مرة أخرى على المحافظة على القرار الذى اتخذوه.

وكان قصدهم من هذا أن يؤكد كل فريق منهم للآخر ثباته على هذا فأقسم بشأن ذلك القرار المتفق عليه.

وعلى الرغم من حمل الفريقين المتفقين أسلحتهم بعد هذا القسم واستعدادهم للحرب، إلا أن زعماء القبائل قرروا فيما بينهم التوسط بين أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف وأسفر هذا التوسط عن إجبارهم على قبول ما تم الاتفاق عليه. فانطفأت نار الحرب والقتال التى كادت أن تنشب بينهم بماء الصلح المقترح. وبهذه الصورة تم الحفاظ على الاتفاق الذى تم التوصل إليه حتى عصر النبوة. انتهى.

وكان لعبد مناف ابنان آخران غير عبد المطلب، ونوفل وهما عبد شمس وهاشم، وكان لكليهما نصيب فى مناصب الرفادة والسقاية بناء على قرار القبائل الست. وكان عبد شمس شديد الفقر مع كثرة العيال وكان أخوه هاشم من الأغنياء، ولما كانت إدارة السقاية والرفادة من الأمور المرتبطة بالمال والثراء فقد أسندت كل منها إلى هاشم، فتولى مهمتهما وفق هذا القرار.

واسم هاشم الأصلى هو عمرو، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه هو الذى ابتدع طعام الثريد فى مكة المكرمة.

وهاشم هذا هو الذى ابتدع تسيير القوافل إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا للتجارة، وسارت قريش على نهجه فيما بعد لأن قريشًا وإن كانت تشتغل بالتجارة قبل ذلك إلا أن تجارتهم كانت مقصورة على أطراف مكة فقط.

وحدث فى أثناء سفره إلى الشام أن علم القيصر حاكم الشام بأمر شرفه وحسبه وعلو قدره بين قومه فاستدعاه وأظهر له الشىء الكثير من الاحترام والاهتمام، وفى خلال حديثه معه ألمح له أنهم يأتون بأمتعة الحجاز واليمن إلى الشام فى الصيف ولما كان هذا الأمر يتطلب رخصة تتضمن عهدا بالأمان فأعطاه

القيصر حاكم الشام هذه الرخصة رعاية لمكانته بين قومه وسمح له بأن يتردد رجال قريش على الشام للتجارة.

وبعد فترة قصيرة حصل أخوه عبد شمس من حاكم الحبشة على رخصة مماثلة ومطلب من حكام اليمن.

وكذلك حصل نوفل من حكام بلاد فارس على رخصة مماثلة وهكذا عودوا قريش على التجارة مع هذه البلاد، وكان هذا نوع من الأصول والعقبات التى أزلها قصى عن طريق الإجازة.

وكانت قريش التى تسكن مكة ـ آنذاك ـ آمنة من غارات لصوص البدو الذين يغيرون على القبائل التى تسكن حول مكة لأنهم ينهبونها.

وكان الشعار الذى ترفعه قريش أمام اللصوص قولهم: نحن سكان حرم الله وأهل بيت الله الحرام، إلا أن هذا الشعار كان يفيد عندما يتجرءون على دخول مكة المكرمة، لذا كانوا لا يتجرءون على الابتعاد عن مكة كثيرا وفيما بعد استطاعت قريش تحت حماية وظل أبناء عبد مناف أن تتمتع باستيراد البضائع وتصديرها إلى كل مكان.

وقد أحسن هاشم بن عبد مناف القيام بأداء المهام التى أسندت إليه بموجب قرار القبائل الست وذهب إلى الشام لغرض التجارة وفى أثناء وجوده فى ولاية غزة[1] انتقل إلى رحمة الله فانتقلت مناصب السقاية والرفادة التى كانت مسندة إليه إلى أخيه عبد المطلب أعظم وأكبر شخصية فى قريش حينئذ.

وبعد وفاة هاشم بفترة قصيرة مات أخوه عبد المطلب فى مكة ومات أخوه نوفل بن عبد مناف فى أثناء رحلة فى العراق وبذلك انتقلت أعباء إدارة المنصبين الجليلين إلى عبد المطلب جد النبى ـ ﷺ ـ وولده عبد الله.

بلغ عبد المطلب من الشرف والجاه ما لم يبلغه آباؤه وأجداده ونال محبة الناس، ولم يكن له من أبناء سوى الحارث ولهذا كنى بأبى الحارث.

وذات يوم قال ابن عمه عدى بن نوفل بن عبد مناف ليس لك أبناء سوى

(١) اسم بلد مشهور فى أرض فلسطين.

الحارث فإنك إذا تصورت أن تتولى رئاسة قبائل قريش لفترة طويلة، فهذا الأمل واه وعبث بالنسبة لك. أما نحن فأبناؤنا وأتباعنا كثيرون، وسيئول لنا ـ ذات يوم ـ زمام الرئاسة وهو أمر غنى عن التعريف أو التذكير به.

فأجابه عبد المطلب: أتخيفنى بسبب قلة أولادى؟ إن شاء الله سيكون لى من الأبناء عشرة، وعندئذ أذبح أحدهم قربانا عند الكعبة ابتغاء مرضاة الله[1].

وحسب حكمة الله، فبعد فترة نال عبد المطلب ما تمناه وبلغ عدد أبنائه عشرة كاملة وعندئذ جال بخاطره ما نذر وأقلقه هذا الخاطر طويلا وأطال التفكر فى هذا الموضوع ثم قرر أن يستدعى أبنائه ويشرح لهم الأمر وأخذ موافقتهم واحدا بعد الآخر، ورأى أن يكتب أسماءهم كل على حدة على عشرة سهام من سهام القرعة، ثم أخذ هذه السهام، واصطحب أبناءه عند الصنم الكبير المسمى هبل داخل كعبة الله. وضرب القرعة لاستكشاف الطالع حسب العادة المتبعة فى الجاهلية، وخرجت القرعة باسم عبد الله والد النبى ـ ﷺ ـ وأحب أولاده إليه وأفضلهم، ولم يأت هذا التفضيل والحب البشرى من الفراغ لأنه رأى فى المنام عدة مرات ما يبشر بأن هذا الابن سيكون له شأن كما رأى فى ولده هذا أشياء خارقة تدل على أنه سيكون والدا للجوهر النادر لسيد البشر، ونتيجة لكل هذا فإنه كان يفضل ابنه ويقدمه على إخوته، ويأمل بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سينجيه من الذبح ونروى واحدة من الخوارق التى جعلت عبد المطلب يأمل أن يكون ابنه أبا سيد البشر.

أفشى عبد الله ـ ذات يوم ـ سرًا لأبيه حيث قال: يا والدى العظيم، إننى متى أخرج من مكة وأصعد جبل ثبير وحيثما أجلس، يظهر فى ظهرى شعاعان من نور لامع يتجه أحدهما وينتشر ناحية الشرق وينتشر الآخر ناحية الغرب، وبعد فترة يتجمعان مثل السحاب الممطر الذى يسطع ويعلو نحو السماء ثم يعودان إلى ظهرى مرة أخرى، ويتم كل هذا فى لحظة واحدة، كما أننى أسمع فى الأماكن التى أجلس فيها هاتفًا يقول: السلام عليك أيها المستودع فى ظهره نور محمد

(١) جرى هذا الحوار أثناء قيام عبد المطلب بحفر بئر زمزم، وتفصيل هذه الواقعة مدون فى الصورة الخامسة من الوجهة الأولى أى فى قصة زمزم.

ﷺ، وإذا جلست تحت شجرة جافة، إذا بها تخضر وتكتسب نضرة وعندما أبرح المكان تعود الشجرة متلفة الساق إلى حالتها الأولى.

وهكذا كان ينقل لوالده ما رأى من الخوارق بعين بصيرته وبصره فقال له أبوه: يا بنى إننى أبشرك وأهنئك بحملك النور المحمدى، وقد بشرت بهذا عدة مرات وكل الرؤى التى رأيتها قبلك ـ تدل على أنه سيولد من صلبك الشريف من سيزين القماط.

والواقع أنه كلما كان يتقرب من اللات والعزى وهى من أكابر أصنام قريش كانا يخاطبان عبد الله بصوت مشابه لصوته قائلين: أنت لا تحفل بنا ولا تعبدنا! إن النور الذى سيضئ الدنيا قريبا ذلك النور الذى فى ظهرك هو نور محمد عليه سلام الله الأحد، وإن صاحب هذا النور سيحطمنا كما سيحطم كل الأصنام ويقضى علينا جميعا.

ولدلالة الأسباب الظاهرة السابق ذكرها أحب عبد المطلب ابنه عبد الله أكثر من بقية إخوته ولأجل ذلك كان يخاف عليه حتى من هبوب الرياح ومع ذلك كان يثق أيضا فى السهام التى بجانب هبل عند إجراء القرعة بالقدح[1].

وبناء على ذلك عندما أصابت القرعة اسم عبد الله وقضت بذبحه راح الأب فى بحر عميق من التفكير، وبعد ما أفاق من تفكيره قال: ما العمل؟ هكذا قدر الله ثم أخذ والد النبى ذا المكانة العالية إلى جوار الصنم الذى أطلقت عليه قريش اسم إساف[2] وأرقده على الأرض. وبمجرد أن علم عباس الأخ الأكبر لعبد الله بما ينوى الأبُ لأخيه أسرع إليه، وأدركه وسحب أخاه من تحت يدى والده عبد المطلب. وفى أثناء هذا جرح عبد الله فى وجهه، وظل أثر هذا الجرح ظاهرا إلى أن توفى.

(١) القدح يطلق على السهم الذى بلا ريش. ويطلق على السهم السابع فى الميسر القدح المعلى، ونصيب هذا السهم عند أهل الجاهلية يفوق أنصبة السهام الأخرى، وكان أهل الجاهلية يلعبون القمار بهذه السهام ويتفاءلون بها، ومن يريد معرفة مزيد من المعلومات حول كيفية لعب الميسر أو كيفية التفاؤل بها يمكن أن يتفضل بالرجوع إلى البحث الخاص بإجراء القرعة عند العرب.

(٢) كان هذا الصنم من قبل بجوار بئر زمزم.

مطالعة:

إن انتزاع حضرة العباس أخاه عبد الله من تحت قدمى عبد المطلب يقتضى أن يكون العباس أكبر من عبد الله، وهذا من سهو الرواة لأنه وفقا للروايات الصحيحة أن عبد الله أكبر من أخيه العباس.

حيث إن عبد المطلب تزوج من هالة أم ابنه حمزة ـ رضى الله عنه ـ بعد أن وفى بنذره، وبناء على هذا أن حمزة رضى الله عنه وأخاه العباس ـ من الأم ـ رضى الله عنه لم يكونا قد ولدا بعد حينما قرر عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله[1].

وبناء على هذا يلزم أن يكون عبد الله أصغر أبناء أمه وليس أصغر أخوته جميعا.

ورغم أن ابن إسحاق قد أخطأ فى تأويل قول المرحوم البكائى الذى يعتبر من الأئمة الثقاة، وذهب إلى ما يخالف الرواية السابقة، فإن بعض أهل السير ردوا وخرجوا ما ذهب إليه ابن إسحاق، وقالوا إن حمزة ـ رضى الله عنه ـ أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة ـ رضى الله عنهم جميعا ـ وأيدوا رأيهم بما قاله العباس: عند مولد خاتم الأنبياء ـ عليه وعليهم التحية ـ كنت قد بلغت الثالثة من عمرى، وعندما شاهدت وجهه المنير المبارك قالت لى النساء قبل وجه أخيك، فتشرفت بتقبيل وجهه الكريم.

وقول سيدنا العباس هذا لم يترك أى شك فى أنه أصغر من عبد الله بن عبد المطلب، ولهذا فإن قول المرحوم الإمام البكائى يحمل على أن عبد الله كان أصغر أبناء أمه عندما حمل للذبح.

ورغم أنه لا حاجة إلى إطالة القول لإثبات هذا الأمر فما لاشك فيه أن سيدنا حمزة وأخاه العباس ـ رضى الله عنهما ـ قد ولدا بعد الوفاء بالنذر. وهو أمر ثابت بدلالة الروايات الصحيحة، حيث إن عدد أبناء عبد المطلب كان اثنى عشر. انتهى.

(١) هذه الرواية تؤكد صحة ادعاء الرواة من أن أبناء عبد المطلب كانوا اثنى عشر ابنا.

ولما كان الموقف الصعب الذى بدر من عبد المطلب قد أثار قلق قريش، واضطربوا وتوترت نفوسهم وقالوا: نحن غير راضين من هذا الأمر، وعلينا أن نبحث عن حل حتى لا يصبح ما يريد أن يقوم به عبد المطلب عادة متبعة بيننا.

لذا استفسروا رأى الكاهنة سجاح[1] العاقلة والتى تقيم فى بلاد خيبر. وسجاح هذه كانت كاهنة لها صلة بطائفة الجن وفق اعتقاد أهل الجاهلية وتستعين بهم؛ ولهذا فقد فهمت ما فى ضمير مبعوثى قريش، وقالت لهم سأسأل الطائفة التى أتبعها فى هذا الأمر وسأخبركم بالجواب الذى سأتلقاه منها.

ورجع رجل قريش إلى محل إقامتهم وقد اعتراهم اليأس ثم رجعوا إلى سجاح مرة ثانية فى اليوم التالى.

وقد سألتهم سجاح فى هذه المرة قائلة: ما مقدار الرجل عندكم؟ فأجابوا عشر من الإبل، فقالت لهم: أحضروا عشرا من الإبل واضربوا القداح على اسم عبد الله، وعلى اسمها فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ورجع وفد قريش إلى موطنهم.

تعريف الكهانة

كهنة: جمع كلمة كاهن وتعنى المشتغل بمعرفة الفأل أو الطالع.

كان من عادات أهل الجاهلية العمل وفق ما يقوله الكهنة وكان الكهنة يزعمون أنهم على صلة بالشياطين، ويستقون منهم الأخبار المتنوعة ويخبرون بها من يلجأ إليهم. وقد ادعى بعض الكهنة أنهم يستخدمون خدما من طائفة الجن وأنهم يتلقون منها أخبار الغيب.

ولكن الآية الكريمة حسمت هذا الموضوع عندما أخبرتنا ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (النمل: ٦٥) بمعنى أن الجن لا يمكنهم أن

(١) يروى كذلك أن اسمها قطية.

يطلعوا على الغيب ومن هنا كانت ادعاءات الكهنة فى هذا الأمر كاذبة ولا أساس لها.

ومن الكهنة الذين نالوا شهرة كبيرة بين كهان الجاهلية: سطيح ـ خطر ـ سجاح.

والذين اطلعوا على أحوال الكهنة فى الجاهلية أخبروا أن الكهانة أنواع مختلفة.

فمنهم من يأتى بسبع قطع من الحجارة، ويضع على كل واحدة منها علامة ويطلق عليها اسما ويأخذ هذه القطع فى قبضة ثم يحركها ويتمتم ببعض الكلمات الخاصة به، ثم يفتح قبضته وينظر إلى أوضاع الحجارة، ثم يحكم إن كان ما يريده خيرا أم شرا[1].

ومن أنواع الكهانة أيضا الزجر، العرافة، الطيرة وهى تختلف من حيث الإجراء.

العرافة:

مثلا معناها الإخبار عن الغيب بواسطة الجن بالنظر إلى الأشياء الشفافة والبراقة، **كالنظر** إلى كوب من الماء أو إلى قرص الشمس أو إلى الزجاج أو البللور، حيث يرون فيها الجن ويستقون منها الأخبار، وإن هذه الصنعة مازالت موجودة فى أيامنا، ويكسب المشتغلون بالخرافات أموالا طائلة.

الزجر والطيرة:

استقاء الأخبار عن كيفية طيران الطيور، وعن أصواتها والاستدلال بها على وقوع الأمر.

كان أهل الجاهلية عندما يسافرون أو يخرجون لرحلة صيد أو قنص يتفاءلون من ظهور ثور وحشى من جانبهم الأيمن، ويحملونه على أنه خير لهم، وإذا ما

(١) هذا النوع من قراءة الطالع أو الكهانة نوع من أنواع الكهانة التى عرفناها فى موضوع الأزلام.

ظهر هذا الحيوان من الجانب الأيسر يتشاءمون منه، ويعتقدون أنه شر محض. وكانوا يراقبون محط الغربان ويتأملون صورة هبوطها على الأرض وكيفية صياحها. وإذا ما تحركت الغربان وفق ما يزعمون أنه خير يفرحون، ويبتهجون أما إذا لم تحط الغربان فى الأماكن التى يريدون أن تحط فيها أو إذا لم يَصِحْ كما يريدون تشاءموا من طيرانها وتحركاتها وهبوطها هنا وهناك ويغضبون ويطردونها من محطها بإلقاء الحجارة عليها.

وقد ظهر كهنة قبل البعثة المحمدية وأخبروا بنبوة محمد - ﷺ - وصدقوا واعترفوا بهذه النبوة.

حكاية:

مروية عن حضرة لهيب بن مالك[1] إذ قال: كان لقبيلتنا كاهن من أعلم كهنتها يدعى خطر فى ٣٨٠ من عمره، وعلى رواية تاريخ خميس فى ١٨٠ سنة من عمره.

وقد اجتمعنا عنده يوما وقلنا له يا خطر أخبرنا بأشياء بواسطة علم النجوم وسنعمل وفق ما تنبئنا به وقال إذا ما أتيتم غدا سأخبركم عن الخير والشر، وفى اليوم التالى ذهبنا إليه مجتمعين فى الفجر. فوجدناه فى هذه المرة واقفا منتصف القامة وقد فتح عينيه من الحيرة والدهشة، وركزهما نحو السماء فكأنه فى حالة الاحتضار.

ولما رأيناه واقفا ساكنا لا يحرك رموش عينيه اعتقدنا أنه قد مات، وناديناه قائلين: خطر، وأخيرا أشار لنا أن نمسكه من جانبيه فأمسكناه. وبعد مدة سقط من السماء كوكب كبير كأنه طائر يحط على الأرض بخفة.

حينئذ صاح خطر صيحة عالية وأخذ يتحدث بشدة وجد قائلا: أصابه وجع عظيم قد عجز عن الإتيان بالأخبار، وقد تشتت أفكاره المضطربة قد عاودته المشقة والصعوبة إلام ستنتهى حالته قد انقطعت حبال من كانوا يسترقون السمع وقد حزن.

وبعدما وقف هادئا ساكنا فترة توجه نحونا وقال: يا أولاد بنى قحطان

(١) إن هذا الشخص من الأصحاب الكرام ومن قبيلة أزد التى تنتهى إلى لهب وقبيلة أزد من سكان اليمن.

سأخبركم بالحق والحقيقة أقسم بالكعبة الشريفة ذات الأركان الأربعة. أقسم بالبلدة المباركة التى يسكنها المؤمنون قد منع المستمعون من الجن عجزوا عن الاستماع إلى الأخبار؛ وذلك بسبب بعثة نبى ذا شأن ورفعة وكأنه فى لمعانه نجم ثاقب، وقد بعث للإنس والجن. إن هذا النبى السعيد قد بعث مؤيدا بالفرقان والقرآن وأبطل عبادة الأوثان. وقد حدثنا بعبارات مسجعة ما يفيد المعانى السابقة وهكذا تركنا فى ذهول وخبره بهذه الأقوال.

وقلنا لخطر يا خطر إننا لنأسف على كهانتك إنك لتخبرنا بشىء عجيب... والمنتظر منك أن ترحم قومك الذين يتبعونك وتراعى جانبهم. فأجاب خطر إننى أحب قومى أكثر من نفسى لذلك سأدفعهم إلى تبعية نبى عظيم الشأن هو أعظم الأنبياء جميعا وأفضلهم ودليل عظمته ظاهر مثل شعاع الشمس، وقد بعث فى مكة ويدعو إلى أداء صلوات خمس وإنه تنزل عليه من قبل الله آيات بينات.

فاستوضحوا الأمر قائلين: يا خطر من هذا الشخص النبيل الذى تعرفه وتصفه لنا؟ فتحدث خطر قائلا: إنه ينتمى إلى قبيلة قريش السعيدة، ويعيش بين أفرادها لا خفة فى حلمه، وأنه لا يظهر بعض كلامه ويخفى الآخر وخلقه خال من الفساد والخلل، وإن ذاته الشريفة السعيدة تنتمى إلى آل قحطان وآل ديش بن الهون، وينتهى نسبه إلى قبيلة خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقد أجاب خطر على تساؤلاتنا التى طلبنا فيها أن يبين لنا القبيلة التى ينتمى إليها من قبائل قريش، قال إنه من آل هاشم بن عبد مناف، ومن أكارم أهل مكة المعظمة وقد بعث لغزو المشركين وقتل الملحدين، وأضاف خطر قائلا بما أن هذا الكلام أخبر به رئيس الجان نفسه فهو صحيح تماما، وغاب عن الوعى قائلا الله أكبر قد ظهر الحق وانقطعت ألاعيب الجن وأفاق بعد ثلاثة أيام.

وقبل الإسلام إذ قال لا إله إلا الله وأغرانا وحثنا على قبول الدين المحمدى المبين. وقد قص لهيب بن مالك هذه الحكاية الغريبة بالتفصيل على أحبائه، ثم عرض ما جرى على نبى الإنس والجان ـ عليه وعلى آله صلوات الله المنان ـ فتفضل نبينا صادق القول قائلا: «سبحان الله قد نطق صدقا إن هذا الشخص سيبعث يوم القيامة أمة وحده»[1].

(١) الخبر فى ترجمة لهيب فى الإصابة ٩/٦ - ١٠.

وقد ثبت من هذه الحكاية إلى درجة ما شأن قراءة الطالع فى الجاهلية، وأحوالهم فى مد الناس بالأخبار واسترق الشياطين السمع لمعرفة الأخبار من السماء.

وفى الواقع أن مردة الشياطين كانوا يسترقون السمع فى السماء لمعرفة الأحداث إلى زمن ولادة عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ ويلقون بالأخبار إلى قلوب الكهنة. وقد انقطعت ثلث الأخبار التى تأتى بواسطة استراق الشياطين السمع فى السماء فى زمن عيسى ـ عليه السلام ـ وانقطع ثلثاها الباقيان بولادة نبينا الذى بعث رحمة للعالمين وهكذا لم يبق أثر من استراق السمع، ولم يبق مجال لأخبار الكهنة.

وقد عرف عبد المطلب بالطريقة التى أوجدت بها سجاح فى إجراء القرعة، واتبع عبد المطلب الطريقة كأنها دستور مكتوب، وضرب القرعة فخرجت تسع مرات واحدة تلو الأخرى على عبد الله وأصابت فى المرة العاشرة اسم الإبل، ولما كان عدد الإبل الذى تجرى عليه القرعة قد بلغ المائة ناقة قالت قريش: يا عبد المطلب إذا ذبحت هذه النوق المائة قربانا تكون قد أوفيت بنذرك، وأديت حق الله وأخبروه بما وصفت به سجاح.

ولكن عبد المطلب لم يلق سمعا إلى قول سجاح ولا إلى أقوال قريش، وقال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات فضرب فخرج القدح على الإبل فى المرات الثلاث.

ولما رأى عبد المطلب ذلك قام فذبح مائة من الإبل ووزع لحمها على أهل مكة طلبا لرضاء الله، وأفهم الناس أن دية الرجل بين العرب ستكون مائة من الإبل بمقتضى ما حدث.

قد ظل حكم عبد المطلب هذا مرعيا إلى ظهور نور النبوة، وقد أبقى صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ هذا الحكم نافذا بحيث تكون دية الرجل مائة من الإبل.

فى تفصيل كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الثامنة

قد حدث هذا التعمير والبناء بعد بناء إبراهيم عليه السلام بـ (٢٤١٩) سنة، أو على رواية أخرى بعد (١٧٠٣) سنة.

وكان بانى بناء الشريعة ـ عليه السلام ـ فى ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد، وكان بيت العزة الذى بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ قائما بعينه.

وقال المؤرخون متبعين الإمام مجاهد: إن هذا الحادث كان قبل البعثة النبوية بخمسة عشر عاما، والذين اتبعوا[1] ابن إسحاق قالوا إن البناء كان قبل البعثة النبوية بخمس سنوات[2].

ـ فتوى:

قد أدرجنا صورة من فتوى رضا أفندى والذى يؤيد قول ابن إسحاق فى هذا الموضع لما عهدنا فى فتواه من صراحة متبركا بها.

ـ صورة الفتوى الشريفة:

إذا تفرق أهالى حى أحد المساجد وخلا من المصلين فهل يجوز لورثة الواقف أن يمتلكوه؟

الجواب: لا يجوز ذلك.

لأن الكعبة المعظمة فى فترة الخلو من الرسل ـ امتلأت أطرافها بالأصنام

(١) ابن إسحاق هو التابعى المشهور صاحب المغازى والسير وبحر العلوم والخبر محمد بن إسحاق بن أبى بكر، وقد تلاقى بالإمام على وأسامة ومغيرة بن شعبة وتوفى سنة ١٥١هـ.

(٢) ورأى ابن إسحاق أيضا ـ بلوغ النبى ﷺ ـ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد.

وخربت، فلم تنتقل إلى ورثة آخرين. وعلى هذا من بانى الكعبة المشرفة وواقفها؟

الجواب: إن الكعبة الشريفة شرفها الله، قد جدد بناءها خمس مرات إلى الآن، كما أنها عمرت بتجديد حوائطها.

أولا: بناها الملائكة بأمر الله ـ سبحانه وتعالى.

ثانيا: بناها حضرة إبراهيم عليه السلام.

ثالثا: قد بنيت فى الجاهلية على ستة أعمدة بعد هدمها وإخراج حجر إسماعيل من البيت من قريش.

وكان النبى ـ ﷺ ـ فى الخامسة والثلاثين من عمره السعيد. واشترك فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود فى مكانه بيديه الشريفتين.

وفى **المرة الرابعة** بناها عبد الله بن الزبير إذ احترقت الكعبة فى «عهد يزيد اللئيم» ـ فهدمها عبد الله وبناها وفق رسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى أساسه وأدخل حجر إسماعيل داخل البيت وفى **المرة الخامسة** جدد بناءها فى ٧٤ هجرية إذ اقتلع بناء ابن الزبير وأعيدت إلى سابق عهدها بأن أخرج حجر إسماعيل من الكعبة الشريفة، وفى سنة ألف وتسع وثلاثين وفى عهد السلطان مراد الرابع قد جددت جدرانها وعمرت بيد قاضى مكة المكرمة السيد محمد الأنقروى. وقد صرح فى صدر الشريعة أن واقف البيت هو حضرة إبراهيم ـ عليه السلام.

إخطار:

لم يذكر المرحوم رضا أفندى فى فتواه بناء وتعمير البيت فى عهد آدم عليه السلام وأولاده وعهود العمالقة والجراهمة وقصى بن كلاب، لأنه تفادى التطويل فى الكلام وإلا فمن المحقق أن البيت الشريف قد جدد إحدى عشرة مرة.

وقال الشيخ محمد صالح فى كتابه البليغ «سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد» وهو يتحدث عن تجديد البيت المعظم للمرة الثامنة: بينما كانت سيدة من

سيدات قريش تبخر داخل كعبة الله المملوءة بالفيض الإلهى ومعها مجمرة خاصة، فجأة احترق ملبسها بشرارة انتشرت من المجمرة. وسرت النار التى حرقت ملبسها إلى جدران الكعبة وستائرها وسقفها فأحرقت جدران الكعبة وخربت حوائطها ثم حدث سيل عظيم، وهدم السد الذى أقيم أمام ممر السيل ومجراه وخربه، واتجه نحو داخل كعبة الله وأضرت المياه أسس الجدران السهلة الانهيار.

وقرر زعماء قريش بعد هذا الحادث الأليم أن يجددوا بيت الله[1] مسقفا وأن يراعوا فى صنع باب معلا لبيت الله المعظم يراعى فيه والمتانة والعلو عن الأرض مقدرين ما قد يحدث من السيول وألا يسمحوا بالدخول فى داخل كعبة الله لكل من هب ودب وأخذوا يجتمعون من حين لآخر لمذاكرة هذه الأمور إلا أن الاجتماعات كانت تنفض دون أن يعلنوا ما وصلوا إليه من نتائج وذلك لعدم وجود الأشياء اللازمة لتعمير البيت ولضيق ذات أيديهم.

وفى أثناء ذلك عرفوا أن سفينة كبيرة قد جنحت أمام جدة، وأنها تحمل كثيرا من الأخشاب وأنواع الرخام واللوازم الحديدية الأخرى. كما عرفوا أن ربان السفينة بارع فى فن العمارة والبناء لذا بعثوا بوليد بن المغيرة ومعه بعض النجارين البارعين فى حرفتهم حتى يطلعوا على صلاحية الأشياء المذكورة للبناء.

واستطاع الوليد بن المغيرة أن يقابل الربان سالف الذكر ويشترى منه حمولة السفينة بثمن بخس ثم فاتحه فى أن هذه الأشياء من أجل بناء كعبة الله المقدسة وأنها ستستعمل فى أعمال البناء والعمارة. وهكذا حمل معه الأشياء المشتراة وفى رفقته الربان المذكور ووصل إلى مكة.

وبناء على ما ينقله المؤرخون فإن هذه السفينة كانت قد حملت من قبل قيصر الروم وأرسلت لبناء وتعمير كنيسة فى الحبشة أحرقتها قبيلة قريش أو أحرقتها طائفة من بلاد الفرس، وعين ربانها للقيام بترميم وتعمير خرائب الكنيسة.

(١) حتى ذلك الوقت لم يكن هناك سقف للكعبة المعظمة ومن ثم كانت الهدايا الثمينة المحفوظة فى خزينة بيت الله تتعرض للسرقة.

وبناء على الحكمة القائلة «إذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه» فالسفينة قد تعرضت لعاصفة شديدة وجنحت على اليابسة فى مياه جدة وهكذا وقعت فى يد العربان لتكون سببا فى عمارة كعبة الله.

ولما وصل الربان المذكور إلى مكة المكرمة تفقد مع نجار من أصل قبطى كلفته قريش بمصاحبته فى بناء الكعبة المعظمة، وابتدئ فى هدم بناء البيت الشريف حتى يستطيع أن يسقفه وتخلى الأهالى عن فكرتهم فى عدم السماح بهدم البيت.

ـ ظهور حية كبيرة فوق الكعبة:

من الأحداث الغريبة أن حية عظيمة الجثة صعدت فوق مخزن الهدايا الذى حفره سيدنا إبراهيم، وكانت الحية تصعد فوق جدران كعبة الله وتظل هناك منحنية الرأس للشمس، والذين يرون هذه الحية يخافون من شكلها المرعب ويعتقدون أنها من حراس البيت.

وكان جسم الحية لامعا متلألأ ترسل أشعة إلى الأطراف كألسنة النار، وكانت تخيف من يحاول الاقتراب منها بفتح فمها المخيف وإخراج أصوات مفزعة.

وكانت الحية بيضاء الجسم وكان رأسها فى حجم جدى وزيلها أسود كسواد الغراب وكانت كبيرة الحجم مهيبة المنظر، وكانت تمنع الخونة والمتسلطين عند الاقتراب من الكعبة المعظمة.

وفى يوم من الأيام حينما كانت الحية فوق جدران الكعبة كعادتها ظهر طائر جسمه أكبر من العقاب، وانقض على هذه الحية الضخمة وأخذها بين براثنه وطار بها إلى ناحية الشرق وتركها فوق جبل «حجون».

والمؤرخون الذين قصوا سبب ظهور هذه الحية قالوا: إن المخزن الذى حفره إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسماه (أخسف) ليحفظ فيها الهدايا التى قد ترد من أنحاء مختلفة لبيت الله الأعظم لم يكن للكعبة فى ذلك الوقت سقف وكانوا يقدمون الهدايا إلى كعبة الله من الذهب والمجوهرات المرصعة وأشياء قيمة وكانت هذه طريقتهم فى التقرب من الله وإظهار الود لإبراهيم عليه السلام.

وبعد مضى الوقت امتلأ المخزن وجوف الكعبة المنير بالهدايا مما دفع بعض السفلة من الناس إلى مد يدهم لسرقة أشياء من هدايا الكعبة عندما كانت تسنح لهم الفرصة وعندما ضبط بعضهم متلبسين بالسرقة قطعت أيديهم ليكونوا عبرة للآخرين. وسقط بعضهم وهلكوا وهم يمدون أيديهم ليسرقوا الأشياء المحفوظة.

بينما ضل أقوام الجراهمة فى مكة المعظمة ورفضوا الاستماع إلى نصائح «مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض» مقتدين بشقى يسمى «مجدع» اتبع أحد التعساء إغواء نفسه ونزل فى داخل الخزانة المذكورة ليسرق الأشياء المحفوظة فيها ولحكمة ما انهارت جهات الخزينة الأربعة فجأة وهلك الشقى تحت الأنقاض.

وفى **رواية أخرى** أن الشخص الذى دخل كعبة الله كان معه أربعة من رفقائه وأن كل واحد منهم وقف فى ركن من أركان البيت المحترم وحملوه على أكتافهم وأنزلوه فى داخل كعبة الله وكان غرضهم أن يسرقوا الأشياء الثمينة التى فى داخل الكعبة، بأن يناول كل واحد منهم الآخر الأشياء المسروقة إلا أن الشخص الذى رفع إلى أعلى جدران الكعبة زلقت رجله ووقع على أرض المطاف ومات، أما رفقاؤه فهربوا حتى لا يقعوا فى أيدى السلطة.

وبناء على ذلك خلقت تلك الحية التى سبق ذكرها وظلت تحرس وتحفظ خزينة كعبة الله ما يقرب من خمسمائة سنة وكانت تتراءى فوق جدران الكعبة كما سبق توضيحه وتثير الخوف والدهشة فى الأطراف.

وحينما رأى أهل مكة هلاك الحية بهذه الصورة اعتبروا هذا إيذانا من قبل الله بعمارة الكعبة وسروا بذلك وابتدروا فى هدم بنائها.

وبينما كان القرشيون مشغولين بهدم الجدران ضرب أبو وهب عمرو بن عائذ بن مخزوم ـ خال والد مجدد بنيان الشريعة رصينة الأركان عليه أقوى التحية ـ على حجارة بفأسه وأخذ قطعة منها.

إلا أن تلك القطعة طارت من يد عائذ وعادت إلى مكانها القديم، وقال عائذ لعظماء قبيلته وقد اهتز وخاف من وثوب قطعة الحجر طائرة من يده إلى مكانها

القديم قائلا: يا معشر قريش يجب أن نتجنب إعمار البيت من مال الربا والفواحش والأموال المشكوك فيها والتى جمعت بالظلم ويجب أن نحرص فى بناء بيت الله على إنفاق المال الحلال.

وأراد بهذا أن يبين لأهل مكة أن إعمار بيت الله يجب أن يتم بالمال الحلال، وبناء على هذا جمع أهل مكة للمرة الثانية ما استطاعوا جمعه من المال الحلال، وسلموه إلى اللجنة التى تشكلت للاهتمام ببناء وتجديد بيت الله.

ولكن مع هذا لم يكونوا واثقين من مدى حِلّيّة النقود التى جمعوها أول مرة والتى أنفقت فى سبيل تجديد بيت الله، لذا خافوا من نزول المصيبة بهم إذا شرعوا فى هدم بيت الله وترددوا كثيرا، وفى النهاية خاطبهم وليد بن المغيرة قائلا: يا قبائل قريش إذا كنتم فعلا تنوون إصلاح كعبة الله فالله لا يهلك المصلحين. ثم أخذ فأسًا وأخذ يهدم بمفرده جدران بيت الله. ومع ذلك لم يتجرأ أحد من قريش على المشاركة فى هدم البيت وظلوا ينتظرون ما سوف يحل وليد، ولما رأوا أن وليد قد نجا من أى ضرر اتفقوا جميعا على هدم البناء وفى ختام الهدم اقتسموا بناء البيت، بناء على رأى عائذ وتعهد بنو عبد مناف مع بنى زهرة ببناء الجهة التى يوجد فيها باب الكعبة العالى كما تعهد بنو مخزوم وبنو تميم وبعض القرشيين ببناء ما بين الركنين الشرقى واليمانى[1] وبنو عبد الدار بن قصى وبنو أسد ابن عبد العزى بن قصى وبنو عدى بن كعب بن لؤى الجهة التى فيها الميزاب الذهبى، وبنو جمح مع بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى جهة ظهر الكعبة، وشغل بعضهم بنقل الحجارة من جبل الكعبة[2] وحرص الآخرون على هدم البناء.

ولما هدموا جدران البناء المقدس بحثا عن الأساس الإبراهيمى ظهر حجر

(١) قد بنى هذا الركن غلام سعيد بن العاص الذى يسمى باقوم، ولما كان المذكور من أقباط اليمن المهرة فى فن العمارة لذا أطلق على هذا الركن الركن اليمانى.

(٢) جبل الكعبة فى حي الشبيكة بقرب مدفن الشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، وفى مكان مقابل لجبل أجياد. وكلما يقتضى الأمر تعمير كعبة الله وترميمها تؤخذ الحجارة اللازمة لها من هذا الجبل.

أخضر كعلامة[1] للأساس القديم، ولما أرادوا أن ينتزعوا ذلك الحجر الأخضر برقت نار عظيمة[2] هزت أرض مكة، فخافوا من تعميق الأساس أكثر من ذلك، وبنوا أسس الجدران فوق ذلك الحجر الأخضر، ووجدوا تحت الحجر الأسود الكائن فى الركن الشرقى ورقة كتب عليها باللغة السريانية، وبحثوا عن واحد من طائفة اليهود ليقرأها.

وكان مفاد تلك الورقة الآتى:

أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر وحفظتها[3] بسبعة أفلاك[4] حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى الماء واللبن.

يقول البعض أن ورقة أخرى وجدت فى مقام إبراهيم وقد كتبت عليها الآية الكريمة: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

والعبارة البديعة الآتية: مكة بيت الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحل لها رجل من أهلها.

وأيد هذا المعنى الشامل ما قاله النبى ـ ﷺ ـ فى يوم فتح مكة بما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حرم مكة المكرمة فلا يجوز لأحد من قبلى ولا من بعدى أن يحلها إلا أنها قد أحلت لى ساعة من نهار.

ولما ارتفعت جدران كعبة الله من جوانبها الأربعة وحان وقت وضع الحجر الأسود فى مكانه ظهر نزاع شديد بين القبائل، وصاح أفراد كل قبيلة قائلين نحن سنضع الحجر الأسود فى مكانه، وأخذ النزاع صورا مختلفة من الحوار والمناقشة

(١) أن الحجارة التى أسس بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ الكعبة خضراء اللون مثل الزمرد ولمعته وفى شكل وحجم سنام الجمل.

(٢) إن هذه الشعلة قد برقت من تحت الحجر الأخضر المسمى حجر إسماعيل، وقد اهتزت من شدة اشتعالها جميع بيوت مكة المكرمة.

(٣) كتب فى نسخة أخرى «حفظتها».

(٤) سقطت كلمة أفلاك فى نسخة أخرى.

والمشاجرة حتى أطلق على قبائل (بنى عبد الدار، بنى عدى، بنى مخزوم، بنى سهم، بنى جمح) لقب لعقة الدم.

واستمر الخصام بين القبائل فى هذه المشكلة خمسة أيام، ولكن أبا أمية بن المغيرة[1] وكان أكبر المعمرين فى قريش كلها ومن حكماء قومه، جمع عقلاء القبائل واقترح عليهم بأن يحكموا فى هذا الموضوع أول الداخلين من باب الصفا وعلى قول من باب بنى شيبة، فى وقت محدد يعينونه ووافق على هذا الاقتراح عقلاء القبائل.

وقد حاز هذا الاقتراح حسن القبول لدى القبائل الأخرى أيضا، وحدد الميعاد وجلس القوم وعيونهم صوب الباب ينتظرون، وكان أول من دخل فخر العالم وسبب راحة الأمم ﷺ.

وفرح المترصدون بقدوم سلطان الرسل الموسوم باليمن ورطبوا ألسنتهم بذكره إذ قالوا هذا محمد الأمين رضينا به ثم قالوا له: إننا أقسمنا على أن يكون أول الداخلين حكما لفض النزاع بين القبائل، وبما أنك كنت أول الداخلين سنقبل رأيك الخاص لحل هذا الخلاف. وبهذه الطريقة نقلوا للذات النبوية العالية خلاصة ما حدث بين القبائل.

وبما أن الرسول ـ ﷺ ـ كان معروفا بين القبائل بالصدق والاستقامة كانت قريش تحيل إليه حل ما عجزوا عن حله من القضايا.

ولما استقر منشأ النزاع فى ضمير النبى ـ ﷺ ـ وفهمه جيدا وضع الحجر الأسود فى داخل ثوب[2] وجعل رؤساء القبائل الأربع العظيمة يمسك كلا ركنا من أركانه وهم:

عتبة بن ربيعة، زمعة أبو حذيفة بن المغيرة، وقيس ابن عدى ثم حمل الحجر

(١) وكان أبو أمية مشهورا بين قومه بفرط الكرم والجود حتى أنه كان يكفى زاد أصحابه فى الرحلات، لذا أطلق عليه لقب زاد الركب.

(٢) يروى عن ثقة أن هذا الثوب كان جبة الرسول ﷺ.

الشريف ووضعه فوق الثوب فرفعوه جميعا حتى إذا بلغ موضعه وضعه بيده الشريفة، وهكذا أرضى صناديد القبائل وأسكنهم.

وكانت قريش عندما شرعت فى هدم كعبة الله أخرجت الصنم الكبير هبل من خزانة بيت الله حيث كان ركزه عمرو بن لحى ابن قمعة، ونقله إلى مكان قريب من مقام إبراهيم ونصبته هناك وفى أثناء إتمام عمليات البناء نقلوا هبل من حيث كان منصوبا إلى مكانه القديم فى الخزانة التى فى داخل بيت الله، ونصبوه هناك ثم أخذوا يرسمون فوق جدران الكعبة المعظمة فى الداخل والخارج صورا كبيرة، وكان بينها صور الأنبياء العظام والملائكة الكرام.

إن فاتح أقاليم الرسالة عليه أقوى التحية قد محا وأزال ما كان منصوبا فى داخل الكعبة أو خارجها من الأصنام والأوثان، وما كان على جدرانها من الصور كلها يوم الفتح الميمون، وأمر بإزالة صورتى إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ اللتين كانتا مرسومتين فوق طلاء الكعبة فى الداخل.

وكان المشار إليهما مصورين وهما يمسكان فى أيديهما أزلام الميسر. ولما كان النبى ـ ﷺ ـ يعرف أن إبراهيم وابنه إسماعيل لا يمارسان الميسر، دعا على قريش التى صورتهما بهذا الشكل إذ قال «قاتلهم الله». ثم أمر بأن يوضع هبل وهو عبارة عن حجر كبير ـ خارج باب السلام.

ويروى أن أجزاءه المنكسرة أصبحت موطأ القدم فى عتبة باب السلام.

إننى قد رأيت هذه العتبة ودست عليها. ولم يبق له ما يشبه الصورة أو الوجه لذا أتردد فى قبول هذه الرواية؛ لأن الصنم المسمى بـ «هبل» كان منحوتا من العقيق الأحمر كما سبق ذكره فى بحث كيفية دخول الأصنام فى أرض الحجاز، وكانت يده اليمنى مقطوعة عندما أحضره عمرو بن لحى من أرض الشام لذا ركب له أهل مكة يدا من ذهب خالص.

صور الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة

كان علماء عبدة الأصنام يهتمون بصنع تماثيل الأنبياء على أكمل وجه

ويحفظونها ويتوارثونها جيلا بعد جيل. ويعتقدون أن هذه الصور تطابق أشكال وشمائل الأنبياء تمام المطابقة.

وبناء على زعم هؤلاء العلماء واعتقادهم أن الصور الموجودة فى خزائنهم قد حصل عليها النبى دانيال بواسطة ذى القرنين ورسم وصور كل واحدة منها على حدة.

قد وجد ذو القرنين هذه الصور فى مغارة من أرض المغرب، ثم صرها بخرقة[1] حريرية ثم حفظها، وانتقلت تلك الصرة إلى يد النبى دانيال ـ عليه سلام الله المتعال ـ فنقل صور الأنبياء إلى ألواح متعددة فتكاثر عددها.

وقد يصدق ـ إلى درجة ما ـ تطابق الصور القديمة التى توارثها الملوك، صور الأنبياء وشمائلهم، إلا أن الصور التى رسمها القرشيون على طلاء داخل بيت الله لا يمكن أن تطابق شمائل الأنبياء والملائكة.

قد انتقلت عادة توارث صور الأنبياء فيما بعد إلى سلوك عبدة الأوثان، وتعود كل واحد منهم أن يحفظ هذه التصاوير فى خزانة ولا يريها لأحد.

تأمل الحكاية الآتى ذكرها عن الصور التى توارثها قياصرة[2] الروم وكانت لصورة الهيكل النورانى المحمدى وصورتى الشيخين المكرمين.

قال دحية بن خليفة الكلبى حامل الرسالة النبوية السابقة إلى هرقل[3] الرومى، كما هو مسطور فى السيرة النبوية ذات الرائحة البنفسجية: عندما حملت الرسالة النبوية الداعية للهداية وجدت قيصر الروم فى دمشق، وانتهزت وقت خلوه من المشاغل واعتدال مزاجه وأتيت برسالتى.

وتلقى هرقل الرسالة النبوية السعيدة بتعظيم فوق العادة وتوقير شديد، وقبل

(١) تطلق خرقة على قطعة قماش.

(٢) يطلق لقب القياصرة على ملوك الروم وهى جمع كلمة قيصر. ومعنى القيصر مشقوق، قد ماتت أم القيصر الأول وهى حامل وأخذ الطفل بعد شق بطنها، وبعد جلوسه على العرش أطلق على ملوك الروم لقب قيصر.

(٣) اسم ملك الروم المعاصر للنبى ﷺ.

الخاتم الذى فوقها. ثم فتحها وقرأها ووضعها فوق كرسى بجانبه، وكان هذا الكرسى خاصا لوضع الكتب المقدسة.

ثم استدعى البطارقة وعلماء النصارى وجمعهم، ثم صعد فوق كرسى لإلقاء خطبة ـ وفق آداب تلك العصور ـ وألقى مقدمة مثيرة مشوقة أجبرت الحاضرين للاستماع ثم قال: يا بطارقة النصارى إن هذه الرسالة الشريفة التى زينت يدى ونالت احترامى رسالة من قبل نبى آخر الزمان ومن أحفاد إسماعيل الذى بشرنا بظهوره المسيح ـ عليه السلام ـ وأتى فى كلامه بكثير من الأقوال التى تصف ما يتحلى به نبينا من المكارم الأخلاقية.

إن أقوال هرقل كانت ذات تأثير سيئ على الحاضرين، إذ قام البطارقة من أماكنهم معترضين بتهور، وتجرءوا على السير نحو ملكهم هاجمين، فلما رأى هرقل أن البطارقة غير مستعدين للاعتراف بنبوة محمد والتصديق بها، أراد أن يُسكنَ غضبهم وتخلى عن الحمد والثناء وقال: لا، لا إنما أردت بهذا الكلام التأكد من مدى تمسككم بدين عيسى ومدى ثبات عقيدتكم فيه.

إننى لا أريد أن أصدق بمحمد، كما أننى لا أحثكم على قبول الإسلام دينا، وإننى قد سررت إذ رأيت مدى صلابة عقيدتكم. الرجل الحق يجب أن يثبت فى دينه مثلكم.. إننى أحبكم.

وهكذا أسكن غضبهم وفى اليوم الثانى أدخلنى فى حجرة خالية ووجه إلى أسئلة وتلقى إجابة، ثم أدخلنى فى حجرة واسعة مزينة.

وكانت هذه الحجرة بيت الأصنام، وتحتوى على ٣١ قطعة من التصاوير وأشار هرقل لهذه الصور وقال: لأى صورة من هذه الصور يشبه نبيكم؟

وبينما أجيل النظر فى الصورة جذبت نظرى صورة تشبه أجمل الأنبياء فقلت إن هذه الصورة تشبه نبى الإنس والجن، وكانت هذه الصورة قد رسمت بشكل كأنها توجه خطابا لشخص ما فازددت عجبا لذلك. ثم أشار هرقل إلى صورة منصوبة على يمين الصورة السابقة، وسألنى: هيكل من هذا؟ فقلت إنه رجل من

أمة محمد ويطلق عليه أبو بكر؛ لأن الصورة كأنها نفس أبى بكر. ثم أشار إلى الهيكل القائم على الجهة اليسرى من الصورة التى تشبه النبى ـ ﷺ ـ وسألنى هيكل من هذا؟ فأجبته لابد أنها صورة رجل شهير يسمى عمر بن الخطاب؛ لأنها كانت تشبهه شبها كبيرا وكأنها ذاته.

ثم قال لى هرقل: بعد أن تلقى منى الإجابات السابقة إنه قد ذُكرَ فى الإنجيل أن الإسلام سيبلغ كماله بمعاونة هذين الرجلين. وقال: جاء فى الإنجيل أن الناقص من الدين سيبلغ حد الكمال بمعاونة المشار إليهما. وقد أعادنى معززا إلى المدينة دار السكينة.

وبعد فترة مثلت أمام النبى ـ ﷺ ـ وحكيت ما رأيته من هرقل الرومى، فقال حضرة النبى الصادق القول:

«لقد قال هرقل الصدق فالله سيعز الإسلام بأبى بكر وعمر، وسيوفقهما فى الحصول على الفتوحات العظيمة».

ـ حكاية:

كان الحكيم بن حزام[1] إذا اجتمع فى مجلس من المجالس مع قومه، وانتقل الحديث لذكر هرقل كان يقول: قبل أن أتشرف بالإسلام، ذهبت إلى الشام فى تجارة، ولم يكن سلطان الأنبياء ـ عليه أعظم التحية ـ قد هاجر بعد إلى المدينة المنورة، وكان بصحبتى «أمية بن الصلت بن عبد الله بن ربيعة» وهو من الطائف، وعندما علم هرقل أننا من أهل مكة استدعانا وقال: من أى قبيلة أنتما؟ وهل لكم صلة قرابة بمحمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ صاحب دعوة النبوة؟

فأجبته: نحن من قريش، ومحمد الأمين من أبناء عمومتنا ويتصل نسبنا به فى

(١) حكيم بن حزام ابن أخى سيدتنا خديجة الكبرى رضى الله عنها، وقد ولد داخل الكعبة قبل واقعة الفيل بثلاثة عشر عاما، وقد أمضى نصف عمره فى الإسلام والنصف الآخر فى الجاهلية، وعاش عشرين ومائة عام حيث توفى فى العام الستين من الهجرة فى المدينة المنورة. ويروى أن سيدنا على أيضا ولد داخل الكعبة المشرفة ولكن هذه الرواية لا أصل لها.
انظر: الإصابة ٢/ ٣٢.

الدرجة الخامسة. فقال هرقل: أتجيبوننى عما أسألكم عنه فيما يتعلق بهذا الرجل بدون خلاف؟ وهل أنتم ممن يصدقونه ويؤمنون بدعوته لله؟ فأجبته عن سؤاله الثانى وقلت: ونحن ممن يرفضونه ويرفضون أحكام دينه ودعوته.

لكننا لن نكذب فى حضورك وسنجيبك بصدق على كل ما تسأل عنه، وأقسمت بآلهتنا بأننى سأقول الصدق.

وسأل هرقل عن أحكام الشريعة المحمدية الغراء، فلما أجبناه إجابة واحدة لا خلاف فيها، قام من مكانه، وسار إلى الأمام وذهبنا معه كذلك. وكان بداخل قصره كنيسة مزينة فأمر بفتح بابها، واصطحبنا معه لداخلها.

وكانت هذه الكنيسة حجرة ملكية فخمة لا نظير لها، ويوجد فى وسطها صنم كبير مغطى بأستار من الذهب وموضوع فوق كرسى مرصع، رفع هرقل الأستار وقال: هذه الصورة صورة من؟!

فأجبناه: لا نعرف! لم نر صورة كهذه من قبل.

فقال: إنها صورة وجه أبى البشر.

ثم أخذنا من غرفة إلى أخرى وأرانا تماثيل مختلفة، وسألنا هل الشخص الذى يدعى النبوة يشبه إلى واحد من هذه القبائل؟

وكانت هذه التماثيل تماثيل أنبياء مختلفة، وكانت مغطاة بستائر ثمينة مزركشة وجميلة.

وبما أننا لم نر تمثالا يشبه الذات النبوية العالية أجبناه بقولنا: «إنها لا تشبه محمد بن عبد الله عليه السلام».

وبعد ذلك، أمر بفتح قاعة كبيرة ومزينة أيضا، وهى أكبر من كل القاعات التى رأيناها من قبل وكان فى وسطها تمثال مغطى ذو هيئة نورانية، فكشف التمثال بأن رفع الستار وسأل: من يكون هذا؟ قلنا: نعم.

إن هذه الصورة تشبه محمداً الأمين الذى يدعى النبوة فى بلدنا. وفى الواقع أنها كانت صورة لا تختلف عن شكله أبدا.

بناء على هذا وجه هرقل خطابه إلينا، وقال:

(إن هذه التماثيل التى شاهدتموها قد نحتت قبل ألف سنة، لو كان هذا التمثال هو تمثال محمد الأمين الذى ذكر تماما فمما لاشك فيه أن الرجل نبى مرسل. فعند وصولكما إلى مكة فعليكما بتصديق نبوته بلا تردد. وإذا قدر لى لقاءه فسوف أغسل رجليه المباركتين وأشرب ماء غسيلهما).

ـ حكاية:

كان «جبير بن مطعم» من الصحابة[1] الكرام، ومن أولاد نوفل القرشى، ويتصل نسبه بعبد مناف الجد الثالث للنبى ﷺ، وقد قال: كنت قد ذهبت إلى الشام فى بدء البعثة النبوية، فاستدعانى رئيس أساقفة نصارى الشام وسألنى: أتعرف الرجل الأمى الذى يدعى النبوة فى بلدتكم؟ فلما أجبته: نعم! إنه ابن عمى! أمسكنى من يدى وأدخلنى غرفة مليئة بصور الأنبياء المزينة، وأشار إلى الصور واحدة تلو أخرى وسألنى: أيمكن أن ترى بينها صورته؟ فلما أجبته: بالنفى أخذنى إلى حجرة أخرى، وكانت بيت التماثيل وكان فى داخلها تماثيل مزينة ومجسمة، وسألنى رئيس الأساقفة: يا ترى هل يوجد تمثال مشابه لصورة ابن عمك؟! فلما تأملنا رأيت تمثالا نورانيا على شكل رسول الله ﷺ، وبجانبه صورة تشبه الصديق وصورة أخرى بجانب صورة الصديق تشبه عمر بن الخطاب فأشرت إلى الصورة، وقلت هذه الصورة تشبه صورة حضرة محمد ﷺ.

ولما استفسر عن الصورتين الأخريين؛ أجبته قائلا: هذا ابن عمى ابن أبى قحافة وذلك ابن عمى عمر بن الخطاب. بناء على ذلك أنهى كلامه قائلا: إن هذا الرجل الذى ظهر فى بلدتكم مدعيا النبوة، أشهد أنه المبعوث الحق والرسول المطلق وهذان خليفتيه.

ـ حكاية:

تروى حكاية ذات عبَر حدثت فى عهد أبى بكر الصديق؛ إذ بعث فى أثناء خلافته ـ رضى الله عنه ـ هشام بن العاص سفيرا إلى إمبراطور الشرق هرقل، وقد تحدث هشام عن ماهية هذه السفارة وحقيقتها.

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢٣٥، والخبر فى دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٣٨٤-٣٨٥.

قال هشام بن العاص[1]: كنت أرسلت أنا وصديق لى من قبل أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ لدعوة هرقل إلى الإسلام، وعندما وصلنا إلى المدينة عاصمة إمبراطورية هرقل أنزلونا فى قصر غاية فى الفخامة، وبعد ثلاثة أيام استدعانا هرقل، وأجرى لنا مراسم الاستقبال، وفى أثناء الحديث أمر بإحضار صندوق كبير جدا ومزين بالذهب ذى أدراج كثيرة، ففتح أحد هذه الأدراج وأخرج منه لوحة حمراء اللون ملفوفة بقطعة قماش سوداء. وقد رسم عليها صورة شخص حسن الطلعة طويل القامة، فأشار هرقل إلى اللوحة المذكورة، وسألنا هل تعرفون هذا الرجل؟

أجبناه بالنفى. فقال: إنها صورة سيدنا آدم عليه صلوات الله الأعظم. وكانت هذه الصورة لرجل أحمر الوجه واسع العينين، ذو قامة طويلة شعره مفرق إلى جانبين وقد جدل بصورة منسقة، وبعد أن وضع هرقل صورة سيدنا آدم فى مكانها فتح درجا آخر من أدراج الصندوق، وأخرج لوحة أخرى ناصعة البياض لامعة وملفوفة داخل قطعة قماش سوداء. وكانت الصورة المرسومة فى هذه اللوحة، صورة لرجل أحمر العينين فسأل هرقل: صورة من هذه؟

وكانت الإجابة بالنص: لا نعرف!!

فقال: إنها صورة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ وقد رسمت هذه الصورة لرجل أبيض اللون، عيناه تميلان إلى اللون الأحمر كبير الرأس، كثيف اللحية. وفى النهاية فتح هرقل درجا ثالثا، وأخرج لفافة قماش سوداء، بداخلها لوحة بيضاء. وكانت اللوحة تحوى صورة رجل أبيض البشرة، وضاء الوجه وكأنه يبتسم وهو فى أبهى صورة.

وسأل هرقل: أتعرفون هذا الرجل؟ ولما أخذ الرد بالنفى، قال: هذه صورة إبراهيم عليه التحية والتعظيم، ثم فتح درجا آخر، وأخرج صورة صاحبها فائق الجمال وساطع الأنوار، وتذكرنا بمحمد ﷺ.

وقد بكينا فى أول مشاهدتنا للصورة كأننا رأينا حضرة صاحب الرسالة القدسية. وقد أظهر هرقل لهذه الصورة توقيرا وتعظيما أكثر من الصور الأخرى.

(١) الخبر فى دلائل النبوة ١/ ٣٨٦-٣٩٠ بطوله، وانظر أيضا تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٤-٥٦٧.

وعندما سأل هل تعرفون صاحب هذه الصورة؟ وقد تلقى الجواب منا إذ قلنا: إن هذا التمثال اللطيف يشبه صورة محمد عليه السلام، قال: الله يعلم أنه هو ونهض من مكانه وجلس عدة مرات. ثم قال: إذا كانت هذه الصورة هى الشكل المبارك لمحمد ـ عليه السلام ـ فاعلموا أن دينكم هو الدين الحق.

وأراد أن يبين شك فى كون هذه الصورة لمحمد ـ ﷺ ـ إذ نطق بهذه الجملة. ولكننا قلنا له: يا ملك بلاد الروم إن هذه الصورة صورة الحبيب ذى الكبرياء عليه أفضل التحيات ولاشك فى ذلك، وبها الكثير من شمائله الشريفة، حتى إننا ظننا أنفسنا فى حضرته السعيدة فائضة النور. وبهذه الإجابة زال شك هرقل إلى درجة ما، ولكنه لم يجرؤ على تصديق أن هذا التمثال صورة مشابهة لرسول الله العالى المقام، وظل يوجه إلى وجهنا نظرات بلهاء لمدة ساعة ثم أفاق، واستجمع عقله وسألنا وقد ظهرت عليه الحيرة:

احذرا أن تكونا قد أخطأتما فى تمييز صاحب الصورة إذ قد تكون لشخص آخر. ثم فتح درجا آخر وأخرج منه تمثال رجل غائر العينين متراكب الأسنان مقلص الشفتين. وكانت هذه الصورة تبدى علامات الغضب والحدة وتبعث الخوف فى مشاهديها. وإذا بها صورة سيدنا موسى بن عمران عليه صلوات الرحمن. وبجانب صورة موسى ـ عليه السلام ـ صورة أخرى تشبه صورة موسى الذات العالى إلى حد ما. أخبرنا هرقل أنها صورة هارون بن عمران ـ عليه سلام المنان ـ ثم فتح ثمانية أدراج درجا بعد درج، وأخرج من كل واحد منها صورة ملفوفة فى قطعة حرير سوداء، وقال إنها الأشكال المنيرة لحضرات سادتنا: لوط ـ إسحاق ـ يعقوب ـ إسماعيل ـ يوسف ـ داود ـ سليمان ـ عيسى عليهم السلام.

وكانت صورة سيدنا لوط داخل صرة من الحرير الأبيض، وتبدو صورته جميل الوجه عليها علامات الغضب. كما كانت صورة إسحاق داخل صرة بيضاء وقد رسمت بلون مائل للحمرة، وكانت صورة يعقوب ـ عليه السلام ـ داخل صرة بيضاء وكانت تشبه شكل إسحاق المبارك إلا أنها كانت تتميز بوجود خال

أسود اللون فى الشفة السفلى. أما صورة إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد كان أبيض اللون، حسن الوجه، أقنى الأنف، متناسق القوام، وكان يلمح فى وجهه السعيد نور محمد ساطع اللمعان.

وقد وصف هرقل هذه الصورة الجميلة أن صاحبها إسماعيل ـ عليه السلام ـ جد نبيكم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكانت صورة يوسف ـ عليه السلام ـ ساحر زليخا فى صرة بيضاء، وكان فى الخلقة يشبه آدم ـ عليه السلام ـ تماما لكنه فى صورة أجمل، متناسق الأعضاء حتى إن من يرونه يقولون: لابد أن تكون شمس الملاحة هذا النور.

وكانت صورة داود ـ عليه السلام ـ داخل صرة بيضاء، وقد بدا فيها أحمر اللون ضخم البطن متقلدا السيف.

وإذا جئنا إلى صورة سليمان بن داود فنجده ممتطيا جوادا ضخم الأليتين، طويل الرجلين، وكانت هذه اللوحة ملفوفة بقطعة حريرية بيضاء.

أما هيكل عيسى ـ عليه السلام ـ فكان ملفوفا فى داخل صرة بيضاء، وكانت صورة ذاته الشريفة تبديه فتيا صلبا أسود اللحية، كثيف الشعر حسن الوجه.

وكنا نشاهد الصور المذكورة واحدة تلو الأخرى، وننظر فى كل واحدة منها بكل رقة بالبصر والبصيرة. وغرقنا فى بحر الحيرة من شدة التعجب والاستغراب. ولم نجرؤ على القول بأن هذه هى صورة الأنبياء المشار إليهم، قلنا للملك: أيها الملك، كيف حصلتم على صور الأنبياء هذه؟!

فإذا ما نظرنا إلى الرسم اللطيف لسيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نبينا رأينا أنها تحمل نفس شمائله الشريفة؛ فلابد أن تكون كل هذه الصور مطابقة لصور الأنبياء مع العلم أنه من الصعب إيجاد دليل قوى وسند يعتمد عليه الحكم على هذا الأمر، وبهذه العبارة لم نصدق ولم نكذب صحة تلك الصور المشروحة.

وعندما رأى هرقل ترددنا الواضح فى تصديق حكاية الصور قال: إن هذه الصور بقيت من الأزمنة الغابرة، وإن كان من الصعب إثبات مدى مطابقة الصور لشكل أصحابها ما لم نرهم، إلا إننى عندى البينة الكافية لتأكيد صحة هذا الأمر.

يجب ألا ترتابوا فى أن الصور الشريفة للأنبياء ذوى الشأن الذين ذكرت أسماؤهم هى لهم. فإن سيدنا أبا البشر ـ عليه سلام الله الأكبر ـ أراد رؤية من اتصفوا بخير الصفات والذين سيتبوأون مقام النبوة من أولاده وأحفاده. ولما عرض أبو البشر ما فى ضميره على عالم السر والخفايا، أنزل الرحمن من عنده الصور المذكورة مرسومة على لوح مزين لحكمة لا يعرفها سواه.

وقد وضع سيدنا آدم اللوح المذكور فى مغارة فى بلاد المغرب بعد رؤيتها وهال عليها التراب والحجارة إلى أن وجدها ذو القرنين. ولفها فى قطعة من الحرير وحفظها، ولهذا انتقل اللوح المذكور مع قطعة الحرير هذه إلى يد النبى دانيال ـ عليه السلام ـ وقام المشار إليه برسم كل واحدة منها فى لوحة مستقلة، وبذلك نجح فى عمل صور كثيرة للأنبياء.

إن الذى ابتهجتم برؤيته و قررتم عينا بمشاهدته من الصور فجميعها من جملة الصور التى رسمها النبى دانيال، وقد ورثها الناس كابرا عن كابر إلى أن وصلت إلينا فى نهاية الأمر. وهكذا طيب خاطرنا وأعادنا إلى وطننا.

ورغم أننا لم نصدق أن الصور التى رأيناها عند هرقل تشبه شمائل الأنبياء الكرام، إلا أن الأمر ظل يتفاقم فى ذهننا وقد اضطررنا أن نعرض الأمر على الخليفة حتى نستوضح حقيقة الأمر منه.

وحينما وصلنا إلى المدينة المنورة توجهنا للقاء حضرة الخليفة الصديق وقبل أن نتحدث بما حدث أخبرنا بكل ما حدث أمام هرقل من مشاهدة الصور وما تحدث به بلا زيادة ولا نقصان وبعد ما بكى قليلا قال: إن طوائف اليهود وطوائف النصارى قد قرءوا فى كتبهم صفات النبى ـ ﷺ ـ ونعوته ولكنهم تمردوا وعاندوا ولم يؤمنوا به.

إن خلاصة هذه الحكاية مكتوبة فى كتاب دلائل النبوة منقولا عن الإمام البيهقى الذى نقله عن أبى أمامة الباهلى وهو قد نقله عن هشام بن العاص الأموى[1].

وقد نقل عن كعب الأحبار أن حضرة آدم ـ عليه السلام ـ حينما اقترب أجله، استدعى أبناءه الذين كانوا على قيد الحياة وأراهم تابوتا، ونظر أبناؤه إلى التابوت، فوجدوا به أدراجا كثيرة صغيرة بعدد الأنبياء الكرام ـ على نبينا وعليهم السلام ـ والدرج السعيد الذى فى نهاية الأدراج، كان خاصا بخاتم الأنبياء وكان تحفة لامعة الأنوار مصنوعا من الياقوت الأحمر.

وفى داخل البيت كان إمام الأنبياء ـ عليه وعليهم السلام ـ قائما يصلى وعن يمينه الصديق وعن يساره الفاروق ومن خلفهم ابن عفان وأمامهم صاحب القرآن على بن أبى طالب ـ رحمهم الله، ورضى عنهم أجمعين.

وكان مسطورا على جبهة الصديق الكريم عبارة: «هذا أول من تبعه من أمته» وعلى الجبين المبارك للفاروق عبارة «قرن من حديد، أمين شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم» وعلى جبهة ابن عفان «ثالث الخلفاء» وعلى جبهة على بن أبى طالب «هذا أخوه وابن عمه المؤيد بنصر الله» وعلى قول «ليث كرار غير فرار يحب الله ورسوله» وكان يرى فى جوانب هؤلاء المهاجرون والأنصار النقباء والخلفاء الآخرون.

صورة دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز:

إن القبائل التى تقطن الخيم حول كعبة الله عبدة أصنام مصنوعة من الأحجار والأشجار، والزمن الذى مالوا فيه إلى الضلالة كان فى عهد (أردشير بن شابور) من ملوك الفرس وكان «عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف» الذى لا دين له حاكما لأرض الحجاز المقدسة.

وقد نقل الإمام «الراشطى» أن عمرو بن لحى بن قمعة هو الحارث بن عمرو بن مزيقيا بن عامر ماء السماء بن الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن أزد

(١) دلائل النبوة للبيهقى ١/٣٨٦-٣٩٠.

من نسل زيد بن كهلان بن سبأ، وأن نسبه هو نهاية نسب أفراد قبائل بنى خزاعة. ورغم هذا فإن بعض علماء النسب انتقدوا هذه الرواية المنقولة عن الراشطى وخرجوها قائلين: إن هذه الرواية رأى من يدعون أن خزاعة من أهل اليمن. ورفعوا سلسلة نسب عمرو إلى إلياس بن مضر.

والواقع أنه عندما توفى قمعة بن خندف كانت زوجته حاملا وتزوجت من الحارث بن عمرو مزيقيا وبعد فترة ولدت لحى وتربى لحى فى كنف الحارث ونسب إليه.

وعلى هذا يكون لحى ربيب الحارث بن عمرو مزيقيا وابن قمعة بن إلياس بن مضر. وهذا القول هو المرجح وأكثر صحة من القول الآخر.

واسم لحى بن قمعة ربيعة وجدته لأبيه: خندف المسماة بليلى بنت حلوان بن عمران بن الحان بن قضاعة وزوجها هو إلياس بن مضر.

أما سبب إطلاق اسم خندف على ليلى فقد ذكر فى البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب. وقد انفصلت قبيلة خزاعة من عمرو بن لحى وبما أن ليلى «خندف» وكانت والدة قمعة أطلقت أفراد قبيلة خزاعة على ليلى اسم الأم.

قال المؤرخون الذين ذكروا سبب إطلاق اسم خزاعة لبنى عمرو قد هاجر أهل سبأ عقب وقعة سيل العرم من بلادهم، وهاجر كل جماعة إلى مكان ما واشتهروا باسم ذلك المكان.

وفى ذلك الوقت استقر أولاد وأحفاد مازن الأزد بن الغوث بن ليث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فى جانب ماء اسمه غسان[1] القريب من المكان المسمى «مشلل» واختاروا الإقامة فيه قبل بنى مازن، ولما انقطع وانجزعت جماعة عمرو بن لحى عن القبائل الأخرى، وسكنوا بأطراف مكة المكرمة قيل لبنى عمرو بن لحى بنو خزاعة.

(١) هناك رواية تقول إن الماء المسمى «بغسان» من مياه سد مأرب وإنه اسم ماء منسوب لأبناء مازن بن الأزد بن الغوث ولذلك يطلق على بنى مازن الغسانى إلا أن الرواية الأولى أصح.

الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام هم أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن عبد الله بن الأزد بن الغوث.

وعندما أخرج بنو خزاعة قبائل الجراهمة من مكة المعظمة بالقوة وأبعدوهم إلى بلاد اليمن اتخذوا عمرو ـ مستحق الجمر ـ رئيسا لقبيلتهم واجتهدوا على أن ينفذوا كل ما جاء به من البدع والخزعبلات عن طيب خاطر[1].

إن الأسباب الرئيسية لرضا بنى خزاعة العمل بما كلفهم به عمرو دون تفكر ترجع إلى تكريمه للقبائل البدوية وجوده معهم وإلباسه الخلع للعظماء والوجهاء فى مراسم الحج.

وكان عمرو بن لحى، الذى نال رئاسة بنى خزاعة يسافر إلى بلاد الشام فى أثناء حكومته. وقد رأى أحفاد العمالقة يعبدون الأصنام فى مدينة مأرب من أرض البلقاء التى استوطنوا بها فسألهم: ما أسباب عبادتكم لهذه الجمادات؟ فأجابه عبدة تلك الأصنام بقولهم: إنها مجموعة من الآلهة صنعت على غرار الهياكل العلوية والصور البشرية وإننا نستمر فى عبادتها واحترامها وتوقيرها وقد اتخذناها آلهة لنا وعلى هذا فهى تستجيب لتضرعاتنا، فإذا ما طلبنا منها مطرا فى أى وقت تنزل مطرا وإذا استعنا بها فى حاجة من حوائج الدنيا فتحقق مطالبنا؛ فصدق قولهم وطلب منهم أن يعطوه واحدا منها قائلا: إذا أعطيتمونى واحدا منها أحمله إلى أرض الحجاز وأدعو بنى إسماعيل لعبادته وأرغبهم فيه، فقاموا على الفور بإهدائه صنما ثقيلا يسمى هبل.

وفى **رواية أخرى** أن إساف ونائلة من الأصنام التى أهديت إلى عمرو بن لحى من قبل العمالقة.

وقد سر عمرو بن لحى إذ أهدى له إله وأخذ هبل المذكور ووضعه فى المخزن الذى صنعه إبراهيم لحفظ الهدايا المقدسة لعتبة الكعبة الشريفة، وعلى قول آخر ركزه فوق جبل الأخشب[2] وطلب من الأهالى أن يظهروا له الاحترام اللازم ويتعبدوا له ليلا ونهارا.

(١) إن هذه الكيفية قد حررت بالتفصيل فى المكان الخاص به من كتاب مرآة المدينة.

(٢) هذا القول ضعيف.

وقد عرف فاضل أبو الفوز البغدادى فى كتابه القيم المسمى «سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب» أصل هبل الذى اعتقد عمرو فى ألوهيته. وقال: إن هبل الذى حمله عمرو بن لحى من الشام إلى مكة كان تمثالا لإنسان عجيب الشكل. وكان مصنوعا من العقيق إلا أن يده اليمنى كانت مكسورة.

وقال إن قريشًا الذين صدقوا ألوهيته قاموا بتركيب يد من الذهب له وأخذوا يعبدونه مظهرين له الاحترام والتوقير والإخلاص.

قال ابن إسحاق فى تعريف هبل: هبل صنم كبير مصنوع من العقيق على شكل إنسان لكن يده اليمنى كانت مكسورة ومفقودة، ولما رأى آل قريش أنه بلا يد صنعوا له يدا من ذهب وركبوها فيه.

وكان لهبل خزينة خاصة لوضع الهدايا التى تقدم له وتحفظ فيها. وكذلك كان له سبعة أقداح لإجراء القرعة[1] ولا يمكن للذى يريد إجراء القرعة استخدام القداح ما لم ينذر بذبح مائة من الإبل. انتهى.

وبعد ذلك بمدة شاع خبر هبل الذى جلبه عمرو ـ متسحق الجمر ـ بين مشركى البدو، حيث أخذوا يوقرون ويعظمون ذلك الصنم بتحريض من عمرو وتشجيعه وأشركوا هبل المصنوع من الحجر بخالق الأفلاك ـ تنزهت ذاته عن الشرك ـ وهكذا كفروا.

ورغم أن مشركى العرب قد اعتنقوا الكفر فقد ظل بينهم بعض الأفراد محافظين على دين الخليل وتمسكوا به.

وكان هؤلاء يقومون بتعظيم بيت الله، والطواف حوله وأداء الحج ويخرجون لأداء العمرة ويصعدون عرفات والمزدلفة ويذبحون الأضاحى ويعتمرون اقتفاء لآثار سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ـ عليهما السلام.

وكانت دعوة عمرو بن لحى قبائل العرب البدو لعبادة الأصنام قبل البعثة

(١) توجد معلومات وافية حول هذا الموضوع فى البحث الخاص بالقرعة عند العرب فى الجاهلية.

النبوية بألف عام وعلى قول بثلاثمائة وخمس وعشرين سنة، وبعد فترة قصيرة كان كل ساكنى منطقة الحجاز من أولاد إسماعيل ـ عليه السلام ـ قد اتجهوا إلى عبادة الأصنام المنحوتة من الأشجار والأحجار ولهذا فإذا خرج أى واحد منهم أو أى قبيلة خارج ميقات كعبة الله كان يأخذ معه ـ بهدف تعظيم بيت الله ـ حجرا من المسجد الحرام على النحو الذى سنذكره مفصلا فيما بعد ـ ويضعه فى الأماكن التى ينزل فيها ويأخذ فى الطواف حوله كما كان يطوف بالكعبة.

وبمضى الوقت غاب عن الذهن سبب تعظيم الأحجار واستبدل دين الخليل بعبادة الأصنام وتحول الناس عن عبادة خالق العباد إلى عبادة الأصنام.

وبعد ذلك اهتم الذين غيروا دينهم بتعظيم حجارة المسجد الحرام حتى إنهم فاقوا فى عبادة الأصنام الضالين من أفراد الأمم الأخرى الذين يعبدون الأصنام.

وبلغ الأمر حدًا حتى إن قبيلة قريش وطائفة بنى كنانة كانوا يلبون فى وقت الحج قائلين «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ويدخلون داخل الكعبة ممسكين بأيديهم غير المباركة الأصنام التى صنعوها بأيديهم، واستمر هذا الحال المشؤوم حتى يوم إشراق نور النبوة.

وخلال تلك الفترة اهتم أهل الحجاز بعمل أصنام كثيرة مثل: اللات ـ العزى ـ مناة ـ ذو الخلصة ـ ذو الكفين ـ ذو الشرى ـ قلس ـ رضاء ـ ذو الكعبات وغيرها من الأصنام وقد سميت بعض هذه الأصنام بأصنام عبدة الأصنام فى عهد نوح ـ عليه السلام.

وقد ظهر فى الفترة التى بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ خمسة أشخاص[1] وكانوا حريصين على طاعة الله وعبادته وبهذا نالوا حب الناس واحترامهم وعندما أتم هؤلاء آجالهم وارتحلوا إلى عالم العقبى لم يستطع أولادهم وأتباعهم أن يتحملوا آلام فراقهم وتحسَّرُوا عليهم، فصنعوا ـ بإيعاز من الشيطان ـ لكل واحد منهم صورة ليعلقوها فى مساجدهم. وفعلا قد وضعوا هذه الصور فى مساجدهم وظلوا يزورونها بكثرة ليخففوا شدة حزنهم وليزيلوا وطأة حسرتهم.

(١) توجد تفاصيل وافية فى هذا الموضوع فى البحث الخاص ببدء ظهور الأصنام.

وبطبيعة الحال، مات الأبناء والأتباع فأوعز الشيطان إلى بقية الناس بعبادة الصور. إذ قال: «أيها الناس! إن هذه الصور[1] كانت صور من عبدهم آباؤكم فأنتم باتخاذكم إياها آلهة وعبادتها تعملون على نشر الدين وعلى إدامة الطقوس التى قام بها آباؤكم». ودَفَعَ الناس إلى عبادة صور هؤلاء الأفراد الخمسة إلى قبيل زمن نوح عليه السلام.

وفى واقعة الطوفان المشهورة دفنت هذه الصور المجسمة تحت التراب، واختفت عن أعين الناس، ورغم هذا فإن إبليس اللعين ـ كما سنذكر فيما بعد ـ استطاع أن يبرز جميع هذه الصور إلى الأعين بطريقة ما دفع العرب إلى عبادة الأصنام وأثار هذا العمل ضيق أهل الإيمان وأزعجهم.

وقامت جماعات حمقى من القبائل من أحفاد بنى إسماعيل وبتدخل الشياطين بصناعة أصنام مشابهة للأصنام التى أخرجت من تحت الأرض وسموها بأسماء هؤلاء الصالحين الذين ذكروا آنفا وأخذوا يعبدونها بكل إخلاص وخضوع.

وتبعا لدراسة المؤرخين فإن أسماء هؤلاء الصالحين المشار إليهم كانت: سواع ـ ود ـ يعوق ـ يغوث ـ نسر.

والأصنام التى صنعت لتختص بهذه الأسماء:

سواع: وصنعت على شكل امرأة، ود: على صورة رجل، يغوث: على صورة أسد، يعوق: على صورة حصان، ونسر على صورة طائر النسر وفى النهاية كانت تلك الأصنام التى عبدتها القبائل العربية البدوية على أشكال الحيوانات المذكورة.

بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض

لم يكن على وجه الأرض أحد من بنى البشر يعبد الأصنام حتى تاريخ رفع سيدنا إدريس إلى السماء وأصبح مظهرا للسر الإلهى القدسى.

(١) المقصود بهذه الصور هى صور الخمسة أشخاص الذين سلف بيانهم ويروى ـ على نحو ما سنبينه فى محله ـ إن أحدهم سيدنا إدريس والأربعة هم خلفاؤه، أو أولاد سيدنا آدم أبى البشر.

وبناء على قول المؤرخين فإن رفع إدريس إلى السماء كان بعد هبوط سيدنا آدم أبى البشر بـ ١٤٧٢ سنة وكان أبوه يزد يبلغ من العمر ٥٢٩ سنة فى ذلك الوقت وكانت ذاته النبوية على اختلاف الروايات ٣٢٥ أو ٣٧٠ أو ٤٥٠ أو ٣٦٥ سنة من عمره وبعد هذه الواقعة ظل يزد والده على قيد الحياة مدة ٤٣٥ سنة أخرى.

ومع اعترافنا بأن الله قادر على كل شيء، فإن بقاءه على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة أمر خارق للعادة ولهذا لو حكمنا بأن هذه الروايات لا تخلو من الخطأ فإننا نعتقد أن أحدا من القراء لن ينتقدنا ولن يخطئنا.

وعندما أصبح سيدنا إدريس مظهر الله الجليل ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) لم يحتمل أحد خلفائه المخلصين ألم الفراق وأخذ يصيح ويصرخ حتى وصل صوت صراخه إلى الملأ الأعلى وأزعج سكانه.

وذات يوم ذهب إبليس اللعين إلى حجرة الخليفة المشار إليه وقال له: أيها العاشق المشتت القلب والوجدان ما أصعب تحمل نار الفراق الحارقة وإيجاد حل لهذا الأمر من أصعب الأمور بل هو مستحيل.

فإذا ما رسمت صورة تحتوى على شمائل حضرة إدريس ثم تضعها فى مكان ما فى حجرتك وأبرزتها بحيث تشاهدها أمامك دائما وتتذكر أوقات مصاحبته لك لعلك تجدد الود المؤثر لآلام فراقك. قال هذا وصنع صورة الجسم لسيدنا إدريس وقدمها لهذا المحب الوفى المتحسر.

وكان ذلك الخليفة صافى القلب ساذجا غافلا عما يهيئ له إبليس من شر ودسيسة وفى نفس الوقت ثملا من شراب فراق إدريس فأخذ الصورة الخالية من الروح التى قدمها له الشيطان، وظل ينظر لها إلى أن حان أجله.

وبهذه الطريقة خفف من نار الشوق لكنه لم يعلن لأحد قط حقيقة الأمر. حيث ظل على هذه الحال طوال فترة حياته.

وعند وفاة الخليفة عجز الناس الذين رأوا هذه الصورة فى حجرته الخاصة عن معرفة صاحب الصورة وعن سبب وجودها فى حجرة الرجل فظلوا فى حيرة من أمرهم.

ورأى الشيطان أن الفرص سانحة فى هذا الوقت لغواية البشر وإضلالهم فتمثل فى هيئة رجل من الزهاد العابدين وتوجه إلى حيث يجتمع الحيارى فى فهم كنه الصورة التى وجدت فى غرفة الخليفة فتحدث قائلا: إن فى رأيى أن هذه الصورة ـ وحاشا ـ صورة الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق السموات والأرض.

ولاشك أن العبادة الخفية أكثر قبولا عند الله، لهذا كتم عنا حضرة إدريس ـ عليه السلام ـ وخليفته الذى ترك ملذات الدنيا وأخفيا تعبدهم لهذه الصورة وبهذه المقدمة دفع الناس إلى الضلالة وأراهم أول طريق للضلالة.

وانخدع الناس بمظهر الشقى الأبدى المتخفى فى زى المتصوفة وأعدوا صنما وأخذوا يمارسون طقوس عبادة الأصنام.

وقد نقلت هذه الحكاية عن مؤلف (روضة الصفا مولانا محمد خاوند).

والشخص الذى قال عنه إنه أحد خلفاء سيدنا إدريس هو الحكيم أسقلينوس أعقل وأرشد خلفائه وأفضلهم إلا أن عبارة: «أخذ من الشيطان الصورة المجسمة لسيدنا إدريس ولم يغيبها عن نظره»، لابد وأن تكون غير صحيحة لأن سيدنا إدريس اتخذ لنفسه أربعة من الخلفاء هم «إيلادس» و«أوس» و«أسقلينوس» و«بسلوخس» وأسند إدريس ـ عليه السلام ـ لكل واحد منهم إدارة جهة من جهات الدنيا الأربع، وكان «أسقلينوس» أكثرهم زهدا وورعا؛ لذا نال لقب خليفة الخلفاء.

وفى أثناء رفع سيدنا إدريس إلى السماء كان «أسقلينوس» فى بلاد اليونان، مركز الجهة التى كلف إدارتها ولما علم بالأمر ظل يبكى وينوح لفترة طويلة وأزعج الناس فى الدنيا ببكائه ونواحه، وفى النهاية قام بعمل رسمين مجسمين لسيدنا إدريس ـ عليه السلام ـ أحد الصورتين وهو جالس على كرسى والأخرى وهو يرفع يده إلى السماء واعتاد فى أثناء عبادته أن يلقى نظرة على هذين الرسمين.

وبما أنه لاشك فى أن «أسقلينوس» كان مؤمنا موحداً بالله فلم يكن هدفه من إقامة الصورتين المجسمتين عبادة الأصنام وإنما كان من أجل تعظيم سيدنا إدريس وتوقيره.

ولكن وآسفا!! عندما توفى «أسقلينوس» لم يستطع «صاب بن إدريس» وسائر الحكماء البلهاء أن يدركوا نيته وعقيدته وحملوا ما فعله هذا على أنه من عبدة الأصنام وبعد مدة بنوا بيوتا للأصنام ونظموها وأصبحوا من عبدة الأصنام وثملوا إذ شربوا من خمر الضلال واتخذ كل واحد منهم صنما فأضلوا الناس وحملوهم على عبادة الأصنام.

وقال بعض المؤرخين: إن ابتداع الأصنام كان أولا بين أبناء قابيل، وقد ابتدعت فى زمن حكم (اليارد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام).

وطبقا للنتائج التى أسفرت عنها الدراسات التى قام بها ناقل هذه الرواية إن أبا شيث ـ عليه السلام ـ قد تلقى أمرا خاصا من سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ لكى يخفى التابوت الذى وُضِعَ فيه أبو البشر عن أولاد وأحفاد قابيل.

وبسبب هذا الأمر نقم أولاد قابيل على شيث ـ عليه السلام ـ واتجهوا للعمل ضده ولهذا ظلوا لفترة طويلة يظهرون عدم رضاهم ويبدون علامات الألم والضيق.

ولأن هذا الأمر كان سببا كافيا لدى إبليس اللعين لضلالة الناس، فقد أقام تمثالا مباركا لسيدنا أبى البشر، وضعه فى تابوت، ثم أعطاه إلى أحفاد قابيل قائلا لهم: إن الشىء الذى أخفى عنكم هو نفسه هذا الشكل فأخذه الأحفاد وهدأ هذا الشكل المجسم من روعهم بعدما رأوه لفترة، وبعد ذلك سعى كل واحد منهم إلى الحصول على صنم. ثم أصبحت بدعة أن يوجد صنم فى منزل كل إنسان وفى مركز ومجمع كل قبيلة تابوت على صورة خاصة.

وأظهروا جميعا لها الاحترام الشديد والتوقير والتعظيم وأخذوا يعبدونها حيث أصبحت من الضرورات الدينية بين آل قابيل.

والأصنام التى عبدت فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ هى: ود، سواع، يعوق، يغوث ونسر، صنعت على غرار الأصنام التى عملت فى زمن أبناء قابيل.

وكما حقق وصف حضرة إسماعيل حقى ـ قدس سره الجلى ـ مؤلف «روح البيان» فأسماء هذه الأصنام الخمسة هى أسماء أولاد سيدنا آدم من صلبه، وإنه بواسطة الشيطان اللعين، قد عمل نموذجا لكل واحد منهم، وكان ذلك فى عهد يارد بن مهلائيل، وظلت تعبد حتى عهد نوح ـ عليه السلام.

وعند ظهور طوفان نوح دفنت هذه الأصنام فى الأرض واختفت عن العيون. ورغم هذا فإن إبليس الملعون أخرجها من باطن الأرض فى فترة من الفترات ـ ولما نقلت إلى مكة المكرمة برأى ومشورة «عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس بن مضر» أخذ الناس يتعبدون لها ثم اتخذها كل عرب الجاهلية آلهة لهم وظلوا يعبدونها إلى البعثة النبوية لخير الورى عليه أفضل التحايا.

وكانت قبيلة هذيل تعبد سواع وقد اتخذت طقوسا خاصة بها ونظمت مواسم حج وزيارة لإلهها سواع رغم القبائل الأخرى المخالفة.

وحسبما قال فاضل أبو الفوز البغدادى فإن الأسماء التى أطلقت على الأصنام المذكورة هى أسماء الصالحين الخمسة السالفة التعريف والذين كانوا على قيد الحياة فى عهد «يارد أو يرد» والد سيدنا إدريس ولما توفى هؤلاء الخمسة فى عهد يارد فى خلال شهر واحد الواحد تلو الآخر، تأثر الناس أعظم التأثر وأبدوا مظاهر الحزن والألم لوفاتهم وعندئذ ظهر شخص يتصل نسبه بنسب قابيل فأقام تماثيل لهؤلاء الخمسة وأطلق على كل واحد منها اسم أحدهم ووضعها فى ميدان الميادين.

وأخذ الحزانى يزيلون حزنهم وألمهم بالطواف حول هذه التماثيل وفى هذه الفترة كان طواف الناس حول التماثيل لإظهار التعظيم والتوقير والحب لهؤلاء الصلحاء الخمس وفيما بعد اتخذ الناس هذه التماثيل آلهة يعبدونها واستمرت هذه الحالة إلى زمن نوح ـ عليه السلام.

وادعى بقى بن مخلد أن هذه الأسماء انتقلت إلى الهنود وأطلق الهنود هذه الأشياء على أصنامهم العظام.

ولما كان فى داخل كل صنم هندى جن يخبر المتعبدين بأخبار الغيب كان يظن الهنود أن أصنامهم تتكلم وتتحدث وتسمع.

ولما بدأت أصنام مكة أيضا تخبر مشركى قريش ببعض الأخبار عما سيحدث فيما بعد اعتقدوا مثل الهنود أن أصنامهم تنطق وتتحدث.

الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة

قال سيدنا عبد الله بن عباس وهو يتحدث عن سبب إسلام عمر الفاروق: وَعَدَ سيدنا عمر بن الخطاب صناديد قريش بقتل الذات النبوية الشريفة وذهب إلى بيت فى داخله صنم يتعبد له بعض البلهاء من بنى خزاعة، ذهب ليؤكد لقريش بالقسم أمام الصنم بأنه سيوفى بوعده.

وبينما كان سيدنا عمر يستعد للقيام بقسمه صدر من داخل الصنم صوت هاتف. وقد تعجب أفراد قريش من صدور مثل هذا الصوت وأنصتوا فى قلق وخوف وحيرة لما يقوله الصنم فأدركوا أنه يردد الأبيات الآتية:

شعر

يا أيها الناس ذو الأجسام ... ما أنتم وطايش الأحلام
ومسندو الحكم إلى الأصنام ... أصبحتمو كراتع الأصنام
أما ترون ما أرى أمامى ... من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهامه ... حتى بدا نورا بأرض الشام
محمد ذو البر والإكرام ... أكرمه الرحمن من أمام
قد جاء بعد الشرك بالإسلام ... يأمر بالصلاة والصيام
والبر والصلات للأرحام ... ويزجر الناس عن الآثام
فبادروا سبقًا إلى السلام ... بلا نفور وبلا إحجام

وتفرق القرشيون الموجودون فى معبد الأصنام المذكور كما تتفرق صغار الحجل، واتجه كل واحد منهم إلى ناحية، بينما اتجه الفاروق الأعظم ـ رضى الله عنه ـ إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ومن هناك إلى بيت حمزة وعلى قول إلى دار الأرقم ابن الأرقم. ولكن قبل وصوله إلى ذلك البيت السعيد المشار إليه قابل رجلا من بنى سليم فقال له ما يدور فى نفسه. وحينئذ استصوب الرجل أن يذهب عمر قبل اتخاذ أى قرار إلى صنم قبائل بنى سليم الذى اتخذوه إلها والمسمى بـ ضمار[1] ليفصل فى القضية، وهكذا توجه الرجل إلى بيت أصنام بنى سليم، ولكن عمر سمع منه الأبيات الآتية فحطم ضمار الضخم من شدة غضبه.

شعر

أوْدَى الضمار وكان يعبد مرة	قبل الكتاب وقبل بعث محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى	بعد ابن مريم من قريش مهند
سيقول من عبد الضمار ومثله	ليت الضمار ومثله لم يعبد
أبشر أبا[2] حفص بدين صادق	تهدى إليه وبالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلا إنه	يأتيك عز فوق عز بنى عدى
لا تعجلن فأنت ناصر دينه	حقا يقينا باللسان وباليد

وبعد ما حطم سيدنا عمر ضمار وجعله ألف قطعة، قد تحولت العداوة التى كان يضمرها للنبى ـ ﷺ ـ إلى مودة أبدية؛ لهذا رجع فورا إلى المنزل أخته ومن هناك إلى دار ابن الأرقم السعيدة بصحبة زوج أخته، ودخل فى دائرة الإسلام المنجية على النحو المذكور فى كتب السيرة بالتفصيل. رضى الله عنه.

ـ حكمة:

وائل بن حجر «بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمى» أحد الصحابة الكرام[3]، ومن ملوك حضرموت المشهورين كان يعبد صنما لامعا من العقيق

(١) ضمار على وزن كتاب وهو الصنم الذى كان يعبده عباس بن مرداس وقومه.
(٢) كنية سيدنا عمر.
(٣) انظر ترجمته فى الإصابة ٦/ ٣١٢.

الأحمر، وكان يسجد احتراما وتوقيرا له وكان يذبح له قرابين كثيرة كل يوم بغية نيل رضاه.

قال هذا الصحابى: كنت نائما فى قصرى وقت الظهر فى يوم من الأيام، فاستيقظت إذ سمعت صوتا حادا يصدر من خزانة الصنم، فوثبت من فوق سريرى وأخذت أسجد بجانب الصنم، فسمعت فى ذلك الوقت هذه الأبيات التى تخرج من بطن الصنم.

الأبيات:

يـا عجبـا لوائـل بـن حجـر	يخـال يـدرى وهـو ليـس يـدرى
مـاذا يـرجـى مـن نحيـت صـخـر	ليـس بـذى عـرف ولا ذى نكرى
ولا بـذى نفـع ولا ذى ضـر	لـو كـان ذا حجـر[1] أطـاع أمـرى

وعندما سمعت هذا الشعر رفعت رأسى وقد ملأنى العجب والحيرة ومالبثت أن قلت:

يا أيها الناصح ـ بما تأمرنى؟ فسمعت صوتا يقول فى عبارات منظومة:

«شد الرحال إلى يثرب المباركة.. حيث يكثر النخيل.. فليس لفضلها حصر».

وفى نهاية الشعر المذكور سقط الصنم على وجهه وتحطم وتفتّتت أجزاؤه، وعقب ذلك ارتحلت إلى دار السكينة المدينة المنورة وأسرعت بالدخول فى المسجد النبوى الشريف، ودعانى رسول الله ـ ﷺ ـ وبسط طرف ردائه المبارك، وأقعدنى عليه ثم صعد المنبر وألقى خطبة بليغة وقال عقب الخطبة: «أيها الناس إن هذا الرجل هو وائل بن حجر، وقد جاء من بلاد بعيدة كحضرموت راغبا فى الإسلام» وما لقيت بعد ذلك رجلا من الصحابة فى المدينة إلا وقال لى: يا وائل إن النبى ـ عليه صلوات الله الأكبر ـ قد بشرنا بمجيئك إلى المدينة المنورة منذ ثلاثة أيام.

(١) يعنى وائل بن حجر.

الأبيات التى سمعها وائل من داخل الصنم

ارحل إلى يثرب ذات النخيل وسر إليها سير مشمعل[1]
قبل تقضى العمر المولى تدين بدين الصائم المصلى

محمد المرسل خير الرسل

وكان الصنم الذى تعبده قبيلة خطامه سببا فى إسلام «مازن بن غضوبة»[2] رضى الله عنه وهو من وجهاء تلك القبيلة.

وكان هذا الصنم إله قبيلتى (خطامة وصامت) وقد عين أفرادهما مازن بن غضوبة خادما له.

وقال مازن بن غضوبة هذا وهو يتحدث عن الحادثة التى أدت إلى إسلامه: «كنت قد ذبحت ضحية للصنم الذى أخدمه تقربا له وطلبا لنيل رضاه، وفجأة سمعت من جوف الصنم صوتا يخاطبنى، ويقول: يا مازن استمع إلى لعلك تسر وتسعد لقد بعث رسول من أحفاد بنى مضر لإظهار الدين الحق وإعلائه، فاترك الآن عبادة الحجارة المنحوتة وانج بنفسك من نار جهنم المحرقة.

وهكذا سلب منى عقلى وشعورى، وتعجبت من حال الصنم وتحيرت حتى لم أدر ما أفعله تجاه هذا الأمر، وبعد أيام جاء رجل من قبيلة أزد وقال هل تعلمون أنه قد ظهر فى مكة المكرمة رجل يسمى «محمد»، ويدعو من يقابله واستجيبوا لدعوة الله، وهكذا أخبرنا بظهور النبى ﷺ.

بينما تعجب الناس من هذا الخبر، قلت لنفسى، هذه هى حقيقة ما سمعته من الصنم فى اليوم السابق، وبعد أمد حطمت ذلك الصنم جذاذا، وقد نلت عز المثول أمام الرسول ـ ﷺ ـ وقبلت الإسلام دينا.

هناك كهنة فى الجاهلية دخلوا الإسلام بإغراء الجن وتحريضهم، يقول عبد الله بن كعب ـ رضى الله عنه ـ: بينما كنت جالسا مع عمر بن الخطاب ومعنا أناس آخرون فى المسجد النبوى السعيد، دخل أحد الأعراب فى المسجد وجاء إلى

(١) المشمعلّ: السريع. يكون فى الناس والإبل انظر اللسان: شمعل. ص ٢٣٢٨. ط. دار المعارف.
(٢) انظر ترجمة مازن بن غضوبه فى الإصابة ٦/ ١٥-١٦، وثقات ابن حبان ٣/ ٤٠٧. وقصة إسلامه هذه فى دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٢٥٥ وما بعدها.

جانبنا، فقال حضرة الخليفة عندما رأى الرجل: إن هذا الإنسان كان من كهنة أهل الجاهلية ورد على سلام الأعرابى وقال له هل أسلمت؟ فأجابه الرجل: نعم يا أمير المؤمنين نعم أسلمت ونجوت من دنس الكفر والضلالة.

قال: ألم تكن كاهنا فى الجاهلية؟ فأجابه قائلا: يا أمير المؤمنين لا داعى لذكر الماضى، قال عمر إذ تلقى هذه الإجابة الدالة على الندامة ـ داعيا رافعا يديه: «يا رب لقد كنا نعبد الأصنام إلى أن أنعمت علينا وأكرمتنا ببعث الرسول الكريم والنبى الحبيب ـ ﷺ ـ يا رب إننا نادمون آسفون على ما مضى من زمان قضيناه فى عبادة الأصنام يا رب تجاوز عن ذنوبنا واغفر لنا».

وبعد هذا الدعاء وجه كلامه إلى الأعرابى المذكور قائلا: حدثنا عن قرينك الذى كان يخبرك بالغيب فى زمن كهانتك، وكيف أغراك ودفعك إلى قبول دين محمد؟!.

فأجاب الأعرابى على النحو التالى جاء الجن الذى يرافقنى قبل شهر من إسلامى وقال هذه الأبيات:

شعر

عجبت للجن وإبلاسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمن الجن كأرجاسها

رغم أن رفيقى لم يقل شيئًا آخر غير هذا الشعر إلا أنه رجع فى اليوم التالى وأنشد الأبيات الآتية:

عجبت للجن وإجلابها ... ونصبها العيس وأعمالها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمن الجن كضلالها

ورجع رفيقى فى الليلة الثالثة، وقرأ الأبيات التالية:

عجبت للجن وإجلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما زُمَّعُ الجن كصُيَّابها

عندما أتم الأعرابى كلامه وسكت قال حضرة الخليفة مصدقا المشار إليه: ذات

يوم كنت أجلس بجوار الصنم وقد ذبحت عجلا قربانا إلى أحد الآلهة التى كنا نعبدها فى الجاهلية، فخرج من جوفه صوت رقيق يثير الشوق وقال: أيها الشيخ أعلن بلسانك الفصيح صحة أمر لا إله إلا الله، وانشره بين الناس.

وقال «جبير بن مطعم» أيضا أن أباه سمع بعض الكلمات من أحد الأصنام التى يعبدها. قال مطعم حسب ما يرويه ابنه وينقله: كنت جالسا يوما فى بيت الأصنام إذ تكلم الصنم الذى كنت جالسا بجانبه، فقال: استمع إلى ما يثير عجبى استمع إلى تخمين حان وقته سيظهر من العرب رسولٌ من سلالة هاشم بن عبد مناف. إن مسقط رأسه سيكون مكة المكرمة ومهجره سيكون المدينة المنورة.

وبعد أن قص سيدنا جبير هذه الحكاية التى سمعها أبوه من الصنم المذكور، أضاف أنها قد حدثت قبل البعثة المحمدية ـ عليه وعلى آله أفضل التحية ـ بفترة طويلة.

ومن الصحابة الكرام الذين أسلموا بإغراء من الجن هو «تميم الدارى»[1] قال: حضرة تميم وهو يعرفنا بسبب اعتناقه الإسلام: وأنا فى طريقى إلى الشام ذات يوم ـ أقبل الليل، فقررت أن أنام فى مكان هادئ فى أحد الوديان، فترجلت من فوق دابتى واتجهت ناحية المكان الذى اخترته، وبعد برهة سمعت هاتفا يقول: نلجأ إلى الله الواحد، وآمنا مع كوننا من الجن لم نجد أحدًا غيره نلوذ به لقد ظهر حضرة رسول الثقلين ـ ﷺ ـ وقد صلينا خلفه فى جبل حجون[2] بعد أن اتبعناه، قد اعتنقنا الإسلام وآمنا برسالته، فأسلم أنت أيضا حتى تسلم.

وقد سمعت كلاما بهذا المعنى وبادرت فى ترك المكان وذهبت إلى دير أيوب، وحكيت ما سمعته إلى راهب الدير الذى قال: نعم لقد ظهر خير الأنبياء فى الحرم ـ وسيهاجر إلى الحرم فتوجهت فورا ـ إذ سمعت هذا الكلام إلى مكة المعظمة فوجدت حضرة النبى ﷺ واحتميت بدائرة الإسلام المنجية[3].

(١) دار بن هانى بن حبيب، هو والد بطن من العرب، وهو تميم بن أوس الدارى، من الصحابة الكرام. انظر الإصابة ١/ ١٩١.

(٢) اسم جبل فى مكة المكرمة.

(٣) نقل الإمام الواقدى هذه الرواية عن خالد بن سعيد، وقد نقل هو أيضا عن تميم الدارى.

من الذين آمنوا بإغراء الجن أيضا خُرَيم بن فاتك بن الأخرم يروى أن الحكاية الآتية قد نقلت عن خريم بن فاتك ذاته[1].

«ذات يوم، كنت أبحث عن دابة ضالة لى وسرت حتى وصلت إلى مكان موحش، ولما وجدتها كان قد أنهكنى التعب، فربطت دابتى التى كنت أمتطيها ورأيت الاحتماء بهذا المكان وكان هذا المكان واسعًا ثم استندت على حلس البعير، وقبل الاستغراق فى النوم سمعت من الهاتف الشعر الذى سيكتب فيما بعد.

ولأن قلبى كان قد امتلأ بنور الإسلام قلت: أيها الهاتف من أنت؟ فجاء الجواب: أنا بن مالك بن مالك فإذا أردت أن تسلم فأنا أكفيك مؤونة البحث عن جملك الضائع وأوصله إلى بيتك إلى أن تعود إلى أهلك وعيالك فسمعت هذا الكلام وذهبت إلى المدينة المنورة بلا تأخير.

وتصادف وصولى إلى مدينة طيبة ظهيرة يوم الجمعة، فتوجهت رأسا إلى المسجد النبوى الشريف وكان الرسول ـ ﷺ ـ يلقى الخطبة فقلت لنفسى لأقف خارج المسجد إلى أن تنتهى الخطبة الشريفة إلا أن أبا ذر الغفارى جاءنى وقال يا خريم، قد وصل إسلامك إلى مسامع النبى ـ ﷺ ـ وقد بعثنى إليك لأبلغك سلامه وسروره بإسلامك ادخل إلى المسجد وأدِّ الصلاة مع الجماعة وبعد الصلاة قابلت رسول الله ـ ﷺ ـ الذى قص لى ما حدث فى ذلك الوادى وأن الهاتف سالف الذكر قد أوصل جملى إلى بيتى وأوفى بوعده.

هذا هو الشعر الذى استمع إليه خريم من الهاتف[2].

تعـوَّذْ بـــالله ذى الجـــــلال ووحِّـــد الله ولا تبـــــــال

مـا هـول الجـن مـن الأهـــوال

فتحير خريم بن فاتك عندما سمع هذه الأبيات وقال: يا هاتف ـ يرحمك الله ـ وضح لى صراحة ما تريد أن تقوله فقال الجن الذى ظل مختفيا.

(١) إن حضرة خريم من الأصحاب الكرام ترجمته فى الإصابة ٢/١٠٩.

٢) هذا الهاتف كان من الجان الذين آمنوا بنبينا سيد الثقلين.

هـذا رسـول الله ذو الخيـرات يدعـو إلـى الجنـة والنجـاة
يـأمـر بالصـوم وبالصـلاة

وكانت المنظومة المذكورة التى أجاب بها الهاتف تعنى أن رسول الله ﷺ هو صاحب هذه الخيرات وأنه يدعو إلى الجنة والنجاة ويأمر بالصوم والصلاة، وهى إشارة إلى صدق ما يدعو إليه الرسول - ﷺ.

ومن الذين آمنوا أيضا بناء على ما أخبره به الجن سيدنا سلمة بن زيد[1].

قال حضرة سلمة الذى ينتهى نسبه إلى بطن من بطون قبيلة خثعم كان أفراد قبيلتنا لا يعتقدون فى حرمة أى شئ قط وبينما كانوا ذات يوم يعبدون أصنامهم ويجرون طقوسهم فجأة سمعوا صوت الهاتف يقول يا أيها الناس أصحاب الوجود. لماذا تنظرون إلى أوهام الرؤيا؟ لماذا تستمعون إلى الناس[2] الذين يسندون الحكمة إلى الأصنام وينسبون إليها. إن هذا النبى[3] سيد الناس وإنه أحكم الحكام يعلن عن نور الإسلام وإنه أسد فى بلد الله الحرام، وإذ سمع أفراد قبيلتنا ما يفيد تلك المعانى فاهتموا كثيرا وتفرقوا وقفلوا راجعين إلى منازلهم حتى إن أفراد القبيلة قد حفظوا هذه الأقوال وظلوا يذكرونها إلى أن ظهر النبى - ﷺ.

قالت فاطمة بنت النعمان[4] النجارية: كان هناك جن يأتى كل يوم إلى منزلى ويعاكس هذا وذاك، وذات يوم جاء وصعد فوق الجدار وبدا إلى حائرا هادئا وإننى لم أكن قد شاهدته حائرا وساكنا هكذا فزاد اهتمامى فسألته ماذا حدث لك هذا اليوم حتى تقف هكذا مهذبا هادئا؟ فبدأ الكلام قائلا: لقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - نبيا يحرم اليوم الزنا، وهكذا فهمت أن نبينا قد بعث عليه الصلاة والسلام.

ومن الذين اعتنقوا الإسلام بنطق الأصنام عبد الله بن ساعدة الهزلى. قال

(١) حضرة سلمة بن زيد من الأصحاب الكرام.
(٢) المقصود منه الشخص الذى جعلهم يتخذون الأصنام آلهة.
(٣) المقصود به نبينا محمد ﷺ.
(٤) نعمان النجارى من الأصحاب الكرام. انظر الإصابة ٦/ ٢٤٤، ترجمة ٨٧٥١.

حضرة عبد الله: كان الصنم الذى نعبده ونقدسه «سواع» وكنت أعتقد كما يعتقد أفراد القبيلة التى أنتسب إليها أن سواع قادر على فعل كل شىء وبناء على هذا الظن كنا نعبده ونجله وبدا يظهر أشياء خارقة ولعله نتيجة لإيماننا به ـ وهذا مما زاد وقوى عقيدتنا فيه. وأنا أيضا ذهبت إليه يوما من الأيام حاملا معى غنما مصابا بالجرب طلبا للشفاء عنده. وإذا بجن فى بطن سواع يخاطبنى قائلا: وآسفا ـ أن الستائر قد أسدلت وقد صعق الجن بالشهب الأصنام فقدت حكمها وسيطرتها. قد نزل خير الكتب[1] وبعث خير العرب[2]. وهذا كان مفاد[3] كلماته.

وعندما سمعت هذا القول. رجعت إلى بيتى وكرهت عبادة الأصنام وأسرعت لاستكناه الأحوال ومعرفة الأخبار فعلمت أن النبى ـ ﷺ ـ قد بعث فى مكة المكرمة وفى الحال ذهبت هناك واعتنقت الدين الإسلامى المبين.

خرج مالك بن نفيع[4] يوما إلى الحقول للبحث عن جمله الضائع وبعد أن ظل يبحث عنه مدة طويلة وجده فى مكان ما وعزم على العودة ولكن المساء قد فاجأه ولم يرد أن يسير ليلا كعادة العرب ونام فى سفح جبل وراح فى سبات.

يقول مالك هذا: بينما كنت فى حالة يقظة لم يغلبنى النوم بعدما سمعت هاتفا يقول: يا مالك! يا مالك! لو حضرت المكان الذى برك فيه جملك قليلا ستجد شيئا يسرك ويجعلك محظوظا، فسحبت جملى إلى مكان آخر وحضرت إلى المكان الذى كان فيه جملى، ووجدت فيه صنما قد نحت على شكل امرأة فأخذته ونصبته فى نفس المكان، إن ظهور هذا الصنم ملأنى فرحا وسرورا حتى إننى وهبت أحد جمالى قربانا له وسميته غلاب وحملته على جملى الآخر وعدت إلى بلدى.

وقد حسدنى الناس على حسن حظى وأرادوا أن يأخذوه منى وينصبوه فى مكان عام، ولكننى لم أهتم بجلبتهم وصياحهم فأخذت غلاب ونصبته فى مكان معين من بيتى.

(١) هو القرآن الكريم.

(٢) هو نبينا محمد ﷺ.

(٣) لابد أن هذا الجن كان كافرا لأنه يتأسف على نزول القرآن وبعث نبينا ﷺ.

(٤) مالك وأخوه حارث بن نفيع الأنصارى من الصحابة الكرام. انظر الإصابة ٧/ ٨٤ ترجمة ٥٢٧.

وحينما أخذت غلابا إلى بيتى كنت قد نذرت أن أذبح له كل يوم قربانا وذبحت فى ظرف ثلاثة أيام ما كنت أملكه من الأغنام ولما لم يبق معى ما أقدمه له قربانا ذهبت إليه لأعتذر له.

وعندئذ خرج من جوف الصنم صوت يقول: يا مالك! يا مالك! لا تأسف على مالك الذى تلف بل أذهب إلى جانب البئر الواقعة فى بلاد قبيلة «أرقم» فستجد هناك كلبا أسود، فخذه واذهب إلى الحقول للصيد فتغتنى.

بعدما وضح مالك ما قال غلاب وعرفه قال وهو يبين كيف وجد ذلك الكلب وكيف استخدمه فى الصيد بالأمر: خرجت إلى الطريق وذهبت إلى البئر التى فى بلاد قبيلة أرقم فاستقبلنى كلب أسود فربطته من عنقه وأخذته معى وتوجهت إلى الحقول للقنص، وسرنا فى الحقول مدة وإذا بالكلب الذى فى يدى قد رأى غزالا وهاج حتى كاد أن يقطع الحبل الذى فى عنقه، ولكننى ترددت فى إطلاقه وفى نهاية الأمر أطلقته فجرى الكلب وقبض على الغزال.

وإننى قد سررت من جهد الكلب ورجعت إلى البيت وذبحت الفريسة قربانا لغلاب، وهكذا خرجت للصيد فى اليوم الثانى والأيام الأخرى حتى أصبحت من عادتى أن أخرج للصيد وأذبح ما أصطاده قربانا لغلاب وأوزع لحمه.

وفى يوم معهود جرى الكلب وراء نعامة ولكنه لمح فى الطريق غرابا، ونفر منه وتراجع، وكاد أن يدخل بين أرجل الفرس التى كنت أمتطيها. وبما أننى لم أر الغراب استغربت من حالة الكلب وترجلت من الدابة لأستطلع الأمر. حينما رآنى الغراب خاطب الكلب قائلا: يا كلب فأجابه الكلب ماذا يوجد؟ لقد هلك هذا وظهر الإسلام وأسلم أنت أيضا لتجد النجاة!! وعندما قال هذا اختفوا فجاءة من أمام عينى وأعتقد أن كلاهما كان من الجن والسبب فى دخول «ابن النفيع» فى الإسلام كان هذا الحادث.

اتفق أن «مالك بن مرداس السلمى» كان يتجول بين أشجار النخيل، وفى وقت الظهيرة ظهر رجل يرتدى ثوبا أبيض من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه وهتف له قائلا: يا عباس بن مرداس! إن الشياطين والجن الذين يسترقون السمع للأحداث السماوية قد تفرقوا وإن أحوال الدنيا قد تغيرت ـ من أولها إلى آخرها ـ

ألا تعلم أن نبيا بارا تقيا ملهما من قبل الله قد ظهر مساء الأثنين وليلة الثلاثاء ـ وهو صاحب الجمل المقطوع الأذنين ـ ففزع عباس بن مرداس فزعا شديدا ومضى إلى صنم قبيلة ضمار فأخبره ما سمع من كلام هذا الرجل وبينما كان يتحدث إليه خرج من بطن الصنم صوت عجيب يلقى هذه الأبيات:

قل للقبائل من سليم كلها ... هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد قبل أن ... نزل الكتاب على النبى محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهند

يقول عباس بن مرداس[1] حطمت «الضمار» ألف قطعة إذ سمعت فيه هذا الكلام ثم مضيت إلى المدينة المنورة ومعى ثلاثمائة من قبيلتنا ونلنا شرف المثول بين يدى الرسول ـ ﷺ ـ وبناء على أمره ـ ﷺ ـ قصصت ما حدث وأسلمنا كلنا فى حينه رضى الله عنهم.

إن هذه الواقعة مروية من قبل «عبد الرحمن بن أنس السلمى» وليس الضمار هذا الصنم الذى حطمه حضرة عمر بن الخطاب الفاروق بل هو صنم آخر يحمل نفس الاسم.

وعندما اقترب ظهور النبى ـ ﷺ ـ سمع عن كثير من الأصنام مثل هذا الكلام الموثوق من صحته والتى أخبرت بظهور النبى ـ ﷺ.

وبما أن أكثر ما سمع من أصنام مكة قبل البعثة كان الإخبار بما سيحدث والتنبؤ بالغيب وكان عبدة الأوثان يلاحظون أن ما يخبرهم به أصنامهم صحيح والأحاديث التى يخاطب بها الناس تطابق الواقعة لذلك زاد تقديسهم لهذه الأصنام والتمسك بها واعتمادهم عليها وتأكد إيمانهم بها فأقبلوا بإخلاص على عبادة هذه الأصنام.

والأصنام الخمسة التى مر ذكرها والتى وضعت فيما بعد فى مكة والتى حصل عليها عمرو بن لحى بن قمعة وحملها إلى مكة المكرمة وأخذ يتعبد لها ويحمل

(١) عباس بن مرداس السلمى من الأصحاب الكرام وشجعان العرب وهو شاعر منقطع النظير. انظر: الإصابة ٤/ ٣١ ترجمة ٤٥٠٢.

الناس على عبادتها قد اتخذها عرب الجاهلية آلهة لهم وأطلقوا على كل واحد منها اسما خاصا.

ويبين المؤرخون كيفية انتقال هذه الأصنام لبلاد العرب على يد عمرو بن لحى الضال على هذا الوجه:

كان عمرو هذا ـ بناء على اعتقاد أهل الجاهلية ـ تابعًا للجن وكان دائم الاتصال به ودائم الحديث معه.

وقال له الجن يوما: يا عمرو! إن تماثيل الآلهة الخمسة التى كان يعبدها الناس فى عهد نوح وإدريس ـ عليه السلام ـ قد ظهرت على سواحل جدة، فابحث عنها وبعدما تجدها انقلها إلى مكة.

وأسرع عمرو ـ وقد سمع ما قاله الجن ـ بالسفر إلى جدة وحمل تلك الأصنام من شواطئ جدة وعاد إلى مكة وأجبر الناس على عبادتها وقسمها بين القبائل المتفرقة وبعث لكل قبيلة فى موطنها بصنم خاص لها وهكذا بدأت عادة عبادة الأصنام بين العرب وأخذ كل سكان الحجاز من تلك الأوقات فى عبادة الأصنام.

وإن كانت هذه الرواية تكذب الرواية التى تقول أن عمرو بن لحى قد جلب هذا الصنم من أرض البلقاء فى الشام إلا أن إحضار عمرو الأصنام الخمسة إلى مكة من أرض الشام حدث بعد جلبة هبل.

ومع كل هذا قد ركز عمرو هبل[1] داخل الكعبة، وأهدى الأصنام الخمسة إلى رؤساء القبائل وهكذا حمل جماعات العربان على عبادة الأصنام ووفق فى نشر الوثنية فى الحجاز.

إن اللعين الذى حمل أحفاد بنى إسماعيل على الارتداد عن دين إبراهيم إلى الوثنية هو عمرو بن لحى الذى عاش ما يقرب من (٣٤٠) سنة وقد كتب له أن يرى ألف مقاتل من أحفاده وقد استمر حكمه وحكم أبنائه فى مكة المكرمة ٥٠٠ عام. ووفق هذا الحساب قد ظل بيت الله فى يد المشركين ألف عام وهو مكان لعبادة الأصنام.

(١) أول صنم أدخل الكعبة هو هبل وهو من اعظم اصنامهم.

ادعاء جمشيد الألوهية

يقول المؤرخون إن عبادة الأصنام قد بدأت فى أيام جمشيد العنيد من ملوك البشدادية.

وبناء على ما جاء فى ترجمة تفسير أبو الليث أن (جمشيد) أخو الملك (طهمورث بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام).

ويقال إن جمشيد أول من كشف وأوجد الأدوية المركبة والمفردة والتداوى بالنبات، كما كشف عن المعادن المتنوعة واستخدم الذهب والفضة وأنواع الزينة والجمال والملابس الحريرية المتنوعة وتطيب بأعواد العنبر، وصنع الخمر وأنواع الطيب والمعطرات.

دام ملك جمشيد ثمانمائة عام ودخلت الأقاليم السبعة فى حوزته وسخر الأنس والجن وحكم أهل المشارق والمغارب مما قوى شوكته وزاد فى عظمته.

وقد اعتلى جمشيد عرش الحكم فى عهد إدريس[1] ـ عليه السلام ـ وأقام العدل بين الناس وحرص على الوئام والمحبة لذا سمى رعيته يوم جلوسه على العرش نوروز وأصبح هذا اليوم من كل سنة عيدا لهم يحتفلون به كل عام.

ويقال إنه فى فترة حكمه قد رفع عن الناس ـ لحكمة ما ـ الموت والمرض والشيخوخة فما عرف فى ظرف ثلاثمائة عام من حكمه أن أحدا قد مات أو مرض أو شاخ.

وقد ظهرت فى زمانه بدائع الصنائع ومختلف آلات الحرب وطبقات الأمراء ودرجات المقاتلين ونصبت الخيام كما تم استخراج الجواهر واللآلئ من البحر وصناعة الإسبيداج والكلس وبناء الحمامات.

ولقد أمضى جمشيد أواخر أيامه فى الرفاهية والسعادة لا يفكر إلا فى ملذات طعامه وشرابه إذ بلغ ملكه أقصى ما كان يتمناه من قوة وعزة واحتشام.

وكان يفكر أحيانا فى حالته الصحية وكيف أنه لم يتعرض لمرض وكيف أنه لم يشعر بآلام فى أعضاء جسمه ولا أوجاع واضطرابات وكان يتساءل أحيانا قائلا: يا

(١) فى قول أنه فى عهد إدريس وفى قول آخر فى زمن صالح عليهما السلام.

ترى هل هناك شخص يشبهنى فى عظمتى وقدرتى ولم يصبه مرض فى مدة حياته؟!.

وحينئذ نسى بشريته وأخذ يحاول أن يفهم ماهيته، وغشيه يوم من الأيام نوم وعقب هذا حدث نفسه قائلا: على أغلب الظن أننى لست من جنس البشر، إذ كيف أكون بشرا ولم يصبنى مرض وتقلب المزاج والشعور بالكآبة. ولكنه نسى أنه فى حاجة إلى كل ما يحتاجه البشر من الأكل والشرب وقضاء الحاجة، وبعد فترة دخل الشيطان فى غرفته دون أن يشعر به حراسه وأيقظه من نومه.

ولما اقتحم عليه الشيطان حجرته وهذا لم يكن له فى الحسبان لأن اقتحام أحد عليه حجرته دون أن يراه أحد من الحراس كان ضربا من المستحيل بدون رؤية أحد من الحراس؟ لذلك تملكته الحيرة وقال له حينما رآه فجأة أمامه: من أنت؟ وتلقى ردا من إبليس المضلل: إننى ملك نزل من السماء قد جئت لأعرفك من أنت.

ولما كان جمشيد مشتاقا لمعرفة نفسه فكر أن هذا الشخص الذى يقتحم عليه حجرته لابد أن يكون شخصا ذا قدرة فائقة وربما يستطيع أن يعرفه بنفسه لذلك وجه إليه سؤال إذن أخبرنى من أنا؟ لأننى لا أشبه بنى البشر فى شىء؟ فرد الشيطان قائلا: لعلك نسيت من أنت؟

إنك رب سكنة السموات والأرضين!!.. وكنت فى السماء منذ ثمانمائة عام.. حينما استغرقت فى النوم فإننى هبطت بك على الأرض وفق أمرك..

إن عدم إصابتك بالمرض طول حياتك وانتصارك على ملوك العالم جميعا أليس دليلا كافيا على أنك إله.

كما أن دخولى إلى الحجرة بدون أن يرانى أحد ألا يثبت أننى رسول السماء؟! وهكذا خدع إبليس جمشيد الأبله بقوله المزخرف.

وقد قبل جمشيد الأدلة الواهية التى ساقها له إبليس واقتنع بألوهيته واستفسر منه الطريقة التى سيتحرك بها بعد ألوهيته فأجابه إبليس اللعين: يجب أن توقد فى هذا الميدان نارا عظيمة ثم تدعو الناس جميعا وتعلن لهم أنك إله وتطلب

منهم أن يسجدوا لك، وأن تلقى إلى النار كل من يمتنع عن السجود، وهكذا عرفه بطقوس المجوسية، وهكذا جعل إبليس اللعين جمشيد يوقد نارا حامية ويدعو الناس وجعلهم يسجدون له بعد أن أعلن ألوهيته فصدقه الناس. وبعد ذلك نصب خمسة أشخاص خلفاء له، وأعطى لكل واحد منهم صنما كبيرا وأرسلهم إلى أطراف مملكته بعد ما أمرهم بأن يدعوا الناس إلى السجود إلى هذه الأصنام وأن يعترفوا بألوهيته وأن ينال المصدقون التعظيم والتوقير وأن يعاقب المنكرون بإلقائهم فى النار.

كانت أسماء هذه الأصنام التى أعطيت للخلفاء: ود ـ سواع ـ يعوق ـ يغوث ـ نسر. وهكذا انتشر هؤلاء الخلفاء حاملين أصنامهم فى أرجاء العالم وابتدروا فى إضلال الناس بنشر طقوس الوثنية إلى أن مات جمشيد لعنه الله.

قد مات جمشيد بعد فترة من إرسال الأصنام إلى أطراف ممالكه، وهكذا نجا ربع سكان العالم من الاحتراق بنار الضلال، إلا أن مبعوثيه إلى أركان العالم أخذوا ينشرون طقوس الوثنية والمجوسية فى أرجاء العالم وأدخلوا أكثر الناس فى الوثنية.

قد قبض على جمشيد حيًّا فى نهاية الأمر فى حربه مع «الضحاك» ابن أخى شداد بن عاد، وقد جعله قطعتين بعد ما نشره بعظمة شبيهة بالمنشار لنوع من أنواع الأسماك.

عاش جمشيد ألف عام قضى ١٠٠ أو ٣٠٠ أو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة فى الحكم حسب الروايات المختلفة.

يدعى مؤرخو الفرس نبوة جمشيد، إلا أن ابن عباس قال إن القول ببعث نبى من الفرس كذب، وخرج روايات هؤلاء المؤرخين الواهية والذين يدعون نبوة جمشيد من مؤرخى الفرس الجهلة قد اقتنعوا أن سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ هو جمشيد، إلا أن جمهور أئمة الأخبار بينوا أن هناك أكثر من ألفى سنة زمنية بين سليمان ـ عليه السلام ـ وجمشيد، كما أن جمشيد قد كفر وأشرك فى أواخر أيام سلطنته، ويكفى هذا دليلاً على بطلان تلك الادعاءات.

ظهور طقوس الوثنية بين أحفاد إسماعيل

قد كثر أحفاد بنى إسماعيل المقيمين فى جوار الكعبة المعظمة. وأدى هذا التكاثر إلى تفرقهم فى أطراف البلاد فهاجر بعضهم إلى بلاد الشام، والبعض الآخر إلى بلاد اليمن، وعند هجرتهم حملت كل قبيلة قطعة من الحجر من الكعبة الشريفة تذكارا وتبركا منها، ووضعت الأحجار فى مكان مرتفع توقيراً لها.

وقد رأى الشيطان اللعين مدى استعدادهم لاعتناق الوثنية وعبادة الأصنام، فقال: الأولى أن نعبد الأصنام المصنوعة والمصورة بدلا من هذه الحجارة الغليظة الخالية من الذوق والجمال، وهكذا نحتت وصورت الأصنام الخمس السالفة الذكر، وحَمَلَ رؤساء القبائل على عبادة الأصنام بواسطة عمرو بن لحى، وقد ابتدر هؤلاء الزعماء فى عبادة الأصنام، وقد استحسنوا أقاويل الشيطان وانصرفوا إلى الوثنية وتقديس الأصنام بعد أن تركوا قراءة صحف إبراهيم جانبا.

أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل:

أول من اعتنق الوثنية من بنى إسماعيل هو **هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الأرذل**. إن هذا المنحط قد اتخذ الصنم الذى يطلق عليه «سواع» إلها وحمل قومه الذين يسكنون على بعد ثلاثة أميال من مكة المعظمة على تقديسه وعبادته، واستمرت ضلالة هذه القبيلة التى تعبد سواع إلى بزوغ شمس الإسلام فى عصر السعادة. وقد كلف عمرو بن العاص فى العام الثامن من الهجرة النبوية بهدم وتحطيم معبد أصنام هذيل، وقد نال الأجر والثواب بأداء عمله على أحسن وجه.

كان فى عصر السعادة لبنى سليم صنما يسمى: سواع يقوم بسدانته (غاوى بن عبد العزى) بينما كان غاوى بن عبد العزى جالسا يوما بجانب ذلك الصنم المنحوس جاء ثعلبان قافزين متواثبين، وصعدا فوق الصنم الذى تتعبد له قبيلة بنى سليم ورفعا رجليهما وبالا فوق رأس الصنم، ووسخا الصنم العظيم (سواع) ولطخاه.

وأنشد غاوى إذ رأى هذه الحالة:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وخاطب بنى سليم قائلا أقسم بالله أن هذا الصنم لا ينفع ولا يضر. ثم كسر سواع وجعله ألف قطعة، ثم توجه إلى المدينة المنورة حيث أسلم أمام النبى ـ ﷺ ـ وحينما مثل غاوى أمام النبى ـ ﷺ ـ استهجن اسمه، وسماه «أرشد بن عبد ربه» وظل اسمه أرشد بعد ذلك.

من المخذولين الذين تركوا دينهم عظيم من عظماء قبيلة قضاعة وهو «كلب بن وبره بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة»، وكان رجال القبيلة المذكورة يسكنون فى بلدة «دومة[1] الجندل» حتى حلول السنة المذكورة ويمضون أوقاتهم فى عبادة «ود» الذى اختاره لهم كلب بن وبره إلهًا لهم.

إن «ود» الذى اختاره بنو قضاعة إلها لهم ـ كما سبق ذكره ـ نحت على شكل رجل ضخم الجسم، بقدر لا يتصوره الإنسان، وقد ألبس طبقتين من الثياب وعلق على عنقه سيفا وقوسا.

إن قضاعة كان أبا لقبيلة كبيرة وإليه نسبت جماعات قبائل قضاعة، ويتصل نسبه بـ «حمير» بن سبأ فى الدرجة السادسة.

وكان لأبى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة تسعة أبناء هم: «خافى، عمرو، سليم، وبره، جرم، ملوان، أشجع، سعد، قدامة» وأحفاد هؤلاء أصبحوا فيما بعد ملوكا آباء قبائل. وقد نصب ابنه الرابع «وبره» خيامه فى «دومة الجندل» حيث استقر، وبعد موته خلفه ابنه ـ سالف الذكر ـ كلب والذى اعترف بألوهية «ود» وعاش حياته متعبدا له مع أتباعه البؤساء البلهاء.

ومن الأراذل الذين تركوا دينهم الشقى الذى اشتهر باسم «أنعم» من قبيلة طئ، وقد اتخذ هذا البائس صنما يطلق عليه «يغوث» إلها له وكان هذا سببا فى اتخاذ الناس هذا الصنم إلها لهم إلى سنة فتح كعبة الله.

(١) إن هذا المكان وقطورا طبقا لما بينه سيد جلبى على بعد ٥ مراحل من الشام و(١٥) مرحلة من المدينة المنورة، وهو حصن منيع ومدينة بحرية مشهورة.

وقد اتخذ هذا الصنم أهالى جرش من قبائل طئ ابن آدد بن مزحج بن آد إلها لهم وعبدوه.

والجرش اسم مقاطعة فى اليمن كان يسكنها بنو مزحج الذين اتخذوا الصنم المنحوس «يغوث» إلها لهم وعبدوه.

وقد اتخذ سكان حولان صنما يسمى «غم أنس» إلها لهم وحولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، **وفى رواية** حولان بن عمرو بن برة بن آدد بن زيد بن مهسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبائك **وعلى قول آخر** حولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مزحج بن آد، كانوا يسكنون فى البلاد التى أطلقب عليها حولان.

أن سكان هذه البلاد قد أخلصوا فى العبادة لـ «غم آنس»، حتى إنهم كانوا يعتقدون أن البركة والنماء سينقطع عنهم إذا لم يخرجوا سهما من حيواناتهم ومحاصيلهم ويقدموه إلى هذا الصنم.

من الذين يعبدون الجمادات هم قبائل همدان التى تسكن أرض (همدان)[1].

همدان: على وزن سكبان، اسم قبيلة يسكن أفرادها فى صحراء «همدان» فى الخيام، وكانوا يعبدون صنما كبيرا نصبوه فى قرية على شكل «حيوان» يقال له «يعوق» واستمروا فى التعبد له إلى قرب ظهور نور النبوة.

وكانت قبيلة ذو الكلاع فى مكان يطلق عليه حمير من أرض اليمن وتتعبد لصنم يطلق عليه «نسر».

حمير على وزن درهم اسم موقع على الجانب الغربى من صنعاء اليمن. وكان سكان هذه المنطقة وما حولها يعبدون صنما منصوبا فى مكان يسمى «بلخ» من أرض سبأ ويطلق عليه «نسر».

وكان أهل اليمن وحمير يعبدون «نسر» ويترددون كذلك على معبد الأصنام الذى يطلق عليه «رئام» فى صنعاء اليمن. وخلاصة القول أن العرب فى الجزيرة

(١) همدان اسم قبيلة كبيرة من سكان اليمن وإذا ما كتب همه دان فهو اسم لبلد فى عراق العجم الذى بناه هم دان ابن الفلوج بن شام.

كانوا يتخذون فى أسفارهم صنما كإله لهم، كما كانوا يوجدون فى بيوتهم أصناما وكانوا يزورونها ويتذللون لها حين خروجهم للسفر أو عودتهم منه وإنهم كانوا لا يعودون إلى بيوتهم قبل زيارة بيت الأصنام، ويتذللون لها ويظهرون خضوعهم لها بعد رجوعهم من السفر.

فى تلك الفترة التى خلت من الرسل كان بعض أفراد قريش يتعبدون لهبل الذى جلبه «عمرو بن لحى» من أرض البلقاء ونصبه فى داخل الكعبة، والآخرون يتعبدون لإساف ونائلة المنصوبين بالقرب من الكعبة المعظمة وبئر زمزم، وكانوا يطوفون حولهما ويذبحون لهما القرابين.

ويقال إن «إساف» المنصوب بالقرب من بئر زمزم بن بقى أو يعلى أو بغا أو عمرو من طائفة الجراهمة و«نائلة» هذه بنت ديك أو زيد بن جرهم أو سهيل أو ذئب أو عمرو بن ذئب من أقوام قطورا.

وبناء على قول منقول عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن إساف ونائلة أحبا بعضهما فى أرض اليمن، وحينما كان الجراهمة على ضلال خرج العاشقان إلى طريق مكة المكرمة بغية الحج، وحينما وصلا إلى مكة وجدا الكعبة الشريفة خالية من الناس وارتكبا جريمة الزنا فى داخلها، وكان جزاؤهما لحكمة ما أن تحجرا. وأخرج أهل مكة هذين المتحجرين خارج الكعبة، وركزوا إساف على جبل الصفا، ونائلة على جبل المروة، ترهيبا للذين يفكرون فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وتشهيرا لهما، وبعد فترة نسى سبب تحجرهما، وفى نفس الوقت تولى رئاسة حكومة الحجاز عمرو بن لحى، وصدق بين العرب ألوهية هبل، فما كان من عمرو إلا أن وضع واحدا من الصنمين بجانب الكعبة الشريفة، والآخر بالقرب من بئر زمزم، أى وضعهما بين الكعبة الشريفة وبئر زمزم اللطيفة، وأمر الناس بعبادتهما وتقديسهما.

وأخذ عرب الجاهلية منذ تلك الأوقات يتعبدون لهما، ويضعون الهدايا الواردة من الأطراف والأكناف بين إساف ونائلة متبركين بهما، وكانوا يبدءون بالطواف من إساف وينتهون عند نائلة، وكان من عاداتهم أن يقبلوا الصنمين عند بدء الطواف والانتهاء منه.

وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨).

عندما كره أهل الإيمان الطواف بينهما، نزلت للتبيان أنه لا حرج من السعى بين الصفا والمروة، وفى يوم الفتح كسر هذين الصنمين، وجعلا جزازا مثل سائر الأصنام التى كانت موجودة فى أطراف الكعبة المعظمة.

إن بعض قريش من أحفاد وأبناء ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر كانوا يتعبدون لصنم كان يقال له: «سعد الصخر» وعمرو بن حمة من أولاد أوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأسد بن الغوث وقبيلته كانوا يتعبدون مع قبائل خثعم وبجيلة لصنم كائن فى أرض دوس ويسمى «ذو الخلصة»[١] كما كان يتعبد بعض الجماعات من قبيلة بنى كنانة وطائفة من قريش لصنم كائن خارج مكة المعظمة فى بطن نخلة يطلق عليه «عزى» الذى هيأه للعبادة سعد بن ظالم، وقد أسند سدانة البيت الذى توجد فيه عزى إلى بنى شيبان الذين ينتهى نسبهم إلى سُلَيْم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان.

قال بعض المؤرخين الذين عرفوا «عزى» إنها شجرة عظيمة[٢] وقال الآخرون إنه بيت أصنام، وقال قسم منهم إنها صنم كبير[٣].

يقول الذين يدعون أن عزى «شجرة عظيمة» أن سعد[٤] ابن ظالم رئيس قبيلة بنى غطفان ذهب يوما إلى مكة، وأخذ يطوف بالبيت المعظم وبعد الطواف رأى أهالى مكة يسعون بين الصفا والمروة، فحسدهم على ذلك فأخذ من ساحة المسجد الحرام ثلاث قطع من الحجارة، كما أخذ من جبلى الصفا والمروة من كل

(١) ذو الخلصة اسم واحد من العرب. قد قتلوا أبا هذا الرجل، ولما أراد أن يثأر لأبيه ذهب ليسحب القرعة بالأزلام، وأمرته الأزلام بألا يطالب بثأر أبيه، واستجاب لأمر الأزلام وترك الثأر وقال هذه الأبيات:

لو كنت يا ذى الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢) قد قبلت هذه الرواية من الجميع لصحتها.

(٣) فالذين يدعون أنها صنم يقولون إن أطلال وبقايا هذا الصنم مازالت باقية خارج حصن الطائف مع بقايا الأصنام الأخرى.

(٤) اسم والد سعد فَزَارَة ولكنه كنى بهذا الاسم لكون اسم أخيه ظالما.

واحد منهما حجرا، ورجع إلى موطن قومه بنى غطفان فى بطن نخلة وركز الحجر الذى أخذه من الصفا فى مكان، كما ركز الحجر الذى أخذه من المروة فى مكان آخر، وأسند الحجارة التى جمعها من ساحة البيت الحرام على شجرة بينهما، ثم جمع قومه وخاطبهم قائلا: «يا قومى! إن أهل مكة يطوفون حول الكعبة كما إنهم يسعون بين الصفا والمروة، وإنهم اعترفوا بألوهية الكعبة والصفا والمروة وأقروا بها، ثم أشار إلى الحجارة التى جلبها من مكة وقال فليكن لنا واحد من أحجار الصفا والأخرى من المروة، وهذه الشجرة كعبتنا فلنتخذ هذه آلهة لنا ونطيعها».

وهكذا حمل أهل غطفان على عبادة هذه الحجارة، وقد استحسن أهل غطفان رأى سعد وأسندوا سدانتها إلى بنى شيبان من أولاد «سليم» بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَةَ بن قيس عيلان. وقد استمرت عبادتهم لها إلى عصر النبوة.

وقد أقاموا مبان حول هذه الشجرة وهكذا أصبحت الشجرة يظللها السقف وكانت هذه الشجرة من فصيلة نمرة وكان أهل غطفان يخلصون لها العبادة، إذ يستمعون إلى أقوال الجن الذى حل فى داخل الشجرة.

وبناء على هذا التعريف أن «عزى» بيت للصنم أقيم فوق شجرة من فصيلة «نمرة» وفى موطن قبيلة بنى غطفان، **وعلى قول آخر** إنها فى مكان آخر، وهى عبارة عن بناء أقيم فوق ثلاث أشجار كبيرة. وكان الذين يتعبدون لها يسمعون منها أصواتا مختلفة.

وقد كلف سيدنا خالد بن الوليد بقطع هذه الشجرة وقلعها، وفى أثناء قيام خالد بمهمته خرجت من داخل «عزى» عجوز شمطاء قبيحة المنظر، مبعثرة الشعر عارية، وأخذت تشد شعرها، بينما أخذ خادم البيت يصرخ ويولول إلا أن سيدنا خالد عجل بقتل العجوز، وقلع الشجرة من جذورها وهكذا محاها من الوجود.

وكان فى ذلك الوقت معبود بنى ثقيف الذين يقيمون فى الطائف صنما يقال له «مناة» وكانت قبيلة بنى ثقيف تقوم بخدمتها.

مناةـ كانت مناة معبود الجماعات التى تقيم حول مكان يسمى قديد الذى يقع على الجانب البحرى من جبل «مشلل»، كما كان يعبدها أهل يثرب وقبائل الأوس والخزرج الذين عرضوا تبعيتهم لسكان قديد.

مشللـ على وزن معظم اسم جبل ويهبط إلى قديد المذكور من هذا الجبل. وبناء على قول آخر أن مشلل اسم مطلع مقابل قديد وإن الصنم المذكور كان منصوبا فوق المطلع[1].

وعلى قول آخر أن مناة صخرة عظيمة كان يعبدها قبائل هذيل وقضاعة وأقوام من بنى ثقيف يزورونها ويطوفون حولها ويتقربون لها بالذبائح[2].

قد حطم هذا الصنم سعد بن زيد الأشهلى فى سنة الفتح وخربه. وظهرت من بطن مناة عجوز شمطاء سوداء الوجه، عارية الجسد، وأخذت تقتلع شعرها تصرخ وتنوح وتدق صدرها، وقتل سعد هذه العجوز، وحطم الصنم ألف قطعة.

وعند البعض أن مناة واللات والعزى كانت فى داخل الكعبة المكرمة، كما أن هبل كان داخل مخزن الهدايا لبيت الله مثل ما سبق ذكره عدة مرات.

لات: اسم فاعل من لت السويق، كان من عادة العرب فى الجاهلية وفى مواسم الحج لتّ السويق بالماء والسمن، ويخلطونه وينضجونه ويقدمونه للحجاج وكان اللات صورة هذا الرجل الذى اعتاد أن يقدم السويق للحجاج.

وبما أن هذا الرجل قد اتخذ لنفسه صنع السويق مهنة له أطلق عليه اللات. وفيما بعد صنع أحد رؤساء قبيلة بنى ثقيف صورة لهذا الرجل وأخذ يتعبد لها مع أفراد قبيلته.

إن الرواية التى تقول إن بنى ثقيف قد اتخذوا الصنم الذى أطلق عليه اللات إلها لهم هى أصح الأقوال.

(١) أكد الإمام السمهودى هذه الرواية.

(٢) وهذه الرواية مقبولة مصدقة عن الأكثرين.

وهناك رواية أخرى تقول: إنه لم يكن صنما، إذ كان هناك حيث يسكن بنو ثقيف فى الطائف صخرة[1] وكان رجل غنى قد فتح محلا فوق هذه الصخرة، يبيع فيه سمنا، وفى مواسم الحج كان يصنع سويقا ويخلطه بالسمن الذى يبيعه، ويطعم به الحجاج. وبما أن هذا الرجل كان يلت السويق فوق هذه الصخرة أطلق عليها اللات.

وبعد فترة ترك الرجل تجارته، وهجر الصخرة إلا أن عمرو بن لحى الملحد صحب بنى ثقيف إلى الصخرة، وقال لهم: إن الشخص الذى كان يصنع السويق ويطعم به الحجاج قد دخل فى هذه الصخرة، ومن هنا يجب أن نتعبد لها، وتلقى بنو ثقيف قول عمرو باستحسان وأخذوا يتعبدون لها.

وكان عمرو بن لحى يخدع بنى ثقيف قائلا: يا بنى ثقيف إن ربكم يبعث البرودة إلى الطائف بواسطة اللات، كما يرسل الحرارة إلى تهامة بواسطة العزى.

وعند البعض أن لاة مخففة من إله، وفى زعم بنى ثقيف أن اللاة وسيلة للتقرب إلى الله. وكان مشركو العرب يطلقون «اللاة» بمعنى الاحتجاب أو الارتفاع على كل صنم، وعلى هذا الاعتبار يعنى به المعبود. سواء أكانت اللاة المناة أو العزى أو الأصنام التى كانت عند زمزم المكرم.

إساف ونائلة كلها كانت من معبودات العرب الباطلة فى الجاهلية، ومعبودات أهل مكة وقد حطمت بتمامها يوم فتح مكة، وعند توسيع الحرم الشريف ترك كبيرها خارج باب السلام تحت موطئ الأقدام[2].

ومما يروى، أنه عند فتح مكة ـ اليوم المؤلم للمشركين ـ وجد خارج كعبة الله وداخلها ثلاثمائة وستون صنما، وكان كل صنم موضوعا فوق قاعدة مصنوعة من النحاس الأصفر.

(١) إن هذه الصخرة ما زالت فى الجهة الغربية من مدينة الطائف إلى يومنا هذا.

(٢) كما ذكر آنفا أن الصنم الذى وطئته الأقدام هو هبل، وغالب الظن أن الصنم الذى ديس بالأقدام ليس هبل بل صنم آخر.

إن قائد الأنبياء ـ عليه أقوى التحايا ـ أشار بأصابعه الشريفة إلى كل صنم فوقعت كلها على الأرض، وتحطمت أجزاءها، وكان كلما أشار إلى وجه صنم وقع على ظهره وكلما أشار إلى ظهره وقع على وجهه.

عندما حطمت نائلة ـ خرجت من جوفها عجوز دميمة سوداء الوجه عارية، وأخذت تنوح وتولول، وقال سلطان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ مخاطبا أصحابه ومشيرا إلى العجوز ـ هذه هى نائلة الى يتعبد لها المشركون، وإنها تنعى نفسها وتبكى لأنها لن تعبد بعد اليوم.

قد جمع الإبليس الأكبر ـ ولم يستطع صبرا على ما جرى ـ وأخذ يصرخ بحرقة حتى جمع أتباعه الشياطين حوله.

إخطار:

ينقل أن الشيطان قد صرخ وبكى وصاح مرتين قبل هذا ـ أول مرة عندما لعن من قبل الرحمن، والمرة الثانية عندما صلى النبى ـ ﷺ ـ أول مرة.

ومما يروى عن الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أن الشيطانين اللذين نالا شرف الإيمان: أحدهما قرين نَبِىّ آخر الزمان، والآخر ملازم نوح عليهما السلام[1].

معلومات خاصة بالجن والشياطين

من الوجهة الأولى إلى هذه الصفحة كتبت بحوث وحكايات ـ كلما جاءت المناسبة ـ عن الجن والشياطين وكان بعض الجن يحلون فى الأصنام والأوثان ويخبرون على لسانها بأخبار الغيب التى يطلعون عليها بالاسترق إلى الملأ الأعلى. يخبرون أهل الجاهلية الذين كانوا يتعبدون للأصنام، وحتى نؤيد هذا الادعاء سردنا هنا بعض الحكايات المروية والموثوقة، كما ذكرنا وقيدنا بعض الأبيات والفقرات المسجوعة المسموعة من الأصنام، ولا حاجة إلى إثبات وجود الجن والشياطين لأصحاب الفضل والإيمان.

(١) وفى الكلام عن الجن تفصيل ذلك.

ولأن كتاب «مراة الحرمين» قد يقع كذلك فى أيدى العوام من الناس، رأيت وجوب إيراد معلومات خاصة بالجن والشياطين فى هذا المقام.

فيا أيها القراء الكرام!! لا تعجبوا من وجود الجن والشياطين وما ينسب إليهم من أقوال، فقد ورد ذكر الجن والشياطين فى القرآن الكريم، كما رويت أشعار نسبت إلى الأصنام، وأخبر صحابة النبى الكرام بما روى من أشعار وأسجاع هاتين الطائفتين من المخلوقات لأن لهما القدرة على التشكل فى هيئات مختلفة، ويتكلمون بكل اللغات، ويقلدون البشر فى أصواتهم كما أنهم يضلون الناس عن سواء السبيل، وبين قبائلهم وعشائرهم نزاع وصراع وحروب، وكانوا يسترقون السمع إلى عهد النبى ﷺ ثم منعوا من ذلك.

ومما جاء فى كتاب (اليواقيت والجواهر) لعبد الوهاب الشعرانى: «إن وجود الجن ثابت بالقرآن الكريم والكتب المنزلة الأخرى، ويصدق من الخلف إلى السلف، وإن هذه الطائفة مخلوق ناطق يأكلون ويشربون ويتزوجون ويلدون».

ويقول الشيخ أبو طاهر القزوينى: «إن ما يدل على وجود الجن تخيل الناس آثارهم الخفية، وينكر المعتزلة وجود الجن، ويقولون إن الجن هم دهاة الناس، كما أن الشياطين هم المردة من الناس، وأولوا ما جاء فى القرآن الكريم عن وجود الجن وأوصافهم».

سؤال: من كم أصل يتكون المخلوقات عامة؟

جواب: يتكون الخلق من أربعة عناصر وفق قول الإمام الماوردى. وهى: الماء، التراب، الهواء، والنار.

المخلوقات الخفية من الهواء والنار، والمخلوقات الظاهرة من الماء والتراب. والنار، كما هو معروف، تتكون من الغور واللهيب أو الشعلة والدخان، والنور ضياء محض والدخان ظلام محض، والشعلة مارج متوسط ـ يعنى شر محض ـ وبما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الجن من مارج من النار فهو ينتسب إلى الملائكة من الناحية النورانية، كما ينتسب إلى الشياطين من ناحية الظلمة

والدخان، ومن هنا كان من الجن من هو مطيع ومن هو عاص، ومن هو مؤمن ومن هو كافر، وقد ورد فى القرآن الكريم: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧) وقد اختلفوا فى هذه النار ولذا قال بعضهم إنها نار الشمس، وقال الآخرون إنها نار البرق.

لننتقل للبحث عن إبليس:

هل إبليس من الملائكة؟ أم هو من الجن؟ وقد اختلف فى هذه المسألة أيضا.

بناء على رأى فريق أن إبليس كان من طائفة الجن التى استكبرت على وجه الأرض وعصت، وقد سل الملائكة سيوفهم وأسروا إبليس وساقوه إلى السماء وبهذا دخل فى زمرة الملائكة وإذا ما قلنا إن إبليس من الجن والملائكة نكون قد أصبنا الحقيقة الآن.

وبناء على قول فريق آخر إن إبليس من حيث الفعل من الجن ومن حيث النوع من الملائكة، فهو من ناحية فعله من الكفار.

يقول الإمام الماوردى فى كتابه المسمى (النبوة) وهو ينقل أقوال المنكرين: «إن خالق الكائنات خلق سكنة البحر والبر مثل الإنسان والنعامة والحيوانات المفترسة والطيور العادية والحشرات من الماء والطين كما خلق الحيوانات التى تعيش فى داخل الماء مثل الضفدع والسمك من نباتات الماء وأن هذه الأجناس الأربعة التى خلقت من أربعة من أصول صاعدة مثل الملائكة والجن فهم الصاعدون، واثنين من الأصول الأربعة هابطة مثل حيوانات البر والبحر فهى من الهابطة.

وقد اعتذر الإمام الماوردى عن نقله هذا الكلام قائلا: «إن ما ينقله ليس من رأيه ولكن هدفه من نقل هذا الكلام أن يفحم خصمه ويسكته بنقل ادعائه وكلامه».

وقال الشيخ أبو طاهر ـ رحمه الله ـ مرة أخرى: إن هؤلاء الجن عندما تكتمل صورتهم تزول صورتهم الأصلية بالقدرة الإلهية، يتشكلون بشكل آخر لا يشبه صورتهم الأصلية.

كما أن الإنسان قد تحول إلى لحم وعظم وبشرة بعد أن غابت عنه صورة الماء والطين والتراب، وكما اختلفت أشكال الحيوانات المفترسة والطيور والحيوانات الأخرى، وتشكلت بأشكال متغيرة كذلك زالت من الملائكة والجن والشياطين صورة الهواء، وداخلهم مكون من مصنوعات العالم ـ جل شأنه ـ إلى أشكال وهيئات لطيفة خاصة بهم لذا يطلق عليهم المخلوقات الروحانية.

إن المخلوقات الروحانية تتميز بعضها عن بعض بأشكال لطيفة خاصة بكل نوع؛ إلا أنه لا يعرف هيئاتهم إلا خالق العالم ـ سبحانه وتعالى ـ إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١). إن تشكل المخلوقات الروحانية ودخولهم إلى صور متنوعة نستطيع أن نشبهه بتغيير ملابسنا.

وإن هذه المخلوقات الروحانية تمر في هواء الجو مثل علائم السماء المخضرة المحمرة أو المصفرة أو ألوان أخرى مختلفة. كما أن «عبد الله بن عباس» بينما كان جالسا في المسجد النبوى الشريف مع والده رأى بمفرده صورة الرسول ـ ﷺ ـ مع جبريل، ولما أخبر الرسول ـ ﷺ ـ بذلك أخبره أنه سيصيبه العمى ولكنه سيتفقه في أمور الدين ويتفوق في التأويل والتفسير.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قدر لهذه المخلوقات أوضاعًا تستطيع بها أن تتشكل بصور مختلفة وقت ما تريد مثلما نحن نقدر أن نغير ملابسنا وقتما نشاء تغيير الملابس لنا وتغيير الصور لها. وكل موجود يتصرف بالشكل الذى قدر له فإن ملابسنا الثقيلة تتكون من الصوف والمنسوجات والحرير وملابس المخلوقات الروحانية تتكون من المنسوجات اللطيفة مثل الهواء والأشعة ومع ذلك فأجسام الملائكة والجن أخف من الهواء و أرق منه.

وعندما يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرى لنا الملائكة والجن يجعل للهواء كيفية خاصة ويأمر الملائكة والجن أن يتشكلوا بالشكل الذى يريدونه فيشاهدهم الناس حينئذ على الشكل الذى تشكلوا به.

قال الله ـ تعالى ـ في حق الملائكة: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩).

وإن كان من المستحيل أن يتحول الملك فى الحقيقة إنسانا ولكنه يدخل فى شكل الإنسان بواسطة الهواء، لأن الهواء إذا تكاثف مثل السراب يمكن رؤيته.

وإذا قيل ما معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ﴾ (الأعراف: ٢٧). **يجاب** بأنه لا يمكن رؤية الجن على شكله الذى خلقه الله سبحانه وتعالى؟ ولكن يمكن رؤيته على شكل الكلب أو الهر بل إن رؤيته على هذا الشكل هو ما يحدث فى أكثر الأوقات.

تفضل الشيخ الجليل وقال: «إن واحدا من الجن وجه إلى سبعين سؤالا خاصا بالتوحيد وطلب منى الإجابة بعد أن تشكل على شكل فصيلة الكلاب التى تسلم من الدنس وحدث ذلك فى ليلة من الليالى وقد غسل فرش المسجد الجامع بالماء والطين وطهره ظنا منه أنه كلب حقيقى».

قد أجبت على أسئلة الجن فى تأليفى اللطيف المسمى بـ «كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان».

وإذا ما قيل «هل سيحتجب الجن منا فى الجنة أيضا؟» يجاب عليه: بأن الأمر سينعكس فى الجنة كما أننا لم نرهم فى الدنيا وهكذا لن يروننا فى الجنة من حيث نراهم نحن كما أن بعض الخواص منا يراهم فى الدنيا وهكذا سيرانا بعض الخواص منهم».

سؤال ـ هل تتغير أصواتهم وفق تغير أشكالهم أم تظل أصواتهم الأصلية دون تغيير؟

جواب ـ تتغير أصواتهم وفق الشكل الذى يتشكلون به إنسانا كان أو بهيما أو حيوانات أخرى.

سؤال ـ إذا ما تشكل الجن بصورتنا هل يستطيعون أن يتلفظوا بكل الحروف كما نتلفظ نحن؟!

جواب ـ تطابق بعض حروفهم حروفنا بينما تخالف بعض حروفهم حروفنا عند الحديث لأن أجسامهم اللطيفة لا تتحمل الحروف الغليظة والصلبة التى نلفظها.

سؤال ـ كيف نستطيع أن نفهم كلامهم ناقص الحروف؟

جواب ـ إنهم لا يتحدثون بحقيقة حروفنا بل بالحروف المماثلة لها، فإذا تكلموا بحقيقة حروفنا وأنقصوا حرفا من كلامهم لما فهم منهم شيئا.

سؤال ـ هل يستطيعون الحديث بكلامنا وهم متشكلون فى صورة غيرنا؟

جواب ـ لا يستطيع أى مخلوق روحانى أن يقوم به إلا إذا كان شيئا خارقا للعادة.

سؤال ـ قيل فيما سبق «خلق الجن من مارج من نار» والمارج معناه المختلط ما كنه هذا الاختلاط؟

جواب ـ المارج «نار تحتوى على مواد رطبة ومن هذه ينشأ اللهيب والشعلة اشتعال الهواء لذا تحتوى على الرطوبة.

سؤال ـ الشياطين هم المردة والأشقياء من الجن فلم يدخلون فى كلمة الجان اسم الجنس؟

جواب ـ إن سبب دخول الشياطين فى اسم الجنس لأن الجان مخلوق بين الإنسان والملائكة.

والجان مخلوق عنصرى وهذا هو علة تكبره ـ لو كان خلق طبيعيا خالصا لما تغلبت عليه طبيعته العنصرية ولظل دون تكبر مثل الملائكة.

الجان مخلوق برزخى فى نشأته. فهو يحتجب ويتشكل فهو أقرب إلى الأرواح النورية لاحتوائه على لطافة النار من جهة كما أن له وجهة أخرى عن طريق النيابة فهو من عنصر الرماد كما أشار إليه الإمام الماوردى رحمه الله.

ويجرى الشيطان فى جسم الإنسان مجرى الدم، ولكن الإنسان لا يشعر به، لو لم ينبهنا لذلك النبى ـ ﷺ ـ لظلت ملابسة الشيطان لنا وإلقائه الوسوسة فى صدورنا مجهولا لدينا. إن الشياطين لا يظهرون لنا إلا فى حالة تجسمهم إلا أنهم أكثر قدرة على الاستتار من الجان.

سؤال ـ ما الفرق بين الجسد والجسم؟

جواب ـ هناك فرق بين الجسم والجسد: والجسم يرى عادة، فهو إما لطيف لا يرى وأما شفاف أو كثيف.

وأما الجسد فهو حالة المخلوقات الروحانية حينما تظهر فى اليقظة بالأجسام. وبعض الأجساد تظهر فى صورة تشبه الأجسام فى شعور النائم ومع هذا كل ما ذكر ليس أجساما بذاته ونفسه.

سؤال ـ هل صورة الجن أو الملك هى عين صورتهما عندما يظهران ويشاهدان؟

جواب ـ نعم إن الملك والجن هما حقيقة نفسيهما كما أن الكلام المكون من الحروف والأصوات فى الحقيقة كلام الله. قيل لأحد الناس عَرِّف الجن فقال: «إن الجن حيوان ناطق هوائى».

سؤال ـ هل هناك من الجن من لا يصدق القسم الذى يحلفه الإنسان بأسماء الله تعالى الحسنى؟

جواب ـ نعم يصدقون جميع الأيمان التى تحلف بأسماء الله ـ بخلاف الإنسان ـ إذ ليس بمقدورهم ردها.

يقول الشيخ أبو طاهر «إن الجن لا يتخابر ولا يجاوب إلا بالرقى إذا ما قُرئت رقية على مجنون فكأنك تلقى على الجن شعاعا من الشمس فيضطر إلى الطاعة وتمنعه من العصيان. قد سخرت لسيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ الريح كما سخر الجان. إن الجان مخلوقات بالغة اللطف والدقة والرقة والخفاء حتى إذا اختلطت بالفضة المذابة فى البوتقة فتسبب الرجرجة والاضطراب كما يسبب للإنسان الذى يحل فى جسمه. وعندما تقرأ الرقى على مجنون يزعجونه وهذا ثابت بالحديث الشريف الذى يخبرنا بأن «الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم».

سؤال ـ ما الدليل على أن الجن مكلف بالإيمان؟

جواب ـ الدليل هو قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

وقد رأى النبى ـ ﷺ ـ سبعة نَفَرٍ من الجن تحت نخلة ثم خط خطا حول عبد الله بن مسعود وأمره بألا يخرج من هذه الدائرة.

يقول عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه: «قد استمعت إلى نبى الإنس والجان ـ ﷺ ـ وهو يحاكمهم ويفصل منازعاتهم كما سمعت أصواتهم».

ثم علمهم النبى ـ ﷺ ـ «سورة الرحمن» كما جاء فى كتب التفسير وأمرهم بأن يؤدوا الصلاة.

سؤال ـ هل هناك دليل على دخولهم الجنة؟

جواب ـ نعم يدخلون، فقد سئل ابن عباس مثل هذا السؤال وبعد ثمانية أيام من البحث والتدقيق أجاب أن قول الله تعالى: ﴿ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ** ﴾ (الرحمن: ٥٦). دليل على دخول الجن فى الجنة.

قال الضحاك: إن الجن يدخلون الجنة ويجازون وفق أعمالهم مثل الإنس. وقال «سفيان» إنهم سينجون من النار بثواب إيمانهم ولكنهم سيمتثلون لقول الله ـ تعالى لهم «كونوا ترابا».

وبناء على قول الشيخ أبى طاهر أن أكثر الجن لا يعتقدون فى البعث كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ **وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا** ﴾ (الجن: ٧).

سؤال ـ هل سيظل الجن ممنوعا من استراق السمع منذ بعثة النبى ـ ﷺ ـ إلى يوم القيامة؟! أم المنع لوقت معين؟

جواب ـ الحقيقة أنهم سيمنعون إلى يوم القيامة، وبما أن الشهب تحرقهم عن الاستراق لذا لن يستطيعوا أن يخبرونا بأخبار الغيب.

سؤال ـ ما حقيقة الشهب؟

جواب ـ هناك قولان فى هذا الخصوص:

١ـ أنَّ الشهب نور بعد ما يحرق بشدة نوره الجن، يعود إلى مكانه ثانيا.

٢ـ أنَّ الشهب نجوم، تنزل من تحت السماء فتحرق الجن ولا تعود.

سؤال ـ هل إبليس أبو الجن كما يروى فى أقوال الناس؟

جواب ـ ليس إبليس أبا الجن. بل وجد الجن قبل إبليس ولكن إبليس أول العصاة.

سؤال ـ ما مدى قدرة إبليس؟

جواب ـ عمل إبليس هو أن يأتى الناس من حيث لا يشعرون ويهلكهم أو يلقى فى قلوب الناس الوسواس بحيث ينقص منزلة الناس عند الله، وإبليس لا يستطيع أن يؤثر فى عباد الله المؤمنين الأتقياء ولا أن يتسلط عليهم كما بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه يتسلط على الغافلين عن وحدانية الله ومَنْ يشركون به. إن الذين يتجنبونه ويحذرونه ولا يتبعونه ينجون من دسائسه وكيده.

وما أعظم دسائس إبليس وما أشدها وأكثرها فإذا ما انصرف الإنسان عن دسيسة من دسائسه فإنه يأتيه من طريق آخر ويسلك جميع السبل ليحمل الإنسان على اتباع طريق العصيان.

ومن جملة دسائس إبليس أنه يحمل للناس كشوفا صحيحة وعلوما تامة ويحاول أن يخفى الذى يقوم بهذا العمل، ومن إحدى دسائسه أنه يكشف للناس معاصى الآخرين ويهتك خفاء الأشياء ويظهر عورات الناس والشخص الذى يطلع على مثل هذه الأحداث يظن أنه وصل إلى درجة عظيمة من الفراسة دون أن يعرف أنها عطية الشيطان له وقد أصبح الشيطان سمعا له وبصرا.

إن مثل هذا العبد يجب أن يبادر بالتوبة حتى لا يكون من الهالكين.

ومن دسائس إبليس الخفية لأكثر الأولياء. هو الظهور فى قلب الولى وأن يدخل حيث يتوجه إليه بالتضرع والابتهال فيدخل العرش حينا والكرسى حينا والسماء حينا آخر. وإذا كان فى علم الله أن ينجى هذا العبد عَرَّفه أن كل هذه من حيل الشيطان، وهكذا يخيب إبليس فى سعيه ويضيع وقته سدى أما إذا لم يحفظ الله ـ سبحانه وتعالى ـ عبده هذا ـ نعوذ بالله ـ فيكون من الهالكين.

سؤال ـ هل يتسلط الشيطان لظاهر الإنسان أو لباطنه؟

جواب ـ إن شياطين الجن يتسلطون لباطن الإنسان بينما يتسلط شياطين الإنس لظاهره وباطنه وإذا ما وقع إغواء أو وسواس لظاهر الإنسان من قبل شياطين الجن إنما يقع بناء على إذن من شياطين الإنس.

سؤال ـ هل عداوة الشيطان أكثر شدة لأبى البشر أم لذريته؟

جواب ـ عداوة الشيطان أكثر لبنى آدم، لأن بنى آدم خلقوا من ماء والماء ضد النار واليابس يجمع بين آدم وإبليس، فقد خلق أحدهما من التراب والآخر من النار واجتماع التراب مع النار ليس كاجتماع الماء والنار. لأجل ذلك صدقه عندما أقسم أنه كان ينصح آدم ولكن الأنبياء ذوى الشأن لم يصدقوه لأنهم خلقوا من مادة مضادة للمادة التى خلق منها الشيطان.

وقد سلحنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعلامات تقوم مقام «البصر الظاهر» وأودعها فى قلوبنا بواسطة الشرع الشريف حتى نقاوم هذا العدو الشرس كما جند الملائكة فى عالم الغيب لحراستنا.

سؤال ـ يخبروننا أن هناك نوعا من الشيطان ليس بإنس ولا جن، هل هذا الخبر صحيح؟

جواب ـ نعم إنه صحيح. إن الشيطان فى جميع أحواله شيطان ـ صحيح، أن الشيطان فى جميع أحواله شىء حسى ويمكن أن يكون معنويا أيضا. وهذا يحدث عندما يجتمع أباليس الجن مع شياطين الإنس ويتحاورون ويتشاورون فيما بينهم عندئذ يظهر شيطان جديد معنوى.

سؤال ـ ما الفرق بين هؤلاء الشياطين الثلاثة؟

جواب ـ إن شياطين الإنس أو الجن يفتحون أبوابا فى قلوب العباد للتوجه لغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ بوساوسهم، أما الشيطان المعنوى فيستنبط من هذه الوساوس شبهات وضلالات لا يستطيع أن يستنبطها لا إبليس ولا غيره.

ويتخذ الشيطان أحيانا جسما إنسانيا ويبذل جهده لإغواء الناس وإضلالهم، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ (ص: ٣٤).

والمثل على ذلك يأتى الشيطان ويحاول أن يخالف العبد أوامر الله وإذا ما رأى أن دسيسته لن تقبل، يغير طريقته قائلا: «إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يؤاخذك إذا فعلت كذا» محاولا خداعه، وإذا ما أحس أنه لن يفلح فى هذه الطريقة أيضا يقول بحسن نية «إنك إذا أحسنت ظنا بالله تعالى فهو لا يؤاخذك لأنك عبد الله سواء فى طاعتك أو عصيانك والله ـ سبحانه وتعالى ـ يصنع شيئا ويقدره».

إن الشيطان يعلم جيدا أن المؤمن لن يعصى الله بدون تأثير خارجى كالتأويل والتزيين والوسوسة. لو كان المؤمن يعصى الله بدون وسوسة إبليس لما أوجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الشيطان.

سؤال ـ كيف يتناكح الجن؟

جواب ـ إن تناكح الجن يشبه تداخل الأدخنة المنبعثة من فرن للفخار، ويتلذذ الشخصان بتداخل بعضهما فى البعض ويشبه حملهم بتلقيح النحل ويتم بمجرد الرائحة.

سؤال ـ هل للجن قبائل وعشائر مثل الناس؟

جواب ـ نعم لهم قبائل وعشائر. وقد قامت فيما بينهم حروب كبيرة. وما نعرفه ونراه من الأعاصير ما هى إلا أثر من آثار حروبهم، وأحيانا يسدون الطريق لهبوب الرياح فى أثناء حروبهم فتنتج عنه قيام الأعاصير المثيرة للتراب والغبار، ولكن ليس كل إعصار نتيجة لحروب الجن.

سؤال ـ من الذى سمى أولا باسم الشيطان؟

جواب ـ أطلق على شخص اسمه الحارث. وقد عصى الحارث هذا ربه فطرده الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتناسل الشياطين كلهم منه. ولكن من آمن منهم مثل «هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس» التحق بصنف الجن المؤمنين ومن ثبت منهم على الكفر ظلوا شياطين.

ـ حكاية:

هناك كثير من الجن قد نالوا شرف اللقاء مع الأنبياء العظام ـ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ـ وبناء على رواية منقولة عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن أحد الجن قد جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى وضح النهار وطلب منه أن يتفضل بتعليمه القرآن الكريم.

قال أنس ـ رضى الله عنه ـ وهو ينقل هذه الحادثة:

كنا نتنزه فى يوم من الأيام بجوار المدينة المنورة مع النبى ـ ﷺ ـ فظهر أمامنا رجل عجوز وأقبل يسير نحونا وإذا به جن قد تشكل فى صورة إنسان.

قد أخبرنى النبى ـ ﷺ ـ بأنه من طائفة الجن. ولما أتى إلى جانبنا بدأ حوار بينه وبين الرسول ـ ﷺ.

الرسول ـ ﷺ ـ: إن هذا السير سير الجن.

الرجل العجوز: نعم يا رسول الله.

الرسول ـ ﷺ ـ: من أى جن أنت؟

الرجل العجوز: من هامة بن همام بن لاقيس بن إبليس.

الرسول ـ ﷺ ـ إذن بينك وبين إبليس أبوان؟

الرجل العجوز: هو كذلك يا رسول الله.

الرسول ـ ﷺ ـ ما عمرك؟

الرجل العجوز: قد أمضيت عمر الدنيا كلها ـ حينما قتل قابيل هابيل كنت بلغت بضعة أعوام وفى تلك الأوقات كنت أمضى أيامى بصيد البوم فوق الهضاب، وإفساد الأطعمة المطبوخة أو إثارة النزاعات بين الناس.

الرسول ـ ﷺ ـ أقبح به من عمل!!

الرجل العجوز: لا تلمنى يا رسول الله! إننى أسلمت أمام نوح ـ عليه السلام

ـ وتعرفت على هود ـ عليه السلام ـ وصاحبت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المنجنيق ويوسف ـ عليه السلام ـ فى البئر، وتشرفت بصحبة المسيح بن مريم ـ عليه السلام ـ وطلب منى عيسى ـ عليه السلام ـ أن أبلغك سلامه.

الرسول ـ ﷺ ـ عليه السلام ـ ما طلبك منى؟

الرجل العجوز: قد علمنى موسى التوراة الشريفة وعيسى الإنجيل المنيف وأتمنى لو تعلمنى القرآن الكريم، وفى نهاية هذا الحوار تفضل فخر الكائنات عليه السلام بتعليم العجوز القرآن الكريم، وبعد ذلك عاد العجوز بعد أن ودع الرسول ﷺ.

ـ حكاية:

عندما أضاءت بعثة الباعث لخلق الكائنات ـ عليه وعلى آله أفضل التحيات ـ الأقطار الحجازية بالهداية والنور، سرت شرارة نار الفتنة والانشقاق بين سكان «أم القرى» وبين عربان البادية مما حمل الناس على نقل أمتعتهم من مكان إلى آخر وفى أثناء هذه الفوضى تشكل مسلمو الجن بأشكال مختلفة، وأخذوا يعلنون أن نبى الثقلين قد بعث وحاولوا أن ينشرو الإسلام.

وقد أسلم خال الصحابى الجليل ربيعة بن أبى براء فى تلك الآونة فى صورة غريبة.

ينقل لنا حضرة ربيعة بن أبى براء ـ رضى الله عنه ـ سبب إسلام خاله بصورة غريبة ويقول:

عندما ألبس السلطانُ الكريم السِّيَر ـ عليه وعلى آله صلوات الله الأكبر ـ خلعة النبوة رأى خالى أخو أمى ثعبانا مخيف الشكل وأسلم من خوفه وعندما حكى لى هذه الوقعة قال لى:

بينما كنت أتنزه فى الحقول رأيت حية مخيفة وكانت تطارد ثعلبا ضعيفا فأردت أن أنقذ هذا الحيوان المسكين فأخذت من فوق الأرض حجرا إلا أن الثعلب وقع على الأرض فجأة وهلك. ولكن الثعبان أيضا قد قطع نفسه وكان الحجر الذى أخذته من فوق الأرض مازال فى يدى.

فقلت إن الثعلب المسكين قد مات من شدة خوفه من الحية. ولكننى لم أجد تفسيرا لموت الحية منقطعة إربا وهذا ما حملنى إلى تفكير عميق، وبينما أنا غارق فى حيرتى سمعت صوتا يقول: «ما أتعسك!! لأنك تَسَبَّبْتَ فى قتل نفس» وفى عقبه سمعت من ينادى:

«يا داثر» فانتبهت واتجهت صوب الصوت الذى ينادى لأعرف ماذا سيكون رد داثر وفى ذلك الوقت ظهر داثر قائلا: ماذا هناك؟ وعندئذ تلقى داثر الأمر الآتى اذهب إلى بلاد بنى عذافرة[1] وأخبرنا عن مدى جرأة هذا الكافر وما الجناية التى ارتكبها فزادت حيرتى إذ سمعت الهاتف والجواب الذى تلقاه وزاد خوفى وفزعى فنظرت حولى فاضطررت أن أوجه الخطاب إلى جهة الهاتف الغائب إذ لم أجد ملاذا ولا ملجأ.

فقلت ـ يا هاتف! أنا لم أقترف ذنبا ولم أقدم على جناية عمدا!

فقال ـ كنت سببا فى قتل نفس.

فقلت ـ لا علم لى بهذا!

فقال ـ ولكن عندى علم بذلك.

فقلت ـ أنا أعوذ برحمتك.

فقال ـ ماذا تريد أن تقول؟

فقلت ـ اعف عنى.

فقال ـ أفى الإمكان عفو كافر قتل نَفْسًا مؤمنة؟

فقلت ـ أنا مسلم.

فقال ـ إذن تكون قد نجوت.

فقلت ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فقال ـ نجوت، نجوت. ألا تستطيع أن تعود من حيث جئت، إن الحوار الذى

(١) عذافرة اسم قبيلة من الجن.

جرى بينى وبين الهاتف الغائب أدى إلى فائدتين، أسلمت ونجوت من الموت. وقد اهتز جسمى من الفرح وزادت حيرتى ودمعت عيناى، ولما أردت أن أعود إلى عملى إذا بى أتلقى الأمر الآتى «اركب الوحش بن الذئب واذهب حيث يسكن أبو عامر» فركبت الوحش الذى ظهر بجانبى وصعدت فوق الجبل العظيم الذى كان أمام طريقى وبعد مدة هبطت إلى الناحية الأخرى من الجبل، ولكن هنا ظهر أمامى فارسا وقال لى لا تتحرك، وسلم سلاحك. إن أمر الفارس الشديد قد أثر فى جسمى المضطرب وظننت أن حياتى قد قضى عليها، فاضطررت لتسليم سلاحى له. وقال الفارس بعد ما أخذ سلاحى.

- من أنت.
- أنا مسلم.
- السلام عليكم.
- وعليك السلام - فليجعلك الله - سبحانه وتعالى - فى ظل رحمة أبى عامر وحمايته.
- ومن أبو عامر؟
- أنا أبو عامر.
- معذرة، لم أعرفك.
- لا بأس - بشرى لك!! لا مجال للخوف لأهل الإيمان فى هذه البلاد.
- قد سرنى ما أخبرتنى به.
- كنت راكبا فوق الجبل. لماذا بقيت الآن مترجلا؟
- أين ركابك؟

وهنا وقفت وانتبهت لنفسى وحكيت له كل ما جرى بالتفصيل فأخذنى من يدى وأوصلنى إلى مقر جماعة الهوازن[1] استودعنى هناك وعاد إلى بلده. انتهى.

وكل هذه القصص تدل على صحة ما ينقل عن إسلام بعض الجن.

(١) إن هوازن بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهو اب لقبيلة كبيرة واولاد هوازن بكر وسبيع، وحرب، ومنبّه، ولاعقب لسُبيع، وحرب ابنى هوازن.

وقد أخبر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن وجود المسلمين والكفار من الجن، ويتفضل بالاستمرار فى حديثه ليبين هل هناك بين كفار الجن من يعتنقون الإسلام.

سؤال ـ هل يستطيع الشياطين الذين كفروا أن يصبحوا مؤمنين بعد قبولهم الإسلام؟

جواب ـ هذا موضع خلاف بين العلماء. وسبب الخلاف الآتى: قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما من أحد إلا وله قرين يأمره بالسوء، فقال الأصحاب الكرام: وأنت يا رسول الله فقال مجيبا: «نعم ولكن الله أعاننى عليه فأسلم» (حديث شريف).

فاختلف حفاظ الأحاديث فى حركة حرف الميم فى «فأسلم» فقرأها بعضهم بضم الميم ويكون معنى الحديث عندئذ إننى أنجو من شره وقرأها بعضهم بفتح الميم وأشاروا إلى أن قرين الرسول ـ ﷺ ـ قد قبل الإسلام دينا.

وأيد بعض أئمة الحديث هذا المعنى برواية الخبر اللطيف الذى يقول: «فلا يأمرنى إلا بخير».[1]

ولكن لا يمكن لإبليس أن يسلم بدليل حكم هذا الحديث، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد لعن إبليس إلى يوم القيامة.

سؤال ـ ما دام إبليس أول العصاة هل يجب أن يتساوى مع قابيل؟

جواب ـ نعم وهو كذلك. فقابيل أول أشقياء بنى البشر كما أن إبليس أول عصاة الجن، ألم يقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥٠). ومعناها أن هذا المخلوق من جنس العصاة.

سؤال ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه المنزل على لسان إبليس ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦)، ألا يشير معنى الآية الكريمة إلى أن إبليس موحد فى أعماق نفسه؟

(١) أخرجه مسلم فى ٥٠ كتاب صفات المنافقين، (١٦) باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم ٦٩، ٧٠ص ٢١٦٨ والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٠٠ـ١٠٢ (الروايتين)وانظر الهامش بدلائل النبوة ٧/ ١٠٠ـ١٠٢.

جواب ـ لا يدل هذا على توحيده، لأنه هو الذى كان سببا فى وجود الشرك. وإذا فرضنا أنه قد وحد فى ذلك الوقت، فمن المحتم أنه بعد قليل أصبح كافرا.

سؤال ـ الكفر الذى يأمر به إبليس ليس شركا: لأن الكفر هو اتخاذ المخلوق إلها آخر غير الله بينما الشرك هو جعل مثيل وند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى هذا التقدير فكيف يكون إبليس أوجد الشرك؟

جواب ـ: إن المقصود هنا من الكفر هو الشرك، كما قال لقمان مخاطبا ابنه. وقال الله ـ تعالى ـ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩) والمقصود من الظالمين هنا هم المشركون. وكذا تفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ جل من قائل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، وقال ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢)، إن المقصود والظاهر من كل هذه الآيات هو التوحيد ومقابل الشرك هو التوحيد.

سؤال ـ الجلوس مع الجن مذموم أم محمود؟

جواب ـ مذموم وليس بمحمود. فالعلماء الذين يجيزون الجلوس معهم جهلة، لأن الجن فضوليون كفساق الناس فبما أن العاقل يفر من مجالسة الفساق يجب عليه أن يفر من مجالسة الجن، وفى الواقع ـ لكون أصلهم من النار ـ فهم كثيرو الحركة ومن هنا فهم ميالون للفضول. فجلساء الجن لم ينالوا خيرا وإن شرهم لشديد لجلاسهم وإنهم كفساق البشر يحاولون أن يطلعوا على عورات الناس وهذا ليس من شأن العقلاء.

ويقول الشيخ محيى الدين ـ قدس سره ـ فى باب ٥١ من الفتوحات لم يستطع أحد أن يعلم شيئا عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمجالسة الجن، لأن الجن أجهل من الناس بصفات الله تعالى والعالم الطبيعى، ويمكن أن يتخيل جلاس الجن أنهم يستطيعون الاطلاع على أحداث العالم ووقائعه لكن هذا الموضوع مرتبط بإرادة الله وكرمه مهما يعلمون فقط بعلم السيماء الخاص بالنباتات والأحجار والأسماء والحروف والذين يتعلمون هذا يتعلمون ما ذمته الشريعة الإسلامية. لأن الذين يجالسون الجن يكتسبون صفة التكبر والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذم المتكبرين ونص على دخولهم النار. انتهى.

هذا وإن كان أهالى مكة المعظمة انشغلوا بالتعبد للأصنام إلى يوم الفتح، إلا أنهم كانوا يحترمون الكعبة المعظمة حق الاحترام ويرعونها.

كما أن عرب الجاهلية يفدون إليها فى مواسم الحج من جميع جهات الجزيرة ويقومون بأداء الحج.

وكانوا ينبهون أولادهم بأن يتجنبوا ارتكاب المعاصى والبغى والشقاوة، ويغرسون فى قلوبهم احترام بيت الله ويأمرونهم بمراعاة حرمة بيت الله والابتعاد عن جميع ما يسئ إليه وإلى مكة المكرمة وينشدون القصائد فى مدح بيت الله ويحرصون على تفهيم أولادهم كيفية احترام الملك التابع لبيت الله الحرام وكيف هلك الجبابرة من الأسلاف الذين أساءوا إلى البيت، وخاصة كيفية هلاك أصحاب الفيل الذين أتوا لتخريب البيت الحرام.

وقد أدرجنا هنا بعض الأبيات من القصيدة المطولة التى قالتها سبيعة بنت الأَحَبّ بن زبينة بن جذيمة بن عوف[1] بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان لابنها «خالد» بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة فى تعظيم بيت الله، وذلك لنثبت صدق مدعانا.

الأبيات:

أبنى لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بُنىَّ ... ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكة ... يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه ... ويَلُحْ بخديه السعير
أبنى قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما ... بنيت بعرصتها قصور
ولقد غزاها تبع ... فكسا بنايتها الحبير
وأذل ربى ملكه ... فيها فأوفى بالنذور

(١)انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٨ـ وسيرة ابن هشام ١/ ٢٥ ط دار الفكر بتحقيق محمد فهمى السرجانى.

ويظل يطعم أهلها ... لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى ... والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه ... يرمون فيها بالصخور
والملك فى أقصى البلا ... د وفى الأعاجم والجزور
فاسمع إذا حدثت واف ... هم كيف عاقبة الأمور[1]

إن شدة تقديس أهل مكة للبقعة المباركة لكعبة الله وعظيم تقديرهم لها وكذلك وفود الحجاج إليها من كل فج عميق من أنحاء الجزيرة العربية، ملأ قلوب بعض الملحدين حسدا وعيظًا وحقدا، لذا حاولوا أن يهدموا بيت الله الحرام وأن يبنوا فى بلادهم كعبة أخرى. ومن هنا كانت قصة أصحاب الفيل المليئة بالعبر قبل ولادة النبى ـ ﷺ ـ الباهر السعادة بأربعة وخمسين يوما.

قد أراد «أبرهة» الوثنى من حكام اليمن وقد جمع حوله بعض القبائل وأقدم. على هدم وتخريب كعبة الله المعظمة ـ كما سيأتى تفصيله فيما بعد ـ ولكنه خر بجيشه وأضمحل.

قصة الفيل العجيبة:

بلاد الحبشة:

قد انقرض ملوك التبابعة فى عهد أصخمة النجاشى[2] وهكذا انتقل حكم اليمن إلى قبضة «أبرهة بن الصباح» الأشرم قائد جيش النجاشى أصخمة نيابة عن ملكه.

وقد انزعج «أبرهة» عندما رأى أن عرب الجاهلية يزورون الكعبة المعظمة فى مواسم الحج متبعين فى ذلك ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيفية، ويفد إليها من الناس من أماكن بعيدة متكبدين فى ذلك مشقات عظيمة.

(١) الأبيات فى سيرة ابن هشام ١/٢٦.

(٢) النجاشى لقد أصخمة، إلا أنه علم على ملوك الحبشة مثل قيصر الروم وأكاسرة الفرس. ومعناه فى اللغة النبطية «العطية»، كان النجاشى ملك عظيم القدر وقد آمن بسلطان الملوك نبينا ﷺ وعرض عليه أشواقه فى مكاتباته.

قد تساءل هذا المغرور محدثا نفسه: يا ترى لماذا حاز هذا البناء المسمى بالكعبة كل هذا التوقير والتعظيم من قبل العرب؟! ما يا ترى مكانة هذا البناء وما مدى جماله وزينته حتى يجذب إليه كل هؤلاء الناس؟!.

ولما عرف أن الكعبة بيت من الحجارة المأخوذة من الجبال الكائنة حولها وأنها بناء حجرى عال عزم ـ بناء على رأيه الفاسد ـ أن يبنى معبدا أعظم وأضخم من الكعبة الشريفة وكتب إلى النجاشى طلبا يقول له فيه إننى أبنى بجانب قصر غمدان[1] فى صنعاء قصرا عظيما رصين البناء فخما يليق بعظمتكم وعلو شأنكم وسوف أجتهد على أن يكون هذا القصر مزينا لا مثيل له فى الفخامة فى العصور السابقة.

وبما أن النجاشى لم يلتق بالرسول ـ ﷺ ـ فلا يعد - عند من يشترط اللقاء مع النبى ﷺ ـ من الصحابة الكرام وإن كان بعض العلماء يعدونه من الذين يؤمنون بالمعاهدة من الأصحاب الكرام. قد مات النجاشى فى رجب من السنة التاسعة من الهجرة وصلى على جنازته فى المدينة المنورة وهذا يرجح كونه من الصحابة.

يروى أن هذا القصر قد هدم فى عهد عثمان بن عفان أو خلافة عمر وقصر غمدان أحد عجائب الدنيا وكان أحد جدرانه الأربعة أصفر اللون والثانى أبيض والثالث أخضر والرابع أحمر اللون داخل هذا القصر، وفوقه قصر آخر من سبعة طوابق وكان بين طوابقه فواصل قدرها أربعون ذراعا وكان ارتفاع جدرانه الخارجى ٣٠٠ ذراع وكان فى كل ركن من أركانه الأربعة صورة أسد فاغر الفاه مكشوف من الأسفل فارغ البطن وعندما كان يدخل الهواء فى أسفله يخرج من فيه محدثا صوتا غريبا شبيها بصوت القنفذ.

(١) قصر غمدان من القصور التى بناها يشرح من ملوك اليمن. وقال بعض الرواة: إن يعرب بن قحطان هو الذى وضع أسسه وأكمله وائل ابن حمير بن سبأ. وقال بعضهم (أن بانيه ضحاك ومع مرور الزمان انتقل أسسه إلى سيف بن ذى يزن)، والرواية الأخيرة أقرب إلى الصحة وقال المؤرخون (أن ضحاكا قد بناه ونسبه إلى «نجم الزهرة» وبناء على هذا فإن قصر غمدان أحد البيوت السبعة التى نسبت إلى الروحانية وسميت بأسماء الكواكب السبع السيارة).

وعندما أرسل أبرهة[1] الطلب إلى النجاشى أخذ يحفر أسس المعبد وفى ظل نفوذه وقوة دولته أخذ يستدعى من البلاد البعيدة الأساتذة من المهندسين والمتخصصين فى فن العمارة وجلب أنواع الرخام الصافية اللامعة كالفضة وأعمدة متنوعة وملونة ومتينة وحجارة قيمة ملونة ذات أشكال مختلفة والحجارة المنتزعة من قصر بلقيس ذات نقوش ومرصعة بالذهب والفضة وبنى فى صنعاء[2] اليمن عاصمة ملكه، كنيسة تثير الحيرة والدهشة بما تحتوى فى خارجها وداخلها من اليواقيت والمجوهرات التى رصعت بها الجدران كما صنع فيها منابر مصنوعة من الأبنوس والعاج ووضع فى أرجاء الكنيسة المذكورة أصنامًا مصنوعة من الذهب والفضة، وعلق فى أبراجها نواقيس ضخمة ثم أعلن وأشاع[3] فى أطراف الجزيرة أنه سيمنع الناس من زيارة الكعبة والطواف حولها وسيجبرهم على زيارة كنيسته هذه.

وبما أن الكنيسة قد بنيت فى مكان عال كما كان مبناها شاهق العلو فأطلق عليها بيت (القليس) إيماء إلى علوها. ثم بعث الرسل يدعون الناس لزيارة الكنيسة والحج إليها.

وكان غرض أبرهة من هذا صرف أبناء العرب عن زيارة الكعبة والحج إليها مرة فى السنة ويحملهم على التوجه إلى كنيسة صنعاء باليمن.

وعلى هذا أكره العرب على زيارة بيت الأصنام الذى فى صنعاء وتوجهوا إليه وأصبحوا لا يريدون أن يروا وجوه الذين يتحدثون عن هذا المعبد المنحوس، وبناء على كراهيتهم الشديدة لهذه الكنيسة قتل أفراد قبيلة كنانة، الرسول الذى بعثه «أبرهة بن صباح الأشرم» ليدعوهم، فقتلوه رميا بالسهم.

(١) لم يشر أبرهة فى طلبه الذى كتبه للنجاشى إلى عزمه على هدم الكعبة حتى لا يغضبه.

(٢) إن مدينة صنعاء الشهيرة فى القسم الخامس من أقسام البلاد اليمنية وعاصمة البلاد الكائنة فى هذا القسم وتقع بين درجة (٥) (٢٢) دقيقة فى العرض الشمالى وبين (٣٢) درجة و٤٤ دقيقة فى الطول الشرقى وفوق صحراء واسعة.

(٣) وقد روى هذه الواقعة أبو الوليد وابن هشام وابن إسحاق وإن كان فى أقوال كلهم زيادة أو نقصان إلا أن كلها مؤيدة لرواية ابن إسحاق.

وعندما شاع بين سكان اليمن متانة بيت القليس ورصانته أخذ أبرهة يبعث الرسائل والرسل إلى سكان اليمن ومن حولها، ويقول مفتخرا مباهيا إننى قد وفقت فى بناء معبد فخم وضخم لن ينس العرب معه اسم الكعبة فقط ولكنهم سيأنفون من ذكر اسمها.

وأخذت مثل هذه الأخبار تنتشر تدريجيا فى بلاد الحجاز حتى ذكرت فى خيم البدو واستثقلها القرشيون؛ لذلك اختاروا شابا بطلا من سادات العرب يتصل بنسب بنى فقيم بن مالك ومن قبيلة كنانة وهو «نفيل بن حبيب الخثعمى»، وبناء على القول المختار «قلمس[1] بن عبد الله بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر» من **أهل نسئة**، ومعه رفيق شجاع وذهبا إلى صنعاء ودخلا فى بيت القليس حيث قضيا حاجتهما ثم لطخا جدرانه بالقاذورات لينفرا أهل اليمن من زيارة الكنيسة، وأرادا بهذا أن يلمحا أن الدار القذرة التى يلجون فيها صبح مساء لا تصلح إلا أن تكون بيت خلاء.

لما عرف أبرهة ما جرى زاد غضبه وحزنه وتألم جدا، ولما عرف أن الذين تجرأوا على فعل ما حدث هم من سكان مكة المكرمة أقسم على هدم وتخريب الكعبة المعظمة وقال: «إننى أستطيع أن أثأر من العرب بهدم البيت المعظم بالفيلة» وأعد جنده وجمع ـ بناء على **قول** ـ فيلين مشهورين، وعلى قول ثمانية أفيال، وفى **رواية أخرى** عشرة وعلى **قول** اثنا عشر أو ثلاثة عشر وبناء على **روايات أخرى** ألف فيل أو أربعة آلاف[2] فيل- شجاع كما أخذ معه فيل النجاشى المسمى محمود[3] وساق كتائبه وجيشه نحو مكة سنة «٥٧٠م».

اقتنع أبرهة الذى أعد كل هذه الفيلة وكل هذه الحشرات الحبشية لإدارة الأفيال عندما رأى كل هذه القوة بأنه لن يتعب فى هدم الكعبة المعظمة.

(١) قلمس بن عبد الله بن فقيم فهو من أفراد أهل نسأة، اسمه الحقيقى «حذيفة» والزمن الذى ينتسب له يقال له «دور نسأة» أيضا. قيل ذلك لبنى فقيم لأنهم كانوا ينسأون الشهور. انظر المعارف لابن قتيبه ص ٦٠، ولسان العرب مادة نسأ

(٢) كان ثلاثة عشر فيلا من هذه الفيلة مدربين أحسن تدريب بينما كان الباقى من الفيلة العادية.

(٣) كان هذا الفيل أبيض اللون ويسمى محمودا وكنيته أبو العباس.

وكان يسوق أمام جنده أربعة صفوف من الفيلة وكان يظن أنه سينتصر حيثما يتجه بهذه الفيلة ويعتقد أنه لن يجد صعوبة فى هدم البيت المعظم وتخريبه.

قد زحف أبرهة نحو مكة الله ومعه ٦٠٠٠٠[١] ألف أو ثلاثمائة ألف[٢] من الحشرات الحبشية لإدارة وسوق الفيلة وفى رأسه فكرة هدم البيت وتخريبه المستحيلة.

وقابل فى طريقه العرب الذين خرجوا للدفاع عن بيت الله، وحاربهم وداسهم بسنابك خيوله وانتصر عليهم وأسر قوادهم وقيدهم بسلاسل الأسر، وضرب خيامه فى مكان بين الطائف ومكة المكرمة المسمى «**بمغمس**» وأغار على حيوانات أهل مكة واستولى عليها ونهبها.

من الذين رفعوا السلاح فى وجه جيش أبرهة أولهم «**ذو نفر**» من أشراف اليمن، والثانى الذى واجهه فى أرض خثعم «**نفيل**[٣] **بن حبيب الخثعمى**» أو «**باعس**» وأخوه «**غفرس بن أقبل**[٤] **ونهران وناهس**» تحت قيادة نفيل وبعض أفراد القبائل العربية.

وقد وقع «ذو نفر» ونفيل بن حبيب وهما من قواد الجيش وملوك اليمن أسيرين، وتفرق العرب الذين كانوا تحت قيادتهما وقيدا بالسلاسل بأمر أبرهة. ثم فك أسر نفيل بشرط أن يكون دليلا لهم فى أثناء سيرهم فى أرض العرب.

عندما وصل أبرهة إلى الطائف بدلالة «نفيل بن حبيب ضم مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف» من بنى ثقيف أحد أتباعه الضالين إلى جيش أبرهة ليكون دليلا لهم وهو «**أبو رغال**».

وقد سار «أبو رغال» مع جيش أبرهة إلى أن وصلوا إلى مكان يسمى

(١) صاحب هذه الرواية كان يحب أن يبالغ فى كلامه لأن ابن إسحاق لم يذكر عدد الفيلة ولا عدد الجنود.

(٢) هذا القول أقرب إلى الصحة، لأنه لم يقصد عدد الجنود بل أراد أن يكنى عن كثرتهم كما تشير إلى ذلك الأبيات التى ستقيدها فيما بعد والتى نظمها عبد الله الزبعرى.

(٣) نفيل ـ هو أكمل بن ربيعة بن غفرس وكان من رؤساء قبائل شهران وباعس.

(٤) خثعم لقب أقبل.

«مغمس» حيث تشقق ومات لحكمة ما، والبدو سكان البادية يرجمون حتى الآن قبر «أبو رغال» ويستحقرونه.[1]

اسم ثقيف أبو عوف ـ قسى بن النبيت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أقصى بن دعمى بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان، لما قابل مسعود بن معتب الثقفى أبرهة عظمه وحدثه بفرح وسرور وقال له: «يأيها الملك إننا سندلك على الطريق، إن عامة أبناء قبيلتنا عبيدك وكل ما تأمر به مجاب. . الكعبة التى تريد أن تهدمها وتخربها لا قيمة لها عندنا، إن بيتنا بيت اللات وهو فى الطائف وكل أهل الطائف يعظمون هذا البيت كما تعظم الكعبة ثم قدم لهم «أبو رغال» السالف الذكر ليدلهم على طريق مكة.

عندما انفلق أبو رغال وهلك كان أبرهة قد بعث بكتيبة من الجنود فى رفقة أسود بن مقصود الحبشى الذى كان فى مغمس للتعرف على أحوال مكة المكرمة، عندما وصل هؤلاء الجنود إلى أطراف مكة نهبوا وسلبوا الحيوانات التى كانت ترعى هناك.

بناء على هذه الوقعة ركب «عبد المطلب بن هاشم» سيد قريش وخادم الكعبة المعظمة ذو الرأى السديد بغله واتجه نحو معسكر الحبشة، وقد استقبله أبرهة استقبالا عظيما ورحب به أيما ترحيب ـ إذ بلغه علو شأنه بين قومه وأشار له أن يجلس فوق كرسى فخم مزين.

وفى قول آخر إن أبرهة لم يستطع أن يقاوم ما كان عليه «عبد المطلب» من الوجاهة والمهابة فنزل من كرسيه وجلس فوق البساط وأجلس المشار إليه بجانبه وقاله له: «اطلب منى ما تشاء» فأجابه قائلا: «لا أريد منك شيئا غير أن ترد لى أربعمائة جمل نهبتها جنودك. والصحيح مائتان».

قد تحير أبرهة من هذه الإجابة الساذجة واندهش وقال له: ظننتك قد جئت ترجونى ألا أهدم الكعبة إنك تعرف جيدا أننى جئت لأهدم الكعبة التى تشكل ركنا من دينكم وأخربها.

(١) السيرة النبوية ١/ ٤٩. والعرب تستحقره لأنه كان دليلاً لصاحب الفيل. وفى جامع معمر بن راشد أن أبارغال من ثمود وأنه كان بالحرم حين أصاب قومه الصيحة، فلما خرج من الحرم أصابه الهلاك كما أصاب قومه فدفن هناك.

ثم أراك لا تطلب منى أن أنصرف عن هذا العمل بل تريد أن تسترجع ما نهبه جنودى من إبلك وهذا أمر لا يمكن أن يثير إلا عجبى ودهشتى.

فتلقى من عبد المطلب هذه الإجابة الحكيمة:

«لما كنت صاحب الإبل فإننى أريد أن أستردها. وللكعبة صاحب أيضا فإذا أراد سيمنعك من التسلط عليها».

واستغرق أبرهة فى تفكير عميق إذ تلقى هذا الرد ثم قال مستهزئا: «أذهب وانظر كيف سيحافظ ربك على الكعبة ضد قوتى القاهرة وسطوتى الجبارة» ثم أعاد لعبد المطلب جماله ورده معززا مكرما وبين له أنه لم يأت ليحارب أهل مكة إنما جاء لهدم الكعبة المعظمة، وتخريبها، ومن هنا ليس لأهل مكة ما يثير قلقهم أو يخوفهم.

قد رأى سكان مكة ـ بناء على رأى عبد المطلب ـ أن يخلو مكة وينسحبوا إلى الجبال وألا يحاولوا الدفاع عن مكة ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يتمنون أن يروا المصيبة التى سوف يتعرض لها أبرهة.

قال بعض المؤرخين: «قد أخبر الجنود المكلفون بالذهاب إلى مكة أبرهة أنهم لم يوفقوا في قتل عبد المطلب بعد ما نهبوا جماله».

وقد أرسل أبرهة إلى عبد المطلب حميريا يقال له «حناطة» ليخبره بأن هدفه من المجئ إلى مكة هو هدم الكعبة وإذا كان بين الأهالى من يريد أن يدافع عن الكعبة يجب عليهم أن يستعدوا للحرب والقتال.

وكان رد عبد المطلب إننا لا نحارب إن البيت بيت الله إذا ما صانه وحفظه فهو بيته. أما إذا لم يحفظه، فليس لنا قبل للدفاع عن البيت. ثم ذهب مع «حناطة» إلى أبرهة وعندما مثل أمامه قد نزل من سريره وأجلسه بجانبه ورحب به أعظم ترحيب وكرمه تكريما.

لو كان أبرهة رأى من عبد المطلب أدنى علامة تدل على رغبته فى عدم هدم

البيت لتنازل عن فكرته ورجع إلى بلده لأن هيئة البيت المحتشمة وما فيه من روحانية فى طريقة وضعه وما فيه من عظمة ومهابة قد ألقى فى قلبه خوفا وخشية فوق العادة ـ فالأمين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد بناه تنفيذا لإرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن عدم صدور أدنى التماس أو رجاء بخصوص عدم هدم البيت من عبد المطلب حمل أبرهة على المضى فى عزمه لأنه لم يجد سببا يثنيه عما أقدم عليه.

وبلهجة كلها ثقة رد عبد المطلب على أبرهة ردا قاطعا مما أيأسه وآنس أهل مكة ببشارة خفية، لأنه كان واثقا أن أى فرد مهما كانت قوته لن يستطيع إلحاق الخسارة ببيت الله المعظم وذلك تكريما وحرمة لخاتم الأنبياء ـ ﷺ.

لأن النبى ـ ﷺ ـ انتقل إلى رحم أمه فى الفترة التى غزا فيها أبرهة الحجاز ووصل بالقرب من مكة وبدأت تظهر علامات خارقة للعادة، كما سعد عبد المطلب بالرؤى الجميلة فى منامه، وكل هذه القرائن كانت تنم عن قرب تشريف النبى ـ ﷺ ـ إلى الدنيا، ولكل هذا كان عبد المطلب يأمل ألا يستطيع أبرهة هدم كعبة الله بتخريبها، أخذ حناطة الحميرى عبد المطلب مع بعض أولاده وأتى بهم إلى خيمة أبرهة.

وعلم عبد المطلب بأن سيف ذى نفر فى السجن فالتقى معه واستمع إليه إذ يقول: يا عبد المطلب ماذا تنتظر من أسير يترقب قتله اليوم أو غدا وماذا تأمل منه، ومع هذا سايس الفيل «محمود» من أحبائه وهو شخص يسمى «أنيس» وهو من الذين يثق فيهم أبرهة ويعتمد عليهم وقد أرسلت له بأنباء. فاذهب إليه وفعلا ذهب إليه عبد المطلب وتلاقى معه.

كان النبأ الذى أرسله ذو نفر إلى أنيس[1] يشمل المعانى الآتية:

(١) قد رأت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنيس وسائق الفيل محمود، فى مكة يتسولان. وكما تقول المشار إليها إن كليهما كان أعمى وبما أنهما قد نبهوا أبرهة بحسن قبول عبد المطلب أنجاهما الله بما حل بجيش أبرهة وأصيبا بالعمى.

«إن الشخص الذى نهبت حيواناته، هو سيد قريش وهو صاحب عين زمزم الموجودة بمكة إن هذا الشخص يطعم الناس فى الصحراء والوحوش على رءوس الجبال».

إن المطلوب منكم هو إبلاغ أبرهة بأن جنوده قد استولت على مائتين من إبل عبد المطلب سيد قريش، فإذا استطعت فاشرح الموضوع لأبرهة واحمله على تكريمه ورد إبله له، وقد نقل أنيس هذه الأقوال إلى أبرهة لذا أكرمه أعظم إكرام وأعاد له جماله.

إن «يعمر بن نفاثة بن عدى بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة» رئيس قبيلة بنى بكر وخويلد بن وائلة الهذلى رئيس قبيلة «بنى هذيل» أرادا أن يصرفا أبرهة عن هدم الكعبة وذلك بعرض ثلث واردات تهامة[1] الحجاز السنوية، ولما رفض طلبهما استعدا للحرب بالاتفاق مع قبائل (قريش وكنانة وخزاعة وهذيل والقبائل الأخرى)، ولكنهم غيروا رأيهم واتبعوا فكرة عبد المطلب إذ أحسوا أنهم سيتعرضون للهزيمة.

وعندما رأى أبرهة أن أهل مكة لا يدافعون عن بلادهم، ساق حشراته إلى «وادى المحسر»[2] الواقع بين المزدلفة ومكة المعظمة واستعجل فى تنظيم صفوف جيشه وطلب من ساسة الفيلة أن يهيئوا أفيالهم للهجوم على مكة ودفعوا الفيل «محمود» نحو الكعبة، ورغم جهود السايس المضنية لسوق الفيل محمود ناحية الكعبة المعظمة لم يتحرك الفيل خطوة واحدة نحو الهدف، ولم تفد جميع محاولاتهم وما بذلوه من سعى لدفع الفيل نحو الكعبة كلما كانوا يسوقونه إلى الأمام يقع ولا يتحرك.

ولما رأوا أن المحاولات المضنية لدفعه إلى الأمام لم تأت بنتيجة، لذا سقوه

(١) إنها مدينة زبيد المشهورة فى الناحية الجنوبية من قطعة الحجاز.

(٢) إن سبب إطلاق محسر على هذا المكان لأن أصحاب الفيل قد تعرضوا هناك لعذاب الله وعقابه. لأن الفيل محمود لم يتقدم إلى الأمام بعد هذا المكان وتبعته الأفيال الأخرى ولم تتحرك خطوة إلى الأمام.

خمرا ـ بأمر أبرهة ـ حتى يفقد عقله وتمييزه ثم وجهوه إلى جهة أخرى.

وأسرع محمود السير لتلك الجهة وتبعته الأفيال الأخرى وأخذت تجرى بسرعة خلف محمود وعندما أرادوا أن يوجهوها إلى الكعبة كانت تبرك ولا تتحرك وكأنها لا تريد أن تهاجم الكعبة المعظمة.

عندما رأى «نفيل بن حبيب الخثعمى» الأسير المصفد، بالأغلال لدى أبرهة هذه الحالة المليئة بالحكم للفيل «محمود» ـ إذ كان يمتنع من السير نحو الكعبة وعندما يوجهونه ناحية الشام أو اليمن كان يسرع ـ أمسك نفيل بن حبيب أذن الفيل وقال له: «يا محمود احذر من التقدم لأنهم يريدون أن يستغلوك في تخريب بيت الله مع أنك في بلدة الله، فابرك محمود أوعُدْ راشدًا من حيث جئت».

أراد نفيل بن حبيب بفعله هذا أن ينبه الجيش الحبشى أن ما يريده أبرهة يشبه خيالا مستحيلا وأن محمودا والفيلة الأخرى لن تهاجم كعبة الله المعظمة. إلا أن أبرهة لم يتنبه لما يريده ابن حبيب الخثعمى كما لم يستطع أن يدرك شيئا من حركات الأفيال الحكيمة بل أصر على تنفيذ ما في ضميره وأخذ يضرب الفيلة ويشتمها حتى كاد يهلكها.

وفي تلك الأثناء أخذ عبد المطلب «عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وبضعة من رجال قريش المخلصين معه ومضى إلى باب المعلى من الكعبة المعظمة واحتضن حلقاته وأخذ يتضرع ويناجى قاضى الحاجات وهو ينشد الأبيات الآتية:

يـــارب إن المـــــرء يمـ	ـنع رحـله فامنـع رحـالك
وانصـر علـى آل الصليـ	ـب وعابديـه اليـوم آلـك
إن كنـت تاركهـم وقبـ	ـلتنا فأمـر مـا بـدا لـك
لا يغلـــبن صليبهـــم	ومحالهـم أبـدا محالـك
فلئـن فعلـت فإنـــه	أمـر يتـم بـه فعالـك

بينما كان أبرهة مشغولا بسوق الفيلة نحو كعبة الله التصق عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن عبد الدار بباب الكعبة العظيمة أيضا وأخذ يناجى ربه وينشد بعض الأبيات التى تبين نهب أسود بن مقصود الحميرى[1] حيوانات أهل مكة واستيلائه عليها.

وبينما كان عبد المطلب ورفاقه منهمكين عند كعبة الله بالتضرع والابتهال وكان أبرهة يبذل جهده لحمل الفيلة للسير نحو الكعبة إذ ظهر فجأة فى السماء مجموعة من الطيور الصغيرة تشبه طائر «السنونو» من ناحية البحر يحمل كل واحد منها فى منقاره حجرا واثنين بين مخالبه وكان أكبرها فى حجم حبة الحمص وأصغرها فى حجم حبة العدس أى ثلاثة أحجار من سجيل[2] واتجهت أسراب الطيور نحو مكة المكرمة.

جاء في رواية أن هذه الطيور الصغيرة أقبلت من ناحية البلاد الهندية، وكانت مناقيرها حمراء و رءوسها سوداء، رقابها طويلة أجسامها شبيهة بأجسام الخفافيش وبناء على قول آخر أن مناقيرها كانت صفراء رقابها خضراء وأجسامها شبيهة بأجسام العصافير وقد سطر على كل حجر تحمله اسم الشخص الموكول بهلاكه.

قد فسر عكرمة ﴿ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل: ٣) كلمة أبابيل عنقاء المغرب.

يقول صاحب القاموس إن (عنقاء المغرب) ظهرت فى عصر موسى ـ عليه السلام ـ قد خلق أولا أنثاها ثم خلق ذكرها وهكذا تناسلا وتكاثر نسلهما وبعد وفاة النبى المشار إليه انتقلت هذه الطيور إلى حجاز نجد حيث أخذت تؤذى

(١) أسود بن مقصود هو من رؤساء الحشرات الحبشية التى أرسلها أبرهة من مغمس للاستيلاء على حيوانات أهل مكة. والأبيات التى كان يرددها عكرمة يدعو بها على أسود بن مقصود أوردها ابن هشام فى السيرة ١/٥٣.

(٢) إن هذه الحجارة خليط من التراب والحجر والذى أطلق عليه فى القرآن الكريم اسم «السجيل» وكان أصغره فى حجم حبة العدس وأكبره فى حجم حبة الحمص.

الأطفال الصغار ولكنها طارت إلى أعشاش الهلاك والعدم بفضل استجابة دعاء «خالد بن سنان العبسي[1]» الذى عاش فى عهد النبى - ﷺ.

يروى أن أجناسا من طيور الأبابيل تعيش فى زماننا فى نواحى الهند الصينية وأنها تُبْعَثُ إلى دار السعادة استانبول كهدايا.

إن هذه الطيور لا تشبه طيور الأبابيل تمام الشبه إلا أن الذين ينظرون إليها بعين الإمعان يجدون فيها علامات تحمل الناس على تشبيهها بتلك الطيور، ويعتقد أنها تعرضت لتغير شكلها بمرور الزمان وقد نقلت روايات كثيرة عن شكل ولون وصورة هذه الطيور، حتى أن «عبد الله بن عباس» يروى أن لها مناقير كخراطيم الفيل وأسنانا شبيهة بأنياب الكلاب. ويدعى بعض الرواة أن الطيور الموجودة الآن فوق باب إبراهيم ووالزرازير من بقايا طيور الأبابيل والله أعلم بالصواب.

لم يكن يعرف شيئا عن ظهور هذه الطيور لا أبرهة ولا عبد المطلب ورفقاؤه الذين كانوا يتضرعون إلى الله ممسكين حلقات كعبة الله. وفى فترة نظر عبد المطلب إلى السماء ورأى كثيرا من الطيور الأبابيل تقبل نحو مكة المفخمة وتعجب من أشكالها وقال لرفقائه: «أيها الأصدقاء إن هذه الطيور لا تشبه طيور نجد وتهامة ولابد أن يكون فى هذا حكم ما» ثم اتفقوا على أن يصعدوا فوق قمة جبل أبى قبيس ليروا الطيور جنود الله المجندة - التى ظهرت من ناحية البحر وبعد فترة وقفت حذاء جنود أبرهة الذين أزعجوا العالم. ثم تركت الحجارة التى كانت ذات آثار نارية الواحد تلو الآخر وكان كل حجر يدخل من فوق رءوس الأعداء الحشرية وينفذ فى أجسامهم ويخرج من أدبارهم ويقضى عليهم بالهلاك في التو واللحظة.

لم يبق بين جنود الأعداء فرد متنفسا لم يهرب إلا أبرهة والفيل محمود والأفيال التابعة له.

وكل من يمسك بجثة أحد هالك كان يستطيع أن يحملها كما يحمل البيضة لأن الحجارة كانت قد أحرقت أجسامهم كما تحرق النار الفتيل. ثم ظهر سيل عظيم

(١) انظر خبره فى: المعارف لابن قتيبة ص ٦٢.

بالبحر مثير للدهشة وحمل جثث الأعداء المتنة وكنسها إلى البحر وهكذا طهرت ساحة مكة الله.

وهناك قول يدعى أن الحجارة التى ألقيت من قبل طيور الأبابيل إذا ما أصابت شخصا تظهر فى جسمه بثور مثل البثور التى تظهر فى الشخص المصاب بالحصبة والجدرى، والذين أصيبوا بها ماتوا وهلكوا من شدة أوجاعها والبقية الباقية وصلوا إلى الحدود اليمنية بكل صعوبة ونجوا بجلدهم فارين.

حينما تشتت جيش أبرهة واضمحل كما سبق تعريفه، هجم أهالى مكة على معسكره وأخذوا ما وجدوه من أموال وأسلحة وأشياء ونالوا ثروة وأصبحوا من أهل اليسر والغنى ونالوا غنائم بدون أن يتعبوا ودون أن يتعرضوا للمحاق والمشاق وذلك لحرمة حبيب الحق رسول رب الفلق وتضاعفت شهرتهم عن ذى قبل ونجوا من شر العدو القوى الشرس الذى أخاف عربان جزيرة العرب، كما أن القبائل المعارضة لهم انصرفت عن حربهم وقتالهم لأنهم اعتقدوا أن أهل مكة مؤيدون من قبل الله.

وقد ولد خاتم الأنبياء سيدنا محمد بعد واقعة الفيل بأربعة وخمسين يوما وبناء على هذا التقدير قد حدث قدوم أبرهة إلى مكة ومغادرته لها فى أواسط شهر المحرم ويوافق ولادة النبى - ﷺ - في شهر ربيع الأول الموافق لشهر أبريل من الشهور الرومية.

قد أطلق العرب على السنة الميلادية التى توافق خمسمائة وتسع وستين «عام الفيل» وقد اتخذوا هذه الواقعة مبدأ تاريخ لهم وتفاخروا بها وأنشدوا فى حقها أناشيد وألقوا القصائد وأخذوا يعظمون أهل قريش ويوقرونهم قائلين «هؤلاء أهل الله، لذلك أهلك الله أعداءهم»، لا يستطيع إنسان أن يحصى الأشعار والقصائد التى ألقيت بخصوص هذه الواقعة وإننا قد أدرجنا بعض هذه القصائد المختارة من قبل المؤرخين.

والقصيدة الآتية من جملة تلك القصائد وقد أنشدها عبد المطلب بن هاشم.

قلت والأشرم تردى خيلـه ... إن ذى الأشرم غربا لحـرم
كاده يتبـع فيمـن جنـدت ... حمير والحى مـن آل قـدم
فانثنى عنـه وفى أوداجـه ... جارح أمسك فيـه بالكظـم
نحن أهل الله فى بلدتـه ... لما يزل ذلك على عهد أتـم
إن للبيـت لربـا مانعـا ... من يـرده بآثـام يصطلـم

والأبيات التالية من قصيدة طويلة لعبد الله بن الزبعرى بن عدى بن قيس بن عدى بن سعيد[1] بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، يقول عبد الله بن الزبعرى:

يتكلموا عن بطـن مكـة أنهـا ... كانت قديمـا لا يـرام حريمهـا
لم تخلق الشعرى ليالـى حرّمـت ... إذ لا عزيـز من الأنـام يرومهـا
سائل أمير الجيش عنهـا مـا رأى ... ولسوف ينبى الجاهلـين عليمهـا
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهـم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهـم ... والله من فوق العبـاد يقيمهـا

وعرض ابن الزبعرى فى المصراع الذى قال فيه «بل لم يعش بعد الإياب سقيمها» بأن أبرهة هلك أيضا في صنعاء. كما أنشد هذه الأبيات أبو قيس صيفى بن الأسلت بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك الأوسى:

ومن صنعه يوم فيـل الحبـو ... ش إذ كلمـا بعثـوه رزم
محاجنهـم تحـت أقرابـه ... وقد شرموا أنفه فانخـرم
وقـد جعلـوا سوطـه ... مغولا إذ يمـوه قفاه كلـم
فولـى وأدبـر أدراجـه ... وقد باء بالظلم من كان ثـم

(١) كذا نسبه ابن إسحاق، والصواب سعد بن سهم، وسعيد أخو سعد بن سهم انظر: السيرة النبوية ١/ ٥٨.

وينسبون القطعة الآتية إلى أمية بن أبى الصلت ـ الأبيات:

فقوموا فصلوا لربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق ... غداة أبى يكسوم[1] هادى الكتائب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ... ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب ... إلى أهله الأحباش غير عصائب

أراد أبرهة أن ينجو من هذه الكارثة المهولة وطلب من «نفيل المكى» الذى مازال فى أسره أن يدله على الطريق فأجابه قائلا:

«أين المفر و الإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب»

حينئذ اعتمد على نفسه في الفرار ووصل إلى بلاد الحبشة بصعوبة يقع تارة فى الطريق ويقوم أخرى، وقص كل ما حدث على النجاشى بالتفصيل، واصفا شكل الطيور وصورها فقال النجاشى: ما أعجبه من حادث أيا ترى ما نوع هذه الطيور؟! فأشار أبرهة إلى طائر قائلا: كانت تشبه لهذا الطائر الصغير وإذا بالطائر يرمى الحجارة التى يحتفظ بها على أبرهة ويقضى عليه بحيث قطع الحجر يديه من منكبيه، ورجليه من فخذيه بينما أصابه واحد من الحجارة فى رأسه وأهلكه.

وبناء على رواية أخرى أن أبرهة لم يهلك بحجارة طير الأبابيل بل مرض بمرض الجذام الخبيث وعاد إلى اليمن بعد ما ترك أبا يكسوم نائبا عنه حيث لقى حتفه[2].

إن أبا يكسوم هذا أخذ يقص للنجاشى أحداث طيور الأبابيل، وإذا بأحد طيور الأبابيل الذى كلف بإهلاك أبى يكسوم هذا يلقى بحجر على أبى يكسوم بمجرد الانتهاء من كلامه وهكذا تأسف النجاشى إذ عرف كيف هلك جيشه فى أرض مكة.

قد حدثت وقعة الفيل الغريبة في اليوم السابع عشر من شهر المحرم فى وقت

(١) أبو يكسوم اسم الشخص الذى تركه أبرهة فى المعسكر نائبًا عنه.
(٢) انظر السيرة لابن هشام ١/ ٥٥، المعارف لابن قيتبة ص ٦٣٨.

الفجر. كما أن النبى ـ ﷺ ـ شرف الوجود ليلة الاثنين من الثانى عشر من شهر ربيع الأول، فكانت ولادة النبى ﷺ بعد حادثة الفيل بأربعة وخمسين يوما بالتمام.

بعد ما هلك أبرهة على الوجه الذى ذكر اختلف الأحباش فيما بينهم وتركوا العناية بالقليس.

وأهملت كنيسة الأحباش فترة طويلة حتى تحول ما حولها إلى غابات وأصبحت مقرا للوحوش والسباع، حتى أن الذين يرون منظرها الذى يثير الدهشة ـ يخافون أن يمروا من جانبها.

وبعد فترة باتت بجانبها قبيلة من عربان البادية فى ليلة من الليالى وأوقدوا نارًا فسرت شرارة منها إلى تلك الكنيسة فاحترقت وانمحت من الوجود.

ويزعم بعض المؤرخين أن الخليفة الأول أبو العباس السفاح من خلفاء الدولة العباسية قد عرف أن القليس قائمة كما هى فأمر والى اليمن بهدم تلك الكنيسة وهكذا استطاع أن يستولى على الدر واليواقيت التى لا تعد ولا تحصى.

استطراد:

بناء على ما قرره علماء طبقات الأرض بعد الكشف على الفيل محمود أنه من فصائل الأرض الثالثة إلا أنه قد شوهد في الأرض الرابعة أيضا.

ويستدل من الحكاية التالية على أن محمود كان من الحيوانات الضخمة فى الجثة وإقدام أبرهة على هدم الكعبة بفيلين أو اثنى عشر فيلا فقط. إلا أنه إلى وقتنا هذا لم ير حيوان فى ضخامته كما أن علماء طبقات الأرض والطبيعة لم يكتبوا شيئا عن وجود حيوان ضخم مثله فى كتبهم.

إلا أن صياد السمك قد وجد جثة حيوان ضخم متجمد بين الثلوج قبل هذا بست وسبعين سنة في مصب نهر (لنا) بسيبريا.

إلا أنه لم يستطع أن يعرف كنه هذه الجثة، لذا تركها على حالها وعاد. وبعد ما ذابت الثلوج بخمسة أعوام ظهرت الجثة للعيان واستطاعت المياه أن تدفعها إلى شاطئ النهر بالقرب من قرية فانتزعها سكان القرى المجاورة.

كما أن كلاب العراء والوحوش التى أقبلت من فوق الجبال ظلت تأكل لحمها فترة ولم يبق منها إلا هيكلها العظمى بدون رجليها الأماميتين.

وأرسلت أكاديمية بطرسبورج متخصصا ليعاين الجثة وبعد المعاينة قرر ذلك المتخصص أن الجثة جثة الفيل محمود واسترجع بقايا الجثة من أيدي القرويين ولم يكن قد بقى منها غير الرأس والأنياب ومع هذا لم يستطع أن ينقلهما إلا بهمة عشرة من الحمالين.

قد وزن أنياب هذا الحيوان فوجدها (١١٢) أقة، فإذا ما سلمنا بضخامة جسم الفيل محمود بهذا القدر وعرفنا بناء على الروايات أن أبرهة قد ساق أربعة آلاف فيل لهدم الكعبة ـ المستحيل التنفيذ ـ نستطيع أن نفهم بأدنى ملاحظة عدد السياس الذين يحتاج إليهم أبرهة للعناية بالفيلة ومن هنا لا يستبعد أن يكون عدد المشتركين في الجيش ستين ألفا.

معلومات خاصة فى صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به:

إن الحيوان الذى نطلق عليه الفيل قد خلق بخصائص تميزه عن جميع الحيوانات، لقد استخدم الناس فى الأزمنة القديمة الفيل فى الحرب وفى أعمال شاقة أخرى.

بما أن الفيل يتصف بالصدق والوفاء والحلم والذكاء وهى من الصفات الحميدة فمما لا شك فيه أن الإنسان يمكنه أن يستفيد منه.

ومن صفاته الحدة والغضب أيضا إلا أنه يعرف مدى قوته، لذلك يكظم غيظه وحدته ولا يتهور إلا إذا تعرض للخطر.

وبما أن قوته تامة وكاملة فإن هذا يدفعه إلى أخذ ثأره ممن أساء إليه، ولكنه يشكر نعم من أحسن إليه ويبين له صداقته.

إن عينيه صغيرتان بالنسبة لضخامة جسمه. وبما أن عينيه الصغيرتين مرآة لما يعتمل فى أعماق نفسه يمكن أن يفهم من حركة عينيه شكره ومجاملته وغضبه وتهوره.

أذناه مبسوطتان كبيرتان عريضتان وأرجله غليظة وجلده تخفيه طبقة فوق طبقة وله خرطوم يرتخى من فيه.

وبما أن خرطومه فيى غاية القوة فهو يدافع به ضد كل شيء وغير هذا له نابان قويان بارزان من جانبى فمه فإذا اضطر استخدمهما فى الهجوم أو الدفاع.

وقد استخدمه الناس فى الأزمنة القديمة مستفيدين من طبيعته الحليمة في جميع الأعمال. والآن يستخدمه الناس فى آسيا والهند كحصان عادى، حتى إنهم يقدمون على صيد الحيوانات المفترسة بواسطة الفيلة.

كان الأوائل يبنون قلاعا صغيرة ويملأونها بالأسلحة الخاصة بزمنهم مثل الخنجر، الرمح، السهم، القوس السكين ويقومون بتعبئتها بالجنود القادرين على الحرب والضرب ثم يحملون الفيلة بهذه القلاع والحصون الصغيرة ويسوقونها إلى ميدان المعركة.

يروى أن «بدوس» ملك الهند قد ساق مثل هذه الحصون فى حروبه ضد الإسكندر الأكبر الشهير فى آسيا فى سنة ثلاثمائة قبل ميلاد عيسى عليه السلام.

والخلاصة أن الأقوام الهندية كانوا يسوقون فى حروبهم الفيلة المدربة لنظم قتالهم قبل اختراع الأسلحة النارية وتعد أقوى جيوشهم وفيالقهم، تلك التى تضم هذه الحصون المتنقلة. وبما أن الفيلة تخاف وتنفر من دخان البارود وضوئه ومن أصوات المدافع والبنادق فقد أهمل سوق الفيلة فى ميادين الحرب، منذ اختراع الأسلحة النارية.

فى تعريف رصانة أبنية القليس:

إن معبد الأصنام الذى بناه أبرهة فى صنعاء اليمن كان بناء متينا مربع الشكل، وكان ارتفاع جدرانه ستين ذراعا «٨٥ قدما» وكان سمك جدرانها ستة أذرع «٨ قدم و ٨ بوصة».

وكانت قاعدتها السفلية قد ملئت قدر عشرة أذرع وفرشت بحجارة ملونة مصقولة ووضعت أمام الباب سلالم من الرخام المجلو الصقيل.

إن مقدار ٢٠ ذراعاً «٢٨ قدم ٤ بوصة» من الجدران ابتداء من الأرض كانت مبنية من الحجارة المنقوشة التى يطلق عليها اليمانيون «حورب» والجزء الأعلى منها كان مصنوعا من الرخام الملون العجيب فى أشكال مثلثة وركزت فوق زوايا المثلث الرأسية تماثيل مصقولة مصنوعة من خشب الآبنوس ونصبت فوق كل هيكل أعمدة مصنوعة من المرمر.

وكان يحيط ـ دائرًا ما دار ـ ببيت القليس حائط عالٍ فى غاية العلو ومتين وفى اتساع مائتى ذراع أى ٣٨٢ قدم و ٤ بوصات بينه وبين البيت، وكانت بوابة كبيرة تفتح فى محاذاة باب بيت القليس، وكان ارتفاع مصراع البوابة ١٤ ذراعا أى ١٩ قدم، ١٠ بوصات وعرضه أربعة أذرع أى ٥ أقدام و ٨ بوصات وكان مصنوعا من قطعة واحدة من النحاس.

وكان يربط بين بوابة الحائط الخارجى ودرج باب بيت القليس جسر معلق فى طول ثمانين ذراعا أى ١١٣ قدم و ٤ بوصات وفى عرض أربعين ذراعا أى ٦٥ قدما و ٨ بوصات وكانت كل مساميره من الذهب والفضة وخشبه من خشب شجرة الساج.

وكان فى داخل بيت القليس قصر عجيب فى اتساع أربعين ذراعا مربعا أى ٥٦ قدما و ٨ بوصات وكان على يمين ويسار هذا القصر شجرة عظيمة مصنوعة من الذهب حاملة الكرة الأرضية وصور الكواكب وكان في داخل هذا القصر قبة كقبة السماء مبنية فوق أربعة أعمدة متساوية متوازية وكان فى مركز استقامة هذه القبة قصر آخر قد زين داخله وخارجه بالذهب والفضة وهو قصر مشع يثير العجب والدهشة وكان فى وسط هذا القصر عمود شفاف مجلو وكان يلمع ويتلألأ كلما انعكس عليه ضوء الشمس والقمر.

وكان العمود المذكور فى ارتفاع عشرة أذرع أى ١٤ قدما، وبوصتان وقد علق على جوانبه كثير من السلاسل الفضية وقد اتصل به كرسى مصنوع من العاج والأبنوس وغطيت أدراج هذا الكرسى بعضها بالذهب وبعضها بالفضة قد مرت على جانبيه قطعتان من الخشب المنقوش المسميتان بـ «كعيب. إمرة كعيب»

وكانت القبائل الحميرية قد اتخذت كعب وإمرة كعيب إلها ويؤمنون بأنه يخبر عن الخير والشر ولذا يتعبدون له ويزورون ويطوفون حول بيت القليس من داخل السور.

وقد بلغ قوة معتقد الحميريين بكعيب أو إمرة كعيب حدا يفوق معه أن كل من يقصر فى تعظيمهما أو إجلالهما سوف يتعرض حتما لغضبهما، لذا كانوا يفرون منه خوفا من أن يصيبهم شر غضبهما.

قد دام هذا المعتقد مدة طويلة لدرجة أنه لما تهدم بيت القليس وخرب، وبينما تباع أنقاضه مرض أحد الذين اشترى الشجرة التى كان يطلق عليها أبرهة كعيبا صدفة فقيل إن كعيبا قد أصابه بسوء، ولما عرفوا أن الرجل قد شفى واعتدل مزاجه استعجبوا من ذلك.

قصة بيت أصنام بنى بغيض:

قد بنى بنو بغيض بن ريث بن غطفان فى فترة ما رغم وجود الكعبة المعظمة، بيت كفر وأسندوا سدانته إلى بنى مرة بن عوف الغطفانى، إلا أن زهير بن جناب بن خليل[1] بن كنانة بن بكر بن عذرة الكلبى، وهو من الكهنة المشهورين، جمع قوة عسكرية وأحرق معبد الأصنام المذكور وهدم جدرانه ومحاه من الوجود.

كان زهير بن جناب من رؤساء قبائل قضاعة، عرف بسداد الرأى وعاش (٢٥٠) عام أو على قول آخر (٤٥٠) عام وخاض فى أثناء حياته هذه مائتين من الوقائع.

وقد تغلب زهير على العربان الذين أرادوا أن يدافعوا عن معبد الأصنام الذى خربوه وأسر أولادهم ونساءهم ونهب أموالهم وبناء على توسلات بنى غطفان أعاد لهم أسراهم كلهم.

(١) يروى بناء على قول آخر أن أبا جناب هو هبل بن عبد الله بن كنانة.

هجوم ملك الروم.. بقصد تخريب كعبة الله القيوم:

إن ملك الروم الذى عاصر ألب أرسلان من ملوك آل سلجوق، تحرك ضد الإسلام وبناء على ما جاء فى تاريخ رضوان باشا قد نوى وقصد هدم البيت المعظم بسوق مليونين من الجنود، وحينما عرف ألب آرسلان بهذا الخبر أسرع بإعداد قليل من الأبطال فى شجاعة الأسود، وخرج من أصفهان وقابل المعاندين الروم فى مكان قريب من ديار بكر وابتدر بحربهم واستطاع أن يأسر رومانوس ملك الروم بينما كان مشغولا بالصيد كما أسر من كان معه من الصيادين وكبلهم بالسلاسل وأعمل السيف في جنده الذين أعدهم لسوقهم إلى مكة ودمرهم بينما هرب من نجا من السيف[1].

وإن كانت هذه الواقعة منقولة من تاريخ رضوان باشا إلا أن أبا بكر الطرطوشى[2] مؤلف «سراج الملوك» يكتب عن انتصار ألب آرسلان على رومانوس بهذه الصورة.

إن القيصر رومانوس[3] حشد جيوشه للاستيلاء على البلاد الإسلامية والقضاء على الأمة الإسلامية من على سطح الأرض.

وكان لهذا الخبر وقعه السيئ فى المدن الإسلامية، فاضطرب ملوك المسلمين واضطروا إلى أن يتخذ كل واحد منهم وسائل الدفاع ويعد جنودا ـ قدر استطاعته ـ وبقى منتظرا قدوم الأعداء.

وكان ألب آرسلان[4] فى ذلك الوقت في أصفهان فأعد قوة عسكرية صغيرة

(١) إن إعداد مليونين من الجنود فى ذلك الوقت بعيد الاحتمال إنما أراد المرحوم رضوان باشا أن يكنى عن كثرة عدد جند الروم لأن تجهيز مليونين من جند مستحيل من الناحية العسكرية والفن العسكرى.

(٢) إن كنية المؤلف المشار إليه أبو بكر، واسمه محمد بن أبى الوليد بن محمد القرشى، ولد سنة ١٠٥٩ الميلادية وسنة ٤٥١ الهجرية فى مدينة طرطوش بالأندلس، وتوفى فى مدينة الإسكندرية سنة ١١٢٦م و (٥٢٠) الهجرية من شهر جمادى الأولى، وكان من زهاد عصره وعبادهم.

(٣) رومانوس هو القيصر الخامس والستون وقد تولى الملك ١٠٩٩م والموافق ٤٩٢هـ، وفى عام (١١١٣م الموافق ٥٠٦هـ سملت عيناه وانصرف عن الملك.

(٤) المشار إليه من الشعبة الثانية من السلاجقة الذين حكموا خراسان والعراق وما وراء النهر، وكان اسمه محمد واشتهر باسم الملك العادل ألب آرسلان، وقد انتصر على الإمبراطور رومانوس فى هذه الواقعة وارتحل عن الدنيا عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٣م.

وخرج من المدينة ليدافع عن دينه ضد أعدائه وعقب ذلك ظهرت طلائع جيش رومانوس ونصبوا خيامهم أمام معسكر جيش أصفهان.

ولما كانت الليلة ليلة الجمعة كان الأعداء فى حالة إعياء أجلوا القتال للصباح بالاتفاق وعينوا حراسا وباتوا يتكاثرون إذ أخذوا يفدون طول الوقت.

وفى الصباح أرسل المسلمون الجواسيس ليطلعوا على أحوال جيش العدو وقد رأى هؤلاء أن جند العدو أكثر من رمال الصحراء وقد ملئوا الجبال والصحارى وكان معسكر رومانوس بحرًا زاخرًا وعدة الجيش وعتاده مما يخرج عن الحصر والتخمين.

ولما رأى ألب آرسلان أن قوته بالنسبة للأعداء كخال أسود على جسم ثور أبيض عرف أن مقاومة عدو فى هذه الضخامة غير مجدية، وأمر بعقد مجلس شورى مع كل الذين يهمهم هذا الأمر.

وكانت نتيجة المناقشات والمشاورات أنه يجب أن يعد جميع أسباب الحرب والمقاومة حفظا لكرامة الأمة الإسلامية، وعرضت نتيجة المشاورة على ألب آرسلان وقد ساند المسلمون بعضهم بعضا، وقد تهيئوا للقتال.

وقد سر ألب آرسلان من هذا القرار وقال اليوم الجمعة وهو يوم مبارك، مادمنا سنحارب فلنصبر إلى أن نصلى صلاة الجمعة لأن الخطباء سيدعون فى هذا اليوم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بانتصار جيش الموحدين، ثم نخوض المعركة لإعلاء كلمة الله ثم بعث بعيونه إلى معسكر العدو، وطلب منهم أن يعرفوا مكان خيمة رومانوس وشكله وهيئته، وبعدما اطلع على ما يريده جمع رجاله الأبطال، وقال لهم: أهجموا حيث أهجم ووجهوا سيوفكم وسهامكم ورماحكم حيث أوجه، ثم هجم على خيمة رومانوس ساحبا جنده خلفه ـ وقتل القيصر وبث هذا العمل الرعب والفوضى فى معسكر الأعداء فاضطربوا باكين مولولين.

حينما رأى العدو أن جنود المسلمين يهاجمون جيوشهم كالأسود الشجعان غير

مبالين بمن يقع منهم اضطربوا أيما اضطراب وقرروا الفرار[1].

وبناء على هذا النصر اغتنم المسلمون أموال أعداء الدين والوطن؛ وأسروا الذين لم يستطيعوا الهروب.

وقد قبض على القيصر رومانوس أيضا وسيق إلى حضرة ألب آرسلان، الذى قال له وقد مثل أمامه: أيها القيصر! كيف كنت تعاملنى لو كنت أسرتنى؟ فتلقى منه رداً: حتما كنت قتلتك، فقال له: إنك أحقر فى نظرى من أن أمد يدى عليك بالقتل.

وعرضه للبيع فى المزاد العلنى في معسكره، وأعلن عنه بضعة أيام ولم يظهر أحد يرغب فى شرائه، وأخيرا ظهر شخص يريد أن يبادله بكلبه، وبلغ الخبر ألب آرسلان وأحضر الكلب وصاحبه والقيصر رومانوس عندئذ قال الملك منصفا صاحب الكلب إننى أرى أن كلبك خير منه، وأطلق سراح رومانوس وأعاده إلى بلاده.

وكان ألب آرسلان عندما قال لصاحب الكلب: إن كلبك خير من رومانوس، يريد أن يشير إلى أن القادة الذين لا يستطيعون حماية جنودهم من الهزيمة لا يستحقون أن يكونوا قادة، كما أن رومانوس قد تسبب فى هزيمة جيشه وأسره لأنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة.

كتب كاتب جلبى فى موجزه الذى كتبه باللغة العربية قد تملك آلب آرسلان فى ٤٥٥ هـ الموافق ١١٦٤ مدينة حلب وسرح جنده مبقيا معه ١٤٠٠٠ ألف مقاتل.

وقد انتهز رومانوس هذه الفرصة واستولى على ملك المشار إليه وهو غافل، وقرر آلب آرسلان مقاتلة الروم بجنده الذين معه إذ لم يعبأ جنده كلهم عقب محاولة رومانوس الاستيلاء على ملكه، ولكنه رأى بلاده قد احتلت بجنود أكثر من جراد الصحراء فاضطر لطلب المصالحة.

(١) يقول المؤرخون إن عدد الجنود الذين ساقهم آلب آرسلان لمحاربة العدو كان ١٢٠٠٠ الفا أو ١٤٠٠٠ الفا.

ولما كان هدف رومانوس هو القضاء على الأمة الإسلامية لم يرغب فى الصلح وأعلن أنه لن يتنازل عن القتال، حينئذ توكل آلب آرسلان على الله وخاض الحرب وأحرز النصر الذى ذكر من قبل. وهكذا ترك فى صفحات التاريخ ما سيخلد اسمه على مدى الأيام.

فليزد الله ـ سبحانه وتعالى ـ من عمر خليفة وجه الأرض والسلطان العادل السلطان عبد الحميد الثانى، ولينصر جيوش الموحدين فى كل زمان ومكان، وليقهر ويدمر أعداء الوطن والدين بجاه سيد المرسلين. آمين.

وإن كان هناك خلاف بين رواية رضوان باشا فى تاريخه ورواية صاحب «سراج الملوك» ومؤلفه، فبما أن حرب رومانوس كانت ضد جميع المسلمين فليس بمستبعد أن يكون أمله تخريب كعبة الله.

كتب مؤرخو الروم أن جيوش قيصر الروم قد انهزمت فى حروبها ضد السلطان علاء الدين فى الأناضول، وأسر رومانوس ثم أطلق سراحه بعد أن نال العفو ورجع إلى عاصمة ملكه حيث سملت عيناه.

من بين فروع السلاجقة التى حكمت فى قونيه ملكان حملا اسم علاء الدين وقد مات أحدهما فى سنة ٦٣٤هـ الموافق السنة ١٢٣٧ الميلادية، والآخر توفى فى السنة ٧٠٠هـ الموافق للسنة ١٣٠١ الميلادية.

وبناء على هذا من قول المؤرخين المشار إليهما فإن رومانوس قد أسر فى حربه ضد السلطان علاء الدين يقتضى أن يكون خطأ؛ لأن رومانوس قد اعتلى كرسى الحكم سنة ١٠٩٩ الميلادية، وبعد أربعة عشر عاما من الحكم غادر دنيانا وهذا ثابت باعترافهما.

وعلى هذا التقدير فإن حكم رومانوس كان قبل وفاة السلطان علاء الدين بمائة وثمان وثلاثين سنة، ويتحقق أنه كان معاصرا لألب آرسلان.

فى تجديد مبانى الكعبة المقدسة للمرة التاسعة

قد جددت أبنية كعبة الله للمرة التاسعة من قبل «عبد الله بن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ، وسبب هذا التجديد ضرب «حصين بن نمير» كعبة الله المقدسة وتخريبها بعد حرقها مستخدما المنجنيق.

وبعدما بلغ خبر استشهاد قائد شهداء كربلاء إلى الأقطار الحجازية غمر الحزن الأسى فى قلوب السكان بموت حفيد النبى (الحسين بن على المرتضى) رضى الله عنهما. و رانت على القلوب علامات الدهشة، أراد عبد الله بن الزبير أن يعزى أهل مكة واستدعى أكابرها وأعاظمها ثم صعد المنبر وحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأثنى على نبيه ـ ﷺ ـ وفْقَ طريقة خطباء العرب ـ ثم ألقى خطبة بليغة ذات أثر شديد، وأخذ يعدد معايب يزيد البليد ومظالمه وجذب إليه قلوب الناس.

خطبة ابن الزبير:

(يا صناديد الحرم إن معظم سكان بلاد العراق وأقطاره بلاد الآفاق أهل غدر وفتنة. إنهم قد استدعوا قرة عين الرسول ونور بصر البتول الإمام الهمام «الحسين بن على بن أبى طالب» ـ رضى الله تعالى عنهم ـ بوسائل مختلفة ورسائل عديدة وإن دناءة سكان الكوفة تفوق دناءة سكان الولايات الأخرى الذين تجرءوا على استقبال الإمام بسيوف الغدر المسلولة. إنهم أهانوا وردة الروضة النبوية مع أكثر أهله إذ أوردوهم مورد الشهادة بسيوفهم الغادرة.

إن هذه الطائفة الباغية قد قتلت واحدا من أهل الصلاح والسعادة الذى كان يقضى ليله عابدًا و نهاره صائمًا، بينما كان الناس يقضون أوقاتهم متمتعين بفرط غناهم ويستمتعون بملذات دنياهم فى سفاهة، كان هذا الملك الربانى يقضى أوقاته فى البكاء من خشية الله، بينما كان الآخرون منتشين من ملذات الحياة

وسكارى من جاههم، كان الإمام الشهيد فى مجلس ذكر الله ومقامه وكان صائما دائمًا حذر الحرام». انتهى.

قد عرف يزيد العنيد أن عبد الله بن الزبير يمتنع عن البيعة له معتمدا على كعبة الله وأهل الحرمين، ولذا بعث إليه الرسل يطلب منهم أن يأخذوا بيعة عبد الله بن الزبير، وإلا يسوقوه مصفدًا بالسلاسل إلى الشام، إلا أن عبد الله بن الزبير رد على رسل يزيد قائلا: لا أبايع يزيد ولا أسافر معكم إلى الشام، وبناء على هذا عاد رسل يزيد خائبين ونقلوا ما حدث إلى يزيد.

ولم يقنع يزيد بمن بعثه من الرسل بل اختار سبعة من صناديد الشام ومعهم «نعمان بن بشير الأنصارى وعبد الله بن عِضَاه[1] الأشعرى» و«مسلم بن عقبة المزنى»، وبعثهم جميعا إلى عبد الله بن الزبير.

لقى رسل الشام عبد الله بن الزبير وبذلوا كل جهدهم ليأخذوا منه البيعة ليزيد، وعندما كانوا يلحون على أخذ البيعة منه، قال عبد الله بن الزبير مخاطبا نعمان بن بشير: من فينا أعلى مكانة بين قومه؟ أنا أم يزيد؟ والدى وعماتى وخالاتى أم والد يزيد وعماته وخالاته؟ وكان رد نعمان بن بشير: يا ابن الزبير إن والدك حضرة الزبير، ووالدتك ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر، وخالتك عائشة بنت الصديق، وعمة أبيك خديجة الكبرى، ومن هنا فمن جهة أقاربك وقبيلتك فأنت أعلى منزلة من يزيد، فقال له عبد الله: هل تستصوب بيعتى ليزيد وأنت تعرف كل هذا؟ فهل ترى أنه من المناسب أن أبايع يزيد؟ قال: لا أراه مناسبا وبهذا تمسك عبد الله بن الزبير برأيه ورفض البيعة ليزد رفضا باتا، وعاد رجال الشام خائبين. بينما كان رسل الشام فى طريقهم إلى بلادهم أخذ عبد الله بن الزبير بيعة أهل الحجاز وتهامة وضمهم فى صفه ما عدا «عبد الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر» وطرد ولاة يزيد وموظفيه من حدود أرض الحرمين الميمونة.

(١) الطبرى ٥/ ٤٧٦، ٤٩٠.

اطلع يزيد على ما حدث وأراد أن يؤدب أهالى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وأرسل جيشا تحت قيادة الخائن «مسلم بن عقبة المزنى» وزوده بتعليمات غير لائقة، إذ أمره أن يجرى مذبحة فى المدينة المنورة وينهب أموالهم، وبعد ذلك يتجه إلى مكة المكرمة حتى يقبض على ابن الزبير ولما كان مسلم عازما على تنفيذ أوامر سيده حرفيا تعلم من «عبد الملك» فن الدسائس والحيل وطبقه على أهل المدينة، وقتل منهم ستة آلاف أو أربعة آلاف بناء على قول آخر، ثم اتجه إلى مكة المكرمة وبعد مرور ثلاثة أيام من خروجه من المدينة ساء مزاجه ويئس من حياته.

استدعى بناء على الأمر الذى كان تلقاه من يزيد فى الشام «حصين بن نمير الكندى» وقال له: قد عينتك قائدا لهذا الجيش. يجب أن تصل إلى مكة وتعلن الحرب وتشعل نار القتال حتى تقبض على ابن الزبير. ولا تَقُلْ إن مكة بلد الله، كيف نحارب جيران بيت الله؟ بل من واجبنا أن نحترمهم ونرعاهم؟! بل بادر بنصب المجانيق على رءوس الجبال، وألق الحجارة على كعبة الله ناويًا تخريبها حتى تثير الفزع فى نفوس الناس وحاصرهم، وضيق عليهم سبل العيش، قال هذا وانحدرت روحه إلى جهنم وهلك عندما وصل إلى جبل مشلل.

حدثت وقعة المدينة المنورة المذكورة الأليمة سنة ٦٢ هجرية[1] الموافق ٢٨ من ذو الحجة وفى يوم الأربعاء، وكان عدد الذين نالوا ثواب الشهادة من أهل المدينة المهاجرين والأنصار ٧٠٠ شهيد وكان الباقى من التابعين والموالى.

قد تعرضت المدينة المنورة فى تلك الوقعة للنهب والسلب مدة ثلاثة أيام، وأكثر من ألف امرأة للاغتصاب على ما ينقله الرواة.

قد ذكرت بالتفصيل كيفية وقوع حادثة المدينة فى بحث وقعة الحرة وفى الصورة التاسعة من الوجهة الثالثة من مرآة المدينة فمن يرغب الاطلاع عليه الرجوع لهذا الكتاب.

(١) ويقول بعض المؤرخين أنها حدثت فى سنة ٦٤ هجرى.

قد نصب «حصين بن نمير» وفق الأوامر التى تلقاها من مسلم ـ الذى يناقض حقيقته اسمه ـ فى شهر المحرم من السنة المذكورة مجانيق فوق جبل أبى قبيس وجبل أحمر، وحاصر مكة أربعين يوما وقتل كثيرا من المسلمين وعذب أهل مكة، وضيق عليهم الخناق.

وفى هذه الفترة وصل خبر هلاك يزيد ـ الظاهر الشناعة ـ فاضطر حصين للعودة. دامت هذه الحرب والمحاصرة من اليوم الثالث والعشرين من شهر محرم إلى قرب غرة ربيع الآخر، واحترقت أستار الكعبة وسقفها وانشقت جدرانها وتحطمت من جراء النار التى سرت من الحجارة المحرقة التى انهالت عليها، كما احترق قرنا الكبش الذى أنزله الله من السماء لفداء إسماعيل، واللذان كانا معلقين على سطح الكعبة.

وقعت فاجعة احتراق الكعبة فى يوم السبت الثالث من ربيع الأول، إلا أن حصين بن نمير قد استمر فى الحرب إلى أن بلغه خبر وفاة يزيد. وقد عرف خبر وفاته بعد احتراق الكعبة بسبعة وعشرين يومًا. فترك مكة المكرمة فى ليلة الأحد اليوم الخامس من ربيع الآخر وقفل راجعا.

يروى أن هذا الحريق الهائل بدأ من احتراق خيمة، والمؤرخون الذين قبلوا هذه الرواية وضحوا الحادث بهذه الصورة: إن الشجعان الذين انضموا إلى عبد الله بن الزبير لجأوا إلى المسجد الحرام مأمن الإسلام، واحتموا بساحته ونصبوا خيامهم على جوانبه الأربعة، وكانت غايتهم من ذلك أن يحتموا بها كلما زادت حرارة الشمس وكلما ألقيت الحجارة من المجانيق.

وقد نصب حصين بن نمير المجانيق فوق جبل أبى قبيس وكذلك الجبل الأحمر، وكانت الحجارة الملفوفة بخرق مبللة بالزيت والملقاه على الكعبة لا تنقطع عن الانهمار.

قد داوم الشوام على إلقاء الأحجار إلى حد أن الأحجار التى أصابت البيت

الشريف مزقت كسوته إربا إربا، كما أن الأبنية المباركة تداعت وتهاوت وبدأت أحجارها تتساقط.

وفى يوم اشتدت برودته وعصفت رياحه تطايرت شرارة من نار إحدى الخيام فأحرقتها، وكانت الخيمة منصوبة بين باب الصفا والركن اليمانى، وانتقلت الشرارة إلى ستارة الكعبة الممزقة فأحرقتها، وانتقلت النار من الستارة إلى الأحزمة الخشبية التى تحيط بالكعبة فاحترقت، ومنها إلى حيطان الكعبة وتحول البيت إلى قطعة نار.

وبما أن البيت المعظم كان من المبانى المقدسة التى أقامتها قريش فكان قابلا للاحتراق؛ لأن القرشيين كانوا قد بنوا البيت من أساسه إلى سقفه جاعلين جدرانه طبقة من الحجارة وطبقة من حزام خشبى. وبينما كانت الأحزمة الخشبية لجدران الكعبة تحترق تحرك الحجر الأسود من مكانه فأراد عبد الله بن الزبير أن يثبته بإذابة فضة وصبها على جوانبه؛ إلا أن أركانه الأربعة كانت قد تكلست بشدة النار كما أن الركن الكائن فيه أصابه الوهن فلم يمكن عمل شىء.

وكانت جدران بيت الله حيثما يحط عليها الحمام تتفتت تحت تأثير سيقانه، مما حمل من يشاهده من المؤمنين على البكاء دما بدلا من الدموع، وفى النهاية مضت جماعة من القرشيين[1]. وبنى أمية إلى حصين بن نمير وأخبروه أن الحجارة التى رماها قد خربت الكعبة المعظمة؛ إلا أنه أنكر أن يكون قد خرب الكعبة، وفى هذا الوقت بلغه نعى يزيد فكف عن الحرب والحصار وسحب جنده وعاد إلى الشام.

(١) كان عبد الله بن خالد بن أسد القرشى منهم.

جمع عبد الله بن الزبير الأعيان وعظماء الناس من مكة عقب الحرب، وذكرهم بأنه يأمل أن يعالج ما تهدم من أبنية الكعبة ويجددها ـ كما ذكرهم بحديث بانى أركان الشريعة الرصينة عليه أكمل التحية إذ قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ «يا عائشة لو لم يكن قومك قريبى العهد بالجاهلية لهدمت أبنية بيت الله وجعلت للبيت بابين يفتح أحدهما على الشرق والآخر على الغرب، وأدخلت إلى بيت الله من الحجر مقدارا ما طوله ستة أذرع أى ثمانية أقدام» (حديث شريف) وبما أن مال قريش الحلال لم يكف لإدخال الحجر فى البناء عند ذلك الوقت تركوه خارج البيت، ثم قال لها تعال أريك الجزء الذى أبقوه خارج البيت ثم أخذها إلى تحت الميزاب وقال: هذا هو المكان وأشار إلى مكان حجر إسماعيل ما مقداره سبعة أذرع أى ٩ أقدام و١١ بوصة، ثم قال عبد الله للمجتمعين إنما أردت أن أبين لكم أن النبى ـ ﷺ ـ أجاز تجديد الكعبة، وفى نفس الوقت أردت أن أبحث الموضوع معكم و أستشيركم. وكلكم تعرفون أن الحجر الأسود[1] قد تحطم من أثر ضربة بحجارة حصين النارية وألصق بالفضة المذابة، كما أخذت حجارة جدران كعبة الله تتساقط من جميع الجهات.

وبهذه الكلمات البليغة ابتدأ عبد الله باستفسار رأى عظماء الحاضرين ثم أخرج الحجر الأسود من مكانه ووضعه فى صندوق بعد أن لفه فى قطعة من الديباج، وأغلق الصندوق بقفل وحفظه فى دار الندوة، كما أمر أن تحفظ الهدايا الموجودة فى خزانة الكعبة فى دار شيبة بن عثمان.

(١) تحطم الحجر الأسود ثلاث قطع، أخذ بنو شيبان قطعة ليحفظوها عندهم ثم استردها عبد الله منهم، والصقها بالقطعتين الأخريين ثم عالج أطراف الحجارة بمادة تشبه الجبس ليحافظ على تماسكها هى والقطعة الثالثة التى الصقت فى الجهة العليا من الحجر الأسود الآن.

اجتمع أعيان الأشراف و وجهاءُهم عند ابن الزبير ووافق بعضهم[1] رأيه وخالفه البعض الآخر[2]، غير أن ابن الزبير لم يلق بالا إلى رأى المخالفين، واستقر رأيه على تنفيذ ما فى ضميره.

وخاف أهالى مكة من هدم كعبة الله وهربوا إلى قمم الجبال، وأظهر عمال البناء استياءهم من هدم الكعبة بالتراخى فى العمل. ولما رأى عبد الله بن الزبير ذلك جعل بعض عبيده الحبشيين ذوى السيقان الرفيعة يصعدون فوق الكعبة مبطلا الحكم الحديث الذى يحفظه عن النبى ـ ﷺ ـ «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة».

وبدأ فى هدم البناء يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخر من السنة المذكورة، وأراد أن يحضر من اليمن نوعا من المادة المستخرجة من الزعفران ليخلطها بالمونة اللازمة لبناء البيت، ولكن بناء على اعتراض بعض أهل التخصص بأن هذه المادة تحول دون تحجر المونة انصرف عنها، واستحضر من صنعاء اليمن كلس بأربعمائة دينار. وحتى لا يمنع الطائفين من الطواف فى أثناء عمليات البناء. وبناء على إخطار عبد الله بن عباس أحاط البيت بسور خشبى، وغطى السور بستارة من القماش وهدم أبنية البيت حتى وصل إلى أساس إبراهيم القديم، وكان قد حفظ الحجر الأسود بعد أن وضعه فى صندوق فى دار الندوة.

وشرع فى بناء جدران الكعبة وفق ما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر أعلاه على أسس بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، الذى عثر عليه وأدخل حجر إسماعيل داخل كعبة الله دون أن يراعى قواعد قريش فى البناء، وفتح بابا عرضه ثلاثة أذرع أى ٤ أقدام و١١ بوصة فى الجهة الغربية أيضا بلغ ارتفاع الجدران إلى ثمانية وعشرين ذراعا أى ٣٨ قدم و٣ بوصات، وجعل سمك الجدران ذراعين

(١) من الأصحاب الكرام الذين وافقوا على تجديد البيت جابر بن عبد الله بن عمير وعبد الله بن صفوان.

(٢) وكان عبد الله بن عباس موافقًا على فكرة تجديد البناء؛ إلا أنه خالف عبد الله بن الزبير فى الرأى حتى لا يتخذ الملوك هدم البيت وبنائه عادة لهم.

أى قدمين وعشر بوصات. إن ارتفاع الكعبة التى بناها إبراهيم ـ عليه السلام ـ يصل لستة أذرع وارتفاع كعبة قريش (١٨) ذراعا، حتى قال ابن الزبير إن قريش أضافت (٩) أذرع على ارتفاع كعبة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وإن أضفت (٩) أذرع على بنائهم فأصبح ارتفاع الكعبة (٢٧) ذراعا.

قد فرش ابن الزبير عشرة أذرع من الساحة التى حول المطاف بالحجارة التى بقيت من بناء الكعبة، وزين الكعبة الشريفة بتعليق كسوة مزينة، وطيب خارج الكعبة وداخلها بالعود والعنبر والمسك وبخرها كما غطى العمودين المسميان بالحنان والمنان بصفائح من الذهب، كما صنع مفتاحًا من الذهب لباب كعبة الله المسمى بالمعلا سنة ٦٤هـ.

عندما حفر الأسس التى لم تندرس إلى عهد سيدنا إبراهيم، وعمّق ظهر فى الحفر حجارة لامعة وأراد أن يستخرج هذه الحجارة وضرب ضربة شديدة بفأس، وعند ذلك اهتزت أركان الكعبة الأربعة من أثر الضربة واستولى قلق على أهل مكة وندم الذين وافقوا عبد الله بن الزبير فى تجديد الكعبة.

ولم يتأثر عبد الله بن الزبير من قلق الناس قيد أنملة، واستدعى عبد الله[١] الصحابة الأجلاء وأراهم قواعد إبراهيم ثم أمر بطرح الأساس، وأنزل عتبة الباب الشرقى حتى أرض المطاف كما أنزل عتبة باب المعلا الجديد فى الناحية الغربية حتى الحجر الأخضر المتصل بالفسقية الكائنة فى الجهة الغربية.

وكان الحجر الأسود قد ظل فى الحريق الذى حدث فى عهد قريش، وتجزأ وظل أحد أجزائه محفوظا عند أحد الأشخاص من بنى شيبة، وعندما أراد عبد الله بن الزبير أن يضع الحجر الأسود فى الصندوق أخذ الجزء الذى عند ذلك الشخص وألصقه بالحجر الأسود مستخدما الفضة[٢] ثم حفظه، وعندما أراد أن

(١) كان عبد الله بالطبع من بين الموجودين وحينما أخذ فأسا وضرب الحجارة اللامعة اهتزت أركان الكعبة الأربعة كما اهتزت أسس محلات مكة المكرمة ومنازلها.

(٢) حينما حج هارون الرشيد رأى أن الفضة المذكورة قد وهت؛ لذلك أمر أن يثقب الحجر من فوقه وتحته، وصب فى الثقب فضة مذابة وهكذا قوى الحجر.

يضعه فى مكانه الذى فى بيت العزة استدعى ابنه عباد وجبير بن شيبة بن عثمان، وقال لهما بينما أنا أصلى صلاة الظهر اذهبا إلى دار الندوة وخذا الحجر الأسود منها وضعاه فى مكانه، وكبرا بعد أن تستراه قال هذا وأم الناس ليصلى صلاة الظهر.

قد تشاور عباد وجبير بن شيبة بن عثمان ثم وضعا الحجر الأسود على طرفى الستارة الخشبية الكائنة بين كعبة الله ودار الندوة، وأحاط بهم الناس من الطرفين ثم وضع الحجر الأسود على ثوب طاهر فى شكل ظاهر، ومرا من بين الناس ووضعا الحجر الأسود فى مكانه وغطاه، ثم كبرا مبشرين باستقرار الحجر فى مكانه. وقد وضع الحجر الشريف فى مكانه حضرة عباد، وساعده فى ذلك جبير بن شيبة.

وقال عظماء قريش بعد أن فرغوا من أداء الصلاة، وقد عرفوا أن الحجر الأسود قد وضع مكانه إن قريشا عندما أرادت أن تضع الحجر الأسود فى مكانه تنازعت عدة أيام، وكادت تدخل مع بعضها البعض فى الحرب والقتال بعدما استمر القيل و القال فيما بينها عدة أيام فأتى الرسول ـ ﷺ ـ، وحسم النزاع بعون رؤساء القبائل الأربعة؛ وهل من اللائق ألا يتبع عبد الله بن الزبير هذه الطريقة ويرعاها؟! وقد أرادوا بهذا أن يثيروا الفتنة بين سكان مكة إلا أنهم لم يجدوا من يقف بجانبهم فاضطرو للسكوت.

وقد تم تجديد البيت فى يوم الثلاثاء فى الثالث من شهر رجب أو السابع والعشرين منه من العام الرابع والستين من الهجرة، وعندما انتهى العمل تماما فى البيت ذهب عبد الله بن الزبير مع جميع أهل مكة إلى التنعيم لأداء العمرة، ونحر مائة رأس من الجمال كذلك ذبح كل واحد منهم ما معه من قرابين كل على حسب قدرته وهكذا جعل اليوم مبتهجا كالعيد.

وتعرف هذه العمرة بعمرة الأكمة أو العمرة الرجبية بين أهالى مكة، وكان

المكيون إلى وقت قريب يذهبون إلى التنعيم بنية العمرة ويذبحون القرابين، ويظلون فى المشهد[1] عدة ليال يفرحون ويبتهجون. وفى وقتنا هذا أيضا يذهب الناس إلى تلك الجهات للاحتفال إلا أنهم لا يسمونه العمرة الرجبية. وليس الآن من العادة أن يخرج للعمرة وتذبح القرابين فى اليوم السابع والعشرين من رجب.

وفى الواقع يخرج الناس إلى ذلك المكان فى كل عام للتمشية والاحتفال إلا أنه يحدث فى الأيام الأخيرة من شهر صفر الخير، وإن هذه الاحتفالات ذات شهرة وبهجة إلا أن الأهالى يذهبون إلى مكان يسمى سرف حيث دفنت زوجة النبى ـ ﷺ ـ ميمونة ـ رضى الله عنها ـ، ويقومون بأداء مراسم الزيارة لقبرها ويقضون هناك ما يقرب من ليلتين ثم يعودون إلى أرض الصحراء الزاهرة[2]، ويمضون فيها فترة من الزمن وأن هذا الاحتفال بمثابة عمرة الأكمة.

* * *

(١) هذا المكان هو المقبرة التى دفن فيها عبد الله بن عمر وهو فى طريق العمرة.

(٢) بناء على رواية أن عبد الله بن عمر مدفون فى هذا المكان، وقبره مزار للناس.

في تجديد مباني الكعبة المقدسة للمرة العاشرة

جدد الحجاج الظالم البيت الشريف للمرة العاشرة أيضًا. أنه لم يلمس الجدران الأربعة كلها، ولكنه جدد الجدار الكائن في جهة الميزاب تاركا حجر إسماعيل خارج الكعبة، وملأ الكعبة بالتراب المتبقي من البناء وأعلى باب الكعبة عن الأرض، وأغلق الباب الذي فتحه عبد الله بن الزبير في الجهة الغربية بناء على ما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره. وكان سبب ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يريد أن يحمل عبد الله بن الزبير على بيعته.

وقد وقعت هذه الحادثة بعد واقعة حصين بن نمير بعشر سنوات؛ لأن عبد الملك الذي كان يحكم في بلاد الشام ويريد أن يجدد وسيلة للحصول على بيعة عبد الله بن الزبير، لذا بعث حجاج بن يوسف الثقفي إلى أراضي الحجاز الطاهرة ومعه ثلاثة آلاف من جنود الشام، وأمره ألا يؤذي المذكور وأتباعه إذا ما بايعه بالخلافة.

وقد حاصر الحجاج بمن تحت قيادته السوداء من جنود الحقد كعبة الله ما يقرب من سبعة أشهر، وأخذ يتبع مع ابن الزبير ألاعيب الحرب والقتال وقد أضر في أثناء هذه المدة الطويلة بيت الله الحرام وأصابه، وفي النهاية قتل ابن الزبير وترك جسده الأسعد مصلوبا منتظرا الأوامر من الشام.

وكان من المستحيل أن ينتصر الحجاج على عبد الله بن الزبير إذا لم يصله مدد من الشام؛ لأن الشهيد كان قد عرف أن الحجاج الظالم قد خرج من الشام، وأنه قد نصب له الخيام في الطائف لإيواء جنوده لذلك ساق إليهم مقدارا كافيا من الجنود من الشجعان وحاربهم؛ ولكنه عاد منهزما وقد عجز عن المقاومة.

وإن كانت الهزيمة في الظاهر في ناحية عبد الله بن الزبير؛ إلا أن جنود الشام

أيضا قد تضرروا ضررا شديدا، وفهم جيدا أن عودة عبد الله بن الزبير بمدد قليل من الجنود سيؤدي إلى انتصارهم لذا كتب الحجاج إلى عبد الملك ينبئه بأنه قد انتصر على عبد الله بن الزبير، إلا أن عساكره أيضا قد ضعفوا أشد الضعف وطلب منه أن يبعث له بمدد حتى ينتصر على عبد الله، فما كان من عبد الملك إلا ابتدأ بإرسال المدد.

واستصحب الحجاج القوة الاحتياطي التي أرسلت له من الشام، وعجل بحصار مكة المكرمة قبل أن يجمع ابن الزبير القوة اللازمة.

وانتوى ألا يقارب النساء وألا يتعطر وألا يترك السلاح قبل أن يقتل عبد الله ابن الزبير، وبناء على هذه النية نصب المنجنيق فوق قمم جبل أبى قبيس في السنة الثانية والسبعين من الهجرة، وضيق على أهل مكة الخناق حتى أصبح من المستحيل الدخول إلى أرض المطاف من جراء تساقط الأحجار.

وقد وجد في هذه الفترة عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ في مكة المكرمة بنية الحج وقد تأثر من هذه الحرب أشد التأثر، وأرسل إلى الحجاج الظالم يقول له: «يا حجاج إذا كنت تخاف من الله، فلا تلق الحجارة على المسجد الحرام. إن موسم الحج من الشهور المحرمة، قد اندهش الصلحاء من الأمة الذين أتوا لأداء فريضة الحج من هذه الوقعة، وقد أصبح من المستحيل الدخول إلى ساحة المطاف من جراء الحجارة التي تلقيها، على الأقل اترك الحرب والقتال إلى ما بعد العيد حتى يسقط عن الناس فريضة الحج»، وبناء على هذا الطلب كف الحجاج عن الحرب والقتال، وأرجأهما إلى ما بعد انتهاء الحجاج من أداء نسكهم، وطلب من الحجاج أن يعودوا إلى بلادهم في الوقت الذي حدده، ثم شرع في الحرب مرة أخرى. وأهان كعبة الله بما أمطر عليها من الحجارة.

حادثة غريبة:

بينما ابتدر الحجاج الغادر في إلقاء الحجارة على الساحة السعيدة الحرام ظهرت على وجه السماء سحابة سوداء مظلمة، وقد غطى الأقطار الحجازية ظلام دامس

وسمعت أصوات الرعد والبرق، واستولى على قلوب المخالفين الخوف والخشية.

وحينما رأى حشرات الأعداء هذه العلامات المخيفة تركوا ميدان القتال وأخذوا يبحثون عن مكان يختبئون فيه. ولكن الحجاج المهين للدين خاطب جنوده قائلا: ما الدافع لخوفكم وقلقكم؟ حتى هرب كل واحد منكم إلى جهة إذا كنتم خفتم من أصوات الرعد والبرق فإن هذه ليست أشياء تدعو للقلق والخوف، إنني نَمَوْتُ في هذه البلاد ولا تنقطع الصواعق والبرق منها، قال هذا ثم ذهب بنفسه إلى المنجنيق وتجرأ على أن يلقي الحجارة صوب كعبة الله من البقعة المقدسة.

وينقل من المصادر الموثوقة أنه حينما أخذت أستار كعبة الله تحترق متوهجة من جراء الأحجار المحترقة التي أمر الحجاج بإلقائها على الكعبة الشريفة، ظهرت سحابة من ناحية جدة ذات صواعق، وبروق أخافت جند الشام، وتقدمت هذه السحابة حتى وقفت فوق سقف بيت الله وأخذت تمطر بشدة حتى أطفأت أماكن كعبة الله المحترقة. إن السحابة المذكورة كانت فوق سقف بيت الله فقط، ولم تقع قطرة من المطر خارج المسجد الحرام وخارج المطاف، ومع هذا سالت سيول شديدة من الميزاب الذهبي ساعات وساعات، سيول قد تجرف الإنسان.

وفي أثناء ذلك أصابت الصاعقة المنجنيق الذي نصبه الحجاج الظالم فوق جبل أبى قبيس وأحرقته مع أربعة من جنود الشام، فأعد الحجاج منجنيقا آخر وكلف أربعين نفرا من الجنود بإلقاء الحجر وكان جزاؤهم أن أحرقتهم الصاعقة الثانية فهبطت أرواحهم إلى جهنم وبئس القرار.

وهذا الحال لم يجعل الحجاج ينتبه ويندم على كل ما حدث بل ثار وغضب وهدد جنوده وبهذا اشتد القتال ونسى جنود الشام ما حدث.

وبعد هذه الحادثة الغريبة أصيب اثنا عشر نفرا من جنود الشام وهلكوا. وسفاكو الدماء الذين رأوا هذا انزعجوا بشدة، وأخذ جنود الشام يهربون من

جانب المنجنيق وقد أصابهم الفزع، إلا أن موت بعض أهل مكة بالصواعق أيضا أعطى فرصة للحجاج الظالم أن يخاطب جنوده. قائلا: الحق معكم وليس مع أهل مكة إن العلامات المهيبة الخاصة بأراضي الحجاز زالت فاصبروا قليلا.

وقد أدى خطاب الحجاج هذا إلى اشتداد القتال، ومد الصراع وزاد القحط والغلاء في مكة مما جعل المكيين يسأمون من أرواحهم، فالتجأ أغلبهم إلى الحجاج طالبين الأمان وترك بعضهم عبد الله بن الزبير متجهين إلى المدينة المنورة.

ولم يكن أهل مكة فقط ممن تخلوا عن عبد الله بن الزبير في محنته، ولكن ابنيه حمزة وحبيب وهما من صلبه تخليا عنه، ولجأ كلاهما إلى السفاح الحجاج مبايعين وتركا والدهما بمفرده؛ ولكن ابنه المسمى بالزبير ظل في عون أبيه ولم يفترق عنه.

وذهب عبد الله بن الزبير إلى أمه إذ رأى أصحابه قد افترقوا من حوله كفرخ الحجل، وقابل والدته ذات النطاقين وقال لها: يا أماه إن أتباعي الذين كانونا معي خانوني كما خان أهالى الكوفة أتباع الحسين بن على ـ رضي الله عنه ـ سيدهم. ومع هذا ظل أولاده بجانبه، ولكن أولادي قد خانوني إذ انضموا إلى الحجاج مبايعين وتركوني بمفردي، إن ذلك الظالم الذي لا يستحيي يبعث لي رسائل واحدة تلو أخرى قائلا: إذا تركت مخالفتي أقبل جميع مطالبك.

فما رأيك في هذا الخصوص فقالت له: يا بني لا يليق بك بعد كل هذه الحروب أن تسلم نفسك إلى يدي بني أمية. إنك رجل مسن، كم سيطول عمرك؟ وخير لك أن تستشهد ببطولة من أن تعيش في صحراء المذلة والاحتقار، فلما سمع منها هذا الرد ودعها، وقضى ليله حتى الصباح في داخل الكعبة متعبدا متضرعا وبعدما أدى صلاة الفجر أخذ معه بعض الفتيان الذين قرب أجلهم، وأخذيقاتل ويهلك في كل هجمة عدو الله وهكذا أخرج جند الشام الموجودين في داخل المسجد الحرام ثم خرج من باب الصفا واتجه صوب جبل أبي قبيس.

وبينما كان عبد الله متجها إلى جبل أبي قبيس تبعه أحد أنجاس الشام، ورماه بيده الحقيرة بحجارة وأوقع ذلك البطل أسد الوغى على الأرض، كما تقدم أحد الأنجاس المنكرين وقطع تاج الرءوس ومضى به إلى الحجاج الظالم.

قد سر الحجاج قليل الأدب أيما سرور وسجد شاكرا حامدا وكله فخر وسرور ثم أرسل رأسه الشريف مع رءوس الرؤساء الآخرين من أهل مكة، وصلب جثته الموعودة بالغفران، وأمر ألا تنزل حتى ترجو ذلك أمه أسماء ذات النطاقين.

حينما سمعت ذات النطاقين ذلك الأمر قررت ألا تذل نفسها برجاء الحجاج، ولكنها مرت بالصدفة من جانب المكان الذي كان مصلوبا فيه، وقالت أما آن لهذا الفارس أن يترجل!؟ وعند ما سمع الحجاج السفاح هذا القول أوله بالرجاء، وأمر أن تنزل جثة الشهيد المظلوم من مصلبها. ودفنت في مقبرة الحجون صنوان الجنة في جمال منظرها.

ويقول بعض المؤرخين إذ يروون هذا الخبر بشكل آخر. إن أم الزبير ذات النطاقين لم تتذلل إلى الحجاج طالبة منه إنزال ابنها من مصلبه، وكذلك لم تقل أما آن لهذا الفارس أن يترجل. وقد أنزلت جثة عبد الله من مصلبه بأمر وارد من عبد الملك. وكان عبد الملك يعرف مدى عداوة الحجاج لابن الزبير وقد بلغه أن الحجاج يصر على إبقاء جثة عبد الله على المصلب؛ لذا بعث برسول إلى الحجاج يأمره أمراً قاطعًا بإنزال جثة الشهيد، وقد أنزلت جثته بعد أربعين يوما من تاريخ صلبها، وسلمت إلى أمه ذات النطاقين التي ابتدرت بتجهيزها وتكفينها ودفنت في مقبرة المعلا. وبناء على هذا قد مضي أربعون يوما بين استشهاد ابن الزبير ودفنه، وظلت جثته مصلوبة أربعين ويومًا.

قد كبر جموع جند الشام حينما بلغهم استشهاد عبد الله بن الزبير من فم واحد، مظهرين فرحهم وسرورهم، وحينما بلغ الخبر إلى أسماء ذات النطاقين التي كانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها، قالت بعد ما استرجعت الآية الجليلة: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٥٦) ما هذه الحال؟! وما أعجبه؟! إذا كان

الصحابة الكرام قد كبروا عند ولادة عبد الله، وفي يوم وفاته أظهر أعداؤه ذوي الخاتمة السوداء فرحهم وسرورهم مكبرين.

وقد أظهر عبد الله بن عمر عجبه وقال مشيرا إلى جند الشام: إنني أتعجب من هؤلاء الناس. إذ يكبرون فرحين مسرورين من فم واحد بمقتل عبد الله بن الزبير، بينما كان الصحابة الكرام قد كبروا وهللوا فرحين بولادته.

إن تعجب عبد الله بن عمر في مكانه، لأن عبد الله بن الزبير كان قد ولد بعد الهجرة النبوية بعشرين شهرا، وكان اليهود يقولون: إننا قد سحرنا المسلمين فإنهم لن ينجبوا ذكورا بعد الآن، وكان هدفهم من هذا تصديع صف المسلمين وإيذاءهم، فلما ولد عبد الله بن الزبير فرح المهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ واحتفلوا بولادته أيما احتفال وهكذا خاب اليهود وانزعجوا.

استدعى الحجاج عقب استشهاد عبد الله بن الزبير أمه ذات النطاقين، ولما لم تذهب إليه زارها في بيتها وقال لها: كيف وجدتني وقد قتلت ابنك عبد الله؟! قالت له: «إنك قد أفسدت لابني دنياه وأفسدت لنفسك آخرتك. وكان الرسول الأكرم ـ ﷺ ـ قد أخبرنا بظهور كذاب ومهلك في بني ثقيف، وقد عرفنا الكذاب وهو المختار الثقفي أما المهلك فهو أنت».

ترجمة حال ابن الزبير:

عبد الله بن الزبير[1] هو حفيد العوام أخو السيدة «خديجة بنت خويلد» ـ رضي الله عنها ـ زوج النبى ـ ﷺ ـ أم المسلمين، وابن «أسماء بنت أبي بكر» الصديق ـ رضي الله عنه ـ هو وأبوه من زمرة صحابة الرسول ـ ﷺ ـ السعداء وعندما ولد افتتح حياته بريق النبي ـ ﷺ ـ الذي يبعث الحياة وسمي باسم عبد الله المبارك الذي يشرف الناس.

وكان طيلة عمره حريصا على إحياء لياليه بالعبادة، وكان متصفا بالزهد والتقوى والعفة والشجاعة وعزة النفس والشهامة، وكان قد قسم ليالي عمره إلى ثلاثة أقسام: إذ حصر ليلة من لياليه للقيام والأخرى للركوع والثالثة للسجود.

(١) انظر ترجمته في الإصابة ٤/ ٦٩ ـ ٧١، المعارف (٢٢٤ ـ ٢٢٦)، تاريخ الطبرى ٥/ ٦٢٢، ٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥، ١٨٧ ـ ١٩٣، وغيرها..

وقال ابن أبي مليكة يصف صلابة عبد الله بن الزبير في دينه :ـ بينما كان عبد الله بن الزبير يؤدي الصلاة ـ في يوم من أيام المحاصرة إذ مر حجر من بين لحيته المباركة وصدره إلا أنه لم يستمر فقط في صلاته ولكنه لم يتأثر أدنى تأثر في مراعاة التعديل في ركوعه وسجوده في خشوع وخضوع، وأدى صلاته دون أن يستعجل كما كان يؤديها في الأوقات العادية. ثم استمر في قوله قائلا: إنني أقسم بما أن جلد ابن الزبير اختلط بلحمه، كما أن لحمه امتزج بأعصابه، وأن أعصابه قد تألفت بعظامه كان قوي البنية، كما أن نفسه وروحه بين جنبيه اختلطتا بأعضاء جسمه فكان قوي القلب، وخلاصة القول إنه كان شخصا نادر المثال في الشجاعة وقد روى عن النبي ـ ﷺ ـ اثنين وثلاثين حديثا ونال شرف أن يكون رديف النبي ـ ﷺ ـ في مطيته.

قد طهر الحجاج القذر ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الإلهية ـ بعدما قتل عبد الله بن الزبير ـ من الحجارة التي ألقاها ومن الدماء التى أسالها، وكتب إلى عبد الملك يخبره أن عبد الله بن الزبير قد بنى الكعبة مغايرًا لبناء قريش، وفضلا عن ذلك فتح بابا زائدا في الجهة الغربية من الكعبة.

ومن هنا وجب علينا أن نغير أساس البقعة المقدسة. وقد تلقى ردا من عبد الملك[1] وبناء على تعليماته قد هدم الجدار الموجود في الناحية الشامية، وترك في ناحية حجر إسماعيل ما مقداره ستة أذرع إلى تسعة أقدام وإحدي عشرة بوصة خارج البيت، وسد الباب الموجود في الجهة الغربية وجدد الجدار الذي هدمه في الجهة الشامية وفق ما بنته قريش. إن المكان الذي تركه الحجاج خارج البيت هو ما يطلق عليه اليوم حجر إسماعيل، وكانت قريش تترك حجر إسماعيل خارج البيت لأنهم كانوا يعانون من أزمة مالية في ذلك الوقت إلا أنهم كانوا قد بنوا حوله جدارا مستديرا[2] في ارتفاع ذراعين أي قدمان وعشر بوصات.

وقد أراد عبد الله بن الزبير أن يبني الكعبة عند تجديدها وفق الحديث الذي

(١) الطبرى ٦/ ١٩٥

(٢) يطلق على هذا الحائط الآن الحطيم.

ذكرناه فيما قبل، وأعادها على أسس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولقد بذل في سبيل ذلك نقوداً كثيرة.

ولكن الحجاج بإعادته الكعبة على حالتها القديمة كما بنتها قريش بسد بابها الغربى أسرع بإعلان ما كان يكن لعبد الله بن الزبير من عداء.

مطالعة:

قد نتج عن تغيير عبد الملك لأسس كعبة الله بدون أن تكون هناك ضرورة لذلك بإشعار من الحجاج الظالم وأعوانه زوال سلطنة أمراء بني أمية، وظهور قوة بني عباس بن عبد المطلب وإشراق شمس دولتهم، وهكذا تبدلت أصول الخلافة من الإمارة المعصومة وأفل وانخسف بدر الحكومة الأموية، وانتقلت مقاليد أمور المسلمين إلى آل عباس فيما بعد. إن أول خلفاء بغداد أبو العباس السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وآخرهم المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله منصور بن الظاهر وهم من سلالة العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

قد اعتلى عبد الله السفاح كرسي الخلافة في سنة اثنين ومائة الهجرية وفى شهر ربيع الأول وبعد ٥٢٤ سنة استولى هولاكو على بغداد وقتل المستعصم وبهذا بلغت الخلافة العباسية منتهاها في سنة ٦٥٦ الهجرية.

ونقلت الخلافة العباسية بعد قتل المستعصم وفي عهده إلى القاهرة بمصر فقد بايع المصريون في عهد صلاح الدين الأيوبي بموافقة العلماء الناصر لدين الله العباسي خليفة.

وقد حكم في بغداد مع عبد الله سبعة وثلاثون خليفة ومع الذين حكموا في مصر بلغ عددهم ثمانية وأربعين خليفة إلى انقراضهم. وبعد بلوغ خلافة العباسيين في مصر إلى ٢٦٤ سنة، وفي سنة ٩٢١ الهجرية سلم الخليفة العباسى عبد الرحيم الأمانات النبوية السنية التي كانت شعار الخليفة ومنصب

الخلافة الخطير إلى السلطان سليم خان، وابتداء من هذا التاريخ أطلق على سلاطين آل عثمان العدول لقب الخليفة.

تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والمملكة بالإجمال

الخلافة فريضة دينية خطيرة وأمر شرعي واجب، تقوم برعاية أعمال المسلمين الدينية والدنيوية وتسوية احتياجاتهم المادية والمعنوية. والخلافة منحصرة في الأشخاص الذين بويعوا بإجماع الأمة بعد الأنبياء العظام ـ على رسولنا وعليهم الصلاة والسلام ـ. وبما أن الخلافة رئاسة عليا وجامعة لأمور الدين والدنيا فهي أعلى المناصب وأعظمها التي يختص بها الملوك والسلاطين.

قد أطلق على الصديق الأكبر ـ رضي الله عنه ـ خليفة رسول الله، كما أطلق على الفاروق الأعظم ـ رضي الله عنه ـ خليفة خليفة رسول الله، ثم أطلق عليه أمير المؤمنين[1] تخلصا من تتابع الإضافات الثقيلة.

إن الصحابي الجليل أبو موسى الأشعر هو أول من خاطب الفاروق عمر بلقب أمير المؤمنين: أو مغيرة بن شعبة أو عمرو بن العاص[2].

إن الخلفاء العباسيين الذين تولوا عرش الخلافة في بغداد جنة الخلد قد اتخذوا ألقابا مثل المنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمعتز و المعتضد والمتقدر، وكان غرضهم من ذلك تقليد الصحابة الكرام الذين لقبوا بالصديق والفاروق والمرتضى، كما أريد به ألا يذكروا بين الناس بأسمائهم كثيرا.

(١) كان أحد الرسل المبشرين بالنصر سببا في إطلاق لقب أمير المؤمنين على عمر بن الخطاب؛ إذ بعث إليه أحد قواده بعد انتصاره في إحدى المعارك رسولا يبشره بالنصر، ويعرض عليه الأمور فلما جاء الرسول أخذ يسأل الناس قائلا: أين أمير المؤمنين فاستحسن الصحابة الكرام هذا اللقب وأخذوا يخاطبون به الخليفة.

(٢) يروى أن هذا اللقب قد أعطى لعبد الله بن جحش المجدع بالله من قبل رسول الله ـ ﷺ ـ حينما بعثه إلى مكان معين في مهمة خاصة.

كما اتخذ العبيديون والموحدون وخلفاء بنى أمية الذين حكموا فى الأندلس ألقابا خاصة مقلدين خلفاء بنى عباس، إلا أن هذه الألقاب قد دعت الناس للنفرة منهم كما تبين ذلك هذه الأبيات التى أنشدها ابن رشيق القيروانى:

ومما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاضًا صولة الأسد

بما أن الخلفاء العباسيين من السلالة الطاهرة القرشية فصحة خلافتهم محققة، كما أن الخلفاء العثمانيين ـ أيدهم الله تعالى ـ بالتأييدات الربانية يسيرون وفق سيرة الخلفاء الراشدين الحسنة، وبما أن كل همهم المحافظة على الأحكام الشرعية وينتمون إلى أهل السنة فهم أحق من جميع الملوك الآخرين بالاتصاف بلقب الخليفة.

السلطان: لقب أقل رتبة من الخلافة الجليلة وله معنيان: لغوىٌّ، واصطلاحىٌّ.

فمعناه اللغوى: تسوية الأمور المتعلقة بالخلافة والحكم بصورة الاستبداد.

وأما معناه الاصطلاحى: فأن يصبح الإنسان صاحب ملك أو إدارة أمور الدولة بقطع النظر عن الخلافة.

وعلى هذا التقدير يصح أن يطلق على الخليفة سلطانا ولكن ليس كل سلطان خليفة.

قد أطلق لقب السلطان على جعفر بن يحيى البرمكى وإشنان التركى وكان خلفاء الدولة العباسية وملوك الفرنجة والأيوبيون يطلقون على الأمراء والملوك الذين يعينونهم لقب السلطان. كما كانوا يطلقون عليهم ألقابا خاصة مثل: أمين الدولة، أمير المسلمين، أمين الملة.

يجب على من يريد أن يكون سلطانا أن يكون تحت تصرفه وإدارته إقليمٌ كبيرٌ، **والملك** ـ لقب أقل درجة وأدنى من السلطان،

الأمير- يطلق هذا الاسم فى اللغة التركية باللهجة الچغتائية على خاقان وفى الفارسية على شاهنشاه أى ملك الملوك.

الخان، الشاه، الميرزا ألقاب خاصة بالملوك والسلاطين العثمانيين يحملون جميع هذه الألقاب.

وقد أخذ سلاطين العثمانيين لقبى خان وخاقان عند ظهور دولتهم من الملوك الأتراك الذين أخذت دولتهم تنقرض وأخذوا لقب السلطان من سلاطين الدول الإسلامية السابقة لعهدهم حتى أن السلطان بايزيد خان قد جعل الخليفة العباسى بمصر المتوكل بالله العباسى يعترف بسلطنته.

شاهنشاه- لقب خاص بملوك الدولة الصفوية والأذربيجانية إلا أنه انتقل إلى السلاطين العثمانيين بعد انتصار السلطان سليم على الصفويين فى سنة ٩٢١هـ وبما أن السلاطين العثمانيين قد حملوا لقب الخليفة أيضًا كان نصيب ملوك خوارزم وبخارى وبهوبال وعزلهم يتم بأمر السلاطين العثمانيين وإدارتهم.

حكام أوربا:

يستعمل الأوربيون لقب **إمبراطور** بدلا من لقب السلطان ولقب **الملك** مكان خان وشاه، لقب **دوق** بدلا من بك،

ميرزا تعنى أمير.

وبما أن لقب إمبراطور لم يكن مستعملا فى الأول كان يطلق على حكام أوربا لقب الملك.

وقد استبدَّ الملوك برعاياهم وزاد ظلمهم لهم شيئا فشيئا حتى تجاوز حد الصبر والتحمل فثار الناس وبدلوا الحكم الاستبدادى المطلق إلى الجمهورية واختاروا شخصا يطلق عليه **قيصر** واتخذوه رئيسا لهم.

وتعهد قيصر برضا الأهالى ورأيهم أن يقوم بإدارة الأمور العسكرية والمدنية

وكشف قيصر ما فى ضميره إذ طلب بعض الامتيازات إلا أنه لم ينل غرضه بهذه الطريقة فاتفق مع فرقة عسكرية واستولى عنوة على بلدة روما الكبيرة فى سنة ٤٩ قبل الميلاد واتخذ لنفسه لقب إمبراطور الذى يعنى القائد وانتصر على جميع معارضيه من أصحاب المناصب العالية، وهكذا استقل وحصل على الامتيازات التى كان يطالب بها وسك عملة خاصة به ومنذ ذلك العهد يطلق إمبراطور على جميع الملوك والحكام الذين يوسعون ملكهم ويزيدون قوتهم.

* * *

فى ذكر كيفية تعمير أركان بيت الله وتشييده

بعد تجديد الحَجَّاج للكعبة المقدسة لم يُسْمَحْ شرعا إلى سنة ١٠٢٠هـ بتجديد الكعبة حتى لا تكون ألعوبة فى يد الملوك، إلا أن سقف البيت الشريف العالى وأركانه مالت إلى السقوط بعد هذه الفترة الطويلة وظهر ما يدل على أنها قد أوشكت على الانهيار إذا لم تتخذ وسائل لمعالجتها.

وبناء على ذلك أخذ أهالى مكة يبحثون عن وسيلة لمعالجة الأمر فقرروا بالاتفاق مع أمير مكة الشريف إدريس والأعيان والوجهاء أن يعرضوا الموضوع على العتبة السلطانية راجين منه أن ينظر لهذا الموضوع سريعا.

وقد أهم وأقلق الطلب الذى أرسله أهل مكة أولياء الأمور إلا أن الحكم الشرعى بخصوص تجديد البيت المعظم بعد هدمه ونقضه كان مشترطًا بأن يقع ركن من أركانه لذا شكلت لجنة من العلماء الأعلام والرجال الكرام ذوى الاحترام حتى يجدوا حلاً شرعيًا لهذا الموضوع.

واجتمعت تلك اللجنة تحت المجبورية الشرعية وبعد مشاورات كثيرة قررت أن يحزم البيت من مكانين بأحزمة حديدية كما رأى فريق ربط الأماكن المشققة بتلك الأحزمة وبهذا يهدم البيت الشريف ويعالج الموضوع كما ذكروا أن هذا سيوافق أحكام الشريعة وعرض الأمر على حامى الخلافة.

وحينئذ صدر الأمر السلطانى المطاع بإعداد الأحزمة المذكورة على أن تغطى بطبقة من فضة خام وطبقة أخرى من الذهب الخالص وفى نفس الوقت يتغير الميزاب الفضى الذى أرسل فى زمن السلطان (سليمان عليه الرحمة والغفران) بميزاب مذهب كما هيئوا الصناع من الصياغ والحدادين بمهامهم.

وأرسلوهم إلى حديقة استاوروز فى اسكدار وفى يوم الشروع فى العمل أقيم حفل كبير حضره السلطان وعظماء الدولة وأركانها، وقد هيئت المهمات اللازمة للترميم فى وقت قصير وأعلم بذلك سلطان الزمان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث ـ عليهما رحمة الله ـ، وكان السلطان فى ذلك الوقت مقيما فى حديقة داود باشا وبما أنه يريد أن يرى بنفسه ما تم صنعه من المهمات الغالية وطريقة صنعها أصدر أمره بأن تنقل هذه الأشياء إلى مقر إقامته وبناء على ذلك أمر بصنع نموذج من الخشب لبيت الله يطابقه فى أبعاده ثم أمر بأن تنقل جميع المهمات إلى مكان فسيح فى حديقة داود باشا ثم وضعت الأشياء المعدة لترميم البيت فى أماكنها التى فى النموذج وهكذا عرض كيفية وضع هذه الأشياء وجمال صنعها ودقته على الحاضرين الكرام.

وأخيرًا بحث عن الحدادين المهرة والصياغ المتخصصين فى مهمتهم والمتدينين وأرسلوا مع المهمات إلى مكة المكرمة برفقة حسن باشا الذى عزل من وظيفة الدفتردارية فى حلب وعهد إليه الحبشة، وفى سنة ١٠٢٠ الهجرية وفى وسط شهر رجب الفرد، وصى والى مصر محمد على باشا بالعمل على توصيل هذه البعثة عن طريق السويس بأقصى سرعة ممكنة إلى الجانب الحجازى.

وقد قام المشار إليه بهذه الخدمة المباركة على أكمل وجه وأمن وصول البعثة السلطانية إلى مكة بعد أن أمدها بكل ما تحتاج إليه.

وكانت الأشياء الغالية المرسلة عبارة عن: ستة عشر عددا من أحزمة حديدية باعتبار أن كل جدار متكون من أربع مناطق وستة عشر عددا من أعمدة حديدية لتوضع على كل ركن أربعة منها لتثبيت الأحزمة وإمساكها وكمر مقوس فوق باب الكعبة المقدس حيث تلتقى الأحزمة الحديدية وثبتوا لوحة فوق العتبة العليا لباب الكعبة تجديدا للكتابة التى هناك كما أحضروا الأخشاب الجيدة الكافية لتعمير وإصلاح سطح الكعبة وكانت اللوحة التى كتبت عليها ألقاب الكعبة فى باب المعلا وكذلك الزاوية التى تلتقى فيها الأعمدة مع الأحزمة كانت مصنوعة من الذهب الخالص وكذلك الكمر المقوس الأحزمة قد غطيت بصفائح من الفضة الخالصة ونقشت عليها أحسن ما أبدعته أقلام الفنانين وزينت بنقوش بديعة.

وقد تحرك حسن باشا المشار إليه فى أواسط شهر رجب من دار السعادة إستانبول وبعد مدة وصل إلى مكة المكرمة وفى يوم الأحد فى غرة محرم الحرام من سنة (١٠٢١ هـ) أجمعت هيئة من أعاظم سكان مكة المكرمة فى داخل أرض المطاف والمهندسون وبعد الدعاء والتضرع إلى الله صعد المختصون فوق سطح البيت بواسطة إسقالة وضعت تحت ميزاب الرحمة وابتدروا بالكشف والمعاينة حيث اتضح لهم أن سبعًا وعشرين من العروق الخشب فى حاجة إلى التغيير، وبعد ما أصلحوا ثلاث قطع منها وضعوها فى مكانها ورفعوا الرخام إلى

السطح واحدة تلو الأخرى وبعدما أصلحوا على قدر الإمكان ووضعوا كل واحد منها فى مكانها القديم ووضعوا الميزاب الذهبى مكان الميزاب العتيق وأتموا تعمير السطح فى نفس هذا اليوم وبعد أيام من ذلك وفى ليلة وبعد أداء صلاة العشاء أمر الباشا المذكور الصناع المهرة بأن يسرعوا فى العمل فاستطاع العمال أن يضعوا الأحزمة الحديدية فى أماكنها فى تلك الليلة وفى الليلة التالية ركبوا النصف الثانى من الأحزمة ووضعوا اللوحة التى فى باب المعلا فى مكانها.

ثم أصلحوا الركن الذى كان فى حاجة إلى الإصلاح دون أن يخرجوا فى أثناء تعميرهم عن تعليمات الشريعة. وهكذا استطاع أن يشيد وأن يقوى ويصلح الأركان الأربعة للكعبة الشريفة وسطحها.

وقد ثبت أن رصانة بيت الله ومتانته قد وصلت إلى الدرجة المطلوبة وذلك بشهادة المتخصصين فى فن البناء.

وفى الواقع أن الأشياء اللازمة لترميم البيت والتى أعدت فى دار السعادة قد ركبت فى مكانها فى الكعبة الشريفة كأنها صبت فى قالب بعد المسح والوزن ومع ذلك فإن هذه المستلزمات كانت قد عينت وجربت عدة مرات فى مكة المكرمة.

إن هذا العمل قد أثار فرح الأهالى وابتهاجهم؛ ولأجل ذلك اجتمعوا حول كعبة الله فى السادس عشر من الشهر المذكور تحت رئاسة أمير مكة الشريف إدريس وأحيوا يومهم بختم القرآن الكريم والتضرع إلى الله والدعاء للسلطان بدوام قوة دولته وعظمتها.

حكاية غريبة:

عند قلع الميزاب القديم، ورفع رخام سطح البيت الشريف ظهرت فى الجو علامات نزول المطر وسمعت أصوات الرعد والبرق فى الأطراف والأكناف، مما جعل الناس يقولون: إذا ما أمطرت السماء سيمتلئ داخل كعبة الله بالسيل واستولى عليهم القلق وأخذت قطرات المطر تتساقط متتابعة كأنها در فى سلكه. إلا أنه لم تسقط قطرة مطر على الأرض إلى ميزاب الرحمة فى مكانه إلى أن غطى سطح بيت الله.

وقد انتظم المطر إلى أن غطى السطح الشريف فى ارتفاع أربعين ذراعا من الأرض وعند الانتهاء من تغطية السطح ووضع الميزاب فى مكانه أخذ المطر ينهمر بشدة لم تر فى ذلك العصر مثلها حتى أغرقت السيول الأسواق والمحلات.

تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة

البانى الحادى عشر لبيت الله هو السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان عليهما الرحمة والغفران.

ولما كان تجديد الكعبة غير جائز شرعا إلا أن يسقط أحد أطرافها ويتهاوى؛ لذلك لم يتجرأ أحد منذ عهد الحجاج الظالم إلى زمن السلطان المشار إليه على تجديد تلك البقعة المفخمة الجليلة.

وأخذت أركانه الأربعة تميل للسقوط ـ بسبب قدمها ـ حتى إن تجديده قد تجاوز درجة الوجوب وبما أنه لم يجدد فى عهود السلاطين السابقين بتلك الحجة الشرعية فقد أوشك البيت الحرام على السقوط فى عهد السلطان أحمد خان الثالث.

ورغب السلطان أحمد خان فى تجديد أبنية ذلك البيت اللطيف السعيد إلا أن الشرع لم يسمح بذلك. كما سبق ذكره فى المقال السابق فَقُوِّىَ بالأحزمة الحديدية وأعمدة الزوايا كما رُمِّمَ وأصلح ركنان من أركانه على قدر الإمكان، وقد حفظ هذا الترميم البيت المعظم من السقوط والانهدام ما يقرب من ثمانية عشر عاما.

إلا أن البلاد الحجازية قد تعرضت فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان المعظم من سنة ١٠٣٩ الهجرية إلى رعود وصواعق وبروق وأمطار لم ير لها مثيل، إذ أن المياه التى نزلت من السماء تجمعت وكونت سيولاً كسيل العرم وهجمت بشدة إلى داخل المسجد الحرام وزادت ساعة بعد ساعة وارتفعت مقدار ذراعين من فتحة مفتاح باب المعلا.

إن الحوانيت والمدارس والمنازل التى تصادف وجودها فى طريق السيل الشديد

انهارت كلها وعجزت أتربة البيوت ومبانيها عن الوقوف أمام السيل الجارف فانحرفت أمامه كأنها دليل يقود السيل إلى ساحة الحرم الشريف.

ولا يخمن[1] عدد الذين ماتوا تحت أنقاض الحوانيت والمدارس التى تعرضت للسيل الشديد.

وكانت جدران البيت المعظم قد أوشكت على السقوط بعد وقت قليل من أداء صلاة العصر من يوم الجمعة من الحادى والعشرين من شعبان المعظم وفى اليوم الثانى من دخول السيول داخل الحرم الشريف انهارت جدران[2] الركن الشامى والركن العراقى فجأة. واختلط صخب الانهيار بأصوات الرعود والصواعق. فاستولى على أهل مكة خوف شديد حتى إن بعضهم ماتوا من شدة الفزع. قد حير انهيار جدران بيت الله أهل مكة وملكتهم الدهشة حتى ظنوا أن ما حدث فى ذلك اليوم علامة من علامات يوم القيامة. وهاموا على وجوههم مشتتين ولم يعرفوا ماذا حدث لهم، حتى تاه الأبناء عن الآباء والأمهات وشغل الآباء والأمهات عن أولادهم فلم يسأل أحدهم عن الآخر.

وظلت المياه داخل الحرم ثلاثة أيام بعد انقطاع السيل وفى اليوم الرابع فتحت ممرات السيول وأخذت المياه تنسحب من داخل الحرم قليلا فقليلا تاركة خلفها ما جرفته السيول من الحجارة والأوحال التى كونت هنا وهناك مرتفعات تبلغ قامة رجل.

قد عقد ـ فى ذلك التاريخ ـ أمير مكة المعظمة الشريف (مسعود بن إدريس) اجتماعا فى داخل الحرم مع الطبقة المختارة من الأشراف وسكان مكة وبعد التشاور أسرعوا بإنزال القناديل الذهبية والفضية المعلقة فى داخل بيت الله وبعد ذلك أخبروا الركاب السلطانية ما حدث فى أثناء السيل أوصلوا خبر انهيار بيت الله بواسطة محمد على باشا والى مصر.

(١) قد روى بعض المؤرخين أن عدد القتلى الذين أخرجوا من تحت الأنقاض فيما بعد بلغ ألفا.

(٢) قد انهارت جميع جهات البيت باستثناء الركن اليمانى.

وإن كان محمد على باشا قد عرض الخبر على السدة السلطانية حتى يتخذ القرار إلا أنه قرر أن يعد الآلات والأدوات اللازمة لتعمير بيت الله لأنه رأى أنه ليس من الجائز ترك الكعبة فى هذه الحالة والخبر المرسل إلى السلطان سيتأخر لبعد المسافة بين البلدين.

وكتب رسالة إلى مصطفى أغا أمير جدة يأمره بأن ينصاع لكل ما يطلبه منه الشريف مسعود كما أبلغ الشريف أنه يجب تخلية الحرم الشريف مما جرفه السيل وتطهيره وأن يطلب من مصطفى أغا كل ما يلزمه فى سبيل ذلك إلى أن تصل الإدارة السنية من دار السعادة.

واستحضر الشريف «مسعود» بعون أمير جدة «مصطفى أغا» ومهندس مكة المشرفة على «بن شمس الدين أفندى» المقدار الكافى من الأخشاب وأحاط جدران البيت التى نجت من السقوط بأحزمة من ثلاثة أماكن حتى يقويها ثم أقام دعامات كبيرة حول أركان البيت الأربعة بقصد حفظ السقف الشريف للبيت من السقوط ثم ربط هذه الدعامات بعضها ببعض وأحاط بيت العزة حتى سقفه بألواح خشبية.

قد شرع فى هذه العملية يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وانتهى العمل فى ترميم البيت فى ظرف ثلاثة عشر يوما أى فى يوم الأحد الثالث عشر من شهر شوال وفى هذه الفترة صنعت كسوة من قماش عادى باللون الأخضر وكسيت بها الكعبة العليا يوم الخميس السابع عشر من شهر شوال.

من البديهى أن انهيار كعبة الله قد أزعج المسلمين فى جميع أنحاء العالم إلا أن انزعاج المصريين[1] كان أشد لقرب المسافة بينهم وبين مكة المكرمة.

وأخذوا يبرزون شدة تأثرهم بأقوال مثل: أن موسم الحج قد اقترب ولم يرد

(١) لأن المصريين أول الناس الذين أخذوا خبر انهيار البيت.

من إستانبول الأمر السنى المنتظر؛ لذا قرر محمد على باشا والى مصر إرسال مندوب خاص من قبله إلى الأستانة.

استدعى رضوان أغا الذى تربى فى كنف السلطان وكان من رؤساء الشراكسة وألبسه الخلعة ثم قال له: إننى قد عينتك مسئولاً عن أبنية كعبة الله إلى أن يرد الأمر السلطانى من الباب العالى، قد اقترب موسم الحج اقترابا شديدا قم الآن واركب الهجين وتوجه ناحية مكة المكرمة واحرص على إعداد الأشياء اللازمة وبمجرد وصولك هناك ابعث لنا على جناح السرعة كَشْفًا بكل ما تحتاجه من عندنا، ثم أعطاه خلعة ليقدمها إلى الشريف مسعود كما زوده برسالة توجيه للشريف المذكور وأخرجه إلى الطريق، ثم واصل رضوان باشا السير حتى وصل إلى مكان قريب من مكة المكرمة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شوال و أرسل إل الشريف مسعود من يخبره بأنه أتى حاملا له خلعة من قبل والى مصر، فأرسل الشريف وفدًا من عظماء مكة المكرمة وموظفى الدولة ليكونوا فى استقبال رضون باشا.

وبعدما تقابل رضوان باشا مع أفراد وفد الاستقبال تحرك نحو مكة ووصل إليها بعد رسوله الذى كان بعثه من قبل بأربعة أيام يوم السبت السادس والعشرين من شوال ونزل فى المنزل الذى كان قد أعده له شريف مكة وفى اليوم التالى يوم الأحد السابع والعشرين من شوال اجتمع الناس داخل ساحة الحرم إذ أقيم فيه احتفال لتقديم الخلعة.

قد حضر مع الشريف مسعود ورضوان أغا ـ عملا بأصول التشريف ـ أشراف مكة وعظماؤها وأعيانها وكبار موظفى الدولة والعلماء الأجلاء ووقفوا كلهم بين باب المعلا لكعبة الله ومقام إبراهيم قُرِئت الرسالة التى تحتوى على الأوامر السامية كما قرئت الرسالة التى كانت تنصّ على إبقاء موظفى الحجاز فى مناصبهم ثم ألبست الخلعة الفاخرة التى بعثها والى مصر ـ بكل تعظيم وتوقير ـ للشريف مسعود الذى ألبس أيضا خلعة لرضوان ومرافقيه وعقب ذلك رفع المجتمعون

أيديهم داعين الله ليزيد الدولة قوة وشوكة، والسلطان جلالا ثم انصرفوا عائدين.

وكان داخل الحرمَ الشريف والطرق المؤدية إليه قد امتلأت بالحجارة والتراب والقمامة مما جرفه السيل. وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال واليوم الثالث من وصول رضوان أغا اجتمع بالشريف مسعود والأشراف والعلماء الأجلاء فى الحرم الشريف وتشاور معهم فى تنظيف ساحة المسجد الحرام وتطهيره مما حل به.

وعرض كل واحد رأيه وكانت خلاصة رأيهم أن تنظيف ساحة الحرم فى مدة قصيرة غير ممكن لأن موسم الحج قد حل بل أخذ الحجاج يفدون إلى مكة المكرمة.

إلا أن رضوان أغا فند رأيهم وتصرف بالشهامة والرجولة وحرص على أن يبعث رجاله إلى المدن والقرى الواقعة بين جدة والمدينة المنورة يستدعون كل من يملك حمارا أو حصانا أو جملاً وكل من يريد أن يعمل يغرونهم بالأجر الكبير وهكذا جلب كل هؤلاء إلى مكة المكرمة وشرع فى العمل بهمة عظيمة ووفق فى تنظيف الحرم الشريف وتطهيره فى ظرف عشرين يوما فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر ذى القعدة.

إن ما جرفه السيل فى داخل الحرم من الطين الممزوج بالحجارة كان قد تحجر عقب انسحاب السيول بفعل الحرارة الشديدة وكون جبلا فى ارتفاع سبعة أذرع أو ثمانية، واكتسب صلابة بحيث لا ينفذ فيه الفأس أو الإزميل أو المثقاب وحينئذ قد بلل الجبل الترابى بالماء ليلا وفقد صلابته وأخذ العمال يحرثون ذلك الجبل العارض بالفئوس والأزاميل كما تحرث الحقول اللينة.

وكانوا ينخلون التراب المحفور بالغرابيل، وينقلون رمله على حدة إلى موضع وترابه على حدة إلى موضع آخر وجاء فى سجل سهيلى أفندى ـ رحمه الله ـ أنهم كانوا يخرجون ثلاثين أو أربعين ألف حمل تراب يوميا.

عين زبيدة:

بما أن مجرى تلك العين كان قد غطى بالطين والأحجار وبدأ أهل مكة يعانون شح الماء، قام رضوان أغا بترميم وإصلاح المواضع الخربة فى مجرى العين المذكور، وظهر الجزء الممتد من جمرة العقبة إلى مكة، وقد أنجز هذه المهمة على الوجه الأكمل.

إحدى كرامات بيت الله الحرام:

عندما سقط جزء من بناء الكعبة الشريفة أصبح ماء زمزم الشريف ملحا أجاجا إلى درجة أنه تعذر شربه.

وعلى الرغم من أن أعلام العلماء والفقراء ذوى المنزلة تشاوروا فيما بينهم و بسطوا رجاءهم مطالبين بتطهير بئر زمزم لشدة حاجة أهل الإيمان إلى مائه المبارك ورغبتهم فيه، وأن تتولى جهة ما مهمة تنظيف هذه البئر إلى أن ينقى ماؤها، إلا أن تطهير هذه البئر كان يتكلف ثلاثين ألف قرش وبما أن إنفاق أكثر من خمسة أو ستة آلاف قرش ولو بارة واحدة يتوقف على الاستئذان من أولى الأمر فقد تغاضى رضوان أغا عن فكرة تطهير بئر زمزم قائلا: لا أستطيع أن أنفق هذا القدر من المال من تلقاء نفسى، وينبغى علىّ الاستئذان من والى مصر، ولكن حتى يصلنى رده يتطلب الأمر منى أن أشتغل بأمور أخرى لعدم إضاعة وقتى.

واقتضت حكمة الله أن الملوحة الظاهرة فى بئر زمزم بدأت فى الزوال ـ تدريجيا مع أول يوم من إلقاء أساس بيت رب العزة، وعندما أوشكت عمليات الأبنية المسعودة على الانتهاء أصبح ماء بئر زمزم عذبا فراتا، ولم تعد هناك حاجة إلى تطهيرها. انتهى.

وفى أوائل شهر ذى القعدة أرسل رضوان أغا إلى والى مصر بيانا يتضمن ما تحتاج إليه الأبنية المسعودة من الآلات وأدوات ومواد بناء مبينا مقدارها وأنواعها، ورجاه الإسراع فى إرسال هذه الأشياء المدرجة فى هذا البيان. وقام والى مصر محمد على باشا بإعداد الأشياء التى أرسل رضوان أغا فى طلبها وعلاوة على

هذا استدعى كثيراً من النجارين وسائر الحرفيين ووجه بهم موظفًا خاصًّا وخرج فى وداعه. ولدى وصول الموظف المذكور إلى ميناء جدة فى أواخر شهر ذى القعدة سلم ما أحضره من مواد - بموجب دفتر - إلى أحمد قبانى أفندى كاتب المال على ميناء جدة المعمورة.

وبناء على الأمر الذى أرسله رضوان أغا مع سيد على بن هبزع أرسل أحمد قبانى المهمات الواردة من مصر إلى مكة المكرمة على دفعتين، وقد حفظت المهمات التى أرسلت فى القافلة الأولى فى الخانات المعروفة بمخازن «عبد الرحمن بن عتيق» ١٣ محرم.

وقبيل وصول هذه القافلة اتجه رضوان أغا نحو خليص لتمهيد وإصلاح الطرق التى دمرها ماء السيول الجارى من جهة وادى خليص، وكانت طرق العين المذكورة قد خربت بأكملها من جراء طغيان السيل، ولذا انقطعت مياه البئر، ومكث رضوان أغا أياما فى الوادى المذكور لإعادة مجرى البئر إلى سالف عهدها، واطلع على بن شمس الدين أفندى مهندس مكة المكرمة على الأماكن المتهدمة.

وفى التاسع من ربيع الثانى أجروا الماء الذى انقطع - إلى مكة المكرمة بعد إصلاح العين وجعلها على أحسن وضع لها، كما أجريت مياه الأحواض.

ثم قفل رضوان أغا راجعا إلى مكة المكرمة ونظف مجارى المياه الواقعة على مقربة من البركة الشامية.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الثانى عين من مست إليهم الحاجة من موظفين للقيام بتجهيز كافة متطلبات ومستلزمات الأبنية المسعودة من حطب وفحم وجص، وبعد أن طيب نفس كل منهم بتحديد مرتباتهم كاملة غير منقوصة أمرهم بجمع الأحجار التى هوت من الأبنية المباركة للكعبة المعظمة، وأصدر تعليماته وتوجيهاته إلى النجارين بخصوص عمليات الترميم والإصلاح لإعادة جدران الكعبة المشرفة إلى ما كانت عليه.

ولما شاع بين الأهالى أن الأحجار الساقطة سوف تعاد إلى مواضعها فى الأبنية المسعودة كثر القيل والقال، ولأن كل أحد قال كل ما خطر له من كلام ذهب بعض العلماء إلى عدم جواز ذلك العمل واعترضوا عليه لدى رضوان أغا.

وكان ضمن هؤلاء من طائفة العلماء المعترضين من يسمى «محمد على بن علان» مفتى الشافعية، وأصدر هذا الرجل فتوى فحواها أنه: (لا يجوز لكائن من كان أن يتدخل فى شئون البيت الشريف ما لم يكن نائبا أعظم عن سلطان العالم وملك ملوكه المعظم، وينبغى الانتظار لحين وصول التعليمات من الأستانة فى هذا الشأن).

وبناء عليه استدعى رضوان أغا شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة إلى الحرم الشريف وقال لهم: هناك من أفتى معترضا على ترميم بيت الله، فهل يجوز أن يبدأ فلان من الناس الذى عين من قبل السلطنة السنية ومنح الإذن فى البناء، أم أن ذلك غير جائز؟.

وأجاب على سؤاله من أعاظم شيوخ الفتيا الشيخ «خالد بن أحمد المالكى»، و «عبد العزيز الزمزمى» من شيوخ إفتاء الشافعية، و «أحمد بن محمد آق شمس الدين المفتى الحنفى» و «عبد الله بن أبى بكر القرشى» مفتى الحنابلة بأن هذا الأمر (فرض كفاية)، والقائم به مثاب مأجور عند الله، بيد أن الشيخ محمد على بن علان وهو من مشاهير المعترضين أبدى اعتراضه ثانية، وجمع كثرة كاثرة من الأهالى وتجرءوا على منع الحجَّارين وكافة عمليات البناء، وعلى أثر ذلك لم يجد رضوان أغا بدًّا من استدعاء شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة للمرة الثانية واستفتاهم فى شرح المسألة على التفصيل.

وبفضل فتاوى هؤلاء الشيوخ المفصلة والتى أجمعوا فيها على جواز العمل قائلين: «يجوز كل فعل ما دعت إليه ضرورة أو حاجة» اقتنع الناس بمشروع رضوان أغا فى عمليات الأبنية المسعودة قبل وصول التعليمات السلطانية.

ولم يكن سبب الاعتراض هو الرغبة فى إعادة الأحجار المنهارة إلى مواضعها

وإصلاحها، بل الأسباب القهرية التى بينها المهندسون فى تقارير المعاينة والتى نذكرها فيما يلى مع المعترضين:

الأسباب القهرية التى بينها المهندسون فى تقارير المعاينة:

١ ـ أن الأحجار الساقطة من الأبنية المسعودة للبيت الشريف غير صالحة للاستعمال، ولأن قسما منها تهشم فإنه لا سبيل إلى إكمال بناء بيت الله بهذه الأحجار، ولذا يتحتم إحضار قدرًا كافيًا من الأحجار من خارج الكعبة.

٢ ـ وإن كان من الممكن إلصاق الجدران المقامة حديثا مع الجدران المتهدمة فإنه فى خلال فترة وجيزة سوف تنهار ما فى ذلك من شك، علاوة على أن بعض المواضع فى الجدران القديمة قد آل للسقوط، وهدم الجدران الآيلة للسقوط أصل مرعى من أصول فن العمارة.

ردود المعترضين:

١ ـ لا يجوز جلب أحجار من خارج الكعبة، كما لا يجوز كذلك إصلاح الأحجار المتهشمة، وينبغى استعمال الموجودة على حالتها، أى أنه يتعين ترميم جدران الأبنية المسعودة بالأحجار القديمة.

٢ ـ لا يجوز اقتلاع حجر واحد من أبنية الكعبة، فمن باب أولى لا يجوز هدم الجدران المنهارة.

ولا نحسب أن دعاوى المعترضين كانت لهذين السببين ليس إلا، فقد قالت هذه الطائفة بعد أن اجتمعت كلمتهم: أن صورة سقوط بيت الله عرضت على الباب العالي، ولا ينبغى الشروع فى البناء قبل ورود تعليمات الإرادة السنية فى هذا الصدد. كما عرجوا على إقامة ستار حول الأبنية المسعودة مع مهمة تنظيف الحرم الشريف، ولم يجيزوا ـ على أية حال ـ هدم الجدار الواجب هدمه وهو الذى بين الحجر الأسود والركن اليمانى، وقرروا جواز دخول بيت الله الحرام والجلوس فيه وتدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة.

وواقع الأمر أن هذه الدعاوى كانت واهية فإن لم يؤت بأحجار من خارج الكعبة لا يتأتى لجدران الكعبة أن تبلغ ارتفاعها القديم، وما لم تسو الأحجار المتهشمة وتصلح لا يمكن إعادتها إلى مواضعها القديمة وذلك أخذا بأصول فن العمارة، أما إلصاق جدار آيل للسقوط بآخر بنى حديثا فغير جائز لأن مصيره الانهيار.

رغبتهم فى عدم تنظيف الحرم الشريف:

وإن كانوا قد أشاروا إلى أن إدخال الجمال والحمر وسائر حيوانات الحمل إلى المسجد الحرام سوف يخل بما ينبغى من نظام، فإن الاعتماد على الإنسان فقط فى نقل حصى موضع ثبت أنه يخرج منه أكثر من أربعين ألف حمل حصى يوميا قرابة شهر على نحو ما سلف شرحه يستلزم نفقات باهظة، فضلا عن أن هذا سوف ينفذ فى مدى خمس أو ست سنوات وفى تلك المدة سوف يحرم الحجاج القادمون من الطواف والزيارة فى مواسم الحج وهل صح فى الفهم أن يجيز ذلك جاهل فكيف يجيزه عالم، وإن جاز إقامة ساتر من الخشب حول الكعبة الشريفة وتنظيف ما يجب تنظيفه من مواضعها، والوفاء بتعظيماتها طبق ما تفيده الفتاوى الشريفة المدرجة فى خاتمة المقال، فإن رضوان أغا حصل على فتوى بعدم تدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة، وشرع فى تنفيذ ما تستوجبه مهمته. رضى الله عنه وعمن أصدروا له الفتاوى أجمعين.

تكليف رضوان باشا بإعادة بناء بيت الله:

أرسل محمد على باشا والى مصر رسالة إلى الباب العالى يخطره فيها بسقوط بيت الله على نحو ما سلف ذكره، وأرفق هذه الرسالة بالتقرير الذى ورد من الشريف مسعود بشأن هذه الحادثة الهامة، وتلافيا لوقوع أى بلبلة عرض الأمر على حضرة السلطان دون أى تأخير وصدرت أوامر ملجأ الخلافة العظمى ببناء وترميم تلك البقعة المباركة وإعادتها إلى حالتها الأولى.

وفى تلك الأثناء أرسل الصك إلى سيد أفندى الأنقروى نقيب الأشراف الذى أسند إليه قضاء المدينة المنورة، وأن تكون الأموال اللازمة لترميم الأبنية المقدسة من جزية أقباط القاهرة وقد عين الأنقروى أفندى هذا أمينا للبناء لأمانته ونزاهته وأخطر محمد على باشا والى مصر بذلك وبإسناد نظارة الأبنية المقدسة إلى سيد أفندى الأنقروى، كما أخطر الشريف مسعود بفرمان خاص من السلطان.

وشكل محمد باشا مجلسا من أعيان الدولة وموظفى الحكومة لبحث انتخاب وتعيين أمينا للبناء بموجب الفرمان السلطانى الرفيع والذى وصل يحمل التوقيع المشرف وقال محمد على باشا: لقد أخطرنا الباب العالى بسقوط بيت الله، وأرسلنا كذلك تقرير الشريف مسعود إلى مقر الخلافة الجليلة. وصدرت الأوامر السلطانية لنا بإسناد نظام ترميم البيت الشريف إلى سيد محمد أفندى الأنقروى قاضى المدينة المنورة، وانتخاب أمير من أهل التقوى والورع أمينا للبناء، وإرسال المال اللازم من الخزانة لإنفاقه على ذلك، وأرسل فرمان عال لإبلاغ الشريف مسعود بذلك مع خلعة فاخرة وأرسل اللواء السلطانى إلى من ستسند إليه أمانة البناء. ومن قبل أرسلنا إلى الباب العالى نخطره بإسناد هذه الخدمة إلى رضوان أغا، والآن قدم علينا موظف يسمى «محمود شاووش» لتسلم وحمل المهمات اللازمة للأبنية المسعودة وأحضر معه بيانا بها، وإذا ما استطاع رضوان أغا النهوض بهذه المهمة على خير وجه فسوف أثبته فى مهمته، ويتعين على أن أُسَلم محمود شاووش ما طلبه من مهمات، وإن وجد من هو أصلح من رضوان أغا أرسلناه واستدعينا رضوان أغا.

وبعد تبادل الآراء طويلا فى المجلس قال محمد على باشا:

إن رضوان أغا أهل تقوى وعفة واستقامة وكفاءة وهو على علم تام بالأبنية المسعودة، كما أنه موضع ثقة لدينا جميعا، وانتخب وأرسل من قبل لهذه المهمة، وبدلا من تضييع الوقت فى البحث عمن هو أهل اقتدار وكفاءة ينبغى أن نُثَبِّتَ رضوان أغا فى مهمته، ونحن إذا ما طيبنا خاطره بإرسال الهدايا الواردة من

السلطان الأشرف، وأرسلنا إليه ما طلبه من مهمات نكون قد أدينا خدمة للكعبة الشريفة من ناحية العمليات والخزانة الجليلة من جهة النفقات.

وقدم هذا الرد الشافى على النحو السالف، وبناء عليه أرسل محمد باشا رسالة مفصلة فى هذا الخصوص متضمنة التصديق على أمانة رضوان أغا للأبنية المقدسة، وأرسل موظفا مخصوصا بالفرمان السلطانى الوارد من الأستانة مصحوبا بخلعة فاخرة وخرج محمد باشا لوداع هذا الموظف.

وفى هذه الأثناء أرسل سيد محمد أفندى ـ الذى كان موجودا فى مصر ـ مع الموظف المشار إليه.

وأعدت المهمات المطلوبة لرضوان أغا كما وردت فى البيان، وبدءوا فى إرسالها تباعا إلى ميناء السويس، ولما نقلت إلى هناك بتمامها حملت فى سفن السويس مع سويدان زاده محمد بك وسلمت إلى محمود شاووش رجل رضوان أغا وأرسلت إلى جدة.

وفى يوم الأحد التاسع عشر من ربيع الثانى لدى وصول محمود شاووش خرج من السفينة وركب وجناء[1]، واتجه إلى مكة المكرمة، ولما وصلها أَخْبَرَ رضوان بتثبيته فى مهمته، وإسناد قضاء المدينة المنورة إلى من يدعى سيد «محمد أفندى الأنقروى» وتعيينه ناظرا على الأبنية المسعودة من قبل السلطان.

وقد جعل كل ما يختص بمبانى البيت المعظم إلى والى مصر الوزير محمد على باشا وفوض فيه، و أرسلت الأوامر السلطانية ببذل كل ما فى وسعه فى هذا الخصوص.

مع أن محمد باشا كان قد وكل من قبله رضوان أغا وعينه للقيام بهذه الخدمات السعيدة، وبعده بفترة قصيرة وصل سيد محمد أفندى إلى مكة المفخمة وتحدث مع رضوان أغا طويلا.

بينما توجه الشاووش محمود من ميناء ينبع إلى مكة برا كان محمد بك ابن

(١) الوَجْنَاءُ: الناقة التامة الخلق غليظة لحم الوجْنة، الصلبة الشديدة.
(اللسان مادة: دوجن) ص ٤٧٧٤. ط. دار المعارف.

سويدان قد توجه بحرا إلى بندر جدة المعمورة وقد وصل إلى جدة يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثانى وسلم ما حمله معه من الأخشاب والآلات والأدوات والمهمات الأخرى الخاصة ببيت الله مع دفاترها إلى أحمد القبانى المسئول المالى لمدينة جدة، ولما كان أحمد أفندى يعرف مدى حاجة الأبنية المسعودة لهذه الأشياء أعد قافلة وحملها بالأخشاب فى نفس الليلة وبعثها إلى مكة المعظمة وأدركت القافلة المذكورة المدينة الجليلة فى الصباح.

وبمجرد أنْ وصلت الأخشاب أسرع رضوان أغا بإحاطة الكعبة العليا بستار خشبى وبعده بيوم استحضر اللوازم الباقية من مدينة جدة بواسطة سيد على وخزنها.

وقد شرع فى أعمال إحاطة كعبة الله بستار خشبى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ربيع الثانى وكان هدف رضوان أغا من هذا العمل إخفاء تعمير بيت الله ـ تعظيما له وتوقيراً ـ من أعين الناس، وعندما أوشكت عمليات ستر الكعبة بالخشب على الانتهاء وصل إلى مكة ناظر الأبنية السعيدة وتلاقى مع رضوان أغا واتفقا على إجراء مراسم الأمر السلطانى الذى حمله من مقام الخلافة الجليل وكتبت تذاكر الدعوة إلى سيد عبد الكريم[1] أخى مسعود شريف مكة وعظماء مكة وقاضى مكة وشيخ الحرم رجاء أن يكونوا فى الساعة المعينة داخل الحطيم الشريف فى يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ربيع الثانى وتجمعوا فى الميعاد المحدد وقرأوا[2] الصحيفة التى تحتوى الأمر السلطانى الموجه إلى الشريف مسعود.

وبما أن الشريف مسعود كان مريضا لم يحضر مراسم قراءة الأمر السلطانى فأرسلت الخلعة السنية الخاصة به إلى منزله العامر وألبست الخلعة الخاصة برضوان أغا أمام الحاضرين كما ألبس سيد على بن هبزع والآخرون خلع لائقة

(١) قد دعى سيد عبد الكريم نيابة عن أخيه الشريف مسعود.

(٢) قد أشير للصورة المنيفة لهذا الأمر السلطانى فى خاتمة المقال.

بهم ثم رفع الحضور أياديهم داعين مبتهلين إلى الله بدوام دولة سلطان الأمم وانتصار جنوده وهكذا ختم المجلس.

وقد قدم لرضوان أغا مقابل خدمته الجليلة راية سلطانية أيضًا. ولم يرغب رضوان أغا بعد هذه الوظيفة فى وظيفة أخرى ورجا أن تبدل وظيفته بمشيخة الحرم الكائنة فى المدينة المنورة وقبل رجاؤه وأسندت إليه إدارة محافظة المدينة المنورة مشيخة الحرم المدنى فى دار الهجرة.

وبعد ما أتم رضوان أغا خدمته قدم إلى إستانبول ونال شرف المثول بين يدى السلطان الذى عرض عليه وظيفة (بكلربكى) ولكنه لم يقبل هذه الوظيفة أيضا فأحيل إلى المعاش بستمائة ألف أقجة[1] وأنعم عليه ببراءة سنية[2].

وكانت الرسالة التى كتبها والى مصر الوزير «محمد باشا إلى الشريف مسعود» تحوى فقرة (يرجى أن تبذلوا جميع جهدكم لتعمير البلد الشريف وتجديده متفقا ومتعاونا مع المخلص رضوان أغا على أرض الواقع).

وقد سر الشريف من هذه السطور وابتهج وأخذ يثنى على محمد على باشا ويشكره ثم ألبس الخلع لرضوان أغا ومرافقيه وبعد يومين من ذلك ارتحل مودِّعا الدنيا إلى دار إمارة الفردوس فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى.

وقد أثار موت الشريف مسعود بين أهل مكة القيل والقال مما أقلق الكرام من أهالى مكة والمجاورين ذوى الاحترام وأزعجهم. إلا أن رضوان أغا بما هو مفطور عليه من سجية عالية وروية فى التفكير بذل كل جهده ليحافظ على أمن البلد وضبطه فأصدر الأمر الآتى:ـ

«كل من يسعى للفساد ويثير الخلل فى البلاد يهدر دمه» وأعلن هذا الأمر بواسطة المنادين فى الأسواق والحوانيت حتى يصل إلى مسامع الناس، ثم كفن وجهز الشريف مسعود وصلى عليه فى الحرم الشريف ودفنه فى مقبرة المعلا، ثم

(١) أقجة عملة فضية فى الدولة العثمانية.

(٢) قد أشير إلى هذه البراءة الشريفة برقم (٢) فى خاتمة المقال.

استدعى الأعيان والأشراف وقاضى مكة المعظمة وشيخ الحرم وذوى النفوذ من الأهالى إلى الحرم الشريف وخاطب السيد الشريف عبد الله بن حسن الذى كان فخر أسرة آل عبد مناف ودرة السادات والأشراف.

يا سيدنا إن منصب الإدارة الجليل والرتبة العلية لرياسة الأشراف من حقكم الصريح وذلك بشهادة المجتمعين والأشخاص الموجودين فى الأماكن الأخرى، فتولوا من الآن الإمارة والبسوا خلعتها المزينة وأسرعوا إلى حكم البلاد حسب الأصول واعملوا على ضبط الأمور وربطها. . هذا هو المرجو منكم وبناء على هذا الخطاب لم يستطع أهل الفساد أن يوقدوا نار الفتنة والفساد".

وإن تردد السيد عبد الله فى قبول هذ التكليف الذى عرض عليه من قبل رضوان أغا إلا أن انضمام الأعيان والأشراف والعلماء الأعلام إلى رضوان أغا بالرجاء إليه. **قائلين**:ـ إن هذا الأمر المفروض عليك من قبل رضوان أغا نافع للدين والدولة فرجاؤنا أن تتفضلوا بقبوله. وبناء على هذا لبس الخلعة الخضراء لرياسة أشراف الإمارة، ودعا لسلطان الأنام من صميم قلبه، وتقيد بإدارة أمور البلد ضبطها وربطها.

وقد أنقذ حسن تدبير رضوان أغا البلد من فتنة عظيمة ونجى الأهالى من الحزن والألم والقلق، لذا دعوا له وللسلطان وعدوا هذا التدبير المقبول والمستحسن خدمة أخرى قدمها المذكور لمكة الله وقالوا: «قد نجونا من جميع السوء كانت الحجارة المتساقطة من جدران البيت الشريف تناثرت فى جميع أطراف المسجد الحرام وظل كل جزء منها فى ناحية، وفى يوم الجمعة من أول شهر جمادى الأولى اجتمع الأشراف وأعيان مكة وخدمة بيت الله وموظفى الدولة فى المسجد الحرام توأم جنة الخلد وأخذوا يجمعون الحجارة ثم وضعوها فى صفة قريبة من المقام الحنفى فى الركن العراقى وأقاموا فوقها خيمة ثم كلفوا بجمع البقايا من الحجارة عمالا قاموا بحملها ووضعها فى مكان قريب من المدرسة

السليمانية، وشرع الصناع المهرة فى نحت الحجارة وتسويتها بعد أن جلبوها من الخارج».

كان المرحوم الشريف مسعود قد وضع القناديل الذهبية والفضية الخاصة ببيت الله فى محل قريب من المدرسة الباسطية وحفظها هناك. وكان عدد القناديل خمسين قطعة ثمانية عشر منها ذهبا وثلاثة وثلاثين منها فضة.

وقد اجتمعت الهيئة المذكورة يوم السبت الثانى من شهر جمادى الأولى ونقلت الأحجار المتروكة فى الركن[1] العراق إلى صفة المقام الحنفى وأمروا بانتزاع الحجارة الرخامية التى كانت تغطى ساحة المطاف ووضعوها فى مكان قريب من باب السدة.

وأخذ الحجارون منذ ذلك اليوم ينحتون ويسوون الحجارة التى تضررت وتجرحت عند سقوطها من جدران بيت الله وكذلك أخذ النجارون يقطعون وينشرون الأخشاب التى وتوفرت.

وفى يوم الأحد الثالث من شهر جمادى الأول انتزع باب خزينة الشموع الذى كان تابعا للسقاية التى يتولى أمرها عباس بن عبد المطلب وأخرجوا الحزام[2] الحديدى الذى كان قد أرسله المرحوم السلطان أحمد خان.

واستدعى الصياغ ليَفْصِلوا بين ذهب ذلك الحزام وفضته وذلك أمام قاضى مكة وشيخ الحرم والآخرين من أعيان المدينة وعظمائهم. وخرج من حديد هذا الحزام عشرة آلاف درهم من الذهب ومائة وعشرون ألف درهم من الفضة.

وهذا فضلا عن الذهب والفضة المستخرجان من الحزام الكائن بين الحجر

(١) المدرسة السليمانية التى تحاذى الركن العراقى أصبحت ـ الآن ـ محكمة، كل الحجارة المنقولة والمحفوظة كانت قد وقعت من الركن الشامى.

(٢) إن هذا الحزام كان قد أرسل من السلطان المشار إليه فى سنة ١٠٢٠ هـ لتشييد وترميم بيت الله ولما انهار بيت الله رفع الحزام المذكور بأمر الشريف مسعود ووضع فى المخزن المذكور.

الأسود والركن اليمانى، وإذا ما ضممنا إلى المجموع ما استخرج من الذهب والفضة من الحزام يجب أن نضم إلى المجموع الكلى ثلث المقدار المذكور.

كان محمد على باشا والى مصر قد جهز مقدارا لازما من الرخام والآلات والأدوات ومقدارا من الخشب والمستلزمات الأخرى وحمل بها سفينة فى السويس لتوصلها إلى جدة، وقد تعرضت هذه السفينة لعاصفة شديدة وغرقت ولما وصل الخبر المشئوم فى يوم الجمعة الخامس عشر من شهر جمادى الأولى إلى سمع الناس فى مكة المكرمة أصابهم هم شديد.

وفى يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور شرع بعد التسمية باسم الله فى هدم جدران البيت بعد أن أحيط المطاف الشريف بستار خشبى.

وكان الهدف من هذا إخفاء النجارين الذين سيعملون فى البيت الحرام مقتدين فى ذلك بعبد الله بن الزبير لأنه كان قد أحاط البيت قبل هدمه بستارة خشبية.

بينما كان النجارون مشغولين بصنع الستارة الخشبية اتصل رئيسهم برضوان أغا وأخذا يَتَذَاكَرَانِ القرار الذى سيتخذ للبدء فى هدم البيت، وبعد المحادثات الطويلة بين الطرفين قرر أن يشرع فى الهدم يوم الأحد من الشهر المذكور وفى الموعد المقرر بدأت العمليات أمام الأشراف الكرام والعلماء العظام وأهل مكة المحترمين كما أحيط البيت من خارجه بستارة خشبية فى ارتفاع ستة أذرع، وتركوا فراغا فى الستارة الخشبية حتى يتمكن الطائفون من استلام الحجر أو تقبيله، وكان عبد الله بن الزبير قد فعل نفس الشىء، وكان الطائفون يطوفون خارج الستارتين، ولما شرع فى صنع الستارة الثانية فى ٢٤ جمادى الأولى شرع فى صنع إسقالة قوية متينة على أطراف الستارة الأربعة.

وكان قصد رضوان أغا من صنع هذه الإسقالة هو تسهيل عمل البنائين فى صعودهم ونزولهم وتأمين طريق العمال الذين يحملون الحجارة والطين فى أثناء البناء.

وقد استمرت هذه الأعمال ستة أيام أو سبعة وفى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة انتزعت بقية الأحزمة التى كانت فوق الجدار الذى فيه الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين الثانى من شهر جمادى الآخرة اجتمع الشريف على بن بركات وسادات البلد صباحا فى دائرة الحطيم وتفقدوا الجدران التى لم تسقط وخاصة السقف الشريف لبيت الله ومعهم رضوان أغا والمختصون فى فن العمارة والمهندسون.

وأخذ المتخصصون فى فن العمارة والمهندسون يكشفون بعناية تامة ورأوا مدى ضعف الجدران التى لم تتهدم بعد، والسقف الشريف وشدة وهنه ثم قالوا مخاطبين الجمع: إن مبانى هذه البقعة الشريفة قد اهتزت ووهنت من أسسها وهانحن أولاء نعرض لكم الحقيقة فلا مجال بعد ذلك لتقولوا لماذا لم تخبرونا بالحقيقة فى وقتها؟ وقد صرحنا بحقيقة الأمر أمام المفتين الأربعة والسيد القاضى وأمام عظماء البلد ووجهائهم.

ونكرر القول مرة أخرى: إن إبقاء بيت الله دون تجديد أمرٌ غير جائز، وقد اهتزت وضعفت جميع نواحيه وأصابها الوهن ومن هنا يجب أنْ يجدد البيت تجديدا كاملا وأيدوا قول رضوان أغا بشهادة كثير من المسلمين.

إن تصديق المجتمعين كلهم ما ادعاه المهندسون ورجال العمال بلا تردد كان لإسكات محمد بن علان وهو من العلماء المعترضين.

وقد ادعى ابن علان أن الأجزاء الباقية من جدران الكعبة غير جائز هدمها وهكذا خدع بعض العوام من الناس وأثارهم حتى يحولوا دون هدم الأجزاء الباقية التى نجت من السيول، وتردد رضوان أغا أمام موقف هؤلاء واستفتى المفتين المعروفين بعلمهم فى أرجاء العالم وفقهاءهم وحصل منهم على الفتوى التى ستذكر فى آخر هذا المقال وكانت **خلاصة الفتوى**: «يجب العمل بما تملى به الضرورة وبشهادة أهل الخبرة ورأيهم، ومن هنا يجب البدء فى تجديد بناء الكعبة ويلزم من أجل تجديدها المال الحلال».

وبناء على التقرير الذى وضعه المهندسون والمتخصصون فى فن العمارة وبشهادة المسلمين قد رفعت الستائر الخشبية التى وضعت بدلا من الجدران المنهارة وانتزعت الحجارة الباقية ووضعت بكل احترام وتوقير فى مكان قريب من المدرسة الباسطية وذلك فى يوم الثلاثاء الثالث من شهر جمادى الآخرة.

وبما أنه قد شرع فى يوم الأربعاء الرابع من جمادى الآخرة فى إنزال سقف بيت الله لم يفارق رضوان أغا المهندسين والمعماريين وأمر بإنزال الرصاص الذى كان فوق السقف والأخشاب التى تثبت كسوة الكعبة، ثم وضعت هذه الأشياء بعد إنزالها فى خزينة الشموع، كما أمر بوضع التراب الذى تخلف من إنزال سقف البيت فى المطاف.

وفى يوم الجمعة السادس من جمادى الآخر اجتمع الشريف على بن بركات والأعيان والعلماء من مفتىّ المذاهب الأربعة فى داخل الحطيم الكريم وشاهدوا وتفقدوا وكان معهم الشيخ محمد على بن علان أحد المعترضين على تجديد الأبنية.

وقام رضوان أغا وعرض على المجتمعين أن ابن علان لا يوافق على هدم ما تبقى من الجدران بعد السيل وأنه يتلفظ بكلمات تؤدى إلى إثارة الفتنة بين عوام الناس ثم قال: ما رأيكم فى هذا؟ فقال الجميع: إن تجديد الكعبة قد أصبح واجبًا بناء على أقوال المهندسين والمعماريين وبناء على ما رأيتموه من الجدران المتهدمة وبهذا قد أفتوا مرة أخرى. وفى يوم السبت السابع من جمادى الآخرة أمر بإنزال البقية من السقف اللطيف ووضع جزء من البقايا بجانب المدرسة السليمانية ووضع الجزء الآخر فوق أحجار كعبة الله التى حول الكعبة المعظمة.

وكانت الغاية من وضع الأخشاب فى الأماكن المتفرقة لحفظها من الأذى الذى قد يصيبها فى أثناء هدم جدران الكعبة.

وفى وقت الضحى المذكور شرع فى هدم بقايا الجدران الكائنة فى جهة بئر زمزم وفى الغد ومن يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة شرع فى هدم بقايا الجدار الغربى المقابل لباب إبراهيم وأنزلت الأخشاب التى كانت فوق هذا الجدار

ثم شرع فى هدم بقايا الجدار المقابل لباب الصفا، وقد تمت إجراءات الهدم للجدار اليمانى يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة وفى يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة شرع فى هدم البقية الباقية من جدران بيت الله.

وفى يوم السبت الرابع عشر من جمادى الآخرة هدموا إلى قرب عتبة باب المعلا من كعبة الله، وفى يوم الأحد الخامس عشر من جمادى الآخرة حملت عتبة باب بيت الله إلى المكان الذى ينحت فيه الحجارون الحجارة فقاموا بتسويتها، ثم قلع الباب السعيد من مكانه وحمل فوق الرءوس ووضعوه فى المكان الخالى تحت بيت المرحوم ميرزا ثم نقلوا حجارة الشادروان والركن اليمانى إلى جهات مختلفة بعد أن نزعوها من مكانها وكان فى حجارة الشادروان حلقات مغطاة بالذهب.

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة لم يكن قد بقى أى حجر فى جدران كعبة الله إلا الحجارة التى فوق الحجر الأسود وتحته لذا طلب البناءون والنجارون إحضار جميع أدواتهم ووضعوها فى المخزن الذى يطلق عليه خزينة المال، وفى الغد الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة شرع فى تنظيف وحفر الأسس لجدران بيت الله الأربعة وإحضار الحجارة الكبيرة التى ستوضع فى أساس البيت واستمروا فى الحفر حتى وصلوا إلى الحجارة الخضراء وعلامات وإشارات أساس البيت القديمة من حيث بدءوا فى التجديد ورصوا طبقة من الحجارة ابتداء من الركن الشامى.

وكان الشروع فى وضع أسس بيت الله فى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.

ومن الأحجار الأساسية لكعبة الله إلى سقفها اللطيف يوجد خمس وعشرون طبقة من الحجارة وفق ما رتبه عبد الله بن الزبير وبما أن الأحجار الموضوعة فى الطبقة الأولى فوق الأحجار الخضراء بقيت تحت أحجار الشادروان فهى لا تدخل ضمن الخمس والعشرين طبقة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة جهزت أحواض الكلس وأدخلوا الحجارة التى كانت فى الخارج إلى المطاف الشريف وفى الغد الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة أرسلوا الحجارة التى قطعت من جبل الشبكة ونحتت وسويت بجانب مقبرة العارف بالله الشيخ محمود بن إبراهيم أدهم إلى حرم المسجد الحرام وبعد ما غسلت هذه الحجارة بجانب المقام المالكى حملت إلى جانب جدران كعبة الله.

وفى يوم الأربعاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة أخذوا يبنون فوق الطبقة الأولى من الحجارة التى وضعت فوق الحجارة الخضراء ورفعوا البناء من الجهات الأربعة إلى أرض المطاف. وقد وجد فى ذلك اليوم فى الحرم الشريف بجانب الكعبة الشريفة قضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة وشيخ الحرم والفقهاء والعلماء حتى ينالوا شرف تقديم الخدمة فى أثناء وضع أسس البيت الحرام، ودعوا لسلطان العصر وأثنوا عليه وحملوا الحجارة بأيديهم وبعد فترة تعبوا وجلسوا فى الحطيم.

وقام رضوان أغا الذى كان معهم وأخرج من جيبه دفترًا وقرأ أسماء الشريف عبد الله وقاضى مكة المكرمة وشيخ الحرم ونائبه ووالى مكة ومفتىّ المذاهب الأربعة والآخرين ممن قاموا ببناء البيت وتجاوز عددهم العشرين ثم ألبس كل واحد منهم خلعة فاخرة وختم المجلس بالدعاء للسلطان مرة أخرى.

وقد ارتجل أحد الأشخاص من فضلاء مكة هذا المصراع من البيت يسجل فيه تاريخ اليوم.

(. . . تاريخ رفع الله قواعد البيت[1])

عاد المدعوون المشار إليهم بعد زيارة بيت الله ذو الأسس الذى لن يندرس بعد ما لبسوا الخلع فى داخل الحطيم وبعد ما تلوا آيات القرآن الكريم ودعوا باليمن

(١) كان يلزم أن تكون إشارة التعمير فى المصراع الأول من هذا البيت إلا أننا لم نقدر على الحصول على هذا المصراع.

والبركات للسلطان رافعين أكفهم إلى قاضى الحاجات وقد رتب بعد ذلك رضوان أغا حفاظا يجتمعون داخل المقامات الأربعة ويختمون القرآن الكريم كل يوم ثم يقرأون دعاء ختم القرآن فوق الساحة المباركة للبيت الحرام.

كما عين ثلاثة من الحفاظ الفقهاء ليشرعوا فى قراءة سورة الفتح مع بدء العمل فى البناء فى كل يوم، كما فتح بابا فى السور الخشبى الذى حول الكعبة.

وعهد رضوان أغا بمفتاح هذا الباب إلى بواب معين وكان المذكور حينما يفتح الباب كل صباح يبدأ الحفاظ الذين فى داخل المقامات الأربعة فى ختم القرآن الكريم ويشرع البناءون فى العمل كما يبدأ الحفاظ الذين داخل المقام الحنفى فى قراءة سورة الفتح.

وقد استمر هذا النظام إلى أن انتهى بناء بيت الله المفخم وقد ختم القرآن كل يوم فى المقامات الأربعة كما تليت سورة الفتح ثلاث مرات.

واشتغل البناءون فى يومى الخميس والجمعة والسبت السابع والثامن والعشرين من جمادى الآخرة بإعداد ما يلزم من مؤن لتثبيت ووضع الطبقة الثانية من الحجارة وفى يوم الأحد التاسع والعشرين من الشهر المذكور أخذوا يركبون حجارة الطبقة الثانية وفى اليوم الثلاثين من جمادى الآخرة يوم الاثنين وضعوا فى الركن اليمانى حجر استلام المطوفين المبارك.

وكان الجزء العلوى من هذا الحجر قد انكسر لذا صب البناءون فى هذا الكسر مقدارًا كافيا من الرصاص بعدما سووه جيدا مع الأجزاء الأخرى حتى يتماسك مع الحجارة الأخرى.

وفى أثناء وضع الحجر المسعود فى مكانه من الركن اليمانى جاء الشخص الكريم الذى يحمل مفتاح البيت ومسح الحجر الأسعد وما يتصل به من الحجارة بنوع من الأعشاب والعطور الأخرى.

وبعد ما رص البناءون حجارة الركن اليمانى ورصوها جيدا رصوا حجارة

الطبقة الثانية من جدران الركن الغربى والركن الشامى وفى اليوم الثانى الثلاثاء غرة رجب أنهوا رص حجارة الطبقة الثانية لجميع أركان البيت وسووها جيدا.

وفى اليوم الثانى الأربعاء قضى البناءون وقتهم فى إعداد المؤن ونقل الأشياء اللازمة وتجهيزها وفى اليوم الثالث الخميس ركبوا عتبة باب كعبة الله ذات الفيوضات الإلهية فى المكان المعد لها. كما علق الصياغ الطرف النحاسى الذى صنع للحجر الأسود بالفضة ونقلوا بواسطة البنائين والحمالين الثلاثة أعمدة التى ستنصب داخل بيت الله ومصراعى باب كعبة الله فى داخل ساحة بيت الله.

وفى يوم الجمعة الرابع من رجب الفرد انشغلوا بتخمير وتصفية المونة وإعداد اللوازم الأخرى ثم نقلوها من باب الصفا إلى مكان قريب من الأبنية السعيدة وفى يوم السبت الخامس من رجب أخذوا فى رص الطبقة الثالثة وشغلوا إلى مساء يوم الأحد السادس منه برص حجارة الطبقة الثالثة إلى الحجر الأسود وسووها وفى نفس الوقت أخذوا يسوون أطراف الألواح الخشبية التى حزمت بها جدران البيت المنير ومن ناحية أخرى غطوا غلاف الحجر الأسود الجديد بالفضة وزينوه بنقوش ذهبية، ولكن الحجارة التى كانت بجانبى الحجر الأسود ظلت منخفضة قليلا.

وفى يوم الاثنين السابع من رجب وبعد الشروق اصطحب رضوان أغا سيد محمد أفندى والمعماريين والمهندسين وأحضر معه العشرة ألواح التى كانت أعدت لأجل الحجر الأسود والتى كانت مغلفة بالفضة ومنقوشة بالذهب وثبت بها الجهة التى ظلت مكشوفة من الحجر الأسود وأمر البنائين بالشروع فى رص الطبقة الرابعة من الحجارة، وفى يوم الثلاثاء الثامن من رجب رفعوا الحجر الكبير الذى فوق الحجر الأسود وثبتوه فى مكانه وذلك فى حضور الأشراف والأعيان والعلماء والوجهاء واشترك فى رفع الحجر الكبير الذى كان فوق الحجر الأسود

(١) إن الباب الغربى المسدود كان مقابل الباب الشرقى وفوق أحجار الطبقة الثالثة. حتى إن المهندسين حينما كانوا يرصون الحجارة فى مكان الباب الغربى المسدود تركوا علامة تدل على أن فى الموقع كان باب، ومن يمعن النظر فى هذا المكان يمكنه رؤية تلك العلامة.

ووضعه فى مكانه جميع الأشراف والأعيان إلا أن رئيس المهندسين «آق شمس الدين أفندى» و «عبد الرحمن بن زيد أفندى» من معمارى الأبنية المسعودة قد اضطلعا بنفسهما بإصلاح أطراف الحجر الأسعد وتسويته وقضيا يومى الأربعاء والخميس فى هذا العمل فقط وهكذا أنهى كل ما يتعلق بأمور الحجر الأسود.

وفى ليلة الجمعة الحادى عشر من رجب الشريف قام قاضى مكة وشيخ الحرم وبعض من فقهاء البلاد بالكشف على كيفية وضع الحجر الأسود فى مكانه وأثنوا على رضوان أغا ورئيس المهندسين والمعماريين وشكروهم لما بذلوا من جهد عظيم وهمة كبيرة.

بينما كان الزوار الكرام يتفقدون وضع الحجر الأسود قال بعض المهرة من العمال الذين رأوا أن ظهر الحجر الأسود أكثر صقلا من وجهه: لو أذنتم بتبديل ظهر الحجر الأسود بوجهه لأن ظهره أصقل من وجهه ولكن رضوان أغا رفض رأى البنائين قائلا: لا، لا يجوز التلاعب بالحجر الأسود إن وضعه الحالى على أحسن ما يرام.

وكان رضوان أغا مصيبا فى رأيه، لأن الحجر الأسود ـ كما سبق فى بابه ـ كان متشققا من عدة أماكن، حتى أنه قد ربط فى أيام العباسيين من طرفيه بأحزمة فضية، وقد أبقاه رضوان أغا عل هيئته الحالية وغطى جوانبه المكشوفة بصفائح مطلية ومغلفة بالفضة وأحكم تثبيته.

وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب الفرد شرعوا فى رص حجارة الطبقة الخامسة وبعد الانتهاء من رص الجهات الأربعة استقدموا الحدادين وكلفوهم بصنع حزام معكوس الرأس من الحزام الذى كان السلطان أحمد بن محمود خان أرسله فى سنة ١٠٢٠ هـ لربط بيت الله من جهاته الأربعة.

وقد ثقبت الأحجار الموجودة فى الزوايا من وسطها لتثبيت رءوس الأحزمة الحديدية جيدا وقد أدخلوا رءوس الأحزمة المعكوسة فى داخل الثقوب ثم صبوا فيها الرصاص المنصهر لتثبيتها، ثم نشروا ألواح الأخشاب اللازمة لتغطية جدران

البيت الحرام ثم ألصقوها بعضها ببعض وسمروها على الجدران ووضعوا الأخشاب المتبقية فى مكان أمين لاستعمالها فى السقف الشريف.

وقد أوصى المسئولون بشراء بعض الخشب من جدة وقد استحضروا هذا الأخشاب فى يوم الأحد الثالث عشر من رجب إلى مكة وحفظوها فى المخازن وفى يوم الاثنين الرابع من رجب شرعوا فى رص حجارة الطبقة السادسة من الجهة الشرقية وانتهوا إلى باب المعلا من بيت الله وبدءوا فى رص حجارة الجهة الغربية وقام النجارون بصنع القواعد التى ستنصب عليها الأعمدة فى داخل كعبة الله.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب فتحوا بابًا من ناحية القصر المنسوب للملك الأشرف قنصوه الغورى للصعود على قبب المسجد الحرام وأعدو الأخشاب التى استحضرت من جدة بمسحها للاستعمال.

وفى يوم الأربعاء السادس عشر من رجب صعد سيد محمد أفندى الأنقروى مع رضوان أغا لتفقد الأماكن التى فى حاجة للطلاء.

وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب قرروا الطلاء وقد وضع البناءون الطبقة السابعة من الحجارة وفى يوم الخميس صفوا الحوض الذى أعده من ناحية ومن جهة أخرى اصلحوا وسووا الأخشاب التى جهزت لتغطية السقف وفى يوم الجمعة أعدوا الحجارة الموجودة وفى يوم السبت قاموا بطلاء أربع قبب ناحية باب العمرة[1].

وفى يوم الأحد العشرون من رجب رصوا الطبقة الثانية من الحجارة وقاموا بتزيين وتحلية الأعمدة التى بجانب باب البيت المطهر والتى غلفت بالفضة بنقوش ذهبية، ثم وضعوا الخشبة التى فوق القبة العليا للباب وركبوا مصراعى البيت القديمين.

(١) سجل سهيلى أفندى فى مضبطته أنه قد استخدم فى طلاء كل قبة من هذه القبب ثلاث أرادب من مونة وأنفق أربعة آلاف قطعة ذهب لمونة أبنية الحرم وسبعة آلاف قطعة ذهب للأخشاب التى استخدمت فى البناء.

وقد كتب فوق الخشبة المذكورة بنقوش ذهبية (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد نصب العمودان اللذان بطرفى الباب والمغلفان بالفضة فى عهد السلطان المرحوم سليمان خان سنة ١٩٥٠ هـ.

والمصراعان اللذان قلنا عنهما القديمين كانا قد صنعا أيام الملك الظاهر بيبرس من سلاطين مصر وقد بليا بمرور الوقت، لذا قد بَدَّلَ السلطان سليمان غلافهما الفضى وزينها بالنقوش الذهبية ووضعهما فى مكانهما.

وفى اليوم الذى نقش فيه العمودان بدئ فى رص حجارة الطبقة التاسعة من جهة الركن العراقى وأخذوا فى صنع الإسقالة الداخلية التى احتيج إليها، لأن الجدار كان قد ارتفع عن عتبة باب كعبة الله.

لما ركب باب البيت الشريف جربه رضوان أغا بأن فتحه وأغلقه عدة مرات ثم أتى بقطعة من إسفنج نظيف وغسل جميع جدرانه بماء زمزم ثم أغلقه بمفتاح.

ولما كان المفتاح يوضع فى باب البيت مع صوت أذان الظهر ارتفعت الأدعية بطول عمر السلطان وزيادة قوة دولته ورقيها. بعد أداء صلاة الظهر أسرع البناءون بإتمام الطبقة العاشرة من جدران البيت وشغلوا إلى يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب بطلاء البيت بالكلس وإعداد الأخشاب بمسحها وتسويتها وفى نفس اليوم ركبوا أحجار الطبقة الحادية عشرة.

وفى يوم السبت السادس والعشرين من رجب أعطى ابن شمس الدين بقية الأخشاب الخاصة إلى النجارين لتسويتها وبعد ما رص البناءون حجارة الطبقة الثانية عشرة بدأوا فى نحت وإصلاح أحجار البيت الشريف القديمة.

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب استحضرت الأخشاب اللازمة لسقف الكعبة المعظمة وهيئ ثمان وثمانون عمودا خشبيا تماثل الأعمدة الخشبية القديمة فى الطول والعرض والقطر وابتدئ فى إعداد الألواح الخشبية التى تغطى الأعمدة السابقة، وذلك بمسحها الطبقة الثالثة عشرة كما رصوا قطع الرخام اللازمة لسطح البيت على الأرض بعضها بجانب بعض لفرزها وما وجدوه معيبًا

نحوه جانبا لتسويته وإصلاحه، وبعد ذلك بدءوا فى رص أحجار الطبقة الرابعة عشرة التى تعد مبدأ النصف الأعلى للكعبة المعظمة.

عندما ارتفعت جدران كعبة الله إلى نصف علوها امتلأت ساحة المسجد الحرام سواء بالحجارة القديمة أو كانت الأحجار الجديدة المنحوتة والمستلزمات الأخرى مثل الكلس والرمال والأخشاب حتى لم يبق مكان للسير فى المسجد الحرام.

وأخذ الناس فى الشوارع والأسواق والمحافل العليا والسفلى وخاصة فى المجالس غير الرسمية التى تجتمع فى داخل الحرم الشريف يتحدثون ويقولون إن رضوان أغا يهين البيت الأعظم وذلك أنه قد نوى أن يكسب أموالا كثيرة بزيادة النفقات غير اللازمة.

إن أحدًا من الأسلاف لم يتجرأ بأن يمد يده للحجارة التى بنى بها خليل الله ـ عليه السلام ـ الكعبة. وما الحاجة إلى الحجارة الجديدة؟! مادامت الحجارة التى بنا بها عبد الله بن الزبير الكعبة متوفرة؟! وقد أطال الناس ألسنتهم على رضوان أغا بمثل هذه الكلمات غير اللائقة وأبلغ بعض العلماء الخيرين رضوان أغا بهذه الأقوال؛ وبما أن رضوان أغا انزعج انزعاجا شديدًا وخاف من حدوث فتنة وبما أنه كان بريئا من كل ما يجرى على ألسنة الناس ظل يطوف البيت سبع مرات بعد أداء الصلاة مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ويتضرع لواهب الآمال باكيا؛ وكان يخاطب ربه فى ختام كل طواف بكل تذلل وانكسار رافعا يديه ويقول:

يا رَبِّ إنك ترى كل شىء إن الأنبياء العظام والأولياء ذوى الاحترام وكافة الملائكة نالوا المغفرة بخدمة بيتك العظيم. إن هدفى من كل عملى هو نيل رضاك وليس إهانة البيت. يا إلهى أخف واستر بجاه قدرتك وعظمتك الأشياء الزائدة عن عيون الناس وأنج عبدك هذا من اعتراضات الناس وأقاويلهم يا رب إذا زادت الأحجار والأشياء الأخرى عن حاجة البيت. فمر ملائكتك يرفعونها إلى السماء أو يدفعونها فى الأرض، وبمثل هذه الأقوال أخذ يناجى ربه باكيا منتحبا.

وقد أصاب دعاؤه هدفه فنال الاستجابة، إذ لم يزد أى شيء عن حاجة البيت سواء كانت الحجارة الجديدة أو الحجارة القديمة أو المستلزمات الأخرى وكأن كل شيء حسب حسابه بدقة شديدة لم يزد حجر ولم ينقص حجر. انتهى.

وفى يوم الأربعاء غرة شعبان رفعت الستارة الخضراء التى كانت تغطى الكعبة إلى نصفها ورأى الأهالى غرة كعبة الله ورفعوا أيديهم بالتضرع إلى الله شكرا ومسحوا وجوههم فى كعبة الله المفخمة. وفى يوم الجمعة الثالث من شهر شعبان فرشوا رخام النصف الثانى للسطح الشريف ووضعوا على كل واحد منه علامات معينة وأعدوا الأخشاب اللازمة، وفى اليوم الرابع من رجب الموافق يوم الجمعة رفعوا ستارة البيت وطووها.

رفعت ستارة كعبة الله الشريفة وظهر جمال كعبة الله بدون نقاب حينئذ امتلأت قلوب أهل مكة بالفرحة والسرور ولمعت عيونهم بالنور وأخذوا يدعون له ولسلطان العالم خير الدعاء.

وفى يوم الجمعة شرع فى رص الطبقة السابعة عشرة من الحجارة وتم معاينة أخشاب معظم السقف واختير الصالح منها لاستخدامها فى السقف أيضا ونُحِّيَتْ جانبا، وفى يوم الأحد الخامس من شعبان كلست ودهنت القباب الثلاثة الشمالية التى أعدت لذلك قبل ثلاثة أيام، وفى يوم الاثنين السادس من شعبان شرع فى تعمير مئذنة[1] باب الحزورة وفى يوم الأربعاء الثامن منه قد كُرِّمَ أحمد قبانى أفندى الذى كان أرسل الأخشاب اللازمة من جدة إلى مكة وذلك بإلباسه الخلعة وبهذا أعلى قدره، كما حفر أسس الأعمدة التى فى داخل الحرم وجعل لها قواعد من حجر الشمليس، وفى يوم السبت الحادى عشر من شهر شعبان المعظم رفعت أسقالة أبنية البيت السعيد وعلقت الألواح الخشبية التى أعدت لاستخدامها فى تغطية السقف الشريف فى أربعة أماكن لتكون جاهزة للاستخدام عند الطلب.

وفى يوم الأحد الثانى عشر منه أصلحوا وسووا الرخام المرصوص حول

(١) تم تعمير هذه المئذنة فى خمسة أيام.

الجهات الأربعة للبيت الحرام، وفى يوم السبت الحادى والعشرين أخذوا فى تأسيس شادروان كعبة الله مبتدئين من الحجر الأسود إلى حجر إسماعيل، فنصبوا أحد الأعمدة التى فى داخل الكعبة وثبتوها فوق القاعدة المصنوعة من الحجر ولزيادة المتانة صبوا حولها الرصاص المنصهر.

وفى يوم الثالث عشر نصبوا العمودين الثانى والثالث فى جهة، ومن جهة أخرى طلوا القباب الغربية وجدران الشادروان التى انتهى بناؤها بعد أن وضعوا بقية الخشب التى وصلت من جدة بالقرب من جدران بيت الله.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من شعبان رفعوا الأشياء اللازمة للسقف الشريف.

ورصوا حجارة الطبقة العشرين وفى يوم السبت الثامن عشر منه طلوا الأعمدة التى داخل الكعبة بالزعفران ثم مسحوها بالصمغ العربى والغراء وفى اليوم التاسع عشر (الأحد) انتهوا من ترميم مئذنة باب الحزورة وفى يوم الثلاثاء صنعوا السقف العالى[1] لبيت الله.

وفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان وضعت أعلام قبب المسجد الحرام فى أماكنها بعد تزيينها وفى يوم الخميس الثانى والعشرين رصت حجارة الطبقة الخامسة والعشرين وجمعت الباقية من مبانى البيت الشريف نقلت إلى جانب المقام المالكى[2].

وفى يوم السبت الرابع والعشرين وضعت مداخل السقف الثانى وشرع فى صنع السلم[3] الذى يصعد منه إلى سطح كعبة الله وحلت جميع الإسقالات التى فى داخل الكعبة المعظمة وأخرجت خارجها.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين بعد أن فرشت قطع الرخام فوق السقف

(١) يوجد فاصل بين السقفين مقداره ما يقرب من ذراع معمارى.

(٢) كان عدد الحجارة خمسين حجرا.

(٣) كان هذا السلم حلزونياً ويتكون من اثنتى عشرة درجة. عجز النجارون عن إكماله ولكنهم استطاعوا أن يكملوه بعون مهندس مصرى يسمى عبد الرحمن.

الشريف أخرجت الكسوة الحمراء للمقام الشريف وفرشت فى صحن مسجد قريب من باب أجياد وخيطت جيدا ثم أخرجت الستارة السوداء المحفوظة داخل المقام الشريف ووضعوها بجانب سبيل المؤيد. وعلقت الكسوة الحمراء فى سقف كعبة الله وربطت فى الحلقان الجديدة وذلك فى وقت العصر. وكانوا يربطون الستارة من قبل ذلك بمسامير يغرسونها داخل أبنية بيت الله.

رؤيا غريبة

قدم أحد الصالحين الكرام من بخارى لزيارة الحجرة المعطرة النبوية فى المدينة المنورة إلا أنه مرض فى مكة المكرمة فى أثناء تجديد الكعبة واضطر لأن يبقى هناك.

وقد رأى فى منامه النبى ـ ﷺ ـ وقد لبس قميصا أبيض وقال له:

«طب نفسا... ولا تتألم ولا تحزن... إن زيارتك قد قبلت... نحن هنا منذ أن شرع فى تجديد أبنية كعبة الله ولن نغادرها حتى يتم تجديد مبانى كعبة الله».

حكاية أخرى

قد رأى أحد الصالحين فى رؤياه كثيرا من جنود الجن فخاطب واحدا منهم: إنكم كتيبة من طائفة الجن ما سبب بقائكم فى الحرم الشريف؟

فأجابه قائلا: نحن من طائفة الجن. وبما أننا مسلمون قد أمرنا بخدمة بيت الله، لأجل ذلك دخلنا الحرم الشريف لنقوم بالعمل! قائدنا فى المدرسة الداودية. وكنا هنا منذ الشروع فى بناء البيت ولن نترك هذا المكان حتى ينتهى العمل فى أبنية بيت الله. انتهى.

وفى يوم الاثنين السادس والعشرين تمت خياطة بقية الستارة الداخلية وعلقت فى مكانها. وقدم أمير يَنْبُع سيد على ابن الدراج مع رسول والى مصر محمد على باشا حاملا الخلعة لأمير مكة المعظمة.

وكانت الأحزمة الحديدية، والميزاب الشريف الذى كان مطليا بالمينا البنفسجى

فوق الفضة والتى أرسلها السلطان أحمد سنة ألف وعشرين حفظت فى دار رضوان أغا فى أثناء تجديد المبانى الكريمة، وفى يوم الأربعاء الثامن والعشرين أخرجوها حاملين إياها بالتسبيح والتهليل والتوقير والتعظيم، وركبوها فى مكانها فى البيت المعظم. وكان الأشراف والعظماء والأعيان والعلماء الكرام وأهل مكة فى أثناء ذلك قد اجتمعوا فى المقام الحنفى حيث كانوا يشاهدون كيفية وضع الميزاب الشريف، ولما تمت العملية عادوا وهم يدعون لسلطان العصر.

وفى يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان نزعوا معظم الأساقيل وقد انتهوا من جميع الأعمال الخاصة بالطلاء والتبييض ورص الحجارة والرخام، وفى الجمعة الثلاثين من شعبان هيئوا أحواض الكلس وخمروه. وفى غرة رمضان ومع طلوع الشمس نشروا ستارة كعبة الله السوداء أمام باب الصفا ونظفوها جيدا ثم رفعوها إلى سطح كعبة الله فى حضور أمير مكة والأشراف والأعيان والقضاة والعلماء والفقهاء وشيخ الحرم وقاضى مكة المكرمة وصعد رضوان أغا مع العمال فوق السطح الشريف وألبس الكعبة الشريفة الستارة وربطها من أطرافها الأربعة ربطًا جيدا، ثم أحضر ستارة باب المعلا للكعبة الشريفة من مقام إبراهيم وعلقها فوق الباب ذو الفيوضات الإلهية.

وبعد ذلك ترك خادمو البيت الستارة الشريفة من فوق السطح حتى وصلت إلى أرض المطاف. ثم أحضر عشر خلع بأمر رضوان أغا وألبس الشريف عبد الله اثنين منها كما ألبس منها الباشا الوالى وحامل مفاتيح الكعبة وناظر الأبنية السعيدة سيد محمد الأنقروى أفندى وأعطى خلعة للشخص الذى عينه ثم ألبس الباقى لرؤساء العمال من البنَّائين والنجارين.

وفى ليلة الأحد اليوم الثانى من رمضان أوقدت قناديل بيت الله وفى يوم الأحد فرشوا رخام السطح الشريف كما تم فى نفس اليوم جميع الأعمال الخاصة بالشادروان.

وفى يوم الاثنين الثالث من رمضان جاء من قبل والى مصر الوزير موسى

باشا، رسولاً يحمل خلعة سلطانية ورسالة إلى الشريف عبد الله وجمع الشريف عبد الله الأشراف والعلماء والفقهاء فى ساحة الحطيم الكريم ليلبسه الخلعة السلطانية أمام الناس ثم قرأت الرسالة السلطانية وأمر بفتح بيت الله. ودخل الناس داخل كعبة الله حيث صلوا صلاة الشكر ودعوا للسلطان بطول العمر ثم تفرقوا.

وزار الرسول الذى حمل الخلعة من مصر، رئيس المعماريين يوسف أغا والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى والشريف عبد الله بناء على دعوته وكان معهم حامل مفاتيح بيت الله قارئ الأدعية أبو السرور ورئيس المؤذنين. وقد ألبس كل واحد منهم خلعة من قبل الإمارة الجليلة.

وفى يوم الثلاثاء الرابع من رمضان صعد البناءون فوق سطح البيت وحلوا الأساقيل ووضعوا أنقاضها منها فى مكان قريب من رباط الغورى كما انتهوا من ملء شقوق الحجارة وطلاء الجدران وشرعوا فى تجديد محراب المقام الحنبلى. ثم أخذوا فى فرش وتركيب قطع الرخام التى تتصل بأرض المطاف مبتدئين من الركن اليمانى ومتجهين نحو الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين العاشر من رمضان هدم المهندس المصرى عبد الرحمن أفندى جدار المقام الحنبلى وبناه من جديد.

وفى يوم السبت الخامس عشر من رمضان تفقد رئيس المهندسين آق شمس الدين أفندى والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى مع رضوان أغا دار السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ لإصلاح ما يحتاج للترميم منها وهدموا المقام المالكى وجددوا بناءه بالحجر الشبيكى.

وفى يوم الأحد السادس عشر من رمضان رفعت الآلات والأدوات التى كانت فوق حِجْرِ إسماعيل وحفرت الأرض بدءا من جهة مقام إبراهيم من الباب إلى الباب الآخر من الحطيم الكريم وذلك لتجديد وإصلاح جدران الحِجْر[1] وفى أثناء

(١) فكلمة الحجر التى جاءت مضافة إلى إسماعيل تقرأ بكسر الحاء وسكون الجيم.

الحفر أخرجوا كثيرا من الحجارة. ويحتمل أن تكون هذه الحجارة من بقايا الجدران التى بناها عبد الله بن الزبير. وقد كتب الإمام الأزرقى فى تاريخه إن الحجاج الظالم قد دفن الحجارة المتبقية فى جوف الكعبة.

وبعد ما تم إصلاح وترميم حجر إسماعيل رفعت الأساقيل وجمع كل ما على الأرض من لوازم البناء وكومت تحت القباب التى فى باب إبراهيم ثم كنست الجهات الأربعة للبيت الحرام ومسحت بالماء. وقد هدمت جدران الحطيم وشرع فى بنائها فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان وانتهى البناءون من بنائها يوم الخميس العشرين من رمضان كما غطوا الجهة التى فى مقام إبراهيم بالرخام.

وقد كتبت على قطعة رخام منها أسماء الخلفاء العظام، والسلاطين الذين جددوا ورمموا الحطيم الكريم، وكان جدار الحطيم الذى تهدم بناه سلطان مصر الغورى فى القرن العاشر.

وفى يوم الأحد الثالث والعشرين غطى البناءون جدران الحطيم الداخلى المقابل للكعبة الشريفة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رمضان نقلت قطع الأخشاب التى بقيت أمام باب إبراهيم. إلى جهات باب الزيارة، وبعد ذلك رمم الرصيف الذى بين المطاف الشريف والحرم اللطيف.

وفى يومى الثلاثاء والأربعاء الرابع والعشرين والخامس والعشرين من رمضان ركبوا الباب الحديدى الذى يؤدى إلى سلالم سطح الكعبة الشريفة.

وفى يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أسدل المهندس محمود أفندى أمام الحجر الأسود ستارة وأخذ يملأ الشقوق التى حول الحجر الأسود ويثبته وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان تمت الأعمال التى فى داخل الكعبة.

وقد تفقد سادة البلاد وموظفو الحكومة الأماكن التى بنيت والأشياء التى

صنعت وشاهدوا جمالها الظاهرى ورصانة المبانى وقدروها حق قدرها. وسدوا الباب الغربى الذى ظل مفتوحا لذلك اليوم بالحجر الشبيكى وكتبوا محضرا يبينون فيه أن الأبنية السعيدة قد تم العمل فيها على أحسن وجه من الرصانة والجمال. وأبلغوا ذلك إلى والى مصر العام.

وخلع السلم الموقت الذى كان قد صنع لنزول النجارين والبناءين وصعودهم أثناء البناء. وأخذوا بعد ذلك يصيغون داخل القبة الكبير ـ هذا المكان الآن ساحة دار الكتب التى نقلت إلى داخل المدرسة السليمانية ـ وانتهوا منه فى ذلك اليوم.

ونزعوا العمود الذى يحمل قبة سقاية العباس ـ هذا المكان الآن ساحة الدار المؤقتة الذى أدخل ناحية باب السلام ـ وبما أن أسفل ذلك العمود كان قد بلى غيروه بالحديد وصنع البناءون القبب الشمالية من المسجد الحرام ثم غيروا كسوة الكعبة القديمة والستارة التى على الباب وألبسوها الستارة الجديدة كما علقوا الصفحة[1] فوق باب الكعبة وقد تمت هذه العمليات إلى آخر رمضان الشريف. قد كتبت على الصفحة البنفسجية المذهبة المعلقة فوق باب كعبة الله الآية الآتية: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

كما كتب تحتها التاريخ الآتى:

تاريخ اللوح

اللوح ذا لما استرم مجددا

قد بدل السلطان أحمد عسجدا

قيدا له من حديد ذو جدا

الله أنعم بالمجدد أيدا

الهمت فى تاريخه لما بدا

للوح ذا السلطان أحمد جددا

١٠٢٠

قد سطر هذا التاريخ فوق الأحزمة الحديدية التى أرسلها السلطان أحمد فى سنة ١٠٢٠ فى ثلاثة أسطر.

بعد ما علقت الستارة المذكورة نزلت الكسوة القديمة وعلقت الستائر الجديدة البديعة. وكان من عادة الملوك كلما بدلت ستائر الكعبة القديمة أن تقسم هذه الستارة بين خادمى بيت الله كما فصل فى الصورة الخاصة بهذا الموضوع.

مكافأة رضوان أغا على جهده وإخلاصه

قد قدر ما بذله رضوان أغا من جهد جهيد وسعى عظيم وما أظهره من إخلاص وحرص شديد فى أثناء بناء الكعبة وقوبل بإعجاب شديد؛ لذا قرر الشريف عبد الله حامل مفاتيح الكعبة والآخرون ممن يقومون بخدمة البيت الحرام أن يتنازلوا عن حصصهم فى الكسوة القديمة وأن يجعلوها هدية وهبة التقدير والتهنئة لرضوان أغا وعرضوا الموضوع عليه قائلين: إن ما بذلتم من الجهود وما أظهرتم من همة وما قدمتم من سعى لَمُقَدَّرٌ عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا شك أنكم ستنالون ثوابه، إلا أننا نتمنى أن ينال رجاؤنا هذا القبول عندك.

قد قبل رضوان أغا ما عرضوه عليه ولكنه قال: وليس من المعقول أن أحرمكم من فوائد هذه العادة الطيبة، قد تلقيت هديتكم بحسن قبول، وإذا ما تفضلتم بقبول هديتى هذه مقابل هديتكم على أن توزع بين خدام بيت الله لزدتمونى فرحا وسرورا ثم أعطى أربعين ألف قطعة ذهب هدية لخدام البيت.

وقد فتح باب البيت الشريف فى يوم الخميس الخامس من شوال ودخله الرجال والنساء وتضرعوا إلى الله منتحبين باكين ودعوا للسلطان بدوام دولته وشوكته.

وفى يوم السبت السابع من شوال غيروا قطع الرخام التى تكَسَّرَتْ ثم حفروا حفرة بين المدرسة السليمانية وبين دار ميرزا وملئوها بالأدوات والآلات الخاصة بأبنية كعبة الله وهالوا عليها التراب وغطوها بالحصى.

ثم رفعوا مخلفات الهدم المتراكمة بين باب الزيارة وبين المدرسة السليمانية وغيروا الدعائم الخشبية البالية لمقام إبراهيم.

وفى يوم الأحد الثامن من شوال قلعوا باب مقام إبراهيم ووضعوا مكانه ستارة ودهنوا الباب فى داخل هذه الستارة وطلوه وزينوه بالذهب وأصلحوا الطرق التى بين صفة المطاف وباب السلام وباب الزيارة وباب العمرة وباب الحزورة وباب الصفا وسووها وغيروا حجارتها.

وفى يوم الاثنين التاسع من شوال جددوا الأحزمة الحديدية التى حول الدعائم التى تحمل القبب ورمموا قبة سقاية العباس بعد أن نصبوا الإسقالة وجددوا الأماكن التى كان قد رممها شيخ الحرم حسن باشا.

وفى سنة ١٠٢٠ وفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال دهنوا الشباك الذى بين شبابيك مقام إبراهيم بالدهان الأخضر ثم زينوها بنقوش ذهبية وكتبوا اسم السلطان مراد خان الرابع فى جهة من جهاته.

وفى يوم الأحد الخامس عشر من شوال طهروا مجرى باب إبراهيم بعدما سحبوا المياه التى كانت قد تراكمت تحت أحجار كعبة الله.

وبعده بيوم فى السادس عشر من شوال طهروا باب الزيارة وباب السلام وأرض المسجد ونقوا البئر التى فى ساحة باب الندوة وكان ماء هذه البئر مشابها لماء زمزم، وكان حسن باشا قد نقى هذه البئر من قبل إلا أنه كان قد سدها مؤخرا وأما فى هذه المرة فقد طهرت ثم غطوها.

وفى يوم الثلاثاء السابع عشر من شوال غسلوا الرمل المفروش فى الحرم الشريف ثم فرشوه مرة أخرى وأصلحوا سلم السطح الشريف.

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شوال صبغوا مئذنة باب العمرة.

وفى يوم الخميس التاسع عشر من شوال حفروا حفرة عميقة وبنوا سدا متينا ليمنعوا دخول السيول التى قد تأتى من ناحية جبال أجياد.

وفى يوم الجمعة العشرين من شوال جلوا رخام كعبة الله الذى فى جدرانها الداخلية، ووضعوا الكرسى الخاص لجلوس حامل مفتاح الكعبة فى مكانه بعدما زينوه، وكان هذا الكرسى مرصعا مزينا وقد أهدى فى عصر سلطان مصر الغورى وقد صنع بمصر.

وقد طلى كمر باب بيت الله فى ذلك اليوم وكتبت فوقه الآية المنيفة: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠) كما كتب آية واحدة من أول سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ وكتب تحت هذه الآية المنيفة اسم السلطان مراد الرابع وتاريخ الأبنية المقدسة ـ الذى سيحرر فيما بعد ـ بحكمة على أرضية لازوردية وطليت الكتابة بالذهب.

* * *

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الثاني

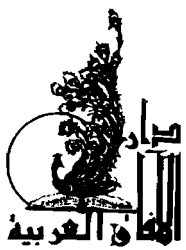

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الثانى (مرآة مكة)

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

تقرب بتجديد هذا البيت العتيق إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ خادم الحرمين المحترمين وسائق الحجاج من البرين والبحرين السلطان بن السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان خلد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ملكه وأيد سلطنته فى أواخر شهر رمضان المبارك المنتظم فى سلك سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل التحية سنة ١٠٤٠.

وفى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شوال أنهى البنّاءون أعمالهم.

وفى السبت الخامس من ذى القعدة صنعوا مئذنة باب الزيارة وبنوا الجدار الذى يواجه صفة باب إبراهيم وأتموا صبغ حجارة الشادروان وداخل مبانى بئر زمزم وكذلك صبغوا بالكلس مئذنة السلطان قايتباى المصرى والدار التى ولدت فيها فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وأتم البنّاءون صبغ دار ولادة فاطمة رضى الله عنها مهبط الوحى الإلهى ومعبد سيد المرسلين.

وفى يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة أتموا صنع حجر التاريخ ووضعوه فى دار ناظر الحرم.

وفى يوم السبت الثالث عشر من ذى القعدة طلوا ذلك الحجر بقشرة وزخرفوه بالذهب. وبعد ذلك سدوا الحفر التى حفرت من أجل الكلس.

وفى يوم الاثنين الخامس عشر من ذى القعدة أصلحوا قبة العباس والأبنية التى بجانبها، وفى يوم الثلاثاء السادس عشر من ذى القعدة أصلحوا قبة الفراشين وبيت زمزم وكمر بابه.

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من ذى القعدة اجتمع رضوان أغا ومعه الشريف عبد الله وقاضى مكة وشيخ الحرم وأعيان البلد أمامهم جميعا لحمل

القناديل التى وضعت فى بيته لحفظها، وكان عشرون منها من ذهب وكان أحدها مرصعا باللآلئ وكان ثلاثون منها من فضة، وسلموها جميعا إلى حامل مفاتيح البيت محمد شيبى أفندى، وقد تأكد مرافقو رضوان أغا أمام جميع الناس من صحة ما قيد فى الدفاتر من القناديل، ثم استقدموا رئيس الوقادين ليعلقها فى أماكن مناسبة.

وبعد ذلك بيومين فى التاسع عشر من ذى القعدة وضعوا لوحة التاريخ المذهبة السابقة الذكر فى مكان مقابل الباب الشرقى وثبتوا أطرافها.

وفى يوم السبت العشرين من ذى القعدة فتحوا باب بيت الله وغسلوه بزمزم ومسحوه بالإسفنج وبخروه بأنواع الطيب وذبحوا القرابين ووزعوا لحمها لفقراء مكة.

وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ذى القعدة تم جلى الأحجار، وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من ذى القعدة أنزلوا ستارة بيت الله ونظفوا الجدار الذى فيه باب الكعبة وجميع جدران الناحية الجنوبية.

وفى غُرَّة ذى الحجة أصلحوا ما حول الحجر الأسود وغطوا الشقوق وطلوا أطراف الحجر الأسود باللون الأسود وهكذا أتموا عمليات أبنية المسجد الحرام.

دعا رضوان أغا الأكابر والأشراف والأعاظم والسادات والعلماء والفقهاء من مكة المكرمة فى اليوم الذى انتهى فيه من تجديد البيت، وعرض عليهم العمارة الجيدة لكعبة الله وجعلهم يعجبون برصانة ما تم عمله فى البيت الحرام وسطحه والمسجد الحرام فى داخله وخارجه مما أدخل الفرح والابتهاج فى قلوب الناس فانشرحت صدورهم فدعوا للسلطان بطول العمر له ولدولته.

بعد ما شاهد المدعوون بيت الله أخذوا يتلون القرآن الكريم وختموه عارضين شكرهم لله كما دعوا لقاضى الحاجات بدوام القوة والعزة للدولة.

كما ألبس الشريف عبد الله خلعا غالية لرؤساء العمال الذين عملوا فى البناء وذلك ليظهر مدى ابتهاجه بما تم عمله ولم ينس رضوان أغا إذ ألبسه خلعة مفخمة تليق بمكانته.

قال سلطان الشعراء العثمانيين مولانا عبد الباقى وهو يبين كيف تم تجديد بناء كعبة الله على يد الحجاج الظالم فى السنة الرابعة والسبعين الهجرية: (لم يعط مسوغ لتجديد كعبة الله بعد الحجاج حتى لا تكون كعبة الله ملعبة فى يد الملوك.

إلا أنه كان يجب تطهير الكعبة التى هى قبلة المسلمين والمطاف الذى يجب طوافه على القادرين من المسلمين ـ وكان يلزم إضافة تجديد كعبة الله إلى هذا السفاك غير المنصف. وخاصة أن تجديد بناء الكعبة لم يعد بيد ابن الزبير وإن خدمة هدمها وتجديدها سيكون من نصيب أحد الملوك العظام من المسلمين. وإننى أرجو من الله أن يفوز بهذه الخدمة أحد سلاطين الدولة العثمانية).

وقد أصاب دعاء مولانا المشار إليه هدفه واستجيب دعاؤه وقد نال هذا الشرف العظيم السلطان مراد خان الرابع بينما كان باقى أفندى يتمنى رؤية تجديد البيت الشمالى فقط. قد وفق ذلك السلطان العظيم فى تجديد جدران كعبة الله الأربعة.

الخاتمة:

إن ما قام به رضوان أغا من أجل تجديد الأبنية المفخمة للبيت الشريف من خدمات وما بذله من سعى مخلص ومن جهد جهيد وحسن معاملته أهل كعبة الله المحترمين ومجاملتهم ومداراة عيوبهم كل هذا يدل على استحقاقه الثناء والشكر وأن يذكرونه دائما بالخير.

يقول سهيل أفندى صاحب المضبطة الذى كان يقوم بمراقبة الشئون المالية فى نفس الوقت الذى كان رضوان أغا قائمًا بتجديد أبنية كعبة الله: «إذا كان المسئول المكلف بتجديد الكعبة غير رضوان أغا لكان أشراف مكة وطائفة النجارين كسبوا مقدار مائتى ألف قطعة ذهبية من عمليات بناء وتجديد الكعبة الشريفة وعين عرفات ـ هذا ما اعترفوا به لصاحب المضبطة ـ إلا أن رضوان أغا استطاع بكياسته أن يسكت الذين فتحوا أفواههم بالكلام بإعطائهم شيئا قليلا، كما أخجل الأشراف بحسن معاملتهم، وهكذا جعلهم كلهم يشاركونه فى رأيه ويعينونه فى إنهاء الأمور الصعبة، وكان يقول لهم: سوف أحصل لكم فى نهاية هذا العمل

العظيم وما قدمتموه من الخدمات الجليلة على مكافآت من قبل السلطان فى صورة المناصب التى ترضيكم. كما كان يرضى الآخرين بوعود قد لا تتحقق وهكذا أتم هذا العمل العظيم فى صورة هينة سهلة. جزاه الله تعالى خيرا كثيرا.

فيا لها من سعادة سرمدية ويالها من دولة وعزة أن يتم هذا كله فى عهد السلطان مراد بن السلطان أحمد خان بن محمد خان الغازى السابع عشر من سلاطين آل عثمان خلد الله ـ تعالى ـ ملكه وجعل بساط البسيطة ملكه ونورالله تعالى مراقد أسلافهم وحفهم بالرحمة والرضوان.

إن إتمام تجديد كعبة الله وبنائها لدليل عظيم على سعده وحسن طالعه، قد مضى ألف سنة وتوالى السلاطين ومع ذلك لم يقدر لأى واحد منهم أن ينال شرف بناء بيت الله أَلاَ يقوم هذا برهانا قاطعا وأمارة واضحة على أنه سينال السعادة الأبدية والنصرة السرمدية؟. ونسأل الله أن يجعل عرشه فى سماء العز واليمن والبركات وألا يخلو من سرير الخلافة جلوسه. آمين بجاه سيد المرسلين.

وبعد عودة رضوان أغا إلى مصر بعام واحد اقتضت حكمة الله أن يهطل المطر فى مكة وأن يفسد ما فرش على سطح بيت الله من رخام، فأصبحت حالة سطح بيت الله حالة سيئة، وخلع ألواح الفضة من على الباب فظهر منها الخشب وقد أصاب العطب الخشب إلى حد عدم تماسك المسمار فيه. وكان مصراعاه قد بليا إلى درجة سيئة لقد خَشَّبْتُهُمَا حتى أصبحا غير قابلين للتعمير والترميم، ومع ذلك لم يسمح بتجديد الباب ولم يستسغ شرعا من قبل، ولما كان مقام إبراهيم فى نفس الحالة من السوء اقتضى الأمر تجديدهما معا.

وقد كتبت إمارة مكة الجليلة الهاشمية إلى صاحب القرار السلطان مراد ـ جعل الله سلطنته باقية فيه وفى عقبه إلى يوم التناد ـ تحيطه علما بالحالة، فما كان من السلطان إلا أَنْ أمر والى مصر أحمد باشا بأن يبعث إلى مكة المفخمة برضوان أغا الذى كان فى أمانة كعبة الله أو شخصا آخر متدينا مخلصا مصاحبا معه مهندسا معماريا ذا دين وخلق.

استدعى أحمد باشا رضوان أغا ورئيس المهندسين عبد الرحمن أفندى الذى كان قد اشترك فى تعمير البيت من قبل وأطلعهما على الإرادة السلطانية السنية الخاصة بإصلاح سقف بيت الله وتجديد باب المعلا للكعبة الشريفة وترميم وتعمير مقام إبراهيم. وأن يرسل باب الكعبة القديم إلى دار السعادة ليحفظ فى الخزانة السلطانية للتبرك به. وأمرهما أن يتجها رأسا إلى مكة المكرمة للقيام بالمهمة وسلم الوالى رضوان أغا الخطاب السنى الذى وجه إلى الشريف زيد بن محسن من قبل السلطان وكذلك الرسائل التى كتبت من قبل الولاة المصرية بخصوص هذا الأمر والمبلغ الكافى من النقود.

ولما اطلع رضوان أغا على الأمر السلطانى تحرك بأمر الوالى بالموكب المصرى مغادرًا القاهرة ومتجها إلى والى الحجاز ووصل إلى مكة المكرمة فى أوائل ذى الحجة سنة ألف وأربع وأربعين الهجرية وسلم إلى الشريف زايد بن محسن ـ أمام من يقتضى وجوده من العظماء ـ الأمر السلطانى وخطاب الوالى. وبعد ما قرأ الشريف الأمر السلطانى قالى إنه سيحرص على العمل بما جاء فى الفرمان السلطانى.

إن تكليف رضوان أغا بهذه المهمة كان عاملا لإثارة النزاع بين المعترضين للمرة الثانية. وإن كثيرًا من العقلاء من أهالى مكة أرادوا أن يقضوا على النزاع قائلين قد صدر الأمر السلطانى بهذا الخصوص فلا يجوز النزاع بعد ذلك. إلا أن بعض الفضلاء قالوا معترضين: إن تعمير البيت لا يجوز شرعا وهم فى هذه الحالة مخالفين بذلك حتى وصية الشريف ولم يكون غرضهم من الاعتراض إلا إحداث الفتنة والفساد إلا أنه كان بين المخالفين بعض المنصفين الذين وافقوا على الأمر السلطانى، واتحدوا مع العلماء فى الرأى على تجديد الباب الشريف وإصلاح رخام السقف المنيف لكعبة الله.

وأيقظوا عامة الناس ونبهوهم إلى أن الكعبة المعظمة قد جددت من قبل مرات

عديدة وذلك بتأييد من العلماء والفقهاء والفتاوى التى صدرت من قبل مفتىّ المذاهب الأربعة.

وقد استمع الشريف زيد بن محسن لقراءة الفرمان السلطانى وهو واقف على رجليه وبعد القراءة مسح بالصفحة التى تحوى الأمر السلطانى وجهه وعينيه ثم استمع إلى ادعاء المعارضين ودفاع الفقهاء العظام ثم خاطب الناس قائلا: بناء على حكم الفتاوى التى أصدرها مفتيُّو المذاهب الأربعة يجب تنفيذ الأمر السلطانى الذى لا يخالف فتوى المفتين بخصوص ترميم وإصلاح السقف الشريف وتجديد باب كعبة الله وتعمير وترميم مقام إبراهيم وبناء على هذا أمر رضوان أغا بأن يسرع فى مباشرة مهمته.

وقد بادر رضوان أغا فى العمل وأنهى تعمير سطح كعبة الله فى أواسط ذى الحجة من عام ألف وأربعة وأربعين. وقد قيل من قبل شعراء عصره فى تاريخ انتهاء الترميم كثيرا من الأبيات إلا أن أحسن ما قيل فى هذا الموضوع هذا البيت:

المجدد لسطح بيت الله هو مولانا مراد[1]

وبعد ترميم السطح ابتاع رضوان أغا من أحد سكان مكة مقدارا من خشب الساج لاستخدامه فى تجديد باب بيت الله وتثبيته ولم يبخل فى سبيل ذلك بإنفاق المال اللازم وقبل أن يبدأ فى صنع الباب الجديد خلع الباب العتيق ووضع مكانه بابا مؤقتًا وغطاه بستارة قطنية بيضاء وبعد أن صنع الباب الجديد وضعه فى مكانه، وقد تم صنعه على الوجه المرغوب وكان على باب الكعبة العتيق ثلاثون ألف وثمانمائة درهم من الفضة فصنع منها لوحتين فضيتين وفق طول وعرض كل من مصراعى الباب الجديد. ثم أمر بتسمير كل واحدة من اللوحتين على أحد مصراعى الباب وزخرف اللوحتين بنقوش ذهبية[2] وأنفق فى صنع عتبته وحلقاته سبعة وثلاثين ألف درهم وخمسة وتسعين درهمًا من الفضة.

(١) هذا البيت من حيث التقدير الحسابى يبدو أنه زيد عليه وقد أسقطت هذه الزيادة تعمية فى البيت الذى يحتوى على مخلص الشاعر

(٢) يقال إن زخرفة كل مصراع من المصراعين قد تكلفت عشرين قطعة ذهبية من الذهب البندقى.

وبعد ما تم وضع مصراعى باب الكعبة العالى كتب على اللوحة الفضية المثبتة على المصراعين بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠) وكتب تحت الآية الجليلة: (تشرف بتجديد هذا الباب من سبقت له العناية من رب الهداية مولانا السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان سليمان خان ابن عثمان عز نصره فى سنة خمس وأربعين وألف ١٠٤٥ كما نظم أحد الفضلاء التاريخ الآتى:

لذ بذا الباب كلما خفت ضيق المناهج

فهو باب مجرب لقضاء الحوائج

كان رضوان أغا قد عرض لوالى مصر ما تم عمله فى مكة المكرمة بمكاتبات خاصة قبل أن يصل إلى القاهرة، وقد أنهى مهمته الثانية فى مكة المكرمة وعزم على العودة إلى القاهرة حاملا معه مصراعى باب الكعبة العتيق.

وكان فى استقبال ذلك الباب السعيد الوزير حسين باشا وكبار الموظفين والعلماء المميزون وقد دخل إلى القاهرة فى تعظيم وتوقير.

ثم أمر الباشا أن يوضع الباب فى مكان مرتفع ليتبرك به الناس وأحاط السلطان علما بأن رضوان أغا عاد إلى القاهرة وقد أنهى مهمته فى مكة المكرمة وأن أهل مكة قد سروا جميعا مما تم عمله ودعوا للسلطان تكرارًا ومرارًا وقد علم بذلك من الرسائل التى ترد من مكة المعظمة.

وبعد فترة سلم مصراعى الباب العتيق لرضوان أغا لحملهما إلى دار السعادة ليحفظا فى الخزانة السلطانية ويعرضا للناس.

صورة للأمر السلطانى المرسل إلى شريف مكة مسعود أفندى بخصوص تجديد بيت الله

إن وزيرى محمد باشا ـ أدام الله إجلاله ـ الدستور المكرم، والمشير المفخم،

ونظام العالم الكائن فى محافظة مصر، وقد أرسل إلى سدتى السعيدة وعتبتى العالية وسماء اقتدارى رسالة مضمونها أن مهبط جبريل الأمين ومحل الوحى وتنزيل رب العالمين والذى نال شريف الذكر فى النص الشريف ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أن هذا البيت العتيق قد مال بعض أطرافه إلى الركوع مع مرور الأيام وكر الدهور والأعوام وأن قده وقامته مالا للسجود وقد قدر لملوك الأزمنة الماضية وسلاطينها شرف ترميمه وتعميره على قدر إمكاناتهم وفى زمن والدنا الماجد الساكن جنة الفردوس المرحوم والمغفور له ـ السلطان أحمد خان، أسكنه الله فى أعلى غرف الجنان ـ زاد ميل جدرانه للركوع ورئى جواز تعميره والترخيص له.

وحينما أراد أن ينال شرف القيام بهذا العمل الجليل القدر ويباشر تجديد بناء البيت وإذا بالشريعة الغراء ـ التى يجب تعظيمها وإطاعتها ـ لا تجيز تجديده وتسوغ ترميم جدرانها السعيدة وأركانها الركينة فقام به بعد هذا العمل مبعث فخره ومباهاته.

بينما كانت الحالة على هذه الصورة ساق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفعال لما يريد ـ فى هذا العام العميم الميمنة ـ أمطارًا غزيرة على مكة المكرمة وأطرافها فتكونت السيول واقتحمت حرم بيت الله وحينئذ قد حان لنا أن نفتخر بخطاب الله الجليل ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ (البقرة: ١٢٥)، والقيام بخدمة التجديد مما يبعثنا على الفخر ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ (البقرة: ١٢٧) وقد أحسن الله ـ سبحانه ـ وتعالى إلينا ـ إذ شرفنا بهذه الخدمة الجليلة والشرف العظيم اللذين لم ينل أحد من آبائى الكرام العظام من قبل مثلهما.

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل: ٤٠) ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. (البقرة: ٢٠٧)

والآن ـ بعد الشكر على هذه النعمة ـ قد صدر أمرنا إلى وزيرنا المشار إليه فى محافظة مصر بأن مقدارًا كافيا من أموال خراج أقباط مصر المحروسة والمال الحلال يكفى جدران البيت وتثبيت أساسه وأن يختار رجلا مستقيم السيرة

والسلوك دَيِّنًا ويعيّنَهُ أمينا لبناء البيت، وأن يرسله إلى مكة حيث يجتمع مع علمائها الأجلاء وأشرفها وفضلائها الآخرين من أرباب الرأى الرزين وأصحاب الفكر المتين بعد الاستشارة والاستخارة، ويعمل بناء على ما تم عليه القرار واستقر عليه الرأى، ويقدم على إتمام هذه الخدمة ويسعى على إنهائها على خير وجه.

وبما أننا نثق فيك ويشتد حسن ظننا بك نرسل بهذه الرسالة التى تحتوى على أمرنا.

عند وصول رسالتنا هذه عليك أن تعمل بمقتضى ما جبلت عليه من صدق ونجابة وما أودع فيك من رشد وأصالة. وبعدما يصل من قبل وزيرنا المشار إليه المال الحلال الكافى لبناء البيت وأمين البناء ومراقبه أن تبتدر ببناء البيت المعظم وتعميره وذلك بعد ما تستشير العلماء الأجلاء حسب مدلول القول ما «خاب من استخار وما ندم من استشار» وتأخذ موافقتهم الشرعية فى كل ما تقدم عليه.

وإذا لم يكف مخلفات البيت القديم من الطين العطر والحجارة السعيدة لتجديد البناء فعليك ان تجلب ما يلزم من الحجارة من مواقعها القديمة التى استجلب منها القدماء عند تعمير البيت وتجديده، أتم بناء البيت حسبما تجيزه الشريعة الغراء.

وإننا نتجه بالدعاء إلى رب العزة ـ تعالى شأنه وعم إحسانه ـ راجين خاشعين مظهرين عجزنا وقصورنا لله ـ تعالى ـ أن يرضى عنا بخصوص بناء هذا المقام المبارك وفى سائر أعمالنا وأقوالنا وأن يوفقنا فى إتمام بناء البيت المقدس وييسر لنا إكماله آمين بحرمة سيد المرسلين سنة ١٠٣٩ ألف وتسع وثلاثين.

صورة البراءة المقدمة من قبل السلطان لرضوان أغا مقابل خدماته:

هو العزيز الغنى المغنى الفتاح وعنده مفاتيح الفلاح والنجاح تقدست أسماؤه تتابعت نعماؤه.

صورة الخط السلطانى المقرونة بالسعادة

تقديمًا لمقابل الخدمة المؤداة لمكة المكرمة يعمل بموجب هذه الصورة للخط الهمايونى وليس بعد ذلك لأحد أن يتدخل فى أى شىء ومن يتدخل ممن ذكروا فليحرم عليهم طعامى وخبزى.

صورة البراءة العالية:

هذا هو حكم السلطان سامى المكانة فاتح الدنيا زينة ملوك العالم حفظه الله بالعون الربانى والصون الصمدانى.

إن رعاية الأمراء وإكرامهم وحمايتهم واحترام علية القوم العظام، من جملة الواجبات والمهمات السلطانية ولاسيما هؤلاء الذين يخدمون الدولة بنية صادقة وعقيدة راسخة ليلا ونهارا إنهم يسرون بنيل رحمتى ومكارمى السلطانية، بسهولة كما يفرحون بالوصول إلى آمالهم بألطافى الملكية. ولاسيما الذين كانوا مثالا فى أيام خلافتى لقول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (الانسان: ٢٢) بما قدموا من جليل الخدمات.

وبناء على هذا، قد استحق رضوان أغا المختص بعناية الملك العلام، إذ كان من أمراء مصر وقد قام ببناء الكعبة المكرمة والبيت المعظم عرش مكة المعظمة زادها الله شرفا وتعظيما، وأحسن إليه بإحالته إلى المعاش بإيراد ولايته التى كان يتصرف فيها.

وإنه كان قدوة للأمراء الكرام من ذوى الأقدار والاحترام وقد نشأ ونما فى حرمى السلطانى، وكان قد بعث ببعض المهمات والخلع إلى بلاد اليمن والحبشة قد بذل فى ذلك جهده وسعيه ولذا قد استحق رعايتى بتكليفه بخدمات أخرى فى المستقبل.

وقد هطلت الأمطار بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته على منزل الوحى المبين ومهبط جبريل الأمين وبلد الله الحرام وأطرافه، واقتحم السيل العظيم الحرم الشريف، فأصاب الخلل جدران بيت الله الحرام ومطاف الأنبياء العظام ومعتكف الملائكة الكرام، وانهار بعض جدرانه مما أثار الحزن والهم فى قلوب

عامة المؤمنين وهذا ما دعا إلى تجديد بنائه وتعميره وفق طرز بنائه القديم وقد أفتى العلماء والفقهاء ذوى الاحترام متفقين بجواز تجديد بنائه. ومن هنا أصبح بناء البيت من جديد حسب طرز بنائه القديم واجبا فرضا على ذمتى وعلى همتى العظيمة. إن آبائى الكرام ـ جعل الله الفردوس مرقدهم ـ وأجدادى العظام ـ أسكنهم الله فسيح جناته ـ قد أشاع كل واحد منهم الخير وأنفقوا كلهم الأموال فى الأعمال الخيرية وبذلوا الأموال فى إنشاء الجوامع والمساجد وبناء الصوامع والمعابد وتشييد الحصون والعمائر وتجديد الجسور والقناطر فهذا معلوم لدى الصغير والكبير عند الشباب والعجائز ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ييسر لأى واحد منهم شرف القيام ببناء الكعبة وتجديدها، الكعبة التى تتجه نحوها جميع مساجد المسلمين وتتخذها أمة سيد الأنام قبلة لها، بل شرفنى بأن يكون هذا العمل من نصيبى؛ لذا فشكرى لا حد له تجاه الملك المنان ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل: ٤٠) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥) وقد عرفت أن هذا فضل عظيم خصنى الله به، لذا اخترت من طرفى ـ قرين العز والشرف ـ رجلا مستقيما دينا تقيا وعينته أمينا لتجديد أبنية الكعبة الشريفة وأوصيته ببذل السعى والجهد لإتمام البناء وكان هذا الرجل رضوان أغا بما يتصف به من الأمانة والتدين والصدق والاستقامة التى ترشحه بالأحقية فى القيام بهذه الخدمة العظيمة ولياقته لهذا الأمر.

وعرضت الأمر على وزيرى محمود باشا الذى كان واليا على مصر فى ذلك الوقت والذى نال الآن شرف العمل بين وزارتى فنفذ رغبتى بأن عين المشار إليه أمينا على بناء الكعبة الشريفة بمرتب سنوى قدره مائة ألف أقجة فى خمس مرات وهكذا نال اهتمامى إذ أحيلت إليه كل خدمات تجديد بيت الله وترك لعهدته وهمته. فما كان من رضوان أغا إلا أن شمر عن ساعد الجد لإتمام الأمور واستعجل فى إنهاء أعمال البناء بعد أن أخذ من العلماء الكرام والفقهاء العظام جواز تجديد بيت الله شرعا وهكذا جدد أبنية كعبة الله من أساسها ثم بدأ فى تعمير الجدران التى تحتاج للترميم فى الحرم الشريف مع القبب ومجارى السيول والبرك، وخاصة قلعة جدة بندر الحجاج والزوار ومعبر المسافرين والتجار، وكثيرا

من المواضع المباركة والمقامات المتبركة، طهرها ونظفها، كما أنه أنفق نقودا من جيبه الخاص ثم أحضر لنا بذاته كسوة الكعبة الشريفة القديمة لتحفظ فى خزانتى العامرة، ونال بذلك شرف المثول بين يدى، وقد كان قرينا لحسن التفانى فى عمله وعرض على ما قام به من السعى وما بذله من الجهد فى تجديد كعبة الله بالتفصيل.

وقد كتب لى أيضا وزيرى خليل باشا والى مصر الحالى وأشراف بلد الله الحرام وأعيانه بما أنجزه رضوان أغا من أعمال بكل صدق وإخلاص، وبكل هذا نال رضاى واستحق شكرى ورعايتى السنية وبما أنه قد خدم السلطنة منذ بلوغه سن التمييز والرشد فى داخل القصر وخارجه وكلف بأداء الخدمات السلطانية فى الأطراف والجوانب حتى أصاب أعضاءه وجوارحه الضعف بعد القوة.

ففضل التنازل عن اعتلاء المراتب العالية وآثر فراغ البال والحياة فى السكينة والهدوء منزويا فى ركن العزلة؛ ليتفرغ للدعاء بطول عمر الدولة ودوام عزتها.

وبما أنه قدم خدمات جليلة بالإخلاص والعبودية الفائقة فهو يستحق أن ينال مثل أمراء مصر مرتبا سنويا وريع ولاية. وإنى رأيت أن أحسن إليه ـ وقد اشتعلت شمس كرمى تموج ببحر امتنانى ـ ابتداء من اليوم العاشر من شهر شوال سنة إحدى وأربعين بعد الألف، بمنحه ريع اللواء الذى كان تحت تصرفه على سبيل التقاعد. وبناء على أمرى السلطانى يجب أن يعفى من جميع الخدمات حتى يتفرغ فى بقية عمره للدعاء بدوام قوة الدولة وشوكتها، وقد أصدرت هذه البراءة لتلقى العناية التامة والعمل بها وأمرت بأن يعطى المشار إليه رضوان أغا دام عزه مائة ألف أقجة فى خمس مرات إحسانا له مقابل خدماته العظيمة ومعه إيرادات اللواء الذى تحت تصرفه ومعه الجراية والمعلف والفدان من الخزينة الخاصة حتى يعيش حياة مترفة بفضل عنايتى ويعفى من جميع الخدمات التى يكلف بها أمراء مصر من خدمة المحافظة وإيفاده إلى اليمن والحبشة ونقل خزنته العامرة فيعيش مدة حياته صافى القلب صحيح القالب ويتفرغ للدعاء ليلا ونهارا بطول أيام السلطنة العادلة والثناء على دولة الخلافة.

وفى هذا الخصوص لا يقف أحد مانعا دون تنفيذ أمرى هذا ولا يتدخل فى هذا الموضوع ولا يجوز لأحد أن يبدل أو يغير من نص هذا الأمر، وعلى الكل أن يثق فى أمرى هذا ويعتمد على صحة علامتى وشاراتى الخاصة من ثمرة أغصان شجرة خلافتى وأفنان جسمى الظليلة من الأولاد العظام والأحفاد وأركان دولتى القاهرة وأعيان سلطنتى الباهرة من الوزراء والولاة والحكام من محافظى مصر والأمراء الآخرين ومحاسبى الأموال ومباشرى الأعمال.

تحريرا فى أوائل شهر شوال المكرم سنة إحدى وأربعين وألف من هجرة من له العز والشرف سنة ١٠٤١.

صورة الفتوى التى أصدرها علماء مكة الأعلام عقب احتدام الخلاف بينهم وبين العلماء المعترضين وإصرارهم على مخالفتهم.

صورة السؤال الذى أورده رضوان أغا وهو يستفتى العلماء:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

سؤال: ماذا يقول السادة العلماء أئمة الدين ـ نفع الله بعلومهم المسلمين وأحيا بوجودهم شعائر الإسلام وثبت بهم قواعد الإيمان وشيد مشاعر الإحلال والإحرام بجاه محمد عليه الصلاة والسلام ـ فى عمارة البيت الشريف ـ زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما ـ إذا كانت الحجارة التى سقطت منه تحتاج إلى إصلاح ومساواة، بحسب ما تحتاجه الصنعة وإلى زيادة أحجار عليها، بموجب تكسر شىء من بعضها ولا يمكن إعادة البيت الشريف ـ شرفه الله تعالى ـ إلى حالته التى كان عليها، وجعلها على حكمها إلا بزيادة بعض أحجار من جنس الأولى فى المساواة والنحت والإحكام وما أشبه ذلك، فهل يجوز فعل ذلك وإصلاح الحجارة والزيادة عليها بما ذكر أم لا؟

وإذا قلتم بجواز فعل ذلك أو بوجوبه. وكان ذلك يحتاج إلى مدة طويلة

بموجب قلة المعلمين العارفين بذلك فى مكة المشرفة وجدة المعمورة والمدينة المنورة، بل وفى مصر المحروسة، وكان فى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ من جانب السلطنة ـ أيد الله بها الدين ـ من هو متعين للنظر فى المصالح العامة للمسلمين، من إصلاح المسجد الحرام والشوارع وغيرها وفيما يحتاج إليه الحال فى أوائل عمارة البيت الشريف من تهيئة المؤن وجمعها وضبط ما يرد لعمارة البيت الشريف من جانب السلطنة ـ أيدها الله ـ فهل يجوز له أن يشرع فى إصلاح الحجارة الأولى وفى تهيئة الحجارة التى يحتاج الحال إلى زيادتها وفى عمل نحو نورة وجبس وما أشبه حتى إذا وصل من يريد مباشرة العمارة يجد ذلك حاضراً مجموعًا ومهيئا لتكون العمارة فى مدة يسيرة بدلاً من تطويل المدة بعمل ذلك إذا ورد من يريد مباشرة، أم لا؟ أفتونا مأجورين ـ أثابكم الله الجنة ـ وبينوا ذلك بيانا شافيا لازلتم عمدة المسلمين ومرجعا فى إحياء مشاعر الدين وتقبل الله منكم صالح الأعمال بجاه محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله ربّ العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

صورة الفتوى الشريفة

التى كتبها الشيخ عبد العزيز محمد الزمزمى ردا على السؤال الذى طرحه عليه رضوان أغا:

الجواب ـ الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم يجوز إصلاح ومساواة ما سقط من حجارة البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ إذا كان لمصلحة ضرورية أو لحاجة ما يحتاج إليه من الحجارة حيث توقف إعادته على أسلوبه السابق عليه أو كان فيه تحسينا للبناء وقد صرح جدى خاتمة المحققين وشيخ الإسلام والمسلمين أحمد شهاب الدين بن حجر ـ تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركته ـ بما يقتضى ذلك أخذًا له من كلام أئمة المذاهب وبين ذلك فى محله بأحسن بيان واستدل على ما ذكره بقول بعض العلماء الذين يقتدى بهم: لابأس بتغيير حجارة الكعبة إن عرض لها مرمة لأن كل عصر احتاجت فيه لذلك قد فعل بها ذلك. إلا الحجر الأسود فلا يغير ومن أعظم الدلائل على جواز تغيير

حجارة البيت الشريف إذا احتيج لذلك فعلا سنَّة عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ فإنه لما هدم البيت الشريف وأراد إعادته عزل من حجارته ما يصلح أن يعاد فيه ونقل إليه من الحجارة ما يحتاجه من الجبل الذى أخذت قريش حجارة البيت منه عند عمارتهم إياه وقد أقر العلماء ـ رضى الله عنهم ـ والملوك ونحوهم على تغيير باب البيت العظيم وعتبته وميزابه المرة بعد المرة مع صلاحية ذلك وعدم الاحتياج إلى التغيير لإظهار أبهته وأنه لا يليق لجلالته بقاء ما خَلَقَ أو عتق فيه فلذلك أقدموا على تغيير تلك الأشياء ولم يقع عليهم إنكار من العلماء الذين كانوا فى زمانهم فإذا جوز العلماء ـ رضى الله عنهم ـ ذلك التغيير من غير احتياج إليه فمن باب أولى جواز تغييره من حجارته الساقطة وإصلاحها ومساواتها لتكون على أكمل الوجوه اللائقة بحرمة البيت الشريف ولإظهار أبهته وجلالته ولا مراء أن بناءه بالأحجار المكسرة مع إمكان إصلاح ما يمكن إصلاحه منها وعدم تغيير مالا يمكن إصلاحه فيه إسقاط لهيبته من قلوب كثيرة؛ لأنهم يرون البيوت المنسوبة إلى أهل الدنيا فى غاية الحسن الصورى وبيت الله بخلاف ذلك؛ فيؤديهم ذلك إلى غاية الاستحقار بحقه وعدم الاعتناء بشأنه وهذا خرق عظيم يؤدى إلى غاية الوهن فى الدين؛ فيجب التخلص مما يؤدى إلى ذلك لفعل ما فيه تعظيم بيت الله ـ زاده الله تعظيما وتكريما ـ ومنه السعى فى إصلاح حجارته ومساواتها وتغيير ما لا يصلح بخير منها وفعل كل ما كان فيه تعظيم له وإبقاء لحرمته وأبهته وجلالته ومن قصد لشىء من ذلك وفعله كان مثابا عليه الثواب الجزيل ومقابلا من الله بمزيد التعظيم والتبجيل لما فى ذلك من الاعتناء التام والقيام بإظهار عظمة شعائر الله على أكمل نظام ويجوز للشخص المذكور الشروع فى إصلاح الحجارة وتهيئة المونة المحتاج إليها لعمارة البيت المكرم، إذا كان المصرف من مال طيب ليس فيه شبهة قوية لوجوب التحرز عن بنائه بحرام أو نحوه وما يفعل الساعى فى الخير كفاعله لاسيما إذا غلب على ظنه عدم ضرر يلحقه أو يلحق بسبب ذلك لما فى فعله من الإشعار بمزيد الاهتمام فى تعظيم بيت

الله وبذل الجهد فى القيام بحقه وفى ذلك من قوة الإيمان ما لا يحتاج معه إلى برهان جعلنا الله أجمعين ممن يقوم بحقوقه فى كل زمن وأن ينور قلوبنا بالإيمان ويثبتها على طاعته فى السر والإعلان وأن يزيد هذا البيت الشريف تشريفا وتعظيما ومهابة وتكريما وأسبغ نعمه وأفضاله والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير الحقير عبد العزيز محمد الزمزمى الشافعى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله وهو من كبار علماء المالكية ردا على سؤال رضوان أغا:

الجواب:

الحمد لله، حاصل ما سأل عنه السائل. ثلاثة أمور:

الأول: إن ما احتيج إليه بالضرورة وما احتيج إليه من حجارة البيت وما تكسر منها هل تؤخذ لها حجارة وهل تصلح الحجارة المكسورة وتعاد فيها أم لا؟

الثانى: هل يجوز للناظر المذكور الشروع فى إصلاح ما تكسر من حجارتها وأخذ ما احتيج إلى بنائه أم لا؟

الثالث: لم يصرح السائل فى سؤاله بالمال الذى يصرف على ما احتيج إليه من مقدمات البناء وهو ضرورى لا بد من السؤال عنه.

أما الأول فما احتيج إليه من حجارة البيت الكاملة لابد من أخذه وأخذه ضرورى والكلام فى المحل الذى تؤخذ منه الحجارة ومحصل كلام العلماء وفاقا وخلافا أنها أخذت حجارتها من اثنى عشر جبلا وهى حراء وثبير وأبو قبيس وأحد ولبنان وطور سينا وطور زيتا والجبل الأحمر والجودى والقدس ورقان ورضوى.

ثم الكلام على تخصيص الأخذ من هذه الجبال يطول إلا أنا نتكلم على ما يمكن الأخذ منه منها (حراء وأخذت منه حجارتها لأن النبى ـ ﷺ ـ أنزلت

عليه الرسالة وهو فيه يتحدث وتردد عليه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيه وأما أبو قبيس فأخذت منه لأنه أقرب جبال الحرم إلى البيت وأما ثبير ـ واختلف فيه فقيل هو الجبل الذى على يسار الذاهب من منى إلى عرفة وهو قول المحدثين وقال الفقهاء إنه الجبل الذى عن يمين الذاهب من منى إلى عرفة ووجه ما قاله الفقهاء أن النبى ـ ﷺ ـ أنزلت عليه «والمرسلات» وهو فى غار فى سفحه وهو معروف، وأما أحد فوجه الأخذ منه قوله «اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان»[1] وبقية توجيهاتها يطول تتبعه ولايهمنا لعدم الحاجة إليه الآن لبعده وللاستغناء عنه بغيره.

وقول الشيخ العلامة الرحالة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى إنها تؤخذ من المحل الذى أخذت منه قريش حجارة البيت كما فعل ابن الزبير غير ظاهر إذ لم يبين ما أخذت منه قريش فهو إما أن يكون أحد الجبال الاثنى عشر أو غيرها فإن كان أحدهما فنسبته إلى الخليل ـ ﷺ ـ أولى من نسبته لقريش، وإن كان من موضع غير الإثنى عشر ففيه مجال للنظر يعلم بالتأمل، ومعاذ الله أن ابن الزبير يتبع قريشا ويترك الخليل ـ ﷺ ـ.

وأما **الثانى** فيتضمن ما قلناه قبل بيان الحكم فيه وهو أنه يجوز للناظر المذكور الشروع فى أخذ حجارتها وقد بينا ما يؤخذ منه وأما إصلاح ما انكسر منها ورده فيها فى الظاهر أنه غير جائز لأن البيت إن رد المنكسر الناقص إليه لا يتكيف بالكيفية التى كانت بل يتكيف بكيفية ردئية يمجها أرباب الصنعة وهذا غير لائق بقبلة الإسلام، ثم إن اضطر إلى ذلك رد لكن لا ضرورة تدعو إليه.

وأما **الثالث** وهو ما يصرف على تلك المقدمات فيجب أن يكون حلالا متيقن الحلية، ولا يجوز أن يكون مظنونها وهو ما توهم فيه عدم الحلية، فإن لم يوجد

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة الحديث رقم ٣٦٧٥ فى فضائل أبى بكر الصديق، الحديث رقم ٣٦٨٦ فى مناقب عمر والحديث رقم ٣٦٩٩ فى مناقب عثمان رضى الله عنهم جميعًا.
وأخرجه الترمذى فى المناقب حديث رقم ٣٦٩٧. وأبو داود فى السنة حديث ٤٦٥١، والإمام أحمد فى المسند ٥/ ٣٣١، ٣٤٦. والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٥٠.

صرف عليه مظنون الحلية وبقية السؤال قد تكفل المفتى الشافعى بالجواب عنه والله سبحانه أعلم.

نمقه الحقير خالد بن أحمد ابن محمد بن عبد المالكى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ أحمد بن شمس الدين الصديقى السهروردى أفندى وهو من علماء الحنفية:

ردا على السؤال الذى وجهه رضوان أغا.

الجواب:

الحمد لله سبحانه..

«ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا.. وانصرنا على القوم الكافرين».

ما ذكر فى السؤال عما سقط من أحجار البيت الشريف إذا كانت تحتاج إلى الإصلاح والمساواة بحسب ما تحتاجه الصنعة وإلى زيادة عليها بموجب تكسر البعض وتلف البعض وجعلها على حكمها فى المساواة والبحث والإحكام أيجوز أم لا؟ وعلى القول بالجواز إذا كان محتاجا إلى مدة طويلة بموجب ما شرع فى السؤال وكان بمكة المشرفة من هو متعين للنظر فى المصالح العامة المتعلقة بهذه البلدة الشريفة من جانب السلطنة المنيفة ـ دامت ظلال عدالتها الوديعة ـ من إصلاح المسجد وغيره من الشوارع وتنظيفها هل يجوز له الشروع فى إصلاح الحجارة الأولى وتهيئة ما يحتاج إلى زيادتها وفى عمل نحو نورة وجبس وما شابه ذلك ليكون مهيئا عند وصول من سيُعَيّن من الأبواب الشريفة السلطانية لأداء هذه الخدمة السنية خشية طول المدة؟

فالجواب: عن ذلك ـ والله الموفق للصواب ـ جواز إصلاح الساقط ومساواته والمبادرة إليه وتغيير ما تكسر وعدم الانتفاع به وزيادة ما احتيج إليه من الحجارة مما سهل إحضاره من بعض الجبال التى بنى منها البيت العتيق كما ساقها الشيخ

المحقق مولانا الشيخ خالد الجعفرى المالكى ـ نفع الله به ـ والدليل على جواز التغيير عدم إنكار العلماء من المذاهب الأربعة فى كل عصر على الملوك فى تغيير باب البيت وعتبته سوى إرادة زيادة إظهار أبهته وإعظامه وإجلاله وقد تكرر من ساداتنا سلاطين آل عثمان ـ خلد الله دولتهم إلى انقراض الدوران ـ إرسال الأقفال الجديدة إلى البيت وطلب العتيق ليوضع فى خزانتهم العامرة تبركًا به كما وقع فى موسم هذا الحج من غير إنكار عليهم، فالمباشرة لتهيئة مؤن عمارة البيت من أهم المهمات وألزم اللوازم فلقد طال الانتظار لمن يعين ليتعاطى خدمة تعمير البيت من قبل الأبواب العالية واستمرار البيت العتيق مهدوما هذه المدة كلها غير لائق وقد شكرت مساعى مولانا السيد الشريف الأعظم مسعود بن إدريس نصره الله تعالى فى بذل الهمة فى خدمة البيت وتدعيمه بالأخشاب من الجهة الساقطة وستره بكسوة إلى أن جاءت كسوته المعتاد وصولها كل عام من قبل السلطنة الشريفة فى صحبة أمير الركب الشريف المصرى وقد نور الله باطن هذا الرجل الذى له من اسمه نصيب حيث رغب فى فعل الخير وتصدى لسؤال العلماء عن ذلك مع ما سبق له من الاهتمام بتنظيف المسجد والشوارع والبيت الحرام وإصلاح برك الحجاج. وتعمير عين خليص فله بذلك وبما نواه جزيل الأجر والثواب من الملك الكريم الوهاب، فمقتضى قواعد المذهب جواز شروعه فى إصلاح الأحجار وتهيئة المؤن لكن يتعين أن يكون المال المنصرف على ذلك متيقن حليته. فإن تعذر فلا يكون من مال توهم حليته، إذ يجب كل التحرز عن الصرف على ذلك من مال حرام نحوه. وفقه الله ودفع به وعنه كل ضير وأعان من أعانه ووالى عليه فضله وإحسانه وزاد هذا البيت تشريفًا وتعظيما ومهابة ورفعة وتكريما وزاد من شرَّفه وعظَّمه جلالاً وكرامة وأسبغ عليه جوده وإنعامه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين الصديقى السهروردى الحنفى.

المعطاة لرضوان أغا من قبل الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى أفندى من علماء الحنابلة

الجواب:

المسئول عنه فى السؤال: هل يجوز إصلاح ما تكسر بالسقوط من أحجار البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ وزيادة عليها من جنس الحجارة الأولى وتهيئة ذلك ومساواته ونحته وتحسين صنعته وإحكامه أم لا يجوز؟ وإذا قيل بالجواز وكان عمل ذلك يحتاج إلى مدة، كما ذكر فى السؤال، وكان فى مكة المشرفة من جانب السلطان ـ أيده الله تعالى ـ مَنْ ذَكَرَ السؤال هل يجوز له الشروع فى ذلك وتهيئته إلى آخر ما فى السؤال؟

فالجواب عما ذكر وتحرير الحكم الشرعى فيما سطر والله المسئول أن يوفقنا إلى طريق الحق المستقيم، وأن يلهمنا الصواب على النهج القويم، هو أن نقول نعم! يجوز إصلاح ما تكسر من الأحجار وتعيين ما يحتاج إليه من المال فى تكملة البناء وإعادته كما كان من الأحجار المناسبة لذلك ويؤخذ ما يسهل أخذه من الجبال التى عمرت الكعبة المشرفة منها[1] كما نقله العلامة المحقق شيخ الإسلام والمسلمين مولانا الشيخ خالد المفتى المالكى دام الله النفع به ولا ريب فى ذلك فقد ألف شيخ الإسلام والمسلمين خاتمة الأئمة والمحققين الشيخ «شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المكى الشافعى» قدس الله سره وجعل الفردوس مقره، مؤلفا فى خصوص هذه المسألة سماه «المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى وانشعث من الكعبة» وبسط الكلام فيه ونقل فيه كلام العلماء من المذاهب الأربعة مصرحا بجواز ذلك وأشفى الغليل فيه وأوضح المسألة وفصلها أحسن تفصيل ومما نقل عن أئمتنا علماء الحنابلة ـ رضى الله عنهم ـ قول صاحب الفنون: صح لا بأس بتغيير حجارة الكعبة إن عرض لها مرمة لأن كل عصر احتاجت فيه لذلك قد فعل بها ذلك ولم يظهر نكير على من فعله، «نعم الحجر الأسود» لا يجوز نقله من

(١) أنظر: إعلام الساجد للزركشى ص ٤٥، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، للقطب الحنفى ص ١٣، والروض الأنف للسهيلى ١/ ١٢٩.

مكانه ولا تغييره إلا بنص من النبى - ﷺ - فهو كبعض آيات القرآن لا يجوز نقلها من موضعها إلى مكان آخر. انتهى.

وما أفتى به العلامة والمحقق الفهامة مولانا الشيخ عبد العزيز المفتى الشافعى أدام الله النفع بوجوده خلاصة ذلك التأليف[1] وزبدة ما فيه، وليس فى قواعدنا ما ينافيه ويكون المُعَوَّلُ عليه ويرجع فى هذه الحادثة إليه، وحيث كان إصلاح الحجارة المنكسرة وعمل الحجارة التى يحتاج الحال إلى زيادتها.. وما أشبه ذلك تحتاج إلى زمن طويل كما جاء فى السؤال فإنه يجوز لمن هو فى البلد من جانب السلطنة المذكورة - أيدها الله تعالى - مقام فى نحو ذلك كما ذكر فى السؤال أنْ يشرع فى عمل ذلك إذا لم يخف على نفسه أو على غيره ضررا وينبغى له بذل الهمة فى ذلك كما ظهر منه فى تنظيف المسجد الحرام و إصلاح الشوارع والبرك التى للحجاج، وكما فعل فى إصلاح عين مكة المعظمة وفى إجراء عين خليص وبذل همته فى ذلك، وتعاطى ذلك بنفسه مع مزيد الاعتناء بسببه والقيام عليه أجزل الله له الثواب وقابله بالإحسان فى يوم الحساب، فقد حصل بذلك الرفق العظيم للزوار والحجاج ولكل من سلك فى تلك الفجاج، لا شك أنه منور البصيرة، صافى القلب والسريرة، إذ وفقه الله تعالى للسؤال عن ذلك والاهتمام فى سلك هذه المسالك، والاعتناء بشأن الكعبة المعظمة التى هى فى الأولية والإسلام محترمة، زادها الله تشريفا وتكريما ومهابة، فإذا شرع فى المؤن والأحجار وما يحتاج إليه يجب أن يكون الصرف على ذلك من مال حلال لا تعلم فيه شبه قوية ويتحرز فى ذلك غاية التحرز مهما أمكن، تقبل الله منه السعى الجميل وقابله عليه بالثواب الجزيل، وخلد دولة هذه السلطنة العثمانية، ولازالت مدى الأيام والليالى محروسة محمية، وزاد هذا البيت الشريف تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وزاد من شرفه وكرمه تشريفا وجلالة وتكريما، وألهمنا الصواب فى القول والعمل ووقانا أجمعين من الخطأ والزلل، بمحمد وآله آمين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) يعنى أن فتوى الشيخ عبد العزيز الزمزمى الشافعى، هى خلاصة رسالة ابن حجر الهيتمى المسماه المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى وانشعث من الكعبة؛ وما ذكر من فتوى الشيخ عبد العزيز لاينافى أصول مذهب الحنابلة.

نمقه الفقير عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى

الخطيب والإمام والمفتى بالمسجد الحرام

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ محمد عبد العظيم المكى من علماء الحنفية بخصوص تنظيف الحرم الشريف

السؤال:

ما يقول السادة العلماء أئمة الدين نفع الله بعلومهم المسلمين فيما إذا أدخل السيل إلى المسجد ترابا وأوساخا بكثرة واحتاج الحال إلى حملها ولزم من ذلك دخول جمال وحمير إلى المسجد وربما يقع منها روث بول فهل يجوز دخول الحمير والجمال للحاجة لذلك أم لا يجوز شىء من ذلك؟ والحال أن الوقت ضاق بموجب قرب الموسم والضرورة اقتضت ذلك أفتونا مأجورين.

الجواب:

إن تحققت يجوز إدخالها لضرورة وخصوصا لمصلحة المسجد وإذا وقع منها بول أو روث يسارع إلى تنظيفه وإن اندفعت الضرورة بإدخال الجمال فقط، فيقتصر عليها للخفة التى فى بولها وللخلاف فى روثها. والله تعالى أعلم.

حرره محمد عبد العظيم المكى الحنفى.

صورة الفتوى الشريفة

التى أصدرها الشيخ خالد بن أحمد بن عبد الله الجعفرى وهو من علماء المالكية بخصوص تنظيف الحرم الشريف:

الجواب:

أما الإبل فبولها وبعرها طاهران عندنا. لأن النبى ـ ﷺ ـ طاف على بعيره ولأن إدخال البعير إلى المسجد مع عدم الأمن والسلامة عما يخرج دليل على طهارة ما يخرج منه وقال الإمام أبو حنيفة والشافعى بأن ما يخرج من الإبل نجس وأما الحمير فأبوالها وأرواثها نجسة.

وطريق العمل فى ذلك أنه إذا اضطر إلى ذلك وأمكن الاكتفاء بالإبل اكتفى بها لكى يطهر المسجد مما يخرج منها عند الكل وأما الحمير فإن اضطر إليها أدخلت وطهر المسجد مما يصيبه منها وحيث طهر المسجد فيبادر إلى التطهير، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله. المالكى الجعفرى.

صورة الفتاوى الشريفة

التى أعطيت بخصوص تغطية الكعبة الشريفة بالستائر عند الإزماع للبدء فى بناء بيت الله.

السؤال الذى أورده رضوان أغا:

ما قولكم ـ رضى الله عنكم ونفع بعلومكم المسلمين ـ فى بناء البيت الشريف زاده الله شرفا وكرما هل يجب ستره عن أعين الناس لأجل البناء والفعال حفاظا للحرمة ورعاية لزيادة الأدب وإن ضاق الحال بالطائفين على وجه أفضل أم يجوز بناؤه مكشوفًا من غير حائل وستر لأن ذلك فيه كمال الرفق بالمعلمين والبنائين من حيث التمكن من البناء على الوجه المطلوب وهل الستر من حيث هو واجب أم مندوب مستحب أم كيف الحال بينوا لنا ذلك.

الفتاوى الشريفة

التى أعطيت ردا على أسئلة رضوان باشا

الجواب:

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، لاريب فى كون ستر البيت الشريف ـ زاده الله شرفا وتعظيما ـ حال بنائه مندوبا إليه، وذلك غير مانع من حصول كمال فضيلة الطواف ولا يمنع أيضًا من المشاهدة، وأما بناؤه مكشوفا من غير ستر فغير لائق بوجه من الوجوه وليس من الأدب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم، وهو المسئول أن يستر عيوبنا ويغفر ذنوبنا.

حرره الفقير أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى.

الجواب:

الحمد لله: ستر البيت عن أعين الناظرين، حال بنائه مندوب ندبا متأكدا لا واجب[1]، والطواف وراء الستر ليس مفضولا، بل الستر قام مقام البيت فلا يمنع من كمال فضيلة الطواف، بل ولا يمنع من المشاهدة، لان كسوة البيت جعلت لمنع أعين الناظرين إليها، وهذا الستر كذلك بل هذا آكد، لأن النظر إلى البيت حال بنائه أفظع من النظر إليه مستورا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

نمقه الفقير إلى الله خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

الجواب:

الحمد لله: ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ستر البيت الشريف أثناء الشروع فى بنائه، بل وعند الشروع فى مقدمات ذلك كهدم ما يحتاج إلى هدمه منه مندوب إليه ومما ينبغى وليس بواجب وذلك اقتداءً بفعل سيدنا عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ ومن كان فى عصره من أجلاء الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فإنه لما عمر الكعبة الشريفة وضع عليها ساترا بإشارة عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقد نقل ذلك العلامة الأزرقى فى عدة مواضع من تاريخه، فقال فى (باب ما جاء فى بناء الزبير للكعبة) ما نصه أنهم قاموا أعانهم الناس فما ترحلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعها فبدأ فى هدمها يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين، ولم يقرب ابن عباس مكة يوم هدمت الكعبة وحتى فرغ منها أرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة وانصب من حول الكعبة أخشابا واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها ففعل ذلك ابن الزبير. انتهى.

وقال فى موضع آخر ما نصه: ونصب الخشب حولها حيث تم سترها وبنوا من وراء الستر. انتهى.

(١) أنظر: إعلام الساجد لبدر الدين الزركشى الشافعى ص ١٤٠، ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

هذه النصوص كلها صريحة فى أن الساتر المذكور مندوب إليه وليس فيها دلالة على وجوبه عند الشروع فى البناء، بل يحتمل أنه جعل عند الشروع فى مقدمات ذلك كالهدم وهو الظاهر اللائق بحرمة البيت الشريف التى أمرنا بها، ولا شك أنه لو هدم وبنى من غير وجود ساتر بينه وبين الأعين لسقطت هيبته من قلوب كثير من الناس ممن لا ينظرون إلا إلى الصور ويترتب عليه هتك حرمته، وقد أجمع العلماء على استحباب كسوة الكعبة واستمرارها عليها والقصد من ذلك سترها عن الأعين لما يلزم من عدمه من المحذور المذكور فليكن هذا الساتر، بل أولى، لأن رؤية الكعبة المشرفة متهدمة أفضح من رؤيتها مجردة من أثوابها، ومن زعم أن الساتر المذكور، مما ينبغى فعله فقد حاد عن طريق الصواب وأخطأ من وجوه عديدة، ولا يسعها هذا الجواب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير زين العابدين بن عبد القادر الحسين الطبرى الشافعى إمام المقام الشريف.

صورة الفتاوى الشريفة

الصادرة على أثر الخلاف الذى وقع بشأن هدم الجدار الكائن بين الحجر الأسود والركن اليمانى

السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

ما يقول السادة العلماء أئمة الدين ومرجع الخاص والعام من المسلمين وقطع بوجودهم دابر المفسدين وعمر بهداهم شعائر الإسلام للمهتدين، فى الجدار اليمانى من البيت الشريف زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما، الذى يظهر فى بادئ النظر للعوام أنه مستقيم والحال أنه مائل دخل أعلاه وبارز أسفله من رأس الركن الذى على الحجر الأسود إلى «المدماك» الذى تحت الحجر الأسود نصف ذراع ومن نحو نصف الجدار المذكور ذراع كامل ومن محل وصول الميزاب فى المدماك المذكور إلى أرض المكان قدر الميل ثلث أيضا فيكون الميل من رأس الركن إلى

أرض المطاف نصف ذراع وثلث ذراع ومن قرب الحجر الأسود المحل الثانى فى الوزن ذراع كامل ومن المحل الثالث فى الوزن الذى بالقرب من وسط الجدار ذراع وثلث كل ذلك بذراع القماش الحديد وقد ظهر كل ما ذكر أعلاه من الميل فى الأماكن الموزونة بالمشاهدة لكل من حضر من العلماء المهندسين والمعلمين وغيرهم ومهد أرباب الخبرة من المهندسين والمعلمين والعارفين ببناء عقارات الجدار المذكور وما كان مثله خصوصا من المنحوت إذا مال نحو سدس ذراع يجب هدمه ولا يجوز بقاؤه سواء كان ذلك فى محل مملوك أو محل موقوف أو مال يتيم وأنهم يوجبون ذلك، وذكروا أن هدم الجدار اليمانى من البيت من أوجب الواجبات لما فى هدمه من المصالح الواجبة فى تعظيم البيت الشريف ـ زاده الله شرفا ـ ولما فى بقائه من خلاف ذلك ـ نعوذ بالله منه ـ فهل يجوز لمن له ولاية العمارة من جانب السلطنة العثمانية ـ خلد الله دولتها وأيد صولتها ـ أن يهدم هذا الجدار اليمانى المذكور ليقيمه ويقيم بناء البيت الشريف جميعه على الوجه الذى يليق به من اتفاق العمارة وتحسينها الواجب ذلك فى حق البيت الشريف ـ زاده الله مهابة وتكريما وزاد من عظمته وإكرامه تشريفا وتعظيما ـ أم لا يجوز ذلك والحال ما ذكر؟ أم كيف الحال؟ بينوا ذلك تبيانا شافيا؟ أثابكم الله الجنة بمنه وجزاكم عن الإسلام والمسلمين خيرا.

صورة الأجوبة الشريفة المعطاة ردا على السؤال المذكور:

الجواب:

حيث كان الحائط المذكور بالصفة المذكورة عن العدول المذكورين فى السؤال وأرباب الخبرة من أهل الصناعة وغيرهم فهدمه وتجديده أولى، بل متعين لأنه أحق من الهدم الصادر من سيدنا عبد الله بن الزبير لأن قضية ابن الزبير كانت محتاجة إلى الترميم فقط، كما أشار إليه هو ـ رضى الله عنه ـ وهذه محتاجة إلى الهدم والبناء لاسيما مع الانهدام والهدم الكائنين فى الثلاثة الأرباع، إذا كان ابن

الزبير ـ رضى الله عنه ـ ومن خالفه فى القضية يقولون بالهدم فيكون ذلك فى قضيتنا أولى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

الجواب:

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، حيث كان الجدار المذكور من البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ بالجملة المشروحة فى السؤال المشاهدة لأهل العلم من الرجال وشهد بخرابه أرباب الخبرة الموثوق بهم فى كل حال الذين يغلب على الظن فيهم عدم التهمة فى هدم ما كان خاليًا من البقاء ولا غرض لهم فى تخريب أدنى جزء منه خوفا من الله يوم اللقاء، فهدمه بعد تحقق ما ذكر جائز بل واجب على من فوضه السلطان الأعظم ـ خلد الله سعادته وأيد سيادته وأقام به شعائر الدين وقطع بسيفه رقاب المعتدين ـ عمارة بيت الله العظيم وإعادته على الأسلوب القديم وبناء جدرانه على ما كانت عليه وإحكامها بكل وجه يمكن التوصل إليه فذلك من أعظم شعائر الإسلام وبقاء ما كان خرابا منه على حاله مع إمكان إزالته من موجبات شرور الفجرة الطغاة، وقد صرح علماؤنا ـ رضى الله عنهم ـ بجواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الحرام وما نصوا عليه لا يجوز مخالفته ومن خالف أقوال العلماء كان مكروها عند الله وخلقه أعاذنا الله من ذلك وسلك بنا أحسن المسالك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى.

الجواب:

الحمد لله ربنا اغفرلنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، لاريب فى أن الواجب على كل مسلم تعظيم هذا البيت الشريف زاده الله من التعظيم والتكريم والتبجيل والتشريف، وقد شاهدنا نحن والجم الغفير من العلماء والولاة حقيقة ما ذكر فى

السؤال من الجواب ولم يزل يبلغنا كل يوم من الثقاة السالكين منهم الصواب أنه تداعى إلى السقوط مالم يتدارك أمره مع شهادة المعلمين الموثوق بهم بخرابه وبقاؤه من بنائه إلى حال سقوطه ألف عام إلا خمسة وعشرين عامًا أَوْفَى معجزة، ولما أراد الله خرابه خرب، وإذا ما تحقق ما ذكر ومعلوم أن إبقاء شيء منه على حاله محال وجب هدمه بغاية الإجلال والاعظام ومزيد التوقير والاحترام وشكرت مساعى من فوضت إليه هذه الخدمة الجليلة المقدار من قبل من فوض له ذلك مولانا السلطان العظيم الفخار دامت سلطنته العظمى مادام الفلك الدوار، وثواب على عمارته وإعادته على الأسلوب الحسن بناء جدرانه على ما كانت عليه مهما أمكن وغير لائق البقاء ما كان خرابا على حاله مع إمكان إزالته، ولقد نص العلماء على جواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الشريف إذا لم يمكن بقاؤه، نسأل الله أن يوفقنا ومن تشرف بهذه الخدمة إلى ما يحبه ويرضاه ويكون عونا لكل منا فى أولاه وأخراه وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويوفقنا لاجتنابه والله أعلم.

نمقه الفير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى السهروردى.

الجواب:

الحمد لله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ونعم جوابى كذلك سلك الله بالقائم بخدمة هذا البيت الشريف أحسن المسالك.

الفقير الحقير عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى.

صورة السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

السؤال:

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ـ نفع الله بعلومهم المسلمين ـ فى ما إذا احتاج الحال فى عمارة البيت الشريف ـ زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما ـ إلى إقامة حائل وأخشاب بالطواف وجعل ألواح عليها وستارة ليمنع ذلك من دخول

نحو كلاب ودواب غيرها تنجس البنيان وتوسخه ويمنع من دخول من لا فائدة فى دخوله بل ربما من دخوله ضرر وإقامة ذلك من ضروريات العمارة اللازمة والمعتادة بحيث إنه لا يبنى البناء على الوجه المطلوب إلا بذلك مع بقاء جانب من الطواف أكثر مما يحجب بهذه الستارة للطائفين والمصلين يؤدى فيه ذلك فهل يجوز فعل ذلك أم لا يجوز والحال ما ذكر، أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة.

الأجوبة الشريفة المعطاة ردا على سؤال رضوان أغا:

الجواب: الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله: الذى يؤخذ من كلام علمائنا ـ رضى الله عنهم ـ حيث قالوا يحرم الجلوس خلف المقام وبسط السجادة وإن لم تجلس عليها لما فى ذلك من منع فضيلة سنة الطواف فى ذلك المحل للطائفين وحيث قالوا أن ما يفعل بالمسجد من بناء نحو منارة أو ضرب لبن فيه إن فعل لمصلحة المسجد ولم يضق جاز إلا أنه إن ترتب على وضع الأخشاب الموضوع عليها الستائر منع فضيلة مشاهدة البيت الشريف أو منع فضيلة القرب منه للطائف حالة الطواف أو كان فيه تضييق على المصلين لم يجز وضع ما ذكر إلا إن تحقق دخول شىء من الكلاب وملامستها شىء من أجزاء البيت الشريف مع رطوبة فى أحدهما أو وصول شىء من النجاسات غير ما ذكر ولم يكن حفظها عن تطرق ذلك إليها إلا بوضع الأخشاب الساترة فيجوز حينئذ وضعها بل يجب إذا لم تصن إلا بفعل ذلك صيانة لأجزاء البيت المعظم عن تلطخه بما ذكروا أما السقائل التى تتوقف مباشرة البنيان ـ واتباعهم للبناء ـ على وضعها ورفع الأحجار إلى محلها على إقامتها فيجوز لما فى ذلك من المصلحة المتوقف البناء عليها والحاجة الأكيدة إليها ألهمنا الله سلوك طرق الصواب وكشف عن قلوبنا ظلمة الحجاب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

حرره الفقير إلى الله عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى حامدا الله ومصليا على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم.

صورة الفتوى الشريفة

الصادرة والمتعلقة بعدم جواز تدريس صحيح البخارى داخل بيت الله الحرام.

السؤال:

ما تقول السادة العلماء أساتذة الدين ـ قمع الله تعالى بهم المفسدين وقطع بسيوف أنظارهم الشريفة دوائر المبتدعة والملحدين ـ فى الجرأة على بيت الله الحرام ـ زاده الله تعالى تشريفا واحتراما ومهابة وإجلالاً إلى يوم القيامة ـ وهتك حرمته بإدخال أطباق اللوز والزبيب فى جوفه وتدريس كتاب البخارى فى المدارس وغيرها ما حكم هذا التدريس المذكور على هذا الأسلوب المذكور فى جوف هذ البيت العتيق المحترم مهبط الرحمة والنور أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة.

الجواب الذى أعطى ردا على السؤال المذكور:

الحمد لله لاشك أن النبى ـ ﷺ ـ بعث بلسان الشرع وقد أمره الله بتبليغ الشرع قال عز من قائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ (المائدة: ٦٧). أو رسالاته أى وإن لم تبلغ بعض ما أُمِرْتَ به فحكمك حكم من لم يبلغ شيئا والمبلِّغ الكتاب العزيز والسنة الشريفة التى هى أقواله ـ ﷺ ـ وأفعاله وتقريراته وعزمه وهمته، فكل من الكتاب والسنة مأمور بتبليغه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ (النحل: ٤٤) والبيان بالسنة وهى وحى قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: ٣,٤) وقد بلغ ـ ﷺ ـ جميع الموحى إليه من الكتاب والسنة وقد شهد له المولى ـ جل جلاله ـ بتمام التبليغ فقال ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة: ٣) ودخل ـ ﷺ ـ البيت الحرام وفاقا وخلافا خمس مرات إلا أن بعضها

متفق على دخوله فيها وبعضها مختلف[1] فيه، والصحيح أنه لم يدخل وثبت أنه ـ ﷺ ـ جلس مجلسا فى البيت صلى فى بعضها ولم يوجد له معارض واختلف فى بعضها هل صلى أو دعا فقط وهذا الخلاف فى الصحيح وثبت أنه ـ ﷺ ـ كان لا يرفع طرفه إلى البيت ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ كان لا يرفع طرفه إلى البيت ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ جلس مجلسا فى البيت للتعليم ولو أقل جلوس إذ لو ثبت لنقل لتوفير دواعى النقل إليه وكذا لم يثبت عن الخلفاء الأربعة ولا عن أحد من أعلام الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وهم القدوة قال ـ ﷺ ـ: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[2] بل لم يثبت عن أحد من أعلام هذه الأمة كالإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت وأصحابه وكالإمام أحمد وأصحابه من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا فتبين أن دخول البيت الحرام لدرس التفسير والحديث أو غيرهما بدعة شنيعة وخصلة ذميمة منكرة محرمة ويدل على تحريمها ما ثبت بطريق العرف بحيث لا ينكر وقوع التبخير عقب الدرس والشموع وماء الورد وغيره وإنشاد المنشدين وقد يؤتى بأشياء غير متوقعة كأن يحضر العوام الجهلة الدروس فيبادرون إلى أكل ما ذكر ورمى نواه فى البيت ولا شك أن هذا مهين للبيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام وقد هدمها ابن الزبير ومن تبعه من الصحابة والتابعين ـ رضى الله تعالى عنهم ـ لا لسبب اقتضاه هدمها سوى ما يقتضيه ترميمها من أنها دون بيوت الأماثل، وبرد هذه الخصال الذميمة، سادت الكعبة الشريفة على بيوت الأراذل، فضلا عن الأكابر فيكون الدخول المؤدى إلى ذلك محرم ولا شك فى جرٍّ أول دخلة لهذا المقصد للدخلات المقتضية لما تقدم والدخلات تبين أنها محرمة فكان الدخول الأول الجار إليها محرما، ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، (آل عمران: ٨) ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا

(١) أنظر: إعلام الساجد (١١١ ـ ١١٢).

(٢) حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاند هلوى ١/ ٦، وعزاه لجمع الفوائد ٢/ ٢٠١.

وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آخر البقرة)، ونسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

السؤال:

ما يقول السادة العلماء، أساتذة الملة والدين، وقمع الله تعالى بوجودهم المفسدين وقطع بسيوف أنظارهم السديدة دابر كل مبتدع وكل ملحد مهين، فى التجنى على بيت الله الحرام ـ زاده الله تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما ـ وهتك حرمته بإدخال اللوز والزّبيب ونحوها وأكلها فى جوفه وكذلك إدخال الفرش والبسط مع جماعة وفرش تلك البسط للجماعة فيه وإدخال مجامر البخور وإدارتها بين الجماعة فيه كل ذلك لتدريس كتاب البخارى وإلقائه على الجماعة المذكورين على هيئة تدريسه الكائن فى المدارس وغيرها كل ذلك فى جوف البيت العتيق والكعبة الشريفة المعظمة لازالت مبجلة محترمة. ما حكم هذا التدريس المذكور بهذا الأسلوب المسطور فى جوف هذا البيت العتيق مهبط الرحمة والنور؟ أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة بمنه وكرمه.

الجواب الذى أعطى ردا عل السؤال المذكور:

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله: غير خاف على ذوى العقول السليمة والأفهام المستقيمة أن السعادة العظمى والكمال الأَسْنَى الأسمى، فى الاتباع لما فعله النبى ـ ﷺ ـ والاقتداء بما سلكه الأصحاب الكرام أو من جاء بعدهم من التابعين والعلماء الأعلام، ولم ينقل عنه ـ ﷺ ـ ولا عن أحد ممن جاء بعده إلى هذا الزمن، أنه درس شيئا من العلوم وأبدى شيئا من المواعظ وعقد مجلسا لذكر الله فى وسط الكعبة الشريفة مع احتياج الناس إذ ذاك إلى التعلم، والالتفات إلى أفعاله ـ ﷺ ـ والاقتداء، بها ولو كان فِعْلُ شَىْء من ذلك فى

وسط الكعبة مطلوبا ما تركه ـ عليه الصلاة والسلام، بل المنقول عنه ـ ﷺ ـ وعن من بعده إنما هو مزيد التواضع والخشية والافتقار والصلاة والدعاء والاستغفار عند دخوله فيها، ولذلك حذر علماءُنا ـ رضى الله عنهم ـ من الزيادة على صلاة ركعتين فيها إذا كان خشوعا وخضوعا متوفرا، وإلا فالأولى أسرع الخروج منها. وقالوا ليس من الأدب أن يرفع الداخل بصره إلى سقفها لقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما رواه البيهقى: «عجبا لمن دخل الكعبة كيف يفعل ـ أى يرفع بصره ـ ليدعه إجلالا لله وإعظاما، دخل رسول الله ـ ﷺ ـ الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها»[1].

وقال الإمام أبو على الزعفرانى من أعظم أئمتنا: من أحب دخوله إلى البيت فليدخل بصدق إخلاص محبته لله تعالى وتعظيما له بالخشوع والاستكانة والخضوع خائفا راغبا راهبا ذاكرا مستغفرا داعيا مُتَضَرِّعًا إذا علمت ذلك وأن المعروف من حال النبى ـ ﷺ ـ وأحوال من بعده عند الدخول فيها ما ذكر، ونظرت فى قول النبى ـ ﷺ ـ «من أحدث ـ أى ابتدع أىّ شئ واخترعه من قبل نفسه ـ فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو[2] رد» أى مردود على فاعله لبطلانه وعدم الاعتداد به.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من المهتدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة»[3]، وقول إمامنا الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: من أحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة المذمومة، وفعل هذا الشخص المذكور لما ذكر على الوجه المذكور بدعة قبيحة شنيعة وتجرؤ منه على بيت الله ـ تعالى ـ لما فيه من هتك حرمته

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. انظر: إعلام الساجد ص ١٠٥.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٤٠، ٢٧٠. وغيرهما.

(٣) طرف من حديث رواه الترمذى وأبو داود، أنظر: حياة الصحابة ١/ ٥.
سنن أبى داود ٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، مسند الإمام أحمد ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧. وغيرها.

وإساءة الأدب مع الله ـ تعالى ـ والإخلال بتعظيمه وإجلاله. إذ المراد من تعظيم الكعبة تعظيم من هى منسوبة إليه والإخلال بحرمتها إخلال بحق الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا من أقبح الأفعال ويستحق فاعل ما ذكر التأديب وعظيم النكال اللائق به وبما ارتكبه من إدخال ما ذكر بيت الله وجلوسه فيه مجلس تدريس غير مطلوب، ولا نقل عن أحد ممن سبقه وإنما الحامل له عليه مجرد الشهوة والإرادة والإشاعة.

وقد صرح علماؤنا بأن المراد بالمحدث الذى هو بدعة وضلالة ما ليس له أصل فى الشرع وإنما الحامل عليه مجرد التشهى والإرادة، وبيت الله تعالى يجب تنزيهه عن أن يفعل فيه شىء مما ذكر لما فيه من الإشعار بالاستحقار بحقه وعدم الاعتناء بشأنه والقيام بحرمته. وهذا خرق عظيم ووبال على فاعله وخيم ويترتب على السكوت على هذه الداهية العظمى ـ إن لم يزجر فاعلها ـ امتداد رقاب غيره إلى فعل ما فعله ليكون له شهرة بذلك فيصير بيت الله ـ الذى عظمه النبى ـ ﷺ ـ بدخوله فيه بغاية التواضع ملعبة إن مُكِّن طالب ذلك منه. وإضافةً لذلك فدرءُ المفاسد أولى من جلب المصالح ـ على تقدير وجودها ـ فكيف وهذا الفعل على الوجه المذكور ليس إلا هتكًا لحرمة بيت الله الذى إجلاله من إجلاله.

ومما دل على ما ذكرناه من كون فعل هذا الشخص بدعة شنيعة، إنكار ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ على الجماعة الذين اجتمعوا فى المسجد يدعون اجتماعهم على هذه الهيئة المخصوصة التى لم يفعلها النبى ـ ﷺ ـ و الإنكار من هذا الصحابى العظيم على من ذكر لاجتماعهم على هذه الهيئة، إشارة بأنهم مفتحو باب الضلالة فلا مراء أن من فعل هذا فهو من أشنع البدع وأكرهها وأقبحها والإنكار عليه من الأمر اللازم لينزجر هو وأمثاله عن العود إلى مثل هذا الفعل الغير اللائق بحرمة بيت الله تعالى، وحديث الرسول ـ ﷺ ـ لا يشك من له أدنى مكنة فى العلم أنه أفضل ما يقرأ لكن لما كان المقصود من دخول الكعبة الشريفة الصلاة والدعاء والاستغفار كما فعل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ كان المنع

من القراءة فيها من اللازم لإحداث أمر لم يكن مطلوبا فيها، ولم يترتب على ذلك ما ذكرناه وقد صرح العلماء بأن كل عبادة خصت بمحل لا يفعل غيرها بذلك المحل، ولذلك قالوا: إن قراءة القرآن بالطواف خلاف الأولى لاختصاص الطواف بأذكار تقال فيه فمنعهم من اشتغال الطائفة بقراءة القرآن الذى هو أعظم من غيره يدل على منع المشتغل بقراءة الحديث فى جوف الكعبة لاختصاصها لما ذكرناه، فكيف بقراءته على الوجه المذكور المشعر بغاية الاستحقار والإخلال لعظمتها وحرمتها، أعاذنا الله من ارتكاب مالا يليق بجلالة بيت الله وحرمته ومن تعدى حدوده وانتهاك حرمته ووفقنا لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى.

* * *

هذه الوجهة تشمل صورا ستة:

تبين عدد المرات التى وسع فيها المسجد الحرام السعيد.

ومن قام بتوسيعه وترتيبه وكيفية ذلك ومتى بدأ الأهالى الكرام بإرسال الصرر إلى الحرمين الشريفين؟

ومتى أخذت ذلك عادة؟ وما الأسباب التى أدت إلى زيادتها وما مقدار تلك الصرر التى ترسل؟ ومن الذين ترسل لهم؟ ومن الذين ينالون الهدايا؟ وما مقدار الوقود ـ وسائر ما تمس الحاجة إليه فى المسجد الحرام؟ وكذلك القناديل وشتى أنواع الشموع مع بيان مقدارها ونوعها، وتبين كذلك أول من أنشأ عين زبيدة ذاكرة مجاريها وقنواتها والذين جددوها وعمروها وأصلحوها وعدد ذلك.

فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة

أول من تفضل بتوسيع الحرم الشريف للمرة الأولى هو عمر بن الخطاب رضى عنه الله الوهاب.

كان ما يحيط بالمسجد الحرام إلى عصر الخليفة سيدنا «عمر الفاروق» المبارك وزمانه المقرون بالعدل والقسطاس ساحة رملية شبيهة بالصحراء، ولم يكن هناك ما نراه اليوم من مبان، بل كان مساكن فقراء الغرباء المصنوعة من القش والحصير، وكانت هناك طرق ملتوية بين الأكواخ للوصول إلى حرم الكعبة المعظمة.

أما المسجد الحرام وهو توأم حرم الجنة فكان فى تلك الآونة ممتدا إلى ما وراء مقام إبراهيم والمنبر الشريف، فأما الذى مازال موجودا إلى اليوم أمام الكمر الذى يسمى اليوم بـ «باب السلام العتيق» قد وضع علامة مميزة لحدود الحرم الشريف القديم.

ولم يغير وضع الحرم الشريف القديم فى عهد أبى بكر الصديق لقلة المؤمنين وأبقى كما هو. لم توسع ساحة الحرم الشريف فى ذلك العهد لاستيعابها مسلمى تلك الآونة.

إلا أن عدد المسلمين قد زاد فى عصر عمر الفاروق المتميز بالعبادة بحيث ضاقت كل الساحة ذات الفيوضات الإلهية لبيت الله بجموع المسلمين ولم تستوعبهم، وأصبح توسيع مساحة بيت الله وتفسحها يتجاوز درجة الوجوب، وهكذا اشترى عمر بن الخطاب (رضى عنه الله الوهاب) الأكواخ والدويرات الملتصقة بالمطاف وضمها إلى المسجد الحرام، ولكن ذلك التوسيع لم يف بالغرض مما اقتضى ضَمَّ البيوت الأخرى الكائنة حول الحرم إلى ساحة الحرم، وهذا ما دعا الخليفة إلى شراء بعض المنازل التى ستساعد على التوسيع.

وفى هذه المحاولة الثانية للتوسيع لم يرض أصحاب المنازل بالتنازل عن دورهم، بل سعوا لإحداث فتنة بنشر أقوال مغرضة.

حينئذ استدعى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ المعترضين على إعطاء بيوتهم وقال لهم: «لم يُبْنَ بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم بيوتكم حوله، وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله» ثم دبر المبالغ اللازمة لشراء تلك الدور كما قدر ثمنها أهل الخبرة، ووضعها فى خزانة كعبة الله ثم هدم تلك البيوت وألحق أرضها بالمسجد الحرام، وهكذا وسع حرم المسجد الحرام على الوجه المطلوب.

ثم أحاط الحرم الشريف بسور يزيد ارتفاعه على قدمين قليلا من جهاته الأربعة لتوضع عليه القناديل والشموع، ثم أمر بفتح بوابات مقابل الطرق التى تركها قصى» بن كلاب للدخول فى المطاف السعيد. وفى ختام هدم المنازل جاء أصحابها إلى حضرة الفاروق عارضين ندمهم وأسفهم، ورجوه أن يعطيهم نقودا كافية لشراء سكن فأعطاهم المبالغ التى وضعها فى خزانة بيت الله من قبل، وهكذا أرضاهم وأسكتهم وكان ذلك فى سنة ١٧ الهجرية[1].

* * *

(١) انظر تاريخ الطبرى ٤/ ٦٨ ـ ٦٩.

التذييل

قد تم التوسيع المذكور للمسجد الحرام بعد سيل (أم نهشل)[1] بخمس سنوات.

حكمة:

يظهر فى مكة المعظمة كل عشر سنوات أو اثنى عشرة سنة سيول مرعبة مفزعة ـ لحكمة ما ـ وتعقب السيل بركة عظيمة ورواج وتقل الأسعار وتعم النعمة الإلهية والكرم اللامتناهى الجبال والبوادى. انتهى.

قد نكبت مكة المكرمة بكثير من السيول كالسيل الذى مر ذكره، وغدت البلدة العظيمة المقدسة خربة وسكانها حيارى متعبين وهم يبحثون عن حل لنكبتهم.

يقول الإمام الفاسى وهو يتحدث عن صواعق مكة المكرمة وأخطارها، ناقلا عن الإمام الأزرقى عن محمد بن يحيى وابن يحيى عن عبد العزيز.

١ ـ من السيول الشهيرة التى شهدتها مكة المكرمة «سيل القارة» قد اجتاح هذا السيل المفزع مكة فى الجاهلية فى زمن سيادة بنى خزاعة وأثناء حكومتهم، قد ظهر سيل القارة بشكل مفزع سريع ودخل فى المسجد الحرام واقتلع دوحة عظيمة فى طريقه وجرفها إلى أقصى حدود مكة المكرمة، ويروى أن رجلا وامرأة غرقا فى هذا السيل. ولم يعثروا على جثة الرجل ولكنهم وجدوا جثة المرأة، وكان اسمها «قارة» وكانت من كريمات نساء قبيلة بنى بكر المشهورة لذا أطلق على هذا السيل «سيل القارة».

قد نظف صناديد بنى خزاعة الحرم الشريف بعد انقطاع المياه التى تأتى من الأطراف، وبنوا حول بيت الله وحجر إسماعيل[2] حائطا منخفضا تفاديا لما قد يظهر من السيول فيما بعد، وظل هذا الحائط إلى عهد حكم قريش.

---

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٨/ ٢٨٦.

(٢) يطلق حجر إسماعيل على ما تحت الميزاب الذهبى.

٢ ـ من سيول مكة الشهيرة ـ نوعا ما ـ السيل العظيم الذى وقع عقب «سيل القارة».

قال الإمام الأزرقى وهو يعرف هذا السيل نقلا عن سعيد بن المسيب: قد وقع فى الجاهلية سيل آخر مخيف وكان السيل المذكور أشد قُوَّةً من سيل القارة» وبلغ درجة متناهية فى الشدة إذ غمرت المياه ما بين الجبلين وغابت المنازل عن الأنظار.

٣ ـ من السيول التى اجتاحت مكة المعظمة «سيل أم نَهْشَل» الثالث من تلك السيول. وحدث هذا السيل فى السنة الحادية عشرة الهجرية وفى عهد الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وبدأ ظهوره على نحو مرعب من ناحية بيت (أبى سفيان بن حرب) أى من ناحية طريق مكة المعظمة الذى ينتهى إلى المعلى، فتدفق بشكل مخيف داخل الحرم الشريف وانتزع المقام الشريف من مكانه وجرفه حتى الوادى.

وجرف أم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاصى بن أمية من بنات «عبد شمس بن عبد مناف» أمامه وأغرقها. لذا عرف ذلك السيل باسم «سيل أم نهشل».

وبعد ما توقف السيل المخيف وانتهت صولته وجولته وانسحبت المياه الراكدة التى فى داخل المدينة، وجرت إلى بطن الوادى، اتحد سكان مكة المعظمة وطهروا مدينتهم ونظفوها وهم يد واحدة، وعثروا على المأثر اللطيف للمقام الشريف فى أسفل الوادى وحملوه إلى الحرم الشريف، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا مكان الجوهر الثمين لحجر المقام، ومن هنا أبلغوا الأمر إلى الخلافة الإسلامية السنية وعرضوا عليها الوضع.

وحينما أطلع الخليفة الفاروق الأعظم على الأمر اضطرب اضطرابا شديدا، وأسرع بالسفر إلى مكة المفخمة ناويا العمرة، وبمجرد وصوله إلى مكة المكرمة أخذ يبحث عن رجل قدير على تعيين موضع المقام الشريف.

ووجد ضالته فى «مطلب»[1] بن أبى وداعة السهمى «الذى يستطيع أن يعين موضع المقام الشريف فاستدعاه واستفسر منه الكيفية.

وإذا بمطلب بن أبى وداعة كان قد قاس المسافة بين الباب المعلى للكعبة الشريفة وبين المقام الشريف، وكذلك المسافة بين جدران بئر زمزم والمقام المنيف بحبل متوقعا أن يحدث مثل هذا الحادث، واحتفظ بالحبل فى مكان أمين فى منزله.

واستدعى حضرة الفاروق مطلب بن أبى وداعة، وأجلسه أمامه وطلب منه أن يحضر الحبل المذكور. وبعد مسح المكان وتعيين موضع المقام الشريف، وضع أساس البناء العالى الذى يطلق عليه إلى يومنا هذا «المقام الشريف».

إن الحجر الشريف الذى وضع فى داخل البناء الذى بناه عمر بن الخطاب هو الحجر الذى كان يضع عليه حضرة إبراهيم (على نبينا وعليه التعظيم) قدميه فى أثناء رفع قواعد البيت.

وقد فصل فى بحث الأثر الشريف كل ما يتعلق بهذا الحجر الميمون المبارك، وأين وجد؟ وكيف حفظ إلى الآن؟ وأين حفظ؟ كما فصل فى باب قدوم النبى الجليل إلى مكة المكرمة وكيفية سفره وشكل الحجر الميمون وهيئته المرئية ومبانيه فى هذا المكان الذى يرجى قبول الدعاء فيه.

بعد ما أنهى ابن الخطاب (رضى الله عنه) العمليات الخاصة بمبانى المقام الشريف أصلح وعمر الأماكن الأخرى لحرم المسجد الحرام، كما أصلح ما خرب

(١) أحد الأصحاب الكرام، ذكره ابن سعد فى مسلمة الفتح، انظر الإصابة ٦/ ١٠٤.

من السد الذى يطلق عليه «ردم بنى جمح». إن السيل الذى ظهر بعد تعمير سد «بنى جمح» قد فاض من جهة السد المذكور، وأخذ يصب إلى المياه الرمادية التى تراكمت فى سهل وادى إبراهيم؛ لذا أطلق على السيل الذى أتى من هذا الطريق اسم«سيل وادى إبراهيم».

إن المياه التى تتكون من الأمطار التى تنزل عل جبال مكة فى ذلك الوقت تشكل سيلين عظيمين وتدخل فى داخل المدينة وأحيانا تدخل حتى حرم الله وتخرب الأماكن المقدسة بالحرم.

إن السيل الذى قلنا عنه وادى إبراهيم أحد هذين السيلين العظيمين، وكان يظهر من جهة سد بنى جمح ويمر بوادى إبراهيم المذكور ويجرى نحو شمال الوادى.

هو أحد السيلين السالف ذكرهما وهو سيل مخيف مرعب. وكان هذا السيل يهبط من جبال مكة الجنوبية ويدخل إلى المدينة سالكا طريق محلات جياد، ويبلغ البركة اليمانية ويرتد من هناك ويجرى صوب أسفل البلاد.

وكان سد ردم بنى جمح الذى وقع بين المحلات المسماة فى زماننا «المدعى» فى أوائل ظهور الإسلام كان بيت الله بجانب السد المذكور الذى كان موجودا آنذاك، كان يبرز جمال هيئته لعشاق بيت الله وزواره.

ولما كان الدعاء مقرونًا بالاستجابة حال رؤية بيت الله؛ فإن الحجاج الذين يطئون هذا الموضع كانوا يجتهدون فى الدعاء.

وفيما بعد حجبت المنازل والبيوت التى أقيمت فى هذا الموضع رؤية البيت الأعظم؛ وعلى الرغم من ذلك ظل الدعاء على حاله كما كان فى الماضى إذ إنه من الثابت أن الرسول ﷺ قد وقف للدعاء فى هذا المكان. حتى إنه يشاهد على جانبى الطريق لافتة خاصة مكتوب عليها: (هنا محل دعاء).

رواية:

قال حافظ الدين فى كتابه «النافع» نقلاً عن صاحب الهداية: «كنت قد نويت الذهاب إلى مكة المعظمة لأداء مناسك الحج، وعندما استأذنت من شيخى وطلبت منه الوصية قال لى: إن ثمة مكان مبارك فى مكة يقال له «سوق الكراع»، ومن هذا الموقع الشريف تبرز كعبة الله المتعال فى جمال لا مثيل له، وعندما تصل إلى هذا المكان وتنال شرف مشاهدة جمال بيت الله، فعليك أن تدعو قائلا: «اللهم اجعلنى من عبادك الذين تستجاب دعواتهم» لأن الدعاء عند رؤية بيت الله رهين الاستجابة. انتهى.

بناء على ما ذكره أهل العلم والدراية من سكان مكة المكرمة أن سيل جياد يحدث مرة كل عشرة أعوام، ويطغى بشدة منقطعة النظير ويفوق سيل «وادى إبراهيم» إلى حد جد بعيد، ويملأ المسجد الحرام بالطين والحصى، ولقد بذل أشراف البلد وأعيانهم من السلف الصالح كل جهدهم وصرفوا كل همتهم إلى حفر كثير من القنوات تحت الأرض لاستيعاب جريان مياه «سيل جياد»، ولكن القنوات امتلأت بالمياه على مر الزمان ولم تخطر بذلك دواوين الخلافة، فاستمر تدفق السيل فى مجراه القديم تدفقا شديدا ـ حين حدوثه ـ وما زال يهدم البيوت ويخرب الكثير من المنازل.

٤ ـ سيل الحُجَاف: هو السيل الرابع الذى أفزع أهالى مكة المفخمة، ولقد ظهر هذا السيل فى عهد عبد الملك بن مروان، وفى خلال العام الثمانين من الهجرة النبوية.

وقد ظهر ذلك السيل فى وقت صلاة الصبح وكان الحُجّاج ذوى الابتهاج فى وادى مكة، وبدأ جريان المياه من قبل صلاة الصبح، ثم ازدادت شيئًا فشيًا فجرف السيل الحجاج القائمين فى محل الوقفة كما جرف أثقالهم وأمتعتهم إلى المسجد الحرام.

وأحاط بالبيت المعظم وهدم المنازل والحوانيت الكائنة فى ناحية الوادى وخربها، وأغرق كثيرا من الناس وأهلكم.

وبما أن الناس قد لجئوا إلى الجبال لإنقاذ أرواحهم تاركين أمتعتهم وأموالهم أطلق عل ذلك السيل اسم «سيل الحُجَاف». وحينما أبلغ هذا الخبر المخيف لعبد الملك؛ أرسل إلى مكة المعظمة الموظفين المختصين من قبله لبناء ما تهدم من البيوت، ولحفر مجارى السيل وتعميقها، وبناء جدران من الحجارة الكبيرة والمتينة حيث يستدعى البناء، وقدم للأهالى أموالا طائلة وأشياء لا تحصى وهكذا عجل بإظهار جوده وسماحته.

٥ ـ السيل الخامس من سيول مكة «سيل عمر بن عبد العزيز» حدث هذا السيل فى السنة السابعة والتسعين أو الثامنة والتسعين من الهجرة، وكان سبب ظهور هذا السيل دعاء عمر بن عبد العزيز، لأن عمر بن عبد العزيز كان قد غادر الشام بنية الحج متجها إلى الأراضى الحجازية الجالبة للغفران.

فاستقبله أشراف مكة وأعيانها وتحدثوا عن الجفاف قائلين: «يا سيدنا إن الحجاز ومكة معرضة للجفاف فى هذه الأيام، ويخشى من نقص الماء وإن أهل الحرمين فى أشد الاضطراب من هذا الأمر وفى شدة الحزن مما سيصيب الحجاج الكرام من العطش فى موسم الحج هذا العام. وهكذا أجبروا عمر بن عبد العزيز على دعاء الاستسقاء. وفى الحال هم الخليفة بدعاء الاستسقاء بكل ما أوتى من عقيدة قوية وإيمان صادق بناء على الاتفاق الذى تم بينه وبين الوفد المكى، واشترك فى الدعاء قافلة الحجاج التى صاحبته وكذلك الوفد المكى الذى جاء لاستقباله.

ولحكمة ما انهمرت الأمطار بطريقة لم يسبق لأهالى البلاد الحجازية أن رأوا مثلها من قبل. وجاءت السيول من جميع الجهات وأحاطت مكة المعظمة من

جهاتها الأربع، وعمر الحجاز بالخيرات وعم الخصب ورخصت الأسعار؛ وذلك ببركة دعاء عمر بن عبد العزيز.

٦ ـ السادس من سيول الحجاز سيل أبو شاكر: وقد ظهر هذا السيل فى السنة السادسة والعشرين بعد المائة الهجرية وفى عهد هشام بن عبد الملك. وكان «أبو شاكر» من أجلاء رجال الدولة، وكان ضمن قافلة من قوافل الحجاج وقد اضطرب اضطرابا شديدا من شدة صولة السيل، وأظهر قلقا لذا ذكر ذلك السيل العظيم بعد فترة ما «بسيل أبى شاكر».

٧ ـ من السيول التى خربت مكة المعظمة سيل مخيل: وقع سيل مخيل سنة مائة وثمانين واجتاح المسجد الحرام بقوة وسبب ضررا غير قليل. ولا يمكن حصر البيوت التى انهارت والأرواح التى أزهقت.

٨ـ السيل الثامن من سيول مكة «سيل حنظلة» ظهر هذا السيل فى سنة مائتين واثنتين وفى عهد الخليفة المأمون. وبما أن هذا السيل قد ظهر بقوة شديدة نقل مقام إبراهيم الهمام إلى مكان مرتفع خيفة انتزاع السيل له. وقد خرب هذا السيل المسجد الحرام، وهدم كثيرا من المنازل وأهلك بالغرق كثيرا من النفوس. ولما كان والى مكة فى تاريخ ظهور السيل يسمى «حنظلة» فسمى السيل «سيل حنظلة».

٩ ـ قد ظهر سيل آخر بعد سيل حنظلة بست سنوات سنة (٢٠٨)، وقد اقتلع هذا السيل العظيم أركانا كثيرة من المسجد الحرام، وهدمها كما سبب غير قليل من الخسائر والمضرات لأهل مكة، كما جلب فى ساحة المسجد الحرام السعيد كثيرا من الطين والرمل مما دعا إلى إشراك النساء فى خدمة تطهير المسجد الحرام. قد ظهر هذا السيل فى عهد الخليفة المأمون، وفى خلال السيل العظيم وسيل حنظلة تعرض الناس لمرض شديد ومات ما لا يحصى من الناس.

١٠ـ ومن السيول التى أفزعت الناس فى البلاد الحجازية سيلان وقع أحدهما وهو السيل العاشر بمكة سنة ٢٥٣ والثانى وهو الحادى عشر فى مكة فى سنة ٢٦٦. يعتبر السيل الذى وقع ٢٥٣ من الأحداث المهمة التى حدثت فى البلاد الحجازية، إذ دخل إلى المسجد الحرام وارتفعت المياه حتى وصلت إلى الحجر الأسود، وجلبت للمسجد خسائر عظيمة إلا أن السيل الذى حدث بعده بخمسة عشر عاما كان أكثر رعبا وفزعا. إن هذا السيل قد خرب المنازل والمدارس والحوانيت التى فى طريقه، وبخلاف هذا فقد جرف الرمال التى كانت تفرش ساحة الحرم الشريف، وقد بلغ شدة جريانه حدا أنه جرف معه كل ما يقع أمامه من الأجسام الثقيلة بدون قيد ولا احتراز، كما أنه اقتلع جميع الحجارة التى فى داخل ساحة المسجد الحرام.

وبعد هذه الواقعة أى بعد سيل عام ٢٦٦ ظهرت سيول أخرى خلال ٣٤٤ سنة، إلا أنه لا يعرف التاريخ أوقات ظهورها، ولكن مما يروى أنه فى خلال تلك الفترة هبطت على مكة سيول من الجبال التى تحيط بها، وهى سبعة سيول أو ثمانية، وقيل إنها كانت مفزعة رهيبة، وقد جرف إلى ساحة الحرم الشريف الأتربة وعظام الحيوانات وغير ذلك، وتحول داخل المسجد الحرام إلى جبال مما سبب لأهل مكة التعب الشديد فى نقل المخلفات وترميم ما خربته السيول وتعميره.

وقد نقل مؤلف «لطائف الأخبار» عن قاضى مكة برهان الدين بن ظهير فى ذلك الوقت «أن أشد السيول التى هبطت هو السيل الذى ظهر فى شدة مخيفة فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة عام (٦٨٣) وكأنه شعبة من المحيط الهادى.

إن السيل الذى يذكره القاضى برهان الدين قد ملأ ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الباهرة، وهدم كثيرا من أساطينه وخربها، وأهلك فى داخل الحرم الشريف وخارجه وأغرق خمسائة وسبعين شخصا.

قد ظل هذا السيل فى داخل الحرم الشريف ما يقرب من أربعة أيام، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت وظلت المياه تتزايد بغزارة فى تلك الأيام الأربعة؛ إلا أنها أخذت فى النقصان يوم السبت، وقد أصاب أهل مكة من شدة هيجان ذلك السيل فزع شديد».

ويقول القاضى برهان الدين فى رسالة كتبها وأرسلها إلى مصر بعد أن تحدث عن وقت ظهور السيل ومدة بقائه فى الحرم الشريف «إن المسنين الذين عاصروا السيل يذكرون أن مثل هذا السيل لم ير له مثيل لا فى العصور الجاهلية ولا فى العهود الإسلامية.

إن المياه التى تجمعت فى ساحة المسجد الحرام، ارتفعت مقدار سبعة أذرع وثلاثة أرباع ذراع» وفى خاتمة رسالته أومأ إلى أن أهل مكة كانوا على حق فيما أصابهم من شدة الفزع.

١١ ـ من السيول التى يعرف التاريخ ظهورها السيل العظيم الثانى عشر الذى حدث فى سنة ١٥٣٨ الهجرية. إن السيل المذكور قد ظهر فى ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، واجتاح ساحة الحرم الشريف من البطحاء وارتفعت المياه قدر ذراع من فوق عتبة باب بيت الله، وأوقعت كثيرا من أبواب المسجد الحرام على الأرض.

وكان عدد الغرقى والموتى لا حصر له، ولم يكن بين أهالى مكة من رأى مثل هذا السيل العظيم؛ فلو لم يكف هطول الأمطار بعناية الله لما كان هناك شك أن كثيرا من حوانيت مدينة مكة المكرمة كانت ستخرب.

١٢ ـ من السيول الشهيرة السيل الذى ظهر مثل البحر بعد السيل الثانى عشر بأربع وستين سنة. وقد ظهر هذا السيل ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ثمانمائة واثنتين. ودخل فى المسجد الحرام من جهة وادى إبراهيم واقتلع كثيرا من أبوابه وحطمها، وكانت كثرة الأمطار هى

التى تسببت فى ظهوره وقد اشتد هطول المطر حتى ظن الذى كان يراه كأنه ينسكب من أفواه القرب.

وقد بلغ ارتفاع المياه التى تجمعت فى المسجد الحرام خمسة أذرع، وارتفعت بمقدار ذراع ونصف ذراع من عتبة باب الكعبة المعلى. والماء الذى دخل الحرم بلغ من قوة جريانه أن هدم عمودين كبيرين، وهوى السقف الذى يحمله العمودان فمات ستون شخصا ممن كانوا تحته.

١٣ ـ وحدث السيل الرابع عشر الذى ألحق بأهل مكة أبلغ الأضرار بعد السيل الثالث عشر بثمانية أعوام. وقد ظهر هذا السيل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة من عام ثمانمائة وعشرة للهجرة فى وقت الظهيرة، وهدم السدود التى صنعت لتمنع المياه الفائضة من القنوات ومجارى العيون فى وقت ظهور السيول، وأغرق داخل البلد بالمياه وهجمت المياه بشدة ودخلت فى ساحة الحرم الشريف بشكل مفزع، وسرعان ما ارتفعت إلى الدرج الخاص بجلوس الخطباء فى المنبر الشريف.

وبلغ الخبر من قبل والى الإمارة إلى مقام السلطنة الذى عين مديرًا من قبله لإجراء ما يقتضى إجراءه؛ وأرسله إلى مكة المعظمة، وبادر المدير فور وصوله بتعمير السدود الخربة وتشييدها كما عمق قنوات عين زبيدة ومجاريها وجددها.

١٤ ـ من السيول التى أرهقت أهل مكة وآلمتهم السيل الخامس عشر الذى وقع فى خلال عام ثمانمائة وثمانين، ولم ير مثيل له لا فى خلال أعوام الجاهلية ولا العصور الإسلامية.

وبالنظر لما ينقله المرحوم الإمام السمهودى فإن السيل المذكور ظهر قبل وصول الحجاج إلى مكة، وغمر ما بين الجبلين وارتفع إلى أسطح المنازل الكائنة فى ناحية المعلى، ومن هناك اجتاح بقوة خارقة للعادة ساحة المسجد الحرام وألحق به خسائر جمة.

ولا يعلم إلا الله ـ تعالى ـ عدد ما انهار من البيوت وما حاقت بهم من الخسائر وما فاضت من الأرواح.

وعندما سحبت مياه السيل من المسجد الحرام أخرجت من تحت أنقاض المسجد الحرام جثث مائة وثمانين رجلا، ولم ير الطاعنون فى السن من أهل مكة سيلا يشبه هذا السيل الخطير.

١٥ ـ من السيول التى جعلت أهل مكة ينتفضون مضطربين: السيل الذى حدث فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة عام ٨٨٧ للهجرة. وكان سيلا عظيما يخلع القلوب رعبا، وكان وقوعه فجأة فى اليوم المذكور واتجه نحو المسجد الحرام وسرعان ما تسرب إلى بيت الله وارتفع بطول قامة إنسان داخل الكعبة المشرفة، أما ما ترتب عليه من خسارة فلا يقع تحت الحصر فانهارت الدكاكين فى أرجاء البلد والمدارس والمنازل، وانهارت بعض أساطين المسجد الحرام ولم تقم صلاة الجمعة فيه.

وما كان فى الإمكان حصر عدد الهالكين تحت ما انهدم من أطراف المسجد الحرام وما بجانبه من الدكاكين والبيوت والمدارس، إلا أن سبعين جثة أخرجت من المسجد الحرام.

وكتب قاضى مكة الذى كان يتولى منصب القضاء إلى حكام مصر قائلا: «إن هذا السيل الذى وقع هذه المرة كان سيلا مفزعا حقا، فقد ظلت جدران المسجد الشريف الأربعة مغمورة فى الماء، وارتفع الماء على امتداد مساحته فى جانبه الأيمن والأيسر إلى سبعة أذرع وربع.

١٦ ـ من السيول التى أحدثت خسائر عظيمة فى مكة المكرمة السيل السابع عشر من تلك السيول العظيمة. ولم نستطع أن نعرف فى أى يوم من أى شهر وقع، إلا أن المياه قد غمرت الصحارى والسهوب والجبال والأحجار وملأ المسجد الحرام بالطين والحجارة وخربت المياه كثيرا من الدكاكين والبيوت بما

فيها من أمتعة وبضائع. وما كان فى مقدرة أحد أن يخمن عدد المتضررين، أو ما ألحق بالناس من أضرار هذا السيل، وبعد انحسار المياه وجدت مائة جثة فأودعت الثرى. ولم يرد منذ عصر الجاهلية أخبار عن سيل من السيول أبشع وأكثر رعبا من هذا السيل.

١٧ ـ السيل الثامن عشر ظهر بعد عام من ظهور السيل السابع عشر من سيول مكة. ولا يعرف فى أى يوم من أى شهر ظهر هذا السيل، إلا أنه قد تسبب فى ضرر كبير وأدى إلى تلف كثير من ممتلكات أهل مكة.

١٨ ـ السيل التاسع عشر وقع بعد السيل الثامن عشر بمائة وخمسين سنة (١٠٣٩)، وهو من السيول العظيمة التى أخافت وأرعبت أهل مكة. وقد غرق فى خلال هذا السيل عدد لا يحصى من الناس وأصاب أهل مكة بخسائر وأضرار لا يستطيع الإنسان أن يخمنها، وكان سببا فى هدم وسقوط أبنية الكعبة المفخمة[1].

١٩ـ من السيول التى أحصيت السيل العشرون الذى حدث فى سنة ألف وتسعين أما عدد الحجاج الذين ماتوا غرقا فى هذا السيل فيفوق الحصر وما أصاب سكان مكة من سوء وخسائر فلا يمكن معرفته بالتخمين.

٢٠ ـ وبعد مرور عام على سيل عام (١٠٩٠) ظهر سيل عظيم آخر هو السيل الحادى والعشرون الذى أورد أهل مكة مورد التهلكة وسبب لهم خسائر كبيرة. وبالنظر إل ما ذكره مؤرخو مكة فإن السيل المذكور وقع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة عام (١٠٩١) الهجرى. وقد وقع هذا السيل فى اليوم المذكور بعد صلاة الظهر بنصف ساعة على أثر هطول أمطار

(١) بما أن قد كتب فى الوجهة الثانية والصورة الثالثة عشرة ما أحدث هذا السيل من خسائر عند دخول المياه فى كعبة الله، وكيف أخليت الكعبة من الأشياء التى جرفها السيل لذا لم تعد هناك حاجة إلى تكرار ذكرها.

خفيفة وجاء من الجبال المتسلسلة التى تحيط بمكة وكان المطر قد انقطع تماما فى أثناء ظهور السيل.

وإن لاح فى بدء ظهوره سيلا خفيفا إلا أنه أخذ يتزايد بالتدريج، وتدفق تدفقا مرعبا ودام مدة طويلة حتى دخل المسجد الحرام، وجاوز ارتفاع المياه العتبة العليا لباب الكعبة السعيدة بذراع واحد، ودامت الحالة هكذا مدة أربع وعشرين ساعة، وأخذ جريان المياه يقل شيئًا فشيئًا حتى انقطعت المياه ووجد فى ساحة الحرم الشريف ما يقرب من خمس وعشرين جثة.

وكان فى ناحية المعلى شجرة جوز تحتها مقاهى متعددة، وعندما بدأ السيل وظهرت المياه تسلقها ما يقرب من مائة وخمسين نفرا من رواد المقاهى خائفين على أرواحهم من هول المنظر.

وحينما اكتسب جريان السيل شدة كان فى ظل الشجرة بضعة مقاهى؛ ولكن السيل المرعب قد اقتلع الدوحة العظيمة من جذورها وجرفها إلى أمام باب الصفا، والمساكين الذين لجأوا لأغصانها حماية لأرواحهم كان مصيرهم الغرق.

كما هلك غير هؤلاء كل هؤلاء الذين تصادف وجود حوانيتهم ومنازلهم على حافة جريان السيل، إذ انهدم ما يقرب من مائة وخمسين من تلك المنازل والحوانيت وفى داخلها أصحابها ولا يحصى عددهم إلا الله.

وقد امتلأت البركة اليمانية الكائنة فى الجهة الجنوبية لمكة المعظمة المقدسة بجثث الدواب النافقة وقد ثبت نفوق خمسة آلاف من الحيوانات التى تصادف وجودها فى طريق السيل.

وبعد انقطاع السيل المفزع فتح طريق يسمح بالطواف حول البيت وذلك بهمة والى مكة المكرمة وشهامته، واستعين بهذا الطريق لتنظيف جميع أرجاء الحرم الشريف وتطهيرها؛ إلا أن النظافة لم تصل إلى الحد المطلوب كما أن مجارى

السيل وقنوات عين زبيدة قد خربت تماما ولم تصلح للاستخدام، لذا أبلغ الأمر إلى السدة السلطانية لاستئذانه بتصليح ما خرب؛ فأرسل السلطان مدير أصطبلاته سليمان أغا ليقوم بالإشراف على التعمير وقد بادر المذكور بتطهير ساحة الحرم الشريف على الوجه المطلوب، كما أصلح مجرى السيل وقنوات عين زبيدة وعمقها وذلك فى سنة ١٠٩٢ الهجرية.

٢١ ـ السيل الثانى والعشرين الذى أضر أهالى مكة حدث فى سنة (١٢٧٨) وفى خلال أوائل سلطنة السلطان (عبد العزيز جعل الله مثواه الجنة). وبناء على بعض المعلومات المستقاة من مسنى مكة أن ذلك السيل كان أشد فزعا وهولا من سيل عام (١٠١٢).

وظهر ذلك السيل بينما كان الناس نياما فى ليلة من الليالى واجتاح الحرم الشريف وأحاط بالكعبة المعظمة هائجا مثل البحر لمدة أسبوع، وظل يتموج ولا يعرف أحد عدد الغرقى من الغرباء الذين ماتوا فى فتحة باب السلام.

قد وجد فى مجرى الماء الذى يبعد عن مكة المعظمة بساعتين أو ثلاث ساعات ظهرت جثث لفترة شهرين أو ثلاثة كما أنه قد غرق فى داخل المدارس والحوانيت خلق كثير.

وقد غرق جميع المساكين الذين وجدوا على الساحة المفروشة بالرخام[1] بين بابى ـ باب السلام ـ الداخلى والخارجى، ولم يبق فرد يتنفس من الناس الذين كانوا يبيتون فى داخل دكاكينهم فى سوق المسعى الشريف، أما الأشخاص الذين كانوا يقضون ليلهم تحت قباب الحرم الشريف فقد غرق أكثرهم. إلا أن قلة منهم قد تعلقوا بما تدلى من حبال من القباب فصعدوا فوقها بعدما لقوا فى ذلك تعبا شديدا ومشقة عظيمة حتى فازوا بالنجاة.

وبعد مضى أسبوع أخذت المياه تنحسر شيئا فشيئا، أما الناس شريفهم

(١) كان هذا المكان سوقا للكتب وكان مجلسا للغرباء والمساكين والشحاذين ليلا ونهارا.

ووضيعهم فشمروا عن ساعد الجد فى حماسة دافقة، وأقدموا على تنظيف الحرم الشريف وتطهيره مما جرفه السيل من الحجارة والتراب وغيرهما، وبصعوبة شديدة استطاعوا أن يطهروه فى خلال ثلاثة أشهر.

قد تكون فى داخل الحرم الشريف بما جلبه السيل من الكناسة والتراب أكوام كأنها تلال وجبال هنا وهناك.

وتحول كل واحد من أهالى مكة الكرام إلى فرهاد حافر الجبل[1]، إذْ أخذوا ينقبون تلك الجبال والتلال ويهدمونها ويفتتونها ثم يحملون الأحجار والأتربة إلى خارج البلد. ولا يعرف عدد من مات من الناس وما نفق من الحيوانات وما محى من أموال وأمتعة.

٢٣ ـ وفى عام (١٢١٣) ظهر السيل الثالث والعشرون من تلك السيول التى ألفت مكة أن تشاهدها. وهذا السيل كان سيلا هائلا، وما كان شبها للسيل الذى وقع قبله بخمسة عشر عاما إذ لم يتأذ الناس بأضرار كثيرة.

إذا لم يعمق طريق المسعى الشريف ـ وهو مجرى السيل كما ينبغى فإن ظهور السيول وجريانها سيكون شيئا طبيعيا، وكلما لاحت فى السماء قطعة من السحاب أصبح من المجرب أن يظهر السيل بعد ساعتين، وإذا ما أتى السيل نهارا لا يسبب ضررا كبيرا للناس، ولكنه إذا وقع ليلا يتسبب فى خسائر عظيمة للناس فى أموالهم وحيواناتهم.

(١) هو فرهاد الحفار أو الذى عشق (شيرين) جارية (كسرى) كان هذا الملك يحب شيرين حبا جما، واتصل بعلمه أن قلبها خفق بحب فرهاد وشاء أن يتخلص منه وأمره بحفر طريق فى الجبل، وضرب له موعدا قريبا ليعجزه عن ذلك، ووعده بأن يهب له شيرين إذا أنجز عمله فى موعده، وامتثل فرهاد لأمر كسرى وأنجز عمله قبل الموعد المعين، فأسقط فى يد الملك ولكن عجوزا احتالت لتخلص الملك من فرهاد وأخبرته بأن شيرين ماتت فصدم فرهاد وكره أن يعيش بعدها وألقى بنفسه من رأس الجبل. وهى قصة تداولها شعراء الفارسية والتركية والأردية بالنظم وضمنوها رموزًا صوفية. (المترجم).

وعلى ذلك فإن ما يصيب أهل مكة من أضرار من مياه سيل يتدفق فى العام مرة أو مرتين أصبح أمرًا مألوفا؛ إلا أن ما سبق ذكره من سيول مثل الذى وقع فى عهد (الفاروق الأكرم) المعروف بسيل (أم نَهْشَل) والسيل الذى وقع بعده بتسعة وستين عاما والذى عرف بـ (سيل حجاف) وما ذكر من سيول وقعت فى عام ثمانمائة وثمانية وثمانين وفى عام ألف وتسعة وثلاثين وعام ألف وتسعين أضرت بأهل مكة أبلغ الضرر.

ولاسيما السيلان اللذان وقعا فى عامى ١٠٩٠ و١٢٧٨ قد تسببا فى غرق وهلاك عدد لا حصر له من الحجيج وأهل مكة.

* * *

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية

بعد سيل «أم نهشل» الذى سبق التعريف به آنفا بخمسة عشر عاما وفى العام السابع والعشرين من هجرة النبى. ﷺ أراد سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه المنان) توسيع ساحة الحرم الشريف أكثر من قبل وأراد شراء بعض البيوت القريبة من الحرم، إلا أن أصحاب تلك البيوت جأروا بالشكوى وألحوا فى التمسك بعدم الرضوخ لرغبة الخليفة، وأطالوا ألسنتهم بكلام مستهجن لايليق، فجمعهم الخليفة وقال لهم: «إنما أطمعكم فىّ ما أتصف به من حلم وحياء فأخذتم تصيحون وتطيلون ألسنتكم ولم تستطيعوا أن تخرجوا ألسنتكم بالسوء فى أيام سلفى» واستمر يوبخهم لفترة ما ثم أمر بأن يحبس ويؤدب كل الذين لايريدون تسليم منازلهم لتوسيع ساحة المسجد الحرام فجمع كل المخالفين وقبض عليهم وحبسوا.

إلا أن عبد الله بن خالد تقدم بالشفاعة لدى الخليفة ووفق فى تخليص جميع المخالفين، وأدخل الخليفة الأراضى التى استولى عليها من المخالفين المذكورين ضمن ساحة المسجد الحرام، فأصبح طول الحرم الشريف (٢٨٨) قدما و(٨) بوصات، وعرضه (٢١٢) قدما و (٦) بوصات، ورفع سور الجدار الذى بناه عمر بن الخطاب وأضاف إليه كثيرا من الأسقف، وبذلك اتسعت مساحة الحرم الشريف على النحو المرغوب، وبلغت عمارة الحرم الشريف غاية كمالها، وعندما استعد للعودة جاء وفد من أهل مكة ورجوه أن ينقل الميناء الكائن فى ساحة «الشعيبية» إلى جدة إلا أن صلاحية جدة لتكون مرفأ كان لابد من التأكد منه برؤية العين لذا تفضل بتشريف جدة بذاته ليكشف صلاحية المكان ويعاينه.

وقد عرف الخليفة أن شاطئ جدة أقرب إلى مكة المفخمة وطريقه خال من الخطورة، وأن جعل جدة ميناء أكثر أمنا وصلاحية من جميع الوجوه، وبعد أن أجرى فى هذا الخصوص التدقيقات والبحوث الكاملة بأن يترك تشغيل ميناء «الشعيبية» ويتخذ جدة مرفأ للسفن، وبما أن الاستحمام فى البحر كان مفيدا للجسم أمر بأن يستحم من كان معه فى البحر كما أنه بالذات! استحم فى البحر ثم عاد فى النهاية من طريق (عسفان) إلى قصر الخلافة فى مهجر النبى - ﷺ -

وبعد هذا التعمير بفترة[1] اشترى حضرة معاوية دار الندوة وضمها إلى ساحة الحرم الشريف، وفى سنة (٧٥) الهجرية قام عبد الملك بن مروان ببعض الإصلاحات فى الحرم الشريف، وكذلك فعل ابنه وليد بن عبد الملك فى سنة (٩١) الهجرية.

وقد أرسل إلى والى مكة عبد الله القسرى كثيرا من الأعمدة الرخامية، وكتب له موصيا بأن يعمر الحرم الشريف بشكل يليق بمكانته وليس هناك قبل الوليد من أرسل أعمدة رخامية لتعمير الحرم المكى.

* * *

(١) فى السنة الرابعة والأربعين من الهجرة.

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة

بما أن حرم المسجد الحرام قد أهمل خلال إحدى وأربعين سنة ولم يلتفت إليه بعد عمارة وليد بن عبد الملك، لذا بنيت الأسقف التى أقامها عثمان بن عفان وكذلك الأماكن التى أقامها عبد الله بن الزبير، كما بنيت الحجارة الرخامية التى أرسلها وليد بن عبد الملك، وزاد عدد أهل الإيمان فاقتضى توسيع ساحة المسجد الحرام، وبلغ الأمر إلى أبى جعفر عبد الله المنصور البغدادى؛ فما كان منه إلا أن وسع الحرم الشريف من ناحية جداره الشامى، وبدأ من حذاء المقام الحنفى إلى دار الندوة، كما وسع من جهة باب العمرة وأوصل إلى باب العمرة فى سنة ١٣٩ الهجرية.

أراد أبو جعفر أن يجدد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى؛ ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح اشترى المنازل القريبة من الجدار الشرقى وهدمها، وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا نظير لها. وزين أبو جعفر عقب ذلك جهات المسجد الحرام الأربعة بالذهب والفضة الخالصة والفسيفساء[١] النفيسة، وفرش داخل الحطيم الكريم بالرخام المجلى، وزينه وأتم التعمير فى خلال ثلاث سنوات ثم سجل كل ما تم صنعه فى زمانه على لوحة رخامية وعلقها على كمر فوق باب بنى جمح[٢] الكائن فى ناحية باب الصفا.

فى نفس العام الذى تم فيه التعمير وبلغ غايته من الكمال سافر «أبو جعفر»

(١) يطلق الفسيفساء على الأشياء الملونة الصغيرة المصنوعة من الزجاج والنقوش المختلفة التى تكسى بها جدران المبانى الفخمة.

(٢) إن هذا الباب كان الباب المتصل بباب الخياطين الذى يتصل بباب إبراهيم، وقد ضم المقتدر بالله العباسى باب إبراهيم إلى الحرم الشريف سنة ٣١١.

لأداء فريضة الحج وزيارة الحرمين، ورأى ما تم توسيعه وزيادته فى حرم المسجد الحرام فعبر عن ابتهاجه وسروره البالغ.

وكان أبو جعفر يتصف بصفة البخل الدنيئة، فكان يضرب به المثل فى شدة البخل إلا أنه ـ لحكمة ما ـ فاق ما قدمه من البر والإحسان جميع الكرماء الذين ظهروا من قبله إذ أكرم سكان الحرمين ومجاورى المسجدين وأحسن إليهم إحسانا عظيما[1] ثم ذهب لزيارة القدس الشريف.

وكان المنصور معروفا ـ بجانب بخله وتقطيره ـ بالظلم، ويروى أنه قتل فى أثناء حكمه الذى دام اثنتين وعشرين سنة ستمائة ألف من المسلمين وأيديهم مغلولة؛ كل ذلك ليقرب الناس منه وليحطم أصحاب الثروة والنفوذ فى الدولة وليخوفهم، وفى أواخر أيامه بيت سوء النية لقتل «سفيان الثورى» ـ رضى الله عنه ـ إلا أنه عندما خرج لأداء فريضة الحج للمرة الخامسة متجها إلى مكة المعظمة ووصل إلى المكان المعطر الذى دفنت فيه أمنا ميمونة ـ رضى الله عنها ـ، أمر والى مكة بإعداد مشنقة لشنق سفيان الثورى وفعلا قد تم إعداد المشنقة واتخذت جميع تدابير الشنق.

وعندما شاع هذا الخبر فى مكة كان سفيان الثورى قد امتد متوجها إلى الكعبة واضعا رأسه فوق ركبتى الفضيل بن عياض ورجليه فوق ركبتى سفيان بن عيينة.

قال أحد أولياء الله المحبين الصالحين: يا سفيان قد جاء المنصور قاصدا صلبك وإعدامك ووصل إلى بئر ميمونة وكتب إلى حكومة مكة حتى تعد مشنقة لصلبك، وقد أعدت فعلا مشنقة لذلك، وإذا ما استطاع هذا العدو الحاقد أن يضع يديه على جسمك الشريف إننا نتعرض لشماتة الأعداء، ونقع فريسة للمصائب والاضطرابات فقام سفيان من مكانه منتفضا، والتصق بستارة الكعبة المعظمة وقال بصوت مرتفع «لو وصل المنصور لهذا المكان فإننى لن أذكر الكعبة

(١) قد أعطى لكل واحد من أشراف قريش ألف (فلورى) ولم يكن هناك مكى يعرف إلى ذلك الوقت من أعطى له هذا القدر من النقود.

طول عمرى» ثم امتد مرة أخرى واضعا رأسه على ركبتى فضيل ورجليه على ركبتى سفيان بن عيينة[١].

وعقب ذلك وصل خبر هلاك المنصور وهو أنه كان يركب حصانا ووقع منه، وتناولت الأفواه الخبر فى أرجاء مكة. وبما أن دعاء سفيان قد استجيب فقد تحرك المنصور من بئر ميمونة ووصل إلى «الحجونين» الكائن بين جبلين حذاء مقبرة المعلى وسقط من فوق حصانه على عنقه ومات متأثرا بذلك.

يقول مؤلف (لطائف الأخبار) عمر بن فهد: ولما كان المنصور متسلطا على الناس يضطهدهم؛ خاف رجال السلطة من انتقام الشعب من جثته وأمروا بحفر مئة قبر ودفنوه فى القبر المائة، وأخفوا عن الناس القبر الذى دفن فيه وكتموا أمره. وكان سبب رغبة المنصور فى إعدام حضرة سفيان واستثقاله ما وجهه إليه من النصائح والوصايا.

اتفق ذات يوم أن التقى سفيان بالمنصور فى (منى)[٢] وقال له «يا منصور اتق الله رب الكائنات واذكر ما رفعك إليه من منزلة، لقد بلغت هذه المنزلة العالية بفضل سيوف المهاجرين والأنصار وأولادهم وأحفادهم وما بذلوه من جهد، والآن قد عصفت بهم صروف الدهر، وأما أنت فشحيح ممسك[٣] ولم يستطع عمربن الخطاب أن ينفق أكثر من خمسة عشر دينارا فى أثناء حجه، ومثله مثل الحجاج قد قنع بالجلوس تحت ظل شجرة، وأنا أعرف أن الرجل الحق هو من إذا ما ازدانت ذاته بالعلم والعمل أصلح حال الأمة وهذا الرجل هو من أتجه إليه بالخطاب فرد عليه المنصور فى حدة وغضب «هل تريد أن تساوى نفسك بى» فأجابه الشيخ قائلا «لا ، لا يجب أن تكون فى منزلة أقل مما أنت فيها وأنا فوق ما أنا عليها» فطرده المنصور من مجلسه.

(١) الخبر بطوله فى تهذيب التهذيب ٤/ ١١٤.

(٢) كان هذا اللقاء فى حج المنصور الأول.

(٣) كان قصد سفيان بهذه الجملة معرفة مدى بخل وخسة أبى جعفر لأن المنصور كان رجلا مقترًا يبحث عن حساب كل شىء حتى آخر دانق لذا اشتهر بلقب المنصور الدانقى.

سفيان الثورى:

إنه سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الكوفى من قبيلة «ثور» بن عبد مناة بن أد بن طابخة، ويكنى بأبى عبد الله، ولد فى السنة الخامسة والتسعين الهجرية، واستجاب لدعوة ربه فى سنة مائة وستين، يروى أنه دفن فى البصرة إلا أن قبره فى النجف الأشرف، وبناء على هذا يقتضى وفاته فى النجف الأشرف رحمة الله عليه.

* * *

(١) أمير المؤمنين فى الحديث وحيد زمانه فى الفقه والحديث والزهد أحد الثقات الإثبات مقدم عند الجميع، أخرج حديثه الجماعة، وهو إمام من أئمة المسلمين. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب. ٤/ ١١١ ـ ١١٥.

فى توسيع المسجد الحرام وتزيينه للمرة الرابعة

قد وسع المسجد الحرام للمرة الرابعة «محمد المهدى العباسى وذلك حينما رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسيع. وقد سافر بنية أداء الحج وزيارة الروضة النبوية المطهرة، واتجه إلى الحجاز الجالب للفيض الإلهى والمغمور بالغفران، وعندما وصل إلى مكة المكرمة أقام فى «دار الندوة» الخاصة بالخلفاء العباسيين، وهناك اطلع على أن الحرم الشريف فى حاجة للتوسيع والتعمير وظهرت لديه الرغبة فى إجراء ذلك. وفى أثناء ذلك شرف بالمثول بين يديه عبد الله بن عثمان بن إبراهيم من خدم الكعبة المعظمة.

وقال له «يا مولاى: أريد أن أقدم لك هدية لم تقدم لأحد من الخلفاء قبلك، وقدم له حجر (مقام إبراهيم) المبارك لأجل زيارته. سر (المهدى) من صنع (عبد الله بن عثمان) فأمسك بالحجر الشريف ومسح به عينيه ووجهه ثم قبله. ثم أمر أن يملأ أثر القدم فوق الحجر بماء زمزم وشربه، ثم بعث بالحجر الشريف إلى قصر حريمه فتشرفن برؤيته والتبرك به، ثم أعاده إلى عبد الله بن عثمان ليعيده إلى مكانه.

وعقب ذلك مثل بين يديه بعض الأشخاص من كبار خدمة البيت وقالوا له «مولاى! كثرت الكسا على كعبة الله، ومن المحتمل أن تنهار جدران الكعبة تحت ثقلها» وكأنهم كانوا يلوحون بأنه قد حان وقت تغيير الكسوة وتجديدها.

فأمر الخليفة بإزاحة ما تراكم على الكعبة من أكسية، ثم أمر بتعطير الكعبة بدء من أسطحها وداخلها وخارجها بالمسك والعنبر والعطور الأخرى، ثم ألبسها بثلاث طبقات من كساء ذا بهاء، ثم أمر بأن تبدل سلاسل القناديل التى فى داخل

كعبة الله بالذهب، ثم قدم عطايا وفيرة ثم اشترى المنازل التى بين المسجد الحرام والمسعى الشريف، وأمر بأن تلحق بالحرم الشريف وعاد.

وبناء على ما يرويه المؤرخون الذين اهتموا بما وزعه المهدى وأعطاه لأهل مكة من العطايا الملكية ونوعها ومقدارها فى ذلك العام إذ أنفق الخليفة فى تلك السنة ستمائة ألف ذهب جعفرى. وثلاثة ملايين درهم وخمسة عشر ألف ثوب من الثياب البغدادية الفاخرة وحمل خمسمائة جمل من الثلج والجليد، وهكذا حرر كل أهل مكة مما أثقلهم من الفاقة والخصاصة.

إن الشخص الذى عين فى مديرية بناء الحرم الشريف للقيام بإنجاز الأمر الصادر من قبل المهدى، استدعى أصحاب البيوت التى يقتضى هذا الأمر شراؤها، بعد عودة الخليفة وأوصاهم بأن يدفع لهم مقدار ثمانية وخمسين ألف مثقال من ذهب، ثم هدم المنازل المشتراة وضم عرصاتها إلى الحرم الشريف، وهكذا وسع الجدار الغربى للحرم الشريف إلى باب العمرة والجدار الجنوبى إلى «قبة الشرابة» المعروفة بقبة العباس وذلك فى سنة (١٦١هـ).

وإن كان متولى أمر البناء يرغب فى توسيع الجهة الجنوبية من الحرم الشريف أكثر، إلا أن المكان الذى يلزم إلحاقه كان متصلا بمسيل الوادى ولما كان إرساء الأساس فى مجرى السيل من الصعوبة بمكان فلم يستطع توسيعه، ومع هذا قد اتسع ما بين كعبة الله المعظمة وجدار الحرم الشريف الجنوبى قدر (٦٣) قدما.

بعد ما أتم متولى أمر البناء جلب كل ما ينقص الحرم الشريف من مصر جلب أربعمائة وثمانين عمودا حجريا، وركزها فى الأماكن الخاصة وصنع فوقها أربعمائة وثمان وتسعين قبة، وهكذا أحكم قبب الحرم الشريف التى تحيط به.

ثم أنشأ بين المسعى اللطيف والحرم الشريف بقعة غاية فى الزينة التى تعرف «بدار القوارير» وفى ختام التعمير عرض الأمر على مقام الخلافة العالى.

وكان قد بقى ميدان صغير عقب التعمير بين المسجد الشريف والمسعى اللطيف، فأخذ جعفر بن يحيى البرمكى وزير «هارون الرشيد» عهدة هذا الميدان، وفيما بعد استقطع عدة بيوت ومساكن ثم ساحة (دار القوارير) وأقام فى المتسع دارا منقطعة النظير.

وبعد مدة انهارت كل هذه المبانى ماعدا دار القوارير. واندرست أسسها وضاع أثرها وأقيمت فى مواضعها ربط حصينة، كما أن هذه الربط انهدمت على مر الزمان، ولكن السلطان (قايتباى) المصرى ابتاع هذه الربط بتمامها وهدم ما تبقى من آثارها، وبنى المدرسة والرباطان اللذان ينسبان لاسمه، وبنى بعض العقارات وأووقف ريعها للإنفاق على ترميم المدرسة والرباط المذكورين وتعميرهما.

والبيت الأنيق الذى بنى على أرض دار القوارير انتقل بمرور الزمان ليد جواد البربرى، وفرش جواد داخل ذلك البيت وزينه بالزجاج الملون، كما زين خارجه بالرخام المصقول المختلف الألوان، لكن ذلك البيت فقد قيمته بوفاة جواد، وانتقل المنزل من يد لأخرى ثم انهار وبنى مكانه الربط والمدارس.

ولما أبلغ متولى أمر المبانى (المهدى) بإتمام تعمير المسجد الحرام؛ رغب الخليفة فى زيارة أبنية المسجد الحرام الجديدة، وتوجه إلى مكة المعظمة ورأى أن ناحية مسيل الوادى لم توسع، وأن هناك فاصلة كبيرة بين البقعة المقدسة لبيت الله وبين الجدار الجنوبى للحرم الشريف، ورأى أنه إذا ما وسعت هذه الجهة سيضيف هذا إلى المسجد رونقا وجمالا زائدا، وستتوسط الأبنية المربعة للبيت الأعظم مساحة مسجد الحرام، واستدعى الموكلين ببناء المسجد، وأطلعهم على ما يجول فى خاطره وأمرهم بأن يجددوا ذلك المكان وفق اقتراحه ورأيه؛ ولكن متعهدى البناء قالوا إِذَنْ يجب أن تهدم جميع البيوت التى على الضفة المقابلة لمسيل الوادى، ويحفر مجرى آخر ويضم المسيل القديم كُلّه إلى الحرم الشريف، وهذا الأمر فى منتهى الصعوبة بل مستحيل.

لأنه يلاحظ أن السيول التى سترد من وادى إبراهيم ستهدم جميع الأبنية

الجديدة التى ستبنى بعد تغيير المجرى من أساسه، وستدخل المسجد الحرام وتخرب جدرانه؛ لهذا يجب شراء منازل كثيرة أخرى وهدمها حتى ترسى أسس جدران مجرى السيل الجديد، وهذا يقتضى مصروفات باهظة ونفقات لا تعد ولا تحصى.

وأرادوا أن يعلقوا رغبة المهدى إلى المستحيل بمثل هذه المغالطات الفكرية.

إلا أن (المهدى) أصر على رأيه وأكده قائلا: «إن التفكير فى النفقات من شأنى أنا وعليكم أن تبادروا من الآن أن تقوموا بعمل ما بينت لكم فقوموا بتقدير مساحة الموضع ووفقا للخريطة التى سترسمونها» وقد رأى القائمون بالبناء أن الخليفة لا ينثنى عن رأيه، فوجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بالقياس، فركزوا الأعمدة فى المواضع التى ينبغى تركيزها فيها ومدوا الحبال.

وعينوا مقدار توسيع الحرم الشريف، ثم قدموا كل ما قيدوه فى مضابطهم مع الخريطة التى رسموها للموقع إلى الخليفة، ثم صعد الخليفة فوق جبل أبى قبيس ورأى أن أبنية الكعبة المعظمة قد توسطت الأعمدة التى ركزت وحددت بالحبال، أى أن الكعبة أصبحت فى وسط المسجد الحرام كما رأى عدد البيوت التى ستشترى وتهدم، ثم أمرهم بأن يبادروا فى تجديد الجدار بموجب خطه فى الخريطة، ثم عاد.

وبناء على هذا جلب العدد الكافى من العمال وشرعوا فى شراء المنازل التى توجد فى الأماكن التى يلزم ضمها وإلحاقها بالمسجد الحرام، وهدمت تلك المنازل، وهكذا وسعوا المسجد الشريف من باب (هاشم) إلى باب (أم هانئ) وبهذا أصبحت الفاصلة بين الكعبة المعظمة والجدار الجنوبى لحرم المسجد الحرام (١٢٧) قدم وست بوصات.

قد تمت هذه العمارة فى ظرف أربع سنوات كاملة، وكان فى ضمن البيوت التى اشتريت (دار أرزق) ودار (خيرة بنت سالم الخزاعى) وبيت (جبير بن

مطعم) ودار (شيبة بن عثمان) وقد ضُمَّتْ أراضيها إلى ساحة الحرم الشريف ذات الفيوضات، وهكذا وصلت الفسحة، ووسع الحرم الشريف بهذا القدر.

إن بنيان وتعمير الخليفة المهدى وصل إلى غايته وانتهى قبل أن ينتهى تعمير أبنية المسجد الحرام؛ إلا أن ابنه حينما اعتلى كرسى الخلافة وهو (موسى الهادى) أمر بإتمام تعمير أبنية المسجد الحرام، واستعجل ذلك فتم البناء فى أواخر سنة (١٦٩)[1].

* * *

(١) توفى الخليفة المهدى فى أوائل سنة (١٦٩)، وكان يحب الإحسان ولاسيما فى الحرمين الشريفين.
وقد أمر بحفر أحواض فى اثنى عشر موقعا من الطريق الذى يبدأ من بغداد وينتهى بمكة المكرمة، وسقى الحجاج شرابا مخلوطا، وعلق القناديل التى فى داخل بيت الله بسلاسل ذهبية.
وقد غير كسوة بيت الله القديمة سنة ١٥٨ وألبس «ليلى» هذه التى يعشقها العالم ملابس جديدة، وأصبح منذ تلك الليلة تغيير كسوة الكعبة الشريفة عادة بين المسلمين.
قد جدد حجر إسماعيل وكذلك الأميال التى توجد فى مراحل الحج ومنازله، وقام بحفر الآبار فى الموقع التى فى حاجة إليها، وكذلك جعل إرسال الصرر لأهالى الحرمين بين الخلفاء عادة، ولم يكن أحد يرسل الصرر إلى الحرمين قبله و قد عطر سطح كعبة الله فى سنة حجه بالمسك والعنبر، وكذا غالبية الأماكن وجميع أركانها وألبس كعبة الله ثلاث طبقات من الكسا الحريرية طبقة فوق طبقة.

الصورة الخامسة

فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه العرض والبيان

الباب المعلا ـ خلعت عضادة باب كعبة الله المكفت بالذهب بمعرفة الحكومة، فى عهد الفتنة التى قامت عام ٢٥١ هجرية، وألواحه الذهبية كذلك فى عام ٢٦١ هجرية وصرفتها للإنفاق منها للقضاء على الفتن والاضطرابات، وقد حفر جب عميق فى الجاهلية لتحفظ فيه الأموال والهدايا الثمينة المرسلة من قبل أكاسرة الفرس وملوكهم تعظيما للكعبة وتفخيما لها بغية حمايتها من نهب الأشرار المغيرين ثم غطى الجب. وكما أن المجوهرات الثمينة المتنوعة المهداة منذ عصر إبراهيم (عليه الصلاة والتسليم) وضعت فى داخل هذا الجب إلا أن هذا الجب لم يكن (الأخسف) الذى حفره إبراهيم ـ عليه السلام ـ بل كان حفرة أخرى، فى داخل كعبة الله.

وقد عثر عليه قائد المجاهدين ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى عام الفتح وأمر بفتحه، وأخرج منه أشياء ثمينة من ذهب وغيره لا تعد ولا تحصى من هدايا الملوك والأمم.

واستصوب أن تحفظ في خزينة بيت الله الأعظم وكان مقصد سلطان الأنبياء من هذا تعليم أمته أنه يجب ألا تمتد الأيدي على أموال كعبة الله.

كما أنه هدم بيت الله وبناه من جديد ليؤلف قلوب قريش. قد استصوب حيدرة[1] الكرار ـ رضي الله عنه ـ استخراج تلك الأموال وإنفاقها في أمور الجهاد، وكان ذلك في أول مرة في عصر النبوة السعيدة وفي المرة الثانية في عهد الصديق ـ رضي الله عنه ـ واضطر أن يسكت إذ أخذ الرد بالنفي من كليهما.

(١) من ألقاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وأراد الفاروق الأعظم في عهد خلافته أن يقسمها بين المسلمين وأن يوزعها عليهم إلا أن أبا شيبة بن عثمان ـ رضي الله عنه المنان ـ قال له:

«يا عمر: كيف تتنكب أثر النبي الكريم والصديق المحترم؟ وقد نبتا في حياتهما على الاحتفاظ بتلك الأموال فى خزينة بيت الله «فصدق على قوله قائلا: «إنهما قدوة الأنام وإمامان واجبا الاحترام ويجب علينا أن نقتدي بآثارهما «وقرر على حفظ تلك الأموال فى خزينة كعبة الله.

وفي الواقع لم تمتد يد إلى خزانة بيت الله فترة طويلة بناء على القرار السابق، ولكن وآأسفاه أن الثائر «حسين الأفطس»[1] هجم على مكة المشرفة واستولى عليها بتحريض خبيث من بعض السفلة وأخذ الأموال المحفوظة في خزينة بيت الله منذ الفتح قائلا: ما جدوى هذه الأموال للكعبة؟ إننى سآخذها وأنفقها فى أمور الجهاد، ثم ابتدر في تبذيرها وتوزيعها كما يحلو له منذ ذلك الوقت انقطع إرسال الهدايا إلى خزينة بيت الله من قبل الملوك إذ غلبت عليهم فكرة ظهور غاصب آخر يستولى على الهدايا المرسلة لبيت الله المعظم.

وبعد نهب حسين الأفطس الأموال التي كانت مدخرة في خزينة بيت الله المعظم وإنفاقها باثنين وخمسين سنة بعد هذا الحادث، ظهرت فتنة إسماعيل السفاك.

قد رفع السفاك المذكور علم العصيان بغتة وهجم على مكة فَفَرَّ وَالِيْهَا ثم اقتحم مقر الحكومة ونهب كل ما يخص من أموال الوالى وأتباعه وأشياعه وكسوة كعبة الله وخزينتها وجمع من الأهالى مائتى ألف قطعة ذهبية بالقوة واتجه إلى دار الهجرة وهو يقصد قتل حاكم المدينة المنورة إلا أن الحاكم قد عرف قدومه فاختفى عن الأعين فعاد السفاك يائسًا آيسًا إلى مكة حيث ضيق على أهلها وحاصرهم فكان سببًا فى موت كثير من الأبرياء من العطش والجوع. وأغار فى فترة ما على جدة ونهب أموال التجار وتجرأ على أن يقطع طريق مكة وأن يعلن الحرب على الحجاج الذين ذهبوا إلى عرفات لأداء شعائر الحج وقتل منهم ألف

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٨/ ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

ومائة نفر فاستشهدوا وهم يلبسون ملابس الإحرام. ونهب أموال المسلمين الذين لجئوا إلى قمم الجبال فى هذه الاضطرابات والفتن فى سنة (٢٥١)، أما المسجد الحرام فقد أهملت العناية به بسبب هذه الاضطرابات إحدى وعشرين سنة، وبناء على هذا ظهر الخلل المفضى إلى الانهيار فى الجدار للمسجد الحرام، كما أن البيت الذى أقامته السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد قد تقادم وأوشك على الخراب، وكانت هذه الدار متصلة بالجدار الغربى للحرم الشريف وبدا فيها البلى جليا، مما أفضى إلى انهياره بغتة فتسبب بذلك فى هدم الجدار الغربى للحرم الشريف وخربه فمات تحت أنقاضه عشرة أشخاص. وقد بلغ الأمر لحكومة بغداد بالتفصيل، وحينئذ أمر الخليفة (الموفق بالله العباسى) بهدم الجدار من أساسه ليقام من جديد كما ينبغى أن يكون وذلك فى عام ٢٧٢.

أما (دار الندوة) التى أقيمت لسكنى خلفاء بغداد فيها، فأصبحت ميدانا تراكم فيه القمامة بعد أن تهدمت وأصبحت أطلالا مستقبحة المنظر وكان السيل الذى يأتى بين الفينة والفينة تتجمع مياهه فى ذلك الميدان وتجرف معها الكناسات إلى ساحة المسجد الحرام فتملؤها وتفسدها، كما أن سقوف الحرم الشريف تقادمت وقد امتزج المطر فى أماكن مجرى السيل، وعلت فأصبحت مياه السيل تفيض وتدخل فى داخل الحرم الشريف وتزيل حصى جدران الكعبة الداخلية وفسد الرخام على سطحها حتى أصبحت إقامة الصلاة فى داخل المسجد الحرام فى حكم المستحيل.

إن اللوحة الفضية المزخرفة التى ألصقت بدلا من اللوحات الذهبية لباب كعبة الله ذات الفيوضات التى كانت قد انتزعت من قبل واستخدم ثمنها لدفع الفتن والزخارف الثمينة قد محيت فى أثناء تضرعات الحجاج وتوسلاتهم فأصبح أعلى الباب فى لون وأسفله فى لون آخر، كما فسد رخام الحطيم وأرضية المطاف الرخامية كذلك داخل البيت الحرام وخارجه وجميع جهات ساحة المسجد الحرام قد تضررت.

قد أخبر الشريف عج ابن حج بالاتفاق مع (محمد بن عبد الله) شيخ مكة المعتمد بالله العباسى بجلية الأمر كما ابتدر بعض خدمة كعبة الله بالذهاب إلى بغداد وبينوا الوضع شفهيا للخليفة وأوضحوا له أن هذه الحالة تدمى قلوب أهل الإيمان، وأنه إذا ترك الحال كما هو فالمظنون أنه سيفتح بابا لمصروفات كبيرة فى الأيام القادمة.

وكان لهذا القول أثر كبير فى نفس الخليفة، فأمر بتعمير الأماكن المتضررة من المسجد الحرام وكذلك البقعة المقدسة لكعبة الله وهدم دار الندوة وبناء مسجد مكانها كما أمر بحفر وتطهير مجرى السيل المتصل بالجدران الشرقية والجنوبية، حتى يصل إلى عمقه القديم وذلك لحماية الحرم الشريف من مياه السيول التى يتوقع حدوثها. وبعث مبالغ طائلة مع مندوب خاص له.

وبمجرد ما وصل رجال الخليفة من بغداد إلى مكة ابتدءوا فى تعمير المسجد الحرام فى خلال سنة (٢٨١).

وغطوا باب كعبة الله بصفائح ذهبية خالصة العيار كما كان من قبل. ثم أخذوا فى حفر الأماكن التى سبق شرحها. ثم حفروا سبعة أدراج من السلم المطل على مجرى السيل والتى كانت قد غاصت فى الطين إلى أن ظهر الدرج الأخير. ثم هدموا أبنية دار الندوة وبنوا فوق أرضها مسجدا منفصلا ثم قسموا الجدار الذى ظل بين هذا المسجد والمسجد الحرام وفتحوا ست بوابات كبيرة الارتفاع كل واحدة منها سبعة عشر قدما وعرضها سبعة أقدام وبوصة واحدة، كما فتحوا أبوابا صغيرة بين كل اثنين من البوابات ارتفاع كل واحد منها أحد عشر قدما وأربع لنيات وعرضه ثلاثة أقدام وثلاث لنيات. وفتحوا للخروج من مسجد الندوة بابين بابا من جانبه الشمالى وبابا واحدا من جانبه الغربى ثم غطوا فوق الأبواب بأسقف عالية وأروقة معينة ثم صنعوا له مئذنة. إن هذا التعمير قد اكتمل سنة (٢٨٤) وظل شكله كذلك اثنتين وعشرين سنة، ولكن رئى مؤخرا أنه يوضع بشكل أجمل وبناء على الأمر الذى صدر من دار الخلافة إلى والى

مكة المعظمة القاضى محمد بن موسى بتجديد مسجد دار الندوة فقام به، كما عمر وقوى كمر الأبواب التى فتحت فى جدار الحرم الشريف، وقد فعل ذلك بحيث يمكن لمن يقف فى داخل الأرض الزائدة عن دار الندوة يستطيع أن يرى الكعبة المعظمة بكل سهولة.

ثم ركز أعمدة مستديرة مصنوعة من الحجارة السوداء المنحوتة، وربط ما بين الأعمدة بالأكمار القوية المستحكمة وصنع سقفا منقوشا من خشب الساج الملون بألوان مختلفة، وضم مسجد دار الندوة لساحة المسجد الحرام فى سنة (٣٠٦) وإن ظل الحرم الشريف إلى عهد المقتدر بالله على شكله الذى عرفناه دون زيادة أو نقصان ودون تغيير أو تبديل. إلا أن الخليفة المشار إليه اشترى الأرض الزائدة عند باب إبراهيم عند استعلائه العرش. وضمها للحرم الشريف ثم أنفق لسكان الحرمين المحترمين من الزوار (٣١٥٤٢٦) عددا من الذهب الفيلورى[١] ثم اتخذ لنفسه عادة إرسال ذلك القدر من الصرة كل عام سنة ٣١١[٢].

زيـــادة:

إن باب إبراهيم منسوب إلى شخص اشتغل بالخياطة ويسمى «إبراهيم» كان لهذا الشخص بجانب الباب المذكور حانوت كبير نوعا ما وكانت شهرته فى صنعته ذائعة.

وقبل أن تلحق الأرض الزائدة لباب إبراهيم كان هناك قرب (باب حزورة) باب (الخياطين) المتصل برواق الحرم الشريف، وكان بجانب هذا الباب بابان شهيران باسم (حجج) وكان خارج هذين البابين دار السيدة (زبيدة) زوجة هارون

(١) إنه يساوى بقيمة العملة الحالية ١٥٧٧١٣٠٠ قرش وستتحدث عن الذهب الفيلورى فى بحث المسكوكات ونبين قيمة تداوله.

(٢) إن إرسال الصُّرَر يُعَدُّ سنة من آثار الخليفة المقتدر بالله الخيرة وبناء على تحقيق كاتب جلبى أن إرسال الصرة إلى عهد ذلك الخليفة لم يكن من عادة الخلفاء وأن فقراء أهل الحجاز كانوا ينالون نصيبهم من مرتبات مستخدمى الحكومة وكان قدره مليونا وخمسمائة ألف قرش، وكانت مائة ألف من هذه النقود ترد من اليمن وخمسمائة ألف من البحرين وثلاثمائة ألف من عمان وستمائة ألف من اليمامة.

الرشيد. ومع مرور الزمن قد مال ما بين منازل زبيدة وباب حجج للخراب، وقد تهدمت تلك الأماكن فى عهد الدولة العثمانية الباعثة للتعمير، واتخذت شكلا آخر ولم يبق الآن أثر لأى من دار السيدة زبيدة ولا من الميدان الواسع الذى سبق ذكره. انتهى.

وظل الحرم الشريف بعد تعمير المقتدر بالله العباسى ما يقرب من خمسين عاما على نفس الحالة.

وفى خلال هذه المدة لم تمتد يد التعمير إلى الأماكن التى تحتاج إلى الإصلاح، فتلف معظم رخام المطاف فاستحالت الصلاة عليه، كما لم يكن فى الإمكان السير عليه، لذا بدل معظم رخام المطاف الشريف فى عهد المستنصر بالله العباسى وعمر تعميرا جيدا ثم كتب فوق قطعة رخام هذه السطور:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة هذا المطاف الشريف، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم مقتضى الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر منصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله، وذلك فى شهور سنة إحدى وستين وثلاثمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

ثم علقت وألصقت على الجدار الشرقى الملاصق لحفرة مقام جبريل والكائن فى جهة مقام إبراهيم لكعبة الله. فى سنة ٣٦١.

وبعد مرور ست سنوات على العمارة التى قام بها المستنصر بالله العباسى وفى عام ٣٦٧هـ بنى فاعل خير يسمى الأمير شرف الدين على يمين الداخل من باب السلام مدرسة لا عيب فيها وألحق بها دار كتب وملأ أصونتها بكتب متنوعة لا حصر لها[1].

وفى سنة ٥٤٢ أصلح المقتفى بالله العباسى السلم الذى يؤدى إلى سطح

(١) قد خربت هذه المدرسة ودار كتبها فيما بعد ونقلت كتبها إلى قاعات الدروس فى الرباطات ولكن مع الأسف تعرضت تلك الكتب للنهب والسلب فى خلال ثورة سنة (٤٦١) كما انهار ذلك الرباط ومكتبته وأصبحا خرابا.

الكعبة المشرفة. وبعد عشرة أعوام من تعمير الخليفة المقتفى بالله تقادم باب الكعبة وانكشفت أخشابه واستوجب الإصلاح. وفى خلال عام ٥٥٢ أمر الخليفة المقتفى بالله بتغليف الباب المذكور وتزيينه بصفائح الذهب والفضة وبسبب الزلزال الذى وقع بعد سبع سنوات تعرض الجدار اليمانى لبيت الله المعظم للسقوط والانهدام فبادر المستنجد بالله بن المقتفى بالله بإصلاحه وتعميره فى سنة ٥٥٩.

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق:

فى ليلة السبت من أواخر شهر شوال عام (٨٥٢) هجرية اندلعت النار فجأة من غرف رباط رامشت المتصل بباب حزورة وباب زيادة إبراهيم، وامتدت النار إلى جهة الشمال والغرب للحرم الشريف، وأحرقت سقوفه مع (١٣٦) عمود من الأعمدة الرخامية، وانطفأت النار بجانب باب العجلة، لأن السيل الذى حدث قبل الحريق المذكور قد دخل فى المسجد الحرام و أوقع كمر عمودين صلبين عند الباب السالف الذكر وخربه فحدث فاصل كان سببا فى انطفاء الحريق، ولو لم يكن ذلك الفاصل موجودا كان من المحتمل أن يستمر الحريق ويمتد، وأبدى موظفو الحكومة وأهل البلاد همة عظيمة فى إخماد الحريق ولكن جميع الجهود ضاعت سدى ولم تنفع فى إخماد الحريق، ولم تعد الأماكن المحترقة صالحة لأداء الصلاة فامتنع المصلون عن الصلاة فى تلك الأماكن مدة طويلة.

ويرى بعض المدققين أن ظهور السيل العظيم الذى هدم العمودين بالقرب من باب العجلة محدثا الفجوة التى سبق ذكرها كان مقدمة لهذا الحريق؛ لأن هذا السيل بدخوله الحرم الشريف ارتفع إلى محاذاة القناديل المعلقة بالأعمدة التى تحيط بالمطاف الشريف، ودخلت المياه فى داخل البيت الحرام من خلال مصراعى باب الكعبة وأسقط العمودين بكمرهما بالكائنين بجانب باب العجلة كما خرب كثيرا من البيوت الرصينة فى داخل المدينة، وقد سكت بعض المؤرخين عن تعيين سبب الحريق، وقال بعضهم إن أحد سكان رباط رامشت أوقد مصباحه وخرج خارج حجرته، وعقب ذلك ظهرت نار من تلك الحجرة، وأحاطت بالأطراف

وأحرقت الحرم الشريف، وإذا نظرنا لهذه الحالة فعلينا أن نفهم أن فأرا قد حمل فتيل ذلك المصباح المشتعل وتسلق سقف الحجرة وانتشرت النار من ذلك الفتيل إلى أطراف السقف وتسبب فى الحريق.

تجديد المسجد الحرام:

ذاع خبر الحريق فى جميع البلاد الإسلامية وتأثر الجميع من هذه الواقعة التى تنفطر لها الأفئدة، فلما سمع بذلك الملك الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق وهو من ملوك الشراكسة فى مصر أراد تجديد الحرم الشريف وإصلاح أماكنه الأخرى؛ فعين الأمير ببسق الظاهرى أميرا للحج، وعهد إليه بوظيفة أمانة الأبنية المقدسة السامية وأرسله إلى مكة المكرمة فى سنة ٨٠٣.

ووصل الأمير ببسق إلى مكة المكرمة وقام بتنفيذ ما عهد إليه فأمر بتطهير ساحة المسجد الحرام وتنظيفها وكذا الأماكن التى تعرضت للحريق وتعميق حفر الأسس، ثم بادر إلى جلب ما تمس الحاجة إليه من الأحجار والأخشاب، وأسرع بتجديد البناء وتحتم تجديد الجدران فى أواخر عام سنة ٨٠٤هـ، وفى ظرف ثلاث أعوام أتم تجديد السقوف ثم أخذ يجدد السلاسل التى تعلق بها القناديل وفعلا علق القناديل التى أعدها من قبل، ثم أصلح وعدل مقامات الأئمة الأربعة[1] والمواقع التى تحتاج إلى التعمير على خير وجه، ثم عاد وكان قد جلب الأخشاب التى استخدمها لإصلاح السقوف الشريفة من قاهرة مصر فى سنة (٨٠٧).

وكان الأمير ببسق المصرى قد ترك أرض «رباط رامشت» المحترق على حاله

(١) قد جدد المقام الحنفى وعمره على التوالى ابن السلطان برقوق المصرى فى سنة (٨٥٧)، ثم الملك جاقمق المصرى فى سنة (٨٤٣)، ثم السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٢٣)، وبعده بستة وعشرين عاما وفى سنة (٩٤٩) السلطان سليمان، وفى سنة (١٠١٧) السلطان أحمد خان، وفى سنة (١٥٤٣) السلطان مراد خان الرابع، وفى سنة (١٢٥٩) هـ السلطان عبد المجيد خان. وكان التعمير فى عصر برقوق وعصر جاقمق (٩٢٣) و (١٠١٧) هـ وجدد فى عام (١٠٤٣) من حجر شمليس، كما جدد (المقام الشافعى) فى سنة (٧٠٧) من قبل برقوق المصرى. كما جدد المقام المالكى والحنبلى فى سنة (١٠٤٣) من قبل السلطان مراد خان الرابع من حجر شمليس.

وإن كان بقاء هذه الأرض المحترقة فى حالة خراب سيؤدى إلى أن تكون مقلبا لقمامة الحوانيت التى حولها، كما أنها ستحول دون النظام والنظافة المرجوان فى مكة المكرمة، فأراد الشريف حسن بن عجلان أن ينظم أزقة مكة المكرمة على قدر المستطاع.

كما أنه جدد الرباط المذكور وطهر جوانبه ونظفه رغبة فى البر والخير ولإيواء المحتاجين والمجاورين، ثم جعله وقفا لسكنى الغرباء فى سنة (٨٠٧).

كان السلطان غياث الدين المعظم أرسل النقود التى صرفها الشريف ابن عجلان مع رسول يسمى ياقوت وأمره بصرف جزء منها فى إنشاء مدرسة ورباط والتصدق بالجزء الآخر على الفقراء، وكان مع ياقوت هذا رسالة موجهة إلى الشريف حسن بن عجلان يبين فيها السلطان أن ياقوت قد ألحقه بمأمورية خاصة، كما أنه قد أذن له بإنفاق النقود التى أرسلها، ولما وصل ياقوت إلى مكة المعظمة أعطى الرسالة المذكورة إلى الشريف حسن بن عجلان، كما أنه ترك النقود التى رخص له بإنفاقها أمام الشريف الذى نحى ثلث النقود جانبا ووزع الباقى على الفقراء. وبنى ياقوت بالثلث الموقوف من النقود مدرسة ورباطا، وعين أربعة من علماء المذاهب الأربعة مدرسين على ستين طالبا من الذين اختارهم وهيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه من المعونات.

كما أنه أصلح طرق «عين بازان» والبركة الخربة فى المعلى وأجرى مياه العين المذكورة إلى هذه البركة؛ وذلك وفق تعليمات شهاب الدين الذى عينه الشريف حسن مساعدا له.

ويروى أن الشريف حسن بن عجلان أخذ من ياقوت لبناء الرباط والمدرسة باسم السلطان غياث الدين سبعة آلاف مثقال من الذهب، كما أخذ لتعمير العيون خمسة آلاف مثقال من الذهب، كما أنه استولى على الصدقات التى أرسلت إلى أهالى المدينة المنورة.

وسبب ذلك إصرار محافظ المدينة ألا يكون تحت إمارة الشريف وفق الأصول الجارية فى ذلك العصر. ومن عادات زمن إمارة الشريف حسن بن عجلان أن يأخذ ربع الأموال والأمتعة التى يمكن إخراجها إلى البر من السفن التى ترسو على الشاطئ فى سواحل جدة والشعيبية ويقتسمها مع الأشراف.

إن السفينة التى كانت تحمل الأموال التى بعثها الملك غياث الدين الأعظم قد تعرضت لحادث إلا أنه أمكن إنقاذ معظم حمولتها، وأخذ حسن بن عجلان ربع الأموال التى أنقذت وفقا لعادات ذلك الوقت، إلا أنه اغتصب جميع الأموال التى أرسلت إلى دار الهجرة، وهكذا ظلم أهالى المدينة المنورة وغدر بهم.

إن تجرؤ الشريف حسن بن عجلان على التصرف بشكل يخالف عادات الأشراف كان سببا فى عصيان محافظ المدينة المنورة السيد حجاز وطغيانه، ولكن لشدة الأسف أن هذا العجلان قد كان سببا فى خذلان عامة أهل المدينة، وبعد مرور أربعة أعوام على تجديد هذا الرباط انهارات قنطرة المروة فأصلحها الناصر فرج الذى كان من ملوك الشراكسة فى مصر وفق طرازها القديم فى سنة (٨١١)هـ[1].

* * *

(١) إن هذه القنطرة كانت فوق الجبل الذى يطلق عليه جبل المروة وبما أنها أنشئت عندما فتحت البلاد الحجازية أصبحت تعد من الآثار العتيقة.

في العام الذي انهار كمر المروة وسقط اشترى ملك البنغال الشاه غياث الدين بن إسكندر الأعظم منزلين متصلين بباب أم هانئ، وأسس أربعة مدارس مكية من أجل علماء المذاهب الأربعة، ورتب لها وقفا لشراء كثير من العقارات، وعين لكل مدرسة مدرسا من المذاهب الأربعة وخمسة عشر طالبا لكل مدرسة، وتكفل بإعاشتهم.

وأصلح طرق عين عرفات وعين بازان وبركة المعلى ونظفها كما ينبغي فأجرى المياه إلى مكة المكرمة في سنة ٨١١.

فائدة:

إن بلاد البنغال الآن من مستعمرات إنجلترا الشرقية وتقع بين خطي عرض (١٦) و (٣١) شمالا وبين خطي طول (٤٧) و (٩٦) شرقا ومساحتها (٣٥٨٧٦٩) ميلا مربعا، وعدد سكانها (٩٧١٠٠٠) وهي ولاية كبيرة ومهمة، وتنقسم إلى ثلاث أقسام (العليا، الوسطى، السفلى)، وتشمل مدنا كثيرة مثل كلكتا، باتنة، مرشد اباد، دكاو، بناري، بريلي، عصم واراقان، وتحد البلاد المذكورة شمالا نابول والبوتان، وشرقا عصم وجنيخ، وجنوبا خليج البنغال وأجزاء من ممالك أوربا، وأراقان، كما تحدها من الغرب ولاية بهار التي تحيطها بأراضيها، كما أن نهر غنخ يفصل هذه البلاد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

مدينة كلكتا وهي حاضرة بلاد البنغال ومقر حكومة الهند، وفي الجهة الشرقية من وادي حو تملي الفرع الغربي لنهر غنج، وتبعد عن شاطئ المحيط بما يقرب من مائة ميل، ويبلغ عدد سكانها (٧٠٠٠٠٠) نسمة وفق الإحصاء الذي أجري سنة

(١٨٤٢) الميلادية، ولذا سميت هذه المدينة الشهيرة قالكوتة لوجود كوتة معبد الهنود الشهير فيها والذي يضم في داخله الصنم المسمي بـ «قالي» من آلهة الهندوس القديمة، من هنا اقتضي إطلاق اسم قالكوتة على المدينة. انتهي.

وبعد سقوط كمر باب المروة بثلاث سنوات أصلح سطح بيت الله وبعض المواضع من المسجد الحرام في عام ٨١٤، وذلك لأن سطح كعبة الله المقدسة وكذلك أماكن كثيرة من المسجد الحرام آلت إلى الخراب.

ولما لم يعمر سطح بيت الله الحرام منذ (١٥٣) عاما لحق به الخراب إلى حد بعيد، وبهطول الأمطار أخذت المياه تنفذ داخل الكعبة من بعض مواضع السطح؛ لذا أصبح لزاما أن تمتد يد الإصلاح والتعمير إلى معظم مواضع الحرم الشريف، واقتضى الأمر إلى معاينة سطح الكعبة والمواضع التي ينبغي إصلاحها في المسجد الحرام فتم الترميم والإصلاح على الوجه المطلوب.

وبعد مرور سنة على ذلك الترميم تعرضت المدينة المقدسة إلى القحط واكتوت بناره، وقد وصل ثمن حمل بعير متوسط من الغلة إلى عشرين قطعة ذهبية، وبيع البطيخ الواحدة بقطعة ذهبية وذلك في سنة (٨١٥).

عجيبة:

حدث في أواخر شهر ذي الحجة أن حمل أحد الجمالين الذي عرف بتحميل جمله حملا فوق طاقته والذي كان يلقب بـ «القارونى» أراد الجمل أن يتخلص من ظلم صاحبه، وبطريقة ما دخل إلى المسجد الحرام وأخذ يدور ويطوف ببيت الله[1] وقد طاف حول كعبة الله المعظمة إحدى وعشرين مرة، ومسح وجهه

(١) كان هذا الحيوان يسكب دموعا من عينيه كقطرات المطر في أثناء طوافه، وفي موسم الحج من سنة ١٢٩٩ حدث مثل هذا الحادث في المدينة المنورة إذ دخل جمل شبيه بالجمل السابق صباح يوم إلى المسجد النبوي السعيد ومسح وجهه في باب السلام وبرك، ولم يقم حتى دفع ثمنه لصاحبه ودفع رجال الحكومة ثمنه لصاحبه ثم أرسل إلى حظيرة الدولة وعاش هناك إلى أن مات دون أن يستخدم في عمل. يروى أن صاحبه كان يؤذيه بشدة وكان يتركه جائعا.

بالحجر الأسود ثم وقف أمام المقام الحنفي أي حذاء الميزاب الذهبي فترة ما، ثم برك على الأرض وأسلم روحه وهو يسكب دموعا مثل حبات الحمص.

قد أثار الحدث عجب الناس وحدتهم، وشد انتباههم ثم رفعت جثة الجمل ودفن في مكان في شارع المروتين أي في محل وسط المسعى الشريف وذلك في سنة (٨١٥)، وبعد وقوع هذه العجيبة بعام واحد ابتاع الشريف حسن ابن عجلان ساحة المستشفى التي أقامها المستنصر بالله الكائن في جهة الشمال من جدار المسجد الحرام، ثم جدد المستشفى وأوقفه على علاج المرضى الفقراء، كما أصلح وجدد كمر بابين أوشكا على السقوط في الجهة الجنوبية من جدار الحرم الشريف في سنة (٨١٦)، كما أن الملك المؤيد زين ألواح مصراعي باب كعبة الله بأن طلاها بالذهب في خلال تلك السنة أى (٨١٦).

زيادة:

قد انهدمت المستشفى التي جددها الشريف عجلان بعد (١١٠) سنة، واشترى السلطان سليمان خان من سلاطين العثمانيين ساحة المستشفى المذكور وخرائب تكايا أحمد كجراوي من سلاطين الهند والشيخ طاهر وكذلك المنازل المتصلة بها، وبنى أربع مدارس كبيرة لعلماء المذاهب الأربعة وجعلها وقفا. إن هذه المدارس الأربعة مازالت قائمة إلى يومنا هذا وعامرة كما سيأتي ذكرها فيما بعد.

قد اتخذ جلبي سلطان بن سلطان يلديرم بايزيد خان ـ عليهما الرحمة والرضوان ـ إرسال صرة[1] إلى أهالى الحرمين الشريفين من ريع أوقافه الخاصة، كما اقتفى نجله النجيب السلطان مراد خان آثار أبيه ـ جعل الله مثواه الجنة ـ فأرسل إلى أهالي الحرمين ما مقداره (٣,٥٠٠) من الذهب الفيلوري واتخذت هذه العادة حكم القانون في سنة ٨١٧، وترسل كل سنة، كما أرسل السلطان مراد الثاني في سنة (٨٥٥) لجميع أهالي الحرمين (٨٠١) كيس من النقود.

(١) ولم تكن البلاد العربية قد ضمت إلى الدولة العثمانية بعد، وبما أن هذه الصرة كانت تبعث من بلاد الروم أطلق أهل الحرمين على صرة السلطان المشار إليه (الصدقة الرومية).

وقبل عامين من هذا كان الملك المؤيد قد طلا باب كعبة الله بالذهب وزخرفه، كما أرسل منبرا ثمينا وسلما جديدا، وضع السلم في داخل كعبة الله للصعود إلى سطح البيت، كما وضع المنبر في مكانه الخاص في سنة (٨١٨).

وبعد أربعة أعوام من هذا انهارت مظلة[١] المذهب الشافعي، أي قبة زمزم فجأة وأصبحت قطعا وخرابا ولكنها جددت فأصبحت بناء محكما بديعا رائعا في عام ٨٢٢هـ، وفي نفس العام طهرت ووسعت أحواض ماء زمزم وعين بازان التي خربت من السيل، كما نظفت وعمقت قنواتها ومجاريها التي امتلأت بالطين والتراب في سنة (٨٢٣). إن السطح الشريف لبيت الله الذي كان قد رمم وأصلح قبل أربعة عشر عامًا قد جدد مرة أخرى، كما أصلحت الأماكن المحتاجة للإصلاح من المسجد الحرام، فبدلت قطع الرخام التي كانت مفروشة في داخل بيت الله بأخرى جديدة. وبدلت الصفائح التي كانت على طلاء جدران الكعبة الداخلية ثم أعيد كل شيء إلى مكانه بعد تغيير ما لزم تغييره وإصلاح ما أمكن إصلاحه. وأراد السلطان برسباي سلطان مصر تغيير زخارف الأعمدة الداخلية لكعبة الله، وعرض الأمر على والى مكة وبتوجيه من أمانة الأبنية المقدسة أرسل إلى الحجاز ذات المناقب السنية الأمير (مقبل) في سنة ٨٢٤ هـ. وصل الأمير مقبل في أوائل السنة المذكورة إلى مكة المكرمة، وابتدر في أداء مهمته بعون مادي ومعنوي من قبل والى مكة، فرمم وأصلح الأماكن المحتاجة للتعمير والترميم من الحرم ثم هم وأصلح سطح بيت الله على الوجه المطلوب، واقتلع قطع الرخام التي تغطي أرضية كعبة الله كما اقتلع الصفائح التي تغطي جدران كعبة الله، فبدل قديمها وأصلح ما يمكن إصلاحه ثم وضع كل شيء في مكانه، وهكذا جدد من هيئة بيت الله القديمة فأعاد له رونقه وجماله.

وبعد أن زخرف الأمير مقبل الأعمدة التي في داخل كعبة الله وجدد قطع

(١) كانت هذه المظلة فوق باب زمزم وفي عام ٧٠٢ هـ، أمر ملك مصر بتسقيف المظلة حتى تصلح لجلوس المؤذنين وأداء مهمتهم.

الرخام التي في داخل الحطيم الكريم وخارجه أصلح وجدد كمر باب الجنائز وكان يطلق على باب الجنائز قديما (باب العباس) ولما أصبح إدخال توابيت الموتى من هذا الباب عادة أهل البلد أطلق عليه (باب الجنائز). إن أهالي الحرمين كانوا يدخلون جنازاتهم أولا في الحرم الشريف حيث يصلى عليها ثم يدفنونها في مقابرهم.

إن التوابيت التي يستخدمها أهل مكة المشرفة لا تشبه التوابيت المستخدمة عندنا فإنها قطعة خشب مستطيلة مثل الطوق وهي عادة باقية من عهد الجاهلية بناء علي اعترافهم، وتغطي جثة الميت الذكر بقطعة قماش مستوية بينما تُغَطَّى جنازة الأنثى بقطعة قماش مقوسة.

وأخيرا جدد عدة عقد في الطرف الشمالى من المسجد الحرام، ثم جدد مداخل باب العباس وباب علي، كما جدد مدخل (باب الصفا) الأوسط ومواقع (باب العجلة) و (باب الندوة الزائد) وأضاف إلى (باب الزيادة) ثلاثة كمرات.

ثم رفع الأعمدة التي تحمل هذه العقد، وأصلح ما يجب إصلاحه من الأبواب الأخري، وغير الستارة الحمراء التي في داخل الكعبة، ثم ألصق وعلق اللوحات الرخامية المزخرفة والتي أمر السلطان برسباي بتذهيبها وترتيبها على جدران كعبة الله الداخلية، وأنهى مهمته في صفر الخير من سنة ٨٢٥، وعاد إلى مصر و قد جدد السلطان برسباي بواسطة الأمير مقبل قطع الرخام التي في داخل بيت الله كما بدل وجدد طلاء جدران بيت الله الداخلية كما عمر باب الجنائز.

كما أنه أنعم وأحسن إلى الحجاج الذين حجوا بالقافلة المصرية إحسانا جما، وكان يبعث من المحمل المصري مظلات يقيمها حيث يبيت الناس ليظلل عليهم، ويروى أن هذا الشخص كان يأمر بذبح كثير من الأغنام وتوزيع لحمها مع الخبز والبقسماط على الحجاج.

وبعد عودة الأمير مقبل بسنة بعث الملك المظفر من ملوك اليمن المنقرضة مبلغا من المال مع رسوله الخاص، ورجا أن يعمر ويصلح ما يقتضي الأمر إصلاحه من مواقع الحرم الشريف. واتصل الرسول بوالي مكة المعظمة واستصدر إذنا من الحكومة المصرية بواسطة الوالي للقيام بمهمته، ولما كان سطح كعبة الله في حاجة إلى التعمير والإصلاح؛ فعمر قطع رخام السطح وأصلحها ثم سجل ما قام به على لوحة رخامية وألصقها على الجدار الغربي للكعبة المعظمة في سنة ٨٢٦.

وظلت كعبة الله والمسجد الحرام على حالهما بعد إصلاح الأمير مقبل ثمانية عشر عاما ولم يظهر فيهما ما يوجب إصلاحهما شرعا؛ إلا أن الحال لم يستمر طويلا بعد ذلك واحتاجت بعض أماكن البقعة المقدسة للتعمير بل وصل هذا إلى درجة الوجوب، فأرسل الملك جاقمق العلائي من ملوك الشراكسة في مصر الأمير سودون محمد من أمراء مصر لتعمير قطع الرخام التي فوق سطح كعبة الله وما يقتضي الأمر تعميره من الحرم الشريف وذلك في سنة (٨٤٣) ولما وصل (سودون محمد) إلى مكة المعظمة بدل رخام سطح الكعبة الشريف كما غير الألواح الخشبية التي لم تعد صالحة في السقف العالي لكعبة الله، ثم عمر وشيد المآذن التي آلت للسقوط، ثم خلع كسوة الكعبة الشريفة ووضعها في داخل البيت الحرام. ثم أصلح وسوى الجدران الخارجية لبيت الله بطريقة جيدة خلال يومين، وجدد قطع رخام الحطيم الكريم كما جدد باب المعلى لكعبة الله وجميع الأماكن المحتاجة للتعمير من الحرم الشريف السقوف والرفوف، ثم عمر قباب مقام إبراهيم والمقام الحنفي وباب زيادة إبراهيم وطهرها، وركب في المحل الكائن في شارع المسعى الشريف والملاصق لدار العباس وفي مقابل بازان ميلين أخضرين ومع هذين الميلين علق فوق كمري الصفا والمروة قنديلين، وبهذا أنار شارع المسعى الشريف وزينه ثم عمر ورمم جميع المساجد النبوية التي في طريق عرفات الذي يبدأ من مقبرة المعلا وينتهي عند جبل الرحمة، وطهر طريق عرفات بأن قطع الأشجار والأشواك التي في حذاء طريق المأزمين؛ وهكذا أنقذ الحجاج

المسلمين من هجمات أشقياء العربان وتسلطهم.

كان المعتصم بالله البغدادى أمر بأن توقد مشاعل في قوافل عرفات لإنقاذ الحجاج من هجمات الأشقياء ولحمايتهم وذلك في سنة (٢١٩) وإلى ذلك الوقت كانت الوسيلة للإنارة هي إشعال شمعة على سنام الجمل. كما أمر سودون محمد بقطع الأشجار البرية والكلأ الشائك والنباتات البرية التى كانت كثيفة وعالية لدرجة أنها كانت تقطع أقمشة السرج التي صنعت لجلوس الحجاج فوق ظهر الجمال، كما كانت مكمنًا للصوص الذين كانوا يختفون في داخل هذه الأشجار ويفرقون قوافل الحجاج، وقد أنقذ سودون محمد الحجاج من القلق والاضطراب إذ قطع تلك الأشجار وحطم الحجارة، ووسع طريق المأزمين، وبعد فترة نمت الأشجار التي قطعها الأمير سودون محمد وارتفعت حتى تحولت إلى غابة فاتخذها أشقياء القبائل البدوية مكان اجتماع واحتشاد، وأخذوا يمدون أيديهم لسرقة أبناء السبيل والحجاج كما كان يحدث في العهود السابقة؛ لذلك أمر محافظ جدة المعمورة بأن تقطع تلك الأشجار وتحطم الصخور التي قد يكمن خلفها اللصوص ووسع طريق المأزمين أكثر من ذي قبل، ولهذا لم يترك للصوص مأوى يختبئون فيه وتوفي في سنة (٩٥٠).

التذييل

إن شغدف ـ كما هو معلوم لدى أهل المعرفة ـ مخترع للجلوس في داخله وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من الشغدف يطلق عليه هودج على وزن جوهر.

ويطلق على **النوع الثاني**: منه (مِحَفَّة) على وزن مِعَدَّة.

ويطلق على **النوع الثالث**: منه شُغْدف بضم الشين وسكون الغين، ولكن الأتراك حرفوا الكلمة فجعلوها شوطوف.

والصحيح أن يقال: الشغدف، وبما أن الهودج ذو قبة عالية ومغطى فهو خاص بالنساء، أما المحفة مثل الهودج إلا أنه مكشوف لذا فهو خاص بالرجال، أما الشغدف فهو مقعد خاص للرجال والنساء.

يصنع الهودج والمحفة من الخشب، ولكن الشغدف يصنعه النجار من خشب سمكه ربع قدم وله رجلان والمقعد الذى سيجلس عليه ينسج من قشر سعف النخيل كأنه كرسى، ويغطى فى شكل نصف قبة يشبه عربة الثيران وله غطاء من قماش القلاع أو من جلد أو بساط أو حصير. إن الشغدف وإن كان يصنع على الشكل الذى بيناه إلا أنه لا يمكن استخدامه إلا إذا أحكم ربط اثنين منهما فوق الجمل، ويغطيان ببساط أو قماش آخر ويحمل فيهما حاجان، بعد حمل الشغدفان على الجمل كما بينا وبالتصاق قبتيهما يأخذ شكل قبة المحفة المستوية، ويصعد إليه حينما يكون الجمل واقفا بواسطة سلم له أربع أو خمس درجات ويجلس فيه، إن الشغدف يستخدم فى طريق الحرمين كما أن الهودج والمحفة يستخدمان فى طرق مصر والشام. انتهى.

قد أسدى الملك جاقمق إلى الحرمين خدمات أخرى كثيرة وأصلح وأنشأ بركة المعلى التى مازالت قائمة فى خلال عام (٨٠٦) وقد خربت تلك البركة فيما بعد فأحيتها كريمة السلطان سليمان (مهرماه) عندما أرسل سودون محمد إلى مكة المكرمة لترميم المسجد الحرام وتعميره. أرسلت كسوة مزينة من قبل شاه الفرس شاهرخ إلى القاهرة لتكسى كعبة الله، وأرسلت تلك الكسوة فى نفس العام بالقافلة المصرية إلى مكة المكرمة، وعلقت فى عيد الأضحى داخل كعبة الله وذلك لاتفاق تم بين الملك جاقمق وشاه الفرس الملك شاهرخ، إن الأمير جاقمق أمير اصطبل الملك الأشرف المصرى عندما اعتلى عرش سلطنة مصر بضربة حظ كان قد أرسل أحد أمراء الشراكسة يسمى (جيج كيوفا) إلى هراة لعقد اتفاق مع شاه الفرس فى سنة ٨٤٢، وقد سر (شاهرخ) من هذا الاتفاق الذى تم بين الحكومتين العربية والفارسية أعظم سرور فأرسل تلك الكسوة الشريفة لتعلق على الكعبة ليظهر شكره، كما استجلب الدعوات بإرسال الصرر لسكان الحرمين فى سنة (٨٤٣).

كانت قلة سبل الماء فى داخل مدينة مكة المكرمة تسبب كثيرا من الضيق والمشقة عندما كانت المدينة تزدحم بالحجاج فى موسم الحج، وكان أولو الأمر يتعرضون لكثير من المشاق والتعب لدفع ما يحدث من الشرور لقلة المياه. وأراد ناظر الحرم الشريف الشيخ بيرام إنقاذ الحجاج من العطش لقلة المياه، وفى نفس الوقت أراد أن يوفر المياه فى مكة المكرمة فأنشأ سبيلا فى حى المعلى وعدة أحواض متينة فى ساحة عرفات وملأها بالمياه، فروى عطاش المؤمنين فى سنة (٨٥٣) ومع مرور الوقت خرب السبيل والأحواض التى أنشأها الشيخ بيرام، وابتلى الناس مرة أخرى وقوافل الحجاج بالعطش فقامت (مهروماه سلطان) زوجة فاتح اليمن رستم باشا بإنفاق أموال طائلة، وعمرت ذلك السبيل والأحواض المذكورة سنة (٩٦٧) كما أنشأت كثيرا من السبل فى داخل مكة المكرمة فأراحت سكان بلدة الله كما سبق ذكره فى صورة إحياء عين زبيدة بالتفصيل، وبعد سنتين من إتمام إنشاء الحوض المذكور أصلح الشيخ بيرام ورمم بعض الأماكن، فأصلح ونظف بعد ذلك بأربع سنوات بناء على الأمر الذى تلقاه من الحكومة المصرية الأحواض التى فى ساحة عرفات والتى امتلأت بالطين والتراب، كما طهر مجرى عين حنين وعمر مسجد[١] نمرة ومسجد الخيف المباركين، كما أصلح سلسلة عقود السبعة أروقة التى آلت للسقوط والكائنة فى الجهة الشمالية من المسجد الحرام وجدار المسجد الحرام وفى الجهة الشرقية مقابل تكية السلطان قايتباى، وجدد دور خلوة الشيخ عفيف الدين بن أسد اليافعى والشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشد بعد أن بدل شبكاتها فى سنة (٨٥٦)، وقد أرسل الملك الظاهر بعد تسعة أعوام كسوة مزينة غالية، وقد صنعت أطرافها التى تقابل الجهة الشرقية والشمالية من بيت الله الحرام من الحرير الأبيض، وزخرفت كل جهاتها بالخيوط الذهبية وعلقت على الكعبة يوم وصولها فى سنة (٨٦٥).

(١) نمرة اسم مكان فى عرفات أو اسم جبل الأميال الحديدية التى تحدد حدود الحرم فوق هذا الجبل، ويقع على يمين طريق المتوجهين من المأزمين إلى عرفات والمسجد اللطيف الذى يطلق عليه مسجد النمرة يقع فى هذا الموضع، ويقيم الحجاج صلواتهم فى هذا المسجد فى أيام عرفة.

وكان المشار إليه قد أرسل بعد ثلاث سنوات سلما ظريفا للصعود على سطح الكعبة الشريف، وما أن وصل السلم المذكور إلى مكة المعظمة حتى حضر أشراف البلاد والوجهاء وجميع موظفى الدولة ليكونوا فى شرف استقباله بكل تعظيم وتقدير، ووضع فى مكانه وذلك عام (٨٦٨).

بعد مرور أربع سنوات خلع السلطان (قايتباى) سلطان مصر على أمير مكة (محمد بن بركات بن أحمد بن عجلان) وسائر الأشراف والأعيان خلعا فاخرة، كما بعث إليهم بمال كثير ليقتسموه فيما بينهم كما أرسل رسالة بمنع الظلم والعدوان، وأمر بكتابتها على الأعمدة المواجهة لباب السلام، وأصدر الأمر بتعمير وإصلاح مساجد النبى ﷺ، وجميع الأماكن المقدسة وكذلك أمر بتطهير مجرى (عين عرفات) وذلك عام (٨٧٢).

وبعد مرور عامين أصلح مسجد الخيف ومسجد نمرة والمسجد الحرام وجميع العيون والآبار وبرك عرفات وذلك فى عام (٨٧٤). وبعد خمسة أعوام أرسل إلى المسجد الحرام منبرا فى غاية الروعة مزينا بالذهب الخالص وذلك فى عام (٨٧٩).

وبعد عامين أمر بإصلاح السقوف داخل باب السلام وحجر إسماعيل ورخام المسعى الشريف، وكذلك ما فى داخل بيت الله الشريف من الرخام كما أصلح مئذنة باب النبى ﷺ وعمرها وذلك فى سنة (٨٨١)، وأمر بكتابة بيان بذلك على لوحة من رخام وألصقها فى موضع داخل الحرم الشريف، كما أنه اشترى قطعة من الأرض المتصلة بالحرم الشريف وأنشأ عليها أربع مدارس وتكية وذلك فى سنة (٨٨٢). وقد استغرق إكمال ما ينقص تلك المبانى سنتين وبعد إتمامها أسكن فيها من يقتضى الأمر إسكانهم، بعد ما انتهى السلطان قايتباى من بناء تلك المدارس والرباط بعث إلى إمارة مكة المعظمة الجليلة يقول «رأيت حادثة فى رؤياى وجعلت العلماء يفسرونها، فقالوا: «يجب غسل داخل الكعبة وخارجها وعندما يصل رسولى يجب أن تنظفوا خارج البيت الحرام وداخله، وأن تطهروه» وذلك فى عام (٨٨٤).

وتلا على شريف مكة وأشراف بلد الله وأعيانه مرسوم السلطان قايتباى وبادر

إلى تنفيذ ما جاء فيه من أمر فغسل كعبة الله خارجها وداخلها إلى ارتفاع قامة إنسان، وطهر ونظف المطاف الشريف وسائر مواضع الحرم، وأرسل إلى السلطان قايتباى يخبره بما تم، وعقد السلطان نيته على أداء فريضة الحج فى نفس العام الذى تم فيه تطهير الكعبة الشريفة بأمره. وسافر إلى مكة المكرمة وتجرأ على أن يدخل الحرم من «باب السلام» وهو ممتط جواده ولكن ذل حافر الفرس فسقطت عمته عن رأسه وبقى حاسرا؛ إذ يجب على الداخل إلى الحرم محرما أن يكون مكشوف الرأس للقيام بالطواف والنسك، إنما تلك الجسارة كانت لملوك الشراكسة أمارة البله وضعف الإدراك، فالشراكسة المصريون كانت لهم بزة خاصة وهندام غريب يثير ضحك من يقع نظره عليهم لأول مرة.

ألبسة ملوك الشراكسة المصريين الرسمية:

إن السلاطين الشراكسة الذين تربعوا على عرش مصر اختاروا لأنفسهم ثيابا رسمية تشبه ملابس الأيوبيين، إلا أنهم أضافوا بعض الأشياء الخاصة بهم مما جعل لهم هيئة مثيرة للضحك، وإن ما جرت به العادة فى بلد من البلاد وما اتخذ من الأصول والقواعد ليس غريبًا أن يثير الضحك والسخرية فى بلاد أخرى.

وكان الملوك الشراكسة يتعممون بعمائم غاية فى الطول، ويثبتون على هذه العمائم ستة قرون مدببة؛ إلا أنها كانت مصنوعة من بز رقيق فى شكل مدبب، وجرت العادة فى الاستقبالات الرسمية أن تحمل فوق رءوسهم مظلات على هيئة الخيام، وعلى هذه المظلات صورة طائر باسط جناحيه[1]، وكان حامل هذه المظلة أعلى الأمراء المصريين رتبة ويسمى بولى العهد، وكان فى مصر فى هذه الحقبة من الزمن أربعة وعشرين وزيرا يلقب الواحد منهم بالأمير الكبير، وكانت

(١) وإن كانت المظلة التى ترفع فوق رأس أمير مكة وهو غاد ورائح إلى عرفات مظلة كبيرة نوعا ما؛ إلا أنها كانت خالية من صورة طائر، وهذه المظلة مصنوعة من قماش أخضر ومزخرفة بخيوط ذهبية وذات زر من الخيوط الذهبية. وكانت فى غاية الزخرفة والزينة والزركشة وكانت خاصة بأمير مكة فقط.

الموسيقى تعزف على أبوابهم صباحا ومساء، وكان كل واحد منهم يعمم بعمامة عليها أربعة قرون، أما من لم يحوزوا رتبة الأمير الكبير من الأمراء فكانوا يعممون بعمامة بها قرنان، أما من هم دونهم فى الرتبة فكانت عمائمهم خالية من القرون وطرفها مدلى إلى حناجرهم أما رؤساء الجنود فكانوا يضعون على رءوسهم قلنسوة من الجوخ الأحمر ويسايرون ركاب السلطان على أرجلهم، وعلى هذا الطراز وهذه الهيئة كانت الثياب الرسمية لملوك الشراكسة فى مصر، فمن كان منهم ذا رتبة لبس العمائم ذات القرون وكانوا يستنكفون من عمائمهم. كما يستنكفون من لبس ملابس الإحرام متجردين من ثيابهم ويعتبرونه من الأمور المعيبة لذا لم يستطع السلطان أن يحمل نفسه على الترجل ولبس ملابس الإحرام. انتهى.

وقد أقام السلطان الغورى من ملوك الشراكسة فى مصر فوق باب إبراهيم (كمرا) عقدا فى غاية الزينة فريدًا من نوعه وبنى قصرا وعلى جانبيه عدة مساكن، وأوصل بها عدة منازل وجعلها وقفا وذلك فى عام (٨٨٨) وبما أنها كانت أعلى من الحرم الشريف فقد أفتى أكثر العلماء بعدم جواز وقفها. يقيم الآن فى هذا القصر والمساكن التى بجانبه المستأجرون كما أن الحجاج يستأجرونها أحيانا. وأصلح السلطان الغورى المضايق التى فى طريق مصر كما رمم حجر إسماعيل الشريف كما أنه بنى سور جدة.

إرسال الصرة إلى الحرمين:

جرت عادة السلطان الغازى بايزيد خان الثانى بن السلطان محمد الفاتح خان بأن يرسل كل سنة صرة تحتوى على أربعة عشر ألف قطعة ذهبية، على أن يوزع نصف المبلغ لعلماء مكة الأعلام والنصف الآخر لعلماء المدينة الأعلام وذلك فى سنة (٨٨٦)، وبما أن سماحة خلق المشار إليه قد ذاعت بين أهالى الحرمين فقد نظم شاعر من شعراء المدينة يسمى أحمد بن حسين العليف قصيدة مدح وثناء ضمنها مناقب الخليفة المختارة وقدمها للسلطان.

إن الشاعر المذكور هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن حسين العليف، وكان أحسن الناس فى زمانه وقد شرف دار السيادة بزيارته فى صحبة الشيخ محيى الدين بن عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى من خطباء مكة المكرمة. إن القصيدة البليغة التى قدمها إلى السدة السلطانية كانت مؤلفا نفيسًا بعنوان «الدُّرُّ المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم» وكان مطلع القصيدة البديعة هذا البيت البليغ:

خذوا من ثنايای موجب الحمد والشكر ومن در لفظی طيب النظم والنثر

فأمر السلطان سديد الرأى لهذا الشاعر جائزة بألف من الذهب جائزة وأوعده بإرسال صرة بمائة دينار كل سنة، وقد نال الشاعر المذكور إلى آخر عمره صرة بمائة دينار كل سنة.

كان الدينار فى تلك الأوقات نوع من عملة ذهبية وسنعرف فى موضوع الصرة الهمايونية مزيدا عن قيمة هذه العملة فى زماننا، ومتى ضربت وقطعت؟ ومما صحت روايته أن الذى خصص له الملك صرة فى كل عام هو أحمد بن العليف وكانت ترسل كذلك إلى أبنائه وأحفاده إلى انقطاع نسله.

قد احتاج قطع رخام الحطيم الكريم للتسوية والترميم، فما كان من أبى النصر الغورى إلا أن غيرها كلها، وفى نفس الوقت زخرف داخل الحطيم وخارجه وفرش أرضه وذلك فى عام (٩١٧)، وبعث السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان إلى أهالى الحرمين الشريفين أضعاف ما كان يرسله والده كثيرا، وضم هذه المبالغ إلى العطايا المقررة لسكان الحرمين الذين يردون إلى دار السعادة، فكان ما يكفيهم وذلك فى سنة (١١٨) وفتح السلطان سليم بلاد مصر، وأدخل أهلها طاعته فخضعوا جميعا لأوامره وأدخل فى حوزته بلاد الحرمين الشريفين ونشر فيها أنوار العدل، وكان يعيش فى ذلك العهد فى مصر الخليفة المتوكل على الله[1] الثالث العباسى، ولم يكن له من أمر الخلافة إلا شيئًا معنويًا وهو أن يؤخذ إذنه

(١) كان اسم المشار إليه عبد الرحيم، وعلى رواية محمد بن المستمسك بالله يعقوب وقد بعثه السلطان سليم مع أولاده وأهله وأتباعه إلى دار السعادة.

عندما يتبادل الأمراء منصب السلطنة، وكان يمضى أيامه بإدارة وقف السيدة نفيسة[1] وقد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم ودخل تحت حمايته.

وقد أرسل الشريف سيد بركات الذى كان حاكم الحرمين فى ذلك الوقت أبا عن جد ولكنه كان تابعا لملوك مصر الشراكسة ابنه أبا نمى الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره إلى مصر، ومعه المخلفات النبوية المباركة مع مفتاح بيت الله وسلم كل هذه الأشياء إلى السلطان سليم مصدقا بخلافته ومبايعا له، وقدم له بعض الهدايا الحجازية مباركا بالخلافة وذلك فى سنة ٩١٣.

وقد اشتكى السيد بركات فى الشكوى التى قدمها إلى السلطان سليم من جور وظلم والى جدة الأمير حسين الكردى للأشراف الكرام، فأكرم السلطان الشريف أبا نمى إكراما بالغا، وخلع على والده سيد بركات وعليه خلعة غالية الثمن لكل واحد منهما ورد إليهما اعتبارهما ومكانتهما ووقرهما، ثم أعاده إلى مكة المكرمة وفى اليوم الذى كان سيدخل فيه الشريف أبو نمى إلى مكة زين أهلها الأزقة والأسواق واحتفلوا عظيم الاحتفال، ولبس السيد بركات وابنه الخلع السلطانية التى أنعم بها السلطان وجلسا فى المقام الحنفى بعد أن طافا بالبيت، حيث وفد الناس يزفون التهانى وعلى أثر تلقى التهانى استقدم الأمير حسين الكردى وأبلغه الأمر السلطانى بشأنه، وأركبه زورقا مضى به تجاه السويس ولكنه ألقى به فى البحر وغرق فى مكان يسمى بيت العجين.

لازمة:

إننا لم نستطع أن نحصل على كتاب تاريخ يبين لنا ما قدمه الشريف أبو نمى إلى السلطان سليم بن بايزيد خان من المخلفات المقدسة المباركة: نوعها وعددها إلا أن هذه المقدسات المباركة توجد ضمن الأشياء المباركة الجميلة التى تحتوى عليها حجرة الأمانات الشريفة الفاخرة، وقد قدم بعض هذه المقدسات المباركة من قبل الأمير المشار إليه ثم حصل على البعض الآخر فيما بعد.

(١) سواء أكانت المشار إليها أو كانت السيدة زينب والسيدة رقية والسيدة سكينة فمقابرهن فى مصر. وكانت السيدة زينب والسيدة رقية أختى الإمام الحسين لأبوين، والسيدة سكينة كانت بنته من رباب بنت امرئ القيس بن عدى الكلبى.

التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة
نوعها وعددها

رباعية النبى ﷺ، الحجر الشريف الذى يحمل أثر القدم الشريفة للنبى ﷺ، فرد واحد[١] للنعلين الشريفين، الخرقة النبوية الشريفة[٢]، سجادة الرسول ﷺ، سجادة الصديق، لواء النبى ﷺ[٣]، قبضة سيف النبى ﷺ، قوس النبى ﷺ، عدد ٢ عصا النبى ﷺ[٤]، قدر حضرة نوح عليه السلام، مرجل إبراهيم عليه السلام، قميص يوسف عليه السلام الملطخ بالدماء، رأس زكريا عليه السلام، قبضة سيف داود عليه السلام، قميص سيد الشهداء الملطخ بالدماء، قميص فخر النساء، ألوية الخلفاء الأربعة، عمائم الخلفاء الأربعة، سبح الخلفاء الأربعة، سيوف الخلفاء الأربعة، قبضة سيوف العشرة المبشرين وهى ست، السيف الصارم لجعفر الطيار، قبضة سيف خالد بن الوليد، قبضة سيف معاذ بن جبل، سيف شمر حبيل بن حسنة، سيف أبى طلحة، لواءان للإمامين، تاج أويس القرنى،

(١) قد حصل على الفرد الآخر فى عهد السلطان عبد العزيز.

(٢) إن هذه الخرقة الشريفة هى التى أهداها النبى ﷺ لكعب بن زهير رضى الله عنه من أصحاب النبى ﷺ وكان الأصحاب الكرام يزورون هذه الخرقة متبركين وكانوا يغمرون جزءا منها فى الماء ثم يشربونه للاستشفاء. وبناء على تدقيق (على القارى) احتفظ بها ورثة زهير واشتراها منهم معاوية رضى الله عنهم، وبعد انقراض الدولة الأموية انتقلت إلى السلاطين المصريين ومنهم إلى السلطان سليم.

وكان سلاطين آل عثمان فى أول الأمر يزورونها فى يوم معين ويغمرون أطرافها فى مرجل مليئ بالماء ثم يملئون هذا الماء فى الزجاجات ويجمعونها ويقدمونها لرجال الدولة، والذى ينال زجاجة من هذا الماء كانوا يعظمونه ويتبرك به مثل ماء زمزم ثم يصوم ويفطر به طلبا للشفاء.

(٣) كان اللواء الشريف فى عهدة سلاطين مصر، وتحفظ فى خزانة حكومة الشام ولما فتح السلطان سليم بلاد العرب أمر بحفظه فى الموضع الذى شهده فيه، إلا أنه كان يؤتى به فى معظم الحروب على أنه رمز النصر ومظهره؛ لذا أحضره السلطان مراد الثالث إلى الأستانة وظل فيها قرنا من الزمن فى غرفة الخرقة الشريفة.

(٤) إحدى هاتين العصوين كانت عصا النبى شعيب عليه السلام.

مصحف عثمان بن عفان، الكلام القديم بخط الإمام الليلى، المصحف الشريف بخط زين العابدين، مفتاح البيت الأعظم، الميزاب الذهبى، مصراع باب التوبة، الغطاء الفضى لمقام إبراهيم، الطين، ماء الغسل النبوى.

إن الأمانات والمقدسات المباركة كل واحدة منها فى داخل غلاف فضى، أما الخرقة الشريفة فى داخل صندوق فضى صغير وهى فى غرفة العرش، أما الأمانات الأخرى فقد وضعت فى رفوف جدران تلك الحجرة بكل عناية.

التذييل:

إن الميزاب الذهبى القديم بدل سنة (١٥٢٢) و (الكوكب الدرى) الذى اكتسب شرفا بمجاورته الغرفة المعطرة فترة طويلة والأخشاب القديمة التى اقتلعت من أماكنها عند تعمير سطح كعبة الله التى صنعت هدية نفيسة للسلطان بايزيد خان كل هذه الأشياء حفظت فى الأماكن الخاصة التى فى حجرة العرش.

ولما سافر قبودان الغازى حسين باشا إلى مصر بمهمة القضاء على ثورة القاهرة عرف أنه فى ضريح السلطان الغورى مخلفات نبوية مباركة وهى قطعة قميص وعصا شريفة ومرودا، وفى خلال شهر ربيع الأول من سنة (١٢٠٣) نقلت هذه المقدسات المباركة من مبنى محكمة مصر، وبادر بتطييبها وتعطيرها حين زيارتها، ووضعها فى داخل صرة ووضع الصرة فوق كرسى مزخرف وأعادها إلى مكانها فى موكب خاص اشترك فيه علماء مصر كافة، وحملت هذه الآثار على الرءوس بكل تعظيم وصلاة وسلام، ووضعت فى صندوقها الخاص فى مكانها القديم.

وقد سطر جودت باشا فى تاريخه أن الأشياء المذكورة مازالت محفوظة فى ضريح السلطان الغورى إلى الآن يستطيع أن يزورها من أراد ذلك، وقد سر السلطان سليم سرورا بالغا بحصوله على الأمانات النبوية المقدسة المبروكة لذا راعى جانب الشريف محمد أبا نمى مراعاة عظيمة وطيب خاطره بإلباسه الخلع، كما بعث إلى والده الشريف أبى البركات هدايا كثيرة وأكرم أهل الحرمين الشريفين كما ينبغى، وكل هذا لحصوله على الأمانات النبوية. وفى خطبة عرفة

(٩٢٣) ذكر اسمه كخليفة وبلغ الأمر إلى جميع سكان الحجاز وتهامة، وأراد السلطان العظيم أن يبين شكره على ذكر اسمه فى خطبة عرفات فأرسل إلى أهالى الحرمين مائتى ألف قطعة ذهب فيلورى وقدرا كافيا من الحبوب المتنوعة، وأرسل الأمير مصلح الدين وفى رفقته قاضيان لتوزيع تلك العطايا، كما أعطى للرسول المذكور دفتر قد زخرف عاليه بكتاب ما أرسل إلى مولانا الشريف أبى نمى من خمسمائة قطعة ذهبية، وكان السلطان سليم اعتاد أن يرسل الصرة التى تحتوى على الذهب الفيلورى فى كل سنة، وأصدر أمره السلطانى بإرسال الصدقات المصرية[1] التى كان يبعثها ملوك الشراكسة كما جرى فى السابق على أن تتحمل الخزينة السلطانية العامرة نفقاتها، وجعل ذلك قواعد يجب اتباعها كل سنة.

وقد غمر الفرح نفوس أهل الحجاز لصنيع هذا السلطان، وعلى أثر ذلك أطلقوا على ما ترسله السلطنة السنية الصدقات الرومية للتفريق بينها وبين الصدقات المصرية.

* * *

(١) أعاد الشراكسة إرسال هذه الصرة تحت اسم (الذخيرة) وتوزيعها على العلماء المستحقين. كما رتب السلطان سليم خراج مصر وقسمه أقسامًا ثلاثة: فجعل من القسم الأول ماهية عشرين ألف عسكرى بالقطر من المشاة واثنى عشر ألفًا من الخيالة، والقسم الثانى يرسل إلى المدينة المنورة ومكة المشرفة، والقسم الثالث يرسل إلى خزينة الباب العالى.
انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٧، نقلاً عن الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك.

بيان كيفية توزيع وتقسيم الصُرّة المرسلة من قبل السلطان سليم بن بايزيد

عندما وصل الأمير مصلح الدين إلى مكة المكرمة أخذ يوزع نقود الصدقة الرومية وفق ما سجل فى الدفتر الذى معه، وأوصى الذين نالوا العطايا أن يستمروا فى رفع أكفهم بالدعاء للسلطان ودوام عزه ثم جمع العلماء الأعلام والأعيان والأشراف الكرام الذين وردت أسماءُهم فى سجل العطايا، وجعلهم يختمون تلاوة القرآن الكريم ويوجهون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ دعواتهم بإطالة عمر السلطان وزيادة قوته.

بعد ما أتم العلماء المجتمعين فى داخل الحطيم ختم القرآن الكريم اختار الأمير مصلح الدين ثلاثين من الحفاظ الصلحاء وكلفهم بختم القرآن الكريم مرة كل يوم بناء على التعليمات التى يحملها من السلطان، على أن يأخذ كل واحد منهم اثنى عشر قطعة ذهبية فى السنة، كما اختار بعض العلماء وكلفهم بقراءة البخارى والشفاء[1] الشريف على الدوام ثم استدعى الفقراء الذين يحتاجون إلى الصدقة فى الحقيقة وسجل أسماءهم فى السجل، وأعطى لكل واحد منهم ثلاث قطع ذهبية كعطية سلطانية، ثم ذكر بأن السلطان سيبعث كل سنة ثلاث صرر من الذهب، وأحصى أفراد أسر الفقهاء وسجلهم فى سجله، وقرر أن يعطى لكل فرد منهم ثلاثمائة قطعة ذهبية ثم قيد المبالغ اللازمة لهم باسم صرة البيوت. ثم جمع كل الذين أظهروا حاجتهم للعطية وأعطى لكل واحد منهم قطعة ذهبية، وأشار إليها فى سجله بالصرة العامة، وفى آخر شهر ذى الحجة جمع العلماء والصلحاء وأخذهم إلى جبل التنعيم وبعد لبسهم ملابس الإحرام جعلهم يعتمرون لوالدة السلطان، وأدرج ما أنفقه فى هذا السبيل فى سجل باسم صدقات العمرة،

(١) هو كتاب الشفاء فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض. أما صحيح البخارى فقد سماه البخارى ـ رحمه الله ـ «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».
انظر: هدى السارى لابن العسقلانى ص ١٠.

وفى أثناء إنهاء أداء العمرة وصلت إلى ميناء جدة السفن المصرية محملة بالمرتبات الحجازية من الحبوب والصدقات وتحمل كذلك أمرا سلطانيا للأمير سابق الذكر بكيفية توزيع الحبوب وتقسيمها، وقد تبين عند البحث والتحقيق أن الحبوب المذكورة: ألفا إردب منها لأهالى المدينة المنورة، وخمسة آلاف أردب منها لسكان مكة المكرمة، كانت كلها سبعة آلاف أردب من المؤونة والغلال.

الذيـــل

الأردب كيل خاص بالبلاد العربية ويستوعب ست ويبات، وعند اللغويين الويبة تساوى ستة أصواع، والصاع أربعة أمداد والمد يساوى رطلا وثلث رطل.

وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يعدل الأردب ١٥٣ أوقية و ١٠٠ درهم؛ إلا أن استخدامات الأردب فى بلاد العرب تختلف فعند المصريين الأردب الواحد يساوى ١٢ ويبة، والويبة الواحدة[١] تساوى ست كيلات إستانبولية قديمة، وتعدل الويبة ١٠ أوقيات. وقالوا إن الأردب يساوى ١٢٠ أوقية، أما الحجازيون فيعتبرون الأردب و الأردب ١١ أوقية و ١٠٠ درهم[٢] أما أهل البلاد الأخرى فيختلفون فى تحديد مقدار الأردب اختلافا كبيرا كذلك يكاد أن يكون تقدير مقدار الأسلوب كثير الصعوبة إن لم يكن مستحيلا ونظرًا لورود الغلال من مصر يجب اعتبار الأردب ١٢٠ أوقية، وقد سمع بأن تقى الدين باشا والي الحجاز الأسبق ساوى بين أوزان وأكيال البلاد الحجازية بالأوزان والأكيال التى تستخدم فى جميع البلاد التابعة للسلطة العثمانية، لكننا نظن أن تعميم هذه القاعدة فى البلاد الحجازية غير قابل للتطبيق.

الغلال الواردة

حتى لا يقع الخطأ فى تقسيم تلك الغلال وتوزيعها اتفق الأمير مصلح الدين مع الأشراف والأعيان على تعداد سكان مكة المكرمة، واستثنى منهم التجار ومتوسطى الحال والجند فوجد عدد المحتاجين من المسنين والشباب والأطفال

(١) عرف ابن فضل ـ أحد مؤرخى مصر ـ الويبة الواحدة بأنها ١٤ ربع، والربع الواحد أربعة أقداح، والقدح الواحد ٢٣٢ درهم.

(٢) الأردب الآن فى مكة يساوى ١٠٨ أوقية.

الذكور والإناث (١٢٠٠٠) نفر، وبناء على رأى السيد جمال الدين محمد بركات شريف مكة، استصوب توزيعها على المحتاجين المذكورين كل واحد منهم ربع أردب من الحنطة وقطعة ذهبية ثم أعطى مفتى المذاهب الأربعة لكل واحد منهم ثلاثة أرادب[١] غلة وهكذا أجرى قواعد العدالة.

أول ما وزع من الأرزاق التى أرسلها السلاطين العثمانيين على أهل الحرمين هى ما وزعه مصلح الدين أفندى من سبعة آلاف أردب من مختلف الغلال وقد زاد مقدار هذه الغلال من سنة لأخرى لحاجة الناس إليها حتى وصلت فى عهد السلطان محمود العادل إلى (١٧٠٠٠) أردب من الحنطة، وكان هذا القدر كافيا لتغطية حاجات الناس ومن هنا لهجت ألسنتهم بطول بقاء الدولة العثمانية. واستطاع فيما بعد ذوى الحيلة أن ينال كل واحد منهم مائتى أردب من الحنطة مدعين انتسابهم لجهة من الجهات؛ وبهذا تركوا كثيرًا من الفقراء لا ينالون، شيئا ولما استحال جلب هذه الغلال من مصر أخذ الناس يتقاضون من خزانة الدولة ثمن ما يستحقون من حنطة.

ترميم المقام الحنفى

كان الأمير مصلح الدين مكلفا أيضا بتعمير الحرم الشريف وترميمه ولما رأى أن المقام الحنفى فى شدة الحاجة إلى التعمير قال مخاطبا أعيان بلد الله وعظماءهم إن هذا المقام[٢] المبارك الذى أنشىء على أربعة أعمدة مسقفا بناء مبارك، ومحرابه فى وسطه، وقد بنى من أجل أئمة المذهب الحنفى الكرام كما تعرفون جميعا أنه بنى فى سنة (٨١١)، وفى سنة (٨٤٣) غطيت قبته بالقصدير من قبل السلطان المصرى جاقمق وبالنظر إلى شكله الحالى وكثرة الحجاج والضيوف الذين يفدون للحج قد تجاوز وجوب توسيعه مع إنشاء قبة له درجة الوجوب.

لذا يقتضى الأمر تهيئة مقام أوسع يستطيع الحجاج الذين على المذهب الحنفى

(١) هذه الأرادب التى أعطيت لرجال المذاهب الأربعة كانت زائدة عن حصتهم وإنما أعطيت لهم رعاية لجانبهم وذلك مما سر الناس جميعا.

(٢) وهنا كان مصلح أفندى يشير بإصبعه إلى المقام الحنفى.

أداء صلواتهم عند حلول أوقات الصلاة دون أن يزعجوا جماعات المذاهب الأخرى فى أثناء صلاتهم مقتدين بإمامهم.

وبهذه المقدمة قد جعل ما فى ضميره من عزمه على توسيع المقام موضع الاستشارة والبحث؛ إلا أنه لم يستطع أن يحصل على الموافقة فى ذلك اليوم، وفى اليوم الثانى كون لجنة حتى يستطيع أن يبنى المقام المذكور وفقًا لخريطة أفكاره، وقد حصل على موافقة العامة على البناء، وفعلا بنى مقاما فخما وفق ما رسم خياله فى ذهنه من رسم مطبوع وشكل مرغوب، كما رفع فوقه قبة جديدة ثم عمر وأصلح ما يجب تعميره، وهكذا شيد وبنى الحرم الشريف على شكله ذاك فى أيامه وذلك فى سنة (٩٢٣).

قد دام المقام الشريف الذى شيده مصلح الدين أفندى فترة طويلة إلا أنه احتاج للتعمير والترميم بفعل الزمن لذا هدمه حاكم جدة (خوش كلدى) من أساسه، وبنى مكانه مقاما مربعا لايدانى فى الجمال من طابقين، وخصص الطابق الأعلى للمؤذنين والطابق الأسفل لجماعات الحنفية، وما زال ذلك المقام قائما بالطرز الذى بناه عليه (خوش كلدى بك) ولكنه وسع وجدد فى سنة (١٠١٧)، وأصلح وعمر فى سنة (٢٥٩) كما ذكر فى الصورة الثانية من الوجهة الخامسة.

عندما وفق (خوش كلدى بك) فى تجديد البناء العالى للمقام الحنفى فنظم غبارى أفندى تاريخا لطيفا.

قطعة

المقـــام الخـــاص بسلطـــان الأئمـــــة
إذا أصبـح معمـورا بمحامد ومحامـد
طاف بسمعى من العاكفين بكعبة الأنس
اســـمه هـــو (خـــير المســـاجـــــد)
إذا لـم يكـن هـــو خـــير المساجـــــد
فـلم يكـــن التاريـــخ خـــير المساجـــد

سنة ٩٤٩

بعد أن فرغ الأمير مصلح الدين من تعمير وترميم المقام الشريف وغيره من الأبنية مضى إلى المدينة المنورة وأخذ فى إحصاء عدد السكان ثم وزع ألفى أردب من الغلال السالفة الذكر على أربعة آلاف نسمة من السكان الذين قيدهم فى سجلاته عقب الإحصاء، وهكذا استجلب الدعوات الخيرة للسلطان العالى الشأن وذلك فى سنة (٩٢٣) وإن كان ما وزعه الأمير مصلح الدين من الغلال فى سنة (٩٢٣) كفى أهالى الحرمين الكرام فى ذلك الوقت إلا أن عدد سكان الحرمين زاد عاما بعد عام، وأصبحت المرتبات الحجازية لا تفى بحاجة الناس؛ لذا أوصل السلطان فى عام ٩٢٦ العطايا إلى حد الكفاية.

واعتاد أن يرسل المخصصات بواسطة مصلحة الصرة، وإلى الآن ترسل المخصصات بهذه الصورة وتوزع كل سنة على سكان مكة أمام البيت الشريف بحيث يعود الذين استلموا عطاياهم المخصوصة فرحين مسرورين داعين لسلطان الزمان العثمانى وأهله بطول بقاء دولتهم عليهم الرحمة والرضوان، قد سددوا ديونهم التى تراكمت خلال السنة الحالية.

إن ما يطلق عليه الصدقات الرومية من هذه المبالغ هى قوام حياة أهالى الحرمين الشريفين لم يكن يرسل على عهد الملوك القدامى سواء من قبل ملوك الشراكسة أو الخلفاء العباسيين أو أسلاف السلاطين العثمانيين على هذا النحو، ولم يوفق أحدهم إلى مثل ما بعث السلطان سليمان.

والصدقات التى كانت تخصص فى عهد السلطان سليمان، لأى واحد كانت تؤول إلى أولاده بعد مماته، وإذا كان المتوفى بدون وارث كانت هذه الصدقات تعطى لأحد الفقراء المحتاجين.

وكان فى مكة المكرمة مخازن خاصة لوضع وحفظ الغلال التى ترد تباعا، وعندما ترد تلك الغلال كانت تحفظ فى تلك المخازن، وكان فى بعض حجرات مدرسة الشريف عجلان بالقرب من باب العجلة أى فى داخل الحرم الشريف مصلحة فى مديرية الحرم الشريف وهى التى تعطى إيصالات الاستحقاقات

لأصحاب الشأن، وترسلهم إلى أمانة تلك المخازن فيأخذ كل واحد حقه وفق الإيصال الذى يحمله، وهذا النظام باق إلى يومنا هذا ومرعى الجانب.

مقدار وقيمة الصرة السنية المعتاد إرسالها إلى الحرمين

فى زماننا هذا كلما زاد سكان الحرمين وتكاثر المجاورون زاد ما تضمه الصرة السلطانية إلى أن وصل فى العصر السلطانى الذى نفتخر ببلوغه وإدراكه مقدار الصدقات إلى (٣٥٠٣٦١٣) قرش وإذا ما أضيف لهذا المبلغ (١٢٢٦٢٦٢) قرشا تنزيلا[١] بنسبة ٣٥٪ تصل قيمة الصرة السلطانية إلى (٤٧٢٠٨٧٧) قرشا وهذا يساوى على التقريب (٩٠٠٤٥٩) كيسا و ٣٧٧ قرشا[٢] وهذه المبالغ مع ما أضيف إليها هى لمكة المكرمة (١٠٧٤٨٨٦٠) قرش، ولأهالى المدينة المنورة (٢٤١٦٧٠٧١) قرش، و (١١٥٤٧) قرش للقدس الشريف ولمن فى طريق الحج والقائمين على صيانة أحواض الماء كما قدم إلى بعض وجهاء القوم شيلان صوف هدايا دائمة.

ولا ترسل الآن صرة الهدايا هذه وتقدم قيمتها نقدا إلى مستحقيها، وتبلغ صرة سكان مكة (١٠٧٤٨٦٥) قرش والمرتبات القديمة (٢٠٧٠٦٩) وأضيف إليها جديدا (٨٦٧٧٩٦) قرش. أما مخصصات المدينة وهى (٧٤٩٢٤٦) قرش فهى الصرة القديمة أضيف إليها مبلغ (١٦٦٧٤٥٥).

الصرة الخاصة بأهل مكة

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٢٣١٣	من خزينة الحرمين الشريفين	أهل مكة المكرمة قد منحوا ذلك قديما ثم آل بعد ذلك إلى أولادهم وأولاد أولادهم وأحفادهم وبعد انقطاع نسلهم تصرف إلى المستحقين من الفقراء.
٣٧٥٤٤	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٣٣٢,٥	من وقف مجهول النظارة	

(١) قد حسب هذا التنزيل بالنسبة للمسكوكات المتداولة فى الحرمين.

(٢) والمبالغ التى تصرف فى أثناء ذهاب المحمل وعودته وما يعطى لمشايخ العرب فى طريق المحمل وهى تساوى ١٠٠٠ كيس من النقود وهى زيادة على أكياس النقود التى ذكرت.

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٢٣	من خزينة المالية	
٣٠٠	من خزينة الحرمين الشريفين	
٤٧١٥٣	من أموال حوالى الشام	
١٢٣٧٣,٥	من خزينة السلطان الخاصة	
١٧١٣٣٩	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٦٥٤٦٦	من خزينة المالية	هذه المبالغ الرواتب السنوية وهى الصرة القديمة وما ضم إليها جديدا
١٧١٩٠٠	الصرة القديمة من الأوقاف المضبوطة	
٣٢١٩١	من خزينة المالية	وتصرف لموظفى الإدارة بالحرم الشريف والأئمة والخطباء ومسجد بيعة الرضوان والأشراف الكرام والآخرين والقائمين بخدمة الحرم المحترم
٨٢٠٩٠	الصرة القديمة من الأوقاف المشروطة	
٨١٢٧٠٧	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٢٠٠٠	من وقف السلطان عبد المجيد خان	وتصرف لموظفى مكة المكرمة من أبناء مكتبة الحرم الشريف والذين يعينون أوقات الصلاة والذين يعنون بالساعات والذين يكبرون ومؤذنى الحرم الشريف والقائمين بتطهير بيوت الخلاء والإيجار منازل أمناء الكتب، ولبعض فقراء التكايا والمحتاجين والمجاورين ولمرتبات مستشفى الغرباء
١٢٢٠٠	كذلك	
٤٦٣٥	كذلك	
٤٥٦٠	كذلك	
١٦٦٨٠	كذلك	
٣٤٩٢	كذلك	
٦١٨٠	كذلك	
١٥٦٠٠	كذلك	
٧٢٠٠	كذلك	
٨٨٥٢٥٤	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٨٨٥٢٥٤	المجموع السابق	رواتب الذين يتلون أجزاء من القرآن الكريم كل يوم عقب صلاة الفجر فى المقام الحنفى، وحارس ضريح السيدة ميمونة رضى الله عنها وكذلك
٣٦٠٠	من وقف السلطان محمد الثانى	
٣٨٤٠	من وقف سلطانى الوالدة بزم عالم	
٤٨٠	كذلك	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٥٠٠	كذلك	مكبرى المقام الحنفى ومؤذنيه ومن يقدمون ماء زمزم فى موسم الحج وفراشى المسعى الشريف.
١٥٠٠	كذلك	
٩٦٠	كذلك	
٢١٠٠	كذلك	
٩٠٢٢٣٤	المجموع	
٢٤٩٦	من الأوقاف المشروطة	
١٢٤٨	بإيجاد مقابلة	
١٢٨٨١٣	تعويضًا من خزينة المالية	
٤٠٠٧٤	من خزينتى المالية والحرمين	
١٠٧٤٨٦٥	المجمـــــوع	

إن مجموع هذه المبالغ المذكورة فى ذلك الجدول (٥,٧٤٩٦٠) قرش و (٧٩٦,٠٠٤) قرش إضافات جديدة.

(٠٦٩,٠٧٠,١) قرش من الصرة القديمة، و (٣,٠٧٦,٣٣٩) ترسل أكياس مختومة، و (٣٧٤,٥٣٠) قرش تعطى بالحوالة من أموال الشام، ٣٩٩٦ قرش تحجز فى حجرة أوراق الحلى فى استانبول على أن تعطى لبعض الذوات.

ملحوظة:

جاءت فى جداول المؤلف كلمة (يوك) فى الأرقام وتساوى نصف مليون.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٤٨٥٠١,٥	من وقف الحرمين الشريفين	خصص لأهل المدينة المنورة قديما من الصرة السلطانية وآلت من الآباء إلى الأبناء والأحفاد وبعد انقطاع نسلهم صرفت إلى الفقراء.
٤٣١٠٨	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٤٢٠٧,٥	من وقف مجهول النظارة	
٨٨٦	من خزينة المالية	
١٧٦٤٨	من خزينة السلطان الخاصة	
١٠٦٨٥٢	من المالية تعويضا عن الحوالة الشاملة	
١٣٢١٢٠٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٦٨٠٠٠	من الأوقاف المضبوطة	من الزيادات القديمة والجديدة مخصصة لإدارة مديرية الحرم النبوى وشيخ الحرم النبوى وموظفى دفتر اليومية للخزينة النبوية وتؤخذ من أوقاف الحرمين فى بغداد والبصرة
٩٩٩٠٠	من خزينة المالية	
٩٢٨٨٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٦٨١٩٨٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٥٤٩٦٠٠	من خزينتى المالية والأوقاف	خصصت رواتب سنوية من الأوقاف المخصوصة لخدمة الحرم الشريف والخصيان والساده أبناء على وخدمه مسجد الفاروق الأعظم ومسجد قباء والرواتب السنوية لقراء القرآن الكريم و الشفاء الشريف والبخارى.
٥٥٣٨٦٠	كذلك	
٦٧٠٠٥	من وقف عبد المجيد خان	
٢٤٠٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٢٤٠٠	من الأوقاف المضبوطة	
١٨٥٧٢٤٨	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٣٦٨٠	من الأوقاف المشروطة	رواتب ومخصصات من الأوقاف المضبوطة لمدرسى مدرسة الحميدية وبعض المستحقين من الفقراء والصالحين.
٤٣٨٠	من وقف السلطان عبد الحميد المخلوطة	
٢٩٩٤٠	من وقف السلطان محمود الثانى	
١٥٠٠	من الوقف المجهول النظارة	
٢٦٤٥٨٨	من خزينة السلطان الخاصة	
٤٠٩٧٨	كذلك	
٢٢١٢٣١٤	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٤٣٧,٥	من وقف السلطان محمود الثانى	رواتب مدرسى المدرسة المحمودية وأمين مكتبتها ومرضى المستشفى المجيدية وخدمها وسائر موظفيها.
١٤٣٧,٥	كذلك	
٨٥٣٠	كذلك	
٢٢٢٦٧١٩	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٠٠٠	من وقف عبد للجيد خان	المعاشات السنوية لأمناء مكتبة مدرسة السلطان عبد
٤٨٠٠٠	كذلك	للجيد خان ووكيل الشريفة وخدام المدارس التى أنشئت
٣٤٥٦٠	كذلك	حديثا وسقائى الصنابير وأطباء وصيادلة وجراحى
٣١٧٣٤	كذلك	المستشفيات ونظار المدارس سالفة الذكر
٤١٩٢	كذلك	
٢٣٤٩٠٠٥	المجمـــوع	
١٩٧٢٠	من وقف والدة السلطان بزم عالم	رواتب السنوية لقراء سورتى تبارك والفجر لروح والدة السلطان بزم عالم ووظائف مشيخة المدينة المنورة
٤٧٩٧٦	من خزانتى المالية والأوقاف	
٢٤١٦٧٠١	المجمـــوع	

الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة

إن المجموع الكلى لهذه المبالغ المقيدة بهذا الجدول (١٢٠١٦٧٠٠)، (٨,٠٦٧,٤٥٥) قرش زيادات جديدة كما أن مبلغ (٣,٥٤٩,٢٤٦) قرش من الصرة القديمة، ومبلغ (٧,٥٦٦,٢٠٣) قروش ونصف من هذه النقود تسلم إلى أمانة الصرة موضوعة فى أكياس مختومة مغلفة، كما أن مبلغ (٤,٣٩,٥١٧) قرشا ونصف قرش من أموال الشام ترسل بواسطة الحوالة ١٨٩٩٠ قرشا تعطى إلى الأشخاص المقيمين فى إستانبول.

إجراءات الصرة للموظفين القائمين على أحواض المياه فى القدس الشريف وطريق الحج.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٧٨٠,٥	من الأوقاف المضبوطة المقررة	تعطى لموضفى القدس الشريف وموظفى النزل التى تكون
١٠	من وقف عمر بك	على طريق الحج وتعطى عادة لمشايخ العربان.
٦٧٥	من وقف الحرمين الشريفين	
٦٠٠	من وقف الحاج أدهم أفندى	
١٩٣٤	من الأوقاف المضبوطة المقررة	
٤٠٠	من وقف السلطان عبد الحميد	
١٤٧,٥	من الخزينة المالية الجلبة	
١١٥٤٧	المجمـــوع	

مجموع الصرة السلطانية من حيث المجموع الكلى

الصرة القديمة	الصرة الجديدة	مجموع الصـــرر
٢٧٠٠٦٩	٧٤٩٣٤٦	١١٥٤٧ التى كانت تمنح لمكة المكرمة.
٨٠٤٧٩٦	١٦٦٧٤٥٥	٢٤١٦٧٠ التى كانت تمنح للمدينة المنورة.
١١٥٤٧		١١٥٤٧ التى كانت تمنح للقدس الشريف..
١٠٣٠٨٦٢	٢٤٧٢٢٥١	٣٥٠٣١١٣

صورة العلم والخبر

إن الصرة القديمة التى أعتاد إرسالها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأماكن الأخرى أخذت من خزائن أوقاف الحرمين والأوقاف السلطانية والخزائن الأخرى لسنة كذا.. على أن تعطى لأصحابها الكرام فى أماكن إقامتهم شهرا بشهر، حسب النظام المتبع وإرسالها مقدما مخصوما من الرواتب الجديدة لسنة كذا.. موضوعة كوديعة فى أمانة الصرة السلطانية كما هو مقيد فى البند الأول من سجل الحساب والمصروفات؛ لذلك تم إرسالها إلى مكة المكرمة ـ شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة ـ مع الإضافات الجديدة وهى مبلغ (٥٠٠٧٤,٨٦٥) قرش وإلى المدينة المنورة (نورها الله تعالى إلى يوم الآخرة) مبلغ (١٢,٠١٦,٧٠١) قرش كما هو مقيد فى البند الثانى، وإلى القدس الشريف وما فى طرق الحج من أحواض الماء صرتها الخاصة محسوبا لسنة كذا.. والتى تساوى (١١١٥٤٧) قرش، والتى يبلغ مجموعها (١٢,٢٥٣,١١٣) قرش مبينا مقدار المبالغ الخاصة بالصرة القديمة وسنتها ومقدار المبالغ الخاصة بالصرة الجديدة وسنتها، ورواتب أى سنة هى.

أوضح كل هذا فوق بنوده كما عرف مجموعها فى خاناتها الخاصة وخصم منها المبالغ المذكورة لتسوية الإيرادات مع المصروفات مبلغ (١٤١٧٦) قرش ثم أعد ودبر مبلغ (١٧,٠٨٦,١٣٩) قرش ما بقى بعد الخصم فى ظل الرعاية السلطانية نقدا.

وحتى تصرف تلك المبالغ التى أشير إليها مقيدة فى خانات المجموع، نقدا من خزينة وزارة الأوقاف السلطانية يجب أن يبين أماكن صرفها وكيف تم تعويضها، ثم تقيد فى دائرة المحاسبة ولإتمام الإجراءات الأخرى حتى تمر بإدارة الإيرادات وقلم المحاسبات اليومية.

ولا يدخل فى هذا الحساب نقود المحروقات واللوازم الأخرى الضرورية، ويبعث ما اعتادت بلاد الحرمين استهلاكه سنويا من المحروقات والضروريات عينا وبطريقة مستقلة.

وإن لزم إضافة مجموع أثمان هذه الأشياء للحساب العام إلا أن هذا سبب فى زيادة مقدار الصرة مليونى قرش بالتخمين. وبناء على ذلك سيصل ما يرسل إلى الحرمين فى كل سنة إلى (٣,٩٠٣,١١٣) قرش، وإذا ما أضيف إليه الرواتب الأخرى التى تساوى (٤,١٣٦,٥٧٦) قرش، سيكون إجمالى المبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش أى ما يعادل (١٦٠٧٩) كيسا و (٣٨٩) قرش. إن مبلغ (٤,١٠٠,٠٠٠) قرش وكذا التى يطلق عليها الرواتب الأخرى هى المبالغ التى تصرف على أمناء لصرة المبشرين ورياسة الخلع ومرتبات إمارة مكة المكرمة ومخصصات بعض الموظفين وقيمة ما يرسل من البخور مستقلا، ومصروفات الطريق التى يتقاضاها أشراف المدينة عندما يخرجون لاستقبال المحمل الشريف، وأجر جمالهم وما بقى من الصرة ثمنا للخيام، ولتعمير الزكائب التى تحفظ فيها أكياس الرزق، وأكياس الفراشة ومصروفات صنع الخلع التى ترسل إلى أمير مكة، والخلع التى تقدم فى الطريق من الشام إلى مكة المكرمة وأشياء أخرى، والمبالغ التى تمنح إلى أهالى الحرمين باسم الجوالى وتموين الحج وحراس القوافل السلطانية من البدو.

وقد أوضحت كمية هذه المبالغ وكيفية توزيعها فى الجدول الذى يحتوى على رواتب الصرة السلطانية العامة كل شىء على حدة.

الرواتب العامة للصرة السلطانية

القروش	المـــــــــواد
٥٢٣٢٥٠	مخصصات أمناء الصرة
٢٠١٤٨٣	مخصصات المبشرين
٤٧٨٥٦	مخصصات المبشر
٢٢٧٥٠	مخصصات رياسة الخلعة
٣٥٠٢٣	رواتب إمارة مكة المكرمة الجليلة
١٨٠٦١٢٠	مخصصات من بعض الموظفين
٢٤٨٧٥٢٠	ثمن ما يرسل من بخور
٢٦٧٤١	أجرة جمل ومصروفات الطريق للشريف الذى يرسل من مكة المكرمة لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة
١٩٥٧٠	مصروفات لتعمير المكان الذى يحفظ فيه ما أعطى لأمناء الصرة من الخيم وأكياس الفراشة والزورق
٣٤٩٥٨	المصروفات لصنع الخلعتين اللتين ترسلان من إستانبول إلى أمير مكة
٥٦٤٦٤٠	الخلع والأشياء الأخرى التى تقدم فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ولأهالى الشام فى طريق الحج وبدل العطية الريفية والتى تعرف بجوالى[1].
٣٦٠٠٠٠٠	مخصصات تموين الحج وحراس القافلة السلطانية
٩٨٤٩٠٨١٦	رواتب مكة المكرمة
١٩٢٢٣٧٣٣٠	رواتب المدينة المنورة
١١٣١٩٢٠	رواتب القدس الشريف
٨٠٣٩٨٨٩٢	المجمـــــــوع

تطلق المرتبات الحجازية على المؤنة التى يتصدق بها الملوك العثمانيين حسب الحاجة إلى أهالى الحجاز الكرام، وإلى الآن تشترى من قبل الخزانة المالية كل عام وترسل إلى البلاد الحجازية، ويعطى هذا المبلغ خارج مبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش (٢٦) بارة هو المجموع الكلى لجدول الصرة السلطانية ومقداره (١٨,٤٩٨,٨٠٣) قروش، وهذا يعنى أنه يصرف من خزينة وزارة المالية

(١) إن أهم مصارف هذه المبالغ هى ما يقدم لقبائل حسنة وولد على، وغزة، وبنى صخر وروله، والعطايا المعتادة والرواتب الأخرى التى ترسل سنويا.

(٢) هذه الرواتب خاصة من خزانة الأوقاف السلطانية وهى مبينة فى الجداول التى تشمل على الصرة القديمة والزيادات الجديدة كيفا وكما.

للرواتب الحجازية سنويا (٣٦,٩٩٦) كيسا و (١٠٣) قرش كما وضح ذلك فى بند الميزانية من عدد (١٤٢٢) من الصحيفة الملغاة. وعندما أدرج هذا المبلغ إلى مجموع الصرة السلطانية يوضح ويؤكد أن وزارة المالية العثمانية ترسل إلى أهالى الحجاز (٢٦,٥٣٨,٦٩٢) قرش و (٢٦) بارة، وإذا كان هناك تفاوت بين المبالغ المقيدة فى جداول الصرة السلطانية وجداول الأوقاف السلطانية من حيث المبالغ التى صرفت لأهالى الحرمين ولموظفى أحواض الماء التى فى طريق القدس الشريف قدره (٥٨٤,٤٣١) قرش ١٤ (بارة)؛ فهذا الفرق هو معاشات موظفى مديرى مكة المعظمة والمدينة المنورة وخصيان الحرمين وموظفى المكتبات الميقاتية ومستشفى الغرباء وأثمان أرزاق من يعنون بحدائق العمارات السلطانية ومشايخ الحرمين وكاتب الحسابات اليومية للخزينة النبوية وموظفى مستشفى المجيدية وأمناء مكتبات ومدرسى المدرستين الحميدية والمحمودية، فإذا ما أضيف هذا المبلغ إلى جدول الصرة السلطانية نرى أن الجدولين قد تقابلا وتوازنا.

ويمنح الأهالى الكرام المجاورون مبلغ (٢,٠١٣,٤١٠) فى كل عام باسم (بدل الشهادة) من خزينة الأوقاف السلطانية يحصل على هذا المبلغ من عشر راتب شهر مارس من الموظفين الذين يتقاضون راتبا قدره (٢٥٠٠) قرش فما فوقه، فخزينة الأوقاف السلطانية تضم لوارداتها عشر راتب شهر مارس الذى يرسل إليها من الدوائر الحكومية وتؤدى بهذا بدل الشهادة.

وتعطى هذه النقود إلى الذين يحملون الشهادة من أهالى الحرمين من إدارة الترجمة للحرمين وبما أنها كانت توزع بطريقة لا ترضى أصحاب الشهادة وتتسبب فى مشاكل كثيرة وقد انزعج كل أهالى الحجاز من هذه الحالة وقدموا الطلبات إلى المقامات العالية مشتكين من هذه الحالة حتى إنهم أوصلوا صيحات شكاياتهم إلى سمع السلطان.

ولم يرض السلطان الذى ذاعت رحمته فى الآفاق أن ينزعج أهالى الحرمين

إلى الحد الذى رفعوا معه أصواتهم بالشكوى، فأمر بتشكيل لجنة خاصة تتسلم ما يستقطع من رواتب موظفى الدولة وتوزع هذه النقود وحسنت إدارتها فى سنة ١٢١٧.

وازنت اللجنة المكونة ما تراكم من الديون بسبب الواردات والمصروفات، وتبين أنها (٥٨٧,٩٩٨) قرش ونصف قرش. أى أكثر من الإيرادات فى السنين السابقة، وأصبحت خزينة الأوقاف الجليلة مديونة لأهالى الحرمين فى بدل الشهادة والإكرامية بمبالغ كبيرة، وعرفت أنه باستمرار هذه الحالة لن يمكن تسديد الديون المتراكمة فضلا عن إعطاء البدلات المذكورة سنة بسنة لأصحابها لذلك قررت إعطاء أهالى الحرمين ما تعودوا أن يأخذوه سنويا فى وقته دون إجبارهم على الشكوى وكذلك تسديد الديون[1] المتراكمة آملة فى زيادة الإيرادات بتخصيص صندوق يوضع فيه مازاد من الإيرادات وذلك بتصفية (١,٠٤٦,٢٠٠) قرش سنويا من المجموع الكلى للبدلات والإكراميات ومقداره (٣,٥٣٤,٧٥) قرش، وذلك بعد التخابر مع مجلس الشورى للدولة وإعداد المضبطة اللازمة والتى تحتوى على مقدار المقررات القديمة بعد التصفية وعرضت اللجنة كل هذا على ملاذ الخلافة مع الجداول الخاصة.

وبعد دراسة ما جاء فى قرار المضبطة التى عرضت على اللجنة دراسة عميقة دقيقة وتوضيح موادها المترجمة وتحقيقها صدور الإرادة السلطانية بإجراء ما يلزم بلغ الأمر كله إلى وزارة الأوقاف السلطانية مع التأشيرة السلطانية لإجراء اللازم فى سنة (١٢١٨). وكانت وزارة الأوقاف اعتادت أن تودع تلك المبالغ بواسطة إدارة الحرمين لأجراء ولكنها أخذت توزعها الآن بواسطة اللجنة المذكورة.

إن مجموع العشر الذى يستقطع من راتب شهر مارس فى سنة ٩٧ كما جاء

(١) كان تراكم الديون بسبب سوء الاستعمال فكان هناك إهمال شديد وعدم مبالاة عند كتابة أسماء من يأخذون بدل الشهادة فى الدفاتر الخاصة وكانت تكتب فيها أسماء وهمية لاوجود لأصحابها.

فى المضبطة التى عرضتها دائرة الداخلية للدولة وصل إلى (٢,٥٤٦٠٧٥١) قرش ونصف قرش، وكان مبلغ (٢٥٠٠٠) قرش منه مقابل الديون التى تراكمت قبل صدور الأمر السلطانى بتشكيل لجنة خاصة ومبلغ (١٢٤١) قرشا ونصف قرش، وقد حجزت وخصصت مبالغ (١٥٠٠) قرش لرئيس كتاب اللجنة المذكورة، و (٥٧٠٠) قرش لمعاش الفراشين والخدمة والمتقاعدين، و (٣٠٠) قرش ثمن ما استهلكته اللجنة من الأوراق ومع هذا لم تكن تلك الإيرادات متساوية فى كل السنوات بل تزيد سنة وتنقص سنة.

وكان مجموع ما استقطع من المعاشات فى شهر مارس سنة ١٢٩٧ (٣,٠٠٦,٩٨٦) قرش، وبناء على هذا التقدير يزيد عما استقطع من عشر شهر مارس لسنة ٩٧ مقدار (٦٠٢٣٤) قرش و (٢٠) بارة.

جدول ترتيب بدلات الشهادات

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٨٢٥٠٠	٥٤٩٠٠	٢٧٦٠٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٥	صف أول الشرفاء
١٢٦٥٠٠	٨٤١٨٠	٤٢٣٢٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	٢٣	الطائفة الأولى مكة
٤٥٥٠٠	٣٠٢٩٠	١٥٢١٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٣	الطائفة الثانية مكة
١٠٠٠٠٠	٦٦٤٠٠	٣٣٦٠٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠٠	٤٠	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠٠	٢٦٦٠٠	١٣٤٠٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٢٠	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
١٢٠٠٠	٨٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٨	الطائفة الثالثة المجاورين
٤٠٦٥٠٠	٢٧٠٣٧٠	١٣٦١٢٠	--	--	--	١١٩	
١٤٥٠٠٠	٦٩٥٤٠	٧٥٤٦٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٩	الطائفة الأولى المدينة
٥٦٠٠٠	٣٧٢٨٠	١٨٧٢٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٦	الطائفة الثانية المدينة
٣٢٥٠٠	٢١٥٨٠	١٠٩٢٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠	١٣	الطايفة الثالثة المدينة
١٦٠٠٠	١٠٦٤٠	٥٣٦٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	الطائفة الثالثة المجاورين
٦٦٢٠٠٠	٤١٣٤١٠	٢٤٨٥٩٠	--	--	--	١٧٩	

إن مبلغ (٤١٣٤١٠) قرش الذى وضع فى هذا الجدول خاص بأصحاب الشهادة الذين رتبوا مقسمين على خمس طوائف وطبقات.

ويمنح لسبعة وخمسين شخصا من الطبقة الأولى مبلغ (٣٦٦٠) قرش كل سنة، وعلى تسعة وعشرين شخصا من الطبقة الثانية يمنح لكل واحد منهم سنويا (٣٣٣٠) قرش، وعلى ثلاثة وخمسين من الطبقة الثالثة يمنح لكل واحد منهم مبلغ (١٦٦٠) قرش، وعلى ثمانية وعشرين شخصا من الطبقة الرابعة يمنح لكل واحد منهم (١٣٣٠) قرش و (١٠٠٠) قرش لكل واحد من الطبقة الخامسة.

الطبقة الأولى هم الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام والأئمة والخطباء، والطبقة الثانية هم الممتازون من الأهالى الذين يقال لهم أبناء الأسر، والطبقة الثالثة هم خدم الحرم الشريف، والطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين، وقد عد الطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين كل واحد منهما طبقة مستقلة إن ١٧٩ شخصا من الذين يكون الطبقات المذكورة ١١٩ منهم مكى وستون منهم من المدينة، وتطبع كل سنة بمعرفة وزارة الأوقاف شهادات بالعدد المذكور من قبل اللجنة المذكورة كل شهادة بالختم الخاص بطبقتها ثم تسلم إلى أمانة الصرة السلطانية، وترسل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة على أن توزع بالقرعة، ثم توضع عليها أرقامها وتختم أسفلها من إدارة الحرمين المحترمين وتسلم إلى أصحابها، تفوض إمارة مكة فى توزيع خمس عشرة شهادة من مجموع مائة وتسع شهادات هى الخاصة بمكة المشرفة، ومتولى رياسة الإمارة يعطى خمس عشرة شهادة إلى من يراه مناسبا من الأشراف، والباقى من الشهادات وعددها أربع ومائة شهادة توزع على الأهالى بالقرعة الشرعية، وبناء على العادة المرعية من قديم يدخل الفرد الواحد فى القرعة مرة كل أربعة أعوام، كما أن خمسا وعشرين من مجموع الشهادات الخاصة بالمدينة المنورة توزع على السادة العلويين والحسنيين والأئمة والخطباء وتعطى لهم بقاعدة التناوب، والباقى وعددها خمس

وأربعون شهادة تعطى للأشخاص الذين أصابتهم القرعة والتى تجرى مرة واحدة كل أربع سنوات.

ويأخذ الشخص الذى ينتسب إلى طبقة من الطبقات المذكورة كل اثنتى عشرة سنة شهادة حسب قاعدة التناوب.

وفى كل سنة يقيد أسماء الأشخاص الذين أعطوا شهادة فى سجل خاص، سواء كان عن رأى شريف مكة أو وفقا لقاعدة التناوب أو بإجراء القرعة الشرعية، ويرسل السجل إلى وزارة الأوقاف الجليلة وتتولى إدارة المصروفات فى تلك الوزارة تحويله إلى اللجنة الخاصة، وقد تكون لهؤلاء الأشخاص إيرادات أخرى أو معاشات.

بعد ما تعطى الشهادات إلى أصحابها فى الحرمين الشريفين وفق الأصول المرعية وتقيد فى السجل وترسل إلى إدارة المصروفات العمومية، يتوجه بعض أفراد الطبقات الخمس إلى إستانبول ليتسلموا بدل شهاداتهم بالذات من خزينة الأوقاف السلطانية، وبعضهم يبيعون شهاداتهم ليقضوا حاجاتهم، وبعضهم يرسلون الوكلاء عنهم وكل من يأتى إلى باب السعادة ويبرز شهادته فاللجنة المذكورة تطابق الشهادة بما عندها ثم تكتب مذكرة وتبعث إلى وزارة الأوقاف بعد أن تعطى صورة منها لإدارة المصروفات العامة.

عندما كانت توزع الشهادات والمنح من قبل إدارة الحرمين للترجمة كان يحدث سوء تصرف، وقد اتخذت لجنة التوزيع تحت الرعاية السلطانية قاعدة لا يمكن وقوع التلاعب فيها عند التوزيع، وقد قيدت وضبطت جميع الأشياء المرسلة من عشر المعاش كنوعها ومقدارها ولاسيما أثمان المسكوكات، وبهذا النظام لن يشتكى أهالى الحرمين من موظفى خزينة الأوقاف السلطانية إلا إذا ألغيت اللجنة المذكورة واستشاراتها، أو إذا أوقفت مبالغ شهر مارس أو نقصت.

المنحة

يعطى لأهالى الحرمين سنويا مبلغ (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة وهذا المبلغ أيضا يؤخذ من عشر رواتب شهر مارس. والذين يأخذون بدل المنحة من سكان الحجاز ينقسمون إلى خمس طبقات، والذين يشكلون الطبقات الخمس المذكورة (٨٠) منهم من مكة المكرمة و (٤٥) منهم من المدينة، وعددهم الإجمالى (١٢٠) شخصا، الطبقة الأولى من هؤلاء ٦، والطبقة الثانية ٢٢، والطبقة الثالثة ٤٣، والطبقة الرابعة ٣٧، والطبقة الخامسة ١٢ نفرا.

وبما أنه يشترط أن يشمل هؤلاء المجاورين أيضا، فإن المجاورين يشكلون الطبقة الخامسة ويمنح لكل واحد من أصحاب الطبقة الأولى (١٠٠٠) قرش، وكل واحد من أصحاب الطبقة الثانية (٨٣٠) قرشا، والطبقة الثالثة (٦٦٠) والطبقة الرابعة (٥٠٠) والطبقة الخامسة (٣٣٠) قرشا عائدا سنويا.

وحتى فبراير من السنة المالية (٩٦) لم يكن صرف المنح محددا ولا مقننا وكانت تعطى بالنسبة للذين يذهبون إلى إستانبول، بالأحرى الذين يعرفون كيف يقيدون أسماءهم فى دفتر التوزيع.

وقد قرر إعطاء (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة اعتبارا من شهر مارس للسنة المالية (٩٧) كما هو مسطر فى الجدول الآتى الذكر وقد صدر الأمر السلطانى بتوزيع تلك المبالغ بموجب الأوراق التى طبعت من قبل اللجنة وإرسال تلك المبالغ إلى الحرمين المحترمين بمعرفة أمانة الصرة السلطانية، وإن كانت اللجنة قد طبعت الأوراق المذكورة وأرسلتها، إلا أن المبلغ المذكور آنفا وهو (٧٥١٠٠) قرش لم يرسل فى وقته لأجل ذلك قد صدر الأمر السلطانى بإعطاء بدلات المنح كعهدها القديم فى باب السعادة. والآن تعطى فيها.

وأصبح من أحكام القواعد الموضوعة إعطاء تذكرة مرور لمن يستحقون المنح من أهل مكة من الولاية الحجازية الجليلة، ولمن يستحقونها من أهل المدينة من محافظة المدينة المنورة، ومع هذا لا تعطى المنح لمن لا يحملون تذكرة المرور أو من يفتقدون الشروط اللازمة لنيل المنح.

الجدول الذى ينظم البدلات التى ينبغى صرفها اعتبارا من عام ٩٧

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	صف أول الشرفاء
١٧٥٠٠	١١١٠٠	٥٩٠٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	١٤	الطائفة الأولى مكة
٢٩٠٠	١٩١٤٠	٩٨٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	٢٩	الطائفة الثانية مكة
١٨٨٧٥٠	١٢٥٠٠	٦٢٥٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	٢٥	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠	٢٦٤٠	١٣٦٠	٥٠٠	٣٣٠	١٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٧٥٢٥٠	٤٩٨٨٠	٢٥٣٧٠	--	--	--	٨٠	الطائفة الثالثة المجاورين
٣٠٠٠	٢٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٢	طبقة الشرفاء
١٠٠٠٠	٦٦٤٠	٣٣٦٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	٨	الطائفة الأولى المدينة
١٤٠٠٠	٩٢٤٠	٤٧٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	١٤	الطائفة الثانية المدينة
٩٠٠٠	٦٠٠٠	٣٠٠٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	١٢	الطايفة الثالثة المدينة
٢٠٠٠	١٣٢٠	٦٨٠	٥٠٠	٧٣٠	١٧٠	٤	الطائفة الرابعة المجاورين
١١٣٢٥٠	٧٥٠٨٠	٣٨١٧٠	--	--	--	١٢	الطائفة الخامسة

الصحيفة الخاصة بمنح الطبقة الثانية

قد ختم فى هذا المكان مبينا ما أخذته من منحة خاصة بى وهى. . . قرشا من خزينة مديرية الحرم الشريف وذلك بعلم اللجنة، وبما أن المدعو عبد الرحمن بن محمد الفقيه من أبناء العلماء والمقيد فى الجدول أعلاه ضمن الطبقة الثانية أراد هذه المرة ـ حسب المقتضى ـ السفر إلى العاصمة السلطانية، وبما أنه أعطى له الإذن من قبل الإمارة والولاية بذلك وقد أعطى له بمعرفتى مبلغ. . . قرش منحته الخاصة من خزينة مديرية الحرم الشريف وعليه عند وصوله إلى الباب العالى أن

يسلم الرخصة إلى لجنة إدارة الحرمين المحترمين، وإذا اقتضى الأمر أن يعطى له تذكرة المرور وكل ما يخص هذا الموضوع فالأمر فى يد من له الأمر.

فى جمادى الآخر .... سنة

العضو العضو العضو المفتى رئيس الإدارة

صورة الأمر والقانون

خاص بسكان الحرمين المحترمين الذين يريدون أن يأتوا إلى الباب العالى السلطانى بنية الاستعطاف، إذا كان المشار إليه من الأشراف والشرفاء يجب عليه أن يختم طلبه فى المكان الخالى بالختم من نقيب الأشراف، وإذا كان من السادات يختمه من نقيب السادات، وإذا كان من الأئمة والخطباء يختمه من شيخ الخطباء، وإذا كان من المطوفين يختمه من رئيس الأدلاء، وإذا كان سقاء يختمه من رئيس السقائين، وإذا كان من خدمة الحرم الشريف فليختمه من نائب الحرم، وإذا كان من الأهالى والمجاورين يختمه من المحتسب، ولن تعطى منح لمن ليس لهم حق فى طلب المنح عند وصولهم إلى الباب العالى، ولن تعطى المنح لموظفى ولاية الحجاز ومديرية الخزانة وكتبتها والآخرين وللأطفال صغار السن والعبيد والخدمة والأهالى والمجاورين الذين يشتغلون بالتجارة، ولن تعطى المنح للذين أعطى لهم بدل الشهادة فى السنة المذكورة. ولن تعطى هذه المنحة للذين اتخذوها تجارة ويذهبون كل سنة إلى الباب العالى للاستعطاف، وإنما ستعطى للذين يجيئون كل سنتين مرة.

وعندما توزع أوراق المنح هذه على أصحابها سيقدم إلى وزارة الأوقاف السلطانية من قبل اللجنة والمديرية سجلا يحتوى على أسمائهم وشهرتهم وأرقامهم مثل الشهادة، مع إذن الصرف.

(ملحوظة) أول من بعث الصرة إلى الحرمين هو المقتدر بالله العباسى وأصبح

ذلك عادة، وكان مقدار الصرة التى أرسلها المقتدر بالله (٣١٥٤٢٦) (٣١٥٤٢) ذهبا فيلوريا[١]، وقبل المقتدر بالله بواحد وثمانين عاما أو اثنين وثمانين عامًا كان الواثق بالله قد أرسل إلى فقراء الحرمين المنح والهبات، إلا أنها لم تكن تبعث سنة بعد سنة بل كانت توزع فى موسم الحج فقط، كان الواثق بالله مثل المأمون كان يكرم ويعز ويوقر السادات العلوية والحسينية. وفى العام الذى يحج فيه كان يبذل العطاء لفقراء الحرمين إلى حد الإثراء؛ وذلك البذل العظيم كان بسبب اعتبار فقراء الحرمين من سلالة أبناء الحسنين رحمة الله عليهما.

وكان الثانى فى إرسال الصرر بعد المقتدر بالله السلطان محمد خان جلبى. إذ أرسل صرة فيها الكفالة ونال شرف الترتيب الثالث فى إرسال الصرر نجله النجيل مراد خان الثانى أسكنه الله الفردوس.

أما الصرة المرسلة للمرة الثالثة فكان مقدارها (٣٥٥٠٠) فيلورى من الذهب جرى العرف بإرسالها فى كل عام.

وأرسل السلطان مراد خان الثانى فى سنة (٧١٧) الصرة الرابعة وتصادف إرسال الصرة للمرة الخامسة عام (٨٥٥) للهجرة.

وكان مقدار الصرة التى أرسلت سنة (٨٥٥) ٨٠٠ كيس وكان شاه إيران «شاهرخ» أيضا قد أرسل فى سنة (٨٤٣) مقدارا من الصرر.

قد اعتاد السلطان بايزيد خان الثانى ابن السلطان محمد خان من سنة (٨٨٦) إرسال صرر سنوية مقدارها (١٤٠٠٠) قطعة ذهبية على أن يكون نصفها لأهل مكة ونصفها الآخر لأهل المدينة المنورة وزاد بعد ذلك مقدار الصرة سنة بعد سنة إلى أن وصل للمقدار الحالى.

مطالعة

الذين يعرفون أهمية موقع الحرمين الشريفين وحرمتهما والذين يكنون الحب لهما بحكم دينهم يجب ألا يستكثروا المبالغ التى تقدم لها، ومع هذا فأى شخص

(١) كتب مؤلف «روضة الخلفاء» فى تاريخه أن هذا الشخص كان يحسن على فقراء عصره سنويا بمبلغ (٦٩١١٠).

من أهل مكة المكرمة أو المدينة المنورة فكر فى أوقات تخصيص هذه الرواتب، ويجب أن نعترف أن ما يمنح من الرواتب فى حاجة إلى التخصيص والتعديل.

وبما أن الصعوبات التى كانت تعترض حياة أهل الحرمين وطريق الحجاج فى العصور السابقة قد انخفضت وسهلت فى ظل الرعاية السلطانية إلى درجة كبيرة بحيث لم يبق هناك سبب للتبذير عند خروج موكب الحج وعودته، ومثال ذلك إعطاء أمناء الصرة الذين يتقاضون (٥٠٠٠٠٠) قرش رواتب مقننة وإعطاؤهم (١٠٠) قرش ثمن البغل، (٢٥٠) قرش مصروفات الطريق وإعداد المبيت، وإذا ما وجد الجمع بين أمانة الصرة وبين وظيفة القيام بالحفظ على المؤونة، وإذا ما دفعت وسويت أجور الجمال لحمل أحمال الصرة السلطانية وزكائب الفراشة والرواتب الأخرى من هذه المخصصات وسدد مبلغ (٦٠٠٠) قرش الخاص بالحفظ والمحافظة مع مصروفات الطريق ومعاشات الحراسة ومعوناتها من إدارة المؤونة للحج وأعطى لهذه الإدارة (١٥٠٠٠٠) فيمكن أن يدخر مبلغا يصل إلى (٣٧٣٢٥٠) قرش من مجموع ما يستقطع من مخصصات أمانة الصرة و(٢٠٠٠٠) من ثمن أجور البغال و(٣٢٥٠) قرش من مصروفات ونفقات معدى أماكن البيات فى الطريق.

ويرى فى جدول الصرة السلطانية مبلغ (٢٠١٤٨٣) قرش وإن هذا المبلغ مجموع النفقات الآتية: (١٠٩,٨٣٠) قرش منها لنفقات الطريق والباقى وهو (١٩٠٦٢) قرش منها نفقات السقاة و(٩٠٠٠) قرش أجرة نقل زكائب فراشة مكة المكرمة و(٥٠٠٠) قرش عطايا و(٥٤٠٠٠) قرش أجور الجمال و(٤٥٩١) قرش النفقات المعتادة.

وبما أن هذه النفقات المذكورة تدفع مستقلة لنقل زكائب الفراشة والزورق فإذا ما نقلت هذه الأشياء مع الصرة يمكن إدخار المبالغ المذكورة كلها. وإن كان مبلغ (٤٩٨٥٦) قرش يرى مستقلا فى الجدول السابق الذكر إلا أن مبلغ (٣٥٥٤٤) قرش منه يعطى كنفقات الطريق ومبلغ (١٠٠٠) قرش كمنح معتادة ومبلغ

(١٣٣١٢) قرش كعطايا. ومهمة هذا الموظف الذهاب إلى مكة المكرمة مع الصرة السلطانية وفى أثناء العودة يحيد عن الطريق ويذهب إلى الشام مع الرسول الخاص، ويعطى للولاية السورية الرسائل التى وجهت من الإمارة ثم العودة إلى دار السعادة، بما أن الرسول الخاص كان يمكنه أن يتم بالبرق كل ما يحدث الآن من تبليغ الرسائل من الولاية إلى باب السعادة فلا ضرورة لبقاء هذه الوظيفة.

وبإلغاء الوظيفة المذكورة ترسل الرسائل المذكورة إلى والى سوريا برسول خاص. وإلى باب السعادة بالبرق، بناء على هذا فمبلغ (٤٩,٨٥٦) قرش أجر الموظف المذكور يظل فى خزينة المالية.

ويشار فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ (٢٢,٧٥) قرش. إن (١٥٠٠٠) ألف من هذا المبلغ لنفقات الطريق، (٧٥٥٧) قرش منه يعطى كمنحة معتادة لأحد الموظفين. إن مهمة هذا الموظف كانت مصاحبة الخلع التى كانت تصنع من جانب الخلافة كل سنة وما ترسله وزارة الأوقاف، بإعطائه نفقات الطريق وقدرها (٣٠٠٠) قرش سالكا طريق البحر ويسلم ما معه إلى الجهات المختصة والآن تحت ظل التسهيلات التى حدثت فى العهد السلطانى لم تعد هناك حاجة لهذه الوظيفة.

والموظف سالف الذكر الذى كان يتقاضى مبلغًا قدره (٢٢٧٥٠) قرش يناله من إمارة مكة المعظمة عطية خاصة، كما كان يأخذ من خزينة مصر منحة قدرها (٢٥٠٠٠). وكانت من عادة وزارة الأوقاف السلطانية قديما أن ترسل زيوتا بواسطة موظف خاص تدفع أجره خزانة الأوقاف، وإذ أرسلت بعد الآن أيضا بواسطة موظف خاص وأرسلت الخلع بواسطة أمناء الصرة فيمكن إدخار المبالغ المذكورة وكل ما كان يدفع له من العطايا من قبل الإمارة وما يدفع له من خزانة مصر وهو مبلغ قدره (٢٥٠٠٠). إن مبلغ (٣٥,٠٢٣) قرشا الذى أشير إليه فى جدول الصرة السلطانية كرواتب إمارة مكة الجليلة لا لزوم له، ويجب أن يصرف النظر عنه حتى يدخر ذلك المبلغ.

وكان إرسال هذه الرواتب من موجبات عادة قديمة ولكننا الآن يلزمنا ألا نراعى تلك العادة: لأن مبلغ (٥٢٠٠) قرش منه كان بدل الخيل، ومبلغ (١٥٣٧١) قرشا كان خاصا بسرجين فضيين للخيل، ومبلغ (٤,٠٢٢) بدل اثنى عشر من الجوخ، ومبلغ (٢٤٧) قروش ثمنا للفواكه، ومبلغ (٢,٠٢٣) قرشا بدل الحلوى، ومبلغ (٥٠٠٠) منه هبات يجب ألا يرسل أى قرش منه وخاصة ما يرسل منه لبعض الموظفين كمخصصات وهى مبلغ (١٨,٠٦١) ونصف قرش لم يعد له أى مبرر.

إن مبلغ (٣,٦١٣) قرش من هذه النقود نفقات ترسل من باب السعادة إلى ولاية الحجاز كل سنة، ومبلغ (٨٥٧٧٠) قرش لموظفى أمانة الصرة وللمبشرين والآخرين ونفقات صنع الجبب والمعاطف من الفراء، ومبلغ (٢١٤,٥) قرش بدل الفواكه التى أرسلتها أمانة الصرة السلطانية للموظفين، ومبلغ (١٩١٩,٥) قرش بدل ضيافة الشريف وموظفى الإحرام الذين استقبلوا موكب الحج، (٨١٤) قرشا بدل طعام الشريف الذى كلف بتوديع موكب الحج، و(٢٩٢٦,٥) قرش ثمن ما أرسل من مكة المكرمة لأمناء الصرة السلطانية من الشيلان ولإجراءات ونفقات سفر الموظفين الذين أحضروا هذه الأشياء، إذا كان إرسال هذه المبالغ من العادات القديمة وإذا ما صرف النظر عن إرساله بعد الآن يمكن إدخار تلك المبالغ.

هناك فى دفتر الصرة السلطانية مبلغ (٢٤,٨٧٥,٥) قرش بدل ما أرسل من البخور وغيره ويمكن أن يدخر من هذا المبلغ ما قدره (٧٨٧٥,٥) قرش، لأن مبلغ (٢٤,٠٠٠) والكسور يشمل على (٢٠٠٠) منه ثمن البخور (٥٢٥٠) قرش منه ثمن ما اشترى من مخمل لصنع أكياس الخزينة، و(١٨٧٥,٥) قرش لتعمير الصناديق وثمن الأقفال ونفقات نثرية (١٢٠٠) قرش منه ثمن ما يرسل إلى مكة المكرمة من أربعمائة مثقال من دهن الورد، و(٣٧٥) قرشا منه ثمن العود والعنبر الذى يرسل إلى حامل مفتاح البيت المعظم شيبة أفندى.

وإن كان إرسال دهن الورد والعود والعنبر من الأشياء اللازمة لكن لا حاجة لنفقات تعمير الصناديق وشراء الأقفال وغيرها من النفقات، كل هذه المبالغ ومبلغ

(١٢٥٠) قرش ثمن المخمل الذى سيشترى لأكياس الخزينة وفيه كفاية؛ لذا يمكن أن يوفر منه مبلغ (٤٠٠٠) قرش ويقتضى ألا يرسل مبلغ (٢٠٠٠) قرش بدل البخور بالمرة.

وإذا ما خفض من مبلغ (٢٤٠٠٠) قرش والكسور السالفة الذكر والمقدار الذى سبق ذكره يمكن أن يوفر مبلغ (٧٨٧٥) قرش ونصف قرش.

وإن كان إرسال البخور إلى الحرمين فى درجة الوجوب إلا أن ما يرسل من مقادير كثيرة من البخور كل سنة من خزينة الأوقاف السلطانية إلى الحرمين وهو محقق يغنى عن إرسال بدل البخور.

كما أن نفقات الصناديق ضمن النفقات التى تدخل تحت نفقات الأشياء العينية، وبما أن تلك الأشياء قد تحولت إلى البدلات فلا حاجة إلى هذا النوع من النفقات، قد أشير فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ قدره (٢٦٧٤١) قرش وهو ما تدفعه الخزانة المالية كنفقات الطريق وأجور الجمال للذين تعينهم لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة.

وقد خصص مبلغ (٦٣٩١) قرش أجورا للجمال والباقى وهو (١٠,١٧٥) قرش نفقات الذهاب و(١٠,١٧٥) قرش نفقات العودة، وبما أن إعطاء نفقات الذهاب والعودة لموظف وفوقها أجور الجمال ينافى أصول خزينة الصرف إذن يجب خفض أجور الجمال وتحويل الباقى من النفقات إلى خزينة الحجاز رعاية للتصرفات السابقة واتخاذ ذلك قاعدة، يمكن عندئذ توفير مبلغ (٢٦,٧٤١) قرش الذي سبق ذكره.

إذا ما ضمت أمانة الصرة إلى أمانة تموين الحج فسَيُسْتَغْنَى عن نفقات إقامة الخيم وبهذا سيوفر سنويا ما يعطى لأمناء الصرة كنفقات لتعمير الخيم وقدره (١٨,١٠٠) قرش، ويباع كذلك الخيم الموجودة ويخفض من مبلغ (١٤٧٠٠) قرش التى تعطى لإصلاح الزكائب الكبيرة الموجودة فى الخزينة لأجل حفظ أكياس الفراشة والزورق إلى (١٠٠٠) قرش فقط يمكن أن يوفر

من هذا مقدار (٤٧٠) قرش وبهذا يظل فى الخزينة الجليلة مبلغ (١٨٥٧٥) قرش ويمكن تخفيض مبلغ (١١٠٢١٥) قرش وهى مخصصات تموين الحج وجند الأعراب الخاص لحراسة موكب الحج.

وتبين لنا عند اطلاعنا على سجلات تموين الحج أنه يعطى لنفر من كتبة الخزينة مبلغ (٣٤,٠٣٠) قرش، ولكاتب التموين (٩٩٩) قرش راتبا ولكاتب نفقات الطريق وتموين الحج مبلغ (٣٠٣٢٤) قرش لرفيقه (٢٨٥) قرش معاشا و(١٩٠٠٠) قرش مصروفات طريق الحج و(١٢٨١) قرش ثمن الأوراق و(٦٧٥) قرش لرئيس جمالى المحمل الشريف وأفراد الجمالين كنفقات الطريق و(١٢٦٠٠٠) قرش أجر الجمال لنقل الشعير من مزريب إلى مداين صالح و(٩٠٠٠) قرش نفقات الطريق لكاتب الكتيبة البدوية السلطانية (٤٥٠٠) قرش نظير مكان لتموين الحج الشريف ويتولى كاتب الخزينة مسك دفاتر النفقات فى طريق الحج.

ومدة وظيفته أربعة أشهر أو خمسة، فمخصصاته لا تتناسب مع نفقاته لذا يجب خفض راتبه إلى (١٠٠٠) قرش، ونفقات سفره إلى (١٣٠٠٠) قرش، وإذا ما أجريت هذه التخفيضات فإنه يتوفر منها مبلغ (١٢,٣٠٠) قرش، ولعدم وجود حاجة ملحة لاستخدام كاتب المؤن فينخفض راتبه إلى (٢٥٠) قرشا ونفقات طريقه إلى (٣٥٠٠) يمكن توفير مبلغ (٣٩٩٠) قرش فى حالة استخدامه.

بما أن كاتب تموين الحج معين على ألا يذهب إلى الحجاز فتبدأ مهمته اعتبارا من تحرك الصرة من الشام بكتابة التقارير عند اللزوم ويقدم الحساب مرة واحدة فى السنة إلى إدارة محاسبة الولاية، ويضم بعض الأشياء لمخصصات هذه الوظيفة يمكن تحميلها إلى كاتب الخزينة، فيعطى لكاتب الخزينة (٦٣٢٤) قرش ويوفر الباقى وهو (٢٤٠٠٠) قرش وبما أن كاتب التموين يقوم بعمل رفيقه يجب أن يحمل كل هذه الأعمال كلها لكتاب الخزينة فيصرف النظر عن اسخدامه ويجب توفير معاشه وهو مبلغ (٢٨٥٥) قرشا.

وما يمكن توفيره من نفقات طريق الحج وهو مبلغ (٩٠٥٠) قرش من ثمن القرطاسية (٧٧١) قرش ومن نفقات طريق رئيس الجمالين وأفراده (٦٧٥٥) قرشا ما يعطى لنقل الشعير من المزاريب إلى مداين صالح فى صورة قانونية وهو مبلغ (١٢٦٠٠٥) قرش ومن أجور الجمال (٦٣٠٠٠) قرش، والمبلغ الذى سيوفر بإلغاء وظيفة كاتب جنود البدو السنية وقدره (٩٠٠٠) وبقطع مبلغ (٤٥٠) قرش وذلك بتخصيص محل لحفظ مؤنة تموين الحج فى دائرة حكومية أو داخل القلعة.

وبهذه الصورة سيوفر مبلغ قدره (٨٨,٠٢٨) قرش ينفق كل عام مبلغ (٩٣٤٩٥) قرشا وذلك ثمن مصنعية قطعتين من الجبب اللتين ترسلان من باب السعادة إلى أمير الحجاز وإحدى هاتين الجبتين مزركشة وثقيلة نوعا ما ويكلف صنعها (٣٣٢٥) قرش والأخرى ليوم الجمعة (١٦١٢) قرش.

وإذا ما صرف النظر عن إرسالهما بعد الآن سيتوفر المبلغ المذكور فى خزينة المالية للدولة. ويرى فى جدول الصرة السلطانية التى سبق ذكرهر فى خانة مخصوصة مبلغ (٣,١١٤,٦٤) قرش خاصة بخلع أهالى الحرمين ومن فى طريق الحرمين وأهالى الشام وبدلات وعطايا ونقود ذهبية على أنها وظائف متنقلة وقتية، إن (١٠٠٣٥١) قرش من المبالغ المذكورة خصصت للوظائف المتنقلة الوقتية الخاصة بأهالى مكة المكرمة والمدينة المنورة (٧٣٥٥) قرش لسكان مكة المكرمة (٢٣٦٣٥) قرش لسكان المدينة المنورة من طرف رئاسة الوزارة بدل هبة الربعية وهى نقود ذهبية.

ينفق مبلغ (١٧٣٨٢٠) قرش ونصف قرش إلى المدينة المنورة و(٨٠٤٩٧) قرش إلى مكة المكرمة، و(٦٦٣٥٧) قرش ونصف قرش لأمور خاصة فى الشام.

تعطى نفقات الوظائف التى عرضناها مرتبة من خزينة المالية كما هو مبين فى سجلات وزارة الأوقاف وديوان التشريفات؛ إلا أن تلك الخزينة ليس لها أدنى علم عن الأشخاص الذين يعطى لهم، ومقدار ما يأخذون (٧٥٠) وقد تحقق

إعطاء (٧٥٠) قرشا من هذه النقود إلى المبشر الذى ألغيت وظيفته و(٢٥٠) قرش للأشخاص الذين يرسلهم شيخ الحرم النبوى لأمناء الصرة على أنه ثمن الفواكه و(٢٠٠) قرش لرؤساء جمالى الصرة السلطانية.

وبما أنه لا يجوز تكرار صرف النقود لأشياء لا لزوم لها، فيجب أن تخصم المبالغ التى ذكرت وقيدت فى ثلاثة أشهر فى الجدول من مبلغ (٥٦٤٦٤٠) قرش، وبعد الخصم يجب إجراء تحقيقات كاملة والعمل وفق ما أسفر عنه التحقيق والتدقيق.

وقد وصل إلى سمعنا من بعض الذين يؤمن على صحة أقوالهم أن بعض أهل باب السعادة يشاركون فى هذه النقود أصحابها، كما أن الهبات التى جرت العادة بإعطائها للعربات تصرف لهم ناقصة، والخصم الباقى يجد سبيله إلى جيوب المنتفعين وإذا ما استمر إجراء التحقيقات بخصوص هذه النقود ووضعت الخزينة ما التزمت به فى قضية تصرفات بعض الموظفين المهمة تحت المراقبة؛ يؤمل توفير مبلغ (٥٠٠٠٠٠) قرش.

وننقل الكلام إلى مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) قرش المخصص لتموين الحج جند العربان يعطى مبلغ (١٣٣,٥٩٩) قرشا من هذه النقود لشيخ قبيلة حسنة و(٢٣٥,٠٩٠) قرشا لشيخ قبيلة ولد على وعنزة و(١٣٣٧) قرشا لشيوخ قبائل بنى صخر و(١٩٣٥٧٥) قرش لمشايخ العربان الذين يسكنون الخيم بعد قلعة مزاريب. ورواتب هؤلاء القديمة تبلغ (٢٧,٧٠٠) قرش الذى تعود أن يأخذه شيخ قبيلة رولة: طعلال الشعلان. وقد ثبت بما قاله سعيد باشا محافظ تموين الحجاج أن هذه الرواتب أكثر من نصابها، ويمكن أن يكتفى بإعطاء قبيلة حسنة (٨٠٠٠) ولقبيلة ولد على مع قبيلة عنزه (١٤٠٠٠)، ولقبيلة بنى صخر (٨٠٠٠٠) وللعربان سكان الخيم ولشيخ رولة (٢٠٠٠٠) قرش وإذا ما قرر إعطاء المبالغ السابقة يمكن توفير (٢٨٣٧١) قرش من هذه الأقسام الخمس. ويصل التوفير الكلى إلى (١٢٥٤,٥) قرش، وإذا ما فتح لهذا الموضوع أهمية عظمى فإن مقدار المتوفرات يزيد ويربو على هذا. «انتهى».

وكان من القواعد القديمة المقررة إرسال رسالة سلطانية مع قافلة الشام تخاطب أمير إمارة مكة المعظمة، وقد حصلنا على صورة من الرسالة التى دبجها والد السلطان كثير المحامد جعل الله مسواه الجنة السلطان عبد المجيد خان قبل خمسة وثلاثين عاما إلى سنى المناقب الشريف محمد بن عون[1]. لذا رأينا أن نسطر تلك الرسالة المفعمة باللفتة السلطانية الكريمة وندرجها فى هذا المكان.

صورة الرسالة السلطانية

إلى صاحب الإمارة مكتسب السعادة المنتسب للسيادة ذى النسب الطاهر والحسب الظاهر، مستجمع جميع المعالى والمفاخر كابرا عن كابر، جمال السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية، المصطفوية زبدة آل الرسول وقرة عين الزهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف خالق الكون الشريف (محمد بن على) دام سعده.

إذا ما وصلت رسالتنا السلطانية إليكم ليكن معلوما لديكم، بما لكم من نقاء جوهركم العدنانى، وصفاء طوية الفطرة القحطانية، منذ أن كان لكم فى مقام السيادة قعود، وإلى إمارة مكة صعود بذلتم الجهد فى خدمة الحرمين الشريفين وسعيتم فى رخاء أهلهما والمجاورين لهما، وحققتم لهم كلهم فراغ البال وجعلتم بها الأمر الأهم وأقمتم فى بلاد الحجاز دعائم النظام ووطدتم الأمن لقوافل الحجاج القادمين من كل فج عميق، وحققتم الطمأنينة للتجارة وأبناء السبيل، ومهدتم لهم مهاد الراحة وسعيتم فى رعايتهم فى ذهابهم وعودتهم، بإلهام من وفدنا السلطانى، والمأمول أن تستمروا فى بذل الهمة وفى إنجاز جميع المهام وحسب رغبتنا السلطانية ولكل هذا جعلتم شمس مقامنا تشرق من جديد، وبذلك زركشتم ثياب مناقبكم وزينتموها، فأهدينا إليكم قباء أخضر يشد على عروتيه زران محليان بالماس، وهذه الرسالة السلطانية تحيطكم علما بذلك، وقد أرسلت مع رئيس كتاب ديواننا السلطانى حافظ أحمد، فعليكم أن تلبسوا هذه

(١) إنه والد الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة المعظمة الحالى.

الخلعة فى حفل رسمى بعد تلقيها معلنين ولاءكم وإخلاصكم لنا وداوموا على ما أنتم عليه بفضل نجابتكم وأصالتكم فيما يختص بإمارتكم.

والآن يخرج إلى الحج والى الشام وأمير الحج وأميرنا عثمان نورى باشا، فعليكم حماية الزوار والتجار من عدوان العرب، وتأمين طرق الحرمين الشريفين والعمل على راحة ورخاء سكان ومجاورى المقامين الشريفين، وأن ترغبوا جميع أهل التقوى والصلاح فى تلك الأماكن المقدسة فى الدعاء بالخير لنا، وأن ترعوا مصالح المسلمين قاطبة، أن تحموا قوافل الحجاج ابتداء من مدائن صالح بأن تكونوا فى استقبالهم عند القدوم وعند الرجوع، حتى تمنعوا عنهم أذى العربان والطوائف الأخرى المضرة بما عرف عنكم من الشجاعة والحماسة والفروسية، وذلك طبقا لرغبتنا ومساعينا السلطانية، ووفقا لشهامتكم الهاشمية وعليكم أن تتجهوا مع الواقفين عند زمزم والمقام، والمعتكفين فى بيت الله الحرام بالدعاء لنا بدوام دولتنا وعزتها وطول بقائها، وهذا ما سيطيب خاطرنا.

تحريرا فى أوائل شهر جمادى الآخرة لسنة ١٢٦٥هـ بمقام دار السلطنة العلية بالقسطنطينية المحروسة ١٢٦٥.

مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف

ما يرسل إلى الكعبة المعظمة كل سنة من باب السعادة والشام وقاهرة مصر من الزيوت والشموع لإنارتها مبين بمفرداته فيما يأتى:

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	١٣٤٣٢	-	زيت زيتون من باب السعادة
-	٤٤٥٩	-	زيت زيتون من مصر
-	١٤٥	٤٤٦	شمع كافورى
١٢٠	٥٨٠	-	شمع أبيض من دهن الحوت
٣٠٠	-	-	دهن الورد
-	٢٥٠٠	١	قرص معطر
-	٢٥٠٠	٦	بخور(١)

(١) خاص بالمسجد الحرام والمساجد الأخرى المأثورة.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	١٠	٤٠	شمع أبيض
-	١٥٠	١١٠	قنديل ذو قدح على هيئة كروية مثل البطيخ[١]
١٢	-	٢٠٠	شمع أبيض[٢]
-	٣١٠	-	شمع أبيض صغير[٣]
-	١٦	-	زيت زيتون خاص بأيام عادية[٤]
-	٢٧١	-	خاص بليلتى الجمعة والاثنين والشهور الثلاثة

● مقادير وكميات ما يرسل من قبل باب السعادة والشام والخديوية المصرية من زيت الزيتون وغيره من الأشياء الأخرى التى ترسل إلى الحرم الشريف والمساجد الأخرى شهرا بشهر.

ما يرسل من باب السعادة

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
١٠٠	٤٤٣١	-	زيت زيتون
-	٤٦٨٠	٦٠	الشمع الأبيض

● الشموع الكافورية المطروحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن يكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	-	٩	بخور
-	٥٧	-	ورق معطر
١٨٠	-	-	دهن الورد
-	٧١٤	-	شمع

(١) ما يخص مسجد سيدنا (عبد الله بن عباس) فى الطائف كل شمعة بوزن مائة درهم.

(٢) خاص بمقامات المذاهب الأربعة كل واحدة منهم بزنة ثلاثمائة درهم.

(٣) خاص بمقامات المذاهب الأربعة.

(٤) خاص بمسجد سيدنا (ابن عباس) فى الطائف.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٢	-	شمع المحاريب
-	٣٨٠	-	مكانس
-	١٧٧	-	اسفنج
-	٢٥٠٠	-	بخور
١١٢	-	-	دهن الورد
٣٠٠	١٤٠٠	-	ورق معطر

ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٣٤٤	٨	شمع(١)
-	٤١	-	شمع(٢)
٢٠	-	-	شمع(٣)
-	٢	-	شمع(٤)
-	٤٠٠	-	حصير
-	٤٧٢٢	١٢	زيت زيتون
-	-	-	قناديل بللورية
-	٣٠	-	شمع العسل(٥)

ما هو مقرر أن يرسل من الشام الشريف

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٤٩٤١	-	زيت الزيتون
-	-	٨	الشمع الأبيض(٦)

(١) مقدار كل مجموعه ثلاثة وأربعون شمعة.

(٢) زنة كل شمعة أوقية واحدة.

(٣) كل منها ٥ أوقيات مجهزة تجهيزا آخر وهى من وقف عباس باشا.

(٤) شمع محراب سليمان مجهز تجهيزاً آخر.

(٥) تزن سبع من هذه أوقيتين والباقى أوقية ونصف.

(٦) خاص بضريح سيدنا عباس وحمزة والمحراب السليمانى.

مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة

وداخل الحرم الشريف وسائر المساجد فى كل شهر

زيت زيتون أوقية[1]	زيت زيتون أوقية[2]
٦٩٨ للحرم الشريف	٩٨٩ للحرم السعيد
والحجرة المعطرة	١١١٦ لمآذن الحرم السعيدة
٢٢٣ للمساجد	٢٠٤ مآذن المساجد الأخرى
١٧ للفقراء المحتاجين	١٨ لساحة الحرم السعيدة
٩٥٦ المجموع	٢٥٦٧ المجموع

● الشموع الكافورية الممنوحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن تكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

عدد الشموع	
٢	للمسجد النبوى
٢	لمسجد سيدنا أبى بكر الصديق
٢	لمسجد سيدنا عمر الفاروق
٢	لمسجد سيدنا عثمان بن عفان
٢	لمسجد سيدنا على المرتضى
٢	لمسجد سيدنا عباس
٢	لمسجد قباء
٢	لمسجد بلال الحبشى
٢	لمسجد الشيخ السيواسى
٢	لمسجد الشيخ الباخورى
٢٠	المجموع

(١) خاص بالأيام العادية.

(٢) خاص بشهر رمضان الكريم.

٤ شمعات صغيرة تقدم ثلاث مرات فى كل شهر إلى كل واحد من المحراب النبوى والمحراب السليمانى.

شمعتان كبيرتان لمحراب النبى يقدم كل سنة مرة واحدة.

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف

عنبر	شجرة العود	ورق معطر	بخور	
٨ درهم	٣٠٠ درهم	عدد ٤	٢١ دستة	لشيخ الحرم[1]
..	٢٥٧ درهم	..	..	ومن يقومون بالتبخير
٨	٥٥٧	٤	٢١	المجموع

توقد القناديل المعلقة فى الحجرة السعيدة من المساء إلى الصباح ويصرف لكل قنديل خمسة وعشرين درهما من زيت الزيتون، وتوقد فى داخل الحرم الشريف القناديل المعلقة من المساء إلى الثلث الأخير من الليل ومن الثلث الأخير من الليل حتى وقت صلاة الصبح، ويصرف لكل قنديل عشرين درهما من زيت الزيتون، وقد خصص لكل واحد من هذه القناديل ثمانية عشر درهما من زيت الزيتون، كما قيد فى الخزانة النبوية؛ ولكن استخدام مقياس لا يعرف له المقدار يظن أن مقدار هذا الزيت عشرون درهما، وتصرف ثلاثمائة وثلاث عشرة شمعة لتوقد فى الثريات والشمعدانات المعلقة فى داخل الحرم السعيد كل يوم بعد يوم، كما يوزع على بعض الأشخاص فى رمضان كل سنة عدد (١٠٤١) شمعة.

● وقد قرر إعطاء الأشياء الآتية عند غسل الحجرة النبوية المعطرة:

دهن الورد	عنبر	الورق المعطر	بخور	شجرة العود
درهم	درهم	عدد	دستة	درهم
١٧٠	٢	٧	١	٩٠

● مقدار ما فى الحجرة المعطرة والروضة المطهرة للنبى عليه الصلاة والسلام

(١) كل دستة تتألف من تسعة عشر عودا.

وفى داخل الحرم الشريف من الشمعدانات والثريات البلورية والقناديل البلورية على شكل كروى، والقناديل الزجاجية المعلقة فى المآذن.

ما يوقد بشمع العسل

الشمعدان

عدد

٢ شمعدان مرصع بالجواهر ومضنع فى غاية الجمال فى الحجرة المعطرة.

٢ كذلك مصنع من الذهب الخالص وكبير نوعا ما (فى الحجرة المعطرة).

١ كذلك مصنوع من الذهب وكبير نوعا ما[١] (فى الحجرة المعطرة).

٥ المجموع

كل هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد صباحا ومساء فى داخل الحجرة المعطرة أمام سيد البشر فائض النور.

وإن كان فى الحجرة السعيدة عشرة أعداد من الشمعدانات الفضية إلا أنها توقد فى ليالى رمضان.

الشمعدان

عدد

٢ خاص بالشمعدانات الكبيرة لمحراب النبى.

٢ خاص بالشمعدانات الصغيرة لمحراب النبى[٢].

٢ خاص بالشمعدانات الكبيرة للمحراب السليمانى.

٢ خاص بالشمعدانات الصغيرة للمحراب السليمانى.

٨ المجموع

هذه الشمعدانات الثمانية ذات شمعة واحدة وتوقد كل الليالى.

(١) فى مرقد السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(٢) الشمعدانان الكبيران الخاصان بشموع محراب النبى ﷺ مصنوعان من الفضة الخالصة وهما من هبات والدة السلطان (بزم عالم).

الشمعدان المصبوب ذو الفانوس

عدد

٨ هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد كل ليلة فى داخل الروضة المطهرة.

الشمعدان البلورى

عدد

١ فى الروضة المطهرة النبوية وهو ذو ثمان وعشرين شمعة.

٢ كذلك فى الروضة المقدسة النبوية ذو ثمانى وعشرين شمعة أيضا.

١ أمام المحراب السليمانى وهو ذو إحدى وثلاثين شمعة.

١ موضوع فوق كرسى ذى أرجل ثلاث وثمانى شمعات وأهداه الغازى الهندى متبركا.

٥ المجموع

توقد هذه الشمعدانات بالشمعات البيضاء.

الثريات البلورية

عدد

١ معلقة فى الحرم الشريف وذات حجم كبير يوقد فيها أربع وسبعون شمعة.

١ معلقة فى جهة القدم الشريفة وكبيرة ذات أربعة وعشرين شمعة[١].

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة.

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة كذلك[٢].

١ معلقة فى الروضة المطهرة ذات شمعة واحدة[٣].

١ معلقة أمام باب الوفود وذات شمعة واحدة[٤].

٨ المجموع

كل هذه الثريات توقد بالشمع الأبيض كل الليالى.

(١) من هبة والى مصر السابق عباس باشا للتبرك.

(٢) هذه الثريا على شكل الشجرة.

(٣) هذه الثريا حمراء.

(٤) هذه الثريا على هيئة الشجرة، هى الأخرى.

الثريات الفضية

عدد

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[١].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٢].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٣].

٤ المجموع

توقد هذه الثريات الأربعة كل الليالى.

الثريات البلورية

عدد

٣ هذه الثريات من هبات والي مصر الأسبق عباس باشا تبركا[٤].

١٥ قدمت من بعض أصحاب الخير[٥].

١٦ قدمت من بعض أصحاب الخير[٦].

٣٤ المجموع

كل هذه الثريات الأربعة وثلاثين توقد بالشمع الأبيض.

الثريات الفضية

عدد

١ معلقة أمام المحراب العثمانى ومهديها مجهول.

١ معلقة أمام القبة العثمانية وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شموع مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شمعتين ومهداة من السلطان محمود.

٦ المجموع

توقد الثريات الستة كلها بالشمع الأبيض ليلا.

(١) هذه الثريا مهداة من والدة السلطان (بزم عالم) وتوقد بالشمع الأبيض.

(٢) هذه الثريا الفريدة مهداة من السلطان ناثلة وتوقد بالشمع الأبيض.

(٣) مهداة من والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا وتوقد بالشمع الأبيض.

(٤) هذه الثريا على شكل نخلة وقطعة واحدة من البلور.

(٥) توقد كل الليالى.

(٦) توقد فى ليالى الجمع فقط.

الثريات البلورية

عدد	
١	ذات اثنين وثلاثين شمعة وهبها المرحوم رضا باشا للتبرك.
٢	ذات أربعين شمعة حمراء اللون واقفهما مجهول.
١	ثريا ذات طراز هندى ولا يعرف واقفها.
٤	المجمـــــوع

وإن كانت هذه الثريات معلقة فى داخل الحرم الشريف إلا أنها لا توقد لعدم إرسال الشموع.

● مقدار القناديل التى تسرج وهى على شكل كروى ومن الزجاج

عدد القناديل

٧٠	البلور ذات السلسة الذهبية كروى الشكل.
٢	الزجاج ذات سلسلة ذهبية.
١٠	شمعدان من الزجاج فى الشجرة الفضية.
٨٤	المجمـــــوع

إن هذه القناديل فى داخل الحجرة المعطرة وتوقد كل ليلة وسلاسلها كلها من هبة الخاقان محمود عدلى رحمه الله تعالى.

● **القناديل الزجاجية لمآذن المسجد السعيد**

عدد	
٢٢٧	فى المئذنة الرئيسية
٣١٢	فى المئذنة العزيزية
٢٢٨	فى المئذنة المجيدية
١٨٦	فى مئذنة باب الرحمة
٢١٦	فى مئذنة باب السلام
١١٦٩	مجموع عدد القناديل

- **القناديل المعلقة بالحرم وخارجه**

٤٥٢	كروى الشكل له سلاسل فضية صفراء
١٦	كروى الشكل له سلاسل عادية ومعلق فى باب الحرم الشريف[١]
٨٤	زجاجى فى الثريات على شكل الشجرة ومعلقة فى داخل الحرم الشريف
٢١	زجاجى فى داخل الحرم السعيد وفى اللوحات المزينة
٢٤	زجاجى معلقة على الأطراف الأربعة الخارجية للحرم الشريف
١١	زجاجى معلق فى أماكن أخرى
٦٠٨	مجموع عدد القناديل.

عدد الشمعدانات والثريات والقناديل من حيث المجموع:

عدد	
٣٥	الشمعدان
٦٠	الثريات البلورية مع الشجرة الفضية
١٨٦١	قناديل زجاجية على شكل كروى.
٢٤٣١	مجموع القناديل والشموع كلها.

عـين زبيـــدة

من مآثر السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان (عليهم الرحمة والغفران) ومن خيراته العظيمة تعمير مجرى عين زبيدة وإحيائها.

وإن كان فى مدينة مكة المكرمة بعض السبل للماء الذى جلبته عين السيدة «زبيدة» من جبل المُشَلَّل وكذلك بعض الآبار يمكن شرب مائها إلا أن أهل مكة كانوا يعانون من قلة تلك السبل والآبار ذات المياه العذبة، إلى أن أجرى السلطان سليمان مياه عين زبيدة فى داخل مكة المعظمة.

(١) إن هذه القناديل معلقة فى داخل الحرم الشريف كل الليالى وهى مهداة من ساكن الجنان السلطان محمود للتبرك.

عين زبيدة: هى الماء الزلال الذى أجرته ـ كما سيذكر فيما بعد ـ السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج هارون الرشيد، بإنفاق مبالغ طائلة من واد يبعد ثلاثة أيام إلى مدينة مكة الله الشهيرة، إلا أنها أهملت بعد تطهيرها فى سنة (٩٢٦) بإهمال طرقها، ومجاريها آلت إلى الخراب وضاع ذلك الماء الذى تقوم عليه الحياة.

وكان ذلك الماء المذكور فى غاية الغزارة والعذوبة وكان يشبه ماء تقسيم[١] فى إستانبول، وإن كان اسمه عين عرفات؛ إلا أنه أطلق عليها عين زبيدة اعترافا لما بذلته السيدة زبيدة من همة عظيمة لجلبها.

كانت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر الذى يقال له جعفر الأكبر وحفيدة أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسية وبنت عم زوجها هارون الرشيد وكانت شهرتها القديمة «أمة العزيز»، وكانت اعتادت فى صغر سنها أن تؤنس جدها بالرقص أمامه، وسماها المنصور بهذا الاسم قال لها يا ابنتى إنك زبيدة فعرفت بهذا الاسم. إن السيدة زبيدة الممدوحة كانت امرأة ذات مناقب جليلة ومآثر ممدوحة وصاحبة بر وإحسان، وقد جلبت عين حنين وأوصلتها إلى مكة المفخمة بعد أن أنفقت أموالا طائلة وخزائن وفيرة وذلك فى سنة ٢١٣ الهجرية، إن مدينة مكة المكرمة المفخمة تقع بين سلسلة جبال سوداء جرداء خالية من المياه الجارية وفى واد غير ذى زرع غير صالح للزراعة، لذا كان سكان حرم الله يديرون أمورهم بمياه الأمطار، ويعانون غالبا من مشكلة قلة المياه وذلك قبل إحياء عين حنين. ويقول المؤرخون إن السيدة زبيدة قد أنفقت (١٧٠٠٠٠٠) مثقال ذهبًا[٢] وأمرت بنقب جبال حنين الراسيات وجمعت المياه فى سفح الجبل الواقع فى ساحة (منى) أرض الحل، وهكذا أروت حرم الله وأزالت منه العطش.

حكايـة

بعد أن أجريت المياه إلى مكة ومهدت طرقها وصارت رصينة منيعة، وتم عمل

(١) اسم حى من احياء استانبول.

(٢) يساوى (٢٥٥٠٠٠٠) درهم ذهبا.

كل شيء على أحسن ما يرام، أراد أحد الموظفين الذين كانوا يعملون فى هذا العمل الخيرى أن يعرض كل ما أنفق فى هذا العمل مقيدا الحسابات فى دفتر، وقدمه للسيدة زبيدة راجيا أن تلقى نظرة لتسوية الحساب وهى فى قصرها المبنى على نهر دجلة، فأخذت الدفتر وألقته بين المياه، واستدعت الموظف المذكور وقالت له تركت تسوية حساب هذا العمل إلى يوم الحساب، إذا كان هناك فى ذمتك بعض المبالغ فإننى تنازلت عنها كهدية، أما إذا كان لك طلب فقله شفويا حتى أؤديه لك، ثم ألبست الموظف ومن معه حلة فاخرة وطيبت خاطره «انتهى».

قد اتفق جميع المؤرخين على أن تلك السيدة العظيمة صاحبة العصمة قد أجرت المياه إلى مدينة مكة المكرمة من مسافة تبعد ثلاثة أيام منها؛ إلا أنه من الثابت أن السيدة زبيدة قد غادرت أرض الفناء، واتجهت إلى حجرتها المفروشة بالإستبرق[1] وذلك فى سنة (٢١٢) وظل ذلك العمل ناقصا إلى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم.

ولما آل الأمر إلى السلطان المشار إليه بذلت كريمة السلطان السعيد الحظ مهرماه بعون والدها كل جهدها لإتمام ذلك العمل، وأوصلت المياه إلى مكة المكرمة. وبنت عدة عيون فى المسعى الشريف وبهذا أحيت أهالى مكة المكرمة بلد الله الأمين كما سيوضح فيما يأتى.

وبناء على هذا فإن قصة تقديم دفتر المحاسبة إلى السيدة زبيدة لا أصل لها فهى مختلقة.

إن منبع ماء حنين الذى أجرته السيدة زبيدة إلى مكة فى سفح جبل «ثنية» إلى جبل «طاد» العاليان أشد العلو والواقعان فى طريق الطائف. ويفيض هذا الماء من منبعه نحو حقول قرى حنين، وبعد ما يروى نخيل القرى الواقعة على طرفيه يستمر فى جريانه إلى أن يصل إلى حائط حنين[2]. إن السيدة زبيدة اشترت كل

(١) يعنى توفيت. وهى جملة المقصود بها الدعاء للمذكورة أن يسكنها الله الجنة.

(٢) يطلق على الوادى الذى يشمل قرى حنين وبساتينها «حائط حنين» وقد وقعت غزوة حنين الجليلة فى الصحراء المفزعة التى تنتهى عند البساتين المذكورة.

حقول تلك القرى ومنعت زراعة تلك البساتين، وأقامت على الأماكن المناسبة من الجبال التى حولها سدودا متينة وحفرت مجارى لانتقال مياه الأمطار من سد إلى سد، وتمتلئ تلك السدود بمياه الأمطار وتتحول إلى نهيرات صغيرة مثل عين حنين، وتجرى بواسطة المجارى والقنوات حتى تصب فى أنهار مشاش، ميمونة، غفران، برود، طارقى، ثقبه، وخزيان، وكلها تتجمع فى مجرى وادى حنين الواسع، ومن هنا إلى خزان «بئر زبيدة» التى حفرت فى صحراء منى. وبعد ما أجرت السيدة زبيدة عين حنين إلى منى أوصلت ماء وادى النعمان إلى عرفات، ثم جمعت مياه حنين ومياه وادى نعمان وأجرتها إلى البئر العميق الكبير عن طريق جبل ضاب[1] الكائن خلف المأزمين بطريق المزدلفة وعاد والمرسلات من خلف جبل من جبال صحراء منى، وهذا الماء يجرى من جبل كرا (يقال له جبل قرى أيضا) إلى ساحة عرفات بواسطة المجرى الكبير الواسع المصنوع، ويملأ أحواض جبل الرحمة ثم يملأ خزان بئر زبيدة الذى سبق ذكره.

قد اتخذت بئر زبيدة خزانا ومقسما لمياه عرفات وحنين: لأجل ذلك غطيت بصخور عظيمة ليس فى قدرة الإنسان نقلها أو تقليبها من جهة إلى أخرى، وذلك لتفادى أذى عربان البادية وتأمينها من أضرارهم.

إن الماء الذى جلب من وادى النعمان ينبع من سفوح الجبل الذى عرف بين الأهالى (بجبل قرا) أو (كدا) أو (كرا) إن هذا الجبل قائم فوق جبلين فى ارتفاع جبل الرحمة" لذا فهو بالغ الارتفاع والمساحة من قمة هذا الجبل إلى الطائف نصف يوم. إن الذين يصعدون على هذا الجبل أو يهبطون منه مرة يبلغ بهم التعب حتى لا يقدرون الصعود إليه أو الهبوط منه فى نفس اليوم. والماء المعروف بعين عرفات يجرى من صحراء النعمان ولذلك تجد الأماكن التى تجرى فيها تتأثر برطوبتها وتنبت أنواع الأشجار. وأقسام النباتات والأزهار فيما حولها وتتحول إلى رياض منتظمة.

(١) يطلق على هذا المكان الآن طريق المظلمة وهو يقع على يسار العائدين من عرفات إلى المزدلفة.

وبناء على ما ذكره المؤرخون الأعلام فإن طول المجرى الذى حفرته السيدة زبيدة يبلغ (١٤٣٠٣٨) قدما وأربع بوصات وقد صرف فى حفرها وتسويتها مليونا وسبعمائة مثقال ذهب كاملا كما سبق ذكره.

لطيفة

قد رأى أحد الصلحاء فى رؤياه السيدة[١] زبيدة فى رياض الجنة وقال لها «هل غفر لك لتوصيلك المياه إلى مكة المكرمة» فأجابت قائلة: «إن ما أنفقته من المبالغ لأجل الماء كانت من حقوق العباد وما حدث منها من الأجر والثواب وزع على أصحاب الحقوق، ولكننى كنت يوما فى مجلس الأنس والشراب فسمعت الأذان المحمدى، فتركت الشرب واستشهدت من خلف المؤذن، إن عملى هذا قد حاز رضا ربى الرحيم وقال مخاطبا الملائكة: «إذا لم يكن توحيد ألوهيتى راسخا فى قلب زبيدة لما أسرعت فى الاعتراف بوحدانيتى بترك مجلس الهناء والسرور فاشهدوا أننى رضيت عنها وغفرت لها «وبصدور هذا الخطاب الإلهى الجليل وصلت لما أنا عليه من مرتبة عالية وإننى الآن فى أحسن حال». هذا كان ردها للشيخ الصالح. انتهى «روح البيان».

وقد أنقذت السيدة زبيدة أهل مكة من ضائقة الماء، إذ أوصلت هذه المياه إليها وكذلك خدمت الحجاج الكرام خدمة عظيمة بهذا العمل الجليل.

إلا أن السيول التى تنهمر من الجبال قد خربت قنوات هذه المياه ومجاريها مع مرور الأيام، كما أن تقلبات الزمن وقلة الأمطار قد محت وخربت جميع الطرق وقضت عليها، وأجبرت سكان المدينة الشهيرة مكة المكرمة على أن يجلبوا الماء من أماكن بعيدة، كما أن مياه الآبار أخذت تنضب فى سنة ٢٤١ فأجهد الظمأ الناس أيما إجهاد، وفى أثناء ذلك أوصل الخليفة العباسى المتوكل المياه التى جلبتها السيدة زبيدة إلى عرفات إلى مكة المكرمة حافرا مجرى آخر، وبهذا نال الأجر والثواب وكأنه أحيا جيران كعبة الله من جديد[٢] إلا أن المجرى الذى حفره فسد

(١) إن المشار إليها توفيت عام (٢١٢) وعلى قول عام (٢١٦).

(٢) يروى أن المتوكل أنفق مائة ألف قطعة ذهب لجلب المياه إلى مدينة مكة المكرمة.

وخرب بعد مائتين وخمسين عاما، وهكذا ابتلى سكان بلدة الله مرة أخرى بالظمأ.

قد أصلح وعمر قنوات هذه المياه ومجاريها كل من الملك المظفر بن كوكبورى بن على فى عام (٥١٤) وصاحب أردبيل مظفر الدين فى سنة (٦٠٥) والمستنصر بالله العباسى عام (٦١٥) وفى سنة (٧٢٦) ملك العراق أبو سعيد خدابنده الأمير جوبان[1] وفى سنة (٨١١) الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المعظمة وفى سنة (٨٢١) أبو النصر الشيخ محمود من ملوك الشراكسة وفى سنة (٧٧٥) السلطان قايتباى المصرى، وفى سنة (٩١٧) عمقها الغورى وطهرها كما أصلح مواضعها الخربة ونظفها وأنقذ أهالى مكة المعظمة الكرام من شح الماء إلى حد ما.

وبعد فترة تقلبت أحوال الزمان وتخربت مجارى المياه بأكملها وتوارى ماء حنين وعرفات الذى يشبه ماء الحياة فى ظلمات التراب؛ وكابد أهل مكة شح المياه إلى حد أنهم اضطروا فى أيام عرفات إلى جلب الماء من الوديان القاصية. وهذا واقع صحيح.

(١) بعد أن أصلح الأمير جوبان عين زبيدة، أصلح وسوى طرق ماء عين بازان كذلك وأدخل الماء إلى داخل مكة المكرمة فى عام (٧٢٦) ونعم أهل مكة بالرى حينما علم المؤرخ ابن الوردى إجراء عين بازان إلى مكة قال هذه الأبيات.

هل لى إلى مكة من عودة ... فابلغ السؤال وأقضى الديون

غير عجيب جرى عين بها ... فقد جرت شوقا إليها العيون

الأمير جوبان من أمراء الجنكيزية وأمير أمراء حاكم بغداد السلطان أبو سعيد بهادر بن السلطان محمد خان، وكان قد أحال إدارة البلاد التى تحت حكمه إلى أولاده ولكنه تنكر للأمير جوبان بتحريض من وزيره نصر الدين، وغضب عليه واطلع الأمير جوبان على غضب أبى سعيد من ابنه أو على خواجة دمشق الأثير لديه، ولكنه استطاع أن يعزل ذلك الوزير الغاش من منصبه مدعيا عدم لياقته لوظيفته، وقتل ابنه بعد مدة لتسوية الخلافات بين أرباب السياسة، فذهب إلى معسكر الملك ومعه جنود كافية وطلب من أبى سعيد بواسطة الشيخ علاء الدولة القصاص من قاتلى خواجة دمشق؛ إلا أن طلبه لم يقبل ودخل الحرب إلا أن جنوده تركوه منفردا، فترك الحرب وهرب ناحية خراسان والتجأ إلى غياث الدين والى هرات؛ لما له عليه من حقوق سابقة إلا أن علاء الدين قتله بناء على أمر أبى سعيد الصريح وأرسل نعشه إلى المدينة المنورة بناء على طلبه وذلك فى سنة (٧٣٠).

وإن كان جلب الماء من الوديان البعيدة التى تحيط بها المهالك والمعاطب اقتصر على السَّرَاة من أصحاب الثروات الطائلة فقد انصرفت طائفة الفقراء والمستضعفين عن طلب كسرة الخبز ولم يعد لهم من مطلب سوى الماء.

فضلا على استحواذ المحتكرين من الأثرياء على الماء الذى يجلبه السقاءون، وكانوا يبيعونه بباهظ الأثمان فأفعموا جعبة حرصهم وبخلهم.

وفى أواخر عام ٩٣٠ جرى قضاء الله بأن تنقطع كذلك مياه الأودية البعيدة ولذا بيعت القربة الصغيرة من الماء التى يمكن حملها بإصبع بدينار من ذهب، ووقف الموحدون فى ساحة السعادة فى جبل الرحمة وقد نال منهم الظمأ حد أنهم كانوا على استعداد للتضحية بأرواحم فى سبيل الحصول على الماء.

ولما بلغ شح الماء ذلك الحد لزم الحجاج ـ الذين أحرقت أكبادهم من نار الظمأ ـ والسكون يغمرهم الاستغفار وما كان إلا أن انتظروا نزول رحمة الرحمن الرحيم، وبدءوا يبسطون أكف الضراعة بدعاء الاستسقاء، ووقع دعاء الحجاج موقع القبول والاستجابة لدى ربهم، فانهمر المطر مدرارًا كما لم ينهمر من قبل وبصورة لم يسمع عنها الشيوخ من قبل، وجرى السيل تحت أرجلهم، وأخمدوا نار ظمئهم، وبعد أن ملأوا قربهم وسقوا حيواناتهم ودوابهم انخرطوا فى شديد البكاء.

وعندما نما إلى علم السلطان سليمان خان سلطان الزمان معاناة المؤمنين شح المياه واضطرابهم فى ساحة عرفات وتخرب مجارى المياه على النحو الذى أسلفناه أصدر أوامره بتطهير طرق عين عرفات وعين حنين وتسويتهما. وأسند هذه المهمة لمن يسمى مصلح الدين أفندى وهو من مجاورى بلدة الله، ثم أخطرت إمارة مكة المكرمة من قبل الباب العالى وأحضرت علامات الإمارة إلى مصلح الدين أفندى، وعهد إليه بالمهمة المذكورة بتفويض من السلطان عالى المقام.

وفى عام ٩٣١ بدأ مصلح الدين أفندى يعد العدة لتلك المهمة فطهر مجارى مكة وعمرها على خير وجه، ثم أصلح البرك والأحواض فى عرفات مكة

المكرمة وروى بالأجر سكان الحرم من عين حنين واشترى مصلح الدين أفندى طائفة من العبيد السود[1]، وركب سفينة من ميناء السويس وكانت قد أعدت ليمضى بها إلى الآستانة ليعرض على الباب العالى كيفية توظيف هذه الطائفة فى مهمة تطهير مجرى القنوات، ومات ـ رحمة الله عليه ـ غرقا فى عباب بحر القلزم.

بينما كان مصلح الدين أفندى يقوم بإصلاح مجارى عينى حنين وعرفات عين مهندساً وكاتبا يرأسهما ناظر، وذلك من أجل سرعة إصلاح أى جزء يلحق به الخراب من المجارى والقنوات، وبعد ذلك بنى قبة حجرية فوق موضع تفرع المجرى، ووضع ميزاباً من خمسة وأربعين لوحاً حتى إذا ما فنيت مياه أى لوح أو نقصت يعرف أن ثمة خراب قد لحق بمجرى تلك الناحية فيتم إصلاحه في الحال.

وبفضل الترتيب المذكور لم يتعرض أهل مكة لشح الماء لفترة وعلى الرغم من ذلك فإنه بعد وفاة مصلح الدين أفندى بما يقرب من ثلاثين عاما طغى سيل من جرائه تخربت أغلبية مواضع المجارى المائية، ومن ثم بدأت مياه الينابيع فى مكة فى النقصان، وبدأ سكانها الكرام يلقون التعب والمشقة بسبب شح الماء، وعندما رفعت الإمارة الجليلة لمكة الأمر إلى الباب العالى وتلقت الإمارة المذكورة الرد وأخطرت بالمواضع الواجب إصلاحها وتعميرها، وبعد الكشف والمعاينة استدعى شريف مكة أشرافها وأعيانها للتشاور، وقرأ عليهم الأمر الوارد من الباب العالى.

وعلى أثر ذلك اجتمع قاضى مكة عبد الباقى بن على المغربى أفندى ومتصرف جدة خير الدين بك وطائفة مثلهم من أرباب الدراية والمعرفة. وعقدوا مجلساً للتشاور وتبادلوا الآراء والمشورة بشأن طرق المياه مكة المكرمة، ومن بعد اتفقوا رأيا على أن عيون عرفات أبرك من باقى العيون، ومجاريها معلومة. وإذا ما

(١) اشترى مصلح الدين أفندى لكل واحد من هؤلاء العبيد السود جارية زنجية وزوجه منها، وعهد إلى ذريتهم بمهمة تطهير قنوات المياه، وكل العبيد يعيشون على مرتبات خصصت لهم بالقانون ولم يبق منهم أحد الآن بعد أن انقطع نسلهم.

نظرنا إلى ما أفاد به الخبراء فإن هذا الماء على الرغم من أنه ينبع من موضع يسمى «أوجر» يمر من منى عن طريق وادى النعمان وعرفات، ويحضر إلى بئر زبيدة. وإذا ما طهرت مجاريها وطرقها على الوجه الأقوم فإنه سيتكلف (٣٠,٠٠٠) دينار من ذهب، وقالوا إنهم سوف يقومون بتسوية وإصلاح وتنظيم ما يقرب من (٤٥,٠٠٠) ذراع معمارى فى وادى مكة وقد وقع هذا الرأى موقع القبول لدى هيئة الشورى، وعرضوا ما توصلوا إليه من قرارات على الإمارة المشار إليها مرفقة بتقرير.

ومن ثم عرض شريف مكة المذكور الصورة الأخيرة لما سيكون عليه المجرى بعد الإصلاح والقرار المذكور على الباب العالى وذلك على الوجه المفصل.

ولقد ورد التزام من كريمة السلطان صاحبة الخيرات، إكليلة المخدرات، تاج المحصنات بتعمير المواضع الخربة، وإجراء الماء داخل مكة، وإنشاء العيون فى المواضع القريبة من حرم الكعبة؛ وذلك لإحياء أهالى بلدة الله، ولأن ذلك عادة من المبرات السلطانية فقد صرف (٥٠,٠٠٠) دينار لإبراهيم بك دفتر دار (وزير مالية) مصر القاهرة الأسبق، وأرسل إلى مكة المكرمة، وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة عام (٩٦٤) أو (٩٦٧) وقبل عام (٩٧٠) قدم إبراهيم بك إلى جدة، وفى اليوم التالى وصل إلى حضرة سيد حسن بن نمى شريف مكة فى وادى مر الظهران، ومضى فى معية المشار إليه إلى مكة وبعد الطواف نزل فى دار أعدت له خصيصاً.

وفى غضون خمسة و عشرة أيام وبفضل كثير من العمال بذل الجهد فى تطهير وتعميق الآبار التى غاض ماؤها ومجرى عين عرفات، وبعد الحج نصبت الخيام فى وادى عرفات من أجل تعمير طريق جبل الرحمة، واستخدم ما يقرب من أربعمائة عامل فى أعمال تنظيف المجرى، واستقدم إبراهيم بك مهندسين أكفاء وكثرة من البنائين وزاد من عدد العمال يومًا بعد يوم، وأصلح المجارى حتى بئر عين زبيدة، ولكنه لم يستطع أن يعثر على المجرى القديم الذى يمتد بعد بئر عين زبيدة.

وكان العمال الذين استخدمهم (إبراهيم بك) عددهم أربعمائة نفر من جنس العبيد وكانوا يصلحون لعمليات الحفر فعمقوا وطهروا مجارى العيون من (أوجر) إلى حدود (المزدلفة ولما كانت عمليات الحفر بعد (المزدلفة) أشق طلبوا مزيدا من العمال وأبلغ إبراهيم بك عدد العمال إلى ألف وبذل جهودا جبارة وأظهر مروءة عظيمة، وأنفق أكثر من ألف قطعة ذهبية، إلا أن العمل أخذ يتأخر يوما بعد يوم ويتباطأ، ولما رأى أن حفر وتعميق المجرى الكائن بين المزدلفة ومكة المكرمة فى حكم المستحيل، عرض الأمر إلى الجهات العالية، واستقدم من صعيد مصر والشام وحلب واليمن وباب السعادة إستانبول عمالا متخصصين فى حفر الآبار ومجارى المياه والحدادة والبناء ووزع لكل واحد منهم عمله لإجراء التعميق، إلا أنه فهم أن مجرى الماء ينتهى عند بئر زبيدة وراح فى تفكير عميق فى الندامة والحيرة؛ لأن السيدة زبيدة لم تستطع أن تحفر مسافة ألف ذراع معمارى بعد البئر الذى ينسب لها فتركته وأجرت مياه عرفات إلى مجرى حنين ووحدت بين الجدولين، واستطاعت أن تدبر مقدارا من المياه يكفى لأهل مكة ولم توحد بين عين عرفات ومجرى عين حنين بتغيير مجراهما؛ كان عليها أن تنشغل بنقب وثقب قطعة واحدة من الصخرة التى يبلغ طولها ألف ذراع معمارى وعرضها مع عمقها خمسين ذراعا.

وكان فى هذا إنفاق للمال عبثا، وأكد فكرة أن إنجاز هذا العمل خارج طاقة الإنسان ولأجل ذلك تركت ذلك المكان، وقررت أن توجد بين مجرى عرفات ومجرى مياه حنين وتوصلت إلى هدفها عن طريق أوفق لغايتها.

وأراد إبراهيم بك من شدة حيرته واضطرابه أن يقوم بعمل لم تستطع أن تقوم به السيدة زبيدة، وتخيل أنه يستطيع أن يثقب ذلك الطريق الحجرى بطريقة أو بأخرى فحفر أولا وعمق مكانا ليبلغ طوله سبعة أذرع وعرضه خمسة أذرع وأمر برفع ما عليه من التراب، ثم جلب من جبل جزل حمل مائة بعير من الحطب وأراد أن يعمق بحرق الحطب فى داخل ما تم حفره ما مقداره خمسين ذراعا إلا أنه لم يستطع أن يحفر فى ليلة كاملة إلا مقدار إصبعين كسره بأدوات حديدية،

وأدرك أن تعميق مكان طوله ألف ذراع مقدار خمسين ذراعا يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون، إلا أنه أنفق أموالا لا تحصى بفكرة إنقاذ الشرف السلطانى الساذجة، ولم يبخل من بذل أقصى الجهود لحفر المجرى إلا أنه لم يستطع أن يتجاوز أكثر من عشرين ذراعا، وفى النهاية أنهى جميع نقوده وأرسل إلى باب السعادة رسلا لعرض الأمر وليستأذنه فى كيفية التصرف بعد هذا الفشل، ولكن الرسل الذين بعثهم إلى إستانبول غرقت سفينتهم فى البحر الأحمر، وفى هذه الفترة مات ثلاثة من أبنائه واحدا تلو الآخر، كما مات وكيل أعماله وكثير من عبيده وعقب ذلك ارتحل أيضا إلى قصور الجنة سنة (٩٧٤) ليلة الاثنين الثانى من رجب ودفن فى قبره الذى كان قد هيّأهُ قبل وفاته[١].

وبعد وفاة (إبراهيم بك) عهد إلى قاسم بك حاكم جدة بمهمة تطهير المجرى ولحكمة ما توفى هو أيضا بعد مرور سنتين من تعيينه، فأحيلت تلك المهمة المقدسة لمفتى مكة المكرمة الشافعى القاضى حسين أبى بكر الحسينى.

وقد قام الشيخ حسين بمهمته أحسن قيام واستطاع أن ينهى عمله في ظرف خمسة أشهر على أحسن وجه وأنجز ما لم يستطع أن يقوم به من سبقوه فى اثنى عشر عاما.

واستطاع أن ينهى العمل الذى بذل فيه الجهود الحميدة منذ عهد السلطان سليمان خان الغيور على دينه، أى العمل الذى استغرق سبعة عشر عاما فى الحفر والتعميق وأوصل عين عرفات إلى مكة المكرمة وبإمرارها من نفس الطريق الذى أراده المرحوم إبراهيم بك وذلك فى سنة (٩٧٦) على قول أو سنة (٩٧٩) على قول آخر، أو فى الأيام العشرة الأخيرة من ذى القعدة سنة (٩٨١) وفقا للرواية الثالثة.

وأنشأ فى داخل المدينة أحواضا كبيرة وصهاريج عظيمة وملأها بالماء، وأحيا العالم الإسلامى، إن العمل الذى بدأ لإنشاء مجارى المياه وقنواتها فى عهد

(١) وبناء على هذا فالقول الأول وهو المعتبر أن إبراهيم بك شغل بحفر المجرى عشر سنوات، وعلى القول الثانى خمس سنوات وعلى القول الثالث أربع سنوات.

السلطان سليمان انتهى فى عهد السلطان سليم، وغبطت بلدة الله بكثرة مياهها، ودخل ماء عرفات فى داخل المدينة، وروى الحجاج العطاش وأخذ أهالى مكة المكرمة والمجاورون ذوى الاحترام يحتفلون، ويحث بعضهم البعض على الدعاء بالخير للسلطانين المشار إليهما ويقولون: إن الأعمال الخيرة الجميلة التي لم يقدر على القيام بها أى واحد من السلاطين السابقين والخلفاء المعتمدين، قد قدرت ويسرت لهذين السلطانين العظيمين.

وفى اليوم الذى وصل فيه الماء إلى المدينة المقدسة مكة الله أقام المفتى السابق الذكر حسين بن أبى بكر الحسينى فى رياض الأبطح لجميع الأهالى وليمة عظيمة، وذكر جهود السلطان وفتح صنابير جميع الينابيع وملأ مستودعات مياه الينابيع بحلو الشراب وسقى الأهالى، واستجلب الدعوات لطول بقاء الدولة العثمانية.

ومما يروى عن ثقة أن الأطعمة التى قدمت فى هذه الوليمة كانت عظيمة وافرة إذ نحر مائة جمل ومثلها من الأغنام، وأقيمت الخيام لجلوس القوم كل حسب مكانه وشرفه ودعا إليها أعيان القوم وأشرافهم وعلماءهم وصلحاءهم، وقدم لهم الطعام وبعد الطعام ألبس المهندسين ومهرة العمال الخلع، ووزع على الآخرين العطايا السنية وأبلغ بكل ما تم عمله لجلب قلوب الناس إلى السلطان الموصوف بمكارم الأخلاق، فما كان من السلطان إلا أن أرسل الخلع الفاخرة وعطايا كثيرة من إستانبول لتوزيعها على الذين خدموا فى توصيل العين المذكورة بجد وصدق من الأهالى. أما المفتى الشافعى القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى المشهود له عند الجميع بجهوده العظيمة وعظيم بلائه فقد كرم أعظم تكريم مما ملأ قلبه بالعظمة والسرور، وفى حقيقة الأمر إن أهل مكة كانت حاجتهم شديدة إلى ماء جار مثل عرفات؛ لو لم توصل كريمة السلطان مهرماه عين زبيدة إلى مكة المكرمة لما بقى لأهل مكة إلا واحدا من الحلين الاثنين: إما أن ينتقل أهل مكة إلى بلاد أخرى يهاجروا إليها، وإما أن يتحدوا جميعا ويصرفوا كل ما فى جهدهم ليطهروا مجرى عين زبيدة والعمل على جلبها من جبل الرحمة.

ولما كان الحل الثانى غير قابل للتنفيذ بل مستحيلا كان عليهم أن يبتلوا بالفراق عن الوطن وأن يتفرقوا فى بلاد شتى وأن يحترقوا بنار فراق كعبة الله ثم يفنوا.

وجلب ماء عرفات إلى الحرم الشريف رد الحياة لأهل مكة وذريتهم فبقوا فى موطنهم القديم، والآن ما من أحد فى مكة إلا وقلبه يمتلئ غبطة ومسرّة ولسانه يلهج داعيا بالبقاء للدولة العثمانية.

فيما يلى من كلامنا وصف لماء عرفات من حيث صفائه وعذوبته ومدى حاجة أهل مكة لهذا الماء، وهذا ما جعل هذا الأمر موضع بر الأميرة مهرماه وإحسانها بين المحسنين.

مقال

إن ماء عرفات ماء جار كأنه ماء الكوثر وعين الحياة وماء تسنيم، ويجرى بالقرب من موقف عرفات ويبحث عن حرم مكة العطشانة ليمسح وجهها ويطفى ظمأ أهل مكة المشتاقين بمائه الزلال.

أبيـــات

إن رغبة أهل هذا البلد إلـى المـاء الجـارى لأمـر عجـب
ما أن يشاهـــده الظمـآن منهـم إلا وجـرى ريقـــه.
فأجـــــــرت الأميـــــــرة (مهرمـــــــاه).
بنت سلطان العالم السلطان سليمان خان.. صاحبة الخيرات
هذه العين إلى داخل المدينة.. منفقة الأموال الطائلـــة.
وهكـــــذا سقـــت المسلمـــــين العطشـــى.
والحق أن ما قامـــت بـــه مـن همـــة عظيمـــة.
ليغار عليها خلفـاء سـكان المغـرب ودار الســـلام.
وحكـــام اليمـــن وسلاطـــين مصـــر والشـــام

وفـــى نـــار الحيـــــــرة يحترقـــــــون..
ولقـــد أســـــدت خدمـــــة عظيمـــــــة.
تجعـــل ملـــــوك الربـــــع المسكـــــون..
مـن العالـــم وملـــوك سوالـــف القـــــرون..
مـــن رغبتهـــم فـــى لجـــــة يغرقـــــون
واستهـــل العمـــــل فى سنـــــة ٩٧٠[١].
ومـــع الاستعانـــة بالمهندســـين المعامريـــن
الذيـــن يتمتعـــون بذهـــن ثاقـب وذكـــاء خـــارق
الذيـــن حطمـــوا الصخـــور الصمـــاء
بهمـــة كأنهـــا فـــأس فرهـــاد.
وأنهـــوا العمـــل فـــى تسعـــة أعـــوام[٢]
وأنفقـــوا النقـــود كالمـــاء السائـــل
حتى ظهر ذلك الجدول الجميـل وكأنـه فضـة مذابـة.
شكـــر الله سعـــى مجريهـــا.

انتهى «ذيل الشقائق النعمانية».

وبما أن عين زبيدة احتاجت للتعمير والتطهير مرة أخرى فى عهد السلطان مصطفى بن السلطان أحمد سنة (١١٨١) بإشعار من إمارة مكة المكرمة فأرسل من قبل السلطنة السنية موظف يسمى فيض الله أفندى الذى طهر العين كما ينبغى، عمر وسوى الأماكن التى تحتاج للتعمير، وأنفق فى سبيل ذلك (٨٨٦,٠٠٠) قرش وأتم العمل فى ظرف ثلاث سنوات فى سنة (١١٨٤).

(١) بناء على القول الثالث.
(٢) بناء على القول الثانى.

إلا أنه فى تلك المدة لم يكلف بإصلاح مجرى عين زبيدة فقط بل شمل التعمير والإصلاح مجارى عين عرفات والعيون الأخرى، كما أصلحت مجارى جميع العيون الواقعة بين عين حنين وعرفات، وهكذا زادت المياه فى جميع المجارى.

ودام هذا التعمير أربعًا وخمسين سنة، وفى خلال هذه المدة لم يكابد أهل مكة من نقص المياه، ولكن فى عام (١٢٣٥) مست الحاجة إلى تعمير بعض العيون لما كان السلطان محمود خان أصدر الأمر إلى والى مصر محمد باشا بأن يبادر بإصلاح أى مكان فى الحرم الشريف دون استئذان منه، فأصلح الباشا المذكور مجارى المياه التى تحتاج إلى إصلاح وأحيا عين زبيدة من جديد، وأبلغ الأمر إلى باب السعادة سنة (١٢٣٥).

وبعد تعمير محمد على باشا قد انضمت إلى مجرى عين زبيدة مياه عين أخرى يقال لها زعفران، ولهذا زادت مياه عين زبيدة وكان ذلك بهمة زائر هندى كريم من أصحاب البر والإحسان يقال له «الماس أغا» وشرع هذا الرجل فى حفر بئر بالقرب من مجرى عين زبيدة، وعمق البئر حتى يزيد من مياهه بينما هو يعمق هذا البئر ظهر مجرى ماء تحت التراب، فسماه عين الزعفران وأجراها إلى مجرى عين زبيدة، فوحد بين الماء وبين ذلك البئر سنة (١٢٦٣).

وأهمل ما رممه وجدده محمد على باشا والى مصر تحت رعاية السلطان محمود خان، وفى غضون خمسة وثلاثين عاما وتهدمت عدة مواقع مما جدد ورمم، وظهرت مشكلة ندرة المياه فى مواسم الحج، ولم يبلغ[1] الأمر إلى السلطان ومقام الخلافة الإسلامية، فبدأ أهالى الحرمين يتوجسون خيفة من انقطاع ماء عين زبيدة كلية؛ إلا أن أحد الزوار الهنود من قبيلة ميمن وهو «الشيخ عبد الرحمن سراج» طهر وعمر ذلك المجرى مستخدما مائتى نفر يوميا فى ظرف شهرين، وهكذا نفث عن الناس كربتهم وذلك عام (١٢٩٥).

(!) لأن خزينة وزارة الأوقاف السلطانية كانت تصرف كل سنة مقداراً غير قليل من النقود.

وبما أن الشيخ عبد الرحمن سراج كان محبا للخير لم يقتنع بتعمير وتطهير مجرى عين زبيدة؛ بل امتد عمله إلى إجراء زمزم الشريف الذى كان يستعمل فى داخل الحرم الشريف إلى محل بعيد عن الحرم، لأن المجرى الكبير المديد الذى أنشئ فى صدر الإسلام أصابه التلف والخراب مع مرور العصور، فرممه على أحسن وجه وعمره، ثم عمر وسوى الأماكن التى فى حاجة لذلك فى خارج الحرم وداخله وبهذا خدم الجماعة الإسلامية أعظم خدمة.

وكان الشيخ عبد الرحمن سراج كما يروى يشرف بنفسه على العمال، وكان يرجوهم أن يقوموا بأعمالهم على أحسن وجه حتى يتم العمل فى متانة ورصانة ويوصيهم بذلك، واستطاع أن ينتهى سواء من مجرى زمزم أو المواقع الأخرى فى ظرف ثلاثة أشهر أو أربعة مستخدما يوميا ما بين مائتى عامل أو ثلاثمائة منهم.. ألا فليرض الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه وليوفقه فى القيام بأعمال خير أخرى.

وبعد سنتين من إصلاح الشيخ عبد الرحمن سراج الهندى للمجرى المذكور قدم غنى أفندى من حكام الولايات فى الهند مبلغاً قدره (٤٠٠٠) ليرة عثمانية وذلك من أجل إتمام تعمير وتعميق المجرى المذكور، وقد حفظ هذا المبلغ فى خزينة المديرية للإنفاق منه حينما تستدعى الحاجة وذلك فى عام ١٢٩٧.

آخر تعمير لعين زبيدة

وقد رمم مجرى عين زبيدة فى عهد والى مصر محمد باشا كما سبق ذكره آنفا، إلا أن هذا التعمير كان جزئيا يشبه إصلاح الطرق هنا وهناك.

قد تهدمت مجارى الماء بسبب السيول التى تتعاقب بكثرة فى البلاد الحجازية نتيجة لخصائص جو هذه البلاد، واحتاجت إلى تعمير شامل ولكن انشغال أولياء أمور الدولة بهمومها المتوالية حال دون الاهتمام بمصالح أمور الحجاز لذا لم يعمر مجرى عين زبيدة فترة طويلة، وبقاء المجارى دون تعمير بعد تهدمها تدريجيًا وترك العقود والدعائم دون ترميم أدى إلى نقص المياه يومًا بعد يوم، وهى قوام حياة الأهالى.

ودب الخراب فى المجرى وتصدع فضاع الماء الذى تسرب من بين الصدوع والشقوق، ولو بقيت القنوات على تلك الحال فترة أطول سوف يؤدى ذلك فى المستقبل إلى ابتلاء أهل مكة بضيق شديد من قلة المياه، ولما أدرك الكل ما ينتظرهم عرضوا الأمر على مقام الخلافة، فجاء الأمر السلطانى بتكوين لجنة من أعيان مكة وجدة تعنى بتعمير مجرى عين زبيدة وتسويتها وترميمها، وعين لرياسة تلك اللجنة الشيخ عبد الرحمن سراج أفندى الذى كان عمر وأحيا عين زعفران بإنفاق مئات من الليرات الفرنسية وذلك فى المحرم سنة (١٢٩٦).

وكان من أهم ما كلفت اللجنة به تعمير ذلك المجرى بطريقة متينة ورصينة، وأخذ نفقات التعمير من خزينة الدولة ودون إحداث خلل عند الإنفاق، وبما أن الخزينة المالية للدولة تمر بأزمة حادة رأت تلك اللجنة ألا تكون حملاً على خزينة الدولة وأن تدبر أمورها على هذا الأساس، وكان المولون المسلمون يتمنون من فترة أن يشتركوا فى تعمير عين زبيدة، وعلى هذا جمعت كثير من المعونات المالية من أهالى جدة ومكة بِحَثِّ اللجنة وسعيها الحثيث.

وأعطى الرئيس المذكور الشيخ عبد الرحمن سراج بمفرده خمسمائة روبية (٥٠٠٠ قرش) كما أن أصحاب الخيرات من الممالك الإسلامية أرسلوا معونات مناسبة لثرواتهم: فأرسل على خان[١] من ولاة الهند وحاكم (رانبور) (١٠٠٠٠٠) روبية وملكة (بهوبال) «السيدة جيهان بيكم» (٢٠٠٠٠) روبية والشيخ «عبد الغنى بهادر» من مشاهير أصحاب الخيرات وابنه «محمد أحسن الله» خان بهادر كل واحد منهما (٢٠٠٠٠) روبية وسيد عبد الواحد المقيم فى (كلكتا) ألفين وخمسمائة روبية[٢] وأرسلوا كل هذه المبالغ مع «الحاج نور محمد زكريا» وكيل صحيفة الجوائب فى الهند.

وهذه الإعانات من قبل حكام الهند الكرام غمرت نفوس أهل مكة بالبهجة والسرور، ولما وصلت الإعانة الهندية إلى جدة وكان مقدارها (١٦٣٥٠٠٠)

(١) قد أدى حضرة على خان فريضة الحج فى سنة (١٢٨٩)، وأحسن إلى فقراء المدينة ومكة بمبالغ كثيرة، وأهدى كتابا من تأليفه للحجرة المعطرة يحتوى على المدائح النبوية.

(٢) الروبية الواحدة تساوى عشرة قروش.

قرش وقد ذكر أعضاء اللجنة وجمع غفير من الأهالى المحسنين بالحسنى ودعوا لهم بكل خير أن اللجنة الخاصة التى تشكلت فى مكة للإشراف على إصلاح وتعمير مجرى عين زبيدة كما سبق ذكره أعلنت بمهمتها الجهات الأربعة من أقطار الممالك الإسلامية، وفى ذلك الوقت تشكلت فى مصر المعروفة برجالها المحسنين لجنة من وزارة المعارف المصرية، دبروا لها فروعا فى مديريات البلاد المصرية كما فعل مسلمو الهند، واستطاعت أن تجمع فى فترة قصيرة (١٥١٦٧) قطعة ذهبية مصرية وكسورا وأرسلتها إلى مكة المكرمة.

وهذه المبالغ هى مبلغ (٤٢٠٠) ليرة من مديرية الغربية و (١٦٠٠) ليرة من المنوفية و (١٢٢٦) ليرة من القليوبية و (٦٠٠) ليرة من قنا و (٧٨) ليرة من الجيزة والباقى من موظفى الدوائر الخديوية وأرباب الحمية من رجال القاهرة.

وبناء على الأخبار التى أعلنتها الصحافة المصرية أنه يؤمل أن تصل إعانة مديرية الغربية إلى (٥٠٠٠) ليرة كما أن المديريات الأخرى التى لم ترسل المعونات بعد ينتظر أن تصل منها معونات كثيرة.

وبناء على أخبار التحقيقات التى نشرتها صحيفة وقت فى نسختها الصادرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٩٧ أن أهالى الهند المسلمين قد جمعوا إلى الآن مبلغ (٦٠٠٠٠٠) روبية ومازالوا يجمعون. وقد نشرت صحيفة حوادث مستقية أخبارها من صحيفة الوطن المصرية وبناء على الفقرات التى أدرجتها فى نسختى ٤٤٨٩ و ٤٥٠٣ أن المعونة الهندية وصلت إلى (٦١٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية وأن رئيس الجمعية الهندية للمعونات عبداللطيف خان بعث ابنه إلى السويس لعقد مقاولة مع الجمعية المصرية للمعونات، كما أوفدت جمعية الإعانة المصرية أحمد ناشد بك إلى مكة المعظمة لتقديم النفقات اللازمة لتعمير عين زبيدة، وبناء على الرسالة التى بعثها أحمد ناشد بك الذي أرسل من إمارة مصر للتحقيق فى تعميرات عين زبيدة ونشرتها صحيفة الجوائب، أن المسافة من جبل عرفات الذى

فيه عين زبيدة إلى مكة المكرمة تبلغ ستة آلاف ذراع تقريبا، وقد عهد بإصلاح مجارى عين زبيدة فى هذه المسافة للمهندس[1] الذى عينته الجمعية.

أما المواضع التى أصلحت علاوة على ذلك فهى المسافة الممتدة من عرفات حتى وادى النعمان وقدرها (٣٣٥٠) ذراعا كما تم الاتفاق مع المهندس المذكور على أن تكون تكاليف كل ذراع ١٦ ريالا وثلاثة أرباع الريال، وقد أنجز تلك المهمة على الوجه الأكمل وكان ذلك فى ٢٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ.

قد بلغ ما جمع من حجاج الهند وأهالى مكة وغيرهم من المعونات إلى هذا التاريخ مبلغ (٨٢١٦٨) قطعة ذهبية وأرسل (٦٧٠٠) قطعة ذهبية منها من صندوق بومباى.

وقد أنفق مبلغ (٥٥,٢٨٧) قرشا لإصلاح وتعمير مجرى عين زعفران التى ضمت لعين زبيدة وذلك بشرط أن يحسب الريال بثمانية وعشرين قرشا والليرة خمسة عشر قرشا والباقى من المبلغ صرف لطرق عين زبيدة وإصلاح مجاريها.

والسبب فى اضطرار اللجنة إلى إنفاق هذه المبالغ الطائلة من الدنانير الذهبية هو انسداد وانغلاق المنبع البالى لعين زبيدة، يعنى انسداد مجمع مياه وادى حنين ووادى النعمان وانغلاق ذلك المجرى الواسع وأيلولته للخراب.

إن ذلك المجرى يأتى إلى قهوة عرفات من تحت الأرض وعن طريق وادى النعمان، وبعد ذلك يجرى على وجه الأرض أحيانا ومن داخل الأرض حتى يصل إلى مجرى مغطى يسمى فقير الدبيلو «خومة وخاسرة» حتى يصل إلى قناة صناعية تسمى «بازان الجديد» وهنا يخرج على سطح الأرض ويمر بقناتين صناعيتين قنطرة العابدية والمزدلفة، ويصل إلى رقم الوبره ومنه إلى مفجرة وبعده بازان الجنة الواقعة فى منى وعقب ذلك إلى القناة الصناعية «بازان القاضى».

وبعد ذلك يهبط بحذاء دار الشريف عبد المطلب ويصل إلى مكة المعظمة، وإذا ما قيست هذه المسافة فهى تصل إلا ثلاثين كيلومترًا.

(١) هذا المهندس هو صادق بك ممن تولوا رتبة قائمقام الأركان الحربية.

وقد قسمت اللجنة أعمال إنشاء عين زبيدة وتعميرها إلى قسمين القسم الداخلى والقسم الخارجى.

القسم الأول: المواقع التى يعمر خارجها:

وقد بدئ فى تعمير هذا القسم من جهة وادى النعمان حتى المجرى. إن مقدار خمسة عشر مترا من المجرى المذكور قد هبط واندرس وانمحى، وبدأت اللجنة أعمالها من هناك وفتحت مجرى جديدًا يصل طوله لأربعمائة متر تقريبا، وأوسع من الأول ويسع داخله أن يمشى فيه إنسان ويتحرك، وبنى بشكل متين ورصين.

وبعد ما أنهت اللجنة أعمال المجرى على خير وجه أمر بفتح جميع أطراف المجرى ابتداء من وادى النعمان إلى قهوة عرفات. ومن هناك إلى جبل الرحمة ومن هنا إلى حومة وخاسرة وبازان الجديدة وقنطرة العابدية إلى المزدلفة، ومن المجرى أجزاء قد آلت إلى الخراب بحيث لا يمكن بقاء المياه فى داخلها فتركت هذه المجارى القديمة، وأمر بحفر مجارى جديدة كما أنها عاينت المواقع التى يمكن إصلاحها بعد أن أفرغتها من المياه وتفقدتها من الداخل ومن الخارج، «ثم أمرت بتعميرها واستخدمت الأسمنت فى تغطية جدران المجارى، وهكذا شيدته تشييدا رصينا.

ثم أمرت بتغطيتها بأغطية حجرية وفتحت فى بعض مواقع المجرى ما يشبه الأحواض حتى يستقى منها عربان البوادى، ويسقون دوابهم بعد أن أصلح المجرى حتى بئر زبيدة كما سبق شرحه.

فأخذت المياه تجرى فيه بغزارة حتى خربت بعض الأماكن الضيقة من المجرى، ورئى أن تفتح مثل هذه الأماكن وتوزع مياهها؛ ولأجل ذلك فتح بجانب مسجد المزدلفة وبين المزدلفة وعرفات حوضان عميقان للهبوط والصعود على جانبيهما، كما بنى منبع عظيم يهبط إليه ويصعد منه بالسلم وتركت الينابيع القديمة على حالها بعد تعميرها وتقويتها.

ونتيجة لإصلاح المجرى وتعميره بهذا الشكل أخذت تجرى إلى مكة فى كل دقيقة (٥٠٠٠) أوقية ماء وبما أن نصف هذه الكمية من المياه تكفى لإرواء كل أهالى مكة وسقيهم، فالمياه الباقية تجرى إلى بركة الأماجد حيث تكونت حولها بساتين شاسعة.

القسم الثانى: تعمير المواقع الداخلية:

أقيمت فى مكة تسعة صهاريج احتياطية وعدد من خزانات المياه ذات الصنابير، وشرع فى إنشاء الصهاريج الاحتياطية حيث أنشئ صهريج عظيم فى اتساع مائة وخمسون مترًا مربعًا، إن هذا الصهريج في حجم يكفى لاستيعاب (٤٤٧٠) أوقية من الماء بعد ما تم إنشاء هذا الصهريج، أنشئ صهريج آخر فى الحى المتصل بالموقع المسمى بالشيخ محمود يعنى فى حارة الباب، واتساعه أربعة وستون مترًا مربعًا، ويستوعب هذا الصهريج (٢٠٠٠) أوقية من ماء وبعد ذلك أنشىء الصهريج الذى فى حى جياد هذا الصهريج فى اتساع ٢٢٠ مترا مربعا ويستوعب (١٢٩٤٠٠٠) أوقية ماء وهو أكبر الصهاريج حجما، وبعد الانتهاء من صهريج جياد أنشئ عقب ذلك الصهريج الذى يسمى دكة الحارة المتصل بحى حارة الباب، وسطح هذا الصهريج فى اتساع ستة وثلاثين مترا مربعا ويستوعب (١٥٠٠٠٠) أوقية ماء ثم أنشئ الصهريج الذى فى حى الشامية باتساع (١٨٠) مترا مربعا ويستوعب صهريج الشامية (٢٦٠٠٠٠) أوقية ماء.

وبعد الانتهاء من بناء هذا الصهريج أقاموا صهريج شعب عامر، إن هذا الصهريج خلف مسكن السيد الشريف عون رفيق باشا وفى اتساع أربعة وثمانين مترا مربعا ويستوعب (٨٥٤) أوقية ماء.

وبعد إكمال صهريج شعب عامر أقيم خزان فى حى كشاشية على مساحة ثمانية وأربعين مترا وسعة هذا الخزان (٤٠٠٠٠٠) أوقية من الماء، وبعد ذلك أقيم خزان فى شعب بنى هاشم، وكان هذا فى حجم شعب عامر ويستوعب نفس الكمية من الماء، وبعد إقامة تلك الخزانات التسع المذكورة تهدمت خزانة

باب العمرة فأعيد تجديدها، وبعد ذلك أقيمت ثلاثة صهاريج كبيرة بجانب فرن أميرى الواقعة أسفل قلعة جياد، وسواء خزانة أميرى أو هذه الخزائن أنشئت علي طرفيها أحواض، وبنى تحت الأرض صهريج كبير ووضع في جهة المسعى خمسة عشر صنبورا متوسطا، ووضع فى جهة عمارة أربعة صنابير كبيرة ثم حفر وصنع حوضين ذوى فسقية واحدة بجانب مركز الشرطة الجديد وفى القسم السفلى منه والكائن فى باب الصفا.

وفى النهاية ركبوا فى جهة باب الصفا سبعة صنابير وفي جدران مكتبة شروانى محمد رشدى باشا الكائنة فى المدرسة التى تحت باب الصفا اثنين وعشرين صنبورا، وفى الجهة الخارجية من باب الوداع ستة وأربعين صنبورا، فى موقع قريب من باب العمرة عشرين صنبورا، وفى وسط المدرسة الداودية خمسة وعشرين صنبوراً، كما أنشئوا ستة أبنية ذات صنابير حجرية دائمة الجريان.

ولما كانت مبانى هذه الصنابير فى غاية الرصانة والمتانة فأهل الإيمان وهم يتوضئون منها فى الأوقات الخمسة، يرطبون ألسنتهم بالدعاء بازدياد قوة الإسلام وشوكته وعزته، وبعد ما انتهت عمليات تركيب الصنابير أُمدَّ بالماء الخزان الكائن وسط العمارة المصرية التى وضعت أسسها فى مكان مواجه لباب الصفا، ومن هذا الخزان إلى الحوض ذو الفسقية بواسطة أنابيب رصاصية، أمدت مستشفى الغرباء بمقدار كاف من الماء بالأنابيب الحديدية من الخزان الذى أنشئ فوق سوق الليل، وركبت فى مطبخها وصيدليتها وحمامها ومغسل ملابسها صنابير كبيرة دائمة الجريان.

كما أنشئوا فى الحديقة التى يتنزه فيها المرضى حوضا، ومن هنا إلى عمارة السلطان الخاصة بالذين يعنون بالحدائق والبساتين، وحولوا تلك الأماكن إلى جنة وتحولت عين زبيدة الآن إلى نهر صغير فالمياه الجارية فى داخل مكة يضيع نصفها عبثا، وأوصلت اللجنة المجرى إلى حارة الباب المتصلة بالشيخ محمود، وأنشأت هناك صهريجا احتياطيا واستفاد أهل مكة من توصيل المياه إلى هذا المكان، وأخذوا

يبنون المنازل والدكاكين فى الأماكن الممتدة نحو ميدان الشيخ محمود، وقد تحولت تلك الضاحية من المدينة بعد وصول المياه إلى مدينة صغيرة مستقلة.

وبهذا قد أدركت اللجنة أن مكة الله ستتسع إلى تلك الأماكن ولذلك تقرر مد مجرى عين زبيدة إلى ميدان الشيخ محمود وشرع فورا فى تنفيذ ما هو لازم، وقد أنفقت (٧٥٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية إلى أن وصلت عطيات الإنشاء إلى هذا المكان، إن تزيين تلك المدينة في جميع جهاتها على هذا النحو لم يكن بسعى من لجنة عين زبيدة فقط بل كذلك بفضل عثمان نورى باشا والى الحجاز والمهندس صادق بك.

المدارس الأربعة

التي أقامها السلطان سليمان

في مكة وكيفية إدارتها وتوجيهها

بعدما فرغ السلطان ـ طاب ثراه ـ من تعمير عين زبيدة بنى أربعة مدارس ضخمة خاصة بعلماء المذاهب الأربعة وأودع في كل واحدة من تلك المدارس خمسة عشر طالبا ومدرسا، وجعل أجر المدرس سنويا خمسين قطعة ذهبية عثمانية، وللمعيدين أربع قطع، وللطلاب والفراشين قطعتين ذهبيتين.

وجعل الإشراف على إدارة المدرسة الخاصة بالمالكية[١] والبوابين للقاضي حسين بن أبى بكر بن الحسين الذى نصب ناظرا للحرم الشريف بضم خمسين قطعة ذهبية لأجر وظيفته الأصلية، وتعد المدرسة المالكية أكبر المدارس الأربع وجعل لإدارة مدرسة المذهب الحنفي الشيخ القطب المكي المفتي[٢] الحنفي المذهب ومن مؤرخى مكة المعظمة، ووجهت إدارة المدرسة

(١) لقد سكن مولانا باقي شيخ شعراء الروم في هذه المدرسة حينما كان شيخا في مكة، وبما أن الشيوخ الذين كانوا يذهبون إلى مكة المكرمة أقاموا في هذه المدارس، مازال قضاة مكة يسكنون في هذه المدرسة ويقومون بوظائفهم، وهي مدرسة كبيرة في اتصال باب السلام بباب الزيادة.

(٢) ولم يكن للمذاهب الأربعة من يتولى الفتيا إلى عام ثمانمائة وسبعة ما عدا المذهب الشافعي، وفي خلال هذا العام عين من يتولى الإفتاء للمذهب المالكي والحنفي والحنبلي، كما ذكر سبب ذلك في مباحث المقامات الأربعة.

الشافعية إلى عبد العزيز الزمزمي من علماء المذهب الشافعي، واشترط أن يدرس في المدرسة الحنفية علم التفسير وعلم الطب وعلم أصول الفقه، وأن يدرس في المدرسة الشافعية الفقه الشافعي، وفي المدرسة الحنبلية[٢] كتب الحديث الستة وذلك في سنة (٩٧٢).

إن إحدي هذه المدارس التي بناها السلطان سليمان جعلت لإقامة قضاة مكة كما ذكر آنفا، ولكن المدارس الأخري قد استولي عليها متسلطو الزمن، ولم يبق أي حكم لشروط واقفها، وبينما كان أحمد باشا ابن أخت محمد علي باشا والي مصر محافظ مكة استطاع تخليص تلك المدارس من أيدي مغتصبيها، واشتراها بصورة نهائية، وبني هناك عمارة عظيمة وجعلها وقفا لمجاوري الحرم من المسلمين وجعلها سكنا خاصا لإقامة المجاورين ـ رحمه الله تعالى ـ جزاء ما قدم.

وللمدرسة السليمانية ست وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة، وللمدرسة الداودية سبع وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة أيضا، ولمدرسة الشهيد محمد باشا ست عشرة حجرة ولها نفس المقدار من الجراية، ويقيم في بعض حجراتها طلبة العلم وفي الأخري، من لا مأوي لهم من الغرباء والفقراء يتعيشون من الرواتب الموقوفة للحجرات، وفي مكة المعظمة ثلاث تكايا إحداها للخالدية والأخرى للشاذلية والثالثة للنقشبندية، التكية الخالدية فوق جبل أبي قبيس، والنقشبندية كذلك فوق جبل أبي قبيس، والتكية الشاذلية في ناحية جياد.

* * *

(٢) لم يكن في مكة تلك الفترة عالم حنبلي يصلح لتدريس المذهب الحنبلي؛ لذلك اتخذت الدار مدرسة للحديث، ووكلت ادارتها إلى صهر القاضي حسين بن أبي بكر بن الحسين معين بن آصف خان. ويشرف الآن على هذه المدارس علماء المذهب الحنفي.

تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم

بما أن أروقة الحرم الشريف وسقفه كانت كلها من الخشب ولم تعمر منذ زمن طويل أشرف كثير من مواضعها على الانهيار، وتخلخلت مجموعة من أخشاب أسقفها ومالت للانهيار فى ساحة الحرم الشريف، كما أن الأروقة التى فى الجدران الشرقية مالت نحو كعبة الله ومداخل أسقفها انفصلت عن الجدران وأوشكت على الانهيار.

وقد غرزت بعد المساند تحت السقوف المذكورة وفقا للمسوغ الشرعى، وأمكن الاحتفاظ بها على حالتها القديمة، إلا أن السقف آل للسقوط يوما بعد يوم حتى أصبحت الصلاة تحت هذا السقف غير ممكنة، وبما أن دوام هذه الحالة لن يخلو من الخطر فعرض الأمر من قبل إمارة مدينة مكة ونظارة الحرم الشريف والكعبة المعظمة على العتبة السلطانية، فصدر الأمر السلطانى من قبل السلطان سليم خان الثانى بن سليمان خان ببناء الحرم الشريف متينا رصينا، بعد هدم السقوف والأروقة المصنوعة من الخشب كلها وإقامة أعمدة الرخام مكانها وتذهيب أعلاها، وأبلغ الأمر السلطانى من قبل مقام الصدارة العظمى إلى أمير أمراء مصر سنان باشا طالبا منه أن يعين شخصا مناسبا لأمانة الأبنية المقدسة، وتدبير الأشياء اللازمة لذلك، وعهد بأمانة الأبنية المقدسة لأحمد بك من أمراء مصر ودبر كل ما يلزم لمهمات البناء، وأبلغ كل ذلك إلى مقام الصدارة وأرسل إلى الأمير المذكور بتوجيه من محافظة جدة الأمر العالى بإحالة أمانة البناء العظيمة إليه، وأخذ الأمير معه الأمر السلطانى وما تم تدبيره من لوازم البناء وتوجه إلى بندر السويس، وركب السفينة المجهزة ووصل إلى جدة المعمورة فى أواخر سنة (٩٧٩) ثم إلى مكة المكرمة حيث تلاقى مع من عين فى الفرمان للإشراف على

أمور البناء، وهو ناظر الحرم الشريف القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى، وشرع فى الاستعداد لهدم البناء القديم، وبناء الجديد، وبناءاً على رأى المهندس محمد أفندى من ضباط الباب العالى والذى أرسل للإشراف على العمارة وذلك فى أواسط شهر ربيع الأول سنة (٩٨٠)[١] هدم الجدار الشرقى للمسجد الحرام من باب على إلى باب السلام كاملا، ومهدت أرضه، وفى جمادى الأولى من نفس السنة وفى يوم الجمعة وضع حجر الأساس بعد أن دعا أمام جميع الأهالى بالتوفيق.

وبما أن الأزقة التى كانت تحيط بالجوانب الأربعة للحرم الشريف فى ذلك التاريخ كانت على نسق واحد، وهو السقوف الخشبية المرفوعة على الأعمدة الرخامية، وبناء على الأمر السلطانى كان المقرر أن تبنى فوق السقوف قبب لا تبدل ولكن الأساطين القديمة لم تكن تتحمل ثقل تلك القبب؛ حتى وإن كانت صغيرة فلن تصل رصانة البناء ومتانته إلى الحد المطلوب، فرأى محمد أفندى المذكور أن يهدم الأعمدة ويبنى قوائم من حجر شمليس أصفر اللون بعد كل ثلاثة أعمدة، وقرر أن يثبت سقف الحرم الشريف ويحكم بناءه فأنشأ قببًا مزخرفة جميلة.

ووفق هذا القرار واصل عمله من باب على إلى باب السلام، ومن هنا إلى باب عمر الواقع فى آخر الجدار الشمالى وهكذا أتم عمله بالكمال بعد أن بنى الجهتين الشرقية والشمالية للمسجد الحرام وذلك فى سنة (٩٨٢) وفى أثناء ذلك آل بناء عمر السلطان سليم إلى نهايته، وخلفه على العرش السلطان مراد الثالث طاب ثراه، وتوقفت عمليات البناء مدة من الزمن ولكن أحمد بك تلقى أمر السلطان باستئناف المهمة وشرع فى العمل من جديد، وفى غضون عامين بلغ بالبناء حد الكمال، وزين باب الحرم الشريف وجدرانه وأحجاره باسم جناب السلطان، وحلى باب المعلى وما حوله من السقوف والأروقة بالنقوش الذهبية المتنوعة وكان ذلك فى سنة (٩٨٤).

(١) فى السنة المذكورة حدث سيل خطير ودخل إلى الحرم الشريف وارتفع الماء بقدر قدمين فاستبدّ الاضطراب والحزن بأهل مكة.

وكانت التعليمات التى تلقاها أحمد بك من مقام الخلافة عندما جددت مهمته تشمل زخرفة الأماكن المناسبة من المسجد الحرام بالخطوط النفيسة المذهبة، وبناء على ذلك أمر بكتابة اسم الجلالة واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين على طلاء الجدار الشرقى من الداخل، بسمك أربعة أصابع بحروف جلية ونفيسة بعد إتمام عمليات المسجد الحرام، كما أمر بكتابة الآيات المناسبة على الجدران بين العلامتين الخضراوين، وهكذا زخرف داخل المسجد الحرام وخارجه كما أمر بكتابة الآيات الخاصة بأبواب المسجد فوق عقود الأبواب، واسم الله واسم نبى الله وأسماء الخلفاء الراشدين أعلى الأعمدة التى تقع فى الصف الأول من الساحة الرملية. وكتب تلك الكتابات بخط جميل نفيس وزخرفت بالذهب، وقد نظمت الكتابة بطريقة بديعة بحيث كتب أعلى كل عمود خامس اسم النبى ﷺ.

ولم يسع الذين شاهدوا تلك الزخارف إلا أن يعترفوا بأن المسجد الحرام لم يزين فى أية مرة عند تعميره وتجديده كما زين هذه المرة، وفى هذه المرة قد عُمِّرَتْ رُمِّمَتْ المآذن التى فى باب عمر وباب الوداع بشكل جميل، يَسُرُّ الناظرين، وقد حفر أحمد بك خارج جدران المسجد الحرام الجنوبية بإنفاق مبالغ طائلة، وذلك قبل هدم جدران الحرم الشريف الجنوبية والغربية، وذلك لتوسيع مجرى السيل لأن مجرى السيل قد امتلأ مع مرور الزمن وارتفعت أرض المجرى إلى الدرج الثانى عشر للأبواب الجنوبية؛ لذا كان الدخول فى الحرم الشريف يتم عن ثلاثة أدراج.

وإن كان من المستحيل ألا يملأ السيل المجرى ويخربه إلا أنه كان يتم حفر المجرى وتعميقه كل عشر سنوات، ونقل ترابه إلى خارج المدينة وكان ذلك من

قاعدة العمل فى الأزمنة القديمة، ولكن ترك تطهير المجرى ما يقرب من ثلاثين سنة وامتلاء المجرى، واقتراب السيل من الدخول فى الحرم الشريف ملأ قلوب الناس بالقلق والاضطراب حتى إن السيل المخيف الذى ظهر فى ليلة الأربعاء فى اليوم الخامس أو العاشر من جمادى الأولى لسنة (٩٨٣) دخل داخل الحرم الشريف وحجبت المياه المتجمعة الحجر الأسود وباب الكعبة حتى قفلته، وظلت فى داخل الحرم يوما وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى داخل الحرم يومًا وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى سبعة أوقات. وعندما زالت هجمات السيل المخيف وأمكن السير فى داخل المسجد الحرام طهر مجرى السيل والطريق القديم للسيل وأخرجت الأحجار والأوحال التى تراكمت هنا وهناك، وغسلت الأماكن الكثيرة الكائنة داخل الحرم وخارجه، وفرش داخل ساحة الحرمين بالرمال والحصى.

وقد ظهر السيل المذكور قبل تعميق المجرى فاستصوب رأى أحمد بك الذى سبق ذكره، وعمق حفرة المجرى بحيث لا تدخل مياه السيول فى داخل الحرم، وذلك بتدبير من شريف مكة وسادتها وأعيانها وأهاليها، واتخذوا تطهير المجرى وتنظيفه كل سنتين مرة قاعدة لا يحيدون عنها.

وما كان القيام بهذا العمل ميسرا لكائن من كان سواء من سلاطين العثمانيين أو خلفاء بغداد أو ملوك مصر، ولذلك عد إنجاز هذا العمل من أعظم آثار هذين السلطانين العثمانيين وثمرة هذا المسعى. وتم هذا العمل بعد أربعة أعوام، وينقل عن أحمد بك نقلا موثوقا أن ما أنفق من الخزينة الخاصة للسلطان (١١٠٠٠) قطعة ذهبية لإتمام هذا العمل ما عدا ما أرسل إلى أحمد بك من جانب الإدارة المصرية من الآلات والمسامير الحديدية وأشياء أخرى خشبية والعلامات الذهبية التى وضعت فوق القباب، وكلها خارج الحساب وبعد أن تم ترميم الحرم الشريف وتطهير المجرى، أرسل بيان بكل ما تم عمله إلى استانبول، وسرت منه جماعات المسلمين سرورا عظيما ونظمت أبيات شعرية تؤرخ تمام هذا العمل العظيم بلغات مختلفة وقدمت إلى أعتاب السلطان.

ولما كان تعليق هذه التواريخ المنظومة كلها فوق أبواب المسجد الحرام يخالف الأصول المرعية، اختير أجمل ما كتب فى هذا الشأن وأرسل إلى إمارة مكة المكرمة من قبل السلطان السنى المناقب ليعلق أو يحك فى مكان مناسب من المسجد الحرام.

وقد أعجب علماء مكة بالتاريخ المنظوم المرسل من مقام الخلافة الجليلة وحفر على لوحة رخامية، وبعد تزيينها وتذهيبها علقوها على الجدار الشرقى للمسجد الحرام فى مكان بين باب على وباب عباس امتثالاً للأمر السلطانى، وقد رأينا أنه من المناسب أن نكتب الثلاث أبيات الأخيرة من تاريخ سليس؛ لأنها أنشدت أمام السلطان وإن كانت مقدمته منثورا ولكنه يعتبر من الآثار الأدبية القيمة.

صورة تاريخ سليس

هذا التاريخ لا نظير له وعلق على الجدار الشرقى للمسجد الحرام نظم عندما تم تعمير المسجد الحرام فى عهد السلطان مراد خان الثالث.

الحمد لله الذى أسس بناء الدين المتين بنبى الرحمة والرشاد، وخصصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد، وجعل حرم مكة مطافا لطواف الطائفين من أقاصى الممالك والبلاد، ﷺ وعلى أصحابه الأجلاء والأمجاد، ووفق عبده المعتدّ بأحكام الشريعة وتشييد أركانها على الوجه المراد، والمدخر ذخر المستزيد من زاد المعاد، ظله الممدود على مفارق العباد، السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد خان جعل الله الخلافة فيه وفى عقبه إلى يوم التناد، ولتجديد معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه والباد، فى فاتحة سلطنته العظمى لازال للحرمين المحترمين خادما، ولأساس الجور والاعتساف هادمًا، وتجدد حرم بيت الله ـ عز وجل ـ بأمر العزيز المبجل، وعَمَّرَ عَامِرُ جُودِهِ، ما تضعضع من أركانه، بعدما انتقض على جدرانه، مجدد جدران حرم البيت العتيق وسوره بأكمل الزينة وأجمل صورة، بعدما أبلاها الجديدان وأكل عيدان سقفها الأرضة والديدان،

فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب، وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب، فأذعنوا له بالشرف الباهر، والمجد الفاخر تالين قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة: ١٨) داعين له بالثواب الجزيل والذخر الزاخر، قائلين أدام الله فى سرير الخلافة محروسا بحفظك من كل آفة وظافر اعلا مشيد المجالس والمدارس، مجدد كل منهدم ودارس، واجعل بابه للراجين حرمًا آمنا وجنابه للمحتاجين كفيلا ضامنا، يأتون إليه من كل فج عميق بحرمة البيت العتيق، تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول، هذا الدعاء الحرى بالقبول، فلما أسس بنيانه على التقوى من الله والرضوان جاء مشيد الأركان، محاكيًا روضات الجنان، وصار هذا عنوان خلافته وبراعة استهلال النشور لسعادته وفى سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الهجرة، وكان الابتداء بذلك التجديد، بأمر والد الماجد الدارج إلى مدارج المجد السلطان السعيد.

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨: ٨٩).

السلطان سليم ابن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان جلبى سلطان محمد بن السلطان يلديرم بايزيد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان، مكنهم الله تعالى سرور الجنان إلى انقراض الزمان، وكان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة.

فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن التسليم، وارتحل من دار القصور إلى ما هيأ الله فى الجنة من القصور قبل تمام ما رام من تجديد المسجد الحرام، وأجلس على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس، وجعل حرمه (مثابة للناس)، يسر له إتمامه بلطفه إقبال وجوه الليالى والأيام وأنام الأنام فى مهد، عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ونظم راقم هذا الأرقام تاريخا يليق أن يكتب فى هذا المقام وهو هذا:

نظم

جـــدد السلطـــان مـــراد بـن سلـــيم

مسجـــد البيـــت العتيـــق المحتـــرم

ســـر منـــه المسلمـــون كلهـــم

دام منصـــور اللـــواء والعـــلم

قـــال روح القـــدس فـــى تاريخـــه

عمـر السلطـان مـراد (هـذا الحـرم)

سنة ٩٨٤

وهذه صورة التاريخ اللطيف الذى كتبه مولانا سيد حسين بن أبى بكر الحسينى مفتى مكة المكرمة الشافعى، وكتبه منثورا وقد أعجب به أهل مكة المعظمة لبلاغته السلسة، وعلق على جدران المسجد الحرام الشرقية أيضًا.

عربى

باسمه سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة: ١٨) فى عمارة هذا المسجد الشريف وتجديده من اختار الله سبحانه من خلقه وعبيده المقدس المرحوم المغفور له الشهيد سلطان الإسلام والمسلمين، خاقان خواقين العالمين، العازم بفضل الله ظلال دار النعيم حضرة الملك الأعظم السلطان سليم نور الله تعالى ضريحه، وروح بروائح الجنات روحه، وأتم بناءه وأكمله ولقنه ونقشه وجمله، وارث الأفخم الإمام الأعظم وشقيقه الأكبر المعظم، والملك القاهر العرمرم، من ملكه الله تعالى شرق البلاد وغربها، وجعل طلوع يديه عجم الرعايا وعربها، وأطلعه سراجا منيرا فى المشارق والمغارب، وملكا مرفوع المقام على هرم الكواكب، ومشيد الإسلام حصنا حصينا محيطا، وجعل ظله يخيم على كافة الأنام بسيطا، وعدله الفريد فى جميع الوجود مبسوطًا، وقمع سلطنته

الشريفة طوائف الكفر والغلاء، وجمع له بين اليائس والنداء، وصار ملكه الشريف بعون الله سبحانه مفردا خليفة الله على كافة العباد، ورحمته الشاملة بجميع البلاد، سلطان سلاطين الزمان، خلاصة خواقين آل عثمان السلطان ابن السلطان السلطان الخنكار الأعظم مراد خان لازال الوجود بدووام خلافته عامرا، وبدا برج الإيمان فى أيام سلطنته قويا ظاهرا، زاده الله قوة ونصرا، وشد بملائكته الكرام له إزرا، فتاريخ إتمامه قد جاء (أطال الله من أتمه عمرا) فى سنة ٩٨٤.

الذيل

وبعد مرور ستة وثلاثين عاما على عمارة السلطان مراد للمسجد الحرام أمر السلطان أحمد خان الأول بتعمير جهات المسجد الحرام لاقتضاء الحاجة إلى ترميمها وذلك فى سنة ١٠٢٠[1].

وبعد قيام السلطان أحمد الأول بهذا التعمير بمدة وجيزة، لزم تعمير بعض المواضع فى أبنية الكعبة المعظمة والحرم الشريف، وعرض الأمر على السلطان مصطفى الثانى، فأصدر أمره بترميم ما يلزم ترميمه، وكانت خمسة مداخل فى السقف الشريف قد بليت فبدلت كلها، وجدد السلم الذى يفضى إلى سطح الكعبة بأن جعل سبع درجات من درجاته من الرخام، كما محا آثار البلى عن جوانب الحجر الأسود الأربعة، فهدمت وجددت وقد قدمت والدة السلطان كل ما أنفق لهذه العمليات.

وفى عصر السلطان عبد الحميد الأول بليت بعض أعمدة المسجد الحرام وبعض قبابه، فأمر السلطان بتغيير هذه الأعمدة وتعمير القباب، كما رممت مئذنة باب العمرة والمآذن الأخرى بعض الشىء، إلا أن معالم المسجد الحرام احتاجت إلى الإصلاح والتعمير والتسوية بعد فترة.

(١) أراد المرحوم السلطان أحمد أن يسدى خدمة لم يقم بها أحد، وذلك بتجديد كعبة الله جاعلا إحدى أحجارها فضة والأخرى من ذهب، ولكن سعد الدين أفندى زاده ومحمد أفندى شيخ الإسلام فى ذلك الوقت رد على السلطان قائلا ولو أراد الله لجعل كل أحجار الكعبة من الياقوت فانثنى السلطان عن فكرته.

وفى السنة الميمونة التى وفق فيها السلطان مراد على تعمير بيت الله، وتم إصلاح وتعمير الأماكن التى احتاجت إلى التعمير والإصلاح وذلك فى سنة (١٠٤٥).

وبعد ما أجرى مراد الرابع من إصلاح ـ أى من عام (١٠٤٥) إلى عام (١٠٨٠) ـ عمرت الأماكن التى قد اقتضى الأمر تصليحها شرعا، ولم يترك فيها موضع للإصلاحات الكبيرة، وقد اهتم بكل شىء سواء أكانت مبانى المسجد الحرام، أو كانت المواقع الأخرى من مدينة مكة المعظمة وما فيها من المآثر اللطيفة.

أمر السلطان محمود والى مصر محمد على باشا بإجراء كل ما يلزم إصلاحه فى الأماكن المقدسة التى دعت إلى تعميرها الضرورة الشرعية توا بلا استئذان، وفى أواسط عام (١٢٣٥هـ) عرف محمد على باشا أن الخلل طرأ على سقف الكعبة إذ تخلّخلت بعض الألواح الرخامية، وأخذت المياه المجتمعة فوق سطح الكعبة طريقها إلى داخل بيت الله، وتبين وجوب ترميم وإصلاح كثير من المواضع خارج الحرم الشريف، وفرش سقف كعبة الله بالرخام المجلى الذى أرسل من إستانبول بناء على الطلب الذى قدم هناك، ودفنت الحجارة القديمة التى كانت تغطى سطح البيت فى حفرة حفرت بالقرب من بئر زمزم، وذلك بناء على رأى الشيخ عمر عبد الرسول وهو من الصلحاء المشهورين.

وبعد تعمير المسجد الحرام عمرت قبة مسجد الخيف الكائن فى منى ومئذنة مسجد المشعر الحرام[١] ومسجد نمرة[٢] الذى يطلق عليه اسم مسجد إبراهيم، ومسجد غار المرسلات[٣] ومسجد الإجابة[٤] ومسجد الجن[٥] ومسجد التنعيم[٦]

(١) هذا المسجد اللطيف فى المزدلفة.
(٢) مسجد نمرة فى ساحة عرفات.
(٣) فى منى والناحية الجبلية من مسجد الخيف.
(٤) فى المعلى
(٥) فى جهة المعلى.
(٦) فى العمرة.

ومسجد الحديبية[١] ومسجد مولد النبى[٢] ومقبرة خديجة الكبرى[٣] ومقبرة آمنة[٤] ودار السيدة خديجة الكبرى مع أضرحتها وقبابها[٥] ودار خيزران[٦] وضريح ميمونة[٧] كل هذه المآثر قد جددت بإحكام، وفرشت من الداخل بطنافس غالية وزينت من الخارج بنقوش ملونة، وفى النهاية بدلت عدة أعمدة من أعمدة المسجد الحرام التى أوشكت على الخراب وذلك فى سنة (١٢٣٥).

وكان السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان العادل قد بدل الأحجار التى تخلخلت داخل كعبة الله وحول الحجر الأسود الأسعد. كما جدد بعض القباب والأعمدة التى تحمل هذه القباب وأنشأ الأرصفة[٨] التى تؤدى إلى باب على والمدرسة السليمانية والتى تمتد عبر الساحة القبلية للحرم الشريف، وبعد ذلك بسنة أرسل أربعة شمعدانات عالية على شكل النخلة لتوضع على الجهات الأربعة من الساحة القبلية للمسجد الحرام، وهكذا أنار الحرم الشريف وقبل إرسال هذه الشمعدانات كان الناس يؤدون صلواتهم فى الظلام ليلا، وبعدما أنار السلطان عبد المجيد أطراف الكعبة المعظمة كما ذكر، شيد بإحكام بعض أعمدة القباب التى آلت إلى الخراب وجدد الجدران التى حول مقبرة المعلى دائرا ما دار، كما أصلح الجدار الخارجى للحطيم.

وبما أن جدار الحطيم كان جديدا رأى الأهالى أنه لا مساغ شرعا لتجديده، إلا أن والى جدة عثمان باشا (وكان أمين البناء) فى ذات الوقت لم يهتم بما يقوله الأهالى، فجدد ذلك الجدار كما يحلو له، وبعد ما أتم عثمان باشا إصلاح جدار

(١) فى وسط الطريق بين مكة وجدة.
(٢) فى داخل مكة.
(٣) فى مقبرة جنة المعلى.
(٤) هذا أيضًا فى المقبرة المذكورة.
(٥) فى نفس مكة.
(٦) هذا أيضا فى داخل مدينة مكة.
(٧) بين وادى فاطمة ومسجد عمر.
(٨) وكان موضع الأرصفة أرضا رملية.

الحطيم أتجه إلى مخزنين للمهمات[1] فى ساحة المسجد الحرام وعمرهما، وجعل أحدهما دارا للميقاتى والآخر مكتبة[2] وجلب لها كتبا كثيرة من إستانبول، وهكذا زين تلك المبانى وفى النهاية جدد مبانى مسجد الخيف، ثم جدد المسجد الكائن فى الطائف، وضريح عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) كما جدد بإحكام مقبرتى (طاهر) بن الرسول ﷺ ومحمد حنفى[3] بن على (رضى الله عنهم) وذلك فى عام (١٢٦٢).

بعد العصر المذكور بمدة صدر الأمر السلطانى بتجديد الدار التى شهدت مولد النبى ﷺ، ومسقط رأس الصديق، وسقط رأس على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكذلك الأضرحة ومقابر الشهداء التى فى طريق العمرة، وضريح السيدة ميمونة ﷺ ومسجد مذبح إسماعيل (عليه السلام)[4]، وعمر سبيل باب الصفا الذى كان قد اتخذ دار خلاء، فجعل دار أبى جهل وأبى اللهب فى باب النبى دارين للخلاء، وجدد غطاء مقبرة أم المؤمنين ميمونة (رضى الله عنها)، وبنى سبيلين أمام ضريحها، وألحق بعض الحجر بالدار التى ولد فيها أبو بكر رضى الله عنه، واختصها بالخدم، وجدد منازل الخدم التى تتصل بمسقط رأس حمزة (رضى الله عنه) وذلك فى سنة (١٢٦٢).

رؤيا عثمان باشا

بينما كان عثمان باشا ينهى عمليات ترميم دار مسقط رأس حمزة، رأى فى منامه أن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد شرف داره بالزيارة، وفسر الذين سئلوا عن تفسير الرؤيا ما رآه عثمان باشا فى منامه بأن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد سر وابتهج من تعمير مسقط رأسه، وعلى هذا قد ذبح الباشا المذكور كثيرا من القرابين على أنها من قبل السلطان، ووزع لحومها على الفقراء والمساكين، وبما

(١) كان اسم المخزنين قبة الفراشين.

(٢) وفى عام (١٢٩٨) كل من دار الميقاتى والمكتبة.

(٣) محمد بن على بن أبى طالب، أبو القاسم بن الحنفية ـ نسبة لأمه من بنى حنيفة ـ المدنى، ثقة عالم، مات بعد سنة ٨٠هـ. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ١٩٢.

(٤) فى منى.

أن مذبح إسماعيل كان خاليا من الجدار فأحيا ذلك المكان ببناء الجدار، كما أنه هدم البيت الخاص ببنى شيبة، وأنشأه من جديد، وبهذا استجلب دعوات الأهالى والزوار بالخير للسلطان سنى المناقب وذلك فى سنة (١٢٦٢) وظلت مبانى المسجد الحرام بفضل هذه العمارة أربعة وثلاثين عاما بعيدة عن الخلل؛ إلا أن رخام المطاف وأماكن أخرى احتاجت إلى التعمير، وبناء على هذا جدد الرخام المذكور وكذلك الأحجار التى فرشت بها تحت القباب، وكذلك الأحجار التى فرشت بها أرضية بيت الله أو أصلحت إلا أن مبانى المسجد الحرام ظلت بعيدة عن المساس وذلك فى سنة (١٢٩٣) وفى تعمير أحجار داخل الكعبة وتجديدها نظم مفتى مكة الشافعى أحمد دحلان أفندى هذا التاريخ:

لسلطاننـــا عبـــد المجيـــد محاســن

ومـن ذا الـــذى بالحَصْـــرِ يقـــوى عـدد

وقـــد حـــاز تعمـــير الباطـــن كعبـــة

وتاريخـــه بيـــت مزيـــد يجـــــدد

بناء بـــدا زهـــوا لداخـــل كعبـــة

وسلطاننـــا عبـــد الحميـــد المجـــدد

ورأى مهندس البلدية الذى عهد إليه بالتعمير أن بعض الأماكن المقدسة أشرفت على الخراب، وعرض ذلك على المسئولين مع الخريطة التى رسمها للأماكن التى يلزم تعميرها.

ولكن الزمن لم يكن مساعدا لكل هذا العمل والتزم ألا يفتح الباب لنفقات باهظة لتعمير سطحى وتسوية قليلة. وفى الخريطة التى وضحت الأماكن التى تحتاج إلى التصليح فى المسجد الحرام رئى تجديد وترميم عدة أعمدة قائمة أمام محفل الشافعية والمدرسة الداودية وباب إبراهيم (الزيادة)، ليعنى إصلاح أربعة أعداد من الأعمدة الرخامية التى تحمل القبب الحجرية التى فى الساحة الرملية

من باب العمرة، وكذلك ثلاث قبب ملاصقة للمدرسة اليمانية التى تلاصق باب إبراهيم (الزيادة)، يعنى أن الأعمدة الثلاثة التى تعد كأرجل تحمل عقود القبب التى قد برزت عن مستواها وأوشكت على الانهيار بغتة، وكما بدا أن ترميم تلك الدعائم سوف يكلف (٧٥٠٠٠) قرش ولذلك صرف النظر عن إصلاح المظلة الشافعية، ورئى أن يدعم الأعمدة الثلاثة التى أمام المدرسة الداودية والثلاثة أعمدة الواقعة بجانب قصر نقيب السادات بدعامات وقتية ومساند؛ لأن إبقاءها على حالها كان خطرا، وفعلا اتخذ الإجراءات اللازمة لذلك وبهذا أعيد للناس ما سلب منهم من الشعور بالأمن وذلك فى سنة (١٢٩٦).

وقد أدرك بعد تنفيذ القرار السابق بعامين أن الأعمدة الستة ستنهار بغتة، وأن إبقاءها على تلك الحالة فى المسجد الحرام غير لائق، وسيثير قلق المسلمين ولاسيما أولئك الذين يعيشون تحت إدارة الدول الأجنبية من إخوان الدين.

لذا رأى عثمان نورى باشا والى الحجاز وقائد جيش الدولة العثمانية فى الحجاز أن يكشف وأن يعاين بدقيق الفحص تلك الأعمدة من قبل ضباط أركان الحرب من جديد، ثم بعث بنتيجة الفحص مع الخريطة السابقة التى رسمت من قبله إلى الباب السلطانى، واستأذنه فى تعمير تلك الأعمدة، ولما وصل الإذن السلطانى أمرًا بهدم تلك الأماكن عين القائم مقام صادق بك كبير مهندسى عين زبيدة للقيام بالبناء.

وفى غرة رجب عام (١٢٩٩) شرع صادق بك فى إيفاء ما كلف به فهدم القباب المذكورة وبسهولة جر الأعمدة الرخامية التى ترفع العقود بواسطة آلات الجر وربطها فى أماكنها بأوتار حديدية ربطا محكما، ثم أقام عليها القباب طبق أصول الفن المعمارى، وبذلك رفع الخطر الذى كان يهدد الناس فى داخل الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣١١).

بينما كان صادق بك مشغولا بإقامة القباب المذكورة رأى أن الأعمدة التى تحمل القبتين اللتين أمام باب على ومتصلتين بالساحة الرملية تزحزحت

أعمدتهما، فأخبر بذلك عثمان باشا وتلقى منه الأمر بالإصلاح فهدمها وأقامها وفق الفن المعمارى والقاعدة الهندسية بصورة متينة رصينة وذلك فى سنة (١٣١٩).

وقبل الدخول إلى الحرم الشريف من باب إبراهيم كان هناك ثلاث درجات وفى وسط القبتين حجر فى طرفيه درجات الارتقاء والنزول، وقد جعلت بطريقة سيئة مما كان يسبب لجماعات المسلمين فى طلوعهم ودخولهم مشقة كبيرة، وعند إدخال الجنازات فى الحرم كان بعض المسنين الضعفاء يسقطون على الأرض تحت الأقدام و يضجون بالصراخ.

ولما أبلغ الأمر من الأهالى والمجاورين إلى عثمان باشا أمر بهدم ذلك المكان وتجديده وتوسيعه، فجدد كما ينبغى فسهل الصعود والنزول وذلك فى عام (١٢٩٩).

وكان فى الطرف الشرقى للكعبة وبالقرب من بئر زمزم فى جهة باب على قبتان يرجع عهدهما إلى زمن قدماء الملوك، وكانت مساحة كل قبة ستة أمتار مربعة فأمر السلطان عبد المجيد والد السلطان فى عام ١٢٦٢ بتحويل أحد القبتين إلى بيت للميقاتى والأخرى إلى مكتبة، ولكن وجود هاتين القبتين كان يضر بالحرم الشريف، ويحول دون رؤية المصلين الذين يصلون أمام باب على وباب عباس للكعبة الشريفة.

كما أن مياه السيول المتراكمة فى وادى إبراهيم عندما تهطل الأمطار كانت تدخل إلى داخل الحرم الشريف وتتلف كتب المكتبة القيمة، وبناء على ذلك وقبل سبعة عشر عاما أى فى عام (١٢٨٤) أفتى شيوخ المذاهب الأربعة بهدم هذه الأبنية ونقل ساعات الميقاتى وكتب المكتبة إلى أماكن مأمونة، وتخصيص ذلك المكان لأداء الصلاة فيه و رغم أن الفتوى كانت بإجماع الآراء وقد حازت موافقة السلطان؛ إلا أنها لم تنفذ إلى الآن لسبب مجهول، ولكن عثمان باشا أمر بنقل مكتبة المدرسة السليمانية ودار التوقيت إلى مكان مناسب فى ناحية باب النبى، وتسوية أرضيهما وفرشها بالرمال وذلك فى سنة (١٣١٩).

إن المكان الذى نقلت إليه المكتبة قبة كبيرة تقع فى الجهة اليمنى عند الدخول إلى المدرسة السليمانية، وكانت هذه القبة تعرف بدار الحديث، ولكنها تعرف الآن بدار أحمد باشا.

وبناءا على ذلك عمر ما يجب تعميره من دار الحديث، وجلب لها القدر الكافى من الدواليب والرفوف الزجاجية، ووسع بابها ووضعت اللوحة الرخامية التى عليها التاريخ والتى كانت موضوعة فوق باب المكتبة القديمة فوق باب المكتبة الجديدة، هكذا أصبحت المكتبة الجديدة مكتبة جميلة مزينة بالنسبة للمكتبة القديمة[1].

تاريخ المكتبة

إن الدعاء واجب ليل نهار على أهل الإسلام كافة
وهم يشهدون آثار خير السلطان عبد المجيد خان
إن ذلك الوزير المجتبى يسعى على الدوام مسعاه
فيجلب دعاء الخير لأسرة آل عثمان
إنه شريف باشا الأكرم الملقب بشيخ الحرم
ففى كل أيام ينال الخير والإحسان
يالحسن دار الكتب تلك التى أحسن
فيها توسيع المكان
أذاع شوقى لها التاريخ جوهرا
مخبرا بفتح المكتبة أهل العرفان

فى عام ١٢٦٢.

(١) قد اتخذت القبة الثانية التى تقع بجانب المكتبة خزينة الحجاز، وعندما أنشئت دار خزانة على مايرام فنقلت الخزينة إلى مكانها الجديد. وتقرر أن يتخذ هذا المكان دارًا للعلوم من قبل الحكومة. وإن كانت المدرسة السليمانية لها قبتان أيضا إلا أنهما اتخذتا محكمة شرعية منذ فترة طويلة.

فى تلك المكتبة (٣٥٥٣) كتابا أرسلت من قبل السلطان عبد المجيد، ويتولى أمانة هذه الدار الشيخ محمود أفندى من مدرسى الحرم الشريف يعاونه رفيقان من الموظفين.

وإن كان للصدر الأعظم الأسبق محمد رشدى باشا الشروانى (١٣٦٢) مجلدا من الكتب تحت حفظ أمين المكتبة محمد رشدى الداغستانى وسيد على، إلا أن هذه الكتب مودعة فى مدرسة خاصة فى مواجهة الحرم الشريف.

وتقع دار التوقيت فى اتصال السلم الذى فى داخل الحرم الشريف، ويدخل فيها من هذا السلم وقد بنيت مبانى دار التوقيت، فهى تحت الرواق وفوق دكة النساء وعلى بعد مترين من جدار الحرم الشريف، وقد أسس على شكل شبه منحرف وعلى هيئة غاية فى الجمال.

ولدار التوقيت ثلاث نوافذ ويبلغ عرض كل واحدة منها مترا وطولها مترين، وقد فتحت إحداها بثقب جدار الحرم الشريف، وترى منها مدرسة الخاصكية، وفتحت نافذتان منها، ينظر منها إلى كعبة الله من داخل الحرم الشريف، فالذين يمرون بالمسعى يضبطون ساعاتهم ناظرين من النافذة التى تواجه مدرسة الخاصكية، والذين فى داخل الحرم الشريف يضبطونها ناظرين من النافذتين اللتين فى ناحية كعبة الله.

إن حجر التاريخ القديم الخاص بدار التوقيت قد وضع فوق النافذة التى تطل على شارع المسعى، وقد جددت زخرفته وألوانه كما جددت زخرفة وألوان حجر التاريخ الذى وضع فوق باب المكتبة.

بما أن ألوان طلاء الرواق المطل على الساحة الرملية قد محيت وتعذرت قراءة خطوطه، وبذلك قبح منظره داخل الحرم، وذلك عند تعمير وإصلاح أعمدة القباب التى فى ناحية باب العمرة وباب إبراهيم زيادة وباب على، ولتغيير هذا المنظر جدد طلاء الرواق وأسماء الجلالة التى بين الرواقين مع الخطوط الكائنة فى

ناحية باب السلام وباب إبراهيم، وطليت أرضيتها بلون أخضر داكن وأسماء الجلالة مع الخطوط طليت بلون أصفر شبيه باللون الذهبى، ورمم وأصلح طلاء الجدران وذلك فى سنة (١٢٩٩).

وبعد ما وفق عثمان باشا فى ترميم هذه الأماكن جعل المقام الحنبلى الذى كان يواجه الحجر الأسود بين الحجر الأسود والركن اليمانى، أو مقابل المقام الحنفى، ورمم وأصلح الأماكن الأخرى من حرم المسجد الحرام على أحسن وجه، وطلا جميع جهات الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣٠٠).

إن الحرم الشريف الآن فى شكل مستطيل، وإن الكعبة المعظمة تقع فى وسط المسجد الحرام، وبئر زمزم فى الجهة الشرقية الجنوبية لباب كعبة الله، ومقام إبراهيم فى الجهة الشمالية من باب الكعبة، وحجر إسماعيل فى الجهة الشمالية للبقعة المفخمة، والمقام الحنفى مقابل ذلك، والمقام الشافعى خلف مقام إبراهيم، والمقام المالكى فى الجهة الغربية من البيت الشريف، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية من البيت المنير الشريف فى اتصال مقام إبراهيم من الجهة الغربية، وكان فى ناحية باب أجياد وفى اتصال العمارة المصرية المدرسة المجيدية غير تام الإنشاء، وقد حول عثمان باشا هذه المدرسة إلى دائرة حكومية لسكنى المواطنين، وحول القلعة الهندية إلى معسكر يسمى غيرتيه، وجدد المعسكر السلطانى للمدفعية وقسم الشرطة الكائن أمام باب على، وخصصهما كلهما لإقامة جنود السلطان الموعود بالنصر. إن معسكر غيريته فوق الهضبة التى تتصل بجبل الترك الواقع فى الجهة الغربية من مكة المكرمة، وقلعة جياد فوق هضبة واقعة فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة والعسكر السلطانى للمدفعية كأنه فى وادى المعسكر الواقع فى جياد مستشفى قلعة الفلفل فى الجهة الشرقية من جبل الترك، وقسم الشرطة الرئيسى فى الصفا، والمعسكر الحميدى السلطانى والدوائر الحكومية الضخمة الكائنة فى مكان قريب من باب أم هانئ.

* * *

تحتوى على أربع صور تعرف بالتفصيل بالهدايا والتزيينات وأصحاب المعلقات العتيقة والكساوى والقناديل والأشخاص الذين أهدوا لتلك البقعة المقدسة هدايا ثمينة والذين شرحوا مسائل جواز إهداء الكسوة

ومما يتكون المحمل الشريف وماذا يعنى فى لسان العامة؟

فى ذكر الذين قدموا الهدايا لكعبة الله وزينوها والذين رمموها وعمروها عند الضرورة

وكان باب كعبة الله قبل أن يهاجر النبى ﷺ، إلى المدينة المنورة بأربعمائة عام تقريبا من غير مصراع، وقد ركب أبو كرب بن أسعد الحميرى من ملوك اليمن قبل الهجرة النبوية بسبعمائة عام على باب كعبة الله مصراعا فوقه قفل.

وكان الباب الذى ركبه أبو كرب قطعة واحدة ويشق استعماله، وأراد قصى بن كلاب أن يزيل الصعوبة ويسهل الفتح والغلق، فقسم ذلك الباب إلى جناحين، لكن الذين أتوا بعد قصى حولوه لقطعة واحدة.

ولما جدد عبد الله بن الزبير كعبة الله جعل باب الكعبة بمصراعين، وطلا باب كعبة الله والأعمدة الداخلية للكعبة وسطح الكعبة وسقفها بالذهب، وصنع مفتاحا من ذهب لقفل باب الكعبة فى سنة ٦٤ هجرية.

وغير الحجاج الظالم مصراعى باب كعبة الله اللذين صنعهما عبد الله بن الزبير، ورفع عتبة باب الكعبة عن الأرض ستة أقدام وأربع بوصات.

وجعل طول الباب تسعة أقدام وبوصتين وزخرفه[1]، وزخرف «عبد الملك بن مروان» من ملوك بنى أمية باب الكعبة المعلى للمرة الثالثة، كما أرسل ابنه الوليد إلى خالد بن عبد الله والى مكة ستة وثلاثين ألف دينارا ليجدد زخارف الميزاب اللطيف وأعمدة باب الكعبة الداخلية فى سنة ٨٩، كما أن محمد الأمين بن هارون الرشيد من الخلفاء العباسيين أرسل إلى واليه فى مكة سالم بن الجراح

(١) وفى عهد ابن الزبير كانت عتبة باب المعلى للكعبة فى مستوى أرض المطاف، وكان ارتفاعه (١٥ قدما و٦ بوصات) وعرضه (٦ أقدام و٤ بوصات).

ثمانية عشر ألف دينارا ذهبيا، ليجعل مسامير باب الكعبة وحلقاته من الذهب الخالص وذلك فى سنة ١٩٥، ثم اقتلع ذهب الأعمدة التى أمر وليد بن عبد الملك بتذهيبها وأعاد تذهيبها على شكل أفضل.

وإن كان سالم بن الجراح قد عمر وزين الأماكن التى سبق ذكرها بثمانى عشرة ألف قطعة ذهبية أرسلت من بغداد، إلا أنه أذاب الألواح الذهبية التى تغطى مصراعى باب الكعبة، واستعملها وقد صرف على الألواح التى ركبت ثلاثا وثلاثين ألف قطعة ذهبية، وغطى مصراعى الباب وقت اقتلاع الألواح بستارة من قماش أصفر، وإلى عهد المتوكل بالله العباسى[1]، كانت زاويتا الكعبة فى الداخل الزوايتين الفضيتين من ذهب أيضا، فاستجاب المتوكل بالله وأرسل إسحاق بن سلمة وهو صانع بارع فرصع زوايا كعبة الله الأربع على نسق واحد كان ذلك عام ٢٤٤، وزين الستارة الداخلية بحزام من فضة عرضه ثلاثة أذرع ثم أدخل إلى الحزام مقطعا من ذهب خالص، كما أنه أصلح عتبة باب الكعبة المصنوعة من خشب الساج وغلفها بألواح فضية.

وبناء على ما يروى من الصانع المذكور أنه قد أنفق على الزوايا الأربع والمنطق الذهبى ثمانين مثقالاً ذهبًا، وللحزام وألواح الباب ستين أوقية ونصف يعنى (١٤٢٠) درهما من الفضة.

وما أرسل إلى بيت الله من الهدايا وأدوات التزيين الغالية تعظيما له بعد المتوكل بالله، ما فى الأبواب والزوايا من ألواح ذهبية وفضية اقتلعها ولاة مكة وحولوها إلى ذهب ونقود، وأرادوا أن يخمدوا الثورة التى اندلعت فى سنة ٢٨١، وبهذه الطريقة تركوا كعبة الله فى مثل البناء العادى وقد جدد المعتضد بالله أول ما اقتلع، وصرف من تزيينات كعبة الله وأعادها إلى حالتها السابقة وذلك فى سنة ٢٨٣.

كما أن لؤلؤ غلام والدة الخليفة المقتدر بالله قد جدد وعمر داخل بيت الله وخارجه وأعمدته اللطيفة بإيعاز من سيدته وذلك فى عام ٣١٠.

(١) وهو أول من اتخذ الشافعية مذهبا له من خلفاء بنى عباس.

كما أن جمال الدين جواد من وزراء الملوك المصريين أرسل خمسة آلاف قطعة ذهبية، فنظم وذهب الطلاء الداخلى لكعبة الله، وجدد أبواب المسجد الحرام كلها وذلك فى سنة ٥٤٩.

كما أن جمال الدين جواد قد جدد مصراعى باب الكعبة اللذين كانا ركبهما الحجاج بن يوسف الثقفى.

وبناء على الأمر الوارد التقى قاضى مكة مع ناظر الحرم الشريف وأرسل الباب القديم بناء على توصية أمير الحرمين قاسم ابن هاشم إلى حاكم مصر المقتفى بالله[١] ووهب الخليفة المشار إليه ما انتزع من فضة من فوق ذلك الباب إلى أمير مكة المعظم قاسم بن هاشم.

وقد وصى المقتفى بالله أن يصنع من ذلك الباب تابوتا ويدفن معه متبركا به وفعلا قد نفذت وصيته عند وفاته.

وفى عام ٩٥٦ ذهب وزخرف البقعة المباركة لكعبة الله حاكم اليمن الملك المظفر الغسانى، وبعده حفيد الملك المظفر الملك المجاهد.

وفى سنة ٧٣٥ أرسل ملك مصر ناصر بن محمد قلاوون الصالحى[٢] خمسة وثلاثين ألفا من ذهب مصرى، وفى سنة ٧٧٠ حفيد الملك ناصر أشرف صرف نقودا لا تحصى، وهكذا جدد كل واحد منهم عقب الآخر الطلاء الذهبى لكعبة الله وزخرفوها، وجدد ناصر بن محمد بن قلاوون الصالحى الباب الذى صنعه الملك المظفر، كما أن الملك المظفر الغسانى كان قد جدد الباب الذى صنعه جمال الدين ابن جواد.

(١) اسم المقتفى بالله محمد أبو عبد الله واسم أبيه المستظفر قد رأى هذا الشخص فى رؤياه قبل جلوسه على كرسى الخلافة بستة أيام سلطان الرسل ﷺ، وقد وجه له النبى ﷺ خطابا فقال له «يا محمد يظهر أنك ستنادى خليفة عما قريب وعندئذ يجب عليك أن تقتفى أثرى، وبناء على ذلك لقب بالمقتفى بالله.

(٢) كان مصراعا الباب القديم اللذين جددهما الملك الناصر من خشب الساج، وكان عرض كل لوح خشبى ذراعا واحدا.

وقد تحدث القطب المكى من مؤرخى مكة عن مصراعى باب الكعبة اللتين غلفهما الملك الأشرف بألواح فضية، وبعد أن وصف بالتفصيل متانة مصراعى الباب وجمال صناعتهما فى تاريخه القيم الذى ألفه، قال: «كان بعض اللصوص يتحينون فرصة ليسرقوا ألواح باب كعبة الله الفضية بعد قلعها، وقد سرقت عتبة بيت الله وأصبحت عارية، وقد قبض على اللصوص المتجاسرين مرات وأخذوا بالعقاب، إلا أن استمرار سرقة زينة بيت الله الخارجية وأيلولة سطح بيت الله إلى الخراب، وأصبحت قطرات المطر تنفذ من سقف البيت، جعل بعض أهل البصيرة الذين اطلعوا على حقيقة الأمور يرفعون أصواتهم جازعين هالعين.

ولذا أتى إلى مكة المكرمة شيخ القاهرة حمد الله أفندى بنية الحج ورأى ما حل بالسطح الشريف من خراب، وذلك فى عام ٩٥٨ أو ٩٦١ هجرية، لقى قاضى مكة محمود جلبى أخا زوجه وتشاور معه ورأيا أن الأمر يجب أن يعرض على باب السعادة، وأوصيا إمارة مكة المكرمة وولاية الحجاز بذلك، وسعى مسئولو الإمارة والولاية بإبلاغ أمر وجوب التعمير إلى الباب السلطانى وما كان من السلطان سليمان بن السلطان سليم خان إلا أن استصدر فتوى تنطق بضرورة تعمير بيت الله من سلطان العلماء أبو السعود أفندى، وأرسل هذه الفتوى إلى أمير أمراء مصر، وأمره بأن يعمل على تعمير بيت الله سريعًا بمجرد ورود الأمر السلطانى، وفتوى المشيخة السلطانية.

وبادر على باشا أمير الأمراء بإرسال الأمر السلطانى والفتوى الشرعية إلى قاضى مكة أحمد جلبى، وذلك فى سنة ٩٥٩، وتشاورا كثيرًا بخصوص الموضوع ثم استدعيا وجمعا أعيان مكة وأكابرها وعلماء المذهب الحنفى والشافعى الفضلاء، وتليا الأمر السلطانى الوارد عليهم ثم أخذوا يتذاكرون كيفية تنفيذ الأمر السلطانى، ثم قرروا معاينة وكشف السطح الشريف عقب صلاة الجمعة ١٤ من شهر ربيع الأول سنة ٩٥٩، وقال أحد الموظفين الذى عين للكشف

(١) كان هذا الشخص قد عين ناظرًا لعمارة البيت من قبل والى مصر، كما أن مصطفى جلبى الأشول كان قد عين موظفا فى ديوان كتابة تلك العمليات ويقال له أحمد جلبى المقاطع، ومن مؤلفاته ترجمة روضة الشهداء «سعادت نامه» ومخلصه جامى.

بموافقة الجميع بعد المعاينة، قطعة من العمود الخشبى هبطت اثنى عشر خطا عن سائر الأرضيات، كما أن خشبة من طرف الباب تخلخلت عن مكانها وهبطت تسعة خطوط عن مكانها ولم تعد صالحة للاستعمال، وإذا لم تصلح وتعمر من الآن فمن الممكن أن يسقط السقف كاملا فجأة وصدق زميله الآخر على ما قاله، وبناء على ذلك شرعوا فى تعمير السطح الشريف يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٩٥٩.

وخالف بعض علماء مكة موضوع التعمير قائلين يجب أن يترك البيت المعظم بدون تعمير وتصليح ما لم تسقط على الأقل جهة من جهاته توقيرا للبيت، وحثوا عامة الناس على النزاع وأرادوا أن يوفقوا بين مُدَّعاهم والأقوال الأخرى، وكادت أن تحدث فتنة عظيمة؛ إلا أن مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى الشافعى ألف كتابا أسماه «المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة» رد فيه على آراء المخالفين، وخرج مسائلهم ونقل فى كتابه المسائل التى تجيز التعمير فى كتاب «استقصاء البيان فى مسألة الشادروان» للمحب الطبرى والكتب الأخرى للسلف الصالح.

كما أضاف إلى كتابه ما روى عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الحديث الشريف الذى يجيز تعمير كعبة الله المعظمة، إلا أنه لم يستطع إسكات الذين يؤيدون العلماء المخالفين وإقناعهم، وعندئذ أبلغوا الأمر إلى أمير الحجاز مولانا سيد شريف أحمد بن أبى نمى الذى كان فى البرية، فعاد من البرية واستدعى إليه مولانا الشيخ محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى، وطلب منه أن يفسر الآية الجليلة ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ (البقرة: ١٢٧) أمام كعبة الله.

وحضر هذا المجلس الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعى الذى سبق ذكره والشيخ نور الدين بن إبراهيم العسلى والقاضى الحسنى بن فايز بن ظهير ومفتى الحنفية قطب الدين بن علاء الدين.

وبناء على رجاء سيد شهاب الدين أحمد بن أبى نمى أخذ الشيخ أبو الحسن البكرى يفسر الآية التى سبق ذكرها بلسان فصيح، وبيان صحيح وختم التفسير

ببيان المسائل التى تجيز التعمير، ثم قام عقب ذلك ناظر الحرم الشريف وقدم إلى الأمير الأمر السلطانى والفتوى الشريفة للمشيخة السلطانية، وفتح الشيخ المشار إليه الأمر السلطانى والفتوى وقرأهما على ملأ من الناس، ثم تساءل قائلا من هم الذين يخالفون أحكام هذه الفتوى ويتجرءون على تشويش أذهان الجمهور وتخديشها، إن هذه الفتوى ما هى إلا تعزيز لصحة تعمير السقف الشريف واستصواب ذلك، إن حكم هذه الفتوى وما تحتوى عليه يوافق تماما أحكام الشرع الشريف ويجب أن يبادر بتنفيذ ما جاء فيها والبدء فى العمليات الإنشائية بدقة. وبناء على ذلك صعد العمال الذين اختيروا من قبل وعاينوا الأماكن التى أشير إليها فى ورقة الكشف، وعمروا[1] بعض مداخل الأعمدة الخشبية على السطح والأماكن التى هبطت عن مستواها، مما يؤدى إلى سقوط السقف كله، كما بين ذلك المهندسون الذين كشفوا ذلك، كما سووا قطع الرخام التى على أرض المطاف والتى كانت فى حاجة إلى التعمير والإصلاح، وغيروا الرمال ذات الحصى الموجودة حول المطاف وعرضوا الأمر على الباب العالى، وقد شرح مولانا قطبى أفندى لذلك فى مصراع بديع قائلا:

مجدد بيت الله مالك الدول سليمان[2]

وبعد ما أرسل الباب العالى قدرا كافيا من الفضة لتعمير المحراب الشريف وباب الكعبة المعلى بالأمر السلطانى، جددت ألواح باب الكعبة الفضية بتلك الفضة، وسوى سطح الباب بمسامير فضية ثمينة، كما ركبت عليه أربع قطع من حلقات فضية، وغلف ميزاب الرحمة بالفضة وزخرفوا سطحه، وهكذا نفذوا الإرادة السنية للخلافة وذلك فى سنة ٩٥١، وفى سنة ٩٦٠ أرسلت قطعة فضية للميزاب وعند وصولها رفع الميزاب القديم، ووضعوا مكانه الميزاب الفضى الجديد وأرسل الميزاب القديم إلى باب السعادة للاحتفاظ به تبركا فى خزينة السلطان، كما سيبين فى الأمر السلطانى الذى سيأتى ذكره فيما بعد، وعرضوا الانتهاء من تعمير تلك البقعة المفخمة.

(١) وكان سطح كعبة الله قد عمر قبل ذلك فى سنة ٨١٤ و٨٢٤ وسنة ٨٢٦ و ٨٤٣ أربع مرات كما عمر بعد ذلك فى سنوات ١٠٢١ و ١٠٤٣ و ١٠٤٤ و١١١٥ و١٢٣٥ خمس مرات.

(٢) قد يكون هذا تعمية ذلك التاريخ ولغزها.

التاريخ اللطيف

الذى نظمه غبارى أفندى الشهير عند تجديد الميزاب

قطعة

يـا مــولاى أنـت فيــض العالــم

بـدا فـى هــذا الميــزاب غيــض

أرونــى مـن ميـــزاب فيضـــك

فقد أصبح تاريخ (ميزاب الفيض)

وعند وصول الميزاب الفضى بدأ تعمير رخام المطاف والحرم الشريف والمنزل الذى ولد فيه النبى ﷺ وأتموا ذلك فى ٩٦٢.

هذه هى صورة الخطاب السلطانى الذى أرسله السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان يتضمن إرساله قطعا من الفضة لتجديد ميزاب كعبة الله وقطعتين من الثياب الثمينة إلى أمير مكة المكرمة السيد الشريف شهاب الدين أحمد أبى نمى تكريمًا له، وأن تحققت للأمير رغبته فى إرسال الميزاب القديم للتبرك. « .... وإلى الآن من يخرجون إلى أداء فريضة الحج وزيارة الروضة المطهرة بعون الله المتعال من الحجاج المسلمين يرغبون فى نيل سعادة مسح وجوههم بتراب الحرم النبوى الطاهر، ويسعون لتحقيق الدعوة الكريمة» ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

بكل نقاء روحى ويصلون إلى الحرمين الشريفين والمقامين المتينين مهبط الروح الأمين ومنزل الوحى، قاطعين المسافات وطاوين المراحل، يصلون إلى أعظم بقعة حيث يمسحون وجوههم على ساحة المطاف المعظم، وهم يتضرعون فى عبودية تامة وخضوع شديد، ويشعر عندئذ كل واحد منهم كأنه سلطان الدنيا وملك العالم، وأنه علا فوق كل شىء ومع كل هذا يقف أمام المقام الإلهى بكل خضوع وذلة، متجردا من ملابسه التى يفتخر بها، ملتفا بملابس الإحرام داعيا متضرعا مستغيثا، والمسلمون فى تلك الحالة الروحية السابقة عليكم أن تعظوهم بالاستمرار فى الأدعية المستجابة لدوام دولتنا وعزنا وقوتنا، وعليكم أن تبذلوا

سعيكم فى وضع الميزاب الجديد ومستلزماته فى أماكنها، وذلك فى احتفال عظيم يحضره العلماء الصالحون والأشراف والأتقياء وأطفال المسلمين، وحسب العادة يتلون القرآن الكريم ويختمونه، ثم يتوجهون إلى الله ضارعين داعين لانتصار جيوشنا فى البر والبحر، وخذل أعدائنا اللئام وعندما يصل إلى مينائى جدة يَنبُع من مصر القاهرة ما أنعمنا به من الغلال والخيرات وما تقرر إرساله من جانبنا من صدقات ونذور، تحت وصاية أمير أمراء الحبشة المالى، وأميرنا الموثوق به عليكم أن تبذلوا كل الهمة لاستلامها، ونقلها على ظهور الجمال إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وحسن توزيعها على فقراء الحرمين حتى تنتظم معيشتهم ويستقرون وأرجو أن تبذلوا سعيكم لترميم بيت الله، وإتمامه على النحو الذى سبق توضيحه.

ولما أنكم نلتم رضانا أكثر من أجدادكم الكرام، ونالت أعمالكم استحساننا على ما أوفى إلينا رجالنا الموثوق بهم، فاستوجب كل هذا الثناء عليكم، وأملنا أن تظلوا راعين جانبنا خاضعين لنا كأجدادكم العظام، وأن تعملوا دائمًا على بذل الجهد لخير دولتنا، وإذ فاض كرمنا نحوكم رأينا أن نرسل لكم خلعتين فخمتين إحداهما من السمور، وهى خلعة فخمة عظيمة يحملها مع رسالتنا السلطانية قدوة الأماجد والأكارم مصطفى أغا من المسئولين عن مطابخنا دام مجده.

وعندما تصل هذه الأشياء عليكم أن تلقوها بكل عناية، وأن تلبسوا الخلعتين بكل فخر مظهرين خضوعكم وصداقتكم لدولتنا، وفق ما جبلتم عليه أبا عن جد، وأن تضعوا لوح الميزاب المبارك فى مكانه فى ساعة مباركة ميمونة، وأن ترسلوا إلينا بالميزاب القديم لنحتفظ به تبركا، وبناء على عاداتكم المرضية أن تداوموا مع الأشراف والعلماء وعامة الصلحاء بالدعاء لاستمرار دولتنا عزيزة قوية، وأن تعتنوا برعاية الحرمين الشريفين وصيانتهما بكل دقة وعناية حتى تنالوا رضانا التام، واحترامنا الموفور». انتهى.

وبعد تحويل الميزاب الشريف إلى الفضة بإحدى وستين سنة، بدله المرحوم السلطان أحمد خان من فضة مزخرفة بذهب خالص، وبعد ذلك باثنين وعشرين عاما زخرفه وزينه من جديد، وبعد مرور مائتين واثنين وستين عاما جدده

بالذهب والد السلطان الكثير المحامد المرحوم عبد المجيد خان فى سنة ١٢٧٣ وأمر بكتابة التاريخ الآتى:

التاريخ

جدد هذا الميزاب المنير لوجه الله الكريم الخبير سلطان البرين والبحرين المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين، السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان الغازى محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان، بعد ما وهن الميزاب الذى جدده جده السلطان الأعلى أحمد خان ـ عليه رحمة الله المنان ـ فى سنة ١٠٢١. اللهم رب أدم هذا البيت الحرام ببقاء دولة الإسلام، ما طاف ببيتك الأنام واحفظه من جميع الآلام، بجاه نبينا (عليه الصلاة والسلام) وهذا التجديد سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٣).

وفى ختام هذا الإصلاح غُطِّى مصراعا باب البيت بألواح من الفضة ثم ركب عليه خشبة مزخرفة بنقوش ذهبية وأربع حلقات فضية وكتب على أحد مصراعى الباب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْلِى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

كما كتب على الآخر هذه العبارة البليغة البديعة:

«أمر بتجديد هذا الباب العالى الجناب الفقير إلى الله تعالى الملك الوهاب، عبده الذى من عليه بسلطنة العرب والعجم وجعله خادما بهذا للحرم السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان فى سنة تسع وخمسين وتسعمائة ٩٥٩».

نظم أحد شعراء الزمان عند تجديد باب الكعبة المعلى هذا التاريخ السلس.

النظم

فـاز مولانـا سليمـان الـذى جـدد

بـاب بيـت الله فـض وصفحـا

فـــى زمـــان قيـــل فـــى تاريخـــــه

قـــف فـــى بـــاب الله عـــلك تفلحـــا

فى سنة ٩٦٠

وقد كتبت فوق عتبة باب البيت العلوية بعد أن وفق السلطان سليمان فى تجديده بخط مثنى جلى الجملة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وكان فى ذلك الوقت لباب بيت الله قفل حديدى ذو حجم كبير ومسدس الشكل طويل، وعمر السلطان سليمان هذا القفل بألواح فضية وأمر بكتابة الجملة الدعائية بخط مثنى (يا مفتح الأبواب أفتح لنا باب رحمتك ومغفرتك)، وعندما تم تعمير السقف الشريف والمطاف اللطيف كلف غبارى أفندى أحد شعراء العصر بنظم هذا التاريخ السلس باللغة العربية، وقيد فيما يأتى وحفر فوق لوحة رخامية وذهب ثم علق على مكان مناسب فى داخل الحرم الشريف.

صورة التاريخ

الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٧).

تقرب إلى الله تعالى بتعمر بيت الله الحرام، من اختاره الله تعالى لخدمة الحرمين الشريفين، سلطان البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، ملك العرب والعجم والروم والعراقين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان العاشر من سلاطين آل عثمان، الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان تقبل الله أعماله وبلغ فى الدارين آماله.

البيت

خان سليمان خـادم الحرمين

عمـــر بالعطـــاء قبلتـــه

وفى سنة ٩٦١

وقد جدد باب كعبة الله فى سنة (١٥٤٥) السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد خان الغازى، كما كتب فى الصورة الثالثة عشرة من الوجهة الثانية، لأن مصراعى باب البيت لم يجددا تجديدا كاملا بل عمرا وزينا على أحسن وجه وفى سنة (١٠٤٥)، وكان رضوان أغا قد كلف بتجديد مبانى بيت الله، وأمر أيضا بتجديد مصراعى باب بيت الله تعالى، ونحى جانبا بعض أشجار الصفصاف التى كان قد اشتراها من أهل مكة لتعمير سقف البيت الحرام، وفصل من هذه الأشجار مصراعى باب الكعبة، وعندما انتزع المصراعين القديمين علق على فتحة باب الكعبة ستارة مصنوعة من القطن.

وقد اقتلع من فوق مصراعى الباب المنتزعين (٣١,٨٠٠) فضة، فأذاب رضوان أغا هذه الفضة وصنع منها لوحين، وسمر أحد اللوحين، على واحد من المصراعين والآخر على المصراع الثانى، ثم صرف ألف قطعة ذهب وزخرفهما. وأنفق (٣٧٠٩٥) درهم فضة فى صنع عتبة وحلقتين لذلك الباب، وهكذا زين باب كعبة الله المفخمة على أحسن وجه.

وبناء على هذا الحساب يكون باب الكعبة قد جدد تسع مرات، وذهب بالذهب الخالص اثنتى عشرة مرة، أى أنه جدد ثمانى مرات قبل السلطان مراد الرابع، وذهب بعده ثلاث عشرة مرة.

وطول الباب الشريف ستة أذرع وعشرة أصابع، وعرضه ثلاثة أذرع وثمانى عشرة أصبعا.

سبب تسمية ميزاب الرحمة بالميزاب الذهبى

إن الذى ساعد على تجديد بيت الله للمرة العاشرة هو الوليد بن عبد الملك،

فعندما تولى عرش الحكم بعث إلى خالد بن عبد الله القَسْرِى[1] ثلاثين ألف قطعة ذهبية، وأمره بأن يذيب هذه النقود الذهبية، ويصنع منها ألواحًا يغطى بها مصراعى باب كعبة الله وميزاب الرحمة، خضع خالد بن عبد الله وبادر بإذابة قطع الذهب، وصنع كثيرا من الألواح الذهبية وغلف بها ميزاب الرحمة، أولا ثم مصراعى باب كعبة الله، وزين الأعمدة التى فى داخل كعبة الله وطلا الأركان الأربعة الداخلية للكعبة بما زاد من ذهب.

وبتغليف ميزاب الرحمة بالألواح الذهبية قد اكتسب منظرا لامعا مشعا، فأعجب الناس بهذا التذهيب الظاهرى وأخذوا يطلقون على ميزاب الرحمة الميزاب الذهبى، وظل ميزاب الرحمة يعرف بالميزاب الذهبى على ألسن الناس لفترة طويلة.

جدد المقتفى بالله العباسى تلك الألواح فى سنة (٥٤٢)، وفيما بعد حول الملك المؤيد الميزاب الشريف إلى خشب، وفى سنة (٨٤٣) جدد الأمير زين الدين الميزاب الخشبى إثر الملك المؤيد بخشب أيضا، إلا أنه زخرفه بطلاء ذهبى وزينه، وأصبح من عادة الملوك بعد ذلك تجديد الميزاب من حين لآخر، ولما زينه السلطان سليمان ـ طاب ثراه ـ بألواح فضية فى سنة (٩٦٠) أطلق عليه اسم الميزاب الفضى، إلا أن المرحوم السلطان أحمد[2] انتزع الميزاب ذا الألواح الفضية فى سنة ١٠٢١، وصنع ميزابًا غلف فوق الفضة بالذهب وفسيفساء بنفسجية اللون، وكان تحفة فنية رائعة، وعندما وضع ذلك الميزاب فى مكانه أصبح اسمه مرة أخرى الميزاب الذهبى.

ولما كان السلطان أحمد هو الذى قدم للكعبة الميزاب الجديد كان من إرادته السنية أن يرسل الميزاب القديم إلى باب السعادة للتبرك به، ولأجل ذلك أرسل مع أمير حج قافلة الشام التى جهزها بكل عناية، ووضع عليها الميزاب القديم،

(١) عامل بنى أمية على مكة حينئذ، ولاه عليها الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ. انظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٤٦٤.

(٢) هو أحمد خان الأول، مات وعمره ثمانية وعشرين عامًا ومدة حكمه ١٤ سنة، وتوفى سنة ١٠٢٦هـ.

وسترها بكسوة المحمل المذهبة، ونهض من مدينة مكة المكرمة وأمامه الكثير من جنود المسلمين، وفى اليوم الذى تحركت فيه قافلة الشام خرج وجهاء القوم فى مكة وعلماءها وسادتها كلهم وأهلها ومجاوروها قاطبة ليكونوا فى توديع الميزاب القديم، وساروا مع القافلة المذكورة، فارتفعت الروح المعنوية فى داخل المدينة وسادتها حالة عجيبة، حتى قال مؤلف «لطائف الأخبار»[1] الشيخ محمد بن إسحاق الذى جاء فى تلك السنة مع المحمل المصرى لأداء فريضة الحج «لا قدرة لى على وصف وتصوير ما شاهدته فى ذلك اليوم».

وأخرج السلطان مراد خان ذلك الميزاب الذهبى من مكانه فى سنة (١٠٤٣). وزخرفه بالذهب وأعاده إلى مكانه ولما كان والد السلطان كثير المحامد السلطان عبد المجيد خان قد جدده بالذهب أيضا فى سنة (١٢٧٣)؛ ظل يطلق على ميزاب الرحمة إلى الآن «الميزاب الذهبى».

وبناء على بيان المؤرخين ورواياتهم فإن الذهب الذى أرسله وليد بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله لميزاب الرحمة قد أذيب من الأوانى الذهبية التى اغتنمت فى معركة «طليطلة» وهذه الأوانى هى المنضدة التى تنسب إلى سليمان عليه السلام يعنى المائدة السليمانية، ويقول المؤرخون إن هذه المنضدة كانت مصنوعة من أنواع اليواقيت والزبرجد وكانت مرصعة وفى غاية الجمال.

وعلى رواية أنها من صنع سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ، وقدحفظت فى خزينة المسجد الأقصى وعرضت هناك، ثم نقلت إلى خزائن ملوك بنى إسرائيل وعندما فتح بخت نصر القدس اغتنمت من قبل الملوك المتحالفين معه، لأن الأشرار من بنى إسرائيل تجرأوا على قتل زكريا ويحيى «عليهما السلام» فعاقبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن سلط عليهم بخت نصر الذى تحالف مع الملوك المجاورين، وساق كتائبه وجحافله إلى بلاد بنى إسرائيل فخرب القدس الشريف، ونهب وقتل سكانه، وبما أن الملوك المتحالفين كانوا معه فوزع ما اغتنم من الأموال على الكل.

(١) تاريخ جيد بالنسبة لأحوال مصر.

وفى هذا التقسيم كانت مائدة سليمان ـ عليه السلام ـ النادرة من نصيب حاكم أسبانيا، وحلة آدم مع عصا موسى من نصيب ملك الروم، وعرش بلقيس من نصيب ملك إنطاكية، وياقوتة ذى القرنين من حصة ملك أرمنية.

وحسب أقوال بعض المؤرخين أن بخت نصر عندما اغتنم تلك المائدة أخذها معه إلى بابل، ولما تغلب كسرى على بابل وأنهى أسر اليهود؛ رد تلك المائدة مرة أخرى إلى بنى إسرائيل مجاملة منه، وبعدما فتح تيتوس ـ من قياصرة الروم، القدس خربها وطرد بنى إسرائيل إلى بلاد أخرى، ونقل مائدة سليمان إلى خزينة الروم، ثم وقعت فى يد القوط.

ويدعى أغلب المؤرخين أن هذه المنضدة وقعت فى يد الغاصب ليبن بواسطة الوندال الذين نهبوا روما؛ إلا أن هذا الحكم لا يمكن قبوله لضعف روايته. ولهذا يلزم أن يكون كما قرر مراد بك مؤلف (التاريخ العام) إما أن يكون ملك القوط الغربيين الأربك اغتنم هذه المائدة عندما دخل روما ونهبها، وإما أن يكون «آنا لوف» الذى خلف الأربك وجدها ضمن جهاز أخت القيصر التى تزوجته، ووضعها فى خزينته، وعلى كل حال فموسى بن نصير[1] اغتنم مائدة سيدنا سليمان عندما فتح الأندلس، وبعثها إلى الشام، كما أن وليد بن عبد الملك بعثها إلى والى مكة المكرمة خالد بن عبد الله القسرى ليذهب بها ميزاب الرحمة.

وإذا صحت هذه الرواية فيكون وليد بن عبد الملك قد قام بخدمة حسنة جدا.

(١) موسى بن نصير فاتح الأندلس، وهو من التابعين الكرام وقد تلاقى مع تميم الدارى، وعاد من فتح الأندلس فى سنة أربع وتسعين الهجرية بعد أن غنم المائدة التى سبق ذكرها ومعها كثير من النقود، وبعض التيجان المرصعة بالمجوهرات الثمينة، وعدد لا بأس به من الأسرى، وبعد وصوله إلى الشام بثلاث سنوات اتجه إلى مكة المعظمة لأداء فريضة الحج، وارتحل إلى مملكة البقاء وهو محرم بين الحرمين رحمه الله. انظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٤٨١.

إفادة خاصة

النقود الإسلامية

أردنا أن نبين وزن وقيمة العملات التى سبق ذكرها وعين عددها مثل الدينار والدرهم حسب المناسبة فى بعض وجهات المرآة، حتى يمكن تخمين قيمة النقود التى أنفقها السلاطين العظام من أجل تعمير أبنية الحرمين وتجديدها.

لأجل ذلك استصوبنا أن نعطى بعض المعلومات عن الأسباب القهرية التى أدت إلى قطع تلك العملات، وتواريخ ضربها.

يطلق اسم سكة[1] على النقش المخصوص الذى يضرب فوق النقود الرائجة من الذهب والفضة. وفى أوائل ظهور الإسلام أطلق على المسكوكات الذهبية اسم الدينار، وعلى المسكوكات الفضية اسم الدرهم، والمؤرخون متفقون على أن اليونانيين هم الذين صنعوا المسكوكات قبل هذا بـ (٢٦٠٠ عام) وكانت على المسكوكات التى ضربت سواء أكانت فى أيام اليونانيين أو فى أيام ملوك الأمم[2] الأخرى بعض صور الحكام، وعلى بعضها صورة حيوان أو صورة قلعة أو شكل آخر.

وعندما ظهرت المسكوكات الإسلامية ذات العيار الصحيح وكسدت دنانير سوق الكفر، وفسدت دراهم المشركين المنتشرة، وكانت طوائف العرب فى بداوتهم الذين تركوا اهتمامهم بالدنيا يتعاملون قبل البعثة المحمدية بنقود غير مسكوكة، وأخذوا يتداولون النقود المسكوكة من الذهب والفضة بالوزن، فكل النقود العربية غير مسكوكة، وجرى حكم هذا التعامل فترة غير قليلة، حتى إن النقود التى اغتنمت فى عصر سيدنا عمر من بلاد الفرس لم ينظر إلى قيمتها الرائجة بل كانت ترد إلى الوزن ويتعاطونها بهذا الشكل. ولكن النقود التى ضربت فى مضارب الملوك الأوائل تختلف فى الوزن والنوع، وكانت النقود التى يتداولها

(١) هذا التعبير اسم خاص بالمطرقة الحديدية وهى آلة للصرف وعربى الأصل.

(٢) يستثنى من ذلك ملوك اليهود لأن مسكوكاتهم كانت خالية من الأشكال.

العرب الذين يعيشون حول الحرمين المحترمين يطلق عليها البغلى والطبرى واليمنى، وكان وزن المسكوكة البغلية يساوى ثمانية دوانق والطبرية ست دوانق والمسكوكة اليمنية تساوى درهمين ولأجل ذلك يتعبون كثيرا عند تحويل النقود المسكوكة إلى الذهب والفضة.

وأراد عمر الفاروق أن يسهل الأمر على الناس فرد المسكوكات الرائجة بين أهالى الحرمين وهى الطبرية والبغلية إلى نصف وزنها وثقلها، وهو ست دوانق وفقا للمثل القائل «خير الأمور أوسطها» واعتبرها درهما واحدا، وقسم الدرهم الواحد إلى أربعة عشر جزءًا، وضم ثلاثة أسباع حاصل التقسيم إلى ست الدوانق، ورفع الدرهم إلى مثقال، وأسقط ثلاثة أعشار المثقال، وأنزل المثقال إلى الدرهم، واستصوب أن يكون استخدام النقود الرائجة فى البلاد الإسلامية بهذا الوجه، والذى دفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى اتخاذ القرار بجعل المسكوكات المتداولة على وزن معين معلوم هو عدم تطابق النقود المضروبة فى عهد الملوك السابقين للمعاملات الشرعية، لأن النقود التى كان يتعامل بها الناس فى عهود ملوك الفرس قد سُكَّ بعضها على وزن عشرين قيراطًا، وبعضها على اثنى عشر قيراطًا، وبعضها على وزن عشرة قراريط مع الاتحاد فى الثمن.

وبما أن إعطاء الزكاة فى النقود التى تتحد فى الثمن وتختلف فى الوزن وهى إما ذهبية أو فضية غير مشروع، لذا اعتبر عمر الفاروق كل قيراطين قيراطا، وأنزل الستة قراريط إلى ست دوانق، وحول وزن القيراط القديم المتعارف بين الناس لتقديم المثقال الواحد، وألحق ستة قراريط إلى أربعة عشر قيراطًا التى تكون درهما واحدا. وهكذا أبلغ مجموع القراريط إلى عشرين قيراطا، واعتبر مجموعها مثقالا واحدا، ودام القرار الذى أخذه الفاروق الأعظم بشأن المسكوكات إلى سنة ٢٨ من الهجرة، وزادت الصعوبة فى تحويل المسكوكات الفضية والذهبية إلى الذهب الخالص غير المسكوكين بزيادة عدد المسلمين، وسلب هذا الأمر راحة الذين يبيعون ويشترون من أصحاب الحوانيت وأفراد

القبائل، مما دعا عثمان بن عفان (رضى الله عنه) إلى ضرب مسكوكات كافية من النقود وأزال من أذهان الناس قلقها بخصوص الأخذ والعطاء وكان ذلك فى مدينة هرتك[1]. أن أول ما ضرب من مسكوكات فى العصر الإسلامى هى تلك النقود.

سكت فريق المؤرخين عن المسكوكات التى ضربت فى السنة المذكورة والسنوات الهجرية ٣٧، ٣٨، ٣٩ ، ٤٠هـ وقالوا إن أول من سك العملة فى العصر الإسلامى هو عبد الله بن الزبير، إذ عين أخاه مصعب بن الزبير واليا من قبله على البلاد العراقية فى عام (٦٩) هجرى، وسمح له بسك النقود، وسك مقدارا كافيًا من النقود وعرضها فى سوق التعامل، وكانت تلك العملة تحمل على أحد وجهيها كلمة «بركة» وعلى الآخر كلمة «الله»، وبعد سنة أبطل الحجاج بن يوسف الثقفى سك هذا النوع من العملة، وسك عملة على شكل آخر وجعل على أحد وجهها كلمة «بركة» وعلى الوجه الآخر «الحجاج بن يوسف الثقفى»، ويحتمل أن يكون عبد الله بن الزبير أول من سك العملة وذهبوا إلى أن أول مَنْ سك النقود من الملوك المسلمين هو عبد الملك بن مروان.

وتزعم الفرقة الثانية أن عبد الملك بن مروان عندما اعتلى عرش الممالك الإسلامية كثر تداول العملات الخاصة بحكومات الروم والفرس والهند، وكثر الغش والفساد بين أنواعها المختلفة، واختل التعامل فأمر عبد الملك بسك عملة خاصة بالمسلمين خالية من[2] الصور والأشكال التى على مسكوكات الأمم السابقة، وبذلك ألغى التعامل بالنقود الرومية والكسروية والهندية، وضربت دنانير ودراهم تزدان بنقوش إسلامية وكتب على وجه العملة كلمة «الله أحد» وعلى الوجه الآخر «الله الصمد»، ويستند الفريق الثانى فى قولهم هذا على قول

(١) هرتك اسم مدينة مشهورة فى إقليم طبرستان.

(٢) إن مؤلف كتاب الحضارة العربية يدعى أنه كان هناك نوع من النقود الإسلامية كان يحتوى على صور ورسومات إلا أن هذا الادعاء مردود.

صاحب مؤلف «محاضرة الأوائل»، إلا أن صاحب كتاب «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» يخرج ويرد ادعاءات الفريق الأول والفريق الثانى، ويقول: «إن أول من سك العملة هو عثمان بن عفان ـ رضى عنه الله المنان ـ»، وأثبت مدعاه ببعض الأدلة المقنعة.

وبناء على تدقيق وتحقيق مؤلف «محاضرة الأوائل» أن العملة التى سكت فى عصر عبد الملك بن مروان كان مكتوبا على أحد وجهيها جملة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وعلى وجهها الآخر كتب ونقش اسمه، وفيما بعد أضاف الحجاج الظالم بعد كلمة «محمد رسول الله» كلمة «أرسله بالهدى».

وبناء على ما يزعمه صاحب كتاب «تحية الأخلاف» أن أحدا من ملوك الأمويين لم يكتب اسمه على النقود التى سكها غير الحجاج، بل اكتفى ببيان مكان سكها وتاريخ ضربها سواء فى عصر عبد الملك بن مروان أو عصر عثمان أو على أو عبد الله بن الزبير «رضى الله عنهم».

كانت العملة التى ضربت وتعامل بها الناس من دنانير ودراهم وفق ما قرره عمر بن الخطاب لها من وزن وقيمة بفرض ستة دوانق وكل ستة دوانق درهمًا، وعدد درهم مع إضافة ثلاثة أسباع درهم له من حيث الوزن، وقسمت العشرة دراهم إلى سبعة أجزاء، وأضيف إلى كل حاصل الأجزاء ثلاثة أسباع درهم، فاعتبر مجموع ذلك مثقالا واحدا.

وبناء على هذا الحساب يزيد المثقال الواحد على الدرهم بمقدار ثلاثة أسباع درهم، ويقتضى أن يعادل كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم. وإن الأصول والقواعد التى أخذ بها فى ضرب النقود قد أرضت الناس، وتلقوها بقبول حسن، كما أنه قد عدل وأصلح شكل العملة وصورتها فى عصر عبد الملك، فأصبح ضرب العملة على هذا الوجه عصرا بعد عصر قانونا خاصا فى الأماكن التى تضرب فيها النقود فى البلاد الإسلامية.

إن الدينار والدرهم اللذين أصلح شكلهما كانا مستديرين، وعلى وجه كل واحدمن النوعين دوائر صغيرة وكبيرة متداخلة ومتناسقة وعلى الدوائر جمل التهليل والتمجيد مع اسم عبد الملك وزمن ضربها وقطعها.

واستمر هذا القرار إلى أن اعتلى الموجودون عرش السلطنة، وعندما كان يضرب من جديد كان يغير اسم الخليفة وتاريخ سكها ومكانه.

وقد غير الملوك الموحدين شكل الدرهم فجعلوه مربعا وشكل الدينار جعلوه مستديرا، بتصويب مؤسس حكومتهم محمد بن تومرت، ورسموا فى وسط الدينار شكلا مربعا ثم كتبوا سواء كان فوق الدرهم أم الدينار جملا تتضمن التهليل والتمجيد، وعلى الوجه الآخر اسم ملك العصر وذيلوه باسم الخليفة وأبقوا وزن النقود ومقدارها كما كان من قبل.

ويدعى بعض المؤرخين أن العملة التى سكت فى عصر محمد المهدى كان مكتوباً على أحد وجهيها جملة «بلغت حجة الله» على الوجه الآخر جملة «تفرق أعداء الله» وإذا حسبت القطعة الذهبية العثمانية المجيدية مائة قرش يلزم أن تكون قيمة الدينار ثلاثة وثلاثين قرشا تقريبا، وكان ثقل الدينار ثمان وأربعين[1] شعيرة يعنى أنه كان يساوى حوالى اثنى عشر جزءا من ستة عشر جزءا من الدرهم. إلا أن العيار الحقيقى للدينار القديم غير معروف فتقدير ثمنه تقديراً صحيحاً ليس فى الإمكان.

ويدعى بعض العلماء أن كلمة الدينار حرفت من كلمة «دياروس» وكان يتداول فى وقت ما بقيمة (عشرة) آس في روما ثم بقيمة ستة عشر آس فى أوربا وكان مضروبا عليه رقم (خمسة عشر).

وبعد عهد شارلمان خلط بقليل من النحاس فقلت قيمته، وفيما بعد قلب نحاسا كاملا. يقال إن الفيلورى اسم آخر للدينار، ولكن فيلورى ليس اسم الدينار القديم بل اسم الذهب البندقى، والذى يعادل الذهب المزخرف والذى راج التعامل به فى جميع الجهات، وبما أن العملات قد تغيرت فيما بعد ففشا اسم

(١) هذا القول من رواية الزمخشرى، إلا أن فريقا من العلماء ذهب إلى أن الدينار يساوى (٨٤) شعيرة وبينما قال فريق آخر أنه يعادل (٧٢) شعيرة وعند الجمهور قول الزمخشرى أرجح.

الفيلورى وكان الذهب البندقى الذى أطلق عليه فيلوريا كان يساوى عشرة قروش فى تلك الأوقات، ولعله يساوى الآن ما يقرب من خمسين قرشا. والدرهم معرب من دراخما اليونانية كما تنقله الكتب الفلسفية، وكان وزنه مرتب على أن يكون في ثمان وأربعين شعيرة، والفضة المجيدية كانت فى قيمة عشرين قرشا، ويلزم على هذا أن تكون قيمة الدرهم الواحد قرشين، وإن العملة الفضية التى أطلق عليها درهما كانت نقدا خالص العيار تداوله القدماء فى تعاملهم. وقال ابن فضل وهو يعرف التعامل المصرى إن المعاملات المصرية تتم بالدرهم والدرهم المتداول كان نصفه فضة ونصفه الآخر نحاسا، وكان وزن كل درهم يساوى ثمان عشرة حبة خروب وكانت كل خروبة تزن ثلاث قمحات وقيمته الشرائية تساوى خمسة وأربعين فلسا.

وعندما ضربت المسكوكات القديمة سواء أكانت دينارا أودرهما كانت الثمان وأربعين شعيرة تساوى درهما، والدرهم يساوى سبعة دوانق، والدانق يساوى قيراطين، والقيراط يساوى طسوجين، والطسوج يساوى حبتين، والحبة الواحدة كانت تعادل جزءا واحدا من ثمانية وأربعين جزءا من أجزاء الدرهم.

وعلى هذا الحساب يقتضى أن يكون الدينار نقدا مسكوكا فى وزن أربعة وعشرين حبة أو ستة دوانق، وتساوى أربعة وعشرين حبة، و ٢٨٨ خردلة، و ٢٨٨ خردلة تساوى ٣٤٥٦ فلسفا وهذه تساوى ٢٠٧٣٦ فتيلة و ٢٠٧٣٦ فتيلة تساوى ١٢٤٤١٦ نقيرة، و ١٢٤٤١٦ نقيرة تساوى ١٩٥٣٢٥ قطمير، و ١٩٥٣٢٥ قطمير يساوى ١٩٤٣٩٣٦ ذرة، والدينار الواحد يتساوى فى الوزن مع درهم واحد.

وخطوط وأشكال النقود القديمة كان يكتب فوق العملات التى سكت فى عام ٢٨ هجرى فى فترة خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بالخط الكوفى جملة «بسم الله ربى»، وفوق العملات التى ضربت فى العام الثلاثين عبارة «ولى الله». وعلى وجه العملات التى ضربت فى سنة ٣٨، ٣٩ جملة «بسم الله

ربى»، وعلى الوجه الآخر جملة «ولى الله»، وفى وسط أحد وجهى العملات التى سكت فى العام الأربعين الهجرى سورة الإخلاص. وعلى أطرافها الدائرية جملة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وفى وسط الوجه الآخر «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وحولها دائرا ما دار عبارة ضرب هذا الدرهم بالبصرة فى سنة ٤٥، وكل هذه العملات ضربت فى عهد خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وكتب على أحد وجهى العملات التى ضربت عام ٧٠هـ فى مدينة «جرد» وما ضربت فى عام ٧١هـ فى مدينة «يزد» بالخط الكوفى «بسم الله»، وعلى الوجه الآخر بالخط الفارسى «عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين» وما ضرب من عملة عام ٧٩هـ فى «هرمز» وما ضرب عام ٨٠هـ فى مدينة الرى، ما ضرب عام ٩١ و ٩٥ هـ فى مدينة جود، وما ضرب عام ٩٧ و ٩٨هـ فى مدينة أردشير وحرة، وما ضرب عام ٩٦هـ فى مدينة «نمرة»، وما ضرب عام ٩٧هـ فى مدينة «مرو»، وما ضرب عام ٩٨هـ فى مدينة «جرد» وما ضرب عام ١٠٣هـ فى مدينة «قرمان»، وكل هذه العملات المتنوعة نقش فى وسط وجه منها سورة الإخلاص، وعلى أطرافها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون»، وفى وسط الوجه الآخر «لا إله إلا الله لا شريك له» وحول هذه العبارة كتب تاريخ ضرب العملة ومكانه.

وفى عهد الخليفة العباسى «السفاح» عام ١٣٤ هـ ضرب نوع من الدراهم كتب حوله «بسم الله» ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربع وثلاثين ومائة، وفى وسطه «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى أطراف الوجه الآخر فى ثلاثة أسطر «محمد رسول الله»، وكتب وسط هذه الدائرة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وفى سنة ١٣٦هـ ضرب فى الكوفة نوعين من الدراهم على نفس شكل الدراهم التى سبق ذكرها، وضرب منصور الدوانقى فى عام ١٤٤ هـ فى البصرة وعام ١٥١ هـ فى بغداد دراهم كتب فى وسطها «مما أمر به الأمير المهدى محمد بن أمير المؤمنين»،

وضرب الخليفة المهدى فى بغداد درهما فى وسطه عبارة «محمد رسول الله ﷺ» للخليفة المهدى سنة ستين ومائة.

وكتب فى وسط درهم «ضرب فى زمن الهادى بمدينة السلام[1] سنة سبعين ومائة محمد رسول الله ﷺ للخليفة الهادى»، وفى عهد هارون الرشيد نقش على بعض النقود. بالمحمدية سنة ست وسبعين ومائة «محمد رسول الله ﷺ»، للخليفة الرشيد بهلول، وعلى بعضها الآخر «بمدينه السلام سنة تسع وسبعين ومائة»، وفى الوسط على وجه هذه النقود «محمد رسول الله مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين جعفر»، وعلى الوجه الآخر بالوسط» بالمحمدية سنة ست وسبعين ومائة»، وفى بعضها الآخر «بالمحمدية سنة ثمانين ومائة مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين فى ولاية محمد بن يحيى جفر»، وفى بعضها بالمحمدية سنة تسعين ومائة، وفى وسط هذه الدراهم «محمد رسول الله»، وكتب على بعض ما ضرب فى زمان المأمون من نقود «ضرب بمدينة بلخ سنة خمس وسبعين ومائة محمد رسول الله مما أمر به أمير المؤمنين المأمون ولى عهد المسلمين عبد الله ابن أمير المؤمنين الفضل» وعلى بعضها كذلك «بمدينة بلخ سنة ست وثمانين ومائة محمد رسول الله ولى عهد المسلمين»، وكتب وسط العملات التى ضربت فى أثناء خلافة الأمين العباسى: «ياسيدى محمد رسول الله الأمين الخليفة محمد أمير المؤمنين» وفى أواسط أطرافها» ضرب بمدينة سمر قند سنة تسع وتسعين ومائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له «وعلى هامشه الآخر «الله محمد رسول الله» وقد كتب فى وسط نوع من العملة التى ضربت فى أثناء خلافة المأمون «لا إله إلا الله وحده لا شريك له بن إبراهيم» وعلى أطرافها «بسم الله ضرب هذا الدرهم بهرات سنة ست ومائتين»، كما كتب فى وسط الوجه الآخر «محمد رسول الله»، وعلى أطرافها «رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وعلى وسط وجه نوعين من العملة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى أطرافها «بسم الله ضرب هذا الدرهم

(١) مدينة السلام اسم آخر لبغداد.

بمرو سنة سبع عشرة ومائتين»، وخارج هذا الخط وفى داخل دائرة كتب «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»، وعلى وسط الوجه الآخر «محمد رسول الله»، وعلى أطرافها «محمد رسول الله أرسله بالهدى والدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وعلى طرفها دائرا ما دار «ضرب سمرقند سنة تسع ومائتين»، وفى وسطها «لله محمد رسول، المأمون خليفة الله طلحة» لكنه لم يذكر اسم المأمون ولا طلحة على عملة ضربت فى دار السك فى سمرقند سنة ٢١٧ هـ.

وقد كتب فى دوائر نقود ضربت فى عهد الواثق بالله «بالمحمدية فى سنة عشرين ومائتين» فى وسطها «لله محمد رسول الله الواثق بالله» وكتب فى وسط الدنانير التى ضربت فى عهد القاهر بالله «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وعلى دوائرها الخارجية كتبت «لله الأمر من قبل ومن بعد يومئذ يفرح المؤمنون» وفى دوائرها الداخلية «بسم الله ضرب هذا الدينار بنيسابور سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة» وفى وسط الوجه الثانى «محمد رسول الله القاهر بالله نصر أحمد» وفى دائرتها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

وكتبت على نوع من فلس «ضرب فى عهد المطيع بالله «بسم الله ضرب هذا الفلس ببخارى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وفى وسطها مكتوب «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى الوجه الآخر» محمد رسول الله منصور بن نوح».

وقد أخبر مؤلف «تحية الأخلاف» أن كل هذه المسكوكات قد كشفت فى قرية من قرى إقليم قزان فى سنة (١٢٨٠هـ) والمسكوكات القديمة عبارة عن النقود التى سبق ذكرها.

وكلما تباعد عصر السعادة اختلفت النقود وتعددت نقوشها وشكلها حسب أمر وجه أهل العصر، ولا سيما فى عصر الدولة العلية ـ صانها الله تعالى من الآفاق والعاهات والبلية ـ قد كثرت أنواع النقود التى أخرجت لسوق التعامل شكلا ونوعا، مما يجذب الأنظار وظلت العملات التى راجت فى البلاد العثمانية إلى عهد السلطان «أورخان» الغازى مسكوكة بأسماء السلاطين السلجوقية، ولكن

وجوه الدراهم والدنانير زينت وأنيرت بأسماء سلاطين الدولة العثمانية فى خلال عام (٧٣٩) وعلى وجه من وجهى المسكوكات العثمانية نقشت طغراء السلطان الغراء، وتحتها رقم تاريخ سكها بالنسبة لتاريخ جلوس السلطان، وعلى الوجه الآخر كتبت عبارة «ضرب فى قسطنطينية أو فى بروسة أو فى أدرنة أو فى مصر عز نصره» وفى ذيل هذه العبارة تاريخ جلوس السلطان، والخطوط المذكورة كلها محاطة ومزينة برسم زهرة رقيقة دقيقة.

إن النقود العثمانية المتداولة التى عرفنا رسمها وشكلها من محاسن عصر والد السلطان الكثير المحامد، وضربت المسكوكات الذهبية على خمسة أنواع، والفضية على ستة أنواع ويطلق عليها كلها «المجيدية» وفى الجدول كتبت الأنواع الأحد عشر وأوزانها وقيمتها ومقاديرها.

المسكوكات العثمانية

الذهب		وزنها	
الذهب القرش	قيمتها العدد	قيراط العدد	درهم العدد
٥٠٠	١	٤	١١
٢٥٠	١	١٠	٥
١٠٠	١	٤	٢
٥٠	١	٢	١
٢٥	١	٩	٠
..	٥	..	..
	الفضة		
٢٠	١	٨	٧
١٠	١	١٢	٣
٥	١	١٤	١
٢	١	١٢	٠
١	١	٦	٠
–	١	٣	٠
..	١١	..	..

إن هناك مسكوكات أخرى لم تدرج فى هذا الجدول مثل الذهب العتيق للسلطان محمود ذهب السلطان مصطفى ذهب مصر باريون والجنيه المصرى والخيرية العتيقة والجديدة.

وغيرها من النقود العثمانية المتعارف عليها بأسماء أخرى، وبما أنها تختلف فى الوزن والعيار بعضها عن بعض فلا قيمة كبيرة لها ولا رواج فى الشراء والبيع مثل المسكوكات الجديدة، إن النقود المذكورة تتداول حسب عيارها الذى ذكر فى مجال التعريف، ولما كانت العملات القديمة التى ضربت فى دور ضرب المسكوكات فى القاهرة وبغداد لا يوافق عيارها الجدول الذى عرفت فيه قيمة العملات ولا يطابقها فيتم تداولها كأنها نقود غير مسكوكة.

إن المسكوكات الأجنبية التى تتداول بين الناس مختلفة بعضها عن بعض فى العيار والوزن والقيمة، لأجل ذلك فهى تستخدم وفق قائمة التعريف، وبما أن النقود الرائجة الأجنبية قد حولت إلى أثمان المسكوكات العثمانية الجديدة، فالناس لا يجدون صعوبة فى تداولها مثل المسكوكات المغشوشة.

الدرهم الشرعى

إن تسوية المعاملات النقدية الشرعية أصبحت رهنا للتعامل بالمسكوكات، ولما كانت النقود القديمة المتداولة ليست على نسق واحد من حيث الوزن والعيار فى كل عصر ومصر، كما فصل فيما سبق، فاختلف تداولها باختلاف العصر والمكان، ولما لزم أن يوافى وزن الدينار والدرهم ومقدارهما وجودتهما وعيارهما لمعيار الدين القويم عشرة أمثال من النقود مساويا وموازنا إذا كان صحيح العيار إلى سبعة مثاقيل ذهب أو فضة، واعتبر ذلك درهما شرعيا واحدا وإن قيمة الذهب والفضة التى توزن بهذا الدرهم غير متساوية ولكنهم جعلوهما متساويين باعتبار الوزن والمقدار.

وأقروا ذلك بإجماع الأمة واتفاقها، ثم سموا ٤٠ درهما شرعيا أوقية وعلى

هذا التقدير يقتضى أن يكون الدرهم الشرعى سبعة أعشار المثقال الشرعي، والمثقال الواحد يساوى درهما وسبعة أرباع الدرهم، أى أن وزن المثقال يساوى ثقل سبع شعيرات متوسطة، واعتبر سبعة أعشار المثقال درهما واحدا، ويترتب على ذلك اعتبار الدرهم الواحد ثقل خمس حبات شعير وخمسين من حبة واحدة.

وقد قرر فى عصر السلطان أورخان الغازى وعهده اعتبار ربع الدرهم العُرْفى درهما شرعيا واحدا، واعتبار الدرهم ونصف العرفى واحدا ٢٦٦ مثقالا، واعتبار ٤٠٠ درهم عرفى أوقية واحدة.

ومن فروع ذلك القرار اعتبار الذرتين قطميرا، والقطميرين نقيرا، والنقيرين فتيلا، و ٤ فتائل حبة حنطة، و ٤ حبات حنطة تساوى قيراطا، و ٤ قراريط تساوى درهما، وبناء على هذا التقدير إن مائة الودرة تُساوى قنطارًا، و ٤ قناطير تساوى جكًيا واحدا وأن الجكى الواحد يساوى مائة وستًا وستين أوقية عتيقة.

* * *

تعرف من قدم إلى الكعبة المعظمة المعلقات والستائر القيمة

إن ملوك العجم كانوا يوقرون الكعبة المعظمة ويعظمونها بتقديم الهدايا وما يعلق عليها، وإن كان أول من قدم الهدايا إلى كعبة الله توقيرا لها وتعظيما لشأنها مجهولا فى نظر التاريخ، إلا أنه من المحقق أن من أرسل ما يطلق عليه العرب «غزالتى الكعبة» هو اسفنديار أو على قول ساسان بن بابك من ملوك الفرس، وكانتا من ذهب خالص.

حتى إن العرب يعتقدون اعتقادا جازما أن أول ما قدم من هدايا إلى الكعبة المعظمة هما هاتان الغزالتان، كما أن العرب يروون أن بابك أهدى إلى الكعبة المعظمة غير الغزالتين الذهبيتين أنواعا من الهدايا الذهبية والجواهر.

كما أنهم يروون بالأدلة أن أول من أهدى من العرب إلى الكعبة المعظمة من الهدايا هو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من قبيلة قريش إذ علق على الكعبة سيفين مذهبين.

وقد دعا كلاب بن مرة قبل جميع سكان الجزيرة العربية وأعيانها إلى إحراز شرف تقديم الهدية إلى الكعبة. إن أبا زوجه قدم له سيفا ذا قيمة مذهبا ومشهورا لدى العرب. وكان «أسد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر بن الحارث بن عمليق بن خشعمة بن يشكر بن بشير بن صعب بن دهمان بن نضر بن الأزد» الذى اشتهر بترصيع السيوف، واختراع هذا النوع من السيوف المذهبة، قد صنع هذين السيفين وأهدى أحدهما إلى ابنته فاطمة، والآخر لزوج ابنته كلاب بن مرة وهما أهديا هذين السيفين إلى الكعبة المفخمة ليحفظا فى خزينة بيت الله.

إن هذين السيفين المخترعين لم يكن للعرب عهد بصنعهما، لذا زادت فى عيون شجعان العرب الذين يفتخرون بعمل أجمل الأسلحة.

وعد إهداؤهما إلى الكعبة تضحية عظيمة من قبل كلاب بن مرة، ومن أجل ذلك علت مكانته فوق صناديد العرب والأشراف. وإن لم يقدم بعد كلاب بن مرة إلى عصر عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هدية إلى الكعبة، إلا أن عبد المطلب بن هاشم حينما أخرج من بئر زمزم الغزالتين الذهبيتين وسيفا ثمينا مرصعا وكثيرا من الذهب أهداها كلها إلى الكعبة المعظمة محبة لها، وكانت الغزالتان هما اللتان أهداهما ساسان بن إسفنديار إلى الكعبة كما سبق ذكره.

وأول من زين بيت الله فى الدولة الإسلامية هو عمر الفاروق، وبعده عبد الله بن الزبير وقد علق عمر الفاروق ما اغتنمه فى أثناء فتح المدائن من هلالين ذهبيين في داخل كعبة الله، كما كسا عبد الله بن الزبير أساطين الكعبة بصفائح من ذهب، وجعل مفتاح الكعبة من الذهب الخالص.

وقد أهدت مارية بنت أرقم من بنات ملوك بنى حنيفة زوجا من القرط الغالى النفيس، وكان هذا القرط من در نادر من حجم بيضة الحمامة، ويساويان أربعين ألف دينار تقريبا، وبما أن أحدهما كان لا نظير له سميت صاحبته بذات القرطين. وقد انتقل هذان القرطان فيما بعد إلى أيدى الملوك، حتى انتهى الأمر إلى عبد الملك بن مروان الأموى وعندما زوج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز أعطاها هذين القرطين. وأخذ عمر بن عبد العزيز فى عهد خلافته هذين القرطين ووضعهما فى خزينة الدولة.

ولما توفى عمر بن عبد العزيز وتولى السلطة يزيد بن عبد الملك، أخذ القرط ورده إلى أخته فاطمة، إلا أنها لم تقبله، وعندئذ أهدى يزيد القرط إلى زوجته ولا يعرف بعد ذلك إلى أين انتقل ذلك القرط ومن الذى امتلكه.

وقد بين «الإمام تقى الدين» من مؤرخى الكعبة الأوائل كيف زين كلاب بن مرة الكعبة معلقا سيفا محلى. ثم ذكر ناقلا من تاريخ الإمام الأزرقى أسماء الذين قدموا أشياء ثمينة متنوعة لتلك البقعة المقدسة واحداً تلو الآخر.

ومن ضمن ما ذكره الهلالان الذهبيان من غنائم بلاد كسرى، وكأسا مزينة بالزبرجد[1] غالى الثمن أهداها «سفاح بن زائد» من خلفاء بنى العباس.

كما أن هارون الرشيد علق في سقف كعبة الله فى سنة ١٨٦هـ قطعة حجة منمقة كتب عليها تجديد عهد وميثاق لابنيه محمد الأمين، وعبد الله المأمون بعد توقيعها من رجال دولته وذلك فى أثناء حجه.

الاستطراد

حينما علقت تلك الحجة فى المكان الذى رآه هارون الرشيد مناسبا وسقطت على الأرض بطريقة ما وشاع الأمر بين الناس، قالوا «إن ما تحتويه الحجة المذكورة لا يوافق حكم القدر». وفعلا هذا ما حدث إذ محا محمد الأمين عقب وفاة ولده، وبرأى «فضل بن الربيب» وتدبيره مسح اسم المأمون من تلك الحجة، ووضع مكانه اسم ابنه الصغير «موسى»، أو على قول آخر مزق التعهد القديم ووضع مكانه التعهد الجديد.

وأرسل «محمد الأمين» بن هارون الرشيد بعد وفاة والده (١٨٠٠) قطعة من ذهب لتزيين الكعبة وذلك فى سنة ١١٥هـ وعند وصول هذا المال إلى مكة الله أخذ أهل مكة صفائح الفضة التى كانت على باب الكعبة، وزينوا مصراعى الباب وجعلوا حلقاته من الذهب الخالص. أما المأمون العباسى فعلق على باب الكعبة ياقوتة ثمينة فى سلاسل من ذهب، كما أن المتوكل علق على واجهة الكعبة حلية تشبه الشمس مرصعة بأنواع الياقوت والزبرجد، وكان[2] إرسال ذلك فى موسم الحج سنة ٢٤٤هـ.

وزين الخليفة المتوكل بالله بناء على طلب صاحب مفتاح البيت زوايا كعبة الله بالذهب، وعلق فوق الستارة الداخلية للكعبة حزاما من الفضة طوله ثلاثة أذرع، وكان لهذا الحزام كمر من الذهب.

(١) الزبرجد حجر ثمين أخضر اللون كالزمرد، ولكن خضرته فاتحة ويطلق على هذا اللون اللون الفستقى.
(٢) وكانت تعلق تلك الأشياء على الكعبة فى عصور الخلفاء العباسيين.

وغلفت بعد ذلك عتبة باب بيت الله بلوح فضى، وبلغ ثمن الشريط السابق الذكر واللوح الفضى ثمانية عشر مثقالا من الذهب.

وأمر المعتصم بالله العباسى بصنع قفل ثمين بألف مثقال من الذهب، وأرسله إلى واليه في مكة المكرمة «صالح بن عباس» طالبا منه أن يضع القفل فى مكانه القديم، وأن يرسل القفل العتيق إليه ليتبرك به وذلك عام ٢٦٧هـ إلا أن خدم البيت بعد التشاور بينهم لم يستصوبوا إرسال القفل العتيق إلى الخليفة، وأخبروا بذلك صالح بن عباس والى مكة المكرمة ليبلغه بدوره إلى الخليفة الذى رضى برأى الخدم، وسمح أن يبقى القفل العتيق فى مكانه وأهدى القفل الجديد إلى الخدم.

وأرسل حاكم إقليم «السند» منطقا جميلا ليعلق على كعبة الله، وكان ذلك المنطق مرصعا بالزمرد والياقوت وكان أثرا لامعا مشعا[1] فعلق على وجه بيت الله اللطيف سنة ٢٥٩هـ.

استطراد

يطلق السند على إقليم كبير فى الهند ويحده من الغرب إيران، ومن الجهة الشمالية «قندهار»، ومن الجهة الشرقية الشمالية الصحراء الكائنة فى الجهة الشرقية من إقليم سيق، وتحاط من الجهة الجنوبية بمواقع قج ويقع بين الدرجة العرضية ٢٥ و ٢٦ شمالا وإن طول هذا الإقليم (١٦٠) ميلا، ويمر من وسط أشهر بلاده نهر السند، وبما أنه يحاذى مجرى هذا النهر العظيم ويمتد إلى موقع «مولتان» البعيد عن منبعه مسافة (٣٠٠) ميل عرف باسم السند.

إن نهر السند الكبير الذى يمتاز بعذوبة مياهه ونفعه العميم يعرف أيضا باسم نهر «هندوس»، وينبع هذا النهر من مكان يسمى تبد[2] الذى يقع بين خطى عرض (٣٨، ٣١) شمالا.

(١) فى وسط هذا العقد ياقوتة خضراء عظيمة.

(٢) يطلق عليه العرب اسم «التبت».

وفى سلسله جبال «بولور»[1] التى تفصل تاتارستان عن البلاد الصينية، ثم يجرى نحو الغرب الجنوبى ويفيض عند وصوله إلى الأراضى الهندية في خط عرض (٣٥) شمالا، ويعد بمثابة الخط الدفاعى عندما تتعرض البلاد الهندية للاعتداء من الجهة الغربية. ويفيض فى مدينة «كابل» البعيدة عن منبعه بستين ميلا بدرجة لا تسمح بالمرور، وعندما يصل إلى الإقليم الذى يتفرع فيه إلى فرعين والذى يسمى باسمه والفرع الأكبر الذى يقع فى الناحية الغربية، ويتفرع إلى شعب وفروع، ويشكل عند مصبه شكل مثلث الشكل مثل نهرى «النيل والبنج»[2] إن علماء طبقات الأرض يطلقون على ذلك الشكل اسم الدلتا والعرب يسمونه دالية[3].

إن مجارى فروعه التى سبق ذكرها غير عميقة، ولا تسمح بسير المراكب والسفن ويمكن للقوارب الصغيرة السير فيها.

إن المسافة بين منبع نهر السند ومصبه تصل إلى (١٣٥٠) ميلا، وأكثر أجزاء هذا النهر عميقة تسمح بسير سفن كبيرة حمولتها مائتى طن، ولما كان سكان شاطئيه جهلة فى فن تجارة الأنهار قلت تجارتهم عبر النهر «انتهى».

وعقب وصول الحزام الذى أرسله حاكم السند إلى مكة المعظمة، صنع المعتمد بالله العباسى صندوقا صغيرا فضيا جميل الشكل، ووضع فى داخل هذا الصندوق حجة ولاية عهد الخلافة بعده لابنه جعفر أولا ولأخيه «الموفق» بعده من وراء الخلافة وأرسله إلى كعبة الله مع «فضل بن عباس» وذلك فى سنة ٢٦١هـ وكان ذلك الصندوق على شكل مقلمة داخل وعاء فضى، علق داخل كعبة الله بثلاث سلاسل فضية مزخرفة بآلة لا مثيل لها.

وإن كان المؤرخون يخبروننا عن أشياء كثيرة نفيسة قيمة أهديت إلى كعبة الله، إلا أن ذكر هذه الأشياء على حدة سيجلب الملل والسأم للقراء لذا اكتفى بذكر أشهرها.

(١) يقال لها بين الناس «بلور».

(٢) مأخوذ من شكل حرف دلتا باللغة اليونانية.

(٣) مأخوذ من حرف الراء المهملة.

ولكن لشدة الأسف أن ما ذكر من الهدايا القيمة أو ما لم يذكر قد أنفقت واستهلكت من قِبَل ولاة الحرمين لإطفاء نار الفتن والشغب التى شبت فى الحرمين، وهكذا خلت خزينة بيت الله مدة طويلة من هدايا الملوك والسلاطين.

وكان السلطان مراد خان الثالث ابن السلطان سليم الثانى قد أرسل ثلاث قطع من القناديل[1] لا مثيل لها فى النفاسة وجمال الشكل. واستقبل أهالى مكة المكرمة «محمد جاوش» حامل القناديل المذكورة بكل حفاوة وأوصلوه إلى حرم المسجد الحرام، حيث قرئ الأمر السلطانى السنى فوق كرسى خاص لذلك، وكسى خلعا فاخرة لبعض الناس الذين اعتيد حضورهم قراءة الأمر السلطانى، وبهذا غمرهم الفرح والسرور وذلك فى سنة ٩٨٥هـ كان محمد جاوش[2] كاتبا للأبنية المقدسة فى عمارة السلطان سليم، ثم أصبح بعد ذلك مربيًا للسلطان مراد خان الثالث، ولما أريد مكافأته لخدماته الكثيرة كلف بحمل القناديل المذكورة وتوصيلها إلى مكة المكرمة، ومعها الخلع الفاخرة التى أنعم بها السلطان على الشريف «أبو نمى بن بركات» والقاضى «حسين بن أبى بكر الحسينى» وشيخ مكة «لطفى بك زاده» وأمين المبانى «أحمد» بك ووصل إلى مكة فى خلال سنة ٩٨٤هـ[3].

الذيل

وقد أصبح استقبال الهدايا السلطانية المرسلة إلى كعبة الله بكل توقير وحفاوة عظيمة في حكم العادة لدى أهالى مكة المكرمة، وكذلك قراءة الأمر السلطانى على كرسى فخم سلطانى، وكانت مراسم تبادل الولاة تتم على نفس الصورة.

وقد حضرت أنا جامع حروف هذا المؤلف فى سنة ١٢٨٩ مراسم قراءة الأمر السلطانى السنى الذى يتضمن تعيين محمد باشا واليا على الحجاز.

(١) كانت هذه القناديل مصنوعة من الذهب ومرصعة بحجارة كريمة ثمينة، وكانت صناعتها في غاية الجمال.

(٢) إن الشخص المعروف بـ محمد باشا هو محمد جاوش وبعد أن أصبح مربيًا للسلطان مراد خان الثالث رقى إلى رتبة أعلى وأسندت إليه الوزارة فيما بعد.

(٣) وفى قول آخر إن محمد جاوش وصل إلى مكة سنة ٩٨٥هـ.

وقد اجتمع أهل مكة كلهم أمام المقام الحنبلى الكائن بين ركن «الحجر الأسود» وبئر زمزم، وانتظروا قدوم شريفا مكة المكرمة. وعندما قدم المشار إليهما محاطين برجال الشرطة ومعهما كثيرون من ضباط الجيش، ومر الجميع بكل عظمة واحتشام ونظام من أمام باب السلام، وقفوا أمام الجماعات المجتمعة، واعتلى موظف مكلف بقراءة الأمر السلطانى كرسيا وضع من قبل بين البيت المعظم وبئر «زمزم»، قرأه أولا باللغة العربية ثم باللغة التركية، وبينما كان يقرأ الأمر السلطانى أُلْبِسَ مُفتيّو المذاهب الأربعة والعلماء الذين حضروا الحفل خلعا فاخرة.

وعقب الانتهاء من قراءة الأمر السلطانى اعتلى واحدٌ من أعلم العلماء وأصلح الصلحاء الكرسى، وبينما كان حامل مفتاح الكعبة فى داخل بيت الله أخذوا يدعون الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطول عمر السلطان، وللوالى الجديد بالتوفيق فى عمله، وسواء أكان أثناء قراءة الأمر السلطانى أو الدعاء بطول عمر السلطان ودوام ملكه كان باب كعبة الله مفتوحا.

وكان القارئ والداعى يتجهان نحو مقام إبراهيم العالى، لذا كان بيت الله الأعظم فى يسارهما وكان بئر زمزم فى يمينهما، وفى ختام الدعاء طاف جميع المشاهدين ورجال الحكومة بالبيت المعظم، وكان الشريف عبد الله باشا والوالى المشار إليه من ضمن الطائفين انتهى.

وبعد انتهاء مراسم استقبال القناديل التى قدمها السلطان مراد خان الثالث إلى الكعبة طاف بالكعبة الشريفة الشريف «حسن بن أبى نمى»، وعليه الخلعة السلطانية كما طاف رئيس المؤذنين ودعوا الله سبحانه وتعالى ـ بطول دولة السلطان.

وبعد طواف الشريف بالكعبة دخل مع الأشراف والعلماء الكعبة، واعتلى السلم الذى كان قد جهز من قبل، وعلق القنديلين واقفا في المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ ـ يوم فتح مكة، أى المكان الأول الذى تقع عليه عين الداخل فى الكعبة، ودعا بالأدعية المناسبة بدوام بقاء الدولة العثمانية.

وبعد ذلك سلم الموظف المذكور قنديلا آخر ليعلق فى الحجرة النبوية المعطرة حسب التعليمات، وأرسل إلى المدينة المنورة وفى رفقته كثير من الموظفين لتبليغ محافظ المدينة المنورة، بالأمر والإسراع فى اتخاذ ما يلزم إجراؤه.

والسلطان مراد خان الثالث أول من نال من السلاطين العثمانيين شرف تعليق القناديل فى الحرمين الشريفين. وبعد ما أرسل ذلك السلطان المغفور له ثلاث قناديل أرسل مع دفتردار مصر إبراهيم بك قنديلا عجيب الشكل مصنوعا من الذهب الخالص.

وكان فى داخل هذا القنديل عرضحال مسطور بيد السلطان وملفوف بمنديل مزركش بالذهب، ووصل القنديل المذكور إلى مكة المعظمة فى سنة ٩٩٨ فى أوائل شهر المحرم وعلق فى داخل بيت الله.

وأرسل السلطان «أحمد خان» الأول فى سنة ١٠٣٤ قطعتين من الماس[1]، على أن تعلقا فى داخل الكعبة المعظمة.

وأرسلت والدة السلطان عبد العزيز خان بن السلطان محمود الغازى كثيرا من الشمعدانات على أن تعلق بعضها أمام المقامات الأربعة وبعضها فى الساحة الرملية للحرم الشريف، وأحال داخل المسجد الحرام إلى سماء ذات نجوم زاهرة وذلك فى سنة ١٢٨٩هـ.

وقد أرسلت إلى بيت الله أشياء أخرى نفيسة وغالية غير ما ذكر ولكن مع مرور الوقت نُسِيَ واقفوها ومهدوها وأسماؤها ولهذا لم يكن فى الإمكان التحقق من شخصياتهم.

قد أفتى علماء السلف بخصوص تزيين الكعبة بالمعلقات المصنوعة من الذهب أو الفضة على وجهين أحدهما بالتحريم والآخر بالجواز. وعلى هذا التقدير فإن تزيين بيت الله والحجرة النبوية المعطرة بناء على ذلك جائز.

(!) وكانت قيمة هذه الهدية تساوى (٨٠٠٠) قطعة ذهبية وكانت غاية فى جمال الشكل والصنع، وقد أرتئى إهداؤها إلى الحجرة النبوية المعطرة من قبل السلطان ولذلك أرسلت إلى المدينة المنورة، ووضعت فوق الكوكب الدرى الذى يلمع فوق الجهة الجنوبية.

تذكر وتفصل كيف علقت الكسوة على كعبة الله ومن الذين نالوا شرف كسوتها مؤخرا وما هو نوع القماش الذي كسيت به وكيف تم الحصول عليه وكيف تجرى الاحتفالات فيى مختلف المناسبات؟

إن أول من كسا البيت الملك اليمنى من ملوك التبابعة «كرب بن أسعد بن عمر» سؤال ذى الأزعار بن أبرهة ذى المنارين الرايش بن عدى بن حيفى بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد الجمهور بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطنى غريب بن زهير بن هميسع بن العرفج حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وكان حاكم اسمه «فيطون» سببا فى كساء كرب بن أسعد الكعبة المعظمة، وبناء على ما نقله أحد المؤرخين يروى أن أوسًا وأخاه «الخزرج» بن الحارث بن ثعلبة العتيق هاجرا إلى المدينة المنورة قبل هجرة النبى (عليه أفضل التحية) بسبعمائة سنة. وقد كثر أولاد وأحفاد الأوس والخزرج وهما من آباء أجداد الأنصار الكرام، وشكل كل واحد منهما قبيلة وكان حاكم المدينة فى ذلك الوقت رجل اسمه «فيطون».

وكان فيطون الدنئ هذا يهودياً من أشرار اليهود، ولم يكن يسمح لأية واحدة من فتيات اليهود بالزواج إلا إذا أزال بكارتها بنفسه، ثم حاول أن يطبق عادته المستكرهة هذه على فتيات الأوس والخزرج، إلا أن هذا الأمر قد اشتد على بواسل رجال قبائل الأوس والخزرج، وأخذوا يفكرون في طريقة للتخلص من فيطون هذا، وحدث فى ذلك الوقت أن حان وقت زواج أخت «مالك بن عجلان من حفيدات الخزرج، وبناء على هذا اقتضى الأمر أن ترسل الأخت إلى بيت فيطون المنكوب.

وفكر مالك في أن يجد طريقة للتخلص بها من فيطون فلبس زى النساء،

وذهب إلى دار فيطون وهناك استطاع أن يقضى عليه فى مكان ضيق من البيت، إلا أنه تأكد بعد ذلك أنه لا حياة له فى يثرب، فارتحل إلى اليمن وعرض الأمر على ملك اليمن فى ذلك الوقت وهو «تبع أسعد بن أسعد».

وكان تبع أسعد رجلا سديد الرأى عادلا فاستاء كثيرا مما أخبره به ابن عجلان من أخبار مثيرة منفرة، وعقد العزم على أن يزيل ريح يهود يثرب ويسوى دورهم بالأرض هدما، فأعد العدة للرحيل وساق جيشه إلى حدود يثرب والبطحاء، وعندما بلغ تلك المدينة أعمل السيف فى ثلاثمائة من وجهاء القوم.

وبذلك ألقى الرعب فى قلوب من تبقى من اليهود، واستأذن يهودى يسمى شامول بلغ من العمر مائتين وخمسين عاما فى الدخول إلى مجلس الملك، وعندما أذن له بالدخول قال أيها الملك: قد جاء فى الكتب المقدسة أن هذا البلد سيكون مهجرا لنبى آخر الزمان، وإن اسمه الشريف «أحمد»، وهو من مكة المكرمة ومن صلب إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وسيبطل جميع الأديان الأخرى وسيشتهر بلقب «خاتم الأنبياء».

وبناء على ذلك فَنِيَّتُكَ الملكية في تدمير البلد وتخريبه تخالف تقدير الله، لذا يجب عليك أن تتخلى عن فكرتك هذه، وأن تظهر الندامة وهذا أولى بك وأجدر.

وهكذا نطق اليهودى بما أوجب القدر النطق به، وبما أن نطق شامول الذى خاطب به الملك قد أثر فيه، وأضاء نور المحبة المصطفوية جنبات فؤاده، ترك حرب اليهود وأكرم أهل المدينة المنورة ببذل العطايا لهم، وأظهر المحبة التى فى قلبه نحو حبيب الله، ثم اصطحب ذلك اليهودى ـ أو على رواية أخرى ـ اصطحب ثلاثة من أحبار اليهود الزهاد، وسار نحو الكعبة المعظمة لابسا ملابس الإحرام، وبعد الزيارة توجه نحو بلاد اليمن عائدًا مصطحباً معه ابن يامين بن عميرى من أحبار قبيلة بنى نضير وعلى ما سبق ذكره، وأخذ معه «شامول» أو «سحيت وبامين».

ويلزم بناء على هذه الرواية أن يكون مقدم طائفة اليهود إلى المدينة المنورة منذ زمن بعيد وقال: «بينما كانت المدينة المنورة واديا خاليا من آثار العمارة قدم إليها (تبع) من ملوك اليمن.

وكان ملكًا ذا شأن، قدم إليها مع حاشيته وجنوده وطلب منه العلماء اليهود الذين كانوا معه أن يسمح لهم بالإقامة فى هذا المكان، واستغرب تبع من طلب اليهود الذين يتسمون بالفطنة فى رغبتهم فى الإقامة فى هذا المكان الموحش، واستوضح منهم غرضهم من هذه الإقامة، فقالوا له: قد استنبطنا من آيات التوراة أن هذا المكان سيكون مهجرا لنبى عالى المنزلة، هو نبى آخر الزمان، ومن الواضح والمؤكد أننا لن ندرك زمن ظهور هذا النبى، إلا أننا أردنا أن نوصى أحفادنا الذين سيدركون هذا النبى باعتناق ذلك الدين الحنيف، وأن يفدوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن هذا الدين».

وقد تأثر الملك من هذا الرد العجيب، وعرف صفات باعث إيجاد الماء والطين «عليه سلام الله المعين» بالسؤال والبحث، فسمح لأربعمائة من العلماء بالبقاء فى هذا المكان، وبما بزغ فى قلبه من حب النبى ﷺ أمر ببناء منزل فخم يعادل «الخورنق» لكل واحد منهم كما أمر بإعطاء جارية لا مثيل لها لكل واحد منهم.

وأنشد تبع الأبيات الآتية وسلمها لأفضل هؤلاء العلماء اليهود وأكثرهم تبحرا فى العلم، والذى كان مع الملك المشار إليه ورغب فى البقاء فى أرض يثرب من شدة إخلاصه لسلطان الأنبياء «عليه أذكى التحايا».

شهدت على أحمد أنــه رسول من الله بارى النسم

فلو مد عمرى إلى عمره لكنت له وزيرا وابــن عــم

وأودع هذه الأبيات بعد أن كتبها فى لوحة مزينة إلى ذلك الفاضل السالف الذكر، وألقى خطبة يبين فيها إيمانه بما جاء به ﷺ قبل بعثة بسبعمائة سنة.

صورة خطبة الملك تبع

«يا أيها الفاضل فريد عصره إن هذه الدار العظيمة التى هيأتها لمحمد ﷺ ذات

صفات عالية، فلتسكن أنت وأولادك وأحفادك فى هذه الدار، وأى واحد من نسلك يدرك البعثة النبوية ليقدم هذه اللوحة التى تركتها أمانة فى يدك إلى النبى اللامع النور، وليعرض عليه إخلاصى وصدق إيمانى به راجيا منه أن يقبلنى أنا ـ أضعف العباد ـ ضمن أمته».

وبناء على رواية ابن إسحاق فإن اللوحة المذكورة وصلت إلى يد خالد بن زيد «رضى الله عنه»، من نسل المشار إليه وقدمها إلى النبى ﷺ، وبهذا حصل على شرف ضيافة الرسول ﷺ فى داره، إلا أن مؤلف «خلاصة الوفا» الإمام السمهودى يرد هذا القول، ويقول كما ورد فى بعض فصول «مرآة المدينة»: لا يصدق كثيرا أن خالد بن زيد من نسل ذلك الفاضل؛ لأن أجداد الأنصار الكرام كلهم من أبناء العرب، وجملة فروعهم أنسابهم صحيحة، فإن ما ذهب إليه ابن إسحاق غير صحيح، وقوله أن أجداد الأنصار قد اختلطوا باليهود سهو صريح، لأن أبا خالد هو زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك ابن النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج، وأمه «هند بنت سيد وأباها عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن كعب ابن الخزرج، وهذا يدل على أن خالد ليس من نسل علماء اليهود.

ومع كل هذا قد رد على القارى فى كتابه المسمى بـ «الدرر المضيئة» كل الأقوال السابقة، وروى أن سليمان «على نبينا وعليه سلام الله المستعان» بينما كان يمر من صحراء المدينة المنورة قال: «إن نبى آخر الزمان سيدفن هنا، وترك هناك أربعمائة من أحبار بنى إسرائيل العلماء؛ ليكونوا فى انتظار البعثة النبوية، ولكن للأسف عندما هاجر سلطان رسل الأمصار «عليه أعظم التحية» إلى المدينة أنكره أحفاد علماء بنى إسرائيل، وأظهروا له وجوه المخالفة.

إن أئمة الأسلاف اختلفوا كثيرًا فى مسألة إيمان الملك تبع. إلا أن وهب[1] بن منبه[2] ادعى إيمان المشار إليه. وقال إنه آمن بإبراهيم عليه سلام الله الرحيم.

(١) المشار إليه من التابعين.

(٢) إنه من الأصحاب الكرام.

وروى الإمام السهيلى الحديث الشريف الذى يقول «لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا» (حديث شريف) وبهذا حكم على إيمانه بالنبى ﷺ!! وذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك الذى آمن قبل البعثة هو «تبع أبو كرب بن أسعد الحميرى» الذى علق الكسوة على الكعبة ووالده هو أبو كرب بن أسعد الحميرى ووفق قسم من المؤرخين بين الأقوال المختلفة قائلين «إن المنزل الذى وضع أساسه تبع واللوحة المذكورة انتقلتا إلى خالد بن زيد الأنصارى بطريقة ما، وقدم خالد منزله واللوحة إلى النبى ﷺ ولهذا نال شرف ضيافة النبى عليه السلام. ومهما كان من الأمر فحقيقة الأمر يعرفها عالم السر والخفايا، وأن غرضنا من حكاية كل هذه الأقوال كان التحقق من تزيين تبع الحميرى للكعبة المعظمة بتعليق الكسوة عليها.

إن الملك تبع الذى اختلف المؤرخون فى اسمه وإيمانه وتجادلوا فيما بينهم كثيرا بخصوص هذين الموضوعين كما سبق ذكره فيما سلف ووصل إلى مكة المكرمة عند عودته من المدينة، وفى نفس اليوم طاف بالبيت وذبح أضحية وحلق شعره وأقام بمكة ستة أيام، وعلى قول آخر عشرة أيام، ودعا جميع أهل مكة إلى وليمة، وأسرع بعد الطعام بإلباس الخلع الغالية لبعضهم، وفى أثناء إقامته بمكة أمر فى رؤياه بكساء الكعبة المعظمة، وفى صباح تلك الليلة ألبس الكعبة كسوة مصنوعة من قماش يطلق عليه حصيف، ولكنه رأى فى رؤياه فى الليلة التالية أن يغير كسوة الكعبة بقماش أغلى من «الحصيف». وفى اليوم الثانى كسا الكعبة بقماش يقال له «مغافر» بعد أن أنزل الكسوة المصنوعة من الحصيف، ولكنه مع هذا رأى فى منامه فى الليلة التالية أن يغير كسوة الكعبة المصنوعة بقماش غالى الثمن ذى هدب وأغلق باب بيت الله بقفل وأنشأ يقول:

عربى

وكسوت البيت الذى حرم الله ... ملاء مغافرا وبرودا

أقمنا من الشهر عشرا ... وجعلنا إليه إكليلا

وخرجنا منه توأما سهيلاً ... قد رفعنا لواءنا منصورا

ثم سافر متوجها نحو بلاده..

وإن كان الإمام الواقدى قد نقل عن أبى هريرة أن أول من علق الكسوة على الكعبة ذلك الملك السعيد إلا أن عبد الرزّاق قال ناقلا عن ابن جريج، أن الذى علق الكسوة على الكعبة قبل جميع الناس هو إسماعيل (عليه السلام).

وادعى «زبير بن بكار» بناء على أخبار بعض أئمة الرواة أن أول من كسا الكعبة المعظمة هو «عدنان» أو رجل آخر عاش فى عصره «انتهى»

وبعد عودة الملك تبع شرع فى إرسال الكساء إلى البيت المكرم من جميع أقطار العالم. وكانت بعض الكسا تعلق على الكعبة وبعضها تحفظ فى خزانة الكعبة وكانت، تجدد من حين لآخر. وكانت الكسا تعلق بعضها فوق بعض، ولم يكن تعليق الكسا خاصا بالرجال بل هناك نساء كسين الكعبة.

إن والدة عباس بن عبد المطلب «نتيلة» أو «نتلة» كانت أولى النساء اللاتى كسين الكعبة. ولم تنل هذا الشرف من نساء قدماء العرب غيرها، وكان سبب نيلها هذا الشرف نذرها لابنها وهى نتيلة بنت جناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر، وكان ابنها عباس ضاع منها فى صغره، فنذرت قائلة إن وجدت ابنى سأقدم كسوة إلى الكعبة ولما وجدت ابنها أوفت بنذرها بأن كست الكعبة بالديباج وأنواع أخرى من الأقمشة الغالية.

وقرر القرشيون كساء الكعبة عن طريق المناوبة، وذلك بفرض الضريبة على القبائل، والنقود التى تجمع منها تنفق فى كساء الكعبة، وقد راعوا هذا القرار ابتداء من عهد قصى «بن كلاب بن مرة إلى عصر أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله ابن مخزوم، ولكن «أبا ربيعة» أقنع أفراد القبيلة بأن تكون كسوة الكعبة سنة بين جميع أفراد القبائل، وسنة تكون على حسابه، كما ذكرنا سابقا ولذا كان القرشيون كلهم يكسون الكعبة سنة ويكسوها «أبو ربيعة» بمفرده سنة، واستمرت هذه الحالة إلى أن توفى أبو ربيعة.

وكانت الكسا التى تعلق على الكعبة من أقمشة مختلفة وكانت تصنع فى زمن تبع الحميرى من أقمشة مثل الحصيف والمغافر والحصايل والعصب والمسوح

والسراء والتطابح. وفى عهد جاهلية العرب من المنسوجات مثل «الخطارف والخزن والخضر والصفر والكرار والنمارق العراقية والحبرات اليمانية وفيما بعد أطلق على الجزء السفلى من الكسوة والذي يلى أرضية المطاف «الإزار» كما سيرد فيما بعد.

والكسا التى تعلق فى أيامنا ليست قطعتين كما كانت من قبل بل قطعة واحدة، والكسوة البيضاء التى نرتديها وقت الإحرام تتكون من قطعتين لأن البيت الأعظم يكسى بالإحرام، بينما يخرج الحجاج إلى عرفات أى تعلق على الكعبة قبل حلول عيد الأضحى بأيام كسوة بيضاء، واسم هذه الكسوة البيضاء بناء على تعبير عرف البلد إحرام، وهى بدل الكسوة التى كان يطلق عليها قديما «الإزار» وغيرت الكسوة فى عهد نبينا السعيد، مجدد بنيان الشريعة (عليه أقوى التحية) بالأقمشة اليمانية، وفى أيام الخلفاء الراشدين غيرت بالديباج المزركش، وأخذت تغير مرتين فى السنة فى يوم «التروية» ويوم «عاشوراء» وهذا التجديد أصبح عادة متبعة.

روى أبو عروبة أن النبى ﷺ علق على الكعبة كسوة مصنوعة من قماش يسمى القباط كما يروى بعضهم أن عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ علقا كسوة على الكعبة.

وروى الإمام «الباقر» أن الذى حول ستارة الكعبة إلى الديباج هو يزيد بن معاوية.

وينقل أن الذى غير كسوة الكبعة إلى الديباج هو عبد الله ابن الزبير[1] ويقول الإمام الفاكهى «إن أول من علق الديباج الأبيض على الكعبة هو هارون الرشيد.

وكان صنع الكسوة من الديباج الأبيض من القواعد الجارية إلى عهد محمود سبكتكين». وبدل محمود سبكتكين الكسوة إلى الديباج ذا اللون الأصفر، كما بدلها ناصر العباسى بقماش أخضر، وفيما بعد بدلها بالقماش الأسود كما سنبين فيما يأتى.

يطلق يوم التروية على اليوم الذى قبل يوم عرفة، وكان قديما يعلق على سطح

(١) وقد جدد ابن الزبير الستارة الشريفة عام ٦٤هـ.

بيت الله أنواع من الديباج الغالى الثمن، ولم يكن يحاك كالكسوة حتى لا تخسر من ملامسة الأيادى، ولم يكن الأزرار يدرج فيها، وفى يوم عاشوراء كانت الأقمشة التى علقت يوم التروية تحاك بعضها ببعض، وتأخذ شكل الكسوة وتظل على هذا الشكل إلى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان، وتعلق فوق هذه الكسوة كسوة أخرى من قماش القباطى السميك.

وقد قرر فى عهد المأمون العباسى تغيير الكسوة الشريفة ثلاث مرات فى السنة، فكانت تعلق فى يوم التروية كسوة مصنوعة من قماش أحمر، وفى غرة رجب كسوة مصنوعة من القباطي السميك، وفى أول أيام عيد الفطر المبارك تعلق كسوة من ديباج أبيض، وأخيرًا اتخذ تغيير الملاصق للديباج الأحمر فى يوم عاشوراء عادة متبعة، إلا أن هذا الإزار كان مصنوعا من قماش رقيق ولا يتحمل سنة واحدة؛ ولذا رئى تغييره فى يوم عيد الفطر المبارك مع تجديد الديباج الأبيض.

وفى عهد المتوكل بالله تمزق الإزار المذكور إربا من أيدى المتوسلين ولم يتحمل إلى شهر رجب.

فأرسل من بغداد عاصمة دار الخلافة إزارين، وتقرر أن يصل الديباج الأحمر الذى يطلقون عليه «القميص» إلى الأرض ويلامسها وأن يجدد الإزار مرة كل شهرين.

وسبب تجديد الإزار مرة كل شهرين كون القميص غاية فى القصر لأن قطعة الستارة التى يطلق عليها القميص كان قد صنع قصيرا جدا بحيث لا تصل إليه الأيادى، وذلك فى عصر المتوكل بالله وكان الناس مضطرين أن يتوسلوا بالإزار، لذا كان الإزار يتمزق سريعا ويصير قطعا صغيرة.

وكانت ستارة الكعبة فى العصور الإسلامية ولا سيما في عصر المتوكل بالله تصنع من قطعتين: «القميص» و «الإزار» وكان الجزء العلوى من هذه القطع يطلق عليه قميص والجزء الأسفل إزار تشبيها لهما بالقميص والإزار.

لازمة

إن ما يستر النصف الأسفل من الجسم يسمى بالإزار بكسر الهمزة، أما الثوب الذى يستر ما فوق الخصر فيسمى الرداء. ولما كان لبس الرداء والإزار من القواعد المرعية فى الجزيرة العربية، كان الرسول ﷺ يلبسهما أيضا، حتى إن الرسول ﷺ عندما ودعنا لعالم الغيب كان يلبس رداءاً مرقعا وإزارا منسوجا من خيوط غليظة، وكان الإزار الذى يكتسيه الرسول ﷺ يصل إلى نصف ساقه[1] ويرى أن استعمال إزار أطول من هذا مكروها.

وأشار النبى ﷺ وهو يشرح يوماً لحذيفة بن اليمان ما يجب أن يكون عليه طول الإزار لساق المشار إليه أو لساقه عليه السلام: «هاهنا موضع الإزار» حديث شريف. إذا أردت أن تعمل بالأفضل يمكن أن يكون طول الإزار ما بعد نصف الساق وفوق الكعب وإذا أردت أن تنزل الإزار إلى الكعبين فإن هذا غير جائز لأن الإزار لاحق له فى الكعبين.

واختلف العلماء فى تعيين مدى طول إزار النبى ﷺ بالأذرع، فقال ابن الجوزى: «إن طول الإزار الذى كان يرتديه الرسول ﷺ كان أربعة أذرع وذراعين ونصف فى العرض «أما ابن القيم فقال «إن طوله كان أربعة أذرع وشبرا وعرضه ذراعين»، وقال الواقدى «إن طوله كان ستة أذرع وثلاثة أذرع وشبرا فى العرض».

إن ما قيل فى طول الإزار وما يجب أن يكون عليه خاص بالرجال، وأما إزار النساء فيلزم أن يكون أطول من إزار الرجال شبرا أو ذراعا ويسرى هذا الحكم على القميص وسائر الملابس. وبما أن الإزار والرداء معروف لدى الحجاج فإن قطعة القماش التى يلفون بها خصورهم يطلق عليها الإزار، وما غطوا به ظهورهم يطلق عليه الرداء.

وكانت الكسا التى تعلق على الكعبة من عهد المأمون العباسى إلى عهد الناصر لدين الله أى فترة ٣٧٠ عاما تصنع من ديباج أبيض. وفى عصر الناصر لدين الله

(١) يطلق على العظام التى بين الركبة والعقب الساق.

قرر اتخاذ الكسا من نسيج مصنوع من قماش أسود، والآن تصنع من قماش أسود.

نكتة

حينما بدل لون الكسوة الشريفة إلى الأسود سر الكل من هذا التغيير وفق ما فهمه، وكان سببا فى كثير من القيل والقال وحمل الفاضل القسطلانى هذا التغيير إلى نكتة وقال «إن البيت المعظم حينما رأى قلة زواره لبس ملابس الحزن» انتهى.

وفعلا إن نكتة الفاضل القسطلانى تطابق الواقع. إلا أن غرض الناصر لدين الله العباسى لم يكن الإيماء إلى تلك النكتة، بل كان يريد أن يعلم الناس شعار العباسيين القديم. لأنه عندما أفل نجم الدولة الأموية وتلألأ بدر الدولة العباسية أعلن العباسيون شروق شمس دولتهم بالرايات السوداء، حتى أنهم اتخذوا استعمال جبة سوداء وعمامة سوداء أيضا عادة لهم.

وسبب هذا عندما مات إبراهيم بن محمد فى سجن مروان لبس المحزونون عليه ملابس المأتم السوداء، لأنه عندما ثار أبو مسلم الخراسانى بكل عنف طالبا من الناس البيعة لإبراهيم بن محمد، قبض مروان على «إبراهيم وسجنه، وعندما علم الخراسانى أنه لا خلاص لإبراهيم من بئر مروان، أخذ يدعو الناس ليبايعوا السفاح بن محمد، وفى ذاك الوقت خنق مروان الحمار محمد بن إبراهيم ورمى جثته، وعندئذ لبس المبايعون للسفاح ومحبو العباس بن عبد المطلب الملابس السوداء إظهارا لحزنهم، وأخذوا يدعون الناس لأخذ الثأر رافعين الرايات السوداء.

وبناء على ما سبق ذكره أصبح لبس الجبة السوداء والعمامة السوداء من شعار الخلفاء العباسيين إلى عهد المأمون بن هارون. لأن المأمون أراد أن يظهر حبه لآل الرسول فبايع الإمام على الرضا، وزوجه ابنته، واتخذه وليا للعهد، وخلع الملابس السوداء شعار العباسيين، ولبس جبة خضراء، وأعلن بذلك أنه يجب

على الأشراف والسادة وعظماء العباسيين والجعافرة وسائر فرق المسلمين لبس الملابس الخضراء؛ إذا أرادوا أن يمتازوا على الآخرين.

عندما اختص المأمون السادات الكرام بلبس جبة خضراء وعمامة خضراء أيضا كان المسلمون مختلفين فى حرمة لبس العباسيين الملابس السوداء وسائر المسلمين الملابس البيضاء، واليهود الملابس الصفراء كما يخبرنا به «ابن حجر» فى كتابه الصواعق...، ولذلك اختار المأمون من أجل السادة الكرام اللون الأخضر، ولما بقيت الخلافة فى بنى العباس استمر أشراف العلويين فى لبس ملابس خضراء. إن اعتمام الأشراف منهم بعمامة خضراء عادة بقيت من أيام المأمون، وللأسف الشديد توفى الإمام بعد فترة قصيرة فلبس المأمون جبة سوداء حزنا عليه.

ويتفق أكثر الرواة على أن المأمون حينما لبس الجبة الخضراء كان فى خراسان، عندما مات الإمام رجع إلى بغداد مرتديا الملابس الخضراء التى اختارها، ولكنه لبس الملابس السوداء بعد عودته إلى بغداد بثمانية أيام وذلك بعد إلحاح عليه من بعض وزرائه.

ويذهب ابن خلكان إلى أن المأمون قد أمر المسلمين بعدم ارتداء الملابس السوداء، وشاع فى هذه الفترة أنه ينفر من لبس الملابس السوداء شعار العباسيين. ولكنه فى النهاية لبس الملابس السوداء نتيجة وفاة أحد أقاربه وأصدقائه وذلك فى سنة ٢٠٤هـ.

وادعى فريق من المؤرخين أن اعتمام المأمون بالعمامة الخضراء لم يكن ناشئاً من حبه لآل وأبناء الرسول، بل نشأ من حرصه على ألا يقع زمام السلطنة فى أيدى العلويين، وأيدوا ادعاءهم قائلين: «قام العلويون فى عهد المأمون يطلبون الخلافة متفقين، فأراد المأمون أن يصلح ما بين العباسيين والعلويين، وأراد بذلك أن يتنازل العلويون عن مطالبهم، وبعث بأخى والدته رجاء بن الضحاك إلى المدينة المنورة لدعوة الإمام على الرضا بن موسى الكاظم إلى بغداد وعندما وصل إلى بغداد جمع جميع العباسيين والعلويين فى مجلسه، وخاطبهم قائلا: «يا أيها المسلمون: لأننى لم أجد بين آل عباس وآل الإمام على من هو أولى بولاية العهد من الإمام على ولذلك عينته وليا للعهد، ثم كتب حجة فى صحيفة وقدمها إلى

الإمام على، ثم زوج ابنته أم الفضل من محمد تقى ابن الإمام، وخلع الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين ولبس جبة خضراء جاعلاً لبسها خاصـًا بالسادة الكرام، ثم ألبس الإمام عليا جبة خضراء وأمر جميع السادات بلبس ملابس خضراء.

وهذا ما وقع موقع الرضا والقبول من أهل الإيمان فلهج بمدحه والثناء عليه كل لسان، ولكن فرقة «ذيلة» من رؤساء القبائل التابعة للعباسيين، أرادوا أن يسقطوا المأمون من عرش الخلافة، وأطمعوا عمه إبراهيم فى الخلافة؛ وهذا الخبر المفزع أقلق المأمون الذى كان فى ذلك الوقت فى خراسان، فعاد إلى بغداد بينما سافر الإمام علي إلى طوس.

حينما دخل المأمون بغداد كان يرتدى جبة خضراء، وإن كان الناس جددوا البيعة له إلا أنهم لم يعجبوا بعمامته وجبته، فخلع جبته وعمامته الخضراوين بإيعاز من أهله وأصدقائه، ولبس الملابس السوداء وأعلن أن يستمر العلويون فى ارتداء الملابس الخضراء.

ومما لم يغب عن أذهان أهل الدقة والفكر أن ما ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين مخطئون فى ادعاءاتهم؛ لأن محبة المأمون لأهل البيت ثابتة بأقوال هؤلاء المؤرخين أنفسهم. وبما أن المأمون قد وضع نظام ارتداء العلويين العمامة الخضراء، فقد اعتاد العلويون أن يعتموا بالعمائم الخضراء. وقد تركت تلك العادة فيما بعد، وهكذا أصبح أبناء الرسول لا يتميزون عن الآخرين.

إلا أن الملك الأشرف «شعبان» بن حسن من الملوك الشراكسة فى مصر أظهر حبه وحرمته لآل البيت إذ جدد عادة الاعتمام بالعمامة الخضراء ولبس الجبة الخضراء القديمة[1] وذلك فى ستة ٧٧٢هـ.

عندما قرر اعتمام أولاد النبى بعمائم خضراء أنشد أبو عبد الله الأندلسى[2] من شعراء الزمان العظماء القطعة الآتية:

(١) يصدق الإمام السيوطي على هذا القول.

(٢) إن هذا الشخص كان أعمى.

جعلـوا لأبنـاء الرسـول علامـة إن العلامـة شـأن مـن لـم يشـهر

نـور النبوة فى كريم[1] وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وأيد شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة الدمشقى من أدباء دمشق صواب رأى الملك بإنشاد القطعة الآتية.

القطعـة

أطراف تيجان أتت من سنـدس خضر بأعـلام عـلى الأشراف

والأشرف السلطان خصهم بها شرفـا ليفرقهـم مـن الأطـراف

استصواب رأى:

يجب على الناس جميعا استصواب ما ذهب إليه الملك الأشرف المصرى، لأنه لا شك فى أن السادات الكرام يجب احترامهم. حتى إن حضرة مولانا قتادة قدس الله سره كان يقول: إذا ما رأيت فى مجلس شخصا من آل الرسول تحيرت فى كيفية إكرامه وتوقيره. وقد أطنب ابن حجر فى رسالته التى تسمى «الصواعق» فى ذكر ما يجب على الإنسان من توقير آل الرسول واحترامهم، ولكنه أشار أيضا أنه يجب عليهم أن يبتعدوا عن ارتكاب المعاصى. والأبيات التالية من آثار صاحب كتاب «كمنجيه راز» أى خزانة الأسرار ونوردها فى هذا المقام لأنها تناسبه.

الأبيات:

لتكن لهذا الرب على الدوام الصلـوات

فمنها الظهـــــور للحسنـــــات

ومـــن الآل رمـــز وتنبيـــــه

إلى أن الولد ســـــر أبيـــــه

(١) يروى بدل كريم وسيم أيضا.

ومن الحق بعيد من كذب علـى الآل

ومن غصين لا يثمر حتى الثمر محال

إن الضال بخداعـــه لا يفلـــــح

والحجر الأسود ياقوتـــا لا يصبـح

«عن فرح الروح»

إن لبس الملابس والاعتمام بسود العمائم كان قبل عهد الخلافة بزمن طويل ويقول المؤرخون إن على بن أبى طالب والحسن ـ رضى الله عنهما ـ وكثير من وجهاء القوم كانوا يكتسون سود الثياب، كما أن عثمان بن عفان كان يكتسى ثياباً سوداً يوم استشهاده، كما يروى أن على بن أبى طالب قد ألقى خطبة بليغة وهو لابس ملابس سوداء ومعتم بعمامة سوداء.

وكان عبد الله بن الزبير يقيم العمامة سوداء حينما كان يخطب، كما أن أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر «رضى الله عنهم» كانوا يلبسون جببا وعمائم ومناديل الرأس السوداء.

كما أن ابن المسيب كان يرتدى فى أيام الأعياد ملابس سوداء، ويعتم بعمامة سوداء أيضا، كما أن عبد الله بن عباس كان يلبس ملابس سوداء ويعتم بعمامة سوداء أيضا حينما يجلس فى ملجس تلقى العلوم.

ورد فى الخبر أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى يوما أمام النبى ﷺ بملابس وعمة سوداء. وقد أظهر النبى ـ ﷺ ـ عجبه له قائلا: ما هذه الصورة؟ فإنى إلى الآن لم أكن قد رأيتك من قبل بهذه الملابس السوداء! فقال له إن هذه الهيئة هى زى أولاد ابن عمك عباس الذين سيعتلون كرسى الحكم فسأله ثانية هل هم على حق؟ فرد عليه قائلا: نعم. فدعا لهم قائلا «اللهم اغفر للعباس».

وكان هذا الأمر سبب آخر لارتداء العباسيين الملابس السوداء إذ قال النبى ـ ﷺ ـ لعمه العباس بن عبد المطلب وزوجته أم الفضل «يبدو أن أولادكم

وأحفادكم سيعتلون منبر الخلافة المنير» وبهذا أبلغهما ما أخبره به جبريل ـ عليه السلام ـ وقد دفعهما هذا الخبر إلى انتظار ذلك الوقت «انتهى».

كان تعليق الكساء إلى سنة ٥٣٣ خاصا وحصرا للملوك والسلاطين إلا أنهم فى تلك السنة شغلوا بدفع الأعداء وتهيئة ما يلزم من القوت للجيوش؛ ولذا لم يستطيعوا أداء خدمة تعليق الكسوة على الكعبة؛ لذا رتب كساء الكعبة من طرف التجار بطريقة اشتراك كل واحد منهم بدفع حصته اللازمة.

إن الرياح التى أخذت تهب فى أواخر سنة ٦٤٣هـ بشدة قد مزقت كسوة الكعبة وجعلتها قطعا فى يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ وبعد هذا ظلت الكعبة بدون كسوة ما يقرب من واحد وعشرين يوما.

هناك مقترحات وأسباب كثيرة لسقوط الدولة العباسية وانقراضها إلا أن الناس عدوا تمزيق الكسوة بهذا الشكل مقدمة لزوال اللون الأسود شعار العباسيين وانقراض دولتهم، وفعلا قد سقطت الدولة العباسية بعد ذلك بفترة يسيرة.

وبعد ذلك الحادث بثمانية أعوام ظهرت نار فى «عدن» من سلسلة جبال مكة، وكانت هذه النار تسرى نحو البحر وتخرج ليلا دخانا أسود، وقد خاف الناس من ظهور هذه النار وقلقوا واضطربوا وأخذوا يديمون الدخول إلى الحرم الشريف للتوبة وللاستغفار، وتركوا الظلم والفسق والفساد وأخذوا يؤدون زكاتهم وصدقاتهم متجهين لعمل الخير. «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة».

محاصيل القرى السبع الموقوفة للكسوة الشريفة

حينما أخذت شمس خلافة آل عباس تتوارى بين سحب الانقراض والزوال، انتقل تجديد كسوة الكعبة إلى السلاطين المجاورة من ملوك اليمن وغيرهم. فكانت كسوة الكعبة الشريفة لملوك اليمن حينًا ولغيرهم من السلاطين حينا آخر.

وفى خلال عام ٧٥٠ أوقف الملك الصالح إسماعيل، ابن الناصر محمد

المصرى، ربع أراضي القليوبية الخاصة بقرى سندس، وأبو الغيث، ويبنون على صنع الكسوة الشريفة، وعلى هذا أمر سلاطين مصر أهالى تلك القرى بصنع كسوة سوداء فى كل عام، ويرسلونها إلى مكة المعظمة، وعندما يتبدل السلاطين كانوا يضيفون إلى الستارة السوداء ستارة أخرى حمراء لتعلق على جدران الكعبة الداخلية.

وكان من العادة أن ينسج على الستارة الحمراء عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الكلمة المنجية، ولكن أحيانا كانت تكتب آيات قرآنية جليلة وأسماء أصحاب المعالى، وفى عيد جلوس السلاطين المصريين ترسل إلى الروضة المطهرة للنبى ـ ﷺ ـ قطعا من أقمشة خضراء، وحينما خلص السلطان سليم بن بايزيد خان «عليهما الرحمة والغفران» مصر من أيدى ملوك الشراكسة وجبت خدمته للحرمين الشريفين.

فكسا الحجرة النبوية المعطرة بأشكال ذات ألوان، وكسا الكعبة بكسوة سوداء على نحو ما كان عليه الحال فى السابق.

لأن السلطان سليم أزال الخلافة العباسية التي فى مصر ونصب الملوك العثمانيين خلفاء العالم الإسلامى واستولى على البلاد الحجازية المقدسة فجعل البلاد العثمانية قبلة المسلمين واستصوب أن يسير على آثار الملوك الشراكسة ورأى أن يصنع كسوة الكعبة أهالى القرى التى وقفها الملك الصالح لذلك، ورجح السلطان سليمان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ أن يظل صنع الكسوة الشريفة فى يد أهالى القرى التى سبق ذكرها ولكن القرى التى أمر الملك الصالح أهلها بصنع الكسوة أشرفت على الخراب وقلت مواردها فقرر أن تكمل نفقات الكسوة من خزينة الدولة المصرية ثم أمر أن توقف قرى أخرى حتى تصل الواردات إلى نصابها لصنع الكسوة وأملى أن ترسل الكسوة الشريفة مصنوعة من وقف الملك الصالح.

القرى التى ضمها السلطان سليمان إلى وقف الملك الصالح كانت سبع قرى

ونحن استطعنا أن نحصل على صورة لحجة الوقفية التى أرسلت فى ذلك الوقت إلى والى مصر والتى تبين موارد تلك القرى فى ذلك العصر وقيمتها وكيفية إنفاقها وإدارتها بعد أن قيدت في سجلات مصلحة الأوقاف وقد رأينا إدراجها هنا تبركا بها.

صورة وقف الكسوة الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذى رفع القبة الخضراء ووضع بساط الخير وسمك فى سمائه الأفلاك، ملك فى أرضه الأملاك، ففتح مناهج الملك والدولة الغراء بيمن وقاية السلاطين وحسن رعاية الأمراء، وجعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٥٨) واستعد بحجة يوم الجمرات ثم الصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد أعلم الرسل الأعلام والأبناء وعلى آله الكرام الأتقياء وأصحابه العظام الأصفياء.

نمقه العبد المحتاج إلى عفو ربه محمد بن قطب الدين محمد القاضى بالعساكر المظفرة المنصورة فى ولاية الأناضول.

أما بعد فهذه وثيقة أنيقة بديعة المعانى والبيان، بليغة المبانى والتبيان، توارى عبارتها راحا رحيقا، بل هى أصفى، وتجارى استعاراتها مسكا سحيقا بل هى أزكى، يشعر عما هو الحق القاطع، ما حواه فحواها، ويجير عما هو الصدق الساطع، ما أداه مؤداها، وهو أنه قد بان لكل ذى عقل سديد أن الدّنيا الدنية قنطرة العابرين ورباط المسافرين، يحل هذا ويرحل ذاك، ولا يدرى أحد إلا ويمتطى صهوتى أدهم الليل وأشهب النهار، ويسير مع السائرين إلى منتهى الآجال والأعمار، وهى موعظة ما قال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات «اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت، فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل واتخذ فيها لرحيله ذخيرة وزاد، وادخر لمقامه الباقى عدة وعتاد بالصدقات التى ينال بها النجاة، ويتوسل بها إلى الجنات على ما نطق به القرآن وحديث رسول الرحمن، حيث قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف ٨٨) وقال عليه الصلوات التامات: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية» (حديث

شريف) ألا وهى الوقف فلما تذكر فى جميع ذلك السلطان الأعظم، والخاقان الأكمل الأكرم، ظل الله فى أرضه وخليفة على خليفة فى رفعه وخفضه؛ علوى العلا من آل عثمان عثمانى المحيا، من سلاطين الزمان سلطان البحرين والبرين، والعرض القائم بالسنة والفرض، عاشر المجددين لدين الإسلام بأحسن المعاشر، وعاشر السلاطين كالعقد العاشر السلطان ابن السلطان ابن السلطان سليمان شاه بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان لازالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته، ونماء ذاته وحدقة العالمين منورة بضياء صفاته، وبضياء سناء حسناته، وبلغ أرواح آبائه وأجداده الرحمة، وسقاهم بالكوثر وأسبغ عليهم نعم غفرانه، وأنذر منها ورأى فى نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيلة لا يسع شكرها على ذاته الكريمة منه منة جميلة ليس من طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القارة واستمرارها بالإرادة الدارة متفكرا فى قول الملك الخلاق، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) ونظر فى قول (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (حديث شريف) دعا لما بان تعظيم الكعبة المستورة بالأستار العالية وتشريفها فى الحج يوجب الجنة، ويصل الهدف الساتر من العذاب والجنة، وسيما في قلبه من قول الرسول «من زارنى وجبت له شفاعتى» (حديث شريف) أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار بل بتشريف مراقد الاتباع وستر مراصد الأشباع، أيضا بالإزار تنزيلا أية منزلة الزيارة الدائمة، والخدمة القائمة على مر الدهور فإن تلك المواضع وإن كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرقة المتفرقة، فأحب أن يكون ما يصرف إلى هذه الآثار الشريفة، من الأموال المتميزة المنيفة، فعين لهذه أجمل أملاكه وأسبابه، وأجمل أكسابه، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل، النحرير الكامل، مصباح رموز الدقائق، مفتاح كنوز الحقائق، كشاف المشكلات، حلال المعضلات، الموقع أعلى هذا الكتاب، يسر الله له حسن المآب بقوله الشريف ولطفه اللطيف، العارى عن الاعتساف، الحاوى على الإقرار والإعتراف، الذى يجوزه الشرع لاحتوائه على ما يغير الأصل والفرع، وحكى بأنه قد أوقف سبلها، وحبس أملاكها، وكملها

على النمط الأكفأ الأشمل، وعلى الطريق الأكمل، لتكون لهذه المصلحة أوقافا قارة، وإدارات دارة، فى الدنيا العاجلة، ومفيدة له فى يوم الجزاء والآجلة، وتكون عدة معدة لغده عن أمسه، ومزية منورة لا تفارقه فى رمسه وتصيرها جسره من العذاب، وحجة ويكون جزاءها مثل جزاء الحج المبرور، وتكون باعثة للرفاعة، وموجبة للشفاعة، منها جميع القرى المسماة ببسوس وأبو الغيث وحوص بقمص الواقعة بالولاية المصرية التى كان يحصل منها فى السنة الواحدة مبلغ (٨٩٠٠٠) درهم ومنها جميع القرى الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية أولها قرية (سلكة) حصل منها فى تلك السنة مبلغ (٣٠٤٩٦) درهما، وثانيها: قرية (سيرونجنجة) حاصل ما فيها مبلغ (٧١٨٢٠) درهما، وثالثها قرية قريس الحجر حاصل ما فيها مبلغ (٥١٣٠٤) درهما، ورابعها قرية المنايل وكوم ريحان حاصل ما فيها مبلغ (٣٧٨٤٠)، وخامسها قرية (بيجام) حاصل ما فيها (١٤١٣٤) درهما، وسادسها قرية (منية النصارى) وحاصل ما فيها (٦٠٨٥٨) درهما، وسابعها قرية (بطاليه) وحاصل ما فيها (١٠٤٨٤) درهما، وجميع النقود المذكورة فى تلك السنة المسفورة مبلغ (٣٦٥١٥٢) درهما فضيا محاذيا بنصف القطعة رائجا فى الوقت أيد الله تعالى دولته من سكها باسمه السامى، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامى، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التحديد والتعريف والتبيين والتوصيف لشهرتها فى مكانها عند أهاليها وجيرانها، ولكونها مشروحة ومعلومة في الدفاتر السلطانية والمناشير الخاقانية بجملة مالها، الحدود والحقوق وما ينسب إليها بالأصالة والحقوق والمراسم والمرافق والمداخل والطرائق، خلا ما يستثنى منها شرعا من المساجد والمعابد والمراقد والمقابر والأملاك والأوقاف، وسائر ما يعرف مبينا بينه بالأسامى والأوصاف، وسلم جميعها إلى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص للخدمة بالأمانة والاستقامة فى هذا الخصوص، وتسلمها هو منه للتصرف بالوجه السداد، على ما هو المراد، تَسْلِيمًا وتَسَلُّمًا صحيحين شرعيين.

ثم عين السلطان الفائق على حذافير السلاطين فى الآفاق، بالاستهلاك والاستحقاق والسابق فى مضامير التدابير بمكارم الأخلاق، ومراسم الإشفاق

لازالت شموس سعادته أبدية الإشراق، وما برحت نجوم سلطنته محمية عن الانمحاق، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة لى حسب التخمين التى مدرها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة فى جميع الأعوام، وقلت المحصولات وحلت بتفاوت الشهور والأيام مبلغ مائتى ألف درهم وستة وسبعين ألف ومائتى وستة عشر درهما لأستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى فى مرة على ما جرت به العادة القديمة فى السنين الماضية القديمة طبقا على هذا التخمين بعد الصرف المذكور فى السنة مبلغ ثمانية وثمانين ألف درهم وتسعمائة درهم وثلاثين درهما، وشرط أن يحفظ ذلك الباقى بحفظ المتولى تمام خمسة عشر عامًا، فيكون عدد الجمع فى هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشر مرة مائة ألف وأربعين درهم، فعين من هذا الباقى فى المحفوظ المجموع المسطور لأستار المواضيع التى تجدد فى كل خمسة عشر عاما مرة.

وبعد تجديدها المزبور لا تجدد كل سنة بل تروح إلى انقضاء خمسة عشر عاما آخر ثم تجدد مرة أخرى كذلك ثم فثم إلى أن ينقضى الدهر ويتم لكل مرة من تلك المرات وفى كل كرة من هذه الكرات بالتخمين المزبور، والتعيين المذكور مبلغ ألف درهم واحد وخمسين ألف درهم وثلاثمائة درهم وسبعين درهما فضيا رائجا، وتلك المواضع التى يصرف إليها هذا المقدار فى خمسة عشر عاما مرة داخل الكعبة الشريفة، ووالروضة المطهرة المنيفة أعنى بها التربة المنورة لسيد الكونين ورسول الثقلين نبينا محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) إلي يوم القيامة بالمدينة المنورة، والمقصورة المعمورة فى الحرم الشريف، والمنبر المنيف ومحرابه محراب التهجد، والأستار الأربعة لنفس الحرم الشريف، ومحراب ابن العباس وقبر عقيل بن أبى طالب، وحضرة الحسن، وحضر عثمان بن عفان، وفاطمة بنت أسد (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين)، وما زاد بعد هذا وهو مبلغ خمسمائة ألف درهم واثنين وثمانين ألف درهم وستمائة وسبعين درهما لاحتمال أن يقع بعض السنين النقصان، بسبب الشراقى وطوارق الحدثان، لأن هذا بالتخمين وإن لزم فى بعض السنين، جبر النقصان فليجبر من هذا الفضل ذاك

الزمان، وإن وجد فى انقضاء المدة وبعد الصرف شيء مما يزيد ويفضل سواء كان هذا المقدار أو أكثر منه أو أقل فليشتر بالموجود المذكور الملك المناسب للوقف من العقار الواقع فى موضع الرغبة والاشتهار ليكثر محصول الوقف وتوفير مواضع الصرف بإلحاق هذا المشترى والمتاع بسائر الأوقاف واستغلاله معها بل وصرف غلاته إلى المصاريف المبينة بالأوصاف، وتنمية الوقف وتقويته بهذا التكثير، وتمشيته وتوسعته بذلك التوفير، وهذا بعد رعاية شرط أنه إن وقعت المضايقة فى هذا الوقف أو فى الوقف الآخر الذى وقفه السلطان أيضا على مصالح الفقراء الذاهبين إلى الحجاز وعلى جمالهم وعلى سائر مهماتهم وكتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط والقيود تكون مرعية بالخلود والأبود، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده، وبفاضل عوائده، بإتمام ما به ويلزم له وبتكميله لدفع مضايقته، وضرورته وإسعاده واجتهاده إقرارًا واعترافا صحيحين شرعيين مصدقين محققين مرعيين وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا حاويا على الحكم بصحته أصلا وفرعا، على وجه يعتد به دينا وشرعا، وغب رعايته شرائط الحكم والتبجيل وفى حصول الوقف والتسبيل، لدى المولى الفاضل النحرير الكامل الموقع أعلاه الصك الدينى، والحفظ اليقينى، وفتح الله أبواب الحقوق بمفاتيح أقلامه، وأحكم الأمور بثبوت أحكامه، فصار وقفا لازما مسلسلا متفق عليه على مقتضى الشرع ومرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته وابترامه لوقوع حكم المولى المومى إليه على رأى من رآه من الأئمة الماضين المجتهدين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) عالما بالاختلاف الجارى فى مسألة الوقف فعلم خلوده بخلود السموات وأبوده بأبود الكائنات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن ينقصه أو يعطله أو يحوله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن أو الخائف من الله المهيمن بعد ينقصه أو يعطله أو يحوله ما سمع قول الرب ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ١٨) وأجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين.

جرى ذلك، وحرر بالأمر العالى الخاقانى لازال عاليا في صفر المظفر المنخرط

فى سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة من هجرة من لا نبى بعده وصلى الله عليه وآله وصحبه والذين وفوا عهده.

الذيل

مما يدرك من تلك الحجة الوقفية المذكورة أعلاه أن واردات تلك القرى الثلاث التى وقفها الملك الصالح قد بلغ ربعها فى عهد السلطان سليمان (٨٩٠٠٠) وربع ما وقفه العاهل المشار إليه من أربع قرى معمورة كان كالآتى: فقرية «سلكه» ريعها (٣٠٤٩٦) أقجه، وقرية (وسير ونجنجة) ريعها (٧١٠٢٨) أقجة، أما قرية قريس الحجر فريعها (٥١٣٠٤) وكوم ريحان (٣٧٤٨) وبيجام (١٤٩٣٤) وقرية منية النصارى (٦٠٨٥٨) والبطالية (١٠٤٨٤) أقجة ومجموع ريع هذه القرى جميعها فى العام (٣٦٥,١٥٢) أقجة.

وصدر أمر السلطان سليمان بأن يخصص مبلغ (٢٧٦٢١٦) أقجة لتجديد كسوة بيت الله الخارجية سنوياً، وأمر بترك المبلغ الباقى وقيمته (٨٨٩٣٦) أقجة فى خزانة إدرارة الأوقاف لتنميته عن طريق المرابحة فى خلال السنة المحددة إلى (١٣٣٤٠٤٠) أقجة وإذا ضم إليها مبلغ (٦٦٤٠٠٠) أقجة نقود التنمية تقريبا يلزم أن يتجمع فى خزينة الكسوة الشريفة في نهاية خمسة عشر عاما مبلغ (٢,٠٠٠,٤٠) أقجة ويخصم منه مبلغ (٢٧٦٢١٦) لتجديد المواضع التى جرت العادة تجديدها مرة كل خمسة عشر عاما مرة ويخصم من مبلغ (١٢٤٨٦٧) أقجة لتجديد القصور، (٥٧٢٦٤٠) لتجديد ستائر الأضرحة الأخرى لاحتمال تناقص الواردات، واشترط أن تعمر القرى الموقوفة (٦٦٦٠٠٠) أقجة وأن تعان الأماكن الأخرى المنسوبة للسلطان المشار إليه، وإن أحكام هذا الوقف المكتوبة مازالت مرعية الجانب إلى يومنا هذا.

الأماكن التى تجدد كل خمسة عشر عاما

داخل كعبة الله الروضة المطهرة، مقصورة الحرم النبوى، المنبر النبوى، محراب التهجد، أبواب الروضة المطهرة، محراب ابن عباس، ضريح عقيل بن أبي طالب، ضريح الحسن بن على، ضريح عثمان بن عفان، ضريح فاطمة بنت أسد والأضرحة الأخرى المنيفة.

ومنذ أن تلقب السلاطين العثمانيون بلقب خادم الحرمين الشريفين إلى عهد السلطان أحمد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ كان كل واحد منهم ـ مادام معتلياً عرش الخلافة ـ يرسل الستائر الداخلية للكعبة المعظمة والحجرة النبوية المعطرة، بعد أن تصنع فى القرى التى سبق ذكرها، لأن هذا أصبح قانونا منذ أقدم العصور، إلا أنه كان يتساهل فى دقة صنعها؛ لذلك أمر السلطان أحمد خان بصنع تلك الأقمشة في مصانع دار السلطنة حتى تراعى الدقة فى صنعها؛ وفعلا نسجت أستار الكعبة المعظمة الداخلية فى غاية الإبداع، وأرسلت في أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٠١٨هـ وأرسلت إلى البلاد الحجازية عن طريق مصر ،كانت تلك الستارة الشريفة التى أمر بصنعها السلطان المشار إليه تزن (٤٨٠٠) درهم وقد نسجت من حرير حلبى لا نظير له في بداعة الصنع، وكان طول الحرير المستخدم (١٠٦٠) ذراعًا وكانت جميلة إلى درجة أنه قيل إن باب السعادة لم ير مثيلا لها من قبل.

وقد شرع فى السنة المذكورة فى صنع شرائط ضريح السيدة فاطمة (رضى الله عنها) وكسوته وكسا الأساطين[1] الداخلية للكعبة المعظمة وتم وضعها كلها فى خلال عام (١٠١٩) وجعلت كل كسوة داخل صندوق خاص بها.

وفى الخامس عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة أرسلت إلى الكعبة بواسطة مندوب خاص.

إن نطاق الكعبة المعظمة من أربع قطع طول القطعة منه واحد وخمسون ذراعا، وعرضها ذراعا وأربعة أخماس ذراع، وكسوة الروضة المطهرة التى تتألف من إحدى وخمسين قطعة طولها جميعا (٧٤٥) ذراعا، وعرضها ستة أذرع وربع ذراع أما كسوة ضريح السيدة فاطمة فتتألف من عشر قطع وطول قماشها (١٠٠) ذراع وشريط هذا الضريح عشرة أذرع وربع ذراع، وعرضه ثلاثة أذرع وربع ذراع

(١) هما الأسطوانتان الحنان والمنان.

وعقدة، فيكون العدد (١٧٦٩٢) وقد أنفق (٥٤٩) مثقالا خالصا من الصرة المزركشة الذهبية لزركشة الكسوة الغالية التى تتكون من ثلاث قطع قماش مذهب لكساء الاسطوانات التى فى داخل البيت المعظم والتى يبلغ طول كل واحد منها خمسة عشر ذراعا.

وعدد أساطين الكعبة المعظمة ثلاثة، وقد كتب فوق كسوة كل واحدة منها نسجاً «الحنان والمنان» الأسماء الجليلة، ولذا عرفت هذه الأساطين بين الناس بأعمدة الحنان والمنان.

وترسل الكسا الخاصة بداخل البيت المعظم والحجرة النبوية المعطرة وضريح فخر النساء السيدة فاطمة (رضى الله عنها) من باب السعادة وترسل الكسوة الخارجية السوداء للكعبة الشريفة ـ كما كان فى الماضى ـ من الخديوية المصرية لحساب خزينة الأوقاف الهمايونية السلطانية محمولة على جمال المحفة التى تسير في مقدمة قوافل الحجاج الشامية والتى تحمل أشياء نفيسة أخرى مع الكسا، والتى يطلق عليها خطأ المحمل بين عوام الناس، ويصنع كيس مفتاح باب الكعبة والكساء الخاصة بمقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ والستارة الخاصة به فى نفس المكان الذى تصنع فيه كسوة بيت الله الأكرم، ويلقى صنع هذه الأشياء المباركة عناية بالغة، وبعد إتمام صنعها ترسل إلى القاهرة حيث تحفظ فى مكان هيئ لها من قبل من ديوان محافظة القاهرة، وعند حلول الوقت المعين ترسل مع المحمل الشريف إلى مكة المكرمة.

نطاق كعبة الله حزام فى وسط الستارة الشريفة عرضه ذراع وأربعة أخماس ذراع، ويتكون هذا الحزام كما سبق ذكره من أربع قطع، قطعة لكل وجه من وجوه كعبة الله، وفى وسط كل قطعة دائريا كتب فى داخلها «يا حنان يا منان يا سبحان يا ديان» بعضها تحت بعض، وإن كانت خلفية الحرم سوداء اللون على لون الكسوة الشريفة؛ إلا أن الكلمات قد سطرت بخيوط ذهبية مسماة بصرمة وقد كتبت على الوجه المقابل لمقام الشافعى[1] الآية الآتية:

(١) هنا مكان الدائرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٦ ـ ٢٨)

وعلى القطعة التى تقابل المقام الحنبلى[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٧)

وعلى الوجه المقابل للمقام المالكى[2] كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ

(١) هنا أيضا مكان الدائرة.

(٢) هنا مكان الدائرة التى تحاذى الوجه الثالث.

إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٥ ـ ٩٦)

وكتبت على القطعة التى تواجه المقام الحنفى السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك العرب والعجم السلطان الغازى عبد الحميد خان بن الغازى السلطان عبد المجيد خان بن الغازى محمود خان بن عبد الحميد خان بن أحمد خان بن الغازى محمد خان بن إبراهيم خان بن مراد خان بن عثمان[1]. وقد كبت على أماكن أخرى غير الحزام المذكور بالحرير الأسود الجملة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(١) هنا محل الدائرة التى تحاذى الميزاب الذهبى وقد كتبت فى داخل هذه الدائرة يا حنان يا منان يا ديان يا سبحان بل كتبت الآية الجليلة:
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٤).

موكب الكسوة الشريفة فى مصر

إن موكب كسوة الكعبة الشريفة والنفائس الأخرى إلى مكة المعظمة يحتفل به فى مصر بشكل ملفت للنظر ويستحق رؤيته.

عندما يتم صنع الكسوة المباركة التى تتكون من ثمانى قطع، وأحزمتها المزركشة، وستارتى باب بيت الله المذهبتين، وكسوة مقام إبراهيم (على نبينا وعليه التكريم)، وستارة باب المقام المذكور، وكيس مفتاح بيت الله يهيأ مكان فى ديوان المحافظة المصرية لحفظ الأشياء المذكورة، وفى اليوم المقرر لنقلها يستدعى مشايخ الطرق الصوفية، وعلماء مصر المفخمين، ويرسل عدد كاف من العساكر والشرطة إلى مكان صنع تلك الأشياء المباركة، ويأخذ الموظفون المكلفون والجند والحراس الأشياء المذكورة من مواقع نسجها بكل توقير وتعظيم، ويوصلونها إلى موضعها بين ذكر وتهليل وتوقير المارين العابرين إلى المكان الذى هىء من قبل من ديوان المحافظة، وعند اقتراب الموكب من ديوان المحافظة يستقبله الباشا المحافظ متبركا بالمقدسات المحمولة، ويضعونها فى مكانها المهيأ من قبل، وبعد ذلك يشترك الحاضرون من المشايخ والمشتركون فى الموكب فى الدعاء للخليفة بطول عمر دولته، غير ناسين الخديوى فى الدعاء، وتحيى ليلة اليوم الذى تنقل فيه الكسوة الشريفة إلى دائرة ديوان المحافظة.

ويُدْعَا فى يوم الاحتفال العلماء الأعلام والمشايخ العظام، والذوات الفضلاء، والموظفون المدنيون ووجهاء البلاد وأعيانها إلى دائرة ديوان المحافظة الفاخرة، وبعد تقديم الطعام يبدأ مشاهير القراء المدعوون فى تلاوة القرآن، وفى غد ذلك اليوم ترفع تلك الأشياء وهى كسوة الكعبة المعظمة وكيس مفتاح باب الكعبة والأشياء الأخرى من مكانها فى دائرة ديوان المحافظة فى موكب عظيم، وتوضع فى مقر الجمعية الكائنة فى ميدان محمد على، وتترك الكسوة الشريفة وستارة

المحمل النفيسة مكشوفتين ليجلو الناس عيونهم بمشاهدتها، ويبتهجون برؤيتها، وبعد إجراء العادة المرعية قديما من التسليم والتسلم، تطلق المدافع ثم تحمل إلى المسجد المسمى بمسجد الحسين فى موكب منظم غاية التنظيم. إن الجامع المذكور كائن فى الجهة الجنوبية من خان الخليلى المشهور.

وتجرى الاحتفالات على صورة كاملة جميلة بانتظام تام، ويتقدم الموكب العظيم الجنود النظاميون وتمر بعدهم الكسوة الشريفة للبيت المعظم بأجزائها الثمانية وثمانى قطع من الأحزمة المزركشة، وقطعتين من الستائر المذهبتين، وكساء مقام إبراهيم (على نبينا وعليه التسليم)، وستارة بابه وكل واحدة منها فوق ألواح خشبية، وهذه الألواح محمولة فوق الأعناق حرمة وتوقيرا لها، وتمضى مجموعة بعد مجموعة، وعقب ذلك يمضى صناع الكسوة الشريفة وموظفو تلك الهيئة حاملين كيس مفتاح باب الكعبة المعظمة المنسوج، ويمضى وكيل ديوان المحافظة والضباط الآخرون راكبين خيولهم وممتطين جيادهم، ويمر بعدهم مشايخ الطرق بأعلامهم متعددة الألوان مهللين مكبرين منشدين الأناشيد الدينية والأشعار. وإن كان منذ وقت طويل يجرى الاحتفال بهذا الموكب يعنى منذ أن اعتادت الدولة العلية تجديد كسوة الكعبة الشريفة كانت تنسج فى القاهرة مصر، وترسل مع قافلة حجاج مصر، وعندما استولى الفرنسيون على مصرفى سنة (١٢١٣) قد صنعت تلك الكسوة حول شادروان مسجد السلطان أحمد، ونقلت فى الحادى عشر من شهر رجب سنة (١٢١٣) فى موكب خاص عظيم إلى القصر السلطانى، ثم نقلت مع الصرة السلطانية إلى اسكودار غد ذلك اليوم، وهكذا أجرى الاحتفال بموكب المحمل فى تلك السنة فى باب السعادة، ولكنه الآن يجرى فى مصر القاهرة على ما كان عليه فى السابق.

صورة دخول المحمل الشريف إلى مكة المكرمة

يقوم المحمل الشريف المصرى[1] من القاهرة مصر برا، ويمضى إلى مكة المعظمة دون أن يمر بالمدينة المنورة، وعندما يصل الشخص الذى أنيط به سوق

(١) لما كان المحمل الشامى فى معية أمين الصرة الذى كان فى صحبة حماية أمين مؤونة الحج الشريف لذلك يصاحبه جنود نظامية سلطانية فى ذهابه وإيابه.

المحمل وتوصيله إلى وادى فاطمة يخبر أهالى مكة باليوم والساعة التى سيدخل فيها إلى مكة المكرمة.

ويخرج أمير مكة ومعه الجنود النظاميون وجنود الشرطة يوم وصول المحمل لاستقباله، كما يصاحبه أغلب الموظفين يستقبلونه عند مسجد عائشة، ويأتون به إلى ميدان ذى طوى[١]، وينصب مندوب المحمل خيمة فى ساحة ذى طوى الواسعة بعد أن يصل إليها من مسجد عائشة وهو يطلق البنادق والمدافع فى سيره، ويظل منتظراً حتى وصول المحمل الشامى.

وبما أن المحمل الشامى قد أخبر ساعة وصوله إلى أهل مكة مثل المحمل المصرى[٢] يخرج الأهالى الكرام لاستقبال المحمل الشامى مثل المحمل المصرى عند مسجد عائشة. ويستقبلونهما من مسجد عائشة ويوصلونهما إلى مكان خاص أمام قبور الشهداء[٣] ويشترك فى إقامة مراسم الحفاوة والترحيب الباشا الوالى والأشراف والأعيان.

وبعد أن يضرب هذين المحملين خيامهما فى الأماكن الخاصة التى ذكرت، وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال والترحيب يتجهان إلى صحراء منى الساكنة فى موكب عظيم فخم من خارج حرم المسجد الحرام بالذكر والتهليل أمامه الجنود السلطانية وخلفه الداعون للسلطان فى سكون ووقار، ومن هناك يمضى الموكب إلى عرفات وبعد وقفة عرفات يرجع إلى المزدلفة[٤]، ومن هناك إلى منى حيث يقف ثلاثة أيام بلياليها، وتجرى الاحتفالات السارة، وإلى أن يصل الموكب من عرفات إلى المزدلفة توقد المشاعل المتعددة، وتطلق المدافع والبنادق طلقات لا حصر لها بينما يستمر الدعاء الواجب أداؤه للسلطان بدوام الرفعة والشوكة والعز.

(٢) طوى: الآبار المباركة وبما أنها فى مكان مكشوف يطلق عليها ميدان ذى طوى.

(٣) يحمل المحمل المصرى علم عمر الفاروق رضى الله عنه أيضا.

(١) قبور الشهداء اسم المقبرة التى دفن فيها عبد الله بن عمر رضى الله عنه.

(٢) من العادات المرعية أن تطلق البنادق والمدافع كل ثلاث دقائق أمام والى مكة والحجاز وأمير مكة وشريفها وأمين الصرة.

التوضيح:

ويمضى إلى مكة المعظمة محملان يسمى أهل مكة أحدهما (المحمل المصرى)، والآخر (المحمل الشامى)، وعلى ما سبق ذكره يصل المحمل المصري إلى مكة قبل المحمل الشامى، وينصب خيامه في مكان يُسَمَّى ذى طوى الذى يقع أمام موقع يسمى الشيخ محمود، ويطلقون عددا كثيرا من المدافع إعلانا بقدوم الموكب، ثم يصل المحمل الشامى فتنصب خيامه أمام قبور الشهداء ـ حيث يوجد مدفن عبد الله بن عمر ـ والذى يسمى زاهر، وهذا المحمل يعلن وصوله بإطلاق عدة طلقات من المدافع، ويتحرك المحمل المصرى من مكة فى صبيحة اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ويصل إلى عرفات بعد الزوال، وكذلك يغادر المحمل الشامى مكة ظهر اليوم المذكور، ويواصل السير إلى ساحة جبل الرحمة حتى وقت العصر من يوم الوقفة، وفى جبل عرفات يتحركان معا متجهين نحو المزدلفة محتفلين بإطلاق المدافع والبنادق، وعندما يصل المحمل المصرى إلى مكة يدخل الحرم الشريف، وفى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة يزين الجمل الذى يحمله، ويؤتى به أمام مبنى الحكومة ويسلم إلى الباشا الوالى وهو فى الحلة الرسمية فيمسك بزمام الجمل وهو من المخمل والصرمة، ويرفع صوته بالتكبير، وبعد أن يتجول به يسلمه إلى يد أمير الحج المصرى ويشيعه[1] بضع خطوات وبعد ذلك يقوم المحمل المصرى ويتجه نحو المدينة ويعود من هناك إلى القاهرة.

وفى العباسية يستقبله الأعيان وعلية القوم، ويجتمع كبار الموظفين والعلماء وينطلقون مع المحمل إلى ميدان محمد على حيث تطلق المدافع إعلانا للشكر.

وبعد أن يغادر المحمل المصرى مكة يغادر فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة مكة المحمل الشامى ويجرى له نفس الاحتفالات التى أجريت للمحمل المصرى ويمضى نحو المدينة. وسواء أكانت الاحتفالات التى تقام للمحمل المصرى أو الشامى يصطف الجنود السلطانية، ويقفون في موقف الانتباه والسلام فى أثناء

(١) وفى خلال ذلك تصدح الموسيقى وتقرع الطبول الخاصة بالمحمل الشريف.

الاحتفال، وعند إدخال المحمل فى الحرم الشريف كان الطواف بالكعبة من العادات القديمة واستمرت تلك العادة إلى سنة (١٢٩٢) وهى خاصة بالمحمل المصرى، وإلى تلك السنة لم يكن المحمل الشامى يدخل في الحرم الشريف ولم يكن يطوف بالبيت الحرام.

وفى سنة (١٢٩٢) أدخل المحمل الشامى إلى الحرم الشريف بهمة وسعى والى الحجاز «تقى الدين باشا» وبعد الطواف بالكعبة شيعه الوالى المذكور وأصبح هذا من الأمور التى يرعى جانبها. وأصبح من العادات التى ترعى لدى سكان الحجاز أن يسبق المحمل المصرى الذى يحمل كسوة البيت الشريف وسائر الأماكن الأخرى المباركة المحمل الشامى، سواء أكان فى الدخول إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو عرفات.

ورسخت هذه العادة فى قلوب أهالى الحجاز؛ لذا كانوا يتمنون دائما أن يسبق المحمل المصرى الشامى؛ وإذا ما حدث أن دخل المحمل الشامى قبل المحمل المصرى؛ يطلق الناس على هذه السنة عام القحط.

لائحة

هذه اللائحة خاصة بشرح معنى المحمل الشريف، ووقت إيجاده. إن ما يتردد على ألسنة الناس من كلمة محفل تحريف لكلمة محمل، كما يطلق على القاعدة التى تصنع على شكل محفة خاصة لجلوس شخصين فوق الجمل اسم المحمل، بعد ما يركب هذا الشئ المكون من قطعتين على الجمل قد يركب على جهة منهما شخص واحد.

وكان يطلق اسم المحمل الشريف على الهودج الذى يحمل خرقته الشريفة ﷺ وسواكه اللطيف وإبريق وضوئه ونعليه المباركين والأشياء المباركة الخاصة به فى أسفاره.

وكانت أمهات المؤمنين اللائى يرافقن النبى ـ ﷺ ـ فى سفره يركبن فى ذلك الهودج.

وفيما بعد أعد جملا تبركا للمحمل ليحمل ستارة الكعبة الشريفة وبعض الهدايا. واستصوب أن يرسل أمام قوافل الحجاج الكرام. والآن يبعث بمحملين أحدهما من مصر، والآخر من باب السعادة، وينسب المحمل الذى يخرج من مصر لاسم «فاطمة»، والذى يخرج من باب السعادة لاسم عائشة الصديقة رضى الله عنهما.

ورتب فى سنة (٩٦٧) إرسال محمل من اليمن وابتداء إرساله فى عهد ولاية المرحوم مصطفى باشا. وكان لهذا المحمل أمير الحج وقائد وشيخ من قبيلة بنى مرزوق، وكان حجاج اليمن من قبل ذلك يذهبون ويرجعون بقوافل سريعة، وكان اسم المحمل الذى أخرج من اليمن «حيسى» وسمى كذلك لأنه كان يخرج من مدينة «حيس» الشهيرة كانت حيس مدينة معمورة واقعة على بعد مرحلة من جنوب مدينة زبيد، وقد اخترعت تلك المحامل من قبل (أبو الحسن أحمد بن محمد بن القاسم بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل المحاملى من المحدثين الكرام وولداه «محمد ويحيى» وأخوه «أبو القاسم»، وفى عهد الحجاج الظالم وكان أعلاه مخروطى الشكل وتحسن شكله بمرور الأيام، وزين فى عهد فاتح مصر والشام السلطان سليم بكسا مذهبة وستائر لطيفة.

وجهز السلطان سليم في سنة (٩٢٣) وفى الثامن من شهر شوال فى مدينة دمشق الشام محملاً لا مثيل له فى العظمة والأبهة، وسلمه لقافلة الحجاج التى ذهبت فى ذلك العام، وأرسله إلى مكة المكرمة، والقلم يعجز عن وصف ما كان عليه ذلك المحمل من نظام وأبهة وعظمة.

إن أول محمل أرسل إلى الحجاز فى الدولة العثمانية العلية لهو ذلك المحمل المذكور الذى جهزه السلطان المشار إليه، ومازال إلى الآن يرسل على نفس الهيئة والشكل.

والمحمل الذى أمر السلطان سليم بصنعه كان محفة ذات أربعة أركان عليها قبة وأركانها الأربعة مزينة وقبتها كرة من الفضة، وعلى الكرة التى فوق القبة علم ذهبى، وقد كتب على قماش ستارة القبة منسوجا العبارة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وفى زماننا عندما ترسل هذه المحفة إلى الحجاز تبعث معها

الصرة السلطانية جريًا على العادة المعهودة المرعية، وفى ذلك اليوم تخرج المحفة فى احتفالات عظيمة من قصر السلطان الساحلى، وتحمل على سفينة خاصة إلى شاطئ اسكدار فى نفس اليوم لوداع العطايا السنية لبعض الذوات الذين جرت العادة على نفحهم العطايا السلطانية.

وصول الصرة إلى أرض الشام وخروجها منها

يستريح أمين الصرة فترة قصيرة بعد ما يضع الصرة السلطانية التى وضعت فى عهدته فى المكان الخاص الذى عين له في دمشق، ثم يسرع بالخروج إلى الطريق مستصحبا موكب الحج، ويبتدر بالتوجه إلى الجهة المقصودة.

وبما أن تشييع موكب الحج من العادات المستحسنة للبلد، ففى اليوم الذى يخرج فيه المحمل الشريف من الشام تذهب هيئة مكونة من مؤذنى الجامع الأموى، وموظفى الدولة وخدمها والجنود النظاميين ورجال الشرطة السلطانية ـ بناء على عادة قديمة متبعة ـ إلى المكان المبارك الذى تحفظ فيه الراية المحمدية المقدسة، والذى يقع فى داخل قلعة الشام، ويمرون بها من أمام الدائرة الحكومية، ويوصلونها إلى المكان الذى أعد لها من قبل فى دائرة المشيرية العالية، وفى غير ذلك اليوم يسير جميع الموظفين المدنيين والأمراء والضباط والعلماء ذوى المكانة والوجهاء مرتدين ملابسهم الرسمية ذاكرين الله قارئين الأدعية المنجية مكبرين مهللين أمام موكب المحمل، بينما تعزف فرقة الموسيقى السلطانية الألحان الموسيقية المناسبة، ويوصلون المحمل إلى الخيمة التى أقيمت بالقرب من قرية قدم شريف، وهى على بعد ساعة من دمشق حيث يستقبلهم الوالى والأعيان وكبار موظفى الدولة الذين كانوا فى انتظار المحمل الشريف، وهناك تجرى مراسم للتسليم والتسلم، ثم يبعث بالمحمل إلى أراضى الحجاز المقدسة. وكانت من العادات المتبعة عندما تخرج الصرة السلطانية من باب السعادة أن يوزع السلطان (١٤٤٤٦) قرشا ونصف قرش، وكان ذلك المبلغ يوزع على النحو التالى: (١٥٢٥) قرشا لموظفى أمانة الصرة، (٦٠٠) قرشا لبعض الجمالين، (٧٢٠٠) قرشا للعاملين فى إدارة السندات النقدية، (٥١٢١) قرشا للذين اجتمعوا في داخل القصر السلطانى وقت خروج المحمل.

إن مبلغ (٧٢٠٠) قرش الخاصة بإدارة المصارف والسندات المالية يعطى (٥٠٠) من (١٠٠٠) لموظفى قيد الحجاز من قبل أمانة الصرة ويعطى (٣٧٠) قرشا من (١٢٠٠) قرش الخاص بموظفى إدارة المصارف والأقلام الأخرى إلى كتبة إدارة السندات وحراسها، كما يعطى (٨٠) قرشا لرفيقة قيد الحجاز، و(٧٥٠) قرشا عطايا قديمة لموظفى الصرافة للخزينة ورفقائهم. إن مبلغ (٥١٢٠) قرشا السلطانى ونصف قرش السابق الذكر اعتبر صرفه فى داخل القصر السلطانى خاص بمؤذنى العصر والحراس وخدم القصر.

ويتصدق بمبلغ (٤٩٠٠) قرش عند إخراج الصرة السلطانية إلى الأراضى الحجازية على الفقراء الذين يجتمعون أمام الباب الأوسط للقصر السلطانى على غير تعيين ويصل مجموع المبالغ التى توزع عقب إخراج الصرة السلطانية إلى (١٩٣٤٦) قرشًا إلا أن النقود التى اعتيد صرفها لمشايخ التكايا والأئمة والخطباء خارج هذا الحساب.

ويمكن أن تصل المبالغ التى اعتيد صرفها من قبل أمانة الصرة منذ خروج الصرة السلطانية من القصر السلطانى إلى اسكدار ومنها إلى أراضى الشام إلى (١٧٨٦٠) قرش، إن المبلغ المذكور (١٧٠٠٠) وكسور قرش خاص من قديم بالذين ينزهون جمال المحمل أمام السلطان وبرؤساء المصفقين وخدم الطريق وخدم الإسطبل السلطانى الخاص وللرقباء المصفقين وبأنفار الطريق وبوابى الحرم السلطانى وبالذين يحضرون الدواب، وبالأنفار الذين يصاحبون موكب الصرة السلطانية، وخدمة دائرة الباشا، ورؤساء الجمالين وموظفى صناديق البخور ومترجمى الحرمين وخدمة البوابة والحراس، والأوقاف السلطانية، والذين يعينون على وضع المحفة على الحيوانات، وبعض حراس الأضرحة الآخرين ممن يجب تقديم المعونة لهم.

صورة إجراء حفل موكب المحمل فى مصر

من السنن القديمة التى يؤخذ بها فى مصر إعداد موكب عظيم للمحمل الذى يبعث به من مصر إلى الحجاز فى أواخر شهر شوال، وعندما يحل الموسم

الخاص بذلك يحضر فى المكان الخاص لاستقبال موكب المحمل فى ميدان محمد على وزراء الداخلية والجهادية والأشغال ومحافظ مصر والباشوات والوجوه والأعيان بينما يصطف فى أركان ذلك الميدان جنود نظاميون واقفين في حالة الانتباه والسلام، ويسلم المحمل الشريف بكل وقار وأدب إلى يدى الشخص الذى نصب أمير الحج.

وتطلق المدافع إيذانا لذلك الأمر ثم يشيعون موكب المحمل الشريف إلى مكان يطلق عليه «العباسية».

ويسير خلفهم كتيبتان من الجنود وعلى ظهورهم آلاتهم الموسيقية وبعدهم الضباط الحربيون، وبعدهم المحمل الشريف، وبعدهم الفرسان وتزدحم الطرق بالمشاهدين ازدحاما شديدا، ويقوم رجال الشرطة بالمراقبة والحراسة تحسبا لما قد يقع مما يخل بالآداب العامة.

وإن كان الاحتفال بموكب المحمل الشريف من العادات القديمة إلا أنه لم يكن منظمًا، وقد اعتُنِى فيما بعد بهذا الاحتفال أعظم عناية ولا سيما فى هذا الزمن الذى ترقى فيه الناس، وقد وصل المحمل المصرى فى نظامه وعظمته وجلاله إلى درجة تحير العقول.

وقد صنعت ستارة المحمل الشريف في سنة (١٢٩٣) فى ظل المبرة السلطانية في غاية الجمال ونقشت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى على الستارة نسجا فى غاية الجمال، وكانت الخطوط التى كتب بها الآيات والأحاديث تقليدًا لخط عبد الله زهدى بك وهو من كبار الخطاطين ولا شك أن منظرها الجميل كان يفوق سابقتها بمراحل.

ولاسيما وضع الطغراء السلطانية التى تتوسط الكسوة والتى تحمل صفات السلطان الحميدة كان مستحيلا ألا يوجب تعجب الناس.

وإن كان المحمل الشريف مثل القفص ومصنوعا من الخشب إلا أن غطاؤه كان نوعا من الحرير الأسود، وعليه بعض الآيات الجميلة منسوجة «بالصرمة»

(الخيوط الذهبية) وفى الجهة الأمامية صورة مكة المعظمة وفى أعلاها الطغراء وقد نقشت على سطح جهاته الأربعة أزهار بالخيوط الذهبية، وبعض أماكنه نسج بخيوط حريرية خضراء وحمراء كالحواشى.

أما أطرافه فقد زينت بأهداب من خيوط ذهبية خالصة، ووضعت في أركانه الأربعة وفوق وسطه كرات من الفضة وفوق كل واحدة منها راية ذهبية، ووضع فوق المركز الرأسى محفظة مذهبة جميلة ووضع داخلها مصحفان.

الذيل:

إن المحمل الشريف الذى حاز إعجاب الناس قد جددت كسوته بما بذله السلطان من نقوده الخاصة، ولا يسعنا إلا أن نحكم ـ إذا ما رجعنا إلى ضمائرنا ـ أن كل هذا قد تم بِالْهِمَّةِ السلطانية التى وهبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذاته السلطانية.

إن ما بذله هذا السلطان بايزيد من نقود للآثار الخيرية نتيجة لمروءته وهى من أشرف الخلال والصفات وهى التى تدفعه إلى نيل شرف الاهتداء إلى صنع المحاسن فى كل زمان ومكان. والسلطان الذى له صفات عمر الفاروق لا حاجة له فى وصف مزاياه ولا الإطناب فى سجاياه، ونحن فى هذا الصدد نغض النظر عن وصف بره وإحسانه مكتفين بذكر ما اختص بالمحمل الشريف حتى وصل إلى هذه الدرجة من الإتقان والجمال.

وإننا نسأل صاحب اللطف والعطايا أن يقر السلطان الغازى خادم الحرمين الشريفين وحامى حمى الدين المبين: السلطان عبدالحميد خان الثانى بمزيد من العظمة والقوة والشوكة على عرشه، ويديم ملكه حتى يملأ قلوب سكنة الحرمين الشريفين بالفرحة والسرور، ويجلى عيون الموحدين بالفرح والحبور، وهو ينشر أنوار عدله على الأراضى الحجازية.

* * *

فى مسألة تفسيم كسوة كعبة الله وبيانها

كان يوجد فيى جاهلية العرب فوق الكعبة أشياء غالية متراكمة، وفى أوائل الدولة الإسلامية قد هيئت كسوة من قبل بيت مال المسلمين، فأنزلت الأشياء الغالية من فوق كعبة الله وقسمت بين المسلمين، وكان عمر بن الخطاب فى عهد خلافته يقوم بتجهيز كسوة جديدة لبيت الله، ويعلقها عليه، ويقسم الكسوة القديمة علي الحجاج المسلمين للتبرك بها وأظهر عثمان بن عفان تعظيما لكعبة الله بأن كساها بقطعتين من الكسا، وأرسل معاوية بن أبى سفيان بعض الأقمشة الغالية من الشام، وأمر شيبة بن عثمان (رضى الله عنه) بأن ينزل كسوة الكعبة العتيقة ويعلق الكسوة الجديدة على الكعبة، بعد تنظيف جدران كعبة الله الأربعة، وبعد تعليق الأقمشة الجديدة الواردة إلى الكعبة قطع الستارة القديمة قطعا صغيرة أمام ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ووزعها على سكان حرم الله وقسمها.

ولم يستكره عبد الله بن عباس ولم يستهجن ما صنع شيبة ابن عثمان من تقسيم الكسوة الشريفة وتوزيعها، إيماء إلى جواز ذلك ورأى بعضهم أنه لا كراهية فى ذلك.

ذهب شيبة بن عثمان لما كثرت كسا كعبة الله إلى أم المؤمنين زوج النبى ـ ﷺ ـ السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال لها: يا عائشة كثرت كسا بيت الله عليه، ما رأيك لو خلعنا الكسا القديمة ودفناها حتى لا يكتسيها الجنب من الرجال، والحائض من النساء» فقالت المشار إليها: إن كنتم لم تفعلوا ذلك إلى الآن فلا تفعلوه بعد ذلك، فلا بأس فى أن يأخذ قطع هذه الكسا من يأخذ وليفعل بها ما يشاء، ولكن إذا ما بعتم هذه الكسا القديمة وأنفقتم ثمنها فى وجوه الخير أفضل».

وقال أئمة المذهب الحنفى: الرأى فى التصرف فى كسوة بيت الله متروك للسلطان.

قال القاضى الخانى: عندما تقدم كسوة كعبة الله فليأخذها سلطان الزمن، ولينفق ثمنها فى أمور بيت الله.

وقال الإمام محمد إذا ما قدم لإنسان ماقطعة ثمينة من كسوة الكعبة الشريفة فليأخذها ولا بأس فى أخذ الفضة إذا كان ثمنها قليلا» كما قيد فى تتمة الفتاوى.

وقال الإمام الزركشى وهو من أئمة المذهب الشافعى بعد أن منع بيع ستارة بيت الله: أوصى بأن يردها من أخذها. وقال ابن الصلاح هذا الموضوع متروك لرأى ملك ذلك العصر وإرادته، لأن الملوك السابقين كانوا يهدون الكسا القديمة لبنى شيبة، وهؤلاء كانوا يبيعونها وينفقون ثمنها فى أمورهم الخاصة، وأشار بهذا إلى أنه لا كراهة في بيع الكسوة.

وبناء على رأى القطب المكى وحكمه؛ إذا كانت الكسوة قد صنعت بالإنفاق من بيت مال المسلمين فالأمر فى الكسوة القديمة متروك لرأى الملك، وإذا كانت الكسوة قد صنعت بأموال وزارة الأوقاف فالحكم فى الكسوة متروك لشرط الواقف، وينفذ شرطه وإذا كان شرط الواقف غير مشروع تنفذ أحكام الوقف السابقة، ويجرى عليها حكم الكسوة السابقة، ولما كانت الكسوة الشريفة في عصرنا هذا تبعث من خزانة وزارة الأوقاف السلطانية، وكان شرط الواقف مجهولا يبقى الحكم كما كان قديما فتعلق الكسوة الجديدة، وتخلع الكسوة القديمة وتقطع قطعا وتباع.

وقد جرت العادة أن تكون ستارة كعبة الله المزركشة وحزامها القديم من نصيب الشخص الذى يشغل منصب شريف مكة، وكسوة بيت الله الشريفة من حق حامل مفتاح بيت الله السيد شيبة.

إن ستارة باب كعبة الله ترسل إلى باب السعادة فى سنين الحج الأكبر، وتباع للصياغ فى الأعوام التالية، والخواتم التى تجلب من مكة تصنع من الخيوط

الذهبية لهذا الحزام، ويمكن رؤية ستارة باب كعبة الله عليه ولكننا رأينا أن نصفها بالإجمال.

وصف الستارة الشريفة

إنها مصنوعة من أطلس أخضر وفى أطرافها خط من أوراق بلوط منسوج بالخيوط الذهبية، وفى الداخل كتبت سورة الفاتحة وآيات أخرى وزين ما بين آيات سورة الفاتحة بأسماء الجلالة المتعددة، وقد كتبت في الجزء الأعلى من الستارة في جهة باب كعبة الله الآية:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)

وفى ذيلها

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠).

﴿قُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

وتحتها

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ (الفتح: ٢٧)

وفى طرفى هذه الآيات كتب (بسم الله) مزدوجا في أربعة أماكن فى شكل قطع ناقص، وبعده كتبت آية الكرسى علي أربعة أسطر وفى سطر هذه الخطوط كتبت سورة الإخلاص بشكل قطع ناقص، وفى نهاية آية الكرسى كتبت سورة الإخلاص على سطرين، وكتب تحتها اسم السلطان عبد الحميد وشهرته، وعلى طرفيه كتبت الجمل ٠لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

* * *

الوجهة الخامسة

تجمع أربع صور توضح وتعرف أوضاع مبانى المسجد الحرام القديمة وأبوابها وعددها وأعداد أعمدتها وشرفاتها وصورها.

* * *

فى تعريف وضع المسجد الحرام القديم

حينما أسس إبراهيم ـ عليه السلام ـ كعبة الله لم يكن حولها منازل ولا بيوت ولا حوانيت، كما أن طوائف العمالقة والجراهمة وأقوام خزاعة لم يرغبوا فى بناء المساكن حول الكعبة، ولكن (قصى) بن كلاب حينما استولى على تدبير أمور بيت الله، وأصبح واليا على المدينة الشهيرة، وأخذ مفتاح كعبة الله فى يده القوية. وتولى على عاتقه تدبير شئون القبائل، جمع أفراد قبيلة قريش ونصحهم بأن يسكنوا فى أطراف كعبة الله المفخمة، وأسس بنفسه مبنى دار الندوة كما جاء فى الصورة الثامنة من الوجهة الثانية.

وكان المكان الذى بنى فيه قصى بن كلاب دار الندوة جهة الزاوية التى يطلق عليها الركن الشامى، وفى الساحة التى يوجد فيها المقام الحنفى المتصل بأرض المطاف، حيث يصلى إمام المذهب الحنفى الصلوات الخمس داخل هذا المقام، وأخذ القرشيون فى بناء منازلهم حول الجوانب الأربعة لكعبة الله حتى زاد عددها عن العدد والحصر، وأصبحت مكة المكرمة مدينة عظيمة كثرت شعابها ومحالها كما نراها اليوم.

ولد النبى ﷺ فى منزل يقال له مولد النبى، وهو فى الحى المشهور بشعب على «ثم شرف دار خديجة الكبرى رضى الله عنها الواقعة فى شعب بنى هاشم بالسكن فيها.

* * *

فى عدد أعمدة المسجد الحرام القديمة وذكرها

كان بالمسجد الحرام قبل التجديد (٤٩٦) عمود، بإخراج أعمدة باب دار الندوة الزائد وأعمدة دار إبراهيم الزائد، وكانت سبعة وعشرين منها فى أبواب المسجد و(٤٦٩) منها تحت سقوفها وكانت ثمانية و ثمانون عمودا من تلك الأعمدة فى الجهة الشرقية (١٤٥) منها فى الجهة الشمالية (٨٧) منها فى الجهة الغربية و(٨٧) من أعمدة الجهة الشرقية كانت من قطعة واحدة من الرخام وعمود كان من الطوب اللبن المحروق، و(١٤) عمودا فى الجهة الشمالية كانت من الحجر المنحوت، (٢٥) عمودا فى الجهة الجنوبية كانت من الحجر المنحوت، وكذلك جميع أعمدة الجهة الغربية وأما الباقى فكان من الرخام.

وكان حول الجوانب الأربعة لدار الندوة الزائدة (٦٦) عمودا وكانت كلها مصنوعة من الحجر العادى، إلا أنها أشبهت الرخام بطلائها بمؤنة جيدة. وكان السلطان الغورى المصرى قد أرسل خيرى بك من كبار موظفى الدولة المصرية فى عام (٩١٧) لتصليح وتعمير بعض أجزاء المسجد الحرام المحتاجة إلى الترميم، وعمر خيرى بك باب إبراهيم الزائد وأسس فوقه قصر يعادل الخورنق، ومسجدا وعدة منازل أضاف إليها ما تحتاجه المنازل من المغاسل وخزانات المياه، ووقفها باسم السلطان، وبنى على طرفى الباب المذكور الزائد غرفا من طابقين لإيواء الفقراء والصلحاء من الناس، وأنشأ صهريجًا يملأ عند نزول المطر فى الجهة الجنوبية من الباب وكذلك أنشأ سبيلا لا مثيل له.

وأنشأ خوش كلدى بك بأمر تلقاه من السلطان سليمان فى سنة (٩٤٧) مخزنا من غرفتين[1] لحفظ قناديل بيت الله والأشياء الخاصة بالمقام الحنفى.

(١) إن هذه المخازن قد هدمت بعد موت السلطان سليمان، وضمت أرضها إلى ساحة الحرم الشريف.

الذى كان بنى فى خلال عام (٨١٥) وعقب ذلك بنى أعمدة باب إبراهيم الزائد مصنوعة من الرخام

إن الأعمدة التى أمر بصنعها خوش كلدى بك، فى باب إبراهيم الزائد كانت أحد عشر من أعمدتها فى الجهة التى يقع فيها الرواق الجنوبى، وستة فيها فى الجهة التى يقع فيها الرواق الشمالى، وكانت كلها من الحجر المنحوت فى المقام الحنفى بعد سنة من تعمير المقامات المذكورة، لأن مبانى المقام الحنفى كانت أكبر نسبيا بالنسبة للمقامات الأخر، وقد شرع فى تجديده سنة (٩٤٧) وأتمه فى سنة (٩٤٩)، بينما أتم تعمير المقامات الأخرى فى سنة (٩٤٨)، وأمكن استخدام مبانى مقام إبراهيم التى هى أثر من آثار (خوش كلدى) بك (٦٨) عاما، إلا أن رواد المقام الحنفى وجماعاته زادت سنة بعد سنة وضاق بهم، ولما أبلغ الأمر إلى باب السعادة هدم محمد باشا والى مصر ذلك المقام وأنشأه من جديد بناء على الفرمان السلطانى الذى تلقاه.

كما أنه قد رمم قطع رخام المطاف ونظف مجرى عرفات وجدد كسا الأعمدة الداخلية للبيت المعظم ونظف كعبة الله بأن رفع أكوام الكناسة التى حول الكعبة.

وبما أن محراب المقام الحنفى الذى وسعه محمد باشا كان قد أسس فوق ساحة المطاف الشريف، فكانت صفوف المسلمين المصلين فى داخل الحرم ترى غير منتظمة من خارج الحرم وفى سنة (١٣٠١) أى بعد توسيع المقام الحنفى بمائتين وأربع وثمانين سنة، أخرج والى الحجاز عثمان باشا الجهة التى تقع بالمحراب فى ساحة المطاف وحركها نحو جهة باب إبراهيم الزائد، وانتظم الصف الذى يقع فى هذه النقطة، وهكذا نال ثواب هذا العمل الذى أتمه، بناء على الأمر السلطانى، ومازال عثمان باشا واليا على الحجاز.

لازمة

إن المقامات الأربعة الخاصة بأئمة المذاهب الأربعة من جملة المستحدثات التى

لا محل لها فى الشريعة الإسلامية، وقد أنشئت فى سنة (٨١٥هـ) حينما كان يحكم مصر فرج بن برقوق بن أنس من ملوك الشراكسة. وأراد شاه إيران نادر شاه أن يزيد المقامات إلى خمسة بإنشاء مقام خاص للمذهب الجعفرى، إلا أنه لم ينل مطلبه وخاب فى مسعاه.

* * *

تعرف عدد شرفات المسجد الحرام القديمة وهيئتها

الشرفات جمع كلمة شرفة وهى نوع من أنواع الزينة فى المبنى يطلق على الأماكن البارزة العالية فوق جدران القلاع، وقد يجمع على شرف أيضا ويتوارى الجنود خلفها فى أثناء الحروب، وكان للمسجد الحرام قبل التجديد أربعمائة من الشرفات الكاملة، وسبعة من الشرفات النصفية الداخلية، واثنين وخمسين من الشرفات الخارجية الكاملة، وشرفة واحدة خارجية غير تامة، وسواء أكانت الشرفات الخارجية أو الشرفات الداخلية ما كانت تتجمع فى مكان واحد أو اثنين، بل كانت متفرقة فوق أبواب المسجد الحرام.

وكان فى كل باب عدة شرفات، وقد بنيت بين الشرفات مساكن ومنازل وأربطة ومدارس، وهذه الأماكن تخلو من الشرفات، وكان لدار الندوة الزائدة (٢٧) شرفة ولباب إبراهيم الزائد (٤٤) شرفة وكانت كلها ترى من داخل الحرم الشريف.

ليس هناك مؤرخ إلى عصر وليد بن عبد الملك يعرف شيئا عن وجود الشرفات فى المسجد الحرام لذا حكم أن تزيين الحرم الشريف بالشرفات أثر من آثار وليد بن عبد الملك.

* * *

تعرف أبواب المسجد الحرام القديمة وتبين عددها

كان للمسجد الحرام مقدما تسعة عشر بابا عاليا مبنيا على عقدين وكان باب أقيم على كمرين مثل جسر، ذو فتحتين ومازالت بعض هذه الأبواب، محتفظة بأشكالها القديمة وهى معروفة لدى الناس. وكل باب كان له فتحتان إلا أن الاثنين يطلق عليهما اسم واحد. ويطلق مثلا على البابين المجاورين اسم باب السلام، وعلى هذا الحساب يجب أن يصل عدد طاقات الأبواب وكمرها إلى ثمانية وثلاثين كمرا، إلا أن معمار المدرسة السليمانية قد أضاف فوق أحد هذه الأبواب كمرا عاليا، وهكذا أوصل كمر الأبواب إلى تسعة وثلاثين كمرا.

* * *

وقد رتبت على ست صور وتجمع قباب المسجد الحرام وأبوابه على هيئتها الجديدة وتبين عددها وشكلها وخريطة مسطحة مع بعض الجداول.

* * *

تعرف ما حدث للمسجد الحرام بعد تجديده من تغيير فى الشكل

وإن كان رسم المسجد الحرام القديم على شكله الذى ذكرته فى الوجهة القديمة، إلا أن طوله فى زماننا من باب السلام إلى باب العزة (٥٣٧) قدما، وعرضه من باب الصفا إلى باب دار الندوة الزائدة (٥٠٠) قدما، و٦٧ منه فى الشرق، ٨١ منه فى الشمال، ٣٦ منه فى الغرب، ٣٣ منه فى الجنوب، وخمسة منه فى جهة دار الندوة، ٦٠ منه فى باب إبراهيم الزائد، وله ٢١٨ عمودا رخاميا والأعمدة التى فى الجهة الغربية عددها ٦، و١١ عمودا فى الجهة الجنوبية، وأحد أعمدة باب دار الندوة مصنوع من حجر الصوان، والباقى كله من الرخام.

ويبلغ عدد الأعمدة المصنوعة من حجر يطلق عليه الشمليس بعد أن يقطع وينحت قطعا ٢٤٤ عمودا، وشكل هذه الأعمدة حسب ما يقتضى موقعها مسدس الشكل أو مثمن، وكل عمود حجرى ابتداء من الأرض يصنع من قطع حجرية صغيرة يطلق عليها حجر الصوان، وأعلاها يصنع من قطع حجارة صفراء كبيرة منحوتة. إن الأعمدة الحجرية الموجودة ابتداء من الجهة المقابلة لبيت الله أى فى الجهة الشرقية عددها ٣٠ عمودا، وتحت القبة التى فى الجهة الشمالية المقابلة للميزاب الذهبى ٤٤ عمودا، وفى الجهة الغربية باب مقابل الباب المسدود ومقابل المستجار ٣٦ عمودا، وفى الجهة الجنوبية تحت القبب التى تقابل الحجر الأسود ٧٦ عمودا، وفى دار الندوة الزائدة ٣٦ عمودا، وفى باب إبراهيم الزائد ١٨ عمودا، وفى كل ركن من أركان المسجد أربعة أعمدة، وعند الحساب لاشك أن عددها سيبلغ ٢٤٤ عمودا.

تبين عدد قبب المسجد الحرام وشكلها

إن للمسجد الحرام خمسمائة قبة لطيفة ويطلق أهل مكة على (١٥٠) منها قبة، وعلى ٢٨٠ منها طواجن، وعلى ٦٢ منها مصليات،، إن ٢٤ منها فى الشرق، و٣٦ منها فى الشمال، و٣٦ منها فى الجنوب، و٢٢ منها فى الغرب، وواحدة منها فى ناحية مئذنة الحزورة، وقبة فى ناحية مئذنة دار الندوة، و١٦ منها فى ناحية باب إبراهيم الزائد وكلها تبلغ ١٥٠ قبة.

الطواجن جمع كلمة طاجن وهو اسم نوع من القبب. الطاجن على وزن دامن تطلق على صحن يطلق عليه تابه أو طاوه والمراد منه القبب التى صنعت على شكل (تابه)، وعددها الكلى (٢٨٨) طاجنا . (٣٨) منها فى الشرق، (٥٩) منها فى الشمال، و (٣٤) منها فى الغرب، و(٦٤) منها فى الجنوب، وعددان منهما تحت مئذنة باب السلام، وعدد منها فى ركن المسجد فى جهة باب السلام، وعدد منها فى باب العمرة، و(٢٤) منها فى باب دار الندوة الزائد، و(٤٧) منها فى باب إبراهيم الزائد.

والقبب المسماة المصليات تقع ثلاث منها فى الشرق، (٢٤) منها فى الشمال، و (١٨) منها فى الغرب، و(١٧) منها فى الجنوب ويبلغ مجموعها (٦٢) مصلية، لايمكن وصف هيئاتها وشكلها بالكتابة فلابد من رؤيتها.

* * *

تبين شرفات المسجد الحرام وعددها

للمسجد الحرام (٦١٢) شرفة فى الجهة الشرقية، و(٣٤١) شرفة فى الجهة الشمالية، و (١٥٤) منها فى الغرب، و(١٤٠) منها فى باب إبراهيم الزائد، و(١٩١) فى دار الندوة الزائدة، والبقية فى الجهة الجنوبية، ومجموع عددها (١٣٨٠) شرفة، إن الشرفات الموجودة فى الشرق صنع ٢٧ منها من الرخام، و(١٣٥) منها من حجر الشمليس وإحدى الشرفات الرخامية أعلى من الشرفات الأخرى، والشرفات التى فى الشمال (٧٨) منها من الرخام والقبة من حجر الشمليس، والثلاث الشرفات الرخامية أعلى من الأخريات ٢٢ من الشرفات التى فى الجهة الغربية من الرخام والبقية من الزيادتين والتى فى الجهة الجنوبية كلها مصنوع من حجر الشمليس.

* * *

فى بيان عدد أبواب المسجد الحرام وهيئاتها والجهات الكائنة فيها وعدد شرفات أبوابه وما هى الأسماء التى عرفت بها فى العهد الجاهلى

للمسجد الحرام ١٩ بابا عظيما ويفتح أربعة من هذه الأبواب إلى الجهة الشرقية وسبعة منها فى الجنوب وثلاثة منها فى الغرب وخمسة منها فى الجهة الشمالية.

الأبواب الشرقية:

١ـ باب السلام ٢ـ باب النبى ٣ـ باب العباس ٤ـ باب على.

ولكل باب من هذه الأبواب تسع درجات داخلية وخمس درجات خارجية سواء أكان مراقى هذه الأبواب أو مراقى الأبواب الأخرى أظهرها سليمان، وكانت عتبات الأبواب الخارجية على مستوى الأرض، فإذا نزل قليل من المطر كان داخل الحرم الشريف يمتلئ بالماء.

١ـ باب السلام:

كان فى الجاهلية يشتهر باسم باب بنى عبد شمس بن عبد مناف، وإن كان يعرف الآن بباب بنى شيبة، إلا أن اسمه الشهير هو باب السلام، وله ثلاثة عقود ولما كان بناؤه القديم فى منتهى الرصانة والمتانة فبقى على حاله القديم عند التجديد.

وكان الخلفاء الذين يذهبون إلى مكة المكرمة لأداء الحج وأمراء مكة والأشراف يدخلون إلى المسجد الحرام من باب السلام، كما هو مسطور فى تاريخ الإمام الأزرقى.

٢ـ باب النبى:

ويطلق على باب النبى باب النساء وباب الجنائز أيضا. وإن لهذا الباب عقدين و٢٤ شرفة، وخربت هذه الشرفات القديمة، وعند تجديد الباب اكتفى بتجديد الشرفات فقط، والشرفات الحالية من آثار التعمير الجديد، وبما أن النبى ﷺ كان يشرف دار السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ خارجا من هذا الباب سمى بباب النبى.

٣ـ باب العباس:

أسس باب العباس على ثلاثة عقود ويعرف بباب الجنائز أيضا، وبما أنه كان يقابل دار العباس بن عبدالمطلب لذا سمى فى وقتنا هذا باب العباس، وما يطلق عليهما الميلان الأخضران قد وضعا خارج هذا الباب.

٤ـ باب على:

لباب على ثلاثة عقود و١٥ شرفة. ويشتهر بين المؤرخين بباب بنى هاشم، وجدد على أكمل وجه، إلا أن كتب التاريخ تخبرنا بأن حالته القديمة كانت فى شكل أكثر نظاما ومتانة.

الأبواب الجنوبية

١ ـ باب بازان ٢ ـ باب البغلة ٣ ـ باب الصفا ٤ ـ باب الجياد ٥ ـ باب مجاهد ٦ ـ باب مدرسة الشريف عجلان ٧ ـ باب أم هانئ.

لكل واحد منها تسع درجات داخلية وخمس درجات خارجية.

١ـ باب بازان:

وقد اشتهر هذا الباب بباب بازان لقربه من البئر الذى يطلق عليها عين بازان، وكان يطلق عليه فى الجاهلية باب بنى عائذ كما هو مذكور فى كتب التاريخ القديمة. ولباب بازان عقدان و(١٦) شرفة وقد جدد على شكل جميل.

٢ـ باب البغلة:

وكان يطلق على هذا الباب فى صدر الإسلام باب بنى سفيان بن أسد وباب الخياطين. ولباب البغلة عقدان وبدون شرفة.

٣ـ باب الصفا:

وكان أصل اسمه باب بنى مخزوم، وهو مواجه لباب الصفا لذا أطلق عليه باب الصفا، ولهذا الباب ٥ أكمار و٣٩ شرفة. ومن ينظر إلى شكله يتأكد أن هذا الباب أعظم أبواب الحرم الشريف من حيث الشكل ومتانة البناء والحسن والكبر.

٤ـ باب الجياد:

لباب الجياد كمران و ١٩ شرفة، وقد جدد على شكل جديد، يطلق على هذا الباب بين الأهالى باب الجياد الصغير.

٥ـ باب مجاهد:

لباب مجاهد كمران و٢٠ شرفة، وباب الرحمة، اسم آخر لهذا الباب، وهذا الباب قد جدد تماما مثل باب الجياد. بما أن هذا الباب أو باب الجياد كانا ينسبان لقبيلة بنى مخزوم فكان أفراد هذه القبيلة يدخلون ويخرجون من هذين البابين.

٦ـ باب مدرسة الشريف عجلان:

ولهذا الباب كمران وعشرون شرفة، وكان فى القديم يسمى بباب بنى تميم وباب العلاقين، وبما أنه كان متصلا بالمدرسة التى بناها الشريف عجلان اشتهر بباب مدرسة الشريف عجلان، وجدد على شكل فى غاية الجمال.

٧ـ باب أم هانىء:

كان اسم هذا الباب قديما باب ملاعين وباب الولوج وباب العروج وباب

الجياد الكبير[1] وباب أبى جهل. وبما أنه كان متصلا بدار أم هانئ بنت أبى طالب ـ رضى الله عنها ـ أطلق عليه فيما بعد اسم باب أم هانئ، وعندما جدد عُمَرَ بطريقة متينة وله كمران وثلاث عشرة شرفة.

كانت دار أم هانئ متصلة بالجهة الجنوبية، ويسار هذا الباب وفى النهاية بنى على أرضها مدسة[2]، وبما أن معجزة المعراج قد وقعت فى الليلة التى كان النبى ﷺ نائما فى هذه الدار لذا فزيارة هذه الدار واجبة لعشاق محمد ﷺ، أم هانئ المشار إليها أخت سيدنا على وكريمة عم النبى ﷺ، أبى طالب، اسمها الحقيقى هند أو جميلة أو عاتكة أو حمامة أو رملة أو فاطمة أو فاختة ولكنها اشتهرت بكنيتها لابنها هانئ من زوجها هبيرة بن عمرو المخزومى، وقد هرب هبيرة بن عمرو فى يوم فتح مكة رافضا الإسلام إلا أنه دخل فى الإسلام فى نفس اليوم. وروى عن النبى ﷺ، ٤٦ حديثا.

ولما كان زوج أم هانئ مشركا عزم على البقاء فى مكة فأراد النبى ﷺ أن يطيب خاطرها بعرض شرف الزواج به إلا أنها اعتذرت عن الزواج خوفا من عدم قيامها بواجبات الزوجة لكثرة أولادها.

الأبواب الغربية:

الأبواب الغربية هى ١ ـ باب خزورة ٢ ـ باب إبراهيم ٣ ـ باب العمرة.

ولكل هذه الأبواب ٤ درجات خارجية ١١ درجة داخلية.

١ ـ باب حزورة:

وله كمران وليست له شرفات، وبما أنه لم يكن فى حاجة للتعمير ترك على

(١) الأجياد الصغيرة والكبيرة اسم حيين فى مكة ويقال فى سبب تسميتهما روايتان:
الأولى: تربية الجياد الأصيلة فى هذا الحى وعلى هذا التقدير يلزم أن يكون لفظ أجياد جمع كلمة «جيِّد».
الثانية: فى يوم ما قطعت فى هذين الحيين أعناق مائة رجل وعلى هذا يلزم أن يكون جمع كلمة «جِيد».

(٢) وإن كان هذا المكان قد تحول إلى المدرسة إلا أن أكثر مدارس مكة قد تحولت إلى وكالات، كذلك هذه المدرسة وأجرت. وبينما كنت فى مكة كان يسكن فى مدرسة أم هانئ مفتى الشافعية أحمد دحلان وكان منزلا طويلا جميلا وقد بنى أمامه والى مصر الأسبق محمد على باشا مبنى كبيرا.

حاله القديم، وحزورة اسم والدة وكيع بن سلمة من أمراء مكة المكرمة، عندما توفيت أم وكيع دفنها بالقرب من ذلك الباب؛ ولذلك اشتهر هذا الباب بباب حزورة. وكان اسمه القديم باب بنى حكيم بن حزام، باب بنى الزبير بن العوام وباب الخزاميه وأطلق عليه مؤخرا اسم باب حزورة، وفيما بعد باب الوداع وعند البعض كانت حزورة اسم سوق فى الجاهلية وعندما وسعت ساحة المسجد الحرام ضمت أرض هذه السوق إلى المسجد الحرام، ولما بنيت مئذنة باب الوداع على ساحة هذه السوق فقيل للباب الذى كان متصلا بالمئذنة باب حزورة.

ويقال فى رواية أخرى إن (وكيع) بن سلمة كان والى مكة واقتضى الأمر أثناء ولايته تعمير بعض أماكن الحرم الشريف، ولما كلف بأعمال البناء بنى لنفسه بجانب باب حزورة قصرا خاصا به، وقد اعتاد أن يقيم فى هذا القصر من حين لآخر لأداء مهمته، وكان قد عين غلاما يسمى حزورة لحراسة هذا القصر لذا اشتهر ذلك الباب باسم هذا الغلام، وبما أن الحجاج يخرجون من هذا الباب بعد أداء طواف الوداع كان ذلك سببا بتسميته بباب الوداع، ومن الأصول المرعية الآن أن يغادر الحجاج مكة المكرمة بعد إتمام طواف الوداع بشرط ألا يدخلوا الحرم الشريف بعد ذلك.

من معتقدات الأدلاء والمطوفين أن الشخص الذى يتم طواف الوداع عند باب الوداع، ثم يعود من داخل الحرم إلى باب إبراهيم ويخرج منه ثم يسافر إلى بلاده فهذا يجعل هذا الحاج يعود مرة أخرى لأداء الحج، هذا العمل من الأمور المجربة والذين يراعون هذا النظام لابد أن يعودوا مرة أخرى لأداء الحج، ومن الأمور التى لا تحتاج إلى الدليل أو البرهان أن الأشخاص الذين يرون تلك الأماكن المقدسة رؤية العين يتمنون أن يروا تلك الأماكن مرات عديدة.

ولذا يخرج الأدلاء الحجاج من باب إبراهيم.

وأنا مؤلف هذا الكتاب وإن كنت وَدَّعْتُ البيت خارجًا من ذلك الباب،

ولكننى إلى الآن لم أنل أملى فى زيارة بيت الله مرة أخرى. وأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يقدر لى ذلك.

٢ـ باب إبراهيم:

كان يقال لهذا الباب باب إبراهيم أبو عبيدة البكرى، ويشتهر باسم شخص كان يمارس الحياكة بجانبه اسمه إبراهيم، وكان الشيخ سعد الدين الإسفرائينى صاحب كتاب نسبة الأعمال ومؤلفه مقتنعا أن الحائك إبراهيم كان من أصفهان، ولكن بعض الأفاضل قالوا إن المقصود بإبراهيم هنا هو حضرة الخليل (عليه السلام)، ولكن الإمام الأزرقى سمع هذا القول قائلا إن الباب المذكور كان معروفا بباب الخياطين عند الأوائل، وبناء على ادعاء الإمام الأزرقى أن اسم ذلك الباب كان باب الخياطين قديما وكان له مدخلان وبنى أخيرا فى عهد السلطان الغورى فوق كمرتين قصر مشيد، وعند عمارته قد جدد طبقا لشكله القديم وله الآن مدخل ذو كمر واحد والقصر الذى فوقه خصص لإقامة رؤساء السادات.

٣ـ باب العمرة:

إن لهذا الباب كمر وثمانى شرفات وكان اسمه القديم باب بنى سهم، وبما أنه أصبح من عادة البلد أن يخرج ويدخل الحجاج الذين يذهبون إلى التنعيم من هذا الباب يسمى ذلك الباب بباب العمرة، وقد جدد على أجمل شكل وأحسن هيئة.

الأبواب الشمالية

الأبواب الشمالية وهى: ١ ـ باب السدة ٢ ـ العجلة ٣ ـ باب القطبى ٤ ـ باب دار الندوة الزائد ٥ ـ باب الدريبة.

ولكل واحد من هذه الأبواب ثلاث عشرة درجة داخلية وأربع درجات خارجية.

١ـ باب السدة:

كان يطلق على هذا الباب قديما باب عمرو بن العاص، الباب العتيق، والآن يعرف باسم (باب السدة)، وله ثمانى شرفات وكمر واحد وعند تعمير الحرم الشريف قد هدم تماما وبني من جديد.

٢ـ باب العجلة:

يعرف هذا الباب بباب البسيطة أيضا لوجوده متصلا بمدرسة عبد الباسط. وله كمر واحد وتسع شرفات وقد بنى من جديد فى عصر السلطان سليمان خان.

٣ـ باب القطبى:

إن هذا الباب مبنى تحت كمر واحد وفى الجهة الغربية من باب الندوة الزائد، وبما أنه لم يكن فى حاجة إلى الترميم ترك على حاله القديم.

٤ـ باب الندوة الزائد:

لهذا الباب كمران و٢٢ شرفة، ويقع بالجانب الشمالى لباب القطبى، وقد أضاف قاسم بك الذى كان أمين البناء عند بناء المدارس الأربع السليمانية كمراً آخر فتغير شكله القديم. وعندما كان يجدد الحرم الشريف انهارت تلك الأكمار الثلاثة فبنى على كمرين وفق الرسم القديم، وصنع له اثنين وعشرين شرفة بغية التزيين.

وبما أن شيبة بن عثمان قد اعتاد أن يدخل ويخرج من ذلك الباب قد عرف فى الأول «بباب دار بنى شيبة بن عثمان».

٥ـ باب الدريبة:

إنه باب تحت مبانى المدرسة السليمانية ذو كمر واحد وقريب من باب السلام وفى اتصال المدرسة السليمانية. وقد جدده أمين بناء المدرسة السليمانية على كمر واحد.

تعريف مفصل لمآذن المسجد الحرام
وعددها ومقدميها وعدد مآذن مكة المعظمة وأماكن وجودها

للمسجد الحرام سبع مآذن فى زماننا وتسمى مئذنة، باب العمرة، ومئذنة باب السلام، ومئذنة باب على، ومئذنة باب الوداع، ومئذنة باب الندوة الزائدة، ومئذنة قايتباى، ومئذنة السليمانية، وجميع هذه المآذن موجودة الآن ويؤذن فوقها الأذان المحمدى.

١ـ مئذنة باب العمرة:

وإن لم ليكن معروفا الذى بنى مئذنة باب العمرة إلا أن أول من جددها (١) هو أبو جعفر المنصور الدانقى من خلفاء بنى العباس. وقد أصلحها ودعمها محمد الجواد بن على بن منصور الأصفهانى وزير صاحب الموصل فى سنة مائة خمس وخمسين، وهدمها السلطان سليمان خان فى سنة (٩٣١) وجددها السلطان مراد الثالث، وكان شكلها قبل هدمها مثل مآذن مصر القاهرة إلا أنها كانت قديمة فهدمت حتى أسسها الأرضية، وبنيت على طرز مآذن الممالك الرومية، وللمئذنة الجديدة شرفتان وعلى شكل مسدس وفى غاية الجمال من حيث البناء.

وفى عهد الإمام الفاكهى كان رئيس مؤذنى الحرم الشريف يبدأ الأذان من مئذنة باب العمرة، وكان مؤذنو سائر المآذن يقتدون به واستمرت هذه الحالة إلى عهد تقى الفاسى المكى من المؤرخين الكرام، وأخذ المؤذن الإمام من ذلك العهد يؤذن من فوق مئذنة باب السلام والآخرون يقتدون به، وفى عصرنا هذا يؤذن

رئيس المؤذنين الشافعى المذهب من المحفل الشافعى الكائن فوق بئر زمزم وبعده مؤذن باب الوداع ويقتدى بقية المؤذنين بهما.

والمنظومات الجميلة الحسنة الشاملة مثل التسبيح والتمجيد والتذكير والتوديع تجرى مثل ما هو مكتوب.

الأوراد التى تقرأ على المآذن فى الليالى

قد حصلت على نسخة تحتوى على الأوراد والأذكار التى تقرأ فوق مآذن الحرم الشريف قرب الصبح. ولما توقعت أن تكون مفيـدة رأيت إدراجها وكتابتها.

* * *

الصورة الصحيحة للذكر والتهليل

اللتين يقرؤهما المؤذنون فى آخر الليالى على مآذن الحرم الشريف

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نؤمن إلا بالله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نتوكل إلا على الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نستعين إلا بالله (٣ مرات)، لا إله إلا الله أمانا وخوفا من عذاب الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله يا قومنا أجيبوا داعى الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله الكريم الذى إذا سئل أعطى إذا استعين أعان لا إله إلا الله الحكيم الكريم الذى إذا قطر قطرة من بحر جوده وكرمه ملأ بها الأكوان.

لا إله إلا الله الحكيم الكريم الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، لا إله إلا الله يا سعادة من قام من منامه ولذيذ أحلامه وذكر الله العظيم بقلبه ولسانه، وقال لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله النبى الصادق الفاتح الخاتم، وسيلتنا العظمى إلى الله يوم العرض على الله، هذه الشهادة عليها نحيا وعليها نموت وبها نبعث إن شاء الله من الآمنين الفائزين المستبشرين برحمة الله وكرمه، ما شاء كان وما لم يشأ ربنا الكريم لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

إخطار:

فى ختام التكبير سالف الذكر يقرأ الاستغفار الذى سيكتب فيما بعد، وبعد الاستغفار يدور بالمئذنة عشرين مرة وفى كل دورة يقرأ التسابيح الشريفة وعقب الدورة العشرين يؤذن أذان الصباح. انتهى.

الصورة الشريفة للاستغفار

أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة لى ولوالدى ولمن أحسن لى ولمن أساء إلى ولأصحاب الحقوق على، ولجميع المؤمنين والمؤمنات المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات إنك يا مولانا يارب سميع قريب مجيب الدعوات، القائل تعالى فى محكم الآيات البينات على لسان محمد سيد السادات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(التوبة: ٢١ ـ ٢٢).

١ تسبيح الدورة الأولى:

سبحانه وتعالى إله عزيز جبار وملك عفو غفور قوى قادر مقتدر قهار.

للذنـــــوب غـــــافـــــر
وللعيـــــوب ســـــاتـــــر
وللمقلوب المنكسرة جابر وناصر
سبحـانـه وعلى الجبابـرة ملـك جبـار

٢ ـ تسبيح الدورة الثانية:

.سبحان من أوهب الليل وأوجد النهار
وأظهـر العلامـة وشعشـع الأنـوار
الرعـد يسبحـه بصـوتـه الهـدار
والبرق يلمع من خيفته كلما أومض واستنار
يتجـلى ربنـا فـى الأسحـار
وينـادى المنـادى جَـلَّ المـنادى
أيـا عبـادى! أنـا الغـفار
يـا عـبادى! أنـا الستـار

يـــا عـــبادى! أنـــا القهـــار

يـا عبـادى! أنـا خالـق الليل والنهار

العارفـون واقفـون عـلى قـدم الخـوف والافتقـار

لا يستقـــر لهـــم قـــــــرار

كلما جـدوا وجـدوا وكلمـا جاهـدوا

شاهـدوا جمـال وكمـال مـن لاتـدركـه الأبصـار

٣- تسبيح الدورة الثالثة:

سبحـان مـن لا تدركـــه الأبصـــار

ولا تحيـــط بعظمتـــه الأفكـــار

ولا يغيـره الليـل ولا يبدلـه النهـار

وهو يدرك الأبصار وهو اللطيـف الخبير

الحليم المنعـم الستـار وهـو مولانـا

ومولاكم، فنعم المولى ونعـم النصير

٤- تسبيح الدورة الرابعة:

أحاط ربنا الكريم بكل شيء علما

ووسعت رحمته كل شيء عددا وكرما

ومغفـــرة منـــه وحلمـــا

سبحانـــه رفـع السمـــاء قدرتـــه

وبســـط الأرضـــين بحكمتـــه

وأجـــرى السمـــاء

وعـــلم آدم الأسمـــاء

سبحانـه أحصـى كـل شـيء عـددا

٥- تسبيح الدورة الخامسة:

يقول إله العرش جل جلاله
لعبد نشأه فى العبادة انتشاء
تذكر جميلى مذ خلقتك مضغة
ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشاء
وسلم إلى الأمر وأعلم بأننى
أنفذ أحكامى، وأفعل ما أشاء

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ آل عمران (٥ ـ ٦).

٦ ـ تسبيح الدورة السادسة:

فعال لما يريد قادر ربنا الكريم على ما يشاء
له الملك والقضاء
وله الحمد والثناء
وله العزة والبقاء
وبيده الخير والجود والتوفيق والعطاء
ونسأله العفو عما سلف ومضى
وهو سريع الرضا
سبحانه لا دافعًا لله فيما قضى.

٧ ـ تسبيح الدورة السابعة:

كن عن همومك معرضا
أسلم سلم أمورك للقضاء
وابشر بخير عاجل
تنسى به ما قد مضى

فلربما اتسع المضيق

وربما ضاق الفضا

ولرب أمر متعب لك فى عواقبه رضا

الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

الله يفعل ما يشاء

فلا تكن معترضا

٨ ـ تسبيح الدورة الثامنة:

يا من إذا أبصرنى معرضا

وليس فعلى عنده مرتضى

بحرمة التوحيد ويا سيدى! يا رب: أنت

الذى تسمع لى بالرضا

دبر أمورى أنا وجميع المسلمين، يارب!

يا من إذا دبر أمراً قَضَى.

٩ ـ تسبيح الدورة التاسعة:

يأيها الراضى بأحكامنا

لابد أن تحمد عقبى الرضا

فوضى إلينا الأمر مُسَلِّمًا

فالراحة العظمى لمن قد فوضا

إن تعلقت بأسبابنا

فلا تكن عن بابنا معرضا

من كل من يأتى وما قد مضى

لاينعم المرء

حتى يرى الخيرة فيما مضى.

١٠ ـ تسبيح الدورة العاشرة:

العمر ولى والزمان قد انقضى
أترى يسامحنا الكريم بما مضى
وعلى دين قد عجزت عن الوفاء.
ومتى ديونى يا إلهى تقتضى؟
وأفوز من ذاك الجناب بنظرة
وأرى سواد الصحف أصبح أبيضا
يا قلب مالك راحم إلا الذى
لما أسأت وثبت عامل بالرضا
يا قلب لا تغفل إذن عن بابه
إياك عن أبوابه أن تعرض
لو كنت لازمت الوقوف ببابه
لكساك من إحسانه حلل الرضا
لكن غفلت وبات طرفك نائمًا
ياليته عن ربه لا يغمضا

١١ ـ تسبيح الدورة الحادية عشرة:

إليك بسطت الكف، أسألك الرضا
أنت الذى تعفو وتغفر ما مضى
أنت الذى ترجى لكل مهمة
إذا ضاقت الأفلاك متسع الفضا.

١٢ ـ تسبيح الدورة الثانية عشرة:

أتيت إلى مولاى أسأله الرضا
ووقفت على أبوابه متعرضا
وقدمت تقصيرى وذلى وفضاحتى
وما كان منى فى الزمان الذى مضى

فعاملنـــى مـــولاى بلطـــف
وقـال لك البشـرى غفـرت الـذى مضى
فمن مثلـه فـى الكـون يخشى ويرتجى
إذا ضـاق بالملهـوف متسع الفضـا
يعـذب تعذيـبا ويعفـو تكـرما
وليـس للمخـلوق أنْ يتعرضـا
ويـا سيدى قـد ضـاع عمـرى باطـلا
وولى زمانى فى المعاصـى وانقضى
فإن كان ذنبى عن جنابك معرضا
فعفـوك يأتـى بالأمـان وبالرضـا
ومالـى شـفيع غيـر جـاه محمد
نبى الهدى أزكـى رسـول ومرتضـى
عليـه سـلام الله مـا هبـت الصـبا
وما لاح نجم فى السمـاء وقـد أضـا

١٣ ـ تسبيح الدورة الثالثة عشرة

لا دافعـا لله فيـما قضـاه وحكـم
ولا مانعـا له فيمـا أعطـاه وقسم
ربنـا يفعـل فـى ملكـه مـا يريـد
وبحكـم فـى خلقـه بمـا يشاء ويرضى
جـل سبحانـه فسـبحان الله

١٤ ـ تسبيح الدورة الرابعة عشرة:

ليـس لله شـريك فى الملـك
ولا مدبـر لـه فى الأمـور
لا يـرجـو ثـوابـا

ولا يهـــــــاب عقـــــابـــــا
ولا على باب جوده وكرمه حاجبا ولابوابا
كل نعمـــــة مـــــن الله الكريم فضـــل
وكـــــل نعمـــــة مـــــنه عـــــدل
ولا يســـــأل عمـــا يفعـــل وهم يسألون

١٥ ـ تسبيح الدورة الخامسة عشرة:

لا إلـــــــه إلا الله تبـــــارك
وتعالـــــى واحـــد مفـــرد فـــى ملكه
لاشريك له ولا صنو له ولا ند له
هو الحنـــــان المنـــان الرحيـــم الرحمن
الـــذى لا إلـــه إلا هـــو الحـــى
جل الباقى سبحـــانه ومـــــا ســـواه

١٦ ـ تسبيح الدورة السادسة عشرة:

يارب عفوك أســـأل حلمـــك أســـال
جـــودك أســـال رضـــاك أســـال
وبسيدنـــــا محـــــمد أتوســـل
يـارب عبـد ضعيف واقـف ببابك يسأل
وبالذنوب مثقـــل اغفـــر ذنوبـــى
وسامـــح يـــا خالقـــى وتفضـــل.

١٧ ـ تسبيح الدورة السابعة عشرة:

قُمْ فى الدَّياجى وناجى مولاك ما شئت فاسأل
وادْعُ بقلب سليم لعلك تنجو وتُقْبَلْ
واصْفَ وصَافى وَوَحِّد مولى علينا أنعم وتفضَّلْ
معطى العطايا كريمٌ بالخير أَنْعَمَ فَأَجْزَلْ

١٨ ـ تسبيح الدورة الثامنة عشرة:

سبحان من أنعم فأجزل
حكم فعدل ولم يبخل
وجاد ربنا الكريم على عباده وتفضل
يقول القائل فى حق عظمته ولا يتأول
سبحان ربنا الحليم الكريم
العظيم هو الأول

١٩ ـ تسبيح الدورة التاسعة عشرة:

يا أول قبل كل أول
وآخر، ما له محول
سبحان الكريم فلا يبخل
سبحان القديم فلا يتحول
يارب عبد ضعيف واقف بالباب يسأل
أنعم علينا بجودك وإحسانك ياخالقى وتفضل
يا من هو قبل كل أول.

٢٠ ـ تسبيح الدورة العشرين:

أول بلا بداية
وآخر ما له نهاية
سبحان رب البرايا
سبحان معطى العطايا
سبحان كاشف الضر والبلايا
سبحان من له اللطف والعناية
وبيده الخير والجودوالتوفيق والهداية
سبحان مَنْ له فى كل شىء آية

تدل على أنه هو ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣)، ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزمر ٧٥)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

لازمة

قد اتخذ الجهر بالتسبيح عادة متبعة فى عهد موسى (عليه السلام) واستمرت هذه العادة الطيبة إلى عهد داود (عليه السلام).

وكان داود (عليه السلام) يعين من يقومون بالتسبيح من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر، واستمرت هذه السنة إلى أن خرب بيت المقدس، وقد أبطل اليهود العمل بالشريعة اليهودية، إذ قاموا ضد السيد المسيح رافضين دعوته، وأوقفت هذه السنة الطيبة إلى أن اعتكف مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار الصحابى الجليل فى مسجد عمرو بن العاص فى مصر.

عين مسلمة فى سنة ٤٤٨ الهجرية واليا على مصر من[١] قبل معاوية فذهب فى حينه إلى مصر، ورأى أن جامع عمرو بن العاص فى حاجة إلى تعمير وتصليح فعمره جيدا، وألحق به مئذنة[٢] وعقب ذلك اعتكف فى المسجد إلا أنه انزعج من صوت الناقوس، وقص ذلك لشرحبيل بن عامر الذى فكر فى حل فريد إذ أخذ يؤذن من منتصف الليل إلى الصباح، إذ هو كان مؤذن المسجد، وهكذا أبهج مسلمة بن مخلد، ودامت هذه العادة إلى عهد أحمد بن طولون الذى عين أشخاصا كثيرين بأجر من الأوقاف، ووضع سنة قراءة الذكر والتسبيح إلى الصباح، ولما ترك صلاح الدين الأيوبى الحرية لمؤذنى المساجد؛ أخذوا يسبحون ويذكرون وفق المذهب الأشعرى.

(١) ابن مخلد هو الحاكم الرابع المرسل إلى مصر من طرف بنى أمية.
(٢) هى أول مئذنة أنشئت فى الإسلام.

وإن كان المؤذنون إلى الآن يذكرون ويسبحون من فوق المآذن فى مصر والشام إلا أنهم لا يؤذنون من المساء إلى الصباح كما كان يحدث فى عهد صلاح الدين، بل يسبحون قبيل الفجر بقليل، وفى مكة المكرمة يبدءون الذكر فى آخر الليل، ولا توجد فى البلاد الإسلامية الأخرى عادة الذكر والتسبيح، إلا أنهم يمجدون الله فى ليالى رمضان. «محاضرة الأوائل».

٢ـ مئذنة باب السلام:

بانى هذه المئذنة غير معروف وكان المهدى بن منصور من الخلفاء العباسيين حينما وسع المسجد الحرام فى سنة (١٦٢) قد جدد هذه المئذنة أيضا جاعلا لها شرفتين، إلا أن بعض المؤرخين ادعوا أن المهدى لم يجدد هذه المئذنة بل بناها إذ لم تكن هناك مئذنة من قبل.

ولما كانت هذه المئذنة قد خربت مع مرور الزمن هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق وبناها من جديد فى سنة (٨١٠هـ)، وجددها وعمرها السلطان مراد خان الثالث (٩٣٨هـ)، ومازالت تلك المئذنة محتفظة بطرز بنائها الذى بناها عليه المشار إليه.

وهى مستديرة إلا أن قلنسوتها على طرز مآذن البلاد العربية، وعلمها مثل أعلام مساجد إستانبول، لذا كان شكلها غريبا.

خبرمهم

إن وجود هلال على قلنسوات المآذن ليس من الأمور الشرعية بل هو عادة اتخذت من قبل ظهور الإسلام، وقد صادف هجوم الملك فليبوس أبى الاسكندر الأكبر على مدينة إستانبول الليلة التى طلع فيها الهلال، وسر سكنتها من هذا وعدوا طلوع الهلال فألا حسنا، فأصبح من عاداتهم اتخاذ رسم هلال على أعلامهم، وانتقلت هذه العادة إلى القياصرة، وبعدهم إلى سلاطين المسلمين فاتخذوا هلالاً على راياتهم وعلى قمة قلنسوات المآذن، وقد انتشرت هذه العادة بالتدريج فى جميع الممالك الإسلامية. انتهى.

٣ـ مئذنة علي[1]:

وإن كان باب علي مجهولا، إلا أنها كانت قديمًا ذات شرفة واحدة، وقد عمر المهدى العباسى مئذنة باب علي حينما عمر مئذنة باب العباس فى سنة (١٦٢هـ). وإن أشار بعض المؤرخين أن بانى هذه المئذنة هو المهدى العباسى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يؤيدوا أقوالهم بأدلة قوية. وانهارت تلك المئذنة بفعل الزمان، وبناها السلطان سليمان بحجر الشمليس الأصفر على طرز مآذن بلاد الروم بعد أن هدمها تماما، وهى الآن على ذلك الشكل.

٤ـ مئذنة باب الوداع:

بناها المهدى العباسى من خلفاء بنى العباس. وهى ذات شرفتين وقد عمرت المئذنة فى عهد شعبان بن حسين صاحب الموصل جزءًا فجزءا، وفى سنة (٧٧١هـ) انهارت هذه المئذنة من نفسها دون أن تسبب أضرارًا لأحد. وقد بدأ حاكم الموصل أشرف بن شعبان فى تجديدها فى نفس السنة، وأتمها فى شهر المحرم الحرام سنة (٧٧٢هـ) وعمرت فى سنة (٩٨٣هـ) فى عهد السلطان مراد خان الثالث، ومازالت محتفظة بشكلها الذى صنعت عليه، وهى مثمنة الشكل غاية فى الجمال.

٥ـ مئذنة باب الزيارة:

بانى مئذنة باب الندوة الزائد هو المعتضد بالله العباسى وهى ذات شرفتين.

وقد هدمها الملك الأشرف برسباى المصرى فى سنة (٨٣٨هـ) وبناها من جديد وعمرها وأصلحها السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٨٣هـ) تصليحا جيدا، ومازالت قائمة على حالها بعد أن عمرت وأصلحت.

(١) نسبة إلى سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

٦ـ مئذنة قايتباى:

مئذنة السلطان قايتباى فوق عقد باب مدرسة قايتباى الذى يواجه المسعى، وإنها فى غاية من الجمال ولها شرفتان.

٧ـ مئذنة السليمانية:

مئذنة السليمانية ذات ثلاث شرف، وهى بالنسبة للمآذن الأخرى أطولها، وهى بين باب السلام وباب الزيادة ومتصلة بالمدرسة السليمانية، وقد بنيت من الحجر الشمسى[1]، وزخرفت بالذهب الأحمر. إن هذه المئذنة هى آخر المآذن التى أنشئت فى الحرم، وقد بنيت تحت إشراف محافظ جدة وأمين بناء المدرسة السليمانية وتم بناؤها فى سنة (٩٧٣هـ). والمآذن السبعة حول المسجد الحرام يؤذن عليها فى الأوقات الخمس.

ويقول الإمام الفاكهى كان فوق باب إبراهيم الزائد مئذنة على شكل صومعة، وبما أنها كانت فى مواجهة منازل بعض أشراف مكة هدموها.

كما يخبرنا ابن جبير عن وجود مئذنة فوق باب الصفا، وبما أنها كانت ضيقة يشق الصعود والنزول منها فهدمت.

وقد بين الإمام الفاكهى وجود مئذنة بين الميلين الأخضرين، إلا أنه لم يخبر شيئا عن بانيها ولا عن هادمها.

إن المؤلفين الذين سبق ذكرهم أخبرونا عن وجود كثير من المآذن فى مدينة مكة الله إلا أنه لم يبق لهذه المآذن فى وقتنا هذا اسم ولا رسم.

إننا لم نقدر أن نحصل على تاريخ يحدثنا عن المآذن التى ادعى وجودها المؤرخون القدماء، إلا أننا لا نستبعد احتمال وجود بعض المآذن القصيرة فى الأحياء البعيدة عن المسجد الحرام، لأنه يروى أنه عندما فتح النبى ﷺ مكة المكرمة ركز راية نصره فوق مسجد الراية، وكان له مئذنة ذات شرفتين وكانت

(١) وبما أن هذه الأحجار تستخرج من مكان اسمه (الشمسية) سميت «الشميسى».

القناديل توقد عليها فى ليالى شهر رمضان إعلانا للموحدين بحلول وقت الإفطار، ويؤذن عليها أذان المغرب، وتطفأ القناديل بعد السحور.

وبناء على قول تقى الفاسى كانت فى مكة مآذن غير مآذن المسجد الحرام فى مواقع محددة، وكان لها موظفون مكلفون بأداء مهمة الآذان، وكان بانى هذه المآذن هارون الرشيد العباسى بناء على أصح الأقوال. وسواء أكانت تلك المآذن المذكورة أو المآذن القائمة فوق جبل أبى قبيس وعلى قمة الجبل الذى يقابل جبل الأجياد أو على جانبه وفى المكان الذى يواجه المجزر وفى شعب بنى عامر وجبل التناجة وعلى الجبل الأحمر يبلغ عددها ٥٣ مئذنة، وبما أن تقلبات الزمن التى لا تبقى على أى شىء قد أفنت هذه المآذن لم يبق لها اسم ولا أثر.

وفى أوائل ظهور الإسلام كان يؤذن فوق كل هذه المآذن وكانت القناديل توقد عليها إحياءًا لليالى رمضان، ولا أثر لهذه المآذن فى زماننا هذا، إلا أنه فى الليالى التى يثبت فيها قدوم شهر رمضان كان يعلن ذلك بإطلاق المدافع من فوق القلاع السلطانية، ويتبع نظام قنة لتبليغ ذلك لعربان البادية، أى بإيقاد الشموع والنيران فوق الجبال من هنا وهناك، ولا يبعد أن يكون هذا النظام قد اتخذ بدلا من إيقاد القناديل فوق المآذن وفى سنة (١٢٧٥هـ) بنى أحد الهنود فوق جبل أبى قبيس مسجدا ذا مئذنتين، كما أن أحد محاسبى ولاية الحجاز بنى على موضع شق صدر النبى الذى فوق جبل النور مسجدا جميلا، ولكن قراءة الأذان من فوق هذه المآذن ليست معتادة.

شعر

يا مـــن بمالك من عميـــم النعم
وجدت لك القـــرب فى الحـــرم
افتح عينيك وإنها صنع الإله تتمـــلى
يالـــــه حســـنا أزليـــا يتجلـى

وبعين قلبك انقل فى طريقــة القدم

وبإجـــلال وتعظـــيم ادخـل الحرم

فى كـــل أطـــرافه عُمُـــدٌ مـن رخام

وكأنهـــا الملائـــك فـــى قيـــام

يـــا لـــه بيتا وعيون الحســـان الســـود

كـــل هـــدب لهـــا عمـــود

فى كل طرف مشاهد بديعة نور يسطع

كـــل مشهد مـــن غيـره أبدع وأروع

صعد هذا البيت إلى طاقات الآفاق

ومن كل طـــاق جعل لـــه الـــرواق

بيـــت ملـــئ بالنـــور والصـــفا

كـــل حجـــر فيـه جبـــل الوفا

كل ما فيه باللجين والنضار تحلى

كل شئ فيه من غيره أروع وأحلى

ظـله المقامـــات الأربـــعة فيـــه

على رأس هـــذا الورى مظلة تحميه

اصطـــف علـــيه منـــار ومـــنار

يزرى بنـــضار الفـــلك الدوار

ظله إلـــى أوج الفلـــك يرتفـــع

وهـو بظـــل الأشجـــار مجتمـــع

وظـــله مـــن الســـماء العاليـة

ألقـــى علـــى الفلـــك الغاشية

وعنـــــد تصـــــعيد الأذان

جـــاءه روح القـــدس بالألحـــان

وعـــــند تصـــــعيد الأذان

جـــاءه روح القـــدس بالألحـــان

وعلى بابه وسقفه الكـــمال والسماح

طاف حولهـــما كأنهـــما الأرياح

وردة نضرة مـــن بستـــان الخليـــل

أنارت منـــه عـــين قنديـــل الخليل

بمجـــلة الحبيـــب يعـــرف

وتضـــوع بمـــا للحبيـــب من عرف

نور الإلـــه فيـــك لـــم يـــزل

فيـــه الخـــلود لفـــيض الأزل

لزمـــزم كـــل بـــقاء وصفـاء

للمنبـــر كـــل رفـــعة وسناء

ذؤابتـــه جيـــد الـــروح تزييـــن

وينيـــر عيـــن الدنـــيا بالجبـــين

يهـــب الظـــلال كطـــوبى أرم

وخـــلوته ســـتار قصـــر القدم

يمضى الخـــلق فى ظـــلال مـن كرمه

ويحمـــل النيران المشعل فى حرمه

وله أنـه متشحـــا بالســـواد جـــاء

إلا أنـــه جـــاء عـــلى اليد بالآلاء

قـــدم بطلـــعه عنـــبرا انفحت

برعمـــه مســـك فى الجـــنة نبتـت

كســـــوته مسكيّـــة منـــذ الأزل

ولهـــا فى ظلـــمة ماء الخضر المحل

أى بيـــت أقول إنـــه جبـــل نـــور

ســـــاتره ستـــــر الله الغفـــور

خاله الأســـود مســـك أزفـــر

وبه إنســـان العـــين تنـــور

إنه ليـــس نقطة بل دائرة فى السماء

ولـــذا كان له صـــفة النقطة السوداء

الشمـــس والقمـر بالرفعة يشتهران

إلا أنهمـــا لهمـــا عبـــدان

* * *

تشتمل على مساحات المسجد الحرام فى الداخل والخارج وعلى خريطة مسطحة لها[1]

الجدول يحتوى على أبعاد الأبواب المتجاورة بعضها من بعض وقد قيست المسافات من فوق جدران الحرم الشريف

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
المحيط الداخلى لجدران الحرم الشريف	٦	٢١١٩	
من باب السلام إلى باب النبى	–	٥٩	
من باب النبى إلى باب العباس	–	٤٥	من أبواب الجهة الشرقية
من باب العباسى إلى باب على	–	٦٧	
من باب على إلى باب بازان	–	٩٧	
من باب بازان إلى باب بغله	٦	٥١	
من باب بغلة إلى باب الصفا	–	٤٥	
من باب الصفا إلى باب جياد	–	٤٣	من أبواب الجهة الجنوبية
من باب جياد إلى باب مجاهد	–	٥٨	
من باب مجاهد إلى باب مدرسة عجلان	–	٤٧	
من باب مدرسة عجلان إلى باب أم هانئ	–	٣٥	
من باب أم هانئ إلى باب الوداع	–	٧٢	
من باب الوداع إلى باب إبراهيم	–	١٤٩	من أبواب الجهة الغربية
من باب إبراهيم إلى باب العمرة	–	٢٦٨	
من باب العمرة إلى باب السدة	–	١٢٠	
من باب السدة إلى باب العجلة	–	١٢٠	
من باب العجلة إلى باب القطبى	–	١٤٥	من أبواب الجهة الشمالية
من باب القطبى إلى باب الزيادة	–	٤٩	
من باب الزيادة إلى باب الدريبة		٢٦٨	
من باب الدريبة إلى باب السلامة		٥٦	

(١) قد وضعت هذه الخريطة فى الجزء الأخير.

جدول مساحة الحرم الشريف الداخلية

البيـــــان	قدم	ملاحظـــات
من باب السلام إلى باب العمرة	٥٣٧	بالطول
من باب على إلى باب الوداع	٥٢٥	
من باب العباس إلى باب إبراهيم	٦١١	
من باب السدة إلى باب أم هانئ	٣٨٠	بالعرض
من باب الزيادة إلى باب الصفا	٥٠٠	
من باب عجلة إلى باب مجاهد	٤٢٠	
من باب قطبى إلى باب جياد	٤٨١	
من باب الدريبة إلى باب بازان	٣٩٨	

جدول مساحة الحرم الشريف سطحا ومتفرقا

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
تحت القباب الشرقية	١٤٨٥٥	المساحة السطحية لقباب الحرم الشريف
تحت القباب الغربية	١٣٨٥٥	
تحت القباب الشمالية	٢١٦١٨	
تحت القباب الجنوبية	١٩٤٩٦	
تحت قباب باب الزيادة	٥٤٧٢	
تحت قباب باب إبراهيم	٢١٩٤	
المساحة السطحية لجميع القباب	٢٧٤٨٩	مساحة الزيادة الداخلية
باب الندوة الزائد	٥٠٥٨	
باب إبراهيم الزائد	٤٨٤٠	
مساحة الحرم الداخلية بدون قبب	١٤٠٤٧٢	
مساحة الحرم الشريف الكلية	١٧٧٨٦٩	الأرصفة وسائر المبانى فى داخل هذا الحساب

الجدول الذى يشمل مساحة قواعد المآذن السطحية للحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
مئذنة باب السلام	٤٧٠	الجهة الشرقية
مئذنة السلطان قايتباى	٥١٧	
مئذنة باب على	٣٨٠	
مئذنة باب الوداع	٤٠٠	الجهة الغربية
مئذنة باب العمرة	٤٣٧	
مئذنة باب الندوة الزائد	٤٢٠	الجهة الشمالية
المئذنة السليمانية	٤٢	

جدول الساحة الرملية للحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
الساحة الرملية الأولى	٤٢٠٧	
الساحة الرملية الثانية	٤٣١٢	
الساحة الرملية الثالثة	٣٤٣٣	
الساحة الرملية الرابعة	١١٢٤١	
الساحة الرملية الخامسة	٢٦٩٩٤	إن هذه الساحات الرملية خارج مساحات قباب الحرم الشريف وأنها حول أرصفة وقد أشير فى الخريطة برقم خاص لكل الساحات الرملية
الساحة الرملية السادسة	١٥٠١٥	
الساحة الرملية السابعة	١٢٣٥٥	
الساحة الرملية الثامنة	٧٦٠٤	
الساحة الرملية التاسعة	١٣٣٤٤	
الساحة الرملية العاشرة	٩٠	
الساحة الرملية الحادية عشرة	١٠٦٢٤	
الساحة الرملية لباب إبراهيم	٢٦٦٦	
	٩٩٣٥٧	المساحة الكلية لساحات الحرم الشريف الرملية

المساحة الخارجية لبيت الله

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
مساحة كعبة الله الدائرية من غير حجر إسماعيل	١٤٣	
مساحة كعبة الله الدائرية بحجر إسماعيل	١٥٨	
مساحة كعبة الله الدائرية من خارج الحطيم	١٤٧,٣	(١)

جدول مساحة أرصفة الحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
الرصيف الأول	٨١٠	
الرصيف الثانى	٨٩٠	
الرصيف الثالث	٣٨	
الرصيف الرابع	٧٣٨	
الرصيف الخامس	٨٥٥	
الرصيف السادس	١٢٣٠	
الرصيف السابع	٨١١	
الرصيف الثامن	١٠٣٨	
الرصيف التاسع	٣٣٠	إن مبانى بيت الله المقدسة والحطيم خارج هذا الحساب
الرصيف العاشر	٤٧٦	
رصيف المطاف	٧٦٧	
الرصيف الواسع حول المقامات الأربعة	١٩٤٤٤	يطلق على هذا الرصيف الواسع بين أهل مكة «بلاط» والمقامات الأربعة وبئر زمزم ومبانى التوقيت فى داخل هذا الرصيف
الرصيف القائم حول المطاف	١٥١٠	
رصيف باب الزيادة الأربعة	١٦٧٢	
رصيف باب إبراهيم	١٣٢	
	٣٧٥٢٧	مساحة مجموع أرصفة الحرم الشريف

(١) يعنى بخارج الحطيم الأماكن التى يجوز الطواف بها أى خارج الجدار المستدير.

مساحة بيت الله المحترم فى الداخل

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
سطح كعبة الله فى الداخل	-	٦٥٦	(١)
سطح سلم السطح الشريف	-	٤٨	
من جدار كعبة الله الجنوبى إلى العمود الأول	١٧	٢	
من العمود الأول إلى الثانى	١٧	٢	
من العمود الثانى إلى الثالث	٣	١	
من العمود الثالث إلى الجدار الشمالى	٤	٣	(٢)
من الجدار الشرقى إلى الأعمدة	١١	٤	
من الجدار الغربى إلى الأعمدة	٨	٦	

مساحة شادروان الكعبة

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
عرض شادروان الكعبة من الجهة الجنوبية	٢	٤	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الغربية	٠	٤	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الشمالية	٠	٣	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الشرقية	٠	٣	(٣)
ارتفاع شادروان الكعبة من الأرض	٩	١	

(١) للجدار الداخلى الغربى جزعة ترتفع عن أرض بيت الله ستة أذرع، جزعة خططت ونقشت عليها خطوط سوداء وبيضاء، وطول الجزعة اثنا عشر ذراعًا، وقد أدرج فى الجهة اليمنى منها ذهب قدر ثلاثة أصابع، يروى أن النبى ﷺ قد مسح هذا المكان بحاجبيه.

(٢) يقال بين العامة على هذه الأعمدة أعمدة «الحنان والمنان» لأنه قد كتب فوق ستارتها كلمات (الحنان والمنان).

(٣) يطلق فى الشرع اسم شادروان على الجدران البارزة من أرض بيت الله.

الأبعاد الخارجية لبيت الله

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
ارتفاع جدران كعبة الله	-	٥٦	الطول (١)
من الحجر الأسود إلى الركن العراقى	-	٣٩	
من الركن الشامى إلى الركن اليمانى	-	٤٢	
من الركن العراقى إلى الركن الشامى	-	٢٩	
من الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود	-	٢٣	
ارتفاع باب الكعبة	-	٩	العرض (٢)
عرض باب الكعبة	٨	٥	يطلق على ما بين الباب المسدود والركن اليمانى للمسجار
ارتفاع كعبة الله من أرض المطاف إلى عتبة الباب	٦	٥	
ارتفاع الباب المسدود	٩	٣	

مساحة الحطيم فى الداخل والخارج

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
ارتفاع جدار الحطيم الكبير	١	٤	
عرض جدار الحطيم	١١	١	
بعد الجدار الشمالى للكعبة إلى جدار الحطيم	١	٢٥	يطلق الحطيم على جدار شكله نصف دائرى فى طرف المقام الحنفى
البعد بين بابى الحطيم	-	١٩	
عرض بابى الحطيم	-	١٠	
الطول الدائرى لجدران الحطيم من الداخل	-	٣٩	
الطول الدائرى لجدران الحطيم من الخارج	١	٤٧	
المساحة السطحية للحطيم من غير الحجر	-	٦٤٣	قدم مربع
المساحة السطحية لقاعدة جدران الحطيم		١٠٧	قدم مربع

(١) يطلق على الركن العراقى الركن الشامى وعلى الركن الشامى اسم الركن العراقى.

(٢) يقع الحجر الأسود فى الركن الشرقى لكعبة الله. ويبدو كرأس إنسان وارتفاع الحجر الأسود عن المطاف ما يقرب من خمسة أقدام.

مساحة مقام إبراهيم

البيـــــان	بوصة	قدم	لنية	ملاحظـــات
ارتفاع صندوق المقام الشريف	٤	١	–	–
عمق موضع القدم الشريف	–	–	٨	(١)
عرض مصلى أئمة الشافعية	٨	٧	–	–
طول مصلى أئمة الشافعية	–	٧	–	–
البعد من صندوق المقام إلى شادروان الكعبة	–	٢٨	–	–
من صندوق المقام إلى باب الصفا	–	٤٦٢	–	–
من صندوق المقام إلى بئر زمزم	–	٣٥	–	–
من بئر زمزم إلى شادروان الكعبة	–	٢٧	–	–

المساحة السطحية للمقامات الأربعة ودار التوقيت والمكتبة

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
مساحة المقام الحنفى المربعة	-	٣٧٥	
مساحة المقام المالكى المربعة	-	٢٥٥	
مساحة المقام الحنبلى المربعة	-	٢٨٥	
مساحة المقام الشافعى المربعة	-	٥٨	
مساحة مبانى زمزم المربعة	-	١٦٢	
مساحة دار التوقيت المربعة	-	١٢٠	(٢)
مساحة مبانى المكتبة مع دواليبها	-	١٣٨	(٣)
مساحة داخل شبكة المقام الإبراهيمى المربعة		٤٨	

(١) وغلفت أثر القدم الشريف بالفضة، وهى خلف شبكة مقام مصلى الشافعية، وقد بنيت على عمودين من الحجر.

(٢) نقلت دار التوقيت فى سنة ١٢٩٩ إلى مكان متصل بسلالم خاصة بالمئذنة السليمانية فى داخل الحرم.

(٣) ونقلت المكتبة فى سنة ١٢٩٩ إلى القبة التى عرفت بدار أحمد باشا.

بعد البقعة المقدسة لكعبة الله من المواقع المختلفة فى داخل الحرم

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
من تحت ميزاب الرحمة إلى المقام الحنفى	-	٥٦	(١)
من المقام المالكى إلى شادروان الكعبة	-	٤٤	
من المقام الحنبلى إلى شادروان الكعبة	-	٢٠٦	
من الحجر الأسود إلى باب الصفا	-	٣٧٨	
من حجر إسماعيل إلى باب الزيادة	-	٣١٦	
من باب الكعبة إلى باب السلام	-	٥٣	
من باب الكعبة إلى باب بنى شيبة	-	٢٨٥	
من باب الكعبة إلى باب على	-	٢٨٢	
من الحجر الأسود إلى باب على	-	٢٧٥	
من الركن الشامى إلى باب العمرة	-	٣٠٦	
من الركن العراقى إلى باب السلام	-	٦	
من الركن اليمانى إلى باب أم هانئ	-	٢٥٥	
من الركن العراقى إلى المنبر	-	٢٤	(٢)
من باب الكعبة إلى سلم الكعبة	-	٨٥	

مساحة طول الأضلاع الخارجية لجدران الحرم الشريف

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
من باب السلام إلى مئذنة السلطان قايتباى	-	١١٦	
من مئذنة السلطان قايتباى إلى مئذنة باب على	-	٢٣٧	
من مئذنة باب على إلى مئذنة باب الوداع	-	٤٧٨	
من مئذنة باب الوداع إلى مئذنة باب العمرة	-	٤١٣	
من مئذنة باب العمرة إلى مئذنة باب الزيادة	-	٤٢٨	
من مئذنة باب الزيادة إلى المئذنة السليمانية		١٤٤	
من المئذنة السليمانية إلى مئذنة باب السلام	-	١٠٠	
المحيط الخارجى لجدران الحرم الشريف	-	٢٢٢٩	

(١) يقع ميزاب الرحمة فى وسط جدار كعبة الله، ويبرز للخارج مقدار أربعة أو خمسة أقدام عرضه وارتفاع أطرافه ثمانية أصابع.

(٢) هذا السلم ما بين مبانى مقام إبراهيم وبئر زمزم.

المساحة العرضية لمداخل أبواب المسجد الحرام

البيـــــان	الطاق الأول قدم	الثانى قدم	الثالث قدم	الرابع قدم	الخامس قدم
باب السلام	٧	٥	٩-	-	-
باب النبى	٦	٥	-	-	-
باب العباس	٥	٥	٥	-	-
باب على	٧	٦	٧	-	-
باب بازان	٦	٧	-	-	-
باب بغلة	٦	٦	-	-	-
باب الصفا	٥	٤	٥	٤	٤-
باب الجياد	٥	٦	-	-	
باب المجاهد	٥	٥	-	-	
باب أم هانئ	٦	٨	-	-	
باب مدرسة الشريف عجلان	٨	٧	-	-	
باب الوداع	٥	٥	-	-	
باب إبراهيم	١٠	-	-	-	
باب العمرة	٨	-	-	-	
باب السدف	٩	-	-	-	
باب الحجلة	٩	-	-	-	
باب الزيادة	٧	٥	-	-	
باب الدريبة[١]	٥	-	-	-	
باب القطبى	٦	-	-	-	
				-	

(١) باب الدريبة باب لا يدخل منه أحد، وفوقه كمر طويل بنى عليه مبانى المدرسة السليمانية.

تشتمل على ثلاث صور

تعرف الأماكن المقدسة والمساجد القديمة والجبال التى فى مكة المكرمة كما تبين أوقات الدعاء وساعاته

تذكر وتعرف الأماكن المقدسة والمواقع الميمونة

كتب العلماء المتقدمون رسائل فى تعريف الأماكن المباركة كل واحد على حدة، مبينين الساعات التى يلزم الدعاء فيها والأيام أيضا، وقد رأينا أن الحسن البصرى قد أبلغ عدد الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء إلى خمسة عشر مكانًا مع ضم منى والجمرة[١] إلى هذه الأماكن وقد عدد صاحب كتاب «النهر» أسماء تلك الأماكن فى هذ النظم.

دعاء البرايا يستجاب بكعبة

وملتزم والموقفين[٢] كذا الحجر

طوافٌ وسعىٌ مروتين[٣] وزمزم

مقام[٤] وميزاب[٥] جمرات[٦] تعتبر

وبين لنا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين الأدعية التى تستجاب فى هذه الأماكن وأيام استجابتها وساعاتها كما وصل إليها النقاش بعد المناقشة والبحث فى هذه المنظومة.

(١) إن لم تكن منى والجمرة فى داخل مكة إلا أنهما بناء على حكم ما قارب الشىء كالشىء عدتا من داخل مكة.

(٢) الموقفان كناية عن جبلى الرحمة والقزح وقد يوقف هنا فى وقفة عرفات.

(٣) المروتان المقصود بهما الصفا والمروة وقد غلب التأنيث على التذكير للضرورة.

(٤) مقام المقصود به المكان الذى صلى فيه أئمة المذهب الشافعى ويقع فى الجهة الشرقية من شبكة مقام إبراهيم.

(٥) يقصد به أسفل الميزاب الذهبى.

(٦) جمرات المقصود بها مواقع الجمرات الثلاث فى منى.

وقد ذكر النقاش[1] فى المناسك وهو لعمرى عدة للسالك أن الدعاء فى مكة يقبل ممن ذكره فى خمسة عشر موضعًا وهى، كما جاء بهذه المنظومة:

إن الدعاء فى خمسة وعشره
بمكة يقبل ممن ذكره
وهى: المطاف مطلقا والملتزم
بنصف ليل فهو شرط ملتزم
وداخل البيت بوقت العصر
بين يدى جذعيه ذا فاستعر
وتحت ميزاب له وقت سحر
وهكذا خلف المقام المفتخر
وعند شرب زمزم شرب الفحول
إذا دنت شمس النهار من الأفول
ثم الصفا والمروة والمسعى
بوقت عصر فهو قيد يرعى
كذا منى فى ليلة البدر إذا
انتصف الليل فخذ ما يحتذى
ثم لذى الجمار والمزدلفة
عند طلوع الشمس ثم عرفه
لموقف مغيب الشمس قل
ثم لذى السدرة ظهرا وكمل
وقد روى هذا الوقوف طرا
من غير تقييد بما قد مرا
بحر العلوم حسن البصرى عن
خير الورى ذاتا ووصفا وسن

(١) المقصود به المفسّر النقاش وهو أبو بكر محمد المتوفى ٣٥١.

صـــلى الله عليـــه وســـــلما

وآله والصحـب ما غيـث همـا

وقد أضاف مؤلف «لباب المناسك» إلى الأماكن التى عينها الحسن البصرى ثلاثة أو أربعة أماكن أخرى، وقد وصل العلماء عدد الأماكن المقدسة إلى مائة، وذلك بإضافة كل واحد منهم موقعا مؤيدا قوله بحديث صحيح متواتر.

وقال مؤلف لباب المناسك: إن الأدعية التى يدعى بها فى تلك الأماكن تستجاب بفضل الله وتقبل، ولكن مع مرور الزمن نسى مواقع تلك الأماكن وجهاتها، ولقى بعضها فى داخل مقبرة المعلى والمعروف منها الآن بين الأهالى قد يصل إلى خمسة وسبعين موقعا فقط كما سيذكر فيما بعد.

المواقع التى اتفق العلماء على أن الدعاء يستجاب فيها

[١] المطاف السعيد [٢] الملتزم [٣] تحت الميـزاب الذهـبى [٤] مقـام إبراهيـم [٥] حفرة المعجن [٦] داخل كعبة الله [٧] بئر زمزم [٨] الصفا [٩] المروة [١٠] المسعى [١١] منى [١٢] الجمرات الثلاث [١٣] خلف المقام [١٤] ضريح ابن الزبير [١٥] ضريح ذات النطاقين [١٦] ضريح عبد الرحمن [١٧] مسجد أبى بكر [١٨] مسجد الصخرة [١٩] مسجد المشعر [٢٠] الحجر الأسود [٢١] الموقع الذى يرى منه بيت الله [٢٢] حجر إسماعيل [٢٣] المستجار [٢٤] ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم [٢٥] جبل الرحمة [٢٦] باب بنى شيبه [٢٧] باب إبراهيم [٢٨] باب النبى [٢٩] باب الصفا [٣٠] مسجد خيف [٣١] مسجد المنحر [٣٢] مسجد البيعة [٣٣] غار المرسلات [٣٤] مغارة الفتح [٣٥] دار السيدة خديجة [٣٦] مسجد الشجرة [٣٧] مسجد النمل [٣٨] الركن اليمانى [٣٩] قبر خديجة [٤٠] قبر سفيان بن عيينة [٤١] قبر آمنة [٤٢] قبر فضيل ابن عياض [٤٣] باب الجرير [٤٤] دار أرقم [٤٥] الحجر المتكلم [٤٦] الحجر المتكى [٤٧] رباط موفق [٤٨] مسجد ذى طوى [٤٩] مسجد التنعيم [٥٠] مسجد عائشة [٥١] مسجد الجن

[٥٢] مسجد الراية [٥٣] مسجد مدعا [٥٤] قبة اللبن [٥٥] مسجد النمرة [٥٦] مسجد الجعرانة [٥٧] مسجد الفتح [٥٨] مسجد جنيد [٥٩] مسجد الإجابة [٦٠] جبل أبى قبيس [٦١] جبل النور [٦٢] غار ثور [٦٣] جبل خندمة [٦٤] جبل ثبير.

الأثر الأول: المطاف الشريف:

هو الرصيف العريض الذى يحيط بالكعبة المعظمة من جوانبها الأربعة. إن مساحة هذا الرصيف السطحية المربعة (٢٧٦٢) قدما والمحل الذى يطلق عليه المطاف داخل القناديل التى علقت على الأعمدة حول الرصيف، والحجاج الكرام يطوفون عادة فى هذا المكان. إن المسافة كما وضح فى الوجهة الخامسة من شبكة مقام إبراهيم إلى شادروان الكعبة ٢٨ قدمًا، ومن المقام الحنفى إلى جدار الحطيم ٣٣، ومن المقام المالكى إلى شادروان الكعبة ٤٤، ومن المقام الحنبلى إلى شادروان التى تحت الحجر الأسود ٣٥ قدما، وبناء على هذا الحساب فإن طرفا المقام المالكى أوسع جهة مطاف الكعبة المشرفة.

الشادروان:

يطلق اسم شادروان بين أهالى مكة على الجدران التى تلاصق أرض المطاف: إن هذه الحجارة البارزة جدار صغير لترصين البناء كالسد، وإنه مثل خلخال العروس الذى يحيط دائرًا ما دار بالبيت الشريف، ومثل سوار معاصم البكارى، وعليه حلقات متعددة لربط كسوة الكعبة، وإن هذه الحجارة البارزة التى يطلق عليها شادروان تحيط الكعبة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب، لكن الجهة الشمالية تخلو من الشادروان. وإن كانت بعض الحجارة تبرز من ناحية حجر إسماعيل. إن هذه الحجارة تعد من داخل الكعبة المعظمة، فلا يقال لها شادروان. وارتفاع الشادروان وجدرانه فى بعض الجهات يصل إلى قدم و١١

بوصة، وفى بعض جهاتها إلى ذراع واحد وقدم ٨ بوصات، وعرض بعض جهاتها يصل إلى ١١ بوصة، وجهاتها الأخرى تسعة بوصات.

مسائل مهمة:

وبناء على رأى أئمة الحنفية فإن الشادروان لا يعد من الكعبة المعظمة، لأنه حجارة قد ألصقت ببناء الكعبة لتقويته وتدعيمه، وبناء على رأى علماء المذهب الشافعى فإن شادروان يعد من الكعبة المعظمة لأنه امتداد لأساس بيت الله المعظم العريض. حينما جددت طائفة قريش قد رفعت أساس بيت الله عن الأرض ثلاث أصابع، ثم رفعوا جدار كعبة الله من الخارج.

إن الطواف ببيت الله يتوقف على وجود الطائف فى داخل الحرم الشريف، لأن الطواف من خارج المسجد الحرام يعد طوافا بالمسجد وليس بالكعبة ولذلك لا يجوز. ولا يطرأ ما يفسد الطواف للذى يتركه لأداء الصلوات المفروضة أو لأداء صلاة الجنازة أو للوضوء، فعندما يختم هذا العمل يبدأ الطواف من حيث تركه، وفى غير هذه الحالات يبطل الطواف ويجب البدء من جديد.

إن القناديل حول المطاف توضع على خمسة وثلاثين عمودا اثنان منها من الرخام والباقى من النحاس الأصفر.

والأعمدة الرخامية بالقرب من أبنية مقام إبراهيم، والباقى يحيط بجوانب الكعبة الأربعة وتعلق عليه القناديل، وبما أن الأعلام التى وضعت فوق الأعمدة قد ساء منظرها، وأوقعت على الأرض بمرور الزمن فوضعت عليها أعلام من الصفيح، ونزع أحمد أفندى مدير الحرم الشريف سنة (١٢٩٦هـ) تلك الأعلام وصب أعلاما جديدة جيدة وضعها فوق الأعمدة كل ذلك فى ظل المبرة السلطانية.

ولم يكن فى أى جهة من جهات الكعبة قنديل إلى عهد معاوية، وفى سنة

(٤٤) أوقد معاوية العدد الكافى من القناديل، ومد تلك القناديل بالكمية الكافية من زيت الزيتون وأصبح هذا عادة.

بعد إحدى وثلاثين سنة من ذلك ركز عبد الملك بن مروان بالقرب من بئر زمزم عمودا، وعلق عليه قنديلا كبيرا لينير المطاف للذين يطوفون بالبيت ليلا.

بعد ما وضع معاوية بن أبى سفيان نظام إيقاد القناديل، أعطى أرطال من الطيب لتعطر كعبة الله عقب كل صلاة، وأبقى ابن الزبير على هذا النظام، إلا أنه استصوب أن تعطر الكعبة فى الأيام العادية برطل من الطيب، وفى أيام الجمع برطلين.

لم يوقد قنديل ولم ينصب عمود واحد حول المطاف الشريف إلى عصر الواثق بالله العباسى، وفى سنة (٢٣١هـ) نصبت عشرة أعمدة خشبية وعلقت ما بين الأعمدة ثمانية مصابيح كبيرة، ومنذ ذلك التاريخ أضيئت الجهة الداخلية للمطاف. وفى (٧٢٠هـ) قد زيدت تلك الأعمدة إلى (٣٢) عمودا وبلغت القناديل التى تعلق بينها إلى (١١٦) قنديلا، وبعد تسع وعشرين سنة قد بدلت جميع هذه الأعمدة بالأعمدة الحجرية، وإن كانت ريح شديدة هبت فى سنة (٧٥٠هـ) وأسقطت جميع الأعمدة التى حول المطاف وحطمتها قطعا إلا أنها جددت وبعد مرور وقت قصير قد بدلت بأعمدة من نحاس أصفر، وحتى تحفظ تلك الأعمدة من مياه الأمطار التى قد تظهر فيما بعد مد بين الأعمدة أربطة حديدية سميكة لتعلق عليها القناديل أيضا. وفى سنة (١٢٧٠هـ) أوصلها السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان إلى (٣٥)[١] عمودا وعدد القناديل (٢١٠) وعلق فوق حدائد القباب من أولها لآخرها قناديل[٢] مثل الأنجم على أن توقد فى خلال موسم الحج وليالى رمضان وإحياء الليالى المباركة.

(١) واليوم عمود من تلك الأعمدة من النحاس الأصفر وثلاثة منها من الرخام الأبيض.

(٢) قد جدد سلاسل هذه القناديل برقوق المصرى من ملوك الشراكسة فى سنة ٨٠٧.

وهكذا أضيء داخل حرم المسجد الحرام مثل الجنة، وبعد مرور تسعة عشر عاما أرسلت من قبل والدة السلطان عبد العزيز خان الطاهرة النقية شمعدانات متعددة حتى توقد أمام المقامات الأربعة، وفى الأماكن المناسبة لمساحة الحرم الرملية وذلك فى سنة (١٢٨٩).

بين عمودين من أعمدة المطاف سبعة قناديل وإذا أحصى عدد القناديل كلها تصل قناديل أعمدة المطاف إلى (٢١٠) عمودا وإذا أضيف إليها القناديل التى سنذكرها فى الجدول الآتى يصل عدد القناديل إلى (١٨٢٢) قنديلا:

مواقع وعدد القناديل التى اعتيد إيقادها فى مواسم الحج

عدد القناديل	مكان وجودها	ملاحظـــات
٣٢٤	فى المطاف السعيد	القناديل الـ ٨٦ الموقدة فى المقامات الأربعة داخل هذا العدد
٣٧٠	تحت القباب	
٦٠٠	بين الأعمدة	
٥٤	فى الأبواب	
٣٦	فى النجف الشبيهة بالأشجار	يقال لهذه القناديل «المصطفة» وهى معلقة تحت الصف الأول من كمر قباب الحرم الشريف الواقعة فى الساحة الرملية
١٠	أمام المحكمة	
١٦	بين الصفا والمروة	
١٤١٠	المجموع	
١٤١٠	المجموع المنقول	
٤١٢	فى المآذن	
١٨٢٢	المجموع الكلى	

عدد المآذن	فى كل مئذنة
٥	٦٤
٢	٤٦
٧	

هناك جدار نصف دائرى حول حجر إسماعيل ويطلق على هذا الجدار «حطيم».

سبب بناء الحطيم وتاريخ تأسيسه

كانت أطراف المطاف الشريف إلى سنة (٦٤) هجرية ساحة رملية وفى نفس السنة فرش عبد الله بن الزبير. الجهات الأربعة للمطاف بالأحجار الباقية بعد تجديد البيت الحرام بتوسيعه عشرة أذرع. وبعد ثمانى سنوات من هذا العمل هدم الحجاج الظالم الجدار الشامى الذى بناه عبد الله بن الزبير كما ذكر فى مكانه من قبل وأدخله إلى داخل الكعبة قدر ستة أو سبعة أذرع، وحتى يحفظ هذا المكان الذى خلا بالهدم من الطائفين[1] بنى ذلك الجدار الذى سبق ذكره أعلاه، وذلك فى سنة (٨٢هـ).

وقد أدى الجدار الذى بناه الحجاج الظالم مهمته إلى سنة (٩٤١هـ) بترميمه من حين لآخر، إلا أنه ضعف وارتج بشدة عقب السيل الفظيع الذى حدث فى سنة (١٠٣١) وحينئذ هدمه السلطان مراد الرابع إلى أساسه وبناه من جديد. وجدده السلطان عبد المجيد فى خلال سنة (١٢٦٢هـ) على أكمل صورة.

كان سطح داخل الحطيم الكريم مفروشا بحجارة سوداء صغيرة إلى عهد أبى جعفر المنصور. وفى سنة ١٣٩هـ حينما حج أبو جعفر تأثر حينما شاهد حجارة جدران الحطيم، وكذلك أرضيته فى الداخل والخارج غير منظمة وفى حالة سيئة، استدعى زياد بن عبد الحارث والى مكة وقال له: إن هذا الجدار قد بُنِىَ بحجارة عادية وإننى أريد أن يفرش هذا الموقع المبارك فى هذه الليلة بحجارة رخامية لامعة منتظمة وابدءوا ما أريد لأننى سأتى غدا صباحا لمعاينته.

وأحضر زياد بن عبد الله عددا كبيرا من العمال والحَجَّارين، وتحت ضوء المشاعل والقناديل قد جدد الجدار ثم الأرضية حاملا العمال على بذل الجهود المضنية حتى الصباح، وانتزع الحجارة السوداء التى أراد أبو جعفر المنصور تغييرها، وفرش الأرضية بقطع الرخام المجلوة، وفى سنة (١٤١هـ) وبعد عشرين سنة من تجديد أبى جعفر أمر المهدى العباسى فانتزعت الحجارة التى فى داخل

(١) لما كان هذا المكان من داخل كعبة الله فالمرور عند الطواف من خلال هذا المكان يفسد الطواف.

الحطيم وخارجه واحدة واحدة وفرشت الأرضية بقطع الرخام اللامعة[1] وذلك فى سنة (١٦٢هـ).

دامت الإصلاحات التى أجراها المهدى العباسى فى المطاف الشريف (٤٧٢) سنة، وفى عام (٥٥١هـ) بعد أن غير الحجر الأخضر الذى يقال حجر إسماعيل من قبل المستنجد بالله بن المقتفى بالله احتاج المطاف الشريف إلى ترميم عظيم، غير المستنصر بالله الحجارة التى جددت فى عهد المهدى تغييرا كاملا، ثم كتب ما تم إصلاحه فى عهده فى الحرم الشريف على لوحة رخامية زرقاء، ثم ألصقها على جدران بيت الله الحرام، وكان ذلك عام (٦٣٤هـ).

وإن كان الملك جاقمق غير ما فرشه المستنصر بالله بعد مائة وتسعين سنة، وفى سنة (٨٤٣هـ) إلا أن أكثر رخام المطاف الشريف احتاجت إلى التسوية والإصلاح بعد سبع وثلاثين سنة، وعلى ذلك جددها السلطان قايتباى المصرى فى سنة (٨٨١هـ) وبعده بست وثمانين سنة غير السلطان الغورى المصرى ما فرش فى عهد قايتباى فى سنة (٩١٧هـ). وقد أمر السلطان سليمان بانتزاع ما تم إصلاحه فى عهد السلطان الغورى أو ما تم فرشه قبل ذلك. وفرش المطاف الشريف على أحسن وجه فتبدلت أرضية المطاف السعيد الرخامية وانتظمت حالتها فى سنة (٩٥٩هـ). وبعده بأربع وثمانين سنة غير السلطان مراد خان الرابع قطع رخام المطاف الشريف ورخام الأماكن الأخرى من الحرم الشريف سنة (١٠٤٣هـ) وقطع الرخام التى مازالت مفروشة إلى الآن هى الحجارة التى فرشت فى عصر مراد الرابع.

وقد أصبحت هذه الحجارة بمرور الزمن فى حالة غير منتظمة، وتحركت من أماكنها حتى اتسعت الشقوق بين قطع الحجارة قدر إصبع، فلم تَنْجُ أقدام الحجاج من الأذى حين الطواف وفى سنة (١٢٩٦هـ) أصلح مدير الحرم الشريف السابق أحمد أفندى بأن صب قصديرا بين الشقوق التى فى قطع رخام المطاف والرخام الذى فى داخل الحطيم.

(١) لا يعرف الوقت الذى عين فيه حجر إسماعيل بالحجر الأخضر، لابد أن زياد بن الحارث عين ذلك فى هذا التعمير.

واختلف العلماء فى تحديد مكان الحطيم بالنسبة للمسجد الحرام، وبناء على بعض الأقوال أن الحطيم فى داخل الجدار الذى سبق تعريفه، وباتصال جدار البيت الأعظم الشمالى أى لحجر إسماعيل، ويطلق على المكان الذى يقع بين ركن الحجر الأسود وبئر زمزم ومقام إبراهيم، وعند البعض يطلق على الفراغ الذى بين باب بيت الله ومقام إبراهيم، وفى قول يطلق على الميدان الذى يمتد فى ركن الحجر الأسود إلى حدود مقام إبراهيم، وبما أن القول الأخير يبدو أقوى من الأقوال الأخرى فالناس يجتمعون فى هذا الميدان للتضرع والدعاء والمناجاة، وكان أهل الجاهلية يجتمعون فى هذا الميدان حيث يتعاهدون أو يتحالفون.

والحطيم فى زماننا ذلك الجدار الميمون المبارك، وارتفاع جدار الحطيم (٣ قدم و ٤ بوصة) وله مدخلان وعرض كل مدخل (١٠) قدم، والفاصل بين الاثنين (٢٩) قدما، والفاصل بين جدار الكعبة التى تحت الكسوة وجدار الحطيم (٢٢ قدم ٦ بوصة)، والمحيط الداخلى لجدار الحطيم المذكور (٣٥ قدم، ٥بوصة)، والمحيط الخارجى (٤٤ قدم، ٤ بوصة) وتبلغ مساحة الأطراف الأربعة لأبنية الكعبة مع إضافة مساحة حجر إسماعيل (١٤٧ قدم ٣ بوصة) كاملة.

والمقامات الأربعة التى يؤدى فيها أئمة المذاهب الأربعة صلواتهم تقع فى الأطراف الأربعة للمطاف الشريف الذى ذكرناه، فالمقام الحنفى فى الجهة الشمالية لكعبة الله، ومقابل ميزاب الرحمة المقام الشافعى فى الجهة الشرقية وخلف المقام الإبراهيمى الذى يواجه الكعبة، والمقام المالكى فى ظهر كعبة الله، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية فى مكان يواجه الحجر الأسود، وكل المقامات متصلة بالحدود الخارجية للمطاف الشريف، وقد أدى إمام كل مذهب الصلاة مع المصلين دون ترتيب منذ سنة (٦٣٣هـ) إلى سنة (٧٩٠هـ)، ولكن بعد سنة (٧٩٠هـ) أخذ إمام المذهب الشافعى يصلى بصلاة الفجر أولا، وفى الآخر يصلى إمام المذهب الحنفى، وفى صلوات الأوقات الأخرى يصلى إمام المذهب الحنفى وبعده إمام المذهب الشافعى وبعده إمام المذهب الحنبلى، وفى الآخر يصلى إمام المذهب المالكى.

قد استصوب أداء أئمة المسجد الحرام على الوجه المذكور فى خلال سنة (٧٩٠هـ) ومع هذا عند اتخاذ هذا النظام للصلاة أخذ أئمة المذاهب الأربعة أداء صلاة المغرب معًا، وكان الناس يقتدون بالأئمة الأربعة فى جهات الحرم الشريف الأربع، فأخذت الأصوات تختلط مع بعضها مما قد يؤدى إلى فساد الصلاة.

وقال بعض من خيار العلماء إذا ما ترك نظام أداء صلاة المغرب مؤقتا بالأئمة الأربعة فى وقت واحد أحسن، وحاول بهذا أن يقضى على النظام الغير المعقول، لذا وضع الملك الناصر فرج نظام أداء صلوات المغرب بإمام واحد فقط، وبعدما استمر هذا النظام ما يقرب من إحدى عشرة سنة اختل، ولاسيما فى سنة (٨١٦هـ) أخذ أئمة المذاهب الأربعة يؤدون الصلوات فى وقت واحد وفى النهاية وضعوا النظام الحالى، والآن تؤدى صلاة التراويح فى أماكن مختلفة قد تصل إلى أربعين أو خمسين موقعا مع أئمة مختلفة يؤمون جماعات مختلفة، وكان هذا النظام مما يؤذى شعور الناس، إلا أنه قد اتخذ حكم العادة ومن الصعب حمل الناس على تركها.

والجماعات التى تصلى التراويح يسلم بعضهم بعد ركعتين، وبعضهم بعد أربع ركعات، ويطوفون بالبيت بعد السلام، ثم يبادرون لأداء صلاتهم وبعضهم يصلون التراويح بدون طواف وتكاد الصلاة أن تفسد أحيانا باختلاط الأصوات بعضها مع بعض، إلا أن وجود فوانيس مختلفة الألوان أمام الأئمة يضيف للحرم الشريف رونقا وجمالا .

وبناء على الفهرس الذى أخذ من خزينة مديرية الحرم الشريف أردنا أن ندرج صورة منه فيما يأتى فللمقام الحنفى (٧٥) وللمقام الشافعى (٢٥) وللمقام المالكى (١٥) وللمقام الحنبلى خمسة أنفار من الخطباء والأئمة، وخدمة المسجد الحرام يبلغ عددهم ١٧٢ نفرا غير الأئمة والخطباء.

الفهرس الذى يبين الأئمة والخطباء والخدم الآخرين، عددهم وأنواعهم، بالحرم المكى.

عدد الأنفار	المقام الحنفى	عدد الأنفار	المقام الشافعى
٢٦	أئمة وخطباء موظف(١)	٦	خطيب وأئمة موظف(٢)
٧	ملازمو أئمة	١٢	ملازمو أئمة
٤٣	المجموع	١٨	المجموع
٣٢	ملازمو أئمة غير موظف	٧	ملازمو أئمة غير موظف
٧٥	المجموع الكلى	٢٥	المجموع الكلى

عدد الأنفار	المقام المالكى	عدد الأنفار	المقام الحنبلى
٧	خطيب وأئمة موظف(٣)	٢	خطيب وأئمة موظف(٤)
٨	ملازمو أئمة غير موظف	٣	ملازمو أئمة غير موظف
١٥	المجموع	٥	المجموع

(١) الأئمة الموظفون والخطباء وملازمو الأئمة أربع طوائف لأفراد الطائفة الأولى لكل واحد ٢٠٠ قرش، ولأفراد الطائفة الثانية لكل واحد منهم ١٠٠ قرش، والصنف الثالث لكل واحد منهم ٤٠ قرشا أجر وظيفة، بينما الصنف الملازمون يخدمون دون أن يوظفوا.

(٢) هؤلاء أربعة أصناف أجر الصنف الأول ٢٠٠ قرش، والثانى ١٠٠ قرش، والثالث ٤٠ قرشا، والملازمون ليسوا موظفين.

(٣) أئمة وخطباء المالكية ثلاثة أصناف الصنف الأول أجره ٢٠٠ قرش، والثالث ٤٠ قرشا، ويخدم الصنف الثانى دون أجر بالملازمة.

(٤) لأئمة وخطباء الحنابلة نفس الراتب الشهرى.

خدمة المسجد الحرام ومدرسوه

عدد الأنفار	نوع الوظيفة	عدد المدرسين	نوع الوظيفة
١٥	١٥ المؤذنون(١)	٦٠	أن هؤلاء موظفون بالبراءة العالية
٧	٧ المكبرون	٦٠	وهؤلاء موظفون بعلم وخبر المدرسين
٧	٧ المرحمون		
٨	٨ الوقادون		
٣٧	٣٧ المجموع		هؤلاء خاصون بالحرم الشريف
١٢	١٢ الفراشون		
١٠	١٠ المشيدان(٢)		
٢٠	٢٠ الكناسون		
٢٦	٢٦ البوابون		
١٢	١٢ الجيادون		
١١٧	١١٧ المجموع		

ويبلغ عدد الأئمة الكرام والخطباء العظام (١٢٠) نفرا ووظف (٧٠) منهم بالأمر السلطانى، منهم موظفون بعلم مديرية الحرم الشريف.

وقد خص المقام الحنفى بثلاثة وأربعين إماما وخطيبا المعينين بالأمر السلطانى ويعمل بالمقام الشافعى ثمانية عشر منهم، والمقام المالكى بسبعة والمقام الحنبلى

(١) يدخل ضمن هؤلاء إمام مسجد على ومؤذنو جبل الكعبة ومبلغو المقامات الحنفى والشافعى، وحارس سبيل الغورى.

(٢) لم يستخدم إلى عهد معاوية المخصيون لخدمة كعبة الله، ولكن معاوية عين عدداً من المخصيين لخدمة الكعبة حتى يتميزوا ويستمروا فى خدمة الكعبة وزاد الذين أتوا بعده عدد المخصيين إلى خمسة وخمسين.

(٣) المدرسون الموظفون ببراءات عالية خمسة أصناف الصنف الأول خمسة عشر شخصا مفتيو المذاهب الأربعة ضمن هؤلاء وأجر كل واحد منهم ٥٠٠ قرش، وعدد الصنف الثانى ستة وأجور وظائفهم السنوية لكل واحد منهم ٤٠٠ قرش، وعدد أشخاص الصنف الثالث ٥٠ نفراً وأجور وظائف كل واحد منهم ٣٠٠ قرش، وعدد الصنف الرابع أربعة وأجر كل واحد منهم ٢٠٠ قرش والذين يدخلون فى الصنف الخامس ثمانية أنفار ولكل واحد منهم أجر سنوى قدره ١٠٠ قرش.

باثنين من السبعين المكلفين بالأمر السلطانى وإن كان الذين يتمتعون بالأمر العالى ينقسمون إلى قسمين الأصالة والملازمة إلا أنهم كلهم موظفون. إن الأشخاص الذين يتمتعون بالأمر العالى ثمانية عشر منهم من خطباء الحنفية، وأربعة منهم من خطباء الشافعية، وأربعة منهم من خطباء المالكية، وواحد منهم خطيب حنبلى، ويتقاضى كل واحد منهم شهريا ٢٠٠ قرش. ولكن الأئمة الذين عينوا بعلم المديرية يعطى شهريا ١٠٠ قرش، والملازمون المعينون بعلم المديرية يتقاضى فى الشهر ٤٠ قرشا.

الاستطراد

يوجد مقام خاص لكل جماعة من جماعات المذاهب الأربعة فى أركان بيت الله الأربعة ليؤدى كل إمام مع جماعته الصلاة فيه، ولا يعرف الوقت الذى أقيمت فيه المبانى فوق هذه المقامات الأربعة، ولكن أغلب الاحتمال أنها أنشئت فى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، لأنه قد عين فى سنة (٦٦٣هـ) فى مكة المكرمة إمامًا لكل مذهب، وأقر بين العلماء على أن يكون لكل إمام مذهب مكان خاص ليصلى به مع جماعاته، فاختيرت أماكن المقامات لأئمة المذاهب الأربعة، ونبهوا بأداء الصلاة كل فى مقامه، وكما أنه يوجد فى المسجد الحرام مقام خاص بإمام كل مذهب يوجد مفتى لكل مذهب، وطبقا لما أفاد به المؤرخون عن تعيين أول هؤلاء المفتين وفى أى تاريخ لزمت الحاجة إليه، يمكننا القول: إن القبائل العربية عندما ذاقت حلاوة الإيمان أرسلت السفراء إلى سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ، ترجوه أن يرسل معلما إلى القبيلة التى ينتمون إليها لتعليم الأحكام الشرعية، ولإيضاح غوامض المسائل الدينية لهم، وأسرع علماء الصحابة الذين استقوا العلم من أشرف الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحفظوا عن الرسول ﷺ الأحاديث والآيات القرآنية لتبليغها إلى القبائل، ولما كانت الحجج قاطعة والنصوص واضحة فى أيام الرسول ﷺ، وحياته وحياة صحابته الأجلاء لم تكن هناك حاجة للاجتهاد.

وكان أهل الإيمان فى عصر الرسالة إذا شكوا فى مسألة ما يسألون النبى ﷺ، وكانوا بعد وفاته ـ عليه السلام ـ كانوا يلجأون إلى صحابة النبى ﷺ، طالبين الفتوى منهم مثل عبد الرحمن بن عوف أو عبد الله بن مسعود أو أبى بن كعب الأنصارى أو معاذ بن جبل أو عمار بن ياسر، أو حذيفة بن اليمان أو زيد بن ثابت الأنصارى أو أبى الدرداء أو أبى ذر الغفارى أو أبى موسى الأشعرى أو سلمان الفارسى «رضى الله عنهم» وإذا لم يستطع هؤلاء حل مشاكلهم يلجأون إلى الخليفة فى ذلك الزمان مستفتين.

إخطار:

اشتهر بالإفتاء بعد الخلفاء الراشدين سيد العبادلة عبد الله بن عباس[٢] كما أن عبد الله بن عمر أفتى بعد وفاة النبى ﷺ، ستين عاما. انتهى.

واستمرت هذه الحالة إلى يوم استشهاد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وبدأت الآراء تختلف بعد ذلك وكلما ابتعد عصر السعادة وتناقص عدد الأصحاب والتابعين أخذت الآراء تختلف وتتشتت، ولاسيما فى وجود كثرة ممن يميلون إلى اتباع آراء الطغاة أدت إلى تغير أطوار الأمة وأوضاعها، فكثرت فى المسائل الشرعية الفرعية الآراء، واستخرج أئمة الدين الأحكام الشرعية التى تخص الطاعات والعبادات والعقوبات والمعاملات من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، حتى تفهم النصوص الظاهرية وسنة رسول الله بيسر وبشكل واضح لا ينسى، واتخذ كل واحد منهم مسلكًا ومذهبا مختلفا عن الآخر. وفصلوا بين المعنى العرفى والمعنى اللغوى للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يتقى الخطأ فى المسائل الشرعية، ووضعوا أصولا وقواعد للوصول إلى مرتبة الاجتهاد الصعبة، ودونوا علما خاصا يطلق عليه علم أصول الفقه، وسموا ما جمعوا ورتبوه من المسائل التى استنبطوها وفقا للقواعد السابقة علم الفقه.

---

(١) إن الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم كانوا مفوضين بالفتوى حتى فى عصر النبوة، إلا أنهم كانوا يرسلون من يلجأ إليهم للفتوى إلى النبى ﷺ، تأدبا.

(٢) العبادلة طائفة من الصحابة الذين كانو يفتون ويقومون بمهمة القضاء وهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عن الجميع.

علم أصول الفقه:

هو استخراج فروع المسائل الفقهية من الكتاب والسنة والإجماع وفقا لقواعد مخصوصة واستنباطها.

وعلم الفقه:

هو أن يعرف كل مسلم ما له وما عليه من الأمور.

والذين لهم دراية بالمسائل المستخرجة والمستنبطة يطلق عليهم الفقهاء. والفقهاء الأجلاء فرقتان: عراقية وحجازية، وقدوة الفرقة العراقية هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، ورئيسا الفرقة الحجازية هما الإمام مالك بن أنس المدنى والإمام محمد بن إدريس المطلبى الشافعى.

واتخذ الإمام أحمد بن حنبل مسلكا جديدا بعد الإمام الشافعى وأصبح رابع أئمة المذاهب الأربعة، واجتهد الإمام الأعظم متخذا العقل قبل النقل قاعدة، واتخذ الإمام مالك النقل قبل العقل قاعدة وأساسا، واتخذ الإمام الشافعى العقل مساويا للنقل، واتخذ الإمام أحمد بن حنبل النصوص أساسا لكل شىء، وهكذا ارتقى إلى المرتبة الرابعة بين الأئمة إلا أن من يقلد مذهبه قليلون.

وقد ظهر بعد الإمام مالك المذهب الظاهرى، وقد اعترض من يقلدون هذا المذهب على التباس المسائل بطريق القياس، وتركوا العمل بالقياس وأبطلوه، وأحدث بعدهم مذهب أهل البيت وبما أنه كان متصفا بالغلو والإفراط ولمخالفته الجمهور اندثر بموت إمامه وإنكار مقلدى المذاهب الصحيحة له، وأراد بعض الناس فيما بعد إحياء مذهب أهل البيت ولم يكن له شأن إلا مخالفته للمذاهب الأربعة، وهكذا ساد المذهب الحنفى فى العراق والمالكى والشافعى فى البلاد الحجازية.

انتشر المذهب الحنفى فى إقليم العراق وممالك الهند والصين وما وراء النهر وبلاد الفرس، والمذهب المالكى فى الأندلس والممالك المغربية، وساد الشافعى

فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر فى أول ظهوره، وانتشر المذهب الحنبلى أولا فى الشام والعراق وبغداد والبلاد المجاورة لها.

ويعدد حضرة عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه الميزان الكبرى مذاهب أخرى غير المذاهب الأربعة مثل: مذهب عائشة، مذهب عبد الله بن مسعود، مذهب عبد الله بن عمر، ومذهب عطاء بن أبى رباح، ومذهب الإمام الليث، ومذهب مجاهد بن جَبْر، ومذهب داود الأصفهانى، ومذهب عمر بن عبد العزيز، ومذهب سفيان الثورى، ومذهب سفيان بن عيينة، ومذهب محمد بن جرير، ومذهب الشعبى، ومذهب إسحاق بن راهويه، ومذهب الأعمش: أربعة عشر مذهبا وبهذا يبلغ المذاهب الصحيحة والحقة إلى ثمانية عشر مذهبا، وقد اندثرت هذه المذاهب لقلة أتباعها، أو لا نحصارها فى أصحابها ولم يبق إلا المذاهب الأربعة.

وكان أهالى الحرمين إلى سنة (٣٥٨هـ) يحلون شبهاتهم فى المسائل الفقهية باللجوء إلى إلى أى واحد من أئمة المذاهب الأربعة الذى اكتسب ثقتهم.

ووقعت البلاد المصرية تحت إدارة الملوك الفاطميين وفى خلال العهد الفاطمى الذى دام مائتين وبضع سنين أسقط العمل باجتهاد الأئمة الأربعة، وصنفت كتب وفقا لأحكام فقه أهل البيت.

ومنع فى هذه الفترة حب أصحاب المذاهب الأربعة، وكان كل من يتبع المذاهب الأربعة مبغوضا منفورا منه لدى الحكومة.

من الحوادث التى تلوث تلك الفترة وصحائف تاريخها هذه الحادثة الشنيعة، وقد علم أن أحدا من أهل السنة يحتفظ فى مكتبة بكتاب الموطأ، فأحضر الكتاب وصاحبه ومزق الكتاب المذكور ثم قيل لصاحبه «لماذا تحتفظ بهذا الكتاب وتحترمه؟» ثم شتم وعذب وضرب ضربا مبرحا.

كان القاضى عبد الوهاب من فقهاء أهل السنة ساكنا ببغداد وفى أواخر المائة الرابعة أتى إلى مصر وسعى لنشر المذهب المالكى، واستطاع أن يدخل كثيرا من

أهل السنة إلى الدائرة المنجية، إلا أنه كان يحكم فى مصر والبلاد الحجازية بأحكام مذهب أهل البيت إلى سنة (٥٦٨هـ) وقد انقرضت الدولة الفاطمية فى تلك السنة، فعاد علماء الشافعية إلى مصر، وهكذا سقط العمل بكتب فقه أهل البيت وانتشر المذهب الشافعى فيها، وأخذ الأهالى والملوك وكبار الموظفين العمل متبعين المذهب الشافعى.

وصلاح الدين الأيوبى واحد من الملوك المصريين الذين قلدوا المذهب الشافعى: وقد أسس هذا الشخص قلعة جبل المقطم، وفى نفس السنة أنشأ المدرسة التى تنسب إلى قبر الإمام الشافعى، وهكذا أنقذ الناس من البحث عن عالم يعين بالقاهرة مفتيا شافعيا، واستصوب بعد ذلك بين العلماء وجود مفتيين على المذهب الشافعى فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونفذ الأمر.

وقد جعل المفتى الشافعى الذى عينه صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة نوابا له عن باقى مذاهب أهل السنة حتى يفتوا حسب مذاهبهم، وهكذا أخذ يزيد أفراد كل مذهب تدريجيا، وظهرت المذاهب الأربعة كاملة اضطر أهالى الحرمين ومصر القاهرة وسكنة بلاد الشام فى عهد صلاح الدين الأيوبى إلى سنة (٦٦٣هـ) أن يلجأوا لمفتى الشافعية، وبما أنه لا يمكن للإمام الشافعى أن يفتى وفقًا لأحكام المذاهب الأخرى عين الملك الظاهر بيبرس قاضيا[1] خاصا بكل مذهب فى خلال تلك السنة، وبعد ذلك أصبح أتباع المذاهب الأربعة يذهب للإمام الخاص به لحل ما يريدونه من المسائل الدينية، ولكن فى الممالك الأخرى ظل المفتى الشافعى كما كان فى السابق.

إضافة

وإن كان ثابتا بالتحقيق أن عمر بن الخطاب هو الذى كان يقوم بأمور القضاء فى عهد خلافة أبى بكر الصديق، وكان هناك يزيد ابن أخت نمر وشريح فى عهد عمر بن الخطاب، وكعب بن سوار وفى عهد خلافة سيدنا على شريح بن الحارث

(١) وكان القضاة فى ذلك العهد يعينون على أن يؤدوا مهمة القضاء والإفتاء.

يقومون بأمور القضاء، إلا أن أول القضاة المعينين فى المدينة المنورة من خارجها هو عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وقد أرسل إليها فى سنة (٤٢هـ) من قبل معاوية.

وفى عهد السلاطين العثمانيين أول من تولى منصب القضاء شخص يسمى طورسون أفندى وعين من قبل عثمان الغازى، أما أول القضاة المعينين لاستانبول فكان القاضى مجد الدين أفندى «محاضرة الأوائل».

عين الملك الظاهر مفتيا لكل مذهب من المذاهب الأربعة، وبعد مضى خمسة وأربعين عاما على هذا التاريخ أرسل الناصر فرج من ملوك مصر إلى مكة المعظمة مفتيا للحنفية وآخر للمالكية وذلك عام ٧٥٨هـ، وبعد فترة وجيزة أرسل مفتيا للحنابلة. ومنذ ذلك الوقت (أى منذ ٧٠٨هـ) وبعد فترة وجيزة عين مفتيا خاصًا لكل مذهب فى مكة المكرمة والمدينة المنورة على حد سواء.

كان يتم تعيين واحد للإفتاء لكل مذهب حتى العام المبارك الذى انتقلت فيه أزمة إدارة البقاع الحجازية المقدسة فى بعض الأحايين، وفى الأحايين الأخرى كان يعين واحدا أو اثنين فقط لتسيير الإدارة فى الحرمين، ولكن بعد عام (٩٢٣هـ)لم ينقص عدد المفتين الأربعة فى أى وقت.

وفى وقتنا الحاضر ثمة مفتى حنبلى على الرغم من قلة الحنابلة فى مكة المكرمة بحيث نستطيع القول بأنه لا وجود لحنبلى واحد فيها.

مطالعة

قبل عهد سلاطين آل عثمان وفى بعض الأحايين كان يوجد مفتى أو اثنين فى الحرمين، وسبب ذلك هو إظهار سلاطين السلف من المسلمين استعدادهم لنجدة كل مسئول من أهل الحرمين، لأن ملوك المسلمين كانوا يعتنون كل العناية ببسط نفوذهم على الحرمين، وكانوا يعتقدون أن أعظم الأسباب التى تخدم هذا الغرض

هو نجدة مسئول الأهالى. والرابطة الإسلامية أينما وجدت فإن أساسها الارتباط بالحرمين وكان الحكام يدركون الفوائد السياسية الكبيرة للاحتفاظ بهاتين البلدتين المسعودتين.

وإن كان هذا الاعتقاد موضع احترام وتقدير فإنه من الممكن حدوث تجاوز للحدود الشرعية لنجدة كل مسئول للأهالى، ولا توجد شبهة فى خطأ الاعتقاد المذكور، ألم يكن باطلاً استيلاء جيوش الجهالة على الحرمين فى العهد السابق، وحصول أصحاب المذاهب الباطلة على الحماية فى البلاد الحجازية، وانقياد البدو لصناديد القبائل فى الباطن، وللدولة فى الظاهر، والعمل بالأحكام والقوانين التى سنها البدو[1] وليس التى يسنها الولاة والقضاة المعينون من قبل الدولة، وإذا ما نظر بإمعان إلى المعاملات الكلية والجزئية التى جرى العمل بها من بداية ظهور الملوك الإسلاميين وحتى اندثارهم يتبين أن انقراضهم وسقوطهم كان أولا بالانحراف عن جادة الشرع، والعمل بالبدع أو لترك الأعمال والتصرفات المشروعة.

أو ليس بقاء سلاطين آل عثمان المنصوص على أنهم أعدل الملوك فى الكتب الإسلامية المعتبرة كان بسبب اتخاذهم الأحكام الشرعية أساسا فى الأعمال والحركات، وعلى الرغم من أنه لم تلتزم الدقة فى تطبيق أحكام الشريعة بتمامها والتى هى أساس ملكهم الذى قام عليه مما أدى إلى وقوع بعض الخلل والاضطراب، وبمرور مدة قصيرة جدا على ذلك جددوا تمسكهم بالصورة الموافقة لأحكام الشريعة وأساس ملكهم ووصلوا إلى مطالبهم بعد وقت قصير كما هو مسطور فى الكتب المذكورة وسرى حكمهم إلى أكثر أرجاء الأرض وشملها.

وعندما سيطر السلاطين العثمانيون على البلاد الحجازية المباركة قضوا على

(١) نظم عرفت قبل عدة مئات من السنين من قبل شيوخ القبائل، وقد أدرجت النطاقات العربانية والقوانين التى تراعى الآن بين العربان فى جزء مرآة جزيرة العرب.

جميع العقائد والأراء الباطلة والأفكار الخاطئة بحسن تدبيرهم، وهكذا استطاعوا أن يدخلوا سكنة الحجاز كلهم فى دائرة المذهب الحق مذهب أهل السنة، والجماعة الفرقة الناجية وأذنوا لمفتىّ المذاهب الثلاثة الحكم فى مسائل الطلاق والنكاح وغيرهما من المسائل، ولمفتى المذهب الحنفى الحكم فى المسائل الأخرى المهمة وبناء على أصح أقوال الفقهاء، وحكموا وفقا للأحكام الشرعية فى البلاد العربية وخاصة فى الحرمين الشريفين، سواء أكان فى العقيدة والآراء أو فى جميع المعاملات والعقوبات الفقهية متبعين فى ذلك رأى السلطان ورؤيته، وبهذا فعلاً أحيوا الشريعة الأحمدية وحكموا بالأحكام الإلهية.

وكان المفتى الشافعى تاج الدين بن بنت الأعز سببا فى تعيين الملك الظاهر مفتيا لجميع المذاهب فى مصر، وكان الملك الظاهر يلجأ إلى تاج الدين ابن بنت الأعز فى جميع المسائل لكونه مفتى الأنام[1]، وبما أن الشيخ تاج الدين كان يريد أن يجيب على كل مسألة إجابة صحيحة اتخذ من كل المذاهب نائبا له، وكان يفتى بعد ما يتفق معهم على الإجابة.

ولسبب ما امتنع مرة عن الإجابة للمسألة التى عرضها عليه الملك الظاهر وقال له «إن هذه المسألة يقتضى سؤالها من النائب الحنفى، وكأنه بهذا القول أراد أن يشير إلى أن الوقت قد حان لتعيين مفتى لكل مذهب من المذاهب، وبادر الملك الظاهر بتعيين مفتى لكل مذهب حتى لا يحدث خلل فى رابطة الموحدين، وأطلق عليه لقب قاضى القضاة، وأمرهم بأن يرسلوا من قبلهم نُوَّابًا لهم إلى البلاد التى فى حاجة إلى ذلك وحينما عين المفتيين الأربعة سر صاحب القصيدة المشهورة البردة ـ وكان حيا يرزق ـ من هذا العمل وأنشد الأبيات الآتية:

غدا جامع بن العاص كهـــف أئمـــة

فللـــه كهـــف الأئمـــة جامـــع

(١) معنى مفتى الأنام هو «قاضى القضاة» وأول القضاة فى مصر هو أبو الحسن على ، بن نعمان وأول من عين قاضى القضاة فى الدولة الإسلامية هو الإمام «أبو يوسف». صاحب أبى حنيفة.

لقـد سرنا أن القضـاة ثلاثـة
وأنـك تـاج الديـن للقـوم رابـع
بهم بنـية إسـلام صحـت وكيـف
ولا وهـم أركانهـا والطبائـع
فهـم رخـص أبـدوا لنـا وعزائـم
هديـنا بهـا فهـى النجـوم الطوالـع
فلا تلتبس إن وسع الله فـى الهـدى
مذاهبنـا بالعـلم والله واسـع
تفرقـت الآراء والديـن واحـد
وكـل إلـى رأى مـن الحـق راجـع
فهذا اختـلاف جـد للخـلق راجـع
كما اختلفـت فى الراحتـين الأصابـع

وتتضمن قصيدة الإمام البوصيرى معنى الحديث الشريف «اتفاق أمتى حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة».

فضائل الحطيم

يروون تأييدًا بالأحاديث الشريفة أن فى الحطيم بين بئر زمزم والمقام المحترم الذى يمتد إلى الحجر الأسود قد دفن تسعة وتسعون نبيا بعد أن حجوا توفوا وصعدت أرواحهم إلى الجنات العالية.

إن الأنبياء الذين هلك أتباعهم قد أقاموا إلى آخر عمرهم فى مكة المكرمة، وقضوا حياتهم فى التعبد لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم توفوا فى تلك المدينة، وقد نقل ذلك محمد بن السائب نقلا عن النبى ﷺ.

ولما كان نوح وهود وصالح وشعيب مـن الأنبيـاء الذيـن توفوا فى هذه

المدينة، فقد دفنوا فى الجهات التى تقابل فيها الكعبة المعظمة مقام إبراهيم وباب الصفا.

الأثر الثانى: المستجار:

يقع الموقع المبارك الذى يطلق عليه المستجار بين الباب المسدود الكائن فى جدار كعبة الله الغربى وبين الركن اليمانى[1] وفى مواجهة الملتزم، وعرضه ستة أقدام. الباب المسدود هو الباب الذى فتحه عبد الله بن الزبير فى عرض (٤ قدم و١١ بوصة). وبعد أن قتل الحجاج السفاك عبد الله بن الزبير سد ذلك الباب.

الأثر الثالث: الملتزم:

يطلق على ما بين باب كعبة الله والحجر الأسود الملتزم، إن هذا المقام موقع طاهر مبارك فى عرض ستة أقدام وأربعة خطوط، فالذين يكملون الأشواط السبعة للطواف يأتون فى هذا المكان للتضرع، وهو فى الجهة التى يقع فيها باب كعبة الله، ويروى أن النبى ﷺ تفضل قائلا: «إن كل من يصلى أربع ركعات مقابل كعبة الله كأنه قد أدى صلوات جميع العباد ويستغفر له سبعون ألفا من الملائكة». (حديث شريف).

كان من اعتقاد العرب فى الجاهلية أن كل من يتجادل فى هذا المكان أو يقسم يمينا باطلا أو من يدعى عليه لابد وأن ينالوا عقابهم، وهذا هو وجه تسميته بالملتزم.

مقطوعة

انطلق إلى باب الحجر
والتزم بلثم هذا المقام
واحتضنه بشوق غامر وإذا صعدت
روحك فلتكن حياتك بالحبيب

(١) كان الركن اليمانى قد تشقق إثر زلزال عام ٥١٥هـ، ولكنه رمم على أحسن وجه بلا تأخير وأحكم صنعه.

أضـــرم مـــن قلبك نار الفراشـــــة

وألـــق نفســـك فـــى تلك النـــــار

أليســـت لك عـــــادة الفراشـــة

تحـــوم أولا حـــول النـــار ثم تحترق

ضـــع يـدك بخشوع على هذا الستار

واتكـــئ عـــلى كرم ذى المـــنن

امسح بوجهك وصـدرك هذا الباب

وزد مـــن نـــور عينيـــك وقلـــبك

علـــق يـــدك فـــى أستـــــاره

وازرف الدمـــــع لرؤيتـــــه

ولتأت بـــذرة الشـــوق من الطريق

أصبحـــت الوصـــل بروج الفـــراق

الأثر الرابع: تحت الميزاب:

الاسم الشهير لتحت الميزاب هو «حجر إسماعيل» وإنه حجر أخضر يقع فى الجهة التى بها المقام الحنفى مواجها لكعبة الله. وتحت الميزاب الذهبى وهو نصف دائرة، يقال إن أكثر مواضعه ـ أو على قول ـ بعض مواضعه كان داخل الكعبة وحينما جدد القرشيون بناء الكعبة تركوه خارجها.

رواية

يقال إن كل من يجلس تحت الميزاب ويدعو الله بقلب طاهر ونية خالصة يستجاب دعاؤه، ويتخلص من ذنوبه كأنه قد ولد من جديد، وكل من يصلى ركعتين فى هذا المكان المبارك ويدعو عند سجوده لنيل مطلب ما يتحقق أمله.

يجب ألا يشك فى هذه الرواية، لأن الجهة الشمالية من جدران الكعبة ومن

ركنيها نحو الحطيم قدر ستة أذرع قد ثبت بحديث صحيح أنها من داخل الكعبة، إنه المكان الذى أخبر عنه بالحديث الشريف ـ يعنى المكان الذى يلزم الدعاء فيه بعد الصلاة ـ وهو المحل الذى سبق تعريفه وقد أشير إليه بحجر مستدير أخضر اللون إن هذا المكان هو «حجر إسماعيل» المبارك.

وبناء على حكم حديث شريف آخر أن كل من يصلى ركعتين فى جهة الركن الشامى لحجر إسماعيل فكأنه قام سبعين ألف ليلة بالصلاة، وطاف بالبيت الأعظم طوافا مبرورًا مقبولا أربعين مرة، وهذا هو قدر أجره وثوابه.

الأثر الخامس: حفرة المعجن:

من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء المعجن الشريف، إن الموقع الذى يطلق عليه المعجن حفرة متصلة بجدار كعبة الله الشرقى، وطولها سبعة أقدام وعرضها خمسة أقدام وست بوصات، وعمقها أكثر من قدم قد خلط إبراهيم عليه السلام طين بيت الله فى هذه الحفرة، إن هذه الحفرة اللطيفة هى المكان الذى صلى فيه جبريل ـ عليه السلام ـ الصلوات المفروضة يومين متتالين مع النبى ﷺ، عندما فرضت الصلوات الخمس.

يروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ عندما فرضت الصلوات أم النبى ﷺ فى أوائل أوقاتها وفى اليوم الثانى فى أواخر أوقات الصلوات الخمس.

إن فى الجهة التى تلاصق هذه الحفرة من كعبة الله حجر أحمر، إن هذا الحجر المبارك دواء مؤثر لمرض ضعف البصر والمبتلون بهذا المرض إذا مسوا هذا الحجر ثم مسحوا بأيديهم عيونهم يشفون من هذا المرض.

وقد سرق هذا الحجر سنة (١٢١٣هـ) وقد تعرض سكان بلدة الله لمرض مفرط، ومات منهم كثيرون، وفيما بعد وجدوا الحجر فى متروكات رجل توفى، فوضعوه فى محله مرة أخرى.

وهكذا نحو مما تعرضوا له من المصائب والقحط وهذا الحجر موجود إلى هذا اليوم، وبناء على قول ابن حجر كلما سرق من بيت الله حجر أو أشياء أخرى يتعرض أهل مكة لمرض مهلك ينتشر إلى جميع البلاد الأخرى، وكان قد سرق فى وقت ما حجر من أحجار بيت الله فظهرت أمراض مهلكة فى مكة الله وانتشرت إلى أكثر البلاد، وفى نهاية الأمر خرس لسان السارق ومات ووجد الحجر المسروق فى ميراث ذلك الرجل وأعيد إلى مكانه، ورفعت تلك الداهية الدهياء من فوق العباد.

الأثر السادس: مقام إبراهيم:

يطلق مقام إبراهيم على ذلك الحجر المبارك الذى استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كسقالة عند بناء كعبة الله المعظمة.

وبناء على هذا التعريف فإن هذا الحجر الذى يطلق عليه مقام إبراهيم هو الحجر الذى استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كسقالة عندما كان يبنى جدران كعبة الله وحينما صعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوق هذا الحجر لبناء جدران الكعبة جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك الحجر كالعجين فغاصت أقدام سيدنا إبراهيم الشريفة فى صدر الحجر حتى كعبها، وعندما نزل إبراهيم ـ عليه السلام ـ من فوق الحجر رجع إلى هيئته الأولى جامدا كما كان.

وقد رأى أنس بن مالك هذا الحجر الشريف فى الآثار المباركة التى تركها إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما يروى صاحب بدائع الزهور بعد التدقيق.

وكان يقول للذين يسألون: إننى رأيت آثار أقدام خليل الله فوق المقام الشريف، وكانت آثار أصابع قدميه ظاهرة. إلا أن هذه الآثار تكاد تمحى من كثرة ملامسة الناس. إن حجر المقام الشريف الذى يساوى الجواهر لا يشبه الرخام الأبيض ولا الحجارة العادية البيضاء أو السوداء. وفوقه عروق تميل إلى السواد أو الصفار وإن كان لونه قارب لون السكر الخام إلا أنه لم ير فى الدنيا حجر لطيف

فى اللون أو الخلقة أو جدير أن يقال لم يخلق حجر مثله. حجمه الأصلى فى ارتفاع واحد وعشرين إصبعا، والجهات التى تحمل آثار قدميه فى عرض ثمانية عشر إصبعا.

إن وسطه أرفع بالنسبة لطرفيه وأسفله يشبه اللبن، ومسافة محيطه أكثر من أربعة أقدام قليلا، إن أثر قدمى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوق المقام قد غطى بغلاف فضى إلا أنه لا يعرف متى حدث ذلك ومن قام بتغليفه.

إن الحجر المذكور محفوظ الآن فى داخل أبنية أنشئت فى الجهة الشرقية لكعبة الله وأمام باب بيت الله.

وكان فى مكان[1] ملاصق لأبنية كعبة الله يوم فتح مكة، وقد أمر قائد المجاهدين (عليه سلام الله المعين) بنقله إلى مكانه الحالى، وهو يبتعد عن شادروان الكعبة المشرفة ابتداء من الشبكة الحديدية ثمانية وعشرين قدما.

ويبعد عن ركن الحجر الأسود خمسة وثلاثون قدما، ومن حدود جبل الصفا مائتين وخمسة وعشرين قدما.

ويوجد تحت الحجر المبارك صفة مبنية بالحجارة، وفوق الصفة صندوق وطول الشبكة الحديدية التى تحيط بهذا الصندوق من يمين مصلى الشافعية ويساره نحو وجه الكعبة خمسة أذرع وعشرة أصابع، وعرضها ذراع وسبعة أصابع ونصف إصبع، ومازالت الجهة الشرقية لتلك الشبكة المكان الذى يصلى فيه أئمة الشافعية مع جماعتهم وهو فوق عمودين رخاميين وفى طول سبعة أقدام وأربع بوصات.

مسألة

قال جماعة: المقصود بالمقام فى الآية الكريم ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ (البقرة: ١٢٥) هو المكان الذى ما بين العمودين الرخاميين.

(١) إن هذا الموقع الجهة اللطيفة لباب كعبة الله، حينما أتم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مبانى كعبة الله السعيدة تركه فى هذا المكان.

وقال جماعة: إن المقام الشريف حرم المسجد الحرام كله، حتى إن الإمام مالك كاد أن يذهب إلى فرضية أداء صلاة الطواف فى ذلك المكان[1].

بشرى:

ينقل أئمة الدين الكرام فى روايات صحيحة عن النبى ﷺ، أن الذين يصلون خلف مقام إبراهيم ركعتين يغفر الله لهم جميع آثامهم السابقة وينعم عليهم بحسنات قدر مخلوقاته والذين يصلون بعدهم ينقذهم من الفزع الأكبر يوم القيامة، ويأمر جبريل وميكائيل (عليهم السلام) بأن يستمروا فى الاستغفار لهم إلى يوم القيامة.

كان المبنى القديم للمقام الإبراهيمى يتكون من مظلة قائمة على شبكة خشبية وكانت مياه السيل الذى ظهر فى عهد عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ جرفت هذا المبنى والمقام الشريف إلى الوادى اليمانى، وأسس الفاروق مظلة جديدة متينة حسب الحاجة فى زمنه.

وقد زينه فى سنة (١٦٠هـ) الخليفة المهدى البغدادى العباسى وفى سنة (٢٣٥هـ) المتوكل على الله بن المعتصم وفى سنة (٢٥٦هـ) زين المهتدى بالله بن الواثق المظلة التى أنشأها عمر الفاروق وأنفق عليها كثيراً من النقود الذهبية.

لم يكتف الخليفة المهدى بتزيين المقام الشريف بل أنفق كثيرا من النقود الذهبية لإلصاق الجزء المنكسر من الحجر الذى يطلق عليه مقام إبراهيم، وقال الإمام الأزرقى نقلا عن عبد الله بن الشعبى وهو يشير إلى همة المهدى: «بما أن المقام الشريف كان لينا جدا قد انقطع جزء منه فى أثناء التعمير، ولما أبلغ الأمر إلى المهدى بن المنصور ألصقه بإذابة ألف قطعة ذهبية».

---

(١) وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سببا فى نزول هذه الآية الكريمة واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى لأنه قال لرسول الله الكريم ﷺ «يا رسول الله ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟! «فنزلت هذه الآية الكريمة الجليلة» ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥) فاتخذ ذلك المقام مصلى ونزل القرآن بهذا موافقا رغبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد أنفق فى عهد المتوكل بالله ثمانية آلاف، وفى عهد المهتدى ألف تسعمائة وتسعين مثقالاً من ذهب.

مع أن جعفر بن فضيل ومحمد بن حاتم، قد اقتلعا هذه الألواح الذهبية وصنعوا بها عملة ذهبية، أنفقاها للمستلزمات الحربية فى فتنة إسماعيل العلوى.

إن الباب الذى يواجه الكعبة الشريفة لشبكة المظلة المذكورة قد ترك مفتوحا للزوار، ولم يغير أى جهة منها، كان من يرغب فى زيارته يستطيع زيارته ومسح وجهه وعينه بالحجر (المقام الشريف).

وقد ذكر أن الدعاء يستجاب بالقرب من المقام الشريف ولذلك كان أصحاب الحاجات يدعون الله ويناجون عارضين حاجاتهم وينالون أقصى مطالبهم عندما يدعون وباب الشبكة الذى يواجه الكعبة مفتوحا.

وكما أن الداعين بقلوب نقية لا يردون يائسين؛ لذا أخذ بعض المفسدين وذوى النيات السيئة يدعون ضد الأشراف والصناديد ووجهاء القبائل، كما ظهرت مساوئ أخرى، وحينما رأى ذلك شخصٌ اسمه يوسف الذى حكم البلاد الحجازية واليمانية فترة من الزمان هدم تلك المظلة، وأدخل حجر المقام المبارك فى داخل قبة حديدية، ووضع مكان الشبكة الخشبية شبكة حديدية، وفى زماننا قد صنع فوق المقام الشريف صندوق من خشب شجرة الطرفاء، ويحيط بهذا الصندوق قفص حديدى، وذلك القفص تحت قبة حجرية، وتحيط بهذه القبة من جهاتها الأربعة شبكة حديدية، ولذلك الصندوق باب فى الجهة الشرقية، وهناك قطعة قماش مزخرفة بالذهب تحيط بهذا الصندوق، وكلما غيرت كسا الكعبة المفخمة الداخلية غيرت هذه الستارة أيضا.

وقد غير الملك الناصر محمد بن قلاوون المصرى الشبكة التى تحيط بالصندوق فى سنة (٧٢٨هـ) وكتب على إحدى جهاتها اسمه.

وبعد اثنتين وثمانين سنة وفى سنة (٨١٠هـ) قد صنع سقف لطيف لداخل القبة، وكتب فى أحد أماكنه اسم صانعه وتاريخ صنعه.

وقد غطى السلطان جاقمق المصرى القبة المذكورة بالرصاص فى سنة (٨٤٣هـ) ولما احتاجت بعض أماكنها للتعمير بفعل مرور الزمن عمرها السلطان الأشرف الغورى، وزينها بالذهب فى سنة (٩١٥هـ) وبعد مرور ثلاث سنوات وفى سنة (٩١٨هـ) غطى القبة بالرصاص.

وإن كان صندوق المقام الشريف والشبكة الحديدية التى فوقه قد صنعت فى شكل رصين كما ذكر من قبل وعمرت عدة مرات، إلى أن أخذ بعض أجزائها فى البلى وزال طلاؤها وسقطت بعض أخشابها، وصعب حفظ ذلك المقام فأقيمت المبانى بناء على الطلب والاستئذان من السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة (٩٤٧هـ).

وصنعت فى شكل محكم وهيئة متينة. وشبكة القفص المصنوعة من الحديد غيرت بشبكة نحاسية، وأخذت الأبنية التى صنعها السلطان المذكور يصيبها البلى بالتدريج، وأشرفت على السقوط والخراب، وعرض الأمر على السلطان مراد الرابع طاب ثراه فبادر إلى تجديدها وتزيينها فى سنة (١٠٤٥هـ) وبعد سبعين سنة من ذلك ساءت حالة الصفة التى تحمل الحجر الذى عليه آثار قدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكتب حامل مفتاح الكعبة المعظمة الشيخ محمد الشيبى تقريرا إلى ولاية مكة، وأبلغت الولاية الأمر متضمنا التقرير السابق إلى الباب العالى. فبادر الباب العالى بتجديد تلك الصفة وجدرانها والصندوق الخشبى للمقام المذكور، والأماكن الأخرى التى تحتاج إلى التجديد وذلك فى سنة (١١٦٥هـ).

وأكد الشيخ محمد الشيبى فى تقريره لزوم تجديد الغطاء الفضى الذى يزين الصندوق الفضى وكسوة الصندوق الذى يحتوى على حجر المقام. وبناء على ما يقتضى عمله فى مكة فلقد أرسل السلطان مصطفى خان الثانى بن المرحوم محمد خان الرابع بالأمر السلطانى الذى تفتقت به قريحته، والذى تجب طاعته إلى إبراهيم أفندى مدير التعمير فى مكة المكرمة، وبناء على هذا الأمر السلطانى عَايَنَ إبراهيم أفندى مع شريف مكة وقاضيها والآخرين ومن يجب وجودهم المقام

المذكور، وبناء على القرار الذى اتخذوه رمم صندوق المقام، وبعث بالغطاء الفضى القديم للمقام، وبعض العينات من التراب الذى وجد حول الحجر المبارك إلى باب السعادة للتبرك، وقد قدمت هذه الأشياء بكل توقير إلى العتبة السلطانية مما أثار فرحة وسرور السلطان، وبعد أن رآها أمر بأن تحفظ هذه الأشياء المباركة فى صورة تليق بها، وهكذا وضعت فى الخزانة السلطانية لحفظها.

إن التراب المبارك الذى أخذ من المقام وأرسل إلى باب السعادة كان من الطين الذى تحجر حول آثار قدم سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه كان قد صنع جدير من الجص حول آثار قدمى إبراهيم عليه السلام فى ارتفاع شبر، وغلف الجدير بغلاف من الفضة، وذلك لملئه بماء زمزم الذى يعد شربه تبركا بآثار قدمى ذلك النبى الكريم، كما كان يحدث فى أوائل العصور الإسلامية، ومازال يحدث فى ذلك الوقت، وكلما فتح باب الشبكة الحديدية للمقام يصب الزوار والحجاج فى داخل ذلك الجدير ماء زمزم ويشربونه متبركين.

ثم يضعون فيه بعض القروش ثم يأخذونها ويضعونها فى أكياس نقودهم للتبرك بها، وحينما يكون فى داخل ذلك الجدار ماء زمزم وتوضع فيه النقود، ثم تؤخذ بعد فترة وتوضع فى كيس النقود؛ يجلب ذلك البركة واليمن لهذا الشخص.

ولما شاع هذا الخبر بين الناس أخذ الحجاج يضعون فى داخل هذا الجدير عملة مجيدية صغيرة أو مسكوكات ذهبية أخرى، ثم يأخذونها ويضعونها فى أكياس نقودهم معتقدين أن مثل هذا الكيس الذى يحتوى على مثل هذه النقود لا يخلو فى يوم من الأيام من النقود، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد استجاب لدعاء إبراهيم ـ عليه السلام.

إن مقام إبراهيم ومبانيه دامت متماسكة مائة وإحدى وثمانين سنة بعد أن عمرها السلطان مراد خان الرابع فى سنة (١٠٤٣هـ) وبعد أن رممها وأصلحها السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد خان الرابع بعده باثنتين وسبعين سنة فى سنة (١١١٥هـ) وظلت مبانى المقام الشريف متماسكة إلى يومنا هذا بعد

إجراء الترميمات والإصلاحات من حين لآخر إلا أن مبانيه بليت بغتة وكادت تنهار، وحينئذ استأذن مدير الحرم الشريف فى تعمير الصندوق والستارة التى عليه والشبكة التى تحيط به وناحية المقام الشافعى على قدر الإمكان، حتى أمكن أن تستمر المبانى متماسكة لفترة ما.

وفى سنة (١٠١٦هـ) جدد السلطان مراد الرابع مبانى المقام الشريف وفى سنة (١٠٤٣) جدد بابها وأماكن الشبكة التى صبغها بلون أخضر وطلى الأماكن التى احتاجت للطلاء بالذهب، إلا أنه غير وجدد المبانى المذكورة كليا بعد سنة وذلك لشدة الحاجة إلى هذا التجديد.

الأثر السابع: داخل البيت المعظم

ساحة تبلغ (١٨٦٠) قدم مربع فى داخل كعبة الله المشحونة بالفيوضات الإلهية وقد نقش وزين داخل جدران البيت الأعظم بقطع رخام ملونة. وللسقف الشريف الذى يحاذى الركن العراقى سلم مثل سلم المآذن الحلزونى ذى سبع وعشرين درجة، ومصنوع من الخشب، ولقد أرسل هذا السلم من قبل الملك المؤيد من مصر عام (٨١٧هـ).

وبعد مرور إحدى وخمسين سنة احتاج السلم الذى أرسله الملك المؤيد إلى التجديد، فصنع الملك خوشقدم سلما غاية فى الجمال، وأرسله إلى مكة فى خلال سنة (٨٦٨هـ)، وجدد السلطان مصطفى خان سلم الملك الظاهر فى سنة (١١١٥هـ) جاعلا سبعا من درجاته من الرخام والباقى من الخشب.

وفى داخل بيت الله كرسى خاص بحامل مفتاح الكعبة السيد الشيبى، وهذا الكرسى فى غاية الجمال وقد أهداه السلطان الغورى فى سنة (١٠٤٣هـ) وجدد من قبل السلطان مراد خان الرابع.

وفى يمين الواجين داخل البيت الحرام توجد حفرة للخزانة، إن هذه الحفرة التى نسيت من قبل التاريخ هى الحفرة التى حفرت لوضع الهدايا التى ترد من قبل الناس لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى الستائر المعلقة على الجدران كلمات طيبة وأدعية مأثورة منسوجة بالحرير، ولباب الكعبة فى الداخل ستارة فى طول قامتين ونصف للإنسان وقد شغل عليها بعض الرسوم بالخيوط الذهبية، وسواء أكانت هذه الستارة أو الستارة الخارجية تغيران كل سنة ويقسم قديمهما بين خدمة بيت الله وكمر الستارة وستارة الباب من نصيب السيد الشيبى فى هذا التقسيم.

إن لبيت الله خدم زنوج عددهم واحد وخمسون، ويطلق عليهم بين الناس اسم الأغوات المخصيون.

ولا يجوز أن يزيد عددهم على الأربعين أو ينقص، وإذا ما حدث وزاد فهناك كثيرون يلازمون البيت ليقبلوا ضمن الأغوات[1] حتى بلغ عددهم الآن إلى واحد وخمسين نفرا.

الأوقات التى يفتح فيها باب بيت الله

يفتح باب بيت الله تسع مرات فى السنة على أن يكون الفتح لمدة ثلاث ساعات فى كل مرة، وذلك فى:

يوم عاشوراء العاشر من شهر المحرم.

والثانى عشر من ربيع الأول.

والثالثة: الخامس عشر من رجب.

والرابعة: السابع والعشرين منه.

والخامسة: الخامس عشر من ذى القعدة.

والسادسة: السابع والعشرين منه.

والثامنة[2]: العاشر من ذى الحجة. وقد جرت العادة أن يفتح فى المرة التاسعة

(١) ذكر تاريخ استخدام الأغوات فى الكعبة المعظمة والحجرة النبوية المعطرة وسبب استخدامها فى مجلد مرآة المدينة.

(٢) لم يذكر المترجم المرة السّابعة التى تفتح فيها الكعبة المشرفة.

بعد أداء صلاة العيد، وفى المرات السابق ذكرها بعد شروق الشمس، والجميع يحترمون هذا النظام وهذه المواعيد.

ويدخل الحجاج داخل بيت الله لزيارته عندما يفتح باب كعبة الله ولما كانت هذه الزيارة للخير المحض للجميع قد خص يوم من هذه الأيام لدخول الحجاج، ويوم آخر لزيارة نساء الحجاج، ومن العادات القديمة المستحسنة أن تلبس الكعبة كسوتها فى السابع من ذى الحجة وفى ليلة الخامس عشر من رجب وليلة اليوم السابع والعشرين يدعو حامل مفتاح بيت الله السيد (الشيبى) فى داخل بيت الله لأجل السلطان، وفى ختام الدعاء يلبس الخلعة المهداة من السلطان، وفى الأيام التى يفتح فيها باب بيت الله يؤتى بالسلم المتحرك الخاص بباب كعبة الله وبعده يتوجه كل دليل مع الحجاج التابعين له إلى الكعبة ليدخلوا فى بيت الله، وهنا يزدحمون ويحاول الحجاج أن يدخلوا كلهم مرة واحدة فيجرح كثيرون.

* * *

سلم بيت الله

لا يعرف من الذى وضع سلم باب بيت الله لأول مرة. إلا أن الملك المؤيد المصرى قد أرسل فى سنة (٨١٧هـ) سلما مزينا ومنذ ذلك العهد أخذ يجدد من قبل النواب الهنود، والآن لباب بيت الله سُلَّمان، أهدى أحدهما فى سنة (١٢٤٠هـ) من حاكم مدراس منور خان وأهدى الآخر فى سنة (١٢٩٧هـ) من حاكم (رامپور) كلب على[١] خان وقد وضع الجديد منهما فوق عجلتين متحركتين، وقد صنعت بعض أجزاءه من الحديد، وقد غطيت كل جهاته من مراقيه وارتفاعها والدرابزين وكل ما يرى فى خارجه وكل أماكنه بفضة، وطليت بماء الذهب ستة من الأصص التى وضعت فى مواضع ستة من السلم، والخشبة الموضوعة فوق الدرابزينين الجانبيين، والفراغات الموجودة تحت كل درجة، والفراغ الموجود تحت الدرجة الأخيرة للسلم، وأطراف فراغات السلم كافة، وعامة كل السلم كما يرى فى الصورة الخاصة به، وبما أن ذلك السلم المزين زادت زخرفته عن كل حد قرر العلماء بالاتفاق أن يستعمل ذلك السلم فى طلوع النساء ونزولهن، وكلما أريد أريد أن يفتح باب الكعبة لزيارة النساء يجلب ذلك السلم أمام باب كعبة الله، إن سمك الألواح الفضية لذلك السلم قدر مليمتر[٢] واحد وعيار فضته من نفس عيار الروبية الهندية.

قد حك فوق السلم القديم جملة (عبده منور) وإن بدا بزينة مصنوعة فى غاية الجمال وقد صبت من النحاس الأصفر وزخرفت بالذهب وقد صنعت أطرافها من خشب الأبنوس وبمهارة فوق تخمين البشر.

(١) قد حج هذا الشخص فى سنة ١٢٨٩.

(٢) المليمتر هو جزء من ألف جزء من المتر.

والأقسام التى صبت من خليط النحاس لما زيد فيها النحاس فالزخرفة التى عليها تلمع كأنها قد زخرفت اليوم ، ولما كانت مراقى السلم مصنوعة من خشب شجرة الطرفاء فهى متينة جدًا، الأخشاب التى فى خارج السلم صنعت كالأطراف من خشب الأبنوس فى شكل مزخرف، ووضع فوق ثلاث عجلات.

وكان الرسول الذى أوصل السلم الذى أهداه كلب على خان طلب أن يهدى إليهم السلم الذى أهداه (منور خان) للتبرك به ولما عرض الأمر على سلطات الخلافة للاستئذان صدر الأمر السلطانى بأن يحفظ السلمان لاستخدامهما بالتناوب وخصص السلم الذى أهداه (منور خان) لاستخدام الرجال والسلم الذى أهداه (كلب على خان) لاستخدام النساء كما سبق ذكره أعلاه وعلى هذا عندما يفتح باب الكعبة للرجال يستخدم السلم الذى أهداه منور خان وعندما يفتح باب الكعبة للنساء يستخدم السلم الذى أهداه كلب على خان.

نصيحة

لا يمكن لإنسان ألا يتمنى الدخول فى داخل البيت الحرام، ولكن يجب أن يراعى الأمور الآتية، وكل من لا يراعى هذه الحقيقة ويدخل فى الكعبة على عماه يكون قد ارتكب حراما ورضى أن يصاب بالإعاقة ونقل صاحب (شفاء الغرام) وأن النبى ﷺ قد دخل بعد الهجرة أربع مرات فى البيت الحرام، وصلى فيه فى أحد تلك الأيام الأربعة، وهذا اليوم هو الفتح واليوم الثانى للفتح، والثالث فى حجة الوداع والرابع فى عمرة القضاء، وكان فى ذلك الوقت لبيت الله ستة أعمدة، وكان مع الرسول ﷺ حينما دخل فى الكعبة حضرة بلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة، وبناءًا على ما يروى هؤلاء أن النبى ﷺ صلى داخل الكعبة جاعلا عمودان فى جهته اليمنى، وعمودان فى جهته اليسرى، وثلاثة من الأعمدة خلفه، وكان الناس فى القديم يدخلون داخل الكعبة بالأحذية، ولما خلع وليد بن المغيرة حذاءه عند دخوله الكعبة أخذ الناس يخلعون أحذيتهم وبعد ذلك لم يدخل الكعبة أحد بحذائه «محاضرة الأوائل».

ولوجهك شطر الحرم العظيم هذا

وأقم فيه فى سود الثياب

إن صحن الحرم هو روضة الخلد المقيم

فاقعد فى صحنه المربع

إن وجهه هو قبلة أهل الحسن من العرب

وسجدة ملاح العجم نحوه

وبما أن الريح تعلقت بحضنه

نثرت الغالية فى جيب الدنيا

ولما رفعت الريح طرف كسوته السوداء

اكتحلت عين الروح من حجره

«فتوح الحرمين»

مسألة:[1]

إذا ما أمكن الدخول فى بيت الله حين يخلو المكان من الازدحام بدون مشقة ويمكن الصلاة فيه بسكينة وهدوء فالصلاة فيه حلال، ولكن الدخول فيه عندما يزدحم المكان ويضيق فحرام، وبما أن ستة أذرع من ناحية حجر إسماعيل يعد من داخل البيت الحرام فأولى بالإنسان أن يدعو فى هذا المكان.

قال الزاهدى وجلبى فى شرح القدورى والإمام مالك والإمام الشافعى فى بعض أقوالهم: لا يجوز أداء الفرائض فى داخل كعبة الله، وأعلن بعض الأئمة عدم جواز التنفل أيضا. مع أن النبى ﷺ قد أدى فيه الصلاة أربع مرات.

(١) انظر فى المسألة: إعلام الساجد للزركشى ص ٩١ وما بعدها.

والواجب فى هذه المسألة أن يستقبل الإنسان بعض جهات البيت الأعظم لذا أجاز أئمة المذهب الحنفى أداء الفرائض أو النوافل، وبناءًا على هذا يجوز أن يصلى فوق كعبة الله أيضا، إلا أنه مكروه لأنه إخلال بتعظيم البيت، حتى إن فوق الكعبة المكان السادس من الأماكن التى كره فيها النبى ﷺ، الصلاة كما جاء فى هذه الأبيات.

نهى الرسول أحمد خير البشر

عن الصلاة فى بقاع تعتبر

معاطن الجمال[١] ثم المقبرة[٢]

مزبلة[٣] طريقهم[٤] ومجزره[٥]

وفوق بيت الله[٦] والحمام[٧]

والحمد لله على التمام

الأثر الثامن: قرب بئر زمزم

هذا المكان بين مبانى بئر زمزم وشبكة مقام إبراهيم، ويمكن للإنسان أن يجد فيه مكانا يدعو فيه متى شاء.

إن عمق بئر زمزم ١٣٤ قدم و ٣ بوصات، وقطر فتحتها العليا ثمانية أقدام وبوصتان ويبعد من الجدار الذى على فتحته ناحية جدار الكعبة المعظمة ٤٧ قدم و٩ بوصات، ومقام إبراهيم ٢١ قدم و٩ بوصات.

وقد أعطى النبى ﷺ شرف سقاية زمزم إلى عمه عباس بن عبد المطلب، وكانت السقاية تنتقل إلى أبناء وأحفاد بنى عباس، ولما فضل بنو عباس عدم الإقامة فى مكة كانوا يقومون بهذه الخدمة بتوكيل أحد مشايخ بنى الزبير، وحينما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس أديت خدمة السقاية فترة طويلة بالوكالة،

وذهب فيما بعد أحد مشايخ بنى الزبير ورجا أن تجعل خدمة السقاية فيهم بالأصالة، ولما حصل على الإذن بذلك أصبحت السلالة التى تنتهى إلى عبد الله بن الزبير تقوم بخدمة السقاية الكريمة.

وقد أديرت خدمة السقاية عدة عصور كما شرحنا من قبل إلا أنه مع كثرة الحجاج وزيادة السكان أصبح حصر هذه الخدمة كما كان فى عهد بنى عباس، أو فى عهد شيخ زمزم من أبناء وأولاد الزبير بن العوام، فى شخص واحد غير ممكن لإرواء الحجاج والأهالى، ولذلك اتخذ من قبل شيخ السقاية فى كل ركن من أركان الحرم الشريف سقاء لإرواء الموجودين، ولكن بعد عصر من الزمن رئى أن هذا النظام أيضا لا يكفى لإرواء آلاف الحجاج والأهالى، فزيد من عدد السقائين. حتى لا يتعرض الحجاج المسلمون لبلوى العطش، وحتى يجد بعض الفقراء وسيلة لكسب مصادر الرزق، فقد عين لحجاج كل ولاية من الولايات الإسلامية سقاء، وجعل هؤلاء السقاءون تحت رياسة الشخص الذى تعهد بالقيام بمهمة السقاية من المشايخ الزبيرية، والآن كل بلد إسلامى له سقاء معروف، وكل واحد من هؤلاء مكلف بحسن معاملة الحجاج الذين يتبعون له. كما أن حجاج ذلك البلد يلجأون إلى السقاء الذى عُيِّنَ لهم فى أمور السقاية، وهكذا استراح الحجاج من مشكلة السقاية، كما أن كثيرا من أهل مكة وجدوا مصادر رزق فعاشوا فى رفاهية.

ولكل سقاء الآن فى كل سنة خمسة أو عشرة وأحيانا عشرون وثلاثون أو أكثر من الحجاجُ، يأتون إلى مكة ويذهبون. ولما كان كل سقاء يقوم بإقامة وليمة حسب حاله مرة لحجاجه الجدد لأجل ذلك يطيب الحجاج خواطر السقائين بإعطائهم بعض النقود عند وصولهم إلى مكة، وعند حلول عيد الأضحى، كما أن كل حاج يحاول أن يرضى سقاءه عند عودته إلى بلاده، كما أنهم يساهمون فى تسهيل معيشة أسرة السقاء بإعطائه بعض النقود كل أسبوع.

ويؤوى السقاءون حجاجهم فى وكالات جيدة ويحرصون على خدمة مرضاهم، ويأخذون سجاجيد صلواتهم ويفرشونها فى الأماكن التى يود الحجاج أداء صلواتهم الخمس فيها، قبل حلول وقتها.

ويجد كل حاج قبل صلاته سجادته التى فرشت له، وبهذا يؤدى صلواته الخمس فى هدوء وراحة، ولذا يجب على الحاج أن يقابل خدمات سقائه بإعطائه بعض النقود، كما سبق أن ذكرناه، كما أن على السقائين أن يراعوا حجاجهم ويحسنوا معاملتهم ويعدون العدد الكافى من الناس حتى يقوموا بمهمتهم على أحسن حال.

فهم علاوة على فرش سجاجيد الصلاة فى الأماكن التى تعود الحاج أداء صلاته فيها حين حلول وقت الصلاة، يقدمون لحجاجهم عقب أداء فرائض الصلاة طاسا من ماء زمزم البارد، كما أنهم يحضرون الماء لحجرات الحجاج كل صباح من ماء زمزم.

إن شرب زمزم فى داخل الحرم الشريف ليس حكرا على المواقع التى يوجد بها السقاءون، لأن هناك فى شرق المسجد الحرام وغربه سبل يستطيع الحجاج العطشى أن يزيلوا ظمأهم بالشرب من هذه السبل، وإذا أرادوا أن يشربوا يستطيعوا أيضا بالشرب من الدلاء التى فى داخل مبانى بئر زمزم.

وبما أن ما يعطيه الحجاج لسقائيهم من النقود لا تقابل ما يدفعه السقاءون سواء أكان لضيافة الحجاج أو للخدمة الذين يستخدمونهم إلا أن الحجاج الذين أسقطوا عن كواهلهم فريضة الحجاج يرسلون فى كل سنة من بلادهم رسالة ومعها جرة معينة يستطيع السقاءون أن يتعيشوا بها فى غير مواسم الحج.

ويخجل السقاءون حجاجهم بأن يقدموا لهم فى الأيام الحارة مياه زمزم مبردة والسبب فى تبريد المياه هم الحجاج الذين تعودوا أن يرسلوا الرسائل للسقائين.

لأن الحجاج يكتبون أسماءهم أو أسماء أصدقائهم وهم فى مكة على أوانى

الماء التى يطلق عليها الزورق بحبر لا يمحى ويتركونها لسقائيهم. وعندما تصل الرسائل التى اعتاد إرسالها أصحاب الزوارق يملئون هذه الزوارق بماء زمزم ويصفونها على الساحة الرملية فى الحرم الشريف، ويغطونها بالحصر فيبرد الماء فى داخلها غاية البرودة وعندما تحل أوقات الصلاة يوزعون الزوارق على الحجاج الكرام.

إن خدمة السقاية المباركة تدار الآن بالطريقة التى ذكرت، يعنى يملئون زوارقهم بماء زمزم، ويأخذون بعضها إلى غرف الحجاج كما يبردون كثيرا من الزوارق فى الحرم لسقى الحجاج، ولما كانت سقاية الحجاج إلى الآن فى أيدى المشايخ الزبيريين فأبنية بئر زمزم وأبوابها تفتح من قبل واحد منهم كما أن أحدهم يطلق عليه اسم شيخ زمزم ورئيسه. ولما كان الإشراف على المؤذنين ورئاستهم فى يد المؤذن الشافعى فشيخ زمزم هو الذى يتولى هذا الأمر، ولما كان أول من يبدأ بأداء صلوات الفجر أئمة المذهب الشافعى فشيخ بئر زمزم يغلق باب بئر زمزم كل ليلة، ويفتحه كل صباح فى الوقت الذى اعتاد فتحه، وبهذا يعلن لسقاة الحرم الشريف أن الوقت قد حان للحصول على ماء زمزم، والشيخ الذى يتولى مهمة السقاية يأخذ من بئر زمزم عدة أوان من الماء قبل أن يفتحه للآخرين لشربه، أو لتقديمه لأصحابه، ولما كان هذا الماء زبدة ماء زمزم فطعمه لذيذ جدا ولونه لامع وصاف ولا يشبه ماء زمزم الذى يأخذه السقاة، وليكن فى علم الشاربين أن ماء زمزم كفاية عن خلاصة قطرة واحدة لماء عين تسنيم، وماء الكوثر، ماء الحياة الذى هو زبدة خالصة ومن هنا يستحق أن يطلق عليه الزبدة.

ولما كان الشراب من زبدة ماء زمزم يفيد فى تصفية الدم ولإدامة صحة الإنسان عامة فمن يريد أن يشرب من هذا الماء يجب عليه أن يحل عند شيخ زمزم.

شيخ زمزم فى عصرنا هذا هو الشيخ عبد الله[1] بن على بن محمد بن عبد

(١) ساق المؤلف نسبًا طويلاً للشيخ عبد الله هذا ينتهى به إلى سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) إلا أن البادى عليه شدة الاضطراب فاختصرنا العبارة كما هنا.

السلام من نسل سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنهم) وقد تعهدوا بأداء هذه الخدمة المشكورة سنة ١٢٨٢هـ.

إننى ـ المؤلف ـ قد تلاقيت مع عبد الله أفندى وحضرت مجالسه ونلت شرف شرب زبدة ماء زمزم كل صباح فى صحبته ودلالته. كان المرحوم السيد عبد الله من الأشخاص الذين يتمعتون بخصال حميدة وفضائل جليلة وكان من أذكياء علماء مكة، شخص خزانة علم، فريد فى الحلم والحكمة، ملكى الصفات، والسعداء الذين يتشرفون بصحبته يتمنون ألا يفارقون صحبته دقيقة واحدة.

تطهير بئر زمزم الشريف

نضبت مياه بئر زمزم فى عهد العباسيين وكادت أن تنقطع وبعد ما عمقها بناء يقال له محمد بن ضحاك قدر ستة أذرع لم ينقص ماؤها أبدا.

وكان أهل مكة يعتقدون أن مياه بئر زمزم يفور فى الليالى المباركة ويفيض، وأن مياه الكوثر تختلط بمياه زمزم فى تلك الليالى، وبناء على ذلك كانوا يهجمون على بئر زمزم ويقتحمونها بقوة حتى يخاف أن يصاب بعضهم بعاهات فى تلك الليالى، وهم يبذلون الجهد لأخذ مياه زمزم ولكن تحقيقاتنا لم تثبت ما يدعونه.

وقد حصلنا على روايتين بخصوص فيضان بئر زمزم.

الرواية الأولى:

اختلاط بعض المياه الجارية بماء زمزم ولما كان باب بئر زمزم يغلق فى الليالى المباركة من العصر إلى المساء؛ لذا كان يزيد الماء الموجود فى البئر قدر شبر.

والرواية الثانية:

عندما انسدت البئر المذكورة توارد إلى مكة كثير من الروحانيين، وفى تلك الليلة تغير طعم ماء زمزم وردوا ذلك إلى سبب سؤر الروحانين فى البئر. والحكاية الآتية كافية لتصديق هذه الرواية وتأكيدها.

القصة:

استيقظ أحد الفضلاء من المشايخ الزبيريين وقام من نومه ظنا أن وقت الترحيم قد حان، واتجه إلى الحرم الشريف، وبعد الطواف بالبيت صعد إلى المكان الخاص برؤساء مؤذنى الشافعية، وفوجئ بأن أبواب بئر زمزم قد فتحت، وأشعلت القناديل ودخل كثير من الناس فى أبنية بئر زمزم، وتعجب من الأمر، لأن من الأصول المتبعة أن يكون مفتاح بئر زمزم معه، ولكنه قال لنفسه: لابد وأننى استيقظت متأخراً وهؤلاء بعثوا إلى بيتى وأخذوا المفتاح. وبناء على هذه الملاحظة لم يقم من مكانه يتحقق من الأمر، ومن شدة حيرته وتعجبه لم يخطر على باله أن ينظر إلى الساعة، وبعد فترة أدرك أن المؤذنين لم يصلوا بعد، فظل جالسا فى هذا المقام قائلا: ما هذه الحال؟! وبينما هو يفكر فى هذا الأمر غلبه النوم وراح فى سبات، واستيقظ بعد فترة فإذا بالقناديل مطفئة وأبواب مبنى بئر زمزم مغلقة، فبادر بالقيام وأخرج ساعته من جيبه فرأى أن وقت الترحيم لم يحل بعد؛ فتوهم من هذا الأمر وخاف، وأخذ يتلو القرآن، وبعد ما وصل والده بفترة قص عليه الحكاية بكل تفصيلها، فقال له والده ـ يا بنى إن ما تشربونه صباحا من بئر زمزم من ماء حلو قائلين إنه زبدة ما هو إلا سؤر أولياء الله الروحانيين، ولا يشبه ماء زمزم الذى يأخذه السقاة: إذ يأتى أولياء الله الصالحون بعدما ينسحب الزوار فى الليل، وبعدما يطوفون بالبيت الحرام يدخلون فى مبنى بئر زمزم، ويشربون ماء زمزم حتى الصباح، ولا يمنعهم لا الباب ولا المدخنة، وبهذا الرد اطلع على هذا السر شديد الخفاء. انتهى.

وفى الواقع أن الماء الذى قلنا عنه الزبدة من ماء زمزم لا يشبه ماء زمزم الذى يؤخذ منها سواء فى الطعم أو اللون، إن طعم الزبدة فى غاية اللذة ولونها فى غاية الشفافية يفوق عن التصوير والتعريف. وقال بعض المدققين إن لماء زمزم الصافى خاصية زيت الزيتون، وبما أن ماء زمزم غير قابل للامتزاج بالمياه الجارية الأخرى فعندما يغلق باب أبنية بئر زمزم فماء زمزم يطفح فوق الماء، كما يطفح

زيت الزيتون؛ لذلك يختلف طعم ماء زمزم الذى يؤخذ صباحا. إن هذا التوجيه الوجيه غير قابل للاعتراض؛ لأنها خاصية ينفرد بها ماء زمزم عن المياه الأخرى مهما كانت لطيفة خفيفة لا يمكن منعها من الامتزاج.

فإذا ما أضيف قدح ماء مر إلى قدحين أو ثلاثة أقداح ماء حلو فيفسد طعم الماء الحلو، ومهما ترك من الوقت فالماء الحلو لا يطفح فوق الماء ويسترد لذته الأولى.

إن بئر زمزم الشريف يقع فى مواجهة باب كعبة الله المعظمة، وفى داخل مبانى حجرته[1] ولمبانيها ثلاث نوافذ مقابل باب كعبة الله. وينظر باب إلى الجهة الشرقية وفوقها خاص بمؤذنى الشافعية. ولاسيما شيخ زمزم أى الخاص برؤساء مؤذنى الشافعية. ومن هنا ينبه لأداء أذان صلوات الأوقات الخمسة.

لم يكن فى الأزمنة الأولى سور لفتحة بئر زمزم، وكان يحيط بها سور منخفض. وحدث فى عهد أبى جعفر المنصور من خلفاء بغداد أن سقط أحد الناس قضاء فى داخله، وحتى يمنع وقوع مثل هذه الحوادث قرر أن يَبْنِيَ على فتحتها سورًا بناء على الأمر الوارد من الخليفة. وبعد البحث والتحرى وجدوا حجرا فى ارتفاع ٦ أقدام و ٣ بوصات واستدارة قطره ٢٥ قدم فثقبوا وسطه ووضعوه فى فتحة البئر.

ثم أحاطوه دائرًا ما دار بشبكة حديدية، ومع ذلك بعض العشاق وأصحاب الشوق كانوا يرمون أنفسهم فى البئر ويغرقون، ولما أطلع السلطان أحمد خان الأول على هذا الأمر أراد أن يحول دون أن يقتل الناس أنفسهم، فأمر بصنع شبكة حديدية فى إستانبول وأرسلها إلى مكة المكرمة فى سنة (١٠٢٤هـ) فأنزلت تلك الشبكة إلى البئر وربطت بسلاسل حديدية تحت الماء بعدة أذرع. ولله الحمد لم تقع بعد ذلك حوادث محزنة مثل ما حدث.

(١) وقد جدد السلطان مراد خان الثالث هذه الأبنية فى سنة ٩٨٥هـ. كما أن السلطان مراد خان الرابع قد غير بابها وجدد طلاءها الداخلى فى سنة ١٠٤٣هـ.

إن مبانى البئر الشريف الموجودة فى يومنا هذا من آثار السلطان عبد الحميد خان الأول كما هو موضح فى التاريخ الذى فوق الباب.

وعمق بئر زمزم المكرم ٩٩ قدما و٣ بوصات كما ذكر آنفا، وماؤه فى كل آن وزمان (٤٥ قدما)، إذا ما نظرنا إلى أقوال المسنين من السقاة الذين يوثق بهم أنه إذا ما سحب الماء من بئر زمزم ليلا ونهارًا ولفترة طويلة من الصعب أن ينزح ماؤه.

مساحة بيت الله الأكرم

قال المرحوم السيد غبارى لأحد أحبائه وهو مؤلف كتاب مساحة بيت الله الأكرم: « سقط شخص فى بئر زمزم فى عهد السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم، وأرادوا أن يطهروا البئر وفقًا للشريعة بأن ينزحوا كل مياه البئر، وسحبوا المياه وبثمانية دلاء فى خمسة أو عشرة أيام على الدوام، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينقصوا المياه ولو بقدر إصبعين، وكان فى البئر ذلك الوقت ما يقرب من تسعة أذرع فلم يزد هذا الماء ولم ينقص، وقد تعجبت من هذه الحالة وقلت لنفسى ما الحكمة فى عدم نقص المياه فى البئر مع سحبها ليلا ونهارًا؟ وأخذت أسأل عن سبب ذلك ممن أتوسم فيهم الصدق وأثق فيهم دون كلل، وفى أحد الأيام قابلت البناء محمود الذى تجاوز المائة من عمره والذى يتوسم فيه قول الصدق.

فسألته وبجانبه بضعة أشخاص متقدمين فى السن موضحا له زيادة فضولى بهذا الخصوص، وقد تلقيت منه هذا الجواب:

جواب غبارى أفندى كما تلقاه من البناء محمود:

قال غبارى أفندى: «لم ينزل المطر الذى يسبب سيولا فترة تقرب من إحدى عشرة سنة فى عهد السلطان قايتباى المصرى، وجفت مياه جميع آبار مكة المكرمة، وأخذ الناس يأتون من بعيد وقريب مضطرين للحصول على المياه من بئر زمزم، وإننى كنت فى ذلك الوقت شابا، ولما كنت متضخم الجسم كنت صبى البناء، وحدث أن سقط أحد فى البئر كما حدث الآن. ونقصت المياه بمقدار أربعة

أمتار، وقرر الأشراف أن يخرجوا الشخص الذى سقط وأن ينظفوا البئر فى نفس الوقت، وبناء على رأى معلمى أحمد البناء قد ركبنا فى بكرات البئر ثمانية دلاء كبيرة، وأخذنا ننزح البئر وكنت أعمل بجانب معلمى أحمد، وبعد فترة استطعنا أن ننقص قليلا من مياه البئر، فنزلت مع أستاذى فى قاع البئر لتنظيفه وتطهيره، وإذا بعيون ماء ثلاث فوق خزانة ماء البئر، اثنتان تحاذيان البيت الأعظم، والأخرى تحاذى جبل أبى قبيس، وكانت المياه التى يقال إنها تمتزج بماء زمزم تأتى من هذه العيون.

ويؤيد قول محمود البناء ما قاله عبد الله بن المبارك: إن عين الماء التى تجرى من ناحية ركن الحجر الأسود عين ماء، كما يؤيد قول ابن شعبان: إن الماء الذى ينصب فى بئر زمزم من ناحية الحجر الأسود عين من عيون الجنة.

قد انخفض ماء البئر عن العيون التى سبق ذكرها ولذلك كان مزيتا قليلا، فسددنا تلك العيون سدا محكما، ونزحنا الباقى من المياه ثم ملأنا الدلاء بالطين المتراكم، وطهرنا خزانة الماء وظهر فى الطين الذى أخرج كأسان من البلور، وواحدة من الزنك وثلاثة من النحاس، وأربعة أعداد من الصحون الصينية، وعددان من عقد مرصع، وكان غير ذلك كثيرا من قطع خشب الأبنوس والخردوات المتنوعة. وبعد أن نظفنا البئر من الطين حتى أصبح البئر خاليا من قطرة ماء بعد أن طهرناها ونظفناها أدى كل واحد منا فى سطح قاع البئر ركعتين، وفتحنا العيون التى سددناها وخرجنا إلى ظاهر البئر، وبعدما خرجنا من البئر أخذت المياه تتدفق من العيون التى ذكرناها فى غاية القوة حتى ملأت البئر فى نفس اليوم، وتعدت المياه ما كانت عليه من قبل قدر شبر واحد». «انتهى».

وقد صدق الشيوخ الذين كانوا مع محمود على قوله قائلين: «نعم كل هذه الأقوال صحيحة، ونحن أيضا كنا حاضرين فى ذلك الوقت». إن هذه الحكاية تؤيد تماما القول الذى يقول إن مياه أخرى تمتزج بماء زمزم.

وقد عرف البناء محمود شكل داخل البئر وقال إن مقدار ٦٦ قدم و٨ بوصات من البئر، قد طلى بما يقال له لوكون[1] ومقدار ١٠ أقدام و ٨ بوصات قد بنى بحجارة منحوتة، وقال عن خزانة الماء: إنها حفرة ذات تراب ممتزج بالزيت، إن التراب الممزوج بالزيت يشبه كِلْسَهُ (نوع من الصلصال الذى تستخدمه النساء فى الحمامات).

والعيون الثلاث تنبع من هذا الطين وأن هذه العيون فى خارج خزانة الماء قليلا. انتهى.

وفى خلف أبنية بئر زمزم الجسيمة قبة الفراشين، وخلفها قبة العباس وهما قبتان فى غاية الجمال، ويحفظ فى قبة الفراشين قناديل البيت وفى عصر النبى ﷺ، كان الماء يوزع على الحجاج الكرام.

وقبة الفراشين مخزن متصل بأبنية دار التوقيت والمكتبة من ناحية باب الصفة، وكان أغوات البيت الأعظم يحفظون فيها الشمعدانات والمباخر الخاصة بالكعبة المعظمة والشموع وأشياء أخرى مباركة. وحينما هدموا مبانى المكتبة ودار التوقيت؛ هدموا هذا المخزن وسووا مكانه وضموه إلى البيت الحرام، وهذا المكان ساحة خالية تؤدى فيها الحاجات المسلمات صلواتهن. والأشياء التى كانت تحفظ فى ذلك المخزن توضع الآن فى قبة العباس المتصلة بأبنية بئر زمزم.

ولما كان سقف قبة العباس عاليا، فحينما هدمت قبة الفراشين فى سنة ١٢٩٩هـ رأى القائم مقام صادق بك من مهندسى أركان الحرب أن يضيف لقبة العباس ما يشبه طابقا، ووضع تحت الأشياء المبروكة الخاصة بالبيت الأعظم فى هذا المكان.

فوق بئر زمزم:

مكان مقبب يطلق عليه مظلة مؤذنى الشافعية، هذا المكان محفل مؤذنى

(١) عجين كلس مع الزيت.

الشافعية، وفى الأول كان له سقف بدون قبة، ولما سقطت أبنية ذلك المكان مع سقفها؛ جدده الملك المؤيد المصرى بشكل جميل.

وبينما كان السلطان مراد الثالث يجدد المسجد الحرام فى سنة (٩٨٥هـ)، جدد تلك المظلة أيضا وبنى عليها قبة جميلة. وبما أنها لم تعمر ولم يُعتَنَ بها فترة طويلة مالت فجأة إلى الانهيار بعد أن أصابها الوهن، ولأجل ذلك قد عمر وشيد تلك القبة مدير الحرم الشريف سنة ١٢٩٦، كما أنه أصلح وعمر خارج المبنى وداخله وزينه.

وكان المؤذنون إلى قرب عهد هارون الرشيد، كانوا يؤذنون تحت الشمس صيفا وشتاء. وقد عين المشار إليه عبد الله بن محمد بن عمر واليا على مكة فبنى أيضا مظلة صغيرة وهكذا حفظ المؤذنين من حرارة الشمس.

الأثر التاسع: ما خلف مقام إبراهيم

إن هذا المكان خلف مبانى مقام إبراهيم المقدس وبين بئر زمزم والمقام الشريف المذكور، والمكان الذى يجب أن يدعو فيه الإنسان فوق الحجر الرخامى الذى يقابل مفتاح الباب الذى يدخل منه إلى ذلك المقام. إن ذلك المكان هو الذى صلى فيه الرسول ﷺ، ودعا ربه.

يجاور هذا المحل اللطيف للجهة اليسرى لمنبر الحرم الشريف، وإن كان أداء الصلاة فيه والدعاء صعبا ولكن بقليل من الانتظار يمكن للإنسان أن يصل إلى أمله. واستجابة الدعاء فيه سريعا مشهورة لدى العلماء إذا ما دعا الداعى فى أوقات الفجر فى ذلك المكان اللطيف.

* * *

المنبر الشريف

يقع المنبر فى الجانب الشمالى لأبنية مقام إبراهيم، وعلى بعد ثلاثة أذرع تقريبا، وهو مرتفع مصنوع من الرخام وفى غاية الزخرفة والجمال.

ولم يكن هناك مِنْبَرٌ فى ساحة المسجد الحرام إلى أن زاره حضرة معاوية آتيا من الشام، وقد صنع المشار إليه منبرًا ذا ثلاث قوائم، وقرأ فوقه الخطبة. وفى سنة (٤٤هـ) وقبله سواء أكان الخلفاء الكرام أو الولاة العظام يلقون خطبهم وهم واقفون سواء أكانوا عند حجر إسماعيل أو عندما يتجهون إلى كعبة الله المفخمة. (محاضرة الأوائل).

وقد أخرج المنبر الذى صنعه ابن أبى سفيان من الحرم عندما ورد المنبر الذى بعثه والى مصر فى عهد هارون الرشيد.

وبدل المنبر الخشبى فى سنة (٧٦٦هـ) حينما أرسل ملك مصر الملك الأشرف منبرًا وفى سنة (٧٩٧هـ) أرسل الملك برقوق المصرى منبرا، وسنة (٨١٨هـ) أرسل الملك المؤيد منبرا آخر. وفى سنة (٨٨١هـ) أرسل السلطان قايتباى[1] منبرًا خشبيًا أيضا، وهكذا كان يتغير موقع المنبر وشكله كلما جددت أبنية المسجد الحرام إلى أن جاء عصر السلطان سليمان ـ طاب ثراه ـ فأرسل من باب السعادة منبرا فى سنة (٩٥٦هـ) ووضع حيث هو الآن. إن المنبر المذكور قد صنع من الرخام، وقد أظهر فى صنعه المهارة اليدوية إلى حد أنه إذا ما رآه من أظهر المعجزات فى نحت الرخام يظل حائرا مبهوتا أمام هذا المنبر.

الأثر العاشر: الصفا

اسم تل ملتصق بجبل أبى قبيس وسبب تسميته بهذا الاسم نزول (آدم صفى

(١) كان المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى مصنوعًا فى غاية الجمال وكان مزخرفا بأنواع الذهب الملونة.

الله فوق هذا التل عندما جاء إلى مكة أول مرة). ولم يبق الآن أثر للتل وقد أشير إلى محل الأثر بمبنى ذى طاق وكمر.

لما كانت الصفا تثير حسد الفلك ووجهك نحو الحجر الأسود اصطفت عليها حشود من الملائكة وظهرك إلى الجبل ذى الكرم ومن يريد السعى يذهب أولا إلى هذا المكان ويصعد إلى مراقى المبنى المعروف بطاق الصفا ومن هناك يبدأ السعى.

والمسافة بين طاق الصفا والكعبة المعظمة مائة وستون ذراعا، كما أن المسافة بين المروة والصفا سبعمائة وستون ذراعا، والشخص الذى يريد أن يدعو فى هذا المكان يصعد إلى درجة من طاق الصفا ثم يتوجه إلى الكعبة، ويستدبر الطاق ثم يشرع فى الدعاء، ويمكن للإنسان أن يدعو فى هذا المكان متى شاء إلا أن الوقت المفضل للدعاء فيه أوقات العصر.

* * *

الأثر الحادى عشر: المروة

إن المروة فى جهة مستشفى الغرباء، وهى جبل فى اتصال السوق الطويلة التى يطلق عليها السويقة أو الشامية، وسبب تسميتها بهذا الاسم نزول حواء (عليها السلام) فوق هذا الجبل عندما جاءت إلى مكة المكرمة. والكلمة محرفة من كلمة مرأة. وسبب تسميتها بهذا الاسم عند مؤلف القاموس تكون هذا الجبل من حجارة قاسية متينة، صارمة ويطلق اسم مروة على مثل هذه الحجارة.

بين المروتين:

عندما يسعى الحجاج متحركين من الصفا يأتون إلى هذا المكان وهنا أيضا طاق عال عند أسفله بضع درجات، والداعى يصعد إلى أعلى درجة ويدعو متوجها إلى الصفا.

نظم

المروة التى بلغت الفلك الأزرق
على حافة قمتها قدح منقلب
إذا كان القمر يطلع مثلك من
الجبل فإنه يحطم عظمة الفلك
(فتوح الحرمين)

ويمكن للإنسان أن يدعو فى هذا المكان وقتما شاء إلا أن الوقت المفضل هو وقت العصر، ومن هنا عرفنا أن الصفا والمروة جبلان صغيران من جبال مكة.

رواية

يروى أن المشركين فى زمن الجاهلية قد وضعوا فوق جبل الصفا صنما يسمى إساف وعلى المروة صنما آخر يسمى نائلة، وكانوا يطوفون حول هذين الجبلين،

وعد المسلمون هذه الفعلة فى يوم فتح مكة من عادات الجاهلية، ورفضوا القيام به معتبرين هذا العمل عارا عليهم، أى أنهم رفضوا أن يسعوا بين المروتين، وبناء على هذا نزل الأمر القرآنى ﴿ فَلا جُنَاحَ ﴾ (البقرة: ١٥٨) وأصبح السعى من مناسك الحج الواجبة.

وكان العرب فى الجاهلية يصعدون فوق سفوح هذين الجبلين بعد انتهاء مناسك الحج، وكان الذين يجدون فى أنفسهم ما يفتخرون به يفتخرون بحسبهم ونسبهم، كما أن بعضهم كانوا يطلبون أمورا دنيوية.

ولم تكن هناك مبان فوق هذين الجبلين إلى عهد أبى جعفر المنصور، وكان الحجاج الذين يريدون أن يسعوا يصعدون فوق قمتى الجبل وينزلون عند سعيهم، فبنى أبو جعفر فوق الصفا طاقا ذا اثنتى عشرة درجة، وفوق المروة طاقا آخر ذا خمس عشرة درجة حجرية، وبهذا أنقذ الحجاج من مشقة الطلوع والنزول فوق الجبلين. سقط طاق المروة فى سنة (٨٠٢هـ) وانهار فجدد السلطان فرج بن برقوق المصرى طاق[1] المروة المذكور، وكذلك طاق الصفا وجعلهما فى شكل متناسق.

إن الطاقات التى صنعت فى عهد أبى جعفر المنصور قد جددت، فى عهد فرج بن برقوق المصرى عدة مرات ورممت وعمرت، ولكنها احتاجت للتعمير والتجديد بفعل الزمان، لذلك عمر وزخرف مدير الحرم الشريف السيد أحمد هذين الطاقين، بعد الاستئذان بشكل جميل وذلك فى سنة (١٢٩٦هـ).

الميلان الأخضران:

يوجد ما بين الجبلين ما يطلق عليه ما بين الميلين الأخضرين وهذا مكان مبارك طوله ٢٢ ذراعًا معماريًا. إن هذا المكان هو الذى رجعت فيه السيدة هاجر بسرعة لرؤية ابنها إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان ذلك المكان إلى سنة

(١) يروى عن أحد العلماء الذى يسمى سنجارى، قوله إنه لم تكن هناك حاجة لبناء هذين الطاقين إلا أنه لا بأس بهما لدلالتهما على حدود السعى.

(٣٤٧) مخيفا جدا لتركه مظلما، ولم تكن هناك علامات تدل على المكان الذى يجب الجرى فيه.

وفى السنة المذكورة أرسل الملك جاقمق من ملوك الشراكسة فى مصر إلى مكة رسولا يطلق عليه سودون المحمدى لتعمير بعض نواحى الحرم الشريف. ورأى سودون المحمدى أن ذلك المكان الذى يلزم الجرى به وهذا يُعَدّ من مناسك الحج مجهول من الناس، فوضع ميلين أخضرين علامة فى مسافة تمتد بينهما قدر مائة وعشرين ذراعا، ثم علق فوقهما قنديلين وعين شخصًا لإيقادهما ليلا، وبهذا أضاء المسعى الشريف وأناره، كما أنه عين المكان الذى هرولت فيه هاجر:

ويطلق الآن على ما بين هاتين العلامتين أى ما بين الميلين الأخضرين.

صورته فى الصفات قامة الخضروضفة ماء الحياة
أحد أطرافه المروة والطرف الآخر الصفا ليس ساعيه سوى أهل الوفاء
أن الناس قاطبة فى هذا المقام
وهم يحثون خطاهم فى المسعى
لكثرة تلاحم أجنحة الملائكة فيه ليس فيه موضع لقدم

الأثر الثانى عشر: المسعى

إن هذا الطريق ما بين طرفى الصفا والمروة فهو طريق وسوق ذو مدخلين. ويقع فى الجهة اليمنى بالحرم الشريف بالنسبة للشخص الذى يتوجه من المروة إلى الصفا، وفى الجهة اليسرى بالنسبة للشخص الذى يتجه من الصفا إلى المروة، ولما كان المكان مزدحما جدا ولا يخلو من الناس فيستحسن أن يدعو الإنسان فى أثناء السير والحركة.

ويجب أن نقدر هذا المكان وأن نعظمه غاية التعظيم. وأن نتذكر أن جميع

(١) وقد جدد السلطان مراد خان الثالث هذه الأبنية فى سنة ٩٨٥هـ. كما أن السلطان مراد خان الرابع قد غير بابها وجدد طلاءها الداخلى فى سنة ١٠٤٣هـ.

الأنبياء العظام والأولياء الكرام قد سعوا فى هذا المكان، يجب علينا أن ندعو قائلين: «إلهى بحرمة أقدام جميع الأنبياء العظام والأولياء الكرام الذين سعوا بهذا المكان».

إنه وادى المسعى وترابه لرفعة منزلته فأصبح درا وكحلا لأهل السلف
إن نقش قدمك على هذه الأرض هو روضة الفردوس يوم الدين
بما أن قدمك فى طريق الصدق والصفاء على أثر قدم المصطفى
ما كان من نبى ولا ولى إلا وطأت قدمه هذا المسعى

رواية

يروى أنه قد دفن فى المسعى سبعون نبيا ذوو شأن ولأجل هذا فالذى يسعى بين المروتين له أجر كمن أعتق سبعين عبدًا، ولما كان ما بين الصفا والمروة باب من أبواب الجنة فهذا المكان أيضًا من الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء، ويجب ألا يشك فى هذا لأنه مؤيد بالأحاديث النبوية.

استطراد:

ذهبت أنا الفقير إلى منزل الرجل الورع الحليم الفاضل أحمد خانى أفندى لزيارته، وذلك بينما كانت أتعارف مع كرام الناس لجمع المعلومات عن مكة والكعبة، وقال فى أثناء حديثنا: «وإن كان أهل مكة الآن يبدون بالنسبة إلى سكان أهل مكة فى العصور السابقة، أناسا لا يستحقون رعايتهم واحترامهم، مع أنهم جيران بيت الله، يجب علينا أن نعد أقلهم شأنا أعظم الناس قدرا، وإننى لا أرى ضرورة لأن أذكر لكم أن من يحملون فى قلوبهم هذه النية الصادقة سينالون مطالبهم».

يقال:

بناء على رواية إنسان يوثق فى كلامه: «كان قديما فى مكة بين أهالى مكة شخص تافه حشاش فاضح للأسرار، لم يعرف رأسه للسجود طريقا، ذهب هذا الرجل فى يوم من الأيام إلى مقهى الحشاشين، وأعطى ما بيده من المخدرات إلى

صاحب القهوة، وطلب منه أن يعد له نارجيلة بما أعطاه، وبينما صاحب المقهى يعد له نارجيلة قال: إلهى إننى لم أسجد لك فى طول حياتى إذا ما قلت بأننى أبكى سيكذبنى أهل بلدتى لما يعرفون عنى»، وأخذ يندم ويأسف على أنه أمضى حياته عبثا، ثم صاح قائلا: «الله»، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

وقبل أن يشيع مَوْتُ هذا الرجل ألهم أحد الصالحين بالآتى: «قد مات فى مكان فلان أحد الناس، فإذا ما جهزت جنازته بشكل حسن وحملت تابوته فإن الله يرضى عنك ويتقبل أعمالك».

وبعد التحقيق عرف أن الذى مات هو ذلك الحشاش الذى يذمه الجميع ويتحاشاه، وقد مات فى مقهى الحشاشين كما بيناه آنفا، فظن الرجل أن ما ورد لقلبه من الإلهام قد يكون خطأ فتحير لذلك كثيرا.

وعندما كشف أمره لبعض الذين يتوسم فيهم حسن الظن عرف أنهم ألهموا نفس ما ألهم به، وبناء على هذا لم يبق إلا أن يجهز جنازة الرجل ويغسلها ويكفنها على أحسن وجه وفق السنة بمساعدة أصحابه، ثم وصلوا على جنازته ودفنوها فى قبر هيئ فى مقبرة «المعلا».

ولم ير كثرة المشيعين واختلاف أنواعهم فى أية جنازة من أعيان مكة كما حدث فى تشييع جنازة هذا الرجل.

وبشر الذين حملوا التابوت فى طريقهم إلى المعلا بهاتف يقول: «قد غفر لكم».

وبناء على هذه الرواية فمن الأفضل للإنسان أن يظن خيرا بأهل مكة من أن يظن شرا ناظرًا لأحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة. ولم يقع هذ الحادث فى عهدى إلا أننى لا أتردد فى تصديقه، وقبل هذا تعرضت مكة المكرمة لمرض وبائى مفزع، وسواء أكان الحجاج أو أهالى مكة كانوا يموتون فجأة وهم سائرون فى الطريق. ومن كثرة الجثث أصبح الذهاب إلى المسجد الحرام غير ممكن، وفى الأيام التى اشتد فيها المرض قد استولى على أنا الفقير خوف وخشية شديدين؛ لذا قررت أن أؤدى الصلوات الخمسة فى بيتى؛ ولكننى لم أستطع أن أضحى

بصلاة الجماعة، فذهب إلى الحرم الشريف لصلاة العصر، وبعد أداء الصلاة خرجت من باب الصفا كالعادة واستطعت بصعوبة أن أصل إلى مراقى طاق الصفا، وقد رقد الناس على طرفى الطريق ولم يبق فى طريق المسعى مكانا لقدم من كثرة جثث الموتى المسلمين.

ولما رأيت كثرة الجثث وقد رقد زيد على عمرو فزعت بشدة، ولم أستطع أن أتقدم خطوة بعد طاق الصفا وظللت مستنداً على مراقى الصفا وكأننى جماد بلا روح.

وبعد فترة صفع آذانى هاتف يقول: ألا تستحيى؟! ألا تؤمن بما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣) وإنك عالم بقدرما، قد قرأت عدة كتب تفسير، وطالعت كتب الأحاديث إن شجرة الإيمان قد مدت جذورها فى روضة قلبك، وإذا ما تخلصت من وهم الخوف الذى استولى عليك وداومت على قراءة سورة ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ (قريش: ١) فلا تحترز من شىء، وإذا ما قلت هذ السر لأى واحد تنقذه مما تلقيه الأوهام عليه.

واه! إن هذا لعيب وإثم كبير أيضا! وكأننى كنت ميتا قبل أن أسمع هذا الصوت، وكأن الصوت قد نفخ فى روحا ووهب لجسمى المنتفض الحياة.

فلم يبق أى أثر لهذه الأفكار التى أصبت بها فنظرت حولى، فوجدت أن ليس هناك نفر يتنفس، فوقعت مرة أخرى فى براثن الأوهام فسبحت فى أمواج بحر الاضطراب.

وفى النهاية فهمت أن الصوت من التلقينات الإلهامية، وأخذت فى قراءة السورة المباركة التى سبق ذكرها، وأخذت الصور العجيبة والأشكال المخيفة التى ألقتها الأوهام فى نفسى تزول تدريجيا، ولما وجدت فى جسمى قوة كافية للتحرك، قمت واتجهت إلى بيتى وأنا أقرأ سورة ﴿ لإِيلافِ ﴾ ولما وصلت إلى بيتى نبهت الجميع بلزوم قراءة السورة المذكورة والاستمرار فيها. ولما رأيت أن أوهام الخوف قد زالت عن أهلى أيضا أصبحت أوصى كل من أصادفه بقراءة سورة ﴿ لإِيلافِ ﴾. ولم يبق فى جميع الذين استمروا فى قراءة هذه السورة آثار

لأوهام الخوف، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أذهب عقب كل صلاة إلى جبل الصفا وأمكث فى هذا المكان المبارك الميمون فترة.

نعم:

إن المسعى مكان غاية فى اللطف والسعد، وقد دفن فى هذا الطريق أنبياء كثيرون وليس هناك نبى لم يسع بين المروتين، ويجب على الذى يسعى فى هذا المكان أو يمر به أن يتذكر الأنبياء الكرام ويدعو.

ويجب الاستمرار فى قراءة سورة ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ ليس فقط فى مكة المكرمة، ولكن فى جميع البلاد وكل الأماكن.

فالذين يعتقدون بأن هذه السورة تدفع عن الإنسان الفزع والوهم والخوف لا تعتريهم أوهام الخوف». انتهى.

وتصيب الإنسان حيرة وهو يرى على جانبى طريق المسعى المحال والدكاكين، ووسط هذه المحال مكان للعبادة، ويدور فى خاطره استحسان رفع هذه السوق من هناك، وإذا ما لاحظنا أن هذه السوق كانت موجودة فى أيام النبى ﷺ، ولم يأمر بنقلها فلا ينبغى علينا إلا أن نسكت تأدبا قائلين: لابد أن هناك حكمة من بقاء هذه السوق وهذا من الضرورات الدينية التى يجب أن يسلم بها كل مؤمن.

الأثر الثالث عشر: الحجر الأسود

هو ذلك الحجر السعيد الذى يشبه رأس إنسان والذى وضع فى الركن الشرقى من الكعبة المعظمة على ارتفاع (٣ أقدام و ١٠ بوصات).

وكانت قطعة من هذا الحجر سقطت فى عصر القريشيين وحفظت فى بيت واحد من آل شيبة، وعندما حدد عبد الله بن الزبير بيت الله فى سنة (٦٤هـ) أحضرها وألصقها بفضة.

وحينما حج هارون الرشيد أدخله داخل غلاف فضى وفى خلال سنة (٤١٣هـ) كسر أحد الملاحدة المصريين فى أثناء طوافه ذلك الحجر بضربة دبوس قائلا: إلى متى سيعبد الحجر ويحترم إن حضرة محمد ـ عليه السلام ـ وعلى ـ رضى الله عنه ـ يمنعاننى من كسر هذا الحجر، وها أنا ذا كسرت الحجر الأسود بضربة واحدة، وهدمت بيت الله الواحد. وهجم الموحدون الطائفون على ذلك

الرجل وقتلوه. إن أربعة عشر من الفرسان كانوا ينتظرون إنقاذ هذا الرجل، ولما رأوا هجوم الموحدين على القاتل وهلاكه نزلوا من ظهور خيولهم، وشهروا سيوفهم، وزحفوا داخل الحرم الشريف وتكاثروا فيه حتى كونوا جماعة، وخَرَّبُوا بعض الأماكن وأتلفوا كثيرا من النفوس. وسقط الحجر الأسود من صندوق على الأرض فى أثناء هذه الفتنة، وظل فوق الأرضية الرخامية للمطاف، وفى اليوم الثالث جمع شجعان بنى شيبة قطع الحجر الأسود وألصقوها مستخدمين المسك والعجين المسمى لوكون[1]، ووضعوه فى داخل ظرفه وأعادوه إلى مكانه، وتعقب أهالى مكة كلهم القافلة المصرية ونهبوا كل ما يملكونه وقتلوا كثيرين منهم بسيف الشريعة المسلول.

وكان الشخص الذى أسقط الحجر الأسود على الأرض بضربة شقيا ذا وجه أحمر، طويلا سمينا كان خبيثا لا دين له ولا إيمان. وبناء على الرواية التى حققها محمد على بن عبد الرحمن العلوى إن هذا الحادث الأليم وقع فى سنة ٤١٣هـ وبناء على قول ابن كثير أنه وقع فى سنة ٤١٤هـ.

وفى سنة ٤٢١ حدث أن أحد ملاحدة الفرس (من البابيين) دنيئا جهنميا كسر جانبا من الحجر الأسود بضربة سيف، ولكنه ألصق بفضة خام وأحاطوا جوانبه الأربعة بحلقة فضية، وبعد مرور مائة وإحدى وخمسين سنة نزعه الشريف داود بن عيسى بن فليتة عند فتنته المفزعة وشيده وسواه السلطان مراد الرابع فى سنة ١٠٤٣هـ من جميع جوانبه بطريقة جيدة كما هو الآن، كما أن السلطان مصطفى خان هدم جدران جهاته الأربعة وبناها من جديد.

وبعد مرور مائة وإحدى وستين سنة يعنى فى سنة ١٢٠٤هـ عندما حدث ذلك الحادث المؤلم قد تكسر أحد جوانبه قدر إصبعين، إلا أنهم ألصقوه بلوكون الأسود دون أن يظهر الكسر.

(١) عجين من الكلس مع الزيت.

والسبب فى ذلك الحادث القتال الذى شب بين الشريف غالب وأخيه الشريف عبد الله، إذ قام قتال عنيف بين الشريف غالب وابن أخيه الشريف عبد الله فى التاسع والعشرين من شهر صفر الخير. وفى السنة المذكورة أطلقت من القلعة المدافع والبنادق مدة ثلاثة أيام فلم يؤذن فى داخل الحرم لثمانية عشر وقتا من أوقات الصلاة، ولم تصل صلاة جماعة فى تلك الأوقات المذكورة.

وقد أصابت رصاصة الحجر الأسود فى أثناء ذلك الحادث وكسرت منه قطعة قدرها ثلاثة أصابع وأسقطتها، فألصقت القطعة المكسورة بمادة لوكون، وفى سنة ١٢٥٩هـ أمر السلطان عبد المجيد بإدخال الحجر فى ظرف فضى وأعاد تصليح مادة اللوكون بشكل جيد، وإلى الآن فالحجر الأسود على هذه الحالة، ولما كان قد ألصق بمهارة ودقة لا يفرق الإنسان إذا كان ملصقًا أم غير ملصقٍ، وهيئة الحجر مربع قريب إلى الاستدارة وحجمه أكبر من شبر وأوسع.

* * *

معلومات دينية عن الحجر الأسود

إن الحجر الأسود الشهير حجر خرج من خزانة الجنة، وهو ياقوت مشع ويقال إنه عندما أنزل على وجه الأرض كان مضيئا وعدوا حدود الحرم الميمونة هى المناطق التى كان يضيئها.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيبعث الحجر الأسود يوم القيامة بلسان وعينين، وسوف يشهد الحجر الشريف بالخير للذين استلموه بإخلاص ونية صافية، وبالشر للذين استلموه مستهزئين.

إن لمس الحجر الأسود والركن اليمانى يمحو الخطايا، وإن هناك بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود باب من أبواب الجنة، بناء على قول الحسن البصرى (رحمة الله عليه)، وكل من يدعو بين الركنين يستجاب دعاؤه، كما أن تحت ميزاب الرحمة مكان يستجاب فيه الدعاء.

وبناء على بعض الأقوال أن بجانب الركن اليمان ملكين، وبجانب الحجر الأسود عدد لا يحصى من الملائكة، وإنهم مأمورون بقول آمين لاستجابة دعاء الداعين، وثابت بالحديث أن بين هذين الركنين قد دفن ٩٩ نبيا، وأن ذلك الموقع روضة من رياض الجنة.

كان الحجر الأسود فى الأصل ملكا. وعين ليمنع آدم ـ عليه السلام ـ من أكل ثمرة الشجرة المنهية وأن يصونه. وقيل له «إذا أراد أن يتناول من هذه الشجرة فَنَبِّهْهُ بأنه منع من أكل ثمرة هذه الشجرة» وبينما شغل ذلك الملك بمشاهدة عجائب الفراديس وجمالها، أكل آدم ـ لحكمة ما ـ من ثمرة تلك الشجرة وأخرج من الجنة.

وعقب ذلك وجه إليه العقاب الربانى مثل الصاعقة: «يا أيها الملك كنت سببا

فى خروج آدم من الجنة» فتجمد الملك من شدة خوفه حجرا ثم أرسل إلى وجه الأرض.

قد كتبت هذه الرواية مترجمة فى تاريخ خميس، ويؤيد هذه الرواية الحديث الشريف الذى يقول بأن الحجر الأسود سيبعث ملكا ذا عينين، عندما خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلاق العالم ـ الأرواح، خاطبها قائلا: ألست بربكم، وأسرعت الأرواح المخاطبة للإجابة قائلة: بلى، وهذا ثابت عند عموم الناس ومصدق.

وحينئذ خلق نهرًا باردًا أحلى من العسل، وأمر بأن تكتب حجةٌ تتضمن إقرار واعتراف الأرواح التى قالت بلى، واتخذ قلم القدرة الإلهية النهر السالف الذكر مدادا، وكتب نتيجة إقرار الأرواح، ووضعت تلك الاعترافات فى داخل الحجر الأسود وعبئ بها. واستلام الحجر الأسود الآن تصديق بذلك الإقرار الأزلى ويذكر به. لأجل ذلك قال الإمام الباقر فى أثناء استلام الحجر: «اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيت به ليشهد لى عندك بالوفاء» وهكذا أيد إقراره الأزلى.

كان لون الحجر الأسود حينما نزل على الغبراء ناصع البياض نقيا لامعا، ولكن أخطاء البشر المستمرة، ولمس واستلام النساء الحوائض للحجر؛ أدى إلى تغير لونه فأصبح حالك السواد.

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه: «إن جبريل عليه السلام حمل جوهرة الحجر الأسود من خزانة الجنات، كلما كان ذلك الجوهر الحجرى فى نفوسكم يزيد الخير والبركة... فلتحذروا أن تستهزئوا به وتحقروه وإلا فجبريل ـ عليه السلام ـ يرفعه من هنا ويوصله إلى مكانه القديم». وهكذا كان ينصح أهل مكة ويبين لهم مزيته وعظمته.

وفى الواقع أن ذلك الحجر غاب فترة ما فى عهد الجراهمة والعماليق والخزاعيين، وعندما ترك مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى حكومة مكة الله المعظمة لأحفاد بنى إسماعيل، وتفرق مع قومه فى البلاد المجاورة، أخرج حلية جمال كعبة الله، الخال الأسود، الحجر الأسود من مكانه ورماه فى بئر زمزم.

إن الروايات التى ذكرت ابتداء من اللاحقة كلها صحيحة؛ لأنها نقلت بالأحاديث الصحيحة والأسانيد الموثوقة ولا شك فى ذلك.

استطراد:

إن مضاض بن عمرو بن الحارث الذى رمى الحجر الأسود فى بئر زمزم هو الثانى عشر من الملوك الذين حكموا القطر الحجازى، وأول من تربع على العرش من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان بن عابر. بينما كان يعرب أخوه يحكم فى اليمن مكان أبيه استولى جرهم على أرض الحجاز.

وانتقل حكم البلاد الحجازية للجرهم السابق الذكر وبعد وفاته لابنه (عبد يا ليل) وبعد ارتحاله إلى (جرشم) بن ياليل وبعد وفاته إلى (عبد المدان) بن جرشم بعده إلى (ثقيلة) ابن عبد المدان وبعد وفاته إلى (عبد المسيح) بن ثقيلة، وبعده إلى (مضاض) بن عبد المسيح، وبعده إلى (عمرو) بن مضاض، وبعده إلى أخيه (حارث) بن مضاض، وبعده إلى (عمرو) بن حارث، وبعد وفاته إلى أخيه (بشر) بن الحارث، وبعد وفاة بشر إلى (مضاض) بن عمرو بن الحارث، وانتقل حكم الحجاز فى عهده إلى أيادى الخزاعيين الغالبة.

عجيبة

يحكى أن المستعصم بالله البغدادى كان يملك حجرًا أسود، وأنه كان يجعل الناس يزورونه وكان بجانب ذلك الحجر كمرا، وكان ذلك الحجر فى حجم الحجر الأسود وشكله، وكان الكمر الذى بجانبه مستورا بستارة سوداء مصنوعة من قماش الأطلس.

وكان من آيات نخوة المستعصم أن من كان يريد أن يقابله من السلاطين والملوك لا يلقاه أحدهم قبل أن يزور ذلك الحجر، ويقبله كما يزورون الكمر المستور. وقد أرسل فى عهد آتابك سعيد مظفر الدين أبو بكر قاضى القضاة مجد الدين واسمه إسماعيل إلى المستعصم حاملا رسالة له، وفى اليوم الذى حدد للقاء الخليفة طلب منه أن يزور الكمر والحجر ويقبله مستلما، ولما كان مجد الدين رجلا تقيا فى غاية التقى وزاهدا أراد أن يعود دون لمس الحجر ورؤية

المستعصم، إلا أن رجال الدولة رجوه ألا يفعل، فدخل عند المستعصم حاملا فى يده مصحفا ووضع المصحف فوق الحجر وقبله وهكذا أدى رسالته.

نقل الحجر الأسود إلى ديار هَجَر

انتزع ملاحدة القرامطة الحجر الأسود من مكانه فى ركن الكعبة المعظمة سنة (٣١٧هـ)، وحملوه إلى ديارهم وأعادوه فى سنة (٣٣٩هـ) إلى مكانه.

كان القرامطة قد أخذوا الحجر الأسود ظانين أنه مغناطيس البشر، وأرادوا أن يجذبوا إليهم الناس، ولما سئلوا عن سبب ذلك قالوا: أخذنا الحجر الأسود مأمورين وأعدناه مأمورين إلى مكانه بشرط أن يكون فى المكان الذى وضعه فيه خليل الرحمن.

وقد رأيت أنا المؤلف الفقير أن الحجر الأسود يجذب البشر ـ رؤية عين ـ رأيت أن العربان الذين يقطنون فى أطراف مكة ونواحيها يفرون إلى مكة فجأة، وكلهم يقبلون على طواف كعبة الله والسعى قبل مضى الحجاج إلى عرفات ببضعة أيام ولسان حالهم يقول:

كأن الحجر الأسود فى وجه الكعبة خالا
أنا حاج لتقبيله أسعى إليها حالا

ويقتحمون المكان بقوة لتقبيل الحجر الأسود ولمسه، فى حال يظن الرائى من بعيد أن كثيرا من رءوس الناس تسير فوق العربان، ثم إن العربان يرضون أن يموتوا دون العودة من غير تقبيل الحجر الأسود، أى لا يرضون بالاستلام فقط، أليس هذا كافيا للدلالة على أن للحجر الأسود خاصية جذب الناس، ومن يريد أن يرى قوة جاذبية الحجر الأسود للناس رؤية العين يقتضى أن يكون فوق المحفل الخاص بمؤذنى الشافعية، والكائن فوق مبنى بئر زمزم حينما يفد البدو.

تقول كتب التاريخ وهى تحكى كيفية نقل الحجر الأسود إلى بلاد هجر: قد ظهرت حركة القرامطة فى عهد هارون الرشيد أو المأمون، وعلى قول المقتدر بالله كما سيوضح فيما بعد، ظهرت فى هجر وتجرءوا بعد ذلك تدريجيا على الإضرار

بممالك الشام والعراق والحجاز، إن رئيس هذه الطائفة الباغية الضالة الشقية أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد جنابى، بنى بيتا للضلال فى ناحية هجر[1] فى سنة ٣١٣هـ أو على رأى آخر فى سنة ٣٠١هـ.

وسمى هذا البيت «دار الهجرة» وأراد أن يصيب سوق كعبة الله بالكساد بتحويل طريق الحجاج إلى ناحية هجر، وابتدر للاستيلاء على مكة المكرمة بمن تجمع حوله من الأشقياء الخبثاء، ودخلوا حرم الله دار الأمن على حين غفلة فى يوم الأحد الذى يوافق يوم التروية فى سنة ٣١٧هـ وقتل ثلاثين ألفا[2] من أهل مكة، ومسلمى البلاد الأخرى الذين كانوا فى أرض المطاف والمسجد الحرام داخله وخارجه، وخاصة فى داخل كعبة الله المعظمة، وبعد ما ألقى بأجسامهم فى داخل بئر زمزم وآبار مكة المكرمة الأخرى، ثم خاطب الناس بصوت عال: يا أيها الذين يعتقدون أن من كان فى داخل الحرم آمنا، انظروا لهذا الأمن والأمان، وماذا فعلت بكم؟ وأخذ ينهق مثل الحمار ويهذى بلسان الاستهزاء الملعون.

وفى أثناء ذلك أمسك أحد الموجودين الشجعان بزمام دابة أبى طاهر غير الطاهر وقال له: يا ظالم الله ليس معنى الآية الجليلة اللطيف ﴿ **ومن دخله كان آمنا**﴾ (آل عمران: ٩٧) كما تفهمه، وسكت أبو طاهر غير الطاهر عن الكلمة القذرة، ووجه مطيته نحو باب المعلى لكعبة الله ولم يستطع أن ينال ذلك البطل بضرر. ومع ذلك ازدادت جرأته درجة فدرجة فانتزع بيده ـ شلت يده ـ ألواح كعبة الله المزينة، ونهب ستارة بيت الله وما فى خزانة البيت من الهدايا الثمينة، ووزعها على جنوده الضالين وأمر أحد القرامطة أن يصعد فوق سطح الكعبة لينزل الميزاب الذهبى، ولما رأى أنه قد أسقط على الأرض بسهم أطلق من جبل أبى قبيس أمر بصعود قرمطى آخر.

واللعين الذى صعد فوق سطح الكعبة فى المرة الثانية وقع رأسا على عقب وهلك، وحينئذ عرف اللعين أنه لَنْ يستطيع أن يقتلع الميزاب الذهبى، وأخذ

(١) الاسم الآخر للهجر البحرين.

(٢) قتل ألف وسبعمائة منهم محرمين يطوفون بالكعبة.

يبحث عن حجر مقام إبراهيم ولما لم يجده غضب أشد الغضب، وخرب مبانى بئر زمزم والمبانى الأخرى من الحرم الشريف، وبعد العصر اقتلع الحجر الأسود الأمانة الكبرى وفى يوم الثامن من دخوله فى مكة المكرمة، وعلى قول فى اليوم الحادى عشر منه ثم مضى متجها نحو هجر.

وفى هذا العام لم يستطع أحد أن يكمل حجه ذاهبا إلى عرفات غير بضعة من الذين آثروا الموت غير مهتمين بالحياة.

ولما وصل ذلك الملعون إلى هجر زاعما أنه قد حقق أمله كتب إلى عبد الله المهتدى من الملوك الفاطميين يخبره بما فعل، ويعرض تبعيته له ويذكره فى خطب الجمعة متقربًا منه، ولكنه تلقى منه الرد الذى يستحقه والذى قال فيه: واعجبا، إنك ارتكبت فى بلد الله أنواع الفضائح، ثم اقتلعت الحجر الأسود من مكانه وأخذته معك إلى ناحية هجر فى جرأة بالغة، إنك قد هتكت وأزلت ستارة الكعبة الشريفة التى ظلت معززة ومكرمة منذ العصر الجاهلى، ومع هذا تريد أن تذكرنى فى خطبك ألا فليلعنك الله.

وحينما تلقى منه هذا الرد أعلن عصيانه عليه أيضا، واحتفظ بالحجر الأسود فى هجر اثنين وعشرين عاما إلا أربعة أيام؛ رغبة فى أن يتوجه الحجاج إلى هناك لأجل الزيارة، ولكنه تعرض لحكم القضاء الذى يقول «الجزاء من جنس العمل» إذ أصابه مرض الأكلة[1]، وهلك وألقى فى حفرة البوار.

لاحقة

يروى أن من جملة أوامر أبى طاهر غير الطاهر بقر بطون الجثث وإخراج الأمعاء وملئها بالخمر بعد غسلها.

وقطع ألسنة الذين يطفئون القناديل قائلين «بوف» وإقرار اللواط بعدم الإيلاج بـ (فرطا)، وسحب الذين يولجون بالإفراط على وجوههم وسحلهم ما يقرب من أربعين ذراعًا، وقتل الشبان الذين يمتنعون عن اللواط وتعظيم الزنا.

(١) أكلة: مرض يطلقه الأطباء على السرطان وهذا المرض نوع من المرض مثل جرح ينتشر حوله حتى يهلك المريض.

إعادة الحجر الأسود

إلى مكة المكرمة

ولما رأت طائفة القرامطة بعد هلاك أبى طاهر أن أفكاره غير قابلة للتنفيذ، ولا تروج قرروا إرسال الحجر الأسود مع شخص يسمى ثبير، أو سنبر بن الحسين إلى مكة المكرمة، وعرضوا الأمر على ثبير ونال ذلك القرمطى شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه، إذ وصل إلى مكة فى يوم النحر بعد أن كان قد بدأ رحلته فى أواخر سنة ٣٣٩هـ.

قد سر المكيون أعظم سرور بوصول الحجر الأسود، ووضعوه فى داخل كعبة الله خوفًا من حدوث فجيعة أخرى، وبعده أعدوا طوقًا فى ثقل (٣٠٣٧) درهما ووضعوا الحجر فى مكانه القديم.

وكان السلطان عبد الحميد خان قد جدد ذلك الطوق ومازال عليه طغراء السلطان المشار إليه.

قصة غريبة

قال: ثبير بن الحسين الذى أحضر الحجر الأسود إلى مكة عندنا حجارة سوداء كثيرة فاختاروا من هذه الحجارة حجرًا أسود لكعبة الله. ووضع على الأرض بضعة من الحجارة السوداء، وكانت هذه الحجارة تشبه بعضها بعضا بحيث لا يمكن لإنسان أن يفرق بينها قيد أنملة. لم يستطع أهالى مكة أن يفرقوا بين تلك الحجارة وعرضوا الأمر على أحد الكرام.

وطلب ذلك العالم أن ترمى جميع الحجارة فى داخل حوض الماء، فرسبت جميع الحجارة فى القاع إلا حجر، أخذ يطوف فوق الماء وقال عندئذ هذا هو الحجر الأسود صنوا الجواهر الذى نريده، فأشار بإصبعه إليه، وإذا بالقرمطى ثبير كان قد وضع علامة على الحجارة الأخرى، وقد عاين الحجر الذى اختاره العالم الجليل ثم قال نعم هذا هو الحجر الأسود الذى نقله أبو طاهر إلى بلاد هجر، لأننى كنت وضعت علامة فوق الحجارة الأخرى.

حكمة

بينما كان القرامطة ينقلون الحجر الأسود إلى بلادهم التى يسمونها هجر، قد نفق تحت نقل الحجر الأسود (٣٠٠) جملا قويا فى مقتبل العمر أو (٥٠٠) جمل بناء على رواية أخرى. وعندما أعاد ثبير بن الحسين الحجر كان قد حمله فوق جمل نحيل ضعيف، لم يمت من شدة التعب، بل إنه لم يتعب وسمن وتضخم.

وكان العباسيون لم يستطعيوا أن يردوا الحجر بالحرب مع القرامطة، وأرادوا أن يعيدوه بدون حرب واعدين أبا طاهر بخمسين ألف دينار، إلا أن هذا الملعون الملحد لم يقبل ذلك، ولكن أعوانه حملوه بدون أن يأخذوا شَرْوَى نقير (والله على كل شىء قدير).

مظالم القرامطة الخبثاء وجرائمهم

أول من خرج من طائفة القرامطة هو الملعون «أبو سعيد بن بهرام جنابى. ويقول الذين يعرفوننا كيف ظهر هذا الرجل وأين أوقد نار الشر أولا. إن صاحب مذهب القرامطة ومخترعه هو الخنزير يحيى بن زكرويه، إذ جاء هذا الرجل فى سنة ٢٧٨ أو ٢٨٩ إلى بلدة القطيف[١]. ونزل ضيفا عند على بن يعلى من أعيان البلدة، وأسر له أنه مبعوث من قبل الإمام محمد المهدى، وأن وقت ظهور هذا الإمام قد اقترب وأخذ يدعو أهالى القطيف وسكان الناحية، واستطاع أن يَضُمَّ إليه بعض الجهلة والحمقى من سكان القطيف وسكان ناحية البحرين ويخدعهم، وكما استطاع أن يضم إلى مذهبه أبو سعيد الجنابى من كبار شيوخ القبائل واختفى بعيدا عن العيون.

ثم ظهر مرة ثانية وهو يحمل خطابا مزيفا من قبل الإمام المهدى يتضمن أنه قد أمر بدعوة الناس إلى مذهبه، وأن يأخذ من كل واحد ممن اتبعوه مبلغ ستة

(١) القطيف بلدة فى الجهة الشمالية من مدينة الإحساء وعلى بعد ست مراحل من البصرة، وعلى ساحل الخليج العربى.

دراهم وأربع دوانق[1]، وبعد أن استطاع أن يدخر بهذه الخدعة مبالغ كبيرة من النقود اختفى فترة أخرى، ثم ظهر مرة أخرى وفى هذه المرة أظهر لأتباعه رسالة مزيفة أخرى من قبل الإمام، حيث أمره بأن يأخذ من أتباعه خمس أموالهم ويسلمها له، واستطاع أن يحصل على أموال كثيرة من جميع الأنواع.

واستضيف فى هذه الفترة من قبل أبى سعيد الجنابى حيث حل فى داره المنكوبة، وأراد أبو سعيد أن يكرمه غاية الكرم فأنامه على فراش واحد مع زوجته وقبل أن يكون ديوثا.

وعندما شاع خبر احتفاء أبى سعيد بيحيى بن زكرويه غاية الحفاوة حتى قدم له زوجته لتنام معه فى فراش واحد وغيره من مراسم الإلحاد والإباحة وأخذ الناس يتناقلون سيرته، استدعى يحيى بن زكرويه من طرف رجال الحكومة وأذل وحقر، وبعد فترة طرد من حدود البحرين بعد أن نكل به.

إن هذ الملحد ذو المزاج الكلبى حط عصا ترحاله من بلاده بنى كلاب وحرص على نشر مذهبه الباطل بينهم وزادت قوته بعون بعض الناس والأقوام، فاستولى على أطراف الشام وسفك دماء المسلمين وهتك أعراض نساء الموحدين.

ووصل إلى ذروة البغى والشقوة بارتكاب المظالم والفساد، وعندما وصلت قوة ابن زكرويه وشوكته إلى درجة ترهيب خلفاء بغداد أخذ يكر على دمشق بالشام بدون توقف، وهزم الفرقة العسكرية التى واجهته بقيادة طغج بن جف[2] شر هزيمة، وحاصر دمشق الشام فى سنة ٢٩٠هـ، وإن كان الجيش الذى سيق من الشام قتل ابن زكرويه؛ إلا أن أخا زكرويه حسين حمد تولى القيادة، واستنجد بكثير من القرامطة وشدد الحصار على دمشق، وفى النهاية انسحب بناء على رجاء الأهالى وطلبهم بعد أن أخذ مبالغ كبيرة من النقود، ولكن عندما انسحب من دمشق هجم أتباعه قوائم الخشرات على حلب واستولوا عليها فى

(١) الدانق جزء من ستة أجزاء من الدرهم.
(٢) كان طغج بن جف أمير بلدة دمشق بالشام.

الحملة الأولى. وأعلنوا أن اسم صاحب الشام أمير المؤمنين للعهد، وبناء على التعليمات التى تلقوها أمروا بأن يذكروا اسمه فى خطبة الجمعة.

وبعد هذا النصر اتخذ صاحب الشام ابن عمر عبد الله وليا للعهد، وسماه المدثر وادعى أن المدثر الذى ذكر فى القرآن هو عبد الله الذى سبق ذكره، وأراد بهذه الطريقة أن يخدع الناس ويبسط سطوته ويوسعها إلا أنه لم يوفق.

وهجم صاحب الشام بعد ذلك على حماة بعد حلب والمدن والقرى التى حولها، وأخذ يقتل كل من يصادفه من الأهالى مع أولادهم وعيالهم، وأخيراً وصل إلى بلدة سَلَمْيَة التى استسلم سكانها دون أن يدافعوا عن أنفسهم فقتلهم جميعا حتى تلاميذ المدارس الصغار[1].

لما أزعج ما يرتكبه صاحب الشام من المظالم والغدر مسامع المكتفى بالله البغدادى فتحرك بما جهزه من العساكر الكثيرة من بغداد وتوجه إلى بلد الرقة.

ومن هنا وجه جنوده جف وفرق القرامطة، وتقابل البغداديون مع القرامطة فى مكان يبعد عن حماة اثنى عشر ميلا وبدأت حرب ضروس.

وإن كان القرامطة هربوا من شدة صولة البغداديين غير قادرين على صد هجومهم إلا أن جنود بغداد لم يتعقبوا فلولهم المنهزمة وقبضوا على صاحب الشام وكذلك ولى عهده المدثر[2] وسلموهما للخليفة الذى كان ينتظر النتيجة.

بعد ما قضى جنود الخليفة تماما على القرامطة عاد منصورا إلى بغداد حيث صلب صاحب الشام مع رفقاء له وشهر بهم فى سنة ٢٩١هـ. إن فرقا من القرامطة الذين نجوا من سيوف البغداديين تربصوا فى طريق العراق، وكانوا يسيرون ليلا منها ونهارا، ويهاجمون المارين وعابرى السبيل ويسببون لهم خسائر كبيرة، وكانوا يختفون من الجيوش التى أرسلتها حكومة بغداد فى أماكن خفية.

إن هذه الفرقة الخبيثة قد هاجمت قافلة حجاج العراق فى سنة ٢٩٤هـ،

(١) انظر: تاريخ الطبرى ١٠/ ١٠٠.

(٢) المدثر هذا كان عبد صاحب الشام وهو رومى الأصل.

وقتلت ما يقرب من عشرين ألفا من الأبرياء ونهبت أموالهم. ولما علم المكتفى بالله بهذا الحادث المفجع جهز فرقة عسكرية وساقها ضد الفرقة الحقيرة فتعقبت الفرقة البغدادية القرامطة، وأسرت كثيرين منهم مع قوادهم بعد ما قهرت ودمرت الباقى، ولما كان القائد[1] المأسور للفرقة الباغية جريحا مات متأثرا بجرحه بعد ستة أيام.

بعد ما مات صاحب الشام انتقلت قيادة جماعات القرامطة عامة إلى أبى سعيد بن بهرام الجنابى الذى بدوره جهز أفراد الجماعة الخبيثة، وجمعهم وأخذ ينشرهم كالجراد حول بادية الشام وفى الحروب التى كانت تقوم بينهم وبين الجنود الذين ترسلهم حكومة بغداد ينهزمون أحيانا وينتصرون أحيانا.

وتفرقوا إلى فرق صغيرة وتكاثروا، وأخذوا يقتلون الناس كلهم حيث تطأ أقدامهم. حتى إنهم فاجأوا قافلة من القوافل الحجازية بالهجوم وأعملوا سيوفهم فى أفرادها حتى قتلوا عشرين ألفا من المسلمين، ولم يبق نفر يتنفس.

وقد زاد بعد هذه الفاجعة صاحب الشام من غدره وظلمه حتى استطاع أن ينتزع بلدة القطيف من يد العباسيين بنباح كلاب الإلحاد والإباحة، ثم نهب البحرين ونواحيها وأخذ يتجرأ فى إهانة أهل الإيمان فى صورة مستهجنة.

واستولى على البصرة وملحقاتها وأصبح واليا على حشرات الشقوة التى دخلت فى دائرة الرفض والإلحاد، ووسع دائرة الإباحية و الخيانة[2].

الاستطراد

البحرين مدينة غاية فى المتانة والاستحكام وتقع فى غرب جزيرة البحرين التى تقع فى خليج البصرة فيما بين خطوط الطول ٤١ درجه و ٥ دقائق شرقا، وخط العرض ٢٦ درجة و٢٠ دقيقة شمالا، بطول ٢٥٤ ميلا و٧٠ ميلا من الجهة

(٢) المقصود به صاحب الشام.

(١) راجع فى أخبار القرامطة: تاريخ الطبرى ١٠/ ٢٣ ـ ٢٧، ٦٤، ٧١، ٧٥، ٧٦ ـ ٧٩، ٨٢، ٨٦، ٩٤، ٩٥ ـ ٩٧، ٩٩ ـ ١٥٥، ١٢١ ـ ١٣٣.

الشرقية الشمالية لمكان يسمى لا شر، ويحدها شرقا بحر الفرس، وشمالا إقليم البصرة، وغربا نجد العارض، وجنوبا عمان وسكنتها من سلالة عبد قيس.

وبما أن الأنهار والعيون تكثر فى هذا الموقع تَتَزَيَّنُ أطراف أنهارها بأشجار الحنة والقطن والسوسن، وكل مكان يحفر فيه قدر ذراعين يخرج منه الماء، ومن يشرب ماءها تصفر ملابسه، وفى هذه البلاد فاكهة مختلفة ولاسيما البلح والأرز متوفران، والسكان يذهبون للتنزه فى الأيام الحارة للحدائق التى تبعد ما يقرب من ميل واحد. فى هذه البلاد رمال متحركة، والتى يطلق عليها بحار الرمال، وما يرى هناك اليوم جبال تراه فى يوم آخر أرضا منبسطة، وما كان اليوم معمورا تراه فى الغد خرابا.

والطريق الواسع الذى يبدأ من البحرين تطمسه الرمال فيستحيل السير فيه، لذا يذهب الناس ويأتون عن طريق البحر.

كان البرتغاليون قد استولوا على ممالك البحرين قديما والآن فى يد الشيخ «أبو شهر» ومع هذا فلا يطلق البحرين على الجزيرة فقط بل يطلق على الجزر الأخرى التى تحيطها، والتى يستخرج سكانها اللآلىء من البحر، وهناك إقليم يمتد إلى الغرب ويطلق عليه البحرين أيضا، وذلك لاتصال البحيرة التى بالقرب من الإحساء ببحر الفرس. انتهى.

بينما كان أبو سعيد يخرب القرى والبلاد لنشر مذهب الإلحاد ساق المقتدر بالله العباسى الذى كان خليفة فى تلك العهود عددا من الجنود بقيادة «عباس بن عمرو الغَنَوِىّ» ليفرق جمع أبى سعيد. وانتصر أبو سعيد عليهم وأسرهم جميعا ثم قتلهم جميعا، وأبقى عباس حيًا، وقال: يا عباس إننا القرامطة أناس نعيش فى الصحارى والفيافى ونقنع بالقليل لأنا لسنا طامعين فى الاستيلاء على البلاد، فإذا جمعت جميع جنودك وسقتهم على، أقسم بالله بأننى أنا المنتصر، إن جنودنا يتحملون المشاق ويعتقدون أن حياة الرفاهية حرام، قد تعود جنودكم على قضاء أوقاتهم فى راحة ورغد عيش والتَّنَعُّمَ بما طاب من الطعام ولذ فى ظل الخليفة،

فإنهم لا يستطيعون القتال، فإذا ما خرج جنودكم فى الصحارى تاركين راحتهم يموتون مثل السمك الذى خرج من الماء.

والعساكر الكثيرة الذين سقتهم علينا مثل النمل قد أصابهم التعب والضعف منذ خروجهم من بغداد، وانهزامهم فى أول حرب أكبر دليل يؤيد رأيى، إذا ما أرسلتم جنودا أشجع ممن أرسلتم وأكثر مما سأجهزه أنا من العساكر فإننى أهرب من أمامهم بعد أن أتعبهم، كما أننى أتصدى لهم فى مضيق ضيق فأقطع خط رجوعهم، وأهزمهم وأولى بكم ألا تشغلوا أنفسكم بى، ولا تهلكوا جنودكم عبثا، وقد حقنت دمك حتى توصل هذه الأقوال بالتفصيل إلى الخليفة، دون أن تنقص منها كلمة ثم أطلق سراحه وخَلَّى سبيله.

وقد عاد عباس بن عمرو الغنوى إلى بغداد وهو فى شدة الحيرة من نجاته من يد أبى سعيد. ولما أبلغ عباس ما قاله أبو سعيد إلى المقتدر بالله بالتفصيل خاف الخليفة، واضطرب ولم يستطع أن يذكر اسم القرامطة بلسانه مدة طويلة.

ومع هذا استطاع أن ينقذ أهالى الكوفة من اعتناق مذهب القرامطة، إذْ ظهرت جماعة من القرامطة وأخذوا فى إضلال الناس فى الكوفة، وبعث الخليفة بجنود من مركز الخلافة وقوة عسكرية قضت على هذه الجماعة.

وانتقل أبو سعيد فى سنة ٣٠١هـ إلى دار البوار[1] بعد أن ارتكب كثيراً من الجرائم إلى تلك السنة تاركا ميدان الخباثة والشقاء إلى ابنه الكبير سعيد.

وتولى ابنه سعيد مكانه بعد وفاته، إلا أنه ما كان يشبه أباه فى إلحاق الأذى بالناس، فتولى تدبير الأمور ابنه الأصغر سليمان أبو طاهر، وكان ظلوما غشوما سفاحا، فاستولى على الإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ونواحى هجر، وبعد أعوام عشرة أغار ليلا على مدينة البصرة، وأثناء مقامه فيها سبعة عشر يوما قتل كل من صادفه، وأعمل السلب والنهب فى الناس جميعا، وكان ذلك عام ٣١١هـ، وبعد عام من تلك الواقعة المؤلمة أغار على قافلة الحجاج ونهبها.

(١) يقول الذين يروون كيفية هلاك هذا الرجل: كان أبو سعيد قد دخل الحمام فى خلال السنة المذكورة فضربه أحد خدمه الذى عانى من سوء معاملته على رأسه بفأس وقتله.
إن هذا الخادم بعد أن قتل هذا الخبيث قتل أربعة من رؤساء القرامطة ولما شاع هذ الخبر قتل هذا الخادم.

وكان يسلك الذكور والإناث فى السلاسل على نحو بشع مهين، وألحق الهزائم بمن تصدى له من الجند وكان ذلك عام ٣١٢هـ، وبعد إغارة أبى طاهر على قافلة الحجاج هجم على معظم سواد الكوفة، وأعمل السيف فى الخلق فى ظرف ستة أيام، أقام فيها ونهب واغتصب كل ما وصلت إليه يداه فى سنة ٣١٣هـ.

وعندما عرض الأمر على المقتدر بالله استصوب أن يوجه ضد أبى طاهر فرقة عظيمة من الجيش بقيادة يوسف بن أبى الساج. كان يوسف فى ذلك الوقت فى أذربيجان، وبمجرد ما أخذ أمر الخليفة توجه إلى الكوفة بجنوده الذين كانوا مهيئين. وكان قوام جيش ابن أبى الساج أربعين ألفا، أما جيش أبى طاهر فكان ألف وخمسمائة جندى منهم سبعمائة فارس.

ودخل يوسف بن أبى الساج المغرور بكثرة عساكره، وحاصر القرامطة فى موضع حصين ووجه سفيرا برسالة إلى أبى طاهر ليحدثه عن كثرة جيشه، ويوصيه فيها بالدخول فى طاعة الخليفة. فقال أبو طاهر لأحد أتباعه اقتل نفسك بسلاحك من أجلى، وبعد أن افتدى هذا الكلب «أبا طاهر» بالروح، قال للرسول لقد رأيت بعينيك كيف يطيعون أوامرى!! قل ليوسف أن يستعد، وبإذن الله سأقبض عليه غدا وأربطه مع الكلب فى حبل واحد، وأشار إلى الكلب الذى كان مربوطًا بوتد خيمة.

وصرف الرسول وفى غد ذلك اليوم استطاع أنْ يقبض على يوسف بن أبى الساج مع أتباعه، وربطهم فى سلسلة ضخمة، وربط يوسف بجانب الكلب الذى أراه للرسول.

بعد أن كسب أبو طاهر هذه المعركة بهذا الشكل عبر نهر الفرات بثلاثمائة قرمطى، واستولى على بلدة الأنبار[1] التى تقع فى الجهة الغربية من بغداد دار

(١) الأنبار مدينة صغيرة فى الجهة الغربية من نهر الفرات، وكانت قديما مدينة عظيمة وبانيها بختنصر، ويقال إن أهل الحيرة نقلوا إليها، فى العام الثانى عشر للهجرة، وفتحها خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ فى خلافة الصديق ـ عليه رضوان الله ـ وفى عام مائة واثنين وثلاثين نقل أبو العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس إدارة الدولة من الحيرة إليها، إلا أن المنصور اتخذ الهاشمية ثم بغداد عاصمة للدولة.

الخلافة وفوقها بستين كيلو متر. استولى عليها بالقوة وهزم الجيوش التى أرسلت ضده مرتين، وقتل يوسف بن أبى الساج الذى أسره مع رفقائه، وهكذا ألقى الرعب فى قلوب الناس الفزعين، وبعد أن فرض على كل فرض من أهالى الأنبار خراجا دينارا توجه نحو الأراضى الحجازية المباركة بنية الاعتداء على مكة المكرمة، وهجم على المسجد الحرام وداس بقدميه المشئومتين حرم المسجد الحرام توأم الجنة كما سبق ذكره، وقتل ثلاثين ألفا من الأبرياء، وأكثرهم ملتفون بملابس الإحرام وبعضهم فى داخل كعبة الله، وبعد أن هدم مبانى ذلك البلد الغالية وخربها اقتلع الحجر الأسود وعاد إلى بلدة هجر فى سنة ٣١٧هـ.

وقد دامت نار شرور القرامطة مندلعة تتأجج من سنة٣٠١هـ إلى سنة ٣٧٣ هـ وفى رأى إلى عام ٣٨٤. استطاع فيها القرامطة إغواء كثير من الناس، وأدخلوهم فى زمرتهم ومذهبهم، وأغار هؤلاء على البلاد وقتلوا ونهبوا وهدموا، إذ خربوا الكوفة سنة ٢٧٨، والبحرين سنة ٢٨٦، والشام سنة ٢٨٩، ودمشق ٢٩٠، والشام مرة ثانية سنة ٢٩٣، والبصرة سنة ٣٠٧ هـ، والكوفة سنة ٣١٣، الأنبار سنة ٣١٥، وبعد ذلك بعام الرحبة والرقة والهيط، ومكة المعظمة سنة ٣١٧، ودمشق مرة ثانية سنة ٣٦٠ هـ، وهجموا على هذه البلاد وقتلوا سكانها وخربوا منازلها وأخلوا بنظام الأمن فى تلك البلاد.

واستأصلوا حجاج قوافل العراق فى السنين ٢٩٤ و٣١٢ و٣٥٥[1] و٣٦١[2]، كما أنهم أغلقوا طريق بيت الله العتيق طريق الفيض والنور فى السنين ٣١٤ و٣٥٦ و٣٦٣ و٣٨٤، ووصلوا إلى الذروة فى فن الإجرام إذ منعوا أداء فريضة الحج مدة تسع سنوات لعنهم الله.

كيفية ظهور طائفة القرامطة

يروى المؤرخون على اختلاف آرائهم أن ظهور القرامطة كان فى عهد الرشيد أو المأمون، ولم يظهروا إلا بعد أن تشكل كيانهم، وكانوا قبل ذلك يفسدون

(١) وفى سنة ٣٦١ اتفق عربان بنى هلال مع القرامطة.

(٢) اتفق فى هذه السنة عربان بنى سليم مع القرامطة وأغاروا على قوافل مصر وقوافل الشام.

عقول البلهاء والحمقى وأهل الغفلة بضلالهم فى الخفاء، ثم وسعوا نطاق دعوتهم شيئا فشيئا.

وقد تضاربت الأقوال بعض الشىء فى أسباب ظهور القرامطة ومكان ظهورهم، وكيفية ظهورهم، كما وقع الخلاف فى تعيين وتحديد مبادئهم، وفى هذا أدلى كل واحد برأيه وقال قولته، وها هى ذى طائفة من المؤرخين الذين كدوا أذهانهم وأتعبوا أنفسهم يقولون: «إن أول من لوث الساحة من القرامطة كان رجلاً ادعى النبوة، واتخذ لنفسه كتابا زعم أنه من الكتب السماوية محاولا أن يصدقه الناس».

وقال بعض المؤرخين: «إن أول من أعلن وجوده من ملاعين القرامطة شخص ادعى هذا الشخص أنه من الأئمة الإسماعيلية، وأنه مرسل من قبل الإمام المهدى، وأراد أن يقنع الناس بما يدعيه».

ويهذه الرواية أو تلك يستبين لنا أن المذهب الذى نشره القرامطة وأشاعوه مذهب باطل، وأنه عبارة عن توصية للعمل بمبادئ الكفر والضلالة والإلحاد والإباحية، ولكننا لما رأينا أن الرواية الثانية أقوى دليلا وأمتن رواية رأينا أن نكتفى ببيانها.

سبب تسمية القرامطة بهذا الاسم

على نحو ما اختلف المؤرخون فى نشأة القرامطة وكان اختلافهم فى أصل تسميتهم، ففى بعض الروايات أن سبب تسميتهم بالقرامطة يرجع إلى من يسمى بأبى سعيد الجنابى القرمط، ذلك الملحد الذى سلك بهم سبل الضلال، وكان قصير القامة لا يدين بدين وكان يقارب بين قدميه فى السير، فسمى الذين اقتفوا أثره من الرفض والإلحاد والإباحة بقرامطة.

وفى رواية أخرى: كان رئيس هذه الطائفة قميئا كريه الخلقة، وكان يتجول من قرية إلى قرية لنشر دعوته، ولما بلغ قرية من قرى الكوفة اشتد به المرض فنزل بدار من يسمى «كرميتة» ومعناه ذو عيون حمراء، وراح فى سبات، ولما استيقظ وقام على رجله من مرضه سمى باسم صاحب الدار، ونودى بشيخ الكرامته وبعد ذلك خففت لفظة «كرميته» وعربت فصارت قرامطة.

وفى رواية ثالثة: أن عظيما من هذه الطائفة كان يكتب خطا دقيقا متقارب السطور، واشتهر بذلك أى كان مقرمط الخط، فسميت الطائفة المذكورة بالنسبة له قرمطى.

مذهب القرامطة وطقوسهم

وإن كانت طائفة القرامطة الملاحدة الخبيثة يعترفون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ وأعلنوا فى الظاهر انتماءهم لمذهب الإسماعيلية، ولكنهم فى الباطن كانوا يحلون المحرمات، ويسفكون دماء المسلمين، كما أنهم كفروا من ليس على مذهبهم، ومن كلمات الكفر التى تنسب إليهم قولهم: لما كان المنى أطهر من البول فلماذا يجب الغسل بعده ولا يجب بعد التبول؟

إن أداء الفرائض الخمس عندهم طاعة أئمتهم المعصومين، وإطاعة أوامر الذين يمنعون وينهون عن طريق الإلحاد والكفر والإباحة من غيرهم بعد البحث عنهم، والزكاة عندهم إعطاء الإمام خمس المال وفى رواية أخرى تزكية النفس بالتفوه بكلمات الإلحاد، «والصوم» عندهم حفظ أسرار المذهب وكتمها، والزنا عندهم إفشاء أسرار المذهب بدون مقابل، ومع هذا يدعون أنهم يقتدون بالملائكة ويخالفون الشياطين.

ويكنون بالوضوء عن محبة الإمام ومصاحبته، والاحتلام هو كشف الأسرار لمن ليس لها أهل، والكعبة والصفا كناية عن النبى، والمروة كناية عن باب على، والتلبية كناية عن إجادة المخاطب، والطواف كناية عن حب الأئمة كذلك، والجنة كناية عن الاستراحة من التكاليف الشرعية، والجهل كناية عن اختيار مشقة التكاليف الشرعية، يطلقون على حدة الذين ينسلخون عن الدين كليا «الخلع»، والخروج عن الدين «السلخ» والذين يصلون لهذه المرتبة يباح لهم جميع المحرمات، ولا شك فى أنهم يعترفون بالكفر والإلحاد.

ومن جملة معتقداتهم الباطلة استحلال شرب الخمر، وعدم الاغتسال بعد الجنابة، وحصر الصوم فى اليومين (فى يوم المهرجان والنوروز)، واعتبار الحج

إلى القدس فرضا، وإضافة قولهم (أشهد أن محمد بن الحنفية رسول الله). كل هذه من جملة اعتقاداتهم الباطلة.

وبناء على ما جاء فى تاريخ نظام الملك بالتفصيل: إن طائفة القرامطة الحقيرة أينما ظهروا وأينما امتدت نار شقاوتهم وأينما حلوا فى الآفاق ظهروا بأسماء مختلفة، فمثلا عرفوا فى حلب ومصر بـ« السبعية» وظهروا فى بغداد وما وراء النهر باسم «قرمطى»، وظهروا حول الكوفة باسم «مباركى» واستولوا على البصرة باسم «روندى، برقعى» وعلى الشام باسم «المبيضة» وذكروا باسم «سعيدى» عندما هجموا على أرض المغرب، والجنابى فى الإحساء والبحرين.

وفى أصفهان «الباطنية»، وأسماء «حرمية، بابكية ومحمرية» من الأسماء الخاصة بتلك الطائفة، وسبب تسميتهم بالحرمية لأنهم أحلوا المحرمات، و«بابكية» لأنهم اتبعوا أحد الخارجين الذى يسمى «بابك»، و«المحمرية» لأنهم ارتدوا ملابس حمراء فترة حينما اتبعوا «بابك».

والسبب فى عد القرامطة أنفسهم من الطائفة الإسماعيلية هو لعين اسمه «عبد الله بن ميمون» الذى كان من قرناء عبد الإمام محمد بن إسماعيل، والدنئ كان يسمى مبارك، وكان الإمام المذكور قد زار بغداد فى أيام هارون الرشيد.

وبعد ما مات الإمام محمد بن إسماعيل، أخذ عبده مبارك يتجول هنا وهناك حزينًا مغمومًا، ويسكب الدموع حيثما حل، وكان مبارك هذا حريصًا على أن يكتب بخط باربك فعرف بين أقرانه بقرمطى. وعرض عبد الله بن ميمون ـ سالف الذكر والذى كان من أفراد قبيلة أهواز ـ صداقته على مبارك، واستطاع أن يكسب ثقته بإظهار الصلاح والزهد ولازمه، بالتدريج استطاع أن يقنعه بأقواله.

وقال له يوما: «يا مبارك إن ولى نعمتك وسبب جاهك هو الإمام محمد بن إسماعيل كان صديقى الذى يطلعنى على جميع أسراره، ويطلع على جميع أحوالى، وكم أطلعنى فى حياته على كثير من الأسرار، وكم من علوم لقننى، هذا ما لا تعرفه أنت، ولا من كان متصلا به» وانخذع مبارك بأقوال عبد الله وصدقه، وطلب منه أن يعلمه تلك الأسرار والعلوم فعلمه حروفا معجمة،

وكلمات غير مسموعة وكلمات من أقوال الفلاسفة والأئمة، فمضى مبارك إلى الكوفة وعبدالله إلى كوهستان وأطراف العراق حيث أخذا ينشران طقوس الإباحة[1].

صورة ترتيب الفقهاء

يختار مجلس الشورى الذى ينعقد تحت رياسة شريف مكة عبد الله باشا الفقهاء الذين سيتم تعيينهم وإرسالهم إلى القرى، وفى هذا المجلس يوجد أشخاص يعلمون أحوال الولاة ووجهاء البلدة و السادات الأشراف وقبائل العربان.

هيئة الشورى:

بعد تحديد عدد القرى التى تحتاج إلى تعيين الفقهاء يتم انتخاب الفقهاء ويحول أمرهم إلى رأى رئيس العلماء ويقوم المشار إليه هو والهيئة التى معه بكتابة أسماء الفقهاء و انتخابهم ويقدمهم إلى الهيئة المحترمة.

ولو توفى أو استقال أحد الفقهاء الذين تم تعيينهم يتم تعيين فقيه آخر محله بواسطة رئيس العلماء أى أن تعيين فقيه آخر يتم بعد صدور الأمر من أمراء الولاية الجليلة وهيئة الشورى ولقد ذكر فى الجداول التالية أسماء الفقهاء الذين تم تعيينهم عام ١٢٨٥.

وهذا الجدول يوضح اسم القرى التى عين فيها الفقهاء والقبائل التى تسكن فى هذه القرى.

جدول الفقهاء

أسماء الفقهاء	أسماء القرى	أسماء القبائل	ملحوظـــة
الشيخ عبد الرحيم باقيس	دار الغربة		من هذه الثلاث عشرة فى الجهة التى تقع فى ناحية مكة المكرمة من الطائف وعلى ثلاث ساعات منها وعلى سفح الجبل الذى يقال له جبل الفرا والذى يبعد عن مكة المكرمة خمس عشرة ساعة وعلى ظهر هذا الجبل موقع يسمى هدا والقرى المذكورة فى أطراف هذا الموقع وفى القرية التى تعرف بـ«دار البيضاء» مسجد أثرى.

[1] لمزيد من المعرفة انظر: العصر العباسى الثاني، للدكتور شوقى ضيف ص ٣٣ - ٤٢ (سلسلة تاريخ الأدبى العربى ٤).

الشيخ أحمد بن قاسم	مصر وحوله		
الشيخ مهدى اليمانى	الكمل النبى		
الشيخ عبد القادر المغربى	الخضرة		
الشيخ محمد مكى	دار البيضاء		
الشيخ محمد بن طالب	ملتوى		
الشيخ حمد المغربى	مبيريز		
الشيخ أحمد باوزير	مملكة		
الشيخ فخرى الصخرى	بنى صخرة	قريش	
الشيخ صالح باقيس	أعمق		
الشيخ محمد باعماد	غديرين		
الشيخ صالح السيفانى	شرقة	بنى خديله	
الشيخ عبد القادر باقيس	خليصة	خديلة	
الشيخ على المغربى	شريف		
الشيخ إبراهيم المغربى	قده		تقع هذه القرى فى جهات الشرق والشمال وعلى بعد ساعة أو ساعتين من الطائف.
الشيخ حامد المغربى	صفاء صد عين		
الشيخ محمد بن المهدى	غنامين نحاتين		
الشيخ عبد الرحمن الفقية	بلاد بن شريان		
الشيخ إبراهيم البكرى	عرج	عتيبة	
الشيخ أحمد العبادى	شرب		
الشيخ عبد الحفيظ الريدى	عيلا		
الشيخ سفر بن سفر	جليل		
الشيخ محمود بن سالم المشولى	نخب		
الشيخ سعيد بن ناصر	مليسة	ثقيف قرآن	
الشيخ على بن قنا	سويد		
الشيخ قامد اليمانى			
الشيخ محمود المنصورى	مسجد الهادى		المسجد الهادى[1] ومثناه ووهط على بعد نصف ساعة من الطائف وفى مكان كثير المياه والبساتين وأهل الطائف يخرجون إليهما متنزهين. وهذه القرى تقع فى جهة الجنوب من الطائف وعلى بعد ساعتين أو ساعة منها. وبين قرية ال مقبل وقرية عبلة تمتد عشر قرى وتقع جهة الغرب بعد أربع أو خمس ساعات من الطائف ولها شهرة واسعة بالعقارب والحيات وقريتا زيما وسولة اللتين مسكنهما قبائل قريش.

(١) لما كان بانى هذا المسجد شخص يقال له هادى فالقرية معروفة باسمه.
وسيدنا عكرمة الصحابى ـ رضوان الله عليه ـ مدفون فيها.

			أول مرحلة بيات للمسافرين من مكة إلى الطائف والقرى الأخرى واقعة بجانب وادى فاطمة.
لشيخ عبد العاطى أبو حربة	مثناه	بنى ثقيف	
الشيخ سعيد بن على المخارى	وهط		
الشيخ محمد بخروس	قلمة		
الشيخ عبد الواحد الحديدى	زوران	عتيبة	
الشيخ صالح بن سعيد	بسل		
الشيخ عبد اللطيف الحديدى	كلاخ		
الشيخ على بن محسن اليمان	دار الغنم	بنى ثقيف	
الشيخ نخيل الشمالى	صخيرة		
الشيخ سيف الدين اليمانى	بنى سالم	بنى سفيان	
الشيخ صالح بن عبيل	آل مقبل ، آل زايد	آل زايد	
الشيخ عيسى بن موسى	آل طول	شمالة	
الشيخ سالم بن عوض	آل ساعد	آل خديعة	
الشيخ غالب بن قارع	آل حجة		
الشيخ محمد رحيم	آل مساعد		
الشيخ على بن عمر المعامدى	آل عايشة		
الشيخ صالح بن سميح	بجيدى بنى عمر طلحات آل خالد		
الشيخ خالد اليمانى	ريما	عتيبة	إن معظم قرى قريش هذه جار ماؤها كثيرة منابت نخيلها بها أشجار الليمون والنارنج ومن ثم يخرج إليها أهل مكة للتنزه ولاسيما إلى تنسم طيب نسيمها وتتفاوت هذه القرى والقرى الأخرى فى حجمها ومدى استبحار عمرانها. فمنها ما يشمل ثلاثة أو خمسة أو عشرة منازل ومنها ما يضم أربعين أو خمسين منزلا وإن كان عدد سكانها وعمرانها فى تزايد وأكبر هذه القرى قرى: الدار البيضاء، ووادى فاطمة والحسينية وهق وأجواؤها أطيب من جوزيما وسولة ومضيق حسين، وشنابره فى السعدية والقرى التى تسمى شنابرة تلك تعد مقرا للأشراف والسادات.

الشيخ صالح بن جمال	سولة	فى وادى هرامز	
الشيخ عباد بن صالح	كضيق		
الشيخ محمد بن أحمد موسى	حدا		
الشيخ أحمد العباس	هدا		
الشيخ عبد الرحمن الزبيدى	بلاد بنى	عند بنى ربيع	
الشيخ بشرى الحيرتى	عمر		
الشيخ زين العابدين جمال	عمر		
الشيخ صالح بن شعيب	برابر محمية		
الشيخ وهق بن رشيدان	حراجل	فى السعدية	
الشيخ أحمد الكليبى	الفرع		
الشيخ صديق بن عبد القادر	أبو شعيب		
الشيخ عبد الله باسميح	حميد		
الشيخ إبراهيم حسينية	الخادم		
	هنابرة		

الأثر الرابع عشر: باب الجرير

ويسمى كذلك (باب القفص) وهو الباب العالى المسمى باب النبى، وهو مكان يستجاب فيه الدعاء على حد قول أبى سهيل النيسابورى.

ولا يعرف الوقت الذى ينبغى فيه الدعاء فى هذا الموضع، ويقول الصالحون من الأسلاف: كلما سنحت الفرصة اذهب وادع بجواره.

الأثر الخامس عشر: بيت خديجة الكبرى السعيد

وهو فى سوق الصاغة الذى كان يطلق عليه زقاق الحجر، وكان يسمى زقاق العطار قديماً، وكان دار خلوة رسول الله ﷺ.

وحين الهجرة النبوية وهب لعقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وبعد ذلك أخذه معاوية ووسعه وحوله إلى مسجد، وفتح له بابا يؤدى إلى منزل أبيه أبى سفيان.

بيت أبى سفيان ذاك صار مستشفى للغرباء فى عصر السلطان عبد الحميد. وقد حول بيت زوج الرسول خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ إلى مسجد

باسمها، وقد رممه الملك المظفر اليمانى والناصر العباسى وملوك الشراكسة المصرية، وملوك اليمن على هيئته القديمة.

وفى عام ٩٣٥ هـ عصر سليمان بن سليم عصر البر والإحسان رمم على هيئته القديمة، وأقيم عليه قبة عظيمة، وبنى فى داخله محرابان وفى سنة ١٠٤٣ جدد ما يستحق تجديده.

وكان داخل القبة التى أقامها السلطان سليمان فى سنة ٩٥٣هـ (١٤٤) قدما مربعا، وكانت كل جهة من جهاتها الأربع اثنى عشر قدما.

وولدت سيدة النساء فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) فى الحجرة المنيرة التى تقع فى الجهة اليمنى من الدار السعيدة. ولأن مولد السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان فى تلك الحجرة المنيرة المتصلة بالجهة اليمنى من هذا البيت المسعود، فقد عين موضع مولدها فى وسط هذه الحجرة بحجر أبيض مستدير ناقص الشكل، ووضع فى كوخ مكتس بالخضرة.

إنه موضع مبارك تحت قبتين جميلتين فى تلك الحجرة العريقة، وطول هذا الموضع من الشمال إلى الجنوب ثمانية أقدام، ومن الشرق إلى الغرب خمسة عشر قدما. وقد حمى الكوخ الذى بنى لمشاهدة الموضع المنير الذى ولدت فيه السيدة فاطمة بما يقرب من ٣٥٧ عام، وذلك بفضل الإصلاحات والترميمات الجزئية التى كانت تجرى من آن لآخر، وبالرغم من ذلك تخربت تلك الترميمات، وبات من اللازم هدمها كلها، حتى أن جدران بيت خديجة ـ رضى الله عنها ـ أصبحت محتاجة إلى الترميم والإصلاح، وفى عام ١٢٩٦ حول أحمد أفندى مدير المسجد الحرام الكوخ المذكور إلى شبكة مصنوع من خشب الساج، وأصلح ما مست الحاجة فيه إلى الإصلاح من جدرانه المسقوفة، ووضع صندوقا فوق الحجر الأبيض الذى يشير إلى موضع مولدها، وغطاء يستر المكان من الحرير المزركش.

وأمام الكوخ المذكور جدار باهر الأنوار يرتفع بمقدار ذراع، ويتصل بهذا الجدار من جهة الجنوب بصفة، يعلو هذه الصفة حجر مدور يميل لونه إلى السواد، يقول بعض أهالى مكة المكرمة أن هذا الحجر هو الرحى التى كانت السيدة خديجة تطحن بها القمح.

ويتصل بالجدار الشمالى للمسجد الشريف حجرة مقدسة كذلك، ولما بات من المعلوم ـ من خلال آثار موثوقة الدلالة ـ أن هذه الحجرة كانت خاصة بعبادات النبى ﷺ وطاعاته، أشير إلى موضع سجوده ﷺ بحجر من الماس مسدس الشكل قطره كقطر إصبع اليد، ووضع هذا الحجر وسط المحراب.

الأثر السادس عشر: مولد النبى

بيت يقع فى الجهة الشرقية لمكة المكرمة وفى شارع شعب أبى طالب الذى يسمى الآن: شعب بنى هاشم وزقاق المولد.

وهى دار ميمونة تقع فى سوق الليل وكانت تُعْرَفُ فى عصر النبوة بـ «دار التبابعة». ومن العادات القديمة أن يخرج العلماء والأعيان الكرام من المسجد ويذهبون إلى الدار المذكورة موقدين المشاعل والقناديل، وبعد إقامة مراسم الطاعة والعبادة يعودون إلى حرم كعبة الله.

ومن العادات المتفرعة من الحفاوة بمولد النبى أن يقوم الناس بعد عودتهم من دار مولد النبى بالوقوف خلف المقام الشافعى وأمامهم الشخص الذى يتولى رياسة الروم بالدعاء للسلطان، وبعد أن يلبس بعض كبار الحاضرين الخلع حسب قواعد المراسم يصلون صلاة العشاء ثم يعودون إلى منازلهم.

ولم تكن هذه العادة قائمة إلى عهد السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع ولم تكن تلك الاجتماعات تنعقد فيه، فلما أراد السلطان المذكور أن يستزيد من الغفران وأن ينال الشفاعة النبوية قام باستحداث هذه الاجتماعات

واتخذها عادة ميمونة، لأجل ذلك ينعقد فى مكة المكرمة فى الليلة السابعة عشرة فى رمضان اجتماعات عظيمة بغية تعظيم بعثة نبى آخر الزمان ﷺ، كما تجتمع جماعات كثيرة فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول للاحتفال بمولد رسول الله ﷺ، فى المدينة المنورة وفقا لرغبة السلطان.

ولعقد هذين المجلسين أمر السلطان بمنح ٣٣٠٠ قرش سنويا من ريع مقاطعة مصر للإنفاق على إقامة ذلك الاحتفال. وقد صدر ذلك الأمر السلطانى فى سنة ١١١٣هـ، واستمر إجراء ذلك الحفل الميمون والاحتفالات السنية فترة ما، والآن تجرى الاجتماعات فى ليالى الثانية عشرة من ربيع الأول لسبب ما.

ومازالت نفقات هذين الاجتماعين ترسل من الخزانة المصرية إلى يومنا هذا ومازالت الاحتفالات تجرى وفق ما ذكرنا آنفا.

وقد ذكرنا فى المقال الثالث من الفصل الحادى عشر من مرآة المدينة كيفية الاحتفالات بالمولد النبوى السعيد.

وكانت العادة المرعية بين أهالى مكة المكرمة فى ليالى رمضان أن يقرأوا القرآن الكريم فى صلاة التراويح. وكان الإمام الحنبلى يختم القرآن فى الليلة الحادية والعشرين من رمضان، وفى الليلة الخامسة والعشرين الإمام الشافعى، وفى الليلة السابعة والعشرين الإمام الحنفى، وفى الليلة التاسعة والعشرين الإمام المالكى فيختمون القرآن بعد تمام قراءته.

وكان أتباع الإمام الذى سيختم القرآن يزينون المسجد الحرام بمصابيح وقناديل وفوانيس مختلفة، ومازالت هذه العادة قائمة ولكنها لا تنحصر فى أئمة المذاهب الأربعة .لأن الذين يريدون أن يختموا القرآن يتفقون فيما بينهم ويصلون فى جماعة منفصلة، ومع هذا تعقد مجالس عظيمة فى ليلة ختم القرآن الكريم.

وفيما مضى كانت تعقد المجالس فى ليلة ٢٧ من رمضان فى الجهة الشرقية

للحرم الشريف وأمام المحكمة الشرعية، ويقرأ دعاء ختم القرآن وعقبه يوزع على الحاضرين الكرماء الشراب الحلو ثم يتجهون إلى البيت المعظم حيث يدعون الله، ويحضر هذا المجلس الأشراف العظام والسادات الكرام والعلماء الأعلام، ويوزع نائب الحرم الشريف حلو الشراب، وفى أثناء الدعاء يظل باب الكعبة مفتوحا، ومازال هذا المجلس المشكور يجتمعون إلى الآن، كما سبق ذكره ومازالت تلك الإجراءات مرعية الجانب.

الأثر السابع عشر: سوق الليل

إنه مكان فى غاية اليمن والبركة لأن مولد النبى، والدار التى ولد فيها على كرم الله وجهه، ودار الصديق الأكبر فى هذه السوق وفى كل جهاتها آثار مباركة ظاهرة.

إن عينيك تنبت جنة من سوق المال ورافع الشوك من طريقه يعجب بالورد
تطلع الشمس التى تنير الدنيا منه كما امتلأت منه روضة الرضوان
ومن عجب أن هذا أصبح مقاما ومنزل قرص الشمس والبدر
إن منزل الزهرة فى هذا الشعب وهو على بعد قدم أو قدمين من الصديق
إن المشترى والشمس والقمر اقترن بعضها ببعضها الآخر
فهذه المحلة كلها مرتفعات ومنخفضات وفيها يهادى سرو الدلال

«فتوح الحرمين».

الأثر الثامن عشر: دار الخيزران

كان يعرف هذا المكان عند الأوائل من المسلمين بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى.

إن هذه الدار النيرة تقع فى الجهة الشرقية من جبل الصفا فى اتصال دار بنى شيبة وفى زقاق ضيق. إن هذا الموقع أفضل من كل الأماكن وأقدسها فى مكة المكرمة ما عدا دار أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها.

دار الأرقم:

هذا المكان المقدس هو المكان الذى كان يجتمع فيه النبى ﷺ مع تسع وثلاثين من صحابته خفية، قد تشرف عمر بن الخطاب باعتناق الإسلام فى داخل هذه الدار، واكتمل به عدد الصحابة أربعين صحابيا.

وانتقلت تلك الدار إلى ملكية والدة هارون الرشيد الخيزران[1] وقد اشترتها ولشدة تعلقها وحبها لهذه الدار اشترت الدور المجاورة لها وألحقتها بهذه الدار.

وانتقلت الدار بعد ذلك من يد إلى أخرى حتى وصلت إلى أشراف بنى حسن، وفى نهاية الأمر انتقلت إلى ملكية دفتردار مصر القاهرة إبراهيم بك، فأهداها إلى السلطان سليم خان الثانى عليه رحمة الله فجددها نجل ذلك السلطان وهو السلطان مراد خان الثالث على شكل مسجد فى سنة ٩٩٩هـ.

وحينما أراد أن يجدد ذلك المسجد مصطفى جاويش الذى كان يشغل منصب أمانة البناء وكان أمين بناء جدة، قد استدعى إلى باب السعادة، وبهذا لم يستطع أن يأخذ دور الكبراء التى تحيط بالمسجد، ولو لم يعزل لفترة ما من منصبه كان سيجدد مسجد دار الخيزران فى هيئة أجمل وشكل أحسن. إن عرصة مسجد دار الأرقم فى جهاتها الثلاث أربعة عشر قدما إلا الجدار الشرقى أربعة وعشرون قدما. وله أربع قباب جميلة وله ساحة مكشوفة وله مئذنة.

صخرة المحتبى:

مكان فى داخل المسجد وعلى يمين من يتوجهون إلى المحراب، وإلى الآن مرئى وظاهر.

(١)خزيران أو خيزران بانية مسجد دار الأرقم كانت جارية المهدى المفضلة وقد أعتقها سنة ١٥٩هـ.

ومُنْتَهَى هذه الصخرة كان مكانا خاصا للنبى ﷺ، عند جلوسه وحوله تسعة وثلاثون من أصحابه الكرام عندما كان يدعو إلى الإسلام خفية، من الروايات الموثوقة أنه كان يمضى أوقاتًا تحت هذه الصخرة.

الأثر التاسع عشر: الحجر المتكلم

يقع فى جدار دكان أبى بكر وفى الجهة التى تواجه الحرم الشريف وقد وضع فى مكان يعلو عن الأرض مترا. وطول الحجر المتكلم ذراع معمارى، وقطره ثمانية أصابع، وهو نصف إسطوانى الشكل وبارز عن الجدار بمقدار ستة أصابع.

وروى عن النبى ﷺ قوله: «إننى أعرف حجرا كان يلقى على السلام قبل البعثة فى المجئ والذهاب». ويظن أن ذلك الحجر هو المقصود به وكتب عليه البيتين الآتيين:

أنا الحجر المسلم كل حين
على خير الورى فلى البشارة
ونلت فضيلة من ذى المعانى
خصصت بها وأنى من الحجارة

قد ترك ذلك الحجر مكشوفا إلى ولاية الحاج عزت باشا الأرزنجانى الأخيرة وقد حفظه الباشا المذكور فى ولايته الأخيرة بأن غطاه بقفص حديدى وكتب كيفية عمله على حجر آخر ووضعه فوقه.

الأثر العشرون: حجر المتكأ

يقع أمام الحجر المتكلم وفى صف دار خديجة الكبرى وعلى صفحة هذا الحجر أثر لطيف، ويقال أنه أثر مرفق النبى ﷺ إذ شرف النبى ﷺ دكان أبى بكر فى يوم من الأيام واستند على ذلك الحجر وعندما التفت لأبى بكر قائلا: يا

أبا بكر انطبع أثر مرفقى على ذلك الحجر. كان حجر المتكأ قديما على جدار بيت أبى بكر ثم انتزعوه منه ووضعوه فى المكان الحالى.

كان المكان الذى وضع فيه من جدران بيت مصطفى أفندى الحريرى، واحترق هذا المنزل فى أوائل سنة ١٣٠٠هـ والحجاج فى عرفات؛ إلا أن الحجر المذكور لم يصب بسوء، وقد حفظ بأن وضع فى إطار له غطاء خشبى وعمر تلك الدار.

الأثر الحادى والعشرون: دار العباس

تقع دار العباس فى شارع المسعى وبالقرب من الميلين الأخضرين وأمام باب العباس، والآن أصبحت رباط الفقراء والمساكين والغرباء.

الأثر الثانى والعشرون: رباط الموفق[1]

يقع فى زقاق المقرارية وشارعه، وقد اشتراه فى سنة ٦٠٤هـ القاضى الموفق جمال الدين على بن عبد الوهاب السكندرى وعمره ووَقَفَه. إذا ما دعى فى داخله أو أمام بابه يستجاب.

قال الشيخ عبد الله بن مطرف من مشاهير أولياء الله: كلما وضعت يدى على حلقات باب رباط الموفق أحس كأن كثيرا من أيادى أهل الله توضع فيه، ويسكن الفقراء ومساكين الممالك المغربية فى ذلك الرباط ويقيمون فيه. وبما أن كثيرا من أهل الله مازالوا يذهبون إليه لغرض الزيارة فلا يخلو ذلك المكان من ملازمة الأولياء ومرورهم.

الأثر الثالث والعشرون: مِنى

تقع «منى» فى الجانب الشرقى من مكة المكرمة بين غار المرسلات وهذا المكان المقدس مكان جميل المنظر وصحراء تثير الشوق، وطوله ٣٠٥ ذراعا، يبدأ من جمرة العقبة وينتهى فى الجمرة الثالثة، ويبعد عن مكة المعظمة أربعة أميال. ومنى

(١) والآن يسمى رباط عثمان.

مدينة تميل إلى الكبر وتتزين جوانبها بدكاكين كبيرة ومنازل عالية ويحد نهايتها مسجد الخيف، إلا أن عمرانها يتوقف على موسم الحج، ففى غير موسم الحج تخلو المدينة من الناس، ويستأجر الحجاج فى منى منازل بعد عودتهم من عرفات، ويتاجرون مع التجار الذين وفدوا من الشام وحلب.

وإن كتب أن وقت الدعاء فى منى محدد فى منتصف الشهور القمرية وليلة ما يستدير الهلال بدرًا، ولكن بما أن المكان غير معمور فى كل الأوقات فليدع الداعى متى يمكنه الدعاء فيه.

ومنى هى المكان الذى يرسل بواسطته أمانة الصرة إلى الشريف الهاشمى النسب علنًا.

وإننا أدرجنا صورة من الأمر السلطانى الذى أرسل إلى ذات السيادة الشريف عون الرفيق باشا فى سنة ١٣٠١هـ متيمنا.

صورة الخط السلطانى

الحمد لله الذى جعل سرة البطحاء صدف درة البيضاء، وحلى بها أجياد عرائس المصنوعات، من الثرى إلى سدرة المنتهى، وصير أم القرى محتد نبيه المجتبى وصفيه المرتضى، وأوحى إلى خليه إبراهيم أن يرفع القواعد من البيت، وأمرنا أن نتخذ من مقامه مصلى، وتوجهت الوفود المتوشحة بوشاح الهدى، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتلبية، وقصدوا نحو منى، فطوبى لمن سعى بين الصفا والمروة، وصلى بمقام إبراهيم بخضوع القلب، وانتهج نهج القربى والزلفى، وبيض وجهه باستلام الحجر الأسود متلألئًا كسناء ذكاء[1].

والصلاة والسلام على من بعث رحمة للورى، وصارت زيارة قبره من أرقى مدارج السعادة فى الدنيا والعقبى، وعلى آله وصحبه الطيبين الذين طهروا الكعبة العليا من أدناس الأوثان، وأحكموا بنيان الشريعة المصطفوية بإقامة أحكام القرآن ما ناحت الحمائم بتسبيح الله تعالى وتقديسه جل وعلا. . . .

(١) ذُكَاء: الشمس.

أما بعد فهذا خطابنا الشريف الخاقانى وكتابنا المنيف السلطانى النافذ حكمه بعناية الله المعين فى أقطار الأرضين، مطاعا لأساطين الملوك والسلاطين، لازال ناشرا فوايح العدل والأمان وما برح زاهرا بين حدائق البر والإحسان وما سجعت الطيور ورتعت الغزلان، أصدرناه منطويًا على فرائد التحيات الرائقة، ومحتويًا على قلائد التسليمات الفائقة، مظهرا عَرْفَ رياحين المحبة والاستئناس، وممهدا لمبانى المودة المحفوظة عن الإندراس، إلى جانب الأمير الأمجد الأوحد المقتفى آثار أسلاف الأشراف من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف وأجداده الحميدى السير الجميلى الأوصاف، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصبة العلوية المصطفوية، المنتمى إلى أشرف جرثومة علا عنصرها، والمنتسب إلى أنفس أرومة غلا جوهرها، زبدة سلالة الزهراء البتول، عمدة آل بيت الرسول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الصمد، من أفاخم وكلاء دولتنا وأعاظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل النيشان المرصع بالعثمانية والمجيدية، أمير مكة المكرمة الشريف (عون الرفيق باشا)، لازالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلاءة الصمدانية عليه حافظة، ننهى إلى نادى الشريف أن الله جل شأنه وعز برهانه، اصطفانا من بين عباده خلفاء للأنام، وأعطانا سيف الجهاد، وأمرنا بتأسيس ركن الإسلام، وشرفنا على الملوك بسدانة بيت الله الحرام والركن والمقام، وزين منشور سلطنتنا بخدمة روضة نبينا وشفيعنا عليه أسنى التحية وأزكى السلام.

نحمد الله على ذلك بأتم الشكر وأكمل المحامد. ونُحَلِّى ترائب عرائس هذه النعم من جواهر الأثنية بأغلى القلائد وأنفس الفرائد، فلا جرم وجهنا وجهة النهمة الواسعة ونخبة الهمة الشائعة، لرفع رايات الشكر فوق القمة التاسعة، وصرفنا أزمة صريمتنا الجليلة إلى طريق إيفاء ما وهبنا الله من المواهب الجزيلة، وامتطينا صهوة مطايا الإقدام، فى تنفيذ مصالح الشريعة، جاريا مجارى الجد والاهتمام، لاسيما مهام الأوقاف المشروطة لفقراء الحرمين المحترمين، والأرزاق المعينة المضبوطة للشرفاء شرفهم الله ـ تعالى ـ فى الدارين، وللعباد العاكفين فى المقامين المكرمين، وأرسلنا من شامل عنايتنا على

الرسم القديم فى العام السابق ـ وهو عام ثلاثمائة وألف من هجرة من أسس قواعد الإسلام ـ صبت على ضريحه سجال التحية والسلام ـ كافة الأموال المحصلة من ريع الأوقاف الموقوفة المربوطة، والنقود المعروفة والوظائف المضبوطة التى خصصت بلائذى الحرم ويثرب ممن سكن فيهما، واخترنا الجواد من حيثما المشارق والمغارب، وجملتها مثبته وأعدادها مفصلة ومقررة كما هو مسطور ومرقوم فى الدفتر المعلوم والمختوم، جميعها الدنانير التضاد والخدمة الصافية من النقود الرائجة فى عام البلاد الدانية والقاصية، وسلمنا تلك الصرر إثر ما وضع فى الأكياس الموسومة بختمنا الشريف دفعا للالتباس إلى يد حامل ذلك المنشور السلطانى، وناقل هذا المثال الخاقانى، المنتسب لسدتنا السنية، من خدام عتبتنا العلية السلطانية، المأمور لخدمة الحميدية الخاقانية، الحامل نيشان المجيدية من الرتبة الرابعة، أمير الكرام السيد «بسيم باشا» دامت معاليه وعمدة أصحاب التحرير والتقرير، كاتب الدفتر قدوة الأماثل والأقران ـ زيد قدره ـ بعد ما قلدناهما تلك الخدمة الجليلة، وأعطيناهما دفترًا مختوما بختمنا المبارك السلطانى لازال عنوانه زينة على صحيفة مناشير الأمانى، مخبرًا عن المصاريف المعينة، متضمنا بالمواهب المقننة، فأمرناهما بإيصال تلك الصرر إلى خزانة المديرية المأمورة بالسعى مع الاهتمام على جرى الأصول المؤسسة فى سوالف الأيام فى الصرر المقررة، فى مصاريفها المحررة المقدرة، على ما صرح ونص عليه فى الجريدة التى هى فى جيد الأمانة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ (النساء: ٥٨).

واغتراف من مشارب الأجواد الجزيلة قراح عذبها، ونهلها وتوزيعها إلى مستحقيها من السادات والعلماء والضعفاء ساكنى مكة المكرمة، وقاطنى المدينة المعظمة، المستمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، والمتشرفين بجوار نبينا شفيع الأنام (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ورسمنا ألا يفض خاتم أكياس هذه المبرة، ولا توزع على أصحابها إلا بمعرفة المأمورين الذين وجب حضورهم، ولا يستنسخ دفتر مستقل غير هذا الدفتر، بل يعلم على اسم كل من وصل إليه نصيبه بالمداد الأحمر، فإن غاب واحد منهم أو قضى نحبه ولم يوجد مسميات بعض الأسماء يعلم على اسمه بالدفتر حسبما يظهر، وتحفظ حصصهم ونصيبهم مفرزة محرره، كيلا يحتال أحد لأخذ الصرة المقررة، ويؤتى نصيب من توفى أو غاب لأشخاص توافقت أسماءهم وألقابهم ونسبهم، وتشابهت الأسماء والألقاب والنسب والأنساب، هذا وقد أهدينا إلى جنبكم العالى، مغرس شجرة المفاخر والمعانى فى صحبة حامل كتابنا اللطيف وخطابنا المنيف خلعة من تشريفاتنا البهية، وأكسيتنا السنية تجديدا لمراسم الموالاة، وتأكيدا بمعاقدة المصافاة، فلابد من استقبالها بتقديم مراسم الإكرام والتعظيم والتزيين، والاكتساء بها علامة الاحترام والتكريم، وبذل القدرة الكاملة فى رعاية الرعية وصيانة الحجاج والمجاورين والمسافرين والمقيمين من العنت والشقاوة، لإفاضة الأمن والراحة وحراسة تلك الطرق والممالك، واستجلاب الأدعية الصالحة من العلماء العالمين والسادات المهديين، والفقراء الصالحين، والمواظبة على الدعوات بمزيد التضرع والابتهال، لإعلاء أعلام دولتنا العلية، وثبات أركان سلطنتنا السنية، إنه سبحانه لجدير بالسؤال، وقدير على تبليغ الأمال، تعالت ذاته عن المضاهى، وجَلّ جودهُ عن التناهى، وفضله حَسْبُ من بجنابه لاذ، وطَوْلُهُ كفاية من به استعاذ.

وصلى الله على سيدنا محمد الذى تأسست قواعد شريعته البيضاء بأركان المواهب الربانية، ناشرا ظلال سدتها فوق الثرى، واستهل بأرجاز نعوته الملائكة المقربون على العرش سربا فسربا، وعلى آله وعترته الذين فتحوا بسيوفهم البلاد شرقا وغربا، ولمن تبعهم من أمته إلى يوم الدين عجما وعربا، رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم أجمعين.

الأثر الرابع والعشرون: الجمرات الثلاث

الجمرات الثلاث التى سبق ذكرها قد عينت بعلامات خاصة فى ثلاثة أماكن من منى.

مسألة:

قال علماء المذهب الحنفى: «عندما تلقى الجمرات عند الجمرة الأولى[1] والجمرة الثانية يعنى عندما يرجم الشيطان الأول والشيطان الثانى ينبغى أن يتوقف قليلا، لأنه لا ينبغى الوقوف عند الجمرة الثالثة، بناء على هذا القرار الذى اتخذه العلماء يُسْتَحَبُّ ألا يوقف عندها للدعاء، بل ويدعى فى أثناء السير لأن الحسن البصرى أوصى أن يدعى فى هذا المكان أيضا؛ لأنه مكان من ضمن الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء.

جمرة العقبة:

أنها الجمرة الثالثة وهى بالقرب من قبة الكبش وهى جدى أبيض فى طول خمسة أذرع وذراعين عرضا. وبما أن الشيطان ظهر لحضرة الخليل لأول مرة فى هذا المكان ورجم فلزم رجمه إلى يوم القيامة.

الجمرة الثانية:

يطلق على الجمرة الثانية الجمره الوسطى أيضًا وهى تخمينا على بعد خمسين خطوة من جمرة العقبة، وفى ناحية مسجد الخيف وقد ظهر الشيطان لخليل الرحمن مرة ثانية فرجم، وقد أشير إليها مثل جمرة العقبة بجدار صغير.

(١) ومعنى الجمرة نار ملتهبة، ولها معنى آخر بمعنى حصاة صغيرة، وبهذه المناسبة أطلقت الجمرات على الحصوات الصغيرة التى تلقى فى منى وهو من جملة مناسك الحج.

الجمرة الأولى:

الجمرة الأولى على بعد مائة خطوة من الجمرة الثانية، وفى ناحية مسجد الخيف أيضا.

وهو المحل الذى ظهر فيه الشيطان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ للمرة الثالثة فرجم، وعين مكانها بجدار صغير مثل الأخريين.

يرمى جميع الحجاج فى هذه الجمرات الثلاث سبع حصوات ويستحسن أن يكون الرامى مترجلا ويجوز إلقاء الجمرات راكبا وكان حضرة معاوية أول من ألقى الجمرات وهو راكب.

رواية ـ يروون حديثا بمعنى «أن من يُقبَل حجُّه تُرفَع جمرته» (حديث شريف) وقد سأل أحد أئمة الحديث ـ ولم يكن قد سمع هذه الرواية ـ سأل سعيد بن جبير «لماذا لم يتكون جبل من كل هذه الحصوات التى ألقيت إلى الآن؟» فرد عليه قائلا: إن كل من يقبل حجه ترفع جمراته بأمر إلهى من قبل الملائكة».

قال الإمام مجاهد «قد علَّمت الجمرات التى ألقيتها فى السنة التى سمعت فيها رد سعيد بن جبير بعلامات معينة، وبعد الحج بحثت عنها فلم أجدها، فصدقت ما قاله سعيد بن جبير وأنه يوافق معنى الحديث.

الاستطراد

يروى لإلقاء هذه الجمرات فضائل كثيرة. يروى مؤلف «نزهة المجالس» نقلا عن كتاب الحقائق الحكاية الآتية: «قال أحد المؤمنين صادق النية مخاطبا السبع جمرات التى فى يده عند إلقائها» أشهد أيتها الجمرات أننى أؤمن بعدم وجود إله آخر غير الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله» وقد حلم هذا الشخص تلك الليلة أن القيامة قد قامت، وعند المحاسبة قد زادت سيئاته عن حسناته فيصدر الأمر الإلهى بأن يساق إلى جهنم، فيؤتى به فى جهنم. ولكن زبانية جهنم يرون أن باب جهنم قد سد بالجمرات التى ألقاها فى منى، فيتحيرون كثيرا ويحاولون أن

يفتحوا الباب فلا يوفقون، ويذهبون، تحت عرش الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليعرضوا الحالة، إلا أن الحجارة كانت قد سبقت الزبانية، وحصلت على الأمر الإلهى بإدخال هذا الرجل فى الجنة بعدما غفرت ذنوب الرجل، ويقف كل حجر فى باب من أبواب الجنة ويقول راجيًا: يا فلان أدخل الجنة من الباب الذى أقف فيه» انتهى.

لاحقة

إلى أواسط سنة ١٣٠٣هـ الهجرية عانى الحجاج مشقة كبيرة من قلة المياه فى منى، وكان من جملة فضائل السلطان أن أمر والى الحجاز الحالى عثمان باشا بإقامة صهريج عظيم له ستة عشر صنبورا. ولقد تم ذلك بفضل همة لجنة عين زبيدة وحسن خدماتهم، وهكذا نجى الحجاج من مشقة العطش.

وكنا قد كتبنا معلومات أولية فى الصورة السادسة من الوجهة الثالثة من المرآة أن عثمان باشا قد أنشأ فى أرض المدرسة المجيدية بناءًا فخما مقرا للحكومة للجيش، وحول القلعة الهندية إلى ثكنة عسكرية باسم «غيرتية».

وهدم قسم الشرطة الرئيسى وثكنة المدينة السلطانية وبناهما من جديد.

ومن هذه المرة أخبرت فى رسالة واردة من مكة المكرمة والمؤرخة بتاريخ ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٣ أن ذلك المقر الحكومى الفخم قد تم بناؤه، وفرش فرشا جميلا، كما هدمت بعض جهات قلعة جياد، وبنى فى بعض جوانبها مخزن للأسلحة، ووضع فوق المبنى صادة للصواعق، وبدأ فى إنشاء ثكنة عظيمة فى الجانب الآخر.

وقد قسمت أرض عرصة المدرسة السالفة الذكر من قبل والد السلطان الكثير المحامد السلطان عبد المجيد خان ـ طيب الله ثراه ـ وبنى على طرف منها مدرسة، وبجانبها سبيلا ومكتبة وعدة منازل خاصة بأمناء الكتب، وفعلا شرع فى الإنشاءات، ووضعت الأسس وفى هذا الموقف رحل ذلك السلطان عن دنيانا، فأوقفت عمليات البناء وأهملت لتتحول تلك الساحة إلى مقلب قمامة. ولما كان

الجنود السلطانية الذين يتولون حراسة مكة المكرمة يسكنون تحت الخيم، وكان هذا مخالفا لآمال السلطان، لذا انزعج عثمان باشا انزعاجا شديداً وأخذا ضميره يؤنبه، فقرر أن ينشئ فوق أرض تلك المدرسة ثكنة عسكرية تستوعب فرقة من الجند السلطانى.

وبعد الاستئذان شرع فى أواخر سنة ٩٩ المالية فى عمليات الحفر ذاكرا اسم الله، وقد استصوب فيما بعد أن تكون الدائرة الحكومية متصلة بالثكنة المذكورة، وعدلت خريطة الثكنة السلطانية على أن يكون جانب من المبنى مقرا حكوميا، والجانب الآخر من المبنى ثكنة عسكرية، وهكذا بنيت ثكنة عسكرية متقنة الصنع والبناء وسميت بالحميدية.

وبلغت نفقات إنشاء الثكنة الحميدية بناء على التقديرات الأولية ألف وأربعمائة ليرة، وإذا ضمت إليها نفقات إنشاء الدائرة الحكومية ألف وثمانمائة ليرة، عرف أن مجموع النفقات يصل إلى ثلاثة آلاف ومائتى ليرة.

ولكن إذا ما ضم لهذه النقود ما أنفق لتزيين المبانى من الداخل والخارج تزيينا جميلا ومحكما تصل النفقات إلى ما يقرب من مليون قرش.

طرحت فكرة إنشاء ثكنة (الغيرتية) ونفذت فى عهد الشريف غالب، ووسعت فى عهد تاتار عثمان باشا لتسع مائة عسكرى من عساكر الشرطة وبنيت فوق خرابة قلعة صغيرة.

وكان لهذه القلعة أربعة أبراج، وهدمت الأبراج التى فى الجهة الغربية وحولت إلى ثكنة عسكرية يمكن الدفاع عنها، وتتسع لألف من الجنود السلطانية.

وبما أنه تم بناء تلك الثكنة لما سيقوم به هؤلاء الجنود من خدمات جليلة، وبما قدمه أصحاب الحمية والكرام من نقود، وسميت «غيرتية» لذلك، وقد صرف على بنائها مائة وعشرين ألف قرش ماعدا المنح الأخرى.

ثكنة المدفعية السلطانية:

كانت هذه الثكنة مكانا محاطا بأربعة جدران، قد بنى فيه «عنبران» يستوعبان

ما يقرب من مائة جندى من المدفعية، وحجرة للقيادة تسع ثلاثة ضباط ومطبخ، وتم ذلك بهمة عثمان نورى باشا وسعيه واشتراك الجنود فى العمل. قد اشترك الأصحاب الكرام فى بناء هذه الثكنة بما دفعوه من مبالغ قريبًا من ثمانين ألف قرش.

المخفر الرئيسى:

مبنى متين يتسع لإيواء أربعين جنديا، وهناك مخفر غير هذا المخفر فى حارة الباب يتسع لعشرين جنديا أيضا، وهما مبنيان رصينان وقد أنفق لبنائهما مائة ألف قرش كاملة.

وفى سنة سنة ١٣٠٢ الهجرية أمر عثمان باشا نورى الأميرالاى صادق بك الذى حضر مع أمانة الصرة المصرية بأخذ صور فوتوغرافية للأماكن المذكورة، وقد حصلنا على نسخ هذه الصور وأثبتناها فى الأجزاء المناسبة من المرآة.

وقد كتب فى صفحة من المرآة إن مجرى عين زبيدة قد حفر على (حارة الباب) لتجديدها إلى ضريح الشيخ محمود، وبناء صهريج احتياطى فى ذلك المكان، وقد سطر فى هذه الرسالة التى وصلت والتى مر ذكرها أن ذلك المجرى قد أوصلت مياهه إلى ضريح الشيخ محمود، وقد أنشئ أمام الضريح حوض مياه كبير، وركبت فيه الصنابير، وأن وصول مياه عين زبيدة إلى هذا المكان قد أحيا سكان هذه الأماكن، ووسع مدينة مكة المكرمة.

قيل فى صفحة من المرآة «يأتى ويذهب كل سنة ما يقرب من ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف من الحجاج»

وفى الرسالة الواردة من مكة المكرمة يقول صاحبها: إن عدد الحجاج لم يزد على مائتى ألف حاج حتى فى سنين الحج الأكبر. إلا أنه لم يدخل فى هذا الحساب عربان البادية والمقيمون من أهل مكة، ويقول صاحب الرسالة « إن نظام إقامة وليمة فى مقر الإمارة قد ألغى بعد وفاة الشريف عبد الله باشا بثلاث أو أربع سنين وهذا شىء يؤسف له.

فى ذكر المساجد المأثورة فى مكة المكرمة

الأثر الخامس والعشرون: مسجد أبى بكر:

المسجد المشهور بمسجد أبى بكر يقع فى الجهة اليمانية وفى مكان يسمى «مسفلة» عليه قبة وفى داخله كوخ.

يزور الحجاج هذا المكان كما أن أهل مكة يزورونه ويقيمون فيه حلقات الذكر ويدعون الله، بما أن أبا بكر الصديق قد ولد فى هذا المكان السعيد فإنه يشتهر أيضًا باسم «دار أبى بكر»، وطول سطح هذا المكان من كل جهة عشرون قدمًا وعرضه خمسة عشر قدمًا، إلا أن له فى الجهة الجنوبية حديقة محاطة بالسور مساحتها أربعمائة ذراع، إن النبى ﷺ، قد شرف جبل الثور قادمًا من هذا البيت، إن هذا الحادث الجلل قد فصل فى المقام الرابع والعشرين من «محمود السير». وقد أشرفت مبانى ذلك المسجد مع مرور الأيام على الخراب، لذا عمره وأصلحه مدير الحرم الشريف أحمد أفندى على أحسن وجه وبشكل رصين فى سنة (١٢٩٦).

الأثر السادس والعشرون: مسجد ذى طوى:

يقع هذا المسجد فى الجهة الشمالية من مكة المعظمة وفى الوادى الذى أطلق عليه أهل مكة «ما بين الحجرتين» وفى المحل الذى خصص لإقامة المحمل المصرى، وعلى الجهة اليمنى فى طريق العمرة، وقد بات قائد الأصفياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا المكان فى حجة الوداع، وبعد أن صلى فيه صلاة الفجر اتجه إلى مكة المكرمة.

وقد ذكر صاحب «العقد الثمين» أن بانيته سيدة تسمى زبيدة، ولكنه لم يبين لنا من هى زبيدة هذه ومتى بنته.

الأثر السابع والعشرون: مسجد التنعيم:

إن مسجد التنعيم فى مكان قريب من مسجد عائشة ويبعد عن المسجد الحرام ما يقرب من ثلاثة أميال[1] أو أربعة، وكل جهة من جهاته عرضها خمسين قدما.

وفى يمينه جبل نعيم وعلى يساره جبل ناعم، لذا أطلق على الوادى الذى أسس فيه وادى النعمان، وإن كان المؤرخون يخبروننا أن هذا المسجد كان يطلق عليه اسم هليلجة وكانت بجانبه شجرة قديمًا إلا أن ابتعاد هذا المسجد عن ميلى الحرم (يعنى ابتعاد مسجد عائشة الذى يوجد فى ناحية جبل نعيم عن الميلين) فالمسجد الذى قال عنه المؤرخون أنه مسجد هليلجة غير المسجد الذى يكتسى فيه الحجاج ملابس الإحرام بنية العمرة، وهو مسجد التنعيم.

ويظهر أنه المكان الذى يقع فوق قمة الجبال التى خلف صهاريج «سنان باشا» وعلى الجهة الشمالية من مسجد عائشة والذى أحيط بجدار هو أرض مسجد التنعيم.

وهذا الجدار كثيرًا ما ينهار بصدمات الرياح ويخرب إلا أن الزوار الكرام يبتدرون لتعميره وترميمه.

الأثر الثامن والعشرون: صهاريج سنان باشا

كان فى الزمن القديم فى هذا المكان صهريج واحد وكانوا يملئونه عند نزول المطر يتوضئون منه، وعندما زار سنان باشا مكة المعظمة فى أثناء سنة (٩٨٧هـ) حين عودته من اليمن رأى أن مياه ذلك الصهريج قد نفذت، كما أن مياه البئر الذى بجانبه قد انقطعت، فاحتاج المعتمرون والحجاج حتى إلى قطرة ماء للوضوء

(١) يذهب الحجاج إليه فى ظرف ساعة.

وإزالة عطشهم، فتأثر من ذلك أشد التأثر، ثم أمر بحفر البئر المذكورة، وأوصل الماء إلى الصهريج المذكور بحفر مجرى، وعين من يهتم بهما ويسقى الناس، ولكن لشدة الأسف لم يبق إلى الآن، لا السقاءون ولا المجرى، وعندما تهطل الأمطار يمتلئ ذلك الصهريج ثم يخلو من المياه مرة أخرى فيظل فارغًا.

وبعد ما أمد سنان باشا ذلك الصهريج بالماء فرش أرض المطاف بالرخام[1]، وغير رمل الساحة الرملية للمسجد الحرام، وأمر بصنع سبيل وحوض فى طريق العمرة، وحفر فى أماكن بعيدة آبارا عميقة واسعة لملء السبيل والحوض بالماء بواسطة مجارى حفرها، وقد اندرس كل هذا ولم يبق له أثر، إلا أن الأصحاب الكرام حفروا كثيرا من الآبار فأصبح المعتمرون لا يعانون من قلة الماء كما كان من قبل.

لاحقة

وقد ثبت أن كل من يذهب إلى مسجد عائشة بنية العمرة ويلبس هناك ملابس الإحرام وفقًا للسنة النبوية، ثم يعود مهللاً ملبيًا إلى الحرم الشريف ويطوف مرملاً مُضْطَبِعًا[2] يسعى، فإنه ينال ثواب أداء الحج فى مدينة الرسول ﷺ الذى غفر له، وذلك ثلاث مرات فى شهر رجب ومرتان فى شعبان المعظم، ومرة فى رمضان المبارك، لذلك يقبل الحجاج الكرام على العمرة بكثرة فى تلك الشهور.

تنبيه

ويجب أن يزار المكان الذى صلب فيه حاتم بن عدى ـ رضى الله عنه ـ الذى يقع فى الجهة الغربية من مسجد عائشة، وفى ناحية جدة إذ كان ـ رضى الله عنه

(١) لأن المطاف الشريف فى ذلك الوقت كان مفروشًا بالرمل فكان الحجاج يعانون فى أثناء السير.

(٢) إن الصورة الإجرائية لهذه الأصول مسطورة فى الصفحة الثالثة عشرة من تكملة المناسك والاضطباع أن يجعل المحرم وسط الرداء تحت كتفه اليمنى ويرد طرفيه على كتفه اليسرى ويبقى كتفه اليمنى مكشوفة، وهو سنة عند جمهور الفقهاء: الشافعية والحنفية والحنابلة فى كل طواف يرمل فيه. ولا ترمل المرأة ولا تضطبع.

ـ ورفقاؤه مع عاصم بن ثابت ـ رضى الله عنهم ـ يحاربون سفيان بن خالد الهزلى وشرذمته فى مكان يسمى «رجيع»، فأسر حاتم بن عدى وسيق إلى جبل التنعيم حيث صلب، وقد أشير إلى المكان الذى صلب فيه حاتم بعلامة على شكل مئذنة ويطلق عليه أهل الحجاز اسم «ميل».

وإن كان مكان صلب حاتم بن عدى مجهولاً لدى أهل مكة، إلا أن الأشخاص الذين يذهبون إلى مسجد عائشة ويزورون الميل الذى بين الجبلين يكونون قد زاروا مصلب حاتم، لأن هذا الميل علامة خاصة لمكان الصلب وقد كتب عليه بخط عربى قديم عبارة «هذا مصلب حاتم بن عدى»، وبما أنه يطلى كل سنة كانت فالصباغة تمحو الكتابة التى عليه.

ولكن عندما ينزل المطر ويبتل ذلك الميل تظهر آثار هذا الخط، وإذا ما أمعن فيها النظر يمكن قراءته تماما.

وقد استفسرت من علماء مكة عن مصلب حاتم بن عدى، ولكننى لم أحظ منهم بإجابة شافية.

فاعتمدت على نفسى فى الكشف عن هذا المكان، بينما كنت فى يوم من الأيام فى مسجد عائشة وكان رفيقى يتوضأ أخذت أجيل النظر فى الجهات الأربعة، وأنا أفكر فى هذا الموضوع وأقول محدثًا نفسى: يا ترى أين يقع مصلب حاتم بن عدى؟ وعندئذ رأيت ميلا قصيرا على شكل مئذنة فى جهة جدة، فسألت رفيقى الذى كان رئيس الخدم والذى يطلقون عليه هنا «شيخ العمرة» ما هذه العلامة؟! إذا ما قلت أنها ميل الحرم، يجب أن تكون فى جهة الوادى بالنسبة للمسجد، فأما المكان الذى أقف فيه فهو فى ناحية جدة وفى سفح جبلين.

ألا نكون قد أصبنا عين الصواب إذا ما قلنا أنه علامة مصلب حاتم؟! ولكن شيخ العمرة قال أنا أزاول هنا مهنة الشياخة منذ ثلاثين عامًا؛ فلم أر أن فى هذا المكان علامة مثل هذه، كما أننى لم أسمع من أحد أجدادى، وانقضى الأمر

بالتوقف قليلا فى مسجد عائشة احتماء من المطر، وبَتَّ شيخ العمرة فى الموضوع مقررًا عدم وجود مصلب حاتم بن عدى فى وادى التنعيم، وأن العلامة التى أشرت إليها علامة لإشعار المحرمين بمكان الإحرام، ولكننى كنت أعلم أن مصلب حاتم كان فى وادى التنعيم نتيجة الاطلاع فى كتب سير العلماء، وإن ما يطلق عليه «معلماته» حيث يبدأ الحجاج والمعتمرين لبس ملابس الإحرام يجب أن يكون عجائب المسجد وفى وسط الطريق، كما أن هذه العلامة كانت فى اتصال المسجد من الجهة الشرقية وقائمة فعلاً، إلا أن العلامة التى قال الشيخ عنها علامة الشروع فى لبس ملابس الإحرام كانت فى جهة حجرة للمسجد المذكور، وكانت تختلف عن العلامتين فى الشكل والهيئة، وكل هذا مما أثار فى نفسى شكوكًا كثيرة، وانقطع المطر وذهبت إلى تلك العلامة، وكانت قد ابتلت من المطر وظهرت ظلال جلية لكتابة، لكن قد غيرت ألوان تلك العلامة حتى تخالها ألوان الحرباء، وحال ظلام الجو دون قراءة الحروف، فاستصوبت أن انتظر إلى وقت الزوال، وقد أصاب سهم اجتهادى مرماه، وهدانى الله إلى الطريق الصحيح، إذ انقشع الظلام وزادت حرارة الشمس، وجف صدأ العلامة فقرأت عبارة «هذا مصلب حاتم بن عدى»، وأريتها لشيخ العمرة الذى شكرنى بدوره كثيرًا وسر سرورًا عظيمًا، وأخذ المعتمرون والحجاج فى الذهاب إلى مصلب حاتم بن عدى.

الأثر التاسع والعشرون: مسجد الجن

مسجد يقع فى الجهة الثابتة من مكة المكرمة وفى مقابل جداره مقبرة المعلا الملحقة ببطن الوادى، أى فى مواجهة جبل الحجون، وهو مسجد شريف تحت الأرض.

فالذين ينتهون من زيارة مقبرة المعلا يعودون إلى ذلك المسجد لأداء ركعتين لتحية المسجد، وفى طرفيه شارعان واسعان.

إن كل واحد من طرفى أرضه فى الشمال والجنوب ثمانية أقدام، والجهة الشرقية أحد عشر قدمًا، وطرفه الغربى ستة عشر قدمًا، وبما أنه مؤسس تحت مكان اسمه «فرهادية» لا قبة له ولا مئذنة، وقد عرضت طائفة من الجن تبعيتها للنبى ﷺ، فوق أرض هذا المسجد فى ليلة عودته من الطائف.

ودخلوا فى دائرة الإسلام المنجية، وبما أن حراس مكة المكرمة يجتمعون فى هذا المكان ليلاً أطلق عليه مسجد الحرس أو موضع الخط.

وسبب إطلاق مسجد الخط عليه هو أن النبى ﷺ، خط عدة خطوط فى تلك الليلة على الرمل وهُو يشير إلى عبد الله بن مسعود المحمود العاقبة، ومن أسماء هذا المسجد اللطيفة «مسجد البيعة» إشارة إلى مكان بيعة طائفة الجن، وهؤلاء سبعة أنفار من الجنة، ينتسبون إلى الطائفة من جن بلدة نصيبين وأسماؤهم: حسأ، مسأ، سأصبرا، ناصبرا، ابنا الأرب، ابنين، أخصم، وبعض الرواة يضعون بدل «ابنا الأرب»: «ازريان» ومكان «ابنين»: «أحقب»، إن هذا المكان هو الذى بايع فيه الجن النبى ﷺ، قبل البعثة، وقد أماط محيى الدين بن عربى، اللثام عن هذه الحقيقة.

حتى إن معاذ بن عبد الله بن معمر، وهو ممن أيدوا هذه الحقيقة، روى أن واحدا قد لف جنيا يسمى عمرو ـ نال الشهادة فى عهد خلافة الفاروق ـ فى خرقته ودفنه والحكاية تالية الذكر تعود إلى سيدنا معاذ.

حكاية:

قال معاذ رضى الله عنه: كنت جالسًا مع عثمان بن عفان، فمر علينا رجل وقال: بينما كنا نمضى من ذاك المكان هبت على طرقنا عاصفة كأنها زوبعة فى مكان قريب منا، أذرت ما على الأرض من قش فى الهواء، ثم أعقبتها زوبعة أخرى غاية فى شدتها، والتصقت بالزوبعة التى هبت أول الأمر وتشاجرتا مدة مديدة وكأنهما حيوانان يقتتلان ثم سكنتا، وهاتان الزوبعتان كانت كل منهما قد

هبت من سفح جبل، ولأن إحداهما حملت على الأخرى قلنا: لابد من وجود سر فى هذا، وما كان فى وسعنا التقدم خطوة أو التأخر خطوة، لذا توقفنا هنيهة فى مكاننا.

وبعد أن اختفت إحدى هاتين الزوبعتين التى تخلع القلوب ببشاعتها والأخرى بالجبل لفترة انفصلت كل منهما عن الأخرى، وتوجهت كل منهما إلى جبل ولم يعد لهما من أثر.

وعند انفصالهما بدت إحداهما ضعيفة خائرة القوة، لذا تملكنا شديد الفضول فمضينا إلى مكان لقائهما فرأينا كثرة من الحيات وقد نفقت، وكانت تنبعث منها رائحة ذكية، ولكى نعرف أى حية تنفح هذه الرائحة الذكية شرعنا نقلب الحيات النافقة، وفى النهاية أدركنا أن رائحة المسك تلك تنفح من بطن حية صفراء الظهر بيضاء البطن.

ويالها من حية عجيبة تنفح مسكا لم أر مثلها فى حياتى، فلففتها حول عصاى وفى قول آخر حول خرقتى ودفنتها فى طرف الطريق، ثم قفلت راجعًا إلى رفاقى، وما أن هممنا بالذهاب حتى تراءت لنا من الجهة الغربية للمكان الذى كنا نجلس فيه أربع نساء قلن لنا: ليعلم من دفن عمرو ـ أى الحية المقتولة ـ أنه دفن شخصًا صوام النهار قوام الليل، يرعى أحكام القرآن، وهذا الرجل قد آمن برسول الثقلين قبل أن تأتيه الرسالة بأربعمائة عام، وبعد البعثة لمبايعته وكان يستمع إلى الوحى، قلن هذا من كلامهن واختفين عن الأنظار.

كان هذا ما رواه معاذ رضى الله عنه.

وروى ابن حبّان هذه الواقعة كذلك فقال: إن الرجل المذكور قص على سيدنا عمر ما حدث فقال له الفاروق رضى الله عنه: نعم، فقد قال لى رسول الله ﷺ، «أن ثمة من بايعونى قبل بعثتى بأربعمائة عام» صدق رسول الله ﷺ، وجاء فى كتاب المرجان فى أحكام الجان الذى ألفه أبو البقاء الحنفى إن رسول الثقلين

ﷺ، دعا طائفة الجن إلى الإسلام ست مرات: فى جبل حراء، وشعب الحجون، وأعلى جبال مكة، وبقيع الغرقد، وعلى مشارف طيبة الطيبة، وإحدى رحلاته الشريفة.

ولوجود عبد الله مسعود فى المرة الرابعة، وعبد الله بن الزبير فى الخامسة فى خدمة الرسول ﷺ، فقد شاهد كلاهما جنا ممن أسلموا، حتى إن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ سمع أصواتهم وشبههم بقوم «الزط»[1].

الأثر الثلاثون: مسجد الراية:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى من البلدة الطاهرة مكة المكرمة يقع بجانب بئر جبير بن مطعم بن عدى المشهورة، وفى الجهة الجنوبية لمسجد البيعة، وفى جوانبه الأربعة منازل كثيرة ودكاكين وافرة وسوق عظيم.

والزوار بعدما يزورون مسجد الجن، يزورون مسجد الراية حيث يصلون ركعتى تحية المسجد ثم يعودون، ومساحته السطحية طولها أربعة وعشرون ذراعًا وعرضها عشرة أذرع.

مسجد الراية الشريف، إنه المكان الذى ركز فيه النبى ﷺ، رايته فى يوم الفتح المنير وصلى ركعتين تحيةً له. وبناء على قول الإمام الأزرقى بأن بانى هذا المسجد هو عبد الله بن عبد الله بن عباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وقد رممه وعمره المعتصم بالله البغدادى.

الأثر الحادى والثلاثون: مسجد المدعا:

إن أرضه طبقا لما نقله عبد القادر الجيلانى بالقرب من دار أبى سفيان بن حرب، وهو مكان طوله عشرون قدمًا، وعرضه خمسة أقدام، وكان بيت الله يرى من هذا المكان، وبما أنه لا شك فى استجابة الدعاء الذى يرفع إلى الله من مكان، أول ما يرى الإنسان فيه بيت الله، فالدعاء مقبول فيه، وهو فى هذا المكان من سنة رسول الله السنية.

(١) «الزط» قوم غاية فى طول القامة، سحنتهم مخيفة.

نظم

اسمـــع منـــى صفـــة المدعـــا
فقـــد استجيـــب الدعـــاء هنـــا
على رأس هذا الطريق عند الوصول
توقـف الرسـول مـن أجـل الدعاء
إن تراب طريقه أفضل من دواء العين
لعـــين الـــروح منـــه الجـــلاء
إن ذلك الرمل الذى وقع فى هذا العمر
كـــل حبـــة منـــه درة ثمـــينة
إن شوكـــــه ورود ورياحيـــــن
إنـــــه إنســـــان العيـــــن
هـــــداه يحيـــــى الموتـــــى
وهـــو راحـــة للخاطـــر المحزون
أزرف الدمـع مـن أهـداب عينك
وافتـــح فـــاك وســـل الله حاجتـك

(فتوح الحرمين)

الأثر الثانى والثلاثون: مسجد البيعة:

يقع مسجد البيعة فى الجهة الشامية من مكة المكرمة وعلى بعد رمية سهم من العقبة التى تشير إلى حدود منى، وفى جهة مكة ويظل على شمال الشخص الذى يذهب إلى منى، وأمام جبل صراصر ومقبرة أحمد المهدلى، وإن مساحته من الجهة الشمالية ثمانية وخمسون قدمًا والجهة الجنوبية منه ستة وأربعون والجهة الشرقية مائة والجهة الغربية مائة وثمانية أقدام ومكشوف السقف.

قد بايع النبى ﷺ، فى موقع هذا المسجد سبعون من أعاظم الأنصار الكرام أو ثلاثة وسبعون، كما يذكر أصحاب السير، وكان مع النبى عمه عباس فى السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية، وعقب ذلك نادى شيطان اسمه «أزب العقبة»

قائلاً يا قوم قريش!! إن حجاج قبيلتى الأوس والخزرج بايعوا محمدا، وعزموا على تقديم العون له فى كل الأمور وشوش أفكار قريش تشويشًا، وإن كانت قريش أرادت أن تمد إلى الأنصار يد الأذية والتسلط.

إلا أن الأصحاب الكرام دافعوا عن أنفسهم بإلقاء، خطب تشتمل على التهديد، وأظهروا الحسام عند خصامهم لشرذمة المشركين الحقيرة، وظهروا بأنهم متفقون ومتعاهدون مع كثير من أقوام العرب والعجم للدفاع عن النبى ﷺ، وهكذا نجوا من شرارة الثأر التى أوقدها «أزب العقبة» بعون الله خير الحافظين، وعادوا إلى ديارهم.

وإن كان أهل مكة يطلقون على هذا المسجد «مسجد العشرة» ويذهبون إلى أن هذا المسجد مسجد «العشرة المبشرين» إلا أن هذا الرأى ظاهر الخطأ؛ لأن المسجد المذكور شهد بيعة نقباء الأنصار الذين أتوا قبل الهجرة من المدينة المنورة وأسلموا وهم: أسعد بن زرارة[١] وعوف ومعاذ[٢] ابنا عفراء[٣]، رافع بن مالك[٤]، العباس بن عبادة[٥]، منذر بن عمر[٦]، عبادة بن الصامت[٧]، يزيد بن ثعلبة[٨]، عقبة بن عامر[٩] قطبة بن عامر بن حديدة[١٠] أبو الهيثم بن التيهان[١١] عويم بن ساعدة ذكوان بن عبد قيس الزرقى.

إذا ما نظر إلى حكم الصورة الثانية من الوجهة الخامسة لمرآة المدينة نجد أن حكم هذه الرواية ضعيف أيضًا.

لأن اليوم الذى بايع فيه النقباء كان معهم ثلاثة وسبعون من رفقائهم، وإذا كان المراد من مسجد العشرة نقباء الأنصار العشرة الذين وجدوا فى يوم البيعة، فإن المكان لم يحظ بهؤلاء النقباء فقط وفى الواقع إن كلمة العشرة، تورد على خاطرنا أن أرض هذا المسجد هى مكان بيعة العشرة أشخاص الذين بايعوا النبى، وإذا حكمنا بصحة هذه الخواطر، فيقتضى الأمر أن يكون هؤلاء من أصحاب البيعة الثانية[١] التى وقعت بعد الولادة النبوية باثنين وخمسين سنة، لأن البيعة المذكورة قد تمت فى موقع مسجد العشرة، وكان عدد المبايعين عشرة أشخاص

(١) أنظر فى بيعة العقبة ابن هشام ٢/ ٨١، وابن سعد ١/ ١/ ١٤٨، والطبرى ٢/ ٣٦٠، وجوامع السيرة لابن حزم ص ٧٤، وابن كثير ٣/ ١٥٨، والدرر لابن عبد البر ص ٦٧ ـ ٧٤. وغيرها.

مدنيين، ولكننا إذا نظرنا إلى العبارة التى كتبت على حجر ذلك المسجد والتى تقول: إن المنصور العباسى أمر ببناء هذا المسجد مسجد البيعة الذى شهد أول بيعة بايع بها رسول الله ﷺ، نرى أنها تؤيد صحة القول الأول والله أعلم بالصواب.

قد بنى هذا المسجد أبو جعفر المنصور البغدادى فى سنة ١٤١هـ مكشوف السقف، وعنى المعتصم بالله بترميمه وتعميره، وجدده فى سنة ٩٦٣هـ دفتر دار مصر إبراهيم بك بضم بعض القباب فى ناحية القبلة من حرارة الشمس، ومازال إلى الآن مكشوفا إلا أماكن القباب وقد حددت جهاته الأربعة بحائط متين ولا مئذنة له.

الأثر الثالث والثلاثون: مسجد النحر:[1]

هو هذا المعبد الذى يسمى بمسجد المنحر فى وسط الجهة الشرقية من صحراء منى، وبين الجمرة الأولى والجمرة الثانية وفى اتصال دار المنحر، وطول أرضه ثلاثة وستون قدمًا، وعرضها تسعة وأربعون قدمًا، وبما أنه بين الحجرة الأولى والحجرة الثانية يظل فى الجهة اليمنى للمتوجه إلى عرفات.

وإن كان بانيه مجهولاً فقد عمره فى سنة ٦٤٥هـ صاحب اليمن الملك منصور، وأقام بالناحية القبلية صفا من القباب وترك الباقى مكشوفًا، وإذا نظرنا إلى ماحك على الحجر الذى فى داخله نعرف أن رئيس قافلة الأنبياء (عليه وعليهم التحايا) قد ضحى فى مكان هذا المسجد فى حجة الوداع بعد أداء صلاة الضحى ونحر بنفسه (٦٣) جملاً وضحى بالواسطة[2] (٣٧) جملا.

الأثر الرابع والثلاثون: مسجد الخيف:

مسجد الخيف بين جبل ثبير والجبال التى تقابله وتواجهه. أى أنه معبد كبير وموجود فى الجهة الشمالية من ميدان منى وفى وسطه كل من جهتيه الشمالية والغربية أربعمائة وخمسون قدما، وكل من جهتيه الشرقية والجنوبية ثلاثمائة وتسعون قدمًا، وقد غطيت جهته الجنوبية بقباب عالية وجهاته الباقية مكشوفة.

وفى وسط ساحته تمامًا قبة كبيرة على شكل الخيمة، ويروون أن تحت القبة

(١) يقال لهذا المسجد «مسجد المنحر» أيضًا.

(٢) الواسطة هو على بن أبى طالب.

التى على شكل الخيمة كان المكان الذى نزل فيه الرسولﷺ، وأنه مدفن أنبياء، ولأجل ذلك يطلق على تلك القبة «قبة الأنبياء» وقد رفعت تلك القبة على أعمدة مكشوفة وداخلها يزار، وللمسجد مئذنة تقع على شمال الداخل فى المسجد من بابه الكبير ويزعمون أن آدم ـ عليه السلام ـ مدفون تحت أساس هذه المئذنة.

خبر:

كان قد صلى على جنازة آدم ـ عليه السلام ـ ابنه «شعيب» عليه السلام، وأنه قد دفن فى جبل أبى قبيس أولا، إلا أن نوح ـ عليه السلام ـ أخذه فى سفينته أثناء الطوفان، وبعد الطوفان دفنه فى المكان الذى فيه مسجد الخيف، ويدعى المؤرخون أن قاعدة تلك المئذنة فوق سرة آدم عليه السلام.

وكان للمسجد أولا عشرون بابا، والآن قد سد ثمانية عشر من أبوابه وبقية نواحى المسجد مجهولة إلا أنه أصلح وعمر مرة من قبل كل من: أبى جعفر المنصور البغدادى فى سنة ١٥٩هـ، والمستنجد بالله ابن المقتفى بالله العباسى فى سنة (٥٥٩هـ)، وأخيرًا من وزير الملك العادل نور الدين زنكى الذى أحاط المدينة المنورة بسور، وأنقذ سكانها من هجمات الأشقياء وهو جمال الدين محمد أبى منصور الأصفهانى، وجدده السلطان قايتباى المصرى أيضًا فى سنة (٨٨١هـ) فصار رصينًا متينا، وبنى تلك القبة الجميلة التى على شكل الخيمة، وأشار إلى أن الأرض التى تحت القبة كانت مصلى للنبى ﷺ، كما أن المرحوم قايتباى هدم الجدران القديمة التى على أطراف المسجد الأربعة، وبناها من جديد، وصنع أربعة أبواب متينة ومحرابًا، كما بنى قبة ذات ثلاثة طوابق للمئذنة، كما بنى بجوارها دارا لإقامة أمير الحجاج، وجعل على بابه سبيلاً وصنع فى داخل المسجد صهريجًا يملأ بماء المطر ويمد السبيل بالماء ثم صنع له بابا كبيرا يفتح إلى جبل عرفات وبابا صغيرًا يفتح إلى ناحية غار المرسلات، وقد طرأ تغيير على الترميمات التى حدثت من قبل وقد تغيرت أطرافه جميعًا فى التعميرات التى حدثت فيما بعد، ولم يبق فى زماننا هذا إلا باباه وقبابه والقبة التى على شكل الخيمة.

مسجد الخيف معبد فى غاية اللطف ومكان مبارك مقدس إذ قال النبى ﷺ، حسب ما سطر فى معجم البلدان: «حج إلى بيت الله سبعون نبيًا وكلهم طافوا بالكعبة ثم صلوا فى مسجد الخيف، إذا استطعتم أن تصلوا فيه كلما أتيحت لكم الفرصة فلا تفوتوا ذلك» كما اشتهر بين العلماء ما قاله أبو هريرة «ولو كنت من أهل مكة لكنت ذهبت إلى منى كل ليلة سبت لأداء الصلاة فى مسجد الخيف».

يقول مؤلف بهجة التقوى: «أربعمائة نبى دفنوا فى مسجد الخيف» كما يروى الإمام الأزرقى أن وسط هذا المسجد مئذنة ذات إحدى وأربعين درجة وأن لها ثمانى شرفات، كانت ساحة مسجد الخيف من الأماكن المقدسة فى جاهلية العرب أيضًا؛ لذا كانوا يجتمعون فيها وفى مكان قريب منها كانوا يقسمون للقيام بعضهم ضد بعض، ومن هذا القبيل قد اجتمع فى هذا المكان «بنوكنانة» وقبائل قريش وتحركوا ضد أبناء بنى هاشم وعبد المطلب وتعهدوا باليمين ألا يتعاملوا معهم ببيع وشراء وألا يتزاوجوا منهم، وهكذا أقسموا على الكفر.

الأثر الخامس والثلاثون: مسجد الكبش

يقع مسجد الكبش على يسار الذاهب من منى إلى عرفات وفى سفوح جبل ثبير وهو مكشوف السقف وجهتاه الشمالية والجنوبية فى طول ثمانية عشر قدمًا، وجهتاه الغربية والشرقية اثنين وعشرين واثنا عشر قدمًا، لما كان الموقع المذكور هو المكان الذى ألقى فيه إسماعيل على وجهه للذبح، لذا يعرف بين الأهالى بمذبح إسماعيل ومسجد إسماعيل، والحجر الأسود الذى ضربه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بسكينة وفلقه قطعتين ظاهر أمام المسجد، ويتصل هذا المصلى من جهته الشمالية بغار يسمى غار الفتح، وخلف مصلى هذا الغار صخرة كبيرة مجوفة تسمى «صخرة عائشة» والجهات الشمالية والشرقية لداخل هذه الصخرة واحد وعشرون

قدمًا، وجهاته الغربية والجنوبية عشرون قدمًا، ويروى أن النبى ﷺ، كان يتعبد فى داخل الغار المذكور كما أن زوجة الرسول ﷺ، كانت تعتكف فى داخل الصخرة المذكورة.

قبة الكبش:

هى فى الجهة المكية للمغارة التى سبق ذكرها وفى سفوح جبل ثبير التى تمتد نحو جمرة العقبة، وهذه القبة على أربعة أعمدة ومكشوفة الجوانب وبما أن هذه القبة اشتهرت بأنها مكان نزول كبش إسماعيل فتعرف بين الأهالى بقبة الكبش، ومساحة المسطح الداخلى لقبة الكبش أربعة عشر قدمًا عرضًا، وطولاً خمسة عشر قدمًا، وأنزل كبش إسماعيل بعد الطوفان بـ ١١٩٢ سنة كما بينه المؤرخون.

الأثر السادس والثلاثون: مسجد المرسلات:

يقع مسجد المرسلات فى الجهة الجنوبية من مسجد الخيف أى فى الجهة اليمانية لمنى وفى سفح جبل، وهو مصلى من غير أبنية، إنه الساحة التى نزلت فيها سورة المرسلات الجليلة، جهتاه الشمالية والجنوبية كل واحدة منهما ستة وعشرون قدما، والجهة الشرقية ستة عشر قدما، والجهة الغربية اثنا عشر قدما.

هذا المسجد مغارة عادية وفى سقفها حجر، وفى صدر هذ الحجر أثر رأس النبى، وما زال ظاهرًا إلى الآن، إن الأرض المذكورة جوف صخرة هائلة فى سفح الجبل الذى يقابل جبل ثبير.

حينما شرف الرسول الكريم، شمس السماوات، هذا الغار يوما لمست رأسه الشريفة ذلك الحجر فما كان من الحجر إلا أن لان مثل العجين حتى لا يؤذى رسول الله ﷺ، ومنذ ذلك ظل أثر رأسه الشريفة فيه، ويتبرك الزوار بمس ذلك الأثر برءوسهم حتى ينجوها من نار جهنم، وكل شىء مأمول من الله سبحانه تعالى.

يروى المحب الطبرى عن خادم الرسول ﷺ «عبد الله بن مسعود» أن الرسول ﷺ، حينما كان يشرف «منى»، كان يقيم فى هذا الغار، وفى يوم من الأيام

أنزلت على الرسول ﷺ، سورة المرسلات، وأخذ ابن مسعود يتلقى تلك السورة من فم الرسول مباشرة، وفجأة ظهرت أفعى عظيمة الجسم وهجمت على الذين كانوا معه، وبذل الجهد لقتل هذه الأفعى إلا أنها نجت بالهروب، وقال الرسول ﷺ، عندئذ «إن الله قد كف شرها عنكم كما كف شركم عنها».

يقول الإمام الفاسى، بينما كان مجد الدين فيروز آبادى جالسا مع جماعته فى الغار وكانوا يتلون سورة المرسلات ظهرت حية، وهجمت عليهم ولكنها لم تتحمل مقاومة الناس فهربت، وفى رواية أخرى أن تلك الأفعى كانت من طائفة الجن فلم يسمح النبى ﷺ بقتلها، فعاشت تلك الحية حتى زمن الشيخ مجد الدين فيروز آبادى.

الأثر السابع والثلاثون: مسجد إبراهيم:

يعرف مسجد إبراهيم باسم «مسجد نمرة» إن هذا المسجد يقع فى الساحة الواسعة لعرفات وهو المكان المبارك الذى يصلى فيه الحجاج صلاتى الظهر والعصر جمعا، وعلى يمين جبل الرحمة.

عمره السلطان قايتباى المصرى سنة ٨٧٣هـ، وبنى مظلتين ليستظل تحتهما الحجاج، كما أنه أمر بإقامة العلامتين اللتين يطلق عليهما «العلمان» بالقرب من ذلك المسجد لتحديد حدود عرفات، والجزء الأمامى الذى يسع لستة صفوف من المصلين مغطى، والباقى مكشوف، وفى الجهة الشرقية ستة أبواب كبيرة وعلى جهاته الأربعة جدار يعلو أربعة أمتار وفوق محرابه قبة.

ومحيط جهاته الأربعة مائتان وثمانون قدمًا. وله صهريج محكم الصنع يسقى الحجاج ويملأ من مجرى عين زبيدة.

نصيحة

لما كان ذلك المشهد بعيدا عن محل الوقوف مسافة نصف ساعة ولما كان من الأولى أن يمضى إلى المسجد فى وقت الزوال حينما تشتد حرارة الشمس فيوصى الذين يذهبون هناك أن يحافظوا على أجسامهم؛ لأن الحرارة فى عرفات تصل إلى (٣٩) درجة تحت الخيمة؛ لذا يصاب الحجاج بضربة شمس قد تؤدى إلى شرور كثيرة.

حتى يروى أن أحد الحجاج حينما كان يغسل غياره عاريا انتفخ جلد ظهره كأنه صب عليه ماء مغلى.

الأثر الثامن والثلاثون: مسجد المشعر:

يقال لمسجد المشعر مسجد آدم أيضا وهو فى مكان مقابل جبل قزحة فى ساحة المزدلفة والتى تبعد عن مسجد إبراهيم بثلاثة أميال، أى فى الجهة اليمانية للموقع الذى يطلق عليه المزدلفة، وعرض أرضه المباركة عشرة أقدام، وطوله مائة قدم، وله محراب ومئذنة وسبعة أبواب، وهو مستطيل الشكل ويصعد إليه من جهاته الثلاثة بسلالم وعند البعض أن جبل القزحة كله يعد من المزدلفة.

المزدلفة:

مأخوذة من الإزدلاف بمعنى الاجتماع، وسبب تسميته بذلك أن الحجاج يجتمعون مع بعضهم فى هذا المكان، أو أن آدم ـ عليه السلام ـ قد اجتمع بحواء ـ رضى الله عنها ـ فى هذا المكان، أو أن الحجاج يصلون إليه فى زلفة من الليل، فى قمة جبل قزح مكان لإيقاد النار وكان العرب قديما يوقدون فيه النار ظانين أنه موقد (آدم) عليه السلام.

المأزمين:

مأزم على وزن منزل وتثنية هذه الكلمة مأزمين، يطلق المأزم على كل شىء يضيق ويتداخل، وبما أن ما بين عرفات والمزدلفة مكان ضيق لذلك سمى بهذا الاسم.

ويطلق على هذا الموقع اللطيف «المأزمان» بتثنية الكلمة، ويقال كذلك للموقع الذى بين منى ومكة، «المأزمان» لأن طرفيه جبال والحجاج الذين يعودون من عرفات يؤدون صلاة المغرب والعشاء فى المزدلفة جمعا.

المشاعر:

يطلق المشاعر على المكان الذى يوجد فى داخل العلامات والأعلام التى وضعت لتحديد حدود عرفات، وكان العرب جميعا يقضون وقفة عرفات فى المشاعر بينما قريش كانت تقف فى داخل الحرم الشريف، وقد رفض النبى ﷺ، أصول أهل الجاهلية وفعلهم، فأمر بأن يقف جميع الناس فى داخل المشاعر.

نصيحة:

بما أن هذا المكان بارد ليلا نوعا ما فيجب أن يحافظ الحاج على نفسه حتى لا يصاب بمرض.

* * *

الأثر التاسع والثلاثون: مسجد الصخرة

مسجد الصخرة فى عرفات وهو متصل بجبل الرحمة وفى داخل الصخور والمسجد المذكور مصلى فى طول ثلاثين قدما وعرضه ثمانية أقدام، ويروى أنه المكان الذى وقف فيه الرسول ﷺ.

الأثر الأربعون: مسجد جبل عرفات:

هو المكان الذى يلقى فيه شيخ مكة المكرمة خطبة عرفات.

لازمة:

يوم الوقفة هو اليوم التاسع من ذى الحجة من كل سنة، ولما كانت الأيام العشرة الأولى من أفضل الأيام؛ لذا كانت الطاعات والعبادات فيها أفضل من الطاعات والعبادات فى الأيام الأخرى.

وبناء على القول الصحيح المنقول عن الإمام النيسابورى أن الأيام العشر من ذى الحجة أفضل الأيام وأحبها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أيام رمضان، وقد نجا موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون فى هذه الأيام، وقيل فى هذه الأيام توبة أبى البشر آدم ـ عليه السلام ـ وفداء إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهود ونوح ـ عليهما السلام ـ وقد صادف الأيام العشر الأولى لذى الحجة رسالة نبينا، وبيعة الرضوان وفتح خيبر ووقفة الحديبية، ونزول الآية الجليلة ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ (الفتح: ٢) واكتساء جميع الحجاج ملابس الإحرام، إن كل هذا لدليل قاطع على أفضلية هذه الأيام، إن صيام يوم واحد فى هذه الأيام العشر الأولى يساوى صيام ألف يوم من الأيام الأخر، والذى يحيى ليلة واحدة من لياليها تساوى طاعات وعبادات الحجاج والمعتمرين لسنين طويلة، وإن

كان صوم هذه الأيام مستحبًا وغاية فى القبول لدى الله، فيجب ألا يصوم الحجاج فى اليوم التاسع منها؛ لأن الصوم سيورث الفتور والضعف للحجاج الكرام، ويحول دون أداء شعائرهم كما يجب.

إن خير الأدعية المأثورة فى هذا اليوم «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» وكان نبينا ﷺ، والأنبياء جميعا يواظبون على هذا الدعاء فى يوم عرفه. انتهى.

مساحة مسجد عرفات ثلاثون قدما فى الطول، وثمانية وعشرون قدما فى العرض، ويبدأ من حدود عرفات ويبعد عن الموقف الشريف ميلا واحدا. إن المكان الذى يطلق عليه موقف الإمام أعلى من سطح الأرض، ولم يكن له طريق يصعد إليه وينزل منه بسهولة؛ لذا جعل جمال الدين الأصفهانى له سلما ذا خمس درجات أو عشر؛ وأنقذ الناس من مشقة الصعود إلى الجبل ثم حفر عدة أحواض، وأنقذ الناس من مشقة العطش.

وبما أنه لم يكن فى الأول سلما ولا حوض ماء كان النساء يعانون من العطش ومن الصعود والنزول إلى مسجد الجبل عند الزيارة.

عرفات:

وعرفة اسم المكان الذى يقف فيه الحجاج يوم عرفة، أو هو اسم الجبل الذى بنى عليه مسجد عرفات ويبعد عن مكة المكرمة اثنى عشر ميلا.

فى قمة هذا الجبل وفى الجهة الشمالية من مسجد عرفات وهو بناء قديم، ويعرف هذ المكان على أنه مطبخ سيدنا آدم، ويفهم من هذا أن آدم ـ عليه السلام ـ تلاقى مع زوجته حواء ـ رضى الله عنها ـ فى هذا المكان، وعندما أتم بناء بيت الله وكان حينئذ قد أتم مائة سنة منذ أن هبط على وجه الأرض.

إن حجم جبل عرفات أصغر من جميع جبال الحرمين، ولكن قدره ومنزلته أعلى من جميع الجبال فى العالم، كما يفهم من مضمون هذه القصيدة.

إن هذا الجبل الذى يسمى «عرفات»
أكثر انخفاضا من جميع الجبال
وإن كان فى صورته من الجبال أصغر
إلا أنه فى المعنى أكبرها جميعا

امتلأ برحمات الله حجرها
يجتمع الإنس والجن حولها
إنها قمة كقمة الجبل سَمَتْ
أقامت خيمة نور القمر أشعت
حولها من الجمال أفواج وأفواج
وكأنما هى فى البحر أمواج
أكثر اتساعا من صدور من يحجون
وكل من فيها كلهم بعملهم مغولون
ولكن خارج الأرض الحرام
لتلك القوافل مقام كسوة مصر بالتمام
وفى الوسط محمل مسكى آخر
على رأسه ظله تظهر
لا تحسبن أنك تشاهد فيه الرمال
إنما فيه الجواهر والماء الزلال
لقد انبجس من سفح الجبل ينبوعها
إن من ماء الصفا ماؤها
مبرة آدم فى شمال الجبل
وفيه لسكنى الفقير محل

«فتوح الحرمين»

تصدى الإمام الكرمانى شارح البخارى لتعريف كلمة عرفات وقال: إن عرفات أماكن متعددة وهو اسم المكان الذى يقف فيه الحجاج، وعرفه اسم اليوم الذى يسبق عيد الأضحى، ولهذا أراد أن يخصص هذا الاسم لمكان واحد، لهذا الجبل إلا أنه قد جانب الصواب، لأن هناك من نقل روايات كثيرة فى وجه تسمية عرفات منها أن آدم ـ عليه السلام ـ وحواء نزل كل واحد منهما فى مكان بعيد عن الآخر، وبعد مدة تلاقيا فى هذا المكان، ولذا سمى المكان بعرفات، وقول

آخر أن جبريل ـ عليه السلام ـ علم فى هذا المكان آدم ـ عليه السلام ـ مناسك الحج، و ووضح له أن عرفات آخر مشاعر الحج، فأراد أن يتأكد من فهمه فسأله قائلا: «أعرفت؟ أعرفت؟»، فأخذ الجواب «عرفت، عرفت» وهذا هو سبب تسميته بعرفات. وقول أخر بما أن عرفات من الأراضى المقدسة وكأنه قد عُرف أى طُيِّبَ برائحة طيبة فأطلق عليها هذ الاسم، وهناك أقوال أخرى كثيرة فى هذا الموضوع.

وبما أن ذكر غير هذه الأقوال وتفصيلها سيدعو إلى الملل، آثرنا أن نكتفى بما ذكرناه.

نصيحة

فى عرفات غير عين «زبيدة الجارية» عدة أحواض ولكن هناك طائفة تسمى «تكرورى» وغيرها من الجهلة يغسلون فى هذه الأحواض ملابسهم وقلة منهم أيضا يستحمون فيها مما يكدر مياه الأحواض حتى لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من الاشمئزاز عند رؤيتها. لذا فعلى الحجاج الكرام أن يمتنعوا قدر الإمكان من الشرب من مثل هذه المياه.

رواية:

إن جبل عرفات جبل مقدس مبارك إلى أبعد درجة، ومهما رويت عنه من روايات تصدق مع شدة غرابتها ومع ذلك فالحجاج يروون عنه بعض الروايات التى لا تستقيم مع ذوى الألباب.

ومن قبيل هذا ما ذكروا من أنه فى عام ١٣٠٠ وفى يوم عرفة أن حادثا غريبا قد وقع، وهو أن صاعقة سقطت على سطح جبل الرحمة فأحرقت بضعة أشخاص وشوتهم، وعند التدقيق والمعاينة قد تبين أن المحروقين كانوا من المجوس، وأضاف حجاج إستانبول أن حكمة سقوط الصاعقة كانت للقضاء على هؤلاء الأشخاص، وبما أننى لم أصدق هذا الحادث بأى شكل من الأشكال، فبعثت إلى أحد الأشخاص الذين أثق فيهم فى مكة المكرمة أستوضحه الأمر فجاء الرد كالتالى:

الجواب

استلمت رسالتكم التى تستوضح عن الصاعقة التى سقطت عند سفح جبل عرفات فى يوم الوقفة، وعدد من أهلكتهم وهذه هى حقيقة الأمر:

لم يكن الحجاج قد وقفوا فى عرفات بعد فقامت السماء ودون أن يكون هناك برق ولا رعد ثم جاءت صاعقة من ناحية البحر إلى القرب من جبل الرحمة

والأحواض، حيث سقطت برعد ودوى شديد وقتلت مسلما هنديا وجملين، هذه هى حقيقة الحادث أما ما قيل عن المجوس أو النصرانى فمختلق، وفى الواقع أننى لم أكن هناك حينما وقع الحادث، ولكننى بمجرد أن استلمت رسالتك اهتممت بالأمر، وتحريت عنه فسألت عن الموضوع من السيد الوالى والآخرين ممن أثق فيهم. وكان الباشا الوالى يتناول طعامه حينما سقطت الصاعقة بجانب خيمته ففزع فزعا شديدًا».

وقد تحقق لى أن القصة لا أصل لها من هذه الرسالة التى وصلتنى من مكة.

الأثر الحادى والأربعون: مسجد جعرانة:

يقع مسجد جعرانة بين مكة المكرمة وبلد الطائف؛ إلا أنه أقرب إلى مكة من الطائف وعلى بعد ثمانية عشر ميلا وعلى جانب وادى «جعرانة». وبما أنه لقب ريطة بنت سعد بن زيد بن عبد مناف والتى أشير إليها بالآية الكريمة ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا** ﴾ (النحل: ٩٢) وأنها قد اختارت الاستيطان فى هذا المكان، فالمكان مشهور بلقبها.

وكان يقال لها الخرقاء كما تصرح بذلك الآية الكريمة لأنها كانت تأمر جواريها من الصبح إلى الظهر بغزل خيوط الصوف والوبر، وتنقضها بعد الظهر. وهكذا تقضى أيامها فى الغزل والنقض؛ لذا اتخذت مثلا للحماقة بين العرب. وزع بطل قوافل الأنبياء (عليه أعظم التحايا) غنائم غزوة حنين فى العام الثامن الهجرى فى هذا المكان، وفى يوم الأربعاء الثانى عشر من ذى القعدة من نفس السنة لبس ملابس الإحرام، ومضى نحو مكة المكرمة حيث أدى مناسك العمرة. إنه مكان مبارك سعيد.

وقد ثبت بأقوال النبى ﷺ، أن سبعين نبيا قد أحرموا من هذا المكان للعمرة، وفى جعرانة بئر مأثورة مباركة ذات مياه خفيفة عند الشرب وقد حفر النبى ﷺ، هذا النهر بيديه الكريمتين والصحابة الكرام، وأحاطوها بالحجارة لأنه حينما حفر فى هذا المكان انبجس الماء، وكان النبى ﷺ قد حفر فى هذا المكان قدر شبر فانفجر الماء فروى عطشه، وأحاط الأصحاب البئر بالحجارة وقد زاد عمقها يوما بعد يوم حتى أصبحت من الآبار المباركة، ومازال الناس يتبركون بها إلى يومنا هذا وليس بالجانب اليمانى من الطائف بئر ماؤها أعزب وأخف من هذه البئر.

الشكل الثلاثون

الأثر الثانى والأربعون: مسجد الفتح:

يقع فى وادى المر بالقرب من الحجون. وقد عمر هذا المسجد الشريف صاحب مكة الشريف أبو نمى، وبعده السيد حناش بن راجح وقد صلى النبى ﷺ، فى هذا المكان المبارك.

الأثر الثالث والأربعون: مسجد المتكأ:

قد خربت أبنية مسجد المتكأ ولم يتبق أحد يعرف مكانه، ولكن المحب الطبرى يدعى أنه فى أطراف جهة تسمى «الجياد» يروى أن النبى ﷺ صلى فى هذا المحل ثم اتكأ إلى مكان ما واستراح.

الأثر الرابع والأربعون مسجد الجنيد:

يقع مسجد الجنيد فوق الجبل الأحمر الملاصق لمنازل مكة خلف جبل قعيقعان، وبناء على قول سعد الدين الإسفراييني أن هذا المكان كان مصلى جنيد البغدادى وإبراهيم بن الأدهم (قدس الله أسرارهما) لذا يستجاب الدعاء الذى يرفع إلى الله فى هذا المكان، هذا المكان ليس مسجدا بمعنى الكلمة ولكنه حفيرة على الأرض، وكان مكان التجلى للجنيد وقد سبق ذكره فى موضوع جبل أبى قبيس.

الأثر الخامس والأربعون: مسجد الإجابة:

يقع هذا المكان بالقرب من مكان يسمى (ثنية الأذاخر) الواقع على يسار الذاهب إلى منى أى فى مكان يقال له «معابدة» فى الناحية الشامية لمكة المكرمة، وعلى يسار من يستقبلون «ثنية الأذاخر» وإن كان لم يبق أثر لخرائبه؛ إلا أن فوق أرضه حجر قد حك عليه عبارة (إنه مسجد الإجابة)، ويحتمل أن يكون المحل

الذى يوجد فيه ذلك الحجر مكان مسجد الإجابة.

وقد بنى فوق أرضه فى سنة (٧٢٠هـ) مسجد لطيف مازال قائما. وأخذ العُرْبان يبنون حول هذا المكان المنازل والبيوت حتى تحول إلى حى مما يؤيد رأى الأهالى فى كون هذا المكان ساحة مسجد الإجابة.

يروى:

أن النبى ﷺ قد صلى صلاة العصر على أرض خالية لمسجد كائن فى مكان يطلق عليه كندرة فى زقاقه القطب.

وقد بنيت فوق هذه الأرض محال ومنازل ولما لم يسترح سكانها حين إقامتهم فيها وترك المكان خاليا، ثم حولت إلى مسجد. وفى (محاطة) و (قرن مقلة) أرض مسجدين، ويروى أن هذه الأماكن كانت بيعته لأهل مكة يوم الفتح كما يروون أن المسجد الذى فى داخل مستشفى الغرباء من المساجد المأثورة.

الزوايا الشريفة

إفادة خاصة:

فى مكة المعظمة زوايا شريفة وإنها مجمع أولياء الله الصالحين والروحانيين، لذلك بينا أسماءها وأماكنها حتى نسهل لمحبى زيارتها طريق زيارتها فى الجدول الآتى:

الزوايا	الأسماء	الجهات
١-	على القارى	بابها متصل بمقبرة المعلا والحجون.
٢-	الشيخ عبد الوهاب الكبير	فى مكان يطلق عليه حجون.
٣-	الشيخ عبد الوهاب الصغير	فى شعبة النور من مقبرة المعلا.
٤-	ابن عليوان	فى المقبرة السلمانية فى المعلا.
٥-	العباسيين	فى الجهة الغربية لمكان يسمى تقا.
٦-	العبادى	فى المحل المسمى فلق.
٧-	الرفاعى	فى الجهة الغربية لسوق المعلى.

الزوايا	الأسماء	الجهات
٨-	الامام النسفى	فى الجهة الغربية لسوق المعلى.
٩-	على البدرى	فى الجهة الغربية لشعب عامر.
١٠-	عبد القادر الكيلانى	فى الجهة الغربية للمدعى.
١١-	الإمام الطبرى	فى موضع سوق الطبرى فى مدعى.
١٢-	الشيخ السمان	فى الجهة الغربية لباب الزيادة.
١٣-	العادلى	فى حى الشامية.
١٤-	أحمد البدرى	فى جودرية.
١٥-	صاحب الجوهرة السلطانى	فى اتصال معسكر «غيرتيه»
١٦-	تاج الدين	فى الجهة الغربية من جب الهندية.
١٧-	الشيخ المسافر	فى حى الشبيكة.
١٨-	عيد روسى	فى حى الشبيكة.
١٩-	المحجوب	فى حى الشبيكة.
٢٠-	خالد بن الوليد	فى الجهة الغربية لحارة الباب.
٢١-	الشاه محمود	فى الجهة الغربية لجرول.
٢٢-	شهداء الفتح	فى مقبرة الشهداء.
٢٣-	سيدنا عمر الفاروق	فى الجهة اليمانية لجبل عمر.
٢٤-	سيد الحداد	فى الجهة اليمانية من جياد.
٢٥-	محمد بن عيسى	كائن فى الصفا.
٢٦-	الشيخ الجزولى	مؤلف دلائل الخيرات فى القشاشية.
٢٧-	بهاء الدين	واقع فى سوق الليل.
٢٨-	الشيخ هارون	فى لصق دائرة الإمارة فى سوق الليل.
٢٩-	الشيخ الشاذلى	فى وادى شطا فى حى القلعة.

* * *

يقول المؤرخ الأزرقى فى تاريخه أن عدد جبال مكة المكرمة يبلغ اثنى عشر ألفا وكتب مؤلف «البحر العميق» أن قمم الجبال التى ذكرها الأزرقى تميل ناحية مكة المكرمة وكعبة الله كأنها تسجد، وهذه الحقيقة تتضح لمن يلقى نظرة على الكعبة من فوق قمة ثبير، ويذكر أنه قد تحقق من ذلك بنفسه.

يقول ابن النقاش من المفسرين الكرام أن صدور هذه الجبال تكنز الذهب والفضة وكثيرا من المجوهرات الأخرى وستنكشف لمن وعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكتب أغلب المؤرخين مقالات طويلة فى أوصاف هذه الجبال ومدحها والثناء عليها ولشدة الأسف قد نسيت أسماء هذه الجبال مع مرور الزمن، وغفل الناس عن فضائلها لذا فنحن اكتفينا بذكر أشهرها.

الأثر السادس والأربعون: جبل أبى قبيس:

جبل أبى قبيس أحد الأخشبين وقد سمى بهذا الاسم نسبة لأحد الحدادين من قبيلة «مذحج» الذى صعد فوق هذا الجبل ونصب خيمة وأقام فيها. وهذا الجبل يقع فى الجهة الجنوبية التى تميل إلى الشرق من البيت الحرام، أى فوق جبل الصفا المقدس الذى يقع فى الجهة الشرقية من مكة المكرمة، ويروى أنه أقدم الجبال خلقا.

نظم

لعدم ثبات الأرض جعل ذو الجلال
جعـــل فـــى كـل ناحيـة الجبـال
أول جبل على وجه الأرض استقر
كأنـه الفـص فـى الخاتـــم قـــر

وقد زين أكثر من نصف هذ الجبل بالمنازل، واستقر فوق ذروته مسجد يسمو

نحو السماء، وبما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حفظ الحجر الأسود على قمة هذا الجبل قد عرف قديما بجبل الأمن، ويروى المؤرخون فى سبب التسمية ثلاثة أقوال:

الأول: ما ذكر من أن الحداد قد أقام فوق قمته.

السبب الثانى: أن الجبل المذكور أخبر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بوجود الحجر الأسود فيه.

والسبب الثالث: أن قبيس قد فرق بين عمرو بن مضاض وعشيقته «منية» وقطعت «منية» صلتها بعمرو الذى كان يحبها حبا جنونيا فنذر أن يقتل قبيسا، ويقضى عليه وكان قبيس قد اطلع على نذر عمرو بقتله، فهرب من خوفه إلى جبل أبى قبيس، ولم يعد مرة أخرى فسمى الجبل بجبل أبى قبيس.

والقول المصدق لدى الجمهور هو القول الأول أما القولان الآخران فلا يعتد بهما لدى أهل مكة، وخلق هذا الجبل قبل الجبال الأخرى، ووقعت معجزة شق القمر فوق هذا الجبل. وبناء على أشهر الأقوال، أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد دعا الناس للحج من فوق قمة هذا الجبل. ومن الأقوال الموثوقة أن الكعبة الشريفة ستزين مثل العروس فوق هذا الجبل مسجد بدون مئذنة من قبل «إبراهيم القيس» وكل واحد من طولى أرضه ثلاثون قدما، وكل واحد من عرض أرضه عشرون قدما، وقد عمره فى سنة ٩٧٧ أحد الخيرين من الهنود، وأضاف له مئذنتين وقبة.

وقد صلى النبى ﷺ على ساحة هذا المسجد فى يوم فتح مكة، كما أن بلالا ـ رضى الله عنه ـ قد أذن فوقه فى ذلك اليوم البهيج، وموقع محراب هذا المسجد هو المكان الذى وقف فيه بلال للأذان كما أن المكان الذى أمامه حيث توجد حجرة هو المكان الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وعلى قيد (٢٠٠٠) خطوة من الجهة الشرقية لذلك المسجد مرتفع مُحَاطٌ بشىء قديم، ولكن أحد أصحاب البر والإحسان بنى حوله فى سنة ١٢٩١هـ جدارًا فى ارتفاع ذراع، ونصف وهكذا حفظه من كل سوء.

ويروى أن هذا المكان المقدس جلس فيه الرسول ﷺ وقت وقوع معجزة شق القمر، وكل جهة من طولى ذلك المرتفع ثلاثون قدما، وكل جهة عرضية واحد وعشرون قدما، ويعرف هذا المصلى بمسجد شق القمر. «فتوح الحرمين»

وبين هذا المسجد سالف الذكر والمصلى حفرة كبيرة، ومما يشتهر بين العوام أنَّ أكل راس شاة مشوى فى هذه الحفرة يمنع الصداع طوال العمر، وهذه القصة قد ترددت على ألسنة أهل مكة، إلا أنها لا أصل لها إن هذه الحفرة موقع مناجاة لأولياء الله، فالجنيد البغدادى، وإبراهيم ابن أدهم، وفريد الدين العطار وأمثالهم كانوا يعتكفون فيها، ويتعبدون أربعين يوما، وعلى قول أن أبا البشر وابنه شيث ـ عليهما السلام ـ مدفونان فى هذه الحفرة وهذا ما نقله بعض المؤرخين، طبقًا لرواية أخرى أن قبر آدم ـ عليه السلام ـ كان بالقرب من مكان يعرف بـ (غار كنن) بهذا الجبل، فأخذه نوح ـ عليه السلام ـ وحمله فى السفينة ثم أعاده إلى موضعه، وبناء على قول ابن كثير والثقاة من المؤرخين أن آدم مدفون فى الهند، ويقول الإمام الأزرقى أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) مدفونون إما فى جبل أبى قبيس أو فى بيت المقدس إلا أن كل هذه الروايات اليست مبنية على سند يصدق.

هناك رواية تنقل أن آدم ـ عليه السلام ـ وابنه شيث مدفونان تحت مسجد الخيف، ويدعوان أن هذه الرواية أقوى الروايات المنقولة فى هذا الموضوع، ولكن مع هذا لا يمكن الحكم بصحتها.

اختلف فى المكان الذى أخذ منه التراب الذى خمر لتكوين قالب جسد ـ آدم عليه السلام ـ كما اختلف فى مكان قبره، وبناء على الأقوال التى يعتمد على صدقها ويوثق بها: أن التراب الذى شكل منه وجه آدم أخذ من تراب الكعبة العطر، وتراب صدره وظهره من بيت المقدس، وتراب فخذيه من أرض الحجاز، وتراب يديه الحكيمتين من أرض المشرق، وتراب ذراعيه من أرض المغرب، وتراب رأسه من بيت المقدس، وتراب بشرة رأسه وشعره من الجنة، وتراب

رموشه وحاجبيه من تراب حوض الكوثر الطاهر، وعلى رواية أخرى أن تراب رئتيه من الموصل، وتراب طحاله من الحجاز، وتراب بشرة جسمه من الطائف، وتراب جبهته من أرض كنعان، وتراب محل عورته من بابل، وتراب أمعائه وأحشائه من الجزائر، كما أن عظامه مأخوذة من الجبال المختلفة.

إن الاختلاف بين البشر فى الخلق والشكل والهيئة والطباع يرجع لهذا. وانعدام تشابه أولاد آدم وأحفاد بعضهم البعض يرجع لاختلاف مصادر التراب.

وجبل أبى قبيس ليس عظيم الارتفاع، إلا أن ارتفاعه عمودى، فمن صعد تبين، ومع ذلك فإن مشاهدة البيت الأنور من قمته تزيل التعب. وما ذاك إلا أن سطح الكعبة يغمر القلب بغبطة لاسبيل إلى وصفه، وسرعان ما يزيل عنه كل ما يشعر به من تعب ونصب.

* * *

الأثر السابع والأربعون: جبل ثور

جبل مبارك يقع على بعد تسعة أميال وعلى أشهر الأقوال على بعد ثلاثة أميال أو ميلين فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة. وهذا الجبل أضخم قليلا من جبل النور ويرتفع عن الأرض بمقدار (٢٥٠) ذراع معمارى، وسمى باسم من سكنه وهو (ثور بن عبد مناف)، ويقال إن كل ما فى أرض الحجاز من أشجار ونباتات وأزهار تنبت فى هذا الجبل وقيل إن فيه شجرة لو يحمل الإنسان جزءًا صغيراً مبريا منها لا تمسه أية حشرة مؤذية.

وبالقرب من ذروة هذ الجبل كهف ضيق يصعب الدخول فيه، وقد أقام فيه النبى ﷺ، ثلاثة أيام عندما هاجر إلى المدينة المنورة. وبابه ضيق لدرجة أن طفلا نحيلاً لا يمكنه الدخول فيه، ولكن من حكمة الله أن أضخم الناس جسما يستطيع دخوله والخروج منه، إلا أنه يقتضى الداخل أو الخارج أن يصلى على النبى ويسلم عليه، وباب الكهف ـ مع كونه ضيقا ـ مثقوب على شكل المئذنة من اليمين إلى اليسار فالداخل إذا ما انحرف قليلا إلى اليمين وبعده إلى اليسار يدخله دون أن يلمس شيئا متسربا كمياه جارية، فالذين يدخلون فى الغار يخرجون من مخرجه الواسع فى الجهة الشرقية بعد أداء ركعتين من الصلاة فيه. يتسع لدخول مجموعة من ثلاثة أشخاص معا، إن هذا المدخل قد فتحه جبريل عليه السلام بأجنحته عند خروجه من الغار، لأن النبى ﷺ، دخل فيه من باب الكهف الضيق، ثم خرج من الباب الذى فتحه جبريل ـ عليه السلام ـ لذا ترى الزوار يدخلون فى الغار من الباب الذى فى الجهة الغربية منه، ويخرجون من المخرج الذى فى الجهة الشرقية منه وذلك للتبرك. «فتوح الحرمين».

ولما كان ارتفاع جبل ثور عموديا فإنه يصعد من سفحه إلى حيث الكهف فى خمس وأربعين دقيقة، ولكن من يجدّون فى الصعود يستطيعون الوصول إليه فى نصف ساعة وفى الجهة الجنوبية من ذلك الغار محل مكشوف آخر.

يقال إن عبد الله بن عباس كتب فيه تفسيره الكبير. وزيارة غار ثور قاصرة بين الأهالى على يوم السبت، ولكن الحجاج يمكنهم أن يزوروه فى كل الأيام، والذين يلجون فى هذا الغار لا يحزنون ولا يغتمون أبد الدهر. إن للغار بابان كما وضحنا أحدهما ضيق، والآخر واسع جدا لأنه فتح بضربة من جناح جبريل ـ عليه السلام ـ ويقال لمن لا يوفق فى دخوله الغار «إنه ليس ابن أبيه».

قصة:

كان فى الزمن القديم رجل غنى جدا وفى فترة ما هلك أولاده وعياله وتلف ماله ولم يبق شىء فى كنفه، ومع هذا لم يكن يحزن أو يغتم، وقد أثارت هذه الحالة عجب أفراد قبيلته وقالوا له يا هذا قد فنى جميع أموالك وعيالك وإنك لا تظهر قدرا ولو قليلا من الحزن والهم كأنك لم تتأثر بما حدث لك؟! ما أعجب حالك؟ وما هذه اللامبالاة؟ وما أصبرك على الكوارث؟!.

فقال لهم: كنت قد سمعت من أحد الأشخاص أن الذى يدخل فى غار ثور لا يحزن لما يصيبه من مصائب الدهر الفانى؛ لذا دخلت فى هذا الغار بكل صدق وإيمان؛ ومنذ ذلك اليوم لم أتأثر لأية مصيبة ولم أتأسف لضياع شئ حتى إننى لا أعرف ما هو الحزن أو الألم بل نسيتهما فاستعجب قومه.

الأثر الثامن والأربعون: جبل حراء:

هو اسم آخر لجبل النور الذى بدأ فيه نزول الوحى. ويقع هذا الجبل فيما بين مكة المكرمة ومنى فى الجهة الشامية من بلدة الله، وعلى بعد ثلاثة أميال (أوساعة واحدة) من المسجد الحرام بين الجبل المذكور وجبل ثبير الذى أمامه واد سعيد، يعنى أن (جبل النور وجبل ثبير) كلاهما يظلان على يسار الذاهبين إلى

منى، وقد حدثت واقعة شق الصدر فوق جبل النور، وقد بنى فوق أرض المكان الذى حدث فيه شق الصدر مسجد لطيف، وداخل مسطح هذا المسجد ستون قدما مربعا، والقبة التى فوق مبانيه تظهر من بعد ساعتين. وفى داخل هذا المسجد صخرة طويلة مجوفة، ويقال إن هذا المكان كان متكأ الرسول ﷺ فى أثناء شق صدره الشريف.

والغار اللطيف الذى نزلت فيه سورة ﴿اقرأ﴾ يقع على بعد خمسمائة خطوة فى الجهة الجنوبية من مسجد شق الصدر، فالزوار ينالون آمالهم بالزيارة سواء أكان الغار المذكور أو المسجد سالف الذكر، ولهذا الغار منفذ فى الجهة الجنوبية حيث تظهرمنه مكة المكرمة تماما وقد ثبت بالروايات الموثوقة أن النبى ﷺ كان يتعبد فى هذا الغار قبل البعثة.

من الأشياء المهمة التى اختلف عليها علماء الأسلاف طريقة عبادة النبى ﷺ قبل البعثة. إذ قال بعض العلماء إنه كان يفكر فى آيات الله، وفى الكون ومصنوعاته. وقال البعض كان يتذكر خلق الكائنات. وقال البعض إنه كان يتنسك ببعض الأعمال غير المنسوخة من دين موسى. وقال البعض وكان متمسكا بشريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقال البعض كان يتعبد بالأحكام الصحيحة للشرائع السابقة. وإن كان القول الأخير يبدو مرجحا على الأقوال الأخرى، ولكن بناء على أصح الأقوال وأوثق الروايات أنه كان يعمل وفق الأحكام الباقية من شريعة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ لأن طائفة العرب كانوا يعملون بأحكام من بقايا دين إسماعيل مثل الحج، والختان، وإرجاع زوجاتهم بعد الطلقة الأولى والثانية، واعتبار فدية الرجل مائة جمل، والاغتسال من الجنابة، والمضمضة والاستنشاق واستخدام السواك، وتحريم ذات المحارم، والاستنجاء، وتقليم الأظافر، واستخدام الشفرة، وقطع اليد اليمنى للص.

وقد عمل نبى آخر الزمان وفقا لهذا أعمال العرب وعاداتهم، وكان يجتهد فى الأعمال الأخرى حتى إذا ما اقتنع بأن ما يفعله من الأعمال حسنًا فيعمل به، ولم

يلتفت النبى ﷺ إلى الأصنام والأوثان فى صباه ولم يبال بأقوال الذين كانوا يرجون ألا يحقر الأصنام.

ويمكن الوصول إلى مسجد شق الصدر بسير بطئ من سفح الجبل فى نصف ساعة، ويمكن الصعود إليه فى عشرين دقيقة بسير معتدل.

كان الاسم الأصلى لجبل النور (جبل حراء)، وبما أن نور شمس النبوة أشرقت من هذا المكان وبما أن النبي ﷺ قد تعبد فيه مدة طويلة قبل البعثة؛ أطلق عليه (جبل النور). وكان العرب يراعون جانب هذا الجبل، وفوقه صهريج قديم خرب يمتلىء بالمياه كلما هطلت الأمطار.

ويجدد الزوار وضوءهم عند ذلك الصهريج ويستريحون جالسين فى المقهى الذى بجانبه، وليس المقهى مثل المقاهى المبنية من اللبن والحجارة ولكنه مجرد خيمة عادية.

رواية:

كان النبى ﷺ قد اختفى فى جبل ثبير، فناداه جبل ثبير قائلا: يا رسول الله ابتعد عنى بما أنه لا مكان للاختفاء على ظهرى وأخاف أن يراك القرشيون فيؤذونك، ورجاه أن ينتقل إلى جبل آخر وعقب ذلك سمع صوتا هاتفا من جبل حراء يقول: يا رسول الله! تفضل عندى إننى أستطيع أن أحافظ عليك. وهذا ما ينقله الإمام السهيلى فى كتابه «الروض الأنف».

وخرج صاحب «البحر العميق» قائلا: إن النبى ﷺ لم يختف فى مكان آخر غير غار ثور؛ إلا أن الإمام الأزرقى قال «عندما كانت قريش تبحث عنه كان فوق جبل ثبير، حتى قال الجبل (يا رسول الله لا تبق فوقى لأننى أخاف أن يهجم عليك الكفار، ويقتلونك فأتعرض لعقاب ربى) وقال جبل حراء: «يار سول الله أقبل إلى» فترك النبى ﷺ جبل ثبير وذهب إلى جبل حراء حيث اختفى من قريش، وقال أن هذه الواقعة غير واقعة جبل ثور، وبهذا أيد الإمام السهيلى وخرج قول صاحب البحر العميق.

ولا نهاية لفضائل وعجائب جبل النور، يقول المرحوم مؤلف (بهجة النفوس) إننى كنت أذهب فى بعض الأيام لزيارة جبل النور وفى يوم الجمعة بعد الظهر من جمادى الأولى سنة ٧٥٣ صعدت فوق قمة ذلك الجبل لزيارته كالعادة، ولما وصل إلى سمعى أصوات عجيبة من الأحجار رفعت من على الأرض بعض الحجارة، وأخذت الحجارة تصيح فى كفى وكانت الأصوات تسمع من مسافة قدر طول إنسان. ولما فهمت أن تلك الأحجار تسبح الله وتقدسه، أخذت أدعو الله قدر استطاعتى وفى أثناء ذلك غابت الشمس خلف السحب، ولما ظهرت الشمس بعد فترة انقطعت صيحات الحجارة، وعندما غابت الشمس مرة أخرى خلف الغيم أخذت الحجارة كلها تصيح، وقد أصبحت تحت ظل السحب. وبما أن الساعة قد وصلت إلى العاشرة لم أستطع أن أبقى أكثر من ذلك، فعدت وأصبحت أسمع صيحات الحجارة وأنا بعيد عن سفح الجبل بمائة خطوة، فرويت لأبى ما سمعت، فقال لى قد حدث لى أيضا هذا الحال عدة مرات، إذ كنت أذهب إلى زيارته مع بعض الرجال، ورأيت أحد كبراء البلد يلتقط بعض الحجارة من الأرض. فسألته فأجاب قائلا (كل هذه ذهب خالص ونفقتى السنوية).

يروى أن المرحوم المرجانى قد زار الجبل مع بعض أصدقائه، وسمع أن الحجارة تصيح وتسبح كما سمع بعض أصحابه.

نظم

إنه على بعد ميلين من «المعلا» إنه جبل نور تناطح قمته الجوزاء
إن ياقوت «بدخشان» لايلتمع أمام جوهره وقرص الشمس والقمر فى سفحه
إن رمله وهج نور يمحو قصة موسى وتجلى الطور
ولو أن الياقوت فى «بدخشان» فان فى هذا الجبل يكن الدر اليتيم
فى حبة واحدة أعوام وشهور والرسول الذى لم يكن قد رأى طلعة جبريل
نزل عليه فى هذه الدار فجأة ولما شق القمر صدره الطاهر

«تحفة الحرمين»

الأثر التاسع والأربعون: جبل خندمة:

جبل كبير يقابل جبال أجياد وشعب عامر خلف جبل أبى قبيس. وقد نقل الإمام الفاكهى عن ابن عباس قال: قد دفن فى هذا الجبل سبعون نبيا وبسببهم تهطل الأمطار على مكة ببركاتهم.

الأثر الخمسون: جبل ثبير:

هو أعظم الجبال التى تواجه غار المرسلات الموجود فى منى. ويطلق على الجبل الذى يقع يمين المتجه من منى إلى مكة المكرمة. كما يطلق على الجبال التى تقع على يسراه «جبل ثقبة» وترتفع جبال الجهتين عن الأرض ستة أمتار، وسبب تسميته بذلك الاسم أن واحدا من قبيلة بنى هذيل المسمى ثبير قد مات فوق ذلك الجبل المبجل.

قال القاضى مجد الدين الفيروزابادى نقلا عن المفسر النقاش أن هذ الجبل أيضا من المواقع التى يستجاب فيها الدعاء، ولكنه لم يبين وقت التوجه بالدعاء، ولكن الأسلاف الكرام قالوا يجوز الدعاء فى أى وقت كان.

قال المفسر النقاش أن جبال: النور والثور وجبل ثبير قطع من جبل الطور فحينما تجلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على جبل الطور سقطت عدة قطع من ذلك الجبل، وثلاثة منها سقطت على مكة المعظمة، وقد ذكرنا آنفا أن النبى ﷺ قد شرف غار حراء واختفى من كفار مكة المخذولين.

إضافة

قد حققت ما قاله الإمام الأزرقى عن وجود اثنى عشر ألف جبل حول مكة المعظمة، فتأكدت من صدق قوله لأن حول بلد الله الأمين ما لا يحصى ولا يعد من الجبال، وكل هذه الجبال متصلة متسلسلة، وقد نسيت أسماء أكثرها كما ذكر فى مبدأ المقال.

والجبال مضبوطة الأسماء غير التى ذكر من الجبال المأثورة هى: زرود[1] رقمتين، سلع[2]، قعيقعانا[3]، حاجر، أذاخر، منحنى، شامة، طفيل، حجون مصافى، صفا، مروة، معترضة، عرفات، مأزمين[4]، قزح[5]، صراصر، مفجر، مضايق[6]، سبع البنات[7]، جبل عمر[8]، جبل الكعبة[9]، نعيم، نعيمان[10]، كدا[11]، أخشبان[12]، جبل الكحل، ثبير الخضراء، ثبير النضع، ثبير الزنج، ثبير الأعرج، ثبير أعنيا، قرا[13]، جبل أيوب، جبل سبوع[14].

لا يوجد فى زماننا رجل يخبرنا بأسماء الاثنى عشر ألفا من الجبال التى قال عنها الإمام الأزرقى، كما أنه لا يوجد كتاب تاريخ مفصل موثوق يدلنا على هذه الجبال، ولكننا مع ذلك لا نملك إلا أن نصدق ما قاله صاحب كتاب البحر العميق: بأن من يلقى نظرة من فوق جبل ثبير على مكة المكرمة يرى أن جميع الجبال منحنية نحو الكعبة المعظمة كأنها تسجد لها.

أوقات الدعاء وساعاته

بين العلماء الأعلام أوقات الدعاء فى الأماكن المقدسة وساعاته على اختلاف فيما بينهم، وقالوا يستجاب الدعاء عند الدخول إلى الحرم الشريف من باب بنى

(١) الجبل الذى يشرف على أبطح.
(٢) يطل عليه جبل فلق أيضا.
(٣) على ظهر أبى قبيس جرهم تقع أسلحته عندما وصلها هناك لذلك سمى بهذا الاسم.
(٤) يقال لهذه الجبال الأخشبان أيضا.
(٥) اسم المسجد الحرام ويوجد فى المزدلفة.
(٦) هذا الجبل يقع أمام الحوض الكبير لبركة السلام الواقعة فى وادى محسر.
(٧) من جبال أجياد.
(٨) هذا الجبل أيضا من جبال اجياد وقد ولد هناك عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(٩) أخذت أحجار أجياد من هذا الجبل لتعمير بيت الله الحرام.
(١٠) يسمى وادى التنعيم السهل الواقع بين الجبلين ومسجد عائشة فيما بين الواديين.
(١١) هذا الجبل يتصل بوادى سليم.
(١٢) هما جبلان أحدهما جبل أبى قبيس والآخر الجبل الأحمر الذى يشرف على جبل قعيقعان ويقال للجبلين فى منى أيضا الأخشبان.
(١٣) يبدأ هذ الجبل من عدن ويشكل شعبا كثيرة حتى يتصل بجبل الطور وهى أعلى جبال الحجاز.
(١٤) هذان الجبلان من الجبال المرتفعة أيضا وتقع فى الجهة الشمالية من مكة المكرمة.

شيبة فى أى وقت كان، وفى ليالى الجمعة فى بيت السيدة خديجة الكبرى ـ رضى الله عنها ـ وفى أيام الاثنين عند المولد النبوى وعند الزوال، وفى أيام الأربعاء عند مسجد الشجرة، وفى أيام الأحد فى مسجد المتكأ صباحا، وعند الظهر يوم السبت عند جبل ثبير ومسجد نمرة ومسجد نمل[1]، وفى أوقات السحور عند الميزاب الذهبى ومقام إبراهيم وخلفه، وأوقات الفجر[2] عند «الركن اليمانى»، وفى منتصف النهار عند الحجر الأسود. وفى منتصف الليالى عند الملتزم، وفى أوقات العصر عند الصفا والمروة، وفى أوقات غروب الشمس فى داخل أبنية بئر زمزم، وفى دار الأرقم وفى ليالى البدور فى منى، وعند طلوع الشمس فى المزدلفة، وعند غروب الشمس فى مسجد صخرة عرفات، وعند الطواف فى المطاف وفى الأماكن الأخرى.

مبرك الناقة:

مكان محدب مثل القبر قرب باب العمرة. ويزوره الناس على أنه قبر مشهور مع أنه مبرك ناقة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لأنها عندما اعتمرت أبركوا ناقتها فى هذا المكان، فنزلت فيها ودخلت فى الحرم الشريف، وطافت بالبيت، وإن زيارة هذا المكان لا تخلو من فائدة، إلا أنه يلزم زيارته على أنه مبرك ناقة السيدة عائشة وليس قبر بثبوت لزوم الإرشاد.

ولما كان هذا الكتاب يحتوى على مآثر مكة المعظمة التى أنبأتنا بها كتب التاريخ، فلا يظن أن هذا سيغنى الحجاج الكرام من اتخاذ الأدلاء؛ لذا يجب على الذين يلبسون ملابس الإحرام لأداء فريضة الحج أن يتخذوا دليلا من أهل مكة، وصحيح أن هؤلاء الأدلاء ليس عندهم فكرة عن التاريخ، وعما يخبره المؤرخون، ولكنهم بحكم وجودهم فى مكة المكرمة وحياتهم فيها فهم يعرفون آداب السعى والطواف وأركان الحج أكثر من المؤرخين.

(١) لا يوجد فى زماننا من يعرف مكان مسجد النمل.

(٢) الفجر هو الوقت الذى يجوز فيه أداء صلاة الصبح، أما السحر فهو وقت الظلمة قبل الفجر، وفى وقت السحر يجوز للصائم أن يتناول الطعام لذا يسمى هذ الطعام السحور. هذا هو الفرق بين الفجر والسحر.

ومهما كان الإنسان مطلعا على التاريخ وتعلم ما يخص المناسك وكان متبحراً فى العلوم فهو فى حاجة إلى دليل عند زيارته للمآثر المبروكة، وأن طفلا من أهل مكة فى الخامسة أو السادسة من عمره يمكنه أن يخجل فى آداب الزيارة، وتعيين مواقعها ومعرفة آثار مكة المتبحر فريد عصره ووحيد دهره، إن فى عصرنا هذا من المستحيل أن نجد عالما متبحرا فى تحليل المسائل الفقهية والشرعية ودقائقها مثل الإمام الأعظم أبى حنيفة رحمة الله.

قد أوجب الإمام الأعظم ـ الذى يُسَلَّمُ بفضله وكماله ـ اتخاذ دليل للحاج. ولا يقال ما دامت كتب المناسك فى اليد والمعلومات التاريخية فى الحافظة فما لزوم الدليل؟

وفى الواقع أن كتب المناسك والمعلومات التاريخية يمكنهما أن تكونا رفيقين شقيقين للحاج، وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار، إلا أن الشخص المتبحر الذى تعلم مسائل الحج من كتب المناسك، وتعرف على الآثار الشريفة بواسطة كتب التاريخ، ثم حج معتمدا على هذه الأشياء يشبه ربان الباخرة، فمثل هذا الربان لا يستطيع أن يقترب من الشطآن المجهولة معتمدا على المعلومات الغنية للشخص المكلف بحسابات السفينة، وما معه من الخرائط ومتانة آلات الباخرة وسائر أدواتها، صحيح أنه قد يصل إلى المكان الذى يقصده بدلالة البوصلة ومتانة الآلات والأدوات الأخرى، ويمكنه أن يتجافى مخاطر العواصف والأعاصير المتوقعة، وأنه قد يصل إلى شاطئ السلامة، لكن مع كل هذا لا يمكنه أن يستغنى عن الدليل المرشد الذى يعرف أماكن الجزر والمضايق والرمال التى لا تستقر فيها المرساة والجرف، وكل ربان يخرج إلى البحر بدون أن يأخذ معه دليلا بدافع تعنته وغروره الأنانى، يكون قد ألقى بأرواح المسافرين معه فى بحر الهلاك.

وكذلك تعطى كتب المناسك والتاريخ معلومات صحيحة ومكملة، إلا أنه يحتاج إلى دليل عند زيارة الآثار، دليل يوضح له الآثار، وآداب زيارتها وكيفية تصرفه عند وجوده عندها، لأن الكتب لا تستطيع أن تؤدى الخدمة التى يؤديها

الدليل. وبناء على ذلك يقتصر اختيار الدليل على كونه من أهل مكة. وبما أن قبلة الموحدين الكعبة المعظمة المفخمة تقع فى واد غير ذى زرع؛ فأغلب سكانها يتعايشون بالدلالة وسقاية الحجاج. والقليلون منهم يشتغلون بالخياطة والعطارة وغيرها من أعمال البيع والشراء وتمر الحياة عندهم. وكانت مهنة الدلالة المهمة فى صدر الإسلام وقصرا على خمسة أو عشرة أشخاص، وفيما بعد تعددت البلاد الإسلامية وأصبح من الواجب تعيين دليل خاص لكل بلد من البلاد الإسلامية. وفى زماننا أدلة خاصة سواء أكان للمسالك العثمانية أو الممالك الموجودة فى البلاد الأجنبية، فالحاج عندما يصل إلى مكة فمن الأمور الواجب إتباعها الاتصال بدليل بلاده ومراجعته، فإذا ما لجأ إلى دليل آخر غير الدليل الذى عين من أجل بلاده يكون قد ألقى نار الخصومة بين الدليلين، وقد صدرت مثل هذه الخصومات فيما مضى كثيرا حتى قام الأهالى بعضهم ضد بعض، لأجل ذلك قرر أن يكون لكل دليل وكيل فى مرفأ جده المعمورة، يستقبل الحجاج التابعين له وكان قرارا سديدا.

وبما أن للعساكر السلطانية دليلا بريا ودليلا بحريا معينان بالأمر العالى فهم مستثنون من مراجعة أدلاء البلاد، إذا كان الجندى الحاج من الجنود النظاميين يراجع دليل الجنود النظاميين، وإذا كان بحريا يراجع دليل البحرية، ودليل الجنود النظاميين الشيخ محمد أفندى، ودليل العساكر البحرية الشيخ أحمد حوائى أفندى، وخدم أحمد حوائى أفندى فى داخل البيت الأكرم ما يقرب من خمس عشرة عاما، وقد اضطر أن يختار دلالة البحرية حتى لا يقصر فى خدمة الحرم الشريف بسبب شيخوخته، وكان يؤوى جميع ضباط البحرية وأنفارها الذين يحجون فى منزله دون أجر، إذ كان رجلا سخيا كريما رغم فقره، وقد ارتحل عن دنيانا سنة (١٢٩٩هـ) تاركا مهنته لابنيه عبد الكريم ويوسف وكلاء السادة الأدلاء فى مدينة جده، إن وكلاء جده يترقبون وصول البواخر، وعندما تأتى البواخر يستقبلون الحجاج الذين ينتسبون إليهم، ويأخذونهم إلى البيوت أو المنازل حيث يؤونهم، ثم يوصلونهم إلى مكة المكرمة بعد وصولهم بثلاثة أيام أو أربعة

أيام، بعد أن يعدوا لهم الجمال التى ستنقلهم إليها، وبعدما يكونون قد أروهم الأماكن التى تزار فى جده، وبعد العصر يذهب إلى مكة المكرمة من جده، إما بحمار أو جمل، والذين يذهبون بالجمال يصلون إلى مكة المكرمة فى ليلتين والذين يركبون الحمير فى ليلة واحدة، ويعلم الوكلاء الأدلاء قبل وصول الحجاج المنتسبين إليهم بالبريد، ويبينون فى رسالتهم عدد الحجاج وأسماء الجمالين الذين حملوا الحجاج وأسماءهم وينتظرونهم ليلة وصولهم فى خارج المدينة ويستقبلونهم.

إن استقبال أدلاء مكة الحجاج قد اتخذ توصيل الحجاج إلى مكة ليلا نظاما لدى الجمالين لذا ترى الدليل الذى استلم رسالة من جده يخرج إلى ضريح الشيخ محمود قبل وصول قافلة جده بعدة ساعات، وينتظرون وعندما تصل القافلة يقفون أمام الجمال ويبادرون فى البحث عن حجاجهم قائلين:

هل السيد الفلانى من المكان الفلانى موجود هنا؟ والحجاج الذين يجدونهم يبعثونهم إلى منازلهم فى رفقة أبنائهم أو خدمهم، ويجد الأدلاء حجاج الممالك التى يتولون دلالتهم، ويرحبوا بهم أعظم ترحيب ويرسلونهم إلى منازلهم، ويضع الأدلاء الأشياء التى على الجمال فى أماكنها المطلوبة، ثم يأخذونهم إلى المسجد الحرام حيث يقومون بمناسك الحج من الطواف والسعى، وبعد مرور عدة أيام يهيئ لهم الدليل وكالة حيث يأويهم.

ويعتبر حفل الضيافة الذى يقيمه الأدلاء من العادات الطيبة القديمة لدى الأدلاء. وإقامة وليمة عظيمة للحجاج بعدما يتم تسكينهم فى الوكالات حتى لو كان حاجا واحدا. ويطوف به الكعبة طوال وجود الحاج فى مكة المكرمة.

الخدمات التى يؤديها الأدلاء للحجاج:

لما كان الحجاج محتاجين لعون أدلائهم سواء كان فى الطواف والزيارة والبيع والشراء فى النهوض والحركة، فالأدلاء يفتخرون بأداء هذه الخدمات للحجاج بكل صدق وإخلاص.

ومن هنا ترى أن الدليل يقابل الحاج منفرداً عدة مرات، ويستفسر عن حاله ويهيئ له ما يحتاج إليه.

كيف يقابل الحجاج خدمات الأدلاء:

ذكرنا الخدمات التى يؤديها الأدلاء للحجاج فهم يقابلون هذه الخدمات والترحيب بالنقود، وكل حاج يرى دينا عليه أن يدفع عقب الوليمة التى تقام له قدرا من النقود حسب حاله.

وفى عيد الفطر يوم عودته مقدارا من النقود، وكذلك ينفحه من أسبوع لآخر عدة قروش، وبما أنه يلزم إعطاء وكيل الدليل الذى فى جده بعض النقود يعطى، الحاج فى اليوم الذى يتحرك من جده إلى مكة المكرمة مقدارا مناسبا من النقود كهدية، وكل هذه الهدايا تعد من نوع الصدقة الشرعية.

وكل هذه الأشياء يمكن تحقيقها باللجوء إلى ظل السلطان الظليل، السلطان عبد الحميد الثانى، إمام المسلمين، وخليفة الأرض وبالدعاء إلى الله بمد عمره وزيادة قوة دولته كما هو مبين فى الخاتمة الآتية الذكر؛ لأن تأمين الحرمين المحترمين من تسلط المتسلطين وإخلائهما من اللصوص الناهبين وجعلهما ساحة آمنة مصونة، يؤدى الحجاج فيهما مناسكهما فرحين مبتهجين آمنين؛ متوقف على وجود خليفة ذو صفات قدسية وأولاده وأحفاده إلى يوم القيامة على وجود خليفة عادل كل همه: خير الأمة الإسلامية.

* * *

ضرورة وجود السلطان ووجوب الطاعة والانقياد له

إن السلامة والفلاح سواء أكانت فى هذه الدنيا ساحة تجلى القدرات، أو فى حياة الآخرة الباقية يتوقف على وجوب الطاعة والخضوع لأوامر خليفة العصر ونواهى السلطان الذى يصدق عليه معنى الأثر القائل والسلطان ظل الله فى الأرض، ويأوى إليه كل مظلوم.

كان علماء السلف الصالح يرجعون إلى السلاطين أصحاب الإمامة والخلافة فى عصورهم لحل الخلافات، وإزالة الشبهات؛ وهذا يدل دلالة قطعية على وجوب عرض الأمور الهامة على إمام المسلمين للعصر فى كل آن وزمان، ولكن حتى تكون الإجابة الصادرة من جانب الخليفة حائزة لرضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجب على العلماء أن يوضحوا كل فقرة من فقرات القضية المفروضة وفقا للقواعد الشريفة القومية، حتى تصان الأجوبة التى ستصدر مؤيدة بإلهام إلهى من شائبة الإبهام والشك، وحتى لا تظهر الإجابة منافية للمقصود، لعدم وضوح المسائل المعروضة، ومع هذا فنظرة الخلفاء الثاقبة وأحكامهم تشمل على خلاصة الأمور الهامة المعروضة عليه ومضمونها العام لأن الخلافة وأعبائها الثقيلة التى يحملونها فوق أكتافهم تحول دون الاطلاع على مفردات الأمور وجزئياتها.

ولما كان الخلفاء مطمئنين واثقين من أن تدقيق الأمور وتحقيقها تقع على أكتاف العلماء والوزراء، كما أنهم مسئولون عن موافقة المسائل المعروضة للأحكام الشرعية والقوانين العرفية، وهذه قاعدة مشروعة متفق عليها بالإجماع، فتدقيق المسائل وتحقيقها يخرجان عن إطار مهماتهم المقدسة، ومن هنا فالمسئولية المادية والمعنوية تقع على كاهل عارضى المسائل.

فإذا ما اطلع على أى صحيفة من صفحات كتب التاريخ القديمة فى العالم،

وإذا ما دقق وحقق فى المعاملات الجارية للأقوام الذين أتوا إلى الدنيا، مكمن العبر ثم غادروها وعمَّق النظر فيها لسَلَّمَ أن الدنيا ليست دار ثواب وعقاب، ولكنها نموذج للحياة الآخرة بكل ما فيها من المجازاة الشرعية وقوانينها العرفية، هذه هى خلاصة الخلاصة التى تستنبط من فحوى الكتب الشرعية.

وإن كان لا ينكر أن الدنيا دار كسب وعمل وتقدم، إلا أن الحصول على السعادة المطلوبة فى الدنيا والآخرة والتمتع بالنعم الجليلة والأخذ بالحظ الوافر منهما يتوقف على الانصياع لأوامر الخليفة المقتدى به وتدابيره. ولما كان منصب الخلافة أصلا قويما يجمع بين المناصب الدينية والدنيوية فقد فوض تنظيم أمور العباد وفقا للقوانين الشرعية، والحكم والتصرف ليد الخليفة القديرة، فالخدمات الدينية والوظائف التى توجه إلى رجال الدولة والمصالح العامة برمتها متشعبة من ذلك الأصل ومتفرعة منه.

وإذا لم يخف بنو البشر من سياسة الخوف والجزاء لأخلوا بالنظام وراحة الناس بحكم طبيعتهم البشرية، ولقاموا بارتكاب أعمال غير مرضية. إن ضرورة وجود خليفة مقتدر به فى كل عصر قد ثبت بالنص الجليل:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ (ص: ٢٦)

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق ورتب وسائل صيانة صلاح بنى البشر ونظام معاده ومعاشه خاليا وجوده وبقائه من الفساد والخلل وفق الحكمة الربانية، وجعل الخليفة وسيلة فى تدبير أموره لأن ترك بنى البشر لأنفسهم يؤدى إلى الظلم والبغى والتعدى وإفنائهم وانقطاع نسلهم وانفصامهم.

وهذه الحال تنافى أحكام المشيئة الإلهية، لهذا لزم وجود خليفة حكيم قادر على دفع الظلم والعدوان، مدبر للشئون محافظة على حياة الإنسانية، وعلى هذا يجب أن تقوم صلاحية الخليفة الشرعية وأن نعلم مَنْ ذلك الشخص الذى يستحق أن يطلق عليه اسم الخليفة.

وقسم حكماء علماء الإسلام حكومة الملوك وسياستهم التى تكفل انتظام حياتهم الدنيوية وأحوالها إلى ثلاثة أقسام هى الخلافة، السياسة والطبيعية.

الخلافة:

إحدى أقسام الحكومات الثلاثة ويطلق عليها الإمامة أيضا حكومة الخلافة، وهى دولة عادلة وسلطنة فاضلة. ويقوم صاحب هذه الدولة بجعل أحكام الشريعة نصب عينيه فى جميع الأمور العامة والخاصة. وبما أنه يحكم ويتصرف فى عامة المصالح الدينية والدنيوية وفقا لقوانين الشرع والعدل فمدار الخلافة الأصلى هو حفظ قواعد الشريعة، وضبط سياسة الأمة قائمًا مقام صاحب الشريعة (عليه أفضل التحية)، وكائنا سلطانا ذو شوكة وقوة، وبناء على هذا سمى هذا النوع من الملك والحكومة: «الخلافة».

٢ ـ يطلق على القسم الثانى من الحكومات الثلاث حكومة سياسية. لما كان هذا النوع من الحكومة سلطنة فالهيئة التى تشكل هذه الحكومة تتخذ إعمال الفكر والنظر دستورًا لها، وتدبر دولتها بما ينظم عقلاؤها وحكماؤها من القوانين والنظم.

إن النظم والقوانين التى رتبت بناء على العقل البشرى القاصر والفكر الفاتر لا تستطيع أن تؤمن ما يحتاج إليه الأفراد من سبل المعاش، وتنظيم أمور المعاد كما يبين ذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم: ٧)

فمثل هذه السلطنة التى تنشغل بالمنافع الدنيوية فقط ليست مقبولة لدى الشرعيين.

٣ ـ يسمى النوع الثالث من الحكومات حكومة طبيعية لا يأخذ المفسرون الساعون إلى تشكيل الحكومة التى يطلق عليها حكومة طبيعية فى الاعتبار

مقتضيات العقل والشرع، وإنما يقصرون حكمهم ـ مثال قطاع الطرق والبغاة الظلمة ـ على العنف وغصب الأموال وقتل النفوس والحركات غير المشروعة والتعديات الظالمة.

وبما أن هؤلاء قد سلموا زمام أمرهم وتدبيرهم للنفس الأمارة بالسوء، ولما كان بصرهم وبصيرتهم فى غاية الظلام من ناحية الخير، فهم لا يستهدون إلى الخير أبدا، ولا يسلمون أبدا من الخطأ والقتل وفقا لمدلول قول الله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠)

وقد أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على البشر بالعقل والقدرة والرشد والبصيرة، وبين لهم فى الكتب المنزلة ما ينفعهم ويصلح من شأنهم، وما يخص معاشهم ومعادهم، وحذرهم من الانهماك فى الشرور والمفاسد، لأن جزاء الخير والشر يعود لفاعله، وانقراض دول ملوك الطوائف وبغاة المسلمين الذين لوثت أفعالهم المذمومة صفحات كتب التاريخ لدليل واضح على إثبات ذلك.

قد انقرضت تلك الدول بظهور سلاطين الدول الإسلامية الذين حكموا بالعدل، وكانت القوة والمتانة من أحلافهم، وبناء على هذا من واجب الأمة البحث عن إمام عادل تعيش تحت حكومته العادلة وسلطنته الفاضلة، وقد ثبت ذلك باتفاق آراء الصحابة العظام والتابعين الكرام واتفق على هذا علماء المسلمين الأعلام بإجماع الأمة، وحينما ارتحل النبى ﷺ، عن دنيانا إلى مقر الراحة الأبدية أسرع الصحابة بمبايعة الصديق الأكبر.

ومازالت البيعة تجرى على هذا النهج إلى عصرنا هذا، ولم يترك أحد هذه السنة السليمة الغاية فى أى عصر من العصور مدعيا الانفراد والاستقلال برأيه، والإجماع القطعى سند قوى فى الدلالة على الأحكام الشرعية وصحتها، وبناءا

على هذا يكون قد ثبت وجوب انخراط المسلمين فى كل العصور فى سلك إدارة خليفة ثابت بأدلة قطعية لدى المسلمين.

وطاعة خليفة العصر والزمان واجبة شرعا، وكذا الخضوع لكل أوامره ونواهيه التى توافق القوانين العادلة التى اقتبست من مشكاة أنوار الشريعة الغراء. ومن المصلحة العامة إخراجها إلى حيز الوجود، كما يجب شرعا تنفيذ أوامر إمام المسلمين إذا كان ما طلب من الإنسان مباحا، وكان الخليفة يؤدى مهمة الخلافة وأفعالها وفقا للأحكام الشرعية ويطبقها فقد صرح له أن يستقل برأيه فى اتخاذ القرارات بناء على قول الله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وإن كان مأمورا باستشارة عقلاء قومه، فإن الذى يتولى مقام الخلافة الجليل ملهم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومؤيد بأوامره ونواهيه، وبما أن السلاطين العثمانيين أعدل من ملوك الأسلاف فى إجراءاتهم الدينية وحركاتهم بأدلة شرعية متعددة، وإنهم أتم وأكمل منهم فى خدمة الدين ورعاية جانبه، وبما أن أساس سلطنتهم مبنى على قواعد الشرع الكريم؛ فكل أمر يصدر من مقام الخلافة الجليل وفى أى وقت فالخضوع له وتنفيذه قد وصل إلى درجة الوجوب، ويكفى لإيضاح هذه الحقيقة أن سكان الأراضى الحجازية السعيدة التى كانت مطلع أنوار الإيمان والدين، وهدف المسلمين وغايتهم يراجعون دار الخلافة السنية لإزالة شبهاتهم الدينية، وحل خلافاتهم، ويستدل على مراعاة السلاطين العثمانيين فى أعمالهم وأفعالهم الموافقة لتعاليم الدين العديد من الكتب التى تزين دور الكتب مصنفات الأسلاف القيمة، حتى أن رمزا من رموز العلوم الباقية وهو عثمان باشا الغازى كان قد كتب عدة كتب قبل أن يرفع علمه مغادرا الحياة، يظهر فيها عدالة سلاطين الدولة العثمانية، وكيفية استهلال حكمهم وكيف يستطيع رعاياهم أن يعيشوا قريرى العين، مرفهين آمنين تحت حمايتهم.

وندرج هنا ما كتبه سيد الآراء والقدسية المعنوية وصدرها السيد «صدر الدين» القنوى فى مقال له فى شرح الشجرة كما هى حتى نقيم دليلا على مدعانا.

صورة المقالة

واعلم أن لهذه الدولة تأصيل نسب وعلو مرتبة بأصل صحيح، يعلم منه شرف مقاماتهم العلية، وذلك التأصيل فى الآية الشريفة قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر: ٣٢)

فقد دخلوا ضمن الآية الشريفة لكونهم من أمة محمد ﷺ، مع من أشارت إليه الآية فلاشك أنهم فى سلكها مُنْدَرِجُونَ ومن التأصيل المشار إليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أى الصلاحية لهم، فهم بالنسبة لغيرهم من أصلح الدول بعد الصحابة والتابعين؛ لوجود النعت فيهم وانقيادهم للشرع الشريف، وتمكينهم من رتبة العبادة والخدمة كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وملازمة الجماعة واتباع السنة وحسن العقيدة، وقل أن يوجد ذلك بكماله فى دولة من الدول الذين تقدموا وأما لفظة (لبلاغًا) فهى إشارة تفيد العلم بالوقت المنتظر، وكفى بذلك توفيقًا لمن أيقظه الله تعالى وفتح عين بصيرته فرأى الصلاح فيهم ظاهرا، وسيظهر ذلك إن شاء الله تعالى ونشاهده عند ظهور دولتهم، فافهم.

فائدة عظيمة، لا يستغنى عنها:

اعلم أن ظهور هذه الدولة قد حكاه ونبه عليه صاحب الأصل فى خطبة البيان بإشارة واضحة. وذكر أن ظهورها الإحاطى فى (بكلظ) وانتهاء ظهورها فى «دسغ» وإنها ستظهر على غالب المعمور من وجه البسيطة ويقهرون من ناوأهم، وينتهى سير جنودهم إلى الجزيرة الكبرى يفتحها الله على يد (م و ح) من المدن

المنسوبة إلى معنى الإشارة، وتفتح (م) بالتسليم وأخرى (و) بهول عظيم وأخرى (ح) بحسب رحيم وأخرى برعب عميم».

(عن شرح شجرة لصدر الدين القنوى)

هذه المقالة العظيمة التى كتبها أرباب الإيمان بمحض الإلهام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ والتى تتضمن إشارات معنوية مقتبسة من الحقائق الكونية، والتى تشير إلى الفتوحات.

وفى عام ٩٢٢هـ دخلت مصر فى حوزة التسخير، وتلقب سلطان العثمانيين بـ«خادم الحرمين» إلى غير ذلك أيضا مما يشير إلى نبوءات أهل الإيمان، بظهور أمير المؤمنين سلطان الموحدين الغازى عبد الحميد خان الثانى الذى تجلى العدل وعم فى عهد سلطنته. وبقطع النظر عن التبشيرات المعنوية للمقالة المذكورة؛ فإنه فى الوقت ذاته، لما كان تجديد قوة أساس بنيان هذه الدولة المهون بين الدول المتحفزة كان منوطا بالإرادة الجليلة للمولى عز وجل، ندعو الله أن يؤيد سلطاننا العادل، ويديم للخلافة سلطانا عادلا عاملا، فهو منذ يوم جلوسه المبارك على عرش الدولة وهو يعمل ليل نهار على إحياء مجد الدولة، وراحة رعاياها وذلك بجدية وإيثار، وغير هذا فآثار خليفة سيد المرسلين الذى يحمل لقب «خادم الحرمين» ظاهرة فى كل آن وزمان لعيون المسلمين، كما أن المجاورين والأهالى يسعدون بما ينعم عليهم من خيرات لا تعد ولا تحصى، كما أنه بذل الجهد وأنفق الأموال لتكون مكة المكرمة (شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة) أجمل البلاد، بل تمتاز عليها جميعها وذلك تقديرا لمكانتها وقداستها، وكل هذه الأعمال ظاهرة لأعين الحجاج مما يعجز القلم عن تفصيلها وذكر مفرداتها، وخلاصة القول فهؤلاء الذين أدركوا عصر هذا السلطان الذى يصرف كل أفكاره العادلة ويوجهها

لتأييد أحكام الشريعة الغراء وتطبيقها وتأمين رفاهية الأهالى وسعادتهم وسعادة الخلق جميعا.

وها هو ذا محرر هذه الحروف أدرك عصر ذلك الخليفة الذى انتشر فيه عدله الملوكى، وأتم الجزء الأول من «مرآة الحرمين» وهو «مرآة مكة» وطبعه.

وإننى لأعتبر نفسى أسعد الناس من الناحية المادية والمعنوية إذا وفقت فى أن أعرض هذا الكتاب، وأن أضعه تحت الأنظار السلطانية وهذا شرف أقدمه على جميع أنواع المزايا الجليلة وقدمتها.

والسلام على من اتبع الهدى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآلهم أجمعين وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

تقديم ٧
هل كانت كلمة المرآة مقصودة من المؤلف؟ وماذا أراد بها ٩
أسباب تصنيف الموسوعة ٩
الكتاب المصنّف ١٠
سبب إطلاق أسماء «مكة» عليها ١٤
مرآة المدينة ٢٤
أسماء المدينة ٢٩
مرآة جزيرة العرب ٣٧
أحوال العرب قبل الإسلام ٣٩
عناصر مجلد مرآة جزيرة العرب ٥٢
مقدمة المصنِّف ٥٥

الوجهة الأولى

إفادة مخصوصة ٦٠
الخلاصة ٦٣
بيت الله (الكعبة) ٦٣
الملتزم ٦٤
المستجار ٦٤
الحجر الأسود ٦٤
داخل الكعبة ٦٥
حجر إسماعيل ٦٦
حفرة المعجن ٦٧
الشادروان ٦٧
الستارة الشريفة ٦٧

المطاف الشريف ٦٧
المنبر اللطيف ٦٩
المقامات الأربعة ٦٩
المقام الحنفى ٦٩
المقام الشافعى ٦٩
المقام الجنبلى ٦٩
قبة الفراشين ٧٠
قبة السقامية ٧٠
الصورة الأولى: التعريف بالأحوال الجغرافية للبلدة المعظمة مكة المكرمة.. إلخ ٧١
البلدة المعظمة مكة المكرمة ٧٢
إديان العرب فى الجاهلية ٧٧
أسماء مكة الله السامية ٨١
سبب إطلاق هذه الأسماء على الكعبة ٨٢
البلدة المرزوقة ٨٩
أسباب تلقيب بيت الله بالألقاب الجميلة ٩٣
أعلام قلاع الحرمين الشريفين ٩٧
استيلاء طائفة القرامطة على مكة ١٠٠
الصورة الثانية: فى ذكر وصف شكل وطراز بيوت مكة ومنازلها ودرجات الحرارة.. إلخ ١٠٢
الحسينية ١٠٤
وادى فاطمة ١٠٤
درجات الحرارة ١٠٦
فواكه وخضراوات مكة ١٠٩
أسباب ظهور الأمراض فى مكة ١١٤

نصائح لمن يذهبون إلى الحجاز ١١٧
الصورة الثالثة: لماذا أطلق على البيت المعظم الكعبة ١٢٢
طواف طائر بالبيت المعظم ١٢٧
طواف الجن بالبيت المعظم ١٢٨
الصورة الرابعة: التعريف بحدود كعبة الله ١٣٠
مقام إبراهيم ١٣٤
حدود حرم الله ومواقيت كعبة الله المكانية ١٤٤
أسماء الذين جددوا أميال المواقيت ١٤٨
الصورة الخامسة: إيجار واستئجار بيوت مكة ١٥٠
خلاصة مسألة إيجار بيوت مكة ١٥٥

الوجهة الثانية

فى تفاصيل بناء مكة وعمارتها ومن بناها وأسباب تجديدها وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها

..... ١٥٧
الصورة الأولى: الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء مكة ١٥٧
الصورة الثانية: تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة ١٥٩
الصورة الثالثة: بناء الكعبة للمرة الثانية ١٦٣
أقوال الجمهور فى تعريف البيت المعمور ١٦٦
بشرى لمن طاف بكعبة الله ١٧٢
الصورة الرابعة: تجديد الكعبة للمرة الثالثة ١٧٤
الصورة الخامسة: بناء سيدنا إبراهيم للبيت وإقامة أولاد إسماعيل فى بلدة الله المقدسة ١٧٦
ترجمة حال سيدنا الخليل عليه السلام ١٧٧
هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر ٢٠١
سبب سفر الخليل عليه السلام إلى مكة وكيفيته ٢٠٦
كيف ظهر بئر زمزم ٢١٣

الغراب الأعصم ٢١٧
أسماء زمزم ٢٢٣
هجرة قبائل الجراهمة ٢٣٠
زواج إسماعيل وذهاب إبراهيم عليهما السلام إلى مكة ٢٣١
اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح ٢٣٤
كيفية حدوث قصة الذبح ٢٣٦
فداء إسماعيل ٢٤٤
تكليف الخليل ببناء الكعبة ٢٤٨
مساحة كعبة الله وساحة البيت المعظم ٢٥١
انتقال حكومة مكة لبنى خزاعة ٢٦٧
الصورة السادسة: تجديد البيت العتيق للمرة الخامسة ونجاح العمالقة فى ذلك ٢٧٥
الصورة السابعة: طريق تجديد البيت فى المرة السادسة ٢٧٧
الصورة الثامنة: طريقة تجديد البيت فى المرة السابعة ٢٧٨
انتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب ٢٧٩
الإجازة ٢٨٥
جاهلية العرب ٢٨٩
تأسيس مدينة مكة المعظمة ٢٩٣
قصى يجمع مناصب الجاهلية كلها ٢٩٥
الحجابة ٢٩٩
السقاية ٣٠١
الآبار الموجودة فى مكة المعظمة ٣٠٣
هل يجوز سحب السقابة من بنى العباس؟ ٣٠٥
اللواء ٢٠٦
الندوة (الاجتماع) ٣٠٧

السفارة ٣٠٧
النظارة ٣٠٨
صاحب القبة (ناصب الخيمة) ٣٠٨
التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام ٣٠٩
لعب القمار فى الجاهلية ٣١٢
خازن الآلات والأموال ٣١٣
القيادة ٣١٨
اختلاف قريش ٣١٨
الكهانة ٣٢٥
العرافة ٣٢٦
الزجر والطيرة ٣٢٦
الصورة التاسعة: كيفية بناء الكعبة للمرة الثامنة ٣٣٠
ظهور حية فوق الكعبة ٣٣٣
صورة الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة ٣٣٨
دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز ٣٤٨
بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض ٣٥٣
الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة ٣٥٨
ظهور طقوس الوثنية بين أحقاد إسماعيل ٣٧٣
أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل ٣٧٣
معلومات خاصة بالجن والشياطين ٣٨١
قصة الفيل ٣٩٩
معلومات خاصة فى صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به ٤١٥
تعريف القليس الذى بناه أبرهة فى صنعاء ٤١٦
بيت أصنام بنى بغيض ٤١٨
هجوم ملك الروم بقصد تخريب الكعبة ٤١٩

الصورة العاشرة: فى تجديد مبانى الكعبة للمرة التاسعة ٤٢٣
خطبة عبد الله بن الزبير ٤٢٣
مشاورة ابن الزبير للأعيان والعظماء من أهل مكة ٤٢٨
الصورة الحادية عشرة: فى تجديد مبانى الكعبة للمرة العاشرة ٤٣٣
تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والمملكة إجمالاً ٤٤١
الصورة الثانية عشرة: تعمير أركان بيت الله وتشييده للمرة العاشرة ٤٤٥
الصورة الثالثة عشرة: تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة ٤٤٩
عين زبيدة ٤٥٤
إحدى كرامات بيت الله الحرام ٤٥٤
مكافأة رضوان أغا الذى أوكل إليه أمر تجديد البيت الحرام على جهده وإخلاصه ٤٨٣

(الجزء الثانى)

صورة التاريخ الذى تم فيه تجديد الحرم فى عهد السلطان مراد وذلك سنة ١٠٤٠هـ، وكيفية إتمام هذه الأعمال

صورة الخط السلطانى المقرونة بالسعادة تقديما المقابل ٤٩١
الخدمة المؤداة لمكة المكرمة ٥٠٠
فتاوى خاصة بإصلاح ما انهدم من بيت الله ٥٠٣
(الوجهة الثالثة) فى عدد مرات توسيع البيت ومن قام بذلك، وإرسال الصرر، والوقود، والقناديل والشموع إليهما ٥٢٦
الصورة الأولى: فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة ٥٢٧
الصورة الثانية: فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية ٥٤٥
الصورة الثالثة: فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة ٥٤٧
الصورة الرابعة: فى توسيع المسجد الحرام وتزينيه للمرة الرابعة ٥٥١
الصورة الخامسة: فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه ٥٥٦
باب المعلَّى ٥٥٦

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق ٥٦٢
تجديد المسجد الحرام ٥٦٣
إنهيار كمر المروة ٥٦٦
ألبسة ملوك الجراكسة المصريين ٥٦٧
إرسال الصرة إلى الحرمين ٥٧٧
المقدسات المباركة التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة ٥٨٠
الميزاب الذهبى ٥٨١
كيفية توزيع وتقسيم الصرة المرسلة من السلطان سليم بن يا يزيد ٥٨٣
الغلال الواردة إلى الحرمين ٥٨٤
ترميم المقام الحنفى ٥٨٥
مقدار وقيمة الصرة المرسلة إلى الحرمين ٥٨٨
الصرة الخاصة بأهل مكة المكرمة ٥٨٨
الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة ٥٩٢
صورة العلم والخبر ٥٩٣
الرواتب العامة للصرة السلطانية ٥٩٥
ترتيب بدلات الشهادات ٥٩٨
الصحيفة الخاصة بمخ الطبقة الثانية ٦٠٢
صورة الأمر والقانون ٦٠٣
الرسالة السلطانية للشريف محمد بن عون أمير مكة ٦١٢
مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف ٦١٣
ما يرسل من باب السعادة ٦١٤
ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية ٦١٥
ما هو مقرر أن يرسل من الشام ٦١٥
مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة وداخل الحرم الشريف وسائر
المساجد فى كل شهر ٦١٦

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف ٦١٧
ما يوقد بشمع العسل ٦١٨
الشمعدانات والثريات والقناديل ٦١٩
عين زبيدة ٦٢٢
آخر تعمير لها ٦٣٧
المدارس الأربعة التى أقامها السلطان سليم فى مكة وكيفية إدارتها ٦٤٤
الصورة السادسة: تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم ٦٤٦
صورة تاريخ سليس ٦٥٠
رؤيا عثمان باشا ٦٥٦
تاريخ المكتبة ٦٦٠
(الوجهة الرابعة) الهدايا والتزيينات وأصحاب المعلقات العتيقة والكساوى والقناديل، والأشخاص الذين أهدوا للحرمين، ومما يتكون المحمل الشريف ٦٦٣
الصورة الأولى: فى ذكر الذين قدموا الهدايا للكعبة الله وزينوها، والذين رمموها وعمروها عند الضرورة ٦٦٤
تاريخ تجديد الميزاب ٦٧٠
سبب تسميته بالميزاب الذهبى ٦٧٤
النقود الإسلامية ٦٧٨
المسكوكات العثمانية ٦٨٧
الدرهم الشرعى ٦٨٨
الصورة الثانية: من قدم إلى الكعبة المعلقات والستائر ٦٩٠
الصورة الثالثة: كيف عُلِّقت الكسوة على كعبة الله ومن الذين نالوا شرف كسوتها وكيفية الاحتفالات فى مختلف المناسبات ٦٩٨
محاصيل القرى السبع الموقوفة للكسوة الشريفة ٧١٢
صورة وقف الكسوة الشريفة ٧١٤
الأماكن التى تجدد كل خمسة عشر عامًا ٧١٩

موكب الكسوة الشريفة فى مصر ٧٢٤
صورة دخول المحمل الشريف مكة ٧٢٥
وصول الصرة إلى أرض الشام وخروجها منها ٧٣٠
صورة إجراء حفل موكب المحمل فى مصر ٧٣١
الصورة الرابعة: تقسيم كسوة الكعبة وبيانها ٧٣٤
وصف الستارة الشريفة ٧٣٦
(الوجهة الخامسة) فى أوضاع مبانى المسجد الحرام القديمة وأبوابها وأعمدتها وشرفها ٧٣٧
الصورة الأولى: فى تعريف وضع المسجد الحرام القديم ٧٣٨
الصورة الثانية: عدد أعمدة المسجد الحرام القديمة ٧٣٩
الصورة الثالثة: عدد شرفات المسجد الحرام القديمة ٧٤٢
الصورة الرابعة: عدد أبواب المسجد الحرام القديمة ٧٤٣
(الوجهة السادسة) قباب المسجد الحرام الجديدة وهيئتها وعددها وشكلها، وبيان ذلك
الصورة الأولى: ما حدث للمسجد الحرام بعد تجديده ٧٤٥
الصورة الثانية: عدد قبب المسجد الحرام ٧٤٦
الصورة الثالثة: عدد شرفات المسجد الحرام ٧٤٧
الصورة الرابعة: فى بيان ما مضى ذكر من أبواب المسجد وجهاتها وعدد شرفات المسجد وأبوابه ٧٤٨
الأبواب الشرقية: (السلام ـ باب النبى ـ باب العباس ـ باب على) ٧٤٨
الأبواب الجنوبية: (باب بازان، باب البغلة، باب الصفا، باب جياد باب مجاهد، باب مدرسة الشريف عجلان، باب أم هانئ) ٧٤٩
الأبواب الغربية: (باب حزورة، باب إبراهيم، باب العمرة) ٧٥١
الأبواب الشمالية: (باب السدة، العجلة، القطبى، دار الندوة، باب الدريبة) ٧٥٣

الصورة الخامسة: مآذن المسجد الحرام وعددها ومآذن مكه وأماكن وجودها ٧٥٥
الأوراد التى تُقرأ فى المآذن ٧٥٧
الصورة السادسة: مساحات المسجد الحرام فى الداخل والخارج وخريطة مسطحة لها ٧٧٤
(الوجهة السابعة) فى تعريف الأماكن المقدسة والمساجد القديمة والمواضع الأخرى، وأوقات استجابة الدعاء ٧٨٣
الصورة الأولى: الأماكن المقدسة والمواقع الميمونة ٧٨٤
الأثر الأول: المطاف الشريف ٧٨٧
مسائل مهمة ٧٨٨
مواقع وعدد القناديل التى كانت توقد فى مواسم الحج ٧٩٠
سبب بناء الحطيم وتاريخ تأسيسه ٧٩١
أئمة وخطباء الحرم الشريف ٧٩٥
خدمة المسجد الحرام ٧٩٦
علم أصول الفقه وعلم الفقه ٧٩٩
فضائل الحطيم ٨٠٥
الأثر الثانى: المستجار ٨٠٦
الأثر الثالث: الملتزم ٨٠٦
الأثر الرابع: تحت الميزاب ٨٠٧
الأثر الخامس: حفرة المعجن ٨٠٨
الأثر السادس: مقام إبراهيم ٨٠٩
الأثر السابع: داخل البيت المعظم ٨١٥
سلم بيت الله ٨١٨
مسألة الصلاة داخل الكعبة ٨٢٠
الأثر الثامن: قرب بئر زمزم ٨٢١

تطهير بئر زمزم ٨٢٥
مساحة بيت الله ٨٢٨
فوق بئر زمزم ٨٣٠
الأثر التاسع: ما خلف مقام إبراهيم ٨٣١
المنبر الشريف ٨٣٢
الأثر العاشر: الصفا ٨٣٢
الأثر الحادى عشر: المروة ٨٣٤
الميلان الأخضران ٨٣٥
الأثر الثانى عشر: المسعى ٨٣٦
الأثر الثالث عشر: الحجر الأسود ٨٤٠
معلومات عن الحجر الأسود ٨٤٣
عجيبة ٨٤٥
نقل الحجر الأسود إلى بلاد هجر ٨٤٦
إعادة الحجر الأسود إلى مكة المكرمة ٨٤٩
مظالم القرامطة الخبثاء ٨٥٠
كيفية ظهور طائفة القرامطة ٨٥٧
سبب تسميتهم بالقرامطة ٨٥٨
مذهب القرامطة وطقوسهم ٨٥٩
هيئة شورى العلماء ٨٦١
الأثر الرابع عشر: باب الجرير (باب القفص) ٨٦٤
الأثر الخامس عشر: بيت خديجة الكبرى ٨٦٤
الأثر السادس عشر: مولد النبى ٨٦٦
الأثر السابع عشر: سوق الليل ٨٦٨
الأثر الثامن عشر: دار الخيزران ٨٦٨
دار الأرقم ٨٦٩

صخرة المحتبى ٨٦٩
الأثر التاسع عشر: الحجر المتكلم ٨٧٠
الأثر العشرون: حجر المتكأ ٨٧٠
الأثر الحادى والعشرون: دار العباس ٨٧١
الأثر الثانى والعشرون: رباط الموفق ٨٧١
الأثر الثالث والعشرون: منى ٨٧١
صورة الخط السلطانى (الكتاب) المتضمن أمورًا خاصة باستحقاقات أهالى الحرمين ٨٧٢
الأثر الرابع والعشرون: الجمرات الثلاث ٨٧٦
الصورة الثانية فى ذكر المساجد المأثورة فى مكة المكرمة ٨٨١
الأثر السادس والعشرون: مسجد ذى طوى ٨٨١
الأثر السابع والعشرون: مسجد التنعيم ٨٨٢
الأثر الثامن والعشرون: صهاريج سنان باشا ٨٨٢
الأثر التاسع والعشرون: مسجد الجن ٨٨٥
الأثر الثلاثون: مسجد الراية ٨٨٨
الأثر الحادى والثلاثون: مسجد المدعا ٨٨٨
الأثر الثانى والثلاثون: مسجد البيعة ٨٨٩
الأثر الثالث والثلاثون: مسجد النحر ٨٩١
الأثر الرابع والثلاثون: مسجد الخيف ٨٩١
الأثر الخامس والثلاثون: مسجد الكبش ٨٩٣
الأثر السادس والثلاثون: مسجد المرسلات ٨٩٤
الأثر السابع والثلاثون: مسجد إبراهيم ٨٩٥
الأثر الثامن والثلاثون: مسجد المشعر ٨٩٦
المزدلفة ٨٩٦
المأزمين ٨٩٦

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الأول

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الأول (مرآة مكة)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

إهـــداء

إلى الصديق البحرينى
الدكتور على المدنى ، أبو حمزة
تقديراً لوفائه المتميز
ولدوره العلمى والثقافى والإنسانى
ولخدماته للعروبة والإسلام

قصة هذا العمل

فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى ، حصلت من احدى المكتبات التجارية فى انقرة وهى مكتبة صالح الخان على نسخة كاملة من خمسة أجزاء من الأصل التركى العثمانى لكتاب أيوب صبرى باشا الذى عنوانه مرآة مكة المكرمة ومرآة المدينة المنورة ومرآة جزيرة العرب وكانت نسخة نادرة ، واشتريتها أملا فى ترجمتها إلى اللغة العربية . ثم كانت المشاغل العلمية وكثرة السفر فتأخر التفكير فى الترجمة .

ولما أراد الله ، تكون فريق عمل متخصص فى اللغة التركية وفى التاريخ لترجمة هذا الكتاب وفريق آخر لمراجعة الترجمة . والجدير بالتسجيل هنا أن جميع من أسهم فى هذا العمل . من مترجمين ومراجعين ومشرفين ، قنعوا بالرمز والقليل فى أداء دورهم وأنتهت علاقتنا المادية بترجمة هذا الكتاب ولكن كان من الضرورى نشر الكتاب ، فاستشرنا الأستاذة الدكتورة / ماجدة مخلوف فدلتنا على دار الآفاق العربية وصاحبها الأستاذ/ سليم عبد الحى سليم الذى وجدنا منه كل ترحيب بالنشر ، وشكرناه كثيراً وقدرنا له هذا . وقدر هو لنا أن لم تكن لنا شروطا مادية فى نشر الطبعة الورقية من هذا الكتاب . واهتم بالطباعة وكرس لها الشيخ محمود جيرة الله لهذا أهنى المكتبة العربية والمستفدين من ظهور هذا السفر العظيم

محمد حرب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب من درر التراث العثمانى وهو تراث إسلامى مكتوب باللغة التركية العثمانية وهى لغة أسهمت إسهاماً واضحاً فى مسيرة التراث الإسلامى، ومعلوم أن التراث الإسلامى لا يقتصر على التراث المكتوب باللغة العربية فحسب، إنما تتنازعه الفارسية والتركية: الشرقية والغربية وغير ذلك من لغات المسلمين مثل هذه اللغات فى ذلك مثل اللغة العربية، بالإضافة إلى التراث الشفاهى لهذه الشعوب.

ومصنف هذا الكتاب هو أيوب صبرى باشا، وهو مؤرخ عثمانى توفى فى استانبول عام ١٨٩٠م ولما كان ـ يرحمه الله ـ قد تَنَقَّل فى السلك العسكرى حتى وصل إلى رتبة أميرلاى فى البحرية العثمانية وأقام فترة طويلة بالحرمين الشريفين مكة والمدينة أتاح له ذلك أن يثرى علمه ومشاهداته ورؤيته الشخصية ومعرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامى؛ وبدا هذا واضحًا فى تصنيفه لكتابه هذا المشهور جداً والذى يتفوق كثيراً على ما كتب فى فنه فى كل اللغات.

وأهم مصنفات أيوب صبرى باشا هذا العالم المؤرخ الأديب:

١- محمود السير ١٨٧٠م

٢- تكملة المناسك ١٨٧٥م

٣- أسباب العناية فى ترجمة بداية النهاية ١٨٨٩م

٤- شرح قصيدة بانت سعاد ١٨٨٤م

٥- مرآة مكة ١٨٨٤ م

٦- مرآة المدينة ١٨٨٧م

٧- مرآة جزيرة العرب ١٨٨٩م

وتمثل هذه المرايا الثلاثة هذه الموسوعة التى بين يديك عزيزى القارئ ولما كان أيوب صبرى باشا - بهذا العمل الموسوعى الضخم - يمثل عهد السلطان عبد الحميد صاحب سياسة الجامعة الإسلامية والتقارب الإسلامى، لذلك وجد هذا الكتاب على ضخامته طريقه إلى المطبعة، وقد جاء هذا الكتاب موسوعة جامعة شاملة عن هذه البقعة الطيبة قلما توجد فى كتاب واحد وبهذه الصورة الرائعة التى صنف الباشا بها كتابه.

قسم أيوب صبرى باشا كتابه إلى ثلاثة مجلدات فى خمسة أجزاء:

الأول: مرآة مكة فى جزأين

الثانى: مرآة المدينة فى جزأين أيضاً

الثالث: جزيرة العرب فى جزء واحد

ويقع الكتاب فى ٣٠٠٠ صفحة تقريباً، من القطع الكبير.

إن هذا المصنَّف الذى يعد - بحق - موسوعة علمية وثقافية بما حواه من المعارف والفنون والتاريخ والقصص والشعر والإحصاءات قد استغرق تأليفه سبعة عشر عاماً فقد قام المؤلف بتنقيح مادة كتابه، وانتقاها جيداً إذ إنه بجانب اعتماده على المصادر والمراجع كان يسأل الأحياء من الناس من كبار السن يستوثق لمادة كتابه.

يقول المصنف: «تم تأليف المجلد الأول (مكة المكرمة) من أثر مرآة الحرمين الذى شغلت بتأليفه منذ سنة ١٢٨٩. وتم تأليف كل الكتاب وطبعه فى أوائل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثمائة وألف من هجرة النبى الأعظم».

هل كانت كلمة المرآة مقصودة من المؤلف؟

وماذا أراد المؤلف باستخدام كلمة المرآة ودلالتها؟

كذلك يقول أيوب صبرى باشا: «ومن البديهى أن الذين يسمعون لفظ المرآة سيلقون نظرة على سطور صفحاتها ثم يظنون أنهم سيرون فيها صور أنفسهم، يدل لفظ المرآة على الآلة التى تعكس الصورة ولكنهم إذا ما تذكروا أن من وظائف المرآة ومهماتها تقريب البعيد سيقنعون بأن مرآة الحرمين تاريخ كثير المنافع جامع لأحوال البلاد الحجازية العامة».

والغريب أن الترتيب الداخلى لفهرست كل جزء من الأجزاء الثلاثة: (مرآة مكة ـ مرآة المدينة ـ مرآة جزيرة العرب) مكون من ثلاثة أقسام كل قسم منها مقسم تقسيماً داخلياً إلى ما يسميه المصنف: الوجهة والصورة بحيث تحتوى كل وجهة على عدد معين من الصور.

ودلالة كلمة المرآة ليست ببعيدة عن دلالة كلمة الوجهة وكلمة الصورة.

أسباب تصنيف الموسوعة:

أولا:-

رأى أيوب صبرى باشا أن علماء كثيرين ألفوا فى تاريخ هذه البلاد لكن لم يتوفر لهذه المؤلفات أو لبعضها صفة الجمع أو الشمول لتتحدث عن هذه البلاد الثلاثة مجتمعة معاً، فمن ألف قبله فى تاريخ مكة أو تاريخ المدينة أو تاريخ كليهما أو تاريخ جزيرة العرب على حده، لم يتوفر لأعمالهم صفة الإحاطة بكافة جوانب الموضوع الذي تكتب عنه وكذلك ينقصها الدقة العلمية.

ثانيا:-

ما لهذه البلاد من مكانة وقدسية فى قلوب كل المسلمين على السواء سواء أكانوا عرباً أم غير عرب خدمة لأبناء هذا الدين يقول المصنف: «وأردت أن أخدم الذين ينتمون إلى ديننا».

إِذَنْ فالهدف الأساسى من تأليف الكتاب هو نفع الإسلام وبمعنى أصح نفع المسلمين فى شتى بقاع الأرض عن طريق تعريفهم بأقدس بقعة على وجه الأرض فهى كانت قبلتهم ووجهة حجهم وموطن أشرف خلق الله.

الكتاب المصنَّف:

ينقسم هذا السفر الضخم فى أصله العثمانى إلى ثلاثة أجزاء كبار هى مرآة مكة ويشغل الصفحات من ١ - ١١٤٥، ومرآة المدينة وهى من صفحة ١١٤٦ - ٢٥٠٢، ومرآة جزيرة العرب من صفحة ٢٥٠٣ - ٢٩٠٦.

فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ـ وهو مرآة مكة ـ تحدث أيوب صبرى باشا عن كل شئ يمت بصلة إلى مكة سواء من بعيد أو قريب، فهو يحدثنا عن تاريخها منذ بدء الخليقة إلى زمن تأليف الكتاب (عهد السلطان عبد الحميد الثانى)، وعن ساكنيها وعاداتهم، وموقعها الجغرافى وحدودها، ووصف منازلها ودورها وطرقها، وما سيأتى فى الحديث عن مرآة مكة وهو حديث مستقل.

وفى الجزء الثانى من هذه الموسوعة ـ وهو مرآة المدينة ويماثل فى الحجم الجزء الأول ـ يتحدث فيه عن مراجعه ومعلوماته الشخصية وما حصل عليه من الأخبار من تحقيقاته الذاتية. ومع هذا فهو أول كتاب يتضمن الأحوال العامة والخاصة للمدينة المنورة باللغة العثمانية ومن هنا حاز شرف السبق والأولية ويصح أن نصف هذا الجزء بأنه دائرة معارف كبيرة عن المدينة المنورة.

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فهو يعد أصغر جزء فى الموسوعة إذا ما قورن بالجزأين السابقين مرآة مكة ومرآة المدينة فهو يبلغ حوالى ٤٠٠ صفحة بينما يربو كل جزء من السابقين على ١٢٥٠ صفحة.

وفى مرآة جزيرة العرب الحديث المستفيض عنها من حيث الموقع الجغرافى والحدود الطبيعية وتاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور وذكر الملوك والحكام الذين

تولوا زمامها وكذلك قبائلها ورسومهم وعاداتهم وأحوال ساكنيها وكيف تقلبت بهم الأحداث.

ويبين المصنف فى بداية هذا الجزء أنه جعله ذيلاً لكل من مرآة مكة ومرآة المدينة ومن ثم وجب إلحاقه بهما واعتباره جزءاً ثالثاً للكتاب، إذ إن معرفة أحوال جزيرة العرب وتاريخها من الأهمية بمكان لمن يريد أن يتعرف على صورة الحرمين حتى تكتمل الصورة فى ذهننا فيقول: «ولكنه من المحال أن نحيط الإنسان علماً بأحوال الخريطة الحجازية الواسعة وحقائقها التاريخية بمطالعة بعض التوضيحات التى قدمت عن الأماكن المقدسة والمآثر الفخمة للحرمين الشريفين مطالعة سطحية قبل أن يعرف الأحوال التاريخية والتقسيمات الجغرافية لجزيرة العرب، ولذلك كتبتُ هذا التاريخ المختصر وضمنته أحوال قطعة جزيرة العرب وألحقته بالمرآة.

وهذا الجزء يعتبر الخلاصة لمن أراد أن يتعرف على أحوال جزيرة العرب ورغم قلة حجمه عن الجزأين السابقين إلا أنه كتب على ستة أجزاء. ولا تخلو هذه الموسوعة من نزعة أدب الرحلات وخاصة فى الأجزاء التى يذكر فيها الأماكن المقدسة ومواقعه الحربية ووصف الحرمين الشريفين وينبغى العلم أن المصنف زار هذه الأماكن المباركة وهو يصف ذلك لنا من خلال زياراته ولهذا اتضحت لنا صورة البلاد وخريطتها وأحوالها.

يتمتع أيوب صبرى باشا بقوة وكثرة مراجعه، ودقة رؤيته، وصواب تحليلاته، كما يتسم بالتواضع الجم فهو يصر على وضع نفسه موضع تساؤل من جهة القارئ وموضع التقصير أيضاً فهو كثيراً ما يصف نفسه بالتقصير والعجز.

كما تتصف هذه الموسوعة بالروح العلمية التى تعتمد التوثيق أساساً لها. ويظهر هذا حرصه كل الحرص على الأمانة العلمية التى تمثلت فى أمور منها:

١- حرصه أن يذكر لنا مصادره ينص على ذلك فى مقدمة مصنفه وفى ثناياه.

٢- حرصه على زيارة الأماكن التى يتحدث عنها غير مكتف بما جمعه من مادة علمية عنها.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المصنَّف كتب بلغة واضحة فى أسلوب سهل وبعيد عن التعقيد اللغوى، وبذلك فقد ناسب هذا الأسلوب مستويات الكثير من القراء.

كذلك يعد من مميزات هذا المصنف احتوائه على قدر من الطرافة والجدة فى آن واحد. فهو مع ضخامة مادته العلمية يدفع عن القارئ الملل بكل الطرق بذكر موضوع آخر أو حكاية غريبة أو حادثة نادرة وأحيانا تطالع القارئ أبيات من الشعر.

١- مرآة مكة: هو المجلد الأول من هذه الموسوعة وقد تحدث المؤلف فيه عن كل شىء عرفه يمت بصلة لمكة سواء من بعيد أو من قريب، فهو يحدثنا عن تاريخها منذ بدء الخليقة إلى زمن تأليف مؤلفه هذا، وعن ساكنيها وعاداتهم، وموقعها الجغرافى وحدودها، ثم يصف لنا مكة ومنازلها ودورها وطرقها.

بعد ذلك يحدثنا المؤلف عن أسماء مكة الكثيرة وألقابها وسبب كل لقب من هذه الألقاب، ثم يعرج على أحوال بناء الكعبة المشرفة فى مرآتها ويعرض لنا ـ بشئ من التفصيل ـ ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ ثم يقص قصة تجديد بيت الله الحرام ـ فى مرآتها ـ التى وصلت إلى إحدى عشرة مرة.

ويواصل المؤلف حديثه بعرضه الجهود التى بذلت فى توسعة بيت الله الحرام منذ القِدم حتى زمنه، وكذا الجهود التى بذلت فى تعميره وإنارته وتزيينه ليظهر فى أكمل صورة تليق ببيت الله الحرام.

ويتحدث بعد ذلك عن كسوة الكعبة المشرفة، وعمن أهدوا الكسوة إليها، ونوع القماش الذى كانت تصنع منه، وكيف تعلق الستائر على الكعبة، ووصف البيت الحرام وأجزائه الشريفة، والأبواب، وأسماء كل منها والأعمدة وعددها والقباب وعددها ووضعها، والمآذن وأسماء كل منها، ثم يتحدث بعد ذلك عن فضائل مكة ومساجدها، وجبالها ودروبها.

وينقسم هذا المجلد من الكتاب إلى سبعة أبواب وواحد وأربعين فصلا:

تحدث المؤلف فى الفصل الأول عن موقع مكة الجغرافى والإستراتيجى، فى داخل إقليم الحجاز وهى مركز إدارته وحكمه، ويحدها من الشمال المدينة المنورة وصحارى الشام، ومن الجنوب جبال نجد واليمن ومن الشرق البحرين، ومن الغرب البحر الأحمر.

وتنقسم نواحى مكة إلى منطقتين كبيرتين هما: نجد وتهامة.

ففى نجد تقع الطائف، وتمتاز، وقرن، ونجران، والظهران، وعكاظ، ومنحره، ونعم، وجرعش، وسراة.

أما النواحى التابعة لتهامة فهى: نعم، وزعك، وخنكان، ويشى، ووادى نخلة، ،وذات عرق، ويليل.

أما من الناحية البشرية فإن أهل مكة يتمتعون بروح تجارية عالية نظراً لموقها الخاص، وكذلك يبين لنا القرآن فى حديثه عن قريش أنها تقع فى ملتقى مناطق ودول كثيرة أضف إلى ذلك الموقع الإستراتيجى بحكم قدسيتها وحج جميع العرب إليها.

ومن الفقرات الهامة فى هذا الفصل التى تحدث عنها المؤلف أديان العرب فى الجاهلية، ففيها يتحدث عن أديان العرب وعباداتهم قبل الإسلام والتى كانت تتمثل فى اليهودية والمسيحية، والمجوسية، وكذلك الأصنام التى كانت تعبدها بعض القبائل فذكر أن بنى حنيفة من قريش اتخذت إلها من طعام اسمه «حيس» وظلوا يعبدونه مذة طويلة، وعندما حدثت المجاعة والقحط قاموا بتقسيمه ثم أكله، وفى ذلك يقول شاعرهم:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إِعْوَازِ

ومن النقاط الطريفة فى هذا الفصل والتى تعد من أهم ما ذكر المؤلف فيه حديثه عن مكة، وأسمائها، وألقابها، وسبب تلقيبها وتسميتها بهذه الأسماء

معددا ما يقرب من ١٢٩ اسما وخمسة ألقاب معللاً فى كل ذلك سبب التسمية، واللقب، وكذلك يرجع بالتسمية إلى أصلها اللغوى يستعين به فى التفسير والتعليل.

عن أسماء مكة يقول المؤلف: «عدد الأسماء ذات الدلالة الباهرة التى أطلقت على مدينة مكة المعظمة فى الكتب المقدسة كثيرة وهى: «مكة، بكة، بلد، قرية، أم القرى، بلدة، البلد الأمين، صلاح، باس، البساسة، ناسة، الساسة، حاطمة، رأس، كوثى، عرش، عريش، عرش، قادس، القادسية، سبوحة، حرام، البلد الحرام، المسجد الحرام، معطشة، برة، رتاج، رحم، أم رحم، أم الرحمة، كوثى، أمينة، أم الصفا، مروية، أم المشاعر، متخفية، البلدة المرزوقة، تهامة الحجاز، طيبة، مدينة الرب، عاقر، فاران»، وعددها خمسة وأربعون اسما جليلا. ولها ثمانية ألقاب جليلة مثل «المشرفة، المكرمة، المفخمة، المهابة، الوالدة، النادرة، الجامعة، المباركة».

سبب إطلاق هذه الأسماء على مكة:

ورد فى أقوال علماء اللغة أن اسم مكة المكرمة يطلق على هذه المدينة المقدسة فقط أو مجموع الحرم الشريف، أى المناطق الواقعة داخل المواقيت المحدودة، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب متعددة: على قول أنه مأخوذ من معنى «النفض» وكأنها تنفض جميع الآثام، وعلى رأى آخر أنها تنفض الظلم وتهلك أهل الجور، وعلى رأى ثالث أن الأرض المقدسة قليلة المياه، وسكانها كأنهم يمتصون المياه من أراضيها بأفواههم..

أو أنه مأخوذ من لفظة «مكاكة» التى تعنى النخاع والمخ فى وسط العظام، وكأن مكة كعبة الله فى وسط الدنيا وخلاصتها، وعلى قول، أن الأرض المباركة بيت الله تمتص ذنوب العصاة وأوزارهم وتخرجها ثم تمحوها، وكأنها تمتص النخاع من العظام، وكانت هذه البقعة مشهورة بقداستها حتى قبل الإسلام وإبان مجئ الإمبراطورية الرومانية وكانت تذكر باسم «مقربة» وتعرف به.

بكة: وهناك اختلاف حول هذا الاسم وعند البعض أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد ومترادفان، وبما أن حرفى الباء والميم متقاربان من ناحية النطق والمخرج الصوتى كان كل واحد منهما يحل مكان الآخر، ويدعون أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد؛ مع أن «بكة» في نظر البعض هو اسم المدينة المقدسة «مكة المكرمة»، وعند البعض الآخر أنه اسم البقعة الجليلة الكعبة المشرفة فقط.

والقول الصحيح أن مكة هو اسم الأماكن المباركة داخل حدود الحرم خارج المسجد الحرام، وبكة هو اسم البقعة التى عليها بيت الله وحرم المسجد الحرام المبارك.

وحسب قول ابن عباس أن سبب إطلاق اسم مكة أنها كانت تذل الملاعين والجبابرة الذين يعادونها.

أم القرى: وسميت بهذا الاسم لكونها أقدم بقعة على وجه البسيطة وقول الشاعر يؤكد أن أقدم الأراضى هى هذه البقعة المباركة. وإن كان هذا دليلاً لا يتسرب إليه الشك وسندا كافيا لتصديق تسميتها «بأم القرى»، إلا أن كون مكة المكرمة قبلة الجميع وامتيازها على بلاد الأرض كلها بالفخامة والعظمة ولاحتوائها على الكعبة الشريفة وخلو الأرض من تراب بقعة الله المباركة يجعلها جديرة بإطلاق هذا الاسم عليها وتبعا لهذا التوضيح لابد وأن يكون (أم القرى) هو اسم الأرض المقدسة التى تقع ضمن مواقيتها.

قال عبد الله بن عباس، وهو أعلم الناس (أطلق اسم أم القرى على مكة لأنها أعظم بلاد الأرض شأنا وكرامة ولأن الأرض قد بسطت من التراب الذى تحتها).

أما ابن عادل فقد وضح الموضوع فى تفسيره قائلا: إن موضع الكعبة المعظمة كان غثاء قبل أن يخلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض والسماوات وعندما بدأ خلق مكوناتها خلق الأرض وبسطها من تحت الكعبة قبل أن يخلق السماء، وهذا هو سبب تسميتها «بأم القرى» لأنها هى الأصل.

والفصل الثانى يصف لنا منازل مكة وبيوتها وطرز أبنيتها، وكذلك فرش البيوت ومتاعها فيصف لنا المبانى بعضها مبنىٌ من الحجارة والطوب، وبعضها أكواخ مصنوعة من الأعشاب والحصر يطلق على الواحد منها عشة.

ثم يتحدث عن طبيعة الجو والمناخ في مكة وحرارته المرتفعة التى من جرائها يذهب السكان إلى حديقة «المعلا» ويذكر لنا كذلكْ الخضر والفواكه التى تخرجها أرض مكة المعظمة ويبين أى هذه الفواكه ضار بسكان البلاد الباردة الذين يزورون البلاد الحارة وينبه إلى ما لا يجب تناوله فى الأراضى الحجازية ومنها:

الخوخ: وهو صعب الهضم.

المشمش: فهو يصيب من يتناوله بإفراط بالإسهال.

التين: ينبت فى الطائف وهو لذيذ الطعم لكن الإفراط فى تناوله يسبب الفتور.

السفرجل: وهو لذيذ الطعم، طيب الرائحة، إلا أن أكله قبل نضجه ضار.

الكمثرى: والإفراط فى أكلها يصيب المعدة بالضعف.

التفاح: مذاقه مزز من ـ ذو مزازة ـ وإذا طهى بالسكر وأكل منه الإنسان قدرا معتدلا فإنه يساعد على الهضم.

البرقوق: وهو يوجد بالطائف واسمه «برقوق مردم»، وأكله غير مرغوب لأنه يسبب الإسهال.

العنب: يرى الأطباء أن الطازج منه يبرد الدم ورغم أن ضرره أقل من الفواكه الأخرى فإن الإفراط فى أكله يسبب إسهالا مؤلماً.

اللوز: وهو بطئ الهضم، لكن له منقوع يمنع الحرارة ويسكن الألم.

التوت: لا يوجد بها إلا التوت الأسود وهو سريع التلف.

العناب: يجلب من الشام، وهو مفيد لمرض الصدر.

البطيخ: وأكل البطيخ فى الأيام الحارة يرطب الجسم ويسكن فورة الدم.

الشمام: أكله يسبب أحيانا تعبا فى القلب، لذا ينصح بعدم أكله طالما كان غير ناضج.

البرتقال: ثمر طيب يجلب من مصر، وشرب عصيره لا مثيل له فى خفض الحرارة، وإزالة جفاف الحلق، وتنقية الدم.

الرمان: فائدته كبيرة إذا ما شرب معصورا، فشرب الحامض منه يرطب الدم ويسكن السخونة، ومع هذا فإن أكل الحلو منه ببذور يفسد المعدة.

الموز: ويشبه فى الطول والعرض الخيار الروسى الطازج والذى يسمى الخيار البرى أفضله ما يزرع فى الأراضى اليمنية. والموز الذى يزرع فى منطقة الحجاز ويستساغ أكله بعد نزع قشرة الناضج منه مع السكر، والإفراط فى أكله مضر لصعوبة هضمه.

ويتعرض المؤلف فى الفصل الثالث لسبب تسمية البيت المعظم باسم الكعبة حيث بين أنه فى الزمن الماضى كان يمنع أن ترتفع الأبنية أعلى من البيت المعظم فيما يبنى حوله من أبنية، واستمر هذا الاعتقاد حتى دخول الإسلام الجزيرة العربية، ولذا فلم تظهر فى مكة لعدة قرون أبنية تعلو البيت المعظم لذا أطلق اسم الكعبة على البيت المعظم.

وفضائل الكعبة المكرمة أكثر من أن تحصى فهى بيت الله، وقبلة كل المسلمين فى شتى بقاع الأرض وكذا هى مربط حبهم، وهى أفضل كل بلاد الدنيا ويقارن المؤلف بين منزلة مكة ومنزلة المدينة المنورة فيقرر بناءاً على الحديث الشريف أن مكة أجل منزلة حيث قال ﷺ إن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وكذا هى أعلى مكانة لأن ماء الحياة الطاهر تفجر من هذا النبع، وأن نور الإسلام الذى أشرق على هذا الكون من ذلك البرج الرفيع.

كما أن الكعبة المباركة هى مهبط الوحى الجليل ومجمع الأنبياء، وفيها قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (سورة آل عمران: الآية٩٦) ومن الطريف جدا فى هذا الفصل حديث المؤلف عن البيئة القاسية الصحراوية لمكة المكرمة ووقوعها فى مكان غير ذى زرع، فالمؤلف يذكر كذلك خمس حكم هى:

الحكمة الأولى: أن مجاورى البيت الحرام يقطعون الأمل من التعلق بغير الله وذلك بإظهار التوكل التام عليه سبحانه وتعالى تقدست ذاته.

الحكمة الثانية: عدم طمع أحدٍ من الأكاسرة ملوك الدنيا والحكام الجبابرة، فى الإقامة حول بيت الله، والواقعُ أن أحدًا من جبابرة الزمان والأكاسرة ملوك الدنيا لم يتمكنوا من السكنى بجوار كعبة الله.

ولا يمكن لهؤلاء الجبابرة أن يجدوا المتعة واللذة الدنيوية التى يسعون إليها فى واد غير ذى زرع. وهكذا طهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة الشريفة ونزهها من لوث بنى البشر الذين يعبدون الدنيا.

الحكمة الثالثة: حتى لا تتحول الكعبة إلى متجر لأنها خلقت للحج والزيارة فقط.

الحكمة الرابعة: لتقديس مكانة الفقر وشرفه.

الحكمة الخامسة: من أجل إبراز أن كعبة المعرفة لا تحل إلا فى قلب خال من حب الدنيا وزخرفها.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الخامس عن الإقامة فى مكة المكرمة وحكم ذلك لأن كثرة الإقامة في مكة يفقدها الحرمة الموكلة إليها ويورد في ذلك آراء وأقوال فقهاء الإسلام فيقول: «ولما كان أخذ إيجار المنازل من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ليس حلالا لذا كان الأوائل يأخذون ثمن الإيجار في السر والخفاء حتى أن

عمر بن الخطاب أمر أن تترك أبواب بيوت مكة مفتوحة فى موسم الحج حتى يسكن الحجاج فى المنازل الخالية، كما كانت لعمر بن عبد العزيز أوامر مشددة إلى أمراء الإمارة الجليلة مكة المكرمة بألا تؤجر بيوت مكة إلى الحجاج.

وقد أجاز الإمام محمد و الإمام أبو يوسف أن تباع بيوت مكة مع الكراهة، إلا أن الإمام الأعظم قال إنه مكروه في كل الأحوال».

ويتحدث الباب الثانى ـ والذى تضمن ثلاثة عشر فصلاً ـ عن بناء الكعبة وتجديدها فيتحدث الفصل الأول عن أوليات بناء الكعبة الشريفة منذ الأزل فيذكر أن بعض الأقوال ترجح أن بداية بناء الكعبة كان من الملائكة المشرفين. وفى الفصل الثانى يتحدث عن بناء الكعبة لأول مرة حتى خاطب الله الملائكة بأنه سوف يجعل فى الأرض خليفة فبينوا المعارضة ثم ما لبثوا أن تابوا وتضرعوا إلى الله أن يغفر لهم ولاذوا بالعرش العظيم فأمرهم الله أن يطوفوا بالبيت المعمور وأن يقام بيت مقدس على وجه الأرض لذا أرسل سبحانه وتعالى عددا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر وخاطب الملائكة بقوله «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما، وعندما يطاف بالبيت المعمور في السماء، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض».

وفى الفصل الثالث يتعرض المؤلف لذكر وقائع بناء الكعبة للمرة الثانية والذى قام بهذا العمل هو أبو البشر سيدنا آدم (عليه السلام)؛ ذلك أن سيدنا آدم لم يستطع سماع صوت تسبيح الملائكة وتهليلهم بعد هبوطه بمدة، فاغتم لذلك بذلك فعرف ما فى ضميره حضرة علام السر والخفايا وجأر بالشكوى قائلا: «يا إلهى لا أسمع صوت تسبيح وتهليل الملائكة الكرام».

وبناء على هذه الشكوى صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل: «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا، وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق الأرض، واستخدم في هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال لبنان وطور سيناء، وطور زيتا، والجودى، وحراء، ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة.

أما تجديد البيت للمرة الثالثة فكان من نصيب أبناء سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم ـ عليهما السلام ـ وأولاده وأحفاده، ذلك أنه بعد غرق الأرض فى الطوفان العظيم زالت آثار البيت الحرام ولكن بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف وقام أحفاد شيث ـ عليه السلام ـ بتعميره وتجديده من حين لآخر.

وفى الفصل الخامس يستعرض المؤلف بالتفصيل ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ من بداية مولده ونشأته ثم مرورا بنبوته، ثم ما حدث له فى الحريق العظيم وكيف أنجاه العظيم ـ جل شأنه ـ من هذا الخطر العظيم، وكذلك يحدثنا عن قصة سيدنا إسماعيل وواقعة فدائه بكبش عظيم من قبل الحق سبحانه، بين لنا فيها كيف كان خلق الأنبياء تجاه ربهم وهى الطاعة الأصيلة، الطاعة الواثقة فى قدرة الله ورحمته وكيف أطاع إسماعيل أمر ربه وأمر أبيه بتكليفه بذبحه وكيف صبر الإثنان على هذا الأمر واحتملاه.

ومن الطريف بمكان فى هذا الفصل حديث المؤلف عن بئر زمزم وأسمائها وسبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، فقد أحصى العلماء لبئر زمزم ثلاثين اسما وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها وهنا أمثلة على ذلك:

١- **زمزم**: سبب التسمية قوة ماء البئر وتدفقها فزمزم اسم للبئر، وليس للماء الشريف.

٢- **همزة**: ومعناها الضرب إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحه على قول آخر فانفجر ذلك الماء.

٣- **شباعة عيال**: لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم حتى يرتووا .

٤- **مضنونة**: وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.

٥- **بشرى**: لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.

٦- **ميمونة**: وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة، كما أنها اتباع للسنة الكريمة للمصطفى ﷺ.

٧- **مؤنسة**: لأنها تؤنس سكان حرم كعبة الله.

ومن الأشياء الهامة التى تعرض لها المؤلف فى هذا الفصل اختلاف العلماء فى مسألة الذبح، فعندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح ولده فلذة كبده، كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال فى الثالثة عشرة من عمره، واختلفت الأقوال على حد قوله بينه وبين أخيه إسحاق هل الذبيح هو إسماعيل أم إسحاق وبعد أن يقارن بين أقوال الشيوخ والعلماء يقر فى النهاية الرأى الراجح وهو أن الذبيح كان سيدنا إسماعيل.

ويتحدث المصنف فى الباب الثالث عن عدد المرات التى تم فيها توسعة المسجد الحرام وكان أول توسعة للمسجد الحرام فى عهد الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه فقد كثر عدد المسلمين فاشترى عمر ـ رضى الله عنه ـ الأكواخ والدويرات التى حول المسجد والملاصقة له وضمها إلى المسجد الحرام لكن هذا التوسيع لم يف بالغرض مما أدى إلى ضم بعض المنازل الأخرى إلى الحرم الشريف، وفى هذه الحالة اعترض أصحاب المنازل وذهبوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفاوضوه فى هذا الأمر، فقال لهم: «لم يبن بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم حوله وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله الحرام.

والتوسعة الثانية للمسجد الحرام كانت فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بعد سيل «أم نهشل»، وأراد سيدنا عثمان توسعة ساحة المسجد الحرام بشراء كثير من المنازل التى تحيط بالمسجد الحرام.

وحدثت التوسعة للمرة الثالثة فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور حين أراد أن يجد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى، ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح فاشترى المنازل القريبة

من الجدار الشرقى وهدمها وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا مثيل لها.

وفى الفصل الرابع يحدثنا أيوب صبرى باشا عن التوسعة الرابعة والتى تمت على يد محمد المهدى العباسى ذلك حين رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسع حين كان مسافرا للحج وزيارة الروضة الشريفة.

ويحدثنا المصنف فى الباب الرابع من الكتاب عن الكعبة المشرفة، وتزيينها وكسوتها، وستائرها فاستعرض فى هذا الباب عمليات تزيين الكعبة على مدى العصور، وكذلك نوع القماش الذى كانت تصنع منه الستائر، وكسوة الكعبة وشرف من نالوا هذه الكرامة بأن أهدوا هذه الكسوة إلى الكعبة الشريفة وبيت الله الحرام.

أما وصف المسجد وحاله التى كان عليها فى العهد القديم فهذا ما يعرضه المؤلف فى الباب الخامس فيوضح أن البيت الحرام حين وضع قواعده سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يكن حوله بيوت ولا منازل ولا محال.

ثم يتحدث فى الفصل الثانى عن أعمدة المسجد الحرام وعددها فيبين أنه كان للمسجد الحرام قبل تجديده ٤٩٦ عمود بإخراج أعمدة دار الندوة، سبعة وعشرون منها فى أبواب المسجد، ٤٦٩ تسعة وستون وأربعمائة، ثمانية وثمانون عمودا من تلك الأعمدة فى الجهة الشرقية، و خمس وأربعون ومائة منها فى الجهة الشمالية، وسبعة وثمانون منها فى الجهة الغربية و سبعة وثمانون من أعمدة الجهة الشرقية كانت من قطعة واحدة من الرخام وعمود كان من الطوب اللبن المحروق.

وفى الفصل الثالث يستعرض المؤلف عدد شرفات المسجد الحرام وصفتها فالشرفات جمع شرفة وهى نوع من أنواع الزينة فى المبنى وتطلق على الأماكن البارزة والعالية فوق جدران القلاع.

وكان للمسجد الحرام قبل التجديد عدد أربعمائة من الشرفات الكاملة وسبع

من الشرفات النصفية الداخلية، اثنتان وخمسون من الشرفات الخارجية الكاملة وشرفة واحدة خارجية غير تامة.

ثم يذكر لنا أبواب المسجد الحرام وأسمائها فى الفصل الرابع والأخير وقد كان للمسجد مقدما تسعة عشر بابا عاليا مبنيَّةً على عقدين، وكان باب أقيم على كمرتين يشبه جسراً له فتحتان، لا تزال بعض هذه الأبواب محتفظة بأشكالها القديمة وهى معروفة للناس.

ويحدثنا المؤلف فى الباب السادس عن قباب المسجد الحرام ومآذنه، فللمسجد الحرام خمسائة قبة لطيفة، يطلق أهل مكة على (خمسين ومائة) منها «قبة»، وعلى (ثمانين ومائتين) منها «طواحن» وعلى (اثنتين وستين) منها «مصليات» ويذكر لنا كذلك أبواب المسجد الحرام.

فالمسجد الحرام به تسعة عشر بابا عظيما ويفتح أربعة من هذه الأبواب إلى الجهة الشرقية وسبعة منها إلى الجنوب، وثلاثة منها إلى الغرب، وخمسة منها إلى الجهة الشمالية **فالأبواب الشرقية:**

باب السلام ـ باب النبى ﷺ ـ باب العباس رضى الله عنه ـ باب على كرم الله وجهه.

ولكل باب من هذه الأبواب تسع درجات خارجية، وخمس درجات داخلية

أما الأبواب الجنوبية فهى:

باب بازان ـ باب البغلة ـ باب الصفا ـ باب الجياد ـ باب المجاهد ـ باب مدرسة خجلان ـ باب أم هانئ رضى الله عنها.

والأبواب الغربية:

باب خدورة ـ باب إبراهيم ـ باب العمرة.

والأبواب الشمالية:

باب السدة ـ باب العجلة ـ باب القطب ـ باب دار الندوة الزائد ـ باب الدريبة.

وفى الفصل الخامس يعرض لنا المؤلف فى مرآة مكة مآذن المسجد وعددها فللمسجد الحرام في زماننا سبعة مآذن وتسمى:

مئذنة باب العمرة، مئذنة باب السلام، مئذنة باب على ، مئذنة باب الوداع، مئذنة باب الزيارة، مئذنة قايتباى، مئذنة السليمانية.

٢- مرآة المدينة

هو المجلد الثانى من هذه الموسوعة، وهو يماثل فى الحجم أصله العثمانى.

ويقول المؤلف فى مقدمة هذا الجزء حاكيا عن ظروف تأليفه: «وإننى أقبلت على هذا العمل مدركا بعض قدرتى وقلة حيلتى ومستمدا من كتاب الإمام السمهودى «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» هذا الكتاب الذى انتشر فى أرجاء العالم الأربعة حاويا الأفكار البديعة والأخبار الشيقة، مستمدا منه رأس المال اللازم لكتابى مضيفا إليه معلوماتى الشخصية وما حصلت عليه من الأخبار من تحقيقاتى الذاتية، وبهذا ألبست تلك المحبوبة الجميلة ما قمت بتفصيله من الزى العثمانى، وبما أنه سيعكس أنوار عيون أصحاب الدين سميته: مرآة المدينة».

هكذا يوضح لنا المؤلف الظروف التى أدت به إلى تصنيف المجلد الثانى من الكتاب، وكيف استفاد من كتاب الإمام السمهودى مضيفا إليه خبراته الشخصية.

وواضح أن هذا الجزء صنف للإحاطة بأخبار المدينة المنورة وأحوالها على غرار سابقه «مرآة مكة» فهو يقول: «وإن هذا الكتاب الذى لا يخلو من الأخطاء نتيجة لقلة بضاعتى يبدو عديم القيمة والأهمية، ومع هذا فهو أول كتاب يتضمن الأحوال العامة والخاصة بالمدينة المنورة باللغة التركية ومن هنا حاز شرف الأولية».

ويعد هذا الجزء كسابقه فهو دائرة معارف كبيرة عن المدينة المنورة كل شىء فيها، وكل شىء يمت لها بصلة فهو يحوى الأحوال الجغرافية للمدينة المنورة، وحدودها، وتاريخها منذ القدم إلى ظهور الإسلام، وهجرة الرسول ﷺ إليها إلى زمن السلطان عبد الحميد الثانى، ويحدثنا عن فضائلها، وطبيعة المناخ

فيها والحرارة، وسكانها وعاداتهم وتاريخهم وما تعرضوا له من أحوال وما عرض لهم من حوادث، وعن أهم المحاصيل فى المدينة، وعن سورها الذى يحيط بها وطوله البالغ ١٤٠٠ ذراعا، ثم يعرض لتقسيمات المدينة إلى ثلاثة أقسام هى: المحال، وخارج السوق، وداخل السوق.

ثم يتحدث عن عادات ساكنيها وكيف يستقبلون شهر رمضان الكريم بالبشر وكثرة العبادة، ثم يتحدث عن موكب الشموع فى مسجد السعادة الكريم، ووصف الحجرة الشريفة ثم يتحدث عن المسجد وموقعه، ومساحته، وحوائطه وأبوابه الخمسة وهى: باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، وباب النساء وكذلك نوافذه، ومآذنه، ومحاريبه ثم يحدثنا عن صلاة الجمعة فى المسجد الشريف، وفضائله وشد الرحال إليه.

ويحدثنا عن أسماء المدينة المنورة، وسبب إطلاق هذه التسميات كما فعل سالفاً مع مكة المكرمة، وفضلها على سائر الممالك، ويذكر القبائل التى كانت فيها، وعن أيام العرب المشهورة.

ويحدثنا كذلك بالتفصيل عن حادث الهجرة وسنتها وتفصيلاتها، وبيعة السابقين من الأنصار، وكذلك يحدثنا عن الحجرة النبوية وحجرة السيدة الشريفة فاطمة (رضى الله عنها) وتوسعة المسجد لمرات عديدة، وكذلك يحدثنا عن الأسواق العربية وأيام قيامها.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الأول من فصول «مرآة المدينة» عن الأحوال الجغرافية للمدينة المباركة فيذكر أنها من البلاد المعمورة وأنه ليس كمثلها فى البلاد من حيث الخصب والمياه الجارية.

أما من حيث موقعها فهى تقع فوق واد مسطح مرتفع بين درجة ٢٠، ٢٥ دقيقة فى الشمال عرضا، وبين درجة ٣٧، و٣ دقائق فى الشرق طولا، ويحدها من الشمال «جبل أحد» ومن الشرق جبل «الطبرى».

ويبلغ عدد سكان ضواحيها ثلاثون ألف نسمة لم يبق فيهم من الذرية المباركة إلا عدد قليل.

وهى محاطة بسور على شكل قطع ناقص جميل من جهاتها الأربع، طول هذا السور أربعة عشر ألف ذراع، وارتفاعه عشرون ذراعا، وسمكه عشرة أذرع، وتنقسم المدينة المنورة إلى ثلاثة أقسام: المحال، وداخل السوق، وخارج السوق.

وفى داخل السور وخارجه ما يقرب من عشرة الآف منزل، وكلها مبنية من الطوب وسكانها مشهورون بكرم ضيافتهم، وجميع المنازل منتظمة ومبنية على طرز مرتفعة، ولها منافذ ضيقة تشبه منافذ بلاد الروم.

وفى الفصل الثانى يتحدث المؤلف عن مناخ المدينة المنورة وحرارة جوها، فمن المعروف أن جو المدينة المنورة مائل إلى البرودة فى الشتاء وحار فى الصيف تقرب حرارتها من حرارة أرض مكة فبرودتها تعود لوقوعها فى وسط واد فسيح لطيف تحيط به الجبال المتسلسلة، ويعد الشهران «يونيو ويوليو» من أشد المواسم حرارة ويتوالى اشتداد حرارتها إلى شهر أغسطس حيث تبدأ الحرارة بعد ذلك فى الأنخافض.

ثم يتحدث بعد ذلك عن أنواع الخضراوات التى تنمو فى المدينة المنورة وهى خضروات متنوعة فيها كل أنواع الخضراوات المعروفة عدا «الكرنب، القرنبيط والكراث والخرشوف» ولا سيما « البطيخ والخوخ والتين والليمون والعجور، العنب، التفاح، الرمان، الموز، والبلح» وجميع أنواع الفواكه المتنوعة بأجناسها المختلفة ما عدا «الفراولة والكريز» وهى موجودة فى كل وقت وكل موسم بكثرة، والتمر الذى يطلق عليه «البلدى» لا مثيل له في أى بلد آخر من حيث اللذة وجمال الشكل وهو نوعان: أحمر، وأصفر، هو أكثر من ٩٠ نوعا.

ويحدثنا المؤلف فى الفصل الثالث عن موضوع طريف وشائق، وهو كيف يضع الآباء أبناءهم داخل الغطاء القماشى لقبر رسول الله ﷺ بعد صلاة الجنازة.

وفى الفصل الرابع يعرفنا الكاتب كيف يستقبل أهل المدينة شهر رمضان

المعظم، فيبين كيف يجتمع أطفال المدينة ـ كنوع من ألعاب الأطفال ـ فى ميدان ما فى التاسع والعشرين من شهر شعبان وينصبون من بينهم شيخا للحرم طليق اللسان وتعرف هذه اللعبة بـ «استقبال الأطفال لرمضان الشريف».

وعندما يحل وقت الإفطار تطلق المدافع ويؤذن فوق المآذن يدعو أصحاب طعام الإفطار من فى يمينهم ويسارهم لاسيما الضيوف إلى الطعام بأفضل تعبير قائلين: «تفضلوا».

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن طريقة أداء صلاة الفجر وصلاة العيد فى شهر رمضان، ويصلى فيها جميع من قاموا بحمل الشمعدان ثم يبدأون بقراءة القرآن والأوراد اللطيفة الشريفة قبل أذان الفجر بنصف ساعة، إلى أن يحين وقت الصلاة فيؤذن لها، ثم يقومون إلى الصلاة، وبعدها يستمعون إلى الدروس والمواعظ.

أما صلاة العيد فهى معروفة، وليس فيها أشياء خاصة إلا أنهم بعد تأديتها يتجهون إلى الحجرة المعطرة للدعاء والتضرع.

أما الفصل السابع فيتحدث فيه المؤلف عن المسجد النبوى الشريف حدوده ومساحته، فعرضه يقدر بخمسين ومائتى ذراعٍ، وعرضه من الجدار الشرقى إلى جداره الغربى خمسون ومائة ذراعٍ إلا أن طوله وعرضه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كل واحد منهما مائة ذراع.

وللمسجد الشريف خمسة أبواب هى:

باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، باب النساء، باب التوسل. ونافذتان تعرفان باسم «نافذة جبريل»، «ونافذة مواجهة»، وله أربعة محاريب تعرف باسم: محراب النبى ﷺ، محراب عثمان، المحراب السليمانى، محراب التهجد.

ولمسجد السعادة فى جهاته الأربع خمس مآذن وفى داخل الحرم الشريف ثلاثة وعشرون وأربعمائة عمودٍ، وله اثنتان وأربعون ومائتى قبة، وله واحد وتسعون وسبعمائة وألف قنديلٍ.

والفصل الثامن يتحدث فيه المؤلف عن الحجرة النبوية المعطرة على صاحبها أفضل صلاة وأتم تسليم، وللحجرة الشريفة أربعة أبواب هى: باب فاطمة رضى الله عنها، الباب الشامى، باب الروضة، باب الوفود، ولها أربع وثمانون قنديلا مثل النجوم.

والفصل التاسع فى وصف صلاة الجمعة فى الحرم النبوى الشريف، فحينما تحين صلاة الجمعة يرفع الأذان، وتصلى صلاة الجمعة، ويقوم السيد الخطيب الذى عليه الدور من مكانه المخصوص ويقرأ أمام سيد البشر فائض النور ثلاث آيات مستأذنا ثم يتوجه بتؤدة رويدا رويدا نحو منبر السعادة الذى قد هيئ ويتجه أحد خدم الحجرة الشريفة نحو المنبر الشريف، وبكل تعظيم وتوقير يرفع ستارة المنبر وينشر الرايتين اللتين على جانبى المنبر، وينتظر قدوم السيد الخطيب، وفى خلال ذلك يصلى ويسلم المؤذنون الذين فى المحفل معًا، ويصعد الشيخ الخطيب فوق المنبر وقد لف رأسه بشال قيم وقد سار أمامه الأغا الذى يطلق عليه «مؤذن المنبر» وفى يده عصا مؤذن المنبر ثم يرفع الأذان الداخلى فى مكانين بصوت رخيم، ثم يقوم الخطيب فيخطب ثم بعد ذلك يصلى وبعد الصلاة يستغفر الحق ـ سبحانه ـ ثم يثنى عليه ـ سبحانه ـ ويصلى على المصطفى أفضل صلاة ثم يدعو الله ما شاء له من الدعاء.

أما الباب الثانى فيتحدث فى فصوله عن فضائل المسجد النبوى الشريف ففى الفصل الأول يتحدث ويذكر الأحاديث الشريفة التى حثت على شد الرحال إلى المسجد النبوى الشريف ومنها الحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد».

وفى الفصل الثانى يتحدث المؤلف عن فضائل المسجد الشريف، والمنبر اللطيف، والروضة النبوية المنيفة، فالصلاة فى المسجد النبوى الشريف أفضل من حيث الأجر من ألف وألف من الصلوات التى تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجد الأقصى، وأفضل من ألف صلاة تؤدى فى المسجد الأقصى.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رواية: «من صلى فى مسجدى أربعين صلاة وعلى رواية ـ لا تفوته صلاة كُنَّ له براءة من النار وبراءة من العذاب وبراءة من النفاق».

وفى الباب الثالث يتحدث المؤلف عن أسماء المدينة وفضائلها، ففى الفصل الأول يتحدث عن أسماء المدينة المنورة فيذكر أن العلماء ذكروا لها أكثر من سبعة وتسعين اسما مستخرجين إياها من الكتب المقدسة والأحاديث الشريفة، ومن الواضح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وهى لكثرتها فقد رتبها المؤلف على حسب ترتيب الحروف الأبجدية ومنها:

ـ أثرب: وهذه الكلمة على وزن أسعد بفتح الهمزة، وفى فترة ما أبدلوها بياء وقالوا يثرب. وأثرب اسم شخص من أبناء سام بن نوح ـ عليه السلام ـ الذى يقال إنه أول مَنْ سكن فى أرض المدينة.

ـ أرض الله، أرض الهجرة: وهذا الاسم اللطيف ثبت بالآية: . . . . ؟

ـ أكالة البلدان، أكالة القرى: إن هذين الاسمين يدلان على أن المدينة الطاهرة تفوق المدن الأخرى فى الفضل.

ـ البارة فهى منبع فيض ورحمة وبركات.

ـ الجليلة: تسميتها بهذا الاسم، تبين مدى حب حبيب الله لهذه المدينة.

ـ ذات الحجر: لأنها توجد داخل جبال حجرية.

ـ سيدة البلاد: فهى أفضل البلاد لوجود المبعوث رحمة للعالمين فيها.

ـ شافية: وهو مأخوذ من الحديث الشريف: «ترابها دواء من كل داء».

ـ طِيبَة وطَيِّبَة: فهى تسعد بجوار النبى صلى الله عليه وسلم وطابت لطهارته وفضله.

ـ عذراء: فهى مصونة من الأشرار محفوظة ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وكذا فهى رحبت بالنبى الكريم ولم يدخلها بحرب أو قتال.

ـ فاضحة: سميت بذلك لأنها تفضح أهل البدعة.

ـ مؤمنة: فأهلها وهى آمنون من كل شر وسوء.

وفى الفصل الثانى يذكر المؤلف فضائل المدينة المنورة على سائر البلدان فتحدث عن فضلها على سائر البلدان، وكذا قارن بينها وبين مكة المكرمة من حيث الأفضلية، فبها مرقد أفضل خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولذا بارك الله لها وفيها، وحفظها من سائر الشرور لوجود مرقد النبى الكريم بها.

وفى الفصل الثالث يحدثنا المؤلف عن الذين فضلوا واختاروا الإقامة فى المدينة المنورة ويذكر المؤلف فى الفصل الرابع محاصيل المدينة المنورة من فواكه وخضروات، ويتحدث كذلك عن طهارة ترابها وكيف يشفى من أمراض خطيرة كالجذام والبرص.

وفى الفصل الخامس: يتحدث عن نجاة المدينة ـ ذاتها ـ من فتنة الدجال، ومرض الطاعون ببركة دعوة النبى الكريم ـ صلوات الله عليه وتسليمه ـ لها بالسلام من كل شر ففى رواية أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «يا رب كل من يقصد أهل المدينة بالسوء فأذبه كما يذيب الملح الماء»، وكذا دعوته المباركة من على المنبر قائلا: «اللهم انقل عنا الوباء» يقصد الطاعون والحمى.

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن حدود الحرم اللطيف وحرمته.

وفى الفصل السابع يحدثنا عن أحكام الحرم النبوى الشريف، فهو حرم لتحريم الصيد فيه أى صيد الحيوان والطير، وقال الإمام الأعظم: إن التحريم هنا بمعنى التعظيم والاحترام وليس التحريم المطلق وعلى ذلك فبعض الفقهاء أجاز صيد الطيور، وقطف الثمار داخل الحرم فهو ليس كحرم مكة المنيف.

وفى الفصل الثامن يذكر خصائص البلدة الكريمة ومنها: عدم قطع أعشابها وأشجارها، وعدم حمل السلاح من أجل القتال، وعدم جواز نقل ترابها إلى بلاد أخرى.

وفى الفصل التاسع يتحدث المؤلف عن المدينة المنورة وحوادثها المتفرقة الغريبة فيذكر أن الحق ـ سبحانه ـ خلق أرض المدينة المنورة بعد خلق أرض مكة المعظمة ثم يتحدث عن اتساع مدينة الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد رحيله، حتى انزعج سكانها وأخذوا يهاجرون منفردين إلى البلاد الأخرى.

وفى الفصل العاشر يحدثنا المؤلف عن وقوع نار المدينة وانطفائها ففى الحديث الشريف قوله: «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز» وبهذا الحديث أخبر أصحابه بأنه تندلع نار فى تراب المدينة المنورة نار كالجبال ذات أشعة قوية وأن القيامة لن تقوم حتى تظهر هذه النار، كما بين موقع ظهور النار وانطفائها.

وفى الباب الرابع يحدثنا المؤلف عن المدينة المنورة تاريخها وقراها وعادات سكانها.

ففى الفصل الأول يحدثنا عن أحوال المدينة منذ سالف الأزمان وبعد الطوفان كما حدثنا المؤرخون فقد هاجر شخص يدعى «يثرب بن عبيل» بعد الطوفان إلى جحفة ـ مكان بالمدينة المنورة ـ وكانت حينئذ مكانا لا اسم له، ثم يحكى كيف نشأت الحكومة فى يثرب فى عهد كنعان بن حام، ويحكى حكاية أقوام بنى إسرائيل وتاريخهم فى المدينة المنورة.

ثم يحكى لنا فى الفصل الثانى قصة الأوس والخزرج والقبائل التى هاجرت إلى المدينة، وقت وجود الأوس والخزرج ابنا ثعلبة إلى المدينة المنورة، ويذكر أسماء بعض هذه القبائل مثل: بنو الجذماء، بنو قصيص، بنو عقبة، بنو هلال، بنو عمرو، بنو نفير، بنو ثعلبة... إلخ.

وفى الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن حالة قرى ومنازل المدينة التى أسسها بنو الأوس حول المدينة، فقد نزلت قبائل بنى الأوس المدينة وتفرقوا فيها واختار كل قوم ما راق لهم وناسبهم من الأماكن، فعلى سبيل المثال اختار بنو عبد الأشهل الإقامة فى دار تسمى بـ «دار عبد الدار» فى ربوة عالية من المدينة تحميهم

من هجوم أى أعداء، ويحكى نحو هذه الأخبار مثل إقامة وسكنى بنى سعد بن مرة بن مالك بن الأوس فى ناحية تسمى «رابح».

وفى الفصل الرابع يعرض لنا كيفية إدارة قرى ومنازل المدينة المنورة وأماكن سكنى بعض القبائل مرة أخرى.

أما الفصل الخامس والأخير فهو يعد من الفصول الشيقة من فصول الكتاب حيث حدثنا المؤلف عما يسمى بأيام العرب وحروبهم وملاحمهم بين قبائل الأنصار وغيرها ومن أشهر هذه الأيام:

١ـ سلمى: وكانت هذه الحادثة سببا فى اشتهار سلمى بـ«المتدلية» حيث ربطت نفسها بحبل وتدلت من الحصن لتخبر قومها بأخبار الحصن وأخبار الواقعة.

٢ـ فارع: وكان قائد القبائل الأوسية فى يوم فارع معاذ بن نعمان بن امرئ القيس، وكان قائد القبائل الخزرجية عامر بن الإطنابة ودارت الحرب بينهما سجالا ولم تنته لذا رفعا المخاصمة من بينهما بعد يوم فارع واتفقا ضد اليهود وعقدت روابط الصداقة بينهما وتركا العداوة بينهما وعاشا متآخين مدة طويلة.

أما الباب الخامس فهو خاص بأحداث الهجرة النبوية الشريفة، وتفصيلاتها وجاء على ثلاثة فصول تعرض المؤلف فى الفصل الأول لذكر بيعة السابقين من الأنصار للإسلام، ودعوة مصعب بن عمير (رضى الله عنه) أهل المدينة للإسلام.

أما الفصل الثانى فهو يعرض لهجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

وفى الفصل الثالث يتحدث عن بيان وقائع سنن الهجرة الشريفة وتفصيلاتها بالإجمال.

أما الباب السادس فهو الباب الخاص بالحديث عن المسجد النبوى الشريف من حيث بداية بنائه وكذلك تجديده وتوسعته ففى الفصل الأول يتحدث المؤلف عن

الظروف التى بنى فى ظلها المسجد الشريف حيث وقفت ناقة الرسول عليه السلام ـ القصواء ـ فى مكان وربطت فيه فأراد النبى ﷺ أن يتخذ هذا المكان مسجدا فعرض على مالكى قطعة الأرض أن يشتريها منهم فلبى أصحاب الأرض دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجوه أن يتفضل بقبولها بدون ثمن ورجوا النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك وألحوا، فقبلها النبى وبدأ تعلية وتأسيس المسجد الشريف.

وفى الفصل الثانى يحدثنا عن توسعة المسجد الشريف فبين أن ذلك كان بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة، وفى الفصل الثالث يذكر الأماكن التى أدى فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة وهذا نتيجة لأن المسجد لم يكن له محراب خاص به إلى عهد الخلفاء الراشدين فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤدى الصلاة فى اسطوانة يطلق عليها «الأسطوانة المحلقة» فى الجهة الشامية، ثم تفضل ـ عليه السلام ـ بأداء الصلاة فى المكان الذى عرف بـ «محراب النبى ﷺ» وهذا المكان فى وسط الحجرة اللطيفة.

وفى الفصل الرابع يعرفنا بجزعة المسجد النبوى الشريف وهى التى كانت فى الجهة الجنوبية لصندوق المصحف الشريف قبل أن يحترق المسجد النبوى، لوحة مصنوعة من الخشب تسمى «جزعة» وكانت كبيرة، وكان يطلق عليها فى تلك الأوقات «خرزة فاطمة الزهراء».

وفى الفصل الخامس يتحدث عن سبب تأسيس المسجد النبوى ومنبره، ولما كان مسجد المدينة خاليا من المنبر لإلقاء الخطبة وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف على رجليه فى أثناء إلقائه الخطبة ويتعب كثيرا، وتأثر بعض الصحابة الكرام بذلك فوجدوا نخلة وركزوها فى المحل الذى يلقى فيه الخطبة، ورجوه عليه السلام أن يتكئ عليها فى أثناء إلقائه الخطبة، ثم فكر سعيد بن العاص أن يقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن فكرة المنبر وصنعه، وأخذ الإذن من الرسول الكريم وصنعه وأعجب به النبى صلى الله عليه وسلم.

وفى الفصل السادس والسابع يعرض لعدد مرات تجديد المسجد النبوى وكذا عدد الأعمدة الموجودة به فيذكر أنها ثمانية أعمدة (أساطين) موزونة ومتساوية.

وفى الفصل الثامن والتاسع يعرض لوصف المقام النبوى الشريف، ووصف الحجرة النبوية الشريفة، فيذكر مكان ومقام أهل الصفة من المسجد النبوى وأنها كانت تقع فى آخر ونهاية المسجد النبوى الشريف، ثم يأخذ بعد ذلك فى تعريف أهل الصفة ووصف أحوال فقرهم وزهدهم وتقواهم وحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم، ثم يحدثنا فى الفصل التاسع عن حجرات بيت النبى ﷺ وحجرات زوجاته الطاهرات البررة، فهى حجرات تسع بناها النبى صلى الله عليه وسلم لهن بالحجر والطين اللبن، وبعضها من خشب النخلة، وأسقفها جميعا من فروع النخيل، وارتفاعها ثلاثة أذرع.

وفى الفصل العاشر فى وصف دار السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كانت هذه الدار مائلة نحو حجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هنا كانت قريبة له، فكان كثير الاستفسار عنها وعن حالها، وهى حاليا بين مربع القبر الجليل وأسطوانة محراب التهجد.

وفى الباب السابع يتحدث المؤلف عن توسيع المسجد النبوى الشريف فبين أن توسعته كانت فى عهد الصديق أبى بكر رضى الله عنه نظرًا لتكاثر الجماعة الإسلامية وازدياد عددها فأصبح المسجد لا يحتملها فأرسل إلى عمر بن الخطاب وكبار الصحابة أنه لابد من توسعة المسجد النبوى الشريف فكانت الثانية بعد الأولى بثلاثة عشر عامًا لما طرأ على عدد المسلمين من كثرة وزيادة وكانت فى عهد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ، وفى المرة الثالثة وسعه الوليد بن عبد الملك وجدده، ثم يعرض بعد ذلك لوصف حجرة المصطفى والقبور الثلاثة فكان ارتفاعها فى عهد الرسول ﷺ ثمانية أذرع، وأكثر من ستة أذرع فى العرض وكان لها بابٌ هو باب الرحمة وبنيت الحجرة الشريفة من اللبن وخشب النخلة وظلت على هذه الحال إلى أن أحاطها عمر الفاروق ـ رضى الله عنه بسور وجدار جديد.

وفى الباب الثامن يحدثنا المؤلف عن مقام الرسول الكريم ﷺ فيذكر العلامة المميزة لرأس النبى الشريف ووصفه، ثم يتحدث بعد ذلك عن علامة جهة رأس النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى جهة المسمار الذى يبعد عن الجهة الغربية، قدر خمسة أذرع ثم يحدثنا عن مقام جبريل ومكانه بالقرب من مربع القبر الشريف.

ثم يحدثنا عن حجر إبراهيم وهو الحجر الملاصق للقبر الجليل وبعد ذلك يحدثنا عن ستارة الحجرة النبوية المعطرة التى كانت مزركشة ومصنوعة من الحرير المنسوج المسطور عليه سورة يس، وبعد ذلك يذكر لنا قناديل الحجرة الشريفة وهى قناديل من الذهب والفضة معلقة على جوانب وسقف الحجرة الشريفة.

وفى الباب التاسع يحدثنا المؤلف عن مقتنيات الحجرة الشريفة وما يوجد بها من المصاحف أو الشمعدانات، والفضيات والستائر والأشياء الجميلة المتبرع بها للحجرة المعطرة فيذكر أنه يوجد بها ١٣٣ مصحفا، وعدد من المسابح وعدد من كتب الأدعية المأثورة وأقراص من الذهب والفضة، وبعض اللوحات الذهبية والمرمرية ولوحة مرصعة بالماس ولوحة من الزمرد والعقيق وبعض التعليقات المرصعة المهداة من بعض الباشوات.

وفى الباب العاشر يعود المؤلف فيصف المؤلف الحجرة الشريفة بالتفصيل كما فعل من قبل.

وفى الباب الحادى عشر يتحدث عن احتراق المسجد النبوى وتجديده، وكان سبب الاحتراق اشتعال أحد القنابل التى توجد بالمسجد فى عصر الصديق أبى بكر - رضى الله عنه - وسرى الحريق من قفص القنديل إلى سائر الأقفاص الأخرى وبقية أجزاء المسجد.

وفى الباب الثانى عشر يعرض المؤلف لفرش الحجرة النبوية، وكيف كان يعتنى بهذه الحجرة الشريفة من تنظيف وتعطير وتزيين وصيانة وكيف فرش المسجد الحرام بعد أن انهالت عليه الأمطار فى ليلة من ليالى الشتاء الممطر فسالت المياه المتراكمة ودخلت إلى داخله وجاء الصحابة لتأدية الصلاة فلم يستطيعوا نظرا

لامتلائه بالمياه فأتى رجل بمقدار من الرمل وفرش المسجد به وصلى الناس بعد ذلك، وبعد ذلك يحدثنا عن تعطير المسجد النبوى وذكر الذين عطروه بالعطر والبخور والرياحين والأزهار الجميلة الرائحة فكانت بداية العناية منذ عصر أبى بكر الصديق إلى الذين جاءوا بعده وفى كل مرحلة جديدة كانت تزداد درجة العناية بالمسجد النبوى الشريف.

ويحدثنا بعد ذلك عما يحيط بالمسجد الشريف من منازل وديار وأرصفة المسجد وسوق أهل المدينة الذى بدأ فى سوق «بنى قينقاع» ثم سوق المدينة والذى عنده ضرب النبى برجله الكريمة قائلا «هاهنا سوقكم».

وفى الباب الرابع عشر يحدثنا المؤلف عن المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم، ووصف مسجد قباء، وكذلك المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم.

وبعده يحدثنا عن قبر البقيع المشهور وفضائله واسمه بقيع الغرقد نسبة إلى الأشجار التى تنبت فيه وتسمى أشجار الغرقد، وهى مكان يحيط به الأشجار والزهور وأنه مكان مبارك كريم شريف، ثم بعد ذلك يذكر لنا من دفن فيه من الصحابة وسادات أهل البيت، فيذكر أنه دفن به من الصحابة الكرام اثنا عشر ألفا.

وفى الفصل الرابع يحدثنا عن جبل أحد فيذكر أنه خلق منفصلا عن الجبال التى حوله ولذا سمى بجبل أحد وكان النبى يقول عنه: «أحد يحبنا، ونحن نحب أحد» و«أحد جبل فوق جنان الجنة».

وفى الباب السادس عشر يتحدث عن أسواق المدينة المنورة وآبارها وعيونها فيذكر الأوقات التى تقام فيها الأسواق، ويذكر كذلك الشهور والأيام التى تقام فيها الأسواق من هذه الشهور مثل أسواق وأيام شهر محرم: يوم الزينة، وورود المحمل العراقى، صفر الخير (فى بداية شهر صفر).

وفى الفصل الثالث يذكر لنا اسم العيون المنسوبة إلى النبى ـ صلى الله عليه

وسلم ـ ومنها: عين كهف حرام، عين الخيف، عين الأزرق، عين النبى، عين الوادى.

وفى الباب السابع عشر يحدثنا المؤلف عما ينسب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مساجد فى طريق مكة والحرمين الشريفين، والمساجد التى صلى فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ينسب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صدقات فيذكر أن جميع الصدقات النبوية تتكون مما ترك وتبرع «مخيريق» من أحبار اليهود.

وفى فصل آخر يحدثنا المؤلف عن المساجد التى بين الحرمين الشريفين فيذكر أن هذه المساجد تقع فى الطريق الذى سلكه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة ومنها: مسجد الشجرة، مسجد المغرس، مسجد شرف الروحاء، مسجد عرق الطيبة، مسجد المنصرف، مسجد الروثية، مسجد الإثالة إلى أن يصل بها إلى ثلاثين مسجدا.

وفى الباب الآخر من أبواب الكتاب وهو الثالث عشر يحدثنا المؤلف عن أودية المدينة ومنها وادى العقيق، وأحراش المدينة وجبالها، فيذكر وادى العقيق وكيف يمتد من موقع قصر المراجل إلى البقيع، ويسمى «عقيق الأرض» ثم يذكر بعد ذلك أسماء وديان المدينة ومنها: وادى البطحان، وادى رانوناء، وادى قناة، وادى زينب، وادى مهزو، مع التعريف المجمل بكل واد.

وبعد ذلك يحدثنا عن أحراش المدينة المنورة ـ وهى أماكن رعى الدواب والجمال ـ والمراعى مثل: حمى البقيع وأحراشه، ومرعى حمى الربذة. ثم بعد ذلك يذكر لنا آكام وقرى المدينة المنورة مرتبة على حسب الحروف الهجائية ومنها «آوة، آبار، أبلى، . .».

ثم يصل بنا الحديث إلى مرآة جزيرة العرب. . يعد هذا المجلد أصغر مجلد فى هذه الموسوعة إذا قورن بالمجلدين السابقين ـ مرآة مكة، ومرآة المدينة ـ فهو يبلغ حوالى ٤٠٠ صفحة بينما يربو كل مجلد من السابقين على ١٢٥٠ صفحة.

وفى هذا المجلد يحدثنا المؤلف عن جزيرة العرب من كل الجوانب: الموقع

الجغرافى والحدود الطبيعية، وتاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور حتى عصر السلطان عبد الحميد الثانى، والملوك والحكام الذين تولوا زمامها، وكذا أحوال ساكنيها وكيف تقلبت بهم الأحداث وتاريخهم وعاداتهم.

ويبين المؤلف فى بداية هذا المجلد أنه يعده ذيلاً لكل من: مرآة مكة، ومرآة المدينة.

كما أن هذا المجلد يعتبر الخلاصة لمن أراد أن يتعرف على أحوال جزيرة العرب، ويحتوى هذا الجزء على ستة أبواب، الباب الأول منها عن تاريخ جزيرة العرب، ويحوى فصلين.

يتحدث أيوب صبرى باشا فى الفصل الأول عن أنساب العرب القدامى ساكنى الجزيرة العربية فوضح أن أقوام العرب هى: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب المستعجمة ـ وهؤلاء هم أقسام العرب ذات أربع طبقات، فطبقة العرب البائدة هى أولى القبائل العربية التى وجدت بعد أن انقسمت الأقوام شعوبًا وقبائل بعد نوح عليه السلام، وهذه الطبقة ليس لدينا عنهم معلومات صحيحة بخصوص أحوالهم وتاريخهم ومنهم عاد الأولى، وثمود، وعمالقة، وطسم، وجديس، وحضرموت.

أما العرب العاربة فهم الطبقة التى تنتهى بجميع قبائلها إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، ولما اختلط هؤلاء بأفراد العرب البائدة وتلقوا عنهم اللغة العربية وتعلموها منهم قيل لهم «العرب العاربة».

أما العرب المستعربة فظهرت مع كثرة اختلاط أفراد العرب المستعربة بأفراد الممالك الأجنبية وأهاليها عندها ظهرت الأخطاء فى لغتهم التى يتحدثون بها لأن القبائل العربية انتشرت إلى البلاد التى استولت عليها فى الجزيرة العربية لإعلاء كلمة الله عقب سطوع نور الإسلام.

والقبائل العربانية التى تسكن اليوم الجزيرة العربية تنتسب كافة لطبقة العرب المستعجمة. والقبائل العربية التى تكون هذه الطبقة وإن لم تترك وطنها الأصلى

جزيرة العرب إلا أنها عاشت مختلطة بالملل المسلمة والعربان الأجنبية لذا فقد طرأ بعض التغير على لغتهم.

أما حالة العرب الحضارية قبل الإسلام وبعده فهم ينقسمون إلى:

١ـ أهل المدر:

وهم أهل المدن والأمصار وهم النوع الأول من أهل الجزيرة والذين يعرفون فيما بينهم بـ (حفدى ـ بلدى) ويسكنون فى المدن والقرى، ويعملون ـ على قدر ما يساعد مناخ بلدهم واستعدادهم ـ بالزراعة وتربية أشجار النخيل والعناية بالحدائق والبساتين، ويبذلون جهودهم على تأمين معيشتهم بما ينتجون من المحاصيل كما أنهم يؤمنون معيشتهم من جهة أخرى بالأخذ والعطاء مع سكان البلاد المجاورة وبالتجارة.

٢ـ أهل الوبر:

وهم سكان البادية الذين يعيشون تحت الخيم ودائمى التنقل والترحال من مكان لآخر وراء الطعام والماء، وهم النوع الثانى من العرب وهم البدو الذين يمضون حياتهم بين الجبال والصخور والتلال والفيافى والصحارى ولما كان عرب الوبر دائمى التحرك والتنقل أضحوا عديمى الرغبة فى اكتساب العلوم والمعارف والفنون فهم يختلفون اختلافًا كليًا عن أهل المدر فى سبيل تأمين وسائل معيشتهم. فالمساكن فقط لتقى أجسامهم من شدة حرارة الشمس خالية تمامًا من علامات التجمل.

وفى الفصل الثالث: يذكر مؤلفنا الملوك والجبابرة الذين حكموا الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ومنهم:

ملوك عاد الأولى ـ كانت بلدتى حضرموت وشحر دارى ملوك عاد الأولى وكانت رعاياهم القبائل العربية التى تسكن فى الصحارى الواقعة بين البلاد اليمانية وعمان.

وقد حكم قوم ثمود سكان حجر وادى القرى بعد هلاك قوم عاد، وعصوا الله وأخذوا يعبدون الأصنام التى صنعوها بأيديهم وهكذا طغوا فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم صالحًا ـ عليه السلام ـ نبيًا لهم.

ثم يحكى عن سد مأرب وسبب بنائه لحماية بلدة مأرب من السيول التى كانت تنزل بها فلا تبقى ولا تذر، وبلدة مأرب التى مدحت فى القرآن الكريم بلدة طيبة كانت تبعد عن صنعاء ثلاث مراحل، واختلاف الروايات حول بانى السد وطوله وعرضه وما إلى ذلك.

ويعرض الباب الثانى للخلفاء والملوك المسلمين الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام يعرض فى الفصل الأول لسيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه ولد بعد ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ بخمسمائة تسعة وستين عامًا فى اثنى عشر من شهر ربيع الأول والسابع عشر من شهر أبريل، وبعث نبيًا فى الحادى والأربعين من عمره الشريف.

وهاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة عام ستمائة اثنين وعشرين من الميلاد والسادس عشر من شهر يوليو مبدأ التاريخ الهجرى من قبل المؤرخين، مدة نبوته ثلاثة وعشرون عامًا، عمره ثلاث وستون سنة.

ثم يتحدث بعد ذلك عن الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ الذين حكموا بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر منهم أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وعمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ومن بعدهم خلفاء الدولة الأموية، وأمراء بنى العباس.

ثم يتحدث بعد ذلك عن الأمراء الذين حكموا مكة المكرمة وهو يقسمهم إلى أربع طبقات.

١ـ الطبقة الأولى: طبقة سادات بنى حسن ويطلق عليهم بنو «أخيضر» وقد

حكموا تسعًا وتسعين سنة وظهروا فى سنة خمسين ومائتين للهجرة وانقرضوا فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين هجرية.

٢ـ الطبقة الثانية: من طبقات أمراء مكة الأربع السلسلة السليلة، لأولاد موسى الذين ينتهى نسبهم إلى الحسن بن على رضى الله عنهما، والأشراف الكرام والذين يكنون هذه الطبقة هم الأشراف الكرام الذين يطلق عليهم المؤرخون «الموسويين» و«بنى موسى» وأول من تولى منهم الإمارة هو الشريف موسى، والثانى عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله، وعدد أفراد الموسويين الذين حكموا البلاد الحجازية أحد عشر أميرًا.

٣ـ الطبقة الثالثة: ويطلق عليهم السادة الأشراف الذين يكونون الطبقة الثالثة من الطبقات الأربع «الهواشم» وأشراف طبقة «الهواشم» الذين عرفوا بـ «بنى فليته» ظهروا سنة (٤٥٣هـ) وانقرضت حكومتهم سنة (٥٩٨هـ) وحكم منهم فى خلال هذه الفترة ثلاثة عشر أميرًا.

٤ـ الطبقة الرابعة: شكل الطبقة الرابعة من أمراء مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسنى وسلسلة نسبه.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الثالث عن ظهور طبقة القرامطة باعتبارها من الفرق الخارجة فى البلاد الحجازية التى اشتعلت شرارتها فى زمن المعتمد بن عباد، وفى رواية فى عهد الخليفة المنتصر بالله، وأخمدت شرارتها سنة (٣٧٣هـ) أى فى عصر الطائع بالله وعلى قول سنة (٣٨٤هـ) فى ابتداء خلافة القادر بالله واستمروا فى شقاوتهم ثمانين عامًا أو ثلاثًا وعشرين ومائة عامٍ إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا حكومة قوية فى هذه المدة.

وأول من خرج من القرامطة أبو سعيد حسن بن بهرام جنابى من قرية جنالة القريبة من أهواز وكان يعمل بالبصرة وزانًا، ثم ذهب إلى البحرين حيث تظاهر بالتقوى والدين واخترع اعتقادات عجيبة باطلة وضعها وخدع بها الناس وتبعه بعض الحمقى من العربان والبلهاء.

وكانت غاية ابن سعيد هذا أن يحلل ما حرمه الشرع وأن يخرج بهذه الدسيسة ما فى نفسه إلى حيز العمل، لأن التمرد الذى فى ضميره لم يكن جائزًا شرعًا.

ولقد فعل الكثير من الجرائم واستولى على أقاليم نجد، يمامة، واليمن واعتدوا على حجاج المسلمين سنة (٣١٧هـ) بغتة وذبحوا من قبضوا عليهم من الحجاج وبعد ذلك هجموا على مكة المكرمة وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه، وحملوه إلى بلادهم واحتفظوا به عندهم.

وهناك اختلاف كثير فى بيان حقيقة عقائد القرامطة الباطلة، وبناء على قول فريق من المؤرخين فإن أول شخص ظهر فيهم قد تجرأ أن يدعى النبوة وحاول أن يقنع الناس بكتاب ألفه من الكتب السماوية، وبناء على قول فريق آخر من المؤرخين أن أول من ظهر من القرامطة هو من الأئمة الإسماعيلية وأنه مبعوث من قبل الإمام المهدى وأراد أن يقنع الناس بذلك، وهؤلاء الخبثاء يروجون لمذهب الرفض والإلحاد.

ومن عقائدهم أنهم يقتنعون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ ويعلنون أنهم ينتمون للطائفة الإسماعيلية إلا أنهم يستحلون المحرمات الشرعية ويعتقدون أن سفك دماء المسلمين مباح، كما يقولون بكفر من لا يعتنق المذهب القرمطى.

ومن جملة عقائدهم الباطلة حصر الصوم ليومين فى السنة، وعدم الغسل والاغتسال من الجنابة وجعل الخمر حلالاً وقولهم «أشهد أن محمدًا بن الحنفية رسول الله».

وفى الباب الثالث يحدثنا المؤلف عن أحوال جزيرة العرب الجغرافية فهى تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وتسكنها القبائل البدوية العربية منذ القدم وهى شبه جزيرة كبيرة.

يحدها شمالاً الشام وصحراء الجزيرة وشرق خليج البصرة، وجنوبًا المحيط الهندى وغربًا البحر الأحمر، ومضيق باب المندب.

وطولها تقريبًا من الطرف الشمالى إلى جنوبها ألفان وخمسمائة كيلو متر تقريبًا، وعرضها من الجهة الغربية إلى جهتها الشرقية ألفا كيلو متر تقريبًا وتتسع عرضًا من جهتها الجنوبية ومساحتها ثلاثة ملايين وست وخمسين ومائة ألف كيلو مترًا مربعًا وسكانها اثنا عشر مليونًا.

ثم يحدثنا بعد ذلك عن البحار والمحيطات التى تحيط بالجزيرة العربية فى الفصل الثانى من الكتاب فالبحار والمحيطات تحدها من جهاتها الثلاثة ـ البحر الأحمر ـ وهو يعرف بالخليج العربى، وبحر القلزم، وبحر شيب الشعب أو بحر جدة، وهو بحر قليل الجزر وإن كان به شعب مرجانية إلا أنها غير مفيدة، وهذه الشعب منتشرة بجانب الشواطئ مما يسبب الكثير من الحوادث لاصطدام السفن بها.

بحر الشب ـ ويصل بحر عمان الذى يعد جزءًا من المحيط الهندى بالشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب من باب المندب إلى مضيق هرمز.

وتنقسم الجزيرة العربية إلى ست قطع وتطلق على الأراضى التى فى الجهة الغربية الشمالية «الحجاز» والتى فى الجهة الجنوبية الغربية «اليمن» والجهة الجنوبية «حضرموت» وعلى الأراضى التى فى الجنوب الشرقى «عمان» والأماكن التى فى الجهة الشرقية «الأحساء»، «البحرين»، هجر، والأراضى التى فى وسط الجزيرة العربية «نجد».

وفى الفصل الثالث يحدثنا عن الأحوال الجغرافية لبلدتى جدة والطائف فجدة: من مدن الحجاز المشهورة وهى مدينة، وتقع فى الجهة المعمورة فى الجهة الغربية لمكة المكرمة وعلى تسعين كيلو متر منها، وعلى ساحل بحر السويس فى درجة خط الطول الحادية عشرة وتسع وعشرون دقيقة فى خط العرض الشمالى وهى أكبر موانى الحجاز ازدحامًا بالسفن.

وصادراتها: «جلد البقر، والبن، والصمغ العربى، والعطور المتنوعة، ريش

النعام، سن الفيل، الصبارة، اللؤلؤ، الصدف، البلح، الحناء، اليسر، الباغة، العسل».

وارداتها وهى التى تستورد من مصر، وأفريقية، وأوربا هى: «الأرز، والقمح، الشعير، الدقيق، الزجاج، الصابون، الأقمشة الصوفية، والقطنية».

ويبلغ عدد سكانها مع مجاورى وتجار مصر والشام والهند واليمن وكلهم مسلمون إلى خمسة وعشرون ألف نسمة، وأهالى جدة عمومًا يحبون العمل وأغلبهم أغنياء، ويشتغلون بجميع أنواع التجارة قد اكتسب ميناء جدة أهمية عظمى لموقعه الجغرافى الطبيعى.

وكافة أهليها، غير بضعة من الأوروبيين مسلمون، ويتاجر بعضهم بالهند والمستعمرات الأجنبية الأخرى.

الطائف: تقع بلدة الطائف والتى تسمى أيضًا «وادى عباس» على الجانب الشرقى من مكة وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة، ترتفع عن سطح البحر ١٥٧٥ مترًا، عدد سكانها ألف نسمة تقريبًا.

ولما كانت أرض الطائف أكثر ارتفاعا من أرض مكة المكرمة فتقل درجة حرارتها عن درجة حرارة مكة المكرمة ست أو سبع درجات ويجود هواؤها، لأجل ذلك يصعد معظم أهل مكة إلى الطائف عندما تشتد درجة الحرارة فى أشهر الصيف، ويقيمون هناك إلى أن تزول درجة الحرارة.

ويعرض المؤلف فى الباب الخامس للقبائل التى سكنت الجزيرة العربية حاكيًا تاريخ كل قبيلة وطبيعة عاداتها وشعوبها ومن هذه القبائل.

- بنو هاشم - ويطلق بنو هاشم على الأشراف والسادات الذين تسلسلوا من أصلاب الإمامين الحسن والحسين (رضى الله عنهما).

- قبيلة عنزة - وهى التى تستوطن فى شمال الجزيرة العربية، وخاصة الأقطار الحجازية ويعيش أهلها حياة البداوة وتنقسم إلى أربع قبائل:

١ـ أولاد على

٢ـ الحسنة

٣ـ حلال

٤ـ بشر

والفصل الثانى: يحدثنا عن قبيلتى حويطات وجهينة.

وتقيم أفراد قبيلة حويطات فى سواحل البحر الأحمر الشرقية التى تمتد من العقبة، وقلعة «الأزلم» إلى السويس، والأماكن التى تسكنها أراضيها قليلة الإنبات ومجدبة وعندما يجدبون يتجهون إلى عنزة.

ثم يذكر بعد ذلك فروع قبيلة حويطات والتى وصلت إلى اثنتى عشرة قبيلة.

ثم يذكر بعد ذلك فروع قبيلة جهينة التى تسكن شاطئ البحر من جبل حساين إلى ينبع البحر، وتنقسم هذه القبيلة إلى القسمين اللذين يعرفان بـ (أولاد مالك)، (أولاد موسى).

وفى الفصل الثالث يتحدث عن عربان قبائل بجاله وبنى حرب، وقبيلة نحاولة قبيلة فى غاية الاحتقار على حد وصفه بين أهالى الحرمين ذلك لتأصل عادات السلب والنهب والكر والفر فيهم منذ القدم على عهد يزيد بن معاوية.

قبيلة حرب ـ وانقسمت قبيلة حرب إلى قبيلتين كبيرتين وهما بنو سالم وبنو مسروح، كما أن بنى سالم انقسموا إلى شعبتين وهما «ميمون ومراوحة».

وفى الفصل الرابع يذكر قبيلة مطير، وبنى سليم وبنى عتيبة، وقريش، وثقيف، وبنى عدوان.

وفى الفصل الخامس يحدثنا عن القبائل التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفذة، وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءاً من تهامة الحجاز.

بنو لحيان: يقيم عربان قبيلة بنى لحيان فى الأماكن الواقعة بين مكة المكرمة

وجدة، وتقتصر معيشة بعض هؤلاء على ما يحصلون من المبالغ من المسافرين والحاج الذين يسلكون هذه الطرق.

وهناك قبيلة (بنى فهم) غير القبائل المذكورة وتقيم فى وادى خضر، وقبيلة (يزيد)، والتى تقيم فى وادى يزيد، وقبيلتا (بجالة وبنى متعان).

ويتحدث الكتاب فى الفصل السادس عن اليمن وحدوده ووصفه، والقبائل المستقرة فيه.

واليمن قطعة كبيرة من جزيرة العرب تقع فى الطول الشرقى من درجة ثلاث وأربعين إلى درجة خمسة وأربعين، وفى العرض الشمالى، فى درجة اثنتى عشرة وتقع على الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة العرب.

ويحيط بها من الجانب الغربى البحر الأحمر وفى الطرف الجنوبى خليج عدن ويحيط بها من الشرق حضرموت، ومن الشمال الحجاز، ومسافتها الطولية خمسة وخمسون وسبعمائة كيلو متر، ومسافتها العرضية خمسون وثلاثمائة كيلو متر، عدد سكانها مليونان وخمسمائة ألف نسمة تقريبًا، وتنقسم جغرافيًا بالإجمالى إلى قسمين: والقسم الأول من الخطة اليمانية: الأراضى الواسعة المستوية على ساحل البحر الأحمر ويسمى «تهامة» وتمتد من شاطئ البحر إلى الداخل ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة وهى أراضى سهلة مستوية.

والقسم الثانى من الأراضى المقابلة لتهامة وهى أراضى مرتفعة يطلق عليها نفس اليمن وهى فوق جبال متسلسلة تسمى جبال «سروات» وتمتد من الطائف إلى صنعاء.

أما سكانها فهم يسكنون القرى والمدن ويقومون بكسب قوتهم بالزراعة والتجارة، لذا نجد أن العرب الرحل يقلون فيها بالنسبة إلى الأماكن الأخرى لجزيرة العرب.

ومن ضمن ما تشتهر به اليمن من زراعة شجرة البن وكانت قديمًا خاصة

باليمن ولكنها نقلت فيما بعد إلى البلاد الأخرى حيث أنبتت فيها وقد جربها أول مرة أهل اليمن وعرفوا بعد التجربة خواصها النافعة فأخذوا يستعملونها ويشربونها فتبعهم بعد ذلك أهالى البلاد الأخرى.

والقهوة اليوم وسيلة رئيسية لإكرام الضيوف وتحيتهم، ومن أجود أنواعها البن الذى ينبت فى أرض اليمن.

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى أمتع أبواب الكتاب وأطرفها على الإطلاق وهو الباب السادس الذى تعرض فيه المؤلف بالحديث لعادات أهل الجزيرة وتقاليدهم والذى تفرد ببعض الفصول التى لم ترد فى كتب غيره.

ففى الفصل الأول يذكر عادات سكان الجزيرة العربية منها العادات التى اخترعها عمرو بن لحى ومنها عادات خاصة بالنوق مثل إذا ولدت عشرة صغار يفقئون إحدى عينيها ويمنعون ركوبها ويسمونها «حام».

والعادات القديمة كان منها وأسوأ ما يكون منها: عادة وأد البنات التى حكاها القرآن الكريم حين قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. [النحل: ٥٨]

ومنها أيضًا: الوشم، والتعمية، وبكاء المعتزلين، التفقية، رمى السن، خضاب النحر، نصب الراية، جز النواصى، الالتفات، النهق. . . .إلخ وهذه أيضًا يروى أنها من اختراعات عمرو بن لحى وهى من العادات التى لم ينزل الله بها من سلطان فجاء الإسلام الكريم وأبطل هذه الخرافات والخزعبلات وبين أنها من دعاوى الجاهلية.

وقد ظهر بينهم بعض السحرة، والكهنة، وأخذوا يخبرونهم عن المغيبات ولما صادف أن تحقق بعضها وأخبروه فانخدعوا بهم وأخذوا يستعينون بهم فى حل مسائل دينهم ومشكلات حياتهم.

أما عن عقائدهم فكانوا على عقائد وملل شتى كثيرة متفرقة منها:

١ـ فرقة منكرة: كانت تنكر الخالق والبعث والحساب وتحاول أن تثبت أن الطبيعة هى التى تحيى وتميت والدهر يفنى فكانوا يقولون: «ما يهلكنا إلا الدهر».

ومن ذلك قول شاعرهم:

حيـاة ثـم مـوت ثـم بعـث حـديـث خـرافـة يـا أم عـمرو

ومن ذلك قولهم:

ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، نموت ونحيا، ولا يهلكنا إلا الدهر.

٢ـ الفرقة الثانية: كانت تعترف بالخالق، وابتداء الخلق ولكنها تنكر المعاد.

٣ـ الفرقة الثالثة: تعترف بالخالق وابتداء الخلق ونوعًا من البعث ثم أنكروا ذلك وعبدوا الأوثان ظانين أنها ستكون شفيعًا لهم لدى الله ـ سبحانه وتعالى.

وكان من بينهم من يعبد النجوم والكواكب مثل الأشوريين، ومن يعبد الحيوانات مثل المصريين، ومن يعبد الملائكة والجن وكان منهم من انحرف لمذهب من يعتقد فى تناسخ الأرواح.

ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن كرم العرب وسخائهم وتحملهم للجوع والعطش فالقبائل البدوية تشتهر شهرة واسعة بين العرب بالكرم، والكرم البدوى معروف لدى البسيطة كلها، حتى الفقراء منهم يتصفون بهذه الصفة وهم يقدمون لضيوفهم أفضل ما يكون عندهم من طعام أو شراب وإن لم يجد الواحد منهم ما عنده لذلك فقد يذبح حصانه وناقته وهو أحوج ما يكون إليهما، وهم لشهرتهم بالكرم، فالكرماء منهم ممدوحون أبدًا، والبخلاء مَذْمومُون نادمون أبد الدهر.

ولما كان بعض العربان يفرحون بقدوم الضيف فرحًا شديدًا فينتظرون كل صباح ورود الضيف، ويناجون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبعث لهم ضيفًا وسواء أكان الضيف معروفًا أم غير معروف فالواجب يحتم إكرامه بغض النظر

عـن معرفتـه أو عدمها، بل هم يتنافسون فى بذل هذا الشرف والترحيب بالضيف الغريب ويأخذونه إلى منازلهم حيث يعدون لهم أجود أنواع الطعام والشراب.

ومن عاداتهم تقديم ثلاثة فناجين قهوة متتالية ولكن بن هذه القهوة لابد أن ينضج بعد ورود الضيف ويطحن فى المطحن ويسوى فى إبريق من الفخار، وقد يضحى صاحب البيت فى سبيل حماية ضيفه بنفسه وماله وعلى الضيف أن يعد نفسه واحداً من أهل البيت وأن يدافع عنهم إذا ما تعرضوا للأذى.

ومن صفاتهم أيضاً تحمل الجوع والعطش والجو الشديد الحرارة وليس فى العالم قوم يتحملون هذه الأشياء مثلهم والذى يشبع منهم مرة فى أربع وعشرين ساعة يعد نفسه سعيداً.

وهم يعيشون على تناول الأعشاب التى تنمو بجانب الغدران التى تكونت من أثر الأمطار، وعندما يتجهون إلى مكان ما للإغارة على بعضهم بما أنهم لا يملكون كثيراً من الزاد فإنهم يطحنون الدخن وشيئاً من الدقيق وكلما يجوعون يضعون فى أفواههم قدرًا منه ويشربون ماء.

ومع كل هذا التحمل فصحتهم جيدة وأجسامهم قوية إلا أن قوة أجسامهم لا تكتمل فبنية أجسامهم نحيفة وهم فى غاية من خفة الدم.

وفى الفصل الرابع من الباب السادس يحدثنا المصنف عن باب من الأبواب الطريفة والنادرة وهى عادات العرب وأساليبهم فى السلب والإغارة والعرب الذين يخرجون للسلب والنهب يتخذون أحدهم رئيساً وقائداً ولا يخرجون عن طاعته ورأيه، ومن أحكام السلب والنهب عندهم أن يكون نصف الخارجين ركباناً، والنصف الآخر من المترجلين وفى أثناء قتالهم لا يستخدمون الأسلحة النارية، ولكنهم يقاتلون بالأسلحة البيضاء مثل السيف والرماح وما يشبهها من الآلات.

وبعدما يهيئون مهماتهم الحربية ويتخذون تدابيرهم القتالية ويقتربون من مقر

القبيلة التى يريدون أن يقتحموها، يختفون فى مكان ما ثم يبعثون باثنين منهم للتجسس ويصعد الجاسوسان على قمة جبل ويرصدون أحوال العدو وأغنامهم وكل ما يملكون من أموال، وإذا قنعوا بقدرتهم على العدو أغاروا عليهم واقتحموا القبيلة صباحاً ونهبوا أموالهم وأغنامهم، وإذا كانت الإغارة ليلاً قيدوا الرعاة على جذع الشجر ثم يسوقون ما نهبوا فى سرعة شديدة.

وفى الفصل الخامس يحدثنا المؤلف عن عادات العرب فى تربية أطفالهم وكذلك عاداتهم فى الوليمة والختان.

تربية الأطفال

يكلف العربان أولادهم إذا بلغوا سن الثالثة برعى الجدى والحملان حول قريتهم، وعندما يبلغون السنة الرابعة يرعون الحمير والحملان فى أماكن أبعد من ذلك.

وإذا بلغوا الخامسة من عمرهم يعلمونهم الجلوس على ظهور الجمال، فإذا بلغوا السادسة يعلمونهم ركوب الجمال بمفردهم.

ويكتسب أطفال البدو مهارة عظيمة فى ركوب الخيول والجمال حتى إنهم يستطيعون أن يركبوا جملاً مهما جرى سريعاً، ومهما كان الحصان العربى سريعاً فركوبه والجرى به يعتبر بالنسبة للطفل العربى من قبيل اللهو.

وتظل الصبايا إلى أن يبلغن السنة العاشرة من عمرهن مع الأطفال يعملن معهم فى رعى الغنم والمعز، ويعلموهن فى هذه السِّن حلب النعاج والمعزات وصنع اللبن الرائب والجبن.

الزواج وعاداته

يعد أبناء العم وأبناء الأخوات أكفاء للبنات العربيات إذا كان الواحد من هؤلاء غير مقيد بالزواج أو متزوجاً غير راضٍ بزواج البنت من طالب يدها فمثل هذه البنت لا تتزوج.

والمهر بالنسبة للأغنياء عبارة عن «بسط» (سجادة أو كليم) كبير من الصوف، وسوارين للمعصم من الذهب وفساتين وبعض الإبل والأغنام.

وليمة العرس:

ويقدم فى وليمة العرس الأرز المطبوخ وعليه لحم الغنم الذى ذبح من قبل وأعد للضيوف، وهذا من العادات العربية الجارية.

حفل الختان

يختن العرب أولادهم الذكور فى اليوم السابع من ولادتهم، وبعضهم في يوم الأربعين، وبعضهم فيما بعد، كما يقرر عرب من هذيل الذين يسكنون بجانب مكة المكرمة ألا يختنوا أبناءهم إلا عند الزواج فعندما يقررون عقد زواجهم عندئذ يختنونهم، وعندما يقرر ختان ذلك الفتى فمن عادة هؤلاء القوم أن يدعوا لحفل ختانه أحباءه وأقاربه وجماعات القرى المتجاورة، وكل واحد من المدعوين يهدون لصاحب الحفل على حسب قدرته خروفاً واحداً أو أكثر وجملاً ومعزة أو ثورا.

كما أن من عاداتهم أن يسوق كل فرد ما يريد أن يهديه من الحيوانات أمامه وأن يذهب إلى القرية التى سيحتفل فيها قبل الختان بيوم أو بيومين.

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن سبب حب العرب للنخيل والجياد الأصيلة، وصورة الأوسمة التى تطبع على الجمال فى الأراضى الحجازية وبما أن هذه الأشجار المباركة لا تنمو فى كل أماكن الحجاز لذلك يحرص غارسوها أن يغرسوها على أطراف ممرات السيول، وحيث الماء قريب من سطح الأرض والأماكن الرطبة، ثم يتعَهَّدونها بالسُّقيا أربعين يوماً حتى تتمكن جذورها فى الأرض ثم يتركونها لحالها.

يقال للتمر أول ما يظهر «زهواً» وعندما يحمر ويبدأ فى النضج يطلق عليه «رطب»، والتمر فاكهة مغذية قوية، والبدو وأهل المدينة يفضلون أكل الطازج منه، ويبيعون الرطب.

الخيل:-

يطلق فى بلاد العرب على ذكر الحصان (الخيل) ولأنثاه يُقال (فرس) وهم يربون الخيل ليأخذوا ذريته فقط، لذا لا يحتفظون بذكر المهر بل يبيعونها للبلاد المجاورة لهم ولكنهم يحتفظون بأنثى المهور ليركبوها فى الحروب ويحرصون على الاحتفاظ بها ولا يستطيع أن يمتلك هذه الفرس إلا الأغنياء، أو يشترك عدة أشخاص في ملكيتها.

ويمكننا تلخيص موضوعات هذا الجزء فى:

١- الموقع الجغرافى والواقع الاجتماعى للجزيرة العربية.

٢- التاريخ السياسى والاجتماعى لجزيرة العرب

٣- القبائل التى سكنتها قديماً وحديثاً، وتاريخها.

٤- عادات أهل الجزيرة وأخلاقهم وصفاتهم.

والحق أن هذا الجزء تفرد ببعض الموضوعات الطريفة والشيقة والتى قلما تجتمع فى غيره من المصادر ومنها:

١- حديثه عن الأصول والقواعد الخاصة بالحروب عند العرب والتدابير الحربية واللصوصية، وهو كذلك من الموضوعات التى تخلو منها كثير من الكتب.

٢- سرده لعادات العرب فى تربية أطفالهم، وعادات الختان، والوليمة.

عناصر مجلد «مرآة جزيرة العرب»:

تاريخ وخبر جزيرة العرب ـ خلفاء وملوك الجزيرة العربية ـ الخارجين فى البلاد اليمنية ـ طائفة القرامطة وخبرهم.

أحوال الجزيرة الجغرافية والمناخية ـ ما يحيط بالجزيرة من بحار ومحيطات ـ جده وأحوالها الجغرافية ـ أماكن المدينة، وحدودها.

طرق المدينة ـ الطريق السلطانى ـ طريق فرع ـ طريق غاير ـ طريق مكة والمدينة ـ طريق ينبع ـ طرق مؤدية لمكة.

قبائل الجزيرة العربية ـ قبيلة حويطات وجهينة ـ قبائل بجاولة، وأحوالها ـ قبائل مطير وبنى سليم ـ قبائل مكة المكرمة، والمدينة ـ وصف اليمن وحدوده.

وعادات وتقاليد أهل الجزيرة العربية ومذاهبهم ـ وصف وتعريف «سمية وخمسة ومنن» من قوانين العرب ـ وصف كرم العرب وصلابتهم ـ ذكر تقاليد العرب الحربية ـ تربية أطفال العرب ـ حب العرب للنخيل والجياد.

* * *

مرآة الحرمـــين
مرآة مكـــة

إن الحمد والشكر والثناء بالصدق والإخلاص لأعظم المستحقين سبحانه «تعالى شأنه عما يقولون» حمداً يفوق فى الكثرة أنفاس قوافل الحجاج المتقاطرة وشكرا يزيد عن حاجة الأرامل فى مختلف المراحل.

له الحمد والشكر إذْ أنشأ مبنى العزة الكعبة المعظمة فى مدينة (مكة المكرمة) مهتدى الضالين فى صحراء العصيان، ودعا لدار الضيافة عميم النوال، دعا جميع سكان بلاد الموحدين أطعمهم من المائدة العظيمة الفائدة والنفع من قوله ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) وأحاط بالعظمة والفخامة جميع السلاطين والحكام الذين وقفوا فى تجديد قبلة جميع الرسل والأنبياء وتعمير بيت الله العظيم.

وأعرض الصلوات الصافيات المتنوعات لنبينا خاتم الرسل والأنبياء نتيجة مقدمة الأكوان والشئون «عليه وعلى آله سلام الله المنان» وأفرش حجرة نبينا الطاهرة وروضته المضيئة بالصلاة والسلام.

وأخص منير مضاجع آل البيت وأهله والأصحاب الكرام برفع تحياتى الوافرة إذ بينوا لنا فضائل المآثر المبروكة والمساجد المسعودة التى عينها لهم نبى الإنس والجن «عليه صلوات الله الرحمن» وهكذا أبرزوا خدماتهم فى سبيل الدين المبين وحبيب الله رب العالمين وزادوا فى أجر جموع الحجاج الكرام ومثوبتهم بزيارة هذه الأماكن المقدسة.

وبعد فيعرف أهل النُهى، جيداً أن كل قطعة من حجارة البلدتين الطيبتين أغلى وأكرم من جواهر ملك سليمان، وكل ذرة من ترابهما المطوية بالغفران أعز من إكسير العظمة وجوهرها، ومن هنا فَإنَّ أفضليَّة البلدتين الطيبتين على جميع الممالك على وجه البسيطة ظاهرة للعيان. ووجوب زيارتهما على كل مسلم قادر أمرٌ بديهيٌّ وَاضِحٌ، يزورهما فيستطلع فوائدهما وفضائلهما ويستكشف خصالهما وخصائصهما، وهذه الزيارة لها شديد اللزوم لكل موحد يلبى الدعوة الروحانية الإبراهيمية «على نبينا وعليه التحية» بالصلاة والسلام وعلى الذين يأتون لهذا المكان مثل حمائم الحرم طالبين الراحة النفسية.

وقد ألف العلماء الكرام كثيراً من الكتب ليبرهنوا على أن الأرض المضيئة التى تحتوى على الأقطار الحجازية المنجية أقدس مكان على وجه الأرض ونشروا هذه الكتب وليعرفوا الخلف ما تمتاز به الأراضى الحجازية من فضل وقدسية في نشأتها. كما أن شعراء القبائل البدوية قد أنشدوا قصائد بليغة وفقرات مسجوعة فى ذات الموضوع تناقلتها الألسن.

إلا أنه لا يخفى على أصحاب الاطلاع والبحث والتدقيق أن تلك الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع والقصائد التى قيلت فيه ظلت فى زاوية منسية في أصونة دور الكتب.

وبما أنه لم يكتب إلى الآن فى لغتنا التركية كتاب مستقل خاص بهذا الموضوع فالروايات التى تتناقلها الألسن وتسمعها الآذان من البديهى ألا تخلو من التناقض، وهذا ما يجعل التأكد من حقائق الأمور من الصعوبة بمكان، وبناء على هذا فكل أبناء الوطن الذين يريدون أن يطلعوا على حقائق الأماكن المشحونة بالمحاسن ـ حقائق الحرمين الشريفين ـ ومواقع آثارهما وفضائلهما لا يجدون مراجع يستقون منها ما تتوق أنفسهم إلى معرفته من حقائق الحرمين الشريفين، فأحس هذا الفقير العاجز بالحاجة إلى أثر فوائد موائده لم ير ولم يسمع بمثله إلى الآن، أثر عظيم القدر لا يستغنى عنه، وإننى كنت قد عرضت على أنظار العامة

فى ظل الكرم السلطانى المؤلفات الآتية: محمود السير ـ عزيز الآثار ـ تكملة المناسك ـ تاريخ الوهابيين ـ رياض الموقنين ـ ترجمة الشمائل.

وقد رأيت بعين الفخر والابتهاج مدى ما حازته هذه الكتب من حسن القبول لدى أهل الكمال الذين يتجاوزون عن الأخطاء، وهذا ما شجعنى على أن أطلع على الوقائع المبروكة لمكة ذات الفيوض والمدينة المفخمة ذات السعادة المدوية، وذلك من الكتب القيمة الموثوق فيها والتى تحتوى على أحوال الأوائل، تسطر أوصاف تلك المدينتين التى زخرفت على سطور حريرية، كما أننى ذكرت فى كتابى عادات أهل الجاهلية في ذلك بأقلام الفحول والرسائل النادرة من المصنفات العربية والفارسية، فأمعنت النظر فى ثناياها لأستنبط من فحواها ما يفيد معظم الملة العثمانية.

أنشر منها ما هو نافع ومفيد وهكذا أردت بأن أكتب تاريخا باللغة التركية عن البلاد الحجازية المتسعة، أبين فيه أحداثها الماضية وأحوالها التاريخية جامعها كلها فى مجلدات خاصة، وأقدم لأبناء الوطن ما يفيدهم وينفعهم.

إن الخاطر الذى طرأ على ذهنى كان فى حاجة للتنظيم والترتيب مع قلة المعلومات فى الموضوع. كما أن الأقوال التاريخية المتباينة فى مواقع «يثرب» و «بطحاء» وإعمال الفكر والتدقيق والبحث فيها كانت مرهونة بالسفر إلى الأراضى الحجازية السعيدة للمشاهدة والتفقد. ولكن المشكلات التى صادفتنى فى هذا السبيل أدت إلى التردد والتراخى فترة ما لإجراء ما فى الضمير.

فى النهاية قدر للعاجز السفر إلى الحجاز وتيسرت له هذه السياحة وتحقق المرام، ومما ساعد على تحقيق مثل هذه الغاية المرجوة، ما يضمره الإنسان من إفادة أهل الإيمان من مثل هذه الأعمال المؤيدة بالأدلة العقلية القطعية والبراهين النقلية القوية، كما أنَّ تصحيح ما يتوقع من الأخطاء فى أثرى من قبل أصحاب المروءة فى زماننا ساعدنى علي إنجاز ما فى ضميرى وعلى المضى قدما إلى إتمام هذا العبء الثقيل الذى جعلته على عاتقى وإن كان فوق قدرتى فقد مضيت فى

إنجاز ما بدأته مستظلا بالحماية السلطانية دون خوف أو رهبة في عهد السلطان التركى منير الفؤاد ومحمود السير ملك الملوك حميد الخصال، ممدوح السريرة، خادم الحرمين الشريفين خليفة رسول الثقلين، السلطان ابن السلطان الغازى «عبد الحميد» خان الثانى ابن السلطان الغازى عبد المجيد وفى عهده الذى تميز بإنجاز الأعمال الخيرية واستكمالها وانتشار العلوم والمعارف تحت ظل الأمن والأمان والطمأنينة.

وإننى أقدمت على إنجاز هذا العمل نازلا لحكم المصراع الشعرى المعروف:

«لا تبقى تحت هذه القبة إلا ذكرى طيبة ولحن عذب».

لذلك رغبت فى أن أترك ذكرى طيبة تدفع الناس للدعاء بالخير لصاحبها وهكذا جمعت ورتبت ما عزمت عليه، بعد أن دققت النظر بعمق شديد فى الكتب التى سيأتى ذكرها والتى اتخذتها مرجعا واستصوبت أن أنقل من الأدب العثمانى بعض المباحث ولا سيما من الرسالة التى ألفها الدكتور (رائف أفندى) وضمنها تدقيقاته الواقعية الشاملة، ثم توكلت على هادى السبل وبعونه شرعت فى كتابة الوقائع والأحداث لأرض بيت الله المنيرة من بدء الخليقة إلى عصرنا هذا، عصر الخلافة العثمانية، عصر العناية بالمعارف، مستعينا فى ذلك بالكتب التى اتخذتها مراجع ولم أهمل أن أضمن كتابى أقوال الذين شاهدوا المواقع التى يمكن مشاهدتها رؤية العين والتى يمكن التأكد من صحتها.

وكانت غايتى الخيرة من هذا العمل ترغيب الذين حجوا فى الحج مرة أخرى وحث وترغيب الذين لم يحجوا بعد فى الحج.

وحاولت أن تكون لغتى واضحة وعباراتى سلسة على قدر الإمكان وضمنت كتابى صور بعض المآثر وخريطة الحرمين الأنورين المسطحة.

وقسمت أثرى هذا القاصر إلى ثلاثة أقسام وسميته بـ (مرآة الحرمين) وقدمته للعتبة السلطانية الناشرة للعدل وللسلطان الذى يرفع رأسه عاليا مفتخراً بخدمة الحرمين الشريفين، وبحفظ الخرقة النبوية الشريفة ـ على صاحبها أفضل

التحيات ـ ويرفع علم سيّد بنى آدم المعظم ﷺ، وقدمته لإمام المسلمين وخليفة خلفاء الدين.

وإننى آمُلُ أن ينال مؤلفى هذا حسن القبول، وأين هذا الأثر من المؤلفات العثمانية المتنوعة التى تحير العقول، إلا أننى أردت أن أخدم الذين ينتمون إلى دينى مستفيدا من عهد السلطان الفاروقى الشعار ومن العهد المصون من الجور والظلم.

وبما أننى من موظفى القصر وقرناء السلطان الذين يعرضون أفكارهم بإخلاص فى العتبة السلطانية لأعد نفسى من أعظم السعداء إذا ما نال أثرى هذا شرف مطالعة السلطان المفطور على الرحمة، وإن هذا العاجز الذى لا ملجأ له سوى ظل السلطان يرجو ألا يتعرض للخجل، وأن يحظى مؤلفه بعطف السلطان وكرمه ولطفه.

وإننى أرجو من الفضلاء الذين سيمعنون النظر بين سطور مؤلفى هذا المتواضع أن يغضوا النظر عما سيظهر فيه من سهو وخطأ وكفى أن هذه الصفحات تحتوى على الجواهر القدسية.

والله ولى التوفيق

تحتوى هذه الوجهة على خمسة صور تتعلق بتعريفات أحوال مكة المعظمة الجغرافية الأولية، وأوضاع بيوتها وأشكال دورها وهيئاتها وأحوال إيجار بيوتها والمسائل المهمة حول مجاورة البيت، كذلك درجات حرارتها وبرودتها وسبب إطلاق اسم الكعبة على البيت الشريف وفضائل الكعبة الجليلة وخواصها وتعريف حدودها بالتفصيل.

إفادة مخصوصة:

الكتب التى اتخذت مراجع لكتابة «مرآة الحرمين» هى:

القسطلانى على البخارى، شروح الشفاء، روح البيان، التفسير الكبير، تفسير الكشاف، تفسير لأبى السعود، القاضى على الشهاب، تفسير الخازن، تفسير النسفى، تفسير ابن كثير، تفسير ابن عادل، فتاوى قاضى خان، منظومة ابن وهبان، روح التوشيح، صحيح مسلم، الطحاوى، درجات مرقات الصعود، تاريخ الإمام الأزرقى، تاريخ الإمام الفاكهى، خلاصة الوفا بأخبار مدينة المصطفى، مسلك المتقسط على منسك المتوسط، وفاء الوفاء، تاريخ نفيس خميس، أنس جليل، تاريخ ابن هشام مسامرات الشيخ محيى الدين، خبر البشر بخير البشر، خطابات أحمدية، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، العقد الثمين فى فضائل البلد الأمين، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تدقيقات الدكتور رائف أفندى، تحقيقات الدكتور بكر أفندى، روضة الصفاء لمحمد خاوند شاه، فتوح الحرمين، التواريخ التركية، فضائل بيت الله، ذراع الكعبة المشرفة، ذراع المدينة المنورة، مضبطة سهيلى أفندى، تاريخ نوح أفندى، سراج الملوك، الأحكام

السلطانية، فذلكة كاتب جلبى، كتاب النسب، تاريخ رضوان باشا، سبل الرشاد، شفاء الغرام، خلاصة الكلام فى بناء بيت الله الحرام، تحفة الكرام، الزهر الباسم، المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة، استقصاء البيان في مسألة الشاذروان، كتاب المعارف، التحفة المرضية فى الأخبار القدسية، نور العين فى مشهد الحسين، قرة العين فى أخذ ثأر الحسين، كتاب حكم الإسكندرى.

المباحث التى تحتوى عليها «المرآة» هى خلاصة ما أخذ واقتبس من الكتب التى ذكرت أسماؤها آنفاً.

وإننى كنت تصورت أن أكتب تاريخا عن الخطة الحجازية أبين أحداثها الماضية وأحوالها التاريخية بنية تقديمه لأبناء الوطن باللغة التركية فى مجلدات خاصة. وأن أبين فيه ما حدث لأبنيتها المقدسة إلى هذا العصر الذى نفتخر بإدراكه من حيث كم مرة جددت وعمرت المبانى المقدسة ومن الذين قاموا بهذا العمل؟ وما الجهد الذى بذل فى سبيل توسيعها وتعميرها؟ وكيف كانت أشكالها القديمة وهيئاتها السابقة؟ وكيف أصبحت فيما بعد؟ وما الأماكن التى تحظى بشرف الزيارة إلى البلاد الحجازية؟ وما المآثر المبروكة فى البلاد الحجازية؟ وأين تقع؟ والأحوال الجغرافية للمسجد الحرام والروضة المطهرة لسيد الأنام مستقرها الأساسى؟ وآثارها العتيقة ومحاصيلها الزراعية وأحوال مجاورة البيت الحرام وكيفية إيجار بيوت مكة، وتقسيم الكسوة المباركة للكعبة الشريفة.

ومن هؤلاء الملاعين سكان الجحيم الذين تجرؤا على هدم بيت الله وتخريبه؟ وما العوامل التى دفعتهم إلى ذلك؟ وماذا كان مصير كل من أراد أن يحقر أيًّا من الحرمين الشريفين؟ وما مصير سفهاء الأسلاف والملاحدة الظالمين؟ ومتى اتخذ إرسال الصرة عادة؟ وفى عهد من من السلاطين؟ وكم كان مقدار المبلغ الذى تحتويه الصرة السلطانية فى العصور السابقة؟ وكيف ترسل الآن؟ وما مقدار

النقود التى ترسل؟ وما معنى المحمل الشريف؟ ومتى ابتدع إرسال المحمل وما دواعيه؟ وكم ظلت كعبة الله العلام بيتا للأوثان والأصنام؟

والحاصل أنه قد كتبت جميع الأحداث والوقائع والانقلابات الخاصة بالأقطار الحجازية، واختصصت أحداث مكة بمجلد، كما اختصصت أحداث المدينة بمجلد وإتمامًا لهذين المجلدين كتبت تاريخا للجزيرة العربية.

وإن كانت المرآة لا يمكنُ أن تبين تاريخ تأسيس بيت الله وزمنه بحيث تطمئن إليه جميع قلوب الناس، ولكنها تبين جميع الحقائق والأحوال متسلسلة بالنقل والروايات والأحداث التى ثبت وقوعها تاريخيا من عهده ﷺ إلى عصرنا هذا، وتذكر جميع الانقلابات والوقائع بعد التدقيق والبحث بعمق ومع كل واقعة تعريفها وأحداثها.

إن ما ستعرضه المرآة أمام القراء عبارة عن الصور التى عرضت أعلاه وما يتفرع من هذه الصور.

ولم تجمع محتويات الكتاب حسب أدوار الملوك والسلاطين ولكنها قسمت لبعض الوجهات والصور.

وكان الغرض من هذا التفريق أن نبين بالترتيب ما حدث فى البقعة المفخمة لكعبة الله الحرام والمسجد الشريف لرسول الله العلام منذ تأسيسهما إلى يومنا هذا، وما شاهدته الأقطار الحجازية من ثورات وانقلابات وما تحملته المواقع المسعودة من الصدمات والأحداث.

ومن البديهى أن الذين يسمعون لفظ المرآة، سيلقون نظرة على سطور صفحاتها ثم يظنون أنهم سيرون فيها صور أنفسهم بدليل لفظ المرآة التى تعكس الصور، ولكنهم إذا ما تذكروا أن من معانى المرآة ومهماتها تقريب البعيد حينئذ سيقولون بأن مرآة الحرمين كتاب تاريخ كثير المنافع جامع لأحوال عامة البلاد الحجازية.

الخلاصة:

قد بينا فيما سلف أن هدفنا من تأليف مرآة مكة: أن نعرف إخواننا فى الدين ببيت الله وما حوله من المواقع وأشكالها وأحوالها وما لهذه الأماكن والمآثر من الفضائل.

ويتحقق هذا الهدف على الوجهة الآتية والصور المقبلة؛ كلما يأتى دور موقع مقدس نقوم بتعريفه بالتفصيل وحتى نصل إلى الهدف المرجو رأسا رئى أن نرتب خلاصة مجملة.

بيت الله (الكعبة):

ويطلق على ظاهر الكعبة «بيت الله» وترتفع جدران البيت الشريف ابتداء من أرض المطاف سبعة وعشرين ذراعا وإصبعا وعرضها ذراعان[1].

ويطلق على زاوية منها اسم «ركن الحجر الأسود» وعلى الأخرى «الركن اليمانى» وعلى الثالثة «الركن الشامى» والرابعة «الركن العراقى». وطولها من ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقى اثنان وثلاثون ذراعا. ومن الركن اليمانى إلى الركن الشامى واحد وثلاثون ذراعا، ومن الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود عشرون ذراعا ومن الركن العراقى إلى الركن الشامى اثنان وعشرون ذراعا.

ويوجد باب فى الجدار الشرقى للكعبة المشرفة، وآخر فى الجدار الغربى، وقد سد هذا الباب الآن ومازال الباب الشرقى مفتوحا. وطول الباب الشرقى ستة أذرع وأربعة أصابع وعرضه ثلاثة أذرع وثمانية عشر إصبعا، وجناحا الباب مثبتان بالمسامير، وهما من شجر (الساج) الذى ينبت فى الهند، وارتفاع عتبة الباب الشريف المذكور من الأرض أربعة أذرع وثمانية أصابع، واتساعه ثلاثة أذرع وثمانية عشر أصبعا.

(١) إن الذراع المذكورة فى الصفحات من المرآة هى الذراع التى تستعمل فى مكة للقياس ويطلق عليها الذراع الهاشمية، وطولها (٦٤) أربعة وستون سنتيمتراً.

وللبيت الشريف مآثر عديدة تقع فى أماكن مقدسة مبروكة، تزار حتى الآن وهذه المآثر هى: الملتزم، المستجار، الحجر الأسود، داخل الكعبة، حجر إسماعيل، حفرة المعجن، ستار الكعبة، المطاف الشريف، المقام الشريف، المقامات الأربعة، قبة الفراشين وقبة السقاية.

الملتزم:

ويطلق على الجزء الواقع بين ركن الحجر الأسود والباب الشرقى الشريف، وسبب تسميته بهذا الاسم التزام الحجاج بالدعاء في هذا المكان المبارك بعد الطواف.

وقد أخبرنا المخبر الصادق عليه سلام الله الخالق حضرة رسولنا ﷺ أن المكان المذكور موضع استجابة، لذا يقف الحجاج بمحاذاة هذا الموقع المبارك ويجأرون بالدعاء ويمسحون حوائط الكعبة بأيديهم ويناجون الله تعالى فى تضرع.

المستجار:

هو موضع الباب الغربى المسدود الذى يقع بين الركن الشامى والركن العراقى فى مواجهة الملتزم الذى ذكر فيما سبق، وعندما حددت قريش بيت الله أغلقوا هذا الباب المبارك بالحجارة، ومازال مغلقا من ذلك العهد. وعرض المستجار أربعة أذرع وخمسة أصابع أما عرض الباب المسدود فثلاثة أذرع، وسبب تسميته بالمستجار لاستجارة الحجاج عنده من ذنوبهم ولأنهم يسألون الله سبحانه وتعالى المغفرة لاصقين صدورهم به.

الحجر الأسود:

ويطلق على الحجر الأسود الموضوع فى الزاوية التى يحاذى فيها باب الكعبة المعظمة المقام الحنبلى وهو مبتدأ الطواف، والمكان الموضوع به الحجر الأسود يرتفع عن الطواف بثلاثة أذرع وأربعة أصابع أو يزيد، والغرض من وضع الحجر الأسود فى هذا الموضع إبرازه بحيث يمكن رؤيته.

لقد استلم الملائكة المقربون الحجر الأسود ولمسته شفاه كل الأنبياء لذا فإن استلام هذا الحجر الشريف أو تقبيله يجب أن يتم بمنتهى الخشوع والخضوع، ويقتضى من الطائفين مزيدا من الدقة والعناية حتى لا يؤذوا المتزاحمين.

داخل الكعبة:

يطلق على المكان الطاهر المقدس الموجود داخل جدران بيت الله، ورغم أن الوجه الداخلى لهذه الجدران من الرخام المصقول فإن رؤيتها أصبحت مستحيلة فى وقتنا الحالى لما علق عليها من الأستار المزركشة.

وعندما كان يجلس سلطان جديد على العرش كانت تغير هذه الأستار والزينات، والهدف من هذا العمل توفير هذا المكان وتقديره بتزيينه بالذهب وغيره إلا أن العلماء لم يجيزوا أن تزين الكعبة الشريفة بالزينات الظاهرة، كما أن أوائل العلماء المسلمين لم يحسروا عن الإفتاء بجواز تزيين داخل بيت الله تزييناً مبالغا فيه، ولقد أرسل أثرياء المسلمين وأغنياؤهم هدايا مصنوعة من الذهب والفضة إلا أن علماء الحرمين الأجلاء رفضوا قبولها.

والواقع أن هذه البقعة الطاهرة المليئة بالفضائل الذاتية غنية عن مثل هذه الزينات.

وبما أن اهتمام أهل الصلاح بالزينات الظاهرة مستحيل فعلى العاقل أن يهتم بما حازته الكعبة من تقدير وتبجيل عند الله سبحانه وتعالى، ولو كان تزيين الكعبة المكرمة بالذهب والفضة جائزا شرعاً لأصبحت جدران حرم المسجد الحرام وأرضه موشاة بالذهب والفضة.

وليته لم يسمح بوجود الزينات الحالية حتى يخلو حرم كعبة الله من كل ما يرمز إلى طغيان العزة الدنيوية.

وهل يأمل المسلمون إرضاء الله بتزيين الكعبة الشريفة بشىء بغيض عند الله سبحانه وتعالى؟ والأجدر بالمؤمنين اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ومادام الله

سبحانه وتعالى قد أمر بتعظيم بيت الله وتوقيره يجب أن يوجه التوقير والتعظيم لحجارة الكعبة الشريفة وترابها ورعاية جيرانها.

وهذا العرض الموجز تعريف وبيان للبيت الشريف أول بيت وضع للناس لعبادة الله سبحانه وتعالى.

(محاضرة الأوائل).

فى الطرف الغربى من جدران داخل بيت الله جذع شجرة ملون بالأبيض والأسود طوله اثنا عشر ذراعا وكذلك عرضه، وفى أعلى الجذع كمر اتساعه ثلاثة أصابع.

ويروى أن لحية سيدنا صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ قد لامست هذا الجذع.

حجر إسماعيل:

وهو اسم آخر للحطيم الكريم، ويقع فى الطرف الشمالى من الكعبة المعظمة ويمتاز بجدار على هيئة نصف الدائرة وطرفه الداخلى مغطى بالرخام.

والموضع المبارك الممتد من جدار الحطيم الشريف حتى حائط الكعبة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع منها حوالى ستة أو سبعة أذرع تعد من داخل الكعبة المعظمة والباقى كان حظيرة لماعز إسماعيل ـ عليه السلام ـ وفيما بعد أدخل فى الحجر، تمتد حدود الحطيم من الركن العراقى إلى الركن الشامى والمساحة بين هذين الركنين عشرون ذراعا.

وللحطيم بابان أحدهما عند الركن الشامى والآخر عند الركن العراقى، وارتفاع جدران الحطيم ثلاثة أذرع ومساحته من الداخل ثمان وثلاثون ذراعاً.

ميزاب الكعبة:

هو اسم الميزاب الذى يقع بين الركنين سالفى الذكر ـ أى وسط الجدار المفعم بالنور ـ الذى يلى حجر إسماعيل ويلتصق بسقف الكعبة.

حفرة المعجن:

ويسمى أيضا مقام جبريل، وهى عبارة عن الحفرة الموجودة فى جهة الركن العراقى من الجدار الشرقى للكعبة المعظمة عند مقام إبراهيم. على مسافة ثلاثة أصابع من الكعبة، وطول حفرة المعجن ثمانية أشبار وثمانية أصابع، وعرضها خمسة أذرع، وعمقها أربعة أصابع، ويروى أن سيدنا إبراهيم أعد فى هذه الحفرة الطين الذى استخدمه فى بناء الكعبة.

ويروى أنه حينما فرضت الصلاة على المسلمين صلى إمام الأنبياء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ الصلوات الخمس فى هذا المكان المبارك.

الشادروان:

ويطلق هذا الاسم على الأماكن البارزة المتصلة بأسس جدران الكعبة المعظمة وعلى هذه الأجزاء البارزة حلقات كثيرة يربطون بها أستار الكعبة الشريفة.

الستارة الشريفة:

هو اسم القماش الذى يغطى الكعبة الشريفة. وهذه الستارة منسوجة من الحرير الأسود.

وقد نقش فوقها ـ بخط جميل ـ بعض الكلمات الطيبة والآيات الكريمة. ويوجد وسط الستارة حزام معروف بحزام بيت الله وهذا كحزام يحيط بستارة الكعبة المفخمة من جوانبها الأربعة، وقد كتب عليه بخط جلى نفيس السورة الكريمة سورة الفتح كاملة.

المطاف الشريف:

وهو الموضع المبارك الذى يسير فيه حجاج الكعبة المكرمة فى أثناء الطواف.

والجهة الشرقية لهذا المطاف المبارك تمتد من سياج المقام الشريف إلى شادروان الكعبة بمقدار أربعة وأربعين قدماً(١)، والجهة الشمالية تمتد من جدار الكعبة إلى المقام

(١) القدم: وحدة قياس توازى ثُلُثَ ياردة، وهى ما بين (٣٢سم ـ ٣٥سم).

الحنفى بطول ثمان وأربعين قدماً، والجانب الغربى يمتد إلى الرصيف الذى يتصل بحدود المطاف خمسة وستين قدما، والجانب الجنوبى يمتد من زاويتى الركن اليمانى وركن الحجر الأسود إلى حدود رصيف المطاف الشريف بطول سبعة وأربعين قدما.

المقام الشريف:

هو الحجارة التى استخدمها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمثابة منصة فى أثناء قيامه برفع بناء الكعبة، وأعلى مقام إبراهيم مربع بقطر ثلث ذراع.

وروى الشيخ عز الدين وهو من مجاورى البيت فى سنة سبعمائة وخمسين هجرية أن المقام الشريف يرتفع عن الأرض واحدا وعشرين أصبعا. وقد رفع أثر القدم المبارك لسيدنا إبراهيم من فوق المقام وغطى بطبقة من الفضة. وأدخلت هذه الفضة من خلف آثار قدم خليل الرحمن بسبعة خطوط ونصف.

والمقام الشريف الذى وصفنا شكله صندوق متين بلوحات قامة رجل وجوانبه الأربعة ذات شبكة حديدية. وهذا الصندوق مكسو بلوحات من الفضة ومغطى بقماش لامع موشى غاية فى الجمال، وقد شيدت قبة من الخشب فوق صندوق مقام إبراهيم وزينت هذه القبة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة، وزيد على واجهتها الشرقية سقف يؤدى تحته الحجاج ركعتين بعد الطواف، وهى صلاة واجبة، وإذا لم يجد الطائفون مكانا تحته لإقامة الصلاة فإنهم يؤدونها داخل الحطيم، وعرض هذا السقف خمسة أذرع وثمانية أصابع يمتد من المقام الشريف إلى شادروان الكعبة بطول عشرين ذراعا ونصف ذراع.

فقد المقام الشريف منذ طوفان نوح إلى عهد «إلياس بن مضر». وبعد أن عثر عليه إلياس بن مضر عرضه على أهل الحجاز الذين أخذوا فى توقيره وتعظيمه وبالتالى حذا أهل الإيمان حذوهم فى التكريم والتعظيم.

(محاضرة الأوائل).

المنبر اللطيف:

يقع فى الجهة الشمالية للمقام الشريف عند الطرف الجنوبى لبئر زمزم وبين مقام إبراهيم والمنبر تسعة أذرع، وبين زمزم والمنبر اللطيف عشرون ذراعا والمسافة من مقام إبراهيم إلى الحجر الأسود سبعة وعشرون ذراعا، وعمق بئر زمزم الشريف بدءاً من حافته يبلغ سبعة وستين ذراعا.

المقامات الأربعة:

فى الجهات الأربعة من كعبة الله أربع مقامات لأئمة المذاهب الأربعة واجبة الاحترام حيث يؤم إمام المذهب جماعته فى أوقات الصلوات الخمسة.

المقام الحنفى: يقع هذا المقام فى شمال بيت الله أمام ميزاب الرحمة، ويستقبل أهل المدينة المنورة والشام والقدس الشريف هذه الناحية من الكعبة عند الصلاة كذلك سكان بلاد المسلمين الواقعة فى ناحيتها.

المقام الشافعى: ويقع فى مواجهة الكعبة فى الجهة الشرقية من بيت الله، خلف مقام إبراهيم الشريف، وهذه الجهة من الكعبة هى قبلة أهالى ما وراء النهرين والصين وأكثر بلاد خراسان.

المقام الحنبلى: ويقع فى الجنوب من الكعبة مع ميل قليل فى اتجاه الشرق، وهو قبلة سكان بلاد الهند، وكان المقام الحنبلى قريبا جدا من بناء بئر زمزم ويكاد يتصل به، لكن هذا الموقع قد تغيَّرَ فى عهد السلطان المعظم بهمة عثمان باشا والى الحجاز المشهود له بالخدمات الجليلة التى قام بها لتعمير البلاد المباركة وأصبح ـ الآن ـ فاصل معقول بين المقام المذكور وأبنية بئر زمزم إذ جعل المقام الحنبلى فى مواجهة المقام الحنفى. وذلك فى سنة ١٢٩٧.

المقام المالكى: ويقع فى الجانب الغربى من الكعبة خلف بيت الله، وهذه الجهة قبلة مسلمى بلاد المغرب وبلاد الحبشة. وكل المقامات الأربعة المذكورة تقع خارج حدود المطاف.

لم يكن هناك مكان خاص بالمؤذنين وكانوا كلهم يؤدون مهامهم فى المحفل الشافعى الموجود فوق بئر زمزم، والمحفل الواقع فوق المقام الحنفى، وكان المؤذنون حتى عصر هارون الرشيد يجلسون فوق سطح المسجد تحت وهج الشمس، وعندما صدر الأمر إلى عبد الله بن محمد بن عمر أمير مكة ـ المشار إليه ـ بضرورة إيجاد محفل خاص بالمؤذنين، استراح المؤذنون بإنشاء محفل خاص بهم فى ذلك العهد، وبعد ذلك تقرر أن يؤدى المؤذنون مهام وظيفتهم في المحافل السالفة التعريف. (محاضرة الأوائل).

قبة الفراشيين:

وتقع قرب بئر زمزم وتسمى أيضاً قبلة الخزانة، وتوضع فى هذه الخزانة الأشياء اللازمة والقناديل والسُّرُج والمسابح الموقوفة ويحفظ كذلك بداخل القبة المذكورة كل ما يحتاجه المسجد.

قبة السقاية:

وهذه أيضاً تقع قريبا من قبة الخزانة وتسمى أيضا سقاية الحج، وقد تأسست سقاية الحج على يد العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ واعتاد أن يقدم ماء زمزم إلى الحجاج ويسقيهم. وتحيط القباب بكل جوانب الكعبة ولها تسعة عشر بابا وسبع مآذن، المسافة من باب السلام إلى باب العمرة أربعمائة ذراع، وعرضها من باب الصفا إلى باب الندوة ستون وثلاثمائة ذراع.

مسألة:

إذا كانت قبلة المسلمين الموحدين لدى أئمة الشافعية هى مبانى الكعبة المعظمة التى سبق تعريفها. فإنها عند علماء الحنفية تبدأ من الأرض التى أقيمت عليها مبانى الكعبة الشريفة وترتفع فى الهواء إلى عنان السماء.

***

التعريف بالأحوال الجغرافية للبلدة المعظمة مكة المكرمة
وأحوال الأوائل ووضع المبانى الفخمة للبيت المعظم شكلا وصورة

من البلاد التى تحكمها الدولة العَلِيَّة فى قارة آسيا الجزيرة العربية وتنقسم إلى قسمين: الرقعة الحجازية والرقعة اليمانية.

ومنطقة الحجاز كبيرة متسعة وتشمل ربع جزيرة العرب، وقد عرفناها فى موضوع الحجاز الوارد فى الصورة الثانية من الوجهة الثالثة من المجلد الثالث من مرآة الجزيرة وتقع فى الشمال والشمال الغربى من جزيرة العرب وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر الممتد من السويس إلى اليمن.

يحدها شرقا بلاد نجد وصحراء الأحفال وغربا البحر الأحمر، وجنوبا الرقعة اليمانية وشمالا الفرات وبادية الشام وسوريا العرب، وتحيط بها جبال وأودية.

ولأن هذه المنطقة السعيدة تحجز بين تهامة ونجد وتفصل بين المنطقتين؛ لهذا سميت الحجاز، ومنطقة الحجاز المباركة تغلب عليها الصحارى الفيافى[1].

ولا تسقط فيها الأمطار بالدرجة المطلوبة ولذا فإن نباتاتها الأرضية من العشب الجاف تكاد لا تكفى حاجات قبائل البدو وحاجات دوابهم.

ومع هذا ففى جبالها ووديانها، حيث المياه الجارية والآبار، والينابيع الوفيرة تنبت الأشجار المثمرة والمحاصيل النافعة المتنوعة، وبما أن الهواء فى مناطق الوديان والصحارى شديد الحرارة فإن القادمين من المناطق الباردة يتضررون من هذه الحرارة ولذا فإن السكنى فى المناطق الجبلية المرتفعة حيث الجو المعتدل يبدو

(١) الفيافى: الصحراء الواسعة المستوية. واحدتها: الفَيْفَاءُ.

أصلح لهم، ورغم هطول الأمطار بغزارة فى فصل الشتاء فإنها لا تؤثر فى تغير طقس أى من المناطق باستثناء بلدة الطائف.

والمعروف أنه مع نزول المطر تنمو كل أنواع الحبوب لكن رياح السموم دائمة الهبوب تدمر وتحرق كل النباتات والثمار ما عدا الحمص والعدس والأشجار التى تقل حاجتها إلى الماء لذا فليس من الممكن أن تنمو الخضراوات والحبوب فى أى مكان سوى الأودية والجبال القابلة للزراعة.

ومناطق الشمال الغربى والجنوب مناطق خصبة بالنسبة لبقية مناطق الجزيرة. لذا فإن هواءها طيب وأراضيها صالحة للزراعة، وتزدان الجبال والمرتفعات بكثير من البساتين والحدائق الجميلة.

وفى مثل هذه المناطق تنمو نباتات كثيرة مثل السفرجل، التفاح، الخوخ، الصفصاف، الليمون، والتين، النارنج، واللوز، التمر الهندى، الطرفاء، الفستق، والنخيل، الورد، والياسمين، النرجس، الحناء، الزنجبيل، شقائق النعمان، والتيلو، القمح، الشعير، جذور الدهان الأحمر، البن، الدخان، الفلفل الأسود، الباذنجان، نبات النيلة، نبات القنب، ونباتات أخرى شبيهة لما ذكرناها.

البلدة المعظمة مكة المكرمة

البيت السامى المنير الذى ولد فيها سيد الثقلين الإنس والجن عليه الصلاة والسلام، وعاش فيها نخبة من كبار العلماء ذوى البيان الذين أضاءوا الكون بعلمهم بين فخر الكائنات عليه أتم التسليمات، مكة المكرمة التى شرفها الله تعالى إلى يوم الدين. وتقع هذه المدينة الشهيرة فى داخل إقليم الحجاز السعيد ذى المغفرة الذى عرفناه منذ قليل ومعظمه فى داخل الجزيرة العربية ومكة المكرمة مقر إدارة الحجاز وعاصمته.

وموقعها وسط منطقتى الشام واليمامة؛ لذا يبعد كل من البلدين عن مكة المعظمة مسافة ثلاثين ـ المقصود بها ٣٠ منزلاً للراحة أثناء السفر ـ والطرف

الشمالى للبلدة المباركة مكة المكرمة تحده جبال يثرب والمدينة المنورة وصحارى الشام، والطرف الجنوبى تحده جبال اليمن، والطرف الشرقى تحده وديان البحرين والبصرة ونجد والحجاز، والطرف الغربى يحده البحر الأحمر وتبعد مكة المعظمة عن مدينة إستانبول عاصمة الدولة العثمانية ـ باعتبار مبدأ الطول ـ ٣٠ دقيقة ١٥ درجة طول شرقا، وتبعد عن ميناء جدة الواقع فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر المعروف باسم «بحر الشب» مسافة ثلاثين ميلا أى ٦٧٦٧٤ ذراعا فى جهة هبوب الرياح الجنوبية بإحدى عشرة درجة «بحساب البوصلة».

وتنقسم النواحى الملحقة بمكة المعظمة إلى قسمين هما: نجد وتهامة.

والنواحى التابعة لنجد هى: «الطائف، تمنار، قرن، نجران، مر الظهران، عكاظ، منجرة، كنبة جرش، سراة، أما النواحى التابعة لتهامة فهى نعم، عك، خنكان، ويشى، وادى نخلة، ذات عرق، يليل.

وكل ناحية من هذه النواحى تقع فى واد مستقل، ولها مصادر مياهها المعروفة ومزارعها الوفيرة. وقد تجاوز سكانها ثمانين ألف لعدة قرون، ثم تضاءل عددهم بالتدريج ولكن فى الوقت الحاضر تجاوز عددهم كل العصور السابقة، وذلك بضم سكان البادية وسكان البلاد الساحلية إليها والبلاد الساحلية هى جدة، حلى سوسين، هجم، ثرجة، أبيات حسنين.

وقد أجرى رائف أفندى دراسات كاملة فى هذا الشأن حينما كان موظفًا فى ديوان الصحة ما يقرب من ثمانى سنوات أو عشر فى مكة والمدينة، وأمضى وقته فى دراسة أحوال البدو، وقام بالإحصاء الدقيق وأخبر أن عدد سكان مكة المعظمة من الأشراف والأهالى، والمجاورين يصل تقريبا إلى سبعين ألفا. ولما كانت الأمطار لا تسقط بوفرة سواء فى مكة المكرمة أو فيما يجاورها كما يحدث فى الروملى والأناضول لعدم وجود المياه الجارية أصبح سكان هذه البلدة المباركة مضطرين إلى السفر لجلب المؤن الغذائية والبضائع من البلاد الأخرى، وكان من

عاداتهم إرسال القوافل فى فصل الشتاء إلى نواحى اليمن وفى فصل الصيف إلى الشام لاستيراد البضائع اللازمة من تلك المناطق.

وقد أثبتت السورة الجليلة «سورة قريش» ذهاب أهل قريش فى الجاهلية إلى اليمن مع حلول الشتاء وإلى الشام مع دخول فصل الصيف. وقد أسهب المفسرون العظام فى عرض تفاصيل تتعلق بهذا البحث فى تفسيرهم للسورة الكريمة.

واستمر تردد القرشيين على الشام واليمن بغية جلب البضائع حتى عصر النبوة، وبعد ذلك أخذ الحجاج المسلمون يترددون أفواجا على مكة والمدينة لأداء فريضة الحج ومناسك العمرة، واشتغل أهالى مكة بأعمال الدلالة والإرشاد وسقاية ماء زمزم الشريف وسائر الخدمات التى تقدم للحجيج والعيش عليها مهما كان مقدار ما تدره من نقود. لذلك لم تعد لهم حاجة إلى التردد إلى تلك المناطق.

وغالبية أهالى مكة المفخمة من حضرموت، واليمن والهند والسند والشام ومصر وبلاد المغرب وبلاد الروم وكردستان ومجاورى سائر البلاد على وجه الأرض؛ أى أن كل سكان مكة المعظمة ماعدا الأشراف الكرام من أبناء بنى زبير وأحفاد بنى مخزوم وأولاد بنى شيبة ممن دخلوا الإسلام الذين جاءوا من خارج الحجاز واستقروا بها؛ لذا أصبح أهل مكة الأصليين قلة نادرة.

وولاية الحجاز الجليلة ولاية كبيرة مثل سائر الولايات السلطانية وقد أسندت الإمارة ـ للأشراف من أجل الإشراف على العربان والآخرين ـ لشخصية جليلة القدر وقدرة عالية على القيام بالنظارة، كما أسندت إدارة الأمور المدنية والمسائل المالية وأشياء أخرى تتعلق بالإدارة إلى شخص حكيم هو من المختارين من المشيرين العظام. واتخذت مدينة مكة المفخمة مقرًا للإمارة ومركزا للحكومة.

إن الموقع السعيد للبلدة المباركة ـ مكة المكرمة ـ عبارة عن واد مقوس ومقدس

تمتد بالطول بين سلسلة جبال تتكون من أحجار سوداء. يشمل هذا الوادى السعيد الذى تقع فيه هذه المدينة المقدسة على مبتدأ واحد ونهايتين: بدايته مقبرة المعلى ونهايته من ناحية جدة الشيخ محمود ونهايته من ناحية اليمن «مسجد حمزة» وهذه المواقع السامية تزين الخريطة بهذه الأسماء.

ومدينة مكة الشهيرة تتكون من أحياء: حارة الباب، الشبيكة، جياد، المسفلة، المدعا، المعلى، شعب على، مولد النبى، الكشاشية، المسعى، الشامية جبل قبيس، جبل عمر والسليمانية. وأنشئت بيوت هذه الأحياء ومنازلها وفقًا لانحراف الوادى الوعر.

وبسبب استحالة السير بالحيوانات ونقل الأثقال والأحمال بالإبل والدواب بداخل هذه الأحياء حيث اصطفت بعضها فوق بعض حتى منتصف هذه الجبال الواقعة فى كلا جانبى الوادى، فإنه يتم إدخال المؤن والبضائع الواردة إليها من الخارج من شوارع أحياء «المعلا» والشبيكة والمسفلة.

والمكان المزين بالحوانيت والبيوت فى الوادى السالف الذكر يمتد بطول المدينة من باب «المعلا» إلى باب «مغازة»، وكذلك يمتد من ناحية المعلا إلى «الشبيكة» ومنها إلى «الشيخ محمود» حتى السويقة بمسافة تبلغ ٦١٩٣ قدم وثمانى بوصات أى ما يعادل ٤٣٧٢ ذراع، وعرضه يمتد من سفح جبل «جزل» حتى منتصف جبل أبى قبيس بمقدار ٣٠٩٦ قدم وأربع بوصات أى ما يعادل مسافة ٣١٨٦ ذراع. أى أن مساحته طولا من ناحية الشمال إلى الجنوب تبلغ ميلين، ومساحته عرضا تمتد من سفح جبل «أبو قبيس» الواقع فى الجهة الشرقية من المدينة إلى جبل «جزل» الواقع فى الجهة الغربية من المدينة ومساحته السطحية قدر ميل واحد.

وطرق الأحياء المذكورة ليست على ما يرام من ناحية الاتساع والعظم، ورغم هذا فإن مبانيها المبنية بالحجر والطوب غاية فى الرصانة ويطلق اسم «الأخشبين» على جبال جزل وأبى قبيس والجبل الأحمر. وجبل أبى قبيس هو الجبل الكائن

فوق جبل الفا، حيث أن الجبال المذكورة غير منفصلة بل هى سلسلة من الجبال يتصل كل منها بالآخر.

وبالنظر إلى تعريف الأزرقى فإنه يلزم أن يكون اسم الجبل المقابل لجبل «أبى قبيس» قعيقعان ولما انتهى إليه تدقيق صاحب معجم البلدان وتحقيقه أنه يقتضى العثور على اسم جبل يظهر من قمته مسافة المسجد الحرام جليا.

وعلى هذا التقدير فإن الاسم الأصلى لجبل «جزل» قعيقعان، ولما كان أقرب من ناحية الغرب من طائفة «جزل» التى تنصب خيامها فوق الجبل المذكور عند ترددهم إليه من حين إلى آخر وتقيم به فترة للاستراحة أطلق عليه اسم «جبل جزل».

والبقعة المشرفة للكعبة المكرمة قصر عزة الملك العلام، وقبلة قبائل الإسلام تقع وسط المدينة المقدسة التى أسهبنا فى تعريفها، كما تتوسط المسجد الحرام دائرة الفيوضات الإلهية، وتحيط بالموضع المقدس وتحده مجموعة من البيوت والمنازل العالية الرصينة الأركان وسلسلة الجبال سالفة البيان.

إن البيت المعظم قد بناه الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما ـ صلوات الله الجليل ـ صدعا بالأمر الإلهى المشرف فى البقعة التى لا مثيل لها ولا نظير، حسبما سنوضح ونعرف به فى الصورة الخامسة من الوجهة الثانية، ويقال إن بناءها تم فى المحاولة الأولى وعلى قول فى المحاولة الرابعة. وبعد أن انتهى من بنائه دعوا جميع الخلق إلى الطواف حوله وزيارته.

إن أغلب العرب المنتسبين إلى السلالة التى ينتهى إليها نسب إسماعيل ـ عليه السلام ـ عكفوا على أداء فريضة الحج كل عام بعد وفاة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ووالده خليل الرب الجليل، وبذلوا جهدهم لأداء الفرائض الأخرى، ورأوا أن أداء مثل هذه الأمور الشرعية والواجبات الدينية فرض عليهم.

واستمرت هذه الحمية الدينية عند العرب إلى أن انتقلت إدارة مكة إلى بنى خزاعة، حيث إن عمرو بن عامر الخزاعى (فصلت سيرته فى الوضع الخاص به) قام قبل البعثة النبوية بخمسمائة عام بانتزاع حكم مكة المكرمة من يد أجداد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذوى النسب العريق، بمساعدة قومه، ودفع العرب لعبادة الأصنام وبهذا أصبح جميع سكان مكة المكرمة ومن بجوارها من عبدة الأوثان.

وبعد ظهور عمرو بن عامر بثلاثمائة سنة وقبل الهجرة النبوية بمائتى سنة دارت الحرب بين قصى بن كلاب «أحد أجداد النبى» لإمالة العرب إلى قبول دين إبراهيم الحنيف وبين بنى خزاعة وكان النصر حليفه، وأخرج كل بنى خزاعة من مكة، غير أن عبادة الأصنام تلك العادة الباطلة كانت قد تمكنت من قلوبهم، فاستمرت بينهم حتى عصر النبوة والهداية عصر سيد البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسبب-شكل العبادة المشئومة التى جلبها عمرو بن عامر قامت قريش وقد اعتنقت عبادة الأوثان بإدخال الأصنام إلى المسجد الحرام حينما سمح الزمان به، وصنعت ثلاثمائة وست وستين صنما مجسما من الحجر والشجر ووضعتها داخل الكعبة المعظمة التى تمثل قطعة من الجنة.

وظلت هذه الأصنام داخل البقعة المقدسة «الكعبة المشرفة» إلى أن تم فتح مكة على يد سيد الأنبياء الذى كانت بعثته ورسالته رحمة خالصة.

أديان العرب فى الجاهلية

كان للعرب فى جاهليتهم عدة أديان مثل المسيحية، اليهودية، المجوسية، والزندقة، فكانت قبائل ربيعة بن غسان وبعض آل قضاعة على دين المسيحية، وأهل حمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وأهل كندة على اليهودية، وبنو تميم على المجوسية، وكانت قريش على الزندقة.

ومن المخذولين الذين اعتنقوا المجوسية آنذاك زرارة بن عدس وابنه حاجب

بن زرارة، وبدافع من هذه المجوسية تزوج زرارة من ابنته التى من صلبه، ثم ندم بعد ذلك وخجل من فعلته وطلقها.

وكان الأقرع بن حابس وأبو سود من المجوس وأبو سود هذا جد وكيع بن حسان. وقد صنع بنو حنيفة من قريش إلهًا لهم من طعام اسمه (حبس) وظلوا يعبدونه لمدة طويلة، وعندما حدثت المجاعة والقحط قاموا بتقسيمه ثم أكلوه. وقد سجل أحد شعراء بنى تميم هذه الواقعة فى بيت من الشعر قال فيه:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن عوز

وقال آخر:

أكلت حنيفة ربها زمن التفحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والنياعة[1]

ورغم أن هذه الواقعة حدثت قبل البعثة النبوية الجليلة فقد كان هناك من يسعى فى طلب الدين الحق ومن جملة هؤلاء: أرباب بن رئاب، وكان يعتنق المسيحية دين عيسى عليه السلام، وابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ أى ورقة بن نوفل ـ الذى انصرف عن عبادة الأوثان واعتنق المسيحية التى لم تكن قد تبدلت تماما، وذلك للوصول إلى الدين الحق، كذلك زيد بن عمرو بن نفيل أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، والذى استشهد فى رحلته إلى الشام طلبا للدين الحق. كذلك أمية بن أبى الصلت الذى تظاهر فى بادئ الأمر بطلب الدين الحق لكنه فيما بعد، اختار الكفر حسدا للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على نبوته. فإذا ما جئنا إلى أسعد بن أبى كرب الحميرى فقد أسلم قبل البعثة النبوية بسبعمائة عام. كذلك كان كلاً من قس بن ساعدة الإيادى و«أبو قيس» صرمة بن أبى أنس أيضا من المسلمين فى الجاهلية. وكان قس بن ساعدة من مشاهير حكماء العرب واعتاد أن يخطب فى الناس من فوق ظهر الجمل فى سوق عكاظ. وقد أدرك أبو قيس الإسلام وأسلم.

(١) النياعة: العطش.

وقد عرفت الخطابة من فوق ظهور الحيوانات فى بادئ الأمر مع قس بن ساعدة «كتاب المعارف».

لقد امتد العمر طويلا بقس بن ساعدة المشهود له بالفصاحة وقد أنبأ وبشر بمجيء الرسول خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام قبل البعثة.

وقد حضر الرسول فخر العالم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات مرة إحدى خطب قس بن ساعدة قبل بعثته فى سوق عكاظ بدون علم منه، هذه الخطبة التى نالت شهرة واسعة بين بلغاء العرب. وحفظها ورددها كل الكبار والصغار فى ذلك العصر.

فى ذلك اليوم اعتلى «قس بن ساعدة» ظهر جمله الأحمر وقال خطبته التالية أيها الناس: اسمعوا واعوا:

من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، المطر يسقط، والعشب ينبت، والأطفال يولدون ويقومون مقام الأمهات والآباء وبعد ذلك كل هذا يفنى، وتتابع الأحداث، ويتبع الواحد الآخر، أنصتوا وانتبهوا ففى السماء خبر، وفى الأرض عبر، وجه الأرض فرش إيوان ووجه السماء سقف عال، النجوم تتحرك والبحار تقف، القادم لا يبقى والذاهب لا يأتى، هل يا ترى يبقون حيث يذهبون معجبين به أم يحجزون هناك ويغشاهم يوم طويل! إننى أقسم أن عند الله دين أحب من دينكم الذى أنتم عليه، وهناك رسول سيأتى أوشك زمان ظهوره.

وقد أظلكم زمانه، فما أسعد من يؤمن به ويهتدى وما أشقى من يعصيه ويخالفه، زمانه يا للأسى على الأمم التى قضت عمرها فى الغفلة.

يا قوم إياد.. أين آباؤكم وأجدادكم؟ بالله أين قصوركم المزينة؟ أين عاد وثمود الذين نحتوا بيوتا من الحجارة؟ وأين فرعون؟ أين النمرود الذى غرته الدنيا وقال لقومه إنى أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم ثروة وقوة وقدرة؟ ألم يكونوا أكثر منكم عددا؟ لقد طوتهم هذه الأرض فى دورانها، فأصبحوا ترابا تَذْرُوهُ الرياح، وبليت عظامهم وصارت رمادا وتهدمت بيوتهم فأصبحت خاوية

الكلاب تعوى فى أراضيهم وبلادهم. احذروا من الغفلة ولا تكونوا مثلهم، ولا تسلكوا طريقهم، كل شىء فان ولن يبقى إلا الحق الواحد الذى لا شريك له ولا نظير هو وحده المعبود، لم يلد ولم يولد، وما أكثر الأحداث الجارية لنا فيها عبرة. نهر الموت مداخله كثيرة، لكن ليس له مخرج، الكل سيمضى الكبير والصغير الذاهب لا يعود وأوقن أن ما يجرى لعامة الناس سيصيبنى أيضا.

«قصص الأنبياء ـ لجوتب باش»

استمرت عادات العرب الباطلة فى الجاهلية إلى ما بعد الإسلام ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلطان عرش الدين المبين قام ـ مؤيدا بالوحى الإلهى ـ بتمزيق العقائد الباطلة والقضاء عليها وعلى العبادات البدوية الفاسدة. وأبقى على بعض أحكام دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيف التى توافق فطرة الإنسان وتعاليم الإسلام الجليلة، وأيدها وجعلها من أحكام الشريعة الإسلامية.

ومن الأحكام الشرعية التى أخذت من إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما ينص عليه القول الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧).

الذى يدعو إلى الأخوة الإسلامية التى تتحقق باتحاد الأمة المحمدية والذى يدعو إلى وحدة المسلمين حتى تتحقق للأمة الإسلامية قوة الشوكة، وهكذا فرض الحج ليجتمع المسلمون متحابين فى الأرض الطاهرة المباركة «مكة المكرمة» حيث يطلعون على الأسرار الخفية الحقيقية للدعوة، ويجتمعون فى عرفات فى يوم أخضر قدسى لتزداد الأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية، وهكذا انتشرت أنوار الجماعة الإسلامية التى تحمى المدينة الطاهرة.

وإنه لمن المسلم به لدى ذوى التجارب وأهل البصيرة من الملل الأخرى أن الاتحاد الدينى يؤدى إلى التقدم المدنيَّة والقوة. وإننا نشكر الله مع أمتنا أنه شرفنا بالإسلام الذي كان مبعث سعادتنا وسلامتنا ومبعث قوة حضارتنا وشوكتها فى الدنيا والآخرة.

أسماء مكة الله السامية

عدد الأسماء ذات الدلالة الباهرة التى أطلقت على مدينة مكة المعظمة فى الكتب المقدسة كثيرة وهى: «مكة، بكة، بلد، قرية، أم القرى، بلدة، البلد الأمين، صلاح، باس، البساسة، ناسة، النساسة، حاطمة، رأس، كوثى، أم عرش، عريش، عرش، قادس، القادسية، سبوحة، حرام، البلد الحرام، المسجد الحرام، معطشة، برة، رتاج، رحم، أم، أم رحم، أم الرحمة، أم كوثى، أمينة، أم الصفا، مروية، أم المشاعر، متحفة، البلدة المرزوقة، تهامة، الحجاز، طيبة، مدينة الرب، عاقر، فاران» وعددها خمسة وأربعون اسما جليلا. ولها ثمانية ألقاب جليلة مثل «المشرفة، المكرمة، المفخمة، المهابة، الوالدة، النادرة، الجامعة، المباركة».

ولا يجوز الدخول بلا إحرام داخل حدود مكة الميمونة التى وضحناها فى المقالة الرابعة.

منظومة

تذكر الأخبار خمسة وأربعين اسما للكعبة
ألا فاحفظها لتنير قلبك بها
بلد، أم رحم، أم القرى، مكة، بكة
صلاح، قرية، باسم، رأس، ناسة،
بلدة الستار
حجاز، قادسية، قادسى، طيبة، متحفة
تهامة، مروية،
أم المشاعر أم عرش،
عرش، عريش، حاطمة، أم الصفا، كوثى
رتاج، البساسة، نساسة، سبوحة،

بـــــرة مقـدســـــــــــــة،

حـرام، أم رحمـة، البلـد الحـــــرام،

مـدينـــــة الـــــــــــــرب،

أم كوثـى، معطشـة، مـرزوقـــــــة

باسة، رحم وكذلك المسجد الحرام، أمينـة،

عـــاقـــــر فـــــــــــــاران

فـإن حسبتها يـا طالـب الأخبـار ألفيتهـــا

خمســـــــا وأربعـــــــــين.

سبب إطلاق هذه الأسماء على الكعبة

اسم مكة المكرمة يطلق على هذه المدينة المقدسة فقط أو مجموع الحرم الشريف أى المناطق الواقعة داخل المواقيت المحدودة، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب متعددة:

على قول أنه مأخوذ من معنى «النفض» وكأنها تنفض أى تفنى جميع الآثام.

وعلى رأى آخر أنها تنفض الظلم وتهلك أهل الجور.

وعلى رأى ثالث أن الأرض المقدسة قليلة المياه وسكانها كأنهم يمتصون المياه من أرضها بأفواههم، أو أنه مأخوذ من معنى «المص» والرشف، وكأنها تمتص الناس كل سنة من جميع الجهات وتجذبهم إليها، أو أنها تمحو وتدفع عصيان العصاة. أو أنه مأخوذ من لفظ «مكاكة» التى تعنى النخاع والمخ فى وسط العظام، وكأن كعبة الله فى وسط الدنيا وخلاصتها.

وعلى قول، إن الأرض المباركة بيت الله تمتص ذنوب العصاة وأوزارهم وتخرجها ثم تمحوها، وكأنها تمتص النخاع من العظام. وكانت هذه البقعة

مشهورة بقداستها حتى قبل الإسلام وإبان مجد الإمبراطورية الرومانية وكانت تذكر باسم «مقربة» وتعرف به.

رواية:

خلق تراب بيت العزة العاطر قبل خلقة وجه الأرض وأن الكرة الأرضية قد بسطت من ذيل بقعة الكعبة المعظمة وخلقت.

نظم:

أكثر من أهل الدنيا وفى كثير لا خباب * لها الحصين المستحكم من الأبواب
ويمر عام ثم أعوام لا يحدها إحصاء * ومن مادتها تنبسط الغبراء
أول بناء أقيم من بعده * إنما كان على أساس له
يطوف حولها من يطوفون * وهم الأقمار يشبهون
حينما خلقت مكة على وجه الغبراء * ما كان إلا الجبل والصحراء
وكان لمكة على الماء قرار * وما كان للدنيا إلا الخراب أثار
وبها الأرض اتسعت * أصبحت وكأنها مجلس أنس
ولما الأرض بسطا جعلت * دارت الأفلاك من بعد ودارت
صبحت وكأنها مجلس أنس * دارت الأفلاك من بعد ودارت

(فتوح الحرمين لجامى)»

حسب رواية ابن عباس، أن العرش الرفيع المقام كان فوق بحر كبير اسمه «صاد» وفى أثناء رفعه إلى أعلى تموج البحر وثارت زبدة وخلقت أرض مكة المباركة من هذا الزبد، وخلق وجه السماء من بخاره. وبعد هذا أخذت الأرض تنسحب من أسفل أرض الكعبة المعظمة واتسعت قدر ما أمرت به.

وكان موضع البيت المعظم آنذاك فوق مكان يرتفع قليلا ذى تربة حمراء تزوره

الملائكة، وقد قبلت توبة سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ بعد زيارته هذه الأرض الطاهرة. وبنى البيت المعمور فوق ذلك الموضع الملئ بالأنوار المرتفع لكى يزول الخوف ورهبة الفراق من نفس آدم ـ عليه السلام.

بكة:

وهناك اختلاف حول هذا الاسم، وعند البعض أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد ومترادفان، وبما أن حرفى الباء والميم متقاربان من ناحية النطق والمخرج الصوتى كان البعض يحل كلا منهما مكان الآخر، ويدعون أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد مع أن «بكة» فى نظر البعض هو اسم المدينة المقدسة «مكة المكرمة» وعند البعض الآخر أنه اسم البقعة الجليلة الكعبة المشرفة فقط.

والقول الصحيح أن مكة هو اسم الأماكن المباركة داخل حدود الحرم خارج المسجد الحرام. وبكة هو اسم البقعة التى عليها بيت الله وحرم المسجد الحرام المبارك. وحسب قول ابن عباس أن سبب إطلاق اسم مكة أنها كانت تذل الملاعنة والجبابرة الذين يعادونها.

بلد:

يقول اللغويون إن لفظ بلد يعنى صدر البلاد وإن لفظ بلد يطلق على مكة المكرمة، لأن كل البلاد والممالك مخلوقة من تراب مكة المعظمة، وبما أن الآية الجليلة ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (سورة البلد: ١) تؤكد التسمية، فمن المحقق أن لفظ البلد اسم مكة المكرمة.

قرية:

سبب تسميتها بهذا كونها مكان اجتماع الجموع الغفيرة.

أم القرى:

وسميت بهذا الاسم لكونها أقدم بقعة على وجه البسيطة. وقول الشاعر:

أقدم مكان الحرم الأكبر ** جعل الله لقبه أم القرى

يؤكد أن أقدم الأراضى هى هذه البقعة المباركة. وإن كان هذا دليلا لا يَتَسَرَّبُ إليه الشك وسندا كافيا لتصديق تسميتها بـ «أم القرى»، إلا أن كون مكة المكرمة قبلة الجميع وامتيازها على بلاد الأرض كلها بالفخامة والعظمة ولاحتوائها على الكعبة الشريفة، وخلو الأرض من تراب بقعة الله المباركة يجعلها جديرة بإطلاق هذا الاسم عليها وتبعا لهذا التوضيح لابد وأن يكون أم القرى هو اسم الأرض المقدسة التى تقع ضمن مواقيتها.

قال عبد الله بن عباس، وهو أعلم الناس «أنه أطلق اسم أم القرى على مكة، لأنها أعظم بلاد الأرض شأنا وكرامة، ولأن الأرض قد بسطت من التراب الذى تحتها». أما ابن عادل فقد وضح الموضوع فى تفسيره قائلا: إن موضع الكعبة المعظمة كان غثاء قبل أن يخلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض والسموات، وعندما بدأ خلق مكوناتها خلق الأرض وبسطها من تحت الكعبة قبل أن يخلق السماء وهذا هو سبب تسميتها «بأم القرى» لأنها هى الأصل.

البلد:

البلد الأمين من الأسماء الشريفة للكعبة التى ذكرت فى القرآن الكريم، وسبب تسميتها بهذا الاسم مجهول وعلمه عند الله.

أم رحم:

ومعناها عند الإمام مجاهد: (أم بمعنى أصل ورحم بمعنى الرحمة) ولأن مكة المشرفة هى أصل الرحمة وموضع حب كل الموحدين الذين يحرصون على تسميتها بهذا الاسم.

باسة:

وسميت بهذا الاسم لكونها تفتت الذنوب وتجعلها هباء وتسمى أيضا «الساسة».

صلاح:

لكونها موضع الصلاح والفلاح.

ناسة:

أطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت فى الجاهلية قليلة المياه لدرجة انعدام الرطوبة بها. وكان الملاحدة الذين يظلمون ويسرقون بداخلها يطردون خارج حدودها وينفون منها، وتسمى أيضا «نساسة».

حاطمة:

لأن ذنوب الحجاج وأوزارهم تحطم فيها وتكسر كما تحطم الملاحدة الذين يكفرون بالدين المبين.

رأس:

وذلك لأنها تشبه رأس الإنسان من حيث الشرف، ويزعم العلماء أنها تتوسط الدنيا، أو أن سماءها خلقت قبل سائر البلاد لذا سميت بهذا الاسم.

والواقع أن رأس الإنسان أشرف من جميع الجسم كما أن هذا العضو عجيب الخلقة يعد أفضل من سائر أجزاء الجسم الإنسانى، كذلك تعد مكة المعظمة أشرف البقاع على وجه الأرض، وتشبه رأس الإنسان لوقوعها فى وسط الدنيا.

كوثى:

على وزن طوبى، وكوثى هو اسم حى بنى عبد الدار فى مدينة «مكة المعظمة» لأنهم توارثوا حجابة البيت لفترة طويلة لهذا السبب أطلق عليها اسم «كوثى».

عرش وعريش وعُرش:

وهى أسماء مترادفة، وسبب إطلاق هذا الاسم أن بيوت مكة فيما مضى كانت تصنع من مجموعة من غصون الأشجار ومن أشياء مثل أعواد القصب، وكانت عبارة عن منازل ذات أسقف دون جدران.

وتسمى المظلة على الإطلاق باسم عرش، أما العريش فهى البيوت الصغيرة التى تبنى على هيئة المظلة. كما أن عرش جمع كلمة عريش ولدى البعض أن

عرش هو اسم الأحياء الموجودة فى أطراف مكة المعظمة والعرش والعريش يطلق على البيوت القديمة والعرش أيضا اسم كل بيت قديم.

قادس، قادسية:

سميت بذلك لوجودها فى الأرض المقدسة.

سبوحة:

وهو اسم أرض منخفضة قريبة من جبل الرحمة «جبل عرفات» وسميت بهذا الاسم لأن وقفة عرفات هى من أعظم مناسك الحج.

حرام:

البلد الحرام والمسجد الحرام ـ من الأسماء المذكورة فى القرآن الكريم وسميت بهذا لحرمة أراضى الكعبة المقدسة.

معطشة:

وذلك لأن الكعبة تقع فى مكان قليل الماء.

برة:

لكونها بلد الأبرار.

رتاج:

بمعنى الباب العظيم وسميت بهذا الاسم لأن باب المعلى مدخل البيت الأكرم وله علاقة بلقب مكة المعظمة.

أم:

بمعنى الأصل، وسبب التسمية أن قدر ومكان الكعبة المعظمة وشرفها يفوق كل البلاد والقرى، أو أنها قبلة كل الأمم ومقصدها، أو أن الموقع الأنور لبيت الله العزيز يقع ـ على ما زعم ـ فى النقطة المفخمة فى وسط الكرة الأرضية.

رحم وأم الرحمة:

من الأسماء المترادفة وقد ذكر سبب تسميتها بهذا الاسم.

أم كوثى:

وقد بينا سبب إطلاق هذا الاسم.

أمينة:

وسبب إطلاق هذا الاسم أنها مطلع شمس وجود النبى الأمين عليه وعلى آله صلاة المعين.

أم الصفا:

وسبب التسمية أن الذين يؤدون الحج بصدق نية وخلاص طوية يتحصلون على هدوء الخاطر وصفاء البال.

مروية:

وسبب إطلاق هذا الاسم هو لما يرويه الخلف عن السلف عن عظمة قدر هذا المكان ومزاياه، والواقع أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قص فى القرآن المبين وبين قدر كعبة الله الجليل، وأن كل الأنبياء العظام والرسل الكرام قاموا بالحج الشريف إليها ووصفوها وأثنوا عليها ثناء جميلا.

متحفة:

وسبب التسمية ما أنعم به الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من بر وإحسان على جيران بيت الله.

أم المشاعر:

وسبب التسمية أنها أصل مشاعر الحج ومركز الأماكن المسعودة التى تؤدى بها مناسك الحج.

البلدة المرزوقة:

وسبب إطلاق هذا الاسم هو الدعاء الذى تفضل به سيدنا إبراهيم «على نبينا وعليه السلام» بالمنهج بقوله: ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ (البقرة: ١٢٦).

رواية:

(يروى أنه عند ترديد سيدنا إبراهيم هذا الدعاء أصدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمره إلى جبريل ـ عليه السلام ـ بأن ينقل إلى جوار كعبة الله أوفر قرى أرض فلسطين فاكهة، فاقتلع جبريل الأمين قرية كثيرة الفواكه من الأرض المذكورة وطاف بها سبع مرات حول بيت الله العزيز ثم تركها فى مكان يقع على بعد ثلاث مراحل من مكة.

وكانت هذه القرية المنقولة هى بلدة الطائف ذات اللطائف وسميت بهذا الاسم لأن جبريل ـ عليه السلام ـ طاف بها حول البيت المعظم) انتهى.

ومنذ ذلك الزمان الذى حددته الرواية وفواكه أراضى كعبة الله وثمارها فى نمو وازدياد، ومع هذا فإن فاكهة مكة لم تقتصر على الطائف بل تزيد ببركة دعاء الخليل ـ عليه صلاة الله الجليل ـ وبركة الله المعظم بما يتوارد عليها من كل أنواع الفواكه من أقطار الشرق والغرب.

ومدينة «مكة» المعظمة المكرمة مليئة بالفواكه حتى أن كل أنواع فواكه الفصول الأربعة توجد بها فى الفصل الواحد.

حكمة:

كل إنسان يدخل مكة فى أى ساعة من ساعات الليل يجد من غير عناء كل الأشياء التى يعانى فى الحصول عليها فى أثناء النهار، ولا ينام إنسان أبدا فى مكة المعظمة جائعا.

حكاية مليئة بالعبر:

يحكى فى رواية موثوق بها أن رجلاً من بلاد الشام، جاء إلى مكة المكرمة

لأداء فريضة الحج، فشاهد قوافل الإبل لا تنقطع عن حمل كل أنواع الفواكه والثمار إلى تلك البلدة المقدسة ليل نهار، فاعتراه العجب والتأمل.

وجلس الرجل الشامى فى ركن يتعجب ويتفكر فيما بينه وبين نفسه عاجزا عن تفهم هذا الأمر. وقال لنفسه: «لابد أن وراء هذا الأمر العجيب سرًّا، فرغم ما تحفل به بلاد الشام من حدائق وبساتين فى كل أطرافها، ومع هذا لا يتوفر فيها هذا القدر من الفواكه، بل من المحال أن يرى فى الشام دابة تحمل فاكهة فى أحد الشوارع بعد وقت الضحى، يبدو أن حدائق هذه البلدة وغاباتها وبساتينها تفوق حدائق وغابات وبساتين ولايتنا «الشام» وبعد أن أمعن فى التفكير فى هذا الأمر فترة طويلة خرج خارج المدينة بغرض مشاهدة بساتين هذا البلد الإلهى حسبما صور له خياله وذلك ليتحقق من صدق النتيجة التى انتهى إليها تفكيره، لكنه لم ير حول المدينة سوى جبال عارية جرداء، فازداد حيرة وتعجبا واستغرق فى التفكير وطاف من جبل إلى جبل حائرا حتى دخل المساء، فأقام حيثما كان، وراح فى النوم، ثم استيقظ فجأة وكان الوقت فجرا، وإذا به يرى حوله مجموعة من الجمالين يحملون إبلهم أحجارا.

اندهش الرجل الشامى واعترته الحيرة لما رآه من تصرف هؤلاء الجمالين الذين صعدوا إلى الجبال فى هذه الظلمة الدامسة، وأخذوا فى تحميل إبلهم الحجارة.

وبعد فترة وجيزة عاد الجمالون، وسار الرجل فى أعقابهم واستمر الجمالون فى السير إلى أن وصلوا إلى المدينة الشهيرة مكة الله.

وأنزلوا أحمال إبلهم ووزعوها على أصحاب الحوانيت وبدءوا فى جمع ثمنها من النقود، وإذا بالأحجار المحمولة على ظهور الإبل كانت نوعا من الفواكه اللذيذة الطعم.

وظن الشامى أن ما جمعه الجمالون من الجبل وحملوا ظهور إبلهم أحجارا لم يكن سوى أنواع من الفاكهة ذات المذاق الطيب التى تثير بمذاقها الطيب تعجب الإنسان. عندما رأى هذا تذكر الآيات الجليلة: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰٓ

إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (القصص: ٥٧) و﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش: ٤) واقتنع بأن الذين يسكنون مكة المعظمة يكون رزقهم على الله، فطابت نفسه.

تهامة:

وهذه التسمية ترجع إلى شدة ارتفاع درجة حرارتها.

الحجاز:

وسميت بهذا الاسم لوجود الكعبة المعظمة داخل المنطقة التى تضم نواحى مكة والمدينة والطائف.

البلدة الطيبة:

لكونها مكانا طيبا ومباركًا لعباد الله من المسلمين.

مدينة الرب:

ومعناه البيت الحرام. وهو من الأسماء المذكورة فى الإنجيل الشريف.

عاقر:

وهذا الاسم مذكور فى كتاب شعيا ـ عليه السلام ـ بمعنى المسجد الحرام.

فاران:

من الأسماء المذكورة فى التوراة.

ورغم أن هذه الكلمة بمعنى المسجد الحرام فإنها اسم أحد الجبال فى مكة أيضا، ويلزم أن يكون هذا الجبل أحد الجبال التى تسمى جبال بنى هاشم. وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتعبد فوق هذا الجبل.

وقد التقى جبريل ـ عليه السلام ـ أول مرة بسلطان الرسل نبينا ـ عليه السلام ـ فى هذا الجبل حينما أتى حاملا الوحى الإلهى إليه، وهذا الجبل مكون من ثلاثة أجزاء وثلاثتها من الجبال المبجلة المعروفة يقال لأحدها جبل أبو قبيس،

والآخر جبل قعيقعان، والثالث جبل فاران، ويطلق شعب بنى هاشم على المكان الواقع فى الجانب الشرقى من جبل أبى قبيس فى مواجهة جبل قعيقعان، ويروى أن النبى ـ عليه صلاة الله الأكبر ـ ولد هناك.

عندما حرفت طائفة اليهود التوراة الشريفة اتفق أحبار اليهود على نسخة جديدة وجاءت فى هذه النسخة عبارة (تجلى الله من «سيناء» وأشرق من «ساعير» واستعلن من «فاران»).

والمقصود من كلمات: تجلى، أشرق، استعلن: الظهور، والانكشاف، لأن التوراة نزلت على موسى فى طور سيناء والإنجيل نزل على عيسى فى «ساعير» كما نزل القرآن الكريم على نبينا عليه الصلاة والسلام، فى جبل فاران. وطور سيناء اسم الجبل الذى تجلى فيه ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لنبيه موسى كليم الله. ساعير اسم المكان الذى كُلِّم فيه سيدنا عيسى. قد بشر موسى ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى «سيناء» كما بشر عيسى ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى مكان يسمى «ساعير».

وقد أطلق اسم «النصارى» على الذين يدينون بدين عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك لأن المسيح كان يقطن فى قرية الناصرة الموجودة فى أرض الخليل فى ساعير.

وإن كان أهل الكتاب يؤولون «فاران» بمعان مختلفة، فإن ما تفيده الآية الكريمة الواردة فى التوراة «إن الله أسكن هاجر وإسماعيل فاران» تؤكد بلا شك أنه جبل «فاران» المبارك فى مكة المعظمة.

عتيق:

وهو اسم من أسماء البيت المعظم ويقول حسن البصرى إن سبب إطلاق هذا الاسم، أن البيت المعظم هو أول بيت أسس ليزوره من بنى البشر، وعند الإمام مجاهد أن الله تفضل بإسباغ حمايته عليه من الجبابرة الذين يريدون هدمه وتخريبه، وعند قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن الله حماه من طوفان نوح.

أسباب تلقيب بيت الله بالألقاب الجميلة

المشرفة:

وذلك لأن مدينة مكة المشهورة هى أشرف وأجمل وأفضل من كل البلاد.

ويكفى دليلا على أن هذه المدينة المقدسة أشرف الممالك وأسعدها على وجه الأرض، أنها كانت مهد إشراق نور سيد الكونين، وأنها مطاف طوائف الموحدين.

مكرمة:

وذلك لأنها كرمت بالذكر الجميل فى الكتاب المبين، ولأنها كانت مزارا لجميع الرسل والأنبياء وكل الأولياء والصالحين لصدور الأمر الإلهى بزيارة كعبة الله الكائنة داخل مكة السعيدة والحج إليها.

مهابة:

حيث لا يجرؤ أحد من الملحدين على دخول حرم الله، وبما أنَّ الملاحدة والجبابرة ذوى المهابة يخافون كعبة الله ويتحاشونها؛ لذا سميت بهذا الاسم.

والدة:

حيث إنها مرجع الحجاج والزوار بعد قضاء مناسك الحج.

نادرة:

اتساع مكة تلك البلدة المقدسة من حين لآخر سبب تسميتها بهذا الاسم.

وحسب ما يروى أن هذه المدينة المباركة تمتلئ أحيانا كما تمتلئ بطون النساء بالحمل، وبدء الامتلاء والزيادة فى شهر رجب الشريف أو فى شهر ربيع الأول، ففى بداية هاذين الشهرين تبدأ المدينة فى الاتساع، وتزداد كل لحظة حتى اليوم الثالث عشر من شهر ذى الحجة، وبعد ذلك يعود الحجاج ذوى الابتهاج فوجا تلو فوج.

فى الواقع أن من يرى كثرة سكان مدينة مكة المعظمة فى غير أيام الحج يظن أن الحجاج الذين يغدون إليها من أجل أداء فريضة الحج لن يجدوا داخل المدينة

مكانًا للإقامة والاستراحة، وأداء العبادات والطاعات داخل دائرة الفيوض الباهرة لحرم المسجد الحرام، ولكن عند حلول موسم الحج ومع تدفق وفود الحجيج من البر والبحر، يرى أنهم يجدون أماكن للراحة والإقامة فى بيوت الأحياء ويقيمون الصلاة بلا عناء فى كل أرجاء الحرم الشريف، ويطوفون حول كعبة الله المقدسة فى جماعات كبيرة ويعبدون الله خفى الألطاف، أدرك أنه كلما ازداد زوار تلك البلدة النادرة اتسع الحرم الشريف حسب الحاجة.

ومهما زاد عدد الحجاج فلا يبقى فى مكة المفخمة شخص واحد يبيت فى العراء، والحجيج يستطيعون أن يؤدوا العبادات فى حرية تامة وراحة كاملة داخل حرم بيت الله الموقر مثلهم مثل السكان والمجاورين الذين يقيمون فيها فى غير أوقات الحج. وهذا الواقع حقيقة مسلمة.

وقد وصلت ـ أنا الفقير جامع هذه الحروف ـ إلى مكة المشرفة فى منتصف شعبان الشريف سنة ١٢٨٩، وعندما رأيت ازدحام الحرم الشريف تصورت أنه لن يكون هناك مكان لإقامة الصلاة لمن سيأتى بعد ذلك من الحجاج.

حيث بلغ الزحام فى هذه البلدة المكرمة مبلغا عظيما، حتى إنه إذا ألقيت إبرة فى الأسواق والأماكن التجارية لن تسقط على الأرض من شدة الزحام. ولم يعد هناك مكان واحد خاليا داخل المسجد الحرام ليجلس فيه إنسان، وبعد مرور فترة قصيرة تبينت أن ضيق مساحة البلدة لا يمكن أن يمنع الحجاج من الطواف والزيارة فصححت أفكارى.

وقرب حلول ساعة الخير والبركة للوقوف فى عرفات، وفد إلى مكة المكرمة كل أسبوع ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف حاج وزائر وسكنوا فى دور الأحياء المختلفة ووجدوا أماكن لأداء الطاعات والعبادات فى فخر وسرور.

كانت السنة المذكورة سنة الحج الأكبر وتجاوز عدد الحجاج خمسمائة ألف حاج حسب تخمينى وقد أدى جميعهم مناسك الطواف والعبادة بدون مشقة، كما أدوا

الصلوات المفروضة كلها فى جماعة واحدة فى يسر وتَنَزَّهُوا فى الأسواق والشوارع بكل راحة.

جامعة:

وسميت بذلك لأنها نقطة تجمع كل طوائف المسلمين على اختلاف قبائلهم وأجناسهم.

وبما أن كل المسلمين من أجناس مختلفة على وجه الأرض ملزمين دينيا بزيارة أرض الحجاز للمشاهدة والفرحة؛ فالذين يأتون محرمين لأداء فريضة الحج إلى الحجاز ذات الفيوضات الإلهية يسعدون برؤية أجناس المسلمين المختلفة فى مكان واحد ونقطة واحدة.

ومن الطبيعى أن تنطوى هذه الجماعات العظيمة على أولياء الله الصالحين المستغرقين فى التفكر فى الله وعظمته، وتنطوى كذلك على الذين غرتهم الدنيا بزينتها من أولاد وأملاك وأموال.

والأمر يقتضى أن ينظر كل عاقل نال شرف التواجد فى هذا الجمع الكبير، بعين الاعتبار إلى عجائب المخلوقات الإلهية وبديع صنع الله وأن يستيقظوا من غفلتهم.

المباركة:

وسبب إطلاق هذا الاسم واضح ومفهوم.

المفخمة:

وسبب التسمية له علاقة بقدر ومزية وعظم كعبة الله المشرفة، وذلك لما فى معنى الكلمة من التفخيم انتهى.

المشرفة:

فى المعلومات التى تلقيناها عن كبار شيوخ مكة وتصفح الصحائف القديمة

والتواريخ التى تتضمن أحوال المسجد الحرام، نعرف أن البلدة المباركة كانت محدودة باثنين من الأسوار الضخمة فى الأزمنة القديمة، ويفهم من بقايا هاذين السورين اللذين كانا قائمين إلى وقت قريب أن هاذين السورين ـ كما جاء فى الأخبار ـ كانا ليصلان بين جبل عبد الله بن عمر الواقع ناحية معلى بسفح الجبل الواقع أمامه بجدار متين ذى أبواب عديدة ومنافذ لمجارى السيول، لكنها كلها خربت بمرور الوقت.

وقد أخبر بعض المكيين أن هناك بعض خرائب الجدران التى تعد من الآثار العتيقة، كما أكد ذلك تاريخ «قطب مكى» وقيل إن هناك خرابة جدار عتيق بجانب السبيل الفخم الذى أنشأه السلطان «سليمان خان» ابن السلطان سليم خان، جانب جدول حسنين، إلا أنه لم يبق فى عصرنا الحالى سوى المبانى القديمة للسبيل المذكور. وهذا السبيل فى مكان مرتفع بقصر متشابك من جهاته الأربعة، وهذا القصر أصبح طريقا لأقدام سكان الخيم الذين أقاموا بجانبه، وتقرر كتب التاريخ أن للأسوار سالفة الذكر جداران وبابين فى ناحية الشبيكة وقد ظلت أكمار هذه الأبواب قائمة حتى وقت قريب. والسور الواقع ناحية المسفلة هو سور آخر لاسيما أن الإمام الفاسى أثبت أنه يوجد سور بين الجبل المسمى لعلع الذى يقع على مقربة من مسجد الراية والجبل المقابل له. فقال (لقد رأيت أطلال وبقايا هذه الأسوار على الجبل المذكور وفهمت أن مكة المعظمة كانت بين أسوار متعددة متصل بعضها ببعض ولكنى لم أستطع معرفة بانى هذه الأسوار) وهذا دليل على أن كل هذه الأسوار قد انمحت ولم يبقى لها أثر.

لقد عد الإمام الفاكهى فى كتابه «ران أنبيا» أن أبنية المسجد الشريف الذى بنى فى الموقع اللطيف الذى أمر الرسول بنصب الراية فيه يوم فتح مكة من الآثار العتيقة، فكتب فى تاريخه (يوجد مسجد يزوره الناس وهو قريب من بئر جبير، والمنازل والبيوت التى بجواره خالية خاوية) ولكن الآن فى عصر السلطان العالى القدر قد امتدت البيوت والمنازل حتى خارج مقبرة المعلا، ولهذا فإن المنازل والبيوت التى قال عليها الإمام الفاكهى أنها خالية، ليست كذلك الآن.

إن الأسوار التى قال الإمام الفاكهى إنه رأى أطلالها بنى أحدها المرحوم أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسينى وهو من الأجداد العظام لأشراف مكة. وظلت آثار هذا السور مرئية حتى انتهت الخلافة العباسية فى مصر القاهرة.

إن أبا عزيز قتادة قد عزز وأكثر من قوته فى عهد الأمير مكثر من بنى فليتة التى كانت تحكم ينبع البحر لمدة، وفى خلال عام ٥٩٧ انتزعوا الإدارة من بنى هاشم عنوة. إن الجد الخامس لأبى عزيز المشار إليه هو الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ الغالب.

فى زماننا هذا من الصعب حتى توضيح علامة يمكن القول إنها من بقايا الأسوار التى عرفها المؤرخون، وتوجد ثلاثة قلاع صغيرة بأسماء قلعة الجياد، قلعة الفلفل، قلعة الهندى فى الوادى الكائن بين جبل جياد وجبل عمر، حيث يوجد مقر المدفعية والمعسكر الهمايونى وهذه الأشياء جديدة جدا. إن قلعة جياد تقع على جبل جياد وقلعة فلفل تقع على طريق قرارة، وقلعة هندى أسست على قمة جبل هندى الواقع ناحية حمام العمرة، بعد واقعة دلخراشنى الوهابية لحماية مكة المعظمة المفخمة من هجمات العربان.

لاسيما فى الفترة التى كان فيها المرحوم حالت باشا والى الحجاز والمرحوم حسين باشا أمراء لمكة، إذْ أحسوا بالحاجة إلى توسيع قلعة فلفل، وجعلوا بها مستشفى عسكرى، فهدم عثمان باشا والى الحجاز قلعة هندى وأسس هذا المعسكر على أصول جديدة ولأن هذا المكان دفعت نفقات إنشائه من قبل أهل كريت أطلق عليه اسم غريتية عام ١٣٩٧. كما هدم قلعة جياد وأنشأ مكانها قلعة متينة على الطراز الحديث عام ١٣٠١.

أعلام قلاع الحرمين الشريفين

إن السلاطين العظام يطلق عليهم اللقب المستلزم للفخر وهو لقب خادم الحرمين المحترمين، وتشكل الحكومة فيهما باسم السلطنة العلية، ومع هذا لم

ترفع الرايات ـ رمز سطوة الدولة العثمانية فوق المبانى العسكرية والقلاع ولم ترفرف عليها فى الحرمين الشريفين.

وإذا كانت تقاليد الاحترام تقتضى عدم رفع الألوية السلطانية فوق قلاع الحرمين الشريفين، إلا أنه من غير المناسب حسب مقتضيات العصر ضياع العلاقة التى تدل على التبعية المشروعة للحرمين الشريفين التى هى قبلة الموحدين، إلى دولة الخلافة، وبناء على هذا الرأى الصائب قد قرر السلطان عبد العزيز فى أواسط حكمه رفع الراية العثمانية فوق معسكرات مكة المكرمة، والمدينة المنورة وفوق قلاعهما مثل سائر البلاد التابعة للدولة العثمانية.

وجهزت الأدوات اللازمة والبيارق، وأرسلت إلى ذلك المكان السامى جالب الفيض الإلهى وبذلك أصبح المعتاد رفع الأعلام فى المدينة المنورة، لكن تأخر هذا التقليد بالنسبة لمكة المكرمة وتأجل آنذاك لبعض الأسباب.

وكان سكان البلاد الإسلامية الواقعة تحت سيادة دول غير مسلمة يترددون على الحرمين الشريفين وكان بعض هؤلاء يفضلون الإقامة فى أحد الحرمين الشريفين ومجاورتهما بعد أداء الحج لذا اتخذ الإنجليز والفرنسيون والروس والبرتغاليون والهولنديون الذين يستعمرون الهند وآسيا الوسطى والجزائر وجاوه وغيرها قنصليات فى جدة لخدمة رعاياهم فى ظاهر الأمر وقضاء مصالحهم ولكنها فى الحقيقة للتجسس.

وكان لتدخل المسلمين من رعايا الدول الأجنبية فى شئون أهالى الحرمين عواقب وخيمة حاليا، ولاسيما أن أفرادا كثيرين من جماعات القبائل البدوية والعشائر المجاورة وأهالى الحرمين أنفسهم يدعون أنهم لا يعرفون لهم مرجعًا سوى الإمارة الجليلة للحرمين؛ لذا رئى أنه من الحكمة رفع الراية العثمانية على قلاع مكة المكرمة ليعرف الحاقدون والأعداء أن مكة المكرمة من الأجزاء المقدسة المتممة لأراضى الممالك السلطانية.

وقد روعى اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ما قد يعكر الصفو.

أولاً: قد استدعى لذلك سرا محمد جاويد أغا من قدماء ضباط القلاع وأمر بأن تجلب الأعلام وأن تتخذ التدابير العسكرية لمواجهة ما يحدث من مشاغبات.

ثانيًا: صدر الأمر بسرعة اتخاذ التدابير والتحفظات وتوفير الأعلام اللازمة وصواريها وأوصالها السميكة والحبال الرفيعة التى تسحب بها الأعلام، وتم إعداد كل شئ وتجهيزه وتهيئة الجند اللازم للمحافظة على الأمن، وأن يذهب إلى دائرة الإدارة الجليلة لمقابلة الأمير السابق الشريف عبد المطلب والقيام بالخدمات اللازمة لإقناع الأمير بأن رفع العلم لن يسبب أى إزعاج. وأن تعد الأدلة المقنعة على أن رفع العلم لن يؤدى إلى اضطرابات ومشاغبات فى الإمارة فى ظل الاستعدادات العسكرية التى تم اتخاذها للحفاظ على الإمارة ويؤخذ موافقته على ذلك.

كما يؤخذ منه الإذن بارتداء الملابس الرسمية فى أثناء إطلاق المدافع بعد رفع الأعلام والتوجه إلى المسجد الحرام.

لترديد الأدعية بطول العمر لجلالة السلطان، بعد ذلك يعود إلى المواقع العسكرية وفى الصباح الباكر ترفع الرايات العثمانية على القلاع كلها فى لحظة، واحدة وتطلق المدافع إحدى وعشرين طلقة، بينما تعزف الموسيقى فى أثناء ذلك، ويصطف عدد من الجنود السلطانية على هيئة طابور ويتحركون مع قواتهم من معسكر المدفعية العثمانى متوجهين إلى الحرم الشريف للمسجد الحرام وفق الأوامر الصادرة.

وفى اليوم التالى عندما رفعت الأعلام على القلاع فى وقت السحر، وأخذت المدافع فى إطلاق طلقاتها، ارتدى الباشا المشار إليه ملابسه الرسمية على الفور وتوجه ومعه العدد اللازم من الجنود السلطانية، قاصدا قصر الشريف عبد المطلب أفندى واصطحبه معه وكان متهيئا للتحرك وقفل راجعا مع الموكب العظيم إلى الحرم الشريف للمسجد الحرام. وكان فى معية الشريف المذكور أشراف مكة وساداتها الممثلون للإمارة وتفضل الباشا بإلقاء خطبة بليغة أمام الجمع الغفير من السادة وأهالى مكة الكرام وبعد ذلك أم القضاة الأربعة الكرام وكل العلماء

المعروفين وخاصة عمر شيبى أفندى حاجب بيت رب الأرباب وكل الحضور فى داخل بيت الله قاموا كلهم بترديد الأدعية المناسبة لحضرة الخليفة ثم انصرف الجميع شاكرين فرحين وذلك فى عام ١٢٩٦هـ.

وهذا الخوف الذى شغل بال الجميع لسنوات طويلة من سوء عاقبة رفع العلم لم يظهر له أثر، بل إن الأهالى الكرام والمجاورين ذوى الاحترام شعروا بالسعادة والافتخار، وإن رفع العلم فى الواقع كان عملا موفقا وينتظر منه فوائد جمة فى المستقبل. ونحن بالنيابة عن الأمة الإسلامية العظيمة نقدم شكرنا للباشا المشار إليه على هذه الخدمة الجليلة.

إن مكة المفخمة بلدة مباركة ومقدمة سعيدة تفوق كل بلاد الدنيا عظمة ويمنا، ولحكمة ما كانت ممرا لكثير من الأحداث المفزعة المؤلمة والانقلابات الدامية والمصادمات التي عانتها تفوق كل وصف وحصر؛ لذا رأينا أن نذكر بعضها للتدليل على صحة ادعائنا.

استيلاء طائفة القرامطة المفسدين على مكة المعظمة

ظهرت بوادر طائفة القرامطة الباغية المفسدة ولم تنج هذه البلدة المباركة من فسادهم وشرهم وفوضاهم، بل إن فرقة «ابن زكرويه» التى استولت على منطقة الشام هاجمت إحدى قوافل الحجاج المتجهة إلى المدينة المنورة وأعملوا فيهم سيوفهم حتى لم يبق واحد منهم على قيد الحياة، وذلك فى عام ٢٨٩هـ.

يروى أن عدد الحجاج والمسلمين الذين قتلتهم سيوف أجداد القرامطة من هذه القافلة تجاوز عشرين ألف حاج، أما الفرقة الملعونة التى تسلطت على الأراضى الحجازية المباركة والتى تنتسب إلى أبى طاهر القرمطى فقد هجموا على مكة المعظمة بغتة وعاثت أقدامها فسادًا وشؤما فى الحرم المطهر للمسجد الحرام.

عندما هجم أبو طاهر على مكة المعظمة كان بداخل المسجد الحرام ثلاثون ألفا من الأبرياء وكان أكثرهم فى ملابس الإحرام وكان القليل منهم داخل كعبة الله فلم ينج أحد منهم من سطوة سيف الغدر والعذاب، وهدموا كثيرا من المبانى

العالية فى هذه المدينة المشهورة وخربوها واقتلعوا الحجر الأسود لينقلوه إلى ناحية هجر التى هى مسقط رأس أبى طاهر الملعون ثم انزاحوا إلى بلادهم مدحورين سنة ٣١٧هـ.

وكان هدف أبى طاهر من اقتلاع الحجر الأسود من الركن الجليل لكعبة الله وأخذه إلى ديار هجر هو أن يصرف الناس من التوجه إلى الكعبة وأن يحرمهم من الفيض الإلهى. وأن يوجه طريق الحج المفروش بالفيض الإلهى إلى ناحية هجر بل إنه أنشأ فى هجر دار شقوة أسماها دار الهجرة وحجز الحجر الأسود فى دار الهجرة عشرين سنة.

وفى اليوم الذى أجرى فيه أبو طاهر المذبحة فى ساحة المسجد الحرام اقتلع بيده ـ شلت يده ـ اللوحات المزينة التى على باب الكعبة مستقر الرحمة، وانتزع أيضًا الستارة الشريفة والهدايا القيمة الموجودة فى خزانة البيت انتزاع الطيف وقام بتوزيعها على جنده. وعندما أراد خلع الميزاب الذهبى أمر بعض أتباعه بذلك، ولكن القرامطة الملحدين الذين تسلقوا السقف وقعوا على الأرض وماتوا وهكذا لم ينجح فى سعيه.

وأخذ ذلك الخائن الكافر الحجر الأسود ووصل ناحية هجر، وقضى أربه ثم أبلغ عبد الله المهتدى جد ملوك الفاطميين بالطريقة التى وصل بها إلى تحقيق ما يصبو إليه. وعرض عليه تبعيته وأنه سيقرأ اسمه فى خطبة الجمعة ولكنه تلقى منه جوابا مفاده لقد وجدت فى نفسك الجرأة على نقل الحجر الأسود إلى هجر بعد هتكك ستار وحرمة بيت الله الذى ظل موضع الإعزاز والتكريم دائما فى الجاهلية والإسلام وبعد ذلك تريد أن تقرأ الخطبة باسمى! فأعلن القرمطى عصيانه عليه أيضا.

* * *

فى ذكر وصف شكل وطراز بيوت مكة المعظمة ومنازلها ودرجات الحرارة والبرودة فى هذه المدينة المقدسة وفوائد الفواكه والخضر ومضارها التى توجد بها وأسباب ظهور الأمراض التى يروى تفشيها فى الأراضى الحجازية المنوّرة.

معظم مبانى مكة المشرفة مبنية بالحجارة والطوب وهى متينة وبعضها أكواخ مصنوعة من الأعشاب والحصير يطلق عليها عشة «بضم العين» وسقوف أغلب المبانى المصنوعة من الحجر والطوب مسطحة ومملوءة بالتراب وسقوف القليل منها حجرات بعضها مغطاة بمادة الطابطات الأسمنت وأغلب النوافذ مغطاة بحصير معروف باسم «كيريته».

استطراد

بعض الأوربيين الذين نجحوا فى الدخول إلى مكة المكرمة والتجول فيها أشاروا فى ما كتبوا عن رحلاتهم إلى أن نوافذ بيوت مكة مصنوعة من الحصير الخشن، استخدموا فى إيماءاتهم ألفاظا غير مناسبة وأشاروا إلى فساد ذوق أهالى مكة الكرام، إلا أن ما تصوره السياح المشار إليهم فى هذا الخصوص ليس صحيحًا فأكثر بيوت مكة المعظمة ومنازلها تطل مباشرة على الحرم الشريف للكعبة وتتعرض لسخونة الشمس وحرارتها القوية.

ولذا استصوب أهل السلف بعد طول تفكير أن يعلقوا أشياء من الحصير على نوافذ البيوت حتى تحمى الناس من تأثير حرارة الشمس، وفى نفس الوقت تصون الحرم الشريف للمسجد الحرام من جلبة المنازل وأصداء أصواتها، وقرروا تنفيذ هذا العمل. ولما كان هذا القرار يعبر عن مدى تعظيم الأهالى لكعبة الله

واحترامها فإنه أيضا يشير إلى مصانة بيوت مكة ومتانتها وأن نساء الحرمين أهل حياء وعفاف لا يتجاوزن الدائرة التى حددتها لهم الشريعة، لأن حصر «الكيريتة» التى تبدو خارج نوافذ بيوت مكة لا تقوم مقام الستار ولكنها تقوم مقام المشربيات.

ويوجد فى الطرف الداخلى من «الكيريتة» ستار مصنوع من الخشب وهو ما نسميه فى بلادنا «الجناح» وعندما يزداد الهواء سخونة فإن أهل البيت يغلقون هذا الجناح لحماية أنفسهم من حرارة الشمس. وتختلف هذه الستارة الخشبية تبعا لشكل المبنى وحجمه وبما أن الحصول على خشب البناء فى مكة صعب فإن الستائر الخشبية لنوافذ المبانى الكبيرة الفخمة تصنع من خشب شجر الساج المشهور فى الهند وتنقش عليها نقوش فى منتهى الدقة والجمال. ويصل ثمن كل جناح من الأجنحة إلى ألفين وخمسمائة ليرة وأقله ثمنا يكون بألف وخمسمائة ليرة. وأرخصها يباع بليرتين ونصف وثلاث ليرات يصنع من خشب الصنوبر الرخيص. وإنفاق هذا القدر من النقود فى ستارة نافذة يدل على طبع الكرم عند أهل مكة وجودهم مما يجعل تطاول سياح أوربا وأقوالهم واهية لا أسس لها.

والبيوت التى صنعت سقفها من «الطابطاب» الأسمنت أقل تأثراً بحرارة الشمس من المنازل التى صنعت من التراب في أثناء النهار، ولن تسخن غرف الأدوار العليا المغطاة «بالطابطاب» كما تسخن الغرف المغطاة بالتراب فقط بدرجة مخيفة ومن هنا تختلف المنازل المغطاة بالطابطاب عن المنازل غير المغطاة من حيث القواعد الصحية.

والمساكن المغطاة بالطابطاب أقل رطوبة من المنازل غير المغطاة بهذه المادة، كما أنها أسهل فى التنظيف ولا يعرف المقيمون فيها قدر المساكن الأخرى.

إخطار:

وهذه المادة المسماة بطابطاب عبارة عن خليط جامد مصنوع من رماد المواقد والطين والرمل والجير وهو نوع من الرخام الصناعى، وهو غير مادة الأسمنت

التى تصنع بها الأرصفة فى دار السعادة استانبول، والأكواخ المصنوعة من الحصير والعشب مهما تم بناؤها بعناية فإنها تسخن بحرارة الشمس ولا تخلو من الرطوبة.

والذين يسكنون فى هذه الأكواخ لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن الأخطار، كما أن السكن فى مثل هذه المبانى يكون تصرفاً مغايراً لأحكام وقواعد المحافظة على الصحة، وبناء عليه فإنه لا يجوز لأهل البلاد الباردة أن يستأجروا مثل هذه الأكواخ لأن شدة الحرارة تستدعى تبريد الجسم بالخروج إلى الأماكن ذات الهواء الطلق ويؤدى هذا إلى إصابتهم بنزلات البرد لجلوسهم غير مستورين شبه عراة، كما يؤدى إلى تَفَشِّى العلل والأمراض بينهم.

وبما أن الحرارة ترتفع فى أيام الصيف فى المدينة المعظمة إلى حدّ يصعب تحمله يذهب أغلب الأغنياء من أهلها إلى بلدة الطائف اللطيفة، والكثير منهم يقضى وقته فى حدائق المعلى، وفي أيام الشتاء يتجولون في مناطق الحسينية ووادى فاطمة، وفى كل الأماكن المخضرة التى تبعث الرضى فى النفس ويتنزهون فيها، وأيام الشتاء فى خط العرض لمنطقة الحجاز المقدسة تشبه أيام فصل الربيع فى مناطق الروملى والأناضول.

الحسينية

وتقع المنطقة المسماة بالحسينية فى الطريق من مكة إلى اليمن، خلف جبل ثور الواقع على مسافة ساعتين من مكة وهو مكان جميل يتكون من حوالى خمس أو ست حدائق مخضرة وينمو على المياه الجارية الواقعة حول هذا المكان البطيخ والليمون وكل أنواع الخضر والمحاصيل مثل التمر والبرسيم.

وادى فاطمة:

يقع وادى فاطمة على مسافة خمس أو ست ساعات من مكة من ناحية المدينة المنورة، وبها عدد من الحدائق المنتجة للمحاصيل وبضع قرى وما يعرف من عيون الماء الجارية وهى (ماء الجموم، ماء خضرة، ماء هنية، ماء حسينية، ماء أبو

عوردة، وماء روضة، ماء حيف، ماء تونذوب، ماء قورفه، ماء بان، ماء مبارك، ماء جديدة، ماء جفح ماء سعلة، ماء مضيق، ماء غريمه، ماء أبو شعب، ماء مدرار، ماء فيدة، ماء سماشه، ماء جديدة، ماء هيمه، ماء حرامز، ماء بحرين، ماء قريز، ماء حامدة، ماء بربر، ماء حديدة، ماء سروعة، ماء ربكان وأنقى هذه المياه وأخفها هو ماء هنية وأقلها قبولا فى المذاق أعسرها هضما هو ماء الجموم. وينمو فى الحدائق التى حول مصادر المياه: الشمام والبطيخ.

وأنواع مختلفة من التمر والخضر واعتاد أهالى القرى المجاورة صيد دودة العلق الموجودة في المياه ذات المجارى الواسعة بكثرة ويحملونها إلى مدينة مكة المعظمة ويبيعونها هناك.

وتقع على مسافة ثمانى عشرة ساعة من مكة المعظمة منطقتا «سويلة» «ومضيق» وتبعد كل واحدة عن الأخرى ساعة ونصف وتمتازان بلطف جوهما، كما أنهما تزدانان بالأشجار الجميلة والحدائق البديعة، وتنمو فيها أشجار الليمون الحلو (النارنج) والموز وينبت فى حدائق جبل كرا والطائف أشجار العنب والرمان والسفرجل والتين، الكمثرى والخوخ والمشمش، واللوز، والجوز، والتوت الأسود. وتقع على بعد من الطائف بخمس أو ست مراحل مياه جارية وحقول خصبة وأشجار اللوز والياسمين البرى وأشجار الزيتون البرى والصفصاف.

تنبيه:-

يوجد فى الأراضى الحجازية نوع من العنكبوت السام اسمه «لاديغ» فإذا لدغت هذه الحشرة أى إنسان لابد وأن يموت خلال ثلاث أو أربع ساعات ورغم وجود هذا العنكبوت فى كل مكان إلا أنه يكثر فى وادى فاطمة، لذا يجب على الذين ينزلون به أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة ضده. وأقدام هذا العنكبوت اللادغ كثيرة الشعر ويوجد فى قمته أربع شوكات سوداء خشنة كل اثنتين منهما متشابكتان ويعتبر سمه كثيرا أو شديداً بالنسبة لحجم جسمه ويصعب أن يلحق به الإنسان إذا هرب من أمامه.

العلاج:

ليحفظنا الله جميعا من شره إذا لدغ هذا العنكبوت إنسانا ما، فإذا لم يتم كى المكان الملدوغ على الفور وبشكل جيد فمن المستحيل أن ينجو هذا الإنسان، وهذا لأن سمه قاتل فتاك لدرجة كافية انتهى.

ويقضى العنكبوت المذكور نهاره مختبئا بين الصخور وفى الليل يزحف حيث الضوء فعندما يرى الضوء فى أى مكان ليلا ومهما كان الزحام يهاجم فريسته دون تردد. وبناء عليه فعلى من يحل فى أى بقعة من الأراضى المقدسة واضطر لإيقاد النار ليلا يجب عليه الجلوس بعيدا عن النار. ولاسيما من يوقد نارا أو يشعل سراجا أو شمعة فى وادى فاطمة فعليه أن يحرص أن يكون بعيدا عن مصدر الضوء. ورغم أن هذه الحشرة هى نفس الحشرة الموجودة فى الأراضى العثمانية حيث يسمونها «بوى»، فحشرة الأراضى الحجازية لحكمة ما ذات سم أكثر وأفتك ويكثر في وادى فاطمة خاصة. لذا يجب على الذين يعيشون فى هذه المنطقة أو ينزلون إليها أن يحذروا هذه الحشرة كثيرا.

درجات الحرارة

بما أن مدينة «مكة المعظمة» تقع فى مكان منخفض وتحيط بها سلاسل الجبال كما سبق أن بيناه، فهى شديدة الحرارة بالنسبة للأماكن ذات المناخ المعتدل التى ذكرناها وتستمر شدة حرارتها ستة أشهر أو سبعة متواصلة، وتشتد حرارتها خلال أربعة أشهر ويطرد تأثيرها من ساعة إلى أخرى.

درجة الحرارة فيها بميزان (زومبورك) فى شهر يونيو ٢٩ درجة وفى يوليو ٢٩ درجة وفى أغسطس ٣٠ درجة وتصل درجة الحرارة فى أشد أيام شهر أغسطس حرارة إلى ٣٦,٣٥ درجة ولكنها لا تستمر طويلا وتهبط إلى ٣٢ و ٣٣ درجة، وتظل لفترة ما حول هذا المعدل. وبعد هذه الشهور تأخذ درجة الحرارة فى الهبوط من يوم إلى آخر إلى أن تصل درجة الحرارة فى سبتمبر إلى ٢٨ درجة وفى أكتوبر إلى ٢٥ درجة.

ويقضى أهل مكة نهارهم فى الشهور المذكورة داخل المبانى، ويمضون ليلهم فوق الأسطح ويتراوح الفرق بين بعض هذه الأماكن وبعضها الآخر فى درجات الحرارة ما بين درجة إلى أربع درجات، لذا تكون الحجرات في النهار أبرد من الأسطح وتكون الأسطح أبرد من الحجرات فى الليل بمقدار أربع درجات. وفى بداية نوفمبر تكون درجة الحرارة ٢٤ درجة وبعد خمسة عشر يوماً منه تهبط درجة الحرارة إلى ٢٢ درجة فينام السكان فى الحجرات.

وفى بداية ديسمبر تكون درجة الحرارة ٢١ درجة وبعد اليوم الخامس والعشرين منه تنخفض درجة الحرارة إلى ١٩ درجة وتستقر عند هذه الدرجة ويروى أنها قد تهبط إلى ١٧ درجة وهذا من الأمور النادرة. وبعد الخامس والعشرين من شهر يناير تهبط درجة الحرارة فى الصباح إلى ١٨ درجة لكن وقت الظهر ترتفع بمقدار درّجة ونصف درجة وأحيانا درجتين.

وإذا كان انخفاض درجة الحرارة بين المساء والصباح في كل فصل يصل إلى درجتين مما يلطف من حرارة الجو فإن درجة الحرارة بين الظهر والعصر ترتفع أيضا درجتين وتزيد درجة الحرارة نسبيا عن الصباح. وفى بدايات أيام شهر فبراير تكون درجة الحرارة ٢٠ درجة، وترتفع عند الظهر إلى ٢٢ درجة، وفى صبح أيام شهر مارس تقل درجة الحرارة عن ٢٣ درجة، ويحدث التفاوت بمقدار درجة واحدة فى أثناء نهاية هذا الشهر، وتصل فى شهر أبريل إلى ٢٤ درجة.

وترتفع درجة الحرارة فى شهر مايو إلى ٢٧ درجة وتزيد فى وقت الظهر والعصر من شهر مايو لتصل إلى ٢٩ درجة.

وتهب فى أغلب أراضى الحجاز الرياح الجنوبية ونظرا لسخونة هذه الرياح لا يوجد فى البلدة المعظمة مكة المكرمة ماء بارد. ومن يتجول قليلا لا يستطيع أن يمنع جسمه من التبلل بالعرق.

وإذا لم تهب الرياح لا يمكن للإنسان أن يشعر بالراحة أما إذا هبت رياح الشمال تبرد المياه ويعتدل الجو ويستريح الأهالى.

إفادة خاصة:-

ارتفاع درجة الحرارة إلى هذا الحد يرجع إلى أنَّ مدينة مكة المكرمة محاطة بسلسلة من الجبال المرتفعة.

حيث تعكس أحجار هذه الجبال الحرارة التى تكتسبها من الشمس على البلدة، وفى فصول الصيف تستمر هذه الحرارة حتى منتصف الليل.. لذا احتاج الأمر إلى مساحة خضراء تقلل من تأثير الحرارة على البلدة وتجلى العيون بخضرتها.

وهذا ممكن بالنسبة لمكة المعظمة بحيث تغرس على واجهات الجبال المحيطة ببلدة الله والمطلة عليها أشجار مناسبة وتبذر عليها بذور الأشجار البرية التى تنمو سريعا لتتحول الجبال إلى ما يشبه الغابات وفى الواقع أن هذه الغابات لا تنمو فى ظرف عام أو عامين إلا أن الروابى تكتسب اللون الأخضر فى العام الأول وتساعد على تقليل ارتفاع درجة سخونة الأحجار، وتمنح البلدة نوعا من البرودة وبعد خمسة عشر عاماً تصبح هذه المدينة وسط غابة كبيرة، ويستحسن أن تكون هذه الأشجار والبذور من نوع الصنوبر الموجود بقارة أمريكا الذى ينمو كل سنة بارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار أو من أنواع الصنوبريات الشبيهة بها، وهو ما يؤدى إلى تحسين الجو.

كما يزين طريق العمرة بغرس أشجار مناسبة على جانبيه. وإذا تم تسوية الأرض وتعبيد الطريق يسمح بسير العربات عليه ذهابا وإيابا، ويرتاح المعتمرون الكرام وتتحول تلك المنطقة إلى مُتَنَزَّهات ومن الإصلاحات المرجوة بغرض إراحة الحجاج وتأمينهم تزيين طريق عرفات بغرس الأشجار المناسبة، وإيجاد أنفار كافية من قوة الشرطة في أماكن مثل «مأزمين» وغيره حيث يجتمع اللصوص ويحتشد قطاع الطرق.

تنبيه:-

يجب على الذين يقميون فى مكة المكرمة فى فصل الصيف الإقامة فى الأماكن ذات التهوية الجيدة، وأكثر مناطق مكة المكرمة هواء هى الأماكن المتصلة

بالمسعى الشريف من حرم المسجد الحرام، وسفوح جبل أبى قبيس وفوق جبل الصفا وأطراف قلعة فلفل من حى غرارة. وأعلى مناطق مكة المعظمة هى المناطق التى ذكرناها بإضافة نواحى «قشاشية».

إن أرض هذه الأماكن فى مكة المكرمة أعلى من الجهات الأخرى وبما أن أزقتها أوسع وأراضيها أعلى فلا تخلو هذه الأماكن من نسمات الهواء فى أى وقت من الأوقات.

وهواء أحياء «المعلى» و «القشاشية» و «الشبيكة» أفضل من هواء الأحياء الأخرى، لذا لا يتأثر أبداً سكان هذه المناطق من سوء الجو. ومع هذا فإن نوافذ بيوت هذه الأماكن يلزم أن تكون مواجهة للرياح الجنوبية فى جميع الحالات.

والمنازل الكائنة فى أحياء أخرى غير التى ذكرناها تكون الشوارع فيها ضيقة وساخنة مثل مستوقد الحمامات، ومملوءة بالقمامات المتراكمة والقاذورات. مما يؤدى إلى ظهور مجموعة من الأمراض ومن هنا يجب على الأغنياء الذين يسكنون فى هذه المناطق وخاصة الحجاج الذين استأجروا البيوت بالوكالة فيها أن يذهبوا إلى الوظائف بغية تغير الجو ومع اقتراب موعد الحج يعودون إلى مكة المكرمة فيؤدون مناسك الحج ويحافظون على صحة أبدانهم.

وفى مكة المكرمة فواكه مثل: الخوخ، المشمش، التين، السفرجل، الكمثرى، التفاح، البرقوق، التمر هندى، العنب، التمر، اللوز، الجوز، التوت، العناب، الشمام، البطيخ، البرتقال، الليمون، الليم، الرمان، الموز، الخيار، العجور، وأشياء أخرى مثل: الخس، الخرشوف، البامية، الكرفس، الفاصوليا الخضراء، السلق، الجزر اليمانى، الطماطم، الباذنجان، الفاصوليا الناشفة، والفول الناشف، الحمص، الفجل، الشبت، البقدونس، الثوم، الكمون الكراث، القرنبيط، والكرنب وجميع أنواع الخضروات وكل رأس من الكرنب يصل إلى ١٤ أقة ولا يمكن أن ينبت كرنب كبير بهذا الحجم إلا فى الحجاز فقط.

استطراد

بالرغم من وجود الفواكه من كل نوع فى الأراضى الحجازية إلا أن أكثر هذه الفواكه ضار بسكان البلاد الباردة الذين يزورون البلاد الحارة، لذا لزم أن نوجز في هذا المقام ذكر أنواع الفواكه والخضر التي يجب أن يتجنب أكلها ويحترز منها في الأراضى الحجازية.

الخوخ: رغم أن طعمه لذيذ وشكله الخارجى لطيف، إلا أن الإفراط في أكله ضار لصعوبة هضمه.

المشمش: طعمه لذيذ ورائحته تسيل اللعاب، ومع هذا فإن الإفراط في أكله بشكل دائم فى الأراضى المقدسة ضار ويسبب الإسهال. وإذا أكل النوع الصغير من المشمش دون طبخه بسكر يؤدى إلى الإصابة بالحمى الصفراء وفساد المعدة.

التين: ينبت فى الطائف، ورغم أنه ليس بحجم التين الذى يزرع فى بلاد الروم إلا أنه لذيذ الطعم، لكن الإفراط في تناوله يصيب الجسم بالفتور.

السفرجل: يبدو في حالة نضجه التام لذيذ الطعم، طيب الرائحة وبما أن له تأثيراً قابضًا فأكله نيئا قبل طبخه ضار.

الكمثرى: وليست بحجم الكمثرى فى بلاد الروم وهى فى حجم كمثرى مدينة أخلاط. والإفراط في أكلها يصيب المعدة بالضغط.

التفاح: وأكبر حجم للتفاح فى تلك الأراضى يكون فى حجم الخوخ العادي ونظرا لجنيه قبل نضجه تماما فمذاقه مزز، وإذا طهى بالسكر وأكل قدر كافٍ منه يساعد على هضم الطعام.

البرقوق: ويوجد فى الطائف ما يسمى بـ «برقوق مردم» فقط وأكله غير مرغوب لأنه يسبب الإسهال.

التمرهندى: الجاف منه مثل قشر الشجر الأحمر إذا بلل بعضه في الماء يصبح لونه أحمر ويكون شرابا ذا طعم حمضى وشرابه الممزوج بالسكر خافض للحرارة.

العنب: يرى الأطباء أن الطازج منه يبرد الدم ورغم أن ضرره أقل من الفواكه الأخرى فإن الإفراط فى أكله يسبب إسهالا مؤلما. والعنب الموجود فى مكة المزروع فى الطائف له قشرة سميكة بعض الشيء وهو لذيذ الطعم.

التمر: رغم أنه لذيذ الطعم ولزج فإذا ما أكله سكان البلاد الباردة بكثرة وشربوا الماء عقب أكله شعروا مباشرة باضطراب فى القلب فأكله بإفراط مضر.

اللوز: وهو بطئ الهضم لكن منقوعه يمنع الحرارة ويسكن الألم.

الجوز: ويزرع فى الطائف وأكل قدر كاف منه بعد نزع قشرته الداخلية لا ضرر منه ومع هذا فإن أكل الجاف منه مضر فى الأراضى الحجازية.

التوت: يمكن أن يعثر فى الحجاز على التوت الأسود فقط وبما أنه سريع التلف لابد من توخى الحرص عند أكله.

العناب: ويجلب من الشام الجاف المطبوخ منه مفيد لمرضى الصدر، يطبخه أهل جدة ومكة مع الكمون الأسود أو الكزبرة ليتناوله من يصاب بالحمى الصفراء.

البطيخ والشمام: وأكل البطيخ فى الأيام الحارة يرطب الجسم ويسكن فورة الدم وسخونته، ومع هذا فإن الإسراف فى أكله يسبب الانتفاخ والضيق للإنسان.

أما بالنسبة للشمام فإن أكله أحيانا يسبب تعبا فى القلب، لذا لا يصح أكله طالما أنه غير ناضج.

البرتقال: رغم أنه يزرع فى الأراضى الحجازية منذ عدة سنوات إلا أن أغلبه يجلب من مصر وأكل ثمرته أمر طيب وشرب عصيره فى أوقات القوة والصحة لا مثيل له فى خفض الحرارة وإزالة جفاف الحلق وتنقية الدم.

الليمون: ويضاف إلى الأطعمة المناسبة له ويعمل منه عصير الليمون ويشرب. ولكن الإفراط في أكل الليمون الحلو ضار.

الليم: نوع من النارنج، وفير الماء حامض الطعم وتختص به مكة المكرمة ويستعمل بها بدلا من الليمون.

وليكن معلوما لدى الذين يشربون «الليمونادة» المعمولة من الليم أن هذا المشروب أفضل من عصير الليمون من حيث الرائحة وملائمته للمعدة. وعند عصره ينزع قشره الخارجي وإذا لم ينزع القشرة تزيد من مرارة الشراب.

الرمان: وفائدته كبيرة إذا ما شرب معصورا سواء المر منه أو الحلو، فشراب المر منه يرطب الدم ويسكن السخونة. ومع هذا فإن أكل الحلو منه ببذوره يفسد المعدة.

الموز: ويشبه فى الطول والعرض الخيار الروسى الطازج والذى يسمى الخيار البرى أفضله ما يزرع فى الأراضى اليمنية. والموز الذى يزرع فى منطقة الحجاز ويستساغ أكله بعد نزع قشرة الناضج منه مع السكر. الإفراط فى أكله مضر لصعوبة هضمه.

الخيار: ملين وملطف وأكله أثناء الطعام مع السلاطة فاتح للشهية.

العجور: وهو من فصيلة الخيار وتأثيره يشبه تأثير الخيار ويستعمل الطازج منه فى جزيرة العرب فى «السلاطة» مثل الخيار ويؤكل بعض أنواعه مطبوخا مثل القرع.

ويصنع منه نوع من المحشى، لكن نظرا لصعوبة هضمه، فالإكثار من تناوله ضار بأهل البلاد الباردة.

الهندباء: أحد أنواع الخضر في مكة المعظمة، وطعمها لطيف وهضمها سهل وجيد، ورغم مرارة مذاقها بعض الشيء عند أكلها فإنها تكسب المعدة قوة لأنها تساعد على هضم الطعام.

الخرشوف: رغم حداثة زراعته فى حدائق الطائف فإن أهل مكة يعتبرونه من الخضر وهو مستساغ الطعم. وإذا طبخ جيدا يلذ مذاقه ولا ضرر منه لسرعة هضمه.

البامية: وهى ملينة وإذا طبخ الطازج منها بطريقة جيدة لا ضرر من أكلها وذلك

لسرعة هضمها. ولا تخلو منها مكة المكرمة صيفا وشتاء وهى مستساغة بين أهل مكة.

الكرفس: إذا طهيت جذوره وأوراقه بشكل جيد يكون طعمه مستساغا وسريع الهضم.

الفاصوليا الخضراء: وهضم الطازج منها ليس عسيرا وإذا طبخت بطريقة جيدة فأكلها شهى جدا.

السلق: يجب الحذر من أكله بسبب بطء هضمه.

الجزر اليمانى: هو الخضار المعروف باسم «الجزر اليمانى» وبما أنه يحتوى على مادة الدقيق لذا يشعر الإنسان بالشبع عند أكله. ويؤكل مسلوقا أو مطبوخا وفى كلتا الحالتين يشبه مذاقه مذاق الكستناء. ومع هذا فإن الإكثار فى أكل النوع البرى منه المسمى «جزر المدينة» يوجع البطن لأنه بطئ الهضم.

الباذنجان: بما أنه بطئ الهضم فهو يسبب عسر الهضم، لذا وجب التحرز من أكله فى الأراضى المباركة.

الفاصوليا الجافة والفول الجاف: والحبوب المذكورة إذا أكلت قبل طهيها جيدا تسبب الانتفاخ فى البطن وعسر الهضم، كما أن أكلها مطبوخة يسبب الرياح لذا أكلها فى الأراضى الحجازية ضار.

الفجل: رغم أنه مهضم إلا أنه مدر للبول ومسبب للرياح لذا فأكله بكثرة مضر حتى لو كان فى «السلطة».

شبت: مصلح للمعدة، إذا أضيف إلى أى نوع من الأطعمة يكسبها نكهة لذيذة ورائحة طيبة. ويساعد على سرعة الهضم لأنه يفقد خواصه عند طبخه يجب إضافته إلى الطعام بعد طهيه.

الثوم: رغم أنه عند طبخه يساعد على هضم الطعام؛ إلا أن رائحته قوية ولا

تزول بسرعة. كما يحظر أكله فى المناطق الحارة وذلك لأنه يكسب الجسم حرارة عند تناوله.

الكمون: عندما يضاف إلى الأطعمة فإنه يقوى المعدة ويفتح الشهية.

أسباب ظهور الأمراض فى مكة المفخمة

فيما مضى كان الحجاج الذين يأتون مع المحمل الشامى ينصبون خيامهم بجانب الآبار التى فى طريق العمرة، كما كان حجاج المحمل المصرى ينصبون الخيام فى السطح أى المسطح الذى أمام الموقع المسمى «الشيخ محمود»، وكانوا يتركون فى الميدان مخلفات الأغنام التى يذبحونها مكشوفة، كما كانوا يتركون بين الخيام جيف الإبل والخيول التى تنفق من المرض والتعب فى أثناء الطريق.

وكان الحجاج الذين يهبطون إلى منى لرمى الجمرات فى أثناء عودتهم من عرفات يتركون مخلفات الأضحيات فى المكان المخصص للذبح أمام الخيام، وأما من يذبحون الماعز فكانوا يتركون أجساد الماعز كاملة فى المكان الذى كانوا يذبحونها فيه وكانوا يتركون جيف الإبل التى تنحر خلف الجمرة الكبرى فى مكان نحرها وعند ما يتفق وجود الفضلات المتراكمة والقمامات من جيف الحيوانات وسط الخيام المنصوبة بين طريق العمرة وساحة «الشيخ محمود» كان المارة يعجزون عن المرور بسبب الرائحة الكريهة المنبعثة منها، ويصاب أغلب سكان الخيام بالأمراض مثل الصداع والغثيان. ولهذا كان الحجاج المساكين يعانون بجانب شدة الحرارة من تعفن جثث الأضحيات الملقاة هنا وهناك بين الخيام، وهذه الحالة الكئيبة يعجز القلم عن وصفها.

وهكذا كان الحجاج يتعذبون ثلاثة أيام مدة مكثهم فى منى. ولا يخلون من الشعور بالغثيان ويظلهم الخوف والتفكير فى الموت.

ولما كان المراد أن يقضى الحجاج الكرام فى هذا المكان الكئيب الموبوء الأيام الثلاثة فى صفاء الخاطر وطمأنينة، وأن يؤدوا مناسكهم فى هدوء بال وراحة وأن يصانوا من المخاطر القاتلة، اقترحت بعض الجهات المهتمة بالأمور ـ نتيجة

للتصور الحكيم السابق أن يحفر بجانب كل خيمة بئر يلقى فيها مخلفات الأضحيات ثم تغطى بعد ذلك؛ ولكن هذا الاقتراح لم يحظ بالقبول بين جماعات الحجاج ـ لأنه من قبيل ـ التكليف بما لا يطاق ـ ورفضوه قائلين إننا لن نظل هنا بصفة دائمة.

وقد فطن فى النهاية إلى أن الإصابة بالعلل الضارة مثل: الحمى والغثيان والصداع كان نتيجة لعدم الاهتمام بالأمور الصحية وعدم المبالاة بالنظافة والطهارة.

لذا كان من الإرادة السنية العادلة الكثيرة المحامد أمر السلطان «عبد المجيد» ـ جعل الله مثواه الجنة ـ أن تحل جميع المشكلات التى يشاع وقوعها فى أثناء موسم الحج، وأن يبحث عن حلول مناسبة للقضاء على جميع متاعب الحجاج الكرام الطالبى المغفرة.

وبما أن أغلب الحجاج ـ فى زماننا ـ يذهبون لأداء فريضة الحج عن طريق البحر فقد قل عدد الحجاج المشتركين فى قوافل المحامل، كما أنه قد تم حفر كثير من الحفر فى أماكن الحجاج بين طريق العمرة وميدان «الشيخ محمود»، ودفن فيها مخلفات الأضاحى المذبوحة فى «منى» عند العودة من «عرفات» ابتداء من سنة ١٢٦٧ هـ، وهكذا خلت أماكن تجمع الحجاج من المخلفات التى كانت تفسد الهواء فى الماضى.

والآن قد اختفت تماما آثار التعفن ولم يعد لها أدنى أثر فى أماكن تجمع الناس فى مدينة مكة المعظمة، فى عهد السلطان ـ ظل الله على أرضه ـ واستراح الحجاج المسلمون وسكان البلد الأمين من المنغصات، وأصبحوا فى مأمن من كل الأمراض.

ومع هذا فإن أغلب الحجاج الذين يتوجهون لأداء فريضة الحج جهلة لا يعرفون أن كل ما ينفق فى سبيل زيارة أراضى الحجاز المقدسة تعد بمثابة صدقة. كما لا يعرفون أن الإقامة فى الأماكن المكشوفة الجيدة التهوية للمحافظة على

صحة الأبدان، قدر المستطاع والاهتمام بنظافة أماكن إقامتهم وتطهيرها من القاذورات من الأمور التى أوجبها دينهم.

ونتيجة لهذا الجهل وطمعا فى تقليل النفقات يستأجرون غرفا صغيرة ضيقة، ويسكن سبعة وثمانية منهم فى هذه الغرف السيئة التهوية، حيث لا يستطيعون أن يتنفسوا إلا بصعوبة، ويأخذون فى طهى طعامهم فوق «الكانون» وهم أحرص الناس على شراء العطور والهدايا التى سيحملونها إلى بلادهم.

نعم يطبخون ويرمون فضلات أطعمتهم أمام الباب لكنهم يغفلون عن أن هذه الفضلات ستفسد بفعل الرطوبة وتصيبهم بالعلل والأمراض فيمرض الواحد منهم تلو الآخر. وهكذا يحرمون من زيارة أكثر الأماكن المقدسة.

إن ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف من لحظة لأخرى ورائحة الطعام المطبوخ فوق «الكانون» فضلا عن حرارة الموقد كل هذا يجعل الغرف تلتهب مثل الآسن المسلوق، ومع زيادة آثار الروائح العطرية والماء القذر الذى يسكب أمام الأبواب، مع القاذورات التى تتراكم بعضها فوق بعض تفسد وتتحلل بتأثير الرطوبة فتزيد عفونة المكان، فتنتشر جميع أنواع الحمى وكل الأمراض الضارة وسرعان ما تنتقل العدوى من أحد المقيمين فى هذه الحجرات إلى زملائه فيمرضوا كلهم دفعة واحدة ويعانون من قسوة المرض.

وبناء على هذا الوصف فإن مكة المعظمة لا تخلو فى أى وقت من الأوقات من الحمى، ويلزم أن يتعرض أكثر الحجاج لهذا المرض ويصبحون على مشارف الموت. إلا أن هواء هذه البقعة المقدسة جاف ونقى وصحى لذا، فمن النادر أن يتطور المرض تطورا شديدا فيتحول إلى الحمى المهلكة كما يحدث فى الأماكن الرطبة، وذلك بلطف الله وفضله.

وبالرغم من أن أمراض الرقعة الحجازية السعيدة كلها من أنواع الحمى؛ فإن هذه الأمراض تنتشر فى أوقات الجفاف عندما يقل معدل هبوط الأمطار. وعلى العكس من هذا إذا انهمر المطر بغزارة وتصادف معه ظهور الأمراض فإن المطر

يقضى عليها لأن المطر عندما ينزل كالرذاذ يبلل القمامات والمخلفات المتراكمة حول الأحياء السكنية، فتتخمر بتأثير الحرارة وتتصاعد منها أبخرة ضارة وعندما تغيب الشمس فإن المواد الضارة المذكورة تهبط فى الليل على هيئة الندى فتصيب الذين يتعرضون لها بالعلل والأمراض.

ولكن إذا ما انهمر المطر بغزارة فإن السيل الناجم عنه يدفع القمامات والمخلفات المتراكمة من الطرقات إلى أماكن بعيدة ولا يبقى أثر للعفونة. كان فيما مضى ناحية «المعلى» حوض كبير قديم خرب يسمى «بركة مصر» وكان هذا الحوض الواسع جديراً بأن يسمى منبع مرض الحمى، فقد كانت قمامة البيوت والحوانيت الموجودة بجواره وجثث الحيوانات النافقة مثل الإبل والخيل والقطط والكلاب التى تهلك فى المناطق القريبة منه تلقى فى هذا الحوض، وأصبح هذا الأمر بمثابة العادة المرعية لدى الناس؛ لذا كلما هطلت الأمطار تتراكم المياه فى الحوض وتؤدى بتأثير حرارة الشمس إلى تحلل الجيف وتتصاعد منها رائحة العفن، وتنتشر الأبخرة فى كل الأماكن مما يفسد نقاء الهواء وصفاء الجو فى تلك المنطقة ويكون سببا في ظهور الأمراض القاتلة.

ولما كان مصطفى جامى باشا ـ المغفور له صاحب التصانيف التى لا حصر لها ـ ياورًا فى إمارة الحجاز، قام بسد الحوض المذكور ومقالب القمامة القريبة منه وملأها بالحجارة والتراب، واقتلع تماما الأسباب التى تؤدى إلى ظهور كل أنواع الأمراض، التى يروى أنها تظهر فى مكة المكرمة متبعا القواعد الصحية فى هذا ولهذا لم يبق في الأرض العطرة لكعبة الله أى من الأسباب الظاهرة التى تؤدى إلى انتشار الحمى وكل أنواع الأمراض.

نصائح لمن يذهبون إلى الحجاز:

أن يكون طعام الإنسان وشرابه ولبسه وتنزهه ونومه وقيامه يوافق عادات موطنه الذى تربى فيه، بل إن مزاجه وميوله وطباعه تكون متوافقة لهواء هذا الموطن. وبناء على هذا عندما يغادر الإنسان المكان الذى ولد فيه وعاش وتربى

فيه فعليه أن يتخذ الاحتياطات التى تنجيه من المخاطر والمهلكات، وأن يحرص على قضاء مدة رحلته بالشكل الذى اعتاده جسمه فى وطنه لأن جسمه قد يضطرب بسبب التغيرات التى سيتعرض لها.

واتخاذ كل الإجراءات السابقة أوجب بالنسبة للذين اتجهوا محرمين إلى أرض الحجاز أرض المغفرة، حتى لا يقضى على آمالهم وحلمهم بالحج إلى الأراضى المقدسة تعريضُ أنفسهم للأمراض المهلكة.

وبعض الأشخاص من أهل البلاد الباردة لا يراعون اتباع التوجيهات المذكورة فى تلك المناطق فيعرضون للإصابة بكل صنوف الأمراض والعلل فى الأراضى الحجازية المباركة، وبالتالى يعجزون عن زيارة الأماكن المقدسة.

ويتعرض المسافرون إلى أرض الحجاز لتعب شديد، لأنهم عزموا على زيارة بلاد لم يمروا بها من قبل عن طريق البحر أو البر، بلاد يتعرضون فيها لتقلب الجو برودة وحرارة ويضيقون ذرعا كذلك من كثرة النوم أو قلته.

أما بالنسبة للطعام فإن الحجاج يعانون مشقة فائقة يعجزون عن الحفاظ على صحة أبدانهم؛ وينجم عن هذا الأمر تغيرات كبيرة وخيمة فى أبدانهم مما يؤدى إلى اضطراب أمزجتهم وفساد أمعائهم، وبما أن كل إنسان ينام ويستيقظ وفق نظام اعتاده فى بلده ويأكل ويشرب حسبما يرغب إلا أنه فى هذا الطريق يتعرض لحرارة لم يعتدها فى بلده ويظل لمدة عشرين أو ثلاثين يوما على التوالى يأكل الجبن والزيتون وما شابههما من أنواع الطعام فعليه أن يراعى ما اعتاده.

عند وصول الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة من الطبيعى أن يستفيدوا من جودة الهواء ونقائه، لكن لانعدام المعلومات عندهم عن طبيعة المنطقة الحجازية وجوها، واستغراقهم فى العبادة بشكل مبالغ فيه يفوق التحمل وبتناولهم الأطعمة الضارة بهم والفواكه المتنوعة بدون نظام فإن ذلك يسبب أضرارا كثيرة للحجاج ذوى الابتهاج ويعرضهم للأخطار.

وقد ثبت فى الآثار الصحيحة والأخبار المتوافرة تضاعف ثواب أداء العبادات

فى الحرمين وتزايد ثوابه ولما كانت عبادة الله الواحد الأحد تعتمد على صحة الجسم يلزم الحفاظ على صحة الجسم وقوته للمواظبة على أداء العبادات.

وبناء عليه يجب على الحجاج الكرام أن يحملوا معهم ملابس مناسبة لجميع الأجواء، وأن يرتدوا من الملابس ما يناسب طقس كل مكان يحلون فيه، وأن يبذلوا عناية فائقة للحفاظ على أبدانهم حتى لا يصابوا بالمرض المفاجئ فى أثناء ذهابهم أو عودتهم.

ويجب عليهم أن يأخذوا معهم أشياء مثل: الحبوب الملينة والأدوية القابضة للإسهال وأنواع الشاى وزهور التليو وأن يواظبوا على شرب الشاى فى الصباح والمساء فى البر والبحر.

وإذا أمكنهم المواظبة على تناول الماء والأطعمة المطبوخة صباحا ومساء يجب ألا يمتنعوا كما اعتادوا ذلك فى بلادهم.

وإذا حدث نوع من الإسهال أو الإمساك بتقصير الجسم فى وظيفته الطبيعية يجب أن يقضى على أسبابه قبل أن تمر ٢٤ ساعة.

وإذا شعر الحاج بالتدهور فى صحته على الباخرة بتأثير البرودة أو الحرارة يجب عليه أن يدخل القمرة فورا، ولا يلتفت إلى الأموال التى سينفقها فى استئجار القمرة محافظة على صحته، أليس هذا أفضل من ضياع صحته فلا يستطيع تحقيق أمله فى أداء فريضة الحج، إن النقود التى تنفق من أجل المحافظة على صحة الجسم والبدن تدخل ضمن المبالغ التى تدخر لأداء فريضة الحج كما سبق أن ذكرناه من قبل.

ولا يتطرق أدنى شك إلى الحاج فى أن الحافظ والحامى الحقيقى هو «الله عز وجل»، لكن الأخذ بالأسباب فى كل شىء شرط أساسى؛ لذا يجب بعد الإحرام الامتناع عن النوم فى العراء، وعند الوصول إلى جدة يجب عدم تناول الأطعمة بلا داع.

ويجب للحفاظ على صحة المعدة وسلامتها سلق اللحم فى الماء وتناول حسائه والامتناع عن تناول الفاكهة التى لا يوجد منها فى وطنه، ويجب أن يحترس فى كل الأحوال من الإفراط فى أكل الأطعمة مثل البلح والفطائر.

وبمجرد أن تظهر علامات المرض على الجسم أو المعدة يجب عليه أن يسرع فورا وبلا تراخ إلى الأطباء المتخصصين والذين لهم دراسة بمياه تلك المناطق وهوائها والانصياع بعد ذلك لنصائحهم.

وعند الخروج للطريق للذهاب من جدة إلى مكة المعظمة يجب على الحاج المداومة على تناول الماء والأرز واللحم المقلى، ويجب الاحتراس والتريث أثناء ركوب الجمل أو النزول منه حتى لا يؤلم أحد أطرافه أو يصيبها بأذى.

وعندما يتيسّر الوصول إلى مكة المكرمة يتحلل من الإحرام بعد الانتهاء من أداء شعائر الطواف والسعى.

وحسب عادات هذه البلدة يقيم السادة الأدلاء والسقاة مأدبة.

ولأن هذه المآدب قد تكون ضارة بالحجاج لما تحتويه من أنواع الطعام الشهية والتى يعدونها على أكمل وجه؛ يجب الاحتراس من تناول الأطعمة مثل الفطائر والحلوى والأطعمة التى تحتوى على دهون زائدة، ويكتفى بتناول أقل القليل منها، وإذا ظهر اضطراب فى معدته يجب عليه أن يحرص على علاج معدته دون إضاعة وقت وذلك بتناول الأدوية المناسبة.

ولأن الإمساك ضار بذوى البدانة لذا يجب عليهم الامتناع عن تناول الأطعمة التى تفسد المعدة والعناية بهذا الأمر أعظم عناية فى هذه البلاد.

ويحدث اضطراب المعدة من تناول مختلف الأطعمة والمشروبات بغير نظام. ولأن شدة الحرارة تعطش الإنسان لذا يجب الابتعاد عن تناول الطعام بلا داع وكذلك عن شرب الماء أكثر من اللازم ويشرب الشاى من حين إلى آخر على ألا يؤدى إلى الإصابة بالإمساك.

وعلى الحجاج ـ ليلا ونهارا ـ الاكتفاء بتناول طعام مفيد للجسم والابتعاد عن النوم تحت الشمس.

ومن الأمور الجديرة بالعناية اختيار حجرات ذات تهوية جيدة وفى الطبقات العليا أو الوسطى من المبنى عند الاستئجار وألا يزيد عدد المقيمين فى حجرة واحدة عن ثلاثة أشخاص، ويجب على الحاج عدم شرب الماء عند العرق وكذلك عدم النوم فوق الأسطح ليلا كما يجب مراعاة المداومة على الاستحمام.

ولأن أجسام المقيمين فى منطقة الحجاز تتعرض للعرق كثيرا ويؤدى هذا العرق إلى ظهور مادة دهنية فوق سطح الجلد. فتنغلق مسام الجلد وتحول دون خروج العرق إلى سطح الجلد.

وبالتالى تظهر على الجلد حبوب حمراء دقيقة تؤدى إلى ظهور بثور ممتلئة بالماء.

وحتى لا تتحول هذه البثور الصغيرة إلى قراح (خراج) يجب الاستحمام مرتين أو ثلاث مرات على الأقل فى الأسبوع والاهتمام بتغيير الملابس باستمرار.

وطوال فترة الإقامة فى وادى عرفات ومنى يجب الجلوس فى الخيام، وعدم تناول الفاكهة والأطعمة الضارة بالجسم وعليه تجنب السير تحت أشعة الشمس وهذا من الأمور اللازمة للحفاظ على صحة الجسم. وعند الإقامة فى منى لا بأس من الأكل من لحم الأضحية لكن من اللحم المشوى فى السفود بلا دهون وسلق اللحم فى الماء مع الأرز وتجنب أكل اللحم فى الزيت وكل أنواع الطعام الأخرى لضررها ويجب إحضار اللحم الذى يؤكل فى هذا المكان المقدس من عرفات أو من مكة المعظمة لأن لحم الماشية التى ترعى فى هذه الصحراء المباركة يؤدى إلى الإصابة بالإسهال؛ لأن صحراء منى ينتشر بها عشب السنامكى.

ولأن الإنسان يتردد فى الطريق بين الحرمين بصورة دائمة لذا يجب قبل التحرك من مكة المكرمة أو المدينة المنورة إعداد القدر الكافى من اللحم المقلى والأرز ويكون الطعام الذى يؤكل أثناء الطريق عبارة عن ماء اللحم المقلى والليمونادة وما شابههما من أنواع الأطعمة.

ونتعرض فيها لتعريف وذكر لماذا أطلق على البيت المعظم اسم الكعبة وما كانت عليه الأحوال في البلدة المفخمة مكة المكرمة في العصور الأولى.

فى الأزمنة القديمة كانت القاعدة المرعية أنه ممنوع بناء أبنية داخل المدينة المقدسة مكة المكرمة أعلى من البناء الشريف لكعبة الله. وقد سمع من الحجاج الذين يترددون على تلك الأماكن أن من يخالف هذه القاعدة سرعان ما يتهدم ما شيدوه من مبانى ويصير جزازا.

اتخذ هذا المنع حكم الاعتقاد العام بين أهل مكة لذا كانوا يمنعون إقامة أى أبنية ترتفع عن بناء البيت المعظم وقوى هذا الاعتقاد عندهم وأن من يتجرءون على إقامة أبنية تعلو على الكعبة ممن يرفضون هذا الاعتقاد كانوا يرون أن ما يشيدون سرعان ما يتهدم ويصير جزازا.

واستمر هذا الاعتقاد سائدا لفترة بين أهل مكة فى صدر الإسلام أن ابنًا لشيبة بن عثمان ـ رضى الله عنه المنان ـ صعد جبل أبى قبيس، وأمر بهدم المبانى التى رآها أعلى من بناء الكعبة المعظمة، كما أمر بهدم المنزل الفخم الذى بناه محمد بن على بن عبد الله بن عباس أمام الحرم المحترم فى شارع المسعى الشريف، لأنه يرتفع على البناء السعيد للبيت الأكرم. واهتم أهل مكة بالمحافظة على هذا الاعتقاد القديم السائد بينهم بشأن البناء الفخم للبيت المعظم.

وبناء على هذا الاعتقاد لم تظهر فى مكة المعظمة طوال عدة قرون أى مبان تعلو على بناء البقعة المشرفة للكعبة المكرمة. ولأنها ظلت تتميز على كافة الأبنية الموجودة لأزمنة طويلة بعلوها وارتفاعها، لذا أطلق اسم الكعبة على البيت الأعظم. وذكروا أن هذا الاسم الشريف مشتق من كلمة كعب وإذْ يوجد بعض

الرواة ممن يقول بأن تسمية الكعبة يرجع إلى أنها ذات أربعة زوايا أو أنها مرتفعة عن سطح الأرض مثل كعب الرجل، لكن جمهور المؤرخين يصدقون القول الأول. ولأن الكعبة هى أشرف من كل البيوت والقصور الموجودة على وجه الأرض.

كما أنها من ناحية القدم الأفضل والأقدم كان ذلك سبب إطلاق هذا الاسم الشريف «البيت العتيق» على البيت المحترم وهو الدليل المطلق على شرف وارتفاع مكانة هذه البقعة المقدسة لأن البيت العتيق أحد أسماء البيت المكرم.

ويروى الحسن البصرى أن سبب إطلاق هذا الاسم أنه أول بيت أسس ليزوره بنو البشر، وهو عند الإمام مجاهد أن الله حفظه وحماه من الجبابرة الذين أرادوا هدمه وتخريبه، وفى قول قتادة سببه أن الله حفظه من طوفان نوح عليه السلام. وقال الفخر الرازى إن هناك عدة وجوه لاشتقاق هذا الاسم والقول أنه قديم له علاقة بكونه أقدم البيوت على وجه الأرض والسماء، وأن الله قد حفظه من الطوفان وأهلك كل من أراده بسوء وأنه وجد قبل أن يكون لأحد مكان. والله تعالى يعتق من نار جهنم عباده الذين يزورون هذه البقعة المباركة.

وهذه الأقوال وما شابهها من أسباب كانت تقتضى أن يطلق على البيت المحترم اسم البيت العتيق.

وإلى أن انتقل حكم مكة المكرمة من أجداد حضرة الرسول عريق الأصول ذوى المعالى إلى قصى بن كلاب لم يكن فى هذه المدينة المعظمة بيوت أو مساكن. وكما وضحنا فى الصورة الثانية من الوجهة الثانية أنه عندما أصبح ابن كلاب حاكمًا لمكة المكرمة ارتضى بإنشاء بيوت حول الكعبة، وإذا كان رضاء ابن كلاب هذا قد جاء شديد الوطأة على الناس. ولم يجرؤ أهل مكة على بناء منازل بجوار كعبة الله دفعة واحدة رعاية للقاعدة القديمة إلى حد ما فإن عمرو بن السهمى لم يرع هذه القاعدة فَبَنَى لنفسه منزلا خاصا بناه بناء على رأى وتصويب قصى بن كلاب واتبعه آخرون بعد ذلك فى هذه الخطوة الجريئة. وبدأ واحد تلو

الآخر فى بناء بيوت لهم. وسرعان ما أقيمت بيوت وحوانيت كثيرة لا مثيل لها واتسعت هذه المدينة المقدسة وملأها العمران.

الشكل الأول:

لم يكن العمران فى المدينة المقدسة مكة المشرفة عمرانًا دائما، فكانت فى بعض العصور حافلة بالعمران وفى البعض الآخر تعانى من الخواء وتصبح منازلها خاوية مهجورة، وفى أوقات خلوها تكون خالية من الأهالى لدرجة أن حركة البيع والشراء فى الحوانيت التى فى شارع المسعى الشريف تتوقف تماما، فتهبط الظباء من الجبال وتدخل الحرم الشريف ثم تخرج منه بعد الطواف وتعود من حيث أتت، حتى إن قوافل بجيلة لا تجد إنسانا واحدا حتى تبيع له بضاعتها التى أتت محملة بها فتضعها فى مكان ما وترجع.

أما سبب كل هذا الفراغ فيرجع إلى أن أهل مكة لا يستطيعون تحمل ارتفاع درجة الحرارة؛ فيهجرونها إلى الأطراف المحيطة بها.

وتراوحت أحوال هذه البلدة المشرفة بين القحط والرخاء والبركة والغلاء، ولم يكن الأمر فيها يسير على وتيرة واحدة فتارة لا يوجد بها شىء يؤكل وتارة أخرى لا تستوعب الأسواق ما يرد إليها من حبوب ومواد غذائية. ويذكر فى تاريخ القطب المكى أحد مؤرخى مكة وهو يصف ويذكر أحوال مكة المعظمة قائلا: «إنى فى مرحلة الصبا كنت كثيرا ما أرى المطاف السعيد خاليا من الناس فكنت أطوف بمفردى»..، وهو يريد بهذه العبارة الإشارة إلى الفترات التى كانت مكة المكرمة خاوية بشكل ملحوظ، وإلى المعاناة الكبيرة التى قاستها من القحط والغلاء فى الأوقات التى ذكرها القطب المكى، كان أهل مكة قلة قليلة، وكانت النقود المتداولة التى تزين الصناديق نادرة، لذا لم يكن فى حوزة أحد من الأهالى قطعة نقود واحدة، كما انتهت البضائع التى فى الأسواق ولم يكن يوجد فيها شىء من البضائع والأغذية.

واستمرت هذه الحال إلى عام ٩٥٠ هـ وعندما انتقلت الإدارة المقدسة

للحرمين الشريفين إلى سلاطين آل عثمان، بدأ الأهالى المجاورون فى التقاطر عليها يوما بعد يوم فتوفرت الأطعمة والبضائع بالتدبير وأصبحت هذه البلدة المشرفة فى موسم الحج تستوعب كل قوافل الحجاج التى ترد إليها واتسعت أرجاؤها وأصبحت قادرة على إيواء وإسكان كل الحجاج الذين يفدون إليها.

الشكل الثانى:

ما يقصده القطب المكى من قوله «إننى كنت أطوف بمفردى» هو إيضاح أن أجره وثوابه يكون أكبر لكونه يطوف منفردا، والواقع أن الطواف عبادة خاصة فإذا استطاع إنسان أن يوفق فى طواف البيت الأكرم منفردا فلا شك أنه لن يحرم من ثواب كبير يكفى لطواف كل المؤمنين، وخلو الحرم الشريف يكون قاصرا على بنى البشر فقط إنما لا يمكن أن تمر دقيقة واحدة عليه يكون خاليا من تدفق الملائكة الكرام وأصحاب الأجسام الشفافة اللطيفة، ومن الأولياء ذوى الاحترام الذين تخطوا مراتب الزمان والمكان العالية.

ولأن هذه الحال فى الظاهر مخالفة لعادات واعتقاد أهل الاستدلال، فإن كثيرا من الأشخاص قضوا أعمارهم كلها للحصول على لحظة واحدة للطواف بمفردهم حول الكعبة الشريفة.

لما كانت جميع العبادات وأقسام الطاعة الإلهية يشترك فيها الناس، فطواف الكعبة منفردا يعتبر عبادة لله بدون شريك وإذا استطاع إنسان ما أن يطوف الكعبة بمفرده يكون قد عبد الله تعالى بدون أن يشاركه فيها أحد حسب ظاهر الأمر.

حكاية: يروى أن واحدا من الأولياء كانت لديه رغبة حقيقية فى أن يطوف بالكعبة المعظمة بمفرده، وظل يتحين الفرصة لمدة أربعين سنة وفى النهاية وجد المطاف خاليا ذات ليلة فأخذ يطوف بمفرده. وفجأة رأى حية ضخمة تطوف معه فسألها قائلا «من أنت»؟ فأجابته الحية «إننى أتحين الفرصة التى تنتظرها من أربعين عاما بمائة عام من قبلك.

فأجابها الرجل الصالح: «أنت لست من بنى البشر لذا أعتبر من المحظوظين بنيل هذه الأمنية، ثم أكمل طوافه.

ينقل أهل مكة هذه الحكاية ويروونها بشكل آخر فيقولون إن عبد القادر الجيلانى ـ قدس الله روحه ـ ظل يقيم بجوار العمود الأحمر الواقع أمام باب الزيارة لمدة سبع سنوات، حتى يتمكن من الطواف بمفرده ولم يستطع أن يبلغ مراده طول هذه المدة وفى النهاية حدث سيل عظيم وبلغ ارتفاع الماء داخل المطاف السعيد حوالى ثلاثة أذرع، ووجدها القطب الجيلانى الوقت المناسب لتحقيق أمنيته وبدأ الطواف سابحا لكنه رأى ثعبانا كبيرا يطوف معه سابحا فتأسف قائلا» وأسفاه لم أتمكن من تحقيق أملى».

ويروى محيى الدين بن عربى فى المسامرات نقلا عن طلق بن حبيب رواية قريبة من هذه الرواية، يقول ابن حبيب بينما كان يجلس معه عبد الله بن عمرو بن العاص فى الحجر العظيم بدأ فجأة ظلام شبح داخل الحرم الشريف وأثار الموجودين فيه، وإذا بثعبان عظيم دخل من باب شيبة، واتجه نحو البيت الأكرم، وخاف الذين شاهدوه وأفسحوا الطريق أمامه، فطاف الثعبان سبع مرات ثم وقف خلف مقام إبراهيم مدة أداء ركعتين ثم بعد ذلك انصرف إلى جهة، واقترب ابن حبيب وعبد الله بن عمرو بن العاص من الثعبان وقالا: أيها المعتمر تقبل الله نُسُكَكَ وعبادتك، فى بلدتنا بعض السفهاء ونحن ننذرك من عدم حذرك شرهم.

ما إن قلت هذا حتى راح واختفى فى طرفة عين ولم يعد له أى أثر وما كان الطواف حول الكعبة المشرفة للبشر وحدهم بل للحيوان كذلك، كان يطوف طبق أصول مرعية.

(الإمام الأزرقى).

ولكى يثبت هذا الأمر فى تاريخه المسلسل الذى كتبه عن أحوال مكة، يذكر صورة غريبة نقلها عمن رأوه يطوف بالبيت المحترم كما يطوف الناس.

طواف طائر بالبيت المعظم:

يقول الإمام إنه فى يوم السبت السابع والعشرين من شهر ذى القعدة فى العام السادس والعشرين بعد المائتين من الهجرة بينما الحجاج يطوفون فى وقت السحر إذا بطائر عجيب الهيئة يخطف البصر يدخل الحرم الشريف للمسجد الحرام مع طلوع الشمس عن طريق أجياد الصغير ويحط بجوار أحد قناديل زمزم الشريف الذى يقع بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم، ويظل واقفا لمدة طويلة وأكثر الظن أنه من طيور البحر، وبعد ذلك طاف وحط فى مكان بين الحجر الأسود الذى فى الكعبة والركن اليمانى، ولكنه كان أقرب إلى الحجر الأسود. وكانت أجنحة هذا الطائر سوداء ممزوجة بالحمرة، وكانت قدماه طويلتان دقيقتان وكذلك منقاره وعنقه. وطار من المكان المذكور يحط فوق كتف حاج يقف بمحاذاة الحجر الأسود ثم طار من فوق كتفه ليحط فوق الكتف الأيمن لحاج من حجاج خراسان. وبما أن الخراسانى كان محرمًا أخذ يلبى بصوت مرتفع وعند اللزوم يجرى ويدور فى وسط الحجاج.

وظل الطائر فوق كتف الخراسانى غير خائف من الحجاج وكان الحجاج الذين يطوفون مع الخراسانى ينظرون إلى تصرفاته بتعجب أما الطائر فكان يزداد سكونا وهدوءا رغم ازدياد تعجب الناس ودهشتهم، ويبدو أن حال الطائر قد أثر فى الخراسانى لأن المسكين كان يطوف ويبكى والدموع التى تسيل من عيونه تبلل لحيته وتسقط على الأرض.

قال محمد بن أبى عبد الله بن ربيعة الذى رأى بنفسه هذا الحادث الغريب: «لقد رأيت ذلك الطائر فوق الكتف الأيمن للحاج الخراسانى وكان الناس يتدافعون لرؤيته. أما هو فلم ينفر ممن يتفرجون عليه بل أنه لم يُولِ لهم أى اهتمام.

وكنت فى ذلك اليوم من الطائفين وكنت كل سبع مرات من الطواف أصلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ثم أستأنف الطواف حتى أكملت واحدا وعشرين

شوطا حول الكعبة، وكنت فى كل مرة أرى الطائر فوق كتف الخراسانى، ومد أحد الطائفين يده ليلمس الطائر لكنه لم يطر، وفى النهاية طار من تلقاء نفسه واستقر فى مكان بالجانب الأيمن من بناء المقام الشريف، وحشر منقاره تحت جناحه ووقف لفترة طويلة، واجتمع الناس حوله ليتفرجوا عليه وفجأة مد أحد أغاوات بيت الله يده وأمسك به ليريه لأحد أصدقائه، فخاف الطائر وصاح صيحة مفزعة، وكان الصوت لا يشبه صيحة الطائر.

وفزع الرجل من صوت الطائر وأطلقه فطار الطائر وحط فوق العمود الأحمر القريب من دار الندوة، ثم طار من بين باب «زيادة الندوة» وباب العجلة فتوجه إلى نواحى جبل قعيقعان.

طواف الجن:

جاء فى رواية أبى الطفيل المدرجة فى كتاب المسامرات، أن الكعبة كانت مطافا للإنس والجن قبل البعثة النبوية قال: كانت امرأة من الجن ساكنة فى الجاهلية فى مكان يسمى. «ذى طوى» ولم يكن لهذه المرأة سوى ابن واحد فقط وربت المرأة المذكورة ابنها حتى كبر وأصبح من أشراف القوم وتزوج، وبعد سبعة أيام من ليلة زفافه أراد أن يدخل مدينة مكة المعظمة ليطوف بالبيت العزيز.

وأرادت الأم ألا تأذن لابنها بالذهاب فقالت «يا ولدى إننى أحفظك من سفهاء» قريش وأضن بك» ولكنها فى النهاية سمحت له استجابة لتوسلاته، وبما أنها كانت تحب ابنها حبا جما ولن تستطيع على فراقه صبرا فقالت.

أعيذه بالكعبة المستورة ودعوات ابن أبى محذورة

وما تلا محمد من سورة إنى إلى حياته فقيرة

وإننى بعيشه مسرورة

وما أن أخذ الابن الإذن من والدته وسمحت له بالذهاب حتى تحولت هيئته إلى جنى وتوجه إلى الحرم الشريف، وبعد الطواف عاد من طريق حى «بنى

سهم» فقابل فى الحى المذكور رجلا أحمر الوجه أحول العينين، مفتوح الحاجبين، أعسر اليد فقتله بدون وجه حق.

وعندما علمت الأم بقتل ابنها وموته دعت أبناء قومها وشرحت لهم الأمر، وحرضتهم على أهل مكة فانطلق داخل مكة فجأة ضجيج مدو وغمر المدينة تراب كثيف ودخان أسود واختفت تحته كل البيوت والجبال، فلم يعد يرى شىء.

وكانت طوائف الجن وراء هذا العمل، ضد قبيلة «بنى سهم» حتى إن رجال هذه القبيلة كانوا يموتون فجأة وهم فى فرشهم.

وأخيرًا أدرك ما يقرب من سبعين شيخا أولى بأس لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم حقيقة الأمر، فجمعوا أفراد قبائلهم وصعدوا الجبال وظلوا هناك ثلاثة أيام متتالية، مشغولين بقتل كل ما يرونه من الحيات والعقارب وسائر الحيوانات المؤذية وفى الليلة الثالثة سمعوا نداء من فوق جبل أبى قبيس يقول:

الإنصاف يا معشر قريش أصلحوا بيننا وبين رجال «بنى سهم» فقد قتل رجال القبيلة المذكورة الغالبية منا. بناء على هذا النداء عقد أكابر قريش صلحا بين «بنى سهم» وقبيلة الجان وأخذوا من كل واحد فيها العهد والميثاق على الآخر بألا يتعدى أحد على الآخر، وقد أطلق بنى سهم على هذه الواقعة اسم عياطلة.

* * *

التعريف بحدود كعبة الله بالفضائل الجليلة لمكة المكرمة

اتفق جمهور العلماء على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق البلدة المفخمة مكة المعظمة، كما خلق المدينة المنورة، وهما أفضل من كل بلاد الدنيا وممالكها وبالتالي فليس هناك بلد على وجه الأرض أجمل وأشرف من هاتين المدينتين المشهورتين.

يقول القاضي عياض في مؤلفه «الشفاء الشريف»: إن المدينة المنورة دار حضرة صاحب الرسالة هي أفضل وأشرف من كل البلاد والممالك ومن بعدها البلدة المفخمة «مكة المكرمة» وهو بهذا القول يريد أن يرجح «المدينة المنورة» على «مكة المعظمة» جاعلا حجته بأنها تضم قبر الرسول.

نظم

جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاط ذات المصطفي وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت مأواها

وإذا كان هناك من يؤيد القاضى المشار إليه فى هذا الشعر الصحيح المعنى، إلا أن علماء السلف يختلفون فى تحديد صحة هذه المشاركة أى فى ترجيح كفة أى من «مكة المشرفة» والمدينة المنورة على الأخرى.

فيرى الإمام الأعظم أبو حنيفة والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل وكل التابعين لهم، أن الحديث الصحيح القائل «بأن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، والصلاة فى المسجد

الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى مسجدى» هذا يعنى أن مكة المكرمة أفضل من المدينة المنور.

ويقولون إنها أفضل لأن ماء الحياة الطاهر تفجر من هذا المنبع، وأن نور الإسلام الذى أشرق على الكون من ذلك البرج الرفيع انتشر وأضاء ولقد أنعم خالق الكون على هذه البقعة المقدسة بكثير من الفضائل الجليلة والخصال الحميدة.

كما أن المسجد الحرام سيد كل المساجد، وكما أن موضع الكعبة المباركة قبلة الأحياء والأموات وهى سيدة كل البيوت المقدسة. وهو مهبط الوحى الجليل ومجمع الأنبياء وفيه دفن الرسل والأنبياء كما أنه يفضل كل البلدان بموجب الآية الآتية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (سورة آل عمران: ٩٦).

وفى هذا المقام لا تستطيع أن تستبعد هذا السؤال الذى قد يجول بذهننا وهو هل يمكن الجمع بين هذه الآية الكريمة والآية العظيمة ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٥).

بمعنى أن ملكية البيت المعظم أضيفت إلى الناس فى الآية الأولى وفى الثانية أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا أمعنا النظر فى هذا الموضوع وفكرنا قليلا يمكننا الإجابة على هذا السؤال على النحو الآتى:-

كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يشير فى هاتين الآيتين إلى الآتى: «أيها المؤمن الموحد إذا كان البيت الحرام هو بيتى فإننى لم أضعه ولم أقمه لنفعى لأننى لست بحاجة إليه بل إننى وضعته لك أنت حتى يكون قبلتك عندما تتوجه إلى بالدعاء.

ويذكر البيت الشريف فى الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ (سورة آل عمران: ٩٦) بلفظ مبارك ويفهم من هذا أن للبيت الأكرم أفضال أكثر من أى بيت.

ويقول سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ «ومن دخله كان آمنا» أنه أول مكان اختصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالأمان وبالبركة ويقول الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ إن البيت الأكرم هو أول بيت خلق للعبادة على وجه الأرض ويقول الإمام مطرف إن البيت المحترم جعل أول قبلة للناس.

وكل هذه الأقوال تؤكد أن فضائل الكعبة المعظمة لا تعد ولا تحصى.

وفى الآية الكريمة ـ سالفة الذكر ـ كلمة «مبارك» الشريفة وهذا اللفظ الجليل يعنى أن هذه البقعة الشريفة مباركة إلى الأبد وأن بركتها فى تزايد مستمر فى كل لحظة وفى كل زمان وستدوم إلى الأبد.

ولأن الماء يدخلها باستمرار يشبهونها بحوض ماء العرض الإلهى، من استخدام لفظ البركة وتشبيه البيت الأعظم بالحوض هو الإخبار عن دوام وبقاء وزيادة ونمو خيرات بيت الله والفضائل التى تدل على ذلك لا حدود لها وإنه بركة ونمو وتزايد.

وفضل الطاعة والعبادة بها يفوق أداء الطاعات والعبادات فى بقية البلدان وهذه الزيادة سمة جليلة يختص بها البيت الحرام.

هناك أحاديث كثيرة تفيد هذا المعنى والأحاديث الآتية التى سنذكرها تبين اثنان منها تزايد بركة الصلاة، والآخران يبينان تزايد بركة الحج. وهذه الأحاديث هى قوله ﷺ فيما معناه.

«أن فضل المسجد الحرام بالنسبة لمسجدى هذا كفضل مسجدى على سائر المساجد» و «أن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه» و «من حج فلم يفسق ولم يرفث خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» و «وأجر الحج المبرور الجنة» (حديث شريف).

وعلى هذا التقدير يجب علينا أن نتصور أن المؤمنين الذين يقفون للصلاة جاعلين الكعبة الشريفة نقطة التوجه ويحيطون بها فى صفوف متلاحقة، يجب

أن نتخيل ونتذكر أن المسلمين فى جميع أنحاء العالم، متوجهين إلى تلك النقطة للصلاة فيزيد من عدد الصفوف فى أذهاننا قدر ما نستطيع.

بناء على هذا الحساب فإن الدوائر التى تحيط بالكعبة تخرج عن حصر عددها. وإن بين هؤلاء المحيطين بالكعبة مكان وجود بعض الصالحين المتوجهين نحو كعبة المعرفة.

لذا يجب على كل مصل عندما يقف للصلاة أن يعرف أنه يقف بين كثير من أولياء الله الذين يتجهون بقلوبهم إلى كعبة المعرفة، بينما يتجهون بأجسادهم لتلك النقطة المحسوسة، وعليه أن يستفيد من أنوار أرواحهم العلوية.

إن هؤلاء الذوات الذين أردنا أن نحترمهم يتمتعون بنيات منيرة وقلوب وضمائر مقدسة طاهرة، وأنهم بأجسادهم الظاهرة يتوجهون إلى تلك النقطة الموهومة أى الكعبة المشرفة بينما تتجه أرواحهم الضالة إلى كعبة المعرفة.

وأى إنسان نالت روحه فضل الاتصال بهذه الأرواح النيرة تزيد فى قلبه الأنوار الإلهية، وتعظم فى أعماقه لمعات احتوائه للروحانية وأسرارها، وهذا أكبر دليل على أن بيت الله مكان مبارك، بما يحتوى من أسرار الهيبة وبقاؤه دائم وأبدى.

لأنه لا يخلو لحظة من العاكفين والساجدين والراكعين من الموحدين المؤمنين. وفى كل لحظة وآن يتجه الناس إلى كعبة الله للصلاة وقد قرر بقاؤه منذ أن خلق.

إذا ما تناولنا بالبحث لفظ «هدى» فكعبة الله كانت هدى للعالم بصورتين.

الصورة الأولى: أنها قبلة العالم التى يهتدى إليها فى الصلاة أو دلالتها على وجود صانع مختار، وصدق نبوة نبى الله، أو أنها تهدى إلى جنة الفردوس لأن الصلاة التى تؤدى بالتوجه إلى ناحية الكعبة الشريفة تدخل الجنة.

الصورة الثانية: لأنها تحتوى على الآيات البينات، وإن كان المقصود بالآيات

البينات أن كل من وجد فى داخل حدود حرم كعبة الله المحرمة يتمتع بالأمن والذين يهتكون حرمة بيت الله يهلكون. . إلا أن الآيات المذكورة عبارة عن مقام إبراهيم عليه السلام.

وإن كان المقام الشريف قطعة من الحجر، إلا أنها تجمع كثيرا من الآيات من هذه الآيات وجود آثار أقدام خليل الله فوق قطعة الحجر، وانغراس قدميه الشريفتين فى هذا الحجر إلى الكعبين.

وبقاؤه محفوظا آلاف السنين خلافا لمعجزات الأنبياء الآخرين، رغما على وجود كثير من الأعداء مثل اليهود والنصارى والمشركين والملحدين وكل ما ذكرناه من الآيات العجيبة الخاصة بالمقام الشريف، يدل على أن المقام الشريف يشتمل على آيات كثيرة.

هناك ثلاث روايات عن مقام إبراهيم

الرواية الأولى: عندما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يبنى الكعبة، استخدم حجرا كسقالة وقد طبع عليه آثار أقدامه.

الرواية الثانية: عندما ذهب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الشام للحجاز لرؤية ابنه إسماعيل غسلت زوجة ابنه قميصه وهو واقف على حجر آثار قدميه المباركتين فوق الحجر.

الرواية الثالثة: أنه هو الحجر الذى صعد فوقه إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما دعا الناس لأداء الحج والذى أطلق عليه مقام إبراهيم وقد انطبعت آثار قدميه المباركتين فوق الحجر.

النتيجة: وتبعا للأبحاث التى قام المفسر «القفال» رحمة الله عليه، يقرر أن هذه الوقائع الثلاث كلها صحيحة لأنها كلها وقعت فوق حجر واحد، لكن الرواة لم يستطيعوا أن يبينوا الحقيقة فى أثناء نقل الروايات.

انتهى.

والذين يزورون المشاعر ويؤدون مناسك الحج ثم يعودون، وعد الله برفع وإعلاء درجاتهم ومحو ذنوبهم.

والحج مرة واحدة فرض عين على المستطيعين وحج جميع الناس فرض كفاية ولقد جعل الله المسجد الحرام حرماً يوم خلق السموات والأرض.

والمقام الشريف لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ من المسجد الحرام، ومكة المكرمة هى مسقط الرأس الشريف لمفخرة الأنبياء ﷺ.

أقام النبى ـ ﷺ ـ فى هذه البلدة، ونشر الدعوة فيها بعد البعثة مدة ثلاثة عشر عاما على اختلاف الروايات وقد أشرقت شمس أفق الإيمان في هذه المدينة المشهورة، ونزلت فيها أكثر آيات القرآن الكريم.

وهذه المدينة مقر «الحجر الأسود» والحجر السعيد وبئر زمزم، ومع أنه فى واد غير ذى زرع إلا أن الأرزاق فيه متوفرة تأتيه من كل أقطار العالم وأهله فى تزايد مطرد يوما بعد يوم.

إخطار:

تكمن حكم كثيرة خفية وراء وجود مكة المكرمة فى واد غير ذى زرع، ولكن العلماء الأعلام اكتفوا بذكر الحِكَم الخمس التالية.

الحكمة الأولى:

أن مجاورى البيت الحرام يقطعون الأمل من التعلق بغير الله، وذلك بإظهار التوكل التام عليه سبحانه وتعالى تقدست ذاته.

الحكمة الثانية:

عدم طمع أحد من الأكاسرة وملوك الدنيا والحكام والجبابرة، فى الإقامة حول بيت الله أو من السكنى بجوار كعبة الله.

ولا يمكن لهؤلاء الجبابرة أن يجدوا المتعة واللذة الدنيوية التى يسعون إليها فى واد غير ذى زرع.

وهكذا طهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة الشريفة، ونزهها من لوث بنى البشر الذين يعبدون الدنيا.

الحكمة الثالثة:

حتى لا تتحول الكعبة إلى متجر لأنها خلقت للحج والزيارة فقط.

الحكمة الرابعة:

لتقديس مكانة الفقر وشرفه.

الحكمة الخامسة:

من أجل إبراز أن كعبة المعرفة لا تحل إلا فى قلب خال من حب الدنيا وزخرفها، وهذا يدل على علو فضل الكعبة المباركة علوا فوق العادة انتهى.

وإذا وضع مفتاح باب المعلا مفتاح مصباح السعادة فى فم طفل ألثغ[1] فبقدرة الله تحل عقدة لسان هذا الطفل.

ولا تحلق طيور السماء فوق الكعبة، والحمام المريض يرقد فوق الكعبة فيشفى. تظل ساكنة بلا حركة فوق الكعبة المعظمة إلى أن تشفى. وبعضها يرقد فوق ميزاب الرحمة ليشفى، وإذا هبطت الأمطار من أى جهة من أركان الكعبة المعظمة تعم البركة، وتفيض بالخير والنماء البلاد التى فى تلك الجهة.

وأقصى ما يستوعبه بيت الله ـ المملوء بالفيض ـ خمسمائة شخص كما ذكرنا فى الصورة السادسة من الوجهة السادسة لأن مساحته ٦٥٦ قدم مربع، ومع هذا إذا دخله بضعة آلاف من البشر دفعة واحدة، فإنه يستوعبهم ويمكنهم أن يؤدوا عبادتهم فرحين فخورين.

وفى موسم الحج تدخله أعداد غفيرة من البشر، ولو دخلت هذه الأعداد الكبيرة إلى أى مكان آخر لابد أن يموت عدد منهم بأى حال من الأحوال. أما

(١) اللَّثَغُ: فِعْلُهُ لَثِغَ فُلانٌ لَثَغًا: تَحَوَّلَ لسانه من حرف إلى حَرف غيره، كأن يجعل السين ثاءً أو الراء غَيْنا.

فى البيت الحرام، فلم يحدث هذا إلا فى عام ٥٨١ هـ فقط، ولأسباب قهرية توفى فيه أربعة وثلاثون شخصا.

ويقول «نورشتى» رحمه الله من شراح «المصابيح» فى إطار حديثه عن فضائل بيت العزة: «لقد رأيت الكثير من كرامات البيت الكريم فى فترة وجيزة منها: أن حمام الحرم الشريف لا يحلق فوق كعبة الله في أثناء طيره لا يعلو أكثر من ارتفاع تلك البقعة المباركة وبعد التقاط الحبوب التى تلقى له فى كل وقت يحلق فى الهواء، ويطوف بالكعبة الشريفة ولا يرتفع بأى حال من الأحوال أعلى من بيت الله، ومع هذا فإنه يقف فوق الشرفات والقباب التى بداخل الحرم الشريف. ولا يحط فوق سطح الكعبة الشريفة.

وقد رأيت عدة مرات أن المريض من هذا الحمام يرتفع فوق الأرض ارتفاعا مساويا لسطح بيت الله ويحلق بجناحيه. ويقف فوق الميزاب الذهبى أو فوق أحد أركان الكعبة، ويظل واقفا هناك لفترة فى خشوع تام وخضوع.

وهو يرتعد. وبعد ذلك يتحرك معافى فيسلم تماما لكنه لا يطير أعلى من مستوى السقف الشريف» انتهى.

وفى أثناء الطوفان كان السمك الكائن في داخل حدود الله كان الكبير منه لا يأكل الصغير.

وعند حلول أوقات الصلاة، وفى النصف الأخير من ليالى الأعياد وفى المناسبات التى يكثر فيها الناس فإن الحرم الشريف للمسجد الحرام يستوعب طولا وعرضا أية جماعة من الناس مهما زاد عددهم. كما لا ينبعث دخان من النيران التى توقد فى الشوارع وخاصة في البيوت والمساكن.

ومبانى بيت العزة مازالت قائمة إلى الآن على صورتها وهيئتها التى أسسها عليها سيدنا إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا التكريم ـ وهذا فى نظر أهل الاستدلال علامة وإشارة وضاءة تسترعى الانتباه يرتجف معها الوجدان، لأن المبانى التى لم توضع تحت غطاء لا يمكن أن تحتمل تأثير الرياح والأمطار بضع مئات من السنين،

مهما كانت درجة متانتها وقوتها. وإذا تم تجديدها مرة فإنها لا تبنى على نفس الشكل السابق لها.

ومازالت الأبنية المفخمة الشريفة حتى هذه اللحظة عرضة للرياح العاصفة والأمطار الغزيرة المستمرة، وقد تم تجديدها لمسوغ شرعى إحدى عشرة مرة، فلم يحدث أى خلل فى جدرانها كما لم يتغير شكل أصغر حجر وضعه عند التجديد فالركن اليمانى قد ارتج فى سنوات ٤٣٣، ٥١٥، ٥٩٢، ورغم أنه فى المرة الأولى سنة ٤٣٣، سقط منه قدر أصبع بعد أن تشقق؛ إلا أنه لم يتغير أى طرف منه اكتفى فقط بإصلاح الموضع الذى سقط منه الحجر.

ومن خواص الكعبة المقدسة أن مَنْ يراها أول مرة إما يضحك أو يبكى.

وقد انتابنى البكاء ـ أنا الفقير كاتب هذه الحروف ـ عند رؤيتى الكعبة وظللت أبكى فترة. وكل من يتواجد حدود حرم الله، سواء كان إنسانا أو شجرا، أو حيوانا ينعم بالأمن التام بفضل الله تعالى.

وقال المفسر «النقاش» عليه رحمة القادر: «يا إلهى إنك تفضلت قائلا إن الداخل فى حرم المسجد الحرام يكون آمنا، ولقد تحيرت فى فهم هذا الأمر!! فمم أكون آمنا؟! ودار هذا الخاطر فى وجدانى ذات ليلة؟ وعقب ذلك سمعت من ورائى من يقول «آمنا من النار» وعندما لم أجد خلفى أو حولى أحدا أدركت أنه جواب من عند الله».

هذه الرواية تشير إلى المعنى الحقيقى للآية الكريمة: ﴿مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) ويرى فحول العلماء فى هذه الآية معان كثيرة مثل: من اعتمر بنية التقرب إلى الله فهو يأمن نار جهنم يوم القيامة وقال خاتم الأنبياء ـ عليه أفضل السلام: «كل من يموت فى أحد الحرمين يحشر يوم القيامة فى زمرة الآمنين». (حديث شريف).

«وكل من يصبر على حر مكة المكرمة ساعة واحدة فى اليوم يباعد بينه وبين نار جهنم مسافة مائتى سنة».

«من حج فلم يرفث، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (حديث شريف). وأن الله تعالى يلقى الرحمة والشفقة بقلوب الناس تجاه من يلجئون إلى كعبة الله.

ومن هذا القبيل: أن صحابة الرسول الكرام الذين كانوا فى معيته المباركة السعيدة ـ ﷺ ـ عند أداء العمرة، أمنوا عند دخولهم الكعبة من أذى المشركين والذين يحجون مرة واحدة فى العمر لا يعاقبون على ذنوبهم التى ارتكبوها قبل الحج. أما من أمن الحيوانات والأشجار، فإن قطع النباتات والأشجار وصيد الحيوانات حرام تماما فى أرض حرم الله السعيدة.

وعلى هذا فالحيوانات الموجودة داخل الحرم الشريف. لا تخاف ولا تنفر من بعضها البعض، فعلى الحيوانات أيضا أن تراعى الحكم الإلهى، ولو أن كلبا تعقب غزالا وطارده، واستطلع الغزال أن يلوذ بحدود الحرم، فإن الكلب ينصرف عن مطاردة الغزال وينتظر إلى أن يخرج بعيدا عن الحرم. وإذا دخل الكلب أيضا أرض الحرم، فإنه يمشى بجانب الغزال، يتحاشى أن يصيبه بأذى.

ومن يدخل فى حدود الحرم من بنى البشر لا يحاسب على ذنبه وهو داخل الحرم.

وبما أن هذا الأمر كان مرعيا فى صدر الإسلام وكذلك فى الجاهلية، فلو ارتكب شخص إثما أو قتل إنسانا ثم دخل المسجد الحرام لائذا به فيكون فى أمن من سلطة الدولة، أو من ورثة القتيل وهكذا ينجو من المطاردة والفزع، وتقى الحيوانات إضرار بعضها بعض فما بالك بإضرار بنى البشر، وفى أيام «منى» التى هى أيام رمى الجمرات لا يهاجم النمل. والحشرات الطعام الملقى هنا وهناك ولا يلوثه، رغم وجود كل أنواع الطعام مثل: العسل، والمربى، فإنها تلف حوله ولكنها لا تدخل فيه.

ومهما زاد عدد الحجاج، فإن الأحجار التى يلقونها والجمرات، لا تزيد، ومعروف أن هذه الجمرات ترمى منذ آلاف السنين. ففى كل سنة، يلقى حوالى

ستمائة ألف إنسان بالجمار أى يلقون حوالى سبعين حجرًا لكل منهم ومع هذا فإنه لا تتراكم هناك الجمرات.

وإذا افترضنا أن الأماكن التى تتجمع فيها الجمرات في مجرى السيل أو فى مهب الرياح الشديدة، لقلنا إن الماء الذى يسيل والرياح التى تهب تحمل الحجارة التى يلقيها الحجاج بعيدا إلا أن هذا المكان ممر ضيق بين سلسلة جبال ولا يتعرض للسيول ولا للرياح الشديدة العاصفة.

وهذه المميزات تدل على الأفضال المعنوية التامة لكعبة الله وهى مؤيدة بالخبر الصحيح الذى يقول: «كل من كان حجه مبرورا مقبولا فالجمرات التى يلقيها ترفع إلى السماء» (حديث شريف). بناء على بحث عبد الله المرجانى أنه لو نزف أنف إنسان وكتب على جبهته بدمه عبارة «مكة وسط الدنيا والله رؤف بالعباد» فإن النزيف ينقطع بإذن الله.

لو إن كان اليهود والنصارى يقدمون بيت المقدس على الكعبة فإن بانى بيت المقدس سليمان ـ عليه السلام ـ وبانى الكعبة خليل الرحمن الذى يفوق من حيث المناقب سيدنا سليمان، ويلزم أن تكون الكعبة أشرف وأفضل من بيت المقدس.

أليس من الخطأ المحض أن يتصور أن هناك بيت أشرف وأفضل من بيت مالكه هو صاحب الجلالة الرب الكريم، ومهندسه جبريل ـ عليه السلام ـ وبانى جدرانه خليل الرحمن، وجالب أحجاره ولوازم بنائه وخادمه. إسماعيل عليه السلام.

استطراد

الميزات الخاصة ببيت الله ـ الكعبة ـ لا تعد ولا تحصى. ومما يختص به هذا البلد الأمين أن أحدا من السياح الأجانب لا يجرؤ على اقتحام حدودها.

وفى الرسالة التى نشرها سائح أوربى اسمه «جبون» تحامل على الإسلام واستخدم لهجة شديدة إذ قال «بما أن أهل مكة لا يسمحون للسياح الأجانب بالدخول إليها فإنهم يضطرون فى الكتابة عن وقائع الحجاز أن يستمدوا أخبارهم

من التواريخ الإسلامية، أو من هؤلاء الذين يترددون على الحجاز «غير أن عددا من السياح المشهورين مثل: برق جارد من إيطاليا، لودو ويقو بارتاما من روما وجوزيف تبس من أهل اكستر[1] قد زاروا المناطق الحجازية، وسجلوا مشاهداتهم، ووصفوا مشاهداتهم وصفا كاملا. وهذا يبين كذب ادعاء المدعو «جبون» من أخطائه. وترهاته نجمت عن تعصبه الفطرى الشديد.

لودو ويقو بارتاما ـ قد طاف فى عام ٩٢٠ هجرية بالأراضى الحجازية المباركة، و وكذلك «جوزيف تبس» فى عام ١١٠٧ هجرية وتجولا فى كل أرجائها وبعد عودتهما، سجل كل منهما رسالة شاملة، مفصلة فى معلوماتها عن أحوال منطقة الحجاز.

وكانت رسالة لودو ويقو بارتاما» التى طبعها عام ٩٢٨ هـ مكتوبة باللغة الإيطالية، وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية، وطبعت ونشرت عام ٩٧٢ هـ، كما طبعت رحلة «جوزيف تبس» باللغة الإنجليزية ونشرت فى إنجلترا عام ١١١٧.

وقد جاء فى رسالة «لودو ويقو بارتاما» أنه تظاهر بالإسلام ودفع إلى أحد الجمالين أموالا كثيرة، ليرافق قافلة الشام إلى الحجاز حتى يستطيع أن يطلع بنفسه على أحوال الحجاز.

أما «جوزيف تبس» فقد ذكر فى رسالته أنه وقع أسيرا فى طفولته فى يد أحد الجزائريين، وظل لفترة طويلة فى خدمته، ثم رافق سيده فى رحلة الحج إلى الحجاز، وعند عودته سجل مشاهداته كلها.

وقال «برق جارد» فى كتابه الذى نشره: « فى أثناء عودتى من واد فاطمة، إلى مكة مررت بمكان يسمى وادى النعمان، وكان مزدحما أشد الازدحام بالمترددين هناك من الحجاج أو المعتمرين، رغم أنه مكان موحش مخيف وهبت عاصفة فاحتميت بسفح جَبَلٍ لعدم استطاعتى الاستمرار فى السير، وبقيت محتميا بسفح الجبل إلى أن هدأت شدة السيل والعاصفة».

(١) اكستر اسم مدينة مشهورة فى إنجلترا.

ويقول مؤرخ آخر هو (يوما): «لا يسمح لغير المسلمين بدخول مكة»، ونحن شاكرون لهذا لأن برق جارد، ذهب إلى هناك، وجاء فى رسالته أن مكة المكرمة محاطة بمجموعة من الجبال السوداء والوديان خالية من الأشجار والأزهار.

والذى يرى منازل مكة وبيوتها ـ لأول وهلة ـ بعد الخروج من بين الجبال لا يستطيع إلا أن يشبه هذه المدينة بخزينة مجوهرات وضعت فى داخل محفظة خشنة غليظة سوداء، لا يستطيع أن يقدر قيمة هذه الخزينة إلا المسلمون.

فشوارعها متوسطة، ومبانيها منتظمة عالية والذى يرى مكة بعد رؤيته لبلاد أخرى لا يمكنه إلا أن يعجب ويتحير من انتظام مبانيها ودقة ترتيبها. وهذا القول منه يوضح خطأ ما ادعيناه فى هذا الأمر. وهذه العبارة المليئة بالثناء الجميل توضح كذب ادعاء الأوربيين.

وبناء على الفقرة الواضحة لبرق جارد والإفادة المفصلة لـ «يوما» نستطيع أن نحكم أن الدخول فى مكة المعظمة ليس ممنوعا، سواء كان من قبل الحكومة أو من قبل الأهالى. فإذا كان بعض السياح الأجانب لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة الكافية لدخول حدود مواقيت مكة المكرمة فإن ذلك يرجع إلى الرهبة الإلهية المعنوية للبيت المعظم.

نعم لم يمنع أحد من زيارة الحرمين المعظمين، حتى لو كان هدف الزائر هو الخيالة والسخرية والاستهزاء، لكن فى هذه الحالة تأديب ذلك الشخص ومنعه من الزيارة يكون أمرا واجبا.

نعم باب الزيارة مفتوح فى كل لحظة وساعة، إلا أن الزائر يجب أن يراعى لبس ملابس أرض الحجاز مثل الجبة والعباءة الطويلة والعمامة والكوفية حتى يحظى باحترام الناس، وأما الأجانب بملابسهم الغربية لا ينالون التوقير بل يتعرضون للسخرية والاستهانة بهم وهذا أمر طبيعى.

لذا فالأمر يتطلب ممن يذهبون إلى تلك البقعة المباركة أن يلبسوا ملابسهم وهذا الأمر لمن يجوبون الوديان والصحارى فى غير أوقات الحج، ولكن الذين

يقيمون فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة يستطيعون أن يرتدوا الملابس الخاصة ببلدانهم دون أن يتعرضوا لسوء معاملة من الأهالى بل على العكس يلقون منهم ترحيبا واحتراما.

وكل أهالى الحرمين الكرام مجبولون على حسن استقبال الضيف فهذا من طباعهم الفطرية، وهو أمر لا مجال لإنكاره ومن ينكر هذا فعليه أن يتذكر مجاورى الحرمين.

ورغم تحقيق الإمام مالك ـ رحمة الله عليه ـ صحة ما ذكر عن فضائل مكة المكرمة وآثارها المتدثرة بآيات الحكم، إلا أنه يرى أن المدينة المنورة أفضل من «مكة المكرمة» ويؤيد رأيه قائلا: «إن المدينة المنورة مدفن رسول الرحمن أفضل من مكة المكرمة، لأن رسولنا باعث خلق العالم ـ ﷺ ـ دعا الله بقوله يارَبِّ أنت تعلم أن قريشاً أخرجتنى من البلدة التى أحبها فأسكنى يارب البلدة التى تحبها» وكرر هذا الدعاء فاختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ معطى العطايا المدينة المنورة داراً للهجرة النبوية. وإذا كان المكان هذا أحب البلدان إلى الله ـ عز وجل ـ فلابد أن يكون ذلك المكان أفضل وأشرف من سائر البلدان.

وقد رأينا أنه من الأفضل التزام الصمت بخصوص هذه المسألة قائلين: الله سبحانه وتعالى أعلم ببواطن الأمور.

شعر

مكـة الـتى هـى قبـلة أهـل النجـاة
حرسهـا الله مـن الحادثـات
ترابهـا يبعـث الحيـاة فـى المـوات
إن الورد خجـل مـن شوكـه وغثائـه
لأن حصـباء أرضـه نجـوم سمائـه
حقـا إنـه لمـن ضـل الطريـق دليلـه

جعـــل الأرض القـاحلـــة جنـــــــــة
جمـع الـدر وأصبـح نعيـم الجنـــــــة
ليـس وردا ولكن نسيم سحـره ينفـح عطـرا
ليس خمـرا ولكـن حانتـه تمـوج بالضجّـة
ليس زرعـا ولكـن بيـدره يهـب الحـب
ليس عرشـا ولكـن طوبـاه وارفـة الظـلال
ليـس بستانـا ولكـن ثمـره موفـور
ليس سـهلا ولـكـن زرعـه مخضوضـر
ليس زهرة حمراء مشتعلة ولكـن فيـه نبراسـا
فـى قلبـه جراحـات مـن الحسـرات

حدود حرم الله ومواقيت كعبة الله المكانية:

قال المؤرخون: إن حدود الحرم الشريف لكعبة الله، تبلغ ستة أميال من ناحية الشرق، وثمانية عشر ميلا من ناحية الغرب، واثنى عشر ميلا من ناحية الشمال وأربعة وعشرين ميلا من ناحية الجنوب.

أما مؤلف «تاريخ خميس»، فقد قال: «لقد قست بنفسى بقياس المسافة، ووجدتها ثلاثة أميال من طريق المدينة المنورة وتسعة أميال، من طريق شعب آل عبد الله بن خالد الواقع ناحية جِعِرَّانة».

وفى قول آخر: «عشرة أميال وسبعة أو تسعة أميال من طريق عرفات المسمى بطن نمرة».

وكتب مؤلف «نخبة الدهر» فى كتابه المذكور:

أنها ثلاثة أميال من جهة مدينة الرسول ﷺ وعشرة من طريق جدة، وأحد

عشر ميلاً من طريق الطائف، وستة أميال من ناحية العراق. والأرض التى خارج هذه الحدود ليست من الحرم[1]».

وهذا الاختلاف لم يكن فيما يتعلق بتحديد أماكن ومواقيت مكانية أو تعريف نقاطها وإنما فى مقياس المساحة، لذا فالمساحة بالنسبة لكل واحد منهم تخضع لحسابه وكلها صحيحة بالنسبة لحساب كل واحد منهم.

ويقول على بن بلبان الفارسى الحنفى مؤلف الكتاب المستطاب المسمى «عمرة السالك فى المناسك» نقلا عن الإمام الأزرقى[2]: إن ميقات أهل المدينة عند التنعيم وهو مكان قريب من «بيوت تغاره» الواقعة جهة المدينة على مسافة ثلاثة أميال من مكة المعظمة.

ويقول: الإمام مالك رضى الله عنه: إن أهل المدينة المنورة يحرصون ويبدءون فى التلبية من قرية ذى الحليفة.

وهذا المكان اللطيف يقع عند البئر المسمى بئر على ومسجد الشجرة وهو على مسافة تسع ـ وعلى رواية عشر ـ مراحل من مكة المعظمة من ناحية المدينة المنورة ويقول البعض عن سبب تسمية بئر على أن الكرار ـ عليه رحمة الله ـ قاتل الجن هناك، لذا أطلق على هذا البئر اسم بئر على، لكنها رواية مختلقة لا أصل لها.

و «ذو الحليفة» أبعد مكان عن مكة من ناحية الميقات وهى أطلال قرية مشهورة، وقد أراد رسول الملك المتعال أن يُحرم أهل المدينة هناك تعظيما لأجرهم

(١) الجبال والوديان والصحارى.

(٢) الإمام الأزرقى هو الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الكريم المكى، المعروف بالأزرقى وهو من أعلم العلماء وهو أول من كتب عن تاريخ مكة. وتلاه فى كتابة التاريخ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى. وثالثهم سيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسينى وبعده الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد الشافعى، ثم الشيخ عز الدين بن عبد العزيز وهو ابن الحافظ نجم الدين وآخرهم القطب المكى. وقد كتب كل منهم كتابا فى التاريخ باللغة العربية أما القطب المكى فى تاريخه فقد نقل وروى بالذات عن الشيخ عز الدين ونقل وروى بالواسطة عن سائر المؤرخين.

وثوابهم وقد ذكر «ابن بلبان الفارسى» فى صدد تعريفه وتعيينه لميقات أهل اليمن أن المكان الذى يحرم عنده اليمنيون هو منطقة «أضاة اللبن» الواقعة على مسافة سبعة أميال من مكة المفخمة من جهة اليمن، وقد ركز هناك علمان لتعيين هذا المكان الذى يبدأ عنده ارتداء ملابس الإحرام.

و «أضاة اللبن» لابد وأنه الموضع المسمى «يلملم» على مسافة مرحلتين من مكة المعظمة. ومكان إحرام المصريين هو مدينة «رابغ» القريبة من الجحفة ميقات أهل الشام. أما المكان الذى يحرم منه أهل نجد فهو أعلى ربوة فى تهامة، أما الذيت يتوجهون للحج عن طريق الشام الشريف فإنهم يحرمون في المكان المسمى جحفة، وجحفة هذه أطلال قرية تقع على مسافة خمس مراحل وعلى قول ست مراحل من مكة المكرمة، والاسم الأصلى لقرية جحفة كان على وزن مهيعة، ذلك أن جماعة من العمالقة سكنوا فيه وذات ليلة اجتاحهم السيل وقضى عليهم تماما، لذا أطلقوا على سكان أطلال هذه القرية اسم جحفة.

قال ابن بلبان الفارسى: رغم أن الرواية تقول إن الحجاج القادمين من طريق العراق يحرمون من نقطة «ثنية الهيك» الواقعة على بعد سبعة أميال من مكة المعظمة، إلا أن الإمام مالك قال ـ كما جاء فى كتاب ـ أحسن المسالك: إن قوافل حجاج العراق تحرم من موقع قرية قرن وهو المكان المسمى قرن المنازل. وقد استقر حول المكان المذكور جماعة «قرن» التى انفصلت من قبيلة «مراد» وحضرة «أويس القرنى»[1] من أفراد هذه الجماعة.

وإذا قرئ لفظ قرن بسكون الراء فهو اسم جبل، وإذا قرئ بفتح الراء فهو اسم طريق يقع بجوار الجبل المذكور، وتقع مكة المشرفة شرق الجبل المذكور بمرحلتين. ورغم أن الإمام الفاكهى قد ذكر أنه يوجد جبل باسم قرن على بعد

(١) سيد التابعين: له ذكر فى صحيح مسلم وكان ـ رحمه الله بَرًّا بأمه، قال ﷺ لأصحابه: «مَنْ لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم»، الحديث. لقى الله شهيداً يوم صفين مع على رضى الله عنه. ترجمته مطولة فى الإصابة ١/١١٨ ـ ١٢٠ رغيرها.

ألف وخمسمائة ذراع من مسجد الخيف[1] إلا أنه غير «قرن المنازل» لأن ذلك الجبل يسمى، قرن الثعلب.

وقد قام شخص بترتيب ونظم الأبيات الآتية للتوفيق بين الروايات المختلفة.

شعر

عرق العراق يلملم اليمنى

وذى الحليفة يحرم المدنى

للشام جحفة إن مررت بها

ولأهل نجد قرن فاستبن

وقد ذكر فى هذه الأبيات اسم الميقات الخاص بأهل كل جهة، وفى الأبيات التالية سنعرف أبعاد كل ميقات فى مكة.

شعر

وللحرم التحديد من أرض طيبة

ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه

وسبعة أميال عراق وطائف

وجدة عشر، ثم تسع جعرانة[2]

فتوح الحرمين

إن جبل رابغ، هو ميقات حجاج بلاد الروم والأناضول ومن يتوجهون للحج بحرا عن طريق قناة السويس، وكل باخرة تحمل الحجاج عندما تصل إلى محاذاة جبال رابغ، يبلغ الحجاج الذين على ظهرها مبدأ الإحرام ويستخدم مرشد ماهر من أبناء العرب فوق كل باخرة للقيام بهذه المهمة.

(١) يقع هذا المسجد أمام مسجد المرسلات فى «منى».

(٢) هذه الأبيات لشخص يدعى ابن الملقن.

أسماء الذين جددوا أميال المواقيت:

إن حدود حرم كعبة الله هى المواقيت التى ذكرت وعرفت فيما سبق، يقول الإمام الأزرقى أنه عندما هبط آدم ـ عليه السلام ـ على الأرض انتابه إحساس بالخوف والرهبة من وحشة الفراغ، واستعاذ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ولجأ إليه فأنزل الله إلى الأرض ملائكة كثيرين لإزالة هذا الخوف والرهبة من نفس آدم ـ عليه السلام ـ وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة أن يقيموا حول مكة المعظمة، وبذلك تعين حدود حرم كعبة الله، وهو المكان الذى أحاط به الملائكة من كل الجهات.

وفى قول آخر أنه عندما أنزل الحجر الأسود من خزائن الجنان فى البلدة المقدسة لكعبة الله، تحددت حدود الحرم بما بلغه من النور والضياء المنعكس من الحجر الأسود فى كل الاتجاهات، وهذه الحدود هى المواقيت المكانية السابق ذكرها.

ويقول الإمام الأزرقى: إن آدم ـ عليه السلام ـ ثبت علامات فى المواقع المذكورة لتعين حدود حرم الله، وللحفاظ على هذه الحدود أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ كثيرا من الملائكة العظام للقيام بهذه المهمة.

وقد طمست هذه العلامات التى وضعها آدم ـ عليه السلام ـ ولم ير لها أثر، فعرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ حضرة الخليل الأماكن التى وضعت فيها هذه العلامات من قبل أبى البشر ـ عليه السلام ـ فأعاد إقامة الأحجار فيها مرة أخرى. وكان برفقة إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما أعاد وضع العلامات ابنه إسماعيل ـ عليه السلام.

وبمرور الوقت طمست الرمال الأحجار التى وضعها إبراهيم ـ على نبينا وعليه التفخيم ـ وغابت عن العيون، وفى عهد عدنان بن أد أصبح من الضرورى تعيين هذه الحدود بين مناطق الحل والحرم، لذا تقصى عدنان بن أد المشار إليه أماكن الأحجار التى وضعها خليل الرب الجليل حتى وجدها فأقام فى أماكنها مبان قوية

من الطين والحجارة هى تلك العلامات لكى لا تطمس بسهولة وبعد ذلك قام قصى بن كلاب بن مرة بإعادة ترميم العلامات وتجديد بناءها وجعلها أمتن وأقوى.

وبعد قصى بن كلاب لم يتم ترميم العلامات وتعميرها، وفى يوم فتح مكة «ذلك اليوم الميمون» كلف الرسول - ﷺ - بوحى من قبل الله بترميم مبانى المواقيت وتقويتها.

وبعد ارتحال النبى - ﷺ - قام عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان ومن بعده معاوية بن أبى سفيان ومن بعده عبد الملك بن مروان، قاموا كلهم بتقوية مبانى العلامات التى بناها عدنان بن أد وذلك لتحديد المواقيت المكانية الشريفة.

وفى عهد خلافة المقتدر بالله العباسى تم إصلاح وتصويب علامات مسافات الأميال المذكورة. وفى سنة ٣٢٥ هـ قام الراضى بالله من خلفاء العباسيين بوضع علامات «العمرة كما قام بعده بفترة مظفر حاكم أربل بوضع علامات «عرفات» وهذا لأنه لم تكن قبل عهد «الراضى بالله» علامات للعمرة، ولم تكن هناك علامات لتحديد أماكن عرفات قبل حكم المظفر. وكان للسلطان» أحمد خان الأول العثمانى - طيب الله ثراه - شرف تجديد علامات عرفات.

ومن ذلك الوقت يطلقون اسم الحرم على المكان الذى داخل حدود العلامات الموضوعة لتحديد حدود الميقات، ويطلق اسم الحل على خارجها.

* * *

فى توضيح المسائل الهامة الخاصة بإيجار واستئجار بيوت هذه المدينة المفخمة للإقامة فى مدينة مكة المعظمة

الإقامة فى مكة المكرمة مكروهة عند العلماء، وقد قيل فى هذا أن طول فترة البقاء يورث فقدان حرمة بيت الله فى النفوس. وبمقارنة ما يشعره الإنسان من ألفة واستئناس عندما يسكن فترة طويلة فى البلاد الأخرى يخشى أن الإقامة الطويلة قد تزيل من القلوب ما يجب من التعظيم والتوقير نحو كعبة مكة المعظمة، وهذا شيء طبيعى فى الناس. والأولى بأهل الإيمان أن يقيموا فى بلادهم مبدين الشوق والحب لكعبة الله من بعيد.

وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى زمن خلافته يأمر أن يعود الحجاج إلى بلادهم بمجرد عودتهم من عرفات حتى يحافظ على حرمة الكعبة فى قلوب الناس وهيبتها. وكان يستحث القوافل على الرحيل مرددا النداء يا أهل اليمن، يا أهل الشام، يا أهل العراق، سيروا إلى بلدكم، فإنه أبقى لحرمة بيت ربكم» وكأنه كان يعيد معنى الحديث الشريف: «من فرغ من حجه فليعجل بالرجوع إلى أهله» (حديث شريف).

أصح مثال الذين يرومون مجاورة الحرم الشريف يستأنسون بغير الله بينما يقيم الرجال الصالحون في بلاد بعيدة وممالك نائية وقلوبهم أكثر قربًا لبيت الله ممن يطوفون حول المقام السعيد.

وحيثما يكون الإنسان فى أى مكان وتغويه نفسه بعصيان الله بارتكاب ما يحرمه ثم ينصرف عن هذه النية قبل أن يشرع فى تنفيذها أو القيام بما جال بخاطره فلا تكتب عليه سيئة. أما من يقيم فى مكة المكرمة ويجول بخاطره القيام

بما حرمه الله فيكون آثما، وإن لم يرتكب ما جال بخاطره وتكتب عليه سيئة فى صحيفة أعماله.

وبناء على هذا الأمر استوطن عبد الله بن عباس الطائف، وقال ابن مسعود: «لا يوجد بلد غير مكة يؤاخذ فيه بالهَمِّ قبل الفعل ـ يعنى فعل السوء».

حكاية: يقال إن رجلا استودع أحد أحبابه أمانة ليحفظها له لفترة، ولكنه كان امرأ سوء فقرر ألا يعيد الأمانة إلى صاحبها وأنكر أنه أخذها بل اجترأ على القسم بذلك أمام كعبة الله. وفي نفس الليلة التى أقسم فيها مات وتحول وجهه إلى وجه كلب.

حكاية أخرى: يروى أن رجلا آخر فى أثناء طوافه بالكعبة لمح معصم امرأة جميلة كانت تطوف بجواره، فمد يده لذراع المرأة ليتلذذ بملامستها. ولأن المرأة كانت عفيفة صالحة فقد تضايقت من تصرف الرجل، وتعلقت بجدار الكعبة وهى تنوى أن تشكو هذا الأمر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب البيت المشرف.

ولكن الرجل لم يقتنع بالوقاحة التى ارتكبها، وسار فى أعقابها ومد يده إلى المرأة للمرة الثانية وعلى الفور شلت يده التى مدها فصار أكتع «نعوذ بالله تعالى» انتهت.

وهكذا تكون نهاية من يرتكبون الآثام فى الحرم الشريف ويلقون جزاءهم بما اقترفوا ـ حفظنا الله جميعا ـ آمين. الحرم الشريف للمسجد الحرام ليس مكانا خاصا لأداء الصلاة فقط مثل سائر المساجد ولا يحد بجدران المسجد، بل يمتد ليحتوى كل الأراضى المقدسة داخل المواقيت المكانية المعلومة، لذا فإن الباحثين المدققين من الأسلاف الذين اختاروا المجاورة فى مكة المكرمة، كانوا يخدمونه بتبصرة تامة وانتباه كامل.

قصة غريبة: كان وهب بن رودكى أحد أولياء الله الذين لهم باع طويل بحقائق المسجد الحرام، انتهز الفرصة المناسبة لتنبيه الذين اختاروا المجاورة في مكة المكرمة فقال: «كنت أصلى ذات ليلة فى حجر إسماعيل، وفجأة سمعت صوتا

من وراء ستار الكعبة، فأنصت إليه فإذا بالكعبة ذاتها تقول: «يا جبريل أشكو إليك بعد الشكوى إلى الله الحق من أهل الهوى الذين يتفوهون بكلمات تدل على انصرافهم للهو ولغو الكلام فى أثناء وطول مصاحبتهم، فإن لم يستغفروا ويتولوا عن ذنوبهم ويتخلصوا مما اقترفوا فسوف أنتفض انتفاضة قوية بحيث يتطاير كل حجر من أحجارى إلى الجبل الذى أخذ منه وهكذا أزول فى الحال «وما إن سمعت هذه الشكوى والحوار بين الكعبة والرسول الجليل حتى اعترانى الاضطراب والرجفة.

ويتناقل هذه الحكاية الغريبة من سمعوها من وهب نفسه، ويوصون الحجاج بألا يحرصوا على الإقامة بمكة بعد الرجوع من عرفة.

وقد أجاب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ على سؤال طرح عليه لتوضيح هذه المسألة وكان السؤال: هل العودة بعد الحج أفضل أم الإقامة بمكة للمجاورة؟

فأجاب: إن العودة بعد الحج أفضل.

وإذا كان الإمام مالك يرى أنه يكره المجاورة، فإن الإمام أبا حنيفة يروى عنه فى رواية صحيحة أنه قال «يجب على الذين ينتهون من أداء الحج أن يعودوا إلى بلادهم وأولادهم وزوجاتهم» غير أن الإمام أبا يوسف والإمام محمدا والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل لم يتشددوا فى هذا الأمر اتفقوا بأن مجاورة مكة أمر مستحب.

أما الإمام الأعظم فأفتى بكراهية مجاورة مكة المكرمة، وذلك لملاحظة أن عامة الناس يعجزون عن رعاية حقوق الحرم المحترم، وفى الواقع أن طوائف العامة لا يراعون حرمة الكعبة المعظمة حق رعايتها.

والمقصود من كراهة المجاورة بالنسبة للإمام الأعظم ليس مجرد الإقامة في مكة المكرمة، بل إنه يذكر محظورين يجب اجتنابهما أحدهما: أنه كلما طالت الإقامة فيها يأنس القلب بالبيت ويألفه لأن تكرار المشاهدة وكثرتها تؤدى إلى

التقليل من حرمة بيت الله عند النظر إليه. والآخر الخوف من ارتكاب المعاصى التى تؤدى إلى فساد الأخلاق والفسق فى حرم الله نعوذ بالله تعالى من هذا وما أتعس المؤمن الذى تعرض لارتكاب هذين المحظورين. وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥) وما تفيده الآية الكريمة أن كل من يعدل عن الحق ويرتكب الظلم والجور قاصدا معصية الله فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيذيقه عذابا أليما.

أما من كانوا مفطورين على إعزاز البيت الشريف وإجلاله عندما يرونه كل مرة يعتريهم الخشوع والمهابة والدهشة. كأنهم يرونه أول مرة إذا كانوا قادرين على ذلك فمما لا شك فيه ولا شبهة أن نعمة المجاورة سعادة فوق الوصف ومبعث الفخر والسرور.

ومع هذا فإن كراهية مجاورة مكة خاصة بالمسلمين الذين عاشوا فى العصور السابقة، وأما الآن فقد تغيرت الدنيا واضطر المسلمون أن يختلطوا بالأجانب وأن يتأثروا بأخلاقهم، كما أن أسباب المعيشة اضطرت الناس إلى المقابلة بالتقى والشقى، لذا فأولى بالنسبة لصفاء النفوس أن يلجئوا إلى بلدة الله أو إلى البلدة الطيبة لرسول الله حيث يلوذون إلى الله الغفار راجين عونه ورحمته.

وبما أن الكعبة وما حولها مقر الأنبياء والأولياء فمن المرجو أن يتأثر هؤلاء الضعاف من المسلمين بهم ويقتدوا بهم وهم يداومون فى الطواف حول بيت الله.

يقول الإمام اليافعى فى كتابه المسمى «روض الرياحين»:

«يرى أحيانا الملائكة الكرام والأنبياء العظام وخاصة الأولياء الكرام ذوى الاحترام حول الكعبة وجوارها، وأكثر ما يرى فى ليالى أيام الاثنين والخميس والجمعة، ويروى أنه يشاهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولاده عيسى عليه السلام وجماعته فى حجر إسماعيل وفرق الملائكة عند الحجر الأسود، وسيد الأنبياء عليه وعليهم التحيات، وأهل بيته والصحابة والأولياء أمام الركن اليمانى.

وقد ثبت تضاعف الأجر والمثوبة الحسنة عند الأكثر فى مكة المكرمة، إلا أن السيئة تظل سيئة واحدة بينما الحسنة يضاعف ثوابها.

ومن المتفق عليه أن أولياء الله يترددون على المسجد الحرام عندما يكون خاليا، ومن يحظى بنظرة أو التفاتة من هؤلاء الصالحين ينل سعادة عظيمة كما برهن عليه كبار العلماء. نفعنا الله ببركات أنفاسهم.

وقصر النظر على البقعة المقدسة للكعبة المعظمة هو عين العبادة، وتغفر ذنوب الذين ينظرون إليها بمحبة كاملة وإيمان صادق واحتساب، ومن يقصرون نظرهم على الكعبة وحدها فلهم أجر طاعة وعبادة سنة كاملة.

وينظر الله الحق إلى الخلائق ٣٦٠ مرة كل يوم، وأول من يكون محط نظره ـ سبحانه وتعالى ـ هم أهل مكة، ومن ينل من هؤلاء نظرة الله وهو قائم يصلى أو فى حالة طواف أو حال استقبال الكعبة يغفر لهم ذنوبهم، أو حتى النائمين يلحقون بزمرة المغفور لهم.

وثواب من يكون فى مكة المفخمة ويقضى أيام رمضان صائما ولياليه قائما يعادل ثواب من يقضى الليل قائما والنهار صائما فى رمضان مائة ألف رمضان فى غيرها من البلدان، وسوف تحشر مكة المعظمة يوم القيامة مثل العروس عند الزفاف ويتعلق بأستارها الحجاج والطائفون ويدخلون رياض الجنة وهم يطوفون حولها.

نظم

بما أنك تسكن هذا الدير بأدب
فعليك أن ترعى أصول الأدب
إن الشوق يزداد لأن ما كان إنما كان نارا
أيما امرئ كان مجاورا في هذه المحلة

كـــان زواره أكثـــر مـن أحجارهـــا
يجـــدر بمـــن هـــو كامـــل الأدب
أن يصـل الليـل بالنهـــار بشوقـــه
يحكـــى أنـــه أكثـــر مـــن ذلـــك
مـــن كثـــرة مـــا خربـــت بالـــدره
مـــن خلـــف عـــن قافلـــة الحـــج
فلـــن يتســـع العـــذر لذلـــك
ولا يحتـــرم حرمـــة هـــذا البيـــت
حينمـــا يفكـــر فـــى الطـــواف بـــه
لا يـــرعـــــى أصـــــول الأدب
أنـــت تتغافـــل عـــن التشكيـــك
وأصبحـت بذلـك آثمـــا عاصيـــا
لقـــد تجاوزتـــنا فـــى ســـوء الأدب
وليس لـنا موضـع مـن هـذا الوضـع

(فتوح الحرمين).

خلاصة مسألة إيجار البيوت:

بمراجعة الكتب الفقهية لمعرفة ما إذا كان إيجار البيوت والمنازل فى مكة المكرمة جَائِزًا أو غير جائز شرعا، وإن فهم هذا الموضوع يكون ممكنا بالرجوع إلى الكتب الفقهية.

ولما كان أخذ إيجار المنازل من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ليس حلالا، لذا كان الأوائل يأخذون ثمن الإيجار فى السر والخفاء حتى أن عمر بن الخطاب أمر

أن تترك أبواب بيوت مكة مفتوحة فى موسم الحج حتى يسكن الحجاج فى المنازل الخالية، كما كان لعمر بن عبد العزيز أوامر مشددة إلى أمراء الإمارة الجليلة لمكة المكرمة بألا تؤجر بيوت مكة إلى الحجاج.

وقد أجاز الإمام محمد والإمام أبو يوسف أن تباع بيوت مكة مع الكراهة، إلا أن الإمام الأعظم قال إنه مكروه فى كل الأحوال. وقد أفتى صاحب الواقعات فى هذه المسألة ورجح القول الأول.

وحسب قول مؤلف «عيون المسائل» إن الإمام الأعظم قال فى رواية: «إن بيع بيوت مكة جائز». كما أن الإمام أبا يوسف قد رجح هذا القول على ما عداه من أقوال. وبالنظر إلى قول المرحوم «قوام الدين» فى شرح الهداية أن بيع بيوت مكة جائز باتفاق العلماء. وبما أن كل بناء ملك بانيه وأن المبانى التى أقامها الأشخاص على أراض موقوفة يستطيعون بيعها شرعا فبيع بيوت مكة جائز أيضا.

وطبقا لما نقله ورواه صاحب التقريب، فقد رأى الإمام الأعظم أن إيجار بيوت مكة مكروه، وقال: والذين يفدون إلى مكة من خارجها. إذا لم يجدوا مبانى خالية لسكناهم أفلا يسكنوا فى بيت بالإيجار، كما أيد الإمام محمد هذا القول بما ورد فيما معناه «أن من يعيش حتى يأكل من ثمن إيجار بيوت مكة يدخل النار». إلا أن الدار قطنى عد هذا الحديث من الأحاديث الموقوفة.

وفى رواية أخرى للإمام الأعظم عن كراهية الإيجار لمن يأتون فى مواسم الحج وليس للمقيم. فبما أنه لا توجد ضرورة بالنسبة للمقيم فمن الجائز إيجار المنازل لهم. ولا يجوز إيجار البيوت لمن تتبين حاجتهم الضرورية فى موسم الحج. وقال لنسكن هؤلاء فى المنازل الخالية رحمة الله ـ تعالى ـ عليه وعلى سائر الأئمة أجمعين رحمة واسعة.

وفى عصرنا الحالى يؤجر أهل مكة بيوتهم للحجاج ويسكنون هم فى وقت الحج فوق أسطح منازلهم، وبهذه الطريقة يكسبون أموالا تكفى لإعاشتهم وأولادهم سنة كاملة.

تحتوى على ثلاث عشرة صورة مرتبة تضم أقوال المؤرخين التى ذكرت حول تفاصيل بناء مكة المعظمة وعمارتها، وعن الذين قاموا ببناء هذه البقعة المقدسة المباركة، وأسباب تجديدها وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها.

الصورة الأولى

تعرض الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء الكعبة

ذكر مؤرخو السلف أقوالا متباينة كثيرة حول عدد مرات تجديد بناء كعبة الله العليا، واختلفوا فى أقوالهم وأطالوا فيها وقرروا أخيرا أنها جددت سبع مرات على قول بعضهم، وعشر مرات بناء على أقوال الآخرين.

واعتمادا على الرواية المنقولة عن زين العابدين والد الإمام الباقر ـ رضى الله عنه ـ قال المؤرخون: «إن الملائكة هم البناة الأوائل لهذه البقعة المقدسة».

والذين يقولون إنه تم تجديدها سبع مرات يذكرون أن تجديدها تم على النحو التالى: المرة الأولى بناها الملائكة الكرام، وفى الثانية جددها سيدنا إبراهيم، وفى الثالثة جددها العماليق، وفى الرابعة طائفة الجراهمة، وفى الخامسة قبيلة قريش، وفى السادسة عبد الله بن الزبير، وفى السابعة جددها الحجاج الظالم.

أما الذين يقولون إنها أعيد بناؤها عشر مرات فيذكرون أن الملائكة العظام بنوها فى المرة الأولى وفى الثانية بناها أبو البشر آدم ـ عليه السلام ـ وفى الثالثة سيدنا شيث وأولاده وأحفاده. وفى المرة الرابعة إبراهيم الخليل، وفى الخامسة أفراد قبيلة العماليق وفى السادسة عشائر جرهم، وفى السابعة قصى بن كلاب بن مرة وفى الثامنة قريش قبل البعثة النبوية وفى التاسعة عبد الله بن الزبير، وفى العاشرة جددها الحجاج بن يوسف الثقفى الظالم، كما قام السلطان مراد خان الرابع من سلاطين العثمانيين العدول بتجديد البناء الرصين الأركان لكعبة الله فى المرة الحادية عشرة، ومازالت على تلك الصورة التى جددها عليها إلى الآن.

شعر

بنيت الكعبة أحد عشر مرة فاعلم
الملائكة وآدم وأولاده والرابع إبراهيم
والعمالقة وجرهم وقصى وقريش أقاموها
وتاسعهم الزبير الذى أقامها وكرمها
كذلك الحجاج شىء أتمه
لقد فرق الحطيم وكأنما رممه
وأرادها السلطان مراد التجديد
وكان الحادى عشر بتاريخه المجيد
سنة ١٠٤٠

فى تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الأولى

خاطب خالق الأرضين والأفلاك تعالى شأنه عن الفهم والإدراك الملائكة العظام بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)، وذلك ليبدى لهم بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ سيخلق أبا البشر آدم ليكون خليفة فى الأرض وأدركت الملائكة بشفافية وجدانهم الملائكة أو بإلهام رب العزة أو بالنظر فى اللوح المحفوظ، أن بنى البشر سيسفكون الدماء ويفسدون على وجه البسيطة، وأرادت أن تعرف الحكمة من إعطاء خلافة الأرض إلى بنى آدم الميالين إلى الظلم وسفك الدماء، ولم تعط إلى طائفة معصومة وتساءلت: لماذا تخلق من يفسد فى الأرض؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدسك بذكرك فأجابهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ حاسما الأمر بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولم يكن الغرض من تساؤل الملائكة الاعتراض على أفعال الله حسب تقديرهم، ولكن فى هذا السؤال نوعا من الاحتجاج كما يفهم من قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ولذا ندم الملائكة ولاذوا بالعرش الأعظم يبكون ويتضرعون طلبا للعفو والصفح عما اقترفوه ليتجنبوا الغضب الإلهى، واستمروا لمدة ثلاث ساعات يطوفون بالعرش الإلهى ويستعطفون فى تذلل وخضوع وهم فى قلق وخشوع زائدين، وفى النهاية بلغ منهم الرجاء والتضرع العفو والمغفرة واستجلبت توسلاتهم شفقة ورحمة صاحب الكبرياء، وأمرهم أن يطوفوا بالبيت المعمور الواقع تحت العرش الأعظم، ثم أمرهم بأن يبنوا على وجه الأرض بقعة مقدسة فصدعوا بالأمر الإلهى، وقاموا ببناء ورفع بنيان الكعبة المعظمة التى أصبحت مطافا إلى الآن.

تفصيل:

شاء خالق العالم أن يقام بيت مقدس على وجه الأرض، وأرسل كثيرا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر، وخاطب الملائكة آنذاك بقوله: «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما وعندما يطاف بالبيت المعمور فى السماء الدنيا، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض، بناء على ذلك قام الملائكة الكرام الذين هبطوا إلى الأرض ببناء بقعة مفخمة مباركة فى الموقع المقدس للكعبة المعظمة.

وعندما صدر الأمر الإلهى للملائكة الذين سكنوا على وجه الأرض ببناء البيت الشريف تحت مستوى البيت المعمور ومحاذاته، وأن يقوموا بالزيارة والطواف حول هذا البيت لم يكن آدم ـ عليه السلام ـ قد هبط على وجه الأرض.

وإذا كانت هذه الروايات تشير إلى أن بناء البيت المعظم كان بعد خلق الأرضين فإن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال: إن البيت الشريف خلق قبل خلق الأرض والسماء بأربعين سنة، وكان فوق الماء مثل فقاعة بيضاء أو رغوة وبسطت الأرض من تحته وحفظ، وقال الإمام مجاهد مصدقا ما قاله الإمام على «إن خلق موقع بيت الله كان قبل خلق الأرض بألفى سنة، ثم بسطت الأرض تحت الكعبة» بناء على هذا فلاشك فى أن الموضع الطيب لبيت العزة خلق قبل الأرض وأن كعبة الله المقدسة قد شيدت بعد خلق السموات والأرض. وحسبما جاء فى الكتب الموثوق بها أن حضرة الخالق المطلق عندما أراد خلق وجه الأرض وإيجادها بسط بيد الجلال وقبضة القدرة التى لا نظير لها تراب الموقع المبارك لكعبة الله بعد خلق وجه الأرض، وهكذا ظلت الكعبة المعظمة فى وسط الأرض تحيط بها القشرة الأرضية من جميع الجهات.

وفى الواقع أن الساحة المفخمة للكعبة المعظمة كانت موجودة قبل خلق وجه

الأرض وقبل خلق طبقات الأرضين، وقام ملكان بأمر الله بالتسبيح والتقديس لله تعالى وتهليله لمدة ألفى عام فوق المساحة المباركة.

ونقلت هذه الرواية من قبل الإمام الفاكهى عن طريق عبد الله بن أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ لذا لاشك في صحتها.

قد نقل حضرة أبو هريرة الكيفية بهذه الصورة: خلقت الكعبة المعظمة قبل الأرضين وكان تراب موقع الكعبة المعظمة من نفس تراب الأرض، وكان عليها ملكان عظيمان وكانا يسبحان الله ـ سبحانه وتعالى ـ لفترة ألفى سنة وعندما تعلقت إرادة الله بخلق الأرض بسطها تحت الكعبة وجعل مكة فى وسط الأرض.

وقال ابن خلدون مستشهدا بالحديث الصحيح لما سئل النبى ـ ﷺ ـ الواقف على أسرار الكتاب عن خلق مكة المكرمة والمدة بين خلقها وخلق بيت المقدس، أجاب بما يفيد بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق البيت قبل السموات والأرض بأربعين سنة وهذا يدل على أن بين خلق البيت المعظم وخلق الأرض فترة أربعين عاما.

ملاحظة: وبمقتضى هذه الإجابة السامية، لابد وأن يكون بيت المقدس قد خلق بعد الكعبة المعظمة بأربعين سنة. والواقع أن حوالى ألف سنة تفصل بين سيدنا إبراهيم وسليمان بن داوود عليهما صلوات الله الودود.

وإذا جال بالخاطر نوع من الالتباس بين ظاهر إحالة الرسول الجليل وبين هذا السؤال، فإن عقدة هذا الالتباس ليست صعبة الحل لأن ما يعنيه صاحب الرسالة ـ ﷺ ـ أنه لم يكن البناء الظاهر للكعبة المعظمة، إنما المكان المخصص للعبادة على وجه الأرض، فقد تم تعيين بيت المقدس ليكون مكانا للعبادة قبل حوالى ١٠٠٠ سنة من سليمان وبعد البيت الأكرم بأربعين سنة.

وفى تلك الأثناء وضعت القبائل الصابئة هيكل الزهرة على الصخرة وعبدوها.

وصادف هذا الأمر عصر الخليل الشريف، لذا يكون الفارق بين اتخاذ البيت المعظم قبلة واتخاذ البيت المقدس قبلة هو أربعين سنة. وكانت أرض الصخرة آنذاك خالية لا يبعد أن تبقى على هذه لصورة مدة من الزمن إلى أن قام سليمان ببناء المسجد الأقصى.

* * *

توضح صورة بناء الكعبة المعظمة فى المرة الثانية

قام أبو البشر سيدنا آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ بتجديد البيت المعظم فى المرة الثانية.

إجمالـ بناء على رواية الإمام أبو الوليد أحمد الأزرقى عن المرحوم ابن عباس، أن سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ أنزل به على وجه الأرض قبل الهجرة النبوية بـ ٦٢١٦ عام.

ولأنه لم يستطع سماع صوت تسبيح وتهليل ملائكة السماء بعد هبوطه بمدة اغتم لذلك فعرض ما فى ضميره على حضرة عالم السر والخفايا، وجأر بالشكوى قائلا: «يا إلهى، فضلا عن بقائى وحيدا فريدا على وجه الأرض، أصبحت لا أسمع صوت تسبيح وتهليل الملائكة الكرام».

وبناء على هذه الشكوى، صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع من سماع صوت الملائكة المسبحين».

لكن لى بيت على وجه الأرض، عليك أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا وبعد ذلك قَدِّسْنِى وطف حوله دائما فقام سيدنا آدم على الفور سائحا على وجه الأرض باحثا عن البيت إلى أن وصل إلى مكة المكرمة وعثر على أساس البيت الحرام فابتدر مع جبريل الأمين الذى نزل إلى الأرض لمعاونته ـ بتجهيز أساس كعبة الله وتعميقه.

وفى قول آخر، إن جبريل ـ عليه السلام ـ حفر حفرة بضربة من جناحه فشوهدت أحجار الأساس التى وضعها الملائكة الكرام فى الحفرة.

وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق وجه الأرض. واستخدم فى هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال» لبنان

وطور سيناء وطور زيتا وجودى، وحراء» ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة. وقد ضبط» وهب بن منبه[1] «الجبال الخمسة المذكورة بحيث تكون جبال: لبنان، وطور سيناء، طور زيتا، أحد، وثبير» ووضع بعض الرواة فيما نقلوا جبل جودى مكان جبل «أحد» وجبل حراء مكان جبل ثبير.

ويروى المؤرخون أن الحجر الأسود نزل أيضا مع البيت المعمور ليكون كرسى أبى البشر عليه السلام.

تفصيل: كتب المؤرخون كلمات كثيرة فى كيفية تكليف سيدنا آدم ببناء البيت وتحديد الصورة التى سيكون عليها بناء بيت العزة وبمعاونة من سيكون تأسيس تلك البقعة السعيدة؟ وكيف حج سيدنا آدم عليه السلام؟

ولما كان هذا الموجز لا يكفى لاستيعاب كل الروايات المنقولة فقد رئى أنه من الصواب نقل وبيان الروايات باختصار، مازجا بين مختلف الروايات.

عندما أمر موجد الكائنات ـ تنزهت ذاته عن الإدراك والإثبات ـ ببناء الكعبة المكرمة بواسطة أبى البشر ـ عليه السلام ـ خاطبه قائلاً: يا آدم ابن لى بيتا تحت العرش، وعليك بالطواف حول البيت الذى أمرتك ببنائه، مثل طواف ملائكة السماء بالعرش الأعظم، وإننى أستجيب لدعاء أولادك وأحفادك المطيعين والمنقادين الذين يتوجهون بالدعاء إلى بجوار هذا البيت الذى لا مثيل له».

وعندما تأوه سيدنا آدم مظهرا عجزه قائلا: «يا إلهى كيف يمكننى ـ بمفردى أن أبنى وأؤسس البيت الشريف الذى أمرت ببنائه وأنى لى أن أجد محاذاة العرش الأعلى؟! إن عجزى وعدم قدرتى واضح فى تنفيذ هذا الأمر».

فأوحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ له وأمره بالنهوض فوراً والذهاب إلى وادى غير ذى زرع. فى مكة المكرمة برفقة ملاك وألهمه بالشكل الذى سيبنى عليه البيت الحرام.

وبناء على ذلك تحرك آدم ـ عليه السلام ـ من المكان الذى كان به، وكلما مر بمكان يرى فيه بدائع خلق الله وحسن تنسيقه والأشكال العجيبة كان يبدى رغبته

(١) كنى وهب بأبى عبد الله الزمارى وتوفى سنة ١١٤ هـ أو ١١٦ منها.

للملك الذى يصاحبه بالبقاء فى هذا المكان ويفصح عما فى نفسه قائلا: «أيها الملك اتركنى هنا» فيتلقى الجواب منه: «المكان الذى أمرنا بالنزول فيه مازال بعيدا أمامنا». وفى النهاية، وصلا إلى مكة المكرمة وسارعا بنقل الأحجار من الجبال الخمسة على الوجه المذكور آنفا وقاما ببناء وتأسيس بيت الله قوى الأركان.

وبعد الانتهاء ذهبا إلى عرفات، وأديا مناسك الحج وفقا لشروطه ورجعا. وفى أثناء عودة آدم ـ عليه السلام ـ من عدفات. خرج الملائكة الأرض لاستقباله فى وادى «أبطح»[1] وقالوا: «يا آدم: كنا فى انتظار قدومك الموسوم باليمن. وقد كان لنا فخر الزيارة والحج والطواف بالبيت الشريف قبلك بألفى سنة.

وبعد أن التقى حضرة أبو البشر بالملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح، ذهب إلى مكة المكرمة، وأدى طواف الوداع بصحبة الملك الذى رافقه، ثم ذهب إلى بلاد الهند، وبعد ذلك اعتاد أن يأتى كل سنة للحج وزيارة كعبة الله.

وقد كتب فى ترجمة الشفاء الشريف أن آدم ـ عليه السلام ـ قد حج أربعين مرة سيرا على الأقدام، وكان طول قامته ستين شبرا، وعرض جسمه ستة أذرع أى تسعة أقدام وإحدى عشرة بوصة. ومع ذلك قال مؤلف «زين المجالس» لقد حج سيدنا آدم ثلاثمائة مرة واعتمر ألفى مرة إلى أن قبلت توبته.

هل كان يحج سيدنا آدم راكبا أم ماشيا؟ وجه هذا السؤال إلى ابن عباس رضى الله عنهما فأجاب بقوله «كيف يمكن لحيوان أن يتحمل حضرة أبى البشر عند ركوبه؟! فقد كان يحج ماشيا وكان يقطع فى كل خطوة مسافة مسيرة ثلاثة أيام.

وعندما صدر الأمر إلى آدم ـ عليه السلام ـ بتأسيس بناء الكعبة كان فى بلاد الهند التى تشرفت بموطئ قدميه مناطق عامرة والمكان الذى كان يطأه بقدميه أصبح بعد ذلك قرية، والأماكن التى أقام بها قليلا أقيمت بها مدن صغيرة

(١) وادى أبطح: اسم مجرى عظيم من مجارى سيول مكة المكرمة، وهذا المجرى واسع جدا، ويقع بين منى. ومكة المكرمة ويتصل بجبل حجون، وحبات رماله كبيرة بعض الشيء ومثل الحصى.

وكبيرة. والأماكن التى صلى بها أقيمت فيها الجوامع والمدارس والمساجد وكان فى كل خطوة يقطع فرسخا، إذ كانت الأرض تطوى تحت قدميه طيا، والأراضى التى لم يطأها بقدميه تحولت إلى الصحارى.

قال كعب الأحبار عن البيت المعمور الذى أرسل من الجنة وهو يخبر سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بهذا الأمر:

وعندما هبط آدم ـ عليه السلام ـ إلى وجه الأرض، أنزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطعة ياقوت حمراء، ذات بابين من الزمرد الأخضر، تفتح إلى الشرق والغرب وكانت الياقوتة على شكل خيمة. وبعث معها رسالة تقول: «يا آدم هذه الياقوتة هى بيتى، وكلما طيف بالعرش الأعلى وصلى حوله فليطاف ويصلى كذلك حول بيتى».

وبعد إكمال آدم ـ عليه السلام ـ قواعد بيت الله بمعاونة الملائكة وضع عليها الياقوتة المجوفة الحمراء المذكورة وأخذ يعبد الله حولها فى ذلّة وخضوع. وكان فى أركان الياقوتة الحمراء، أربعة أعمدة مستوية موزونة وكان داخلها مجوفا كقبة جامع. وقد استخدم فى إنزال هذه الياقوتة المجوفة على وجه الأرض سبعين ألفا من الملائكة العظام.

أقوال الجمهور فى تعريف البيت المعمور:

أقدم المفسرون الكرام على وصف البيت المعمور بنقل روايات مختلفة متباينة. وقد رئى أنه من المناسب تثبيت بعض هذه الروايات فى هذا الموضع على أمل نفع أهل الإطلاع.

وهكذا بنى حضرة خالق الكاف والنون ـ تعالى شأنه عما يقولون ـ مقاما عاليا فوق أربعة أعمدة مستوية موزونة تحت العرش من أجل الملائكة الذين يطوفون بالعرش الأعظم، أعمدته من الزبرجد وغطاؤه من الياقوت الأحمر وسماه باسم «البيت المعمور» وبعده ـ كما ذكر من قبل ـ أوجد بواسطة الملائكة الكرام على وجه الأرض، وبمحاذاة البيت المعمور بيتا مكرما، وأمر أهل الأرض وسكانها

بزيارته والطواف حوله. وأصل اسم البيت المعمور «صراح» واسم خادمه الخاص «رزين» وأطلق عليه البيت المعمور لكونه مقر الملائكة، وبناء على ما كتب فى تفسير «السمر قندى» أن الملائكة الكرام بنوا البيت المعمور على وجه الأرض قبل خلق آدم عليه السلام، أو أن سيدنا آدم قد بناه بنفسه. وفى قول آخر أن البيت المعمور أرسل من الجنة لرفع وحشة فراق سيدنا آدم ليأتنس به وكان قطعة واحدة من الياقوت الأحمر، وقد أنزل فوق ساحة الكعبة المشرفة، ورفع إلى السماء فى طوفان نوح وكان ارتفاعه مثل ما بين الأرض والسماء[1].

وحسب ما يفيده حديث المعراج الذى ورد فى صحيحى مسلم والبخارى، أنه الآن فى السماء السابعة، وتبعاً لتفسير البيضاوى والكشاف، فى السماء الرابعة.

وبالنظر إلى تحقيق تفسير «الكواشى» أنه فى السماء الثالثة أو فى السماء السادسة أو فى السماء السابعة.

ويقول مؤلف تفسير (الواحدى) مؤيدا قوله بحديث خاص: ـ «إن البيت المعمور فى السماء الدنيا، وأن سيدنا جبريل يغوص كل يوم فى نهر الحياة الكائن فى السماء الرابعة ثم يخرج وينتفض فتنقطر من أجنحته حين يهزها سبعون ألف قطرة ماء، ويخلق من كل قطرة منها ملك ويقوم هؤلاء الملائكة المأمورين بزيارة البيت المعمور وأداء الصلاة ثم يعودون.

والملائكة المشار إليهم لا يعدون ولا يحصون لدرجة أن من أدى الصلاة مرة واحدة هناك لا يأتى عليه الدور مرة أخرى إلى الأبد.

وبناء على قول آخر أن اسم البيت الذى كان فى السماء الدنيا هو «صراح» وهو فوق الكعبة المشرفة وبمحاذاتها بحيث لو فرض سقوطه يسقط فوق السطح الشريف لبيت الله.

وقد سطر فى تفسير «اللباب»: كان البيت المعمور بقعة مثيرة لامعة مصنوعة

(١) هو القول المرجح على الأقوال الأخرى.

من الياقوت الأحمر، ولها بابان من الزمرد يفتحان: أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب.

وكان الحجر الأسود ـ أيضا ـ من ياقوتة بيضاء، وسبب تحوله إلى السواد هو لمس النساء الحائضات فأطلق عليه الحجر الأسود. وقد أنزل حضرة الحق البيت المعمور والحجر الأسود إلى وجه الأرض قبل هبوط أبى البشر بألفى سنة، وبعد هبوطه كان آدم يجئ من الهند ويحج ويطوف بالبيت المعمور ثم يعود، وقد تكرر منه ذلك أربعين مرة.

وعند البعض أن البيت المعمور بنى فى السماء، وفى النهاية صدر الأمر ببناء البيت الحرام على سطح الأرض بمحاذاة موضعه فى السماء وبنفس الحجم. وحسب قول صاحب «المواهب» إن الملائكة المسبحين بجوار البيت المعمور لا يحصى عددهم وبعدد تسبيحات كل واحد منهم يخلق ملك.

ويقول مؤلف «تفسير بحر العلوم،» أنزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على وجه الأرض، خيمة من خيام الجنة المتلألئة بالأشعة وأمر بوضعها فوق ساحة البيت المعظم فى مكة المكرمة، ولم يكن البيت الحرام قد بنى ـ بعد ـ آنذاك، وكانت الخيمة المذكورة قناديل واحدة حمراءمجوفة من يواقيت الجنان، وكان بالقرب منها ثلاثة قناديل من الذهب يعادل نورها مجموعة الثريا من النجوم، وبابا هذه الخيمة كانا مرصعين بلآلئ الجنة وكان أحدهما يفتح إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وكان نور الجنان يلمع ويتلألأ فى داخلها. وقد أرسل مع الخيمة المذكورة الحجر الأسود لكى يكون كرسيا لسيدنا آدم يجلس عليه وهو من ياقوتة وضاءة ناصعة البياض شديدة اللمعان.

وجاء فى الحديث الصحيح «أن البيت المعمور ياقوتة حمراء من قطعة واحدة لها بابان فى الجهتين مصنوعان من الزمرد، وداخلها مزين بالياقوت والجواهر بما يعادل عشرة آلاف قنديل مثل الثريا. وأمام بابها منبر ومئذنة من الفضة الخام الخالصة، وفى كل يوم يغوص سبعون ألفا من الملائكة فى بحر النور ويرتدون

ملابس الإحرام المنسوجة من خيوط النور فيزورون البيت ويطوفون به. مرددين «لبيك ، لبيك» ثم يذهبون والملك الذى يطوف مرة لا يرجع مرة أخرى.

ويحكى مؤلف «معارج النبوة»، ناقلا من بعض الكتب المعتمدة فيقول: اعتاد الملائكة العظام على الاجتماع داخل البيت المعمور فى أيام الجمعة. وفى أيام الاجتماع يصعد سيدنا جبريل فوق المئذنة، ويؤذن، ويخطب سيدنا إسرافيل، ويؤمهم سيدنا ميكائيل ـ عليهم السلام.

ويتفاخر كل واحد منهم ملقيا خطبة مؤثرة تتضمن ما يهبونه إلى الأمة الإسلامية وبعد أداء الصلاة يقف جبريل الأمين ويهب ثواب آذانه إلى مؤذنى الأمة المحمدية، ويهب سيدنا إسرافيل ثواب خطبته إلى خطباء الأمة الإسلامية، ويقف سيدنا ميكائيل ويهب الأجر الجزيل الناتج عن إمامته إلى أئمة الأمة الإسلامية، يعلنون ذلك مفتخرين مباهين فى خطب بليغة مؤثرة، كما أن الملائكة الكرام يهبون ثواب صلواتهم التى أدوها إلى الأمة المحمدية ويشهدون على ذلك المقربين الكرام من الملائكة.

وعندئذ يصدر الخطاب الإلهى إلى الملائكة ـ يا أصناف الملائكة!! هل أنتم تنفقون جواهر السماء التى أنعمت بها عليكم بالمباهاة والفخر بكرمكم وجودكم؟ ألا فاشهدوا أننى حفظت الأمة المحمدية من عذاب الآخرة، وهذا مقرونا برحمتى وعفوى الإلهى.

وهكذا يعود الملائكة إلى أماكنهم محاطين بالألطاف الإلهية، وتنتهى إلى هنا أقوال المفسرين.

وعلى حد قول الإمام الأزرقى أنه عندما وطأت قدم آدم سطح الأرض صدر إليه الأمر الجليل من رب العزة قائلا: يا آدم إن لى بيتا فى الأرض فى حذاء بيتى الذى فى السماء. وإذا كانت الملائكة الكرام يطوفون حول عرشى فطف أنت و أولادك وأحفادك كذلك حول بيتى فى الأرض، وصل وتعبد حوله.

يا آدم إنى أقمت أول بيت وضع للناس فى بطن مكة، يأتى الناس من كل فج

عميق لزيارته، وكل من جاءه معتمرا لا يبتغى إلا وجهى فقد زارنى وأكرمنى.

يا آدم اعتمر ما دمت حيا، وسوف يعتمر أنبياء وأمم القرون القادمة من بعدك، وقد اخترت موضع ذلك البيت قبل خلق السموات والأرض، ونفخت فيه من جلالى وكرامتى.

ولأن الله أرسل طائفة من الملائكة لمعاونة أبى البشر فى بناء البيت الشريف، ملأ آدم حفرة الأساس التى ذكرناها آنفا، ثم أقام على هذا الأساس الياقوتى هذا الجدار المتين الذى ارتفع عن الأرض قليلا.

ويروى أئمة الحديث أن فى كل سماء بيتًا يعلو البيت المعظم حتى السماء السابعة، وبيتا فى كل أرض تحته حتى الأض السابعة.

طبق هذا الحساب فإن «كعبة الله العليا» هى دار العبادة الخامسة عشرة.

وإذا افترضنا أن سقط أحد هذه البيوت حل محله غيره على سطحها.

لكل كعبة منها مخلوقات تطوف حولها من أهل السماء والأرض، ولا يمكن أن تخلو ممن يطوفون حولها.

البيت المعمور الذى اشتهر بـ «رضاض» أو «صراخ» حسب القول المشهور يعلو الكعبة المعظمة ويأتيه كل يوم سبعون ألف ملك لزيارته والطواف حوله بنية عدم العودة حتى تقوم الساعة، ثم يعودون بعد الطواف.

وعلى الرغم من أن الروايات التى جاءت بشأن تأسيس الكعبة المعظمة للمرة الثانية مخالفة الإفادة إلى الآن، فإنه سواء ما قاله الأزرقى أو كعب الأحبار صفوة الرواة فهم يؤيدون قول عبد الله بن عباس سالف الذكر.

وبعد أن أسس آدم ـ عليه السلام ـ البقعة المقدسة للكعبة الشريفة على نحو ما سلف ذكره، التمس رحمة الله داعيا: يارب إن كل من حج بيتك المعظم الذى بنيته امتثالا لأمرك وطاف حوله هل هو مثاب مأجور؟

فقال الله تعالى:

يا آدم لقد تجاوزت عن ذنبك كما تجاوزت كذلك عن ذنوب أولادك الذين سوف يحجون بيتى.

عاد آدم إلى بلاد الهند بعد أن تلقى جواب الرحمة هذا من الله.

وجاء فى رواية أخرى أنه بعد أن أتم آدم ـ عليه السلام ـ بناء الكعبة طلب مثوبة معطى العطايا مانح النعم، ولما كان آدم قد تلقى من رب العزة قوله: «سل منى أجرك حتى أعطيك».

فإذا بآدم ـ عليه السلام ـ يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: «يا آدم سوف أدخلك الجنة وكل من زار الكعبة من ذريتك وسأدخل الجنة كل من يزورون بيتى هذا» فظهرت علامات السرور عليه.

فائدة: بعد الطواف صلى آدم ـ عليه السلام ـ ركعتى الطواف ثم دعا فى مواجهة الملتزم[1] الشريف وقال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم ما فى نفسى، وما عندى، فاغفر لى ذنبى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى. اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيت على.

فتلقى خطاب ربه ذى العزة «يا آدم لقد قبلت دعاءك وكل من يعرض على من أولادك وأحفادك حاجة له، وهو يقرأ هذا الدعاء فإننى أستجيب لدعائه وأقضى حاجاته، كما أزيل همه وغمه وألبى له حاجات الدنيا والآخرة، وإذا لم يقبل هذا الدعاء فى الدنيا سيجده فى الدنيا والآخرة.

ولأن هذا الطواف هو أول طواف لجنس بنى البشر فقد اتخذ آدم ـ عليه السلام ـ الملائكة قدوة فى طواف بيت الله.

(١) الملتزم: يطلق على ما بين باب بيت الله والحجر الأسود.

وعندما أنهى أبو البشر ـ على نبينا وعليه صلاة الله ـ البناء الأول للبيت الشريف وبدأ الطواف. هنأه[1] الملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح قائلين: حجك مبرور يا آدم وسعيك مشكور لقد طفنا بالبيت الحرام قبلك بألفى سنة.

فإذا بآدم ـ عليه السلام ـ يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: فلما سألهم سيدنا آدم قائلا: «وماذا كنتم ترددون فى أثناء الطواف؟»

أجابوا: «كنا نردد فى أثناء الطواف التسبيح الجليل: «سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، وبناء على هذا ردد آدم ـ عليه السلام ـ التسبيح المذكور وبدأ الطواف لمدة أسبوع وكان يطوف ليلا سبع مرات، وفى النهار خمس مرات، وبهذا الحساب يكون قد طاف ببيت الله تسعا وأربعين مرة ليلا وخمس وثلاثين مرة بالنهار لأن كل سبعة أشواط حول الكعبة المعظمة تعد طوافا واحدا.

ويروى أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت فى أثناء الحج لمدة أسبوع، سبع مرات ليلا وخمس مرات نهارا وذلك عملا بسنة أبى البشر.

بشرى:

إذا طاف أى إنسان سبع مرات بكعبة الله، مرددا التسبيح سابق الذكر غير متفوه بكلام متعلق بالدنيا إلى أن يكمل الطواف يعطى عشر حسنات ويرفع عشر درجات وتحط عشر من سيئاته. أما إذا تكلم فإنه فى تلك الحالة أيضا يدخل حوض الرحمة كأنه يغوص بالماء، وهذه البشرى هى مضمون الحديث الشريف الذى نقله و رواه الصحابى الجليل أبو هريرة: كما أنه منقول بالآثار الصحيحة، ويروى بسند موثوق به «إن ثواب الذين يصلون بعد الطواف ركعتى الطواف مثل ثواب تحرير رقبة»،.

إخطار:

لما كان طواف بيت الله عبادة خاصة مثل إقامة الصلاة، لذا يجب الامتناع عن الكلام فى أثناء الطواف وإذا اقتضى الأمر التكلم فيجب أن يقول خيرا» انتهى.

(١) الملائكة إذن هم الذين علموا سيدنا آدم دعاء الطواف كما علمه جبريل الأمين أصول المناسك.

وفيما يتعلق باستقبال الملائكة الكرام لمن يدخلون المدينة المباركة مكة المكرمة قاصدين أداء حج البيت الحرام، فإن الملائكة الكرام يقومون فقط بإلقاء السلام عليهم وتكريم الذين يدخلونها وهم يركبون الإبل ويحيون من يدخلونها وهم يركبون الحمير بمصافحتهم، أما الذين يدخلونها سائرين على أقدامهم يظهرون لهم الترحيب الحار ويعلون قدرهم بمعانقتهم.

وبناء على هذا الأساس فإن السلف الصالح كانوا عند استقبال الحجاج ذوى الابتهاج يسارعون بتقبيل عيونهم حتى ينالوا دعواتهم الصالحة قبل أن يتدنوا بارتكاب المعاصى والآثام.

* * *

توضح كيفية تجديد الكعبة المحرمة فى المرة الثالثة

بنى سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم ـ عليهما السلام ـ بيت الله العالى المقام فى المرة الثالثة، وقام أولاد وأحفاد المشار إليه بتعميره إلى طوفان نوح.

لأنه عندما وضع آدم ـ عليه السلام ـ قدميه على وجه الأرض، كانت ياقوتة منيرة على شكل الخيمة موضوعة فوق الموضع المبارك المقدس للبيت الأكرم على نحو ما أوضحت سالفا. وعندما رفعت هذه الخيمة إلى السماء عقب وفاة أبى البشر ـ عليه السلام ـ بنى سيدنا شيث بن آدم ـ عليهما السلام ـ بيتا من الحجر ليحل مكان الخيمة المذكورة.

وإذا كانت واقعة الطوفان الهائلة التى أغرقت أقطار العالم قد دمرت أيضا البيت الحجرى الذى بناه سيدنا شيث وأزالت آثاره فإنه بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف المذكور. وكان أولاد وأحفاد المشار إليه يقومون بتعميره وترميمه من حين لآخر.

حكمة:

لدى وصول نوح ـ عليه السلام ـ إلى أرض مكة، كان الموضع المبارك الذى كان فيه الأساس المنهار لبيت العزة معلوما وأكثر من هذا أن سفينة نوح ـ عليه السلام ـ عندما وصلت إلى حدود حرم الله، أخذت تطوف بالموضع السعيد لكعبة الله. وقد طاف سبع مرات كاملة، وفى أثناء هذا شرح سيدنا نوح طريقة الطواف للموجودين داخل السفينة وأمر ألا يقترب أى إنسان من زوجته تعظيما لبيت الله. وعندما خالف حام بن نوح أمر والده، دعا نوح على ابنه حام بالسوء فتغيرت نطفة حام على أثر هذا الدعاء وبدأ فى إنجاب أبناء ذوى بشرة سوداء.

ونسى العباد طوفان نوح مع مرور الوقت، واتخذوا الأصنام آلهة وأهملوا العناية ببيت الله فقد غطت الرمال الأساس القديم لبيت الله الذى ظهر بعد الطوفان واختفى تماما عن الأنظار.

والموقع اللطيف لبيت الله أصبح ربوة من الرمال الحمراء ومع هذا ظل الناس يعتقدون أن هذه الربوة الحمراء مكان مقدس، لذا كانوا يسعدون بالطواف حوله وزيارته وبهذا التقدير يحتمل أن الخيمة المذكورة الموضوعة فوق الأساس الذى بناه أبو البشر كانت البيت المعمور، أو أن فوق البيت المعمور خيمة مثل الخيمة المذكورة ويفهم من هذا أن الخيمة قد رفعت عقب وفاة آدم ـ عليه السلام ـ وأن البيت المعمور ظل على الأرض حتى قبيل الطوفان، ورفع فى أثناء الطوفان حتى لا يتلوث بمياه الأرض القذرة.

* * *

فى بيان ترجمة حال سيدنا إبراهيم عليه التحية والتكريم الذى وفق فى تجديد الكعبة المعظمة فى المرة الرابعة، وسبب ذهابه إلى مكة المكرمة، والقصة الهامة لذبح إسماعيل، والمهمة التى كلف بها لتأسيس البيت الحرام، وإقامة أولاد إسماعيل فى تلك البلدة المقدسة، وبيان أحوال تلك الأيام وكيفية معيشة الناس

قال سيدنا على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ دون أن يخوض فى أوليات بناء البيت قبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ «أول من بنى البيت الشريف سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه التعظيم».

وقد كذب ابن كثير وخرج الروايات التى تقول «إن الكعبة المفخمة قد جددت ثلاث مرات قبل بناء إبراهيم، كما جاء فى تفسيره الشريف[1] وبهذا صدق قول على بن أبى طالب، إلا أن الروايات المشهورة تؤكد أن سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ قد بنى البيت المعظم للمرة الرابعة. وسواء صح القول الأول أو القول الأشهر فلاشك فى أن النبى المشار إليه قد جدد مقر العزة الإلهية.

وهناك أسئلة كثيرة ترد فى الخاطر ومنها: كيف ترك إبراهيم ـ عليه السلام ـ مسقط رأسه بابل؟ وكيف اتجه نحو واد غير ذى زرع؟ وأين قضى أوقاته قبل تشريفه إلى مكة المكرمة؟ وأين أقام بعد تأسيس البيت الشريف واستراح؟ وبما أن هذه الأسئلة فى حاجة إلى الحل والإجابة، وذلك يحتاج إلى تلخيص الأخبار الطويلة المبسوطة فى الكتب لذا رأينا أننا مضطرون لكتابة تاريخ حياة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وترجمة حاله ملخصين تلك الأخبار الطويلة.

(١) هناك إيضاحات مقنعة فى هذا الخصوص فى بحث مقام إبراهيم.

ترجمة حال سيدنا الخليل عليه سلام الله الجليل:

سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه التفخيم ـ من الأنبياء أولى العزم من الرسل، يصل نسبه العالى إلى البطن الخامس من هود ـ عليه السلام.

ولد إبراهيم عليه السلام فى قرية كوثى على وزن طوبا ـ مهد زينة الوجود ـ وكانت تابعة لمدينة «بابل» أو «برسد» الملحقة بالكوفة، وولد بعد هبوط الذات النبوية المتصفة بالهداية أبى البشر آدم عليه السلام ـ على وجه الأرض بـ ٣٣٢٣ سنة وعلى قول بـ ٣٣٦٣ سنة، وبعد واقعة طوفان نوح المفجعة بـ١٧١١ سنة، وقبل الهجرة النبوية بـ٢٨٩٣ سنة.

وهناك من يقول إنه ولد قبل الهجرة النبوية بـ٢٥٩٦ سنة. ويخمن جماعة من المؤرخين الأجانب أن مولده كان قبل ميلاد عيسى بـ٢٣٦٦، أو بـ٢١٢٢ عند جماعة أخرى. ويروى أنه ولد فى مدينة حران وبعد ذلك هاجر إلى «بابل» وفى رواية أخرى أنه ولد فى مدينة «أورفة» فى تركيا ثم هاجر إلى حران ومنها إلى بابل. وقال بعض المؤرخين أيضا إنه ولد فى قرية برزة «من قرى دمشق بالشام، وأصبحت المغارة التى ولد فيها مزارا للعارفين، بل هناك من يقول إن الدعاء فى هذه المغارة يستجاب من الله سبحانه وتعالى.

(بدايع الزهور)[1].

كان وجهه الشريف أحمرَ مائلاً للبياض، قامته متوسطة موزونة معتدلة أشهل العينين ضخم السرة، عظيم الصدر مستوى المنكبين.

ولد فى زمن هاصر بن كوفى بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ أو فى عهد نمرود بن كنعان الذى كان من جبابرة الملوك وتصادف ليلة ميلاده ليلة الجمعة فى يوم عاشوراء.

وفى ذلك التاريخ خرج النمرود التعس عن الطريق المستقيم وجادة الصواب

(١) هذه الرواية من الروايات المرجحة لدى صاحب بدايع الزهور.

بمساعدة الظروف، وأقام مجموعة من الأصنام على أشكال مختلفة وادعى الألوهية ودعا الناس إلى عبادته، وهكذا أضل الناس عن عبادة الملك المتعال جل جلاله. وكان يقول: «إن الذين يعبدون صورتى، سواء خفية أو علانية ويتقربون إلي ينالون درجة الكمال وأعلى المناصب». وذات ليلة رأى فى منامه أن كوكبا لامعا براقا يضئ حتى أن نوره حجب ضياء القمر المنير فاختفى، فقلق قلقاً شديداً وأحضر كبار الكهنة والمنجمين وأمرهم بتفسير ما تدل عليه الرؤيا وبناء عليه قال المنجمون: سيولد مولود ذو طالع ميمون مرتفع محمود العاقبة، وسيكون سببا فى تحطيم بنيان سلطنتك حتى تصير خراباً وأن هذا الطفل مازال فى صلب أبيه.

وتبعا لقول آخر أن (جليد بن عاص) وهو من أشهر الحكماء ومجموعة البؤساء الأشقياء التابعين له والذين اختصوا بتفسير رؤيا النمرود قالوا: «بالنظر فى أحكام كتبنا المتداولة، فإنه سيولد هذه السنة غلام محظوظ سعيد فى عاصمة بلدكم، وبعد أن يكبر هذا الغلام سيأتى بدين جديد وسيدعى أنه رسول لهذا الدين، وسيدعونا لاتباعه وإذا عجزنا عن إيجاد حل لهذا الأمر من الآن، فإن دولة النماردة ستزول وتمحى بلا ريب.

وتحير النمرود التعس من هذه المعلومات الفلكية التى تلقاها من كهنته، وبدافع من حماقته وبلاهته هب ليغير حكم القضاء وأصدر أوامره بالتفريق بين الرجال والنساء لكى يحول دون اجتماع الأزواج فى الفترة التى جددها الكهنة، وعين لكل عشرة رجال رقيبا عليهم، وعلاوة على هذا التضييق على الناس أمر بقتل كل الأطفال الذين سيولدون في تلك السنة».

وفى الواقع أنه لم يستطع تغيير القدر الإلهى، إذ التقى آزر[1] فى تلك الليلة بزوجته[2] (أدنى بنت نمرة) وانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

(١) آزر هو لقب لتارخ أبو سيدنا إبراهيم لقب بهذا الاسم للإله الذى يعبده على قول، وفى قول آخر هو عمه أخو أبيه. وهذا ما رجحه الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ رحمه الله ـ من العلماء المعاصرين.

(٢) هناك اختلاف فى اسم «أدنى» فبعض الرواة يصرون على أن اسم والدة إبراهيم عليه السلام «أدنى» بينما يقول الثانى أن اسمها «ملكا» ويدعى الثالث أنه «نونا» بينما يقول الرابع أنه «ليوثا».

رباعية:

إذا المولى أمرا مـــن الأمـــور شـــاء
فلا قدرة لأحد علي رده ولا القضـاء
ويثبـــت ذلـــك لمـــن أنكـــــــر
حكاية البيت والولـد وهمـة العنقـاء

عرف المنجمون تلك الساعة التى انتقل فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى رحم أمه ليلا، وأبلغوا توا النمرود بالخبر، فقام الشقى متهوراً وقد تحول إلى قطعة نار تحرق ـ فأمر بقتل آلاف من الأبرياء إذ أدرك أن المولود ذا العاقبة المحمودة سوف يولد ولم يقنع بهذا، بل عين موظفاً لفحص السيدات الحوامل، وذلك بغية قتل كل طفل ذكر سيولد مستقبلا إلا أن حداثة حمل (ادنى ابنه نمرة) ساعدها على إخفاء علامات الحمل وبذلك نجت من تلك المعاينة الجبرية من أتباع نمرود، ورغم أن والدة سيدنا إبراهيم استطاعت إخفاء حملها[1] بسبب شبابها ونجت من الذين فحصوها، فإنها عندما أتمت مدة حملها وبدأت مظاهر الحمل في الظهور عليها وكانت تعرف مصير فلذات الأكباد الذكور من القتل، حدثت نفسها قائلة: «إننى إذا وضعت غلاماً فسوف يقتلونه، لذا يجب على أن أضعه فى مكان خال بعيدا عن العيون «وبناء عليه ذهبت إلى حافة واد بين جبلين خارج المدينة وبعد أن وضعت حملها، لفت ذلك المولود السعيد في قطعة قماش وتركته فى كهف داخل هذا الوادى، حتى لا يقتل، ثم رجعت وأقنعت زوجها آزر بأن قالت له «فى أثناء وجودى فى وادى بيابان وضعت غلاماً، لكنه توفى فقمت بدفنه هناك ورجعت.

أما آزر فقد أظهر السرور وقد اقتنع بما قالته الزوجة وشكر الأصنام التى كان يعبدها، وتمتم ببعض الكلمات مسريا عن نفسه.

(١) لم يستطع أحد كائنا مَنْ كان أن يلحظ أمارات الحمل على أم نبينا إبراهيم عليه السلام، لأنه لم يظهر عليها شيء من علامات الحمل.

فى الليلة تركت (أدنى ابنة نمرة) إبراهيم عليه السلام ـ فى الغار، ذهبت إليه وهى تردد سراً يا ترى كيف حال فلذة كبدى ألا أذهب إليه ثانية لأرى ما إذا كان حيا فأرضعه، وقد وجدته على قيد الحياة، فأرضعته ورجعت.

وكان جبريل الأمين قد قطع حبل سرة سيدنا إبراهيم، وألبس على ظهره حلة بيضاء وأذن فى أذنه وأجرى الأصول الإسلامية المعتادة.

ولدى مجئ أم سيدنا إبراهيم كان ـ عليه السلام ـ يضع أصابعه فى فمه ويرضع منها وكان يقطر من أحد أصابعه عسل ومن الآخر ماء ومن الثالث سمن، ومن الرابع لبن، ومن الخامس لبن التمر. وتعجبت الأم من هذا الحال وسعدت به.

وكانت تذهب دائما إلى الغار المذكور لإرضاع ابنها، لكنها اجتهدت فى كتم ما يحدث وإخفائه حتى عن زوجها آزر.

أما سبب هذا التكتم والإخفاء، فقد كان لسلوك آزر غير المناسب، فعندما علم بحمل زوجته ـ بدافع من إخلاصه للنمرود ـ فقرر تسليم المولود إذا كان غلاما للنمرود، وأخذ من زوجته عهداً وميثاقا في هذا الشأن.

أما زوجته وبدافع من طبيعتها كامرأة، فقد اتبعت آزر وعقدت معه هذا العهد، ولكنها ندمت بعد ذلك وأخذت تفكر تفكيرا عميقا وتحدث نفسها قائلة: يا ترى كيف يمكننى أن أجد حلا لهذا الأمر؟ وكيف يمكننى أن أخلص فلذة كبدى ـ إذا جاء غلاما ـ من يد آزر.

ولعلمها بمدى محبة آزر لها وميله نحوها، ولتأمن أيضا من قتل وليدها إذا جاء غلاما من قبل أبيه، أخذت تحدث نفسها عندما اقترب أوان وضع حملها قائلة وإننى إذا وضعت غلاما فإنه سيقتل ساعة ولادته وهذا سيؤدى لفرط عطفى عليه وشدة حبى له لقتل نفسى ولاشك فى ذلك. وبدلا من التعرض لمخاطرة كهذه أقول فبحق الحب السائد بيننا أن تتجه إلى آلهتك وترجوهم ساجداً ألا أضع غلاما بل أنثى «وهكذا أرسلت آزر[1] إلى دار الأصنام معبد آلهتهم، بينما ذهبت

(١) كان هدف أدنى بنت نمرة من هذه الحيلة أن تحفظ مولد سيدنا إبراهيم بعيدا عن أبيه آزر وإنها كانت حيلة فى محلها.

هى إلى حافة الوادى حيث وضعت حملها ـ كما سبق الذكر ـ وكانت قد أقنعت زوجها بما حدثت به نفسها.

وبناء على ذلك كلما ذهب آزر إلى ديوان النمرود كانت (أدنى)، تذهب إلى الغار الذى به فلذة كبدها وترضعه لفترة ثم تعود. وقد امتد هذا الحال لمدة سنتين وحسب قول مؤلف «بدايع الزهور» استمر سنة واحدة.

تفصيل

فى هذا الموجز الذى كتبناه إلى هنا فإن أكثر الرواة يتفقون عليه فى لسان واحد، لكن صاحب الكتاب القيم المسمى «الأنس الجليل» الذى قام بالبحث والتدقيق أضاف إلى الموضوع رواية موثوقة إذ يقول: إن رئيس كهنة الشقى (حليد بن عاص) ذهب من رفقائه الضالين إلي ديوان النمرود فى تلك الليلة العجيبة التى انتقل فيها سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه وقالوا له: «إن كل جهودنا إلى الآن لم تثمر، حيث إن ذلك الكيان الذى يجب أن نتخلص منه سينتقل هذه الليلة إلى رحم أمه، فإذا اتخذت جميع الاحتياطات الشديدة هذه الليلة وبذلنا كل جهدنا محاولين تغيير خط سير القدر ربما حققنا آمالنا».

بناء على تحريض «حليد بن العاص» وأتباعه من الكهنة الضالين وحثهم المستمر للنمرود» أمرا قاطعا بأن يخرج من عاصمة ملكه كل الذكور ويبعدوا عنها، وأن يعين على كل بوابة من مداخل المدينة مراقبون من أهل الثقة، وأمرهم بألا يسمحوا بدخول أى رجل إلى داخل المدينة فى ذلك اليوم ليلا ونهارا، حتى لا يجتمع زوج بزوجته. وفى أثناء تلك الفترة المذكورة أبعد كل الذكور عن مساكنهم وبيوتهم، وكلف المنجمون بتحرى دقائق أحكام النجوم. واختبأت (أدنى بنت نمرة) لفترة بجوار باب المدينة الواقع بمحاذاة البيت الذى تسكن فيه وركزت تفكيرها لفهم نتائج ما يجرى ورآها زوجها آزر بطريقة ما وضاجعها فانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

وعرف (حليد) الشقى من رؤية إشارات النجوم وعلامات الكواكب أن سيدنا

إبراهيم قد انتقل إلى رحم أمه فذهب إلى قصر «النمرود» عقب افتراق (أدنى) عن آزر صائحا صارخا يخبر جماعة النماردة الضالين وقال: «مولانا يائسا» لقد قضى الأمر ـ الآن وذهبت جميع الجهود والمساعى هباء، فذلك الكيان محمود العاقبة قد انتقل فى هذه الساعة ـ إلى رحم أمه، وأشار إلى نجم لامع ليريه للنمرود[1]. وكانت أضواء شعاع هذا النجم قد غطت الشرق والغرب ما بين السماء والأرض، ولم يكن قد رأى أو سمع ـ حتى ذلك اليوم المنير ـ عن بزوغ كوكب سعيد كهذا.

وأفاق نمرود بعد فترة من دهشته وسارع بإجراء التحقيقات والبحث اللازم وسعى للقبض على الرجل الذى ضاجع امرأته فى اللحظة التى أنبأ عنها حليد بن عاص الشقى.

ولما لم يستطع أن يتبين ما جرى رأى أن يترك هذا الأمر لحين ولادة الغلام، مع اتخاذ جميع الاحتياطات. وقال: «إذا كنا لم ننجح فى منع انتقال هذا الكيان السعيد إلى رحم أمه فعلى الأقل علينا أن نبذل كل الجهود لنهتدى إليه فى وقت ولادته».

وعندما آن أوان ولادة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ علم المنجمون الأمر، وأبلغو النمرود اللعين قائلين: «سيولد ذلك الكيان السليم الجسم فى أسبوع كذا وفى يوم كذا وساعة كذا».

ورغم الاستمرار فى اتخاذ لوازم الحيطة؛ إلا أن أدنى عندما أحست بآلام الوضع وأوجاعه ومقدمات الولادة أرسلت زوجها آزر إلى بيت الأصنام لكى

(١) وقد ظهر نجم يشبه لهذا النجم عندما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار إلا انه لم يكن مثل الكوكب الذى طلع عندما استقر إبراهيم فى رحم أمه؛ ولكنه كان مثل الكوكب الذى ظهر فى زمن نوح عليه السلام.
يقول الإمام ربانى فى رسالته الثامنة والستين من رسائله «هناك مذنب سيره نحو الشرق وظهره نحو الغرب لامع، ويشرق عموديا ثم يميل إن هذا المذنب قد ظهر عندما هلك قوم نوح والقى إبراهيم إلى النار، وعندما قوم فرعون وعندما استشهد سيدنا يحيى، ويحتمل أن يطلع عندما يظهر الإمام المهدى.

يتضرع للآلهة على الوجه الذى أوضحناه آنفا، وخرجت من بيتها عازمة على وضع حملها فى حافة واد جاف يقع خارج المدينة.

وفى طريقها قابلت ملكا منير الوجه، جميل المنظر، قادها إلى الغار وقال لها: «كونى يقظة ولا تقلقى من أن ينال الطفل الذى ستضعينه أى أذى أو ضرر، فهذا الطفل خليل صاحب الكبرياء، والجد الجليل لخير الأنبياء، لذا فهو مصون فى كل الأحوال من ضرر ومن كيد الأعداء، ثم انسحب من الغار بعد أن أعد لها كل لوازم الوضع».

واستقر حضرة خليل الله على مهده المزين الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ وقرأ الأذان فى أذنه بعد أن قطع حبل سرته وألبسه الحلة. وبعد أن ألبسه الرداء الذى أتى به من الجنة، دخل الملك سالف الذكر إلى الغار وظل لفترة بجوار (أدنى ابنة نمرة). وفى الساعة التى ولد فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ تزلزل القصر الذى أقامه النمرود العنيد، وسمع هاتف بصورة تثير الفزع والدهشة قال: «لقد اقترب أوان هلاك ذلك الخبيث الذى أنكر إبراهيم» وجن جنون جماعة الشرك النماردة.

وتبعا للبحوث التى قام بها مؤلف «بدايع الزهور» فقد نتج عن اهتزاز قصر «النمرود» سقوط بعض شرفاته فجأة كما انقلبت الأصنام الموجودة به رأسا على عقب. وقد سمع صوت ذلك الهاتف عدة مرات فى ذلك اليوم المذكور وبعد هذا اليوم كان نمرود يسمع مقولة الهاتف فى كل مكان يذهب إليه.

وذات ليلة رأى فى رؤياه أن ضوء قمر يسطع من ضلع «آزر» ويغمر الأرض والسماء، نور بهى وأقلق سكان الأرض، وترددت فى أنحاء العالم وسمعت (جاء الحق وزهق الباطل) فأسقطت معابد الأصنام على الأرض.

وأوقعت النماردة ـ ذوى العاقبة السيئة ـ فى يأس وحرمان، وطاش صواب النمرود من هذه الرؤيا المخيفة وعندما أفاق واسترد وعيه استدعى «آزر» وبادره بقص تفاصيل حلمه المخيف الذى رآه. إلا أن «آزر» دفع الهواجس عنه إذ قال: إن رؤياك تشير وتلمح إلى شدة عبوديتى لكوكب القمر.

بقى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المغارة المذكورة مدة خمسة عشر شهرا ـ على اختلاف الروايات. وعندما بلغ سن التمييز وجال بخاطره فكرة الخروج من المغارة قال لوالدته جاء الأوان للخروج من هذه المغارة.

يقول مؤلف «بدايع الزهور» بقى سيدنا إبراهيم فى الغار اثنى عشر شهرا، ولما كان يكبر فى كل شهر مقدار سنة، كان مظهره فى مظهر الأطفال البالغين عشرة أعوام من عمرهم عندما أراد الخروج من الغار. وبهذا أيد الرواية السابقة.

ولما رجا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أمه أن تخرجه من الغار، رجعت (أدنى) إلى بيتها وبعد تأمل عميق قالت لزوجها: قد ذكرت لك فيما مضى أن ابنك مات، ولم أكن صادقة فابنك لم يمت، وقد أصبح الآن شابا ملائكيا جميل الطلعة وهو الآن فى الغار وشرحت له الأمر كله.

وذهب آزر إلى الغار المذكور ولما رأى إبراهيم أعجب به وأحبه لجماله وكماله وقال لأمه: أخرجي الآن هذا الطفل لنقدمه للنمرود. وأخرجت الأم ذلك الغلام الموسوم بهداية البشر إلى خارج الغار. ولما خرج إبراهيم من الغار تأمل فى الكون، ورأى عجايب الأرض والسموات وأدرك بعلم اليقين وأذعن أن هناك مبدع وموجد حقيقى للأجرام العلوية والسفلية، فسارع بالاعتراف والإقرار بوجود الحق الذى ليس له مثيل من خلال هذا القول: «إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى الذى ليس لى إله غيره. ولم يكن فى ذلك الوقت فرد واحد على وجه الأرض يعترف بوجود إله واحد قهار».

وكان آزر كغيره من بنى البشر فى تلك الأوقات يعبدون النمرود ويشربون من كأس الندامة المتصف بالكفر. وكانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والأصنام المنحوتة ويقدمون نجوم السماء ويهتمون بعبادة الكواكب لتوهمهم أن لها تأثيراً فى سير الكون وإحداث الأشياء.

وكان أهل بابل ـ آنذاك على دين الصابئة يعبدون الشمس وضوء النجوم ويسجدون لنهرى دجلة والفرات.

كما أنهم عبدوا حكامهم وأقاموا لهم التماثيل، واتخذوا هذه التماثيل آلهة وشغلوا بعبادتهم كانوا يعتقدون أن الروح شمعة فريدة منبثقة من النور الأصلى.

والطائفة الخبيثة التى كانت تعيش في بابل فى زمن النمرود هم جماعة معلومة متفرعة من أولاد سام وكانت لغتهم السريانية ودينهم الصابئة.

وكان الصابئة قديما تابعين لشريعة شيث وإدريس ـ عليهما السلام ـ وكانت كتبهم فى الصحف الشريفة التى نزلت على سيدنا شيث، وكان كتاب شيث ـ عليه السلام ـ يتضمن محاسن الأخلاق، ويدعو إلى الصدق والشجاعة ونجدة الغريب، وينهى أهل الإيمان عن الميل إلى الباطل والانغماس فى الرذائل.

ويصلى الصابئة علاوة على الأوقات الخمسة فى وقت الضحى الأولى، وفى الساعة السادسة من الليل ويصلون على الجنازة بدون ركوع أو سجود ويصومون فى السنة ثلاثين يوما وأحيانا تسعة وعشرين يوما. وبالنسبة لوقت الصوم يحرصون على أن يبدأ من الثلث الأخير من الليل حتى غروب الشمس.

والعيد عندهم فى ختام الصوم، ويهتمون بمكة المعظمة وتفخيمها. ويحرصون على أداء الحج، بزيارة مكان فى مدينة حران ويقدرون قبرين فى مصر، إذ يظنون أن أحد هذين القبرين لسيدنا «شيث» والآخر قبل الصابئى «ابن شيث».

ولما كان الدين الذى ينتسبون إليه غاية في القدم وكان دينا حقا لم يستطيعوا أن يستمروا على مبادئه، بل ضلوا فى النهاية وأخذوا يعبدون الأصنام والشمس والنجوم وتماثيل الحكام. ولما لم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجد بين الصابئة مرشدا يدله على الطريق المستقيم راح يبحث بنفسه عن حقيقة وحدانية الله.

وقد رأى أولا «الزهرة» أو الكوكب المضئ و «المشترى» ومن بعده «القمر» ثم رأى بعد ذلك «الشمس المشرقة»، وقال بأسلوب الاستفهام الإنكارى: هذا ربى؟!

وعندما رأى أن هذه الكواكب قد توارت خلف حجاب الأُفُول وغابت، اتجه

إلى حضرة الواحد واجب الوجود ـ تعالى شأنه عن الولد والمولود ـ وهو حزين على الذى صدر منه بغير اعتقاد، وهو لا معنى له، وعبر بقول جليل وجميل المبنى: «لا أحب الآفلين».

وتبعا لبعض الروايات، أن سيدنا الخليل بعد بقائه فى الغار مدة اثنتى عشرة سنة، قال لأمه ـ ذات يوم من يكون ربى؟! وعندما أجابته أمه: ربك ربى.. بادرها بالسؤال التالى، ومن يكون ربك.

قالت (أدنى) ربى هو أبوك «آزر» فلما سألها ومن يكون ربه؟ قالت: رب «آزر» هو «النمرود» وبالتالى سألها: ومن يكون رب النمرود؟!

وهنا نهرته بقوله: «يا ولدى هذه الأسئلة لا ضرورة لها، واحذر أن تقول كلمة واحدة أخرى حول هذا الأمر ورغم أنها بهذا أرادت تهديد سيدنا إبراهيم، إلا أنه قال: «يا أمى، هل وجهى أجمل أم وجهك؟ وهل وجهك أجمل أم وجه أبى «آزر»؟.

وهل وجه والدى أجمل أم وجه النمرود؟

وعندما أجابته بقولها: يابنى وجهك أجمل وأحسن من وجهى ووجهى أجمل وأحسن من وجه آزر ووجه آزر أجمل وأحسن من وجه النمرود.

وقال: «مادمت أنت خالقتى، وأبى خالقك والنمرود خالق أبى فلماذا لم تخلقى نفسك أجمل منى؟ ولم يخلق آزر نفسه أجمل منك؟ ولم يخلق النمرود نفسه أجمل من آزر؟

ورغم أنه قد وضح بيان بطلان اعتقاد أمه بهذه الملاحظة الدقيقة، فإن أمه كررت نفس الإجابة السابقة وصحبته إلى المدينة، نقلت الحادثة التى وقعت بالتفصيل إلى زوجها آزر، وقالت له: أظن أن ابنك هذا سيكون ذلك الكيان الهادى الذى أخبر عنه بأن ظهوره سيكون سببا فى خراب وانهيار بناء سلطنة النمرود من أساسه، وأنه سيقضى على أديان أهل الأرض الباطلة.

ويظن البعض أن الذى أخرج سيدنا إبراهيم من الغار هو والده آزر، إذ ذهب إلى الغار عندما علم من زوجته بوجود ابنه هناك وفى نيته قتله، وذلك لكى يثبت إخلاصه للنمرود. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقلب القلوب جعل آزر يخاطب ابنه ـ وقد رأى جماله الآسر فعامله برفق ورقة وأظهر له المودة والعطف، وذلك من حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخفية.

قطعة

سلبتنى قلبى يا إبراهيم وهو نـــار
بالحسن وليس لى فى ذلك اختيـار
وفـــــى نار تركتنـــــــــى
وليس لنار النمـــرود مـن شـــرار

وبينما يبدى آزر محبته على ذلك النحو، أبصر سيدنا إبراهيم من خلال باب الغار مجموعة من الإبل وقطعان خيل وغنم وقال ما هذا؟.

فأشار «آزر» إلى كل واحد منها على حدة، وأجابه هذا يسمى غنم، وذلك يسمى جمل، وذلك يسمى خيل وعندئذ سأله: لا مخلوق بغير خالق، ترى من يكون خالقى؟ فلما أجابه آزر خالقك هو أمك. وإذا سألت عن خالقها فأنا خالقها وخالقى هو نمرود. وعندئذ قال إبراهيم إذن فمن يكون خالق النمرود؟ وهنا غضب ولطمه بكفه على وجهه المبارك وأخرجه من الغار.

وعندما خرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الغار، رأى كوكب الزهرة، أو «المشترى» ثم «القمر» ومن بعده «الشمس» وقال وهو يشير إلى كل واحد منها «هذا ربى» أبى أليس هذا ربى؟ وعندما غابت كل الكواكب المذكورة واحد تلو الآخر، وأفلت كلها، أفهم والده أنه على الدين الباطل وقال مقولته البليغة التالية «ياقومى أنا لست على دينكم، إنكم تشركون بالله وأنا أتوجه إلى خالق السموات والأرض ـ سبحانه وتعالى ـ وأنا لست من المشركين». ولم يستطع «آزر» أن

يحس وأن يفهم صحة ما ذهب إليه ابنه فيما يعتقده، وأخذه إلى قصر النمرود وقدمه للنمرود وهو شخص كريه المنظر قائلا: ها هو ذا النمرود ربنا كلنا.

وقال بعض المؤرخين إن آزر تأثر من تمسك ابنه إبراهيم برأيه وإصراره عليه وهو ضد دينه فبكى. ولما أدركت (أدنى بنت نمرة) أن النمرود الشقى عندما يرى إصرار ابنه على رأيه سيقتله بدون شك. راحت تبكى هى الأخرى. فقال سيدنا إبراهيم وهو يسرى عنهما لا تحزنا من أجلى ولا تقلقا فالحافظ الحق الذى تكفل بحفظى وحمايتى فى صغرى، يحمينى ويحفظنى أيضا فى كبرى.

ورغم أنه أراد أن يطمئن أباه وأمه بأنه لا يوجد احتمال تمكن النمرود من إصابته بضرر ما فى أى وقت من الأوقات، إلا أن آزر فكر فى أن أعداءه سيزيدون من كراهية النمرود للطفل، وعدائه عن طريق الوشاية، ولذا عزم أن يبلغ النمرود الخبر بنفسه وأمر ابنه إبراهيم. فذهب إليه وقال: أيها الملك إن الطفل الذى كنت تخشى من ولادته هو ابنى إبراهيم، لقد ولد فيما مضى خارج بيتى ولم أعلم بالأمر إلا اليوم. والآن وقد علمت أقدمه لك وافعل به ما تود أن تفعله، حتى لا تلومنى أو ترجمنى بعد ذلك.

وأخذ ابنه ـ بناء على الأمر الصادر من النمرود ـ إلى قصره ولما كان النمرود قبيح الوجه أشد القبح، ويستخدم في حاشيته كثيرا من الشباب ذوى الشكل الملائكى فى الجمال فتعجب سيدنا إبراهيم من هذا الوضع الغريب وبدأ فى السخرية والاستهزاء بالنمرود تحقيرا له وقال: «ياله من خالق عجيب! فقد خلق نفسه غاية فى القبح وسوء المنظر وخلق هؤلاء الفتيان غاية فى الجمال».

وتبعا لبحث وتحقيق مؤلف «بدايع الزهور» فبرغم غضب النمرود على سيدنا إبراهيم بسبب كلماته تلك فإنه صمت فترة لحكمة يجهلها بنو البشر، وأمر بحبسه إلى الصباح وأن يمثل أمامه فى المجلس الذى سيعقد بعد يوم وفى اليوم التالى أتو بإبراهيم إلى المجلس المنعقد فى حضور النمرود وعندما رآه فى هذه المرة غضب لأنه لم يستطع أن يقنعه بترك دينه.

ورغم أنه أظهر علامات الحدة والغضب وبالغ فيهما إلا أن حسن جمال إبراهيم ولطف مقاله أوجد فى القلوب ـ سواء قلب النمرود أو غيره من الموجودين فى المجلس ـ محبة عميقة خالصة فأظهر لسيدنا إبراهيم الود وقال لأبيه يا آزر ابنك هذا صغير السن ولا يعرف ما يقول ومن العيب أن يظهر حاكم عظيم القدر مثلى، معاملة غير لائقة لصبى صغير السن كهذا.

خذ ابنك إلى بيتك وأحسن معاملته وبين له قدرى وعظمتى، وحذره من مغبة شدة غضبى وعظمة عقابى فأخذ آزر ابنه إلى بيته.

وكان آزر يسترزق من نحت الأصنام زاعما بالباطل كسب المال الحلال ولم ينس وصية النمرود فى تحذير ابنه وتهديده من غضبه. وأشرك إبراهيم ابنه فى عمله وكان يأخذ الأصنام التى يصنعها الأب ليلا إلى السوق نهارا ويبيعها وفق أوامر أبيه، وتحمل حضرة الخليل لفترة مهمة القيام بهذه الخدمة الكريهة وهى بيع الأصنام رعاية لحقوق الأبوة، وكان إذا خرج إلى الطريق لبيع الأصنام التى سلمت له يظهر أنواع التحقير والاستهانة والكراهية لهذه الأصنام وكان ينادى «من يشترى هذه الأصنام التى لا تضر ولا تفيد؟ وكان يربطها أحيانا ـ ويجرها فى الأسواق ممرغا وجوهها بالتراب كالجيفة القذرة. ويأخذها إلى حافة الماء ويقول اشربى الماء ويقلب رؤوسها إلى الأسفل.

وكان لابد أن تثير هذه الأعمال النماردة المتعصبين، إلا أنهم لم يقدروا أن يتعرضوا له بسوء، احتراما لآزر وخوفا منه لأنه كان يشغل منصب «حارس الأصنام» وهو بحكم منصبه هذا يتمتع بمكانة لدى موظفى حكومة النمرود وكان له رأى مسموع وحكم نافذ.

وكانوا يشترونها منه حيثما يرونه. ورغم أن هذا الأمر وصل إلى سمع «النمرود» إلا أنه كان قد نسى الرؤيا وتحذيرات الكهنة، لذا لم يهتم بما ظنه شائعات مغرضة إلى أن حل عيد النماردة المشهور.

وكلما كان يحل هذا العيد يقوم كل إنسان بإعداد كل ما يستطيع إعداده فى

بيته من أنواع الأطعمة اللذيذة، ويضعونها حول الأصنام التى فى المعابد ويذهبون إلى الصحراء، ولدى العودة مساء يسعون لعبادة أصنام المعبد ويأخذون بقايا الطعام المتروك فى المعبد.

ويقسمونه فيما بينهم. وكانوا يعتقدون أن أكل الأطعمة التى أخذوها من هناك ستجلب الخير والبركة لمنازلهم. وكان الفئران وسائر الحيوانات تلتف حول الأطعمة وتأكل أكثرها. وكان أفراد النماردة الذين يرون نقص الطعام يقولون إن آلهتنا قد رضيت عنا إذ أكلت من طعامنا ويظهرون السعادة والسرور والفخر لهذا.

وكان هذا المعبد فى ذلك العصر من أمتن المعابد وأجملها حيث توضع الأصنام فيها وقد غطيت جدرانه بالرخام الأبيض والأخضر. وكان فى داخل هذا المعبد ثلاثة وسبعون صنما مصنوعا من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والحجر والأشجار وقد وضع كل واحد منها فى مكانه اللائق.

وكان كل صنم من الأصنام المذكورة موضوعا فوق كرسى من الذهب، كما وضع على رأس أكبرها ـ ويسمى «بهو» تاج مرصع بالجواهر الفاخرة، وكانت عيناه مصنوعة من الياقوت الأحمر[1]. ورصت بقية الأصنام عن يمينه وشماله. «بدايع الزهور».

وعند حلول العيد المذكور، شغل صغار النماردة وكبارهم بإعداد وترتيب لوازم العيد، وذهب جمع غفير من الناس إلى حضرة الخليل وطلبوا منه مرافقتهم قائلين: «يا إبراهيم سنذهب غدا إلى ساحة العيد الواقعة فى صحراء كذا فإذا ذهبت معنا ورأيت ما أقيم من الزينات وآلهتنا بعد العودة ستؤمن بأننا على دين أفضل، ومنهج مرغوب ومستحسن ولكن الخليل تمتم قائلا سأحطمها وعزم فيما بينه وبين نفسه على عدم الذهاب إلى الصحراء مع هؤلاء الكفرة ونظر إلى السماء ـ مثل العارفين بعلم الفلك مسايرا لما يعتقده النماردة وقال: يبدو فى اتصال

(1) إن صنع عينيه من الياقوت كان يغرى الحمقى المشركين بتصديق الكهنة بسرعة.

الكواكب أن مرض الطاعون قد يلم بى واستأذن من والده آزر أن يسمح له بالبقاء فى المدينة وادعى المرض.

وتركه النماردة خوفا من أن يعديهم بالطاعون وذهبوا إلى الصحراء. وخلت المدينة من الناس.

وذهب إبراهيم وحيدا فريدا إلى معبد الآلهة التى كانوا يقدسونها ويعتزون بها ودخل فيه، وأخذ يسخر من الأصنام قائلا: ألا تأكلون هذا الطعام؟ ماذا أصابكم حتى لا تجيبوا؟ ثم أسقط الأصنام الاثنين والسبعين المرصعة والأوثان المزينة بطلاء الذهب من فوق كراسيها فصارت جزازا وعلق الفأس فى رقبة أكبر صنم منها وهو «بهو» وبعد أن فعل هذا رجع إلى بيته[1].

وكانت حكمة سيدنا إبراهيم من تعليق الفأس فى رقبة «بهو» أن يقول للنماردة «سلوا الأصنام التى تعبدونها وقد صارت ألف قطعة ليقولوا من الذى فعلها، وجعلهم على هذه الحال» فهو يريد أن يعرفهم بأن الأصنام لا يمكنها أن تتكلم حتى يشعر النماردة المتعصبون بالحقارة ويستحيوا من أنفسهم.

ورجع النماردة الضالون من ساحة العيد وذهبوا إلى معبد آلهتهم كعادتهم. وعندما رأوا الأصنام المطلية بالذهب التى يعبدونها ويقدسونها منذ سنوات طوال - وقد تحطمت جزازا بكوا بحزن وحرقة وتألموا، وارتموا على الأرض من شدة الخوف وتأوهوا، وأخذ كل واحد منهم يبدى رأيه فيما حدث. وقال أحدهم: «لقد سمعت ابن آزر يهدد بتحطيمها فمن المحتمل أن ينفذ ما عقد عليه العزم ليحقر ديننا، واتفقوا كلهم على هذا الرأى وقالوا «إن إبراهيم بن آزر حطم آلهتنا وسحبوا المشار إليه إلى النمرود لاستجوابه وبدءوا فى تحقيق الأمر بسؤاله أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ وبعبارة بليغة أجاب سيدنا إبراهيم» بالنظر إلى الفأس المعلق فى رقبة «بهو» لابد وأن يكون هذا التصرف الحقير قد بدر منه، فاسألوه

(!) عندما دخل حضرة الخليل إلى ذلك المعبد وحطم الأصنام إلى ألف قطعة كان فى السابعة عشرة من عمره - بدايع الزهور.

عما حدث إذا كان فى استطاعته أن ينطق، وهو بهذا قد ألمح وصرح بأنه لا يليق بهم أن يعبدوا هذه الحجارة العاجزة عن إخبارهم بالضرر الذى أصابهم ولجأ النمرود وآزر إلى التهديد الذى لا يليق بالإنسانية لكى يسكتوا ذلك الرسول سعيد الطالع وتجرءوا على تعذيبه، لإجباره على الكلام واشتدوا عليه فى القول وأغلظوا عليه حتى يعترف بما فعل. وأصروا فى حوار غير لائق لاستنطاقه.

ولما رأى النماردة إصرار النبى الجليل على ترديد الفقرات التى تشمل على حقائق ثابتة «أتعبدون ما صنعت أيديكم، فى حين أنها وأنتم من خلق الحق سبحانه وتعالى».

عندئذ أدركوا أنهم لن يستطيعوا إجبار سيدنا إبراهيم على السكوت، وبعد مناقشات مطولة ظهر عجزهم فى اتخاذ القرار اللازم، واضطروا لحبسه وسجنه مدة ثلاث عشرة سنة وفى النهاية قرر النمرود ـ وفى قول آخر عمل برأى رجل قبيح المظهر من أكبر بلاد فارس اسمه «هيوم» ـ وعزم على إحراقه فى النار. وبنى مبنى ذا جدران عالية أمام الجبل الواقع مقابل قرية «كوثى[1]» من ملحقات الكوفة أو البصرة ونقل إليه حطبا يكفى حرقه لأربعين يوما وعلى رواية لثلاثمائة وست وستين يومًا[2].

وكذلك أشياء أخرى قابلة للحرق وملئوا بها المبنى المذكور وسكبوا عليها الزيت وأضرموا النار فيها من الجهات الأربعة.

استطراد

نظرا لوجود حى فى مدينة «أورفة» معروف باسم «كوثى» وبه مزار على اعتبار أنه المكان الذى ولد به سيدنا إبراهيم وبناء على هذا يتحتم أن يكون موقد النار المعد لحرق سيدنا إبراهيم فى «أورفة» وقد عرف أن هناك صندوقًا أخضر على أنه مهد حضرة الخليل وهو داخل الغار الواقع أسفل قلعة «أورفة» وهم

(!) اسم هذه القرية حسب بحوث المؤرخ «سُدِّى» هو غوطة ـ بدايع الزهور.

(٢) هذه المدة حسب رواية سُدِّى هى ثلاثة أشهر كاملة. بدائع الزهور.

يطلقون اسم «كوثى» على الحى الواقع بمحاذاة هذا الغار وهو متصل به كما يوجد فى هذه المدينة خرابة يطلق عليها قصر النمرود.

ويوجد غير هذا فى أحد الأبراج أطلال قلعة «أورفة» أطلال عمودين من الحجر يبعد أحدهما عن الآخر مسافة خمسين ذراعا.

وهذان العمودان معروفان بين الأهالى على أنهما المنجنيق الذى أعد لسيدنا إبراهيم.

وحسبما سمع من أهل أورفة، فقد مد إلى هذه الأعمدة حبلان سميكان، مثل الحبال التى تمتد بين المآذن ثم علقت هذه الحبال بشجرة وتركت فجأة وهكذا ألقى سيدنا إبراهيم فى خرائب المنجنيق الذى سنبين شكله فيما بعد. انتهى.

كان طول المبنى الذى أعد موقدا لسيدنا إبراهيم ستين ذراعا (٨٥ قدما) وعرضه أربعين ذراعا (٥٦ قدما و٨ بوصات) وكان ارتفاع الجدران ٨٥ أو ٤٢ قدما وعلى قول ٢٨ قدما وأربع بوصات.

بيت

أيها الواعظ ما فى جهنم من نار بها تفزعنا

إنهم يأتـون منها بالنـار ليـحرقوا كـلا منا

وحسب مضمون هذا البيت، فإن كل الدواب التى نقلت المحروقات إلى المحرقة كانت تتحرك ببطء ما عدا فصيلة البغال، فقد كانت تسير بسرعة، ومنذ ذلك الوقت حرم عليه التوالد والتناسل.

وكذلك الحيوان المسمى بالضب فقد أصبح قتله واجبا شرعا، لأنه ساعد النماردة الضالين فى إشعال حطب المحرقة المذكورة.

أضرمت النيران فى الحطب ـ الذي يملأ المحرقة ـ مدّة أربعين يوما متتالية، واشتدت حرارتها لدرجة أنها لفحت وجه السماء وكانت الطيور التى تحلق مرتفعة تتساقط إلى الأرض مثل قطرات المطر، حتى إن سكان المدن والقرى المجاورة أشرفوا على الهلاك من شدة دخان النيران المشتعلة.

وأعد بعض الأفراد سراديب تحت الأرض لحماية أنفسهم من شدة الحرارة، فقد كان لهيب النيران يمتد إلى الأماكن المتناهية فى البعد. «بدايع الزهور» عندما بلغت حرارة المحرقة منتهاها، جردوا سيدنا إبراهيم من ملابسه، وربطوا يديه وقدميه بسلسلة من الحديد بشكل محكم ـ ثم أجلسوه فى كفة المنجنيق الذى

صنعه النماردة بوحى شيطانى، وكان عمر سيدنا الخليل ـ آنذاك ـ قد تجاوز السابعة عشرة. وفى قول آخر التاسعة والعشرين.

وعندما أراد النماردة ـ المشركين ـ أن يجردوه من لباسه الذى يستخدمه كسروال داخلى لجسمه الشريف، ليكشفوا عورته للنيران شلت الأيدى التى امتدت للباسه الشريف. ولم تتحرك، وجاء النمرود وهو فى غمار هذه الحال التى تبعث الدهشة واستدعى حضرة الخليل ـ على نبينا وعليه التبجيل ـ وقال له: يا إبراهيم إننى سألقى بك فى هذه النار فلترى إلى أى إله ستتضرع وينجيك؟ فلما أجاب ربى الذى يحيى ويميت. واستدعى اثنين من المحكوم عليهما بالقتل، فعفا عن أحدهما وأطلقه، وقتل الآخر، كأنه يقول أنا أحيى وأميت مثل ربك.

وعندما ما تلقى سيدنا إبراهيم هذا الرد الذى يوحى بالبلاهة تعجب من حماقة النمرود وبمقتضى المثل عديم المثيل قال: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فسكت النمرود ولم يستطع الرد، وبهت.

ولكن النمرود المغرور العاتى العنيد لم يتعظ من هذا الحوار وأمر بإلقاء إبراهيم فى النار المشتعلة الملتهبة.

وفى نفس اللحظة جاء ملكان وأمسكا بحضرة الخليل من جانبيه وأنزلاه وسط النار بمنتهى الهدوء والوقار. وجاء جبريل ـ عليه السلام ـ بخلعة من خزانة الجنة وألبسها له. وأعد ـ بأمر الخالق ـ بساطا مزركشا لا مثيل له وفرشه فى المكان الذى سيقيم فيه ونمت خمائل كثيرة فى الجهات الأربعة، عرضها وطولها عشرون ذراعا (٢٨ قدما و٤ بوصات).

وفى وسط هذه الخميلة التى تفوق الخيال، وعلى حافة المكان الذى جلس فيه سيدنا إبراهيم كان يجرى ماء فرات يبعث الحياة.

أبيات

شاء النمرود الدون للخليل إحراقا

إلا أن تلك النار أصبحت نورا براقا

ولما بلغت النار عابد الرحمن

أصبحت روضة تبدو سعيراً للعيان

وفى أثناء وضع سيدنا إبراهيم على كفة المنجنيق لإلقائه فى النار، أجهش ساكنو الملأ الأعلى بالبكاء وكذلك العالم الأسفل، ودعوا الله قائلين:

«يا مالك الملك على الإطلاق، إن أعداءك يلقون بحضرة الخليل فى النار، فبعد هذا لن يبقى على وجه الأرض من يعبدك، لأنه لا يعترف بوحدة وجودك ـ على الأرض ـ سوى سيدنا إبراهيم، فإذا أذنت فإننا ننصره» بلغ طنين النداء عنان قبة السماء والأفلاك واسودت طبقات أعتاب السماء وأضحت مثل لون الأرض ولكن الخطاب الإلهى دوى: (إبراهيم خليلى، وليس لى خليل سواه وأنا ربه وليس له رب سواى فإذا طلب منكم النصرة فساعدوه، فقد أذنت لكم. ولكننى متأكد بأنه لن يدعو سواى) وهكذا سعى الكل إلى عرض نصرته وعونه لسيدنا إبراهيم بصورة ما، فأجابهم سيدنا إبراهيم: «حسبى الله ونعم الوكيل».

فأصبحوا فى حزن وهم وقد سمعوا هذا الجواب من إبراهيم. وفى أثناء إلقاء الخليل فى النار كان يردد:

«لا إله إلا أنت، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك»

فانصهرت السلاسل الحديدية التى كبلت جسمه النبوى المغمور بالنور وسقطت على الأرض، من شدة حرارة لهيب النار التى لم تستطع أن تؤثر فى جسمه الميمون ـ عليه التعظيم وفى وقت إلقائه فى النار ـ ظهر جبريل الأمين وخاطبه قائلا: يا إبراهيم، إذا كان لديك طلب منى فقله، فالوقت قد ضاق فأجابه قائلا: لقد وجهت وجهى إلى واهب الآمال الذى هو قبلة المحتاجين فى العالم ولا حاجة لدى أعرضها عليك فقال: إذا كان الأمر كذلك فاعرض ما فى ضميرك لكى تنال مرامك، فأجاب إبراهيم عليه السلام: إننى أعتبر الدعاء فى هذه الحالة سماجة، فعلم الله بحالى يغنى عن سؤالى.

بناء على هذا، فإن النار الموقدة منذ أربعين يوما أصبحت بأمر الله روضة أزهار يانعة، تنعش الروح، وتأسر القلب بمقتضى الخطاب الكريم الجليل.

(يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) (الأنبياء: ٦٩) وبالخطاب الإلهى تحول داخل المحرقة إلى عالم آخر، وانقلبت نار النمرود إلى هواء عليل، وفقدت النار قوة إحراقها وإن بقى لهيبها عاليا. وتفجر داخل هذه المحرقة التى تشبه جهنم ماء عذب بارد، ونبتت فى جهاتها الأربعة فصائل الأزهار المختلفة الألوان وتزينت بكل أنواع الرياحين. وخلق ملك، له شكل وصفات سيدنا إبراهيم - عليه التحية والتعظيم وأخذ يؤنسه بالتحدث معه.

(شمس التبريزى).

ذكـــرهـــا الخـلـيـــل محبـــــورا

وأصـبحت نـــــار الخليـــل كلهـــا

النســـــريـن حمـــــراء كالـــــورد

لخـــــليـل رب الـــــوجـــــود

إذا جال التساؤل الآتى بالخاطر ما الحكمة من امتحان الله تعالى نبيه إبراهيم بإلقائه فى نار النمرود؟! مع أنه خليله؟ بينما لم يمتحن مخلوق قط، حتى زمن إبراهيم بإلقائه فى النار؟! يكون الجواب.

إن إبراهيم - عليه السلام - كان يخاف من نار جهنم خوفا شديدا، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أن النار لا تستطيع أن تضر أحدا إلا بإذنه، لذا ابتلاه بإلقائه فى النار.

(بدايع الزهور).

بعد هذه الواقعة بأربعين يوما، كانت النار التى انشغل النمرود بإيقادها مدة طويلة يراها من نافذة قصره المنيف وقد أصبحت روضة من بساط أخضر، وصحراء تبهج القلب وتسعد الفؤاد، مزينة بزهور النسرين الندية، وكان سيدنا إبراهيم يجلس على حافة المياه التى تجرى داخل روضة الأزهار النادرة، والحديقة

الغناء وهو يرتدى القميص الذى جلب له من خزانة الجنان، وقد غرق فى بحر المحبة والصحبة مع الملاك الذى يشبهه قلبا وقالبا واستولى على النمرود قلق وحيرة مما يرى، وقال مخاطبا إبراهيم لو أن المكان الذى أنت فيه كما يتراءى لعينى يدل على أن ربك إله عظيم ذو مقدرة خارقة وعظمة هائلة فأنا أومن به، وإن أمكنك التحرك من هذا المكان الذى تحيط به النار وتحرق ما حولك. فتعالى، وجاء الجواب نعم إن النار لا تستطيع أن تحرق قدمى، فناداه قائلا إذا كان الأمر كذلك فتعال إلى لأرى فخرج سيدنا إبراهيم من النار التى تشبه الجحيم وهو حافى القدمين وذهب إلى ناحية النمرود.

حكمة

قال مؤلف بدايع الزهور عندما كان نمرود يمعن النظر من قصره إلى حضرة الخليل، تطايرت شرارة من المحرقة، فأحرقت كل الملابس التى كان يرتديها النمرود المشئوم الطالع الملعون، لكنها لم تمس جسده بضرر وهذه إشارة لطيفة توضح أن النار لا يمكن أن تصيب أى إنسان بضرر، طالما لم يأذن الله القادر بالأذى.

وعندما رأى النمرود أن النار لم تصب حضرة الخليل بضرر أو أذى قال: يا إبراهيم كنت تتحدث مع شخص يشبهك، وأنت بداخل هذه الروضة، من كان هذا الشخص؟ ولماذا كان يطوف حولك؟ وتلقى جواب إبراهيم: هو ملك الظل أرسله إلىَّ حضرة القادر لأتحدث معه، عندئذ كف يده عن إيذائه وإرهابه وقال: يا إبراهيم لا يمكننى أن أقبل دينك وأترك كل هذه الرفاهية والأبهة والسلطنة ولكننى سأنحر القرابين تقربا لإلهك لأنال رضاءه وأذبح أربعة آلاف ثور ومثلها من الشياه.

إلا أنه زاد طغيانه فيما بعد وهبَّ لتحدى خالق الإنس والجن ومحاربته، فسلطت عليه بعوضة وهى أضعف مخلوقات الله فكان موته من قرصتها.

وفى تلك الأوقات كانت النار تحرق الحيوانات التى يذبحها الأفراد قربانا لله

دليل قبوله. وعندما رأى النمرود أن القرابين التى ذبحها لم تلق قبولا عند الله، لأن النار لم تمسها خجل من الذين يعبدونه ودخل داره ولم يسمح لأحد بالدخول إليه. أما تصرفه هذا كان سببا فى دخول كثيرين من أتباعه فى الإسلام وهكذا لاذ هؤلاء السعداء بقلعة الإسلام المتينة.

وكان للنمرود بنت تسمى «رغفت[1]» وكان نور الهدى والسعادة يتألق فى جبين هذه البنت. وقد استأذنت «رغفت» والدها فى الذهاب إلى حافة المحرقة لرؤية إلقاء حضرة الخليل فى النار. وأراد النمرود أن يمنع «رغفت» من الذهاب فادعى كذبا موت إبراهيم قائلا: «يا ابنتى لم يبق أثر حتى لرماد إبراهيم».

لكن «رغفت» ألحت فى الرجاء، وأخذت الإذن من والدها وذهبت إلى حافة المحرقة التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم حضرة الخليل وسط روضة عجيبة الأزهار، فقالت:

«يا إبراهيم، ما أحسن حالك النار لم تحرقك» فلما أجابها «إن النار لا يمكن أن تحرق أولئك الذين فى قلوبهم معرفة الله الكريم وفى لسانهم الكلمة المنجية» بسم الله الرحمن الرحيم فقالت «إذا أذنت لى أن أذهب إلى جوارك» ودخلت وسط النار وهى تردد الكلمات المنجيات بلسان الصدق والإخلاص على النحو الذى علمها حضرة إبراهيم «لا إله، إلا الله إبراهيم خليل الله.

ولما لم تحترق أقرت واعترفت بلا تردد بوجود الله موجد الوجود وسعدت بنيل الوصول إلى سعادة الإيمان السرية. وعندما ضاق والدها النمرود وتكدر من إيمان «رغفت» بإله إبراهيم، ولم تؤثر فيها النصائح التى ظل ينصحها بها كثيرا لكى ترتد فقيدها من يديها وقدميها، ولكنه لم ينجح فى صرف ابنته عن دين إبراهيم، لأن حضرة الخليل نقل «رغفت» إلى مكان آخر، صور الله سبحانه وتعالى القادر المطلق إحدى بنات النماردة ممن أمعن فى الكفر والشرك على هيئة «رغفت» فقتلها النمرود ظنًا منه بأنها «رغفت».

(!) يروى أيضًا أن اسمها رعفه.

وبعد هذا نقلت «رغفت» إلى المكان الذى هاجر إليه سيدنا إبراهيم، وتزوجت من مدين بن إبراهيم، وأصبح لها من مدين عشرون ابنا وحفيدا واكتسى أكثر هؤلاء خلع النبوة الفاخرة.

وعندما نجا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ضغوط النمرود، صدق بنبوته لوط بن هارون والآخرون من الوجهاء وسعدوا بنيل مرامهم، أما سارة بنت هارون فسبقت الجميع فى الاعتراف بنبوة إبراهيم وردت على تساؤل (أدنى) يا سارة ألا تخافين أن يقتلوك؟

أجابت: كيف أخشى وقد آمنت بإله ابنك خليل الله، ولابد أن يكون هدف (أدنى) من هذا السؤال هو اختبار مدى قوة إيمان سارة، لأن الحافظ السهيلى. نقل رواية تتصل بهذا الموضوع والتى تبين أن (أدنى) كانت من أهل الإيمان لكنها أخفت إيمانها وكتمته عن النماردة.

وقد اختلف المؤرخون السابقون فى تحديد شخصية هارون، فقال بعضهم إن هارون كان ملكا على مدينة حران.

وقد تزوج حضرة الخليل من ابنته سارة لما هاجر إلى حران، وقال بعض المؤرخين إن هارون كان أخا إبراهيم.

وقال الآخرون: إنه كان عمه الأكبر، وكان الزواج من ابنة الأخ جائزا شرعا فى تلك الأوقات.

وهناك من يدعى أن أخا إبراهيم وعمه يحملان اسما واحدا وهو هارون وأن ناحور جد سيدنا لقمان بن باعور أخو هارون ويفهم من هذه الرواية أن السيدة سارة كانت ابنة ناحور، والله أعلم بالصواب.

إخطار:

على رغم عدم وجود المعلومات الصحيحة حول ما إذا كان المنجنيق الذى علمهم صنعه إبليس ذو التلبيس لإلقاء سيدنا إبراهيم فى النار هو نفس الآلة التى بينا شكلها أم لا. ولكننا نستطيع أن نحكم أنها تشبه المنجنيق الذى اخترع فى زمن النمرود الشقى، خاصة أن هذه الآلة من الآلات الحربية القديمة المستعملة فى الحروب قبل اختراع الأسلحة النارية.

ونقول فى وصف شكل الآلة المذكورة، إنها عبارة عن قطعتين من الخشب قويتين ورصينتين، وربطت كل منهما بالأخرى فى شكل أفقى، ومدت بينهما أحبال وغرست فيها ـ فى نهاية الخشبتين والموضوعتين بشكل أفقى، بواسطة وتر طويل بقدر كاف مثل الملعقة، وقد ربطت بوتر أفقى ثالث من أطرافها العلوية.

أما طريقة استعمال هذه الآلة، فإن الوتر «م» ينتقل إلى الوضع الأفقى بواسطة البكرة «دد» مرميها وتوضع الأشياء التى ستلقى فى الوتر (م) المذكور ويتم إرخاء ذلك المسمار وتلك البكرة وهكذا تصطدم الخشبة (م) بالوتر ق وتلقى الأشياء إلى النقطة المطلوبة.

صورة هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر:

بعون الحق وعناية فيض الله المطلق نجا إبراهيم من نار النمرود، وتزوج بسارة ابنة أخيه وعلى قول ابنة عمه، وظل لفترة طويلة منتحيا جانبا، يعالج الآلاف من أهل معقل العصيان مرضى القلوب من خلال إرشاداته الشافية.

ولما أخبره ابن أخيه لوط أن النمرود يريد أن يزعجه[1] بالكيد والإساءة إلى

(!) كان سيدنا إبراهيم آنذاك على اختلاف الروايات فى الخامسة والسبعين من عمره.

الآخرين، اصطحب سارة وابن أخيه واتجهوا نحو مصر ليبتعدوا عن شرور النماردة المستحقين اللوم واللعنة. وقبل ذلك أقاموا قليلا فى حران، ثم فى بعلبك الشام ولم يمكثوا فى مصر ذات الأهرامات طويلاً، وغادروا راكبين إلى الشام ونزلوا فى وادى السبع وكان قد اصطحب معه أمه مع والده آزر، غير أن آزر انتقل إلى دار الآخرة فى مدينة حران وقد بلغ الخمس بعد المائة.

إضافة:

وادى السبع موضع فى «طريق الرقة» وقد قال «وائل بن قاسط» عن سبب تسميته «ما أدرى عن هذا شيئا إلا أنه وادى السباع» ووائل هذا رجل من مشاهير العرب دخل بالصدفة إلى خيمة أسماء ابنة ريم فى أثناء عبوره من المكان المذكور. وكانت أسماء فائقة الحسن ونظرا لوجودها بمفردها فى خيمتها عند مجئ «وائل بن قاسط» فطمع فى أن يقضى وطره منها فامتنعت وهى تدافع عن نفسها قائلة: «إذا لم تكف يدك عنى فإننى سأستدعى سباعى، ولم يكن وائل يرى أحدا سواها، وعندما قال لها يا ترى أين سباعك؟!

نادت أسماء بصوت عال: يا كليب يا ذئب، يادب، يا فهد، يا سرحوف، يا أسد، يا ضبع، يا نمر.

وهذه الأسماء كانت أسماء أبنائها فظهر كل واحد منهم من ناحية وهو شاهر سيفه فخاف وائل منهم وظل يقول «ما أدرى هذا إلا وادى السباع»، لذا أطلق اسم «وادى السباع» على الموضع المذكور.

وقلة من المؤرخين الذين بينوا سبب هجرة سيدنا إبراهيم: «فى اللحظة التى نجا فيها حضرة الخليل من نار النمرود صدق بنبوته لوط بن أخيه هارون وسيويل بن ناحور ابن أخيه الآخر وسارة ابنة هارون ابنة عمه وسارعوا بالاعتراف والإقرار بوجود واجد الوجود.

وتكاثر أتباع خليل الرحمن بإقبال الناس على الإيمان بوحدانية الله ـ سبحانه

وتعالى ـ أما صناديد النماردة فكانوا قلقين من تزايد عدد المسلمين وأخذوا يبحثون عن وسيلة للقضاء على حضرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإبعاده من كل بابل وما حولها.

وأخذ النماردة يؤسسون الجمعيات فى كل مكان ويوسعون دائرة الشر ويعملون على تقوية أنفسهم حينئذ عثر النمرود على حضرة الخليل، وقال له:

«يا إبراهيم! أصبحت إقامتك هنا غير مأمونة الآن، وربما ستكون خطيرة، لذا يستحسن أن تهاجر إلى مكان أمين تقيم هناك فترة وتستريح.

ووافقت فكرة الهجرة فكر إبراهيم أيضا فترك مدينة بابل متجها إلى مصر، وعند دخول حضرة إبراهيم إلى الحدود المصرية علم أن شرفه وعرضه لن يسلم من اعتداء فرعون. وبناء عليه وضع السيدة «سارة» فى داخل صندوق فى أثناء دخوله إلى مصر ولكن الموظفين المنتشرين خارج المدينة وداخلها كسروا هذا الصندوق بالقوة، وأخرجوا السيدة سارة رضى الله عنها.

ولما أعجبوا بحسنها الأخاذ وجمالها أبلغوا فرعون بالأمر وتكفل به الجواسيس الذين كانوا معهم إذ أسرعوا إلى فرعون قائلين: قد جاء إلى مقر عرشك رجل وزوجته تمتاز بجمال فريد وحسن لم ير أو يسمع عن مثله حتى هذه اللحظة وسهلوا له استدعاء إبراهيم.

وبناء على هذا أحضروا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته إلى فرعون.

إخطار:

كان فراعنة مصر فى ذلك الوقت يقيمون فى بلدة منف. وكانوا يأخذون الرسوم والضرائب من المسافرين الذاهبين والقادمين بواسطة حراس الطرق وفق نظم موضوعة.

رغم وجود أقوال كثيرة ومختلفة حول السن التى كان بلغها حضرة الخليل عند هجرته إلى مصر، فإن صاحب تاريخ العالم قد قبل الرواية التى تخبر أن سيدنا

إبراهيم كان فى السبعين من عمره، كما اتفق المؤرخون على أن فرعون مصر فى ذلك الوقت كان «سنان بن علوان» من أبناء سام بن نوح عليه السلام.

ومع هذا يدعى صاحب «بدائع الزهور» أن اسم فرعون الملك هو طوطيس «انتهى».

عندما رأى فرعون جمال سارة وحسنها ـ رضى الله عنها ـ سحر بهذا الجمال الذى وصف بأنه قطعة من نور السماء. تحركت رغبته الشهوانية، استدعى خليل الرحمن وسأله ما صلة سارة بك؟ وسرعان ما أدرك نيته تجاه أمنا سارة.

ولم يكن فى ذلك الوقت فى مصر من يعبد الله الحق، لذا خاف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من تعرض «سارة» لسوء فأجاب قائلا: «إن سارة أختى وبهذا كان يريد أن يلمح أن سارة أخته فى الدين ولم يكن هنا أحد يعرف حقيقة الأمور.

وإن كان فرعون اقتنع بأن سارة أخت إبراهيم من بطن واحد إلا أنه قرر فى قرارة نفسه ألا يمنعه هذا الأمر من ارتكاب ما صمم عليه، وأمر بأن يخرج إبراهيم من قصره. وتدخل «سارة» إليه فى خلوته، وبدأ رأسا تنفيذ ما فى نفسه قائلا: «وإن كان إبراهيم أخاك فأنا لست أخاك» ومد يده إليها وتوهم أنه سينال منها. وبما أن زوجات الأنبياء مصونات لا تمسهم أيادى الأجانب والأعداء فلما أراد أن ينفذ ما يريده وإذا بجدران القصر المشيد وأسقفه تهتز وإذا باليد التى مدت إليها تشل[1] رأى (سنان بن علوان) هذا الحادث الشريف المخيف المرعب فاستولى عليه الخوف والفزع وطلب من السيدة سارة أن تدعو الله لتعود يده إلى حالتها الأولى. وأخذت السيدة «سارة» تدعو إلى الله وتبتهل فترة دون أن تنظر لما ارتكبه فرعون مصر. وإذا باليد التى شلت وجمدت تعود إليها الحياة كما كانت من قبل.

(١) سنان بن علوان هو أخو ضحاك من ملوك القبط واسمه عند البعض «صاروق» وإن الشخص الدنئ الذى أراد أن يسيئ إلى سارة هو «حلاون» ملك الأردن.

وكان هذا الفرعون الذى إنكب على الظلم والإهانة وأصر عليها، قد تكررت محاولته ثلاث مرات وعلى رأى مؤلف ـ بدائع الزهور ـ سبع مرات، فاندهش فرعون وسألها ما هذه الحال؟ وكان جوابها إن الرجل الصالح إبراهيم زوجى. وفهم فرعون حقيقة الأمر.

فأخذ يستعطفها وقال لها معظما موقرا: «يا سارة إننى لن أحاول أن أتعدى عليك مرة أخرى وإننى تخليت عن شهواتى النفسية» لذا أطلب منك أن تدعو ربك مرة أخرى حتى تعود يدى لحالتها الأولى. وقامت سارة تدعو الله سبحانه وتعالى قائلة: «إذا كان فرعون صادقا فى قوله أعد يده إلى حالتها الأولى» وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائها فرجعت يد فرعون لحالتها الأولى.

إتعظ (سنان بن علوان) من هذه الحادثة المليئة بالحكم، وأهداها جارية قبطية لا نظير لها وملكها لسارة ثم تركها تذهب إلى زوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى كان خارج القصر يعانى من القلق والاضطراب والحيرة كأنه غارق بين أمواج البحر المتلاطم.

إخطار:

بناء على بعض الروايات أن هاجر لم تكن جارية رقيقة بل كانت من بنات ملوك القبط. وقد أهداها فرعون لسارة قائلا: «ها أجر دعائك» وهذا يفيد سبب تسميتها «بهاجر».

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فحينما أخذت سارة إلى خلوة فرعون أصيب الزوج حسب بشريته بالهم والغم واضطرب اضطرابا شديدا فلم يكن منه إلا أن يتوجه إلى عتبة قاضى الحاجات داعيا. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يخلص إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أوهامه ووساوسه، فحول جدران قصر فرعون الكثيفة إلى زجاجة شفافة لطيفة كأنها مرآة تعكس ما فى داخلها وهكذا رفعت من أنظار إبراهيم ـ عليه السلام ـ ستائر الظلام والحجاب وهكذا قد اطلع على ما جرى بين (سنان بن علوان) وبين سارة زوجته. ولما جاءت المشار إليها.

أبيات

مـرت فـى بحـر الحسـن هـاجـر

والصـدف يجـدر بـالـدر

وصـلب الخـلـيـل الطـاهـر

وهبهـا ذلـك الجـوهـر

فظهـر عـلى الفـور حملهـا

كـانت درة، لا درة مثلهـا

كابـن مـن جـوهـر ينفـق فـى أيـام

أمـا هـى فوديعـة عـلى الـدوام

رغم أن المشهور هو أن ولادة سيدنا إسماعيل ـ باهر السعادة ـ كانت عام ٢٧٨٢ قبل الهجرة النبوية، وعلى قول إنه كان سنة ٢٧٦٣، فإن هناك من يدعى أن ولادته كانت عام ٢٥٢٨ أو ٢٩٠٢ قبل الهجرة النبوية، وكان سيدنا إبراهيم آنذاك فى السادسة والستين من عمره.

سبب سفر خليل الرب الجليل إلى واد غير ذى زرع ومكة وطريقة سفره

سكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى قرية تسمى «فسط» تقع بين البلدة المسماة «رملة»[١] و«أيلة»[٢] فى أرض فلسطين[٣].

وأصبح واسع الثراء مما ساعده على استضافة المسافرين الغادين منهم والرائحين.

(١) أيلة تضم ولايتى القدس وغزة.

(٢) اسم بلدة فى الشام.

(٣) اسم آخر للقدس الشريف تعنى فى اللغة السريانية بيت الله.

وعندما اقترب وقت هلاك قوم لوط الخبثاء أخرج سيدنا لوط من بين الطائفة الخبيثة. ونزلت الملائكة ضيوفا على بيت خليل الله، وبعثت السعادة فى نفس السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بتبشيرها بولادة سيدنا إسحاق باهر السعادة.

ويروى أن هؤلاء الملائكة كانوا اثنى عشر ملكا، وفى رواية أخرى أن الملائكة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ عليهم السلام.

لم يعرف سيدنا إبراهيم أن ضيوفه كانوا الملائكة وقام بنفسه بخدمتهم وتوفير ما يلزمهم وذلك تعظيما لشأنهم.

وأعد لطعامهم عجلا صغيرا سمينًا، ولما رأى أن الضيوف لا يمدون أياديهم إلى الطعام علاه الخوف والوهم وبدت عليه مظاهر الخشية والرهبة فخاطبه الملائكة قائلين: «لا تخف يا إبراهيم إننا مرسلون لقوم لوط» (إبراهيم: ٧٠)

حينئذ أدرك أنهم رسل مكلفون من عند الله، وصرح الملائكة بحقيقة الأمر وأفهموه أنهم نزلوا من السماء لكى يقهروا ويدمروا قوم لوط الذين زاد فجورهم وبغيهم، كما بشروه بأن السيدة «سارة» ستلد له غلاما سعيد الطالع اسمه إسحاق.

كان هذا الحوار قبل هجرة نبينا عليه أفضل التحية بـ ٢٧٩٢ سنة، وفى قول آخر ٢٧٧٣، وفى قول ثالث بـ ٢٥٣٨ سنة وفى رابع أنه كان قبل الهجرة بـ ٢٩١٢ سنة.

كانت السيدة «سارة» فى ذلك الوقت تقف بجوار زوجها المكرم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسمعت ما قاله الملائكة الكرام، ولكنها استبعدت أن يكون لها ولزوجها أولاد، فهى ترى نفسها عجوزاً كما أن زوجها شيخ كبير.

فقد كانت فى التسعين من عمرها، وكان سيدنا إبراهيم فى السادسة والتسعين من عمره، ولذلك تبسمت لبشرى الملائكة هذه، ومع ذلك فقد جاءها الحيض، وبعد انقضائه حملت ثم ولدت إسحاق ـ عليه السلام ـ بعد عشر سنوات من ولادة إسماعيل.

استطراد

فى الليلة التى سيولد فيها سيدنا إسحاق رأى سيدنا إبراهيم فى الرؤيا، أن ألف كوكب مضئ يجتمع فى برج واحد، وقص ما رأى على جبريل الأمين ورجاه أن يفسر له دلالة هذه الرؤيا. فقال له جبريل الأمين فى تفسير رؤياه إنها تشير إلى أنه سيخرج من الصلب الطاهر لابنك إسحاق الذى سيولد من زوجتك سارة، ألف رسول سيكونون زينة الدنيا.

سر إبراهيم ـ عليه السلام ـ من التأويل وأخذ فى التضرع إلى الله قائلا: «اللهم اجعل لابنى إسماعيل أيضا نصيبا من هذه النعم الجليلة» وبمجرد ما انتهى من دعائه استمع إلى صوت هاتف يتردد بصداه يا إبراهيم، سيأتى من نسل إسماعيل الطاهر نبى عظيم القدر، كريم الخلق واجب التعظيم، وسيكون هذا النبى بداية رسالة المرسلات وخاتم باب النبوة، وهو مخلوق محمود، وسبب وجود الرسل والأنبياء واسمه الشريف (محمد المصطفى).

فبدت عليه علامات السعادة، وكان سببا فى ظهور تلك الساحة المزينة بالأنبياء وشكر الله معربا عن امتنانه وحمد الله على نهج الآية الكريمة: «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء» (إبراهيم: ٣٨).

(قصص النيسابورى)

إن السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ قد أنعم الله عليها بابن تسعى السعادة فى ركابه، عالى القدر مثل إسحاق عليه السلام، وقد غلبت عليها فى نهاية عمرها نوازع غيرة النساء بصورة تجاوزت كل الحدود. وكانت تغار من السيدة هاجر أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ولما رأت أن سيدنا إبراهيم يحب امرأته هاجر وابنه إسماعيل حبا جما قررت «سارة» ألا تألو جهدا لتكدير زوجها باستخدام جميع الأساليب المؤذية.

لم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يتحمل أعباء الشيخوخة وظلم «سارة» وسخريتها فأراد أن يجأر بالشكوى من تصرفات «سارة» ولكنه قال فى نفسه «سارة ناقصة العقل وأنت من فحول العقلاء فعليك أن تتحمل سلوك غير المتزن كالرجال الشهماء» وعزم على السكوت. ومع ذلك حدث ذات يوم أن أعرب عن حبه لإسماعيل ابنه الأكبر فى وجود أخيه الأصغر إسحاق.

غار إسحاق من كلام أبيه بحكم صغر سنه، وغضب من والده وخاصمه فأثار هذا غضب أمه سارة، ولهذا أقسمت بالله أن تشوه جاريتها هاجر بقطع جزء من لحمها.

عندما سمعت هاجر قسم السيدة سارة ملأها خوف شديد فأسرعت بالخروج إلى الوادى وقررت الهرب إلى مكان تأمن فيه على نفسها ثم ربطت فى خصرها[1] وتركت ذيل ثيابها يجر على الأرض ليخفى آثار أقدامها.

وعندما هدأت غيرة النساء فى نفس السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بعد فترة ندمت على ما بدر منها من قسم فى حق السيدة هاجر، ووجهت كل أفكارها واجتهادها لتجد سبيلا للوفاء بقسمها دون أن تؤذى هاجر.

فقال لها زوجها المكرم: «يا سارة» اقطعى جزءًا من اللحم الزائد من عضو هاجر المستور ليكون ختانا، وافتحى ثقبا فى الموضع الرقيق من أذنها، فإذا علقت به قرطا تكونى قد وفيت بقسمك. فختنت السيدة سارة السيدة هاجر وثقبت أذنها وعلقت بها قرطا وهكذا برت بقسمها.

إخطار:

كان هدف سارة ـ رضى الله عنها ـ من هذا القسم أن تنفر سيدنا إبراهيم من جاريته هاجر. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن يجعل ختان هاجر سنة يتبعها المسلمون فاختتن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته «سارة» أما ما يتعلق بثقب أذن

(١) يروى أن ربط النساء وسطهم بزنار هى عادة اكتسبنها من هاجر.

هاجر فقد أصبح ـ بالنسبة لسائر النساء ـ وسيلة من الوسائل للتزين والتحلى باللآلئ والجواهر. وتثقب النساء ـ الآن ـ آذانهن، ويلبسن الأقراط، بل إن هذه العادة تعتبر من مكملات الزينة لدى النساء.

وبعد فترة جد نزاع ـ من نزاعات الصبية ـ بين الأخوين، جعل السيدة سارة فى ضيق وقلق دفعاها لإظهار ما فى قلبها صراحة وقالت لزوجها المكرم «إننى لن أستطيع بعد اليوم أن أعيش مع هاجر فى مكان واحد فخذها إلى مكان بعيد واتركها هناك».

وبناء على هذا أخذ حضرة الخليل زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى أرض الحجاز العطرة وتركهما هناك.

وفى اللحظة التى أعربت فيها السيدة سارة عما فى ضميرها، وأقسمت على عدم قدرتها على الحياة مع هاجر فى بيت واحد هبط براق من السماء كريح الصبا، وقال إنه مأمور من الله بحمل حضرة إبراهيم إلى مكة. فما كان من النبى إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن يركب البراق حاملا ابنه أمامه وزوجته خلفه، وطاروا صوب مكة المكرمة؛ وفق إرادة الله.

وفى أثناء الرحلة كان جبريل الأمين دليلهم، وكلما مروا بمكان فى أثناء الطريق سأله حضرة الخليل هل سنهبط هنا؟ يجيبه جبريل الأمين: «لا سنذهب إلى مكان أبعد» وقابلوا فى مكان قرب حدود مكة المعظمة طائفة من قوم العمالقة أحبت هذه الطائفة سيدنا إسماعيل ولاطفوه وأعطوا له عشرة من الغنم[1].

والمعروف بين المؤرخين أن سلالة الماعز الموجودة الآن فى مكة وما حولها هى بقية نسل الماعز الذى أهداه العمالقة ـ آنذاك إلى سيدنا إسماعيل.

وعندما وصلوا إلى جبل «كدا» المواجه لجبل «حجون»[2] قال جبريل الأمين:

(١) هذه طبقا لتحقيقات بعض المؤرخين أهداها الجراهمة إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعد السيدة هاجر.

(٢) حجون: على وزن حبور، وهو اسم جبل من الجبال الموجودة فى الناحية المسماة «المعلا من معلاة الكعبة، أى من مدينة مكة.

«ستهبطون هنا فهذا المكان مقام عال. وهنا سيخرج من ذريتك رسول له شأن عظيم وبه تتم كلمة الإسلام».

ثم أنزل سيدنا الخليل فى المكان المقدس للبيت الشريف وكانت أرض مكة فى ذلك الوقت بيئة مليئة بأشجار البلوط وكانت خالية من الناس وتشبه الغابة ومحاطة بأشجار السنط المسماة «أم غيلان» من أشجار البوادى وكانت هادئة ساكنة.

وكان المكان المقدس للبيت الحرام مكانا مباركا مرتفعًا بعض الشىء مغطى بالرمال الحمراء.

نظم

وفـى النهايـة خليـل اللـه
عمـر هـذا البنـاء وأعـلاه
وبقـدم هـاجـر المهـاجـرة
أصبـحت بهـا الصـحراء عامـرة
وشاهـدت عيـون تسـعة أبنـاء
أن حمـل الفـلك كبـش الفـداء
تبعـه عـين مـاء الحيـاة التـى سـالت
وجـرى المـاء وجرى قدم الحوض ليسلم
فتفـجر مـاء زمـزم

وبعد أن أعطى سيدنا إبراهيم للسيدة هاجر جرة ماء ومقدارا من التمر، وعلى قول، إنه أعطاها ملء كيل من الدقيق وبين لها المكان الذى فيه حجر إسماعيل الجوهرة الخضراء داخل المطاف السعيد الآن. أو مكان بئر زمزم[1] الشريف وقال «يا هاجر، أقيمى خيمة هناك، واسكنى فيها ـ فهذا ما جرى به أمر قضاء الله».

(١) ذلك المكان الشريف كان مكانا لا نظير له، يحتوى على أشجار غير مثمرة ذات ظلال وأفرع تحمى من حرارة الشمس.

فأجابته: «إذا كان هذا هو أمر الحق؟ فإن الله خير الحافظين سيحمينا ويحفظنا، فتلقى إبراهيم هذه الإجابة من زوجته ورجع ـ وكان سيدنا إسماعيل فى ذلك الوقت فى الثانية عشرة من عمره.

تنبيه:

لا يجوز لأى إنسان أن يترك أولاده وزوجته فى البرية والخلاء تقليدًا لسيدنا إبراهيم، فحضرة الخليل عمل بالوحى الإلهى وتوكل على الله وهو يعلن أن الله خير الحافظين سيتولى حفظهم.

وتوكل عامة الناس لا يمكن أن يشبه توكل الرسل الكرام أولى العزم، الذين ذكروا فى هذا البيت:

أولـــو العـــزم نـــوح والخليـــل بـــن آزر

ومـــوسى وعيســـى والحـــبيب محمـــد

وتقليد هذا العمل غير مشروع، وجاء فى بعض الروايات أن السيدة هاجر عندما رأت نفسها وقد تركت وحيدة فى ذلك الوادى الغير ذى زرع تتبعت زوجها وقالت له: «هل تتركنا وتمضى عائدا؟ ولم تتلق منه إجابة بنعم أو لا فسارت وراءه حتى جبل» «كدا» وعندما وصل سيدنا إبراهيم إلى الجبل المذكور التفت وقال: يا هاجر، إننى أستودعك الله أمانة عنده؛ فقالت له: إذا كان قد أوحى إليك بهذا. فإن الله الواحد الأحد ـ الذى تركتنا فى كنفه ـ كافينا وكافلنا.. ثم عادت إلى جانب إسماعيل وصعد زوجها المكرم إلى قمة الجبل سالف الذكر.

فلما رأى أنه ترك زوجه وابنه فى مكان موحش خال من آثار العمران والزرع، تأثر من فرط الرحمة والشفقة ودعا الله قائلا:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(إبراهيم: ٣٧) ثم رجع إلى الشام.

وفى قول آخر، إن السيدة «سارة» أصابتها الغيرة من إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقالت: يا إبراهيم، إذا كنت تريد لى راحة البال وهدوء الحال فاحمل هاجر وابنها إلى مكان قفر بلا ماء واتركهما هناك. ولما كان الوحى الجليل قد نزل آنذاك بأن يعمل تبعًا لرأى سارة فإن، حضرة الخليل ترك المشار إليهما مع جرة ماء فى واد غير ذى زرع بمكة، ودعا على النحو السابق.

ولما كان دعاؤه مقبولا مجابا؟ فقد ظهرت قبائل «جرهم» و «قطورا» وعمرت مكة المكرمة، وأصبحت آهلة.

كيف ظهر بئر زمزم الشريف:

عندما نفذ الماء من الجرة التى تركها الزوج المكرم ـ عليه السلام ـ فى ثلاثة أيام، ورأت السيدة هاجر أن ابنها إسماعيل أصبح على وشك الموت من العطش ولا حيلة له، وهى أيضا لا حيلة لها ولا قوة، فلبن ثدييها قد انقطع[1].

وبعد أن تأملت وبكت لفترة، وهى فزعة جزعة من وحدتها فى ذلك الوادى الموحش، تركت ابنها إسماعيل أسفل الخيمة التى أقامتها من قبل وصعدت فوق قمة جبل الصفا للبحث عن الماء. ومن فوق هذا الجبل نظرت تجاه ابنها، حيث لا أثر لماء، أو لإنسان يروح أو يغدو، ونزلت إلى بطن الوادى، وكان المكان المنخفض الذى تركت فيه ابنها يوارى ويحول دون رؤيته فألقت فوق كتفيها بالزائد من الملابس الموجودة وراء ظهرها، وصعدت بسرعة فوق ربوة جبل المروة، فرأت ابنها من هناك ثم نزلت إلى الوادى ومع ذلك لم تستطع أن ترى ابنها، فأسرعت بالصعود إلى أعلى قمة جبل الصفا وابتهجت عيناها برؤية ابنها الذى يبعث السعادة فى النفوس. استمرت على هذا المنوال سبع مرات[2] تذهب وتغدو من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا، بنحو لم يفعله مخلوق من بنى البشر وهى تقول «ليس من الممكن أن يوجد هنا ماء أو أن أقابل بشرا

(١) هذه الرواية تختلف عما يدعيه المؤرخون بأن سيدنا إسماعيل أثناء الهجرة، كان فى الثانية عشرة من عمره.

(٢) لم يكن هناك من سعى بين الصفا والمروة قبل السيدة هاجر. لذا فإنها أول الساعين.

ورجعت إلى إسماعيل وقد امتلأت يأسا وخيبة أمل. وهناك سمعت صوتا يشبه صدى صوت إنسان فأحست بالفرح، لكنها لم تستطع أن تحدد ناحية مصدر الصوت وتحيرت، فماذا تفعل؟! وقد كف الصوت المذكور وبدأت تتلفت حولها وهى حزينة.

بعد ما أفاقت بفترة قالت: «يا صاحب الصوت الندى الذى شغف سمعى. عندما سمعت صوتك الملائكى غرقت فى بحر الأمل، إذا كنت نصيرًا إلى فعجل، لأننى وابنى قد استولى علينا الألم واليأس. فقد بلغنا درجة الموت عندئذ اضطر صاحب الصوت أن يظهر، وكان جبريل الأمين وأن يظهر ماء زمزم بضربة من جناحه.

وسرت السيدة هاجر بظهور الماء سرورًا عظيما وبعد أن شربت[1] وارتوت أخذ ضرعاها اللذان جف لبنهما فى الإدرار، وأحاطت الماء بالرمال حتى لا يسيل الماء فى الوادى، وفى قول آخر إنها عندما حفظت بعض الماء للإدخار أظهرت نوعا من عدم التوكل، لذلك غاض الماء فى الحال فى باطن الأرض وكان هذا سببا فى توارى[2] الماء عن وجه الأرض بعد ما كان الماء جاريا.

لو لم تحاول هاجر ـ رضى الله عنها ـ أن تمنع الماء من الجريان بإحاطته بالرمال، لظل جاريا إلى يوم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف. ظهر ماء زمزم على النحو المذكور وكانت السيدة هاجر فى أمان وسعادة ولما رأى ذلك جبريل الأمين خاطب هاجر قائلا: «يا هاجر لا يحزن قلبك من هذا المكان الساكن هما وغما ولا يجول بخاطرك أن هذا الماء ينضب، فقد انفجر هذا الماء الذى يهب الحياة لحرمة ماء وجه إسماعيل الذى يزين حضنك، وإن ابنك هذا سيتشرف بشرف النبوة وسوف يبنى مع زوجك إبراهيم هذه الساحة المباركة التى تزيل الهم

(١) يروى أن السيدة هاجر سقت ابنها قبل أن تشرب.

(٢) لم يكن حول بئر زمزم حتى زمن أبى جعفر المنصور خرزة من الحجارة والرخام ولم يوجد حول فوهته خرزة يحيط بها وفى زمن خلافة المشار إليه أقاموا خرزة كما غطى ما حولها بالرخام.

والغم وهى بقعة مفخمة مشرفة، وبناء على هذا سيزيد عمران هذا الوادى من سنة إلى أخرى.

سيق أفراد من الأقوام والقبائل ليزوروا هذا المكان المقدس الذي سيعمره المشار إليهما.

وبما أن هذا المقال قد أزال الحزن من نفس هاجر وبشرها بأن هذا المكان سيكون فى دائرة المسجد الحرام الذى سيسبب الفرح والإبتهاج فى النفوس. فما كان منها إلا أن قامت وأدت فرائض العبودية والشكر لله ـ تعالى ـ وقررت أن تمضى حياتها فى هذا المكان المبارك المقدس.

وقد اختلف العلماء فى بيان كيفية تفجر ماء زمزم الشريف، فقال فريق إنها ظهرت من أثر ضربة جناح جبريل ـ عليه السلام ـ وذهبت جماعة إلى أنها ظهرت من أثر ضربة كعب سيدنا إسماعيل، ولكن القول الأرجح حسبما ذكرنا أن جبريل ضرب الأرض بجناحه فتفجرت المياه وأحاطتها هاجر ـ رضى الله عنها ـ بما حولها من رمال، ثم قام إبراهيم بعد ذلك بحفرها وتعميقها حتى أصبحت على شكل بئر وهذا ما قرره الجمهور.

كما اختلف المؤرخون فى تعريف سبب تسمية زمزم الشريف أيضا، ففى بعض الأقوال إنها سميت زمزم لكثرة تدفقها، وعند البعض أن تسميتها تعود إلى معنى «اجر بطيئًا بطيئًا» أى زم زم[1] وثبت هذا الاسم على البئر وعرف به.

وإننا سنبين فى موضوع كيفية انتقال الحكم من يد حكومة مكة إلى أيادى بنى خزاعة، أن هذا الماء ضاع وغاب فى زمن الجراهمة الذين كانوا عنوانا للضلال والطغيان، وبمرور الأيام نسى اسمه وجسمه ومكان وجوده.

وبالصدفة أقام أهل مكة صنمين لهما عند طرفى بئر زمزم الشريف الذي كان مجهول المكان.

(1) إذا عرفنا أن معنى زمزم باللغة اليونانية «قف» يجب علينا أن نحمل التسمية لهذا السبب.

فأقاموا نائلة فى طرف وإساف فى الجانب الآخر. وكانوا يذبحون القرابين بين هذين الصنمين فوق فوهة بئر زمزم الشريف وعندما آل حكم مكة ورئاسة قريش إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وكان قد اقترب الزمن الذى ستجد فيه قلوب عطاش الجاهلية ماء حياة الهداية وستتحول أرض يثرب البطحاء القاحلة إلى جنات مأوى بفضل الماء الزلال الذى يفيض من نور النبوة.

وفى زمن عمرو بن حارث الجرهمى، كان زمزم قد اختفى عن العيون وظل خفيا مدة خمسمائة عام بعيدا عن العيون. وصدرت الإرادة الإلهية لحكمة ما بظهور زمزم الشريف، وكلف عبد المطلب ذات ليلة من الليالى فى رؤياه بأن يقوم بحفر زمزم مفتخرا.

ورغم أن عبد المطلب قد أمر بهذه المهمة، إلا أن مكان البئر المذكور كان غير معروف فى ذلك الوقت، لذا رأى أنه لن يستطيع بمفرده القيام بهذا العمل واضطر للاستعانة بقريش قديما ورؤساء قبائل قريش ووجه إليهم هذا السؤال «قد كلفت بحفر بئر زمزم وإظهارها فهل تعينونى فى هذا العمل؟».

فسألوه هل تعرف مكان بئر زمزم؟ فقال: لم ألهم بذلك أيضا يعنى لم أعرفه فقال الرؤساء: «يا عبد المطلب يجب أن تستخير هذه الليلة إذا كنت مأمورا بهذا العمل من قبل الرحمن فإنه سيخبرك بمكانه، وإذا كانت الرؤيا شيطانية فلن ترى مثل هذه الرؤيا مرة أخرى.

وقد أعجب عبد المطلب برأى الرؤساء وأسرع بكل إخلاص وتوكل يستخير فى تلك الليلة.

وبناء على هذه الاستخارة ظهر لعبد المطلب فى رؤياه فى تلك الليلة شخص تحدث بهذه العبارات المسجوعة: «احفر زمزم إن حفرتها لن تندم وهو تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبدا ولا تندم فسقى الحجيج الأعظم ليس كبعض ما تقدم وهى بين الفرث والدم» ولما رجا عبد المطلب من الهاتف أن يبين له المكان القديم للبئر المذكورة، فأشار له قائلا «عند قرية النمل حيث ينقر الغراب» وكأنه أراد من

عبد المطلب أن يحفر فى مكان يعيش فيه النمل حيث يأتى غراب فى الصباح وينقر فوق بيت النمل وينكشه. ورغم هذا لم يستطع عبد المطلب أن يهتدى إلى المقصود من هذا الرمز والإشارة ثم وصاه بأن يبدأ فى الحفر مسترشدا بهذه الأقوال إذ قال له بعد ليلة «زمزم وما زمزم هزمه جبريل برجله وسقياء إسماعيل وأهله زمزم البركات روى الرماق الواردات شفاء سقم وخير طعام»، وفى الليلة التالية قال «احفر تكتم بين الفرث والدم وعند نقر الأعصم وفى قرية النمل مستقبل الأصنام الأحمر» تكتم اسم من أسماء زمزم المكرم بمعنى «مكتوم» كما سيبين فيما بعد.

الغراب الأعصم:

يطلق على غراب إحدى رجليه حمراء على قول ابن شيبه. وبناء على رأى حاكم يطلق على غراب أحمر الرجلين والمنقار، وبناء على قول صاحب الإحياء يطلق على غراب بطنه بيضاء، وبناء على تدقيق صاحب حياة الحيوان يطلق على غراب أبيض الجناحين أو أبيض الرجلين أو يطلق على غراب أبرش.

على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بناء على القول الموثوق الذى يروى عن على بن أبى طالب بن عبد المطلب عندما رأى الرؤيا السابقة الذكر، غشيته الرهبة والدهشة وتحير فيما يفعله، ولم يستطع أن يبدأ فى حفر البئر، وبعد فترة رأى عبد المطلب فى رؤياه أن شخصا يقول له «أحفر بئر طيبة. وبعد ليلة يقول له احفر بئر مضنونة وعمقها وفى ليلة أخرى بعد أن ذكر الفقرات السابقة المسجوعة عرفه بموقع البئر وبين بعض خواصها؟ ولكن عبد المطلب لم يستطع أن يفهم معنى هذه العبارات المبهمة وراح فى تفكير عميق. وفى ليلة من الليالى استغرق فى النوم ورأسه مشغول بهذه الأفكار فى حجر إسماعيل. وإذا به رأى فى منامه أن هذا الرجل المبارك يقول له: «هل تعرف معنى زمزم، زمزم بئر الماء الذى فجره جبريل عليه السلام بضربة من رجله وهو اسم ماء إسماعيل ـ عليه السلام ـ وأتباعه. وهو البركة ذاتها وإنه يروى العطاش الذين يردون للشرب ويشفى

المرضى، وهو أنفس أنواع الطعام، وبهذا الإيضاح وضح شأن بئر زمزم وخواص مائها».

عبد المطلب ـ عرف عبد المطلب بدلالة هذه الرؤيا معنى زمزم لدرجة ما؟ ولكنه لم يستطع أن يعرف موقعه بالضبط.

لذا توجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ متضرعا مبتهلا قائلا: «يا ربى العليم ومولاى الكريم، دلنى على موقع البئر الذى كلفت بحفره. وقد أصاب سهم دعاته هدفه ونال قبولا إذ رأى فى رؤياه من يقول له: يا عبد المطلب احفر بئر زمزم وإذا أردت أن تعرف مكانها فإنها بين صنمى «إساف» و «نائلة»، حيث يذبح فيه القرشيون قرابينهم وفوق بيت نمل. وغدا سيأتى غراب أبرش وينبش بمنقاره فضع علامة حيث ينبش ثم عجل بحفر وتعميق المكان الذى فيه بيت النمل فتنال مطلبك».

وهكذا وضحت الرؤيا الأمر، ولم يَبْقَ أدنى شك فى مكان زمزم، واستيقظ عبد المطلب من نومه واتجه صوب المسجد الحرام ورأى الغراب ينبش ما بين إساف ونائلة فى وقت السحر، وذهب هناك حيث وجد بيت النمل وبدأ مع ابنه الحفر فى هذا المكان ومعه أدوات الحفر مثل الفأس والمجرفة.

حينما رأى أفراد قبيلة قريش أن عبد المطلب يحفر المكان المذكور شاع الخبر سريعا فيما بينهم وهجموا على عبد المطلب قائلين:

«إننا لن نتركك تحفر المكان الذى نذبح فيه القرابين وخاصة المكان الذى يوجد فيه إساف ونائلة. وأرادوا أن يمنعوه من الحفر، وقد زادت جلبتهم وصياحهم حتى إنهم قد أطالوا الكلام والجدال وتحول الموقف إلى ما يشبه القتال فمات كثيرون».

لم يكن لعبد المطلب حينذاك أبناء غير الحارث وقد رأى أنه لن يستطيع أن يقاوم القرشيين مع ابنه، لذا ترك مقاومتهم واتجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخلصا يائسا «يا إلهى، إذا ما نصرتنى على قريش وأبلغت عدد أولادى إلى عشرة فإننى أفدى واحدا منهم قربانا لك» وكان هذا نذر منه.

وبظهور بعض العلامات أدرك عبد المطلب أن دعاءه قد حاز القبول فتوكل على الله وقام بأداء ما كلف به، وغلب هو وابنه الوحيد كل قبائل قريش وكفت القبائل المعتدية يدها عنه ووقفوا فى موقف المشاهدة والتفرج.

وفى اليوم الثالث عندما ظهرت العلامات التى تشير إلى وجود بئر زمزم مثل[1] الأسلحة وتماثيل صغار الغزلان[2] التى ألقاها الجراهمة فى بئر زمزم، عندما أجبروا على ترك مكة المكرمة والجلاء عنها، عندئذ قال عبد المطلب: «إن كل هذه الأشياء لدليل كاف للإثبات أن بئر زمزم فى هذا المكان» ومن فرط سروره أخذ يكبر بصوت مرتفع.

عندما سمع القرشيون تكبير عبد المطلب اجتمعوا كلهم حوله وأدركوا أنه نال مراده ورأوا الأشياء القيمة التى أخرجها من البئر فطمعوا فيها وظهرت عليهم بوادر النزاع والخصومة وقالوا «يا عبد المطلب إن لنا نصيبا فى الأشياء التى أخرجتها من داخل البئر».

لأن البئر بئر جدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهذا يوجب تقسيم ما وجدته بين أفراد قبائل قريش فقال لهم لاحق لكم فى هذه الدفينة لأنكم لم تساعدونى فى حفر البئر بل أردتم منعى من الحفر مما أدى إلى إراقة الدماء، ولكنهم اعترضوا عليه مهددين بتجدد النزاع وقالوا: «إذا رفضت إشراكنا فى المال كله فعلى الأقل نقسمه مناصفة بينك وبين القبائل، فإذا رفضت هذا الحل أيضا فإننا نقاتلك من جديد».

ولما رأى عبد المطلب أن المعارضة قد استفحلت وأنها قد تؤدى إلى قتل بعض الأشخاص، خاطب الذين استمروا فى الضغط عليه «عليكم أن تختاروا حكمًا نافذ الكلمة ليفصل بيننا فى هذا الأمر» وقد ارتضت قريش هذا الرأى الصائب وقرروا اللجوء إلى كاهنة قبيلة «بنى سعد بن هذيم» التى تسكن قريبا من بلاد

(١) عندما ألقى الجراهمة هذه الأشياء الثمينة فى بئر زمزم ألقوها ليخفوها عن أعدائهم ثم سدوها بالحجارة والتراب حتى يجبروا أعداءهم على ترك المكان تحت وطأة العطش.

(٢) صغار الغزلان هذه كانت مصنعة من الذهب الخالص ومرصعة بأنواع الجواهر.

الشام العامرة لتحكم بينهم، وخرجوا جميعا للذهاب إلى حيث تقيم الكاهنة المشار إليها، ولما كانت منطقة الحجاز فى ذلك الوقت خالية من الطرق المنتظمة وليس بها قرى متقاربة أو عيون ماء أو آبار ممرات ضيقة لدفع الوحشة. ولاشك أن السير فى مثل هذه الطرق أمر مخيف، كما أن السير فى تلك الصحارى الخالية من المياه من الصعوبة بمكان، لذا حمل عبد المطلب ومن معه من صناديد قبيلة قريش ما يحتاجون إليه من أطعمة ومال يكفيهم إلى أن يصلوا إلى حدود الشام.

وعندما ابتعدوا عن مكة ووصلوا إلى واد موحش عديم الماء نفد الماد الذى كان مع عبد المطلب وفتته وأوشكوا على الهلاك، وبعد أن احترقت أكبادهم من العطش. وطلبوا بعض الماء من خصومهم حتى ينجو من هذه المصيبة العظيمة، ولكنهم رفضوا قائلين: «نحن الآن فى واد تنعدم فيه فرصة العثور على نقطة ماء فإذا ما أعطينا لكم الماء فإننا سنتعرض للعطش الذى تعرضتم له كما أن الماء الذى معنا قليل يكاد أن يكفينا وهذا عذر مقنع فى عدم إمدادكم. فزادت حيرة عبد المطلب وجماعته وقلقهم عندما تلقوا هذا الرد.

وعندما رأى عبد المطلب هذا الجحود والإساءة من معارضيه سأل من معه مستطلعا رأيهم «ما رأيكم فى هذا الأمر؟! فقالوا نحن طوع أمرك، ننفذ ما تراه. عندئذ قال: «رأيى أن يحفر كل واحد منكم قبرًا لنفسه فى انتظار الموت، ومن يموت أولا يدفنه الذى مازال على قيد الحياة، فإذا دفن كل من يموت يبقى فى النهاية جثمان شخص واحد بدون دفن والأفضل أن يبقى جثمان واحد فقط بدون دفن من أن تبقى أجسادنا جميعا فى العراء مكشوفة فليحفر كل واحد منكم قبرا طالما فيه القدرة على الحفر. وافق رفاقه على رأيه وحفر كل واحد منهم قبرا لنفسه وانتظر حلول أجله.

وبعد مدة قال عبد المطلب: «يا رفاقى ـ إن حفر قبر انتظارًا للموت شىء عجيب لم يحدث منذ عهد آدم ـ عليه السلام ـ ويدل على عجزنا وضعف هممنا، فإذا قمنا وسرنا ربما يكتب الله لنا النجاة بأن نصل إلى بلدة أو قرية ويبعث لنا ماء

الحياة برحمته، هيا انهضوا لتستمروا فى الطريق سنستعين بالله تعالى»، وبتأثير هذه الكلمات المشجعة التى كانت كالماء الزلال، انبعث فى أبدان أصدقائه الذين كادوا أن يهلكوا قوة كافية، وجهز كل واحد منهم دابته للسير.

أما رجال القبائل المعارضة كانوا يراقبون حركاتهم متيقظين مبتهجين وهم يرون المصيبة الشديدة التى تعرض لها عبد المطلب وأصحابه بسبب قلة الماء ويتحدثون فى استهزاء.

وعندما امتطى عبد المطلب جواده وأراد أن يستمر فى السير تفجر من تحت قدمى دابته التى تحركت للسير ماء عذب سائغ ولما رأى عبد المطلب وأنصاره هذه النعمة غير المنتظرة فرحوا فرحا شديدا بالماء وكبروا كلهم فى صوت واحد ونزلوا عن جيادهم وشربوا الماء مكبرين حتى ارتووا وملئوا جرارهم، وقربهم ودعوا معارضيهم الذين كانوا قالوا لهم، إننا نرفض أن نعطيكم شربة ماء وقالوا لهم، إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد سقانا وأحيانا بظهور هذا الماء وهو يكفى لنا ولكم اشربوا كما تشاءون واملئوا قربكم، ربما لا نتمكن من العثور على الماء فى المسافة الباقية من الطريق.

وتحير القرشيون مما ناله عبد المطلب من نعمة غير مرتقبة واستغربوا ثم تذكروا موقفهم منه وإساءتهم إليه بمنع الماء عنه فعلاهم الخجل واستحيوا وقالوا لعبد المطلب لقد فصل الله فى قضيتنا بظهور هذا الماء لم يعد لنا حق المعارضة فى ماء زمزم.

وما دام الله الوهاب الذى لا يمن عليه ـ جل شأنه ـ قد من عليك بإظهار هذا الماء وأنقذك من العطش فلا شك أنه قد أنعم عليك بزمزم المكرم والأشياء القيمة التى ظهرت فى بئر زمزم.

فكل هذه الأشياء حقك الحلال فتصرف فيها كما تشاء، ولم تعد هناك حاجة إلى حكم الكاهنة. ثم رجعوا جميعا بعد ما أقنعوا عبد المطلب بالعودة.

سعد عبد المطلب مما أظهره أفراد القبائل المختلفة من احترام وندموا على ما بدر منهم، لذا دعاهم كلهم بمجرد عودته إلى مكة المعظمة وخطب فيهم قائلا:

«إذا كان لاحق لكم فى الأشياء الثمينة التى أخرجت من بئر زمزم بسبب معارضتكم لى فإننى بما أتصف به من مروءة وشهامة أود أن يكون لكم نصيب منها فلتقسم هذه الأشياء إلى قسمين» وتسحب القرعة، وكل من تصيبه القرعة تكون هذه الأشياء من نصيبه.

وعقب قوله هذا، جعل صغار الغزلان حصة، وبقية الأشياء حصة أخرى وأجرى القرعة بين قريش والبيت الأعظم وبينه فخرجت الغزلان من نصيب الكعبة وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب ولحكمة ما خرج القرشيون صفر اليدين من هذه القرعة، وقد باع عبد المطلب نصيبه من هذه الأشياء وأنفق ثمنها على أعمال الكعبة، وفى قول آخر أنه صهر الغزلان وزين باب المعلا من الكعبة، وفى قول ثالث إنها ظلت كما هى وعلقها على باب الكعبة الشريفة».

وعندما خرج القرشيون من القرعة بلا نصيب فلم يسعهم إلا أن يتفرقوا وأن يقفوا موقف المتفرج، ولما فهموا أنه لم يعد لهم من الأمر شىء تغاضوا تماما عن منازعة عبد المطلب حول بئر زمزم.

ورأى عبد المطلب أن الأمور هدأت واستمر فى تعميق البئر على النحو الذى يريده، ونجح فى إظهار ماء زمزم العذب الذى قد اختفى منذ خمسمائة سنة وبما أن الناس والحجاج والأهالى يلقون مشقة إحضار الماء من الآبار البعيدة ويتكبدون فى سبيل ذلك مشقات بالغة زادت مكانته وقدره بين الناس. مما حمله على أن يرفع يديه بالشكر لله ـ سبحانه وتعالى ـ من فرط سعادته وفخره ونذر نذرا بقوله «يارب لو أنعمت على بعشرة من الأبناء الذكور وبلغوا جميعا مبلغ الرجال فى حياتى لأذبحن أحدهم قربانا وفداء لك وعندما بلغ عدد أبنائه عشرا، أوفى بنذره على النحو المذكور في الصورة الثانية من الوجهة الثانية.

ويدعى بعض المؤرخين أن نذر عبد المطلب كان عندما عارضته قريش فى حفر البئر، والبعض الآخر يقول إنه كان فى أثناء ظهور ماء زمزم.

ولكن ليس ببعيد أن يكون عبد المطلب قد نذر مرتين مرة حينما كان يدعو الله لينصره على قريش ومرة ثانية عندما ظهر ماء زمزم شكرا لله.

أسماء زمزم الشريف

ولزمزم ثلاثون اسما مشهورا عند العلماء وهى «زمزم» همزة، هزمة جبريل، ظبية، طيبة، برة، عصمة، مضنونة، شباعة العيال، عونة، سقيا الله إسماعيل، بركة سيدة نافعة، بشرى، صافية، معذبة، طاهرة، حرمية، مروية، سالمة، ميمونة، مباركة كافية، عافية، طعام طعم، مونسة، شفاء سقم، شراب الأبرار، تكتم».

سبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، أحصى الشيوخ الكرام فى مكة المشرفة ثلاثين اسما لماء زمزم المكرم وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها على الوجه التالى:

١- **زمزم:** رغم أن المؤرخين من السلف يقولون إن إطلاق اسم زمزم لأنه يفيد معنى «اجر بطيئا» فهذه الرواية ليس لها قيمة كبيرة، وحسب أرجح الأقوال وأقواها للعلماء أن وفرة ماء البئر وتدفقه بقوة سبب تسميته بزمزم وعلى هذا التقدير فزمزم اسم للبئر وليس للماء الشريف.

٢- **همزة:** ومعناها الضرب، إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحيه وعلى قول آخر بجناحه.

٣- **هزمة جبريل:** هزمة بمعنى تعميق، بما أن جبريل ـ عليه السلام ـ عمق البئر بجناحه وتسبب فى ظهور الماء وهذا هو وجه التسمية.

٤- **ظبية:** وسبب التسمية أن حفرة البئر تشبه الجراب.

٥- **طيبة:** وسبب التسمية ظاهر من المعنى.

٦- **برة:** سميت بهذا الاسم لأن تفجرها كان من أجل الأبرار.

٧- **عصمة:** وسبب التسمية أنها غابت واختفت عن الكفار الفجرة.

٨- **مضنونة:** وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.

٩- **شباعة العيال:** لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم بهذا الماء المبارك.

١٠- **عونة:** لأن الناس فى الجاهلية اتخذوا هذا الماء الصافى الشفاف وسيلة لإشباع أولادهم وأزواجهم، لأن الجوعى كانوا يشبعون بشرب ماء زمزم.

١١- **سقيا الله إسماعيل:** بما أنه لا يوجد ماء غير زمزم فى مكة المكرمة فقد تكرم الله - سبحانه وتعالى - بسقيا إسماعيل بهذا الماء المبارك وهذا هو سبب التسمية.

١٢- **بركة:** سبب التسمية ظاهر من اللفظ.

١٣- **سيدة:** وسبب التسمية أن ماء زمزم الشريفة، سيدة كل المياه ماعدا ماء الحياة الذى نبع من الأنامل النبوية الشريفة.

١٤- **نافعة:** سبب إطلاق هذا الاسم أنه ذو فائدة عظيمة للمؤمنين الموحدين.

١٥- **بشرى:** لأن الله - سبحانه وتعالى - بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.

١٦- **صافية:** سبب هذه التسمية صفاء مائه وشفافيته.

١٧- **معذبة:** ويرجع هذا الاسم لعذوبتها وحلاوتها.

١٨- **طاهرة:** وسبب التسمية هو الإشارة القرآنية إلى هذا الماء الشريف حسبما جاء فى الآية الجليلة: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان: ٢١).

١٩- **حرمية:** وذلك لوجوده داخل الحرم الشريف لكعبة الله.

٢٠- **مروية:** ووجه التسمية أنها تبعث فى كل أعضاء الجسم الصفاء كما تولد الإحساس بالشبع مثل الطعام.

٢١- **سالمة:** ووجه التسمية أنها لا تتعفن ولا تفسد.

٢٢- **ميمونة:** وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة كما أنها اتباع للسنة السنية للرسول الكريم صاحب السعادة.

٢٣- **مباركة:** وسبب إطلاق هذه التسمية واضح من اللفظ.

٢٤- **كافية:** لأنه يقوم مقام الطعام.

٢٥- **عافية:** لأنه يكسب شاربه الصحة والعافية.

٢٦- **طعام طعم:** مفهوم من اللفظ.

٢٧- **شفاء سقم:** إنه شفاء من المرض كما سيرد فى الحديث الشريف الآتى فيما بعد.

٢٨- **مؤنسة:** أنه يؤنس سكان حرم كعبة الله.

٢٩- **شراب الأبرار:** ذلك لأن جميع الأنبياء وأولياء الله الكرام شربوا مرتوين من هذا الماء كما أن ماء زمزم اكتسب شرفا وقيمة حينما امتزج ماءه بريق النبى ﷺ.

٣٠- **تكتم:** سبب تسميته بهذا الاسم اختفاؤه وانقطاعه فى زمن «مضاض بن عمرو».

نظم

لـزمـزم ثـلاثـون اسـما فـاذكـر
منهـا خلـوص إيمانـك يظهـر
همـزة وهزمـة شـفاء سـقم ميمونـة
طاهـرة مـروية سـقيا وشـراب الأبـرار
سـيدة بـركـة ومضنونـة مبارك عصمة
عافيـة معذبـة طعـام طعـم أحـرار
مونسـة تكتـم وبـرة، حرميـة عونـه
ظبيـه، زمـزم وطيبـة، وبشـرى كبـار
صافيـة، كافيـة، وأيضـا نافعـة وسالمـة
وأيضـا شـباعة كمـا قـال عنها شيوخنا الأخيار

وقد جاء فى الخبر واتفق عليه جمهور العلماء أن زمزم الشريف أفضل ماء وأعذبه بعد الماء الزلال الذى نبع من أصابع النبى المباركة وهو معجزة من معجزاته عليه السلام.

تفضلت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ حاضنة النبى ـ ﷺ ـ وقالت طول مدة قيامى بحضانة وخدمة مستوجب المغفرة الدر اليتيم الرسول ـ ﷺ ـ لم أجده يشكو من الجوع والعطش فى أى وقت من الأوقات، وكان فى الصباح يأكل قليلا من الطعام ثم يشرب عليه من زمزم المبارك وبعد ذلك كلما أردت أن أطعمه كان يجيبنى قائلا إننى شبعان.

ويجب أن يقال فى أثناء شرب ماء زمزم: «اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء وسقم» يروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن نفع ماء زمزم يتوقف على نية شاربه «إذا شرب بنية الشفاء فالله سبحانه وتعالى، ينعم بالشفاء وإذا شرب بنية الاستعاذة فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يحفظ شاربه من كل سوء. وإذا شرب بنية إزالة الحرارة تنطفئ.

وهى تكون هكذا بالنسبة لمن يشربونها بصدق نية وسلامة طوية بدون أن يكون شربهم لتجربة مدى صحة الحديث الشريف. لأن الخصائص المذكورة لماء زمزم الشريف موجودة الآن وباقية وظاهرة إلى قيام الساعة، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفضح المجرمين الذين يشربونه بقصد التجربة وقد قال النبى ـ ﷺ ـ ذات مرة وهو يوضح الخواص الجليلة لذلك الماء المبارك إنها مباركة وذات مرة قال إنها طعام طعم وفى مرة إنها طعام طعم وشفاء سقم، وذات مرة: «إن ماء زمزم لما شرب له»، وذات مرة قال: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق» وقال مرة: «لا يجتمع ماء زمزم المكرم ونار جهنم فى جوف عبد أبدا»، وفي مرة «خمس من العبادة، النظر فى المصحف، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى الوالدين، والنظر فى زمزم وهى تحط الخطايا، والنظر إلى وجه العالم ومرة: «خير بئر على وجه الأرض ماء زمزم». ومرة أخرى: «من جاء هذا البيت، حاجا

فطاف به ثم أتى مقام إبراهيم عليه السلام فصلى عنده ركعتين ثم أتى إلى زمزم، ثم شرب من مائها أخرجه الله من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ذهب عبد الله بن المبارك ذات يوم إلى بئر زمزم الشريف، وطلب جرعات من ماء زمزم وأخذ كوبا منه وتوجه إلى كعبة الله وقال: «إلهى إن حبيبك محمد المصطفى عليه وعلى آله من التحيات أذكاها، قال إن ماء زمزم لما شرب له، وأنا أشرب هذا الماء بنية إزالة عطش يوم القيامة هذا اليوم الملئ بالهول وإطفاء نار حرارة هذا اليوم، وشرب كوب الماء.

بناء على تعريف صاحب كتاب «البحر العميق ومناسك ابن العجمى».

إن الذين يشربون ماء زمزم الشريف طلبا للمغفرة قائلين «اللهم إنه بلغنى أن رسولك ـ ﷺ ـ قال: «ماء زمزم لما شرب له» (حديث شريف) اللهم إنى أشربه لتغفر لى، اللهم اغفر لى فيغفر له ذنوبه، والذين يشربونه طلبا للشفاء من العلل والأمراض يجب أن يقولوا «اللهم إنى أشربه مستشفيا به اللهم فاشفنى».

قال محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق (رضى الله عنهم) بينما كنت يوما فى مجلس عبد الله بن عباس جاء رجل وقال له ابن عباس من أين أتيت فأجابه من بئر زمزم، فقال ابن عباس هل استطعت أن تشرب من الماء المبارك وفقا للطريقة المسنونة؟ فقال الرجل: «إنى شربت من ماء زمزم وسوف أشكركم إذا ما بينتم لى الطريقة المسنونة لشرب زمزم» ـ فقال له: «عندما تشرب ماء زمزم استقبل القبلة واذكر الله واشرب حتى ترتوى وتنفس ثلاث مرات فى أثناء الشرب وبعد الشرب احمد الله سبحانه وتعالى»، لأن الرسول ﷺ قد قال: الفرق بين المسلمين والمنافقين أن المنافقين لا يشربون ماء زمزم حتى يبلغ حلوقهم وبذلك بين الطريقة المثلى لشرب ماء زمزم.

وقد صدق الدارقطنى والحاكم قول ابن عباس وبَيَّنَا أنه يطابق تماما الأحاديث النبوية الشريفة وشرحا أن زمزم يشرب على ثلاث دفعات ويبدأ كل مرة بالبسملة وتنتهى بحمد الله. والمقصود بكلمة حتى تبلغ الحلق أنه لابد أن يملأ البطن بماء

زمزم حتى تصل إلى ما بين عظام الضلوع ومن الجائز نقل ماء زمزم الزلال إلى خارج الحرم أى يؤخذ إلى بلاد المسلمين للتبرك به. والتوضؤ بماء زمزم غير مكروه ويجوز الاغتسال به، لكن من يستنجون به يصابون بمرض البواسير.

وبما أن الرسول ـ ﷺ ـ منبع الحكمة قد نقل ماء زمزم الشريف إلى خارج الحرم، فمن السنة السنية الأحمدية نقل الحجيج ماء زمزم معهم عند العودة.

من عجائب زمزم المكرم من الأمور المجربة إذا شرب إنسان ما من ماء زمزم حتى بلغ حلقه وقد أخلص النية ثم قال «يا زمزم زمى» شفى من مرض الشراهة فى الأكل.

قال أحد الصالحين للإمام اليافعى عليه رحمة الله: كنت أجلس ذات يوم عند كعبة الله، وفجأة جاء رجل غطى وجهه بشال ودخل إلى مبنى بئر زمزم وملأ جرته ماء وشرب قدرا من الماء ورجع، وعندما جاء إلى جانبى طلبت منه الجرة المذكورة، وعندما شربت الماء المتبقى بداخلها أحسست بلذة عجيبة لم أتذوقها طوال عمرى فكان ماء زمزم بداخل الجرة كأنه شرابا حلوا ممزوجا بالعسل المصفى، وعندما أردت أن أنظر إلى وجه الرجل لأتبين من هو فإذا به يأخذ الجرة من يدى وانصرف.

وفى اليوم الثانى ذهبت إلى المسجد الحرام من الفجر وجلست بجانب بئر زمزم عسى أن أراه مرة أخرى وبعد مرور وقت قصير ظهر الرجل بوجهه المغطى وتقدم إلى داخل مبنى بئر زمزم وملأ دلو ماء من زمزم وشرب منه وشربت ما تبقى فى الدلو وكأن ما شربته لم يكن ماء زمزم المكرم إنما كان حليبا ممزوجا بالسكر.

وينقل أن رسولنا سيد الكائنات عليه ألطف التحيات، شرف بئر زمزم ذات يوم وسحب السقاة دلو ماء، وقدموه له فشرب الرسول ـ ﷺ ـ القليل منه ومزج الباقى بريقه المبارك وسكب السقاة ذلك الماء الممزوج داخل بئر زمزم للتبرك، فقال الرسول ـ ﷺ ـ إن ماء زمزم يشفى المرض ويدفع الجوع عن الذى يشربه بنية الطعام.

وعن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه البارى ـ أنه فى الأيام التى لا يجد طعاما صالحا للأكل يشرب ماء زمزم الشريف ويكسب طاقة وهكذا كان يدفع الجوع والحرارة. إن خواص زمزم الموضحة أعلاه يصدقها الأطباء أيضا.

وحسبما قال المجربون. إنه يقوى المعدة ويسهل هضم الطعام وإذا شرب والمعدة خاوية، فإنه يطهر الأمعاء. ويهدئ سخونة الجسم بناء على هذا يجب الارتواء منه والمعدة خاوية والتبرك به.

وقد ثبت بالحديث الصحيح أن ماء زمزم الشريف أفضل من الكوثر ويزيل من شاربه الحرص والطمع، ويسهل هضم الطعام، ويبرئ الأمراض المزمنة وغير المزمنة ويحث على الطاعة والعبادات، ويزيد نور البصيرة ويقوى الفهم والطاعة والعلم، ويزيل أمراض الجسم وغضب الله واجد الوجود، ويضفى على القلب رقة، والذين يشربونه اتباعًا للسنة السنية الأحمدية يرضون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويغيظون الجن والشيطان الرجيم ويؤلمونهما ويبعثون فى إيمانهم القوة والنضارة.

وقد كتب الإمام السمهودى فى كتابه (خلاصة الوفاء)، وهو من مؤرخى المدينة المنورة المشهورين المتأخرين: يوجد مثل هذا الماء فى المدينة المنورة أيضا حتى أنه يطلق على بئره «بئر زمزم»، ويحمل ماؤه إلى البلاد الأخرى بقصد التبرك به.

* * *

هجرة قبائل الجراهمة وقطورا إلى مكة المكرمة

بعد مدة من ظهور زمزم الشريف لسقى هاجر ـ رضى الله عنها ـ كما سبق توضيحه، حدث أن مرت قبائل جرهم وهى من الأقوام اليمنية المرتحلين إلى الشام بالقرب من مكة المكرمة، وباتوا هناك حتى إن بعضهم صعدوا فوق جبل أبى قبيس ورأوا بعض الطيور.

وفى قول: إن شابين من طائفة العمالقة التى كانت تسكن فى وادى عرفات آنذاك فى خيمها، صعدا فوق الجبل المذكور للبحث عن إبلهم الضائعة، وبينما كانا يجولان رأيا بضعة طيور[1] بالوادى فتساءلا قائلين: «وجود الطيور تنبئ عن وجود ماء، يا ترى أين ذلك الماء؟ وتنقلا من جبل إلى جبل بحثا عن الماء، وإذا بهما يريان فى وسط الوادى تماما امرأة تحتضن طفلا، فاقتربا منها وأخذا يسألانها عن وقت ظهور ماء زمزم وكيف كان ظهوره بقولهما «يا أنت هل أنت من طائفة الجن»؟ أم من جميلات الجن التى تسكن هذا المكان الخالى؟ ومتى وكيف ظهر هذا الماء الجارى الذى أنت بجواره؟!.

فلما أجابت السيدة هاجر قائلة: هذا الطفل قرة عين إبراهيم خليل الله، قد أنعم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فأجرى هذا الماء الذى يمنح الحياة إكراما لماء وجهه. وقد أنبأنى بواسطة جبريل الأمين أن هذا الوادى سيصبح بعد فترة عامرا ومأهولا.

لما عرفا القصة رجواها أن تسمح لقبيلتهما بالإقامة فى هذا المكان، قالوا لها إذا أذنت لنا أن نحضر أهل قبيلتنا ليعيشوا بجوارك بعد أن يقيموا خيامهم فى هذا المكان الموحش ويشربوا من ماء الحياة هذا، ويزيلوا آلام هذا المكان وأكداره، لأن

(١) هذا الوادى هو المكان الذى أسست فيه كعبة الله.

هذا الماء ماؤك وملك يمينك فأذنت لهما، وما كان منهما إلا أن ذهبا إلى قومهما وعادوا جميعا[1].

وكانت هذه الطائفة من أبناء عمومة سيدنا إبراهيم وكان رئيسهم مضاض بن عمرو، وكان بصحبة القبيلة المذكورة عشيرة قطورا أيضا وكانت برئاسة سميدع بن هوشك أو سميدع بن العاص وكان كل أفراد هذه العشيرة من أقارب أفراد القبيلة التى تحت رئاسة مضاض بن عمرو.

وبعد مدة استدعى مضاض بن عمرو وسميدع بن العاص أقاربهما من اليمن وأقاموا جميعا بجوار زمزم الشريف، وبدأوا جميعا فى تأسيس مكة المكرمة، وزراعة ما حولها رعاية لسيدنا إسماعيل وهكذا تحول الوادى غير ذى الزرع إلى مدينة.

ورغم أن سيدنا الخليل قد ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل وانقطع عنهما فترة، إلا أنه كان يعلم أخبارهما من جبريل ـ عليه السلام ـ ويشكر لله لذلك.

وأخذ إبراهيم يتردد على مكة المكرمة بعد الاستئذان من سارة زوجته ـ كما سيذكر فيما بعد ـ ثم أمر بزيارتهما بالوحى الإلهى، وكان يزورهما أول كل شهر تنفيذا للوحى أو بناء على قول آخر كان يزورهما كلما خطرا على باله، ولما رأى تزايد الجماعات المهاجرة إلى تلك البقعة المقدسة من يوم لآخر، ملأته السعادة إذ رأى زوال وحشة العزلة فى هذا الوادى.

وكان يذهب لزيارتهما بعد تناول الإفطار مع السيدة سارة ويرجع قبل أن يحل وقت القيلولة.

زواج سيدنا إسماعيل وذهاب سيدنا إبراهيم إلى مكة لمقابلة ابنه

تربى سيدنا إسماعيل وسط أطفال الجراهمة وتعلم لغة العرب العذبة وقبيل انتقال[2] أمه الرحيمة السيدة هاجر ـ رضى الله عنها ـ إلى جنات النعيم تزوج من

(١) القبيلة المذكورة من الجراهمة أول من سكنت مكة المعظمة.

(٢) عندما توفيت السيدة هاجر كان ابنها إسماعيل فى الخامسة عشرة من عمره وفى قول آخر كان قد بلغ العشرين من عمره وكان عمرها آنذاك قد بلغ ستين سنة.

سيدة[1] بنت مضاض بن عمرو ولكنه تأثر بوفاة والدته هاجر أشد التأثر ولم يكن هناك شيء يسرى عنه، لذلك انغمس فى الخروج للصيد، وكان يتوهم أن الصيد سيدفع عنه الآلام والأحزان.

وذات يوم ذهب سيدنا إبراهيم إلى مكة المعظمة مستأذنا من زوجته السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بنية العودة سريعا ليطمئن على ابنه دون أن يترجل من على ظهر حصانه.

ولما وصل إلى مكة المكرمة عرف أن السيدة هاجر قد انتقلت إلى دار البقاء، وأن سيدنا إسماعيل ذهب إلى صحراء بعيدة بعض الشئ من أجل الصيد، ولما كان جائعا طلب من زوجة ابنه «سيدة بنت مضاض بن عمرو» قليلا من الطعام فلما أجابته المذكورة قائلة: لا يوجد عندى طعام قال لها: عندما يعود زوجك أقرئيه منى السلام، وقولى له أن يغير عتبة بيته ومضى.

وعندما رجع إسماعيل ـ عليه السلام ـ من الصحراء قالت له زوجته «جاءنا اليوم شيخ صالح وقد ألمح إلى مسألة غريبة بقوله: إنه يقرئك السلام وعليك أن تغير عتبة بيتك» بناء على هذا طلَّق سيدنا إسماعيل زوجته سيدة، وتزوج من «رعلة بنت عمرو الجرهمى» وأنجب منها أولادًا كثيرين.

يطلق اسم العرب المستعربة على القبائل العربية المنحدرة من صلب سيدنا إسماعيل، واسم العرب العاربة أو العرب العرباء على القبائل التى ينتهى نسبها إلى قبائل قحطان وجرهم.

واستمر سيدنا الخليل بعد ذلك لفترة يستأذن من السيدة سارة. ويذهب إلى مكة كما كان يذهب من قبل ليطمئن على أحوال ابنه إسماعيل. وفى زيارة من زياراته لم يجد ابنه إسماعيل وسأل عنه زوجته. وكانت[2] رعلة بنت عمرو بحق الزوجة الوفية المخلصة اللائقة بإسماعيل، إذ أخبرت عن ذهاب زوجها إلى واد قفر من أجل الصيد.

(١) وفى قول آخر إنه تزوج عمارة بنت سعيد بن أسامة بن اكيلى من رؤساء العمالقة.
(٢) يروى على قول أنها سيدة بنت مضاض بن عمرو.

وبعد ذلك أطعمت والد زوجها بطعام لذيذ مكون من اللحم واللبن السهل الهضم، وبذلك أظهرت له مظاهر التعظيم والإجلال والاحترام، وبعد الطعام قالت له وهى ترجوه «يبدو أنكم أشرفتم من مكان بعيد فإذا تفضلت بالوقوف على هذا الحجر لكى أغسل لك رأسك وأمشط شعرك تكن قد أنعمت على جاريتكم بسرور بالغ، وأشارت إلى الحجر الذى استخدم فيما بعد بمثابة الوصلة عند بناء بيت الله المقدس».

وكان الطعام الذى أتت به رعلة مكون من قطعة من اللحم المطبوخ ومقدارا كافيا من لبن وتمر، ونظرا لصعوبة توفير الخبز قالت وهى تقدم له هذا الطعام، لو كان هناك خبزا لقدمته فأرجوك أن تعذرنى، فرد عليها قائلا: فليبارك الله فيكم وفى طعامكم هذا واستجيب لهذا الدعاء من قبل الله فأثره باق إلى الآن فالتمر واللحم متوفران بكثرة فى مكة المعظمة.

نظم

إنهـــا امـــرأة ذلـــك الشـــاب الأغـــــر

أهـــــل البيـــت بالنعمـــــة غمـــــــر

بعينيهـــــا أنهـــا رجـــــلا تطهـــــــر

فبوجهـــــين العـــــــورة تســـــــتر

وسر سيدنا إبراهيم من المعاملة الطيبة التى أظهرتها رعلة بنت عمرو نحوه.

وعندما وقف فوق الحجر الذى أشارت إليه قامت السيدة «رعلة» بغسل جانبه الأيمن، ثم الأيسر وبعد ذلك غسلت كل جسمه المبارك فقال لها حموها: «أقرئى زوجك السلام، وأبلغيه أنه ليس عليه أن يغير عتبة بيته ثم انصرف».

وبعد فترة قصيرة شرف سيدنا إسماعيل بيته، واشتم رائحة والده العزيز المباركة وسأل عمن جاء، فأجابته قائلة جاء شيخ كريم، ذو جمال باهر وذو رائحة عطرة، وأبديت له ما يستحقه مقامه الرفيع من آيات التكريم وأحضرت له

الموجود من الطعام، وبعد الطعام غسلت له جسمه المغمور بالنور فوق هذا الحجر، فسر وقال: «قولى لإسماعيل ألا يبدل عتبة بيته بعد الآن وأقرأك السلام، ثم قفل راجعا وترك أثرا فوق الحجر الذى وطأت قدماه الشريفتان توأم السعادة. فقال لها شارحا وموضحا ذلك الشيخ ذو السمات الجليلة هو أبى ويقصد بقوله: لا تغير عتبة بيتك. يأمرنى بأن أقضى بقية عمرى معك واتجه إلى الحجر الذى ترك فوقه أثر قدميه فقبله ووضعه فوق مكان مرتفع قليلا.

وقد أصبح ذلك الحجر المبارك التى غسلت فوقه رعلة والد زوجها فى ذلك اليوم هو الحجر المبارك الذى صعد فوقه إبراهيم عند بناء الكعبة المعظمة، وهو الآن فى مكة ومحفوظ داخل شبكة من حديد. وقد ذكر هذا الحجر فى القرآن الكريم باسم (مقام إبراهيم)، واشتهر بين الناس بهذا الاسم والحجاج الكرام يزورونه بكل لهفة وحماس. ومازالت آثار قدمى إبراهيم - ﷺ - ، فالحجاج يضعون ماء زمزم عليه ويشربونه تبركا والحجر المذكور والحجر الأسود. هما ياقوتتان سعيدتان من يواقيت خزانة الجنان وقد أزال الحق - سبحانه وتعالى - نورهما المشع، لأنهما لو ظلا محتفظين بنورهما الذى تفضل الله بإنزالهما به من الجنة لأضاء نورهما ما بين الشرق والغرب.

مسألة:

اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح الهامة

عندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح فلذة كبده كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال، قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. وقد اختلف العلماء فى الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟ كما أن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع مشتبه فيها وأعلن بعضهم أن الذبيح هو إسحاق، وقال الآخرون إنه إسماعيل.

ورغم أن مؤرخى اليهود والنصارى يسوقون مجموعة من الأدلة، ويؤيدون العلماء الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق، فإن جماعة الصحابة الكرام والتابعين منهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وكعب الأحبار

وسعيد بن جبير ومسروق وأبو الهذيل والزهرى وعبد الله بن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو الطفيل عامر بن واثلة ومقاتل وعبد الله بن مسعود وقتادة وعكرمة وعباس بن عبد المطلب «رضى الله عنهم أجمعين وكذلك كبار التابعين مثل: الإمام جعفر الصادق وسعيد بن المسيب و مجاهد والحسن البصرى والشعبى رحمهم الله، يذهبون إلى أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو ذبيح الله كما أن ابن كثير قد حكم بصحة الرأى القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

لأن أصحابه يستندون بالاتفاق إلى أقوال صحيحة فيما يعلنون أما بالنسبة لنا نقول: «إن كون إسماعيل ـ عليه السلام ـ المقصود بالذبيح قد بلغ إلى درجة اليقين بالأدلة العقلية، لأن سيدنا إبراهيم بلغ السادسة والثمانين من عمره ولم يكن قد أنجب ولدا بعد، لذا كان من الطبيعى حسب النزعة البشرية أن تكون ولادة سيدنا إسماعيل زينة الوجود موضع حب والده لهذا ابتلى إبراهيم فى أعز شىء عنده، ولأن السيدة سارة كانت عاقرا وانكسر فؤادها لمولد إسماعيل فخر العالمين وقد أدى هذا إلى صدور أمر الذبح الجليل والإشارات الإلهية حول ولادة سيدنا إسحاق ويعقوب زدلة قاطعة لكون الذبيح إسماعيل عليه السلام.

إذ أن سيدنا إسحاق لو كان قد ذبح، لكان يلزم ألا تتشرف الدنيا بسيدنا يعقوب، وبغض النظر عن هذا فإن الأمر المؤكد أن سيدنا إسحاق لم يقطن مكة والكعبة المعظمة وكان مقيما فى الشام. كما أن قرون الكبش السماوى قد ظلت معلقة في ميزاب كعبة بيت الله حتى حادثة ابن الزبير المؤلمة وقد انتقلت مهمة حراستها إلى أولاد وأحفاد إسماعيل بطناً تلو بطن وكل هذه الأحداث أدلة كافية لإثبات أن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

وقال مولانا الصنهاجى نقلا عن الإمام الثعلبى: «بينما أنا فى مجلس سيدنا معاوية بن أبى سفيان ودار الحديث طويلا فى القيل والقال بين بعض الناس حول الاختلاف فى قصة الذبح، فخاطبهم سيدنا معاوية قائلا: «كنت ذات يوم فى حضرة المجلس النبوى الرفيع ـ عليه أفضل التحية ـ وجاء واحد من الأعراب

وصاح قائلا: «يا ابن الذبيحين «فتبسم الرسول الكريم ـ ﷺ ـ تصديقا على قول القائل ابن الذبيحين فتفضل ذاته العالية بالتصديق على قول الأعرابى المذكور تلميح وتصريح بأن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

لأن عبد الله بن عبد المطلب والد سيدنا رسول الله رفيع المقام كان أيضا ذبيحا مثل جده إسماعيل عليه السلام. وإذا كان سيدنا إسماعيل قد افتدى بكبش فإن عبد الله قد نجا بمائة ناقة.

وفى الحديث الشريف «أنا ابن الذبيحين» تأكيد على أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو الذبيح حيث أنه مما لا شك فيه عند أحد قط فى أن المشار إليه هو جد النبى العظيم ومع أن علماء اليهود يعلمون يقينا أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل ورغما عن هذا ادعو أن سيدنا إسحاق هو ذبيح الله كما أن بعض مؤرخى النصارى أيدوا اليهود فى ادعاءاتهم ولكنهم لم يستطيعوا حتى أن يجدوا دليلاً واحدا على صحة أقوالهم.

والرواية التالية تدل دلالة واضحة على بطلان ادعاءات اليهود، الرواية تقول: أسلم واحد من علماء اليهود فى عهد عمر بن عبد العزيز. وسأله الخليفة الأموى مستفسرا «هل الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟» وبما أن سيدنا إسماعيل هو جد العرب فإنهم ينكرون أن يكون هو ذبيح الله ويدعون أن جدهم إسحاق ـ عليه السلام ـ هو الذبيح.

كيفية حدوث قصة الذبح الجليلة

نقل عن كعب الأحبار أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أمر حضرة الخليل ـ على نبينا وعليه التبجيل قبل بناء الكعبة المشرفة[1] بسبع أو ثلاث عشرة سنة، عن طريق الرؤيا، أن يذبح إسماعيل ـ عليه السلام ـ قربانا. وكان سيدنا إسماعيل فى ذلك الوقت فى الثالثة عشرة وحسب قول بدائع الزهور أنه كان فى العشرين[2]

(١) القول الأول مرجح على القول الثانى.

(٢) القول الأول مرجح على الثانى.

من عمره وأن سيدنا إسحاق قد ولد بعد هذه الواقعة بسبع عشرة سنة، وحسب رواية بدائع الزهور، ولد بعد عشر[1] سنوات وأنه مات سنة سبع وثلاثين بعد المائة.

ولما أدرك سيدنا إبراهيم أن ما رآه ليس وساوس الشيطان صدع بالأمر، وقال لزوجته هاجر وقد عقد على إنفاذ حكم الله وقضائه ـ هيأ إسماعيل بغسل رأسه وتمشيط شعره وإلباسه ملابس جديدة بعد أن عطر كل أعضاء جسمه بعطور ذات رائحة طيبة ثم خاطب فلذة كبده بقوله: «يا بنى هات حبلا وسكينا حادا لنذهب معا لإحضار الحطب من ذلك الجبل وحسب قول بدائع الزهور «لنذبح شاة» وأحضر سيدنا إسماعيل الحبل والسكين اللذين أمر والده بإحضارهما وصحبه معه إلى المكان المسمى مذبح إسماعيل فى منى.

فى هذا الوقت ظهر إبليس ذو الوساوس متوهما أنه وقت غواية وإضلال إبراهيم عن طريق زوجته فذهب إلى هاجر وقال لها: «هل تعلمين أين أخذ إبراهيم إسماعيل؟ فلما ردت قائلة: نعم أخذه إلى الجبل لنقل الحطب، قال لها» لا أخذه للذبح».

فردت عليه قائلة: إن إسماعيل محبوب من والده، حتى إن والده ينفر من الذين يعادونه ويبغضهم حاشا أن يرتكب هذا الفعل غير المشروع.

فقال لها: «ربما يذبحه ظنا أنه أمر الله؟ ردت السيدة هاجر ـ رضى الله عنها ـ وقالت: «مادامت هذه هى إرادة الله الحكيمة فهو ملزم بتنفيذها إذن فليعمل على تنفيذ أمر الله «ولم تفتنها غواية الشيطان!.

نظم

ولما تخوف الشيطان فى الحال

التقى بأمه للإضلال

(١) الرواية الثانية أقوى من الرواية الأولى.

فقال لها لا تفعلى وإلا ندمت خذى حذرك

خليـــل الله يجعـــل القربـــان ولـــــدك

فهجمت فى الحال بما وجدتـــه قريـــــب

أما شمـس عقلهـا فأوشكت على المغيـب

اتجهـت بحينهـا والقلـب إلـــى الـــرب

قائلة الق إلى سمعا هذا أولـى وأنســب

الحذر من أن تبعدى تلك الروح من يدك

لانطفـــــى: ســـــراج الأنبيـــــــاء

لا ترضـى أن يذهـب معـه حيـث شـاء

عندما أدرك الشيطان أنه لن يستطيع أن يضل السيدة هاجر ذهب إلى إسماعيل.

وقال: يا إسماعيل لقد حملك أبوك إلى الجبل لكى يذبحك، فأجاب إسماعيل: إنى أطيع أمر الله وأوافق على رأى والدى العزيز وأخضع لما يقرره فانصرف الشيطان عنه.

وغشى اليأس الشيطان بسبب عجزه عن خداع إسماعيل ـ عليه السلام ـ فأسرع إلى حضرة الخليل وقال له متسائلا:

«أيها الشيخ مضئ القلب إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا تتصور أنك فاعل؟ فلما أجابه حضرة الخليل «لدى أمر هام وأنا ذاهب لإنجازه» فقال له: أتظن أن الشيطان يضلك عن طريق الرؤيا ويفسد عليك عقلك وإحساسك ويدفعك لقتل ابنك فإذا انخدعت بوساوسه وما يلقيه فى نفسك فإنك ستفقد ثمرة فؤادك الذي هو برعم بستان مناك !! ولا شك أنك ستتجرع كأس الندم وستضل عن طريق السلامة».

لكن الخليل فاجأه قائلا «أيها الملعون انصرف عني إننى أنفذ إرادة الله وأمره» فظل الشيطان ناشرا من خلفه.

وبعد أن صرف نبينا سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه التعظيم ـ الشيطان من عنده ووصل إلى جبل ثبير ووجه حديثه إلى فلذة كبده إسماعيل عليه السلام قائلا:

نظم

قال اعلم يا ولدى البر يا خير ولد
إن الله يدعوك إلى جنة الخلد
بمال عمرك يا ولدى لا تبخلن
وفى تردد طريق الحق لا تسلكن
اطرح عنك تراب جسمك وعجل بروحك
يخف عنكا عليك من ثقلك
اجعل الجسد الترابى فى الأرض طريح
وانعم وانفض التراب عن عين الروح
لا تلق الروح فى فزع وهلع
وحذار من أن يكون ثوبك أبقع
جد فى سبيل الحبيب بروحك
لا لا تكترث بعمرك

«أى» يا قرة عينى وجودى، رأيت فى منامى أننى مأمور بذبحك، لذا فإننى مضطر لإنقاذ إرادة الله ذى الكبرياء فانظر ماذا ترى؟! وبهذا الأسلوب يهىء ابنه زهرة عمره فى إنفاذ ما أمر به «فلما أجابه سيدنا إسماعيل بما جاء فى الآية الجليلة: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وقال: «يا والدى العظيم فاصدع بالأمر الذى كلفت به ستجدنى إن شاء الله صابرا وأحتمل ما جرى به حكم الله». وبعد هذا قال لوالده طائعا مختارا «اعلم أن بذل الروح أمر عسير، لذا شد وثاق يدى وقدمى حتى لا أضطرب فينتقص أجرى أو يحرك اضطرابى رقة قلبك فتتألم وألقنى على وجهى حتى لا تدعوك رؤية وجهى عند الذبح إلى عدم القدرة على تنفيذ أمر الله ذى الجلال فإن توافق خذ قميصى أيضا إلى أمى هاجر كى يكون لها سلوى وأقرئها منى السلام وقل لها أن تَتَّسِم بالصبر فى تحمل أمر الله وقد يساعدها هذا القميص الذى أرسله لها على ذلك «وبهذا القول أظهر طاعته لأمر الله بوضوح».

نظم

وقال إسماعيل للخليل الآن
يا خير من خلق الرحمن
قيد اليد والقدم منى
علنى لا أشعر وأنت تذبحنى
علني لا أشعر وأنت تذبحنى
فإذا ما صعدت منى الروح إلى السماء
لا يصبح جسدى بحرا يتلاطم فيه الماء
عر جسدى وسربالى
لئلا يكون حائلا عن وصالى
جرد جسدى من ثمر وورق
وضمها كلها فى غض متسق
بردائك استر منى الجبين
لا تنظر إلى وجهى أكره لك أن تكون حزين
وإذا ما أطرقتنى كالعنقاء

فاجعل لهـا عشـــا فـــى الخفـــاء
عندما تشاهد فى تصعد زفرتك فى ألـم
وفى التو تنـــدم كـــل النـــدم
احذر يا من أنت ظـــل الرحمـــن
أن تنـال النبـوة بـأى ســوء كـــان
أنت بكل رحمـــة تغمرنـــى
لكـــن فـى تلك اللحظـة لا ترحمنـى
أتعلم مـا سـوف تـؤول إليـه الحـال
وإذا ما لـم تطـع أمـر الله فـى الحـال

عندما سمع إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذا الجواب من ابنه قال:

«يا بنى ما أجمل استسلامك لإرادة الله. وأوثق رباط قدمى ابنه ويديه ثم ألقاه على وجهه، ثم أغلق عينيه ووضع السكين الحار على رقبته البلورية وسحبها بقوة؟ لكن جبريل الأمين بأمر ربه قلب حد السكين فلم يقطع رقبة إسماعيل البيضاء كالفضة.

وفى قول آخر إن سيدنا إبراهيم قيد سيدنا إسماعيل على النحو المذكور وعندما قلبه على وجهه، قال إسماعيل ـ عليه السلام ـ يا أبتى! حل رباط يدى وقدمى، حتى لا أكون قد استجبت لأمر الله مجبراً، فحل والده وثاق يديه ورجليه، وأوقفه على قدميه عندئذ نام إسماعيل على جنبه الأيمن وقال: يا والدى الآن ضع سكينك على رقبتى دون أن تشفق على حتى يرى الملائكة أن ابنك إسماعيل قد انقاد لأمر الله وأطاعه كما أطاع والده ويشهدوا بذلك.

وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة سيدنا إسماعيل ليذبحه وضغط عليه بشدة لكن السكين لم يقطع فغضب حضرة الخليل من السكين وضرب حده فى صخرة عظيمة فشطرها نصفين فتعجب إبراهيم وقال: «ترى ما الحكمة؟ وأخذ يفكر فى الأمر وبينما هو كذلك سمع هاتفا ذا خطاب مستطاب» يا إبراهيم قد

صدقت الرؤيا وقد أرسلنا لك كبشا ليكون بدلا وفداء لابنك، وظهر جبريل الأمين عند صفح جبل ثبير ومعه كبش عظيم وحمل سيدنا إبراهيم الكبش إلى مكان مسجد المنحر وبعد أن كبر هو أولا والكبش ثانيا ثم سيدنا إسماعيل أرقده على الأرض وذبحه قربانا لله!!.

نظم

أخذ الفزع كل مأخذ من نبى الله
وسرعان ما ستر وجهه وأخفاه
وفى هيبة أخرج شفرة كالهلال
ليذبح من هو البدر فى الجمال
الشفرة على رقبة إسماعيل وضعها
فما أثرت فيها وما قطعها
وشحذه على الحجر فانشطر فى الحال
وأصبح جزءين من النّخالة
وأنزل من السماء كبشا جميلا
فذبحه بدلا منه فى الحال

وفى رواية أخرى «بينما كان سيدنا إبراهيم مندهشا مما حدث كان ابنه المطيع على الدوام لكل أوامر الله سبحانه يقول يا أبى ما بك حتى إنك تتكاسل عن إنفاذ أمر الله سبحانه؟ فلما أجابه «إن السكين لا يقطع» قال له إذا كان الأمر كذلك فاضرب رأسى بمقبضه حتى تنفذ مهمتك بهذه الصورة»، وبهذا بين له ابنه الطريقة التى يتبعها فى إنجاز مهمته وبينما كان الأب الرحيم يهم بفداء ابنه بأن يضرب على رأسه بمقبض ذلك السكين الذى فى يده إذ جاءه الهاتف. «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا لقد أرسلنا لك كبشا ليكون فداء لابنك ـ دع إسماعيل وأمسك بهذا الكبش الذى تراه فى ذلك الجبل واذبحه بدل ابنك وفى لحظة سماع عبارة يا

إبراهيم قد صدقت الرؤيا سقط السكين الذى فى يد الخليل الجليل على الأرض من رهبة الصوت المذكور.

وكان سيدنا جبريل مُمْسِكًا بالكبش سابق الذكر من أذنه، وأراه لسيدنا إبراهيم وبإشارة من الرسول الجليل كبر الكبش كما بينا سابقا، وقد نبه هذا التكبير إسماعيل عليه السلام فرفع رأسه من الأرض التى يرقد عليها، وقال بلسان عذب العبارة المنجية (الله أكبر ولله الحمد) وأمسك سيدنا إبراهيم الكبش الذى أراه إياه جبريل الأمين وذبحه. وفى رواية أخرى إذ رأى سيدنا الخليل مدى طاعة إسماعيل الذى هو ثمرة بستان عمره واستسلامه لأوامر الله سبحانه وتعالى غشيته الحيرة وقال وهو حزين «يا إلهى، لقد أنعمت على وأسعدتنى فى آخر عمرى بابن وبعد ذلك أحزنتنى بفراقه إذ أمرتنى بذبحه ولو أن هذه الرؤيا التى رأيتها مصونة من وساوس الشيطان ومقرونة برحمتك ورضائك الشريف سأبدأ فى تنفيذها، أما إذا كانت ضد إرادتك الإلهية فإننى أنصرف عنها وأستغفرك لك.

ثم وضع حد السكين الذى فى يده على عنق إسماعيل عليه السلام الذى يرقد على الأرض مقيد اليدين والقدمين وسحب السكين ثلاث مرات ولكن فى كل مرة كان حد السكين ينقلب وتنجو رقبة إسماعيل عليه السلام من الذبح وغضب نبينا إبراهيم عليه التحية والتكريم وضرب بالسكين صخرة كبيرة لا يقدر ثلاثون أو أربعون رجلا على تحريكها فانشطرت تلك[1] الصخرة السوداء الضخمة من شدة الضرب إلى نصفين وتدحرج أحد النصفين فى جانب والثانى إلى جانب آخر.

* * *

(١) هذه الصخرة موجودة أمام المزار المسمى مذبح إسماعيل ويظهر عليها أثر السكين حتى الآن.

بينما وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة ابنه واجتهد أن يذبحه أظهر سيدنا إسماعيل لوالده نهاية الطاعة ومنتهى الاستسلام الذى يفوق كل ما أصف. وإذا بصوت مثير للشوق يقول «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ولقد أرسلنا كبشا فداء لابنك فأمسك به واذبحه».

شمس التبريزى

إسماعيل قد جاء به
وجعله قربان كبش له

فاستدار إبراهيم عليه السلام على عقبيه بمجرد أن وصل الصوت إلى مسامعه ورأى عند سفح جبل ثبير كبشا فريدا متناسق التكوين ومن فرط سعادته ترك ابنه إسماعيل ملقى على الأرض مقيد اليدين وذهب للإمساك بالكبش الذى رآه ولكن الكبش المذكور انطلق ناحية مسجد الحنيفة متبعه وألقى فى ثلاثة أماكن سبع جمرات وأمسك به بالقرب من جمرة العقبة، وأخذه إلى مكان مسجد المنحر وذبحه.

والمواضع التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم بالحجارة على الكبش هى الأماكن التى يوجد بها الآن: الجمرة الأولى، والجمرة الثانية وجمرة العقبة.

وكان الشيطان اللعين قد ظهر لإبراهيم فى تلك الأماكن وحاول أن يصرفه عن تنفيذ الأمر الإلهى ولكن لما رأى نفسه لا يستطيع أن يحقق أمله انسحب إلى ناحية ما خائبا مدحورا. وإشارة إلى هذه الحادثة يرمى الحجاج الكرام الجمرات الثلاث.

قطعة

ما يرمى به إبليس من حجر
إما حصى وإما جمر
وفى المآل إذا قلبت الكلمتان

فالرجمة تكون جمرة

بينما كان سيدنا إبراهيم منهمكا فى ذبح الكبش عند مسجد المنح، حل جبريل الأمين وثاق يدى إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقدميه وقال له «يا إسماعيل اطلب من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما تشاء فى هذا الموقف المبارك الذى يستجاب فيه كل الأدعية. وقف سيدنا إسماعيل بين يدى عتبة الرب الجليل وأخذ فى الدعاء قائلا: «يا إلهى أدعوك وأتوسل إليك أن تغفر للمؤمنين الذين أتو إلى الدنيا ثم ذهبوا إلى الآخرة حتى هذه اللحظة» وخلال دعائه جاء والده المكرم وقال: يا بنى أنت مؤيد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد سمع فى الآفاق صوت الهاتف يقول يا خليل يا أصدق القائلين ويا إسماعيل يا أصبر الصابرين.

حكمة:

إذا قيل ما الحكمة فى إرسال «كبش» فداء لإسماعيل ـ عليه السلام ـ وعدم إرسال ثور أو جمل مثلا؟ نقول إنه أرسل كبش لكى لا يكذب والده إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنه إذا أرسل جمل أو أى حيوان آخر لما صدق سيدنا الخليل، لأنه عندما أخذ إسماعيل ـ عليه السلام ـ طلب منه أن يأتى بحبل وسكين، ولما سأله إسماعيل عن سبب ذلك قال له أبوه لأننا سنذبح شاة. لذا أنزل كبش دون سائر الحيوانات.

يقول عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إن الكبش الذي جاء به جبريل الأمين آنذاك كان القربان الذى تقبله الله من هابيل بن آدم ـ عليه السلام ـ ، وقد أخرج من فرعى الجنان قبل واقعة ذبح إسماعيل بأربعين سنة وامتنع عن الطعام والشراب أربعين سنة كاملة إلى أن أنزل إلى مراعى البسيطة.

وكان الكبش المذكور كبير القرنين أسود العينين ولونه يميل إلى السواد وظل القرنان معلقين فوق ميزاب الكعبة المعظمة، وعلى قول آخر فوق باب المعلا، إلى وقعة الحجاج الظالم واحترقا فى أثنائها.

وكان المكان الذى شوهد فيه جبريل الأمين مع الكبش فى مضيق منى. وسفح جبل «ثبير» حيث توجد صخور كثيرة. وقد بنى فوقه قبة من الحجر على أربعة قوائم ظنا أن الحجاج يزورون هذا المكان ويطلق على هذه القبة «قبة الكبش» من قبل سكان مكة.

* * *

استطراد

إن أسلافنا من المؤرخين تناولوا بالبحث الكيفية التى تم بها أمر إسماعيل بالذبح واختلفوا فى هذا الموضوع كثيرا ولكنهم بعد ذلك اتفقوا على كلمة واحدة، وقالوا: «إن بلوغ خليل الله إبراهيم الرابعة والثمانين من عمره دون أن يكون له ولد مما أحزنه وآلمه. ولذا توجه لربه قائلا: إذا أنعمت على بولد نجيب حليم ـ حتى لا ينقطع نسبى فلكنت أفديه طالباً رضاك وكان هذا نذرًا منه ومن فرط سعادته بولادة سيدنا إسماعيل ذا السعادة الباهرة غاب عن ذهنه أن يوفى النذر، وبعد ثلاث عشرة سنة من الواقعة اقتضى صدور الخطاب الإلهى تنفيذ إبراهيم نذره إذ قال الله سبحانه وتعالى: «يا إبراهيم كنت ستذبح إسماعيل قربانا فلماذا لا توفى بنذرك».

وتردد إبراهيم فى تصديق هذه الرؤيا وظل فى ذلك اليوم حتى المساء يفكر فى هذا الموضوع! لذا أطلقوا على اليوم المذكور يوم التروية».

وإن كان معنى التروية لغة التفكير إلا أنه قد اصطلح على أن يطلق هذا الاسم على اليوم الثامن وأخذ يفكر بعمق فى صباح تلك الليلة وكان اليوم التاسع من شهر ذى الحجة إسماعه الصوت الهاتف: «يا إبراهيم إن إبليس يبعدك عن طاعة الله، فقرر أن ينفذ أمر القضاء، وقد عرف أن الهاتف الإلهى يوحى له بإنفاذ الأمر، ولذا أطلق على هذا اليوم اسم «عرفة». واليوم الثالث وكان اليوم العاشر من ذى الحجة وأطلق عليه يوم النحر لأن إبراهيم عليه السلام بادر فيه بذبح فلذة كبده.

لاحقة:

الحكمة من أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يذبح ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ كما ينقلها على بن أبى طالب ـ رحمه الله ـ وقد قال العالم الواقف على سرائر نبينا ﷺ: إنه بينما كان خالق السموات والأرضين يرى سيدنا إبراهيم عليه السلام السموات والأرض ويوقفه على جمالهما وما فيهما رأى حضرة الخليل ـ عليه السلام ـ رجلاً يرتكب معصية، فلما دعا الله أن يهلكه هلك ذلك الرجل، وبعد قليل دعا على بضعة أشخاص من المذنبين فلما هلكوا صدر خطاب رب العزة له يا إبراهيم إن دعاءك مستجاب دائما فلا تدع على عبادى فإنهم مجبولون على ثلاث خصال: إما أن يتوبوا وإما أن يسبحوا وإما أن يفوضوا أمورهم، فإذا شئت غفرت لهم وإذا لم أشأ عاقبتهم، ويرى البعض أن سبب صدور الأمر لسيدنا إبراهيم أن يذبح إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو إظهاره القسوة على العباد وأنه لم يرحمهم.

وقال جماعة من المفسرين العظام عقب تفسير الآية الجليلة ﴿كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥) إنه ذات ليلة فى أثناء عروج إبراهيم عليه السلام إلى السماء رأى عبداً عاصيا يرتكب ذنبا فقال: يارب إن هذا العبد يأكل رزقك ويمشى ويتحرك فوق الأرض التى خلقتها، ومع هذا يخالف أوامرك فأهلكه!! ولما كان دعاؤه مستجابا فقد هلك ذلك الرجل ثم رأى بعد ذلك مذنبا آخر فلما دعا الله أن يهلكه، خاطبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاتبا يا إبراهيم لا تدع على عبادى أمهلهم وأمنحهم فرصة، فإنهم يا إبراهيم كثيرا ما يقترفون الذنوب. وفى تلك الليلة أمر فى رؤياه بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ولكى ينفذ سيدنا الخليل الجليل «عليه التحية والتبجيل» ما رآه فى رؤياه ألقى ابنه على الأرض وهو مقيد اليدين فى سفح جبل ثبير على النحو الذى ذكرناه مفصلا فى موضعه، وعندما أمسك السكين بيده غلبت عليه رقته فقال: «يارب

إن هذا الابن الذى استعد لوضع السكين على عنقه هو ثمرة فؤادى وابنى الغالى. وإنه أحب الناس إلى»، وكان قصده من هذا أن يعرض على أرحم الراحمين ما بقلبه من رقة وشفقة، ولما انتهى من كلامه إذا به يسمع هاتفًا من الوحى يقول: «يا إبراهيم أنسيت الليلة التى دعوت فيها بهلاك عبادى؟! إذا كنت رحيما بابنك على هذا النحو وأنا أيضا رحيم وشفيق على عبادى ألا تعرف أننى أنا الرحيم؟! لقد أردت هلاك عبادى وأنا فى المقابل أريد ذبح ابنك.

تكليف حضرة الخليل ببناء الكعبة المعظمة:

كانت إقامة إسماعيل ـ عليه السلام ـ مع أمه السيدة هاجر فى الوادى المقدس غير ذى زرع مقدمة لتأسيس قواعد البيت المعظم، لذا تحمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كل ما سبق ذكره من الصدمات تحملها صابرا دون قنوط. قد أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتأسيس كعبة الله. قبل ولادة إسحاق ـ عليه السلام ـ بثمانية أو (١٤) أو (١٨) أو (١٧) عاما[١] وبعد حادثة الذبح بسبعة أو (١٣)، أو (١٧) أو (١٦)[٢] عاما[٣].

وبما أنهم لا يعرفون حسب عجزهم البشرى مكان بيت الله فقال رب العزة «يا إبراهيم اتبع سكينة» وهى ستدلك على مكان الكعبة.

ذلك لأن الموضع المقدس لكعبة الله كان معروفاً للبشر حتى طوفان نوح الذى أغرق الدنيا غطَّى الطوفان بِبَحْرِ رماله مكان البيت فتركه مجهولا بدون أية علامة، ومع هذا فإن السيول التى تكونت من شدة هطول الأمطار كانت تتحاشى الأرض المباركة للبيت الشريف وتطوف من حول أركانها الأربعة. والذين رأوا هذه العلامة الميمونة عرفوا أن هذا المكان بالذات مكان مبارك مقدس واعتقدوا

(١) القول الثالث مرجح على القول الأول والثانى.

(٢) الرواية الثالثة مرجحة على الروايات الأخرى.

(٣) كان عمر إسماعيل فى ذاك الوقت ثلاثين أو عشرين عاما كما أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان قد دخل فى المائة من عمره المبارك.

فى ذلك. حتى إن المرضى والمظلومين والمهمومين كانوا يطوفون بهذا المكان ويرون أن أدعيتهم قد استجيبت.

عندما كلف سيدنا إبراهيم ببناء وتشييد كعبة الله بوحى من الله الكريم وتشرف بخطاب رب العزة أن اتبع السكينة ركب البراق الذى نزل من السماء وسار مستظلا بظل السكينة سالفة الذكر.

وكانت «السكينة» المذكورة ريح[1] عجيبة الآثار فى صورة حية ذات رأسين أسمها حجون. كما أن لها رأس وأيضا جناحان وقد ظهرت على شكل سحابة ذات أربعة أركان وكانت بحجم الكعبة المعظمة وأوصلت «السكينة» إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة ووقفت فوق أرض وساحة البيت الشريف وقالت بلسان حالها إن المكان الذى تظله هو الموضع الأنور لبيت الله المقدس.

وكانت السكينة المذكورة تبدو أحيانا على هيئة أسد أو على هيئة جمل، وكانت تجيب على أسئلة إبراهيم ـ عليه السلام . سارع حضرة الخليل بمعاونة ابنه إسمّاعيل تحت إرشاد السكينة التى بينت لهما حجم البيت ومكانه أسرعا فى حفر وتعميق أسس البيت المعظم.

وعندما عزم إبراهيم ـ عليه السلام ـ على الذهاب[2] إلى مكة المكرمة متتبعاً «السكينة رجته زوجته المحترمة السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ ألا يقابل السيدة هاجر ولا يكلمها، وعندما اهتدى إلى الموقع الأنور للبيت الأعظم الذى دلته عليه السكينة وعرفه، ذهب إلى دار ابنه السعيدة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ودق الباب فردت زوجة ابنه قائلة ماذا تريد؟ سألها عن سيدنا إسماعيل وأمه الرحيمة هاجر، وعرف منها بخروج إسماعيل إلى الصحراء للصيد كما علم بوفاة[3] هاجر

(!) يقول الإمام الكلبى إن هذه الريح كانت سحابة على شكل رأس إنسان.

(٢) هذه هى المرة الثالثة التى يذهب فيها حضرة الخليل إلى مكة.

(٣) كانت السيدة هاجر عند وفاتها فى الستين من عمرها، وكان ابنها إسماعيل قد بلغ العشرين من العمر.

ودفنها فى المكان المسمى[1] حجر إسماعيل، رجع إلى الحرم الشريف، واغتسل بماء زمزم ثم انتحى وجلس ينتظر قدوم ابنه.

وعندما رجع إسماعيل ـ عليه السلام ـ من الصيد وجد والده فى انتظاره عند بئر زمزم فصافحه وقبَّل يده، ثم أحضر مقداراً من الحليب واللحم المطبوخ واستضافه. وبعد أن أكل سيدنا إبراهيم الطعام الذى أعده ابنه إسماعيل قال له: «يا بنى إن الله قد أمرنى برفع قواعد بيته ـ عز وجل ـ فوق تلك الربوة الحمراء، فساعدنى فى إنجاز هذا الأمر وأفهمه أنه مكلف بوضع أساس بناء كعبة الله، وشرع بسم الله فى تعميق الحفرة بعون إسماعيل عليه السلام.

وفى قول آخر إنه عندما خرج سيدنا الخليل من بيته السعيد كلف الله «السكينة» سالفة الذكر وطائراً سريع الطيران وملكا ليرشدوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى موضع الكعبة المباركة، وعندما وصلوا إلى مكة المشرفة وقفت «السكينة» المذكورة فوق ساحة البيت المعظم وقالت لإبراهيم: «إن كعبة الله التى أمرت بتأسيسها وبنائها فى المكان الذى يحيط به ظلى». وهكذا رأى مكان بيت الله المقدس وعينه.

وكان مع حضرة إبراهيم سبع من الملائكة يعاونون فى ذلك الوقت. وكان الموضع الذى أرته إياه «السكينة» ذا أربعة أركان غير متساوى الأضلاع. وبعد مدة قد أطلقوا على أحد أركانه الركن الشرقى يعنى الحجر الأسود وعلى الركن الآخر الركن العراقى وعلى الركن الثالث الركن الشامى وعلى الركن الرابع الركن اليمانى.

إخطار:

إن الموضع الحقيقى لبيت الله كان ذا ثلاثة أركان وذلك إيماء إلى أن فى قلوب الأنبياء العظام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ثلاث خواطر وهى «إلهية وملكية ونفسية» وأن قلوبهم لن تفتح لأية خاطرة أخرى غيرها ثم شاءت الإرادة الإلهية

(١) يوجد داخل الحطيم الكريم وتحت الميزاب الذهبى ويشار إلى مكانه بعلامة وهى حجر أخضر.

أن يشيد بناؤه أربعة أركان وكان هذا إشارة إلى إمكان وجود أربع خواطر فى قلوب المؤمنين.

(روح البيان).

والطرف الشرقى لكعبة الله فيما بين ركنى الحجر الأسود والعراقى يميل قليلا إلى الشمال وفى هذه الجهة من بيت الله مقام إبراهيم، بئر زمزم، باب بنى شيبة.

وجهة الشمال ما بين الركن العراقى والركن الشامى تميل بعض الشئ ناحية الغرب ويقع حجر إسماعيل والميزاب الذهبى والمقام الحنفى الكائن محل دار الندوة فى هذا الجانب من البيت الأعظم، والجانب الغربى ما بين الركن الشامى والركن اليمانى يميل قليلا ناحية الجنوب ويقع فى هذا الجانب من بيت الله عز وجل الباب المسدود الغربى، وباب العمرة باب الوداع، وباب إبراهيم.

وجهة الجنوب ما بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود، وهى مائلة بعض الشىء ناحية الشرق ويوجد فى هذه الجهة من الكعبة المعظمة باب الصفا وكل الأبواب الجنوبية وبناء على ما يتضح من الشكل التالى للساحة المطهرة للكعبة المعظمة نجد أن طول المسافة بين ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقى ٣١ ذراعا ومن الركن الشامى إلى الركن اليمانى ٣٢ ذراعا والطول من الركن العراقى إلى الركن الشامى ٢٢ ذراعا ومن الركن اليمانى إلى ركن حجر الأسود ٢٠ ذراعا.

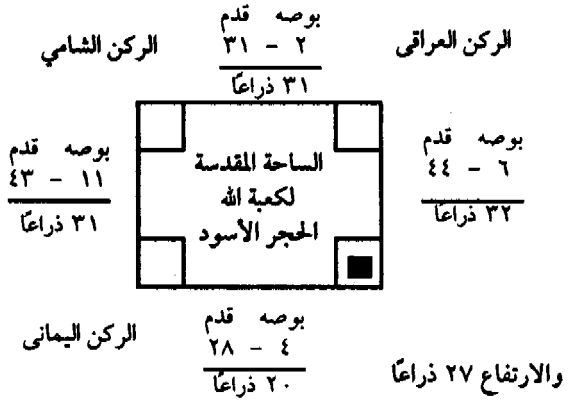

مساحة هذا الشكل قد قيست بالمقياس المسمى «ذراع اليد» والمقياس المذكور يساوى المسافة ما بين مرفق الرجل إلى طرف الإصبع الأوسط فى يده.

وبما أن كل الذين قاموا بقياس المسجد الحرام قد استخدم كل واحد منهم ذراعه الشخصى لذا لم يوافق مقياس أحدهم الآخر.

مثلا: إن صاحب تشويق الساجد وجد أن ارتفاع «الكعبة المعظمة» الأعلى ٢٧ ذراعا وستة أصابع بينما وجد الإمام النووى ارتفاعها ٢٧ ذراعا فقط كما ضع فى كتاب الإيضاح ووافق مؤلف تاريخ خميس على مقياس الإمام السابق، لأن ذراع اليد يختلف من شخص إلى آخر. ولا يعد مقياسا متفقًا عليه.

يقول مؤلف هذا الكتاب إننى قد اختبرت كثيرا من الأذرع وقمتها فوجدتها مساوية لسبع عشرة بوصة إنجليزية واعتبرت هذا هو المقياس المتوسط للذراع وحولت متوسط طول الأذرع إلى القدم الإنجليزى وقست به الأماكن المقدسة، وبما أن المقياس الذى يطلق عليه «ذراع اليد» لا يشبه الذراع الحديدى ولا الذراع العادى، يجد الإنسان صعوبة فى تعيين المقياس الصحيح ولكن القدم الإنجليزى يمكن تحويله بسهولة لأى نوع من أنواع الأذرع وبهذا التقدير يقتضى أن يكون الطول الشرقى للكعبة المعظمة الذي يظهر في الشكل المذكور أعلاه وهو ٤٤ قدما و ٦ بوصات والطول الغربى أيضا ٤٣ قدما ١١ بوصة وعرض الجانب الشمالى ٣١ قدما وبوصتان وعرض الجانب الجنوبى ٢٨ قدما و ٤ بوصات.

ابتدأ نبينا حضرة الخليل «عليه الصلاة والسلام» فى حفر المكان الذى بينته له السكينة بمقتضى الإرادة الإلهية الحكيمة، ونقل الأحجار من جبال لبنان، وطور سينا، طور زتيا، والجودى، وحراء[1] بمساعدة الملائكة وبعد أن انتزع صخورا ضخمة لا يستطيع ثلاثون أو أربعون رجلا أن يرفعوها من مكانها إلى أن وصلوا إلى الأساس القديم الذى وضعه سيدنا آدم أبو البشر. وأخذ فى بناء الجدران جاعلاً مبدأ الطواف المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود الذى أتى به جبريل الأمين من جبل أبى قبيس ـ ومازال فى مكانه إلى الآن.

(!) قد وضع أبو البشر اساس البيت الحرام بالحجارة من نفس الجبال المذكورة.

وكان الحجر الأسود قد أودع أمانة فوق جبل أبى قبيس فى واقعة طوفان نوح.

وقد أخذه جبريل الأمين من الجبل المذكور وأحضره إلى سيدنا إبراهيم الذى رأى أن يجعله بتفكيره الصائب والرفيع علامة بداية الطواف فوضعه فى جدار الركن الشرقى للكعبة المعظمة.

ومازال إلى الآن فى المسجد الذي فوق قمة جبل أبى قبيس حجر أمام المحراب يزوره الناس على أنه كان الموضع الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى وقت طوفان نوح.

وفى قول آخر إن إسماعيل ـ عليه السلام ـ وجد حجرا رآه مناسبا ليكون علامة بداية الطواف بناء على رأى والده ومشورته ولكن الحجر لم يعجب سيدنا إبراهيم وذهب للبحث عن حجر آخر وفى هذه اللحظة نطق جبل أبو قبيس وقال: «يا إبراهيم لدى حجر محفوظ أمانة لك وأظنه الحجر الذى تبحث عنه ليكون بداية الطواف ولابد أنه الأمانة الكبرى المحفوظة عندى» وأخذ حضرة الخليل عليه صلاة الله الجليل، الحجر المذكور بنفسه ووضعه فى المكان الذى أعده.

قطعة:

الخليل الجليل الذى أرسله الحق

إن شمل الجماد برحمة فنطق

ولا ريب أن بيت الله

إذا تكلم حجر الركن بالكلام فاه

ونار الشوق أبو قبيس تحرق

أمام جمال الكعبة فذاك أليق

نظم

تقـوم الـدار بحجـر فـوق حجـر
وبـذاك اللـون أو بلـون آخـر
محل برعم تفتح فـى روضـة الخليل
أنـار بـه للخليـل الجليـل
ونـادى أبـو قبيـس فـى العـلاء
قائـلا سـمعت منـه ذاك النـداء
إن طوفـان هـذه الدنيـا مسـح
وهذا البيت للسماء تفتـح
ذلك البيـت وجبريـل الـذى أنزلـه
إن لـدى حجـراً وديعـة أحملـه
وبيعـتى حـتى تسلموهـا
وفـى موضـع شـئتم ضعوهـا

(فتوح الحرمين).

ارتفعت جدران البناء المبارك للكعبة المعظمة، و وعندما رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه فى حاجة إلى استخدام إسقالة عثر على حجر واستخدمه في مكان الإسقالة وهذا الحجر الشريف هو الحجر القيم الذى غسلت فوقه رعلة بنت عمرو بن جرهم حماها إبراهيم عليه السلام.

ويعرف هذا الحجر المبارك في ساحة المسجد الحرام باسم مقام إبراهيم الآن وقد استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إسقالة عند بناء البيت وارتفعت جدران

البناء السعيد لبيت الله وكان المقام الشريف المذكور يرتفع مع ارتفاع البناء وعندما ينزل إبراهيم إلى الأرض كان يعود إلى هيئته الأصلية

وقد ذكر شكل وصورة الأبنية التى أقيمت فوق المقام الشريف المذكور فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

وعندما وصل ارتفاع جدران الأبنية الشريفة لبيت العزة إلى تسعة أذرع ترك حضرة الخليل سقفه مفتوحا وألحق جانب باب المعلا إلى أرض المطاف وصنع سقفا من الخشب متصلا بالبيت والمسمى بحظيرة أغنام إسماعيل. وحفر حفرة كبيرة العمق ثلاثة أذرع فى الأرض التى تقع جهة يمين الداخل فى بيت الله، لكى يوضع بها الهدايا التى ترسل من الأطراف والأكناف وبذلك أتم بناء كعبة الله المعظمة سنة ٣٥٧٤ ق.م.

والمكان المسمى حظيرة أغنام إسماعيل يطلق عليه الآن اسم «حجر إسماعيل» وهذا المكان الشريف هو مدفن السيدة هاجر.

ويروى المؤرخون الكرام أن البقعة السعيدة للكعبة المعظمة ظل بابها دون مصراع ولما مر بها الملك الحميرى قام بأداء الحج والزيارة ولما رأى باب الكعبة بدون مصراع ركب بابا خشبيا عليه مفتاحه كما علق فوق البناء المقدس كسوة مزينة، كما جاء بيانه فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة.

وفى أثناء قيام سيدنا إبراهيم ـ عليه التحية والتكريم ـ بحفر أساس الكعبة المعظمة رأى حجرا بين أحجار الأساس القديم وكان مكتوبا عليه العبارة البديعة التالية «أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من أسمائى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته». وترجمة هذه الفقرة المترجمة للعربية باللغة التركية» أنا الله صاحب مكة خلقت الرحم وجعلته اسما من أسمائى وهو الرحمن. وكل من يتصف بهذه الصفة ويعمل بمقتضاها أجزيه جزاء حسنا، وكل من يخالفها أعاقبه أشد العقاب».

ويروى «الإمام الواقدى» أن الحجر المذكور حجر أخضر اللون وكتب عليه السطور الآتية ونقلها على أنها من جملة تدقيقاته.

السطور التى نقلها إلينا الإمام الواقدى هى:

١ـ **السطر الأول:** «لا إله إلا أنا رب البيت مغلبها وهى قرار ومرخيها وهى قفار».

٢ـ **السطر الثانى:** «لا إله إلا أنا رب البيت مهلك الطغاة ومفقر الزناة ومخزى تارك الصلاة».

٣ـ **السطر الثالث:** «أنا الله لا إله إلا أنا رازق من لا حيلة له حتى يعلم من له حيلة أن لا حيلة له».

وبعد أن فرغ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بناء كعبة الله المقدسة رفع يديه وابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ متجهين إلى أبواب رحمة الله راجين منه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون ما قاموا به رهن قبول معطى العطايا.

وبعد هذا نزل جبريل ـ عليه السلام ـ باسطًا أجنحته وقال «إن عملكم قد حاز القبول عند الله» ثم تقدمهما وعلمهما مناسك الحج.

وأدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ مقتديًا بجبريل ـ عليهما السلام ـ فريضة الحج، وثبت جميع شروط الحج ومناسكه فى خزينة حافظة ثم ودع ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ عازما على العودة وصعد فوق قمة جبل الرحمة ونظر مرة إلى جهة بلاد الشام وأخرى إلى ناحية مكة المعظمة السعيدة وتذكر جودة جو الشام ولطافة هوائها وعذوبة مائها ومر بخاطره حرارة الحجاز الشديدة المتعبة فتأسف على بقاء ابنه فى هذا المكان الذى تحيط به الحجارة ودعا له طويلا. ثم ضغط برجليه على المهماز قاصدا ناحية الشام. وفى هذه الفترة صدرت الإرادة الإلهية «أذن فى الناس بالحج» وهكذا أمر بدعوة الناس إلى الحج فأخرج رجليه من المهماز وقال مخاطبا ربه: «يا رَبِّ قد فرضت طواف البيت على عبيدك وأمرت عبدك المطيع هذا بدعوة هؤلاء جميعا لينالوا من هذه المائدة العامة نصيبهم ولكننى كيف

أستطيع أن أدعو هؤلاء جميعا حتى يؤدوا مناسك الحج والطواف آتين من الشرق والغرب» فتلقى هذا الجواب ذا الحكمة: «يا إبراهيم؟ فإذا ما دعوتهم بصيحة عالية فإننا نوصل صوتك إلى آذان الخلائق كلهم».

حينئذ اتجه للجهة اليمنى من باب الكعبة السعيدة حيث كان قد ترك المقام الشريف وصعد فوق الحجر حتى صار مساويًا للجوهر وسد أذنه بأصابعه وصاح متجها إلى الشرق والغرب: «يا عباد الله إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمركم أن تحجوا إلى الكعبة الشريفة التى أمرنى ببنائها وأن تطوفوا حولها، فأسرعوا إلى إيفاء هذا الغرض تكونوا قد استجبتم للدعوة الإلهية التى تستوجب المغفرة.

وبهذا القول البليغ ذاع الأمر الإلهى وأعلنه على العالم وقد سمع نداء الخليل سواء من كان حاضرًا فى وقتها أو من كانوا فى أصلاب آبائهم أو فى أرحام أمهاتهم والذين قدر حجهم فى العالم الأزلى من الأمة واستجابوا قائلين «لبيك».

رواية: قد سر حضرة الخليل من استجابة الأمة المحمدية قائلين «لبيك» وقال «يا رَبِّ إننى أريد أن أستضيف هؤلاء» وبالأمر الإلهى أخذ قبضة من تراب الأرض ونثره إلى الجهات الأربعة وفى الأماكن التى أصابها التراب المنثور ظهر الملح وإن هذا المعدن سيكون وليمة مقدمة إلى أهل الأرض إلى يوم القيامة بطلب من إبراهيم وباستجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعائه وحيا.

وإذا قيل ألم يكن قبل ذلك ملح؟ يجاب عليه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ علق ظهور المعادن لسبب ما وكان نثر إبراهيم ـ عليه السلام ـ التراب سببا فى ظهور الملح. **«محاضرة الأوائل»**.

كان أول من أحس بصيحة دعوة إبراهيم أهل اليمن وعند البعض أن جرهم كان أو أول من سمع الدعوة ومع ذلك فجرهم من أهل اليمن.

نظم

ما العمل إنه جاءه على أنه التواب
وجاءه الأمر «أذن فى الناس»
ما لم يكن بيت القلب من طين وماء
فلتكن الضجة منها حتى تسمع أذن القلب
إن كل من كان فى الأصلاب والأرحام
سمع منه ذبذبة الصيت
إن كل سامع معجل
جعل من رأسه قدما للعبودية
إن الخلق منذ القدم فى هذه المحبة
وبلا سبب لم يسلكوا هذا الطريق

(فتوح الحرمين).

بناء على ما يروى أن عدد مرات حج شخص يتوقف على عدد إجابته لصيحة خليل الرحمن وكان الذى سيحج مرة واحدة قال «لبيك» مرة واحدة والذى قدر حجه مرتين قال «لبيك» مرتين وهكذا.

إذا ما نظرنا إلى حج الأمة المحمدية اليمنية كل عام يدل على أنهم فاقوا جميع المسلمين فى البلاد الأخرى فى التلبية. قال بعض المؤرخين إن إبراهيم عليه السلام عندما أراد أن يدعو الناس للحج لم يَدْعُهُم من فوق المقام الشريف بل صعد فوق جبل أبى قبيس أو جبل «ثبير» ونفذ أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن القول الأول هو المصدق عند الجمهور ومرجح على الأقوال الأخرى.

وبهذه الصورة أتم سيدنا إبراهيم مهمته ونزل من فوق المقام الشريف نزل جبريل ـ عليه السلام ـ وأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه إلى جبل الصفا ومن

هناك إلى جبل المروة وأراهما حدود المسجد الحرام وأوصى بأن يوضع حجر كعلامة فارقة في الأماكن التى عينها. ووضع خليل الرحمن[1] العلامات فى الأماكن التى بينها الرسول الجليل. وفى السابع من شهر ذى الحجة تلا إبراهيم - عليه السلام - خطبة بليغة مقابل البيت الشريف. والآن تلقى الخطبة فى السابع من ذى الحجة من فوق منبر المسجد الحرام تشرح فيها بالتفصيل مناسك الحج والمسائل الخاصة بالحج.

وفى أثناء الخطبة كان إسماعيل - عليه السلام - يستمع إلى خطبة أبيه فى خضوع وخشوع وصدق وأدب جم.

وفى اليوم الثانى أحرما من الحرم الشريف بنية الحج وسارا إلى منى ملبين ومهللين، وقضيا ليلهما فى الموقع الذى يوجد فيه الآن مسجد «الخيف» وكلما يحين وقت الصلاة كانا يؤديان الفرائض الخمسة فى أوقاتها وأطلق على هذا اليوم يوم «التروية» والحكمة من إطلاق هذا الاسم أنه قد كان انتظاره قبل وقعة ذبح إسماعيل بيومين مترويا كما سبق أن بيناه.

وبعد ذلك بيوم كان اليوم التاسع من ذى الحجة وبعد أن أديا صلاة الصبح وانتشر ضوء الشمس فوق جبل «ثبير» ذهبا إلى وادى الفيوضات «عرفات» ووقفا فى المكان الذى يسمى الآن مسجد «نمرة».

وأحد أسماء هذا المسجد «مسجد إبراهيم» ويؤدى الحجاج فرضى الظهر والعصر جمع تقديم.

وفى اليوم المذكور صحبهما جبريل الأمين ليريهما الجبال التى فى الوادى وليعرفهما مناسك الحج وفعلاً بين لهما الحدود المطهرة والجبلين اللذين يقطعان حدود «عرفات».

وبعد ذلك دخل إبراهيم - عليه السلام - فى مكان يطلق عليه الآن مسجد «الصخرة»، وأجلس ابنه إسماعيل - عليه السلام - فى مكان ما، وتمتم ببعض الكلمات وهو واقف على قدميه وصلى هو وابنه صلاتى الظهر والعصر متصلتين جمعا، وأخذا يذكران الله ويسبحانه وعادا بعد الغروب إلى وادى «المزدلفة».

(!) قد بين فى بحث الميقات كيفية وضع هذه العلامات وإلى أى وقت ظلت معروفة.

ويروى أن المكان الذى جلس فيه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان عاليا وغير مستو بين الصبخور، وإنه الآن المكان الذى وقف فيه رئيس قافلة الأنبياء على نبينا وعليهم التحايا، والمحل الذى تمتم فيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكلمات وهو المحل الذى يلقى فيه الآن قضاة مكة خطبة عرفات.

وقد أدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو وابنه صلاتى المغرب والعشاء متصلتين جمعًا جمع تأخير، ثم أخذا يجمعان الحصى كل واحد منهما (٤٩) حصاة لرمى الجمرات وقضيا ليلتهما تلك فى المزدلفة، وبعد أن صليا صلاة الصبح نهضا وواصلا سيرهما نحو مكان يسمى وادى الـمُحَسِّر[١] وسارا فى هذا الوادى قدر خمسمائة ذراع سيرًا سريعًا.

وبعد ذلك أعدّا ذبيحة وذبحاها فى مكان يسمى مسجد «منحر»، وهو مسجد لطيف فى ناحية مسجد «الخيف» من منى.

وفى اليوم الثالث من وصولهم إلى «منى» رميا الجمرات التى جمعاها من المزدلفة بعد الزوال حسب الأسس الشرعية ثم توجها إلى مكة المكرمة بعد أن استراحا فترة فى وادى «محصب»[٢] وصليا فيه صلاة الظهر ثم عادا إلى مكة المكرمة.

وأخيرا عاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الشام وفى العام التالى أدى مع زوجته سارة وابنه إسحاق ـ عليهم السلام ـ فريضة الحج الشريف.

---

(١) المحسر اسم واد بين «منى والمزدلفة» وطوله خمسة وأربعون وخمسمائة ذراع. يقال إن أصحاب الفيل قد تعبوا فى هذا المكان وأصبحوا غير قادرين على السير، لذا سمى الوادى بهذا الاسم وبما أن السير فى هذا الوادى ببطء سنة نبوية فإن الحجاج يسيرون فيه بتؤدة وبطء ولا يجوز وقوف وقفة عرفات فى هذا الوادى أو فى وادى عرنة.

(٢) ويقال لهذا المكان أبطح أيضا وهو مكان ذو حجارة فى مدخل مكة المكرمة وبالقرب من مقبرة حجون ومن السنة السنية أن يقف فيه الحجاج الكرام ويصلوا الظهر والعصر والمغرب والعشاء وأن يقضوا ليلهم فيه ثم يدخلون مكة المكرمة.

وفى هذه الرحلة نالت سارة الرعاية التامة والاحترام الفائق من إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكلما تذكرت ما صدر منها نحو إسماعيل ـ عليه السلام ـ فيما مضى خجلت وندمت، إلى أن توفيت أظهرت نحو إسماعيل ـ عليه السلام ـ الود والمحبة.

واستمر حضرة الخليل طول حياته يذهب إلى مكة المكرمة ويعود مستصحبا ابنه إسحاق ـ عليه السلام ـ وكذلك فعل ابنه ـ إسحاق ـ بعد وفاة والده[1] إذ كان يذهب كل عام إلى أرض الحجاز العطرة ويتلاقى مع أخيه وهكذا يشيد بنيان الحب والمودة بينهما ويوالى فى المصافاة.

قطعة

كـــان فـــى الرســـالـــة أخـــــــوان
كـلاهمـــا نهـج الخليـل منتهجـــان
أولهمـــا فـى الشـام بـــدر يتألـــق
والثـانـى فـى الحجـاز شمـس تشـــرق
أولهما كـان فى آيـة حسـن سـارة يرغـب
والثانـى معجـزة هجـرة هاجـر يطـــلب
أحدهمـــا جـــده أمجـد الأطهـــار
والآخـــر مـــن الأســباط المختـــار
ذكرهمـــا فـــى لســـانـــنا
عـلـى الـــدوام فـــى صلواتنـــا

وقد واظب المتوجون بتاج النبوة بعد إسحاق ـ عليه السلام ـ وكل من آمن بنبوتهم ورسالتهم على الحج الشريف حتى سيدنا المسيح كانوا عندما يصلون إلى حدود المسجد الحرام ينزلون من فوق دوابهم تعظيما له ويسيرون حفاة.

(١) وقد توفى إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل الهجرة النبوية بـ ٢٧١٨ سنة.

لائحة فى ذكر كيف قدمت وتشكلت حكومة العمالقة والجراهمة فى مكة المكرمة.

لإسماعيل ـ عليه السلام ـ من رعلة ابنة مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن حسن بن نبت بن جرهم بن قحطان اثنا عشر ابنا كانوا زينة الحياة الدنيا.

ويروى فحول المؤرخين أن أسماءهم مجهولة باستثناء نابت وقيدار وقطورا، وكل طوائف العرب صحيحة النسب هم من شجرة سلالة قيدار ونابت.

ورغم أن ابن هشام عدد بالترتيب أسماء أبناء إسماعيل فى السيرة التى كتبها، على أنهم:

ثابت أو نابت، قيدار، ذيل، منشى، مسمع، ماش، دماء، طيما، انطور، أزر، تيش، قبذها، فإن صاحب مفتاح العبر أيضا، قد صححها على أن تكون: «نابت أو نبت، قيدرا، أدييل، بسام، مشمع، ذومان، ما، حراه، تيما، بطور، ناقش، قدما».

وكلتا الروايتين خاليتان من جلية الصدق والقبول.

كما اختلف المؤرخون أيضا فى تعريف وبيان قحطان أبى جرهم فقد اعتقد بعض المؤرخين أن قحطان كان فى الأصل ملكا.

وقد خلعت منه صفة الملائكة بسبب ما اقترفه من ذنوب وأخطاء وأهبط به على وجه الأرض على شكل إنسان!!

وعندما هبط إليها تزوج واحدة من كريمات العمالقة فأنجب منها جرهم ـ سالف الذكر ـ لكن خطأ من يعتقدون صحة هذه الرواية بيِّنٌ واضح.

فإن قحطان الذى يقال إنه ملك هو عابر بن شالح من أبناء نوح ـ عليه السلام ـ وعند حدوث تبلبل ألسنة الناس ذهب إلى أرض اليمن حيث أصبح حاكما على من قبلوا الدخول فى طاعته أصبح أول حاكم على اليمن.

وعندما بلغ إسماعيل ـ عليه السلام ـ التاسعة والثمانين من عمره كان والده قد توفى.

كما توفى هو أيضا وترك الحياة الدنيا بعد مرور واحد وأربعين عاما على وفاة والده[1].

وأسندت إدارة حكومة مكة الجليلة إلى قيدار ونابت وقطورا ورغم أن نابت بن إسماعيل ـ عليه سلام الله الجليل ـ قد نجح فى حسن إدارة حكومة مكة المكرمة التى ورثها بعد وفاة والده، فإنه عندما توفى، تولى الحكومة الجليلة لبلدة الله مضاض بن عمرو الجرهمى والد رعلة، وصهر إسماعيل ـ عليه السلام ـ واشترط عليه أن يضم إلى كنفه أولاد نابت المتوفى وهكذا تولى رياسة قبيلة وحكومة مكة برضا القبائل الكبيرة وصعد فوق جبل «قعيقعان» الواقع ناحية شعب أبى طالب من جيل أبى قبيس، والتلال الواقعة حول هذا الجبل، ونصب الخيام هناك حيث أقام وأخذ سميدع بن هوش رئيس قبيلة قطورا[2] جماعة العمالقة التى كانت تحت إمرته ثم توجه بهم إلى أسفل مكة وبعد فترة قصيرة صعد بهم فوق قمم جبال أجياد[3] وبهذا تكونت داخل مكة المعظمة حكومتان صغيرتان وتم الاتفاق ـ بعد فترة ـ على أن يقوم مضاض بأخذ عشر البضائع التى تأتى من ناحيتى الشرق والشام ويأخذ سميدع رسوم البضائع التى ترد من ناحيتى الغرب واليمن بشرط ألا يتدخل أحدهما فى شئون الآخر.

وفيما بعد زاد عدد جماعة مضاض بن عمرو وعدد أتباع وأشياع سميدع بن هوش، وبمقتضى الحكمة القائلة «إن وجود حكومتين فى بلدة واحدة مضر»، نشب بين الجراهمة وقوم قطورا نوع من النزاع حول الملك.

(١) حدود الجبال المحاذية للحجر الأسود المقام الشريف لإبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت مقر قبيلة مضاض بن عمرو أيضا.

(٢) كان قطورا والجراهمة أولاد عمومة وقد هاجروا مع أفراد قبيلتهم من بلاد اليمن إلى الحجاز. وفى أثناء الهجرة اختار الجراهمة مضاض بن عمرو رئيسا لهم كما اختار أفراد قبيلة قطورا سميدع رئيسا لهم ولما كانت مكة المكرمة فى تلك الأوقات مكانا كثير الماء وفير الأشجار اختاروا النزول بجوارها وسكنت الجراهمة فوق جبل قعيقعان فى أعلى مكة كما سكنت أفراد قطورا جبل جياد حذاء جبل قعيقعان.

(٣) الجهات الواقعة فى ناحية جدة من البيت المحترم كانت ضمن مقر الجماعة التى تحت رياسة سميدع بن هوش.

وبظهور بعض الأشرار من الجانبين كان يقوم نزاع من حين إلى الآخر بينهما. واستمرت هذه الحالة غير المستقرة فترة قصيرة ثم اتحد الجراهمة وهزموا جماعة قطورا وقتل سميدع، لذا عقد مضاض صلحا مع من بقى حيا من قوم قطورا الذين طلبوا الصلح وهكذا أصبح مضاض الحاكم الأوحد لمكة المفخمة.

وحتى هذه الواقعة ـ أى تاريخ استقلال مضاض بن عمرو الجرهمى بالحكم كانت حجابة الكعبة وسدانتها لبنى إسماعيل وكانت إدارة حكم البلدة المشرفة ـ مكة المكرمة لرؤساء الجراهمة وعقب وفاة نابت، ومقتل سميدع بن هوش استولى الجراهمة على سدانة بيت الله أيضاً. ورأينا إدراج هذه الأبيات الصريحة فيما يتعلق بهذا الأمر.

نظم

وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بتلك البيت والخير ظاهر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العواصر

والأبيات المذكورة من قصيدة طويلة نظمها عمرو بن الحارث الجرهمى وتحكى طرد وإخراج الجراهمة من مكة المعظمة وانتقال حكومة مكة الجليلة إلى بنى خزاعة.

وعندما اختلت نظم إدارة حكومة جرهم وقطورا أخذ مضاض بن عمرو أبناء قبيلته المسلحين ونزل من جبل قعيقعان، كما اصطحب سميدع أيضا قومه المقاتلين ونزل من جبل أجياد، عازما ملاقاة مضاض الجرهمى والتقى الجمعان فى المكان المسمى «فاضح».

وكانت سيوف وسهام وحراب الجراهمة تقعقع وتصدر صوتا، ولهذا سمى الجبل الذى صعدوا عليه باسم «قعيقعان».

كما أن جند سميدع هبطوا من جبل «أجياد» وهم متفرقون ثم أطلقوا على الجبل المذكور اسم أجياد.

وقد التحم جند الطرفين فى القتال فى موقع «فاضح» سالف الذكر وفى النهاية قتل سميدع، وتعرض أفراد عشيرة «قطورا» للإذلال والإهانة كما أنهم لم يستطيعوا حماية رئيسهم لذلك سمى ذلك المكان «فضيح» لأنهم فضحوا بين العرب.

وعندما تشتت شمل جماعة «قطورا» أرسلوا رجلاً إلى مضاض بن عمرو وطلبوا الصلح.

فقرر أن ينتخب رجالاً ذوى ثقة من الجانبين ليحددوا شروط الصلح وأرسلوا إلى مكان يسمى «مطابخ»[1].

وبعد أن تداول هؤلاء المبعوثون شروط الصلح وتشاوروا لمدة طويلة، تقرر إسناد أمر إدارة الطرفين إلى عمرو بن جرهم.

فرح عمرو الجرهمى بهذا القرار، واستدعى جند الطرفين إلى الوادى المسمى «مطابخ» وأقام لهم جميعا مأدبة كبيرة.

وأول حرب وقعت فى المدينة المقدسة مكة الفخمة هى حرب مضاض بن عمرو وأول من قتل فيها هو رأس عشيرة قطورا.

وبالتدريج قوى نظام الحكومة المستقلة التى تشكلت بحكمة مضاض بن عمرو وزادت مكانتها. وتكاثر أبناء وأحفاد قبائل الجراهمة التى كانت ترعى بنى إسماعيل وتحترمهم، لهذا اكتسبت حكومة مكة المكرمة قوة واسعة فى وقت قصير، وأصبح رؤساؤها من الملوك أصحاب الصولات فى ذلك العصر.

ورغم هذا لم تتسع أرض مكة الله المقدسة بالقدر الذى يليق لاستيعاب أهلها، ولهذا اضطرت القبائل للجلاء عن موطنها وانتشرت جماعات فى أطراف الممالك وبسبب صلة النسب، أظهر الجراهمة الرعاية والاحترام إلى أحفاد بنى إسماعيل،

(١) مطابخ: مكان واسع فى أعلى مكة المعظمة وسبب تسميتها أنه تم فى هذا المكان طهى طعام المأدبة التى أقامها مضاض بن عمرو الجرهمى للجند.

ولهذا لم يرسلو جندا إلى أى مكان قط إلا وحققوا النصر والظفر ونالوا القوة والعظمة حتى طردوا عدوهم القديم، طائفة العمالقة الباغية وأخرجوهم من البلدان، والطائفة المذكورة من الأمم السامية، ومن أحفاد «عمليق» بن لاو بن آد بن سام بن نوح ـ عليه السلام، وعندما تفرقت الألسنة نزلوا بساحة صنعاء اليمن، ثم رحلوا بعد ذلك إلى منطقة الحرمين الشريفين وانتصروا على كل من أظهر لهم العداوة وأهلكوهم وقد أقامت جماعة منهم فى بوادى الشام وعندما عصوا الله أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى ويوشع ـ عليهما السلام ـ بقتالهم.

ورغم أن الملوك الجبابرة الذين استولوا على يثرب وخيبر وتلك النواحى وحكموها، كذلك فراعنة مصر كانوا من هذه الطائفة، إلا أن بنى إسرائيل قضوا عليهم جميعا وحكموا البلاد التى كانوا يحكمونها حتى قبيل مجئ الأوس والخزرج. وكان ديانة طائفة العماليق عبادة الأحجار والأشجار.

ورغم أن الجراهمة طردوا العمالقة الطغاة الغدارين وأخرجوهم من أرض الحجاز الطاهرة إلا أنهم انقسموا إلى قبائل متعددة وحكموا كل أرجاء مكة المكرمة لفترات طويلة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن العمالقة كانوا من الأقوام الجبارة ويتصفون بشجاعة فطرية هذه الشجاعة التي غطت شهرتها الآفاق.

ولكنهم لما بدأوا فى الاستخفاف بحرمة الحرم الشريف الواجب التعظيم، وقصروا في رعاية بيت الله وفسقوا فيه ابتلاهم الله باليأس والحرمان فسلط عليهم الجراهمة الذين كانوا يستصغرونهم ويحقرونهم فغلبهم الجراهمة وأخرجوهم من منطقة الحجاز.

تفاصيل هذا البحث موجودة فى الصورة الثانية من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

انتقال حكومة مكة إلى يد بنى خزاعة

بعد أن نجحت قبائل الجراهمة الباغية فى طرد طائفة العمالقة من الأراضى الحجازية المقدسة، نكلوا بهم واختار الجند مضاض بن عمرو أميراً لأنفسهم.

وبعد فترة من مقتل سميدع اتخذت عشيرة قطورا مضاض بن عمرو رئيسا لها بعد الانتصار عليها وزادت قوتهم وقاموا ببدع لا تليق بالمكانة الرفيعة لكعبة الله واتسموا بسوء الخلق وقاموا بما يستدعى غضب الله الجليل عليهم وظهرت آثار البغض والشقاوة والطغيان بانقطاع ماء زمزم الذى غار تماما.

واستخفوا بحرمة كعبة الله الشريفة، واستحلوا المحارم وما نهى عنه، وجرأوا على الاستيلاء على الأموال والهدايا التى يرسلها الملوك والحكام إلى البيت الشريف.

أحلوا الحرام وأخذوا يظلمون الناس ويعتدون عليهم بل تجاوزوا ذلك بأن منعوا الناس من زيارة مكة المعظمة فى خِسَّة ودناءة.

وكان مضاض بن عمرو رئيس هؤلاء المشئومين من الجراهمة قد جمعهم ذات يوم وخطب فيهم واعظا فقال: «يا طائفة الجراهمة اجتنبوا المظالم والمعاصى فى جوار بيت الله الشريف، وقوموا بالأفعال الخيرة تنالوا القبول والرضا عند صاحب الكبرياء. فقد سلطكم الله القادر على العمالقة البغاة، عندما انتهكوا حرمة الحرم الشريف وقد تم طرد هؤلاء المشئومين من دائرة الفيض الإلهى ورأيتم كيف حرموا من دخول دائرة الحرم الشريف وسمعتم ما ابتلى به قوم هود وصالح وشعيب ـ عليهم السلام ـ من النوازل وأنواع البلاء.

وإذا تمسكتم بما أنتم عليه من رذائل الأخلاق فليس ببعيد وجود طائفة أقوى منكم فتطردكم وتخرجكم ـ مثل العمالقة ـ من حدود أرض الحجاز الميمونة «فأجابوه بقول يملأه الغرور[1] وهل يوجد بين العرب قوم أشجع وأجرأ منا، وهل

(١) اسم الشقى الجرهمى الذى هذا القول لمضاض بن عمرو هو مجدع.

هناك من لديهم الرجال الأقوياء والأسلحة البتارة الأكثر والأكمل منا؟ حتى تجرؤ على حربنا وقتالنا وطردنا وإخراجنا من أرض مكة؟ فلماذا تزعجنا بهموم الحرب والقتال واحتمال طردنا من ساحة مكة الله؟!

وعندما شعر مضاض بن عمرو أن إصلاح أحوال القبيلة الضالة أمر غير ممكن وأن هذا الحال مقدمة لداهية كبرى، قام ذات ليلة وأخذ الغزالين الذهب وكانا محفوظين فى خزينة بيت الله، وبقية الهدايا القيمة وألقى بها كلها فى بئر زمزم الذى قد نضب ماؤها، ثم سد البئر المذكور بالحجارة والتراب. ثم اصطحب أولاد وأحفاد إسماعيل وأسرع راحلاً إلى الأطراف حتى لا يتعرضوا للخذلان.

كما أوضحنا سابقاً فى الوجهة الخاصة أن الأشياء القيمة التى أخفاها مضاض بن عمرو فى بئر زمزم أخرجها عبد المطلب بن هاشم فيما بعد فى أثناء حفره للبئر وأجريت قرعة بالاتفاق مع الرأى العام وكانت نتيجتها أن الغزالين كانا من نصيب البيت الأعظم وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب.

وقد قام عبد المطلب بتعليق الغزالين على جانبى باب الكعبة فزين بهما الكعبة وباع بقية الأشياء أنفق ثمنها كله على بيت الله، وأظهر بهذا مدى إخلاصه وعبوديته.

عقب خروج مضاض بن عمرو مصطحبا أحفاد بنى إسماعيل إلى أطراف البلدان اشتد بغى وطغيان الجراهمة، وتصرفوا حسب هواهم.

وعندما أدرك بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقبائل غبشان الخزاعى، قلة عدد الجراهمة، استعانوا بالقبائل المجاورة المقيمة فى البوادى لكى يغيروا على الجراهمة وكونوا جمعا كبيرا وأعلنوا الحرب على الجراهمة.

وبعد معارك كثيرة، حاصروا مكة المعظمة وضيقوا الخناق على الجراهمة البغاة، وطردوهم خارج حدود كعبة الله المحفوفة بالهدى.

وأول من تبوأ مقعد الحكم فى مكة المكرمة بعد الجراهمة هو غبشان الخزاعى.

ومن بعده أصبح عمرو بن الحارث الغبشانى أميرا لمكة، وقد توارث أبناؤه وأحفاده الولاية الجليلة لحكومة مكة حتى مجئ خليل بن حبشة بن سلولة صهر قصى بن كلاب.

وكان بنو خزاعة من ساكنى بلدة مأرب الواقعة على بعد ثلاث مراحل من مدينة صنعاء اليمن المشهورة.

وعندما علموا أنها ستنهار نتيجة لخرق السدود والنقب وسيهجم سيل العرم ويغرق سكان بلاد «سبأ» ويمحوهم.

ولما قضت هذه الشائعة راحة الناس وكان منهم عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان فخرج وقد أخذ معه قبيلته المنقادة له وباع أملاكه ومتاعه وأسرع يبحث عن بلدة يسكنها. وكان يقابل أهل البلاد التى يمر بها ويغلبهم، مع هذا لم يستطع التكيف والتآلف مع ماء البلاد وهوائها التى يمر بها، لهذا عزم على الذهاب إلى أرض الحجاز المقدسة بناء على ما أخبرته به كاهنة تسمى ظريفة وبعد فترة وصل إلى حدود ميقات مكة.

وفى أثناء إقامته بلغه أن قبائل الجراهمة مصرون على رأيهم بمنع غيرهم من دخول مكة، فتشاور مع حكماء القبيلة. ورأى أن يرسل برسالة إلى الجراهمة يستأذنهم فى البقاء بأرض مكة المشرفة لفترة قصيرة، ولكن الجراهمة رفضوا رجاء عمرو بن عامر. ولما بلغ قولهم إنه يتحتم عليه ـ فى كل الأحوال ـ أن يزيل خيامه من عند حدود كعبة الله، وأن يرتحلوا إلى أى بلد آخر عندئذ قال لهم عمرو بن عامر: إننى أرى البقاء فى أرض مكة بلا قيد أو شرط، فإذا كان هذا ملائما لكم فحددوا لنا مكانا مناسبا بجانبكم نكن إخوة لكم نعاونكم وننصركم، حسبما يقتضى الأمر. أما إذا صممتم على المعارضة والرفض، فسأسلب راحتكم وأستعمل معكم أساليب العنف والسيطرة والقوة القهرية، فأخرجكم من مساكنكم وبيوتكم وأطردكم خارج الحدود، وإذا تصديتم لقتالى فسأنتصر عليكم بعون الله وسأهين رجالكم بقتلهم بالسيف وأقيد أطفالكم ونساءكم بأصفاد الأسر.

ومع هذا القول فإنهم عارضوه فاستجمع كل قوته وحاربهم ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة، وفى النهاية لاذ الجراهمة بالفرار فدخل مكة المكرمة، واستولى عليها وقضى على جماعات الجراهمة الذين قبض عليهم وقهرهم.

واشترك فى هذه الحرب غبشان الخزاعى مع أبناء بكر بن عبد مناة بن كنانة.

وقد هلك وقتل كثير من الجراهمة، جزاء وفاقا لما اقترفوه من مظالم ومساوئ وكانت عاقبتهم جميعا أن أخرجوا من مكة وأبعدوا مطرودين إلى جبال اليمن.

والواقع أنه ما من حاكم اعتاد على أن يظلم داخل مكة إلا وهلك، وأخرج هو وقومه وقبيله منها! حتى أطلق على مكة اسم بكة نظراً لأن المدينة المباركة تبك أعناق الجبابرة.

وعلى الذين يرغبون فى معرفة تفاصيل هذه الواقعة الرجوع إلى الصورة الرابعة من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

وخرجت حكومة مكة المشرفة من أيدى الجراهمة، وما أن أصبحت فى قبضة الخزاعيين وتصرفهم حتى رجع إليها بنو إسماعيل المنتشرون فى الممالك والبلدان وأقاموا داخل الأرض المقدسة لكعبة الله، بعد أن استأذنوا الخزاعيين فى هذا.

وبعد فترة قصيرة التمس مضاض بن عمرو الجرهمى إذنا بالإقامة فى مكة المكرمة فلم يوافق أفراد بنى خزاعة علي إقامة مضاض أو أى فرد من الجراهمة فى أرض مكة الطاهرة وأجابوه إذا تجاوز أحد منكم حدود الحرم الشريف سنقتله بلا تردد.

واستقبل مضاض بن عمرو رد بنى خزاعة بالصمت وحدث نفسه قائلا: «سأجد لى حيلة فيما بعد لأقيم فى مكة».

وذات يوم صعد فوق جبل أبى قبيس يبحث عن إبله. فرأى إبله المفقودة بين يدى بنى خزاعة يذبحونها ويقسمونها بينهم، فراقبهم لفترة طويلة ثم قطع الأمل فى استرداد إبله وقال فى نفسه: «إذ هبطت إلى الوادى لن تسلم من القتل كما

سبق أن هددوك من قبل «ثم أخذ أنصاره وأتباعه وشيعته الذين معه ووجه رجاله تجاه اليمن وخرج من أرض الحجاز المقدسة».

وكما يفهم من قصيدة عمرو بن الحارث بن مضاض التالى ذكرها أنه عندما خرجت البلدة السعيدة المباركة من يد مضاض بن عمرو الجرهمى البلدة التى لا مثيل لها فإنه سقط من فوق كرسى الحكم، وأصبح شيخ قبيلة عادية أصابه الحزن والألم الشديد.

ومضاض بن عمرو هو الحادى والعشرون من ملوك الجراهمة الذين تولوا أمر السلطة فى البلاد الحجازية المقدسة.

وأول من تبوأ مقعد الحكم من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان، عاد وقد استولى على الأراضى الحجازية عندما كان أخوه يعرب يتولى الحكم فى أرض اليمن مكان والده قحطان وهزم جرهم العمالقة واستولى على زمام الحكم.

وعندما توفى جرهم بن قحطان آلت حكومة الحجاز إلى ابنه عبد ياليل بن جرهم وعند وفاته آلت إلى جرشم بن عبد ياليل وعندما توفى جرشم آلت إلى عبد المدان بن جرشم، ومن بعده إلى ثقيلة بن عبد المدان وفى النهاية إلى عبد المسيح بن ثقيلة ومن بعده إلى مضاض بن عبد المسيح ومن بعده إلى عمرو بن مضاض وعندما توفى عمرو آلت إلى أخيه حارث بن مضاض بن عمرو بن الحارث ولما توفى عمرو آلت إلى أخيه الحارث بن مضاض ومن بعده إلى عمرو بن الحارث وبعد وفاة عمرو آلت إلى أخيه بشر بن الحارث وبعده إلى مضاض بن عمرو بن مضاض وفى حياة مضاض هذا خرج حكم مكة من يد الجراهمة كما فصلنا القول فيه أعلاه. وأخذ بنو خزاعة حكم مكة فى أيديهم.

وهذه القصيدة من نظم عمرو بن الحارث وتحكى انتقال حكومة مكة المشرفة إلى إدارة بنى خزاعة.

القصيدة:

وقائلة والدمع سكـيب مبـــادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجـر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامـــر
فقلت لها والقلب منى كأنهـــا
يلجلجه من الجناحين طائـــر
بلى نحن كنا أهلهـــا فأزالنـــا
صـروف الليالـى والحـدود العواثـر
وكنا ولاة البيـت مـن بعـد نابـت
نطوف بـذاك البيـت والخـير ظاهـر
ونحن ولينا البيت من بعـد نابـت
بعـز يخطـى لنـا المكاثـر
ملكـنا فعززنـا فأعظـم بملكـنا
فليـس لحـى غيرنـا كإثـم فاخـر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته
فأبنـاؤه منـا ونحـن الأصاهـر
فإن تنثنى الدنيـا علينـا بحالهـا
كذلك بالنـاس تجـرى مقـادر
أقول إذا نام الخليل ولـم أنـم
إذ العـرش لا يبعـد سـهيل وعامـر

وبـدأة منهـــا أوجهـــا لا أحصاهـــا

قبائـــل منهـــا حميـــر ويحابـــــر

وصرنـــا أحاديثـــا وكنـــا يغبطـــــه

بذلـك عفتـنا السنـــون الغوايـــــر

فسحت دمـوع العـين تبكـــى لبلـــدة

بهـا حـــرم آمـــن وفيهـــا المشاعـــــر

وتبكـى لبيـت ليـس يـــؤذى حمامـــه

يظـــل بـه آمنـا وفيـــه العصـــــافر

وفيـه وحـــوش لا تـــرام أنيســـــة

إذا خرجـت منـــه فليسـت تغـــادر

وآلت الحكومة الجليلة مكة المكرمة إلى يد بنى خزاعة على النحو المذكور

واستقل بنو خزاعـة بزمـام إدارتهـا وبعـد ذلك أصابـت الحمـى كـل أفـراد القبيلة المنسوبة إلى عمرو بن عامر، وأدركوا أنهم لا مقام لهم بعد ذلك فى أرض مكة.

وبرأى ومشورة الكاهنة «ظريفة» هاجر «آزر» إلى «عمان» وثعلبة بن عمرو بن عامر إلى الشام و الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام إلى جوار «المدينة المنورة».

وبقى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر المشهور بلقب (لحى) داخل مكة وتولى القيام بمهام حكومة مكة وأمور حجابة الكعبة.

إخطار:

تولى بنو خزاعة إدارة حكومة مكة المكرمة لمدة ثلاثمائة عام، وخلال هذه الفترة هزموا الجند الذين أرسلهم ملوك اليمن لتخريب بيت الله شجاعة فى الدفاع عنه.

ورغم أن بنى إسماعيل طوال فترة إقامتهم فى مكة المعظمة كانوا تحت إدارة الحكومة المستقلة لبنى خزاعة، ولم يتدخلوا فى مسائل الحكم، ولم يخالفوا أحدا قط إلا أن قصى بن كلاب بن مرة بعد ثلاثمائة سنة من حكم بنى خزاعة استطاع أن يحقق قوة وسطوة ويتولى إدارة حكومة مكة، وجمع كل أفراد القبيلة التى ينتسب إليها وأسكنهم داخل حدود مكة، وعززهم وأكرمهم. وبناء على ذلك أطلق عليه بين القبائل لقب «المجمع» وأصبحت قريش التى تنتسب إليه تشكل القبيلة الغالبة.

وقبيلة قريش الجليلة هى جماعة تنتهى إلى النضر بن كنانة وبناء على الجرائم التى ارتكبها الجراهمة كما ذكرنا سالفا تفرقوا فى أطراف البلاد حتى لا يتعرضوا لغضب الله ذى الجلال.

وكما ذكرنا فى الصورة الثامنة من هذه الوجهة أنه بجهد قصى بن كلاب تجمعوا وتقرشوا في مكة المكرمة ولهذا أطلق عليهم اسم «قريش».

* * *

توضح كيف تم تجديد البيت العتيق فى المرة الخامسة وكيف نجح العمالقة فى تجديده

على الرغم من أن بعض المؤرخين قالوا: إن بناء العمالقة حدث فى المرة الخامسة، إلا أن الرواية التى نقلها الإمام الأزرقى عن عبد الله بن عباس تلمح وتشير إلى أن بناء الجراهمة حدث بعد عمارة العمالقة للكعبة، حيث يقول الإمام الأزرقى فى تاريخه: فى الأزمنة القديمة، توطنت فى مكة المكرمة طائفة تسمى العمالقة وكان كل أفرادها ـ بصفة عامة ـ مفرطين فى الثراء، وكانوا أقوى الطوائف على وجه الأرض وكانت حكومة البلدة فى أيديهم.

هذه الطائفة المذكورة، كانت كلها تملك الخيول الأصيلة المرغوبة لدى العرب، وكذلك الإبل وسائر الدواب الجميلة والمرغوبة يشتغلون برعى الدواب فى المراعى بضواحى مكة. أما قوتهم وقدرتهم فكانت مفرطة. وفى زمانهم كانت البقعة المقدسة التى بناها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد أوشكت على الخراب والانهيار وذلك بعد انقضاء زمن طويل على عصر الخليل الجليل.

وبناء على ذلك اتفق رؤساء القبائل فيما بينهم على تجديد ما تهالك من بيت العزة وفى أثناء ذلك كان الجراهمة أيضا فى مكة، لكن حكومة مكة الله وسدنتها كانت مقصورة على رؤساء العمالقة. وعندما حازت هذه الطائفة القوة والثروة وأصبحت جوانب مكة المكرمة الأربعة مزدانة بالمروج الخضراء والأشجار المثمرة التى تثير البهجة مالت الطائفة المذكورة إلى متع الحياة واللهو وغاصوا فى الفجور والفسوق، وسار الأمر على هذا المنوال فطغوا وبغوا باعتيادهم الظلم والفساد.

وبلغت مفاسدهم إلى الحد الذى لا يستطيع فيه الرجل أن يستظل بظل شجرة، أو أن يأخذ شربة ماء من أية عين للماء ما لم يدفع نقودا وكانت عاقبة

الأمر أن زالت دولتهم وشوكتهم وأفل نجمهم وأدبر سعدهم حيث تسلط عليهم نوع من النمل فاضطروا للرحيل.

ورحلوا إلى ديار اليمن حيث مساكنهم ومبانيهم القديمة ولم يستطيعوا العيش هناك، وهلكوا جميعا وطوال فترة قيامهم بالمحافظه على البناء المقدس لبيت الله، ولهذا فإن الجدران العالية[1] للبقعة المقدسة لبيت الله ـ التى جددوها ـ خربت تماما ومحيت كلها، وبقيت بقية الحجارة التى وضعت فوق الأساس الخالد الذى وضعه إبراهيم ومنها عرف الناس الموضع المبارك لبيت الله فأصبحوا يطوفون به وفى النهاية حددته طائفة الجراهمة.

* * *

(١) كانت جدران كعبة الله التى جددها العمالقة مرتفعة جدا وكانت مزينة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة.

تبين طريقة تجديد البيت الأكرم فى المرة السادسة

قام الحارث بن مضاض الأصغر[1] من طوائف الجراهمة بتجديد البناء القديم لكعبة الله فى المرة السادسة، فقام بتركيب مصراعين لباب المعلا بالكعبة ثم وضع عليه قفلا. أما سبب هذا التجديد فهو السيل الذى روى عنه أبو جهم بن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ أنه خرب بيت العزة. وقد نزل السيل المذكور من أعلى مكة ودخل البيت الشريف وهدم البناء الكريم لبيت الله الذى سبق وأقامه العمالقة والملوك الذين جاءوا بعد قيام الحارث بن مضاض بتجديده على النحو السابق.

عمر الجراهمة الكعبة المعظمة ورمموها مرة تلو مرة، ولما ضلت قبائل بنى جرهم بمرور الأيام وانحرفوا، ظلموا وفسقوا وفجروا وعمتهم الفوضى، مثل العمالقة البغاة.

وكما ذكرنا فى البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى بنى خزاعة فإنهم لم يصمدوا لهجوم بنى خزاعة، وتركوا البلدة المكرمة.

وبعد فترة من انتقال حكومة مكة إلى بنى خزاعة، خرب ودمر بيت الله بسيل عظيم اجتاح مكة المكرمة.

وقد سمى هذا السيل «القارة» إشارة إلى غرق امرأة اسمها «قارة» من قبيلة بنى بكر.

وبعد انحسار مياه السيل أقام بنو خزاعة جدارا منخفضا حول البيت الشريف للوقاية من السيول التى تكررت من بعد وتركوا البيت الحرام على حاله القديم وظل البيت على نفس الحال حتى زمن قصى بن كلاب.

(١) هو الحارث بن مضاض ـ تاسع ملوك الجراهمة.

الصورة الثامنة

فى ذكر طريقة تجديد وبناء كعبة الله فى المرة السابعة

بنى قصى بن كلاب بن مرة البيت المعظم فى المرة السابعة وقصى بن كلاب بن مرة من الأجداد الكرام لحضرة النبى صلوات الله عليه وسلامه. وهو الجد الرابع لسلطان الأنبياء عليه وعليهم التحية والذى علا بنسبهم.

إخطار:

إن إحصاء أجداد النبى حتى الجد الواحد والعشرين ومعرفتهم بالترتيب أمر جائز، وقد قام به المرحوم عثمان عريانى أفندى الكليسى فى شرح القصيدة النونية التى أطلق عليها اسم «جبر القلائد فى شرح جوهر العقائد». ليس من شروط صحة الإيمان معرفة أسماء آباء وأجداد وحفدة سيدنا النبى عليه أكمل التحيات ويكفى لصحة الإيمان معرفة اسمه الشريف فقط.

وعدنان هو الجد الحادى والعشرون من الأجداد المعروفين لحضرة النبى، وأنه آخر الأشخاص الجائز تعدادهم من أجداد حضرة نبينا ﷺ ـ ولا يوجد مسوغ شرعى لتعداد من سبقوه.

وحسب ما جاء فى كتاب النسب الذى ألفه زيد بن بكار أن قصى بن كلاب بن مرة، عندما استقل بحكومة مكة المشرفة شرع فى هدم البيت العتيق بعد أن أعد كل ما يلزم لبنائه.

وقام ببنائه وتجديده وجعله بناء ضخما رصين الأركان وكان تجديده له على نسق وشكل لم يسبقه إليه أحد.

ولم يكن هدفه من هذا تزيين بيت الله محط الإخلاص وبناءه وإنما أراد أن ينقذ تلك البقعة المقدسة من حالة الخراب.

ولم يعترف مجموعة من المؤرخين السابقين بالانهيار الذي حدث للكعبة فى

المدة ما بين حضرة الخليل وقصى بن كلاب وقالوا: إن قصى بن كلاب هو أول من هدم البناءَ المقدس لبيت الله الأكرم وبناه من جديد.

وقال أيضا الإمام الماوردى هذا القول وذكر فى كتابه «الأحكام السلطانية» رأيه مفصلا وقال: «إنه بعد سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ قام قصى بن كلاب بن مرة بهدمه وتجديده ودعمه ببناء مسقوف بأشجار النخيل ومن أخشاب بلاد الروم وكان ارتفاع جدرانه يزيد تسعة أذرع عن بناء الخليل، وبنى كل مواضعه فى صورة جميلة لطيفة وفق الأسلوب القديم لسيدنا إبراهيم.

وعلى هذا التقدير فإن العمالقة والجراهمة لم يجددوا بناء البيت العتيق بل رمموه وأصلحوه مرة أو مرتين فقط.

انتقال حكومة مكة المكرمة إلى قصى بن كلاب بن مرة:

عندما توفى كلاب بن مرة بن كعب، كان ابنه قصى صغير السن أما والدته فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جشعمة بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نضر بن الأزد فى أعقاب وفاة زوجها سالف الذكر تزوجت من شخص يدعى ربيعة بن خرام بن حبة بن عبد بن كبير بن عذرة بن زيد بن سعد الذى جاء إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة وذهبت مع ابنها قصى بن كلاب إلى أراضى الشام حيث يقيم زوجها الجديد[1].

وسعد هذا الذى يعتبر من بين أجداد ربيعة بن خرام كتب عنه واحد من شعراء عصره أنه أجرأ وأشجع أبطال عصره ومدحه وأثنى عليه بهذه القطعة.

لا أرى فى الناس شخصا واحداً	فاعلموا ذاك كسعد بن سيل
فارس أضبط فيه عسرة	وإذا ما عاين القرن نزل
فارس يستدرج الخيل كما	يدرج الحر الفطام الجمل

(١) كان ربيعة بن خرام يسكن فى أرض عذره من ملحقات الشام.

وعندما بلغ قصى بن كلاب سن التمييز وأصبح قادرا على التفوق بين الحسن والرديء - إذ نمت قوة إدراكه - نشبت نار النزاع واشتد الاضطراب بين القبائل واشتعلت الفتنة بين جماعة آل ربيعة التى ينتمى إليها زوج أمه اضطرب مزاجه وسلبت منه راحته وطمأنينته، ذلك لأنه لم يكن من قبيلة ربيعة رجل يعرف أن كلاب بن مرة هو والد قصى سوى ربيعة، ولهذا كان أرباب السوء من القبيلة يؤلمونه ويعيرونه بأقوال مثل: إن والدك غير معلوم لنا وما ألجأك إلى قبيلتنا سوى انتسابك إلى قبيلة مجهولة لا اسم لها ولا شهرة فلو كان قومك معروفين لك لكنت تحتمى بهم تستنصرهم لتنجو من شرنا.

وقد التوى ابن كلاب من هذا الأمر وانزعج من نباح كلاب بنى ربيعة وقص ما جرى بالتفصيل على أمه فاطمة وشكا لها باكيا متألما وأبدى ما أصيب به من جرح فى نفسه.

وكانت فاطمة أم قصى من أعقل النساء فقالت لابنها لكى تطفئ نار حزنه وتسرى عنه وكأنها تصب عليه ماء الحياة: يا بنى أنت من الصلب الشريف لكلاب بن مرة فأنت أكرم من أبناء آل ربيعة ومن كل الوجوه وأنت أشرف نسبا وأعظم حسبا من كل قبائل العرب، إن قومك وقبيلتك يقيمون فى نواحى مكة المعظمة ويسكنون منذ زمن طويل حول حرم الله.

وهكذا أخبرته أنه ينتسب إلى قبيلة كبيرة من أشرف القبائل العربية.

وعندما سمع «قصى» هذا الكلام من أمه أراد أن يلحق بقبيلته ويذهب إلى مكة المكرمة وعزم على ألا يعود إلى أرض قضاعة بعد ذلك أبدا فنصحته أمه قائلة: يا بنى لا تتعجل وانتظر إلى أن يحل الشهر الحرام واذهب آنذاك - مع قوافل الحجاج العرب فأنا لا أحبذ سفرك بمفردك ولما حان وقت الحج ذهب إلى منطقة الحجاز برفقة حجاج قبيلة قضاعة وبعد انتهاء الحج أقام خيمة حول كعبة الله وأقام فيها.

وكان قصى حازما بارعا جلدا، وبعد فترة من إقامته فى مكة عرف أهلها شرف حسبه وفضل نسبه فأكرموه كرما شديدا.

وزاد توقير الناس له وتعظيمهم إذ تزوج ابنة حليل بن خبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى وهو من أعظم رجال بنى خزاعة آنذاك تولى حجابة البيت بعد أن استولى على حكم مكة المكرمة ورئاسة القبائل.

وعلى قول آخر إنه تزوج من عاتكة ابنة فالخ بن مليك بن قالخ بن ذكوان السليمى وحظى منهم بكل مظاهر التوقير والاحترام والقول الأول مرجح على الثانى وقد ثبت أن حليل بن خبشية صهر قصى بن كلاب حقا وعلى هذا فإن «حبا» هى الجدة الرابعة من جدات الرسول ﷺ.

وبعد هذه المصاهرة بين قصى بن كلاب وحليل بن خبشية اتسع نطاق قدرته ومكانته بالتدريج وتزايد أبناؤه وخدمه وحشمه وأصبح واحدا من صناديد القبائل العظام. وفى أثناء مرض صهره حليل بن خبشية، ترك مفتاح البيت تبعا للقواعد المرعية فى ذلك الوقت وأوصى به إلى ابنته «حبا» زوجة قصى بن كلاب.

ولما كانت «حبا» عاجزة عن إدارة أمور البيت وزوجها ليس من أفراد بنى خزاعة فهى لا تتجرأ أن تعطى مفتاح البيت الشريف لزوجها، ولكن لطول مدة مرض والدها كلفت زوجها قصى بن كلاب مهمة فتح وإغلاق بيت الله. وعلى قول آخر أنها أسندت هذه المهمة إلى أبنائها. ولما اتضح لحليل بن خبشية أنه أصبح على قاب قوسين من الموت عين زوج ابنته ولى عهد له وسلمه مفتاح بيت الله.

وبالرغم من هذا، أخذ صناديد خزاعة المفتاح من قصى بن كلاب عقب وفاة صهره وأعطوه ـ حسب العادة ـ إلى أبى غبشان سليم بن عمرو بن لؤى بن ملكان من كبار طائفة بنى خزاعة، وفوضوه فى أمور حجابة وسدنة وخدمة كعبة الله المقدسة. وكان أبو غبشان رجلا فاسدا مدمنا للخمر لا يهتم بأمور الدنيا وهمومها وفى يوم من الأيام وهو فى بلدة الطائف غارق فى ملذاته حسب عادته فقد وعيه ونفذ صبره وثرثر بكلام كثير فقال من ضمن ما قاله

لرفاقه فى مجلس اللهو، إنه لا يهمه أن يبادل مفتاح كعبة الله الأمانة الكبرى بقدح من خمر.

وتداولت الألسن هذه الشائعة حتى بلغت سمع قصى بن كلاب فأخذ لتوه قربة شراب وأعطاها[1] لأبى غبشان وأخذ منه المفتاح الشريف فى حضور عدة أشخاص وأرسل ابنه عبد الدار ليلا إلى مكة المباركة، يبلغ أهلها بالأمر فأصبح بهذا صاحب المفتاح الشريف، وسعد أعظم سعادة.

وعندما أفاق أبو غبشان واسترد وعيه أراد أن يسترد مفتاح الكعبة من ابن كلاب، ولكن الأمر كان قد شاع بين أهل مكة ولما رفع الأمر إلى ما يشبه المحاكمة بين المتخاصمين ثبت بشهادة الشهود أن أبا غبشان قد أضاع المفتاح وليس له أحقية فى استرداده وضربت الأمثال فى ذلك إذ يقال «أحمق من أبى غبشان» و«أخسر من أبى غبشان».

ويضرب العرب ـ الآن ـ مثل «أخسر صفقة من أبى غبشان» للذين يخدعون فى البيع والشراء والذين يتعرضون لمصيبة كبيرة.

وقد انزعج أشرار بنى خزاعة لامتلاك ابن كلاب للمفتاح الشريف، وكثر القيل والقال فى هذا الموضوع وأخذت نار الخصام تشتعل بينهم لأتفه الأسباب فى مبدأ الأمر إلى أن اندلعت فتنة عظيمة أدت إلى الحرب.

ولما كان طالع الحرب فى عون قصى، فقد سعد بشرف الحصول على إدارة حكومة مكة.

وفى أثناء اتحاد آل خزاعة ضد ابن كلاب، جمع قصى قومه من قريش وبنى إسماعيل للتصالح والاتفاق مع آل خزاعة فى مجلس صلح، ولكن بمجرد النقاش فى الموضوع ارتفعت الأصوات وتحول النقاش الجارى بينهما إلى نزاع وشجار.

(١) يروى أيضا أن «قصى» أعطى أبا غبشان فى تلك الليلة مع قربة مملوءة بالخمر خروفا أيضا.

وأعد كلا الطرفين من فى جانبهما من المتحاربين وتهيئا للقتال والمبارزة والحرب ووجهوا كل ما فى طاقتهما للصراع الشرس وتشابكا.

ولاحت علامات النصر والظفر فى جانب قصى بن كلاب بن مرة وانفرد ابن كلاب بإدارة الحكومة الجليلة للحرم الشريف ورئاسة القبائل، وطرد آل خزاعة من أرض مكة المباركة العطرة وأقصاهم عنها، وتأمر ذوو الشأن وكبار القبائل التى انطوت تحت جناح ابن كلاب، برئاسته واستقلاله فأظهروا له الولاء والتبعية والاستسلام.

وقد أورد مؤلف كتاب «الاكتفاء» هذه القصة بطريقة أخرى إذ قال: «عندما توفى كلاب بن مرة» كان ابنه قصى حديث الفطام من الرضاعة وتزوجت أمه فاطمة بنت سعد من ربيعة بن خرام من قبيلة قضاعة. واصطحب ربيعة هذا فاطمة أم قصى. إلى بلاد بنى قضاعة وأنجبت من زوجها الجديد غلاما اسمه «زراح».

تربى ابن كلاب مع أخيه من الأم «زراح» وعندما بلغ سن الرشد، ذهب إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة للزيارة وبعد الحج أقام بجوار حرم الله وأعلن لأهل مكة أنه من فروع نسل إسماعيل وتزوج من «حبى» ابنة حليل بن خبشية وهو من رؤساء آل خزاعة وهناك قول أن اسمها «حسبا» وفى رأى أنها عاتكة بنت فالج فأصبح بذلك ذا عزة وشأن.

وأنجب قصى أربعة أبناء يتصفون بالشجاعة هم: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وبعد ذلك انتزع سدانة الكعبة المباركة وإمارة مكة المكرمة من أيدى بنى خزاعة وكانت حكرا لهم.

وأخذ يفكر فى وسيلة لإلغاء نظام «الإجازة» الجائرة التى كانت مرعية بين العرب لكنه كتم آماله فى قلبه إلى أن يجد طريقة لتنفيذها فى ذهنه. وأدرك أن هذا الأمر فى حاجة إلى إعداد قوة عسكرية كبيرة وتهيئة الأسباب التى تحقق هذا.

كما أنه مثوقف على عقد أوهام الإتحاد والائتلاف والاتفاق مع شيخ قبيلة قريش وبنى كنانة وعرض ما فى ضميره على رؤساء القبائل المذكورة.

وبرأى ومشورة أكبر حكماء هذه القبائل أبلغ أخاه من الأم «زراح» ابن ربيعة الذى يقيم فى بادية بلاد قضاعة ونشر «زراح» أفكار أخيه قصى العادلة وأبلغه بأن أبطال قبيلة قضاعة سيساندونه. وفى الميعاد المحدد انطلق زراح نحو مكة، ومعه عدد كبير من الأبطال الذين جمعهم إخوته من الأب حسن ومحمود وجمعهم تحت لوائهم وقد أعدوا أقوى أسلحة ذلك العصر مستعدين للهجوم والحرب.

وفى ذلك الوقت كانت قبيلة صوفة التى تنسب إلى غوث بن مرة قد تولت ـ كابرا عن كابر ـ إجازة عرفات ورمى الجمار وكذلك الأمر بالنسبة للقبيلة التى تنتهى إلى عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان إذ كانت مختصة بإجازة المزدلفة، وكانوا يتولون توصيل حجاج بقية القبائل فى موسم الحج إلى عرفات ويعودون بهم كما كانت قبائل بنى خزاعة تقوم بحفظ وحراسة البقعة المفخمة للكعبة المشرفة.

وقد بلغ هذا التحكم والطغيان مداه لدرجة أن قبيلة صوفة وهى تضم من بقى من الجراهمة ـ لم تكن تسمح لأحد من الحجاج بالصعود إلى عرفات ثم العودة إلى المزدلفة، ما لم تكمل أفراد القبيلة رمى الجمرات وكذلك طائفة «عدوان» لم تكن تسمح بالمرور طالما لم تكمل الوقوف بالمزدلفة.

حتى إن قبيلة «صوفة» فى يوم رجوعها إلى مكة، كانوا بموجب ميثاق مكتوب يقطعون عمرة منى ولا يفسحون الطريق إلى حجاج بقية القبائل طالما لم يمروا هم جميعًا من الممر.

استطراد:

ولفظ «**صوفة**» هو لقب «غوث بن أد» الذى ينتسب آباؤه إلى جماعة قبيلة مضر، وعلى قول، إنه لقب غوث بن مرة بن قرة بن طابخة بن إلياس بن مضر.

والأفراد الذين ينتسبون إلى هذه الجماعة توارثوا خدمة الكعبة المشرفة منذ الجاهلية على النحو الذى وضحناه آنفا. وقد انتقلت إلى أفراد هذه القبيلة مهام الإجازة والإفاضة من عرفات واقتصرت عليهم لهذا يقف أحد أفراد هذه الجماعة بعد الوقوف بعرفات ويصيح بصوت عال «أجيزى صوفة» ويعقبه آخر صائحا «أجيزى خندف».

بناء على هذا تتحرك من عرفات كل البطون التى تنتسب إلى هاتين الجماعتين ثم يتحرك بعدهم بقية الحجاج.

نشأة الإجازة:

ابتدعت وظيفة الإجازة فى زمن غوث، وحصل غوث على هذه الوظيفة من قبل أمه.

كانت أم غوث امرأة من الجراهمة وقد ظلت لفترة طويلة عاقرا بدون أبناء وذات يوم نذرت قائلة: «يا رب إن أنجبت ولداً سوف أنذره للكعبة» وسرعان ما حملت وعندما وضعت غوثا بعد مرور تسعة أشهر قدمته لخدام الكعبة المفخمة وفاء بنذرها وكبر غوث وعندما بلغ السن الذى يقدر فيها على العمل أخذ يقوم بخدمة الكعبة المشرفة لفترة طويلة. وهكذا اكتسب حب الناس واحترامهم وزادت مكانته فى أعينهم وكان وفيا بعهده، لذا كان الناس يستشيرونه فى كل أمر ويعملون وفق مشورته.

وزاد نفوذ غوث بالتدريج حتى أصبح أمر الذهاب إلى عرفات والعودة منها مقصورا عليه.

وفى تلك الأثناء وضع قواعد الإجازة وعندما وهبت أم غوث ابنها للكعبة المشرفة وفاءًا بنذرها أنشد والدها مرة أو أد هذه الأبيات

إنـــى جعلـت رب مـــن بنـــية ... ربيطـــة بمكـــة العليـــــة

فبـاركـــن لـــى بهـــا إليـــه ... واجعلـه لـى مـن صالـح البريـــة

وكان غوث يقول عندما يعطى أمر القيام من عرفات:

لا هـم إلـى تـابـع بتـاعـه وإن كـان إثـم فعلـى قضاعـة

وبعد وفاة غوث انتقل السماح للحجاج بالتحرك من عرفات والبدء فى رمى الجمرات إلى أبنائه وأحفاده.

ولما أوشكت هذه القبيلة على الانقراض أخذ أمر الإجازة أبناء بنى سعد بن زيد مناة بن تميمة إلى أن انتقلت هذه المهمة إلى أيدى بنى سعد وكان رؤساء الجماعة سواء من جاءوا من صلب غوث، أو من نسل أبنائه وأحفاده كلهم يقال لهم، صوفة.

وجماعة بنى سعد هم الذين ذكرناهم من قبل أفراد قبيلة تنتهى إلى آل صفوان بن شحنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وصفوان بن شحنة أول من تولى من هذه القبيلة وظيفة إعطاء الإجازة إلى الحجاج فى عرفات.

وسلسلة نسب كرز بن صفوان الذى تشرف بإدراك عصر النبوة الميمون ترتبط بشجرة هذه القبيلة وتحكم آل صفوان فى ممارسة مهمة الإجازة إلى الحجاج لم يكن يقل عن استبداد قبيلة صوفة.

لم يكن باستطاعة أحد من الحجاج أن يتجرأ على العودة من عرفات ورمى الجمار فى صحراء منى قبل أفراد آل صفوان حتى ضاق بهم الناس أشد الضيق واستاءوا أشد استياء.

وكان الحجاج كلما ألحوا فى الرجاء والتوسل إلى رجال بنى صفوان فى أيام رمى الجمار قائلين أغيثونا إن الوقت يمضى. كانوا يجيبون عليهم بكلمات غير لائقة قائلين: «كلا كلا مازال الوقت مبكرا فلم تمل الشمس بعد إلى الغروب» فإذا رجوهم وتوسلوا إليهم أن يستعجلوا بعض الشىء كانوا يمعنون فى التأخر

ولم يكن الحجاج فى فترة الانتظار يكفون عن الشتائم والسباب والدعاء عليهم كما كان إحساسهم بالانكسار مفرطا.

وكانوا يماطلونهم، فى ممر منى ويسمحون بالمرور أولا لأتباعهم ببطء ثم يأذنون للناس بالمرور.

وقد تحمل الحجاج هذه المضايقات التى توغر الصدور رضوا بها أم لم يرضوا حتى انقرضت سلالة «آل صوفة» أو «آل صفوان».

يكفى لإثبات مدى تحكم آل صفوان واستبدادهم هذه الأبيات التى قالها (أوس بن تميم السعدى) فى أثناء توليهم ممارسة إعطاء الإجازة للحجاج.

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

وبناء على ما قيل أعلاه ـ عندما كان رؤساء آل صوفة وآل صفوان يضيقون على الحجاج ويتحكمون فيهم كما ذكر كانت الإفاضة من المزدلفة، وإعطاء الأمر والإجازة فى يد بنى عدوان وحكرًا عليهم كما يتضح ذلك من الأبيات الآتية كيف أنهم توارثوا كابرًا عن كابر مهمة الإجازة.

غدير الحى من عدوان كانوا حية الأرض
بغى بعضهم ظلما فلم يرع على بعض
والموفون بالفرض والموفون بالفرض
بالسنة والفرض بالسنة والفرض
فلا ينقض ما يقضى فلا ينقض ما يقضى

كان أبو سيارة عُمَيْلَةُ بن الأعزل مِمَّنْ بقى من أفراد قبيلة عدوان. وقد أدرك عصر النبوة[1].

(١) عميلة (مصغرًا) بن خالد بن سعد بن الحارث بن عابس بن زيد بن عدوان العدوانى، أبو سيارة. ذكر الفاكهى أن أبا سيارة كان قبل أن يغلب قصى على مكة. فهذا يدل على تقدم عصره عن زمن البعثة.
وهو غير أبى سيارة المُتَعِىّ (بضم الميم وفتح التاء) الذى ذكره ابن السكن وغيره فى الصحابة. أخرج حديثه أحمد والبغوى وابن ماجه.
راجع الإصابة للحافظ ابن حجر ٧/ ٩٤، ترجمة رقم (٥٨٠).

وفى العصر الذى أشرقت فيه شمس الإسلام وأصبحت تبعث الضوء فى عيون الأنام، كان أبو سيارة هذا يتولى إجازة المزدلفة كما يفهم من خلال هذه القطعة الشعرية التالية.

نحن دفعنا عن أبى سيارة
وعن مواليه بنى فزارة
حتى أجاز سالما حماره[1]
مستقبل القبلة يدعو جاره

قوله «سالما حماره» يشير إلى إعطاء أبى سيارة رخصة الإفاضة من المزدلفة للناس، من فوق ظهر الحمار وهو مطابق تماما لرواية سيرة ابن هشام.

وقد قلنا فى بداية الاستطراد إنه عقب وقفة عرفات، يقف واحد من آل صفوان، ويقول أجيزى صوفة ثم يقف شخص آخر بعده يصيح قائلا «أجيزى خندف»، وقد عرفنا من الذى يلقب صوفه والآن يجب أن نعرف ما المقصود بخندف.

و«**خندف**»: هو لقب سيدة تسمى ليلى بنت حلوان بن عمران وهذه السيدة هى زوجة إلياس بن مضر[2] من أجداد النبى الكرام.

وتبعا لما ذكره الذين نقلوا أو تحدثوا عن سبب تسمية ليلى بنت حلوان باسم خندف[3] مسوق فى الرواية الآتية: إن ليلى هذه أنجبت ثلاثة أبناء من إلياس هم: عمرو وعامر وعميرة. وذات يوم وبينما كان هؤلاء يرعون إبل أبيهم إلياس جفلت الإبل من وثبة أرنب نافر. وعندما رأى عمرو جفول الإبل وتفرقها، قفز سريعا من داخل الخيمة وجرى من خلف الأرنب حتى أدركه وأمسك به فسمى مدركة.

(١) قيل إن حماره هذا عُمِّر أربعين سنة من غير مرض حتى ضربوا به المثل فقالوا: «أصح من عير أبى سيارة». الإصابة ٧/ ٩٤.

(٢) هو الشخص الذى أهدى أول قربان للكعبة المعظمة.

(٣) عندما يسير الإنسان ضاما أصابع قدميه كاشفا كعبه مديرا باطن قدميه يقال له خندف.

ولما أخذ عامر الأرنب وطبخه فأسموه طابخة ولـمَّـا فضل عمير البقاء فى داخل الخيمة والانقماع فيها قيل له قمعه، ولما رأت الأم ليلى ابنيها خرجا مسرعين من الخيمة أسرعت تجرى خلفهما، وفى أثناء الطريق قابلت زوجها «إلياس» الذى سألها قائلا: إلى أين أنت ذاهبة؟ فلما أجابت: قد جئت من خلفكم مخندفة أطلقوا عليها خندف، لأنه كان من عادات العرب فى الجاهلية تلقيب الناس اقترانًا بالأحداث.

جاهلية العرب:

أطلق على جميع العرب الذين عاشوا قبل البعثة المحمدية أهل الجاهلية وذلك لشدة جهالتهم.

وبناء على بعض الأقوال يطلق الجاهلية للفترة التى خلت من الأنبياء. وادعى بعض المؤرخين أن فترة الجاهلية تطلق على الفترة التى سبقت الذين عاشوا بعد هذه الحادثة التى وقعت بسبب جهل العرب وهى أن «كنانة بن خزيمة» تزوج من مطلقة والده وزوجة ابنه «مرة» وأنجب منها نضر والظاهر أن هذه الرواية خاطئة وأثر من آثار البلاهة.

وتبعا لما نقل وروى المرحوم الشيخ (تاج الدين اليمنى أبو عثمان عمرو بن بحر) الذى حقق هذا الأمر بدقة وكذلك كل أئمة السير يؤكدون أن برة التى تزوجها كنانة ـ سالفة الذكر ـ فيما بعد ليست هى برة زوجة أبيه ومطلقة ولده خزيمة.

وإن كان كنانة قد تزوج مرة ثانية من امرأة اسمها برة إلا أنها كانت بنت أخ امرأته الأولى برة أخت مرة بن أد. لم ينجب كنانة من زوجته الأولى برة ولأجل ذلك تزوج مرة أخرى بموافقة زوجته وتصويبها لرأيه تزوج برة بنت مرة بن أد أخو امرأته الأولى وأنجب منها كنانة.

وبما أن بنت مرة التى تزوجها كنانة كانت تشترك فى اسم برة مع امرأة أبيه خزيمة ولوجود صلة القرابة بين الاثنتين قد أدى إلى وقوع الخطأ فى أقوال كثير من المؤرخين.

وبناء على ما قرره أئمة علم الأنساب الذين صاغوا لآلئ بحر نسب معلم الكائنات ـ عليه أطيب الصلوات ـ أن الجوهر النقى لحضرة سيد الكائنات نبينا ـ عليه أطيب الصلوات ـ انتقل من مستودع الأصلاب الطاهرة وقوة ظهر العرب العرباء إلى درة وشاح ظهور الأمهات إلى أن آلت إلى الصلب الطاهر لعبد الله بن عبد المطلب ووصلت منه إلى رحم أمه آمنة بنت وهب، وكل هذه السلسلة من الآباء والأجداد من أعرق الأصول من جهة الآباء والأمهات لذا خلا من دم فاسد إذ تم زواج هؤلاء وفق الشريعة الغراء لعصرهم وجاء طاهر النسب بعيداً من دنس السفاح. انتهى.

ولابد أن وصول زراح بن ربيعة ـ أخى قصى بن كلاب من أمه ـ إلى مكة المكرمة مع القوة العسكرية الكافية، قد صادف موسم الحج، حيث أعلن ابن كلاب بن مرة على الناس أنه لا يجوز إبقاء عادة الإجازة، ورأى ذلك فرصة مناسبة لطرد بنى خزاعة عن الحدود الميمونة لحرم الله.

وأسرع بمطالبة أصحاب الإجازة أن يكفّوا أيديهم عن تنفيذ ما يأملونه ووجه الحديث إلى رؤساء قبيلة صوفه الذين قطعوا الطريق على الحجاج ليمنعوهم من المرور فى مضيق منى يوم رجوع الحجاج إلى مكة المكرمة وقال لهم: يا معشر قبيلة صوفة إن المطلعين منكم على علم الأنساب يعلمون أن حبل نسبى المتين يتصل بعدنان وأن وشيجة نسب عدنان تتصل بـ قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل التسليم ـ ولهذا فإننى أرى أن كتفى يليق بخلعة الإجازة الموشاة وإننى أستحق أعلى المناصب، ولذا أرى أنه قد حان الوقت لإزالة العادة غير المشروعة لنظام[1] الإجازة واعتبارا من هذا اليوم، فإن لكل إنسان الحق فى أن يجتاز ممر منى وقتما يريد.

وإننى إذ أعلن هذا أبين لكم أننى فى صدد اصطحاب أتباعى الشجعان وأمر من ممر منى قبلكم وأخذ جنود قبيلة قضاعة الذين لا يحصى عددهم ولا يعد وتحرك صوب مكة المكرمة.

(١) الإجازة: ترخيص يتضمن مرور وعبور أبناء السبيل من مكان ما بأمن وسلام ويقال إنه المرشد الذى يرافق جماعة لكى تعبر من طريق مخيف ومعناها اللغوى هو الإذن لرجل بالعبور من مكان إلى مكان.

وأراد فتيان قبيلة صوفة الشجعان أن يعترضوا طريقهم ولكن قصى قد مر بالقوة وشدة البأس.

وقد أدرك وجهاء قبائل بنى خزاعة ورؤساؤهم وقد أصابهم القلق الشديد أن الأمر يكاد أن يخرج من أيديهم وأنهم سيفقدون حكومة مكة فيما بعد، لذا تعقبوا مجموعة ابن كلاب معهم قبيلة بنى بكر والتقى الجمعان فى وادى أبطح وافتعل بنو خزاعة أسباب التحرش ودخلوا[1] فى معركة لا داعى لها.

والتحم الفريقان وتداخلا وتقاتلا ونال كل واحد منهما من الآخر ومات كثيرون من الجانبين. وكان حجاج العرب القادمين من اليمن وأنحاء الجزيرة لأداء الحج واقفين لمشاهدتهم.

وأخيرا طلب آل خزاعة الصلح، وعينوا رجلا انتخبوه للفصل فى قضيتهم وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن ليت بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وتدخلت القبائل العربية الأخرى حتى رضى ابن كلاب بالصلح.

وعندما قبل الطرفان الصلح جمع يعرب جنود الطرفين ودخل بينهما وحكم أن تدخل سدانة الكعبة المعظمة ورئاسة وإمارة مكة المكرمة فى عهدة «ابن كلاب» وقال:

إن وجود الكعبة المعظمة وسدانتها وإمارة مكة المكرمة فى يد وعهدة ابن كلاب خير من استيلاء بنى خزاعة وبنى بكر على الأماكن المقدسة.

وقد قبل جميع رجال كل القبائل هذا الحكم قبولا حسنا وهكذا تحققت آمال ابن كلاب ونال مرامه.

الذيل:

عقب فصل «يعمر بن عوف» فى هذا الأمر تمت كتابة وثيقة صلح تتضمن ما اتفق عليه رؤساء قبائل الطرفين وتقرر الاحتفاظ بنسخة معتمدة منها لدى قصى بن كلاب.

(١) كان القتال فى موقع بين منى ومأزمين وقد أطلق على ذلك المكان اسم مفجر لأن آل خزاعة كانوا يجرأون على ممارسة الفسق والفجور وسفك الدماء، وهتك حرمة بيت الله فى هذا المكان.

ومن جملة الشروط التى تضمنتها وثيقة الصلح هذه أن يرفع الظلم والتعدى عن أى إنسان داخل حدود حرم الله وألا يمر ناحية مكة المعظمة وألا يتجاوز بطن مر أى إنسان من جماعات البطون التى تنتسب إلى قبائل خزاعة، ولكن يسمح لمن يريدون منهم أن يسكنوا فوق سلسلة جبال البلد الحرام بشرط عدم دخول مدينة مكة الشهيرة.

وقد حوفظ على الأحكام المدرجة فى وثيقة الصلح المذكورة حتى صلح الحديبية.

وبناء على رجاء بنى خزاعة وطلبهم فى الواقعة المذكورة تفضل سيدنا سلطان الأنبياء ـ عليه وعليهم أفضل التحية ـ بقبول انضمام بقية القبائل التى تنتسب إلى بنى خزاعة فى حلف مع المسلمين.

وأدرجوا فقرات إلى وثيقة الصلح التى عقدت فى الحديبية تضمن السماح لجماعات قبائل بنى خزاعة بالدخول إلى مكة المكرمة.

امتدت الفترة المشئومة التى قامت فيها قبيلة بنى خزاعة بحكم مكة المكرمة حوالى ثلاثمائة سنة كاملة.

وكانت الأقوام المنتسبة إلى قبائل خزاعة فى ذلك الوقت تعبد كوكبا لامعا أطلق عليه اسم الشِّعْرَى اليمانى.

والمعروف أن الشِّعْرَى هما كوكبان منيران فى الفلك يسمى أحدهما الشِّعْرَى العبور والآخر الشِّعْرَى الغميضا وهذه النجوم كما يزعم العرب هى أخوات كوكب سهيل أحدهما الشِّعْرَى اليمانى[1] والآخر الشِّعْرَى الشامى[2] وموضعهما حيث

(١) قد قسم علماء الفلك النجوم إلى أقدار وأشعتها إلى درجات. ووفق هذا التفسير أن الشِّعْرَى اليمانى نجم القدر الأول لبرج الكلب الأكبر من البروج الجنوبية وكذلك الشِّعْرَى الشامى نجم القدر الأول من برج الكلب الأصغر من البروج الجنوبية ومن حيث اللمعان يعتبر الشِّعْرَى اليمانى فى الدرجة الأولى بين الكواكب الثابتة والشِّعْرَى الشامى يعتبر فى الدرجة الثامنة الجوزاء، وبرج مشهور من أبراج النصف الشمالى من الكرة ويتكون من ثمانين عددا من الكواكب. كما يعد علماء الفلك كوكبا يسمى رجل الجوزاء وهذا الكوكب يعتبر النجم الأول لبرج الجبار من الكواكب الجنوبية ومن حيث الضوء يعد فى الدرجة الخامسة.

(٢) هذا النجم هو الشِّعْرَى العبور.

يبزغان بعد الجوزاء ويبعد أحدهما عن الآخر طول رمحين. وإذا نظرنا إلى صورتهما، نجد أحدهما كبيرا جدا لامعا ومائلا إلى الجنوب والآخر صغير ومائل نحو الشمال ويسمى المائل نحو الجنوب الشِّعْرَى اليمانى والمائل إلى الشمال الشِّعْرَى الشامى وحسب اعتقاد العرب القدامى فإن الشِّعْرَى اليمانى عبر ذات ليلة خفية مع سهيل المجرة واغترب وإن الشِّعْرَى الشامى بكى لفراقهما إلى أن أصيب بغمض العين لذا أطلقوا على هذا النجم اسم الشِّعْرَى الغميض[1].

وأول من عبد الشِّعْرَى من طائفة خزاعة أحمق يدعى أبو كبش وكان من أشراف بنى خزاعة. وقد وقف ذات يوم على رأس قومه وقال: إن كل النجوم التى فى السماء تتحرك بشكل عرضى، ما عدا كوكب الشِّعْرَى فإنه يتحرك بشكل طولى، يعنى أنه يشير إلى أن الشِّعْرَى ليس كبقية النجوم. وإننى الآن سأترك عبادة الأوثان وأعبد الشِّعْرَى وأصبح كل من يتبعونه يعبدون الشِّعْرَى وخالفوا فى هذا آل قريش.

وقد أطلق مشركو قريش لقب أبو كبش على نبينا ﷺ إيماء إلى هذا السر ويريدون بهذا أن يشبهوه بأبى كبش لأنه أتى بدين جديد يخالف قريش.

والواقع أن نبينا ﷺ بهجة العالم، قد خالف قريش فى أمر عدم عبادة الأصنام وأبو كبش خالفها فى أمر عدم عبادة الأوثان انتهى.

تأسيس مدينة مكة المعظمة المشهورة

كان بنو خزاعة الذين استولوا على مكة المعظمة يتحاشون ويتجنبون الإقامة داخل حدود الحرم تعظيمًا للبيت الحرام، فكانوا يقيمون نهارهم حول الكعبة ويخرجون فى ليلهم خارج حدودها حيث يبيتون.

وكانوا يقولون إنه من الحرام المطلق اقتراف ما نهى عنه داخل حدود الحرم المحترم بناء عليه كانوا يبنون المنازل حول بيت الله.

(١) يسمى هذا الكوكب الشِّعْرَى الغميضا.

وعندما بلغ «قصى بن كلاب» مرامه بالحكومة الجليلة لأم القرى أتى بقومه وقبيلته وجمعهم وقال لهم: أيها القوم الكرام إذا بنيتم بيوتا ومساكن حول كعبة الله، لن تتمكن بقية الطوائف من طردكم وإبعادكم عن الأراضى الحجازية المباركة، بناء عليه أوصيكم أن يبدأ كل واحد منكم فى تهيئة مسكن له وبنائه حول بيت الله من جميع جوانبه فلما أجابه ذوى الأمر والنهى من جماعات قبائل قريش بقولهم أنت رئيسنا وسيدنا، ونحن نوافق على كل ما تأمر به ونتقبله قبولا حسنا فبادر بنفسه ببناء دار الندوة[1] بعد أن أعلن أنه سيتخذ من هذه الدار مقرا للحكم وقسم جوانب البيت الشريف الأربعة على طوائف قريش وعينها لهم، وأمر أن يقوم أفراد القبائل على الفور بوضع أساس البيوت والمنازل وأن يتركوا مكانا خاليا حول بيت الله للطواف. ولما استصوبت قريش رأى قصى بن كلاب، قدحوا زناد فكرهم وبدءوا فى بناء منازل وتزيينها فى الأماكن التى بينها لهم. ولم يبنوها حول أطراف بيت الله الأربعة، وجعلوا أبواب البيوت كلها تفتح فى اتجاه الكعبة المعظمة، وتركوا طريقا واسعا بين كل منزلين يسمح بالدخول إلى المطاف السعيد.

والمكان الخالى الشريف الذى تركوه بين بيت الله وبين البيوت التى بنوها هو المكان المقدس الذى يطلق عليه الآن اسم المطاف السعيد.

وبقيت البيوت التى بنيت فى عهد ابن كلاب على شكلها وطرازها الذى شيدت عليه فى البداية حتى عصر الفاروق الأعظم، وفى زمن خلافة سيدنا (عمر بن الخطاب) هدمها كلها وأدخل أراضيها ضمن ساحة المسجد الحرام، ووسع (عثمان بن عفان) وبقية أصحاب البر والإحسان دائرة الفيوضات الباهرة للحرمين الشريفين على النحو الذى سنذكره بالتفصيل فى موضعه، وجددوه على الصورة التى عليها الآن.

* * *

(١) رغم أن مجموعة من المؤرخين يقولون إن كعب بن لؤى قد بنى دار الندوة إلا أن ظنهم هذا غير صحيح.

ولما لم يكن فى أولاد كعب بن لؤى حتى مجئ ابن كلاب رجلاً متبوئا مقعد السلطة لذا جمع قصى بن كلاب كل مناصب الجاهلية: الحجابة ـ السقاية ـ اللواء ـ الندوة ـ النظارة[1] ـ صاحب القبة ـ الأزلام ـ خازن الأموال ـ الرفادة ـ القيادة. وأصبح صاحب المقعد والرياسة والحكم. ولكنه لم يستطع أن ينجح فى تغيير عادات الجاهلية التى تعد بين العرب من الأحكام الدينية، لذا ظلت العادات المذكورة حتى بعثة نور الهدى فى يد آل صفوان وآل عدوان وآل نسئة وآل مرة بن عوف.

استطراد:

أهل «نسئة»، كما ذكر المفسرون العظام بالبحث والتعريف، هم طائفة من عرب الجاهلية احترفوا القتل والسطو واعتادوا الصيد والقنص وحياة القلق. وحسبما تقضى شرائع إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بمنع الحرب والجدال فى شهور رجب وذى القعدة وذى الحجة ومحرم، وكان ترك العادات المألوفة لمدة ثلاثة شهور متصلة أمرا ثقيلا على هذه الطائفة المذكورة فإنهم قالوا: لا طاقة لنا ولا نستطيع الصبر على ترك الحرب والقتال من ذى القعدة إلى صفر بشكل متصل.

أى الجلوس فى الخيام والاستراحة لمدة ثلاثة أشهر متصلة. وأعلنوا وأشاعوا بغير تردد عن ضيقهم من حكم هذه الشريعة الإبراهيمية (على رسولنا وعليه التحيات).

(قلمس بن عبد بن فقيم) الذى ينتسب إلى جماعة قبيلة ينتهى نسبها إلى كنانة، لجأ هذا الرجل إلى طريقة غريبة لكى يبطل ويفسد حكم عدم القتال فى

(١) وتسمى أيضا ركز القبة.

الشهور المذكورة، إذ ركب ناقة فى موسم الحج السنوى الذى يعلن فيه البدو عن أفكارهم وخاطب أفراد القبائل الموجودة بالقرب منه وهو يريد أن يختبر درجة قوة عقيدة الذين هم على دين إبراهيم وإخلاصهم لها، فقال ما معناه: يا معشر العرب إن إلهكم قد أحل لكم هذه السنة شهر محرم ونقل حرمته إلى شهر صفر، وعلى الفور قامت مجموعة ممن أخذوا برأى قلمس وقوله بالإغارة وقتل قبائل البدو اعتبارا من تلك اللحظة، وعندما رأى قلمس أن حكمه فى هذا الأمر قد استقبل باستحسان وعرف أن فكره سيروج وقف فى موسم الحج فى السنة التالية خطيبا بينهم وأعلن أن حرمة شهر محرم قد تأجلت بأمر الله إلى شهر صفر، أى أن شهر محرم حلال وأن شهر صفر سيكون حراما بدلا منه واستقبل هذا الأمر عند أفراد جميع القبائل بسرور زائد.

وتصديقًا لهذا اعتاد أن يخطب فى كل موسم حج ويؤجل حرمة الشهر الذى يريده إلى شهر آخر.

وبعد قلمس انتقلت هذه العادة السيئة إلى ابنه عبادة وبعد وفاته إلى «قلع بن عبادة»، ومن بعده أيضا إلى «أمية بن قلع» ومن بعده إلى «عوف بن أميه» وعندما توفى عوف انتقلت إلى ابنه «أبى ثمامة جنادة بن عوف» وعندما أشرقت شمس الإسلام وظهرت أشعتها فى الأفق فى زمان أبى ثمامة جاءت الآية الجليلة لتبطل العادة المذكورة وتلغيها.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٣٧).

واختلف المفسرون فى تحديد اسم الشخص الذى تجرأ وابتدع هذه العادة القبيحة فادعى بعضهم أنه نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة، وادعى البعض الآخر أنه جنادة بن عوف وبعضهم ادعى أنه قلمس بن عبد بن فقيم، والذين قالوا إنه قلمس بن عبد بن فقيم يؤيدون ادعاءهم بذكر قول الشاعر:

وفينا ناسئ الشهر قلمس

والقول الأخير مصدق عند الجمهور وجدير بالقبول والشخص المدعو قلمس[1] هو الجد الخامس لجنادة بن عوف الذى أدرك عصر النبوة.

ورغم أنه يوجد من يقولون بما ذهب إليه عبد الله بن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهما، أن من وضع العادة السيئة بتأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، هو عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف إلا أن المفسرين اتفقوا على صحة القول الأول ورواة القول الثانى لم يستطيعوا أن يرتقوا بقولهم إلى مرتبة الصحة والتواتر.

وقد نقلنا هذه التفصيلات التاريخية عن أهل السنة من التفسير القيم للإمام فخر الدين الرازى ـ عليه رحمة الله الهادى ـ ويقول الإمام الرازى قبل أن ينقل ويروى الأخبار والدراسات المتواترة للمفسرين إن حسابات عرب الجاهلية كانت مرتبة حسب السنة القمرية، ولهذا فإن شهور العرب فى زمن الجاهلية، كانت تعد اعتبارا من رؤية الهلال وقد اعتادوا أداء فريضة الحج فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة اتباعا لسنة سيدنا الخليل. وبهذا الحساب كان موسم الحج لا يتفق مع فصل بعينه كل سنة فكان أيضا يصادف أبرد أيام الشتاء وأحيانا يصادف أكثر أوقات فصل الصيف حرارة ولهذا فإن بعض المتأخرين من زمن الجاهلية لم يكونوا يجرأون على الذهاب أو المجئ إلى مكة المكرمة فى أوقات اشتداد البرودة والحرارة، وكان من يترددون عليها بسبب التجارة لا يتمكنون من البيع والشراء فى هذه الأوقات التى توافق وقت التجارة بسبب قلة عدد الحجاج.

وفى النهاية أحيل الأمر إلى مجلس قومى[2] يتكون من ممثل لكل قبيلة لإيجاد حل مناسب لهذا الأمر. وذهبت الهيئة المذكورة إلى أن الشهور المرتبة للسنة القمرية دخل بالمصالح الدنيوية ورأوا حلول موسم الحج فى وقت معتدل ومثمر حيث تزدهر حركة البيع والشراء على الوجه المطلوب ويسهل التردد على الأسواق والملاهى التى تقام عند أطراف مكة وقالوا: فإن أضيف شهر إلى شهور

(١) اسمه حذيفة وهو ممن اشتركوا فى واقعة أصحاب الفيل.

(٢) إن إمكان إحالة رياسة هذا المجلس إلى قلمس بن عبد بن فقيم بعيد الاحتمال لذا لا يوجد بين أقوال المفسرين وبين رواية الإمام الرازى.

هذه السنة نسأ أفراد القبائل شهرا. وأنه إذا روعيت هذه الأصول مرة كل ثلاث سنوات، فإن موسم الحج سيأتى فى كل سنة فى فصل ثم واحد من المحاصيل وبناء عليه يأتى الناس بمحاصيلهم فيكون حجا وزيارة وفى الوقت نفسه تجارة ورتبوا الشهور وفقا للسنة الشمسية ولأن السنة الشمسية تفترق قليلا عن السنة القمرية، احتاجوا إلى إضافة أيام فجمعوا الفروق التى تحدث بينهما وأضافوا شهرا إلى بعض السنوات واعتبروا أن شهور تلك السنوات ثلاثة عشر شهرا. وبعد هذا الترتيب صادف الحج فى بعض السنوات بشهر ذى الحجة ونقل من شهر إلى آخر.

وظهر نتيجة هذا النقل أمران هما زيادة شهر على بعض السنوات من فائض الأيام التى تنتج عن تجميع أيام السنة الكبيسة وتأخير شهر حرام إلى شهر آخر ولأن العبادات المرتبطة بالسنة القمرية تخل بالمصالح الدنيوية على زعمهم، تركوا حساب السنة القمرية وربطوا عباداتهم بحساب السنة الشمسية وأخروا ونقلوا شهرًا حرامًا إلى أشهر أخر.

والواقع رغم أنه قد تبدو فائدة دنيوية فى تركهم هذا إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أمر باتباع حساب الشهور القمرية منذ عهد إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ عهد الهداية.

وبينما الحال يجرى على هذا الوضع ترك أهل الجاهلية الأمر الإلهى باتباع حساب السنة القمرية من أجل أن يحققوا حسن سير المصالح الدنيوية، وأخذوا بترتيب السنة الشمسية ونتيجة لحدوث هذا الترتيب بدئ فى تأدية الحج فى شهور غير الأشهر الحرم وكانت هذه الجرأة الجاهلية سببا فى إمعانهم فى الكفر، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد حدد حجهم فى الأشهر الحرم وحدها وإنهم فضلوا مصالحهم الدنيوية على التعليمات الدينية، إذ اتبعوا العمل بالسنة الشمسية وحجوا فى غير شهور الحج بوجود أيام كبيسة فى السنة الشمسية وتجرأوا على القول لحمل أتباعهم على قبول فكرتهم والعمل بحسابهم وليس باتباع حساب الشهور القمرية.

وازداد كفرهم بترك وإنكار أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى تطيعه كل الكائنات، وقد قام نبينا صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ بأداء الحج الشريف فى شهر ذى الحجة من السنة التى تكمل فترة دور النسئ[1] ولكى ترجع الأشهر الحرم إلى وضعها القديم أى لكى يصادف الحج اليوم العاشر من شهر ذى الحجة بعد مرور اثنى عشر شهرًا من موسم الحج فقد قال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب الذى بين جمادى وشعبان» أو كما قال.

والمناصب التى جمعها «قصى بن كلاب» كانت كلها محترمة ومرغوبة عند عرب الجاهلية وتعتبر كل وظيفة منها من أقدس وأعظم الوظائف بين القبائل وكانت كل الوظائف المذكورة مسندة إلى أكثر الرجال مكانة وثراء من قبائل قريش، وكانوا يتوارثونها أبا عن جد بطنا بعد بطن.

الحجابة:

وكان أهل الجاهلية يطلقونها على مهمة حفظ أستار باب الكعبة المعظمة.

وفى زمن جاهلية العرب كانت خدمة بيت الله مفتاح مصباح السعادة، لذا استحوذت على الحجابة الأيادى القوية الخيرة وأخيرا انحصر منصب سدانة كعبة الله فى أسرة بنى عبد الدار بن قصى بن كلاب.

وأشرق نور نبينا كاسر الأصنام والأوثان وناشر أنوار الإيمان عليه صلوات الله المنان، وسدانة الكعبة المعظمة فى يد «عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى.

وتلطف ـ ﷻ ـ بعثمان بن طلحة ـ رضى الله عنه ـ وأسعده بأن أعاد إليه وأنعم عليه مرة أخرى بالمفتاح الشريف لكعبة الله بموجب الآية الكريمة التى نزلت بأن يطهر الحرم الشريف من الداخل والخارج من رجس الأصنام.

(١) سنة حجة الوداع.

وسبب الخدمة الجليلة لحجابة كعبة الله، فى أولاد عبد الدار هو الآتى: عندما تقدم العمر بقصى بن كلاب وصار شيخًا كان ابنه الثانى «عبد مناف» قد أصبح له من الشرف والمكانة بين قبائل العرب القدر الكبير ولم يتمكن أحد أن ينال مثل هذا الشرف وهذه المكانة ليس فقط من بين إخوته بل من بين صناديد أشراف قريش قبل والده وبعده.

ولما كان ابن كلاب يحب ابنه الأكبر عبد الدار من بين أولاده حبا جما واتفق مع زوجته «حبى» فى هذا الحب، لذا كانا يأملان أن ينال من الشرف والمكانة مثل ما ناله أخوه الأصغر عبد مناف.

واستبدت رغبة «حبى» بهذا الأمر حتى لم تعد تطيق صبرا على كتمانها، فقالت ذات يوم لزوجها قصى إننى سأغضب منك إن لم تؤمن لعبد الدار فى أثناء حياتك ما يجعله يحظى بالفخر والشرف بين القبائل فقال لها: بل اسعدى، فإننى سأسند إليه أمرا يجعله يشرف من يقوم به بين الناس، أتريدين أن تعرفى أية خدمة جليلة هى؟ إنها حجابة الكعبة العظمى ورئاسة دار الندوة حيث لا يستطيع أحد من أشراف قريش وسادات القبائل أن يدخل البقعة المقدسة لكعبة الله طالما لم يحصل على إذن من صاحب هذا المنصب. كما لا يمكن أن يرسل الجند إلى أية ناحية ما لم يصدر، وبناء على هذا قام قصى بن كلاب بتقسيم مناصب السنة المكرمة المعززة بين الناس وهى «السدانة والرئاسة والسقاية والرفادة والقيادة واللواء» بين ولديه عبد الدار وعبد مناف فأعطى عبد الدار سدانة الكعبة، ورئاسة دار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف خدمات السقاية والرفادة والقيادة.

وظل قصى يؤدى بنفسه هذه الخدمات الجليلة إلى أن وافته المنية، وعند وفاته أصبحت هذه الخدمات بموافقة صناديد القبائل لابنه عبد الدار وعند وفاة عبد الدار أصبحت سدانة الكعبة لعثمان بن عبد الدار، ورئاسة دار الندوة لعبد مناف بن عبد الدار، وقد تولى رئاسة دار الندوة أيضًا أبناء عبد مناف بن عبد الدار فى

حياة أعمامهم وذلك بأمر وتكليف منهم، ولهذا إذا أراد أحد من قريش أن يتناقش فى أمر مشكل كان يرجع إلى «عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار»، فيفتح دار الندوة ويرأس الأشراف الصناديد المجتمعين وكان أمر الرئاسة مسندا أحيانا إلى أبناء هاشم بن عبد مناف، وأحيانا أخرى إلى أبناء أخيه.

وقد انتقلت حجابة كعبة الله بعد عثمان بن عبد الدار إلى أبنائه وفى النهاية انتقلت إلى «عبد العزى بن عبد الدار» وعند وفاته انتقلت إلى «أبى طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار» ثم إلى أولاده وأحفاده بعد وفاته.

عندما هاجر «عثمان بن طلحة» إلى المدينة المنورة وانفرد ابن عمه «شيبة بن عثمان» بمفتاح الكعبة الشريفة ومازال إلى الآن فى حوزة يد أولاد وأحفاد شيبة بن عثمان.

السقاية:

على وزن النهاية وكانت وظيفة خاصة بتقديم الماء العذب إلى الحجاج القادمين وذلك فى الجاهلية.

وفى نهاية فترة الجاهلية وبداية صدر عصر الإسلام ونتيجة لقلة الماء العذب فى مكة المكرمة كانوا يجلبون المياه من أماكن بعيدة، ويخلطونها بأشياء مثل التمر والزبيب، ثم يوزعونها على الحجاج كالشراب. وكان القيام بهذه المهمة الجليلة يسند إلى من يتولى المنصب الجليل «سقاية الحج».

وكان الذين يوكل إليهم سقاية الحجيج إلى ظهور ماء زمزم المكرم كما ذكرنا يملئون قربا كثيرة بالماء الذى يحصلون عليه ويتخذون لهم مكانا فى جانب الكعبة ويقدمون الماء لسقاية العطاش من الحجاج وكان السبب الرئيسى لابتداع هذه المهمة فقدان الماء فى مكة.

ذلك لأنه فى أواخر العهد الجاهلى لم يكن فى مكة المعظمة آبار للماء سوى الآبار التى أمر بحفرها «عبد شمس بن عبد مناف» فى ذى طوى وهاشم بن عبد

مناف فى المكان المسمى (شعب أبى طالب ومطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف فى المسفلة)، والآبار الآتى ذكرها والتى خص أصحابها بها أنفسهم وهم أمية بن عبد شمس، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو الحجاج وبنو سهم ومرة بن كعب[1] وبنو كلاب بن مرة. ولهذا كان سواء الأهالى أو الحجاج يعانون من متاعب كثيرة بسبب قلة الماء، بناء عليه أنشأ قصى بن كلاب وظيفة سقاية الحج. وأنقذ أهل مكة إلى حد كبير من أزمة المياه.

(١) كانت بئر مُرّة بن كعب خارج المدينة.

الآبار الموجودة فى مكة المعظمة
قبل ظهور بئر زمزم الشريف

كان يوجد فى مكة المكرمة قبل ظهور زمزم الشريف ثمانية آبار معروفة مخصصة لسقاية الأهالى وهى: طوى، بذر، سجله، حفر، سقية، أم حراد، سنبلة، غمر.

ولهذا كان المكلفون بمهمة السقاية يأتون بالماء من هذه العيون ويعدون الشراب على النحو الذى وضحناه آنفا وكانوا يسارعون لسقاية الحجيج القادمين.

طوى:

اسم البئر التى حفرها عبد شمس بن عبد مناف على النحو الذى سبق التعريف به. وكانت هذه البئر تقع بجوار قصر محمد بن يوسف الثقفى المعروف باسم «بيضاء» الواقع فى الطرف العلوى من مكة المقدسة. وهى الآن من الآثار القديمة والتى تقع فى مكان يسمى «ذى طوى».

بذر:

اسم البئر التى حفرها هاشم بن عبد مناف، ويروى أنها كانت تقع فى ميدان شعب أبى طالب فى جبل خندمة وهى مندثرة الآن.

سجله:

هى البئر التى حفرها مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وحسب ظن واعتقاد بنى نوفل أن مطعم بن عدى قد اشترى هذه البئر من أسد بن هاشم، ويقرر بنو هاشم أنه عندما ظهر زمزم الشريف وأغنى عن سائر الآبار قدم هاشم بن عبد مناف البئر المذكورة هبة منه إلى مطعم بن عدى.

حفر، سقية، أم أحراد، سنبلة، غمر:

هذه الآبار لا تعرف الجهات الكائنة بها، وبناء على الروايات التى تقول أن «حفر» هى البئر التى حفرها أمية بن عبد شمس وبئر بنى أسد «سقية» حفرها بنو أسد بن عبد العزى، و«أم أحراد» حفرها بنو عبد الدار، وسنبلة «بئر خلف بن وهب حفرها بنو جمح، و«غمر» حفرها بنو سهم لأنفسهم، وهذا يقتضى أن هذه الآبار موجودة فى عصر الصحابة.

وكانت الآبار الثلاثة المسماة «رم»، «خم» و«حفر» خارج مدينة مكة الشهيرة. وقد أمر مرة بن كعب بن لؤى بحفر بئر رم. وكلاب بن مرة بحفر خم، وحذيفة بن غانم بحفر بئر حفر، وأصبح فى حكم العادة فى مكة أن يجلب كبراء قريش الماء الذى يشربونه من هذه الآبار.

وعندما ظهر ماء زمزم وكان أصفى وأحلى من كل المياه، بدأ الناس فى الامتناع عن شرب مياه الآبار المذكورة ليس فقط لعذوبة مائه ولكن لقرب موقعه أيضا.

وفى الواقع فإن بئر زمزم الشريف الذى هو أحلى من مياه كل الآبار والعيون؛ لأنه بئر سيدنا إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام.

وعندما توفى عبد مناف بن قصى انتقلت مهمة سقاية الحجيج الجليلة، وخدمة الرفادة إلى ابنه هاشم بن عبد مناف، قام هاشم بمهمة السقاية هذه على أكمل وجه طوال فترة حياته، وبعد وفاة هاشم بن عبد مناف أسندت هذه الخدمة إلى أمية بن عبد المطلب، وقد استمر فى القيام بمهمته حتى ظهور بئر زمزم الشريف.

وبما أن عبد المطلب كان يملك كثيرا من الإبل، فقد كان يحلب ألبانها فى موسم الحج ويمزج لبنها بالعسل، ويمزج ماء زمزم بالزبيب، يقدمه للحجاج ليشربوا منه ويرتووا. وعندما توفى عبد المطلب بن مناف، انتقلت مهمة سقاية الحج إلى ابنه الأصغر عباس «رضى الله عنه».

وعندما انتفت الحاجة إلى سقاية الحجاج على النحو السالف لوجود ماء زمزم، كان عباس يجفف عنب الحدائق التى اشتراها فى الطائف ويمزج ماء زمزم بالزبيب، ويقدمه للحجاج وذلك اقتفاء لأثر والده.

ولما كان القيام بمهمة سقاية الحج فى زمن الهادى الذى منح النضارة لقلوب الناس القاحلة بماء حياة الإسلام، موكلة إلى عباس بن عبد المطلب بن هاشم، فقد تفضل النبى ﷺ بإلقاء هذه المهمة فى يده بإسنادها إليه رضى الله عنه.

مسألة:

ـ هل يجوز سحب السقاية من بنى عباس؟

والجواب: لا يجوز لأنها أسندت إليهم من قبل نبينا صاحب الشريعة عليه أجمل التحية وإذا كان إسناد خدمة السقاية المستقلة فى ظل نور الإسلام حقه أن يسند إلى أبى طالب بن عبد المطلب، فإنه كما سنوضح فيما بعد، فإن أبا طالب عندما استبدت به الحاجة، اقترض مبلغا من المال من سيدنا عباس ولما لم يستطع سداد هذا المال، ترك سقاية الحج المسندة إليه عن طيب خاطر وتبرع بها إلى عباس بن عبد المطلب تسوية للدين.

وعندما كان عباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ على قيد الحياة، كان يتولى بنفسه متابعة مهام سقاية الحجيج، وبعد وفاته انتقلت هذه الخدمة المقدسة إلى أولاده وأحفاده ثم إلى خلفاء بغداد، وفى النهاية انتقلت إلى يد أبناء الزبير ابن العوام.

لاحقة:

فى أثناء خلافة وليد بن عبد الملك عين خالد بن عبد الله القسرى واليا على مكة، وبناء على رأيه المجانب للصواب أصدر الأوامر بأن يحفر بئرًا فى كل من «ذى طوى» و«حجون» وذلك ليخفف عن الناس أزمة المياه[1].

وبما أن مياه هذه الآبار التى تم حفرها كانت أعذب من مياه بقية الآبار، فقد

(١) فيما يتعلق بانتقال السقاية إلى الزبيرانظر ما جاء فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

سعد أهل مكة من حفر هذه الآبار واعتادوا على شرب مياهها دون أن يشربوا من مياه الآبار الأخرى.

وعندما رأى خالد بن عبد الله ميل الأهالى وتعلقهم بمياه هذه الآبار صعد المنبر على الفور وقال: «أيها الناس من الأعظم، الخليفة الذى تم اختياره وعين لإدارة شئون الأهالى أم الرسول الذى بعثه الله، فمن الممكن ألا تعرفوا عظمة الخليفة بينما سقى خليل الله إبراهيم ـ عليه التحية والتعظيم ـ ملح أجاج قد سقى خليفتكم ماء عذب فرات.

وبهذا كان يريد أن يفضل مياه هذه الآبار على ماء زمزم الشريف وأمر بصنع حوض من الجلد المدبوغ فى الحرم الشريف، وأن يملأ بماء هذه الآبار التى حفروها، وكأنه كان يريد أن يشير إلى أن مياه هذه الآبار أفضل من ماء زمزم الشريف.

والحال أنه بعد فترة انقطع ماء الآبار المذكورة تماما وانطمست الآبار ولا يوجد الآن من يعرف مكان هذه الآبار.

اللواء:

هو اسم مهمة فى الجاهلية مشهورة بين القبائل باسم اللواء.

وإن كانت هذه المهمة مقصورة على رجال أسرة بنى أمية، إلا أن ألوية قبائل قريش المسماة (العقاب) كانت مع حامل اللواء الذى يتولى المهمة المذكورة.

ومن جملة عادات الجاهلية أنه إذا استدعى الأمر تعبئة الجنود وتوجيههم إلى مكان ما، كان الشخص الذى يتباهى بالقيام بهذه المهمة يعقد مجلس الحرب. ويغرس الراية المذكورة حيث يشاء فيحتشد حولها أبطال قريش وكانت تعلن الحرب بغرس اللواء المذكور فى المكان الذى حدده عاقد اللواء عند وقوع الحرب ويجتمع الرجال المسلحون عند اللواء المذكور ويتم توجيههم إلى المكان الذى ستدور فيه الحرب.

وقد ظهر لواء الإسلام السعيد أثناء تولى أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس مهمة حمل لواء قريش.

وقد انتقلت مهمة حمل اللواء بعد قصى بن كلاب إلى أبيه عبد الدار وعندما توفى انتقلت إلى أولاده وأحفاده. وظلت فى حوزة أكثر أفراد هذه الأسرة نفوذا حتى زمن غزوة أحد الجليلة، أيا من كان هذا الشخص، لكن جميع أفراد هذه الأسرة قتلوا جميعا فى الغزوة المذكورة.

الندوة.معناها الاجتماع:

وكانت الندوة تطلق على المجلس الذي يجتمع فى دار الندوة[1] التى بناها قصى بن كلاب فى الجاهلية. وكانت القرارات التى تصدر عن هيئة هذا المجلس تلقى قبولا حسنا بين القبائل بدون النظر إلى هذه القرارات هل هى صحيحة أم خاطئة، حسنة أم قبيحة؟

وبما أن المسائل الهامة المتعلقة بأهالى مكة المعظمة كان يتم بحثها فى هذا المجلس حتى إعطاء الإذن بزواج البنات كان يصدر من الهيئة المجتمعة فى دار الندوة، لذا كان ممنوعا منعا باتا أن يحضر الاجتماع فى دار الندوة من لم يبلغ العقد الرابع من عمره أى لم يبلغ أربعين سنة من عمره من رجال القبائل باستثناء أبناء قصى بن كلاب.

وكانت إدارة الهيئة المذكورة مسندة إلى أحد أصحاب النفوذ من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب رئيسا وعدد محدود من الأعضاء.

ولما كانت رئاسة هيئة دار الندوة موكلة إلى يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فقد أذن سيدنا محمد النبى رئيس مجالس الأنبياء أن يستمر يزيد فى أداءه مهمته بادئا بالبسملة فى اتخاذ الإجراءات الشرعية.

السفارة:

تم إنشاء هذه الوظيفة لإصلاح ذات البين، فإذا وقع نزاع بين أى قبيلتين أو جرى شجار أو نزاع بين رجلين، فإن الشخص القائم بمهمة السفارة يقوم مقام الحد الفصل فى القضية. وحكمه وقراره الذى يصدره لا يرد مهما كان القرار. وبذلك ينتهى النزاع.

(١) يطلق عليه أيضا منصب مشورة الأمور.

وكان منصب السفارة حكرا على أسرة بنى عدى بن كعب وعندما آل منصب السفارة إلى سيدنا عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب رضى الله عنه تولاه بنفسه وقد حان الوقت السعيد الذى ظهر فيه الذى أظهر المعجزات فى حل أصعب المشكلات ـ ﷺ.

النظارة:

كانت وظيفة مثل إدارة الرسوم فإذا نقلت أحمال أو أثقال أو البضائع من مكان إلى آخر، كان من الأصول المرعية فى الجاهلية أخذ رخصة حمولتها أو موقعة من الموظف الذى يتولى مهمة النظارة.

وقد بُعِثَ النبى ﷺ وأبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ لنظارة قبائل بنى تيم، يتولى هذه المهمة.

صاحب القبة ومعناه ناصب الخيمة:

وكانت هذه الوظيفة وظيفة متواضعة فالذى يكلف بها كان ينصب خيمة لعظماء قريش.

إذا ما حدث شىء يشغل قريشا أو يحزنها أو إذا أيد بعث حملة عسكرية إلى جهة ما أو إذا اقتضى الأمر المشورة فى حادث مهم فكان صاحب القبة بحكم وظيفته ينصب خيمة فيجتمع فيها زعماء قريش يديرون الأقداح ويتشاورون.

ولما ثبت النبى ـ ﷺ ـ روح خيمة الإيمان كان هذا المنصب فى بنى مخزوم بن نقيط بن مرة وكان خالد بن الوليد بن المغيرة يتباهى ويفتخر بمنصب نصب الخيمة هذا.

الأزلام:

جمع زلم يطلق على سهام القرعة، كان العرب فى الجاهلية يقتسمون أموالهم بالسهام التى تسمى «الأزلام» ويتفاءلون بها.

وكانت وظيفة استخدام السهام وحفظها وظيفة مهمة إلى حد ما، لذا كانت لاتسند إلى أى شخص. وكل من يريد القيام بعمل ما كان يرجع إلى هذا الموظف ليعرف وجه الخير أو الشر. فى هذا الأمر وكانوا يعملون برأى هذا الموظف بعد إجراء القرعة.

طريقة التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام:

كان يؤتى بالسهمين ويوضعان فى جراب وقد كتب على واحد منهما كلمة «أمر» وعلى الآخر كلمة «نهى» ثم يكلف الشخص الذى يريد أن يتفاءل أن يخرج سهما من الجراب اعتباطا. وكان يلزم العمل بما كتب على السهم الذى أخرجه.

وكان يحتكر هذه الوظيفة بنو جمح بن عمرو بن كعب ويديرونها، وكان أفراد القبائل الأخرى يحبذون طريقتهم فى إجراء القرعة ويرضون بها.

وقد بعث خاتم الأنبياء ـ عليه صلوات الله الرحمن ـ وصفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يتولى هذه العملية.

قرعة العرب فى الجاهلية

إن وظيفة التفاؤل بالأزلام كانت وظيفة مهمة عند العرب وكانوا يتفاءلون بثلاثة سهام؛ إلا أن العرب فى الجاهلية كانوا يقومون بإجراء أنواع أخرى من القرعة، وإنهم كانوا يلعبون القمار بالسهام فى شكل غريب.

من أشهر أنواع القمار عندهم كانت القرعة التى تسحب بالأزلام الكائنة عند «هبل» وكان يجمع بين هذه السهام وسهام الطالع وهو الذى كان يطلق عليه الميسر.

لأن العرب فى الجاهلية كانوا يحتفظون بجانب «هبل» صنمهم الكبير بسبعة سهام، وعند اللزوم كانوا يقترعون بهذه السهام ويعملون بموجبها.

وكان مسطورا على كل سهم من السهام كلمات مختلفة مثل: «دية المقتول» أو

«نعم الأمر» أو «لا» أو «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فإذا ما اختلف فى دية المقتول كانت تجرى القرعة بين أسماء المظنونين وبين سهم «دية المقتول» وكان الشخص الذى تصيبه «دية المقتول» يضطر لدفع الدية.

وكان أهل الجاهلية يقترعون بسهام «نعم ولا» فإذا ظهر سهم «نعم» يحكمون أن هذا العمل خير وعند ظهور «لا» يحكمون بأنه شر، وفى الحالة الأولى يمضون رأسا فى عملهم، وفى الحالة الثانية يؤجلون العمل سنة أخرى، ويجددون القرعة لنفس العمل.

إذا ما شك فى نسب شخص ما كانوا يقترعون بسهام «منكم ـ من غيركم ـ ملصق»، فإذا أصابت قرعة منكم، فيكرمون ذلك الشخص ويعزونه ويسعدونه، فإذا أصابت القرعة «من غيركم» يعتقدون أن القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الشخص فى حلف معهم، أما إذا أصابت القرعة «ملصق» يحكمون بأن ذلك الشخص مجهول النسب، وإنهم يثقون ثقة تامة فى نتائج الاقتراع بتلك السهام.

وإذا أرادوا أن يحفروا بئرا أو أن يكشفوا عن منبع ماء كان يكتب على السهم كلمة «مياه» وكانوا يقترعون به لتعيين محل الحفر أو الكشف.

وإذا أرادوا أن يختنوا طفلا أو أن يزوجوا بنتا أو يدفنوا ميتا كانوا يقترعون كما ذكرناه من قبل، ويعملون بموجب تلك القرعة.

إن الاقتراع بتلك النيات لم يكن يجرى فى أى مكان بل كان يجرى أمام هبل المنصوب داخل الكعبة، ويقوم به خادم ذلك الصنم.

وكان على الشخص الذى يرغب فى إجراء القرعة إعطاء خادم هبل مائة درهم وعدة رءوس من الإبل أو الغنم أو حيوانات أخرى، لتذبح قربانا، ثم يتجه إلى هبل قائلا: إن فلان بن فلان قد اشتبه فى نسبه، أو نريد أن نختنه ـ أو نزوجها ـ فدلنا على الحقيقة ووجهنا إلى ما يجب عمله.

وبعد ما يلهج بمثل هذه الكلمات يذكر الأمر الذى من أجله يريد أن يجرى القرعة، ويتضرع لهبل طالبا منه أن يظهر الحق والصواب فيما هو مقدم عليه،

وبعدما يذبح الحيوانات التى جلبها معه ويوزعها على الفقراء ثم يشير بإجراء القرعة، وهذه من جملة شروط القرعة ومن هنا كان على الذين يريدون إجراء القرعة أن يوفروا مقدارا من النقود، وأن يعدوا بعض الحيوانات ليقدموها لخادم هبل الذى يذبح الحيوانات ويوزع لحمها للفقراء، ثم يأمر بإجراء القرعة وكانوا يعملون بما جاء فى القرعة.

ولا يقتصر مكان إجراء القرعة على هبل بل يجوز لأى واحد من أهل الجاهلية إجراء القرعة فى أى مكان كان، وهذا نوع من أنواع قراءة الطالع، وكانت هذه القرعة تتم ـ أيضا ـ باستقسام الأزلام وقطع الخشب سالفة الذكر.

وكان يطلق سواء على قطع الخشب التى بجانب هبل أو قطع الخشب التى فى حوزة الناس أزلام ـ أقلام ـ أقداح. وإذا ما ترجمناها إلى اللغة التركية فمعناها سهام، إن الأخشاب التى يستعملها قارئ الطالع ثلاث قطع كتب على أحدها «أمرنى ربى» وعلى الثانية «نهانى ربى» وترك الثالث بدون كتابة أو إشارة. وكان قارئ الطالع فى الجاهلية يباشر عمله؛ ليبين للذين يلجأون إليه طالبين حكم الأزلام فيما يقدمون عليه من عمل، فيقوم بخلط الأسهم الثلاثة ثم يضعها فى جراب ويختار أحد الأشخاص الذين يثق فيه أصحاب الشأن، ويطلب منه أن يدخل يده فى الجراب ويخرج السهام واحدا تلو الآخر، ويقرأ ما كتب عليها ويبين حكم القرعة.

وكان لابد أن يعتقد أهل الجاهلية إذا أصابت القرعة كلمة «أمرنى ربى» أن هذا العمل خير وإذا أصابت القرعة السهم الذى يكتب عليه «نهانى ربى» أن هذا الفعل شر، وإذا أصابت القرعة السهم الخالى من الكتابة كانت إعادة إجراء القرعة بعد مرور سنة من الضرورات الدينية.

وبناء على هذا فالذين يريدون القيام بعمل ما ويريدون أن يعرفوا وجه الخير أو الشر فى هذا العمل، يلجأون إلى قراءة الطالع ويجرون القرعة بثلاثة أسهم يضعونها فى جراب بعد أن يخلطوها، ثم يكلفون أحد الذين يثق بهم صاحب

الشأن فى حسن طويته ويجعلونه يمد يده داخل الجراب، ويخرج السهام واحدًا واحدًا وينظرون على المسطور فوق السهام وينطقون ببعض الكلمات يبينون إذا ما كان فعل هذا الأمر خيرا فيمضون فى فعله أو شرا يمتنعون عنه.

ومن جملة شروط إجراء القرعة أن يلف الرجل الذى يدخل يده فى الجراب قطعة من الجلد المدبوغ الناعم حول يده تسمى ريانة والغرض من هذا ألا يحس الرجل بعلامة ما على السهم فيخرجه ويجامل الأشخاص الذين يحبهم ويخرج لهم ما يريدون من السهام.

وكانت مهمة الرجل الذى يقوم بإجراء القرعة بالأزلام مهمة رسمية يقوم بحل الخلافات التى تحدث بين الحكومة والقبائل، ويفصل بينهما بينما يقوم الآخر بالفصل فى الخلافات التى تحصل بين الأفراد بعضهم بعضا ومن هنا كان يختلف كل منهما عن الآخر.

وذهب بعض المؤرخين فيما نقلوه من روايات، أن الاستقسام بالأزلام هو إنه عند ما يهم إنسان بالقيام بعمل مهم يأخذ معه ثلاثة سهام أو سبعة منها ويضعها فوق الحجارة التى نصبت حول المسجد الحرام والتى يقال لها نصب[1] ويستمد من هذه الحجارة المعونة فى تحقق تلك الأعمال، ويذبحون لها قرابين طلبا لرضاها.

لعب القمار فى الجاهلية

كان الناس فى الجاهلية يلعبون القمار بضم وجمع عشرة سهام واسم هذه اللعبة «ميسر» وهذا بناء على تدقيق علماء التفسير العظام ـ رحمهم الله العلى ـ وأخبارهم، وإطلاق لفظ ميسر لهذه اللعبة، لأنه يمكن كسب المال بيسر وسهولة فيها.

وكان يجتمع عدة من أغنياء الجاهلية ويشترون بالدين كثيرا من الجمال على أن تدفع أثمانها فيما بعد ويذبحون هذه الإبل ويقسمون لحومها ثمانية وعشرين جزءا

(١) ومن الروايات الموثوقة أن هذه النصب كانت أصناما وكان عندها ثلاثمائة وستين قطعة.

ثم يقسمون هذه الأجزاء على عشرة سهام وهذه السهام هى ١ـ فذ ٢ـ توام ٣ـ رقيب ٤ـ حلس ٥ـ نافس ٦ـ مسبل ٧ـ معلى ٨ـ منيح ٩ـ سقيح ١٠ـ وغد.

وبناء على أصول لعبة الميسر يجعل ويفرز لكل سهم أنصبة معينة وتترك بعضها من غير نصيب وكان لفذ نصيب واحد وللتوأم نصيبان وللرقيب ثلاثة أنصبة ولحلس أربعة ولنافس خمسة ولمسبل ستة ولمعلى سبعة وتترك سهام منيح وسقيح وغد بدون أنصبة.

ويذبح المقامرون الأغنياء هذه الإبل ويقسمونها أنصبة حسب حصص الأسهم المذكورة، ويضعون كل نصيب فى مكان معين ثم يضعون السهام فى جراب أو إناء بعد أن يخصص لكل مشترك جرابا باسمه، ثم يسحبون بواسطة رجل موثوق سهما من جراب كل مشترك ويعطون نصيب كل واحد منهم حسب ما جاء فى السهم.

والشخص الذى أصابه سهم من السهام التى لا نصيب لها لا يأخذ شيئا من لحوم الإبل ولكنه يجبر على دفع نصيبه من ثمن الإبل.

وبعد سحب القرعة وجمع نقود الإبل وتوزيعها وتسليمها إلى أصحابها، يقوم كل واحد منهم بتوزيع كل اللحم الذى كسبه على الفقراء مباهيا مفتخرا.

وكانوا يذمون الذين لا يشتركون فى اللعبة ويصفونهم بالبخل والتقتير، بل وينشدون قصائد الهجاء فى ذمهم. «انتهى»

خازن الآلات والأموال:

هذه الوظيفة عبارة عن نظارة الخزانة[1] العامة وكانت الأموال والأسلحة التى تدخر للحرب توضع تحت عهدة هذا الموظف، وظهرت شوكة الإسلام حينما كانت هذه الوظيفة فى عهدة حارث بن قيس بن عدى بن سهم من بنى سهم بن عمرو بن هصيص، ورفعت حجب الكفر والظلام عن الأنظار.

رفادة:

على وزن إفادة وتأتى بمعنى المسئول عن نفقات أصحاب الحرف وكانت وظيفة هامة وذات مكانة وقد ابتدعها قصى بن كلاب بن مرة.

(١) يطلق عليها بيت المال أيضًا.

وكانت قريش بناء على تصويب ابن كلاب وترتيبه تجمع مقدارا من النقود وتشترى بها التمر والزبيب والحبوب وتقدمه تحية لقوافل الحجاج فى مواسم الحج.

وكان فقراء الحجاج حتى زمن قصى بن كلاب يعانون من مشكلة كبيرة، لهذا فكر ابن كلاب بينه وبين نفسه فى سبيل لحل هذه المشكلة وقرر ترتيب هذه الرفادة.

إذ جمع رجال قبيلته يوما وقال لهم يا معشر قريش إنكم تسكنون حول كعبة الله وتتميزون بلقب سكان أهل البيت، وتتمتعون بالإقامة داخل حدود بلد الله، لذا فأنتم مدينون بإطعام الحجاج الذين يأتون استجابة لدعوة الله.

ولكى تظهروا للضيوف القادمين مظاهر الاحترام على الشكل اللائق بهم، عليكم أن تسارعوا فى مد موائد المآدب لفقراء الحجاج فى كل عام أما إقامة هذه المآدب فيكون بتخصيص مقدارا من المال سنويا وإعطائه إلى وكيل الصرف ليشترى به البضائع اللازمة لإطعام الحجاج. وبما أنه كان نافذ الكلمة بين القبائل العربية فقد استحسن اقتراحه وهكذا وضع نظام الرفادة الشامل النفع وبناء على ذلك أخذت قريش تجمع فيما بينها النفقات اللازمة لهذا الغرض، وكأنها ضرائب مفروضة، وتسلمها لابن كلاب، وهو بدوره يتولى توفير البضائع اللازمة لإطعام فقراء الحجاج فى مواسم الحج وهكذا برزت مظاهر كرمه واحترامه للحجاج.

وقد بعث النبى ﷺ ونظام الرفادة فى يد الحارث بن عامر بن عبد مناف.

وقد أطعم الحجاج فى السنة التاسعة الهجرية بواسطة أبى بكر الصديق وقد أطعم الحجاج فى حجة الوداع بلا واسطة.

وقد قام سادتنا الخلفاء الراشدين بمراسم الرفادة على الوجه الأكمل فى سنوات خلافتهم.

إن نظام الرفادة أو عادة إطعام الفقراء من الحجاج قد انتقلت إلى الخلفاء العباسيين وإلى سلاطين البلاد الإسلامية وكانت تتم بواسطة ولاة ولاية الحجاز الجليلة فى سوق منى فى مواسم الحج.

حكى المرحوم تقى الفاسى من مؤرخى مكة المكرمة ومن الذين شاهدوا رأىَ العين إقامة سماط الرفادة وكتب فى كتابه «تاريخ مكة» وقال: كانت الرفادة فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وأوائل الدول الإسلامية من الأصول المقررة والمرعية وقد رأيت أنا أيضا إقامة موائد الرفادة. كان الطعام الذى سيقدم إلى فقراء الحجاج يطبخ فى صحراء منى السعيدة ويطعم الحجاج إلى نهاية الحج، وذلك بناء على أوامر السلاطين وقد ألغى هذا النظام فيما بعد ولكننى لا أعرف تاريخ إلغائه ولا أتذكر فى عهد مَنْ مِنَ الحكام قد ألغى.

وظلت عادة الرفادة ملغاة إلى يومنا هذا إلا أن القائمين بإمارة مكة يقومون بتوزيع مختلف أنواع الأغذية ومقدار كاف من اللحوم على جنود السلطان وخاصة الحجاج الفقراء الموجودين فى منى منذ عودتهم من المزدلفة حتى يوم توجههم إلى مكة المكرمة.

وفى الليلة الثانية للعودة من المزدلفة تقام احتفالات كبيرة أمام خيام شريف مكة ووالى الحجاز ويتم إطلاق الألعاب النارية خارج خيام المحمل الشامى والمصرى ليبعث الفرح والسرور فى قلوب الحجاج ذوى الابتهاج بمشاهدة هذه المناظر. وفى اليوم الأول من عيد الفطر يقوم شريف مكة كرما منه بمد سماط المآدب الرفيعة إلى رجال الأهالى وموظفى الدولة الموجودين وقد بلغت هذه المآدب من الفخامة ما يفوق الوصف.

وقد حضرت مأدبة سنة ١٢٨٩. قد مدت مائدة يطلق عليها «السماط» فى غرفة مستطيلة وتزينت بكل ما يمكن توفيره من أنواع الأطعمة اللذيذة والفواكه النادرة وقد جلس حولها أمير مكة ووالى المدينة والضيوف.

وكانت المائدة ترتفع عن الأرض مقدار قدم ونصف قدم وكان طولها ٣٩ قدما وكان عرضها تسعة أقدام.

وترك للمدعوين حرية اختيار الطعام الذى يرغبون فى تناوله حسب الأصول وبالتالى كان كل شخص حرا فى القيام أو الجلوس وفق رأيه.

وقد استمر إطعام الضيوف إلى المساء إلا أن حضرة الشريف لم يمكث إلى نهاية الطعام بجانب المائدة.

وقد تم إطعام الضيوف جماعَة بعد جماعة ثم أكرم الضيوف بحضور الأمير بتقديم فنجان قهوة لهم.

وفى هذا اليوم الذى بسط فيه السماط لم يبق إنسان فى مكة إلا وأكل وشبع من هذه النعم، وبما أن هذه الضيافة تقام كل سنة من قبل شريف مكة فإن ما يصرف فيها يساوى ما كان ينفق من أجل الرفادة.

إن كل لقمة مما أعد لإطعام الناس تفوق من حيث الفخامة ما كان يقدم فى العصور السابقة عدة مرات ومع هذا فإن ما يقدم من طعام فى سماط مكة وما يقدم لجنود السلطنة والفقراء من اللحوم والأغذية فى منى لا يوافق أصول الرفادة لأن الأصول المرعية فى الرفادة إطعام الحجاج وبدون استثناء. ويجب ألا تقتصر هذه الضيافة على إطعام الفرقة العسكرية وبعض الفقراء.

ولكننا لو تذكرنا أن عدد الحجاج الواقفين على جبل الرحمة كانوا قلة قليلة فى العصر الجاهلى وكان ما يقدم لهم فى أثناء ضيافتهم التمر والزبيب فإن القيام بمثل هذا العمل غير ممكن فى عصرنا هذا.

فعدد الحجاج فى عصرنا الراهن تجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة ألف، ومأدبة الرفادة من تمر وزبيب قد تحولت إلى أطعمة متنوعة ولحوم مطبوخة لذا فإن القيام بهذا العمل حسب أصول الرفادة فى العصر الجاهلى يكاد يكون مستحيلاً وغير قابل للتنفيذ.

وبما أن مأدبة الضيافة التى أقيمت من جانب الإمارة السنية قد عمت المعايدة الرسمية وكانت سببا فى اختلاط الفقراء مع الأغنياء والوجهاء والأشراف فحسناتها زادت مرات ومرات على أصول الرفادة ونظامها.

شكل السماط

أصول المعايدة: يبدأ أهالى مكة المكرمة مع حلول مواسم الأعياد فى تحسين صلتهم بعضهم مع البعض، وبهذا يجددون علاقات المودة والإخاء فيما بينهم.

ومن العادات القديمة المرعية أن أهل مكة المكرمة يقسمون أيام عيد الفطر، بحيث يكون الاحتفال به فى أحد الأحياء إذ يعلن أصحاب الشأن أن العيد اليوم فى حى فلان ويستقبل أعيان وعظماء هذا الحى فلان وفلان وفلان زوارهم فى منازلهم. وفى هذا اليوم يتفق الأعيان والعظماء والأغنياء فيما بينهم ويحددون الشخص الذى سيستقبل الزوار للمعايدة. لذا يسرع سكان الأحياء الأخرى إلى الحى الذى سيحتفل فيه بالعيد.

كما أن سكان هذا الحى يذهبون فى اليوم التالى إلى بيوت أعيان الحى وأثريائهم وهكذا يسرعون فى أداء مراسم المعايدة المتبعة. إن سكان مكة المكرمة يهتمون بهذه العادة ويرعونها أعظم الرعاية حتى إنه لا يبقى فى مكة أفراد صغارا كانوا أو كبارا إلا لقى بعضهم بعضا ويدعون لهم بالخير.

وتشمل هذه المعايدة، أصحاب القبور من الموتى، لذا يذهب الرجال ثم النساء فى اليوم الأول من عيد الفطر الشريف للمعايدة ويظلون هناك إلى وقت الزوال فى مقبرة المعلى وسائر المقابر حيث يزورون أقاربهم ويتلون بعض السور القرآنية ثم يعودون إلى منازلهم.

ومما لاشك فيه أن هذا الأمر من السنن السنية الحسنة إلا أنه قد أسئ استغلال هذه العادة إذ أصبح اختلاط الرجال بالنساء فى المقابر حكم عادة وبما أن هذه العادة ستؤدى إلى الاختلاط والفساد فمن الواجب منع اختلاط الرجال بالنساء هناك. انتهى.

إن طريقة المعايدة الحسنة التى ذكرناها من العادات المتبعة فى بعض بلاد الأناضول والروملى.

إننى قد حضرت العيد فى بعض ولايات الأناضول وكذلك فى ولايات الروملى كما حضرت مراسم العيد فى مكة المعظمة، إذ إن المعايدة فى تلك الولايات لا تطابق تماما المعايدة فى مكة المكرمة[1].

(١) لا يحتفل بعيد الأضحى بهذه الصورة لأن الأهالى فى أيام عيد الأضحى يتواجدون فى عرفات ومنى يؤدون الشعائر.

ولما كان أهالى كل قرية فى تلك الولايات يذهبون إلى القرى الأخرى يتزاورون للمعايدة فيمكن أن نعتبر ذلك مُشَابهًا لأصول معايدة مكة المكرمة.

القيادة:

تعنى إمارة الجيش وهى عبارة عن قيادة الجيش فى الحرب والقتال.

إن هذه المناصب كانت خاصة بقريش لذا فإنها تتفوق على القبائل الأخرى بهذا المنصب وتفتخر به.

لما أسند ابن كلاب مهام الحجابة والسقاية واللواء والرفادة الهامة إلى ابنه عبد مناف وهو مازال على قيد الحياة فكأنه اختاره وليا للعهد.

وأسند إلى ابنه الكبير عبد الدار مهمة إدارة دار الندوة لتسوية نزاعات قريش.

وقد أوصى عبد مناف بإدارة حجابة البيت واللواء والسقاية والرفادة بموافقة بقية أخوته وخاطب عبد الدار قائلا « يا بنى إننى أجعلك رئيسا على القبيلة، حيث لا يستطيع أى إنسان من أشراف القبائل أن يدخل كعبة الله طالما لم تفتح لهم بابها، ولا يستطيع إنسان أن يعقد لواء الحرب دونك، واللواء المزمع عقده يجب أن يكون فى يدك بلا منازع ولا يستطيع إنسان فى مكة أن يشرب من ماء زمزم إلا إذا سقيته أنت ولا يستطيع إنسان أن يأكل طعاما فى موسم الحج إلا إذا أكل من طعامك. ولا يبت فى أمر من أمور قريش الهامة إلا إذا تم الحكم بذلك فى بيتك.

اختلاف قريش:

بعد وفاة «قصى بن كلاب» أدار أبناؤه بموجب وصيته لعبد الدار حكومة مكة متفقين، ولكن فيما بعد ظهر بينهم الخلاف، فإن بنى عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس وعبد المطلب ونوفل تباحثوا عن شرفهم وفضلهم وفكروا فى انتزاع مناصب الحجابة والسقاية واللواء والرفادة من أيدى بنى عبد الدار فدبت بينهم الخصومة، وتباهوا وقالوا: إنهم أجدر وأحق منهم بالقيام بهذه الخدمة الجليلة وادعوا أنهم الأفضل والأشرف - فى كل الجوانب - من أبناء عمهم عبد الدار، وأخذوا يتحرشون ببعضهم باستمرار، وفى النهاية اتفقوا على أن يحال الفصل فى النزاع الدائر بينهم إلى زعماء القبائل للحكم فيه.

أما زعماء القبائل فقد اختلفوا فى أمر هذا النزاع إذ التزمت جماعة منهم جانب بنى عبد الدار حتى لا يخالفوا وصية قصى بن كلاب، والتزم البعض الآخر جانب بنى عبد مناف تحكمهم فى ذلك بعض المصالح العصرية.

وعندما ظهر هذا النزاع كان صاحب النفوذ فى أبناء عبد الدار هو عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أما صاحب الكلمة النافذة والأمر فى أبناء عبد مناف فهو عبد شمس بن عبد مناف.

وبعد مناقشات ومجادلات ومحاورات بين رجال القبائل المختلفة التى التزمت جانبا من الجانبين، قرروا إسناد مناصب السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف وتظل إدارة دار الندوة فى يد بنى عبد الدار وهكذا أسكتوا الجانبين وألزموهما بهذا الاتفاق وأجبروا الطرفين على توقيع معاهدة بهذا الأمر.

وبناء على هذا الاتفاق أعطيت مهمة السقاية والرفادة إلى أبناء بنى هاشم بن عبد مناف وبقية المناصب إلى بنى عبد الدار وقد أظهر كلا الطرفين رضاهما وموافقتهما على هذا الحكم، إلى أن توصلوا إلى هذا الحكم والنتيجة كانت ست بطون من قريش قد اتفقت وتعاهدت على أن تحمى بنى عبد الدار من غدر بنى عبد مناف وأطلق على هؤلاء أحلاف قريش وهذه البطون الست هى: بنو عبد الدار وبنو عمرو بن هصيص بن كعب وبنو جمح عمرو بن هصيص ابن كعب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو عدى بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر. وقد سعى كل هؤلاء على أن يصطحبوا أحد أبناء عبد الدار وأن يكونوا عونا ونصرا لهم حتى لا يهزموا أمام بنى عبد مناف.

واتفقت قبائل بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة ابن كلاب وبنى تيم بن مرة بن كعب، مع أبناء عبد شمس بن عبد مناف أما قبائل عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فقد بقيت على الحياد ووقفوا موقف المتفرج انتظارا لما سينتهى إليه الأمر.

وأقسمت كل جماعة من الجماعات المتفقة على ألا يتخلوا أو ألا يتراجعوا عما أقسموا واتفقوا عليه.

وعقب ذلك أحضرت نساء عبد مناف إناءًا مملوءًا بالطيب الرطب، وتركته أمام الجماعة الموجودة عند كعبة الله وتبعا لعادة الجاهلية غمس رجال الجماعة المتفقة أيديهم فى هذا الإناء ومسحوا أيديهم الملطخة بالطيب على جدران الكعبة المشرفة تأكيدا لقسمهم وأقسموا مرة أخرى على المحافظة على القرار الذى اتخذوه.

وكان قصدهم من هذا أن يؤكد كل فريق منهم للآخر ثباته على هذا فأقسم بشأن ذلك القرار المتفق عليه.

وعلى الرغم من حمل الفريقين المتفقين أسلحتهم بعد هذا القسم واستعدادهم للحرب، إلا أن زعماء القبائل قرروا فيما بينهم التوسط بين أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف وأسفر هذا التوسط عن إجبارهم على قبول ما تم الاتفاق عليه. فانطفأت نار الحرب والقتال التى كادت أن تنشب بينهم بماء الصلح المقترح. وبهذه الصورة تم الحفاظ على الاتفاق الذى تم التوصل إليه حتى عصر النبوة. انتهى.

وكان لعبد مناف ابنان آخران غير عبد المطلب، ونوفل وهما عبد شمس وهاشم، وكان لكليهما نصيب فى مناصب الرفادة والسقاية بناء على قرار القبائل الست. وكان عبد شمس شديد الفقر مع كثرة العيال وكان أخوه هاشم من الأغنياء، ولما كانت إدارة السقاية والرفادة من الأمور المرتبطة بالمال والثراء فقد أسندت كل منها إلى هاشم، فتولى مهمتهما وفق هذا القرار.

واسم هاشم الأصلى هو عمرو، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه هو الذى ابتدع طعام الثريد فى مكة المكرمة.

وهاشم هذا هو الذى ابتدع تسيير القوافل إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا للتجارة، وسارت قريش على نهجه فيما بعد لأن قريشًا وإن كانت تشتغل بالتجارة قبل ذلك إلا أن تجارتهم كانت مقصورة على أطراف مكة فقط.

وحدث فى أثناء سفره إلى الشام أن علم القيصر حاكم الشام بأمر شرفه وحسبه وعلو قدره بين قومه فاستدعاه وأظهر له الشىء الكثير من الاحترام والاهتمام، وفى خلال حديثه معه ألمح له أنهم يأتون بأمتعة الحجاز واليمن إلى الشام فى الصيف ولما كان هذا الأمر يتطلب رخصة تتضمن عهدا بالأمان فأعطاه

القيصر حاكم الشام هذه الرخصة رعاية لمكانته بين قومه وسمح له بأن يتردد رجال قريش على الشام للتجارة.

وبعد فترة قصيرة حصل أخوه عبد شمس من حاكم الحبشة على رخصة مماثلة ومطلب من حكام اليمن.

وكذلك حصل نوفل من حكام بلاد فارس على رخصة مماثلة وهكذا عودوا قريش على التجارة مع هذه البلاد، وكان هذا نوع من الأصول والعقبات التى أزلها قصى عن طريق الإجازة.

وكانت قريش التى تسكن مكة ـ آنذاك ـ آمنة من غارات لصوص البدو الذين يغيرون على القبائل التى تسكن حول مكة لأنهم ينهبونها.

وكان الشعار الذى ترفعه قريش أمام اللصوص قولهم: نحن سكان حرم الله وأهل بيت الله الحرام، إلا أن هذا الشعار كان يفيد عندما يتجرءون على دخول مكة المكرمة، لذا كانوا لا يتجرءون على الابتعاد عن مكة كثيرا وفيما بعد استطاعت قريش تحت حماية وظل أبناء عبد مناف أن تتمتع باستيراد البضائع وتصديرها إلى كل مكان.

وقد أحسن هاشم بن عبد مناف القيام بأداء المهام التى أسندت إليه بموجب قرار القبائل الست وذهب إلى الشام لغرض التجارة وفى أثناء وجوده فى ولاية غزة[1] انتقل إلى رحمة الله فانتقلت مناصب السقاية والرفادة التى كانت مسندة إليه إلى أخيه عبد المطلب أعظم وأكبر شخصية فى قريش حينئذ.

وبعد وفاة هاشم بفترة قصيرة مات أخوه عبد المطلب فى مكة ومات أخوه نوفل بن عبد مناف فى أثناء رحلة فى العراق وبذلك انتقلت أعباء إدارة المنصبين الجليلين إلى عبد المطلب جد النبى ـ ﷺ ـ وولده عبد الله.

بلغ عبد المطلب من الشرف والجاه ما لم يبلغه آباؤه وأجداده ونال محبة الناس، ولم يكن له من أبناء سوى الحارث ولهذا كنى بأبى الحارث.

وذات يوم قال ابن عمه عدى بن نوفل بن عبد مناف ليس لك أبناء سوى

(١) اسم بلد مشهور فى أرض فلسطين.

الحارث فإنك إذا تصورت أن تتولى رئاسة قبائل قريش لفترة طويلة، فهذا الأمل واه وعبث بالنسبة لك. أما نحن فأبناؤنا وأتباعنا كثيرون، وسيئول لنا ـ ذات يوم ـ زمام الرئاسة وهو أمر غنى عن التعريف أو التذكير به.

فأجابه عبد المطلب: أتخيفنى بسبب قلة أولادى؟ إن شاء الله سيكون لى من الأبناء عشرة، وعندئذ أذبح أحدهم قربانا عند الكعبة ابتغاء مرضاة الله[1].

وحسب حكمة الله، فبعد فترة نال عبد المطلب ما تمناه وبلغ عدد أبنائه عشرة كاملة وعندئذ جال بخاطره ما نذر وأقلقه هذا الخاطر طويلا وأطال التفكر فى هذا الموضوع ثم قرر أن يستدعى أبنائه ويشرح لهم الأمر وأخذ موافقتهم واحدا بعد الآخر، ورأى أن يكتب أسماءهم كل على حدة على عشرة سهام من سهام القرعة، ثم أخذ هذه السهام، واصطحب أبناءه عند الصنم الكبير المسمى هبل داخل كعبة الله. وضرب القرعة لاستكشاف الطالع حسب العادة المتبعة فى الجاهلية، وخرجت القرعة باسم عبد الله والد النبى ـ ﷺ ـ وأحب أولاده إليه وأفضلهم، ولم يأت هذا التفضيل والحب البشرى من الفراغ لأنه رأى فى المنام عدة مرات ما يبشر بأن هذا الابن سيكون له شأن كما رأى فى ولده هذا أشياء خارقة تدل على أنه سيكون والدا للجوهر النادر لسيد البشر، ونتيجة لكل هذا فإنه كان يفضل ابنه ويقدمه على إخوته، ويأمل بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سينجيه من الذبح ونروى واحدة من الخوارق التى جعلت عبد المطلب يأمل أن يكون ابنه أبا سيد البشر.

أفشى عبد الله ـ ذات يوم ـ سرًا لأبيه حيث قال: يا والدى العظيم، إننى متى أخرج من مكة وأصعد جبل ثبير وحيثما أجلس، يظهر فى ظهرى شعاعان من نور لامع يتجه أحدهما وينتشر ناحية الشرق وينتشر الآخر ناحية الغرب، وبعد فترة يتجمعان مثل السحاب الممطر الذى يسطع ويعلو نحو السماء ثم يعودان إلى ظهرى مرة أخرى، ويتم كل هذا فى لحظة واحدة، كما أننى أسمع فى الأماكن التى أجلس فيها هاتفًا يقول: السلام عليك أيها المستودع فى ظهره نور محمد

(١) جرى هذا الحوار أثناء قيام عبد المطلب بحفر بئر زمزم، وتفصيل هذه الواقعة مدون فى الصورة الخامسة من الوجهة الأولى أى فى قصة زمزم.

ﷺ، وإذا جلست تحت شجرة جافة، إذا بها تخضر وتكتسب نضرة وعندما أبرح المكان تعود الشجرة متلفة الساق إلى حالتها الأولى.

وهكذا كان ينقل لوالده ما رأى من الخوارق بعين بصيرته وبصره فقال له أبوه: يا بنى إننى أبشرك وأهنئك بحملك النور المحمدى، وقد بشرت بهذا عدة مرات وكل الرؤى التى رأيتها قبلك ـ تدل على أنه سيولد من صلبك الشريف من سيزين القماط.

والواقع أنه كلما كان يتقرب من اللات والعزى وهى من أكابر أصنام قريش كانا يخاطبان عبد الله بصوت مشابه لصوته قائلين: أنت لا تحفل بنا ولا تعبدنا! إن النور الذى سيضئ الدنيا قريبا ذلك النور الذى فى ظهرك هو نور محمد عليه سلام الله الأحد، وإن صاحب هذا النور سيحطمنا كما سيحطم كل الأصنام ويقضى علينا جميعا.

ولدلالة الأسباب الظاهرة السابق ذكرها أحب عبد المطلب ابنه عبد الله أكثر من بقية إخوته ولأجل ذلك كان يخاف عليه حتى من هبوب الرياح ومع ذلك كان يثق أيضا فى السهام التى بجانب هبل عند إجراء القرعة بالقدح[1].

وبناء على ذلك عندما أصابت القرعة اسم عبد الله وقضت بذبحه راح الأب فى بحر عميق من التفكير، وبعد ما أفاق من تفكيره قال: ما العمل؟ هكذا قدر الله ثم أخذ والد النبى ذا المكانة العالية إلى جوار الصنم الذى أطلقت عليه قريش اسم إساف[2] وأرقده على الأرض. وبمجرد أن علم عباس الأخ الأكبر لعبد الله بما ينوى الأبُ لأخيه أسرع إليه، وأدركه وسحب أخاه من تحت يدى والده عبد المطلب. وفى أثناء هذا جرح عبد الله فى وجهه، وظل أثر هذا الجرح ظاهرا إلى أن توفى.

(١) القدح يطلق على السهم الذى بلا ريش. ويطلق على السهم السابع فى الميسر القدح المعلى، ونصيب هذا السهم عند أهل الجاهلية يفوق أنصبة السهام الأخرى، وكان أهل الجاهلية يلعبون القمار بهذه السهام ويتفاءلون بها، ومن يريد معرفة مزيد من المعلومات حول كيفية لعب الميسر أو كيفية التفاؤل بها يمكن أن يتفضل بالرجوع إلى البحث الخاص بإجراء القرعة عند العرب.

(٢) كان هذا الصنم من قبل بجوار بئر زمزم.

مطالعة:

إن انتزاع حضرة العباس أخاه عبد الله من تحت قدمى عبد المطلب يقتضى أن يكون العباس أكبر من عبد الله، وهذا من سهو الرواة لأنه وفقا للروايات الصحيحة أن عبد الله أكبر من أخيه العباس.

حيث إن عبد المطلب تزوج من هالة أم ابنه حمزة ـ رضى الله عنه ـ بعد أن وفى بنذره، وبناء على هذا أن حمزة رضى الله عنه وأخاه العباس ـ من الأم ـ رضى الله عنه لم يكونا قد ولدا بعد حينما قرر عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله[1].

وبناء على هذا يلزم أن يكون عبد الله أصغر أبناء أمه وليس أصغر أخوته جميعا.

ورغم أن ابن إسحاق قد أخطأ فى تأويل قول المرحوم البكائى الذى يعتبر من الأئمة الثقاة، وذهب إلى ما يخالف الرواية السابقة، فإن بعض أهل السير ردوا وخرجوا ما ذهب إليه ابن إسحاق، وقالوا إن حمزة ـ رضى الله عنه ـ أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة ـ رضى الله عنهم جميعا ـ وأيدوا رأيهم بما قاله العباس: عند مولد خاتم الأنبياء ـ عليه وعليهم التحية ـ كنت قد بلغت الثالثة من عمرى، وعندما شاهدت وجهه المنير المبارك قالت لى النساء قبل وجه أخيك، فتشرفت بتقبيل وجهه الكريم.

وقول سيدنا العباس هذا لم يترك أى شك فى أنه أصغر من عبد الله بن عبد المطلب، ولهذا فإن قول المرحوم الإمام البكائى يحمل على أن عبد الله كان أصغر أبناء أمه عندما حمل للذبح.

ورغم أنه لا حاجة إلى إطالة القول لإثبات هذا الأمر فما لاشك فيه أن سيدنا حمزة وأخاه العباس ـ رضى الله عنهما ـ قد ولدا بعد الوفاء بالنذر. وهو أمر ثابت بدلالة الروايات الصحيحة، حيث إن عدد أبناء عبد المطلب كان اثنى عشر. انتهى.

(١) هذه الرواية تؤكد صحة ادعاء الرواة من أن أبناء عبد المطلب كانوا اثنى عشر ابنا.

ولما كان الموقف الصعب الذى بدر من عبد المطلب قد أثار قلق قريش، واضطربوا وتوترت نفوسهم وقالوا: نحن غير راضين من هذا الأمر، وعلينا أن نبحث عن حل حتى لا يصبح ما يريد أن يقوم به عبد المطلب عادة متبعة بيننا.

لذا استفسروا رأى الكاهنة سجاح[1] العاقلة والتى تقيم فى بلاد خيبر. وسجاح هذه كانت كاهنة لها صلة بطائفة الجن وفق اعتقاد أهل الجاهلية وتستعين بهم؛ ولهذا فقد فهمت ما فى ضمير مبعوثى قريش، وقالت لهم سأسأل الطائفة التى أتبعها فى هذا الأمر وسأخبركم بالجواب الذى سأتلقاه منها.

ورجع رجل قريش إلى محل إقامتهم وقد اعتراهم اليأس ثم رجعوا إلى سجاح مرة ثانية فى اليوم التالى.

وقد سألتهم سجاح فى هذه المرة قائلة: ما مقدار الرجل عندكم؟ فأجابوا عشر من الإبل، فقالت لهم: أحضروا عشرا من الإبل واضربوا القداح على اسم عبد الله، وعلى اسمها فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ورجع وفد قريش إلى موطنهم.

تعريف الكهانة

كهنة: جمع كلمة كاهن وتعنى المشتغل بمعرفة الفأل أو الطالع.

كان من عادات أهل الجاهلية العمل وفق ما يقوله الكهنة وكان الكهنة يزعمون أنهم على صلة بالشياطين، ويستقون منهم الأخبار المتنوعة ويخبرون بها من يلجأ إليهم. وقد ادعى بعض الكهنة أنهم يستخدمون خدما من طائفة الجن وأنهم يتلقون منها أخبار الغيب.

ولكن الآية الكريمة حسمت هذا الموضوع عندما أخبرتنا ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (النمل: ٦٥) بمعنى أن الجن لا يمكنهم أن

(١) يروى كذلك أن اسمها قطية.

يطلعوا على الغيب ومن هنا كانت ادعاءات الكهنة فى هذا الأمر كاذبة ولا أساس لها.

ومن الكهنة الذين نالوا شهرة كبيرة بين كهان الجاهلية: سطيح ـ خطر ـ سجاح.

والذين اطلعوا على أحوال الكهنة فى الجاهلية أخبروا أن الكهانة أنواع مختلفة.

فمنهم من يأتى بسبع قطع من الحجارة، ويضع على كل واحدة منها علامة ويطلق عليها اسما ويأخذ هذه القطع فى قبضة ثم يحركها ويتمتم ببعض الكلمات الخاصة به، ثم يفتح قبضته وينظر إلى أوضاع الحجارة، ثم يحكم إن كان ما يريده خيرا أم شرا[1].

ومن أنواع الكهانة أيضا الزجر، العرافة، الطيرة وهى تختلف من حيث الإجراء.

العرافة:

مثلا معناها الإخبار عن الغيب بواسطة الجن بالنظر إلى الأشياء الشفافة والبراقة، **كالنظر** إلى كوب من الماء أو إلى قرص الشمس أو إلى الزجاج أو البللور، حيث يرون فيها الجن ويستقون منها الأخبار، وإن هذه الصنعة مازالت موجودة فى أيامنا، ويكسب المشتغلون بالخرافات أموالا طائلة.

الزجر والطيرة:

استقاء الأخبار عن كيفية طيران الطيور، وعن أصواتها والاستدلال بها على وقوع الأمر.

كان أهل الجاهلية عندما يسافرون أو يخرجون لرحلة صيد أو قنص يتفاءلون من ظهور ثور وحشى من جانبهم الأيمن، ويحملونه على أنه خير لهم، وإذا ما

(١) هذا النوع من قراءة الطالع أو الكهانة نوع من أنواع الكهانة التى عرفناها فى موضوع الأزلام.

ظهر هذا الحيوان من الجانب الأيسر يتشاءمون منه، ويعتقدون أنه شر محض. وكانوا يراقبون محط الغربان ويتأملون صورة هبوطها على الأرض وكيفية صياحها. وإذا ما تحركت الغربان وفق ما يزعمون أنه خير يفرحون، ويبتهجون أما إذا لم تحط الغربان فى الأماكن التى يريدون أن تحط فيها أو إذا لم يَصِحْ كما يريدون تشاءموا من طيرانها وتحركاتها وهبوطها هنا وهناك ويغضبون ويطردونها من محطها بإلقاء الحجارة عليها.

وقد ظهر كهنة قبل البعثة المحمدية وأخبروا بنبوة محمد - ﷺ - وصدقوا واعترفوا بهذه النبوة.

حكاية:

مروية عن حضرة لهيب بن مالك[1] إذ قال: كان لقبيلتنا كاهن من أعلم كهنتها يدعى خطر فى ٣٨٠ من عمره، وعلى رواية تاريخ خميس فى ١٨٠ سنة من عمره.

وقد اجتمعنا عنده يوما وقلنا له يا خطر أخبرنا بأشياء بواسطة علم النجوم وسنعمل وفق ما تنبئنا به وقال إذا ما أتيتم غدا سأخبركم عن الخير والشر، وفى اليوم التالى ذهبنا إليه مجتمعين فى الفجر. فوجدناه فى هذه المرة واقفا منتصف القامة وقد فتح عينيه من الحيرة والدهشة، وركزهما نحو السماء فكأنه فى حالة الاحتضار.

ولما رأيناه واقفا ساكنا لا يحرك رموش عينيه اعتقدنا أنه قد مات، وناديناه قائلين: خطر، وأخيرا أشار لنا أن نمسكه من جانبيه فأمسكناه. وبعد مدة سقط من السماء كوكب كبير كأنه طائر يحط على الأرض بخفة.

حينئذ صاح خطر صيحة عالية وأخذ يتحدث بشدة وجد قائلا: أصابه وجع عظيم قد عجز عن الإتيان بالأخبار، وقد تشتت أفكاره المضطربة قد عاودته المشقة والصعوبة إلام ستنتهى حالته قد انقطعت حبال من كانوا يسترقون السمع وقد حزن.

وبعدما وقف هادئا ساكنا فترة توجه نحونا وقال: يا أولاد بنى قحطان

(١) إن هذا الشخص من الأصحاب الكرام ومن قبيلة أزد التى تنتهى إلى لهب وقبيلة أزد من سكان اليمن.

سأخبركم بالحق والحقيقة أقسم بالكعبة الشريفة ذات الأركان الأربعة. أقسم بالبلدة المباركة التى يسكنها المؤمنون قد منع المستمعون من الجن عجزوا عن الاستماع إلى الأخبار؛ وذلك بسبب بعثة نبى ذا شأن ورفعة وكأنه فى لمعانه نجم ثاقب، وقد بعث للإنس والجن. إن هذا النبى السعيد قد بعث مؤيدا بالفرقان والقرآن وأبطل عبادة الأوثان. وقد حدثنا بعبارات مسجعة ما يفيد المعانى السابقة وهكذا تركنا فى ذهول وخبره بهذه الأقوال.

وقلنا لخطر يا خطر إننا لنأسف على كهانتك إنك لتخبرنا بشىء عجيب... والمنتظر منك أن ترحم قومك الذين يتبعونك وتراعى جانبهم. فأجاب خطر إننى أحب قومى أكثر من نفسى لذلك سأدفعهم إلى تبعية نبى عظيم الشأن هو أعظم الأنبياء جميعا وأفضلهم ودليل عظمته ظاهر مثل شعاع الشمس، وقد بعث فى مكة ويدعو إلى أداء صلوات خمس وإنه تنزل عليه من قبل الله آيات بينات.

فاستوضحوا الأمر قائلين: يا خطر من هذا الشخص النبيل الذى تعرفه وتصفه لنا؟ فتحدث خطر قائلا: إنه ينتمى إلى قبيلة قريش السعيدة، ويعيش بين أفرادها لا خفة فى حلمه، وأنه لا يظهر بعض كلامه ويخفى الآخر وخلقه خال من الفساد والخلل، وإن ذاته الشريفة السعيدة تنتمى إلى آل قحطان وآل ديش بن الهون، وينتهى نسبه إلى قبيلة خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقد أجاب خطر على تساؤلاتنا التى طلبنا فيها أن يبين لنا القبيلة التى ينتمى إليها من قبائل قريش، قال إنه من آل هاشم بن عبد مناف، ومن أكارم أهل مكة المعظمة وقد بعث لغزو المشركين وقتل الملحدين، وأضاف خطر قائلا بما أن هذا الكلام أخبر به رئيس الجان نفسه فهو صحيح تماما، وغاب عن الوعى قائلا الله أكبر قد ظهر الحق وانقطعت ألاعيب الجن وأفاق بعد ثلاثة أيام.

وقبل الإسلام إذ قال لا إله إلا الله وأغرانا وحثنا على قبول الدين المحمدى المبين. وقد قص لهيب بن مالك هذه الحكاية الغريبة بالتفصيل على أحبائه، ثم عرض ما جرى على نبى الإنس والجان ـ عليه وعلى آله صلوات الله المنان ـ فتفضل نبينا صادق القول قائلا: «سبحان الله قد نطق صدقا إن هذا الشخص سيبعث يوم القيامة أمة وحده»[1].

(١) الخبر فى ترجمة لهيب فى الإصابة ٩/٦ - ١٠.

وقد ثبت من هذه الحكاية إلى درجة ما شأن قراءة الطالع فى الجاهلية، وأحوالهم فى مد الناس بالأخبار واسترق الشياطين السمع لمعرفة الأخبار من السماء.

وفى الواقع أن مردة الشياطين كانوا يسترقون السمع فى السماء لمعرفة الأحداث إلى زمن ولادة عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ ويلقون بالأخبار إلى قلوب الكهنة. وقد انقطعت ثلث الأخبار التى تأتى بواسطة استراق الشياطين السمع فى السماء فى زمن عيسى ـ عليه السلام ـ وانقطع ثلثاها الباقيان بولادة نبينا الذى بعث رحمة للعالمين وهكذا لم يبق أثر من استراق السمع، ولم يبق مجال لأخبار الكهنة.

وقد عرف عبد المطلب بالطريقة التى أوجدت بها سجاح فى إجراء القرعة، واتبع عبد المطلب الطريقة كأنها دستور مكتوب، وضرب القرعة فخرجت تسع مرات واحدة تلو الأخرى على عبد الله وأصابت فى المرة العاشرة اسم الإبل، ولما كان عدد الإبل الذى تجرى عليه القرعة قد بلغ المائة ناقة قالت قريش: يا عبد المطلب إذا ذبحت هذه النوق المائة قربانا تكون قد أوفيت بنذرك، وأديت حق الله وأخبروه بما وصفت به سجاح.

ولكن عبد المطلب لم يلق سمعا إلى قول سجاح ولا إلى أقوال قريش، وقال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات فضرب فخرج القدح على الإبل فى المرات الثلاث.

ولما رأى عبد المطلب ذلك قام فذبح مائة من الإبل ووزع لحمها على أهل مكة طلبا لرضاء الله، وأفهم الناس أن دية الرجل بين العرب ستكون مائة من الإبل بمقتضى ما حدث.

قد ظل حكم عبد المطلب هذا مرعيا إلى ظهور نور النبوة، وقد أبقى صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ هذا الحكم نافذا بحيث تكون دية الرجل مائة من الإبل.

فى تفصيل كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الثامنة

قد حدث هذا التعمير والبناء بعد بناء إبراهيم عليه السلام بـ (٢٤١٩) سنة، أو على رواية أخرى بعد (١٧٠٣) سنة.

وكان بانى بناء الشريعة ـ عليه السلام ـ فى ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد، وكان بيت العزة الذى بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ قائما بعينه.

وقال المؤرخون متبعين الإمام مجاهد: إن هذا الحادث كان قبل البعثة النبوية بخمسة عشر عاما، والذين اتبعوا[1] ابن إسحاق قالوا إن البناء كان قبل البعثة النبوية بخمس سنوات[2].

ـ فتوى:

قد أدرجنا صورة من فتوى رضا أفندى والذى يؤيد قول ابن إسحاق فى هذا الموضع لما عهدنا فى فتواه من صراحة متبركا بها.

ـ صورة الفتوى الشريفة:

إذا تفرق أهالى حى أحد المساجد وخلا من المصلين فهل يجوز لورثة الواقف أن يمتلكوه؟

الجواب: لا يجوز ذلك.

لأن الكعبة المعظمة فى فترة الخلو من الرسل ـ امتلأت أطرافها بالأصنام

(١) ابن إسحاق هو التابعى المشهور صاحب المغازى والسير وبحر العلوم والخبر محمد بن إسحاق بن أبى بكر، وقد تلاقى بالإمام على وأسامة ومغيرة بن شعبة وتوفى سنة ١٥١هـ.

(٢) ورأى ابن إسحاق أيضا ـ بلوغ النبى ﷺ ـ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد.

وخربت، فلم تنتقل إلى ورثة آخرين. وعلى هذا من بانى الكعبة المشرفة وواقفها؟

الجواب: إن الكعبة الشريفة شرفها الله، قد جدد بناءها خمس مرات إلى الآن، كما أنها عمرت بتجديد حوائطها.

أولا: بناها الملائكة بأمر الله ـ سبحانه وتعالى.

ثانيا: بناها حضرة إبراهيم عليه السلام.

ثالثا: قد بنيت فى الجاهلية على ستة أعمدة بعد هدمها وإخراج حجر إسماعيل من البيت من قريش.

وكان النبى ـ ﷺ ـ فى الخامسة والثلاثين من عمره السعيد. واشترك فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود فى مكانه بيديه الشريفتين.

وفى **المرة الرابعة** بناها عبد الله بن الزبير إذ احترقت الكعبة فى «عهد يزيد اللئيم» ـ فهدمها عبد الله وبناها وفق رسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى أساسه وأدخل حجر إسماعيل داخل البيت وفى **المرة الخامسة** جدد بناءها فى ٧٤ هجرية إذ اقتلع بناء ابن الزبير وأعيدت إلى سابق عهدها بأن أخرج حجر إسماعيل من الكعبة الشريفة، وفى سنة ألف وتسع وثلاثين وفى عهد السلطان مراد الرابع قد جددت جدرانها وعمرت بيد قاضى مكة المكرمة السيد محمد الأنقروى. وقد صرح فى صدر الشريعة أن واقف البيت هو حضرة إبراهيم ـ عليه السلام.

إخطار:

لم يذكر المرحوم رضا أفندى فى فتواه بناء وتعمير البيت فى عهد آدم عليه السلام وأولاده وعهود العمالقة والجراهمة وقصى بن كلاب، لأنه تفادى التطويل فى الكلام وإلا فمن المحقق أن البيت الشريف قد جدد إحدى عشرة مرة.

وقال الشيخ محمد صالح فى كتابه البليغ «سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد» وهو يتحدث عن تجديد البيت المعظم للمرة الثامنة: بينما كانت سيدة من

سيدات قريش تبخر داخل كعبة الله المملوءة بالفيض الإلهى ومعها مجمرة خاصة، فجأة احترق ملبسها بشرارة انتشرت من المجمرة. وسرت النار التى حرقت ملبسها إلى جدران الكعبة وستائرها وسقفها فأحرقت جدران الكعبة وخربت حوائطها ثم حدث سيل عظيم، وهدم السد الذى أقيم أمام ممر السيل ومجراه وخربه، واتجه نحو داخل كعبة الله وأضرت المياه أسس الجدران السهلة الانهيار.

وقرر زعماء قريش بعد هذا الحادث الأليم أن يجددوا بيت الله[1] مسقفا وأن يراعوا فى صنع باب معلا لبيت الله المعظم يراعى فيه والمتانة والعلو عن الأرض مقدرين ما قد يحدث من السيول وألا يسمحوا بالدخول فى داخل كعبة الله لكل من هب ودب وأخذوا يجتمعون من حين لآخر لمذاكرة هذه الأمور إلا أن الاجتماعات كانت تنفض دون أن يعلنوا ما وصلوا إليه من نتائج وذلك لعدم وجود الأشياء اللازمة لتعمير البيت ولضيق ذات أيديهم.

وفى أثناء ذلك عرفوا أن سفينة كبيرة قد جنحت أمام جدة، وأنها تحمل كثيرا من الأخشاب وأنواع الرخام واللوازم الحديدية الأخرى. كما عرفوا أن ربان السفينة بارع فى فن العمارة والبناء لذا بعثوا بوليد بن المغيرة ومعه بعض النجارين البارعين فى حرفتهم حتى يطلعوا على صلاحية الأشياء المذكورة للبناء.

واستطاع الوليد بن المغيرة أن يقابل الربان سالف الذكر ويشترى منه حمولة السفينة بثمن بخس ثم فاتحه فى أن هذه الأشياء من أجل بناء كعبة الله المقدسة وأنها ستستعمل فى أعمال البناء والعمارة. وهكذا حمل معه الأشياء المشتراة وفى رفقته الربان المذكور ووصل إلى مكة.

وبناء على ما ينقله المؤرخون فإن هذه السفينة كانت قد حملت من قبل قيصر الروم وأرسلت لبناء وتعمير كنيسة فى الحبشة أحرقتها قبيلة قريش أو أحرقتها طائفة من بلاد الفرس، وعين ربانها للقيام بترميم وتعمير خرائب الكنيسة.

(١) حتى ذلك الوقت لم يكن هناك سقف للكعبة المعظمة ومن ثم كانت الهدايا الثمينة المحفوظة فى خزينة بيت الله تتعرض للسرقة.

وبناء على الحكمة القائلة «إذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه» فالسفينة قد تعرضت لعاصفة شديدة وجنحت على اليابسة فى مياه جدة وهكذا وقعت فى يد العربان لتكون سببا فى عمارة كعبة الله.

ولما وصل الربان المذكور إلى مكة المكرمة تفقد مع نجار من أصل قبطى كلفته قريش بمصاحبته فى بناء الكعبة المعظمة، وابتدئ فى هدم بناء البيت الشريف حتى يستطيع أن يسقفه وتخلى الأهالى عن فكرتهم فى عدم السماح بهدم البيت.

ـ ظهور حية كبيرة فوق الكعبة:

من الأحداث الغريبة أن حية عظيمة الجثة صعدت فوق مخزن الهدايا الذى حفره سيدنا إبراهيم، وكانت الحية تصعد فوق جدران كعبة الله وتظل هناك منحنية الرأس للشمس، والذين يرون هذه الحية يخافون من شكلها المرعب ويعتقدون أنها من حراس البيت.

وكان جسم الحية لامعا متلألأ ترسل أشعة إلى الأطراف كألسنة النار، وكانت تخيف من يحاول الاقتراب منها بفتح فمها المخيف وإخراج أصوات مفزعة.

وكانت الحية بيضاء الجسم وكان رأسها فى حجم جدى وزيلها أسود كسواد الغراب وكانت كبيرة الحجم مهيبة المنظر، وكانت تمنع الخونة والمتسلطين عند الاقتراب من الكعبة المعظمة.

وفى يوم من الأيام حينما كانت الحية فوق جدران الكعبة كعادتها ظهر طائر جسمه أكبر من العقاب، وانقض على هذه الحية الضخمة وأخذها بين براثنه وطار بها إلى ناحية الشرق وتركها فوق جبل «حجون».

والمؤرخون الذين قصوا سبب ظهور هذه الحية قالوا: إن المخزن الذى حفره إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسماه (أخسف) ليحفظ فيها الهدايا التى قد ترد من أنحاء مختلفة لبيت الله الأعظم لم يكن للكعبة فى ذلك الوقت سقف وكانوا يقدمون الهدايا إلى كعبة الله من الذهب والمجوهرات المرصعة وأشياء قيمة وكانت هذه طريقتهم فى التقرب من الله وإظهار الود لإبراهيم عليه السلام.

وبعد مضى الوقت امتلأ المخزن وجوف الكعبة المنير بالهدايا مما دفع بعض السفلة من الناس إلى مد يدهم لسرقة أشياء من هدايا الكعبة عندما كانت تسنح لهم الفرصة وعندما ضبط بعضهم متلبسين بالسرقة قطعت أيديهم ليكونوا عبرة للآخرين. وسقط بعضهم وهلكوا وهم يمدون أيديهم ليسرقوا الأشياء المحفوظة.

بينما ضل أقوام الجراهمة فى مكة المعظمة ورفضوا الاستماع إلى نصائح «مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض» مقتدين بشقى يسمى «مجدع» اتبع أحد التعساء إغواء نفسه ونزل فى داخل الخزانة المذكورة ليسرق الأشياء المحفوظة فيها ولحكمة ما انهارت جهات الخزينة الأربعة فجأة وهلك الشقى تحت الأنقاض.

وفى **رواية أخرى** أن الشخص الذى دخل كعبة الله كان معه أربعة من رفقائه وأن كل واحد منهم وقف فى ركن من أركان البيت المحترم وحملوه على أكتافهم وأنزلوه فى داخل كعبة الله وكان غرضهم أن يسرقوا الأشياء الثمينة التى فى داخل الكعبة، بأن يناول كل واحد منهم الآخر الأشياء المسروقة إلا أن الشخص الذى رفع إلى أعلى جدران الكعبة زلقت رجله ووقع على أرض المطاف ومات، أما رفقاؤه فهربوا حتى لا يقعوا فى أيدى السلطة.

وبناء على ذلك خلقت تلك الحية التى سبق ذكرها وظلت تحرس وتحفظ خزينة كعبة الله ما يقرب من خمسمائة سنة وكانت تتراءى فوق جدران الكعبة كما سبق توضيحه وتثير الخوف والدهشة فى الأطراف.

وحينما رأى أهل مكة هلاك الحية بهذه الصورة اعتبروا هذا إيذانا من قبل الله بعمارة الكعبة وسروا بذلك وابتدروا فى هدم بنائها.

وبينما كان القرشيون مشغولين بهدم الجدران ضرب أبو وهب عمرو بن عائذ بن مخزوم ـ خال والد مجدد بنيان الشريعة رصينة الأركان عليه أقوى التحية ـ على حجارة بفأسه وأخذ قطعة منها.

إلا أن تلك القطعة طارت من يد عائذ وعادت إلى مكانها القديم، وقال عائذ لعظماء قبيلته وقد اهتز وخاف من وثوب قطعة الحجر طائرة من يده إلى مكانها

القديم قائلا: يا معشر قريش يجب أن نتجنب إعمار البيت من مال الربا والفواحش والأموال المشكوك فيها والتى جمعت بالظلم ويجب أن نحرص فى بناء بيت الله على إنفاق المال الحلال.

وأراد بهذا أن يبين لأهل مكة أن إعمار بيت الله يجب أن يتم بالمال الحلال، وبناء على هذا جمع أهل مكة للمرة الثانية ما استطاعوا جمعه من المال الحلال، وسلموه إلى اللجنة التى تشكلت للاهتمام ببناء وتجديد بيت الله.

ولكن مع هذا لم يكونوا واثقين من مدى حِلّيّة النقود التى جمعوها أول مرة والتى أنفقت فى سبيل تجديد بيت الله، لذا خافوا من نزول المصيبة بهم إذا شرعوا فى هدم بيت الله وترددوا كثيرا، وفى النهاية خاطبهم وليد بن المغيرة قائلا: يا قبائل قريش إذا كنتم فعلا تنوون إصلاح كعبة الله فالله لا يهلك المصلحين. ثم أخذ فأسًا وأخذ يهدم بمفرده جدران بيت الله. ومع ذلك لم يتجرأ أحد من قريش على المشاركة فى هدم البيت وظلوا ينتظرون ما سوف يحل وليد، ولما رأوا أن وليد قد نجا من أى ضرر اتفقوا جميعا على هدم البناء وفى ختام الهدم اقتسموا بناء البيت، بناء على رأى عائذ وتعهد بنو عبد مناف مع بنى زهرة ببناء الجهة التى يوجد فيها باب الكعبة العالى كما تعهد بنو مخزوم وبنو تميم وبعض القرشيين ببناء ما بين الركنين الشرقى واليمانى[1] وبنو عبد الدار بن قصى وبنو أسد ابن عبد العزى بن قصى وبنو عدى بن كعب بن لؤى الجهة التى فيها الميزاب الذهبى، وبنو جمح مع بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى جهة ظهر الكعبة، وشغل بعضهم بنقل الحجارة من جبل الكعبة[2] وحرص الآخرون على هدم البناء.

ولما هدموا جدران البناء المقدس بحثا عن الأساس الإبراهيمى ظهر حجر

(١) قد بنى هذا الركن غلام سعيد بن العاص الذى يسمى باقوم، ولما كان المذكور من أقباط اليمن المهرة فى فن العمارة لذا أطلق على هذا الركن الركن اليمانى.

(٢) جبل الكعبة فى حي الشبيكة بقرب مدفن الشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، وفى مكان مقابل لجبل أجياد. وكلما يقتضى الأمر تعمير كعبة الله وترميمها تؤخذ الحجارة اللازمة لها من هذا الجبل.

أخضر كعلامة[1] للأساس القديم، ولما أرادوا أن ينتزعوا ذلك الحجر الأخضر برقت نار عظيمة[2] هزت أرض مكة، فخافوا من تعميق الأساس أكثر من ذلك، وبنوا أسس الجدران فوق ذلك الحجر الأخضر، ووجدوا تحت الحجر الأسود الكائن فى الركن الشرقى ورقة كتب عليها باللغة السريانية، وبحثوا عن واحد من طائفة اليهود ليقرأها.

وكان مفاد تلك الورقة الآتى:

أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر وحفظتها[3] بسبعة أفلاك[4] حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى الماء واللبن.

يقول البعض أن ورقة أخرى وجدت فى مقام إبراهيم وقد كتبت عليها الآية الكريمة: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

والعبارة البديعة الآتية: مكة بيت الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحل لها رجل من أهلها.

وأيد هذا المعنى الشامل ما قاله النبى ـ ﷺ ـ فى يوم فتح مكة بما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حرم مكة المكرمة فلا يجوز لأحد من قبلى ولا من بعدى أن يحلها إلا أنها قد أحلت لى ساعة من نهار.

ولما ارتفعت جدران كعبة الله من جوانبها الأربعة وحان وقت وضع الحجر الأسود فى مكانه ظهر نزاع شديد بين القبائل، وصاح أفراد كل قبيلة قائلين نحن سنضع الحجر الأسود فى مكانه، وأخذ النزاع صورا مختلفة من الحوار والمناقشة

(١) أن الحجارة التى أسس بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ الكعبة خضراء اللون مثل الزمرد ولمعته وفى شكل وحجم سنام الجمل.

(٢) إن هذه الشعلة قد برقت من تحت الحجر الأخضر المسمى حجر إسماعيل، وقد اهتزت من شدة اشتعالها جميع بيوت مكة المكرمة.

(٣) كتب فى نسخة أخرى «حفظتها».

(٤) سقطت كلمة أفلاك فى نسخة أخرى.

والمشاجرة حتى أطلق على قبائل (بنى عبد الدار، بنى عدى، بنى مخزوم، بنى سهم، بنى جمح) لقب لعقة الدم.

واستمر الخصام بين القبائل فى هذه المشكلة خمسة أيام، ولكن أبا أمية بن المغيرة[1] وكان أكبر المعمرين فى قريش كلها ومن حكماء قومه، جمع عقلاء القبائل واقترح عليهم بأن يحكموا فى هذا الموضوع أول الداخلين من باب الصفا وعلى قول من باب بنى شيبة، فى وقت محدد يعينونه ووافق على هذا الاقتراح عقلاء القبائل.

وقد حاز هذا الاقتراح حسن القبول لدى القبائل الأخرى أيضا، وحدد الميعاد وجلس القوم وعيونهم صوب الباب ينتظرون، وكان أول من دخل فخر العالم وسبب راحة الأمم ﷺ.

وفرح المترصدون بقدوم سلطان الرسل الموسوم باليمن ورطبوا ألسنتهم بذكره إذ قالوا هذا محمد الأمين رضينا به ثم قالوا له: إننا أقسمنا على أن يكون أول الداخلين حكما لفض النزاع بين القبائل، وبما أنك كنت أول الداخلين سنقبل رأيك الخاص لحل هذا الخلاف. وبهذه الطريقة نقلوا للذات النبوية العالية خلاصة ما حدث بين القبائل.

وبما أن الرسول ـ ﷺ ـ كان معروفا بين القبائل بالصدق والاستقامة كانت قريش تحيل إليه حل ما عجزوا عن حله من القضايا.

ولما استقر منشأ النزاع فى ضمير النبى ـ ﷺ ـ وفهمه جيدا وضع الحجر الأسود فى داخل ثوب[2] وجعل رؤساء القبائل الأربع العظيمة يمسك كلا ركنا من أركانه وهم:

عتبة بن ربيعة، زمعة أبو حذيفة بن المغيرة، وقيس ابن عدى ثم حمل الحجر

(١) وكان أبو أمية مشهورا بين قومه بفرط الكرم والجود حتى أنه كان يكفى زاد أصحابه فى الرحلات، لذا أطلق عليه لقب زاد الركب.

(٢) يروى عن ثقة أن هذا الثوب كان جبة الرسول ﷺ.

الشريف ووضعه فوق الثوب فرفعوه جميعا حتى إذا بلغ موضعه وضعه بيده الشريفة، وهكذا أرضى صناديد القبائل وأسكنهم.

وكانت قريش عندما شرعت فى هدم كعبة الله أخرجت الصنم الكبير هبل من خزانة بيت الله حيث كان ركزه عمرو بن لحى ابن قمعة، ونقله إلى مكان قريب من مقام إبراهيم ونصبته هناك وفى أثناء إتمام عمليات البناء نقلوا هبل من حيث كان منصوبا إلى مكانه القديم فى الخزانة التى فى داخل بيت الله، ونصبوه هناك ثم أخذوا يرسمون فوق جدران الكعبة المعظمة فى الداخل والخارج صورا كبيرة، وكان بينها صور الأنبياء العظام والملائكة الكرام.

إن فاتح أقاليم الرسالة عليه أقوى التحية قد محا وأزال ما كان منصوبا فى داخل الكعبة أو خارجها من الأصنام والأوثان، وما كان على جدرانها من الصور كلها يوم الفتح الميمون، وأمر بإزالة صورتى إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ اللتين كانتا مرسومتين فوق طلاء الكعبة فى الداخل.

وكان المشار إليهما مصورين وهما يمسكان فى أيديهما أزلام الميسر. ولما كان النبى ـ ﷺ ـ يعرف أن إبراهيم وابنه إسماعيل لا يمارسان الميسر، دعا على قريش التى صورتهما بهذا الشكل إذ قال «قاتلهم الله». ثم أمر بأن يوضع هبل وهو عبارة عن حجر كبير ـ خارج باب السلام.

ويروى أن أجزاءه المنكسرة أصبحت موطأ القدم فى عتبة باب السلام.

إننى قد رأيت هذه العتبة ودست عليها. ولم يبق له ما يشبه الصورة أو الوجه لذا أتردد فى قبول هذه الرواية؛ لأن الصنم المسمى بـ «هبل» كان منحوتا من العقيق الأحمر كما سبق ذكره فى بحث كيفية دخول الأصنام فى أرض الحجاز، وكانت يده اليمنى مقطوعة عندما أحضره عمرو بن لحى من أرض الشام لذا ركب له أهل مكة يدا من ذهب خالص.

صور الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة

كان علماء عبدة الأصنام يهتمون بصنع تماثيل الأنبياء على أكمل وجه

ويحفظونها ويتوارثونها جيلا بعد جيل. ويعتقدون أن هذه الصور تطابق أشكال وشمائل الأنبياء تمام المطابقة.

وبناء على زعم هؤلاء العلماء واعتقادهم أن الصور الموجودة فى خزائنهم قد حصل عليها النبى دانيال بواسطة ذى القرنين ورسم وصور كل واحدة منها على حدة.

قد وجد ذو القرنين هذه الصور فى مغارة من أرض المغرب، ثم صرها بخرقة[1] حريرية ثم حفظها، وانتقلت تلك الصرة إلى يد النبى دانيال ـ عليه سلام الله المتعال ـ فنقل صور الأنبياء إلى ألواح متعددة فتكاثر عددها.

وقد يصدق ـ إلى درجة ما ـ تطابق الصور القديمة التى توارثها الملوك، صور الأنبياء وشمائلهم، إلا أن الصور التى رسمها القرشيون على طلاء داخل بيت الله لا يمكن أن تطابق شمائل الأنبياء والملائكة.

قد انتقلت عادة توارث صور الأنبياء فيما بعد إلى سلوك عبدة الأوثان، وتعود كل واحد منهم أن يحفظ هذه التصاوير فى خزانة ولا يريها لأحد.

تأمل الحكاية الآتى ذكرها عن الصور التى توارثها قياصرة[2] الروم وكانت لصورة الهيكل النورانى المحمدى وصورتى الشيخين المكرمين.

قال دحية بن خليفة الكلبى حامل الرسالة النبوية السابقة إلى هرقل[3] الرومى، كما هو مسطور فى السيرة النبوية ذات الرائحة البنفسجية: عندما حملت الرسالة النبوية الداعية للهداية وجدت قيصر الروم فى دمشق، وانتهزت وقت خلوه من المشاغل واعتدال مزاجه وأتيت برسالتى.

وتلقى هرقل الرسالة النبوية السعيدة بتعظيم فوق العادة وتوقير شديد، وقبل

(١) تطلق خرقة على قطعة قماش.

(٢) يطلق لقب القياصرة على ملوك الروم وهى جمع كلمة قيصر. ومعنى القيصر مشقوق، قد ماتت أم القيصر الأول وهى حامل وأخذ الطفل بعد شق بطنها، وبعد جلوسه على العرش أطلق على ملوك الروم لقب قيصر.

(٣) اسم ملك الروم المعاصر للنبى ﷺ.

الخاتم الذى فوقها. ثم فتحها وقرأها ووضعها فوق كرسى بجانبه، وكان هذا الكرسى خاصا لوضع الكتب المقدسة.

ثم استدعى البطارقة وعلماء النصارى وجمعهم، ثم صعد فوق كرسى لإلقاء خطبة ـ وفق آداب تلك العصور ـ وألقى مقدمة مثيرة مشوقة أجبرت الحاضرين للاستماع ثم قال: يا بطارقة النصارى إن هذه الرسالة الشريفة التى زينت يدى ونالت احترامى رسالة من قبل نبى آخر الزمان ومن أحفاد إسماعيل الذى بشرنا بظهوره المسيح ـ عليه السلام ـ وأتى فى كلامه بكثير من الأقوال التى تصف ما يتحلى به نبينا من المكارم الأخلاقية.

إن أقوال هرقل كانت ذات تأثير سيئ على الحاضرين، إذ قام البطارقة من أماكنهم معترضين بتهور، وتجرءوا على السير نحو ملكهم هاجمين، فلما رأى هرقل أن البطارقة غير مستعدين للاعتراف بنبوة محمد والتصديق بها، أراد أن يُسكنَ غضبهم وتخلى عن الحمد والثناء وقال: لا، لا إنما أردت بهذا الكلام التأكد من مدى تمسككم بدين عيسى ومدى ثبات عقيدتكم فيه.

إننى لا أريد أن أصدق بمحمد، كما أننى لا أحثكم على قبول الإسلام دينا، وإننى قد سررت إذ رأيت مدى صلابة عقيدتكم. الرجل الحق يجب أن يثبت فى دينه مثلكم.. إننى أحبكم.

وهكذا أسكن غضبهم وفى اليوم الثانى أدخلنى فى حجرة خالية ووجه إلى أسئلة وتلقى إجابة، ثم أدخلنى فى حجرة واسعة مزينة.

وكانت هذه الحجرة بيت الأصنام، وتحتوى على ٣١ قطعة من التصاوير وأشار هرقل لهذه الصور وقال: لأى صورة من هذه الصور يشبه نبيكم؟

وبينما أجيل النظر فى الصورة جذبت نظرى صورة تشبه أجمل الأنبياء فقلت إن هذه الصورة تشبه نبى الإنس والجن، وكانت هذه الصورة قد رسمت بشكل كأنها توجه خطابا لشخص ما فازددت عجبا لذلك. ثم أشار هرقل إلى صورة منصوبة على يمين الصورة السابقة، وسألنى: هيكل من هذا؟ فقلت إنه رجل من

أمة محمد ويطلق عليه أبو بكر؛ لأن الصورة كأنها نفس أبى بكر. ثم أشار إلى الهيكل القائم على الجهة اليسرى من الصورة التى تشبه النبى ـ ﷺ ـ وسألنى هيكل من هذا؟ فأجبته لابد أنها صورة رجل شهير يسمى عمر بن الخطاب؛ لأنها كانت تشبهه شبها كبيرا وكأنها ذاته.

ثم قال لى هرقل: بعد أن تلقى منى الإجابات السابقة إنه قد ذُكرَ فى الإنجيل أن الإسلام سيبلغ كماله بمعاونة هذين الرجلين. وقال: جاء فى الإنجيل أن الناقص من الدين سيبلغ حد الكمال بمعاونة المشار إليهما. وقد أعادنى معززا إلى المدينة دار السكينة.

وبعد فترة مثلت أمام النبى ـ ﷺ ـ وحكيت ما رأيته من هرقل الرومى، فقال حضرة النبى الصادق القول:

«لقد قال هرقل الصدق فالله سيعز الإسلام بأبى بكر وعمر، وسيوفقهما فى الحصول على الفتوحات العظيمة».

ـ حكاية:

كان الحكيم بن حزام[1] إذا اجتمع فى مجلس من المجالس مع قومه، وانتقل الحديث لذكر هرقل كان يقول: قبل أن أتشرف بالإسلام، ذهبت إلى الشام فى تجارة، ولم يكن سلطان الأنبياء ـ عليه أعظم التحية ـ قد هاجر بعد إلى المدينة المنورة، وكان بصحبتى «أمية بن الصلت بن عبد الله بن ربيعة» وهو من الطائف، وعندما علم هرقل أننا من أهل مكة استدعانا وقال: من أى قبيلة أنتما؟ وهل لكم صلة قرابة بمحمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ صاحب دعوة النبوة؟

فأجبته: نحن من قريش، ومحمد الأمين من أبناء عمومتنا ويتصل نسبنا به فى

(١) حكيم بن حزام ابن أخى سيدتنا خديجة الكبرى رضى الله عنها، وقد ولد داخل الكعبة قبل واقعة الفيل بثلاثة عشر عاما، وقد أمضى نصف عمره فى الإسلام والنصف الآخر فى الجاهلية، وعاش عشرين ومائة عام حيث توفى فى العام الستين من الهجرة فى المدينة المنورة. ويروى أن سيدنا على أيضا ولد داخل الكعبة المشرفة ولكن هذه الرواية لا أصل لها.
انظر: الإصابة ٢/ ٣٢.

الدرجة الخامسة. فقال هرقل: أتجيبوننى عما أسألكم عنه فيما يتعلق بهذا الرجل بدون خلاف؟ وهل أنتم ممن يصدقونه ويؤمنون بدعوته لله؟ فأجبته عن سؤاله الثانى وقلت: ونحن ممن يرفضونه ويرفضون أحكام دينه ودعوته.

لكننا لن نكذب فى حضورك وسنجيبك بصدق على كل ما تسأل عنه، وأقسمت بآلهتنا بأننى سأقول الصدق.

وسأل هرقل عن أحكام الشريعة المحمدية الغراء، فلما أجبناه إجابة واحدة لا خلاف فيها، قام من مكانه، وسار إلى الأمام وذهبنا معه كذلك. وكان بداخل قصره كنيسة مزينة فأمر بفتح بابها، واصطحبنا معه لداخلها.

وكانت هذه الكنيسة حجرة ملكية فخمة لا نظير لها، ويوجد فى وسطها صنم كبير مغطى بأستار من الذهب وموضوع فوق كرسى مرصع، رفع هرقل الأستار وقال: هذه الصورة صورة من؟!

فأجبناه: لا نعرف! لم نر صورة كهذه من قبل.

فقال: إنها صورة وجه أبى البشر.

ثم أخذنا من غرفة إلى أخرى وأرانا تماثيل مختلفة، وسألنا هل الشخص الذى يدعى النبوة يشبه إلى واحد من هذه القبائل؟

وكانت هذه التماثيل تماثيل أنبياء مختلفة، وكانت مغطاة بستائر ثمينة مزركشة وجميلة.

وبما أننا لم نر تمثالا يشبه الذات النبوية العالية أجبناه بقولنا: «إنها لا تشبه محمد بن عبد الله عليه السلام».

وبعد ذلك، أمر بفتح قاعة كبيرة ومزينة أيضا، وهى أكبر من كل القاعات التى رأيناها من قبل وكان فى وسطها تمثال مغطى ذو هيئة نورانية، فكشف التمثال بأن رفع الستار وسأل: من يكون هذا؟ قلنا: نعم.

إن هذه الصورة تشبه محمداً الأمين الذى يدعى النبوة فى بلدنا. وفى الواقع أنها كانت صورة لا تختلف عن شكله أبدا.

بناء على هذا وجه هرقل خطابه إلينا، وقال:

(إن هذه التماثيل التى شاهدتموها قد نحتت قبل ألف سنة، لو كان هذا التمثال هو تمثال محمد الأمين الذى ذكر تماما فمما لاشك فيه أن الرجل نبى مرسل. فعند وصولكما إلى مكة فعليكما بتصديق نبوته بلا تردد. وإذا قدر لى لقاءه فسوف أغسل رجليه المباركتين وأشرب ماء غسيلهما).

ـ حكاية:

كان «جبير بن مطعم» من الصحابة[1] الكرام، ومن أولاد نوفل القرشى، ويتصل نسبه بعبد مناف الجد الثالث للنبى ﷺ، وقد قال: كنت قد ذهبت إلى الشام فى بدء البعثة النبوية، فاستدعانى رئيس أساقفة نصارى الشام وسألنى: أتعرف الرجل الأمى الذى يدعى النبوة فى بلدتكم؟ فلما أجبته: نعم! إنه ابن عمى! أمسكنى من يدى وأدخلنى غرفة مليئة بصور الأنبياء المزينة، وأشار إلى الصور واحدة تلو أخرى وسألنى: أيمكن أن ترى بينها صورته؟ فلما أجبته: بالنفى أخذنى إلى حجرة أخرى، وكانت بيت التماثيل وكان فى داخلها تماثيل مزينة ومجسمة، وسألنى رئيس الأساقفة: يا ترى هل يوجد تمثال مشابه لصورة ابن عمك؟! فلما تأملنا رأيت تمثالا نورانيا على شكل رسول الله ﷺ، وبجانبه صورة تشبه الصديق وصورة أخرى بجانب صورة الصديق تشبه عمر بن الخطاب فأشرت إلى الصورة، وقلت هذه الصورة تشبه صورة حضرة محمد ﷺ.

ولما استفسر عن الصورتين الأخريين؛ أجبته قائلا: هذا ابن عمى ابن أبى قحافة وذلك ابن عمى عمر بن الخطاب. بناء على ذلك أنهى كلامه قائلا: إن هذا الرجل الذى ظهر فى بلدتكم مدعيا النبوة، أشهد أنه المبعوث الحق والرسول المطلق وهذان خليفتيه.

ـ حكاية:

تروى حكاية ذات عبَر حدثت فى عهد أبى بكر الصديق؛ إذ بعث فى أثناء خلافته ـ رضى الله عنه ـ هشام بن العاص سفيرا إلى إمبراطور الشرق هرقل، وقد تحدث هشام عن ماهية هذه السفارة وحقيقتها.

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢٣٥، والخبر فى دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٣٨٤-٣٨٥.

قال هشام بن العاص[1]: كنت أرسلت أنا وصديق لى من قبل أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ لدعوة هرقل إلى الإسلام، وعندما وصلنا إلى المدينة عاصمة إمبراطورية هرقل أنزلونا فى قصر غاية فى الفخامة، وبعد ثلاثة أيام استدعانا هرقل، وأجرى لنا مراسم الاستقبال، وفى أثناء الحديث أمر بإحضار صندوق كبير جدا ومزين بالذهب ذى أدراج كثيرة، ففتح أحد هذه الأدراج وأخرج منه لوحة حمراء اللون ملفوفة بقطعة قماش سوداء. وقد رسم عليها صورة شخص حسن الطلعة طويل القامة، فأشار هرقل إلى اللوحة المذكورة، وسألنا هل تعرفون هذا الرجل؟

أجبناه بالنفى. فقال: إنها صورة سيدنا آدم عليه صلوات الله الأعظم. وكانت هذه الصورة لرجل أحمر الوجه واسع العينين، ذو قامة طويلة شعره مفرق إلى جانبين وقد جدل بصورة منسقة، وبعد أن وضع هرقل صورة سيدنا آدم فى مكانها فتح درجا آخر من أدراج الصندوق، وأخرج لوحة أخرى ناصعة البياض لامعة وملفوفة داخل قطعة قماش سوداء. وكانت الصورة المرسومة فى هذه اللوحة، صورة لرجل أحمر العينين فسأل هرقل: صورة من هذه؟

وكانت الإجابة بالنص: لا نعرف!!

فقال: إنها صورة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ وقد رسمت هذه الصورة لرجل أبيض اللون، عيناه تميلان إلى اللون الأحمر كبير الرأس، كثيف اللحية. وفى النهاية فتح هرقل درجا ثالثا، وأخرج لفافة قماش سوداء، بداخلها لوحة بيضاء. وكانت اللوحة تحوى صورة رجل أبيض البشرة، وضاء الوجه وكأنه يبتسم وهو فى أبهى صورة.

وسأل هرقل: أتعرفون هذا الرجل؟ ولما أخذ الرد بالنفى، قال: هذه صورة إبراهيم عليه التحية والتعظيم، ثم فتح درجا آخر، وأخرج صورة صاحبها فائق الجمال وساطع الأنوار، وتذكرنا بمحمد ﷺ.

وقد بكينا فى أول مشاهدتنا للصورة كأننا رأينا حضرة صاحب الرسالة القدسية. وقد أظهر هرقل لهذه الصورة توقيرا وتعظيما أكثر من الصور الأخرى.

(١) الخبر فى دلائل النبوة ١/ ٣٨٦-٣٩٠ بطوله، وانظر أيضا تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٤-٥٦٧.

وعندما سأل هل تعرفون صاحب هذه الصورة؟ وقد تلقى الجواب منا إذ قلنا: إن هذا التمثال اللطيف يشبه صورة محمد عليه السلام، قال: الله يعلم أنه هو ونهض من مكانه وجلس عدة مرات. ثم قال: إذا كانت هذه الصورة هى الشكل المبارك لمحمد ـ عليه السلام ـ فاعلموا أن دينكم هو الدين الحق.

وأراد أن يبين شك فى كون هذه الصورة لمحمد ـ ﷺ ـ إذ نطق بهذه الجملة. ولكننا قلنا له: يا ملك بلاد الروم إن هذه الصورة صورة الحبيب ذى الكبرياء عليه أفضل التحيات ولاشك فى ذلك، وبها الكثير من شمائله الشريفة، حتى إننا ظننا أنفسنا فى حضرته السعيدة فائضة النور. وبهذه الإجابة زال شك هرقل إلى درجة ما، ولكنه لم يجرؤ على تصديق أن هذا التمثال صورة مشابهة لرسول الله العالى المقام، وظل يوجه إلى وجهنا نظرات بلهاء لمدة ساعة ثم أفاق، واستجمع عقله وسألنا وقد ظهرت عليه الحيرة:

احذرا أن تكونا قد أخطأتما فى تمييز صاحب الصورة إذ قد تكون لشخص آخر. ثم فتح درجا آخر وأخرج منه تمثال رجل غائر العينين متراكب الأسنان مقلص الشفتين. وكانت هذه الصورة تبدى علامات الغضب والحدة وتبعث الخوف فى مشاهديها. وإذا بها صورة سيدنا موسى بن عمران عليه صلوات الرحمن. وبجانب صورة موسى ـ عليه السلام ـ صورة أخرى تشبه صورة موسى الذات العالى إلى حد ما. أخبرنا هرقل أنها صورة هارون بن عمران ـ عليه سلام المنان ـ ثم فتح ثمانية أدراج درجا بعد درج، وأخرج من كل واحد منها صورة ملفوفة فى قطعة حرير سوداء، وقال إنها الأشكال المنيرة لحضرات سادتنا: لوط ـ إسحاق ـ يعقوب ـ إسماعيل ـ يوسف ـ داود ـ سليمان ـ عيسى عليهم السلام.

وكانت صورة سيدنا لوط داخل صرة من الحرير الأبيض، وتبدو صورته جميل الوجه عليها علامات الغضب. كما كانت صورة إسحاق داخل صرة بيضاء وقد رسمت بلون مائل للحمرة، وكانت صورة يعقوب ـ عليه السلام ـ داخل صرة بيضاء وكانت تشبه شكل إسحاق المبارك إلا أنها كانت تتميز بوجود خال

أسود اللون فى الشفة السفلى. أما صورة إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد كان أبيض اللون، حسن الوجه، أقنى الأنف، متناسق القوام، وكان يلمح فى وجهه السعيد نور محمد ساطع اللمعان.

وقد وصف هرقل هذه الصورة الجميلة أن صاحبها إسماعيل ـ عليه السلام ـ جد نبيكم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكانت صورة يوسف ـ عليه السلام ـ ساحر زليخا فى صرة بيضاء، وكان فى الخلقة يشبه آدم ـ عليه السلام ـ تماما لكنه فى صورة أجمل، متناسق الأعضاء حتى إن من يرونه يقولون: لابد أن تكون شمس الملاحة هذا النور.

وكانت صورة داود ـ عليه السلام ـ داخل صرة بيضاء، وقد بدا فيها أحمر اللون ضخم البطن متقلدا السيف.

وإذا جئنا إلى صورة سليمان بن داود فنجده ممتطيا جوادا ضخم الأليتين، طويل الرجلين، وكانت هذه اللوحة ملفوفة بقطعة حريرية بيضاء.

أما هيكل عيسى ـ عليه السلام ـ فكان ملفوفا فى داخل صرة بيضاء، وكانت صورة ذاته الشريفة تبديه فتيا صلبا أسود اللحية، كثيف الشعر حسن الوجه.

وكنا نشاهد الصور المذكورة واحدة تلو الأخرى، وننظر فى كل واحدة منها بكل رقة بالبصر والبصيرة. وغرقنا فى بحر الحيرة من شدة التعجب والاستغراب. ولم نجرؤ على القول بأن هذه هى صورة الأنبياء المشار إليهم، قلنا للملك: أيها الملك، كيف حصلتم على صور الأنبياء هذه؟!

فإذا ما نظرنا إلى الرسم اللطيف لسيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نبينا رأينا أنها تحمل نفس شمائله الشريفة؛ فلابد أن تكون كل هذه الصور مطابقة لصور الأنبياء مع العلم أنه من الصعب إيجاد دليل قوى وسند يعتمد عليه الحكم على هذا الأمر، وبهذه العبارة لم نصدق ولم نكذب صحة تلك الصور المشروحة.

وعندما رأى هرقل ترددنا الواضح فى تصديق حكاية الصور قال: إن هذه الصور بقيت من الأزمنة الغابرة، وإن كان من الصعب إثبات مدى مطابقة الصور لشكل أصحابها ما لم نرهم، إلا إننى عندى البينة الكافية لتأكيد صحة هذا الأمر.

يجب ألا ترتابوا فى أن الصور الشريفة للأنبياء ذوى الشأن الذين ذكرت أسماؤهم هى لهم. فإن سيدنا أبا البشر ـ عليه سلام الله الأكبر ـ أراد رؤية من اتصفوا بخير الصفات والذين سيتبوأون مقام النبوة من أولاده وأحفاده. ولما عرض أبو البشر ما فى ضميره على عالم السر والخفايا، أنزل الرحمن من عنده الصور المذكورة مرسومة على لوح مزين لحكمة لا يعرفها سواه.

وقد وضع سيدنا آدم اللوح المذكور فى مغارة فى بلاد المغرب بعد رؤيتها وهال عليها التراب والحجارة إلى أن وجدها ذو القرنين. ولفها فى قطعة من الحرير وحفظها، ولهذا انتقل اللوح المذكور مع قطعة الحرير هذه إلى يد النبى دانيال ـ عليه السلام ـ وقام المشار إليه برسم كل واحدة منها فى لوحة مستقلة، وبذلك نجح فى عمل صور كثيرة للأنبياء.

إن الذى ابتهجتم برؤيته و قررتم عينا بمشاهدته من الصور فجميعها من جملة الصور التى رسمها النبى دانيال، وقد ورثها الناس كابرا عن كابر إلى أن وصلت إلينا فى نهاية الأمر. وهكذا طيب خاطرنا وأعادنا إلى وطننا.

ورغم أننا لم نصدق أن الصور التى رأيناها عند هرقل تشبه شمائل الأنبياء الكرام، إلا أن الأمر ظل يتفاقم فى ذهننا وقد اضطررنا أن نعرض الأمر على الخليفة حتى نستوضح حقيقة الأمر منه.

وحينما وصلنا إلى المدينة المنورة توجهنا للقاء حضرة الخليفة الصديق وقبل أن نتحدث بما حدث أخبرنا بكل ما حدث أمام هرقل من مشاهدة الصور وما تحدث به بلا زيادة ولا نقصان وبعد ما بكى قليلا قال: إن طوائف اليهود وطوائف النصارى قد قرءوا فى كتبهم صفات النبى ـ ﷺ ـ ونعوته ولكنهم تمردوا وعاندوا ولم يؤمنوا به.

إن خلاصة هذه الحكاية مكتوبة فى كتاب دلائل النبوة منقولا عن الإمام البيهقى الذى نقله عن أبى أمامة الباهلى وهو قد نقله عن هشام بن العاص الأموى[1].

وقد نقل عن كعب الأحبار أن حضرة آدم ـ عليه السلام ـ حينما اقترب أجله، استدعى أبناءه الذين كانوا على قيد الحياة وأراهم تابوتا، ونظر أبناؤه إلى التابوت، فوجدوا به أدراجا كثيرة صغيرة بعدد الأنبياء الكرام ـ على نبينا وعليهم السلام ـ والدرج السعيد الذى فى نهاية الأدراج، كان خاصا بخاتم الأنبياء وكان تحفة لامعة الأنوار مصنوعا من الياقوت الأحمر.

وفى داخل البيت كان إمام الأنبياء ـ عليه وعليهم السلام ـ قائما يصلى وعن يمينه الصديق وعن يساره الفاروق ومن خلفهم ابن عفان وأمامهم صاحب القرآن على بن أبى طالب ـ رحمهم الله، ورضى عنهم أجمعين.

وكان مسطورا على جبهة الصديق الكريم عبارة: «هذا أول من تبعه من أمته» وعلى الجبين المبارك للفاروق عبارة «قرن من حديد، أمين شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم» وعلى جبهة ابن عفان «ثالث الخلفاء» وعلى جبهة على بن أبى طالب «هذا أخوه وابن عمه المؤيد بنصر الله» وعلى قول «ليث كرار غير فرار يحب الله ورسوله» وكان يرى فى جوانب هؤلاء المهاجرون والأنصار النقباء والخلفاء الآخرون.

صورة دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز:

إن القبائل التى تقطن الخيم حول كعبة الله عبدة أصنام مصنوعة من الأحجار والأشجار، والزمن الذى مالوا فيه إلى الضلالة كان فى عهد (أردشير بن شابور) من ملوك الفرس وكان «عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف» الذى لا دين له حاكما لأرض الحجاز المقدسة.

وقد نقل الإمام «الراشطى» أن عمرو بن لحى بن قمعة هو الحارث بن عمرو بن مزيقيا بن عامر ماء السماء بن الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن أزد

(١) دلائل النبوة للبيهقى ١/٣٨٦-٣٩٠.

من نسل زيد بن كهلان بن سبأ، وأن نسبه هو نهاية نسب أفراد قبائل بنى خزاعة. ورغم هذا فإن بعض علماء النسب انتقدوا هذه الرواية المنقولة عن الراشطى وخرجوها قائلين: إن هذه الرواية رأى من يدعون أن خزاعة من أهل اليمن. ورفعوا سلسلة نسب عمرو إلى إلياس بن مضر.

والواقع أنه عندما توفى قمعة بن خندف كانت زوجته حاملا وتزوجت من الحارث بن عمرو مزيقيا وبعد فترة ولدت لحى وتربى لحى فى كنف الحارث ونسب إليه.

وعلى هذا يكون لحى ربيب الحارث بن عمرو مزيقيا وابن قمعة بن إلياس بن مضر. وهذا القول هو المرجح وأكثر صحة من القول الآخر.

واسم لحى بن قمعة ربيعة وجدته لأبيه: خندف المسماة بليلى بنت حلوان بن عمران بن الحان بن قضاعة وزوجها هو إلياس بن مضر.

أما سبب إطلاق اسم خندف على ليلى فقد ذكر فى البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب. وقد انفصلت قبيلة خزاعة من عمرو بن لحى وبما أن ليلى «خندف» وكانت والدة قمعة أطلقت أفراد قبيلة خزاعة على ليلى اسم الأم.

قال المؤرخون الذين ذكروا سبب إطلاق اسم خزاعة لبنى عمرو قد هاجر أهل سبأ عقب وقعة سيل العرم من بلادهم، وهاجر كل جماعة إلى مكان ما واشتهروا باسم ذلك المكان.

وفى ذلك الوقت استقر أولاد وأحفاد مازن الأزد بن الغوث بن ليث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فى جانب ماء اسمه غسان[1] القريب من المكان المسمى «مشلل» واختاروا الإقامة فيه قبل بنى مازن، ولما انقطع وانجزعت جماعة عمرو بن لحى عن القبائل الأخرى، وسكنوا بأطراف مكة المكرمة قيل لبنى عمرو بن لحى بنو خزاعة.

(١) هناك رواية تقول إن الماء المسمى «بغسان» من مياه سد مأرب وإنه اسم ماء منسوب لأبناء مازن بن الأزد بن الغوث ولذلك يطلق على بنى مازن الغسانى إلا أن الرواية الأولى أصح.

الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام هم أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن عبد الله بن الأزد بن الغوث.

وعندما أخرج بنو خزاعة قبائل الجراهمة من مكة المعظمة بالقوة وأبعدوهم إلى بلاد اليمن اتخذوا عمرو ـ مستحق الجمر ـ رئيسا لقبيلتهم واجتهدوا على أن ينفذوا كل ما جاء به من البدع والخزعبلات عن طيب خاطر[1].

إن الأسباب الرئيسية لرضا بنى خزاعة العمل بما كلفهم به عمرو دون تفكر ترجع إلى تكريمه للقبائل البدوية وجوده معهم وإلباسه الخلع للعظماء والوجهاء فى مراسم الحج.

وكان عمرو بن لحى، الذى نال رئاسة بنى خزاعة يسافر إلى بلاد الشام فى أثناء حكومته. وقد رأى أحفاد العمالقة يعبدون الأصنام فى مدينة مأرب من أرض البلقاء التى استوطنوا بها فسألهم: ما أسباب عبادتكم لهذه الجمادات؟ فأجابه عبدة تلك الأصنام بقولهم: إنها مجموعة من الآلهة صنعت على غرار الهياكل العلوية والصور البشرية وإننا نستمر فى عبادتها واحترامها وتوقيرها وقد اتخذناها آلهة لنا وعلى هذا فهى تستجيب لتضرعاتنا، فإذا ما طلبنا منها مطرا فى أى وقت تنزل مطرا وإذا استعنا بها فى حاجة من حوائج الدنيا فتحقق مطالبنا؛ فصدق قولهم وطلب منهم أن يعطوه واحدا منها قائلا: إذا أعطيتمونى واحدا منها أحمله إلى أرض الحجاز وأدعو بنى إسماعيل لعبادته وأرغبهم فيه، فقاموا على الفور بإهدائه صنما ثقيلا يسمى هبل.

وفى **رواية أخرى** أن إساف ونائلة من الأصنام التى أهديت إلى عمرو بن لحى من قبل العمالقة.

وقد سر عمرو بن لحى إذ أهدى له إله وأخذ هبل المذكور ووضعه فى المخزن الذى صنعه إبراهيم لحفظ الهدايا المقدسة لعتبة الكعبة الشريفة، وعلى قول آخر ركزه فوق جبل الأخشب[2] وطلب من الأهالى أن يظهروا له الاحترام اللازم ويتعبدوا له ليلا ونهارا.

(١) إن هذه الكيفية قد حررت بالتفصيل فى المكان الخاص به من كتاب مرآة المدينة.

(٢) هذا القول ضعيف.

وقد عرف فاضل أبو الفوز البغدادى فى كتابه القيم المسمى «سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب» أصل هبل الذى اعتقد عمرو فى ألوهيته. وقال: إن هبل الذى حمله عمرو بن لحى من الشام إلى مكة كان تمثالا لإنسان عجيب الشكل. وكان مصنوعا من العقيق إلا أن يده اليمنى كانت مكسورة.

وقال إن قريشًا الذين صدقوا ألوهيته قاموا بتركيب يد من الذهب له وأخذوا يعبدونه مظهرين له الاحترام والتوقير والإخلاص.

قال ابن إسحاق فى تعريف هبل: هبل صنم كبير مصنوع من العقيق على شكل إنسان لكن يده اليمنى كانت مكسورة ومفقودة، ولما رأى آل قريش أنه بلا يد صنعوا له يدا من ذهب وركبوها فيه.

وكان لهبل خزينة خاصة لوضع الهدايا التى تقدم له وتحفظ فيها. وكذلك كان له سبعة أقداح لإجراء القرعة[1] ولا يمكن للذى يريد إجراء القرعة استخدام القداح ما لم ينذر بذبح مائة من الإبل. انتهى.

وبعد ذلك بمدة شاع خبر هبل الذى جلبه عمرو ـ متسحق الجمر ـ بين مشركى البدو، حيث أخذوا يوقرون ويعظمون ذلك الصنم بتحريض من عمرو وتشجيعه وأشركوا هبل المصنوع من الحجر بخالق الأفلاك ـ تنزهت ذاته عن الشرك ـ وهكذا كفروا.

ورغم أن مشركى العرب قد اعتنقوا الكفر فقد ظل بينهم بعض الأفراد محافظين على دين الخليل وتمسكوا به.

وكان هؤلاء يقومون بتعظيم بيت الله، والطواف حوله وأداء الحج ويخرجون لأداء العمرة ويصعدون عرفات والمزدلفة ويذبحون الأضاحى ويعتمرون اقتفاء لآثار سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ـ عليهما السلام.

وكانت دعوة عمرو بن لحى قبائل العرب البدو لعبادة الأصنام قبل البعثة

(١) توجد معلومات وافية حول هذا الموضوع فى البحث الخاص بالقرعة عند العرب فى الجاهلية.

النبوية بألف عام وعلى قول بثلاثمائة وخمس وعشرين سنة، وبعد فترة قصيرة كان كل ساكنى منطقة الحجاز من أولاد إسماعيل ـ عليه السلام ـ قد اتجهوا إلى عبادة الأصنام المنحوتة من الأشجار والأحجار ولهذا فإذا خرج أى واحد منهم أو أى قبيلة خارج ميقات كعبة الله كان يأخذ معه ـ بهدف تعظيم بيت الله ـ حجرا من المسجد الحرام على النحو الذى سنذكره مفصلا فيما بعد ـ ويضعه فى الأماكن التى ينزل فيها ويأخذ فى الطواف حوله كما كان يطوف بالكعبة.

وبمضى الوقت غاب عن الذهن سبب تعظيم الأحجار واستبدل دين الخليل بعبادة الأصنام وتحول الناس عن عبادة خالق العباد إلى عبادة الأصنام.

وبعد ذلك اهتم الذين غيروا دينهم بتعظيم حجارة المسجد الحرام حتى إنهم فاقوا فى عبادة الأصنام الضالين من أفراد الأمم الأخرى الذين يعبدون الأصنام.

وبلغ الأمر حدًا حتى إن قبيلة قريش وطائفة بنى كنانة كانوا يلبون فى وقت الحج قائلين «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ويدخلون داخل الكعبة ممسكين بأيديهم غير المباركة الأصنام التى صنعوها بأيديهم، واستمر هذا الحال المشؤوم حتى يوم إشراق نور النبوة.

وخلال تلك الفترة اهتم أهل الحجاز بعمل أصنام كثيرة مثل: اللات ـ العزى ـ مناة ـ ذو الخلصة ـ ذو الكفين ـ ذو الشرى ـ قلس ـ رضاء ـ ذو الكعبات وغيرها من الأصنام وقد سميت بعض هذه الأصنام بأصنام عبدة الأصنام فى عهد نوح ـ عليه السلام.

وقد ظهر فى الفترة التى بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ خمسة أشخاص[1] وكانوا حريصين على طاعة الله وعبادته وبهذا نالوا حب الناس واحترامهم وعندما أتم هؤلاء آجالهم وارتحلوا إلى عالم العقبى لم يستطع أولادهم وأتباعهم أن يتحملوا آلام فراقهم وتحسَّرُوا عليهم، فصنعوا ـ بإيعاز من الشيطان ـ لكل واحد منهم صورة ليعلقوها فى مساجدهم. وفعلا قد وضعوا هذه الصور فى مساجدهم وظلوا يزورونها بكثرة ليخففوا شدة حزنهم وليزيلوا وطأة حسرتهم.

(١) توجد تفاصيل وافية فى هذا الموضوع فى البحث الخاص ببدء ظهور الأصنام.

وبطبيعة الحال، مات الأبناء والأتباع فأوعز الشيطان إلى بقية الناس بعبادة الصور. إذ قال: «أيها الناس! إن هذه الصور[1] كانت صور من عبدهم آباؤكم فأنتم باتخاذكم إياها آلهة وعبادتها تعملون على نشر الدين وعلى إدامة الطقوس التى قام بها آباؤكم». ودَفَعَ الناس إلى عبادة صور هؤلاء الأفراد الخمسة إلى قبيل زمن نوح عليه السلام.

وفى واقعة الطوفان المشهورة دفنت هذه الصور المجسمة تحت التراب، واختفت عن أعين الناس، ورغم هذا فإن إبليس اللعين ـ كما سنذكر فيما بعد ـ استطاع أن يبرز جميع هذه الصور إلى الأعين بطريقة ما دفع العرب إلى عبادة الأصنام وأثار هذا العمل ضيق أهل الإيمان وأزعجهم.

وقامت جماعات حمقى من القبائل من أحفاد بنى إسماعيل وبتدخل الشياطين بصناعة أصنام مشابهة للأصنام التى أخرجت من تحت الأرض وسموها بأسماء هؤلاء الصالحين الذين ذكروا آنفا وأخذوا يعبدونها بكل إخلاص وخضوع.

وتبعا لدراسة المؤرخين فإن أسماء هؤلاء الصالحين المشار إليهم كانت: سواع ـ ود ـ يعوق ـ يغوث ـ نسر.

والأصنام التى صنعت لتختص بهذه الأسماء:

سواع: وصنعت على شكل امرأة، ود: على صورة رجل، يغوث: على صورة أسد، يعوق: على صورة حصان، ونسر على صورة طائر النسر وفى النهاية كانت تلك الأصنام التى عبدتها القبائل العربية البدوية على أشكال الحيوانات المذكورة.

بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض

لم يكن على وجه الأرض أحد من بنى البشر يعبد الأصنام حتى تاريخ رفع سيدنا إدريس إلى السماء وأصبح مظهرا للسر الإلهى القدسى.

(١) المقصود بهذه الصور هى صور الخمسة أشخاص الذين سلف بيانهم ويروى ـ على نحو ما سنبينه فى محله ـ إن أحدهم سيدنا إدريس والأربعة هم خلفاؤه، أو أولاد سيدنا آدم أبى البشر.

وبناء على قول المؤرخين فإن رفع إدريس إلى السماء كان بعد هبوط سيدنا آدم أبى البشر بـ ١٤٧٢ سنة وكان أبوه يزد يبلغ من العمر ٥٢٩ سنة فى ذلك الوقت وكانت ذاته النبوية على اختلاف الروايات ٣٢٥ أو ٣٧٠ أو ٤٥٠ أو ٣٦٥ سنة من عمره وبعد هذه الواقعة ظل يزد والده على قيد الحياة مدة ٤٣٥ سنة أخرى.

ومع اعترافنا بأن الله قادر على كل شيء، فإن بقاءه على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة أمر خارق للعادة ولهذا لو حكمنا بأن هذه الروايات لا تخلو من الخطأ فإننا نعتقد أن أحدا من القراء لن ينتقدنا ولن يخطئنا.

وعندما أصبح سيدنا إدريس مظهر الله الجليل ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) لم يحتمل أحد خلفائه المخلصين ألم الفراق وأخذ يصيح ويصرخ حتى وصل صوت صراخه إلى الملأ الأعلى وأزعج سكانه.

وذات يوم ذهب إبليس اللعين إلى حجرة الخليفة المشار إليه وقال له: أيها العاشق المشتت القلب والوجدان ما أصعب تحمل نار الفراق الحارقة وإيجاد حل لهذا الأمر من أصعب الأمور بل هو مستحيل.

فإذا ما رسمت صورة تحتوى على شمائل حضرة إدريس ثم تضعها فى مكان ما فى حجرتك وأبرزتها بحيث تشاهدها أمامك دائما وتتذكر أوقات مصاحبته لك لعلك تجدد الود المؤثر لآلام فراقك. قال هذا وصنع صورة الجسم لسيدنا إدريس وقدمها لهذا المحب الوفى المتحسر.

وكان ذلك الخليفة صافى القلب ساذجا غافلا عما يهيئ له إبليس من شر ودسيسة وفى نفس الوقت ثملا من شراب فراق إدريس فأخذ الصورة الخالية من الروح التى قدمها له الشيطان، وظل ينظر لها إلى أن حان أجله.

وبهذه الطريقة خفف من نار الشوق لكنه لم يعلن لأحد قط حقيقة الأمر. حيث ظل على هذه الحال طوال فترة حياته.

وعند وفاة الخليفة عجز الناس الذين رأوا هذه الصورة فى حجرته الخاصة عن معرفة صاحب الصورة وعن سبب وجودها فى حجرة الرجل فظلوا فى حيرة من أمرهم.

ورأى الشيطان أن الفرص سانحة فى هذا الوقت لغواية البشر وإضلالهم فتمثل فى هيئة رجل من الزهاد العابدين وتوجه إلى حيث يجتمع الحيارى فى فهم كنه الصورة التى وجدت فى غرفة الخليفة فتحدث قائلا: إن فى رأيى أن هذه الصورة ـ وحاشا ـ صورة الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق السموات والأرض.

ولاشك أن العبادة الخفية أكثر قبولا عند الله، لهذا كتم عنا حضرة إدريس ـ عليه السلام ـ وخليفته الذى ترك ملذات الدنيا وأخفيا تعبدهم لهذه الصورة وبهذه المقدمة دفع الناس إلى الضلالة وأراهم أول طريق للضلالة.

وانخدع الناس بمظهر الشقى الأبدى المتخفى فى زى المتصوفة وأعدوا صنما وأخذوا يمارسون طقوس عبادة الأصنام.

وقد نقلت هذه الحكاية عن مؤلف (روضة الصفا مولانا محمد خاوند).

والشخص الذى قال عنه إنه أحد خلفاء سيدنا إدريس هو الحكيم أسقلينوس أعقل وأرشد خلفائه وأفضلهم إلا أن عبارة: «أخذ من الشيطان الصورة المجسمة لسيدنا إدريس ولم يغيبها عن نظره»، لابد وأن تكون غير صحيحة لأن سيدنا إدريس اتخذ لنفسه أربعة من الخلفاء هم «إيلادس» و«أوس» و«أسقلينوس» و«بسلوخس» وأسند إدريس ـ عليه السلام ـ لكل واحد منهم إدارة جهة من جهات الدنيا الأربع، وكان «أسقلينوس» أكثرهم زهدا وورعا؛ لذا نال لقب خليفة الخلفاء.

وفى أثناء رفع سيدنا إدريس إلى السماء كان «أسقلينوس» فى بلاد اليونان، مركز الجهة التى كلف إدارتها ولما علم بالأمر ظل يبكى وينوح لفترة طويلة وأزعج الناس فى الدنيا ببكائه ونواحه، وفى النهاية قام بعمل رسمين مجسمين لسيدنا إدريس ـ عليه السلام ـ أحد الصورتين وهو جالس على كرسى والأخرى وهو يرفع يده إلى السماء واعتاد فى أثناء عبادته أن يلقى نظرة على هذين الرسمين.

وبما أنه لاشك فى أن «أسقلينوس» كان مؤمنا موحداً بالله فلم يكن هدفه من إقامة الصورتين المجسمتين عبادة الأصنام وإنما كان من أجل تعظيم سيدنا إدريس وتوقيره.

ولكن وآسفا!! عندما توفى «أسقلينوس» لم يستطع «صاب بن إدريس» وسائر الحكماء البلهاء أن يدركوا نيته وعقيدته وحملوا ما فعله هذا على أنه من عبدة الأصنام وبعد مدة بنوا بيوتا للأصنام ونظموها وأصبحوا من عبدة الأصنام وثملوا إذ شربوا من خمر الضلال واتخذ كل واحد منهم صنما فأضلوا الناس وحملوهم على عبادة الأصنام.

وقال بعض المؤرخين: إن ابتداع الأصنام كان أولا بين أبناء قابيل، وقد ابتدعت فى زمن حكم (اليارد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام).

وطبقا للنتائج التى أسفرت عنها الدراسات التى قام بها ناقل هذه الرواية إن أبا شيث ـ عليه السلام ـ قد تلقى أمرا خاصا من سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ لكى يخفى التابوت الذى وُضِعَ فيه أبو البشر عن أولاد وأحفاد قابيل.

وبسبب هذا الأمر نقم أولاد قابيل على شيث ـ عليه السلام ـ واتجهوا للعمل ضده ولهذا ظلوا لفترة طويلة يظهرون عدم رضاهم ويبدون علامات الألم والضيق.

ولأن هذا الأمر كان سببا كافيا لدى إبليس اللعين لضلالة الناس، فقد أقام تمثالا مباركا لسيدنا أبى البشر، وضعه فى تابوت، ثم أعطاه إلى أحفاد قابيل قائلا لهم: إن الشىء الذى أخفى عنكم هو نفسه هذا الشكل فأخذه الأحفاد وهدأ هذا الشكل المجسم من روعهم بعدما رأوه لفترة، وبعد ذلك سعى كل واحد منهم إلى الحصول على صنم. ثم أصبحت بدعة أن يوجد صنم فى منزل كل إنسان وفى مركز ومجمع كل قبيلة تابوت على صورة خاصة.

وأظهروا جميعا لها الاحترام الشديد والتوقير والتعظيم وأخذوا يعبدونها حيث أصبحت من الضرورات الدينية بين آل قابيل.

والأصنام التى عبدت فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ هى: ود، سواع، يعوق، يغوث ونسر، صنعت على غرار الأصنام التى عملت فى زمن أبناء قابيل.

وكما حقق وصف حضرة إسماعيل حقى ـ قدس سره الجلى ـ مؤلف «روح البيان» فأسماء هذه الأصنام الخمسة هى أسماء أولاد سيدنا آدم من صلبه، وإنه بواسطة الشيطان اللعين، قد عمل نموذجا لكل واحد منهم، وكان ذلك فى عهد يارد بن مهلائيل، وظلت تعبد حتى عهد نوح ـ عليه السلام.

وعند ظهور طوفان نوح دفنت هذه الأصنام فى الأرض واختفت عن العيون. ورغم هذا فإن إبليس الملعون أخرجها من باطن الأرض فى فترة من الفترات ـ ولما نقلت إلى مكة المكرمة برأى ومشورة «عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس بن مضر» أخذ الناس يتعبدون لها ثم اتخذها كل عرب الجاهلية آلهة لهم وظلوا يعبدونها إلى البعثة النبوية لخير الورى عليه أفضل التحايا.

وكانت قبيلة هذيل تعبد سواع وقد اتخذت طقوسا خاصة بها ونظمت مواسم حج وزيارة لإلهها سواع رغم القبائل الأخرى المخالفة.

وحسبما قال فاضل أبو الفوز البغدادى فإن الأسماء التى أطلقت على الأصنام المذكورة هى أسماء الصالحين الخمسة السالفة التعريف والذين كانوا على قيد الحياة فى عهد «يارد أو يرد» والد سيدنا إدريس ولما توفى هؤلاء الخمسة فى عهد يارد فى خلال شهر واحد الواحد تلو الآخر، تأثر الناس أعظم التأثر وأبدوا مظاهر الحزن والألم لوفاتهم وعندئذ ظهر شخص يتصل نسبه بنسب قابيل فأقام تماثيل لهؤلاء الخمسة وأطلق على كل واحد منها اسم أحدهم ووضعها فى ميدان الميادين.

وأخذ الحزانى يزيلون حزنهم وألمهم بالطواف حول هذه التماثيل وفى هذه الفترة كان طواف الناس حول التماثيل لإظهار التعظيم والتوقير والحب لهؤلاء الصلحاء الخمس وفيما بعد اتخذ الناس هذه التماثيل آلهة يعبدونها واستمرت هذه الحالة إلى زمن نوح ـ عليه السلام.

وادعى بقى بن مخلد أن هذه الأسماء انتقلت إلى الهنود وأطلق الهنود هذه الأشياء على أصنامهم العظام.

ولما كان فى داخل كل صنم هندى جن يخبر المتعبدين بأخبار الغيب كان يظن الهنود أن أصنامهم تتكلم وتتحدث وتسمع.

ولما بدأت أصنام مكة أيضا تخبر مشركى قريش ببعض الأخبار عما سيحدث فيما بعد اعتقدوا مثل الهنود أن أصنامهم تنطق وتتحدث.

الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة

قال سيدنا عبد الله بن عباس وهو يتحدث عن سبب إسلام عمر الفاروق: وَعَدَ سيدنا عمر بن الخطاب صناديد قريش بقتل الذات النبوية الشريفة وذهب إلى بيت فى داخله صنم يتعبد له بعض البلهاء من بنى خزاعة، ذهب ليؤكد لقريش بالقسم أمام الصنم بأنه سيوفى بوعده.

وبينما كان سيدنا عمر يستعد للقيام بقسمه صدر من داخل الصنم صوت هاتف. وقد تعجب أفراد قريش من صدور مثل هذا الصوت وأنصتوا فى قلق وخوف وحيرة لما يقوله الصنم فأدركوا أنه يردد الأبيات الآتية:

شعر

يا أيها الناس ذو الأجسام ... ما أنتم وطايش الأحلام
ومسندو الحكم إلى الأصنام ... أصبحتمو كراتع الأصنام
أما ترون ما أرى أمامى ... من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهامه ... حتى بدا نورا بأرض الشام
محمد ذو البر والإكرام ... أكرمه الرحمن من أمام
قد جاء بعد الشرك بالإسلام ... يأمر بالصلاة والصيام
والبر والصلات للأرحام ... ويزجر الناس عن الآثام
فبادروا سبقًا إلى السلام ... بلا نفور وبلا إحجام

وتفرق القرشيون الموجودون فى معبد الأصنام المذكور كما تتفرق صغار الحجل، واتجه كل واحد منهم إلى ناحية، بينما اتجه الفاروق الأعظم ـ رضى الله عنه ـ إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ومن هناك إلى بيت حمزة وعلى قول إلى دار الأرقم ابن الأرقم. ولكن قبل وصوله إلى ذلك البيت السعيد المشار إليه قابل رجلا من بنى سليم فقال له ما يدور فى نفسه. وحينئذ استصوب الرجل أن يذهب عمر قبل اتخاذ أى قرار إلى صنم قبائل بنى سليم الذى اتخذوه إلها والمسمى بـ ضمار[1] ليفصل فى القضية، وهكذا توجه الرجل إلى بيت أصنام بنى سليم، ولكن عمر سمع منه الأبيات الآتية فحطم ضمار الضخم من شدة غضبه.

شعر

أوْدَى الضمار وكان يعبد مرة	قبل الكتاب وقبل بعث محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى	بعد ابن مريم من قريش مهند
سيقول من عبد الضمار ومثله	ليت الضمار ومثله لم يعبد
أبشر أبا[2] حفص بدين صادق	تهدى إليه وبالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلا إنه	يأتيك عز فوق عز بنى عدى
لا تعجلن فأنت ناصر دينه	حقا يقينا باللسان وباليد

وبعد ما حطم سيدنا عمر ضمار وجعله ألف قطعة، قد تحولت العداوة التى كان يضمرها للنبى ـ ﷺ ـ إلى مودة أبدية؛ لهذا رجع فورا إلى المنزل أخته ومن هناك إلى دار ابن الأرقم السعيدة بصحبة زوج أخته، ودخل فى دائرة الإسلام المنجية على النحو المذكور فى كتب السيرة بالتفصيل. رضى الله عنه.

ـ حكمة:

وائل بن حجر «بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمى» أحد الصحابة الكرام[3]، ومن ملوك حضرموت المشهورين كان يعبد صنما لامعا من العقيق

(١) ضمار على وزن كتاب وهو الصنم الذى كان يعبده عباس بن مرداس وقومه.
(٢) كنية سيدنا عمر.
(٣) انظر ترجمته فى الإصابة ٦/ ٣١٢.

الأحمر، وكان يسجد احتراما وتوقيرا له وكان يذبح له قرابين كثيرة كل يوم بغية نيل رضاه.

قال هذا الصحابى: كنت نائما فى قصرى وقت الظهر فى يوم من الأيام، فاستيقظت إذ سمعت صوتا حادا يصدر من خزانة الصنم، فوثبت من فوق سريرى وأخذت أسجد بجانب الصنم، فسمعت فى ذلك الوقت هذه الأبيات التى تخرج من بطن الصنم.

الأبيات:

يـا عجبـا لوائـل بـن حجـر	يخـال يـدرى وهـو ليـس يـدرى
مـاذا يـرجـى مـن نحيـت صـخـر	ليـس بـذى عـرف ولا ذى نكرى
ولا بـذى نفـع ولا ذى ضـر	لـو كـان ذا حجـر[1] أطـاع أمـرى

وعندما سمعت هذا الشعر رفعت رأسى وقد ملأنى العجب والحيرة ومالبثت أن قلت:

يا أيها الناصح ـ بما تأمرنى؟ فسمعت صوتا يقول فى عبارات منظومة:

«شد الرحال إلى يثرب المباركة.. حيث يكثر النخيل.. فليس لفضلها حصر».

وفى نهاية الشعر المذكور سقط الصنم على وجهه وتحطم وتفتّتت أجزاؤه، وعقب ذلك ارتحلت إلى دار السكينة المدينة المنورة وأسرعت بالدخول فى المسجد النبوى الشريف، ودعانى رسول الله ـ ﷺ ـ وبسط طرف ردائه المبارك، وأقعدنى عليه ثم صعد المنبر وألقى خطبة بليغة وقال عقب الخطبة: «أيها الناس إن هذا الرجل هو وائل بن حجر، وقد جاء من بلاد بعيدة كحضرموت راغبا فى الإسلام» وما لقيت بعد ذلك رجلا من الصحابة فى المدينة إلا وقال لى: يا وائل إن النبى ـ عليه صلوات الله الأكبر ـ قد بشرنا بمجيئك إلى المدينة المنورة منذ ثلاثة أيام.

(١) يعنى وائل بن حجر.

الأبيات التى سمعها وائل من داخل الصنم

ارحل إلى يثرب ذات النخيل وسر إليها سير مشمعل[1]
قبل تقضى العمر المولى تدين بدين الصائم المصلى

محمد المرسل خير الرسل

وكان الصنم الذى تعبده قبيلة خطامه سببا فى إسلام «مازن بن غضوبة»[2] رضى الله عنه وهو من وجهاء تلك القبيلة.

وكان هذا الصنم إله قبيلتى (خطامة وصامت) وقد عين أفرادهما مازن بن غضوبة خادما له.

وقال مازن بن غضوبة هذا وهو يتحدث عن الحادثة التى أدت إلى إسلامه: «كنت قد ذبحت ضحية للصنم الذى أخدمه تقربا له وطلبا لنيل رضاه، وفجأة سمعت من جوف الصنم صوتا يخاطبنى، ويقول: يا مازن استمع إلى لعلك تسر وتسعد لقد بعث رسول من أحفاد بنى مضر لإظهار الدين الحق وإعلائه، فاترك الآن عبادة الحجارة المنحوتة وانج بنفسك من نار جهنم المحرقة.

وهكذا سلب منى عقلى وشعورى، وتعجبت من حال الصنم وتحيرت حتى لم أدر ما أفعله تجاه هذا الأمر، وبعد أيام جاء رجل من قبيلة أزد وقال هل تعلمون أنه قد ظهر فى مكة المكرمة رجل يسمى «محمد»، ويدعو من يقابله واستجيبوا لدعوة الله، وهكذا أخبرنا بظهور النبى ﷺ.

بينما تعجب الناس من هذا الخبر، قلت لنفسى، هذه هى حقيقة ما سمعته من الصنم فى اليوم السابق، وبعد أمد حطمت ذلك الصنم جذاذا، وقد نلت عز المثول أمام الرسول ـ ﷺ ـ وقبلت الإسلام دينا.

هناك كهنة فى الجاهلية دخلوا الإسلام بإغراء الجن وتحريضهم، يقول عبد الله بن كعب ـ رضى الله عنه ـ: بينما كنت جالسا مع عمر بن الخطاب ومعنا أناس آخرون فى المسجد النبوى السعيد، دخل أحد الأعراب فى المسجد وجاء إلى

(١) المشمعلّ: السريع. يكون فى الناس والإبل انظر اللسان: شمعل. ص ٢٣٢٨. ط. دار المعارف.
(٢) انظر ترجمة مازن بن غضوبه فى الإصابة ٦/ ١٥-١٦، وثقات ابن حبان ٣/ ٤٠٧. وقصة إسلامه هذه فى دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٢٥٥ وما بعدها.

جانبنا، فقال حضرة الخليفة عندما رأى الرجل: إن هذا الإنسان كان من كهنة أهل الجاهلية ورد على سلام الأعرابى وقال له هل أسلمت؟ فأجابه الرجل: نعم يا أمير المؤمنين نعم أسلمت ونجوت من دنس الكفر والضلالة.

قال: ألم تكن كاهنا فى الجاهلية؟ فأجابه قائلا: يا أمير المؤمنين لا داعى لذكر الماضى، قال عمر إذ تلقى هذه الإجابة الدالة على الندامة ـ داعيا رافعا يديه: «يا رب لقد كنا نعبد الأصنام إلى أن أنعمت علينا وأكرمتنا ببعث الرسول الكريم والنبى الحبيب ـ ﷺ ـ يا رب إننا نادمون آسفون على ما مضى من زمان قضيناه فى عبادة الأصنام يا رب تجاوز عن ذنوبنا واغفر لنا».

وبعد هذا الدعاء وجه كلامه إلى الأعرابى المذكور قائلا: حدثنا عن قرينك الذى كان يخبرك بالغيب فى زمن كهانتك، وكيف أغراك ودفعك إلى قبول دين محمد؟!.

فأجاب الأعرابى على النحو التالى جاء الجن الذى يرافقنى قبل شهر من إسلامى وقال هذه الأبيات:

شعر

عجبت للجن وإبلاسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمن الجن كأرجاسها

رغم أن رفيقى لم يقل شيئًا آخر غير هذا الشعر إلا أنه رجع فى اليوم التالى وأنشد الأبيات الآتية:

عجبت للجن وإجلابها ... ونصبها العيس وأعمالها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمن الجن كضلالها

ورجع رفيقى فى الليلة الثالثة، وقرأ الأبيات التالية:

عجبت للجن وإجلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما زُمَّعُ الجن كصُيَّابها

عندما أتم الأعرابى كلامه وسكت قال حضرة الخليفة مصدقا المشار إليه: ذات

يوم كنت أجلس بجوار الصنم وقد ذبحت عجلا قربانا إلى أحد الآلهة التى كنا نعبدها فى الجاهلية، فخرج من جوفه صوت رقيق يثير الشوق وقال: أيها الشيخ أعلن بلسانك الفصيح صحة أمر لا إله إلا الله، وانشره بين الناس.

وقال «جبير بن مطعم» أيضا أن أباه سمع بعض الكلمات من أحد الأصنام التى يعبدها. قال مطعم حسب ما يرويه ابنه وينقله: كنت جالسا يوما فى بيت الأصنام إذ تكلم الصنم الذى كنت جالسا بجانبه، فقال: استمع إلى ما يثير عجبى استمع إلى تخمين حان وقته سيظهر من العرب رسولٌ من سلالة هاشم بن عبد مناف. إن مسقط رأسه سيكون مكة المكرمة ومهجره سيكون المدينة المنورة.

وبعد أن قص سيدنا جبير هذه الحكاية التى سمعها أبوه من الصنم المذكور، أضاف أنها قد حدثت قبل البعثة المحمدية ـ عليه وعلى آله أفضل التحية ـ بفترة طويلة.

ومن الصحابة الكرام الذين أسلموا بإغراء من الجن هو «تميم الدارى»[1] قال: حضرة تميم وهو يعرفنا بسبب اعتناقه الإسلام: وأنا فى طريقى إلى الشام ذات يوم ـ أقبل الليل، فقررت أن أنام فى مكان هادئ فى أحد الوديان، فترجلت من فوق دابتى واتجهت ناحية المكان الذى اخترته، وبعد برهة سمعت هاتفا يقول: نلجأ إلى الله الواحد، وآمنا مع كوننا من الجن لم نجد أحدًا غيره نلوذ به لقد ظهر حضرة رسول الثقلين ـ ﷺ ـ وقد صلينا خلفه فى جبل حجون[2] بعد أن اتبعناه، قد اعتنقنا الإسلام وآمنا برسالته، فأسلم أنت أيضا حتى تسلم.

وقد سمعت كلاما بهذا المعنى وبادرت فى ترك المكان وذهبت إلى دير أيوب، وحكيت ما سمعته إلى راهب الدير الذى قال: نعم لقد ظهر خير الأنبياء فى الحرم ـ وسيهاجر إلى الحرم فتوجهت فورا ـ إذ سمعت هذا الكلام إلى مكة المعظمة فوجدت حضرة النبى ﷺ واحتميت بدائرة الإسلام المنجية[3].

(١) دار بن هانى بن حبيب، هو والد بطن من العرب، وهو تميم بن أوس الدارى، من الصحابة الكرام. انظر الإصابة ١/ ١٩١.

(٢) اسم جبل فى مكة المكرمة.

(٣) نقل الإمام الواقدى هذه الرواية عن خالد بن سعيد، وقد نقل هو أيضا عن تميم الدارى.

من الذين آمنوا بإغراء الجن أيضا خُرَيم بن فاتك بن الأخرم يروى أن الحكاية الآتية قد نقلت عن خريم بن فاتك ذاته[1].

«ذات يوم، كنت أبحث عن دابة ضالة لى وسرت حتى وصلت إلى مكان موحش، ولما وجدتها كان قد أنهكنى التعب، فربطت دابتى التى كنت أمتطيها ورأيت الاحتماء بهذا المكان وكان هذا المكان واسعًا ثم استندت على حلس البعير، وقبل الاستغراق فى النوم سمعت من الهاتف الشعر الذى سيكتب فيما بعد.

ولأن قلبى كان قد امتلأ بنور الإسلام قلت: أيها الهاتف من أنت؟ فجاء الجواب: أنا بن مالك بن مالك فإذا أردت أن تسلم فأنا أكفيك مؤونة البحث عن جملك الضائع وأوصله إلى بيتك إلى أن تعود إلى أهلك وعيالك فسمعت هذا الكلام وذهبت إلى المدينة المنورة بلا تأخير.

وتصادف وصولى إلى مدينة طيبة ظهيرة يوم الجمعة، فتوجهت رأسا إلى المسجد النبوى الشريف وكان الرسول ـ ﷺ ـ يلقى الخطبة فقلت لنفسى لأقف خارج المسجد إلى أن تنتهى الخطبة الشريفة إلا أن أبا ذر الغفارى جاءنى وقال يا خريم، قد وصل إسلامك إلى مسامع النبى ـ ﷺ ـ وقد بعثنى إليك لأبلغك سلامه وسروره بإسلامك ادخل إلى المسجد وأدِّ الصلاة مع الجماعة وبعد الصلاة قابلت رسول الله ـ ﷺ ـ الذى قص لى ما حدث فى ذلك الوادى وأن الهاتف سالف الذكر قد أوصل جملى إلى بيتى وأوفى بوعده.

هذا هو الشعر الذى استمع إليه خريم من الهاتف[2].

تعـوَّذْ بـــالله ذى الجـــــلال ووحِّـــد الله ولا تبـــــــال

مـا هـول الجـن مـن الأهـــوال

فتحير خريم بن فاتك عندما سمع هذه الأبيات وقال: يا هاتف ـ يرحمك الله ـ وضح لى صراحة ما تريد أن تقوله فقال الجن الذى ظل مختفيا.

(١) إن حضرة خريم من الأصحاب الكرام ترجمته فى الإصابة ٢/١٠٩.

٢) هذا الهاتف كان من الجان الذين آمنوا بنبينا سيد الثقلين.

هـذا رسـول الله ذو الخيـرات يدعـو إلـى الجنـة والنجـاة
يـأمـر بالصـوم وبالصـلاة

وكانت المنظومة المذكورة التى أجاب بها الهاتف تعنى أن رسول الله ﷺ هو صاحب هذه الخيرات وأنه يدعو إلى الجنة والنجاة ويأمر بالصوم والصلاة، وهى إشارة إلى صدق ما يدعو إليه الرسول - ﷺ.

ومن الذين آمنوا أيضا بناء على ما أخبره به الجن سيدنا سلمة بن زيد[1].

قال حضرة سلمة الذى ينتهى نسبه إلى بطن من بطون قبيلة خثعم كان أفراد قبيلتنا لا يعتقدون فى حرمة أى شئ قط وبينما كانوا ذات يوم يعبدون أصنامهم ويجرون طقوسهم فجأة سمعوا صوت الهاتف يقول يا أيها الناس أصحاب الوجود. لماذا تنظرون إلى أوهام الرؤيا؟ لماذا تستمعون إلى الناس[2] الذين يسندون الحكمة إلى الأصنام وينسبون إليها. إن هذا النبى[3] سيد الناس وإنه أحكم الحكام يعلن عن نور الإسلام وإنه أسد فى بلد الله الحرام، وإذ سمع أفراد قبيلتنا ما يفيد تلك المعانى فاهتموا كثيرا وتفرقوا وقفلوا راجعين إلى منازلهم حتى إن أفراد القبيلة قد حفظوا هذه الأقوال وظلوا يذكرونها إلى أن ظهر النبى - ﷺ.

قالت فاطمة بنت النعمان[4] النجارية: كان هناك جن يأتى كل يوم إلى منزلى ويعاكس هذا وذاك، وذات يوم جاء وصعد فوق الجدار وبدا إلى حائرا هادئا وإننى لم أكن قد شاهدته حائرا وساكنا هكذا فزاد اهتمامى فسألته ماذا حدث لك هذا اليوم حتى تقف هكذا مهذبا هادئا؟ فبدأ الكلام قائلا: لقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - نبيا يحرم اليوم الزنا، وهكذا فهمت أن نبينا قد بعث عليه الصلاة والسلام.

ومن الذين اعتنقوا الإسلام بنطق الأصنام عبد الله بن ساعدة الهزلى. قال

(١) حضرة سلمة بن زيد من الأصحاب الكرام.
(٢) المقصود منه الشخص الذى جعلهم يتخذون الأصنام آلهة.
(٣) المقصود به نبينا محمد ﷺ.
(٤) نعمان النجارى من الأصحاب الكرام. انظر الإصابة ٦/ ٢٤٤، ترجمة ٨٧٥١.

حضرة عبد الله: كان الصنم الذى نعبده ونقدسه «سواع» وكنت أعتقد كما يعتقد أفراد القبيلة التى أنتسب إليها أن سواع قادر على فعل كل شىء وبناء على هذا الظن كنا نعبده ونجله وبدا يظهر أشياء خارقة ولعله نتيجة لإيماننا به ـ وهذا مما زاد وقوى عقيدتنا فيه. وأنا أيضا ذهبت إليه يوما من الأيام حاملا معى غنما مصابا بالجرب طلبا للشفاء عنده. وإذا بجن فى بطن سواع يخاطبنى قائلا: وآسفا ـ أن الستائر قد أسدلت وقد صعق الجن بالشهب الأصنام فقدت حكمها وسيطرتها. قد نزل خير الكتب[1] وبعث خير العرب[2]. وهذا كان مفاد[3] كلماته.

وعندما سمعت هذا القول. رجعت إلى بيتى وكرهت عبادة الأصنام وأسرعت لاستكناه الأحوال ومعرفة الأخبار فعلمت أن النبى ـ ﷺ ـ قد بعث فى مكة المكرمة وفى الحال ذهبت هناك واعتنقت الدين الإسلامى المبين.

خرج مالك بن نفيع[4] يوما إلى الحقول للبحث عن جمله الضائع وبعد أن ظل يبحث عنه مدة طويلة وجده فى مكان ما وعزم على العودة ولكن المساء قد فاجأه ولم يرد أن يسير ليلا كعادة العرب ونام فى سفح جبل وراح فى سبات.

يقول مالك هذا: بينما كنت فى حالة يقظة لم يغلبنى النوم بعدما سمعت هاتفا يقول: يا مالك! يا مالك! لو حضرت المكان الذى برك فيه جملك قليلا ستجد شيئا يسرك ويجعلك محظوظا، فسحبت جملى إلى مكان آخر وحضرت إلى المكان الذى كان فيه جملى، ووجدت فيه صنما قد نحت على شكل امرأة فأخذته ونصبته فى نفس المكان، إن ظهور هذا الصنم ملأنى فرحا وسرورا حتى إننى وهبت أحد جمالى قربانا له وسميته غلاب وحملته على جملى الآخر وعدت إلى بلدى.

وقد حسدنى الناس على حسن حظى وأرادوا أن يأخذوه منى وينصبوه فى مكان عام، ولكننى لم أهتم بجلبتهم وصياحهم فأخذت غلاب ونصبته فى مكان معين من بيتى.

(١) هو القرآن الكريم.

(٢) هو نبينا محمد ﷺ.

(٣) لابد أن هذا الجن كان كافرا لأنه يتأسف على نزول القرآن وبعث نبينا ﷺ.

(٤) مالك وأخوه حارث بن نفيع الأنصارى من الصحابة الكرام. انظر الإصابة ٧/ ٨٤ ترجمة ٥٢٧.

وحينما أخذت غلابا إلى بيتى كنت قد نذرت أن أذبح له كل يوم قربانا وذبحت فى ظرف ثلاثة أيام ما كنت أملكه من الأغنام ولما لم يبق معى ما أقدمه له قربانا ذهبت إليه لأعتذر له.

وعندئذ خرج من جوف الصنم صوت يقول: يا مالك! يا مالك! لا تأسف على مالك الذى تلف بل أذهب إلى جانب البئر الواقعة فى بلاد قبيلة «أرقم» فستجد هناك كلبا أسود، فخذه واذهب إلى الحقول للصيد فتغتنى.

بعدما وضح مالك ما قال غلاب وعرفه قال وهو يبين كيف وجد ذلك الكلب وكيف استخدمه فى الصيد بالأمر: خرجت إلى الطريق وذهبت إلى البئر التى فى بلاد قبيلة أرقم فاستقبلنى كلب أسود فربطته من عنقه وأخذته معى وتوجهت إلى الحقول للقنص، وسرنا فى الحقول مدة وإذا بالكلب الذى فى يدى قد رأى غزالا وهاج حتى كاد أن يقطع الحبل الذى فى عنقه، ولكننى ترددت فى إطلاقه وفى نهاية الأمر أطلقته فجرى الكلب وقبض على الغزال.

وإننى قد سررت من جهد الكلب ورجعت إلى البيت وذبحت الفريسة قربانا لغلاب، وهكذا خرجت للصيد فى اليوم الثانى والأيام الأخرى حتى أصبحت من عادتى أن أخرج للصيد وأذبح ما أصطاده قربانا لغلاب وأوزع لحمه.

وفى يوم معهود جرى الكلب وراء نعامة ولكنه لمح فى الطريق غرابا، ونفر منه وتراجع، وكاد أن يدخل بين أرجل الفرس التى كنت أمتطيها. وبما أننى لم أر الغراب استغربت من حالة الكلب وترجلت من الدابة لأستطلع الأمر. حينما رآنى الغراب خاطب الكلب قائلا: يا كلب فأجابه الكلب ماذا يوجد؟ لقد هلك هذا وظهر الإسلام وأسلم أنت أيضا لتجد النجاة!! وعندما قال هذا اختفوا فجاءة من أمام عينى وأعتقد أن كلاهما كان من الجن والسبب فى دخول «ابن النفيع» فى الإسلام كان هذا الحادث.

اتفق أن «مالك بن مرداس السلمى» كان يتجول بين أشجار النخيل، وفى وقت الظهيرة ظهر رجل يرتدى ثوبا أبيض من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه وهتف له قائلا: يا عباس بن مرداس! إن الشياطين والجن الذين يسترقون السمع للأحداث السماوية قد تفرقوا وإن أحوال الدنيا قد تغيرت ـ من أولها إلى آخرها ـ

ألا تعلم أن نبيا بارا تقيا ملهما من قبل الله قد ظهر مساء الأثنين وليلة الثلاثاء ـ وهو صاحب الجمل المقطوع الأذنين ـ ففزع عباس بن مرداس فزعا شديدا ومضى إلى صنم قبيلة ضمار فأخبره ما سمع من كلام هذا الرجل وبينما كان يتحدث إليه خرج من بطن الصنم صوت عجيب يلقى هذه الأبيات:

قل للقبائل من سليم كلها ... هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد قبل أن ... نزل الكتاب على النبى محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهند

يقول عباس بن مرداس[1] حطمت «الضمار» ألف قطعة إذ سمعت فيه هذا الكلام ثم مضيت إلى المدينة المنورة ومعى ثلاثمائة من قبيلتنا ونلنا شرف المثول بين يدى الرسول ـ ﷺ ـ وبناء على أمره ـ ﷺ ـ قصصت ما حدث وأسلمنا كلنا فى حينه رضى الله عنهم.

إن هذه الواقعة مروية من قبل «عبد الرحمن بن أنس السلمى» وليس الضمار هذا الصنم الذى حطمه حضرة عمر بن الخطاب الفاروق بل هو صنم آخر يحمل نفس الاسم.

وعندما اقترب ظهور النبى ـ ﷺ ـ سمع عن كثير من الأصنام مثل هذا الكلام الموثوق من صحته والتى أخبرت بظهور النبى ـ ﷺ.

وبما أن أكثر ما سمع من أصنام مكة قبل البعثة كان الإخبار بما سيحدث والتنبؤ بالغيب وكان عبدة الأوثان يلاحظون أن ما يخبرهم به أصنامهم صحيح والأحاديث التى يخاطب بها الناس تطابق الواقعة لذلك زاد تقديسهم لهذه الأصنام والتمسك بها واعتمادهم عليها وتأكد إيمانهم بها فأقبلوا بإخلاص على عبادة هذه الأصنام.

والأصنام الخمسة التى مر ذكرها والتى وضعت فيما بعد فى مكة والتى حصل عليها عمرو بن لحى بن قمعة وحملها إلى مكة المكرمة وأخذ يتعبد لها ويحمل

(١) عباس بن مرداس السلمى من الأصحاب الكرام وشجعان العرب وهو شاعر منقطع النظير. انظر: الإصابة ٤/ ٣١ ترجمة ٤٥٠٢.

الناس على عبادتها قد اتخذها عرب الجاهلية آلهة لهم وأطلقوا على كل واحد منها اسما خاصا.

ويبين المؤرخون كيفية انتقال هذه الأصنام لبلاد العرب على يد عمرو بن لحى الضال على هذا الوجه:

كان عمرو هذا ـ بناء على اعتقاد أهل الجاهلية ـ تابعًا للجن وكان دائم الاتصال به ودائم الحديث معه.

وقال له الجن يوما: يا عمرو! إن تماثيل الآلهة الخمسة التى كان يعبدها الناس فى عهد نوح وإدريس ـ عليه السلام ـ قد ظهرت على سواحل جدة، فابحث عنها وبعدما تجدها انقلها إلى مكة.

وأسرع عمرو ـ وقد سمع ما قاله الجن ـ بالسفر إلى جدة وحمل تلك الأصنام من شواطئ جدة وعاد إلى مكة وأجبر الناس على عبادتها وقسمها بين القبائل المتفرقة وبعث لكل قبيلة فى موطنها بصنم خاص لها وهكذا بدأت عادة عبادة الأصنام بين العرب وأخذ كل سكان الحجاز من تلك الأوقات فى عبادة الأصنام.

وإن كانت هذه الرواية تكذب الرواية التى تقول أن عمرو بن لحى قد جلب هذا الصنم من أرض البلقاء فى الشام إلا أن إحضار عمرو الأصنام الخمسة إلى مكة من أرض الشام حدث بعد جلبة هبل.

ومع كل هذا قد ركز عمرو هبل[1] داخل الكعبة، وأهدى الأصنام الخمسة إلى رؤساء القبائل وهكذا حمل جماعات العربان على عبادة الأصنام ووفق فى نشر الوثنية فى الحجاز.

إن اللعين الذى حمل أحفاد بنى إسماعيل على الارتداد عن دين إبراهيم إلى الوثنية هو عمرو بن لحى الذى عاش ما يقرب من (٣٤٠) سنة وقد كتب له أن يرى ألف مقاتل من أحفاده وقد استمر حكمه وحكم أبنائه فى مكة المكرمة ٥٠٠ عام. ووفق هذا الحساب قد ظل بيت الله فى يد المشركين ألف عام وهو مكان لعبادة الأصنام.

(١) أول صنم أدخل الكعبة هو هبل وهو من اعظم اصنامهم.

ادعاء جمشيد الألوهية

يقول المؤرخون إن عبادة الأصنام قد بدأت فى أيام جمشيد العنيد من ملوك البشدادية.

وبناء على ما جاء فى ترجمة تفسير أبو الليث أن (جمشيد) أخو الملك (طهمورث بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام).

ويقال إن جمشيد أول من كشف وأوجد الأدوية المركبة والمفردة والتداوى بالنبات، كما كشف عن المعادن المتنوعة واستخدم الذهب والفضة وأنواع الزينة والجمال والملابس الحريرية المتنوعة وتطيب بأعواد العنبر، وصنع الخمر وأنواع الطيب والمعطرات.

دام ملك جمشيد ثمانمائة عام ودخلت الأقاليم السبعة فى حوزته وسخر الأنس والجن وحكم أهل المشارق والمغارب مما قوى شوكته وزاد فى عظمته.

وقد اعتلى جمشيد عرش الحكم فى عهد إدريس[1] ـ عليه السلام ـ وأقام العدل بين الناس وحرص على الوئام والمحبة لذا سمى رعيته يوم جلوسه على العرش نوروز وأصبح هذا اليوم من كل سنة عيدا لهم يحتفلون به كل عام.

ويقال إنه فى فترة حكمه قد رفع عن الناس ـ لحكمة ما ـ الموت والمرض والشيخوخة فما عرف فى ظرف ثلاثمائة عام من حكمه أن أحدا قد مات أو مرض أو شاخ.

وقد ظهرت فى زمانه بدائع الصنائع ومختلف آلات الحرب وطبقات الأمراء ودرجات المقاتلين ونصبت الخيام كما تم استخراج الجواهر واللآلئ من البحر وصناعة الإسبيداج والكلس وبناء الحمامات.

ولقد أمضى جمشيد أواخر أيامه فى الرفاهية والسعادة لا يفكر إلا فى ملذات طعامه وشرابه إذ بلغ ملكه أقصى ما كان يتمناه من قوة وعزة واحتشام.

وكان يفكر أحيانا فى حالته الصحية وكيف أنه لم يتعرض لمرض وكيف أنه لم يشعر بآلام فى أعضاء جسمه ولا أوجاع واضطرابات وكان يتساءل أحيانا قائلا: يا

(١) فى قول أنه فى عهد إدريس وفى قول آخر فى زمن صالح عليهما السلام.

ترى هل هناك شخص يشبهنى فى عظمتى وقدرتى ولم يصبه مرض فى مدة حياته؟!.

وحينئذ نسى بشريته وأخذ يحاول أن يفهم ماهيته، وغشيه يوم من الأيام نوم وعقب هذا حدث نفسه قائلا: على أغلب الظن أننى لست من جنس البشر، إذ كيف أكون بشرا ولم يصبنى مرض وتقلب المزاج والشعور بالكآبة. ولكنه نسى أنه فى حاجة إلى كل ما يحتاجه البشر من الأكل والشرب وقضاء الحاجة، وبعد فترة دخل الشيطان فى غرفته دون أن يشعر به حراسه وأيقظه من نومه.

ولما اقتحم عليه الشيطان حجرته وهذا لم يكن له فى الحسبان لأن اقتحام أحد عليه حجرته دون أن يراه أحد من الحراس كان ضربا من المستحيل بدون رؤية أحد من الحراس؟ لذلك تملكته الحيرة وقال له حينما رآه فجأة أمامه: من أنت؟ وتلقى ردا من إبليس المضلل: إننى ملك نزل من السماء قد جئت لأعرفك من أنت.

ولما كان جمشيد مشتاقا لمعرفة نفسه فكر أن هذا الشخص الذى يقتحم عليه حجرته لابد أن يكون شخصا ذا قدرة فائقة وربما يستطيع أن يعرفه بنفسه لذلك وجه إليه سؤال إذن أخبرنى من أنا؟ لأننى لا أشبه بنى البشر فى شىء؟ فرد الشيطان قائلا: لعلك نسيت من أنت؟

إنك رب سكنة السموات والأرضين!!.. وكنت فى السماء منذ ثمانمائة عام.. حينما استغرقت فى النوم فإننى هبطت بك على الأرض وفق أمرك..

إن عدم إصابتك بالمرض طول حياتك وانتصارك على ملوك العالم جميعا أليس دليلا كافيا على أنك إله.

كما أن دخولى إلى الحجرة بدون أن يرانى أحد ألا يثبت أننى رسول السماء؟! وهكذا خدع إبليس جمشيد الأبله بقوله المزخرف.

وقد قبل جمشيد الأدلة الواهية التى ساقها له إبليس واقتنع بألوهيته واستفسر منه الطريقة التى سيتحرك بها بعد ألوهيته فأجابه إبليس اللعين: يجب أن توقد فى هذا الميدان نارا عظيمة ثم تدعو الناس جميعا وتعلن لهم أنك إله وتطلب

منهم أن يسجدوا لك، وأن تلقى إلى النار كل من يمتنع عن السجود، وهكذا عرفه بطقوس المجوسية، وهكذا جعل إبليس اللعين جمشيد يوقد نارا حامية ويدعو الناس وجعلهم يسجدون له بعد أن أعلن ألوهيته فصدقه الناس. وبعد ذلك نصب خمسة أشخاص خلفاء له، وأعطى لكل واحد منهم صنما كبيرا وأرسلهم إلى أطراف مملكته بعد ما أمرهم بأن يدعوا الناس إلى السجود إلى هذه الأصنام وأن يعترفوا بألوهيته وأن ينال المصدقون التعظيم والتوقير وأن يعاقب المنكرون بإلقائهم فى النار.

كانت أسماء هذه الأصنام التى أعطيت للخلفاء: ود ـ سواع ـ يعوق ـ يغوث ـ نسر. وهكذا انتشر هؤلاء الخلفاء حاملين أصنامهم فى أرجاء العالم وابتدروا فى إضلال الناس بنشر طقوس الوثنية إلى أن مات جمشيد لعنه الله.

قد مات جمشيد بعد فترة من إرسال الأصنام إلى أطراف ممالكه، وهكذا نجا ربع سكان العالم من الاحتراق بنار الضلال، إلا أن مبعوثيه إلى أركان العالم أخذوا ينشرون طقوس الوثنية والمجوسية فى أرجاء العالم وأدخلوا أكثر الناس فى الوثنية.

قد قبض على جمشيد حيًّا فى نهاية الأمر فى حربه مع «الضحاك» ابن أخى شداد بن عاد، وقد جعله قطعتين بعد ما نشره بعظمة شبيهة بالمنشار لنوع من أنواع الأسماك.

عاش جمشيد ألف عام قضى ١٠٠ أو ٣٠٠ أو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة فى الحكم حسب الروايات المختلفة.

يدعى مؤرخو الفرس نبوة جمشيد، إلا أن ابن عباس قال إن القول ببعث نبى من الفرس كذب، وخرج روايات هؤلاء المؤرخين الواهية والذين يدعون نبوة جمشيد من مؤرخى الفرس الجهلة قد اقتنعوا أن سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ هو جمشيد، إلا أن جمهور أئمة الأخبار بينوا أن هناك أكثر من ألفى سنة زمنية بين سليمان ـ عليه السلام ـ وجمشيد، كما أن جمشيد قد كفر وأشرك فى أواخر أيام سلطنته، ويكفى هذا دليلاً على بطلان تلك الادعاءات.

ظهور طقوس الوثنية بين أحفاد إسماعيل

قد كثر أحفاد بنى إسماعيل المقيمين فى جوار الكعبة المعظمة. وأدى هذا التكاثر إلى تفرقهم فى أطراف البلاد فهاجر بعضهم إلى بلاد الشام، والبعض الآخر إلى بلاد اليمن، وعند هجرتهم حملت كل قبيلة قطعة من الحجر من الكعبة الشريفة تذكارا وتبركا منها، ووضعت الأحجار فى مكان مرتفع توقيراً لها.

وقد رأى الشيطان اللعين مدى استعدادهم لاعتناق الوثنية وعبادة الأصنام، فقال: الأولى أن نعبد الأصنام المصنوعة والمصورة بدلا من هذه الحجارة الغليظة الخالية من الذوق والجمال، وهكذا نحتت وصورت الأصنام الخمس السالفة الذكر، وحَمَلَ رؤساء القبائل على عبادة الأصنام بواسطة عمرو بن لحى، وقد ابتدر هؤلاء الزعماء فى عبادة الأصنام، وقد استحسنوا أقاويل الشيطان وانصرفوا إلى الوثنية وتقديس الأصنام بعد أن تركوا قراءة صحف إبراهيم جانبا.

أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل:

أول من اعتنق الوثنية من بنى إسماعيل هو **هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الأرذل**. إن هذا المنحط قد اتخذ الصنم الذى يطلق عليه «سواع» إلها وحمل قومه الذين يسكنون على بعد ثلاثة أميال من مكة المعظمة على تقديسه وعبادته، واستمرت ضلالة هذه القبيلة التى تعبد سواع إلى بزوغ شمس الإسلام فى عصر السعادة. وقد كلف عمرو بن العاص فى العام الثامن من الهجرة النبوية بهدم وتحطيم معبد أصنام هذيل، وقد نال الأجر والثواب بأداء عمله على أحسن وجه.

كان فى عصر السعادة لبنى سليم صنما يسمى: سواع يقوم بسدانته (غاوى بن عبد العزى) بينما كان غاوى بن عبد العزى جالسا يوما بجانب ذلك الصنم المنحوس جاء ثعلبان قافزين متواثبين، وصعدا فوق الصنم الذى تتعبد له قبيلة بنى سليم ورفعا رجليهما وبالا فوق رأس الصنم، ووسخا الصنم العظيم (سواع) ولطخاه.

وأنشد غاوى إذ رأى هذه الحالة:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وخاطب بنى سليم قائلا أقسم بالله أن هذا الصنم لا ينفع ولا يضر. ثم كسر سواع وجعله ألف قطعة، ثم توجه إلى المدينة المنورة حيث أسلم أمام النبى ـ ﷺ ـ وحينما مثل غاوى أمام النبى ـ ﷺ ـ استهجن اسمه، وسماه «أرشد بن عبد ربه» وظل اسمه أرشد بعد ذلك.

من المخذولين الذين تركوا دينهم عظيم من عظماء قبيلة قضاعة وهو «كلب بن وبره بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة»، وكان رجال القبيلة المذكورة يسكنون فى بلدة «دومة[1] الجندل» حتى حلول السنة المذكورة ويمضون أوقاتهم فى عبادة «ود» الذى اختاره لهم كلب بن وبره إلهًا لهم.

إن «ود» الذى اختاره بنو قضاعة إلها لهم ـ كما سبق ذكره ـ نحت على شكل رجل ضخم الجسم، بقدر لا يتصوره الإنسان، وقد ألبس طبقتين من الثياب وعلق على عنقه سيفا وقوسا.

إن قضاعة كان أبا لقبيلة كبيرة وإليه نسبت جماعات قبائل قضاعة، ويتصل نسبه بـ «حمير» بن سبأ فى الدرجة السادسة.

وكان لأبى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة تسعة أبناء هم: «خافى، عمرو، سليم، وبره، جرم، ملوان، أشجع، سعد، قدامة» وأحفاد هؤلاء أصبحوا فيما بعد ملوكا آباء قبائل. وقد نصب ابنه الرابع «وبره» خيامه فى «دومة الجندل» حيث استقر، وبعد موته خلفه ابنه ـ سالف الذكر ـ كلب والذى اعترف بألوهية «ود» وعاش حياته متعبدا له مع أتباعه البؤساء البلهاء.

ومن الأراذل الذين تركوا دينهم الشقى الذى اشتهر باسم «أنعم» من قبيلة طئ، وقد اتخذ هذا البائس صنما يطلق عليه «يغوث» إلها له وكان هذا سببا فى اتخاذ الناس هذا الصنم إلها لهم إلى سنة فتح كعبة الله.

(١) إن هذا المكان وقطورا طبقا لما بينه سيد جلبى على بعد ٥ مراحل من الشام و(١٥) مرحلة من المدينة المنورة، وهو حصن منيع ومدينة بحرية مشهورة.

وقد اتخذ هذا الصنم أهالى جرش من قبائل طئ ابن آدد بن مزحج بن آد إلها لهم وعبدوه.

والجرش اسم مقاطعة فى اليمن كان يسكنها بنو مزحج الذين اتخذوا الصنم المنحوس «يغوث» إلها لهم وعبدوه.

وقد اتخذ سكان حولان صنما يسمى «غم أنس» إلها لهم وحولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، **وفى رواية** حولان بن عمرو بن برة بن آدد بن زيد بن مهسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبائك **وعلى قول آخر** حولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مزحج بن آد، كانوا يسكنون فى البلاد التى أطلقب عليها حولان.

أن سكان هذه البلاد قد أخلصوا فى العبادة لـ «غم آنس»، حتى إنهم كانوا يعتقدون أن البركة والنماء سينقطع عنهم إذا لم يخرجوا سهما من حيواناتهم ومحاصيلهم ويقدموه إلى هذا الصنم.

من الذين يعبدون الجمادات هم قبائل همدان التى تسكن أرض (همدان)[1].

همدان: على وزن سكبان، اسم قبيلة يسكن أفرادها فى صحراء «همدان» فى الخيام، وكانوا يعبدون صنما كبيرا نصبوه فى قرية على شكل «حيوان» يقال له «يعوق» واستمروا فى التعبد له إلى قرب ظهور نور النبوة.

وكانت قبيلة ذو الكلاع فى مكان يطلق عليه حمير من أرض اليمن وتتعبد لصنم يطلق عليه «نسر».

حمير على وزن درهم اسم موقع على الجانب الغربى من صنعاء اليمن. وكان سكان هذه المنطقة وما حولها يعبدون صنما منصوبا فى مكان يسمى «بلخ» من أرض سبأ ويطلق عليه «نسر».

وكان أهل اليمن وحمير يعبدون «نسر» ويترددون كذلك على معبد الأصنام الذى يطلق عليه «رئام» فى صنعاء اليمن. وخلاصة القول أن العرب فى الجزيرة

(١) همدان اسم قبيلة كبيرة من سكان اليمن وإذا ما كتب همه دان فهو اسم لبلد فى عراق العجم الذى بناه هم دان ابن الفلوج بن شام.

كانوا يتخذون فى أسفارهم صنما كإله لهم، كما كانوا يوجدون فى بيوتهم أصناما وكانوا يزورونها ويتذللون لها حين خروجهم للسفر أو عودتهم منه وإنهم كانوا لا يعودون إلى بيوتهم قبل زيارة بيت الأصنام، ويتذللون لها ويظهرون خضوعهم لها بعد رجوعهم من السفر.

فى تلك الفترة التى خلت من الرسل كان بعض أفراد قريش يتعبدون لهبل الذى جلبه «عمرو بن لحى» من أرض البلقاء ونصبه فى داخل الكعبة، والآخرون يتعبدون لإساف ونائلة المنصوبين بالقرب من الكعبة المعظمة وبئر زمزم، وكانوا يطوفون حولهما ويذبحون لهما القرابين.

ويقال إن «إساف» المنصوب بالقرب من بئر زمزم بن بقى أو يعلى أو بغا أو عمرو من طائفة الجراهمة و«نائلة» هذه بنت ديك أو زيد بن جرهم أو سهيل أو ذئب أو عمرو بن ذئب من أقوام قطورا.

وبناء على قول منقول عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن إساف ونائلة أحبا بعضهما فى أرض اليمن، وحينما كان الجراهمة على ضلال خرج العاشقان إلى طريق مكة المكرمة بغية الحج، وحينما وصلا إلى مكة وجدا الكعبة الشريفة خالية من الناس وارتكبا جريمة الزنا فى داخلها، وكان جزاؤهما لحكمة ما أن تحجرا. وأخرج أهل مكة هذين المتحجرين خارج الكعبة، وركزوا إساف على جبل الصفا، ونائلة على جبل المروة، ترهيبا للذين يفكرون فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وتشهيرا لهما، وبعد فترة نسى سبب تحجرهما، وفى نفس الوقت تولى رئاسة حكومة الحجاز عمرو بن لحى، وصدق بين العرب ألوهية هبل، فما كان من عمرو إلا أن وضع واحدا من الصنمين بجانب الكعبة الشريفة، والآخر بالقرب من بئر زمزم، أى وضعهما بين الكعبة الشريفة وبئر زمزم اللطيفة، وأمر الناس بعبادتهما وتقديسهما.

وأخذ عرب الجاهلية منذ تلك الأوقات يتعبدون لهما، ويضعون الهدايا الواردة من الأطراف والأكناف بين إساف ونائلة متبركين بهما، وكانوا يبدءون بالطواف من إساف وينتهون عند نائلة، وكان من عاداتهم أن يقبلوا الصنمين عند بدء الطواف والانتهاء منه.

وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨).

عندما كره أهل الإيمان الطواف بينهما، نزلت للتبيان أنه لا حرج من السعى بين الصفا والمروة، وفى يوم الفتح كسر هذين الصنمين، وجعلا جزازا مثل سائر الأصنام التى كانت موجودة فى أطراف الكعبة المعظمة.

إن بعض قريش من أحفاد وأبناء ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر كانوا يتعبدون لصنم كان يقال له: «سعد الصخر» وعمرو بن حمة من أولاد أوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأسد بن الغوث وقبيلته كانوا يتعبدون مع قبائل خثعم وبجيلة لصنم كائن فى أرض دوس ويسمى «ذو الخلصة»[١] كما كان يتعبد بعض الجماعات من قبيلة بنى كنانة وطائفة من قريش لصنم كائن خارج مكة المعظمة فى بطن نخلة يطلق عليه «عزى» الذى هيأه للعبادة سعد بن ظالم، وقد أسند سدانة البيت الذى توجد فيه عزى إلى بنى شيبان الذين ينتهى نسبهم إلى سُلَيْم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان.

قال بعض المؤرخين الذين عرفوا «عزى» إنها شجرة عظيمة[٢] وقال الآخرون إنه بيت أصنام، وقال قسم منهم إنها صنم كبير[٣].

يقول الذين يدعون أن عزى «شجرة عظيمة» أن سعد[٤] ابن ظالم رئيس قبيلة بنى غطفان ذهب يوما إلى مكة، وأخذ يطوف بالبيت المعظم وبعد الطواف رأى أهالى مكة يسعون بين الصفا والمروة، فحسدهم على ذلك فأخذ من ساحة المسجد الحرام ثلاث قطع من الحجارة، كما أخذ من جبلى الصفا والمروة من كل

(١) ذو الخلصة اسم واحد من العرب. قد قتلوا أبا هذا الرجل، ولما أراد أن يثأر لأبيه ذهب ليسحب القرعة بالأزلام، وأمرته الأزلام بألا يطالب بثأر أبيه، واستجاب لأمر الأزلام وترك الثأر وقال هذه الأبيات:

لو كنت يا ذى الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢) قد قبلت هذه الرواية من الجميع لصحتها.

(٣) فالذين يدعون أنها صنم يقولون إن أطلال وبقايا هذا الصنم مازالت باقية خارج حصن الطائف مع بقايا الأصنام الأخرى.

(٤) اسم والد سعد فَزَارَة ولكنه كنى بهذا الاسم لكون اسم أخيه ظالما.

واحد منهما حجرا، ورجع إلى موطن قومه بنى غطفان فى بطن نخلة وركز الحجر الذى أخذه من الصفا فى مكان، كما ركز الحجر الذى أخذه من المروة فى مكان آخر، وأسند الحجارة التى جمعها من ساحة البيت الحرام على شجرة بينهما، ثم جمع قومه وخاطبهم قائلا: «يا قومى! إن أهل مكة يطوفون حول الكعبة كما إنهم يسعون بين الصفا والمروة، وإنهم اعترفوا بألوهية الكعبة والصفا والمروة وأقروا بها، ثم أشار إلى الحجارة التى جلبها من مكة وقال فليكن لنا واحد من أحجار الصفا والأخرى من المروة، وهذه الشجرة كعبتنا فلنتخذ هذه آلهة لنا ونطيعها».

وهكذا حمل أهل غطفان على عبادة هذه الحجارة، وقد استحسن أهل غطفان رأى سعد وأسندوا سدانتها إلى بنى شيبان من أولاد «سليم» بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَةَ بن قيس عيلان. وقد استمرت عبادتهم لها إلى عصر النبوة.

وقد أقاموا مبان حول هذه الشجرة وهكذا أصبحت الشجرة يظللها السقف وكانت هذه الشجرة من فصيلة نمرة وكان أهل غطفان يخلصون لها العبادة، إذ يستمعون إلى أقوال الجن الذى حل فى داخل الشجرة.

وبناء على هذا التعريف أن «عزى» بيت للصنم أقيم فوق شجرة من فصيلة «نمرة» وفى موطن قبيلة بنى غطفان، **وعلى قول آخر** إنها فى مكان آخر، وهى عبارة عن بناء أقيم فوق ثلاث أشجار كبيرة. وكان الذين يتعبدون لها يسمعون منها أصواتا مختلفة.

وقد كلف سيدنا خالد بن الوليد بقطع هذه الشجرة وقلعها، وفى أثناء قيام خالد بمهمته خرجت من داخل «عزى» عجوز شمطاء قبيحة المنظر، مبعثرة الشعر عارية، وأخذت تشد شعرها، بينما أخذ خادم البيت يصرخ ويولول إلا أن سيدنا خالد عجل بقتل العجوز، وقلع الشجرة من جذورها وهكذا محاها من الوجود.

وكان فى ذلك الوقت معبود بنى ثقيف الذين يقيمون فى الطائف صنما يقال له «مناة» وكانت قبيلة بنى ثقيف تقوم بخدمتها.

مناةـ كانت مناة معبود الجماعات التى تقيم حول مكان يسمى قديد الذى يقع على الجانب البحرى من جبل «مشلل»، كما كان يعبدها أهل يثرب وقبائل الأوس والخزرج الذين عرضوا تبعيتهم لسكان قديد.

مشللـ على وزن معظم اسم جبل ويهبط إلى قديد المذكور من هذا الجبل. وبناء على قول آخر أن مشلل اسم مطلع مقابل قديد وإن الصنم المذكور كان منصوبا فوق المطلع[1].

وعلى قول آخر أن مناة صخرة عظيمة كان يعبدها قبائل هذيل وقضاعة وأقوام من بنى ثقيف يزورونها ويطوفون حولها ويتقربون لها بالذبائح[2].

قد حطم هذا الصنم سعد بن زيد الأشهلى فى سنة الفتح وخربه. وظهرت من بطن مناة عجوز شمطاء سوداء الوجه، عارية الجسد، وأخذت تقتلع شعرها تصرخ وتنوح وتدق صدرها، وقتل سعد هذه العجوز، وحطم الصنم ألف قطعة.

وعند البعض أن مناة واللات والعزى كانت فى داخل الكعبة المكرمة، كما أن هبل كان داخل مخزن الهدايا لبيت الله مثل ما سبق ذكره عدة مرات.

لات: اسم فاعل من لت السويق، كان من عادة العرب فى الجاهلية وفى مواسم الحج لتّ السويق بالماء والسمن، ويخلطونه وينضجونه ويقدمونه للحجاج وكان اللات صورة هذا الرجل الذى اعتاد أن يقدم السويق للحجاج.

وبما أن هذا الرجل قد اتخذ لنفسه صنع السويق مهنة له أطلق عليه اللات. وفيما بعد صنع أحد رؤساء قبيلة بنى ثقيف صورة لهذا الرجل وأخذ يتعبد لها مع أفراد قبيلته.

إن الرواية التى تقول إن بنى ثقيف قد اتخذوا الصنم الذى أطلق عليه اللات إلها لهم هى أصح الأقوال.

(١) أكد الإمام السمهودى هذه الرواية.

(٢) وهذه الرواية مقبولة مصدقة عن الأكثرين.

وهناك رواية أخرى تقول: إنه لم يكن صنما، إذ كان هناك حيث يسكن بنو ثقيف فى الطائف صخرة[1] وكان رجل غنى قد فتح محلا فوق هذه الصخرة، يبيع فيه سمنا، وفى مواسم الحج كان يصنع سويقا ويخلطه بالسمن الذى يبيعه، ويطعم به الحجاج. وبما أن هذا الرجل كان يلت السويق فوق هذه الصخرة أطلق عليها اللات.

وبعد فترة ترك الرجل تجارته، وهجر الصخرة إلا أن عمرو بن لحى الملحد صحب بنى ثقيف إلى الصخرة، وقال لهم: إن الشخص الذى كان يصنع السويق ويطعم به الحجاج قد دخل فى هذه الصخرة، ومن هنا يجب أن نتعبد لها، وتلقى بنو ثقيف قول عمرو باستحسان وأخذوا يتعبدون لها.

وكان عمرو بن لحى يخدع بنى ثقيف قائلا: يا بنى ثقيف إن ربكم يبعث البرودة إلى الطائف بواسطة اللات، كما يرسل الحرارة إلى تهامة بواسطة العزى.

وعند البعض أن لاة مخففة من إله، وفى زعم بنى ثقيف أن اللاة وسيلة للتقرب إلى الله. وكان مشركو العرب يطلقون «اللاة» بمعنى الاحتجاب أو الارتفاع على كل صنم، وعلى هذا الاعتبار يعنى به المعبود. سواء أكانت اللاة المناة أو العزى أو الأصنام التى كانت عند زمزم المكرم.

إساف ونائلة كلها كانت من معبودات العرب الباطلة فى الجاهلية، ومعبودات أهل مكة وقد حطمت بتمامها يوم فتح مكة، وعند توسيع الحرم الشريف ترك كبيرها خارج باب السلام تحت موطئ الأقدام[2].

ومما يروى، أنه عند فتح مكة ـ اليوم المؤلم للمشركين ـ وجد خارج كعبة الله وداخلها ثلاثمائة وستون صنما، وكان كل صنم موضوعا فوق قاعدة مصنوعة من النحاس الأصفر.

(١) إن هذه الصخرة ما زالت فى الجهة الغربية من مدينة الطائف إلى يومنا هذا.

(٢) كما ذكر آنفا أن الصنم الذى وطئته الأقدام هو هبل، وغالب الظن أن الصنم الذى ديس بالأقدام ليس هبل بل صنم آخر.

إن قائد الأنبياء ـ عليه أقوى التحايا ـ أشار بأصابعه الشريفة إلى كل صنم فوقعت كلها على الأرض، وتحطمت أجزاءها، وكان كلما أشار إلى وجه صنم وقع على ظهره وكلما أشار إلى ظهره وقع على وجهه.

عندما حطمت نائلة ـ خرجت من جوفها عجوز دميمة سوداء الوجه عارية، وأخذت تنوح وتولول، وقال سلطان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ مخاطبا أصحابه ومشيرا إلى العجوز ـ هذه هى نائلة الى يتعبد لها المشركون، وإنها تنعى نفسها وتبكى لأنها لن تعبد بعد اليوم.

قد جمع الإبليس الأكبر ـ ولم يستطع صبرا على ما جرى ـ وأخذ يصرخ بحرقة حتى جمع أتباعه الشياطين حوله.

إخطار:

ينقل أن الشيطان قد صرخ وبكى وصاح مرتين قبل هذا ـ أول مرة عندما لعن من قبل الرحمن، والمرة الثانية عندما صلى النبى ـ ﷺ ـ أول مرة.

ومما يروى عن الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أن الشيطانين اللذين نالا شرف الإيمان: أحدهما قرين نَبِىّ آخر الزمان، والآخر ملازم نوح عليهما السلام[1].

معلومات خاصة بالجن والشياطين

من الوجهة الأولى إلى هذه الصفحة كتبت بحوث وحكايات ـ كلما جاءت المناسبة ـ عن الجن والشياطين وكان بعض الجن يحلون فى الأصنام والأوثان ويخبرون على لسانها بأخبار الغيب التى يطلعون عليها بالاسترق إلى الملأ الأعلى. يخبرون أهل الجاهلية الذين كانوا يتعبدون للأصنام، وحتى نؤيد هذا الادعاء سردنا هنا بعض الحكايات المروية والموثوقة، كما ذكرنا وقيدنا بعض الأبيات والفقرات المسجوعة المسموعة من الأصنام، ولا حاجة إلى إثبات وجود الجن والشياطين لأصحاب الفضل والإيمان.

(١) وفى الكلام عن الجن تفصيل ذلك.

ولأن كتاب «مراة الحرمين» قد يقع كذلك فى أيدى العوام من الناس، رأيت وجوب إيراد معلومات خاصة بالجن والشياطين فى هذا المقام.

فيا أيها القراء الكرام!! لا تعجبوا من وجود الجن والشياطين وما ينسب إليهم من أقوال، فقد ورد ذكر الجن والشياطين فى القرآن الكريم، كما رويت أشعار نسبت إلى الأصنام، وأخبر صحابة النبى الكرام بما روى من أشعار وأسجاع هاتين الطائفتين من المخلوقات لأن لهما القدرة على التشكل فى هيئات مختلفة، ويتكلمون بكل اللغات، ويقلدون البشر فى أصواتهم كما أنهم يضلون الناس عن سواء السبيل، وبين قبائلهم وعشائرهم نزاع وصراع وحروب، وكانوا يسترقون السمع إلى عهد النبى ﷺ ثم منعوا من ذلك.

ومما جاء فى كتاب (اليواقيت والجواهر) لعبد الوهاب الشعرانى: «إن وجود الجن ثابت بالقرآن الكريم والكتب المنزلة الأخرى، ويصدق من الخلف إلى السلف، وإن هذه الطائفة مخلوق ناطق يأكلون ويشربون ويتزوجون ويلدون».

ويقول الشيخ أبو طاهر القزوينى: «إن ما يدل على وجود الجن تخيل الناس آثارهم الخفية، وينكر المعتزلة وجود الجن، ويقولون إن الجن هم دهاة الناس، كما أن الشياطين هم المردة من الناس، وأولوا ما جاء فى القرآن الكريم عن وجود الجن وأوصافهم».

سؤال: من كم أصل يتكون المخلوقات عامة؟

جواب: يتكون الخلق من أربعة عناصر وفق قول الإمام الماوردى. وهى: الماء، التراب، الهواء، والنار.

المخلوقات الخفية من الهواء والنار، والمخلوقات الظاهرة من الماء والتراب. والنار، كما هو معروف، تتكون من الغور واللهيب أو الشعلة والدخان، والنور ضياء محض والدخان ظلام محض، والشعلة مارج متوسط ـ يعنى شر محض ـ وبما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الجن من مارج من النار فهو ينتسب إلى الملائكة من الناحية النورانية، كما ينتسب إلى الشياطين من ناحية الظلمة

والدخان، ومن هنا كان من الجن من هو مطيع ومن هو عاص، ومن هو مؤمن ومن هو كافر، وقد ورد فى القرآن الكريم: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧) وقد اختلفوا فى هذه النار ولذا قال بعضهم إنها نار الشمس، وقال الآخرون إنها نار البرق.

لننتقل للبحث عن إبليس:

هل إبليس من الملائكة؟ أم هو من الجن؟ وقد اختلف فى هذه المسألة أيضا.

بناء على رأى فريق أن إبليس كان من طائفة الجن التى استكبرت على وجه الأرض وعصت، وقد سل الملائكة سيوفهم وأسروا إبليس وساقوه إلى السماء وبهذا دخل فى زمرة الملائكة وإذا ما قلنا إن إبليس من الجن والملائكة نكون قد أصبنا الحقيقة الآن.

وبناء على قول فريق آخر إن إبليس من حيث الفعل من الجن ومن حيث النوع من الملائكة، فهو من ناحية فعله من الكفار.

يقول الإمام الماوردى فى كتابه المسمى (النبوة) وهو ينقل أقوال المنكرين: «إن خالق الكائنات خلق سكنة البحر والبر مثل الإنسان والنعامة والحيوانات المفترسة والطيور العادية والحشرات من الماء والطين كما خلق الحيوانات التى تعيش فى داخل الماء مثل الضفدع والسمك من نباتات الماء وأن هذه الأجناس الأربعة التى خلقت من أربعة من أصول صاعدة مثل الملائكة والجن فهم الصاعدون، واثنين من الأصول الأربعة هابطة مثل حيوانات البر والبحر فهى من الهابطة.

وقد اعتذر الإمام الماوردى عن نقله هذا الكلام قائلا: «إن ما ينقله ليس من رأيه ولكن هدفه من نقل هذا الكلام أن يفحم خصمه ويسكته بنقل ادعائه وكلامه».

وقال الشيخ أبو طاهر ـ رحمه الله ـ مرة أخرى: إن هؤلاء الجن عندما تكتمل صورتهم تزول صورتهم الأصلية بالقدرة الإلهية، يتشكلون بشكل آخر لا يشبه صورتهم الأصلية.

كما أن الإنسان قد تحول إلى لحم وعظم وبشرة بعد أن غابت عنه صورة الماء والطين والتراب، وكما اختلفت أشكال الحيوانات المفترسة والطيور والحيوانات الأخرى، وتشكلت بأشكال متغيرة كذلك زالت من الملائكة والجن والشياطين صورة الهواء، وداخلهم مكون من مصنوعات العالم ـ جل شأنه ـ إلى أشكال وهيئات لطيفة خاصة بهم لذا يطلق عليهم المخلوقات الروحانية.

إن المخلوقات الروحانية تتميز بعضها عن بعض بأشكال لطيفة خاصة بكل نوع؛ إلا أنه لا يعرف هيئاتهم إلا خالق العالم ـ سبحانه وتعالى ـ إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١). إن تشكل المخلوقات الروحانية ودخولهم إلى صور متنوعة نستطيع أن نشبهه بتغيير ملابسنا.

وإن هذه المخلوقات الروحانية تمر في هواء الجو مثل علائم السماء المخضرة المحمرة أو المصفرة أو ألوان أخرى مختلفة. كما أن «عبد الله بن عباس» بينما كان جالسا في المسجد النبوى الشريف مع والده رأى بمفرده صورة الرسول ـ ﷺ ـ مع جبريل، ولما أخبر الرسول ـ ﷺ ـ بذلك أخبره أنه سيصيبه العمى ولكنه سيتفقه في أمور الدين ويتفوق في التأويل والتفسير.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قدر لهذه المخلوقات أوضاعًا تستطيع بها أن تتشكل بصور مختلفة وقت ما تريد مثلما نحن نقدر أن نغير ملابسنا وقتما نشاء تغيير الملابس لنا وتغيير الصور لها. وكل موجود يتصرف بالشكل الذى قدر له فإن ملابسنا الثقيلة تتكون من الصوف والمنسوجات والحرير وملابس المخلوقات الروحانية تتكون من المنسوجات اللطيفة مثل الهواء والأشعة ومع ذلك فأجسام الملائكة والجن أخف من الهواء و أرق منه.

وعندما يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرى لنا الملائكة والجن يجعل للهواء كيفية خاصة ويأمر الملائكة والجن أن يتشكلوا بالشكل الذى يريدونه فيشاهدهم الناس حينئذ على الشكل الذى تشكلوا به.

قال الله ـ تعالى ـ في حق الملائكة: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩).

وإن كان من المستحيل أن يتحول الملك فى الحقيقة إنسانا ولكنه يدخل فى شكل الإنسان بواسطة الهواء، لأن الهواء إذا تكاثف مثل السراب يمكن رؤيته.

وإذا قيل ما معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ﴾ (الأعراف: ٢٧). **يجاب** بأنه لا يمكن رؤية الجن على شكله الذى خلقه الله سبحانه وتعالى؟ ولكن يمكن رؤيته على شكل الكلب أو الهر بل إن رؤيته على هذا الشكل هو ما يحدث فى أكثر الأوقات.

تفضل الشيخ الجليل وقال: «إن واحدا من الجن وجه إلى سبعين سؤالا خاصا بالتوحيد وطلب منى الإجابة بعد أن تشكل على شكل فصيلة الكلاب التى تسلم من الدنس وحدث ذلك فى ليلة من الليالى وقد غسل فرش المسجد الجامع بالماء والطين وطهره ظنا منه أنه كلب حقيقى».

قد أجبت على أسئلة الجن فى تأليفى اللطيف المسمى بـ «كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان».

وإذا ما قيل «هل سيحتجب الجن منا فى الجنة أيضا؟» يجاب عليه: بأن الأمر سينعكس فى الجنة كما أننا لم نرهم فى الدنيا وهكذا لن يروننا فى الجنة من حيث نراهم نحن كما أن بعض الخواص منا يراهم فى الدنيا وهكذا سيرانا بعض الخواص منهم».

سؤال ـ هل تتغير أصواتهم وفق تغير أشكالهم أم تظل أصواتهم الأصلية دون تغيير؟

جواب ـ تتغير أصواتهم وفق الشكل الذى يتشكلون به إنسانا كان أو بهيما أو حيوانات أخرى.

سؤال ـ إذا ما تشكل الجن بصورتنا هل يستطيعون أن يتلفظوا بكل الحروف كما نتلفظ نحن؟!

جواب ـ تطابق بعض حروفهم حروفنا بينما تخالف بعض حروفهم حروفنا عند الحديث لأن أجسامهم اللطيفة لا تتحمل الحروف الغليظة والصلبة التى نلفظها.

سؤال ـ كيف نستطيع أن نفهم كلامهم ناقص الحروف؟

جواب ـ إنهم لا يتحدثون بحقيقة حروفنا بل بالحروف المماثلة لها، فإذا تكلموا بحقيقة حروفنا وأنقصوا حرفا من كلامهم لما فهم منهم شيئا.

سؤال ـ هل يستطيعون الحديث بكلامنا وهم متشكلون فى صورة غيرنا؟

جواب ـ لا يستطيع أى مخلوق روحانى أن يقوم به إلا إذا كان شيئا خارقا للعادة.

سؤال ـ قيل فيما سبق «خلق الجن من مارج من نار» والمارج معناه المختلط ما كنه هذا الاختلاط؟

جواب ـ المارج «نار تحتوى على مواد رطبة ومن هذه ينشأ اللهيب والشعلة اشتعال الهواء لذا تحتوى على الرطوبة.

سؤال ـ الشياطين هم المردة والأشقياء من الجن فلم يدخلون فى كلمة الجان اسم الجنس؟

جواب ـ إن سبب دخول الشياطين فى اسم الجنس لأن الجان مخلوق بين الإنسان والملائكة.

والجان مخلوق عنصرى وهذا هو علة تكبره ـ لو كان خلق طبيعيا خالصا لما تغلبت عليه طبيعته العنصرية ولظل دون تكبر مثل الملائكة.

الجان مخلوق برزخى فى نشأته. فهو يحتجب ويتشكل فهو أقرب إلى الأرواح النورية لاحتوائه على لطافة النار من جهة كما أن له وجهة أخرى عن طريق النيابة فهو من عنصر الرماد كما أشار إليه الإمام الماوردى رحمه الله.

ويجرى الشيطان فى جسم الإنسان مجرى الدم، ولكن الإنسان لا يشعر به، لو لم ينبهنا لذلك النبى ـ ﷺ ـ لظلت ملابسة الشيطان لنا وإلقائه الوسوسة فى صدورنا مجهولا لدينا. إن الشياطين لا يظهرون لنا إلا فى حالة تجسمهم إلا أنهم أكثر قدرة على الاستتار من الجان.

سؤال ـ ما الفرق بين الجسد والجسم؟

جواب ـ هناك فرق بين الجسم والجسد: والجسم يرى عادة، فهو إما لطيف لا يرى وأما شفاف أو كثيف.

وأما الجسد فهو حالة المخلوقات الروحانية حينما تظهر فى اليقظة بالأجسام. وبعض الأجساد تظهر فى صورة تشبه الأجسام فى شعور النائم ومع هذا كل ما ذكر ليس أجساما بذاته ونفسه.

سؤال ـ هل صورة الجن أو الملك هى عين صورتهما عندما يظهران ويشاهدان؟

جواب ـ نعم إن الملك والجن هما حقيقة نفسيهما كما أن الكلام المكون من الحروف والأصوات فى الحقيقة كلام الله. قيل لأحد الناس عَرِّف الجن فقال: «إن الجن حيوان ناطق هوائى».

سؤال ـ هل هناك من الجن من لا يصدق القسم الذى يحلفه الإنسان بأسماء الله تعالى الحسنى؟

جواب ـ نعم يصدقون جميع الأيمان التى تحلف بأسماء الله ـ بخلاف الإنسان ـ إذ ليس بمقدورهم ردها.

يقول الشيخ أبو طاهر «إن الجن لا يتخابر ولا يجاوب إلا بالرقى إذا ما قُرئت رقية على مجنون فكأنك تلقى على الجن شعاعا من الشمس فيضطر إلى الطاعة وتمنعه من العصيان. قد سخرت لسيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ الريح كما سخر الجان. إن الجان مخلوقات بالغة اللطف والدقة والرقة والخفاء حتى إذا اختلطت بالفضة المذابة فى البوتقة فتسبب الرجرجة والاضطراب كما يسبب للإنسان الذى يحل فى جسمه. وعندما تقرأ الرقى على مجنون يزعجونه وهذا ثابت بالحديث الشريف الذى يخبرنا بأن «الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم».

سؤال ـ ما الدليل على أن الجن مكلف بالإيمان؟

جواب ـ الدليل هو قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

وقد رأى النبى ـ ﷺ ـ سبعة نَفَرٍ من الجن تحت نخلة ثم خط خطا حول عبد الله بن مسعود وأمره بألا يخرج من هذه الدائرة.

يقول عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه: «قد استمعت إلى نبى الإنس والجان ـ ﷺ ـ وهو يحاكمهم ويفصل منازعاتهم كما سمعت أصواتهم».

ثم علمهم النبى ـ ﷺ ـ «سورة الرحمن» كما جاء فى كتب التفسير وأمرهم بأن يؤدوا الصلاة.

سؤال ـ هل هناك دليل على دخولهم الجنة؟

جواب ـ نعم يدخلون، فقد سئل ابن عباس مثل هذا السؤال وبعد ثمانية أيام من البحث والتدقيق أجاب أن قول الله تعالى: ﴿ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ** ﴾ (الرحمن: ٥٦). دليل على دخول الجن فى الجنة.

قال الضحاك: إن الجن يدخلون الجنة ويجازون وفق أعمالهم مثل الإنس. وقال «سفيان» إنهم سينجون من النار بثواب إيمانهم ولكنهم سيمتثلون لقول الله ـ تعالى لهم «كونوا ترابا».

وبناء على قول الشيخ أبى طاهر أن أكثر الجن لا يعتقدون فى البعث كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ **وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا** ﴾ (الجن: ٧).

سؤال ـ هل سيظل الجن ممنوعا من استراق السمع منذ بعثة النبى ـ ﷺ ـ إلى يوم القيامة؟! أم المنع لوقت معين؟

جواب ـ الحقيقة أنهم سيمنعون إلى يوم القيامة، وبما أن الشهب تحرقهم عن الاستراق لذا لن يستطيعوا أن يخبرونا بأخبار الغيب.

سؤال ـ ما حقيقة الشهب؟

جواب ـ هناك قولان فى هذا الخصوص:

١ـ أنَّ الشهب نور بعد ما يحرق بشدة نوره الجن، يعود إلى مكانه ثانيا.

٢ـ أنَّ الشهب نجوم، تنزل من تحت السماء فتحرق الجن ولا تعود.

سؤال ـ هل إبليس أبو الجن كما يروى فى أقوال الناس؟

جواب ـ ليس إبليس أبا الجن. بل وجد الجن قبل إبليس ولكن إبليس أول العصاة.

سؤال ـ ما مدى قدرة إبليس؟

جواب ـ عمل إبليس هو أن يأتى الناس من حيث لا يشعرون ويهلكهم أو يلقى فى قلوب الناس الوسواس بحيث ينقص منزلة الناس عند الله، وإبليس لا يستطيع أن يؤثر فى عباد الله المؤمنين الأتقياء ولا أن يتسلط عليهم كما بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه يتسلط على الغافلين عن وحدانية الله ومَنْ يشركون به. إن الذين يتجنبونه ويحذرونه ولا يتبعونه ينجون من دسائسه وكيده.

وما أعظم دسائس إبليس وما أشدها وأكثرها فإذا ما انصرف الإنسان عن دسيسة من دسائسه فإنه يأتيه من طريق آخر ويسلك جميع السبل ليحمل الإنسان على اتباع طريق العصيان.

ومن جملة دسائس إبليس أنه يحمل للناس كشوفا صحيحة وعلوما تامة ويحاول أن يخفى الذى يقوم بهذا العمل، ومن إحدى دسائسه أنه يكشف للناس معاصى الآخرين ويهتك خفاء الأشياء ويظهر عورات الناس والشخص الذى يطلع على مثل هذه الأحداث يظن أنه وصل إلى درجة عظيمة من الفراسة دون أن يعرف أنها عطية الشيطان له وقد أصبح الشيطان سمعا له وبصرا.

إن مثل هذا العبد يجب أن يبادر بالتوبة حتى لا يكون من الهالكين.

ومن دسائس إبليس الخفية لأكثر الأولياء. هو الظهور فى قلب الولى وأن يدخل حيث يتوجه إليه بالتضرع والابتهال فيدخل العرش حينا والكرسى حينا والسماء حينا آخر. وإذا كان فى علم الله أن ينجى هذا العبد عَرَّفه أن كل هذه من حيل الشيطان، وهكذا يخيب إبليس فى سعيه ويضيع وقته سدى أما إذا لم يحفظ الله ـ سبحانه وتعالى ـ عبده هذا ـ نعوذ بالله ـ فيكون من الهالكين.

سؤال ـ هل يتسلط الشيطان لظاهر الإنسان أو لباطنه؟

جواب ـ إن شياطين الجن يتسلطون لباطن الإنسان بينما يتسلط شياطين الإنس لظاهره وباطنه وإذا ما وقع إغواء أو وسواس لظاهر الإنسان من قبل شياطين الجن إنما يقع بناء على إذن من شياطين الإنس.

سؤال ـ هل عداوة الشيطان أكثر شدة لأبى البشر أم لذريته؟

جواب ـ عداوة الشيطان أكثر لبنى آدم، لأن بنى آدم خلقوا من ماء والماء ضد النار واليابس يجمع بين آدم وإبليس، فقد خلق أحدهما من التراب والآخر من النار واجتماع التراب مع النار ليس كاجتماع الماء والنار. لأجل ذلك صدقه عندما أقسم أنه كان ينصح آدم ولكن الأنبياء ذوى الشأن لم يصدقوه لأنهم خلقوا من مادة مضادة للمادة التى خلق منها الشيطان.

وقد سلحنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعلامات تقوم مقام «البصر الظاهر» وأودعها فى قلوبنا بواسطة الشرع الشريف حتى نقاوم هذا العدو الشرس كما جند الملائكة فى عالم الغيب لحراستنا.

سؤال ـ يخبروننا أن هناك نوعا من الشيطان ليس بإنس ولا جن، هل هذا الخبر صحيح؟

جواب ـ نعم إنه صحيح. إن الشيطان فى جميع أحواله شيطان ـ صحيح، أن الشيطان فى جميع أحواله شىء حسى ويمكن أن يكون معنويا أيضا. وهذا يحدث عندما يجتمع أباليس الجن مع شياطين الإنس ويتحاورون ويتشاورون فيما بينهم عندئذ يظهر شيطان جديد معنوى.

سؤال ـ ما الفرق بين هؤلاء الشياطين الثلاثة؟

جواب ـ إن شياطين الإنس أو الجن يفتحون أبوابا فى قلوب العباد للتوجه لغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ بوساوسهم، أما الشيطان المعنوى فيستنبط من هذه الوساوس شبهات وضلالات لا يستطيع أن يستنبطها لا إبليس ولا غيره.

ويتخذ الشيطان أحيانا جسما إنسانيا ويبذل جهده لإغواء الناس وإضلالهم، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ (ص: ٣٤).

والمثل على ذلك يأتى الشيطان ويحاول أن يخالف العبد أوامر الله وإذا ما رأى أن دسيسته لن تقبل، يغير طريقته قائلا: «إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يؤاخذك إذا فعلت كذا» محاولا خداعه، وإذا ما أحس أنه لن يفلح فى هذه الطريقة أيضا يقول بحسن نية «إنك إذا أحسنت ظنا بالله تعالى فهو لا يؤاخذك لأنك عبد الله سواء فى طاعتك أو عصيانك والله ـ سبحانه وتعالى ـ يصنع شيئا ويقدره».

إن الشيطان يعلم جيدا أن المؤمن لن يعصى الله بدون تأثير خارجى كالتأويل والتزيين والوسوسة. لو كان المؤمن يعصى الله بدون وسوسة إبليس لما أوجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الشيطان.

سؤال ـ كيف يتناكح الجن؟

جواب ـ إن تناكح الجن يشبه تداخل الأدخنة المنبعثة من فرن للفخار، ويتلذذ الشخصان بتداخل بعضهما فى البعض ويشبه حملهم بتلقيح النحل ويتم بمجرد الرائحة.

سؤال ـ هل للجن قبائل وعشائر مثل الناس؟

جواب ـ نعم لهم قبائل وعشائر. وقد قامت فيما بينهم حروب كبيرة. وما نعرفه ونراه من الأعاصير ما هى إلا أثر من آثار حروبهم، وأحيانا يسدون الطريق لهبوب الرياح فى أثناء حروبهم فتنتج عنه قيام الأعاصير المثيرة للتراب والغبار، ولكن ليس كل إعصار نتيجة لحروب الجن.

سؤال ـ من الذى سمى أولا باسم الشيطان؟

جواب ـ أطلق على شخص اسمه الحارث. وقد عصى الحارث هذا ربه فطرده الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتناسل الشياطين كلهم منه. ولكن من آمن منهم مثل «هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس» التحق بصنف الجن المؤمنين ومن ثبت منهم على الكفر ظلوا شياطين.

ـ حكاية:

هناك كثير من الجن قد نالوا شرف اللقاء مع الأنبياء العظام ـ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ـ وبناء على رواية منقولة عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن أحد الجن قد جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى وضح النهار وطلب منه أن يتفضل بتعليمه القرآن الكريم.

قال أنس ـ رضى الله عنه ـ وهو ينقل هذه الحادثة:

كنا نتنزه فى يوم من الأيام بجوار المدينة المنورة مع النبى ـ ﷺ ـ فظهر أمامنا رجل عجوز وأقبل يسير نحونا وإذا به جن قد تشكل فى صورة إنسان.

قد أخبرنى النبى ـ ﷺ ـ بأنه من طائفة الجن. ولما أتى إلى جانبنا بدأ حوار بينه وبين الرسول ـ ﷺ.

الرسول ـ ﷺ ـ: إن هذا السير سير الجن.

الرجل العجوز: نعم يا رسول الله.

الرسول ـ ﷺ ـ: من أى جن أنت؟

الرجل العجوز: من هامة بن همام بن لاقيس بن إبليس.

الرسول ـ ﷺ ـ إذن بينك وبين إبليس أبوان؟

الرجل العجوز: هو كذلك يا رسول الله.

الرسول ـ ﷺ ـ ما عمرك؟

الرجل العجوز: قد أمضيت عمر الدنيا كلها ـ حينما قتل قابيل هابيل كنت بلغت بضعة أعوام وفى تلك الأوقات كنت أمضى أيامى بصيد البوم فوق الهضاب، وإفساد الأطعمة المطبوخة أو إثارة النزاعات بين الناس.

الرسول ـ ﷺ ـ أقبح به من عمل!!

الرجل العجوز: لا تلمنى يا رسول الله! إننى أسلمت أمام نوح ـ عليه السلام

ـ وتعرفت على هود ـ عليه السلام ـ وصاحبت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المنجنيق ويوسف ـ عليه السلام ـ فى البئر، وتشرفت بصحبة المسيح بن مريم ـ عليه السلام ـ وطلب منى عيسى ـ عليه السلام ـ أن أبلغك سلامه.

الرسول ـ ﷺ ـ عليه السلام ـ ما طلبك منى؟

الرجل العجوز: قد علمنى موسى التوراة الشريفة وعيسى الإنجيل المنيف وأتمنى لو تعلمنى القرآن الكريم، وفى نهاية هذا الحوار تفضل فخر الكائنات عليه السلام بتعليم العجوز القرآن الكريم، وبعد ذلك عاد العجوز بعد أن ودع الرسول ﷺ.

ـ حكاية:

عندما أضاءت بعثة الباعث لخلق الكائنات ـ عليه وعلى آله أفضل التحيات ـ الأقطار الحجازية بالهداية والنور، سرت شرارة نار الفتنة والانشقاق بين سكان «أم القرى» وبين عربان البادية مما حمل الناس على نقل أمتعتهم من مكان إلى آخر وفى أثناء هذه الفوضى تشكل مسلمو الجن بأشكال مختلفة، وأخذوا يعلنون أن نبى الثقلين قد بعث وحاولوا أن ينشرو الإسلام.

وقد أسلم خال الصحابى الجليل ربيعة بن أبى براء فى تلك الآونة فى صورة غريبة.

ينقل لنا حضرة ربيعة بن أبى براء ـ رضى الله عنه ـ سبب إسلام خاله بصورة غريبة ويقول:

عندما ألبس السلطانُ الكريم السِّيَر ـ عليه وعلى آله صلوات الله الأكبر ـ خلعة النبوة رأى خالى أخو أمى ثعبانا مخيف الشكل وأسلم من خوفه وعندما حكى لى هذه الوقعة قال لى:

بينما كنت أتنزه فى الحقول رأيت حية مخيفة وكانت تطارد ثعلبا ضعيفا فأردت أن أنقذ هذا الحيوان المسكين فأخذت من فوق الأرض حجرا إلا أن الثعلب وقع على الأرض فجأة وهلك. ولكن الثعبان أيضا قد قطع نفسه وكان الحجر الذى أخذته من فوق الأرض مازال فى يدى.

فقلت إن الثعلب المسكين قد مات من شدة خوفه من الحية. ولكننى لم أجد تفسيرا لموت الحية منقطعة إربا وهذا ما حملنى إلى تفكير عميق، وبينما أنا غارق فى حيرتى سمعت صوتا يقول: «ما أتعسك!! لأنك تَسَبَّبْتَ فى قتل نفس» وفى عقبه سمعت من ينادى:

«يا داثر» فانتبهت واتجهت صوب الصوت الذى ينادى لأعرف ماذا سيكون رد داثر وفى ذلك الوقت ظهر داثر قائلا: ماذا هناك؟ وعندئذ تلقى داثر الأمر الآتى اذهب إلى بلاد بنى عذافرة[1] وأخبرنا عن مدى جرأة هذا الكافر وما الجناية التى ارتكبها فزادت حيرتى إذ سمعت الهاتف والجواب الذى تلقاه وزاد خوفى وفزعى فنظرت حولى فاضطررت أن أوجه الخطاب إلى جهة الهاتف الغائب إذ لم أجد ملاذا ولا ملجأ.

فقلت ـ يا هاتف! أنا لم أقترف ذنبا ولم أقدم على جناية عمدا!

فقال ـ كنت سببا فى قتل نفس.

فقلت ـ لا علم لى بهذا!

فقال ـ ولكن عندى علم بذلك.

فقلت ـ أنا أعوذ برحمتك.

فقال ـ ماذا تريد أن تقول؟

فقلت ـ اعف عنى.

فقال ـ أفى الإمكان عفو كافر قتل نَفْسًا مؤمنة؟

فقلت ـ أنا مسلم.

فقال ـ إذن تكون قد نجوت.

فقلت ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فقال ـ نجوت، نجوت. ألا تستطيع أن تعود من حيث جئت، إن الحوار الذى

(١) عذافرة اسم قبيلة من الجن.

جرى بينى وبين الهاتف الغائب أدى إلى فائدتين، أسلمت ونجوت من الموت. وقد اهتز جسمى من الفرح وزادت حيرتى ودمعت عيناى، ولما أردت أن أعود إلى عملى إذا بى أتلقى الأمر الآتى «اركب الوحش بن الذئب واذهب حيث يسكن أبو عامر» فركبت الوحش الذى ظهر بجانبى وصعدت فوق الجبل العظيم الذى كان أمام طريقى وبعد مدة هبطت إلى الناحية الأخرى من الجبل، ولكن هنا ظهر أمامى فارسا وقال لى لا تتحرك، وسلم سلاحك. إن أمر الفارس الشديد قد أثر فى جسمى المضطرب وظننت أن حياتى قد قضى عليها، فاضطررت لتسليم سلاحى له. وقال الفارس بعد ما أخذ سلاحى.

- من أنت.
- أنا مسلم.
- السلام عليكم.
- وعليك السلام - فليجعلك الله - سبحانه وتعالى - فى ظل رحمة أبى عامر وحمايته.
- ومن أبو عامر؟
- أنا أبو عامر.
- معذرة، لم أعرفك.
- لا بأس - بشرى لك!! لا مجال للخوف لأهل الإيمان فى هذه البلاد.
- قد سرنى ما أخبرتنى به.
- كنت راكبا فوق الجبل. لماذا بقيت الآن مترجلا؟
- أين ركابك؟

وهنا وقفت وانتبهت لنفسى وحكيت له كل ما جرى بالتفصيل فأخذنى من يدى وأوصلنى إلى مقر جماعة الهوازن[1] استودعنى هناك وعاد إلى بلده. انتهى.

وكل هذه القصص تدل على صحة ما ينقل عن إسلام بعض الجن.

(١) إن هوازن بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهو اب لقبيلة كبيرة واولاد هوازن بكر وسبيع، وحرب، ومنبّه، ولاعقب لسُبيع، وحرب ابنى هوازن.

وقد أخبر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن وجود المسلمين والكفار من الجن، ويتفضل بالاستمرار فى حديثه ليبين هل هناك بين كفار الجن من يعتنقون الإسلام.

سؤال ـ هل يستطيع الشياطين الذين كفروا أن يصبحوا مؤمنين بعد قبولهم الإسلام؟

جواب ـ هذا موضع خلاف بين العلماء. وسبب الخلاف الآتى: قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما من أحد إلا وله قرين يأمره بالسوء، فقال الأصحاب الكرام: وأنت يا رسول الله فقال مجيبا: «نعم ولكن الله أعاننى عليه فأسلم» (حديث شريف).

فاختلف حفاظ الأحاديث فى حركة حرف الميم فى «فأسلم» فقرأها بعضهم بضم الميم ويكون معنى الحديث عندئذ إننى أنجو من شره وقرأها بعضهم بفتح الميم وأشاروا إلى أن قرين الرسول ـ ﷺ ـ قد قبل الإسلام دينا.

وأيد بعض أئمة الحديث هذا المعنى برواية الخبر اللطيف الذى يقول: «فلا يأمرنى إلا بخير».[1]

ولكن لا يمكن لإبليس أن يسلم بدليل حكم هذا الحديث، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد لعن إبليس إلى يوم القيامة.

سؤال ـ ما دام إبليس أول العصاة هل يجب أن يتساوى مع قابيل؟

جواب ـ نعم وهو كذلك. فقابيل أول أشقياء بنى البشر كما أن إبليس أول عصاة الجن، ألم يقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥٠). ومعناها أن هذا المخلوق من جنس العصاة.

سؤال ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه المنزل على لسان إبليس ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦)، ألا يشير معنى الآية الكريمة إلى أن إبليس موحد فى أعماق نفسه؟

(١) أخرجه مسلم فى ٥٠ كتاب صفات المنافقين، (١٦) باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم ٦٩، ٧٠ص ٢١٦٨ والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٠٠ـ١٠٢ (الروايتين)وانظر الهامش بدلائل النبوة ٧/ ١٠٠ـ١٠٢.

جواب ـ لا يدل هذا على توحيده، لأنه هو الذى كان سببا فى وجود الشرك. وإذا فرضنا أنه قد وحد فى ذلك الوقت، فمن المحتم أنه بعد قليل أصبح كافرا.

سؤال ـ الكفر الذى يأمر به إبليس ليس شركا: لأن الكفر هو اتخاذ المخلوق إلها آخر غير الله بينما الشرك هو جعل مثيل وند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى هذا التقدير فكيف يكون إبليس أوجد الشرك؟

جواب ـ: إن المقصود هنا من الكفر هو الشرك، كما قال لقمان مخاطبا ابنه. وقال الله ـ تعالى ـ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩) والمقصود من الظالمين هنا هم المشركون. وكذا تفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ جل من قائل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، وقال ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢)، إن المقصود والظاهر من كل هذه الآيات هو التوحيد ومقابل الشرك هو التوحيد.

سؤال ـ الجلوس مع الجن مذموم أم محمود؟

جواب ـ مذموم وليس بمحمود. فالعلماء الذين يجيزون الجلوس معهم جهلة، لأن الجن فضوليون كفساق الناس فبما أن العاقل يفر من مجالسة الفساق يجب عليه أن يفر من مجالسة الجن، وفى الواقع ـ لكون أصلهم من النار ـ فهم كثيرو الحركة ومن هنا فهم ميالون للفضول. فجلساء الجن لم ينالوا خيرا وإن شرهم لشديد لجلاسهم وإنهم كفساق البشر يحاولون أن يطلعوا على عورات الناس وهذا ليس من شأن العقلاء.

ويقول الشيخ محيى الدين ـ قدس سره ـ فى باب ٥١ من الفتوحات لم يستطع أحد أن يعلم شيئا عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمجالسة الجن، لأن الجن أجهل من الناس بصفات الله تعالى والعالم الطبيعى، ويمكن أن يتخيل جلاس الجن أنهم يستطيعون الاطلاع على أحداث العالم ووقائعه لكن هذا الموضوع مرتبط بإرادة الله وكرمه مهما يعلمون فقط بعلم السيماء الخاص بالنباتات والأحجار والأسماء والحروف والذين يتعلمون هذا يتعلمون ما ذمته الشريعة الإسلامية. لأن الذين يجالسون الجن يكتسبون صفة التكبر والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذم المتكبرين ونص على دخولهم النار. انتهى.

هذا وإن كان أهالى مكة المعظمة انشغلوا بالتعبد للأصنام إلى يوم الفتح، إلا أنهم كانوا يحترمون الكعبة المعظمة حق الاحترام ويرعونها.

كما أن عرب الجاهلية يفدون إليها فى مواسم الحج من جميع جهات الجزيرة ويقومون بأداء الحج.

وكانوا ينبهون أولادهم بأن يتجنبوا ارتكاب المعاصى والبغى والشقاوة، ويغرسون فى قلوبهم احترام بيت الله ويأمرونهم بمراعاة حرمة بيت الله والابتعاد عن جميع ما يسئ إليه وإلى مكة المكرمة وينشدون القصائد فى مدح بيت الله ويحرصون على تفهيم أولادهم كيفية احترام الملك التابع لبيت الله الحرام وكيف هلك الجبابرة من الأسلاف الذين أساءوا إلى البيت، وخاصة كيفية هلاك أصحاب الفيل الذين أتوا لتخريب البيت الحرام.

وقد أدرجنا هنا بعض الأبيات من القصيدة المطولة التى قالتها سبيعة بنت الأَحَبّ بن زبينة بن جذيمة بن عوف[1] بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان لابنها «خالد» بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة فى تعظيم بيت الله، وذلك لنثبت صدق مدعانا.

الأبيات:

أبنى لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بُنىَّ ... ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكة ... يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه ... ويَلُحْ بخديه السعير
أبنى قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما ... بنيت بعرصتها قصور
ولقد غزاها تبع ... فكسا بنايتها الحبير
وأذل ربى ملكه ... فيها فأوفى بالنذور

(١)انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٨ـ وسيرة ابن هشام ١/ ٢٥ ط دار الفكر بتحقيق محمد فهمى السرجانى.

ويظل يطعم أهلها ... لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى ... والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه ... يرمون فيها بالصخور
والملك فى أقصى البلا ... د وفى الأعاجم والجزور
فاسمع إذا حدثت واف ... هم كيف عاقبة الأمور[1]

إن شدة تقديس أهل مكة للبقعة المباركة لكعبة الله وعظيم تقديرهم لها وكذلك وفود الحجاج إليها من كل فج عميق من أنحاء الجزيرة العربية، ملأ قلوب بعض الملحدين حسدا وعيظًا وحقدا، لذا حاولوا أن يهدموا بيت الله الحرام وأن يبنوا فى بلادهم كعبة أخرى. ومن هنا كانت قصة أصحاب الفيل المليئة بالعبر قبل ولادة النبى ـ ﷺ ـ الباهر السعادة بأربعة وخمسين يوما.

قد أراد «أبرهة» الوثنى من حكام اليمن وقد جمع حوله بعض القبائل وأقدم. على هدم وتخريب كعبة الله المعظمة ـ كما سيأتى تفصيله فيما بعد ـ ولكنه خر بجيشه وأضمحل.

قصة الفيل العجيبة:

بلاد الحبشة:

قد انقرض ملوك التبابعة فى عهد أصخمة النجاشى[2] وهكذا انتقل حكم اليمن إلى قبضة «أبرهة بن الصباح» الأشرم قائد جيش النجاشى أصخمة نيابة عن ملكه.

وقد انزعج «أبرهة» عندما رأى أن عرب الجاهلية يزورون الكعبة المعظمة فى مواسم الحج متبعين فى ذلك ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيفية، ويفد إليها من الناس من أماكن بعيدة متكبدين فى ذلك مشقات عظيمة.

(١) الأبيات فى سيرة ابن هشام ١/٢٦.

(٢) النجاشى لقد أصخمة، إلا أنه علم على ملوك الحبشة مثل قيصر الروم وأكاسرة الفرس. ومعناه فى اللغة النبطية «العطية»، كان النجاشى ملك عظيم القدر وقد آمن بسلطان الملوك نبينا ﷺ وعرض عليه أشواقه فى مكاتباته.

قد تساءل هذا المغرور محدثا نفسه: يا ترى لماذا حاز هذا البناء المسمى بالكعبة كل هذا التوقير والتعظيم من قبل العرب؟! ما يا ترى مكانة هذا البناء وما مدى جماله وزينته حتى يجذب إليه كل هؤلاء الناس؟!.

ولما عرف أن الكعبة بيت من الحجارة المأخوذة من الجبال الكائنة حولها وأنها بناء حجرى عال عزم ـ بناء على رأيه الفاسد ـ أن يبنى معبدا أعظم وأضخم من الكعبة الشريفة وكتب إلى النجاشى طلبا يقول له فيه إننى أبنى بجانب قصر غمدان[1] فى صنعاء قصرا عظيما رصين البناء فخما يليق بعظمتكم وعلو شأنكم وسوف أجتهد على أن يكون هذا القصر مزينا لا مثيل له فى الفخامة فى العصور السابقة.

وبما أن النجاشى لم يلتق بالرسول ـ ﷺ ـ فلا يعد - عند من يشترط اللقاء مع النبى ﷺ ـ من الصحابة الكرام وإن كان بعض العلماء يعدونه من الذين يؤمنون بالمعاهدة من الأصحاب الكرام. قد مات النجاشى فى رجب من السنة التاسعة من الهجرة وصلى على جنازته فى المدينة المنورة وهذا يرجح كونه من الصحابة.

يروى أن هذا القصر قد هدم فى عهد عثمان بن عفان أو خلافة عمر وقصر غمدان أحد عجائب الدنيا وكان أحد جدرانه الأربعة أصفر اللون والثانى أبيض والثالث أخضر والرابع أحمر اللون داخل هذا القصر، وفوقه قصر آخر من سبعة طوابق وكان بين طوابقه فواصل قدرها أربعون ذراعا وكان ارتفاع جدرانه الخارجى ٣٠٠ ذراع وكان فى كل ركن من أركانه الأربعة صورة أسد فاغر الفاه مكشوف من الأسفل فارغ البطن وعندما كان يدخل الهواء فى أسفله يخرج من فيه محدثا صوتا غريبا شبيها بصوت القنفذ.

(١) قصر غمدان من القصور التى بناها يشرح من ملوك اليمن. وقال بعض الرواة: إن يعرب بن قحطان هو الذى وضع أسسه وأكمله وائل ابن حمير بن سبأ. وقال بعضهم (أن بانيه ضحاك ومع مرور الزمان انتقل أسسه إلى سيف بن ذى يزن)، والرواية الأخيرة أقرب إلى الصحة وقال المؤرخون (أن ضحاكا قد بناه ونسبه إلى «نجم الزهرة» وبناء على هذا فإن قصر غمدان أحد البيوت السبعة التى نسبت إلى الروحانية وسميت بأسماء الكواكب السبع السيارة).

وعندما أرسل أبرهة[1] الطلب إلى النجاشى أخذ يحفر أسس المعبد وفى ظل نفوذه وقوة دولته أخذ يستدعى من البلاد البعيدة الأساتذة من المهندسين والمتخصصين فى فن العمارة وجلب أنواع الرخام الصافية اللامعة كالفضة وأعمدة متنوعة وملونة ومتينة وحجارة قيمة ملونة ذات أشكال مختلفة والحجارة المنتزعة من قصر بلقيس ذات نقوش ومرصعة بالذهب والفضة وبنى فى صنعاء[2] اليمن عاصمة ملكه، كنيسة تثير الحيرة والدهشة بما تحتوى فى خارجها وداخلها من اليواقيت والمجوهرات التى رصعت بها الجدران كما صنع فيها منابر مصنوعة من الأبنوس والعاج ووضع فى أرجاء الكنيسة المذكورة أصنامًا مصنوعة من الذهب والفضة، وعلق فى أبراجها نواقيس ضخمة ثم أعلن وأشاع[3] فى أطراف الجزيرة أنه سيمنع الناس من زيارة الكعبة والطواف حولها وسيجبرهم على زيارة كنيسته هذه.

وبما أن الكنيسة قد بنيت فى مكان عال كما كان مبناها شاهق العلو فأطلق عليها بيت (القليس) إيماء إلى علوها. ثم بعث الرسل يدعون الناس لزيارة الكنيسة والحج إليها.

وكان غرض أبرهة من هذا صرف أبناء العرب عن زيارة الكعبة والحج إليها مرة فى السنة ويحملهم على التوجه إلى كنيسة صنعاء باليمن.

وعلى هذا أكره العرب على زيارة بيت الأصنام الذى فى صنعاء وتوجهوا إليه وأصبحوا لا يريدون أن يروا وجوه الذين يتحدثون عن هذا المعبد المنحوس، وبناء على كراهيتهم الشديدة لهذه الكنيسة قتل أفراد قبيلة كنانة، الرسول الذى بعثه «أبرهة بن صباح الأشرم» ليدعوهم، فقتلوه رميا بالسهم.

(١) لم يشر أبرهة فى طلبه الذى كتبه للنجاشى إلى عزمه على هدم الكعبة حتى لا يغضبه.

(٢) إن مدينة صنعاء الشهيرة فى القسم الخامس من أقسام البلاد اليمنية وعاصمة البلاد الكائنة فى هذا القسم وتقع بين درجة (٥) (٢٢) دقيقة فى العرض الشمالى وبين (٣٢) درجة و٤٤ دقيقة فى الطول الشرقى وفوق صحراء واسعة.

(٣) وقد روى هذه الواقعة أبو الوليد وابن هشام وابن إسحاق وإن كان فى أقوال كلهم زيادة أو نقصان إلا أن كلها مؤيدة لرواية ابن إسحاق.

وعندما شاع بين سكان اليمن متانة بيت القليس ورصانته أخذ أبرهة يبعث الرسائل والرسل إلى سكان اليمن ومن حولها، ويقول مفتخرا مباهيا إننى قد وفقت فى بناء معبد فخم وضخم لن ينس العرب معه اسم الكعبة فقط ولكنهم سيأنفون من ذكر اسمها.

وأخذت مثل هذه الأخبار تنتشر تدريجيا فى بلاد الحجاز حتى ذكرت فى خيم البدو واستثقلها القرشيون؛ لذلك اختاروا شابا بطلا من سادات العرب يتصل بنسب بنى فقيم بن مالك ومن قبيلة كنانة وهو «نفيل بن حبيب الخثعمى»، وبناء على القول المختار «قلمس[1] بن عبد الله بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر» من **أهل نسئة**، ومعه رفيق شجاع وذهبا إلى صنعاء ودخلا فى بيت القليس حيث قضيا حاجتهما ثم لطخا جدرانه بالقاذورات لينفرا أهل اليمن من زيارة الكنيسة، وأرادا بهذا أن يلمحا أن الدار القذرة التى يلجون فيها صبح مساء لا تصلح إلا أن تكون بيت خلاء.

لما عرف أبرهة ما جرى زاد غضبه وحزنه وتألم جدا، ولما عرف أن الذين تجرأوا على فعل ما حدث هم من سكان مكة المكرمة أقسم على هدم وتخريب الكعبة المعظمة وقال: «إننى أستطيع أن أثأر من العرب بهدم البيت المعظم بالفيلة» وأعد جنده وجمع ـ بناء على **قول** ـ فيلين مشهورين، وعلى قول ثمانية أفيال، وفى **رواية أخرى** عشرة وعلى **قول** اثنا عشر أو ثلاثة عشر وبناء على **روايات أخرى** ألف فيل أو أربعة آلاف[2] فيل- شجاع كما أخذ معه فيل النجاشى المسمى محمود[3] وساق كتائبه وجيشه نحو مكة سنة «٥٧٠م».

اقتنع أبرهة الذى أعد كل هذه الفيلة وكل هذه الحشرات الحبشية لإدارة الأفيال عندما رأى كل هذه القوة بأنه لن يتعب فى هدم الكعبة المعظمة.

(١) قلمس بن عبد الله بن فقيم فهو من أفراد أهل نسأة، اسمه الحقيقى «حذيفة» والزمن الذى ينتسب له يقال له «دور نسأة» أيضا. قيل ذلك لبنى فقيم لأنهم كانوا ينسأون الشهور. انظر المعارف لابن قتيبه ص ٦٠، ولسان العرب مادة نسأ

(٢) كان ثلاثة عشر فيلا من هذه الفيلة مدربين أحسن تدريب بينما كان الباقى من الفيلة العادية.

(٣) كان هذا الفيل أبيض اللون ويسمى محمودا وكنيته أبو العباس.

وكان يسوق أمام جنده أربعة صفوف من الفيلة وكان يظن أنه سينتصر حيثما يتجه بهذه الفيلة ويعتقد أنه لن يجد صعوبة فى هدم البيت المعظم وتخريبه.

قد زحف أبرهة نحو مكة الله ومعه ٦٠٠٠٠[١] ألف أو ثلاثمائة ألف[٢] من الحشرات الحبشية لإدارة وسوق الفيلة وفى رأسه فكرة هدم البيت وتخريبه المستحيلة.

وقابل فى طريقه العرب الذين خرجوا للدفاع عن بيت الله، وحاربهم وداسهم بسنابك خيوله وانتصر عليهم وأسر قوادهم وقيدهم بسلاسل الأسر، وضرب خيامه فى مكان بين الطائف ومكة المكرمة المسمى «**بمغمس**» وأغار على حيوانات أهل مكة واستولى عليها ونهبها.

من الذين رفعوا السلاح فى وجه جيش أبرهة أولهم «**ذو نفر**» من أشراف اليمن، والثانى الذى واجهه فى أرض خثعم «**نفيل**[٣] **بن حبيب الخثعمى**» أو «**باعس**» وأخوه «**غفرس بن أقبل**[٤] **ونهران وناهس**» تحت قيادة نفيل وبعض أفراد القبائل العربية.

وقد وقع «ذو نفر» ونفيل بن حبيب وهما من قواد الجيش وملوك اليمن أسيرين، وتفرق العرب الذين كانوا تحت قيادتهما وقيدا بالسلاسل بأمر أبرهة. ثم فك أسر نفيل بشرط أن يكون دليلا لهم فى أثناء سيرهم فى أرض العرب.

عندما وصل أبرهة إلى الطائف بدلالة «نفيل بن حبيب ضم مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف» من بنى ثقيف أحد أتباعه الضالين إلى جيش أبرهة ليكون دليلا لهم وهو «**أبو رغال**».

وقد سار «أبو رغال» مع جيش أبرهة إلى أن وصلوا إلى مكان يسمى

(١) صاحب هذه الرواية كان يحب أن يبالغ فى كلامه لأن ابن إسحاق لم يذكر عدد الفيلة ولا عدد الجنود.

(٢) هذا القول أقرب إلى الصحة، لأنه لم يقصد عدد الجنود بل أراد أن يكنى عن كثرتهم كما تشير إلى ذلك الأبيات التى ستقيدها فيما بعد والتى نظمها عبد الله الزبعرى.

(٣) نفيل ـ هو أكمل بن ربيعة بن غفرس وكان من رؤساء قبائل شهران وباعس.

(٤) خثعم لقب أقبل.

«مغمس» حيث تشقق ومات لحكمة ما، والبدو سكان البادية يرجمون حتى الآن قبر «أبو رغال» ويستحقرونه.[1]

اسم ثقيف أبو عوف ـ قسى بن النبيت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أقصى بن دعمى بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان، لما قابل مسعود بن معتب الثقفى أبرهة عظمه وحدثه بفرح وسرور وقال له: «يأيها الملك إننا سندلك على الطريق، إن عامة أبناء قبيلتنا عبيدك وكل ما تأمر به مجاب. . الكعبة التى تريد أن تهدمها وتخربها لا قيمة لها عندنا، إن بيتنا بيت اللات وهو فى الطائف وكل أهل الطائف يعظمون هذا البيت كما تعظم الكعبة ثم قدم لهم «أبو رغال» السالف الذكر ليدلهم على طريق مكة.

عندما انفلق أبو رغال وهلك كان أبرهة قد بعث بكتيبة من الجنود فى رفقة أسود بن مقصود الحبشى الذى كان فى مغمس للتعرف على أحوال مكة المكرمة، عندما وصل هؤلاء الجنود إلى أطراف مكة نهبوا وسلبوا الحيوانات التى كانت ترعى هناك.

بناء على هذه الوقعة ركب «عبد المطلب بن هاشم» سيد قريش وخادم الكعبة المعظمة ذو الرأى السديد بغله واتجه نحو معسكر الحبشة، وقد استقبله أبرهة استقبالا عظيما ورحب به أيما ترحيب ـ إذ بلغه علو شأنه بين قومه وأشار له أن يجلس فوق كرسى فخم مزين.

وفى قول آخر إن أبرهة لم يستطع أن يقاوم ما كان عليه «عبد المطلب» من الوجاهة والمهابة فنزل من كرسيه وجلس فوق البساط وأجلس المشار إليه بجانبه وقاله له: «اطلب منى ما تشاء» فأجابه قائلا: «لا أريد منك شيئا غير أن ترد لى أربعمائة جمل نهبتها جنودك. والصحيح مائتان».

قد تحير أبرهة من هذه الإجابة الساذجة واندهش وقال له: ظننتك قد جئت ترجونى ألا أهدم الكعبة إنك تعرف جيدا أننى جئت لأهدم الكعبة التى تشكل ركنا من دينكم وأخربها.

(١) السيرة النبوية ١/ ٤٩. والعرب تستحقره لأنه كان دليلاً لصاحب الفيل. وفى جامع معمر بن راشد أن أبارغال من ثمود وأنه كان بالحرم حين أصاب قومه الصيحة، فلما خرج من الحرم أصابه الهلاك كما أصاب قومه فدفن هناك.

ثم أراك لا تطلب منى أن أنصرف عن هذا العمل بل تريد أن تسترجع ما نهبه جنودى من إبلك وهذا أمر لا يمكن أن يثير إلا عجبى ودهشتى.

فتلقى من عبد المطلب هذه الإجابة الحكيمة:

«لما كنت صاحب الإبل فإننى أريد أن أستردها. وللكعبة صاحب أيضا فإذا أراد سيمنعك من التسلط عليها».

واستغرق أبرهة فى تفكير عميق إذ تلقى هذا الرد ثم قال مستهزئا: «أذهب وانظر كيف سيحافظ ربك على الكعبة ضد قوتى القاهرة وسطوتى الجبارة» ثم أعاد لعبد المطلب جماله ورده معززا مكرما وبين له أنه لم يأت ليحارب أهل مكة إنما جاء لهدم الكعبة المعظمة، وتخريبها، ومن هنا ليس لأهل مكة ما يثير قلقهم أو يخوفهم.

قد رأى سكان مكة ـ بناء على رأى عبد المطلب ـ أن يخلو مكة وينسحبوا إلى الجبال وألا يحاولوا الدفاع عن مكة ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يتمنون أن يروا المصيبة التى سوف يتعرض لها أبرهة.

قال بعض المؤرخين: «قد أخبر الجنود المكلفون بالذهاب إلى مكة أبرهة أنهم لم يوفقوا في قتل عبد المطلب بعد ما نهبوا جماله».

وقد أرسل أبرهة إلى عبد المطلب حميريا يقال له «حناطة» ليخبره بأن هدفه من المجئ إلى مكة هو هدم الكعبة وإذا كان بين الأهالى من يريد أن يدافع عن الكعبة يجب عليهم أن يستعدوا للحرب والقتال.

وكان رد عبد المطلب إننا لا نحارب إن البيت بيت الله إذا ما صانه وحفظه فهو بيته. أما إذا لم يحفظه، فليس لنا قبل للدفاع عن البيت. ثم ذهب مع «حناطة» إلى أبرهة وعندما مثل أمامه قد نزل من سريره وأجلسه بجانبه ورحب به أعظم ترحيب وكرمه تكريما.

لو كان أبرهة رأى من عبد المطلب أدنى علامة تدل على رغبته فى عدم هدم

البيت لتنازل عن فكرته ورجع إلى بلده لأن هيئة البيت المحتشمة وما فيه من روحانية فى طريقة وضعه وما فيه من عظمة ومهابة قد ألقى فى قلبه خوفا وخشية فوق العادة ـ فالأمين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد بناه تنفيذا لإرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن عدم صدور أدنى التماس أو رجاء بخصوص عدم هدم البيت من عبد المطلب حمل أبرهة على المضى فى عزمه لأنه لم يجد سببا يثنيه عما أقدم عليه.

وبلهجة كلها ثقة رد عبد المطلب على أبرهة ردا قاطعا مما أيأسه وآنس أهل مكة ببشارة خفية، لأنه كان واثقا أن أى فرد مهما كانت قوته لن يستطيع إلحاق الخسارة ببيت الله المعظم وذلك تكريما وحرمة لخاتم الأنبياء ـ ﷺ.

لأن النبى ـ ﷺ ـ انتقل إلى رحم أمه فى الفترة التى غزا فيها أبرهة الحجاز ووصل بالقرب من مكة وبدأت تظهر علامات خارقة للعادة، كما سعد عبد المطلب بالرؤى الجميلة فى منامه، وكل هذه القرائن كانت تنم عن قرب تشريف النبى ـ ﷺ ـ إلى الدنيا، ولكل هذا كان عبد المطلب يأمل ألا يستطيع أبرهة هدم كعبة الله بتخريبها، أخذ حناطة الحميرى عبد المطلب مع بعض أولاده وأتى بهم إلى خيمة أبرهة.

وعلم عبد المطلب بأن سيف ذى نفر فى السجن فالتقى معه واستمع إليه إذ يقول: يا عبد المطلب ماذا تنتظر من أسير يترقب قتله اليوم أو غدا وماذا تأمل منه، ومع هذا سايس الفيل «محمود» من أحبائه وهو شخص يسمى «أنيس» وهو من الذين يثق فيهم أبرهة ويعتمد عليهم وقد أرسلت له بأنباء. فاذهب إليه وفعلا ذهب إليه عبد المطلب وتلاقى معه.

كان النبأ الذى أرسله ذو نفر إلى أنيس[1] يشمل المعانى الآتية:

(١) قد رأت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنيس وسائق الفيل محمود، فى مكة يتسولان. وكما تقول المشار إليها إن كليهما كان أعمى وبما أنهما قد نبهوا أبرهة بحسن قبول عبد المطلب أنجاهما الله بما حل بجيش أبرهة وأصيبا بالعمى.

«إن الشخص الذى نهبت حيواناته، هو سيد قريش وهو صاحب عين زمزم الموجودة بمكة إن هذا الشخص يطعم الناس فى الصحراء والوحوش على رءوس الجبال».

إن المطلوب منكم هو إبلاغ أبرهة بأن جنوده قد استولت على مائتين من إبل عبد المطلب سيد قريش، فإذا استطعت فاشرح الموضوع لأبرهة واحمله على تكريمه ورد إبله له، وقد نقل أنيس هذه الأقوال إلى أبرهة لذا أكرمه أعظم إكرام وأعاد له جماله.

إن «يعمر بن نفاثة بن عدى بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة» رئيس قبيلة بنى بكر وخويلد بن وائلة الهذلى رئيس قبيلة «بنى هذيل» أرادا أن يصرفا أبرهة عن هدم الكعبة وذلك بعرض ثلث واردات تهامة[1] الحجاز السنوية، ولما رفض طلبهما استعدا للحرب بالاتفاق مع قبائل (قريش وكنانة وخزاعة وهذيل والقبائل الأخرى)، ولكنهم غيروا رأيهم واتبعوا فكرة عبد المطلب إذ أحسوا أنهم سيتعرضون للهزيمة.

وعندما رأى أبرهة أن أهل مكة لا يدافعون عن بلادهم، ساق حشراته إلى «وادى المحسر»[2] الواقع بين المزدلفة ومكة المعظمة واستعجل فى تنظيم صفوف جيشه وطلب من ساسة الفيلة أن يهيئوا أفيالهم للهجوم على مكة ودفعوا الفيل «محمود» نحو الكعبة، ورغم جهود السايس المضنية لسوق الفيل محمود ناحية الكعبة المعظمة لم يتحرك الفيل خطوة واحدة نحو الهدف، ولم تفد جميع محاولاتهم وما بذلوه من سعى لدفع الفيل نحو الكعبة كلما كانوا يسوقونه إلى الأمام يقع ولا يتحرك.

ولما رأوا أن المحاولات المضنية لدفعه إلى الأمام لم تأت بنتيجة، لذا سقوه

(١) إنها مدينة زبيد المشهورة فى الناحية الجنوبية من قطعة الحجاز.

(٢) إن سبب إطلاق محسر على هذا المكان لأن أصحاب الفيل قد تعرضوا هناك لعذاب الله وعقابه. لأن الفيل محمود لم يتقدم إلى الأمام بعد هذا المكان وتبعته الأفيال الأخرى ولم تتحرك خطوة إلى الأمام.

خمرا ـ بأمر أبرهة ـ حتى يفقد عقله وتمييزه ثم وجهوه إلى جهة أخرى.

وأسرع محمود السير لتلك الجهة وتبعته الأفيال الأخرى وأخذت تجرى بسرعة خلف محمود وعندما أرادوا أن يوجهوها إلى الكعبة كانت تبرك ولا تتحرك وكأنها لا تريد أن تهاجم الكعبة المعظمة.

عندما رأى «نفيل بن حبيب الخثعمى» الأسير المصفد، بالأغلال لدى أبرهة هذه الحالة المليئة بالحكم للفيل «محمود» ـ إذ كان يمتنع من السير نحو الكعبة وعندما يوجهونه ناحية الشام أو اليمن كان يسرع ـ أمسك نفيل بن حبيب أذن الفيل وقال له: «يا محمود احذر من التقدم لأنهم يريدون أن يستغلوك في تخريب بيت الله مع أنك في بلدة الله، فابرك محمود أوعُدْ راشدًا من حيث جئت».

أراد نفيل بن حبيب بفعله هذا أن ينبه الجيش الحبشى أن ما يريده أبرهة يشبه خيالا مستحيلا وأن محمودا والفيلة الأخرى لن تهاجم كعبة الله المعظمة. إلا أن أبرهة لم يتنبه لما يريده ابن حبيب الخثعمى كما لم يستطع أن يدرك شيئا من حركات الأفيال الحكيمة بل أصر على تنفيذ ما في ضميره وأخذ يضرب الفيلة ويشتمها حتى كاد يهلكها.

وفي تلك الأثناء أخذ عبد المطلب «عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وبضعة من رجال قريش المخلصين معه ومضى إلى باب المعلى من الكعبة المعظمة واحتضن حلقاته وأخذ يتضرع ويناجى قاضى الحاجات وهو ينشد الأبيات الآتية:

يـــارب إن المـــــرء يمـ	ـنع رحـله فامنـع رحـالك
وانصـر علـى آل الصليـ	ـب وعابديـه اليـوم آلـك
إن كنـت تاركهـم وقبـ	ـلتنا فأمـر مـا بـدا لـك
لا يغلـــبن صليبهـــم	ومحالهـم أبـدا محالـك
فلئـن فعلـت فإنـــه	أمـر يتـم بـه فعالـك

بينما كان أبرهة مشغولا بسوق الفيلة نحو كعبة الله التصق عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن عبد الدار بباب الكعبة العظيمة أيضا وأخذ يناجى ربه وينشد بعض الأبيات التى تبين نهب أسود بن مقصود الحميرى[1] حيوانات أهل مكة واستيلائه عليها.

وبينما كان عبد المطلب ورفاقه منهمكين عند كعبة الله بالتضرع والابتهال وكان أبرهة يبذل جهده لحمل الفيلة للسير نحو الكعبة إذ ظهر فجأة فى السماء مجموعة من الطيور الصغيرة تشبه طائر «السنونو» من ناحية البحر يحمل كل واحد منها فى منقاره حجرا واثنين بين مخالبه وكان أكبرها فى حجم حبة الحمص وأصغرها فى حجم حبة العدس أى ثلاثة أحجار من سجيل[2] واتجهت أسراب الطيور نحو مكة المكرمة.

جاء في رواية أن هذه الطيور الصغيرة أقبلت من ناحية البلاد الهندية، وكانت مناقيرها حمراء و رءوسها سوداء، رقابها طويلة أجسامها شبيهة بأجسام الخفافيش وبناء على قول آخر أن مناقيرها كانت صفراء رقابها خضراء وأجسامها شبيهة بأجسام العصافير وقد سطر على كل حجر تحمله اسم الشخص الموكول بهلاكه.

قد فسر عكرمة ﴿ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل: ٣) كلمة أبابيل عنقاء المغرب.

يقول صاحب القاموس إن (عنقاء المغرب) ظهرت فى عصر موسى ـ عليه السلام ـ قد خلق أولا أنثاها ثم خلق ذكرها وهكذا تناسلا وتكاثر نسلهما وبعد وفاة النبى المشار إليه انتقلت هذه الطيور إلى حجاز نجد حيث أخذت تؤذى

(١) أسود بن مقصود هو من رؤساء الحشرات الحبشية التى أرسلها أبرهة من مغمس للاستيلاء على حيوانات أهل مكة. والأبيات التى كان يرددها عكرمة يدعو بها على أسود بن مقصود أوردها ابن هشام فى السيرة ١/٥٣.

(٢) إن هذه الحجارة خليط من التراب والحجر والذى أطلق عليه فى القرآن الكريم اسم «السجيل» وكان أصغره فى حجم حبة العدس وأكبره فى حجم حبة الحمص.

الأطفال الصغار ولكنها طارت إلى أعشاش الهلاك والعدم بفضل استجابة دعاء «خالد بن سنان العبسي[1]» الذى عاش فى عهد النبى - ﷺ.

يروى أن أجناسا من طيور الأبابيل تعيش فى زماننا فى نواحى الهند الصينية وأنها تُبْعَثُ إلى دار السعادة استانبول كهدايا.

إن هذه الطيور لا تشبه طيور الأبابيل تمام الشبه إلا أن الذين ينظرون إليها بعين الإمعان يجدون فيها علامات تحمل الناس على تشبيهها بتلك الطيور، ويعتقد أنها تعرضت لتغير شكلها بمرور الزمان وقد نقلت روايات كثيرة عن شكل ولون وصورة هذه الطيور، حتى أن «عبد الله بن عباس» يروى أن لها مناقير كخراطيم الفيل وأسنانا شبيهة بأنياب الكلاب. ويدعى بعض الرواة أن الطيور الموجودة الآن فوق باب إبراهيم ووالزرازير من بقايا طيور الأبابيل والله أعلم بالصواب.

لم يكن يعرف شيئا عن ظهور هذه الطيور لا أبرهة ولا عبد المطلب ورفقاؤه الذين كانوا يتضرعون إلى الله ممسكين حلقات كعبة الله. وفى فترة نظر عبد المطلب إلى السماء ورأى كثيرا من الطيور الأبابيل تقبل نحو مكة المفخمة وتعجب من أشكالها وقال لرفقائه: «أيها الأصدقاء إن هذه الطيور لا تشبه طيور نجد وتهامة ولابد أن يكون فى هذا حكم ما» ثم اتفقوا على أن يصعدوا فوق قمة جبل أبى قبيس ليروا الطيور جنود الله المجندة - التى ظهرت من ناحية البحر وبعد فترة وقفت حذاء جنود أبرهة الذين أزعجوا العالم. ثم تركت الحجارة التى كانت ذات آثار نارية الواحد تلو الآخر وكان كل حجر يدخل من فوق رءوس الأعداء الحشرية وينفذ فى أجسامهم ويخرج من أدبارهم ويقضى عليهم بالهلاك في التو واللحظة.

لم يبق بين جنود الأعداء فرد متنفسا لم يهرب إلا أبرهة والفيل محمود والأفيال التابعة له.

وكل من يمسك بجثة أحد هالك كان يستطيع أن يحملها كما يحمل البيضة لأن الحجارة كانت قد أحرقت أجسامهم كما تحرق النار الفتيل. ثم ظهر سيل عظيم

(١) انظر خبره فى: المعارف لابن قتيبة ص ٦٢.

بالبحر مثير للدهشة وحمل جثث الأعداء المتنة وكنسها إلى البحر وهكذا طهرت ساحة مكة الله.

وهناك قول يدعى أن الحجارة التى ألقيت من قبل طيور الأبابيل إذا ما أصابت شخصا تظهر فى جسمه بثور مثل البثور التى تظهر فى الشخص المصاب بالحصبة والجدرى، والذين أصيبوا بها ماتوا وهلكوا من شدة أوجاعها والبقية الباقية وصلوا إلى الحدود اليمنية بكل صعوبة ونجوا بجلدهم فارين.

حينما تشتت جيش أبرهة واضمحل كما سبق تعريفه، هجم أهالى مكة على معسكره وأخذوا ما وجدوه من أموال وأسلحة وأشياء ونالوا ثروة وأصبحوا من أهل اليسر والغنى ونالوا غنائم بدون أن يتعبوا ودون أن يتعرضوا للمحاق والمشاق وذلك لحرمة حبيب الحق رسول رب الفلق وتضاعفت شهرتهم عن ذى قبل ونجوا من شر العدو القوى الشرس الذى أخاف عربان جزيرة العرب، كما أن القبائل المعارضة لهم انصرفت عن حربهم وقتالهم لأنهم اعتقدوا أن أهل مكة مؤيدون من قبل الله.

وقد ولد خاتم الأنبياء سيدنا محمد بعد واقعة الفيل بأربعة وخمسين يوما وبناء على هذا التقدير قد حدث قدوم أبرهة إلى مكة ومغادرته لها فى أواسط شهر المحرم ويوافق ولادة النبى - ﷺ - في شهر ربيع الأول الموافق لشهر أبريل من الشهور الرومية.

قد أطلق العرب على السنة الميلادية التى توافق خمسمائة وتسع وستين «عام الفيل» وقد اتخذوا هذه الواقعة مبدأ تاريخ لهم وتفاخروا بها وأنشدوا فى حقها أناشيد وألقوا القصائد وأخذوا يعظمون أهل قريش ويوقرونهم قائلين «هؤلاء أهل الله، لذلك أهلك الله أعداءهم»، لا يستطيع إنسان أن يحصى الأشعار والقصائد التى ألقيت بخصوص هذه الواقعة وإننا قد أدرجنا بعض هذه القصائد المختارة من قبل المؤرخين.

والقصيدة الآتية من جملة تلك القصائد وقد أنشدها عبد المطلب بن هاشم.

قلت والأشرم تردى خيلـه ... إن ذى الأشرم غربا لحـرم
كاده يتبـع فيمـن جنـدت ... حمير والحى مـن آل قـدم
فانثنى عنـه وفى أوداجـه ... جارح أمسك فيـه بالكظـم
نحن أهل الله فى بلدتـه ... لما يزل ذلك على عهد أتـم
إن للبيـت لربـا مانعـا ... من يـرده بآثـام يصطلـم

والأبيات التالية من قصيدة طويلة لعبد الله بن الزبعرى بن عدى بن قيس بن عدى بن سعيد[1] بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، يقول عبد الله بن الزبعرى:

يتكلموا عن بطـن مكـة أنهـا ... كانت قديمـا لا يـرام حريمهـا
لم تخلق الشعرى ليالـى حرّمـت ... إذ لا عزيـز من الأنـام يرومهـا
سائل أمير الجيش عنهـا مـا رأى ... ولسوف ينبى الجاهلـين عليمهـا
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهـم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهـم ... والله من فوق العبـاد يقيمهـا

وعرض ابن الزبعرى فى المصراع الذى قال فيه «بل لم يعش بعد الإياب سقيمها» بأن أبرهة هلك أيضا في صنعاء. كما أنشد هذه الأبيات أبو قيس صيفى بن الأسلت بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك الأوسى:

ومن صنعه يوم فيـل الحبـو ... ش إذ كلمـا بعثـوه رزم
محاجنهـم تحـت أقرابـه ... وقد شرموا أنفه فانخـرم
وقـد جعلـوا سوطـه ... مغولا إذ يمـوه قفاه كلـم
فولـى وأدبـر أدراجـه ... وقد باء بالظلم من كان ثـم

(١) كذا نسبه ابن إسحاق، والصواب سعد بن سهم، وسعيد أخو سعد بن سهم انظر: السيرة النبوية ١/ ٥٨.

وينسبون القطعة الآتية إلى أمية بن أبى الصلت ـ الأبيات:

فقوموا فصلوا لربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق ... غداة أبى يكسوم[1] هادى الكتائب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ... ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب ... إلى أهله الأحباش غير عصائب

أراد أبرهة أن ينجو من هذه الكارثة المهولة وطلب من «نفيل المكى» الذى مازال فى أسره أن يدله على الطريق فأجابه قائلا:

«أين المفر و الإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب»

حينئذ اعتمد على نفسه في الفرار ووصل إلى بلاد الحبشة بصعوبة يقع تارة فى الطريق ويقوم أخرى، وقص كل ما حدث على النجاشى بالتفصيل، واصفا شكل الطيور وصورها فقال النجاشى: ما أعجبه من حادث أيا ترى ما نوع هذه الطيور؟! فأشار أبرهة إلى طائر قائلا: كانت تشبه لهذا الطائر الصغير وإذا بالطائر يرمى الحجارة التى يحتفظ بها على أبرهة ويقضى عليه بحيث قطع الحجر يديه من منكبيه، ورجليه من فخذيه بينما أصابه واحد من الحجارة فى رأسه وأهلكه.

وبناء على رواية أخرى أن أبرهة لم يهلك بحجارة طير الأبابيل بل مرض بمرض الجذام الخبيث وعاد إلى اليمن بعد ما ترك أبا يكسوم نائبا عنه حيث لقى حتفه[2].

إن أبا يكسوم هذا أخذ يقص للنجاشى أحداث طيور الأبابيل، وإذا بأحد طيور الأبابيل الذى كلف بإهلاك أبى يكسوم هذا يلقى بحجر على أبى يكسوم بمجرد الانتهاء من كلامه وهكذا تأسف النجاشى إذ عرف كيف هلك جيشه فى أرض مكة.

قد حدثت وقعة الفيل الغريبة في اليوم السابع عشر من شهر المحرم فى وقت

(١) أبو يكسوم اسم الشخص الذى تركه أبرهة فى المعسكر نائبًا عنه.
(٢) انظر السيرة لابن هشام ١/ ٥٥، المعارف لابن قيتبة ص ٦٣٨.

الفجر. كما أن النبى ـ ﷺ ـ شرف الوجود ليلة الاثنين من الثانى عشر من شهر ربيع الأول، فكانت ولادة النبى ﷺ بعد حادثة الفيل بأربعة وخمسين يوما بالتمام.

بعد ما هلك أبرهة على الوجه الذى ذكر اختلف الأحباش فيما بينهم وتركوا العناية بالقليس.

وأهملت كنيسة الأحباش فترة طويلة حتى تحول ما حولها إلى غابات وأصبحت مقرا للوحوش والسباع، حتى أن الذين يرون منظرها الذى يثير الدهشة ـ يخافون أن يمروا من جانبها.

وبعد فترة باتت بجانبها قبيلة من عربان البادية فى ليلة من الليالى وأوقدوا نارًا فسرت شرارة منها إلى تلك الكنيسة فاحترقت وانمحت من الوجود.

ويزعم بعض المؤرخين أن الخليفة الأول أبو العباس السفاح من خلفاء الدولة العباسية قد عرف أن القليس قائمة كما هى فأمر والى اليمن بهدم تلك الكنيسة وهكذا استطاع أن يستولى على الدر واليواقيت التى لا تعد ولا تحصى.

استطراد:

بناء على ما قرره علماء طبقات الأرض بعد الكشف على الفيل محمود أنه من فصائل الأرض الثالثة إلا أنه قد شوهد في الأرض الرابعة أيضا.

ويستدل من الحكاية التالية على أن محمود كان من الحيوانات الضخمة فى الجثة وإقدام أبرهة على هدم الكعبة بفيلين أو اثنى عشر فيلا فقط. إلا أنه إلى وقتنا هذا لم ير حيوان فى ضخامته كما أن علماء طبقات الأرض والطبيعة لم يكتبوا شيئا عن وجود حيوان ضخم مثله فى كتبهم.

إلا أن صياد السمك قد وجد جثة حيوان ضخم متجمد بين الثلوج قبل هذا بست وسبعين سنة في مصب نهر (لنا) بسيبريا.

إلا أنه لم يستطع أن يعرف كنه هذه الجثة، لذا تركها على حالها وعاد. وبعد ما ذابت الثلوج بخمسة أعوام ظهرت الجثة للعيان واستطاعت المياه أن تدفعها إلى شاطئ النهر بالقرب من قرية فانتزعها سكان القرى المجاورة.

كما أن كلاب العراء والوحوش التى أقبلت من فوق الجبال ظلت تأكل لحمها فترة ولم يبق منها إلا هيكلها العظمى بدون رجليها الأماميتين.

وأرسلت أكاديمية بطرسبورج متخصصا ليعاين الجثة وبعد المعاينة قرر ذلك المتخصص أن الجثة جثة الفيل محمود واسترجع بقايا الجثة من أيدي القرويين ولم يكن قد بقى منها غير الرأس والأنياب ومع هذا لم يستطع أن ينقلهما إلا بهمة عشرة من الحمالين.

قد وزن أنياب هذا الحيوان فوجدها (١١٢) أقة، فإذا ما سلمنا بضخامة جسم الفيل محمود بهذا القدر وعرفنا بناء على الروايات أن أبرهة قد ساق أربعة آلاف فيل لهدم الكعبة ـ المستحيل التنفيذ ـ نستطيع أن نفهم بأدنى ملاحظة عدد السياس الذين يحتاج إليهم أبرهة للعناية بالفيلة ومن هنا لا يستبعد أن يكون عدد المشتركين في الجيش ستين ألفا.

معلومات خاصة فى صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به:

إن الحيوان الذى نطلق عليه الفيل قد خلق بخصائص تميزه عن جميع الحيوانات، لقد استخدم الناس فى الأزمنة القديمة الفيل فى الحرب وفى أعمال شاقة أخرى.

بما أن الفيل يتصف بالصدق والوفاء والحلم والذكاء وهى من الصفات الحميدة فمما لا شك فيه أن الإنسان يمكنه أن يستفيد منه.

ومن صفاته الحدة والغضب أيضا إلا أنه يعرف مدى قوته، لذلك يكظم غيظه وحدته ولا يتهور إلا إذا تعرض للخطر.

وبما أن قوته تامة وكاملة فإن هذا يدفعه إلى أخذ ثأره ممن أساء إليه، ولكنه يشكر نعم من أحسن إليه ويبين له صداقته.

إن عينيه صغيرتان بالنسبة لضخامة جسمه. وبما أن عينيه الصغيرتين مرآة لما يعتمل فى أعماق نفسه يمكن أن يفهم من حركة عينيه شكره ومجاملته وغضبه وتهوره.

أذناه مبسوطتان كبيرتان عريضتان وأرجله غليظة وجلده تخفيه طبقة فوق طبقة وله خرطوم يرتخى من فيه.

وبما أن خرطومه فيى غاية القوة فهو يدافع به ضد كل شيء وغير هذا له نابان قويان بارزان من جانبى فمه فإذا اضطر استخدمهما فى الهجوم أو الدفاع.

وقد استخدمه الناس فى الأزمنة القديمة مستفيدين من طبيعته الحليمة في جميع الأعمال. والآن يستخدمه الناس فى آسيا والهند كحصان عادى، حتى إنهم يقدمون على صيد الحيوانات المفترسة بواسطة الفيلة.

كان الأوائل يبنون قلاعا صغيرة ويملأونها بالأسلحة الخاصة بزمنهم مثل الخنجر، الرمح، السهم، القوس السكين ويقومون بتعبئتها بالجنود القادرين على الحرب والضرب ثم يحملون الفيلة بهذه القلاع والحصون الصغيرة ويسوقونها إلى ميدان المعركة.

يروى أن «بدوس» ملك الهند قد ساق مثل هذه الحصون فى حروبه ضد الإسكندر الأكبر الشهير فى آسيا فى سنة ثلاثمائة قبل ميلاد عيسى عليه السلام.

والخلاصة أن الأقوام الهندية كانوا يسوقون فى حروبهم الفيلة المدربة لنظم قتالهم قبل اختراع الأسلحة النارية وتعد أقوى جيوشهم وفيالقهم، تلك التى تضم هذه الحصون المتنقلة. وبما أن الفيلة تخاف وتنفر من دخان البارود وضوئه ومن أصوات المدافع والبنادق فقد أهمل سوق الفيلة فى ميادين الحرب، منذ اختراع الأسلحة النارية.

فى تعريف رصانة أبنية القليس:

إن معبد الأصنام الذى بناه أبرهة فى صنعاء اليمن كان بناء متينا مربع الشكل، وكان ارتفاع جدرانه ستين ذراعا «٨٥ قدما» وكان سمك جدرانها ستة أذرع «٨ قدم و ٨ بوصة».

وكانت قاعدتها السفلية قد ملئت قدر عشرة أذرع وفرشت بحجارة ملونة مصقولة ووضعت أمام الباب سلالم من الرخام المجلو الصقيل.

إن مقدار ٢٠ ذراعاً «٢٨ قدم ٤ بوصة» من الجدران ابتداء من الأرض كانت مبنية من الحجارة المنقوشة التى يطلق عليها اليمانيون «حورب» والجزء الأعلى منها كان مصنوعا من الرخام الملون العجيب فى أشكال مثلثة وركزت فوق زوايا المثلث الرأسية تماثيل مصقولة مصنوعة من خشب الآبنوس ونصبت فوق كل هيكل أعمدة مصنوعة من المرمر.

وكان يحيط ـ دائرًا ما دار ـ ببيت القليس حائط عالٍ فى غاية العلو ومتين وفى اتساع مائتى ذراع أى ٣٨٢ قدم و ٤ بوصات بينه وبين البيت، وكانت بوابة كبيرة تفتح فى محاذاة باب بيت القليس، وكان ارتفاع مصراع البوابة ١٤ ذراعا أى ١٩ قدم، ١٠ بوصات وعرضه أربعة أذرع أى ٥ أقدام و ٨ بوصات وكان مصنوعا من قطعة واحدة من النحاس.

وكان يربط بين بوابة الحائط الخارجى ودرج باب بيت القليس جسر معلق فى طول ثمانين ذراعا أى ١١٣ قدم و ٤ بوصات وفى عرض أربعين ذراعا أى ٦٥ قدما و ٨ بوصات وكانت كل مساميره من الذهب والفضة وخشبه من خشب شجرة الساج.

وكان فى داخل بيت القليس قصر عجيب فى اتساع أربعين ذراعا مربعا أى ٥٦ قدما و ٨ بوصات وكان على يمين ويسار هذا القصر شجرة عظيمة مصنوعة من الذهب حاملة الكرة الأرضية وصور الكواكب وكان في داخل هذا القصر قبة كقبة السماء مبنية فوق أربعة أعمدة متساوية متوازية وكان فى مركز استقامة هذه القبة قصر آخر قد زين داخله وخارجه بالذهب والفضة وهو قصر مشع يثير العجب والدهشة وكان فى وسط هذا القصر عمود شفاف مجلو وكان يلمع ويتلألأ كلما انعكس عليه ضوء الشمس والقمر.

وكان العمود المذكور فى ارتفاع عشرة أذرع أى ١٤ قدما، وبوصتان وقد علق على جوانبه كثير من السلاسل الفضية وقد اتصل به كرسى مصنوع من العاج والأبنوس وغطيت أدراج هذا الكرسى بعضها بالذهب وبعضها بالفضة قد مرت على جانبيه قطعتان من الخشب المنقوش المسميتان بـ «كعيب. إمرة كعيب»

وكانت القبائل الحميرية قد اتخذت كعب وإمرة كعيب إلها ويؤمنون بأنه يخبر عن الخير والشر ولذا يتعبدون له ويزورون ويطوفون حول بيت القليس من داخل السور.

وقد بلغ قوة معتقد الحميريين بكعيب أو إمرة كعيب حدا يفوق معه أن كل من يقصر فى تعظيمهما أو إجلالهما سوف يتعرض حتما لغضبهما، لذا كانوا يفرون منه خوفا من أن يصيبهم شر غضبهما.

قد دام هذا المعتقد مدة طويلة لدرجة أنه لما تهدم بيت القليس وخرب، وبينما تباع أنقاضه مرض أحد الذين اشترى الشجرة التى كان يطلق عليها أبرهة كعيبا صدفة فقيل إن كعيبا قد أصابه بسوء، ولما عرفوا أن الرجل قد شفى واعتدل مزاجه استعجبوا من ذلك.

قصة بيت أصنام بنى بغيض:

قد بنى بنو بغيض بن ريث بن غطفان فى فترة ما رغم وجود الكعبة المعظمة، بيت كفر وأسندوا سدانته إلى بنى مرة بن عوف الغطفانى، إلا أن زهير بن جناب بن خليل[1] بن كنانة بن بكر بن عذرة الكلبى، وهو من الكهنة المشهورين، جمع قوة عسكرية وأحرق معبد الأصنام المذكور وهدم جدرانه ومحاه من الوجود.

كان زهير بن جناب من رؤساء قبائل قضاعة، عرف بسداد الرأى وعاش (٢٥٠) عام أو على قول آخر (٤٥٠) عام وخاض فى أثناء حياته هذه مائتين من الوقائع.

وقد تغلب زهير على العربان الذين أرادوا أن يدافعوا عن معبد الأصنام الذى خربوه وأسر أولادهم ونساءهم ونهب أموالهم وبناء على توسلات بنى غطفان أعاد لهم أسراهم كلهم.

(١) يروى بناء على قول آخر أن أبا جناب هو هبل بن عبد الله بن كنانة.

هجوم ملك الروم.. بقصد تخريب كعبة الله القيوم:

إن ملك الروم الذى عاصر ألب أرسلان من ملوك آل سلجوق، تحرك ضد الإسلام وبناء على ما جاء فى تاريخ رضوان باشا قد نوى وقصد هدم البيت المعظم بسوق مليونين من الجنود، وحينما عرف ألب آرسلان بهذا الخبر أسرع بإعداد قليل من الأبطال فى شجاعة الأسود، وخرج من أصفهان وقابل المعاندين الروم فى مكان قريب من ديار بكر وابتدر بحربهم واستطاع أن يأسر رومانوس ملك الروم بينما كان مشغولا بالصيد كما أسر من كان معه من الصيادين وكبلهم بالسلاسل وأعمل السيف في جنده الذين أعدهم لسوقهم إلى مكة ودمرهم بينما هرب من نجا من السيف[1].

وإن كانت هذه الواقعة منقولة من تاريخ رضوان باشا إلا أن أبا بكر الطرطوشى[2] مؤلف «سراج الملوك» يكتب عن انتصار ألب آرسلان على رومانوس بهذه الصورة.

إن القيصر رومانوس[3] حشد جيوشه للاستيلاء على البلاد الإسلامية والقضاء على الأمة الإسلامية من على سطح الأرض.

وكان لهذا الخبر وقعه السيئ فى المدن الإسلامية، فاضطرب ملوك المسلمين واضطروا إلى أن يتخذ كل واحد منهم وسائل الدفاع ويعد جنودا ـ قدر استطاعته ـ وبقى منتظرا قدوم الأعداء.

وكان ألب آرسلان[4] فى ذلك الوقت في أصفهان فأعد قوة عسكرية صغيرة

(١) إن إعداد مليونين من الجنود فى ذلك الوقت بعيد الاحتمال إنما أراد المرحوم رضوان باشا أن يكنى عن كثرة عدد جند الروم لأن تجهيز مليونين من جند مستحيل من الناحية العسكرية والفن العسكرى.

(٢) إن كنية المؤلف المشار إليه أبو بكر، واسمه محمد بن أبى الوليد بن محمد القرشى، ولد سنة ١٠٥٩ الميلادية وسنة ٤٥١ الهجرية فى مدينة طرطوش بالأندلس، وتوفى فى مدينة الإسكندرية سنة ١١٢٦م و (٥٢٠) الهجرية من شهر جمادى الأولى، وكان من زهاد عصره وعبادهم.

(٣) رومانوس هو القيصر الخامس والستون وقد تولى الملك ١٠٩٩م والموافق ٤٩٢هـ، وفى عام (١١١٣م الموافق ٥٠٦هـ سملت عيناه وانصرف عن الملك.

(٤) المشار إليه من الشعبة الثانية من السلاجقة الذين حكموا خراسان والعراق وما وراء النهر، وكان اسمه محمد واشتهر باسم الملك العادل ألب آرسلان، وقد انتصر على الإمبراطور رومانوس فى هذه الواقعة وارتحل عن الدنيا عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٣م.

وخرج من المدينة ليدافع عن دينه ضد أعدائه وعقب ذلك ظهرت طلائع جيش رومانوس ونصبوا خيامهم أمام معسكر جيش أصفهان.

ولما كانت الليلة ليلة الجمعة كان الأعداء فى حالة إعياء أجلوا القتال للصباح بالاتفاق وعينوا حراسا وباتوا يتكاثرون إذ أخذوا يفدون طول الوقت.

وفى الصباح أرسل المسلمون الجواسيس ليطلعوا على أحوال جيش العدو وقد رأى هؤلاء أن جند العدو أكثر من رمال الصحراء وقد ملئوا الجبال والصحارى وكان معسكر رومانوس بحرًا زاخرًا وعدة الجيش وعتاده مما يخرج عن الحصر والتخمين.

ولما رأى ألب آرسلان أن قوته بالنسبة للأعداء كخال أسود على جسم ثور أبيض عرف أن مقاومة عدو فى هذه الضخامة غير مجدية، وأمر بعقد مجلس شورى مع كل الذين يهمهم هذا الأمر.

وكانت نتيجة المناقشات والمشاورات أنه يجب أن يعد جميع أسباب الحرب والمقاومة حفظا لكرامة الأمة الإسلامية، وعرضت نتيجة المشاورة على ألب آرسلان وقد ساند المسلمون بعضهم بعضا، وقد تهيئوا للقتال.

وقد سر ألب آرسلان من هذا القرار وقال اليوم الجمعة وهو يوم مبارك، مادمنا سنحارب فلنصبر إلى أن نصلى صلاة الجمعة لأن الخطباء سيدعون فى هذا اليوم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بانتصار جيش الموحدين، ثم نخوض المعركة لإعلاء كلمة الله ثم بعث بعيونه إلى معسكر العدو، وطلب منهم أن يعرفوا مكان خيمة رومانوس وشكله وهيئته، وبعدما اطلع على ما يريده جمع رجاله الأبطال، وقال لهم: أهجموا حيث أهجم ووجهوا سيوفكم وسهامكم ورماحكم حيث أوجه، ثم هجم على خيمة رومانوس ساحبا جنده خلفه ـ وقتل القيصر وبث هذا العمل الرعب والفوضى فى معسكر الأعداء فاضطربوا باكين مولولين.

حينما رأى العدو أن جنود المسلمين يهاجمون جيوشهم كالأسود الشجعان غير

مبالين بمن يقع منهم اضطربوا أيما اضطراب وقرروا الفرار[1].

وبناء على هذا النصر اغتنم المسلمون أموال أعداء الدين والوطن؛ وأسروا الذين لم يستطيعوا الهروب.

وقد قبض على القيصر رومانوس أيضا وسيق إلى حضرة ألب آرسلان، الذى قال له وقد مثل أمامه: أيها القيصر! كيف كنت تعاملنى لو كنت أسرتنى؟ فتلقى منه رداً: حتما كنت قتلتك، فقال له: إنك أحقر فى نظرى من أن أمد يدى عليك بالقتل.

وعرضه للبيع فى المزاد العلنى في معسكره، وأعلن عنه بضعة أيام ولم يظهر أحد يرغب فى شرائه، وأخيرا ظهر شخص يريد أن يبادله بكلبه، وبلغ الخبر ألب آرسلان وأحضر الكلب وصاحبه والقيصر رومانوس عندئذ قال الملك منصفا صاحب الكلب إننى أرى أن كلبك خير منه، وأطلق سراح رومانوس وأعاده إلى بلاده.

وكان ألب آرسلان عندما قال لصاحب الكلب: إن كلبك خير من رومانوس، يريد أن يشير إلى أن القادة الذين لا يستطيعون حماية جنودهم من الهزيمة لا يستحقون أن يكونوا قادة، كما أن رومانوس قد تسبب فى هزيمة جيشه وأسره لأنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة.

كتب كاتب جلبى فى موجزه الذى كتبه باللغة العربية قد تملك آلب آرسلان فى ٤٥٥ هـ الموافق ١١٦٤ مدينة حلب وسرح جنده مبقيا معه ١٤٠٠٠ ألف مقاتل.

وقد انتهز رومانوس هذه الفرصة واستولى على ملك المشار إليه وهو غافل، وقرر آلب آرسلان مقاتلة الروم بجنده الذين معه إذ لم يعبأ جنده كلهم عقب محاولة رومانوس الاستيلاء على ملكه، ولكنه رأى بلاده قد احتلت بجنود أكثر من جراد الصحراء فاضطر لطلب المصالحة.

(١) يقول المؤرخون إن عدد الجنود الذين ساقهم آلب آرسلان لمحاربة العدو كان ١٢٠٠٠ الفا أو ١٤٠٠٠ الفا.

ولما كان هدف رومانوس هو القضاء على الأمة الإسلامية لم يرغب فى الصلح وأعلن أنه لن يتنازل عن القتال، حينئذ توكل آلب آرسلان على الله وخاض الحرب وأحرز النصر الذى ذكر من قبل. وهكذا ترك فى صفحات التاريخ ما سيخلد اسمه على مدى الأيام.

فليزد الله ـ سبحانه وتعالى ـ من عمر خليفة وجه الأرض والسلطان العادل السلطان عبد الحميد الثانى، ولينصر جيوش الموحدين فى كل زمان ومكان، وليقهر ويدمر أعداء الوطن والدين بجاه سيد المرسلين. آمين.

وإن كان هناك خلاف بين رواية رضوان باشا فى تاريخه ورواية صاحب «سراج الملوك» ومؤلفه، فبما أن حرب رومانوس كانت ضد جميع المسلمين فليس بمستبعد أن يكون أمله تخريب كعبة الله.

كتب مؤرخو الروم أن جيوش قيصر الروم قد انهزمت فى حروبها ضد السلطان علاء الدين فى الأناضول، وأسر رومانوس ثم أطلق سراحه بعد أن نال العفو ورجع إلى عاصمة ملكه حيث سملت عيناه.

من بين فروع السلاجقة التى حكمت فى قونيه ملكان حملا اسم علاء الدين وقد مات أحدهما فى سنة ٦٣٤هـ الموافق السنة ١٢٣٧ الميلادية، والآخر توفى فى السنة ٧٠٠هـ الموافق للسنة ١٣٠١ الميلادية.

وبناء على هذا من قول المؤرخين المشار إليهما فإن رومانوس قد أسر فى حربه ضد السلطان علاء الدين يقتضى أن يكون خطأ؛ لأن رومانوس قد اعتلى كرسى الحكم سنة ١٠٩٩ الميلادية، وبعد أربعة عشر عاما من الحكم غادر دنيانا وهذا ثابت باعترافهما.

وعلى هذا التقدير فإن حكم رومانوس كان قبل وفاة السلطان علاء الدين بمائة وثمان وثلاثين سنة، ويتحقق أنه كان معاصرا لألب آرسلان.

فى تجديد مبانى الكعبة المقدسة للمرة التاسعة

قد جددت أبنية كعبة الله للمرة التاسعة من قبل «عبد الله بن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ، وسبب هذا التجديد ضرب «حصين بن نمير» كعبة الله المقدسة وتخريبها بعد حرقها مستخدما المنجنيق.

وبعدما بلغ خبر استشهاد قائد شهداء كربلاء إلى الأقطار الحجازية غمر الحزن الأسى فى قلوب السكان بموت حفيد النبى (الحسين بن على المرتضى) رضى الله عنهما. و رانت على القلوب علامات الدهشة، أراد عبد الله بن الزبير أن يعزى أهل مكة واستدعى أكابرها وأعاظمها ثم صعد المنبر وحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأثنى على نبيه ـ ﷺ ـ وفْقَ طريقة خطباء العرب ـ ثم ألقى خطبة بليغة ذات أثر شديد، وأخذ يعدد معايب يزيد البليد ومظالمه وجذب إليه قلوب الناس.

خطبة ابن الزبير:

(يا صناديد الحرم إن معظم سكان بلاد العراق وأقطاره بلاد الآفاق أهل غدر وفتنة. إنهم قد استدعوا قرة عين الرسول ونور بصر البتول الإمام الهمام «الحسين بن على بن أبى طالب» ـ رضى الله تعالى عنهم ـ بوسائل مختلفة ورسائل عديدة وإن دناءة سكان الكوفة تفوق دناءة سكان الولايات الأخرى الذين تجرءوا على استقبال الإمام بسيوف الغدر المسلولة. إنهم أهانوا وردة الروضة النبوية مع أكثر أهله إذ أوردوهم مورد الشهادة بسيوفهم الغادرة.

إن هذه الطائفة الباغية قد قتلت واحدا من أهل الصلاح والسعادة الذى كان يقضى ليله عابدًا و نهاره صائمًا، بينما كان الناس يقضون أوقاتهم متمتعين بفرط غناهم ويستمتعون بملذات دنياهم فى سفاهة، كان هذا الملك الربانى يقضى أوقاته فى البكاء من خشية الله، بينما كان الآخرون منتشين من ملذات الحياة

وسكارى من جاههم، كان الإمام الشهيد فى مجلس ذكر الله ومقامه وكان صائما دائمًا حذر الحرام». انتهى.

قد عرف يزيد العنيد أن عبد الله بن الزبير يمتنع عن البيعة له معتمدا على كعبة الله وأهل الحرمين، ولذا بعث إليه الرسل يطلب منهم أن يأخذوا بيعة عبد الله بن الزبير، وإلا يسوقوه مصفدًا بالسلاسل إلى الشام، إلا أن عبد الله بن الزبير رد على رسل يزيد قائلا: لا أبايع يزيد ولا أسافر معكم إلى الشام، وبناء على هذا عاد رسل يزيد خائبين ونقلوا ما حدث إلى يزيد.

ولم يقنع يزيد بمن بعثه من الرسل بل اختار سبعة من صناديد الشام ومعهم «نعمان بن بشير الأنصارى وعبد الله بن عِضَاه[1] الأشعرى» و«مسلم بن عقبة المزنى»، وبعثهم جميعا إلى عبد الله بن الزبير.

لقى رسل الشام عبد الله بن الزبير وبذلوا كل جهدهم ليأخذوا منه البيعة ليزيد، وعندما كانوا يلحون على أخذ البيعة منه، قال عبد الله بن الزبير مخاطبا نعمان بن بشير: من فينا أعلى مكانة بين قومه؟ أنا أم يزيد؟ والدى وعماتى وخالاتى أم والد يزيد وعماته وخالاته؟ وكان رد نعمان بن بشير: يا ابن الزبير إن والدك حضرة الزبير، ووالدتك ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر، وخالتك عائشة بنت الصديق، وعمة أبيك خديجة الكبرى، ومن هنا فمن جهة أقاربك وقبيلتك فأنت أعلى منزلة من يزيد، فقال له عبد الله: هل تستصوب بيعتى ليزيد وأنت تعرف كل هذا؟ فهل ترى أنه من المناسب أن أبايع يزيد؟ قال: لا أراه مناسبا وبهذا تمسك عبد الله بن الزبير برأيه ورفض البيعة ليزد رفضا باتا، وعاد رجال الشام خائبين. بينما كان رسل الشام فى طريقهم إلى بلادهم أخذ عبد الله بن الزبير بيعة أهل الحجاز وتهامة وضمهم فى صفه ما عدا «عبد الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر» وطرد ولاة يزيد وموظفيه من حدود أرض الحرمين الميمونة.

(١) الطبرى ٥/ ٤٧٦، ٤٩٠.

اطلع يزيد على ما حدث وأراد أن يؤدب أهالى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وأرسل جيشا تحت قيادة الخائن «مسلم بن عقبة المزنى» وزوده بتعليمات غير لائقة، إذ أمره أن يجرى مذبحة فى المدينة المنورة وينهب أموالهم، وبعد ذلك يتجه إلى مكة المكرمة حتى يقبض على ابن الزبير ولما كان مسلم عازما على تنفيذ أوامر سيده حرفيا تعلم من «عبد الملك» فن الدسائس والحيل وطبقه على أهل المدينة، وقتل منهم ستة آلاف أو أربعة آلاف بناء على قول آخر، ثم اتجه إلى مكة المكرمة وبعد مرور ثلاثة أيام من خروجه من المدينة ساء مزاجه ويئس من حياته.

استدعى بناء على الأمر الذى كان تلقاه من يزيد فى الشام «حصين بن نمير الكندى» وقال له: قد عينتك قائدا لهذا الجيش. يجب أن تصل إلى مكة وتعلن الحرب وتشعل نار القتال حتى تقبض على ابن الزبير. ولا تَقُلْ إن مكة بلد الله، كيف نحارب جيران بيت الله؟ بل من واجبنا أن نحترمهم ونرعاهم؟! بل بادر بنصب المجانيق على رءوس الجبال، وألق الحجارة على كعبة الله ناويًا تخريبها حتى تثير الفزع فى نفوس الناس وحاصرهم، وضيق عليهم سبل العيش، قال هذا وانحدرت روحه إلى جهنم وهلك عندما وصل إلى جبل مشلل.

حدثت وقعة المدينة المنورة المذكورة الأليمة سنة ٦٢ هجرية[1] الموافق ٢٨ من ذو الحجة وفى يوم الأربعاء، وكان عدد الذين نالوا ثواب الشهادة من أهل المدينة المهاجرين والأنصار ٧٠٠ شهيد وكان الباقى من التابعين والموالى.

قد تعرضت المدينة المنورة فى تلك الوقعة للنهب والسلب مدة ثلاثة أيام، وأكثر من ألف امرأة للاغتصاب على ما ينقله الرواة.

قد ذكرت بالتفصيل كيفية وقوع حادثة المدينة فى بحث وقعة الحرة وفى الصورة التاسعة من الوجهة الثالثة من مرآة المدينة فمن يرغب الاطلاع عليه الرجوع لهذا الكتاب.

(١) ويقول بعض المؤرخين أنها حدثت فى سنة ٦٤ هجرى.

قد نصب «حصين بن نمير» وفق الأوامر التى تلقاها من مسلم ـ الذى يناقض حقيقته اسمه ـ فى شهر المحرم من السنة المذكورة مجانيق فوق جبل أبى قبيس وجبل أحمر، وحاصر مكة أربعين يوما وقتل كثيرا من المسلمين وعذب أهل مكة، وضيق عليهم الخناق.

وفى هذه الفترة وصل خبر هلاك يزيد ـ الظاهر الشناعة ـ فاضطر حصين للعودة. دامت هذه الحرب والمحاصرة من اليوم الثالث والعشرين من شهر محرم إلى قرب غرة ربيع الآخر، واحترقت أستار الكعبة وسقفها وانشقت جدرانها وتحطمت من جراء النار التى سرت من الحجارة المحرقة التى انهالت عليها، كما احترق قرنا الكبش الذى أنزله الله من السماء لفداء إسماعيل، واللذان كانا معلقين على سطح الكعبة.

وقعت فاجعة احتراق الكعبة فى يوم السبت الثالث من ربيع الأول، إلا أن حصين بن نمير قد استمر فى الحرب إلى أن بلغه خبر وفاة يزيد. وقد عرف خبر وفاته بعد احتراق الكعبة بسبعة وعشرين يومًا. فترك مكة المكرمة فى ليلة الأحد اليوم الخامس من ربيع الآخر وقفل راجعا.

يروى أن هذا الحريق الهائل بدأ من احتراق خيمة، والمؤرخون الذين قبلوا هذه الرواية وضحوا الحادث بهذه الصورة: إن الشجعان الذين انضموا إلى عبد الله بن الزبير لجأوا إلى المسجد الحرام مأمن الإسلام، واحتموا بساحته ونصبوا خيامهم على جوانبه الأربعة، وكانت غايتهم من ذلك أن يحتموا بها كلما زادت حرارة الشمس وكلما ألقيت الحجارة من المجانيق.

وقد نصب حصين بن نمير المجانيق فوق جبل أبى قبيس وكذلك الجبل الأحمر، وكانت الحجارة الملفوفة بخرق مبللة بالزيت والملقاه على الكعبة لا تنقطع عن الانهمار.

قد داوم الشوام على إلقاء الأحجار إلى حد أن الأحجار التى أصابت البيت

الشريف مزقت كسوته إربا إربا، كما أن الأبنية المباركة تداعت وتهاوت وبدأت أحجارها تتساقط.

وفى يوم اشتدت برودته وعصفت رياحه تطايرت شرارة من نار إحدى الخيام فأحرقتها، وكانت الخيمة منصوبة بين باب الصفا والركن اليمانى، وانتقلت الشرارة إلى ستارة الكعبة الممزقة فأحرقتها، وانتقلت النار من الستارة إلى الأحزمة الخشبية التى تحيط بالكعبة فاحترقت، ومنها إلى حيطان الكعبة وتحول البيت إلى قطعة نار.

وبما أن البيت المعظم كان من المبانى المقدسة التى أقامتها قريش فكان قابلا للاحتراق؛ لأن القرشيين كانوا قد بنوا البيت من أساسه إلى سقفه جاعلين جدرانه طبقة من الحجارة وطبقة من حزام خشبى. وبينما كانت الأحزمة الخشبية لجدران الكعبة تحترق تحرك الحجر الأسود من مكانه فأراد عبد الله بن الزبير أن يثبته بإذابة فضة وصبها على جوانبه؛ إلا أن أركانه الأربعة كانت قد تكلست بشدة النار كما أن الركن الكائن فيه أصابه الوهن فلم يمكن عمل شىء.

وكانت جدران بيت الله حيثما يحط عليها الحمام تتفتت تحت تأثير سيقانه، مما حمل من يشاهده من المؤمنين على البكاء دما بدلا من الدموع، وفى النهاية مضت جماعة من القرشيين[1]. وبنى أمية إلى حصين بن نمير وأخبروه أن الحجارة التى رماها قد خربت الكعبة المعظمة؛ إلا أنه أنكر أن يكون قد خرب الكعبة، وفى هذا الوقت بلغه نعى يزيد فكف عن الحرب والحصار وسحب جنده وعاد إلى الشام.

(١) كان عبد الله بن خالد بن أسد القرشى منهم.

جمع عبد الله بن الزبير الأعيان وعظماء الناس من مكة عقب الحرب، وذكرهم بأنه يأمل أن يعالج ما تهدم من أبنية الكعبة ويجددها ـ كما ذكرهم بحديث بانى أركان الشريعة الرصينة عليه أكمل التحية إذ قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ «يا عائشة لو لم يكن قومك قريبى العهد بالجاهلية لهدمت أبنية بيت الله وجعلت للبيت بابين يفتح أحدهما على الشرق والآخر على الغرب، وأدخلت إلى بيت الله من الحجر مقدارا ما طوله ستة أذرع أى ثمانية أقدام» (حديث شريف) وبما أن مال قريش الحلال لم يكف لإدخال الحجر فى البناء عند ذلك الوقت تركوه خارج البيت، ثم قال لها تعال أريك الجزء الذى أبقوه خارج البيت ثم أخذها إلى تحت الميزاب وقال: هذا هو المكان وأشار إلى مكان حجر إسماعيل ما مقداره سبعة أذرع أى ٩ أقدام و١١ بوصة، ثم قال عبد الله للمجتمعين إنما أردت أن أبين لكم أن النبى ـ ﷺ ـ أجاز تجديد الكعبة، وفى نفس الوقت أردت أن أبحث الموضوع معكم و أستشيركم. وكلكم تعرفون أن الحجر الأسود[1] قد تحطم من أثر ضربة بحجارة حصين النارية وألصق بالفضة المذابة، كما أخذت حجارة جدران كعبة الله تتساقط من جميع الجهات.

وبهذه الكلمات البليغة ابتدأ عبد الله باستفسار رأى عظماء الحاضرين ثم أخرج الحجر الأسود من مكانه ووضعه فى صندوق بعد أن لفه فى قطعة من الديباج، وأغلق الصندوق بقفل وحفظه فى دار الندوة، كما أمر أن تحفظ الهدايا الموجودة فى خزانة الكعبة فى دار شيبة بن عثمان.

(١) تحطم الحجر الأسود ثلاث قطع، أخذ بنو شيبان قطعة ليحفظوها عندهم ثم استردها عبد الله منهم، والصقها بالقطعتين الأخريين ثم عالج أطراف الحجارة بمادة تشبه الجبس ليحافظ على تماسكها هى والقطعة الثالثة التى الصقت فى الجهة العليا من الحجر الأسود الآن.

اجتمع أعيان الأشراف و وجهاءُهم عند ابن الزبير ووافق بعضهم[1] رأيه وخالفه البعض الآخر[2]، غير أن ابن الزبير لم يلق بالا إلى رأى المخالفين، واستقر رأيه على تنفيذ ما فى ضميره.

وخاف أهالى مكة من هدم كعبة الله وهربوا إلى قمم الجبال، وأظهر عمال البناء استياءهم من هدم الكعبة بالتراخى فى العمل. ولما رأى عبد الله بن الزبير ذلك جعل بعض عبيده الحبشيين ذوى السيقان الرفيعة يصعدون فوق الكعبة مبطلا الحكم الحديث الذى يحفظه عن النبى ـ ﷺ ـ «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة».

وبدأ فى هدم البناء يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخر من السنة المذكورة، وأراد أن يحضر من اليمن نوعا من المادة المستخرجة من الزعفران ليخلطها بالمونة اللازمة لبناء البيت، ولكن بناء على اعتراض بعض أهل التخصص بأن هذه المادة تحول دون تحجر المونة انصرف عنها، واستحضر من صنعاء اليمن كلس بأربعمائة دينار. وحتى لا يمنع الطائفين من الطواف فى أثناء عمليات البناء. وبناء على إخطار عبد الله بن عباس أحاط البيت بسور خشبى، وغطى السور بستارة من القماش وهدم أبنية البيت حتى وصل إلى أساس إبراهيم القديم، وكان قد حفظ الحجر الأسود بعد أن وضعه فى صندوق فى دار الندوة.

وشرع فى بناء جدران الكعبة وفق ما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر أعلاه على أسس بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، الذى عثر عليه وأدخل حجر إسماعيل داخل كعبة الله دون أن يراعى قواعد قريش فى البناء، وفتح بابا عرضه ثلاثة أذرع أى ٤ أقدام و١١ بوصة فى الجهة الغربية أيضا بلغ ارتفاع الجدران إلى ثمانية وعشرين ذراعا أى ٣٨ قدم و٣ بوصات، وجعل سمك الجدران ذراعين

(١) من الأصحاب الكرام الذين وافقوا على تجديد البيت جابر بن عبد الله بن عمير وعبد الله بن صفوان.

(٢) وكان عبد الله بن عباس موافقًا على فكرة تجديد البناء؛ إلا أنه خالف عبد الله بن الزبير فى الرأى حتى لا يتخذ الملوك هدم البيت وبنائه عادة لهم.

أى قدمين وعشر بوصات. إن ارتفاع الكعبة التى بناها إبراهيم ـ عليه السلام ـ يصل لستة أذرع وارتفاع كعبة قريش (١٨) ذراعا، حتى قال ابن الزبير إن قريش أضافت (٩) أذرع على ارتفاع كعبة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وإن أضفت (٩) أذرع على بنائهم فأصبح ارتفاع الكعبة (٢٧) ذراعا.

قد فرش ابن الزبير عشرة أذرع من الساحة التى حول المطاف بالحجارة التى بقيت من بناء الكعبة، وزين الكعبة الشريفة بتعليق كسوة مزينة، وطيب خارج الكعبة وداخلها بالعود والعنبر والمسك وبخرها كما غطى العمودين المسميان بالحنان والمنان بصفائح من الذهب، كما صنع مفتاحًا من الذهب لباب كعبة الله المسمى بالمعلا سنة ٦٤هـ.

عندما حفر الأسس التى لم تندرس إلى عهد سيدنا إبراهيم، وعمّق ظهر فى الحفر حجارة لامعة وأراد أن يستخرج هذه الحجارة وضرب ضربة شديدة بفأس، وعند ذلك اهتزت أركان الكعبة الأربعة من أثر الضربة واستولى قلق على أهل مكة وندم الذين وافقوا عبد الله بن الزبير فى تجديد الكعبة.

ولم يتأثر عبد الله بن الزبير من قلق الناس قيد أنملة، واستدعى عبد الله[١] الصحابة الأجلاء وأراهم قواعد إبراهيم ثم أمر بطرح الأساس، وأنزل عتبة الباب الشرقى حتى أرض المطاف كما أنزل عتبة باب المعلا الجديد فى الناحية الغربية حتى الحجر الأخضر المتصل بالفسقية الكائنة فى الجهة الغربية.

وكان الحجر الأسود قد ظل فى الحريق الذى حدث فى عهد قريش، وتجزأ وظل أحد أجزائه محفوظا عند أحد الأشخاص من بنى شيبة، وعندما أراد عبد الله بن الزبير أن يضع الحجر الأسود فى الصندوق أخذ الجزء الذى عند ذلك الشخص وألصقه بالحجر الأسود مستخدما الفضة[٢] ثم حفظه، وعندما أراد أن

(١) كان عبد الله بالطبع من بين الموجودين وحينما أخذ فأسا وضرب الحجارة اللامعة اهتزت أركان الكعبة الأربعة كما اهتزت أسس محلات مكة المكرمة ومنازلها.

(٢) حينما حج هارون الرشيد رأى أن الفضة المذكورة قد وهت؛ لذلك أمر أن يثقب الحجر من فوقه وتحته، وصب فى الثقب فضة مذابة وهكذا قوى الحجر.

يضعه فى مكانه الذى فى بيت العزة استدعى ابنه عباد وجبير بن شيبة بن عثمان، وقال لهما بينما أنا أصلى صلاة الظهر اذهبا إلى دار الندوة وخذا الحجر الأسود منها وضعاه فى مكانه، وكبرا بعد أن تستراه قال هذا وأم الناس ليصلى صلاة الظهر.

قد تشاور عباد وجبير بن شيبة بن عثمان ثم وضعا الحجر الأسود على طرفى الستارة الخشبية الكائنة بين كعبة الله ودار الندوة، وأحاط بهم الناس من الطرفين ثم وضع الحجر الأسود على ثوب طاهر فى شكل ظاهر، ومرا من بين الناس ووضعا الحجر الأسود فى مكانه وغطاه، ثم كبرا مبشرين باستقرار الحجر فى مكانه. وقد وضع الحجر الشريف فى مكانه حضرة عباد، وساعده فى ذلك جبير بن شيبة.

وقال عظماء قريش بعد أن فرغوا من أداء الصلاة، وقد عرفوا أن الحجر الأسود قد وضع مكانه إن قريشا عندما أرادت أن تضع الحجر الأسود فى مكانه تنازعت عدة أيام، وكادت تدخل مع بعضها البعض فى الحرب والقتال بعدما استمر القيل و القال فيما بينها عدة أيام فأتى الرسول ـ ﷺ ـ، وحسم النزاع بعون رؤساء القبائل الأربعة؛ وهل من اللائق ألا يتبع عبد الله بن الزبير هذه الطريقة ويرعاها؟! وقد أرادوا بهذا أن يثيروا الفتنة بين سكان مكة إلا أنهم لم يجدوا من يقف بجانبهم فاضطرو للسكوت.

وقد تم تجديد البيت فى يوم الثلاثاء فى الثالث من شهر رجب أو السابع والعشرين منه من العام الرابع والستين من الهجرة، وعندما انتهى العمل تماما فى البيت ذهب عبد الله بن الزبير مع جميع أهل مكة إلى التنعيم لأداء العمرة، ونحر مائة رأس من الجمال كذلك ذبح كل واحد منهم ما معه من قرابين كل على حسب قدرته وهكذا جعل اليوم مبتهجا كالعيد.

وتعرف هذه العمرة بعمرة الأكمة أو العمرة الرجبية بين أهالى مكة، وكان

المكيون إلى وقت قريب يذهبون إلى التنعيم بنية العمرة ويذبحون القرابين، ويظلون فى المشهد[1] عدة ليال يفرحون ويبتهجون. وفى وقتنا هذا أيضا يذهب الناس إلى تلك الجهات للاحتفال إلا أنهم لا يسمونه العمرة الرجبية. وليس الآن من العادة أن يخرج للعمرة وتذبح القرابين فى اليوم السابع والعشرين من رجب.

وفى الواقع يخرج الناس إلى ذلك المكان فى كل عام للتمشية والاحتفال إلا أنه يحدث فى الأيام الأخيرة من شهر صفر الخير، وإن هذه الاحتفالات ذات شهرة وبهجة إلا أن الأهالى يذهبون إلى مكان يسمى سرف حيث دفنت زوجة النبى ـ ﷺ ـ ميمونة ـ رضى الله عنها ـ، ويقومون بأداء مراسم الزيارة لقبرها ويقضون هناك ما يقرب من ليلتين ثم يعودون إلى أرض الصحراء الزاهرة[2]، ويمضون فيها فترة من الزمن وأن هذا الاحتفال بمثابة عمرة الأكمة.

* * *

(١) هذا المكان هو المقبرة التى دفن فيها عبد الله بن عمر وهو فى طريق العمرة.

(٢) بناء على رواية أن عبد الله بن عمر مدفون فى هذا المكان، وقبره مزار للناس.

في تجديد مباني الكعبة المقدسة للمرة العاشرة

جدد الحجاج الظالم البيت الشريف للمرة العاشرة أيضًا. أنه لم يلمس الجدران الأربعة كلها، ولكنه جدد الجدار الكائن في جهة الميزاب تاركا حجر إسماعيل خارج الكعبة، وملأ الكعبة بالتراب المتبقي من البناء وأعلى باب الكعبة عن الأرض، وأغلق الباب الذي فتحه عبد الله بن الزبير في الجهة الغربية بناء على ما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره. وكان سبب ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يريد أن يحمل عبد الله بن الزبير على بيعته.

وقد وقعت هذه الحادثة بعد واقعة حصين بن نمير بعشر سنوات؛ لأن عبد الملك الذي كان يحكم في بلاد الشام ويريد أن يجدد وسيلة للحصول على بيعة عبد الله بن الزبير، لذا بعث حجاج بن يوسف الثقفي إلى أراضي الحجاز الطاهرة ومعه ثلاثة آلاف من جنود الشام، وأمره ألا يؤذي المذكور وأتباعه إذا ما بايعه بالخلافة.

وقد حاصر الحجاج بمن تحت قيادته السوداء من جنود الحقد كعبة الله ما يقرب من سبعة أشهر، وأخذ يتبع مع ابن الزبير ألاعيب الحرب والقتال وقد أضر في أثناء هذه المدة الطويلة بيت الله الحرام وأصابه، وفي النهاية قتل ابن الزبير وترك جسده الأسعد مصلوبا منتظرا الأوامر من الشام.

وكان من المستحيل أن ينتصر الحجاج على عبد الله بن الزبير إذا لم يصله مدد من الشام؛ لأن الشهيد كان قد عرف أن الحجاج الظالم قد خرج من الشام، وأنه قد نصب له الخيام في الطائف لإيواء جنوده لذلك ساق إليهم مقدارا كافيا من الجنود من الشجعان وحاربهم؛ ولكنه عاد منهزما وقد عجز عن المقاومة.

وإن كانت الهزيمة في الظاهر في ناحية عبد الله بن الزبير؛ إلا أن جنود الشام

أيضا قد تضرروا ضررا شديدا، وفهم جيدا أن عودة عبد الله بن الزبير بمدد قليل من الجنود سيؤدي إلى انتصارهم لذا كتب الحجاج إلى عبد الملك ينبئه بأنه قد انتصر على عبد الله بن الزبير، إلا أن عساكره أيضا قد ضعفوا أشد الضعف وطلب منه أن يبعث له بمدد حتى ينتصر على عبد الله، فما كان من عبد الملك إلا ابتدأ بإرسال المدد.

واستصحب الحجاج القوة الاحتياطي التي أرسلت له من الشام، وعجل بحصار مكة المكرمة قبل أن يجمع ابن الزبير القوة اللازمة.

وانتوى ألا يقارب النساء وألا يتعطر وألا يترك السلاح قبل أن يقتل عبد الله ابن الزبير، وبناء على هذه النية نصب المنجنيق فوق قمم جبل أبى قبيس في السنة الثانية والسبعين من الهجرة، وضيق على أهل مكة الخناق حتى أصبح من المستحيل الدخول إلى أرض المطاف من جراء تساقط الأحجار.

وقد وجد في هذه الفترة عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ في مكة المكرمة بنية الحج وقد تأثر من هذه الحرب أشد التأثر، وأرسل إلى الحجاج الظالم يقول له: «يا حجاج إذا كنت تخاف من الله، فلا تلق الحجارة على المسجد الحرام. إن موسم الحج من الشهور المحرمة، قد اندهش الصلحاء من الأمة الذين أتوا لأداء فريضة الحج من هذه الوقعة، وقد أصبح من المستحيل الدخول إلى ساحة المطاف من جراء الحجارة التي تلقيها، على الأقل اترك الحرب والقتال إلى ما بعد العيد حتى يسقط عن الناس فريضة الحج»، وبناء على هذا الطلب كف الحجاج عن الحرب والقتال، وأرجأهما إلى ما بعد انتهاء الحجاج من أداء نسكهم، وطلب من الحجاج أن يعودوا إلى بلادهم في الوقت الذي حدده، ثم شرع في الحرب مرة أخرى. وأهان كعبة الله بما أمطر عليها من الحجارة.

حادثة غريبة:

بينما ابتدر الحجاج الغادر في إلقاء الحجارة على الساحة السعيدة الحرام ظهرت على وجه السماء سحابة سوداء مظلمة، وقد غطى الأقطار الحجازية ظلام دامس

وسمعت أصوات الرعد والبرق، واستولى على قلوب المخالفين الخوف والخشية.

وحينما رأى حشرات الأعداء هذه العلامات المخيفة تركوا ميدان القتال وأخذوا يبحثون عن مكان يختبئون فيه. ولكن الحجاج المهين للدين خاطب جنوده قائلا: ما الدافع لخوفكم وقلقكم؟ حتى هرب كل واحد منكم إلى جهة إذا كنتم خفتم من أصوات الرعد والبرق فإن هذه ليست أشياء تدعو للقلق والخوف، إنني نَمَوْتُ في هذه البلاد ولا تنقطع الصواعق والبرق منها، قال هذا ثم ذهب بنفسه إلى المنجنيق وتجرأ على أن يلقي الحجارة صوب كعبة الله من البقعة المقدسة.

وينقل من المصادر الموثوقة أنه حينما أخذت أستار كعبة الله تحترق متوهجة من جراء الأحجار المحترقة التي أمر الحجاج بإلقائها على الكعبة الشريفة، ظهرت سحابة من ناحية جدة ذات صواعق، وبروق أخافت جند الشام، وتقدمت هذه السحابة حتى وقفت فوق سقف بيت الله وأخذت تمطر بشدة حتى أطفأت أماكن كعبة الله المحترقة. إن السحابة المذكورة كانت فوق سقف بيت الله فقط، ولم تقع قطرة من المطر خارج المسجد الحرام وخارج المطاف، ومع هذا سالت سيول شديدة من الميزاب الذهبي ساعات وساعات، سيول قد تجرف الإنسان.

وفي أثناء ذلك أصابت الصاعقة المنجنيق الذي نصبه الحجاج الظالم فوق جبل أبى قبيس وأحرقته مع أربعة من جنود الشام، فأعد الحجاج منجنيقا آخر وكلف أربعين نفرا من الجنود بإلقاء الحجر وكان جزاؤهم أن أحرقتهم الصاعقة الثانية فهبطت أرواحهم إلى جهنم وبئس القرار.

وهذا الحال لم يجعل الحجاج ينتبه ويندم على كل ما حدث بل ثار وغضب وهدد جنوده وبهذا اشتد القتال ونسى جنود الشام ما حدث.

وبعد هذه الحادثة الغريبة أصيب اثنا عشر نفرا من جنود الشام وهلكوا. وسفاكو الدماء الذين رأوا هذا انزعجوا بشدة، وأخذ جنود الشام يهربون من

جانب المنجنيق وقد أصابهم الفزع، إلا أن موت بعض أهل مكة بالصواعق أيضا أعطى فرصة للحجاج الظالم أن يخاطب جنوده. قائلا: الحق معكم وليس مع أهل مكة إن العلامات المهيبة الخاصة بأراضي الحجاز زالت فاصبروا قليلا.

وقد أدى خطاب الحجاج هذا إلى اشتداد القتال، ومد الصراع وزاد القحط والغلاء في مكة مما جعل المكيين يسأمون من أرواحهم، فالتجأ أغلبهم إلى الحجاج طالبين الأمان وترك بعضهم عبد الله بن الزبير متجهين إلى المدينة المنورة.

ولم يكن أهل مكة فقط ممن تخلوا عن عبد الله بن الزبير في محنته، ولكن ابنيه حمزة وحبيب وهما من صلبه تخليا عنه، ولجأ كلاهما إلى السفاح الحجاج مبايعين وتركا والدهما بمفرده؛ ولكن ابنه المسمى بالزبير ظل في عون أبيه ولم يفترق عنه.

وذهب عبد الله بن الزبير إلى أمه إذ رأى أصحابه قد افترقوا من حوله كفرخ الحجل، وقابل والدته ذات النطاقين وقال لها: يا أماه إن أتباعي الذين كانونا معي خانوني كما خان أهالى الكوفة أتباع الحسين بن على ـ رضي الله عنه ـ سيدهم. ومع هذا ظل أولاده بجانبه، ولكن أولادي قد خانوني إذ انضموا إلى الحجاج مبايعين وتركوني بمفردي، إن ذلك الظالم الذي لا يستحيي يبعث لي رسائل واحدة تلو أخرى قائلا: إذا تركت مخالفتي أقبل جميع مطالبك.

فما رأيك في هذا الخصوص فقالت له: يا بني لا يليق بك بعد كل هذه الحروب أن تسلم نفسك إلى يدي بني أمية. إنك رجل مسن، كم سيطول عمرك؟ وخير لك أن تستشهد ببطولة من أن تعيش في صحراء المذلة والاحتقار، فلما سمع منها هذا الرد ودعها، وقضى ليله حتى الصباح في داخل الكعبة متعبدا متضرعا وبعدما أدى صلاة الفجر أخذ معه بعض الفتيان الذين قرب أجلهم، وأخذيقاتل ويهلك في كل هجمة عدو الله وهكذا أخرج جند الشام الموجودين في داخل المسجد الحرام ثم خرج من باب الصفا واتجه صوب جبل أبي قبيس.

وبينما كان عبد الله متجها إلى جبل أبي قبيس تبعه أحد أنجاس الشام، ورماه بيده الحقيرة بحجارة وأوقع ذلك البطل أسد الوغى على الأرض، كما تقدم أحد الأنجاس المنكرين وقطع تاج الرءوس ومضى به إلى الحجاج الظالم.

قد سر الحجاج قليل الأدب أيما سرور وسجد شاكرا حامدا وكله فخر وسرور ثم أرسل رأسه الشريف مع رءوس الرؤساء الآخرين من أهل مكة، وصلب جثته الموعودة بالغفران، وأمر ألا تنزل حتى ترجو ذلك أمه أسماء ذات النطاقين.

حينما سمعت ذات النطاقين ذلك الأمر قررت ألا تذل نفسها برجاء الحجاج، ولكنها مرت بالصدفة من جانب المكان الذي كان مصلوبا فيه، وقالت أما آن لهذا الفارس أن يترجل!؟ وعند ما سمع الحجاج السفاح هذا القول أوله بالرجاء، وأمر أن تنزل جثة الشهيد المظلوم من مصلبها. ودفنت في مقبرة الحجون صنوان الجنة في جمال منظرها.

ويقول بعض المؤرخين إذ يروون هذا الخبر بشكل آخر. إن أم الزبير ذات النطاقين لم تتذلل إلى الحجاج طالبة منه إنزال ابنها من مصلبه، وكذلك لم تقل أما آن لهذا الفارس أن يترجل. وقد أنزلت جثة عبد الله من مصلبه بأمر وارد من عبد الملك. وكان عبد الملك يعرف مدى عداوة الحجاج لابن الزبير وقد بلغه أن الحجاج يصر على إبقاء جثة عبد الله على المصلب؛ لذا بعث برسول إلى الحجاج يأمره أمراً قاطعًا بإنزال جثة الشهيد، وقد أنزلت جثته بعد أربعين يوما من تاريخ صلبها، وسلمت إلى أمه ذات النطاقين التي ابتدرت بتجهيزها وتكفينها ودفنت في مقبرة المعلا. وبناء على هذا قد مضي أربعون يوما بين استشهاد ابن الزبير ودفنه، وظلت جثته مصلوبة أربعين ويومًا.

قد كبر جموع جند الشام حينما بلغهم استشهاد عبد الله بن الزبير من فم واحد، مظهرين فرحهم وسرورهم، وحينما بلغ الخبر إلى أسماء ذات النطاقين التي كانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها، قالت بعد ما استرجعت الآية الجليلة: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٥٦) ما هذه الحال؟! وما أعجبه؟! إذا كان

الصحابة الكرام قد كبروا عند ولادة عبد الله، وفي يوم وفاته أظهر أعداؤه ذوي الخاتمة السوداء فرحهم وسرورهم مكبرين.

وقد أظهر عبد الله بن عمر عجبه وقال مشيرا إلى جند الشام: إنني أتعجب من هؤلاء الناس. إذ يكبرون فرحين مسرورين من فم واحد بمقتل عبد الله بن الزبير، بينما كان الصحابة الكرام قد كبروا وهللوا فرحين بولادته.

إن تعجب عبد الله بن عمر في مكانه، لأن عبد الله بن الزبير كان قد ولد بعد الهجرة النبوية بعشرين شهرا، وكان اليهود يقولون: إننا قد سحرنا المسلمين فإنهم لن ينجبوا ذكورا بعد الآن، وكان هدفهم من هذا تصديع صف المسلمين وإيذاءهم، فلما ولد عبد الله بن الزبير فرح المهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ واحتفلوا بولادته أيما احتفال وهكذا خاب اليهود وانزعجوا.

استدعى الحجاج عقب استشهاد عبد الله بن الزبير أمه ذات النطاقين، ولما لم تذهب إليه زارها في بيتها وقال لها: كيف وجدتني وقد قتلت ابنك عبد الله؟! قالت له: «إنك قد أفسدت لابني دنياه وأفسدت لنفسك آخرتك. وكان الرسول الأكرم ـ ﷺ ـ قد أخبرنا بظهور كذاب ومهلك في بني ثقيف، وقد عرفنا الكذاب وهو المختار الثقفي أما المهلك فهو أنت».

ترجمة حال ابن الزبير:

عبد الله بن الزبير[1] هو حفيد العوام أخو السيدة «خديجة بنت خويلد» ـ رضي الله عنها ـ زوج النبى ـ ﷺ ـ أم المسلمين، وابن «أسماء بنت أبي بكر» الصديق ـ رضي الله عنه ـ هو وأبوه من زمرة صحابة الرسول ـ ﷺ ـ السعداء وعندما ولد افتتح حياته بريق النبي ـ ﷺ ـ الذي يبعث الحياة وسمي باسم عبد الله المبارك الذي يشرف الناس.

وكان طيلة عمره حريصا على إحياء لياليه بالعبادة، وكان متصفا بالزهد والتقوى والعفة والشجاعة وعزة النفس والشهامة، وكان قد قسم ليالي عمره إلى ثلاثة أقسام: إذ حصر ليلة من لياليه للقيام والأخرى للركوع والثالثة للسجود.

(١) انظر ترجمته في الإصابة ٤/ ٦٩ ـ ٧١، المعارف (٢٢٤ ـ ٢٢٦)، تاريخ الطبرى ٥/ ٦٢٢، ٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥، ١٨٧ ـ ١٩٣، وغيرها..

وقال ابن أبي مليكة يصف صلابة عبد الله بن الزبير في دينه :ـ بينما كان عبد الله بن الزبير يؤدي الصلاة ـ في يوم من أيام المحاصرة إذ مر حجر من بين لحيته المباركة وصدره إلا أنه لم يستمر فقط في صلاته ولكنه لم يتأثر أدنى تأثر في مراعاة التعديل في ركوعه وسجوده في خشوع وخضوع، وأدى صلاته دون أن يستعجل كما كان يؤديها في الأوقات العادية. ثم استمر في قوله قائلا: إنني أقسم بما أن جلد ابن الزبير اختلط بلحمه، كما أن لحمه امتزج بأعصابه، وأن أعصابه قد تألفت بعظامه كان قوي البنية، كما أن نفسه وروحه بين جنبيه اختلطتا بأعضاء جسمه فكان قوي القلب، وخلاصة القول إنه كان شخصا نادر المثال في الشجاعة وقد روى عن النبي ـ ﷺ ـ اثنين وثلاثين حديثا ونال شرف أن يكون رديف النبي ـ ﷺ ـ في مطيته.

قد طهر الحجاج القذر ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الإلهية ـ بعدما قتل عبد الله بن الزبير ـ من الحجارة التي ألقاها ومن الدماء التى أسالها، وكتب إلى عبد الملك يخبره أن عبد الله بن الزبير قد بنى الكعبة مغايرًا لبناء قريش، وفضلا عن ذلك فتح بابا زائدا في الجهة الغربية من الكعبة.

ومن هنا وجب علينا أن نغير أساس البقعة المقدسة. وقد تلقى ردا من عبد الملك[1] وبناء على تعليماته قد هدم الجدار الموجود في الناحية الشامية، وترك في ناحية حجر إسماعيل ما مقداره ستة أذرع إلى تسعة أقدام وإحدي عشرة بوصة خارج البيت، وسد الباب الموجود في الجهة الغربية وجدد الجدار الذي هدمه في الجهة الشامية وفق ما بنته قريش. إن المكان الذي تركه الحجاج خارج البيت هو ما يطلق عليه اليوم حجر إسماعيل، وكانت قريش تترك حجر إسماعيل خارج البيت لأنهم كانوا يعانون من أزمة مالية في ذلك الوقت إلا أنهم كانوا قد بنوا حوله جدارا مستديرا[2] في ارتفاع ذراعين أي قدمان وعشر بوصات.

وقد أراد عبد الله بن الزبير أن يبني الكعبة عند تجديدها وفق الحديث الذي

(١) الطبرى ٦/ ١٩٥

(٢) يطلق على هذا الحائط الآن الحطيم.

ذكرناه فيما قبل، وأعادها على أسس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولقد بذل في سبيل ذلك نقوداً كثيرة.

ولكن الحجاج بإعادته الكعبة على حالتها القديمة كما بنتها قريش بسد بابها الغربى أسرع بإعلان ما كان يكن لعبد الله بن الزبير من عداء.

مطالعة:

قد نتج عن تغيير عبد الملك لأسس كعبة الله بدون أن تكون هناك ضرورة لذلك بإشعار من الحجاج الظالم وأعوانه زوال سلطنة أمراء بني أمية، وظهور قوة بني عباس بن عبد المطلب وإشراق شمس دولتهم، وهكذا تبدلت أصول الخلافة من الإمارة المعصومة وأفل وانخسف بدر الحكومة الأموية، وانتقلت مقاليد أمور المسلمين إلى آل عباس فيما بعد. إن أول خلفاء بغداد أبو العباس السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وآخرهم المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله منصور بن الظاهر وهم من سلالة العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

قد اعتلى عبد الله السفاح كرسي الخلافة في سنة اثنين ومائة الهجرية وفى شهر ربيع الأول وبعد ٥٢٤ سنة استولى هولاكو على بغداد وقتل المستعصم وبهذا بلغت الخلافة العباسية منتهاها في سنة ٦٥٦ الهجرية.

ونقلت الخلافة العباسية بعد قتل المستعصم وفي عهده إلى القاهرة بمصر فقد بايع المصريون في عهد صلاح الدين الأيوبي بموافقة العلماء الناصر لدين الله العباسي خليفة.

وقد حكم في بغداد مع عبد الله سبعة وثلاثون خليفة ومع الذين حكموا في مصر بلغ عددهم ثمانية وأربعين خليفة إلى انقراضهم. وبعد بلوغ خلافة العباسيين في مصر إلى ٢٦٤ سنة، وفي سنة ٩٢١ الهجرية سلم الخليفة العباسى عبد الرحيم الأمانات النبوية السنية التي كانت شعار الخليفة ومنصب

الخلافة الخطير إلى السلطان سليم خان، وابتداء من هذا التاريخ أطلق على سلاطين آل عثمان العدول لقب الخليفة.

تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والمملكة بالإجمال

الخلافة فريضة دينية خطيرة وأمر شرعي واجب، تقوم برعاية أعمال المسلمين الدينية والدنيوية وتسوية احتياجاتهم المادية والمعنوية. والخلافة منحصرة في الأشخاص الذين بويعوا بإجماع الأمة بعد الأنبياء العظام ـ على رسولنا وعليهم الصلاة والسلام ـ. وبما أن الخلافة رئاسة عليا وجامعة لأمور الدين والدنيا فهي أعلى المناصب وأعظمها التي يختص بها الملوك والسلاطين.

قد أطلق على الصديق الأكبر ـ رضي الله عنه ـ خليفة رسول الله، كما أطلق على الفاروق الأعظم ـ رضي الله عنه ـ خليفة خليفة رسول الله، ثم أطلق عليه أمير المؤمنين[1] تخلصا من تتابع الإضافات الثقيلة.

إن الصحابي الجليل أبو موسى الأشعر هو أول من خاطب الفاروق عمر بلقب أمير المؤمنين: أو مغيرة بن شعبة أو عمرو بن العاص[2].

إن الخلفاء العباسيين الذين تولوا عرش الخلافة في بغداد جنة الخلد قد اتخذوا ألقابا مثل المنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمعتز و المعتضد والمتقدر، وكان غرضهم من ذلك تقليد الصحابة الكرام الذين لقبوا بالصديق والفاروق والمرتضى، كما أريد به ألا يذكروا بين الناس بأسمائهم كثيرا.

(١) كان أحد الرسل المبشرين بالنصر سببا في إطلاق لقب أمير المؤمنين على عمر بن الخطاب؛ إذ بعث إليه أحد قواده بعد انتصاره في إحدى المعارك رسولا يبشره بالنصر، ويعرض عليه الأمور فلما جاء الرسول أخذ يسأل الناس قائلا: أين أمير المؤمنين فاستحسن الصحابة الكرام هذا اللقب وأخذوا يخاطبون به الخليفة.

(٢) يروى أن هذا اللقب قد أعطى لعبد الله بن جحش المجدع بالله من قبل رسول الله ـ ﷺ ـ حينما بعثه إلى مكان معين في مهمة خاصة.

كما اتخذ العبيديون والموحدون وخلفاء بنى أمية الذين حكموا فى الأندلس ألقابا خاصة مقلدين خلفاء بنى عباس، إلا أن هذه الألقاب قد دعت الناس للنفرة منهم كما تبين ذلك هذه الأبيات التى أنشدها ابن رشيق القيروانى:

ومما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاضًا صولة الأسد

بما أن الخلفاء العباسيين من السلالة الطاهرة القرشية فصحة خلافتهم محققة، كما أن الخلفاء العثمانيين ـ أيدهم الله تعالى ـ بالتأييدات الربانية يسيرون وفق سيرة الخلفاء الراشدين الحسنة، وبما أن كل همهم المحافظة على الأحكام الشرعية وينتمون إلى أهل السنة فهم أحق من جميع الملوك الآخرين بالاتصاف بلقب الخليفة.

السلطان: لقب أقل رتبة من الخلافة الجليلة وله معنيان: لغوىٌّ، واصطلاحىٌّ.

فمعناه اللغوى: تسوية الأمور المتعلقة بالخلافة والحكم بصورة الاستبداد.

وأما معناه الاصطلاحى: فأن يصبح الإنسان صاحب ملك أو إدارة أمور الدولة بقطع النظر عن الخلافة.

وعلى هذا التقدير يصح أن يطلق على الخليفة سلطانا ولكن ليس كل سلطان خليفة.

قد أطلق لقب السلطان على جعفر بن يحيى البرمكى وإشنان التركى وكان خلفاء الدولة العباسية وملوك الفرنجة والأيوبيون يطلقون على الأمراء والملوك الذين يعينونهم لقب السلطان. كما كانوا يطلقون عليهم ألقابا خاصة مثل: أمين الدولة، أمير المسلمين، أمين الملة.

يجب على من يريد أن يكون سلطانا أن يكون تحت تصرفه وإدارته إقليمٌ كبيرٌ، **والملك** ـ لقب أقل درجة وأدنى من السلطان،

الأمير- يطلق هذا الاسم فى اللغة التركية باللهجة الچغتائية على خاقان وفى الفارسية على شاهنشاه أى ملك الملوك.

الخان، الشاه، الميرزا ألقاب خاصة بالملوك والسلاطين العثمانيين يحملون جميع هذه الألقاب.

وقد أخذ سلاطين العثمانيين لقبى خان وخاقان عند ظهور دولتهم من الملوك الأتراك الذين أخذت دولتهم تنقرض وأخذوا لقب السلطان من سلاطين الدول الإسلامية السابقة لعهدهم حتى أن السلطان بايزيد خان قد جعل الخليفة العباسى بمصر المتوكل بالله العباسى يعترف بسلطنته.

شاهنشاه- لقب خاص بملوك الدولة الصفوية والأذربيجانية إلا أنه انتقل إلى السلاطين العثمانيين بعد انتصار السلطان سليم على الصفويين فى سنة ٩٢١هـ وبما أن السلاطين العثمانيين قد حملوا لقب الخليفة أيضًا كان نصيب ملوك خوارزم وبخارى وبهوبال وعزلهم يتم بأمر السلاطين العثمانيين وإدارتهم.

حكام أوربا:

يستعمل الأوربيون لقب **إمبراطور** بدلا من لقب السلطان ولقب **الملك** مكان خان وشاه، لقب **دوق** بدلا من بك،

ميرزا تعنى أمير.

وبما أن لقب إمبراطور لم يكن مستعملا فى الأول كان يطلق على حكام أوربا لقب الملك.

وقد استبدَّ الملوك برعاياهم وزاد ظلمهم لهم شيئا فشيئا حتى تجاوز حد الصبر والتحمل فثار الناس وبدلوا الحكم الاستبدادى المطلق إلى الجمهورية واختاروا شخصا يطلق عليه **قيصر** واتخذوه رئيسا لهم.

وتعهد قيصر برضا الأهالى ورأيهم أن يقوم بإدارة الأمور العسكرية والمدنية

وكشف قيصر ما فى ضميره إذ طلب بعض الامتيازات إلا أنه لم ينل غرضه بهذه الطريقة فاتفق مع فرقة عسكرية واستولى عنوة على بلدة روما الكبيرة فى سنة ٤٩ قبل الميلاد واتخذ لنفسه لقب إمبراطور الذى يعنى القائد وانتصر على جميع معارضيه من أصحاب المناصب العالية، وهكذا استقل وحصل على الامتيازات التى كان يطالب بها وسك عملة خاصة به ومنذ ذلك العهد يطلق إمبراطور على جميع الملوك والحكام الذين يوسعون ملكهم ويزيدون قوتهم.

* * *

فى ذكر كيفية تعمير أركان بيت الله وتشييده

بعد تجديد الحَجَّاج للكعبة المقدسة لم يُسْمَحْ شرعا إلى سنة ١٠٢٠هـ بتجديد الكعبة حتى لا تكون ألعوبة فى يد الملوك، إلا أن سقف البيت الشريف العالى وأركانه مالت إلى السقوط بعد هذه الفترة الطويلة وظهر ما يدل على أنها قد أوشكت على الانهيار إذا لم تتخذ وسائل لمعالجتها.

وبناء على ذلك أخذ أهالى مكة يبحثون عن وسيلة لمعالجة الأمر فقرروا بالاتفاق مع أمير مكة الشريف إدريس والأعيان والوجهاء أن يعرضوا الموضوع على العتبة السلطانية راجين منه أن ينظر لهذا الموضوع سريعا.

وقد أهم وأقلق الطلب الذى أرسله أهل مكة أولياء الأمور إلا أن الحكم الشرعى بخصوص تجديد البيت المعظم بعد هدمه ونقضه كان مشترطًا بأن يقع ركن من أركانه لذا شكلت لجنة من العلماء الأعلام والرجال الكرام ذوى الاحترام حتى يجدوا حلاً شرعيًا لهذا الموضوع.

واجتمعت تلك اللجنة تحت المجبورية الشرعية وبعد مشاورات كثيرة قررت أن يحزم البيت من مكانين بأحزمة حديدية كما رأى فريق ربط الأماكن المشققة بتلك الأحزمة وبهذا يهدم البيت الشريف ويعالج الموضوع كما ذكروا أن هذا سيوافق أحكام الشريعة وعرض الأمر على حامى الخلافة.

وحينئذ صدر الأمر السلطانى المطاع بإعداد الأحزمة المذكورة على أن تغطى بطبقة من فضة خام وطبقة أخرى من الذهب الخالص وفى نفس الوقت يتغير الميزاب الفضى الذى أرسل فى زمن السلطان (سليمان عليه الرحمة والغفران) بميزاب مذهب كما هيئوا الصناع من الصياغ والحدادين بمهامهم.

وأرسلوهم إلى حديقة استاوروز فى اسكدار وفى يوم الشروع فى العمل أقيم حفل كبير حضره السلطان وعظماء الدولة وأركانها، وقد هيئت المهمات اللازمة للترميم فى وقت قصير وأعلم بذلك سلطان الزمان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث ـ عليهما رحمة الله ـ، وكان السلطان فى ذلك الوقت مقيما فى حديقة داود باشا وبما أنه يريد أن يرى بنفسه ما تم صنعه من المهمات الغالية وطريقة صنعها أصدر أمره بأن تنقل هذه الأشياء إلى مقر إقامته وبناء على ذلك أمر بصنع نموذج من الخشب لبيت الله يطابقه فى أبعاده ثم أمر بأن تنقل جميع المهمات إلى مكان فسيح فى حديقة داود باشا ثم وضعت الأشياء المعدة لترميم البيت فى أماكنها التى فى النموذج وهكذا عرض كيفية وضع هذه الأشياء وجمال صنعها ودقته على الحاضرين الكرام.

وأخيرًا بحث عن الحدادين المهرة والصياغ المتخصصين فى مهمتهم والمتدينين وأرسلوا مع المهمات إلى مكة المكرمة برفقة حسن باشا الذى عزل من وظيفة الدفتردارية فى حلب وعهد إليه الحبشة، وفى سنة ١٠٢٠ الهجرية وفى وسط شهر رجب الفرد، وصى والى مصر محمد على باشا بالعمل على توصيل هذه البعثة عن طريق السويس بأقصى سرعة ممكنة إلى الجانب الحجازى.

وقد قام المشار إليه بهذه الخدمة المباركة على أكمل وجه وأمن وصول البعثة السلطانية إلى مكة بعد أن أمدها بكل ما تحتاج إليه.

وكانت الأشياء الغالية المرسلة عبارة عن: ستة عشر عددا من أحزمة حديدية باعتبار أن كل جدار متكون من أربع مناطق وستة عشر عددا من أعمدة حديدية لتوضع على كل ركن أربعة منها لتثبيت الأحزمة وإمساكها وكمر مقوس فوق باب الكعبة المقدس حيث تلتقى الأحزمة الحديدية وثبتوا لوحة فوق العتبة العليا لباب الكعبة تجديدا للكتابة التى هناك كما أحضروا الأخشاب الجيدة الكافية لتعمير وإصلاح سطح الكعبة وكانت اللوحة التى كتبت عليها ألقاب الكعبة فى باب المعلا وكذلك الزاوية التى تلتقى فيها الأعمدة مع الأحزمة كانت مصنوعة من الذهب الخالص وكذلك الكمر المقوس الأحزمة قد غطيت بصفائح من الفضة الخالصة ونقشت عليها أحسن ما أبدعته أقلام الفنانين وزينت بنقوش بديعة.

وقد تحرك حسن باشا المشار إليه فى أواسط شهر رجب من دار السعادة إستانبول وبعد مدة وصل إلى مكة المكرمة وفى يوم الأحد فى غرة محرم الحرام من سنة (١٠٢١ هـ) أجمعت هيئة من أعاظم سكان مكة المكرمة فى داخل أرض المطاف والمهندسون وبعد الدعاء والتضرع إلى الله صعد المختصون فوق سطح البيت بواسطة إسقالة وضعت تحت ميزاب الرحمة وابتدروا بالكشف والمعاينة حيث اتضح لهم أن سبعًا وعشرين من العروق الخشب فى حاجة إلى التغيير، وبعد ما أصلحوا ثلاث قطع منها وضعوها فى مكانها ورفعوا الرخام إلى

السطح واحدة تلو الأخرى وبعدما أصلحوا على قدر الإمكان ووضعوا كل واحد منها فى مكانها القديم ووضعوا الميزاب الذهبى مكان الميزاب العتيق وأتموا تعمير السطح فى نفس هذا اليوم وبعد أيام من ذلك وفى ليلة وبعد أداء صلاة العشاء أمر الباشا المذكور الصناع المهرة بأن يسرعوا فى العمل فاستطاع العمال أن يضعوا الأحزمة الحديدية فى أماكنها فى تلك الليلة وفى الليلة التالية ركبوا النصف الثانى من الأحزمة ووضعوا اللوحة التى فى باب المعلا فى مكانها.

ثم أصلحوا الركن الذى كان فى حاجة إلى الإصلاح دون أن يخرجوا فى أثناء تعميرهم عن تعليمات الشريعة. وهكذا استطاع أن يشيد وأن يقوى ويصلح الأركان الأربعة للكعبة الشريفة وسطحها.

وقد ثبت أن رصانة بيت الله ومتانته قد وصلت إلى الدرجة المطلوبة وذلك بشهادة المتخصصين فى فن البناء.

وفى الواقع أن الأشياء اللازمة لترميم البيت والتى أعدت فى دار السعادة قد ركبت فى مكانها فى الكعبة الشريفة كأنها صبت فى قالب بعد المسح والوزن ومع ذلك فإن هذه المستلزمات كانت قد عينت وجربت عدة مرات فى مكة المكرمة.

إن هذا العمل قد أثار فرح الأهالى وابتهاجهم؛ ولأجل ذلك اجتمعوا حول كعبة الله فى السادس عشر من الشهر المذكور تحت رئاسة أمير مكة الشريف إدريس وأحيوا يومهم بختم القرآن الكريم والتضرع إلى الله والدعاء للسلطان بدوام قوة دولته وعظمتها.

حكاية غريبة:

عند قلع الميزاب القديم، ورفع رخام سطح البيت الشريف ظهرت فى الجو علامات نزول المطر وسمعت أصوات الرعد والبرق فى الأطراف والأكناف، مما جعل الناس يقولون: إذا ما أمطرت السماء سيمتلئ داخل كعبة الله بالسيل واستولى عليهم القلق وأخذت قطرات المطر تتساقط متتابعة كأنها در فى سلكه. إلا أنه لم تسقط قطرة مطر على الأرض إلى ميزاب الرحمة فى مكانه إلى أن غطى سطح بيت الله.

وقد انتظم المطر إلى أن غطى السطح الشريف فى ارتفاع أربعين ذراعا من الأرض وعند الانتهاء من تغطية السطح ووضع الميزاب فى مكانه أخذ المطر ينهمر بشدة لم تر فى ذلك العصر مثلها حتى أغرقت السيول الأسواق والمحلات.

تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة

البانى الحادى عشر لبيت الله هو السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان عليهما الرحمة والغفران.

ولما كان تجديد الكعبة غير جائز شرعا إلا أن يسقط أحد أطرافها ويتهاوى؛ لذلك لم يتجرأ أحد منذ عهد الحجاج الظالم إلى زمن السلطان المشار إليه على تجديد تلك البقعة المفخمة الجليلة.

وأخذت أركانه الأربعة تميل للسقوط ـ بسبب قدمها ـ حتى إن تجديده قد تجاوز درجة الوجوب وبما أنه لم يجدد فى عهود السلاطين السابقين بتلك الحجة الشرعية فقد أوشك البيت الحرام على السقوط فى عهد السلطان أحمد خان الثالث.

ورغب السلطان أحمد خان فى تجديد أبنية ذلك البيت اللطيف السعيد إلا أن الشرع لم يسمح بذلك. كما سبق ذكره فى المقال السابق فَقُوِّىَ بالأحزمة الحديدية وأعمدة الزوايا كما رُمِّمَ وأصلح ركنان من أركانه على قدر الإمكان، وقد حفظ هذا الترميم البيت المعظم من السقوط والانهدام ما يقرب من ثمانية عشر عاما.

إلا أن البلاد الحجازية قد تعرضت فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان المعظم من سنة ١٠٣٩ الهجرية إلى رعود وصواعق وبروق وأمطار لم ير لها مثيل، إذ أن المياه التى نزلت من السماء تجمعت وكونت سيولاً كسيل العرم وهجمت بشدة إلى داخل المسجد الحرام وزادت ساعة بعد ساعة وارتفعت مقدار ذراعين من فتحة مفتاح باب المعلا.

إن الحوانيت والمدارس والمنازل التى تصادف وجودها فى طريق السيل الشديد

انهارت كلها وعجزت أتربة البيوت ومبانيها عن الوقوف أمام السيل الجارف فانحرفت أمامه كأنها دليل يقود السيل إلى ساحة الحرم الشريف.

ولا يخمن[1] عدد الذين ماتوا تحت أنقاض الحوانيت والمدارس التى تعرضت للسيل الشديد.

وكانت جدران البيت المعظم قد أوشكت على السقوط بعد وقت قليل من أداء صلاة العصر من يوم الجمعة من الحادى والعشرين من شعبان المعظم وفى اليوم الثانى من دخول السيول داخل الحرم الشريف انهارت جدران[2] الركن الشامى والركن العراقى فجأة. واختلط صخب الانهيار بأصوات الرعود والصواعق. فاستولى على أهل مكة خوف شديد حتى إن بعضهم ماتوا من شدة الفزع. قد حير انهيار جدران بيت الله أهل مكة وملكتهم الدهشة حتى ظنوا أن ما حدث فى ذلك اليوم علامة من علامات يوم القيامة. وهاموا على وجوههم مشتتين ولم يعرفوا ماذا حدث لهم، حتى تاه الأبناء عن الآباء والأمهات وشغل الآباء والأمهات عن أولادهم فلم يسأل أحدهم عن الآخر.

وظلت المياه داخل الحرم ثلاثة أيام بعد انقطاع السيل وفى اليوم الرابع فتحت ممرات السيول وأخذت المياه تنسحب من داخل الحرم قليلا فقليلا تاركة خلفها ما جرفته السيول من الحجارة والأوحال التى كونت هنا وهناك مرتفعات تبلغ قامة رجل.

قد عقد ـ فى ذلك التاريخ ـ أمير مكة المعظمة الشريف (مسعود بن إدريس) اجتماعا فى داخل الحرم مع الطبقة المختارة من الأشراف وسكان مكة وبعد التشاور أسرعوا بإنزال القناديل الذهبية والفضية المعلقة فى داخل بيت الله وبعد ذلك أخبروا الركاب السلطانية ما حدث فى أثناء السيل أوصلوا خبر انهيار بيت الله بواسطة محمد على باشا والى مصر.

(١) قد روى بعض المؤرخين أن عدد القتلى الذين أخرجوا من تحت الأنقاض فيما بعد بلغ ألفا.

(٢) قد انهارت جميع جهات البيت باستثناء الركن اليمانى.

وإن كان محمد على باشا قد عرض الخبر على السدة السلطانية حتى يتخذ القرار إلا أنه قرر أن يعد الآلات والأدوات اللازمة لتعمير بيت الله لأنه رأى أنه ليس من الجائز ترك الكعبة فى هذه الحالة والخبر المرسل إلى السلطان سيتأخر لبعد المسافة بين البلدين.

وكتب رسالة إلى مصطفى أغا أمير جدة يأمره بأن ينصاع لكل ما يطلبه منه الشريف مسعود كما أبلغ الشريف أنه يجب تخلية الحرم الشريف مما جرفه السيل وتطهيره وأن يطلب من مصطفى أغا كل ما يلزمه فى سبيل ذلك إلى أن تصل الإدارة السنية من دار السعادة.

واستحضر الشريف «مسعود» بعون أمير جدة «مصطفى أغا» ومهندس مكة المشرفة على «بن شمس الدين أفندى» المقدار الكافى من الأخشاب وأحاط جدران البيت التى نجت من السقوط بأحزمة من ثلاثة أماكن حتى يقويها ثم أقام دعامات كبيرة حول أركان البيت الأربعة بقصد حفظ السقف الشريف للبيت من السقوط ثم ربط هذه الدعامات بعضها ببعض وأحاط بيت العزة حتى سقفه بألواح خشبية.

قد شرع فى هذه العملية يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وانتهى العمل فى ترميم البيت فى ظرف ثلاثة عشر يوما أى فى يوم الأحد الثالث عشر من شهر شوال وفى هذه الفترة صنعت كسوة من قماش عادى باللون الأخضر وكسيت بها الكعبة العليا يوم الخميس السابع عشر من شهر شوال.

من البديهى أن انهيار كعبة الله قد أزعج المسلمين فى جميع أنحاء العالم إلا أن انزعاج المصريين[1] كان أشد لقرب المسافة بينهم وبين مكة المكرمة.

وأخذوا يبرزون شدة تأثرهم بأقوال مثل: أن موسم الحج قد اقترب ولم يرد

(١) لأن المصريين أول الناس الذين أخذوا خبر انهيار البيت.

من إستانبول الأمر السنى المنتظر؛ لذا قرر محمد على باشا والى مصر إرسال مندوب خاص من قبله إلى الأستانة.

استدعى رضوان أغا الذى تربى فى كنف السلطان وكان من رؤساء الشراكسة وألبسه الخلعة ثم قال له: إننى قد عينتك مسئولاً عن أبنية كعبة الله إلى أن يرد الأمر السلطانى من الباب العالى، قد اقترب موسم الحج اقترابا شديدا قم الآن واركب الهجين وتوجه ناحية مكة المكرمة واحرص على إعداد الأشياء اللازمة وبمجرد وصولك هناك ابعث لنا على جناح السرعة كَشْفًا بكل ما تحتاجه من عندنا، ثم أعطاه خلعة ليقدمها إلى الشريف مسعود كما زوده برسالة توجيه للشريف المذكور وأخرجه إلى الطريق، ثم واصل رضوان باشا السير حتى وصل إلى مكان قريب من مكة المكرمة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شوال و أرسل إل الشريف مسعود من يخبره بأنه أتى حاملا له خلعة من قبل والى مصر، فأرسل الشريف وفدًا من عظماء مكة المكرمة وموظفى الدولة ليكونوا فى استقبال رضون باشا.

وبعدما تقابل رضوان باشا مع أفراد وفد الاستقبال تحرك نحو مكة ووصل إليها بعد رسوله الذى كان بعثه من قبل بأربعة أيام يوم السبت السادس والعشرين من شوال ونزل فى المنزل الذى كان قد أعده له شريف مكة وفى اليوم التالى يوم الأحد السابع والعشرين من شوال اجتمع الناس داخل ساحة الحرم إذ أقيم فيه احتفال لتقديم الخلعة.

قد حضر مع الشريف مسعود ورضوان أغا ـ عملا بأصول التشريف ـ أشراف مكة وعظماؤها وأعيانها وكبار موظفى الدولة والعلماء الأجلاء ووقفوا كلهم بين باب المعلا لكعبة الله ومقام إبراهيم قُرِئت الرسالة التى تحتوى على الأوامر السامية كما قرئت الرسالة التى كانت تنصّ على إبقاء موظفى الحجاز فى مناصبهم ثم ألبست الخلعة الفاخرة التى بعثها والى مصر ـ بكل تعظيم وتوقير ـ للشريف مسعود الذى ألبس أيضا خلعة لرضوان ومرافقيه وعقب ذلك رفع المجتمعون

أيديهم داعين الله ليزيد الدولة قوة وشوكة، والسلطان جلالا ثم انصرفوا عائدين.

وكان داخل الحرمَ الشريف والطرق المؤدية إليه قد امتلأت بالحجارة والتراب والقمامة مما جرفه السيل. وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال واليوم الثالث من وصول رضوان أغا اجتمع بالشريف مسعود والأشراف والعلماء الأجلاء فى الحرم الشريف وتشاور معهم فى تنظيف ساحة المسجد الحرام وتطهيره مما حل به.

وعرض كل واحد رأيه وكانت خلاصة رأيهم أن تنظيف ساحة الحرم فى مدة قصيرة غير ممكن لأن موسم الحج قد حل بل أخذ الحجاج يفدون إلى مكة المكرمة.

إلا أن رضوان أغا فند رأيهم وتصرف بالشهامة والرجولة وحرص على أن يبعث رجاله إلى المدن والقرى الواقعة بين جدة والمدينة المنورة يستدعون كل من يملك حمارا أو حصانا أو جملاً وكل من يريد أن يعمل يغرونهم بالأجر الكبير وهكذا جلب كل هؤلاء إلى مكة المكرمة وشرع فى العمل بهمة عظيمة ووفق فى تنظيف الحرم الشريف وتطهيره فى ظرف عشرين يوما فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر ذى القعدة.

إن ما جرفه السيل فى داخل الحرم من الطين الممزوج بالحجارة كان قد تحجر عقب انسحاب السيول بفعل الحرارة الشديدة وكون جبلا فى ارتفاع سبعة أذرع أو ثمانية، واكتسب صلابة بحيث لا ينفذ فيه الفأس أو الإزميل أو المثقاب وحينئذ قد بلل الجبل الترابى بالماء ليلا وفقد صلابته وأخذ العمال يحرثون ذلك الجبل العارض بالفئوس والأزاميل كما تحرث الحقول اللينة.

وكانوا ينخلون التراب المحفور بالغرابيل، وينقلون رمله على حدة إلى موضع وترابه على حدة إلى موضع آخر وجاء فى سجل سهيلى أفندى ـ رحمه الله ـ أنهم كانوا يخرجون ثلاثين أو أربعين ألف حمل تراب يوميا.

عين زبيدة:

بما أن مجرى تلك العين كان قد غطى بالطين والأحجار وبدأ أهل مكة يعانون شح الماء، قام رضوان أغا بترميم وإصلاح المواضع الخربة فى مجرى العين المذكور، وظهر الجزء الممتد من جمرة العقبة إلى مكة، وقد أنجز هذه المهمة على الوجه الأكمل.

إحدى كرامات بيت الله الحرام:

عندما سقط جزء من بناء الكعبة الشريفة أصبح ماء زمزم الشريف ملحا أجاجا إلى درجة أنه تعذر شربه.

وعلى الرغم من أن أعلام العلماء والفقراء ذوى المنزلة تشاوروا فيما بينهم و بسطوا رجاءهم مطالبين بتطهير بئر زمزم لشدة حاجة أهل الإيمان إلى مائه المبارك ورغبتهم فيه، وأن تتولى جهة ما مهمة تنظيف هذه البئر إلى أن ينقى ماؤها، إلا أن تطهير هذه البئر كان يتكلف ثلاثين ألف قرش وبما أن إنفاق أكثر من خمسة أو ستة آلاف قرش ولو بارة واحدة يتوقف على الاستئذان من أولى الأمر فقد تغاضى رضوان أغا عن فكرة تطهير بئر زمزم قائلا: لا أستطيع أن أنفق هذا القدر من المال من تلقاء نفسى، وينبغى علىّ الاستئذان من والى مصر، ولكن حتى يصلنى رده يتطلب الأمر منى أن أشتغل بأمور أخرى لعدم إضاعة وقتى.

واقتضت حكمة الله أن الملوحة الظاهرة فى بئر زمزم بدأت فى الزوال ـ تدريجيا مع أول يوم من إلقاء أساس بيت رب العزة، وعندما أوشكت عمليات الأبنية المسعودة على الانتهاء أصبح ماء بئر زمزم عذبا فراتا، ولم تعد هناك حاجة إلى تطهيرها. انتهى.

وفى أوائل شهر ذى القعدة أرسل رضوان أغا إلى والى مصر بيانا يتضمن ما تحتاج إليه الأبنية المسعودة من الآلات وأدوات ومواد بناء مبينا مقدارها وأنواعها، ورجاه الإسراع فى إرسال هذه الأشياء المدرجة فى هذا البيان. وقام والى مصر محمد على باشا بإعداد الأشياء التى أرسل رضوان أغا فى طلبها وعلاوة على

هذا استدعى كثيراً من النجارين وسائر الحرفيين ووجه بهم موظفًا خاصًّا وخرج فى وداعه. ولدى وصول الموظف المذكور إلى ميناء جدة فى أواخر شهر ذى القعدة سلم ما أحضره من مواد - بموجب دفتر - إلى أحمد قبانى أفندى كاتب المال على ميناء جدة المعمورة.

وبناء على الأمر الذى أرسله رضوان أغا مع سيد على بن هبزع أرسل أحمد قبانى المهمات الواردة من مصر إلى مكة المكرمة على دفعتين، وقد حفظت المهمات التى أرسلت فى القافلة الأولى فى الخانات المعروفة بمخازن «عبد الرحمن بن عتيق» ١٣ محرم.

وقبيل وصول هذه القافلة اتجه رضوان أغا نحو خليص لتمهيد وإصلاح الطرق التى دمرها ماء السيول الجارى من جهة وادى خليص، وكانت طرق العين المذكورة قد خربت بأكملها من جراء طغيان السيل، ولذا انقطعت مياه البئر، ومكث رضوان أغا أياما فى الوادى المذكور لإعادة مجرى البئر إلى سالف عهدها، واطلع على بن شمس الدين أفندى مهندس مكة المكرمة على الأماكن المتهدمة.

وفى التاسع من ربيع الثانى أجروا الماء الذى انقطع - إلى مكة المكرمة بعد إصلاح العين وجعلها على أحسن وضع لها، كما أجريت مياه الأحواض.

ثم قفل رضوان أغا راجعا إلى مكة المكرمة ونظف مجارى المياه الواقعة على مقربة من البركة الشامية.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الثانى عين من مست إليهم الحاجة من موظفين للقيام بتجهيز كافة متطلبات ومستلزمات الأبنية المسعودة من حطب وفحم وجص، وبعد أن طيب نفس كل منهم بتحديد مرتباتهم كاملة غير منقوصة أمرهم بجمع الأحجار التى هوت من الأبنية المباركة للكعبة المعظمة، وأصدر تعليماته وتوجيهاته إلى النجارين بخصوص عمليات الترميم والإصلاح لإعادة جدران الكعبة المشرفة إلى ما كانت عليه.

ولما شاع بين الأهالى أن الأحجار الساقطة سوف تعاد إلى مواضعها فى الأبنية المسعودة كثر القيل والقال، ولأن كل أحد قال كل ما خطر له من كلام ذهب بعض العلماء إلى عدم جواز ذلك العمل واعترضوا عليه لدى رضوان أغا.

وكان ضمن هؤلاء من طائفة العلماء المعترضين من يسمى «محمد على بن علان» مفتى الشافعية، وأصدر هذا الرجل فتوى فحواها أنه: (لا يجوز لكائن من كان أن يتدخل فى شئون البيت الشريف ما لم يكن نائبا أعظم عن سلطان العالم وملك ملوكه المعظم، وينبغى الانتظار لحين وصول التعليمات من الأستانة فى هذا الشأن).

وبناء عليه استدعى رضوان أغا شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة إلى الحرم الشريف وقال لهم: هناك من أفتى معترضا على ترميم بيت الله، فهل يجوز أن يبدأ فلان من الناس الذى عين من قبل السلطنة السنية ومنح الإذن فى البناء، أم أن ذلك غير جائز؟.

وأجاب على سؤاله من أعاظم شيوخ الفتيا الشيخ «خالد بن أحمد المالكى»، و «عبد العزيز الزمزمى» من شيوخ إفتاء الشافعية، و «أحمد بن محمد آق شمس الدين المفتى الحنفى» و «عبد الله بن أبى بكر القرشى» مفتى الحنابلة بأن هذا الأمر (فرض كفاية)، والقائم به مثاب مأجور عند الله، بيد أن الشيخ محمد على بن علان وهو من مشاهير المعترضين أبدى اعتراضه ثانية، وجمع كثرة كاثرة من الأهالى وتجرءوا على منع الحجَّارين وكافة عمليات البناء، وعلى أثر ذلك لم يجد رضوان أغا بدًّا من استدعاء شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة للمرة الثانية واستفتاهم فى شرح المسألة على التفصيل.

وبفضل فتاوى هؤلاء الشيوخ المفصلة والتى أجمعوا فيها على جواز العمل قائلين: «يجوز كل فعل ما دعت إليه ضرورة أو حاجة» اقتنع الناس بمشروع رضوان أغا فى عمليات الأبنية المسعودة قبل وصول التعليمات السلطانية.

ولم يكن سبب الاعتراض هو الرغبة فى إعادة الأحجار المنهارة إلى مواضعها

وإصلاحها، بل الأسباب القهرية التى بينها المهندسون فى تقارير المعاينة والتى نذكرها فيما يلى مع المعترضين:

الأسباب القهرية التى بينها المهندسون فى تقارير المعاينة:

١ ـ أن الأحجار الساقطة من الأبنية المسعودة للبيت الشريف غير صالحة للاستعمال، ولأن قسما منها تهشم فإنه لا سبيل إلى إكمال بناء بيت الله بهذه الأحجار، ولذا يتحتم إحضار قدرًا كافيًا من الأحجار من خارج الكعبة.

٢ ـ وإن كان من الممكن إلصاق الجدران المقامة حديثا مع الجدران المتهدمة فإنه فى خلال فترة وجيزة سوف تنهار ما فى ذلك من شك، علاوة على أن بعض المواضع فى الجدران القديمة قد آل للسقوط، وهدم الجدران الآيلة للسقوط أصل مرعى من أصول فن العمارة.

ردود المعترضين:

١ ـ لا يجوز جلب أحجار من خارج الكعبة، كما لا يجوز كذلك إصلاح الأحجار المتهشمة، وينبغى استعمال الموجودة على حالتها، أى أنه يتعين ترميم جدران الأبنية المسعودة بالأحجار القديمة.

٢ ـ لا يجوز اقتلاع حجر واحد من أبنية الكعبة، فمن باب أولى لا يجوز هدم الجدران المنهارة.

ولا نحسب أن دعاوى المعترضين كانت لهذين السببين ليس إلا، فقد قالت هذه الطائفة بعد أن اجتمعت كلمتهم: أن صورة سقوط بيت الله عرضت على الباب العالي، ولا ينبغى الشروع فى البناء قبل ورود تعليمات الإرادة السنية فى هذا الصدد. كما عرجوا على إقامة ستار حول الأبنية المسعودة مع مهمة تنظيف الحرم الشريف، ولم يجيزوا ـ على أية حال ـ هدم الجدار الواجب هدمه وهو الذى بين الحجر الأسود والركن اليمانى، وقرروا جواز دخول بيت الله الحرام والجلوس فيه وتدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة.

وواقع الأمر أن هذه الدعاوى كانت واهية فإن لم يؤت بأحجار من خارج الكعبة لا يتأتى لجدران الكعبة أن تبلغ ارتفاعها القديم، وما لم تسو الأحجار المتهشمة وتصلح لا يمكن إعادتها إلى مواضعها القديمة وذلك أخذا بأصول فن العمارة، أما إلصاق جدار آيل للسقوط بآخر بنى حديثا فغير جائز لأن مصيره الانهيار.

رغبتهم فى عدم تنظيف الحرم الشريف:

وإن كانوا قد أشاروا إلى أن إدخال الجمال والحمر وسائر حيوانات الحمل إلى المسجد الحرام سوف يخل بما ينبغى من نظام، فإن الاعتماد على الإنسان فقط فى نقل حصى موضع ثبت أنه يخرج منه أكثر من أربعين ألف حمل حصى يوميا قرابة شهر على نحو ما سلف شرحه يستلزم نفقات باهظة، فضلا عن أن هذا سوف ينفذ فى مدى خمس أو ست سنوات وفى تلك المدة سوف يحرم الحجاج القادمون من الطواف والزيارة فى مواسم الحج وهل صح فى الفهم أن يجيز ذلك جاهل فكيف يجيزه عالم، وإن جاز إقامة ساتر من الخشب حول الكعبة الشريفة وتنظيف ما يجب تنظيفه من مواضعها، والوفاء بتعظيماتها طبق ما تفيده الفتاوى الشريفة المدرجة فى خاتمة المقال، فإن رضوان أغا حصل على فتوى بعدم تدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة، وشرع فى تنفيذ ما تستوجبه مهمته. رضى الله عنه وعمن أصدروا له الفتاوى أجمعين.

تكليف رضوان باشا بإعادة بناء بيت الله:

أرسل محمد على باشا والى مصر رسالة إلى الباب العالى يخطره فيها بسقوط بيت الله على نحو ما سلف ذكره، وأرفق هذه الرسالة بالتقرير الذى ورد من الشريف مسعود بشأن هذه الحادثة الهامة، وتلافيا لوقوع أى بلبلة عرض الأمر على حضرة السلطان دون أى تأخير وصدرت أوامر ملجأ الخلافة العظمى ببناء وترميم تلك البقعة المباركة وإعادتها إلى حالتها الأولى.

وفى تلك الأثناء أرسل الصك إلى سيد أفندى الأنقروى نقيب الأشراف الذى أسند إليه قضاء المدينة المنورة، وأن تكون الأموال اللازمة لترميم الأبنية المقدسة من جزية أقباط القاهرة وقد عين الأنقروى أفندى هذا أمينا للبناء لأمانته ونزاهته وأخطر محمد على باشا والى مصر بذلك وبإسناد نظارة الأبنية المقدسة إلى سيد أفندى الأنقروى، كما أخطر الشريف مسعود بفرمان خاص من السلطان.

وشكل محمد باشا مجلسا من أعيان الدولة وموظفى الحكومة لبحث انتخاب وتعيين أمينا للبناء بموجب الفرمان السلطانى الرفيع والذى وصل يحمل التوقيع المشرف وقال محمد على باشا: لقد أخطرنا الباب العالى بسقوط بيت الله، وأرسلنا كذلك تقرير الشريف مسعود إلى مقر الخلافة الجليلة. وصدرت الأوامر السلطانية لنا بإسناد نظام ترميم البيت الشريف إلى سيد محمد أفندى الأنقروى قاضى المدينة المنورة، وانتخاب أمير من أهل التقوى والورع أمينا للبناء، وإرسال المال اللازم من الخزانة لإنفاقه على ذلك، وأرسل فرمان عال لإبلاغ الشريف مسعود بذلك مع خلعة فاخرة وأرسل اللواء السلطانى إلى من ستسند إليه أمانة البناء. ومن قبل أرسلنا إلى الباب العالى نخطره بإسناد هذه الخدمة إلى رضوان أغا، والآن قدم علينا موظف يسمى «محمود شاووش» لتسلم وحمل المهمات اللازمة للأبنية المسعودة وأحضر معه بيانا بها، وإذا ما استطاع رضوان أغا النهوض بهذه المهمة على خير وجه فسوف أثبته فى مهمته، ويتعين على أن أُسَلم محمود شاووش ما طلبه من مهمات، وإن وجد من هو أصلح من رضوان أغا أرسلناه واستدعينا رضوان أغا.

وبعد تبادل الآراء طويلا فى المجلس قال محمد على باشا:

إن رضوان أغا أهل تقوى وعفة واستقامة وكفاءة وهو على علم تام بالأبنية المسعودة، كما أنه موضع ثقة لدينا جميعا، وانتخب وأرسل من قبل لهذه المهمة، وبدلا من تضييع الوقت فى البحث عمن هو أهل اقتدار وكفاءة ينبغى أن نُثَبِّتَ رضوان أغا فى مهمته، ونحن إذا ما طيبنا خاطره بإرسال الهدايا الواردة من

السلطان الأشرف، وأرسلنا إليه ما طلبه من مهمات نكون قد أدينا خدمة للكعبة الشريفة من ناحية العمليات والخزانة الجليلة من جهة النفقات.

وقدم هذا الرد الشافى على النحو السالف، وبناء عليه أرسل محمد باشا رسالة مفصلة فى هذا الخصوص متضمنة التصديق على أمانة رضوان أغا للأبنية المقدسة، وأرسل موظفا مخصوصا بالفرمان السلطانى الوارد من الأستانة مصحوبا بخلعة فاخرة وخرج محمد باشا لوداع هذا الموظف.

وفى هذه الأثناء أرسل سيد محمد أفندى ـ الذى كان موجودا فى مصر ـ مع الموظف المشار إليه.

وأعدت المهمات المطلوبة لرضوان أغا كما وردت فى البيان، وبدءوا فى إرسالها تباعا إلى ميناء السويس، ولما نقلت إلى هناك بتمامها حملت فى سفن السويس مع سويدان زاده محمد بك وسلمت إلى محمود شاووش رجل رضوان أغا وأرسلت إلى جدة.

وفى يوم الأحد التاسع عشر من ربيع الثانى لدى وصول محمود شاووش خرج من السفينة وركب وجناء[1]، واتجه إلى مكة المكرمة، ولما وصلها أَخْبَرَ رضوان بتثبيته فى مهمته، وإسناد قضاء المدينة المنورة إلى من يدعى سيد «محمد أفندى الأنقروى» وتعيينه ناظرا على الأبنية المسعودة من قبل السلطان.

وقد جعل كل ما يختص بمبانى البيت المعظم إلى والى مصر الوزير محمد على باشا وفوض فيه، و أرسلت الأوامر السلطانية ببذل كل ما فى وسعه فى هذا الخصوص.

مع أن محمد باشا كان قد وكل من قبله رضوان أغا وعينه للقيام بهذه الخدمات السعيدة، وبعده بفترة قصيرة وصل سيد محمد أفندى إلى مكة المفخمة وتحدث مع رضوان أغا طويلا.

بينما توجه الشاووش محمود من ميناء ينبع إلى مكة برا كان محمد بك ابن

(١) الوَجْنَاءُ: الناقة التامة الخلق غليظة لحم الوجْنة، الصلبة الشديدة.
(اللسان مادة: دوجن) ص ٤٧٧٤. ط. دار المعارف.

سويدان قد توجه بحرا إلى بندر جدة المعمورة وقد وصل إلى جدة يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثانى وسلم ما حمله معه من الأخشاب والآلات والأدوات والمهمات الأخرى الخاصة ببيت الله مع دفاترها إلى أحمد القبانى المسئول المالى لمدينة جدة، ولما كان أحمد أفندى يعرف مدى حاجة الأبنية المسعودة لهذه الأشياء أعد قافلة وحملها بالأخشاب فى نفس الليلة وبعثها إلى مكة المعظمة وأدركت القافلة المذكورة المدينة الجليلة فى الصباح.

وبمجرد أنْ وصلت الأخشاب أسرع رضوان أغا بإحاطة الكعبة العليا بستار خشبى وبعده بيوم استحضر اللوازم الباقية من مدينة جدة بواسطة سيد على وخزنها.

وقد شرع فى أعمال إحاطة كعبة الله بستار خشبى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ربيع الثانى وكان هدف رضوان أغا من هذا العمل إخفاء تعمير بيت الله ـ تعظيما له وتوقيراً ـ من أعين الناس، وعندما أوشكت عمليات ستر الكعبة بالخشب على الانتهاء وصل إلى مكة ناظر الأبنية السعيدة وتلاقى مع رضوان أغا واتفقا على إجراء مراسم الأمر السلطانى الذى حمله من مقام الخلافة الجليل وكتبت تذاكر الدعوة إلى سيد عبد الكريم[1] أخى مسعود شريف مكة وعظماء مكة وقاضى مكة وشيخ الحرم رجاء أن يكونوا فى الساعة المعينة داخل الحطيم الشريف فى يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ربيع الثانى وتجمعوا فى الميعاد المحدد وقرأوا[2] الصحيفة التى تحتوى الأمر السلطانى الموجه إلى الشريف مسعود.

وبما أن الشريف مسعود كان مريضا لم يحضر مراسم قراءة الأمر السلطانى فأرسلت الخلعة السنية الخاصة به إلى منزله العامر وألبست الخلعة الخاصة برضوان أغا أمام الحاضرين كما ألبس سيد على بن هبزع والآخرون خلع لائقة

(١) قد دعى سيد عبد الكريم نيابة عن أخيه الشريف مسعود.

(٢) قد أشير للصورة المنيفة لهذا الأمر السلطانى فى خاتمة المقال.

بهم ثم رفع الحضور أياديهم داعين مبتهلين إلى الله بدوام دولة سلطان الأمم وانتصار جنوده وهكذا ختم المجلس.

وقد قدم لرضوان أغا مقابل خدمته الجليلة راية سلطانية أيضًا. ولم يرغب رضوان أغا بعد هذه الوظيفة فى وظيفة أخرى ورجا أن تبدل وظيفته بمشيخة الحرم الكائنة فى المدينة المنورة وقبل رجاؤه وأسندت إليه إدارة محافظة المدينة المنورة مشيخة الحرم المدنى فى دار الهجرة.

وبعد ما أتم رضوان أغا خدمته قدم إلى إستانبول ونال شرف المثول بين يدى السلطان الذى عرض عليه وظيفة (بكلربكى) ولكنه لم يقبل هذه الوظيفة أيضا فأحيل إلى المعاش بستمائة ألف أقجة[1] وأنعم عليه ببراءة سنية[2].

وكانت الرسالة التى كتبها والى مصر الوزير «محمد باشا إلى الشريف مسعود» تحوى فقرة (يرجى أن تبذلوا جميع جهدكم لتعمير البلد الشريف وتجديده متفقا ومتعاونا مع المخلص رضوان أغا على أرض الواقع).

وقد سر الشريف من هذه السطور وابتهج وأخذ يثنى على محمد على باشا ويشكره ثم ألبس الخلع لرضوان أغا ومرافقيه وبعد يومين من ذلك ارتحل مودِّعا الدنيا إلى دار إمارة الفردوس فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى.

وقد أثار موت الشريف مسعود بين أهل مكة القيل والقال مما أقلق الكرام من أهالى مكة والمجاورين ذوى الاحترام وأزعجهم. إلا أن رضوان أغا بما هو مفطور عليه من سجية عالية وروية فى التفكير بذل كل جهده ليحافظ على أمن البلد وضبطه فأصدر الأمر الآتى:ـ

«كل من يسعى للفساد ويثير الخلل فى البلاد يهدر دمه» وأعلن هذا الأمر بواسطة المنادين فى الأسواق والحوانيت حتى يصل إلى مسامع الناس، ثم كفن وجهز الشريف مسعود وصلى عليه فى الحرم الشريف ودفنه فى مقبرة المعلا، ثم

(١) أقجة عملة فضية فى الدولة العثمانية.

(٢) قد أشير إلى هذه البراءة الشريفة برقم (٢) فى خاتمة المقال.

استدعى الأعيان والأشراف وقاضى مكة المعظمة وشيخ الحرم وذوى النفوذ من الأهالى إلى الحرم الشريف وخاطب السيد الشريف عبد الله بن حسن الذى كان فخر أسرة آل عبد مناف ودرة السادات والأشراف.

يا سيدنا إن منصب الإدارة الجليل والرتبة العلية لرياسة الأشراف من حقكم الصريح وذلك بشهادة المجتمعين والأشخاص الموجودين فى الأماكن الأخرى، فتولوا من الآن الإمارة والبسوا خلعتها المزينة وأسرعوا إلى حكم البلاد حسب الأصول واعملوا على ضبط الأمور وربطها. . هذا هو المرجو منكم وبناء على هذا الخطاب لم يستطع أهل الفساد أن يوقدوا نار الفتنة والفساد".

وإن تردد السيد عبد الله فى قبول هذ التكليف الذى عرض عليه من قبل رضوان أغا إلا أن انضمام الأعيان والأشراف والعلماء الأعلام إلى رضوان أغا بالرجاء إليه. **قائلين**:ـ إن هذا الأمر المفروض عليك من قبل رضوان أغا نافع للدين والدولة فرجاؤنا أن تتفضلوا بقبوله. وبناء على هذا لبس الخلعة الخضراء لرياسة أشراف الإمارة، ودعا لسلطان الأنام من صميم قلبه، وتقيد بإدارة أمور البلد ضبطها وربطها.

وقد أنقذ حسن تدبير رضوان أغا البلد من فتنة عظيمة ونجى الأهالى من الحزن والألم والقلق، لذا دعوا له وللسلطان وعدوا هذا التدبير المقبول والمستحسن خدمة أخرى قدمها المذكور لمكة الله وقالوا: «قد نجونا من جميع السوء كانت الحجارة المتساقطة من جدران البيت الشريف تناثرت فى جميع أطراف المسجد الحرام وظل كل جزء منها فى ناحية، وفى يوم الجمعة من أول شهر جمادى الأولى اجتمع الأشراف وأعيان مكة وخدمة بيت الله وموظفى الدولة فى المسجد الحرام توأم جنة الخلد وأخذوا يجمعون الحجارة ثم وضعوها فى صفة قريبة من المقام الحنفى فى الركن العراقى وأقاموا فوقها خيمة ثم كلفوا بجمع البقايا من الحجارة عمالا قاموا بحملها ووضعها فى مكان قريب من المدرسة

السليمانية، وشرع الصناع المهرة فى نحت الحجارة وتسويتها بعد أن جلبوها من الخارج».

كان المرحوم الشريف مسعود قد وضع القناديل الذهبية والفضية الخاصة ببيت الله فى محل قريب من المدرسة الباسطية وحفظها هناك. وكان عدد القناديل خمسين قطعة ثمانية عشر منها ذهبا وثلاثة وثلاثين منها فضة.

وقد اجتمعت الهيئة المذكورة يوم السبت الثانى من شهر جمادى الأولى ونقلت الأحجار المتروكة فى الركن[1] العراق إلى صفة المقام الحنفى وأمروا بانتزاع الحجارة الرخامية التى كانت تغطى ساحة المطاف ووضعوها فى مكان قريب من باب السدة.

وأخذ الحجارون منذ ذلك اليوم ينحتون ويسوون الحجارة التى تضررت وتجرحت عند سقوطها من جدران بيت الله وكذلك أخذ النجارون يقطعون وينشرون الأخشاب التى وتوفرت.

وفى يوم الأحد الثالث من شهر جمادى الأول انتزع باب خزينة الشموع الذى كان تابعا للسقاية التى يتولى أمرها عباس بن عبد المطلب وأخرجوا الحزام[2] الحديدى الذى كان قد أرسله المرحوم السلطان أحمد خان.

واستدعى الصياغ ليَفْصِلوا بين ذهب ذلك الحزام وفضته وذلك أمام قاضى مكة وشيخ الحرم والآخرين من أعيان المدينة وعظمائهم. وخرج من حديد هذا الحزام عشرة آلاف درهم من الذهب ومائة وعشرون ألف درهم من الفضة.

وهذا فضلا عن الذهب والفضة المستخرجان من الحزام الكائن بين الحجر

(١) المدرسة السليمانية التى تحاذى الركن العراقى أصبحت ـ الآن ـ محكمة، كل الحجارة المنقولة والمحفوظة كانت قد وقعت من الركن الشامى.

(٢) إن هذا الحزام كان قد أرسل من السلطان المشار إليه فى سنة ١٠٢٠ هـ لتشييد وترميم بيت الله ولما انهار بيت الله رفع الحزام المذكور بأمر الشريف مسعود ووضع فى المخزن المذكور.

الأسود والركن اليمانى، وإذا ما ضممنا إلى المجموع ما استخرج من الذهب والفضة من الحزام يجب أن نضم إلى المجموع الكلى ثلث المقدار المذكور.

كان محمد على باشا والى مصر قد جهز مقدارا لازما من الرخام والآلات والأدوات ومقدارا من الخشب والمستلزمات الأخرى وحمل بها سفينة فى السويس لتوصلها إلى جدة، وقد تعرضت هذه السفينة لعاصفة شديدة وغرقت ولما وصل الخبر المشئوم فى يوم الجمعة الخامس عشر من شهر جمادى الأولى إلى سمع الناس فى مكة المكرمة أصابهم هم شديد.

وفى يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور شرع بعد التسمية باسم الله فى هدم جدران البيت بعد أن أحيط المطاف الشريف بستار خشبى.

وكان الهدف من هذا إخفاء النجارين الذين سيعملون فى البيت الحرام مقتدين فى ذلك بعبد الله بن الزبير لأنه كان قد أحاط البيت قبل هدمه بستارة خشبية.

بينما كان النجارون مشغولين بصنع الستارة الخشبية اتصل رئيسهم برضوان أغا وأخذا يَتَذَاكَرَانِ القرار الذى سيتخذ للبدء فى هدم البيت، وبعد المحادثات الطويلة بين الطرفين قرر أن يشرع فى الهدم يوم الأحد من الشهر المذكور وفى الموعد المقرر بدأت العمليات أمام الأشراف الكرام والعلماء العظام وأهل مكة المحترمين كما أحيط البيت من خارجه بستارة خشبية فى ارتفاع ستة أذرع، وتركوا فراغا فى الستارة الخشبية حتى يتمكن الطائفون من استلام الحجر أو تقبيله، وكان عبد الله بن الزبير قد فعل نفس الشىء، وكان الطائفون يطوفون خارج الستارتين، ولما شرع فى صنع الستارة الثانية فى ٢٤ جمادى الأولى شرع فى صنع إسقالة قوية متينة على أطراف الستارة الأربعة.

وكان قصد رضوان أغا من صنع هذه الإسقالة هو تسهيل عمل البنائين فى صعودهم ونزولهم وتأمين طريق العمال الذين يحملون الحجارة والطين فى أثناء البناء.

وقد استمرت هذه الأعمال ستة أيام أو سبعة وفى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة انتزعت بقية الأحزمة التى كانت فوق الجدار الذى فيه الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين الثانى من شهر جمادى الآخرة اجتمع الشريف على بن بركات وسادات البلد صباحا فى دائرة الحطيم وتفقدوا الجدران التى لم تسقط وخاصة السقف الشريف لبيت الله ومعهم رضوان أغا والمختصون فى فن العمارة والمهندسون.

وأخذ المتخصصون فى فن العمارة والمهندسون يكشفون بعناية تامة ورأوا مدى ضعف الجدران التى لم تتهدم بعد، والسقف الشريف وشدة وهنه ثم قالوا مخاطبين الجمع: إن مبانى هذه البقعة الشريفة قد اهتزت ووهنت من أسسها وهانحن أولاء نعرض لكم الحقيقة فلا مجال بعد ذلك لتقولوا لماذا لم تخبرونا بالحقيقة فى وقتها؟ وقد صرحنا بحقيقة الأمر أمام المفتين الأربعة والسيد القاضى وأمام عظماء البلد ووجهائهم.

ونكرر القول مرة أخرى: إن إبقاء بيت الله دون تجديد أمرٌ غير جائز، وقد اهتزت وضعفت جميع نواحيه وأصابها الوهن ومن هنا يجب أنْ يجدد البيت تجديدا كاملا وأيدوا قول رضوان أغا بشهادة كثير من المسلمين.

إن تصديق المجتمعين كلهم ما ادعاه المهندسون ورجال العمال بلا تردد كان لإسكات محمد بن علان وهو من العلماء المعترضين.

وقد ادعى ابن علان أن الأجزاء الباقية من جدران الكعبة غير جائز هدمها وهكذا خدع بعض العوام من الناس وأثارهم حتى يحولوا دون هدم الأجزاء الباقية التى نجت من السيول، وتردد رضوان أغا أمام موقف هؤلاء واستفتى المفتين المعروفين بعلمهم فى أرجاء العالم وفقهاءهم وحصل منهم على الفتوى التى ستذكر فى آخر هذا المقال وكانت **خلاصة الفتوى**: «يجب العمل بما تملى به الضرورة وبشهادة أهل الخبرة ورأيهم، ومن هنا يجب البدء فى تجديد بناء الكعبة ويلزم من أجل تجديدها المال الحلال».

وبناء على التقرير الذى وضعه المهندسون والمتخصصون فى فن العمارة وبشهادة المسلمين قد رفعت الستائر الخشبية التى وضعت بدلا من الجدران المنهارة وانتزعت الحجارة الباقية ووضعت بكل احترام وتوقير فى مكان قريب من المدرسة الباسطية وذلك فى يوم الثلاثاء الثالث من شهر جمادى الآخرة.

وبما أنه قد شرع فى يوم الأربعاء الرابع من جمادى الآخرة فى إنزال سقف بيت الله لم يفارق رضوان أغا المهندسين والمعماريين وأمر بإنزال الرصاص الذى كان فوق السقف والأخشاب التى تثبت كسوة الكعبة، ثم وضعت هذه الأشياء بعد إنزالها فى خزينة الشموع، كما أمر بوضع التراب الذى تخلف من إنزال سقف البيت فى المطاف.

وفى يوم الجمعة السادس من جمادى الآخر اجتمع الشريف على بن بركات والأعيان والعلماء من مفتىّ المذاهب الأربعة فى داخل الحطيم الكريم وشاهدوا وتفقدوا وكان معهم الشيخ محمد على بن علان أحد المعترضين على تجديد الأبنية.

وقام رضوان أغا وعرض على المجتمعين أن ابن علان لا يوافق على هدم ما تبقى من الجدران بعد السيل وأنه يتلفظ بكلمات تؤدى إلى إثارة الفتنة بين عوام الناس ثم قال: ما رأيكم فى هذا؟ فقال الجميع: إن تجديد الكعبة قد أصبح واجبًا بناء على أقوال المهندسين والمعماريين وبناء على ما رأيتموه من الجدران المتهدمة وبهذا قد أفتوا مرة أخرى. وفى يوم السبت السابع من جمادى الآخرة أمر بإنزال البقية من السقف اللطيف ووضع جزء من البقايا بجانب المدرسة السليمانية ووضع الجزء الآخر فوق أحجار كعبة الله التى حول الكعبة المعظمة.

وكانت الغاية من وضع الأخشاب فى الأماكن المتفرقة لحفظها من الأذى الذى قد يصيبها فى أثناء هدم جدران الكعبة.

وفى وقت الضحى المذكور شرع فى هدم بقايا الجدران الكائنة فى جهة بئر زمزم وفى الغد ومن يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة شرع فى هدم بقايا الجدار الغربى المقابل لباب إبراهيم وأنزلت الأخشاب التى كانت فوق هذا الجدار

ثم شرع فى هدم بقايا الجدار المقابل لباب الصفا، وقد تمت إجراءات الهدم للجدار اليمانى يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة وفى يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة شرع فى هدم البقية الباقية من جدران بيت الله.

وفى يوم السبت الرابع عشر من جمادى الآخرة هدموا إلى قرب عتبة باب المعلا من كعبة الله، وفى يوم الأحد الخامس عشر من جمادى الآخرة حملت عتبة باب بيت الله إلى المكان الذى ينحت فيه الحجارون الحجارة فقاموا بتسويتها، ثم قلع الباب السعيد من مكانه وحمل فوق الرءوس ووضعوه فى المكان الخالى تحت بيت المرحوم ميرزا ثم نقلوا حجارة الشادروان والركن اليمانى إلى جهات مختلفة بعد أن نزعوها من مكانها وكان فى حجارة الشادروان حلقات مغطاة بالذهب.

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة لم يكن قد بقى أى حجر فى جدران كعبة الله إلا الحجارة التى فوق الحجر الأسود وتحته لذا طلب البناءون والنجارون إحضار جميع أدواتهم ووضعوها فى المخزن الذى يطلق عليه خزينة المال، وفى الغد الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة شرع فى تنظيف وحفر الأسس لجدران بيت الله الأربعة وإحضار الحجارة الكبيرة التى ستوضع فى أساس البيت واستمروا فى الحفر حتى وصلوا إلى الحجارة الخضراء وعلامات وإشارات أساس البيت القديمة من حيث بدءوا فى التجديد ورصوا طبقة من الحجارة ابتداء من الركن الشامى.

وكان الشروع فى وضع أسس بيت الله فى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.

ومن الأحجار الأساسية لكعبة الله إلى سقفها اللطيف يوجد خمس وعشرون طبقة من الحجارة وفق ما رتبه عبد الله بن الزبير وبما أن الأحجار الموضوعة فى الطبقة الأولى فوق الأحجار الخضراء بقيت تحت أحجار الشادروان فهى لا تدخل ضمن الخمس والعشرين طبقة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة جهزت أحواض الكلس وأدخلوا الحجارة التى كانت فى الخارج إلى المطاف الشريف وفى الغد الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة أرسلوا الحجارة التى قطعت من جبل الشبكة ونحتت وسويت بجانب مقبرة العارف بالله الشيخ محمود بن إبراهيم أدهم إلى حرم المسجد الحرام وبعد ما غسلت هذه الحجارة بجانب المقام المالكى حملت إلى جانب جدران كعبة الله.

وفى يوم الأربعاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة أخذوا يبنون فوق الطبقة الأولى من الحجارة التى وضعت فوق الحجارة الخضراء ورفعوا البناء من الجهات الأربعة إلى أرض المطاف. وقد وجد فى ذلك اليوم فى الحرم الشريف بجانب الكعبة الشريفة قضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة وشيخ الحرم والفقهاء والعلماء حتى ينالوا شرف تقديم الخدمة فى أثناء وضع أسس البيت الحرام، ودعوا لسلطان العصر وأثنوا عليه وحملوا الحجارة بأيديهم وبعد فترة تعبوا وجلسوا فى الحطيم.

وقام رضوان أغا الذى كان معهم وأخرج من جيبه دفترًا وقرأ أسماء الشريف عبد الله وقاضى مكة المكرمة وشيخ الحرم ونائبه ووالى مكة ومفتىّ المذاهب الأربعة والآخرين ممن قاموا ببناء البيت وتجاوز عددهم العشرين ثم ألبس كل واحد منهم خلعة فاخرة وختم المجلس بالدعاء للسلطان مرة أخرى.

وقد ارتجل أحد الأشخاص من فضلاء مكة هذا المصراع من البيت يسجل فيه تاريخ اليوم.

(. . . تاريخ رفع الله قواعد البيت[1])

عاد المدعوون المشار إليهم بعد زيارة بيت الله ذو الأسس الذى لن يندرس بعد ما لبسوا الخلع فى داخل الحطيم وبعد ما تلوا آيات القرآن الكريم ودعوا باليمن

(١) كان يلزم أن تكون إشارة التعمير فى المصراع الأول من هذا البيت إلا أننا لم نقدر على الحصول على هذا المصراع.

والبركات للسلطان رافعين أكفهم إلى قاضى الحاجات وقد رتب بعد ذلك رضوان أغا حفاظا يجتمعون داخل المقامات الأربعة ويختمون القرآن الكريم كل يوم ثم يقرأون دعاء ختم القرآن فوق الساحة المباركة للبيت الحرام.

كما عين ثلاثة من الحفاظ الفقهاء ليشرعوا فى قراءة سورة الفتح مع بدء العمل فى البناء فى كل يوم، كما فتح بابا فى السور الخشبى الذى حول الكعبة.

وعهد رضوان أغا بمفتاح هذا الباب إلى بواب معين وكان المذكور حينما يفتح الباب كل صباح يبدأ الحفاظ الذين فى داخل المقامات الأربعة فى ختم القرآن الكريم ويشرع البناءون فى العمل كما يبدأ الحفاظ الذين داخل المقام الحنفى فى قراءة سورة الفتح.

وقد استمر هذا النظام إلى أن انتهى بناء بيت الله المفخم وقد ختم القرآن كل يوم فى المقامات الأربعة كما تليت سورة الفتح ثلاث مرات.

واشتغل البناءون فى يومى الخميس والجمعة والسبت السابع والثامن والعشرين من جمادى الآخرة بإعداد ما يلزم من مؤن لتثبيت ووضع الطبقة الثانية من الحجارة وفى يوم الأحد التاسع والعشرين من الشهر المذكور أخذوا يركبون حجارة الطبقة الثانية وفى اليوم الثلاثين من جمادى الآخرة يوم الاثنين وضعوا فى الركن اليمانى حجر استلام المطوفين المبارك.

وكان الجزء العلوى من هذا الحجر قد انكسر لذا صب البناءون فى هذا الكسر مقدارًا كافيا من الرصاص بعدما سووه جيدا مع الأجزاء الأخرى حتى يتماسك مع الحجارة الأخرى.

وفى أثناء وضع الحجر المسعود فى مكانه من الركن اليمانى جاء الشخص الكريم الذى يحمل مفتاح البيت ومسح الحجر الأسعد وما يتصل به من الحجارة بنوع من الأعشاب والعطور الأخرى.

وبعد ما رص البناءون حجارة الركن اليمانى ورصوها جيدا رصوا حجارة

الطبقة الثانية من جدران الركن الغربى والركن الشامى وفى اليوم الثانى الثلاثاء غرة رجب أنهوا رص حجارة الطبقة الثانية لجميع أركان البيت وسووها جيدا.

وفى اليوم الثانى الأربعاء قضى البناءون وقتهم فى إعداد المؤن ونقل الأشياء اللازمة وتجهيزها وفى اليوم الثالث الخميس ركبوا عتبة باب كعبة الله ذات الفيوضات الإلهية فى المكان المعد لها. كما علق الصياغ الطرف النحاسى الذى صنع للحجر الأسود بالفضة ونقلوا بواسطة البنائين والحمالين الثلاثة أعمدة التى ستنصب داخل بيت الله ومصراعى باب كعبة الله فى داخل ساحة بيت الله.

وفى يوم الجمعة الرابع من رجب الفرد انشغلوا بتخمير وتصفية المونة وإعداد اللوازم الأخرى ثم نقلوها من باب الصفا إلى مكان قريب من الأبنية السعيدة وفى يوم السبت الخامس من رجب أخذوا فى رص الطبقة الثالثة وشغلوا إلى مساء يوم الأحد السادس منه برص حجارة الطبقة الثالثة إلى الحجر الأسود وسووها وفى نفس الوقت أخذوا يسوون أطراف الألواح الخشبية التى حزمت بها جدران البيت المنير ومن ناحية أخرى غطوا غلاف الحجر الأسود الجديد بالفضة وزينوه بنقوش ذهبية، ولكن الحجارة التى كانت بجانبى الحجر الأسود ظلت منخفضة قليلا.

وفى يوم الاثنين السابع من رجب وبعد الشروق اصطحب رضوان أغا سيد محمد أفندى والمعماريين والمهندسين وأحضر معه العشرة ألواح التى كانت أعدت لأجل الحجر الأسود والتى كانت مغلفة بالفضة ومنقوشة بالذهب وثبت بها الجهة التى ظلت مكشوفة من الحجر الأسود وأمر البنائين بالشروع فى رص الطبقة الرابعة من الحجارة، وفى يوم الثلاثاء الثامن من رجب رفعوا الحجر الكبير الذى فوق الحجر الأسود وثبتوه فى مكانه وذلك فى حضور الأشراف والأعيان والعلماء والوجهاء واشترك فى رفع الحجر الكبير الذى كان فوق الحجر الأسود

(١) إن الباب الغربى المسدود كان مقابل الباب الشرقى وفوق أحجار الطبقة الثالثة. حتى إن المهندسين حينما كانوا يرصون الحجارة فى مكان الباب الغربى المسدود تركوا علامة تدل على أن فى الموقع كان باب، ومن يمعن النظر فى هذا المكان يمكنه رؤية تلك العلامة.

ووضعه فى مكانه جميع الأشراف والأعيان إلا أن رئيس المهندسين «آق شمس الدين أفندى» و «عبد الرحمن بن زيد أفندى» من معمارى الأبنية المسعودة قد اضطلعا بنفسهما بإصلاح أطراف الحجر الأسعد وتسويته وقضيا يومى الأربعاء والخميس فى هذا العمل فقط وهكذا أنهى كل ما يتعلق بأمور الحجر الأسود.

وفى ليلة الجمعة الحادى عشر من رجب الشريف قام قاضى مكة وشيخ الحرم وبعض من فقهاء البلاد بالكشف على كيفية وضع الحجر الأسود فى مكانه وأثنوا على رضوان أغا ورئيس المهندسين والمعماريين وشكروهم لما بذلوا من جهد عظيم وهمة كبيرة.

بينما كان الزوار الكرام يتفقدون وضع الحجر الأسود قال بعض المهرة من العمال الذين رأوا أن ظهر الحجر الأسود أكثر صقلا من وجهه: لو أذنتم بتبديل ظهر الحجر الأسود بوجهه لأن ظهره أصقل من وجهه ولكن رضوان أغا رفض رأى البنائين قائلا: لا، لا يجوز التلاعب بالحجر الأسود إن وضعه الحالى على أحسن ما يرام.

وكان رضوان أغا مصيبا فى رأيه، لأن الحجر الأسود ـ كما سبق فى بابه ـ كان متشققا من عدة أماكن، حتى أنه قد ربط فى أيام العباسيين من طرفيه بأحزمة فضية، وقد أبقاه رضوان أغا عل هيئته الحالية وغطى جوانبه المكشوفة بصفائح مطلية ومغلفة بالفضة وأحكم تثبيته.

وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب الفرد شرعوا فى رص حجارة الطبقة الخامسة وبعد الانتهاء من رص الجهات الأربعة استقدموا الحدادين وكلفوهم بصنع حزام معكوس الرأس من الحزام الذى كان السلطان أحمد بن محمود خان أرسله فى سنة ١٠٢٠ هـ لربط بيت الله من جهاته الأربعة.

وقد ثقبت الأحجار الموجودة فى الزوايا من وسطها لتثبيت رءوس الأحزمة الحديدية جيدا وقد أدخلوا رءوس الأحزمة المعكوسة فى داخل الثقوب ثم صبوا فيها الرصاص المنصهر لتثبيتها، ثم نشروا ألواح الأخشاب اللازمة لتغطية جدران

البيت الحرام ثم ألصقوها بعضها ببعض وسمروها على الجدران ووضعوا الأخشاب المتبقية فى مكان أمين لاستعمالها فى السقف الشريف.

وقد أوصى المسئولون بشراء بعض الخشب من جدة وقد استحضروا هذا الأخشاب فى يوم الأحد الثالث عشر من رجب إلى مكة وحفظوها فى المخازن وفى يوم الاثنين الرابع من رجب شرعوا فى رص حجارة الطبقة السادسة من الجهة الشرقية وانتهوا إلى باب المعلا من بيت الله وبدءوا فى رص حجارة الجهة الغربية وقام النجارون بصنع القواعد التى ستنصب عليها الأعمدة فى داخل كعبة الله.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب فتحوا بابًا من ناحية القصر المنسوب للملك الأشرف قنصوه الغورى للصعود على قبب المسجد الحرام وأعدو الأخشاب التى استحضرت من جدة بمسحها للاستعمال.

وفى يوم الأربعاء السادس عشر من رجب صعد سيد محمد أفندى الأنقروى مع رضوان أغا لتفقد الأماكن التى فى حاجة للطلاء.

وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب قرروا الطلاء وقد وضع البناءون الطبقة السابعة من الحجارة وفى يوم الخميس صفوا الحوض الذى أعده من ناحية ومن جهة أخرى اصلحوا وسووا الأخشاب التى جهزت لتغطية السقف وفى يوم الجمعة أعدوا الحجارة الموجودة وفى يوم السبت قاموا بطلاء أربع قبب ناحية باب العمرة[1].

وفى يوم الأحد العشرون من رجب رصوا الطبقة الثانية من الحجارة وقاموا بتزيين وتحلية الأعمدة التى بجانب باب البيت المطهر والتى غلفت بالفضة بنقوش ذهبية، ثم وضعوا الخشبة التى فوق القبة العليا للباب وركبوا مصراعى البيت القديمين.

(١) سجل سهيلى أفندى فى مضبطته أنه قد استخدم فى طلاء كل قبة من هذه القبب ثلاث أرادب من مونة وأنفق أربعة آلاف قطعة ذهب لمونة أبنية الحرم وسبعة آلاف قطعة ذهب للأخشاب التى استخدمت فى البناء.

وقد كتب فوق الخشبة المذكورة بنقوش ذهبية (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد نصب العمودان اللذان بطرفى الباب والمغلفان بالفضة فى عهد السلطان المرحوم سليمان خان سنة ١٩٥٠ هـ.

والمصراعان اللذان قلنا عنهما القديمين كانا قد صنعا أيام الملك الظاهر بيبرس من سلاطين مصر وقد بليا بمرور الوقت، لذا قد بَدَّلَ السلطان سليمان غلافهما الفضى وزينها بالنقوش الذهبية ووضعهما فى مكانهما.

وفى اليوم الذى نقش فيه العمودان بدئ فى رص حجارة الطبقة التاسعة من جهة الركن العراقى وأخذوا فى صنع الإسقالة الداخلية التى احتيج إليها، لأن الجدار كان قد ارتفع عن عتبة باب كعبة الله.

لما ركب باب البيت الشريف جربه رضوان أغا بأن فتحه وأغلقه عدة مرات ثم أتى بقطعة من إسفنج نظيف وغسل جميع جدرانه بماء زمزم ثم أغلقه بمفتاح.

ولما كان المفتاح يوضع فى باب البيت مع صوت أذان الظهر ارتفعت الأدعية بطول عمر السلطان وزيادة قوة دولته ورقيها. بعد أداء صلاة الظهر أسرع البناءون بإتمام الطبقة العاشرة من جدران البيت وشغلوا إلى يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب بطلاء البيت بالكلس وإعداد الأخشاب بمسحها وتسويتها وفى نفس اليوم ركبوا أحجار الطبقة الحادية عشرة.

وفى يوم السبت السادس والعشرين من رجب أعطى ابن شمس الدين بقية الأخشاب الخاصة إلى النجارين لتسويتها وبعد ما رص البناءون حجارة الطبقة الثانية عشرة بدأوا فى نحت وإصلاح أحجار البيت الشريف القديمة.

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب استحضرت الأخشاب اللازمة لسقف الكعبة المعظمة وهيئ ثمان وثمانون عمودا خشبيا تماثل الأعمدة الخشبية القديمة فى الطول والعرض والقطر وابتدئ فى إعداد الألواح الخشبية التى تغطى الأعمدة السابقة، وذلك بمسحها الطبقة الثالثة عشرة كما رصوا قطع الرخام اللازمة لسطح البيت على الأرض بعضها بجانب بعض لفرزها وما وجدوه معيبًا

نحوه جانبا لتسويته وإصلاحه، وبعد ذلك بدءوا فى رص أحجار الطبقة الرابعة عشرة التى تعد مبدأ النصف الأعلى للكعبة المعظمة.

عندما ارتفعت جدران كعبة الله إلى نصف علوها امتلأت ساحة المسجد الحرام سواء بالحجارة القديمة أو كانت الأحجار الجديدة المنحوتة والمستلزمات الأخرى مثل الكلس والرمال والأخشاب حتى لم يبق مكان للسير فى المسجد الحرام.

وأخذ الناس فى الشوارع والأسواق والمحافل العليا والسفلى وخاصة فى المجالس غير الرسمية التى تجتمع فى داخل الحرم الشريف يتحدثون ويقولون إن رضوان أغا يهين البيت الأعظم وذلك أنه قد نوى أن يكسب أموالا كثيرة بزيادة النفقات غير اللازمة.

إن أحدًا من الأسلاف لم يتجرأ بأن يمد يده للحجارة التى بنى بها خليل الله ـ عليه السلام ـ الكعبة. وما الحاجة إلى الحجارة الجديدة؟! مادامت الحجارة التى بنا بها عبد الله بن الزبير الكعبة متوفرة؟! وقد أطال الناس ألسنتهم على رضوان أغا بمثل هذه الكلمات غير اللائقة وأبلغ بعض العلماء الخيرين رضوان أغا بهذه الأقوال؛ وبما أن رضوان أغا انزعج انزعاجا شديدًا وخاف من حدوث فتنة وبما أنه كان بريئا من كل ما يجرى على ألسنة الناس ظل يطوف البيت سبع مرات بعد أداء الصلاة مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ويتضرع لواهب الآمال باكيا؛ وكان يخاطب ربه فى ختام كل طواف بكل تذلل وانكسار رافعا يديه ويقول:

يا رَبِّ إنك ترى كل شىء إن الأنبياء العظام والأولياء ذوى الاحترام وكافة الملائكة نالوا المغفرة بخدمة بيتك العظيم. إن هدفى من كل عملى هو نيل رضاك وليس إهانة البيت. يا إلهى أخف واستر بجاه قدرتك وعظمتك الأشياء الزائدة عن عيون الناس وأنج عبدك هذا من اعتراضات الناس وأقاويلهم يا رب إذا زادت الأحجار والأشياء الأخرى عن حاجة البيت. فمر ملائكتك يرفعونها إلى السماء أو يدفعونها فى الأرض، وبمثل هذه الأقوال أخذ يناجى ربه باكيا منتحبا.

وقد أصاب دعاؤه هدفه فنال الاستجابة، إذ لم يزد أى شيء عن حاجة البيت سواء كانت الحجارة الجديدة أو الحجارة القديمة أو المستلزمات الأخرى وكأن كل شيء حسب حسابه بدقة شديدة لم يزد حجر ولم ينقص حجر. انتهى.

وفى يوم الأربعاء غرة شعبان رفعت الستارة الخضراء التى كانت تغطى الكعبة إلى نصفها ورأى الأهالى غرة كعبة الله ورفعوا أيديهم بالتضرع إلى الله شكرا ومسحوا وجوههم فى كعبة الله المفخمة. وفى يوم الجمعة الثالث من شهر شعبان فرشوا رخام النصف الثانى للسطح الشريف ووضعوا على كل واحد منه علامات معينة وأعدوا الأخشاب اللازمة، وفى اليوم الرابع من رجب الموافق يوم الجمعة رفعوا ستارة البيت وطووها.

رفعت ستارة كعبة الله الشريفة وظهر جمال كعبة الله بدون نقاب حينئذ امتلأت قلوب أهل مكة بالفرحة والسرور ولمعت عيونهم بالنور وأخذوا يدعون له ولسلطان العالم خير الدعاء.

وفى يوم الجمعة شرع فى رص الطبقة السابعة عشرة من الحجارة وتم معاينة أخشاب معظم السقف واختير الصالح منها لاستخدامها فى السقف أيضا ونُحِّيَتْ جانبا، وفى يوم الأحد الخامس من شعبان كلست ودهنت القباب الثلاثة الشمالية التى أعدت لذلك قبل ثلاثة أيام، وفى يوم الاثنين السادس من شعبان شرع فى تعمير مئذنة[1] باب الحزورة وفى يوم الأربعاء الثامن منه قد كُرِّمَ أحمد قبانى أفندى الذى كان أرسل الأخشاب اللازمة من جدة إلى مكة وذلك بإلباسه الخلعة وبهذا أعلى قدره، كما حفر أسس الأعمدة التى فى داخل الحرم وجعل لها قواعد من حجر الشمليس، وفى يوم السبت الحادى عشر من شهر شعبان المعظم رفعت أسقالة أبنية البيت السعيد وعلقت الألواح الخشبية التى أعدت لاستخدامها فى تغطية السقف الشريف فى أربعة أماكن لتكون جاهزة للاستخدام عند الطلب.

وفى يوم الأحد الثانى عشر منه أصلحوا وسووا الرخام المرصوص حول

(١) تم تعمير هذه المئذنة فى خمسة أيام.

الجهات الأربعة للبيت الحرام، وفى يوم السبت الحادى والعشرين أخذوا فى تأسيس شادروان كعبة الله مبتدئين من الحجر الأسود إلى حجر إسماعيل، فنصبوا أحد الأعمدة التى فى داخل الكعبة وثبتوها فوق القاعدة المصنوعة من الحجر ولزيادة المتانة صبوا حولها الرصاص المنصهر.

وفى يوم الثالث عشر نصبوا العمودين الثانى والثالث فى جهة، ومن جهة أخرى طلوا القباب الغربية وجدران الشادروان التى انتهى بناؤها بعد أن وضعوا بقية الخشب التى وصلت من جدة بالقرب من جدران بيت الله.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من شعبان رفعوا الأشياء اللازمة للسقف الشريف.

ورصوا حجارة الطبقة العشرين وفى يوم السبت الثامن عشر منه طلوا الأعمدة التى داخل الكعبة بالزعفران ثم مسحوها بالصمغ العربى والغراء وفى اليوم التاسع عشر (الأحد) انتهوا من ترميم مئذنة باب الحزورة وفى يوم الثلاثاء صنعوا السقف العالى[1] لبيت الله.

وفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان وضعت أعلام قبب المسجد الحرام فى أماكنها بعد تزيينها وفى يوم الخميس الثانى والعشرين رصت حجارة الطبقة الخامسة والعشرين وجمعت الباقية من مبانى البيت الشريف نقلت إلى جانب المقام المالكى[2].

وفى يوم السبت الرابع والعشرين وضعت مداخل السقف الثانى وشرع فى صنع السلم[3] الذى يصعد منه إلى سطح كعبة الله وحلت جميع الإسقالات التى فى داخل الكعبة المعظمة وأخرجت خارجها.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين بعد أن فرشت قطع الرخام فوق السقف

(١) يوجد فاصل بين السقفين مقداره ما يقرب من ذراع معمارى.

(٢) كان عدد الحجارة خمسين حجرا.

(٣) كان هذا السلم حلزونياً ويتكون من اثنتى عشرة درجة. عجز النجارون عن إكماله ولكنهم استطاعوا أن يكملوه بعون مهندس مصرى يسمى عبد الرحمن.

الشريف أخرجت الكسوة الحمراء للمقام الشريف وفرشت فى صحن مسجد قريب من باب أجياد وخيطت جيدا ثم أخرجت الستارة السوداء المحفوظة داخل المقام الشريف ووضعوها بجانب سبيل المؤيد. وعلقت الكسوة الحمراء فى سقف كعبة الله وربطت فى الحلقان الجديدة وذلك فى وقت العصر. وكانوا يربطون الستارة من قبل ذلك بمسامير يغرسونها داخل أبنية بيت الله.

رؤيا غريبة

قدم أحد الصالحين الكرام من بخارى لزيارة الحجرة المعطرة النبوية فى المدينة المنورة إلا أنه مرض فى مكة المكرمة فى أثناء تجديد الكعبة واضطر لأن يبقى هناك.

وقد رأى فى منامه النبى ـ ﷺ ـ وقد لبس قميصا أبيض وقال له:

«طب نفسا... ولا تتألم ولا تحزن... إن زيارتك قد قبلت... نحن هنا منذ أن شرع فى تجديد أبنية كعبة الله ولن نغادرها حتى يتم تجديد مبانى كعبة الله».

حكاية أخرى

قد رأى أحد الصالحين فى رؤياه كثيرا من جنود الجن فخاطب واحدا منهم: إنكم كتيبة من طائفة الجن ما سبب بقائكم فى الحرم الشريف؟

فأجابه قائلا: نحن من طائفة الجن. وبما أننا مسلمون قد أمرنا بخدمة بيت الله، لأجل ذلك دخلنا الحرم الشريف لنقوم بالعمل! قائدنا فى المدرسة الداودية. وكنا هنا منذ الشروع فى بناء البيت ولن نترك هذا المكان حتى ينتهى العمل فى أبنية بيت الله. انتهى.

وفى يوم الاثنين السادس والعشرين تمت خياطة بقية الستارة الداخلية وعلقت فى مكانها. وقدم أمير يَنْبُع سيد على ابن الدراج مع رسول والى مصر محمد على باشا حاملا الخلعة لأمير مكة المعظمة.

وكانت الأحزمة الحديدية، والميزاب الشريف الذى كان مطليا بالمينا البنفسجى

فوق الفضة والتى أرسلها السلطان أحمد سنة ألف وعشرين حفظت فى دار رضوان أغا فى أثناء تجديد المبانى الكريمة، وفى يوم الأربعاء الثامن والعشرين أخرجوها حاملين إياها بالتسبيح والتهليل والتوقير والتعظيم، وركبوها فى مكانها فى البيت المعظم. وكان الأشراف والعظماء والأعيان والعلماء الكرام وأهل مكة فى أثناء ذلك قد اجتمعوا فى المقام الحنفى حيث كانوا يشاهدون كيفية وضع الميزاب الشريف، ولما تمت العملية عادوا وهم يدعون لسلطان العصر.

وفى يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان نزعوا معظم الأساقيل وقد انتهوا من جميع الأعمال الخاصة بالطلاء والتبييض ورص الحجارة والرخام، وفى الجمعة الثلاثين من شعبان هيئوا أحواض الكلس وخمروه. وفى غرة رمضان ومع طلوع الشمس نشروا ستارة كعبة الله السوداء أمام باب الصفا ونظفوها جيدا ثم رفعوها إلى سطح كعبة الله فى حضور أمير مكة والأشراف والأعيان والقضاة والعلماء والفقهاء وشيخ الحرم وقاضى مكة المكرمة وصعد رضوان أغا مع العمال فوق السطح الشريف وألبس الكعبة الشريفة الستارة وربطها من أطرافها الأربعة ربطًا جيدا، ثم أحضر ستارة باب المعلا للكعبة الشريفة من مقام إبراهيم وعلقها فوق الباب ذو الفيوضات الإلهية.

وبعد ذلك ترك خادمو البيت الستارة الشريفة من فوق السطح حتى وصلت إلى أرض المطاف. ثم أحضر عشر خلع بأمر رضوان أغا وألبس الشريف عبد الله اثنين منها كما ألبس منها الباشا الوالى وحامل مفاتيح الكعبة وناظر الأبنية السعيدة سيد محمد الأنقروى أفندى وأعطى خلعة للشخص الذى عينه ثم ألبس الباقى لرؤساء العمال من البنَّائين والنجارين.

وفى ليلة الأحد اليوم الثانى من رمضان أوقدت قناديل بيت الله وفى يوم الأحد فرشوا رخام السطح الشريف كما تم فى نفس اليوم جميع الأعمال الخاصة بالشادروان.

وفى يوم الاثنين الثالث من رمضان جاء من قبل والى مصر الوزير موسى

باشا، رسولاً يحمل خلعة سلطانية ورسالة إلى الشريف عبد الله وجمع الشريف عبد الله الأشراف والعلماء والفقهاء فى ساحة الحطيم الكريم ليلبسه الخلعة السلطانية أمام الناس ثم قرأت الرسالة السلطانية وأمر بفتح بيت الله. ودخل الناس داخل كعبة الله حيث صلوا صلاة الشكر ودعوا للسلطان بطول العمر ثم تفرقوا.

وزار الرسول الذى حمل الخلعة من مصر، رئيس المعماريين يوسف أغا والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى والشريف عبد الله بناء على دعوته وكان معهم حامل مفاتيح بيت الله قارئ الأدعية أبو السرور ورئيس المؤذنين. وقد ألبس كل واحد منهم خلعة من قبل الإمارة الجليلة.

وفى يوم الثلاثاء الرابع من رمضان صعد البناءون فوق سطح البيت وحلوا الأساقيل ووضعوا أنقاضها منها فى مكان قريب من رباط الغورى كما انتهوا من ملء شقوق الحجارة وطلاء الجدران وشرعوا فى تجديد محراب المقام الحنبلى. ثم أخذوا فى فرش وتركيب قطع الرخام التى تتصل بأرض المطاف مبتدئين من الركن اليمانى ومتجهين نحو الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين العاشر من رمضان هدم المهندس المصرى عبد الرحمن أفندى جدار المقام الحنبلى وبناه من جديد.

وفى يوم السبت الخامس عشر من رمضان تفقد رئيس المهندسين آق شمس الدين أفندى والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى مع رضوان أغا دار السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ لإصلاح ما يحتاج للترميم منها وهدموا المقام المالكى وجددوا بناءه بالحجر الشبيكى.

وفى يوم الأحد السادس عشر من رمضان رفعت الآلات والأدوات التى كانت فوق حِجْرِ إسماعيل وحفرت الأرض بدءا من جهة مقام إبراهيم من الباب إلى الباب الآخر من الحطيم الكريم وذلك لتجديد وإصلاح جدران الحِجْر[1] وفى أثناء

(١) فكلمة الحجر التى جاءت مضافة إلى إسماعيل تقرأ بكسر الحاء وسكون الجيم.

الحفر أخرجوا كثيرا من الحجارة. ويحتمل أن تكون هذه الحجارة من بقايا الجدران التى بناها عبد الله بن الزبير. وقد كتب الإمام الأزرقى فى تاريخه إن الحجاج الظالم قد دفن الحجارة المتبقية فى جوف الكعبة.

وبعد ما تم إصلاح وترميم حجر إسماعيل رفعت الأساقيل وجمع كل ما على الأرض من لوازم البناء وكومت تحت القباب التى فى باب إبراهيم ثم كنست الجهات الأربعة للبيت الحرام ومسحت بالماء. وقد هدمت جدران الحطيم وشرع فى بنائها فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان وانتهى البناءون من بنائها يوم الخميس العشرين من رمضان كما غطوا الجهة التى فى مقام إبراهيم بالرخام.

وقد كتبت على قطعة رخام منها أسماء الخلفاء العظام، والسلاطين الذين جددوا ورمموا الحطيم الكريم، وكان جدار الحطيم الذى تهدم بناه سلطان مصر الغورى فى القرن العاشر.

وفى يوم الأحد الثالث والعشرين غطى البناءون جدران الحطيم الداخلى المقابل للكعبة الشريفة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رمضان نقلت قطع الأخشاب التى بقيت أمام باب إبراهيم. إلى جهات باب الزيارة، وبعد ذلك رمم الرصيف الذى بين المطاف الشريف والحرم اللطيف.

وفى يومى الثلاثاء والأربعاء الرابع والعشرين والخامس والعشرين من رمضان ركبوا الباب الحديدى الذى يؤدى إلى سلالم سطح الكعبة الشريفة.

وفى يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أسدل المهندس محمود أفندى أمام الحجر الأسود ستارة وأخذ يملأ الشقوق التى حول الحجر الأسود ويثبته وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان تمت الأعمال التى فى داخل الكعبة.

وقد تفقد سادة البلاد وموظفو الحكومة الأماكن التى بنيت والأشياء التى

صنعت وشاهدوا جمالها الظاهرى ورصانة المبانى وقدروها حق قدرها. وسدوا الباب الغربى الذى ظل مفتوحا لذلك اليوم بالحجر الشبيكى وكتبوا محضرا يبينون فيه أن الأبنية السعيدة قد تم العمل فيها على أحسن وجه من الرصانة والجمال. وأبلغوا ذلك إلى والى مصر العام.

وخلع السلم الموقت الذى كان قد صنع لنزول النجارين والبناءين وصعودهم أثناء البناء. وأخذوا بعد ذلك يصيغون داخل القبة الكبير ـ هذا المكان الآن ساحة دار الكتب التى نقلت إلى داخل المدرسة السليمانية ـ وانتهوا منه فى ذلك اليوم.

ونزعوا العمود الذى يحمل قبة سقاية العباس ـ هذا المكان الآن ساحة الدار المؤقتة الذى أدخل ناحية باب السلام ـ وبما أن أسفل ذلك العمود كان قد بلى غيروه بالحديد وصنع البناءون القبب الشمالية من المسجد الحرام ثم غيروا كسوة الكعبة القديمة والستارة التى على الباب وألبسوها الستارة الجديدة كما علقوا الصفحة[1] فوق باب الكعبة وقد تمت هذه العمليات إلى آخر رمضان الشريف. قد كتبت على الصفحة البنفسجية المذهبة المعلقة فوق باب كعبة الله الآية الآتية: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

كما كتب تحتها التاريخ الآتى:

تاريخ اللوح

اللوح ذا لما استرم مجددا

قد بدل السلطان أحمد عسجدا

قيدا له من حديد ذو جدا

الله أنعم بالمجدد أيدا

الهمت فى تاريخه لما بدا

للوح ذا السلطان أحمد جددا

١٠٢٠

قد سطر هذا التاريخ فوق الأحزمة الحديدية التى أرسلها السلطان أحمد فى سنة ١٠٢٠ فى ثلاثة أسطر.

بعد ما علقت الستارة المذكورة نزلت الكسوة القديمة وعلقت الستائر الجديدة البديعة. وكان من عادة الملوك كلما بدلت ستائر الكعبة القديمة أن تقسم هذه الستارة بين خادمى بيت الله كما فصل فى الصورة الخاصة بهذا الموضوع.

مكافأة رضوان أغا على جهده وإخلاصه

قد قدر ما بذله رضوان أغا من جهد جهيد وسعى عظيم وما أظهره من إخلاص وحرص شديد فى أثناء بناء الكعبة وقوبل بإعجاب شديد؛ لذا قرر الشريف عبد الله حامل مفاتيح الكعبة والآخرون ممن يقومون بخدمة البيت الحرام أن يتنازلوا عن حصصهم فى الكسوة القديمة وأن يجعلوها هدية وهبة التقدير والتهنئة لرضوان أغا وعرضوا الموضوع عليه قائلين: إن ما بذلتم من الجهود وما أظهرتم من همة وما قدمتم من سعى لَمُقَدَّرٌ عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا شك أنكم ستنالون ثوابه، إلا أننا نتمنى أن ينال رجاؤنا هذا القبول عندك.

قد قبل رضوان أغا ما عرضوه عليه ولكنه قال: وليس من المعقول أن أحرمكم من فوائد هذه العادة الطيبة، قد تلقيت هديتكم بحسن قبول، وإذا ما تفضلتم بقبول هديتى هذه مقابل هديتكم على أن توزع بين خدام بيت الله لزدتمونى فرحا وسرورا ثم أعطى أربعين ألف قطعة ذهب هدية لخدام البيت.

وقد فتح باب البيت الشريف فى يوم الخميس الخامس من شوال ودخله الرجال والنساء وتضرعوا إلى الله منتحبين باكين ودعوا للسلطان بدوام دولته وشوكته.

وفى يوم السبت السابع من شوال غيروا قطع الرخام التى تكَسَّرَتْ ثم حفروا حفرة بين المدرسة السليمانية وبين دار ميرزا وملئوها بالأدوات والآلات الخاصة بأبنية كعبة الله وهالوا عليها التراب وغطوها بالحصى.

ثم رفعوا مخلفات الهدم المتراكمة بين باب الزيارة وبين المدرسة السليمانية وغيروا الدعائم الخشبية البالية لمقام إبراهيم.

وفى يوم الأحد الثامن من شوال قلعوا باب مقام إبراهيم ووضعوا مكانه ستارة ودهنوا الباب فى داخل هذه الستارة وطلوه وزينوه بالذهب وأصلحوا الطرق التى بين صفة المطاف وباب السلام وباب الزيارة وباب العمرة وباب الحزورة وباب الصفا وسووها وغيروا حجارتها.

وفى يوم الاثنين التاسع من شوال جددوا الأحزمة الحديدية التى حول الدعائم التى تحمل القبب ورمموا قبة سقاية العباس بعد أن نصبوا الإسقالة وجددوا الأماكن التى كان قد رممها شيخ الحرم حسن باشا.

وفى سنة ١٠٢٠ وفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال دهنوا الشباك الذى بين شبابيك مقام إبراهيم بالدهان الأخضر ثم زينوها بنقوش ذهبية وكتبوا اسم السلطان مراد خان الرابع فى جهة من جهاته.

وفى يوم الأحد الخامس عشر من شوال طهروا مجرى باب إبراهيم بعدما سحبوا المياه التى كانت قد تراكمت تحت أحجار كعبة الله.

وبعده بيوم فى السادس عشر من شوال طهروا باب الزيارة وباب السلام وأرض المسجد ونقوا البئر التى فى ساحة باب الندوة وكان ماء هذه البئر مشابها لماء زمزم، وكان حسن باشا قد نقى هذه البئر من قبل إلا أنه كان قد سدها مؤخرا وأما فى هذه المرة فقد طهرت ثم غطوها.

وفى يوم الثلاثاء السابع عشر من شوال غسلوا الرمل المفروش فى الحرم الشريف ثم فرشوه مرة أخرى وأصلحوا سلم السطح الشريف.

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شوال صبغوا مئذنة باب العمرة.

وفى يوم الخميس التاسع عشر من شوال حفروا حفرة عميقة وبنوا سدا متينا ليمنعوا دخول السيول التى قد تأتى من ناحية جبال أجياد.

وفى يوم الجمعة العشرين من شوال جلوا رخام كعبة الله الذى فى جدرانها الداخلية، ووضعوا الكرسى الخاص لجلوس حامل مفتاح الكعبة فى مكانه بعدما زينوه، وكان هذا الكرسى مرصعا مزينا وقد أهدى فى عصر سلطان مصر الغورى وقد صنع بمصر.

وقد طلى كمر باب بيت الله فى ذلك اليوم وكتبت فوقه الآية المنيفة: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠) كما كتب آية واحدة من أول سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ وكتب تحت هذه الآية المنيفة اسم السلطان مراد الرابع وتاريخ الأبنية المقدسة ـ الذى سيحرر فيما بعد ـ بحكمة على أرضية لازوردية وطليت الكتابة بالذهب.

* * *

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الثاني

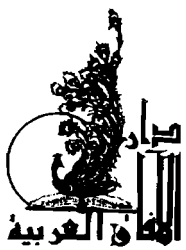

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الثانى (مرآة مكة)

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

تقرب بتجديد هذا البيت العتيق إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ خادم الحرمين المحترمين وسائق الحجاج من البرين والبحرين السلطان بن السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان خلد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ملكه وأيد سلطنته فى أواخر شهر رمضان المبارك المنتظم فى سلك سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل التحية سنة ١٠٤٠.

وفى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شوال أنهى البنّاءون أعمالهم.

وفى السبت الخامس من ذى القعدة صنعوا مئذنة باب الزيارة وبنوا الجدار الذى يواجه صفة باب إبراهيم وأتموا صبغ حجارة الشادروان وداخل مبانى بئر زمزم وكذلك صبغوا بالكلس مئذنة السلطان قايتباى المصرى والدار التى ولدت فيها فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وأتم البنّاءون صبغ دار ولادة فاطمة رضى الله عنها مهبط الوحى الإلهى ومعبد سيد المرسلين.

وفى يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة أتموا صنع حجر التاريخ ووضعوه فى دار ناظر الحرم.

وفى يوم السبت الثالث عشر من ذى القعدة طلوا ذلك الحجر بقشرة وزخرفوه بالذهب. وبعد ذلك سدوا الحفر التى حفرت من أجل الكلس.

وفى يوم الاثنين الخامس عشر من ذى القعدة أصلحوا قبة العباس والأبنية التى بجانبها، وفى يوم الثلاثاء السادس عشر من ذى القعدة أصلحوا قبة الفراشين وبيت زمزم وكمر بابه.

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من ذى القعدة اجتمع رضوان أغا ومعه الشريف عبد الله وقاضى مكة وشيخ الحرم وأعيان البلد أمامهم جميعا لحمل

القناديل التى وضعت فى بيته لحفظها، وكان عشرون منها من ذهب وكان أحدها مرصعا باللآلئ وكان ثلاثون منها من فضة، وسلموها جميعا إلى حامل مفاتيح البيت محمد شيبى أفندى، وقد تأكد مرافقو رضوان أغا أمام جميع الناس من صحة ما قيد فى الدفاتر من القناديل، ثم استقدموا رئيس الوقادين ليعلقها فى أماكن مناسبة.

وبعد ذلك بيومين فى التاسع عشر من ذى القعدة وضعوا لوحة التاريخ المذهبة السابقة الذكر فى مكان مقابل الباب الشرقى وثبتوا أطرافها.

وفى يوم السبت العشرين من ذى القعدة فتحوا باب بيت الله وغسلوه بزمزم ومسحوه بالإسفنج وبخروه بأنواع الطيب وذبحوا القرابين ووزعوا لحمها لفقراء مكة.

وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ذى القعدة تم جلى الأحجار، وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من ذى القعدة أنزلوا ستارة بيت الله ونظفوا الجدار الذى فيه باب الكعبة وجميع جدران الناحية الجنوبية.

وفى غُرَّة ذى الحجة أصلحوا ما حول الحجر الأسود وغطوا الشقوق وطلوا أطراف الحجر الأسود باللون الأسود وهكذا أتموا عمليات أبنية المسجد الحرام.

دعا رضوان أغا الأكابر والأشراف والأعاظم والسادات والعلماء والفقهاء من مكة المكرمة فى اليوم الذى انتهى فيه من تجديد البيت، وعرض عليهم العمارة الجيدة لكعبة الله وجعلهم يعجبون برصانة ما تم عمله فى البيت الحرام وسطحه والمسجد الحرام فى داخله وخارجه مما أدخل الفرح والابتهاج فى قلوب الناس فانشرحت صدورهم فدعوا للسلطان بطول العمر له ولدولته.

بعد ما شاهد المدعوون بيت الله أخذوا يتلون القرآن الكريم وختموه عارضين شكرهم لله كما دعوا لقاضى الحاجات بدوام القوة والعزة للدولة.

كما ألبس الشريف عبد الله خلعا غالية لرؤساء العمال الذين عملوا فى البناء وذلك ليظهر مدى ابتهاجه بما تم عمله ولم ينس رضوان أغا إذ ألبسه خلعة مفخمة تليق بمكانته.

قال سلطان الشعراء العثمانيين مولانا عبد الباقى وهو يبين كيف تم تجديد بناء كعبة الله على يد الحجاج الظالم فى السنة الرابعة والسبعين الهجرية: (لم يعط مسوغ لتجديد كعبة الله بعد الحجاج حتى لا تكون كعبة الله ملعبة فى يد الملوك.

إلا أنه كان يجب تطهير الكعبة التى هى قبلة المسلمين والمطاف الذى يجب طوافه على القادرين من المسلمين ـ وكان يلزم إضافة تجديد كعبة الله إلى هذا السفاك غير المنصف. وخاصة أن تجديد بناء الكعبة لم يعد بيد ابن الزبير وإن خدمة هدمها وتجديدها سيكون من نصيب أحد الملوك العظام من المسلمين. وإننى أرجو من الله أن يفوز بهذه الخدمة أحد سلاطين الدولة العثمانية).

وقد أصاب دعاء مولانا المشار إليه هدفه واستجيب دعاؤه وقد نال هذا الشرف العظيم السلطان مراد خان الرابع بينما كان باقى أفندى يتمنى رؤية تجديد البيت الشمالى فقط. قد وفق ذلك السلطان العظيم فى تجديد جدران كعبة الله الأربعة.

الخاتمة:

إن ما قام به رضوان أغا من أجل تجديد الأبنية المفخمة للبيت الشريف من خدمات وما بذله من سعى مخلص ومن جهد جهيد وحسن معاملته أهل كعبة الله المحترمين ومجاملتهم ومداراة عيوبهم كل هذا يدل على استحقاقه الثناء والشكر وأن يذكرونه دائما بالخير.

يقول سهيل أفندى صاحب المضبطة الذى كان يقوم بمراقبة الشئون المالية فى نفس الوقت الذى كان رضوان أغا قائمًا بتجديد أبنية كعبة الله: «إذا كان المسئول المكلف بتجديد الكعبة غير رضوان أغا لكان أشراف مكة وطائفة النجارين كسبوا مقدار مائتى ألف قطعة ذهبية من عمليات بناء وتجديد الكعبة الشريفة وعين عرفات ـ هذا ما اعترفوا به لصاحب المضبطة ـ إلا أن رضوان أغا استطاع بكياسته أن يسكت الذين فتحوا أفواههم بالكلام بإعطائهم شيئا قليلا، كما أخجل الأشراف بحسن معاملتهم، وهكذا جعلهم كلهم يشاركونه فى رأيه ويعينونه فى إنهاء الأمور الصعبة، وكان يقول لهم: سوف أحصل لكم فى نهاية هذا العمل

العظيم وما قدمتموه من الخدمات الجليلة على مكافآت من قبل السلطان فى صورة المناصب التى ترضيكم. كما كان يرضى الآخرين بوعود قد لا تتحقق وهكذا أتم هذا العمل العظيم فى صورة هينة سهلة. جزاه الله تعالى خيرا كثيرا.

فيا لها من سعادة سرمدية ويالها من دولة وعزة أن يتم هذا كله فى عهد السلطان مراد بن السلطان أحمد خان بن محمد خان الغازى السابع عشر من سلاطين آل عثمان خلد الله ـ تعالى ـ ملكه وجعل بساط البسيطة ملكه ونورالله تعالى مراقد أسلافهم وحفهم بالرحمة والرضوان.

إن إتمام تجديد كعبة الله وبنائها لدليل عظيم على سعده وحسن طالعه، قد مضى ألف سنة وتوالى السلاطين ومع ذلك لم يقدر لأى واحد منهم أن ينال شرف بناء بيت الله أَلاَ يقوم هذا برهانا قاطعا وأمارة واضحة على أنه سينال السعادة الأبدية والنصرة السرمدية؟. ونسأل الله أن يجعل عرشه فى سماء العز واليمن والبركات وألا يخلو من سرير الخلافة جلوسه. آمين بجاه سيد المرسلين.

وبعد عودة رضوان أغا إلى مصر بعام واحد اقتضت حكمة الله أن يهطل المطر فى مكة وأن يفسد ما فرش على سطح بيت الله من رخام، فأصبحت حالة سطح بيت الله حالة سيئة، وخلع ألواح الفضة من على الباب فظهر منها الخشب وقد أصاب العطب الخشب إلى حد عدم تماسك المسمار فيه. وكان مصراعاه قد بليا إلى درجة سيئة لقد خَشَّبْتُهُمَا حتى أصبحا غير قابلين للتعمير والترميم، ومع ذلك لم يسمح بتجديد الباب ولم يستسغ شرعا من قبل، ولما كان مقام إبراهيم فى نفس الحالة من السوء اقتضى الأمر تجديدهما معا.

وقد كتبت إمارة مكة الجليلة الهاشمية إلى صاحب القرار السلطان مراد ـ جعل الله سلطنته باقية فيه وفى عقبه إلى يوم التناد ـ تحيطه علما بالحالة، فما كان من السلطان إلا أَنْ أمر والى مصر أحمد باشا بأن يبعث إلى مكة المفخمة برضوان أغا الذى كان فى أمانة كعبة الله أو شخصا آخر متدينا مخلصا مصاحبا معه مهندسا معماريا ذا دين وخلق.

استدعى أحمد باشا رضوان أغا ورئيس المهندسين عبد الرحمن أفندى الذى كان قد اشترك فى تعمير البيت من قبل وأطلعهما على الإرادة السلطانية السنية الخاصة بإصلاح سقف بيت الله وتجديد باب المعلا للكعبة الشريفة وترميم وتعمير مقام إبراهيم. وأن يرسل باب الكعبة القديم إلى دار السعادة ليحفظ فى الخزانة السلطانية للتبرك به. وأمرهما أن يتجها رأسا إلى مكة المكرمة للقيام بالمهمة وسلم الوالى رضوان أغا الخطاب السنى الذى وجه إلى الشريف زيد بن محسن من قبل السلطان وكذلك الرسائل التى كتبت من قبل الولاة المصرية بخصوص هذا الأمر والمبلغ الكافى من النقود.

ولما اطلع رضوان أغا على الأمر السلطانى تحرك بأمر الوالى بالموكب المصرى مغادرًا القاهرة ومتجها إلى والى الحجاز ووصل إلى مكة المكرمة فى أوائل ذى الحجة سنة ألف وأربع وأربعين الهجرية وسلم إلى الشريف زايد بن محسن ـ أمام من يقتضى وجوده من العظماء ـ الأمر السلطانى وخطاب الوالى. وبعد ما قرأ الشريف الأمر السلطانى قالى إنه سيحرص على العمل بما جاء فى الفرمان السلطانى.

إن تكليف رضوان أغا بهذه المهمة كان عاملا لإثارة النزاع بين المعترضين للمرة الثانية. وإن كثيرًا من العقلاء من أهالى مكة أرادوا أن يقضوا على النزاع قائلين قد صدر الأمر السلطانى بهذا الخصوص فلا يجوز النزاع بعد ذلك. إلا أن بعض الفضلاء قالوا معترضين: إن تعمير البيت لا يجوز شرعا وهم فى هذه الحالة مخالفين بذلك حتى وصية الشريف ولم يكون غرضهم من الاعتراض إلا إحداث الفتنة والفساد إلا أنه كان بين المخالفين بعض المنصفين الذين وافقوا على الأمر السلطانى، واتحدوا مع العلماء فى الرأى على تجديد الباب الشريف وإصلاح رخام السقف المنيف لكعبة الله.

وأيقظوا عامة الناس ونبهوهم إلى أن الكعبة المعظمة قد جددت من قبل مرات

عديدة وذلك بتأييد من العلماء والفقهاء والفتاوى التى صدرت من قبل مفتىّ المذاهب الأربعة.

وقد استمع الشريف زيد بن محسن لقراءة الفرمان السلطانى وهو واقف على رجليه وبعد القراءة مسح بالصفحة التى تحوى الأمر السلطانى وجهه وعينيه ثم استمع إلى ادعاء المعارضين ودفاع الفقهاء العظام ثم خاطب الناس قائلا: بناء على حكم الفتاوى التى أصدرها مفتيُّو المذاهب الأربعة يجب تنفيذ الأمر السلطانى الذى لا يخالف فتوى المفتين بخصوص ترميم وإصلاح السقف الشريف وتجديد باب كعبة الله وتعمير وترميم مقام إبراهيم وبناء على هذا أمر رضوان أغا بأن يسرع فى مباشرة مهمته.

وقد بادر رضوان أغا فى العمل وأنهى تعمير سطح كعبة الله فى أواسط ذى الحجة من عام ألف وأربعة وأربعين. وقد قيل من قبل شعراء عصره فى تاريخ انتهاء الترميم كثيرا من الأبيات إلا أن أحسن ما قيل فى هذا الموضوع هذا البيت:

المجدد لسطح بيت الله هو مولانا مراد[1]

وبعد ترميم السطح ابتاع رضوان أغا من أحد سكان مكة مقدارا من خشب الساج لاستخدامه فى تجديد باب بيت الله وتثبيته ولم يبخل فى سبيل ذلك بإنفاق المال اللازم وقبل أن يبدأ فى صنع الباب الجديد خلع الباب العتيق ووضع مكانه بابا مؤقتًا وغطاه بستارة قطنية بيضاء وبعد أن صنع الباب الجديد وضعه فى مكانه، وقد تم صنعه على الوجه المرغوب وكان على باب الكعبة العتيق ثلاثون ألف وثمانمائة درهم من الفضة فصنع منها لوحتين فضيتين وفق طول وعرض كل من مصراعى الباب الجديد. ثم أمر بتسمير كل واحدة من اللوحتين على أحد مصراعى الباب وزخرف اللوحتين بنقوش ذهبية[2] وأنفق فى صنع عتبته وحلقاته سبعة وثلاثين ألف درهم وخمسة وتسعين درهمًا من الفضة.

(١) هذا البيت من حيث التقدير الحسابى يبدو أنه زيد عليه وقد أسقطت هذه الزيادة تعمية فى البيت الذى يحتوى على مخلص الشاعر

(٢) يقال إن زخرفة كل مصراع من المصراعين قد تكلفت عشرين قطعة ذهبية من الذهب البندقى.

وبعد ما تم وضع مصراعى باب الكعبة العالى كتب على اللوحة الفضية المثبتة على المصراعين بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠) وكتب تحت الآية الجليلة: (تشرف بتجديد هذا الباب من سبقت له العناية من رب الهداية مولانا السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان سليمان خان ابن عثمان عز نصره فى سنة خمس وأربعين وألف ١٠٤٥ كما نظم أحد الفضلاء التاريخ الآتى:

لذ بذا الباب كلما خفت ضيق المناهج

فهو باب مجرب لقضاء الحوائج

كان رضوان أغا قد عرض لوالى مصر ما تم عمله فى مكة المكرمة بمكاتبات خاصة قبل أن يصل إلى القاهرة، وقد أنهى مهمته الثانية فى مكة المكرمة وعزم على العودة إلى القاهرة حاملا معه مصراعى باب الكعبة العتيق.

وكان فى استقبال ذلك الباب السعيد الوزير حسين باشا وكبار الموظفين والعلماء المميزون وقد دخل إلى القاهرة فى تعظيم وتوقير.

ثم أمر الباشا أن يوضع الباب فى مكان مرتفع ليتبرك به الناس وأحاط السلطان علما بأن رضوان أغا عاد إلى القاهرة وقد أنهى مهمته فى مكة المكرمة وأن أهل مكة قد سروا جميعا مما تم عمله ودعوا للسلطان تكرارًا ومرارًا وقد علم بذلك من الرسائل التى ترد من مكة المعظمة.

وبعد فترة سلم مصراعى الباب العتيق لرضوان أغا لحملهما إلى دار السعادة ليحفظا فى الخزانة السلطانية ويعرضا للناس.

صورة للأمر السلطانى المرسل إلى شريف مكة مسعود أفندى بخصوص تجديد بيت الله

إن وزيرى محمد باشا ـ أدام الله إجلاله ـ الدستور المكرم، والمشير المفخم،

ونظام العالم الكائن فى محافظة مصر، وقد أرسل إلى سدتى السعيدة وعتبتى العالية وسماء اقتدارى رسالة مضمونها أن مهبط جبريل الأمين ومحل الوحى وتنزيل رب العالمين والذى نال شريف الذكر فى النص الشريف ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أن هذا البيت العتيق قد مال بعض أطرافه إلى الركوع مع مرور الأيام وكر الدهور والأعوام وأن قده وقامته مالا للسجود وقد قدر لملوك الأزمنة الماضية وسلاطينها شرف ترميمه وتعميره على قدر إمكاناتهم وفى زمن والدنا الماجد الساكن جنة الفردوس المرحوم والمغفور له ـ السلطان أحمد خان، أسكنه الله فى أعلى غرف الجنان ـ زاد ميل جدرانه للركوع ورئى جواز تعميره والترخيص له.

وحينما أراد أن ينال شرف القيام بهذا العمل الجليل القدر ويباشر تجديد بناء البيت وإذا بالشريعة الغراء ـ التى يجب تعظيمها وإطاعتها ـ لا تجيز تجديده وتسوغ ترميم جدرانها السعيدة وأركانها الركينة فقام به بعد هذا العمل مبعث فخره ومباهاته.

بينما كانت الحالة على هذه الصورة ساق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفعال لما يريد ـ فى هذا العام العميم الميمنة ـ أمطارًا غزيرة على مكة المكرمة وأطرافها فتكونت السيول واقتحمت حرم بيت الله وحينئذ قد حان لنا أن نفتخر بخطاب الله الجليل ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ (البقرة: ١٢٥)، والقيام بخدمة التجديد مما يبعثنا على الفخر ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ (البقرة: ١٢٧) وقد أحسن الله ـ سبحانه ـ وتعالى إلينا ـ إذ شرفنا بهذه الخدمة الجليلة والشرف العظيم اللذين لم ينل أحد من آبائى الكرام العظام من قبل مثلهما.

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل: ٤٠) ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. (البقرة: ٢٠٧)

والآن ـ بعد الشكر على هذه النعمة ـ قد صدر أمرنا إلى وزيرنا المشار إليه فى محافظة مصر بأن مقدارًا كافيا من أموال خراج أقباط مصر المحروسة والمال الحلال يكفى جدران البيت وتثبيت أساسه وأن يختار رجلا مستقيم السيرة

والسلوك دَيِّنًا ويعيّنَهُ أمينا لبناء البيت، وأن يرسله إلى مكة حيث يجتمع مع علمائها الأجلاء وأشرفها وفضلائها الآخرين من أرباب الرأى الرزين وأصحاب الفكر المتين بعد الاستشارة والاستخارة، ويعمل بناء على ما تم عليه القرار واستقر عليه الرأى، ويقدم على إتمام هذه الخدمة ويسعى على إنهائها على خير وجه.

وبما أننا نثق فيك ويشتد حسن ظننا بك نرسل بهذه الرسالة التى تحتوى على أمرنا.

عند وصول رسالتنا هذه عليك أن تعمل بمقتضى ما جبلت عليه من صدق ونجابة وما أودع فيك من رشد وأصالة. وبعدما يصل من قبل وزيرنا المشار إليه المال الحلال الكافى لبناء البيت وأمين البناء ومراقبه أن تبتدر ببناء البيت المعظم وتعميره وذلك بعد ما تستشير العلماء الأجلاء حسب مدلول القول ما «خاب من استخار وما ندم من استشار» وتأخذ موافقتهم الشرعية فى كل ما تقدم عليه.

وإذا لم يكف مخلفات البيت القديم من الطين العطر والحجارة السعيدة لتجديد البناء فعليك ان تجلب ما يلزم من الحجارة من مواقعها القديمة التى استجلب منها القدماء عند تعمير البيت وتجديده، أتم بناء البيت حسبما تجيزه الشريعة الغراء.

وإننا نتجه بالدعاء إلى رب العزة ـ تعالى شأنه وعم إحسانه ـ راجين خاشعين مظهرين عجزنا وقصورنا لله ـ تعالى ـ أن يرضى عنا بخصوص بناء هذا المقام المبارك وفى سائر أعمالنا وأقوالنا وأن يوفقنا فى إتمام بناء البيت المقدس وييسر لنا إكماله آمين بحرمة سيد المرسلين سنة ١٠٣٩ ألف وتسع وثلاثين.

صورة البراءة المقدمة من قبل السلطان لرضوان أغا مقابل خدماته:

هو العزيز الغنى المغنى الفتاح وعنده مفاتيح الفلاح والنجاح تقدست أسماؤه تتابعت نعماؤه.

صورة الخط السلطانى المقرونة بالسعادة

تقديمًا لمقابل الخدمة المؤداة لمكة المكرمة يعمل بموجب هذه الصورة للخط الهمايونى وليس بعد ذلك لأحد أن يتدخل فى أى شىء ومن يتدخل ممن ذكروا فليحرم عليهم طعامى وخبزى.

صورة البراءة العالية:

هذا هو حكم السلطان سامى المكانة فاتح الدنيا زينة ملوك العالم حفظه الله بالعون الربانى والصون الصمدانى.

إن رعاية الأمراء وإكرامهم وحمايتهم واحترام علية القوم العظام، من جملة الواجبات والمهمات السلطانية ولاسيما هؤلاء الذين يخدمون الدولة بنية صادقة وعقيدة راسخة ليلا ونهارا إنهم يسرون بنيل رحمتى ومكارمى السلطانية، بسهولة كما يفرحون بالوصول إلى آمالهم بألطافى الملكية. ولاسيما الذين كانوا مثالا فى أيام خلافتى لقول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (الانسان: ٢٢) بما قدموا من جليل الخدمات.

وبناء على هذا، قد استحق رضوان أغا المختص بعناية الملك العلام، إذ كان من أمراء مصر وقد قام ببناء الكعبة المكرمة والبيت المعظم عرش مكة المعظمة زادها الله شرفا وتعظيما، وأحسن إليه بإحالته إلى المعاش بإيراد ولايته التى كان يتصرف فيها.

وإنه كان قدوة للأمراء الكرام من ذوى الأقدار والاحترام وقد نشأ ونما فى حرمى السلطانى، وكان قد بعث ببعض المهمات والخلع إلى بلاد اليمن والحبشة قد بذل فى ذلك جهده وسعيه ولذا قد استحق رعايتى بتكليفه بخدمات أخرى فى المستقبل.

وقد هطلت الأمطار بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته على منزل الوحى المبين ومهبط جبريل الأمين وبلد الله الحرام وأطرافه، واقتحم السيل العظيم الحرم الشريف، فأصاب الخلل جدران بيت الله الحرام ومطاف الأنبياء العظام ومعتكف الملائكة الكرام، وانهار بعض جدرانه مما أثار الحزن والهم فى قلوب

عامة المؤمنين وهذا ما دعا إلى تجديد بنائه وتعميره وفق طرز بنائه القديم وقد أفتى العلماء والفقهاء ذوى الاحترام متفقين بجواز تجديد بنائه. ومن هنا أصبح بناء البيت من جديد حسب طرز بنائه القديم واجبا فرضا على ذمتى وعلى همتى العظيمة. إن آبائى الكرام ـ جعل الله الفردوس مرقدهم ـ وأجدادى العظام ـ أسكنهم الله فسيح جناته ـ قد أشاع كل واحد منهم الخير وأنفقوا كلهم الأموال فى الأعمال الخيرية وبذلوا الأموال فى إنشاء الجوامع والمساجد وبناء الصوامع والمعابد وتشييد الحصون والعمائر وتجديد الجسور والقناطر فهذا معلوم لدى الصغير والكبير عند الشباب والعجائز ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ييسر لأى واحد منهم شرف القيام ببناء الكعبة وتجديدها، الكعبة التى تتجه نحوها جميع مساجد المسلمين وتتخذها أمة سيد الأنام قبلة لها، بل شرفنى بأن يكون هذا العمل من نصيبى؛ لذا فشكرى لا حد له تجاه الملك المنان ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل: ٤٠) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥) وقد عرفت أن هذا فضل عظيم خصنى الله به، لذا اخترت من طرفى ـ قرين العز والشرف ـ رجلا مستقيما دينا تقيا وعينته أمينا لتجديد أبنية الكعبة الشريفة وأوصيته ببذل السعى والجهد لإتمام البناء وكان هذا الرجل رضوان أغا بما يتصف به من الأمانة والتدين والصدق والاستقامة التى ترشحه بالأحقية فى القيام بهذه الخدمة العظيمة ولياقته لهذا الأمر.

وعرضت الأمر على وزيرى محمود باشا الذى كان واليا على مصر فى ذلك الوقت والذى نال الآن شرف العمل بين وزارتى فنفذ رغبتى بأن عين المشار إليه أمينا على بناء الكعبة الشريفة بمرتب سنوى قدره مائة ألف أقجة فى خمس مرات وهكذا نال اهتمامى إذ أحيلت إليه كل خدمات تجديد بيت الله وترك لعهدته وهمته. فما كان من رضوان أغا إلا أن شمر عن ساعد الجد لإتمام الأمور واستعجل فى إنهاء أعمال البناء بعد أن أخذ من العلماء الكرام والفقهاء العظام جواز تجديد بيت الله شرعا وهكذا جدد أبنية كعبة الله من أساسها ثم بدأ فى تعمير الجدران التى تحتاج للترميم فى الحرم الشريف مع القبب ومجارى السيول والبرك، وخاصة قلعة جدة بندر الحجاج والزوار ومعبر المسافرين والتجار، وكثيرا

من المواضع المباركة والمقامات المتبركة، طهرها ونظفها، كما أنه أنفق نقودا من جيبه الخاص ثم أحضر لنا بذاته كسوة الكعبة الشريفة القديمة لتحفظ فى خزانتى العامرة، ونال بذلك شرف المثول بين يدى، وقد كان قرينا لحسن التفانى فى عمله وعرض على ما قام به من السعى وما بذله من الجهد فى تجديد كعبة الله بالتفصيل.

وقد كتب لى أيضا وزيرى خليل باشا والى مصر الحالى وأشراف بلد الله الحرام وأعيانه بما أنجزه رضوان أغا من أعمال بكل صدق وإخلاص، وبكل هذا نال رضاى واستحق شكرى ورعايتى السنية وبما أنه قد خدم السلطنة منذ بلوغه سن التمييز والرشد فى داخل القصر وخارجه وكلف بأداء الخدمات السلطانية فى الأطراف والجوانب حتى أصاب أعضاءه وجوارحه الضعف بعد القوة.

ففضل التنازل عن اعتلاء المراتب العالية وآثر فراغ البال والحياة فى السكينة والهدوء منزويا فى ركن العزلة؛ ليتفرغ للدعاء بطول عمر الدولة ودوام عزتها.

وبما أنه قدم خدمات جليلة بالإخلاص والعبودية الفائقة فهو يستحق أن ينال مثل أمراء مصر مرتبا سنويا وريع ولاية. وإنى رأيت أن أحسن إليه ـ وقد اشتعلت شمس كرمى تموج ببحر امتنانى ـ ابتداء من اليوم العاشر من شهر شوال سنة إحدى وأربعين بعد الألف، بمنحه ريع اللواء الذى كان تحت تصرفه على سبيل التقاعد. وبناء على أمرى السلطانى يجب أن يعفى من جميع الخدمات حتى يتفرغ فى بقية عمره للدعاء بدوام قوة الدولة وشوكتها، وقد أصدرت هذه البراءة لتلقى العناية التامة والعمل بها وأمرت بأن يعطى المشار إليه رضوان أغا دام عزه مائة ألف أقجة فى خمس مرات إحسانا له مقابل خدماته العظيمة ومعه إيرادات اللواء الذى تحت تصرفه ومعه الجراية والمعلف والفدان من الخزينة الخاصة حتى يعيش حياة مترفة بفضل عنايتى ويعفى من جميع الخدمات التى يكلف بها أمراء مصر من خدمة المحافظة وإيفاده إلى اليمن والحبشة ونقل خزنته العامرة فيعيش مدة حياته صافى القلب صحيح القالب ويتفرغ للدعاء ليلا ونهارا بطول أيام السلطنة العادلة والثناء على دولة الخلافة.

وفى هذا الخصوص لا يقف أحد مانعا دون تنفيذ أمرى هذا ولا يتدخل فى هذا الموضوع ولا يجوز لأحد أن يبدل أو يغير من نص هذا الأمر، وعلى الكل أن يثق فى أمرى هذا ويعتمد على صحة علامتى وشاراتى الخاصة من ثمرة أغصان شجرة خلافتى وأفنان جسمى الظليلة من الأولاد العظام والأحفاد وأركان دولتى القاهرة وأعيان سلطنتى الباهرة من الوزراء والولاة والحكام من محافظى مصر والأمراء الآخرين ومحاسبى الأموال ومباشرى الأعمال.

تحريرا فى أوائل شهر شوال المكرم سنة إحدى وأربعين وألف من هجرة من له العز والشرف سنة ١٠٤١.

صورة الفتوى التى أصدرها علماء مكة الأعلام عقب احتدام الخلاف بينهم وبين العلماء المعترضين وإصرارهم على مخالفتهم.

صورة السؤال الذى أورده رضوان أغا وهو يستفتى العلماء:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

سؤال: ماذا يقول السادة العلماء أئمة الدين ـ نفع الله بعلومهم المسلمين وأحيا بوجودهم شعائر الإسلام وثبت بهم قواعد الإيمان وشيد مشاعر الإحلال والإحرام بجاه محمد عليه الصلاة والسلام ـ فى عمارة البيت الشريف ـ زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما ـ إذا كانت الحجارة التى سقطت منه تحتاج إلى إصلاح ومساواة، بحسب ما تحتاجه الصنعة وإلى زيادة أحجار عليها، بموجب تكسر شىء من بعضها ولا يمكن إعادة البيت الشريف ـ شرفه الله تعالى ـ إلى حالته التى كان عليها، وجعلها على حكمها إلا بزيادة بعض أحجار من جنس الأولى فى المساواة والنحت والإحكام وما أشبه ذلك، فهل يجوز فعل ذلك وإصلاح الحجارة والزيادة عليها بما ذكر أم لا؟

وإذا قلتم بجواز فعل ذلك أو بوجوبه. وكان ذلك يحتاج إلى مدة طويلة

بموجب قلة المعلمين العارفين بذلك فى مكة المشرفة وجدة المعمورة والمدينة المنورة، بل وفى مصر المحروسة، وكان فى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ من جانب السلطنة ـ أيد الله بها الدين ـ من هو متعين للنظر فى المصالح العامة للمسلمين، من إصلاح المسجد الحرام والشوارع وغيرها وفيما يحتاج إليه الحال فى أوائل عمارة البيت الشريف من تهيئة المؤن وجمعها وضبط ما يرد لعمارة البيت الشريف من جانب السلطنة ـ أيدها الله ـ فهل يجوز له أن يشرع فى إصلاح الحجارة الأولى وفى تهيئة الحجارة التى يحتاج الحال إلى زيادتها وفى عمل نحو نورة وجبس وما أشبه حتى إذا وصل من يريد مباشرة العمارة يجد ذلك حاضراً مجموعًا ومهيئا لتكون العمارة فى مدة يسيرة بدلاً من تطويل المدة بعمل ذلك إذا ورد من يريد مباشرة، أم لا؟ أفتونا مأجورين ـ أثابكم الله الجنة ـ وبينوا ذلك بيانا شافيا لازلتم عمدة المسلمين ومرجعا فى إحياء مشاعر الدين وتقبل الله منكم صالح الأعمال بجاه محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله ربّ العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

صورة الفتوى الشريفة

التى كتبها الشيخ عبد العزيز محمد الزمزمى ردا على السؤال الذى طرحه عليه رضوان أغا:

الجواب ـ الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم يجوز إصلاح ومساواة ما سقط من حجارة البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ إذا كان لمصلحة ضرورية أو لحاجة ما يحتاج إليه من الحجارة حيث توقف إعادته على أسلوبه السابق عليه أو كان فيه تحسينا للبناء وقد صرح جدى خاتمة المحققين وشيخ الإسلام والمسلمين أحمد شهاب الدين بن حجر ـ تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركته ـ بما يقتضى ذلك أخذًا له من كلام أئمة المذاهب وبين ذلك فى محله بأحسن بيان واستدل على ما ذكره بقول بعض العلماء الذين يقتدى بهم: لابأس بتغيير حجارة الكعبة إن عرض لها مرمة لأن كل عصر احتاجت فيه لذلك قد فعل بها ذلك. إلا الحجر الأسود فلا يغير ومن أعظم الدلائل على جواز تغيير

حجارة البيت الشريف إذا احتيج لذلك فعلا سنَّة عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ فإنه لما هدم البيت الشريف وأراد إعادته عزل من حجارته ما يصلح أن يعاد فيه ونقل إليه من الحجارة ما يحتاجه من الجبل الذى أخذت قريش حجارة البيت منه عند عمارتهم إياه وقد أقر العلماء ـ رضى الله عنهم ـ والملوك ونحوهم على تغيير باب البيت العظيم وعتبته وميزابه المرة بعد المرة مع صلاحية ذلك وعدم الاحتياج إلى التغيير لإظهار أبهته وأنه لا يليق لجلالته بقاء ما خَلَقَ أو عتق فيه فلذلك أقدموا على تغيير تلك الأشياء ولم يقع عليهم إنكار من العلماء الذين كانوا فى زمانهم فإذا جوز العلماء ـ رضى الله عنهم ـ ذلك التغيير من غير احتياج إليه فمن باب أولى جواز تغييره من حجارته الساقطة وإصلاحها ومساواتها لتكون على أكمل الوجوه اللائقة بحرمة البيت الشريف ولإظهار أبهته وجلالته ولا مراء أن بناءه بالأحجار المكسرة مع إمكان إصلاح ما يمكن إصلاحه منها وعدم تغيير مالا يمكن إصلاحه فيه إسقاط لهيبته من قلوب كثيرة؛ لأنهم يرون البيوت المنسوبة إلى أهل الدنيا فى غاية الحسن الصورى وبيت الله بخلاف ذلك؛ فيؤديهم ذلك إلى غاية الاستحقار بحقه وعدم الاعتناء بشأنه وهذا خرق عظيم يؤدى إلى غاية الوهن فى الدين؛ فيجب التخلص مما يؤدى إلى ذلك لفعل ما فيه تعظيم بيت الله ـ زاده الله تعظيما وتكريما ـ ومنه السعى فى إصلاح حجارته ومساواتها وتغيير ما لا يصلح بخير منها وفعل كل ما كان فيه تعظيم له وإبقاء لحرمته وأبهته وجلالته ومن قصد لشىء من ذلك وفعله كان مثابا عليه الثواب الجزيل ومقابلا من الله بمزيد التعظيم والتبجيل لما فى ذلك من الاعتناء التام والقيام بإظهار عظمة شعائر الله على أكمل نظام ويجوز للشخص المذكور الشروع فى إصلاح الحجارة وتهيئة المونة المحتاج إليها لعمارة البيت المكرم، إذا كان المصرف من مال طيب ليس فيه شبهة قوية لوجوب التحرز عن بنائه بحرام أو نحوه وما يفعل الساعى فى الخير كفاعله لاسيما إذا غلب على ظنه عدم ضرر يلحقه أو يلحق بسبب ذلك لما فى فعله من الإشعار بمزيد الاهتمام فى تعظيم بيت

الله وبذل الجهد فى القيام بحقه وفى ذلك من قوة الإيمان ما لا يحتاج معه إلى برهان جعلنا الله أجمعين ممن يقوم بحقوقه فى كل زمن وأن ينور قلوبنا بالإيمان ويثبتها على طاعته فى السر والإعلان وأن يزيد هذا البيت الشريف تشريفا وتعظيما ومهابة وتكريما وأسبغ نعمه وأفضاله والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير الحقير عبد العزيز محمد الزمزمى الشافعى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله وهو من كبار علماء المالكية ردا على سؤال رضوان أغا:

الجواب:

الحمد لله، حاصل ما سأل عنه السائل. ثلاثة أمور:

الأول: إن ما احتيج إليه بالضرورة وما احتيج إليه من حجارة البيت وما تكسر منها هل تؤخذ لها حجارة وهل تصلح الحجارة المكسورة وتعاد فيها أم لا؟

الثانى: هل يجوز للناظر المذكور الشروع فى إصلاح ما تكسر من حجارتها وأخذ ما احتيج إلى بنائه أم لا؟

الثالث: لم يصرح السائل فى سؤاله بالمال الذى يصرف على ما احتيج إليه من مقدمات البناء وهو ضرورى لا بد من السؤال عنه.

أما الأول فما احتيج إليه من حجارة البيت الكاملة لابد من أخذه وأخذه ضرورى والكلام فى المحل الذى تؤخذ منه الحجارة ومحصل كلام العلماء وفاقا وخلافا أنها أخذت حجارتها من اثنى عشر جبلا وهى حراء وثبير وأبو قبيس وأحد ولبنان وطور سينا وطور زيتا والجبل الأحمر والجودى والقدس ورقان ورضوى.

ثم الكلام على تخصيص الأخذ من هذه الجبال يطول إلا أنا نتكلم على ما يمكن الأخذ منه منها (حراء وأخذت منه حجارتها لأن النبى ـ ﷺ ـ أنزلت

عليه الرسالة وهو فيه يتحدث وتردد عليه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيه وأما أبو قبيس فأخذت منه لأنه أقرب جبال الحرم إلى البيت وأما ثبير ـ واختلف فيه فقيل هو الجبل الذى على يسار الذاهب من منى إلى عرفة وهو قول المحدثين وقال الفقهاء إنه الجبل الذى عن يمين الذاهب من منى إلى عرفة ووجه ما قاله الفقهاء أن النبى ـ ﷺ ـ أنزلت عليه «والمرسلات» وهو فى غار فى سفحه وهو معروف، وأما أحد فوجه الأخذ منه قوله «اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان»[1] وبقية توجيهاتها يطول تتبعه ولايهمنا لعدم الحاجة إليه الآن لبعده وللاستغناء عنه بغيره.

وقول الشيخ العلامة الرحالة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى إنها تؤخذ من المحل الذى أخذت منه قريش حجارة البيت كما فعل ابن الزبير غير ظاهر إذ لم يبين ما أخذت منه قريش فهو إما أن يكون أحد الجبال الاثنى عشر أو غيرها فإن كان أحدهما فنسبته إلى الخليل ـ ﷺ ـ أولى من نسبته لقريش، وإن كان من موضع غير الإثنى عشر ففيه مجال للنظر يعلم بالتأمل، ومعاذ الله أن ابن الزبير يتبع قريشا ويترك الخليل ـ ﷺ ـ.

وأما **الثانى** فيتضمن ما قلناه قبل بيان الحكم فيه وهو أنه يجوز للناظر المذكور الشروع فى أخذ حجارتها وقد بينا ما يؤخذ منه وأما إصلاح ما انكسر منها ورده فيها فى الظاهر أنه غير جائز لأن البيت إن رد المنكسر الناقص إليه لا يتكيف بالكيفية التى كانت بل يتكيف بكيفية ردئية يمجها أرباب الصنعة وهذا غير لائق بقبلة الإسلام، ثم إن اضطر إلى ذلك رد لكن لا ضرورة تدعو إليه.

وأما **الثالث** وهو ما يصرف على تلك المقدمات فيجب أن يكون حلالا متيقن الحلية، ولا يجوز أن يكون مظنونها وهو ما توهم فيه عدم الحلية، فإن لم يوجد

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة الحديث رقم ٣٦٧٥ فى فضائل أبى بكر الصديق، الحديث رقم ٣٦٨٦ فى مناقب عمر والحديث رقم ٣٦٩٩ فى مناقب عثمان رضى الله عنهم جميعًا.
وأخرجه الترمذى فى المناقب حديث رقم ٣٦٩٧. وأبو داود فى السنة حديث ٤٦٥١، والإمام أحمد فى المسند ٥/ ٣٣١، ٣٤٦. والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٥٠.

صرف عليه مظنون الحلية وبقية السؤال قد تكفل المفتى الشافعى بالجواب عنه والله سبحانه أعلم.

نمقه الحقير خالد بن أحمد ابن محمد بن عبد المالكى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ أحمد بن شمس الدين الصديقى السهروردى أفندى وهو من علماء الحنفية:

ردا على السؤال الذى وجهه رضوان أغا.

الجواب:

الحمد لله سبحانه..

«ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا.. وانصرنا على القوم الكافرين».

ما ذكر فى السؤال عما سقط من أحجار البيت الشريف إذا كانت تحتاج إلى الإصلاح والمساواة بحسب ما تحتاجه الصنعة وإلى زيادة عليها بموجب تكسر البعض وتلف البعض وجعلها على حكمها فى المساواة والبحث والإحكام أيجوز أم لا؟ وعلى القول بالجواز إذا كان محتاجا إلى مدة طويلة بموجب ما شرع فى السؤال وكان بمكة المشرفة من هو متعين للنظر فى المصالح العامة المتعلقة بهذه البلدة الشريفة من جانب السلطنة المنيفة ـ دامت ظلال عدالتها الوديعة ـ من إصلاح المسجد وغيره من الشوارع وتنظيفها هل يجوز له الشروع فى إصلاح الحجارة الأولى وتهيئة ما يحتاج إلى زيادتها وفى عمل نحو نورة وجبس وما شابه ذلك ليكون مهيئا عند وصول من سيُعَيّن من الأبواب الشريفة السلطانية لأداء هذه الخدمة السنية خشية طول المدة؟

فالجواب: عن ذلك ـ والله الموفق للصواب ـ جواز إصلاح الساقط ومساواته والمبادرة إليه وتغيير ما تكسر وعدم الانتفاع به وزيادة ما احتيج إليه من الحجارة مما سهل إحضاره من بعض الجبال التى بنى منها البيت العتيق كما ساقها الشيخ

المحقق مولانا الشيخ خالد الجعفرى المالكى ـ نفع الله به ـ والدليل على جواز التغيير عدم إنكار العلماء من المذاهب الأربعة فى كل عصر على الملوك فى تغيير باب البيت وعتبته سوى إرادة زيادة إظهار أبهته وإعظامه وإجلاله وقد تكرر من ساداتنا سلاطين آل عثمان ـ خلد الله دولتهم إلى انقراض الدوران ـ إرسال الأقفال الجديدة إلى البيت وطلب العتيق ليوضع فى خزانتهم العامرة تبركًا به كما وقع فى موسم هذا الحج من غير إنكار عليهم، فالمباشرة لتهيئة مؤن عمارة البيت من أهم المهمات وألزم اللوازم فلقد طال الانتظار لمن يعين ليتعاطى خدمة تعمير البيت من قبل الأبواب العالية واستمرار البيت العتيق مهدوما هذه المدة كلها غير لائق وقد شكرت مساعى مولانا السيد الشريف الأعظم مسعود بن إدريس نصره الله تعالى فى بذل الهمة فى خدمة البيت وتدعيمه بالأخشاب من الجهة الساقطة وستره بكسوة إلى أن جاءت كسوته المعتاد وصولها كل عام من قبل السلطنة الشريفة فى صحبة أمير الركب الشريف المصرى وقد نور الله باطن هذا الرجل الذى له من اسمه نصيب حيث رغب فى فعل الخير وتصدى لسؤال العلماء عن ذلك مع ما سبق له من الاهتمام بتنظيف المسجد والشوارع والبيت الحرام وإصلاح برك الحجاج. وتعمير عين خليص فله بذلك وبما نواه جزيل الأجر والثواب من الملك الكريم الوهاب، فمقتضى قواعد المذهب جواز شروعه فى إصلاح الأحجار وتهيئة المؤن لكن يتعين أن يكون المال المنصرف على ذلك متيقن حليته. فإن تعذر فلا يكون من مال توهم حليته، إذ يجب كل التحرز عن الصرف على ذلك من مال حرام نحوه. وفقه الله ودفع به وعنه كل ضير وأعان من أعانه ووالى عليه فضله وإحسانه وزاد هذا البيت تشريفًا وتعظيما ومهابة ورفعة وتكريما وزاد من شرَّفه وعظَّمه جلالاً وكرامة وأسبغ عليه جوده وإنعامه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين الصديقى السهروردى الحنفى.

المعطاة لرضوان أغا من قبل الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى أفندى من علماء الحنابلة

الجواب:

المسئول عنه فى السؤال: هل يجوز إصلاح ما تكسر بالسقوط من أحجار البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ وزيادة عليها من جنس الحجارة الأولى وتهيئة ذلك ومساواته ونحته وتحسين صنعته وإحكامه أم لا يجوز؟ وإذا قيل بالجواز وكان عمل ذلك يحتاج إلى مدة، كما ذكر فى السؤال، وكان فى مكة المشرفة من جانب السلطان ـ أيده الله تعالى ـ مَنْ ذَكَرَ السؤال هل يجوز له الشروع فى ذلك وتهيئته إلى آخر ما فى السؤال؟

فالجواب عما ذكر وتحرير الحكم الشرعى فيما سطر والله المسئول أن يوفقنا إلى طريق الحق المستقيم، وأن يلهمنا الصواب على النهج القويم، هو أن نقول نعم! يجوز إصلاح ما تكسر من الأحجار وتعيين ما يحتاج إليه من المال فى تكملة البناء وإعادته كما كان من الأحجار المناسبة لذلك ويؤخذ ما يسهل أخذه من الجبال التى عمرت الكعبة المشرفة منها[1] كما نقله العلامة المحقق شيخ الإسلام والمسلمين مولانا الشيخ خالد المفتى المالكى دام الله النفع به ولا ريب فى ذلك فقد ألف شيخ الإسلام والمسلمين خاتمة الأئمة والمحققين الشيخ «شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المكى الشافعى» قدس الله سره وجعل الفردوس مقره، مؤلفا فى خصوص هذه المسألة سماه «المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى وانشعث من الكعبة» وبسط الكلام فيه ونقل فيه كلام العلماء من المذاهب الأربعة مصرحا بجواز ذلك وأشفى الغليل فيه وأوضح المسألة وفصلها أحسن تفصيل ومما نقل عن أئمتنا علماء الحنابلة ـ رضى الله عنهم ـ قول صاحب الفنون: صح لا بأس بتغيير حجارة الكعبة إن عرض لها مرمة لأن كل عصر احتاجت فيه لذلك قد فعل بها ذلك ولم يظهر نكير على من فعله، «نعم الحجر الأسود» لا يجوز نقله من

(١) أنظر: إعلام الساجد للزركشى ص ٤٥، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، للقطب الحنفى ص ١٣، والروض الأنف للسهيلى ١/ ١٢٩.

مكانه ولا تغييره إلا بنص من النبى - ﷺ - فهو كبعض آيات القرآن لا يجوز نقلها من موضعها إلى مكان آخر. انتهى.

وما أفتى به العلامة والمحقق الفهامة مولانا الشيخ عبد العزيز المفتى الشافعى أدام الله النفع بوجوده خلاصة ذلك التأليف[1] وزبدة ما فيه، وليس فى قواعدنا ما ينافيه ويكون المُعَوَّلُ عليه ويرجع فى هذه الحادثة إليه، وحيث كان إصلاح الحجارة المنكسرة وعمل الحجارة التى يحتاج الحال إلى زيادتها.. وما أشبه ذلك تحتاج إلى زمن طويل كما جاء فى السؤال فإنه يجوز لمن هو فى البلد من جانب السلطنة المذكورة - أيدها الله تعالى - مقام فى نحو ذلك كما ذكر فى السؤال أنْ يشرع فى عمل ذلك إذا لم يخف على نفسه أو على غيره ضررا وينبغى له بذل الهمة فى ذلك كما ظهر منه فى تنظيف المسجد الحرام و إصلاح الشوارع والبرك التى للحجاج، وكما فعل فى إصلاح عين مكة المعظمة وفى إجراء عين خليص وبذل همته فى ذلك، وتعاطى ذلك بنفسه مع مزيد الاعتناء بسببه والقيام عليه أجزل الله له الثواب وقابله بالإحسان فى يوم الحساب، فقد حصل بذلك الرفق العظيم للزوار والحجاج ولكل من سلك فى تلك الفجاج، لا شك أنه منور البصيرة، صافى القلب والسريرة، إذ وفقه الله تعالى للسؤال عن ذلك والاهتمام فى سلك هذه المسالك، والاعتناء بشأن الكعبة المعظمة التى هى فى الأولية والإسلام محترمة، زادها الله تشريفا وتكريما ومهابة، فإذا شرع فى المؤن والأحجار وما يحتاج إليه يجب أن يكون الصرف على ذلك من مال حلال لا تعلم فيه شبه قوية ويتحرز فى ذلك غاية التحرز مهما أمكن، تقبل الله منه السعى الجميل وقابله عليه بالثواب الجزيل، وخلد دولة هذه السلطنة العثمانية، ولازالت مدى الأيام والليالى محروسة محمية، وزاد هذا البيت الشريف تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وزاد من شرفه وكرمه تشريفا وجلالة وتكريما، وألهمنا الصواب فى القول والعمل ووقانا أجمعين من الخطأ والزلل، بمحمد وآله آمين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) يعنى أن فتوى الشيخ عبد العزيز الزمزمى الشافعى، هى خلاصة رسالة ابن حجر الهيتمى المسماه المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى وانشعث من الكعبة؛ وما ذكر من فتوى الشيخ عبد العزيز لاينافى أصول مذهب الحنابلة.

نمقه الفقير عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى

الخطيب والإمام والمفتى بالمسجد الحرام

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ محمد عبد العظيم المكى من علماء الحنفية بخصوص تنظيف الحرم الشريف

السؤال:

ما يقول السادة العلماء أئمة الدين نفع الله بعلومهم المسلمين فيما إذا أدخل السيل إلى المسجد ترابا وأوساخا بكثرة واحتاج الحال إلى حملها ولزم من ذلك دخول جمال وحمير إلى المسجد وربما يقع منها روث بول فهل يجوز دخول الحمير والجمال للحاجة لذلك أم لا يجوز شىء من ذلك؟ والحال أن الوقت ضاق بموجب قرب الموسم والضرورة اقتضت ذلك أفتونا مأجورين.

الجواب:

إن تحققت يجوز إدخالها لضرورة وخصوصا لمصلحة المسجد وإذا وقع منها بول أو روث يسارع إلى تنظيفه وإن اندفعت الضرورة بإدخال الجمال فقط، فيقتصر عليها للخفة التى فى بولها وللخلاف فى روثها. والله تعالى أعلم.

حرره محمد عبد العظيم المكى الحنفى.

صورة الفتوى الشريفة

التى أصدرها الشيخ خالد بن أحمد بن عبد الله الجعفرى وهو من علماء المالكية بخصوص تنظيف الحرم الشريف:

الجواب:

أما الإبل فبولها وبعرها طاهران عندنا. لأن النبى ـ ﷺ ـ طاف على بعيره ولأن إدخال البعير إلى المسجد مع عدم الأمن والسلامة عما يخرج دليل على طهارة ما يخرج منه وقال الإمام أبو حنيفة والشافعى بأن ما يخرج من الإبل نجس وأما الحمير فأبوالها وأرواثها نجسة.

وطريق العمل فى ذلك أنه إذا اضطر إلى ذلك وأمكن الاكتفاء بالإبل اكتفى بها لكى يطهر المسجد مما يخرج منها عند الكل وأما الحمير فإن اضطر إليها أدخلت وطهر المسجد مما يصيبه منها وحيث طهر المسجد فيبادر إلى التطهير، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله. المالكى الجعفرى.

صورة الفتاوى الشريفة

التى أعطيت بخصوص تغطية الكعبة الشريفة بالستائر عند الإزماع للبدء فى بناء بيت الله.

السؤال الذى أورده رضوان أغا:

ما قولكم ـ رضى الله عنكم ونفع بعلومكم المسلمين ـ فى بناء البيت الشريف زاده الله شرفا وكرما هل يجب ستره عن أعين الناس لأجل البناء والفعال حفاظا للحرمة ورعاية لزيادة الأدب وإن ضاق الحال بالطائفين على وجه أفضل أم يجوز بناؤه مكشوفًا من غير حائل وستر لأن ذلك فيه كمال الرفق بالمعلمين والبنائين من حيث التمكن من البناء على الوجه المطلوب وهل الستر من حيث هو واجب أم مندوب مستحب أم كيف الحال بينوا لنا ذلك.

الفتاوى الشريفة

التى أعطيت ردا على أسئلة رضوان باشا

الجواب:

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، لاريب فى كون ستر البيت الشريف ـ زاده الله شرفا وتعظيما ـ حال بنائه مندوبا إليه، وذلك غير مانع من حصول كمال فضيلة الطواف ولا يمنع أيضًا من المشاهدة، وأما بناؤه مكشوفا من غير ستر فغير لائق بوجه من الوجوه وليس من الأدب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم، وهو المسئول أن يستر عيوبنا ويغفر ذنوبنا.

حرره الفقير أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى.

الجواب:

الحمد لله: ستر البيت عن أعين الناظرين، حال بنائه مندوب ندبا متأكدا لا واجب[1]، والطواف وراء الستر ليس مفضولا، بل الستر قام مقام البيت فلا يمنع من كمال فضيلة الطواف، بل ولا يمنع من المشاهدة، لان كسوة البيت جعلت لمنع أعين الناظرين إليها، وهذا الستر كذلك بل هذا آكد، لأن النظر إلى البيت حال بنائه أفظع من النظر إليه مستورا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

نمقه الفقير إلى الله خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

الجواب:

الحمد لله: ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ستر البيت الشريف أثناء الشروع فى بنائه، بل وعند الشروع فى مقدمات ذلك كهدم ما يحتاج إلى هدمه منه مندوب إليه ومما ينبغى وليس بواجب وذلك اقتداءً بفعل سيدنا عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ ومن كان فى عصره من أجلاء الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فإنه لما عمر الكعبة الشريفة وضع عليها ساترا بإشارة عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقد نقل ذلك العلامة الأزرقى فى عدة مواضع من تاريخه، فقال فى (باب ما جاء فى بناء الزبير للكعبة) ما نصه أنهم قاموا أعانهم الناس فما ترحلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعها فبدأ فى هدمها يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين، ولم يقرب ابن عباس مكة يوم هدمت الكعبة وحتى فرغ منها أرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة وانصب من حول الكعبة أخشابا واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها ففعل ذلك ابن الزبير. انتهى.

وقال فى موضع آخر ما نصه: ونصب الخشب حولها حيث تم سترها وبنوا من وراء الستر. انتهى.

(١) أنظر: إعلام الساجد لبدر الدين الزركشى الشافعى ص ١٤٠، ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

هذه النصوص كلها صريحة فى أن الساتر المذكور مندوب إليه وليس فيها دلالة على وجوبه عند الشروع فى البناء، بل يحتمل أنه جعل عند الشروع فى مقدمات ذلك كالهدم وهو الظاهر اللائق بحرمة البيت الشريف التى أمرنا بها، ولا شك أنه لو هدم وبنى من غير وجود ساتر بينه وبين الأعين لسقطت هيبته من قلوب كثير من الناس ممن لا ينظرون إلا إلى الصور ويترتب عليه هتك حرمته، وقد أجمع العلماء على استحباب كسوة الكعبة واستمرارها عليها والقصد من ذلك سترها عن الأعين لما يلزم من عدمه من المحذور المذكور فليكن هذا الساتر، بل أولى، لأن رؤية الكعبة المشرفة متهدمة أفضح من رؤيتها مجردة من أثوابها، ومن زعم أن الساتر المذكور، مما ينبغى فعله فقد حاد عن طريق الصواب وأخطأ من وجوه عديدة، ولا يسعها هذا الجواب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير زين العابدين بن عبد القادر الحسين الطبرى الشافعى إمام المقام الشريف.

صورة الفتاوى الشريفة

الصادرة على أثر الخلاف الذى وقع بشأن هدم الجدار الكائن بين الحجر الأسود والركن اليمانى

السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

ما يقول السادة العلماء أئمة الدين ومرجع الخاص والعام من المسلمين وقطع بوجودهم دابر المفسدين وعمر بهداهم شعائر الإسلام للمهتدين، فى الجدار اليمانى من البيت الشريف زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما، الذى يظهر فى بادئ النظر للعوام أنه مستقيم والحال أنه مائل دخل أعلاه وبارز أسفله من رأس الركن الذى على الحجر الأسود إلى «المدماك» الذى تحت الحجر الأسود نصف ذراع ومن نحو نصف الجدار المذكور ذراع كامل ومن محل وصول الميزاب فى المدماك المذكور إلى أرض المكان قدر الميل ثلث أيضا فيكون الميل من رأس الركن إلى

أرض المطاف نصف ذراع وثلث ذراع ومن قرب الحجر الأسود المحل الثانى فى الوزن ذراع كامل ومن المحل الثالث فى الوزن الذى بالقرب من وسط الجدار ذراع وثلث كل ذلك بذراع القماش الحديد وقد ظهر كل ما ذكر أعلاه من الميل فى الأماكن الموزونة بالمشاهدة لكل من حضر من العلماء المهندسين والمعلمين وغيرهم ومهد أرباب الخبرة من المهندسين والمعلمين والعارفين ببناء عقارات الجدار المذكور وما كان مثله خصوصا من المنحوت إذا مال نحو سدس ذراع يجب هدمه ولا يجوز بقاؤه سواء كان ذلك فى محل مملوك أو محل موقوف أو مال يتيم وأنهم يوجبون ذلك، وذكروا أن هدم الجدار اليمانى من البيت من أوجب الواجبات لما فى هدمه من المصالح الواجبة فى تعظيم البيت الشريف ـ زاده الله شرفا ـ ولما فى بقائه من خلاف ذلك ـ نعوذ بالله منه ـ فهل يجوز لمن له ولاية العمارة من جانب السلطنة العثمانية ـ خلد الله دولتها وأيد صولتها ـ أن يهدم هذا الجدار اليمانى المذكور ليقيمه ويقيم بناء البيت الشريف جميعه على الوجه الذى يليق به من اتفاق العمارة وتحسينها الواجب ذلك فى حق البيت الشريف ـ زاده الله مهابة وتكريما وزاد من عظمته وإكرامه تشريفا وتعظيما ـ أم لا يجوز ذلك والحال ما ذكر؟ أم كيف الحال؟ بينوا ذلك تبيانا شافيا؟ أثابكم الله الجنة بمنه وجزاكم عن الإسلام والمسلمين خيرا.

صورة الأجوبة الشريفة المعطاة ردا على السؤال المذكور:

الجواب:

حيث كان الحائط المذكور بالصفة المذكورة عن العدول المذكورين فى السؤال وأرباب الخبرة من أهل الصناعة وغيرهم فهدمه وتجديده أولى، بل متعين لأنه أحق من الهدم الصادر من سيدنا عبد الله بن الزبير لأن قضية ابن الزبير كانت محتاجة إلى الترميم فقط، كما أشار إليه هو ـ رضى الله عنه ـ وهذه محتاجة إلى الهدم والبناء لاسيما مع الانهدام والهدم الكائنين فى الثلاثة الأرباع، إذا كان ابن

الزبير ـ رضى الله عنه ـ ومن خالفه فى القضية يقولون بالهدم فيكون ذلك فى قضيتنا أولى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

الجواب:

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، حيث كان الجدار المذكور من البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ بالجملة المشروحة فى السؤال المشاهدة لأهل العلم من الرجال وشهد بخرابه أرباب الخبرة الموثوق بهم فى كل حال الذين يغلب على الظن فيهم عدم التهمة فى هدم ما كان خاليًا من البقاء ولا غرض لهم فى تخريب أدنى جزء منه خوفا من الله يوم اللقاء، فهدمه بعد تحقق ما ذكر جائز بل واجب على من فوضه السلطان الأعظم ـ خلد الله سعادته وأيد سيادته وأقام به شعائر الدين وقطع بسيفه رقاب المعتدين ـ عمارة بيت الله العظيم وإعادته على الأسلوب القديم وبناء جدرانه على ما كانت عليه وإحكامها بكل وجه يمكن التوصل إليه فذلك من أعظم شعائر الإسلام وبقاء ما كان خرابا منه على حاله مع إمكان إزالته من موجبات شرور الفجرة الطغاة، وقد صرح علماؤنا ـ رضى الله عنهم ـ بجواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الحرام وما نصوا عليه لا يجوز مخالفته ومن خالف أقوال العلماء كان مكروها عند الله وخلقه أعاذنا الله من ذلك وسلك بنا أحسن المسالك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى.

الجواب:

الحمد لله ربنا اغفرلنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، لاريب فى أن الواجب على كل مسلم تعظيم هذا البيت الشريف زاده الله من التعظيم والتكريم والتبجيل والتشريف، وقد شاهدنا نحن والجم الغفير من العلماء والولاة حقيقة ما ذكر فى

السؤال من الجواب ولم يزل يبلغنا كل يوم من الثقاة السالكين منهم الصواب أنه تداعى إلى السقوط مالم يتدارك أمره مع شهادة المعلمين الموثوق بهم بخرابه وبقاؤه من بنائه إلى حال سقوطه ألف عام إلا خمسة وعشرين عامًا أَوْفَى معجزة، ولما أراد الله خرابه خرب، وإذا ما تحقق ما ذكر ومعلوم أن إبقاء شيء منه على حاله محال وجب هدمه بغاية الإجلال والاعظام ومزيد التوقير والاحترام وشكرت مساعى من فوضت إليه هذه الخدمة الجليلة المقدار من قبل من فوض له ذلك مولانا السلطان العظيم الفخار دامت سلطنته العظمى مادام الفلك الدوار، وثواب على عمارته وإعادته على الأسلوب الحسن بناء جدرانه على ما كانت عليه مهما أمكن وغير لائق البقاء ما كان خرابا على حاله مع إمكان إزالته، ولقد نص العلماء على جواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الشريف إذا لم يمكن بقاؤه، نسأل الله أن يوفقنا ومن تشرف بهذه الخدمة إلى ما يحبه ويرضاه ويكون عونا لكل منا فى أولاه وأخراه وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويوفقنا لاجتنابه والله أعلم.

نمقه الفير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى السهروردى.

الجواب:

الحمد لله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ونعم جوابى كذلك سلك الله بالقائم بخدمة هذا البيت الشريف أحسن المسالك.

الفقير الحقير عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى.

صورة السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

السؤال:

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ـ نفع الله بعلومهم المسلمين ـ فى ما إذا احتاج الحال فى عمارة البيت الشريف ـ زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما ـ إلى إقامة حائل وأخشاب بالطواف وجعل ألواح عليها وستارة ليمنع ذلك من دخول

نحو كلاب ودواب غيرها تنجس البنيان وتوسخه ويمنع من دخول من لا فائدة فى دخوله بل ربما من دخوله ضرر وإقامة ذلك من ضروريات العمارة اللازمة والمعتادة بحيث إنه لا يبنى البناء على الوجه المطلوب إلا بذلك مع بقاء جانب من الطواف أكثر مما يحجب بهذه الستارة للطائفين والمصلين يؤدى فيه ذلك فهل يجوز فعل ذلك أم لا يجوز والحال ما ذكر، أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة.

الأجوبة الشريفة المعطاة ردا على سؤال رضوان أغا:

الجواب: الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله: الذى يؤخذ من كلام علمائنا ـ رضى الله عنهم ـ حيث قالوا يحرم الجلوس خلف المقام وبسط السجادة وإن لم تجلس عليها لما فى ذلك من منع فضيلة سنة الطواف فى ذلك المحل للطائفين وحيث قالوا أن ما يفعل بالمسجد من بناء نحو منارة أو ضرب لبن فيه إن فعل لمصلحة المسجد ولم يضق جاز إلا أنه إن ترتب على وضع الأخشاب الموضوع عليها الستائر منع فضيلة مشاهدة البيت الشريف أو منع فضيلة القرب منه للطائف حالة الطواف أو كان فيه تضييق على المصلين لم يجز وضع ما ذكر إلا إن تحقق دخول شىء من الكلاب وملامستها شىء من أجزاء البيت الشريف مع رطوبة فى أحدهما أو وصول شىء من النجاسات غير ما ذكر ولم يكن حفظها عن تطرق ذلك إليها إلا بوضع الأخشاب الساترة فيجوز حينئذ وضعها بل يجب إذا لم تصن إلا بفعل ذلك صيانة لأجزاء البيت المعظم عن تلطخه بما ذكروا أما السقائل التى تتوقف مباشرة البنيان ـ واتباعهم للبناء ـ على وضعها ورفع الأحجار إلى محلها على إقامتها فيجوز لما فى ذلك من المصلحة المتوقف البناء عليها والحاجة الأكيدة إليها ألهمنا الله سلوك طرق الصواب وكشف عن قلوبنا ظلمة الحجاب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

حرره الفقير إلى الله عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى حامدا الله ومصليا على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم.

صورة الفتوى الشريفة

الصادرة والمتعلقة بعدم جواز تدريس صحيح البخارى داخل بيت الله الحرام.

السؤال:

ما تقول السادة العلماء أساتذة الدين ـ قمع الله تعالى بهم المفسدين وقطع بسيوف أنظارهم الشريفة دوائر المبتدعة والملحدين ـ فى الجرأة على بيت الله الحرام ـ زاده الله تعالى تشريفا واحتراما ومهابة وإجلالاً إلى يوم القيامة ـ وهتك حرمته بإدخال أطباق اللوز والزبيب فى جوفه وتدريس كتاب البخارى فى المدارس وغيرها ما حكم هذا التدريس المذكور على هذا الأسلوب المذكور فى جوف هذ البيت العتيق المحترم مهبط الرحمة والنور أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة.

الجواب الذى أعطى ردا على السؤال المذكور:

الحمد لله لاشك أن النبى ـ ﷺ ـ بعث بلسان الشرع وقد أمره الله بتبليغ الشرع قال عز من قائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ (المائدة: ٦٧). أو رسالاته أى وإن لم تبلغ بعض ما أُمِرْتَ به فحكمك حكم من لم يبلغ شيئا والمبلِّغ الكتاب العزيز والسنة الشريفة التى هى أقواله ـ ﷺ ـ وأفعاله وتقريراته وعزمه وهمته، فكل من الكتاب والسنة مأمور بتبليغه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ (النحل: ٤٤) والبيان بالسنة وهى وحى قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: ٣,٤) وقد بلغ ـ ﷺ ـ جميع الموحى إليه من الكتاب والسنة وقد شهد له المولى ـ جل جلاله ـ بتمام التبليغ فقال ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة: ٣) ودخل ـ ﷺ ـ البيت الحرام وفاقا وخلافا خمس مرات إلا أن بعضها

متفق على دخوله فيها وبعضها مختلف[1] فيه، والصحيح أنه لم يدخل وثبت أنه ـ ﷺ ـ جلس مجلسا فى البيت صلى فى بعضها ولم يوجد له معارض واختلف فى بعضها هل صلى أو دعا فقط وهذا الخلاف فى الصحيح وثبت أنه ـ ﷺ ـ كان لا يرفع طرفه إلى البيت ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ كان لا يرفع طرفه إلى البيت ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ جلس مجلسا فى البيت للتعليم ولو أقل جلوس إذ لو ثبت لنقل لتوفير دواعى النقل إليه وكذا لم يثبت عن الخلفاء الأربعة ولا عن أحد من أعلام الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وهم القدوة قال ـ ﷺ ـ: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[2] بل لم يثبت عن أحد من أعلام هذه الأمة كالإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت وأصحابه وكالإمام أحمد وأصحابه من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا فتبين أن دخول البيت الحرام لدرس التفسير والحديث أو غيرهما بدعة شنيعة وخصلة ذميمة منكرة محرمة ويدل على تحريمها ما ثبت بطريق العرف بحيث لا ينكر وقوع التبخير عقب الدرس والشموع وماء الورد وغيره وإنشاد المنشدين وقد يؤتى بأشياء غير متوقعة كأن يحضر العوام الجهلة الدروس فيبادرون إلى أكل ما ذكر ورمى نواه فى البيت ولا شك أن هذا مهين للبيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام وقد هدمها ابن الزبير ومن تبعه من الصحابة والتابعين ـ رضى الله تعالى عنهم ـ لا لسبب اقتضاه هدمها سوى ما يقتضيه ترميمها من أنها دون بيوت الأماثل، وبرد هذه الخصال الذميمة، سادت الكعبة الشريفة على بيوت الأراذل، فضلا عن الأكابر فيكون الدخول المؤدى إلى ذلك محرم ولا شك فى جرٍّ أول دخلة لهذا المقصد للدخلات المقتضية لما تقدم والدخلات تبين أنها محرمة فكان الدخول الأول الجار إليها محرما، ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، (آل عمران: ٨) ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا

(١) أنظر: إعلام الساجد (١١١ ـ ١١٢).

(٢) حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاند هلوى ١/ ٦، وعزاه لجمع الفوائد ٢/ ٢٠١.

وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آخر البقرة)، ونسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

السؤال:

ما يقول السادة العلماء، أساتذة الملة والدين، وقمع الله تعالى بوجودهم المفسدين وقطع بسيوف أنظارهم السديدة دابر كل مبتدع وكل ملحد مهين، فى التجنى على بيت الله الحرام ـ زاده الله تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما ـ وهتك حرمته بإدخال اللوز والزّبيب ونحوها وأكلها فى جوفه وكذلك إدخال الفرش والبسط مع جماعة وفرش تلك البسط للجماعة فيه وإدخال مجامر البخور وإدارتها بين الجماعة فيه كل ذلك لتدريس كتاب البخارى وإلقائه على الجماعة المذكورين على هيئة تدريسه الكائن فى المدارس وغيرها كل ذلك فى جوف البيت العتيق والكعبة الشريفة المعظمة لازالت مبجلة محترمة. ما حكم هذا التدريس المذكور بهذا الأسلوب المسطور فى جوف هذا البيت العتيق مهبط الرحمة والنور؟ أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة بمنه وكرمه.

الجواب الذى أعطى ردا عل السؤال المذكور:

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله: غير خاف على ذوى العقول السليمة والأفهام المستقيمة أن السعادة العظمى والكمال الأَسْنَى الأسمى، فى الاتباع لما فعله النبى ـ ﷺ ـ والاقتداء بما سلكه الأصحاب الكرام أو من جاء بعدهم من التابعين والعلماء الأعلام، ولم ينقل عنه ـ ﷺ ـ ولا عن أحد ممن جاء بعده إلى هذا الزمن، أنه درس شيئا من العلوم وأبدى شيئا من المواعظ وعقد مجلسا لذكر الله فى وسط الكعبة الشريفة مع احتياج الناس إذ ذاك إلى التعلم، والالتفات إلى أفعاله ـ ﷺ ـ والاقتداء، بها ولو كان فِعْلُ شَىْء من ذلك فى

وسط الكعبة مطلوبا ما تركه ـ عليه الصلاة والسلام، بل المنقول عنه ـ ﷺ ـ وعن من بعده إنما هو مزيد التواضع والخشية والافتقار والصلاة والدعاء والاستغفار عند دخوله فيها، ولذلك حذر علماءُنا ـ رضى الله عنهم ـ من الزيادة على صلاة ركعتين فيها إذا كان خشوعا وخضوعا متوفرا، وإلا فالأولى أسرع الخروج منها. وقالوا ليس من الأدب أن يرفع الداخل بصره إلى سقفها لقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما رواه البيهقى: «عجبا لمن دخل الكعبة كيف يفعل ـ أى يرفع بصره ـ ليدعه إجلالا لله وإعظاما، دخل رسول الله ـ ﷺ ـ الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها»[1].

وقال الإمام أبو على الزعفرانى من أعظم أئمتنا: من أحب دخوله إلى البيت فليدخل بصدق إخلاص محبته لله تعالى وتعظيما له بالخشوع والاستكانة والخضوع خائفا راغبا راهبا ذاكرا مستغفرا داعيا مُتَضَرِّعًا إذا علمت ذلك وأن المعروف من حال النبى ـ ﷺ ـ وأحوال من بعده عند الدخول فيها ما ذكر، ونظرت فى قول النبى ـ ﷺ ـ «من أحدث ـ أى ابتدع أىّ شئ واخترعه من قبل نفسه ـ فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو[2] رد» أى مردود على فاعله لبطلانه وعدم الاعتداد به.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من المهتدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة»[3]، وقول إمامنا الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: من أحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة المذمومة، وفعل هذا الشخص المذكور لما ذكر على الوجه المذكور بدعة قبيحة شنيعة وتجرؤ منه على بيت الله ـ تعالى ـ لما فيه من هتك حرمته

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. انظر: إعلام الساجد ص ١٠٥.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٤٠، ٢٧٠. وغيرهما.

(٣) طرف من حديث رواه الترمذى وأبو داود، أنظر: حياة الصحابة ١/ ٥.
سنن أبى داود ٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، مسند الإمام أحمد ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧. وغيرها.

وإساءة الأدب مع الله ـ تعالى ـ والإخلال بتعظيمه وإجلاله. إذ المراد من تعظيم الكعبة تعظيم من هى منسوبة إليه والإخلال بحرمتها إخلال بحق الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا من أقبح الأفعال ويستحق فاعل ما ذكر التأديب وعظيم النكال اللائق به وبما ارتكبه من إدخال ما ذكر بيت الله وجلوسه فيه مجلس تدريس غير مطلوب، ولا نقل عن أحد ممن سبقه وإنما الحامل له عليه مجرد الشهوة والإرادة والإشاعة.

وقد صرح علماؤنا بأن المراد بالمحدث الذى هو بدعة وضلالة ما ليس له أصل فى الشرع وإنما الحامل عليه مجرد التشهى والإرادة، وبيت الله تعالى يجب تنزيهه عن أن يفعل فيه شىء مما ذكر لما فيه من الإشعار بالاستحقار بحقه وعدم الاعتناء بشأنه والقيام بحرمته. وهذا خرق عظيم ووبال على فاعله وخيم ويترتب على السكوت على هذه الداهية العظمى ـ إن لم يزجر فاعلها ـ امتداد رقاب غيره إلى فعل ما فعله ليكون له شهرة بذلك فيصير بيت الله ـ الذى عظمه النبى ـ ﷺ ـ بدخوله فيه بغاية التواضع ملعبة إن مُكِّن طالب ذلك منه. وإضافةً لذلك فدرءُ المفاسد أولى من جلب المصالح ـ على تقدير وجودها ـ فكيف وهذا الفعل على الوجه المذكور ليس إلا هتكًا لحرمة بيت الله الذى إجلاله من إجلاله.

ومما دل على ما ذكرناه من كون فعل هذا الشخص بدعة شنيعة، إنكار ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ على الجماعة الذين اجتمعوا فى المسجد يدعون اجتماعهم على هذه الهيئة المخصوصة التى لم يفعلها النبى ـ ﷺ ـ و الإنكار من هذا الصحابى العظيم على من ذكر لاجتماعهم على هذه الهيئة، إشارة بأنهم مفتحو باب الضلالة فلا مراء أن من فعل هذا فهو من أشنع البدع وأكرهها وأقبحها والإنكار عليه من الأمر اللازم لينزجر هو وأمثاله عن العود إلى مثل هذا الفعل الغير اللائق بحرمة بيت الله تعالى، وحديث الرسول ـ ﷺ ـ لا يشك من له أدنى مكنة فى العلم أنه أفضل ما يقرأ لكن لما كان المقصود من دخول الكعبة الشريفة الصلاة والدعاء والاستغفار كما فعل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ كان المنع

من القراءة فيها من اللازم لإحداث أمر لم يكن مطلوبا فيها، ولم يترتب على ذلك ما ذكرناه وقد صرح العلماء بأن كل عبادة خصت بمحل لا يفعل غيرها بذلك المحل، ولذلك قالوا: إن قراءة القرآن بالطواف خلاف الأولى لاختصاص الطواف بأذكار تقال فيه فمنعهم من اشتغال الطائفة بقراءة القرآن الذى هو أعظم من غيره يدل على منع المشتغل بقراءة الحديث فى جوف الكعبة لاختصاصها لما ذكرناه، فكيف بقراءته على الوجه المذكور المشعر بغاية الاستحقار والإخلال لعظمتها وحرمتها، أعاذنا الله من ارتكاب مالا يليق بجلالة بيت الله وحرمته ومن تعدى حدوده وانتهاك حرمته ووفقنا لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى.

* * *

هذه الوجهة تشمل صورا ستة:

تبين عدد المرات التى وسع فيها المسجد الحرام السعيد.

ومن قام بتوسيعه وترتيبه وكيفية ذلك ومتى بدأ الأهالى الكرام بإرسال الصرر إلى الحرمين الشريفين؟

ومتى أخذت ذلك عادة؟ وما الأسباب التى أدت إلى زيادتها وما مقدار تلك الصرر التى ترسل؟ ومن الذين ترسل لهم؟ ومن الذين ينالون الهدايا؟ وما مقدار الوقود ـ وسائر ما تمس الحاجة إليه فى المسجد الحرام؟ وكذلك القناديل وشتى أنواع الشموع مع بيان مقدارها ونوعها، وتبين كذلك أول من أنشأ عين زبيدة ذاكرة مجاريها وقنواتها والذين جددوها وعمروها وأصلحوها وعدد ذلك.

فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة

أول من تفضل بتوسيع الحرم الشريف للمرة الأولى هو عمر بن الخطاب رضى عنه الله الوهاب.

كان ما يحيط بالمسجد الحرام إلى عصر الخليفة سيدنا «عمر الفاروق» المبارك وزمانه المقرون بالعدل والقسطاس ساحة رملية شبيهة بالصحراء، ولم يكن هناك ما نراه اليوم من مبان، بل كان مساكن فقراء الغرباء المصنوعة من القش والحصير، وكانت هناك طرق ملتوية بين الأكواخ للوصول إلى حرم الكعبة المعظمة.

أما المسجد الحرام وهو توأم حرم الجنة فكان فى تلك الآونة ممتدا إلى ما وراء مقام إبراهيم والمنبر الشريف، فأما الذى مازال موجودا إلى اليوم أمام الكمر الذى يسمى اليوم بـ «باب السلام العتيق» قد وضع علامة مميزة لحدود الحرم الشريف القديم.

ولم يغير وضع الحرم الشريف القديم فى عهد أبى بكر الصديق لقلة المؤمنين وأبقى كما هو. لم توسع ساحة الحرم الشريف فى ذلك العهد لاستيعابها مسلمى تلك الآونة.

إلا أن عدد المسلمين قد زاد فى عصر عمر الفاروق المتميز بالعبادة بحيث ضاقت كل الساحة ذات الفيوضات الإلهية لبيت الله بجموع المسلمين ولم تستوعبهم، وأصبح توسيع مساحة بيت الله وتفسحها يتجاوز درجة الوجوب، وهكذا اشترى عمر بن الخطاب (رضى عنه الله الوهاب) الأكواخ والدويرات الملتصقة بالمطاف وضمها إلى المسجد الحرام، ولكن ذلك التوسيع لم يف بالغرض مما اقتضى ضَمَّ البيوت الأخرى الكائنة حول الحرم إلى ساحة الحرم، وهذا ما دعا الخليفة إلى شراء بعض المنازل التى ستساعد على التوسيع.

وفى هذه المحاولة الثانية للتوسيع لم يرض أصحاب المنازل بالتنازل عن دورهم، بل سعوا لإحداث فتنة بنشر أقوال مغرضة.

حينئذ استدعى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ المعترضين على إعطاء بيوتهم وقال لهم: «لم يُبْنَ بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم بيوتكم حوله، وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله» ثم دبر المبالغ اللازمة لشراء تلك الدور كما قدر ثمنها أهل الخبرة، ووضعها فى خزانة كعبة الله ثم هدم تلك البيوت وألحق أرضها بالمسجد الحرام، وهكذا وسع حرم المسجد الحرام على الوجه المطلوب.

ثم أحاط الحرم الشريف بسور يزيد ارتفاعه على قدمين قليلا من جهاته الأربعة لتوضع عليه القناديل والشموع، ثم أمر بفتح بوابات مقابل الطرق التى تركها قصى» بن كلاب للدخول فى المطاف السعيد. وفى ختام هدم المنازل جاء أصحابها إلى حضرة الفاروق عارضين ندمهم وأسفهم، ورجوه أن يعطيهم نقودا كافية لشراء سكن فأعطاهم المبالغ التى وضعها فى خزانة بيت الله من قبل، وهكذا أرضاهم وأسكتهم وكان ذلك فى سنة ١٧ الهجرية[1].

* * *

(١) انظر تاريخ الطبرى ٤/ ٦٨ ـ ٦٩.

التذييل

قد تم التوسيع المذكور للمسجد الحرام بعد سيل (أم نهشل)[1] بخمس سنوات.

حكمة:

يظهر فى مكة المعظمة كل عشر سنوات أو اثنى عشرة سنة سيول مرعبة مفزعة ـ لحكمة ما ـ وتعقب السيل بركة عظيمة ورواج وتقل الأسعار وتعم النعمة الإلهية والكرم اللامتناهى الجبال والبوادى. انتهى.

قد نكبت مكة المكرمة بكثير من السيول كالسيل الذى مر ذكره، وغدت البلدة العظيمة المقدسة خربة وسكانها حيارى متعبين وهم يبحثون عن حل لنكبتهم.

يقول الإمام الفاسى وهو يتحدث عن صواعق مكة المكرمة وأخطارها، ناقلا عن الإمام الأزرقى عن محمد بن يحيى وابن يحيى عن عبد العزيز.

١ ـ من السيول الشهيرة التى شهدتها مكة المكرمة «سيل القارة» قد اجتاح هذا السيل المفزع مكة فى الجاهلية فى زمن سيادة بنى خزاعة وأثناء حكومتهم، قد ظهر سيل القارة بشكل مفزع سريع ودخل فى المسجد الحرام واقتلع دوحة عظيمة فى طريقه وجرفها إلى أقصى حدود مكة المكرمة، ويروى أن رجلا وامرأة غرقا فى هذا السيل. ولم يعثروا على جثة الرجل ولكنهم وجدوا جثة المرأة، وكان اسمها «قارة» وكانت من كريمات نساء قبيلة بنى بكر المشهورة لذا أطلق على هذا السيل «سيل القارة».

قد نظف صناديد بنى خزاعة الحرم الشريف بعد انقطاع المياه التى تأتى من الأطراف، وبنوا حول بيت الله وحجر إسماعيل[2] حائطا منخفضا تفاديا لما قد يظهر من السيول فيما بعد، وظل هذا الحائط إلى عهد حكم قريش.

---

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٨/ ٢٨٦.

(٢) يطلق حجر إسماعيل على ما تحت الميزاب الذهبى.

٢ ـ من سيول مكة الشهيرة ـ نوعا ما ـ السيل العظيم الذى وقع عقب «سيل القارة».

قال الإمام الأزرقى وهو يعرف هذا السيل نقلا عن سعيد بن المسيب: قد وقع فى الجاهلية سيل آخر مخيف وكان السيل المذكور أشد قُوَّةً من سيل القارة» وبلغ درجة متناهية فى الشدة إذ غمرت المياه ما بين الجبلين وغابت المنازل عن الأنظار.

٣ ـ من السيول التى اجتاحت مكة المعظمة «سيل أم نَهْشَل» الثالث من تلك السيول. وحدث هذا السيل فى السنة الحادية عشرة الهجرية وفى عهد الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وبدأ ظهوره على نحو مرعب من ناحية بيت (أبى سفيان بن حرب) أى من ناحية طريق مكة المعظمة الذى ينتهى إلى المعلى، فتدفق بشكل مخيف داخل الحرم الشريف وانتزع المقام الشريف من مكانه وجرفه حتى الوادى.

وجرف أم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاصى بن أمية من بنات «عبد شمس بن عبد مناف» أمامه وأغرقها. لذا عرف ذلك السيل باسم «سيل أم نهشل».

وبعد ما توقف السيل المخيف وانتهت صولته وجولته وانسحبت المياه الراكدة التى فى داخل المدينة، وجرت إلى بطن الوادى، اتحد سكان مكة المعظمة وطهروا مدينتهم ونظفوها وهم يد واحدة، وعثروا على المأثر اللطيف للمقام الشريف فى أسفل الوادى وحملوه إلى الحرم الشريف، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا مكان الجوهر الثمين لحجر المقام، ومن هنا أبلغوا الأمر إلى الخلافة الإسلامية السنية وعرضوا عليها الوضع.

وحينما أطلع الخليفة الفاروق الأعظم على الأمر اضطرب اضطرابا شديدا، وأسرع بالسفر إلى مكة المفخمة ناويا العمرة، وبمجرد وصوله إلى مكة المكرمة أخذ يبحث عن رجل قدير على تعيين موضع المقام الشريف.

ووجد ضالته فى «مطلب»[1] بن أبى وداعة السهمى «الذى يستطيع أن يعين موضع المقام الشريف فاستدعاه واستفسر منه الكيفية.

وإذا بمطلب بن أبى وداعة كان قد قاس المسافة بين الباب المعلى للكعبة الشريفة وبين المقام الشريف، وكذلك المسافة بين جدران بئر زمزم والمقام المنيف بحبل متوقعا أن يحدث مثل هذا الحادث، واحتفظ بالحبل فى مكان أمين فى منزله.

واستدعى حضرة الفاروق مطلب بن أبى وداعة، وأجلسه أمامه وطلب منه أن يحضر الحبل المذكور. وبعد مسح المكان وتعيين موضع المقام الشريف، وضع أساس البناء العالى الذى يطلق عليه إلى يومنا هذا «المقام الشريف».

إن الحجر الشريف الذى وضع فى داخل البناء الذى بناه عمر بن الخطاب هو الحجر الذى كان يضع عليه حضرة إبراهيم (على نبينا وعليه التعظيم) قدميه فى أثناء رفع قواعد البيت.

وقد فصل فى بحث الأثر الشريف كل ما يتعلق بهذا الحجر الميمون المبارك، وأين وجد؟ وكيف حفظ إلى الآن؟ وأين حفظ؟ كما فصل فى باب قدوم النبى الجليل إلى مكة المكرمة وكيفية سفره وشكل الحجر الميمون وهيئته المرئية ومبانيه فى هذا المكان الذى يرجى قبول الدعاء فيه.

بعد ما أنهى ابن الخطاب (رضى الله عنه) العمليات الخاصة بمبانى المقام الشريف أصلح وعمر الأماكن الأخرى لحرم المسجد الحرام، كما أصلح ما خرب

(١) أحد الأصحاب الكرام، ذكره ابن سعد فى مسلمة الفتح، انظر الإصابة ٦/ ١٠٤.

من السد الذى يطلق عليه «ردم بنى جمح». إن السيل الذى ظهر بعد تعمير سد «بنى جمح» قد فاض من جهة السد المذكور، وأخذ يصب إلى المياه الرمادية التى تراكمت فى سهل وادى إبراهيم؛ لذا أطلق على السيل الذى أتى من هذا الطريق اسم«سيل وادى إبراهيم».

إن المياه التى تتكون من الأمطار التى تنزل عل جبال مكة فى ذلك الوقت تشكل سيلين عظيمين وتدخل فى داخل المدينة وأحيانا تدخل حتى حرم الله وتخرب الأماكن المقدسة بالحرم.

إن السيل الذى قلنا عنه وادى إبراهيم أحد هذين السيلين العظيمين، وكان يظهر من جهة سد بنى جمح ويمر بوادى إبراهيم المذكور ويجرى نحو شمال الوادى.

هو أحد السيلين السالف ذكرهما وهو سيل مخيف مرعب. وكان هذا السيل يهبط من جبال مكة الجنوبية ويدخل إلى المدينة سالكا طريق محلات جياد، ويبلغ البركة اليمانية ويرتد من هناك ويجرى صوب أسفل البلاد.

وكان سد ردم بنى جمح الذى وقع بين المحلات المسماة فى زماننا «المدعى» فى أوائل ظهور الإسلام كان بيت الله بجانب السد المذكور الذى كان موجودا آنذاك، كان يبرز جمال هيئته لعشاق بيت الله وزواره.

ولما كان الدعاء مقرونًا بالاستجابة حال رؤية بيت الله؛ فإن الحجاج الذين يطئون هذا الموضع كانوا يجتهدون فى الدعاء.

وفيما بعد حجبت المنازل والبيوت التى أقيمت فى هذا الموضع رؤية البيت الأعظم؛ وعلى الرغم من ذلك ظل الدعاء على حاله كما كان فى الماضى إذ إنه من الثابت أن الرسول ﷺ قد وقف للدعاء فى هذا المكان. حتى إنه يشاهد على جانبى الطريق لافتة خاصة مكتوب عليها: (هنا محل دعاء).

رواية:

قال حافظ الدين فى كتابه «النافع» نقلاً عن صاحب الهداية: «كنت قد نويت الذهاب إلى مكة المعظمة لأداء مناسك الحج، وعندما استأذنت من شيخى وطلبت منه الوصية قال لى: إن ثمة مكان مبارك فى مكة يقال له «سوق الكراع»، ومن هذا الموقع الشريف تبرز كعبة الله المتعال فى جمال لا مثيل له، وعندما تصل إلى هذا المكان وتنال شرف مشاهدة جمال بيت الله، فعليك أن تدعو قائلا: «اللهم اجعلنى من عبادك الذين تستجاب دعواتهم» لأن الدعاء عند رؤية بيت الله رهين الاستجابة. انتهى.

بناء على ما ذكره أهل العلم والدراية من سكان مكة المكرمة أن سيل جياد يحدث مرة كل عشرة أعوام، ويطغى بشدة منقطعة النظير ويفوق سيل «وادى إبراهيم» إلى حد جد بعيد، ويملأ المسجد الحرام بالطين والحصى، ولقد بذل أشراف البلد وأعيانهم من السلف الصالح كل جهدهم وصرفوا كل همتهم إلى حفر كثير من القنوات تحت الأرض لاستيعاب جريان مياه «سيل جياد»، ولكن القنوات امتلأت بالمياه على مر الزمان ولم تخطر بذلك دواوين الخلافة، فاستمر تدفق السيل فى مجراه القديم تدفقا شديدا ـ حين حدوثه ـ وما زال يهدم البيوت ويخرب الكثير من المنازل.

٤ ـ سيل الحُجَاف: هو السيل الرابع الذى أفزع أهالى مكة المفخمة، ولقد ظهر هذا السيل فى عهد عبد الملك بن مروان، وفى خلال العام الثمانين من الهجرة النبوية.

وقد ظهر ذلك السيل فى وقت صلاة الصبح وكان الحُجّاج ذوى الابتهاج فى وادى مكة، وبدأ جريان المياه من قبل صلاة الصبح، ثم ازدادت شيئًا فشيًا فجرف السيل الحجاج القائمين فى محل الوقفة كما جرف أثقالهم وأمتعتهم إلى المسجد الحرام.

وأحاط بالبيت المعظم وهدم المنازل والحوانيت الكائنة فى ناحية الوادى وخربها، وأغرق كثيرا من الناس وأهلكم.

وبما أن الناس قد لجئوا إلى الجبال لإنقاذ أرواحهم تاركين أمتعتهم وأموالهم أطلق عل ذلك السيل اسم «سيل الحُجَاف». وحينما أبلغ هذا الخبر المخيف لعبد الملك؛ أرسل إلى مكة المعظمة الموظفين المختصين من قبله لبناء ما تهدم من البيوت، ولحفر مجارى السيل وتعميقها، وبناء جدران من الحجارة الكبيرة والمتينة حيث يستدعى البناء، وقدم للأهالى أموالا طائلة وأشياء لا تحصى وهكذا عجل بإظهار جوده وسماحته.

٥ ـ السيل الخامس من سيول مكة «سيل عمر بن عبد العزيز» حدث هذا السيل فى السنة السابعة والتسعين أو الثامنة والتسعين من الهجرة، وكان سبب ظهور هذا السيل دعاء عمر بن عبد العزيز، لأن عمر بن عبد العزيز كان قد غادر الشام بنية الحج متجها إلى الأراضى الحجازية الجالبة للغفران.

فاستقبله أشراف مكة وأعيانها وتحدثوا عن الجفاف قائلين: «يا سيدنا إن الحجاز ومكة معرضة للجفاف فى هذه الأيام، ويخشى من نقص الماء وإن أهل الحرمين فى أشد الاضطراب من هذا الأمر وفى شدة الحزن مما سيصيب الحجاج الكرام من العطش فى موسم الحج هذا العام. وهكذا أجبروا عمر بن عبد العزيز على دعاء الاستسقاء. وفى الحال هم الخليفة بدعاء الاستسقاء بكل ما أوتى من عقيدة قوية وإيمان صادق بناء على الاتفاق الذى تم بينه وبين الوفد المكى، واشترك فى الدعاء قافلة الحجاج التى صاحبته وكذلك الوفد المكى الذى جاء لاستقباله.

ولحكمة ما انهمرت الأمطار بطريقة لم يسبق لأهالى البلاد الحجازية أن رأوا مثلها من قبل. وجاءت السيول من جميع الجهات وأحاطت مكة المعظمة من

جهاتها الأربع، وعمر الحجاز بالخيرات وعم الخصب ورخصت الأسعار؛ وذلك ببركة دعاء عمر بن عبد العزيز.

٦ ـ السادس من سيول الحجاز سيل أبو شاكر: وقد ظهر هذا السيل فى السنة السادسة والعشرين بعد المائة الهجرية وفى عهد هشام بن عبد الملك. وكان «أبو شاكر» من أجلاء رجال الدولة، وكان ضمن قافلة من قوافل الحجاج وقد اضطرب اضطرابا شديدا من شدة صولة السيل، وأظهر قلقا لذا ذكر ذلك السيل العظيم بعد فترة ما «بسيل أبى شاكر».

٧ ـ من السيول التى خربت مكة المعظمة سيل مخيل: وقع سيل مخيل سنة مائة وثمانين واجتاح المسجد الحرام بقوة وسبب ضررا غير قليل. ولا يمكن حصر البيوت التى انهارت والأرواح التى أزهقت.

٨ـ السيل الثامن من سيول مكة «سيل حنظلة» ظهر هذا السيل فى سنة مائتين واثنتين وفى عهد الخليفة المأمون. وبما أن هذا السيل قد ظهر بقوة شديدة نقل مقام إبراهيم الهمام إلى مكان مرتفع خيفة انتزاع السيل له. وقد خرب هذا السيل المسجد الحرام، وهدم كثيرا من المنازل وأهلك بالغرق كثيرا من النفوس. ولما كان والى مكة فى تاريخ ظهور السيل يسمى «حنظلة» فسمى السيل «سيل حنظلة».

٩ ـ قد ظهر سيل آخر بعد سيل حنظلة بست سنوات سنة (٢٠٨)، وقد اقتلع هذا السيل العظيم أركانا كثيرة من المسجد الحرام، وهدمها كما سبب غير قليل من الخسائر والمضرات لأهل مكة، كما جلب فى ساحة المسجد الحرام السعيد كثيرا من الطين والرمل مما دعا إلى إشراك النساء فى خدمة تطهير المسجد الحرام. قد ظهر هذا السيل فى عهد الخليفة المأمون، وفى خلال السيل العظيم وسيل حنظلة تعرض الناس لمرض شديد ومات ما لا يحصى من الناس.

١٠ـ ومن السيول التى أفزعت الناس فى البلاد الحجازية سيلان وقع أحدهما وهو السيل العاشر بمكة سنة ٢٥٣ والثانى وهو الحادى عشر فى مكة فى سنة ٢٦٦. يعتبر السيل الذى وقع ٢٥٣ من الأحداث المهمة التى حدثت فى البلاد الحجازية، إذ دخل إلى المسجد الحرام وارتفعت المياه حتى وصلت إلى الحجر الأسود، وجلبت للمسجد خسائر عظيمة إلا أن السيل الذى حدث بعده بخمسة عشر عاما كان أكثر رعبا وفزعا. إن هذا السيل قد خرب المنازل والمدارس والحوانيت التى فى طريقه، وبخلاف هذا فقد جرف الرمال التى كانت تفرش ساحة الحرم الشريف، وقد بلغ شدة جريانه حدا أنه جرف معه كل ما يقع أمامه من الأجسام الثقيلة بدون قيد ولا احتراز، كما أنه اقتلع جميع الحجارة التى فى داخل ساحة المسجد الحرام.

وبعد هذه الواقعة أى بعد سيل عام ٢٦٦ ظهرت سيول أخرى خلال ٣٤٤ سنة، إلا أنه لا يعرف التاريخ أوقات ظهورها، ولكن مما يروى أنه فى خلال تلك الفترة هبطت على مكة سيول من الجبال التى تحيط بها، وهى سبعة سيول أو ثمانية، وقيل إنها كانت مفزعة رهيبة، وقد جرف إلى ساحة الحرم الشريف الأتربة وعظام الحيوانات وغير ذلك، وتحول داخل المسجد الحرام إلى جبال مما سبب لأهل مكة التعب الشديد فى نقل المخلفات وترميم ما خربته السيول وتعميره.

وقد نقل مؤلف «لطائف الأخبار» عن قاضى مكة برهان الدين بن ظهير فى ذلك الوقت «أن أشد السيول التى هبطت هو السيل الذى ظهر فى شدة مخيفة فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة عام (٦٨٣) وكأنه شعبة من المحيط الهادى.

إن السيل الذى يذكره القاضى برهان الدين قد ملأ ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الباهرة، وهدم كثيرا من أساطينه وخربها، وأهلك فى داخل الحرم الشريف وخارجه وأغرق خمسائة وسبعين شخصا.

قد ظل هذا السيل فى داخل الحرم الشريف ما يقرب من أربعة أيام، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت وظلت المياه تتزايد بغزارة فى تلك الأيام الأربعة؛ إلا أنها أخذت فى النقصان يوم السبت، وقد أصاب أهل مكة من شدة هيجان ذلك السيل فزع شديد».

ويقول القاضى برهان الدين فى رسالة كتبها وأرسلها إلى مصر بعد أن تحدث عن وقت ظهور السيل ومدة بقائه فى الحرم الشريف «إن المسنين الذين عاصروا السيل يذكرون أن مثل هذا السيل لم ير له مثيل لا فى العصور الجاهلية ولا فى العهود الإسلامية.

إن المياه التى تجمعت فى ساحة المسجد الحرام، ارتفعت مقدار سبعة أذرع وثلاثة أرباع ذراع» وفى خاتمة رسالته أومأ إلى أن أهل مكة كانوا على حق فيما أصابهم من شدة الفزع.

١١ ـ من السيول التى يعرف التاريخ ظهورها السيل العظيم الثانى عشر الذى حدث فى سنة ١٥٣٨ الهجرية. إن السيل المذكور قد ظهر فى ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، واجتاح ساحة الحرم الشريف من البطحاء وارتفعت المياه قدر ذراع من فوق عتبة باب بيت الله، وأوقعت كثيرا من أبواب المسجد الحرام على الأرض.

وكان عدد الغرقى والموتى لا حصر له، ولم يكن بين أهالى مكة من رأى مثل هذا السيل العظيم؛ فلو لم يكف هطول الأمطار بعناية الله لما كان هناك شك أن كثيرا من حوانيت مدينة مكة المكرمة كانت ستخرب.

١٢ ـ من السيول الشهيرة السيل الذى ظهر مثل البحر بعد السيل الثانى عشر بأربع وستين سنة. وقد ظهر هذا السيل ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ثمانمائة واثنتين. ودخل فى المسجد الحرام من جهة وادى إبراهيم واقتلع كثيرا من أبوابه وحطمها، وكانت كثرة الأمطار هى

التى تسببت فى ظهوره وقد اشتد هطول المطر حتى ظن الذى كان يراه كأنه ينسكب من أفواه القرب.

وقد بلغ ارتفاع المياه التى تجمعت فى المسجد الحرام خمسة أذرع، وارتفعت بمقدار ذراع ونصف ذراع من عتبة باب الكعبة المعلى. والماء الذى دخل الحرم بلغ من قوة جريانه أن هدم عمودين كبيرين، وهوى السقف الذى يحمله العمودان فمات ستون شخصا ممن كانوا تحته.

١٣ ـ وحدث السيل الرابع عشر الذى ألحق بأهل مكة أبلغ الأضرار بعد السيل الثالث عشر بثمانية أعوام. وقد ظهر هذا السيل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة من عام ثمانمائة وعشرة للهجرة فى وقت الظهيرة، وهدم السدود التى صنعت لتمنع المياه الفائضة من القنوات ومجارى العيون فى وقت ظهور السيول، وأغرق داخل البلد بالمياه وهجمت المياه بشدة ودخلت فى ساحة الحرم الشريف بشكل مفزع، وسرعان ما ارتفعت إلى الدرج الخاص بجلوس الخطباء فى المنبر الشريف.

وبلغ الخبر من قبل والى الإمارة إلى مقام السلطنة الذى عين مديرًا من قبله لإجراء ما يقتضى إجراءه؛ وأرسله إلى مكة المعظمة، وبادر المدير فور وصوله بتعمير السدود الخربة وتشييدها كما عمق قنوات عين زبيدة ومجاريها وجددها.

١٤ ـ من السيول التى أرهقت أهل مكة وآلمتهم السيل الخامس عشر الذى وقع فى خلال عام ثمانمائة وثمانين، ولم ير مثيل له لا فى خلال أعوام الجاهلية ولا العصور الإسلامية.

وبالنظر لما ينقله المرحوم الإمام السمهودى فإن السيل المذكور ظهر قبل وصول الحجاج إلى مكة، وغمر ما بين الجبلين وارتفع إلى أسطح المنازل الكائنة فى ناحية المعلى، ومن هناك اجتاح بقوة خارقة للعادة ساحة المسجد الحرام وألحق به خسائر جمة.

ولا يعلم إلا الله ـ تعالى ـ عدد ما انهار من البيوت وما حاقت بهم من الخسائر وما فاضت من الأرواح.

وعندما سحبت مياه السيل من المسجد الحرام أخرجت من تحت أنقاض المسجد الحرام جثث مائة وثمانين رجلا، ولم ير الطاعنون فى السن من أهل مكة سيلا يشبه هذا السيل الخطير.

١٥ ـ من السيول التى جعلت أهل مكة ينتفضون مضطربين: السيل الذى حدث فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة عام ٨٨٧ للهجرة. وكان سيلا عظيما يخلع القلوب رعبا، وكان وقوعه فجأة فى اليوم المذكور واتجه نحو المسجد الحرام وسرعان ما تسرب إلى بيت الله وارتفع بطول قامة إنسان داخل الكعبة المشرفة، أما ما ترتب عليه من خسارة فلا يقع تحت الحصر فانهارت الدكاكين فى أرجاء البلد والمدارس والمنازل، وانهارت بعض أساطين المسجد الحرام ولم تقم صلاة الجمعة فيه.

وما كان فى الإمكان حصر عدد الهالكين تحت ما انهدم من أطراف المسجد الحرام وما بجانبه من الدكاكين والبيوت والمدارس، إلا أن سبعين جثة أخرجت من المسجد الحرام.

وكتب قاضى مكة الذى كان يتولى منصب القضاء إلى حكام مصر قائلا: «إن هذا السيل الذى وقع هذه المرة كان سيلا مفزعا حقا، فقد ظلت جدران المسجد الشريف الأربعة مغمورة فى الماء، وارتفع الماء على امتداد مساحته فى جانبه الأيمن والأيسر إلى سبعة أذرع وربع.

١٦ ـ من السيول التى أحدثت خسائر عظيمة فى مكة المكرمة السيل السابع عشر من تلك السيول العظيمة. ولم نستطع أن نعرف فى أى يوم من أى شهر وقع، إلا أن المياه قد غمرت الصحارى والسهوب والجبال والأحجار وملأ المسجد الحرام بالطين والحجارة وخربت المياه كثيرا من الدكاكين والبيوت بما

فيها من أمتعة وبضائع. وما كان فى مقدرة أحد أن يخمن عدد المتضررين، أو ما ألحق بالناس من أضرار هذا السيل، وبعد انحسار المياه وجدت مائة جثة فأودعت الثرى. ولم يرد منذ عصر الجاهلية أخبار عن سيل من السيول أبشع وأكثر رعبا من هذا السيل.

١٧ ـ السيل الثامن عشر ظهر بعد عام من ظهور السيل السابع عشر من سيول مكة. ولا يعرف فى أى يوم من أى شهر ظهر هذا السيل، إلا أنه قد تسبب فى ضرر كبير وأدى إلى تلف كثير من ممتلكات أهل مكة.

١٨ ـ السيل التاسع عشر وقع بعد السيل الثامن عشر بمائة وخمسين سنة (١٠٣٩)، وهو من السيول العظيمة التى أخافت وأرعبت أهل مكة. وقد غرق فى خلال هذا السيل عدد لا يحصى من الناس وأصاب أهل مكة بخسائر وأضرار لا يستطيع الإنسان أن يخمنها، وكان سببا فى هدم وسقوط أبنية الكعبة المفخمة[1].

١٩ـ من السيول التى أحصيت السيل العشرون الذى حدث فى سنة ألف وتسعين أما عدد الحجاج الذين ماتوا غرقا فى هذا السيل فيفوق الحصر وما أصاب سكان مكة من سوء وخسائر فلا يمكن معرفته بالتخمين.

٢٠ ـ وبعد مرور عام على سيل عام (١٠٩٠) ظهر سيل عظيم آخر هو السيل الحادى والعشرون الذى أورد أهل مكة مورد التهلكة وسبب لهم خسائر كبيرة. وبالنظر إل ما ذكره مؤرخو مكة فإن السيل المذكور وقع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة عام (١٠٩١) الهجرى. وقد وقع هذا السيل فى اليوم المذكور بعد صلاة الظهر بنصف ساعة على أثر هطول أمطار

(١) بما أن قد كتب فى الوجهة الثانية والصورة الثالثة عشرة ما أحدث هذا السيل من خسائر عند دخول المياه فى كعبة الله، وكيف أخليت الكعبة من الأشياء التى جرفها السيل لذا لم تعد هناك حاجة إلى تكرار ذكرها.

خفيفة وجاء من الجبال المتسلسلة التى تحيط بمكة وكان المطر قد انقطع تماما فى أثناء ظهور السيل.

وإن لاح فى بدء ظهوره سيلا خفيفا إلا أنه أخذ يتزايد بالتدريج، وتدفق تدفقا مرعبا ودام مدة طويلة حتى دخل المسجد الحرام، وجاوز ارتفاع المياه العتبة العليا لباب الكعبة السعيدة بذراع واحد، ودامت الحالة هكذا مدة أربع وعشرين ساعة، وأخذ جريان المياه يقل شيئًا فشيئًا حتى انقطعت المياه ووجد فى ساحة الحرم الشريف ما يقرب من خمس وعشرين جثة.

وكان فى ناحية المعلى شجرة جوز تحتها مقاهى متعددة، وعندما بدأ السيل وظهرت المياه تسلقها ما يقرب من مائة وخمسين نفرا من رواد المقاهى خائفين على أرواحهم من هول المنظر.

وحينما اكتسب جريان السيل شدة كان فى ظل الشجرة بضعة مقاهى؛ ولكن السيل المرعب قد اقتلع الدوحة العظيمة من جذورها وجرفها إلى أمام باب الصفا، والمساكين الذين لجأوا لأغصانها حماية لأرواحهم كان مصيرهم الغرق.

كما هلك غير هؤلاء كل هؤلاء الذين تصادف وجود حوانيتهم ومنازلهم على حافة جريان السيل، إذ انهدم ما يقرب من مائة وخمسين من تلك المنازل والحوانيت وفى داخلها أصحابها ولا يحصى عددهم إلا الله.

وقد امتلأت البركة اليمانية الكائنة فى الجهة الجنوبية لمكة المعظمة المقدسة بجثث الدواب النافقة وقد ثبت نفوق خمسة آلاف من الحيوانات التى تصادف وجودها فى طريق السيل.

وبعد انقطاع السيل المفزع فتح طريق يسمح بالطواف حول البيت وذلك بهمة والى مكة المكرمة وشهامته، واستعين بهذا الطريق لتنظيف جميع أرجاء الحرم الشريف وتطهيرها؛ إلا أن النظافة لم تصل إلى الحد المطلوب كما أن مجارى

السيل وقنوات عين زبيدة قد خربت تماما ولم تصلح للاستخدام، لذا أبلغ الأمر إلى السدة السلطانية لاستئذانه بتصليح ما خرب؛ فأرسل السلطان مدير أصطبلاته سليمان أغا ليقوم بالإشراف على التعمير وقد بادر المذكور بتطهير ساحة الحرم الشريف على الوجه المطلوب، كما أصلح مجرى السيل وقنوات عين زبيدة وعمقها وذلك فى سنة ١٠٩٢ الهجرية.

٢١ ـ السيل الثانى والعشرين الذى أضر أهالى مكة حدث فى سنة (١٢٧٨) وفى خلال أوائل سلطنة السلطان (عبد العزيز جعل الله مثواه الجنة). وبناء على بعض المعلومات المستقاة من مسنى مكة أن ذلك السيل كان أشد فزعا وهولا من سيل عام (١٠١٢).

وظهر ذلك السيل بينما كان الناس نياما فى ليلة من الليالى واجتاح الحرم الشريف وأحاط بالكعبة المعظمة هائجا مثل البحر لمدة أسبوع، وظل يتموج ولا يعرف أحد عدد الغرقى من الغرباء الذين ماتوا فى فتحة باب السلام.

قد وجد فى مجرى الماء الذى يبعد عن مكة المعظمة بساعتين أو ثلاث ساعات ظهرت جثث لفترة شهرين أو ثلاثة كما أنه قد غرق فى داخل المدارس والحوانيت خلق كثير.

وقد غرق جميع المساكين الذين وجدوا على الساحة المفروشة بالرخام[1] بين بابى ـ باب السلام ـ الداخلى والخارجى، ولم يبق فرد يتنفس من الناس الذين كانوا يبيتون فى داخل دكاكينهم فى سوق المسعى الشريف، أما الأشخاص الذين كانوا يقضون ليلهم تحت قباب الحرم الشريف فقد غرق أكثرهم. إلا أن قلة منهم قد تعلقوا بما تدلى من حبال من القباب فصعدوا فوقها بعدما لقوا فى ذلك تعبا شديدا ومشقة عظيمة حتى فازوا بالنجاة.

وبعد مضى أسبوع أخذت المياه تنحسر شيئا فشيئا، أما الناس شريفهم

(١) كان هذا المكان سوقا للكتب وكان مجلسا للغرباء والمساكين والشحاذين ليلا ونهارا.

ووضيعهم فشمروا عن ساعد الجد فى حماسة دافقة، وأقدموا على تنظيف الحرم الشريف وتطهيره مما جرفه السيل من الحجارة والتراب وغيرهما، وبصعوبة شديدة استطاعوا أن يطهروه فى خلال ثلاثة أشهر.

قد تكون فى داخل الحرم الشريف بما جلبه السيل من الكناسة والتراب أكوام كأنها تلال وجبال هنا وهناك.

وتحول كل واحد من أهالى مكة الكرام إلى فرهاد حافر الجبل[1]، إذْ أخذوا ينقبون تلك الجبال والتلال ويهدمونها ويفتتونها ثم يحملون الأحجار والأتربة إلى خارج البلد. ولا يعرف عدد من مات من الناس وما نفق من الحيوانات وما محى من أموال وأمتعة.

٢٣ ـ وفى عام (١٢١٣) ظهر السيل الثالث والعشرون من تلك السيول التى ألفت مكة أن تشاهدها. وهذا السيل كان سيلا هائلا، وما كان شبها للسيل الذى وقع قبله بخمسة عشر عاما إذ لم يتأذ الناس بأضرار كثيرة.

إذا لم يعمق طريق المسعى الشريف ـ وهو مجرى السيل كما ينبغى فإن ظهور السيول وجريانها سيكون شيئا طبيعيا، وكلما لاحت فى السماء قطعة من السحاب أصبح من المجرب أن يظهر السيل بعد ساعتين، وإذا ما أتى السيل نهارا لا يسبب ضررا كبيرا للناس، ولكنه إذا وقع ليلا يتسبب فى خسائر عظيمة للناس فى أموالهم وحيواناتهم.

(١) هو فرهاد الحفار أو الذى عشق (شيرين) جارية (كسرى) كان هذا الملك يحب شيرين حبا جما، واتصل بعلمه أن قلبها خفق بحب فرهاد وشاء أن يتخلص منه وأمره بحفر طريق فى الجبل، وضرب له موعدا قريبا ليعجزه عن ذلك، ووعده بأن يهب له شيرين إذا أنجز عمله فى موعده، وامتثل فرهاد لأمر كسرى وأنجز عمله قبل الموعد المعين، فأسقط فى يد الملك ولكن عجوزا احتالت لتخلص الملك من فرهاد وأخبرته بأن شيرين ماتت فصدم فرهاد وكره أن يعيش بعدها وألقى بنفسه من رأس الجبل. وهى قصة تداولها شعراء الفارسية والتركية والأردية بالنظم وضمنوها رموزًا صوفية. (المترجم).

وعلى ذلك فإن ما يصيب أهل مكة من أضرار من مياه سيل يتدفق فى العام مرة أو مرتين أصبح أمرًا مألوفا؛ إلا أن ما سبق ذكره من سيول مثل الذى وقع فى عهد (الفاروق الأكرم) المعروف بسيل (أم نَهْشَل) والسيل الذى وقع بعده بتسعة وستين عاما والذى عرف بـ (سيل حجاف) وما ذكر من سيول وقعت فى عام ثمانمائة وثمانية وثمانين وفى عام ألف وتسعة وثلاثين وعام ألف وتسعين أضرت بأهل مكة أبلغ الضرر.

ولاسيما السيلان اللذان وقعا فى عامى ١٠٩٠ و١٢٧٨ قد تسببا فى غرق وهلاك عدد لا حصر له من الحجيج وأهل مكة.

* * *

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية

بعد سيل «أم نهشل» الذى سبق التعريف به آنفا بخمسة عشر عاما وفى العام السابع والعشرين من هجرة النبى. ﷺ أراد سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه المنان) توسيع ساحة الحرم الشريف أكثر من قبل وأراد شراء بعض البيوت القريبة من الحرم، إلا أن أصحاب تلك البيوت جأروا بالشكوى وألحوا فى التمسك بعدم الرضوخ لرغبة الخليفة، وأطالوا ألسنتهم بكلام مستهجن لايليق، فجمعهم الخليفة وقال لهم: «إنما أطمعكم فىّ ما أتصف به من حلم وحياء فأخذتم تصيحون وتطيلون ألسنتكم ولم تستطيعوا أن تخرجوا ألسنتكم بالسوء فى أيام سلفى» واستمر يوبخهم لفترة ما ثم أمر بأن يحبس ويؤدب كل الذين لايريدون تسليم منازلهم لتوسيع ساحة المسجد الحرام فجمع كل المخالفين وقبض عليهم وحبسوا.

إلا أن عبد الله بن خالد تقدم بالشفاعة لدى الخليفة ووفق فى تخليص جميع المخالفين، وأدخل الخليفة الأراضى التى استولى عليها من المخالفين المذكورين ضمن ساحة المسجد الحرام، فأصبح طول الحرم الشريف (٢٨٨) قدما و(٨) بوصات، وعرضه (٢١٢) قدما و (٦) بوصات، ورفع سور الجدار الذى بناه عمر بن الخطاب وأضاف إليه كثيرا من الأسقف، وبذلك اتسعت مساحة الحرم الشريف على النحو المرغوب، وبلغت عمارة الحرم الشريف غاية كمالها، وعندما استعد للعودة جاء وفد من أهل مكة ورجوه أن ينقل الميناء الكائن فى ساحة «الشعيبية» إلى جدة إلا أن صلاحية جدة لتكون مرفأ كان لابد من التأكد منه برؤية العين لذا تفضل بتشريف جدة بذاته ليكشف صلاحية المكان ويعاينه.

وقد عرف الخليفة أن شاطئ جدة أقرب إلى مكة المفخمة وطريقه خال من الخطورة، وأن جعل جدة ميناء أكثر أمنا وصلاحية من جميع الوجوه، وبعد أن أجرى فى هذا الخصوص التدقيقات والبحوث الكاملة بأن يترك تشغيل ميناء «الشعيبية» ويتخذ جدة مرفأ للسفن، وبما أن الاستحمام فى البحر كان مفيدا للجسم أمر بأن يستحم من كان معه فى البحر كما أنه بالذات! استحم فى البحر ثم عاد فى النهاية من طريق (عسفان) إلى قصر الخلافة فى مهجر النبى - ﷺ -

وبعد هذا التعمير بفترة[1] اشترى حضرة معاوية دار الندوة وضمها إلى ساحة الحرم الشريف، وفى سنة (٧٥) الهجرية قام عبد الملك بن مروان ببعض الإصلاحات فى الحرم الشريف، وكذلك فعل ابنه وليد بن عبد الملك فى سنة (٩١) الهجرية.

وقد أرسل إلى والى مكة عبد الله القسرى كثيرا من الأعمدة الرخامية، وكتب له موصيا بأن يعمر الحرم الشريف بشكل يليق بمكانته وليس هناك قبل الوليد من أرسل أعمدة رخامية لتعمير الحرم المكى.

* * *

(١) فى السنة الرابعة والأربعين من الهجرة.

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة

بما أن حرم المسجد الحرام قد أهمل خلال إحدى وأربعين سنة ولم يلتفت إليه بعد عمارة وليد بن عبد الملك، لذا بنيت الأسقف التى أقامها عثمان بن عفان وكذلك الأماكن التى أقامها عبد الله بن الزبير، كما بنيت الحجارة الرخامية التى أرسلها وليد بن عبد الملك، وزاد عدد أهل الإيمان فاقتضى توسيع ساحة المسجد الحرام، وبلغ الأمر إلى أبى جعفر عبد الله المنصور البغدادى؛ فما كان منه إلا أن وسع الحرم الشريف من ناحية جداره الشامى، وبدأ من حذاء المقام الحنفى إلى دار الندوة، كما وسع من جهة باب العمرة وأوصل إلى باب العمرة فى سنة ١٣٩ الهجرية.

أراد أبو جعفر أن يجدد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى؛ ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح اشترى المنازل القريبة من الجدار الشرقى وهدمها، وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا نظير لها. وزين أبو جعفر عقب ذلك جهات المسجد الحرام الأربعة بالذهب والفضة الخالصة والفسيفساء[١] النفيسة، وفرش داخل الحطيم الكريم بالرخام المجلى، وزينه وأتم التعمير فى خلال ثلاث سنوات ثم سجل كل ما تم صنعه فى زمانه على لوحة رخامية وعلقها على كمر فوق باب بنى جمح[٢] الكائن فى ناحية باب الصفا.

فى نفس العام الذى تم فيه التعمير وبلغ غايته من الكمال سافر «أبو جعفر»

(١) يطلق الفسيفساء على الأشياء الملونة الصغيرة المصنوعة من الزجاج والنقوش المختلفة التى تكسى بها جدران المبانى الفخمة.

(٢) إن هذا الباب كان الباب المتصل بباب الخياطين الذى يتصل بباب إبراهيم، وقد ضم المقتدر بالله العباسى باب إبراهيم إلى الحرم الشريف سنة ٣١١.

لأداء فريضة الحج وزيارة الحرمين، ورأى ما تم توسيعه وزيادته فى حرم المسجد الحرام فعبر عن ابتهاجه وسروره البالغ.

وكان أبو جعفر يتصف بصفة البخل الدنيئة، فكان يضرب به المثل فى شدة البخل إلا أنه ـ لحكمة ما ـ فاق ما قدمه من البر والإحسان جميع الكرماء الذين ظهروا من قبله إذ أكرم سكان الحرمين ومجاورى المسجدين وأحسن إليهم إحسانا عظيما[1] ثم ذهب لزيارة القدس الشريف.

وكان المنصور معروفا ـ بجانب بخله وتقطيره ـ بالظلم، ويروى أنه قتل فى أثناء حكمه الذى دام اثنتين وعشرين سنة ستمائة ألف من المسلمين وأيديهم مغلولة؛ كل ذلك ليقرب الناس منه وليحطم أصحاب الثروة والنفوذ فى الدولة وليخوفهم، وفى أواخر أيامه بيت سوء النية لقتل «سفيان الثورى» ـ رضى الله عنه ـ إلا أنه عندما خرج لأداء فريضة الحج للمرة الخامسة متجها إلى مكة المعظمة ووصل إلى المكان المعطر الذى دفنت فيه أمنا ميمونة ـ رضى الله عنها ـ، أمر والى مكة بإعداد مشنقة لشنق سفيان الثورى وفعلا قد تم إعداد المشنقة واتخذت جميع تدابير الشنق.

وعندما شاع هذا الخبر فى مكة كان سفيان الثورى قد امتد متوجها إلى الكعبة واضعا رأسه فوق ركبتى الفضيل بن عياض ورجليه فوق ركبتى سفيان بن عيينة.

قال أحد أولياء الله المحبين الصالحين: يا سفيان قد جاء المنصور قاصدا صلبك وإعدامك ووصل إلى بئر ميمونة وكتب إلى حكومة مكة حتى تعد مشنقة لصلبك، وقد أعدت فعلا مشنقة لذلك، وإذا ما استطاع هذا العدو الحاقد أن يضع يديه على جسمك الشريف إننا نتعرض لشماتة الأعداء، ونقع فريسة للمصائب والاضطرابات فقام سفيان من مكانه منتفضا، والتصق بستارة الكعبة المعظمة وقال بصوت مرتفع «لو وصل المنصور لهذا المكان فإننى لن أذكر الكعبة

(١) قد أعطى لكل واحد من أشراف قريش ألف (فلورى) ولم يكن هناك مكى يعرف إلى ذلك الوقت من أعطى له هذا القدر من النقود.

طول عمرى» ثم امتد مرة أخرى واضعا رأسه على ركبتى فضيل ورجليه على ركبتى سفيان بن عيينة[١].

وعقب ذلك وصل خبر هلاك المنصور وهو أنه كان يركب حصانا ووقع منه، وتناولت الأفواه الخبر فى أرجاء مكة. وبما أن دعاء سفيان قد استجيب فقد تحرك المنصور من بئر ميمونة ووصل إلى «الحجونين» الكائن بين جبلين حذاء مقبرة المعلى وسقط من فوق حصانه على عنقه ومات متأثرا بذلك.

يقول مؤلف (لطائف الأخبار) عمر بن فهد: ولما كان المنصور متسلطا على الناس يضطهدهم؛ خاف رجال السلطة من انتقام الشعب من جثته وأمروا بحفر مئة قبر ودفنوه فى القبر المائة، وأخفوا عن الناس القبر الذى دفن فيه وكتموا أمره. وكان سبب رغبة المنصور فى إعدام حضرة سفيان واستثقاله ما وجهه إليه من النصائح والوصايا.

اتفق ذات يوم أن التقى سفيان بالمنصور فى (منى)[٢] وقال له «يا منصور اتق الله رب الكائنات واذكر ما رفعك إليه من منزلة، لقد بلغت هذه المنزلة العالية بفضل سيوف المهاجرين والأنصار وأولادهم وأحفادهم وما بذلوه من جهد، والآن قد عصفت بهم صروف الدهر، وأما أنت فشحيح ممسك[٣] ولم يستطع عمربن الخطاب أن ينفق أكثر من خمسة عشر دينارا فى أثناء حجه، ومثله مثل الحجاج قد قنع بالجلوس تحت ظل شجرة، وأنا أعرف أن الرجل الحق هو من إذا ما ازدانت ذاته بالعلم والعمل أصلح حال الأمة وهذا الرجل هو من أتجه إليه بالخطاب فرد عليه المنصور فى حدة وغضب «هل تريد أن تساوى نفسك بى» فأجابه الشيخ قائلا «لا ، لا يجب أن تكون فى منزلة أقل مما أنت فيها وأنا فوق ما أنا عليها» فطرده المنصور من مجلسه.

(١) الخبر بطوله فى تهذيب التهذيب ٤/ ١١٤.

(٢) كان هذا اللقاء فى حج المنصور الأول.

(٣) كان قصد سفيان بهذه الجملة معرفة مدى بخل وخسة أبى جعفر لأن المنصور كان رجلا مقترًا يبحث عن حساب كل شىء حتى آخر دانق لذا اشتهر بلقب المنصور الدانقى.

سفيان الثورى:

إنه سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الكوفى من قبيلة «ثور» بن عبد مناة بن أد بن طابخة، ويكنى بأبى عبد الله، ولد فى السنة الخامسة والتسعين الهجرية، واستجاب لدعوة ربه فى سنة مائة وستين، يروى أنه دفن فى البصرة إلا أن قبره فى النجف الأشرف، وبناء على هذا يقتضى وفاته فى النجف الأشرف رحمة الله عليه.

* * *

(١) أمير المؤمنين فى الحديث وحيد زمانه فى الفقه والحديث والزهد أحد الثقات الإثبات مقدم عند الجميع، أخرج حديثه الجماعة، وهو إمام من أئمة المسلمين. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب. ٤/ ١١١ ـ ١١٥.

فى توسيع المسجد الحرام وتزيينه للمرة الرابعة

قد وسع المسجد الحرام للمرة الرابعة «محمد المهدى العباسى وذلك حينما رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسيع. وقد سافر بنية أداء الحج وزيارة الروضة النبوية المطهرة، واتجه إلى الحجاز الجالب للفيض الإلهى والمغمور بالغفران، وعندما وصل إلى مكة المكرمة أقام فى «دار الندوة» الخاصة بالخلفاء العباسيين، وهناك اطلع على أن الحرم الشريف فى حاجة للتوسيع والتعمير وظهرت لديه الرغبة فى إجراء ذلك. وفى أثناء ذلك شرف بالمثول بين يديه عبد الله بن عثمان بن إبراهيم من خدم الكعبة المعظمة.

وقال له «يا مولاى: أريد أن أقدم لك هدية لم تقدم لأحد من الخلفاء قبلك، وقدم له حجر (مقام إبراهيم) المبارك لأجل زيارته. سر (المهدى) من صنع (عبد الله بن عثمان) فأمسك بالحجر الشريف ومسح به عينيه ووجهه ثم قبله. ثم أمر أن يملأ أثر القدم فوق الحجر بماء زمزم وشربه، ثم بعث بالحجر الشريف إلى قصر حريمه فتشرفن برؤيته والتبرك به، ثم أعاده إلى عبد الله بن عثمان ليعيده إلى مكانه.

وعقب ذلك مثل بين يديه بعض الأشخاص من كبار خدمة البيت وقالوا له «مولاى! كثرت الكسا على كعبة الله، ومن المحتمل أن تنهار جدران الكعبة تحت ثقلها» وكأنهم كانوا يلوحون بأنه قد حان وقت تغيير الكسوة وتجديدها.

فأمر الخليفة بإزاحة ما تراكم على الكعبة من أكسية، ثم أمر بتعطير الكعبة بدء من أسطحها وداخلها وخارجها بالمسك والعنبر والعطور الأخرى، ثم ألبسها بثلاث طبقات من كساء ذا بهاء، ثم أمر بأن تبدل سلاسل القناديل التى فى داخل

كعبة الله بالذهب، ثم قدم عطايا وفيرة ثم اشترى المنازل التى بين المسجد الحرام والمسعى الشريف، وأمر بأن تلحق بالحرم الشريف وعاد.

وبناء على ما يرويه المؤرخون الذين اهتموا بما وزعه المهدى وأعطاه لأهل مكة من العطايا الملكية ونوعها ومقدارها فى ذلك العام إذ أنفق الخليفة فى تلك السنة ستمائة ألف ذهب جعفرى. وثلاثة ملايين درهم وخمسة عشر ألف ثوب من الثياب البغدادية الفاخرة وحمل خمسمائة جمل من الثلج والجليد، وهكذا حرر كل أهل مكة مما أثقلهم من الفاقة والخصاصة.

إن الشخص الذى عين فى مديرية بناء الحرم الشريف للقيام بإنجاز الأمر الصادر من قبل المهدى، استدعى أصحاب البيوت التى يقتضى هذا الأمر شراؤها، بعد عودة الخليفة وأوصاهم بأن يدفع لهم مقدار ثمانية وخمسين ألف مثقال من ذهب، ثم هدم المنازل المشتراة وضم عرصاتها إلى الحرم الشريف، وهكذا وسع الجدار الغربى للحرم الشريف إلى باب العمرة والجدار الجنوبى إلى «قبة الشرابة» المعروفة بقبة العباس وذلك فى سنة (١٦١هـ).

وإن كان متولى أمر البناء يرغب فى توسيع الجهة الجنوبية من الحرم الشريف أكثر، إلا أن المكان الذى يلزم إلحاقه كان متصلا بمسيل الوادى ولما كان إرساء الأساس فى مجرى السيل من الصعوبة بمكان فلم يستطع توسيعه، ومع هذا قد اتسع ما بين كعبة الله المعظمة وجدار الحرم الشريف الجنوبى قدر (٦٣) قدما.

بعد ما أتم متولى أمر البناء جلب كل ما ينقص الحرم الشريف من مصر جلب أربعمائة وثمانين عمودا حجريا، وركزها فى الأماكن الخاصة وصنع فوقها أربعمائة وثمان وتسعين قبة، وهكذا أحكم قبب الحرم الشريف التى تحيط به.

ثم أنشأ بين المسعى اللطيف والحرم الشريف بقعة غاية فى الزينة التى تعرف «بدار القوارير» وفى ختام التعمير عرض الأمر على مقام الخلافة العالى.

وكان قد بقى ميدان صغير عقب التعمير بين المسجد الشريف والمسعى اللطيف، فأخذ جعفر بن يحيى البرمكى وزير «هارون الرشيد» عهدة هذا الميدان، وفيما بعد استقطع عدة بيوت ومساكن ثم ساحة (دار القوارير) وأقام فى المتسع دارا منقطعة النظير.

وبعد مدة انهارت كل هذه المبانى ماعدا دار القوارير. واندرست أسسها وضاع أثرها وأقيمت فى مواضعها ربط حصينة، كما أن هذه الربط انهدمت على مر الزمان، ولكن السلطان (قايتباى) المصرى ابتاع هذه الربط بتمامها وهدم ما تبقى من آثارها، وبنى المدرسة والرباطان اللذان ينسبان لاسمه، وبنى بعض العقارات وأووقف ريعها للإنفاق على ترميم المدرسة والرباط المذكورين وتعميرهما.

والبيت الأنيق الذى بنى على أرض دار القوارير انتقل بمرور الزمان ليد جواد البربرى، وفرش جواد داخل ذلك البيت وزينه بالزجاج الملون، كما زين خارجه بالرخام المصقول المختلف الألوان، لكن ذلك البيت فقد قيمته بوفاة جواد، وانتقل المنزل من يد لأخرى ثم انهار وبنى مكانه الربط والمدارس.

ولما أبلغ متولى أمر المبانى (المهدى) بإتمام تعمير المسجد الحرام؛ رغب الخليفة فى زيارة أبنية المسجد الحرام الجديدة، وتوجه إلى مكة المعظمة ورأى أن ناحية مسيل الوادى لم توسع، وأن هناك فاصلة كبيرة بين البقعة المقدسة لبيت الله وبين الجدار الجنوبى للحرم الشريف، ورأى أنه إذا ما وسعت هذه الجهة سيضيف هذا إلى المسجد رونقا وجمالا زائدا، وستتوسط الأبنية المربعة للبيت الأعظم مساحة مسجد الحرام، واستدعى الموكلين ببناء المسجد، وأطلعهم على ما يجول فى خاطره وأمرهم بأن يجددوا ذلك المكان وفق اقتراحه ورأيه؛ ولكن متعهدى البناء قالوا إِذَنْ يجب أن تهدم جميع البيوت التى على الضفة المقابلة لمسيل الوادى، ويحفر مجرى آخر ويضم المسيل القديم كُلّه إلى الحرم الشريف، وهذا الأمر فى منتهى الصعوبة بل مستحيل.

لأنه يلاحظ أن السيول التى سترد من وادى إبراهيم ستهدم جميع الأبنية

الجديدة التى ستبنى بعد تغيير المجرى من أساسه، وستدخل المسجد الحرام وتخرب جدرانه؛ لهذا يجب شراء منازل كثيرة أخرى وهدمها حتى ترسى أسس جدران مجرى السيل الجديد، وهذا يقتضى مصروفات باهظة ونفقات لا تعد ولا تحصى.

وأرادوا أن يعلقوا رغبة المهدى إلى المستحيل بمثل هذه المغالطات الفكرية.

إلا أن (المهدى) أصر على رأيه وأكده قائلا: «إن التفكير فى النفقات من شأنى أنا وعليكم أن تبادروا من الآن أن تقوموا بعمل ما بينت لكم فقوموا بتقدير مساحة الموضع ووفقا للخريطة التى سترسمونها» وقد رأى القائمون بالبناء أن الخليفة لا ينثنى عن رأيه، فوجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بالقياس، فركزوا الأعمدة فى المواضع التى ينبغى تركيزها فيها ومدوا الحبال.

وعينوا مقدار توسيع الحرم الشريف، ثم قدموا كل ما قيدوه فى مضابطهم مع الخريطة التى رسموها للموقع إلى الخليفة، ثم صعد الخليفة فوق جبل أبى قبيس ورأى أن أبنية الكعبة المعظمة قد توسطت الأعمدة التى ركزت وحددت بالحبال، أى أن الكعبة أصبحت فى وسط المسجد الحرام كما رأى عدد البيوت التى ستشترى وتهدم، ثم أمرهم بأن يبادروا فى تجديد الجدار بموجب خطه فى الخريطة، ثم عاد.

وبناء على هذا جلب العدد الكافى من العمال وشرعوا فى شراء المنازل التى توجد فى الأماكن التى يلزم ضمها وإلحاقها بالمسجد الحرام، وهدمت تلك المنازل، وهكذا وسعوا المسجد الشريف من باب (هاشم) إلى باب (أم هانئ) وبهذا أصبحت الفاصلة بين الكعبة المعظمة والجدار الجنوبى لحرم المسجد الحرام (١٢٧) قدم وست بوصات.

قد تمت هذه العمارة فى ظرف أربع سنوات كاملة، وكان فى ضمن البيوت التى اشتريت (دار أرزق) ودار (خيرة بنت سالم الخزاعى) وبيت (جبير بن

مطعم) ودار (شيبة بن عثمان) وقد ضُمَّتْ أراضيها إلى ساحة الحرم الشريف ذات الفيوضات، وهكذا وصلت الفسحة، ووسع الحرم الشريف بهذا القدر.

إن بنيان وتعمير الخليفة المهدى وصل إلى غايته وانتهى قبل أن ينتهى تعمير أبنية المسجد الحرام؛ إلا أن ابنه حينما اعتلى كرسى الخلافة وهو (موسى الهادى) أمر بإتمام تعمير أبنية المسجد الحرام، واستعجل ذلك فتم البناء فى أواخر سنة (١٦٩)[1].

* * *

(١) توفى الخليفة المهدى فى أوائل سنة (١٦٩)، وكان يحب الإحسان ولاسيما فى الحرمين الشريفين.
وقد أمر بحفر أحواض فى اثنى عشر موقعا من الطريق الذى يبدأ من بغداد وينتهى بمكة المكرمة، وسقى الحجاج شرابا مخلوطا، وعلق القناديل التى فى داخل بيت الله بسلاسل ذهبية.
وقد غير كسوة بيت الله القديمة سنة ١٥٨ وألبس «ليلى» هذه التى يعشقها العالم ملابس جديدة، وأصبح منذ تلك الليلة تغيير كسوة الكعبة الشريفة عادة بين المسلمين.
قد جدد حجر إسماعيل وكذلك الأميال التى توجد فى مراحل الحج ومنازله، وقام بحفر الآبار فى الموقع التى فى حاجة إليها، وكذلك جعل إرسال الصرر لأهالى الحرمين بين الخلفاء عادة، ولم يكن أحد يرسل الصرر إلى الحرمين قبله و قد عطر سطح كعبة الله فى سنة حجه بالمسك والعنبر، وكذا غالبية الأماكن وجميع أركانها وألبس كعبة الله ثلاث طبقات من الكسا الحريرية طبقة فوق طبقة.

الصورة الخامسة

فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه العرض والبيان

الباب المعلا ـ خلعت عضادة باب كعبة الله المكفت بالذهب بمعرفة الحكومة، فى عهد الفتنة التى قامت عام ٢٥١ هجرية، وألواحه الذهبية كذلك فى عام ٢٦١ هجرية وصرفتها للإنفاق منها للقضاء على الفتن والاضطرابات، وقد حفر جب عميق فى الجاهلية لتحفظ فيه الأموال والهدايا الثمينة المرسلة من قبل أكاسرة الفرس وملوكهم تعظيما للكعبة وتفخيما لها بغية حمايتها من نهب الأشرار المغيرين ثم غطى الجب. وكما أن المجوهرات الثمينة المتنوعة المهداة منذ عصر إبراهيم (عليه الصلاة والتسليم) وضعت فى داخل هذا الجب إلا أن هذا الجب لم يكن (الأخسف) الذى حفره إبراهيم ـ عليه السلام ـ بل كان حفرة أخرى، فى داخل كعبة الله.

وقد عثر عليه قائد المجاهدين ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى عام الفتح وأمر بفتحه، وأخرج منه أشياء ثمينة من ذهب وغيره لا تعد ولا تحصى من هدايا الملوك والأمم.

واستصوب أن تحفظ في خزينة بيت الله الأعظم وكان مقصد سلطان الأنبياء من هذا تعليم أمته أنه يجب ألا تمتد الأيدي على أموال كعبة الله.

كما أنه هدم بيت الله وبناه من جديد ليؤلف قلوب قريش. قد استصوب حيدرة[1] الكرار ـ رضي الله عنه ـ استخراج تلك الأموال وإنفاقها في أمور الجهاد، وكان ذلك في أول مرة في عصر النبوة السعيدة وفي المرة الثانية في عهد الصديق ـ رضي الله عنه ـ واضطر أن يسكت إذ أخذ الرد بالنفي من كليهما.

(١) من ألقاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وأراد الفاروق الأعظم في عهد خلافته أن يقسمها بين المسلمين وأن يوزعها عليهم إلا أن أبا شيبة بن عثمان ـ رضي الله عنه المنان ـ قال له:

«يا عمر: كيف تتنكب أثر النبي الكريم والصديق المحترم؟ وقد نبتا في حياتهما على الاحتفاظ بتلك الأموال فى خزينة بيت الله «فصدق على قوله قائلا: «إنهما قدوة الأنام وإمامان واجبا الاحترام ويجب علينا أن نقتدي بآثارهما «وقرر على حفظ تلك الأموال فى خزينة كعبة الله.

وفي الواقع لم تمتد يد إلى خزانة بيت الله فترة طويلة بناء على القرار السابق، ولكن وآأسفاه أن الثائر «حسين الأفطس»[1] هجم على مكة المشرفة واستولى عليها بتحريض خبيث من بعض السفلة وأخذ الأموال المحفوظة في خزينة بيت الله منذ الفتح قائلا: ما جدوى هذه الأموال للكعبة؟ إننى سآخذها وأنفقها فى أمور الجهاد، ثم ابتدر في تبذيرها وتوزيعها كما يحلو له منذ ذلك الوقت انقطع إرسال الهدايا إلى خزينة بيت الله من قبل الملوك إذ غلبت عليهم فكرة ظهور غاصب آخر يستولى على الهدايا المرسلة لبيت الله المعظم.

وبعد نهب حسين الأفطس الأموال التي كانت مدخرة في خزينة بيت الله المعظم وإنفاقها باثنين وخمسين سنة بعد هذا الحادث، ظهرت فتنة إسماعيل السفاك.

قد رفع السفاك المذكور علم العصيان بغتة وهجم على مكة فَفَرَّ وَالِيْهَا ثم اقتحم مقر الحكومة ونهب كل ما يخص من أموال الوالى وأتباعه وأشياعه وكسوة كعبة الله وخزينتها وجمع من الأهالى مائتى ألف قطعة ذهبية بالقوة واتجه إلى دار الهجرة وهو يقصد قتل حاكم المدينة المنورة إلا أن الحاكم قد عرف قدومه فاختفى عن الأعين فعاد السفاك يائسًا آيسًا إلى مكة حيث ضيق على أهلها وحاصرهم فكان سببًا فى موت كثير من الأبرياء من العطش والجوع. وأغار فى فترة ما على جدة ونهب أموال التجار وتجرأ على أن يقطع طريق مكة وأن يعلن الحرب على الحجاج الذين ذهبوا إلى عرفات لأداء شعائر الحج وقتل منهم ألف

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٨/ ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

ومائة نفر فاستشهدوا وهم يلبسون ملابس الإحرام. ونهب أموال المسلمين الذين لجئوا إلى قمم الجبال فى هذه الاضطرابات والفتن فى سنة (٢٥١)، أما المسجد الحرام فقد أهملت العناية به بسبب هذه الاضطرابات إحدى وعشرين سنة، وبناء على هذا ظهر الخلل المفضى إلى الانهيار فى الجدار للمسجد الحرام، كما أن البيت الذى أقامته السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد قد تقادم وأوشك على الخراب، وكانت هذه الدار متصلة بالجدار الغربى للحرم الشريف وبدا فيها البلى جليا، مما أفضى إلى انهياره بغتة فتسبب بذلك فى هدم الجدار الغربى للحرم الشريف وخربه فمات تحت أنقاضه عشرة أشخاص. وقد بلغ الأمر لحكومة بغداد بالتفصيل، وحينئذ أمر الخليفة (الموفق بالله العباسى) بهدم الجدار من أساسه ليقام من جديد كما ينبغى أن يكون وذلك فى عام ٢٧٢.

أما (دار الندوة) التى أقيمت لسكنى خلفاء بغداد فيها، فأصبحت ميدانا تراكم فيه القمامة بعد أن تهدمت وأصبحت أطلالا مستقبحة المنظر وكان السيل الذى يأتى بين الفينة والفينة تتجمع مياهه فى ذلك الميدان وتجرف معها الكناسات إلى ساحة المسجد الحرام فتملؤها وتفسدها، كما أن سقوف الحرم الشريف تقادمت وقد امتزج المطر فى أماكن مجرى السيل، وعلت فأصبحت مياه السيل تفيض وتدخل فى داخل الحرم الشريف وتزيل حصى جدران الكعبة الداخلية وفسد الرخام على سطحها حتى أصبحت إقامة الصلاة فى داخل المسجد الحرام فى حكم المستحيل.

إن اللوحة الفضية المزخرفة التى ألصقت بدلا من اللوحات الذهبية لباب كعبة الله ذات الفيوضات التى كانت قد انتزعت من قبل واستخدم ثمنها لدفع الفتن والزخارف الثمينة قد محيت فى أثناء تضرعات الحجاج وتوسلاتهم فأصبح أعلى الباب فى لون وأسفله فى لون آخر، كما فسد رخام الحطيم وأرضية المطاف الرخامية كذلك داخل البيت الحرام وخارجه وجميع جهات ساحة المسجد الحرام قد تضررت.

قد أخبر الشريف عج ابن حج بالاتفاق مع (محمد بن عبد الله) شيخ مكة المعتمد بالله العباسى بجلية الأمر كما ابتدر بعض خدمة كعبة الله بالذهاب إلى بغداد وبينوا الوضع شفهيا للخليفة وأوضحوا له أن هذه الحالة تدمى قلوب أهل الإيمان، وأنه إذا ترك الحال كما هو فالمظنون أنه سيفتح بابا لمصروفات كبيرة فى الأيام القادمة.

وكان لهذا القول أثر كبير فى نفس الخليفة، فأمر بتعمير الأماكن المتضررة من المسجد الحرام وكذلك البقعة المقدسة لكعبة الله وهدم دار الندوة وبناء مسجد مكانها كما أمر بحفر وتطهير مجرى السيل المتصل بالجدران الشرقية والجنوبية، حتى يصل إلى عمقه القديم وذلك لحماية الحرم الشريف من مياه السيول التى يتوقع حدوثها. وبعث مبالغ طائلة مع مندوب خاص له.

وبمجرد ما وصل رجال الخليفة من بغداد إلى مكة ابتدءوا فى تعمير المسجد الحرام فى خلال سنة (٢٨١).

وغطوا باب كعبة الله بصفائح ذهبية خالصة العيار كما كان من قبل. ثم أخذوا فى حفر الأماكن التى سبق شرحها. ثم حفروا سبعة أدراج من السلم المطل على مجرى السيل والتى كانت قد غاصت فى الطين إلى أن ظهر الدرج الأخير. ثم هدموا أبنية دار الندوة وبنوا فوق أرضها مسجدا منفصلا ثم قسموا الجدار الذى ظل بين هذا المسجد والمسجد الحرام وفتحوا ست بوابات كبيرة الارتفاع كل واحدة منها سبعة عشر قدما وعرضها سبعة أقدام وبوصة واحدة، كما فتحوا أبوابا صغيرة بين كل اثنين من البوابات ارتفاع كل واحد منها أحد عشر قدما وأربع لنيات وعرضه ثلاثة أقدام وثلاث لنيات. وفتحوا للخروج من مسجد الندوة بابين بابا من جانبه الشمالى وبابا واحدا من جانبه الغربى ثم غطوا فوق الأبواب بأسقف عالية وأروقة معينة ثم صنعوا له مئذنة. إن هذا التعمير قد اكتمل سنة (٢٨٤) وظل شكله كذلك اثنتين وعشرين سنة، ولكن رئى مؤخرا أنه يوضع بشكل أجمل وبناء على الأمر الذى صدر من دار الخلافة إلى والى

مكة المعظمة القاضى محمد بن موسى بتجديد مسجد دار الندوة فقام به، كما عمر وقوى كمر الأبواب التى فتحت فى جدار الحرم الشريف، وقد فعل ذلك بحيث يمكن لمن يقف فى داخل الأرض الزائدة عن دار الندوة يستطيع أن يرى الكعبة المعظمة بكل سهولة.

ثم ركز أعمدة مستديرة مصنوعة من الحجارة السوداء المنحوتة، وربط ما بين الأعمدة بالأكمار القوية المستحكمة وصنع سقفا منقوشا من خشب الساج الملون بألوان مختلفة، وضم مسجد دار الندوة لساحة المسجد الحرام فى سنة (٣٠٦) وإن ظل الحرم الشريف إلى عهد المقتدر بالله على شكله الذى عرفناه دون زيادة أو نقصان ودون تغيير أو تبديل. إلا أن الخليفة المشار إليه اشترى الأرض الزائدة عند باب إبراهيم عند استعلائه العرش. وضمها للحرم الشريف ثم أنفق لسكان الحرمين المحترمين من الزوار (٣١٥٤٢٦) عددا من الذهب الفيلورى[١] ثم اتخذ لنفسه عادة إرسال ذلك القدر من الصرة كل عام سنة ٣١١[٢].

زيـــادة:

إن باب إبراهيم منسوب إلى شخص اشتغل بالخياطة ويسمى «إبراهيم» كان لهذا الشخص بجانب الباب المذكور حانوت كبير نوعا ما وكانت شهرته فى صنعته ذائعة.

وقبل أن تلحق الأرض الزائدة لباب إبراهيم كان هناك قرب (باب حزورة) باب (الخياطين) المتصل برواق الحرم الشريف، وكان بجانب هذا الباب بابان شهيران باسم (حجج) وكان خارج هذين البابين دار السيدة (زبيدة) زوجة هارون

(١) إنه يساوى بقيمة العملة الحالية ١٥٧٧١٣٠٠ قرش وستتحدث عن الذهب الفيلورى فى بحث المسكوكات ونبين قيمة تداوله.

(٢) إن إرسال الصُّرَر يُعَدُّ سنة من آثار الخليفة المقتدر بالله الخيرة وبناء على تحقيق كاتب جلبى أن إرسال الصرة إلى عهد ذلك الخليفة لم يكن من عادة الخلفاء وأن فقراء أهل الحجاز كانوا ينالون نصيبهم من مرتبات مستخدمى الحكومة وكان قدره مليونا وخمسمائة ألف قرش، وكانت مائة ألف من هذه النقود ترد من اليمن وخمسمائة ألف من البحرين وثلاثمائة ألف من عمان وستمائة ألف من اليمامة.

الرشيد. ومع مرور الزمن قد مال ما بين منازل زبيدة وباب حجج للخراب، وقد تهدمت تلك الأماكن فى عهد الدولة العثمانية الباعثة للتعمير، واتخذت شكلا آخر ولم يبق الآن أثر لأى من دار السيدة زبيدة ولا من الميدان الواسع الذى سبق ذكره. انتهى.

وظل الحرم الشريف بعد تعمير المقتدر بالله العباسى ما يقرب من خمسين عاما على نفس الحالة.

وفى خلال هذه المدة لم تمتد يد التعمير إلى الأماكن التى تحتاج إلى الإصلاح، فتلف معظم رخام المطاف فاستحالت الصلاة عليه، كما لم يكن فى الإمكان السير عليه، لذا بدل معظم رخام المطاف الشريف فى عهد المستنصر بالله العباسى وعمر تعميرا جيدا ثم كتب فوق قطعة رخام هذه السطور:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة هذا المطاف الشريف، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم مقتضى الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر منصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله، وذلك فى شهور سنة إحدى وستين وثلاثمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

ثم علقت وألصقت على الجدار الشرقى الملاصق لحفرة مقام جبريل والكائن فى جهة مقام إبراهيم لكعبة الله. فى سنة ٣٦١.

وبعد مرور ست سنوات على العمارة التى قام بها المستنصر بالله العباسى وفى عام ٣٦٧هـ بنى فاعل خير يسمى الأمير شرف الدين على يمين الداخل من باب السلام مدرسة لا عيب فيها وألحق بها دار كتب وملأ أصونتها بكتب متنوعة لا حصر لها[1].

وفى سنة ٥٤٢ أصلح المقتفى بالله العباسى السلم الذى يؤدى إلى سطح

(١) قد خربت هذه المدرسة ودار كتبها فيما بعد ونقلت كتبها إلى قاعات الدروس فى الرباطات ولكن مع الأسف تعرضت تلك الكتب للنهب والسلب فى خلال ثورة سنة (٤٦١) كما انهار ذلك الرباط ومكتبته وأصبحا خرابا.

الكعبة المشرفة. وبعد عشرة أعوام من تعمير الخليفة المقتفى بالله تقادم باب الكعبة وانكشفت أخشابه واستوجب الإصلاح. وفى خلال عام ٥٥٢ أمر الخليفة المقتفى بالله بتغليف الباب المذكور وتزيينه بصفائح الذهب والفضة وبسبب الزلزال الذى وقع بعد سبع سنوات تعرض الجدار اليمانى لبيت الله المعظم للسقوط والانهدام فبادر المستنجد بالله بن المقتفى بالله بإصلاحه وتعميره فى سنة ٥٥٩.

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق:

فى ليلة السبت من أواخر شهر شوال عام (٨٥٢) هجرية اندلعت النار فجأة من غرف رباط رامشت المتصل بباب حزورة وباب زيادة إبراهيم، وامتدت النار إلى جهة الشمال والغرب للحرم الشريف، وأحرقت سقوفه مع (١٣٦) عمود من الأعمدة الرخامية، وانطفأت النار بجانب باب العجلة، لأن السيل الذى حدث قبل الحريق المذكور قد دخل فى المسجد الحرام و أوقع كمر عمودين صلبين عند الباب السالف الذكر وخربه فحدث فاصل كان سببا فى انطفاء الحريق، ولو لم يكن ذلك الفاصل موجودا كان من المحتمل أن يستمر الحريق ويمتد، وأبدى موظفو الحكومة وأهل البلاد همة عظيمة فى إخماد الحريق ولكن جميع الجهود ضاعت سدى ولم تنفع فى إخماد الحريق، ولم تعد الأماكن المحترقة صالحة لأداء الصلاة فامتنع المصلون عن الصلاة فى تلك الأماكن مدة طويلة.

ويرى بعض المدققين أن ظهور السيل العظيم الذى هدم العمودين بالقرب من باب العجلة محدثا الفجوة التى سبق ذكرها كان مقدمة لهذا الحريق؛ لأن هذا السيل بدخوله الحرم الشريف ارتفع إلى محاذاة القناديل المعلقة بالأعمدة التى تحيط بالمطاف الشريف، ودخلت المياه فى داخل البيت الحرام من خلال مصراعى باب الكعبة وأسقط العمودين بكمرهما بالكائنين بجانب باب العجلة كما خرب كثيرا من البيوت الرصينة فى داخل المدينة، وقد سكت بعض المؤرخين عن تعيين سبب الحريق، وقال بعضهم إن أحد سكان رباط رامشت أوقد مصباحه وخرج خارج حجرته، وعقب ذلك ظهرت نار من تلك الحجرة، وأحاطت بالأطراف

وأحرقت الحرم الشريف، وإذا نظرنا لهذه الحالة فعلينا أن نفهم أن فأرا قد حمل فتيل ذلك المصباح المشتعل وتسلق سقف الحجرة وانتشرت النار من ذلك الفتيل إلى أطراف السقف وتسبب فى الحريق.

تجديد المسجد الحرام:

ذاع خبر الحريق فى جميع البلاد الإسلامية وتأثر الجميع من هذه الواقعة التى تنفطر لها الأفئدة، فلما سمع بذلك الملك الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق وهو من ملوك الشراكسة فى مصر أراد تجديد الحرم الشريف وإصلاح أماكنه الأخرى؛ فعين الأمير ببسق الظاهرى أميرا للحج، وعهد إليه بوظيفة أمانة الأبنية المقدسة السامية وأرسله إلى مكة المكرمة فى سنة ٨٠٣.

ووصل الأمير ببسق إلى مكة المكرمة وقام بتنفيذ ما عهد إليه فأمر بتطهير ساحة المسجد الحرام وتنظيفها وكذا الأماكن التى تعرضت للحريق وتعميق حفر الأسس، ثم بادر إلى جلب ما تمس الحاجة إليه من الأحجار والأخشاب، وأسرع بتجديد البناء وتحتم تجديد الجدران فى أواخر عام سنة ٨٠٤هـ، وفى ظرف ثلاث أعوام أتم تجديد السقوف ثم أخذ يجدد السلاسل التى تعلق بها القناديل وفعلا علق القناديل التى أعدها من قبل، ثم أصلح وعدل مقامات الأئمة الأربعة[1] والمواقع التى تحتاج إلى التعمير على خير وجه، ثم عاد وكان قد جلب الأخشاب التى استخدمها لإصلاح السقوف الشريفة من قاهرة مصر فى سنة (٨٠٧).

وكان الأمير ببسق المصرى قد ترك أرض «رباط رامشت» المحترق على حاله

(١) قد جدد المقام الحنفى وعمره على التوالى ابن السلطان برقوق المصرى فى سنة (٨٥٧)، ثم الملك جاقمق المصرى فى سنة (٨٤٣)، ثم السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٢٣)، وبعده بستة وعشرين عاما وفى سنة (٩٤٩) السلطان سليمان، وفى سنة (١٠١٧) السلطان أحمد خان، وفى سنة (١٥٤٣) السلطان مراد خان الرابع، وفى سنة (١٢٥٩) هـ السلطان عبد المجيد خان. وكان التعمير فى عصر برقوق وعصر جاقمق (٩٢٣) و (١٠١٧) هـ وجدد فى عام (١٠٤٣) من حجر شمليس، كما جدد (المقام الشافعى) فى سنة (٧٠٧) من قبل برقوق المصرى. كما جدد المقام المالكى والحنبلى فى سنة (١٠٤٣) من قبل السلطان مراد خان الرابع من حجر شمليس.

وإن كان بقاء هذه الأرض المحترقة فى حالة خراب سيؤدى إلى أن تكون مقلبا لقمامة الحوانيت التى حولها، كما أنها ستحول دون النظام والنظافة المرجوان فى مكة المكرمة، فأراد الشريف حسن بن عجلان أن ينظم أزقة مكة المكرمة على قدر المستطاع.

كما أنه جدد الرباط المذكور وطهر جوانبه ونظفه رغبة فى البر والخير ولإيواء المحتاجين والمجاورين، ثم جعله وقفا لسكنى الغرباء فى سنة (٨٠٧).

كان السلطان غياث الدين المعظم أرسل النقود التى صرفها الشريف ابن عجلان مع رسول يسمى ياقوت وأمره بصرف جزء منها فى إنشاء مدرسة ورباط والتصدق بالجزء الآخر على الفقراء، وكان مع ياقوت هذا رسالة موجهة إلى الشريف حسن بن عجلان يبين فيها السلطان أن ياقوت قد ألحقه بمأمورية خاصة، كما أنه قد أذن له بإنفاق النقود التى أرسلها، ولما وصل ياقوت إلى مكة المعظمة أعطى الرسالة المذكورة إلى الشريف حسن بن عجلان، كما أنه ترك النقود التى رخص له بإنفاقها أمام الشريف الذى نحى ثلث النقود جانبا ووزع الباقى على الفقراء. وبنى ياقوت بالثلث الموقوف من النقود مدرسة ورباطا، وعين أربعة من علماء المذاهب الأربعة مدرسين على ستين طالبا من الذين اختارهم وهيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه من المعونات.

كما أنه أصلح طرق «عين بازان» والبركة الخربة فى المعلى وأجرى مياه العين المذكورة إلى هذه البركة؛ وذلك وفق تعليمات شهاب الدين الذى عينه الشريف حسن مساعدا له.

ويروى أن الشريف حسن بن عجلان أخذ من ياقوت لبناء الرباط والمدرسة باسم السلطان غياث الدين سبعة آلاف مثقال من الذهب، كما أخذ لتعمير العيون خمسة آلاف مثقال من الذهب، كما أنه استولى على الصدقات التى أرسلت إلى أهالى المدينة المنورة.

وسبب ذلك إصرار محافظ المدينة ألا يكون تحت إمارة الشريف وفق الأصول الجارية فى ذلك العصر. ومن عادات زمن إمارة الشريف حسن بن عجلان أن يأخذ ربع الأموال والأمتعة التى يمكن إخراجها إلى البر من السفن التى ترسو على الشاطئ فى سواحل جدة والشعيبية ويقتسمها مع الأشراف.

إن السفينة التى كانت تحمل الأموال التى بعثها الملك غياث الدين الأعظم قد تعرضت لحادث إلا أنه أمكن إنقاذ معظم حمولتها، وأخذ حسن بن عجلان ربع الأموال التى أنقذت وفقا لعادات ذلك الوقت، إلا أنه اغتصب جميع الأموال التى أرسلت إلى دار الهجرة، وهكذا ظلم أهالى المدينة المنورة وغدر بهم.

إن تجرؤ الشريف حسن بن عجلان على التصرف بشكل يخالف عادات الأشراف كان سببا فى عصيان محافظ المدينة المنورة السيد حجاز وطغيانه، ولكن لشدة الأسف أن هذا العجلان قد كان سببا فى خذلان عامة أهل المدينة، وبعد مرور أربعة أعوام على تجديد هذا الرباط انهارات قنطرة المروة فأصلحها الناصر فرج الذى كان من ملوك الشراكسة فى مصر وفق طرازها القديم فى سنة (٨١١)هـ[1].

* * *

(١) إن هذه القنطرة كانت فوق الجبل الذى يطلق عليه جبل المروة وبما أنها أنشئت عندما فتحت البلاد الحجازية أصبحت تعد من الآثار العتيقة.

في العام الذي انهار كمر المروة وسقط اشترى ملك البنغال الشاه غياث الدين بن إسكندر الأعظم منزلين متصلين بباب أم هانئ، وأسس أربعة مدارس مكية من أجل علماء المذاهب الأربعة، ورتب لها وقفا لشراء كثير من العقارات، وعين لكل مدرسة مدرسا من المذاهب الأربعة وخمسة عشر طالبا لكل مدرسة، وتكفل بإعاشتهم.

وأصلح طرق عين عرفات وعين بازان وبركة المعلى ونظفها كما ينبغي فأجرى المياه إلى مكة المكرمة في سنة ٨١١.

فائدة:

إن بلاد البنغال الآن من مستعمرات إنجلترا الشرقية وتقع بين خطي عرض (١٦) و (٣١) شمالا وبين خطي طول (٤٧) و (٩٦) شرقا ومساحتها (٣٥٨٧٦٩) ميلا مربعا، وعدد سكانها (٩٧١٠٠٠) وهي ولاية كبيرة ومهمة، وتنقسم إلى ثلاث أقسام (العليا، الوسطى، السفلى)، وتشمل مدنا كثيرة مثل كلكتا، باتنة، مرشد اباد، دكاو، بناري، بريلي، عصم واراقان، وتحد البلاد المذكورة شمالا نابول والبوتان، وشرقا عصم وجنيخ، وجنوبا خليج البنغال وأجزاء من ممالك أوربا، وأراقان، كما تحدها من الغرب ولاية بهار التي تحيطها بأراضيها، كما أن نهر غنخ يفصل هذه البلاد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

مدينة كلكتا وهي حاضرة بلاد البنغال ومقر حكومة الهند، وفي الجهة الشرقية من وادي حو تملي الفرع الغربي لنهر غنج، وتبعد عن شاطئ المحيط بما يقرب من مائة ميل، ويبلغ عدد سكانها (٧٠٠٠٠٠) نسمة وفق الإحصاء الذي أجري سنة

(١٨٤٢) الميلادية، ولذا سميت هذه المدينة الشهيرة قالكوتة لوجود كوتة معبد الهنود الشهير فيها والذي يضم في داخله الصنم المسمي بـ «قالي» من آلهة الهندوس القديمة، من هنا اقتضي إطلاق اسم قالكوتة على المدينة. انتهي.

وبعد سقوط كمر باب المروة بثلاث سنوات أصلح سطح بيت الله وبعض المواضع من المسجد الحرام في عام ٨١٤، وذلك لأن سطح كعبة الله المقدسة وكذلك أماكن كثيرة من المسجد الحرام آلت إلى الخراب.

ولما لم يعمر سطح بيت الله الحرام منذ (١٥٣) عاما لحق به الخراب إلى حد بعيد، وبهطول الأمطار أخذت المياه تنفذ داخل الكعبة من بعض مواضع السطح؛ لذا أصبح لزاما أن تمتد يد الإصلاح والتعمير إلى معظم مواضع الحرم الشريف، واقتضى الأمر إلى معاينة سطح الكعبة والمواضع التي ينبغي إصلاحها في المسجد الحرام فتم الترميم والإصلاح على الوجه المطلوب.

وبعد مرور سنة على ذلك الترميم تعرضت المدينة المقدسة إلى القحط واكتوت بناره، وقد وصل ثمن حمل بعير متوسط من الغلة إلى عشرين قطعة ذهبية، وبيع البطيخ الواحدة بقطعة ذهبية وذلك في سنة (٨١٥).

عجيبة:

حدث في أواخر شهر ذي الحجة أن حمل أحد الجمالين الذي عرف بتحميل جمله حملا فوق طاقته والذي كان يلقب بـ «القارونى» أراد الجمل أن يتخلص من ظلم صاحبه، وبطريقة ما دخل إلى المسجد الحرام وأخذ يدور ويطوف ببيت الله[1] وقد طاف حول كعبة الله المعظمة إحدى وعشرين مرة، ومسح وجهه

(١) كان هذا الحيوان يسكب دموعا من عينيه كقطرات المطر في أثناء طوافه، وفي موسم الحج من سنة ١٢٩٩ حدث مثل هذا الحادث في المدينة المنورة إذ دخل جمل شبيه بالجمل السابق صباح يوم إلى المسجد النبوي السعيد ومسح وجهه في باب السلام وبرك، ولم يقم حتى دفع ثمنه لصاحبه ودفع رجال الحكومة ثمنه لصاحبه ثم أرسل إلى حظيرة الدولة وعاش هناك إلى أن مات دون أن يستخدم في عمل. يروى أن صاحبه كان يؤذيه بشدة وكان يتركه جائعا.

بالحجر الأسود ثم وقف أمام المقام الحنفي أي حذاء الميزاب الذهبي فترة ما، ثم برك على الأرض وأسلم روحه وهو يسكب دموعا مثل حبات الحمص.

قد أثار الحدث عجب الناس وحدتهم، وشد انتباههم ثم رفعت جثة الجمل ودفن في مكان في شارع المروتين أي في محل وسط المسعى الشريف وذلك في سنة (٨١٥)، وبعد وقوع هذه العجيبة بعام واحد ابتاع الشريف حسن ابن عجلان ساحة المستشفى التي أقامها المستنصر بالله الكائن في جهة الشمال من جدار المسجد الحرام، ثم جدد المستشفى وأوقفه على علاج المرضى الفقراء، كما أصلح وجدد كمر بابين أوشكا على السقوط في الجهة الجنوبية من جدار الحرم الشريف في سنة (٨١٦)، كما أن الملك المؤيد زين ألواح مصراعي باب كعبة الله بأن طلاها بالذهب في خلال تلك السنة أى (٨١٦).

زيادة:

قد انهدمت المستشفى التي جددها الشريف عجلان بعد (١١٠) سنة، واشترى السلطان سليمان خان من سلاطين العثمانيين ساحة المستشفى المذكور وخرائب تكايا أحمد كجراوي من سلاطين الهند والشيخ طاهر وكذلك المنازل المتصلة بها، وبنى أربع مدارس كبيرة لعلماء المذاهب الأربعة وجعلها وقفا. إن هذه المدارس الأربعة مازالت قائمة إلى يومنا هذا وعامرة كما سيأتي ذكرها فيما بعد.

قد اتخذ جلبي سلطان بن سلطان يلديرم بايزيد خان ـ عليهما الرحمة والرضوان ـ إرسال صرة[1] إلى أهالى الحرمين الشريفين من ريع أوقافه الخاصة، كما اقتفى نجله النجيب السلطان مراد خان آثار أبيه ـ جعل الله مثواه الجنة ـ فأرسل إلى أهالي الحرمين ما مقداره (٣,٥٠٠) من الذهب الفيلوري واتخذت هذه العادة حكم القانون في سنة ٨١٧، وترسل كل سنة، كما أرسل السلطان مراد الثاني في سنة (٨٥٥) لجميع أهالي الحرمين (٨٠١) كيس من النقود.

(١) ولم تكن البلاد العربية قد ضمت إلى الدولة العثمانية بعد، وبما أن هذه الصرة كانت تبعث من بلاد الروم أطلق أهل الحرمين على صرة السلطان المشار إليه (الصدقة الرومية).

وقبل عامين من هذا كان الملك المؤيد قد طلا باب كعبة الله بالذهب وزخرفه، كما أرسل منبرا ثمينا وسلما جديدا، وضع السلم في داخل كعبة الله للصعود إلى سطح البيت، كما وضع المنبر في مكانه الخاص في سنة (٨١٨).

وبعد أربعة أعوام من هذا انهارت مظلة[١] المذهب الشافعي، أي قبة زمزم فجأة وأصبحت قطعا وخرابا ولكنها جددت فأصبحت بناء محكما بديعا رائعا في عام ٨٢٢هـ، وفي نفس العام طهرت ووسعت أحواض ماء زمزم وعين بازان التي خربت من السيل، كما نظفت وعمقت قنواتها ومجاريها التي امتلأت بالطين والتراب في سنة (٨٢٣). إن السطح الشريف لبيت الله الذي كان قد رمم وأصلح قبل أربعة عشر عامًا قد جدد مرة أخرى، كما أصلحت الأماكن المحتاجة للإصلاح من المسجد الحرام، فبدلت قطع الرخام التي كانت مفروشة في داخل بيت الله بأخرى جديدة. وبدلت الصفائح التي كانت على طلاء جدران الكعبة الداخلية ثم أعيد كل شيء إلى مكانه بعد تغيير ما لزم تغييره وإصلاح ما أمكن إصلاحه. وأراد السلطان برسباي سلطان مصر تغيير زخارف الأعمدة الداخلية لكعبة الله، وعرض الأمر على والى مكة وبتوجيه من أمانة الأبنية المقدسة أرسل إلى الحجاز ذات المناقب السنية الأمير (مقبل) في سنة ٨٢٤ هـ. وصل الأمير مقبل في أوائل السنة المذكورة إلى مكة المكرمة، وابتدر في أداء مهمته بعون مادي ومعنوي من قبل والى مكة، فرمم وأصلح الأماكن المحتاجة للتعمير والترميم من الحرم ثم هم وأصلح سطح بيت الله على الوجه المطلوب، واقتلع قطع الرخام التي تغطي أرضية كعبة الله كما اقتلع الصفائح التي تغطي جدران كعبة الله، فبدل قديمها وأصلح ما يمكن إصلاحه ثم وضع كل شيء في مكانه، وهكذا جدد من هيئة بيت الله القديمة فأعاد له رونقه وجماله.

وبعد أن زخرف الأمير مقبل الأعمدة التي في داخل كعبة الله وجدد قطع

(١) كانت هذه المظلة فوق باب زمزم وفي عام ٧٠٢ هـ، أمر ملك مصر بتسقيف المظلة حتى تصلح لجلوس المؤذنين وأداء مهمتهم.

الرخام التي في داخل الحطيم الكريم وخارجه أصلح وجدد كمر باب الجنائز وكان يطلق على باب الجنائز قديما (باب العباس) ولما أصبح إدخال توابيت الموتى من هذا الباب عادة أهل البلد أطلق عليه (باب الجنائز). إن أهالي الحرمين كانوا يدخلون جنازاتهم أولا في الحرم الشريف حيث يصلى عليها ثم يدفنونها في مقابرهم.

إن التوابيت التي يستخدمها أهل مكة المشرفة لا تشبه التوابيت المستخدمة عندنا فإنها قطعة خشب مستطيلة مثل الطوق وهي عادة باقية من عهد الجاهلية بناء علي اعترافهم، وتغطي جثة الميت الذكر بقطعة قماش مستوية بينما تُغَطَّى جنازة الأنثى بقطعة قماش مقوسة.

وأخيرا جدد عدة عقد في الطرف الشمالى من المسجد الحرام، ثم جدد مداخل باب العباس وباب علي، كما جدد مدخل (باب الصفا) الأوسط ومواقع (باب العجلة) و (باب الندوة الزائد) وأضاف إلى (باب الزيادة) ثلاثة كمرات.

ثم رفع الأعمدة التي تحمل هذه العقد، وأصلح ما يجب إصلاحه من الأبواب الأخري، وغير الستارة الحمراء التي في داخل الكعبة، ثم ألصق وعلق اللوحات الرخامية المزخرفة والتي أمر السلطان برسباي بتذهيبها وترتيبها على جدران كعبة الله الداخلية، وأنهى مهمته في صفر الخير من سنة ٨٢٥، وعاد إلى مصر و قد جدد السلطان برسباي بواسطة الأمير مقبل قطع الرخام التي في داخل بيت الله كما بدل وجدد طلاء جدران بيت الله الداخلية كما عمر باب الجنائز.

كما أنه أنعم وأحسن إلى الحجاج الذين حجوا بالقافلة المصرية إحسانا جما، وكان يبعث من المحمل المصري مظلات يقيمها حيث يبيت الناس ليظلل عليهم، ويروى أن هذا الشخص كان يأمر بذبح كثير من الأغنام وتوزيع لحمها مع الخبز والبقسماط على الحجاج.

وبعد عودة الأمير مقبل بسنة بعث الملك المظفر من ملوك اليمن المنقرضة مبلغا من المال مع رسوله الخاص، ورجا أن يعمر ويصلح ما يقتضي الأمر إصلاحه من مواقع الحرم الشريف. واتصل الرسول بوالي مكة المعظمة واستصدر إذنا من الحكومة المصرية بواسطة الوالي للقيام بمهمته، ولما كان سطح كعبة الله في حاجة إلى التعمير والإصلاح؛ فعمر قطع رخام السطح وأصلحها ثم سجل ما قام به على لوحة رخامية وألصقها على الجدار الغربي للكعبة المعظمة في سنة ٨٢٦.

وظلت كعبة الله والمسجد الحرام على حالهما بعد إصلاح الأمير مقبل ثمانية عشر عاما ولم يظهر فيهما ما يوجب إصلاحهما شرعا؛ إلا أن الحال لم يستمر طويلا بعد ذلك واحتاجت بعض أماكن البقعة المقدسة للتعمير بل وصل هذا إلى درجة الوجوب، فأرسل الملك جاقمق العلائي من ملوك الشراكسة في مصر الأمير سودون محمد من أمراء مصر لتعمير قطع الرخام التي فوق سطح كعبة الله وما يقتضي الأمر تعميره من الحرم الشريف وذلك في سنة (٨٤٣) ولما وصل (سودون محمد) إلى مكة المعظمة بدل رخام سطح الكعبة الشريف كما غير الألواح الخشبية التي لم تعد صالحة في السقف العالي لكعبة الله، ثم عمر وشيد المآذن التي آلت للسقوط، ثم خلع كسوة الكعبة الشريفة ووضعها في داخل البيت الحرام. ثم أصلح وسوى الجدران الخارجية لبيت الله بطريقة جيدة خلال يومين، وجدد قطع رخام الحطيم الكريم كما جدد باب المعلى لكعبة الله وجميع الأماكن المحتاجة للتعمير من الحرم الشريف السقوف والرفوف، ثم عمر قباب مقام إبراهيم والمقام الحنفي وباب زيادة إبراهيم وطهرها، وركب في المحل الكائن في شارع المسعى الشريف والملاصق لدار العباس وفي مقابل بازان ميلين أخضرين ومع هذين الميلين علق فوق كمري الصفا والمروة قنديلين، وبهذا أنار شارع المسعى الشريف وزينه ثم عمر ورمم جميع المساجد النبوية التي في طريق عرفات الذي يبدأ من مقبرة المعلا وينتهي عند جبل الرحمة، وطهر طريق عرفات بأن قطع الأشجار والأشواك التي في حذاء طريق المأزمين؛ وهكذا أنقذ الحجاج

المسلمين من هجمات أشقياء العربان وتسلطهم.

كان المعتصم بالله البغدادى أمر بأن توقد مشاعل في قوافل عرفات لإنقاذ الحجاج من هجمات الأشقياء ولحمايتهم وذلك في سنة (٢١٩) وإلى ذلك الوقت كانت الوسيلة للإنارة هي إشعال شمعة على سنام الجمل. كما أمر سودون محمد بقطع الأشجار البرية والكلأ الشائك والنباتات البرية التى كانت كثيفة وعالية لدرجة أنها كانت تقطع أقمشة السرج التي صنعت لجلوس الحجاج فوق ظهر الجمال، كما كانت مكمنًا للصوص الذين كانوا يختفون في داخل هذه الأشجار ويفرقون قوافل الحجاج، وقد أنقذ سودون محمد الحجاج من القلق والاضطراب إذ قطع تلك الأشجار وحطم الحجارة، ووسع طريق المأزمين، وبعد فترة نمت الأشجار التي قطعها الأمير سودون محمد وارتفعت حتى تحولت إلى غابة فاتخذها أشقياء القبائل البدوية مكان اجتماع واحتشاد، وأخذوا يمدون أيديهم لسرقة أبناء السبيل والحجاج كما كان يحدث في العهود السابقة؛ لذلك أمر محافظ جدة المعمورة بأن تقطع تلك الأشجار وتحطم الصخور التي قد يكمن خلفها اللصوص ووسع طريق المأزمين أكثر من ذي قبل، ولهذا لم يترك للصوص مأوى يختبئون فيه وتوفي في سنة (٩٥٠).

التذييل

إن شغدف ـ كما هو معلوم لدى أهل المعرفة ـ مخترع للجلوس في داخله وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من الشغدف يطلق عليه هودج على وزن جوهر.

ويطلق على **النوع الثاني**: منه (مِحَفَّة) على وزن مِعَدَّة.

ويطلق على **النوع الثالث**: منه شُغْدف بضم الشين وسكون الغين، ولكن الأتراك حرفوا الكلمة فجعلوها شوطوف.

والصحيح أن يقال: الشغدف، وبما أن الهودج ذو قبة عالية ومغطى فهو خاص بالنساء، أما المحفة مثل الهودج إلا أنه مكشوف لذا فهو خاص بالرجال، أما الشغدف فهو مقعد خاص للرجال والنساء.

يصنع الهودج والمحفة من الخشب، ولكن الشغدف يصنعه النجار من خشب سمكه ربع قدم وله رجلان والمقعد الذى سيجلس عليه ينسج من قشر سعف النخيل كأنه كرسى، ويغطى فى شكل نصف قبة يشبه عربة الثيران وله غطاء من قماش القلاع أو من جلد أو بساط أو حصير. إن الشغدف وإن كان يصنع على الشكل الذى بيناه إلا أنه لا يمكن استخدامه إلا إذا أحكم ربط اثنين منهما فوق الجمل، ويغطيان ببساط أو قماش آخر ويحمل فيهما حاجان، بعد حمل الشغدفان على الجمل كما بينا وبالتصاق قبتيهما يأخذ شكل قبة المحفة المستوية، ويصعد إليه حينما يكون الجمل واقفا بواسطة سلم له أربع أو خمس درجات ويجلس فيه، إن الشغدف يستخدم فى طريق الحرمين كما أن الهودج والمحفة يستخدمان فى طرق مصر والشام. انتهى.

قد أسدى الملك جاقمق إلى الحرمين خدمات أخرى كثيرة وأصلح وأنشأ بركة المعلى التى مازالت قائمة فى خلال عام (٨٠٦) وقد خربت تلك البركة فيما بعد فأحيتها كريمة السلطان سليمان (مهرماه) عندما أرسل سودون محمد إلى مكة المكرمة لترميم المسجد الحرام وتعميره. أرسلت كسوة مزينة من قبل شاه الفرس شاهرخ إلى القاهرة لتكسى كعبة الله، وأرسلت تلك الكسوة فى نفس العام بالقافلة المصرية إلى مكة المكرمة، وعلقت فى عيد الأضحى داخل كعبة الله وذلك لاتفاق تم بين الملك جاقمق وشاه الفرس الملك شاهرخ، إن الأمير جاقمق أمير اصطبل الملك الأشرف المصرى عندما اعتلى عرش سلطنة مصر بضربة حظ كان قد أرسل أحد أمراء الشراكسة يسمى (جيج كيوفا) إلى هراة لعقد اتفاق مع شاه الفرس فى سنة ٨٤٢، وقد سر (شاهرخ) من هذا الاتفاق الذى تم بين الحكومتين العربية والفارسية أعظم سرور فأرسل تلك الكسوة الشريفة لتعلق على الكعبة ليظهر شكره، كما استجلب الدعوات بإرسال الصرر لسكان الحرمين فى سنة (٨٤٣).

كانت قلة سبل الماء فى داخل مدينة مكة المكرمة تسبب كثيرا من الضيق والمشقة عندما كانت المدينة تزدحم بالحجاج فى موسم الحج، وكان أولو الأمر يتعرضون لكثير من المشاق والتعب لدفع ما يحدث من الشرور لقلة المياه. وأراد ناظر الحرم الشريف الشيخ بيرام إنقاذ الحجاج من العطش لقلة المياه، وفى نفس الوقت أراد أن يوفر المياه فى مكة المكرمة فأنشأ سبيلا فى حى المعلى وعدة أحواض متينة فى ساحة عرفات وملأها بالمياه، فروى عطاش المؤمنين فى سنة (٨٥٣) ومع مرور الوقت خرب السبيل والأحواض التى أنشأها الشيخ بيرام، وابتلى الناس مرة أخرى وقوافل الحجاج بالعطش فقامت (مهروماه سلطان) زوجة فاتح اليمن رستم باشا بإنفاق أموال طائلة، وعمرت ذلك السبيل والأحواض المذكورة سنة (٩٦٧) كما أنشأت كثيرا من السبل فى داخل مكة المكرمة فأراحت سكان بلدة الله كما سبق ذكره فى صورة إحياء عين زبيدة بالتفصيل، وبعد سنتين من إتمام إنشاء الحوض المذكور أصلح الشيخ بيرام ورمم بعض الأماكن، فأصلح ونظف بعد ذلك بأربع سنوات بناء على الأمر الذى تلقاه من الحكومة المصرية الأحواض التى فى ساحة عرفات والتى امتلأت بالطين والتراب، كما طهر مجرى عين حنين وعمر مسجد[١] نمرة ومسجد الخيف المباركين، كما أصلح سلسلة عقود السبعة أروقة التى آلت للسقوط والكائنة فى الجهة الشمالية من المسجد الحرام وجدار المسجد الحرام وفى الجهة الشرقية مقابل تكية السلطان قايتباى، وجدد دور خلوة الشيخ عفيف الدين بن أسد اليافعى والشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشد بعد أن بدل شبكاتها فى سنة (٨٥٦)، وقد أرسل الملك الظاهر بعد تسعة أعوام كسوة مزينة غالية، وقد صنعت أطرافها التى تقابل الجهة الشرقية والشمالية من بيت الله الحرام من الحرير الأبيض، وزخرفت كل جهاتها بالخيوط الذهبية وعلقت على الكعبة يوم وصولها فى سنة (٨٦٥).

(١) نمرة اسم مكان فى عرفات أو اسم جبل الأميال الحديدية التى تحدد حدود الحرم فوق هذا الجبل، ويقع على يمين طريق المتوجهين من المأزمين إلى عرفات والمسجد اللطيف الذى يطلق عليه مسجد النمرة يقع فى هذا الموضع، ويقيم الحجاج صلواتهم فى هذا المسجد فى أيام عرفة.

وكان المشار إليه قد أرسل بعد ثلاث سنوات سلما ظريفا للصعود على سطح الكعبة الشريف، وما أن وصل السلم المذكور إلى مكة المعظمة حتى حضر أشراف البلاد والوجهاء وجميع موظفى الدولة ليكونوا فى شرف استقباله بكل تعظيم وتقدير، ووضع فى مكانه وذلك عام (٨٦٨).

بعد مرور أربع سنوات خلع السلطان (قايتباى) سلطان مصر على أمير مكة (محمد بن بركات بن أحمد بن عجلان) وسائر الأشراف والأعيان خلعا فاخرة، كما بعث إليهم بمال كثير ليقتسموه فيما بينهم كما أرسل رسالة بمنع الظلم والعدوان، وأمر بكتابتها على الأعمدة المواجهة لباب السلام، وأصدر الأمر بتعمير وإصلاح مساجد النبى ﷺ، وجميع الأماكن المقدسة وكذلك أمر بتطهير مجرى (عين عرفات) وذلك عام (٨٧٢).

وبعد مرور عامين أصلح مسجد الخيف ومسجد نمرة والمسجد الحرام وجميع العيون والآبار وبرك عرفات وذلك فى عام (٨٧٤). وبعد خمسة أعوام أرسل إلى المسجد الحرام منبرا فى غاية الروعة مزينا بالذهب الخالص وذلك فى عام (٨٧٩).

وبعد عامين أمر بإصلاح السقوف داخل باب السلام وحجر إسماعيل ورخام المسعى الشريف، وكذلك ما فى داخل بيت الله الشريف من الرخام كما أصلح مئذنة باب النبى ﷺ وعمرها وذلك فى سنة (٨٨١)، وأمر بكتابة بيان بذلك على لوحة من رخام وألصقها فى موضع داخل الحرم الشريف، كما أنه اشترى قطعة من الأرض المتصلة بالحرم الشريف وأنشأ عليها أربع مدارس وتكية وذلك فى سنة (٨٨٢). وقد استغرق إكمال ما ينقص تلك المبانى سنتين وبعد إتمامها أسكن فيها من يقتضى الأمر إسكانهم، بعد ما انتهى السلطان قايتباى من بناء تلك المدارس والرباط بعث إلى إمارة مكة المعظمة الجليلة يقول «رأيت حادثة فى رؤياى وجعلت العلماء يفسرونها، فقالوا: «يجب غسل داخل الكعبة وخارجها وعندما يصل رسولى يجب أن تنظفوا خارج البيت الحرام وداخله، وأن تطهروه» وذلك فى عام (٨٨٤).

وتلا على شريف مكة وأشراف بلد الله وأعيانه مرسوم السلطان قايتباى وبادر

إلى تنفيذ ما جاء فيه من أمر فغسل كعبة الله خارجها وداخلها إلى ارتفاع قامة إنسان، وطهر ونظف المطاف الشريف وسائر مواضع الحرم، وأرسل إلى السلطان قايتباى يخبره بما تم، وعقد السلطان نيته على أداء فريضة الحج فى نفس العام الذى تم فيه تطهير الكعبة الشريفة بأمره. وسافر إلى مكة المكرمة وتجرأ على أن يدخل الحرم من «باب السلام» وهو ممتط جواده ولكن ذل حافر الفرس فسقطت عمته عن رأسه وبقى حاسرا؛ إذ يجب على الداخل إلى الحرم محرما أن يكون مكشوف الرأس للقيام بالطواف والنسك، إنما تلك الجسارة كانت لملوك الشراكسة أمارة البله وضعف الإدراك، فالشراكسة المصريون كانت لهم بزة خاصة وهندام غريب يثير ضحك من يقع نظره عليهم لأول مرة.

ألبسة ملوك الشراكسة المصريين الرسمية:

إن السلاطين الشراكسة الذين تربعوا على عرش مصر اختاروا لأنفسهم ثيابا رسمية تشبه ملابس الأيوبيين، إلا أنهم أضافوا بعض الأشياء الخاصة بهم مما جعل لهم هيئة مثيرة للضحك، وإن ما جرت به العادة فى بلد من البلاد وما اتخذ من الأصول والقواعد ليس غريبًا أن يثير الضحك والسخرية فى بلاد أخرى.

وكان الملوك الشراكسة يتعممون بعمائم غاية فى الطول، ويثبتون على هذه العمائم ستة قرون مدببة؛ إلا أنها كانت مصنوعة من بز رقيق فى شكل مدبب، وجرت العادة فى الاستقبالات الرسمية أن تحمل فوق رءوسهم مظلات على هيئة الخيام، وعلى هذه المظلات صورة طائر باسط جناحيه[1]، وكان حامل هذه المظلة أعلى الأمراء المصريين رتبة ويسمى بولى العهد، وكان فى مصر فى هذه الحقبة من الزمن أربعة وعشرين وزيرا يلقب الواحد منهم بالأمير الكبير، وكانت

(١) وإن كانت المظلة التى ترفع فوق رأس أمير مكة وهو غاد ورائح إلى عرفات مظلة كبيرة نوعا ما؛ إلا أنها كانت خالية من صورة طائر، وهذه المظلة مصنوعة من قماش أخضر ومزخرفة بخيوط ذهبية وذات زر من الخيوط الذهبية. وكانت فى غاية الزخرفة والزينة والزركشة وكانت خاصة بأمير مكة فقط.

الموسيقى تعزف على أبوابهم صباحا ومساء، وكان كل واحد منهم يعمم بعمامة عليها أربعة قرون، أما من لم يحوزوا رتبة الأمير الكبير من الأمراء فكانوا يعممون بعمامة بها قرنان، أما من هم دونهم فى الرتبة فكانت عمائمهم خالية من القرون وطرفها مدلى إلى حناجرهم أما رؤساء الجنود فكانوا يضعون على رءوسهم قلنسوة من الجوخ الأحمر ويسايرون ركاب السلطان على أرجلهم، وعلى هذا الطراز وهذه الهيئة كانت الثياب الرسمية لملوك الشراكسة فى مصر، فمن كان منهم ذا رتبة لبس العمائم ذات القرون وكانوا يستنكفون من عمائمهم. كما يستنكفون من لبس ملابس الإحرام متجردين من ثيابهم ويعتبرونه من الأمور المعيبة لذا لم يستطع السلطان أن يحمل نفسه على الترجل ولبس ملابس الإحرام. انتهى.

وقد أقام السلطان الغورى من ملوك الشراكسة فى مصر فوق باب إبراهيم (كمرا) عقدا فى غاية الزينة فريدًا من نوعه وبنى قصرا وعلى جانبيه عدة مساكن، وأوصل بها عدة منازل وجعلها وقفا وذلك فى عام (٨٨٨) وبما أنها كانت أعلى من الحرم الشريف فقد أفتى أكثر العلماء بعدم جواز وقفها. يقيم الآن فى هذا القصر والمساكن التى بجانبه المستأجرون كما أن الحجاج يستأجرونها أحيانا. وأصلح السلطان الغورى المضايق التى فى طريق مصر كما رمم حجر إسماعيل الشريف كما أنه بنى سور جدة.

إرسال الصرة إلى الحرمين:

جرت عادة السلطان الغازى بايزيد خان الثانى بن السلطان محمد الفاتح خان بأن يرسل كل سنة صرة تحتوى على أربعة عشر ألف قطعة ذهبية، على أن يوزع نصف المبلغ لعلماء مكة الأعلام والنصف الآخر لعلماء المدينة الأعلام وذلك فى سنة (٨٨٦)، وبما أن سماحة خلق المشار إليه قد ذاعت بين أهالى الحرمين فقد نظم شاعر من شعراء المدينة يسمى أحمد بن حسين العليف قصيدة مدح وثناء ضمنها مناقب الخليفة المختارة وقدمها للسلطان.

إن الشاعر المذكور هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن حسين العليف، وكان أحسن الناس فى زمانه وقد شرف دار السيادة بزيارته فى صحبة الشيخ محيى الدين بن عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى من خطباء مكة المكرمة. إن القصيدة البليغة التى قدمها إلى السدة السلطانية كانت مؤلفا نفيسًا بعنوان «الدُّرُّ المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم» وكان مطلع القصيدة البديعة هذا البيت البليغ:

خذوا من ثنايای موجب الحمد والشكر ومن در لفظی طيب النظم والنثر

فأمر السلطان سديد الرأى لهذا الشاعر جائزة بألف من الذهب جائزة وأوعده بإرسال صرة بمائة دينار كل سنة، وقد نال الشاعر المذكور إلى آخر عمره صرة بمائة دينار كل سنة.

كان الدينار فى تلك الأوقات نوع من عملة ذهبية وسنعرف فى موضوع الصرة الهمايونية مزيدا عن قيمة هذه العملة فى زماننا، ومتى ضربت وقطعت؟ ومما صحت روايته أن الذى خصص له الملك صرة فى كل عام هو أحمد بن العليف وكانت ترسل كذلك إلى أبنائه وأحفاده إلى انقطاع نسله.

قد احتاج قطع رخام الحطيم الكريم للتسوية والترميم، فما كان من أبى النصر الغورى إلا أن غيرها كلها، وفى نفس الوقت زخرف داخل الحطيم وخارجه وفرش أرضه وذلك فى عام (٩١٧)، وبعث السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان إلى أهالى الحرمين الشريفين أضعاف ما كان يرسله والده كثيرا، وضم هذه المبالغ إلى العطايا المقررة لسكان الحرمين الذين يردون إلى دار السعادة، فكان ما يكفيهم وذلك فى سنة (١١٨) وفتح السلطان سليم بلاد مصر، وأدخل أهلها طاعته فخضعوا جميعا لأوامره وأدخل فى حوزته بلاد الحرمين الشريفين ونشر فيها أنوار العدل، وكان يعيش فى ذلك العهد فى مصر الخليفة المتوكل على الله[1] الثالث العباسى، ولم يكن له من أمر الخلافة إلا شيئًا معنويًا وهو أن يؤخذ إذنه

(١) كان اسم المشار إليه عبد الرحيم، وعلى رواية محمد بن المستمسك بالله يعقوب وقد بعثه السلطان سليم مع أولاده وأهله وأتباعه إلى دار السعادة.

عندما يتبادل الأمراء منصب السلطنة، وكان يمضى أيامه بإدارة وقف السيدة نفيسة[1] وقد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم ودخل تحت حمايته.

وقد أرسل الشريف سيد بركات الذى كان حاكم الحرمين فى ذلك الوقت أبا عن جد ولكنه كان تابعا لملوك مصر الشراكسة ابنه أبا نمى الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره إلى مصر، ومعه المخلفات النبوية المباركة مع مفتاح بيت الله وسلم كل هذه الأشياء إلى السلطان سليم مصدقا بخلافته ومبايعا له، وقدم له بعض الهدايا الحجازية مباركا بالخلافة وذلك فى سنة ٩١٣.

وقد اشتكى السيد بركات فى الشكوى التى قدمها إلى السلطان سليم من جور وظلم والى جدة الأمير حسين الكردى للأشراف الكرام، فأكرم السلطان الشريف أبا نمى إكراما بالغا، وخلع على والده سيد بركات وعليه خلعة غالية الثمن لكل واحد منهما ورد إليهما اعتبارهما ومكانتهما ووقرهما، ثم أعاده إلى مكة المكرمة وفى اليوم الذى كان سيدخل فيه الشريف أبو نمى إلى مكة زين أهلها الأزقة والأسواق واحتفلوا عظيم الاحتفال، ولبس السيد بركات وابنه الخلع السلطانية التى أنعم بها السلطان وجلسا فى المقام الحنفى بعد أن طافا بالبيت، حيث وفد الناس يزفون التهانى وعلى أثر تلقى التهانى استقدم الأمير حسين الكردى وأبلغه الأمر السلطانى بشأنه، وأركبه زورقا مضى به تجاه السويس ولكنه ألقى به فى البحر وغرق فى مكان يسمى بيت العجين.

لازمة:

إننا لم نستطع أن نحصل على كتاب تاريخ يبين لنا ما قدمه الشريف أبو نمى إلى السلطان سليم بن بايزيد خان من المخلفات المقدسة المباركة: نوعها وعددها إلا أن هذه المقدسات المباركة توجد ضمن الأشياء المباركة الجميلة التى تحتوى عليها حجرة الأمانات الشريفة الفاخرة، وقد قدم بعض هذه المقدسات المباركة من قبل الأمير المشار إليه ثم حصل على البعض الآخر فيما بعد.

(١) سواء أكانت المشار إليها أو كانت السيدة زينب والسيدة رقية والسيدة سكينة فمقابرهن فى مصر. وكانت السيدة زينب والسيدة رقية أختى الإمام الحسين لأبوين، والسيدة سكينة كانت بنته من رباب بنت امرئ القيس بن عدى الكلبى.

التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة
نوعها وعددها

رباعية النبى ﷺ، الحجر الشريف الذى يحمل أثر القدم الشريفة للنبى ﷺ، فرد واحد[١] للنعلين الشريفين، الخرقة النبوية الشريفة[٢]، سجادة الرسول ﷺ، سجادة الصديق، لواء النبى ﷺ[٣]، قبضة سيف النبى ﷺ، قوس النبى ﷺ، عدد ٢ عصا النبى ﷺ[٤]، قدر حضرة نوح عليه السلام، مرجل إبراهيم عليه السلام، قميص يوسف عليه السلام الملطخ بالدماء، رأس زكريا عليه السلام، قبضة سيف داود عليه السلام، قميص سيد الشهداء الملطخ بالدماء، قميص فخر النساء، ألوية الخلفاء الأربعة، عمائم الخلفاء الأربعة، سبح الخلفاء الأربعة، سيوف الخلفاء الأربعة، قبضة سيوف العشرة المبشرين وهى ست، السيف الصارم لجعفر الطيار، قبضة سيف خالد بن الوليد، قبضة سيف معاذ بن جبل، سيف شمر حبيل بن حسنة، سيف أبى طلحة، لواءان للإمامين، تاج أويس القرنى،

(١) قد حصل على الفرد الآخر فى عهد السلطان عبد العزيز.

(٢) إن هذه الخرقة الشريفة هى التى أهداها النبى ﷺ لكعب بن زهير رضى الله عنه من أصحاب النبى ﷺ وكان الأصحاب الكرام يزورون هذه الخرقة متبركين وكانوا يغمرون جزءا منها فى الماء ثم يشربونه للاستشفاء. وبناء على تدقيق (على القارى) احتفظ بها ورثة زهير واشتراها منهم معاوية رضى الله عنهم، وبعد انقراض الدولة الأموية انتقلت إلى السلاطين المصريين ومنهم إلى السلطان سليم.

وكان سلاطين آل عثمان فى أول الأمر يزورونها فى يوم معين ويغمرون أطرافها فى مرجل مليئ بالماء ثم يملئون هذا الماء فى الزجاجات ويجمعونها ويقدمونها لرجال الدولة، والذى ينال زجاجة من هذا الماء كانوا يعظمونه ويتبرك به مثل ماء زمزم ثم يصوم ويفطر به طلبا للشفاء.

(٣) كان اللواء الشريف فى عهدة سلاطين مصر، وتحفظ فى خزانة حكومة الشام ولما فتح السلطان سليم بلاد العرب أمر بحفظه فى الموضع الذى شهده فيه، إلا أنه كان يؤتى به فى معظم الحروب على أنه رمز النصر ومظهره؛ لذا أحضره السلطان مراد الثالث إلى الأستانة وظل فيها قرنا من الزمن فى غرفة الخرقة الشريفة.

(٤) إحدى هاتين العصوين كانت عصا النبى شعيب عليه السلام.

مصحف عثمان بن عفان، الكلام القديم بخط الإمام الليلى، المصحف الشريف بخط زين العابدين، مفتاح البيت الأعظم، الميزاب الذهبى، مصراع باب التوبة، الغطاء الفضى لمقام إبراهيم، الطين، ماء الغسل النبوى.

إن الأمانات والمقدسات المباركة كل واحدة منها فى داخل غلاف فضى، أما الخرقة الشريفة فى داخل صندوق فضى صغير وهى فى غرفة العرش، أما الأمانات الأخرى فقد وضعت فى رفوف جدران تلك الحجرة بكل عناية.

التذييل:

إن الميزاب الذهبى القديم بدل سنة (١٥٢٢) و (الكوكب الدرى) الذى اكتسب شرفا بمجاورته الغرفة المعطرة فترة طويلة والأخشاب القديمة التى اقتلعت من أماكنها عند تعمير سطح كعبة الله التى صنعت هدية نفيسة للسلطان بايزيد خان كل هذه الأشياء حفظت فى الأماكن الخاصة التى فى حجرة العرش.

ولما سافر قبودان الغازى حسين باشا إلى مصر بمهمة القضاء على ثورة القاهرة عرف أنه فى ضريح السلطان الغورى مخلفات نبوية مباركة وهى قطعة قميص وعصا شريفة ومرودا، وفى خلال شهر ربيع الأول من سنة (١٢٠٣) نقلت هذه المقدسات المباركة من مبنى محكمة مصر، وبادر بتطييبها وتعطيرها حين زيارتها، ووضعها فى داخل صرة ووضع الصرة فوق كرسى مزخرف وأعادها إلى مكانها فى موكب خاص اشترك فيه علماء مصر كافة، وحملت هذه الآثار على الرءوس بكل تعظيم وصلاة وسلام، ووضعت فى صندوقها الخاص فى مكانها القديم.

وقد سطر جودت باشا فى تاريخه أن الأشياء المذكورة مازالت محفوظة فى ضريح السلطان الغورى إلى الآن يستطيع أن يزورها من أراد ذلك، وقد سر السلطان سليم سرورا بالغا بحصوله على الأمانات النبوية المقدسة المبروكة لذا راعى جانب الشريف محمد أبا نمى مراعاة عظيمة وطيب خاطره بإلباسه الخلع، كما بعث إلى والده الشريف أبى البركات هدايا كثيرة وأكرم أهل الحرمين الشريفين كما ينبغى، وكل هذا لحصوله على الأمانات النبوية. وفى خطبة عرفة

(٩٢٣) ذكر اسمه كخليفة وبلغ الأمر إلى جميع سكان الحجاز وتهامة، وأراد السلطان العظيم أن يبين شكره على ذكر اسمه فى خطبة عرفات فأرسل إلى أهالى الحرمين مائتى ألف قطعة ذهب فيلورى وقدرا كافيا من الحبوب المتنوعة، وأرسل الأمير مصلح الدين وفى رفقته قاضيان لتوزيع تلك العطايا، كما أعطى للرسول المذكور دفتر قد زخرف عاليه بكتاب ما أرسل إلى مولانا الشريف أبى نمى من خمسمائة قطعة ذهبية، وكان السلطان سليم اعتاد أن يرسل الصرة التى تحتوى على الذهب الفيلورى فى كل سنة، وأصدر أمره السلطانى بإرسال الصدقات المصرية[1] التى كان يبعثها ملوك الشراكسة كما جرى فى السابق على أن تتحمل الخزينة السلطانية العامرة نفقاتها، وجعل ذلك قواعد يجب اتباعها كل سنة.

وقد غمر الفرح نفوس أهل الحجاز لصنيع هذا السلطان، وعلى أثر ذلك أطلقوا على ما ترسله السلطنة السنية الصدقات الرومية للتفريق بينها وبين الصدقات المصرية.

* * *

(١) أعاد الشراكسة إرسال هذه الصرة تحت اسم (الذخيرة) وتوزيعها على العلماء المستحقين. كما رتب السلطان سليم خراج مصر وقسمه أقسامًا ثلاثة: فجعل من القسم الأول ماهية عشرين ألف عسكرى بالقطر من المشاة واثنى عشر ألفًا من الخيالة، والقسم الثانى يرسل إلى المدينة المنورة ومكة المشرفة، والقسم الثالث يرسل إلى خزينة الباب العالى.
انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٧، نقلاً عن الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك.

بيان كيفية توزيع وتقسيم الصُرّة المرسلة من قبل السلطان سليم بن بايزيد

عندما وصل الأمير مصلح الدين إلى مكة المكرمة أخذ يوزع نقود الصدقة الرومية وفق ما سجل فى الدفتر الذى معه، وأوصى الذين نالوا العطايا أن يستمروا فى رفع أكفهم بالدعاء للسلطان ودوام عزه ثم جمع العلماء الأعلام والأعيان والأشراف الكرام الذين وردت أسماءُهم فى سجل العطايا، وجعلهم يختمون تلاوة القرآن الكريم ويوجهون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ دعواتهم بإطالة عمر السلطان وزيادة قوته.

بعد ما أتم العلماء المجتمعين فى داخل الحطيم ختم القرآن الكريم اختار الأمير مصلح الدين ثلاثين من الحفاظ الصلحاء وكلفهم بختم القرآن الكريم مرة كل يوم بناء على التعليمات التى يحملها من السلطان، على أن يأخذ كل واحد منهم اثنى عشر قطعة ذهبية فى السنة، كما اختار بعض العلماء وكلفهم بقراءة البخارى والشفاء[1] الشريف على الدوام ثم استدعى الفقراء الذين يحتاجون إلى الصدقة فى الحقيقة وسجل أسماءهم فى السجل، وأعطى لكل واحد منهم ثلاث قطع ذهبية كعطية سلطانية، ثم ذكر بأن السلطان سيبعث كل سنة ثلاث صرر من الذهب، وأحصى أفراد أسر الفقهاء وسجلهم فى سجله، وقرر أن يعطى لكل فرد منهم ثلاثمائة قطعة ذهبية ثم قيد المبالغ اللازمة لهم باسم صرة البيوت. ثم جمع كل الذين أظهروا حاجتهم للعطية وأعطى لكل واحد منهم قطعة ذهبية، وأشار إليها فى سجله بالصرة العامة، وفى آخر شهر ذى الحجة جمع العلماء والصلحاء وأخذهم إلى جبل التنعيم وبعد لبسهم ملابس الإحرام جعلهم يعتمرون لوالدة السلطان، وأدرج ما أنفقه فى هذا السبيل فى سجل باسم صدقات العمرة،

(١) هو كتاب الشفاء فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض. أما صحيح البخارى فقد سماه البخارى ـ رحمه الله ـ «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».
انظر: هدى السارى لابن العسقلانى ص ١٠.

وفى أثناء إنهاء أداء العمرة وصلت إلى ميناء جدة السفن المصرية محملة بالمرتبات الحجازية من الحبوب والصدقات وتحمل كذلك أمرا سلطانيا للأمير سابق الذكر بكيفية توزيع الحبوب وتقسيمها، وقد تبين عند البحث والتحقيق أن الحبوب المذكورة: ألفا إردب منها لأهالى المدينة المنورة، وخمسة آلاف أردب منها لسكان مكة المكرمة، كانت كلها سبعة آلاف أردب من المؤونة والغلال.

الذيـــل

الأردب كيل خاص بالبلاد العربية ويستوعب ست ويبات، وعند اللغويين الويبة تساوى ستة أصواع، والصاع أربعة أمداد والمد يساوى رطلا وثلث رطل.

وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يعدل الأردب ١٥٣ أوقية و ١٠٠ درهم؛ إلا أن استخدامات الأردب فى بلاد العرب تختلف فعند المصريين الأردب الواحد يساوى ١٢ ويبة، والويبة الواحدة[١] تساوى ست كيلات إستانبولية قديمة، وتعدل الويبة ١٠ أوقيات. وقالوا إن الأردب يساوى ١٢٠ أوقية، أما الحجازيون فيعتبرون الأردب و الأردب ١١ أوقية و ١٠٠ درهم[٢] أما أهل البلاد الأخرى فيختلفون فى تحديد مقدار الأردب اختلافا كبيرا كذلك يكاد أن يكون تقدير مقدار الأسلوب كثير الصعوبة إن لم يكن مستحيلا ونظرًا لورود الغلال من مصر يجب اعتبار الأردب ١٢٠ أوقية، وقد سمع بأن تقى الدين باشا والي الحجاز الأسبق ساوى بين أوزان وأكيال البلاد الحجازية بالأوزان والأكيال التى تستخدم فى جميع البلاد التابعة للسلطة العثمانية، لكننا نظن أن تعميم هذه القاعدة فى البلاد الحجازية غير قابل للتطبيق.

الغلال الواردة

حتى لا يقع الخطأ فى تقسيم تلك الغلال وتوزيعها اتفق الأمير مصلح الدين مع الأشراف والأعيان على تعداد سكان مكة المكرمة، واستثنى منهم التجار ومتوسطى الحال والجند فوجد عدد المحتاجين من المسنين والشباب والأطفال

(١) عرف ابن فضل ـ أحد مؤرخى مصر ـ الويبة الواحدة بأنها ١٤ ربع، والربع الواحد أربعة أقداح، والقدح الواحد ٢٣٢ درهم.

(٢) الأردب الآن فى مكة يساوى ١٠٨ أوقية.

الذكور والإناث (١٢٠٠٠) نفر، وبناء على رأى السيد جمال الدين محمد بركات شريف مكة، استصوب توزيعها على المحتاجين المذكورين كل واحد منهم ربع أردب من الحنطة وقطعة ذهبية ثم أعطى مفتى المذاهب الأربعة لكل واحد منهم ثلاثة أرادب[١] غلة وهكذا أجرى قواعد العدالة.

أول ما وزع من الأرزاق التى أرسلها السلاطين العثمانيين على أهل الحرمين هى ما وزعه مصلح الدين أفندى من سبعة آلاف أردب من مختلف الغلال وقد زاد مقدار هذه الغلال من سنة لأخرى لحاجة الناس إليها حتى وصلت فى عهد السلطان محمود العادل إلى (١٧٠٠٠) أردب من الحنطة، وكان هذا القدر كافيا لتغطية حاجات الناس ومن هنا لهجت ألسنتهم بطول بقاء الدولة العثمانية. واستطاع فيما بعد ذوى الحيلة أن ينال كل واحد منهم مائتى أردب من الحنطة مدعين انتسابهم لجهة من الجهات؛ وبهذا تركوا كثيرًا من الفقراء لا ينالون، شيئا ولما استحال جلب هذه الغلال من مصر أخذ الناس يتقاضون من خزانة الدولة ثمن ما يستحقون من حنطة.

ترميم المقام الحنفى

كان الأمير مصلح الدين مكلفا أيضا بتعمير الحرم الشريف وترميمه ولما رأى أن المقام الحنفى فى شدة الحاجة إلى التعمير قال مخاطبا أعيان بلد الله وعظماءهم إن هذا المقام[٢] المبارك الذى أنشىء على أربعة أعمدة مسقفا بناء مبارك، ومحرابه فى وسطه، وقد بنى من أجل أئمة المذهب الحنفى الكرام كما تعرفون جميعا أنه بنى فى سنة (٨١١)، وفى سنة (٨٤٣) غطيت قبته بالقصدير من قبل السلطان المصرى جاقمق وبالنظر إلى شكله الحالى وكثرة الحجاج والضيوف الذين يفدون للحج قد تجاوز وجوب توسيعه مع إنشاء قبة له درجة الوجوب.

لذا يقتضى الأمر تهيئة مقام أوسع يستطيع الحجاج الذين على المذهب الحنفى

(١) هذه الأرادب التى أعطيت لرجال المذاهب الأربعة كانت زائدة عن حصتهم وإنما أعطيت لهم رعاية لجانبهم وذلك مما سر الناس جميعا.

(٢) وهنا كان مصلح أفندى يشير بإصبعه إلى المقام الحنفى.

أداء صلواتهم عند حلول أوقات الصلاة دون أن يزعجوا جماعات المذاهب الأخرى فى أثناء صلاتهم مقتدين بإمامهم.

وبهذه المقدمة قد جعل ما فى ضميره من عزمه على توسيع المقام موضع الاستشارة والبحث؛ إلا أنه لم يستطع أن يحصل على الموافقة فى ذلك اليوم، وفى اليوم الثانى كون لجنة حتى يستطيع أن يبنى المقام المذكور وفقًا لخريطة أفكاره، وقد حصل على موافقة العامة على البناء، وفعلا بنى مقاما فخما وفق ما رسم خياله فى ذهنه من رسم مطبوع وشكل مرغوب، كما رفع فوقه قبة جديدة ثم عمر وأصلح ما يجب تعميره، وهكذا شيد وبنى الحرم الشريف على شكله ذاك فى أيامه وذلك فى سنة (٩٢٣).

قد دام المقام الشريف الذى شيده مصلح الدين أفندى فترة طويلة إلا أنه احتاج للتعمير والترميم بفعل الزمن لذا هدمه حاكم جدة (خوش كلدى) من أساسه، وبنى مكانه مقاما مربعا لايدانى فى الجمال من طابقين، وخصص الطابق الأعلى للمؤذنين والطابق الأسفل لجماعات الحنفية، وما زال ذلك المقام قائما بالطرز الذى بناه عليه (خوش كلدى بك) ولكنه وسع وجدد فى سنة (١٠١٧)، وأصلح وعمر فى سنة (٢٥٩) كما ذكر فى الصورة الثانية من الوجهة الخامسة.

عندما وفق (خوش كلدى بك) فى تجديد البناء العالى للمقام الحنفى فنظم غبارى أفندى تاريخا لطيفا.

قطعة

المقـــام الخـــاص بسلطـــان الأئمـــــة
إذا أصبـح معمـورا بمحامد ومحامـد
طاف بسمعى من العاكفين بكعبة الأنس
اســـمه هـــو (خـــير المســـاجـــــد)
إذا لـم يكـن هـــو خـــير المساجـــــد
فـلم يكـــن التاريـــخ خـــير المساجـــد

سنة ٩٤٩

بعد أن فرغ الأمير مصلح الدين من تعمير وترميم المقام الشريف وغيره من الأبنية مضى إلى المدينة المنورة وأخذ فى إحصاء عدد السكان ثم وزع ألفى أردب من الغلال السالفة الذكر على أربعة آلاف نسمة من السكان الذين قيدهم فى سجلاته عقب الإحصاء، وهكذا استجلب الدعوات الخيرة للسلطان العالى الشأن وذلك فى سنة (٩٢٣) وإن كان ما وزعه الأمير مصلح الدين من الغلال فى سنة (٩٢٣) كفى أهالى الحرمين الكرام فى ذلك الوقت إلا أن عدد سكان الحرمين زاد عاما بعد عام، وأصبحت المرتبات الحجازية لا تفى بحاجة الناس؛ لذا أوصل السلطان فى عام ٩٢٦ العطايا إلى حد الكفاية.

واعتاد أن يرسل المخصصات بواسطة مصلحة الصرة، وإلى الآن ترسل المخصصات بهذه الصورة وتوزع كل سنة على سكان مكة أمام البيت الشريف بحيث يعود الذين استلموا عطاياهم المخصوصة فرحين مسرورين داعين لسلطان الزمان العثمانى وأهله بطول بقاء دولتهم عليهم الرحمة والرضوان، قد سددوا ديونهم التى تراكمت خلال السنة الحالية.

إن ما يطلق عليه الصدقات الرومية من هذه المبالغ هى قوام حياة أهالى الحرمين الشريفين لم يكن يرسل على عهد الملوك القدامى سواء من قبل ملوك الشراكسة أو الخلفاء العباسيين أو أسلاف السلاطين العثمانيين على هذا النحو، ولم يوفق أحدهم إلى مثل ما بعث السلطان سليمان.

والصدقات التى كانت تخصص فى عهد السلطان سليمان، لأى واحد كانت تؤول إلى أولاده بعد مماته، وإذا كان المتوفى بدون وارث كانت هذه الصدقات تعطى لأحد الفقراء المحتاجين.

وكان فى مكة المكرمة مخازن خاصة لوضع وحفظ الغلال التى ترد تباعا، وعندما ترد تلك الغلال كانت تحفظ فى تلك المخازن، وكان فى بعض حجرات مدرسة الشريف عجلان بالقرب من باب العجلة أى فى داخل الحرم الشريف مصلحة فى مديرية الحرم الشريف وهى التى تعطى إيصالات الاستحقاقات

لأصحاب الشأن، وترسلهم إلى أمانة تلك المخازن فيأخذ كل واحد حقه وفق الإيصال الذى يحمله، وهذا النظام باق إلى يومنا هذا ومرعى الجانب.

مقدار وقيمة الصرة السنية المعتاد إرسالها إلى الحرمين

فى زماننا هذا كلما زاد سكان الحرمين وتكاثر المجاورون زاد ما تضمه الصرة السلطانية إلى أن وصل فى العصر السلطانى الذى نفتخر ببلوغه وإدراكه مقدار الصدقات إلى (٣٥٠٣٦١٣) قرش وإذا ما أضيف لهذا المبلغ (١٢٢٦٢٦٢) قرشا تنزيلا[١] بنسبة ٣٥٪ تصل قيمة الصرة السلطانية إلى (٤٧٢٠٨٧٧) قرشا وهذا يساوى على التقريب (٩٠٠٤٥٩) كيسا و ٣٧٧ قرشا[٢] وهذه المبالغ مع ما أضيف إليها هى لمكة المكرمة (١٠٧٤٨٨٦٠) قرش، ولأهالى المدينة المنورة (٢٤١٦٧٠٧١) قرش، و (١١٥٤٧) قرش للقدس الشريف ولمن فى طريق الحج والقائمين على صيانة أحواض الماء كما قدم إلى بعض وجهاء القوم شيلان صوف هدايا دائمة.

ولا ترسل الآن صرة الهدايا هذه وتقدم قيمتها نقدا إلى مستحقيها، وتبلغ صرة سكان مكة (١٠٧٤٨٦٥) قرش والمرتبات القديمة (٢٠٧٠٦٩) وأضيف إليها جديدا (٨٦٧٧٩٦) قرش. أما مخصصات المدينة وهى (٧٤٩٢٤٦) قرش فهى الصرة القديمة أضيف إليها مبلغ (١٦٦٧٤٥٥).

الصرة الخاصة بأهل مكة

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٢٣١٣	من خزينة الحرمين الشريفين	أهل مكة المكرمة قد منحوا ذلك قديما ثم آل بعد ذلك إلى أولادهم وأولاد أولادهم وأحفادهم وبعد انقطاع نسلهم تصرف إلى المستحقين من الفقراء.
٣٧٥٤٤	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٣٣٢,٥	من وقف مجهول النظارة	

(١) قد حسب هذا التنزيل بالنسبة للمسكوكات المتداولة فى الحرمين.

(٢) والمبالغ التى تصرف فى أثناء ذهاب المحمل وعودته وما يعطى لمشايخ العرب فى طريق المحمل وهى تساوى ١٠٠٠ كيس من النقود وهى زيادة على أكياس النقود التى ذكرت.

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٢٣	من خزينة المالية	
٣٠٠	من خزينة الحرمين الشريفين	
٤٧١٥٣	من أموال حوالى الشام	
١٢٣٧٣,٥	من خزينة السلطان الخاصة	
١٧١٣٣٩	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٦٥٤٦٦	من خزينة المالية	هذه المبالغ الرواتب السنوية وهى الصرة القديمة وما ضم إليها جديدا
١٧١٩٠٠	الصرة القديمة من الأوقاف المضبوطة	
٣٢١٩١	من خزينة المالية	وتصرف لموظفى الإدارة بالحرم الشريف والأئمة والخطباء ومسجد بيعة الرضوان والأشراف الكرام والآخرين والقائمين بخدمة الحرم المحترم
٨٢٠٩٠	الصرة القديمة من الأوقاف المشروطة	
٨١٢٧٠٧	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٢٠٠٠	من وقف السلطان عبد المجيد خان	وتصرف لموظفى مكة المكرمة من أبناء مكتبة الحرم الشريف والذين يعينون أوقات الصلاة والذين يعنون بالساعات والذين يكبرون ومؤذنى الحرم الشريف والقائمين بتطهير بيوت الخلاء والإيجار منازل أمناء الكتب، ولبعض فقراء التكايا والمحتاجين والمجاورين ولمرتبات مستشفى الغرباء
١٢٢٠٠	كذلك	
٤٦٣٥	كذلك	
٤٥٦٠	كذلك	
١٦٦٨٠	كذلك	
٣٤٩٢	كذلك	
٦١٨٠	كذلك	
١٥٦٠٠	كذلك	
٧٢٠٠	كذلك	
٨٨٥٢٥٤	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٨٨٥٢٥٤	المجموع السابق	رواتب الذين يتلون أجزاء من القرآن الكريم كل يوم عقب صلاة الفجر فى المقام الحنفى، وحارس ضريح السيدة ميمونة رضى الله عنها وكذلك
٣٦٠٠	من وقف السلطان محمد الثانى	
٣٨٤٠	من وقف سلطانى الوالدة بزم عالم	
٤٨٠	كذلك	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٥٠٠	كذلك	مكبرى المقام الحنفى ومؤذنيه ومن يقدمون ماء زمزم فى موسم الحج وفراشى المسعى الشريف.
١٥٠٠	كذلك	
٩٦٠	كذلك	
٢١٠٠	كذلك	
٩٠٢٢٣٤	المجموع	
٢٤٩٦	من الأوقاف المشروطة	
١٢٤٨	بإيجاد مقابلة	
١٢٨٨١٣	تعويضًا من خزينة المالية	
٤٠٠٧٤	من خزينتى المالية والحرمين	
١٠٧٤٨٦٥	المجمـــــوع	

إن مجموع هذه المبالغ المذكورة فى ذلك الجدول (٥,٧٤٩٦٠) قرش و (٧٩٦,٠٠٤) قرش إضافات جديدة.

(٠٦٩,٠٧٠,١) قرش من الصرة القديمة، و (٣,٠٧٦,٣٣٩) ترسل أكياس مختومة، و (٣٧٤,٥٣٠) قرش تعطى بالحوالة من أموال الشام، ٣٩٩٦ قرش تحجز فى حجرة أوراق الحلى فى استانبول على أن تعطى لبعض الذوات.

ملحوظة:

جاءت فى جداول المؤلف كلمة (يوك) فى الأرقام وتساوى نصف مليون.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٤٨٥٠١,٥	من وقف الحرمين الشريفين	خصص لأهل المدينة المنورة قديما من الصرة السلطانية وآلت من الآباء إلى الأبناء والأحفاد وبعد انقطاع نسلهم صرفت إلى الفقراء.
٤٣١٠٨	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٤٢٠٧,٥	من وقف مجهول النظارة	
٨٨٦	من خزينة المالية	
١٧٦٤٨	من خزينة السلطان الخاصة	
١٠٦٨٥٢	من المالية تعويضا عن الحوالة الشاملة	
١٣٢١٢٠٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٦٨٠٠٠	من الأوقاف المضبوطة	من الزيادات القديمة والجديدة مخصصة لإدارة مديرية الحرم النبوى وشيخ الحرم النبوى وموظفى دفتر اليومية للخزينة النبوية وتؤخذ من أوقاف الحرمين فى بغداد والبصرة
٩٩٩٠٠	من خزينة المالية	
٩٢٨٨٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٦٨١٩٨٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٥٤٩٦٠٠	من خزينتى المالية والأوقاف	خصصت رواتب سنوية من الأوقاف المخصوصة لخدمة الحرم الشريف والخصيان والساده أبناء على وخدمه مسجد الفاروق الأعظم ومسجد قباء والرواتب السنوية لقراء القرآن الكريم و الشفاء الشريف والبخارى.
٥٥٣٨٦٠	كذلك	
٦٧٠٠٥	من وقف عبد المجيد خان	
٢٤٠٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٢٤٠٠	من الأوقاف المضبوطة	
١٨٥٧٢٤٨	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٣٦٨٠	من الأوقاف المشروطة	رواتب ومخصصات من الأوقاف المضبوطة لمدرسى مدرسة الحميدية وبعض المستحقين من الفقراء والصالحين.
٤٣٨٠	من وقف السلطان عبد الحميد المخلوطة	
٢٩٩٤٠	من وقف السلطان محمود الثانى	
١٥٠٠	من الوقف المجهول النظارة	
٢٦٤٥٨٨	من خزينة السلطان الخاصة	
٤٠٩٧٨	كذلك	
٢٢١٢٣١٤	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٤٣٧,٥	من وقف السلطان محمود الثانى	رواتب مدرسى المدرسة المحمودية وأمين مكتبتها ومرضى المستشفى المجيدية وخدمها وسائر موظفيها.
١٤٣٧,٥	كذلك	
٨٥٣٠	كذلك	
٢٢٢٦٧١٩	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٠٠٠	من وقف عبد للجيد خان	المعاشات السنوية لأمناء مكتبة مدرسة السلطان عبد
٤٨٠٠٠	كذلك	للجيد خان ووكيل الشريفة وخدام المدارس التى أنشئت
٣٤٥٦٠	كذلك	حديثا وسقائى الصنابير وأطباء وصيادلة وجراحى
٣١٧٣٤	كذلك	المستشفيات ونظار المدارس سالفة الذكر
٤١٩٢	كذلك	
٢٣٤٩٠٠٥	المجمـــوع	
١٩٧٢٠	من وقف والدة السلطان بزم عالم	رواتب السنوية لقراء سورتى تبارك والفجر لروح والدة السلطان بزم عالم ووظائف مشيخة المدينة المنورة
٤٧٩٧٦	من خزانتى المالية والأوقاف	
٢٤١٦٧٠١	المجمـــوع	

الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة

إن المجموع الكلى لهذه المبالغ المقيدة بهذا الجدول (١٢٠١٦٧٠٠)، (٨,٠٦٧,٤٥٥) قرش زيادات جديدة كما أن مبلغ (٣,٥٤٩,٢٤٦) قرش من الصرة القديمة، ومبلغ (٧,٥٦٦,٢٠٣) قروش ونصف من هذه النقود تسلم إلى أمانة الصرة موضوعة فى أكياس مختومة مغلفة، كما أن مبلغ (٤,٣٩,٥١٧) قرشا ونصف قرش من أموال الشام ترسل بواسطة الحوالة ١٨٩٩٠ قرشا تعطى إلى الأشخاص المقيمين فى إستانبول.

إجراءات الصرة للموظفين القائمين على أحواض المياه فى القدس الشريف وطريق الحج.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٧٨٠,٥	من الأوقاف المضبوطة المقررة	تعطى لموضفى القدس الشريف وموظفى النزل التى تكون
١٠	من وقف عمر بك	على طريق الحج وتعطى عادة لمشايخ العربان.
٦٧٥	من وقف الحرمين الشريفين	
٦٠٠	من وقف الحاج أدهم أفندى	
١٩٣٤	من الأوقاف المضبوطة المقررة	
٤٠٠	من وقف السلطان عبد الحميد	
١٤٧,٥	من الخزينة المالية الجلبة	
١١٥٤٧	المجمـــوع	

مجموع الصرة السلطانية من حيث المجموع الكلى

الصرة القديمة	الصرة الجديدة	مجموع الصـــرر
٢٧٠٠٦٩	٧٤٩٣٤٦	١١٥٤٧ التى كانت تمنح لمكة المكرمة.
٨٠٤٧٩٦	١٦٦٧٤٥٥	٢٤١٦٧٠ التى كانت تمنح للمدينة المنورة.
١١٥٤٧		١١٥٤٧ التى كانت تمنح للقدس الشريف..
١٠٣٠٨٦٢	٢٤٧٢٢٥١	٣٥٠٣١١٣

صورة العلم والخبر

إن الصرة القديمة التى أعتاد إرسالها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأماكن الأخرى أخذت من خزائن أوقاف الحرمين والأوقاف السلطانية والخزائن الأخرى لسنة كذا.. على أن تعطى لأصحابها الكرام فى أماكن إقامتهم شهرا بشهر، حسب النظام المتبع وإرسالها مقدما مخصوما من الرواتب الجديدة لسنة كذا.. موضوعة كوديعة فى أمانة الصرة السلطانية كما هو مقيد فى البند الأول من سجل الحساب والمصروفات؛ لذلك تم إرسالها إلى مكة المكرمة ـ شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة ـ مع الإضافات الجديدة وهى مبلغ (٥٠٠٧٤,٨٦٥) قرش وإلى المدينة المنورة (نورها الله تعالى إلى يوم الآخرة) مبلغ (١٢,٠١٦,٧٠١) قرش كما هو مقيد فى البند الثانى، وإلى القدس الشريف وما فى طرق الحج من أحواض الماء صرتها الخاصة محسوبا لسنة كذا.. والتى تساوى (١١١٥٤٧) قرش، والتى يبلغ مجموعها (١٢,٢٥٣,١١٣) قرش مبينا مقدار المبالغ الخاصة بالصرة القديمة وسنتها ومقدار المبالغ الخاصة بالصرة الجديدة وسنتها، ورواتب أى سنة هى.

أوضح كل هذا فوق بنوده كما عرف مجموعها فى خاناتها الخاصة وخصم منها المبالغ المذكورة لتسوية الإيرادات مع المصروفات مبلغ (١٤١٧٦) قرش ثم أعد ودبر مبلغ (١٧,٠٨٦,١٣٩) قرش ما بقى بعد الخصم فى ظل الرعاية السلطانية نقدا.

وحتى تصرف تلك المبالغ التى أشير إليها مقيدة فى خانات المجموع، نقدا من خزينة وزارة الأوقاف السلطانية يجب أن يبين أماكن صرفها وكيف تم تعويضها، ثم تقيد فى دائرة المحاسبة ولإتمام الإجراءات الأخرى حتى تمر بإدارة الإيرادات وقلم المحاسبات اليومية.

ولا يدخل فى هذا الحساب نقود المحروقات واللوازم الأخرى الضرورية، ويبعث ما اعتادت بلاد الحرمين استهلاكه سنويا من المحروقات والضروريات عينا وبطريقة مستقلة.

وإن لزم إضافة مجموع أثمان هذه الأشياء للحساب العام إلا أن هذا سبب فى زيادة مقدار الصرة مليونى قرش بالتخمين. وبناء على ذلك سيصل ما يرسل إلى الحرمين فى كل سنة إلى (٣,٩٠٣,١١٣) قرش، وإذا ما أضيف إليه الرواتب الأخرى التى تساوى (٤,١٣٦,٥٧٦) قرش، سيكون إجمالى المبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش أى ما يعادل (١٦٠٧٩) كيسا و (٣٨٩) قرش. إن مبلغ (٤,١٠٠,٠٠٠) قرش وكذا التى يطلق عليها الرواتب الأخرى هى المبالغ التى تصرف على أمناء لصرة المبشرين ورياسة الخلع ومرتبات إمارة مكة المكرمة ومخصصات بعض الموظفين وقيمة ما يرسل من البخور مستقلا، ومصروفات الطريق التى يتقاضاها أشراف المدينة عندما يخرجون لاستقبال المحمل الشريف، وأجر جمالهم وما بقى من الصرة ثمنا للخيام، ولتعمير الزكائب التى تحفظ فيها أكياس الرزق، وأكياس الفراشة ومصروفات صنع الخلع التى ترسل إلى أمير مكة، والخلع التى تقدم فى الطريق من الشام إلى مكة المكرمة وأشياء أخرى، والمبالغ التى تمنح إلى أهالى الحرمين باسم الجوالى وتموين الحج وحراس القوافل السلطانية من البدو.

وقد أوضحت كمية هذه المبالغ وكيفية توزيعها فى الجدول الذى يحتوى على رواتب الصرة السلطانية العامة كل شىء على حدة.

الرواتب العامة للصرة السلطانية

القروش	المـــــــــواد
٥٢٣٢٥٠	مخصصات أمناء الصرة
٢٠١٤٨٣	مخصصات المبشرين
٤٧٨٥٦	مخصصات المبشر
٢٢٧٥٠	مخصصات رياسة الخلعة
٣٥٠٢٣	رواتب إمارة مكة المكرمة الجليلة
١٨٠٦١٢٠	مخصصات من بعض الموظفين
٢٤٨٧٥٢٠	ثمن ما يرسل من بخور
٢٦٧٤١	أجرة جمل ومصروفات الطريق للشريف الذى يرسل من مكة المكرمة لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة
١٩٥٧٠	مصروفات لتعمير المكان الذى يحفظ فيه ما أعطى لأمناء الصرة من الخيم وأكياس الفراشة والزورق
٣٤٩٥٨	المصروفات لصنع الخلعتين اللتين ترسلان من إستانبول إلى أمير مكة
٥٦٤٦٤٠	الخلع والأشياء الأخرى التى تقدم فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ولأهالى الشام فى طريق الحج وبدل العطية الريفية والتى تعرف بجوالى[1].
٣٦٠٠٠٠٠	مخصصات تموين الحج وحراس القافلة السلطانية
٩٨٤٩٠٨١٦	رواتب مكة المكرمة
١٩٢٢٣٧٣٣٠	رواتب المدينة المنورة
١١٣١٩٢٠	رواتب القدس الشريف
٨٠٣٩٨٨٩٢	المجمـــــــوع

تطلق المرتبات الحجازية على المؤنة التى يتصدق بها الملوك العثمانيين حسب الحاجة إلى أهالى الحجاز الكرام، وإلى الآن تشترى من قبل الخزانة المالية كل عام وترسل إلى البلاد الحجازية، ويعطى هذا المبلغ خارج مبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش (٢٦) بارة هو المجموع الكلى لجدول الصرة السلطانية ومقداره (١٨,٤٩٨,٨٠٣) قروش، وهذا يعنى أنه يصرف من خزينة وزارة المالية

(١) إن أهم مصارف هذه المبالغ هى ما يقدم لقبائل حسنة وولد على، وغزة، وبنى صخر وروله، والعطايا المعتادة والرواتب الأخرى التى ترسل سنويا.

(٢) هذه الرواتب خاصة من خزانة الأوقاف السلطانية وهى مبينة فى الجداول التى تشمل على الصرة القديمة والزيادات الجديدة كيفا وكما.

للرواتب الحجازية سنويا (٣٦,٩٩٦) كيسا و (١٠٣) قرش كما وضح ذلك فى بند الميزانية من عدد (١٤٢٢) من الصحيفة الملغاة. وعندما أدرج هذا المبلغ إلى مجموع الصرة السلطانية يوضح ويؤكد أن وزارة المالية العثمانية ترسل إلى أهالى الحجاز (٢٦,٥٣٨,٦٩٢) قرش و (٢٦) بارة، وإذا كان هناك تفاوت بين المبالغ المقيدة فى جداول الصرة السلطانية وجداول الأوقاف السلطانية من حيث المبالغ التى صرفت لأهالى الحرمين ولموظفى أحواض الماء التى فى طريق القدس الشريف قدره (٥٨٤,٤٣١) قرش ١٤ (بارة)؛ فهذا الفرق هو معاشات موظفى مديرى مكة المعظمة والمدينة المنورة وخصيان الحرمين وموظفى المكتبات الميقاتية ومستشفى الغرباء وأثمان أرزاق من يعنون بحدائق العمارات السلطانية ومشايخ الحرمين وكاتب الحسابات اليومية للخزينة النبوية وموظفى مستشفى المجيدية وأمناء مكتبات ومدرسى المدرستين الحميدية والمحمودية، فإذا ما أضيف هذا المبلغ إلى جدول الصرة السلطانية نرى أن الجدولين قد تقابلا وتوازنا.

ويمنح الأهالى الكرام المجاورون مبلغ (٢,٠١٣,٤١٠) فى كل عام باسم (بدل الشهادة) من خزينة الأوقاف السلطانية يحصل على هذا المبلغ من عشر راتب شهر مارس من الموظفين الذين يتقاضون راتبا قدره (٢٥٠٠) قرش فما فوقه، فخزينة الأوقاف السلطانية تضم لوارداتها عشر راتب شهر مارس الذى يرسل إليها من الدوائر الحكومية وتؤدى بهذا بدل الشهادة.

وتعطى هذه النقود إلى الذين يحملون الشهادة من أهالى الحرمين من إدارة الترجمة للحرمين وبما أنها كانت توزع بطريقة لا ترضى أصحاب الشهادة وتتسبب فى مشاكل كثيرة وقد انزعج كل أهالى الحجاز من هذه الحالة وقدموا الطلبات إلى المقامات العالية مشتكين من هذه الحالة حتى إنهم أوصلوا صيحات شكاياتهم إلى سمع السلطان.

ولم يرض السلطان الذى ذاعت رحمته فى الآفاق أن ينزعج أهالى الحرمين

إلى الحد الذى رفعوا معه أصواتهم بالشكوى، فأمر بتشكيل لجنة خاصة تتسلم ما يستقطع من رواتب موظفى الدولة وتوزع هذه النقود وحسنت إدارتها فى سنة ١٢١٧.

وازنت اللجنة المكونة ما تراكم من الديون بسبب الواردات والمصروفات، وتبين أنها (٥٨٧,٩٩٨) قرش ونصف قرش. أى أكثر من الإيرادات فى السنين السابقة، وأصبحت خزينة الأوقاف الجليلة مديونة لأهالى الحرمين فى بدل الشهادة والإكرامية بمبالغ كبيرة، وعرفت أنه باستمرار هذه الحالة لن يمكن تسديد الديون المتراكمة فضلا عن إعطاء البدلات المذكورة سنة بسنة لأصحابها لذلك قررت إعطاء أهالى الحرمين ما تعودوا أن يأخذوه سنويا فى وقته دون إجبارهم على الشكوى وكذلك تسديد الديون[1] المتراكمة آملة فى زيادة الإيرادات بتخصيص صندوق يوضع فيه مازاد من الإيرادات وذلك بتصفية (١,٠٤٦,٢٠٠) قرش سنويا من المجموع الكلى للبدلات والإكراميات ومقداره (٣,٥٣٤,٧٥) قرش، وذلك بعد التخابر مع مجلس الشورى للدولة وإعداد المضبطة اللازمة والتى تحتوى على مقدار المقررات القديمة بعد التصفية وعرضت اللجنة كل هذا على ملاذ الخلافة مع الجداول الخاصة.

وبعد دراسة ما جاء فى قرار المضبطة التى عرضت على اللجنة دراسة عميقة دقيقة وتوضيح موادها المترجمة وتحقيقها صدور الإرادة السلطانية بإجراء ما يلزم بلغ الأمر كله إلى وزارة الأوقاف السلطانية مع التأشيرة السلطانية لإجراء اللازم فى سنة (١٢١٨). وكانت وزارة الأوقاف اعتادت أن تودع تلك المبالغ بواسطة إدارة الحرمين لأجراء ولكنها أخذت توزعها الآن بواسطة اللجنة المذكورة.

إن مجموع العشر الذى يستقطع من راتب شهر مارس فى سنة ٩٧ كما جاء

(١) كان تراكم الديون بسبب سوء الاستعمال فكان هناك إهمال شديد وعدم مبالاة عند كتابة أسماء من يأخذون بدل الشهادة فى الدفاتر الخاصة وكانت تكتب فيها أسماء وهمية لاوجود لأصحابها.

فى المضبطة التى عرضتها دائرة الداخلية للدولة وصل إلى (٢,٥٤٦٠٧٥١) قرش ونصف قرش، وكان مبلغ (٢٥٠٠٠) قرش منه مقابل الديون التى تراكمت قبل صدور الأمر السلطانى بتشكيل لجنة خاصة ومبلغ (١٢٤١) قرشا ونصف قرش، وقد حجزت وخصصت مبالغ (١٥٠٠) قرش لرئيس كتاب اللجنة المذكورة، و (٥٧٠٠) قرش لمعاش الفراشين والخدمة والمتقاعدين، و (٣٠٠) قرش ثمن ما استهلكته اللجنة من الأوراق ومع هذا لم تكن تلك الإيرادات متساوية فى كل السنوات بل تزيد سنة وتنقص سنة.

وكان مجموع ما استقطع من المعاشات فى شهر مارس سنة ١٢٩٧ (٣,٠٠٦,٩٨٦) قرش، وبناء على هذا التقدير يزيد عما استقطع من عشر شهر مارس لسنة ٩٧ مقدار (٦٠٢٣٤) قرش و (٢٠) بارة.

جدول ترتيب بدلات الشهادات

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٨٢٥٠٠	٥٤٩٠٠	٢٧٦٠٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٥	صف أول الشرفاء
١٢٦٥٠٠	٨٤١٨٠	٤٢٣٢٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	٢٣	الطائفة الأولى مكة
٤٥٥٠٠	٣٠٢٩٠	١٥٢١٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٣	الطائفة الثانية مكة
١٠٠٠٠٠	٦٦٤٠٠	٣٣٦٠٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠٠	٤٠	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠٠	٢٦٦٠٠	١٣٤٠٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٢٠	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
١٢٠٠٠	٨٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٨	الطائفة الثالثة المجاورين
٤٠٦٥٠٠	٢٧٠٣٧٠	١٣٦١٢٠	--	--	--	١١٩	
١٤٥٠٠٠	٦٩٥٤٠	٧٥٤٦٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٩	الطائفة الأولى المدينة
٥٦٠٠٠	٣٧٢٨٠	١٨٧٢٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٦	الطائفة الثانية المدينة
٣٢٥٠٠	٢١٥٨٠	١٠٩٢٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠	١٣	الطايفة الثالثة المدينة
١٦٠٠٠	١٠٦٤٠	٥٣٦٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	الطائفة الثالثة المجاورين
٦٦٢٠٠٠	٤١٣٤١٠	٢٤٨٥٩٠	--	--	--	١٧٩	

إن مبلغ (٤١٣٤١٠) قرش الذى وضع فى هذا الجدول خاص بأصحاب الشهادة الذين رتبوا مقسمين على خمس طوائف وطبقات.

ويمنح لسبعة وخمسين شخصا من الطبقة الأولى مبلغ (٣٦٦٠) قرش كل سنة، وعلى تسعة وعشرين شخصا من الطبقة الثانية يمنح لكل واحد منهم سنويا (٣٣٣٠) قرش، وعلى ثلاثة وخمسين من الطبقة الثالثة يمنح لكل واحد منهم مبلغ (١٦٦٠) قرش، وعلى ثمانية وعشرين شخصا من الطبقة الرابعة يمنح لكل واحد منهم (١٣٣٠) قرش و (١٠٠٠) قرش لكل واحد من الطبقة الخامسة.

الطبقة الأولى هم الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام والأئمة والخطباء، والطبقة الثانية هم الممتازون من الأهالى الذين يقال لهم أبناء الأسر، والطبقة الثالثة هم خدم الحرم الشريف، والطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين، وقد عد الطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين كل واحد منهما طبقة مستقلة إن ١٧٩ شخصا من الذين يكون الطبقات المذكورة ١١٩ منهم مكى وستون منهم من المدينة، وتطبع كل سنة بمعرفة وزارة الأوقاف شهادات بالعدد المذكور من قبل اللجنة المذكورة كل شهادة بالختم الخاص بطبقتها ثم تسلم إلى أمانة الصرة السلطانية، وترسل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة على أن توزع بالقرعة، ثم توضع عليها أرقامها وتختم أسفلها من إدارة الحرمين المحترمين وتسلم إلى أصحابها، تفوض إمارة مكة فى توزيع خمس عشرة شهادة من مجموع مائة وتسع شهادات هى الخاصة بمكة المشرفة، ومتولى رياسة الإمارة يعطى خمس عشرة شهادة إلى من يراه مناسبا من الأشراف، والباقى من الشهادات وعددها أربع ومائة شهادة توزع على الأهالى بالقرعة الشرعية، وبناء على العادة المرعية من قديم يدخل الفرد الواحد فى القرعة مرة كل أربعة أعوام، كما أن خمسا وعشرين من مجموع الشهادات الخاصة بالمدينة المنورة توزع على السادة العلويين والحسنيين والأئمة والخطباء وتعطى لهم بقاعدة التناوب، والباقى وعددها خمس

وأربعون شهادة تعطى للأشخاص الذين أصابتهم القرعة والتى تجرى مرة واحدة كل أربع سنوات.

ويأخذ الشخص الذى ينتسب إلى طبقة من الطبقات المذكورة كل اثنتى عشرة سنة شهادة حسب قاعدة التناوب.

وفى كل سنة يقيد أسماء الأشخاص الذين أعطوا شهادة فى سجل خاص، سواء كان عن رأى شريف مكة أو وفقا لقاعدة التناوب أو بإجراء القرعة الشرعية، ويرسل السجل إلى وزارة الأوقاف الجليلة وتتولى إدارة المصروفات فى تلك الوزارة تحويله إلى اللجنة الخاصة، وقد تكون لهؤلاء الأشخاص إيرادات أخرى أو معاشات.

بعد ما تعطى الشهادات إلى أصحابها فى الحرمين الشريفين وفق الأصول المرعية وتقيد فى السجل وترسل إلى إدارة المصروفات العمومية، يتوجه بعض أفراد الطبقات الخمس إلى إستانبول ليتسلموا بدل شهاداتهم بالذات من خزينة الأوقاف السلطانية، وبعضهم يبيعون شهاداتهم ليقضوا حاجاتهم، وبعضهم يرسلون الوكلاء عنهم وكل من يأتى إلى باب السعادة ويبرز شهادته فاللجنة المذكورة تطابق الشهادة بما عندها ثم تكتب مذكرة وتبعث إلى وزارة الأوقاف بعد أن تعطى صورة منها لإدارة المصروفات العامة.

عندما كانت توزع الشهادات والمنح من قبل إدارة الحرمين للترجمة كان يحدث سوء تصرف، وقد اتخذت لجنة التوزيع تحت الرعاية السلطانية قاعدة لا يمكن وقوع التلاعب فيها عند التوزيع، وقد قيدت وضبطت جميع الأشياء المرسلة من عشر المعاش كنوعها ومقدارها ولاسيما أثمان المسكوكات، وبهذا النظام لن يشتكى أهالى الحرمين من موظفى خزينة الأوقاف السلطانية إلا إذا ألغيت اللجنة المذكورة واستشاراتها، أو إذا أوقفت مبالغ شهر مارس أو نقصت.

المنحة

يعطى لأهالى الحرمين سنويا مبلغ (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة وهذا المبلغ أيضا يؤخذ من عشر رواتب شهر مارس. والذين يأخذون بدل المنحة من سكان الحجاز ينقسمون إلى خمس طبقات، والذين يشكلون الطبقات الخمس المذكورة (٨٠) منهم من مكة المكرمة و (٤٥) منهم من المدينة، وعددهم الإجمالى (١٢٠) شخصا، الطبقة الأولى من هؤلاء ٦، والطبقة الثانية ٢٢، والطبقة الثالثة ٤٣، والطبقة الرابعة ٣٧، والطبقة الخامسة ١٢ نفرا.

وبما أنه يشترط أن يشمل هؤلاء المجاورين أيضا، فإن المجاورين يشكلون الطبقة الخامسة ويمنح لكل واحد من أصحاب الطبقة الأولى (١٠٠٠) قرش، وكل واحد من أصحاب الطبقة الثانية (٨٣٠) قرشا، والطبقة الثالثة (٦٦٠) والطبقة الرابعة (٥٠٠) والطبقة الخامسة (٣٣٠) قرشا عائدا سنويا.

وحتى فبراير من السنة المالية (٩٦) لم يكن صرف المنح محددا ولا مقننا وكانت تعطى بالنسبة للذين يذهبون إلى إستانبول، بالأحرى الذين يعرفون كيف يقيدون أسماءهم فى دفتر التوزيع.

وقد قرر إعطاء (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة اعتبارا من شهر مارس للسنة المالية (٩٧) كما هو مسطر فى الجدول الآتى الذكر وقد صدر الأمر السلطانى بتوزيع تلك المبالغ بموجب الأوراق التى طبعت من قبل اللجنة وإرسال تلك المبالغ إلى الحرمين المحترمين بمعرفة أمانة الصرة السلطانية، وإن كانت اللجنة قد طبعت الأوراق المذكورة وأرسلتها، إلا أن المبلغ المذكور آنفا وهو (٧٥١٠٠) قرش لم يرسل فى وقته لأجل ذلك قد صدر الأمر السلطانى بإعطاء بدلات المنح كعهدها القديم فى باب السعادة. والآن تعطى فيها.

وأصبح من أحكام القواعد الموضوعة إعطاء تذكرة مرور لمن يستحقون المنح من أهل مكة من الولاية الحجازية الجليلة، ولمن يستحقونها من أهل المدينة من محافظة المدينة المنورة، ومع هذا لا تعطى المنح لمن لا يحملون تذكرة المرور أو من يفتقدون الشروط اللازمة لنيل المنح.

الجدول الذى ينظم البدلات التى ينبغى صرفها اعتبارا من عام ٩٧

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	صف أول الشرفاء
١٧٥٠٠	١١١٠٠	٥٩٠٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	١٤	الطائفة الأولى مكة
٢٩٠٠	١٩١٤٠	٩٨٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	٢٩	الطائفة الثانية مكة
١٨٨٧٥٠	١٢٥٠٠	٦٢٥٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	٢٥	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠	٢٦٤٠	١٣٦٠	٥٠٠	٣٣٠	١٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٧٥٢٥٠	٤٩٨٨٠	٢٥٣٧٠	--	--	--	٨٠	الطائفة الثالثة المجاورين
٣٠٠٠	٢٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٢	طبقة الشرفاء
١٠٠٠٠	٦٦٤٠	٣٣٦٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	٨	الطائفة الأولى المدينة
١٤٠٠٠	٩٢٤٠	٤٧٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	١٤	الطائفة الثانية المدينة
٩٠٠٠	٦٠٠٠	٣٠٠٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	١٢	الطايفة الثالثة المدينة
٢٠٠٠	١٣٢٠	٦٨٠	٥٠٠	٧٣٠	١٧٠	٤	الطائفة الرابعة المجاورين
١١٣٢٥٠	٧٥٠٨٠	٣٨١٧٠	--	--	--	١٢	الطائفة الخامسة

الصحيفة الخاصة بمنح الطبقة الثانية

قد ختم فى هذا المكان مبينا ما أخذته من منحة خاصة بى وهى. . . قرشا من خزينة مديرية الحرم الشريف وذلك بعلم اللجنة، وبما أن المدعو عبد الرحمن بن محمد الفقيه من أبناء العلماء والمقيد فى الجدول أعلاه ضمن الطبقة الثانية أراد هذه المرة ـ حسب المقتضى ـ السفر إلى العاصمة السلطانية، وبما أنه أعطى له الإذن من قبل الإمارة والولاية بذلك وقد أعطى له بمعرفتى مبلغ. . . قرش منحته الخاصة من خزينة مديرية الحرم الشريف وعليه عند وصوله إلى الباب العالى أن

يسلم الرخصة إلى لجنة إدارة الحرمين المحترمين، وإذا اقتضى الأمر أن يعطى له تذكرة المرور وكل ما يخص هذا الموضوع فالأمر فى يد من له الأمر.

فى جمادى الآخر .... سنة

العضو العضو العضو المفتى رئيس الإدارة

صورة الأمر والقانون

خاص بسكان الحرمين المحترمين الذين يريدون أن يأتوا إلى الباب العالى السلطانى بنية الاستعطاف، إذا كان المشار إليه من الأشراف والشرفاء يجب عليه أن يختم طلبه فى المكان الخالى بالختم من نقيب الأشراف، وإذا كان من السادات يختمه من نقيب السادات، وإذا كان من الأئمة والخطباء يختمه من شيخ الخطباء، وإذا كان من المطوفين يختمه من رئيس الأدلاء، وإذا كان سقاء يختمه من رئيس السقائين، وإذا كان من خدمة الحرم الشريف فليختمه من نائب الحرم، وإذا كان من الأهالى والمجاورين يختمه من المحتسب، ولن تعطى منح لمن ليس لهم حق فى طلب المنح عند وصولهم إلى الباب العالى، ولن تعطى المنح لموظفى ولاية الحجاز ومديرية الخزانة وكتبتها والآخرين وللأطفال صغار السن والعبيد والخدمة والأهالى والمجاورين الذين يشتغلون بالتجارة، ولن تعطى المنح للذين أعطى لهم بدل الشهادة فى السنة المذكورة. ولن تعطى هذه المنحة للذين اتخذوها تجارة ويذهبون كل سنة إلى الباب العالى للاستعطاف، وإنما ستعطى للذين يجيئون كل سنتين مرة.

وعندما توزع أوراق المنح هذه على أصحابها سيقدم إلى وزارة الأوقاف السلطانية من قبل اللجنة والمديرية سجلا يحتوى على أسمائهم وشهرتهم وأرقامهم مثل الشهادة، مع إذن الصرف.

(ملحوظة) أول من بعث الصرة إلى الحرمين هو المقتدر بالله العباسى وأصبح

ذلك عادة، وكان مقدار الصرة التى أرسلها المقتدر بالله (٣١٥٤٢٦) (٣١٥٤٢) ذهبا فيلوريا[١]، وقبل المقتدر بالله بواحد وثمانين عاما أو اثنين وثمانين عامًا كان الواثق بالله قد أرسل إلى فقراء الحرمين المنح والهبات، إلا أنها لم تكن تبعث سنة بعد سنة بل كانت توزع فى موسم الحج فقط، كان الواثق بالله مثل المأمون كان يكرم ويعز ويوقر السادات العلوية والحسينية. وفى العام الذى يحج فيه كان يبذل العطاء لفقراء الحرمين إلى حد الإثراء؛ وذلك البذل العظيم كان بسبب اعتبار فقراء الحرمين من سلالة أبناء الحسنين رحمة الله عليهما.

وكان الثانى فى إرسال الصرر بعد المقتدر بالله السلطان محمد خان جلبى. إذ أرسل صرة فيها الكفالة ونال شرف الترتيب الثالث فى إرسال الصرر نجله النجيل مراد خان الثانى أسكنه الله الفردوس.

أما الصرة المرسلة للمرة الثالثة فكان مقدارها (٣٥٥٠٠) فيلورى من الذهب جرى العرف بإرسالها فى كل عام.

وأرسل السلطان مراد خان الثانى فى سنة (٧١٧) الصرة الرابعة وتصادف إرسال الصرة للمرة الخامسة عام (٨٥٥) للهجرة.

وكان مقدار الصرة التى أرسلت سنة (٨٥٥) ٨٠٠ كيس وكان شاه إيران «شاهرخ» أيضا قد أرسل فى سنة (٨٤٣) مقدارا من الصرر.

قد اعتاد السلطان بايزيد خان الثانى ابن السلطان محمد خان من سنة (٨٨٦) إرسال صرر سنوية مقدارها (١٤٠٠٠) قطعة ذهبية على أن يكون نصفها لأهل مكة ونصفها الآخر لأهل المدينة المنورة وزاد بعد ذلك مقدار الصرة سنة بعد سنة إلى أن وصل للمقدار الحالى.

مطالعة

الذين يعرفون أهمية موقع الحرمين الشريفين وحرمتهما والذين يكنون الحب لهما بحكم دينهم يجب ألا يستكثروا المبالغ التى تقدم لها، ومع هذا فأى شخص

(١) كتب مؤلف «روضة الخلفاء» فى تاريخه أن هذا الشخص كان يحسن على فقراء عصره سنويا بمبلغ (٦٩١١٠).

من أهل مكة المكرمة أو المدينة المنورة فكر فى أوقات تخصيص هذه الرواتب، ويجب أن نعترف أن ما يمنح من الرواتب فى حاجة إلى التخصيص والتعديل.

وبما أن الصعوبات التى كانت تعترض حياة أهل الحرمين وطريق الحجاج فى العصور السابقة قد انخفضت وسهلت فى ظل الرعاية السلطانية إلى درجة كبيرة بحيث لم يبق هناك سبب للتبذير عند خروج موكب الحج وعودته، ومثال ذلك إعطاء أمناء الصرة الذين يتقاضون (٥٠٠٠٠٠) قرش رواتب مقننة وإعطاؤهم (١٠٠) قرش ثمن البغل، (٢٥٠) قرش مصروفات الطريق وإعداد المبيت، وإذا ما وجد الجمع بين أمانة الصرة وبين وظيفة القيام بالحفظ على المؤونة، وإذا ما دفعت وسويت أجور الجمال لحمل أحمال الصرة السلطانية وزكائب الفراشة والرواتب الأخرى من هذه المخصصات وسدد مبلغ (٦٠٠٠) قرش الخاص بالحفظ والمحافظة مع مصروفات الطريق ومعاشات الحراسة ومعوناتها من إدارة المؤونة للحج وأعطى لهذه الإدارة (١٥٠٠٠٠) فيمكن أن يدخر مبلغا يصل إلى (٣٧٣٢٥٠) قرش من مجموع ما يستقطع من مخصصات أمانة الصرة و(٢٠٠٠٠) من ثمن أجور البغال و(٣٢٥٠) قرش من مصروفات ونفقات معدى أماكن البيات فى الطريق.

ويرى فى جدول الصرة السلطانية مبلغ (٢٠١٤٨٣) قرش وإن هذا المبلغ مجموع النفقات الآتية: (١٠٩,٨٣٠) قرش منها لنفقات الطريق والباقى وهو (١٩٠٦٢) قرش منها نفقات السقاة و(٩٠٠٠) قرش أجرة نقل زكائب فراشة مكة المكرمة و(٥٠٠٠) قرش عطايا و(٥٤٠٠٠) قرش أجور الجمال و(٤٥٩١) قرش النفقات المعتادة.

وبما أن هذه النفقات المذكورة تدفع مستقلة لنقل زكائب الفراشة والزورق فإذا ما نقلت هذه الأشياء مع الصرة يمكن إدخار المبالغ المذكورة كلها. وإن كان مبلغ (٤٩٨٥٦) قرش يرى مستقلا فى الجدول السابق الذكر إلا أن مبلغ (٣٥٥٤٤) قرش منه يعطى كنفقات الطريق ومبلغ (١٠٠٠) قرش كمنح معتادة ومبلغ

(١٣٣١٢) قرش كعطايا. ومهمة هذا الموظف الذهاب إلى مكة المكرمة مع الصرة السلطانية وفى أثناء العودة يحيد عن الطريق ويذهب إلى الشام مع الرسول الخاص، ويعطى للولاية السورية الرسائل التى وجهت من الإمارة ثم العودة إلى دار السعادة، بما أن الرسول الخاص كان يمكنه أن يتم بالبرق كل ما يحدث الآن من تبليغ الرسائل من الولاية إلى باب السعادة فلا ضرورة لبقاء هذه الوظيفة.

وبإلغاء الوظيفة المذكورة ترسل الرسائل المذكورة إلى والى سوريا برسول خاص. وإلى باب السعادة بالبرق، بناء على هذا فمبلغ (٤٩,٨٥٦) قرش أجر الموظف المذكور يظل فى خزينة المالية.

ويشار فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ (٢٢,٧٥) قرش. إن (١٥٠٠٠) ألف من هذا المبلغ لنفقات الطريق، (٧٥٥٧) قرش منه يعطى كمنحة معتادة لأحد الموظفين. إن مهمة هذا الموظف كانت مصاحبة الخلع التى كانت تصنع من جانب الخلافة كل سنة وما ترسله وزارة الأوقاف، بإعطائه نفقات الطريق وقدرها (٣٠٠٠) قرش سالكا طريق البحر ويسلم ما معه إلى الجهات المختصة والآن تحت ظل التسهيلات التى حدثت فى العهد السلطانى لم تعد هناك حاجة لهذه الوظيفة.

والموظف سالف الذكر الذى كان يتقاضى مبلغًا قدره (٢٢٧٥٠) قرش يناله من إمارة مكة المعظمة عطية خاصة، كما كان يأخذ من خزينة مصر منحة قدرها (٢٥٠٠٠). وكانت من عادة وزارة الأوقاف السلطانية قديما أن ترسل زيوتا بواسطة موظف خاص تدفع أجره خزانة الأوقاف، وإذ أرسلت بعد الآن أيضا بواسطة موظف خاص وأرسلت الخلع بواسطة أمناء الصرة فيمكن إدخار المبالغ المذكورة وكل ما كان يدفع له من العطايا من قبل الإمارة وما يدفع له من خزانة مصر وهو مبلغ قدره (٢٥٠٠٠). إن مبلغ (٣٥,٠٢٣) قرشا الذى أشير إليه فى جدول الصرة السلطانية كرواتب إمارة مكة الجليلة لا لزوم له، ويجب أن يصرف النظر عنه حتى يدخر ذلك المبلغ.

وكان إرسال هذه الرواتب من موجبات عادة قديمة ولكننا الآن يلزمنا ألا نراعى تلك العادة: لأن مبلغ (٥٢٠٠) قرش منه كان بدل الخيل، ومبلغ (١٥٣٧١) قرشا كان خاصا بسرجين فضيين للخيل، ومبلغ (٤,٠٢٢) بدل اثنى عشر من الجوخ، ومبلغ (٢٤٧) قروش ثمنا للفواكه، ومبلغ (٢,٠٢٣) قرشا بدل الحلوى، ومبلغ (٥٠٠٠) منه هبات يجب ألا يرسل أى قرش منه وخاصة ما يرسل منه لبعض الموظفين كمخصصات وهى مبلغ (١٨,٠٦١) ونصف قرش لم يعد له أى مبرر.

إن مبلغ (٣,٦١٣) قرش من هذه النقود نفقات ترسل من باب السعادة إلى ولاية الحجاز كل سنة، ومبلغ (٨٥٧٧٠) قرش لموظفى أمانة الصرة وللمبشرين والآخرين ونفقات صنع الجبب والمعاطف من الفراء، ومبلغ (٢١٤,٥) قرش بدل الفواكه التى أرسلتها أمانة الصرة السلطانية للموظفين، ومبلغ (١٩١٩,٥) قرش بدل ضيافة الشريف وموظفى الإحرام الذين استقبلوا موكب الحج، (٨١٤) قرشا بدل طعام الشريف الذى كلف بتوديع موكب الحج، و(٢٩٢٦,٥) قرش ثمن ما أرسل من مكة المكرمة لأمناء الصرة السلطانية من الشيلان ولإجراءات ونفقات سفر الموظفين الذين أحضروا هذه الأشياء، إذا كان إرسال هذه المبالغ من العادات القديمة وإذا ما صرف النظر عن إرساله بعد الآن يمكن إدخار تلك المبالغ.

هناك فى دفتر الصرة السلطانية مبلغ (٢٤,٨٧٥,٥) قرش بدل ما أرسل من البخور وغيره ويمكن أن يدخر من هذا المبلغ ما قدره (٧٨٧٥,٥) قرش، لأن مبلغ (٢٤,٠٠٠) والكسور يشمل على (٢٠٠٠) منه ثمن البخور (٥٢٥٠) قرش منه ثمن ما اشترى من مخمل لصنع أكياس الخزينة، و(١٨٧٥,٥) قرش لتعمير الصناديق وثمن الأقفال ونفقات نثرية (١٢٠٠) قرش منه ثمن ما يرسل إلى مكة المكرمة من أربعمائة مثقال من دهن الورد، و(٣٧٥) قرشا منه ثمن العود والعنبر الذى يرسل إلى حامل مفتاح البيت المعظم شيبة أفندى.

وإن كان إرسال دهن الورد والعود والعنبر من الأشياء اللازمة لكن لا حاجة لنفقات تعمير الصناديق وشراء الأقفال وغيرها من النفقات، كل هذه المبالغ ومبلغ

(١٢٥٠) قرش ثمن المخمل الذى سيشترى لأكياس الخزينة وفيه كفاية؛ لذا يمكن أن يوفر منه مبلغ (٤٠٠٠) قرش ويقتضى ألا يرسل مبلغ (٢٠٠٠) قرش بدل البخور بالمرة.

وإذا ما خفض من مبلغ (٢٤٠٠٠) قرش والكسور السالفة الذكر والمقدار الذى سبق ذكره يمكن أن يوفر مبلغ (٧٨٧٥) قرش ونصف قرش.

وإن كان إرسال البخور إلى الحرمين فى درجة الوجوب إلا أن ما يرسل من مقادير كثيرة من البخور كل سنة من خزينة الأوقاف السلطانية إلى الحرمين وهو محقق يغنى عن إرسال بدل البخور.

كما أن نفقات الصناديق ضمن النفقات التى تدخل تحت نفقات الأشياء العينية، وبما أن تلك الأشياء قد تحولت إلى البدلات فلا حاجة إلى هذا النوع من النفقات، قد أشير فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ قدره (٢٦٧٤١) قرش وهو ما تدفعه الخزانة المالية كنفقات الطريق وأجور الجمال للذين تعينهم لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة.

وقد خصص مبلغ (٦٣٩١) قرش أجورا للجمال والباقى وهو (١٠,١٧٥) قرش نفقات الذهاب و(١٠,١٧٥) قرش نفقات العودة، وبما أن إعطاء نفقات الذهاب والعودة لموظف وفوقها أجور الجمال ينافى أصول خزينة الصرف إذن يجب خفض أجور الجمال وتحويل الباقى من النفقات إلى خزينة الحجاز رعاية للتصرفات السابقة واتخاذ ذلك قاعدة، يمكن عندئذ توفير مبلغ (٢٦,٧٤١) قرش الذي سبق ذكره.

إذا ما ضمت أمانة الصرة إلى أمانة تموين الحج فسَيُسْتَغْنَى عن نفقات إقامة الخيم وبهذا سيوفر سنويا ما يعطى لأمناء الصرة كنفقات لتعمير الخيم وقدره (١٨,١٠٠) قرش، ويباع كذلك الخيم الموجودة ويخفض من مبلغ (١٤٧٠٠) قرش التى تعطى لإصلاح الزكائب الكبيرة الموجودة فى الخزينة لأجل حفظ أكياس الفراشة والزورق إلى (١٠٠٠) قرش فقط يمكن أن يوفر

من هذا مقدار (٤٧٠) قرش وبهذا يظل فى الخزينة الجليلة مبلغ (١٨٥٧٥) قرش ويمكن تخفيض مبلغ (١١٠٢١٥) قرش وهى مخصصات تموين الحج وجند الأعراب الخاص لحراسة موكب الحج.

وتبين لنا عند اطلاعنا على سجلات تموين الحج أنه يعطى لنفر من كتبة الخزينة مبلغ (٣٤,٠٣٠) قرش، ولكاتب التموين (٩٩٩) قرش راتبا ولكاتب نفقات الطريق وتموين الحج مبلغ (٣٠٣٢٤) قرش لرفيقه (٢٨٥) قرش معاشا و(١٩٠٠٠) قرش مصروفات طريق الحج و(١٢٨١) قرش ثمن الأوراق و(٦٧٥) قرش لرئيس جمالى المحمل الشريف وأفراد الجمالين كنفقات الطريق و(١٢٦٠٠٠) قرش أجر الجمال لنقل الشعير من مزريب إلى مداين صالح و(٩٠٠٠) قرش نفقات الطريق لكاتب الكتيبة البدوية السلطانية (٤٥٠٠) قرش نظير مكان لتموين الحج الشريف ويتولى كاتب الخزينة مسك دفاتر النفقات فى طريق الحج.

ومدة وظيفته أربعة أشهر أو خمسة، فمخصصاته لا تتناسب مع نفقاته لذا يجب خفض راتبه إلى (١٠٠٠) قرش، ونفقات سفره إلى (١٣٠٠٠) قرش، وإذا ما أجريت هذه التخفيضات فإنه يتوفر منها مبلغ (١٢,٣٠٠) قرش، ولعدم وجود حاجة ملحة لاستخدام كاتب المؤن فينخفض راتبه إلى (٢٥٠) قرشا ونفقات طريقه إلى (٣٥٠٠) يمكن توفير مبلغ (٣٩٩٠) قرش فى حالة استخدامه.

بما أن كاتب تموين الحج معين على ألا يذهب إلى الحجاز فتبدأ مهمته اعتبارا من تحرك الصرة من الشام بكتابة التقارير عند اللزوم ويقدم الحساب مرة واحدة فى السنة إلى إدارة محاسبة الولاية، ويضم بعض الأشياء لمخصصات هذه الوظيفة يمكن تحميلها إلى كاتب الخزينة، فيعطى لكاتب الخزينة (٦٣٢٤) قرش ويوفر الباقى وهو (٢٤٠٠٠) قرش وبما أن كاتب التموين يقوم بعمل رفيقه يجب أن يحمل كل هذه الأعمال كلها لكتاب الخزينة فيصرف النظر عن اسخدامه ويجب توفير معاشه وهو مبلغ (٢٨٥٥) قرشا.

وما يمكن توفيره من نفقات طريق الحج وهو مبلغ (٩٠٥٠) قرش من ثمن القرطاسية (٧٧١) قرش ومن نفقات طريق رئيس الجمالين وأفراده (٦٧٥٥) قرشا ما يعطى لنقل الشعير من المزاريب إلى مداين صالح فى صورة قانونية وهو مبلغ (١٢٦٠٠٥) قرش ومن أجور الجمال (٦٣٠٠٠) قرش، والمبلغ الذى سيوفر بإلغاء وظيفة كاتب جنود البدو السنية وقدره (٩٠٠٠) وبقطع مبلغ (٤٥٠) قرش وذلك بتخصيص محل لحفظ مؤنة تموين الحج فى دائرة حكومية أو داخل القلعة.

وبهذه الصورة سيوفر مبلغ قدره (٨٨,٠٢٨) قرش ينفق كل عام مبلغ (٩٣٤٩٥) قرشا وذلك ثمن مصنعية قطعتين من الجبب اللتين ترسلان من باب السعادة إلى أمير الحجاز وإحدى هاتين الجبتين مزركشة وثقيلة نوعا ما ويكلف صنعها (٣٣٢٥) قرش والأخرى ليوم الجمعة (١٦١٢) قرش.

وإذا ما صرف النظر عن إرسالهما بعد الآن سيتوفر المبلغ المذكور فى خزينة المالية للدولة. ويرى فى جدول الصرة السلطانية التى سبق ذكرهر فى خانة مخصوصة مبلغ (٣,١١٤,٦٤) قرش خاصة بخلع أهالى الحرمين ومن فى طريق الحرمين وأهالى الشام وبدلات وعطايا ونقود ذهبية على أنها وظائف متنقلة وقتية، إن (١٠٠٣٥١) قرش من المبالغ المذكورة خصصت للوظائف المتنقلة الوقتية الخاصة بأهالى مكة المكرمة والمدينة المنورة (٧٣٥٥) قرش لسكان مكة المكرمة (٢٣٦٣٥) قرش لسكان المدينة المنورة من طرف رئاسة الوزارة بدل هبة الربعية وهى نقود ذهبية.

ينفق مبلغ (١٧٣٨٢٠) قرش ونصف قرش إلى المدينة المنورة و(٨٠٤٩٧) قرش إلى مكة المكرمة، و(٦٦٣٥٧) قرش ونصف قرش لأمور خاصة فى الشام.

تعطى نفقات الوظائف التى عرضناها مرتبة من خزينة المالية كما هو مبين فى سجلات وزارة الأوقاف وديوان التشريفات؛ إلا أن تلك الخزينة ليس لها أدنى علم عن الأشخاص الذين يعطى لهم، ومقدار ما يأخذون (٧٥٠) وقد تحقق

إعطاء (٧٥٠) قرشا من هذه النقود إلى المبشر الذى ألغيت وظيفته و(٢٥٠) قرش للأشخاص الذين يرسلهم شيخ الحرم النبوى لأمناء الصرة على أنه ثمن الفواكه و(٢٠٠) قرش لرؤساء جمالى الصرة السلطانية.

وبما أنه لا يجوز تكرار صرف النقود لأشياء لا لزوم لها، فيجب أن تخصم المبالغ التى ذكرت وقيدت فى ثلاثة أشهر فى الجدول من مبلغ (٥٦٤٦٤٠) قرش، وبعد الخصم يجب إجراء تحقيقات كاملة والعمل وفق ما أسفر عنه التحقيق والتدقيق.

وقد وصل إلى سمعنا من بعض الذين يؤمن على صحة أقوالهم أن بعض أهل باب السعادة يشاركون فى هذه النقود أصحابها، كما أن الهبات التى جرت العادة بإعطائها للعربات تصرف لهم ناقصة، والخصم الباقى يجد سبيله إلى جيوب المنتفعين وإذا ما استمر إجراء التحقيقات بخصوص هذه النقود ووضعت الخزينة ما التزمت به فى قضية تصرفات بعض الموظفين المهمة تحت المراقبة؛ يؤمل توفير مبلغ (٥٠٠٠٠٠) قرش.

وننقل الكلام إلى مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) قرش المخصص لتموين الحج جند العربان يعطى مبلغ (١٣٣,٥٩٩) قرشا من هذه النقود لشيخ قبيلة حسنة و(٢٣٥,٠٩٠) قرشا لشيخ قبيلة ولد على وعنزة و(١٣٣٧) قرشا لشيوخ قبائل بنى صخر و(١٩٣٥٧٥) قرش لمشايخ العربان الذين يسكنون الخيم بعد قلعة مزاريب. ورواتب هؤلاء القديمة تبلغ (٢٧,٧٠٠) قرش الذى تعود أن يأخذه شيخ قبيلة رولة: طعلال الشعلان. وقد ثبت بما قاله سعيد باشا محافظ تموين الحجاج أن هذه الرواتب أكثر من نصابها، ويمكن أن يكتفى بإعطاء قبيلة حسنة (٨٠٠٠) ولقبيلة ولد على مع قبيلة عنزه (١٤٠٠٠)، ولقبيلة بنى صخر (٨٠٠٠٠) وللعربان سكان الخيم ولشيخ رولة (٢٠٠٠٠) قرش وإذا ما قرر إعطاء المبالغ السابقة يمكن توفير (٢٨٣٧١) قرش من هذه الأقسام الخمس. ويصل التوفير الكلى إلى (١٢٥٤,٥) قرش، وإذا ما فتح لهذا الموضوع أهمية عظمى فإن مقدار المتوفرات يزيد ويربو على هذا. «انتهى».

وكان من القواعد القديمة المقررة إرسال رسالة سلطانية مع قافلة الشام تخاطب أمير إمارة مكة المعظمة، وقد حصلنا على صورة من الرسالة التى دبجها والد السلطان كثير المحامد جعل الله مسواه الجنة السلطان عبد المجيد خان قبل خمسة وثلاثين عاما إلى سنى المناقب الشريف محمد بن عون[1]. لذا رأينا أن نسطر تلك الرسالة المفعمة باللفتة السلطانية الكريمة وندرجها فى هذا المكان.

صورة الرسالة السلطانية

إلى صاحب الإمارة مكتسب السعادة المنتسب للسيادة ذى النسب الطاهر والحسب الظاهر، مستجمع جميع المعالى والمفاخر كابرا عن كابر، جمال السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية، المصطفوية زبدة آل الرسول وقرة عين الزهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف خالق الكون الشريف (محمد بن على) دام سعده.

إذا ما وصلت رسالتنا السلطانية إليكم ليكن معلوما لديكم، بما لكم من نقاء جوهركم العدنانى، وصفاء طوية الفطرة القحطانية، منذ أن كان لكم فى مقام السيادة قعود، وإلى إمارة مكة صعود بذلتم الجهد فى خدمة الحرمين الشريفين وسعيتم فى رخاء أهلهما والمجاورين لهما، وحققتم لهم كلهم فراغ البال وجعلتم بها الأمر الأهم وأقمتم فى بلاد الحجاز دعائم النظام ووطدتم الأمن لقوافل الحجاج القادمين من كل فج عميق، وحققتم الطمأنينة للتجارة وأبناء السبيل، ومهدتم لهم مهاد الراحة وسعيتم فى رعايتهم فى ذهابهم وعودتهم، بإلهام من وفدنا السلطانى، والمأمول أن تستمروا فى بذل الهمة وفى إنجاز جميع المهام وحسب رغبتنا السلطانية ولكل هذا جعلتم شمس مقامنا تشرق من جديد، وبذلك زركشتم ثياب مناقبكم وزينتموها، فأهدينا إليكم قباء أخضر يشد على عروتيه زران محليان بالماس، وهذه الرسالة السلطانية تحيطكم علما بذلك، وقد أرسلت مع رئيس كتاب ديواننا السلطانى حافظ أحمد، فعليكم أن تلبسوا هذه

(١) إنه والد الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة المعظمة الحالى.

الخلعة فى حفل رسمى بعد تلقيها معلنين ولاءكم وإخلاصكم لنا وداوموا على ما أنتم عليه بفضل نجابتكم وأصالتكم فيما يختص بإمارتكم.

والآن يخرج إلى الحج والى الشام وأمير الحج وأميرنا عثمان نورى باشا، فعليكم حماية الزوار والتجار من عدوان العرب، وتأمين طرق الحرمين الشريفين والعمل على راحة ورخاء سكان ومجاورى المقامين الشريفين، وأن ترغبوا جميع أهل التقوى والصلاح فى تلك الأماكن المقدسة فى الدعاء بالخير لنا، وأن ترعوا مصالح المسلمين قاطبة، أن تحموا قوافل الحجاج ابتداء من مدائن صالح بأن تكونوا فى استقبالهم عند القدوم وعند الرجوع، حتى تمنعوا عنهم أذى العربان والطوائف الأخرى المضرة بما عرف عنكم من الشجاعة والحماسة والفروسية، وذلك طبقا لرغبتنا ومساعينا السلطانية، ووفقا لشهامتكم الهاشمية وعليكم أن تتجهوا مع الواقفين عند زمزم والمقام، والمعتكفين فى بيت الله الحرام بالدعاء لنا بدوام دولتنا وعزتها وطول بقائها، وهذا ما سيطيب خاطرنا.

تحريرا فى أوائل شهر جمادى الآخرة لسنة ١٢٦٥هـ بمقام دار السلطنة العلية بالقسطنطينية المحروسة ١٢٦٥.

مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف

ما يرسل إلى الكعبة المعظمة كل سنة من باب السعادة والشام وقاهرة مصر من الزيوت والشموع لإنارتها مبين بمفرداته فيما يأتى:

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	١٣٤٣٢	-	زيت زيتون من باب السعادة
-	٤٤٥٩	-	زيت زيتون من مصر
-	١٤٥	٤٤٦	شمع كافورى
١٢٠	٥٨٠	-	شمع أبيض من دهن الحوت
٣٠٠	-	-	دهن الورد
-	٢٥٠٠	١	قرص معطر
-	٢٥٠٠	٦	بخور(١)

(١) خاص بالمسجد الحرام والمساجد الأخرى المأثورة.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	١٠	٤٠	شمع أبيض
-	١٥٠	١١٠	قنديل ذو قدح على هيئة كروية مثل البطيخ[١]
١٢	-	٢٠٠	شمع أبيض[٢]
-	٣١٠	-	شمع أبيض صغير[٣]
-	١٦	-	زيت زيتون خاص بأيام عادية[٤]
-	٢٧١	-	خاص بليلتى الجمعة والاثنين والشهور الثلاثة

● مقادير وكميات ما يرسل من قبل باب السعادة والشام والخديوية المصرية من زيت الزيتون وغيره من الأشياء الأخرى التى ترسل إلى الحرم الشريف والمساجد الأخرى شهرا بشهر.

ما يرسل من باب السعادة

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
١٠٠	٤٤٣١	-	زيت زيتون
-	٤٦٨٠	٦٠	الشمع الأبيض

● الشموع الكافورية المطروحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن يكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	-	٩	بخور
-	٥٧	-	ورق معطر
١٨٠	-	-	دهن الورد
-	٧١٤	-	شمع

(١) ما يخص مسجد سيدنا (عبد الله بن عباس) فى الطائف كل شمعة بوزن مائة درهم.

(٢) خاص بمقامات المذاهب الأربعة كل واحدة منهم بزنة ثلاثمائة درهم.

(٣) خاص بمقامات المذاهب الأربعة.

(٤) خاص بمسجد سيدنا (ابن عباس) فى الطائف.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٢	-	شمع المحاريب
-	٣٨٠	-	مكانس
-	١٧٧	-	اسفنج
-	٢٥٠٠	-	بخور
١١٢	-	-	دهن الورد
٣٠٠	١٤٠٠	-	ورق معطر

ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٣٤٤	٨	شمع(١)
-	٤١	-	شمع(٢)
٢٠	-	-	شمع(٣)
-	٢	-	شمع(٤)
-	٤٠٠	-	حصير
-	٤٧٢٢	١٢	زيت زيتون
-	-	-	قناديل بللورية
-	٣٠	-	شمع العسل(٥)

ما هو مقرر أن يرسل من الشام الشريف

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٤٩٤١	-	زيت الزيتون
-	-	٨	الشمع الأبيض(٦)

(١) مقدار كل مجموعه ثلاثة وأربعون شمعة.

(٢) زنة كل شمعة أوقية واحدة.

(٣) كل منها ٥ أوقيات مجهزة تجهيزا آخر وهى من وقف عباس باشا.

(٤) شمع محراب سليمان مجهز تجهيزاً آخر.

(٥) تزن سبع من هذه أوقيتين والباقى أوقية ونصف.

(٦) خاص بضريح سيدنا عباس وحمزة والمحراب السليمانى.

مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة

وداخل الحرم الشريف وسائر المساجد فى كل شهر

زيت زيتون أوقية[1]	زيت زيتون أوقية[2]
٦٩٨ للحرم الشريف	٩٨٩ للحرم السعيد
والحجرة المعطرة	١١١٦ لمآذن الحرم السعيدة
٢٢٣ للمساجد	٢٠٤ مآذن المساجد الأخرى
١٧ للفقراء المحتاجين	١٨ لساحة الحرم السعيدة
٩٥٦ المجموع	٢٥٦٧ المجموع

● الشموع الكافورية الممنوحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن تكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

عدد الشموع	
٢	للمسجد النبوى
٢	لمسجد سيدنا أبى بكر الصديق
٢	لمسجد سيدنا عمر الفاروق
٢	لمسجد سيدنا عثمان بن عفان
٢	لمسجد سيدنا على المرتضى
٢	لمسجد سيدنا عباس
٢	لمسجد قباء
٢	لمسجد بلال الحبشى
٢	لمسجد الشيخ السيواسى
٢	لمسجد الشيخ الباخورى
٢٠	المجموع

(١) خاص بالأيام العادية.

(٢) خاص بشهر رمضان الكريم.

٤ شمعات صغيرة تقدم ثلاث مرات فى كل شهر إلى كل واحد من المحراب النبوى والمحراب السليمانى.

شمعتان كبيرتان لمحراب النبى يقدم كل سنة مرة واحدة.

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف

عنبر	شجرة العود	ورق معطر	بخور	
٨ درهم	٣٠٠ درهم	عدد ٤	٢١ دستة	لشيخ الحرم[1]
..	٢٥٧ درهم	..	..	ومن يقومون بالتبخير
٨	٥٥٧	٤	٢١	المجموع

توقد القناديل المعلقة فى الحجرة السعيدة من المساء إلى الصباح ويصرف لكل قنديل خمسة وعشرين درهما من زيت الزيتون، وتوقد فى داخل الحرم الشريف القناديل المعلقة من المساء إلى الثلث الأخير من الليل ومن الثلث الأخير من الليل حتى وقت صلاة الصبح، ويصرف لكل قنديل عشرين درهما من زيت الزيتون، وقد خصص لكل واحد من هذه القناديل ثمانية عشر درهما من زيت الزيتون، كما قيد فى الخزانة النبوية؛ ولكن استخدام مقياس لا يعرف له المقدار يظن أن مقدار هذا الزيت عشرون درهما، وتصرف ثلاثمائة وثلاث عشرة شمعة لتوقد فى الثريات والشمعدانات المعلقة فى داخل الحرم السعيد كل يوم بعد يوم، كما يوزع على بعض الأشخاص فى رمضان كل سنة عدد (١٠٤١) شمعة.

● وقد قرر إعطاء الأشياء الآتية عند غسل الحجرة النبوية المعطرة:

دهن الورد	عنبر	الورق المعطر	بخور	شجرة العود
درهم	درهم	عدد	دستة	درهم
١٧٠	٢	٧	١	٩٠

● مقدار ما فى الحجرة المعطرة والروضة المطهرة للنبى عليه الصلاة والسلام

(١) كل دستة تتألف من تسعة عشر عودا.

وفى داخل الحرم الشريف من الشمعدانات والثريات البلورية والقناديل البلورية على شكل كروى، والقناديل الزجاجية المعلقة فى المآذن.

ما يوقد بشمع العسل

الشمعدان

عدد

٢ شمعدان مرصع بالجواهر ومضنع فى غاية الجمال فى الحجرة المعطرة.

٢ كذلك مصنع من الذهب الخالص وكبير نوعا ما (فى الحجرة المعطرة).

١ كذلك مصنوع من الذهب وكبير نوعا ما[١] (فى الحجرة المعطرة).

٥ المجموع

كل هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد صباحا ومساء فى داخل الحجرة المعطرة أمام سيد البشر فائض النور.

وإن كان فى الحجرة السعيدة عشرة أعداد من الشمعدانات الفضية إلا أنها توقد فى ليالى رمضان.

الشمعدان

عدد

٢ خاص بالشمعدانات الكبيرة لمحراب النبى.

٢ خاص بالشمعدانات الصغيرة لمحراب النبى[٢].

٢ خاص بالشمعدانات الكبيرة للمحراب السليمانى.

٢ خاص بالشمعدانات الصغيرة للمحراب السليمانى.

٨ المجموع

هذه الشمعدانات الثمانية ذات شمعة واحدة وتوقد كل الليالى.

(١) فى مرقد السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(٢) الشمعدانان الكبيران الخاصان بشموع محراب النبى ﷺ مصنوعان من الفضة الخالصة وهما من هبات والدة السلطان (بزم عالم).

الشمعدان المصبوب ذو الفانوس

عدد

٨ هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد كل ليلة فى داخل الروضة المطهرة.

الشمعدان البلورى

عدد

١ فى الروضة المطهرة النبوية وهو ذو ثمان وعشرين شمعة.

٢ كذلك فى الروضة المقدسة النبوية ذو ثمانى وعشرين شمعة أيضا.

١ أمام المحراب السليمانى وهو ذو إحدى وثلاثين شمعة.

١ موضوع فوق كرسى ذى أرجل ثلاث وثمانى شمعات وأهداه الغازى الهندى متبركا.

٥ المجموع

توقد هذه الشمعدانات بالشمعات البيضاء.

الثريات البلورية

عدد

١ معلقة فى الحرم الشريف وذات حجم كبير يوقد فيها أربع وسبعون شمعة.

١ معلقة فى جهة القدم الشريفة وكبيرة ذات أربعة وعشرين شمعة[١].

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة.

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة كذلك[٢].

١ معلقة فى الروضة المطهرة ذات شمعة واحدة[٣].

١ معلقة أمام باب الوفود وذات شمعة واحدة[٤].

٨ المجموع

كل هذه الثريات توقد بالشمع الأبيض كل الليالى.

(١) من هبة والى مصر السابق عباس باشا للتبرك.
(٢) هذه الثريا على شكل الشجرة.
(٣) هذه الثريا حمراء.
(٤) هذه الثريا على هيئة الشجرة، هى الأخرى.

الثريات الفضية

عدد

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[١].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٢].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٣].

٤ المجموع

توقد هذه الثريات الأربعة كل الليالى.

الثريات البلورية

عدد

٣ هذه الثريات من هبات والي مصر الأسبق عباس باشا تبركا[٤].

١٥ قدمت من بعض أصحاب الخير[٥].

١٦ قدمت من بعض أصحاب الخير[٦].

٣٤ المجموع

كل هذه الثريات الأربعة وثلاثين توقد بالشمع الأبيض.

الثريات الفضية

عدد

١ معلقة أمام المحراب العثمانى ومهديها مجهول.

١ معلقة أمام القبة العثمانية وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شموع مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شمعتين ومهداة من السلطان محمود.

٦ المجموع

توقد الثريات الستة كلها بالشمع الأبيض ليلا.

(١) هذه الثريا مهداة من والدة السلطان (بزم عالم) وتوقد بالشمع الأبيض.

(٢) هذه الثريا الفريدة مهداة من السلطان ناثلة وتوقد بالشمع الأبيض.

(٣) مهداة من والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا وتوقد بالشمع الأبيض.

(٤) هذه الثريا على شكل نخلة وقطعة واحدة من البلور.

(٥) توقد كل الليالى.

(٦) توقد فى ليالى الجمع فقط.

الثريات البلورية

عدد	
١	ذات اثنين وثلاثين شمعة وهبها المرحوم رضا باشا للتبرك.
٢	ذات أربعين شمعة حمراء اللون واقفهما مجهول.
١	ثريا ذات طراز هندى ولا يعرف واقفها.
٤	المجمـــــوع

وإن كانت هذه الثريات معلقة فى داخل الحرم الشريف إلا أنها لا توقد لعدم إرسال الشموع.

● مقدار القناديل التى تسرج وهى على شكل كروى ومن الزجاج

عدد القناديل

٧٠	البلور ذات السلسة الذهبية كروى الشكل.
٢	الزجاج ذات سلسلة ذهبية.
١٠	شمعدان من الزجاج فى الشجرة الفضية.
٨٤	المجمـــــوع

إن هذه القناديل فى داخل الحجرة المعطرة وتوقد كل ليلة وسلاسلها كلها من هبة الخاقان محمود عدلى رحمه الله تعالى.

● **القناديل الزجاجية لمآذن المسجد السعيد**

عدد	
٢٢٧	فى المئذنة الرئيسية
٣١٢	فى المئذنة العزيزية
٢٢٨	فى المئذنة المجيدية
١٨٦	فى مئذنة باب الرحمة
٢١٦	فى مئذنة باب السلام
١١٦٩	مجموع عدد القناديل

- **القناديل المعلقة بالحرم وخارجه**

٤٥٢	كروى الشكل له سلاسل فضية صفراء
١٦	كروى الشكل له سلاسل عادية ومعلق فى باب الحرم الشريف[١]
٨٤	زجاجى فى الثريات على شكل الشجرة ومعلقة فى داخل الحرم الشريف
٢١	زجاجى فى داخل الحرم السعيد وفى اللوحات المزينة
٢٤	زجاجى معلقة على الأطراف الأربعة الخارجية للحرم الشريف
١١	زجاجى معلق فى أماكن أخرى
٦٠٨	مجموع عدد القناديل.

عدد الشمعدانات والثريات والقناديل من حيث المجموع:

عدد	
٣٥	الشمعدان
٦٠	الثريات البلورية مع الشجرة الفضية
١٨٦١	قناديل زجاجية على شكل كروى.
٢٤٣١	مجموع القناديل والشموع كلها.

عـين زبيـــدة

من مآثر السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان (عليهم الرحمة والغفران) ومن خيراته العظيمة تعمير مجرى عين زبيدة وإحيائها.

وإن كان فى مدينة مكة المكرمة بعض السبل للماء الذى جلبته عين السيدة «زبيدة» من جبل المُشَلَّل وكذلك بعض الآبار يمكن شرب مائها إلا أن أهل مكة كانوا يعانون من قلة تلك السبل والآبار ذات المياه العذبة، إلى أن أجرى السلطان سليمان مياه عين زبيدة فى داخل مكة المعظمة.

(١) إن هذه القناديل معلقة فى داخل الحرم الشريف كل الليالى وهى مهداة من ساكن الجنان السلطان محمود للتبرك.

عين زبيدة: هى الماء الزلال الذى أجرته ـ كما سيذكر فيما بعد ـ السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج هارون الرشيد، بإنفاق مبالغ طائلة من واد يبعد ثلاثة أيام إلى مدينة مكة الله الشهيرة، إلا أنها أهملت بعد تطهيرها فى سنة (٩٢٦) بإهمال طرقها، ومجاريها آلت إلى الخراب وضاع ذلك الماء الذى تقوم عليه الحياة.

وكان ذلك الماء المذكور فى غاية الغزارة والعذوبة وكان يشبه ماء تقسيم[١] فى إستانبول، وإن كان اسمه عين عرفات؛ إلا أنه أطلق عليها عين زبيدة اعترافا لما بذلته السيدة زبيدة من همة عظيمة لجلبها.

كانت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر الذى يقال له جعفر الأكبر وحفيدة أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسية وبنت عم زوجها هارون الرشيد وكانت شهرتها القديمة «أمة العزيز»، وكانت اعتادت فى صغر سنها أن تؤنس جدها بالرقص أمامه، وسماها المنصور بهذا الاسم قال لها يا ابنتى إنك زبيدة فعرفت بهذا الاسم. إن السيدة زبيدة الممدوحة كانت امرأة ذات مناقب جليلة ومآثر ممدوحة وصاحبة بر وإحسان، وقد جلبت عين حنين وأوصلتها إلى مكة المفخمة بعد أن أنفقت أموالا طائلة وخزائن وفيرة وذلك فى سنة ٢١٣ الهجرية، إن مدينة مكة المكرمة المفخمة تقع بين سلسلة جبال سوداء جرداء خالية من المياه الجارية وفى واد غير ذى زرع غير صالح للزراعة، لذا كان سكان حرم الله يديرون أمورهم بمياه الأمطار، ويعانون غالبا من مشكلة قلة المياه وذلك قبل إحياء عين حنين. ويقول المؤرخون إن السيدة زبيدة قد أنفقت (١٧٠٠٠٠٠) مثقال ذهبًا[٢] وأمرت بنقب جبال حنين الراسيات وجمعت المياه فى سفح الجبل الواقع فى ساحة (منى) أرض الحل، وهكذا أروت حرم الله وأزالت منه العطش.

حكايـة

بعد أن أجريت المياه إلى مكة ومهدت طرقها وصارت رصينة منيعة، وتم عمل

(١) اسم حى من احياء استانبول.

(٢) يساوى (٢٥٥٠٠٠٠) درهم ذهبا.

كل شيء على أحسن ما يرام، أراد أحد الموظفين الذين كانوا يعملون فى هذا العمل الخيرى أن يعرض كل ما أنفق فى هذا العمل مقيدا الحسابات فى دفتر، وقدمه للسيدة زبيدة راجيا أن تلقى نظرة لتسوية الحساب وهى فى قصرها المبنى على نهر دجلة، فأخذت الدفتر وألقته بين المياه، واستدعت الموظف المذكور وقالت له تركت تسوية حساب هذا العمل إلى يوم الحساب، إذا كان هناك فى ذمتك بعض المبالغ فإننى تنازلت عنها كهدية، أما إذا كان لك طلب فقله شفويا حتى أؤديه لك، ثم ألبست الموظف ومن معه حلة فاخرة وطيبت خاطره «انتهى».

قد اتفق جميع المؤرخين على أن تلك السيدة العظيمة صاحبة العصمة قد أجرت المياه إلى مدينة مكة المكرمة من مسافة تبعد ثلاثة أيام منها؛ إلا أنه من الثابت أن السيدة زبيدة قد غادرت أرض الفناء، واتجهت إلى حجرتها المفروشة بالإستبرق[1] وذلك فى سنة (٢١٢) وظل ذلك العمل ناقصا إلى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم.

ولما آل الأمر إلى السلطان المشار إليه بذلت كريمة السلطان السعيد الحظ مهرماه بعون والدها كل جهدها لإتمام ذلك العمل، وأوصلت المياه إلى مكة المكرمة. وبنت عدة عيون فى المسعى الشريف وبهذا أحيت أهالى مكة المكرمة بلد الله الأمين كما سيوضح فيما يأتى.

وبناء على هذا فإن قصة تقديم دفتر المحاسبة إلى السيدة زبيدة لا أصل لها فهى مختلقة.

إن منبع ماء حنين الذى أجرته السيدة زبيدة إلى مكة فى سفح جبل «ثنية» إلى جبل «طاد» العاليان أشد العلو والواقعان فى طريق الطائف. ويفيض هذا الماء من منبعه نحو حقول قرى حنين، وبعد ما يروى نخيل القرى الواقعة على طرفيه يستمر فى جريانه إلى أن يصل إلى حائط حنين[2]. إن السيدة زبيدة اشترت كل

(١) يعنى توفيت. وهى جملة المقصود بها الدعاء للمذكورة أن يسكنها الله الجنة.

(٢) يطلق على الوادى الذى يشمل قرى حنين وبساتينها «حائط حنين» وقد وقعت غزوة حنين الجليلة فى الصحراء المفزعة التى تنتهى عند البساتين المذكورة.

حقول تلك القرى ومنعت زراعة تلك البساتين، وأقامت على الأماكن المناسبة من الجبال التى حولها سدودا متينة وحفرت مجارى لانتقال مياه الأمطار من سد إلى سد، وتمتلئ تلك السدود بمياه الأمطار وتتحول إلى نهيرات صغيرة مثل عين حنين، وتجرى بواسطة المجارى والقنوات حتى تصب فى أنهار مشاش، ميمونة، غفران، برود، طارقى، ثقبه، وخزيان، وكلها تتجمع فى مجرى وادى حنين الواسع، ومن هنا إلى خزان «بئر زبيدة» التى حفرت فى صحراء منى. وبعد ما أجرت السيدة زبيدة عين حنين إلى منى أوصلت ماء وادى النعمان إلى عرفات، ثم جمعت مياه حنين ومياه وادى نعمان وأجرتها إلى البئر العميق الكبير عن طريق جبل ضاب[1] الكائن خلف المأزمين بطريق المزدلفة وعاد والمرسلات من خلف جبل من جبال صحراء منى، وهذا الماء يجرى من جبل كرا (يقال له جبل قرى أيضا) إلى ساحة عرفات بواسطة المجرى الكبير الواسع المصنوع، ويملأ أحواض جبل الرحمة ثم يملأ خزان بئر زبيدة الذى سبق ذكره.

قد اتخذت بئر زبيدة خزانا ومقسما لمياه عرفات وحنين: لأجل ذلك غطيت بصخور عظيمة ليس فى قدرة الإنسان نقلها أو تقليبها من جهة إلى أخرى، وذلك لتفادى أذى عربان البادية وتأمينها من أضرارهم.

إن الماء الذى جلب من وادى النعمان ينبع من سفوح الجبل الذى عرف بين الأهالى (بجبل قرا) أو (كدا) أو (كرا) إن هذا الجبل قائم فوق جبلين فى ارتفاع جبل الرحمة" لذا فهو بالغ الارتفاع والمساحة من قمة هذا الجبل إلى الطائف نصف يوم. إن الذين يصعدون على هذا الجبل أو يهبطون منه مرة يبلغ بهم التعب حتى لا يقدرون الصعود إليه أو الهبوط منه فى نفس اليوم. والماء المعروف بعين عرفات يجرى من صحراء النعمان ولذلك تجد الأماكن التى تجرى فيها تتأثر برطوبتها وتنبت أنواع الأشجار. وأقسام النباتات والأزهار فيما حولها وتتحول إلى رياض منتظمة.

(١) يطلق على هذا المكان الآن طريق المظلمة وهو يقع على يسار العائدين من عرفات إلى المزدلفة.

وبناء على ما ذكره المؤرخون الأعلام فإن طول المجرى الذى حفرته السيدة زبيدة يبلغ (١٤٣٠٣٨) قدما وأربع بوصات وقد صرف فى حفرها وتسويتها مليونا وسبعمائة مثقال ذهب كاملا كما سبق ذكره.

لطيفة

قد رأى أحد الصلحاء فى رؤياه السيدة[١] زبيدة فى رياض الجنة وقال لها «هل غفر لك لتوصيلك المياه إلى مكة المكرمة» فأجابت قائلة: «إن ما أنفقته من المبالغ لأجل الماء كانت من حقوق العباد وما حدث منها من الأجر والثواب وزع على أصحاب الحقوق، ولكننى كنت يوما فى مجلس الأنس والشراب فسمعت الأذان المحمدى، فتركت الشرب واستشهدت من خلف المؤذن، إن عملى هذا قد حاز رضا ربى الرحيم وقال مخاطبا الملائكة: «إذا لم يكن توحيد ألوهيتى راسخا فى قلب زبيدة لما أسرعت فى الاعتراف بوحدانيتى بترك مجلس الهناء والسرور فاشهدوا أننى رضيت عنها وغفرت لها «وبصدور هذا الخطاب الإلهى الجليل وصلت لما أنا عليه من مرتبة عالية وإننى الآن فى أحسن حال». هذا كان ردها للشيخ الصالح. انتهى «روح البيان».

وقد أنقذت السيدة زبيدة أهل مكة من ضائقة الماء، إذ أوصلت هذه المياه إليها وكذلك خدمت الحجاج الكرام خدمة عظيمة بهذا العمل الجليل.

إلا أن السيول التى تنهمر من الجبال قد خربت قنوات هذه المياه ومجاريها مع مرور الأيام، كما أن تقلبات الزمن وقلة الأمطار قد محت وخربت جميع الطرق وقضت عليها، وأجبرت سكان المدينة الشهيرة مكة المكرمة على أن يجلبوا الماء من أماكن بعيدة، كما أن مياه الآبار أخذت تنضب فى سنة ٢٤١ فأجهد الظمأ الناس أيما إجهاد، وفى أثناء ذلك أوصل الخليفة العباسى المتوكل المياه التى جلبتها السيدة زبيدة إلى عرفات إلى مكة المكرمة حافرا مجرى آخر، وبهذا نال الأجر والثواب وكأنه أحيا جيران كعبة الله من جديد[٢] إلا أن المجرى الذى حفره فسد

(١) إن المشار إليها توفيت عام (٢١٢) وعلى قول عام (٢١٦).

(٢) يروى أن المتوكل أنفق مائة ألف قطعة ذهب لجلب المياه إلى مدينة مكة المكرمة.

وخرب بعد مائتين وخمسين عاما، وهكذا ابتلى سكان بلدة الله مرة أخرى بالظمأ.

قد أصلح وعمر قنوات هذه المياه ومجاريها كل من الملك المظفر بن كوكبورى بن على فى عام (٥١٤) وصاحب أردبيل مظفر الدين فى سنة (٦٠٥) والمستنصر بالله العباسى عام (٦١٥) وفى سنة (٧٢٦) ملك العراق أبو سعيد خدابنده الأمير جوبان[1] وفى سنة (٨١١) الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المعظمة وفى سنة (٨٢١) أبو النصر الشيخ محمود من ملوك الشراكسة وفى سنة (٧٧٥) السلطان قايتباى المصرى، وفى سنة (٩١٧) عمقها الغورى وطهرها كما أصلح مواضعها الخربة ونظفها وأنقذ أهالى مكة المعظمة الكرام من شح الماء إلى حد ما.

وبعد فترة تقلبت أحوال الزمان وتخربت مجارى المياه بأكملها وتوارى ماء حنين وعرفات الذى يشبه ماء الحياة فى ظلمات التراب؛ وكابد أهل مكة شح المياه إلى حد أنهم اضطروا فى أيام عرفات إلى جلب الماء من الوديان القاصية. وهذا واقع صحيح.

(١) بعد أن أصلح الأمير جوبان عين زبيدة، أصلح وسوى طرق ماء عين بازان كذلك وأدخل الماء إلى داخل مكة المكرمة فى عام (٧٢٦) ونعم أهل مكة بالرى حينما علم المؤرخ ابن الوردى إجراء عين بازان إلى مكة قال هذه الأبيات.

هل لى إلى مكة من عودة ... فابلغ السؤال وأقضى الديون

غير عجيب جرى عين بها ... فقد جرت شوقا إليها العيون

الأمير جوبان من أمراء الجنكيزية وأمير أمراء حاكم بغداد السلطان أبو سعيد بهادر بن السلطان محمد خان، وكان قد أحال إدارة البلاد التى تحت حكمه إلى أولاده ولكنه تنكر للأمير جوبان بتحريض من وزيره نصر الدين، وغضب عليه واطلع الأمير جوبان على غضب أبى سعيد من ابنه أو على خواجة دمشق الأثير لديه، ولكنه استطاع أن يعزل ذلك الوزير الغاش من منصبه مدعيا عدم لياقته لوظيفته، وقتل ابنه بعد مدة لتسوية الخلافات بين أرباب السياسة، فذهب إلى معسكر الملك ومعه جنود كافية وطلب من أبى سعيد بواسطة الشيخ علاء الدولة القصاص من قاتلى خواجة دمشق؛ إلا أن طلبه لم يقبل ودخل الحرب إلا أن جنوده تركوه منفردا، فترك الحرب وهرب ناحية خراسان والتجأ إلى غياث الدين والى هرات؛ لما له عليه من حقوق سابقة إلا أن علاء الدين قتله بناء على أمر أبى سعيد الصريح وأرسل نعشه إلى المدينة المنورة بناء على طلبه وذلك فى سنة (٧٣٠).

وإن كان جلب الماء من الوديان البعيدة التى تحيط بها المهالك والمعاطب اقتصر على السَّرَاة من أصحاب الثروات الطائلة فقد انصرفت طائفة الفقراء والمستضعفين عن طلب كسرة الخبز ولم يعد لهم من مطلب سوى الماء.

فضلا على استحواذ المحتكرين من الأثرياء على الماء الذى يجلبه السقاءون، وكانوا يبيعونه بباهظ الأثمان فأفعموا جعبة حرصهم وبخلهم.

وفى أواخر عام ٩٣٠ جرى قضاء الله بأن تنقطع كذلك مياه الأودية البعيدة ولذا بيعت القربة الصغيرة من الماء التى يمكن حملها بإصبع بدينار من ذهب، ووقف الموحدون فى ساحة السعادة فى جبل الرحمة وقد نال منهم الظمأ حد أنهم كانوا على استعداد للتضحية بأرواحم فى سبيل الحصول على الماء.

ولما بلغ شح الماء ذلك الحد لزم الحجاج ـ الذين أحرقت أكبادهم من نار الظمأ ـ والسكون يغمرهم الاستغفار وما كان إلا أن انتظروا نزول رحمة الرحمن الرحيم، وبدءوا يبسطون أكف الضراعة بدعاء الاستسقاء، ووقع دعاء الحجاج موقع القبول والاستجابة لدى ربهم، فانهمر المطر مدرارًا كما لم ينهمر من قبل وبصورة لم يسمع عنها الشيوخ من قبل، وجرى السيل تحت أرجلهم، وأخمدوا نار ظمئهم، وبعد أن ملأوا قربهم وسقوا حيواناتهم ودوابهم انخرطوا فى شديد البكاء.

وعندما نما إلى علم السلطان سليمان خان سلطان الزمان معاناة المؤمنين شح المياه واضطرابهم فى ساحة عرفات وتخرب مجارى المياه على النحو الذى أسلفناه أصدر أوامره بتطهير طرق عين عرفات وعين حنين وتسويتهما. وأسند هذه المهمة لمن يسمى مصلح الدين أفندى وهو من مجاورى بلدة الله، ثم أخطرت إمارة مكة المكرمة من قبل الباب العالى وأحضرت علامات الإمارة إلى مصلح الدين أفندى، وعهد إليه بالمهمة المذكورة بتفويض من السلطان عالى المقام.

وفى عام ٩٣١ بدأ مصلح الدين أفندى يعد العدة لتلك المهمة فطهر مجارى مكة وعمرها على خير وجه، ثم أصلح البرك والأحواض فى عرفات مكة

المكرمة وروى بالأجر سكان الحرم من عين حنين واشترى مصلح الدين أفندى طائفة من العبيد السود[1]، وركب سفينة من ميناء السويس وكانت قد أعدت ليمضى بها إلى الآستانة ليعرض على الباب العالى كيفية توظيف هذه الطائفة فى مهمة تطهير مجرى القنوات، ومات ـ رحمة الله عليه ـ غرقا فى عباب بحر القلزم.

بينما كان مصلح الدين أفندى يقوم بإصلاح مجارى عينى حنين وعرفات عين مهندساً وكاتبا يرأسهما ناظر، وذلك من أجل سرعة إصلاح أى جزء يلحق به الخراب من المجارى والقنوات، وبعد ذلك بنى قبة حجرية فوق موضع تفرع المجرى، ووضع ميزاباً من خمسة وأربعين لوحاً حتى إذا ما فنيت مياه أى لوح أو نقصت يعرف أن ثمة خراب قد لحق بمجرى تلك الناحية فيتم إصلاحه في الحال.

وبفضل الترتيب المذكور لم يتعرض أهل مكة لشح الماء لفترة وعلى الرغم من ذلك فإنه بعد وفاة مصلح الدين أفندى بما يقرب من ثلاثين عاما طغى سيل من جرائه تخربت أغلبية مواضع المجارى المائية، ومن ثم بدأت مياه الينابيع فى مكة فى النقصان، وبدأ سكانها الكرام يلقون التعب والمشقة بسبب شح الماء، وعندما رفعت الإمارة الجليلة لمكة الأمر إلى الباب العالى وتلقت الإمارة المذكورة الرد وأخطرت بالمواضع الواجب إصلاحها وتعميرها، وبعد الكشف والمعاينة استدعى شريف مكة أشرافها وأعيانها للتشاور، وقرأ عليهم الأمر الوارد من الباب العالى.

وعلى أثر ذلك اجتمع قاضى مكة عبد الباقى بن على المغربى أفندى ومتصرف جدة خير الدين بك وطائفة مثلهم من أرباب الدراية والمعرفة. وعقدوا مجلساً للتشاور وتبادلوا الآراء والمشورة بشأن طرق المياه مكة المكرمة، ومن بعد اتفقوا رأيا على أن عيون عرفات أبرك من باقى العيون، ومجاريها معلومة. وإذا ما

(١) اشترى مصلح الدين أفندى لكل واحد من هؤلاء العبيد السود جارية زنجية وزوجه منها، وعهد إلى ذريتهم بمهمة تطهير قنوات المياه، وكل العبيد يعيشون على مرتبات خصصت لهم بالقانون ولم يبق منهم أحد الآن بعد أن انقطع نسلهم.

نظرنا إلى ما أفاد به الخبراء فإن هذا الماء على الرغم من أنه ينبع من موضع يسمى «أوجر» يمر من منى عن طريق وادى النعمان وعرفات، ويحضر إلى بئر زبيدة. وإذا ما طهرت مجاريها وطرقها على الوجه الأقوم فإنه سيتكلف (٣٠,٠٠٠) دينار من ذهب، وقالوا إنهم سوف يقومون بتسوية وإصلاح وتنظيم ما يقرب من (٤٥,٠٠٠) ذراع معمارى فى وادى مكة وقد وقع هذا الرأى موقع القبول لدى هيئة الشورى، وعرضوا ما توصلوا إليه من قرارات على الإمارة المشار إليها مرفقة بتقرير.

ومن ثم عرض شريف مكة المذكور الصورة الأخيرة لما سيكون عليه المجرى بعد الإصلاح والقرار المذكور على الباب العالى وذلك على الوجه المفصل.

ولقد ورد التزام من كريمة السلطان صاحبة الخيرات، إكليلة المخدرات، تاج المحصنات بتعمير المواضع الخربة، وإجراء الماء داخل مكة، وإنشاء العيون فى المواضع القريبة من حرم الكعبة؛ وذلك لإحياء أهالى بلدة الله، ولأن ذلك عادة من المبرات السلطانية فقد صرف (٥٠,٠٠٠) دينار لإبراهيم بك دفتر دار (وزير مالية) مصر القاهرة الأسبق، وأرسل إلى مكة المكرمة، وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة عام (٩٦٤) أو (٩٦٧) وقبل عام (٩٧٠) قدم إبراهيم بك إلى جدة، وفى اليوم التالى وصل إلى حضرة سيد حسن بن نمى شريف مكة فى وادى مر الظهران، ومضى فى معية المشار إليه إلى مكة وبعد الطواف نزل فى دار أعدت له خصيصاً.

وفى غضون خمسة و عشرة أيام وبفضل كثير من العمال بذل الجهد فى تطهير وتعميق الآبار التى غاض ماؤها ومجرى عين عرفات، وبعد الحج نصبت الخيام فى وادى عرفات من أجل تعمير طريق جبل الرحمة، واستخدم ما يقرب من أربعمائة عامل فى أعمال تنظيف المجرى، واستقدم إبراهيم بك مهندسين أكفاء وكثرة من البنائين وزاد من عدد العمال يومًا بعد يوم، وأصلح المجارى حتى بئر عين زبيدة، ولكنه لم يستطع أن يعثر على المجرى القديم الذى يمتد بعد بئر عين زبيدة.

وكان العمال الذين استخدمهم (إبراهيم بك) عددهم أربعمائة نفر من جنس العبيد وكانوا يصلحون لعمليات الحفر فعمقوا وطهروا مجارى العيون من (أوجر) إلى حدود (المزدلفة ولما كانت عمليات الحفر بعد (المزدلفة) أشق طلبوا مزيدا من العمال وأبلغ إبراهيم بك عدد العمال إلى ألف وبذل جهودا جبارة وأظهر مروءة عظيمة، وأنفق أكثر من ألف قطعة ذهبية، إلا أن العمل أخذ يتأخر يوما بعد يوم ويتباطأ، ولما رأى أن حفر وتعميق المجرى الكائن بين المزدلفة ومكة المكرمة فى حكم المستحيل، عرض الأمر إلى الجهات العالية، واستقدم من صعيد مصر والشام وحلب واليمن وباب السعادة إستانبول عمالا متخصصين فى حفر الآبار ومجارى المياه والحدادة والبناء ووزع لكل واحد منهم عمله لإجراء التعميق، إلا أنه فهم أن مجرى الماء ينتهى عند بئر زبيدة وراح فى تفكير عميق فى الندامة والحيرة؛ لأن السيدة زبيدة لم تستطع أن تحفر مسافة ألف ذراع معمارى بعد البئر الذى ينسب لها فتركته وأجرت مياه عرفات إلى مجرى حنين ووحدت بين الجدولين، واستطاعت أن تدبر مقدارا من المياه يكفى لأهل مكة ولم توحد بين عين عرفات ومجرى عين حنين بتغيير مجراهما؛ كان عليها أن تنشغل بنقب وثقب قطعة واحدة من الصخرة التى يبلغ طولها ألف ذراع معمارى وعرضها مع عمقها خمسين ذراعا.

وكان فى هذا إنفاق للمال عبثا، وأكد فكرة أن إنجاز هذا العمل خارج طاقة الإنسان ولأجل ذلك تركت ذلك المكان، وقررت أن توجد بين مجرى عرفات ومجرى مياه حنين وتوصلت إلى هدفها عن طريق أوفق لغايتها.

وأراد إبراهيم بك من شدة حيرته واضطرابه أن يقوم بعمل لم تستطع أن تقوم به السيدة زبيدة، وتخيل أنه يستطيع أن يثقب ذلك الطريق الحجرى بطريقة أو بأخرى فحفر أولا وعمق مكانا ليبلغ طوله سبعة أذرع وعرضه خمسة أذرع وأمر برفع ما عليه من التراب، ثم جلب من جبل جزل حمل مائة بعير من الحطب وأراد أن يعمق بحرق الحطب فى داخل ما تم حفره ما مقداره خمسين ذراعا إلا أنه لم يستطع أن يحفر فى ليلة كاملة إلا مقدار إصبعين كسره بأدوات حديدية،

وأدرك أن تعميق مكان طوله ألف ذراع مقدار خمسين ذراعا يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون، إلا أنه أنفق أموالا لا تحصى بفكرة إنقاذ الشرف السلطانى الساذجة، ولم يبخل من بذل أقصى الجهود لحفر المجرى إلا أنه لم يستطع أن يتجاوز أكثر من عشرين ذراعا، وفى النهاية أنهى جميع نقوده وأرسل إلى باب السعادة رسلا لعرض الأمر وليستأذنه فى كيفية التصرف بعد هذا الفشل، ولكن الرسل الذين بعثهم إلى إستانبول غرقت سفينتهم فى البحر الأحمر، وفى هذه الفترة مات ثلاثة من أبنائه واحدا تلو الآخر، كما مات وكيل أعماله وكثير من عبيده وعقب ذلك ارتحل أيضا إلى قصور الجنة سنة (٩٧٤) ليلة الاثنين الثانى من رجب ودفن فى قبره الذى كان قد هيّأهُ قبل وفاته[١].

وبعد وفاة (إبراهيم بك) عهد إلى قاسم بك حاكم جدة بمهمة تطهير المجرى ولحكمة ما توفى هو أيضا بعد مرور سنتين من تعيينه، فأحيلت تلك المهمة المقدسة لمفتى مكة المكرمة الشافعى القاضى حسين أبى بكر الحسينى.

وقد قام الشيخ حسين بمهمته أحسن قيام واستطاع أن ينهى عمله في ظرف خمسة أشهر على أحسن وجه وأنجز ما لم يستطع أن يقوم به من سبقوه فى اثنى عشر عاما.

واستطاع أن ينهى العمل الذى بذل فيه الجهود الحميدة منذ عهد السلطان سليمان خان الغيور على دينه، أى العمل الذى استغرق سبعة عشر عاما فى الحفر والتعميق وأوصل عين عرفات إلى مكة المكرمة وبإمرارها من نفس الطريق الذى أراده المرحوم إبراهيم بك وذلك فى سنة (٩٧٦) على قول أو سنة (٩٧٩) على قول آخر، أو فى الأيام العشرة الأخيرة من ذى القعدة سنة (٩٨١) وفقا للرواية الثالثة.

وأنشأ فى داخل المدينة أحواضا كبيرة وصهاريج عظيمة وملأها بالماء، وأحيا العالم الإسلامى، إن العمل الذى بدأ لإنشاء مجارى المياه وقنواتها فى عهد

(١) وبناء على هذا فالقول الأول وهو المعتبر أن إبراهيم بك شغل بحفر المجرى عشر سنوات، وعلى القول الثانى خمس سنوات وعلى القول الثالث أربع سنوات.

السلطان سليمان انتهى فى عهد السلطان سليم، وغبطت بلدة الله بكثرة مياهها، ودخل ماء عرفات فى داخل المدينة، وروى الحجاج العطاش وأخذ أهالى مكة المكرمة والمجاورون ذوى الاحترام يحتفلون، ويحث بعضهم البعض على الدعاء بالخير للسلطانين المشار إليهما ويقولون: إن الأعمال الخيرة الجميلة التي لم يقدر على القيام بها أى واحد من السلاطين السابقين والخلفاء المعتمدين، قد قدرت ويسرت لهذين السلطانين العظيمين.

وفى اليوم الذى وصل فيه الماء إلى المدينة المقدسة مكة الله أقام المفتى السابق الذكر حسين بن أبى بكر الحسينى فى رياض الأبطح لجميع الأهالى وليمة عظيمة، وذكر جهود السلطان وفتح صنابير جميع الينابيع وملأ مستودعات مياه الينابيع بحلو الشراب وسقى الأهالى، واستجلب الدعوات لطول بقاء الدولة العثمانية.

ومما يروى عن ثقة أن الأطعمة التى قدمت فى هذه الوليمة كانت عظيمة وافرة إذ نحر مائة جمل ومثلها من الأغنام، وأقيمت الخيام لجلوس القوم كل حسب مكانه وشرفه ودعا إليها أعيان القوم وأشرافهم وعلماءهم وصلحاءهم، وقدم لهم الطعام وبعد الطعام ألبس المهندسين ومهرة العمال الخلع، ووزع على الآخرين العطايا السنية وأبلغ بكل ما تم عمله لجلب قلوب الناس إلى السلطان الموصوف بمكارم الأخلاق، فما كان من السلطان إلا أن أرسل الخلع الفاخرة وعطايا كثيرة من إستانبول لتوزيعها على الذين خدموا فى توصيل العين المذكورة بجد وصدق من الأهالى. أما المفتى الشافعى القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى المشهود له عند الجميع بجهوده العظيمة وعظيم بلائه فقد كرم أعظم تكريم مما ملأ قلبه بالعظمة والسرور، وفى حقيقة الأمر إن أهل مكة كانت حاجتهم شديدة إلى ماء جار مثل عرفات؛ لو لم توصل كريمة السلطان مهرماه عين زبيدة إلى مكة المكرمة لما بقى لأهل مكة إلا واحدا من الحلين الاثنين: إما أن ينتقل أهل مكة إلى بلاد أخرى يهاجروا إليها، وإما أن يتحدوا جميعا ويصرفوا كل ما فى جهدهم ليطهروا مجرى عين زبيدة والعمل على جلبها من جبل الرحمة.

ولما كان الحل الثانى غير قابل للتنفيذ بل مستحيلا كان عليهم أن يبتلوا بالفراق عن الوطن وأن يتفرقوا فى بلاد شتى وأن يحترقوا بنار فراق كعبة الله ثم يفنوا.

وجلب ماء عرفات إلى الحرم الشريف رد الحياة لأهل مكة وذريتهم فبقوا فى موطنهم القديم، والآن ما من أحد فى مكة إلا وقلبه يمتلئ غبطة ومسرّة ولسانه يلهج داعيا بالبقاء للدولة العثمانية.

فيما يلى من كلامنا وصف لماء عرفات من حيث صفائه وعذوبته ومدى حاجة أهل مكة لهذا الماء، وهذا ما جعل هذا الأمر موضع بر الأميرة مهرماه وإحسانها بين المحسنين.

مقال

إن ماء عرفات ماء جار كأنه ماء الكوثر وعين الحياة وماء تسنيم، ويجرى بالقرب من موقف عرفات ويبحث عن حرم مكة العطشانة ليمسح وجهها ويطفى ظمأ أهل مكة المشتاقين بمائه الزلال.

أبيـــات

إن رغبة أهل هذا البلد إلـى المـاء الجـارى لأمـر عجـب
ما أن يشاهـــده الظمـآن منهـم إلا وجـرى ريقـــه.
فأجـــــــرت الأميـــــــرة (مهرمـــــــاه).
بنت سلطان العالم السلطان سليمان خان.. صاحبة الخيرات
هذه العين إلى داخل المدينة.. منفقة الأموال الطائلـــة.
وهكـــــذا سقـــت المسلمـــــين العطشـــى.
والحق أن ما قامـــت بـــه مـن همـــة عظيمـــة.
ليغار عليها خلفـاء سـكان المغـرب ودار الســـلام.
وحكـــام اليمـــن وسلاطـــين مصـــر والشـــام

وفـــى نـــار الحيـــــــرة يحترقـــــــون..
ولقـــد أســـــدت خدمـــــة عظيمـــــــة.
تجعـــل ملـــــوك الربـــــع المسكـــــون..
مـن العالـــم وملـــوك سوالـــف القـــــرون..
مـــن رغبتهـــم فـــى لجـــــة يغرقـــــون
واستهـــل العمـــــل فى سنـــــة ٩٧٠[١].
ومـــع الاستعانـــة بالمهندســـين المعامريـــن
الذيـــن يتمتعـــون بذهـــن ثاقـب وذكـــاء خـــارق
الذيـــن حطمـــوا الصخـــور الصمـــاء
بهمـــة كأنهـــا فـــأس فرهـــاد.
وأنهـــوا العمـــل فـــى تسعـــة أعـــوام[٢]
وأنفقـــوا النقـــود كالمـــاء السائـــل
حتى ظهر ذلك الجدول الجميـل وكأنـه فضـة مذابـة.
شكـــر الله سعـــى مجريهـــا.

انتهى «ذيل الشقائق النعمانية».

وبما أن عين زبيدة احتاجت للتعمير والتطهير مرة أخرى فى عهد السلطان مصطفى بن السلطان أحمد سنة (١١٨١) بإشعار من إمارة مكة المكرمة فأرسل من قبل السلطنة السنية موظف يسمى فيض الله أفندى الذى طهر العين كما ينبغى، عمر وسوى الأماكن التى تحتاج للتعمير، وأنفق فى سبيل ذلك (٨٨٦,٠٠٠) قرش وأتم العمل فى ظرف ثلاث سنوات فى سنة (١١٨٤).

(١) بناء على القول الثالث.
(٢) بناء على القول الثانى.

إلا أنه فى تلك المدة لم يكلف بإصلاح مجرى عين زبيدة فقط بل شمل التعمير والإصلاح مجارى عين عرفات والعيون الأخرى، كما أصلحت مجارى جميع العيون الواقعة بين عين حنين وعرفات، وهكذا زادت المياه فى جميع المجارى.

ودام هذا التعمير أربعًا وخمسين سنة، وفى خلال هذه المدة لم يكابد أهل مكة من نقص المياه، ولكن فى عام (١٢٣٥) مست الحاجة إلى تعمير بعض العيون لما كان السلطان محمود خان أصدر الأمر إلى والى مصر محمد باشا بأن يبادر بإصلاح أى مكان فى الحرم الشريف دون استئذان منه، فأصلح الباشا المذكور مجارى المياه التى تحتاج إلى إصلاح وأحيا عين زبيدة من جديد، وأبلغ الأمر إلى باب السعادة سنة (١٢٣٥).

وبعد تعمير محمد على باشا قد انضمت إلى مجرى عين زبيدة مياه عين أخرى يقال لها زعفران، ولهذا زادت مياه عين زبيدة وكان ذلك بهمة زائر هندى كريم من أصحاب البر والإحسان يقال له «الماس أغا» وشرع هذا الرجل فى حفر بئر بالقرب من مجرى عين زبيدة، وعمق البئر حتى يزيد من مياهه بينما هو يعمق هذا البئر ظهر مجرى ماء تحت التراب، فسماه عين الزعفران وأجراها إلى مجرى عين زبيدة، فوحد بين الماء وبين ذلك البئر سنة (١٢٦٣).

وأهمل ما رممه وجدده محمد على باشا والى مصر تحت رعاية السلطان محمود خان، وفى غضون خمسة وثلاثين عاما وتهدمت عدة مواقع مما جدد ورمم، وظهرت مشكلة ندرة المياه فى مواسم الحج، ولم يبلغ[1] الأمر إلى السلطان ومقام الخلافة الإسلامية، فبدأ أهالى الحرمين يتوجسون خيفة من انقطاع ماء عين زبيدة كلية؛ إلا أن أحد الزوار الهنود من قبيلة ميمن وهو «الشيخ عبد الرحمن سراج» طهر وعمر ذلك المجرى مستخدما مائتى نفر يوميا فى ظرف شهرين، وهكذا نفث عن الناس كربتهم وذلك عام (١٢٩٥).

(!) لأن خزينة وزارة الأوقاف السلطانية كانت تصرف كل سنة مقداراً غير قليل من النقود.

وبما أن الشيخ عبد الرحمن سراج كان محبا للخير لم يقتنع بتعمير وتطهير مجرى عين زبيدة؛ بل امتد عمله إلى إجراء زمزم الشريف الذى كان يستعمل فى داخل الحرم الشريف إلى محل بعيد عن الحرم، لأن المجرى الكبير المديد الذى أنشئ فى صدر الإسلام أصابه التلف والخراب مع مرور العصور، فرممه على أحسن وجه وعمره، ثم عمر وسوى الأماكن التى فى حاجة لذلك فى خارج الحرم وداخله وبهذا خدم الجماعة الإسلامية أعظم خدمة.

وكان الشيخ عبد الرحمن سراج كما يروى يشرف بنفسه على العمال، وكان يرجوهم أن يقوموا بأعمالهم على أحسن وجه حتى يتم العمل فى متانة ورصانة ويوصيهم بذلك، واستطاع أن ينتهى سواء من مجرى زمزم أو المواقع الأخرى فى ظرف ثلاثة أشهر أو أربعة مستخدما يوميا ما بين مائتى عامل أو ثلاثمائة منهم.. ألا فليرض الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه وليوفقه فى القيام بأعمال خير أخرى.

وبعد سنتين من إصلاح الشيخ عبد الرحمن سراج الهندى للمجرى المذكور قدم غنى أفندى من حكام الولايات فى الهند مبلغاً قدره (٤٠٠٠) ليرة عثمانية وذلك من أجل إتمام تعمير وتعميق المجرى المذكور، وقد حفظ هذا المبلغ فى خزينة المديرية للإنفاق منه حينما تستدعى الحاجة وذلك فى عام ١٢٩٧.

آخر تعمير لعين زبيدة

وقد رمم مجرى عين زبيدة فى عهد والى مصر محمد باشا كما سبق ذكره آنفا، إلا أن هذا التعمير كان جزئيا يشبه إصلاح الطرق هنا وهناك.

قد تهدمت مجارى الماء بسبب السيول التى تتعاقب بكثرة فى البلاد الحجازية نتيجة لخصائص جو هذه البلاد، واحتاجت إلى تعمير شامل ولكن انشغال أولياء أمور الدولة بهمومها المتوالية حال دون الاهتمام بمصالح أمور الحجاز لذا لم يعمر مجرى عين زبيدة فترة طويلة، وبقاء المجارى دون تعمير بعد تهدمها تدريجيًا وترك العقود والدعائم دون ترميم أدى إلى نقص المياه يومًا بعد يوم، وهى قوام حياة الأهالى.

ودب الخراب فى المجرى وتصدع فضاع الماء الذى تسرب من بين الصدوع والشقوق، ولو بقيت القنوات على تلك الحال فترة أطول سوف يؤدى ذلك فى المستقبل إلى ابتلاء أهل مكة بضيق شديد من قلة المياه، ولما أدرك الكل ما ينتظرهم عرضوا الأمر على مقام الخلافة، فجاء الأمر السلطانى بتكوين لجنة من أعيان مكة وجدة تعنى بتعمير مجرى عين زبيدة وتسويتها وترميمها، وعين لرياسة تلك اللجنة الشيخ عبد الرحمن سراج أفندى الذى كان عمر وأحيا عين زعفران بإنفاق مئات من الليرات الفرنسية وذلك فى المحرم سنة (١٢٩٦).

وكان من أهم ما كلفت اللجنة به تعمير ذلك المجرى بطريقة متينة ورصينة، وأخذ نفقات التعمير من خزينة الدولة ودون إحداث خلل عند الإنفاق، وبما أن الخزينة المالية للدولة تمر بأزمة حادة رأت تلك اللجنة ألا تكون حملاً على خزينة الدولة وأن تدبر أمورها على هذا الأساس، وكان المولون المسلمون يتمنون من فترة أن يشتركوا فى تعمير عين زبيدة، وعلى هذا جمعت كثير من المعونات المالية من أهالى جدة ومكة بِحَثِّ اللجنة وسعيها الحثيث.

وأعطى الرئيس المذكور الشيخ عبد الرحمن سراج بمفرده خمسمائة روبية (٥٠٠٠ قرش) كما أن أصحاب الخيرات من الممالك الإسلامية أرسلوا معونات مناسبة لثرواتهم: فأرسل على خان[١] من ولاة الهند وحاكم (رانبور) (١٠٠٠٠٠) روبية وملكة (بهوبال) «السيدة جيهان بيكم» (٢٠٠٠٠) روبية والشيخ «عبد الغنى بهادر» من مشاهير أصحاب الخيرات وابنه «محمد أحسن الله» خان بهادر كل واحد منهما (٢٠٠٠٠) روبية وسيد عبد الواحد المقيم فى (كلكتا) ألفين وخمسمائة روبية[٢] وأرسلوا كل هذه المبالغ مع «الحاج نور محمد زكريا» وكيل صحيفة الجوائب فى الهند.

وهذه الإعانات من قبل حكام الهند الكرام غمرت نفوس أهل مكة بالبهجة والسرور، ولما وصلت الإعانة الهندية إلى جدة وكان مقدارها (١٦٣٥٠٠٠)

(١) قد أدى حضرة على خان فريضة الحج فى سنة (١٢٨٩)، وأحسن إلى فقراء المدينة ومكة بمبالغ كثيرة، وأهدى كتابا من تأليفه للحجرة المعطرة يحتوى على المدائح النبوية.

(٢) الروبية الواحدة تساوى عشرة قروش.

قرش وقد ذكر أعضاء اللجنة وجمع غفير من الأهالى المحسنين بالحسنى ودعوا لهم بكل خير أن اللجنة الخاصة التى تشكلت فى مكة للإشراف على إصلاح وتعمير مجرى عين زبيدة كما سبق ذكره أعلنت بمهمتها الجهات الأربعة من أقطار الممالك الإسلامية، وفى ذلك الوقت تشكلت فى مصر المعروفة برجالها المحسنين لجنة من وزارة المعارف المصرية، دبروا لها فروعا فى مديريات البلاد المصرية كما فعل مسلمو الهند، واستطاعت أن تجمع فى فترة قصيرة (١٥١٦٧) قطعة ذهبية مصرية وكسورا وأرسلتها إلى مكة المكرمة.

وهذه المبالغ هى مبلغ (٤٢٠٠) ليرة من مديرية الغربية و (١٦٠٠) ليرة من المنوفية و (١٢٢٦) ليرة من القليوبية و (٦٠٠) ليرة من قنا و (٧٨) ليرة من الجيزة والباقى من موظفى الدوائر الخديوية وأرباب الحمية من رجال القاهرة.

وبناء على الأخبار التى أعلنتها الصحافة المصرية أنه يؤمل أن تصل إعانة مديرية الغربية إلى (٥٠٠٠) ليرة كما أن المديريات الأخرى التى لم ترسل المعونات بعد ينتظر أن تصل منها معونات كثيرة.

وبناء على أخبار التحقيقات التى نشرتها صحيفة وقت فى نسختها الصادرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٩٧ أن أهالى الهند المسلمين قد جمعوا إلى الآن مبلغ (٦٠٠٠٠٠) روبية ومازالوا يجمعون. وقد نشرت صحيفة حوادث مستقية أخبارها من صحيفة الوطن المصرية وبناء على الفقرات التى أدرجتها فى نسختى ٤٤٨٩ و ٤٥٠٣ أن المعونة الهندية وصلت إلى (٦١٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية وأن رئيس الجمعية الهندية للمعونات عبداللطيف خان بعث ابنه إلى السويس لعقد مقاولة مع الجمعية المصرية للمعونات، كما أوفدت جمعية الإعانة المصرية أحمد ناشد بك إلى مكة المعظمة لتقديم النفقات اللازمة لتعمير عين زبيدة، وبناء على الرسالة التى بعثها أحمد ناشد بك الذي أرسل من إمارة مصر للتحقيق فى تعميرات عين زبيدة ونشرتها صحيفة الجوائب، أن المسافة من جبل عرفات الذى

فيه عين زبيدة إلى مكة المكرمة تبلغ ستة آلاف ذراع تقريبا، وقد عهد بإصلاح مجارى عين زبيدة فى هذه المسافة للمهندس[1] الذى عينته الجمعية.

أما المواضع التى أصلحت علاوة على ذلك فهى المسافة الممتدة من عرفات حتى وادى النعمان وقدرها (٣٣٥٠) ذراعا كما تم الاتفاق مع المهندس المذكور على أن تكون تكاليف كل ذراع ١٦ ريالا وثلاثة أرباع الريال، وقد أنجز تلك المهمة على الوجه الأكمل وكان ذلك فى ٢٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ.

قد بلغ ما جمع من حجاج الهند وأهالى مكة وغيرهم من المعونات إلى هذا التاريخ مبلغ (٨٢١٦٨) قطعة ذهبية وأرسل (٦٧٠٠) قطعة ذهبية منها من صندوق بومباى.

وقد أنفق مبلغ (٥٥,٢٨٧) قرشا لإصلاح وتعمير مجرى عين زعفران التى ضمت لعين زبيدة وذلك بشرط أن يحسب الريال بثمانية وعشرين قرشا والليرة خمسة عشر قرشا والباقى من المبلغ صرف لطرق عين زبيدة وإصلاح مجاريها.

والسبب فى اضطرار اللجنة إلى إنفاق هذه المبالغ الطائلة من الدنانير الذهبية هو انسداد وانغلاق المنبع البالى لعين زبيدة، يعنى انسداد مجمع مياه وادى حنين ووادى النعمان وانغلاق ذلك المجرى الواسع وأيلولته للخراب.

إن ذلك المجرى يأتى إلى قهوة عرفات من تحت الأرض وعن طريق وادى النعمان، وبعد ذلك يجرى على وجه الأرض أحيانا ومن داخل الأرض حتى يصل إلى مجرى مغطى يسمى فقير الدبيلو «خومة وخاسرة» حتى يصل إلى قناة صناعية تسمى «بازان الجديد» وهنا يخرج على سطح الأرض ويمر بقناتين صناعيتين قنطرة العابدية والمزدلفة، ويصل إلى رقم الوبره ومنه إلى مفجرة وبعده بازان الجنة الواقعة فى منى وعقب ذلك إلى القناة الصناعية «بازان القاضى».

وبعد ذلك يهبط بحذاء دار الشريف عبد المطلب ويصل إلى مكة المعظمة، وإذا ما قيست هذه المسافة فهى تصل إلا ثلاثين كيلومترًا.

(١) هذا المهندس هو صادق بك ممن تولوا رتبة قائمقام الأركان الحربية.

وقد قسمت اللجنة أعمال إنشاء عين زبيدة وتعميرها إلى قسمين القسم الداخلى والقسم الخارجى.

القسم الأول: المواقع التى يعمر خارجها:

وقد بدئ فى تعمير هذا القسم من جهة وادى النعمان حتى المجرى. إن مقدار خمسة عشر مترا من المجرى المذكور قد هبط واندرس وانمحى، وبدأت اللجنة أعمالها من هناك وفتحت مجرى جديدًا يصل طوله لأربعمائة متر تقريبا، وأوسع من الأول ويسع داخله أن يمشى فيه إنسان ويتحرك، وبنى بشكل متين ورصين.

وبعد ما أنهت اللجنة أعمال المجرى على خير وجه أمر بفتح جميع أطراف المجرى ابتداء من وادى النعمان إلى قهوة عرفات. ومن هناك إلى جبل الرحمة ومن هنا إلى حومة وخاسرة وبازان الجديدة وقنطرة العابدية إلى المزدلفة، ومن المجرى أجزاء قد آلت إلى الخراب بحيث لا يمكن بقاء المياه فى داخلها فتركت هذه المجارى القديمة، وأمر بحفر مجارى جديدة كما أنها عاينت المواقع التى يمكن إصلاحها بعد أن أفرغتها من المياه وتفقدتها من الداخل ومن الخارج، «ثم أمرت بتعميرها واستخدمت الأسمنت فى تغطية جدران المجارى، وهكذا شيدته تشييدا رصينا.

ثم أمرت بتغطيتها بأغطية حجرية وفتحت فى بعض مواقع المجرى ما يشبه الأحواض حتى يستقى منها عربان البوادى، ويسقون دوابهم بعد أن أصلح المجرى حتى بئر زبيدة كما سبق شرحه.

فأخذت المياه تجرى فيه بغزارة حتى خربت بعض الأماكن الضيقة من المجرى، ورئى أن تفتح مثل هذه الأماكن وتوزع مياهها؛ ولأجل ذلك فتح بجانب مسجد المزدلفة وبين المزدلفة وعرفات حوضان عميقان للهبوط والصعود على جانبيهما، كما بنى منبع عظيم يهبط إليه ويصعد منه بالسلم وتركت الينابيع القديمة على حالها بعد تعميرها وتقويتها.

ونتيجة لإصلاح المجرى وتعميره بهذا الشكل أخذت تجرى إلى مكة فى كل دقيقة (٥٠٠٠) أوقية ماء وبما أن نصف هذه الكمية من المياه تكفى لإرواء كل أهالى مكة وسقيهم، فالمياه الباقية تجرى إلى بركة الأماجد حيث تكونت حولها بساتين شاسعة.

القسم الثانى: تعمير المواقع الداخلية:

أقيمت فى مكة تسعة صهاريج احتياطية وعدد من خزانات المياه ذات الصنابير، وشرع فى إنشاء الصهاريج الاحتياطية حيث أنشئ صهريج عظيم فى اتساع مائة وخمسون مترًا مربعًا، إن هذا الصهريج في حجم يكفى لاستيعاب (٤٤٧٠) أوقية من الماء بعد ما تم إنشاء هذا الصهريج، أنشئ صهريج آخر فى الحى المتصل بالموقع المسمى بالشيخ محمود يعنى فى حارة الباب، واتساعه أربعة وستون مترًا مربعًا، ويستوعب هذا الصهريج (٢٠٠٠) أوقية من ماء وبعد ذلك أنشىء الصهريج الذى فى حى جياد هذا الصهريج فى اتساع ٢٢٠ مترا مربعا ويستوعب (١٢٩٤٠٠٠) أوقية ماء وهو أكبر الصهاريج حجما، وبعد الانتهاء من صهريج جياد أنشئ عقب ذلك الصهريج الذى يسمى دكة الحارة المتصل بحى حارة الباب، وسطح هذا الصهريج فى اتساع ستة وثلاثين مترا مربعا ويستوعب (١٥٠٠٠٠) أوقية ماء ثم أنشئ الصهريج الذى فى حى الشامية باتساع (١٨٠) مترا مربعا ويستوعب صهريج الشامية (٢٦٠٠٠٠) أوقية ماء.

وبعد الانتهاء من بناء هذا الصهريج أقاموا صهريج شعب عامر، إن هذا الصهريج خلف مسكن السيد الشريف عون رفيق باشا وفى اتساع أربعة وثمانين مترا مربعا ويستوعب (٨٥٤) أوقية ماء.

وبعد إكمال صهريج شعب عامر أقيم خزان فى حى كشاشية على مساحة ثمانية وأربعين مترا وسعة هذا الخزان (٤٠٠٠٠٠) أوقية من الماء، وبعد ذلك أقيم خزان فى شعب بنى هاشم، وكان هذا فى حجم شعب عامر ويستوعب نفس الكمية من الماء، وبعد إقامة تلك الخزانات التسع المذكورة تهدمت خزانة

باب العمرة فأعيد تجديدها، وبعد ذلك أقيمت ثلاثة صهاريج كبيرة بجانب فرن أميرى الواقعة أسفل قلعة جياد، وسواء خزانة أميرى أو هذه الخزائن أنشئت علي طرفيها أحواض، وبنى تحت الأرض صهريج كبير ووضع في جهة المسعى خمسة عشر صنبورا متوسطا، ووضع فى جهة عمارة أربعة صنابير كبيرة ثم حفر وصنع حوضين ذوى فسقية واحدة بجانب مركز الشرطة الجديد وفى القسم السفلى منه والكائن فى باب الصفا.

وفى النهاية ركبوا فى جهة باب الصفا سبعة صنابير وفي جدران مكتبة شروانى محمد رشدى باشا الكائنة فى المدرسة التى تحت باب الصفا اثنين وعشرين صنبورا، وفى الجهة الخارجية من باب الوداع ستة وأربعين صنبورا، فى موقع قريب من باب العمرة عشرين صنبورا، وفى وسط المدرسة الداودية خمسة وعشرين صنبوراً، كما أنشئوا ستة أبنية ذات صنابير حجرية دائمة الجريان.

ولما كانت مبانى هذه الصنابير فى غاية الرصانة والمتانة فأهل الإيمان وهم يتوضئون منها فى الأوقات الخمسة، يرطبون ألسنتهم بالدعاء بازدياد قوة الإسلام وشوكته وعزته، وبعد ما انتهت عمليات تركيب الصنابير أُمدَّ بالماء الخزان الكائن وسط العمارة المصرية التى وضعت أسسها فى مكان مواجه لباب الصفا، ومن هذا الخزان إلى الحوض ذو الفسقية بواسطة أنابيب رصاصية، أمدت مستشفى الغرباء بمقدار كاف من الماء بالأنابيب الحديدية من الخزان الذى أنشئ فوق سوق الليل، وركبت فى مطبخها وصيدليتها وحمامها ومغسل ملابسها صنابير كبيرة دائمة الجريان.

كما أنشئوا فى الحديقة التى يتنزه فيها المرضى حوضا، ومن هنا إلى عمارة السلطان الخاصة بالذين يعنون بالحدائق والبساتين، وحولوا تلك الأماكن إلى جنة وتحولت عين زبيدة الآن إلى نهر صغير فالمياه الجارية فى داخل مكة يضيع نصفها عبثا، وأوصلت اللجنة المجرى إلى حارة الباب المتصلة بالشيخ محمود، وأنشأت هناك صهريجا احتياطيا واستفاد أهل مكة من توصيل المياه إلى هذا المكان، وأخذوا

يبنون المنازل والدكاكين فى الأماكن الممتدة نحو ميدان الشيخ محمود، وقد تحولت تلك الضاحية من المدينة بعد وصول المياه إلى مدينة صغيرة مستقلة.

وبهذا قد أدركت اللجنة أن مكة الله ستتسع إلى تلك الأماكن ولذلك تقرر مد مجرى عين زبيدة إلى ميدان الشيخ محمود وشرع فورا فى تنفيذ ما هو لازم، وقد أنفقت (٧٥٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية إلى أن وصلت عطيات الإنشاء إلى هذا المكان، إن تزيين تلك المدينة في جميع جهاتها على هذا النحو لم يكن بسعى من لجنة عين زبيدة فقط بل كذلك بفضل عثمان نورى باشا والى الحجاز والمهندس صادق بك.

المدارس الأربعة

التي أقامها السلطان سليمان

في مكة وكيفية إدارتها وتوجيهها

بعدما فرغ السلطان ـ طاب ثراه ـ من تعمير عين زبيدة بنى أربعة مدارس ضخمة خاصة بعلماء المذاهب الأربعة وأودع في كل واحدة من تلك المدارس خمسة عشر طالبا ومدرسا، وجعل أجر المدرس سنويا خمسين قطعة ذهبية عثمانية، وللمعيدين أربع قطع، وللطلاب والفراشين قطعتين ذهبيتين.

وجعل الإشراف على إدارة المدرسة الخاصة بالمالكية[١] والبوابين للقاضي حسين بن أبى بكر بن الحسين الذى نصب ناظرا للحرم الشريف بضم خمسين قطعة ذهبية لأجر وظيفته الأصلية، وتعد المدرسة المالكية أكبر المدارس الأربع وجعل لإدارة مدرسة المذهب الحنفي الشيخ القطب المكي المفتي[٢] الحنفي المذهب ومن مؤرخى مكة المعظمة، ووجهت إدارة المدرسة

(١) لقد سكن مولانا باقي شيخ شعراء الروم في هذه المدرسة حينما كان شيخا في مكة، وبما أن الشيوخ الذين كانوا يذهبون إلى مكة المكرمة أقاموا في هذه المدارس، مازال قضاة مكة يسكنون في هذه المدرسة ويقومون بوظائفهم، وهي مدرسة كبيرة في اتصال باب السلام بباب الزيادة.

(٢) ولم يكن للمذاهب الأربعة من يتولى الفتيا إلى عام ثمانمائة وسبعة ما عدا المذهب الشافعي، وفي خلال هذا العام عين من يتولى الإفتاء للمذهب المالكي والحنفي والحنبلي، كما ذكر سبب ذلك في مباحث المقامات الأربعة.

الشافعية إلى عبد العزيز الزمزمي من علماء المذهب الشافعي، واشترط أن يدرس في المدرسة الحنفية علم التفسير وعلم الطب وعلم أصول الفقه، وأن يدرس في المدرسة الشافعية الفقه الشافعي، وفي المدرسة الحنبلية[٢] كتب الحديث الستة وذلك في سنة (٩٧٢).

إن إحدي هذه المدارس التي بناها السلطان سليمان جعلت لإقامة قضاة مكة كما ذكر آنفا، ولكن المدارس الأخري قد استولي عليها متسلطو الزمن، ولم يبق أي حكم لشروط واقفها، وبينما كان أحمد باشا ابن أخت محمد علي باشا والي مصر محافظ مكة استطاع تخليص تلك المدارس من أيدي مغتصبيها، واشتراها بصورة نهائية، وبني هناك عمارة عظيمة وجعلها وقفا لمجاوري الحرم من المسلمين وجعلها سكنا خاصا لإقامة المجاورين ـ رحمه الله تعالى ـ جزاء ما قدم.

وللمدرسة السليمانية ست وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة، وللمدرسة الداودية سبع وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة أيضا، ولمدرسة الشهيد محمد باشا ست عشرة حجرة ولها نفس المقدار من الجراية، ويقيم في بعض حجراتها طلبة العلم وفي الأخري، من لا مأوي لهم من الغرباء والفقراء يتعيشون من الرواتب الموقوفة للحجرات، وفي مكة المعظمة ثلاث تكايا إحداها للخالدية والأخرى للشاذلية والثالثة للنقشبندية، التكية الخالدية فوق جبل أبي قبيس، والنقشبندية كذلك فوق جبل أبي قبيس، والتكية الشاذلية في ناحية جياد.

* * *

(٢) لم يكن في مكة تلك الفترة عالم حنبلي يصلح لتدريس المذهب الحنبلي؛ لذلك اتخذت الدار مدرسة للحديث، ووكلت ادارتها إلى صهر القاضي حسين بن أبي بكر بن الحسين معين بن آصف خان. ويشرف الآن على هذه المدارس علماء المذهب الحنفي.

تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم

بما أن أروقة الحرم الشريف وسقفه كانت كلها من الخشب ولم تعمر منذ زمن طويل أشرف كثير من مواضعها على الانهيار، وتخلخلت مجموعة من أخشاب أسقفها ومالت للانهيار فى ساحة الحرم الشريف، كما أن الأروقة التى فى الجدران الشرقية مالت نحو كعبة الله ومداخل أسقفها انفصلت عن الجدران وأوشكت على الانهيار.

وقد غرزت بعد المساند تحت السقوف المذكورة وفقا للمسوغ الشرعى، وأمكن الاحتفاظ بها على حالتها القديمة، إلا أن السقف آل للسقوط يوما بعد يوم حتى أصبحت الصلاة تحت هذا السقف غير ممكنة، وبما أن دوام هذه الحالة لن يخلو من الخطر فعرض الأمر من قبل إمارة مدينة مكة ونظارة الحرم الشريف والكعبة المعظمة على العتبة السلطانية، فصدر الأمر السلطانى من قبل السلطان سليم خان الثانى بن سليمان خان ببناء الحرم الشريف متينا رصينا، بعد هدم السقوف والأروقة المصنوعة من الخشب كلها وإقامة أعمدة الرخام مكانها وتذهيب أعلاها، وأبلغ الأمر السلطانى من قبل مقام الصدارة العظمى إلى أمير أمراء مصر سنان باشا طالبا منه أن يعين شخصا مناسبا لأمانة الأبنية المقدسة، وتدبير الأشياء اللازمة لذلك، وعهد بأمانة الأبنية المقدسة لأحمد بك من أمراء مصر ودبر كل ما يلزم لمهمات البناء، وأبلغ كل ذلك إلى مقام الصدارة وأرسل إلى الأمير المذكور بتوجيه من محافظة جدة الأمر العالى بإحالة أمانة البناء العظيمة إليه، وأخذ الأمير معه الأمر السلطانى وما تم تدبيره من لوازم البناء وتوجه إلى بندر السويس، وركب السفينة المجهزة ووصل إلى جدة المعمورة فى أواخر سنة (٩٧٩) ثم إلى مكة المكرمة حيث تلاقى مع من عين فى الفرمان للإشراف على

أمور البناء، وهو ناظر الحرم الشريف القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى، وشرع فى الاستعداد لهدم البناء القديم، وبناء الجديد، وبناءاً على رأى المهندس محمد أفندى من ضباط الباب العالى والذى أرسل للإشراف على العمارة وذلك فى أواسط شهر ربيع الأول سنة (٩٨٠)[١] هدم الجدار الشرقى للمسجد الحرام من باب على إلى باب السلام كاملا، ومهدت أرضه، وفى جمادى الأولى من نفس السنة وفى يوم الجمعة وضع حجر الأساس بعد أن دعا أمام جميع الأهالى بالتوفيق.

وبما أن الأزقة التى كانت تحيط بالجوانب الأربعة للحرم الشريف فى ذلك التاريخ كانت على نسق واحد، وهو السقوف الخشبية المرفوعة على الأعمدة الرخامية، وبناء على الأمر السلطانى كان المقرر أن تبنى فوق السقوف قبب لا تبدل ولكن الأساطين القديمة لم تكن تتحمل ثقل تلك القبب؛ حتى وإن كانت صغيرة فلن تصل رصانة البناء ومتانته إلى الحد المطلوب، فرأى محمد أفندى المذكور أن يهدم الأعمدة ويبنى قوائم من حجر شمليس أصفر اللون بعد كل ثلاثة أعمدة، وقرر أن يثبت سقف الحرم الشريف ويحكم بناءه فأنشأ قببًا مزخرفة جميلة.

ووفق هذا القرار واصل عمله من باب على إلى باب السلام، ومن هنا إلى باب عمر الواقع فى آخر الجدار الشمالى وهكذا أتم عمله بالكمال بعد أن بنى الجهتين الشرقية والشمالية للمسجد الحرام وذلك فى سنة (٩٨٢) وفى أثناء ذلك آل بناء عمر السلطان سليم إلى نهايته، وخلفه على العرش السلطان مراد الثالث طاب ثراه، وتوقفت عمليات البناء مدة من الزمن ولكن أحمد بك تلقى أمر السلطان باستئناف المهمة وشرع فى العمل من جديد، وفى غضون عامين بلغ بالبناء حد الكمال، وزين باب الحرم الشريف وجدرانه وأحجاره باسم جناب السلطان، وحلى باب المعلى وما حوله من السقوف والأروقة بالنقوش الذهبية المتنوعة وكان ذلك فى سنة (٩٨٤).

(١) فى السنة المذكورة حدث سيل خطير ودخل إلى الحرم الشريف وارتفع الماء بقدر قدمين فاستبدّ الاضطراب والحزن بأهل مكة.

وكانت التعليمات التى تلقاها أحمد بك من مقام الخلافة عندما جددت مهمته تشمل زخرفة الأماكن المناسبة من المسجد الحرام بالخطوط النفيسة المذهبة، وبناء على ذلك أمر بكتابة اسم الجلالة واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين على طلاء الجدار الشرقى من الداخل، بسمك أربعة أصابع بحروف جلية ونفيسة بعد إتمام عمليات المسجد الحرام، كما أمر بكتابة الآيات المناسبة على الجدران بين العلامتين الخضراوين، وهكذا زخرف داخل المسجد الحرام وخارجه كما أمر بكتابة الآيات الخاصة بأبواب المسجد فوق عقود الأبواب، واسم الله واسم نبى الله وأسماء الخلفاء الراشدين أعلى الأعمدة التى تقع فى الصف الأول من الساحة الرملية. وكتب تلك الكتابات بخط جميل نفيس وزخرفت بالذهب، وقد نظمت الكتابة بطريقة بديعة بحيث كتب أعلى كل عمود خامس اسم النبى ﷺ.

ولم يسع الذين شاهدوا تلك الزخارف إلا أن يعترفوا بأن المسجد الحرام لم يزين فى أية مرة عند تعميره وتجديده كما زين هذه المرة، وفى هذه المرة قد عُمِّرَتْ رُمِّمَتْ المآذن التى فى باب عمر وباب الوداع بشكل جميل، يَسُرُّ الناظرين، وقد حفر أحمد بك خارج جدران المسجد الحرام الجنوبية بإنفاق مبالغ طائلة، وذلك قبل هدم جدران الحرم الشريف الجنوبية والغربية، وذلك لتوسيع مجرى السيل لأن مجرى السيل قد امتلأ مع مرور الزمن وارتفعت أرض المجرى إلى الدرج الثانى عشر للأبواب الجنوبية؛ لذا كان الدخول فى الحرم الشريف يتم عن ثلاثة أدراج.

وإن كان من المستحيل ألا يملأ السيل المجرى ويخربه إلا أنه كان يتم حفر المجرى وتعميقه كل عشر سنوات، ونقل ترابه إلى خارج المدينة وكان ذلك من

قاعدة العمل فى الأزمنة القديمة، ولكن ترك تطهير المجرى ما يقرب من ثلاثين سنة وامتلاء المجرى، واقتراب السيل من الدخول فى الحرم الشريف ملأ قلوب الناس بالقلق والاضطراب حتى إن السيل المخيف الذى ظهر فى ليلة الأربعاء فى اليوم الخامس أو العاشر من جمادى الأولى لسنة (٩٨٣) دخل داخل الحرم الشريف وحجبت المياه المتجمعة الحجر الأسود وباب الكعبة حتى قفلته، وظلت فى داخل الحرم يوما وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى داخل الحرم يومًا وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى سبعة أوقات. وعندما زالت هجمات السيل المخيف وأمكن السير فى داخل المسجد الحرام طهر مجرى السيل والطريق القديم للسيل وأخرجت الأحجار والأوحال التى تراكمت هنا وهناك، وغسلت الأماكن الكثيرة الكائنة داخل الحرم وخارجه، وفرش داخل ساحة الحرمين بالرمال والحصى.

وقد ظهر السيل المذكور قبل تعميق المجرى فاستصوب رأى أحمد بك الذى سبق ذكره، وعمق حفرة المجرى بحيث لا تدخل مياه السيول فى داخل الحرم، وذلك بتدبير من شريف مكة وسادتها وأعيانها وأهاليها، واتخذوا تطهير المجرى وتنظيفه كل سنتين مرة قاعدة لا يحيدون عنها.

وما كان القيام بهذا العمل ميسرا لكائن من كان سواء من سلاطين العثمانيين أو خلفاء بغداد أو ملوك مصر، ولذلك عد إنجاز هذا العمل من أعظم آثار هذين السلطانين العثمانيين وثمرة هذا المسعى. وتم هذا العمل بعد أربعة أعوام، وينقل عن أحمد بك نقلا موثوقا أن ما أنفق من الخزينة الخاصة للسلطان (١١٠٠٠) قطعة ذهبية لإتمام هذا العمل ما عدا ما أرسل إلى أحمد بك من جانب الإدارة المصرية من الآلات والمسامير الحديدية وأشياء أخرى خشبية والعلامات الذهبية التى وضعت فوق القباب، وكلها خارج الحساب وبعد أن تم ترميم الحرم الشريف وتطهير المجرى، أرسل بيان بكل ما تم عمله إلى استانبول، وسرت منه جماعات المسلمين سرورا عظيما ونظمت أبيات شعرية تؤرخ تمام هذا العمل العظيم بلغات مختلفة وقدمت إلى أعتاب السلطان.

ولما كان تعليق هذه التواريخ المنظومة كلها فوق أبواب المسجد الحرام يخالف الأصول المرعية، اختير أجمل ما كتب فى هذا الشأن وأرسل إلى إمارة مكة المكرمة من قبل السلطان السنى المناقب ليعلق أو يحك فى مكان مناسب من المسجد الحرام.

وقد أعجب علماء مكة بالتاريخ المنظوم المرسل من مقام الخلافة الجليلة وحفر على لوحة رخامية، وبعد تزيينها وتذهيبها علقوها على الجدار الشرقى للمسجد الحرام فى مكان بين باب على وباب عباس امتثالاً للأمر السلطانى، وقد رأينا أنه من المناسب أن نكتب الثلاث أبيات الأخيرة من تاريخ سليس؛ لأنها أنشدت أمام السلطان وإن كانت مقدمته منثورا ولكنه يعتبر من الآثار الأدبية القيمة.

صورة تاريخ سليس

هذا التاريخ لا نظير له وعلق على الجدار الشرقى للمسجد الحرام نظم عندما تم تعمير المسجد الحرام فى عهد السلطان مراد خان الثالث.

الحمد لله الذى أسس بناء الدين المتين بنبى الرحمة والرشاد، وخصصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد، وجعل حرم مكة مطافا لطواف الطائفين من أقاصى الممالك والبلاد، ﷺ وعلى أصحابه الأجلاء والأمجاد، ووفق عبده المعتدّ بأحكام الشريعة وتشييد أركانها على الوجه المراد، والمدخر ذخر المستزيد من زاد المعاد، ظله الممدود على مفارق العباد، السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد خان جعل الله الخلافة فيه وفى عقبه إلى يوم التناد، ولتجديد معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه والباد، فى فاتحة سلطنته العظمى لازال للحرمين المحترمين خادما، ولأساس الجور والاعتساف هادمًا، وتجدد حرم بيت الله ـ عز وجل ـ بأمر العزيز المبجل، وعَمَّرَ عَامِرُ جُودِهِ، ما تضعضع من أركانه، بعدما انتقض على جدرانه، مجدد جدران حرم البيت العتيق وسوره بأكمل الزينة وأجمل صورة، بعدما أبلاها الجديدان وأكل عيدان سقفها الأرضة والديدان،

فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب، وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب، فأذعنوا له بالشرف الباهر، والمجد الفاخر تالين قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة: ١٨) داعين له بالثواب الجزيل والذخر الزاخر، قائلين أدام الله فى سرير الخلافة محروسا بحفظك من كل آفة وظافر اعلا مشيد المجالس والمدارس، مجدد كل منهدم ودارس، واجعل بابه للراجين حرمًا آمنا وجنابه للمحتاجين كفيلا ضامنا، يأتون إليه من كل فج عميق بحرمة البيت العتيق، تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول، هذا الدعاء الحرى بالقبول، فلما أسس بنيانه على التقوى من الله والرضوان جاء مشيد الأركان، محاكيًا روضات الجنان، وصار هذا عنوان خلافته وبراعة استهلال النشور لسعادته وفى سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الهجرة، وكان الابتداء بذلك التجديد، بأمر والد الماجد الدارج إلى مدارج المجد السلطان السعيد.

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨: ٨٩).

السلطان سليم ابن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان جلبى سلطان محمد بن السلطان يلديرم بايزيد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان، مكنهم الله تعالى سرور الجنان إلى انقراض الزمان، وكان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة.

فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن التسليم، وارتحل من دار القصور إلى ما هيأ الله فى الجنة من القصور قبل تمام ما رام من تجديد المسجد الحرام، وأجلس على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس، وجعل حرمه (مثابة للناس)، يسر له إتمامه بلطفه إقبال وجوه الليالى والأيام وأنام الأنام فى مهد، عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ونظم راقم هذا الأرقام تاريخا يليق أن يكتب فى هذا المقام وهو هذا:

نظم

جـــدد السلطـــان مـــراد بـن سلـــيم

مسجـــد البيـــت العتيـــق المحتـــرم

ســـر منـــه المسلمـــون كلهـــم

دام منصـــور اللـــواء والعـــلم

قـــال روح القـــدس فـــى تاريخـــه

عمـر السلطـان مـراد (هـذا الحـرم)

سنة ٩٨٤

وهذه صورة التاريخ اللطيف الذى كتبه مولانا سيد حسين بن أبى بكر الحسينى مفتى مكة المكرمة الشافعى، وكتبه منثورا وقد أعجب به أهل مكة المعظمة لبلاغته السلسة، وعلق على جدران المسجد الحرام الشرقية أيضًا.

عربى

باسمه سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة: ١٨) فى عمارة هذا المسجد الشريف وتجديده من اختار الله سبحانه من خلقه وعبيده المقدس المرحوم المغفور له الشهيد سلطان الإسلام والمسلمين، خاقان خواقين العالمين، العازم بفضل الله ظلال دار النعيم حضرة الملك الأعظم السلطان سليم نور الله تعالى ضريحه، وروح بروائح الجنات روحه، وأتم بناءه وأكمله ولقنه ونقشه وجمله، وارث الأفخم الإمام الأعظم وشقيقه الأكبر المعظم، والملك القاهر العرمرم، من ملكه الله تعالى شرق البلاد وغربها، وجعل طلوع يديه عجم الرعايا وعربها، وأطلعه سراجا منيرا فى المشارق والمغارب، وملكا مرفوع المقام على هرم الكواكب، ومشيد الإسلام حصنا حصينا محيطا، وجعل ظله يخيم على كافة الأنام بسيطا، وعدله الفريد فى جميع الوجود مبسوطًا، وقمع سلطنته

الشريفة طوائف الكفر والغلاء، وجمع له بين اليائس والنداء، وصار ملكه الشريف بعون الله سبحانه مفردا خليفة الله على كافة العباد، ورحمته الشاملة بجميع البلاد، سلطان سلاطين الزمان، خلاصة خواقين آل عثمان السلطان ابن السلطان السلطان الخنكار الأعظم مراد خان لازال الوجود بدووام خلافته عامرا، وبدا برج الإيمان فى أيام سلطنته قويا ظاهرا، زاده الله قوة ونصرا، وشد بملائكته الكرام له إزرا، فتاريخ إتمامه قد جاء (أطال الله من أتمه عمرا) فى سنة ٩٨٤.

الذيل

وبعد مرور ستة وثلاثين عاما على عمارة السلطان مراد للمسجد الحرام أمر السلطان أحمد خان الأول بتعمير جهات المسجد الحرام لاقتضاء الحاجة إلى ترميمها وذلك فى سنة ١٠٢٠[1].

وبعد قيام السلطان أحمد الأول بهذا التعمير بمدة وجيزة، لزم تعمير بعض المواضع فى أبنية الكعبة المعظمة والحرم الشريف، وعرض الأمر على السلطان مصطفى الثانى، فأصدر أمره بترميم ما يلزم ترميمه، وكانت خمسة مداخل فى السقف الشريف قد بليت فبدلت كلها، وجدد السلم الذى يفضى إلى سطح الكعبة بأن جعل سبع درجات من درجاته من الرخام، كما محا آثار البلى عن جوانب الحجر الأسود الأربعة، فهدمت وجددت وقد قدمت والدة السلطان كل ما أنفق لهذه العمليات.

وفى عصر السلطان عبد الحميد الأول بليت بعض أعمدة المسجد الحرام وبعض قبابه، فأمر السلطان بتغيير هذه الأعمدة وتعمير القباب، كما رممت مئذنة باب العمرة والمآذن الأخرى بعض الشىء، إلا أن معالم المسجد الحرام احتاجت إلى الإصلاح والتعمير والتسوية بعد فترة.

(١) أراد المرحوم السلطان أحمد أن يسدى خدمة لم يقم بها أحد، وذلك بتجديد كعبة الله جاعلا إحدى أحجارها فضة والأخرى من ذهب، ولكن سعد الدين أفندى زاده ومحمد أفندى شيخ الإسلام فى ذلك الوقت رد على السلطان قائلا ولو أراد الله لجعل كل أحجار الكعبة من الياقوت فانثنى السلطان عن فكرته.

وفى السنة الميمونة التى وفق فيها السلطان مراد على تعمير بيت الله، وتم إصلاح وتعمير الأماكن التى احتاجت إلى التعمير والإصلاح وذلك فى سنة (١٠٤٥).

وبعد ما أجرى مراد الرابع من إصلاح ـ أى من عام (١٠٤٥) إلى عام (١٠٨٠) ـ عمرت الأماكن التى قد اقتضى الأمر تصليحها شرعا، ولم يترك فيها موضع للإصلاحات الكبيرة، وقد اهتم بكل شىء سواء أكانت مبانى المسجد الحرام، أو كانت المواقع الأخرى من مدينة مكة المعظمة وما فيها من المآثر اللطيفة.

أمر السلطان محمود والى مصر محمد على باشا بإجراء كل ما يلزم إصلاحه فى الأماكن المقدسة التى دعت إلى تعميرها الضرورة الشرعية توا بلا استئذان، وفى أواسط عام (١٢٣٥هـ) عرف محمد على باشا أن الخلل طرأ على سقف الكعبة إذ تخلّخلت بعض الألواح الرخامية، وأخذت المياه المجتمعة فوق سطح الكعبة طريقها إلى داخل بيت الله، وتبين وجوب ترميم وإصلاح كثير من المواضع خارج الحرم الشريف، وفرش سقف كعبة الله بالرخام المجلى الذى أرسل من إستانبول بناء على الطلب الذى قدم هناك، ودفنت الحجارة القديمة التى كانت تغطى سطح البيت فى حفرة حفرت بالقرب من بئر زمزم، وذلك بناء على رأى الشيخ عمر عبد الرسول وهو من الصلحاء المشهورين.

وبعد تعمير المسجد الحرام عمرت قبة مسجد الخيف الكائن فى منى ومئذنة مسجد المشعر الحرام[١] ومسجد نمرة[٢] الذى يطلق عليه اسم مسجد إبراهيم، ومسجد غار المرسلات[٣] ومسجد الإجابة[٤] ومسجد الجن[٥] ومسجد التنعيم[٦]

(١) هذا المسجد اللطيف فى المزدلفة.
(٢) مسجد نمرة فى ساحة عرفات.
(٣) فى منى والناحية الجبلية من مسجد الخيف.
(٤) فى المعلى
(٥) فى جهة المعلى.
(٦) فى العمرة.

ومسجد الحديبية[١] ومسجد مولد النبى[٢] ومقبرة خديجة الكبرى[٣] ومقبرة آمنة[٤] ودار السيدة خديجة الكبرى مع أضرحتها وقبابها[٥] ودار خيزران[٦] وضريح ميمونة[٧] كل هذه المآثر قد جددت بإحكام، وفرشت من الداخل بطنافس غالية وزينت من الخارج بنقوش ملونة، وفى النهاية بدلت عدة أعمدة من أعمدة المسجد الحرام التى أوشكت على الخراب وذلك فى سنة (١٢٣٥).

وكان السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان العادل قد بدل الأحجار التى تخلخلت داخل كعبة الله وحول الحجر الأسود الأسعد. كما جدد بعض القباب والأعمدة التى تحمل هذه القباب وأنشأ الأرصفة[٨] التى تؤدى إلى باب على والمدرسة السليمانية والتى تمتد عبر الساحة القبلية للحرم الشريف، وبعد ذلك بسنة أرسل أربعة شمعدانات عالية على شكل النخلة لتوضع على الجهات الأربعة من الساحة القبلية للمسجد الحرام، وهكذا أنار الحرم الشريف وقبل إرسال هذه الشمعدانات كان الناس يؤدون صلواتهم فى الظلام ليلا، وبعدما أنار السلطان عبد المجيد أطراف الكعبة المعظمة كما ذكر، شيد بإحكام بعض أعمدة القباب التى آلت إلى الخراب وجدد الجدران التى حول مقبرة المعلى دائرا ما دار، كما أصلح الجدار الخارجى للحطيم.

وبما أن جدار الحطيم كان جديدا رأى الأهالى أنه لا مساغ شرعا لتجديده، إلا أن والى جدة عثمان باشا (وكان أمين البناء) فى ذات الوقت لم يهتم بما يقوله الأهالى، فجدد ذلك الجدار كما يحلو له، وبعد ما أتم عثمان باشا إصلاح جدار

(١) فى وسط الطريق بين مكة وجدة.
(٢) فى داخل مكة.
(٣) فى مقبرة جنة المعلى.
(٤) هذا أيضًا فى المقبرة المذكورة.
(٥) فى نفس مكة.
(٦) هذا أيضا فى داخل مدينة مكة.
(٧) بين وادى فاطمة ومسجد عمر.
(٨) وكان موضع الأرصفة أرضا رملية.

الحطيم أتجه إلى مخزنين للمهمات[1] فى ساحة المسجد الحرام وعمرهما، وجعل أحدهما دارا للميقاتى والآخر مكتبة[2] وجلب لها كتبا كثيرة من إستانبول، وهكذا زين تلك المبانى وفى النهاية جدد مبانى مسجد الخيف، ثم جدد المسجد الكائن فى الطائف، وضريح عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) كما جدد بإحكام مقبرتى (طاهر) بن الرسول ﷺ ومحمد حنفى[3] بن على (رضى الله عنهم) وذلك فى عام (١٢٦٢).

بعد العصر المذكور بمدة صدر الأمر السلطانى بتجديد الدار التى شهدت مولد النبى ﷺ، ومسقط رأس الصديق، وسقط رأس على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكذلك الأضرحة ومقابر الشهداء التى فى طريق العمرة، وضريح السيدة ميمونة ﷺ ومسجد مذبح إسماعيل (عليه السلام)[4]، وعمر سبيل باب الصفا الذى كان قد اتخذ دار خلاء، فجعل دار أبى جهل وأبى اللهب فى باب النبى دارين للخلاء، وجدد غطاء مقبرة أم المؤمنين ميمونة (رضى الله عنها)، وبنى سبيلين أمام ضريحها، وألحق بعض الحجر بالدار التى ولد فيها أبو بكر رضى الله عنه، واختصها بالخدم، وجدد منازل الخدم التى تتصل بمسقط رأس حمزة (رضى الله عنه) وذلك فى سنة (١٢٦٢).

رؤيا عثمان باشا

بينما كان عثمان باشا ينهى عمليات ترميم دار مسقط رأس حمزة، رأى فى منامه أن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد شرف داره بالزيارة، وفسر الذين سئلوا عن تفسير الرؤيا ما رآه عثمان باشا فى منامه بأن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد سر وابتهج من تعمير مسقط رأسه، وعلى هذا قد ذبح الباشا المذكور كثيرا من القرابين على أنها من قبل السلطان، ووزع لحومها على الفقراء والمساكين، وبما

(١) كان اسم المخزنين قبة الفراشين.

(٢) وفى عام (١٢٩٨) كل من دار الميقاتى والمكتبة.

(٣) محمد بن على بن أبى طالب، أبو القاسم بن الحنفية ـ نسبة لأمه من بنى حنيفة ـ المدنى، ثقة عالم، مات بعد سنة ٨٠هـ. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ١٩٢.

(٤) فى منى.

أن مذبح إسماعيل كان خاليا من الجدار فأحيا ذلك المكان ببناء الجدار، كما أنه هدم البيت الخاص ببنى شيبة، وأنشأه من جديد، وبهذا استجلب دعوات الأهالى والزوار بالخير للسلطان سنى المناقب وذلك فى سنة (١٢٦٢) وظلت مبانى المسجد الحرام بفضل هذه العمارة أربعة وثلاثين عاما بعيدة عن الخلل؛ إلا أن رخام المطاف وأماكن أخرى احتاجت إلى التعمير، وبناء على هذا جدد الرخام المذكور وكذلك الأحجار التى فرشت بها تحت القباب، وكذلك الأحجار التى فرشت بها أرضية بيت الله أو أصلحت إلا أن مبانى المسجد الحرام ظلت بعيدة عن المساس وذلك فى سنة (١٢٩٣) وفى تعمير أحجار داخل الكعبة وتجديدها نظم مفتى مكة الشافعى أحمد دحلان أفندى هذا التاريخ:

لسلطاننـــا عبـــد المجيـــد محاســن

ومـن ذا الـــذى بالحَصْـــرِ يقـــوى عـدد

وقـــد حـــاز تعمـــير الباطـــن كعبـــة

وتاريخـــه بيـــت مزيـــد يجـــــدد

بناء بـــدا زهـــوا لداخـــل كعبـــة

وسلطاننـــا عبـــد الحميـــد المجـــدد

ورأى مهندس البلدية الذى عهد إليه بالتعمير أن بعض الأماكن المقدسة أشرفت على الخراب، وعرض ذلك على المسئولين مع الخريطة التى رسمها للأماكن التى يلزم تعميرها.

ولكن الزمن لم يكن مساعدا لكل هذا العمل والتزم ألا يفتح الباب لنفقات باهظة لتعمير سطحى وتسوية قليلة. وفى الخريطة التى وضحت الأماكن التى تحتاج إلى التصليح فى المسجد الحرام رئى تجديد وترميم عدة أعمدة قائمة أمام محفل الشافعية والمدرسة الداودية وباب إبراهيم (الزيادة)، ليعنى إصلاح أربعة أعداد من الأعمدة الرخامية التى تحمل القبب الحجرية التى فى الساحة الرملية

من باب العمرة، وكذلك ثلاث قبب ملاصقة للمدرسة اليمانية التى تلاصق باب إبراهيم (الزيادة)، يعنى أن الأعمدة الثلاثة التى تعد كأرجل تحمل عقود القبب التى قد برزت عن مستواها وأوشكت على الانهيار بغتة، وكما بدا أن ترميم تلك الدعائم سوف يكلف (٧٥٠٠٠) قرش ولذلك صرف النظر عن إصلاح المظلة الشافعية، ورئى أن يدعم الأعمدة الثلاثة التى أمام المدرسة الداودية والثلاثة أعمدة الواقعة بجانب قصر نقيب السادات بدعامات وقتية ومساند؛ لأن إبقاءها على حالها كان خطرا، وفعلا اتخذ الإجراءات اللازمة لذلك وبهذا أعيد للناس ما سلب منهم من الشعور بالأمن وذلك فى سنة (١٢٩٦).

وقد أدرك بعد تنفيذ القرار السابق بعامين أن الأعمدة الستة ستنهار بغتة، وأن إبقاءها على تلك الحالة فى المسجد الحرام غير لائق، وسيثير قلق المسلمين ولاسيما أولئك الذين يعيشون تحت إدارة الدول الأجنبية من إخوان الدين.

لذا رأى عثمان نورى باشا والى الحجاز وقائد جيش الدولة العثمانية فى الحجاز أن يكشف وأن يعاين بدقيق الفحص تلك الأعمدة من قبل ضباط أركان الحرب من جديد، ثم بعث بنتيجة الفحص مع الخريطة السابقة التى رسمت من قبله إلى الباب السلطانى، واستأذنه فى تعمير تلك الأعمدة، ولما وصل الإذن السلطانى أمرًا بهدم تلك الأماكن عين القائم مقام صادق بك كبير مهندسى عين زبيدة للقيام بالبناء.

وفى غرة رجب عام (١٢٩٩) شرع صادق بك فى إيفاء ما كلف به فهدم القباب المذكورة وبسهولة جر الأعمدة الرخامية التى ترفع العقود بواسطة آلات الجر وربطها فى أماكنها بأوتار حديدية ربطا محكما، ثم أقام عليها القباب طبق أصول الفن المعمارى، وبذلك رفع الخطر الذى كان يهدد الناس فى داخل الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣١١).

بينما كان صادق بك مشغولا بإقامة القباب المذكورة رأى أن الأعمدة التى تحمل القبتين اللتين أمام باب على ومتصلتين بالساحة الرملية تزحزحت

أعمدتهما، فأخبر بذلك عثمان باشا وتلقى منه الأمر بالإصلاح فهدمها وأقامها وفق الفن المعمارى والقاعدة الهندسية بصورة متينة رصينة وذلك فى سنة (١٣١٩).

وقبل الدخول إلى الحرم الشريف من باب إبراهيم كان هناك ثلاث درجات وفى وسط القبتين حجر فى طرفيه درجات الارتقاء والنزول، وقد جعلت بطريقة سيئة مما كان يسبب لجماعات المسلمين فى طلوعهم ودخولهم مشقة كبيرة، وعند إدخال الجنازات فى الحرم كان بعض المسنين الضعفاء يسقطون على الأرض تحت الأقدام و يضجون بالصراخ.

ولما أبلغ الأمر من الأهالى والمجاورين إلى عثمان باشا أمر بهدم ذلك المكان وتجديده وتوسيعه، فجدد كما ينبغى فسهل الصعود والنزول وذلك فى عام (١٢٩٩).

وكان فى الطرف الشرقى للكعبة وبالقرب من بئر زمزم فى جهة باب على قبتان يرجع عهدهما إلى زمن قدماء الملوك، وكانت مساحة كل قبة ستة أمتار مربعة فأمر السلطان عبد المجيد والد السلطان فى عام ١٢٦٢ بتحويل أحد القبتين إلى بيت للميقاتى والأخرى إلى مكتبة، ولكن وجود هاتين القبتين كان يضر بالحرم الشريف، ويحول دون رؤية المصلين الذين يصلون أمام باب على وباب عباس للكعبة الشريفة.

كما أن مياه السيول المتراكمة فى وادى إبراهيم عندما تهطل الأمطار كانت تدخل إلى داخل الحرم الشريف وتتلف كتب المكتبة القيمة، وبناء على ذلك وقبل سبعة عشر عاما أى فى عام (١٢٨٤) أفتى شيوخ المذاهب الأربعة بهدم هذه الأبنية ونقل ساعات الميقاتى وكتب المكتبة إلى أماكن مأمونة، وتخصيص ذلك المكان لأداء الصلاة فيه و رغم أن الفتوى كانت بإجماع الآراء وقد حازت موافقة السلطان؛ إلا أنها لم تنفذ إلى الآن لسبب مجهول، ولكن عثمان باشا أمر بنقل مكتبة المدرسة السليمانية ودار التوقيت إلى مكان مناسب فى ناحية باب النبى، وتسوية أرضيهما وفرشها بالرمال وذلك فى سنة (١٣١٩).

إن المكان الذى نقلت إليه المكتبة قبة كبيرة تقع فى الجهة اليمنى عند الدخول إلى المدرسة السليمانية، وكانت هذه القبة تعرف بدار الحديث، ولكنها تعرف الآن بدار أحمد باشا.

وبناءا على ذلك عمر ما يجب تعميره من دار الحديث، وجلب لها القدر الكافى من الدواليب والرفوف الزجاجية، ووسع بابها ووضعت اللوحة الرخامية التى عليها التاريخ والتى كانت موضوعة فوق باب المكتبة القديمة فوق باب المكتبة الجديدة، هكذا أصبحت المكتبة الجديدة مكتبة جميلة مزينة بالنسبة للمكتبة القديمة[1].

تاريخ المكتبة

إن الدعاء واجب ليل نهار على أهل الإسلام كافة
وهم يشهدون آثار خير السلطان عبد المجيد خان
إن ذلك الوزير المجتبى يسعى على الدوام مسعاه
فيجلب دعاء الخير لأسرة آل عثمان
إنه شريف باشا الأكرم الملقب بشيخ الحرم
ففى كل أيام ينال الخير والإحسان
يالحسن دار الكتب تلك التى أحسن
فيها توسيع المكان
أذاع شوقى لها التاريخ جوهرا
مخبرا بفتح المكتبة أهل العرفان

فى عام ١٢٦٢.

(١) قد اتخذت القبة الثانية التى تقع بجانب المكتبة خزينة الحجاز، وعندما أنشئت دار خزانة على مايرام فنقلت الخزينة إلى مكانها الجديد. وتقرر أن يتخذ هذا المكان دارًا للعلوم من قبل الحكومة. وإن كانت المدرسة السليمانية لها قبتان أيضا إلا أنهما اتخذتا محكمة شرعية منذ فترة طويلة.

فى تلك المكتبة (٣٥٥٣) كتابا أرسلت من قبل السلطان عبد المجيد، ويتولى أمانة هذه الدار الشيخ محمود أفندى من مدرسى الحرم الشريف يعاونه رفيقان من الموظفين.

وإن كان للصدر الأعظم الأسبق محمد رشدى باشا الشروانى (١٣٦٢) مجلدا من الكتب تحت حفظ أمين المكتبة محمد رشدى الداغستانى وسيد على، إلا أن هذه الكتب مودعة فى مدرسة خاصة فى مواجهة الحرم الشريف.

وتقع دار التوقيت فى اتصال السلم الذى فى داخل الحرم الشريف، ويدخل فيها من هذا السلم وقد بنيت مبانى دار التوقيت، فهى تحت الرواق وفوق دكة النساء وعلى بعد مترين من جدار الحرم الشريف، وقد أسس على شكل شبه منحرف وعلى هيئة غاية فى الجمال.

ولدار التوقيت ثلاث نوافذ ويبلغ عرض كل واحدة منها مترا وطولها مترين، وقد فتحت إحداها بثقب جدار الحرم الشريف، وترى منها مدرسة الخاصكية، وفتحت نافذتان منها، ينظر منها إلى كعبة الله من داخل الحرم الشريف، فالذين يمرون بالمسعى يضبطون ساعاتهم ناظرين من النافذة التى تواجه مدرسة الخاصكية، والذين فى داخل الحرم الشريف يضبطونها ناظرين من النافذتين اللتين فى ناحية كعبة الله.

إن حجر التاريخ القديم الخاص بدار التوقيت قد وضع فوق النافذة التى تطل على شارع المسعى، وقد جددت زخرفته وألوانه كما جددت زخرفة وألوان حجر التاريخ الذى وضع فوق باب المكتبة.

بما أن ألوان طلاء الرواق المطل على الساحة الرملية قد محيت وتعذرت قراءة خطوطه، وبذلك قبح منظره داخل الحرم، وذلك عند تعمير وإصلاح أعمدة القباب التى فى ناحية باب العمرة وباب إبراهيم زيادة وباب على، ولتغيير هذا المنظر جدد طلاء الرواق وأسماء الجلالة التى بين الرواقين مع الخطوط الكائنة فى

ناحية باب السلام وباب إبراهيم، وطليت أرضيتها بلون أخضر داكن وأسماء الجلالة مع الخطوط طليت بلون أصفر شبيه باللون الذهبى، ورمم وأصلح طلاء الجدران وذلك فى سنة (١٢٩٩).

وبعد ما وفق عثمان باشا فى ترميم هذه الأماكن جعل المقام الحنبلى الذى كان يواجه الحجر الأسود بين الحجر الأسود والركن اليمانى، أو مقابل المقام الحنفى، ورمم وأصلح الأماكن الأخرى من حرم المسجد الحرام على أحسن وجه، وطلا جميع جهات الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣٠٠).

إن الحرم الشريف الآن فى شكل مستطيل، وإن الكعبة المعظمة تقع فى وسط المسجد الحرام، وبئر زمزم فى الجهة الشرقية الجنوبية لباب كعبة الله، ومقام إبراهيم فى الجهة الشمالية من باب الكعبة، وحجر إسماعيل فى الجهة الشمالية للبقعة المفخمة، والمقام الحنفى مقابل ذلك، والمقام الشافعى خلف مقام إبراهيم، والمقام المالكى فى الجهة الغربية من البيت الشريف، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية من البيت المنير الشريف فى اتصال مقام إبراهيم من الجهة الغربية، وكان فى ناحية باب أجياد وفى اتصال العمارة المصرية المدرسة المجيدية غير تام الإنشاء، وقد حول عثمان باشا هذه المدرسة إلى دائرة حكومية لسكنى المواطنين، وحول القلعة الهندية إلى معسكر يسمى غيرتيه، وجدد المعسكر السلطانى للمدفعية وقسم الشرطة الكائن أمام باب على، وخصصهما كلهما لإقامة جنود السلطان الموعود بالنصر. إن معسكر غيريته فوق الهضبة التى تتصل بجبل الترك الواقع فى الجهة الغربية من مكة المكرمة، وقلعة جياد فوق هضبة واقعة فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة والعسكر السلطانى للمدفعية كأنه فى وادى المعسكر الواقع فى جياد مستشفى قلعة الفلفل فى الجهة الشرقية من جبل الترك، وقسم الشرطة الرئيسى فى الصفا، والمعسكر الحميدى السلطانى والدوائر الحكومية الضخمة الكائنة فى مكان قريب من باب أم هانئ.

* * *

تحتوى على أربع صور تعرف بالتفصيل بالهدايا والتزيينات وأصحاب المعلقات العتيقة والكساوى والقناديل والأشخاص الذين أهدوا لتلك البقعة المقدسة هدايا ثمينة والذين شرحوا مسائل جواز إهداء الكسوة

ومما يتكون المحمل الشريف وماذا يعنى فى لسان العامة؟

فى ذكر الذين قدموا الهدايا لكعبة الله وزينوها والذين رمموها وعمروها عند الضرورة

وكان باب كعبة الله قبل أن يهاجر النبى ﷺ، إلى المدينة المنورة بأربعمائة عام تقريبا من غير مصراع، وقد ركب أبو كرب بن أسعد الحميرى من ملوك اليمن قبل الهجرة النبوية بسبعمائة عام على باب كعبة الله مصراعا فوقه قفل.

وكان الباب الذى ركبه أبو كرب قطعة واحدة ويشق استعماله، وأراد قصى بن كلاب أن يزيل الصعوبة ويسهل الفتح والغلق، فقسم ذلك الباب إلى جناحين، لكن الذين أتوا بعد قصى حولوه لقطعة واحدة.

ولما جدد عبد الله بن الزبير كعبة الله جعل باب الكعبة بمصراعين، وطلا باب كعبة الله والأعمدة الداخلية للكعبة وسطح الكعبة وسقفها بالذهب، وصنع مفتاحا من ذهب لقفل باب الكعبة فى سنة ٦٤ هجرية.

وغير الحجاج الظالم مصراعى باب كعبة الله اللذين صنعهما عبد الله بن الزبير، ورفع عتبة باب الكعبة عن الأرض ستة أقدام وأربع بوصات.

وجعل طول الباب تسعة أقدام وبوصتين وزخرفه[1]، وزخرف «عبد الملك بن مروان» من ملوك بنى أمية باب الكعبة المعلى للمرة الثالثة، كما أرسل ابنه الوليد إلى خالد بن عبد الله والى مكة ستة وثلاثين ألف دينارا ليجدد زخارف الميزاب اللطيف وأعمدة باب الكعبة الداخلية فى سنة ٨٩، كما أن محمد الأمين بن هارون الرشيد من الخلفاء العباسيين أرسل إلى واليه فى مكة سالم بن الجراح

(١) وفى عهد ابن الزبير كانت عتبة باب المعلى للكعبة فى مستوى أرض المطاف، وكان ارتفاعه (١٥ قدما و٦ بوصات) وعرضه (٦ أقدام و٤ بوصات).

ثمانية عشر ألف دينارا ذهبيا، ليجعل مسامير باب الكعبة وحلقاته من الذهب الخالص وذلك فى سنة ١٩٥، ثم اقتلع ذهب الأعمدة التى أمر وليد بن عبد الملك بتذهيبها وأعاد تذهيبها على شكل أفضل.

وإن كان سالم بن الجراح قد عمر وزين الأماكن التى سبق ذكرها بثمانى عشرة ألف قطعة ذهبية أرسلت من بغداد، إلا أنه أذاب الألواح الذهبية التى تغطى مصراعى باب الكعبة، واستعملها وقد صرف على الألواح التى ركبت ثلاثا وثلاثين ألف قطعة ذهبية، وغطى مصراعى الباب وقت اقتلاع الألواح بستارة من قماش أصفر، وإلى عهد المتوكل بالله العباسى[1]، كانت زاويتا الكعبة فى الداخل الزوايتين الفضيتين من ذهب أيضا، فاستجاب المتوكل بالله وأرسل إسحاق بن سلمة وهو صانع بارع فرصع زوايا كعبة الله الأربع على نسق واحد كان ذلك عام ٢٤٤، وزين الستارة الداخلية بحزام من فضة عرضه ثلاثة أذرع ثم أدخل إلى الحزام مقطعا من ذهب خالص، كما أنه أصلح عتبة باب الكعبة المصنوعة من خشب الساج وغلفها بألواح فضية.

وبناء على ما يروى من الصانع المذكور أنه قد أنفق على الزوايا الأربع والمنطق الذهبى ثمانين مثقالاً ذهبًا، وللحزام وألواح الباب ستين أوقية ونصف يعنى (١٤٢٠) درهما من الفضة.

وما أرسل إلى بيت الله من الهدايا وأدوات التزيين الغالية تعظيما له بعد المتوكل بالله، ما فى الأبواب والزوايا من ألواح ذهبية وفضية اقتلعها ولاة مكة وحولوها إلى ذهب ونقود، وأرادوا أن يخمدوا الثورة التى اندلعت فى سنة ٢٨١، وبهذه الطريقة تركوا كعبة الله فى مثل البناء العادى وقد جدد المعتضد بالله أول ما اقتلع، وصرف من تزيينات كعبة الله وأعادها إلى حالتها السابقة وذلك فى سنة ٢٨٣.

كما أن لؤلؤ غلام والدة الخليفة المقتدر بالله قد جدد وعمر داخل بيت الله وخارجه وأعمدته اللطيفة بإيعاز من سيدته وذلك فى عام ٣١٠.

(١) وهو أول من اتخذ الشافعية مذهبا له من خلفاء بنى عباس.

كما أن جمال الدين جواد من وزراء الملوك المصريين أرسل خمسة آلاف قطعة ذهبية، فنظم وذهب الطلاء الداخلى لكعبة الله، وجدد أبواب المسجد الحرام كلها وذلك فى سنة ٥٤٩.

كما أن جمال الدين جواد قد جدد مصراعى باب الكعبة اللذين كانا ركبهما الحجاج بن يوسف الثقفى.

وبناء على الأمر الوارد التقى قاضى مكة مع ناظر الحرم الشريف وأرسل الباب القديم بناء على توصية أمير الحرمين قاسم ابن هاشم إلى حاكم مصر المقتفى بالله[١] ووهب الخليفة المشار إليه ما انتزع من فضة من فوق ذلك الباب إلى أمير مكة المعظم قاسم بن هاشم.

وقد وصى المقتفى بالله أن يصنع من ذلك الباب تابوتا ويدفن معه متبركا به وفعلا قد نفذت وصيته عند وفاته.

وفى عام ٩٥٦ ذهب وزخرف البقعة المباركة لكعبة الله حاكم اليمن الملك المظفر الغسانى، وبعده حفيد الملك المظفر الملك المجاهد.

وفى سنة ٧٣٥ أرسل ملك مصر ناصر بن محمد قلاوون الصالحى[٢] خمسة وثلاثين ألفا من ذهب مصرى، وفى سنة ٧٧٠ حفيد الملك ناصر أشرف صرف نقودا لا تحصى، وهكذا جدد كل واحد منهم عقب الآخر الطلاء الذهبى لكعبة الله وزخرفوها، وجدد ناصر بن محمد بن قلاوون الصالحى الباب الذى صنعه الملك المظفر، كما أن الملك المظفر الغسانى كان قد جدد الباب الذى صنعه جمال الدين ابن جواد.

(١) اسم المقتفى بالله محمد أبو عبد الله واسم أبيه المستظفر قد رأى هذا الشخص فى رؤياه قبل جلوسه على كرسى الخلافة بستة أيام سلطان الرسل ﷺ، وقد وجه له النبى ﷺ خطابا فقال له «يا محمد يظهر أنك ستنادى خليفة عما قريب وعندئذ يجب عليك أن تقتفى أثرى، وبناء على ذلك لقب بالمقتفى بالله.

(٢) كان مصراعا الباب القديم اللذين جددهما الملك الناصر من خشب الساج، وكان عرض كل لوح خشبى ذراعا واحدا.

وقد تحدث القطب المكى من مؤرخى مكة عن مصراعى باب الكعبة اللتين غلفهما الملك الأشرف بألواح فضية، وبعد أن وصف بالتفصيل متانة مصراعى الباب وجمال صناعتهما فى تاريخه القيم الذى ألفه، قال: «كان بعض اللصوص يتحينون فرصة ليسرقوا ألواح باب كعبة الله الفضية بعد قلعها، وقد سرقت عتبة بيت الله وأصبحت عارية، وقد قبض على اللصوص المتجاسرين مرات وأخذوا بالعقاب، إلا أن استمرار سرقة زينة بيت الله الخارجية وأيلولة سطح بيت الله إلى الخراب، وأصبحت قطرات المطر تنفذ من سقف البيت، جعل بعض أهل البصيرة الذين اطلعوا على حقيقة الأمور يرفعون أصواتهم جازعين هالعين.

ولذا أتى إلى مكة المكرمة شيخ القاهرة حمد الله أفندى بنية الحج ورأى ما حل بالسطح الشريف من خراب، وذلك فى عام ٩٥٨ أو ٩٦١ هجرية، لقى قاضى مكة محمود جلبى أخا زوجه وتشاور معه ورأيا أن الأمر يجب أن يعرض على باب السعادة، وأوصيا إمارة مكة المكرمة وولاية الحجاز بذلك، وسعى مسئولو الإمارة والولاية بإبلاغ أمر وجوب التعمير إلى الباب السلطانى وما كان من السلطان سليمان بن السلطان سليم خان إلا أن استصدر فتوى تنطق بضرورة تعمير بيت الله من سلطان العلماء أبو السعود أفندى، وأرسل هذه الفتوى إلى أمير أمراء مصر، وأمره بأن يعمل على تعمير بيت الله سريعًا بمجرد ورود الأمر السلطانى، وفتوى المشيخة السلطانية.

وبادر على باشا أمير الأمراء بإرسال الأمر السلطانى والفتوى الشرعية إلى قاضى مكة أحمد جلبى، وذلك فى سنة ٩٥٩، وتشاورا كثيرًا بخصوص الموضوع ثم استدعيا وجمعا أعيان مكة وأكابرها وعلماء المذهب الحنفى والشافعى الفضلاء، وتليا الأمر السلطانى الوارد عليهم ثم أخذوا يتذاكرون كيفية تنفيذ الأمر السلطانى، ثم قرروا معاينة وكشف السطح الشريف عقب صلاة الجمعة ١٤ من شهر ربيع الأول سنة ٩٥٩، وقال أحد الموظفين الذى عين للكشف

(١) كان هذا الشخص قد عين ناظرًا لعمارة البيت من قبل والى مصر، كما أن مصطفى جلبى الأشول كان قد عين موظفا فى ديوان كتابة تلك العمليات ويقال له أحمد جلبى المقاطع، ومن مؤلفاته ترجمة روضة الشهداء «سعادت نامه» ومخلصه جامى.

بموافقة الجميع بعد المعاينة، قطعة من العمود الخشبى هبطت اثنى عشر خطا عن سائر الأرضيات، كما أن خشبة من طرف الباب تخلخلت عن مكانها وهبطت تسعة خطوط عن مكانها ولم تعد صالحة للاستعمال، وإذا لم تصلح وتعمر من الآن فمن الممكن أن يسقط السقف كاملا فجأة وصدق زميله الآخر على ما قاله، وبناء على ذلك شرعوا فى تعمير السطح الشريف يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٩٥٩.

وخالف بعض علماء مكة موضوع التعمير قائلين يجب أن يترك البيت المعظم بدون تعمير وتصليح ما لم تسقط على الأقل جهة من جهاته توقيرا للبيت، وحثوا عامة الناس على النزاع وأرادوا أن يوفقوا بين مُدَّعاهم والأقوال الأخرى، وكادت أن تحدث فتنة عظيمة؛ إلا أن مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى الشافعى ألف كتابا أسماه «المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة» رد فيه على آراء المخالفين، وخرج مسائلهم ونقل فى كتابه المسائل التى تجيز التعمير فى كتاب «استقصاء البيان فى مسألة الشادروان» للمحب الطبرى والكتب الأخرى للسلف الصالح.

كما أضاف إلى كتابه ما روى عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الحديث الشريف الذى يجيز تعمير كعبة الله المعظمة، إلا أنه لم يستطع إسكات الذين يؤيدون العلماء المخالفين وإقناعهم، وعندئذ أبلغوا الأمر إلى أمير الحجاز مولانا سيد شريف أحمد بن أبى نمى الذى كان فى البرية، فعاد من البرية واستدعى إليه مولانا الشيخ محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى، وطلب منه أن يفسر الآية الجليلة ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ (البقرة: ١٢٧) أمام كعبة الله.

وحضر هذا المجلس الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعى الذى سبق ذكره والشيخ نور الدين بن إبراهيم العسلى والقاضى الحسنى بن فايز بن ظهير ومفتى الحنفية قطب الدين بن علاء الدين.

وبناء على رجاء سيد شهاب الدين أحمد بن أبى نمى أخذ الشيخ أبو الحسن البكرى يفسر الآية التى سبق ذكرها بلسان فصيح، وبيان صحيح وختم التفسير

ببيان المسائل التى تجيز التعمير، ثم قام عقب ذلك ناظر الحرم الشريف وقدم إلى الأمير الأمر السلطانى والفتوى الشريفة للمشيخة السلطانية، وفتح الشيخ المشار إليه الأمر السلطانى والفتوى وقرأهما على ملأ من الناس، ثم تساءل قائلا من هم الذين يخالفون أحكام هذه الفتوى ويتجرءون على تشويش أذهان الجمهور وتخديشها، إن هذه الفتوى ما هى إلا تعزيز لصحة تعمير السقف الشريف واستصواب ذلك، إن حكم هذه الفتوى وما تحتوى عليه يوافق تماما أحكام الشرع الشريف ويجب أن يبادر بتنفيذ ما جاء فيها والبدء فى العمليات الإنشائية بدقة. وبناء على ذلك صعد العمال الذين اختيروا من قبل وعاينوا الأماكن التى أشير إليها فى ورقة الكشف، وعمروا[1] بعض مداخل الأعمدة الخشبية على السطح والأماكن التى هبطت عن مستواها، مما يؤدى إلى سقوط السقف كله، كما بين ذلك المهندسون الذين كشفوا ذلك، كما سووا قطع الرخام التى على أرض المطاف والتى كانت فى حاجة إلى التعمير والإصلاح، وغيروا الرمال ذات الحصى الموجودة حول المطاف وعرضوا الأمر على الباب العالى، وقد شرح مولانا قطبى أفندى لذلك فى مصراع بديع قائلا:

مجدد بيت الله مالك الدول سليمان[2]

وبعد ما أرسل الباب العالى قدرا كافيا من الفضة لتعمير المحراب الشريف وباب الكعبة المعلى بالأمر السلطانى، جددت ألواح باب الكعبة الفضية بتلك الفضة، وسوى سطح الباب بمسامير فضية ثمينة، كما ركبت عليه أربع قطع من حلقات فضية، وغلف ميزاب الرحمة بالفضة وزخرفوا سطحه، وهكذا نفذوا الإرادة السنية للخلافة وذلك فى سنة ٩٥١، وفى سنة ٩٦٠ أرسلت قطعة فضية للميزاب وعند وصولها رفع الميزاب القديم، ووضعوا مكانه الميزاب الفضى الجديد وأرسل الميزاب القديم إلى باب السعادة للاحتفاظ به تبركا فى خزينة السلطان، كما سيبين فى الأمر السلطانى الذى سيأتى ذكره فيما بعد، وعرضوا الانتهاء من تعمير تلك البقعة المفخمة.

(١) وكان سطح كعبة الله قد عمر قبل ذلك فى سنة ٨١٤ و٨٢٤ وسنة ٨٢٦ و ٨٤٣ أربع مرات كما عمر بعد ذلك فى سنوات ١٠٢١ و ١٠٤٣ و ١٠٤٤ و١١١٥ و١٢٣٥ خمس مرات.

(٢) قد يكون هذا تعمية ذلك التاريخ ولغزها.

التاريخ اللطيف

الذى نظمه غبارى أفندى الشهير عند تجديد الميزاب

قطعة

يـا مــولاى أنـت فيــض العالــم

بـدا فـى هــذا الميــزاب غيــض

أرونــى مـن ميـــزاب فيضـــك

فقد أصبح تاريخ (ميزاب الفيض)

وعند وصول الميزاب الفضى بدأ تعمير رخام المطاف والحرم الشريف والمنزل الذى ولد فيه النبى ﷺ وأتموا ذلك فى ٩٦٢.

هذه هى صورة الخطاب السلطانى الذى أرسله السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان يتضمن إرساله قطعا من الفضة لتجديد ميزاب كعبة الله وقطعتين من الثياب الثمينة إلى أمير مكة المكرمة السيد الشريف شهاب الدين أحمد أبى نمى تكريمًا له، وأن تحققت للأمير رغبته فى إرسال الميزاب القديم للتبرك. « .... وإلى الآن من يخرجون إلى أداء فريضة الحج وزيارة الروضة المطهرة بعون الله المتعال من الحجاج المسلمين يرغبون فى نيل سعادة مسح وجوههم بتراب الحرم النبوى الطاهر، ويسعون لتحقيق الدعوة الكريمة» ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

بكل نقاء روحى ويصلون إلى الحرمين الشريفين والمقامين المتينين مهبط الروح الأمين ومنزل الوحى، قاطعين المسافات وطاوين المراحل، يصلون إلى أعظم بقعة حيث يمسحون وجوههم على ساحة المطاف المعظم، وهم يتضرعون فى عبودية تامة وخضوع شديد، ويشعر عندئذ كل واحد منهم كأنه سلطان الدنيا وملك العالم، وأنه علا فوق كل شىء ومع كل هذا يقف أمام المقام الإلهى بكل خضوع وذلة، متجردا من ملابسه التى يفتخر بها، ملتفا بملابس الإحرام داعيا متضرعا مستغيثا، والمسلمون فى تلك الحالة الروحية السابقة عليكم أن تعظوهم بالاستمرار فى الأدعية المستجابة لدوام دولتنا وعزنا وقوتنا، وعليكم أن تبذلوا

سعيكم فى وضع الميزاب الجديد ومستلزماته فى أماكنها، وذلك فى احتفال عظيم يحضره العلماء الصالحون والأشراف والأتقياء وأطفال المسلمين، وحسب العادة يتلون القرآن الكريم ويختمونه، ثم يتوجهون إلى الله ضارعين داعين لانتصار جيوشنا فى البر والبحر، وخذل أعدائنا اللئام وعندما يصل إلى مينائى جدة يَنبُع من مصر القاهرة ما أنعمنا به من الغلال والخيرات وما تقرر إرساله من جانبنا من صدقات ونذور، تحت وصاية أمير أمراء الحبشة المالى، وأميرنا الموثوق به عليكم أن تبذلوا كل الهمة لاستلامها، ونقلها على ظهور الجمال إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وحسن توزيعها على فقراء الحرمين حتى تنتظم معيشتهم ويستقرون وأرجو أن تبذلوا سعيكم لترميم بيت الله، وإتمامه على النحو الذى سبق توضيحه.

ولما أنكم نلتم رضانا أكثر من أجدادكم الكرام، ونالت أعمالكم استحساننا على ما أوفى إلينا رجالنا الموثوق بهم، فاستوجب كل هذا الثناء عليكم، وأملنا أن تظلوا راعين جانبنا خاضعين لنا كأجدادكم العظام، وأن تعملوا دائمًا على بذل الجهد لخير دولتنا، وإذ فاض كرمنا نحوكم رأينا أن نرسل لكم خلعتين فخمتين إحداهما من السمور، وهى خلعة فخمة عظيمة يحملها مع رسالتنا السلطانية قدوة الأماجد والأكارم مصطفى أغا من المسئولين عن مطابخنا دام مجده.

وعندما تصل هذه الأشياء عليكم أن تلقوها بكل عناية، وأن تلبسوا الخلعتين بكل فخر مظهرين خضوعكم وصداقتكم لدولتنا، وفق ما جبلتم عليه أبا عن جد، وأن تضعوا لوح الميزاب المبارك فى مكانه فى ساعة مباركة ميمونة، وأن ترسلوا إلينا بالميزاب القديم لنحتفظ به تبركا، وبناء على عاداتكم المرضية أن تداوموا مع الأشراف والعلماء وعامة الصلحاء بالدعاء لاستمرار دولتنا عزيزة قوية، وأن تعتنوا برعاية الحرمين الشريفين وصيانتهما بكل دقة وعناية حتى تنالوا رضانا التام، واحترامنا الموفور». انتهى.

وبعد تحويل الميزاب الشريف إلى الفضة بإحدى وستين سنة، بدله المرحوم السلطان أحمد خان من فضة مزخرفة بذهب خالص، وبعد ذلك باثنين وعشرين عاما زخرفه وزينه من جديد، وبعد مرور مائتين واثنين وستين عاما جدده

بالذهب والد السلطان الكثير المحامد المرحوم عبد المجيد خان فى سنة ١٢٧٣ وأمر بكتابة التاريخ الآتى:

التاريخ

جدد هذا الميزاب المنير لوجه الله الكريم الخبير سلطان البرين والبحرين المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين، السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان الغازى محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان، بعد ما وهن الميزاب الذى جدده جده السلطان الأعلى أحمد خان ـ عليه رحمة الله المنان ـ فى سنة ١٠٢١. اللهم رب أدم هذا البيت الحرام ببقاء دولة الإسلام، ما طاف ببيتك الأنام واحفظه من جميع الآلام، بجاه نبينا (عليه الصلاة والسلام) وهذا التجديد سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٣).

وفى ختام هذا الإصلاح غُطِّى مصراعا باب البيت بألواح من الفضة ثم ركب عليه خشبة مزخرفة بنقوش ذهبية وأربع حلقات فضية وكتب على أحد مصراعى الباب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْلِى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

كما كتب على الآخر هذه العبارة البليغة البديعة:

«أمر بتجديد هذا الباب العالى الجناب الفقير إلى الله تعالى الملك الوهاب، عبده الذى من عليه بسلطنة العرب والعجم وجعله خادما بهذا للحرم السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان فى سنة تسع وخمسين وتسعمائة ٩٥٩».

نظم أحد شعراء الزمان عند تجديد باب الكعبة المعلى هذا التاريخ السلس.

النظم

فـاز مولانـا سليمـان الـذى جـدد

بـاب بيـت الله فـض وصفحـا

فـــى زمـــان قيـــل فـــى تاريخـــــه

قـــف فـــى بـــاب الله عـــلك تفلحـــا

فى سنة ٩٦٠

وقد كتبت فوق عتبة باب البيت العلوية بعد أن وفق السلطان سليمان فى تجديده بخط مثنى جلى الجملة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وكان فى ذلك الوقت لباب بيت الله قفل حديدى ذو حجم كبير ومسدس الشكل طويل، وعمر السلطان سليمان هذا القفل بألواح فضية وأمر بكتابة الجملة الدعائية بخط مثنى (يا مفتح الأبواب أفتح لنا باب رحمتك ومغفرتك)، وعندما تم تعمير السقف الشريف والمطاف اللطيف كلف غبارى أفندى أحد شعراء العصر بنظم هذا التاريخ السلس باللغة العربية، وقيد فيما يأتى وحفر فوق لوحة رخامية وذهب ثم علق على مكان مناسب فى داخل الحرم الشريف.

صورة التاريخ

الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٧).

تقرب إلى الله تعالى بتعمر بيت الله الحرام، من اختاره الله تعالى لخدمة الحرمين الشريفين، سلطان البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، ملك العرب والعجم والروم والعراقين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان العاشر من سلاطين آل عثمان، الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان تقبل الله أعماله وبلغ فى الدارين آماله.

البيت

خان سليمان خـادم الحرمين

عمـــر بالعطـــاء قبلتـــه

وفى سنة ٩٦١

وقد جدد باب كعبة الله فى سنة (١٥٤٥) السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد خان الغازى، كما كتب فى الصورة الثالثة عشرة من الوجهة الثانية، لأن مصراعى باب البيت لم يجددا تجديدا كاملا بل عمرا وزينا على أحسن وجه وفى سنة (١٠٤٥)، وكان رضوان أغا قد كلف بتجديد مبانى بيت الله، وأمر أيضا بتجديد مصراعى باب بيت الله تعالى، ونحى جانبا بعض أشجار الصفصاف التى كان قد اشتراها من أهل مكة لتعمير سقف البيت الحرام، وفصل من هذه الأشجار مصراعى باب الكعبة، وعندما انتزع المصراعين القديمين علق على فتحة باب الكعبة ستارة مصنوعة من القطن.

وقد اقتلع من فوق مصراعى الباب المنتزعين (٣١,٨٠٠) فضة، فأذاب رضوان أغا هذه الفضة وصنع منها لوحين، وسمر أحد اللوحين، على واحد من المصراعين والآخر على المصراع الثانى، ثم صرف ألف قطعة ذهب وزخرفهما. وأنفق (٣٧٠٩٥) درهم فضة فى صنع عتبة وحلقتين لذلك الباب، وهكذا زين باب كعبة الله المفخمة على أحسن وجه.

وبناء على هذا الحساب يكون باب الكعبة قد جدد تسع مرات، وذهب بالذهب الخالص اثنتى عشرة مرة، أى أنه جدد ثمانى مرات قبل السلطان مراد الرابع، وذهب بعده ثلاث عشرة مرة.

وطول الباب الشريف ستة أذرع وعشرة أصابع، وعرضه ثلاثة أذرع وثمانى عشرة أصبعا.

سبب تسمية ميزاب الرحمة بالميزاب الذهبى

إن الذى ساعد على تجديد بيت الله للمرة العاشرة هو الوليد بن عبد الملك،

فعندما تولى عرش الحكم بعث إلى خالد بن عبد الله القَسْرِى[1] ثلاثين ألف قطعة ذهبية، وأمره بأن يذيب هذه النقود الذهبية، ويصنع منها ألواحًا يغطى بها مصراعى باب كعبة الله وميزاب الرحمة، خضع خالد بن عبد الله وبادر بإذابة قطع الذهب، وصنع كثيرا من الألواح الذهبية وغلف بها ميزاب الرحمة، أولا ثم مصراعى باب كعبة الله، وزين الأعمدة التى فى داخل كعبة الله وطلا الأركان الأربعة الداخلية للكعبة بما زاد من ذهب.

وبتغليف ميزاب الرحمة بالألواح الذهبية قد اكتسب منظرا لامعا مشعا، فأعجب الناس بهذا التذهيب الظاهرى وأخذوا يطلقون على ميزاب الرحمة الميزاب الذهبى، وظل ميزاب الرحمة يعرف بالميزاب الذهبى على ألسن الناس لفترة طويلة.

جدد المقتفى بالله العباسى تلك الألواح فى سنة (٥٤٢)، وفيما بعد حول الملك المؤيد الميزاب الشريف إلى خشب، وفى سنة (٨٤٣) جدد الأمير زين الدين الميزاب الخشبى إثر الملك المؤيد بخشب أيضا، إلا أنه زخرفه بطلاء ذهبى وزينه، وأصبح من عادة الملوك بعد ذلك تجديد الميزاب من حين لآخر، ولما زينه السلطان سليمان ـ طاب ثراه ـ بألواح فضية فى سنة (٩٦٠) أطلق عليه اسم الميزاب الفضى، إلا أن المرحوم السلطان أحمد[2] انتزع الميزاب ذا الألواح الفضية فى سنة ١٠٢١، وصنع ميزابًا غلف فوق الفضة بالذهب وفسيفساء بنفسجية اللون، وكان تحفة فنية رائعة، وعندما وضع ذلك الميزاب فى مكانه أصبح اسمه مرة أخرى الميزاب الذهبى.

ولما كان السلطان أحمد هو الذى قدم للكعبة الميزاب الجديد كان من إرادته السنية أن يرسل الميزاب القديم إلى باب السعادة للتبرك به، ولأجل ذلك أرسل مع أمير حج قافلة الشام التى جهزها بكل عناية، ووضع عليها الميزاب القديم،

(١) عامل بنى أمية على مكة حينئذ، ولاه عليها الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ. انظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٤٦٤.

(٢) هو أحمد خان الأول، مات وعمره ثمانية وعشرين عامًا ومدة حكمه ١٤ سنة، وتوفى سنة ١٠٢٦هـ.

وسترها بكسوة المحمل المذهبة، ونهض من مدينة مكة المكرمة وأمامه الكثير من جنود المسلمين، وفى اليوم الذى تحركت فيه قافلة الشام خرج وجهاء القوم فى مكة وعلماءها وسادتها كلهم وأهلها ومجاوروها قاطبة ليكونوا فى توديع الميزاب القديم، وساروا مع القافلة المذكورة، فارتفعت الروح المعنوية فى داخل المدينة وسادتها حالة عجيبة، حتى قال مؤلف «لطائف الأخبار»[1] الشيخ محمد بن إسحاق الذى جاء فى تلك السنة مع المحمل المصرى لأداء فريضة الحج «لا قدرة لى على وصف وتصوير ما شاهدته فى ذلك اليوم».

وأخرج السلطان مراد خان ذلك الميزاب الذهبى من مكانه فى سنة (١٠٤٣). وزخرفه بالذهب وأعاده إلى مكانه ولما كان والد السلطان كثير المحامد السلطان عبد المجيد خان قد جدده بالذهب أيضا فى سنة (١٢٧٣)؛ ظل يطلق على ميزاب الرحمة إلى الآن «الميزاب الذهبى».

وبناء على بيان المؤرخين ورواياتهم فإن الذهب الذى أرسله وليد بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله لميزاب الرحمة قد أذيب من الأوانى الذهبية التى اغتنمت فى معركة «طليطلة» وهذه الأوانى هى المنضدة التى تنسب إلى سليمان عليه السلام يعنى المائدة السليمانية، ويقول المؤرخون إن هذه المنضدة كانت مصنوعة من أنواع اليواقيت والزبرجد وكانت مرصعة وفى غاية الجمال.

وعلى رواية أنها من صنع سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ، وقدحفظت فى خزينة المسجد الأقصى وعرضت هناك، ثم نقلت إلى خزائن ملوك بنى إسرائيل وعندما فتح بخت نصر القدس اغتنمت من قبل الملوك المتحالفين معه، لأن الأشرار من بنى إسرائيل تجرأوا على قتل زكريا ويحيى «عليهما السلام» فعاقبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن سلط عليهم بخت نصر الذى تحالف مع الملوك المجاورين، وساق كتائبه وجحافله إلى بلاد بنى إسرائيل فخرب القدس الشريف، ونهب وقتل سكانه، وبما أن الملوك المتحالفين كانوا معه فوزع ما اغتنم من الأموال على الكل.

(١) تاريخ جيد بالنسبة لأحوال مصر.

وفى هذا التقسيم كانت مائدة سليمان ـ عليه السلام ـ النادرة من نصيب حاكم أسبانيا، وحلة آدم مع عصا موسى من نصيب ملك الروم، وعرش بلقيس من نصيب ملك إنطاكية، وياقوتة ذى القرنين من حصة ملك أرمنية.

وحسب أقوال بعض المؤرخين أن بخت نصر عندما اغتنم تلك المائدة أخذها معه إلى بابل، ولما تغلب كسرى على بابل وأنهى أسر اليهود؛ رد تلك المائدة مرة أخرى إلى بنى إسرائيل مجاملة منه، وبعدما فتح تيتوس ـ من قياصرة الروم، القدس خربها وطرد بنى إسرائيل إلى بلاد أخرى، ونقل مائدة سليمان إلى خزينة الروم، ثم وقعت فى يد القوط.

ويدعى أغلب المؤرخين أن هذه المنضدة وقعت فى يد الغاصب ليبن بواسطة الوندال الذين نهبوا روما؛ إلا أن هذا الحكم لا يمكن قبوله لضعف روايته. ولهذا يلزم أن يكون كما قرر مراد بك مؤلف (التاريخ العام) إما أن يكون ملك القوط الغربيين الأربك اغتنم هذه المائدة عندما دخل روما ونهبها، وإما أن يكون «آنا لوف» الذى خلف الأربك وجدها ضمن جهاز أخت القيصر التى تزوجته، ووضعها فى خزينته، وعلى كل حال فموسى بن نصير[1] اغتنم مائدة سيدنا سليمان عندما فتح الأندلس، وبعثها إلى الشام، كما أن وليد بن عبد الملك بعثها إلى والى مكة المكرمة خالد بن عبد الله القسرى ليذهب بها ميزاب الرحمة.

وإذا صحت هذه الرواية فيكون وليد بن عبد الملك قد قام بخدمة حسنة جدا.

(١) موسى بن نصير فاتح الأندلس، وهو من التابعين الكرام وقد تلاقى مع تميم الدارى، وعاد من فتح الأندلس فى سنة أربع وتسعين الهجرية بعد أن غنم المائدة التى سبق ذكرها ومعها كثير من النقود، وبعض التيجان المرصعة بالمجوهرات الثمينة، وعدد لا بأس به من الأسرى، وبعد وصوله إلى الشام بثلاث سنوات اتجه إلى مكة المعظمة لأداء فريضة الحج، وارتحل إلى مملكة البقاء وهو محرم بين الحرمين رحمه الله. انظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٤٨١.

إفادة خاصة

النقود الإسلامية

أردنا أن نبين وزن وقيمة العملات التى سبق ذكرها وعين عددها مثل الدينار والدرهم حسب المناسبة فى بعض وجهات المرآة، حتى يمكن تخمين قيمة النقود التى أنفقها السلاطين العظام من أجل تعمير أبنية الحرمين وتجديدها.

لأجل ذلك استصوبنا أن نعطى بعض المعلومات عن الأسباب القهرية التى أدت إلى قطع تلك العملات، وتواريخ ضربها.

يطلق اسم سكة[1] على النقش المخصوص الذى يضرب فوق النقود الرائجة من الذهب والفضة. وفى أوائل ظهور الإسلام أطلق على المسكوكات الذهبية اسم الدينار، وعلى المسكوكات الفضية اسم الدرهم، والمؤرخون متفقون على أن اليونانيين هم الذين صنعوا المسكوكات قبل هذا بـ (٢٦٠٠ عام) وكانت على المسكوكات التى ضربت سواء أكانت فى أيام اليونانيين أو فى أيام ملوك الأمم[2] الأخرى بعض صور الحكام، وعلى بعضها صورة حيوان أو صورة قلعة أو شكل آخر.

وعندما ظهرت المسكوكات الإسلامية ذات العيار الصحيح وكسدت دنانير سوق الكفر، وفسدت دراهم المشركين المنتشرة، وكانت طوائف العرب فى بداوتهم الذين تركوا اهتمامهم بالدنيا يتعاملون قبل البعثة المحمدية بنقود غير مسكوكة، وأخذوا يتداولون النقود المسكوكة من الذهب والفضة بالوزن، فكل النقود العربية غير مسكوكة، وجرى حكم هذا التعامل فترة غير قليلة، حتى إن النقود التى اغتنمت فى عصر سيدنا عمر من بلاد الفرس لم ينظر إلى قيمتها الرائجة بل كانت ترد إلى الوزن ويتعاطونها بهذا الشكل. ولكن النقود التى ضربت فى مضارب الملوك الأوائل تختلف فى الوزن والنوع، وكانت النقود التى يتداولها

(١) هذا التعبير اسم خاص بالمطرقة الحديدية وهى آلة للصرف وعربى الأصل.

(٢) يستثنى من ذلك ملوك اليهود لأن مسكوكاتهم كانت خالية من الأشكال.

العرب الذين يعيشون حول الحرمين المحترمين يطلق عليها البغلى والطبرى واليمنى، وكان وزن المسكوكة البغلية يساوى ثمانية دوانق والطبرية ست دوانق والمسكوكة اليمنية تساوى درهمين ولأجل ذلك يتعبون كثيرا عند تحويل النقود المسكوكة إلى الذهب والفضة.

وأراد عمر الفاروق أن يسهل الأمر على الناس فرد المسكوكات الرائجة بين أهالى الحرمين وهى الطبرية والبغلية إلى نصف وزنها وثقلها، وهو ست دوانق وفقا للمثل القائل «خير الأمور أوسطها» واعتبرها درهما واحدا، وقسم الدرهم الواحد إلى أربعة عشر جزءًا، وضم ثلاثة أسباع حاصل التقسيم إلى ست الدوانق، ورفع الدرهم إلى مثقال، وأسقط ثلاثة أعشار المثقال، وأنزل المثقال إلى الدرهم، واستصوب أن يكون استخدام النقود الرائجة فى البلاد الإسلامية بهذا الوجه، والذى دفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى اتخاذ القرار بجعل المسكوكات المتداولة على وزن معين معلوم هو عدم تطابق النقود المضروبة فى عهد الملوك السابقين للمعاملات الشرعية، لأن النقود التى كان يتعامل بها الناس فى عهود ملوك الفرس قد سُكَّ بعضها على وزن عشرين قيراطًا، وبعضها على اثنى عشر قيراطًا، وبعضها على وزن عشرة قراريط مع الاتحاد فى الثمن.

وبما أن إعطاء الزكاة فى النقود التى تتحد فى الثمن وتختلف فى الوزن وهى إما ذهبية أو فضية غير مشروع، لذا اعتبر عمر الفاروق كل قيراطين قيراطا، وأنزل الستة قراريط إلى ست دوانق، وحول وزن القيراط القديم المتعارف بين الناس لتقديم المثقال الواحد، وألحق ستة قراريط إلى أربعة عشر قيراطًا التى تكون درهما واحدا. وهكذا أبلغ مجموع القراريط إلى عشرين قيراطا، واعتبر مجموعها مثقالا واحدا، ودام القرار الذى أخذه الفاروق الأعظم بشأن المسكوكات إلى سنة ٢٨ من الهجرة، وزادت الصعوبة فى تحويل المسكوكات الفضية والذهبية إلى الذهب الخالص غير المسكوكين بزيادة عدد المسلمين، وسلب هذا الأمر راحة الذين يبيعون ويشترون من أصحاب الحوانيت وأفراد

القبائل، مما دعا عثمان بن عفان (رضى الله عنه) إلى ضرب مسكوكات كافية من النقود وأزال من أذهان الناس قلقها بخصوص الأخذ والعطاء وكان ذلك فى مدينة هرتك[1]. أن أول ما ضرب من مسكوكات فى العصر الإسلامى هى تلك النقود.

سكت فريق المؤرخين عن المسكوكات التى ضربت فى السنة المذكورة والسنوات الهجرية ٣٧، ٣٨، ٣٩ ، ٤٠هـ وقالوا إن أول من سك العملة فى العصر الإسلامى هو عبد الله بن الزبير، إذ عين أخاه مصعب بن الزبير واليا من قبله على البلاد العراقية فى عام (٦٩) هجرى، وسمح له بسك النقود، وسك مقدارا كافيًا من النقود وعرضها فى سوق التعامل، وكانت تلك العملة تحمل على أحد وجهيها كلمة «بركة» وعلى الآخر كلمة «الله»، وبعد سنة أبطل الحجاج بن يوسف الثقفى سك هذا النوع من العملة، وسك عملة على شكل آخر وجعل على أحد وجهها كلمة «بركة» وعلى الوجه الآخر «الحجاج بن يوسف الثقفى»، ويحتمل أن يكون عبد الله بن الزبير أول من سك العملة وذهبوا إلى أن أول مَنْ سك النقود من الملوك المسلمين هو عبد الملك بن مروان.

وتزعم الفرقة الثانية أن عبد الملك بن مروان عندما اعتلى عرش الممالك الإسلامية كثر تداول العملات الخاصة بحكومات الروم والفرس والهند، وكثر الغش والفساد بين أنواعها المختلفة، واختل التعامل فأمر عبد الملك بسك عملة خاصة بالمسلمين خالية من[2] الصور والأشكال التى على مسكوكات الأمم السابقة، وبذلك ألغى التعامل بالنقود الرومية والكسروية والهندية، وضربت دنانير ودراهم تزدان بنقوش إسلامية وكتب على وجه العملة كلمة «الله أحد» وعلى الوجه الآخر «الله الصمد»، ويستند الفريق الثانى فى قولهم هذا على قول

(١) هرتك اسم مدينة مشهورة فى إقليم طبرستان.

(٢) إن مؤلف كتاب الحضارة العربية يدعى أنه كان هناك نوع من النقود الإسلامية كان يحتوى على صور ورسومات إلا أن هذا الادعاء مردود.

صاحب مؤلف «محاضرة الأوائل»، إلا أن صاحب كتاب «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» يخرج ويرد ادعاءات الفريق الأول والفريق الثانى، ويقول: «إن أول من سك العملة هو عثمان بن عفان ـ رضى عنه الله المنان ـ»، وأثبت مدعاه ببعض الأدلة المقنعة.

وبناء على تدقيق وتحقيق مؤلف «محاضرة الأوائل» أن العملة التى سكت فى عصر عبد الملك بن مروان كان مكتوبا على أحد وجهيها جملة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وعلى وجهها الآخر كتب ونقش اسمه، وفيما بعد أضاف الحجاج الظالم بعد كلمة «محمد رسول الله» كلمة «أرسله بالهدى».

وبناء على ما يزعمه صاحب كتاب «تحية الأخلاف» أن أحدا من ملوك الأمويين لم يكتب اسمه على النقود التى سكها غير الحجاج، بل اكتفى ببيان مكان سكها وتاريخ ضربها سواء فى عصر عبد الملك بن مروان أو عصر عثمان أو على أو عبد الله بن الزبير «رضى الله عنهم».

كانت العملة التى ضربت وتعامل بها الناس من دنانير ودراهم وفق ما قرره عمر بن الخطاب لها من وزن وقيمة بفرض ستة دوانق وكل ستة دوانق درهمًا، وعدد درهم مع إضافة ثلاثة أسباع درهم له من حيث الوزن، وقسمت العشرة دراهم إلى سبعة أجزاء، وأضيف إلى كل حاصل الأجزاء ثلاثة أسباع درهم، فاعتبر مجموع ذلك مثقالا واحدا.

وبناء على هذا الحساب يزيد المثقال الواحد على الدرهم بمقدار ثلاثة أسباع درهم، ويقتضى أن يعادل كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم. وإن الأصول والقواعد التى أخذ بها فى ضرب النقود قد أرضت الناس، وتلقوها بقبول حسن، كما أنه قد عدل وأصلح شكل العملة وصورتها فى عصر عبد الملك، فأصبح ضرب العملة على هذا الوجه عصرا بعد عصر قانونا خاصا فى الأماكن التى تضرب فيها النقود فى البلاد الإسلامية.

إن الدينار والدرهم اللذين أصلح شكلهما كانا مستديرين، وعلى وجه كل واحدمن النوعين دوائر صغيرة وكبيرة متداخلة ومتناسقة وعلى الدوائر جمل التهليل والتمجيد مع اسم عبد الملك وزمن ضربها وقطعها.

واستمر هذا القرار إلى أن اعتلى الموجودون عرش السلطنة، وعندما كان يضرب من جديد كان يغير اسم الخليفة وتاريخ سكها ومكانه.

وقد غير الملوك الموحدين شكل الدرهم فجعلوه مربعا وشكل الدينار جعلوه مستديرا، بتصويب مؤسس حكومتهم محمد بن تومرت، ورسموا فى وسط الدينار شكلا مربعا ثم كتبوا سواء كان فوق الدرهم أم الدينار جملا تتضمن التهليل والتمجيد، وعلى الوجه الآخر اسم ملك العصر وذيلوه باسم الخليفة وأبقوا وزن النقود ومقدارها كما كان من قبل.

ويدعى بعض المؤرخين أن العملة التى سكت فى عصر محمد المهدى كان مكتوباً على أحد وجهيها جملة «بلغت حجة الله» على الوجه الآخر جملة «تفرق أعداء الله» وإذا حسبت القطعة الذهبية العثمانية المجيدية مائة قرش يلزم أن تكون قيمة الدينار ثلاثة وثلاثين قرشا تقريبا، وكان ثقل الدينار ثمان وأربعين[1] شعيرة يعنى أنه كان يساوى حوالى اثنى عشر جزءا من ستة عشر جزءا من الدرهم. إلا أن العيار الحقيقى للدينار القديم غير معروف فتقدير ثمنه تقديراً صحيحاً ليس فى الإمكان.

ويدعى بعض العلماء أن كلمة الدينار حرفت من كلمة «دياروس» وكان يتداول فى وقت ما بقيمة (عشرة) آس في روما ثم بقيمة ستة عشر آس فى أوربا وكان مضروبا عليه رقم (خمسة عشر).

وبعد عهد شارلمان خلط بقليل من النحاس فقلت قيمته، وفيما بعد قلب نحاسا كاملا. يقال إن الفيلورى اسم آخر للدينار، ولكن فيلورى ليس اسم الدينار القديم بل اسم الذهب البندقى، والذى يعادل الذهب المزخرف والذى راج التعامل به فى جميع الجهات، وبما أن العملات قد تغيرت فيما بعد ففشا اسم

(١) هذا القول من رواية الزمخشرى، إلا أن فريقا من العلماء ذهب إلى أن الدينار يساوى (٨٤) شعيرة وبينما قال فريق آخر أنه يعادل (٧٢) شعيرة وعند الجمهور قول الزمخشرى أرجح.

الفيلورى وكان الذهب البندقى الذى أطلق عليه فيلوريا كان يساوى عشرة قروش فى تلك الأوقات، ولعله يساوى الآن ما يقرب من خمسين قرشا. والدرهم معرب من دراخما اليونانية كما تنقله الكتب الفلسفية، وكان وزنه مرتب على أن يكون في ثمان وأربعين شعيرة، والفضة المجيدية كانت فى قيمة عشرين قرشا، ويلزم على هذا أن تكون قيمة الدرهم الواحد قرشين، وإن العملة الفضية التى أطلق عليها درهما كانت نقدا خالص العيار تداوله القدماء فى تعاملهم. وقال ابن فضل وهو يعرف التعامل المصرى إن المعاملات المصرية تتم بالدرهم والدرهم المتداول كان نصفه فضة ونصفه الآخر نحاسا، وكان وزن كل درهم يساوى ثمان عشرة حبة خروب وكانت كل خروبة تزن ثلاث قمحات وقيمته الشرائية تساوى خمسة وأربعين فلسا.

وعندما ضربت المسكوكات القديمة سواء أكانت دينارا أودرهما كانت الثمان وأربعين شعيرة تساوى درهما، والدرهم يساوى سبعة دوانق، والدانق يساوى قيراطين، والقيراط يساوى طسوجين، والطسوج يساوى حبتين، والحبة الواحدة كانت تعادل جزءا واحدا من ثمانية وأربعين جزءا من أجزاء الدرهم.

وعلى هذا الحساب يقتضى أن يكون الدينار نقدا مسكوكا فى وزن أربعة وعشرين حبة أو ستة دوانق، وتساوى أربعة وعشرين حبة، و ٢٨٨ خردلة، و ٢٨٨ خردلة تساوى ٣٤٥٦ فلسفا وهذه تساوى ٢٠٧٣٦ فتيلة و ٢٠٧٣٦ فتيلة تساوى ١٢٤٤١٦ نقيرة، و ١٢٤٤١٦ نقيرة تساوى ١٩٥٣٢٥ قطمير، و ١٩٥٣٢٥ قطمير يساوى ١٩٤٣٩٣٦ ذرة، والدينار الواحد يتساوى فى الوزن مع درهم واحد.

وخطوط وأشكال النقود القديمة كان يكتب فوق العملات التى سكت فى عام ٢٨ هجرى فى فترة خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بالخط الكوفى جملة «بسم الله ربى»، وفوق العملات التى ضربت فى العام الثلاثين عبارة «ولى الله». وعلى وجه العملات التى ضربت فى سنة ٣٨، ٣٩ جملة «بسم الله

ربى»، وعلى الوجه الآخر جملة «ولى الله»، وفى وسط أحد وجهى العملات التى سكت فى العام الأربعين الهجرى سورة الإخلاص. وعلى أطرافها الدائرية جملة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وفى وسط الوجه الآخر «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وحولها دائرا ما دار عبارة ضرب هذا الدرهم بالبصرة فى سنة ٤٥، وكل هذه العملات ضربت فى عهد خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وكتب على أحد وجهى العملات التى ضربت عام ٧٠هـ فى مدينة «جرد» وما ضربت فى عام ٧١هـ فى مدينة «يزد» بالخط الكوفى «بسم الله»، وعلى الوجه الآخر بالخط الفارسى «عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين» وما ضرب من عملة عام ٧٩هـ فى «هرمز» وما ضرب عام ٨٠هـ فى مدينة الرى، ما ضرب عام ٩١ و ٩٥ هـ فى مدينة جود، وما ضرب عام ٩٧ و ٩٨هـ فى مدينة أردشير وحرة، وما ضرب عام ٩٦هـ فى مدينة «نمرة»، وما ضرب عام ٩٧هـ فى مدينة «مرو»، وما ضرب عام ٩٨هـ فى مدينة «جرد» وما ضرب عام ١٠٣هـ فى مدينة «قرمان»، وكل هذه العملات المتنوعة نقش فى وسط وجه منها سورة الإخلاص، وعلى أطرافها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون»، وفى وسط الوجه الآخر «لا إله إلا الله لا شريك له» وحول هذه العبارة كتب تاريخ ضرب العملة ومكانه.

وفى عهد الخليفة العباسى «السفاح» عام ١٣٤ هـ ضرب نوع من الدراهم كتب حوله «بسم الله» ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربع وثلاثين ومائة، وفى وسطه «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى أطراف الوجه الآخر فى ثلاثة أسطر «محمد رسول الله»، وكتب وسط هذه الدائرة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وفى سنة ١٣٦هـ ضرب فى الكوفة نوعين من الدراهم على نفس شكل الدراهم التى سبق ذكرها، وضرب منصور الدوانقى فى عام ١٤٤ هـ فى البصرة وعام ١٥١ هـ فى بغداد دراهم كتب فى وسطها «مما أمر به الأمير المهدى محمد بن أمير المؤمنين»،

وضرب الخليفة المهدى فى بغداد درهما فى وسطه عبارة «محمد رسول الله ﷺ» للخليفة المهدى سنة ستين ومائة.

وكتب فى وسط درهم «ضرب فى زمن الهادى بمدينة السلام[1] سنة سبعين ومائة محمد رسول الله ﷺ للخليفة الهادى»، وفى عهد هارون الرشيد نقش على بعض النقود. بالمحمدية سنة ست وسبعين ومائة «محمد رسول الله ﷺ»، للخليفة الرشيد بهلول، وعلى بعضها الآخر «بمدينه السلام سنة تسع وسبعين ومائة»، وفى الوسط على وجه هذه النقود «محمد رسول الله مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين جعفر»، وعلى الوجه الآخر بالوسط» بالمحمدية سنة ست وسبعين ومائة»، وفى بعضها الآخر «بالمحمدية سنة ثمانين ومائة مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين فى ولاية محمد بن يحيى جفر»، وفى بعضها بالمحمدية سنة تسعين ومائة، وفى وسط هذه الدراهم «محمد رسول الله»، وكتب على بعض ما ضرب فى زمان المأمون من نقود «ضرب بمدينة بلخ سنة خمس وسبعين ومائة محمد رسول الله مما أمر به أمير المؤمنين المأمون ولى عهد المسلمين عبد الله ابن أمير المؤمنين الفضل» وعلى بعضها كذلك «بمدينة بلخ سنة ست وثمانين ومائة محمد رسول الله ولى عهد المسلمين»، وكتب وسط العملات التى ضربت فى أثناء خلافة الأمين العباسى: «ياسيدى محمد رسول الله الأمين الخليفة محمد أمير المؤمنين» وفى أواسط أطرافها» ضرب بمدينة سمر قند سنة تسع وتسعين ومائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له «وعلى هامشه الآخر «الله محمد رسول الله» وقد كتب فى وسط نوع من العملة التى ضربت فى أثناء خلافة المأمون «لا إله إلا الله وحده لا شريك له بن إبراهيم» وعلى أطرافها «بسم الله ضرب هذا الدرهم بهرات سنة ست ومائتين»، كما كتب فى وسط الوجه الآخر «محمد رسول الله»، وعلى أطرافها «رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وعلى وسط وجه نوعين من العملة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى أطرافها «بسم الله ضرب هذا الدرهم

(١) مدينة السلام اسم آخر لبغداد.

بمرو سنة سبع عشرة ومائتين»، وخارج هذا الخط وفى داخل دائرة كتب «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»، وعلى وسط الوجه الآخر «محمد رسول الله»، وعلى أطرافها «محمد رسول الله أرسله بالهدى والدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وعلى طرفها دائرا ما دار «ضرب سمرقند سنة تسع ومائتين»، وفى وسطها «لله محمد رسول، المأمون خليفة الله طلحة» لكنه لم يذكر اسم المأمون ولا طلحة على عملة ضربت فى دار السك فى سمرقند سنة ٢١٧ هـ.

وقد كتب فى دوائر نقود ضربت فى عهد الواثق بالله «بالمحمدية فى سنة عشرين ومائتين» فى وسطها «لله محمد رسول الله الواثق بالله» وكتب فى وسط الدنانير التى ضربت فى عهد القاهر بالله «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وعلى دوائرها الخارجية كتبت «لله الأمر من قبل ومن بعد يومئذ يفرح المؤمنون» وفى دوائرها الداخلية «بسم الله ضرب هذا الدينار بنيسابور سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة» وفى وسط الوجه الثانى «محمد رسول الله القاهر بالله نصر أحمد» وفى دائرتها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

وكتبت على نوع من فلس «ضرب فى عهد المطيع بالله «بسم الله ضرب هذا الفلس ببخارى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وفى وسطها مكتوب «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى الوجه الآخر» محمد رسول الله منصور بن نوح».

وقد أخبر مؤلف «تحية الأخلاف» أن كل هذه المسكوكات قد كشفت فى قرية من قرى إقليم قزان فى سنة (١٢٨٠هـ) والمسكوكات القديمة عبارة عن النقود التى سبق ذكرها.

وكلما تباعد عصر السعادة اختلفت النقود وتعددت نقوشها وشكلها حسب أمر وجه أهل العصر، ولا سيما فى عصر الدولة العلية ـ صانها الله تعالى من الآفاق والعاهات والبلية ـ قد كثرت أنواع النقود التى أخرجت لسوق التعامل شكلا ونوعا، مما يجذب الأنظار وظلت العملات التى راجت فى البلاد العثمانية إلى عهد السلطان «أورخان» الغازى مسكوكة بأسماء السلاطين السلجوقية، ولكن

وجوه الدراهم والدنانير زينت وأنيرت بأسماء سلاطين الدولة العثمانية فى خلال عام (٧٣٩) وعلى وجه من وجهى المسكوكات العثمانية نقشت طغراء السلطان الغراء، وتحتها رقم تاريخ سكها بالنسبة لتاريخ جلوس السلطان، وعلى الوجه الآخر كتبت عبارة «ضرب فى قسطنطينية أو فى بروسة أو فى أدرنة أو فى مصر عز نصره» وفى ذيل هذه العبارة تاريخ جلوس السلطان، والخطوط المذكورة كلها محاطة ومزينة برسم زهرة رقيقة دقيقة.

إن النقود العثمانية المتداولة التى عرفنا رسمها وشكلها من محاسن عصر والد السلطان الكثير المحامد، وضربت المسكوكات الذهبية على خمسة أنواع، والفضية على ستة أنواع ويطلق عليها كلها «المجيدية» وفى الجدول كتبت الأنواع الأحد عشر وأوزانها وقيمتها ومقاديرها.

المسكوكات العثمانية

الذهب		وزنها	
الذهب القرش	قيمتها العدد	قيراط العدد	درهم العدد
٥٠٠	١	٤	١١
٢٥٠	١	١٠	٥
١٠٠	١	٤	٢
٥٠	١	٢	١
٢٥	١	٩	٠
..	٥	..	..
	الفضة		
٢٠	١	٨	٧
١٠	١	١٢	٣
٥	١	١٤	١
٢	١	١٢	٠
١	١	٦	٠
–	١	٣	٠
..	١١	..	..

إن هناك مسكوكات أخرى لم تدرج فى هذا الجدول مثل الذهب العتيق للسلطان محمود ذهب السلطان مصطفى ذهب مصر باريون والجنيه المصرى والخيرية العتيقة والجديدة.

وغيرها من النقود العثمانية المتعارف عليها بأسماء أخرى، وبما أنها تختلف فى الوزن والعيار بعضها عن بعض فلا قيمة كبيرة لها ولا رواج فى الشراء والبيع مثل المسكوكات الجديدة، إن النقود المذكورة تتداول حسب عيارها الذى ذكر فى مجال التعريف، ولما كانت العملات القديمة التى ضربت فى دور ضرب المسكوكات فى القاهرة وبغداد لا يوافق عيارها الجدول الذى عرفت فيه قيمة العملات ولا يطابقها فيتم تداولها كأنها نقود غير مسكوكة.

إن المسكوكات الأجنبية التى تتداول بين الناس مختلفة بعضها عن بعض فى العيار والوزن والقيمة، لأجل ذلك فهى تستخدم وفق قائمة التعريف، وبما أن النقود الرائجة الأجنبية قد حولت إلى أثمان المسكوكات العثمانية الجديدة، فالناس لا يجدون صعوبة فى تداولها مثل المسكوكات المغشوشة.

الدرهم الشرعى

إن تسوية المعاملات النقدية الشرعية أصبحت رهنا للتعامل بالمسكوكات، ولما كانت النقود القديمة المتداولة ليست على نسق واحد من حيث الوزن والعيار فى كل عصر ومصر، كما فصل فيما سبق، فاختلف تداولها باختلاف العصر والمكان، ولما لزم أن يوافى وزن الدينار والدرهم ومقدارهما وجودتهما وعيارهما لمعيار الدين القويم عشرة أمثال من النقود مساويا وموازنا إذا كان صحيح العيار إلى سبعة مثاقيل ذهب أو فضة، واعتبر ذلك درهما شرعيا واحدا وإن قيمة الذهب والفضة التى توزن بهذا الدرهم غير متساوية ولكنهم جعلوهما متساويين باعتبار الوزن والمقدار.

وأقروا ذلك بإجماع الأمة واتفاقها، ثم سموا ٤٠ درهما شرعيا أوقية وعلى

هذا التقدير يقتضى أن يكون الدرهم الشرعى سبعة أعشار المثقال الشرعي، والمثقال الواحد يساوى درهما وسبعة أرباع الدرهم، أى أن وزن المثقال يساوى ثقل سبع شعيرات متوسطة، واعتبر سبعة أعشار المثقال درهما واحدا، ويترتب على ذلك اعتبار الدرهم الواحد ثقل خمس حبات شعير وخمسين من حبة واحدة.

وقد قرر فى عصر السلطان أورخان الغازى وعهده اعتبار ربع الدرهم العُرْفى درهما شرعيا واحدا، واعتبار الدرهم ونصف العرفى واحدا ٢٦٦ مثقالا، واعتبار ٤٠٠ درهم عرفى أوقية واحدة.

ومن فروع ذلك القرار اعتبار الذرتين قطميرا، والقطميرين نقيرا، والنقيرين فتيلا، و ٤ فتائل حبة حنطة، و ٤ حبات حنطة تساوى قيراطا، و ٤ قراريط تساوى درهما، وبناء على هذا التقدير إن مائة الودرة تُساوى قنطارًا، و ٤ قناطير تساوى جكًيا واحدا وأن الجكى الواحد يساوى مائة وستًا وستين أوقية عتيقة.

* * *

تعرف من قدم إلى الكعبة المعظمة المعلقات والستائر القيمة

إن ملوك العجم كانوا يوقرون الكعبة المعظمة ويعظمونها بتقديم الهدايا وما يعلق عليها، وإن كان أول من قدم الهدايا إلى كعبة الله توقيرا لها وتعظيما لشأنها مجهولا فى نظر التاريخ، إلا أنه من المحقق أن من أرسل ما يطلق عليه العرب «غزالتى الكعبة» هو اسفنديار أو على قول ساسان بن بابك من ملوك الفرس، وكانتا من ذهب خالص.

حتى إن العرب يعتقدون اعتقادا جازما أن أول ما قدم من هدايا إلى الكعبة المعظمة هما هاتان الغزالتان، كما أن العرب يروون أن بابك أهدى إلى الكعبة المعظمة غير الغزالتين الذهبيتين أنواعا من الهدايا الذهبية والجواهر.

كما أنهم يروون بالأدلة أن أول من أهدى من العرب إلى الكعبة المعظمة من الهدايا هو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من قبيلة قريش إذ علق على الكعبة سيفين مذهبين.

وقد دعا كلاب بن مرة قبل جميع سكان الجزيرة العربية وأعيانها إلى إحراز شرف تقديم الهدية إلى الكعبة. إن أبا زوجه قدم له سيفا ذا قيمة مذهبا ومشهورا لدى العرب. وكان «أسد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر بن الحارث بن عمليق بن خشعمة بن يشكر بن بشير بن صعب بن دهمان بن نضر بن الأزد» الذى اشتهر بترصيع السيوف، واختراع هذا النوع من السيوف المذهبة، قد صنع هذين السيفين وأهدى أحدهما إلى ابنته فاطمة، والآخر لزوج ابنته كلاب بن مرة وهما أهديا هذين السيفين إلى الكعبة المفخمة ليحفظا فى خزينة بيت الله.

إن هذين السيفين المخترعين لم يكن للعرب عهد بصنعهما، لذا زادت فى عيون شجعان العرب الذين يفتخرون بعمل أجمل الأسلحة.

وعد إهداؤهما إلى الكعبة تضحية عظيمة من قبل كلاب بن مرة، ومن أجل ذلك علت مكانته فوق صناديد العرب والأشراف. وإن لم يقدم بعد كلاب بن مرة إلى عصر عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هدية إلى الكعبة، إلا أن عبد المطلب بن هاشم حينما أخرج من بئر زمزم الغزالتين الذهبيتين وسيفا ثمينا مرصعا وكثيرا من الذهب أهداها كلها إلى الكعبة المعظمة محبة لها، وكانت الغزالتان هما اللتان أهداهما ساسان بن إسفنديار إلى الكعبة كما سبق ذكره.

وأول من زين بيت الله فى الدولة الإسلامية هو عمر الفاروق، وبعده عبد الله بن الزبير وقد علق عمر الفاروق ما اغتنمه فى أثناء فتح المدائن من هلالين ذهبيين في داخل كعبة الله، كما كسا عبد الله بن الزبير أساطين الكعبة بصفائح من ذهب، وجعل مفتاح الكعبة من الذهب الخالص.

وقد أهدت مارية بنت أرقم من بنات ملوك بنى حنيفة زوجا من القرط الغالى النفيس، وكان هذا القرط من در نادر من حجم بيضة الحمامة، ويساويان أربعين ألف دينار تقريبا، وبما أن أحدهما كان لا نظير له سميت صاحبته بذات القرطين. وقد انتقل هذان القرطان فيما بعد إلى أيدى الملوك، حتى انتهى الأمر إلى عبد الملك بن مروان الأموى وعندما زوج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز أعطاها هذين القرطين. وأخذ عمر بن عبد العزيز فى عهد خلافته هذين القرطين ووضعهما فى خزينة الدولة.

ولما توفى عمر بن عبد العزيز وتولى السلطة يزيد بن عبد الملك، أخذ القرط ورده إلى أخته فاطمة، إلا أنها لم تقبله، وعندئذ أهدى يزيد القرط إلى زوجته ولا يعرف بعد ذلك إلى أين انتقل ذلك القرط ومن الذى امتلكه.

وقد بين «الإمام تقى الدين» من مؤرخى الكعبة الأوائل كيف زين كلاب بن مرة الكعبة معلقا سيفا محلى. ثم ذكر ناقلا من تاريخ الإمام الأزرقى أسماء الذين قدموا أشياء ثمينة متنوعة لتلك البقعة المقدسة واحداً تلو الآخر.

ومن ضمن ما ذكره الهلالان الذهبيان من غنائم بلاد كسرى، وكأسا مزينة بالزبرجد[1] غالى الثمن أهداها «سفاح بن زائد» من خلفاء بنى العباس.

كما أن هارون الرشيد علق في سقف كعبة الله فى سنة ١٨٦هـ قطعة حجة منمقة كتب عليها تجديد عهد وميثاق لابنيه محمد الأمين، وعبد الله المأمون بعد توقيعها من رجال دولته وذلك فى أثناء حجه.

الاستطراد

حينما علقت تلك الحجة فى المكان الذى رآه هارون الرشيد مناسبا وسقطت على الأرض بطريقة ما وشاع الأمر بين الناس، قالوا «إن ما تحتويه الحجة المذكورة لا يوافق حكم القدر». وفعلا هذا ما حدث إذ محا محمد الأمين عقب وفاة ولده، وبرأى «فضل بن الربيب» وتدبيره مسح اسم المأمون من تلك الحجة، ووضع مكانه اسم ابنه الصغير «موسى»، أو على قول آخر مزق التعهد القديم ووضع مكانه التعهد الجديد.

وأرسل «محمد الأمين» بن هارون الرشيد بعد وفاة والده (١٨٠٠) قطعة من ذهب لتزيين الكعبة وذلك فى سنة ١١٥هـ وعند وصول هذا المال إلى مكة الله أخذ أهل مكة صفائح الفضة التى كانت على باب الكعبة، وزينوا مصراعى الباب وجعلوا حلقاته من الذهب الخالص. أما المأمون العباسى فعلق على باب الكعبة ياقوتة ثمينة فى سلاسل من ذهب، كما أن المتوكل علق على واجهة الكعبة حلية تشبه الشمس مرصعة بأنواع الياقوت والزبرجد، وكان[2] إرسال ذلك فى موسم الحج سنة ٢٤٤هـ.

وزين الخليفة المتوكل بالله بناء على طلب صاحب مفتاح البيت زوايا كعبة الله بالذهب، وعلق فوق الستارة الداخلية للكعبة حزاما من الفضة طوله ثلاثة أذرع، وكان لهذا الحزام كمر من الذهب.

(١) الزبرجد حجر ثمين أخضر اللون كالزمرد، ولكن خضرته فاتحة ويطلق على هذا اللون اللون الفستقى.
(٢) وكانت تعلق تلك الأشياء على الكعبة فى عصور الخلفاء العباسيين.

وغلفت بعد ذلك عتبة باب بيت الله بلوح فضى، وبلغ ثمن الشريط السابق الذكر واللوح الفضى ثمانية عشر مثقالا من الذهب.

وأمر المعتصم بالله العباسى بصنع قفل ثمين بألف مثقال من الذهب، وأرسله إلى واليه في مكة المكرمة «صالح بن عباس» طالبا منه أن يضع القفل فى مكانه القديم، وأن يرسل القفل العتيق إليه ليتبرك به وذلك عام ٢٦٧هـ إلا أن خدم البيت بعد التشاور بينهم لم يستصوبوا إرسال القفل العتيق إلى الخليفة، وأخبروا بذلك صالح بن عباس والى مكة المكرمة ليبلغه بدوره إلى الخليفة الذى رضى برأى الخدم، وسمح أن يبقى القفل العتيق فى مكانه وأهدى القفل الجديد إلى الخدم.

وأرسل حاكم إقليم «السند» منطقا جميلا ليعلق على كعبة الله، وكان ذلك المنطق مرصعا بالزمرد والياقوت وكان أثرا لامعا مشعا[1] فعلق على وجه بيت الله اللطيف سنة ٢٥٩هـ.

استطراد

يطلق السند على إقليم كبير فى الهند ويحده من الغرب إيران، ومن الجهة الشمالية «قندهار»، ومن الجهة الشرقية الشمالية الصحراء الكائنة فى الجهة الشرقية من إقليم سيق، وتحاط من الجهة الجنوبية بمواقع قج ويقع بين الدرجة العرضية ٢٥ و ٢٦ شمالا وإن طول هذا الإقليم (١٦٠) ميلا، ويمر من وسط أشهر بلاده نهر السند، وبما أنه يحاذى مجرى هذا النهر العظيم ويمتد إلى موقع «مولتان» البعيد عن منبعه مسافة (٣٠٠) ميل عرف باسم السند.

إن نهر السند الكبير الذى يمتاز بعذوبة مياهه ونفعه العميم يعرف أيضا باسم نهر «هندوس»، وينبع هذا النهر من مكان يسمى تبد[2] الذى يقع بين خطى عرض (٣٨، ٣١) شمالا.

(١) فى وسط هذا العقد ياقوتة خضراء عظيمة.

(٢) يطلق عليه العرب اسم «التبت».

وفى سلسله جبال «بولور»[1] التى تفصل تاتارستان عن البلاد الصينية، ثم يجرى نحو الغرب الجنوبى ويفيض عند وصوله إلى الأراضى الهندية في خط عرض (٣٥) شمالا، ويعد بمثابة الخط الدفاعى عندما تتعرض البلاد الهندية للاعتداء من الجهة الغربية. ويفيض فى مدينة «كابل» البعيدة عن منبعه بستين ميلا بدرجة لا تسمح بالمرور، وعندما يصل إلى الإقليم الذى يتفرع فيه إلى فرعين والذى يسمى باسمه والفرع الأكبر الذى يقع فى الناحية الغربية، ويتفرع إلى شعب وفروع، ويشكل عند مصبه شكل مثلث الشكل مثل نهرى «النيل والبنج»[2] إن علماء طبقات الأرض يطلقون على ذلك الشكل اسم الدلتا والعرب يسمونه دالية[3].

إن مجارى فروعه التى سبق ذكرها غير عميقة، ولا تسمح بسير المراكب والسفن ويمكن للقوارب الصغيرة السير فيها.

إن المسافة بين منبع نهر السند ومصبه تصل إلى (١٣٥٠) ميلا، وأكثر أجزاء هذا النهر عميقة تسمح بسير سفن كبيرة حمولتها مائتى طن، ولما كان سكان شاطئيه جهلة فى فن تجارة الأنهار قلت تجارتهم عبر النهر «انتهى».

وعقب وصول الحزام الذى أرسله حاكم السند إلى مكة المعظمة، صنع المعتمد بالله العباسى صندوقا صغيرا فضيا جميل الشكل، ووضع فى داخل هذا الصندوق حجة ولاية عهد الخلافة بعده لابنه جعفر أولا ولأخيه «الموفق» بعده من وراء الخلافة وأرسله إلى كعبة الله مع «فضل بن عباس» وذلك فى سنة ٢٦١هـ وكان ذلك الصندوق على شكل مقلمة داخل وعاء فضى، علق داخل كعبة الله بثلاث سلاسل فضية مزخرفة بآلة لا مثيل لها.

وإن كان المؤرخون يخبروننا عن أشياء كثيرة نفيسة قيمة أهديت إلى كعبة الله، إلا أن ذكر هذه الأشياء على حدة سيجلب الملل والسأم للقراء لذا اكتفى بذكر أشهرها.

(١) يقال لها بين الناس «بلور».

(٢) مأخوذ من شكل حرف دلتا باللغة اليونانية.

(٣) مأخوذ من حرف الراء المهملة.

ولكن لشدة الأسف أن ما ذكر من الهدايا القيمة أو ما لم يذكر قد أنفقت واستهلكت من قِبَل ولاة الحرمين لإطفاء نار الفتن والشغب التى شبت فى الحرمين، وهكذا خلت خزينة بيت الله مدة طويلة من هدايا الملوك والسلاطين.

وكان السلطان مراد خان الثالث ابن السلطان سليم الثانى قد أرسل ثلاث قطع من القناديل[1] لا مثيل لها فى النفاسة وجمال الشكل. واستقبل أهالى مكة المكرمة «محمد جاوش» حامل القناديل المذكورة بكل حفاوة وأوصلوه إلى حرم المسجد الحرام، حيث قرئ الأمر السلطانى السنى فوق كرسى خاص لذلك، وكسى خلعا فاخرة لبعض الناس الذين اعتيد حضورهم قراءة الأمر السلطانى، وبهذا غمرهم الفرح والسرور وذلك فى سنة ٩٨٥هـ كان محمد جاوش[2] كاتبا للأبنية المقدسة فى عمارة السلطان سليم، ثم أصبح بعد ذلك مربيًا للسلطان مراد خان الثالث، ولما أريد مكافأته لخدماته الكثيرة كلف بحمل القناديل المذكورة وتوصيلها إلى مكة المكرمة، ومعها الخلع الفاخرة التى أنعم بها السلطان على الشريف «أبو نمى بن بركات» والقاضى «حسين بن أبى بكر الحسينى» وشيخ مكة «لطفى بك زاده» وأمين المبانى «أحمد» بك ووصل إلى مكة فى خلال سنة ٩٨٤هـ[3].

الذيل

وقد أصبح استقبال الهدايا السلطانية المرسلة إلى كعبة الله بكل توقير وحفاوة عظيمة في حكم العادة لدى أهالى مكة المكرمة، وكذلك قراءة الأمر السلطانى على كرسى فخم سلطانى، وكانت مراسم تبادل الولاة تتم على نفس الصورة.

وقد حضرت أنا جامع حروف هذا المؤلف فى سنة ١٢٨٩ مراسم قراءة الأمر السلطانى السنى الذى يتضمن تعيين محمد باشا واليا على الحجاز.

(١) كانت هذه القناديل مصنوعة من الذهب ومرصعة بحجارة كريمة ثمينة، وكانت صناعتها في غاية الجمال.

(٢) إن الشخص المعروف بـ محمد باشا هو محمد جاوش وبعد أن أصبح مربيًا للسلطان مراد خان الثالث رقى إلى رتبة أعلى وأسندت إليه الوزارة فيما بعد.

(٣) وفى قول آخر إن محمد جاوش وصل إلى مكة سنة ٩٨٥هـ.

وقد اجتمع أهل مكة كلهم أمام المقام الحنبلى الكائن بين ركن «الحجر الأسود» وبئر زمزم، وانتظروا قدوم شريفا مكة المكرمة. وعندما قدم المشار إليهما محاطين برجال الشرطة ومعهما كثيرون من ضباط الجيش، ومر الجميع بكل عظمة واحتشام ونظام من أمام باب السلام، وقفوا أمام الجماعات المجتمعة، واعتلى موظف مكلف بقراءة الأمر السلطانى كرسيا وضع من قبل بين البيت المعظم وبئر «زمزم»، قرأه أولا باللغة العربية ثم باللغة التركية، وبينما كان يقرأ الأمر السلطانى أُلْبِسَ مُفتيّو المذاهب الأربعة والعلماء الذين حضروا الحفل خلعا فاخرة.

وعقب الانتهاء من قراءة الأمر السلطانى اعتلى واحدٌ من أعلم العلماء وأصلح الصلحاء الكرسى، وبينما كان حامل مفتاح الكعبة فى داخل بيت الله أخذوا يدعون الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطول عمر السلطان، وللوالى الجديد بالتوفيق فى عمله، وسواء أكان أثناء قراءة الأمر السلطانى أو الدعاء بطول عمر السلطان ودوام ملكه كان باب كعبة الله مفتوحا.

وكان القارئ والداعى يتجهان نحو مقام إبراهيم العالى، لذا كان بيت الله الأعظم فى يسارهما وكان بئر زمزم فى يمينهما، وفى ختام الدعاء طاف جميع المشاهدين ورجال الحكومة بالبيت المعظم، وكان الشريف عبد الله باشا والوالى المشار إليه من ضمن الطائفين انتهى.

وبعد انتهاء مراسم استقبال القناديل التى قدمها السلطان مراد خان الثالث إلى الكعبة طاف بالكعبة الشريفة الشريف «حسن بن أبى نمى»، وعليه الخلعة السلطانية كما طاف رئيس المؤذنين ودعوا الله سبحانه وتعالى ـ بطول دولة السلطان.

وبعد طواف الشريف بالكعبة دخل مع الأشراف والعلماء الكعبة، واعتلى السلم الذى كان قد جهز من قبل، وعلق القنديلين واقفا في المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ ـ يوم فتح مكة، أى المكان الأول الذى تقع عليه عين الداخل فى الكعبة، ودعا بالأدعية المناسبة بدوام بقاء الدولة العثمانية.

وبعد ذلك سلم الموظف المذكور قنديلا آخر ليعلق فى الحجرة النبوية المعطرة حسب التعليمات، وأرسل إلى المدينة المنورة وفى رفقته كثير من الموظفين لتبليغ محافظ المدينة المنورة، بالأمر والإسراع فى اتخاذ ما يلزم إجراؤه.

والسلطان مراد خان الثالث أول من نال من السلاطين العثمانيين شرف تعليق القناديل فى الحرمين الشريفين. وبعد ما أرسل ذلك السلطان المغفور له ثلاث قناديل أرسل مع دفتردار مصر إبراهيم بك قنديلا عجيب الشكل مصنوعا من الذهب الخالص.

وكان فى داخل هذا القنديل عرضحال مسطور بيد السلطان وملفوف بمنديل مزركش بالذهب، ووصل القنديل المذكور إلى مكة المعظمة فى سنة ٩٩٨ فى أوائل شهر المحرم وعلق فى داخل بيت الله.

وأرسل السلطان «أحمد خان» الأول فى سنة ١٠٣٤ قطعتين من الماس[1]، على أن تعلقا فى داخل الكعبة المعظمة.

وأرسلت والدة السلطان عبد العزيز خان بن السلطان محمود الغازى كثيرا من الشمعدانات على أن تعلق بعضها أمام المقامات الأربعة وبعضها فى الساحة الرملية للحرم الشريف، وأحال داخل المسجد الحرام إلى سماء ذات نجوم زاهرة وذلك فى سنة ١٢٨٩هـ.

وقد أرسلت إلى بيت الله أشياء أخرى نفيسة وغالية غير ما ذكر ولكن مع مرور الوقت نُسِيَ واقفوها ومهدوها وأسماؤها ولهذا لم يكن فى الإمكان التحقق من شخصياتهم.

قد أفتى علماء السلف بخصوص تزيين الكعبة بالمعلقات المصنوعة من الذهب أو الفضة على وجهين أحدهما بالتحريم والآخر بالجواز. وعلى هذا التقدير فإن تزيين بيت الله والحجرة النبوية المعطرة بناء على ذلك جائز.

(!) وكانت قيمة هذه الهدية تساوى (٨٠٠٠) قطعة ذهبية وكانت غاية فى جمال الشكل والصنع، وقد أرتئى إهداؤها إلى الحجرة النبوية المعطرة من قبل السلطان ولذلك أرسلت إلى المدينة المنورة، ووضعت فوق الكوكب الدرى الذى يلمع فوق الجهة الجنوبية.

تذكر وتفصل كيف علقت الكسوة على كعبة الله ومن الذين نالوا شرف كسوتها مؤخرا وما هو نوع القماش الذي كسيت به وكيف تم الحصول عليه وكيف تجرى الاحتفالات فيى مختلف المناسبات؟

إن أول من كسا البيت الملك اليمنى من ملوك التبابعة «كرب بن أسعد بن عمر» سؤال ذى الأزعار بن أبرهة ذى المنارين الرايش بن عدى بن حيفى بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد الجمهور بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطنى غريب بن زهير بن هميسع بن العرفج حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وكان حاكم اسمه «فيطون» سببا فى كساء كرب بن أسعد الكعبة المعظمة، وبناء على ما نقله أحد المؤرخين يروى أن أوسًا وأخاه «الخزرج» بن الحارث بن ثعلبة العتيق هاجرا إلى المدينة المنورة قبل هجرة النبى (عليه أفضل التحية) بسبعمائة سنة. وقد كثر أولاد وأحفاد الأوس والخزرج وهما من آباء أجداد الأنصار الكرام، وشكل كل واحد منهما قبيلة وكان حاكم المدينة فى ذلك الوقت رجل اسمه «فيطون».

وكان فيطون الدنئ هذا يهودياً من أشرار اليهود، ولم يكن يسمح لأية واحدة من فتيات اليهود بالزواج إلا إذا أزال بكارتها بنفسه، ثم حاول أن يطبق عادته المستكرهة هذه على فتيات الأوس والخزرج، إلا أن هذا الأمر قد اشتد على بواسل رجال قبائل الأوس والخزرج، وأخذوا يفكرون في طريقة للتخلص من فيطون هذا، وحدث فى ذلك الوقت أن حان وقت زواج أخت «مالك بن عجلان من حفيدات الخزرج، وبناء على هذا اقتضى الأمر أن ترسل الأخت إلى بيت فيطون المنكوب.

وفكر مالك في أن يجد طريقة للتخلص بها من فيطون فلبس زى النساء،

وذهب إلى دار فيطون وهناك استطاع أن يقضى عليه فى مكان ضيق من البيت، إلا أنه تأكد بعد ذلك أنه لا حياة له فى يثرب، فارتحل إلى اليمن وعرض الأمر على ملك اليمن فى ذلك الوقت وهو «تبع أسعد بن أسعد».

وكان تبع أسعد رجلا سديد الرأى عادلا فاستاء كثيرا مما أخبره به ابن عجلان من أخبار مثيرة منفرة، وعقد العزم على أن يزيل ريح يهود يثرب ويسوى دورهم بالأرض هدما، فأعد العدة للرحيل وساق جيشه إلى حدود يثرب والبطحاء، وعندما بلغ تلك المدينة أعمل السيف فى ثلاثمائة من وجهاء القوم.

وبذلك ألقى الرعب فى قلوب من تبقى من اليهود، واستأذن يهودى يسمى شامول بلغ من العمر مائتين وخمسين عاما فى الدخول إلى مجلس الملك، وعندما أذن له بالدخول قال أيها الملك: قد جاء فى الكتب المقدسة أن هذا البلد سيكون مهجرا لنبى آخر الزمان، وإن اسمه الشريف «أحمد»، وهو من مكة المكرمة ومن صلب إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وسيبطل جميع الأديان الأخرى وسيشتهر بلقب «خاتم الأنبياء».

وبناء على ذلك فَنِيَّتُكَ الملكية في تدمير البلد وتخريبه تخالف تقدير الله، لذا يجب عليك أن تتخلى عن فكرتك هذه، وأن تظهر الندامة وهذا أولى بك وأجدر.

وهكذا نطق اليهودى بما أوجب القدر النطق به، وبما أن نطق شامول الذى خاطب به الملك قد أثر فيه، وأضاء نور المحبة المصطفوية جنبات فؤاده، ترك حرب اليهود وأكرم أهل المدينة المنورة ببذل العطايا لهم، وأظهر المحبة التى فى قلبه نحو حبيب الله، ثم اصطحب ذلك اليهودى ـ أو على رواية أخرى ـ اصطحب ثلاثة من أحبار اليهود الزهاد، وسار نحو الكعبة المعظمة لابسا ملابس الإحرام، وبعد الزيارة توجه نحو بلاد اليمن عائدًا مصطحباً معه ابن يامين بن عميرى من أحبار قبيلة بنى نضير وعلى ما سبق ذكره، وأخذ معه «شامول» أو «سحيت وبامين».

ويلزم بناء على هذه الرواية أن يكون مقدم طائفة اليهود إلى المدينة المنورة منذ زمن بعيد وقال: «بينما كانت المدينة المنورة واديا خاليا من آثار العمارة قدم إليها (تبع) من ملوك اليمن.

وكان ملكًا ذا شأن، قدم إليها مع حاشيته وجنوده وطلب منه العلماء اليهود الذين كانوا معه أن يسمح لهم بالإقامة فى هذا المكان، واستغرب تبع من طلب اليهود الذين يتسمون بالفطنة فى رغبتهم فى الإقامة فى هذا المكان الموحش، واستوضح منهم غرضهم من هذه الإقامة، فقالوا له: قد استنبطنا من آيات التوراة أن هذا المكان سيكون مهجرا لنبى عالى المنزلة، هو نبى آخر الزمان، ومن الواضح والمؤكد أننا لن ندرك زمن ظهور هذا النبى، إلا أننا أردنا أن نوصى أحفادنا الذين سيدركون هذا النبى باعتناق ذلك الدين الحنيف، وأن يفدوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن هذا الدين».

وقد تأثر الملك من هذا الرد العجيب، وعرف صفات باعث إيجاد الماء والطين «عليه سلام الله المعين» بالسؤال والبحث، فسمح لأربعمائة من العلماء بالبقاء فى هذا المكان، وبما بزغ فى قلبه من حب النبى ﷺ أمر ببناء منزل فخم يعادل «الخورنق» لكل واحد منهم كما أمر بإعطاء جارية لا مثيل لها لكل واحد منهم.

وأنشد تبع الأبيات الآتية وسلمها لأفضل هؤلاء العلماء اليهود وأكثرهم تبحرا فى العلم، والذى كان مع الملك المشار إليه ورغب فى البقاء فى أرض يثرب من شدة إخلاصه لسلطان الأنبياء «عليه أذكى التحايا».

شهدت على أحمد أنــه رسول من الله بارى النسم

فلو مد عمرى إلى عمره لكنت له وزيرا وابــن عــم

وأودع هذه الأبيات بعد أن كتبها فى لوحة مزينة إلى ذلك الفاضل السالف الذكر، وألقى خطبة يبين فيها إيمانه بما جاء به ﷺ قبل بعثة بسبعمائة سنة.

صورة خطبة الملك تبع

«يا أيها الفاضل فريد عصره إن هذه الدار العظيمة التى هيأتها لمحمد ﷺ ذات

صفات عالية، فلتسكن أنت وأولادك وأحفادك فى هذه الدار، وأى واحد من نسلك يدرك البعثة النبوية ليقدم هذه اللوحة التى تركتها أمانة فى يدك إلى النبى اللامع النور، وليعرض عليه إخلاصى وصدق إيمانى به راجيا منه أن يقبلنى أنا ـ أضعف العباد ـ ضمن أمته».

وبناء على رواية ابن إسحاق فإن اللوحة المذكورة وصلت إلى يد خالد بن زيد «رضى الله عنه»، من نسل المشار إليه وقدمها إلى النبى ﷺ، وبهذا حصل على شرف ضيافة الرسول ﷺ فى داره، إلا أن مؤلف «خلاصة الوفا» الإمام السمهودى يرد هذا القول، ويقول كما ورد فى بعض فصول «مرآة المدينة»: لا يصدق كثيرا أن خالد بن زيد من نسل ذلك الفاضل؛ لأن أجداد الأنصار الكرام كلهم من أبناء العرب، وجملة فروعهم أنسابهم صحيحة، فإن ما ذهب إليه ابن إسحاق غير صحيح، وقوله أن أجداد الأنصار قد اختلطوا باليهود سهو صريح، لأن أبا خالد هو زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك ابن النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج، وأمه «هند بنت سيد وأباها عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن كعب ابن الخزرج، وهذا يدل على أن خالد ليس من نسل علماء اليهود.

ومع كل هذا قد رد على القارى فى كتابه المسمى بـ «الدرر المضيئة» كل الأقوال السابقة، وروى أن سليمان «على نبينا وعليه سلام الله المستعان» بينما كان يمر من صحراء المدينة المنورة قال: «إن نبى آخر الزمان سيدفن هنا، وترك هناك أربعمائة من أحبار بنى إسرائيل العلماء؛ ليكونوا فى انتظار البعثة النبوية، ولكن للأسف عندما هاجر سلطان رسل الأمصار «عليه أعظم التحية» إلى المدينة أنكره أحفاد علماء بنى إسرائيل، وأظهروا له وجوه المخالفة.

إن أئمة الأسلاف اختلفوا كثيرًا فى مسألة إيمان الملك تبع. إلا أن وهب[1] بن منبه[2] ادعى إيمان المشار إليه. وقال إنه آمن بإبراهيم عليه سلام الله الرحيم.

(١) المشار إليه من التابعين.

(٢) إنه من الأصحاب الكرام.

وروى الإمام السهيلى الحديث الشريف الذى يقول «لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا» (حديث شريف) وبهذا حكم على إيمانه بالنبى ﷺ!! وذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك الذى آمن قبل البعثة هو «تبع أبو كرب بن أسعد الحميرى» الذى علق الكسوة على الكعبة ووالده هو أبو كرب بن أسعد الحميرى ووفق قسم من المؤرخين بين الأقوال المختلفة قائلين «إن المنزل الذى وضع أساسه تبع واللوحة المذكورة انتقلتا إلى خالد بن زيد الأنصارى بطريقة ما، وقدم خالد منزله واللوحة إلى النبى ﷺ ولهذا نال شرف ضيافة النبى عليه السلام. ومهما كان من الأمر فحقيقة الأمر يعرفها عالم السر والخفايا، وأن غرضنا من حكاية كل هذه الأقوال كان التحقق من تزيين تبع الحميرى للكعبة المعظمة بتعليق الكسوة عليها.

إن الملك تبع الذى اختلف المؤرخون فى اسمه وإيمانه وتجادلوا فيما بينهم كثيرا بخصوص هذين الموضوعين كما سبق ذكره فيما سلف ووصل إلى مكة المكرمة عند عودته من المدينة، وفى نفس اليوم طاف بالبيت وذبح أضحية وحلق شعره وأقام بمكة ستة أيام، وعلى قول آخر عشرة أيام، ودعا جميع أهل مكة إلى وليمة، وأسرع بعد الطعام بإلباس الخلع الغالية لبعضهم، وفى أثناء إقامته بمكة أمر فى رؤياه بكساء الكعبة المعظمة، وفى صباح تلك الليلة ألبس الكعبة كسوة مصنوعة من قماش يطلق عليه حصيف، ولكنه رأى فى رؤياه فى الليلة التالية أن يغير كسوة الكعبة بقماش أغلى من «الحصيف». وفى اليوم الثانى كسا الكعبة بقماش يقال له «مغافر» بعد أن أنزل الكسوة المصنوعة من الحصيف، ولكنه مع هذا رأى فى منامه فى الليلة التالية أن يغير كسوة الكعبة المصنوعة بقماش غالى الثمن ذى هدب وأغلق باب بيت الله بقفل وأنشأ يقول:

عربى

وكسوت البيت الذى حرم الله ... ملاء مغافرا وبرودا

أقمنا من الشهر عشرا ... وجعلنا إليه إكليلا

وخرجنا منه توأما سهيلاً ... قد رفعنا لواءنا منصورا

ثم سافر متوجها نحو بلاده..

وإن كان الإمام الواقدى قد نقل عن أبى هريرة أن أول من علق الكسوة على الكعبة ذلك الملك السعيد إلا أن عبد الرزّاق قال ناقلا عن ابن جريج، أن الذى علق الكسوة على الكعبة قبل جميع الناس هو إسماعيل (عليه السلام).

وادعى «زبير بن بكار» بناء على أخبار بعض أئمة الرواة أن أول من كسا الكعبة المعظمة هو «عدنان» أو رجل آخر عاش فى عصره «انتهى»

وبعد عودة الملك تبع شرع فى إرسال الكساء إلى البيت المكرم من جميع أقطار العالم. وكانت بعض الكسا تعلق على الكعبة وبعضها تحفظ فى خزانة الكعبة وكانت، تجدد من حين لآخر. وكانت الكسا تعلق بعضها فوق بعض، ولم يكن تعليق الكسا خاصا بالرجال بل هناك نساء كسين الكعبة.

إن والدة عباس بن عبد المطلب «نتيلة» أو «نتلة» كانت أولى النساء اللاتى كسين الكعبة. ولم تنل هذا الشرف من نساء قدماء العرب غيرها، وكان سبب نيلها هذا الشرف نذرها لابنها وهى نتيلة بنت جناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر، وكان ابنها عباس ضاع منها فى صغره، فنذرت قائلة إن وجدت ابنى سأقدم كسوة إلى الكعبة ولما وجدت ابنها أوفت بنذرها بأن كست الكعبة بالديباج وأنواع أخرى من الأقمشة الغالية.

وقرر القرشيون كساء الكعبة عن طريق المناوبة، وذلك بفرض الضريبة على القبائل، والنقود التى تجمع منها تنفق فى كساء الكعبة، وقد راعوا هذا القرار ابتداء من عهد قصى «بن كلاب بن مرة إلى عصر أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله ابن مخزوم، ولكن «أبا ربيعة» أقنع أفراد القبيلة بأن تكون كسوة الكعبة سنة بين جميع أفراد القبائل، وسنة تكون على حسابه، كما ذكرنا سابقا ولذا كان القرشيون كلهم يكسون الكعبة سنة ويكسوها «أبو ربيعة» بمفرده سنة، واستمرت هذه الحالة إلى أن توفى أبو ربيعة.

وكانت الكسا التى تعلق على الكعبة من أقمشة مختلفة وكانت تصنع فى زمن تبع الحميرى من أقمشة مثل الحصيف والمغافر والحصايل والعصب والمسوح

والسراء والتطابح. وفى عهد جاهلية العرب من المنسوجات مثل «الخطارف والخزن والخضر والصفر والكرار والنمارق العراقية والحبرات اليمانية وفيما بعد أطلق على الجزء السفلى من الكسوة والذي يلى أرضية المطاف «الإزار» كما سيرد فيما بعد.

والكسا التى تعلق فى أيامنا ليست قطعتين كما كانت من قبل بل قطعة واحدة، والكسوة البيضاء التى نرتديها وقت الإحرام تتكون من قطعتين لأن البيت الأعظم يكسى بالإحرام، بينما يخرج الحجاج إلى عرفات أى تعلق على الكعبة قبل حلول عيد الأضحى بأيام كسوة بيضاء، واسم هذه الكسوة البيضاء بناء على تعبير عرف البلد إحرام، وهى بدل الكسوة التى كان يطلق عليها قديما «الإزار» وغيرت الكسوة فى عهد نبينا السعيد، مجدد بنيان الشريعة (عليه أقوى التحية) بالأقمشة اليمانية، وفى أيام الخلفاء الراشدين غيرت بالديباج المزركش، وأخذت تغير مرتين فى السنة فى يوم «التروية» ويوم «عاشوراء» وهذا التجديد أصبح عادة متبعة.

روى أبو عروبة أن النبى ﷺ علق على الكعبة كسوة مصنوعة من قماش يسمى القباط كما يروى بعضهم أن عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ علقا كسوة على الكعبة.

وروى الإمام «الباقر» أن الذى حول ستارة الكعبة إلى الديباج هو يزيد بن معاوية.

وينقل أن الذى غير كسوة الكبعة إلى الديباج هو عبد الله ابن الزبير[1] ويقول الإمام الفاكهى «إن أول من علق الديباج الأبيض على الكعبة هو هارون الرشيد.

وكان صنع الكسوة من الديباج الأبيض من القواعد الجارية إلى عهد محمود سبكتكين». وبدل محمود سبكتكين الكسوة إلى الديباج ذا اللون الأصفر، كما بدلها ناصر العباسى بقماش أخضر، وفيما بعد بدلها بالقماش الأسود كما سنبين فيما يأتى.

يطلق يوم التروية على اليوم الذى قبل يوم عرفة، وكان قديما يعلق على سطح

(١) وقد جدد ابن الزبير الستارة الشريفة عام ٦٤هـ.

بيت الله أنواع من الديباج الغالى الثمن، ولم يكن يحاك كالكسوة حتى لا تخسر من ملامسة الأيادى، ولم يكن الأزرار يدرج فيها، وفى يوم عاشوراء كانت الأقمشة التى علقت يوم التروية تحاك بعضها ببعض، وتأخذ شكل الكسوة وتظل على هذا الشكل إلى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان، وتعلق فوق هذه الكسوة كسوة أخرى من قماش القباطى السميك.

وقد قرر فى عهد المأمون العباسى تغيير الكسوة الشريفة ثلاث مرات فى السنة، فكانت تعلق فى يوم التروية كسوة مصنوعة من قماش أحمر، وفى غرة رجب كسوة مصنوعة من القباطي السميك، وفى أول أيام عيد الفطر المبارك تعلق كسوة من ديباج أبيض، وأخيرًا اتخذ تغيير الملاصق للديباج الأحمر فى يوم عاشوراء عادة متبعة، إلا أن هذا الإزار كان مصنوعا من قماش رقيق ولا يتحمل سنة واحدة؛ ولذا رئى تغييره فى يوم عيد الفطر المبارك مع تجديد الديباج الأبيض.

وفى عهد المتوكل بالله تمزق الإزار المذكور إربا من أيدى المتوسلين ولم يتحمل إلى شهر رجب.

فأرسل من بغداد عاصمة دار الخلافة إزارين، وتقرر أن يصل الديباج الأحمر الذى يطلقون عليه «القميص» إلى الأرض ويلامسها وأن يجدد الإزار مرة كل شهرين.

وسبب تجديد الإزار مرة كل شهرين كون القميص غاية فى القصر لأن قطعة الستارة التى يطلق عليها القميص كان قد صنع قصيرا جدا بحيث لا تصل إليه الأيادى، وذلك فى عصر المتوكل بالله وكان الناس مضطرين أن يتوسلوا بالإزار، لذا كان الإزار يتمزق سريعا ويصير قطعا صغيرة.

وكانت ستارة الكعبة فى العصور الإسلامية ولا سيما في عصر المتوكل بالله تصنع من قطعتين: «القميص» و «الإزار» وكان الجزء العلوى من هذه القطع يطلق عليه قميص والجزء الأسفل إزار تشبيها لهما بالقميص والإزار.

لازمة

إن ما يستر النصف الأسفل من الجسم يسمى بالإزار بكسر الهمزة، أما الثوب الذى يستر ما فوق الخصر فيسمى الرداء. ولما كان لبس الرداء والإزار من القواعد المرعية فى الجزيرة العربية، كان الرسول ﷺ يلبسهما أيضا، حتى إن الرسول ﷺ عندما ودعنا لعالم الغيب كان يلبس رداءاً مرقعا وإزارا منسوجا من خيوط غليظة، وكان الإزار الذى يكتسيه الرسول ﷺ يصل إلى نصف ساقه[1] ويرى أن استعمال إزار أطول من هذا مكروها.

وأشار النبى ﷺ وهو يشرح يوماً لحذيفة بن اليمان ما يجب أن يكون عليه طول الإزار لساق المشار إليه أو لساقه عليه السلام: «هاهنا موضع الإزار» حديث شريف. إذا أردت أن تعمل بالأفضل يمكن أن يكون طول الإزار ما بعد نصف الساق وفوق الكعب وإذا أردت أن تنزل الإزار إلى الكعبين فإن هذا غير جائز لأن الإزار لاحق له فى الكعبين.

واختلف العلماء فى تعيين مدى طول إزار النبى ﷺ بالأذرع، فقال ابن الجوزى: «إن طول الإزار الذى كان يرتديه الرسول ﷺ كان أربعة أذرع وذراعين ونصف فى العرض «أما ابن القيم فقال «إن طوله كان أربعة أذرع وشبرا وعرضه ذراعين»، وقال الواقدى «إن طوله كان ستة أذرع وثلاثة أذرع وشبرا فى العرض».

إن ما قيل فى طول الإزار وما يجب أن يكون عليه خاص بالرجال، وأما إزار النساء فيلزم أن يكون أطول من إزار الرجال شبرا أو ذراعا ويسرى هذا الحكم على القميص وسائر الملابس. وبما أن الإزار والرداء معروف لدى الحجاج فإن قطعة القماش التى يلفون بها خصورهم يطلق عليها الإزار، وما غطوا به ظهورهم يطلق عليه الرداء.

وكانت الكسا التى تعلق على الكعبة من عهد المأمون العباسى إلى عهد الناصر لدين الله أى فترة ٣٧٠ عاما تصنع من ديباج أبيض. وفى عصر الناصر لدين الله

(١) يطلق على العظام التى بين الركبة والعقب الساق.

قرر اتخاذ الكسا من نسيج مصنوع من قماش أسود، والآن تصنع من قماش أسود.

نكتة

حينما بدل لون الكسوة الشريفة إلى الأسود سر الكل من هذا التغيير وفق ما فهمه، وكان سببا فى كثير من القيل والقال وحمل الفاضل القسطلانى هذا التغيير إلى نكتة وقال «إن البيت المعظم حينما رأى قلة زواره لبس ملابس الحزن» انتهى.

وفعلا إن نكتة الفاضل القسطلانى تطابق الواقع. إلا أن غرض الناصر لدين الله العباسى لم يكن الإيماء إلى تلك النكتة، بل كان يريد أن يعلم الناس شعار العباسيين القديم. لأنه عندما أفل نجم الدولة الأموية وتلألأ بدر الدولة العباسية أعلن العباسيون شروق شمس دولتهم بالرايات السوداء، حتى أنهم اتخذوا استعمال جبة سوداء وعمامة سوداء أيضا عادة لهم.

وسبب هذا عندما مات إبراهيم بن محمد فى سجن مروان لبس المحزونون عليه ملابس المأتم السوداء، لأنه عندما ثار أبو مسلم الخراسانى بكل عنف طالبا من الناس البيعة لإبراهيم بن محمد، قبض مروان على «إبراهيم وسجنه، وعندما علم الخراسانى أنه لا خلاص لإبراهيم من بئر مروان، أخذ يدعو الناس ليبايعوا السفاح بن محمد، وفى ذاك الوقت خنق مروان الحمار محمد بن إبراهيم ورمى جثته، وعندئذ لبس المبايعون للسفاح ومحبو العباس بن عبد المطلب الملابس السوداء إظهارا لحزنهم، وأخذوا يدعون الناس لأخذ الثأر رافعين الرايات السوداء.

وبناء على ما سبق ذكره أصبح لبس الجبة السوداء والعمامة السوداء من شعار الخلفاء العباسيين إلى عهد المأمون بن هارون. لأن المأمون أراد أن يظهر حبه لآل الرسول فبايع الإمام على الرضا، وزوجه ابنته، واتخذه وليا للعهد، وخلع الملابس السوداء شعار العباسيين، ولبس جبة خضراء، وأعلن بذلك أنه يجب

على الأشراف والسادة وعظماء العباسيين والجعافرة وسائر فرق المسلمين لبس الملابس الخضراء؛ إذا أرادوا أن يمتازوا على الآخرين.

عندما اختص المأمون السادات الكرام بلبس جبة خضراء وعمامة خضراء أيضا كان المسلمون مختلفين فى حرمة لبس العباسيين الملابس السوداء وسائر المسلمين الملابس البيضاء، واليهود الملابس الصفراء كما يخبرنا به «ابن حجر» فى كتابه الصواعق...، ولذلك اختار المأمون من أجل السادة الكرام اللون الأخضر، ولما بقيت الخلافة فى بنى العباس استمر أشراف العلويين فى لبس ملابس خضراء. إن اعتمام الأشراف منهم بعمامة خضراء عادة بقيت من أيام المأمون، وللأسف الشديد توفى الإمام بعد فترة قصيرة فلبس المأمون جبة سوداء حزنا عليه.

ويتفق أكثر الرواة على أن المأمون حينما لبس الجبة الخضراء كان فى خراسان، عندما مات الإمام رجع إلى بغداد مرتديا الملابس الخضراء التى اختارها، ولكنه لبس الملابس السوداء بعد عودته إلى بغداد بثمانية أيام وذلك بعد إلحاح عليه من بعض وزرائه.

ويذهب ابن خلكان إلى أن المأمون قد أمر المسلمين بعدم ارتداء الملابس السوداء، وشاع فى هذه الفترة أنه ينفر من لبس الملابس السوداء شعار العباسيين. ولكنه فى النهاية لبس الملابس السوداء نتيجة وفاة أحد أقاربه وأصدقائه وذلك فى سنة ٢٠٤هـ.

وادعى فريق من المؤرخين أن اعتمام المأمون بالعمامة الخضراء لم يكن ناشئاً من حبه لآل وأبناء الرسول، بل نشأ من حرصه على ألا يقع زمام السلطنة فى أيدى العلويين، وأيدوا ادعاءهم قائلين: «قام العلويون فى عهد المأمون يطلبون الخلافة متفقين، فأراد المأمون أن يصلح ما بين العباسيين والعلويين، وأراد بذلك أن يتنازل العلويون عن مطالبهم، وبعث بأخى والدته رجاء بن الضحاك إلى المدينة المنورة لدعوة الإمام على الرضا بن موسى الكاظم إلى بغداد وعندما وصل إلى بغداد جمع جميع العباسيين والعلويين فى مجلسه، وخاطبهم قائلا: «يا أيها المسلمون: لأننى لم أجد بين آل عباس وآل الإمام على من هو أولى بولاية العهد من الإمام على ولذلك عينته وليا للعهد، ثم كتب حجة فى صحيفة وقدمها إلى

الإمام على، ثم زوج ابنته أم الفضل من محمد تقى ابن الإمام، وخلع الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين ولبس جبة خضراء جاعلاً لبسها خاصـًا بالسادة الكرام، ثم ألبس الإمام عليا جبة خضراء وأمر جميع السادات بلبس ملابس خضراء.

وهذا ما وقع موقع الرضا والقبول من أهل الإيمان فلهج بمدحه والثناء عليه كل لسان، ولكن فرقة «ذيلة» من رؤساء القبائل التابعة للعباسيين، أرادوا أن يسقطوا المأمون من عرش الخلافة، وأطمعوا عمه إبراهيم فى الخلافة؛ وهذا الخبر المفزع أقلق المأمون الذى كان فى ذلك الوقت فى خراسان، فعاد إلى بغداد بينما سافر الإمام علي إلى طوس.

حينما دخل المأمون بغداد كان يرتدى جبة خضراء، وإن كان الناس جددوا البيعة له إلا أنهم لم يعجبوا بعمامته وجبته، فخلع جبته وعمامته الخضراوين بإيعاز من أهله وأصدقائه، ولبس الملابس السوداء وأعلن أن يستمر العلويون فى ارتداء الملابس الخضراء.

ومما لم يغب عن أذهان أهل الدقة والفكر أن ما ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين مخطئون فى ادعاءاتهم؛ لأن محبة المأمون لأهل البيت ثابتة بأقوال هؤلاء المؤرخين أنفسهم. وبما أن المأمون قد وضع نظام ارتداء العلويين العمامة الخضراء، فقد اعتاد العلويون أن يعتموا بالعمائم الخضراء. وقد تركت تلك العادة فيما بعد، وهكذا أصبح أبناء الرسول لا يتميزون عن الآخرين.

إلا أن الملك الأشرف «شعبان» بن حسن من الملوك الشراكسة فى مصر أظهر حبه وحرمته لآل البيت إذ جدد عادة الاعتمام بالعمامة الخضراء ولبس الجبة الخضراء القديمة[1] وذلك فى ستة ٧٧٢هـ.

عندما قرر اعتمام أولاد النبى بعمائم خضراء أنشد أبو عبد الله الأندلسى[2] من شعراء الزمان العظماء القطعة الآتية:

(١) يصدق الإمام السيوطي على هذا القول.

(٢) إن هذا الشخص كان أعمى.

جعلـوا لأبنـاء الرسـول علامـة إن العلامـة شـأن مـن لـم يشـهر

نـور النبوة فى كريم[1] وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وأيد شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة الدمشقى من أدباء دمشق صواب رأى الملك بإنشاد القطعة الآتية.

القطعـة

أطراف تيجان أتت من سنـدس خضر بأعـلام عـلى الأشراف

والأشرف السلطان خصهم بها شرفـا ليفرقهـم مـن الأطـراف

استصواب رأى:

يجب على الناس جميعا استصواب ما ذهب إليه الملك الأشرف المصرى، لأنه لا شك فى أن السادات الكرام يجب احترامهم. حتى إن حضرة مولانا قتادة قدس الله سره كان يقول: إذا ما رأيت فى مجلس شخصا من آل الرسول تحيرت فى كيفية إكرامه وتوقيره. وقد أطنب ابن حجر فى رسالته التى تسمى «الصواعق» فى ذكر ما يجب على الإنسان من توقير آل الرسول واحترامهم، ولكنه أشار أيضا أنه يجب عليهم أن يبتعدوا عن ارتكاب المعاصى. والأبيات التالية من آثار صاحب كتاب «كمنجيه راز» أى خزانة الأسرار ونوردها فى هذا المقام لأنها تناسبه.

الأبيات:

لتكن لهذا الرب على الدوام الصلـوات

فمنها الظهـــــور للحسنـــــات

ومـــن الآل رمـــز وتنبيـــــه

إلى أن الولد ســـــر أبيـــــه

(١) يروى بدل كريم وسيم أيضا.

ومن الحق بعيد من كذب علـى الآل

ومن غصين لا يثمر حتى الثمر محال

إن الضال بخداعـــه لا يفلـــــح

والحجر الأسود ياقوتـــا لا يصبـح

«عن فرح الروح»

إن لبس الملابس والاعتمام بسود العمائم كان قبل عهد الخلافة بزمن طويل ويقول المؤرخون إن على بن أبى طالب والحسن ـ رضى الله عنهما ـ وكثير من وجهاء القوم كانوا يكتسون سود الثياب، كما أن عثمان بن عفان كان يكتسى ثياباً سوداً يوم استشهاده، كما يروى أن على بن أبى طالب قد ألقى خطبة بليغة وهو لابس ملابس سوداء ومعتم بعمامة سوداء.

وكان عبد الله بن الزبير يقيم العمامة سوداء حينما كان يخطب، كما أن أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر «رضى الله عنهم» كانوا يلبسون جببا وعمائم ومناديل الرأس السوداء.

كما أن ابن المسيب كان يرتدى فى أيام الأعياد ملابس سوداء، ويعتم بعمامة سوداء أيضا، كما أن عبد الله بن عباس كان يلبس ملابس سوداء ويعتم بعمامة سوداء أيضا حينما يجلس فى ملجس تلقى العلوم.

ورد فى الخبر أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى يوما أمام النبى ﷺ بملابس وعمة سوداء. وقد أظهر النبى ـ ﷺ ـ عجبه له قائلا: ما هذه الصورة؟ فإنى إلى الآن لم أكن قد رأيتك من قبل بهذه الملابس السوداء! فقال له إن هذه الهيئة هى زى أولاد ابن عمك عباس الذين سيعتلون كرسى الحكم فسأله ثانية هل هم على حق؟ فرد عليه قائلا: نعم. فدعا لهم قائلا «اللهم اغفر للعباس».

وكان هذا الأمر سبب آخر لارتداء العباسيين الملابس السوداء إذ قال النبى ـ ﷺ ـ لعمه العباس بن عبد المطلب وزوجته أم الفضل «يبدو أن أولادكم

وأحفادكم سيعتلون منبر الخلافة المنير» وبهذا أبلغهما ما أخبره به جبريل ـ عليه السلام ـ وقد دفعهما هذا الخبر إلى انتظار ذلك الوقت «انتهى».

كان تعليق الكساء إلى سنة ٥٣٣ خاصا وحصرا للملوك والسلاطين إلا أنهم فى تلك السنة شغلوا بدفع الأعداء وتهيئة ما يلزم من القوت للجيوش؛ ولذا لم يستطيعوا أداء خدمة تعليق الكسوة على الكعبة؛ لذا رتب كساء الكعبة من طرف التجار بطريقة اشتراك كل واحد منهم بدفع حصته اللازمة.

إن الرياح التى أخذت تهب فى أواخر سنة ٦٤٣هـ بشدة قد مزقت كسوة الكعبة وجعلتها قطعا فى يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ وبعد هذا ظلت الكعبة بدون كسوة ما يقرب من واحد وعشرين يوما.

هناك مقترحات وأسباب كثيرة لسقوط الدولة العباسية وانقراضها إلا أن الناس عدوا تمزيق الكسوة بهذا الشكل مقدمة لزوال اللون الأسود شعار العباسيين وانقراض دولتهم، وفعلا قد سقطت الدولة العباسية بعد ذلك بفترة يسيرة.

وبعد ذلك الحادث بثمانية أعوام ظهرت نار فى «عدن» من سلسلة جبال مكة، وكانت هذه النار تسرى نحو البحر وتخرج ليلا دخانا أسود، وقد خاف الناس من ظهور هذه النار وقلقوا واضطربوا وأخذوا يديمون الدخول إلى الحرم الشريف للتوبة وللاستغفار، وتركوا الظلم والفسق والفساد وأخذوا يؤدون زكاتهم وصدقاتهم متجهين لعمل الخير. «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة».

محاصيل القرى السبع الموقوفة للكسوة الشريفة

حينما أخذت شمس خلافة آل عباس تتوارى بين سحب الانقراض والزوال، انتقل تجديد كسوة الكعبة إلى السلاطين المجاورة من ملوك اليمن وغيرهم. فكانت كسوة الكعبة الشريفة لملوك اليمن حينًا ولغيرهم من السلاطين حينا آخر.

وفى خلال عام ٧٥٠ أوقف الملك الصالح إسماعيل، ابن الناصر محمد

المصرى، ربع أراضي القليوبية الخاصة بقرى سندس، وأبو الغيث، ويبنون على صنع الكسوة الشريفة، وعلى هذا أمر سلاطين مصر أهالى تلك القرى بصنع كسوة سوداء فى كل عام، ويرسلونها إلى مكة المعظمة، وعندما يتبدل السلاطين كانوا يضيفون إلى الستارة السوداء ستارة أخرى حمراء لتعلق على جدران الكعبة الداخلية.

وكان من العادة أن ينسج على الستارة الحمراء عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الكلمة المنجية، ولكن أحيانا كانت تكتب آيات قرآنية جليلة وأسماء أصحاب المعالى، وفى عيد جلوس السلاطين المصريين ترسل إلى الروضة المطهرة للنبى ـ ﷺ ـ قطعا من أقمشة خضراء، وحينما خلص السلطان سليم بن بايزيد خان «عليهما الرحمة والغفران» مصر من أيدى ملوك الشراكسة وجبت خدمته للحرمين الشريفين.

فكسا الحجرة النبوية المعطرة بأشكال ذات ألوان، وكسا الكعبة بكسوة سوداء على نحو ما كان عليه الحال فى السابق.

لأن السلطان سليم أزال الخلافة العباسية التي فى مصر ونصب الملوك العثمانيين خلفاء العالم الإسلامى واستولى على البلاد الحجازية المقدسة فجعل البلاد العثمانية قبلة المسلمين واستصوب أن يسير على آثار الملوك الشراكسة ورأى أن يصنع كسوة الكعبة أهالى القرى التى وقفها الملك الصالح لذلك، ورجح السلطان سليمان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ أن يظل صنع الكسوة الشريفة فى يد أهالى القرى التى سبق ذكرها ولكن القرى التى أمر الملك الصالح أهلها بصنع الكسوة أشرفت على الخراب وقلت مواردها فقرر أن تكمل نفقات الكسوة من خزينة الدولة المصرية ثم أمر أن توقف قرى أخرى حتى تصل الواردات إلى نصابها لصنع الكسوة وأملى أن ترسل الكسوة الشريفة مصنوعة من وقف الملك الصالح.

القرى التى ضمها السلطان سليمان إلى وقف الملك الصالح كانت سبع قرى

ونحن استطعنا أن نحصل على صورة لحجة الوقفية التى أرسلت فى ذلك الوقت إلى والى مصر والتى تبين موارد تلك القرى فى ذلك العصر وقيمتها وكيفية إنفاقها وإدارتها بعد أن قيدت في سجلات مصلحة الأوقاف وقد رأينا إدراجها هنا تبركا بها.

صورة وقف الكسوة الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذى رفع القبة الخضراء ووضع بساط الخير وسمك فى سمائه الأفلاك، ملك فى أرضه الأملاك، ففتح مناهج الملك والدولة الغراء بيمن وقاية السلاطين وحسن رعاية الأمراء، وجعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٥٨) واستعد بحجة يوم الجمرات ثم الصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد أعلم الرسل الأعلام والأبناء وعلى آله الكرام الأتقياء وأصحابه العظام الأصفياء.

نمقه العبد المحتاج إلى عفو ربه محمد بن قطب الدين محمد القاضى بالعساكر المظفرة المنصورة فى ولاية الأناضول.

أما بعد فهذه وثيقة أنيقة بديعة المعانى والبيان، بليغة المبانى والتبيان، توارى عبارتها راحا رحيقا، بل هى أصفى، وتجارى استعاراتها مسكا سحيقا بل هى أزكى، يشعر عما هو الحق القاطع، ما حواه فحواها، ويجير عما هو الصدق الساطع، ما أداه مؤداها، وهو أنه قد بان لكل ذى عقل سديد أن الدّنيا الدنية قنطرة العابرين ورباط المسافرين، يحل هذا ويرحل ذاك، ولا يدرى أحد إلا ويمتطى صهوتى أدهم الليل وأشهب النهار، ويسير مع السائرين إلى منتهى الآجال والأعمار، وهى موعظة ما قال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات «اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت، فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل واتخذ فيها لرحيله ذخيرة وزاد، وادخر لمقامه الباقى عدة وعتاد بالصدقات التى ينال بها النجاة، ويتوسل بها إلى الجنات على ما نطق به القرآن وحديث رسول الرحمن، حيث قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف ٨٨) وقال عليه الصلوات التامات: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية» (حديث

شريف) ألا وهى الوقف فلما تذكر فى جميع ذلك السلطان الأعظم، والخاقان الأكمل الأكرم، ظل الله فى أرضه وخليفة على خليفة فى رفعه وخفضه؛ علوى العلا من آل عثمان عثمانى المحيا، من سلاطين الزمان سلطان البحرين والبرين، والعرض القائم بالسنة والفرض، عاشر المجددين لدين الإسلام بأحسن المعاشر، وعاشر السلاطين كالعقد العاشر السلطان ابن السلطان ابن السلطان سليمان شاه بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان لازالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته، ونماء ذاته وحدقة العالمين منورة بضياء صفاته، وبضياء سناء حسناته، وبلغ أرواح آبائه وأجداده الرحمة، وسقاهم بالكوثر وأسبغ عليهم نعم غفرانه، وأنذر منها ورأى فى نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيلة لا يسع شكرها على ذاته الكريمة منه منة جميلة ليس من طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القارة واستمرارها بالإرادة الدارة متفكرا فى قول الملك الخلاق، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) ونظر فى قول (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (حديث شريف) دعا لما بان تعظيم الكعبة المستورة بالأستار العالية وتشريفها فى الحج يوجب الجنة، ويصل الهدف الساتر من العذاب والجنة، وسيما في قلبه من قول الرسول «من زارنى وجبت له شفاعتى» (حديث شريف) أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار بل بتشريف مراقد الاتباع وستر مراصد الأشباع، أيضا بالإزار تنزيلا أية منزلة الزيارة الدائمة، والخدمة القائمة على مر الدهور فإن تلك المواضع وإن كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرقة المتفرقة، فأحب أن يكون ما يصرف إلى هذه الآثار الشريفة، من الأموال المتميزة المنيفة، فعين لهذه أجمل أملاكه وأسبابه، وأجمل أكسابه، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل، النحرير الكامل، مصباح رموز الدقائق، مفتاح كنوز الحقائق، كشاف المشكلات، حلال المعضلات، الموقع أعلى هذا الكتاب، يسر الله له حسن المآب بقوله الشريف ولطفه اللطيف، العارى عن الاعتساف، الحاوى على الإقرار والإعتراف، الذى يجوزه الشرع لاحتوائه على ما يغير الأصل والفرع، وحكى بأنه قد أوقف سبلها، وحبس أملاكها، وكملها

على النمط الأكفأ الأشمل، وعلى الطريق الأكمل، لتكون لهذه المصلحة أوقافا قارة، وإدارات دارة، فى الدنيا العاجلة، ومفيدة له فى يوم الجزاء والآجلة، وتكون عدة معدة لغده عن أمسه، ومزية منورة لا تفارقه فى رمسه وتصيرها جسره من العذاب، وحجة ويكون جزاءها مثل جزاء الحج المبرور، وتكون باعثة للرفاعة، وموجبة للشفاعة، منها جميع القرى المسماة ببسوس وأبو الغيث وحوص بقمص الواقعة بالولاية المصرية التى كان يحصل منها فى السنة الواحدة مبلغ (٨٩٠٠٠) درهم ومنها جميع القرى الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية أولها قرية (سلكة) حصل منها فى تلك السنة مبلغ (٣٠٤٩٦) درهما، وثانيها: قرية (سيرونجنجة) حاصل ما فيها مبلغ (٧١٨٢٠) درهما، وثالثها قرية قريس الحجر حاصل ما فيها مبلغ (٥١٣٠٤) درهما، ورابعها قرية المنايل وكوم ريحان حاصل ما فيها مبلغ (٣٧٨٤٠)، وخامسها قرية (بيجام) حاصل ما فيها (١٤١٣٤) درهما، وسادسها قرية (منية النصارى) وحاصل ما فيها (٦٠٨٥٨) درهما، وسابعها قرية (بطاليه) وحاصل ما فيها (١٠٤٨٤) درهما، وجميع النقود المذكورة فى تلك السنة المسفورة مبلغ (٣٦٥١٥٢) درهما فضيا محاذيا بنصف القطعة رائجا فى الوقت أيد الله تعالى دولته من سكها باسمه السامى، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامى، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التحديد والتعريف والتبيين والتوصيف لشهرتها فى مكانها عند أهاليها وجيرانها، ولكونها مشروحة ومعلومة في الدفاتر السلطانية والمناشير الخاقانية بجملة مالها، الحدود والحقوق وما ينسب إليها بالأصالة والحقوق والمراسم والمرافق والمداخل والطرائق، خلا ما يستثنى منها شرعا من المساجد والمعابد والمراقد والمقابر والأملاك والأوقاف، وسائر ما يعرف مبينا بينه بالأسامى والأوصاف، وسلم جميعها إلى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص للخدمة بالأمانة والاستقامة فى هذا الخصوص، وتسلمها هو منه للتصرف بالوجه السداد، على ما هو المراد، تَسْلِيمًا وتَسَلُّمًا صحيحين شرعيين.

ثم عين السلطان الفائق على حذافير السلاطين فى الآفاق، بالاستهلاك والاستحقاق والسابق فى مضامير التدابير بمكارم الأخلاق، ومراسم الإشفاق

لازالت شموس سعادته أبدية الإشراق، وما برحت نجوم سلطنته محمية عن الانمحاق، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة لى حسب التخمين التى مدرها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة فى جميع الأعوام، وقلت المحصولات وحلت بتفاوت الشهور والأيام مبلغ مائتى ألف درهم وستة وسبعين ألف ومائتى وستة عشر درهما لأستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى فى مرة على ما جرت به العادة القديمة فى السنين الماضية القديمة طبقا على هذا التخمين بعد الصرف المذكور فى السنة مبلغ ثمانية وثمانين ألف درهم وتسعمائة درهم وثلاثين درهما، وشرط أن يحفظ ذلك الباقى بحفظ المتولى تمام خمسة عشر عامًا، فيكون عدد الجمع فى هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشر مرة مائة ألف وأربعين درهم، فعين من هذا الباقى فى المحفوظ المجموع المسطور لأستار المواضيع التى تجدد فى كل خمسة عشر عاما مرة.

وبعد تجديدها المزبور لا تجدد كل سنة بل تروح إلى انقضاء خمسة عشر عاما آخر ثم تجدد مرة أخرى كذلك ثم فثم إلى أن ينقضى الدهر ويتم لكل مرة من تلك المرات وفى كل كرة من هذه الكرات بالتخمين المزبور، والتعيين المذكور مبلغ ألف درهم واحد وخمسين ألف درهم وثلاثمائة درهم وسبعين درهما فضيا رائجا، وتلك المواضع التى يصرف إليها هذا المقدار فى خمسة عشر عاما مرة داخل الكعبة الشريفة، ووالروضة المطهرة المنيفة أعنى بها التربة المنورة لسيد الكونين ورسول الثقلين نبينا محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) إلي يوم القيامة بالمدينة المنورة، والمقصورة المعمورة فى الحرم الشريف، والمنبر المنيف ومحرابه محراب التهجد، والأستار الأربعة لنفس الحرم الشريف، ومحراب ابن العباس وقبر عقيل بن أبى طالب، وحضرة الحسن، وحضر عثمان بن عفان، وفاطمة بنت أسد (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين)، وما زاد بعد هذا وهو مبلغ خمسمائة ألف درهم واثنين وثمانين ألف درهم وستمائة وسبعين درهما لاحتمال أن يقع بعض السنين النقصان، بسبب الشراقى وطوارق الحدثان، لأن هذا بالتخمين وإن لزم فى بعض السنين، جبر النقصان فليجبر من هذا الفضل ذاك

الزمان، وإن وجد فى انقضاء المدة وبعد الصرف شيء مما يزيد ويفضل سواء كان هذا المقدار أو أكثر منه أو أقل فليشتر بالموجود المذكور الملك المناسب للوقف من العقار الواقع فى موضع الرغبة والاشتهار ليكثر محصول الوقف وتوفير مواضع الصرف بإلحاق هذا المشترى والمتاع بسائر الأوقاف واستغلاله معها بل وصرف غلاته إلى المصاريف المبينة بالأوصاف، وتنمية الوقف وتقويته بهذا التكثير، وتمشيته وتوسعته بذلك التوفير، وهذا بعد رعاية شرط أنه إن وقعت المضايقة فى هذا الوقف أو فى الوقف الآخر الذى وقفه السلطان أيضا على مصالح الفقراء الذاهبين إلى الحجاز وعلى جمالهم وعلى سائر مهماتهم وكتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط والقيود تكون مرعية بالخلود والأبود، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده، وبفاضل عوائده، بإتمام ما به ويلزم له وبتكميله لدفع مضايقته، وضرورته وإسعاده واجتهاده إقرارًا واعترافا صحيحين شرعيين مصدقين محققين مرعيين وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا حاويا على الحكم بصحته أصلا وفرعا، على وجه يعتد به دينا وشرعا، وغب رعايته شرائط الحكم والتبجيل وفى حصول الوقف والتسبيل، لدى المولى الفاضل النحرير الكامل الموقع أعلاه الصك الدينى، والحفظ اليقينى، وفتح الله أبواب الحقوق بمفاتيح أقلامه، وأحكم الأمور بثبوت أحكامه، فصار وقفا لازما مسلسلا متفق عليه على مقتضى الشرع ومرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته وابترامه لوقوع حكم المولى المومى إليه على رأى من رآه من الأئمة الماضين المجتهدين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) عالما بالاختلاف الجارى فى مسألة الوقف فعلم خلوده بخلود السموات وأبوده بأبود الكائنات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن ينقصه أو يعطله أو يحوله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن أو الخائف من الله المهيمن بعد ينقصه أو يعطله أو يحوله ما سمع قول الرب ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ١٨) وأجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين.

جرى ذلك، وحرر بالأمر العالى الخاقانى لازال عاليا في صفر المظفر المنخرط

فى سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة من هجرة من لا نبى بعده وصلى الله عليه وآله وصحبه والذين وفوا عهده.

الذيل

مما يدرك من تلك الحجة الوقفية المذكورة أعلاه أن واردات تلك القرى الثلاث التى وقفها الملك الصالح قد بلغ ربعها فى عهد السلطان سليمان (٨٩٠٠٠) وربع ما وقفه العاهل المشار إليه من أربع قرى معمورة كان كالآتى: فقرية «سلكه» ريعها (٣٠٤٩٦) أقجه، وقرية (وسير ونجنجة) ريعها (٧١٠٢٨) أقجة، أما قرية قريس الحجر فريعها (٥١٣٠٤) وكوم ريحان (٣٧٤٨) وبيجام (١٤٩٣٤) وقرية منية النصارى (٦٠٨٥٨) والبطالية (١٠٤٨٤) أقجة ومجموع ريع هذه القرى جميعها فى العام (٣٦٥,١٥٢) أقجة.

وصدر أمر السلطان سليمان بأن يخصص مبلغ (٢٧٦٢١٦) أقجة لتجديد كسوة بيت الله الخارجية سنوياً، وأمر بترك المبلغ الباقى وقيمته (٨٨٩٣٦) أقجة فى خزانة إدرارة الأوقاف لتنميته عن طريق المرابحة فى خلال السنة المحددة إلى (١٣٣٤٠٤٠) أقجة وإذا ضم إليها مبلغ (٦٦٤٠٠٠) أقجة نقود التنمية تقريبا يلزم أن يتجمع فى خزينة الكسوة الشريفة في نهاية خمسة عشر عاما مبلغ (٢,٠٠٠,٤٠) أقجة ويخصم منه مبلغ (٢٧٦٢١٦) لتجديد المواضع التى جرت العادة تجديدها مرة كل خمسة عشر عاما مرة ويخصم من مبلغ (١٢٤٨٦٧) أقجة لتجديد القصور، (٥٧٢٦٤٠) لتجديد ستائر الأضرحة الأخرى لاحتمال تناقص الواردات، واشترط أن تعمر القرى الموقوفة (٦٦٦٠٠٠) أقجة وأن تعان الأماكن الأخرى المنسوبة للسلطان المشار إليه، وإن أحكام هذا الوقف المكتوبة مازالت مرعية الجانب إلى يومنا هذا.

الأماكن التى تجدد كل خمسة عشر عاما

داخل كعبة الله الروضة المطهرة، مقصورة الحرم النبوى، المنبر النبوى، محراب التهجد، أبواب الروضة المطهرة، محراب ابن عباس، ضريح عقيل بن أبي طالب، ضريح الحسن بن على، ضريح عثمان بن عفان، ضريح فاطمة بنت أسد والأضرحة الأخرى المنيفة.

ومنذ أن تلقب السلاطين العثمانيون بلقب خادم الحرمين الشريفين إلى عهد السلطان أحمد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ كان كل واحد منهم ـ مادام معتلياً عرش الخلافة ـ يرسل الستائر الداخلية للكعبة المعظمة والحجرة النبوية المعطرة، بعد أن تصنع فى القرى التى سبق ذكرها، لأن هذا أصبح قانونا منذ أقدم العصور، إلا أنه كان يتساهل فى دقة صنعها؛ لذلك أمر السلطان أحمد خان بصنع تلك الأقمشة في مصانع دار السلطنة حتى تراعى الدقة فى صنعها؛ وفعلا نسجت أستار الكعبة المعظمة الداخلية فى غاية الإبداع، وأرسلت في أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٠١٨هـ وأرسلت إلى البلاد الحجازية عن طريق مصر ،كانت تلك الستارة الشريفة التى أمر بصنعها السلطان المشار إليه تزن (٤٨٠٠) درهم وقد نسجت من حرير حلبى لا نظير له في بداعة الصنع، وكان طول الحرير المستخدم (١٠٦٠) ذراعًا وكانت جميلة إلى درجة أنه قيل إن باب السعادة لم ير مثيلا لها من قبل.

وقد شرع فى السنة المذكورة فى صنع شرائط ضريح السيدة فاطمة (رضى الله عنها) وكسوته وكسا الأساطين[1] الداخلية للكعبة المعظمة وتم وضعها كلها فى خلال عام (١٠١٩) وجعلت كل كسوة داخل صندوق خاص بها.

وفى الخامس عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة أرسلت إلى الكعبة بواسطة مندوب خاص.

إن نطاق الكعبة المعظمة من أربع قطع طول القطعة منه واحد وخمسون ذراعا، وعرضها ذراعا وأربعة أخماس ذراع، وكسوة الروضة المطهرة التى تتألف من إحدى وخمسين قطعة طولها جميعا (٧٤٥) ذراعا، وعرضها ستة أذرع وربع ذراع أما كسوة ضريح السيدة فاطمة فتتألف من عشر قطع وطول قماشها (١٠٠) ذراع وشريط هذا الضريح عشرة أذرع وربع ذراع، وعرضه ثلاثة أذرع وربع ذراع

(١) هما الأسطوانتان الحنان والمنان.

وعقدة، فيكون العدد (١٧٦٩٢) وقد أنفق (٥٤٩) مثقالا خالصا من الصرة المزركشة الذهبية لزركشة الكسوة الغالية التى تتكون من ثلاث قطع قماش مذهب لكساء الاسطوانات التى فى داخل البيت المعظم والتى يبلغ طول كل واحد منها خمسة عشر ذراعا.

وعدد أساطين الكعبة المعظمة ثلاثة، وقد كتب فوق كسوة كل واحدة منها نسجاً «الحنان والمنان» الأسماء الجليلة، ولذا عرفت هذه الأساطين بين الناس بأعمدة الحنان والمنان.

وترسل الكسا الخاصة بداخل البيت المعظم والحجرة النبوية المعطرة وضريح فخر النساء السيدة فاطمة (رضى الله عنها) من باب السعادة وترسل الكسوة الخارجية السوداء للكعبة الشريفة ـ كما كان فى الماضى ـ من الخديوية المصرية لحساب خزينة الأوقاف الهمايونية السلطانية محمولة على جمال المحفة التى تسير في مقدمة قوافل الحجاج الشامية والتى تحمل أشياء نفيسة أخرى مع الكسا، والتى يطلق عليها خطأ المحمل بين عوام الناس، ويصنع كيس مفتاح باب الكعبة والكساء الخاصة بمقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ والستارة الخاصة به فى نفس المكان الذى تصنع فيه كسوة بيت الله الأكرم، ويلقى صنع هذه الأشياء المباركة عناية بالغة، وبعد إتمام صنعها ترسل إلى القاهرة حيث تحفظ فى مكان هيئ لها من قبل من ديوان محافظة القاهرة، وعند حلول الوقت المعين ترسل مع المحمل الشريف إلى مكة المكرمة.

نطاق كعبة الله حزام فى وسط الستارة الشريفة عرضه ذراع وأربعة أخماس ذراع، ويتكون هذا الحزام كما سبق ذكره من أربع قطع، قطعة لكل وجه من وجوه كعبة الله، وفى وسط كل قطعة دائريا كتب فى داخلها «يا حنان يا منان يا سبحان يا ديان» بعضها تحت بعض، وإن كانت خلفية الحرم سوداء اللون على لون الكسوة الشريفة؛ إلا أن الكلمات قد سطرت بخيوط ذهبية مسماة بصرمة وقد كتبت على الوجه المقابل لمقام الشافعى[1] الآية الآتية:

(١) هنا مكان الدائرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٦ ـ ٢٨)

وعلى القطعة التى تقابل المقام الحنبلى[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٧)

وعلى الوجه المقابل للمقام المالكى[2] كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ

(١) هنا أيضا مكان الدائرة.

(٢) هنا مكان الدائرة التى تحاذى الوجه الثالث.

إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٥ ـ ٩٦)

وكتبت على القطعة التى تواجه المقام الحنفى السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك العرب والعجم السلطان الغازى عبد الحميد خان بن الغازى السلطان عبد المجيد خان بن الغازى محمود خان بن عبد الحميد خان بن أحمد خان بن الغازى محمد خان بن إبراهيم خان بن مراد خان بن عثمان[1]. وقد كبت على أماكن أخرى غير الحزام المذكور بالحرير الأسود الجملة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(١) هنا محل الدائرة التى تحاذى الميزاب الذهبى وقد كتبت فى داخل هذه الدائرة يا حنان يا منان يا ديان يا سبحان بل كتبت الآية الجليلة:
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٤).

موكب الكسوة الشريفة فى مصر

إن موكب كسوة الكعبة الشريفة والنفائس الأخرى إلى مكة المعظمة يحتفل به فى مصر بشكل ملفت للنظر ويستحق رؤيته.

عندما يتم صنع الكسوة المباركة التى تتكون من ثمانى قطع، وأحزمتها المزركشة، وستارتى باب بيت الله المذهبتين، وكسوة مقام إبراهيم (على نبينا وعليه التكريم)، وستارة باب المقام المذكور، وكيس مفتاح بيت الله يهيأ مكان فى ديوان المحافظة المصرية لحفظ الأشياء المذكورة، وفى اليوم المقرر لنقلها يستدعى مشايخ الطرق الصوفية، وعلماء مصر المفخمين، ويرسل عدد كاف من العساكر والشرطة إلى مكان صنع تلك الأشياء المباركة، ويأخذ الموظفون المكلفون والجند والحراس الأشياء المذكورة من مواقع نسجها بكل توقير وتعظيم، ويوصلونها إلى موضعها بين ذكر وتهليل وتوقير المارين العابرين إلى المكان الذى هىء من قبل من ديوان المحافظة، وعند اقتراب الموكب من ديوان المحافظة يستقبله الباشا المحافظ متبركا بالمقدسات المحمولة، ويضعونها فى مكانها المهيأ من قبل، وبعد ذلك يشترك الحاضرون من المشايخ والمشتركون فى الموكب فى الدعاء للخليفة بطول عمر دولته، غير ناسين الخديوى فى الدعاء، وتحيى ليلة اليوم الذى تنقل فيه الكسوة الشريفة إلى دائرة ديوان المحافظة.

ويُدْعَا فى يوم الاحتفال العلماء الأعلام والمشايخ العظام، والذوات الفضلاء، والموظفون المدنيون ووجهاء البلاد وأعيانها إلى دائرة ديوان المحافظة الفاخرة، وبعد تقديم الطعام يبدأ مشاهير القراء المدعوون فى تلاوة القرآن، وفى غد ذلك اليوم ترفع تلك الأشياء وهى كسوة الكعبة المعظمة وكيس مفتاح باب الكعبة والأشياء الأخرى من مكانها فى دائرة ديوان المحافظة فى موكب عظيم، وتوضع فى مقر الجمعية الكائنة فى ميدان محمد على، وتترك الكسوة الشريفة وستارة

المحمل النفيسة مكشوفتين ليجلو الناس عيونهم بمشاهدتها، ويبتهجون برؤيتها، وبعد إجراء العادة المرعية قديما من التسليم والتسلم، تطلق المدافع ثم تحمل إلى المسجد المسمى بمسجد الحسين فى موكب منظم غاية التنظيم. إن الجامع المذكور كائن فى الجهة الجنوبية من خان الخليلى المشهور.

وتجرى الاحتفالات على صورة كاملة جميلة بانتظام تام، ويتقدم الموكب العظيم الجنود النظاميون وتمر بعدهم الكسوة الشريفة للبيت المعظم بأجزائها الثمانية وثمانى قطع من الأحزمة المزركشة، وقطعتين من الستائر المذهبتين، وكساء مقام إبراهيم (على نبينا وعليه التسليم)، وستارة بابه وكل واحدة منها فوق ألواح خشبية، وهذه الألواح محمولة فوق الأعناق حرمة وتوقيرا لها، وتمضى مجموعة بعد مجموعة، وعقب ذلك يمضى صناع الكسوة الشريفة وموظفو تلك الهيئة حاملين كيس مفتاح باب الكعبة المعظمة المنسوج، ويمضى وكيل ديوان المحافظة والضباط الآخرون راكبين خيولهم وممتطين جيادهم، ويمر بعدهم مشايخ الطرق بأعلامهم متعددة الألوان مهللين مكبرين منشدين الأناشيد الدينية والأشعار. وإن كان منذ وقت طويل يجرى الاحتفال بهذا الموكب يعنى منذ أن اعتادت الدولة العلية تجديد كسوة الكعبة الشريفة كانت تنسج فى القاهرة مصر، وترسل مع قافلة حجاج مصر، وعندما استولى الفرنسيون على مصرفى سنة (١٢١٣) قد صنعت تلك الكسوة حول شادروان مسجد السلطان أحمد، ونقلت فى الحادى عشر من شهر رجب سنة (١٢١٣) فى موكب خاص عظيم إلى القصر السلطانى، ثم نقلت مع الصرة السلطانية إلى اسكودار غد ذلك اليوم، وهكذا أجرى الاحتفال بموكب المحمل فى تلك السنة فى باب السعادة، ولكنه الآن يجرى فى مصر القاهرة على ما كان عليه فى السابق.

صورة دخول المحمل الشريف إلى مكة المكرمة

يقوم المحمل الشريف المصرى[1] من القاهرة مصر برا، ويمضى إلى مكة المعظمة دون أن يمر بالمدينة المنورة، وعندما يصل الشخص الذى أنيط به سوق

(١) لما كان المحمل الشامى فى معية أمين الصرة الذى كان فى صحبة حماية أمين مؤونة الحج الشريف لذلك يصاحبه جنود نظامية سلطانية فى ذهابه وإيابه.

المحمل وتوصيله إلى وادى فاطمة يخبر أهالى مكة باليوم والساعة التى سيدخل فيها إلى مكة المكرمة.

ويخرج أمير مكة ومعه الجنود النظاميون وجنود الشرطة يوم وصول المحمل لاستقباله، كما يصاحبه أغلب الموظفين يستقبلونه عند مسجد عائشة، ويأتون به إلى ميدان ذى طوى[١]، وينصب مندوب المحمل خيمة فى ساحة ذى طوى الواسعة بعد أن يصل إليها من مسجد عائشة وهو يطلق البنادق والمدافع فى سيره، ويظل منتظراً حتى وصول المحمل الشامى.

وبما أن المحمل الشامى قد أخبر ساعة وصوله إلى أهل مكة مثل المحمل المصرى[٢] يخرج الأهالى الكرام لاستقبال المحمل الشامى مثل المحمل المصرى عند مسجد عائشة. ويستقبلونهما من مسجد عائشة ويوصلونهما إلى مكان خاص أمام قبور الشهداء[٣] ويشترك فى إقامة مراسم الحفاوة والترحيب الباشا الوالى والأشراف والأعيان.

وبعد أن يضرب هذين المحملين خيامهما فى الأماكن الخاصة التى ذكرت، وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال والترحيب يتجهان إلى صحراء منى الساكنة فى موكب عظيم فخم من خارج حرم المسجد الحرام بالذكر والتهليل أمامه الجنود السلطانية وخلفه الداعون للسلطان فى سكون ووقار، ومن هناك يمضى الموكب إلى عرفات وبعد وقفة عرفات يرجع إلى المزدلفة[٤]، ومن هناك إلى منى حيث يقف ثلاثة أيام بلياليها، وتجرى الاحتفالات السارة، وإلى أن يصل الموكب من عرفات إلى المزدلفة توقد المشاعل المتعددة، وتطلق المدافع والبنادق طلقات لا حصر لها بينما يستمر الدعاء الواجب أداؤه للسلطان بدوام الرفعة والشوكة والعز.

(٢) طوى: الآبار المباركة وبما أنها فى مكان مكشوف يطلق عليها ميدان ذى طوى.

(٣) يحمل المحمل المصرى علم عمر الفاروق رضى الله عنه أيضا.

(١) قبور الشهداء اسم المقبرة التى دفن فيها عبد الله بن عمر رضى الله عنه.

(٢) من العادات المرعية أن تطلق البنادق والمدافع كل ثلاث دقائق أمام والى مكة والحجاز وأمير مكة وشريفها وأمين الصرة.

التوضيح:

ويمضى إلى مكة المعظمة محملان يسمى أهل مكة أحدهما (المحمل المصرى)، والآخر (المحمل الشامى)، وعلى ما سبق ذكره يصل المحمل المصري إلى مكة قبل المحمل الشامى، وينصب خيامه في مكان يُسَمَّى ذى طوى الذى يقع أمام موقع يسمى الشيخ محمود، ويطلقون عددا كثيرا من المدافع إعلانا بقدوم الموكب، ثم يصل المحمل الشامى فتنصب خيامه أمام قبور الشهداء ـ حيث يوجد مدفن عبد الله بن عمر ـ والذى يسمى زاهر، وهذا المحمل يعلن وصوله بإطلاق عدة طلقات من المدافع، ويتحرك المحمل المصرى من مكة فى صبيحة اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ويصل إلى عرفات بعد الزوال، وكذلك يغادر المحمل الشامى مكة ظهر اليوم المذكور، ويواصل السير إلى ساحة جبل الرحمة حتى وقت العصر من يوم الوقفة، وفى جبل عرفات يتحركان معا متجهين نحو المزدلفة محتفلين بإطلاق المدافع والبنادق، وعندما يصل المحمل المصرى إلى مكة يدخل الحرم الشريف، وفى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة يزين الجمل الذى يحمله، ويؤتى به أمام مبنى الحكومة ويسلم إلى الباشا الوالى وهو فى الحلة الرسمية فيمسك بزمام الجمل وهو من المخمل والصرمة، ويرفع صوته بالتكبير، وبعد أن يتجول به يسلمه إلى يد أمير الحج المصرى ويشيعه[1] بضع خطوات وبعد ذلك يقوم المحمل المصرى ويتجه نحو المدينة ويعود من هناك إلى القاهرة.

وفى العباسية يستقبله الأعيان وعلية القوم، ويجتمع كبار الموظفين والعلماء وينطلقون مع المحمل إلى ميدان محمد على حيث تطلق المدافع إعلانا للشكر.

وبعد أن يغادر المحمل المصرى مكة يغادر فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة مكة المحمل الشامى ويجرى له نفس الاحتفالات التى أجريت للمحمل المصرى ويمضى نحو المدينة. وسواء أكانت الاحتفالات التى تقام للمحمل المصرى أو الشامى يصطف الجنود السلطانية، ويقفون في موقف الانتباه والسلام فى أثناء

(١) وفى خلال ذلك تصدح الموسيقى وتقرع الطبول الخاصة بالمحمل الشريف.

الاحتفال، وعند إدخال المحمل فى الحرم الشريف كان الطواف بالكعبة من العادات القديمة واستمرت تلك العادة إلى سنة (١٢٩٢) وهى خاصة بالمحمل المصرى، وإلى تلك السنة لم يكن المحمل الشامى يدخل في الحرم الشريف ولم يكن يطوف بالبيت الحرام.

وفى سنة (١٢٩٢) أدخل المحمل الشامى إلى الحرم الشريف بهمة وسعى والى الحجاز «تقى الدين باشا» وبعد الطواف بالكعبة شيعه الوالى المذكور وأصبح هذا من الأمور التى يرعى جانبها. وأصبح من العادات التى ترعى لدى سكان الحجاز أن يسبق المحمل المصرى الذى يحمل كسوة البيت الشريف وسائر الأماكن الأخرى المباركة المحمل الشامى، سواء أكان فى الدخول إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو عرفات.

ورسخت هذه العادة فى قلوب أهالى الحجاز؛ لذا كانوا يتمنون دائما أن يسبق المحمل المصرى الشامى؛ وإذا ما حدث أن دخل المحمل الشامى قبل المحمل المصرى؛ يطلق الناس على هذه السنة عام القحط.

لائحة

هذه اللائحة خاصة بشرح معنى المحمل الشريف، ووقت إيجاده. إن ما يتردد على ألسنة الناس من كلمة محفل تحريف لكلمة محمل، كما يطلق على القاعدة التى تصنع على شكل محفة خاصة لجلوس شخصين فوق الجمل اسم المحمل، بعد ما يركب هذا الشئ المكون من قطعتين على الجمل قد يركب على جهة منهما شخص واحد.

وكان يطلق اسم المحمل الشريف على الهودج الذى يحمل خرقته الشريفة ﷺ وسواكه اللطيف وإبريق وضوئه ونعليه المباركين والأشياء المباركة الخاصة به فى أسفاره.

وكانت أمهات المؤمنين اللائى يرافقن النبى ـ ﷺ ـ فى سفره يركبن فى ذلك الهودج.

وفيما بعد أعد جملا تبركا للمحمل ليحمل ستارة الكعبة الشريفة وبعض الهدايا. واستصوب أن يرسل أمام قوافل الحجاج الكرام. والآن يبعث بمحملين أحدهما من مصر، والآخر من باب السعادة، وينسب المحمل الذى يخرج من مصر لاسم «فاطمة»، والذى يخرج من باب السعادة لاسم عائشة الصديقة رضى الله عنهما.

ورتب فى سنة (٩٦٧) إرسال محمل من اليمن وابتداء إرساله فى عهد ولاية المرحوم مصطفى باشا. وكان لهذا المحمل أمير الحج وقائد وشيخ من قبيلة بنى مرزوق، وكان حجاج اليمن من قبل ذلك يذهبون ويرجعون بقوافل سريعة، وكان اسم المحمل الذى أخرج من اليمن «حيسى» وسمى كذلك لأنه كان يخرج من مدينة «حيس» الشهيرة كانت حيس مدينة معمورة واقعة على بعد مرحلة من جنوب مدينة زبيد، وقد اخترعت تلك المحامل من قبل (أبو الحسن أحمد بن محمد بن القاسم بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل المحاملى من المحدثين الكرام وولداه «محمد ويحيى» وأخوه «أبو القاسم»، وفى عهد الحجاج الظالم وكان أعلاه مخروطى الشكل وتحسن شكله بمرور الأيام، وزين فى عهد فاتح مصر والشام السلطان سليم بكسا مذهبة وستائر لطيفة.

وجهز السلطان سليم في سنة (٩٢٣) وفى الثامن من شهر شوال فى مدينة دمشق الشام محملاً لا مثيل له فى العظمة والأبهة، وسلمه لقافلة الحجاج التى ذهبت فى ذلك العام، وأرسله إلى مكة المكرمة، والقلم يعجز عن وصف ما كان عليه ذلك المحمل من نظام وأبهة وعظمة.

إن أول محمل أرسل إلى الحجاز فى الدولة العثمانية العلية لهو ذلك المحمل المذكور الذى جهزه السلطان المشار إليه، ومازال إلى الآن يرسل على نفس الهيئة والشكل.

والمحمل الذى أمر السلطان سليم بصنعه كان محفة ذات أربعة أركان عليها قبة وأركانها الأربعة مزينة وقبتها كرة من الفضة، وعلى الكرة التى فوق القبة علم ذهبى، وقد كتب على قماش ستارة القبة منسوجا العبارة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وفى زماننا عندما ترسل هذه المحفة إلى الحجاز تبعث معها

الصرة السلطانية جريًا على العادة المعهودة المرعية، وفى ذلك اليوم تخرج المحفة فى احتفالات عظيمة من قصر السلطان الساحلى، وتحمل على سفينة خاصة إلى شاطئ اسكدار فى نفس اليوم لوداع العطايا السنية لبعض الذوات الذين جرت العادة على نفحهم العطايا السلطانية.

وصول الصرة إلى أرض الشام وخروجها منها

يستريح أمين الصرة فترة قصيرة بعد ما يضع الصرة السلطانية التى وضعت فى عهدته فى المكان الخاص الذى عين له في دمشق، ثم يسرع بالخروج إلى الطريق مستصحبا موكب الحج، ويبتدر بالتوجه إلى الجهة المقصودة.

وبما أن تشييع موكب الحج من العادات المستحسنة للبلد، ففى اليوم الذى يخرج فيه المحمل الشريف من الشام تذهب هيئة مكونة من مؤذنى الجامع الأموى، وموظفى الدولة وخدمها والجنود النظاميين ورجال الشرطة السلطانية ـ بناء على عادة قديمة متبعة ـ إلى المكان المبارك الذى تحفظ فيه الراية المحمدية المقدسة، والذى يقع فى داخل قلعة الشام، ويمرون بها من أمام الدائرة الحكومية، ويوصلونها إلى المكان الذى أعد لها من قبل فى دائرة المشيرية العالية، وفى غير ذلك اليوم يسير جميع الموظفين المدنيين والأمراء والضباط والعلماء ذوى المكانة والوجهاء مرتدين ملابسهم الرسمية ذاكرين الله قارئين الأدعية المنجية مكبرين مهللين أمام موكب المحمل، بينما تعزف فرقة الموسيقى السلطانية الألحان الموسيقية المناسبة، ويوصلون المحمل إلى الخيمة التى أقيمت بالقرب من قرية قدم شريف، وهى على بعد ساعة من دمشق حيث يستقبلهم الوالى والأعيان وكبار موظفى الدولة الذين كانوا فى انتظار المحمل الشريف، وهناك تجرى مراسم للتسليم والتسلم، ثم يبعث بالمحمل إلى أراضى الحجاز المقدسة. وكانت من العادات المتبعة عندما تخرج الصرة السلطانية من باب السعادة أن يوزع السلطان (١٤٤٤٦) قرشا ونصف قرش، وكان ذلك المبلغ يوزع على النحو التالى: (١٥٢٥) قرشا لموظفى أمانة الصرة، (٦٠٠) قرشا لبعض الجمالين، (٧٢٠٠) قرشا للعاملين فى إدارة السندات النقدية، (٥١٢١) قرشا للذين اجتمعوا في داخل القصر السلطانى وقت خروج المحمل.

إن مبلغ (٧٢٠٠) قرش الخاصة بإدارة المصارف والسندات المالية يعطى (٥٠٠) من (١٠٠٠) لموظفى قيد الحجاز من قبل أمانة الصرة ويعطى (٣٧٠) قرشا من (١٢٠٠) قرش الخاص بموظفى إدارة المصارف والأقلام الأخرى إلى كتبة إدارة السندات وحراسها، كما يعطى (٨٠) قرشا لرفيقة قيد الحجاز، و(٧٥٠) قرشا عطايا قديمة لموظفى الصرافة للخزينة ورفقائهم. إن مبلغ (٥١٢٠) قرشا السلطانى ونصف قرش السابق الذكر اعتبر صرفه فى داخل القصر السلطانى خاص بمؤذنى العصر والحراس وخدم القصر.

ويتصدق بمبلغ (٤٩٠٠) قرش عند إخراج الصرة السلطانية إلى الأراضى الحجازية على الفقراء الذين يجتمعون أمام الباب الأوسط للقصر السلطانى على غير تعيين ويصل مجموع المبالغ التى توزع عقب إخراج الصرة السلطانية إلى (١٩٣٤٦) قرشًا إلا أن النقود التى اعتيد صرفها لمشايخ التكايا والأئمة والخطباء خارج هذا الحساب.

ويمكن أن تصل المبالغ التى اعتيد صرفها من قبل أمانة الصرة منذ خروج الصرة السلطانية من القصر السلطانى إلى اسكدار ومنها إلى أراضى الشام إلى (١٧٨٦٠) قرش، إن المبلغ المذكور (١٧٠٠٠) وكسور قرش خاص من قديم بالذين ينزهون جمال المحمل أمام السلطان وبرؤساء المصفقين وخدم الطريق وخدم الإسطبل السلطانى الخاص وللرقباء المصفقين وبأنفار الطريق وبوابى الحرم السلطانى وبالذين يحضرون الدواب، وبالأنفار الذين يصاحبون موكب الصرة السلطانية، وخدمة دائرة الباشا، ورؤساء الجمالين وموظفى صناديق البخور ومترجمى الحرمين وخدمة البوابة والحراس، والأوقاف السلطانية، والذين يعينون على وضع المحفة على الحيوانات، وبعض حراس الأضرحة الآخرين ممن يجب تقديم المعونة لهم.

صورة إجراء حفل موكب المحمل فى مصر

من السنن القديمة التى يؤخذ بها فى مصر إعداد موكب عظيم للمحمل الذى يبعث به من مصر إلى الحجاز فى أواخر شهر شوال، وعندما يحل الموسم

الخاص بذلك يحضر فى المكان الخاص لاستقبال موكب المحمل فى ميدان محمد على وزراء الداخلية والجهادية والأشغال ومحافظ مصر والباشوات والوجوه والأعيان بينما يصطف فى أركان ذلك الميدان جنود نظاميون واقفين في حالة الانتباه والسلام، ويسلم المحمل الشريف بكل وقار وأدب إلى يدى الشخص الذى نصب أمير الحج.

وتطلق المدافع إيذانا لذلك الأمر ثم يشيعون موكب المحمل الشريف إلى مكان يطلق عليه «العباسية».

ويسير خلفهم كتيبتان من الجنود وعلى ظهورهم آلاتهم الموسيقية وبعدهم الضباط الحربيون، وبعدهم المحمل الشريف، وبعدهم الفرسان وتزدحم الطرق بالمشاهدين ازدحاما شديدا، ويقوم رجال الشرطة بالمراقبة والحراسة تحسبا لما قد يقع مما يخل بالآداب العامة.

وإن كان الاحتفال بموكب المحمل الشريف من العادات القديمة إلا أنه لم يكن منظمًا، وقد اعتُنِى فيما بعد بهذا الاحتفال أعظم عناية ولا سيما فى هذا الزمن الذى ترقى فيه الناس، وقد وصل المحمل المصرى فى نظامه وعظمته وجلاله إلى درجة تحير العقول.

وقد صنعت ستارة المحمل الشريف في سنة (١٢٩٣) فى ظل المبرة السلطانية في غاية الجمال ونقشت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى على الستارة نسجا فى غاية الجمال، وكانت الخطوط التى كتب بها الآيات والأحاديث تقليدًا لخط عبد الله زهدى بك وهو من كبار الخطاطين ولا شك أن منظرها الجميل كان يفوق سابقتها بمراحل.

ولاسيما وضع الطغراء السلطانية التى تتوسط الكسوة والتى تحمل صفات السلطان الحميدة كان مستحيلا ألا يوجب تعجب الناس.

وإن كان المحمل الشريف مثل القفص ومصنوعا من الخشب إلا أن غطاؤه كان نوعا من الحرير الأسود، وعليه بعض الآيات الجميلة منسوجة «بالصرمة»

(الخيوط الذهبية) وفى الجهة الأمامية صورة مكة المعظمة وفى أعلاها الطغراء وقد نقشت على سطح جهاته الأربعة أزهار بالخيوط الذهبية، وبعض أماكنه نسج بخيوط حريرية خضراء وحمراء كالحواشى.

أما أطرافه فقد زينت بأهداب من خيوط ذهبية خالصة، ووضعت في أركانه الأربعة وفوق وسطه كرات من الفضة وفوق كل واحدة منها راية ذهبية، ووضع فوق المركز الرأسى محفظة مذهبة جميلة ووضع داخلها مصحفان.

الذيل:

إن المحمل الشريف الذى حاز إعجاب الناس قد جددت كسوته بما بذله السلطان من نقوده الخاصة، ولا يسعنا إلا أن نحكم ـ إذا ما رجعنا إلى ضمائرنا ـ أن كل هذا قد تم بِالْهِمَّةِ السلطانية التى وهبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذاته السلطانية.

إن ما بذله هذا السلطان بايزيد من نقود للآثار الخيرية نتيجة لمروءته وهى من أشرف الخلال والصفات وهى التى تدفعه إلى نيل شرف الاهتداء إلى صنع المحاسن فى كل زمان ومكان. والسلطان الذى له صفات عمر الفاروق لا حاجة له فى وصف مزاياه ولا الإطناب فى سجاياه، ونحن فى هذا الصدد نغض النظر عن وصف بره وإحسانه مكتفين بذكر ما اختص بالمحمل الشريف حتى وصل إلى هذه الدرجة من الإتقان والجمال.

وإننا نسأل صاحب اللطف والعطايا أن يقر السلطان الغازى خادم الحرمين الشريفين وحامى حمى الدين المبين: السلطان عبدالحميد خان الثانى بمزيد من العظمة والقوة والشوكة على عرشه، ويديم ملكه حتى يملأ قلوب سكنة الحرمين الشريفين بالفرحة والسرور، ويجلى عيون الموحدين بالفرح والحبور، وهو ينشر أنوار عدله على الأراضى الحجازية.

* * *

فى مسألة تفسيم كسوة كعبة الله وبيانها

كان يوجد فيى جاهلية العرب فوق الكعبة أشياء غالية متراكمة، وفى أوائل الدولة الإسلامية قد هيئت كسوة من قبل بيت مال المسلمين، فأنزلت الأشياء الغالية من فوق كعبة الله وقسمت بين المسلمين، وكان عمر بن الخطاب فى عهد خلافته يقوم بتجهيز كسوة جديدة لبيت الله، ويعلقها عليه، ويقسم الكسوة القديمة علي الحجاج المسلمين للتبرك بها وأظهر عثمان بن عفان تعظيما لكعبة الله بأن كساها بقطعتين من الكسا، وأرسل معاوية بن أبى سفيان بعض الأقمشة الغالية من الشام، وأمر شيبة بن عثمان (رضى الله عنه) بأن ينزل كسوة الكعبة العتيقة ويعلق الكسوة الجديدة على الكعبة، بعد تنظيف جدران كعبة الله الأربعة، وبعد تعليق الأقمشة الجديدة الواردة إلى الكعبة قطع الستارة القديمة قطعا صغيرة أمام ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ووزعها على سكان حرم الله وقسمها.

ولم يستكره عبد الله بن عباس ولم يستهجن ما صنع شيبة ابن عثمان من تقسيم الكسوة الشريفة وتوزيعها، إيماء إلى جواز ذلك ورأى بعضهم أنه لا كراهية فى ذلك.

ذهب شيبة بن عثمان لما كثرت كسا كعبة الله إلى أم المؤمنين زوج النبى ـ ﷺ ـ السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال لها: يا عائشة كثرت كسا بيت الله عليه، ما رأيك لو خلعنا الكسا القديمة ودفناها حتى لا يكتسيها الجنب من الرجال، والحائض من النساء» فقالت المشار إليها: إن كنتم لم تفعلوا ذلك إلى الآن فلا تفعلوه بعد ذلك، فلا بأس فى أن يأخذ قطع هذه الكسا من يأخذ وليفعل بها ما يشاء، ولكن إذا ما بعتم هذه الكسا القديمة وأنفقتم ثمنها فى وجوه الخير أفضل».

وقال أئمة المذهب الحنفى: الرأى فى التصرف فى كسوة بيت الله متروك للسلطان.

قال القاضى الخانى: عندما تقدم كسوة كعبة الله فليأخذها سلطان الزمن، ولينفق ثمنها فى أمور بيت الله.

وقال الإمام محمد إذا ما قدم لإنسان ماقطعة ثمينة من كسوة الكعبة الشريفة فليأخذها ولا بأس فى أخذ الفضة إذا كان ثمنها قليلا» كما قيد فى تتمة الفتاوى.

وقال الإمام الزركشى وهو من أئمة المذهب الشافعى بعد أن منع بيع ستارة بيت الله: أوصى بأن يردها من أخذها. وقال ابن الصلاح هذا الموضوع متروك لرأى ملك ذلك العصر وإرادته، لأن الملوك السابقين كانوا يهدون الكسا القديمة لبنى شيبة، وهؤلاء كانوا يبيعونها وينفقون ثمنها فى أمورهم الخاصة، وأشار بهذا إلى أنه لا كراهة في بيع الكسوة.

وبناء على رأى القطب المكى وحكمه؛ إذا كانت الكسوة قد صنعت بالإنفاق من بيت مال المسلمين فالأمر فى الكسوة القديمة متروك لرأى الملك، وإذا كانت الكسوة قد صنعت بأموال وزارة الأوقاف فالحكم فى الكسوة متروك لشرط الواقف، وينفذ شرطه وإذا كان شرط الواقف غير مشروع تنفذ أحكام الوقف السابقة، ويجرى عليها حكم الكسوة السابقة، ولما كانت الكسوة الشريفة في عصرنا هذا تبعث من خزانة وزارة الأوقاف السلطانية، وكان شرط الواقف مجهولا يبقى الحكم كما كان قديما فتعلق الكسوة الجديدة، وتخلع الكسوة القديمة وتقطع قطعا وتباع.

وقد جرت العادة أن تكون ستارة كعبة الله المزركشة وحزامها القديم من نصيب الشخص الذى يشغل منصب شريف مكة، وكسوة بيت الله الشريفة من حق حامل مفتاح بيت الله السيد شيبة.

إن ستارة باب كعبة الله ترسل إلى باب السعادة فى سنين الحج الأكبر، وتباع للصياغ فى الأعوام التالية، والخواتم التى تجلب من مكة تصنع من الخيوط

الذهبية لهذا الحزام، ويمكن رؤية ستارة باب كعبة الله عليه ولكننا رأينا أن نصفها بالإجمال.

وصف الستارة الشريفة

إنها مصنوعة من أطلس أخضر وفى أطرافها خط من أوراق بلوط منسوج بالخيوط الذهبية، وفى الداخل كتبت سورة الفاتحة وآيات أخرى وزين ما بين آيات سورة الفاتحة بأسماء الجلالة المتعددة، وقد كتبت في الجزء الأعلى من الستارة في جهة باب كعبة الله الآية:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)

وفى ذيلها

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠).

﴿قُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

وتحتها

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ (الفتح: ٢٧)

وفى طرفى هذه الآيات كتب (بسم الله) مزدوجا في أربعة أماكن فى شكل قطع ناقص، وبعده كتبت آية الكرسى علي أربعة أسطر وفى سطر هذه الخطوط كتبت سورة الإخلاص بشكل قطع ناقص، وفى نهاية آية الكرسى كتبت سورة الإخلاص على سطرين، وكتب تحتها اسم السلطان عبد الحميد وشهرته، وعلى طرفيه كتبت الجمل ٠لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

* * *

الوجهة الخامسة

تجمع أربع صور توضح وتعرف أوضاع مبانى المسجد الحرام القديمة وأبوابها وعددها وأعداد أعمدتها وشرفاتها وصورها.

* * *

فى تعريف وضع المسجد الحرام القديم

حينما أسس إبراهيم ـ عليه السلام ـ كعبة الله لم يكن حولها منازل ولا بيوت ولا حوانيت، كما أن طوائف العمالقة والجراهمة وأقوام خزاعة لم يرغبوا فى بناء المساكن حول الكعبة، ولكن (قصى) بن كلاب حينما استولى على تدبير أمور بيت الله، وأصبح واليا على المدينة الشهيرة، وأخذ مفتاح كعبة الله فى يده القوية. وتولى على عاتقه تدبير شئون القبائل، جمع أفراد قبيلة قريش ونصحهم بأن يسكنوا فى أطراف كعبة الله المفخمة، وأسس بنفسه مبنى دار الندوة كما جاء فى الصورة الثامنة من الوجهة الثانية.

وكان المكان الذى بنى فيه قصى بن كلاب دار الندوة جهة الزاوية التى يطلق عليها الركن الشامى، وفى الساحة التى يوجد فيها المقام الحنفى المتصل بأرض المطاف، حيث يصلى إمام المذهب الحنفى الصلوات الخمس داخل هذا المقام، وأخذ القرشيون فى بناء منازلهم حول الجوانب الأربعة لكعبة الله حتى زاد عددها عن العدد والحصر، وأصبحت مكة المكرمة مدينة عظيمة كثرت شعابها ومحالها كما نراها اليوم.

ولد النبى ﷺ فى منزل يقال له مولد النبى، وهو فى الحى المشهور بشعب على «ثم شرف دار خديجة الكبرى رضى الله عنها الواقعة فى شعب بنى هاشم بالسكن فيها.

* * *

فى عدد أعمدة المسجد الحرام القديمة وذكرها

كان بالمسجد الحرام قبل التجديد (٤٩٦) عمود، بإخراج أعمدة باب دار الندوة الزائد وأعمدة دار إبراهيم الزائد، وكانت سبعة وعشرين منها فى أبواب المسجد و(٤٦٩) منها تحت سقوفها وكانت ثمانية و ثمانون عمودا من تلك الأعمدة فى الجهة الشرقية (١٤٥) منها فى الجهة الشمالية (٨٧) منها فى الجهة الغربية و(٨٧) من أعمدة الجهة الشرقية كانت من قطعة واحدة من الرخام وعمود كان من الطوب اللبن المحروق، و(١٤) عمودا فى الجهة الشمالية كانت من الحجر المنحوت، (٢٥) عمودا فى الجهة الجنوبية كانت من الحجر المنحوت، وكذلك جميع أعمدة الجهة الغربية وأما الباقى فكان من الرخام.

وكان حول الجوانب الأربعة لدار الندوة الزائدة (٦٦) عمودا وكانت كلها مصنوعة من الحجر العادى، إلا أنها أشبهت الرخام بطلائها بمؤنة جيدة. وكان السلطان الغورى المصرى قد أرسل خيرى بك من كبار موظفى الدولة المصرية فى عام (٩١٧) لتصليح وتعمير بعض أجزاء المسجد الحرام المحتاجة إلى الترميم، وعمر خيرى بك باب إبراهيم الزائد وأسس فوقه قصر يعادل الخورنق، ومسجدا وعدة منازل أضاف إليها ما تحتاجه المنازل من المغاسل وخزانات المياه، ووقفها باسم السلطان، وبنى على طرفى الباب المذكور الزائد غرفا من طابقين لإيواء الفقراء والصلحاء من الناس، وأنشأ صهريجًا يملأ عند نزول المطر فى الجهة الجنوبية من الباب وكذلك أنشأ سبيلا لا مثيل له.

وأنشأ خوش كلدى بك بأمر تلقاه من السلطان سليمان فى سنة (٩٤٧) مخزنا من غرفتين[1] لحفظ قناديل بيت الله والأشياء الخاصة بالمقام الحنفى.

(١) إن هذه المخازن قد هدمت بعد موت السلطان سليمان، وضمت أرضها إلى ساحة الحرم الشريف.

الذى كان بنى فى خلال عام (٨١٥) وعقب ذلك بنى أعمدة باب إبراهيم الزائد مصنوعة من الرخام

إن الأعمدة التى أمر بصنعها خوش كلدى بك، فى باب إبراهيم الزائد كانت أحد عشر من أعمدتها فى الجهة التى يقع فيها الرواق الجنوبى، وستة فيها فى الجهة التى يقع فيها الرواق الشمالى، وكانت كلها من الحجر المنحوت فى المقام الحنفى بعد سنة من تعمير المقامات المذكورة، لأن مبانى المقام الحنفى كانت أكبر نسبيا بالنسبة للمقامات الأخر، وقد شرع فى تجديده سنة (٩٤٧) وأتمه فى سنة (٩٤٩)، بينما أتم تعمير المقامات الأخرى فى سنة (٩٤٨)، وأمكن استخدام مبانى مقام إبراهيم التى هى أثر من آثار (خوش كلدى) بك (٦٨) عاما، إلا أن رواد المقام الحنفى وجماعاته زادت سنة بعد سنة وضاق بهم، ولما أبلغ الأمر إلى باب السعادة هدم محمد باشا والى مصر ذلك المقام وأنشأه من جديد بناء على الفرمان السلطانى الذى تلقاه.

كما أنه قد رمم قطع رخام المطاف ونظف مجرى عرفات وجدد كسا الأعمدة الداخلية للبيت المعظم ونظف كعبة الله بأن رفع أكوام الكناسة التى حول الكعبة.

وبما أن محراب المقام الحنفى الذى وسعه محمد باشا كان قد أسس فوق ساحة المطاف الشريف، فكانت صفوف المسلمين المصلين فى داخل الحرم ترى غير منتظمة من خارج الحرم وفى سنة (١٣٠١) أى بعد توسيع المقام الحنفى بمائتين وأربع وثمانين سنة، أخرج والى الحجاز عثمان باشا الجهة التى تقع بالمحراب فى ساحة المطاف وحركها نحو جهة باب إبراهيم الزائد، وانتظم الصف الذى يقع فى هذه النقطة، وهكذا نال ثواب هذا العمل الذى أتمه، بناء على الأمر السلطانى، ومازال عثمان باشا واليا على الحجاز.

لازمة

إن المقامات الأربعة الخاصة بأئمة المذاهب الأربعة من جملة المستحدثات التى

لا محل لها فى الشريعة الإسلامية، وقد أنشئت فى سنة (٨١٥هـ) حينما كان يحكم مصر فرج بن برقوق بن أنس من ملوك الشراكسة. وأراد شاه إيران نادر شاه أن يزيد المقامات إلى خمسة بإنشاء مقام خاص للمذهب الجعفرى، إلا أنه لم ينل مطلبه وخاب فى مسعاه.

* * *

تعرف عدد شرفات المسجد الحرام القديمة وهيئتها

الشرفات جمع كلمة شرفة وهى نوع من أنواع الزينة فى المبنى يطلق على الأماكن البارزة العالية فوق جدران القلاع، وقد يجمع على شرف أيضا ويتوارى الجنود خلفها فى أثناء الحروب، وكان للمسجد الحرام قبل التجديد أربعمائة من الشرفات الكاملة، وسبعة من الشرفات النصفية الداخلية، واثنين وخمسين من الشرفات الخارجية الكاملة، وشرفة واحدة خارجية غير تامة، وسواء أكانت الشرفات الخارجية أو الشرفات الداخلية ما كانت تتجمع فى مكان واحد أو اثنين، بل كانت متفرقة فوق أبواب المسجد الحرام.

وكان فى كل باب عدة شرفات، وقد بنيت بين الشرفات مساكن ومنازل وأربطة ومدارس، وهذه الأماكن تخلو من الشرفات، وكان لدار الندوة الزائدة (٢٧) شرفة ولباب إبراهيم الزائد (٤٤) شرفة وكانت كلها ترى من داخل الحرم الشريف.

ليس هناك مؤرخ إلى عصر وليد بن عبد الملك يعرف شيئا عن وجود الشرفات فى المسجد الحرام لذا حكم أن تزيين الحرم الشريف بالشرفات أثر من آثار وليد بن عبد الملك.

* * *

تعرف أبواب المسجد الحرام القديمة وتبين عددها

كان للمسجد الحرام مقدما تسعة عشر بابا عاليا مبنيا على عقدين وكان باب أقيم على كمرين مثل جسر، ذو فتحتين ومازالت بعض هذه الأبواب، محتفظة بأشكالها القديمة وهى معروفة لدى الناس. وكل باب كان له فتحتان إلا أن الاثنين يطلق عليهما اسم واحد. ويطلق مثلا على البابين المجاورين اسم باب السلام، وعلى هذا الحساب يجب أن يصل عدد طاقات الأبواب وكمرها إلى ثمانية وثلاثين كمرا، إلا أن معمار المدرسة السليمانية قد أضاف فوق أحد هذه الأبواب كمرا عاليا، وهكذا أوصل كمر الأبواب إلى تسعة وثلاثين كمرا.

* * *

وقد رتبت على ست صور وتجمع قباب المسجد الحرام وأبوابه على هيئتها الجديدة وتبين عددها وشكلها وخريطة مسطحة مع بعض الجداول.

* * *

تعرف ما حدث للمسجد الحرام بعد تجديده من تغيير فى الشكل

وإن كان رسم المسجد الحرام القديم على شكله الذى ذكرته فى الوجهة القديمة، إلا أن طوله فى زماننا من باب السلام إلى باب العزة (٥٣٧) قدما، وعرضه من باب الصفا إلى باب دار الندوة الزائدة (٥٠٠) قدما، و٦٧ منه فى الشرق، ٨١ منه فى الشمال، ٣٦ منه فى الغرب، ٣٣ منه فى الجنوب، وخمسة منه فى جهة دار الندوة، ٦٠ منه فى باب إبراهيم الزائد، وله ٢١٨ عمودا رخاميا والأعمدة التى فى الجهة الغربية عددها ٦، و١١ عمودا فى الجهة الجنوبية، وأحد أعمدة باب دار الندوة مصنوع من حجر الصوان، والباقى كله من الرخام.

ويبلغ عدد الأعمدة المصنوعة من حجر يطلق عليه الشمليس بعد أن يقطع وينحت قطعا ٢٤٤ عمودا، وشكل هذه الأعمدة حسب ما يقتضى موقعها مسدس الشكل أو مثمن، وكل عمود حجرى ابتداء من الأرض يصنع من قطع حجرية صغيرة يطلق عليها حجر الصوان، وأعلاها يصنع من قطع حجارة صفراء كبيرة منحوتة. إن الأعمدة الحجرية الموجودة ابتداء من الجهة المقابلة لبيت الله أى فى الجهة الشرقية عددها ٣٠ عمودا، وتحت القبة التى فى الجهة الشمالية المقابلة للميزاب الذهبى ٤٤ عمودا، وفى الجهة الغربية باب مقابل الباب المسدود ومقابل المستجار ٣٦ عمودا، وفى الجهة الجنوبية تحت القبب التى تقابل الحجر الأسود ٧٦ عمودا، وفى دار الندوة الزائدة ٣٦ عمودا، وفى باب إبراهيم الزائد ١٨ عمودا، وفى كل ركن من أركان المسجد أربعة أعمدة، وعند الحساب لاشك أن عددها سيبلغ ٢٤٤ عمودا.

تبين عدد قبب المسجد الحرام وشكلها

إن للمسجد الحرام خمسمائة قبة لطيفة ويطلق أهل مكة على (١٥٠) منها قبة، وعلى ٢٨٠ منها طواجن، وعلى ٦٢ منها مصليات،، إن ٢٤ منها فى الشرق، و٣٦ منها فى الشمال، و٣٦ منها فى الجنوب، و٢٢ منها فى الغرب، وواحدة منها فى ناحية مئذنة الحزورة، وقبة فى ناحية مئذنة دار الندوة، و١٦ منها فى ناحية باب إبراهيم الزائد وكلها تبلغ ١٥٠ قبة.

الطواجن جمع كلمة طاجن وهو اسم نوع من القبب. الطاجن على وزن دامن تطلق على صحن يطلق عليه تابه أو طاوه والمراد منه القبب التى صنعت على شكل (تابه)، وعددها الكلى (٢٨٨) طاجنا . (٣٨) منها فى الشرق، (٥٩) منها فى الشمال، و (٣٤) منها فى الغرب، و(٦٤) منها فى الجنوب، وعددان منهما تحت مئذنة باب السلام، وعدد منها فى ركن المسجد فى جهة باب السلام، وعدد منها فى باب العمرة، و(٢٤) منها فى باب دار الندوة الزائد، و(٤٧) منها فى باب إبراهيم الزائد.

والقبب المسماة المصليات تقع ثلاث منها فى الشرق، (٢٤) منها فى الشمال، و (١٨) منها فى الغرب، و(١٧) منها فى الجنوب ويبلغ مجموعها (٦٢) مصلية، لايمكن وصف هيئاتها وشكلها بالكتابة فلابد من رؤيتها.

* * *

تبين شرفات المسجد الحرام وعددها

للمسجد الحرام (٦١٢) شرفة فى الجهة الشرقية، و(٣٤١) شرفة فى الجهة الشمالية، و (١٥٤) منها فى الغرب، و(١٤٠) منها فى باب إبراهيم الزائد، و(١٩١) فى دار الندوة الزائدة، والبقية فى الجهة الجنوبية، ومجموع عددها (١٣٨٠) شرفة، إن الشرفات الموجودة فى الشرق صنع ٢٧ منها من الرخام، و(١٣٥) منها من حجر الشمليس وإحدى الشرفات الرخامية أعلى من الشرفات الأخرى، والشرفات التى فى الشمال (٧٨) منها من الرخام والقبة من حجر الشمليس، والثلاث الشرفات الرخامية أعلى من الأخريات ٢٢ من الشرفات التى فى الجهة الغربية من الرخام والبقية من الزيادتين والتى فى الجهة الجنوبية كلها مصنوع من حجر الشمليس.

* * *

فى بيان عدد أبواب المسجد الحرام وهيئاتها والجهات الكائنة فيها وعدد شرفات أبوابه وما هى الأسماء التى عرفت بها فى العهد الجاهلى

للمسجد الحرام ١٩ بابا عظيما ويفتح أربعة من هذه الأبواب إلى الجهة الشرقية وسبعة منها فى الجنوب وثلاثة منها فى الغرب وخمسة منها فى الجهة الشمالية.

الأبواب الشرقية:

١ـ باب السلام ٢ـ باب النبى ٣ـ باب العباس ٤ـ باب على.

ولكل باب من هذه الأبواب تسع درجات داخلية وخمس درجات خارجية سواء أكان مراقى هذه الأبواب أو مراقى الأبواب الأخرى أظهرها سليمان، وكانت عتبات الأبواب الخارجية على مستوى الأرض، فإذا نزل قليل من المطر كان داخل الحرم الشريف يمتلئ بالماء.

١ـ باب السلام:

كان فى الجاهلية يشتهر باسم باب بنى عبد شمس بن عبد مناف، وإن كان يعرف الآن بباب بنى شيبة، إلا أن اسمه الشهير هو باب السلام، وله ثلاثة عقود ولما كان بناؤه القديم فى منتهى الرصانة والمتانة فبقى على حاله القديم عند التجديد.

وكان الخلفاء الذين يذهبون إلى مكة المكرمة لأداء الحج وأمراء مكة والأشراف يدخلون إلى المسجد الحرام من باب السلام، كما هو مسطور فى تاريخ الإمام الأزرقى.

٢ـ باب النبى:

ويطلق على باب النبى باب النساء وباب الجنائز أيضا. وإن لهذا الباب عقدين و٢٤ شرفة، وخربت هذه الشرفات القديمة، وعند تجديد الباب اكتفى بتجديد الشرفات فقط، والشرفات الحالية من آثار التعمير الجديد، وبما أن النبى ﷺ كان يشرف دار السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ خارجا من هذا الباب سمى بباب النبى.

٣ـ باب العباس:

أسس باب العباس على ثلاثة عقود ويعرف بباب الجنائز أيضا، وبما أنه كان يقابل دار العباس بن عبدالمطلب لذا سمى فى وقتنا هذا باب العباس، وما يطلق عليهما الميلان الأخضران قد وضعا خارج هذا الباب.

٤ـ باب على:

لباب على ثلاثة عقود و١٥ شرفة. ويشتهر بين المؤرخين بباب بنى هاشم، وجدد على أكمل وجه، إلا أن كتب التاريخ تخبرنا بأن حالته القديمة كانت فى شكل أكثر نظاما ومتانة.

الأبواب الجنوبية

١ ـ باب بازان ٢ ـ باب البغلة ٣ ـ باب الصفا ٤ ـ باب الجياد ٥ ـ باب مجاهد ٦ ـ باب مدرسة الشريف عجلان ٧ ـ باب أم هانئ.

لكل واحد منها تسع درجات داخلية وخمس درجات خارجية.

١ـ باب بازان:

وقد اشتهر هذا الباب بباب بازان لقربه من البئر الذى يطلق عليها عين بازان، وكان يطلق عليه فى الجاهلية باب بنى عائذ كما هو مذكور فى كتب التاريخ القديمة. ولباب بازان عقدان و(١٦) شرفة وقد جدد على شكل جميل.

٢ـ باب البغلة:

وكان يطلق على هذا الباب فى صدر الإسلام باب بنى سفيان بن أسد وباب الخياطين. ولباب البغلة عقدان وبدون شرفة.

٣ـ باب الصفا:

وكان أصل اسمه باب بنى مخزوم، وهو مواجه لباب الصفا لذا أطلق عليه باب الصفا، ولهذا الباب ٥ أكمار و٣٩ شرفة. ومن ينظر إلى شكله يتأكد أن هذا الباب أعظم أبواب الحرم الشريف من حيث الشكل ومتانة البناء والحسن والكبر.

٤ـ باب الجياد:

لباب الجياد كمران و ١٩ شرفة، وقد جدد على شكل جديد، يطلق على هذا الباب بين الأهالى باب الجياد الصغير.

٥ـ باب مجاهد:

لباب مجاهد كمران و٢٠ شرفة، وباب الرحمة، اسم آخر لهذا الباب، وهذا الباب قد جدد تماما مثل باب الجياد. بما أن هذا الباب أو باب الجياد كانا ينسبان لقبيلة بنى مخزوم فكان أفراد هذه القبيلة يدخلون ويخرجون من هذين البابين.

٦ـ باب مدرسة الشريف عجلان:

ولهذا الباب كمران وعشرون شرفة، وكان فى القديم يسمى بباب بنى تميم وباب العلاقين، وبما أنه كان متصلا بالمدرسة التى بناها الشريف عجلان اشتهر بباب مدرسة الشريف عجلان، وجدد على شكل فى غاية الجمال.

٧ـ باب أم هانىء:

كان اسم هذا الباب قديما باب ملاعين وباب الولوج وباب العروج وباب

الجياد الكبير[1] وباب أبى جهل. وبما أنه كان متصلا بدار أم هانئ بنت أبى طالب ـ رضى الله عنها ـ أطلق عليه فيما بعد اسم باب أم هانئ، وعندما جدد عُمَرَ بطريقة متينة وله كمران وثلاث عشرة شرفة.

كانت دار أم هانئ متصلة بالجهة الجنوبية، ويسار هذا الباب وفى النهاية بنى على أرضها مدسة[2]، وبما أن معجزة المعراج قد وقعت فى الليلة التى كان النبى ﷺ نائما فى هذه الدار لذا فزيارة هذه الدار واجبة لعشاق محمد ﷺ، أم هانئ المشار إليها أخت سيدنا على وكريمة عم النبى ﷺ، أبى طالب، اسمها الحقيقى هند أو جميلة أو عاتكة أو حمامة أو رملة أو فاطمة أو فاختة ولكنها اشتهرت بكنيتها لابنها هانئ من زوجها هبيرة بن عمرو المخزومى، وقد هرب هبيرة بن عمرو فى يوم فتح مكة رافضا الإسلام إلا أنه دخل فى الإسلام فى نفس اليوم. وروى عن النبى ﷺ، ٤٦ حديثا.

ولما كان زوج أم هانئ مشركا عزم على البقاء فى مكة فأراد النبى ﷺ أن يطيب خاطرها بعرض شرف الزواج به إلا أنها اعتذرت عن الزواج خوفا من عدم قيامها بواجبات الزوجة لكثرة أولادها.

الأبواب الغربية:

الأبواب الغربية هى ١ ـ باب خزورة ٢ ـ باب إبراهيم ٣ ـ باب العمرة.

ولكل هذه الأبواب ٤ درجات خارجية ١١ درجة داخلية.

١ ـ باب حزورة:

وله كمران وليست له شرفات، وبما أنه لم يكن فى حاجة للتعمير ترك على

(١) الأجياد الصغيرة والكبيرة اسم حيين فى مكة ويقال فى سبب تسميتهما روايتان:
الأولى: تربية الجياد الأصيلة فى هذا الحى وعلى هذا التقدير يلزم أن يكون لفظ أجياد جمع كلمة «جيِّد».
الثانية: فى يوم ما قطعت فى هذين الحيين أعناق مائة رجل وعلى هذا يلزم أن يكون جمع كلمة «جِيد».

(٢) وإن كان هذا المكان قد تحول إلى المدرسة إلا أن أكثر مدارس مكة قد تحولت إلى وكالات، كذلك هذه المدرسة وأجرت. وبينما كنت فى مكة كان يسكن فى مدرسة أم هانئ مفتى الشافعية أحمد دحلان وكان منزلا طويلا جميلا وقد بنى أمامه والى مصر الأسبق محمد على باشا مبنى كبيرا.

حاله القديم، وحزورة اسم والدة وكيع بن سلمة من أمراء مكة المكرمة، عندما توفيت أم وكيع دفنها بالقرب من ذلك الباب؛ ولذلك اشتهر هذا الباب بباب حزورة. وكان اسمه القديم باب بنى حكيم بن حزام، باب بنى الزبير بن العوام وباب الخزاميه وأطلق عليه مؤخرا اسم باب حزورة، وفيما بعد باب الوداع وعند البعض كانت حزورة اسم سوق فى الجاهلية وعندما وسعت ساحة المسجد الحرام ضمت أرض هذه السوق إلى المسجد الحرام، ولما بنيت مئذنة باب الوداع على ساحة هذه السوق فقيل للباب الذى كان متصلا بالمئذنة باب حزورة.

ويقال فى رواية أخرى إن (وكيع) بن سلمة كان والى مكة واقتضى الأمر أثناء ولايته تعمير بعض أماكن الحرم الشريف، ولما كلف بأعمال البناء بنى لنفسه بجانب باب حزورة قصرا خاصا به، وقد اعتاد أن يقيم فى هذا القصر من حين لآخر لأداء مهمته، وكان قد عين غلاما يسمى حزورة لحراسة هذا القصر لذا اشتهر ذلك الباب باسم هذا الغلام، وبما أن الحجاج يخرجون من هذا الباب بعد أداء طواف الوداع كان ذلك سببا بتسميته بباب الوداع، ومن الأصول المرعية الآن أن يغادر الحجاج مكة المكرمة بعد إتمام طواف الوداع بشرط ألا يدخلوا الحرم الشريف بعد ذلك.

من معتقدات الأدلاء والمطوفين أن الشخص الذى يتم طواف الوداع عند باب الوداع، ثم يعود من داخل الحرم إلى باب إبراهيم ويخرج منه ثم يسافر إلى بلاده فهذا يجعل هذا الحاج يعود مرة أخرى لأداء الحج، هذا العمل من الأمور المجربة والذين يراعون هذا النظام لابد أن يعودوا مرة أخرى لأداء الحج، ومن الأمور التى لا تحتاج إلى الدليل أو البرهان أن الأشخاص الذين يرون تلك الأماكن المقدسة رؤية العين يتمنون أن يروا تلك الأماكن مرات عديدة.

ولذا يخرج الأدلاء الحجاج من باب إبراهيم.

وأنا مؤلف هذا الكتاب وإن كنت وَدَّعْتُ البيت خارجًا من ذلك الباب،

ولكننى إلى الآن لم أنل أملى فى زيارة بيت الله مرة أخرى. وأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يقدر لى ذلك.

٢ـ باب إبراهيم:

كان يقال لهذا الباب باب إبراهيم أبو عبيدة البكرى، ويشتهر باسم شخص كان يمارس الحياكة بجانبه اسمه إبراهيم، وكان الشيخ سعد الدين الإسفرائينى صاحب كتاب نسبة الأعمال ومؤلفه مقتنعا أن الحائك إبراهيم كان من أصفهان، ولكن بعض الأفاضل قالوا إن المقصود بإبراهيم هنا هو حضرة الخليل (عليه السلام)، ولكن الإمام الأزرقى سمع هذا القول قائلا إن الباب المذكور كان معروفا بباب الخياطين عند الأوائل، وبناء على ادعاء الإمام الأزرقى أن اسم ذلك الباب كان باب الخياطين قديما وكان له مدخلان وبنى أخيرا فى عهد السلطان الغورى فوق كمرتين قصر مشيد، وعند عمارته قد جدد طبقا لشكله القديم وله الآن مدخل ذو كمر واحد والقصر الذى فوقه خصص لإقامة رؤساء السادات.

٣ـ باب العمرة:

إن لهذا الباب كمر وثمانى شرفات وكان اسمه القديم باب بنى سهم، وبما أنه أصبح من عادة البلد أن يخرج ويدخل الحجاج الذين يذهبون إلى التنعيم من هذا الباب يسمى ذلك الباب بباب العمرة، وقد جدد على أجمل شكل وأحسن هيئة.

الأبواب الشمالية

الأبواب الشمالية وهى: ١ ـ باب السدة ٢ ـ العجلة ٣ ـ باب القطبى ٤ ـ باب دار الندوة الزائد ٥ ـ باب الدريبة.

ولكل واحد من هذه الأبواب ثلاث عشرة درجة داخلية وأربع درجات خارجية.

١ـ باب السدة:

كان يطلق على هذا الباب قديما باب عمرو بن العاص، الباب العتيق، والآن يعرف باسم (باب السدة)، وله ثمانى شرفات وكمر واحد وعند تعمير الحرم الشريف قد هدم تماما وبني من جديد.

٢ـ باب العجلة:

يعرف هذا الباب بباب البسيطة أيضا لوجوده متصلا بمدرسة عبد الباسط. وله كمر واحد وتسع شرفات وقد بنى من جديد فى عصر السلطان سليمان خان.

٣ـ باب القطبى:

إن هذا الباب مبنى تحت كمر واحد وفى الجهة الغربية من باب الندوة الزائد، وبما أنه لم يكن فى حاجة إلى الترميم ترك على حاله القديم.

٤ـ باب الندوة الزائد:

لهذا الباب كمران و٢٢ شرفة، ويقع بالجانب الشمالى لباب القطبى، وقد أضاف قاسم بك الذى كان أمين البناء عند بناء المدارس الأربع السليمانية كمراً آخر فتغير شكله القديم. وعندما كان يجدد الحرم الشريف انهارت تلك الأكمار الثلاثة فبنى على كمرين وفق الرسم القديم، وصنع له اثنين وعشرين شرفة بغية التزيين.

وبما أن شيبة بن عثمان قد اعتاد أن يدخل ويخرج من ذلك الباب قد عرف فى الأول «بباب دار بنى شيبة بن عثمان».

٥ـ باب الدريبة:

إنه باب تحت مبانى المدرسة السليمانية ذو كمر واحد وقريب من باب السلام وفى اتصال المدرسة السليمانية. وقد جدده أمين بناء المدرسة السليمانية على كمر واحد.

تعريف مفصل لمآذن المسجد الحرام
وعددها ومقدميها وعدد مآذن مكة المعظمة وأماكن وجودها

للمسجد الحرام سبع مآذن فى زماننا وتسمى مئذنة، باب العمرة، ومئذنة باب السلام، ومئذنة باب على، ومئذنة باب الوداع، ومئذنة باب الندوة الزائدة، ومئذنة قايتباى، ومئذنة السليمانية، وجميع هذه المآذن موجودة الآن ويؤذن فوقها الأذان المحمدى.

١ـ مئذنة باب العمرة:

وإن لم ليكن معروفا الذى بنى مئذنة باب العمرة إلا أن أول من جددها (١) هو أبو جعفر المنصور الدانقى من خلفاء بنى العباس. وقد أصلحها ودعمها محمد الجواد بن على بن منصور الأصفهانى وزير صاحب الموصل فى سنة مائة خمس وخمسين، وهدمها السلطان سليمان خان فى سنة (٩٣١) وجددها السلطان مراد الثالث، وكان شكلها قبل هدمها مثل مآذن مصر القاهرة إلا أنها كانت قديمة فهدمت حتى أسسها الأرضية، وبنيت على طرز مآذن الممالك الرومية، وللمئذنة الجديدة شرفتان وعلى شكل مسدس وفى غاية الجمال من حيث البناء.

وفى عهد الإمام الفاكهى كان رئيس مؤذنى الحرم الشريف يبدأ الأذان من مئذنة باب العمرة، وكان مؤذنو سائر المآذن يقتدون به واستمرت هذه الحالة إلى عهد تقى الفاسى المكى من المؤرخين الكرام، وأخذ المؤذن الإمام من ذلك العهد يؤذن من فوق مئذنة باب السلام والآخرون يقتدون به، وفى عصرنا هذا يؤذن

رئيس المؤذنين الشافعى المذهب من المحفل الشافعى الكائن فوق بئر زمزم وبعده مؤذن باب الوداع ويقتدى بقية المؤذنين بهما.

والمنظومات الجميلة الحسنة الشاملة مثل التسبيح والتمجيد والتذكير والتوديع تجرى مثل ما هو مكتوب.

الأوراد التى تقرأ على المآذن فى الليالى

قد حصلت على نسخة تحتوى على الأوراد والأذكار التى تقرأ فوق مآذن الحرم الشريف قرب الصبح. ولما توقعت أن تكون مفيـدة رأيت إدراجها وكتابتها.

* * *

الصورة الصحيحة للذكر والتهليل

اللتين يقرؤهما المؤذنون فى آخر الليالى على مآذن الحرم الشريف

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نؤمن إلا بالله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نتوكل إلا على الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نستعين إلا بالله (٣ مرات)، لا إله إلا الله أمانا وخوفا من عذاب الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله يا قومنا أجيبوا داعى الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله الكريم الذى إذا سئل أعطى إذا استعين أعان لا إله إلا الله الحكيم الكريم الذى إذا قطر قطرة من بحر جوده وكرمه ملأ بها الأكوان.

لا إله إلا الله الحكيم الكريم الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، لا إله إلا الله يا سعادة من قام من منامه ولذيذ أحلامه وذكر الله العظيم بقلبه ولسانه، وقال لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله النبى الصادق الفاتح الخاتم، وسيلتنا العظمى إلى الله يوم العرض على الله، هذه الشهادة عليها نحيا وعليها نموت وبها نبعث إن شاء الله من الآمنين الفائزين المستبشرين برحمة الله وكرمه، ما شاء كان وما لم يشأ ربنا الكريم لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

إخطار:

فى ختام التكبير سالف الذكر يقرأ الاستغفار الذى سيكتب فيما بعد، وبعد الاستغفار يدور بالمئذنة عشرين مرة وفى كل دورة يقرأ التسابيح الشريفة وعقب الدورة العشرين يؤذن أذان الصباح. انتهى.

الصورة الشريفة للاستغفار

أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة لى ولوالدى ولمن أحسن لى ولمن أساء إلى ولأصحاب الحقوق على، ولجميع المؤمنين والمؤمنات المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات إنك يا مولانا يارب سميع قريب مجيب الدعوات، القائل تعالى فى محكم الآيات البينات على لسان محمد سيد السادات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(التوبة: ٢١ ـ ٢٢).

١ تسبيح الدورة الأولى:

سبحانه وتعالى إله عزيز جبار وملك عفو غفور قوى قادر مقتدر قهار.

للذنـــــوب غـــــافـــــر
وللعيـــــوب ســـــاتـــــر
وللمقلوب المنكسرة جابر وناصر
سبحـانـه وعلى الجبابـرة ملـك جبـار

٢ ـ تسبيح الدورة الثانية:

.سبحان من أوهب الليل وأوجد النهار
وأظهـر العلامـة وشعشـع الأنـوار
الرعـد يسبحـه بصـوتـه الهـدار
والبرق يلمع من خيفته كلما أومض واستنار
يتجـلى ربنـا فـى الأسحـار
وينـادى المنـادى جَـلَّ المـنادى
أيـا عبـادى! أنـا الغـفار
يـا عـبادى! أنـا الستـار

يـــا عـــبادى! أنـــا القهـــار

يـا عبـادى! أنـا خالـق الليل والنهار

العارفـون واقفـون عـلى قـدم الخـوف والافتقـار

لا يستقـــر لهـــم قـــــــرار

كلما جـدوا وجـدوا وكلمـا جاهـدوا

شاهـدوا جمـال وكمـال مـن لاتـدركـه الأبصـار

٣- تسبيح الدورة الثالثة:

سبحـان مـن لا تدركـــه الأبصـــار

ولا تحيـــط بعظمتـــه الأفكـــار

ولا يغيـره الليـل ولا يبدلـه النهـار

وهو يدرك الأبصار وهو اللطيـف الخبير

الحليم المنعـم الستـار وهـو مولانـا

ومولاكم، فنعم المولى ونعـم النصير

٤- تسبيح الدورة الرابعة:

أحاط ربنا الكريم بكل شيء علما

ووسعت رحمته كل شيء عددا وكرما

ومغفـــرة منـــه وحلمـــا

سبحانـــه رفـع السمـــاء قدرتـــه

وبســـط الأرضـــين بحكمتـــه

وأجـــرى السمـــاء

وعـــلم آدم الأسمـــاء

سبحانـه أحصـى كـل شـيء عـددا

٥- تسبيح الدورة الخامسة:

يقول إله العرش جل جلاله
لعبد نشأه فى العبادة انتشاء
تذكر جميلى مذ خلقتك مضغة
ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشاء
وسلم إلى الأمر وأعلم بأننى
أنفذ أحكامى، وأفعل ما أشاء

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ آل عمران (٥ ـ ٦).

٦ ـ تسبيح الدورة السادسة:

فعال لما يريد قادر ربنا الكريم على ما يشاء
له الملك والقضاء
وله الحمد والثناء
وله العزة والبقاء
وبيده الخير والجود والتوفيق والعطاء
ونسأله العفو عما سلف ومضى
وهو سريع الرضا
سبحانه لا دافعًا لله فيما قضى.

٧ ـ تسبيح الدورة السابعة:

كن عن همومك معرضا
أسلم سلم أمورك للقضاء
وابشر بخير عاجل
تنسى به ما قد مضى

فلربما اتسع المضيق

وربما ضاق الفضا

ولرب أمر متعب لك فى عواقبه رضا

الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

الله يفعل ما يشاء

فلا تكن معترضا

٨ ـ تسبيح الدورة الثامنة:

يا من إذا أبصرنى معرضا

وليس فعلى عنده مرتضى

بحرمة التوحيد ويا سيدى! يا رب: أنت

الذى تسمع لى بالرضا

دبر أمورى أنا وجميع المسلمين، يارب!

يا من إذا دبر أمراً قَضَى.

٩ ـ تسبيح الدورة التاسعة:

يأيها الراضى بأحكامنا

لابد أن تحمد عقبى الرضا

فوضى إلينا الأمر مُسَلِّمًا

فالراحة العظمى لمن قد فوضا

إن تعلقت بأسبابنا

فلا تكن عن بابنا معرضا

من كل من يأتى وما قد مضى

لاينعم المرء

حتى يرى الخيرة فيما مضى.

١٠ ـ تسبيح الدورة العاشرة:

العمر ولى والزمان قد انقضى
أترى يسامحنا الكريم بما مضى
وعلى دين قد عجزت عن الوفاء.
ومتى ديونى يا إلهى تقتضى؟
وأفوز من ذاك الجناب بنظرة
وأرى سواد الصحف أصبح أبيضا
يا قلب مالك راحم إلا الذى
لما أسأت وثبت عامل بالرضا
يا قلب لا تغفل إذن عن بابه
إياك عن أبوابه أن تعرض
لو كنت لازمت الوقوف ببابه
لكساك من إحسانه حلل الرضا
لكن غفلت وبات طرفك نائمًا
ياليته عن ربه لا يغمضا

١١ ـ تسبيح الدورة الحادية عشرة:

إليك بسطت الكف، أسألك الرضا
أنت الذى تعفو وتغفر ما مضى
أنت الذى ترجى لكل مهمة
إذا ضاقت الأفلاك متسع الفضا.

١٢ ـ تسبيح الدورة الثانية عشرة:

أتيت إلى مولاى أسأله الرضا
ووقفت على أبوابه متعرضا
وقدمت تقصيرى وذلى وفضاحتى
وما كان منى فى الزمان الذى مضى

فعاملنـــى مـــولاى بلطـــف
وقـال لك البشـرى غفـرت الـذى مضى
فمن مثلـه فـى الكـون يخشى ويرتجى
إذا ضـاق بالملهـوف متسع الفضـا
يعـذب تعذيـبا ويعفـو تكـرما
وليـس للمخـلوق أنْ يتعرضـا
ويـا سيدى قـد ضـاع عمـرى باطـلا
وولى زمانى فى المعاصـى وانقضى
فإن كان ذنبى عن جنابك معرضا
فعفـوك يأتـى بالأمـان وبالرضـا
ومالـى شـفيع غيـر جـاه محمد
نبى الهدى أزكـى رسـول ومرتضـى
عليـه سـلام الله مـا هبـت الصـبا
وما لاح نجم فى السمـاء وقـد أضـا

١٣ ـ تسبيح الدورة الثالثة عشرة

لا دافعـا لله فيـما قضـاه وحكـم
ولا مانعـا له فيمـا أعطـاه وقسم
ربنـا يفعـل فـى ملكـه مـا يريـد
وبحكـم فـى خلقـه بمـا يشاء ويرضى
جـل سبحانـه فسـبحان الله

١٤ ـ تسبيح الدورة الرابعة عشرة:

ليـس لله شـريك فى الملـك
ولا مدبـر لـه فى الأمـور
لا يـرجـو ثـوابـا

ولا يهـــــــاب عقـــــابـــــا
ولا على باب جوده وكرمه حاجبا ولابوابا
كل نعمـــــة مـــــن الله الكريم فضـــل
وكـــــل نعمـــــة مـــــنه عـــــدل
ولا يســـــأل عمـــا يفعـــل وهم يسألون

١٥ ـ تسبيح الدورة الخامسة عشرة:

لا إلـــــــه إلا الله تبـــــارك
وتعالـــــى واحـــد مفـــرد فـــى ملكه
لاشريك له ولا صنو له ولا ند له
هو الحنـــــان المنـــان الرحيـــم الرحمن
الـــذى لا إلـــه إلا هـــو الحـــى
جل الباقى سبحـــانه ومـــــا ســـواه

١٦ ـ تسبيح الدورة السادسة عشرة:

يارب عفوك أســـأل حلمـــك أســـال
جـــودك أســـال رضـــاك أســـال
وبسيدنـــــا محـــــمد أتوســـل
يـارب عبـد ضعيف واقـف ببابك يسأل
وبالذنوب مثقـــل اغفـــر ذنوبـــى
وسامـــح يـــا خالقـــى وتفضـــل.

١٧ ـ تسبيح الدورة السابعة عشرة:

قُمْ فى الدَّياجى وناجى مولاك ما شئت فاسأل
وادْعُ بقلب سليم لعلك تنجو وتُقْبَلْ
واصْفَ وصَافى وَوَحِّد مولى علينا أنعم وتفضَّلْ
معطى العطايا كريمٌ بالخير أَنْعَمَ فَأَجْزَلْ

١٨ ـ تسبيح الدورة الثامنة عشرة:

سبحان من أنعم فأجزل
حكم فعدل ولم يبخل
وجاد ربنا الكريم على عباده وتفضل
يقول القائل فى حق عظمته ولا يتأول
سبحان ربنا الحليم الكريم
العظيم هو الأول

١٩ ـ تسبيح الدورة التاسعة عشرة:

يا أول قبل كل أول
وآخر، ما له محول
سبحان الكريم فلا يبخل
سبحان القديم فلا يتحول
يارب عبد ضعيف واقف بالباب يسأل
أنعم علينا بجودك وإحسانك ياخالقى وتفضل
يا من هو قبل كل أول.

٢٠ ـ تسبيح الدورة العشرين:

أول بلا بداية
وآخر ما له نهاية
سبحان رب البرايا
سبحان معطى العطايا
سبحان كاشف الضر والبلايا
سبحان من له اللطف والعناية
وبيده الخير والجودوالتوفيق والهداية
سبحان مَنْ له فى كل شىء آية

تدل على أنه هو ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣)، ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزمر ٧٥)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

لازمة

قد اتخذ الجهر بالتسبيح عادة متبعة فى عهد موسى (عليه السلام) واستمرت هذه العادة الطيبة إلى عهد داود (عليه السلام).

وكان داود (عليه السلام) يعين من يقومون بالتسبيح من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر، واستمرت هذه السنة إلى أن خرب بيت المقدس، وقد أبطل اليهود العمل بالشريعة اليهودية، إذ قاموا ضد السيد المسيح رافضين دعوته، وأوقفت هذه السنة الطيبة إلى أن اعتكف مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار الصحابى الجليل فى مسجد عمرو بن العاص فى مصر.

عين مسلمة فى سنة ٤٤٨ الهجرية واليا على مصر من[١] قبل معاوية فذهب فى حينه إلى مصر، ورأى أن جامع عمرو بن العاص فى حاجة إلى تعمير وتصليح فعمره جيدا، وألحق به مئذنة[٢] وعقب ذلك اعتكف فى المسجد إلا أنه انزعج من صوت الناقوس، وقص ذلك لشرحبيل بن عامر الذى فكر فى حل فريد إذ أخذ يؤذن من منتصف الليل إلى الصباح، إذ هو كان مؤذن المسجد، وهكذا أبهج مسلمة بن مخلد، ودامت هذه العادة إلى عهد أحمد بن طولون الذى عين أشخاصا كثيرين بأجر من الأوقاف، ووضع سنة قراءة الذكر والتسبيح إلى الصباح، ولما ترك صلاح الدين الأيوبى الحرية لمؤذنى المساجد؛ أخذوا يسبحون ويذكرون وفق المذهب الأشعرى.

(١) ابن مخلد هو الحاكم الرابع المرسل إلى مصر من طرف بنى أمية.
(٢) هى أول مئذنة أنشئت فى الإسلام.

وإن كان المؤذنون إلى الآن يذكرون ويسبحون من فوق المآذن فى مصر والشام إلا أنهم لا يؤذنون من المساء إلى الصباح كما كان يحدث فى عهد صلاح الدين، بل يسبحون قبيل الفجر بقليل، وفى مكة المكرمة يبدءون الذكر فى آخر الليل، ولا توجد فى البلاد الإسلامية الأخرى عادة الذكر والتسبيح، إلا أنهم يمجدون الله فى ليالى رمضان. «محاضرة الأوائل».

٢ـ مئذنة باب السلام:

بانى هذه المئذنة غير معروف وكان المهدى بن منصور من الخلفاء العباسيين حينما وسع المسجد الحرام فى سنة (١٦٢) قد جدد هذه المئذنة أيضا جاعلا لها شرفتين، إلا أن بعض المؤرخين ادعوا أن المهدى لم يجدد هذه المئذنة بل بناها إذ لم تكن هناك مئذنة من قبل.

ولما كانت هذه المئذنة قد خربت مع مرور الزمن هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق وبناها من جديد فى سنة (٨١٠هـ)، وجددها وعمرها السلطان مراد خان الثالث (٩٣٨هـ)، ومازالت تلك المئذنة محتفظة بطرز بنائها الذى بناها عليه المشار إليه.

وهى مستديرة إلا أن قلنسوتها على طرز مآذن البلاد العربية، وعلمها مثل أعلام مساجد إستانبول، لذا كان شكلها غريبا.

خبرمهم

إن وجود هلال على قلنسوات المآذن ليس من الأمور الشرعية بل هو عادة اتخذت من قبل ظهور الإسلام، وقد صادف هجوم الملك فليبوس أبى الاسكندر الأكبر على مدينة إستانبول الليلة التى طلع فيها الهلال، وسر سكنتها من هذا وعدوا طلوع الهلال فألا حسنا، فأصبح من عاداتهم اتخاذ رسم هلال على أعلامهم، وانتقلت هذه العادة إلى القياصرة، وبعدهم إلى سلاطين المسلمين فاتخذوا هلالاً على راياتهم وعلى قمة قلنسوات المآذن، وقد انتشرت هذه العادة بالتدريج فى جميع الممالك الإسلامية. انتهى.

٣ـ مئذنة علي[1]:

وإن كان باب علي مجهولا، إلا أنها كانت قديمًا ذات شرفة واحدة، وقد عمر المهدى العباسى مئذنة باب علي حينما عمر مئذنة باب العباس فى سنة (١٦٢هـ). وإن أشار بعض المؤرخين أن بانى هذه المئذنة هو المهدى العباسى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يؤيدوا أقوالهم بأدلة قوية. وانهارت تلك المئذنة بفعل الزمان، وبناها السلطان سليمان بحجر الشمليس الأصفر على طرز مآذن بلاد الروم بعد أن هدمها تماما، وهى الآن على ذلك الشكل.

٤ـ مئذنة باب الوداع:

بناها المهدى العباسى من خلفاء بنى العباس. وهى ذات شرفتين وقد عمرت المئذنة فى عهد شعبان بن حسين صاحب الموصل جزءًا فجزءا، وفى سنة (٧٧١هـ) انهارت هذه المئذنة من نفسها دون أن تسبب أضرارًا لأحد. وقد بدأ حاكم الموصل أشرف بن شعبان فى تجديدها فى نفس السنة، وأتمها فى شهر المحرم الحرام سنة (٧٧٢هـ) وعمرت فى سنة (٩٨٣هـ) فى عهد السلطان مراد خان الثالث، ومازالت محتفظة بشكلها الذى صنعت عليه، وهى مثمنة الشكل غاية فى الجمال.

٥ـ مئذنة باب الزيارة:

بانى مئذنة باب الندوة الزائد هو المعتضد بالله العباسى وهى ذات شرفتين.

وقد هدمها الملك الأشرف برسباى المصرى فى سنة (٨٣٨هـ) وبناها من جديد وعمرها وأصلحها السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٨٣هـ) تصليحا جيدا، ومازالت قائمة على حالها بعد أن عمرت وأصلحت.

(١) نسبة إلى سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

٦ـ مئذنة قايتباى:

مئذنة السلطان قايتباى فوق عقد باب مدرسة قايتباى الذى يواجه المسعى، وإنها فى غاية من الجمال ولها شرفتان.

٧ـ مئذنة السليمانية:

مئذنة السليمانية ذات ثلاث شرف، وهى بالنسبة للمآذن الأخرى أطولها، وهى بين باب السلام وباب الزيادة ومتصلة بالمدرسة السليمانية، وقد بنيت من الحجر الشمسى[1]، وزخرفت بالذهب الأحمر. إن هذه المئذنة هى آخر المآذن التى أنشئت فى الحرم، وقد بنيت تحت إشراف محافظ جدة وأمين بناء المدرسة السليمانية وتم بناؤها فى سنة (٩٧٣هـ). والمآذن السبعة حول المسجد الحرام يؤذن عليها فى الأوقات الخمس.

ويقول الإمام الفاكهى كان فوق باب إبراهيم الزائد مئذنة على شكل صومعة، وبما أنها كانت فى مواجهة منازل بعض أشراف مكة هدموها.

كما يخبرنا ابن جبير عن وجود مئذنة فوق باب الصفا، وبما أنها كانت ضيقة يشق الصعود والنزول منها فهدمت.

وقد بين الإمام الفاكهى وجود مئذنة بين الميلين الأخضرين، إلا أنه لم يخبر شيئا عن بانيها ولا عن هادمها.

إن المؤلفين الذين سبق ذكرهم أخبرونا عن وجود كثير من المآذن فى مدينة مكة الله إلا أنه لم يبق لهذه المآذن فى وقتنا هذا اسم ولا رسم.

إننا لم نقدر أن نحصل على تاريخ يحدثنا عن المآذن التى ادعى وجودها المؤرخون القدماء، إلا أننا لا نستبعد احتمال وجود بعض المآذن القصيرة فى الأحياء البعيدة عن المسجد الحرام، لأنه يروى أنه عندما فتح النبى ﷺ مكة المكرمة ركز راية نصره فوق مسجد الراية، وكان له مئذنة ذات شرفتين وكانت

(١) وبما أن هذه الأحجار تستخرج من مكان اسمه (الشمسية) سميت «الشميسى».

القناديل توقد عليها فى ليالى شهر رمضان إعلانا للموحدين بحلول وقت الإفطار، ويؤذن عليها أذان المغرب، وتطفأ القناديل بعد السحور.

وبناء على قول تقى الفاسى كانت فى مكة مآذن غير مآذن المسجد الحرام فى مواقع محددة، وكان لها موظفون مكلفون بأداء مهمة الآذان، وكان بانى هذه المآذن هارون الرشيد العباسى بناء على أصح الأقوال. وسواء أكانت تلك المآذن المذكورة أو المآذن القائمة فوق جبل أبى قبيس وعلى قمة الجبل الذى يقابل جبل الأجياد أو على جانبه وفى المكان الذى يواجه المجزر وفى شعب بنى عامر وجبل التناجة وعلى الجبل الأحمر يبلغ عددها ٥٣ مئذنة، وبما أن تقلبات الزمن التى لا تبقى على أى شىء قد أفنت هذه المآذن لم يبق لها اسم ولا أثر.

وفى أوائل ظهور الإسلام كان يؤذن فوق كل هذه المآذن وكانت القناديل توقد عليها إحياءًا لليالى رمضان، ولا أثر لهذه المآذن فى زماننا هذا، إلا أنه فى الليالى التى يثبت فيها قدوم شهر رمضان كان يعلن ذلك بإطلاق المدافع من فوق القلاع السلطانية، ويتبع نظام قنة لتبليغ ذلك لعربان البادية، أى بإيقاد الشموع والنيران فوق الجبال من هنا وهناك، ولا يبعد أن يكون هذا النظام قد اتخذ بدلا من إيقاد القناديل فوق المآذن وفى سنة (١٢٧٥هـ) بنى أحد الهنود فوق جبل أبى قبيس مسجدا ذا مئذنتين، كما أن أحد محاسبى ولاية الحجاز بنى على موضع شق صدر النبى الذى فوق جبل النور مسجدا جميلا، ولكن قراءة الأذان من فوق هذه المآذن ليست معتادة.

شعر

يا مـــن بمالك من عميـــم النعم
وجدت لك القـــرب فى الحـــرم
افتح عينيك وإنها صنع الإله تتمـــلى
يالـــــه حســـنا أزليـــا يتجلـى

وبعين قلبك انقل فى طريقــة القدم

وبإجـــلال وتعظـــيم ادخـل الحرم

فى كـــل أطـــرافه عُمُـــدٌ مـن رخام

وكأنهـــا الملائـــك فـــى قيـــام

يـــا لـــه بيتا وعيون الحســـان الســـود

كـــل هـــدب لهـــا عمـــود

فى كل طرف مشاهد بديعة نور يسطع

كـــل مشهد مـــن غيـره أبدع وأروع

صعد هذا البيت إلى طاقات الآفاق

ومن كل طـــاق جعل لـــه الـــرواق

بيـــت ملـــئ بالنـــور والصـــفا

كـــل حجـــر فيـه جبـــل الوفا

كل ما فيه باللجين والنضار تحلى

كل شئ فيه من غيره أروع وأحلى

ظـله المقامـــات الأربـــعة فيـــه

على رأس هـــذا الورى مظلة تحميه

اصطـــف علـــيه منـــار ومـــنار

يزرى بنـــضار الفـــلك الدوار

ظله إلـــى أوج الفلـــك يرتفـــع

وهـو بظـــل الأشجـــار مجتمـــع

وظـــله مـــن الســـماء العاليـة

ألقـــى علـــى الفلـــك الغاشية

وعنـــــد تصـــــعيد الأذان

جـــاءه روح القـــدس بالألحـــان

وعـــــند تصـــــعيد الأذان

جـــاءه روح القـــدس بالألحـــان

وعلى بابه وسقفه الكـــمال والسماح

طاف حولهـــما كأنهـــما الأرياح

وردة نضرة مـــن بستـــان الخليـــل

أنارت منـــه عـــين قنديـــل الخليل

بمجـــلة الحبيـــب يعـــرف

وتضـــوع بمـــا للحبيـــب من عرف

نور الإلـــه فيـــك لـــم يـــزل

فيـــه الخـــلود لفـــيض الأزل

لزمـــزم كـــل بـــقاء وصفـاء

للمنبـــر كـــل رفـــعة وسناء

ذؤابتـــه جيـــد الـــروح تزييـــن

وينيـــر عيـــن الدنـــيا بالجبـــين

يهـــب الظـــلال كطـــوبى أرم

وخـــلوته ســـتار قصـــر القدم

يمضى الخـــلق فى ظـــلال مـن كرمه

ويحمـــل النيران المشعل فى حرمه

وله أنـه متشحـــا بالســـواد جـــاء

إلا أنـــه جـــاء عـــلى اليد بالآلاء

قـــدم بطلـــعه عنـــبرا انفحت

برعمـــه مســـك فى الجـــنة نبتـت

كســـــوته مسكيّـــة منـــذ الأزل

ولهـــا فى ظلـــمة ماء الخضر المحل

أى بيـــت أقول إنـــه جبـــل نـــور

ســـــاتره ستـــــر الله الغفـــور

خاله الأســـود مســـك أزفـــر

وبه إنســـان العـــين تنـــور

إنه ليـــس نقطة بل دائرة فى السماء

ولـــذا كان له صـــفة النقطة السوداء

الشمـــس والقمـر بالرفعة يشتهران

إلا أنهمـــا لهمـــا عبـــدان

* * *

تشتمل على مساحات المسجد الحرام فى الداخل والخارج وعلى خريطة مسطحة لها[1]

الجدول يحتوى على أبعاد الأبواب المتجاورة بعضها من بعض وقد قيست المسافات من فوق جدران الحرم الشريف

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
المحيط الداخلى لجدران الحرم الشريف	٦	٢١١٩	
من باب السلام إلى باب النبى	–	٥٩	
من باب النبى إلى باب العباس	–	٤٥	من أبواب الجهة الشرقية
من باب العباسى إلى باب على	–	٦٧	
من باب على إلى باب بازان	–	٩٧	
من باب بازان إلى باب بغله	٦	٥١	
من باب بغلة إلى باب الصفا	–	٤٥	
من باب الصفا إلى باب جياد	–	٤٣	من أبواب الجهة الجنوبية
من باب جياد إلى باب مجاهد	–	٥٨	
من باب مجاهد إلى باب مدرسة عجلان	–	٤٧	
من باب مدرسة عجلان إلى باب أم هانئ	–	٣٥	
من باب أم هانئ إلى باب الوداع	–	٧٢	
من باب الوداع إلى باب إبراهيم	–	١٤٩	من أبواب الجهة الغربية
من باب إبراهيم إلى باب العمرة	–	٢٦٨	
من باب العمرة إلى باب السدة	–	١٢٠	
من باب السدة إلى باب العجلة	–	١٢٠	
من باب العجلة إلى باب القطبى	–	١٤٥	من أبواب الجهة الشمالية
من باب القطبى إلى باب الزيادة	–	٤٩	
من باب الزيادة إلى باب الدريبة		٢٦٨	
من باب الدريبة إلى باب السلامة		٥٦	

(١) قد وضعت هذه الخريطة فى الجزء الأخير.

جدول مساحة الحرم الشريف الداخلية

البيـــــان	قدم	ملاحظـــات
من باب السلام إلى باب العمرة	٥٣٧	بالطول
من باب على إلى باب الوداع	٥٢٥	
من باب العباس إلى باب إبراهيم	٦١١	
من باب السدة إلى باب أم هانئ	٣٨٠	بالعرض
من باب الزيادة إلى باب الصفا	٥٠٠	
من باب عجلة إلى باب مجاهد	٤٢٠	
من باب قطبى إلى باب جياد	٤٨١	
من باب الدريبة إلى باب بازان	٣٩٨	

جدول مساحة الحرم الشريف سطحا ومتفرقا

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
تحت القباب الشرقية	١٤٨٥٥	المساحة السطحية لقباب الحرم الشريف
تحت القباب الغربية	١٣٨٥٥	
تحت القباب الشمالية	٢١٦١٨	
تحت القباب الجنوبية	١٩٤٩٦	
تحت قباب باب الزيادة	٥٤٧٢	
تحت قباب باب إبراهيم	٢١٩٤	
المساحة السطحية لجميع القباب	٢٧٤٨٩	مساحة الزيادة الداخلية
باب الندوة الزائد	٥٠٥٨	
باب إبراهيم الزائد	٤٨٤٠	
مساحة الحرم الداخلية بدون قبب	١٤٠٤٧٢	
مساحة الحرم الشريف الكلية	١٧٧٨٦٩	الأرصفة وسائر المبانى فى داخل هذا الحساب

الجدول الذى يشمل مساحة قواعد المآذن السطحية للحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
مئذنة باب السلام	٤٧٠	الجهة الشرقية
مئذنة السلطان قايتباى	٥١٧	
مئذنة باب على	٣٨٠	
مئذنة باب الوداع	٤٠٠	الجهة الغربية
مئذنة باب العمرة	٤٣٧	
مئذنة باب الندوة الزائد	٤٢٠	الجهة الشمالية
المئذنة السليمانية	٤٢	

جدول الساحة الرملية للحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
الساحة الرملية الأولى	٤٢٠٧	
الساحة الرملية الثانية	٤٣١٢	
الساحة الرملية الثالثة	٣٤٣٣	
الساحة الرملية الرابعة	١١٢٤١	
الساحة الرملية الخامسة	٢٦٩٩٤	إن هذه الساحات الرملية خارج مساحات قباب الحرم الشريف وأنها حول أرصفة وقد أشير فى الخريطة برقم خاص لكل الساحات الرملية
الساحة الرملية السادسة	١٥٠١٥	
الساحة الرملية السابعة	١٢٣٥٥	
الساحة الرملية الثامنة	٧٦٠٤	
الساحة الرملية التاسعة	١٣٣٤٤	
الساحة الرملية العاشرة	٩٠	
الساحة الرملية الحادية عشرة	١٠٦٢٤	
الساحة الرملية لباب إبراهيم	٢٦٦٦	
	٩٩٣٥٧	المساحة الكلية لساحات الحرم الشريف الرملية

المساحة الخارجية لبيت الله

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
مساحة كعبة الله الدائرية من غير حجر إسماعيل	١٤٣	
مساحة كعبة الله الدائرية بحجر إسماعيل	١٥٨	
مساحة كعبة الله الدائرية من خارج الحطيم	١٤٧,٣	(١)

جدول مساحة أرصفة الحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
الرصيف الأول	٨١٠	
الرصيف الثانى	٨٩٠	
الرصيف الثالث	٣٨	
الرصيف الرابع	٧٣٨	
الرصيف الخامس	٨٥٥	
الرصيف السادس	١٢٣٠	
الرصيف السابع	٨١١	
الرصيف الثامن	١٠٣٨	
الرصيف التاسع	٣٣٠	إن مبانى بيت الله المقدسة والحطيم خارج هذا الحساب
الرصيف العاشر	٤٧٦	
رصيف المطاف	٧٦٧	
الرصيف الواسع حول المقامات الأربعة	١٩٤٤٤	يطلق على هذا الرصيف الواسع بين أهل مكة «بلاط» والمقامات الأربعة وبئر زمزم ومبانى التوقيت فى داخل هذا الرصيف
الرصيف القائم حول المطاف	١٥١٠	
رصيف باب الزيادة الأربعة	١٦٧٢	
رصيف باب إبراهيم	١٣٢	
	٣٧٥٢٧	مساحة مجموع أرصفة الحرم الشريف

(١) يعنى بخارج الحطيم الأماكن التى يجوز الطواف بها أى خارج الجدار المستدير.

مساحة بيت الله المحترم فى الداخل

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
سطح كعبة الله فى الداخل	-	٦٥٦	(١)
سطح سلم السطح الشريف	-	٤٨	
من جدار كعبة الله الجنوبى إلى العمود الأول	١٧	٢	
من العمود الأول إلى الثانى	١٧	٢	
من العمود الثانى إلى الثالث	٣	١	
من العمود الثالث إلى الجدار الشمالى	٤	٣	(٢)
من الجدار الشرقى إلى الأعمدة	١١	٤	
من الجدار الغربى إلى الأعمدة	٨	٦	

مساحة شادروان الكعبة

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
عرض شادروان الكعبة من الجهة الجنوبية	٢	٤	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الغربية	٠	٤	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الشمالية	٠	٣	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الشرقية	٠	٣	(٣)
ارتفاع شادروان الكعبة من الأرض	٩	١	

(١) للجدار الداخلى الغربى جزعة ترتفع عن أرض بيت الله ستة أذرع، جزعة خططت ونقشت عليها خطوط سوداء وبيضاء، وطول الجزعة اثنا عشر ذراعًا، وقد أدرج فى الجهة اليمنى منها ذهب قدر ثلاثة أصابع، يروى أن النبى ﷺ قد مسح هذا المكان بحاجبيه.

(٢) يقال بين العامة على هذه الأعمدة أعمدة «الحنان والمنان» لأنه قد كتب فوق ستارتها كلمات (الحنان والمنان).

(٣) يطلق فى الشرع اسم شادروان على الجدران البارزة من أرض بيت الله.

الأبعاد الخارجية لبيت الله

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
ارتفاع جدران كعبة الله	-	٥٦	الطول (١)
من الحجر الأسود إلى الركن العراقى	-	٣٩	
من الركن الشامى إلى الركن اليمانى	-	٤٢	
من الركن العراقى إلى الركن الشامى	-	٢٩	
من الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود	-	٢٣	
ارتفاع باب الكعبة	-	٩	العرض (٢)
عرض باب الكعبة	٨	٥	يطلق على ما بين الباب المسدود والركن اليمانى للمسجار
ارتفاع كعبة الله من أرض المطاف إلى عتبة الباب	٦	٥	
ارتفاع الباب المسدود	٩	٣	

مساحة الحطيم فى الداخل والخارج

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
ارتفاع جدار الحطيم الكبير	١	٤	
عرض جدار الحطيم	١١	١	
بعد الجدار الشمالى للكعبة إلى جدار الحطيم	١	٢٥	يطلق الحطيم على جدار شكله نصف دائرى فى طرف المقام الحنفى
البعد بين بابى الحطيم	-	١٩	
عرض بابى الحطيم	-	١٠	
الطول الدائرى لجدران الحطيم من الداخل	-	٣٩	
الطول الدائرى لجدران الحطيم من الخارج	١	٤٧	
المساحة السطحية للحطيم من غير الحجر	-	٦٤٣	قدم مربع
المساحة السطحية لقاعدة جدران الحطيم		١٠٧	قدم مربع

(١) يطلق على الركن العراقى الركن الشامى وعلى الركن الشامى اسم الركن العراقى.

(٢) يقع الحجر الأسود فى الركن الشرقى لكعبة الله. ويبدو كرأس إنسان وارتفاع الحجر الأسود عن المطاف ما يقرب من خمسة أقدام.

مساحة مقام إبراهيم

البيـــــان	بوصة	قدم	لنية	ملاحظـــات
ارتفاع صندوق المقام الشريف	٤	١	–	–
عمق موضع القدم الشريف	–	–	٨	(١)
عرض مصلى أئمة الشافعية	٨	٧	–	–
طول مصلى أئمة الشافعية	–	٧	–	–
البعد من صندوق المقام إلى شادروان الكعبة	–	٢٨	–	–
من صندوق المقام إلى باب الصفا	–	٤٦٢	–	–
من صندوق المقام إلى بئر زمزم	–	٣٥	–	–
من بئر زمزم إلى شادروان الكعبة	–	٢٧	–	–

المساحة السطحية للمقامات الأربعة ودار التوقيت والمكتبة

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
مساحة المقام الحنفى المربعة	-	٣٧٥	
مساحة المقام المالكى المربعة	-	٢٥٥	
مساحة المقام الحنبلى المربعة	-	٢٨٥	
مساحة المقام الشافعى المربعة	-	٥٨	
مساحة مبانى زمزم المربعة	-	١٦٢	
مساحة دار التوقيت المربعة	-	١٢٠	(٢)
مساحة مبانى المكتبة مع دواليبها	-	١٣٨	(٣)
مساحة داخل شبكة المقام الإبراهيمى المربعة		٤٨	

(١) وغلفت أثر القدم الشريف بالفضة، وهى خلف شبكة مقام مصلى الشافعية، وقد بنيت على عمودين من الحجر.

(٢) نقلت دار التوقيت فى سنة ١٢٩٩ إلى مكان متصل بسلالم خاصة بالمئذنة السليمانية فى داخل الحرم.

(٣) ونقلت المكتبة فى سنة ١٢٩٩ إلى القبة التى عرفت بدار أحمد باشا.

بعد البقعة المقدسة لكعبة الله من المواقع المختلفة فى داخل الحرم

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
من تحت ميزاب الرحمة إلى المقام الحنفى	-	٥٦	(١)
من المقام المالكى إلى شادروان الكعبة	-	٤٤	
من المقام الحنبلى إلى شادروان الكعبة	-	٢٠٦	
من الحجر الأسود إلى باب الصفا	-	٣٧٨	
من حجر إسماعيل إلى باب الزيادة	-	٣١٦	
من باب الكعبة إلى باب السلام	-	٥٣	
من باب الكعبة إلى باب بنى شيبة	-	٢٨٥	
من باب الكعبة إلى باب على	-	٢٨٢	
من الحجر الأسود إلى باب على	-	٢٧٥	
من الركن الشامى إلى باب العمرة	-	٣٠٦	
من الركن العراقى إلى باب السلام	-	٦	
من الركن اليمانى إلى باب أم هانئ	-	٢٥٥	
من الركن العراقى إلى المنبر	-	٢٤	(٢)
من باب الكعبة إلى سلم الكعبة	-	٨٥	

مساحة طول الأضلاع الخارجية لجدران الحرم الشريف

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
من باب السلام إلى مئذنة السلطان قايتباى	-	١١٦	
من مئذنة السلطان قايتباى إلى مئذنة باب على	-	٢٣٧	
من مئذنة باب على إلى مئذنة باب الوداع	-	٤٧٨	
من مئذنة باب الوداع إلى مئذنة باب العمرة	-	٤١٣	
من مئذنة باب العمرة إلى مئذنة باب الزيادة	-	٤٢٨	
من مئذنة باب الزيادة إلى المئذنة السليمانية		١٤٤	
من المئذنة السليمانية إلى مئذنة باب السلام	-	١٠٠	
المحيط الخارجى لجدران الحرم الشريف	-	٢٢٢٩	

(١) يقع ميزاب الرحمة فى وسط جدار كعبة الله، ويبرز للخارج مقدار أربعة أو خمسة أقدام عرضه وارتفاع أطرافه ثمانية أصابع.

(٢) هذا السلم ما بين مبانى مقام إبراهيم وبئر زمزم.

المساحة العرضية لمداخل أبواب المسجد الحرام

البيـــــان	الطاق الأول قدم	الثانى قدم	الثالث قدم	الرابع قدم	الخامس قدم
باب السلام	٧	٥	٩-	-	-
باب النبى	٦	٥	-	-	-
باب العباس	٥	٥	٥	-	-
باب على	٧	٦	٧	-	-
باب بازان	٦	٧	-	-	-
باب بغلة	٦	٦	-	-	-
باب الصفا	٥	٤	٥	٤	٤-
باب الجياد	٥	٦	-	-	
باب المجاهد	٥	٥	-	-	
باب أم هانئ	٦	٨	-	-	
باب مدرسة الشريف عجلان	٨	٧	-	-	
باب الوداع	٥	٥	-	-	
باب إبراهيم	١٠	-	-	-	
باب العمرة	٨	-	-	-	
باب السدف	٩	-	-	-	
باب الحجلة	٩	-	-	-	
باب الزيادة	٧	٥	-	-	
باب الدريبة[١]	٥	-	-	-	
باب القطبى	٦	-	-	-	
				-	

(١) باب الدريبة باب لا يدخل منه أحد، وفوقه كمر طويل بنى عليه مبانى المدرسة السليمانية.

تشتمل على ثلاث صور

تعرف الأماكن المقدسة والمساجد القديمة والجبال التى فى مكة المكرمة كما تبين أوقات الدعاء وساعاته

تذكر وتعرف الأماكن المقدسة والمواقع الميمونة

كتب العلماء المتقدمون رسائل فى تعريف الأماكن المباركة كل واحد على حدة، مبينين الساعات التى يلزم الدعاء فيها والأيام أيضا، وقد رأينا أن الحسن البصرى قد أبلغ عدد الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء إلى خمسة عشر مكانًا مع ضم منى والجمرة[١] إلى هذه الأماكن وقد عدد صاحب كتاب «النهر» أسماء تلك الأماكن فى هذ النظم.

دعاء البرايا يستجاب بكعبة

وملتزم والموقفين[٢] كذا الحجر

طوافٌ وسعىٌ مروتين[٣] وزمزم

مقام[٤] وميزاب[٥] جمرات[٦] تعتبر

وبين لنا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين الأدعية التى تستجاب فى هذه الأماكن وأيام استجابتها وساعاتها كما وصل إليها النقاش بعد المناقشة والبحث فى هذه المنظومة.

(١) إن لم تكن منى والجمرة فى داخل مكة إلا أنهما بناء على حكم ما قارب الشىء كالشىء عدتا من داخل مكة.

(٢) الموقفان كناية عن جبلى الرحمة والقزح وقد يوقف هنا فى وقفة عرفات.

(٣) المروتان المقصود بهما الصفا والمروة وقد غلب التأنيث على التذكير للضرورة.

(٤) مقام المقصود به المكان الذى صلى فيه أئمة المذهب الشافعى ويقع فى الجهة الشرقية من شبكة مقام إبراهيم.

(٥) يقصد به أسفل الميزاب الذهبى.

(٦) جمرات المقصود بها مواقع الجمرات الثلاث فى منى.

وقد ذكر النقاش[1] فى المناسك وهو لعمرى عدة للسالك أن الدعاء فى مكة يقبل ممن ذكره فى خمسة عشر موضعًا وهى، كما جاء بهذه المنظومة:

إن الدعاء فى خمسة وعشره
بمكة يقبل ممن ذكره
وهى: المطاف مطلقا والملتزم
بنصف ليل فهو شرط ملتزم
وداخل البيت بوقت العصر
بين يدى جذعيه ذا فاستعر
وتحت ميزاب له وقت سحر
وهكذا خلف المقام المفتخر
وعند شرب زمزم شرب الفحول
إذا دنت شمس النهار من الأفول
ثم الصفا والمروة والمسعى
بوقت عصر فهو قيد يرعى
كذا منى فى ليلة البدر إذا
انتصف الليل فخذ ما يحتذى
ثم لذى الجمار والمزدلفة
عند طلوع الشمس ثم عرفه
لموقف مغيب الشمس قل
ثم لذى السدرة ظهرا وكمل
وقد روى هذا الوقوف طرا
من غير تقييد بما قد مرا
بحر العلوم حسن البصرى عن
خير الورى ذاتا ووصفا وسن

(١) المقصود به المفسّر النقاش وهو أبو بكر محمد المتوفى ٣٥١.

صـــلى الله عليـــه وســـــلما

وآله والصحـب ما غيـث همـا

وقد أضاف مؤلف «لباب المناسك» إلى الأماكن التى عينها الحسن البصرى ثلاثة أو أربعة أماكن أخرى، وقد وصل العلماء عدد الأماكن المقدسة إلى مائة، وذلك بإضافة كل واحد منهم موقعا مؤيدا قوله بحديث صحيح متواتر.

وقال مؤلف لباب المناسك: إن الأدعية التى يدعى بها فى تلك الأماكن تستجاب بفضل الله وتقبل، ولكن مع مرور الزمن نسى مواقع تلك الأماكن وجهاتها، ولقى بعضها فى داخل مقبرة المعلى والمعروف منها الآن بين الأهالى قد يصل إلى خمسة وسبعين موقعا فقط كما سيذكر فيما بعد.

المواقع التى اتفق العلماء على أن الدعاء يستجاب فيها

[١] المطاف السعيد [٢] الملتزم [٣] تحت الميـزاب الذهـبى [٤] مقـام إبراهيـم [٥] حفرة المعجن [٦] داخل كعبة الله [٧] بئر زمزم [٨] الصفا [٩] المروة [١٠] المسعى [١١] منى [١٢] الجمرات الثلاث [١٣] خلف المقام [١٤] ضريح ابن الزبير [١٥] ضريح ذات النطاقين [١٦] ضريح عبد الرحمن [١٧] مسجد أبى بكر [١٨] مسجد الصخرة [١٩] مسجد المشعر [٢٠] الحجر الأسود [٢١] الموقع الذى يرى منه بيت الله [٢٢] حجر إسماعيل [٢٣] المستجار [٢٤] ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم [٢٥] جبل الرحمة [٢٦] باب بنى شيبه [٢٧] باب إبراهيم [٢٨] باب النبى [٢٩] باب الصفا [٣٠] مسجد خيف [٣١] مسجد المنحر [٣٢] مسجد البيعة [٣٣] غار المرسلات [٣٤] مغارة الفتح [٣٥] دار السيدة خديجة [٣٦] مسجد الشجرة [٣٧] مسجد النمل [٣٨] الركن اليمانى [٣٩] قبر خديجة [٤٠] قبر سفيان بن عيينة [٤١] قبر آمنة [٤٢] قبر فضيل ابن عياض [٤٣] باب الجرير [٤٤] دار أرقم [٤٥] الحجر المتكلم [٤٦] الحجر المتكى [٤٧] رباط موفق [٤٨] مسجد ذى طوى [٤٩] مسجد التنعيم [٥٠] مسجد عائشة [٥١] مسجد الجن

[٥٢] مسجد الراية [٥٣] مسجد مدعا [٥٤] قبة اللبن [٥٥] مسجد النمرة [٥٦] مسجد الجعرانة [٥٧] مسجد الفتح [٥٨] مسجد جنيد [٥٩] مسجد الإجابة [٦٠] جبل أبى قبيس [٦١] جبل النور [٦٢] غار ثور [٦٣] جبل خندمة [٦٤] جبل ثبير.

الأثر الأول: المطاف الشريف:

هو الرصيف العريض الذى يحيط بالكعبة المعظمة من جوانبها الأربعة. إن مساحة هذا الرصيف السطحية المربعة (٢٧٦٢) قدما والمحل الذى يطلق عليه المطاف داخل القناديل التى علقت على الأعمدة حول الرصيف، والحجاج الكرام يطوفون عادة فى هذا المكان. إن المسافة كما وضح فى الوجهة الخامسة من شبكة مقام إبراهيم إلى شادروان الكعبة ٢٨ قدمًا، ومن المقام الحنفى إلى جدار الحطيم ٣٣، ومن المقام المالكى إلى شادروان الكعبة ٤٤، ومن المقام الحنبلى إلى شادروان التى تحت الحجر الأسود ٣٥ قدما، وبناء على هذا الحساب فإن طرفا المقام المالكى أوسع جهة مطاف الكعبة المشرفة.

الشادروان:

يطلق اسم شادروان بين أهالى مكة على الجدران التى تلاصق أرض المطاف: إن هذه الحجارة البارزة جدار صغير لترصين البناء كالسد، وإنه مثل خلخال العروس الذى يحيط دائرًا ما دار بالبيت الشريف، ومثل سوار معاصم البكارى، وعليه حلقات متعددة لربط كسوة الكعبة، وإن هذه الحجارة البارزة التى يطلق عليها شادروان تحيط الكعبة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب، لكن الجهة الشمالية تخلو من الشادروان. وإن كانت بعض الحجارة تبرز من ناحية حجر إسماعيل. إن هذه الحجارة تعد من داخل الكعبة المعظمة، فلا يقال لها شادروان. وارتفاع الشادروان وجدرانه فى بعض الجهات يصل إلى قدم و١١

بوصة، وفى بعض جهاتها إلى ذراع واحد وقدم ٨ بوصات، وعرض بعض جهاتها يصل إلى ١١ بوصة، وجهاتها الأخرى تسعة بوصات.

مسائل مهمة:

وبناء على رأى أئمة الحنفية فإن الشادروان لا يعد من الكعبة المعظمة، لأنه حجارة قد ألصقت ببناء الكعبة لتقويته وتدعيمه، وبناء على رأى علماء المذهب الشافعى فإن شادروان يعد من الكعبة المعظمة لأنه امتداد لأساس بيت الله المعظم العريض. حينما جددت طائفة قريش قد رفعت أساس بيت الله عن الأرض ثلاث أصابع، ثم رفعوا جدار كعبة الله من الخارج.

إن الطواف ببيت الله يتوقف على وجود الطائف فى داخل الحرم الشريف، لأن الطواف من خارج المسجد الحرام يعد طوافا بالمسجد وليس بالكعبة ولذلك لا يجوز. ولا يطرأ ما يفسد الطواف للذى يتركه لأداء الصلوات المفروضة أو لأداء صلاة الجنازة أو للوضوء، فعندما يختم هذا العمل يبدأ الطواف من حيث تركه، وفى غير هذه الحالات يبطل الطواف ويجب البدء من جديد.

إن القناديل حول المطاف توضع على خمسة وثلاثين عمودا اثنان منها من الرخام والباقى من النحاس الأصفر.

والأعمدة الرخامية بالقرب من أبنية مقام إبراهيم، والباقى يحيط بجوانب الكعبة الأربعة وتعلق عليه القناديل، وبما أن الأعلام التى وضعت فوق الأعمدة قد ساء منظرها، وأوقعت على الأرض بمرور الزمن فوضعت عليها أعلام من الصفيح، ونزع أحمد أفندى مدير الحرم الشريف سنة (١٢٩٦هـ) تلك الأعلام وصب أعلاما جديدة جيدة وضعها فوق الأعمدة كل ذلك فى ظل المبرة السلطانية.

ولم يكن فى أى جهة من جهات الكعبة قنديل إلى عهد معاوية، وفى سنة

(٤٤) أوقد معاوية العدد الكافى من القناديل، ومد تلك القناديل بالكمية الكافية من زيت الزيتون وأصبح هذا عادة.

بعد إحدى وثلاثين سنة من ذلك ركز عبد الملك بن مروان بالقرب من بئر زمزم عمودا، وعلق عليه قنديلا كبيرا لينير المطاف للذين يطوفون بالبيت ليلا.

بعد ما وضع معاوية بن أبى سفيان نظام إيقاد القناديل، أعطى أرطال من الطيب لتعطر كعبة الله عقب كل صلاة، وأبقى ابن الزبير على هذا النظام، إلا أنه استصوب أن تعطر الكعبة فى الأيام العادية برطل من الطيب، وفى أيام الجمع برطلين.

لم يوقد قنديل ولم ينصب عمود واحد حول المطاف الشريف إلى عصر الواثق بالله العباسى، وفى سنة (٢٣١هـ) نصبت عشرة أعمدة خشبية وعلقت ما بين الأعمدة ثمانية مصابيح كبيرة، ومنذ ذلك التاريخ أضيئت الجهة الداخلية للمطاف. وفى (٧٢٠هـ) قد زيدت تلك الأعمدة إلى (٣٢) عمودا وبلغت القناديل التى تعلق بينها إلى (١١٦) قنديلا، وبعد تسع وعشرين سنة قد بدلت جميع هذه الأعمدة بالأعمدة الحجرية، وإن كانت ريح شديدة هبت فى سنة (٧٥٠هـ) وأسقطت جميع الأعمدة التى حول المطاف وحطمتها قطعا إلا أنها جددت وبعد مرور وقت قصير قد بدلت بأعمدة من نحاس أصفر، وحتى تحفظ تلك الأعمدة من مياه الأمطار التى قد تظهر فيما بعد مد بين الأعمدة أربطة حديدية سميكة لتعلق عليها القناديل أيضا. وفى سنة (١٢٧٠هـ) أوصلها السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان إلى (٣٥)[١] عمودا وعدد القناديل (٢١٠) وعلق فوق حدائد القباب من أولها لآخرها قناديل[٢] مثل الأنجم على أن توقد فى خلال موسم الحج وليالى رمضان وإحياء الليالى المباركة.

(١) واليوم عمود من تلك الأعمدة من النحاس الأصفر وثلاثة منها من الرخام الأبيض.

(٢) قد جدد سلاسل هذه القناديل برقوق المصرى من ملوك الشراكسة فى سنة ٨٠٧.

وهكذا أضيء داخل حرم المسجد الحرام مثل الجنة، وبعد مرور تسعة عشر عاما أرسلت من قبل والدة السلطان عبد العزيز خان الطاهرة النقية شمعدانات متعددة حتى توقد أمام المقامات الأربعة، وفى الأماكن المناسبة لمساحة الحرم الرملية وذلك فى سنة (١٢٨٩).

بين عمودين من أعمدة المطاف سبعة قناديل وإذا أحصى عدد القناديل كلها تصل قناديل أعمدة المطاف إلى (٢١٠) عمودا وإذا أضيف إليها القناديل التى سنذكرها فى الجدول الآتى يصل عدد القناديل إلى (١٨٢٢) قنديلا:

مواقع وعدد القناديل التى اعتيد إيقادها فى مواسم الحج

عدد القناديل	مكان وجودها	ملاحظـــات
٣٢٤	فى المطاف السعيد	القناديل الـ ٨٦ الموقدة فى المقامات الأربعة داخل هذا العدد
٣٧٠	تحت القباب	
٦٠٠	بين الأعمدة	
٥٤	فى الأبواب	
٣٦	فى النجف الشبيهة بالأشجار	يقال لهذه القناديل «المصطفة» وهى معلقة تحت الصف الأول من كمر قباب الحرم الشريف الواقعة فى الساحة الرملية
١٠	أمام المحكمة	
١٦	بين الصفا والمروة	
١٤١٠	المجموع	
١٤١٠	المجموع المنقول	
٤١٢	فى المآذن	
١٨٢٢	المجموع الكلى	

عدد المآذن	فى كل مئذنة
٥	٦٤
٢	٤٦
٧	

هناك جدار نصف دائرى حول حجر إسماعيل ويطلق على هذا الجدار «حطيم».

سبب بناء الحطيم وتاريخ تأسيسه

كانت أطراف المطاف الشريف إلى سنة (٦٤) هجرية ساحة رملية وفى نفس السنة فرش عبد الله بن الزبير. الجهات الأربعة للمطاف بالأحجار الباقية بعد تجديد البيت الحرام بتوسيعه عشرة أذرع. وبعد ثمانى سنوات من هذا العمل هدم الحجاج الظالم الجدار الشامى الذى بناه عبد الله بن الزبير كما ذكر فى مكانه من قبل وأدخله إلى داخل الكعبة قدر ستة أو سبعة أذرع، وحتى يحفظ هذا المكان الذى خلا بالهدم من الطائفين[1] بنى ذلك الجدار الذى سبق ذكره أعلاه، وذلك فى سنة (٨٢هـ).

وقد أدى الجدار الذى بناه الحجاج الظالم مهمته إلى سنة (٩٤١هـ) بترميمه من حين لآخر، إلا أنه ضعف وارتج بشدة عقب السيل الفظيع الذى حدث فى سنة (١٠٣١) وحينئذ هدمه السلطان مراد الرابع إلى أساسه وبناه من جديد. وجدده السلطان عبد المجيد فى خلال سنة (١٢٦٢هـ) على أكمل صورة.

كان سطح داخل الحطيم الكريم مفروشا بحجارة سوداء صغيرة إلى عهد أبى جعفر المنصور. وفى سنة ١٣٩هـ حينما حج أبو جعفر تأثر حينما شاهد حجارة جدران الحطيم، وكذلك أرضيته فى الداخل والخارج غير منظمة وفى حالة سيئة، استدعى زياد بن عبد الحارث والى مكة وقال له: إن هذا الجدار قد بُنِىَ بحجارة عادية وإننى أريد أن يفرش هذا الموقع المبارك فى هذه الليلة بحجارة رخامية لامعة منتظمة وابدءوا ما أريد لأننى سأتى غدا صباحا لمعاينته.

وأحضر زياد بن عبد الله عددا كبيرا من العمال والحَجَّارين، وتحت ضوء المشاعل والقناديل قد جدد الجدار ثم الأرضية حاملا العمال على بذل الجهود المضنية حتى الصباح، وانتزع الحجارة السوداء التى أراد أبو جعفر المنصور تغييرها، وفرش الأرضية بقطع الرخام المجلوة، وفى سنة (١٤١هـ) وبعد عشرين سنة من تجديد أبى جعفر أمر المهدى العباسى فانتزعت الحجارة التى فى داخل

(١) لما كان هذا المكان من داخل كعبة الله فالمرور عند الطواف من خلال هذا المكان يفسد الطواف.

الحطيم وخارجه واحدة واحدة وفرشت الأرضية بقطع الرخام اللامعة[1] وذلك فى سنة (١٦٢هـ).

دامت الإصلاحات التى أجراها المهدى العباسى فى المطاف الشريف (٤٧٢) سنة، وفى عام (٥٥١هـ) بعد أن غير الحجر الأخضر الذى يقال حجر إسماعيل من قبل المستنجد بالله بن المقتفى بالله احتاج المطاف الشريف إلى ترميم عظيم، غير المستنصر بالله الحجارة التى جددت فى عهد المهدى تغييرا كاملا، ثم كتب ما تم إصلاحه فى عهده فى الحرم الشريف على لوحة رخامية زرقاء، ثم ألصقها على جدران بيت الله الحرام، وكان ذلك عام (٦٣٤هـ).

وإن كان الملك جاقمق غير ما فرشه المستنصر بالله بعد مائة وتسعين سنة، وفى سنة (٨٤٣هـ) إلا أن أكثر رخام المطاف الشريف احتاجت إلى التسوية والإصلاح بعد سبع وثلاثين سنة، وعلى ذلك جددها السلطان قايتباى المصرى فى سنة (٨٨١هـ) وبعده بست وثمانين سنة غير السلطان الغورى المصرى ما فرش فى عهد قايتباى فى سنة (٩١٧هـ). وقد أمر السلطان سليمان بانتزاع ما تم إصلاحه فى عهد السلطان الغورى أو ما تم فرشه قبل ذلك. وفرش المطاف الشريف على أحسن وجه فتبدلت أرضية المطاف السعيد الرخامية وانتظمت حالتها فى سنة (٩٥٩هـ). وبعده بأربع وثمانين سنة غير السلطان مراد خان الرابع قطع رخام المطاف الشريف ورخام الأماكن الأخرى من الحرم الشريف سنة (١٠٤٣هـ) وقطع الرخام التى مازالت مفروشة إلى الآن هى الحجارة التى فرشت فى عصر مراد الرابع.

وقد أصبحت هذه الحجارة بمرور الزمن فى حالة غير منتظمة، وتحركت من أماكنها حتى اتسعت الشقوق بين قطع الحجارة قدر إصبع، فلم تَنْجُ أقدام الحجاج من الأذى حين الطواف وفى سنة (١٢٩٦هـ) أصلح مدير الحرم الشريف السابق أحمد أفندى بأن صب قصديرا بين الشقوق التى فى قطع رخام المطاف والرخام الذى فى داخل الحطيم.

(١) لا يعرف الوقت الذى عين فيه حجر إسماعيل بالحجر الأخضر، لابد أن زياد بن الحارث عين ذلك فى هذا التعمير.

واختلف العلماء فى تحديد مكان الحطيم بالنسبة للمسجد الحرام، وبناء على بعض الأقوال أن الحطيم فى داخل الجدار الذى سبق تعريفه، وباتصال جدار البيت الأعظم الشمالى أى لحجر إسماعيل، ويطلق على المكان الذى يقع بين ركن الحجر الأسود وبئر زمزم ومقام إبراهيم، وعند البعض يطلق على الفراغ الذى بين باب بيت الله ومقام إبراهيم، وفى قول يطلق على الميدان الذى يمتد فى ركن الحجر الأسود إلى حدود مقام إبراهيم، وبما أن القول الأخير يبدو أقوى من الأقوال الأخرى فالناس يجتمعون فى هذا الميدان للتضرع والدعاء والمناجاة، وكان أهل الجاهلية يجتمعون فى هذا الميدان حيث يتعاهدون أو يتحالفون.

والحطيم فى زماننا ذلك الجدار الميمون المبارك، وارتفاع جدار الحطيم (٣ قدم و ٤ بوصة) وله مدخلان وعرض كل مدخل (١٠) قدم، والفاصل بين الاثنين (٢٩) قدما، والفاصل بين جدار الكعبة التى تحت الكسوة وجدار الحطيم (٢٢ قدم ٦ بوصة)، والمحيط الداخلى لجدار الحطيم المذكور (٣٥ قدم، ٥بوصة)، والمحيط الخارجى (٤٤ قدم، ٤ بوصة) وتبلغ مساحة الأطراف الأربعة لأبنية الكعبة مع إضافة مساحة حجر إسماعيل (١٤٧ قدم ٣ بوصة) كاملة.

والمقامات الأربعة التى يؤدى فيها أئمة المذاهب الأربعة صلواتهم تقع فى الأطراف الأربعة للمطاف الشريف الذى ذكرناه، فالمقام الحنفى فى الجهة الشمالية لكعبة الله، ومقابل ميزاب الرحمة المقام الشافعى فى الجهة الشرقية وخلف المقام الإبراهيمى الذى يواجه الكعبة، والمقام المالكى فى ظهر كعبة الله، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية فى مكان يواجه الحجر الأسود، وكل المقامات متصلة بالحدود الخارجية للمطاف الشريف، وقد أدى إمام كل مذهب الصلاة مع المصلين دون ترتيب منذ سنة (٦٣٣هـ) إلى سنة (٧٩٠هـ)، ولكن بعد سنة (٧٩٠هـ) أخذ إمام المذهب الشافعى يصلى بصلاة الفجر أولا، وفى الآخر يصلى إمام المذهب الحنفى، وفى صلوات الأوقات الأخرى يصلى إمام المذهب الحنفى وبعده إمام المذهب الشافعى وبعده إمام المذهب الحنبلى، وفى الآخر يصلى إمام المذهب المالكى.

قد استصوب أداء أئمة المسجد الحرام على الوجه المذكور فى خلال سنة (٧٩٠هـ) ومع هذا عند اتخاذ هذا النظام للصلاة أخذ أئمة المذاهب الأربعة أداء صلاة المغرب معًا، وكان الناس يقتدون بالأئمة الأربعة فى جهات الحرم الشريف الأربع، فأخذت الأصوات تختلط مع بعضها مما قد يؤدى إلى فساد الصلاة.

وقال بعض من خيار العلماء إذا ما ترك نظام أداء صلاة المغرب مؤقتا بالأئمة الأربعة فى وقت واحد أحسن، وحاول بهذا أن يقضى على النظام الغير المعقول، لذا وضع الملك الناصر فرج نظام أداء صلوات المغرب بإمام واحد فقط، وبعدما استمر هذا النظام ما يقرب من إحدى عشرة سنة اختل، ولاسيما فى سنة (٨١٦هـ) أخذ أئمة المذاهب الأربعة يؤدون الصلوات فى وقت واحد وفى النهاية وضعوا النظام الحالى، والآن تؤدى صلاة التراويح فى أماكن مختلفة قد تصل إلى أربعين أو خمسين موقعا مع أئمة مختلفة يؤمون جماعات مختلفة، وكان هذا النظام مما يؤذى شعور الناس، إلا أنه قد اتخذ حكم العادة ومن الصعب حمل الناس على تركها.

والجماعات التى تصلى التراويح يسلم بعضهم بعد ركعتين، وبعضهم بعد أربع ركعات، ويطوفون بالبيت بعد السلام، ثم يبادرون لأداء صلاتهم وبعضهم يصلون التراويح بدون طواف وتكاد الصلاة أن تفسد أحيانا باختلاط الأصوات بعضها مع بعض، إلا أن وجود فوانيس مختلفة الألوان أمام الأئمة يضيف للحرم الشريف رونقا وجمالا .

وبناء على الفهرس الذى أخذ من خزينة مديرية الحرم الشريف أردنا أن ندرج صورة منه فيما يأتى فللمقام الحنفى (٧٥) وللمقام الشافعى (٢٥) وللمقام المالكى (١٥) وللمقام الحنبلى خمسة أنفار من الخطباء والأئمة، وخدمة المسجد الحرام يبلغ عددهم ١٧٢ نفرا غير الأئمة والخطباء.

الفهرس الذى يبين الأئمة والخطباء والخدم الآخرين، عددهم وأنواعهم، بالحرم المكى.

عدد الأنفار	المقام الحنفى	عدد الأنفار	المقام الشافعى
٢٦	أئمة وخطباء موظف(١)	٦	خطيب وأئمة موظف(٢)
٧	ملازمو أئمة	١٢	ملازمو أئمة
٤٣	المجموع	١٨	المجموع
٣٢	ملازمو أئمة غير موظف	٧	ملازمو أئمة غير موظف
٧٥	المجموع الكلى	٢٥	المجموع الكلى

عدد الأنفار	المقام المالكى	عدد الأنفار	المقام الحنبلى
٧	خطيب وأئمة موظف(٣)	٢	خطيب وأئمة موظف(٤)
٨	ملازمو أئمة غير موظف	٣	ملازمو أئمة غير موظف
١٥	المجموع	٥	المجموع

(١) الأئمة الموظفون والخطباء وملازمو الأئمة أربع طوائف لأفراد الطائفة الأولى لكل واحد ٢٠٠ قرش، ولأفراد الطائفة الثانية لكل واحد منهم ١٠٠ قرش، والصنف الثالث لكل واحد منهم ٤٠ قرشا أجر وظيفة، بينما الصنف الملازمون يخدمون دون أن يوظفوا.

(٢) هؤلاء أربعة أصناف أجر الصنف الأول ٢٠٠ قرش، والثانى ١٠٠ قرش، والثالث ٤٠ قرشا، والملازمون ليسوا موظفين.

(٣) أئمة وخطباء المالكية ثلاثة أصناف الصنف الأول أجره ٢٠٠ قرش، والثالث ٤٠ قرشا، ويخدم الصنف الثانى دون أجر بالملازمة.

(٤) لأئمة وخطباء الحنابلة نفس الراتب الشهرى.

خدمة المسجد الحرام ومدرسوه

عدد الأنفار	نوع الوظيفة	عدد المدرسين	نوع الوظيفة
١٥	١٥ المؤذنون(١)	٦٠	أن هؤلاء موظفون بالبراءة العالية
٧	٧ المكبرون	٦٠	وهؤلاء موظفون بعلم وخبر المدرسين
٧	٧ المرحمون		
٨	٨ الوقادون		
٣٧	٣٧ المجموع		هؤلاء خاصون بالحرم الشريف
١٢	١٢ الفراشون		
١٠	١٠ المشيدان(٢)		
٢٠	٢٠ الكناسون		
٢٦	٢٦ البوابون		
١٢	١٢ الجيادون		
١١٧	١١٧ المجموع		

ويبلغ عدد الأئمة الكرام والخطباء العظام (١٢٠) نفرا ووظف (٧٠) منهم بالأمر السلطانى، منهم موظفون بعلم مديرية الحرم الشريف.

وقد خص المقام الحنفى بثلاثة وأربعين إماما وخطيبا المعينين بالأمر السلطانى ويعمل بالمقام الشافعى ثمانية عشر منهم، والمقام المالكى بسبعة والمقام الحنبلى

(١) يدخل ضمن هؤلاء إمام مسجد على ومؤذنو جبل الكعبة ومبلغو المقامات الحنفى والشافعى، وحارس سبيل الغورى.

(٢) لم يستخدم إلى عهد معاوية المخصيون لخدمة كعبة الله، ولكن معاوية عين عدداً من المخصيين لخدمة الكعبة حتى يتميزوا ويستمروا فى خدمة الكعبة وزاد الذين أتوا بعده عدد المخصيين إلى خمسة وخمسين.

(٣) المدرسون الموظفون ببراءات عالية خمسة أصناف الصنف الأول خمسة عشر شخصا مفتيو المذاهب الأربعة ضمن هؤلاء وأجر كل واحد منهم ٥٠٠ قرش، وعدد الصنف الثانى ستة وأجور وظائفهم السنوية لكل واحد منهم ٤٠٠ قرش، وعدد أشخاص الصنف الثالث ٥٠ نفراً وأجور وظائف كل واحد منهم ٣٠٠ قرش، وعدد الصنف الرابع أربعة وأجر كل واحد منهم ٢٠٠ قرش والذين يدخلون فى الصنف الخامس ثمانية أنفار ولكل واحد منهم أجر سنوى قدره ١٠٠ قرش.

باثنين من السبعين المكلفين بالأمر السلطانى وإن كان الذين يتمتعون بالأمر العالى ينقسمون إلى قسمين الأصالة والملازمة إلا أنهم كلهم موظفون. إن الأشخاص الذين يتمتعون بالأمر العالى ثمانية عشر منهم من خطباء الحنفية، وأربعة منهم من خطباء الشافعية، وأربعة منهم من خطباء المالكية، وواحد منهم خطيب حنبلى، ويتقاضى كل واحد منهم شهريا ٢٠٠ قرش. ولكن الأئمة الذين عينوا بعلم المديرية يعطى شهريا ١٠٠ قرش، والملازمون المعينون بعلم المديرية يتقاضى فى الشهر ٤٠ قرشا.

الاستطراد

يوجد مقام خاص لكل جماعة من جماعات المذاهب الأربعة فى أركان بيت الله الأربعة ليؤدى كل إمام مع جماعته الصلاة فيه، ولا يعرف الوقت الذى أقيمت فيه المبانى فوق هذه المقامات الأربعة، ولكن أغلب الاحتمال أنها أنشئت فى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، لأنه قد عين فى سنة (٦٦٣هـ) فى مكة المكرمة إمامًا لكل مذهب، وأقر بين العلماء على أن يكون لكل إمام مذهب مكان خاص ليصلى به مع جماعاته، فاختيرت أماكن المقامات لأئمة المذاهب الأربعة، ونبهوا بأداء الصلاة كل فى مقامه، وكما أنه يوجد فى المسجد الحرام مقام خاص بإمام كل مذهب يوجد مفتى لكل مذهب، وطبقا لما أفاد به المؤرخون عن تعيين أول هؤلاء المفتين وفى أى تاريخ لزمت الحاجة إليه، يمكننا القول: إن القبائل العربية عندما ذاقت حلاوة الإيمان أرسلت السفراء إلى سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ، ترجوه أن يرسل معلما إلى القبيلة التى ينتمون إليها لتعليم الأحكام الشرعية، ولإيضاح غوامض المسائل الدينية لهم، وأسرع علماء الصحابة الذين استقوا العلم من أشرف الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحفظوا عن الرسول ﷺ الأحاديث والآيات القرآنية لتبليغها إلى القبائل، ولما كانت الحجج قاطعة والنصوص واضحة فى أيام الرسول ﷺ، وحياته وحياة صحابته الأجلاء لم تكن هناك حاجة للاجتهاد.

وكان أهل الإيمان فى عصر الرسالة إذا شكوا فى مسألة ما يسألون النبى ﷺ، وكانوا بعد وفاته ـ عليه السلام ـ كانوا يلجأون إلى صحابة النبى ﷺ، طالبين الفتوى منهم مثل عبد الرحمن بن عوف أو عبد الله بن مسعود أو أبى بن كعب الأنصارى أو معاذ بن جبل أو عمار بن ياسر، أو حذيفة بن اليمان أو زيد بن ثابت الأنصارى أو أبى الدرداء أو أبى ذر الغفارى أو أبى موسى الأشعرى أو سلمان الفارسى «رضى الله عنهم» وإذا لم يستطع هؤلاء حل مشاكلهم يلجأون إلى الخليفة فى ذلك الزمان مستفتين.

إخطار:

اشتهر بالإفتاء بعد الخلفاء الراشدين سيد العبادلة عبد الله بن عباس[٢] كما أن عبد الله بن عمر أفتى بعد وفاة النبى ﷺ، ستين عاما. انتهى.

واستمرت هذه الحالة إلى يوم استشهاد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وبدأت الآراء تختلف بعد ذلك وكلما ابتعد عصر السعادة وتناقص عدد الأصحاب والتابعين أخذت الآراء تختلف وتتشتت، ولاسيما فى وجود كثرة ممن يميلون إلى اتباع آراء الطغاة أدت إلى تغير أطوار الأمة وأوضاعها، فكثرت فى المسائل الشرعية الفرعية الآراء، واستخرج أئمة الدين الأحكام الشرعية التى تخص الطاعات والعبادات والعقوبات والمعاملات من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، حتى تفهم النصوص الظاهرية وسنة رسول الله بيسر وبشكل واضح لا ينسى، واتخذ كل واحد منهم مسلكًا ومذهبا مختلفا عن الآخر. وفصلوا بين المعنى العرفى والمعنى اللغوى للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يتقى الخطأ فى المسائل الشرعية، ووضعوا أصولا وقواعد للوصول إلى مرتبة الاجتهاد الصعبة، ودونوا علما خاصا يطلق عليه علم أصول الفقه، وسموا ما جمعوا ورتبوه من المسائل التى استنبطوها وفقا للقواعد السابقة علم الفقه.

---

(١) إن الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم كانوا مفوضين بالفتوى حتى فى عصر النبوة، إلا أنهم كانوا يرسلون من يلجأ إليهم للفتوى إلى النبى ﷺ، تأدبا.

(٢) العبادلة طائفة من الصحابة الذين كانو يفتون ويقومون بمهمة القضاء وهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عن الجميع.

علم أصول الفقه:

هو استخراج فروع المسائل الفقهية من الكتاب والسنة والإجماع وفقا لقواعد مخصوصة واستنباطها.

وعلم الفقه:

هو أن يعرف كل مسلم ما له وما عليه من الأمور.

والذين لهم دراية بالمسائل المستخرجة والمستنبطة يطلق عليهم الفقهاء. والفقهاء الأجلاء فرقتان: عراقية وحجازية، وقدوة الفرقة العراقية هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، ورئيسا الفرقة الحجازية هما الإمام مالك بن أنس المدنى والإمام محمد بن إدريس المطلبى الشافعى.

واتخذ الإمام أحمد بن حنبل مسلكا جديدا بعد الإمام الشافعى وأصبح رابع أئمة المذاهب الأربعة، واجتهد الإمام الأعظم متخذا العقل قبل النقل قاعدة، واتخذ الإمام مالك النقل قبل العقل قاعدة وأساسا، واتخذ الإمام الشافعى العقل مساويا للنقل، واتخذ الإمام أحمد بن حنبل النصوص أساسا لكل شىء، وهكذا ارتقى إلى المرتبة الرابعة بين الأئمة إلا أن من يقلد مذهبه قليلون.

وقد ظهر بعد الإمام مالك المذهب الظاهرى، وقد اعترض من يقلدون هذا المذهب على التباس المسائل بطريق القياس، وتركوا العمل بالقياس وأبطلوه، وأحدث بعدهم مذهب أهل البيت وبما أنه كان متصفا بالغلو والإفراط ولمخالفته الجمهور اندثر بموت إمامه وإنكار مقلدى المذاهب الصحيحة له، وأراد بعض الناس فيما بعد إحياء مذهب أهل البيت ولم يكن له شأن إلا مخالفته للمذاهب الأربعة، وهكذا ساد المذهب الحنفى فى العراق والمالكى والشافعى فى البلاد الحجازية.

انتشر المذهب الحنفى فى إقليم العراق وممالك الهند والصين وما وراء النهر وبلاد الفرس، والمذهب المالكى فى الأندلس والممالك المغربية، وساد الشافعى

فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر فى أول ظهوره، وانتشر المذهب الحنبلى أولا فى الشام والعراق وبغداد والبلاد المجاورة لها.

ويعدد حضرة عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه الميزان الكبرى مذاهب أخرى غير المذاهب الأربعة مثل: مذهب عائشة، مذهب عبد الله بن مسعود، مذهب عبد الله بن عمر، ومذهب عطاء بن أبى رباح، ومذهب الإمام الليث، ومذهب مجاهد بن جَبْر، ومذهب داود الأصفهانى، ومذهب عمر بن عبد العزيز، ومذهب سفيان الثورى، ومذهب سفيان بن عيينة، ومذهب محمد بن جرير، ومذهب الشعبى، ومذهب إسحاق بن راهويه، ومذهب الأعمش: أربعة عشر مذهبا وبهذا يبلغ المذاهب الصحيحة والحقة إلى ثمانية عشر مذهبا، وقد اندثرت هذه المذاهب لقلة أتباعها، أو لا نحصارها فى أصحابها ولم يبق إلا المذاهب الأربعة.

وكان أهالى الحرمين إلى سنة (٣٥٨هـ) يحلون شبهاتهم فى المسائل الفقهية باللجوء إلى إلى أى واحد من أئمة المذاهب الأربعة الذى اكتسب ثقتهم.

ووقعت البلاد المصرية تحت إدارة الملوك الفاطميين وفى خلال العهد الفاطمى الذى دام مائتين وبضع سنين أسقط العمل باجتهاد الأئمة الأربعة، وصنفت كتب وفقا لأحكام فقه أهل البيت.

ومنع فى هذه الفترة حب أصحاب المذاهب الأربعة، وكان كل من يتبع المذاهب الأربعة مبغوضا منفورا منه لدى الحكومة.

من الحوادث التى تلوث تلك الفترة وصحائف تاريخها هذه الحادثة الشنيعة، وقد علم أن أحدا من أهل السنة يحتفظ فى مكتبة بكتاب الموطأ، فأحضر الكتاب وصاحبه ومزق الكتاب المذكور ثم قيل لصاحبه «لماذا تحتفظ بهذا الكتاب وتحترمه؟» ثم شتم وعذب وضرب ضربا مبرحا.

كان القاضى عبد الوهاب من فقهاء أهل السنة ساكنا ببغداد وفى أواخر المائة الرابعة أتى إلى مصر وسعى لنشر المذهب المالكى، واستطاع أن يدخل كثيرا من

أهل السنة إلى الدائرة المنجية، إلا أنه كان يحكم فى مصر والبلاد الحجازية بأحكام مذهب أهل البيت إلى سنة (٥٦٨هـ) وقد انقرضت الدولة الفاطمية فى تلك السنة، فعاد علماء الشافعية إلى مصر، وهكذا سقط العمل بكتب فقه أهل البيت وانتشر المذهب الشافعى فيها، وأخذ الأهالى والملوك وكبار الموظفين العمل متبعين المذهب الشافعى.

وصلاح الدين الأيوبى واحد من الملوك المصريين الذين قلدوا المذهب الشافعى: وقد أسس هذا الشخص قلعة جبل المقطم، وفى نفس السنة أنشأ المدرسة التى تنسب إلى قبر الإمام الشافعى، وهكذا أنقذ الناس من البحث عن عالم يعين بالقاهرة مفتيا شافعيا، واستصوب بعد ذلك بين العلماء وجود مفتيين على المذهب الشافعى فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونفذ الأمر.

وقد جعل المفتى الشافعى الذى عينه صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة نوابا له عن باقى مذاهب أهل السنة حتى يفتوا حسب مذاهبهم، وهكذا أخذ يزيد أفراد كل مذهب تدريجيا، وظهرت المذاهب الأربعة كاملة اضطر أهالى الحرمين ومصر القاهرة وسكنة بلاد الشام فى عهد صلاح الدين الأيوبى إلى سنة (٦٦٣هـ) أن يلجأوا لمفتى الشافعية، وبما أنه لا يمكن للإمام الشافعى أن يفتى وفقًا لأحكام المذاهب الأخرى عين الملك الظاهر بيبرس قاضيا[1] خاصا بكل مذهب فى خلال تلك السنة، وبعد ذلك أصبح أتباع المذاهب الأربعة يذهب للإمام الخاص به لحل ما يريدونه من المسائل الدينية، ولكن فى الممالك الأخرى ظل المفتى الشافعى كما كان فى السابق.

إضافة

وإن كان ثابتا بالتحقيق أن عمر بن الخطاب هو الذى كان يقوم بأمور القضاء فى عهد خلافة أبى بكر الصديق، وكان هناك يزيد ابن أخت نمر وشريح فى عهد عمر بن الخطاب، وكعب بن سوار وفى عهد خلافة سيدنا على شريح بن الحارث

(١) وكان القضاة فى ذلك العهد يعينون على أن يؤدوا مهمة القضاء والإفتاء.

يقومون بأمور القضاء، إلا أن أول القضاة المعينين فى المدينة المنورة من خارجها هو عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وقد أرسل إليها فى سنة (٤٢هـ) من قبل معاوية.

وفى عهد السلاطين العثمانيين أول من تولى منصب القضاء شخص يسمى طورسون أفندى وعين من قبل عثمان الغازى، أما أول القضاة المعينين لاستانبول فكان القاضى مجد الدين أفندى «محاضرة الأوائل».

عين الملك الظاهر مفتيا لكل مذهب من المذاهب الأربعة، وبعد مضى خمسة وأربعين عاما على هذا التاريخ أرسل الناصر فرج من ملوك مصر إلى مكة المعظمة مفتيا للحنفية وآخر للمالكية وذلك عام ٧٥٨هـ، وبعد فترة وجيزة أرسل مفتيا للحنابلة. ومنذ ذلك الوقت (أى منذ ٧٠٨هـ) وبعد فترة وجيزة عين مفتيا خاصًا لكل مذهب فى مكة المكرمة والمدينة المنورة على حد سواء.

كان يتم تعيين واحد للإفتاء لكل مذهب حتى العام المبارك الذى انتقلت فيه أزمة إدارة البقاع الحجازية المقدسة فى بعض الأحايين، وفى الأحايين الأخرى كان يعين واحدا أو اثنين فقط لتسيير الإدارة فى الحرمين، ولكن بعد عام (٩٢٣هـ)لم ينقص عدد المفتين الأربعة فى أى وقت.

وفى وقتنا الحاضر ثمة مفتى حنبلى على الرغم من قلة الحنابلة فى مكة المكرمة بحيث نستطيع القول بأنه لا وجود لحنبلى واحد فيها.

مطالعة

قبل عهد سلاطين آل عثمان وفى بعض الأحايين كان يوجد مفتى أو اثنين فى الحرمين، وسبب ذلك هو إظهار سلاطين السلف من المسلمين استعدادهم لنجدة كل مسئول من أهل الحرمين، لأن ملوك المسلمين كانوا يعتنون كل العناية ببسط نفوذهم على الحرمين، وكانوا يعتقدون أن أعظم الأسباب التى تخدم هذا الغرض

هو نجدة مسئول الأهالى. والرابطة الإسلامية أينما وجدت فإن أساسها الارتباط بالحرمين وكان الحكام يدركون الفوائد السياسية الكبيرة للاحتفاظ بهاتين البلدتين المسعودتين.

وإن كان هذا الاعتقاد موضع احترام وتقدير فإنه من الممكن حدوث تجاوز للحدود الشرعية لنجدة كل مسئول للأهالى، ولا توجد شبهة فى خطأ الاعتقاد المذكور، ألم يكن باطلاً استيلاء جيوش الجهالة على الحرمين فى العهد السابق، وحصول أصحاب المذاهب الباطلة على الحماية فى البلاد الحجازية، وانقياد البدو لصناديد القبائل فى الباطن، وللدولة فى الظاهر، والعمل بالأحكام والقوانين التى سنها البدو[1] وليس التى يسنها الولاة والقضاة المعينون من قبل الدولة، وإذا ما نظر بإمعان إلى المعاملات الكلية والجزئية التى جرى العمل بها من بداية ظهور الملوك الإسلاميين وحتى اندثارهم يتبين أن انقراضهم وسقوطهم كان أولا بالانحراف عن جادة الشرع، والعمل بالبدع أو لترك الأعمال والتصرفات المشروعة.

أو ليس بقاء سلاطين آل عثمان المنصوص على أنهم أعدل الملوك فى الكتب الإسلامية المعتبرة كان بسبب اتخاذهم الأحكام الشرعية أساسا فى الأعمال والحركات، وعلى الرغم من أنه لم تلتزم الدقة فى تطبيق أحكام الشريعة بتمامها والتى هى أساس ملكهم الذى قام عليه مما أدى إلى وقوع بعض الخلل والاضطراب، وبمرور مدة قصيرة جدا على ذلك جددوا تمسكهم بالصورة الموافقة لأحكام الشريعة وأساس ملكهم ووصلوا إلى مطالبهم بعد وقت قصير كما هو مسطور فى الكتب المذكورة وسرى حكمهم إلى أكثر أرجاء الأرض وشملها.

وعندما سيطر السلاطين العثمانيون على البلاد الحجازية المباركة قضوا على

(١) نظم عرفت قبل عدة مئات من السنين من قبل شيوخ القبائل، وقد أدرجت النطاقات العربانية والقوانين التى تراعى الآن بين العربان فى جزء مرآة جزيرة العرب.

جميع العقائد والأراء الباطلة والأفكار الخاطئة بحسن تدبيرهم، وهكذا استطاعوا أن يدخلوا سكنة الحجاز كلهم فى دائرة المذهب الحق مذهب أهل السنة، والجماعة الفرقة الناجية وأذنوا لمفتىّ المذاهب الثلاثة الحكم فى مسائل الطلاق والنكاح وغيرهما من المسائل، ولمفتى المذهب الحنفى الحكم فى المسائل الأخرى المهمة وبناء على أصح أقوال الفقهاء، وحكموا وفقا للأحكام الشرعية فى البلاد العربية وخاصة فى الحرمين الشريفين، سواء أكان فى العقيدة والآراء أو فى جميع المعاملات والعقوبات الفقهية متبعين فى ذلك رأى السلطان ورؤيته، وبهذا فعلاً أحيوا الشريعة الأحمدية وحكموا بالأحكام الإلهية.

وكان المفتى الشافعى تاج الدين بن بنت الأعز سببا فى تعيين الملك الظاهر مفتيا لجميع المذاهب فى مصر، وكان الملك الظاهر يلجأ إلى تاج الدين ابن بنت الأعز فى جميع المسائل لكونه مفتى الأنام[1]، وبما أن الشيخ تاج الدين كان يريد أن يجيب على كل مسألة إجابة صحيحة اتخذ من كل المذاهب نائبا له، وكان يفتى بعد ما يتفق معهم على الإجابة.

ولسبب ما امتنع مرة عن الإجابة للمسألة التى عرضها عليه الملك الظاهر وقال له «إن هذه المسألة يقتضى سؤالها من النائب الحنفى، وكأنه بهذا القول أراد أن يشير إلى أن الوقت قد حان لتعيين مفتى لكل مذهب من المذاهب، وبادر الملك الظاهر بتعيين مفتى لكل مذهب حتى لا يحدث خلل فى رابطة الموحدين، وأطلق عليه لقب قاضى القضاة، وأمرهم بأن يرسلوا من قبلهم نُوَّابًا لهم إلى البلاد التى فى حاجة إلى ذلك وحينما عين المفتيين الأربعة سر صاحب القصيدة المشهورة البردة ـ وكان حيا يرزق ـ من هذا العمل وأنشد الأبيات الآتية:

غدا جامع بن العاص كهـــف أئمـــة

فللـــه كهـــف الأئمـــة جامـــع

(١) معنى مفتى الأنام هو «قاضى القضاة» وأول القضاة فى مصر هو أبو الحسن على ، بن نعمان وأول من عين قاضى القضاة فى الدولة الإسلامية هو الإمام «أبو يوسف». صاحب أبى حنيفة.

لقـد سرنا أن القضـاة ثلاثـة
وأنـك تـاج الديـن للقـوم رابـع
بهم بنـية إسـلام صحـت وكيـف
ولا وهـم أركانهـا والطبائـع
فهـم رخـص أبـدوا لنـا وعزائـم
هديـنا بهـا فهـى النجـوم الطوالـع
فلا تلتبس إن وسع الله فـى الهـدى
مذاهبنـا بالعـلم والله واسـع
تفرقـت الآراء والديـن واحـد
وكـل إلـى رأى مـن الحـق راجـع
فهذا اختـلاف جـد للخـلق راجـع
كما اختلفـت فى الراحتـين الأصابـع

وتتضمن قصيدة الإمام البوصيرى معنى الحديث الشريف «اتفاق أمتى حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة».

فضائل الحطيم

يروون تأييدًا بالأحاديث الشريفة أن فى الحطيم بين بئر زمزم والمقام المحترم الذى يمتد إلى الحجر الأسود قد دفن تسعة وتسعون نبيا بعد أن حجوا توفوا وصعدت أرواحهم إلى الجنات العالية.

إن الأنبياء الذين هلك أتباعهم قد أقاموا إلى آخر عمرهم فى مكة المكرمة، وقضوا حياتهم فى التعبد لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم توفوا فى تلك المدينة، وقد نقل ذلك محمد بن السائب نقلا عن النبى ﷺ.

ولما كان نوح وهود وصالح وشعيب مـن الأنبيـاء الذيـن توفوا فى هذه

المدينة، فقد دفنوا فى الجهات التى تقابل فيها الكعبة المعظمة مقام إبراهيم وباب الصفا.

الأثر الثانى: المستجار:

يقع الموقع المبارك الذى يطلق عليه المستجار بين الباب المسدود الكائن فى جدار كعبة الله الغربى وبين الركن اليمانى[1] وفى مواجهة الملتزم، وعرضه ستة أقدام. الباب المسدود هو الباب الذى فتحه عبد الله بن الزبير فى عرض (٤ قدم و١١ بوصة). وبعد أن قتل الحجاج السفاك عبد الله بن الزبير سد ذلك الباب.

الأثر الثالث: الملتزم:

يطلق على ما بين باب كعبة الله والحجر الأسود الملتزم، إن هذا المقام موقع طاهر مبارك فى عرض ستة أقدام وأربعة خطوط، فالذين يكملون الأشواط السبعة للطواف يأتون فى هذا المكان للتضرع، وهو فى الجهة التى يقع فيها باب كعبة الله، ويروى أن النبى ﷺ تفضل قائلا: «إن كل من يصلى أربع ركعات مقابل كعبة الله كأنه قد أدى صلوات جميع العباد ويستغفر له سبعون ألفا من الملائكة». (حديث شريف).

كان من اعتقاد العرب فى الجاهلية أن كل من يتجادل فى هذا المكان أو يقسم يمينا باطلا أو من يدعى عليه لابد وأن ينالوا عقابهم، وهذا هو وجه تسميته بالملتزم.

مقطوعة

انطلق إلى باب الحجر
والتزم بلثم هذا المقام
واحتضنه بشوق غامر وإذا صعدت
روحك فلتكن حياتك بالحبيب

(١) كان الركن اليمانى قد تشقق إثر زلزال عام ٥١٥هـ، ولكنه رمم على أحسن وجه بلا تأخير وأحكم صنعه.

أضـــرم مـــن قلبك نار الفراشـــــة

وألـــق نفســـك فـــى تلك النـــــار

أليســـت لك عـــــادة الفراشـــة

تحـــوم أولا حـــول النـــار ثم تحترق

ضـــع يـدك بخشوع على هذا الستار

واتكـــئ عـــلى كرم ذى المـــنن

امسح بوجهك وصـدرك هذا الباب

وزد مـــن نـــور عينيـــك وقلـــبك

علـــق يـــدك فـــى أستـــــاره

وازرف الدمـــــع لرؤيتـــــه

ولتأت بـــذرة الشـــوق من الطريق

أصبحـــت الوصـــل بروج الفـــراق

الأثر الرابع: تحت الميزاب:

الاسم الشهير لتحت الميزاب هو «حجر إسماعيل» وإنه حجر أخضر يقع فى الجهة التى بها المقام الحنفى مواجها لكعبة الله. وتحت الميزاب الذهبى وهو نصف دائرة، يقال إن أكثر مواضعه ـ أو على قول ـ بعض مواضعه كان داخل الكعبة وحينما جدد القرشيون بناء الكعبة تركوه خارجها.

رواية

يقال إن كل من يجلس تحت الميزاب ويدعو الله بقلب طاهر ونية خالصة يستجاب دعاؤه، ويتخلص من ذنوبه كأنه قد ولد من جديد، وكل من يصلى ركعتين فى هذا المكان المبارك ويدعو عند سجوده لنيل مطلب ما يتحقق أمله.

يجب ألا يشك فى هذه الرواية، لأن الجهة الشمالية من جدران الكعبة ومن

ركنيها نحو الحطيم قدر ستة أذرع قد ثبت بحديث صحيح أنها من داخل الكعبة، إنه المكان الذى أخبر عنه بالحديث الشريف ـ يعنى المكان الذى يلزم الدعاء فيه بعد الصلاة ـ وهو المحل الذى سبق تعريفه وقد أشير إليه بحجر مستدير أخضر اللون إن هذا المكان هو «حجر إسماعيل» المبارك.

وبناء على حكم حديث شريف آخر أن كل من يصلى ركعتين فى جهة الركن الشامى لحجر إسماعيل فكأنه قام سبعين ألف ليلة بالصلاة، وطاف بالبيت الأعظم طوافا مبرورًا مقبولا أربعين مرة، وهذا هو قدر أجره وثوابه.

الأثر الخامس: حفرة المعجن:

من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء المعجن الشريف، إن الموقع الذى يطلق عليه المعجن حفرة متصلة بجدار كعبة الله الشرقى، وطولها سبعة أقدام وعرضها خمسة أقدام وست بوصات، وعمقها أكثر من قدم قد خلط إبراهيم عليه السلام طين بيت الله فى هذه الحفرة، إن هذه الحفرة اللطيفة هى المكان الذى صلى فيه جبريل ـ عليه السلام ـ الصلوات المفروضة يومين متتالين مع النبى ﷺ، عندما فرضت الصلوات الخمس.

يروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ عندما فرضت الصلوات أم النبى ﷺ فى أوائل أوقاتها وفى اليوم الثانى فى أواخر أوقات الصلوات الخمس.

إن فى الجهة التى تلاصق هذه الحفرة من كعبة الله حجر أحمر، إن هذا الحجر المبارك دواء مؤثر لمرض ضعف البصر والمبتلون بهذا المرض إذا مسوا هذا الحجر ثم مسحوا بأيديهم عيونهم يشفون من هذا المرض.

وقد سرق هذا الحجر سنة (١٢١٣هـ) وقد تعرض سكان بلدة الله لمرض مفرط، ومات منهم كثيرون، وفيما بعد وجدوا الحجر فى متروكات رجل توفى، فوضعوه فى محله مرة أخرى.

وهكذا نحو مما تعرضوا له من المصائب والقحط وهذا الحجر موجود إلى هذا اليوم، وبناء على قول ابن حجر كلما سرق من بيت الله حجر أو أشياء أخرى يتعرض أهل مكة لمرض مهلك ينتشر إلى جميع البلاد الأخرى، وكان قد سرق فى وقت ما حجر من أحجار بيت الله فظهرت أمراض مهلكة فى مكة الله وانتشرت إلى أكثر البلاد، وفى نهاية الأمر خرس لسان السارق ومات ووجد الحجر المسروق فى ميراث ذلك الرجل وأعيد إلى مكانه، ورفعت تلك الداهية الدهياء من فوق العباد.

الأثر السادس: مقام إبراهيم:

يطلق مقام إبراهيم على ذلك الحجر المبارك الذى استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كسقالة عند بناء كعبة الله المعظمة.

وبناء على هذا التعريف فإن هذا الحجر الذى يطلق عليه مقام إبراهيم هو الحجر الذى استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كسقالة عندما كان يبنى جدران كعبة الله وحينما صعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوق هذا الحجر لبناء جدران الكعبة جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك الحجر كالعجين فغاصت أقدام سيدنا إبراهيم الشريفة فى صدر الحجر حتى كعبها، وعندما نزل إبراهيم ـ عليه السلام ـ من فوق الحجر رجع إلى هيئته الأولى جامدا كما كان.

وقد رأى أنس بن مالك هذا الحجر الشريف فى الآثار المباركة التى تركها إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما يروى صاحب بدائع الزهور بعد التدقيق.

وكان يقول للذين يسألون: إننى رأيت آثار أقدام خليل الله فوق المقام الشريف، وكانت آثار أصابع قدميه ظاهرة. إلا أن هذه الآثار تكاد تمحى من كثرة ملامسة الناس. إن حجر المقام الشريف الذى يساوى الجواهر لا يشبه الرخام الأبيض ولا الحجارة العادية البيضاء أو السوداء. وفوقه عروق تميل إلى السواد أو الصفار وإن كان لونه قارب لون السكر الخام إلا أنه لم ير فى الدنيا حجر لطيف

فى اللون أو الخلقة أو جدير أن يقال لم يخلق حجر مثله. حجمه الأصلى فى ارتفاع واحد وعشرين إصبعا، والجهات التى تحمل آثار قدميه فى عرض ثمانية عشر إصبعا.

إن وسطه أرفع بالنسبة لطرفيه وأسفله يشبه اللبن، ومسافة محيطه أكثر من أربعة أقدام قليلا، إن أثر قدمى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوق المقام قد غطى بغلاف فضى إلا أنه لا يعرف متى حدث ذلك ومن قام بتغليفه.

إن الحجر المذكور محفوظ الآن فى داخل أبنية أنشئت فى الجهة الشرقية لكعبة الله وأمام باب بيت الله.

وكان فى مكان[1] ملاصق لأبنية كعبة الله يوم فتح مكة، وقد أمر قائد المجاهدين (عليه سلام الله المعين) بنقله إلى مكانه الحالى، وهو يبتعد عن شادروان الكعبة المشرفة ابتداء من الشبكة الحديدية ثمانية وعشرين قدما.

ويبعد عن ركن الحجر الأسود خمسة وثلاثون قدما، ومن حدود جبل الصفا مائتين وخمسة وعشرين قدما.

ويوجد تحت الحجر المبارك صفة مبنية بالحجارة، وفوق الصفة صندوق وطول الشبكة الحديدية التى تحيط بهذا الصندوق من يمين مصلى الشافعية ويساره نحو وجه الكعبة خمسة أذرع وعشرة أصابع، وعرضها ذراع وسبعة أصابع ونصف إصبع، ومازالت الجهة الشرقية لتلك الشبكة المكان الذى يصلى فيه أئمة الشافعية مع جماعتهم وهو فوق عمودين رخاميين وفى طول سبعة أقدام وأربع بوصات.

مسألة

قال جماعة: المقصود بالمقام فى الآية الكريم ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ (البقرة: ١٢٥) هو المكان الذى ما بين العمودين الرخاميين.

(١) إن هذا الموقع الجهة اللطيفة لباب كعبة الله، حينما أتم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مبانى كعبة الله السعيدة تركه فى هذا المكان.

وقال جماعة: إن المقام الشريف حرم المسجد الحرام كله، حتى إن الإمام مالك كاد أن يذهب إلى فرضية أداء صلاة الطواف فى ذلك المكان[1].

بشرى:

ينقل أئمة الدين الكرام فى روايات صحيحة عن النبى ﷺ، أن الذين يصلون خلف مقام إبراهيم ركعتين يغفر الله لهم جميع آثامهم السابقة وينعم عليهم بحسنات قدر مخلوقاته والذين يصلون بعدهم ينقذهم من الفزع الأكبر يوم القيامة، ويأمر جبريل وميكائيل (عليهم السلام) بأن يستمروا فى الاستغفار لهم إلى يوم القيامة.

كان المبنى القديم للمقام الإبراهيمى يتكون من مظلة قائمة على شبكة خشبية وكانت مياه السيل الذى ظهر فى عهد عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ جرفت هذا المبنى والمقام الشريف إلى الوادى اليمانى، وأسس الفاروق مظلة جديدة متينة حسب الحاجة فى زمنه.

وقد زينه فى سنة (١٦٠هـ) الخليفة المهدى البغدادى العباسى وفى سنة (٢٣٥هـ) المتوكل على الله بن المعتصم وفى سنة (٢٥٦هـ) زين المهتدى بالله بن الواثق المظلة التى أنشأها عمر الفاروق وأنفق عليها كثيراً من النقود الذهبية.

لم يكتف الخليفة المهدى بتزيين المقام الشريف بل أنفق كثيرا من النقود الذهبية لإلصاق الجزء المنكسر من الحجر الذى يطلق عليه مقام إبراهيم، وقال الإمام الأزرقى نقلا عن عبد الله بن الشعبى وهو يشير إلى همة المهدى: «بما أن المقام الشريف كان لينا جدا قد انقطع جزء منه فى أثناء التعمير، ولما أبلغ الأمر إلى المهدى بن المنصور ألصقه بإذابة ألف قطعة ذهبية».

---

(١) وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سببا فى نزول هذه الآية الكريمة واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى لأنه قال لرسول الله الكريم ﷺ «يا رسول الله ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟! «فنزلت هذه الآية الكريمة الجليلة» ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥) فاتخذ ذلك المقام مصلى ونزل القرآن بهذا موافقا رغبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد أنفق فى عهد المتوكل بالله ثمانية آلاف، وفى عهد المهتدى ألف تسعمائة وتسعين مثقالاً من ذهب.

مع أن جعفر بن فضيل ومحمد بن حاتم، قد اقتلعا هذه الألواح الذهبية وصنعوا بها عملة ذهبية، أنفقاها للمستلزمات الحربية فى فتنة إسماعيل العلوى.

إن الباب الذى يواجه الكعبة الشريفة لشبكة المظلة المذكورة قد ترك مفتوحا للزوار، ولم يغير أى جهة منها، كان من يرغب فى زيارته يستطيع زيارته ومسح وجهه وعينه بالحجر (المقام الشريف).

وقد ذكر أن الدعاء يستجاب بالقرب من المقام الشريف ولذلك كان أصحاب الحاجات يدعون الله ويناجون عارضين حاجاتهم وينالون أقصى مطالبهم عندما يدعون وباب الشبكة الذى يواجه الكعبة مفتوحا.

وكما أن الداعين بقلوب نقية لا يردون يائسين؛ لذا أخذ بعض المفسدين وذوى النيات السيئة يدعون ضد الأشراف والصناديد ووجهاء القبائل، كما ظهرت مساوئ أخرى، وحينما رأى ذلك شخصٌ اسمه يوسف الذى حكم البلاد الحجازية واليمانية فترة من الزمان هدم تلك المظلة، وأدخل حجر المقام المبارك فى داخل قبة حديدية، ووضع مكان الشبكة الخشبية شبكة حديدية، وفى زماننا قد صنع فوق المقام الشريف صندوق من خشب شجرة الطرفاء، ويحيط بهذا الصندوق قفص حديدى، وذلك القفص تحت قبة حجرية، وتحيط بهذه القبة من جهاتها الأربعة شبكة حديدية، ولذلك الصندوق باب فى الجهة الشرقية، وهناك قطعة قماش مزخرفة بالذهب تحيط بهذا الصندوق، وكلما غيرت كسا الكعبة المفخمة الداخلية غيرت هذه الستارة أيضا.

وقد غير الملك الناصر محمد بن قلاوون المصرى الشبكة التى تحيط بالصندوق فى سنة (٧٢٨هـ) وكتب على إحدى جهاتها اسمه.

وبعد اثنتين وثمانين سنة وفى سنة (٨١٠هـ) قد صنع سقف لطيف لداخل القبة، وكتب فى أحد أماكنه اسم صانعه وتاريخ صنعه.

وقد غطى السلطان جاقمق المصرى القبة المذكورة بالرصاص فى سنة (٨٤٣هـ) ولما احتاجت بعض أماكنها للتعمير بفعل مرور الزمن عمرها السلطان الأشرف الغورى، وزينها بالذهب فى سنة (٩١٥هـ) وبعد مرور ثلاث سنوات وفى سنة (٩١٨هـ) غطى القبة بالرصاص.

وإن كان صندوق المقام الشريف والشبكة الحديدية التى فوقه قد صنعت فى شكل رصين كما ذكر من قبل وعمرت عدة مرات، إلى أن أخذ بعض أجزائها فى البلى وزال طلاؤها وسقطت بعض أخشابها، وصعب حفظ ذلك المقام فأقيمت المبانى بناء على الطلب والاستئذان من السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة (٩٤٧هـ).

وصنعت فى شكل محكم وهيئة متينة. وشبكة القفص المصنوعة من الحديد غيرت بشبكة نحاسية، وأخذت الأبنية التى صنعها السلطان المذكور يصيبها البلى بالتدريج، وأشرفت على السقوط والخراب، وعرض الأمر على السلطان مراد الرابع طاب ثراه فبادر إلى تجديدها وتزيينها فى سنة (١٠٤٥هـ) وبعد سبعين سنة من ذلك ساءت حالة الصفة التى تحمل الحجر الذى عليه آثار قدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكتب حامل مفتاح الكعبة المعظمة الشيخ محمد الشيبى تقريرا إلى ولاية مكة، وأبلغت الولاية الأمر متضمنا التقرير السابق إلى الباب العالى. فبادر الباب العالى بتجديد تلك الصفة وجدرانها والصندوق الخشبى للمقام المذكور، والأماكن الأخرى التى تحتاج إلى التجديد وذلك فى سنة (١١٦٥هـ).

وأكد الشيخ محمد الشيبى فى تقريره لزوم تجديد الغطاء الفضى الذى يزين الصندوق الفضى وكسوة الصندوق الذى يحتوى على حجر المقام. وبناء على ما يقتضى عمله فى مكة فلقد أرسل السلطان مصطفى خان الثانى بن المرحوم محمد خان الرابع بالأمر السلطانى الذى تفتقت به قريحته، والذى تجب طاعته إلى إبراهيم أفندى مدير التعمير فى مكة المكرمة، وبناء على هذا الأمر السلطانى عَايَنَ إبراهيم أفندى مع شريف مكة وقاضيها والآخرين ومن يجب وجودهم المقام

المذكور، وبناء على القرار الذى اتخذوه رمم صندوق المقام، وبعث بالغطاء الفضى القديم للمقام، وبعض العينات من التراب الذى وجد حول الحجر المبارك إلى باب السعادة للتبرك، وقد قدمت هذه الأشياء بكل توقير إلى العتبة السلطانية مما أثار فرحة وسرور السلطان، وبعد أن رآها أمر بأن تحفظ هذه الأشياء المباركة فى صورة تليق بها، وهكذا وضعت فى الخزانة السلطانية لحفظها.

إن التراب المبارك الذى أخذ من المقام وأرسل إلى باب السعادة كان من الطين الذى تحجر حول آثار قدم سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه كان قد صنع جدير من الجص حول آثار قدمى إبراهيم عليه السلام فى ارتفاع شبر، وغلف الجدير بغلاف من الفضة، وذلك لملئه بماء زمزم الذى يعد شربه تبركا بآثار قدمى ذلك النبى الكريم، كما كان يحدث فى أوائل العصور الإسلامية، ومازال يحدث فى ذلك الوقت، وكلما فتح باب الشبكة الحديدية للمقام يصب الزوار والحجاج فى داخل ذلك الجدير ماء زمزم ويشربونه متبركين.

ثم يضعون فيه بعض القروش ثم يأخذونها ويضعونها فى أكياس نقودهم للتبرك بها، وحينما يكون فى داخل ذلك الجدار ماء زمزم وتوضع فيه النقود، ثم تؤخذ بعد فترة وتوضع فى كيس النقود؛ يجلب ذلك البركة واليمن لهذا الشخص.

ولما شاع هذا الخبر بين الناس أخذ الحجاج يضعون فى داخل هذا الجدير عملة مجيدية صغيرة أو مسكوكات ذهبية أخرى، ثم يأخذونها ويضعونها فى أكياس نقودهم معتقدين أن مثل هذا الكيس الذى يحتوى على مثل هذه النقود لا يخلو فى يوم من الأيام من النقود، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد استجاب لدعاء إبراهيم ـ عليه السلام.

إن مقام إبراهيم ومبانيه دامت متماسكة مائة وإحدى وثمانين سنة بعد أن عمرها السلطان مراد خان الرابع فى سنة (١٠٤٣هـ) وبعد أن رممها وأصلحها السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد خان الرابع بعده باثنتين وسبعين سنة فى سنة (١١١٥هـ) وظلت مبانى المقام الشريف متماسكة إلى يومنا هذا بعد

إجراء الترميمات والإصلاحات من حين لآخر إلا أن مبانيه بليت بغتة وكادت تنهار، وحينئذ استأذن مدير الحرم الشريف فى تعمير الصندوق والستارة التى عليه والشبكة التى تحيط به وناحية المقام الشافعى على قدر الإمكان، حتى أمكن أن تستمر المبانى متماسكة لفترة ما.

وفى سنة (١٠١٦هـ) جدد السلطان مراد الرابع مبانى المقام الشريف وفى سنة (١٠٤٣) جدد بابها وأماكن الشبكة التى صبغها بلون أخضر وطلى الأماكن التى احتاجت للطلاء بالذهب، إلا أنه غير وجدد المبانى المذكورة كليا بعد سنة وذلك لشدة الحاجة إلى هذا التجديد.

الأثر السابع: داخل البيت المعظم

ساحة تبلغ (١٨٦٠) قدم مربع فى داخل كعبة الله المشحونة بالفيوضات الإلهية وقد نقش وزين داخل جدران البيت الأعظم بقطع رخام ملونة. وللسقف الشريف الذى يحاذى الركن العراقى سلم مثل سلم المآذن الحلزونى ذى سبع وعشرين درجة، ومصنوع من الخشب، ولقد أرسل هذا السلم من قبل الملك المؤيد من مصر عام (٨١٧هـ).

وبعد مرور إحدى وخمسين سنة احتاج السلم الذى أرسله الملك المؤيد إلى التجديد، فصنع الملك خوشقدم سلما غاية فى الجمال، وأرسله إلى مكة فى خلال سنة (٨٦٨هـ)، وجدد السلطان مصطفى خان سلم الملك الظاهر فى سنة (١١١٥هـ) جاعلا سبعا من درجاته من الرخام والباقى من الخشب.

وفى داخل بيت الله كرسى خاص بحامل مفتاح الكعبة السيد الشيبى، وهذا الكرسى فى غاية الجمال وقد أهداه السلطان الغورى فى سنة (١٠٤٣هـ) وجدد من قبل السلطان مراد خان الرابع.

وفى يمين الواجين داخل البيت الحرام توجد حفرة للخزانة، إن هذه الحفرة التى نسيت من قبل التاريخ هى الحفرة التى حفرت لوضع الهدايا التى ترد من قبل الناس لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى الستائر المعلقة على الجدران كلمات طيبة وأدعية مأثورة منسوجة بالحرير، ولباب الكعبة فى الداخل ستارة فى طول قامتين ونصف للإنسان وقد شغل عليها بعض الرسوم بالخيوط الذهبية، وسواء أكانت هذه الستارة أو الستارة الخارجية تغيران كل سنة ويقسم قديمهما بين خدمة بيت الله وكمر الستارة وستارة الباب من نصيب السيد الشيبى فى هذا التقسيم.

إن لبيت الله خدم زنوج عددهم واحد وخمسون، ويطلق عليهم بين الناس اسم الأغوات المخصيون.

ولا يجوز أن يزيد عددهم على الأربعين أو ينقص، وإذا ما حدث وزاد فهناك كثيرون يلازمون البيت ليقبلوا ضمن الأغوات[1] حتى بلغ عددهم الآن إلى واحد وخمسين نفرا.

الأوقات التى يفتح فيها باب بيت الله

يفتح باب بيت الله تسع مرات فى السنة على أن يكون الفتح لمدة ثلاث ساعات فى كل مرة، وذلك فى:

يوم عاشوراء العاشر من شهر المحرم.

والثانى عشر من ربيع الأول.

والثالثة: الخامس عشر من رجب.

والرابعة: السابع والعشرين منه.

والخامسة: الخامس عشر من ذى القعدة.

والسادسة: السابع والعشرين منه.

والثامنة[2]: العاشر من ذى الحجة. وقد جرت العادة أن يفتح فى المرة التاسعة

(١) ذكر تاريخ استخدام الأغوات فى الكعبة المعظمة والحجرة النبوية المعطرة وسبب استخدامها فى مجلد مرآة المدينة.

(٢) لم يذكر المترجم المرة السّابعة التى تفتح فيها الكعبة المشرفة.

بعد أداء صلاة العيد، وفى المرات السابق ذكرها بعد شروق الشمس، والجميع يحترمون هذا النظام وهذه المواعيد.

ويدخل الحجاج داخل بيت الله لزيارته عندما يفتح باب كعبة الله ولما كانت هذه الزيارة للخير المحض للجميع قد خص يوم من هذه الأيام لدخول الحجاج، ويوم آخر لزيارة نساء الحجاج، ومن العادات القديمة المستحسنة أن تلبس الكعبة كسوتها فى السابع من ذى الحجة وفى ليلة الخامس عشر من رجب وليلة اليوم السابع والعشرين يدعو حامل مفتاح بيت الله السيد (الشيبى) فى داخل بيت الله لأجل السلطان، وفى ختام الدعاء يلبس الخلعة المهداة من السلطان، وفى الأيام التى يفتح فيها باب بيت الله يؤتى بالسلم المتحرك الخاص بباب كعبة الله وبعده يتوجه كل دليل مع الحجاج التابعين له إلى الكعبة ليدخلوا فى بيت الله، وهنا يزدحمون ويحاول الحجاج أن يدخلوا كلهم مرة واحدة فيجرح كثيرون.

* * *

سلم بيت الله

لا يعرف من الذى وضع سلم باب بيت الله لأول مرة. إلا أن الملك المؤيد المصرى قد أرسل فى سنة (٨١٧هـ) سلما مزينا ومنذ ذلك العهد أخذ يجدد من قبل النواب الهنود، والآن لباب بيت الله سُلَّمان، أهدى أحدهما فى سنة (١٢٤٠هـ) من حاكم مدراس منور خان وأهدى الآخر فى سنة (١٢٩٧هـ) من حاكم (رامپور) كلب على[١] خان وقد وضع الجديد منهما فوق عجلتين متحركتين، وقد صنعت بعض أجزاءه من الحديد، وقد غطيت كل جهاته من مراقيه وارتفاعها والدرابزين وكل ما يرى فى خارجه وكل أماكنه بفضة، وطليت بماء الذهب ستة من الأصص التى وضعت فى مواضع ستة من السلم، والخشبة الموضوعة فوق الدرابزينين الجانبيين، والفراغات الموجودة تحت كل درجة، والفراغ الموجود تحت الدرجة الأخيرة للسلم، وأطراف فراغات السلم كافة، وعامة كل السلم كما يرى فى الصورة الخاصة به، وبما أن ذلك السلم المزين زادت زخرفته عن كل حد قرر العلماء بالاتفاق أن يستعمل ذلك السلم فى طلوع النساء ونزولهن، وكلما أريد أريد أن يفتح باب الكعبة لزيارة النساء يجلب ذلك السلم أمام باب كعبة الله، إن سمك الألواح الفضية لذلك السلم قدر مليمتر[٢] واحد وعيار فضته من نفس عيار الروبية الهندية.

قد حك فوق السلم القديم جملة (عبده منور) وإن بدا بزينة مصنوعة فى غاية الجمال وقد صبت من النحاس الأصفر وزخرفت بالذهب وقد صنعت أطرافها من خشب الأبنوس وبمهارة فوق تخمين البشر.

(١) قد حج هذا الشخص فى سنة ١٢٨٩.

(٢) المليمتر هو جزء من ألف جزء من المتر.

والأقسام التى صبت من خليط النحاس لما زيد فيها النحاس فالزخرفة التى عليها تلمع كأنها قد زخرفت اليوم ، ولما كانت مراقى السلم مصنوعة من خشب شجرة الطرفاء فهى متينة جدًا، الأخشاب التى فى خارج السلم صنعت كالأطراف من خشب الأبنوس فى شكل مزخرف، ووضع فوق ثلاث عجلات.

وكان الرسول الذى أوصل السلم الذى أهداه كلب على خان طلب أن يهدى إليهم السلم الذى أهداه (منور خان) للتبرك به ولما عرض الأمر على سلطات الخلافة للاستئذان صدر الأمر السلطانى بأن يحفظ السلمان لاستخدامهما بالتناوب وخصص السلم الذى أهداه (منور خان) لاستخدام الرجال والسلم الذى أهداه (كلب على خان) لاستخدام النساء كما سبق ذكره أعلاه وعلى هذا عندما يفتح باب الكعبة للرجال يستخدم السلم الذى أهداه منور خان وعندما يفتح باب الكعبة للنساء يستخدم السلم الذى أهداه كلب على خان.

نصيحة

لا يمكن لإنسان ألا يتمنى الدخول فى داخل البيت الحرام، ولكن يجب أن يراعى الأمور الآتية، وكل من لا يراعى هذه الحقيقة ويدخل فى الكعبة على عماه يكون قد ارتكب حراما ورضى أن يصاب بالإعاقة ونقل صاحب (شفاء الغرام) وأن النبى ﷺ قد دخل بعد الهجرة أربع مرات فى البيت الحرام، وصلى فيه فى أحد تلك الأيام الأربعة، وهذا اليوم هو الفتح واليوم الثانى للفتح، والثالث فى حجة الوداع والرابع فى عمرة القضاء، وكان فى ذلك الوقت لبيت الله ستة أعمدة، وكان مع الرسول ﷺ حينما دخل فى الكعبة حضرة بلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة، وبناءًا على ما يروى هؤلاء أن النبى ﷺ صلى داخل الكعبة جاعلا عمودان فى جهته اليمنى، وعمودان فى جهته اليسرى، وثلاثة من الأعمدة خلفه، وكان الناس فى القديم يدخلون داخل الكعبة بالأحذية، ولما خلع وليد بن المغيرة حذاءه عند دخوله الكعبة أخذ الناس يخلعون أحذيتهم وبعد ذلك لم يدخل الكعبة أحد بحذائه «محاضرة الأوائل».

ولوجهك شطر الحرم العظيم هذا

وأقم فيه فى سود الثياب

إن صحن الحرم هو روضة الخلد المقيم

فاقعد فى صحنه المربع

إن وجهه هو قبلة أهل الحسن من العرب

وسجدة ملاح العجم نحوه

وبما أن الريح تعلقت بحضنه

نثرت الغالية فى جيب الدنيا

ولما رفعت الريح طرف كسوته السوداء

اكتحلت عين الروح من حجره

«فتوح الحرمين»

مسألة:[1]

إذا ما أمكن الدخول فى بيت الله حين يخلو المكان من الازدحام بدون مشقة ويمكن الصلاة فيه بسكينة وهدوء فالصلاة فيه حلال، ولكن الدخول فيه عندما يزدحم المكان ويضيق فحرام، وبما أن ستة أذرع من ناحية حجر إسماعيل يعد من داخل البيت الحرام فأولى بالإنسان أن يدعو فى هذا المكان.

قال الزاهدى وجلبى فى شرح القدورى والإمام مالك والإمام الشافعى فى بعض أقوالهم: لا يجوز أداء الفرائض فى داخل كعبة الله، وأعلن بعض الأئمة عدم جواز التنفل أيضا. مع أن النبى ﷺ قد أدى فيه الصلاة أربع مرات.

(١) انظر فى المسألة: إعلام الساجد للزركشى ص ٩١ وما بعدها.

والواجب فى هذه المسألة أن يستقبل الإنسان بعض جهات البيت الأعظم لذا أجاز أئمة المذهب الحنفى أداء الفرائض أو النوافل، وبناءًا على هذا يجوز أن يصلى فوق كعبة الله أيضا، إلا أنه مكروه لأنه إخلال بتعظيم البيت، حتى إن فوق الكعبة المكان السادس من الأماكن التى كره فيها النبى ﷺ، الصلاة كما جاء فى هذه الأبيات.

نهى الرسول أحمد خير البشر

عن الصلاة فى بقاع تعتبر

معاطن الجمال[١] ثم المقبرة[٢]

مزبلة[٣] طريقهم[٤] ومجزره[٥]

وفوق بيت الله[٦] والحمام[٧]

والحمد لله على التمام

الأثر الثامن: قرب بئر زمزم

هذا المكان بين مبانى بئر زمزم وشبكة مقام إبراهيم، ويمكن للإنسان أن يجد فيه مكانا يدعو فيه متى شاء.

إن عمق بئر زمزم ١٣٤ قدم و ٣ بوصات، وقطر فتحتها العليا ثمانية أقدام وبوصتان ويبعد من الجدار الذى على فتحته ناحية جدار الكعبة المعظمة ٤٧ قدم و٩ بوصات، ومقام إبراهيم ٢١ قدم و٩ بوصات.

وقد أعطى النبى ﷺ شرف سقاية زمزم إلى عمه عباس بن عبد المطلب، وكانت السقاية تنتقل إلى أبناء وأحفاد بنى عباس، ولما فضل بنو عباس عدم الإقامة فى مكة كانوا يقومون بهذه الخدمة بتوكيل أحد مشايخ بنى الزبير، وحينما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس أديت خدمة السقاية فترة طويلة بالوكالة،

وذهب فيما بعد أحد مشايخ بنى الزبير ورجا أن تجعل خدمة السقاية فيهم بالأصالة، ولما حصل على الإذن بذلك أصبحت السلالة التى تنتهى إلى عبد الله بن الزبير تقوم بخدمة السقاية الكريمة.

وقد أديرت خدمة السقاية عدة عصور كما شرحنا من قبل إلا أنه مع كثرة الحجاج وزيادة السكان أصبح حصر هذه الخدمة كما كان فى عهد بنى عباس، أو فى عهد شيخ زمزم من أبناء وأولاد الزبير بن العوام، فى شخص واحد غير ممكن لإرواء الحجاج والأهالى، ولذلك اتخذ من قبل شيخ السقاية فى كل ركن من أركان الحرم الشريف سقاء لإرواء الموجودين، ولكن بعد عصر من الزمن رئى أن هذا النظام أيضا لا يكفى لإرواء آلاف الحجاج والأهالى، فزيد من عدد السقائين. حتى لا يتعرض الحجاج المسلمون لبلوى العطش، وحتى يجد بعض الفقراء وسيلة لكسب مصادر الرزق، فقد عين لحجاج كل ولاية من الولايات الإسلامية سقاء، وجعل هؤلاء السقاءون تحت رياسة الشخص الذى تعهد بالقيام بمهمة السقاية من المشايخ الزبيرية، والآن كل بلد إسلامى له سقاء معروف، وكل واحد من هؤلاء مكلف بحسن معاملة الحجاج الذين يتبعون له. كما أن حجاج ذلك البلد يلجأون إلى السقاء الذى عُيِّنَ لهم فى أمور السقاية، وهكذا استراح الحجاج من مشكلة السقاية، كما أن كثيرا من أهل مكة وجدوا مصادر رزق فعاشوا فى رفاهية.

ولكل سقاء الآن فى كل سنة خمسة أو عشرة وأحيانا عشرون وثلاثون أو أكثر من الحجاجُ، يأتون إلى مكة ويذهبون. ولما كان كل سقاء يقوم بإقامة وليمة حسب حاله مرة لحجاجه الجدد لأجل ذلك يطيب الحجاج خواطر السقائين بإعطائهم بعض النقود عند وصولهم إلى مكة، وعند حلول عيد الأضحى، كما أن كل حاج يحاول أن يرضى سقاءه عند عودته إلى بلاده، كما أنهم يساهمون فى تسهيل معيشة أسرة السقاء بإعطائه بعض النقود كل أسبوع.

ويؤوى السقاءون حجاجهم فى وكالات جيدة ويحرصون على خدمة مرضاهم، ويأخذون سجاجيد صلواتهم ويفرشونها فى الأماكن التى يود الحجاج أداء صلواتهم الخمس فيها، قبل حلول وقتها.

ويجد كل حاج قبل صلاته سجادته التى فرشت له، وبهذا يؤدى صلواته الخمس فى هدوء وراحة، ولذا يجب على الحاج أن يقابل خدمات سقائه بإعطائه بعض النقود، كما سبق أن ذكرناه، كما أن على السقائين أن يراعوا حجاجهم ويحسنوا معاملتهم ويعدون العدد الكافى من الناس حتى يقوموا بمهمتهم على أحسن حال.

فهم علاوة على فرش سجاجيد الصلاة فى الأماكن التى تعود الحاج أداء صلاته فيها حين حلول وقت الصلاة، يقدمون لحجاجهم عقب أداء فرائض الصلاة طاسا من ماء زمزم البارد، كما أنهم يحضرون الماء لحجرات الحجاج كل صباح من ماء زمزم.

إن شرب زمزم فى داخل الحرم الشريف ليس حكرا على المواقع التى يوجد بها السقاءون، لأن هناك فى شرق المسجد الحرام وغربه سبل يستطيع الحجاج العطشى أن يزيلوا ظمأهم بالشرب من هذه السبل، وإذا أرادوا أن يشربوا يستطيعوا أيضا بالشرب من الدلاء التى فى داخل مبانى بئر زمزم.

وبما أن ما يعطيه الحجاج لسقائيهم من النقود لا تقابل ما يدفعه السقاءون سواء أكان لضيافة الحجاج أو للخدمة الذين يستخدمونهم إلا أن الحجاج الذين أسقطوا عن كواهلهم فريضة الحجاج يرسلون فى كل سنة من بلادهم رسالة ومعها جرة معينة يستطيع السقاءون أن يتعيشوا بها فى غير مواسم الحج.

ويخجل السقاءون حجاجهم بأن يقدموا لهم فى الأيام الحارة مياه زمزم مبردة والسبب فى تبريد المياه هم الحجاج الذين تعودوا أن يرسلوا الرسائل للسقائين.

لأن الحجاج يكتبون أسماءهم أو أسماء أصدقائهم وهم فى مكة على أوانى

الماء التى يطلق عليها الزورق بحبر لا يمحى ويتركونها لسقائيهم. وعندما تصل الرسائل التى اعتاد إرسالها أصحاب الزوارق يملئون هذه الزوارق بماء زمزم ويصفونها على الساحة الرملية فى الحرم الشريف، ويغطونها بالحصر فيبرد الماء فى داخلها غاية البرودة وعندما تحل أوقات الصلاة يوزعون الزوارق على الحجاج الكرام.

إن خدمة السقاية المباركة تدار الآن بالطريقة التى ذكرت، يعنى يملئون زوارقهم بماء زمزم، ويأخذون بعضها إلى غرف الحجاج كما يبردون كثيرا من الزوارق فى الحرم لسقى الحجاج، ولما كانت سقاية الحجاج إلى الآن فى أيدى المشايخ الزبيريين فأبنية بئر زمزم وأبوابها تفتح من قبل واحد منهم كما أن أحدهم يطلق عليه اسم شيخ زمزم ورئيسه. ولما كان الإشراف على المؤذنين ورئاستهم فى يد المؤذن الشافعى فشيخ زمزم هو الذى يتولى هذا الأمر، ولما كان أول من يبدأ بأداء صلوات الفجر أئمة المذهب الشافعى فشيخ بئر زمزم يغلق باب بئر زمزم كل ليلة، ويفتحه كل صباح فى الوقت الذى اعتاد فتحه، وبهذا يعلن لسقاة الحرم الشريف أن الوقت قد حان للحصول على ماء زمزم، والشيخ الذى يتولى مهمة السقاية يأخذ من بئر زمزم عدة أوان من الماء قبل أن يفتحه للآخرين لشربه، أو لتقديمه لأصحابه، ولما كان هذا الماء زبدة ماء زمزم فطعمه لذيذ جدا ولونه لامع وصاف ولا يشبه ماء زمزم الذى يأخذه السقاة، وليكن فى علم الشاربين أن ماء زمزم كفاية عن خلاصة قطرة واحدة لماء عين تسنيم، وماء الكوثر، ماء الحياة الذى هو زبدة خالصة ومن هنا يستحق أن يطلق عليه الزبدة.

ولما كان الشراب من زبدة ماء زمزم يفيد فى تصفية الدم ولإدامة صحة الإنسان عامة فمن يريد أن يشرب من هذا الماء يجب عليه أن يحل عند شيخ زمزم.

شيخ زمزم فى عصرنا هذا هو الشيخ عبد الله[1] بن على بن محمد بن عبد

(١) ساق المؤلف نسبًا طويلاً للشيخ عبد الله هذا ينتهى به إلى سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) إلا أن البادى عليه شدة الاضطراب فاختصرنا العبارة كما هنا.

السلام من نسل سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنهم) وقد تعهدوا بأداء هذه الخدمة المشكورة سنة ١٢٨٢هـ.

إننى ـ المؤلف ـ قد تلاقيت مع عبد الله أفندى وحضرت مجالسه ونلت شرف شرب زبدة ماء زمزم كل صباح فى صحبته ودلالته. كان المرحوم السيد عبد الله من الأشخاص الذين يتمعتون بخصال حميدة وفضائل جليلة وكان من أذكياء علماء مكة، شخص خزانة علم، فريد فى الحلم والحكمة، ملكى الصفات، والسعداء الذين يتشرفون بصحبته يتمنون ألا يفارقون صحبته دقيقة واحدة.

تطهير بئر زمزم الشريف

نضبت مياه بئر زمزم فى عهد العباسيين وكادت أن تنقطع وبعد ما عمقها بناء يقال له محمد بن ضحاك قدر ستة أذرع لم ينقص ماؤها أبدا.

وكان أهل مكة يعتقدون أن مياه بئر زمزم يفور فى الليالى المباركة ويفيض، وأن مياه الكوثر تختلط بمياه زمزم فى تلك الليالى، وبناء على ذلك كانوا يهجمون على بئر زمزم ويقتحمونها بقوة حتى يخاف أن يصاب بعضهم بعاهات فى تلك الليالى، وهم يبذلون الجهد لأخذ مياه زمزم ولكن تحقيقاتنا لم تثبت ما يدعونه.

وقد حصلنا على روايتين بخصوص فيضان بئر زمزم.

الرواية الأولى:

اختلاط بعض المياه الجارية بماء زمزم ولما كان باب بئر زمزم يغلق فى الليالى المباركة من العصر إلى المساء؛ لذا كان يزيد الماء الموجود فى البئر قدر شبر.

والرواية الثانية:

عندما انسدت البئر المذكورة توارد إلى مكة كثير من الروحانيين، وفى تلك الليلة تغير طعم ماء زمزم وردوا ذلك إلى سبب سؤر الروحانين فى البئر. والحكاية الآتية كافية لتصديق هذه الرواية وتأكيدها.

القصة:

استيقظ أحد الفضلاء من المشايخ الزبيريين وقام من نومه ظنا أن وقت الترحيم قد حان، واتجه إلى الحرم الشريف، وبعد الطواف بالبيت صعد إلى المكان الخاص برؤساء مؤذنى الشافعية، وفوجئ بأن أبواب بئر زمزم قد فتحت، وأشعلت القناديل ودخل كثير من الناس فى أبنية بئر زمزم، وتعجب من الأمر، لأن من الأصول المتبعة أن يكون مفتاح بئر زمزم معه، ولكنه قال لنفسه: لابد وأننى استيقظت متأخراً وهؤلاء بعثوا إلى بيتى وأخذوا المفتاح. وبناء على هذه الملاحظة لم يقم من مكانه يتحقق من الأمر، ومن شدة حيرته وتعجبه لم يخطر على باله أن ينظر إلى الساعة، وبعد فترة أدرك أن المؤذنين لم يصلوا بعد، فظل جالسا فى هذا المقام قائلا: ما هذه الحال؟! وبينما هو يفكر فى هذا الأمر غلبه النوم وراح فى سبات، واستيقظ بعد فترة فإذا بالقناديل مطفئة وأبواب مبنى بئر زمزم مغلقة، فبادر بالقيام وأخرج ساعته من جيبه فرأى أن وقت الترحيم لم يحل بعد؛ فتوهم من هذا الأمر وخاف، وأخذ يتلو القرآن، وبعد ما وصل والده بفترة قص عليه الحكاية بكل تفصيلها، فقال له والده ـ يا بنى إن ما تشربونه صباحا من بئر زمزم من ماء حلو قائلين إنه زبدة ما هو إلا سؤر أولياء الله الروحانيين، ولا يشبه ماء زمزم الذى يأخذه السقاة: إذ يأتى أولياء الله الصالحون بعدما ينسحب الزوار فى الليل، وبعدما يطوفون بالبيت الحرام يدخلون فى مبنى بئر زمزم، ويشربون ماء زمزم حتى الصباح، ولا يمنعهم لا الباب ولا المدخنة، وبهذا الرد اطلع على هذا السر شديد الخفاء. انتهى.

وفى الواقع أن الماء الذى قلنا عنه الزبدة من ماء زمزم لا يشبه ماء زمزم الذى يؤخذ منها سواء فى الطعم أو اللون، إن طعم الزبدة فى غاية اللذة ولونها فى غاية الشفافية يفوق عن التصوير والتعريف. وقال بعض المدققين إن لماء زمزم الصافى خاصية زيت الزيتون، وبما أن ماء زمزم غير قابل للامتزاج بالمياه الجارية الأخرى فعندما يغلق باب أبنية بئر زمزم فماء زمزم يطفح فوق الماء، كما يطفح

زيت الزيتون؛ لذلك يختلف طعم ماء زمزم الذى يؤخذ صباحا. إن هذا التوجيه الوجيه غير قابل للاعتراض؛ لأنها خاصية ينفرد بها ماء زمزم عن المياه الأخرى مهما كانت لطيفة خفيفة لا يمكن منعها من الامتزاج.

فإذا ما أضيف قدح ماء مر إلى قدحين أو ثلاثة أقداح ماء حلو فيفسد طعم الماء الحلو، ومهما ترك من الوقت فالماء الحلو لا يطفح فوق الماء ويسترد لذته الأولى.

إن بئر زمزم الشريف يقع فى مواجهة باب كعبة الله المعظمة، وفى داخل مبانى حجرته[1] ولمبانيها ثلاث نوافذ مقابل باب كعبة الله. وينظر باب إلى الجهة الشرقية وفوقها خاص بمؤذنى الشافعية. ولاسيما شيخ زمزم أى الخاص برؤساء مؤذنى الشافعية. ومن هنا ينبه لأداء أذان صلوات الأوقات الخمسة.

لم يكن فى الأزمنة الأولى سور لفتحة بئر زمزم، وكان يحيط بها سور منخفض. وحدث فى عهد أبى جعفر المنصور من خلفاء بغداد أن سقط أحد الناس قضاء فى داخله، وحتى يمنع وقوع مثل هذه الحوادث قرر أن يَبْنِيَ على فتحتها سورًا بناء على الأمر الوارد من الخليفة. وبعد البحث والتحرى وجدوا حجرا فى ارتفاع ٦ أقدام و ٣ بوصات واستدارة قطره ٢٥ قدم فثقبوا وسطه ووضعوه فى فتحة البئر.

ثم أحاطوه دائرًا ما دار بشبكة حديدية، ومع ذلك بعض العشاق وأصحاب الشوق كانوا يرمون أنفسهم فى البئر ويغرقون، ولما أطلع السلطان أحمد خان الأول على هذا الأمر أراد أن يحول دون أن يقتل الناس أنفسهم، فأمر بصنع شبكة حديدية فى إستانبول وأرسلها إلى مكة المكرمة فى سنة (١٠٢٤هـ) فأنزلت تلك الشبكة إلى البئر وربطت بسلاسل حديدية تحت الماء بعدة أذرع. ولله الحمد لم تقع بعد ذلك حوادث محزنة مثل ما حدث.

(١) وقد جدد السلطان مراد خان الثالث هذه الأبنية فى سنة ٩٨٥هـ. كما أن السلطان مراد خان الرابع قد غير بابها وجدد طلاءها الداخلى فى سنة ١٠٤٣هـ.

إن مبانى البئر الشريف الموجودة فى يومنا هذا من آثار السلطان عبد الحميد خان الأول كما هو موضح فى التاريخ الذى فوق الباب.

وعمق بئر زمزم المكرم ٩٩ قدما و٣ بوصات كما ذكر آنفا، وماؤه فى كل آن وزمان (٤٥ قدما)، إذا ما نظرنا إلى أقوال المسنين من السقاة الذين يوثق بهم أنه إذا ما سحب الماء من بئر زمزم ليلا ونهارًا ولفترة طويلة من الصعب أن ينزح ماؤه.

مساحة بيت الله الأكرم

قال المرحوم السيد غبارى لأحد أحبائه وهو مؤلف كتاب مساحة بيت الله الأكرم: « سقط شخص فى بئر زمزم فى عهد السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم، وأرادوا أن يطهروا البئر وفقًا للشريعة بأن ينزحوا كل مياه البئر، وسحبوا المياه وبثمانية دلاء فى خمسة أو عشرة أيام على الدوام، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينقصوا المياه ولو بقدر إصبعين، وكان فى البئر ذلك الوقت ما يقرب من تسعة أذرع فلم يزد هذا الماء ولم ينقص، وقد تعجبت من هذه الحالة وقلت لنفسى ما الحكمة فى عدم نقص المياه فى البئر مع سحبها ليلا ونهارًا؟ وأخذت أسأل عن سبب ذلك ممن أتوسم فيهم الصدق وأثق فيهم دون كلل، وفى أحد الأيام قابلت البناء محمود الذى تجاوز المائة من عمره والذى يتوسم فيه قول الصدق.

فسألته وبجانبه بضعة أشخاص متقدمين فى السن موضحا له زيادة فضولى بهذا الخصوص، وقد تلقيت منه هذا الجواب:

جواب غبارى أفندى كما تلقاه من البناء محمود:

قال غبارى أفندى: «لم ينزل المطر الذى يسبب سيولا فترة تقرب من إحدى عشرة سنة فى عهد السلطان قايتباى المصرى، وجفت مياه جميع آبار مكة المكرمة، وأخذ الناس يأتون من بعيد وقريب مضطرين للحصول على المياه من بئر زمزم، وإننى كنت فى ذلك الوقت شابا، ولما كنت متضخم الجسم كنت صبى البناء، وحدث أن سقط أحد فى البئر كما حدث الآن. ونقصت المياه بمقدار أربعة

أمتار، وقرر الأشراف أن يخرجوا الشخص الذى سقط وأن ينظفوا البئر فى نفس الوقت، وبناء على رأى معلمى أحمد البناء قد ركبنا فى بكرات البئر ثمانية دلاء كبيرة، وأخذنا ننزح البئر وكنت أعمل بجانب معلمى أحمد، وبعد فترة استطعنا أن ننقص قليلا من مياه البئر، فنزلت مع أستاذى فى قاع البئر لتنظيفه وتطهيره، وإذا بعيون ماء ثلاث فوق خزانة ماء البئر، اثنتان تحاذيان البيت الأعظم، والأخرى تحاذى جبل أبى قبيس، وكانت المياه التى يقال إنها تمتزج بماء زمزم تأتى من هذه العيون.

ويؤيد قول محمود البناء ما قاله عبد الله بن المبارك: إن عين الماء التى تجرى من ناحية ركن الحجر الأسود عين ماء، كما يؤيد قول ابن شعبان: إن الماء الذى ينصب فى بئر زمزم من ناحية الحجر الأسود عين من عيون الجنة.

قد انخفض ماء البئر عن العيون التى سبق ذكرها ولذلك كان مزيتا قليلا، فسددنا تلك العيون سدا محكما، ونزحنا الباقى من المياه ثم ملأنا الدلاء بالطين المتراكم، وطهرنا خزانة الماء وظهر فى الطين الذى أخرج كأسان من البلور، وواحدة من الزنك وثلاثة من النحاس، وأربعة أعداد من الصحون الصينية، وعددان من عقد مرصع، وكان غير ذلك كثيرا من قطع خشب الأبنوس والخردوات المتنوعة. وبعد أن نظفنا البئر من الطين حتى أصبح البئر خاليا من قطرة ماء بعد أن طهرناها ونظفناها أدى كل واحد منا فى سطح قاع البئر ركعتين، وفتحنا العيون التى سددناها وخرجنا إلى ظاهر البئر، وبعدما خرجنا من البئر أخذت المياه تتدفق من العيون التى ذكرناها فى غاية القوة حتى ملأت البئر فى نفس اليوم، وتعدت المياه ما كانت عليه من قبل قدر شبر واحد». «انتهى».

وقد صدق الشيوخ الذين كانوا مع محمود على قوله قائلين: «نعم كل هذه الأقوال صحيحة، ونحن أيضا كنا حاضرين فى ذلك الوقت». إن هذه الحكاية تؤيد تماما القول الذى يقول إن مياه أخرى تمتزج بماء زمزم.

وقد عرف البناء محمود شكل داخل البئر وقال إن مقدار ٦٦ قدم و٨ بوصات من البئر، قد طلى بما يقال له لوكون[1] ومقدار ١٠ أقدام و ٨ بوصات قد بنى بحجارة منحوتة، وقال عن خزانة الماء: إنها حفرة ذات تراب ممتزج بالزيت، إن التراب الممزوج بالزيت يشبه كِلْسَهُ (نوع من الصلصال الذى تستخدمه النساء فى الحمامات).

والعيون الثلاث تنبع من هذا الطين وأن هذه العيون فى خارج خزانة الماء قليلا. انتهى.

وفى خلف أبنية بئر زمزم الجسيمة قبة الفراشين، وخلفها قبة العباس وهما قبتان فى غاية الجمال، ويحفظ فى قبة الفراشين قناديل البيت وفى عصر النبى ﷺ، كان الماء يوزع على الحجاج الكرام.

وقبة الفراشين مخزن متصل بأبنية دار التوقيت والمكتبة من ناحية باب الصفة، وكان أغوات البيت الأعظم يحفظون فيها الشمعدانات والمباخر الخاصة بالكعبة المعظمة والشموع وأشياء أخرى مباركة. وحينما هدموا مبانى المكتبة ودار التوقيت؛ هدموا هذا المخزن وسووا مكانه وضموه إلى البيت الحرام، وهذا المكان ساحة خالية تؤدى فيها الحاجات المسلمات صلواتهن. والأشياء التى كانت تحفظ فى ذلك المخزن توضع الآن فى قبة العباس المتصلة بأبنية بئر زمزم.

ولما كان سقف قبة العباس عاليا، فحينما هدمت قبة الفراشين فى سنة ١٢٩٩هـ رأى القائم مقام صادق بك من مهندسى أركان الحرب أن يضيف لقبة العباس ما يشبه طابقا، ووضع تحت الأشياء المبروكة الخاصة بالبيت الأعظم فى هذا المكان.

فوق بئر زمزم:

مكان مقبب يطلق عليه مظلة مؤذنى الشافعية، هذا المكان محفل مؤذنى

(١) عجين كلس مع الزيت.

الشافعية، وفى الأول كان له سقف بدون قبة، ولما سقطت أبنية ذلك المكان مع سقفها؛ جدده الملك المؤيد المصرى بشكل جميل.

وبينما كان السلطان مراد الثالث يجدد المسجد الحرام فى سنة (٩٨٥هـ)، جدد تلك المظلة أيضا وبنى عليها قبة جميلة. وبما أنها لم تعمر ولم يُعتَنَ بها فترة طويلة مالت فجأة إلى الانهيار بعد أن أصابها الوهن، ولأجل ذلك قد عمر وشيد تلك القبة مدير الحرم الشريف سنة ١٢٩٦، كما أنه أصلح وعمر خارج المبنى وداخله وزينه.

وكان المؤذنون إلى قرب عهد هارون الرشيد، كانوا يؤذنون تحت الشمس صيفا وشتاء. وقد عين المشار إليه عبد الله بن محمد بن عمر واليا على مكة فبنى أيضا مظلة صغيرة وهكذا حفظ المؤذنين من حرارة الشمس.

الأثر التاسع: ما خلف مقام إبراهيم

إن هذا المكان خلف مبانى مقام إبراهيم المقدس وبين بئر زمزم والمقام الشريف المذكور، والمكان الذى يجب أن يدعو فيه الإنسان فوق الحجر الرخامى الذى يقابل مفتاح الباب الذى يدخل منه إلى ذلك المقام. إن ذلك المكان هو الذى صلى فيه الرسول ﷺ، ودعا ربه.

يجاور هذا المحل اللطيف للجهة اليسرى لمنبر الحرم الشريف، وإن كان أداء الصلاة فيه والدعاء صعبا ولكن بقليل من الانتظار يمكن للإنسان أن يصل إلى أمله. واستجابة الدعاء فيه سريعا مشهورة لدى العلماء إذا ما دعا الداعى فى أوقات الفجر فى ذلك المكان اللطيف.

* * *

المنبر الشريف

يقع المنبر فى الجانب الشمالى لأبنية مقام إبراهيم، وعلى بعد ثلاثة أذرع تقريبا، وهو مرتفع مصنوع من الرخام وفى غاية الزخرفة والجمال.

ولم يكن هناك مِنْبَرٌ فى ساحة المسجد الحرام إلى أن زاره حضرة معاوية آتيا من الشام، وقد صنع المشار إليه منبرًا ذا ثلاث قوائم، وقرأ فوقه الخطبة. وفى سنة (٤٤هـ) وقبله سواء أكان الخلفاء الكرام أو الولاة العظام يلقون خطبهم وهم واقفون سواء أكانوا عند حجر إسماعيل أو عندما يتجهون إلى كعبة الله المفخمة. (محاضرة الأوائل).

وقد أخرج المنبر الذى صنعه ابن أبى سفيان من الحرم عندما ورد المنبر الذى بعثه والى مصر فى عهد هارون الرشيد.

وبدل المنبر الخشبى فى سنة (٧٦٦هـ) حينما أرسل ملك مصر الملك الأشرف منبرًا وفى سنة (٧٩٧هـ) أرسل الملك برقوق المصرى منبرا، وسنة (٨١٨هـ) أرسل الملك المؤيد منبرا آخر. وفى سنة (٨٨١هـ) أرسل السلطان قايتباى[1] منبرًا خشبيًا أيضا، وهكذا كان يتغير موقع المنبر وشكله كلما جددت أبنية المسجد الحرام إلى أن جاء عصر السلطان سليمان ـ طاب ثراه ـ فأرسل من باب السعادة منبرا فى سنة (٩٥٦هـ) ووضع حيث هو الآن. إن المنبر المذكور قد صنع من الرخام، وقد أظهر فى صنعه المهارة اليدوية إلى حد أنه إذا ما رآه من أظهر المعجزات فى نحت الرخام يظل حائرا مبهوتا أمام هذا المنبر.

الأثر العاشر: الصفا

اسم تل ملتصق بجبل أبى قبيس وسبب تسميته بهذا الاسم نزول (آدم صفى

(١) كان المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى مصنوعًا فى غاية الجمال وكان مزخرفا بأنواع الذهب الملونة.

الله فوق هذا التل عندما جاء إلى مكة أول مرة). ولم يبق الآن أثر للتل وقد أشير إلى محل الأثر بمبنى ذى طاق وكمر.

لما كانت الصفا تثير حسد الفلك ووجهك نحو الحجر الأسود اصطفت عليها حشود من الملائكة وظهرك إلى الجبل ذى الكرم ومن يريد السعى يذهب أولا إلى هذا المكان ويصعد إلى مراقى المبنى المعروف بطاق الصفا ومن هناك يبدأ السعى.

والمسافة بين طاق الصفا والكعبة المعظمة مائة وستون ذراعا، كما أن المسافة بين المروة والصفا سبعمائة وستون ذراعا، والشخص الذى يريد أن يدعو فى هذا المكان يصعد إلى درجة من طاق الصفا ثم يتوجه إلى الكعبة، ويستدبر الطاق ثم يشرع فى الدعاء، ويمكن للإنسان أن يدعو فى هذا المكان متى شاء إلا أن الوقت المفضل للدعاء فيه أوقات العصر.

* * *

الأثر الحادى عشر: المروة

إن المروة فى جهة مستشفى الغرباء، وهى جبل فى اتصال السوق الطويلة التى يطلق عليها السويقة أو الشامية، وسبب تسميتها بهذا الاسم نزول حواء (عليها السلام) فوق هذا الجبل عندما جاءت إلى مكة المكرمة. والكلمة محرفة من كلمة مرأة. وسبب تسميتها بهذا الاسم عند مؤلف القاموس تكون هذا الجبل من حجارة قاسية متينة، صارمة ويطلق اسم مروة على مثل هذه الحجارة.

بين المروتين:

عندما يسعى الحجاج متحركين من الصفا يأتون إلى هذا المكان وهنا أيضا طاق عال عند أسفله بضع درجات، والداعى يصعد إلى أعلى درجة ويدعو متوجها إلى الصفا.

نظم

المروة التى بلغت الفلك الأزرق
على حافة قمتها قدح منقلب
إذا كان القمر يطلع مثلك من
الجبل فإنه يحطم عظمة الفلك
(فتوح الحرمين)

ويمكن للإنسان أن يدعو فى هذا المكان وقتما شاء إلا أن الوقت المفضل هو وقت العصر، ومن هنا عرفنا أن الصفا والمروة جبلان صغيران من جبال مكة.

رواية

يروى أن المشركين فى زمن الجاهلية قد وضعوا فوق جبل الصفا صنما يسمى إساف وعلى المروة صنما آخر يسمى نائلة، وكانوا يطوفون حول هذين الجبلين،

وعد المسلمون هذه الفعلة فى يوم فتح مكة من عادات الجاهلية، ورفضوا القيام به معتبرين هذا العمل عارا عليهم، أى أنهم رفضوا أن يسعوا بين المروتين، وبناء على هذا نزل الأمر القرآنى ﴿ فَلا جُنَاحَ ﴾ (البقرة: ١٥٨) وأصبح السعى من مناسك الحج الواجبة.

وكان العرب فى الجاهلية يصعدون فوق سفوح هذين الجبلين بعد انتهاء مناسك الحج، وكان الذين يجدون فى أنفسهم ما يفتخرون به يفتخرون بحسبهم ونسبهم، كما أن بعضهم كانوا يطلبون أمورا دنيوية.

ولم تكن هناك مبان فوق هذين الجبلين إلى عهد أبى جعفر المنصور، وكان الحجاج الذين يريدون أن يسعوا يصعدون فوق قمتى الجبل وينزلون عند سعيهم، فبنى أبو جعفر فوق الصفا طاقا ذا اثنتى عشرة درجة، وفوق المروة طاقا آخر ذا خمس عشرة درجة حجرية، وبهذا أنقذ الحجاج من مشقة الطلوع والنزول فوق الجبلين. سقط طاق المروة فى سنة (٨٠٢هـ) وانهار فجدد السلطان فرج بن برقوق المصرى طاق[1] المروة المذكور، وكذلك طاق الصفا وجعلهما فى شكل متناسق.

إن الطاقات التى صنعت فى عهد أبى جعفر المنصور قد جددت، فى عهد فرج بن برقوق المصرى عدة مرات ورممت وعمرت، ولكنها احتاجت للتعمير والتجديد بفعل الزمان، لذلك عمر وزخرف مدير الحرم الشريف السيد أحمد هذين الطاقين، بعد الاستئذان بشكل جميل وذلك فى سنة (١٢٩٦هـ).

الميلان الأخضران:

يوجد ما بين الجبلين ما يطلق عليه ما بين الميلين الأخضرين وهذا مكان مبارك طوله ٢٢ ذراعًا معماريًا. إن هذا المكان هو الذى رجعت فيه السيدة هاجر بسرعة لرؤية ابنها إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان ذلك المكان إلى سنة

(١) يروى عن أحد العلماء الذى يسمى سنجارى، قوله إنه لم تكن هناك حاجة لبناء هذين الطاقين إلا أنه لا بأس بهما لدلالتهما على حدود السعى.

(٣٤٧) مخيفا جدا لتركه مظلما، ولم تكن هناك علامات تدل على المكان الذى يجب الجرى فيه.

وفى السنة المذكورة أرسل الملك جاقمق من ملوك الشراكسة فى مصر إلى مكة رسولا يطلق عليه سودون المحمدى لتعمير بعض نواحى الحرم الشريف. ورأى سودون المحمدى أن ذلك المكان الذى يلزم الجرى به وهذا يُعَدّ من مناسك الحج مجهول من الناس، فوضع ميلين أخضرين علامة فى مسافة تمتد بينهما قدر مائة وعشرين ذراعا، ثم علق فوقهما قنديلين وعين شخصًا لإيقادهما ليلا، وبهذا أضاء المسعى الشريف وأناره، كما أنه عين المكان الذى هرولت فيه هاجر:

ويطلق الآن على ما بين هاتين العلامتين أى ما بين الميلين الأخضرين.

صورته فى الصفات قامة الخضروضفة ماء الحياة
أحد أطرافه المروة والطرف الآخر الصفا ليس ساعيه سوى أهل الوفاء
أن الناس قاطبة فى هذا المقام
وهم يحثون خطاهم فى المسعى
لكثرة تلاحم أجنحة الملائكة فيه ليس فيه موضع لقدم

الأثر الثانى عشر: المسعى

إن هذا الطريق ما بين طرفى الصفا والمروة فهو طريق وسوق ذو مدخلين. ويقع فى الجهة اليمنى بالحرم الشريف بالنسبة للشخص الذى يتوجه من المروة إلى الصفا، وفى الجهة اليسرى بالنسبة للشخص الذى يتجه من الصفا إلى المروة، ولما كان المكان مزدحما جدا ولا يخلو من الناس فيستحسن أن يدعو الإنسان فى أثناء السير والحركة.

ويجب أن نقدر هذا المكان وأن نعظمه غاية التعظيم. وأن نتذكر أن جميع

(١) وقد جدد السلطان مراد خان الثالث هذه الأبنية فى سنة ٩٨٥هـ. كما أن السلطان مراد خان الرابع قد غير بابها وجدد طلاءها الداخلى فى سنة ١٠٤٣هـ.

الأنبياء العظام والأولياء الكرام قد سعوا فى هذا المكان، يجب علينا أن ندعو قائلين: «إلهى بحرمة أقدام جميع الأنبياء العظام والأولياء الكرام الذين سعوا بهذا المكان».

إنه وادى المسعى وترابه لرفعة منزلته فأصبح درا وكحلا لأهل السلف
إن نقش قدمك على هذه الأرض هو روضة الفردوس يوم الدين
بما أن قدمك فى طريق الصدق والصفاء على أثر قدم المصطفى
ما كان من نبى ولا ولى إلا وطأت قدمه هذا المسعى

رواية

يروى أنه قد دفن فى المسعى سبعون نبيا ذوو شأن ولأجل هذا فالذى يسعى بين المروتين له أجر كمن أعتق سبعين عبدًا، ولما كان ما بين الصفا والمروة باب من أبواب الجنة فهذا المكان أيضًا من الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء، ويجب ألا يشك فى هذا لأنه مؤيد بالأحاديث النبوية.

استطراد:

ذهبت أنا الفقير إلى منزل الرجل الورع الحليم الفاضل أحمد خانى أفندى لزيارته، وذلك بينما كانت أتعارف مع كرام الناس لجمع المعلومات عن مكة والكعبة، وقال فى أثناء حديثنا: «وإن كان أهل مكة الآن يبدون بالنسبة إلى سكان أهل مكة فى العصور السابقة، أناسا لا يستحقون رعايتهم واحترامهم، مع أنهم جيران بيت الله، يجب علينا أن نعد أقلهم شأنا أعظم الناس قدرا، وإننى لا أرى ضرورة لأن أذكر لكم أن من يحملون فى قلوبهم هذه النية الصادقة سينالون مطالبهم».

يقال:

بناء على رواية إنسان يوثق فى كلامه: «كان قديما فى مكة بين أهالى مكة شخص تافه حشاش فاضح للأسرار، لم يعرف رأسه للسجود طريقا، ذهب هذا الرجل فى يوم من الأيام إلى مقهى الحشاشين، وأعطى ما بيده من المخدرات إلى

صاحب القهوة، وطلب منه أن يعد له نارجيلة بما أعطاه، وبينما صاحب المقهى يعد له نارجيلة قال: إلهى إننى لم أسجد لك فى طول حياتى إذا ما قلت بأننى أبكى سيكذبنى أهل بلدتى لما يعرفون عنى»، وأخذ يندم ويأسف على أنه أمضى حياته عبثا، ثم صاح قائلا: «الله»، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

وقبل أن يشيع مَوْتُ هذا الرجل ألهم أحد الصالحين بالآتى: «قد مات فى مكان فلان أحد الناس، فإذا ما جهزت جنازته بشكل حسن وحملت تابوته فإن الله يرضى عنك ويتقبل أعمالك».

وبعد التحقيق عرف أن الذى مات هو ذلك الحشاش الذى يذمه الجميع ويتحاشاه، وقد مات فى مقهى الحشاشين كما بيناه آنفا، فظن الرجل أن ما ورد لقلبه من الإلهام قد يكون خطأ فتحير لذلك كثيرا.

وعندما كشف أمره لبعض الذين يتوسم فيهم حسن الظن عرف أنهم ألهموا نفس ما ألهم به، وبناء على هذا لم يبق إلا أن يجهز جنازة الرجل ويغسلها ويكفنها على أحسن وجه وفق السنة بمساعدة أصحابه، ثم وصلوا على جنازته ودفنوها فى قبر هيئ فى مقبرة «المعلا».

ولم ير كثرة المشيعين واختلاف أنواعهم فى أية جنازة من أعيان مكة كما حدث فى تشييع جنازة هذا الرجل.

وبشر الذين حملوا التابوت فى طريقهم إلى المعلا بهاتف يقول: «قد غفر لكم».

وبناء على هذه الرواية فمن الأفضل للإنسان أن يظن خيرا بأهل مكة من أن يظن شرا ناظرًا لأحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة. ولم يقع هذ الحادث فى عهدى إلا أننى لا أتردد فى تصديقه، وقبل هذا تعرضت مكة المكرمة لمرض وبائى مفزع، وسواء أكان الحجاج أو أهالى مكة كانوا يموتون فجأة وهم سائرون فى الطريق. ومن كثرة الجثث أصبح الذهاب إلى المسجد الحرام غير ممكن، وفى الأيام التى اشتد فيها المرض قد استولى على أنا الفقير خوف وخشية شديدين؛ لذا قررت أن أؤدى الصلوات الخمسة فى بيتى؛ ولكننى لم أستطع أن أضحى

بصلاة الجماعة، فذهب إلى الحرم الشريف لصلاة العصر، وبعد أداء الصلاة خرجت من باب الصفا كالعادة واستطعت بصعوبة أن أصل إلى مراقى طاق الصفا، وقد رقد الناس على طرفى الطريق ولم يبق فى طريق المسعى مكانا لقدم من كثرة جثث الموتى المسلمين.

ولما رأيت كثرة الجثث وقد رقد زيد على عمرو فزعت بشدة، ولم أستطع أن أتقدم خطوة بعد طاق الصفا وظللت مستنداً على مراقى الصفا وكأننى جماد بلا روح.

وبعد فترة صفع آذانى هاتف يقول: ألا تستحيى؟! ألا تؤمن بما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣) وإنك عالم بقدرما، قد قرأت عدة كتب تفسير، وطالعت كتب الأحاديث إن شجرة الإيمان قد مدت جذورها فى روضة قلبك، وإذا ما تخلصت من وهم الخوف الذى استولى عليك وداومت على قراءة سورة ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ (قريش: ١) فلا تحترز من شىء، وإذا ما قلت هذ السر لأى واحد تنقذه مما تلقيه الأوهام عليه.

واه! إن هذا لعيب وإثم كبير أيضا! وكأننى كنت ميتا قبل أن أسمع هذا الصوت، وكأن الصوت قد نفخ فى روحا ووهب لجسمى المنتفض الحياة.

فلم يبق أى أثر لهذه الأفكار التى أصبت بها فنظرت حولى، فوجدت أن ليس هناك نفر يتنفس، فوقعت مرة أخرى فى براثن الأوهام فسبحت فى أمواج بحر الاضطراب.

وفى النهاية فهمت أن الصوت من التلقينات الإلهامية، وأخذت فى قراءة السورة المباركة التى سبق ذكرها، وأخذت الصور العجيبة والأشكال المخيفة التى ألقتها الأوهام فى نفسى تزول تدريجيا، ولما وجدت فى جسمى قوة كافية للتحرك، قمت واتجهت إلى بيتى وأنا أقرأ سورة ﴿ لإِيلافِ ﴾ ولما وصلت إلى بيتى نبهت الجميع بلزوم قراءة السورة المذكورة والاستمرار فيها. ولما رأيت أن أوهام الخوف قد زالت عن أهلى أيضا أصبحت أوصى كل من أصادفه بقراءة سورة ﴿ لإِيلافِ ﴾. ولم يبق فى جميع الذين استمروا فى قراءة هذه السورة آثار

لأوهام الخوف، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أذهب عقب كل صلاة إلى جبل الصفا وأمكث فى هذا المكان المبارك الميمون فترة.

نعم:

إن المسعى مكان غاية فى اللطف والسعد، وقد دفن فى هذا الطريق أنبياء كثيرون وليس هناك نبى لم يسع بين المروتين، ويجب على الذى يسعى فى هذا المكان أو يمر به أن يتذكر الأنبياء الكرام ويدعو.

ويجب الاستمرار فى قراءة سورة ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ ليس فقط فى مكة المكرمة، ولكن فى جميع البلاد وكل الأماكن.

فالذين يعتقدون بأن هذه السورة تدفع عن الإنسان الفزع والوهم والخوف لا تعتريهم أوهام الخوف». انتهى.

وتصيب الإنسان حيرة وهو يرى على جانبى طريق المسعى المحال والدكاكين، ووسط هذه المحال مكان للعبادة، ويدور فى خاطره استحسان رفع هذه السوق من هناك، وإذا ما لاحظنا أن هذه السوق كانت موجودة فى أيام النبى ﷺ، ولم يأمر بنقلها فلا ينبغى علينا إلا أن نسكت تأدبا قائلين: لابد أن هناك حكمة من بقاء هذه السوق وهذا من الضرورات الدينية التى يجب أن يسلم بها كل مؤمن.

الأثر الثالث عشر: الحجر الأسود

هو ذلك الحجر السعيد الذى يشبه رأس إنسان والذى وضع فى الركن الشرقى من الكعبة المعظمة على ارتفاع (٣ أقدام و ١٠ بوصات).

وكانت قطعة من هذا الحجر سقطت فى عصر القريشيين وحفظت فى بيت واحد من آل شيبة، وعندما حدد عبد الله بن الزبير بيت الله فى سنة (٦٤هـ) أحضرها وألصقها بفضة.

وحينما حج هارون الرشيد أدخله داخل غلاف فضى وفى خلال سنة (٤١٣هـ) كسر أحد الملاحدة المصريين فى أثناء طوافه ذلك الحجر بضربة دبوس قائلا: إلى متى سيعبد الحجر ويحترم إن حضرة محمد ـ عليه السلام ـ وعلى ـ رضى الله عنه ـ يمنعاننى من كسر هذا الحجر، وها أنا ذا كسرت الحجر الأسود بضربة واحدة، وهدمت بيت الله الواحد. وهجم الموحدون الطائفون على ذلك

الرجل وقتلوه. إن أربعة عشر من الفرسان كانوا ينتظرون إنقاذ هذا الرجل، ولما رأوا هجوم الموحدين على القاتل وهلاكه نزلوا من ظهور خيولهم، وشهروا سيوفهم، وزحفوا داخل الحرم الشريف وتكاثروا فيه حتى كونوا جماعة، وخَرَّبُوا بعض الأماكن وأتلفوا كثيرا من النفوس. وسقط الحجر الأسود من صندوق على الأرض فى أثناء هذه الفتنة، وظل فوق الأرضية الرخامية للمطاف، وفى اليوم الثالث جمع شجعان بنى شيبة قطع الحجر الأسود وألصقوها مستخدمين المسك والعجين المسمى لوكون[1]، ووضعوه فى داخل ظرفه وأعادوه إلى مكانه، وتعقب أهالى مكة كلهم القافلة المصرية ونهبوا كل ما يملكونه وقتلوا كثيرين منهم بسيف الشريعة المسلول.

وكان الشخص الذى أسقط الحجر الأسود على الأرض بضربة شقيا ذا وجه أحمر، طويلا سمينا كان خبيثا لا دين له ولا إيمان. وبناء على الرواية التى حققها محمد على بن عبد الرحمن العلوى إن هذا الحادث الأليم وقع فى سنة ٤١٣هـ وبناء على قول ابن كثير أنه وقع فى سنة ٤١٤هـ.

وفى سنة ٤٢١ حدث أن أحد ملاحدة الفرس (من البابيين) دنيئا جهنميا كسر جانبا من الحجر الأسود بضربة سيف، ولكنه ألصق بفضة خام وأحاطوا جوانبه الأربعة بحلقة فضية، وبعد مرور مائة وإحدى وخمسين سنة نزعه الشريف داود بن عيسى بن فليتة عند فتنته المفزعة وشيده وسواه السلطان مراد الرابع فى سنة ١٠٤٣هـ من جميع جوانبه بطريقة جيدة كما هو الآن، كما أن السلطان مصطفى خان هدم جدران جهاته الأربعة وبناها من جديد.

وبعد مرور مائة وإحدى وستين سنة يعنى فى سنة ١٢٠٤هـ عندما حدث ذلك الحادث المؤلم قد تكسر أحد جوانبه قدر إصبعين، إلا أنهم ألصقوه بلوكون الأسود دون أن يظهر الكسر.

(١) عجين من الكلس مع الزيت.

والسبب فى ذلك الحادث القتال الذى شب بين الشريف غالب وأخيه الشريف عبد الله، إذ قام قتال عنيف بين الشريف غالب وابن أخيه الشريف عبد الله فى التاسع والعشرين من شهر صفر الخير. وفى السنة المذكورة أطلقت من القلعة المدافع والبنادق مدة ثلاثة أيام فلم يؤذن فى داخل الحرم لثمانية عشر وقتا من أوقات الصلاة، ولم تصل صلاة جماعة فى تلك الأوقات المذكورة.

وقد أصابت رصاصة الحجر الأسود فى أثناء ذلك الحادث وكسرت منه قطعة قدرها ثلاثة أصابع وأسقطتها، فألصقت القطعة المكسورة بمادة لوكون، وفى سنة ١٢٥٩هـ أمر السلطان عبد المجيد بإدخال الحجر فى ظرف فضى وأعاد تصليح مادة اللوكون بشكل جيد، وإلى الآن فالحجر الأسود على هذه الحالة، ولما كان قد ألصق بمهارة ودقة لا يفرق الإنسان إذا كان ملصقًا أم غير ملصقٍ، وهيئة الحجر مربع قريب إلى الاستدارة وحجمه أكبر من شبر وأوسع.

* * *

معلومات دينية عن الحجر الأسود

إن الحجر الأسود الشهير حجر خرج من خزانة الجنة، وهو ياقوت مشع ويقال إنه عندما أنزل على وجه الأرض كان مضيئا وعدوا حدود الحرم الميمونة هى المناطق التى كان يضيئها.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيبعث الحجر الأسود يوم القيامة بلسان وعينين، وسوف يشهد الحجر الشريف بالخير للذين استلموه بإخلاص ونية صافية، وبالشر للذين استلموه مستهزئين.

إن لمس الحجر الأسود والركن اليمانى يمحو الخطايا، وإن هناك بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود باب من أبواب الجنة، بناء على قول الحسن البصرى (رحمة الله عليه)، وكل من يدعو بين الركنين يستجاب دعاؤه، كما أن تحت ميزاب الرحمة مكان يستجاب فيه الدعاء.

وبناء على بعض الأقوال أن بجانب الركن اليمان ملكين، وبجانب الحجر الأسود عدد لا يحصى من الملائكة، وإنهم مأمورون بقول آمين لاستجابة دعاء الداعين، وثابت بالحديث أن بين هذين الركنين قد دفن ٩٩ نبيا، وأن ذلك الموقع روضة من رياض الجنة.

كان الحجر الأسود فى الأصل ملكا. وعين ليمنع آدم ـ عليه السلام ـ من أكل ثمرة الشجرة المنهية وأن يصونه. وقيل له «إذا أراد أن يتناول من هذه الشجرة فَنَبِّهْهُ بأنه منع من أكل ثمرة هذه الشجرة» وبينما شغل ذلك الملك بمشاهدة عجائب الفراديس وجمالها، أكل آدم ـ لحكمة ما ـ من ثمرة تلك الشجرة وأخرج من الجنة.

وعقب ذلك وجه إليه العقاب الربانى مثل الصاعقة: «يا أيها الملك كنت سببا

فى خروج آدم من الجنة» فتجمد الملك من شدة خوفه حجرا ثم أرسل إلى وجه الأرض.

قد كتبت هذه الرواية مترجمة فى تاريخ خميس، ويؤيد هذه الرواية الحديث الشريف الذى يقول بأن الحجر الأسود سيبعث ملكا ذا عينين، عندما خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلاق العالم ـ الأرواح، خاطبها قائلا: ألست بربكم، وأسرعت الأرواح المخاطبة للإجابة قائلة: بلى، وهذا ثابت عند عموم الناس ومصدق.

وحينئذ خلق نهرًا باردًا أحلى من العسل، وأمر بأن تكتب حجةٌ تتضمن إقرار واعتراف الأرواح التى قالت بلى، واتخذ قلم القدرة الإلهية النهر السالف الذكر مدادا، وكتب نتيجة إقرار الأرواح، ووضعت تلك الاعترافات فى داخل الحجر الأسود وعبئ بها. واستلام الحجر الأسود الآن تصديق بذلك الإقرار الأزلى ويذكر به. لأجل ذلك قال الإمام الباقر فى أثناء استلام الحجر: «اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيت به ليشهد لى عندك بالوفاء» وهكذا أيد إقراره الأزلى.

كان لون الحجر الأسود حينما نزل على الغبراء ناصع البياض نقيا لامعا، ولكن أخطاء البشر المستمرة، ولمس واستلام النساء الحوائض للحجر؛ أدى إلى تغير لونه فأصبح حالك السواد.

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه: «إن جبريل عليه السلام حمل جوهرة الحجر الأسود من خزانة الجنات، كلما كان ذلك الجوهر الحجرى فى نفوسكم يزيد الخير والبركة... فلتحذروا أن تستهزئوا به وتحقروه وإلا فجبريل ـ عليه السلام ـ يرفعه من هنا ويوصله إلى مكانه القديم». وهكذا كان ينصح أهل مكة ويبين لهم مزيته وعظمته.

وفى الواقع أن ذلك الحجر غاب فترة ما فى عهد الجراهمة والعماليق والخزاعيين، وعندما ترك مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى حكومة مكة الله المعظمة لأحفاد بنى إسماعيل، وتفرق مع قومه فى البلاد المجاورة، أخرج حلية جمال كعبة الله، الخال الأسود، الحجر الأسود من مكانه ورماه فى بئر زمزم.

إن الروايات التى ذكرت ابتداء من اللاحقة كلها صحيحة؛ لأنها نقلت بالأحاديث الصحيحة والأسانيد الموثوقة ولا شك فى ذلك.

استطراد:

إن مضاض بن عمرو بن الحارث الذى رمى الحجر الأسود فى بئر زمزم هو الثانى عشر من الملوك الذين حكموا القطر الحجازى، وأول من تربع على العرش من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان بن عابر. بينما كان يعرب أخوه يحكم فى اليمن مكان أبيه استولى جرهم على أرض الحجاز.

وانتقل حكم البلاد الحجازية للجرهم السابق الذكر وبعد وفاته لابنه (عبد يا ليل) وبعد ارتحاله إلى (جرشم) بن ياليل وبعد وفاته إلى (عبد المدان) بن جرشم بعده إلى (ثقيلة) ابن عبد المدان وبعد وفاته إلى (عبد المسيح) بن ثقيلة، وبعده إلى (مضاض) بن عبد المسيح، وبعده إلى (عمرو) بن مضاض، وبعده إلى أخيه (حارث) بن مضاض، وبعده إلى (عمرو) بن حارث، وبعد وفاته إلى أخيه (بشر) بن الحارث، وبعد وفاة بشر إلى (مضاض) بن عمرو بن الحارث، وانتقل حكم الحجاز فى عهده إلى أيادى الخزاعيين الغالبة.

عجيبة

يحكى أن المستعصم بالله البغدادى كان يملك حجرًا أسود، وأنه كان يجعل الناس يزورونه وكان بجانب ذلك الحجر كمرا، وكان ذلك الحجر فى حجم الحجر الأسود وشكله، وكان الكمر الذى بجانبه مستورا بستارة سوداء مصنوعة من قماش الأطلس.

وكان من آيات نخوة المستعصم أن من كان يريد أن يقابله من السلاطين والملوك لا يلقاه أحدهم قبل أن يزور ذلك الحجر، ويقبله كما يزورون الكمر المستور. وقد أرسل فى عهد آتابك سعيد مظفر الدين أبو بكر قاضى القضاة مجد الدين واسمه إسماعيل إلى المستعصم حاملا رسالة له، وفى اليوم الذى حدد للقاء الخليفة طلب منه أن يزور الكمر والحجر ويقبله مستلما، ولما كان مجد الدين رجلا تقيا فى غاية التقى وزاهدا أراد أن يعود دون لمس الحجر ورؤية

المستعصم، إلا أن رجال الدولة رجوه ألا يفعل، فدخل عند المستعصم حاملا فى يده مصحفا ووضع المصحف فوق الحجر وقبله وهكذا أدى رسالته.

نقل الحجر الأسود إلى ديار هَجَر

انتزع ملاحدة القرامطة الحجر الأسود من مكانه فى ركن الكعبة المعظمة سنة (٣١٧هـ)، وحملوه إلى ديارهم وأعادوه فى سنة (٣٣٩هـ) إلى مكانه.

كان القرامطة قد أخذوا الحجر الأسود ظانين أنه مغناطيس البشر، وأرادوا أن يجذبوا إليهم الناس، ولما سئلوا عن سبب ذلك قالوا: أخذنا الحجر الأسود مأمورين وأعدناه مأمورين إلى مكانه بشرط أن يكون فى المكان الذى وضعه فيه خليل الرحمن.

وقد رأيت أنا المؤلف الفقير أن الحجر الأسود يجذب البشر ـ رؤية عين ـ رأيت أن العربان الذين يقطنون فى أطراف مكة ونواحيها يفرون إلى مكة فجأة، وكلهم يقبلون على طواف كعبة الله والسعى قبل مضى الحجاج إلى عرفات ببضعة أيام ولسان حالهم يقول:

كأن الحجر الأسود فى وجه الكعبة خالا
أنا حاج لتقبيله أسعى إليها حالا

ويقتحمون المكان بقوة لتقبيل الحجر الأسود ولمسه، فى حال يظن الرائى من بعيد أن كثيرا من رءوس الناس تسير فوق العربان، ثم إن العربان يرضون أن يموتوا دون العودة من غير تقبيل الحجر الأسود، أى لا يرضون بالاستلام فقط، أليس هذا كافيا للدلالة على أن للحجر الأسود خاصية جذب الناس، ومن يريد أن يرى قوة جاذبية الحجر الأسود للناس رؤية العين يقتضى أن يكون فوق المحفل الخاص بمؤذنى الشافعية، والكائن فوق مبنى بئر زمزم حينما يفد البدو.

تقول كتب التاريخ وهى تحكى كيفية نقل الحجر الأسود إلى بلاد هجر: قد ظهرت حركة القرامطة فى عهد هارون الرشيد أو المأمون، وعلى قول المقتدر بالله كما سيوضح فيما بعد، ظهرت فى هجر وتجرءوا بعد ذلك تدريجيا على الإضرار

بممالك الشام والعراق والحجاز، إن رئيس هذه الطائفة الباغية الضالة الشقية أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد جنابى، بنى بيتا للضلال فى ناحية هجر[1] فى سنة ٣١٣هـ أو على رأى آخر فى سنة ٣٠١هـ.

وسمى هذا البيت «دار الهجرة» وأراد أن يصيب سوق كعبة الله بالكساد بتحويل طريق الحجاج إلى ناحية هجر، وابتدر للاستيلاء على مكة المكرمة بمن تجمع حوله من الأشقياء الخبثاء، ودخلوا حرم الله دار الأمن على حين غفلة فى يوم الأحد الذى يوافق يوم التروية فى سنة ٣١٧هـ وقتل ثلاثين ألفا[2] من أهل مكة، ومسلمى البلاد الأخرى الذين كانوا فى أرض المطاف والمسجد الحرام داخله وخارجه، وخاصة فى داخل كعبة الله المعظمة، وبعد ما ألقى بأجسامهم فى داخل بئر زمزم وآبار مكة المكرمة الأخرى، ثم خاطب الناس بصوت عال: يا أيها الذين يعتقدون أن من كان فى داخل الحرم آمنا، انظروا لهذا الأمن والأمان، وماذا فعلت بكم؟ وأخذ ينهق مثل الحمار ويهذى بلسان الاستهزاء الملعون.

وفى أثناء ذلك أمسك أحد الموجودين الشجعان بزمام دابة أبى طاهر غير الطاهر وقال له: يا ظالم الله ليس معنى الآية الجليلة اللطيف ﴿ **ومن دخله كان آمنا**﴾ (آل عمران: ٩٧) كما تفهمه، وسكت أبو طاهر غير الطاهر عن الكلمة القذرة، ووجه مطيته نحو باب المعلى لكعبة الله ولم يستطع أن ينال ذلك البطل بضرر. ومع ذلك ازدادت جرأته درجة فدرجة فانتزع بيده ـ شلت يده ـ ألواح كعبة الله المزينة، ونهب ستارة بيت الله وما فى خزانة البيت من الهدايا الثمينة، ووزعها على جنوده الضالين وأمر أحد القرامطة أن يصعد فوق سطح الكعبة لينزل الميزاب الذهبى، ولما رأى أنه قد أسقط على الأرض بسهم أطلق من جبل أبى قبيس أمر بصعود قرمطى آخر.

واللعين الذى صعد فوق سطح الكعبة فى المرة الثانية وقع رأسا على عقب وهلك، وحينئذ عرف اللعين أنه لَنْ يستطيع أن يقتلع الميزاب الذهبى، وأخذ

(١) الاسم الآخر للهجر البحرين.

(٢) قتل ألف وسبعمائة منهم محرمين يطوفون بالكعبة.

يبحث عن حجر مقام إبراهيم ولما لم يجده غضب أشد الغضب، وخرب مبانى بئر زمزم والمبانى الأخرى من الحرم الشريف، وبعد العصر اقتلع الحجر الأسود الأمانة الكبرى وفى يوم الثامن من دخوله فى مكة المكرمة، وعلى قول فى اليوم الحادى عشر منه ثم مضى متجها نحو هجر.

وفى هذا العام لم يستطع أحد أن يكمل حجه ذاهبا إلى عرفات غير بضعة من الذين آثروا الموت غير مهتمين بالحياة.

ولما وصل ذلك الملعون إلى هجر زاعما أنه قد حقق أمله كتب إلى عبد الله المهتدى من الملوك الفاطميين يخبره بما فعل، ويعرض تبعيته له ويذكره فى خطب الجمعة متقربًا منه، ولكنه تلقى منه الرد الذى يستحقه والذى قال فيه: واعجبا، إنك ارتكبت فى بلد الله أنواع الفضائح، ثم اقتلعت الحجر الأسود من مكانه وأخذته معك إلى ناحية هجر فى جرأة بالغة، إنك قد هتكت وأزلت ستارة الكعبة الشريفة التى ظلت معززة ومكرمة منذ العصر الجاهلى، ومع هذا تريد أن تذكرنى فى خطبك ألا فليلعنك الله.

وحينما تلقى منه هذا الرد أعلن عصيانه عليه أيضا، واحتفظ بالحجر الأسود فى هجر اثنين وعشرين عاما إلا أربعة أيام؛ رغبة فى أن يتوجه الحجاج إلى هناك لأجل الزيارة، ولكنه تعرض لحكم القضاء الذى يقول «الجزاء من جنس العمل» إذ أصابه مرض الأكلة[1]، وهلك وألقى فى حفرة البوار.

لاحقة

يروى أن من جملة أوامر أبى طاهر غير الطاهر بقر بطون الجثث وإخراج الأمعاء وملئها بالخمر بعد غسلها.

وقطع ألسنة الذين يطفئون القناديل قائلين «بوف» وإقرار اللواط بعدم الإيلاج بـ (فرطا)، وسحب الذين يولجون بالإفراط على وجوههم وسحلهم ما يقرب من أربعين ذراعًا، وقتل الشبان الذين يمتنعون عن اللواط وتعظيم الزنا.

(١) أكلة: مرض يطلقه الأطباء على السرطان وهذا المرض نوع من المرض مثل جرح ينتشر حوله حتى يهلك المريض.

إعادة الحجر الأسود

إلى مكة المكرمة

ولما رأت طائفة القرامطة بعد هلاك أبى طاهر أن أفكاره غير قابلة للتنفيذ، ولا تروج قرروا إرسال الحجر الأسود مع شخص يسمى ثبير، أو سنبر بن الحسين إلى مكة المكرمة، وعرضوا الأمر على ثبير ونال ذلك القرمطى شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه، إذ وصل إلى مكة فى يوم النحر بعد أن كان قد بدأ رحلته فى أواخر سنة ٣٣٩هـ.

قد سر المكيون أعظم سرور بوصول الحجر الأسود، ووضعوه فى داخل كعبة الله خوفًا من حدوث فجيعة أخرى، وبعده أعدوا طوقًا فى ثقل (٣٠٣٧) درهما ووضعوا الحجر فى مكانه القديم.

وكان السلطان عبد الحميد خان قد جدد ذلك الطوق ومازال عليه طغراء السلطان المشار إليه.

قصة غريبة

قال: ثبير بن الحسين الذى أحضر الحجر الأسود إلى مكة عندنا حجارة سوداء كثيرة فاختاروا من هذه الحجارة حجرًا أسود لكعبة الله. ووضع على الأرض بضعة من الحجارة السوداء، وكانت هذه الحجارة تشبه بعضها بعضا بحيث لا يمكن لإنسان أن يفرق بينها قيد أنملة. لم يستطع أهالى مكة أن يفرقوا بين تلك الحجارة وعرضوا الأمر على أحد الكرام.

وطلب ذلك العالم أن ترمى جميع الحجارة فى داخل حوض الماء، فرسبت جميع الحجارة فى القاع إلا حجر، أخذ يطوف فوق الماء وقال عندئذ هذا هو الحجر الأسود صنوا الجواهر الذى نريده، فأشار بإصبعه إليه، وإذا بالقرمطى ثبير كان قد وضع علامة على الحجارة الأخرى، وقد عاين الحجر الذى اختاره العالم الجليل ثم قال نعم هذا هو الحجر الأسود الذى نقله أبو طاهر إلى بلاد هجر، لأننى كنت وضعت علامة فوق الحجارة الأخرى.

حكمة

بينما كان القرامطة ينقلون الحجر الأسود إلى بلادهم التى يسمونها هجر، قد نفق تحت نقل الحجر الأسود (٣٠٠) جملا قويا فى مقتبل العمر أو (٥٠٠) جمل بناء على رواية أخرى. وعندما أعاد ثبير بن الحسين الحجر كان قد حمله فوق جمل نحيل ضعيف، لم يمت من شدة التعب، بل إنه لم يتعب وسمن وتضخم.

وكان العباسيون لم يستطعيوا أن يردوا الحجر بالحرب مع القرامطة، وأرادوا أن يعيدوه بدون حرب واعدين أبا طاهر بخمسين ألف دينار، إلا أن هذا الملعون الملحد لم يقبل ذلك، ولكن أعوانه حملوه بدون أن يأخذوا شَرْوَى نقير (والله على كل شىء قدير).

مظالم القرامطة الخبثاء وجرائمهم

أول من خرج من طائفة القرامطة هو الملعون «أبو سعيد بن بهرام جنابى. ويقول الذين يعرفوننا كيف ظهر هذا الرجل وأين أوقد نار الشر أولا. إن صاحب مذهب القرامطة ومخترعه هو الخنزير يحيى بن زكرويه، إذ جاء هذا الرجل فى سنة ٢٧٨ أو ٢٨٩ إلى بلدة القطيف[١]. ونزل ضيفا عند على بن يعلى من أعيان البلدة، وأسر له أنه مبعوث من قبل الإمام محمد المهدى، وأن وقت ظهور هذا الإمام قد اقترب وأخذ يدعو أهالى القطيف وسكان الناحية، واستطاع أن يَضُمَّ إليه بعض الجهلة والحمقى من سكان القطيف وسكان ناحية البحرين ويخدعهم، وكما استطاع أن يضم إلى مذهبه أبو سعيد الجنابى من كبار شيوخ القبائل واختفى بعيدا عن العيون.

ثم ظهر مرة ثانية وهو يحمل خطابا مزيفا من قبل الإمام المهدى يتضمن أنه قد أمر بدعوة الناس إلى مذهبه، وأن يأخذ من كل واحد ممن اتبعوه مبلغ ستة

(١) القطيف بلدة فى الجهة الشمالية من مدينة الإحساء وعلى بعد ست مراحل من البصرة، وعلى ساحل الخليج العربى.

دراهم وأربع دوانق[1]، وبعد أن استطاع أن يدخر بهذه الخدعة مبالغ كبيرة من النقود اختفى فترة أخرى، ثم ظهر مرة أخرى وفى هذه المرة أظهر لأتباعه رسالة مزيفة أخرى من قبل الإمام، حيث أمره بأن يأخذ من أتباعه خمس أموالهم ويسلمها له، واستطاع أن يحصل على أموال كثيرة من جميع الأنواع.

واستضيف فى هذه الفترة من قبل أبى سعيد الجنابى حيث حل فى داره المنكوبة، وأراد أبو سعيد أن يكرمه غاية الكرم فأنامه على فراش واحد مع زوجته وقبل أن يكون ديوثا.

وعندما شاع خبر احتفاء أبى سعيد بيحيى بن زكرويه غاية الحفاوة حتى قدم له زوجته لتنام معه فى فراش واحد وغيره من مراسم الإلحاد والإباحة وأخذ الناس يتناقلون سيرته، استدعى يحيى بن زكرويه من طرف رجال الحكومة وأذل وحقر، وبعد فترة طرد من حدود البحرين بعد أن نكل به.

إن هذ الملحد ذو المزاج الكلبى حط عصا ترحاله من بلاده بنى كلاب وحرص على نشر مذهبه الباطل بينهم وزادت قوته بعون بعض الناس والأقوام، فاستولى على أطراف الشام وسفك دماء المسلمين وهتك أعراض نساء الموحدين.

ووصل إلى ذروة البغى والشقوة بارتكاب المظالم والفساد، وعندما وصلت قوة ابن زكرويه وشوكته إلى درجة ترهيب خلفاء بغداد أخذ يكر على دمشق بالشام بدون توقف، وهزم الفرقة العسكرية التى واجهته بقيادة طغج بن جف[2] شر هزيمة، وحاصر دمشق الشام فى سنة ٢٩٠هـ، وإن كان الجيش الذى سيق من الشام قتل ابن زكرويه؛ إلا أن أخا زكرويه حسين حمد تولى القيادة، واستنجد بكثير من القرامطة وشدد الحصار على دمشق، وفى النهاية انسحب بناء على رجاء الأهالى وطلبهم بعد أن أخذ مبالغ كبيرة من النقود، ولكن عندما انسحب من دمشق هجم أتباعه قوائم الخشرات على حلب واستولوا عليها فى

(١) الدانق جزء من ستة أجزاء من الدرهم.
(٢) كان طغج بن جف أمير بلدة دمشق بالشام.

الحملة الأولى. وأعلنوا أن اسم صاحب الشام أمير المؤمنين للعهد، وبناء على التعليمات التى تلقوها أمروا بأن يذكروا اسمه فى خطبة الجمعة.

وبعد هذا النصر اتخذ صاحب الشام ابن عمر عبد الله وليا للعهد، وسماه المدثر وادعى أن المدثر الذى ذكر فى القرآن هو عبد الله الذى سبق ذكره، وأراد بهذه الطريقة أن يخدع الناس ويبسط سطوته ويوسعها إلا أنه لم يوفق.

وهجم صاحب الشام بعد ذلك على حماة بعد حلب والمدن والقرى التى حولها، وأخذ يقتل كل من يصادفه من الأهالى مع أولادهم وعيالهم، وأخيراً وصل إلى بلدة سَلَمْيَة التى استسلم سكانها دون أن يدافعوا عن أنفسهم فقتلهم جميعا حتى تلاميذ المدارس الصغار[1].

لما أزعج ما يرتكبه صاحب الشام من المظالم والغدر مسامع المكتفى بالله البغدادى فتحرك بما جهزه من العساكر الكثيرة من بغداد وتوجه إلى بلد الرقة.

ومن هنا وجه جنوده جف وفرق القرامطة، وتقابل البغداديون مع القرامطة فى مكان يبعد عن حماة اثنى عشر ميلا وبدأت حرب ضروس.

وإن كان القرامطة هربوا من شدة صولة البغداديين غير قادرين على صد هجومهم إلا أن جنود بغداد لم يتعقبوا فلولهم المنهزمة وقبضوا على صاحب الشام وكذلك ولى عهده المدثر[2] وسلموهما للخليفة الذى كان ينتظر النتيجة.

بعد ما قضى جنود الخليفة تماما على القرامطة عاد منصورا إلى بغداد حيث صلب صاحب الشام مع رفقاء له وشهر بهم فى سنة ٢٩١هـ. إن فرقا من القرامطة الذين نجوا من سيوف البغداديين تربصوا فى طريق العراق، وكانوا يسيرون ليلا منها ونهارا، ويهاجمون المارين وعابرى السبيل ويسببون لهم خسائر كبيرة، وكانوا يختفون من الجيوش التى أرسلتها حكومة بغداد فى أماكن خفية.

إن هذه الفرقة الخبيثة قد هاجمت قافلة حجاج العراق فى سنة ٢٩٤هـ،

(١) انظر: تاريخ الطبرى ١٠/ ١٠٠.

(٢) المدثر هذا كان عبد صاحب الشام وهو رومى الأصل.

وقتلت ما يقرب من عشرين ألفا من الأبرياء ونهبت أموالهم. ولما علم المكتفى بالله بهذا الحادث المفجع جهز فرقة عسكرية وساقها ضد الفرقة الحقيرة فتعقبت الفرقة البغدادية القرامطة، وأسرت كثيرين منهم مع قوادهم بعد ما قهرت ودمرت الباقى، ولما كان القائد[1] المأسور للفرقة الباغية جريحا مات متأثرا بجرحه بعد ستة أيام.

بعد ما مات صاحب الشام انتقلت قيادة جماعات القرامطة عامة إلى أبى سعيد بن بهرام الجنابى الذى بدوره جهز أفراد الجماعة الخبيثة، وجمعهم وأخذ ينشرهم كالجراد حول بادية الشام وفى الحروب التى كانت تقوم بينهم وبين الجنود الذين ترسلهم حكومة بغداد ينهزمون أحيانا وينتصرون أحيانا.

وتفرقوا إلى فرق صغيرة وتكاثروا، وأخذوا يقتلون الناس كلهم حيث تطأ أقدامهم. حتى إنهم فاجأوا قافلة من القوافل الحجازية بالهجوم وأعملوا سيوفهم فى أفرادها حتى قتلوا عشرين ألفا من المسلمين، ولم يبق نفر يتنفس.

وقد زاد بعد هذه الفاجعة صاحب الشام من غدره وظلمه حتى استطاع أن ينتزع بلدة القطيف من يد العباسيين بنباح كلاب الإلحاد والإباحة، ثم نهب البحرين ونواحيها وأخذ يتجرأ فى إهانة أهل الإيمان فى صورة مستهجنة.

واستولى على البصرة وملحقاتها وأصبح واليا على حشرات الشقوة التى دخلت فى دائرة الرفض والإلحاد، ووسع دائرة الإباحية و الخيانة[2].

الاستطراد

البحرين مدينة غاية فى المتانة والاستحكام وتقع فى غرب جزيرة البحرين التى تقع فى خليج البصرة فيما بين خطوط الطول ٤١ درجه و ٥ دقائق شرقا، وخط العرض ٢٦ درجة و٢٠ دقيقة شمالا، بطول ٢٥٤ ميلا و٧٠ ميلا من الجهة

(٢) المقصود به صاحب الشام.

(١) راجع فى أخبار القرامطة: تاريخ الطبرى ١٠/ ٢٣ ـ ٢٧، ٦٤، ٧١، ٧٥، ٧٦ ـ ٧٩، ٨٢، ٨٦، ٩٤، ٩٥ ـ ٩٧، ٩٩ ـ ١٥٥، ١٢١ ـ ١٣٣.

الشرقية الشمالية لمكان يسمى لا شر، ويحدها شرقا بحر الفرس، وشمالا إقليم البصرة، وغربا نجد العارض، وجنوبا عمان وسكنتها من سلالة عبد قيس.

وبما أن الأنهار والعيون تكثر فى هذا الموقع تَتَزَيَّنُ أطراف أنهارها بأشجار الحنة والقطن والسوسن، وكل مكان يحفر فيه قدر ذراعين يخرج منه الماء، ومن يشرب ماءها تصفر ملابسه، وفى هذه البلاد فاكهة مختلفة ولاسيما البلح والأرز متوفران، والسكان يذهبون للتنزه فى الأيام الحارة للحدائق التى تبعد ما يقرب من ميل واحد. فى هذه البلاد رمال متحركة، والتى يطلق عليها بحار الرمال، وما يرى هناك اليوم جبال تراه فى يوم آخر أرضا منبسطة، وما كان اليوم معمورا تراه فى الغد خرابا.

والطريق الواسع الذى يبدأ من البحرين تطمسه الرمال فيستحيل السير فيه، لذا يذهب الناس ويأتون عن طريق البحر.

كان البرتغاليون قد استولوا على ممالك البحرين قديما والآن فى يد الشيخ «أبو شهر» ومع هذا فلا يطلق البحرين على الجزيرة فقط بل يطلق على الجزر الأخرى التى تحيطها، والتى يستخرج سكانها اللآلىء من البحر، وهناك إقليم يمتد إلى الغرب ويطلق عليه البحرين أيضا، وذلك لاتصال البحيرة التى بالقرب من الإحساء ببحر الفرس. انتهى.

بينما كان أبو سعيد يخرب القرى والبلاد لنشر مذهب الإلحاد ساق المقتدر بالله العباسى الذى كان خليفة فى تلك العهود عددا من الجنود بقيادة «عباس بن عمرو الغَنَوِىّ» ليفرق جمع أبى سعيد. وانتصر أبو سعيد عليهم وأسرهم جميعا ثم قتلهم جميعا، وأبقى عباس حيًا، وقال: يا عباس إننا القرامطة أناس نعيش فى الصحارى والفيافى ونقنع بالقليل لأنا لسنا طامعين فى الاستيلاء على البلاد، فإذا جمعت جميع جنودك وسقتهم على، أقسم بالله بأننى أنا المنتصر، إن جنودنا يتحملون المشاق ويعتقدون أن حياة الرفاهية حرام، قد تعود جنودكم على قضاء أوقاتهم فى راحة ورغد عيش والتَّنَعُّمَ بما طاب من الطعام ولذ فى ظل الخليفة،

فإنهم لا يستطيعون القتال، فإذا ما خرج جنودكم فى الصحارى تاركين راحتهم يموتون مثل السمك الذى خرج من الماء.

والعساكر الكثيرة الذين سقتهم علينا مثل النمل قد أصابهم التعب والضعف منذ خروجهم من بغداد، وانهزامهم فى أول حرب أكبر دليل يؤيد رأيى، إذا ما أرسلتم جنودا أشجع ممن أرسلتم وأكثر مما سأجهزه أنا من العساكر فإننى أهرب من أمامهم بعد أن أتعبهم، كما أننى أتصدى لهم فى مضيق ضيق فأقطع خط رجوعهم، وأهزمهم وأولى بكم ألا تشغلوا أنفسكم بى، ولا تهلكوا جنودكم عبثا، وقد حقنت دمك حتى توصل هذه الأقوال بالتفصيل إلى الخليفة، دون أن تنقص منها كلمة ثم أطلق سراحه وخَلَّى سبيله.

وقد عاد عباس بن عمرو الغنوى إلى بغداد وهو فى شدة الحيرة من نجاته من يد أبى سعيد. ولما أبلغ عباس ما قاله أبو سعيد إلى المقتدر بالله بالتفصيل خاف الخليفة، واضطرب ولم يستطع أن يذكر اسم القرامطة بلسانه مدة طويلة.

ومع هذا استطاع أن ينقذ أهالى الكوفة من اعتناق مذهب القرامطة، إذْ ظهرت جماعة من القرامطة وأخذوا فى إضلال الناس فى الكوفة، وبعث الخليفة بجنود من مركز الخلافة وقوة عسكرية قضت على هذه الجماعة.

وانتقل أبو سعيد فى سنة ٣٠١هـ إلى دار البوار[1] بعد أن ارتكب كثيراً من الجرائم إلى تلك السنة تاركا ميدان الخباثة والشقاء إلى ابنه الكبير سعيد.

وتولى ابنه سعيد مكانه بعد وفاته، إلا أنه ما كان يشبه أباه فى إلحاق الأذى بالناس، فتولى تدبير الأمور ابنه الأصغر سليمان أبو طاهر، وكان ظلوما غشوما سفاحا، فاستولى على الإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ونواحى هجر، وبعد أعوام عشرة أغار ليلا على مدينة البصرة، وأثناء مقامه فيها سبعة عشر يوما قتل كل من صادفه، وأعمل السلب والنهب فى الناس جميعا، وكان ذلك عام ٣١١هـ، وبعد عام من تلك الواقعة المؤلمة أغار على قافلة الحجاج ونهبها.

(١) يقول الذين يروون كيفية هلاك هذا الرجل: كان أبو سعيد قد دخل الحمام فى خلال السنة المذكورة فضربه أحد خدمه الذى عانى من سوء معاملته على رأسه بفأس وقتله.
إن هذا الخادم بعد أن قتل هذا الخبيث قتل أربعة من رؤساء القرامطة ولما شاع هذ الخبر قتل هذا الخادم.

وكان يسلك الذكور والإناث فى السلاسل على نحو بشع مهين، وألحق الهزائم بمن تصدى له من الجند وكان ذلك عام ٣١٢هـ، وبعد إغارة أبى طاهر على قافلة الحجاج هجم على معظم سواد الكوفة، وأعمل السيف فى الخلق فى ظرف ستة أيام، أقام فيها ونهب واغتصب كل ما وصلت إليه يداه فى سنة ٣١٣هـ.

وعندما عرض الأمر على المقتدر بالله استصوب أن يوجه ضد أبى طاهر فرقة عظيمة من الجيش بقيادة يوسف بن أبى الساج. كان يوسف فى ذلك الوقت فى أذربيجان، وبمجرد ما أخذ أمر الخليفة توجه إلى الكوفة بجنوده الذين كانوا مهيئين. وكان قوام جيش ابن أبى الساج أربعين ألفا، أما جيش أبى طاهر فكان ألف وخمسمائة جندى منهم سبعمائة فارس.

ودخل يوسف بن أبى الساج المغرور بكثرة عساكره، وحاصر القرامطة فى موضع حصين ووجه سفيرا برسالة إلى أبى طاهر ليحدثه عن كثرة جيشه، ويوصيه فيها بالدخول فى طاعة الخليفة. فقال أبو طاهر لأحد أتباعه اقتل نفسك بسلاحك من أجلى، وبعد أن افتدى هذا الكلب «أبا طاهر» بالروح، قال للرسول لقد رأيت بعينيك كيف يطيعون أوامرى!! قل ليوسف أن يستعد، وبإذن الله سأقبض عليه غدا وأربطه مع الكلب فى حبل واحد، وأشار إلى الكلب الذى كان مربوطًا بوتد خيمة.

وصرف الرسول وفى غد ذلك اليوم استطاع أنْ يقبض على يوسف بن أبى الساج مع أتباعه، وربطهم فى سلسلة ضخمة، وربط يوسف بجانب الكلب الذى أراه للرسول.

بعد أن كسب أبو طاهر هذه المعركة بهذا الشكل عبر نهر الفرات بثلاثمائة قرمطى، واستولى على بلدة الأنبار[1] التى تقع فى الجهة الغربية من بغداد دار

(١) الأنبار مدينة صغيرة فى الجهة الغربية من نهر الفرات، وكانت قديما مدينة عظيمة وبانيها بختنصر، ويقال إن أهل الحيرة نقلوا إليها، فى العام الثانى عشر للهجرة، وفتحها خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ فى خلافة الصديق ـ عليه رضوان الله ـ وفى عام مائة واثنين وثلاثين نقل أبو العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس إدارة الدولة من الحيرة إليها، إلا أن المنصور اتخذ الهاشمية ثم بغداد عاصمة للدولة.

الخلافة وفوقها بستين كيلو متر. استولى عليها بالقوة وهزم الجيوش التى أرسلت ضده مرتين، وقتل يوسف بن أبى الساج الذى أسره مع رفقائه، وهكذا ألقى الرعب فى قلوب الناس الفزعين، وبعد أن فرض على كل فرض من أهالى الأنبار خراجا دينارا توجه نحو الأراضى الحجازية المباركة بنية الاعتداء على مكة المكرمة، وهجم على المسجد الحرام وداس بقدميه المشئومتين حرم المسجد الحرام توأم الجنة كما سبق ذكره، وقتل ثلاثين ألفا من الأبرياء، وأكثرهم ملتفون بملابس الإحرام وبعضهم فى داخل كعبة الله، وبعد أن هدم مبانى ذلك البلد الغالية وخربها اقتلع الحجر الأسود وعاد إلى بلدة هجر فى سنة ٣١٧هـ.

وقد دامت نار شرور القرامطة مندلعة تتأجج من سنة٣٠١هـ إلى سنة ٣٧٣ هـ وفى رأى إلى عام ٣٨٤. استطاع فيها القرامطة إغواء كثير من الناس، وأدخلوهم فى زمرتهم ومذهبهم، وأغار هؤلاء على البلاد وقتلوا ونهبوا وهدموا، إذ خربوا الكوفة سنة ٢٧٨، والبحرين سنة ٢٨٦، والشام سنة ٢٨٩، ودمشق ٢٩٠، والشام مرة ثانية سنة ٢٩٣، والبصرة سنة ٣٠٧ هـ، والكوفة سنة ٣١٣، الأنبار سنة ٣١٥، وبعد ذلك بعام الرحبة والرقة والهيط، ومكة المعظمة سنة ٣١٧، ودمشق مرة ثانية سنة ٣٦٠ هـ، وهجموا على هذه البلاد وقتلوا سكانها وخربوا منازلها وأخلوا بنظام الأمن فى تلك البلاد.

واستأصلوا حجاج قوافل العراق فى السنين ٢٩٤ و٣١٢ و٣٥٥[1] و٣٦١[2]، كما أنهم أغلقوا طريق بيت الله العتيق طريق الفيض والنور فى السنين ٣١٤ و٣٥٦ و٣٦٣ و٣٨٤، ووصلوا إلى الذروة فى فن الإجرام إذ منعوا أداء فريضة الحج مدة تسع سنوات لعنهم الله.

كيفية ظهور طائفة القرامطة

يروى المؤرخون على اختلاف آرائهم أن ظهور القرامطة كان فى عهد الرشيد أو المأمون، ولم يظهروا إلا بعد أن تشكل كيانهم، وكانوا قبل ذلك يفسدون

(١) وفى سنة ٣٦١ اتفق عربان بنى هلال مع القرامطة.

(٢) اتفق فى هذه السنة عربان بنى سليم مع القرامطة وأغاروا على قوافل مصر وقوافل الشام.

عقول البلهاء والحمقى وأهل الغفلة بضلالهم فى الخفاء، ثم وسعوا نطاق دعوتهم شيئا فشيئا.

وقد تضاربت الأقوال بعض الشىء فى أسباب ظهور القرامطة ومكان ظهورهم، وكيفية ظهورهم، كما وقع الخلاف فى تعيين وتحديد مبادئهم، وفى هذا أدلى كل واحد برأيه وقال قولته، وها هى ذى طائفة من المؤرخين الذين كدوا أذهانهم وأتعبوا أنفسهم يقولون: «إن أول من لوث الساحة من القرامطة كان رجلاً ادعى النبوة، واتخذ لنفسه كتابا زعم أنه من الكتب السماوية محاولا أن يصدقه الناس».

وقال بعض المؤرخين: «إن أول من أعلن وجوده من ملاعين القرامطة شخص ادعى هذا الشخص أنه من الأئمة الإسماعيلية، وأنه مرسل من قبل الإمام المهدى، وأراد أن يقنع الناس بما يدعيه».

ويهذه الرواية أو تلك يستبين لنا أن المذهب الذى نشره القرامطة وأشاعوه مذهب باطل، وأنه عبارة عن توصية للعمل بمبادئ الكفر والضلالة والإلحاد والإباحية، ولكننا لما رأينا أن الرواية الثانية أقوى دليلا وأمتن رواية رأينا أن نكتفى ببيانها.

سبب تسمية القرامطة بهذا الاسم

على نحو ما اختلف المؤرخون فى نشأة القرامطة وكان اختلافهم فى أصل تسميتهم، ففى بعض الروايات أن سبب تسميتهم بالقرامطة يرجع إلى من يسمى بأبى سعيد الجنابى القرمط، ذلك الملحد الذى سلك بهم سبل الضلال، وكان قصير القامة لا يدين بدين وكان يقارب بين قدميه فى السير، فسمى الذين اقتفوا أثره من الرفض والإلحاد والإباحة بقرامطة.

وفى رواية أخرى: كان رئيس هذه الطائفة قميئا كريه الخلقة، وكان يتجول من قرية إلى قرية لنشر دعوته، ولما بلغ قرية من قرى الكوفة اشتد به المرض فنزل بدار من يسمى «كرميتة» ومعناه ذو عيون حمراء، وراح فى سبات، ولما استيقظ وقام على رجله من مرضه سمى باسم صاحب الدار، ونودى بشيخ الكرامته وبعد ذلك خففت لفظة «كرميته» وعربت فصارت قرامطة.

وفى رواية ثالثة: أن عظيما من هذه الطائفة كان يكتب خطا دقيقا متقارب السطور، واشتهر بذلك أى كان مقرمط الخط، فسميت الطائفة المذكورة بالنسبة له قرمطى.

مذهب القرامطة وطقوسهم

وإن كانت طائفة القرامطة الملاحدة الخبيثة يعترفون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ وأعلنوا فى الظاهر انتماءهم لمذهب الإسماعيلية، ولكنهم فى الباطن كانوا يحلون المحرمات، ويسفكون دماء المسلمين، كما أنهم كفروا من ليس على مذهبهم، ومن كلمات الكفر التى تنسب إليهم قولهم: لما كان المنى أطهر من البول فلماذا يجب الغسل بعده ولا يجب بعد التبول؟

إن أداء الفرائض الخمس عندهم طاعة أئمتهم المعصومين، وإطاعة أوامر الذين يمنعون وينهون عن طريق الإلحاد والكفر والإباحة من غيرهم بعد البحث عنهم، والزكاة عندهم إعطاء الإمام خمس المال وفى رواية أخرى تزكية النفس بالتفوه بكلمات الإلحاد، «والصوم» عندهم حفظ أسرار المذهب وكتمها، والزنا عندهم إفشاء أسرار المذهب بدون مقابل، ومع هذا يدعون أنهم يقتدون بالملائكة ويخالفون الشياطين.

ويكنون بالوضوء عن محبة الإمام ومصاحبته، والاحتلام هو كشف الأسرار لمن ليس لها أهل، والكعبة والصفا كناية عن النبى، والمروة كناية عن باب على، والتلبية كناية عن إجادة المخاطب، والطواف كناية عن حب الأئمة كذلك، والجنة كناية عن الاستراحة من التكاليف الشرعية، والجهل كناية عن اختيار مشقة التكاليف الشرعية، يطلقون على حدة الذين ينسلخون عن الدين كليا «الخلع»، والخروج عن الدين «السلخ» والذين يصلون لهذه المرتبة يباح لهم جميع المحرمات، ولا شك فى أنهم يعترفون بالكفر والإلحاد.

ومن جملة معتقداتهم الباطلة استحلال شرب الخمر، وعدم الاغتسال بعد الجنابة، وحصر الصوم فى اليومين (فى يوم المهرجان والنوروز)، واعتبار الحج

إلى القدس فرضا، وإضافة قولهم (أشهد أن محمد بن الحنفية رسول الله). كل هذه من جملة اعتقاداتهم الباطلة.

وبناء على ما جاء فى تاريخ نظام الملك بالتفصيل: إن طائفة القرامطة الحقيرة أينما ظهروا وأينما امتدت نار شقاوتهم وأينما حلوا فى الآفاق ظهروا بأسماء مختلفة، فمثلا عرفوا فى حلب ومصر بـ« السبعية» وظهروا فى بغداد وما وراء النهر باسم «قرمطى»، وظهروا حول الكوفة باسم «مباركى» واستولوا على البصرة باسم «روندى، برقعى» وعلى الشام باسم «المبيضة» وذكروا باسم «سعيدى» عندما هجموا على أرض المغرب، والجنابى فى الإحساء والبحرين.

وفى أصفهان «الباطنية»، وأسماء «حرمية، بابكية ومحمرية» من الأسماء الخاصة بتلك الطائفة، وسبب تسميتهم بالحرمية لأنهم أحلوا المحرمات، و«بابكية» لأنهم اتبعوا أحد الخارجين الذى يسمى «بابك»، و«المحمرية» لأنهم ارتدوا ملابس حمراء فترة حينما اتبعوا «بابك».

والسبب فى عد القرامطة أنفسهم من الطائفة الإسماعيلية هو لعين اسمه «عبد الله بن ميمون» الذى كان من قرناء عبد الإمام محمد بن إسماعيل، والدنئ كان يسمى مبارك، وكان الإمام المذكور قد زار بغداد فى أيام هارون الرشيد.

وبعد ما مات الإمام محمد بن إسماعيل، أخذ عبده مبارك يتجول هنا وهناك حزينًا مغمومًا، ويسكب الدموع حيثما حل، وكان مبارك هذا حريصًا على أن يكتب بخط باربك فعرف بين أقرانه بقرمطى. وعرض عبد الله بن ميمون ـ سالف الذكر والذى كان من أفراد قبيلة أهواز ـ صداقته على مبارك، واستطاع أن يكسب ثقته بإظهار الصلاح والزهد ولازمه، بالتدريج استطاع أن يقنعه بأقواله.

وقال له يوما: «يا مبارك إن ولى نعمتك وسبب جاهك هو الإمام محمد بن إسماعيل كان صديقى الذى يطلعنى على جميع أسراره، ويطلع على جميع أحوالى، وكم أطلعنى فى حياته على كثير من الأسرار، وكم من علوم لقننى، هذا ما لا تعرفه أنت، ولا من كان متصلا به» وانخذع مبارك بأقوال عبد الله وصدقه، وطلب منه أن يعلمه تلك الأسرار والعلوم فعلمه حروفا معجمة،

وكلمات غير مسموعة وكلمات من أقوال الفلاسفة والأئمة، فمضى مبارك إلى الكوفة وعبدالله إلى كوهستان وأطراف العراق حيث أخذا ينشران طقوس الإباحة[1].

صورة ترتيب الفقهاء

يختار مجلس الشورى الذى ينعقد تحت رياسة شريف مكة عبد الله باشا الفقهاء الذين سيتم تعيينهم وإرسالهم إلى القرى، وفى هذا المجلس يوجد أشخاص يعلمون أحوال الولاة ووجهاء البلدة و السادات الأشراف وقبائل العربان.

هيئة الشورى:

بعد تحديد عدد القرى التى تحتاج إلى تعيين الفقهاء يتم انتخاب الفقهاء ويحول أمرهم إلى رأى رئيس العلماء ويقوم المشار إليه هو والهيئة التى معه بكتابة أسماء الفقهاء و انتخابهم ويقدمهم إلى الهيئة المحترمة.

ولو توفى أو استقال أحد الفقهاء الذين تم تعيينهم يتم تعيين فقيه آخر محله بواسطة رئيس العلماء أى أن تعيين فقيه آخر يتم بعد صدور الأمر من أمراء الولاية الجليلة وهيئة الشورى ولقد ذكر فى الجداول التالية أسماء الفقهاء الذين تم تعيينهم عام ١٢٨٥.

وهذا الجدول يوضح اسم القرى التى عين فيها الفقهاء والقبائل التى تسكن فى هذه القرى.

جدول الفقهاء

أسماء الفقهاء	أسماء القرى	أسماء القبائل	ملحوظـــة
الشيخ عبد الرحيم باقيس	دار الغربة		من هذه الثلاث عشرة فى الجهة التى تقع فى ناحية مكة المكرمة من الطائف وعلى ثلاث ساعات منها وعلى سفح الجبل الذى يقال له جبل الفرا والذى يبعد عن مكة المكرمة خمس عشرة ساعة وعلى ظهر هذا الجبل موقع يسمى هدا والقرى المذكورة فى أطراف هذا الموقع وفى القرية التى تعرف بـ«دار البيضاء» مسجد أثرى.

[1] لمزيد من المعرفة انظر: العصر العباسى الثاني، للدكتور شوقى ضيف ص ٣٣ - ٤٢ (سلسلة تاريخ الأدبى العربى ٤).

الشيخ أحمد بن قاسم	مصر وحوله		
الشيخ مهدى اليمانى	الكمل النبى		
الشيخ عبد القادر المغربى	الخضرة		
الشيخ محمد مكى	دار البيضاء		
الشيخ محمد بن طالب	ملتوى		
الشيخ حمد المغربى	مبيريز		
الشيخ أحمد باوزير	مملكة		
الشيخ فخرى الصخرى	بنى صخرة	قريش	
الشيخ صالح باقيس	أعمق		
الشيخ محمد باعماد	غديرين		
الشيخ صالح السيفانى	شرقة	بنى خديله	
الشيخ عبد القادر باقيس	خليصة	خديلة	
الشيخ على المغربى	شريف		
الشيخ إبراهيم المغربى	قده		تقع هذه القرى فى جهات الشرق والشمال وعلى بعد ساعة أو ساعتين من الطائف.
الشيخ حامد المغربى	صفاء صد عين		
الشيخ محمد بن المهدى	غنامين نحاتين		
الشيخ عبد الرحمن الفقية	بلاد بن شريان		
الشيخ إبراهيم البكرى	عرج	عتيبة	
الشيخ أحمد العبادى	شرب		
الشيخ عبد الحفيظ الريدى	عيلا		
الشيخ سفر بن سفر	جليل		
الشيخ محمود بن سالم المشولى	نخب		
الشيخ سعيد بن ناصر	مليسة	ثقيف قرآن	
الشيخ على بن قنا	سويد		
الشيخ قامد اليمانى			
الشيخ محمود المنصورى	مسجد الهادى		المسجد الهادى[1] ومثناه ووهط على بعد نصف ساعة من الطائف وفى مكان كثير المياه والبساتين وأهل الطائف يخرجون إليهما متنزهين. وهذه القرى تقع فى جهة الجنوب من الطائف وعلى بعد ساعتين أو ساعة منها. وبين قرية ال مقبل وقرية عبلة تمتد عشر قرى وتقع جهة الغرب بعد أربع أو خمس ساعات من الطائف ولها شهرة واسعة بالعقارب والحيات وقريتا زيما وسولة اللتين مسكنهما قبائل قريش.

(١) لما كان بانى هذا المسجد شخص يقال له هادى فالقرية معروفة باسمه.
وسيدنا عكرمة الصحابى ـ رضوان الله عليه ـ مدفون فيها.

			أول مرحلة بيات للمسافرين من مكة إلى الطائف والقرى الأخرى واقعة بجانب وادى فاطمة.
لشيخ عبد العاطى أبو حربة	مثناه	بنى ثقيف	
الشيخ سعيد بن على المخارى	وهط		
الشيخ محمد بخروس	قلمة		
الشيخ عبد الواحد الحديدى	زوران	عتيبة	
الشيخ صالح بن سعيد	بسل		
الشيخ عبد اللطيف الحديدى	كلاخ		
الشيخ على بن محسن اليمان	دار الغنم	بنى ثقيف	
الشيخ نخيل الشمالى	صخيرة		
الشيخ سيف الدين اليمانى	بنى سالم	بنى سفيان	
الشيخ صالح بن عبيل	آل مقبل ، آل زايد	آل زايد	
الشيخ عيسى بن موسى	آل طول	شمالة	
الشيخ سالم بن عوض	آل ساعد	آل خديعة	
الشيخ غالب بن قارع	آل حجة		
الشيخ محمد رحيم	آل مساعد		
الشيخ على بن عمر المعامدى	آل عايشة		
الشيخ صالح بن سميح	بجيدى بنى عمر طلحات آل خالد		
الشيخ خالد اليمانى	ريما	عتيبة	إن معظم قرى قريش هذه جار ماؤها كثيرة منابت نخيلها بها أشجار الليمون والنارنج ومن ثم يخرج إليها أهل مكة للتنزه ولاسيما إلى تنسم طيب نسيمها وتتفاوت هذه القرى والقرى الأخرى فى حجمها ومدى استبحار عمرانها. فمنها ما يشمل ثلاثة أو خمسة أو عشرة منازل ومنها ما يضم أربعين أو خمسين منزلا وإن كان عدد سكانها وعمرانها فى تزايد وأكبر هذه القرى قرى: الدار البيضاء، ووادى فاطمة والحسينية وهق وأجواؤها أطيب من جوزيما وسولة ومضيق حسين، وشنابره فى السعدية والقرى التى تسمى شنابرة تلك تعد مقرا للأشراف والسادات.

الشيخ صالح بن جمال	سولة	فى وادى هرامز	
الشيخ عباد بن صالح	كضيق		
الشيخ محمد بن أحمد موسى	حدا		
الشيخ أحمد العباس	هدا		
الشيخ عبد الرحمن الزبيدى	بلاد بنى	عند بنى ربيع	
الشيخ بشرى الحيرتى	عمر		
الشيخ زين العابدين جمال	عمر		
الشيخ صالح بن شعيب	برابر محمية		
الشيخ وهق بن رشيدان	حراجل	فى السعدية	
الشيخ أحمد الكليبى	الفرع		
الشيخ صديق بن عبد القادر	أبو شعيب		
الشيخ عبد الله باسميح	حميد		
الشيخ إبراهيم حسينية	الخادم		
	هنابرة		

الأثر الرابع عشر: باب الجرير

ويسمى كذلك (باب القفص) وهو الباب العالى المسمى باب النبى، وهو مكان يستجاب فيه الدعاء على حد قول أبى سهيل النيسابورى.

ولا يعرف الوقت الذى ينبغى فيه الدعاء فى هذا الموضع، ويقول الصالحون من الأسلاف: كلما سنحت الفرصة اذهب وادع بجواره.

الأثر الخامس عشر: بيت خديجة الكبرى السعيد

وهو فى سوق الصاغة الذى كان يطلق عليه زقاق الحجر، وكان يسمى زقاق العطار قديماً، وكان دار خلوة رسول الله ﷺ.

وحين الهجرة النبوية وهب لعقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وبعد ذلك أخذه معاوية ووسعه وحوله إلى مسجد، وفتح له بابا يؤدى إلى منزل أبيه أبى سفيان.

بيت أبى سفيان ذاك صار مستشفى للغرباء فى عصر السلطان عبد الحميد. وقد حول بيت زوج الرسول خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ إلى مسجد

باسمها، وقد رممه الملك المظفر اليمانى والناصر العباسى وملوك الشراكسة المصرية، وملوك اليمن على هيئته القديمة.

وفى عام ٩٣٥ هـ عصر سليمان بن سليم عصر البر والإحسان رمم على هيئته القديمة، وأقيم عليه قبة عظيمة، وبنى فى داخله محرابان وفى سنة ١٠٤٣ جدد ما يستحق تجديده.

وكان داخل القبة التى أقامها السلطان سليمان فى سنة ٩٥٣هـ (١٤٤) قدما مربعا، وكانت كل جهة من جهاتها الأربع اثنى عشر قدما.

وولدت سيدة النساء فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) فى الحجرة المنيرة التى تقع فى الجهة اليمنى من الدار السعيدة. ولأن مولد السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان فى تلك الحجرة المنيرة المتصلة بالجهة اليمنى من هذا البيت المسعود، فقد عين موضع مولدها فى وسط هذه الحجرة بحجر أبيض مستدير ناقص الشكل، ووضع فى كوخ مكتس بالخضرة.

إنه موضع مبارك تحت قبتين جميلتين فى تلك الحجرة العريقة، وطول هذا الموضع من الشمال إلى الجنوب ثمانية أقدام، ومن الشرق إلى الغرب خمسة عشر قدما. وقد حمى الكوخ الذى بنى لمشاهدة الموضع المنير الذى ولدت فيه السيدة فاطمة بما يقرب من ٣٥٧ عام، وذلك بفضل الإصلاحات والترميمات الجزئية التى كانت تجرى من آن لآخر، وبالرغم من ذلك تخربت تلك الترميمات، وبات من اللازم هدمها كلها، حتى أن جدران بيت خديجة ـ رضى الله عنها ـ أصبحت محتاجة إلى الترميم والإصلاح، وفى عام ١٢٩٦ حول أحمد أفندى مدير المسجد الحرام الكوخ المذكور إلى شبكة مصنوع من خشب الساج، وأصلح ما مست الحاجة فيه إلى الإصلاح من جدرانه المسقوفة، ووضع صندوقا فوق الحجر الأبيض الذى يشير إلى موضع مولدها، وغطاء يستر المكان من الحرير المزركش.

وأمام الكوخ المذكور جدار باهر الأنوار يرتفع بمقدار ذراع، ويتصل بهذا الجدار من جهة الجنوب بصفة، يعلو هذه الصفة حجر مدور يميل لونه إلى السواد، يقول بعض أهالى مكة المكرمة أن هذا الحجر هو الرحى التى كانت السيدة خديجة تطحن بها القمح.

ويتصل بالجدار الشمالى للمسجد الشريف حجرة مقدسة كذلك، ولما بات من المعلوم ـ من خلال آثار موثوقة الدلالة ـ أن هذه الحجرة كانت خاصة بعبادات النبى ﷺ وطاعاته، أشير إلى موضع سجوده ﷺ بحجر من الماس مسدس الشكل قطره كقطر إصبع اليد، ووضع هذا الحجر وسط المحراب.

الأثر السادس عشر: مولد النبى

بيت يقع فى الجهة الشرقية لمكة المكرمة وفى شارع شعب أبى طالب الذى يسمى الآن: شعب بنى هاشم وزقاق المولد.

وهى دار ميمونة تقع فى سوق الليل وكانت تُعْرَفُ فى عصر النبوة بـ «دار التبابعة». ومن العادات القديمة أن يخرج العلماء والأعيان الكرام من المسجد ويذهبون إلى الدار المذكورة موقدين المشاعل والقناديل، وبعد إقامة مراسم الطاعة والعبادة يعودون إلى حرم كعبة الله.

ومن العادات المتفرعة من الحفاوة بمولد النبى أن يقوم الناس بعد عودتهم من دار مولد النبى بالوقوف خلف المقام الشافعى وأمامهم الشخص الذى يتولى رياسة الروم بالدعاء للسلطان، وبعد أن يلبس بعض كبار الحاضرين الخلع حسب قواعد المراسم يصلون صلاة العشاء ثم يعودون إلى منازلهم.

ولم تكن هذه العادة قائمة إلى عهد السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع ولم تكن تلك الاجتماعات تنعقد فيه، فلما أراد السلطان المذكور أن يستزيد من الغفران وأن ينال الشفاعة النبوية قام باستحداث هذه الاجتماعات

واتخذها عادة ميمونة، لأجل ذلك ينعقد فى مكة المكرمة فى الليلة السابعة عشرة فى رمضان اجتماعات عظيمة بغية تعظيم بعثة نبى آخر الزمان ﷺ، كما تجتمع جماعات كثيرة فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول للاحتفال بمولد رسول الله ﷺ، فى المدينة المنورة وفقا لرغبة السلطان.

ولعقد هذين المجلسين أمر السلطان بمنح ٣٣٠٠ قرش سنويا من ريع مقاطعة مصر للإنفاق على إقامة ذلك الاحتفال. وقد صدر ذلك الأمر السلطانى فى سنة ١١١٣هـ، واستمر إجراء ذلك الحفل الميمون والاحتفالات السنية فترة ما، والآن تجرى الاجتماعات فى ليالى الثانية عشرة من ربيع الأول لسبب ما.

ومازالت نفقات هذين الاجتماعين ترسل من الخزانة المصرية إلى يومنا هذا ومازالت الاحتفالات تجرى وفق ما ذكرنا آنفا.

وقد ذكرنا فى المقال الثالث من الفصل الحادى عشر من مرآة المدينة كيفية الاحتفالات بالمولد النبوى السعيد.

وكانت العادة المرعية بين أهالى مكة المكرمة فى ليالى رمضان أن يقرأوا القرآن الكريم فى صلاة التراويح. وكان الإمام الحنبلى يختم القرآن فى الليلة الحادية والعشرين من رمضان، وفى الليلة الخامسة والعشرين الإمام الشافعى، وفى الليلة السابعة والعشرين الإمام الحنفى، وفى الليلة التاسعة والعشرين الإمام المالكى فيختمون القرآن بعد تمام قراءته.

وكان أتباع الإمام الذى سيختم القرآن يزينون المسجد الحرام بمصابيح وقناديل وفوانيس مختلفة، ومازالت هذه العادة قائمة ولكنها لا تنحصر فى أئمة المذاهب الأربعة .لأن الذين يريدون أن يختموا القرآن يتفقون فيما بينهم ويصلون فى جماعة منفصلة، ومع هذا تعقد مجالس عظيمة فى ليلة ختم القرآن الكريم.

وفيما مضى كانت تعقد المجالس فى ليلة ٢٧ من رمضان فى الجهة الشرقية

للحرم الشريف وأمام المحكمة الشرعية، ويقرأ دعاء ختم القرآن وعقبه يوزع على الحاضرين الكرماء الشراب الحلو ثم يتجهون إلى البيت المعظم حيث يدعون الله، ويحضر هذا المجلس الأشراف العظام والسادات الكرام والعلماء الأعلام، ويوزع نائب الحرم الشريف حلو الشراب، وفى أثناء الدعاء يظل باب الكعبة مفتوحا، ومازال هذا المجلس المشكور يجتمعون إلى الآن، كما سبق ذكره ومازالت تلك الإجراءات مرعية الجانب.

الأثر السابع عشر: سوق الليل

إنه مكان فى غاية اليمن والبركة لأن مولد النبى، والدار التى ولد فيها على كرم الله وجهه، ودار الصديق الأكبر فى هذه السوق وفى كل جهاتها آثار مباركة ظاهرة.

إن عينيك تنبت جنة من سوق المال ورافع الشوك من طريقه يعجب بالورد
تطلع الشمس التى تنير الدنيا منه كما امتلأت منه روضة الرضوان
ومن عجب أن هذا أصبح مقاما ومنزل قرص الشمس والبدر
إن منزل الزهرة فى هذا الشعب وهو على بعد قدم أو قدمين من الصديق
إن المشترى والشمس والقمر اقترن بعضها ببعضها الآخر
فهذه المحلة كلها مرتفعات ومنخفضات وفيها يهادى سرو الدلال

«فتوح الحرمين».

الأثر الثامن عشر: دار الخيزران

كان يعرف هذا المكان عند الأوائل من المسلمين بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى.

إن هذه الدار النيرة تقع فى الجهة الشرقية من جبل الصفا فى اتصال دار بنى شيبة وفى زقاق ضيق. إن هذا الموقع أفضل من كل الأماكن وأقدسها فى مكة المكرمة ما عدا دار أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها.

دار الأرقم:

هذا المكان المقدس هو المكان الذى كان يجتمع فيه النبى ﷺ مع تسع وثلاثين من صحابته خفية، قد تشرف عمر بن الخطاب باعتناق الإسلام فى داخل هذه الدار، واكتمل به عدد الصحابة أربعين صحابيا.

وانتقلت تلك الدار إلى ملكية والدة هارون الرشيد الخيزران[1] وقد اشترتها ولشدة تعلقها وحبها لهذه الدار اشترت الدور المجاورة لها وألحقتها بهذه الدار.

وانتقلت الدار بعد ذلك من يد إلى أخرى حتى وصلت إلى أشراف بنى حسن، وفى نهاية الأمر انتقلت إلى ملكية دفتردار مصر القاهرة إبراهيم بك، فأهداها إلى السلطان سليم خان الثانى عليه رحمة الله فجددها نجل ذلك السلطان وهو السلطان مراد خان الثالث على شكل مسجد فى سنة ٩٩٩هـ.

وحينما أراد أن يجدد ذلك المسجد مصطفى جاويش الذى كان يشغل منصب أمانة البناء وكان أمين بناء جدة، قد استدعى إلى باب السعادة، وبهذا لم يستطع أن يأخذ دور الكبراء التى تحيط بالمسجد، ولو لم يعزل لفترة ما من منصبه كان سيجدد مسجد دار الخيزران فى هيئة أجمل وشكل أحسن. إن عرصة مسجد دار الأرقم فى جهاتها الثلاث أربعة عشر قدما إلا الجدار الشرقى أربعة وعشرون قدما. وله أربع قباب جميلة وله ساحة مكشوفة وله مئذنة.

صخرة المحتبى:

مكان فى داخل المسجد وعلى يمين من يتوجهون إلى المحراب، وإلى الآن مرئى وظاهر.

(١)خزيران أو خيزران بانية مسجد دار الأرقم كانت جارية المهدى المفضلة وقد أعتقها سنة ١٥٩هـ.

ومُنْتَهَى هذه الصخرة كان مكانا خاصا للنبى ﷺ، عند جلوسه وحوله تسعة وثلاثون من أصحابه الكرام عندما كان يدعو إلى الإسلام خفية، من الروايات الموثوقة أنه كان يمضى أوقاتًا تحت هذه الصخرة.

الأثر التاسع عشر: الحجر المتكلم

يقع فى جدار دكان أبى بكر وفى الجهة التى تواجه الحرم الشريف وقد وضع فى مكان يعلو عن الأرض مترا. وطول الحجر المتكلم ذراع معمارى، وقطره ثمانية أصابع، وهو نصف إسطوانى الشكل وبارز عن الجدار بمقدار ستة أصابع.

وروى عن النبى ﷺ قوله: «إننى أعرف حجرا كان يلقى على السلام قبل البعثة فى المجئ والذهاب». ويظن أن ذلك الحجر هو المقصود به وكتب عليه البيتين الآتيين:

أنا الحجر المسلم كل حين
على خير الورى فلى البشارة
ونلت فضيلة من ذى المعانى
خصصت بها وأنى من الحجارة

قد ترك ذلك الحجر مكشوفا إلى ولاية الحاج عزت باشا الأرزنجانى الأخيرة وقد حفظه الباشا المذكور فى ولايته الأخيرة بأن غطاه بقفص حديدى وكتب كيفية عمله على حجر آخر ووضعه فوقه.

الأثر العشرون: حجر المتكأ

يقع أمام الحجر المتكلم وفى صف دار خديجة الكبرى وعلى صفحة هذا الحجر أثر لطيف، ويقال أنه أثر مرفق النبى ﷺ إذ شرف النبى ﷺ دكان أبى بكر فى يوم من الأيام واستند على ذلك الحجر وعندما التفت لأبى بكر قائلا: يا

أبا بكر انطبع أثر مرفقى على ذلك الحجر. كان حجر المتكأ قديما على جدار بيت أبى بكر ثم انتزعوه منه ووضعوه فى المكان الحالى.

كان المكان الذى وضع فيه من جدران بيت مصطفى أفندى الحريرى، واحترق هذا المنزل فى أوائل سنة ١٣٠٠هـ والحجاج فى عرفات؛ إلا أن الحجر المذكور لم يصب بسوء، وقد حفظ بأن وضع فى إطار له غطاء خشبى وعمر تلك الدار.

الأثر الحادى والعشرون: دار العباس

تقع دار العباس فى شارع المسعى وبالقرب من الميلين الأخضرين وأمام باب العباس، والآن أصبحت رباط الفقراء والمساكين والغرباء.

الأثر الثانى والعشرون: رباط الموفق[1]

يقع فى زقاق المقرارية وشارعه، وقد اشتراه فى سنة ٦٠٤هـ القاضى الموفق جمال الدين على بن عبد الوهاب السكندرى وعمره ووَقَفَه. إذا ما دعى فى داخله أو أمام بابه يستجاب.

قال الشيخ عبد الله بن مطرف من مشاهير أولياء الله: كلما وضعت يدى على حلقات باب رباط الموفق أحس كأن كثيرا من أيادى أهل الله توضع فيه، ويسكن الفقراء ومساكين الممالك المغربية فى ذلك الرباط ويقيمون فيه. وبما أن كثيرا من أهل الله مازالوا يذهبون إليه لغرض الزيارة فلا يخلو ذلك المكان من ملازمة الأولياء ومرورهم.

الأثر الثالث والعشرون: مِنى

تقع «منى» فى الجانب الشرقى من مكة المكرمة بين غار المرسلات وهذا المكان المقدس مكان جميل المنظر وصحراء تثير الشوق، وطوله ٣٠٥ ذراعا، يبدأ من جمرة العقبة وينتهى فى الجمرة الثالثة، ويبعد عن مكة المعظمة أربعة أميال. ومنى

(١) والآن يسمى رباط عثمان.

مدينة تميل إلى الكبر وتتزين جوانبها بدكاكين كبيرة ومنازل عالية ويحد نهايتها مسجد الخيف، إلا أن عمرانها يتوقف على موسم الحج، ففى غير موسم الحج تخلو المدينة من الناس، ويستأجر الحجاج فى منى منازل بعد عودتهم من عرفات، ويتاجرون مع التجار الذين وفدوا من الشام وحلب.

وإن كتب أن وقت الدعاء فى منى محدد فى منتصف الشهور القمرية وليلة ما يستدير الهلال بدرًا، ولكن بما أن المكان غير معمور فى كل الأوقات فليدع الداعى متى يمكنه الدعاء فيه.

ومنى هى المكان الذى يرسل بواسطته أمانة الصرة إلى الشريف الهاشمى النسب علنًا.

وإننا أدرجنا صورة من الأمر السلطانى الذى أرسل إلى ذات السيادة الشريف عون الرفيق باشا فى سنة ١٣٠١هـ متيمنا.

صورة الخط السلطانى

الحمد لله الذى جعل سرة البطحاء صدف درة البيضاء، وحلى بها أجياد عرائس المصنوعات، من الثرى إلى سدرة المنتهى، وصير أم القرى محتد نبيه المجتبى وصفيه المرتضى، وأوحى إلى خليه إبراهيم أن يرفع القواعد من البيت، وأمرنا أن نتخذ من مقامه مصلى، وتوجهت الوفود المتوشحة بوشاح الهدى، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتلبية، وقصدوا نحو منى، فطوبى لمن سعى بين الصفا والمروة، وصلى بمقام إبراهيم بخضوع القلب، وانتهج نهج القربى والزلفى، وبيض وجهه باستلام الحجر الأسود متلألئًا كسناء ذكاء[1].

والصلاة والسلام على من بعث رحمة للورى، وصارت زيارة قبره من أرقى مدارج السعادة فى الدنيا والعقبى، وعلى آله وصحبه الطيبين الذين طهروا الكعبة العليا من أدناس الأوثان، وأحكموا بنيان الشريعة المصطفوية بإقامة أحكام القرآن ما ناحت الحمائم بتسبيح الله تعالى وتقديسه جل وعلا. . . .

(١) ذُكَاء: الشمس.

أما بعد فهذا خطابنا الشريف الخاقانى وكتابنا المنيف السلطانى النافذ حكمه بعناية الله المعين فى أقطار الأرضين، مطاعا لأساطين الملوك والسلاطين، لازال ناشرا فوايح العدل والأمان وما برح زاهرا بين حدائق البر والإحسان وما سجعت الطيور ورتعت الغزلان، أصدرناه منطويًا على فرائد التحيات الرائقة، ومحتويًا على قلائد التسليمات الفائقة، مظهرا عَرْفَ رياحين المحبة والاستئناس، وممهدا لمبانى المودة المحفوظة عن الإندراس، إلى جانب الأمير الأمجد الأوحد المقتفى آثار أسلاف الأشراف من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف وأجداده الحميدى السير الجميلى الأوصاف، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصبة العلوية المصطفوية، المنتمى إلى أشرف جرثومة علا عنصرها، والمنتسب إلى أنفس أرومة غلا جوهرها، زبدة سلالة الزهراء البتول، عمدة آل بيت الرسول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الصمد، من أفاخم وكلاء دولتنا وأعاظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل النيشان المرصع بالعثمانية والمجيدية، أمير مكة المكرمة الشريف (عون الرفيق باشا)، لازالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلاءة الصمدانية عليه حافظة، ننهى إلى نادى الشريف أن الله جل شأنه وعز برهانه، اصطفانا من بين عباده خلفاء للأنام، وأعطانا سيف الجهاد، وأمرنا بتأسيس ركن الإسلام، وشرفنا على الملوك بسدانة بيت الله الحرام والركن والمقام، وزين منشور سلطنتنا بخدمة روضة نبينا وشفيعنا عليه أسنى التحية وأزكى السلام.

نحمد الله على ذلك بأتم الشكر وأكمل المحامد. ونُحَلِّى ترائب عرائس هذه النعم من جواهر الأثنية بأغلى القلائد وأنفس الفرائد، فلا جرم وجهنا وجهة النهمة الواسعة ونخبة الهمة الشائعة، لرفع رايات الشكر فوق القمة التاسعة، وصرفنا أزمة صريمتنا الجليلة إلى طريق إيفاء ما وهبنا الله من المواهب الجزيلة، وامتطينا صهوة مطايا الإقدام، فى تنفيذ مصالح الشريعة، جاريا مجارى الجد والاهتمام، لاسيما مهام الأوقاف المشروطة لفقراء الحرمين المحترمين، والأرزاق المعينة المضبوطة للشرفاء شرفهم الله ـ تعالى ـ فى الدارين، وللعباد العاكفين فى المقامين المكرمين، وأرسلنا من شامل عنايتنا على

الرسم القديم فى العام السابق ـ وهو عام ثلاثمائة وألف من هجرة من أسس قواعد الإسلام ـ صبت على ضريحه سجال التحية والسلام ـ كافة الأموال المحصلة من ريع الأوقاف الموقوفة المربوطة، والنقود المعروفة والوظائف المضبوطة التى خصصت بلائذى الحرم ويثرب ممن سكن فيهما، واخترنا الجواد من حيثما المشارق والمغارب، وجملتها مثبته وأعدادها مفصلة ومقررة كما هو مسطور ومرقوم فى الدفتر المعلوم والمختوم، جميعها الدنانير التضاد والخدمة الصافية من النقود الرائجة فى عام البلاد الدانية والقاصية، وسلمنا تلك الصرر إثر ما وضع فى الأكياس الموسومة بختمنا الشريف دفعا للالتباس إلى يد حامل ذلك المنشور السلطانى، وناقل هذا المثال الخاقانى، المنتسب لسدتنا السنية، من خدام عتبتنا العلية السلطانية، المأمور لخدمة الحميدية الخاقانية، الحامل نيشان المجيدية من الرتبة الرابعة، أمير الكرام السيد «بسيم باشا» دامت معاليه وعمدة أصحاب التحرير والتقرير، كاتب الدفتر قدوة الأماثل والأقران ـ زيد قدره ـ بعد ما قلدناهما تلك الخدمة الجليلة، وأعطيناهما دفترًا مختوما بختمنا المبارك السلطانى لازال عنوانه زينة على صحيفة مناشير الأمانى، مخبرًا عن المصاريف المعينة، متضمنا بالمواهب المقننة، فأمرناهما بإيصال تلك الصرر إلى خزانة المديرية المأمورة بالسعى مع الاهتمام على جرى الأصول المؤسسة فى سوالف الأيام فى الصرر المقررة، فى مصاريفها المحررة المقدرة، على ما صرح ونص عليه فى الجريدة التى هى فى جيد الأمانة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ (النساء: ٥٨).

واغتراف من مشارب الأجواد الجزيلة قراح عذبها، ونهلها وتوزيعها إلى مستحقيها من السادات والعلماء والضعفاء ساكنى مكة المكرمة، وقاطنى المدينة المعظمة، المستمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، والمتشرفين بجوار نبينا شفيع الأنام (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ورسمنا ألا يفض خاتم أكياس هذه المبرة، ولا توزع على أصحابها إلا بمعرفة المأمورين الذين وجب حضورهم، ولا يستنسخ دفتر مستقل غير هذا الدفتر، بل يعلم على اسم كل من وصل إليه نصيبه بالمداد الأحمر، فإن غاب واحد منهم أو قضى نحبه ولم يوجد مسميات بعض الأسماء يعلم على اسمه بالدفتر حسبما يظهر، وتحفظ حصصهم ونصيبهم مفرزة محرره، كيلا يحتال أحد لأخذ الصرة المقررة، ويؤتى نصيب من توفى أو غاب لأشخاص توافقت أسماءهم وألقابهم ونسبهم، وتشابهت الأسماء والألقاب والنسب والأنساب، هذا وقد أهدينا إلى جنبكم العالى، مغرس شجرة المفاخر والمعانى فى صحبة حامل كتابنا اللطيف وخطابنا المنيف خلعة من تشريفاتنا البهية، وأكسيتنا السنية تجديدا لمراسم الموالاة، وتأكيدا بمعاقدة المصافاة، فلابد من استقبالها بتقديم مراسم الإكرام والتعظيم والتزيين، والاكتساء بها علامة الاحترام والتكريم، وبذل القدرة الكاملة فى رعاية الرعية وصيانة الحجاج والمجاورين والمسافرين والمقيمين من العنت والشقاوة، لإفاضة الأمن والراحة وحراسة تلك الطرق والممالك، واستجلاب الأدعية الصالحة من العلماء العالمين والسادات المهديين، والفقراء الصالحين، والمواظبة على الدعوات بمزيد التضرع والابتهال، لإعلاء أعلام دولتنا العلية، وثبات أركان سلطنتنا السنية، إنه سبحانه لجدير بالسؤال، وقدير على تبليغ الأمال، تعالت ذاته عن المضاهى، وجَلّ جودهُ عن التناهى، وفضله حَسْبُ من بجنابه لاذ، وطَوْلُهُ كفاية من به استعاذ.

وصلى الله على سيدنا محمد الذى تأسست قواعد شريعته البيضاء بأركان المواهب الربانية، ناشرا ظلال سدتها فوق الثرى، واستهل بأرجاز نعوته الملائكة المقربون على العرش سربا فسربا، وعلى آله وعترته الذين فتحوا بسيوفهم البلاد شرقا وغربا، ولمن تبعهم من أمته إلى يوم الدين عجما وعربا، رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم أجمعين.

الأثر الرابع والعشرون: الجمرات الثلاث

الجمرات الثلاث التى سبق ذكرها قد عينت بعلامات خاصة فى ثلاثة أماكن من منى.

مسألة:

قال علماء المذهب الحنفى: «عندما تلقى الجمرات عند الجمرة الأولى[1] والجمرة الثانية يعنى عندما يرجم الشيطان الأول والشيطان الثانى ينبغى أن يتوقف قليلا، لأنه لا ينبغى الوقوف عند الجمرة الثالثة، بناء على هذا القرار الذى اتخذه العلماء يُسْتَحَبُّ ألا يوقف عندها للدعاء، بل ويدعى فى أثناء السير لأن الحسن البصرى أوصى أن يدعى فى هذا المكان أيضا؛ لأنه مكان من ضمن الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء.

جمرة العقبة:

أنها الجمرة الثالثة وهى بالقرب من قبة الكبش وهى جدى أبيض فى طول خمسة أذرع وذراعين عرضا. وبما أن الشيطان ظهر لحضرة الخليل لأول مرة فى هذا المكان ورجم فلزم رجمه إلى يوم القيامة.

الجمرة الثانية:

يطلق على الجمرة الثانية الجمره الوسطى أيضًا وهى تخمينا على بعد خمسين خطوة من جمرة العقبة، وفى ناحية مسجد الخيف وقد ظهر الشيطان لخليل الرحمن مرة ثانية فرجم، وقد أشير إليها مثل جمرة العقبة بجدار صغير.

(١) ومعنى الجمرة نار ملتهبة، ولها معنى آخر بمعنى حصاة صغيرة، وبهذه المناسبة أطلقت الجمرات على الحصوات الصغيرة التى تلقى فى منى وهو من جملة مناسك الحج.

الجمرة الأولى:

الجمرة الأولى على بعد مائة خطوة من الجمرة الثانية، وفى ناحية مسجد الخيف أيضا.

وهو المحل الذى ظهر فيه الشيطان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ للمرة الثالثة فرجم، وعين مكانها بجدار صغير مثل الأخريين.

يرمى جميع الحجاج فى هذه الجمرات الثلاث سبع حصوات ويستحسن أن يكون الرامى مترجلا ويجوز إلقاء الجمرات راكبا وكان حضرة معاوية أول من ألقى الجمرات وهو راكب.

رواية ـ يروون حديثا بمعنى «أن من يُقبَل حجُّه تُرفَع جمرته» (حديث شريف) وقد سأل أحد أئمة الحديث ـ ولم يكن قد سمع هذه الرواية ـ سأل سعيد بن جبير «لماذا لم يتكون جبل من كل هذه الحصوات التى ألقيت إلى الآن؟» فرد عليه قائلا: إن كل من يقبل حجه ترفع جمراته بأمر إلهى من قبل الملائكة».

قال الإمام مجاهد «قد علَّمت الجمرات التى ألقيتها فى السنة التى سمعت فيها رد سعيد بن جبير بعلامات معينة، وبعد الحج بحثت عنها فلم أجدها، فصدقت ما قاله سعيد بن جبير وأنه يوافق معنى الحديث.

الاستطراد

يروى لإلقاء هذه الجمرات فضائل كثيرة. يروى مؤلف «نزهة المجالس» نقلا عن كتاب الحقائق الحكاية الآتية: «قال أحد المؤمنين صادق النية مخاطبا السبع جمرات التى فى يده عند إلقائها» أشهد أيتها الجمرات أننى أؤمن بعدم وجود إله آخر غير الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله» وقد حلم هذا الشخص تلك الليلة أن القيامة قد قامت، وعند المحاسبة قد زادت سيئاته عن حسناته فيصدر الأمر الإلهى بأن يساق إلى جهنم، فيؤتى به فى جهنم. ولكن زبانية جهنم يرون أن باب جهنم قد سد بالجمرات التى ألقاها فى منى، فيتحيرون كثيرا ويحاولون أن

يفتحوا الباب فلا يوفقون، ويذهبون، تحت عرش الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليعرضوا الحالة، إلا أن الحجارة كانت قد سبقت الزبانية، وحصلت على الأمر الإلهى بإدخال هذا الرجل فى الجنة بعدما غفرت ذنوب الرجل، ويقف كل حجر فى باب من أبواب الجنة ويقول راجيًا: يا فلان أدخل الجنة من الباب الذى أقف فيه» انتهى.

لاحقة

إلى أواسط سنة ١٣٠٣هـ الهجرية عانى الحجاج مشقة كبيرة من قلة المياه فى منى، وكان من جملة فضائل السلطان أن أمر والى الحجاز الحالى عثمان باشا بإقامة صهريج عظيم له ستة عشر صنبورا. ولقد تم ذلك بفضل همة لجنة عين زبيدة وحسن خدماتهم، وهكذا نجى الحجاج من مشقة العطش.

وكنا قد كتبنا معلومات أولية فى الصورة السادسة من الوجهة الثالثة من المرآة أن عثمان باشا قد أنشأ فى أرض المدرسة المجيدية بناءًا فخما مقرا للحكومة للجيش، وحول القلعة الهندية إلى ثكنة عسكرية باسم «غيرتية».

وهدم قسم الشرطة الرئيسى وثكنة المدينة السلطانية وبناهما من جديد.

ومن هذه المرة أخبرت فى رسالة واردة من مكة المكرمة والمؤرخة بتاريخ ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٣ أن ذلك المقر الحكومى الفخم قد تم بناؤه، وفرش فرشا جميلا، كما هدمت بعض جهات قلعة جياد، وبنى فى بعض جوانبها مخزن للأسلحة، ووضع فوق المبنى صادة للصواعق، وبدأ فى إنشاء ثكنة عظيمة فى الجانب الآخر.

وقد قسمت أرض عرصة المدرسة السالفة الذكر من قبل والد السلطان الكثير المحامد السلطان عبد المجيد خان ـ طيب الله ثراه ـ وبنى على طرف منها مدرسة، وبجانبها سبيلا ومكتبة وعدة منازل خاصة بأمناء الكتب، وفعلا شرع فى الإنشاءات، ووضعت الأسس وفى هذا الموقف رحل ذلك السلطان عن دنيانا، فأوقفت عمليات البناء وأهملت لتتحول تلك الساحة إلى مقلب قمامة. ولما كان

الجنود السلطانية الذين يتولون حراسة مكة المكرمة يسكنون تحت الخيم، وكان هذا مخالفا لآمال السلطان، لذا انزعج عثمان باشا انزعاجا شديداً وأخذا ضميره يؤنبه، فقرر أن ينشئ فوق أرض تلك المدرسة ثكنة عسكرية تستوعب فرقة من الجند السلطانى.

وبعد الاستئذان شرع فى أواخر سنة ٩٩ المالية فى عمليات الحفر ذاكرا اسم الله، وقد استصوب فيما بعد أن تكون الدائرة الحكومية متصلة بالثكنة المذكورة، وعدلت خريطة الثكنة السلطانية على أن يكون جانب من المبنى مقرا حكوميا، والجانب الآخر من المبنى ثكنة عسكرية، وهكذا بنيت ثكنة عسكرية متقنة الصنع والبناء وسميت بالحميدية.

وبلغت نفقات إنشاء الثكنة الحميدية بناء على التقديرات الأولية ألف وأربعمائة ليرة، وإذا ضمت إليها نفقات إنشاء الدائرة الحكومية ألف وثمانمائة ليرة، عرف أن مجموع النفقات يصل إلى ثلاثة آلاف ومائتى ليرة.

ولكن إذا ما ضم لهذه النقود ما أنفق لتزيين المبانى من الداخل والخارج تزيينا جميلا ومحكما تصل النفقات إلى ما يقرب من مليون قرش.

طرحت فكرة إنشاء ثكنة (الغيرتية) ونفذت فى عهد الشريف غالب، ووسعت فى عهد تاتار عثمان باشا لتسع مائة عسكرى من عساكر الشرطة وبنيت فوق خرابة قلعة صغيرة.

وكان لهذه القلعة أربعة أبراج، وهدمت الأبراج التى فى الجهة الغربية وحولت إلى ثكنة عسكرية يمكن الدفاع عنها، وتتسع لألف من الجنود السلطانية.

وبما أنه تم بناء تلك الثكنة لما سيقوم به هؤلاء الجنود من خدمات جليلة، وبما قدمه أصحاب الحمية والكرام من نقود، وسميت «غيرتية» لذلك، وقد صرف على بنائها مائة وعشرين ألف قرش ماعدا المنح الأخرى.

ثكنة المدفعية السلطانية:

كانت هذه الثكنة مكانا محاطا بأربعة جدران، قد بنى فيه «عنبران» يستوعبان

ما يقرب من مائة جندى من المدفعية، وحجرة للقيادة تسع ثلاثة ضباط ومطبخ، وتم ذلك بهمة عثمان نورى باشا وسعيه واشتراك الجنود فى العمل. قد اشترك الأصحاب الكرام فى بناء هذه الثكنة بما دفعوه من مبالغ قريبًا من ثمانين ألف قرش.

المخفر الرئيسى:

مبنى متين يتسع لإيواء أربعين جنديا، وهناك مخفر غير هذا المخفر فى حارة الباب يتسع لعشرين جنديا أيضا، وهما مبنيان رصينان وقد أنفق لبنائهما مائة ألف قرش كاملة.

وفى سنة سنة ١٣٠٢ الهجرية أمر عثمان باشا نورى الأميرالاى صادق بك الذى حضر مع أمانة الصرة المصرية بأخذ صور فوتوغرافية للأماكن المذكورة، وقد حصلنا على نسخ هذه الصور وأثبتناها فى الأجزاء المناسبة من المرآة.

وقد كتب فى صفحة من المرآة إن مجرى عين زبيدة قد حفر على (حارة الباب) لتجديدها إلى ضريح الشيخ محمود، وبناء صهريج احتياطى فى ذلك المكان، وقد سطر فى هذه الرسالة التى وصلت والتى مر ذكرها أن ذلك المجرى قد أوصلت مياهه إلى ضريح الشيخ محمود، وقد أنشئ أمام الضريح حوض مياه كبير، وركبت فيه الصنابير، وأن وصول مياه عين زبيدة إلى هذا المكان قد أحيا سكان هذه الأماكن، ووسع مدينة مكة المكرمة.

قيل فى صفحة من المرآة «يأتى ويذهب كل سنة ما يقرب من ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف من الحجاج»

وفى الرسالة الواردة من مكة المكرمة يقول صاحبها: إن عدد الحجاج لم يزد على مائتى ألف حاج حتى فى سنين الحج الأكبر. إلا أنه لم يدخل فى هذا الحساب عربان البادية والمقيمون من أهل مكة، ويقول صاحب الرسالة « إن نظام إقامة وليمة فى مقر الإمارة قد ألغى بعد وفاة الشريف عبد الله باشا بثلاث أو أربع سنين وهذا شىء يؤسف له.

فى ذكر المساجد المأثورة فى مكة المكرمة

الأثر الخامس والعشرون: مسجد أبى بكر:

المسجد المشهور بمسجد أبى بكر يقع فى الجهة اليمانية وفى مكان يسمى «مسفلة» عليه قبة وفى داخله كوخ.

يزور الحجاج هذا المكان كما أن أهل مكة يزورونه ويقيمون فيه حلقات الذكر ويدعون الله، بما أن أبا بكر الصديق قد ولد فى هذا المكان السعيد فإنه يشتهر أيضًا باسم «دار أبى بكر»، وطول سطح هذا المكان من كل جهة عشرون قدمًا وعرضه خمسة عشر قدمًا، إلا أن له فى الجهة الجنوبية حديقة محاطة بالسور مساحتها أربعمائة ذراع، إن النبى ﷺ، قد شرف جبل الثور قادمًا من هذا البيت، إن هذا الحادث الجلل قد فصل فى المقام الرابع والعشرين من «محمود السير». وقد أشرفت مبانى ذلك المسجد مع مرور الأيام على الخراب، لذا عمره وأصلحه مدير الحرم الشريف أحمد أفندى على أحسن وجه وبشكل رصين فى سنة (١٢٩٦).

الأثر السادس والعشرون: مسجد ذى طوى:

يقع هذا المسجد فى الجهة الشمالية من مكة المعظمة وفى الوادى الذى أطلق عليه أهل مكة «ما بين الحجرتين» وفى المحل الذى خصص لإقامة المحمل المصرى، وعلى الجهة اليمنى فى طريق العمرة، وقد بات قائد الأصفياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا المكان فى حجة الوداع، وبعد أن صلى فيه صلاة الفجر اتجه إلى مكة المكرمة.

وقد ذكر صاحب «العقد الثمين» أن بانيته سيدة تسمى زبيدة، ولكنه لم يبين لنا من هى زبيدة هذه ومتى بنته.

الأثر السابع والعشرون: مسجد التنعيم:

إن مسجد التنعيم فى مكان قريب من مسجد عائشة ويبعد عن المسجد الحرام ما يقرب من ثلاثة أميال[1] أو أربعة، وكل جهة من جهاته عرضها خمسين قدما.

وفى يمينه جبل نعيم وعلى يساره جبل ناعم، لذا أطلق على الوادى الذى أسس فيه وادى النعمان، وإن كان المؤرخون يخبروننا أن هذا المسجد كان يطلق عليه اسم هليلجة وكانت بجانبه شجرة قديمًا إلا أن ابتعاد هذا المسجد عن ميلى الحرم (يعنى ابتعاد مسجد عائشة الذى يوجد فى ناحية جبل نعيم عن الميلين) فالمسجد الذى قال عنه المؤرخون أنه مسجد هليلجة غير المسجد الذى يكتسى فيه الحجاج ملابس الإحرام بنية العمرة، وهو مسجد التنعيم.

ويظهر أنه المكان الذى يقع فوق قمة الجبال التى خلف صهاريج «سنان باشا» وعلى الجهة الشمالية من مسجد عائشة والذى أحيط بجدار هو أرض مسجد التنعيم.

وهذا الجدار كثيرًا ما ينهار بصدمات الرياح ويخرب إلا أن الزوار الكرام يبتدرون لتعميره وترميمه.

الأثر الثامن والعشرون: صهاريج سنان باشا

كان فى الزمن القديم فى هذا المكان صهريج واحد وكانوا يملئونه عند نزول المطر يتوضئون منه، وعندما زار سنان باشا مكة المعظمة فى أثناء سنة (٩٨٧هـ) حين عودته من اليمن رأى أن مياه ذلك الصهريج قد نفذت، كما أن مياه البئر الذى بجانبه قد انقطعت، فاحتاج المعتمرون والحجاج حتى إلى قطرة ماء للوضوء

(١) يذهب الحجاج إليه فى ظرف ساعة.

وإزالة عطشهم، فتأثر من ذلك أشد التأثر، ثم أمر بحفر البئر المذكورة، وأوصل الماء إلى الصهريج المذكور بحفر مجرى، وعين من يهتم بهما ويسقى الناس، ولكن لشدة الأسف لم يبق إلى الآن، لا السقاءون ولا المجرى، وعندما تهطل الأمطار يمتلئ ذلك الصهريج ثم يخلو من المياه مرة أخرى فيظل فارغًا.

وبعد ما أمد سنان باشا ذلك الصهريج بالماء فرش أرض المطاف بالرخام[1]، وغير رمل الساحة الرملية للمسجد الحرام، وأمر بصنع سبيل وحوض فى طريق العمرة، وحفر فى أماكن بعيدة آبارا عميقة واسعة لملء السبيل والحوض بالماء بواسطة مجارى حفرها، وقد اندرس كل هذا ولم يبق له أثر، إلا أن الأصحاب الكرام حفروا كثيرا من الآبار فأصبح المعتمرون لا يعانون من قلة الماء كما كان من قبل.

لاحقة

وقد ثبت أن كل من يذهب إلى مسجد عائشة بنية العمرة ويلبس هناك ملابس الإحرام وفقًا للسنة النبوية، ثم يعود مهللاً ملبيًا إلى الحرم الشريف ويطوف مرملاً مُضْطَبِعًا[2] يسعى، فإنه ينال ثواب أداء الحج فى مدينة الرسول ﷺ الذى غفر له، وذلك ثلاث مرات فى شهر رجب ومرتان فى شعبان المعظم، ومرة فى رمضان المبارك، لذلك يقبل الحجاج الكرام على العمرة بكثرة فى تلك الشهور.

تنبيه

ويجب أن يزار المكان الذى صلب فيه حاتم بن عدى ـ رضى الله عنه ـ الذى يقع فى الجهة الغربية من مسجد عائشة، وفى ناحية جدة إذ كان ـ رضى الله عنه

(١) لأن المطاف الشريف فى ذلك الوقت كان مفروشًا بالرمل فكان الحجاج يعانون فى أثناء السير.

(٢) إن الصورة الإجرائية لهذه الأصول مسطورة فى الصفحة الثالثة عشرة من تكملة المناسك والاضطباع أن يجعل المحرم وسط الرداء تحت كتفه اليمنى ويرد طرفيه على كتفه اليسرى ويبقى كتفه اليمنى مكشوفة، وهو سنة عند جمهور الفقهاء: الشافعية والحنفية والحنابلة فى كل طواف يرمل فيه. ولا ترمل المرأة ولا تضطبع.

ـ ورفقاؤه مع عاصم بن ثابت ـ رضى الله عنهم ـ يحاربون سفيان بن خالد الهزلى وشرذمته فى مكان يسمى «رجيع»، فأسر حاتم بن عدى وسيق إلى جبل التنعيم حيث صلب، وقد أشير إلى المكان الذى صلب فيه حاتم بعلامة على شكل مئذنة ويطلق عليه أهل الحجاز اسم «ميل».

وإن كان مكان صلب حاتم بن عدى مجهولاً لدى أهل مكة، إلا أن الأشخاص الذين يذهبون إلى مسجد عائشة ويزورون الميل الذى بين الجبلين يكونون قد زاروا مصلب حاتم، لأن هذا الميل علامة خاصة لمكان الصلب وقد كتب عليه بخط عربى قديم عبارة «هذا مصلب حاتم بن عدى»، وبما أنه يطلى كل سنة كانت فالصباغة تمحو الكتابة التى عليه.

ولكن عندما ينزل المطر ويبتل ذلك الميل تظهر آثار هذا الخط، وإذا ما أمعن فيها النظر يمكن قراءته تماما.

وقد استفسرت من علماء مكة عن مصلب حاتم بن عدى، ولكننى لم أحظ منهم بإجابة شافية.

فاعتمدت على نفسى فى الكشف عن هذا المكان، بينما كنت فى يوم من الأيام فى مسجد عائشة وكان رفيقى يتوضأ أخذت أجيل النظر فى الجهات الأربعة، وأنا أفكر فى هذا الموضوع وأقول محدثًا نفسى: يا ترى أين يقع مصلب حاتم بن عدى؟ وعندئذ رأيت ميلا قصيرا على شكل مئذنة فى جهة جدة، فسألت رفيقى الذى كان رئيس الخدم والذى يطلقون عليه هنا «شيخ العمرة» ما هذه العلامة؟! إذا ما قلت أنها ميل الحرم، يجب أن تكون فى جهة الوادى بالنسبة للمسجد، فأما المكان الذى أقف فيه فهو فى ناحية جدة وفى سفح جبلين.

ألا نكون قد أصبنا عين الصواب إذا ما قلنا أنه علامة مصلب حاتم؟! ولكن شيخ العمرة قال أنا أزاول هنا مهنة الشياخة منذ ثلاثين عامًا؛ فلم أر أن فى هذا المكان علامة مثل هذه، كما أننى لم أسمع من أحد أجدادى، وانقضى الأمر

بالتوقف قليلا فى مسجد عائشة احتماء من المطر، وبَتَّ شيخ العمرة فى الموضوع مقررًا عدم وجود مصلب حاتم بن عدى فى وادى التنعيم، وأن العلامة التى أشرت إليها علامة لإشعار المحرمين بمكان الإحرام، ولكننى كنت أعلم أن مصلب حاتم كان فى وادى التنعيم نتيجة الاطلاع فى كتب سير العلماء، وإن ما يطلق عليه «معلماته» حيث يبدأ الحجاج والمعتمرين لبس ملابس الإحرام يجب أن يكون عجائب المسجد وفى وسط الطريق، كما أن هذه العلامة كانت فى اتصال المسجد من الجهة الشرقية وقائمة فعلاً، إلا أن العلامة التى قال الشيخ عنها علامة الشروع فى لبس ملابس الإحرام كانت فى جهة حجرة للمسجد المذكور، وكانت تختلف عن العلامتين فى الشكل والهيئة، وكل هذا مما أثار فى نفسى شكوكًا كثيرة، وانقطع المطر وذهبت إلى تلك العلامة، وكانت قد ابتلت من المطر وظهرت ظلال جلية لكتابة، لكن قد غيرت ألوان تلك العلامة حتى تخالها ألوان الحرباء، وحال ظلام الجو دون قراءة الحروف، فاستصوبت أن انتظر إلى وقت الزوال، وقد أصاب سهم اجتهادى مرماه، وهدانى الله إلى الطريق الصحيح، إذ انقشع الظلام وزادت حرارة الشمس، وجف صدأ العلامة فقرأت عبارة «هذا مصلب حاتم بن عدى»، وأريتها لشيخ العمرة الذى شكرنى بدوره كثيرًا وسر سرورًا عظيمًا، وأخذ المعتمرون والحجاج فى الذهاب إلى مصلب حاتم بن عدى.

الأثر التاسع والعشرون: مسجد الجن

مسجد يقع فى الجهة الثابتة من مكة المكرمة وفى مقابل جداره مقبرة المعلا الملحقة ببطن الوادى، أى فى مواجهة جبل الحجون، وهو مسجد شريف تحت الأرض.

فالذين ينتهون من زيارة مقبرة المعلا يعودون إلى ذلك المسجد لأداء ركعتين لتحية المسجد، وفى طرفيه شارعان واسعان.

إن كل واحد من طرفى أرضه فى الشمال والجنوب ثمانية أقدام، والجهة الشرقية أحد عشر قدمًا، وطرفه الغربى ستة عشر قدمًا، وبما أنه مؤسس تحت مكان اسمه «فرهادية» لا قبة له ولا مئذنة، وقد عرضت طائفة من الجن تبعيتها للنبى ﷺ، فوق أرض هذا المسجد فى ليلة عودته من الطائف.

ودخلوا فى دائرة الإسلام المنجية، وبما أن حراس مكة المكرمة يجتمعون فى هذا المكان ليلاً أطلق عليه مسجد الحرس أو موضع الخط.

وسبب إطلاق مسجد الخط عليه هو أن النبى ﷺ، خط عدة خطوط فى تلك الليلة على الرمل وهُو يشير إلى عبد الله بن مسعود المحمود العاقبة، ومن أسماء هذا المسجد اللطيفة «مسجد البيعة» إشارة إلى مكان بيعة طائفة الجن، وهؤلاء سبعة أنفار من الجنة، ينتسبون إلى الطائفة من جن بلدة نصيبين وأسماؤهم: حسأ، مسأ، سأصبرا، ناصبرا، ابنا الأرب، ابنين، أخصم، وبعض الرواة يضعون بدل «ابنا الأرب»: «ازريان» ومكان «ابنين»: «أحقب»، إن هذا المكان هو الذى بايع فيه الجن النبى ﷺ، قبل البعثة، وقد أماط محيى الدين بن عربى، اللثام عن هذه الحقيقة.

حتى إن معاذ بن عبد الله بن معمر، وهو ممن أيدوا هذه الحقيقة، روى أن واحدا قد لف جنيا يسمى عمرو ـ نال الشهادة فى عهد خلافة الفاروق ـ فى خرقته ودفنه والحكاية تالية الذكر تعود إلى سيدنا معاذ.

حكاية:

قال معاذ رضى الله عنه: كنت جالسًا مع عثمان بن عفان، فمر علينا رجل وقال: بينما كنا نمضى من ذاك المكان هبت على طرقنا عاصفة كأنها زوبعة فى مكان قريب منا، أذرت ما على الأرض من قش فى الهواء، ثم أعقبتها زوبعة أخرى غاية فى شدتها، والتصقت بالزوبعة التى هبت أول الأمر وتشاجرتا مدة مديدة وكأنهما حيوانان يقتتلان ثم سكنتا، وهاتان الزوبعتان كانت كل منهما قد

هبت من سفح جبل، ولأن إحداهما حملت على الأخرى قلنا: لابد من وجود سر فى هذا، وما كان فى وسعنا التقدم خطوة أو التأخر خطوة، لذا توقفنا هنيهة فى مكاننا.

وبعد أن اختفت إحدى هاتين الزوبعتين التى تخلع القلوب ببشاعتها والأخرى بالجبل لفترة انفصلت كل منهما عن الأخرى، وتوجهت كل منهما إلى جبل ولم يعد لهما من أثر.

وعند انفصالهما بدت إحداهما ضعيفة خائرة القوة، لذا تملكنا شديد الفضول فمضينا إلى مكان لقائهما فرأينا كثرة من الحيات وقد نفقت، وكانت تنبعث منها رائحة ذكية، ولكى نعرف أى حية تنفح هذه الرائحة الذكية شرعنا نقلب الحيات النافقة، وفى النهاية أدركنا أن رائحة المسك تلك تنفح من بطن حية صفراء الظهر بيضاء البطن.

ويالها من حية عجيبة تنفح مسكا لم أر مثلها فى حياتى، فلففتها حول عصاى وفى قول آخر حول خرقتى ودفنتها فى طرف الطريق، ثم قفلت راجعًا إلى رفاقى، وما أن هممنا بالذهاب حتى تراءت لنا من الجهة الغربية للمكان الذى كنا نجلس فيه أربع نساء قلن لنا: ليعلم من دفن عمرو ـ أى الحية المقتولة ـ أنه دفن شخصًا صوام النهار قوام الليل، يرعى أحكام القرآن، وهذا الرجل قد آمن برسول الثقلين قبل أن تأتيه الرسالة بأربعمائة عام، وبعد البعثة لمبايعته وكان يستمع إلى الوحى، قلن هذا من كلامهن واختفين عن الأنظار.

كان هذا ما رواه معاذ رضى الله عنه.

وروى ابن حبّان هذه الواقعة كذلك فقال: إن الرجل المذكور قص على سيدنا عمر ما حدث فقال له الفاروق رضى الله عنه: نعم، فقد قال لى رسول الله ﷺ، «أن ثمة من بايعونى قبل بعثتى بأربعمائة عام» صدق رسول الله ﷺ، وجاء فى كتاب المرجان فى أحكام الجان الذى ألفه أبو البقاء الحنفى إن رسول الثقلين

ﷺ، دعا طائفة الجن إلى الإسلام ست مرات: فى جبل حراء، وشعب الحجون، وأعلى جبال مكة، وبقيع الغرقد، وعلى مشارف طيبة الطيبة، وإحدى رحلاته الشريفة.

ولوجود عبد الله مسعود فى المرة الرابعة، وعبد الله بن الزبير فى الخامسة فى خدمة الرسول ﷺ، فقد شاهد كلاهما جنا ممن أسلموا، حتى إن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ سمع أصواتهم وشبههم بقوم «الزط»[1].

الأثر الثلاثون: مسجد الراية:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى من البلدة الطاهرة مكة المكرمة يقع بجانب بئر جبير بن مطعم بن عدى المشهورة، وفى الجهة الجنوبية لمسجد البيعة، وفى جوانبه الأربعة منازل كثيرة ودكاكين وافرة وسوق عظيم.

والزوار بعدما يزورون مسجد الجن، يزورون مسجد الراية حيث يصلون ركعتى تحية المسجد ثم يعودون، ومساحته السطحية طولها أربعة وعشرون ذراعًا وعرضها عشرة أذرع.

مسجد الراية الشريف، إنه المكان الذى ركز فيه النبى ﷺ، رايته فى يوم الفتح المنير وصلى ركعتين تحيةً له. وبناء على قول الإمام الأزرقى بأن بانى هذا المسجد هو عبد الله بن عبد الله بن عباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وقد رممه وعمره المعتصم بالله البغدادى.

الأثر الحادى والثلاثون: مسجد المدعا:

إن أرضه طبقا لما نقله عبد القادر الجيلانى بالقرب من دار أبى سفيان بن حرب، وهو مكان طوله عشرون قدمًا، وعرضه خمسة أقدام، وكان بيت الله يرى من هذا المكان، وبما أنه لا شك فى استجابة الدعاء الذى يرفع إلى الله من مكان، أول ما يرى الإنسان فيه بيت الله، فالدعاء مقبول فيه، وهو فى هذا المكان من سنة رسول الله السنية.

(١) «الزط» قوم غاية فى طول القامة، سحنتهم مخيفة.

نظم

اسمـــع منـــى صفـــة المدعـــا
فقـــد استجيـــب الدعـــاء هنـــا
على رأس هذا الطريق عند الوصول
توقـف الرسـول مـن أجـل الدعاء
إن تراب طريقه أفضل من دواء العين
لعـــين الـــروح منـــه الجـــلاء
إن ذلك الرمل الذى وقع فى هذا العمر
كـــل حبـــة منـــه درة ثمـــينة
إن شوكـــــه ورود ورياحيـــــن
إنـــــه إنســـــان العيـــــن
هـــــداه يحيـــــى الموتـــــى
وهـــو راحـــة للخاطـــر المحزون
أزرف الدمـع مـن أهـداب عينك
وافتـــح فـــاك وســـل الله حاجتـك

(فتوح الحرمين)

الأثر الثانى والثلاثون: مسجد البيعة:

يقع مسجد البيعة فى الجهة الشامية من مكة المكرمة وعلى بعد رمية سهم من العقبة التى تشير إلى حدود منى، وفى جهة مكة ويظل على شمال الشخص الذى يذهب إلى منى، وأمام جبل صراصر ومقبرة أحمد المهدلى، وإن مساحته من الجهة الشمالية ثمانية وخمسون قدمًا والجهة الجنوبية منه ستة وأربعون والجهة الشرقية مائة والجهة الغربية مائة وثمانية أقدام ومكشوف السقف.

قد بايع النبى ﷺ، فى موقع هذا المسجد سبعون من أعاظم الأنصار الكرام أو ثلاثة وسبعون، كما يذكر أصحاب السير، وكان مع النبى عمه عباس فى السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية، وعقب ذلك نادى شيطان اسمه «أزب العقبة»

قائلاً يا قوم قريش!! إن حجاج قبيلتى الأوس والخزرج بايعوا محمدا، وعزموا على تقديم العون له فى كل الأمور وشوش أفكار قريش تشويشًا، وإن كانت قريش أرادت أن تمد إلى الأنصار يد الأذية والتسلط.

إلا أن الأصحاب الكرام دافعوا عن أنفسهم بإلقاء، خطب تشتمل على التهديد، وأظهروا الحسام عند خصامهم لشرذمة المشركين الحقيرة، وظهروا بأنهم متفقون ومتعاهدون مع كثير من أقوام العرب والعجم للدفاع عن النبى ﷺ، وهكذا نجوا من شرارة الثأر التى أوقدها «أزب العقبة» بعون الله خير الحافظين، وعادوا إلى ديارهم.

وإن كان أهل مكة يطلقون على هذا المسجد «مسجد العشرة» ويذهبون إلى أن هذا المسجد مسجد «العشرة المبشرين» إلا أن هذا الرأى ظاهر الخطأ؛ لأن المسجد المذكور شهد بيعة نقباء الأنصار الذين أتوا قبل الهجرة من المدينة المنورة وأسلموا وهم: أسعد بن زرارة[١] وعوف ومعاذ[٢] ابنا عفراء[٣]، رافع بن مالك[٤]، العباس بن عبادة[٥]، منذر بن عمر[٦]، عبادة بن الصامت[٧]، يزيد بن ثعلبة[٨]، عقبة بن عامر[٩] قطبة بن عامر بن حديدة[١٠] أبو الهيثم بن التيهان[١١] عويم بن ساعدة ذكوان بن عبد قيس الزرقى.

إذا ما نظر إلى حكم الصورة الثانية من الوجهة الخامسة لمرآة المدينة نجد أن حكم هذه الرواية ضعيف أيضًا.

لأن اليوم الذى بايع فيه النقباء كان معهم ثلاثة وسبعون من رفقائهم، وإذا كان المراد من مسجد العشرة نقباء الأنصار العشرة الذين وجدوا فى يوم البيعة، فإن المكان لم يحظ بهؤلاء النقباء فقط وفى الواقع إن كلمة العشرة، تورد على خاطرنا أن أرض هذا المسجد هى مكان بيعة العشرة أشخاص الذين بايعوا النبى، وإذا حكمنا بصحة هذه الخواطر، فيقتضى الأمر أن يكون هؤلاء من أصحاب البيعة الثانية[١] التى وقعت بعد الولادة النبوية باثنين وخمسين سنة، لأن البيعة المذكورة قد تمت فى موقع مسجد العشرة، وكان عدد المبايعين عشرة أشخاص

(١) أنظر فى بيعة العقبة ابن هشام ٢/ ٨١، وابن سعد ١/ ١/ ١٤٨، والطبرى ٢/ ٣٦٠، وجوامع السيرة لابن حزم ص ٧٤، وابن كثير ٣/ ١٥٨، والدرر لابن عبد البر ص ٦٧ ـ ٧٤. وغيرها.

مدنيين، ولكننا إذا نظرنا إلى العبارة التى كتبت على حجر ذلك المسجد والتى تقول: إن المنصور العباسى أمر ببناء هذا المسجد مسجد البيعة الذى شهد أول بيعة بايع بها رسول الله ﷺ، نرى أنها تؤيد صحة القول الأول والله أعلم بالصواب.

قد بنى هذا المسجد أبو جعفر المنصور البغدادى فى سنة ١٤١هـ مكشوف السقف، وعنى المعتصم بالله بترميمه وتعميره، وجدده فى سنة ٩٦٣هـ دفتر دار مصر إبراهيم بك بضم بعض القباب فى ناحية القبلة من حرارة الشمس، ومازال إلى الآن مكشوفا إلا أماكن القباب وقد حددت جهاته الأربعة بحائط متين ولا مئذنة له.

الأثر الثالث والثلاثون: مسجد النحر:[1]

هو هذا المعبد الذى يسمى بمسجد المنحر فى وسط الجهة الشرقية من صحراء منى، وبين الجمرة الأولى والجمرة الثانية وفى اتصال دار المنحر، وطول أرضه ثلاثة وستون قدمًا، وعرضها تسعة وأربعون قدمًا، وبما أنه بين الحجرة الأولى والحجرة الثانية يظل فى الجهة اليمنى للمتوجه إلى عرفات.

وإن كان بانيه مجهولاً فقد عمره فى سنة ٦٤٥هـ صاحب اليمن الملك منصور، وأقام بالناحية القبلية صفا من القباب وترك الباقى مكشوفًا، وإذا نظرنا إلى ماحك على الحجر الذى فى داخله نعرف أن رئيس قافلة الأنبياء (عليه وعليهم التحايا) قد ضحى فى مكان هذا المسجد فى حجة الوداع بعد أداء صلاة الضحى ونحر بنفسه (٦٣) جملاً وضحى بالواسطة[2] (٣٧) جملا.

الأثر الرابع والثلاثون: مسجد الخيف:

مسجد الخيف بين جبل ثبير والجبال التى تقابله وتواجهه. أى أنه معبد كبير وموجود فى الجهة الشمالية من ميدان منى وفى وسطه كل من جهتيه الشمالية والغربية أربعمائة وخمسون قدما، وكل من جهتيه الشرقية والجنوبية ثلاثمائة وتسعون قدمًا، وقد غطيت جهته الجنوبية بقباب عالية وجهاته الباقية مكشوفة.

وفى وسط ساحته تمامًا قبة كبيرة على شكل الخيمة، ويروون أن تحت القبة

(١) يقال لهذا المسجد «مسجد المنحر» أيضًا.

(٢) الواسطة هو على بن أبى طالب.

التى على شكل الخيمة كان المكان الذى نزل فيه الرسولﷺ، وأنه مدفن أنبياء، ولأجل ذلك يطلق على تلك القبة «قبة الأنبياء» وقد رفعت تلك القبة على أعمدة مكشوفة وداخلها يزار، وللمسجد مئذنة تقع على شمال الداخل فى المسجد من بابه الكبير ويزعمون أن آدم ـ عليه السلام ـ مدفون تحت أساس هذه المئذنة.

خبر:

كان قد صلى على جنازة آدم ـ عليه السلام ـ ابنه «شعيب» عليه السلام، وأنه قد دفن فى جبل أبى قبيس أولا، إلا أن نوح ـ عليه السلام ـ أخذه فى سفينته أثناء الطوفان، وبعد الطوفان دفنه فى المكان الذى فيه مسجد الخيف، ويدعى المؤرخون أن قاعدة تلك المئذنة فوق سرة آدم عليه السلام.

وكان للمسجد أولا عشرون بابا، والآن قد سد ثمانية عشر من أبوابه وبقية نواحى المسجد مجهولة إلا أنه أصلح وعمر مرة من قبل كل من: أبى جعفر المنصور البغدادى فى سنة ١٥٩هـ، والمستنجد بالله ابن المقتفى بالله العباسى فى سنة (٥٥٩هـ)، وأخيرًا من وزير الملك العادل نور الدين زنكى الذى أحاط المدينة المنورة بسور، وأنقذ سكانها من هجمات الأشقياء وهو جمال الدين محمد أبى منصور الأصفهانى، وجدده السلطان قايتباى المصرى أيضًا فى سنة (٨٨١هـ) فصار رصينًا متينا، وبنى تلك القبة الجميلة التى على شكل الخيمة، وأشار إلى أن الأرض التى تحت القبة كانت مصلى للنبى ﷺ، كما أن المرحوم قايتباى هدم الجدران القديمة التى على أطراف المسجد الأربعة، وبناها من جديد، وصنع أربعة أبواب متينة ومحرابًا، كما بنى قبة ذات ثلاثة طوابق للمئذنة، كما بنى بجوارها دارا لإقامة أمير الحجاج، وجعل على بابه سبيلاً وصنع فى داخل المسجد صهريجًا يملأ بماء المطر ويمد السبيل بالماء ثم صنع له بابا كبيرا يفتح إلى جبل عرفات وبابا صغيرًا يفتح إلى ناحية غار المرسلات، وقد طرأ تغيير على الترميمات التى حدثت من قبل وقد تغيرت أطرافه جميعًا فى التعميرات التى حدثت فيما بعد، ولم يبق فى زماننا هذا إلا باباه وقبابه والقبة التى على شكل الخيمة.

مسجد الخيف معبد فى غاية اللطف ومكان مبارك مقدس إذ قال النبى ﷺ، حسب ما سطر فى معجم البلدان: «حج إلى بيت الله سبعون نبيًا وكلهم طافوا بالكعبة ثم صلوا فى مسجد الخيف، إذا استطعتم أن تصلوا فيه كلما أتيحت لكم الفرصة فلا تفوتوا ذلك» كما اشتهر بين العلماء ما قاله أبو هريرة «ولو كنت من أهل مكة لكنت ذهبت إلى منى كل ليلة سبت لأداء الصلاة فى مسجد الخيف».

يقول مؤلف بهجة التقوى: «أربعمائة نبى دفنوا فى مسجد الخيف» كما يروى الإمام الأزرقى أن وسط هذا المسجد مئذنة ذات إحدى وأربعين درجة وأن لها ثمانى شرفات، كانت ساحة مسجد الخيف من الأماكن المقدسة فى جاهلية العرب أيضًا؛ لذا كانوا يجتمعون فيها وفى مكان قريب منها كانوا يقسمون للقيام بعضهم ضد بعض، ومن هذا القبيل قد اجتمع فى هذا المكان «بنوكنانة» وقبائل قريش وتحركوا ضد أبناء بنى هاشم وعبد المطلب وتعهدوا باليمين ألا يتعاملوا معهم ببيع وشراء وألا يتزاوجوا منهم، وهكذا أقسموا على الكفر.

الأثر الخامس والثلاثون: مسجد الكبش

يقع مسجد الكبش على يسار الذاهب من منى إلى عرفات وفى سفوح جبل ثبير وهو مكشوف السقف وجهتاه الشمالية والجنوبية فى طول ثمانية عشر قدمًا، وجهتاه الغربية والشرقية اثنين وعشرين واثنا عشر قدمًا، لما كان الموقع المذكور هو المكان الذى ألقى فيه إسماعيل على وجهه للذبح، لذا يعرف بين الأهالى بمذبح إسماعيل ومسجد إسماعيل، والحجر الأسود الذى ضربه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بسكينة وفلقه قطعتين ظاهر أمام المسجد، ويتصل هذا المصلى من جهته الشمالية بغار يسمى غار الفتح، وخلف مصلى هذا الغار صخرة كبيرة مجوفة تسمى «صخرة عائشة» والجهات الشمالية والشرقية لداخل هذه الصخرة واحد وعشرون

قدمًا، وجهاته الغربية والجنوبية عشرون قدمًا، ويروى أن النبى ﷺ، كان يتعبد فى داخل الغار المذكور كما أن زوجة الرسول ﷺ، كانت تعتكف فى داخل الصخرة المذكورة.

قبة الكبش:

هى فى الجهة المكية للمغارة التى سبق ذكرها وفى سفوح جبل ثبير التى تمتد نحو جمرة العقبة، وهذه القبة على أربعة أعمدة ومكشوفة الجوانب وبما أن هذه القبة اشتهرت بأنها مكان نزول كبش إسماعيل فتعرف بين الأهالى بقبة الكبش، ومساحة المسطح الداخلى لقبة الكبش أربعة عشر قدمًا عرضًا، وطولاً خمسة عشر قدمًا، وأنزل كبش إسماعيل بعد الطوفان بـ ١١٩٢ سنة كما بينه المؤرخون.

الأثر السادس والثلاثون: مسجد المرسلات:

يقع مسجد المرسلات فى الجهة الجنوبية من مسجد الخيف أى فى الجهة اليمانية لمنى وفى سفح جبل، وهو مصلى من غير أبنية، إنه الساحة التى نزلت فيها سورة المرسلات الجليلة، جهتاه الشمالية والجنوبية كل واحدة منهما ستة وعشرون قدما، والجهة الشرقية ستة عشر قدما، والجهة الغربية اثنا عشر قدما.

هذا المسجد مغارة عادية وفى سقفها حجر، وفى صدر هذ الحجر أثر رأس النبى، وما زال ظاهرًا إلى الآن، إن الأرض المذكورة جوف صخرة هائلة فى سفح الجبل الذى يقابل جبل ثبير.

حينما شرف الرسول الكريم، شمس السماوات، هذا الغار يوما لمست رأسه الشريفة ذلك الحجر فما كان من الحجر إلا أن لان مثل العجين حتى لا يؤذى رسول الله ﷺ، ومنذ ذلك ظل أثر رأسه الشريفة فيه، ويتبرك الزوار بمس ذلك الأثر برءوسهم حتى ينجوها من نار جهنم، وكل شىء مأمول من الله سبحانه تعالى.

يروى المحب الطبرى عن خادم الرسول ﷺ «عبد الله بن مسعود» أن الرسول ﷺ، حينما كان يشرف «منى»، كان يقيم فى هذا الغار، وفى يوم من الأيام

أنزلت على الرسول ﷺ، سورة المرسلات، وأخذ ابن مسعود يتلقى تلك السورة من فم الرسول مباشرة، وفجأة ظهرت أفعى عظيمة الجسم وهجمت على الذين كانوا معه، وبذل الجهد لقتل هذه الأفعى إلا أنها نجت بالهروب، وقال الرسول ﷺ، عندئذ «إن الله قد كف شرها عنكم كما كف شركم عنها».

يقول الإمام الفاسى، بينما كان مجد الدين فيروز آبادى جالسا مع جماعته فى الغار وكانوا يتلون سورة المرسلات ظهرت حية، وهجمت عليهم ولكنها لم تتحمل مقاومة الناس فهربت، وفى رواية أخرى أن تلك الأفعى كانت من طائفة الجن فلم يسمح النبى ﷺ بقتلها، فعاشت تلك الحية حتى زمن الشيخ مجد الدين فيروز آبادى.

الأثر السابع والثلاثون: مسجد إبراهيم:

يعرف مسجد إبراهيم باسم «مسجد نمرة» إن هذا المسجد يقع فى الساحة الواسعة لعرفات وهو المكان المبارك الذى يصلى فيه الحجاج صلاتى الظهر والعصر جمعا، وعلى يمين جبل الرحمة.

عمره السلطان قايتباى المصرى سنة ٨٧٣هـ، وبنى مظلتين ليستظل تحتهما الحجاج، كما أنه أمر بإقامة العلامتين اللتين يطلق عليهما «العلمان» بالقرب من ذلك المسجد لتحديد حدود عرفات، والجزء الأمامى الذى يسع لستة صفوف من المصلين مغطى، والباقى مكشوف، وفى الجهة الشرقية ستة أبواب كبيرة وعلى جهاته الأربعة جدار يعلو أربعة أمتار وفوق محرابه قبة.

ومحيط جهاته الأربعة مائتان وثمانون قدمًا. وله صهريج محكم الصنع يسقى الحجاج ويملأ من مجرى عين زبيدة.

نصيحة

لما كان ذلك المشهد بعيدا عن محل الوقوف مسافة نصف ساعة ولما كان من الأولى أن يمضى إلى المسجد فى وقت الزوال حينما تشتد حرارة الشمس فيوصى الذين يذهبون هناك أن يحافظوا على أجسامهم؛ لأن الحرارة فى عرفات تصل إلى (٣٩) درجة تحت الخيمة؛ لذا يصاب الحجاج بضربة شمس قد تؤدى إلى شرور كثيرة.

حتى يروى أن أحد الحجاج حينما كان يغسل غياره عاريا انتفخ جلد ظهره كأنه صب عليه ماء مغلى.

الأثر الثامن والثلاثون: مسجد المشعر:

يقال لمسجد المشعر مسجد آدم أيضا وهو فى مكان مقابل جبل قزحة فى ساحة المزدلفة والتى تبعد عن مسجد إبراهيم بثلاثة أميال، أى فى الجهة اليمانية للموقع الذى يطلق عليه المزدلفة، وعرض أرضه المباركة عشرة أقدام، وطوله مائة قدم، وله محراب ومئذنة وسبعة أبواب، وهو مستطيل الشكل ويصعد إليه من جهاته الثلاثة بسلالم وعند البعض أن جبل القزحة كله يعد من المزدلفة.

المزدلفة:

مأخوذة من الإزدلاف بمعنى الاجتماع، وسبب تسميته بذلك أن الحجاج يجتمعون مع بعضهم فى هذا المكان، أو أن آدم ـ عليه السلام ـ قد اجتمع بحواء ـ رضى الله عنها ـ فى هذا المكان، أو أن الحجاج يصلون إليه فى زلفة من الليل، فى قمة جبل قزح مكان لإيقاد النار وكان العرب قديما يوقدون فيه النار ظانين أنه موقد (آدم) عليه السلام.

المأزمين:

مأزم على وزن منزل وتثنية هذه الكلمة مأزمين، يطلق المأزم على كل شىء يضيق ويتداخل، وبما أن ما بين عرفات والمزدلفة مكان ضيق لذلك سمى بهذا الاسم.

ويطلق على هذا الموقع اللطيف «المأزمان» بتثنية الكلمة، ويقال كذلك للموقع الذى بين منى ومكة، «المأزمان» لأن طرفيه جبال والحجاج الذين يعودون من عرفات يؤدون صلاة المغرب والعشاء فى المزدلفة جمعا.

المشاعر:

يطلق المشاعر على المكان الذى يوجد فى داخل العلامات والأعلام التى وضعت لتحديد حدود عرفات، وكان العرب جميعا يقضون وقفة عرفات فى المشاعر بينما قريش كانت تقف فى داخل الحرم الشريف، وقد رفض النبى ﷺ، أصول أهل الجاهلية وفعلهم، فأمر بأن يقف جميع الناس فى داخل المشاعر.

نصيحة:

بما أن هذا المكان بارد ليلا نوعا ما فيجب أن يحافظ الحاج على نفسه حتى لا يصاب بمرض.

* * *

الأثر التاسع والثلاثون: مسجد الصخرة

مسجد الصخرة فى عرفات وهو متصل بجبل الرحمة وفى داخل الصخور والمسجد المذكور مصلى فى طول ثلاثين قدما وعرضه ثمانية أقدام، ويروى أنه المكان الذى وقف فيه الرسول ﷺ.

الأثر الأربعون: مسجد جبل عرفات:

هو المكان الذى يلقى فيه شيخ مكة المكرمة خطبة عرفات.

لازمة:

يوم الوقفة هو اليوم التاسع من ذى الحجة من كل سنة، ولما كانت الأيام العشرة الأولى من أفضل الأيام؛ لذا كانت الطاعات والعبادات فيها أفضل من الطاعات والعبادات فى الأيام الأخرى.

وبناء على القول الصحيح المنقول عن الإمام النيسابورى أن الأيام العشر من ذى الحجة أفضل الأيام وأحبها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أيام رمضان، وقد نجا موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون فى هذه الأيام، وقيل فى هذه الأيام توبة أبى البشر آدم ـ عليه السلام ـ وفداء إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهود ونوح ـ عليهما السلام ـ وقد صادف الأيام العشر الأولى لذى الحجة رسالة نبينا، وبيعة الرضوان وفتح خيبر ووقفة الحديبية، ونزول الآية الجليلة ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ (الفتح: ٢) واكتساء جميع الحجاج ملابس الإحرام، إن كل هذا لدليل قاطع على أفضلية هذه الأيام، إن صيام يوم واحد فى هذه الأيام العشر الأولى يساوى صيام ألف يوم من الأيام الأخر، والذى يحيى ليلة واحدة من لياليها تساوى طاعات وعبادات الحجاج والمعتمرين لسنين طويلة، وإن

كان صوم هذه الأيام مستحبًا وغاية فى القبول لدى الله، فيجب ألا يصوم الحجاج فى اليوم التاسع منها؛ لأن الصوم سيورث الفتور والضعف للحجاج الكرام، ويحول دون أداء شعائرهم كما يجب.

إن خير الأدعية المأثورة فى هذا اليوم «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» وكان نبينا ﷺ، والأنبياء جميعا يواظبون على هذا الدعاء فى يوم عرفه. انتهى.

مساحة مسجد عرفات ثلاثون قدما فى الطول، وثمانية وعشرون قدما فى العرض، ويبدأ من حدود عرفات ويبعد عن الموقف الشريف ميلا واحدا. إن المكان الذى يطلق عليه موقف الإمام أعلى من سطح الأرض، ولم يكن له طريق يصعد إليه وينزل منه بسهولة؛ لذا جعل جمال الدين الأصفهانى له سلما ذا خمس درجات أو عشر؛ وأنقذ الناس من مشقة الصعود إلى الجبل ثم حفر عدة أحواض، وأنقذ الناس من مشقة العطش.

وبما أنه لم يكن فى الأول سلما ولا حوض ماء كان النساء يعانون من العطش ومن الصعود والنزول إلى مسجد الجبل عند الزيارة.

عرفات:

وعرفة اسم المكان الذى يقف فيه الحجاج يوم عرفة، أو هو اسم الجبل الذى بنى عليه مسجد عرفات ويبعد عن مكة المكرمة اثنى عشر ميلا.

فى قمة هذا الجبل وفى الجهة الشمالية من مسجد عرفات وهو بناء قديم، ويعرف هذ المكان على أنه مطبخ سيدنا آدم، ويفهم من هذا أن آدم ـ عليه السلام ـ تلاقى مع زوجته حواء ـ رضى الله عنها ـ فى هذا المكان، وعندما أتم بناء بيت الله وكان حينئذ قد أتم مائة سنة منذ أن هبط على وجه الأرض.

إن حجم جبل عرفات أصغر من جميع جبال الحرمين، ولكن قدره ومنزلته أعلى من جميع الجبال فى العالم، كما يفهم من مضمون هذه القصيدة.

إن هذا الجبل الذى يسمى «عرفات»
أكثر انخفاضا من جميع الجبال
وإن كان فى صورته من الجبال أصغر
إلا أنه فى المعنى أكبرها جميعا

امتلأ برحمات الله حجرها
يجتمع الإنس والجن حولها
إنها قمة كقمة الجبل سَمَتْ
أقامت خيمة نور القمر أشعت
حولها من الجمال أفواج وأفواج
وكأنما هى فى البحر أمواج
أكثر اتساعا من صدور من يحجون
وكل من فيها كلهم بعملهم مغولون
ولكن خارج الأرض الحرام
لتلك القوافل مقام كسوة مصر بالتمام
وفى الوسط محمل مسكى آخر
على رأسه ظله تظهر
لا تحسبن أنك تشاهد فيه الرمال
إنما فيه الجواهر والماء الزلال
لقد انبجس من سفح الجبل ينبوعها
إن من ماء الصفا ماؤها
مبرة آدم فى شمال الجبل
وفيه لسكنى الفقير محل

«فتوح الحرمين»

تصدى الإمام الكرمانى شارح البخارى لتعريف كلمة عرفات وقال: إن عرفات أماكن متعددة وهو اسم المكان الذى يقف فيه الحجاج، وعرفه اسم اليوم الذى يسبق عيد الأضحى، ولهذا أراد أن يخصص هذا الاسم لمكان واحد، لهذا الجبل إلا أنه قد جانب الصواب، لأن هناك من نقل روايات كثيرة فى وجه تسمية عرفات منها أن آدم ـ عليه السلام ـ وحواء نزل كل واحد منهما فى مكان بعيد عن الآخر، وبعد مدة تلاقيا فى هذا المكان، ولذا سمى المكان بعرفات، وقول

آخر أن جبريل ـ عليه السلام ـ علم فى هذا المكان آدم ـ عليه السلام ـ مناسك الحج، و ووضح له أن عرفات آخر مشاعر الحج، فأراد أن يتأكد من فهمه فسأله قائلا: «أعرفت؟ أعرفت؟»، فأخذ الجواب «عرفت، عرفت» وهذا هو سبب تسميته بعرفات. وقول أخر بما أن عرفات من الأراضى المقدسة وكأنه قد عُرف أى طُيِّبَ برائحة طيبة فأطلق عليها هذ الاسم، وهناك أقوال أخرى كثيرة فى هذا الموضوع.

وبما أن ذكر غير هذه الأقوال وتفصيلها سيدعو إلى الملل، آثرنا أن نكتفى بما ذكرناه.

نصيحة

فى عرفات غير عين «زبيدة الجارية» عدة أحواض ولكن هناك طائفة تسمى «تكرورى» وغيرها من الجهلة يغسلون فى هذه الأحواض ملابسهم وقلة منهم أيضا يستحمون فيها مما يكدر مياه الأحواض حتى لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من الاشمئزاز عند رؤيتها. لذا فعلى الحجاج الكرام أن يمتنعوا قدر الإمكان من الشرب من مثل هذه المياه.

رواية:

إن جبل عرفات جبل مقدس مبارك إلى أبعد درجة، ومهما رويت عنه من روايات تصدق مع شدة غرابتها ومع ذلك فالحجاج يروون عنه بعض الروايات التى لا تستقيم مع ذوى الألباب.

ومن قبيل هذا ما ذكروا من أنه فى عام ١٣٠٠ وفى يوم عرفة أن حادثا غريبا قد وقع، وهو أن صاعقة سقطت على سطح جبل الرحمة فأحرقت بضعة أشخاص وشوتهم، وعند التدقيق والمعاينة قد تبين أن المحروقين كانوا من المجوس، وأضاف حجاج إستانبول أن حكمة سقوط الصاعقة كانت للقضاء على هؤلاء الأشخاص، وبما أننى لم أصدق هذا الحادث بأى شكل من الأشكال، فبعثت إلى أحد الأشخاص الذين أثق فيهم فى مكة المكرمة أستوضحه الأمر فجاء الرد كالتالى:

الجواب

استلمت رسالتكم التى تستوضح عن الصاعقة التى سقطت عند سفح جبل عرفات فى يوم الوقفة، وعدد من أهلكتهم وهذه هى حقيقة الأمر:

لم يكن الحجاج قد وقفوا فى عرفات بعد فقامت السماء ودون أن يكون هناك برق ولا رعد ثم جاءت صاعقة من ناحية البحر إلى القرب من جبل الرحمة

والأحواض، حيث سقطت برعد ودوى شديد وقتلت مسلما هنديا وجملين، هذه هى حقيقة الحادث أما ما قيل عن المجوس أو النصرانى فمختلق، وفى الواقع أننى لم أكن هناك حينما وقع الحادث، ولكننى بمجرد أن استلمت رسالتك اهتممت بالأمر، وتحريت عنه فسألت عن الموضوع من السيد الوالى والآخرين ممن أثق فيهم. وكان الباشا الوالى يتناول طعامه حينما سقطت الصاعقة بجانب خيمته ففزع فزعا شديدًا».

وقد تحقق لى أن القصة لا أصل لها من هذه الرسالة التى وصلتنى من مكة.

الأثر الحادى والأربعون: مسجد جعرانة:

يقع مسجد جعرانة بين مكة المكرمة وبلد الطائف؛ إلا أنه أقرب إلى مكة من الطائف وعلى بعد ثمانية عشر ميلا وعلى جانب وادى «جعرانة». وبما أنه لقب ريطة بنت سعد بن زيد بن عبد مناف والتى أشير إليها بالآية الكريمة ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا** ﴾ (النحل: ٩٢) وأنها قد اختارت الاستيطان فى هذا المكان، فالمكان مشهور بلقبها.

وكان يقال لها الخرقاء كما تصرح بذلك الآية الكريمة لأنها كانت تأمر جواريها من الصبح إلى الظهر بغزل خيوط الصوف والوبر، وتنقضها بعد الظهر. وهكذا تقضى أيامها فى الغزل والنقض؛ لذا اتخذت مثلا للحماقة بين العرب. وزع بطل قوافل الأنبياء (عليه أعظم التحايا) غنائم غزوة حنين فى العام الثامن الهجرى فى هذا المكان، وفى يوم الأربعاء الثانى عشر من ذى القعدة من نفس السنة لبس ملابس الإحرام، ومضى نحو مكة المكرمة حيث أدى مناسك العمرة. إنه مكان مبارك سعيد.

وقد ثبت بأقوال النبى ﷺ، أن سبعين نبيا قد أحرموا من هذا المكان للعمرة، وفى جعرانة بئر مأثورة مباركة ذات مياه خفيفة عند الشرب وقد حفر النبى ﷺ، هذا النهر بيديه الكريمتين والصحابة الكرام، وأحاطوها بالحجارة لأنه حينما حفر فى هذا المكان انبجس الماء، وكان النبى ﷺ قد حفر فى هذا المكان قدر شبر فانفجر الماء فروى عطشه، وأحاط الأصحاب البئر بالحجارة وقد زاد عمقها يوما بعد يوم حتى أصبحت من الآبار المباركة، ومازال الناس يتبركون بها إلى يومنا هذا وليس بالجانب اليمانى من الطائف بئر ماؤها أعزب وأخف من هذه البئر.

الشكل الثلاثون

الأثر الثانى والأربعون: مسجد الفتح:

يقع فى وادى المر بالقرب من الحجون. وقد عمر هذا المسجد الشريف صاحب مكة الشريف أبو نمى، وبعده السيد حناش بن راجح وقد صلى النبى ﷺ، فى هذا المكان المبارك.

الأثر الثالث والأربعون: مسجد المتكأ:

قد خربت أبنية مسجد المتكأ ولم يتبق أحد يعرف مكانه، ولكن المحب الطبرى يدعى أنه فى أطراف جهة تسمى «الجياد» يروى أن النبى ﷺ صلى فى هذا المحل ثم اتكأ إلى مكان ما واستراح.

الأثر الرابع والأربعون مسجد الجنيد:

يقع مسجد الجنيد فوق الجبل الأحمر الملاصق لمنازل مكة خلف جبل قعيقعان، وبناء على قول سعد الدين الإسفراييني أن هذا المكان كان مصلى جنيد البغدادى وإبراهيم بن الأدهم (قدس الله أسرارهما) لذا يستجاب الدعاء الذى يرفع إلى الله فى هذا المكان، هذا المكان ليس مسجدا بمعنى الكلمة ولكنه حفيرة على الأرض، وكان مكان التجلى للجنيد وقد سبق ذكره فى موضوع جبل أبى قبيس.

الأثر الخامس والأربعون: مسجد الإجابة:

يقع هذا المكان بالقرب من مكان يسمى (ثنية الأذاخر) الواقع على يسار الذاهب إلى منى أى فى مكان يقال له «معابدة» فى الناحية الشامية لمكة المكرمة، وعلى يسار من يستقبلون «ثنية الأذاخر» وإن كان لم يبق أثر لخرائبه؛ إلا أن فوق أرضه حجر قد حك عليه عبارة (إنه مسجد الإجابة)، ويحتمل أن يكون المحل

الذى يوجد فيه ذلك الحجر مكان مسجد الإجابة.

وقد بنى فوق أرضه فى سنة (٧٢٠هـ) مسجد لطيف مازال قائما. وأخذ العُرْبان يبنون حول هذا المكان المنازل والبيوت حتى تحول إلى حى مما يؤيد رأى الأهالى فى كون هذا المكان ساحة مسجد الإجابة.

يروى:

أن النبى ﷺ قد صلى صلاة العصر على أرض خالية لمسجد كائن فى مكان يطلق عليه كندرة فى زقاقه القطب.

وقد بنيت فوق هذه الأرض محال ومنازل ولما لم يسترح سكانها حين إقامتهم فيها وترك المكان خاليا، ثم حولت إلى مسجد. وفى (محاطة) و (قرن مقلة) أرض مسجدين، ويروى أن هذه الأماكن كانت بيعته لأهل مكة يوم الفتح كما يروون أن المسجد الذى فى داخل مستشفى الغرباء من المساجد المأثورة.

الزوايا الشريفة

إفادة خاصة:

فى مكة المعظمة زوايا شريفة وإنها مجمع أولياء الله الصالحين والروحانيين، لذلك بينا أسماءها وأماكنها حتى نسهل لمحبى زيارتها طريق زيارتها فى الجدول الآتى:

الزوايا	الأسماء	الجهات
١-	على القارى	بابها متصل بمقبرة المعلا والحجون.
٢-	الشيخ عبد الوهاب الكبير	فى مكان يطلق عليه حجون.
٣-	الشيخ عبد الوهاب الصغير	فى شعبة النور من مقبرة المعلا.
٤-	ابن عليوان	فى المقبرة السلمانية فى المعلا.
٥-	العباسيين	فى الجهة الغربية لمكان يسمى تقا.
٦-	العبادى	فى المحل المسمى فلق.
٧-	الرفاعى	فى الجهة الغربية لسوق المعلى.

الزوايا	الأسماء	الجهات
٨-	الامام النسفى	فى الجهة الغربية لسوق المعلى.
٩-	على البدرى	فى الجهة الغربية لشعب عامر.
١٠-	عبد القادر الكيلانى	فى الجهة الغربية للمدعى.
١١-	الإمام الطبرى	فى موضع سوق الطبرى فى مدعى.
١٢-	الشيخ السمان	فى الجهة الغربية لباب الزيادة.
١٣-	العادلى	فى حى الشامية.
١٤-	أحمد البدرى	فى جودرية.
١٥-	صاحب الجوهرة السلطانى	فى اتصال معسكر «غيرتيه»
١٦-	تاج الدين	فى الجهة الغربية من جب الهندية.
١٧-	الشيخ المسافر	فى حى الشبيكة.
١٨-	عيد روسى	فى حى الشبيكة.
١٩-	المحجوب	فى حى الشبيكة.
٢٠-	خالد بن الوليد	فى الجهة الغربية لحارة الباب.
٢١-	الشاه محمود	فى الجهة الغربية لجرول.
٢٢-	شهداء الفتح	فى مقبرة الشهداء.
٢٣-	سيدنا عمر الفاروق	فى الجهة اليمانية لجبل عمر.
٢٤-	سيد الحداد	فى الجهة اليمانية من جياد.
٢٥-	محمد بن عيسى	كائن فى الصفا.
٢٦-	الشيخ الجزولى	مؤلف دلائل الخيرات فى القشاشية.
٢٧-	بهاء الدين	واقع فى سوق الليل.
٢٨-	الشيخ هارون	فى لصق دائرة الإمارة فى سوق الليل.
٢٩-	الشيخ الشاذلى	فى وادى شطا فى حى القلعة.

* * *

يقول المؤرخ الأزرقى فى تاريخه أن عدد جبال مكة المكرمة يبلغ اثنى عشر ألفا وكتب مؤلف «البحر العميق» أن قمم الجبال التى ذكرها الأزرقى تميل ناحية مكة المكرمة وكعبة الله كأنها تسجد، وهذه الحقيقة تتضح لمن يلقى نظرة على الكعبة من فوق قمة ثبير، ويذكر أنه قد تحقق من ذلك بنفسه.

يقول ابن النقاش من المفسرين الكرام أن صدور هذه الجبال تكنز الذهب والفضة وكثيرا من المجوهرات الأخرى وستنكشف لمن وعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكتب أغلب المؤرخين مقالات طويلة فى أوصاف هذه الجبال ومدحها والثناء عليها ولشدة الأسف قد نسيت أسماء هذه الجبال مع مرور الزمن، وغفل الناس عن فضائلها لذا فنحن اكتفينا بذكر أشهرها.

الأثر السادس والأربعون: جبل أبى قبيس:

جبل أبى قبيس أحد الأخشبين وقد سمى بهذا الاسم نسبة لأحد الحدادين من قبيلة «مذحج» الذى صعد فوق هذا الجبل ونصب خيمة وأقام فيها. وهذا الجبل يقع فى الجهة الجنوبية التى تميل إلى الشرق من البيت الحرام، أى فوق جبل الصفا المقدس الذى يقع فى الجهة الشرقية من مكة المكرمة، ويروى أنه أقدم الجبال خلقا.

نظم

لعدم ثبات الأرض جعل ذو الجلال
جعـــل فـــى كـل ناحيـة الجبـال
أول جبل على وجه الأرض استقر
كأنـه الفـص فـى الخاتـــم قـــر

وقد زين أكثر من نصف هذ الجبل بالمنازل، واستقر فوق ذروته مسجد يسمو

نحو السماء، وبما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حفظ الحجر الأسود على قمة هذا الجبل قد عرف قديما بجبل الأمن، ويروى المؤرخون فى سبب التسمية ثلاثة أقوال:

الأول: ما ذكر من أن الحداد قد أقام فوق قمته.

السبب الثانى: أن الجبل المذكور أخبر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بوجود الحجر الأسود فيه.

والسبب الثالث: أن قبيس قد فرق بين عمرو بن مضاض وعشيقته «منية» وقطعت «منية» صلتها بعمرو الذى كان يحبها حبا جنونيا فنذر أن يقتل قبيسا، ويقضى عليه وكان قبيس قد اطلع على نذر عمرو بقتله، فهرب من خوفه إلى جبل أبى قبيس، ولم يعد مرة أخرى فسمى الجبل بجبل أبى قبيس.

والقول المصدق لدى الجمهور هو القول الأول أما القولان الآخران فلا يعتد بهما لدى أهل مكة، وخلق هذا الجبل قبل الجبال الأخرى، ووقعت معجزة شق القمر فوق هذا الجبل. وبناء على أشهر الأقوال، أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد دعا الناس للحج من فوق قمة هذا الجبل. ومن الأقوال الموثوقة أن الكعبة الشريفة ستزين مثل العروس فوق هذا الجبل مسجد بدون مئذنة من قبل «إبراهيم القيس» وكل واحد من طولى أرضه ثلاثون قدما، وكل واحد من عرض أرضه عشرون قدما، وقد عمره فى سنة ٩٧٧ أحد الخيرين من الهنود، وأضاف له مئذنتين وقبة.

وقد صلى النبى ﷺ على ساحة هذا المسجد فى يوم فتح مكة، كما أن بلالا ـ رضى الله عنه ـ قد أذن فوقه فى ذلك اليوم البهيج، وموقع محراب هذا المسجد هو المكان الذى وقف فيه بلال للأذان كما أن المكان الذى أمامه حيث توجد حجرة هو المكان الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وعلى قيد (٢٠٠٠) خطوة من الجهة الشرقية لذلك المسجد مرتفع مُحَاطٌ بشىء قديم، ولكن أحد أصحاب البر والإحسان بنى حوله فى سنة ١٢٩١هـ جدارًا فى ارتفاع ذراع، ونصف وهكذا حفظه من كل سوء.

ويروى أن هذا المكان المقدس جلس فيه الرسول ﷺ وقت وقوع معجزة شق القمر، وكل جهة من طولى ذلك المرتفع ثلاثون قدما، وكل جهة عرضية واحد وعشرون قدما، ويعرف هذا المصلى بمسجد شق القمر. «فتوح الحرمين»

وبين هذا المسجد سالف الذكر والمصلى حفرة كبيرة، ومما يشتهر بين العوام أنَّ أكل راس شاة مشوى فى هذه الحفرة يمنع الصداع طوال العمر، وهذه القصة قد ترددت على ألسنة أهل مكة، إلا أنها لا أصل لها إن هذه الحفرة موقع مناجاة لأولياء الله، فالجنيد البغدادى، وإبراهيم ابن أدهم، وفريد الدين العطار وأمثالهم كانوا يعتكفون فيها، ويتعبدون أربعين يوما، وعلى قول أن أبا البشر وابنه شيث ـ عليهما السلام ـ مدفونان فى هذه الحفرة وهذا ما نقله بعض المؤرخين، طبقًا لرواية أخرى أن قبر آدم ـ عليه السلام ـ كان بالقرب من مكان يعرف بـ (غار كنن) بهذا الجبل، فأخذه نوح ـ عليه السلام ـ وحمله فى السفينة ثم أعاده إلى موضعه، وبناء على قول ابن كثير والثقاة من المؤرخين أن آدم مدفون فى الهند، ويقول الإمام الأزرقى أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) مدفونون إما فى جبل أبى قبيس أو فى بيت المقدس إلا أن كل هذه الروايات اليست مبنية على سند يصدق.

هناك رواية تنقل أن آدم ـ عليه السلام ـ وابنه شيث مدفونان تحت مسجد الخيف، ويدعوان أن هذه الرواية أقوى الروايات المنقولة فى هذا الموضوع، ولكن مع هذا لا يمكن الحكم بصحتها.

اختلف فى المكان الذى أخذ منه التراب الذى خمر لتكوين قالب جسد ـ آدم عليه السلام ـ كما اختلف فى مكان قبره، وبناء على الأقوال التى يعتمد على صدقها ويوثق بها: أن التراب الذى شكل منه وجه آدم أخذ من تراب الكعبة العطر، وتراب صدره وظهره من بيت المقدس، وتراب فخذيه من أرض الحجاز، وتراب يديه الحكيمتين من أرض المشرق، وتراب ذراعيه من أرض المغرب، وتراب رأسه من بيت المقدس، وتراب بشرة رأسه وشعره من الجنة، وتراب

رموشه وحاجبيه من تراب حوض الكوثر الطاهر، وعلى رواية أخرى أن تراب رئتيه من الموصل، وتراب طحاله من الحجاز، وتراب بشرة جسمه من الطائف، وتراب جبهته من أرض كنعان، وتراب محل عورته من بابل، وتراب أمعائه وأحشائه من الجزائر، كما أن عظامه مأخوذة من الجبال المختلفة.

إن الاختلاف بين البشر فى الخلق والشكل والهيئة والطباع يرجع لهذا. وانعدام تشابه أولاد آدم وأحفاد بعضهم البعض يرجع لاختلاف مصادر التراب.

وجبل أبى قبيس ليس عظيم الارتفاع، إلا أن ارتفاعه عمودى، فمن صعد تبين، ومع ذلك فإن مشاهدة البيت الأنور من قمته تزيل التعب. وما ذاك إلا أن سطح الكعبة يغمر القلب بغبطة لاسبيل إلى وصفه، وسرعان ما يزيل عنه كل ما يشعر به من تعب ونصب.

* * *

الأثر السابع والأربعون: جبل ثور

جبل مبارك يقع على بعد تسعة أميال وعلى أشهر الأقوال على بعد ثلاثة أميال أو ميلين فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة. وهذا الجبل أضخم قليلا من جبل النور ويرتفع عن الأرض بمقدار (٢٥٠) ذراع معمارى، وسمى باسم من سكنه وهو (ثور بن عبد مناف)، ويقال إن كل ما فى أرض الحجاز من أشجار ونباتات وأزهار تنبت فى هذا الجبل وقيل إن فيه شجرة لو يحمل الإنسان جزءًا صغيراً مبريا منها لا تمسه أية حشرة مؤذية.

وبالقرب من ذروة هذ الجبل كهف ضيق يصعب الدخول فيه، وقد أقام فيه النبى ﷺ، ثلاثة أيام عندما هاجر إلى المدينة المنورة. وبابه ضيق لدرجة أن طفلا نحيلاً لا يمكنه الدخول فيه، ولكن من حكمة الله أن أضخم الناس جسما يستطيع دخوله والخروج منه، إلا أنه يقتضى الداخل أو الخارج أن يصلى على النبى ويسلم عليه، وباب الكهف ـ مع كونه ضيقا ـ مثقوب على شكل المئذنة من اليمين إلى اليسار فالداخل إذا ما انحرف قليلا إلى اليمين وبعده إلى اليسار يدخله دون أن يلمس شيئا متسربا كمياه جارية، فالذين يدخلون فى الغار يخرجون من مخرجه الواسع فى الجهة الشرقية بعد أداء ركعتين من الصلاة فيه. يتسع لدخول مجموعة من ثلاثة أشخاص معا، إن هذا المدخل قد فتحه جبريل عليه السلام بأجنحته عند خروجه من الغار، لأن النبى ﷺ، دخل فيه من باب الكهف الضيق، ثم خرج من الباب الذى فتحه جبريل ـ عليه السلام ـ لذا ترى الزوار يدخلون فى الغار من الباب الذى فى الجهة الغربية منه، ويخرجون من المخرج الذى فى الجهة الشرقية منه وذلك للتبرك. «فتوح الحرمين».

ولما كان ارتفاع جبل ثور عموديا فإنه يصعد من سفحه إلى حيث الكهف فى خمس وأربعين دقيقة، ولكن من يجدّون فى الصعود يستطيعون الوصول إليه فى نصف ساعة وفى الجهة الجنوبية من ذلك الغار محل مكشوف آخر.

يقال إن عبد الله بن عباس كتب فيه تفسيره الكبير. وزيارة غار ثور قاصرة بين الأهالى على يوم السبت، ولكن الحجاج يمكنهم أن يزوروه فى كل الأيام، والذين يلجون فى هذا الغار لا يحزنون ولا يغتمون أبد الدهر. إن للغار بابان كما وضحنا أحدهما ضيق، والآخر واسع جدا لأنه فتح بضربة من جناح جبريل ـ عليه السلام ـ ويقال لمن لا يوفق فى دخوله الغار «إنه ليس ابن أبيه».

قصة:

كان فى الزمن القديم رجل غنى جدا وفى فترة ما هلك أولاده وعياله وتلف ماله ولم يبق شىء فى كنفه، ومع هذا لم يكن يحزن أو يغتم، وقد أثارت هذه الحالة عجب أفراد قبيلته وقالوا له يا هذا قد فنى جميع أموالك وعيالك وإنك لا تظهر قدرا ولو قليلا من الحزن والهم كأنك لم تتأثر بما حدث لك؟! ما أعجب حالك؟ وما هذه اللامبالاة؟ وما أصبرك على الكوارث؟!.

فقال لهم: كنت قد سمعت من أحد الأشخاص أن الذى يدخل فى غار ثور لا يحزن لما يصيبه من مصائب الدهر الفانى؛ لذا دخلت فى هذا الغار بكل صدق وإيمان؛ ومنذ ذلك اليوم لم أتأثر لأية مصيبة ولم أتأسف لضياع شئ حتى إننى لا أعرف ما هو الحزن أو الألم بل نسيتهما فاستعجب قومه.

الأثر الثامن والأربعون: جبل حراء:

هو اسم آخر لجبل النور الذى بدأ فيه نزول الوحى. ويقع هذا الجبل فيما بين مكة المكرمة ومنى فى الجهة الشامية من بلدة الله، وعلى بعد ثلاثة أميال (أوساعة واحدة) من المسجد الحرام بين الجبل المذكور وجبل ثبير الذى أمامه واد سعيد، يعنى أن (جبل النور وجبل ثبير) كلاهما يظلان على يسار الذاهبين إلى

منى، وقد حدثت واقعة شق الصدر فوق جبل النور، وقد بنى فوق أرض المكان الذى حدث فيه شق الصدر مسجد لطيف، وداخل مسطح هذا المسجد ستون قدما مربعا، والقبة التى فوق مبانيه تظهر من بعد ساعتين. وفى داخل هذا المسجد صخرة طويلة مجوفة، ويقال إن هذا المكان كان متكأ الرسول ﷺ فى أثناء شق صدره الشريف.

والغار اللطيف الذى نزلت فيه سورة ﴿اقرأ﴾ يقع على بعد خمسمائة خطوة فى الجهة الجنوبية من مسجد شق الصدر، فالزوار ينالون آمالهم بالزيارة سواء أكان الغار المذكور أو المسجد سالف الذكر، ولهذا الغار منفذ فى الجهة الجنوبية حيث تظهرمنه مكة المكرمة تماما وقد ثبت بالروايات الموثوقة أن النبى ﷺ كان يتعبد فى هذا الغار قبل البعثة.

من الأشياء المهمة التى اختلف عليها علماء الأسلاف طريقة عبادة النبى ﷺ قبل البعثة. إذ قال بعض العلماء إنه كان يفكر فى آيات الله، وفى الكون ومصنوعاته. وقال البعض كان يتذكر خلق الكائنات. وقال البعض إنه كان يتنسك ببعض الأعمال غير المنسوخة من دين موسى. وقال البعض وكان متمسكا بشريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقال البعض كان يتعبد بالأحكام الصحيحة للشرائع السابقة. وإن كان القول الأخير يبدو مرجحا على الأقوال الأخرى، ولكن بناء على أصح الأقوال وأوثق الروايات أنه كان يعمل وفق الأحكام الباقية من شريعة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ لأن طائفة العرب كانوا يعملون بأحكام من بقايا دين إسماعيل مثل الحج، والختان، وإرجاع زوجاتهم بعد الطلقة الأولى والثانية، واعتبار فدية الرجل مائة جمل، والاغتسال من الجنابة، والمضمضة والاستنشاق واستخدام السواك، وتحريم ذات المحارم، والاستنجاء، وتقليم الأظافر، واستخدام الشفرة، وقطع اليد اليمنى للص.

وقد عمل نبى آخر الزمان وفقا لهذا أعمال العرب وعاداتهم، وكان يجتهد فى الأعمال الأخرى حتى إذا ما اقتنع بأن ما يفعله من الأعمال حسنًا فيعمل به، ولم

يلتفت النبى ﷺ إلى الأصنام والأوثان فى صباه ولم يبال بأقوال الذين كانوا يرجون ألا يحقر الأصنام.

ويمكن الوصول إلى مسجد شق الصدر بسير بطئ من سفح الجبل فى نصف ساعة، ويمكن الصعود إليه فى عشرين دقيقة بسير معتدل.

كان الاسم الأصلى لجبل النور (جبل حراء)، وبما أن نور شمس النبوة أشرقت من هذا المكان وبما أن النبي ﷺ قد تعبد فيه مدة طويلة قبل البعثة؛ أطلق عليه (جبل النور). وكان العرب يراعون جانب هذا الجبل، وفوقه صهريج قديم خرب يمتلىء بالمياه كلما هطلت الأمطار.

ويجدد الزوار وضوءهم عند ذلك الصهريج ويستريحون جالسين فى المقهى الذى بجانبه، وليس المقهى مثل المقاهى المبنية من اللبن والحجارة ولكنه مجرد خيمة عادية.

رواية:

كان النبى ﷺ قد اختفى فى جبل ثبير، فناداه جبل ثبير قائلا: يا رسول الله ابتعد عنى بما أنه لا مكان للاختفاء على ظهرى وأخاف أن يراك القرشيون فيؤذونك، ورجاه أن ينتقل إلى جبل آخر وعقب ذلك سمع صوتا هاتفا من جبل حراء يقول: يا رسول الله! تفضل عندى إننى أستطيع أن أحافظ عليك. وهذا ما ينقله الإمام السهيلى فى كتابه «الروض الأنف».

وخرج صاحب «البحر العميق» قائلا: إن النبى ﷺ لم يختف فى مكان آخر غير غار ثور؛ إلا أن الإمام الأزرقى قال «عندما كانت قريش تبحث عنه كان فوق جبل ثبير، حتى قال الجبل (يا رسول الله لا تبق فوقى لأننى أخاف أن يهجم عليك الكفار، ويقتلونك فأتعرض لعقاب ربى) وقال جبل حراء: «يار سول الله أقبل إلى» فترك النبى ﷺ جبل ثبير وذهب إلى جبل حراء حيث اختفى من قريش، وقال أن هذه الواقعة غير واقعة جبل ثور، وبهذا أيد الإمام السهيلى وخرج قول صاحب البحر العميق.

ولا نهاية لفضائل وعجائب جبل النور، يقول المرحوم مؤلف (بهجة النفوس) إننى كنت أذهب فى بعض الأيام لزيارة جبل النور وفى يوم الجمعة بعد الظهر من جمادى الأولى سنة ٧٥٣ صعدت فوق قمة ذلك الجبل لزيارته كالعادة، ولما وصل إلى سمعى أصوات عجيبة من الأحجار رفعت من على الأرض بعض الحجارة، وأخذت الحجارة تصيح فى كفى وكانت الأصوات تسمع من مسافة قدر طول إنسان. ولما فهمت أن تلك الأحجار تسبح الله وتقدسه، أخذت أدعو الله قدر استطاعتى وفى أثناء ذلك غابت الشمس خلف السحب، ولما ظهرت الشمس بعد فترة انقطعت صيحات الحجارة، وعندما غابت الشمس مرة أخرى خلف الغيم أخذت الحجارة كلها تصيح، وقد أصبحت تحت ظل السحب. وبما أن الساعة قد وصلت إلى العاشرة لم أستطع أن أبقى أكثر من ذلك، فعدت وأصبحت أسمع صيحات الحجارة وأنا بعيد عن سفح الجبل بمائة خطوة، فرويت لأبى ما سمعت، فقال لى قد حدث لى أيضا هذا الحال عدة مرات، إذ كنت أذهب إلى زيارته مع بعض الرجال، ورأيت أحد كبراء البلد يلتقط بعض الحجارة من الأرض. فسألته فأجاب قائلا (كل هذه ذهب خالص ونفقتى السنوية).

يروى أن المرحوم المرجانى قد زار الجبل مع بعض أصدقائه، وسمع أن الحجارة تصيح وتسبح كما سمع بعض أصحابه.

نظم

إنه على بعد ميلين من «المعلا» إنه جبل نور تناطح قمته الجوزاء
إن ياقوت «بدخشان» لايلتمع أمام جوهره وقرص الشمس والقمر فى سفحه
إن رمله وهج نور يمحو قصة موسى وتجلى الطور
ولو أن الياقوت فى «بدخشان» فان فى هذا الجبل يكن الدر اليتيم
فى حبة واحدة أعوام وشهور والرسول الذى لم يكن قد رأى طلعة جبريل
نزل عليه فى هذه الدار فجأة ولما شق القمر صدره الطاهر

«تحفة الحرمين»

الأثر التاسع والأربعون: جبل خندمة:

جبل كبير يقابل جبال أجياد وشعب عامر خلف جبل أبى قبيس. وقد نقل الإمام الفاكهى عن ابن عباس قال: قد دفن فى هذا الجبل سبعون نبيا وبسببهم تهطل الأمطار على مكة ببركاتهم.

الأثر الخمسون: جبل ثبير:

هو أعظم الجبال التى تواجه غار المرسلات الموجود فى منى. ويطلق على الجبل الذى يقع يمين المتجه من منى إلى مكة المكرمة. كما يطلق على الجبال التى تقع على يسراه «جبل ثقبة» وترتفع جبال الجهتين عن الأرض ستة أمتار، وسبب تسميته بذلك الاسم أن واحدا من قبيلة بنى هذيل المسمى ثبير قد مات فوق ذلك الجبل المبجل.

قال القاضى مجد الدين الفيروزابادى نقلا عن المفسر النقاش أن هذ الجبل أيضا من المواقع التى يستجاب فيها الدعاء، ولكنه لم يبين وقت التوجه بالدعاء، ولكن الأسلاف الكرام قالوا يجوز الدعاء فى أى وقت كان.

قال المفسر النقاش أن جبال: النور والثور وجبل ثبير قطع من جبل الطور فحينما تجلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على جبل الطور سقطت عدة قطع من ذلك الجبل، وثلاثة منها سقطت على مكة المعظمة، وقد ذكرنا آنفا أن النبى ﷺ قد شرف غار حراء واختفى من كفار مكة المخذولين.

إضافة

قد حققت ما قاله الإمام الأزرقى عن وجود اثنى عشر ألف جبل حول مكة المعظمة، فتأكدت من صدق قوله لأن حول بلد الله الأمين ما لا يحصى ولا يعد من الجبال، وكل هذه الجبال متصلة متسلسلة، وقد نسيت أسماء أكثرها كما ذكر فى مبدأ المقال.

والجبال مضبوطة الأسماء غير التى ذكر من الجبال المأثورة هى: زرود[1] رقمتين، سلع[2]، قعيقعانا[3]، حاجر، أذاخر، منحنى، شامة، طفيل، حجون مصافى، صفا، مروة، معترضة، عرفات، مأزمين[4]، قزح[5]، صراصر، مفجر، مضايق[6]، سبع البنات[7]، جبل عمر[8]، جبل الكعبة[9]، نعيم، نعيمان[10]، كدا[11]، أخشبان[12]، جبل الكحل، ثبير الخضراء، ثبير النضع، ثبير الزنج، ثبير الأعرج، ثبير أعنيا، قرا[13]، جبل أيوب، جبل سبوع[14].

لا يوجد فى زماننا رجل يخبرنا بأسماء الاثنى عشر ألفا من الجبال التى قال عنها الإمام الأزرقى، كما أنه لا يوجد كتاب تاريخ مفصل موثوق يدلنا على هذه الجبال، ولكننا مع ذلك لا نملك إلا أن نصدق ما قاله صاحب كتاب البحر العميق: بأن من يلقى نظرة من فوق جبل ثبير على مكة المكرمة يرى أن جميع الجبال منحنية نحو الكعبة المعظمة كأنها تسجد لها.

أوقات الدعاء وساعاته

بين العلماء الأعلام أوقات الدعاء فى الأماكن المقدسة وساعاته على اختلاف فيما بينهم، وقالوا يستجاب الدعاء عند الدخول إلى الحرم الشريف من باب بنى

(١) الجبل الذى يشرف على أبطح.
(٢) يطل عليه جبل فلق أيضا.
(٣) على ظهر أبى قبيس جرهم تقع أسلحته عندما وصلها هناك لذلك سمى بهذا الاسم.
(٤) يقال لهذه الجبال الأخشبان أيضا.
(٥) اسم المسجد الحرام ويوجد فى المزدلفة.
(٦) هذا الجبل يقع أمام الحوض الكبير لبركة السلام الواقعة فى وادى محسر.
(٧) من جبال أجياد.
(٨) هذا الجبل أيضا من جبال اجياد وقد ولد هناك عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(٩) أخذت أحجار أجياد من هذا الجبل لتعمير بيت الله الحرام.
(١٠) يسمى وادى التنعيم السهل الواقع بين الجبلين ومسجد عائشة فيما بين الواديين.
(١١) هذا الجبل يتصل بوادى سليم.
(١٢) هما جبلان أحدهما جبل أبى قبيس والآخر الجبل الأحمر الذى يشرف على جبل قعيقعان ويقال للجبلين فى منى أيضا الأخشبان.
(١٣) يبدأ هذ الجبل من عدن ويشكل شعبا كثيرة حتى يتصل بجبل الطور وهى أعلى جبال الحجاز.
(١٤) هذان الجبلان من الجبال المرتفعة أيضا وتقع فى الجهة الشمالية من مكة المكرمة.

شيبة فى أى وقت كان، وفى ليالى الجمعة فى بيت السيدة خديجة الكبرى ـ رضى الله عنها ـ وفى أيام الاثنين عند المولد النبوى وعند الزوال، وفى أيام الأربعاء عند مسجد الشجرة، وفى أيام الأحد فى مسجد المتكأ صباحا، وعند الظهر يوم السبت عند جبل ثبير ومسجد نمرة ومسجد نمل[1]، وفى أوقات السحور عند الميزاب الذهبى ومقام إبراهيم وخلفه، وأوقات الفجر[2] عند «الركن اليمانى»، وفى منتصف النهار عند الحجر الأسود. وفى منتصف الليالى عند الملتزم، وفى أوقات العصر عند الصفا والمروة، وفى أوقات غروب الشمس فى داخل أبنية بئر زمزم، وفى دار الأرقم وفى ليالى البدور فى منى، وعند طلوع الشمس فى المزدلفة، وعند غروب الشمس فى مسجد صخرة عرفات، وعند الطواف فى المطاف وفى الأماكن الأخرى.

مبرك الناقة:

مكان محدب مثل القبر قرب باب العمرة. ويزوره الناس على أنه قبر مشهور مع أنه مبرك ناقة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لأنها عندما اعتمرت أبركوا ناقتها فى هذا المكان، فنزلت فيها ودخلت فى الحرم الشريف، وطافت بالبيت، وإن زيارة هذا المكان لا تخلو من فائدة، إلا أنه يلزم زيارته على أنه مبرك ناقة السيدة عائشة وليس قبر بثبوت لزوم الإرشاد.

ولما كان هذا الكتاب يحتوى على مآثر مكة المعظمة التى أنبأتنا بها كتب التاريخ، فلا يظن أن هذا سيغنى الحجاج الكرام من اتخاذ الأدلاء؛ لذا يجب على الذين يلبسون ملابس الإحرام لأداء فريضة الحج أن يتخذوا دليلا من أهل مكة، وصحيح أن هؤلاء الأدلاء ليس عندهم فكرة عن التاريخ، وعما يخبره المؤرخون، ولكنهم بحكم وجودهم فى مكة المكرمة وحياتهم فيها فهم يعرفون آداب السعى والطواف وأركان الحج أكثر من المؤرخين.

(١) لا يوجد فى زماننا من يعرف مكان مسجد النمل.

(٢) الفجر هو الوقت الذى يجوز فيه أداء صلاة الصبح، أما السحر فهو وقت الظلمة قبل الفجر، وفى وقت السحر يجوز للصائم أن يتناول الطعام لذا يسمى هذ الطعام السحور. هذا هو الفرق بين الفجر والسحر.

ومهما كان الإنسان مطلعا على التاريخ وتعلم ما يخص المناسك وكان متبحراً فى العلوم فهو فى حاجة إلى دليل عند زيارته للمآثر المبروكة، وأن طفلا من أهل مكة فى الخامسة أو السادسة من عمره يمكنه أن يخجل فى آداب الزيارة، وتعيين مواقعها ومعرفة آثار مكة المتبحر فريد عصره ووحيد دهره، إن فى عصرنا هذا من المستحيل أن نجد عالما متبحرا فى تحليل المسائل الفقهية والشرعية ودقائقها مثل الإمام الأعظم أبى حنيفة رحمة الله.

قد أوجب الإمام الأعظم ـ الذى يُسَلَّمُ بفضله وكماله ـ اتخاذ دليل للحاج. ولا يقال ما دامت كتب المناسك فى اليد والمعلومات التاريخية فى الحافظة فما لزوم الدليل؟

وفى الواقع أن كتب المناسك والمعلومات التاريخية يمكنهما أن تكونا رفيقين شقيقين للحاج، وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار، إلا أن الشخص المتبحر الذى تعلم مسائل الحج من كتب المناسك، وتعرف على الآثار الشريفة بواسطة كتب التاريخ، ثم حج معتمدا على هذه الأشياء يشبه ربان الباخرة، فمثل هذا الربان لا يستطيع أن يقترب من الشطآن المجهولة معتمدا على المعلومات الغنية للشخص المكلف بحسابات السفينة، وما معه من الخرائط ومتانة آلات الباخرة وسائر أدواتها، صحيح أنه قد يصل إلى المكان الذى يقصده بدلالة البوصلة ومتانة الآلات والأدوات الأخرى، ويمكنه أن يتجافى مخاطر العواصف والأعاصير المتوقعة، وأنه قد يصل إلى شاطئ السلامة، لكن مع كل هذا لا يمكنه أن يستغنى عن الدليل المرشد الذى يعرف أماكن الجزر والمضايق والرمال التى لا تستقر فيها المرساة والجرف، وكل ربان يخرج إلى البحر بدون أن يأخذ معه دليلا بدافع تعنته وغروره الأنانى، يكون قد ألقى بأرواح المسافرين معه فى بحر الهلاك.

وكذلك تعطى كتب المناسك والتاريخ معلومات صحيحة ومكملة، إلا أنه يحتاج إلى دليل عند زيارة الآثار، دليل يوضح له الآثار، وآداب زيارتها وكيفية تصرفه عند وجوده عندها، لأن الكتب لا تستطيع أن تؤدى الخدمة التى يؤديها

الدليل. وبناء على ذلك يقتصر اختيار الدليل على كونه من أهل مكة. وبما أن قبلة الموحدين الكعبة المعظمة المفخمة تقع فى واد غير ذى زرع؛ فأغلب سكانها يتعايشون بالدلالة وسقاية الحجاج. والقليلون منهم يشتغلون بالخياطة والعطارة وغيرها من أعمال البيع والشراء وتمر الحياة عندهم. وكانت مهنة الدلالة المهمة فى صدر الإسلام وقصرا على خمسة أو عشرة أشخاص، وفيما بعد تعددت البلاد الإسلامية وأصبح من الواجب تعيين دليل خاص لكل بلد من البلاد الإسلامية. وفى زماننا أدلة خاصة سواء أكان للمسالك العثمانية أو الممالك الموجودة فى البلاد الأجنبية، فالحاج عندما يصل إلى مكة فمن الأمور الواجب إتباعها الاتصال بدليل بلاده ومراجعته، فإذا ما لجأ إلى دليل آخر غير الدليل الذى عين من أجل بلاده يكون قد ألقى نار الخصومة بين الدليلين، وقد صدرت مثل هذه الخصومات فيما مضى كثيرا حتى قام الأهالى بعضهم ضد بعض، لأجل ذلك قرر أن يكون لكل دليل وكيل فى مرفأ جده المعمورة، يستقبل الحجاج التابعين له وكان قرارا سديدا.

وبما أن للعساكر السلطانية دليلا بريا ودليلا بحريا معينان بالأمر العالى فهم مستثنون من مراجعة أدلاء البلاد، إذا كان الجندى الحاج من الجنود النظاميين يراجع دليل الجنود النظاميين، وإذا كان بحريا يراجع دليل البحرية، ودليل الجنود النظاميين الشيخ محمد أفندى، ودليل العساكر البحرية الشيخ أحمد حوائى أفندى، وخدم أحمد حوائى أفندى فى داخل البيت الأكرم ما يقرب من خمس عشرة عاما، وقد اضطر أن يختار دلالة البحرية حتى لا يقصر فى خدمة الحرم الشريف بسبب شيخوخته، وكان يؤوى جميع ضباط البحرية وأنفارها الذين يحجون فى منزله دون أجر، إذ كان رجلا سخيا كريما رغم فقره، وقد ارتحل عن دنيانا سنة (١٢٩٩هـ) تاركا مهنته لابنيه عبد الكريم ويوسف وكلاء السادة الأدلاء فى مدينة جده، إن وكلاء جده يترقبون وصول البواخر، وعندما تأتى البواخر يستقبلون الحجاج الذين ينتسبون إليهم، ويأخذونهم إلى البيوت أو المنازل حيث يؤونهم، ثم يوصلونهم إلى مكة المكرمة بعد وصولهم بثلاثة أيام أو أربعة

أيام، بعد أن يعدوا لهم الجمال التى ستنقلهم إليها، وبعدما يكونون قد أروهم الأماكن التى تزار فى جده، وبعد العصر يذهب إلى مكة المكرمة من جده، إما بحمار أو جمل، والذين يذهبون بالجمال يصلون إلى مكة المكرمة فى ليلتين والذين يركبون الحمير فى ليلة واحدة، ويعلم الوكلاء الأدلاء قبل وصول الحجاج المنتسبين إليهم بالبريد، ويبينون فى رسالتهم عدد الحجاج وأسماء الجمالين الذين حملوا الحجاج وأسماءهم وينتظرونهم ليلة وصولهم فى خارج المدينة ويستقبلونهم.

إن استقبال أدلاء مكة الحجاج قد اتخذ توصيل الحجاج إلى مكة ليلا نظاما لدى الجمالين لذا ترى الدليل الذى استلم رسالة من جده يخرج إلى ضريح الشيخ محمود قبل وصول قافلة جده بعدة ساعات، وينتظرون وعندما تصل القافلة يقفون أمام الجمال ويبادرون فى البحث عن حجاجهم قائلين:

هل السيد الفلانى من المكان الفلانى موجود هنا؟ والحجاج الذين يجدونهم يبعثونهم إلى منازلهم فى رفقة أبنائهم أو خدمهم، ويجد الأدلاء حجاج الممالك التى يتولون دلالتهم، ويرحبوا بهم أعظم ترحيب ويرسلونهم إلى منازلهم، ويضع الأدلاء الأشياء التى على الجمال فى أماكنها المطلوبة، ثم يأخذونهم إلى المسجد الحرام حيث يقومون بمناسك الحج من الطواف والسعى، وبعد مرور عدة أيام يهيئ لهم الدليل وكالة حيث يأويهم.

ويعتبر حفل الضيافة الذى يقيمه الأدلاء من العادات الطيبة القديمة لدى الأدلاء. وإقامة وليمة عظيمة للحجاج بعدما يتم تسكينهم فى الوكالات حتى لو كان حاجا واحدا. ويطوف به الكعبة طوال وجود الحاج فى مكة المكرمة.

الخدمات التى يؤديها الأدلاء للحجاج:

لما كان الحجاج محتاجين لعون أدلائهم سواء كان فى الطواف والزيارة والبيع والشراء فى النهوض والحركة، فالأدلاء يفتخرون بأداء هذه الخدمات للحجاج بكل صدق وإخلاص.

ومن هنا ترى أن الدليل يقابل الحاج منفرداً عدة مرات، ويستفسر عن حاله ويهيئ له ما يحتاج إليه.

كيف يقابل الحجاج خدمات الأدلاء:

ذكرنا الخدمات التى يؤديها الأدلاء للحجاج فهم يقابلون هذه الخدمات والترحيب بالنقود، وكل حاج يرى دينا عليه أن يدفع عقب الوليمة التى تقام له قدرا من النقود حسب حاله.

وفى عيد الفطر يوم عودته مقدارا من النقود، وكذلك ينفحه من أسبوع لآخر عدة قروش، وبما أنه يلزم إعطاء وكيل الدليل الذى فى جده بعض النقود يعطى، الحاج فى اليوم الذى يتحرك من جده إلى مكة المكرمة مقدارا مناسبا من النقود كهدية، وكل هذه الهدايا تعد من نوع الصدقة الشرعية.

وكل هذه الأشياء يمكن تحقيقها باللجوء إلى ظل السلطان الظليل، السلطان عبد الحميد الثانى، إمام المسلمين، وخليفة الأرض وبالدعاء إلى الله بمد عمره وزيادة قوة دولته كما هو مبين فى الخاتمة الآتية الذكر؛ لأن تأمين الحرمين المحترمين من تسلط المتسلطين وإخلائهما من اللصوص الناهبين وجعلهما ساحة آمنة مصونة، يؤدى الحجاج فيهما مناسكهما فرحين مبتهجين آمنين؛ متوقف على وجود خليفة ذو صفات قدسية وأولاده وأحفاده إلى يوم القيامة على وجود خليفة عادل كل همه: خير الأمة الإسلامية.

* * *

ضرورة وجود السلطان ووجوب الطاعة والانقياد له

إن السلامة والفلاح سواء أكانت فى هذه الدنيا ساحة تجلى القدرات، أو فى حياة الآخرة الباقية يتوقف على وجوب الطاعة والخضوع لأوامر خليفة العصر ونواهى السلطان الذى يصدق عليه معنى الأثر القائل والسلطان ظل الله فى الأرض، ويأوى إليه كل مظلوم.

كان علماء السلف الصالح يرجعون إلى السلاطين أصحاب الإمامة والخلافة فى عصورهم لحل الخلافات، وإزالة الشبهات؛ وهذا يدل دلالة قطعية على وجوب عرض الأمور الهامة على إمام المسلمين للعصر فى كل آن وزمان، ولكن حتى تكون الإجابة الصادرة من جانب الخليفة حائزة لرضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجب على العلماء أن يوضحوا كل فقرة من فقرات القضية المفروضة وفقا للقواعد الشريفة القومية، حتى تصان الأجوبة التى ستصدر مؤيدة بإلهام إلهى من شائبة الإبهام والشك، وحتى لا تظهر الإجابة منافية للمقصود، لعدم وضوح المسائل المعروضة، ومع هذا فنظرة الخلفاء الثاقبة وأحكامهم تشمل على خلاصة الأمور الهامة المعروضة عليه ومضمونها العام لأن الخلافة وأعبائها الثقيلة التى يحملونها فوق أكتافهم تحول دون الاطلاع على مفردات الأمور وجزئياتها.

ولما كان الخلفاء مطمئنين واثقين من أن تدقيق الأمور وتحقيقها تقع على أكتاف العلماء والوزراء، كما أنهم مسئولون عن موافقة المسائل المعروضة للأحكام الشرعية والقوانين العرفية، وهذه قاعدة مشروعة متفق عليها بالإجماع، فتدقيق المسائل وتحقيقها يخرجان عن إطار مهماتهم المقدسة، ومن هنا فالمسئولية المادية والمعنوية تقع على كاهل عارضى المسائل.

فإذا ما اطلع على أى صحيفة من صفحات كتب التاريخ القديمة فى العالم،

وإذا ما دقق وحقق فى المعاملات الجارية للأقوام الذين أتوا إلى الدنيا، مكمن العبر ثم غادروها وعمَّق النظر فيها لسَلَّمَ أن الدنيا ليست دار ثواب وعقاب، ولكنها نموذج للحياة الآخرة بكل ما فيها من المجازاة الشرعية وقوانينها العرفية، هذه هى خلاصة الخلاصة التى تستنبط من فحوى الكتب الشرعية.

وإن كان لا ينكر أن الدنيا دار كسب وعمل وتقدم، إلا أن الحصول على السعادة المطلوبة فى الدنيا والآخرة والتمتع بالنعم الجليلة والأخذ بالحظ الوافر منهما يتوقف على الانصياع لأوامر الخليفة المقتدى به وتدابيره. ولما كان منصب الخلافة أصلا قويما يجمع بين المناصب الدينية والدنيوية فقد فوض تنظيم أمور العباد وفقا للقوانين الشرعية، والحكم والتصرف ليد الخليفة القديرة، فالخدمات الدينية والوظائف التى توجه إلى رجال الدولة والمصالح العامة برمتها متشعبة من ذلك الأصل ومتفرعة منه.

وإذا لم يخف بنو البشر من سياسة الخوف والجزاء لأخلوا بالنظام وراحة الناس بحكم طبيعتهم البشرية، ولقاموا بارتكاب أعمال غير مرضية. إن ضرورة وجود خليفة مقتدر به فى كل عصر قد ثبت بالنص الجليل:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ (ص: ٢٦)

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق ورتب وسائل صيانة صلاح بنى البشر ونظام معاده ومعاشه خاليا وجوده وبقائه من الفساد والخلل وفق الحكمة الربانية، وجعل الخليفة وسيلة فى تدبير أموره لأن ترك بنى البشر لأنفسهم يؤدى إلى الظلم والبغى والتعدى وإفنائهم وانقطاع نسلهم وانفصامهم.

وهذه الحال تنافى أحكام المشيئة الإلهية، لهذا لزم وجود خليفة حكيم قادر على دفع الظلم والعدوان، مدبر للشئون محافظة على حياة الإنسانية، وعلى هذا يجب أن تقوم صلاحية الخليفة الشرعية وأن نعلم مَنْ ذلك الشخص الذى يستحق أن يطلق عليه اسم الخليفة.

وقسم حكماء علماء الإسلام حكومة الملوك وسياستهم التى تكفل انتظام حياتهم الدنيوية وأحوالها إلى ثلاثة أقسام هى الخلافة، السياسة والطبيعية.

الخلافة:

إحدى أقسام الحكومات الثلاثة ويطلق عليها الإمامة أيضا حكومة الخلافة، وهى دولة عادلة وسلطنة فاضلة. ويقوم صاحب هذه الدولة بجعل أحكام الشريعة نصب عينيه فى جميع الأمور العامة والخاصة. وبما أنه يحكم ويتصرف فى عامة المصالح الدينية والدنيوية وفقا لقوانين الشرع والعدل فمدار الخلافة الأصلى هو حفظ قواعد الشريعة، وضبط سياسة الأمة قائمًا مقام صاحب الشريعة (عليه أفضل التحية)، وكائنا سلطانا ذو شوكة وقوة، وبناء على هذا سمى هذا النوع من الملك والحكومة: «الخلافة».

٢ ـ يطلق على القسم الثانى من الحكومات الثلاث حكومة سياسية. لما كان هذا النوع من الحكومة سلطنة فالهيئة التى تشكل هذه الحكومة تتخذ إعمال الفكر والنظر دستورًا لها، وتدبر دولتها بما ينظم عقلاؤها وحكماؤها من القوانين والنظم.

إن النظم والقوانين التى رتبت بناء على العقل البشرى القاصر والفكر الفاتر لا تستطيع أن تؤمن ما يحتاج إليه الأفراد من سبل المعاش، وتنظيم أمور المعاد كما يبين ذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم: ٧)

فمثل هذه السلطنة التى تنشغل بالمنافع الدنيوية فقط ليست مقبولة لدى الشرعيين.

٣ ـ يسمى النوع الثالث من الحكومات حكومة طبيعية لا يأخذ المفسرون الساعون إلى تشكيل الحكومة التى يطلق عليها حكومة طبيعية فى الاعتبار

مقتضيات العقل والشرع، وإنما يقصرون حكمهم ـ مثال قطاع الطرق والبغاة الظلمة ـ على العنف وغصب الأموال وقتل النفوس والحركات غير المشروعة والتعديات الظالمة.

وبما أن هؤلاء قد سلموا زمام أمرهم وتدبيرهم للنفس الأمارة بالسوء، ولما كان بصرهم وبصيرتهم فى غاية الظلام من ناحية الخير، فهم لا يستهدون إلى الخير أبدا، ولا يسلمون أبدا من الخطأ والقتل وفقا لمدلول قول الله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠)

وقد أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على البشر بالعقل والقدرة والرشد والبصيرة، وبين لهم فى الكتب المنزلة ما ينفعهم ويصلح من شأنهم، وما يخص معاشهم ومعادهم، وحذرهم من الانهماك فى الشرور والمفاسد، لأن جزاء الخير والشر يعود لفاعله، وانقراض دول ملوك الطوائف وبغاة المسلمين الذين لوثت أفعالهم المذمومة صفحات كتب التاريخ لدليل واضح على إثبات ذلك.

قد انقرضت تلك الدول بظهور سلاطين الدول الإسلامية الذين حكموا بالعدل، وكانت القوة والمتانة من أحلافهم، وبناء على هذا من واجب الأمة البحث عن إمام عادل تعيش تحت حكومته العادلة وسلطنته الفاضلة، وقد ثبت ذلك باتفاق آراء الصحابة العظام والتابعين الكرام واتفق على هذا علماء المسلمين الأعلام بإجماع الأمة، وحينما ارتحل النبى ﷺ، عن دنيانا إلى مقر الراحة الأبدية أسرع الصحابة بمبايعة الصديق الأكبر.

ومازالت البيعة تجرى على هذا النهج إلى عصرنا هذا، ولم يترك أحد هذه السنة السليمة الغاية فى أى عصر من العصور مدعيا الانفراد والاستقلال برأيه، والإجماع القطعى سند قوى فى الدلالة على الأحكام الشرعية وصحتها، وبناءا

على هذا يكون قد ثبت وجوب انخراط المسلمين فى كل العصور فى سلك إدارة خليفة ثابت بأدلة قطعية لدى المسلمين.

وطاعة خليفة العصر والزمان واجبة شرعا، وكذا الخضوع لكل أوامره ونواهيه التى توافق القوانين العادلة التى اقتبست من مشكاة أنوار الشريعة الغراء. ومن المصلحة العامة إخراجها إلى حيز الوجود، كما يجب شرعا تنفيذ أوامر إمام المسلمين إذا كان ما طلب من الإنسان مباحا، وكان الخليفة يؤدى مهمة الخلافة وأفعالها وفقا للأحكام الشرعية ويطبقها فقد صرح له أن يستقل برأيه فى اتخاذ القرارات بناء على قول الله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وإن كان مأمورا باستشارة عقلاء قومه، فإن الذى يتولى مقام الخلافة الجليل ملهم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومؤيد بأوامره ونواهيه، وبما أن السلاطين العثمانيين أعدل من ملوك الأسلاف فى إجراءاتهم الدينية وحركاتهم بأدلة شرعية متعددة، وإنهم أتم وأكمل منهم فى خدمة الدين ورعاية جانبه، وبما أن أساس سلطنتهم مبنى على قواعد الشرع الكريم؛ فكل أمر يصدر من مقام الخلافة الجليل وفى أى وقت فالخضوع له وتنفيذه قد وصل إلى درجة الوجوب، ويكفى لإيضاح هذه الحقيقة أن سكان الأراضى الحجازية السعيدة التى كانت مطلع أنوار الإيمان والدين، وهدف المسلمين وغايتهم يراجعون دار الخلافة السنية لإزالة شبهاتهم الدينية، وحل خلافاتهم، ويستدل على مراعاة السلاطين العثمانيين فى أعمالهم وأفعالهم الموافقة لتعاليم الدين العديد من الكتب التى تزين دور الكتب مصنفات الأسلاف القيمة، حتى أن رمزا من رموز العلوم الباقية وهو عثمان باشا الغازى كان قد كتب عدة كتب قبل أن يرفع علمه مغادرا الحياة، يظهر فيها عدالة سلاطين الدولة العثمانية، وكيفية استهلال حكمهم وكيف يستطيع رعاياهم أن يعيشوا قريرى العين، مرفهين آمنين تحت حمايتهم.

وندرج هنا ما كتبه سيد الآراء والقدسية المعنوية وصدرها السيد «صدر الدين» القنوى فى مقال له فى شرح الشجرة كما هى حتى نقيم دليلا على مدعانا.

صورة المقالة

واعلم أن لهذه الدولة تأصيل نسب وعلو مرتبة بأصل صحيح، يعلم منه شرف مقاماتهم العلية، وذلك التأصيل فى الآية الشريفة قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر: ٣٢)

فقد دخلوا ضمن الآية الشريفة لكونهم من أمة محمد ﷺ، مع من أشارت إليه الآية فلاشك أنهم فى سلكها مُنْدَرِجُونَ ومن التأصيل المشار إليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أى الصلاحية لهم، فهم بالنسبة لغيرهم من أصلح الدول بعد الصحابة والتابعين؛ لوجود النعت فيهم وانقيادهم للشرع الشريف، وتمكينهم من رتبة العبادة والخدمة كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وملازمة الجماعة واتباع السنة وحسن العقيدة، وقل أن يوجد ذلك بكماله فى دولة من الدول الذين تقدموا وأما لفظة (لبلاغًا) فهى إشارة تفيد العلم بالوقت المنتظر، وكفى بذلك توفيقًا لمن أيقظه الله تعالى وفتح عين بصيرته فرأى الصلاح فيهم ظاهرا، وسيظهر ذلك إن شاء الله تعالى ونشاهده عند ظهور دولتهم، فافهم.

فائدة عظيمة، لا يستغنى عنها:

اعلم أن ظهور هذه الدولة قد حكاه ونبه عليه صاحب الأصل فى خطبة البيان بإشارة واضحة. وذكر أن ظهورها الإحاطى فى (بكلظ) وانتهاء ظهورها فى «دسغ» وإنها ستظهر على غالب المعمور من وجه البسيطة ويقهرون من ناوأهم، وينتهى سير جنودهم إلى الجزيرة الكبرى يفتحها الله على يد (م و ح) من المدن

المنسوبة إلى معنى الإشارة، وتفتح (م) بالتسليم وأخرى (و) بهول عظيم وأخرى (ح) بحسب رحيم وأخرى برعب عميم».

(عن شرح شجرة لصدر الدين القنوى)

هذه المقالة العظيمة التى كتبها أرباب الإيمان بمحض الإلهام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ والتى تتضمن إشارات معنوية مقتبسة من الحقائق الكونية، والتى تشير إلى الفتوحات.

وفى عام ٩٢٢هـ دخلت مصر فى حوزة التسخير، وتلقب سلطان العثمانيين بـ«خادم الحرمين» إلى غير ذلك أيضا مما يشير إلى نبوءات أهل الإيمان، بظهور أمير المؤمنين سلطان الموحدين الغازى عبد الحميد خان الثانى الذى تجلى العدل وعم فى عهد سلطنته. وبقطع النظر عن التبشيرات المعنوية للمقالة المذكورة؛ فإنه فى الوقت ذاته، لما كان تجديد قوة أساس بنيان هذه الدولة المهون بين الدول المتحفزة كان منوطا بالإرادة الجليلة للمولى عز وجل، ندعو الله أن يؤيد سلطاننا العادل، ويديم للخلافة سلطانا عادلا عاملا، فهو منذ يوم جلوسه المبارك على عرش الدولة وهو يعمل ليل نهار على إحياء مجد الدولة، وراحة رعاياها وذلك بجدية وإيثار، وغير هذا فآثار خليفة سيد المرسلين الذى يحمل لقب «خادم الحرمين» ظاهرة فى كل آن وزمان لعيون المسلمين، كما أن المجاورين والأهالى يسعدون بما ينعم عليهم من خيرات لا تعد ولا تحصى، كما أنه بذل الجهد وأنفق الأموال لتكون مكة المكرمة (شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة) أجمل البلاد، بل تمتاز عليها جميعها وذلك تقديرا لمكانتها وقداستها، وكل هذه الأعمال ظاهرة لأعين الحجاج مما يعجز القلم عن تفصيلها وذكر مفرداتها، وخلاصة القول فهؤلاء الذين أدركوا عصر هذا السلطان الذى يصرف كل أفكاره العادلة ويوجهها

لتأييد أحكام الشريعة الغراء وتطبيقها وتأمين رفاهية الأهالى وسعادتهم وسعادة الخلق جميعا.

وها هو ذا محرر هذه الحروف أدرك عصر ذلك الخليفة الذى انتشر فيه عدله الملوكى، وأتم الجزء الأول من «مرآة الحرمين» وهو «مرآة مكة» وطبعه.

وإننى لأعتبر نفسى أسعد الناس من الناحية المادية والمعنوية إذا وفقت فى أن أعرض هذا الكتاب، وأن أضعه تحت الأنظار السلطانية وهذا شرف أقدمه على جميع أنواع المزايا الجليلة وقدمتها.

والسلام على من اتبع الهدى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآلهم أجمعين وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

تقديم ٧
هل كانت كلمة المرآة مقصودة من المؤلف؟ وماذا أراد بها ٩
أسباب تصنيف الموسوعة ٩
الكتاب المصنّف ١٠
سبب إطلاق أسماء «مكة» عليها ١٤
مرآة المدينة ٢٤
أسماء المدينة ٢٩
مرآة جزيرة العرب ٣٧
أحوال العرب قبل الإسلام ٣٩
عناصر مجلد مرآة جزيرة العرب ٥٢
مقدمة المصنِّف ٥٥

الوجهة الأولى

إفادة مخصوصة ٦٠
الخلاصة ٦٣
بيت الله (الكعبة) ٦٣
الملتزم ٦٤
المستجار ٦٤
الحجر الأسود ٦٤
داخل الكعبة ٦٥
حجر إسماعيل ٦٦
حفرة المعجن ٦٧
الشادروان ٦٧
الستارة الشريفة ٦٧

المطاف الشريف ٦٧
المنبر اللطيف ٦٩
المقامات الأربعة ٦٩
المقام الحنفى ٦٩
المقام الشافعى ٦٩
المقام الجنبلى ٦٩
قبة الفراشين ٧٠
قبة السقامية ٧٠
الصورة الأولى: التعريف بالأحوال الجغرافية للبلدة المعظمة مكة المكرمة.. إلخ ٧١
البلدة المعظمة مكة المكرمة ٧٢
إديان العرب فى الجاهلية ٧٧
أسماء مكة الله السامية ٨١
سبب إطلاق هذه الأسماء على الكعبة ٨٢
البلدة المرزوقة ٨٩
أسباب تلقيب بيت الله بالألقاب الجميلة ٩٣
أعلام قلاع الحرمين الشريفين ٩٧
استيلاء طائفة القرامطة على مكة ١٠٠
الصورة الثانية: فى ذكر وصف شكل وطراز بيوت مكة ومنازلها ودرجات الحرارة.. إلخ ١٠٢
الحسينية ١٠٤
وادى فاطمة ١٠٤
درجات الحرارة ١٠٦
فواكه وخضراوات مكة ١٠٩
أسباب ظهور الأمراض فى مكة ١١٤

نصائح لمن يذهبون إلى الحجاز ١١٧
الصورة الثالثة: لماذا أطلق على البيت المعظم الكعبة ١٢٢
طواف طائر بالبيت المعظم ١٢٧
طواف الجن بالبيت المعظم ١٢٨
الصورة الرابعة: التعريف بحدود كعبة الله ١٣٠
مقام إبراهيم ١٣٤
حدود حرم الله ومواقيت كعبة الله المكانية ١٤٤
أسماء الذين جددوا أميال المواقيت ١٤٨
الصورة الخامسة: إيجار واستئجار بيوت مكة ١٥٠
خلاصة مسألة إيجار بيوت مكة ١٥٥

الوجهة الثانية

فى تفاصيل بناء مكة وعمارتها ومن بناها وأسباب تجديدها وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها

..... ١٥٧
الصورة الأولى: الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء مكة ١٥٧
الصورة الثانية: تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة ١٥٩
الصورة الثالثة: بناء الكعبة للمرة الثانية ١٦٣
أقوال الجمهور فى تعريف البيت المعمور ١٦٦
بشرى لمن طاف بكعبة الله ١٧٢
الصورة الرابعة: تجديد الكعبة للمرة الثالثة ١٧٤
الصورة الخامسة: بناء سيدنا إبراهيم للبيت وإقامة أولاد إسماعيل فى بلدة الله المقدسة ١٧٦
ترجمة حال سيدنا الخليل عليه السلام ١٧٧
هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر ٢٠١
سبب سفر الخليل عليه السلام إلى مكة وكيفيته ٢٠٦
كيف ظهر بئر زمزم ٢١٣

الغراب الأعصم ٢١٧
أسماء زمزم ٢٢٣
هجرة قبائل الجراهمة ٢٣٠
زواج إسماعيل وذهاب إبراهيم عليهما السلام إلى مكة ٢٣١
اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح ٢٣٤
كيفية حدوث قصة الذبح ٢٣٦
فداء إسماعيل ٢٤٤
تكليف الخليل ببناء الكعبة ٢٤٨
مساحة كعبة الله وساحة البيت المعظم ٢٥١
انتقال حكومة مكة لبنى خزاعة ٢٦٧
الصورة السادسة: تجديد البيت العتيق للمرة الخامسة ونجاح العمالقة فى ذلك ٢٧٥
الصورة السابعة: طريق تجديد البيت فى المرة السادسة ٢٧٧
الصورة الثامنة: طريقة تجديد البيت فى المرة السابعة ٢٧٨
انتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب ٢٧٩
الإجازة ٢٨٥
جاهلية العرب ٢٨٩
تأسيس مدينة مكة المعظمة ٢٩٣
قصى يجمع مناصب الجاهلية كلها ٢٩٥
الحجابة ٢٩٩
السقاية ٣٠١
الآبار الموجودة فى مكة المعظمة ٣٠٣
هل يجوز سحب السقابة من بنى العباس؟ ٣٠٥
اللواء ٢٠٦
الندوة (الاجتماع) ٣٠٧

السفارة ٣٠٧
النظارة ٣٠٨
صاحب القبة (ناصب الخيمة) ٣٠٨
التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام ٣٠٩
لعب القمار فى الجاهلية ٣١٢
خازن الآلات والأموال ٣١٣
القيادة ٣١٨
اختلاف قريش ٣١٨
الكهانة ٣٢٥
العرافة ٣٢٦
الزجر والطيرة ٣٢٦
الصورة التاسعة: كيفية بناء الكعبة للمرة الثامنة ٣٣٠
ظهور حية فوق الكعبة ٣٣٣
صورة الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة ٣٣٨
دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز ٣٤٨
بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض ٣٥٣
الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة ٣٥٨
ظهور طقوس الوثنية بين أحقاد إسماعيل ٣٧٣
أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل ٣٧٣
معلومات خاصة بالجن والشياطين ٣٨١
قصة الفيل ٣٩٩
معلومات خاصة فى صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به ٤١٥
تعريف القليس الذى بناه أبرهة فى صنعاء ٤١٦
بيت أصنام بنى بغيض ٤١٨
هجوم ملك الروم بقصد تخريب الكعبة ٤١٩

الصورة العاشرة: فى تجديد مبانى الكعبة للمرة التاسعة ٤٢٣
خطبة عبد الله بن الزبير ٤٢٣
مشاورة ابن الزبير للأعيان والعظماء من أهل مكة ٤٢٨
الصورة الحادية عشرة: فى تجديد مبانى الكعبة للمرة العاشرة ٤٣٣
تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والمملكة إجمالاً ٤٤١
الصورة الثانية عشرة: تعمير أركان بيت الله وتشييده للمرة العاشرة ٤٤٥
الصورة الثالثة عشرة: تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة ٤٤٩
عين زبيدة ٤٥٤
إحدى كرامات بيت الله الحرام ٤٥٤
مكافأة رضوان أغا الذى أوكل إليه أمر تجديد البيت الحرام على جهده وإخلاصه ٤٨٣

(الجزء الثانى)

صورة التاريخ الذى تم فيه تجديد الحرم فى عهد السلطان مراد وذلك سنة ١٠٤٠هـ، وكيفية إتمام هذه الأعمال

صورة الخط السلطانى المقرونة بالسعادة تقديما المقابل ٤٩١
الخدمة المؤداة لمكة المكرمة ٥٠٠
فتاوى خاصة بإصلاح ما انهدم من بيت الله ٥٠٣
(الوجهة الثالثة) فى عدد مرات توسيع البيت ومن قام بذلك، وإرسال الصرر، والوقود، والقناديل والشموع إليهما ٥٢٦
الصورة الأولى: فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة ٥٢٧
الصورة الثانية: فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية ٥٤٥
الصورة الثالثة: فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة ٥٤٧
الصورة الرابعة: فى توسيع المسجد الحرام وتزينيه للمرة الرابعة ٥٥١
الصورة الخامسة: فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه ٥٥٦
باب المعلَّى ٥٥٦

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق ٥٦٢
تجديد المسجد الحرام ٥٦٣
إنهيار كمر المروة ٥٦٦
ألبسة ملوك الجراكسة المصريين ٥٦٧
إرسال الصرة إلى الحرمين ٥٧٧
المقدسات المباركة التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة ٥٨٠
الميزاب الذهبى ٥٨١
كيفية توزيع وتقسيم الصرة المرسلة من السلطان سليم بن يا يزيد ٥٨٣
الغلال الواردة إلى الحرمين ٥٨٤
ترميم المقام الحنفى ٥٨٥
مقدار وقيمة الصرة المرسلة إلى الحرمين ٥٨٨
الصرة الخاصة بأهل مكة المكرمة ٥٨٨
الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة ٥٩٢
صورة العلم والخبر ٥٩٣
الرواتب العامة للصرة السلطانية ٥٩٥
ترتيب بدلات الشهادات ٥٩٨
الصحيفة الخاصة بمخ الطبقة الثانية ٦٠٢
صورة الأمر والقانون ٦٠٣
الرسالة السلطانية للشريف محمد بن عون أمير مكة ٦١٢
مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف ٦١٣
ما يرسل من باب السعادة ٦١٤
ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية ٦١٥
ما هو مقرر أن يرسل من الشام ٦١٥
مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة وداخل الحرم الشريف وسائر
المساجد فى كل شهر ٦١٦

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف ٦١٧
ما يوقد بشمع العسل ٦١٨
الشمعدانات والثريات والقناديل ٦١٩
عين زبيدة ٦٢٢
آخر تعمير لها ٦٣٧
المدارس الأربعة التى أقامها السلطان سليم فى مكة وكيفية إدارتها ٦٤٤
الصورة السادسة: تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم ٦٤٦
صورة تاريخ سليس ٦٥٠
رؤيا عثمان باشا ٦٥٦
تاريخ المكتبة ٦٦٠
(الوجهة الرابعة) الهدايا والتزيينات وأصحاب المعلقات العتيقة والكساوى والقناديل، والأشخاص الذين أهدوا للحرمين، ومما يتكون المحمل الشريف ٦٦٣
الصورة الأولى: فى ذكر الذين قدموا الهدايا للكعبة الله وزينوها، والذين رمموها وعمروها عند الضرورة ٦٦٤
تاريخ تجديد الميزاب ٦٧٠
سبب تسميته بالميزاب الذهبى ٦٧٤
النقود الإسلامية ٦٧٨
المسكوكات العثمانية ٦٨٧
الدرهم الشرعى ٦٨٨
الصورة الثانية: من قدم إلى الكعبة المعلقات والستائر ٦٩٠
الصورة الثالثة: كيف عُلِّقت الكسوة على كعبة الله ومن الذين نالوا شرف كسوتها وكيفية الاحتفالات فى مختلف المناسبات ٦٩٨
محاصيل القرى السبع الموقوفة للكسوة الشريفة ٧١٢
صورة وقف الكسوة الشريفة ٧١٤
الأماكن التى تجدد كل خمسة عشر عامًا ٧١٩

موكب الكسوة الشريفة فى مصر ٧٢٤
صورة دخول المحمل الشريف مكة ٧٢٥
وصول الصرة إلى أرض الشام وخروجها منها ٧٣٠
صورة إجراء حفل موكب المحمل فى مصر ٧٣١
الصورة الرابعة: تقسيم كسوة الكعبة وبيانها ٧٣٤
وصف الستارة الشريفة ٧٣٦
(الوجهة الخامسة) فى أوضاع مبانى المسجد الحرام القديمة وأبوابها وأعمدتها وشرفها ٧٣٧
الصورة الأولى: فى تعريف وضع المسجد الحرام القديم ٧٣٨
الصورة الثانية: عدد أعمدة المسجد الحرام القديمة ٧٣٩
الصورة الثالثة: عدد شرفات المسجد الحرام القديمة ٧٤٢
الصورة الرابعة: عدد أبواب المسجد الحرام القديمة ٧٤٣
(الوجهة السادسة) قباب المسجد الحرام الجديدة وهيئتها وعددها وشكلها، وبيان ذلك
الصورة الأولى: ما حدث للمسجد الحرام بعد تجديده ٧٤٥
الصورة الثانية: عدد قبب المسجد الحرام ٧٤٦
الصورة الثالثة: عدد شرفات المسجد الحرام ٧٤٧
الصورة الرابعة: فى بيان ما مضى ذكر من أبواب المسجد وجهاتها وعدد شرفات المسجد وأبوابه ٧٤٨
الأبواب الشرقية: (السلام ـ باب النبى ـ باب العباس ـ باب على) ٧٤٨
الأبواب الجنوبية: (باب بازان، باب البغلة، باب الصفا، باب جياد باب مجاهد، باب مدرسة الشريف عجلان، باب أم هانئ) ٧٤٩
الأبواب الغربية: (باب حزورة، باب إبراهيم، باب العمرة) ٧٥١
الأبواب الشمالية: (باب السدة، العجلة، القطبى، دار الندوة، باب الدريبة) ٧٥٣

الصورة الخامسة: مآذن المسجد الحرام وعددها ومآذن مكه وأماكن وجودها ٧٥٥
الأوراد التى تُقرأ فى المآذن ٧٥٧
الصورة السادسة: مساحات المسجد الحرام فى الداخل والخارج وخريطة مسطحة لها ٧٧٤
(الوجهة السابعة) فى تعريف الأماكن المقدسة والمساجد القديمة والمواضع الأخرى، وأوقات استجابة الدعاء ٧٨٣
الصورة الأولى: الأماكن المقدسة والمواقع الميمونة ٧٨٤
الأثر الأول: المطاف الشريف ٧٨٧
مسائل مهمة ٧٨٨
مواقع وعدد القناديل التى كانت توقد فى مواسم الحج ٧٩٠
سبب بناء الحطيم وتاريخ تأسيسه ٧٩١
أئمة وخطباء الحرم الشريف ٧٩٥
خدمة المسجد الحرام ٧٩٦
علم أصول الفقه وعلم الفقه ٧٩٩
فضائل الحطيم ٨٠٥
الأثر الثانى: المستجار ٨٠٦
الأثر الثالث: الملتزم ٨٠٦
الأثر الرابع: تحت الميزاب ٨٠٧
الأثر الخامس: حفرة المعجن ٨٠٨
الأثر السادس: مقام إبراهيم ٨٠٩
الأثر السابع: داخل البيت المعظم ٨١٥
سلم بيت الله ٨١٨
مسألة الصلاة داخل الكعبة ٨٢٠
الأثر الثامن: قرب بئر زمزم ٨٢١

تطهير بئر زمزم ٨٢٥
مساحة بيت الله ٨٢٨
فوق بئر زمزم ٨٣٠
الأثر التاسع: ما خلف مقام إبراهيم ٨٣١
المنبر الشريف ٨٣٢
الأثر العاشر: الصفا ٨٣٢
الأثر الحادى عشر: المروة ٨٣٤
الميلان الأخضران ٨٣٥
الأثر الثانى عشر: المسعى ٨٣٦
الأثر الثالث عشر: الحجر الأسود ٨٤٠
معلومات عن الحجر الأسود ٨٤٣
عجيبة ٨٤٥
نقل الحجر الأسود إلى بلاد هجر ٨٤٦
إعادة الحجر الأسود إلى مكة المكرمة ٨٤٩
مظالم القرامطة الخبثاء ٨٥٠
كيفية ظهور طائفة القرامطة ٨٥٧
سبب تسميتهم بالقرامطة ٨٥٨
مذهب القرامطة وطقوسهم ٨٥٩
هيئة شورى العلماء ٨٦١
الأثر الرابع عشر: باب الجرير (باب القفص) ٨٦٤
الأثر الخامس عشر: بيت خديجة الكبرى ٨٦٤
الأثر السادس عشر: مولد النبى ٨٦٦
الأثر السابع عشر: سوق الليل ٨٦٨
الأثر الثامن عشر: دار الخيزران ٨٦٨
دار الأرقم ٨٦٩

صخرة المحتبى ٨٦٩
الأثر التاسع عشر: الحجر المتكلم ٨٧٠
الأثر العشرون: حجر المتكأ ٨٧٠
الأثر الحادى والعشرون: دار العباس ٨٧١
الأثر الثانى والعشرون: رباط الموفق ٨٧١
الأثر الثالث والعشرون: منى ٨٧١
صورة الخط السلطانى (الكتاب) المتضمن أمورًا خاصة باستحقاقات أهالى الحرمين ٨٧٢
الأثر الرابع والعشرون: الجمرات الثلاث ٨٧٦
الصورة الثانية فى ذكر المساجد المأثورة فى مكة المكرمة ٨٨١
الأثر السادس والعشرون: مسجد ذى طوى ٨٨١
الأثر السابع والعشرون: مسجد التنعيم ٨٨٢
الأثر الثامن والعشرون: صهاريج سنان باشا ٨٨٢
الأثر التاسع والعشرون: مسجد الجن ٨٨٥
الأثر الثلاثون: مسجد الراية ٨٨٨
الأثر الحادى والثلاثون: مسجد المدعا ٨٨٨
الأثر الثانى والثلاثون: مسجد البيعة ٨٨٩
الأثر الثالث والثلاثون: مسجد النحر ٨٩١
الأثر الرابع والثلاثون: مسجد الخيف ٨٩١
الأثر الخامس والثلاثون: مسجد الكبش ٨٩٣
الأثر السادس والثلاثون: مسجد المرسلات ٨٩٤
الأثر السابع والثلاثون: مسجد إبراهيم ٨٩٥
الأثر الثامن والثلاثون: مسجد المشعر ٨٩٦
المزدلفة ٨٩٦
المأزمين ٨٩٦

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الثالث

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

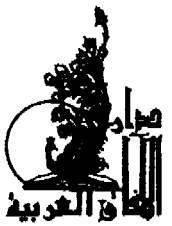

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري **الدكتور عبد العزيز عوض**

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد والثناء والمحامد لله سبحانه وتعالى الذى فاض نوره وتقدست ذاته والذى تجلت أنواره الفياضة فى سناء الوجود وتلألأت أنواره اللامعة فى عيون الشهود والذين اعترفوا بألوهيته إذ استجابوا قائلين «لله الواحد القهار» (غافر: ١٦) لسؤاله بديع المعنى والمآل «لمن الملك اليوم» سبحانه وتعالى جل شأنه قد جعل طيبة الطيبة مجتلى سلطنة الذى خلق من أجله الكون والمكان، وجعل ذلك الوادى المقدس نتيجة المفاجآت وملجأ الفلاح والنجاة لأفراد أمته القلقين، كما جعل لموسى وادى طوى منار الهدى عندما استجاب لأمره البليغ فى «اخلع نعليك» والصلاة والسلام، لحظة فلحظة، على صاحب الروضة الرضية ﷺ تلك الروضة التى تفوح منها روائح ورود رياض الثقلين، الصلاة والسلام عليه إذ ملأ عقول الباحثين عن الحقيقة بالهداية السرمدية، كما هدى الضالين وأفعم قلوبهم بعطور الرشد والسعادة، ولتهب نسمات رحمة الله سبحانه وتعالى على آله وأصحابه حراس العقيدة واليقين الذين كانوا كل واحد منهم مظلة الهداية والسلام لسكان الصحراء الذين ظلوا فى الفيافى وخزعبلاتها.

أما بعد ـ فلا يخفى على أنظار أصحاب الرأى المستنير أن وقائع الحرمين الشريفين التى حدثت فى عهد الأسلاف، والتى تحمل العبر والعظات، ظلت مدة مديدة مرتدية رداء اللغة العربية أمام أهل الرأى والمطالعة، لكن العثمانيين الذين كانوا ذوى دين وشوق إلهى ظلوا محرومين من القيام بمراسم الترحيب لهذين المشهدين على مراحل التوحيد، إذ ظلوا بعيدين عن أحداثهما لجهل معظمهم باللغة العربية الفصيحة واللغة الفارسية المزخرفة، وفى عصر السلطان الغازى

«عبد الحميد» العصر المبرور الذى شاهد نشر المعالى والعلوم، ظهرت إحدى هاتين الجملتين مرتدية ملابس اللغة العثمانية وذلك بإيعاز وتشجيع من صاحب السلطنة، تحت عنوان «مرآة مكة» أما الأخرى فلم يكتب لها الظهور لتقلب أحداث عجلات الزمان تقلب لون الحرباء.

وأخذ المطلعون على أحوال الحرمين الشريفين المقانع[1] من أصحاب الوجد يَرجوننى قائلين: «لتلبس تلك الحسناء العربية ملابس الفتاة الرومية»، كما أن الأصدقاء الكرام ضموا أصواتهم لرغبة هؤلاء إذ رأوا أن ظهور أحد شعارى التوحيد مكتسيًا بالزى العثمانى وترك الآخر على المحرومين من مشاهدة الروضة المطهرة واشتراكهم مع المحبين فى مجلس الصحبة ـ مما لا يتماشى مع شيمة العدل والتدين وبهذه البراعة فى الاستهلال دفعونى إلى القيام بهذا العمل، كما أننى أقبلت على هذا العمل مكررًا ببعض قدرتى وقلة حيلتى، آخذًا من كتاب الإمام السمهودى «خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى» هذا الكتاب الذى انتشر فى أرجاء العالم الأربعة حاويًا الأفكار البديعة والأخبار الشيقة مستمدا منه مادتى العلمية اللازمة لكتابتى، مضيفا إليه معلوماتى الشخصية وما حصلت عليه من الأخبار من تحقيقاتى الذاتية وبهذا ألبست تلك المحبوبة الجميلة ما قمت بتفصيله من الزى العثمانى، وبما أنه سيعكس أنوار عيون أصحاب الدين سميته «مرآة المدينة».

كما أن كتابى هذا الذى لا يخلو من الأخطاء نتيجة لقلة بضاعتى قد يبدو عديم القيمة والأهمية، ومع هذا فهو أول كتاب يشتمل على الأحوال العامة والخاصة للمدينة المنورة باللغة التركية، ومن هنا حاز شرف الأولية، كما أنه صدر فى عهد خلاصة السلالة العثمانية كهف الثقلين وخادم الحرمين ولى نعمتنا السلطان ابن السلطان ابن السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى وبهذا نال شرفًا آخر.

(١) العدول المرضيين.

فإذا ما نال هذا الكتاب شرف شمول نظرات السلطان الحكيمة سيكتب له قيمة سرمدية لا حد لها وبهذا الأمل أقدمه على عتبات نظرات الخليفة ظل الله على أرضه وأدعو الله أن يستجيب لدعائى هذا:

اللهم اجعل عرش ظلك الظاهر السلطان عبد الحميد خان مستقراً ما استمرت الدنيا قائمة، ومن الله التوفيق.

الوجهة الأولى

وتحتوى على عشر صور فى تعريف الأحوال الجغرافية لمدينة طيبة مهجر النبى ﷺ وتورد عادات أهلها.

فى ذكر الأحوال الجغرافية للمدينة الميمونة والبلدة الطاهرة وأوضاع أسوارها الجديدة والقديمة: طرزها وهيئاتها ومتانتها.

المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والتحية من الممالك المعمورة والبلاد المنتظمة، الثانية فى البلاد الحجازية، ولا يوجد بلد يشبهها من حيث المياه الجارية والرياض المتعددة والأبنية المنتظمة المزينة.

لم يهتم بها فى الزمن الجاهلى، كما ظلت فى صدر الإسلام لفترة طويلة فى حالة خراب، ولكن كلما تقدمت العصور الإسلامية وتجددت وترفت، أنفق السلاطين العظام أموالا زاخرة وبذلوا المساعى الجمة حتى أصبحت مدينة جديرة بمهجر سيد الأنبياء ـ عليه وعليهم التحايا ـ وذاع صيتها بذلك.

إن المدينة المذكورة والبلدة الطيبة المباركة تقع فوق واد مسطح مرتفع بين درجة ٢٥، ٢٠ دقيقة فى الشمال عرضا وبين درجة ٣٧، ٣ دقائق فى الشرق طولاً، ويحدها من الشمال جبل أحد ومن الشرق جبل الطبرى.

يروى أن عدد سكان المدينة المنورة وضواحيها يبلغ ثلاثين ألف نسمة إلا أنه لم يبق من ذرية الصحابة الكرام اليوم على أصح الروايات إلا رجل وبضع إناث، أما الباقون فقد أتى أجدادهم مجاورين واستوطنوا فى المدينة. لأن حجاج المسلمين يريدون أن ينالوا الأسرار الجليلة التى صدرت فى شفاعة النبى ﷺ فى حديثه: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[1] (حديث شريف) ويقبلون على زيارة «الروضة المطهرة» قبلة العاشقين والمتضرعين والمتوسلين بغية

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد، باب فيما بين القبر والمنبر: ٨/٤ - ٩. عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى، وعزاهما لأحمد بإسناد صحيح. إلا أنه قال: ما بين بيتى ومنبرى..»، وعزاه لأحمد وأبو يعلى والبزار عن جابر بن عبد الله، وعزاه أيضًا للطبرانى عن ابن عمر، ورجاله ثقات.

نيل الشفاعة الموعودة ويدخلون فى «الحجرة المعطرة» حيث يحلو لبعضهم أن يظلوا مجاورين لهذه الأماكن المباركة. وقد بلغ عدد هؤلاء أو الذين تركوا ديارهم مع أولادهم وعيالهم محتاجين الإقامة مجاورين الرسول محبة فيه، بلغ عدد هؤلاء اليوم ألفين أو ثلاثة آلاف شخص[1]. وأولاد المجاورين الذين ولدوا وعاشوا فى المدينة الطاهرة، يعدون من أهل البلدة الطيبة، وبهذا يكون أغلب سكان المدينة من ذرية أسلاف المجاورين الذين تكاثروا جيلا بعد جيل وكونوا جماعة كبيرة واشتهر بعضهم بأولاد «برى» كما اشتهر بعضهم بأولاد السمهودى كما اشتهر الآخرون بأسماء أخرى.

إن الذوات الذين عرفوا باسم أولاد «برى» أصلهم من الغرب، وأبناء السمهودى من البلاد المصرية المجاورة، والآخرون ينتمى كل واحد منهم إلى بلد ما. تقع هذه البلدة السعيدة فى الجهة الشمالية الغربية من مكة المكرمة وعلى بعد أربعمائة كيلو متر منها، وعلى بعد مائة كيلو متر من الجانب الشرقى من البحر الأحمر وفى نهاية صحراء عظيمة، وطريقها البرى الواصل إلى مكة المعظمة عبارة عن صحراء رملية وجبال صخرية ووديان قابلة للزراعة.

وهى محاطة بسور على شكل قطع ناقصة وجميلة من جهاتها الأربعة، والجهات الأربعة لهذا السور محاطة بجبال متسلسلة ومحددة، وفى جهتها التى تهب منها رياح السموم قطعة واحدة من صخرة نصبت حولها قلعة قديمة ولكنها متينة تعرف بقلعة «أروج حصار».

وطول هذا السور «١٤٠٠٠ ذراع» تخمينا وارتفاعه عشرون ذراعا وسمكه عشرة أذرع، وأحجاره فى غاية الصلابة والمتانة، وله خمسة أبواب اشتهرت بأسماء: درب المصلى، درب الصغير، درب الشامى، درب السوارقية، درب البقيع.

درب المصلى: ويطلق عليه درب السويقة وباب السوق وباب المصر، وقد كتب

(١) فى زمن المؤلف.

فوق طاقته ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٠) وقد طرحت مبانيه وأسست من حجر أسود فى غاية الإحكام إلا أن بعض أماكنها أخذت تتشقق والباب المذكور فى الجهة الغربية من السور وفى جهة «مصلى عيد النبى» وما بينه وبين باب السلام «ستمائة خمسة وأربعون» ذراعا.

الدرب الصغير: ويقع بالقرب من حصن الأمير وفى جهة درب المصلى.

الدرب الشامى: ويطلق عليه الدرب الكبير أيضا.

درب البقيع: هو الباب الكبير الذى يقع فى الجهة الشرقية من السور، وهو الباب الذى يعرف بباب الجمعة، وبينه وبين باب جبريل مسافة أربعمائة ثلاثة وثلاثون ذراعا.

إخطار

الذراع الذى أذكره فى تعريف هذا السور هو الذراع المعمارى، ولكن فى قياس الحجرة المعطرة أو ساحة مسجد السعادة، اعتبر الذراع الذى يستخدم فى البلاد المصرية والحجازية، وعلى هذا يلزم أن يكون هذا المقياس مقياسا فى طول شبرين، لأن الذراع الآدمى ومقياس مصر والحجاز ذراع وثلث ذراع.

درب البقيع: ظل هذا الباب مسدودا إلى سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وقام الملك الصالح المصرى بفتح هذا الباب فى خلال تلك السنة وأدخل السرور فى قلوب سكان هذه الجهة، ولكنه سده مرة أخرى بعد فترة، واندرس أساسه وانمحى شكله وبهذا أصبح عدد أبواب أسوار المدينة أربعة. ولما وفق والد السلطان كثير المحامد فى تجديد مسجد السعادة أمر بفتح الباب الشامى لتسهيل نقل أنقاض مبانى مسجد السعادة عند تجديده وبهذا أصبحت أبواب المدينة المنورة خمسة أبواب مرة أخرى.

إن الأبواب الخمسة أكثر الأبنية نظاما بالقياس للمبانى الموجودة فى البلاد

الحجازية، وكل واحد منها قد أسس وفتح تحت أبراج منقوشة بألوان متنوعة ومستحكمة بنيت لصد هجمات عربان البوادى، ويبعد كل واحد عن الآخر مسافة منزل رصاص وبنيت مطابقة لفن وقواعد بناء القلاع والحصون على شكل نصف دائرى، وصنع فوق جدران الأسوار بعض الأبراج وزرعت فى داخل المدينة وخارجها أشجار نخيل لا تعد ولا تحصى وذلك بمساعدة وفرة المياه وجودة الهواء.

ولم يكن فى عصر السعادة أسوار ولا مستحكمات، وكانت دور أجداد الأنصار من قبائل «الأوس والخزرج» متصلة بعضها ببعض مثل قرى متسلسلة، لذا كان شكل المدينة الطاهرة بلدة طولية جسيمة وقد وصل أحد أطرافها إلى قرية «قباء» التى تثير الشوق إليها. وقد دام عمارها الذى حدث فى عصر النبى ﷺ إلى واقعة الحرّة الشهيرة، وبعد ذلك آلت إلى الخراب تدريجيا، وبما أنها قد صغرت إلى أقصى حد فى عهد طائع الله بن المطيع لله العباسى، فقد أخذ العربان الذين يسكنون الصحراء يثورون من حين لآخر ويطوفون ويمضون ثم يغيرون على المدينة وينهبون أموال الأهالى ويستولون على كل ما يمتلكون، فأراد عضد الدولة[1] ابن بويه أن يحمى سكان دار السكينة وأموالهم من نهب أشقياء البدو وأن يخلصهم من تسلطهم، فأحاط تلك المدينة بسور متين فى سنة «٣٦٠هـ»[2]، ودام السور الذى بناه عضد الدولة وأسسه ما يقرب من مائتى عام، إلا أنه لم يعمر ولم يصلح ولم يرمم لفترة طويلة فآلت أبراجه وجدرانه بالتدريج إلى الخراب واندرس حتى لم يبق أثر لأسسه، وأخذ العربان الذين لا يذعنون فى إزعاج الأهالى، لذا بنى صاحب رباط العجم[3] «جمال الدين محمد بن أبى منصور» الأصفهانى سورا جديدا قويا فوق أنقاض السور القديم المندرس، وبهذا

(١) كان هذا الشخص وزير «طايع الله أبو شجاع ركن الدولة» ومن آثاره الخيرية سوق شيراز الذى يطلق عليه «سوق الأمير» ودار شفاء بغداد، وأضرحة الإمام على والإمام الحسين «رضى الله عنهما» فى النجف بكربلاء

(٢) يروى البعض أن السور المذكور قد طرح فى سنة «٣٦٣هـ».

(٣) قد عرف موقع هذا الرباط فى الصورة الأولى من الوجهة الثانية عشرة.

أنقذ الأهالى الضعاف من شقاوة الأشقياء وذلك فى سنة ٤٥٠هـ مع أن هناك روايات مختلفة كثيرة يتناقلها الناس بخصوص القلعة القديمة التى قام بتجديدها المرحوم جمال الدين فمن المحقق أن تلك القلعة هى التى جددها جمال الدين المذكور إذ قال شهاب الدين ابن أبى شامة فى كتابه نقلا عن ابن الأثير:

بينما كان ابن الأثير يؤدى صلاة الجمعة فى مسجد المدينة المنورة، رأى أن أحد الأشخاص يطيل فى الدعاء لجمال الدين الأصفهانى فسأله عن سبب ذلك؟

فكان رد الرجل: إن أهل دار السكينة يدينون فى كل وقت وآن وساعة بالدعاء لجمال الدين؛ وكيف لا يدعون له؟! أليس هو الذى أنقذ سكان مدينة الرسول من إساءة العربان ومضرة أهل العدوان، إذْ أحاط المدينة بالسور الذى تراه وكانوا قبل ذلك أسرى فى أيادى العربان وكان أشقياء العرب يهاجمونهم فى كل آن وينهبون أموالهم ويغتصبون حيواناتهم ويغيرون عليهم. ولسنا وحدنا نخصه بالدعاء حتى خطباء منبر السعادة يقولون فى أثناء خطبهم اللهم صن حريم من صان حريم نبيك بالسور، محمد بن على بن أبى منصور، فرحمه الله ورضى الله عنه.

إن رواية ابن أبى شامة هذه تؤيد القول الذى يحكى أن بانى هذا السور ومجدده هو جمال الدين محمد بن أبى منصور.

ويجرح ابن خلكان القول الذى يقول إن هذا السور قد بنى من قبل عضد الدولة قائلاً إن «إسحاق بن محمد الجعدى» هو الذى كان قد بنى سور المدينة القديم فى خلال سنة مائتين وثلاث وستين، وكان للسور الذى بناه إسحاق بن محمد أربعة أبواب فى ذلك الوقت يفتح أحدها إلى جهة مقبرة بقيع الغرقد والثانى إلى عضد الدولة وادى العقيق والثالث إلى قبور الشهداء والرابع يفتح إلى جهة الغرب؛ وقد خرب هذا السور الذى بناه إسحاق بن محمد، وهذا هو سبب نسبة السور القديم إلى عضد الدولة ابن بويه وحكم بهذا المقال أن السور القديم من آثار إسحاق بن محمد وبعض المؤرخين يؤيدون هذه الرواية أيضًا

قائلين إن الذى بنى السور القديم هو معز الدولة، وجدده فى سنة أربعمائة وخمسين صاحب رباط عجم جمال الدين الأصفهانى، وإن تمسك المؤرخون بادعائهم هذا إلا أن الرواة الذين نقلوا خبر ابن بويه من الأشخاص الذين يوثق فى أقوالهم وهذا يقتضى ترجيح هذه الرواية على الروايات الأخرى.

والمؤرخون الذين رأوا آثار خرائب السور القديم الذى بناه عضد الدولة ذهبوا إلى أن هذا السور يمتد من جبل سلع إلى وادى بطحان يحتوى فى داخله ما نسميه فى زماننا «بمسجد النبى» والذى كان مصلى العيد المصطفوى، ومبانيه وما حوله من جميع البيوت وبهذا ادعوا أن السور القديم كان سورًا عظيمًا.

وبعد أن جدد المرحوم جمال الدين سور المدينة وأنقذ الأهالى من أن يداسوا تحت سنابك خيول العربان وخلصهم من شرورهم، أخذ سكان مدينة الرسول يزيدون يومًا بعد يوم وبناء على هذا أصبح لازمًا بناء البيوت خارج السور وامتلك فقراء الناس قطعان من الأرض فى خارج السور وأخذ كل واحد منهم يبنى بيتًا على قدر طاقته، إلا أن أشقياء العربان الخبثاء أخذوا يزعجون فقراء السكان فى خارج السور كلما وجدوا فرصة نتيجة لما جبلوا عليه من الخسة إلى أن ورد إلى المدينة الشهيد «نور الدين» وقد ذهب الشهيد نور الدين بغتة إلى المدينة الزاخرة بالرحمة بناء على رؤيا رآها ـ كما ذكر فى الوجهة التاسعة والصورة الأولى ـ وانتهز أصحاب البيوت التى فى خارج السور الفرصة وقدموا طلبًا يفيد لجملة ما يأتى: يا أيها الملك! لم تبق لنا طاقة لتحمل غارات أشقياء العربان، إذ يغيرون علينا من حين لآخر ويستولون على حيواناتنا ويأسرون أولادنا وعيالنا، نرجو أن تنقذنا من شرور هؤلاء بأن تصدروا أمركم ببناء سور يحيط بمنازلنا، وما كان من الملك إلا أن أسعف رجاء الأهالى وأمر بهدم السور القديم الذى آل للسقوط والخراب وأسس سورًا جديدًا يحيط بالمنازل والمحال التى بنيت فيما بعد وما زال هذا السور مشهورًا إلى يومنا هذا، وهكذا أنقذ أصحاب المحلات الجديدة والبيوت من تسلط عربان الصحراء وإضرارهم وذلك فى سنة «٥٥٨».

وقد رأى فريق من المؤرخين فوق الباب الذى فتح فى جهة بقيع الغرقد من السور عبارة: «هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أقسنقر غفر الله له، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» وذهبوا إلى أن السور المذكور قد شيد من قبل محمود بن زنكى. ومن هنا لا شبهة فى أن السور المذكور من أثر بناء الشهيد نور الدين.

والشهيد نور الدين هو «محمد القاسم» ابن الملك المنصور عماد الدين بن أبى الجواد، زنكى أقسنقر.

وقد ولد فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ورحل عن دنيانا سنة تسع وستين وخمسمائة إلى عالم البقاء والخلود وبناء على هذا يكون قد مات وعمره أربع وخمسون سنة رحمه الله.

وقد أمن سور المدينة الطيبة الذى بناه الشهيد نور الدين السكان من تسلط العربان، وحافظ عليهم ما يقرب من مائة وخمسين عامًا، إلا أن تقلبات الزمان ومرور الأيام خربت السور الجديد وحفرة الخندق التى حفرت من قبل سعد بن ثابت وأخذت هجمات الأشقياء المتوالية تزعج سكنة دار الهجرة مرة أخرى، وعندئذ جدد الملك الصالح ابن الناصر قلاوون وهو من الملوك الشراكسة المصريين الأماكن الخربة من ذلك السور فى سنة ٧٥٥، كما شيد وأصلح السلطان قايتباى الأماكن التى خربت وانهدمت من ذلك السور.

شرع فى حفر الخندق سالف الذكر، بتشجيع سعد بن ثابت جماز من ولاة المدينة واتفاق الأهالى واتحاد الأعيان والسادات فى سنة ٧٥١ هجرية، إلا إنه تم حفره فى عهد وولاية فضل بن جماز الذى أصبح واليًا بعد موت سعد بن ثابت. وللأسف الشديد قد امتلأ ذلك الخندق بالأحجار الصغيرة نتيجة للإهمال وأصبح أرضًا مستوية حيث أنبتت بعض الخضر والفواكه.

وكما لم تجدد أى جهة من جهات السور منذ عصر الملك قايتباى المصرى إلى عصر السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عليهما الرحمة والغفران، أخذت

أبراجه وجدرانه تتشقق وتنهار فانفتحت شقوق كبيرة وأخذ البدو يمارسون عاداتهم القديمة المألوفة فيمدون أياديهم إلى أموال الأهالى والمواشى وأخذوا يزعجون سكنة دار السكينة، مما دفع الأهالى إلى عرض أحوالهم على أعتاب السلطان سليمان وإعلامها فى سنة ٩٣٧ هجرية، فصدر الأمر السلطانى بتعمير سور المدينة القديم بشكل متين قوى وإنقاذ الأهالى الكرام من تسلط اللصوص، وتعيين من يقتضى تعيينهم من أجل هذا العمل على وجه السرعة وإرسالهم إلى دار الهجرة، وإشعار ذلك إلى والى ولاية مصر، وبناء على صدور الصحيفة التى تحوى الأمر السلطانى وإرسالها إلى والى مصر، تم تدبير الشخص الذى أنيطت به مهمة أمانة البناء كما دبرت المبالغ اللازمة، وتوجه مستصحبًا معه لوازم البناء إلى المدينة المنورة وتحرك من مصر لينال هذا الشرف وعندما وصل إلى دار الهجرة أخذ يقيس الأماكن التى تحتاج إلى التعمير والبناء من السور فتكشف له أن أربعة آلاف ذراع معمارى من الجدران فى حاجة إلى التأسيس والتشييد من جديد ماعدا الأبراج والدعائم، وكان ارتفاع هذا الجدار سبعة عشر ذراعًا وسمكه عشرة أذرع، وقد جلب أمين البناء العمال المطلوبين من المدينة المنورة، وابتدئ فى حفر الأساس فى أواسط سنة ٩٣٩. وقد بذل أقصى الجهود وأخلص المساعى فى بناء السور وقدمت التسهيلات اللازمة من جميع الجهات ومع ذلك لم يتم بناؤه. إلا فى ظرف سبع سنوات واكتمل فى أواخر سنة ٩٤٦ وفتحت للسور الخارجى أربعة أبواب وللسور الداخلى الذى يطلق عليه «القلعة الداخلية» بابان.

وكان أحد أبواب «القلعة الداخلية» مفتوحًا أو مغلقًا على صورة دائمة بينما كان الآخر قد صمم على أن يفتح ويغلق فى وقت الحاجة فقط لذلك أطلق عليه «الباب السرى».

وقد غطيت مصاريع أبواب القلعة الخارجية والداخلية بألواح حديدية بينما صُنِعَ «الباب السرى» من الحديد الخالص وقد رممت بروج القلعة الخارجية أكثر من بروج القلعة الداخلية، وعمقت حفرة الخندق وشيدت جدرانها قوية متينة على قدر الإمكان، وأجرى مقدار كاف من المياه من «عين الزرقاء» حتى لا يحرم

الأهالى فى داخل السور من المياه وفتح منهلان أحدهما خاص بالرجال والآخر بالنساء.

قال صاحب «مفتاح السعادة» أنفق السلطان سليمان لتجديد السور ستين ألف قطعة ذهبية وقال «السيد كبريت المدنى» أنفق مائة ألف قطعة ذهبية. وأرسل أربعة عشر ألف أردب من الحبوب مثل الأرز والحنطة والفول والشعير، وما لا يحصى ويعد من العدد والأدوات وكان ما أرسل من الآلات والحبوب والأدوات خارج الحساب المذكور.

ولم تنفق كل هذه النقود فى تعمير السور فقط بل أنفقت أيضًا ـ كما سبق فى بحث تعمير الحرم النبوى وتفضيله ـ فى تقويض الجدار الغربى للمسجد النبوى ومئذنة «الشكلية» و«باب الرحمة» كلها من أساسها وتجديدها فيلزم أن تدخل النقود التى ذكرها صاحب كتاب مفتاح السعادة و «السيد كبريت». والبيت المذكور الذى يقول.

(أنظر إلى السلطان سليمان لقد بنى قلعة كسد الاسكندر فاطلب له الرحمة).

يؤكد أن السلطان سليمان ـ عليه رحمة الله المنان ـ هو الذى قام بتجديد سور المدينة المنورة، وصان أهلها من تسلط العربان، وهكذا يئس أشقياء العرب من التسلط على المدينة ونهب أموال الأهالى ومواشيهم ـ رحمه الله رحمة واسعة.

وبخصوص القلعة فإنه من المعلومات التى ذكرت هاهنا، يفهم أن المدينة المنورة كان لها سوران: الأول غربى والثانى شرقى وكانت حدود المدينة المذكورة محاطة بهذين السورين.

وكل من يسكن بين أحد السورين يطلق عليه مدنيًا، وقد جدد السور الغربى بالطوب اللبن فى أوائل الفترة الوهابية من قبل الأهالى على أسس السور القديم.

وجوب مراعاة حق جيران رسول الله ﷺ.

وقد قال سلطان الكائنات وهو يبين توصية جبريل خيراً بأهل المدينة. «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] (حديث شريف). وبناء على هذا يجب أن يخشى قول كلمات غير لائقة فى حق جيران رسول الله، وقد بين الرسول ﷺ وجوب شفاعته للشخص المدنى الذى يظل على إيمانه ويسلم روحه على تلك الحالة فى حديث روى عن الإمام الترمذى وابن ماجة والذى رواه ابن حبان عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها»[2] ومن أجل هذا فمن واجب العباد الموحدين أن يحبوا أهل المدينة الميمونة وأن يظهروا لهم حيثما قابلوهم مظاهر التعظيم والتكريم. إن مراعاة جانب أهل المدينة كأنها توقير وتعظيم لسلطان الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ ولأجل نيل رضا النبى ﷺ قد أبدى «ملوك الأمويين والعباسيين والأيوبيين والشراكسة» أعظم توقير للحرمين الشريفين ورعوا جانب سكانها أعظم رعاية، وبناء على ما سوف يعرف فى الصور الآتية قد تركوا آثاراً خيرية كثيرة ستخلد أسماءهم فى صحيفة العالم.

وقد فاق السلاطين العثمانيون الملوك السابقين فى هذا الصدد إذ خصصوا لأهالى الحرمين ومجاوريهما جرايات مستوفية وتعيينات من الأشوان والمخازن المحلية، والمعاشات من وزارتى المالية والأوقاف وأنعموا عليهم بالصرر والهدايا وعملوا على تأمين راحتهم وإنقاذهم من غارات أشقياء العربان وأحيوا الآثار المسعودة بالتعمير والتجديد. ونذكر خاصة السلطان عبد المجيد خان ـ طيب الله

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب حديث رقم (٦٠١٤، ٦٠١٥) فتح البارى (١٠/ ٤٤١) ومسلم فى كتاب البر والصلة حديث رقم (١٤/ ٢٦٢٤، ١٤١/ ٢٦٢٥ ص (٢٠٢٥) ط. عبد الباقى، باب الوصية بالجار.

(٢) صححه الترمذى والدار قطنى فى العلل الكبير بما يطول ذكره. انظر: إعلام الساجد، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

ثراه ـ كان المسجد النبوى قد أشرف على الخراب فى زمنه. كما بين ذلك فى الصورة الخاصة ـ فأمر السلطان بهدمه من أساسه وبنائه رصينًا متينًا محافظًا على زينته الخارجية. وقد شرع فى بناء المسجد بناء على رغبة السلطان وتم إنشاؤه فى ظرف اثنى عشر عاما، ولا شبهة أن السلطان المذكور قد أبهج روح رسول الله ﷺ بهذه الخدمة المفتخرة وبإظهار الحرمة والتوقير بسكنة الحرمين الشريفين الكرام.

وبما أن الرسول ﷺ العارف العالم برموز الحكم قد بين لزوم محبة أهل المدينة جيرانه بأحاديث كثيرة، فيجب عرض المحبة والمودة لأهل المدينة. ومن علامات العبودية الخاصة حُبُّ من يحبه الرسول ﷺ والابتعاد عمن لا يحبه. ومع كل هذا فمهما أظهر لسكان أهل المدينة من المحبة والوداد والأخوة، فلا يمكن مقابلة ما نراه فيهم من الرعاية والاحترام. والخدمة التى نقدمها لهم، هى إرسال صرة لهم مرة فى السنة مع أنهم يدعون لنا فى صلواتهم الخمسة أمام النبى ﷺ، وإنهم يلاطفون زوار رسول الله ﷺ غاية الملاطفة، وحيثما رأوهم يستفسرون عن أحوالهم ويحاولون إظهار أية خدمة لهم. وإنهم يخجلون من الواحد منهم الذى يخلو بيته من ضيوف فى مواسم الحج ويوبخونه قائلين معاتبين: «لو كنت رجلاً سعيدًا مستقيم الأطوار لبحثت عن ضيف وأطعمته» ومن عاداتهم أن يستقبلوا قوافل الحجاج فى ناحية جرف[1] وأن يظهر أطفالهم فرحهم وسرورهم بقدوم الزوار بإنشاد

سيـــد خواجـه يـأكـــل دجاجة
فى صحن صينى أنـــت سلـــيمى

وإنهم يسارعون فى استضافة كل من يقابلونه من الزوار سواء أكان فى موسم الحج أو غيره بدعوته إلى منازلهم، وكلهم رجالهم ونساءهم ويطيب خواطر الضيوف، وإذا لم يكن عندهم قدرة لاستضافة من يدعونهم إلى دورهم

(١) جرف تبعد عن المدينة مسافة ساعتين.

يستدينون ليقوموا بواجب الضيافة، وإذا قورن ما يقدمه الزوار من النقود والهدايا بما يقدمه أهل المدينة من الرعاية فلا يساوى ما يقدمونه عشر معشار ما يرونه من حسن الرعاية وما يقدم لهم من الضيافة.

قد أقمت أنا مؤلف الكتاب فى سنة ١٢٨٩هـ فى الدار السعيدة دار ابن نقيب الأشراف، من السادات العلوية محمد علوى بافقى أفندى.

وكان معى تسعة من رفقائى، وكان سيد أفندى يحضر لنا فى اليوم مائدتين من الطعام كاملتين، وكان أصدقائى يتحدثون فى أثناء الطعام ويخوضون فى الحديث عن قيمة ما يقدم لهم قائلين إن مثل هذه المائدة يمكن تجهيزها بقطعة ذهبية. يعنى بمائة واثنين وثلاثين قرشًا. ولم يفارقنا سيد أفندى لحظة واحدة فى أثناء إقامتنا عنده، كما أنه لم يترك أثرًا فى المدينة لم يأخذنا إليه، وإذا انتقل بنا الكلام إلى السيدة والدته فمن العادات المرعية بين نساء المدينة أن تقوم أكبر السيدات سنًا بالطبخ، وألا يُدْخَلَ المطبخ دون وضوء. فالسيدة المذكورة لم تغادر المطبخ مدة إقامتنا تاركة النوم والراحة.

ويقتضى الوقوف على دقائق الأحوال فى المدينة وأسرارها، الإقامة فى المدينة فترة ما والاختلاط والائتلاف بوضيعها وشريفها، لذا لا يستطيع أن يعرف دقائق الأمور فى المدينة من يقيم بها يومين أو ثلاثة أيام.

البيت:

فيمحوك الله فى لحظة مثل الرماد

لا تطل يدك ولا لسانك لأهل تلك البلدة

فى ذكر وبيان كيفية دفن من أدركه الأجل فى المدينة الطاهرة.

فى مقابر البقيع، يصلون الصلاة التى حان وقتها ثم يصلون صلاة الجنازة ويخرجون الجنازة من باب جبريل وينقلونها بالتهليل والتوحيد إلى مقبرة البقيع حيث يدفنونها.

وإذا ما وجدت فى المسجد النبوى عدة جنازات سواء أكانت للرجال أو النساء، تصلى عليها فى جماعة واحدة ويصافحون أقارب الميت معزين، وهذه العادة سنة طيبة بقيت بعد وفاة سيدنا «الحسن بن على» رضى الله عنهما، لأن أخاه الحسين وقف بجانب باب مقبرة البقيع بعد دفن الحسن بعد وفاته وتقبل تعازى الناس بكل احترام.

ولما كان غسل الموتى من غير رخصة ممنوعًا منعًا باتًا وقد وضعت هذه القاعدة لمعرفة عدد الذين يموتون فى السنة بالمدينة المنورة، لذا تعطى من المحكمة للوفيات قطعة من تذكرة يطلق عليها «إجازة» ولا توجد فى المدينة الطاهرة مقابر متعددة، ومهما يكن المتوفون ينتسبون إلى أسر كبيرة فلابد أن يدفنوا فى مقبرة «بقيع الغرقد».

ومقبرة بقيع الغرقد ـ كما عُرِّفَتْ فى الصورة الثامنة من الوجهة الثالثة ـ خارج السور الذى ينسب إلى جمال الدين الأصفهانى وأمام باب الجمعة، لذا تخرج الجنائز من باب جبريل وتحمل عن طريق «باب الجمعة» إلى بقيع الغرقد ومقبرة بقيع الغرقد محاطة بسور وجدار فى ارتفاع ثلاثة أذرع ولها خمسة أبواب وفى داخلها أحد عشر ضريحًا.

ولما كانت تلك المقبرة الشريفة من أكثر المقابر بركة، فقد دفن فيها الذين

صعدوا إلى عليين وسكنوا قصور الخلد من بنات وأزواج النبى الطاهرات وأكثر أصحاب رسول الله ﷺ المهتدين وعطروا ترابها، ودفن فيها جميع الذين توفوا فى المدينة منذ عصر السعادة، وقد ثبت بناء على أصح الروايات دفن سبعة آلاف من الصحابة بقطع النظر عن التابعين وأتباع التابعين من الصلحاء والأتقياء.

فالجنائز التى تدفن فى مقبرة البقيع الشريف توضع فى لحد يسمى «قصقية» ولكل قصقية باب مستقل. وبناء على إخبار من اطلع على الأمور، أن لو فتحت قصقية الجنازة التى دفنت اليوم غدا لدفن جنازة أخرى فلا يبقى أثر من عظام الجنازة الأولى ولا تشم لها رائحة عفونة، وذلك من حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه الحالة تصدق مآل الحديث النبوى ﷺ: «كأنهم ينثرون أهل البقيع مثل الورد فى رياض الجنان» (حديث شريف).

ليس فى المدينة تابوت خاص فالميت سواء أكان من الرجال أو النساء يدفن بكفنه، وتغلق أبواب وفتحات اللحود الجديدة التى صنعت من أجل الجنازة باللبن والتراب بعد الدفن.

والذين يتوفون فى المدينة المنورة ويدفنون فيها ينالون ثواب الشهيد الذى قتل فى سبيل الله كما ورد فى الخبر.

بينما كان الرسول ﷺ يوما فى البقيع جاء رجل من الخارج وقال وقد رأى قبراً يحفر «ما أقبح مكان الشخص الذى سيلقى فى هذا القبر» فأجابه الرسول معاتبًا.

«ما أسوأ ما نطقت» وبهذا بين لذلك الصحابى أنه يجب أن يصحح ظنه وعقيدته فقال الصحابى: إننى أردت أن أقول لو كان هذا الرجل مات فى أثناء قتال العدو بدلاً من موته فى الفراش فأجابه الرسول بما معناه: ليس فى الدنيا بلد يماثل هذا البلد، فالذين يموتون هنا كأنهم يستشهدون[1] فى سبيل الله، عندى أن

(١) روى الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن سبيعة الأسلمية، أن رسول الله ﷺ قال:
«من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لا يموت بها أحدٌ إلا كنتُ له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة».
(مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٦).

المكان الذى سيكون قبرى بقعة لا تماثلها بقعة على وجه الأرض. (حديث شريف) وبين أن تلك المقبرة الشريفة مكان فى غاية الاحترام.

بيت

فـلتمت فـى قـرب أحمـد وجـواره

واكتسـب الحيـاة باقيـا فـى هـذا المكـان

ومن حكم عادات أهل المدينة زيارة البقيع الشريف، الصغار والكبار الرجال والنساء جميعًا فى ليلة الجمعة أى بعد عصر يوم الخميس بعد أداء صلاة العصر، ويضع جميع الزوار فوق القبور المعروفة ريحانًا ونباتات خضرًا، وبما أنهم يعتقدون أن هذا من جملة سنة الرسول السنية يخافون تركه.

منظومة

ذلك المتوجـه إلـى أرض البقيـع — أحـد العـروش بـين المقـام الرفيع

كل جـانب منهـا نـور يـزين الأرض — كل تلك النجوم من تلك الجهات الأربع

ولأن المنهى هو حصاد للربح المطلوب — فـإن سـتارة الورد فتيلة لنور القلوب

كان الرجال والنساء يزورون البقيع معًا فى الماضى، وقد ألغيت هذه الأصول وأخذ الرجال يجرون السنة المصونة بالذهاب إلى البقيع يوم الخميس بعد أداء صلاة الظهر كما أن النساء يذهبن يوم الجمعة بعد أداء صلاة الفجر.

توضح وتبين كيف يستقبل شهر رمضان الشريف ـ مظهر الغفران ـ من قبل أطفال المدينة وكيف يكون رمضان فى مدينة طيبة.

استقبال رمضان الشريف:

يجتمع أطفال المدينة الطاهرة ـ كنوع من ألعاب الأطفال ـ فى ميدان ما فى التاسع والعشرين من شهر شعبان كل سنة، وبعد ما يعينون من بينهم ثلاثة أطفال يتصفون بطلاقة اللسان ينصبون أحدهم شيخ الحرم والثانى قاضيًا والثالث أمير الحج، ويخرجون فى وقت الأصيل إلى خارج السور ويعودون ومعهم رمضان الشريف ويقال لهذه اللعبة بين سكان دار السكينة «استقبال الأطفال لرمضان الشريف».

وحيثما مد السمع وأنصت بالدقة فى حين الحيرة لمسجد الحرم النبوى الذى يصير وكأنه قد شعشعت فيه الأنوار كأنها أمواج البحار المتلاطمة تسمع اهتزازات أجنحة الملائكة العظام.

وعندما يحل وقت الإفطار وتطلق المدافع ويؤذن فوق المآذن يدعو أصحاب طعام الإفطار من على يمينهم ويسارهم ولا سيما الضيوف إلى الطعام بتعبير مخلص قائلين: «تفضلوا يا أيها الرفاق» ويحسنون ببقية الطعام إلى الزوار الغرباء وبعد خمس أو ست دقائق تتلى الإقامة فيقوم الجميع لأداء صلاة المغرب.

وبما أن تأخير الإقامة فى صلوات المغرب فى رمضان من العادات القديمة فالسادة المؤذنون يؤخرون الإقامة رعاية لتلك العادة الطيبة إلى ختام الإفطار.

وتتم مراسم الإفطار على الوجه المذكور وبعد أداء الصلاة يستصحب كل شخص من أهل المدينة واحدًا أو اثنين من الضيوف ويذهب إلى منزله وبعد الطعام يعود مرة أخرى إلى المسجد وبناء على هذه الأصول تقام فى حرم مسجد السعادة كل ليلة ما يقرب من مائة مائدة للإفطار.

مطالعة

ويُذكر ما يحدث فى بعض البلاد الإسلامية، ولا ذكرت سيما باب السعادة، من الإفطار قبل صلاة المغرب عادة أهل الحرمين الشريفين التى ذكرت ومن هنا يفهم أنه إنما اتخذت هذه العادة فى الممالك الإسلامية اقتداء بأهالى الحرمين الشريفين.

وفى هذه الأصول ـ أى فى عدم ملء المعدة بالطعام مرة واحدة، بل أكل الطعام بعد إفطار خفيف وأداء صلاة المغرب ـ منافع طبية عظيمة. لأن ملء المعدة الفارغة مرة واحدة يؤدى إلى صعوبة إجراء المعدة وظيفتها ويسوق إلى مشكلات وهذا مضر من جميع الوجوه، ومن المفيد تعويد المعدة على أداء وظيفتها بطعام خفيف.

صورة أداء صلاة التراويح:

بعد الآذان يؤدى المصلون صلاة العشاء فى جماعة واحدة. ثم يُشْرَعُ فى أداء صلاة التراويح وقد انقسمت جماعات المسلمين إلى أربعين أو خمسين فرقة. ولكل فرقة إمامها ومؤذنها وأمامهم شمعدانان كبيران وفوانيس متعددة والفوانيس التى أمام الفرق فى ألوان غير مختلفة وتفترق كل فرقة إلى جهة ما من المسجد فيختم بعضها القرآن فى أثناء صلاة التراويح ويؤدى بعضها صلاتهم بقراءة وتلاوة سور طويلة أو قصيرة. فبعض الأئمة يكبرون وبعض الأئمة يتلون القرآن وهذه الحالة المليئة بالفيوضات الإلهية تجذب الأنظار وتثير الحيرة وينجذب إليها الروحانيون للتأمل والمشاهدة وفى ختام التراويح يجرى مرسم موكب الشموع.

سبب إقامة موكب الشموع:

يضاف فى ليالى رمضان الشريفة إلى الشمعدانين الذهبيين اللذين يوقدان بشمع النحل فى الحجرة المطهرة فى الأيام العادية، ثمانية شمعدانات أخرى حتى تُضَاء الحجرة المطهرة بصورة عظيمة. ومن العادات المستحسنة أن يدعى ثمانية أشخاص من ذوى الهيئات من الخارج لإعادة الشمعدانات التى وضعت فى حجرة

السعادة إلى أماكنها فى المخزن، والقيام بهذا العمل والفوز بخدمة سيد الكونين من الأمور الصعبة ألا فليكتبه الله سبحانه وتعالى لجميعنا، لأن تلك الخدمة التى تستوجب المغفرة تنحصر فى أكابر المدينة المنورة من أعيانها وأشرافها وبعض الموظفين الكبار المحليين؛ وبناء على هذا يكتب لثمانية أشخاص تذاكر دعوة خاصة ويخطرون بوجودهم فى موكب الشموع.

والأشخاص الذين دعوا ليكونوا فى موكب الشموع يذهبون عقب أداء صلاة التراويح مع الخدم ويدخلون فى الحجرة التى فيها قبر الرسول الجليل ويأخذون الشمعدانات التى اعتيد إيقادها فى داخل الحجرة وينقلونها إلى خزانة الشموع[1] الكائنة فى شمال الحرم الشريف ويوصلونها.

(١) يطلق الخزينة بين أهل المدينة على الحجرة والمخزون.

الصورة الخامسة

فى بيان ترتيب وتشكيل موكب الشموع الذى اعتيد إجراؤه فى مسجد السعادة بعد صلاة التراويح.

بينما يحل وقت إجراء موكب الشموع يلبس شيخ الحرم ونائب الحرم[1] جلبابًا واسع الأكمام ويشدون وسطهم بشيلان خاصة للاستخدام فى مواكب الشموع ويرسلون أطرافها إلى الأسفل ثم يذهبون مع المدعوين بتذاكر الدعوة والذين لبسوا مثلها إلى أمام باب الحجرة المعطرة الذى يطلق عليه الباب الشامى ويدخل شيخ الحرم ونائبه فى داخل الحجرة المعطرة وبعد فترة يخرجان وقد حملا الشمعدانين الذهبيين والأغوات الخاصة بالحرم يحملون الشموع الخاصة الثمانية بليالى رمضان ويعودون بكل وقار وتعظيم لائق وتكريم فائق إلى الباب الشامى ويعطون الشمعدانات التى فى أيدى أغوات الحراسة إلى الموظفين الذين بقوا خارج الباب وينظمون صفوفهم والأشخاص المدعوين لحمل الشمعدانات يحمل كل واحد منهم الشمعدان الخاص به والذى أشير إليه فى تذكرة الدعوة ويأخذ الفراشون شموع مسجد السعادة والشموع التى مقابل المحراب الشريف ويسيرون منتظمين كل واحد منهم خلف الآخر يتقدمهم حاملو شموع الحجرة المعطرة وهم يصلون على النبى ويسلمون أثناء سيرهم فى وقار وتؤدة نحو مخزن الشموع وفى أثناء ذلك ينشد مؤذن رخيم الصوت قصائد فى نعت النبى ﷺ وهو يستقبل مرقده ـ عليه السلام ـ وفى ختام الموكب يدعون لملك الزمان ثم ينادون قائلين «الفاتحة».

(١) إن هؤلاء الأشخاص من رؤساء الأغوات الذين يطلق عليهم «خبرى» وضباطهم، قد رتبت أحوالهم وشئونهم فى الصورة التاسعة.

بينما ينظم موكب الشموع يقف أولاد الموحدين مجتمعين أمام حديقة النخيل[1] ويستقبلون الموكب ويأخذون الشموع التى فى أيدى المدعوين ويوصلونها إلى الحجرة التى يطلق عليها الخزانة، ثم يعودون.

لما كان هذا الموكب العالى يثير فى الناس حالة من الروحانية وشوق وشغف يصر أهالى دار السكينة على مشاهدة هذا الموكب.

(١) هذه الحديقة فى الساحة الرملية لمسجد السعادة.

فى تعريف طريقة أداء صلاة الفجر وصلاة العيد فى شهر رمضان.

صورة أداء صلاة الفجر:

وتبدأ كافة الجماعات الذين اشتركوا فى موكب الشموع وشاهدوه حتى انجلت قلوبهم فى العودة إلى المسجد وحدانا وزرافات قبل حلول وقت صلاة الفجر بساعة ونصف ساعة ويوقد كل واحد منهم شمعة ويواظبون فى تلاوة القرآن الكريم «ودلائل الخيرات»[1] وأحزابًا لطيفة وأذكار منيفة. فتئن أرجاء المسجد الشريف أنينًا بأصداء القراء التى تثير الشوق ونداءات وتأوهات للذاكرين. وتعم روائح الحجرة المعطرة والروضة المطهرة جميع الأركان. وينتعش الجميع وهم يشربون من الفيض الربانى ويلفهم الوجد والحيرة. والقصائد المتنوعة التى تقرأ فوق المآذن والصلوات التى تؤدى بين الصفوف والمحامد، والماء البارد الزلال الذى يقدم إلى العِطَاشِ الموحدين من قبل سقائى الخير يجدد الحياة.

وعندما تصل هذه الحالة من الوجد إلى حد الشوق والكمال ويأخذ المؤذنون فى النزول من المآذن يقف رئيس المؤذنين فى مواجهة نافذة الحجرة الطاهرة ويبدأ فى الأذان الداخلى قائلا الله أكبر ويسكت الحاضرون الكرام عن إصدار الصوت وقد عرفوا أن وقت صلاة الفجر قد حان. وهكذا تنتهى أعمال مشتاقى جمال النبى الجميل، وينهمك الأبرار وقد سمعوا صوت المؤذن «أشهد أن محمدًا رسول الله» فى أداء صلاة الصبح مقتدين بالإمام الشافعى المذهب وبعد أداء الصلاة يشنفون أسماعهم بما يسمعون من الوعظ والنصائح من العلماء إلى وقت صلاة الأمام الحنفى[2].

(١) للشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولى السهلالى الشريف الحسنى المتوفى عام ٨٧٠ هجرية.

(٢) معلوم أن الشافعية يصلون الصبح لأول الوقت، أما الحنفية فيؤخرونها قليلاً إلى وقت الإسفار.
والتبكير مذهب مالك والشافعى وأحمد والجمهور. وقال أبو حنيفة: الإسفار أفضل. انظر: شرح النووى على صحيح مسلم ٢/ ٩١٤ طبع دار الغد العربى

صورة أداء صلاة العيد:

بعدما تمضى أيام رمضان كما سبق تعريفه وبعد أداء صلاة العيد وانتهاء الخطبة والدعاء يتجه الناس عمومًا إلى الحجرة المعطرة للدعاء والتضرع. ويقفون أمام رسول الله ﷺ ليسلموا على النبى ﷺ ويعرض كل واحدمنهم ما فى ضميره على النبى ﷺ ويعود إلى بيته.

ومن عادة سكنة المدينة المنورة القديمة الاحتفال بالعيد ثلاثة أيام وثلاث ليال مثل أعياد دار السعادة، تطلق المدافع من القلعة الخارجية عند حلول الأوقات الخمسة وفى هذه الفترة يتزاور الناس ويقبل الصغير يد الكبير وينال دعوته الطيبة، وتقبيل الأيادى فى المدينة المنورة ليس قاصرًا على الأعياد. إذ يقبل جماعة المصلين سواء أكان غنيًا أم فقيرًا أيدى من فى يمينه ويساره.

فى تعريف الهيئة الكاملة لمسجد السعادة فى الوقت الحالى.

تقع مدينة مهجر الرسول ـ على صاحبها أفضل التحية ـ فى نقطة متوسطة من المدينة الساحرة ويقع مضجع حبيب الله ـ أى الحجرة المعطرة التى كانت سببًا لاشتهار مدينة طيبة المقدسة ـ أمام الموقع الذى تطلق عليه «صفة أصحاب الصفة» وبالجانب الشرقى المتصل بالروضة المطهرة.

فالمؤرخون الذين قاسوا مساحة عرض المسجد الشريف المقدس اختلفوا فى أقوالهم ومن ضمن هؤلاء «مولانا عبد الرحمن» الجامى ـ قدس الله سره السامى ـ إذ قال فى أثره القيم[1] إن المسافة من حائط مسجد النبى الجنوبى إلى جداره الشمالى طولاً مائتان وخمسون ذراعًا وعرضه من الجدار الشرقى إلى جداره الغربى مائة وخمسون ذراعًا إلا أن طوله وعرضه فى عهد رسول الله ﷺ كل واحد منهما مائة ذراع. وأضاف «إننى قست الروضة المطهرة وصفة أهل الصفة كل واحدة على حدة وعددت أعمدتها الموجودة واحدًا واحدًا فوجدت طول الروضة المطهرة خمسة وثلاثين ذراعًا وطول الصفة الشريفة اثنى عشر ذراعًا ووجدت عرض الروضة المطهرة عشرين ذراعًا وعرض الصفة عشرة أذرع كما أخبر أن هذا الذراع ذراع شرعى.

قد قست أنا المؤلف ساحة مسجد السعادة من الخريطة المسطحة التى رسمت بعد أن قيست من قبل المهندسين الذين أرسلوا فى عهد السلطان عبد المجيد ـ طيب الله ثراه ـ بالذراع المعمارى فوجدت طول المسجد مائة وستة وخمسين ذراعًا وثمانية أصابع وعرضه جنوبًا سبعة وتسعين ذراعًا وثمانية عشر إصبعا وشمالاً

(١) للجامى مؤلفات كثيرة قيمة أهمها: نفحات الأنس، واللوائح، وشواهد النبوة، وغيرها.
وهو أحد شعراء إيران العظام فى العهد التيمورى، ومن خير المفكرين المسلمين تلقى علوم الحقيقة على مشيخة سعد الدين الكاشغرى شيخ الطريق النقشبندية وصحبه حتى مات عام (٨٦٠هـ)، فاتخذ الجامى مسكنه إلى جوار قبر شيخه ولم يفارقه إلا حاجًا لبيت الله الحرام مرتين إلى أن وافاه الأجل عام ٨٩٨هـ، ودفن مع شيخه سعد الدين الكاشغرى رحمه الله رحمة واسعة.

تسعة وثمانين ذراعًا وستة أصابع إلا أن الجدار الشرقى للمسجد قد زيد فى عهد السلطان المغفور له ما يقرب من ثمانية أذرع فوصل عرض جهته الجنوبية إلى مائة وخمسة أذرع معمارية.

وللمسجد الشريف خمسة أبواب هى: «باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، باب النساء، باب التوسل» ونافذتان تعرفان باسم «نافذة جبريل» و«نافذة المواجهة» وله خمسة محاريب تعرف باسم محراب النبى، محراب عثمان، المحراب السليمانى، محراب التهجد ومحراب النساء. و«باب التوسل» فتح فى عهد السلطان عبد المجيد.

وقد أطلقت هذه الأسماء لبيان الأماكن التى صليت بها، **فمحراب النبى** المكان المقدس الذى صلى فيه النبى ﷺ مؤتما لأصحابه، **ومحراب عثمان** المحراب الذى اتخذ فى عصر عثمان ـ رضى الله عنه ـ **والمحراب السليمانى** المحراب الذى صنعه السلطان سليمان بن السلطان سليم وخصه لأئمة المذهب الحنفى **ومحراب التهجد** هو المحل الذى كان يؤدى فيه الرسول ﷺ صلاة التهجد **ومحراب النساء** هو المكان الذى فى داخل باب النساء وفى مؤخرة حرم السعادة وخاص بالنساء والذى ميز بأقفاص خضراء، وقد أسس «محراب النساء» فى عصر السلطان عبد المجيد خان عصر المبرات عند تجديد مسجد السعادة الأخير.

ولمسجد السعادة فى جهاته الأربعة خمس مآذن، وفى داخل الحرم الشريف أربعمائة وثلاثة وعشرون عمودًا وله أربعون قبة؛ عشر منها كبيرة وست عشرة منها أبيض وأربع وستون منها متوسطة الحجم والباقية صغيرة، وله ألف وسبعمائة وواحد وتسعون قنديلاً، وخمسة وعشرون شمعدانًا، وثلاث عشرة ثريا، وتوقد مائتان واثنان وعشرون من القناديل المذكورة فى ليالى الأيام العادية والبقية فى إحياء ليالى السلطان الشريف وفى الزمن الذى قاسه فيه حضرة «الجامى» كان سبعة وعشرون من أعمدته مصنوعًا من الآجر الملون وسبعة وخمسون منها من الرخام وبعضها من الحجر العادى والبقية منحوتة من الخشب.

وعند التعمير الأخير يعنى عندما جدد المرحوم السلطان عبد المجيد المسجد وأحياه جعل جميع أعمدته من الرخام وخفض عدد الأساطين إلى «٣٢٧».

يقال للأعمدة المصنوعة من الرخام «أسطوانة» فأكثر الأعمدة المصنوعة من الآجر الملون فى داخل الروضة المطهرة وبعضها فى الأماكن الخاصة بإقامة خدمة الحجرة المسعودة والأساطين العادية فى مواقع أخرى.

مائة وأربعة وستون من هذه الأعمدة مربعة، ومائتان وتسعة وخمسون منها مستديرة، وفى التعمير الأخير قد جعل كلها مستديراً فأربعة وخمسون منها فى داخل جدران الجهات الأربعة واثنان وعشرون منها فى داخل الحجرة السعيدة وبيت فاطمة والباقى منها أبواب الحرم السعيد والجهات الأخرى.

يقال لإحدى المآذن «الرئيسية» وللثانية «باب السلام» وللثالثة «باب الرحمة» وللرابعة «المجيدية» وللخامسة «العزيزية» وكل هذه المآذن قصيرة الطول بالنسبة للأخريات وأعلى هذه المآذن المئذنة الرئيسية الخاصة برئيس المؤذنين وباب هذه المئذنة مقابل نافذة الحجرة المعطرة وعلى الركن الشرقى لجدران القبلة.

ويقع المرقد النبوى السعيد فى الجهة الشرقية من الجدار القبلى للمسجد الشريف والروضة المطهرة بين الحجرة المضيئة والمنبر المنير والقبر اللامع لفاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ يقع فى نهاية الحجرة المعطرة الشمالية.

يروى أن قبر السيدة فاطمة الزهراء فى حظيرة ضريح عباس بن عبد المطلب وبجانب قبره فى مقبرة بقيع الغرقد والذى يؤيد صحة هذه الرواية أكثر من الروايات الأخرى قراءة زوار البقيع اليوم الفاتحة لروح السيدة فاطمة وهم يزورون ضريح عباس بن عبد المطلب.

وأطراف الحجرة المعطرة محاطة بشبكة حديدية، ويطلق على المكان الذى يقع بين المنبر المنير والمكان الذى يرقد فيه رأس النبى «الروضة المطهرة»، وعلى الجهة اليمنى لقبر الرسول «المواجهة الشريفة» وعلى اليسار من قبر الرسول حيث محل إقامة خدام الحجرة الشريفة «الدكة»، وللربع الذى فى داخل الشبكة اللطيفة حيث قبر الرسول «الحجرة المعطرة».

ولما كانت الروضة المطهرة والمواجهة الشريفة والدكة اللطيفة خارج شبكة الحجرة المعطرة لا يستطيع الدخول فيها إلا العظماء والسادات والسعداء من أهل المدينة من طينة طيبة أما الزوار السعداء الآخرون فيقفون أمام نافذة المواجهة الشريفة التى فى خارج الشبكة المنورة ويؤدون مراسم الزيارة.

الجهة اليسرى من جدار القبلة ابتداء من باب السلام إلى سبيكة النور شبكة القبر الشريف مفروشة بالرخام، والجهة اليمنى لهذه الأرض المفروشة بالرخام إلى اتصال العمود الشرقى للشبكة اللطيفة أى جهة الاتصال بجدار القبلة محدود بالسور الخشبى[1] فى ارتفاع ذراع ونصف ذراع معمارى وحول محراب النبى والمحراب السليمانى من اليمين واليسار بابان ينفتحان إلى جهة الروضة المطهرة.

إن هذه الساحة الرخامية طريق خاص بالزوار الذين يريدون أن يذهبوا لزيارة الحجرة المعطرة وهو متسع قدر ذراع ونصف ذراع معمارى وهناك ساحة رخامية أخرى تنتهى إلى الساحة الرخامية لباب السلام من الجهة الداخلية وهذه الساحة الرخامية أيضًا طريق للزوار الذين يريدون أن يزوروا الحجرة المعطرة من باب الرحمة.

ويقع محراب النبى ﷺ بين شبكة مرقد السعادة الشريف والمنبر المنير وفى وسط الروضة المطهرة. وقد كتب فوق طاقتى البابين اللذين فى اليمين والشمال كتب فوق أحدهما الحديث النبوى «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[2] (حديث شريف) وفوق طاقة الباب الآخر «من زارنى فى مماتى فكأنما زارنى فى حياتى»[3] (حديث شريف)، وكتب فوق طاقى البابين على جانبى المحراب السليمانى الذى يقع فى جهة باب السلام من المنبر كتب فوق طاق أحدهما «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[4] وفوق طاق الثانى الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

---

(١) حينما لم يكن هذا السور الخشبى موجودًا كان ذلك المكان محدودًا بدواليب خدمة الحرم السعيد وعند التعمير الأخير فى عصر السلطان عبد المجيد صب ذلك السور من النحاس..

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والصغير والأوسط من طرق عن ابن عمر وكلها فيها ضعفاء.
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٤/ ٢.

(٤) رواه البزار عن ابن عمر بإسناد فيه عبد الله بن إبراهيم الغفارى وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٤/ ٢.

وقد نقش بالذهب فوق كمر نافذة المواجهة السعيدة الحديث الشريف «إنما الأعمال بالنيات»[1].

الميدان الواقع فى شمال الحرم السعيد مفروش برمل أصفر وهذه الساحة مكشوفة وجهاته الأربعة مغطاة بقبة الفلك الربانى ويطلق على الجهة الجنوبية الشرقية وعلى محاذاة صفة أهل الصفة «روضة الرسول» ﷺ وهى حديقة مربعة الأضلاع قد أحيطت بسور خشبى جميل وفى داخل هذه الحديقة: نخلتان كبيرتان وستة من أشجار النخيل وشجرة تمر هندى وشجرة سدر وفى الطرف الذى تهب منه الرياح بئر ذات ماء حلو. وماء هذه البئر فى غاية اللذة وهو ماء مقبول لدى الأهالى وقيم مثل ماء زمزم.

وقد ذهب بعض الرواة إلى أن روضة الرسول هى حديقة الرسول ﷺ وأشجار النخيل التى فى داخلها قد غرسها بيده الشريفة، إلا أن روضة الرسول وحديقة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد غرس بعض أشجار النخيل التى فى داخلها شيخ الخدمة «عزيز الدولة» وقال ابن جبير: إنه كان فيها فى وقت عزيز الدولة خمس عشرة شجرة. وقال مجد الدين اللغوى: كان فيها أكثر من خمس عشرة شجرة. وأشار ابن فرحون إلى أن أشجار النخيل هذه غرست قبل زمن عزيز الدولة.

هَمَّ بعض سادات المدينة ألا يستحسنوا وألا يستصوبوا فكرة غرس عزيز الدولة أشجار النخيل فى الساحة الرملية للحرم السعيد ولكنهم اختاروا الصمت مراعاة لخاطره وتوقيًا من سوء معاملته. وكانت الرياح العاصفة التى هبت فى عصر شيخ الخدمة ياقوت الرسول قد جففت هذه الأشجار، ولكنه انتزع الأشجار اليابسة وغرس مكانها أشجارًا جديدة.

واعترض الأهالى فى هذه المرة على غرسه لأشجار النخيل قائلين «قد ابتدعت

(١) أخرجه البخارى فى أول الصحيح حديث رقم (١) فتح البارى ١/ ١٥، باب بدء الوحى وأعاده فى باب ما جاء إنما الأعمال بالنية والحسبة...، حديث رقم (٥٤)، ومواضع أخرى فى صحيحه حديث ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣.

شيئًا جديدًا» إلا أنهم خسروا دعواهم، وأراد الشيخ طوعان أن يزيد عدد هذه الأشجار فى سنة ٨٧٣ ولكنه لم يوفق نتيجة لاعتراض الناس ومخالفتهم، ولما كانت هذه المسألة موضع اختلاف بين العلماء فلا قيمة لاعتراض الأهالى حينئذ. وقد حكم بعض العلماء بكراهية غرس الأشجار فى حرم مسجد السعادة بينما أباحه الآخرون.

قال مؤلف «زهر البساتين»: ويجوز غرسه مع الكراهة إذا لم تزعج أغصانها الجماعة وإذا غرس بنفسه فهو حرام.

«وقال ابن حجر» تنتفع الجماعة من ظلها واختلف فى حق ثمارها فحكم بعض العلماء قائلين: «فثمارها مباحة لجميع المسلمين مثل ثمار الأشجار التى تنبت فى المقابر» واعترض ابن حجر على هذا الحكم قائلاً: «بما أن غرسها جائز فهى ملك لمسجد السعادة فلا يجوز أكل ثمارها يجب أن تباع ويصرف ثمنها لأمور المسجد».

مازالت أشجار النخيل التى غرسها ياقوت الرسول موجودة وثمارها السنوية خاصة لأغوات حرم السعادة، وتظل أحيانا نخلة واحدة وأحيانًا تزيد وتصل إلى ثلاث أو أكثر من النخلات ويقتطف أغوات الحرم الشريف تمر هذه الأشجار ويهدونه إلى عظماء البلاد الإسلامية وأعيانها.

وقد جدد المسجد النبوى منذ الهجرة النبوية إلى الآن كما ذكر فى الوجهة السابعة سبع مرات وآخر مرة جدد وعمر فى «١١٢٧ و١٢٧٧» هـ.

وإنه لا ينكر ما بذل من الجهود وما أنفق من النقود فى سبيل تعمير وتجديد مبانى مسجد السعادة فى عهود الملوك الأموية والخلفاء العباسيين وملوك الشراكسة المصرين؛ إلا أن ما بذل من المساعى وما أنفق من النقود فى عهد السلاطين العثمانية الخالية من الجهود، ولا سيما فى عهد سلطنة الخليفة عبد المجيد خان والد سلطاننا كثير المحامد، تفوق جميع الجهود التى بذلت فى عهد جميع الملوك السابقين ولا تقاس هممهم بهمم الحكام المسلمين السابقين.

الصورة الثامنة

فى بيان وذكر أبواب حجرة السعادة المعطرة أبوابها وقناديلها وشمعداناتها وعدد خدمها المؤقتة والدائمة عناوينهم، ما معنى الفراشة والقسم، ترتيب، التأديب والمجازاة فى حق الأغوات نوبة الحراسة فى مسجد السعادة ليلاً، وتعريف أداء صلاة الفجر وذكر محاسن الأصول.

للحجرة المعطرة أربعة أبواب هى: باب فاطمة[١]، الباب الشامى[٢]، باب الروضة[٣]، باب الوفود[٤] ولها أربعة وثمانون قنديلاً مثل النجوم.

وشمعدانان من الذهب وإن كانت أبوابها فى عصرنا أربعة إلا أن لها باب مسدود يطلق عليه «باب التوسل».

موقع الباب المسدود هو المحل المبارك الذى يوقف فيه فى الجهة المسعودة، وإذا ما دقق النظر قليلاً يفهم أن ذلك المكان مكان الباب القديم، ويروى أن نعش أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قد أدخل من هذا الباب.

وقد وضعت القناديل التى ذكرت سالفًا فى الأماكن المناسبة من الحجرة المنيفة ويوقد واحد من الشمعدانين الذهبيين لشرف رأس النبى ﷺ والآخر فى ناحية قدميه الشريفين. ويستخدم صنفان من الأغوات فى الحجرة المعطرة حتى لا تترك خالية ليلاً ونهارًا ويقال لأحد أفراد الصنف الأول «بطال» ولأفراد الصنف الآخر

(١) واسم آخر لهذا الباب هو باب على.

(٢) واسم آخر لهذا الباب هو باب عائشة.

(٣) يقال لهذا الباب: باب التوبة أيضًا.

(٤) وإن كان الاسم الآخر لهذا الباب «باب المواجهة» و«باب الإجابة»، وعلى قول آخر أن باب الوفود اسم قديم لباب الروضة.

ويفتح فى الشدة والكرب والمصائب وفى أوقات الفتح والغلاء للدعاء ويستجاب الدعاء مهما كان الدعاء ويظهر أثره فى وقته ومع ذلك فالدعاء فى حاجة إلى عقيدة صحيحة وإخلاص تام..

«خبزى» ويقوم بمراقبة انضباطهم وإدارتهم ضباط يطلق عليهم «البواب، حامل المفتاح» واسم أفراد أغوات البطالين «عجمى» وأفراد هذا الصنف أقل درجة من أفراد الخبزيين والخبزيون أقل درجة من طاقم «البوابين» وهؤلاء أقل من حاملى المفتاح الذى يقال لهم «السبعة الكبار» وكل واحد منهم يحترم الآخر ويطيعونهم حسب رتبهم.

وكان هؤلاء الخدم الذين يطلقون عليهم الأغوات لا يزيد عددهم ولا يقل عن ثمانين شخصًا ويؤخذ مكان الأغوات الذين يموتون من صنف الخبزيين أقدم الأغوات من صنف البطالين، ويؤخذ مكانهم ملازمى صنف البطال ستة عشر من الخبزيين بوابون ويحملون عناوين «نائب الحرم، مستسلم الحرم، خازن الحرم، نقيب الحرم» وفيهم أربعة ضباط وكان أكبرهم «شيخ الحرم» وكان يبعث ويعين من مقام الخلافة الجليل[1] وكانت المحافظة على الحجرة المعطرة تتبع نظامًا مستحسنًا وكان عدد البوابين عند نوبة الحراسة أربعة وكانوا يظلون فى داخل الحجرة المعطرة فى أثناء الحراسة وكانوا يقسمون فيما بينهم ما ينفحهم به الزوار فى أثناء الحراسة وكان الضباط يرقون إلى درجة أعلى حسب أقدميتهم.

وكانت من أحكام القواعد التى اتخذت أن يتواجد فى داخل الحجرة المعطرة تسعة وعشرون شخصًا من الحراس خمسة وعشرون منهم من أغوات الخبزيين أو أغوات البطال غير أربعة بوابين. والذين يخرجون من نوبة الحراسة يجلسون فوق صفة أصحاب الصفة على ركبهم يشغلون وقتهم بالذكر والتهليل وقراءة الأحزاب الشريفة والأوراد المباركة إلى أن تتم نوبة حراستهم وكان خدم الفراشة يدخلون فى داخل الحجرة المعطرة ويوقدون القناديل التى كلفوا إيقادها وخفضوا مؤخرًا عدد الأغوات إلى خمسة أشخاص وأبلغوا عدد الخدم الآخرين وزادوه إلى العدد الذى درج فى الفهرس الأسفل، وكان أحد الأغوات الخمسين مُسْتَسْلِمًا وأحدهم

(١) وظيفة شيخ الحرم الجليلة كانت خاصة بالأشخاص الذين يحرزون الأغوية فى باب السعادة ثم عمم ووجه فيما بعد إلى الوزراء ومشيرى العساكر السلطانية ذوى الاحترام.

نقيبًا واثنا عشر فيهم بوابًا وتسعة عشر منهم خبزيًا وأربعة عشر بطالاً وثلاثة منهم من أفراد الملازمين.

سبب وتاريخ استخدام الأغوات فى الحجرة المنيفة

يقول خير الدين إلياس المدنى نقلاً عن المرحوم فلاح الفلاح راويا: «لم يكن هناك أصول استخدام الأغوات فى الحجرة المعطرة إلى ظهور الدول التركية».

قد استحسن بعض المنتمين إلى الشهيد نور الدين لبعض الأسباب استخدام الأغوات فى الحجرة المنيفة وأبلغوا الأمر بواسطة بعض الأمراء الذين كشفوا الأمر إلى الشهيد نور الدين وأخذوا موافقته على هذا الأمر، وبناء عليه اختاروا اثنى عشر أغا كلهم من حفظة القران الكريم وأرسلوهم إلى المدينة المنورة. واشترطوا فيمن يعين مكان الذين يتوفون منهم فوق حفظه للقرآن الكريم أن يكون حبشيًا إن أمكن وإلا من أهل الروم وإذا لم يوجد أن يكون هنديًا وسقط حكم هذا الشرط بعد فترة فأرسلوا كلهم من الهنود ثم ترك أصول إرسالهم من الهند فعين الأغوات الحاليون وفق النظام الأخير.

وقد أبلغ صلاح الدين الأيوبى عدد الأغوات إلى أربعة وعشرين وعين شخصًا يسمى الشيخ بدر الدين ضابطًا عليهم ووقف إيراد بلدتى «نقادة وقيادة» عشر محاصيلها لإدارة الأغوات وإعاشتهم. وكان الأغوات الذين يستخدمون لذلك الوقت يخدمون حسبة لله ويتعايشون بالهدايا والعطايا التى يرسلها أصحاب البر والخير. وأخذ يطلق على شيخ الخدم بدر الدين الأسدى «شيخ الحرم» فزاد قدرًا ومكانة، وسواء كان الشيخ بدر الدين أو الأشخاص الذين أصبحوا فيما بعد شيوخًا للحرم كانوا يلاقون من موظفى المدينة المنورة ومن وزراء وأمراء المسلمين الذين يزورون المدينة المنورة احترامًا وتوقيرًا، وذلك تعظيمًا لصاحب الروضة «عليه وعلى آله أكمل التحية».

والنظام الذى وضعه صلاح الدين الأيوبى نُقِضَ فيما بعد وأرسل الأغوات إلى الحجرة المعطرة من قبل ملوك المغاربة والسودان وسلاطينها حتى تجاوز

عددهم مع توابعهم وعبيدهم مائتى شخص، وظهرت النفرة والعداوة بينهم وبين أهل المدينة حتى أدت هذه الحالة فى النهاية إلى قيام الجدال والقتال بينهم.

وقد دامت المنافرة بينهم فترة فى الواقع وأخذ عدد الأغوات فيما بعد يزيد وينقص ولم ينحصر إرسال الأغوات إلى الحجرة العطرة فى سلاطين المغاربة والسودان وسلاطينهم إذ أخذ بعض أصحاب الخير يشاورون عبيدا أو يوقفونهم لخدمة الحجرة المنيفة فاختلط جنس الأغوات وزاد فيما بينهم أصحاب الأخلاق الطيبة وتحولت العداوة التى بينهم وبين الأهالى إلى المودة والأخوة فانخفضت العداوة بينهم كليًا فتعاملوا فيما بينهم مثال الأخوة.

لأغوات مسجد السعادة والحجرة المنيفة وظائف شهرية مخصصة لكل واحد منهم حسب موقعه ومكانته ولهم نظم جارية وقوانين مرعية مثل حراسة المسجد والحجرة المطهرة وتنظيف القناديل وإيقادها وقضاء الليل فى داخل المسجد ولهم أرزاق ومرتبات معينة من قبل السلاطين العثمانيين الكرام. ولهم ثكنات موقوفة من قبل أصحاب البر والخيرات وحدائق ذات محاصيل ولهم صرر تبعث من قبل أصحاب البر فى جميع البلاد الإسلامية وتقسم هذه الصرر بعلم شيوخهم ورؤسائهم وتوزع عليهم كلهم. وجميع الأغوات الذين فى زماننا هم من أصحاب الصلاح والخير ويتسمون بالوقار ويوثق بهم. وإذا ظهرت من بعضهم الرعونة ـ حسب البشرية ـ فإنها لا تجاوز الدائرة المنجية للشريعة الغراء وبما أنهم يخدمون ويرعون ملك الكائنات ـ عليه أكمل الصلوات ـ يلزم ألا يؤاخذوا على ذلك فإذا ما أدوا وظائفهم فى وقار تام وأدب تام فلا يتصور عمل أشرف ببنى البشر من أعمالهم.

ينقسم الأغوات الذين ينحصر عملهم فى إيقاد القناديل وإطفائها إلى قسمين يقال لقسم منهم «سندبليس» والقسم الآخر «مكادة»، وبما أن كل جهات حرم السعادة قد عينت وخصصت لأفراد منهم فعندما يحل الوقت المعين ينشغل كل واحد منهم بعمله ولا يجوز لأى واحد منهم أن يوقد أو يطفئ قناديل الآخر

وبهذا لا يتدخلون فى خدمات بعضهم بعضًا ولا توصف السرعة التى ينجزون بها أعمالهم.

تعريف مقدار خدمة الفراشة الشريفة الجليلة:

تطلق على الخدمة القيمة للكعبة المعظمة والحجرة المعطرة الفراشة الشريفة وقد هيئت هذه الخدمة ووضعت وفق عدد قناديل الحجرة الشريفة ومشاعلها.

قد رتب واضع خدمة الفراشة الجليلة مائة وأربعين قطعة من الفراشة على أن تكون كل قطعة منها أربعة وعشرين قيراطًا. وخص أربعة وعشرين قيراطًا منها بالخليفة العالى الشأن واثنى عشر قيراطًا بأشراف مكة المكرمة وست قراريط بالمنتسبين للحجرة المعطرة وست قراريط لنقباء الفراشين وقسم كل قيراط من اثنتين وتسعين قطعة لخمسة أو ستة أو ثمانية أو عشر أشخاص فأوجد بهذا خمسة آلاف أو ستة آلاف من خدمة الفراشة السعيدة. وقد وضع هذا النظام فى عصر الدولة العثمانية عصر الميراث للمشتاقين لخدمة رسول الله ﷺ التى تستوجب المفخرة وقد خصص لكل قيراط منها حبوب وافية لتكريم أهالى المدينة المنورة ومكة المعظمة، والحبوب التى خصصت لكل قيراط تعطى من قبل الشخص الذى نال هذا القيراط بالبراءة والإذن إلى الأشخاص الذين وكلهم لأداء الخدمة اللازمة من أهالى الحرمين. كما أن أصحاب الفراشة يرسلون كل عام إلى من وكلوهم من أهل الحرمين مقدارًا من الهدايا باسم «الصرة» غير الحبوب فوكلاء خدمة الفراشة من أهالى الحرمين يمضون أوقاتهم قانعين بما يأخذون من مرتبات من خزانة الأوقاف السلطانية، وما يرد إليهم من الصرر من موكليهم.

إن الخدمة الجليلة للفراشة قد قسمت إلى مائة وأربعين قطعة وجزءا كما سبق ذكره أعلاه ولكنها قسمت فيما بعد إلى سبعة آلاف قطعة أو ثمانية آلاف ووزعت على أهالى الممالك الإسلامية بإذن من السلطان وكل من نال ربع قيراط من خدمة الفراشة يوكل أحدًا من أهالى الحرمين ـ كما سبق ذكره ـ ويرسلون للأشخاص الذين وكلوهم صرة نقدية كل سنة، وبناء على هذا يمكن أن يوكل

فراش واحد من قبل عشرة أشخاص أو أزيد وبهذا يوجد من وظيفته أن يوقد «شمعة» أو «قنديلاً» كل خمسة عشر يومًا أو عشرين باسم موكله وبهذا يمكن لوكلاء الفراشة أن يتعايشوا بما يأخذون من الوقف السلطانى من المخصصات وما يرسله أصحاب البراءات العالية من الصرر.

أغلب أهالى الحرمين يتعايشون وفق ما حرر أعلاه والمشتاقون لخدمة النبى ﷺ يبتهجون ويتباهون بحصولهم على ربع قيراط من خدمة الفراشة الجليلة، وهذا يبين مدى رعاية السلاطين العثمانية للمرقد النبوى الجليل وحرم المسجد الحرام وعظم تقديرهم لها.

يطلق على رؤساء الوكلاء الذين تعهدوا بالقيام بخدمات الحجرة المعطرة بدلاً من أصحاب الفراشة الشريفة «شيخ الفراشين» وقد أمسك هذا الشخص دفترًا لتقييد أسماء الوكلاء وتسجيلها وقد تحققت أنه قد قيد فى الدفتر الحالى أسماء ما يقرب من ألف وكيل.

ولما كان الشيخ المشار إليه شخصًا عظيم القدر ذا صفات عالية عند أهل المدينة فمن وظائفه أن يدخل إلى الحجرة المنيرة عند إيقاد قناديلها مع شيخ الحرم ونائبه وخازن خزانة الحرم ومن وظيفته الإشراف على عشرين شخصًا هنديًا المعينين لتعمير الثريات والقناديل وترميمها وتنظيفها.

مقام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما:

فى داخل الحجرة المعطرة وتحت الغطاء القماش المصرى المزركش لقبر السعادة. وحيثما وجد هذان القبران فى الحجرة المسعودة قد نسخ فوق قطعة القماش التى تغطى القبر اسم صاحبه كما أن اسم النبى الطاهر قد زين ونقش باللآلىء الغالية.

وأرضية الغطاء القماش أخضر اللون، وخطوطه بيضاء، وقد زين الغطاء ـ غير الأسماء السابقة ـ بالصلوات الشريفة وأسماء النبى ﷺ بخطوط نفيسة.

ولما كان غسل داخل الحجرة المعطرة كل سنة فى اليوم التاسع من ربيع الأول وفى غرة رجب الفرد والثامن عشر من ذى القعدة من الأصول المتبعة فإنها تُطَيَّبُ وتغسل فى الأيام المذكورة.

وإن كان قد خصص ثلاثة أيام لغسل الحجرة المعطرة إلا أن القيام بهذا العمل على ما هو المطلوب غير ممكن لذا أضيف لتلك الأيام المذكورة يوم لكل واحد منها ففى الأيام الأولى تنظف وتغسل الشمعدانات والقناديل. وفى اليوم الثانى ينظفون داخل الحجرة المنيفة وخارجها ويعطرونها وفق الأصول الآتية:-

صورة غسل حجرة السعادة

يقف أغوات الخبزيين العجمى كلهم أمام الباب الشامى منقسمين إلى ثلاث فرق - وذلك فى الأيام التى تغسل فيها وتمسح الحجرة المعطرة - وفى أيادى فرقة منهم مقاشط خاصة بالحجرة المعطرة والفرقة الثانية معهم مكانس مصنوعة من سعف النخيل والفرقة الثالثة يمسكون بقطع من الإسفنج الكبير ويرتب كلهم صفوفهم، ثم يفتحون الباب الشريف المذكور ويدخلون فى داخل الحجرة المعطرة بكل أدب وسكون يقشطون ما يلزم قشطه وبعد أن يكنسوها جيداً ويمسحونها بقطع الإسفنج ثم يخرجون واحداً تلو آخر خارج شبكة القبر الشريف يوزعون الباقى من الماء المستعمل على سادات سكان المدينة فينالون العطايا.

ويستمر الأغوات الذين فى داخل الحجرة الشريفة فى أثناء الغسل فى ذكر «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والأشخاص الذين اجتمعوا فى الحرم الشريف من أصحاب الشوق والإخلاص يصلون ويسلمون على النبى ﷺ فى صوت واحد، ولا يستطيع أصحاب الوجد أن يمسكوا دموعهم فى هذا الوقت الذى قد امتلأ فيه مسجد السعادة بالصفاء والدهشة والمهابة وهذه الحالة المليئة بالروحانية لا يمكن وصفها ولابد من رؤيتها رؤية العين.

الخدمة الدائمة للخدم:

لما كان نيل سعادة خدمة الحجرة المسعودة غير ممكن التصور لأنها خدمة عظيمة

الشأن فالذين ينالون هذه السعادة من الأمور الطبيعية بالنسبة لهم أن يقوموا بأعمالهم بالوجد والحب والحرص الشديد على أداء أعمالهم على خير وجه؛ لذا يجتمع الفراشون بمسجد السعادة والآخرون من المخلصين والمحبين بعد أداء الصلوات المكتوبة كل صباح أمام مخزن الزيت[1] الكائن فى نهاية مسجد السعادة فيدعون حسب العادة.

وبعد إتمام الدعاء يذهبون فى تؤدة إلى الروضة المعطرة وهم يصلون ويسلمون وقد أخذ كل خادم إناءً نحاسيًا صغيرًا ودستة من فتيل مزيت وبعد أن يعطوا لأربعة منهم إبريقًا مزينًا مملوءًا بزيت الزيتون.

ولما كان فى أيادى أغوات الحراسة الذين يسيرون أمام الفراشين عصيان ذات كلاليب فكل واحد منهم ينزل القناديل الخاصة به وبعد أن يغير[2] الفراشون الذين بجانبهم فتائلها يعلقونها فى أماكنها، ثم يصلون صلاة الإشراق ويعودون إلى أماكنهم. وبعد أن ينتهى الفراشون من مسح القناديل وتغيير فتائلها والكناسون من كنس الحرم الشريف ينادى أحد الخدم الذين اجتمعوا أمام الباب الشامى «يا كناس» وكأنه يريد أن يبين لزملائه أن وقت كنس الحجرة المعطرة قد حان، ويسرع الكناسون للاجتماع أمام الباب الشامى من الحجرة المعطرة ويدخلون فى الحجرة المنيفة ويكنسونها وهم يوحدون ويهللون ثم يخرجون.

تأديب الأغوات المتهمين:

من مقتضيات الأصول المرعية أن يقف الأغوات كلهم من خبزيين والعجمى حسب رتبهم مصطفين بعد الانتهاء من خدماتهم فى تنظيف الحجرة اللطيفة والمسجد الشريف، كما سبق تحريره، وذلك لتأديب الأغوات المتهمين. ويأتى الأغا الذى كانت عليه نوبة الحراسة بالمتهمين فى الميدان وينسحب إلى مكانه وعندئذ يتقدم أحد ضباط الأغوات عدة خطوات ويقدم للمتهم بعض النصائح ثم يأمر بإحضار العصا كما أن استجواب المتهمين ومحاكمتهم يتمان فى مكان آخر

(١) يقال لهذه الخزانة «خزانة التعمير» أيضًا.

(٢) إن سرعة إنزال القناديل وتعليقها مرة أخرى مهارة خاصة بخدمة الحجرة المعطرة.

وعند ثبوت التهمة يتم إحضار المتهم وضربه من مقتضيات القانون القديم الخاص بالأغوات.

ولما يُؤْتَى بالعصى يدخل المتهم بواسطة اثنين من الأغوات إلى خزانة الشموع التى تقع أمام الحجرة الشريفة وتدخل رجلاه فى الفلقة[1] ويؤخذ فى ضرب المتهم على رجليه والجهر بكلمة الشهادة عند الضرب بينما يقف الأغوات الآخرون خارج باب خزانة الشموع فى حالة انتباه.

ويأخذ المتهم الذى أدرجت رجلاه فى الفلقة فى الصياح والاستغاثة، وإذا وجد من يشفع له يُخلى سبيله وإذا لم يوجد من يشفع يضرب إلى أن يقول «الفاتحة» ويغلق باب خزانة الشموع بعد الفاتحة، ويجلس الأغوات الذين عليهم نوبة الحراسة فوق صفة أصحاب الصفة متجهين إلى القبلة بينما يذهب الذين أنهوا نوبة حراستهم إلى تناول الطعام بعد أن يمسحوا ظهرهم على العمود الذى يقع فى الجهة اليمنى لمحراب التهجد وتقبيل أيادى الحراس السابقين.

تأسف: يجهل التاريخ وقت اختراع بدعة ضرب الأغوات وتأديبهم فى داخل مسجد السعادة ولما أصبح هذا النظام فى حكم القانون ولم تفترضه أية جهة فمثل هذا العمل يعد بدعة، خارجًا عن دائرة الأدب، ومخالفًا لأحكام الشريعة؛ فقد أحضروا للفاروق الأعظم فتى يستحق الضرب والتأديب، ولما كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى داخل المسجد أمر بأن يخرج المتهم خارج المسجد حيث يضرب ويؤدب، أما فى زماننا فإن الأمر تجاوز حد ضرب وتربية الأغوات بعضهم بعضًا إلى ضرب شيوخ الخدمة وتأديب أى واحد منهم ارتكب هفوة حتى ولو كان أمام قبر الرسول دون خجل واستحياء، فيصرخ المضروبون ويولولون دون أن يراعوا الأدب فى المكان المقدس. وللأسف الشديد فإن السلوك الذى نهى عنه حضرة الفاروق قد أصبح بدعة مستحسنة بل أخذ حكم الطاعة والعبادة.

ذيل: سألت أحد أهالى المدينة الكرام قائلاً: «إن الضرب فى داخل الحرم

(١) الفَلَقَةُ: عود يتصل به حبلان كانت تُمْسَكُ بهما القدمان عند الضرب.

الشريف يخالف الآداب السلوكية يا ترى ضرب الأغوات ـ كما سبق ذكره ـ يستند إلى دليل موثوق؟

«فأجابنى ذلك الرجل على هذا الوجه: «فى الواقع ضرب الإنسان فى داخل مسجد النبى سوء أدب! ولكن لضرب الأغوات وتأديبهم فى داخل المسجد فائدتان:

١ـ **الفائدة الأولى**: إنقاذ واحد من جماعات المسلمين ـ من الزوار، أو المجاورين ـ المتهم من الضرب. إذا جاء وقبلَ يد الضارب يجب أن تقبل شفاعة هذا الرجل ورجاؤه وإن كان رجلا قليل الشأن ويعفى عن المتهم.

٢ـ **الفائدة الثانية**: أن يضرب المتهم فى داخل الأصناف فإذا ما ضرب المتهم خارج المسجد وفى مكان خفى فإن الأغوات قد يضربونه إلى أن يموت لما فطروا عليه من الرعونة والشدة! وإذا قال المتهم تحت الضرب وإننى لم أرتكب هذا الذنب، فإنكم تضربونى بدون وجه حق أو يخرج من فمه ـ كثيراً ـ ألفاظا مخلة بالآداب فيستمرون فى ضربه قائلين: «إنك تعصى من هو أعلى منك رتبة».

قد شوهد تكرار الضرب حتى فى داخل المسجد عدة مرات!! وذات يوم قال شيخ الحرم شوكت باشا: «إن ضرب إنسان فى داخل مسجد السعادة مخل بالآداب. وبعد هذا اليوم فليبلغ عن كل من يرتكب جُرْمًا من قبل ضابطه ثم تشكل هيئة من ضباط الأغوات لاستجواب المتهم ثم يسجن ويؤدب ويضرب فى مكان مناسب».

وألغيت عادة تأديب المتهمين بهذا الشكل داخل مسجد السعادة. وأراد ضباط الأغوات أن يبينوا خطأ رأى شوكت باشا وردهم لهذه الفكرة فقالوا: «إن زمرة الأغوات تتكون من طائفة العجمى فإذا ما ترك هؤلاء أحراراً يضلون كما يشاءون فيصعب الحفاظ على مسجد السعادة ولاسيما الحجرة المعطرة، فتقع الأمانات والأشياء النفيسة المباركة فى يد السفلة. ومن هنا يقتضى الأمر تربية هؤلاء ولابد لهم أن يحترزوا من رؤسائهم» إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا شوكت باشا برأيهم. ولما أصبح عادل باشا شيخًا للحرم، كرر الأغوات مطالبهم السابقة

ورجوا منه أن يسمح لهم بإجراء أحكام عاداتهم السابقة وأصروا عليه. فقال لهم عادل باشا موافقًا: «اعملوا وتصرفوا وفق عاداتكم القديمة» والآن يتصرفون كما كانوا يتصرفون من قبل.

وعندما يقترب المساء وقبل حلول وقت صلاة المغرب بعشر دقائق يشير الموقدون إلى الفراش الذى عين لإيقاد الشموع والذى ينتظر تحت محفل المؤذنين فيعلن هذا الفراش بصوت مرتفع حلول الوقت قائلاً: «بسم الله» وعندئذ يجتمع الخَدَمَةُ كلهم وقد سمعوا الصوت عند شيخ الحرم النبوى ويقفون أمام قبر الرسول ﷺ، فيرفع شيخ الحرم يده داعيا وفقًا للأصول ويخرج من خزانة الشموع الشمعدانين الذهبيين فيعطى أحدهما لشيخ الحرم والآخر لنائب الحرم فيدخلان إلى حجرة السعادة، ويسيران فى داخل الحجرة المعطرة بكل أدب وتعظيم ويضع شيخ الحرم أحد الشمعدانين ناحية رأس النبى ﷺ والآخر ناحية قدميه، وبعد أن يتمسحا بقبة قبر الرسول ﷺ يخرجان. ثم يدخل شيخ الحرم إلى الحجرة الشريفة مرة أخرى بعد أن يعطى لشيخين شمعتين مدببتين لإيقاد قناديل الحجرة وإناءً مدببا من النحاس[1] لكل واحد منهما.

ومن القوانين القديمة ومقتضياتها أن من يضع الشمعدان الذى يوضع بجانب رأس النبى ﷺ هو شيخ الحرم وأن يدخله بذاته، كما أن الشمعدان الذى يوقد بجانب قدمى النبى ﷺ يدخل من قبل نائب الحرم ويخرج كذلك. كما أن القوانين المرعية أن يحمل خازن خزانة الحرم فى أثناء ذلك مبخرة وينهمك شيخ الفراشين بالدعاء؛ إلا أن نقل المبخرة الذى يستوجب الفخر وإن كان خاصًا بالخازن قد شوهد أحيانًا قاضى المدينة المنورة ومدير الحرم السعيد قد حملاها متناوبين.

بعد أن يؤدى شيخ الحرم ونائب الحرم مهمتهما مصلين مسلمين يعودان متقهقرين أحدهما من يمين القبر والآخر من يساره، وبما أن الأشخاص المكلفين بإيقاد القناديل يؤدون مهمتهم ومعهم المشار إليهما، يُؤذَّنُ بعد ذلك وينصرف كل واحد إلى جهة لأداء الصلاة.

(١) تهدى هذه الأوانى من قبل أصحاب الخيرات.

إخطار

إن السعداء الذين يتواجدون فى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ وهم يحملون البراءة السلطانية لخدمة الفراشة يستطيعون أن يؤدوا وظائفهم بأنفسهم بدلالة وكلائهم وذلك مثل إيقاد القناديل. انتهى.

وبعد أن تؤدى صلاة العشاء وتتفرق جماعة المصلين يغلق أغوات الخبزى والعجمى أبواب الحرم وقد أمسكوا فى أياديهم فوانيس ملونة ويخطرون من يصادفونهم من الأفراد بضرورة خروجهم من المسجد قائلين «بسم الله» أو «لا إله إلا الله» وبعد أن يغلقوا أبواب المسجد يستقبلون حجرة السعادة ويصيحون قائلين «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» وهم واقفون أمام باب الرحمة ويصلون على النبى ﷺ مجتمعين فى صوت واحد.

وروحانيته عندما تنضم آيات الفيوضات النبوية إلى سكون مسجد السعادة وهدوئه وروحانيته فإن المهابة والدهشة المعنوية اللتين تحدثهما الصلوات التى يطلقها الأغوات، تلك الصلوات المليئة بالوجد المحمدى تصيبان الإنسان بالقشعريرة وتوقفان شعر بدنه ترفرف روحه حول بدنه كأنها أثير، ولا يمكن لهؤلاء الذين يستمعون لهذه الأصداء التى تثير الأشواق إلا أن يبكوا وإن كانت قلوبهم قدت من صخر.

صورة تسكين الأغوات:

ينسحب الأغوات عقب الصلاة والسلام على محمد ﷺ إلى الساحة الرملية لحرم السعادة، وينامون فى مكان مخصوص لهم أمام باب النساء على وضع غريب، ولكل أغا فرش للنوم يشبه الخيمة، وحينما ينفردون للنوم يضع كل واحد منهم عمته فوق فراش النوم ثم يتجهون برءوسهم نحو الروضة المطهرة وبأرجلهم نحو باب النساء ونصف أجسامهم تحت الخيمة والنصف الآخر خارج الفراش الذى يشبه الخيمة. فإذا ما رأى أحد هذه العمم فوق الفراش يظن أن الأغوات قد وقفوا لأداء الصلاة مصطفين.

ومن أحكام القوانين القديمة أن يظل أحد الأغوات فى داخل مسجد السعادة لنوبة الحراسة وأن يفتح الباب كل ليلة لرئيس المؤذنين الذين يؤذنون قبل الصباح بثلاث ساعات من باب النساء وينادى مخاطبًا أغوات الحراسة قائلاً: «لا إله إلا الله»؛ فيجيب الأغا الذى فى نوبة الحراسة من الداخل «محمد رسول الله» العبارة المنجية ويفتح له الباب. وبعدما يفتح باب النساء ويضع الأغوات فرشهم فى المكان الخاص بها يقف رئيس المؤذنين أمام المئذنة الرئيسية يأخذ الدستور وهو يصلى على النبى ﷺ قائلاً: «اللهم صل وسلم وزد وأنعم وبارك على أسعد العرب والعجم إمام طيبة والحرم سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم ورضى الله تعالى عن كل الصحابة أجمعين الفاتحة»، ثم يصعد على المئذنة سابقة الذكر ويأخذ فى التهليل والتسبيح ويوقظ سكنة دار السكينة من نوم غفلتهم ثم يتبدد الصوت وهو رخيم حزين محرق فى الأذان والذين يسمعون الأذان يستيقظون ويتوضئون ويوقظون أهل البيت ثم يذهبون إلى المسجد الشريف ويواظبون فى قراءة الأذكار إلى أن يحين وقت الصلاة، وذلك لأداء الصلاة والسلام فوق المآذن إلى طلوع الفجر وبعد ذلك يؤذن للإعلان عن حلول وقت صلاة الفجر.

ومن أحكام القوانين الجارية بين الأغوات إغلاق باب النساء بعد دخول المؤذن وعندما يصل المؤذنون الآخرون يفتح الباب المذكور مرة أخرى ويغلق بعد دخولهم وتستغرق الأوقات غير أذان المغرب نصف ساعة وتستغرق التهاليل والتسليمات والتسابيح التى تلقى قبل صلاة الفجر ساعتين ونصف ساعة ويتناوب المؤذنون سواء كان فى الأذان أو التسابيح والتهاليل. ومن عادات أهل المدينة التى لا يطرأ عليها التغيير، صعود رئيس المؤذنين على المئذنة الرئيسية قبل طلوع الفجر بساعة، وإبقاء الأغوات القناديل والثريات عندما يبدأ المؤذن فى الصلاة والسلام، ووصول الأهالى واحدًا تلو آخر ليظلوا فى انتظار حلول وقت صلاة الفجر.

وفى الوقت الذى يمضى بين الأذانين ينهمك بعض الجماعة فى تلاوة القرآن وبعضها فى ذكر الله والبعض الآخر يسفحون دموع الندامة من عيونهم، ويحل

فى المسجد بإصدار أصوات الحفاظ همهمة تخرج أصحاب الوجد والإخلاص من شعورهم، وفى هذه الحالة من السعادة ينزل المؤذنون من المآذن وينادى الذين فى المحفل قائلين، الفاتحة، ويؤدى العلماء الكرام مع الجماعة ركعتى السنة وعند الإقامة يصلون فرض صلاة الفجر مقتدين بإمام المذهب الشافعى ثم يدعون ويبتهلون ثم تبدأ رحلة الوعظ والنصيحة ويستمع إلى القرآن الذى يتلوه الحفاظ المحترمون.

ويمضى الوقت على هذه الحالة ما يقرب من ساعة ثم ينادى أغوات نوبة الحراسة قائلين «الصلاة» فينهى العلماء دروسهم ونصائحهم ثم تقام الصلاة مرة أخرى فتصلى جماعة المذهب المالكى، وبعد أداء الصلاة والدعاء يفتح باب الحجرة ويلج شيخ الحرم ونائب الحرم فى الحجرة الطاهرة ويخرجان الشمعدانين منها ويدعوان بعد إطفاء القناديل.

خدمات خدم مسجد السعادة الدائمة والمؤقتة:

وكان للمسجد الشريف قديمًا غير أغوات حجرة السعادة مائة وعشرون شخصًا من الخدم والموظفين، وكانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام هى «البوابون، الفراشون، والكناسون» وكان كل قسم تحت رياسة شيخ ما، كما كان يستخدم ثلاثون شخصًا من الخارج يطلق عليهم «وكلاء الخدم» وكان للمسجد الشريف فى تلك الأوقات خمسة وعشرون إمامًا حنفيًا، اثنا عشر إمامًا شافعيًا، وعشرون خطيبًا حنفيًا، وعشرة خطباء من المذهب الشافعى، وخطيب مالكى وآخر حنبلى، وخمسة وثلاثون مؤذنًا، وكان هؤلاء كلهم يؤدون خدماتهم بالمناوبة، ومع مرور الأيام زاد عدد الخدم حتى وصلوا إلى العدد الذى سيرى فى الفهرس الآتى:

الخطباء والأئمة فى الحرم النبوى الشريف

العدد	الشخص
٤٦	الخطباء الكرام «يقومون بالإمامة أيضًا بعض الأوقات»

٣٧	الأئمة الكرام
٣١	مراهقون
٣٤	صغير
١	نقيب
١٤٩	المجموع
١	شيخ
٣٨	رؤساء
٣٩	

مكبرو الحرم الشريف

١	شيخ
٢٥	مكبر
٢٦	المجموع
١٩[1]	-
٧	
١	برقى
١	نقيب الرؤساء
١	موقت الحرم الشريف
٣	المجموع

(١) ربما أن من يقومون بمهمة الرؤساء وقد قيدوا فى صف الرؤساء طرحوا من هنا.

بوابو الحرم الشريف
٢ بواب باب الرحمة
٢ بواب باب السلام
٢ بواب باب النساء
٢ بواب باب التوسل
٢ بواب باب جبريل
١ بواب السور الخشبى

---

١١ المجموع

سقاءو الحرم الشريف

١ الشيخ
٩ السقاءون

---

١٠ المجموع
الحراس الذين يقفون مصطفين عندما يفتح باب الحجرة المعطرة صباحًا ومساءً
١ شيخ

استطراد

لم يكن فى صدر الإسلام أمام خطباء المدينة المنورة مؤذن منبر، وبعد ما احترق مسجد السعادة وخرب وضع نظام وجود أحد الأشخاص أطلق عليه مؤذن المحراب لحماية الخطباء من اعتداءات الأشقياء، وكان أكبر دافع لوضع هذا النظام هو اعتداء فرقة من غلاة الفرقة الإمامية وإساءتها، وقد استولت تلك الفرقة المذكورة على المدينة المنورة قبل الحريق وبالتدريج تغلب أفرادها على أفراد مذاهب الحق بالتدريج وسيطروا على مسجد السعادة وعلى جميع المساجد الأخرى والأضرحة التى أداروها وفق تعليمات وطقوس مذهب الرفض والإلحاد ومنعوا أصحاب المذهب الحق من الدخول فى مسجد السعادة وطبقوا فى المسائل الشرعية أحكام مذهبهم وحرفوا دقائق الكتب الفقهية كيفما شاءوا.

وانتزعوا زمام الحكم فى فترة ما واغتصبوا دور إفتاء مذاهب الحق، وتدخلوا فى الأحوال الشخصية لهذه المذاهب الحقة من حيث عقد النكاح وأخضعوا على الأحكام الفرعية لمذهبهم وأصبح لا يعقد النكاح دون الاستئذان من قضاة تلك الطائفة ودون وجود أحد أئمتهم. وطفح كيل أهل المدينة من مظالمهم التى لا تطاق وتشتتوا فى أطراف البلاد الأخرى فرادى ومثانى، واتحد أفراد الملاحدة واتفقوا على ألا يدخلوا أحدًا من علماء المذاهب الحقة فى دار الهجرة، وطردوا العلماء الذين فى داخل المدينة واحدا تلو آخر؛ وبهذا أصبحت المدينة المنورة تحت أيدى طائفة الرافضة وخلع كل واحد منهم برقع الحياء والأدب وخرجوا جميعًا من دائرة الشرع المنجية، وابتدعوا بدعًا كثيرة متعددة وارتكبوا مساوئ تستدعى غضب الله، وهكذا كانوا سببًا فى احتراق مسجد السعادة، حتى إنهم رأوا بعض الأبيات كتبت على جدران المسجد الباقية دون الاحتراق من قبل الرحمن وأخبروا ذلك وكانت الأبيات المشهودة تبين إساءات الطائفة المذكورة وقد سطرت أيضًا فى الصورة من الوجهة الأولى، ولما استمرت وقاحة هذه الطائفة بعد تجديد مسجد السعادة أيضًا قويت إرادة أحد ملوك «نصير» الشراكسة فعين مفتيًا لموحدى المذهب الحق فى المدينة المنورة، وهكذا أرسل إلى طيبة الطيبة المفتى «شاهى» من أفاضل الفقهاء، ولما وصل المفتى المرسل من «نصير» إلى المدينة رأى أن أفراد المذاهب الحقة لا حكم لهم فى المدينة المذكورة لأجل ذلك فضل أن يؤدى مهمته فى مسجد ينسب إلى أبى بكر الصديق وقد أصبح مسجد السعادة تحت سيطرة غلاة الملاحدة وأخذ يصلى هناك ليلاً ونهارًا يعظ وينصح الناس فى خفاء وعزلة، وقد ظهر فى أثناء ذلك كثير من الموحدين الذين احترقت أكبادهم بنار الغيرة على الإسلام، وبذل المفتى جهده للتغلب على طائفة الملاحدة واستطاع بتصرفه الحكيم أن يدخل فى المسجد الحرام مع جم غفير ممن التفوا حوله من أتباعه وأخذ يعظ هناك وينصح وبهذه الطريقة الأصيلة استطاع أن يزيد عدد أتباع جماعات المذهب الحق يومًا بعد يوم وبهذا ظهرت علامة إمكانية التغلب على الملاحدة.

ولما رأت الطائفة المذكورة ازدياد أتباع المذهب الحق أخذت تتبع المفتى حيثما يذهب وتؤذيه فى جسمه وترجمه بحجارة الجور والإهانة حيثما يعظ وينصح من المساجد، إلا أن المفتى قد فتح صدره بالصبر لتحمل اعتراضات الملاحدة وزاد من عدد جماعته يومًا بعد يوم وبهذه الطريقة استطاع أن يعظ ويخطب أحيانًا حتى فى مسجد السعادة إلا أن جور ملاحدة الإمامية وأذاهم زاد قدر سعيه وجهده إذ أخذوا يرجمونه حينما يخطب فى المسجد حتى وهو يستأذن النبى ﷺ واقفًا أمام قبره وتعرض إلى غير ذلك من الأذى والتعب حتى أصبح يخاف على نفسه فقلت جرأته ـ وفق عادات البشر ـ وأراد أن يحصر وظيفته ـ الإمامة والخطابة ـ فى المسجد الذى ينسب لاسم الصديق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ ومع هذا لم يتركوه على راحته حتى فى مسجد أبى بكر ولم يستطع أن يؤدى مهمته مستريحًا.

وقد تأثر أفراد سادات المذاهب الحقة من هذا الوضع وثقل عليهم، لذا قرروا فى مجلس عقدوه لبحث هذا الموضوع أن يخطب المفتى فى مسجد السعادة فإذا ما التزمت الطائفة المذكورة طريقة الإساءة والأذى والتسلط كان له أن يقاومهم بالسلاح وقد كثر عددهم وعلى هذا عادوا يومًا لأداء الصلاة فى مسجد السعادة، وقد اتحد مردة دائرة الرفض والإلحاد على أن يؤذوا ويسيئوا للخطيب فى داخل جماعته إلا أنهم جبنوا عن ذلك لما وصلهم من اتفاق أهل المدينة على المقاومة وأنهم كلهم متسلحون وعلى هذا لم يستطيعوا أن يتسلطوا على الخطيب بالرجم بل أطالوا ألسنتهم وأظهروا خبثهم بهذا الشكل.

وأخذ المفتى بعد هذه الواقعة يكثر من خطبه ومواعظه فى مسجد السعادة. إلا أن هذا العمل أثار غيظ علماء الطائفة المذكورة وغضبهم لذا فكر عقلاء الأهالى أن يحموا شخص المفتى ذو المحاسن من سهام إهانة الأشقياء وعن سوء قصد الملاحدة وقرروا أن يسير أمام الخطيب المفتى حينما يقوم من مكانه الخاص ويتجه إلى منبر السعادة حارسًا وشخصًا آخر أطلقوا عليه مؤذن المنبر، وفى الواقع إن هذا القرار كان صائبًا ومناسبًا لوقته.

وبناء على ما عرف ـ فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة ـ أن الأمور سارت على ذلك المنوال فترة ما إلا أن الأهالى تغلبوا على جماعة الملاحدة المكروهة وأخرجوهم كافة من بلدة المدينة المنورة المباركة إلا أن الأهالى قد أبقوا خدمة مؤذن المنبر لسبب ما، ومن ذلك الوقت أصبح من العادة أن يسير أمام خطباء الحرمين مؤذن منبر فى أيام الجمع والأعياد، والآن يوجد مؤذن منبر أمام الخطباء الذين يتجهون لإلقاء الخطبة رعاية لهذا النظام سواء أكان فى المدينة المنورة أو مكة المكرمة وفى بعض البلاد العربية.

ولا ينكر فوائد هذا النظام الشامل للمحاسن فإن كان مثل هذا النظام فى باب السعادة لما أصيب خطيب جامع الوالدة فى أقسراى بجرح فى أثناء خطبته.

مولد النبى ﷺ يحيى أهالى المدينة ليالى المولد الشريف فى داخل المسجد الشريف ويجتمعون فى حلقات قرب الصباح أمام «باب النساء» وبعد أن يحضروا كرسيًا إلى الساحة الرملية لحرم السعادة، يستمعون إلى المولد الشريف من قبل خمسة أشخاص ذوى أصوات رخيمة والشيخ الخطيب ويشربون الشراب الذى يوزع عادة ويعودون إلى منازلهم.

ويشرع فى قراءة القصيدة المذكورة مع طلوع شمس اليوم الثانى عشر من كل سنة وإن كان قُرَّاء المولد من أئمة مسجد السعادة إلا أن لهم وظائف أخرى، وقارئ المولد الأول خاص بقراءة منقبة مولد السعادة وإنه يصعد فوق كرسى موضوع فى ساحة الحرم الشريف الرملية ويقرأ حديثًا ثم يدعو لسلطان الزمان وينزل، ثم يصعد الثانى ويقرأ ولادة النبى ﷺ الباهرة، ويقرأ الثالث الرضاع، والرابع يقرأ جزءًا خاصًا بالهجرة السنية، والخامس يدعو، وهكذا يؤدى كل واحد منهم وظيفته.

فتح المحال فى يوم مولد النبى للبيع والشراء، والانشغال بأشياء أخرى ممنوع قطعيًا بين أهل المدينة المنورة، يلبس فى ذلك اليوم الفيروزى الكبير والصغير الغنى والفقير كلهم ملابس فاخرة ويحتفلون بالعيد ويهنئ بعضهم بعضًا قائلين

حينما يتقابلون إن هذا اليوم السعيد اليوم الذى ولد فيه سيد الكائنات إن أجسام الكائنات التى كانت ميتة تقريبًا تجددت حياتها، المواسم المقدمة الأخرى خلقت لحرمة هذا اليوم، وقد نزل القرآن الكريم المبين لأجل هذا النبى المختار هذا اليوم يوم العيد الأكبر، هيا نظهر أقصى ما نستطيع من الفرح والسرور ونعلن هذا اليوم بإطلاق المدافع من القلاع وتفجير حشو البارود.

زيارة مشهد حمزة: ولما كان من عادة سكان البلاد الحجازية زيارة ضريح سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ فى الليلة الثانية عشرة من رجب الفرد من كل سنة، فيذهب أهالى المدينة الطاهرة لزيارة مشهد سيدنا حمزة فى الليلة الثانية عشرة من شهر رجب وبعد الزيارة ينتشرون فى الخيم التى نصبت بجوار مرقد الشهيد المشار إليه ويحتفلون إلى الصباح وهم يطلقون حشو البارود.

ويخرجون فى الثالث والعشرين من رجب لاستقبال قافلة الزوار الذين يطلق عليهم «الرجبية» إلى خارج المدينة، وهؤلاء يفدون من الأطراف والأكناف قاصدين الزيارة، وبما أن هؤلاء الزوار يأتون إلى دار الهجرة راكبين الهِجَانَ قد يطلق عليهم «ركاب» أيضًا.

وتتكون طائفة الرجبية من الزوار الذين يأتون من اليمن ومكة والطائف وأهالى البلاد العربية وخاصة من البلاد والقرى القريبة المجاورة لدار الهجرة، وكل هؤلاء يأتون راكبين الهجان ومعهم أولادهم وعيالهم وكل قبيلة قد رفعت عَلَمَهَا وجلبوا رئيس قبيلتهم أمامهم ويدخلون بالشوق والإخلاص داخل حرم السعادة وينالون شرف مسح وجوههم على عتبة مرتبة العرش النبوى ويتلون النعوت الشريفة والصلوات الشريفة ويبكون متأثرين بما يحدث هذا الموقف من أثر شديد فى نفوسهم.

عندما يدخل زوار الرجبية فى حرم السعادة يبكون قليلاً إذ ترق قلوبهم، يسفحون الدموع الدامية إلى حَدّ أن من يرونهم تذوب قلوبهم كالملح وإن كانت فى قساوة الحجر الأسود، إنهم يفدون إلى المدينة المنورة ويقتحمونها مزدحمين

حتى تكاد المدينة طيبة الشهيرة تمتلئ رحباتها يقيمون فى خشوع وخضوع ثلاثة أيام بلياليهن أمام قبر النبى ﷺ وينشدون القصائد والمدائح دون توقف وهى قصائد فى مدح النبى ﷺ ذات أثر بالغ فى النفوس وأناشيد دينية:

مـــرحبًا بـــك يـــا محمـــد مـــرحبًا مـــرحبًا مـــــرحبًا

إلى آخره.

وينتحبون بشدة من أثر مهابة المجلس الذى يعقدونه فى داخل حرم مسجد السعادة إذ يقف من يشهده شعر جسمه من غلبة المحبة المصطفوية عليه ويسفح من عيونه دموع الحيرة وهو صامت ساكن.

واليوم الرابع لورود الطائفة المذكورة تحل ليلة المعراج وبعد أداء صلاة العصر يوضع كرسى مزين فى ساحة باب الرحمة فيجلس عليه شخص رخيم الصوت جميله ويأخذ الشخص فى تلاوة منظومة «المعراجية» بصوت حزين ذات تأثير ويلقى فى قلوب السامعين نار الوجد والمحبة ويغادر الكرسى.

ويجتمع بمنطقة المعراج المبارك كافة أفراد الزوار من الرجبية وأعيان وأشراف البلدة فيمتلئ مسجد السعادة لآخره من الداخل والخارج حتى يكاد يتحول إلى ساحة عرفات ذات الفيوضات ويهتز كل ركن منه بصياح ونحيب الموحدين حتى غروب الشمس.

ولما كان ينتظر وقوع بعض الفوضى والفساد نتيجة لهذا الزحام الشديد قد وضع بعض العساكر ورجال الشرطة حتى يحولوا دون حدوث ذلك وتتشكل هذه الجماعة فى الطرف الغربى من حديقة الرسول وقارئها شخص واحد منفرد. وسواء أكان فى الاحتفالات بالمعراج أو المولد الشريف تنصب خيمة فى خارج مسجد السعادة حيث تجهز المشروعات ويسقى الجماعات الذين فى داخل المسجد بأوان خاصة بالمياه. وتظل هذه الخيمة فى مكانها حتى تتفرق الجماعة تمامًا.

ومن العادات القديمة فى هذين الاحتفالين إرسال شراب حلو إلى منازل ألفين من الموظفين والأهالى ففى الوقت الذى ستزال فيه الخيمة ترسل إلى دائرة

المشيخة ودائرة نائب الحرم وإلى منازل الأغوات والأشخاص الآخرين وإلى العساكر السلطانية وإلى موظفى الحكومة وإلى أعيان البلاد وسادتهم إناءين أو ثلاثة أوان من الشراب وتتحمل كل هذه النفقات خزانة المديرية.

وبما أن وجود زوار آثار السعادة المصطفوية فى ليلة المعراج فى داخل المسجد النبوى من النظم المرعية فطائفة الرجبية يحتفلون فى داخل المسجد توأم الجنة ويزعجون أهالى المدينة بصياحهم وأنينهم حتى الصباح وبعد أن يصلوا صلاة الفجر مقتدين بإمام المذهب الشافعى وبعد أن يمر نصف ساعة من شروق الشمس يمتطون هجانهم ويعودون إلى بلادهم وبعد الوصول يقومون بإجراء مراسم التهنئة فيما بينهم.

ومن العادات القديمة الجارية بين الأهالى توديع طائفة الرجبية وتشييعهم ففى اليوم الذى ستغادر فيه الطائفة المذكورة يخرج عامة الأهالى إلى خارج القلعة ويعودون مبتهلين بالهم والبكاء وقد تأثروا بنياح المفارقين، وصياحهم، ويطلق بين العرب لهذه الزيارة «حج النبى».

الوجهة الثانية

وتعرف حكم شد الرحال إلى المدينة بغرض زيارة مسجد الرسول ﷺ وتفصيل الأحاديث النبوية التى وردت فى الدقة والعناية بآداب الزيارة والمجاورة وفى فضائل المسجد الشريف والمنبر اللطيف والروضة المنيفة.

ذكر الأحاديث الشريفة التى وردت بخصوص شد الرحال لزيارة مسجد الرسول ﷺ وآراء الفقهاء العظام وموقفهم فى هذا الباب.

وعد الرسول ﷺ بشفاعة أمته المخلصة عندما قال بأمر من الوحى «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[1] (حديث شريف) وذلك لكل واحد من الذين يزورون قبره.

بما أن هذا الخبر اللطيف قد روى من قبل أئمة الرواة ابن خزيمة والبزار والدَّارَقُطْنِى والطبرانى عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - فلا شك فى صحته.

ذو الشهامة يزورون المرقد ... لا يحرمون من ألطاف الله
لقد بشر أحمد بالشفاعة ... لتكن مجنونًا إذا لم تحظ بها

كما أن زوار الرسول ﷺ مبشرون بالحديث الشريف الذى روى مرفوعًا عن طريق عبد الرحمن بن زيد عن الإمام البزار عن ابن عمر رضى الله عنهما. «من زار قبرى حلت له شفاعتى»[2] (حديث شريف)، «من جاءنى زائرًا لا يعلم له حاجة إلا زيارتى، كان حقًا على أن أكون له شفيعًا يوم القيامة»[3] (حديث شريف).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عمر، وعزاه للطبرانى فى الكبير والأوسط، وقال: فيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف.

وبناء على هذا الحديث الشريف فلا شبهة فى أن النبى ﷺ سيشفع يوم القيامة المفزع للذين يشدون الرحال إلى المدينة المنورة لزيارته ـ عليه السلام ـ وقد نقل وروى أبو بكر بن المقرى فى «معجمه» مرفوعًا عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن طريق مسلمة بن سالم الجهنى هذا الحديث.

وكل من يزور الرسول ﷺ بعد الحج بناء على الخبر الصحيح «من حج فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى»[1] (حديث شريف) يكون كمن شاهد الرسول ﷺ فى حياته، وبناء على قول ابن الجوزى ينال أجر مصاحبة الرسول ﷺ، وقد روى هذا الخبر الإمام الطبرانى فى كتابيه «الكبير» و«الأوسط» عن زوجة الليث عائشة بنت يونس وعائشة عن زوجها الليث كما أنه رواه عن حفص بن أبى دواد القارى، وبما أن ابن الجوزى قد أخبر أن لفظة «صحبنى» من جملة كلمات هذا الحديث الشريف فلا شك فى أن الذين يوفقون فى أداء الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ يكونون قد زاروا الرسول ﷺ فى حياته ونالوا شرف مصاحبته.

ومع ذلك فالذين يذهبون لأداء الحج ولا يزورون قبر الرسول بدون عذر شرعى يكونون قد جفوا الرسول ﷺ، وهذا قد ثبت بالخبر الصحيح الذى رواه الدارقطنى عن طريق نعمان بن شبل وهو «من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى» (حديث شريف) وقد نقل وروى الحديث المذكور نعمان بن شبل عن الإمام مالك والإمام مالك عن نافع عن ابن عمر «رضى الله عنهما» مرفوعًا.

(١) من طريق عائشة بنت يونس رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط قال الهيثمى فى المجمع: «عائشة بنت يونس لم أجد من ترجمها».
مجمع الزوائد ٤/ ٢ ومن طريق حفص بن أبى داود رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط. وحفص بن أبى داود وثقه أحمد وضعفه جماعة من الأئمة.

وقد اعترض بعض الرواة على هذا الحديث قائلين «إن نعمان بن شبل قد انفرد بهذا الحديث[1].

وإذا ما نظرنا إلى ما رواه الدارقطنى عن نافع مرفوعًا عن ابن عمر رضى الله عنهما، «من زارنى إلى المدينة كنت له شفيعًا أو شهيدًا» فالذين لا يزورون النبى ﷺ فمن البداهة أنهم يجفون الرسول ﷺ، لأن الحجاج الذين يذهبون إلى البلاد الحجازية ولا يزورون قبر الرسول ﷺ فكأنهم لم يهتموا بما جاء فى الحديث الشريف من الكرم واللطف والمروءة، لأن رغبة الرسول ﷺ فى الزيارة مبنية على أن ينال الزوار الأجر والمثوبة، لأن الحديث الشريف «من زار بيتى» وعلى قول «من زارنى كنت له شفيعًا أو شهيدًا ومن مات فى أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة» الذى رواه أبو داود الطيالسى ـ رحمه الله ـ يؤكد الحديث الأول كما يؤكد مجافاة الذى لا يزور قبر الرسول ﷺ.

روى منهال بن عمرو عن سعيد بن المسيب: قد رأى بلال الحبشى بعد فتح بيت المقدس فى رؤياه النبى ﷺ وبناء على الأمر النبوى الذى يجب أن يطاع من الكائنات كلها ذهب إلى المدينة وشغل بزيارة قبر الرسول ﷺ.

عمر بن عبد العزيز الذى هو أعدل أهل السلوك وأزهد ملوك بنى أمية بينما كان مستقرًا ومقيمًا فى الشام يأمر بزيارة قبر الرسول ﷺ فى المدينة المنورة فيذهب ويزور قبر الرسول ويعرض سلامه وصلاته عليه.

أما الفاروق الأعظم عندما عاد من فتح بيت المقدس ذهب رأسًا إلى حجرة السعادة، فزارها وألقى السلام على صاحب الرسالة ثم عاد إلى بيته.

ويقول يزيد بن المهدى، وعندما كنت سأعود من جنة الشام إلى مدينة الإسلام

(١) قال ابن حبان فى كتابه «المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين»:
النعمان بن شبل: من أهل البصرة، يروى عن أبى عوانة ومالك، أخبرنا عنه الحسن بن سفيان، يأتى عن الثقات بالطَّامَّات، وعن الأثبات بالمقلوبات، و أورد له هذا الحديث المذكور هنا.
أنظر: المجروحين لابن حبان ٣/ ٧٣، وميزان الاعتدال ٤/ ٢٦٥.

زرت مجلس عمر بن عبد العزيز الذى كان أمير مصر، فقال لى الأمير عند توديعه: «يا يزيد عندما تصل إلى دار السلام قبة الإسلام وتزور قبر سلطان الرسالة ـ عليه أجمل التحية ـ أرجو أن تعرض سلامى وتحياتى لذلك الجوهرة الفريدة للكونين المدفونة تحت ثرى المدينة ذات عطر كالمسك».

وكان عبد الله بن عمر كلما يعود من سفر من أسفاره، كان يدخل فى الحجرة المعطرة ويزور الرسول الكريم ﷺ وبعده قبر الصديق وبعده والده ابن الخطاب ويسلم عليهم وهذه الرواية الصحيحة منقولة من الإمام نافع، إذ يخبرنا الإمام أن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ كان يعرض سلامه وتحاياه على الدرة اليتيمة التى تظهر فى داخل حزمتها المنورة الرسول ﷺ، وإننى قد رأيت ذاته السامية أكثر من مائة مرة وهو يقف فى حضور صاحب الرسالة يقول «السلام عليك يا رسول الله» ثم يقول السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبى ويشغل بالزيارة بهذه الطريقة، بيتى يوصل سلامه إلى المعرض المعلى للرسالة مشافهة ثم إلى رفيقى حياته ومشاركى حجرته الصديق الأكبر والفاروق الأعظم رضى الله عنهما، ثم يعود، وقد دخل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يومًا ما فى المسجد الشريف فرأى مرقد فاطمة «رضى الله عنها» وبكى كثيرا وفى النهاية دخل فى الحجرة المعطرة وبعد أن بكى طويلاً قال «عليكما السلام يا أخوى ورحمة الله» وهكذا سلم على أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وعاد بعد ذلك؛ لأجل ذلك فالفقهاء العظام الذين يتشرفون بلقب حجج الإسلام يتجهون إلى المدينة المنورة بقصد زيارة قبر السعادة.

وبعد أن يصلوا إلى المسجد الشريف الذى يقابل البيت المعمور وهم محرمون وقد اهتزت جنباتهم من الابتهاج والفرح، يزورون الروضة الشريفة التى حسدها روض الجنان، ثم المنبر المنير، ثم القبر المنيف الذى يحتوى على الرسول ﷺ، ثم يزورون الأماكن التى سار فيها وتنزه والأماكن التى جلس فيها مستندا على

الأعمدة التى اتكأ عليها عند نزول الوحى، ثم يزورون ويتبركون برؤية الأماكن الخاصة بالأصحاب الكرام الذين اشتركوا فى بناء المسجد وصرفوا النقود فى تعميره وكذلك التابعين ذوى الشهرة ثم يذهبون إلى آثار الصلحاء وفقهاء الأمة الذين قد أدوا فريضة الحج، فذهاب الحجاج الآن إلى دار الهجرة مبنى على ما فعله الأسلاف.

وقد اختلف علماء الأسلاف فى أفضلية ذهاب الحجاج أولاً إلى المدينة أو العودة إليها من مكة بقصد زيارة قبر السعادة وقد التزم جانب أفضلية الذهاب إلى المدينة أولاً علقمة وأسود وعمرو بن ميمون، وقال الإمام أبو حنيفة «فالأحسن بالنسبة للحجاج الذهاب إلى مكة أولا ثم العودة إلى المدينة بعد عرفة» وقد رجح أبو الليث السمرقندى فى فتاويه القول الثانى على القول الأول، ولما كان عدد من الأئمة اقتنعوا بجواز القول الأول فصحته محققة أيضًا.

إخطار

قد أصبح فى زماننا من حكم العادة ذهاب الحجاج إلى المدينة ورجوعهم منها بين العيدين، ويعود بعض الحجاج إلى بلادهم عن طريق قناة السويس راكبين السفن بعد ذهابهم إلى المدينة بعد وقوفهم بعرفات مع أن الذين يذهبون إلى المدينة بعد عرفة بقصد الزيارة لا يستطيعون أن يبقوا فى المدينة إلا ساعة أو ساعتين ومع هذا يقفون معظم أوقاتهم فى ينبع البحر فى انتظار السفن ويتعرضون لمشكلات كثيرة كما وردت فى ذلك الأخبار الموثوقة، ومن هنا ينبغى على الحجاج الذهاب إلى مكة المعظمة أولاً ثم الذهاب إلى المدينة المنورة بين العيدين، والذهاب إلى المدينة بين العيدين بالنسبة للحجاج الذين يعودون بحرا إلى بلادهم، أما بالنسبة للحجاج الذين يعودون برا فمن الخير لهم أن يزوروا المدينة بعد العودة من عرفات.

نصيحة

كان الذهاب إلى الحج بحرا قبل خمس سنوات أو عشر أهون من حيث النفقات وأدعى للراحة البدنية، ولكن منذ ثلاث أو خمس سنوات تغير الحال فالعودة بحرا أصبحت أمرًا مضرًا ومهلكًا لأن المشكلات التى يتعرض لها الذاهبون والآيبون بحرًا فى مواقع الحجر الصحى زادت من النفقات بالإضافة إلى ضياع الوقت كما تتسبب فى التعب الجسمانى، فالحاج الذى يريد أن يعود بحرًا فى حاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثة أشهر وإلى نفقات من خمسين أو ستين قطعة ذهبية من ذات المائة، فضلاً عن تخمين ما سيتعرض له من المحن والمشاق.

حتى لا يتعرض الحاج لكل هذه المصاعب والمتاعب منفقًا نفقات زائدة يجب عليه أن يذهب إلى أداء الحج بحرًا والعودة برا حتى لا يظل مدة طويلة فى الطريق كما أن الحجاج العائدين عن طريق البر لا يتعرضون لمشاق كثيرة ولا يتأخرون فى الطريق وبهذا ينالون شرف زيارة الآثار واجبة الزيارة.

وليس بقليل ما تتعرض له قوافل الزوار والتجار من مشاق عندما يذهبون من ينبع البحر إلى المدينة ومن المدينة إلى ينبع البحر، وكانت هذه القوافل قبل أربعمائة عام تذهب وتجىء عن طريق «ميناء الجار» ولا يقعون فى مخالب أشقياء العربان، ولكن لشدة الأسف استطاع العربان الذين يسكنون بجوار ينبع البحر أن يتغلبوا على العربان الذين يسكنون بجوار «ميناء الجار».

ووفقوا فى جعل ميناءهم ممر القوافل، ولكن إن كان الذهاب إلى المدينة من ميناء «الجار» يستغرق أربعة أيام فالذهاب من ميناء «ينبع» يستغرق خمسة أيام، فضلاً على ذلك ما يتعرض له المسافرون من متاعب ومخاوف، فالعربان الذين يسكنون فى ناحية «الجار» ليسوا من أهل الجفاء مثل عربان نواحى ينبع بل هم فى غاية الأنس والقناعة، وإذا أرست السفن مراسيها كما فى السابق فى ميناء الجار وانتقلت القوافل فى ذهابها وإيابها عن طريق منياء الجار، تكون قد نجت

من شرور عربان ينبع كما أنها قللت من النفقات، ويتوقف تحويل الطريق إلى ميناء «الجار» على إقامة عدة دكاكين وبعض المخازن ومواقع حراسة قوية وتأسيسها.

ولما كان ميناء «الجار» شبه جزيرة يستوعب كثيرًا من السفن كان فى البداية ميناء مأمونا للفلائك التى ترد من ديار مصر والحبشة، لأنه يقع فى مكان مأمون من المخاطر وهو أقرب الموانى إلى المدينة المنورة.

قد ثبتت زيارة القبر النبوى بإجماع الأمة وذلك بالأدلة التى أتى بها مؤلف «الشفاء الشريف» القاضى عياض والإمام النووى ومن أجل فقهاء الحنفية ابن الهمام ـ عليهم الرحمة والسلام ـ حتى اقتنع بعض النحارير الأكابر بوجوب زيارته، زيارة القبور سنة بإرادة صاحب الشريعة «عليه أكمل التحية» ولما كان قبر السعادة سيد القبور كما هو معروف وثابت فزيارته تكون قد ثبتت بالإجماع، وإن كانت زيارة الرسول المشفق على أمته «عليه أعظم التحية» لأصحاب البقيع وشهداء أحد تومئ بأن زيارة القبور منحصرة للرجال إلا أن الآية الجليلة الآتية آمرة بزيارة قبر السعادة **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾** (النساء: ٦٤).

وبما أن هذه الآية الكريمة تشمل النساء أيضًا ويستثنى فى هذه المسألة زيارة قبر الرسول الجليل؛ لذا يستحب العلماء الأعلام قراءة هذه الآية الكريمة عند زيارة القبر المصطفوى التى تستلزم المغفرة.

شد الرحال من قريب أو بعيد إلى المدينة المنورة بقصد زيارة مرقد السعادة خالصًا لوجه الله، قد أكد بأحاديث «من زار قبرى» و«من جاءنى زائرًا» لذا فزيارة القبور من جملة القربات وهذا برىء من الشبهات والزيارة وسيلة للقربة إذ ثبتت زيارة الرسول لشهداء أحد وهو مسافر من المدينة بالأقوال الصحيحة، وبناء على ذلك فمن يخرج إلى المدينة بأمل زيارة قبر الرسول ﷺ بنية خالصة، قد اتفق علماء الأسلاف أو مدققو الأخلاف على أن هذا العمل إحدى وسائل القربات إلى الله.

ولما كان الحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»[1]، دليلاً كافيًا على أن الذهاب إلى المدينة لزيارة مرقد الرسول وسيلة للقربات فإن الذين لا يعرضون سلامهم وصلاتهم على محبوب الله سبحانه وتعالى يكونون قد تركوا الأفضل ويستحقون الملامة وجديرون بالهجاء والمذمة لتركهم الواجب.

هناك اختلاف أيضًا فى تعيين سبب شد الرحال لغير تلك المساجد المذكورة، قال بعض أئمة الرجال إن شد الرحال لزيارة غير هذه المساجد الثلاثة حرام، وقال بعضهم «إذا كانت الزيارة عن طريق النذر فهى حلال، ويقتضى النظر فى هذا الخصوص إلى نية المتعازم للسفر إذا كان القصد من شد الرحال أداء صلة الرحم أو الدين أو الأمور الخيرية جائز بل واجب، أما إذا لم يكن من الأمور الخيرية فحرام قطعيًا[2].

كان الحسن بن على «رضى الله عنهما» ينهى من يشاهده من الزوار بالقرب من قبر الرسول أن يقتربوا أكثر من ذلك، وكان الإمام زين العابدين يحذر من التقرب لقبر الرسول ذاكرًا الحديث الذى يقول «لا تجعلوا قبرى عيدا ولا بيوتكم قبورا، فإن تسليمكم يبلغنى أينما كنت»[3] (حديث شريف).

هذه الأقوال تحمل على عدم تجاوز حد الاعتدال، حتى أن الإمام مالك كان يكره الجلوس كثيرًا بجانب مرقد السعادة، وكان الإمام زين العابدين فى أثناء زيارته لقبر الرسول ﷺ يقف بجانب العمود الذى يتصل بالروضة المطهرة ويصلى ويسلم وكأنه يومىء بأن المحل المذكور هو الجهة التى فيها رأس النبى الشريف، وكانت حجرات زوجات النبى المطهرات، قبل إلحاقها بالمسجد النبوى موقف زيارة

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٣، وعزاه لأحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث ابى هريرة ورجال أحمد ثقات أثبات وكذلك روى من حديث أبى سعيد الخدرى، ومن حديث على، وابن عمر، وأبى الجعد الضمرى.

(٢) انظر فى المسألة: إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركش ص ٢٦٧ وما بعدها.

(٣) رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفرى ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، وبقية رجاله ثقات.

فكان الزائرون الواردون فى؟ صدر الإسلام يقفون فى ذلك المكان وهذا على قول أمام باب الحجرة المعطرة.

وسأل هارون بن موسى الهارونى جده علقمة قائلاً: «من أين كان يزار قبر الرسول قبل أن تلحق دور النبى ﷺ بمسجد الرسول؟» فأخذ الرد الآتى: «قد سد باب الحجرة المعطرة قبل وفاة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فكان يزار القبر من أمام باب حجرة السيدة عائشة «وهذا منقول عن هارون، والواضح من الحديث ألا يعينوا لزيارة قبر الرسول وقتًا خاصًا كأوقات الأعياد، وكان اليهود والنصارى يجتمعون لزيارة قبور الأنبياء ويمضون أوقاتهم فى اللهو والطرب بجانب القبور. أو «عدم اللهو واللعب عند زيارة القبور وعقد مجالس الطرب والزينة»، ويجب أن يؤول بأن الذين عزموا على زيارة قبر الرسول يجب عليهم أن يسلموا على النبى ﷺ ويدعون له ثم يمضون بلا توقف وإن هذا التأويل أبلغ من توجيه الحافظ المنذرى وأحسن وهذا التأويل يعد أقوى الأقاويل من جهة التعظيم للرسول ﷺ، ومن هنا يجب على الزوار المسلمين أن يعرفوا أن زيارة قبر الرسول ﷺ من أفضل القربات والمستحبات المؤكدة، وأن يكثروا من شد الرحال لزيارته مرة بعد أخرى وبما أن العيد مرة واحدة فى السنة فلا يحصروا زيارة قبر الرسول لمرة واحدة فى العمر، بل عليهم أن يزوروه كلما استطاعوا ذلك وأن يعودوا دون أن يتوقفوا كثيرًا فى حضور قبر الرسول عليه السلام.

قال أبو حنيفة لما كانت زيارة قبر الرسول ﷺ من أفضل المندوبات وأكثر المستحبات تأكيدًا فالزيارة قريبة من الوجوب.

فالذين ينذرون بزيارة قبر الرسول يلزم عليهم الوفاء بنذورهم بناء على رأى الأئمة الشافعيين، وأما الذين ينذرون بزيارة القبور الأخرى فبناء على رأى بعضهم يجب الوفاء بنذورهم بالزيارة بينما الآخرون يرون عدم الوفاء بنذورهم ولكن القول الأول مرجح على القول الثانى[1].

(١) راجع فى المسألة: إعلام الساجد.. للزركش ص ٢٦٧ وما بعدها.

فى ذكر وبيان فضائل المسجد النبوى الشريف والمنبر اللطيف والروضة النبوية المنيفة.

قد وصف الله سبحانه وتعالى مسجد السعادة فى الآية الكريمة:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨).

كما أنه سبحانه بين طهارة هذا المسجد المنيف وجماعته وعرفها فى هذه الآية.

وإن كان العلماء قد اختلفوا فى تعيين أى مسجد نزلت فى حقه هذه الآية إلا أن المفسرين الكرام قد نقلوا أحاديث كثيرة لإثبات أن الآية نزلت فى حق مسجد المدينة المنورة كما استدلوا بنقل قول أبى سعيد الخدرى «إننى قلت لإمام الأنبياء» «عليه أكمل التحايا» ما المسجد الذى أسس على أركان التقوى فتلقيت الرد أنه المسجد الذى أتعبد فيه فى المدينة إن الآية الكريمة لمسجد أسس على التقوى نزلت فى حق مسجد المدينة.

وقال بعض العلماء قد تلا النبى ﷺ هذه الآية مخاطبًا أهل قباء وقال (إن الله يثنى عليكم)، وإذا ما نظر لهذا الحديث يلزم أن تكون تلك الآية قد نزلت فى حق مسجد قباء.

إلا أن المفسرين الكرام ردوا على هذا الادعاء قائلين «لما كان أهل قباء فى ذلك الوقت يداومون على الصلاة فى مسجد المدينة فإن هذه الرواية لا تجرح قول أبى سعيد الخدرى.

وقال أبو رشيد إن قول الجليل (من أول يوم) يلمح أن الآية الكريمة فى حق

مسجد قباء، إن قائد المجاهدين عليه سلام الله المعين عندما شرف المدينة المنورة كان أسس مسجد قباء، إلا إذا كانت كلمة يوم فى قوله تعالى (من أول يوم) تعنى فى ابتداء تأسيسه قد طرح على أركان التقوى.

وإذا تمعنا فى النظر فى الاختلافات الواقعة نستطيع أن نوفق بينها قائلين: «إن تلك الآية نزلت فى حق مسجد المدينة وتشمل مسجد قباء أيضًا»، وبما أن كلاهما قد أسسا على أركان التقوى نستطيع أن ندفع المنافاة والتعارض قائلين قد نزلت الآية الكريمة فى حق مسجد المدينة وكذلك فى حق مسجد قباء.

ومع هذا لو نظرنا لما يفيده الحديث الشريف (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) (حديث شريف) وبما أنه لا يجوز شد الرحال لغير مسجد المدينة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى فيثبت أن تلك الآية قد نزلت فى حق مسجد المدينة.

ينقل أئمة الأحاديث عدة أحاديث أخرى كلها تؤيد الحديث السالف الذكر، ولكن ألفاظها تخالف بعضها بعضا إذ تقول الأحاديث المنقولة لاختيار السفر فى أرض الغبراء الساحرة بوجود ثلاثة مساجد «أحدها الكعبة والآخر مسجدى والثالث المسجد الأقصى» والآخر «المساجد التى تستحق السفر إليها مسجدى هذا والبيت العتيق» وأحدها «إن المساجد التى تشد الرحال لزيارتها مسجد إبراهيم ومسجد محمد[1] ـ عليه سلام الله الأحد».

لما كانت بعض هذه الأحاديث لا تشمل على المسجد الأقصى وبعضها مشهورة بضعف روايتها يلزم ألا يهتم بها.

إن الصلاة فى المسجد الذى أسس على التقوى فى المدينة يفضل ثواب الصلاة التى تؤدى فى المسجد الأقصى ألف مرة فمسجد السعادة خير من جميع المساجد ماعدا المسجد الحرام، لأن النبى ﷺ آخر الأنبياء كما أن مسجد المدينة آخر مسجد لأنبياء.

رواية

أراد حضرة الأرقم ـ رضى الله عنه ـ أن يذهب إلى القدس الشريف لينال

(١) انظر: مجمع الزوائد ٤/ ٣ ـ ٤ باب قوله ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..».

الأجر والثواب بالصلاة فى البيت المقدس وبين الأمر للنبى ﷺ إذ مثل بين يديه عندما ذهب لتوديعه، فقال له الرسول مستفهما ليعرف ما فى ضميره «هل تذهب لأجل التجارة؟» فلما أجابه بقوله «بل أذهب لأصلى فى بيت المقدس لأنال الأجر والثواب» قال له: «إن صلاه تؤدى فى هذا المسجد خير من ألف صلاة تؤدى فى بيت المقدس من حيث الثواب» وعلى آخر «إن صلاة تؤدى فى مسجدى أفضل من ألف صلاة تؤدى فى جميع المساجد الموجودة على سطح الأرض غير المسجد الحرام» وعلى رواية «إن صلاة واحدة تؤدى فى بيت المقدس كألف صلاة تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجدين»[1]، ولا يعرف فضل وقدر هذه الصلاة غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلك لا تعادل الصلاة التى تؤدى فى المسجد الحرام، والمقصود بالمسجد الحرام البقعة المفخمة للكعبة المعظمة.

وبناء على هذا التفصيل فالصلاة الواحدة التى تقام فى بيت المقدس تساوى أجر ألف صلاة تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجد الحرام والمسجد النبوى وصلاة تؤدى فى المسجد النبوى فى المدينة تساوى ألف ألف صلاة تؤدى فى المساجد الأخرى.

فاستثناء المسجد الحرام قائم على أن الكعبة المعظمة مساوية من حيث الثواب لمسجد الرسول أو أن المسجد الحرام مفضل بالنسبة لمسجد المدينة أو فاضل يعنى أن الكعبة المعظمة ومسجد الرسول متساويان من حيث الفضيلة أو أن الكعبة المعظمة تفضله فالصلاة التى تقام فى المسجد الحرام أقل من الألف أو هو فاضل فالصلاة التى تقام فيه أكثر من الألف، قد رجح ابن بطال فى هذه المسالة الاحتمال الأول وقال بما أن تفضيل أحدهما على الآخر لن يكون بدون دليل فتبين تساويهما، والإمام مالك ذهب إلى صحة الاحتمال الثانى يعنى قرر أن المسجد الحرام مفضول، إلا أن الأصحاب الكرام أوهموا أن ثواب مكة المعظمة أكثر من ثواب المدينة المنورة معتمدين على سند الرواية التى نقل عن عمر بن

(١) انظر الأحاديث الواردة فى: مجمع الزوائد ٤/ ٤ ـ ٨.
والمسألة فى إعلام الساجد ص ١١٥ ـ ١٢٧، ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

الخطاب، لأن الحديث المميز الذى نقله أبو الدرداء وهو «فضل الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفى مسجدى ألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة»[1].

وقال ابن ماجة: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا أبو الخطاب الدمشقى، حدثنا زُرَيق أبو عبد الله الألهانى، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل فى بيته بصلاة، وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته فى المسجد الذى يُجَمَّعُ فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته فى مسجدى بخمسين ألف صلاة، وصلاته فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة»[2].

إن هذا التفاضل فى الفرائض والنوافل على قول الإمام النووى وبناء على قول الإمام الطحاوى وسائر الأئمة المالكية إن هذا التفاضل فى حق الفرائض فقط ولما كان الحديث الشريف (أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة) يؤيد حكم القول الثانى يلزم أن يكون قول النووى من الأقوال الضعيفة، وقال الإمام أبو حنيفة ومالك إن تضاعف الثواب يشمل الفرائض فقط وأجاب الإمام الشافعى مبينا الدقائق فى هذا الأمر بما حاصله أن أفضلية الصلوات المؤداة فى البيت لا يمنع زيادة الثواب ومن هناك لا ينافى الواقع المدعى، فالفاضل بالنسبة للمفضول لا ينتج زيادة الثواب، فقد لا يوجد فى الفاضل الثواب الذى فى المفضول رحمة الله رحمة واسعة.

إخطارمهم

وإن كان تضاعف الأجر وزيادة الثواب فى حق الصلاة فى الأماكن الثلاثة متفق عليه بين العلماء إلا إنه لا يستلزم سقوط الصلوات الفائتة، يعنى أن الصلاة المؤداة فى المسجد الحرام لا تقوم مكان الصلوات المتروكة.

---

(١) رواه البزار بإسناد حسن احتج به ابن عبد البر.
انظر: إعلام الساجد، ص ١١٧.

(٢) فى الزوائد: إسناده ضعيف؛ أبو الخطاب الدمشقى لا يعرف حاله، زريق فيه مقال، قال ابن حبان فى الضُعَفَاء ينفرد بالأشياء لا يشبه حديث الأثبات، لا يجوز الاحتجاج به إلا عند الوفاق.
انظر: سنن ابن ماجة حديث رقم ١٤١٣ ص ٤٥٣.

وإن كان العلماء الكرام متفقين فى تضاعف الأجر والثواب كذلك على كل أنواع العبادات والطاعات التى تؤدى سواء أكان فى المسجد الحرام أو مسجد سيد الأنام يتضاعف أجرها وثوابها، إن الحديث الذى رواه الإمام البيهقى عن جابر بن عبد الله وهو (الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، والجمعة فى مسجدى هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام وشهر رمضان فى مسجدى هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام) والحديث الجليل الذى نقله الإمام الطبرى عن بلال بن الحارث (رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان) دليلان واضحان على أن العبادات والطاعات المتنوعة فى المساجد الثلاثة تتضاعف فى أجرها وثوابها.

المواقع التى تحوز الخاصية الجليلة لتضاعف الأجر والثواب فى المدينة المنورة حيث دفن كنز السعادة.

قد قصر بعض الذوات من أئمة الحديث تضاعف الثواب للعصر الذى عاش فيه إمام الأنبياء (عليه أكمل التحايا) على حدود المسجد الشريف الداخلية والتى بناها فى حياته، ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا مدعاهم بأدلة واضحة، ومن هنا قد قرر أن الطاعات والعبادات المؤداة فى أى ناحية من نواحيها وفى كل مكان فى المسجد النبوى الشريف يتضاعف أجرها، إذ قال سيد الأبرار ـ عليه صلوات الله الستار ـ (لو مد هذا المسجد إلى باب درای ما عدوت أن أصلى فيه وهذا مسجدى وما يزيد فيه فهو منه ولو بلغ بمسجدى صنعاء كان مسجدى وقال عمر بن الخطاب لو مد مسجد الرسول من الشامية وزيد فيه حتى يبلغ الجبانة كان مسجد رسول الله ﷺ «ولو مد مسجد رسول الله ﷺ إلى ذى الحُليفة لكان منه» وقد وسع الأصحاب الكرام المسجد النبوى فى زمنه «ولما كانت هذه الأدلة تكفى لإثبات المدعى فالظاهر تضاعف الأجر والثواب فى أى موقع من مواقع المدينة الطاهرة ولأجل ذلك روى الإمام أحمد والطبرانى عن أنس بن مالك بواسطة رجال ثقاة

الحديث «من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لا تفوته صلاة، كُتِبَ له براءة من النار وبراءة من العذاب وبراءة من النفاق»[1].

كما روى ابن ماجة أيضًا عن أبى هريرة إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدى فرجل كتب له حسنة ورجل تحط عنة خطيئة.

كما أن الإمام يحيى روى عن سهل بن سعدً من دخل مسجدى هذا يتعلم فيه خيرا ويعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ومن دخل بغير ذلك من أحاديث الناس كان كالذى يرى ما يعجبه وهو لغير الله.

كما أن أبا سعيد المقبرى روى أيضًا عن رجال ثقاة يعتمد عليهم فى الحديث الشريف الذى يقول (لا أخال أن لكل رجل منكم مسجدًا فى بيته فوالله لو صليتم فى بيوتكم لتركتم مسجد نبيكم ولو تركتم مسجد نبيكم لتركتم سنته ولو تركتم سنته إذن لضللتم) إن هذه الأحاديث الشريفة والآثار المروية الأخرى لدليل كاف على أن يثبت ما يتمتع به المسجد الشريف من قدر ومزية، ومن هنا يقتضى أن يبقى إلى يوم القيامة تضاعف الأجر والثواب للطاعات فى كل موقع من مواقع البلدة المقدسة التى تحتوى على مسجد السعادة.

إخطار

إن الذين يوفقون فى زيارة مثل هذا المسجد يجب أن يعتبروا زيارة الروضة المطهرة ومنبر النبى المنيف غنيمة عظيمة وأن يبذلوا غاية جهدهم فى رعاية تلك الأماكن المقدسة وأداء الصلوات المكتوبة والنوافل فيها، لأن قائد الأنبياء (عليه أتم التحية) أخبرنا أن ما بين بيت عائشة الحجرة المعطرة والمنبر المنير روضة من رياض الجنة كما أن المنبر قائم فوق حوض الكوثر.

وإن كان فى تعريف الروضة المطهرة وتعيين حدودها اختلاف فى الألفاظ مثل (ما بين قبرى ومنبرى) وجاء فى بعض الأحاديث (ما بين بيتى ومنبرى) والأخرى (ما بين بيتى إلى منبرى) إلا أن كلها تؤدى نفس المعنى لأن مرقد السعادة فى داخل الحجرة المعطرة للسيدة عائشة، وإذن فليس هناك فرق بين بيت النبى والمرقد المصطفوى.

(١) انظر مجمع الزوائد ٤/٨.

وبناء على ما رواه الإمام أحمد بواسطة رجال ثقاة عن سهل بن سعد أن منبر السعادة قائم على ترعة تثير الشوق.

وبناء على قول أبى واقد الليثى أن أرجل المنبر فوق أرض الجنة الساحرة وأن الروضة المطهرة والمنبر المنير المزهر مهما مدحا وأثنى عليهما يستحقان ذلك، وقال معاذ بن الحارث من أصحاب النبى ﷺ الكرام إننى سمعت رسول الله ﷺ وهو فوق منبره يقول «إن قدمى على ترعة[1] من ترع الجنة» ونقل أبو سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ فى أثناء خطبة فوق منبره يقول «أنا قائم الساعة على[2] حوضى» كما نقل ابن زبالة أن النبى ﷺ قال «أنا على الحوض[3] الآية» كما نقل نافع بن جبر هذا الخبر الصحيح «أحد شقى المنبر على عقر الحوض فمن حلف عنده يمين فاجره يقطع بها حق امرىء مسلم فليتبوأ مقعده من النار» وروى أبو داود وابن حبان وحاكم هذا الحديث.

نقل النسائى حديث «من حلف عند منبرى هذا يمينا كاذبة استحل بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صَرْفٌ ولا عدل» ونقل الطبرانى حديث «منبرى على ترعة الجنة وما بين منبرى وبيت عائشة روضة من رياض الجنة» وقد نقلا هذين الحديثين الشريفين ليعرفا أن الروضة المطهرة والحجرة المعطرة والمنبر اللطيف أماكن واجبة الاحترام.

بيان المصلى النبوى وبيان حدوده

قال خاتم الأنبياء ﷺ ليعين حدود مصلاه الميمونة «ما بين حجرتى ومصلاى روضة من رياض الجنة» ومن هنا اختلف علماء السلف فى تعيين حدود مصلى النبى ﷺ

(١) الترعة بمعنى البئر أو حديقة مرتفعة عن الأرض. وانظر مجمع الزوائد ٤/ ٨ ـ ٩.

(٢) العقر يقال للمكان الذى يشرب منه الماء أو على قول يطلق على خلف الحوض إذ ينبع ماء الحوض من هنا. وانظر فى هذا الحديث: المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٨.

(٣) المقصود بهذا الحوض حوض الكوثر وبناء على ما جاء فى الحديث الشريف «زواياه سواء وأنه حوض متساوى الأضلاع مربع الشكل».

قال بعض الأئمة الكرام: المقصود بهذا اللفظ هو مسجد السعادة وقال الآخرون المقصود من المصلى هو مصلى العيد النبوى إذا ما نظر إلى ما رواه راوى الحديث الثانى عقب حديثه أن أباه يحيى قال إننى سمعت عندما، سمع سعد بن أبى وقاص هذا الحديث سارع بشراء بيت فخم بين المسجد الشريف ومصلى العيد وبالنظر أيضًا إلى ما قاله، جناح النجار كنت ذهبت مع عائشة بنت أبى وقاص إلى مكة فسألتنى ونحن نخرج من المدينة قائلة «يا جناح أين يقع المنزل الذى تسكنه؟» فلما أجبت قائلا «فى بلاط المدينة» فقالت: «أحذر من التفريط فى هذا المنزل لأن والدى سعد بن أبى وقاص كان يقول إنه سمع الرسول ﷺ يقول: «بين مسجدى ومصلاى روضة من رياض الجنة». ومن هنا يلزم المصلى التى وردت فى الأحاديث أن يكون مصلى العيد.

التوضيح: بما أن الموقع المسمى ببلاط قد عرف فى بحث (أرواق المدينة) فهو رصيف الجادة الواسعة الذى يبدأ من المسجد النبوى وينتهى عند مصلى العيد. وبما أنه قد ثبت أن ما بين مصلى العيد ومسجد السعادة روضة من رياض الجنة فمن هنا يلزم أن يكون مسجد السعادة كله الروضة المطهرة ويومئ ما ذكره طاهر بن يحيى وجناح النجار اقتضاء هذا الحكم.

وعلى هذا التقدير قد بين أفضل الناس (عليه الصلوات) أن منبر السعادة سيحشر يوم القيامة مثل سائر المخلوقات وأنه سيوضع فى محله الذى فيه الآن وأن الذين أدوا الصلاة بجانب المنبر ذى الفيوضات سيكونون كالذين أدوا الصلاة فى عقر الكوثر فالذين يداومون على أداء الصلاة فى الروضة المطهرة كأنهم يتعبدون فى جهة من حوض الكوثر وقاموا بأعمال صالحة تتيح لهم شرب الماء من ذلك الحوض، قد بين ذلك فى الأحاديث التى سطرت فيما سبق وبهذه الإشارة الواضحة رغب ضعفاء أمته للتعبد بجانب منبر السعادة وقد اتفق العلماء فى نقل منبر السعادة إلى عرصة العرصات فى يوم القيامة إلا أنهم اختلفوا فى كون المنقول المنبر الحالى أو سيخلق ويصنع منبر آخر لائق بخطيب منبر اللاهوت عليه السلام؟ قال فريق من العلماء إن المنبر الحالى سينقل كما هو إلى أرض

المحشر وأنه سيركز فى عقر حوض الكوثر وقد قرر فريق آخر أنه سيخلق منبر آخر قد رجح ذلك ابن عساكر ومن يوافقون رأيه من الأكابر كما أن ابن النجار قبل ذلك الرأى ونشره.

وقد حمل الإمام مالك فى بحث تعريف الروضة المقدسة الحديث السالف على ظاهره وقال: الروضة المطهرة روضة نفيسة من رياض الجنان، لأجل ذلك لن تمحى وتباد مثل المنازل الأخرى وستنقل إلى أرض الجنان الساحرة على هيئتها، وقد قبل أكثر العلماء هذا الرأى المصيب حتى قال برهان بن فرحون ناقلا عن ابن الجوزى وآخرين إن الصلوات التى تؤدى فى الروضة تستلزم دخول الجنة المطهرة وتنزل أقسام الرحمة فإنها مثل رياض الجنة من حيث المداومة فى العبادة فى الروضة المطهرة وملازمتها.

وقال إن استمرار النبى ﷺ فى العبادة والطاعة فى ذلك المكان المطهر محمول على هذا السر وبهذا أيد قول الإمام مالك.

وأن الحكم على موقع بأنه مسعود ومبارك يتوقف على أن ذلك الموقع قد اكتسب شرفا وسعادة بطاعات رسول الله ﷺوعباداته، وإذا قيل بمقتضى (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) إن العبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ حيثما تكون تؤدى إلى دخول الجنة يلزم منه أن تخصيص المنبر المنير والروضة المطهرة بزيادة الشرف الثابت بدلالة الأحاديث الصحيحة لا فائدة منه ولا قيمة له، وهذا لا يجوز، ومن هنا فمن الأولى أن يحكم أن الروضة المطهرة جزء من الجنة بناء على قول الإمام مالك كما يقال إن الحجر الأسود من حجارة الجنان.

يقول ابن زبالة إن أسامة بن زيد بن حارثة رأى ناقل الحديث إبراهيم مصليا فى ركن من أركان المسجد الشريف وبعد السلام أمسكه من يده وذهب به إلى المنبر الشريف وقال يلزم عليك أن تصلى ها هنا فمن المحتمل أن يكون هذا المكان بالذات من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسعد من أحجار الجنة! إن الروضة المطهرة ستنقل إلى الجنة فى يوم الحشر إن هذه المزيه تدل على منزلة نبينا ﷺ،

كما تدل على متابعته لإبراهيم (على نبينا وعليه التسليم). قد أنعم الله سبحانه وتعالى على إبراهيم بالحجر الأسود وهو من حجارة الجنة كما أنعم على نبينا ﷺ بالروضة المطهرة.

كما لا يخفى على أهل الفهم والذوق أن هناك فرق بين التخصيص والتنصيص فإذا حمل الحديث السالف الذكر على ظاهره وفق قول الإمام مالك المختار فرجحان المدينة المنورة على سائر البلاد وفضلها ومزيتها يصل إلى درجة اليقين والثبوت نورها الله تعالى إلى يوم القيامة.

إن الروضة المطهرة التى ثبت بالبراهين المقنعة أنها جنة من رياض الجنان إلا أن العلماء قد اختلفوا فى تعيين وتعريف حدودها، فقال بعضهم إنها من المنبر المنير إلى أن يتصل بالجهة القبلية والشمالية من الجهة القبلية والشمالية للحجرة المعطرة بالتدريج.

ولما كان طول منبر السعادة خمسة أشبار تظهر الروضة المطهرة تقريبًا مثلثا ذى أربعة أضلاع، وبناء على هذا التعريف يلزم أن يكون داخل الخطوط الأربعة فى الشكل الأول الروضة المطهرة وبناءً على هذا يقتضى ألا تكون مقدارًا من الأرض التى توجد فى الجهة القبلية بين القبر الشريف والحجرة اللطيفة يعنى المحل الذى يتسع لصف من المصلين وألا يعد من الروضة المطهرة، مع أن هذا المكان الذى ما بين الصف الأول من الأساطين التى فى الجهة القبلية للروضة المقدسة والسور الخشبى الذى أمام محراب النبى ولما كان وجود مكان سجود النبى ﷺ يكسب الروضة المطهرة مزية فلا يحكم على صحة القول المذكور.

وقال بعض العلماء إن الجهات الأربعة للروضة المطهرة متساوية إلا أن محاذاة الحجرة المعطرة التى هى بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الشمال والجنوب فى محاذاة منبر السعادة فى الناحية الشمالية والجنوبية.

وبناء على ما يظهر فى الشكل الثانى فإنه عندما تعرض المنبر الشريف مع جدرانه ومسجد السعادة للحريق مرة ثانية ورئى تجديدهما سحب الجدار الجديد

ناحية الحجرة المعطرة وبهذا قد خرج عن محاذاة الجدار القديم قليلا ومد ناحية الجنوب وبهذا أخذت هيئة الروضة المطهرة شكلاً مربعا ولما كان المحل الملحق مسقفا فى عصر السعادة فحكم على أنه من الروضة المطهرة.

قد ذهب بعض الناس من المؤرخين العلماء إلى أن بعض محراب النبى ـ وعلى قول ـ كله أنه الطرف الخارجى للروضة المقدسة، ولم يرد دليل قوى يؤيد هذه الرواية وتردد العلماء قديما فى التصديق على أن يكون محراب النبى خارج الروضة المطهرة وبناء على هذا فلابد أن يكون المؤرخون مخطئين فى ذهابهم إلى هذا إذا ما نظر إلى الشكل الثالث بدقة يرى أن المصلى الشريف فى داخل الحجرة المعطرة فيفهم من أول نظرة أن الرأى الذى ذهب إليه حكم باطل.

وإن كان هناك اختلاف فى المسافة التى بين مرقد النبى والمنبر الشريف من حيث مساحته الذراعية إلا أن هذا الاختلاف فى تعيين مدى سمك جدران حجرة السعادة وقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن المسافة بين المنبر المنير ومرقد السعادة أربعة وخمسون ذراعا وستة أصابع وذهب فريق آخر إلى أن المسافة ثلاثة وخمسون ذراعا وستة وشبر واحد وفى الحقيقة أن المسافة ثلاثة وخمسون ذراعا وستة أصابع وبناء على هذا الحساب فإن الفريق الثانى قد قاسها من داخل الحجرة الشريفة.

الوجهة الثالثة

تحتوى على ثلاث صور فى تعريف أسماء المدينة الطاهرة وفضائلها التى ترجحها على البلاد الأخرى وخصائصها الفائقة وبعض أحكامها التى توحى بحكم جليلة.

فى بيان أسماء المدينة المنورة الجميلة وألقابها الجليلة (على صاحبها أفضل التحية).

ذكر العلماء الكرام للبلدة الطيبة دار هجرة النبى ﷺ ما يقرب من سبعة وتسعين اسما ساميا مستخرجين ذلك من الكتب المقدسة والأحاديث الشريفة، ومن الواضح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ومن البديهى أن لتلك المدينة المفخمة أسماء كثيرة إلا أن مجد الدين اللغوى قد ذكر الأسماء التى اتفق عليها العلماء وميزها بحرف [ز] وهذه الأسماء لم تتجاوز سبعة، ولكننا كتبنا جميع الأسماء التى صادفتنا متبركين بها والأسماء التى ميزت بحرف [ز] أشرنا إليها بنفس الحرف كذلك وقد رتبناها حسب ترتيب حروف الهجاء وكتبناها:

حرف الهمزة:

١ـ أثرب: هذه الكلمة على وزن أسعد بفتح الهمزة، وفى فترة ما أبدلوها بياء وقالوا يثرب، وأثرب اسم شخص من أبناء سام بن نوح ـ عليه السلام ـ الذى سكن أول واحد فى أرض المدينة.

يثرب: لما كان لفظ يثرب يتضمن معنى الفساد فاستهجنه الواقف على الحكم الخفية (عليه أجمل التحية) فبدله طابه وطيبة وعند البعض أن النبى ﷺ ذكر هذه المدينة باسم (يثرب).

توجيه وجيه: إذا ما قيل أبقيت المدينة أولا باسمها القديم ثم استهجن ذلك الاسم فألغى نكون قد وفقنا بين الأقوال.

وعند أبى عبيدة أن يثرب، يطلق على جميع جوانب المدينة وهو المحل الذى يقع بين الناحية التى يطلق عليها «جرب وقناة»، و«يثرب» فى زماننا اسم موضع

يقع جهة مشهد حمزة (رضى الله عنه) وفى الطرف الشرقى لبركة نصر وبجانب العين الأزق، إن هذا المكان هو بستان النخيل الذى يعرف باسم «أثاب» وكان ساحة قرية بنى الحارثة، وقد نزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾. (الأحزاب: ١٣).

فى هذا الموضع فى يوم الأحزاب وكان مشركو قريش قد احتشدوا هناك لضرب خيامهم ونصبها وعلى هذا التقدير يقتضى أن يطلق اسم يثرب على هذا المكان أى محل بستان النخيل السالف الذكر، إلا أن نبى الله ﷺ أطلق اسم يثرب على مكان فى موقع «زباله» والذى يعرف إلى الآن بموقع يثرب والآية المذكورة قد نزلت فى حق منافقى المدينة.

٣,٢ ـ أرض الله، أرض الهجرة: [ز] وهذا الاسم اللطيف الذى ثبت بالآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. (النساء: ٩٧).

لأن بعض المفسرين فسر «الأرض الواسعة» بالساحة الواسعة للمدينة المنورة.

٥,٤ ـ أكالة البلدان [ز]، أكالة القرى [ز]: إن هذين الاسمين يدلان على أن المدينة الطاهرة تفوق المدن الأخرى فى الفضل والمزية. وهما مستنبطان من الحديث الشريف «أمرت بقرية تأكل القرى»[1].

٦ـ الإيمان [ز] وهذا الاسم كناية عن أن تلك المدينة ستكون مظهر الإيمان ومصيره، وقد عين بالآية الجليلة:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي

(١) صحيح رواه مسلم حديث ١٠٠٦، باب المدينة تنفى شرارها.

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (الحشر: ٩).

وما قاله عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر «بما أن هذه المدينة مظهر الإيمان فتسمية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لها بـ «دار إيمان» محمول على هذه النكتة.

حرف الباء:

٨,٧ ـ البارة [ز] وهذا يومئ بأن مدينة الرسول منبع فيض وبركات وأنها مصدر خير لجميع الكائنات.

١١,١٠,٩ ـ ومن أسمائها الشريفة بحْره، بُحَيرَة، بَحِيرَة [ز] وهذه الأسماء الثلاثة تدل على فضل وبركة تلك المدينة.

١٢ ـ بلاط [ز]: بمعنى الرصيف وكان اسم الرصيف القائم بين المسجد الشريف والسوق وفيما بعد أصبح من أسماء المدينة.

١٣ ـ بلد [ز]: هذا الاسم مأخوذ من قول الله تعالى:

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. (البلد).

وقالت طائفة من المفسرين الكرام أن «بلد اسم مكة المكرمة» إلا أن طائفة أخرى قالت إنه اسم المدينة المنورة.

١٤ ـ بيت الرسول، ﷺ [ز]: وهذا الاسم ثابت بقول الله تعالى:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾. (الأنفال: ٥)

لأن المقصود بالبيت المذكور فى الآية المدينة المنورة.

حرف التاء:

١٥، ١٦ ـ تَنْدَرْ [ز] تَيْدَرْ [ز]: وإن كان كلا الاسمين على وزن جعفر من أسماء

المدينة الجليلة إلا أن بناء على قراءة ابن عباس وابن جماعة يلزم أن يكون نيدر على أنه نداء وسيأتى ذكره فى حرف الراء.

حرف الجيم:

١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ ـ جابرة [ز] جِبَار، جبَابَرة [ز] جَبَّارة: وينقلون أن هذه الأسماء مستخرجة من التوراة الشريفة.

٢١ ـ جزيرة العرب [ز]: وهذا الاسم ثابت بالحديث الشريف الذى يقول «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

حرف الحاء:

٢٣ ـ الحبيبة: وسبب تسميتها بهذا الاسم مدى حب حبيب الله لهذه المدينة.

٢٤ ـ حَرَم: وهذا الاسم ثابت بالحديث الشريف «المدينة حرم آمن» قال النبى ﷺ «إن حرم ابن آزر مكة المكرمة وحرمى المدينة وكل من يخيف ويحذر أهل المدينة سبحانه وتعالى يخيفه».

٢٥، ٢٦ ـ حرم رسول الله [ز]، حسنة: وهذا الاسم مأخوذ من الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. (النحل: ٤٢).

حرف الخاء:

٢٧، ٢٨ ـ خَيْرَه، خِيرَه: وهذان الاسمان اللطيفان ثابتان بالحديث «المدينة خير لهم».

حرف الدال:

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ ـ الدار [ز] دار الأبرار، دار الأخيار [ز] دار الإيمان [ز] دار السلام [ز] دار السنة [ز] دار السلامة [ز] دار الفتح [ز] دار الهجرة: ولما كانت هذه الأسماء من الأسماء المعروفة فوجه تسميتها

بها ظاهر. لأن جميع البلاد والأمصار قد فتحت وسخرت بسوق الجنود الأبرار من مدينة دار الهجرة، كما أن شمس السنة السنية أشرقت من آفاق المدينة وأضاءت أقطار العالم والممالك، لأن النبى ﷺ هاجر إلى المدينة بعد أن ظهرت الدعوة فى مكة المكرمة.

٣٨ ـ درع، الحصينة [ز]: ودرجة التسمية بهذا الاسم يعود على قول سلطان الدين ـ عليه صلوات الله المعين ـ «قد رأيت نفسى فى رؤيا داخل درع محكم الصنع وأولت هذا الدرع بأنه المدينة».

حرف الذال:

٣٩ ـ ذات الحجر [ز]: وسبب تسميتها بهذا الاسم وجود المدينة داخل جبال حجرية.

٤٠ ـ ذات الحرار [ز]: وسبب تسميتها بهذا الاسم أن المدينة محاطة بالتلال. إن كاهنا من كهنة اليمن الذى يطلق عليه ضافير الحميرى قال «كنت سألت عن أحد أفراد الجن فى أى بلاد أتحرى عن الدين الحق فقال هذا الجن: ابحث عن هذا الدين الحق فى الحرار»، وبهذا الاسم أومأ الجن إلى المدينة المنورة.

٤١ ـ ذات النخل [ز]: وقد ثبت هذا الاسم بالحديث الشريف «أريت دار هجرتى ذات نخل».

حرف السين:

٤٢ ـ سلق: إن هذا الاسم مسطور فى التوراة ويقرأ على ثلاثة وجوه سَلَق، سَلْق (٤٣) وسِلْق (٤٤) وكون هذا البلد فى موقع واسع وجبال بعيدة بعضها عن بعض ومتجاورة. وكونه ذا حرارة شديدَة فهذا هو وجه تسميتها بهذا الاسم. ويروى أن لفظ (سَلْقَهْ) يجمع بين معنى الوسع والحرارة.

٤٥ ـ سيدة البلاد [ز]: وقد نقل ابن عمر (رضى الله عنه) مرفوعا عن ـ النبى ﷺ ـ أنه قال «يا طيبة يا سيدة البلدان» وكان هذا الحديث الشريف سببا فى تسمية المدينة المنورة بهذا الاسم.

٤٦ ـ شافية [ز]: وهذا الاسم مأخوذ من الحديث الشريف «ترابها دواء من كل داء».

حرف الطاء:

٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠ ـ طابَهْ، طَيبهَ، طَيبة، طائب [ز]: يروى أن هذه الأسماء منقولة من كتاب التوراة المقدسة ووجه تسميتها بهذا الاسم بناء على قول وهب بن منبه كونها ذات رائحة طيبة ولطهارتها من دنس الشرك والنفاق وانتسابها الطيب بهجرة الرسول الموقر، كما أن مطَيبه (٥١) وطبابا (٥٢) من أسماء المدينة الجليلة.

حرف الظاء:

٥٣، ٥٤ ـ ظيابا [ز] ظبابا: وقد سميت بهذين الاسمين لكونها قطعة مستطيلة مسعودَة فى أراضى الحجاز المقدسة.

حرف العين:

٥٥ ـ عاصمة: سبب تسميتها بهذا الاسم لأنها حمت المهاجرين الكرام عن تسلط الأعداء كالدرع أو لأنها معصومة من الطاعون والدجال.

٥٦ ـ عذراء: لأنها مصونة من شر الأشرار لرصانتها الجغرافية ومتانتها الطبيعية أو أنها تحمل معنى البكارة لأنها استسلمت للنبى ﷺ دون حرب وقتال. والاسم مأخوذ من التوراة.

٥٧ ـ عَرَاء [ز]: عدم ارتفاع مبانيها القديمة سبب تسميتها بهذا الاسم.

٥٨ ـ عروض: لكونها على أرض مستوية ولوجود أودية السيول ومجاريها فيها.

حرف الغين:

٥٩، ٦٠ ـ غراء [ز]: غالبه [ز]: وسبب تسميتها بهذين الاسمين تغلب قبيلتى الأوس والخزرج عندما نزلتا فى المدينة على طوائف اليهود. وتفوقها فى العهد الإسلامى على القرى الأخرى.

حرف الفاء:

٦١ ـ فاضحة [ز] سميت كذلك لتملكها خاصية فضح أهل البدعة.

حرف القاف:

٦٢ ـ قاصمة [ز]: وهذا الاسم منقول من التوراة سميت بهذا الاسم لهلاك الذين يسيئون إلى أهلها.

٦٣، ٦٤. ٦٥، ٦٦، ٦٧ ـ قرية [ز] قرية الأنصار [ز] قبة الإسلام، قرية الرسول، قلب الإيمان [ز] وجه تسميتها بهذه الأسماء ظاهر، إلا أن الدجال هو الذى سيطلقه عليها «قرية الرسول» لأنه عندما يصل إليها سيعرف أعوانه بأنها دار هجرة الرسول قائلا «هذه قرية ذلك الرجل».

حرف الميم:

٦٨ ـ مؤمنة [ز]: وقد أخذ هذا الاسم من التوراة ويومئ بأن سكنتها سينجون من شرور الأعداء الأشرار والأمراض والكوارث والطاعون والأوبئة ودخول الدجال.

٦٩ ـ ١٠٣ مباركة [ز] متبوئ الحلال والحرام [ز] مبين الحلال والحرام [ز] مجبورة، محبة، محبَّبَة، محبوبة، محبورة، [ز] محرمة [ز] محروسة [ز] محفوفة [ز] محفوظة [ز] ممتازة [ز] مدخل صدق [ز] مدينة، مدينة الرسول، مرحومة، مرزوقة [ز] مسجد الأقصى [ز] مسكينة، مسلمة [ز] مضجع الرسول [ز] مطيبة، مرجية [ز] مقدسة [ز] مقر [ز] مكتان [ز] مكينة [ز] مهاجر الرسول [ز] موفية: ولا حاجة لتعريف وجه تسمية هذه الأسماء.

حرف النون:

١٠٤، ١٠٥، ١٠٦ ـ ناجية [ز] نبلاء [ز] نجر [ز] وسبب تسميتها ظاهر.

حرف الهاء:

١٠٧، ١٠٨ ـ هرزاء [ز] هز: بعض هذه الأسماء مأخوذة من التوراة الشريفة وبعضها من الكتب المقدسة الأخرى.

حرف الياء:

١٠٩، ١١٠، ١١١ ـ يثرب، يندد [ز]: إن هذه الأسماء الشريفة أخذت أكثرها من التوراة ومن الكتب الأخرى كما ذكر أعلاه وبناء على قول الدراوردى إن فى التوراة أربعون اسما آخر لدار الهجرة الطيبة ـ نورها الله تعالى إلى يوم القيامة ـ وبما أن أكثرها يتغير ويتميز بتخالف الحركات، لذا صرف علماء الأسلاف النظر عن ذكرها وعددها.

فى ذكر الروايات التى نقلت من الآثار الموثوقة والأخبار الصحيحة فى فضل ورجحان المدينة المنورة على سائر الممالك.

لا يخفى على أهل الرأى المخلصين أن التراب الطاهر الذى التصق بجسم نافع الكونين المحمدى فى المدينة المنورة أفضل من جميع بقاع الأرض وحتى من البيت الأعظم والعرش المعظم، ولأجل ذلك يفضل العلماء الأجلاء المضجع الجليل المقدس على السماء التى تفوق الأرض فى الأفضلية والرجحان.

وإن كان لا يشك فى أفضلية مكة المكرمة والمدينة المنورة على البلاد الأخرى ورجحانهما، إلا أن المسألة الأصلية فى رجحان أحدهما على الأخرى وترجيحها.

بعد أن اختلف علماء الأسلاف فى هذه المسألة كثيرا رأى عمر بن الخطاب وكثير من الذوات المحترمين من الأصحاب الكرام وعلماء البلدة المقدسة الطيبة تفضيل المدينة المنورة على مدينة مكة المعظمة وقال الإمام أحمد إن هذا الاختلاف فى الأماكن الأخرى من مكة المكرمة، لأن البقعة المحترمة (كعبة الله) أفضل من مرقد رسول الله.

وبهذا الحكم فضُلت مكة المكرمة على المدينة المنورة، قد رأى الإمام مالك صواب القول الأول وقال إن المدينة أفضل من مكة المكرمة لأن التراب الذى يلتصق بجسم صاحب الرسالة محمد ﷺ أشرف وأجل من رجحان جميع بقاع الأرض المنيرة، والفقرة الثانية من ادعائه أى أن التراب العاطر الذى يلتصق بجسم المصطفى ﷺ مفضل على جميع البقاع الأرضية قد صدقت من قبل جميع الأئمة.

إن البلدة المقدسة البطحاء قد اكتسبت شرفا سابقا بالاستناد إلى حضرة إبراهيم

وابنه إسماعيل ـ عليهما صلوات الله ـ إلا أن مجاورة حافظة الجواهر والبر والفضل ـ عليه التحية ـ بالغدو والآصال عندما أسندت إليه الرسالة أضافت علوا وشرفا لهذه البلدة وإن كان هذا لا يقبل الإنكار إلا أن شرف مجاورة النبى ﷺ قد زال بعد الهجرة، واكتسبت المدينة المنورة بالهجرة مزية حقيقية فوق العادة. وإذا قيل، لماذا لم تنل الأشياء الأخرى التى جاورت النبى ﷺ هذا الشرف ولعل الأفضلية ليست وقفا على الملاصقة بل إن هذه الأرض التى دفن فيها الرسول ﷺ أصبحت جزءا من جسم الرسول ولأجل ذلك كسبت المدينة المنورة أفضلية ورجحانا على الأماكن الأخرى لأن الملك الموكل بعجن طينة الإنسان قد قسمها إلى ثلاثة أقسام فيضع أحدها فى رحم الأم عند سقوط النطفة ويضع الثانى فى الأراضى الخصبة التى سيعيش عليها فى حياته، ويلقى بالقسم الثالث فى المكان الذى سيدفن فيه، ومادام التراب الذى التصق بأعضاء النبى المكرم قد كان جزءا انفصل من جسمه فمرقد صاحب الرسالة المؤيد بالفيض النبوى، يرجح قطعا من حيث الشرف على مكة المكرمة. وهذا هو سر رجحان تراب المدينة المنورة العاطر الذى التصق بالجسم النبوى الميمون، من المدينة التى دفنت فيها الرحمة، وحكمة هذه الأفضلية ترجع إلى أن أجر ومثوبات الأعمال الصالحة فى إحداهما أكثر من الأخرى.

وقال الرواة الذين أيدوا الإمام مالك فى رجحان المدينة المنورة على مكة المكرمة فى ضمن إثبات مدعاه ـ قال مؤلف كتاب الوفاء ـ نقلا عن كعب الأحبار ـ عندما أراد الله القادر المطلق أن يخلق ويوجد نور صاحب الرسالة الأقدس أمر جبريل الأمين أن يجهز ويهيئ العنصر المحمدى اللطيف ـ عليه أفضل التحية ـ وجد جبريل الأمين قبضة من التراب الأبيض وأحضره، ولما كان هذا التراب الطاهر موقع مرقد سيد البشر خمر وعجن جبريل ذلك التراب بماء الجنة الزلال وعرف أنه عنصر محبوب الله ـ عليه أجمل التحايا ـ وامتلأ عجبا إذ تأمل أهمية قدره وجلالة وعظمة وفضل جوهره، ولم يكن سكان عالم السماء حتى ذلك الوقت قد سمعوا حتى اسم أبى البشر ـ عليه سلام الله الأكبر.

وقال ابن جرير ونقل فى إثبات مدعاه أن كل شخص يدفن فى المكان الذى خلق منه وذلك من مقتضى الحكم الإلهى. ما قاله ابن سيرين إننى إذا أقسمت أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق النبى ﷺ وأبا بكر وعمر من نوع من تراب ثم ردهم إلى نفس التراب أكون قد أقسمت يمينا صادقا.

ونقل ما قاله ابن عباس آتيا بالحديث الشريف إن الطين العطر النبوى من تراب الكعبة المعظمة التى تمثل سرة الأرض. وقال العلماء الكرام إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما خاطب السماوات والأرض. ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (فصلت ١١).

فأول من لبى الخطاب الإلهى من الأرض أرض موقع الأنور الكعبة ومن السماء المكان الذى يحاذى البيت الأكرم ومع ذلك فإن التراب المطهر الذى استجاب من موقع الكعبة المعظمة كان التراب الذى اختلط بالعنصر النبوى وبالمادة اللطيفة المصطفوية، ثم انفصل عن أرض الغبراء المبسوطة من تراب الكعبة المكرمة ثم بسط وفرش وعلى هذه الرواية يقتضى الأمر أن يدفن ماء وطين ـ عليه سلام الله المعين ـ فى داخل الكعبة ودفنه فى تراب المدينة المنورة العاطرة أى دفن صاحب الرسالة فى مكان بعيد عن مكة المعظمة وإفراده يظهر عظمته وفضله وأنه متبوع وليس بتابع.

عندما تموجت مياه طوفان نوح وهاجت المياه فوق ذروة الكعبة فصلت الطينة الطاهرة النبوية ونقلت إلى المكان الذى يرقد فيه سيد الأنام الآن وهكذا ثبت أن المرقد المقدس للنبى ﷺ جزء من جسم النبى اللطيف، لأجل ذلك دفن فى هذا المكان فأصبح محل راحته مضجعه الأقدس الذى كان أصل طينته الطيبة.

ويثبت هذا المدعى ما يروى أن حضرة سليمان ـ على نبينا وعليه السلام ـ حينما مر من أرض يثرب محل مرقد السعادة قال إنه سيكون هنا مدفن ملك يثرب وبطحاء ـ عليه أفضل التحايا ـ وقد ترك ما يقرب من أربعمائة حبر من أحبار اليهود آراءًا قوية فى هذا الخصوص.

وإن كان يلزم أن يتساوى فضل ومزية الحرمين من حيث مبدأ الخلقة إلا أن

فصل أمواج الطوفان المادة النبوية اللطيفة من بطن الكعبة وحملها إلى مضجع السعادة القدسية، وبهذا الفضل والمزية رجحت المدينة المنورة من حيث جيرتها لمرقد السعادة الذى يحتوى على الجسم اللطيف النبوى يقتضى تفضيلها على مكة المعظمة.

عندما توفى صاحب المقام المحمود ـ عليه سلام الله الودود ـ اختلف العلماء فى المكان الذى يلزم دفنه فيه ـ عليه السلام ـ عندئذ قال سيدنا على «إن المكان الذى قبضت فيه نفس الرسول النفيسة أجمل وأفضل من جميع الأماكن التى على وجه الدنيا» وكان أبو بكر الصديق فى هذا المجلس وقال «سمعت من فم سيد الأخيار نفسه» أن الأنبياء يدفنون فى المكان الذى يقبضون فيه» وقد وافقت آراء الأصحاب الكرام رأى المشار إليهما ومن هنا قرروا دفنه فى منزله اللطيف، إن سبب تأكد العلماء الكرام وجرأتهم على تفضيل المدينة المنورة على مكة المكرمة هو وقوفهم على هذا السر الجليل.

وإنه لاشك فى أن المحل الذى أحبه النبى ﷺ سيكون أحب عند الله عن سائر الأماكن. ألا يرجح المحل الذى أحبه الله سبحانه وتعالى واختاره النبى ﷺ على المكان الآخر؟ وفى هذه الحالة ألا يرجح مضجع السعادة المنيف على الكعبة المعظمة؟

قد دعا فخر الكونين ـ عليه أكمل التحايا ـ حينما كان يغادر مكة «يا إلهى مادمت أخرجتنى من مكان أحبه فأسكنى فى مكان تحبه!!» وإذا ما نظر إلى اتخاذ أرض يثرب بعد هذا الدعاء دار الهجرة النبوية بعد أن دعا قائلا «يا رب أسكنى فى بلاد تحبها» واختياره الإقامة لآخر عمره فى مدينة طيبة الشهيرة يظهر من هذا أن المدينة المنورة أحب إلى الله من البلاد الأخرى.

إنها تلك البلدة المقدسة قد هاجر إليها خلاصة الماء والتراب ـ عليه سلام الله خالق الأفلاك ـ وارتحل عن دنيانا فى هذه البلدة كما حرص أصحابه الكرام على الإقامة فيها، هل ينكر بعد كل هذا مزية رجحان هذه البلدة وأفضليتها على البلاد الأخرى؟

وقد رجح بعض العلماء مكة المكرمة على المدينة المنورة مستدلين بالأحاديث «إن مكة أحب بلاد الله إلى الله» و«إن مكة خير بلاد الله»، وإن كان الإمام أبو حنيفة والإمام الشافعى رأيا هذا الرأى وصدقا العلماء المشار إليهم إلا أن هذين الحديثين قد صدرا قبل أفضلية مكة المكرمة ـ عند سائر الأئمة ـ طالما كان صاحب المعجزات مقيما فى مكة المكرمة، وقالوا إن رجحان المدينة دار السكينة بعد الهجرة وفضلها قد ثبتا بعد الهجرة.

وإن كان ثبت تضاعف الأجر والمثوبة فى مكة المكرمة إلا أن هذا الأمر لا يقتضى أفضليتها، فمثلا يلزم للذين يذهبون إلى عرفات أن يصلوا خمس أوقات فى منى، ومع هذا فإن مكة المكرمة أكثر ثوابًا وأجرا من الصلوات التى تؤدى فى منى وهذا الأمر محقق ومصدق لدى العلماء. ولأجل ذلك قال ابن عمر، إن تضاعف الثواب والأجر فى مكة ثابت ومع ذلك لا ترجح على المدينة دار السكينة وهكذا بين أن تضاعف الثواب لا يقتضى الأفضلية والرجحان وأن المفضول قد يرجح على الفاضل أحيانا.

وبناء على هذا الفهم الدقيق أجاب الإمام مالك على سؤال: أى الحرمين أولى بالمجاورة فى رأيك؟ فقال لهم بناء على رأيى إن المجاورة فى المدينة الطاهرة أولى من المجاورة فى مكة المقدسة وأوجب.

كيف لا تكون دار الهجرة المحترمة أفضل من مكة المكرمة وكيف لا تكون المجاورة فى تلك البلدة أحب وأجمل؟ وقد مر الجالس على سرير الأمراء المصطفى ـ عليه أكمل التحية ـ بكل شوارع تلك البلد. المباركة ذهابا وإيابا، بما أن جبريل الأمين نزل فى أكثر بقاعها باسطًا أجنحته وأوصل الوحى الجليل ومن هنا قال الواقف على خفايا الحكمة ـ عليه بدائع التحية ـ المدينة خير من مكة والمدينة أفضل من مكة، وقد أخبر بهذا الحديث الصحيح عن لزوم تفضيل المدينة المنورة على مكة المعظمة نورها الله تعالى إلى يوم الآخرة.

الصورة الثالثة

فى ذكر الأحاديث الشريفة التى وردت فى حق الذين اختاروا الإقامة فى المدينة الطاهرة والذين أحدثوا البدعة والمبدعين والذين يعاونونهم.

وقد فتح سلطان الرسالة ـ عليه أسمى التحية ـ فاه الشريف مبينا عظمة وقدر وفضل المدينة المنورة وقال ما معناه أنه سيأتى زمان على الناس سينقل فيه كل شخص أولاده وعياله وقومه وقبيلته إلى أماكن رخيصة وذات سعة فى العيش وكما تدخل الثعابين فى جحرها خائفة من أعدائها هكذا سينسحب نور الإيمان فى ذلك الوقت من البلاد الأخرى وسيتوجه نحو مدينة دار السكينة، وأقسم بالله الذى نفسى بيده بأن الذين لا يقدرون عظمة وخيرية المدينة المنورة ولا يذعنون لذلك ويغادرون المدينة المنورة ويفارقونها إلى البلاد الأخرى فسيأتى مكانهم من هو خير منهم، وإن كل نفر يعرض عن المدينة ويهاجر إلى البلاد الأخرى إلا وبدله الله سبحانه وتعالى بشخص يرغب فى الإقامة فى المدينة ويصبر على بلائها وعنائها.

يعنى يرسل إليها من هم خير من القادرين، وكل من يتحمل ضيق وعناء وشدة دار السكينة فإنه ﷺ يشهد فى يوم القيامة ذى الأهوال الشديدة على طاعة أهل الصبر ويبالغ فى شفاعته لأمته.

ذهب حضرة سعيد مولى المهرى إلى أبى سعيد الخدرى عقب توالى الظلم والغدر أيام واقعة الحرة فشكى من ضيق الحال وكثرة العيال ونقل إليه رغبته فى الهجرة إلى بلاد أخرى بهدف معايشة عياله وأولاده فى رفاهية وسرور. فأجابه أبو سعيد الخدرى قائلا «أوه لحالك هذه إننى «لا أرى من المناسب أن تترك هذا البلد وتضحى به» فأورد له الحديث الشريف الذى يقول حق المدينة «لا يصبر على لأوائها أحد إلا كنت له شهيدًا أو شفيعا يوم القيامة»[1] وفى نفس ذلك الوقت

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ٢/ ١٥٥، ٣/ ٢٩، ٦٩، وانظر مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٠.

المشحون بالفيض الإلهى لقى شخص آخر عبد الله ابن عمر وقال «يا أبا عبد الرحمن. قد حل زمن زاد فيه الجور والظلم وزادت حالة العباد ضيقا واشتدادًا وبناء على هذا فأنا أريد أن أهاجر إلى بلد ذى شهرة بالرخص». فذكر له عبد الله بن عمر الحديث الطويل سالف الذكر وقال له لا تفارق مكانك الذى أنت فيه ولو خطوة واحدة.

إن تفضل الآمر بالحكمة ـ عليه أفضل التحية ـ قائلا «أكون إما شفيعا أو شهيدا على من يتحملون بلايا المدينة المنورة بالصبر عليها» لا يشك فيه لأن معناه أكون شاهدا للمطيعين وشفيعا للعصاة ولما كانت هذه الشفاعة أخص من الشفاعة العامة فإن ذلك الحديث يدل على أن سكنة تلك المدينة المذكورة يتوفون على إيمانهم و معلوم أن الشفاعة ستكون فى حق أهل الإيمان.

إن تبشير متوفى المدينة جعل سكان دار السكينة رهن السرور ومما لاشك فيه أن الحديث الشريف (من مات بالمدينة كنت له شفيعا يوم القيامة)[1] سيسر الذين يؤثرون الفداء بأرواحهم فى المدينة المنورة، ويروى ابن عمر أن النبى ﷺ كان يدعو فى أثناء وجوده فى مكة قائلا «نرجو من المعطى ألا يتوفانا فى مكة المكرمة» وذلك عن صحبته له ـ عليه السلام ـ ويروى من مصدر موثوق أن صاحب الآيات ـ عليه أفضل التحيات ـ يقول «إن الذين لهم ملك فى المدينة يجب أن يحرصوا على المحافظة على أملاكهم وأن يسعى الذين لا يملكون شيئا فى المدينة لبذل الجهود على أن يمتلكوا شيئا فيها»، كما أنه ـ عليه السلام ـ نبه المهاجرين إلى البلدة الطيبة أن يهيئوا لأنفسهم ولو شجرة نخلة[2] واحدة.

وقد روى الإمام الزهرى مرفوعًا «لا تتخذوا الأموال بمكة واتخذوها فى دار هجرتكم فإن الرجل مع ماله» كما روى ابن عمر الحديث اللطيف «لا تتخذوا من وراء الرق حاملا ولا ترتدوا على أعقابكم بعد الهجرة ولا تنكحوا بناتكم طلقاء

(١) عند الترمذى بلفظ: «مَنْ استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها» وفى رواية الطبرانى: «فإنه من مات بها كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة».
وقال: حسن صحيح. انظر: إعلام الساجد ص ٢٤٨، مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٦.
(٢) راجع مجمع الزوائد ٣/ ٣٠١.

أهل مكة» وبهذا ينقلون أن النبى ﷺ حض على عدم امتلاك الأموال فى مكة بل فى المدينة لأن مال كل إنسان يكون بجانبه.

إن مدينة دار السكينة مثل[1] كير الحداد يفرق بين المخلصين من الموحدين وأهل النفاق وتفصل بينهما، كما أن الكير يفصل بين الحديد وخبثه وهكذا تفصل المدينة المنورة تمحص قذارة ووسخ أهل النفاق وتبعدهم عنها وتصفى وتبقى على أهل الإخلاص.

قال أحد الأعراب ـ وكان قد مرض بالمدينة ـ للرسول ﷺ يا رسول الله! أقلنى عن بيعتى[2].

فَأَبَى الرسول ﷺ وأعرض عنه، وغادر الأعرابى المدينة.

عندئذ قال خير البرايا ـ عليه أكمل التحايا ـ «وإن المدينة المنورة مثل كير الحداد يزيل الخبث ويصفى الطيب»[3] يفهم من هذا الحديث أن المدينة المنورة لا تقبل أهل الفساد والبدعة وتطردهم بعيدا، وما زالت هذه الخاصية فى المدينة الشهيرة ومشهورة بها.

وإن قال بعض الذوات أن الخاصية بالمدينة تنحصر فى عصر السعادة فبناء على حكم القول الشريف «لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها»[4] وبناء على ما قاله عمر بن عبد العزيز عندما كان يفارق المدينة المنورة «أخاف أن أكون من الذين تبعدهم المدينة وتطردهم» فخاصية المدينة المنورة ستستمر إلى ظهور الدجال، ولكن الأشخاص الذين ستطردهم المدينة هم الكفار الذين يتصفون بالخبث الكامل، أما العصاة الذين لم يصلوا إلى درجة الكفر ينقلون إلى أماكن مناسبة بواسطة الملائكة بعد ارتحالهم وموتهم، ويفهم من هذا أن أهل المدينة الذين لا

(١) يطلق الكير على موقد الحداد موقد المعادن.

(٢) الإقالة الادعاء بأن الإنسان قال شيئا وفى الحقيقة لم يقل شيئا كالافتراء.

(٣) الخبر فى الصحيحين: انظر صحيح مسلم ٣٢٩٦ فتح البارى ١٣/ ٢٠٠، ٢٠١ باب بيعة الأعراب، عمدة القارى ١٠ / ٢٤٥.

(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب المدينة تنفى شرارها، حديث ٣٢٩٣. ط دار الغد العربى.

يستحقون الشفاعة ينفون إلى أماكن أخرى لإزالة ومسح ذنوبهم أو أنهم يمحون ذنوبهم بزيادة أجورهم ومثوباتهم كما تفيد الآية الجليلة:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾. (هود: ١١٤).

أو أنها تظهر خباثة وفساد من فى قلوبهم الفساد والخبث.

وقد ثبت بحكم الأحاديث الشريفة أن الذين يحدثون البدعة فى المدينة أو يعينون على ذلك سيلعنون من قبل الرحمن، وأن صلوات مثل هؤلاء الرجال المفروضة ونوافلهم لن تقبل منهم فالآثام الصغيرة التى ترتكب فى المدينة المنورة تعد من الكبائر بناء على الإفادة العاتبة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمحو الذين يسيئون إلى أهل المدينة المنورة كما يذيب الماء الملح يذيبهم فى جهنم مثل الملح والرصاص[1].

هناك اختلاف فى مدلولى لفظى المحو والإذابة إذ قال بعضهم إن الذين يتعرضون بالسوء إلى أهل المدينة المنورة سيؤاخذون على فعلتهم يوم القيامة، كما حكم بعضهم على أن هؤلاء سيؤاخذون على أعمالهم فى حياتهم، وإذا ما نظر إلى تلف المسلم الذى يناقض اسمه ـ أى مسلم بن عقبة[2] ـ والذى تجرأ فى ارتكاب حادثة الحرم الشهيرة، وكذلك إلى تلف يزيد[3] المفضوح الذى عينه للقيام بهذه المهمة الحزينة متعاقبين ترى صحة مؤدى القول الثانى وأصالته، وإذا ما نظر إلى تأخير مؤاخذة بعض الظالمين يرى أن القول معقول كذلك، ولاسيما إذا نظرنا إلى مصير طوائف القرامطة الباغية، ولكننا إذا ما نظرنا إلى مصير المغاربة الذين كانوا سببا فى إحاطة الشهيد نور الدين مرقد السعادة بجدار من الرصاص وإلى مصير المخذولين الأذلة الذين أساءوا إلى المدينة إذ تعرضوا ـ إن عاجلا أو آجلا ـ إلى أنواع المصائب والبلايا يقتضى ترجيح صحة القول الثانى.

وبما أنه قد ثبت أن الجبابرة الذين أساءوا إلى دار الهجرة المدينة المنورة قد نالوا جزاءهم من الآلام والعذاب حتى كانوا عبرة لأمثالهم ومثار الانتباه فلا شبهة أنهم

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى حديث ٣٢٩٩ ط. دار الغد العربى. وإعلام الساجد، ص ٢٥٧.

(٢) أهلكه الله منصرفه عن المدينة.

(٣) هلك يزيد بن معاوية أثر إغزائه أهل المدينة.

سيصيرون إلى الدرك الأسفل من النار ويذوبون مثل الرصاص. وقال الفرد الأكمل والأجمل ـ عليه سلام الله عز وجل ـ «يا إلهى!! استعجل فى هلاك كل واحد يسيئ إلى أو إلى المدينة المنورة بلدى وحرمى، وكل من يظلم أهل المدينة يخيفهم فأخفه»[1]، وبهذا يومئ بهذا الدعاء أن الذين يظلمون أهل المدينة أو يخيفونهم سيتعرضون للعنة الله ومذمة الناس ويستحقونها.

الاستطراد: كان بُسْر بن أبى أرطاه أحد أمراء الفتنة، فلما قدم المدينة كان بصر جابر بن عبد الله قد ذهب، فقيل لجابر: لو تنحيت عنه؟ فخرج يمشى بين ابنيه فَنُكِّبَ. فقال: تعس مَنْ أخاف رسول الله ﷺ؛ فقال ابْنَاهُ أو أحدهما يا أبت وكيف أخاف رسول الله ﷺ وقد مات؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبى[2].

إفادة مخصوصة: كان بُسْر بن أبى أرطأة ذهب إلى مكة لإجراء التعليمات التى يحملها فى خلال السنة التاسعة والثلاثين الهجرية بعد المرور بالمدينة المنورة، وأقدم على هتك حرمة الحرمين الشريفين على سبيل الإهانة. وبعد أن أتلف بسيف الغدر كثيرين من أهل الحرمين الذين لا يوافقونه فيما يرتكب وأعدمهم ثم ذهب إلى ديار اليمن وهناك أيضا جعل رءوس مئات من المسلمين ذوى العقيدة الطاهرة والمساكين ضحية سيفه الغادر الظالم. وكان أبو أيوب الأنصارى والى المدينة قد ترك دار السكينة المدينة المنورة فى اليوم الذى دخل ابن أرطأة فيها.

جمع ابن أرطأة أهالى المدينة المنورة فى مكان واحد وقال مخاطبا لهم «قد هرب أبو أيوب من هنا حتى لا يبايع معاوية ابن أبى سفيان مع أنى سأقبض عليه بأى طريقة كانت فأقتله! يجب عليكم كلكم أن تضعوا رءوسكم فى ربقة بيعة معاوية وأن تطيعوه، يجب عليكم أن تبحثوا عن جابر بن عبد الله وأن تسوقوه إلى،! وقال يا أفراد بنى سليم. إذا لم تأتوا إلى بجابر لن أقبل بيعتكم وسأقتلكم كلكم بالسيف وسأظهر لكم سطوتى وجلادتى».

(١) انظر مجمع الزوائد ٣/٣٠٦.

(٢) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح: انظر: مجمع الزوائد ٣/٣٠٦.

بناء على ما حققه ابن عبد البر فيما كتبه أن الخائن ابن أبى أرطأة قد بعث لدعوة الناس إلى مبايعة معاوية وفى حالة عدم مبايعتهم فإنه مأذون أن يستخدم معهم الشدة والغلظة، مع أن الذين رأوا ما أظهره حضرة جابر من شجاعة فى هذا الموضوع أعجبوا بها وقالوا لا يستطيع أن يقبل هذه البيعة وانسحب إلى حرة بنى سليم رافضين عرضه واتحد جابر مع أفراد بنى سليم ونجى من يد غدر ابن أرطأة وظلمه. ومع هذا لما فهم حضرة جابر أنه لن ينجو من يد بُسْر إذا لم يبايع معاوية وأن غرض بُسْر الحقيقى كان أن يقبض على جابر مهما بذل فى سبيل ذلك من تضحيات أو مال وفعلا بدأ فى التحريات فى هذا الخصوص. ولما اطلع جابر على ذلك لقى أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ من أمهات المؤمنين وقال لها إن البيعة التى يطلبها بُسْر بيعة ضالة باطلة، ولكننى إذا رفضتها فلا شك بأنه سيقتلنى فما رأيكم فى هذا الخصوص؟ فقالت له: «على رأيى يجب أن تذهب بنفسك وتبايعه حتى تمنع وقوع نار الفتنة! فقد بعثت بابنى عبد الله[1] بن أبى سلمة أيضا لذلك وإنه سيذهب للمبايعة». وبما أن أم سلمة رضى الله عنها أفتت بلزوم البيعة فبايع مضطرا وهكذا نجى بنفسه من يد ظلم ابن أرطأة.

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن يوصى برعاية أهل المدينة ويحذر من إخافتهم وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة ومن ضمن ما قاله أمير الممالك والشفقة ـ عليه أطيب التحية ـ «المدينة دار هجرتى والمكان الذى رحلت إليه، فمن واجب أمتى اجتناب الكبائر ومراعاة جانب جيرانى، وكل من لا يحترمهم ولا يرعاهم يسقيهم الله يوم القيامة من عصارة أهل النار. والحديث إن المدينة مهجرى ومضجعى! إننى سأبعث من هناك فالذى يليق بأمتى رعاية جيرانى والمحافظة عليهم! وكل من يحافظ على وصيتى فإننى سأكون له شهيدا يوم القيامة، والذين يضيعون وصاياى فالله سبحانه وتعالى يسقيهم يوم القيامة من

(١) عبد الله بن أبى سلمة هذا قد استشهد فى داخل الحرم النبوى من قبل مسلم بن عقبة فى وقعة الحرة إذ رفض أن يبايع يزيد.
والذى فى تاريخ الطبرى أنه عمر ابن أبى سلمة. تاريخ الطبرى ٥/ ١٣٩.

حوض الخبال[1] ويرويهم».

والحديث «جعل الله سبحانه وتعالى المدينة دار هجرة لى! إننى سأبعث من المدينة وسأحشر منها، فيجب على أمتى اجتناب الكبائر والمحافظة على جيرانى وكل من يحترم أهل المدينة ويرعاهم فى سبيل حرمتى وتعظيمى أكون له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة. وكل من يضيع حرمتى فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يسقيه من حوض خبال».

وبناء على هذا حينما طلب المهدى العباسى من الإمام مالك أن يوصيه فقال له «أوصيك بالاعتراف بوحدانية الله وأن تبذل من لطفك وعطفك لأن الرسول ﷺ قال المدينة دار هجرتى، فى صحراء القيامة سأبعث من المدينة قبرى فى المدينة، وأهل المدينة جيرانى والواجب على أئمتى أن يتقيدوا بالمحافظة على أمتى! كل من يرعاهم ويحافظ عليهم يحافظون على حقوقى!

ومن يحافظ على حقوقى أكون شفيعا له فى يوم القيامة وشهيدا. والذين لا يحافظون على وصيتى يسقيهم الله من طينة الخبال يوم القيامة ويرويهم».

عندما زار الخليفة المهدى المدينة المنورة وذهب لزيارة الحجرة المعطرة، استقبله الإمام مالك وسادات البلد وأشرافه وجملة الأعيان وكبار موظفى الحكومة من عدة أميال من المدينة. وعندما رأى المهدى الإمام الجليل فاحتضنه وعانقه، ثم استدعى من معه واحدًا تلو الآخر وصافحهم بحرارة. وعندما رأى الإمام مدى التفات الخليفة لأهل المدينة ورعايته لهم وقف ناصحا له وقال يا أمير المؤمنين «إنك ستدخل الآن إلى المدينة وسترى فى يمينك ويسارك بعض الناس، وبما أن جميع هؤلاء الذين سيراهم بصرك من أحفاد المهاجرين والأنصار ـ رضى الله عنهم ـ فيلزم عليك أن تحيى كل واحد منهم متفردًا وتسلم عليهم وتعرض عليهم

(١) الخبال: عصارة أهل النار من العصاة وهو صديد وعرق أهل النار والحديث رواه الطبرانى فى الكبير على ما ذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣/ ٣١٠. وفيه عبد السلام بن أبى الجنوب، وهو متروك قلت: وعبد السلام قال على بن المدينى: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: متروك، وضعفه الدارقطنى وجرحه ابن حبان. انظر الضعفاء الكبير للعقيلى ٢/ ١٥٠.

احترامك لهم، لأنه لا توجد على وجه الأرض عشيرة خير وأفضل منهم. كما لا توجد بلدة أفضل من بلادهم «وقد رد الإمام على سؤال المهدى الذى قال له» وما هو دليلك الذى تستند عليه فى هذا القول «وليس على وجه الأرض قبر معلوم لنبى من الأنبياء غير قبر الرسول ـ عليه السلام ـ وإن هذه الطائفة التى استوطنت على أطراف المرقد النبوى ففضلهم ورجحانهم على سكنة البلاد الأخرى ظاهران.

وإذا ما نظرت إلى نصائح الإمام مالك للخليفة المهدى وأمعنت النظر فيما قاله محبوب الأنبياء ـ عليه أعظم التحية: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] يفهم بداهة أفضلية مجاورة قبر الرسول ـ ﷺ ـ اللامع. ورأيت ما للمدينة المنورة من الفضل والمزية، وأمكنك ترجيح سكنتها على سكنة مكة المكرمة التى تمتاز بتضاعف الأجر والمثوبة لسكانها.

وبناء على وصية الإمام مالك قد راعى الخليفة جانب سكان دار السكينة ولاطفهم وسرهم ببذل عطايا كثيرة لهم.

فلتسر روح المرحوم دده عاشق الرب فما أجمل منظومته هذه ذات المعانى الكثيرة فى مدح المدينة المنورة:

المدينة هى مدينة المصطفى الطاهرة

إنها محل نظر الله المتكبر

المدينة هى منزل القرآن والوحى

وهى أيضا مهبط رسول الله

المدينة هى مضجع المختار أحمد

وهى مطاف الإنس والجن وأهل السماء

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٨٥، ١٦٠ ومواضع كثيرة. وغيره من كتب السنن.

فـــى حديثـــه قـــال فخـــر العـالم

كـــان ترابـــك شـــفاء للعليـــل

المدينـــة هـــى منبـــع الفيـض والإحســـان

وهـــى راويـــة المحتـاج لمراجعـة الحقيقـة

المدينـــة هـــى فاتحـــة بلـــدان الإســـلام

خصـــوصا فـاتحـــة أم القـــرى

وهـى مـكان الغفـران لقضـاة المـؤمنين

مدينـــة محـــو العصـــيان والخـــطأ

وهـــى حديقـــة الـــورد وهـــى فريـــدة

وهـى كشـف الغطـاء عـن شهود المعرفة

تـرى هـل نفـس عيسـى تـرابها الطـاهر

فهـــى تعطـــى الـــروح للقـلب الميـــت

أنت سريـد بيضـــاء لموســـى طـــاهرة

أنـت مليئـــة بالنـــور للقـلب المظـــلم

المدينـــة مرقـــد خيـــر البشـــر

وشـــفيع المـــؤمنين يـــوم الجـــزاء

أنـــت سريـــر ســـلطنة النبـــوة

المدينـــة هـــى العـــرش المجتلـــى

إنـــه الحـــريم المحـــرم لـــولاك لـــولاك

فـالمدينـــة مجتلـــى ســـر الأم

المدينـــة دار الأنصـــار والمهاجريـــن

هـــذا مـكان الـدين والإيمـان والحيـــاة
المدينـــة هـــى ناشـــرة الرحمـة للعـالم
وخيـــرها دائـــم خاصـــة لأهلهـــا
فـالـــذى يـــراها مـرة يتحسـر قائـلا
ليتنى أراهـا مـرة أخـرى فلقاؤها محبوب

هكذا انظر كم من مشكلات يحلها ذلك السلطان فمن الصعب أن يحلها العالم فى الحقيقة وإن كان لا ينكر ما خص به أهل مكة من مزايا مثل تضاعف الأجر والثواب فيها ومجاورة بيت الله الوهاب إلا أن أهل المدينة يرجحون ويفضلون على أهل مكة بسبب مجاورتهم وقربهم من حبيب رب العزة والطبيب المداوى قلوب أمته، وتؤيد الحكم السابقة ما قاله أحمد بن حنبل لما سأل أبو بكر بن حماد «يا أبا عبد الله! ما هو أولى والأحب بالنسبة لك المجاورة فى مكة المكرمة أم السكنى فى المدينة المنورة؟» قال له «المجاورة أولى وأحب بالنسبة للذين يختارون السكنى بالمدينة صابرين على مصائبها وبلاياها».

والقول المختار فى هذا الموضوع أن اختيار المجاورة فى أى من البلدين مستحب لحبه ذلك البلد ولما يوجبه من مزية زيادة الأجر والثواب، إلا أن الذين ذهبوا إلى أولوية المجاورة فى المدينة على مكة المكرمة كرهوا مجاورة مكة المعظمة[1] رغبو فى الإقامة فى المدينة الأمينة وأحبوها.

(١) إنما كرهها من كرهها لأمور، منها: خوف الملل، وقلة الحرمة للانس وخوف ملابسة الذنوب، فإن الذنب فيها اقبح منه فى غيرها.
انظر: شرح النووى على مسلم باب الترغيب فى سكنى المدينة كتاب الحج ٤/ ٩٢٠ ط. دار الغد العربى.

الوجهة الرابعة

تشمل خمس صور تفصل أوائل حال المدينة المنورة وسكانها القدماء والقبائل التى انتشرت من سلالة «أوس بن ثعلبة» مساكنهم ومأواهم، والحروب التى قامت قبل الإسلام بين قبائل الأنصار.

فى ذكر أحوال المدينة الأولى وأطوار سكانها القدماء وأحوالهم.

بما أن أحوال الأقوام التى سكنت أرض يثرب السعيدة قبل الطوفان وشأنهم مجهولة فى نظر التاريخ فالمؤرخون أخبروا فقط عن أحوال القبائل التى سكنت فى المدينة المنورة بعد الطوفان، تكاثر أحفاد حضرة نوح «عليه السلام» وانقسموا إلى اثنتين وسبعين فرقة وانسحبت كل فرقة إلى المكان الذى اختارته وهاجر شخص يسمى «يثرب بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام» أو «يثرب بن قائنة مهلائيل بن أدم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام» وعلى رواية «عملاق بن أرفخشذ بن سام» من الفرق التى تتحدث باللغة العربية مع أسرته إلى أرض يثرب وبعد أن ظل هناك فترة رحل إلى مكان يسمى «جحفة» من ملحقات المدينة المنورة.

كانت جحفة إلى ذلك الوقت مكانا لا اسم له، وعقب ورود يثرب بن عبيل فى ذلك المكان أخذت الأمطار تنزل بغزارة وظهر سيل كبير وأجحف بنى يثرب فقيل لذلك الموقع «جحفة».

وأخبر المؤرخون أن هذه الهجرة تَتَزَامَنُ مَعَ حكومة كنعان بن حام من نمارذة بنى حام، إلا أن المرحوم منجم باشى[1] قد ذهب إلى أن الطوفان قد وقع فى سنة ٦٧٩ وفى عهد إمارة فالغ بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح «عليه السلام».

وبناء على تدقيقات المؤرخين الذين قبلوا الرواية الثالثة أى الذين رووا أن الهجرة إلى أرض يثرب قد حدثت أولا فى عهد عملاق بن أرفخشذ بن سام وعندما كثر أولاد وأحفاد عملاق بن أرفخشذ والذى كان يشتهر بضخامة جسمه،

(١) أحمد بن لطف الله صاحب كتاب جامع الدول.

أظهر كل واحد منهم الكبر والغرور والنخوة وأخذوا يبنون منازل متينة هنا وهناك، فأوسعوا بلدة يثرب وعمروها، وحتى يزينوا أطرافها أخذوا يغرسون الأشجار حيثما وجدوا لذلك سبيلاً ومنذ أن ظهر من بينهم رجال يعرفون فن الزراعة، استولوا بكتائبهم على بلاد الحجاز والشام وتوسعوا فى حدودهم فاستولوا على ممالك البحرين وعمان، مثيرين الفزع والدهشة.

وأخذوا يحكمون البلاد التى استولوا عليها وأهالى القرى والمدن بصورة وحشية وظالمة.

يروى المؤرخون عن العمالقة الذين اشتهروا بضخامة أجسامهم أنهم كانوا يعيشون ما يقرب من مائتى عام وأن الغزلان كانت تربى صغارها فى فتحات مآقيهم.

ووصل ظلم أحفاد عملاق بن أرفخشذ إلى أنهم حتى اشتهروا بين القبائل «بجبابرة العمالقة» وأضروا سكان البلاد التى حواليهم وأوقعوا فيهم الخسائر تحت سنابك خيولهم، وزاد جورهم وأذاهم تدريجيا حتى أن أطفالهم الذين يلوثون الوجود كانوا يشرعون فى البغى والشقاوة وهم مازالوا فى مهدهم.

واشتد عندئذ الكفر والشقاوة بين القبائل الوحشية التى تنتسب إلى جبابرة تسمى «سقل وفالح» والتى ظهرت حينئذ فأشعلت نيران الشر والقتال حتى أوشك الأهالى الضعاف على الفناء والاضمحلال من جراء الأعمال الدامية لهؤلاء، فأرسلوا الرسل إلى سيدنا داود ـ عليه سلام الله الودود ـ يستمدون منه العون فساق عليهم كتائب الصولة والقوة فقتل أكثر رجالهم وأعدمهم وأسر نساءهم وأطفالهم وكبلهم بالحديد.

واستطاع أن ينجو بعض هؤلاء من الأبطال الذين بعثهم سيدنا داود منسحبين إلى قمم الجبال إلا أنهم عادوا بعد فترة إلى ناحية «جرف» وأخذوا فى ارتكاب الشقاوة كما فى السابق ولكن لحكمة ما ظهرت فى رقابهم دودة أودت بهم إلى دار البوار ماعدا امرأة تسمى «زهرة» وهكذا أصبحوا غذاء للنمل والثعابين.

ويروون أن المقبرة التى تحت سفوح الجبل مقابر هؤلاء الأشقياء. و«زهرة» التى نجت رقبتها من الداهية الدهياء التى أصيب بها هؤلاء القوم تعرضت لمرض الدودة الذى تعرض له قومها وتلفت، وكان يتوطن على أرض يثرب شخص آخر بعد انقراض هؤلاء القوم، وكثر أولاد هذا الشخص وأحفاده وانتشروا فى البلاد المجاورة حتى استولوا على البلاد الحجازية كلها وحكموا إلى التاريخ الذى أغرق فيه كليم الله ـ عليه السلام ـ الفراعنة فى بحر القلزم ولما كان هؤلاء قد تجرءوا على إضرار أهالى الممالك المجاورة وإزعاجهم بإيقاع أنواع الظلم والدناءة عليهم وبما أن موسى ـ عليه السلام ـ كان مُكَلَّفًا بمهنة تأديب جبابرة الحجاز وتنكيلهم، بعد أن اضمحل جبابرة مصر والشام. أرسل إلى أرض يثرب بمقدار كاف من الجنود وأوصى قيادة تلك الحملة بتعليمات خاصة فى أن يقتلوا جميع الرجال والذكور الذين بلغوا سن البلوغ وسبى طوائف النساء والأطفال وأسرهم وبعد أن ودع هؤلاء الجنود انتقل إلى إقليم البقاء.

وقد وصل الجنود الذين أرسلهم سيدنا موسى بعد فترة إلى ساحة يثرب الفياضة وأشعلوا دائرة القتال.

وتغلبوا ـ بعون الله وعنايته ـ على مشركى العمالقة وبناء على التعليمات التى معهم كبلوا من استطاعوا أن يمسكوا بهم من الأطفال والنساء بالسلاسل جعلوا الذكور علفا لحد السيف.

وكان ضمن الأسرى ابن حاكم الحجاز أرقم بن أرقم ولما كان هذا فتى فى غاية الحسن والجمال قرروا أن يعرضوه إلى عتبة كليم الله.

وأخذوه حيا إلى الشام حتى يعملوا وفق رأى القضاء الذى سيصدر من قبل العتبة النبوية.

وعندما وصلوا إلى الشام مغادرين المدينة استقبلهم الأهالى بكل احترام وتوقير وبعد أن أخبروهم بموت موسى قالوا «يا غزاة الدين»!! إذا ما قلنا بأنا لم نرض ولم نُسَرَّ من خدماتكم لا نكون قد كذبنا لأنكم قد أذنبتم بمخالفتكم أوامر الله

ورسوله وبتأخير قتل ابن الأرقم تحركتم خلاف إرادة الوحى النبوى، ومن هنا نخاف أن ندخل العصاة والمذنبين فى بلادنا! اذهبوا بعد الآن حيثما شئتم، ولما كانت البلاد الحجازية أفضل البلاد فمن رأينا أن تعودوا إلى أرض يثرب وأن تقضوا حياتكم هناك إلى آخر أعماركم وأن تستقروا هناك.

وأراد الجنود أن يقنعوا أهل الشام بعرض أفكارهم وقراراتهم بخصوص ابن أرقم ولكنهم لم يوفقوا واضطروا أن يعودوا إلى يثرب وبعد فترة وصلوا إلى موضع يقال له «زهرة» وبعد مرور زمن نزلوا فى المدينة المنورة ونصبوا خيامهم فى محل قريب من «زغابة»[1].

وكان فى ضمن الجنود أبناء بنى قريظة و«إخوته» بنو هذال وعمرو وصريخ ونضير بن النَّحام ثم الخزرج بن الصريخ الذين يرتبط نسبهم بسلسلة نسب هارون عليه السلام.

ونزل هؤلاء فى أعالى المواقع التى تطلق عليها «مذينب ومهزول».

وفى حالة الأخذ بما ورد فى هذه الرواية فإن أقوام بنى إسرائيل الذين سكنوا أرض يثرب بعد العمالقة، لا مفر أن يكونوا هم الجنود الذين لم يقبلهم الشاميون بعد ارتحال موسى.

مع أن الرواية المنقولة عن سيدنا أبى هريرة تكذب هذا القول وتجرحه إذ تفضل المشار إليه قائلاً: «إن علماء بنى إسرائيل كانوا قد رأوا فى صفحات التوراة أن «أمير الأصفياء» ـ عليه أجمل التحايا ـ رسولنا الكريم سينقل إلى قرية كثيرة النخيل وسيهاجر إليها وأن اسمها يثرب وإنهم فكروا فى أن يجدوا هذه القرية وقرروا الإقامة فيها إذ خرجوا بعد واقعة «بُخْت نَصَّر» من الشام وتجولوا فى المدن التى تقع بين الشام واليمن مدينة بعد مدينة ولما رأوا أن المدينة المنورة هى المدينة التى تقع بين أشجار النخيل وأن اسمها يثرب فبقوا فى البلدة الطيبة منتظرين وقت هجرة الرسول ﷺ، وكان بينهم عدة أشخاص من حفدة هارون ـ

(١) زغابة موقع يقع بين حرة زهرة وسافلة ويسمى «القف» ويقال لهذا الموقع فى زماننا مجمع السيول.

عليه السلام ـ ولم يبلغ عمر هؤلاء العلماء إلى عصر السعادة واستدعوا أولادهم فى حالة احتضارهم وأوصوهم قائلين: إذا أدركتم زمن ظهور نبى آخر الزمان فأسرعوا بتصديق نبوته وابذلوا أرواحكم فى سبيله واخدموه بكل إخلاص ويا لشدة الأسف أن الذين أدركوا منهم عصر السعادة حسدوا الأنصار السابقين للتصديق وظلوا فى الشقاوة الأبدية.

والذين يريدون أن يطلعوا على تفصيلات هذه الأمور نرجوهم أن يراجعوا الصفحة الثالثة والثمانين من كتاب «محمود السير» الذى طبع ونشر سنة ١٢٨٨.

وذهب بعض المؤرخين إلى أن وجود بنى إسرائيل فى مدينة يثرب قبل العمالقة، وقالوا إن كليم الله ـ على نبينا وعليه التسليم ـ مر بيثرب بعد الحج ورأى بعض العلماء الذين كانوا فى معيته السامية أن منظر أرض يثرب الطيبة يوافق أوصاف دار الهجرة التى ذكرت فى التوراة بمدينة المصطفى واستدلوا بهذا على أنها المدينة المقدسة وسكنوا فى مكان يسمى «بنى قينقاع» ومع مرور الزمن أدخلوا سكان القرى المتجاورة من طوائف العرب فى دين موسى وإن كان هذا المؤرخ أيد مدعاه بهذا المقال ولكن بناء على حكم ما نقله ابن أبى شيبة مرفوعا عن النبى ﷺ يقتضى أن تكون إقامة طوائف العماليق فى المدينة المذكورة أقدم من بنى إسرائيل، لأن موسى ـ عليه السلام ـ حينما مر مع أخيه هارون بيثرب أقام فوق قمة جبل أحد حتى يأمنا هجمات العمالقة، وهذا الخبر السديد يؤيد الأقوال التى تحكى توطن طائفة العمالقة فى يثرب قبل بنى إسرائيل.

فى ذكر القبائل التى كانت فى أرض يثرب وقت أن هاجر إليها الأوس والخزرج بن ثعلبة[١].

عندما هاجر الأوس والخزرج بن ثعلبة إلى المدينة المنورة كانوا من أفراد قبائل بنى أنيف[٢] بن مزيد بن معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم.

بنو الجذماء[٣]، بنو قريظة، بنو قصيص، بنو ناعضة، بنو هذال، بنو عمرو، بنو نفير، بنو زعورا، بنو ثعلبة، أهل زهره، أهل جوانيه، بنو ماسكة، بنو محمم، بنو زيد، بنو قينقاع، بنو حجر، بنو عكوة، بنو نزاية، بنو شوط، بنو والج، بنو زبالة[٤] وبنو أنيفلة وبنو ناعضة[٥] وبنو قصيص من هؤلاء سكنوا فى قرية «قبا» وفى قرية بنى قريظة سكن بنو نضير[٦] فى موقع نواعم وسكن بنو زعورا فى قرية سبيل أم إبراهيم وبنو زيد[٧] فى مكان يقال له «لات» وبنو قينقاع فى مكان واقع فى جهة العالية من جسر بطحا، وبنو زهرة وبنو ثعلبة[٨] فى زهرة

(١) قبائل الأنصار كلها من سلالة هذين الشخصين.

(٢) أفراد هذه القبيلة كانوا بقايا أقوام العمالقة.

(٣) كان هؤلاء من أهل اليمن.

(٤) كان هؤلاء من طوائف اليهود.

(٥) كانت هذه القبيلة طائفة من أهل اليمن سكنوا إلى خلافة حضرة الفاروق فى منازل شعب بنى حرام، وفى خلافة ابن الخطاب حملهم من ذلك المكان وأسكنهم فى حى مساجد الفتح.

(٦) وكان كعب بن الأشرف من مشاهير اليهود من صناديد بنى النضير على رواية فى ناحية «عهر» وكان منازل بنى مزيد المتشعب من هذه القبيلة فى «بنى حاطمة» وكانت منازل بنو ناعمة بن هيم بن هشام وبنى معاوية فى موقع «بنى أمية بن مزيد» وكان بنو ماسكة بجانبهم. ويروى أن الخرائب التى ترى الآن فى الجهة القريبة من موقع يطلق عليه «ضيات» وفى قرية «مغر» من بقايا حصون تلك القبائل.

(٧) بناء على قول ابن زبالة إن سلسلة نسب هاتين القبيلتين تنتهى إلى جماعة يرتبط نسبهم بحضرة يوسف ـ عليه السلام ـ وهم من أجداد عبد الله بن سلام «رضى الله عنه العلام».

(٨) وكان فيطون الدون الذى اعتاد فض بكارة عرائس أهل المدينة، من رؤساء أفراد قبائل بنى ثعلبة.

وبنو جوانية فى قرى الجوانية وبنو جذماء[1] بنى مقبر بَنى أشهل وقصر ابن عراك.

وكان بنو عكوة وبنو حارثة وبنو نزاية يسكنون فى قرية «ناس» وبنو زبالة فى قرية «عين فاطمة» وبلغوا إذ ذاك إلى ما يقرب من سبعين قبيلة[2] إذ ارتبطوا واتحدوا واتفقوا مع جيرانهم من قبائل العربان واتخذت جماعة كل قبيلة برجًا فى حدود ثروته ويساره أو برجين وأسسوا حول هذه الأبراج بيوتًا منظمة ومنازل مستحكمة وشكلوا جماعة كبيرة بالنسبة لتلك الأوقات.

وكان لليهود إلى وقعة سيل العرم المشهورة تسع وخمسون قرية وقدر كثرة هذه القرى من النفوس، لذا كانوا متغلبين على القبائل الأخرى، ولكن بعد ظهور الوقعة المذكورة أخذت قوتهم وشوكتهم تزول وتنقرض ولاسيما فى عهد بنى ثعلبة صاروا يداسون تحت الأرجل.

وقد حدث سيل العرم نتيجة لهطول الأمطار لمدة طويلة، وعلى قول بسبب انهيار سد مأرب.

وعرف عمرو مزيقيا أبو ثعلبة خراب السد وتوقع انهياره قبل وقوعه كما سنبين فيما يأتى وترك وطنه.

عمرو مزيقيا ـ هو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أو عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. وكان نقطة استناد أهالى اليمن فى كل الأمور وكان له ثلاثة عشر ولدًا[3] من امرأته «طريفة الحميرية» من الكاهنات المهرة.

(١) نقل أفراد هذه القبيلة إلى مكان يسمى «راتج» فيما بعد.

(٢) وكان العشرون من القبائل المذكورة من بقايا العماليق واليهود والباقى من قبائل العربان ولكن طائفة اليهود كانت بالنسبة للأقوام الآخرين أكثر اجتماعًا ومدنًا.

(٣) وكان عشرة منهم يعيشون فى حياة أبيهم يعنى «ثعلبة (١) حارثة (٢) جفنة (٣) وداعة (٤) أبا حارثة (٥) الحارث (٦) عوف (٧) كعب (٨) مالك (٩) عمران (١٠) وكان الأوس والخزرج ابنى ثعلبة و«خزاعة» بنى حارثة و«غسان» ابن جفنة وكلهم كانوا من حفدة عمرو مزيقيا.

وبما أنه كان من أصحاب الثراء المفرط؛ كان يعيش حياة رفاهية ولا شك أن إلى عمرو مزيقيا ينتهى نسب أفراد قبائل اليمن، قد اختلف المؤرخون الأسلاف فى تعريف قحطان قال بعضهم أن قحطان هو بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ـ عليه السلام ـ وقال بعض منهم أنه هود ـ عليه السلام ـ نفسه.

إن عمران أخو عمرو مزيقيا كان محروما من النعمة الجليلة للتناسل وكانت مهارته فى الكهانة معروفة لدى الجميع.

وقد تكهن يومًا بانهيار سد مأرب وخرابه وأخبر أخاه عمرو مزيقيا بذلك، وأيدت طريفة الحميرية ما قاله عمران ببعض العبارات المسجوعة قائلة: «إذا ظهرت الفئران حول السد فهى علامة انهياره» ونبئ يومًا أن الفئران التى ظهرت فى أماكن قريبة من السد، وأنها أخذت تحرك الحجارة التى لا يستطيع تحريكها خمسون أو ستون رجلاً وقلبها وحرقها وصدق عمرو مزيقيا ما قاله أخوه وأصبح رهنا لليأس والحرمان، وقال: «إن الفئران التى تتصف بهذه القدرة تستطيع أن تهدم وتخرب سد مأرب وقتما تشاء» وقد عرف يقينًا أن لا بقاء لهذا السد، وقد شغل هذا القلق فكره وفى نهاية الأمر كتم الأمر عن أهل سبأ وقرر فى نفسه أن يترك وطنه ويبيع ما يملكه؛ وأَوْلَمَ وليمة للأهالى عامة وأخذ المنازعة التى حدثت فى أثناء الطعام سببا لانفعاله وغضبه، وقال: «بما أن هذا الموضوع قد جرح شرفى وكبريائى فلا أستطيع أن أبقى فى هذه البلاد» ثم باع أمواله وأشياءه وأخذ القليلين ممن عرضوا عليه تبعيتهم من قبيلة بنى أزد وخرج تاركًا أرض سبأ.

ينقل المؤرخون سبب هجرة عمرو مزيقيا من بلاد سبأ على هذه الصورة أيضًا فيقولون:

قد تيقن عمرو مزيقيا أن بلاد سبأ سترضخ لاسم الله الجليل «القهار» وذلك سواء أكان من خلال ما سمع من أخيه الكاهن المشهور عمران، أو زوجته الكاهنة طريفة التى رأت الرؤى المفزعة أو مما استخرجا من علامات مخوفة بمقتضى كهانتهما، وهى أسباب كافية تؤدى إلى الهجرة إلى بلاد أخرى بأولاده

وعياله وأحفاده وتوابعه، وأخذ يبحث عن سبب يؤدى إلى الهجرة ويختلقه، وبناء على هذه الفكرة هيأ مأدبة دعا لها وجوه البلد وأعيانه كما أوجد فيها كثيرين من عامة الناس، وكان بين المدعوين رجل قد تيتم صغيراً فبسط عمرو عليه حمايته وصحبه ورباه حتى أصبح فى زمن قصير من أغنياء أهالى مأرب الأوائل وتزوج باختيار عمرو وتصويبه واكتسب مكانة بين الأهالى، وقد دعا عمرو مزيقيا ذلك الشخص قبل إقامة المأدبة خفية وقال له منبها: «إننى سآمرك فى أثناء الطعام ببعض الأوامر فعليك أن تتحرك خلاف أوامرى، ويجب أن تخالف جميع أقوالى وإذا سببتك فقابلنى بالمثل وأظهر لى الخصومة قولاً وفعلاً وإذا لزم الأمر اصفعنى عدة صفعات!! وعندما أخبره الرجل أنه لن يستطيع أن يقوم بمثل هذا السلوك المشين ولن يتجرأ على ذلك، فرجا منه عمرو أن يوافق على اقتراحه مبينًا له أن هذا العمل سيكون محض خير فى حقه وحق عمرو، ولما حل يوم الوليمة وأخذ الأهالى يتوافدون زرافات، وشغلوا بالطعام وأخذوا يأكلون ويشربون متآنسين ومتحدثين، عندئذ أحضر عمرو مزيقيا الشخص الذى اتفق معه وطلب منه أن يهيئ بعض الأشياء اللازمة للمجلس وأن يحضرها ولكنه قوبل بمعاملة غير لائقة، فأظهر عمرو الحدة وبادر بضربه بالعصا التى فى يده مهدداً، إلا أن الرجل أخذ العصا من يد عمرو رئيس البلد ولكمه عدة لكمات، وساد الوجوم فى المجلس وسر بعض الناس اغْتَمَّ الآخرون، وقد تأثر عمرو مزيقيا من إهانته وعدم إعانة أولاده وأحفاده وأعوانه فأقسم على أنه سينتقل ويرتحل من سبأ. وأعلن أنه سيبيع كل ما يملكه ويهاجر إلى بلاد أخرى فى المجلس نفسه.

وطمع بعض من لهم نفوذ من الأهالى فى الرياسة كما طمع آخرون فى شراء أموال عمرو بثمن رخيص حتى يغتنوا ومن هنا أظهروا سرورهم من هجرة عمرو وأقبلوا على شراء ممتلكاته، كما أن عمرو أخذ معه أولاده وأحفاده وزوجاته ومن يتبعونه من أعوان وخرج من حدود بلاد سبأ.

وبناء على بعض الأقوال أن عمرو مزيقيا مات قبل ظهور «سيل العرم»[1]

(١) قد كتبت كيفية حدوث سيل العرم فى الصورة الثالثة بالوجهة الأولى من مرآة الجزيرة استطرادا.

واطلع ثعلبة ابنه على انهيار سد مأرب وهاجر من أرض سبأ، وأن الكاهنة طريفة ليست أمه بل زوجته.

وعلى رأى من يرجحون هذه الأقوال أن عامر أصبح رئيس قبيلة بعد وفاة أخيه عمرو مزيقيا وقام بإقامة وليمة عظيمة لأهالى سبأ وفى أثناء الطعام لطم ابن أخيه حارثة صفعة.

ولم يتحمل حارثة الإهانة التى تعرض لها على ملأ من الناس وعقد النية على ترك الوطن، وإن كان عامر ندم كثيرًا وقال: «يا حارثة إننى ضربتك فاضربنى أنت أيضًا» وأسرع يرجو منه ذلك مُلحًا حتى يهدئ ثائرة نفس ابن أخيه إلا أن حارثة لم يستطع أن يقنع ضميره بضرب عمه، وإهانته كما أنه لم يستطع أن يكظم غيظه وغضبه ومن هنا خرج من أرض سبأ مهاجرًا.

وأدت هجرة عمرو مزيقيا إلى انتشار الإشاعات بين الأعيان وقام والناس بعضهم ضد بعض؛ وفى أثناء ذلك هبطت الأمطار متتالية ولم تراعى منافذ السد وظهرت وقعة «سيل العرم» فانهار سد مأرب المشهور فغرق جملة الأهالى وهلكوا وخربت آثار تلك البلاد الميمونة وامحت وأصبح ذلك السد الذى قام منذ عدة آلاف سنة خرابا يبابا ومسرحًا للبوم والغراب.

هاجر عمرو مزيقيا من أرض سبأ ومعه قبائل «بنو أزد، آل سدير، آل خزيمة»، وانتشر بنو أزد فى بلاد عمان، وآل وداعة فى «أرض همدان»، وبنو خزاعة فى «بطن مكة»، والأوس والخزرج فى أرض يثرب، وآل جفنة وآل غسان فى «البصرة»، وآل سدير فى «ممالك الشام»، وآل خزيمة فى «ديار العراق»، وهيأ كل هؤلاء حيث وجدوا أملاكًا وأراضى كافية لمعيشتهم وتوطنوا فيها.

وظل بعض أفراد قبيلة أزد على سواحل نهر يسمى غسان عندما هاجر عمرو مزيقيا من أرض سبأ تجول كثيرًا راغبًا فى إسكان القبائل التى فى رفقته فى مكان واسع المرعى كثير المياه هادئ وأدخل أهالى البلاد فى طاعته ووصل إلى حدود الميمونة كعبة الله، ونزل فى مكان مناسب وبعث ابنه ثعلبة إلى مكة المعظمة

وأفهم أهلها «أنه سيقيم فترة فى ساحة حرم الله السعيد». وقال ثعلبة ضمن ما قاله فى تليين أفكار الأهالى: «منذ أن خرجنا من موطننا بلاد سبأ حيثما مررنا بمكان سكَنَّا برضا أهله هناك حتى نجد لنا مكانًا يليق بإقامتنا، وبهذه الصورة وصلنا هنا فأذنوا لنا بالإقامة فى بلادكم فترة وعندما يصل أبناء قومنا إلى هذا المكان سيبعثون عدة أشخاص إلى الإمام ليبحثوا ويتحروا عن بلاد مناسبة وعندما يرد هؤلاء سيرتحلون من هنا، وعلى كل حال فنحن نريد عونكم» وبذل سعيه بهذه الطريقة ليكتسب رضا أهالى مكة، إلا أن أهالى مكة الذين كانوا من الطوائف المتسلطة والجراهمة العصاة الذين كانوا اغتصبوا حجابة الكعبة من أيدى بنى إسماعيل وحكومتها واعتادت على أن تمنع القبائل التى لا تريدها من الدخول إلى أرض مكة فأعادوا ثعلبة خائبًا إذ رفضوا طلبه.

وعندما اطلع عمرو مزيقيا على أفكار المكيين القاسية بعث ابنه مرة أخرى وهو يهدد قائلاً: «مهما كان الأمر فإننى قد هيأت السبل والأسباب لقتال الجراهمة حتى آخر نفر من قبيلتى لأدخل مدينة مكة المعظمة!!» والتقى ثعلبة للمرة الثانية بأعيان الجراهمة وصناديدهم وافتتح كلامه ذاكرًا أن والده قد تهيأ للحرب والقتال وقال: «لابد وأننا سنقيم فى بلدة مكة المفخمة المعظمة! إذا ما وافقتم على ذلك فإننا سنعرض عليكم مراسم شكرنا ونحمد لكم موقفكم! أما إذا أظهرتم الرفض والمخالفة والخصومة، سنستولى على مراعيكم وآباركم فى ظل قوة أدرعتنا وشجاعتنا وننتزع حكومة مكة الجليلة من أيديكم. ولن نعطى لأفراد قبيلتكم قطرة من الماء، إلا إذا رضيتم بشرب ما زاد عن حيواناتنا من مياه موحلة، أما إذا قابلتمونا بالمثل عندئذ سنشعل وطيس الوغى ونقاتلكم فنقهر أبطالكم وندمرهم ونكبل أطفالكم ونساءكم بالسلاسل».

وردت طائفة الجراهمة ثعلبة بالرفض مرة أخرى مستندين على كثرة عددهم وقوة نفوذهم واحتضنوا أسلحتهم وحاربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهارًا، ولكنهم انهزموا انهزامًا غير منتظر وتشتتوا وتفرقوا.

ودخل عمرو مزيقيا مستصحبًا أفراد قبيلته فى أرض حرم الله عقب انهزام الجراهمة، ونال شرف الإقامة فيها مدة طويلة وأقامت القبائل التى معه فى هذه الأراضى وأمضت فيها فترة ما، وتعرض فيما بعد أفراد القبائل الذين كانوا معه للحمى المحرقة ولم يتحملوا الإقامة فيها، وهاجر كل واحد منهم إلى بلدة ما، واستقر ثعلبة الذى أجرى السفارة لقبائل الجراهمة فى أثناء هذه الاضطرابات فى موقع مشهور بـ «ثعلبة» داخل أراضى الحجاز ووسع دائرة نفوذه وقوته.

وانقسم هؤلاء إلى بطون وفيرة وقبائل كثيرة، فذهب أحفاد عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس، وأولاد سائب بن قصى حفيد عوف بن الخزرج إلى بلاد عمان، وهاجر بعض من أبناء حارث بن الخزرج إلى بلاد أخرى فلم يكتب لهم أن يلتحقوا بزمرة الأنصار الجليلة، وظل بعض من أولاد جفنة بن عمرو بن مزيقيا فى المدينة فانخرطوا فى سلسلة الأنصار الذهبية.

وتوطن بعض أولاد الأخوين الأوس والخزرج فى قرى بنى إسرائيل كما سبق بعضهم فى أماكن خالية من آثار الحياة والعمران.

سبب ظهور وقعة مالك بن عجلان وصورة ظهورها:

كان فيطون[1] الثعلبى حاكم يهود المدينة، وقد اتخذ فى أواخر عهد حكومته عادة فاضحة وهى أن يستفرش العرائس اليهوديات قبل أن يستفرشهن أزواجهن.

وأراد أن يعمم هذه العادة الكريهة الإباحية بين قبيلتى الأوس والخزرج، وأراد مالك بن عجلان السالمى أن يزوج أخته وكان من قبيلة الخزرج إلا أنه لم يطق تكلف مالا يطاق من الذى أعلنه فيطون الدون والذى لا يخالف الدائرة المشروعة فحسب بل الطبيعة البشرية أيضًا وفضل ألا يزوج أخته لفترة ما.

ولكنه لم يستطع أن يتغلب على إلحاح النساء فتزيا بزى النساء وأوصل أخته إلى بيت فيطون واستطاع أن يصل إلى فيطون وقتل عدو العرض والشرف ذلك وبعد ذلك أخذ «رمق بن زيد» الخزرجى من بنى سالم وسافر إلى بلاد الشام

(١) يروى فى قول آخر أن اسم فيطون قطبون.

حيث لاقى أبا جبيلة، وشكا له مظالم يهود يثرب وبين له كيف قتل فيطون ثم قال له، إننى أخاف بعد الآن من العودة إلى المدينة.

قال بعض المؤرخين: «إن مالك بن عجلان» لم يَلْتَقِ فى الشام مع أبى جبيلة بل لاقى عبيد بن سالم بن مالك بن سالم من بنى سالم وعرض له فى ضميره، إلا أن هذا القول غير صحيح بالنسبة للقول الأول، لأن أبى جبيلة من أولاد جشم بن الخزرج، وقد هاجر إلى الشام لأسباب ما واكتسب ثقة الهيئة الحكومية وفرض احترامه على الناس وقد بلغ الواقعة كما جرت إلى ملك الشام وبين أنه قد أتى الوقت لتأديب يهود يثرب وتربيتهم الذين أزعجوا سكان بلاد الحجاز بما ارتكبوا من المظالم فيها. ثم أضاف بـ: إذا اقتضى سوق الجيوش إلى يثرب فإننى أريد أن أقوم بخدمة صغيرة للحكومة الشامية وذلك بأن أذهب شخصيًا إلى هناك، ولما كان أهل الشام أيضًا منزعجين من يهود المدينة، ولما وصلت حركات فيطون الباغية المتوحشة إلى درجة الثبوت قد استصوب سوق فرقة من الجنود بناء على قول أبى جبيلة لتأديب اليهود وإسناد قيادة ذلك الجيش إلى أبى جبيلة لما له من دراية بأمور يثرب. وفعلاً جهز العدد الكافى من الجنود وفوض أمرهم لأبى جبيلة، وفعلاً اصطحب الجنود الذين جهزوا واتجه نحو يثرب بلا توقف، ولما أراد أن يحافظ على جنود الشام وألا يعرضهم للقتل رأى أن يباغت العدو من جهة اليمن.

وكانت هذه الخطة مبنية على إقناع الأهالى بأن جنودا أرسلوا إلى اليمن، وفعلاً سار أبو جبيلة عدة أيام متجهًا إلى اليمن ثم غير طريقه وبعد مدة وصل إلى أرض يثرب ونصب خيامه فى موقع يقال له «ذى حرص» ودعا إليه أعيان اليهود وأعمل سيفه فى رقاب اليهود الذين استجابوا لدعوته. وقطع أنساب الرؤساء الذين سيتولون مناصب الحكومة منهم، وبناء على هذا قد تغلب أفراد قبيلة الخزرج والأوس على طوائف اليهود فى البلاد المقدسة وأصبح كل واحد منهم صاحب أملاك وأصبحت الحكومة فى أيديهم.

وقال بعض المؤرخين: «إن مالك بن عجلان استمد العون من ملك اليمن تبع الأصفر وساق الملك المشار إليه الجيوش إلى أرض يثرب وقتل اليهود وأهلكهم ثم عاد بعد أن كسا البيت الأعظم بالكسوة[1].

إذا ما نظرنا إلى وجود بعض المواقع تنسب إلى تبع الحميرى فى المدينة المنورة وإلى ثبوت كساء البيت المحترم يلزم أن تكون هذه الرواية مقارنة للصحة أو يلزم أن يكون أبو جبيلة وكذلك تبع الأصفر قد أدبا يهود المدينة.

(١) إن تفصيل هذه الواقعة مسطر فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة «لمرآة مكة».

فى ذكر بيان القرى والمحال التى أسسها أفراد قبائل بنى الأوس حول المدينة.

فى أثناء تغلب أفراد القبائل التى تشعبت من سلالة الأوس بن ثعلبة وأخيه الخزرج بقوه أبو جبيلة على طوائف اليهود انتشروا فى نواحى يثرب حتى هيأت كل قبيلة قرية لها، واتحدت عدة جماعات من كل بطن وأنشئوا منازل حيث أعجبهم وأسكنوا فيها أسرهم.

واختار الإقامة بنو عبد الأشهل ابن جشم بن الحارث وحارثة بن الحارث بن الخزرج الأصفر بن عمرو بن مالك بن أوس فى قرية تسمى «دار عبد الدار» يعنى «فى الربوة التى اشتهرت بالَحرَّة الشامية فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة».

وابتدر كل واحد من الأفراد إلى تأسيس بيت حسب حاله وقدرته وهكذا أنشئوا حيًا كبيرًا وبنوا برجا عاليا ليكونوا آمنين إذا ما تعرضوا لهجمات الأعداء يعرف بـ «واقم» وترك أمر إدارة هذا البرج وأمر إدارة الناس الذين قرروا تحصين قراهم وحفظها لحصين بن سماك من مشايخ بنى عبد الأشهل.

بعد أن أقامت قبيلة بنى عبد الأشهل فى قرية «دار عبد الدار» فترة قامت بالاتفاق مع أفراد بنى ظفر ضد أبناء عمومتهم بنى حارثة الذين يشاركونهم سكنى قريتهم واستخدموا الخصومة والسيف لإخراجهم من القرية؛ ولما كان أفراد بنى حارثة من أصحاب البصيرة انتصروا على بنى عبد الأشهل وقتلوا رئيسهم سماك بن رافع وأخرجوا سواء أكان أفراد أسرة سماك المقتول أو كان أفراد قبيلته من برج «واقم» وطاردهم إلى ديار بنى سليم، وفى الأيام الأخيرة قام ابن سماك المقتول مطالبًا بدم أبيه وأخذ يحاصر ناحية بنى عبد الأشهل بالاتفاق مع قبائل بنى سليم ويُضيق عليهم الخناق، وبعد مقاتلة دامت فترة طويلة جعلوا بنى عبد

الأشهل يفرون إلى القرب من خيبر، وبعد هذا القتال بعام واحد تنازل ابن سماك عن دعواه ورضى أن يعود بنو حارثة إلى أرض يثرب، إلا أن بنى عبد الأشهل تشاءموا من النزول إلى نواحى دار عبد الدار وفضلوا النزول فى قرية «شيخان» فى الجهة الشرقية من «الحرة الشرقية».

وأنشأ بنو ظفر أحفاد كعب بن الخزرج الأصفر بن عمرو بن مالك بن الأوس قرى حول «مسجد البغلة» الذى يقع فى الجهة الشرقية من مقبرة بقيع الغرقد، يعنى بجوار قرى بنى عبد الأشهل كما أسس أخو كعب سالف الذكر والذين ينتسبون إلى عوف بن مالك ابن الأوس أنشئوا منازل فى ناحية «قباء» وبعد فترة انقسموا إلى جماعات عديدة وبطون كثيرة.

وقد بنى جماعات القبائل التى نزلت فى ناحية «قباء» أربعة عشر برجا حجريًا متينا وأحد هذه الأبراج الذى يقع فى الناحية الشرقية من مسجد قباء يعرف باسم «مسكبة» والآخر الذى يقع بجوار بئر غرس يعرف باسم «مستظل» وهذان البرجان مشهوران برصانة بنائهما بالنسبة للأبراج الأخرى لأنهما أسسا على غاية من المتانة والرصانة.

وقد اتحد أحفاد وأولاد امرئ القيس بن مالك ابن الأوس مع جماعات بنى واقف وبنى سليم ونزلوا فى الجهة الجنوبية من مسجد الفتح إلا أن أفراد بنى سليم انفصلوا عن جماعة بنى واقف وارتحلوا إلى قرى ابن عوف وانتقلوا إليها[1].

وسكن بنو وائل الذين ينتسبون إلى زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك فى القرى القريبة من مسجد «بنى وائل» كما استقر أولاد عمومتهم بنو أمية بن زيد فى نواحى «بنى أمية» كما استقر أولاد بنى عطية بن زيد فى ناحية «صقفة الواقعة أعلى منازل» بنى حبلى «وقد بنى كل واحد منهم منازل متينة وبعض

(١) إن سلالة بنى سليم قضت حياتها تحت الخيام إلى سنة ١٩٩ وكانت هذه السلالة تقدم ألف مبارز فى الحروب التى تقوم فى الجاهلية.

القلل الرصينة، وكان يقال لأفراد هذه الجماعات ـ يعنى القبائل بنو وائل، بنو أمية، بنو عطية فى ذلك التاريخ «جعادة».

ولما وقعت قرى بنى أمية بن زيد على جانب نهر صغير صدفة كانت حقولها خصبة ومنبتة وذات محاصيل وفيرة وكانت أكثر قيمة من أراضى القرى الأخرى كما أن لأفراد بنى عطية برجًا يسمى «شاشى» بين جدران مسجد قباء الجنوبية.

وسكن بنو سعد بن مرة بن مالك بن الأوس فى ناحية تسمى «راتج» كما أن بنى حطمة بن جشم بن مالك بن الأوس سكنوا بالقرب من «ماجشونية» يعنى فى أطراف قرى بنى حارث وفى المنازل الكائنة فى حى غرس، والخلاصة أن البطون التى انفصلت عن سلالة مالك بن أوس هى فروع القبائل التى ذكرت إلى الآن.

وكانت كل هذه الجماعات والقبائل تسكن فى المواقع التى ذكرت آنفًا والتى تقع أسفل أراضى يثرب.

فى تعريف ووصف القرى والمنازل التى سكنها بعد تهيئتها أبناء قبائل الخزرج وجماعاتها فى جوار مدينة الرسول.

توطن أولاد وأحفاد الحارث بن الخزرج بن ثعلبة فى أول الأمر فى الجهة الشرقية لوادى بطحان واستقر من هؤلاء جشم وزيد بن حارثة منفصلين عن أبيهما فى برج «الناحية» الذى يقع فى موقع «سخ»، وكان هذا البرج بعيدًا عن مسجد السعادة مسافة ميل وكان فى داخل أقرب قرية إلى المسجد الشريف فى تلك الناحية.

وفارق خدارة بن عوف جده الحارث وسكن فى التلال التى يطلق عليها «حرار سعد» وفى الجهة الشامية منها، كما سكن ابن أخيه فى قرب مكان يسمى «بصة» وظل سالم بن عوف وأخوه غنم بن عوف بن عمرو بن الخزرج الأكبر أولاده وأحفاده فى أطراف «مسجد الجمعة» الواقع فى الحرة الغربية.

وكان لبنى خدارة برج يقال له «بئر البصة» كما كان لبنى سالم برج يطلق عليه «قواقل» وكان لكل واحد منهما برج متين ويروى أن برج «بئر البصة» قد أسس من قبل جد أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه البارى.

واستقر بنو عطية من رؤساء بنى سالم بالقرب من مسجد «بنو عطية» فى ناحية قباء وجماعات بنى حبلى من أحفاد مالك بن سالم بن غنم بن عوف استقروا فى القرى الكائنة بين منازل بنى النجار وبنى ساعدة.

وكان لجماعات هاتين القبيلتين خلف المنازل التى يطلق عليها بيوت عبد الله بن أبى، برجًا يقال له «مزاحم» وكان فى غاية الجمال والمتانة.

وسكن جماعة بنى سليمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة ابن زيد بن

جشم بن الخزرج فى الحرة الواقعة بين برج ناحية «بنى حرام» وبين مسجد القبلتين، وسكنت طائفة بنى سواد بن غنم بن كعب بن سلمة فى جهة منازل بنى عبيد والمسجد السالف الذكر وبنوا مسجد القبلتين.

كما استقر أفراد بنى عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة فوق الجبال القريبة من مسجد الحزب وأنشئوا برجًا متينًا فى الجهة الجنوبية من المسجد.

وتوطن بنو حرام بن كعب بن غنيم بن كعب بن سلمة فى جانب المسجد الصغير الواقع فى مكان يقال له «قاع» وفى جهة مقبرة بنى سليم فى جهة «حصار مزاد» وبنوا بجانب بئر جابر بن عتيك[1] برجًا منتظمًا.

وأقام أفراد بنى سلمة فى القرى سالفة الذكر، وتبعوا أمية بن حرام وعاشوا متآخين على قلب واحد وقالب واحد ولم يقم بعضهم ضد البعض مثل القبائل الأخرى؛ ولم تظهر بينهم آثار النفاق والشقاق ومن هنا أصبحوا من أثرياء العرب وأقويائهم فى أرض يثرب.

وأقام بنو بياضة وزريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر، وبنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب.

وبنو عذراة[2]، وبنو أجدع[3] متفقين فى قرية دار بنى بياضة[4] الكائنة فى الجانب الشامى لقرى بنى سالم وفى الجهة الجنوبية من منازل بنى مازن وابتدروا فى بناء ما يقرب من عشرين برجًا لا بديل له.

وانفصل بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر عن آبائهم وانتشروا فى عدة قرى؛ يعنى استقر بنو ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة وأبناء الحارث بن الخزرج بن ساعدة فى قرية «بنى ساعدة» الواقعة فى الجهة الشرقية من سوق المدينة المنورة،

(١) حفر سيدنا معاوية رضى الله عنه بئرًا أخرى إلى جوار تلك البئر.

(٢) هؤلاء بنو كعب بن مالك.

(٣) وهؤلاء بنو معاوية بن مالك بن غضب.

(٤) هذا المكان الحرة الغربية التى تنتهى عند بطحان.

واستقر بنو وقش وبنو عنان بن ثعلبة بن طريق بن الخزرج بن ساعدة بجوار «مسجد الراية» كما استقر بنو مالك بن النجار فى منازل «بنى النجار».

وكانت منازل بنى النجار فى تلك الأوقات فى جهة باب الرحمة للمسجد الشريف وعلى هذا التعريف كانت منازل بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار على الجانب الأيسر بجانب شارع باب الرحمة للمسجد الشريف، وكانت بيوت بنى مقالة على الجانب الأيمن من الشارع المذكور، وكان يسكن بنو مبذول بن عامر بن مالك بن النجار شرق بقيع الغرقد وبنو غنم فى الجهة الجنوبية منه.

وكانت منازل بنى عدى بن النجار فى الجهة الغربية من المسجد الشريف وكانت منازل بنى مازن بن النجار فى الجهة الشرقية من منازل زريق، وكان لأبناء عدى بن النجار فى ساحة المسجد الذى فى «دار نابغة» برج متين يسمى «زهرابة»، وإذا ما نظرنا إلى الأماكن التى أقيمت فيها منازل بنى النجار بعين الإمعان يفهم بداهة أن منازل بنى النجار أقيمت فى نقطة غاية فى الأهمية، وإلى هذه النقطة الدقيقة يشير الحديث الشريف النَّبَوي الذى يقول: «خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة وفى كل دور الأنصار خير»[1] (حديث شريف).

(١) رواه البخارى فى مناقب الأنصار حديث (٣٧٨٩) باب فضل دور الأنصار ٧/ ١١٥ من فتح البارى.
ومسلم فى كتاب الفضائل، باب خير دور الأنصار، حديث رقم (٣٠٦٣) وما بعده ٧/ ٥٧٢ وما بعدها ط. دار الغد العربى. وغيرهما من أصحاب السنن.

فى تعريف رؤية الملاحم التى ظهرت قبل الإسلام بين قبائل الأنصار الكريمة والمعارك المشهورة.

انتصر أفراد القبائل الذين تشعبوا من سلالة الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بعد واقعة مالك بن عجلان، واختارت كل بطن قرية تسكن بها كما سطر آنفًا، وأخذ كل واحد من أفراد القبائل يحث الآخر فى تعمير الأملاك والأراضى وعاشوا متآخين فترة طويلة؛ ولكن ما ظهر بينهم فيما بعد من آثار النفاق والشقاق دفعتهم لاستخدام السيف والسنان ضد بعضهم حتى وصلت الحروب التى قامت بينهم قبل عصر السعادة بمائة وعشرين سنة إلى درجة تسلب عقول العقلاء ويروى المؤرخون أن الحرب آتية الذكر من أشهر معارك تلك القبائل المذكورة.

وقعة سمير ـ إن وقعة سمير أولى الملاحم المحزنة من بين الحروب التى وقعت بين قبائل الأنصار، ولما كان سبب حدوث هذه الواقعة رجل اسمه سمير من قبائل الأوس، قد اشتهرت تلك المعركة باسم وقعة سمير.

إن أصل الواقعة قتل سمير لأحد الأشخاص من الذين دخلوا فى حماية مالك بن عجلان الخزرجى يسمى كعبا بالاتفاق مع أحد أشرار بنى ثعلبة، وكان كعب هذا قد أحدث فتنة وفسادًا بين قبيلته الأصلية بنى ذبيان ثم هرب ناجيًا برقبته واحتمى بمالك بن عجلان.

ولما كان قتل شخص دخل تحت حماية أحد الأشخاص يعد مصيبة بين القبائل تلوث شرف مالك بن عجلان ومكانته، لهذا قام ابن عجلان بطلب دية كاملة من قاتل كعب وعند المخالفة لهذا التقدير أعلم أشرار بنى ثعلبة أن يستعدوا للقتال.

وكانت العادة المرعية فى تلك الأوقات عند العرب أن يعطى لمقتول الحليف نصف دية المقتول النسيب لذلك قال رجال القبائل الأوسية التى ينتسب إليها سمير أن إعطاء دية النسيب[1] لقتيل الحليف[2] مخالف لقانون العرب، وإنها ليست شيئا نعجز عن دفعه إلا أننا نخاف أن يظل كالعادة بين العرب وبناء على هذا نعطى دية الحليف حتى نقف دون احتمال وقوع هذه العادة، ولكن مالك بن عجلان أصر فى ادعائه وطلبه، وحاول رئيس قبائل الأوس أحيحة بن الجلاح أن يقنع مالكًا حتى يحافظ على عادات العرب القديمة.

وطال الإصرار والمدافعة ونتج عن الحوار الجدال والمشاجرة، وتسلح الطرفان وشرع كل طرف فى شتم الآخر وضربه وتضاربا ثمانى ساعات أو عشر، وفى النهاية تغلب الأوس على الخزرج وعينوا منذر بن حرام النجارى الخزرجى جد حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ حكما للفصل بين المتخاصمين.

وأخبر مالك بن عجلان بأنه سيقبل الرأى الذى يقضى به ابن حرام وبحكمه، وبعد أن أخذ منذر بن حرام تأكيدات قوية من أفراد طرفى المحاربين بأنهم سيوافقون على الحكم الذى سيصدره، ثم خاطب الأوس وقال: «يلزم أن تدفع دية النسيب لكعب المقتول على أن يكون لهذه المرة فقط» وإن كان أفراد قبيلة الأوس وافقوا على هذا الحكم وقاموا بتنفيذه وفصلوا هذه الحرب بحكم المنذر إلا أن الطرفين قد غضب بعضهم من بعض وفى النهاية أحدثوا فيما بينهما ملحمة يوم الرحابة.

يوم الرحابة ـ حدثت هذه الواقعة بين بنى حجبا من قبيلة الأوس وجماعات بنى مازن من أقوام الخزرج وقد أدى إلى حدوث هذه الملحمة المؤلمة قتل كعب بن عمرو المازنى من عشيرة مازن بن النجار من قبل بنى حجبا، لأن كعب بن عمرو المازنى كان يتلاقى من حين لآخر بباغية من نساء بنى حجبا، وعندما اطلع بنو حجبا لوقاحة كعب ومجونه حاصروه يومًا فى منزل تلك الفاجرة وقتلوه. وأسرع

(١) النسيب: يقال لمن هو من أصل القبيلة وذريتها.

(٢) الحليف: يقال للذين تعاهدوا وتحالفوا على أن يساعد بعضهم بعضًا.

عاصم بن عمرو أخو كعب يتفق مع أبطال بنى مازن فى المطالبة بثأر كعب وأعلن خصومته كما أن رجال بنى حجبا تهيئوا لأسباب القتال فاجتمع رجال الطرفين فى موقع رحابة وأخذوا يتقاتلون.

وقد تحمل رجال الأوس وتجلدوا فى ميدان المعركة وأظهروا بعض البطولات إلا أنهم لم يتحملوا هجمات رجال الخزرج الشديدة وفروا فى النهاية منهزمين، وانفصل رئيس قبيلة الأوس عن الفارين ودخل فى القلعة المشهورة بـ «ضحيان» مع أتباعه وأغلق أبوابها.

وكان أخو كعب المقتول عاصم بن عمرو يصر على أخذ ثأر أخيه من أحيحة بن الجلاح، وأخذ يبحث عن طريقة للوصول إلى أحيحة وقتله قائلاً: «إنه زمن الانتقام تمامًا» وأخذ يتجول حول ذلك الحصن فى الليالى، وفى ليلة ما كان أحيحة قد خرج من الحصن ليسترق السمع للأحداث وأطلق أمامه الكلاب للأطراف والأكناف وأخذ ينظر إلى أطرافه الأربعة نظرات متجسسة قائلاً: «يا ترى من أين يمكن أن يأتى العدو وقد هيأ عاصم بعض التمر وسار نحو حصن ضحيان ورمى عدة ثمرات لكل كلب يقابله حتى يمنعه من النباح واقترب من الحصن، ولكن أحيحة قد دخل حصنه وقد أقلقه نباح الكلاب أولا وسكوتها بعد ذلك ولكن عاصم قد رأى رغبة دخول أحيحة فى الحصن فأطلق من خلفه سهمًا ولكنه اصطدم بباب الحصن ولم يصب أحيحة ولما رأى ذلك هرب حتى ينجو من الوقوع فى أيدى الأوس.

ولما عرف أحيحة أن السهم الذى أطلق كان يقصده وأدرك أن غير عاصم لن يتجرأ على الاقتراب من الحصن بهذا القدر فجمع فتية القبيلة وأطلقهم من خلف عاصم إلا أن الوقت قد مر حتى يجتمع رجال القبيلة مما أعطى الفرصة لعاصم أن يصل إلى مقر قبيلته فلم يستطع رجال الأوس القبض على عاصم وعادوا وقد اغتاظ أفراد قبيلة أحيحة من فشلهم فى القبض على الفريسة التى أتت برجليها إلى الفخ وعودتهم يائسين وعلى إعطاء فرصة للفرار لعدو كبير قتلوا فى معركة رحابة أخاه كعب بن عمرو هذا.

ومن هنا عزموا على الانتقام من قبيلة الخزرج وذلك بمباغتتهم فى ليلة من الليالى وذلك بتصويب جميع أبطال القبيلة واتحاد رأيهم؛ إلا أن زوجته «سلمى بنت عمرو» النجارية أبلغت الأمر إلى أفراد قبيلتها أى أنها أيقظت الخزرج من نوم الغفلة وذلك بإظهار ما يضمره الأوس من شر لهم، ومن هنا لم يستطع أحيحة أن ينال غرضه، وغضب غضبًا شديدًا من زوجته وبسبب هذا الغضب طلق «سلمى» التى تتمتع بجمال بالغ حتى يتشفى منها؛ إلا أن هذا الغضب أدى إلى ارتباط السلسلة الذهبية النبوية ببنى النجار وكان سببًا ظاهرًا له، لأن هاشم بن عبد مناف الذى يحمل صفات النبى والجد الثانى له قد تزوج بمطلقة أحيحة «سلمى بنت عمرو» وقد حملت المشار إليها منه وولدت جد النبى ﷺ عبد المطلب.

سلمى ـ وكانت هذه الحادثة سببًا فى اشتهار سلمى «بمتدلية» إذ فهمت سلمى ليلة مباغتة الأوس لقبائل الخزرج من استعداداتهم ثم ربطت نفسها بحبل قوى وتدلت من الحصن بهذا الحبل وأخبرت قومها بأحداث الواقعة، وكان هذا العمل سببًا فى طلاقها واشتهارها بلقب «المتدلية» وتكمن فى هذا السر حكمتان خفيتان أولاهما عدم انتقال النور المحمدى إلى نساء الأجانب وثانيتهما ارتباط سلسلة القبائل الخزرجية بالسلسلة النبوية وهذا مما يسر واقعة الهجرة لما عرض عليه الأنصار الكرام من العون والنصرة والانقياد.

عندما طلق أحيحة سلمى كان هاشم بن عبد مناف قد اشتهر فى قطر الحجاز بالحسن والملاحة ولما كان يحتوى على الغرة الغراء من عالم النجابة واليُمْن ولما كانت شمس سيد الأبرار تلمع فيه كلما قابله علماء اليهود والنصارى المطلعون على محتويات الكتب السماوية يسلمون عليه ويصافحونه ويقبلون يديه معًا، وكانوا يعرضون عليه بناتهم للزواج.

وقد انتشر فى الجهات الأربع للعالم أن علماء العصر عرفوا بدلالة الصحف السماوية أن سيكون الجد الثانى لسيد العالم ﷺ ومن هنا كانوا يظهرون له التعظيم والتبجيل ويعرضون عليه بناتهم اللائى بلغن أقصى حد الملاحة والجمال.

ولما وصلت هذه الشائعة إلى أسماع قيصر ملك بلاد الروم أراد أن يدخل إحدى بنتيه المشتهرتين بالجمال المفرط فى العالم كله فى سلك جدات النبى الغاليات وأن يجعل هاشم بن عبد مناف صهرًا له فبعث من يوصل هذا الخبر إلى هاشم يقول فيه: إن عندى بنتين يمكن أن يقال إن أما لم تلد فى مثل جمالهما كنت أود أن أزوجهما لشخص ظاهر الحسب وطاهر النسب ولما ثبت فى العالم كله والأقوام أصالة حسبك وطهارة نسبك فبعثت ببنتى لك فإذا عقدت نكاحك لإحداهما فتكون قد سررتنى كما أنك ترتبط بأسرتى السلطانية وتكتسب بهذا إعلاء قدر وميزة!!! وبعث عقب ذلك ببنتيه إلى ذلك المحبوب الذى حَيَّرَ الدنيا بحسنه.

وكان قصد ملك الروم من هذا أن يكون حما لهاشم بن عبد مناف وأن يكسب إحدى بنتيه شرف الصعود إلى درجة إحدى جدات النبى والتى تساوى شرفى الدنيا والآخرة.

وحينما وصلت بنتا ملك الروم إلى مكة المعظمة مال هاشم إلى أن يتزوج الاثنتين وبعد أن عرض طاعته وعبوديته لله أولا فوق جبل ثبير وبعده أمام الكعبة المعظمة وفق العادة الجاهلية فدخل بيت الزفاف وَفق الأصول، إلا أن حضرة جبريل نزل باسطًا أجنحته ورفع من ظهر هاشم نور النبوة وبهذا قد أعلم أنه لا يحتمل أن تكون صدور الروميات درة الوشاح لجوهر خاتم الأنبياء عليه أفضل التحايا الغالى. وكلما كان هاشم يفترش هاتين البنتين كان جبريل الأمين ينزع نور سيد الأنبياء من مشكاته التى وضع فيها.

دامت هذه الحالة التى تشتمل على الحكمة الإلهية فترة طويلة إلى أن رأى هاشم فى ليلة من الليالى فى رؤياه من يقول له: يا هاشم! يجب عليك أن تعقد نكاحك لسلمى بنت عمرو بن شريد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار بن تيم بن ثعلبة بن عمرو الخزرجى من كرائم كبار النجارين.

ولما كان هاشم ذات سمات جميلة متهيأ للتحرك نحو سواد الشام المعظم بنية التجارة فمر مضطرًا بمدينة طيبة، وتزوج من سلمى بنت عمرو النجارى كما أمر فى رؤياه وهكذا أنقذ مليحات عرب البادية الجميلات من عبث الطمع بالزواج به. انتهى.

كانت سلمى بوفرة عقلها وحلمها وشدة جمالها وسعة علمها خديجة الكبرى فى زمانها، وكان اسم والدتها عمرة بنت صخر بن الحارث بن ثعلبة بن مازن بن النجار واسم جدتها سلمى بنت عبد الأشهل النجارية.

يوم السرارة ـ لم يستطع الخزرجيون أن يتحملوا هزيمة يوم الرحابة، وظلوا ينتظرون حدوث واقعة أخرى وفى نهاية الأمر اختلقوا ملحمة «يوم السرارة» حيث انتصروا وأصبحوا يتباهون على أفراد قبائل الأوس ويتفاخرون عليهم بنصرهم.

وقد ظهرت هذه الحرب الشهيرة بين بنى عوف بن أوس وبنى حارثة الخزرجى وقد قاد محاربى بنى عوف «خضير بن سماك» كما قاد بنى حارثة «عبد الله بن أبى بن سلول أبو الحباب»، وقد تلاقى أفراد القبيلتين فى مكان يسمى «سرارة» وتحاربوا أربعة أيام متتالية وفى نهاية الأمر انتصر الخزرجيون وتفرق الأوسيون منهزمين حتى يعدوا ليوم آخر وهو يوم «حصين».

يوم حرب حصين ـ وقعت هذه الملحمة العظيمة بين بنى وائل من قبائل الأوس وبنى مازن بن النجار من قبائل الخزرج ولم يتخل أى واحد من محاربى الطرفين عن الحرب وقد أصر رجال كل طرف على أن يوقعوا خسائر على الطرف الآخر تخرج عن العد والإحصاء.

يوم ربيع الظفرى ـ وقعت بعد فترة من حرب حصين وقعة «يوم ربيع الظفرى» بين ظفر الأوس وبنى مالك بن النجار الخزرجى، ولما كان رجال بنى النجار فى هذه الحرب متعبين ومرهقين فاتحدوا وتجمعوا فى يوم «فارع» حيث أخذوا

يشتمون بعضهم بعضا وأشعلوا نار الحرب وبذل كل واحد من الطرفين أقصى جهده ليتغلب على الطرف الآخر.

يوم فارع ـ كان قائد القبائل الأوسية فى يوم فارع معاذ بن نعمان بن امرئ القيس الأشهلى والد سعد من الأنصار الكرام وكان قائد القبائل الخزرجية عمرو بن الإطنابة ولم تترك الحرب والقتال إلا بعد تأدية الدية المقطوعة للغلام القضاعى الذى فى حماية معاذ بن نعمان دية أخيه الذى قتل من طرف ابن النجار، وشغلت هذه القبائل من حين لآخر بالقيام ضد بعضها إلا أن أى طرف من الطرفين لم يستطع أن ينتصر على الطرف الآخر انتصارًا قاطعًا لذا رفعا المخاصمة من بينهما بعد يوم فارع واتفقا ضد اليهود.

وعقدا روابط الصداقة بينهما وتركا العداوة بينهما وعاشا متآخين مدة طويلة يعرض كل طرف للطرف الآخر مظاهر المودة والمخادنة ولكن العلاقات بينهما قد ساءت وفسدت وذلك بسبب الدسائس التى ألقيت بينهما فتسببا فى ملحمة يوم الجسر[1] بعد وقعة حرب سمير بمائة سنة.

يوم الجسر ـ وسبب وقوع وقعة يوم الجسر قتل حاطب بن قيس يهوديًا تحت حماية يزيد بن الحارث الخزرجى.

وكان حاطب بن قيس من رؤساء أعيان قبائل الأوس وكان يكرم الضيوف ويقوم بتسوية حاجات غرباء البلد، وجاءه يومًا ضيف من بنى ذبيان وخرج معه إلى السوق ولمس أحد اليهود بظهر الضيف وأخذ يسخر منه وذلك بإيعاز وإلحاح من يزيد بن الحارث، ولم يتحمل ضيف حاطب هذه الإهانة والحقارة وصاح بصوت عال: «يا حاطب!! بينما أنت من أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة، فكيف يتجرأ يهود السوق بإهانة الضيف الذى التجأ إليك واحتمى بك وذلك بمس دبره وإظهار علامات الحقارة له والاستهزاء به هل تتحمل أن يهان ضيوفك بهذه

(١) يقال لهذه الواقعة «حرب حاطب» أيضا.

الدرجة؟!» وبناء على تأسف الضيف لما حدث فما كان من حاطب إلا أن قتل اليهودى متأثرًا من قول الضيف.

وقد مات اليهودى الذى قتله حاطب ضحية فى سبيل ابن الحارث وغضب ابن الحارث من ذلك أشد الغضب وتتبع حاطب إلا أنه لم ينجح فى الإمساك به بل قتل بريئًا خرج أمامه، وفى ذلك الوقت كان ينتمى إلى بنى معاوية ولم يكن له أى علم أو علاقة بقتل اليهودى وكأنه بهذا قد ثأر وانتقم ومن هنا اشتعلت نار الحرب والقتال بين القبيلتين.

والتقى بعض الفتيان من الخزرج والأوس على جسر ردم بنى الحارث وشرعوا فى قتال دام شديد، وكان قائد الأوس فى هذه الحرب خضير بن سماك الأشهلى، وقائد الخزرج عمرو بن نعمان البياضى، وقد انتصر الخزرج على الأوس.

يوم الربيع ـ بعد مرور وقت قصير بعد معركة جسر ردم بنى الحارث اجتمع كثير من الرجال من الخزرج والأوس أمام جدار عتيق يعرف بـ (ربيع) وفى ناحية «السفح» وقد تقاتلوا مدة طويلة وبشدة فإذا ما كان القتال دام أكثر من ذلك لما بقى فرد يتنفس من الفريقين، وعندما عرف رجال الأوس أن القتلى بجانبهم أكثر من القتلى الذين فى فريق الأعداء تركوا الحرب متفقين وهربوا من ميدان القتال ظانين أن رجال الخزرج لن يتبعوهم.

وكان من الأصول المرعية عند العرب أنه عندما تنهزم فرقة وتتشتت وتفر وتدخل فى مسكنها ألا يتتبعها الفريق الغالب، إلا أن رجال الخزرج لم يتذكروا هذه القاعدة فظلوا يطاردون الأوس ودخلوا فى قريتهم. فعرض الأوس المصالحة ولما رأوا أن عرضهم لم يقبل أدخلوا أطفالهم ونساءهم فى داخل الحصون وتحركوا وفقًا للقاعدة «النار ولا العار» وهجموا على أعدائهم مظهرين عليهم سطوة السيف متحدين. وحاربوا حربًا شعواء دامية، وقد خاف الخزرجيون وارتعبوا وأرادوا أن يتركوا الحرب وبما أنهم نقضوا الأصول والعادات أولا

فاستمر الأوسيون فى القتال وطاردوا عدوهم إلى بقيع الغرقد وشتتوا عدوهم وكسبوا الحرب كما انتصروا على الخزرجيين فى واقعة «يوم الفرس» التى حدثت بعد ذلك بقليل.

ويذكر المؤرخون العرب الحروب التى وقعت حول المدينة بعد يوم الفرس بـ «حرب الفجار» سبب ذلك تحرك أفراد قبيلة الأوس خلاف رأى القائد الذى يسمى الأشهلى وأبا أسيد من الأصحاب الكرام وكان قائد الأوس فى وقعة «يوم الفرس» وقد أرسل عقب الحرب سفيرًا إلى الخزرج وأفهمهم أنه مستعد لعقد الصلح بشرط أن يدفع ديات قتلى الذين يزيد عددهم على قتلى الطرف الآخر، وقبل الخزرج اقتراح خضير الكتائب ولما تبين أن قتلى الأوس يزيد ثلاثة أنفار عن الخزرج قد أعطى إلى الأوس ثلاثة أنفار رهائن إلى أن تدفع الدية، وقد نقض الأوس العهد وقتلوا أحد الرهائن ومن هنا سميت الحرب التى حدثت واشتعلت بكل شدة بعد يوم الفرس حرب الفجار ـ ولكن الحروب التى وقعت فى المدينة لا تعد من حروب الفجار التى وقعت بين بنى كنانة وبنى قيس، لأن حروب الفجار بين بنى كنانة وبنى قيس قامت أربع مرات لأول مرة فى السنة العاشرة من الولادة النبوية والثانية فى السنة الثانية عشرة والثالثة فى السنة الرابعة عشرة والرابعة فى السنة العشرين وزمن وقوعها شهور «رجب، وذى الحجة، ومحرم، وصفر» وصادفت الأشهر الحرم ولما وعى المقاتلون ذلك قالوا متأسفين نادمين «قد فجرنا» وأطلق على هذه الحروب حروب الفجار.

يوم الحدائق ـ بدء حروب الفجار بالمدينة كان عقب وقعة يوم الفرس مع ملحمة يوم الحدائق وسبب هذه الحرب قتل أحد الرهائن التى أعطيت فى يوم الفرس، إذ قام الخزرجيون عامة للحرب، عقب نقض الأوس عهدهم بقتل أحد الرهائن واستطاعوا أن يضيقوا الخناق على الأوس بين بستانين نخيل المدينة وذلك لما رتَّبَهُ ونظمه قائدهم عبد الله بن أبى بن سلول من الدسائس والحيل، وأشعلوا نار الحرب وبذلوا كل جهدهم حتى شتتوا القبائل الأوسية وجرحوا قائدهم أبا قيس من عدة أماكن فى جسمه.

يوم المعبس والمضرس ـ وقعت معركة المعبس والمضرس بعد وقعة يوم الحدائق، وقد وقع هذا الجدال خلف جدارين، وقد تحشد رجال الأوس الذين نجوا يوم الحدائق خلف جدار يعرف «بمعبس» كما احتشد رجال الخزرج خلف جدار آخر يقال له «مضرس» وتحاربوا وتقاتلوا أسابيع وفى النهاية انهزم الأوسيون وتشتتوا وأغلقوا أبواب الأبراج التى كانت تعد من الحصون فى تلك العصور على أنفسهم وأطلق لهذه الحرب اسم يوم «معبس ومضرس» وبعد فترة رغبت جماعة بنى عوف فى عقد الصلح مع الخزرج ولكن بنى عبد الأشهل وبنى ظفر والرجال الآخرون الذين يوافقون رأيهم امتنعوا عن ذلك قائلين إننا لا نرضى بعقد صلح قبل أن ننتقم من الخزرجيين من هنا أخذ الخزرجيون يزعجون الأوس من حين لآخر ويطردونهم من مساكنهم؛ حتى إن جماعة بنى سلمة باغتت قرية بنى عبد الأشهل ونهبوا أموالهم وأصابوا سعد بن معاذ الأشهلى بالجروح وسببوا له الألم والمحنة.

وذهب رؤساء الأوس بعد نهب قرية بنى عبد الأشهل إلى مكة المعظمة بنية زيارة البيت الأكرم وفى نفس الوقت حرصوا على أن يعقدوا روابط الاتفاق والمعاهدة مع صناديد قريش ضد قبيلة الخزرج وفعلاً وجدوا كثيرين ممن يؤيدونهم، إلا أن أبا جهل اللئيم قد وصل لعلمه عقد اتفاق الأوس مع قريش فقابل أعيان قبيلة قريش الذين تعاهدوا مع الأوس فى دائرة دار الندوة وألقى فيهم هذه الكلمة التى تفتت الكبد إذ قال: كأنكم غافلون من مؤدى المثل الذى يقول: «ويل من أهل المنازل» بما أن الأوس من ذوى القدرة والنفوذ وأصحاب الثروة فإنهم سيطردونكم ويبعدونكم من مكة؛ ولا يخفى لكل من يعرف وقائع الأسلاف أن كل قوم باتوا فى بلاد قوم آخرين إلا وطردوهم من منازلهم وأخرجوهم من مأواهم، وأشار بهذه الكلمات إلى وجوب نقض المعاهدة، وقد جعلت كلمات أبى جهل القرشيين يندمون على عقد اتفاق مع الأوس ولكنهم لم تصل بهم الدناءة لارتكاب حقارة نقض المعاهدة وقالوا: «إننا قد عاهدنا الأوس! كيف نجسر على نقض عهدنا؟ هل هناك دناءة أعظم بين العرب من نقض العهد؟! وأرادوا أن

يسكتوا أبا جهل بهذه الكلمات، إلا أن أبا جهل قال اتركوا هذه النقطة من المسألة لى أنا، وخرج من دار الندوة وتلاقى مع الأوس وقال لهم: «يا أعيان قبائل الأوس! قد عقدتم العقد والميثاق مع القرشيين، وإننى لفى شدة الأسف لعدم وجودى فى ذلك المجلس! وإذا كنت وجدت فى هذا المجلس لكنت عاهدتكم أنا أيضًا، وكنت آتى لعونكم مع أبطال قريش! إذا قبلتم نعقد مقاولة أخرى لتحديد المعاهدة! أننا لا نخفى نساءنا وبناتنا عن بعض ونسمح لجوارينا بملاطفة الرجال بالسر فى أسواقنا! إذا اتفقتم معنا فى هذه الأفكار وسمحتم لنسائكم وجواريكم بملاطفتنا وملاعبتنا، فإننا نعينكم! وإذا لم توافقونا فى أفكارنا فمن العبث أن تنتظروا العون منا!!!.

وبهذه الكلمات قد كشف مسألة إباحة النساء التى كان يحترز منها أهالى المدينة، لأنه كان يعرف جيدًا أن الأوس ينفرون من هذه المسألة غير المشروعة ويتجنبونها.

وصرف الأوسيون النظر عن عون القرشيين إذ فهموا أفكار أبى جهل الضارة وعادوا إلى أرض يثرب وحرصوا على عقد اتفاق مع القبائل اليهودية وأحدثوا «يوم الفجار الثانى» تلك الملحمة الكبرى.

يوم الفجار الثانى ـ ظهرت واقعة يوم الفجار الثانى عقب عودة الأوس إلى المدينة، وذلك عندما عرف الخزرج أن الأوس قد عقدوا الاتفاق مع «بنى قريظة، وبنى النضير» من القبائل اليهودية فأرسلوا إليهم شخصًا يدعوهم إلى القتال معهم، فأجاب اليهود حتى لا تراق الدماء عبثًا: «إننا لم نتفق مع الأوس ولم نفكر فى أن نتفق معهم واضعين أيدينا فى أيديهم»، وأرسلوا أربعين نفرًا من اليهود رهائن حتى يطمئنوا الخزرج، ولكن بما أن قرى اليهود كانت منتظمة وفى أماكن حصينة طبيعية فإنهم طمعوا فى الحصول على قرى اليهود وأرسلوا رجلاً آخر يقول لهم: «اتركوا مواقعكم ابتداء من هذا اليوم وهاجروا إلى أماكن أخرى!» وإذا رفضتم فإننا سنقتل رهائنكم فأجابهم اليهود قائلين: «إننا لا نرى

سببًا يجبرنا للجلاء عن وطننا!!» إذا أجريتم الإهانة فاقتلوا رهائننا وقد غضب الخزرج من هذه الإجابة وتهوروا وقتلوا اليهودى[1] الذى كان فى حفظ عمرو ابن النعمان، ولما رأى اليهود هذا من الخزرج اتحدوا مع الأوس.

وهجموا على القبائل الخزرجية وأحدثوا قتالاً كبيرًا وهذا القتال ملحمة يوم الفجار الثانى.

عندما قتل عمرو بن النعمان الرهينة الذى كان تحت يده وأبرز الإهانة قال عبد الله بن أبى بن سلول لقاتل اليهودى «إنك غدرت» وتخلى عن الاتفاق كما أطلق الأوسيون الذين يتبعون ابن سلول سراح رهائنهم وأرسلوهم إلى قراهم.

يوم بعاث ـ قد اندلعت ملحمة يوم بعاث بشدة بعد يوم الفجار الثانى وبعد هذه الحرب لم يقع قتال قط بين قبائل الأوس والخزرج.

سبب حدوث وقعة يوم بعاث هو سبب وقوع ملحمة يوم الفجار الثانى؛ لأن قبائل بنى قريظة وبنى النضير اتحدت مع قبائل الأوس واتفقت معها وجلبت رجال قبائل مزينة حليفها وجمعتهم، كما أدخل الخزرجيون فى دائرة اتفاقهم حلفاءهم من بطون بنى أشجع وجهينة، وأخذ أفراد الطرفين يستعدون للقتال ويهيئون أدوات وآلات أربعين يومًا بعد حرب يوم الفجار الثانى وجهزوا مالا يحصى من الجيوش وتلاقوا فى النهاية فى مكان يسمى «بعاث» وشرعوا فى قتال شديد، وقد وقعت هذه الحرب فى شكل مفزع وصورة دامية.

وكان خضير الكتائب قائد الأوس وعمرو بن النعمان البياضى قائد القبائل الخزرجية، ولكن عبد الله بن أبى بن سلول ومن يتبعونه ومن كان تحت إدارة بنى حارثة كانوا على الحياد، وبذل أبطال الطرفين أقصى جهدهم وأظهروا غاية شجاعتهم وحرص كل واحد منهم على إهلاك الآخر وإتلافه، وطال القتال مدة وفى النهاية تفرقت فرق الأوسيين وشرعوا فى الهرب.

ولما رأى خضير بن سماك قائد الأوسيين أفراد المقاتلين الذين تحت قيادته أخذوا يفرون وقد تخلوا عن القتال وقد مالت أسباب النصر والظفر إلى طرف

(١) وقد قتل هذا اليهودى عمرو بن النعمان شخصيًا.

الخزرجيين قطعيًا، فغرز رمحه فى رحله وبرك على الأرض مثل الجمل بناء على القاعدة العربية القديمة وقال: «إننى لا أرجع من هنا ما لم أقتل فإذا أردتم أن تتركونى فى حالتى هذه للعدو فاتركونى»، وأنشد بعض الأشعار المناسبة للموقف وهكذا شجع أبناء قبيلته، وقد أشفق رجال الأوس على حال خضير الذى يفكر فى وطنه وهو مجروح ويحرص على الدفاع عنه وحتى لا يتركوه ليد العدو وهو فى حالته هذه فاضطروا للثبات فى ميدان الوغى وأثبتوا شجاعتهم الفطرية بقتلهم قائد الخزرج عمرو بن النعمان[1] البياضى وهزموا عدوهم هزيمة شنعاء وأخذوا يتعقبونهم من خلفهم، وفى أثناء ذلك سمعوا صوتًا هاتفيًا يقول: «يا معشر الأوس لا يليق أن تقتلوا إخوانكم بهذا الشكل، إن مجاورتهم أولى من مجاورة اليهود» حينئذ تركوا الحرب ثم حملوا خضيرًا الذى شجعهم بكل تعظيم وأوصلوه إلى منزله.

وقد فرح خضير بن سماك فرحا لا حد له لانتصار الأوس على الخزرج على الصورة المطلوبة، إلا أن الجرح الذى أصيب به لم يكن قابلاً للالتئام فمات متأثرًا به بعد مرور وقت قليل.

وكان هزيمة الخزرج وتشتتهم شيئًا يبحث عنه الأوسيون ولا يجدونه؛ ولذا نهبوا الخزرجى الذى وقع تحت أيديهم وتركوه مجردًا من كل شىء وهدموا منازلهم وشتتوا أسرهم وهدموا وأحرقوا بساتين نخيلهم وبهذا أظهروا دناءتهم التى لا توصف وجرحوا ثابت بن قيس بن شماس الذى قبضوا عليه وكان ذلك الجرح شارة حريته وأسرعوا فى قطع نخيل بنى سلمة وإحراقها؛ وأسرع سعد بن معاذ الأشهلى حتى أنقذ نخيل قومه.

وأخذت أضواء شمس النبوة تضىء آفاق المدينة المنورة عقب وقعة يوم بعاث وشرعت الدعوة المحمدية تنير أرض يثرب والبطحاء وبدأ السلطان الذى ظهر جديدًا يرفع أستار الظلام والخصومة والعداوة بين قبائل الأوس والخزرج، ولم يُبْقِ لها أثرًا واتحد أفراد جميع القبائل التى تنتسب وتنتهى إلى ثعلبة بن عمرو مزيقيا واتفقوا جميعا فى نصرة الدين الأحمدى واتحدت كلمتهم.

(١) إن هذا الرجل هو الذى قتل الرهينة التى أخذت قبل يوم الفجار الثانى غدرًا.

الوجهة الخامسة

وتشمل ثلاث صور تعين إرسال مصعب ابن عمير إلى يثرب ليقوم بإمامة موحدى أهل المدينة ووقائع الهجرة النبوية التى تستلزم الفخر.

فى ذكر بيعة السابقين من الأنصار للإسلام وفى دعوة مصعب بن عمير أهل المدينة إلى الإسلام.

بينما كان الأوس والخزرج يحاربون بعضهما كان النبى ﷺ رئيس الذاكرين لنعم الله يتلاقى مع الحجاج الواردين من أقطار العالم إلى مكة المعظمة ويدعوهم إلى الإسلام الذى فيه خيرهم فى حياتهم ومعادهم ويبلغهم أحكام الشريعة، وفى السنة الحادية والخمسين من ولادته السعيدة ذهب إلى صحراء منى حتى يلتقى مع الحجاج الواردين وفق عادته وتقابل مع بعض الأشخاص من قبيلة الخزرج الذين يطلبون الهداية فى سفح جبل «ثبير». ولما عرف أنهم من قبيلة الخزرج أخذهم إلى ركن ليحدثهم قليلاً ثم أخذ يبين الدين الحنيف ويعرفهم به وفق رجائهم وتلى لهم بعض الآيات الكريمة أيضًا، وكان الخزرجيون يرغبون فى الدخول من قديم فى حصن الإسلام المتين، وقالوا لابد أن يكون نبى آخر الزمان الذى ينتظر اليهود ظهور نوره وأرادوا أن يسبقوا اليهود فى يثرب فى التصديق وأسلموا بلا تردد وعادوا إلى المدينة وأخذوا يذكرون اسم النبى ﷺ وأوصافه فأسعدوا كل بيت وقصر.

إن الذين يقال عنهم الأنصار السابقون يعنى أول من أسلم من أهل المدينة هم هؤلاء الأشخاص الذين ذكرناهم؛ ولكن اختلف فى عددهم، بناء على أشهر الروايات تقدم فى الإسلام أسعد بن زرارة وستة أشخاص معه، ولكن عند البعض سبعة أشخاص[1] خمسة منهم من الخزرج واثنان من الأوس، رَغَّبهم فى سبق اليهود فى الإسلام ما سمعوه من اليهود: «إننا نبايع نبى آخر الزمان قبلكم»، لأن يهود يثرب كلما كانوا ينهزمون فى المناقشة والجدال مع قبائل

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٢/ ٣٥٣، ابن هشام ٢/ ٦٩، ابن سعد ١/ ١/ ١٤٥، ابن عبد البر (الدرر) ص ٦٧. وهى بيعة العقبة الأولى.

الأوس والخزرج يقولون: «قد اقترب زمن ظهور سيد البشر ﷺ وإننا سنجعلكم علفًا للسيف بمعيته» ويعلقون انتقامهم إلى ظهور نور نبوة محمد ـ عليه وعلى آله صلوات الله الستار.

وفى العام المقبل أى فى السنة الثانية والخمسين من ولادة السلطان الجديد الذى سخرت له الرسالة ﷺ شرف أيضًا صحراء «منى» حتى يدعو الحجاج الواردين إلى الإسلام وليهديهم إلى طريق النور المستقيم ويرحب بحجاج القبائل، وتلا الآيات البينات للذين رأى فيهم استعدادًا لقبول الإسلام وتلاقى فى هذه المرة مع عشرة أنفار من قافلة المدينة عند العقبة عرضوا بيعتهم عليه بالشروط الآتية: «ألا يشركوا بالله، ألا يسرقوا وألا يقتلوا وألا يزنوا، وألا يفتروا على أحد وألا يرموه بالبهتان فى الحال والمستقبل، وألا يعصوا أوامر الشارع وأن يمتثلوا لأوامر النبى المطاعة فى العسر واليسر فى المنشط والمكره، وإن يحبوا النبى ﷺ بأن يقدموه على أنفسهم وألا ينازعوه فى أى شىء وأنه يقول الحق فى جميع الأحوال وألا يخافوا لومة لائم فى إظهار الأمر الحق».

وعقب هذه البيعة[1] فتح النبى ﷺ فمه الشريف ناصحًا وقال: «إذا ثبتم فى أقوالكم موفين بعهدكم لكم الجنة، أما إذا تركتم أحد هذه الأمور فالله ـ سبحانه وتعالى ـ إما يعفو أو يعذب ويعاقب».

عاد الذوات الكرام الذين قبلوا الإسلام وفق الشروط المحررة وبعد أن ودعوا الرسول ﷺ وعندما وصلوا إلى المدينة المنورة أخذوا يظهرون شعار الإسلام وبادروا فى أداء الصلاة هنا وهناك.

وبعث معهم بناء على رجاء الأنصار السابقين مصعب بن عمير[2] حتى يصلى مع المسلمين وليعلمهم أحكام الشريعة الغراء وتلاوة القرآن الكريم على طريقة صحيحة، وأمروا بأن يختاروا أسعد بن زرارة من بينهم لإمامة صلاة الجمعة.

ونزل مصعب بن عمير فى الدار التى يسكن فيها أسعد بن زرارة ونال شرف الإمامة الغالية للأنصار الذين قبلوا الإسلام بجهود مصعب بن عمير وترغيبه.

(١) إن مصعب بن عمير أول من أطلق عليه لقب المقرى من الأصحاب الكرام.

(٢) وهى بيعة العقبة الثانية: انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٧٣، ابن سعد ١/ ١/ ١٤٧، وتاريخ الطبرى ٢/ ٣٥٥، وغيرها.

وقد أخذ أسعد بن زرارة مصعب بن عمير عقب أداء صلاة الجمعة الأولى[1] إلى بيوت الأنصار فى قرية بنى عبد الأشهل ومن هناك أخذه إلى قرية بنى ظفر القريبة من القرية السابقة وطلب من حضرة مصعب أن يدعو أهالى القريتين المذكورتين إلى مائدة الإسلام ذات الفوائد العميمة بينما هو جلس فى ركن من الأركان، وأخذ الناس يقبلون على قبول الإسلام بجهود أسعد بن زرارة وغيرته، واجتمعوا حول مصعب وأقبلوا على استماع القرآن الكريم منه؛ إلا أن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير من أشراف بنى عبد الأشهل غارا من استجابة أهالى القرتين إلى دعوة مصعب ودخولهم إلى الإسلام فرادى وولوجهم فى دائرة الإيمان الباهرة ذات الفيوضات وأخذا بفكران فى أسباب إخراج أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير (رضى الله عنهما) من القريتين سالفتى الذكر.

وكان سعد بن معاذ ابن أخت أسعد بن زرارة، وأحنى سعد رأسه مدة مفكرًا قال رافعًا رأسه: «يا أسيد! إنك شريف بين القبائل ورجل مع علية القوم! فإنك ترى أن مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة (رضى الله عنهما) يحسبان نفسيهما من يمثلان الحق وبهذا يغفلان سادة رجال القرية! عليك أن تزجرهما وتزعجهما وتخرجهما من حدود قريتنا وتطردهما! إن أسعد بن زرارة ليس منا بعد الآن وهكذا شجع رفيقه أسيد بن حُضَيْر.

وأخذ أسيد بن حضير حربته وتوجه بكل شدة وحدة إلى المنزل الذى شرفه مصعب بالإقامة فيه، وكان أسعد بن زرارة قد ركز أنظاره إلى الأطراف والأكناف حتى يعرف كيف سيتحرك سعد بن معاذ، ولم يعجبه وجهة توجه أسيد، ولما أطلع أسعد بن زرارة مصعبًا على شأن أسيد قال مصعب بن عمير: إذا ما ألقى الله سبحانه وتعالى حب الإسلام فى قلبه تتيسر مهمتنا!! وبعد فترة وصل أسيد وقال وهو فى أشد غضبه ما غرضك من جلب مصعب بن عمير إلى قريتنا يا أسعد بن زرارة؟ وما هو قصدك من إضلال وخداع ضعفاء قومنا؟ إذا كانت لكم

(١) أول صلاة الجمعة التى صليت فى المدينة هى التى كانت الإمامة فيها لمصعب وكانت فى هَزم حرَّة بنى بياضة فى بقيع يقال له بقيع الخضمات ـ ويقال نقيع بالنون ـ وكانوا أربعين رجلاً.
انظر: الدر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر، ص ٦٩.

حاجة خاصة بكم بينها، وإلا فقوما وانصرفا من هنا وأراد أن يكدر أسعد بن زرارة بهذه الطريقة، إلا أن مصعب بن عمير قال له: «يا أسيد!! اجلس قليلاً واستمع إلى الأقوال التى سأقولها فإذا ما رأيتها معقولة تقبلها وإذا رأيتها كريهة ترفضها!!» فأجابه قائلاً: «فى الواقع إن قولك هذا حق» وجلس فى ركن من الأركان وآثار البشاشة التى شوهدت على بشرته كانت تدل قطعيا على أنه سيقبل الإسلام ويرضى به دينًا.

وحينما رأى ابن عمير جلوس أسيد بن حضير تلا عدة آيات كريمة ودعاه إلى مائدة الإسلام عميم النوال، وظهرت فى قلب أسيد بن حضير آثار المحبة والقبول، وقال: «ما أحسنها من أقوال! وما أوضحه من طريق هذا الطريق الحق! يا ترى ما التكاليف الشرعية التى يكلف بها الذين يريدون أن يدخلوا فى هذا الدين المختار؟» فأجابه مصعب قائلاً: «يجب على الذين يريدون الإسلام أن يغتسلوا أولا ثم يطهروا ملابسهم، ثم يعترفوا بوحدانية الله تعالى المطلقة ثم يصلوا».

وقد تأثر أسيد بن حضير من الإجابة الصحيحة وابتدر بتجديد ثيابه وفق تعليمات حضرة مصعب بن عمير وأقر بقلب نقى طاهر بتوحيد الله وتعلم أركان الصلاة ثم قال: «هناك بين قبائل الخزرج رجل شريف! إذا ما استطعتم أن تدخلوه فى دائرة الإسلام المنجية فثقوا تمامًا أن قبائل الخزرج كلها ستسلم. ها أنا ذاهب لأرسله إليكم، إن هذا الشخص ذات صفات مشحونة بالهداية هو سعد بن معاذ» قال هذا وقام وذهب.

ولما رأى سعد بن معاذ عودة أسيد بشوش الوجه ونور الإيمان يلمع فى وجهه أحس أنه صدق بالنبوة المحمدية وأدرك ذلك وقال لمن بجانبه من الأشراف: «إن الشخص القادم يشبه أسيد بن حضير، وإن مجيئه بهذا الشكل لا يسرنى، لا أظن إلا أنه قد عرض البيعة لمصعب بن عمير!! فليجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ألا يخفى أمره هذا منا عندما يأتى، لننتظر حتى يصل إلينا» وقد وصل أسيد بمجرد ما انتهى من أقواله فاستجوبه قائلاً: «يا أسيد! ماذا فعلت؟ وكيف تعاملت

مع هذين الشخصين؟ فمنذ أن فارقتنا فأنا قلق» وتلقى من جانب أسيد الإجابة الآتية: «إننى لم أتنسم من أقوالهم رائحة الفساد والغاية السيئة، وأقسم بالله إن قوليهما لا يتعدى التعريف بالإله الواحد واجب الوجود ووصف صدق النبوة المحمدية وبيانها!!» وحينما أخذ سعد بن معاذ هذه الإجابة فتحول إلى قطعة من نار تحرق العالم من شدة حدته ووثب من مكانه وخطف حربته وتوجه إلى مكان المشار إليهما.

وقد ارتعد أسعد بن زرارة واضطرب حينما رأى سعد بن معاذ مقبلاً وهو ينشر إلى أطرافه شرارة الدهشة فأراه لمصعب قائلاً: «إن هذا الشخص المقبل هو من يسمى بسعد بن معاذ الأشهلى وإنه آت بغضب شديد! إذا كان هذا أيضًا يقبل الدين الحق ويصدق بنبوة النبى ﷺ لاشك فى أن القبائل الخزرجية كلها ستسلم كما قال أسيد بن حضير»، وعقب ذلك وصل سعد بن معاذ رافعًا قامته وقال: «يا أسعد! قد غضبت من جنبك شيئًا ننفر منه وهو منكر عندنا بدرجة لو لم تكن بيننا نسبة القرابة لكنت أهلكتك ورميتك فى حفرة الدمار بهذه الحَرْبَة السامة»، ثم كدر مصعب بن عمير بذكر ألفاظ غير لائقة، فرد عليه مصعب بن عمير دون أن يضطرب قائلاً: يا سعد! كان يجب عليك أن تجلس قليلاً حتى تسمع ما سأتلوه من الآيات الكريمة ثم ترد على وتجرحنى وتقبح كلامى، إلا أنك عاتبتنى وكدرتنى بأقوالك دون أن تعرف ما سوف أقوله لك وجرحت الأقوال الشرعية على العمى وقبحتها وعاتبتنى وقلت عن النبوة أنها ليست حقًا وقلت أننا نكره الأوامر، وهذا التصرف مناف لأحكام قانون المناظرة» وخجل سعد بن معاذ واستحيى مما قاله وقال: «فعلاً هذا ما كان يجب أن يكون! إننى لم أفكر فى هذه الأشياء وتجاوزت دائرة الأدب فأرجو أن تعفو عنى وأن تغفر لى سلوكى ثم جلس فى جهة ما» وقد ظهرت عليه دلائل قبول الإسلام إذ أخذ نور الإيمان يتلألأ فوق بشرته ويلمع. واطمأن مصعب بن عمير من حركات سعد بن معاذ الملائمة ثم تلا آية أو آيتين مناسبتين للموقف.

ثم دعاه إلى دار ضيافة الإسلام وكلفه أن يطهر جسمه وثيابه حتى يدخل فى الطريق المستقيم، فما كان من سعد بن معاذ إلا أن غير ملابسه واغتسل وفق

الصورة المسنونة ودخل فى حصن الإسلام المتين، ثم جمع أبناء قبيلته وقال لهم: «يا بنى عبد الأشهل إننى اقتنعت بصحة الإسلام وقبلته! بعد هذا يقتضى أن تسلموا كلكم!!!» وبهذه الطريقة رغب جميع بنى عبد الأشهل فى قبول الإسلام، وبناء على إلحاح سعد بن معاذ المتكرر وتشويقه دخل بنو عبد الأشهل جميعًا رجالاً ونساء فى دائرة الإسلام المنجية وبناء على هذا ترك مصعب بن عمير القرى المذكورة وانتقل إلى دار أسعد بن زرارة رضى الله عنهما منزل الهداية وظل هناك حتى أسلم جميع قبائل الأنصار.

وفى الوقت الذى دخل فيه بنو عبد الأشهل إلى دائرة الإسلام المنجية باغت أفراد بنى النجار دار أسعد بن زرارة (رضى الله عنه) وأخرجوا منها مصعب بن عمير، وهكذا أرادوا أن يزعجوا ويقلقوا مصعب بارتكاب هذه الشرور، إلا أن سعد بن معاذ أخذه تحت حمايته حيث ظل إلى أن أسلم صناديد القبائل مثل عمرو بن الجموح وإلى أن كسروا أوثانهم وأهانوها وأصبح مصعب وهو فى حماية سعد بن معاذ مشعلاً مُنيرًا يهدى إلى طريق النجاة والسلامة وفى هذه الفترة دخل الأنصار الكرام كلهم فى حصن الإيمان المتين وظلوا ينتظرون الهجرة النبوية.

وقبل الهجرة النبوية المشحونة بالبركة أسلم قبائل الأنصار كلهم وكسروا أصنامهم وزاد عددهم بالنسبة لليهود، كما أنهم اكتسبوا شرفًا من الناحية الأخلاقية والتقاليد والمدنية وانتظموا وأصبحوا يعدون من أعيان أهالى أرض يثرب عامة وأشرافها إلا أن القبائل التى كانت تحت إدارة الشاعر «أبو قيس بن صيفىّ ابن الأصلت» ترددت فى قبول الدين المبين دين الإسلام وتلك القبائل هى : «بنو أمية بن زيد، وبنو خَطْمَة، وبنو وائل، وبنو واقد[1] «وظل أفرادها على دينهم القديم قرب وقائع بدر، أحد، والخندق» وذلك لعدم تخلى الشاعر المذكور عن ذم الدين الحنيف الأحمدى وتقبيحه، ولوم الذين أرادوا أن يسلموا وتوبيخهم.

(١) وفى ابن هشام «واقف»، وهنا «وافق»، وفى الدرر لابن عبد البر «واقد».

حكمة

إن إسلام الخزرج قبل قبائل الأوس يعود إلى أن الجدة الثانية لفخر الكائنات عليه أكمل التحيات سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن تيم بن النجار بن ثعلبة بن عمرو، وكانت من بنى النجار، من شعبة الخزرج إذ كانت علة القرابة سببًا فى السبق فى البيعة.

سبب كون النبى ﷺ أنصاريًا من الخزرج:

إن هاشم بن عبد مناف الذى نقل أسباب قرابة النبى ﷺ إلى القبائل الخزرجية والذى كان يسحر العالم بجماله الذى لا نظير له كما يقول المؤرخون إنه كان صاحب شهامة ومروءة لذلك عرف بـ «عمرو العلى» وكان قد مر بيثرب حينما كان ذاهبًا إلى الشام للتجارة وبنية التزوج من سلمى بنت عمرو النجارى بناء على الحكمة التى فى الرؤيا التى رآها والتى ذكرت فى الصورة السادسة من الوجهة الرابعة، ورأى بالصدفة سلمى وتعلق قلبه بجمالها الساحر ورائحة وجهها مثل السنبل وقال إنه يريد أن يتزوجها، كما أن سلمى حينما رأت جمال هاشم بن عبد مناف مثل البدر ولاسيما عندما رأت اللمعان الذى على جبينه لنور سيد البشر وعلمت أنه سيكون من أجداد النبى ﷺ.

وحينما أحست ذلك وأدركته؛ أومأت عارضة أن درة هذه الصلة الغالية ستكون موجب فخرها ومباهاتها إذ سيكون رَحِمُهَا صَدَفَةً لتلك الدرة الغالية، وبناء على رضا الطرفين أجرى عقد النكاح بشرط، إذا ما حبلت أن تضع حملها بين أقاربها.

لما كانت سلمى تعرف علم اليقين أن زوجها السابق أحيحة بن الجلاح سيطلقها كما ذكر آنفًا بالتفصيل ومع ذلك أخبرت الخزرج بالليلة التى سيباغت الأوس الخزرج ومن هنا اكتسبت إعجاب قومها بها وخيرت، مكافأة لها فى اختيار زوجها ولما كان هذا الخيار خلاف الأصول المرعية فى القبائل وعاداتها فلم يحدث مثل هذا لأية واحدة جميلة من بكارى كبار العرب.

ووفق ابن عبد مناف فى عقد النكاح وفق الدستور المسطور وسافر إلى الشام قبل الدخول بها وبعد مدة عاد إلى يثرب وزف إليها وأخذها إلى مكة المكرمة وحينما اقتربت ولادة عبد المطلب أخذها إلى يثرب حيث الاتفاق وسافر لأجل التجارة إلى الشام وارتحل إلى دار البقاء، فى بلدة غزة المشهورة وبما أن سلمى ولدت بعد فترة جد النبى الأول عبد المطلب ومن هنا أصبح النبى ﷺ أنصاريًا خزرجيًا من جهة جدته سلمى وأصبح من جهة أبيه عبد الله بن عبد المطلب قرشيًا هاشميًا مهاجرًا.

وعلى هذا التقدير فجناب سلمى الثانية من جدات النبى ﷺ وعمرو بن أحيحة أخو عبد المطلب لأمه كما أنه عم والد النبى ﷺ عبد الله من جهة والدته.

فى هجرة النبى ﷺ إلى دار الأمن المدينة المنورة.

بعد أن أدخل - بتوفيق الله وإرادته - مصعب بن عمير كما ذكر فى الصورة السابقة كافة قبائل الأنصار إلى الإسلام ذهب إلى مكة المكرمة فى السنة الثالثة والخمسين من ولادة النبى ﷺ ومعه خمسة وسبعون نفرًا من أهل المدينة والتقى بسلطان الرسل عليه صلوات الله فى اليوم الثانى من أيام التشريق من السنة المذكورة فى شعب عقبة وأسرع بتقديم من فى رفقته إلى النبى ﷺ بصورة عظيمة. وعقد البيعة[1] بناء على طلب رفقائه بشروط خاصة وذلك عندما يشرف النبى ﷺ بأنواره البهية المدينة المنورة أن يحموه مما يحمون منه أولادهم وعيالهم من الحادثات الكونية وأنهم سيبذلون له عونهم حتى إذا حاربوا فى سبيل ذلك ملوك العرب والعجم.

وعقب البيعة - التى شرحت - مد النبى ﷺ يده التى أظهرت المعجزات فبادر بمد يده أولاً أبو أمامة أسعد بن زرارة وعلى قول أبو الهيثم بن التيهان وعلى رواية أخرى براء بن معرور وقبل جميع الناس وعقدوا البيعة سبعين شخصًا أو ثلاثة وسبعين رجلاً شهمًا وامرأتين طاهرتى الذيل.

وكان أحد عشر منهم من القبائل الأوسية واثنين وستين منهم من خلفاء الخزرج الأربع وكانت إحدى النساء من سلالة بنى مازن وهى أم عمارة بنت كعب والأخرى أسماء بنت عمرو بن عدى التى ينتهى نسبها إلى بنى سلمة.

واختار النبى الأكرم عقب البيعة اثنى عشر رجلاً من رؤساء القبائل ثلاثة منهم من الأوس وتسعة منهم من الخزرج وقال لهم: «كما كفل حواريو عيسى الأقوام

(١) وهى بيعة العقبة الثالثة: انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٨١ تاريخ الطبرى ٢/ ٣٦٠ ابن سعد ١/ ١/ ١٤٨، والدُّرر لابن عبد البر ص ٧٠ - ٧١

الذين ينتسبون إليهم فيجب عليكم أن تكونوا كفلاء لأفراد قبيلتكم، وأخذ من كل واحد منهم إجابة تضمن كفالتهم فى أماكن مختلفة ثم فوق مجلس البيعة»، وبما أن تلك البيعة عقدت فى ظلام الليل حتى تخفى على قريش؛ إلا أن شيطانًا اسمه «ابن أزب العقبة» نادى قائلاً: «يا معشر قريش! فليكن فى علمكم أن حجاج المدينة أسرعت بعرض البيعة على ابن أخى أبى طالب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وبهذا هيئوا أسباب إشعال كانون الحرب معكم». وهكذا أعلن الأمر إلى مشركى مكة وأثار فى قلوب صناديد قريش الخوف والقلق وبناء على هذا ذهب بعض القرشيين صباحًا إلى خيام قافلة المدينة وقالوا: «يا رؤساء الأوس والخزرج إنه من المحقق عدم حدوث ما يعكر الصفو بيننا من آثار الخصومة والعداوة إلى الآن؛ إلا أنه قد انتشرت شائعة أنكم عرضتم بيعتكم على محمد ﷺ لتحاربونا؛ وإذا كانت هذه الأحداث صحيحة فإننا مستعدون دائمًا وفى كل آن لمحاربتكم ومقابلتكم!» وهكذا أسرعوا فى استيضاح الأمر ولم يستطيعوا أن يتخذوا أى خبر عن هذا الموضوع من مشركى المدينة وعادوا وقد أخذوا ردًا أن مثل هذا الاتفاق لم يتم.

وكان أحد الذين تصدى للإجابة فى الموضوع الذى يريده المكيون من أهل المدينة عبد الله بن أُبَىّ إذ قال: «يا معاشر قريش! إن ما تقولونه من القول إذا كان صحيحًا يحتاج إلى قوة كبيرة ومن الواضح أننا لا نملك تلك القدرة؛ فلم نقم مثل هذه البيعة وكما أننا لم نعلم شيئا عن هذه البيعة!! إذا كان لنا علم فى هذا الأمر فلنحترق فى نار اللات والعزى!!».

وقد نال الأنصار الكرام شرف المثول بين يدى سيد الأنام مرة ثانية ورجوا من النبى ﷺ تشريف المدينة المنورة، ولكن بما أن سيد الأبرار ـ عليه السلام ـ لم يرخص له بعد بالهجرة تحدث معهم على هذا المنهج: «إننى لم أتلق بعد الأمر الإلهى بالنسبة للهجرة إلا إننى أستطيع أن آذن بهجرة أصحابى وهكذا أفهمهم أن هجرته متوقعة على الوحى الإلهى ولكنه أذن بهجرة الأصحاب الكرام إلى المدينة المنورة، وبناء على هذا أسرع الأصحاب الكرام الذين يرغبون فى الهجرة إلى أرض يثرب ابتداء من بعد العودة من عرفات فى السنة المذكورة.

وكان أول الأصحاب الكرام الذين هاجروا إلى مكة زوج أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، وكان هذا الشخص قد هاجر إلى الحبشة قبل بيعة العقبة بعام وعرف أن الأنصار السابقين قد أسلموا فعاد إلى مكة إلا أن مشركى قريش أزعجوه ولذا استفاد من الإذن النبوى فهاجر إلى مدينة الرسول ﷺ؛ وهاجر بعد أبى سلمة: عامر بن ربيعة وزوجته ليلى وعبد الله بن جحش وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وعمر بن الخطاب وأخوه زيد، وعقب ذلك طلحة وصهيب وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنهم ـ وتركوا مكة المكرمة وهاجروا إلى قرى المدينة المنورة ونصب كل واحد منهم خيمة فى موقع حيث أقام واستقر.

واختار الأصحاب الكرام الذين أخذوا الإذن بالهجرة بعد أن أوصوا بكتمان هجرتهم عن مشركى مكة المكرمة وإخفاء السفر والهجرة إلى المدينة المنورة قرب حلول العام الرابع والخمسين للولادة النبوية. قد انهمك الأصحاب الكرام بأمر الهجرة بدرجة عظيمة إذ لم يبق فى مكة المكرمة فى أوائل السنة المذكورة أحد من أصحاب الرسول ﷺ غير الصديق الأكبر وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما.

وقد استولى على مشركى مكة الخوف والقلق نتيجة لترك الأصحاب الكرام مكة المكرمة وأصبحت نفوسهم السوداء المكروهة مضطربة كأنها ديست بسنابك الخيل، وفى النهاية عقدوا مؤتمر الفساد وقالوا: «إذا هاجر محمد ـ عليه سلام الله الأحد ـ إلى يثرب واتفق مع أهلها فلا تكون نتيجته خيراً فى حقنا». وبناء على هذا الرأى أغلقوا باب الندوة على أنفسهم وأخذوا يذاكرون هذا الأمر العسير لعلهم يجدون حلاً له.

ولم يقبل التهاميون الذين كانوا فرقة سيد الأبرار المخلصين فى مجلس شياطين الإنس هذا وقد دخل الإبليس اللعين فى شكل أبى مرة الشيخ النجدى الذى كان معروفًا لدى المشركين ووجد فى دائرة دار الندوة، وبعد مباحثات طويلة ومذاكرات كثيرة قرروا بناء على رأى أبى جهل وتصديق الشيخ النجدى القضاء

على ورد البساتين، واستصوبوا على أن يقطع الرسول ﷺ فى ليلة من الليالى وهو نائم وذلك بواسطة بعض الملاعين البدائيين الذين سيحيطون دار النبى ﷺ من جهاتها الأربع، وعقب هذا القرار نزل جبريل الأمين باسطًا أجنحته للنبى ﷺ وعرض عليه قرار هيئة الندوة وأفهمه أن وقت الهجرة إلى دار السكينة قد حان، عندئذ قرر النبى ﷺ أن يهاجر بعد أن يسلم الأمانات التى لديه إلى أصحابها.

فجعل على ينام على فراشه وأمنه من مكائد أعداء الدين، ونام ذلك البطل ذو قلب الأسد فى فراش الرسول ﷺ بائعًا نفسه لله ـ سبحانه وتعالى ـ ليحمى نفس النبى ﷺ النفيسة مستجيبًا لإرادة رسول الله ﷺ والتف ببردة رسول الله ﷺ الخضراء وراح فى نوم دون فتور، وأول من ضحى بنفسه فى سبيل إنقاذ حياة الرسول ﷺ من الأصحاب الكرام هو على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وتتضمن أبياته الآتية تلك النكتة اللطيفة.

عربى

وقيت بنفسى خير من وطئ الحصا
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول الخلق إذ مكروا به
فنجاه ذو الطول الكريم من المكر
وبت أراعيهم متى ينشرونني
وقد وطنت نفسى على القتل والأسر
وبات رسول الله فى الغار آمنا
موقى وفى حفظ الإله وفى ستر

رواية

حتى الملائكة قد استحسنوا تضحية على بن أبى طالب هذه! إذ يقول الإمام الغزالى فى إحياء العلوم: «قد أوحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لجبريل وميكائيل ـ

عليهما السلام ـ فى الليلة التى نام فيها على بن أبى طالب على فراش النبى ﷺ» وقال لهما «فإذا ما جعلتكم إخوة وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأى واحد منكم كان يريد أن يكون عمره أطول من عمر أخيه؟»، عندئذ قال الله تعالى «إننى جعلت عليًا أخا لحبيبى، قد ضحى على الليلة بعمره لأجل أخيه وقدم موته على حياة أخيه، لماذا لم تصلا إلى درجته فى كمال الأخوة؟ مادامت فضيلة هذه تفوق فضيلتكم، اذهبا الليلة واحفظاه من أعدائه واحمياه».

وبناء على هذا الأمر الإلهى وقف جبريل أمام رأسه كما وقف ميكائيل أمام قدميه وشغلا بحفظه، حتى إن جبريل ـ عليه السلام ـ يهنئ تضحية على هذه قائلاً: «يا أيها السعيد ابن أبى طالب، إن الله تفاخر بك على ملائكته».

وقد اجتمع فى تلك الليلة بعد أن أظلم الجو أبو جهل وأبو لهب، أبى بن خلف وبنيه، منية ابن حجاج، النضر بن الحارث، عقبة بى أبى معيط، الحكم بن العاص، طلحة بن عدى من قبل هيئة دار الندوة.

وبعض الملاعين من سائر أقوام العرب وتحت قيادة بعضهم اجتمعوا لينفذوا الفكرة المستحيلة وهى إعدام حبيب العلام وحاشا وتوجهوا نحو منزل سلطان الأنبياء، ليقوموا بإجراء ما فى ضمائرهم من الفكرة الخبيثة، وأحاطوا ببيت النبى ﷺ من جميع جهاته حتى لا يفلت من أيديهم وحرسوه حتى الصباح متناوبين، وكان ترك إجراء هذا الأمر دسيسة مدبرة من أبى لهب حتى يعلم أبطال بنى عبد المطلب وشجعان بنى هاشم أن العرب متفقون فى إجراء هذا الأمر، مع أن سلطان بلاد الرسالة (عليه أقوى التحية) خرج بكل وقار وإجلال من بيته فاتحًا بابه مع أنه محاط بملاعين المشركين، وأخذ من الأرض حفنة من التراب وقرأ عليه سورة يس الجليلة ونثره فوق أذلة المشركين المحتشدين وخرج من بينهم كالروح السائرة وذهب إلى بيت الصديق الأكبر السعيد.

إن التراب المنثور فوق الكفار المحتقرين الذين يحيطون بدار النبى ذات الفيوضات الباهرة قد أعمى عيونهم بحكمة الله ـ تعالى ـ ولم يروا النبى ﷺ وكل من أصابه هذا التراب قد أصبحوا هدفًا للمرض والموت.

وكان الصديق الأكبر فى انتظار الهجرة[1] من مدة طويلة وقدم أحد الجملين اللذين يملكهما إلى قائد القوافل (عليه أقوى التحايا) بثمانمائة درهم.

كما نبه الدليل وعرفه أن يتواجد فى جبل الثور وهو عبد الله بن أريقط أو عبد الله بن أريقد من رجال قبيلة «دؤل» بعد ثلاثة أيام وخرج فى رفقة النبى ﷺ إلى الطريق ودخلا فى غار الثور خامس يوم الاثنين لبيعة الأنصار الأخيرة.

بعد أن ظل قائد جيش الأنبياء عليه سلام الله الأعلى فى غار الثور ثلاثة أيام توجه إلى المدينة المنورة يوم الاثنين[2] الأول من شهر ربيع الأول وظهرت على يديه معجزات كثيرة فى أثناء الطريق.

وانحرفا عن الطريق المعهود الشهير سارا على شاطئ أرض عسفان مدة مديدة وفى النهاية وجهوا مطاياهم ناحية وادى القديد وبعد أن قطعوا مسافة قليلة فمروا بخيمة «أم معبد» الخزاعية التى كانت منصوبة فى ذلك الوادى.

كانت طائفة الجن أخبرت أهل مكة بنزول محمد ﷺ ضيفًا على أم معبد، إذ يروى عن أسماء بنت أبى بكر بن قحافة ـ رضى الله عنهما ـ أنها قالت: «عندما خرج النبى ﷺ من مكة المكرمة لم نستطع أن نحدد خط سيره»، وأتى إلى منزلنا عدة أشخاص من المشركين الذين يبحثون عنه ـ عليه السلام ـ ومعهم أبو جهل وسألونى عن والدى، وقد أجبناهم قائلين «والله إننا أيضًا لم نعرف بعد مكان وجودهم» فصفعنى أبو جهل على وجهى صفعة عندما تلقى منى هذه الإجابة وكانت صفعة الخبيث شديدة بدرجة أنها أوقعت قرطى من أذنى، ثم تلا أحد الأشخاص البيت الذى يقول:

جـزى الله رب النـاس خيـر جـزائـه
رفيقـين حـلا خيمتـى أم معبـد

وإذ سمع صوت قائل البيت المذكور ولم ير شخصه قد فهمنا أن القائل من طائفة الجن كما فهمنا من مدلول البيت السابق أن الرسول الأكرم فى خيمة أم معبد.

(١) انظر فى حديث الهجرة: الطبرى ٢/ ٣٧٥، ابن هشام ٢/ ١٢٣ وابن سعد ١/ ١/ ١٥٣، والدرر ص ٨٠ وما بعدها.

(٢) هناك من يقول أنه كان يوم الخميس.

إخطار

إن العجائب والأمور الخارقة للعادة التى ظهرت من صاحب المعجزات فى خيمة أم معبد غير قابل للتعريف والتفصيل ولا داعى لذكرها هنا لأن أكثرها قد ذكرت وحكيت فى كتب السير، إلا أننا رأينا لزوم ذكر المعجزة الآتية المنقولة عن هند بنت الجون لأنها غير مذكورة فى كتب السير التركية.

المعجزة

قالت هند بنت الجون: «إن الرسول الأكرم ﷺ غسل يدى إعجازه الشريفتين فى خيمة خالتى أم معبد ثم تمضمض ثم نثر المياه التى ملأ بها فمه المبارك بجانب جذور شجرة العوسج[1] التى فى خارج الخيمة؛ ولما خرج الرسول الكريم من الخيمة وآن وقت الليل نمنا كالعادة.

ولما أصبح الصبح رأينا أن العوسج قد أصبح شجرة كبيرة مثمرة وعليها ثمار فى لون «الورس» وفى حلاوة العسل ذات رائحة طيبة، ولما ثبت بالتجربة أن الذين يأكلون من ثمار هذه الشجرة يشبعون إذا كانوا جائعين ويرتوون إذا كانوا عطشى ويشفون إذا كانوا مرضى، والنياق والنعاج التى تأكل أوراقها تدر لبنًا كثيرًا ومن هنا أطلقنا عليها اسم المباركة، ولما انتشرت هذه المعجزة بين عربان البادية فإذا ما كان فى أية قبيلة أصحاب الأمراض المزمنة كانوا يأتون لزيارة الشجرة ويأكلون من ثمارها فيشفون من أمراضهم، وبعد خمسة أو عشرة أعوام سقطت جميع ثمار الشجرة وذبلت أوراقها وعقب ذلك تلقينا خبر ارتحال الرسول ﷺ عن دنيانا، وبعد فترة نمت الشجرة وكبرت وأدمت كذلك ما يقرب من ثلاثين عامًا، فرأينا فى صباح يوم ما أن ثمارها سقطت وتحولت من أسفلها إلى أعلاها إلى شجرة الشوك، وذهبت عنها نضارتها واصفرت وإذا بعلى بن أبى طالب كان قد ارتحل عن دنيانا.

وبعد هذه الواقعة لم تثمر شجرة العوسج إلا أننا كنا نستفيد من أوراقها، وبعد

(١) هى شجرة شائكة إذا تناول أوراقها الجمال أصابها المرض.

مرور فترة من الزمن رأينا فى ليلة ما أن الدماء الغليظة تنبع من فروعها وذبلت أوراقها وسقط كلها، وهذا علامة شر ومن هنا أخذنا نستطلع الأحوال وننصت للأخبار فعرفنا بعد فترة استشهاد الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وبعد هذه الحادثة لم تفلح شجرة العوسج وقد جفت هذه الشجرة من بعد ذلك من جذورها وانمحت.

(ربيع الأبرار للزمخشرى).

إن أم معبد بنت خالد الخزاعى من الأصحاب الكرام وزوجة أبى معبد الخزاعى وهى الصحابية «عاتكة الخزاعية».

وجاء بعد نهضة النبى ﷺ وخروجه من الخيمة زوج عاتكة أبو معبد ورأى فى داخل الخيمة كثيرًا من اللبن وهذا غير مأمول فقال متحيرًا: «يا أم معبد! ما سبب كثرة هذا اللبن مع أن أغنامنا فى مراعى بعيدة، وكلها خالية من الحمل ولا نملك حيوانًا يدر اللبن؟!»، ولما عَرفت أم معبد زوجها بما وقع وما يتصف به رسول الله ﷺ من شمائل ممتازة بعبارات بليغة فصيحة بالتفصيل أصبح أبو معبد عاشق محبوب الصمد غيابيًا وبعد مدة أسلم مع زوجته ونال شرف الصحبة، رضى الله عنهما.

ولما بحث مشركو قريش عن النبى ﷺ ولم يجدوه استولى عليهم اليأس والحرمان والحيرة ولم يدروا ماذا يفعلون، عندئذ أنشد الهاتف الغائب من فوق جبل أبى قبيس هذا البيت.

فـإن يسـلم السـعدان يصبح محمـد

مـن الأمـن لا يخشـى خـلاف المخـالف

وقالوا عندما استمعوه؛ ليتنا نعرف من هو سعد هذا، فألقى لمشركى قريش هذين البيتين وبهذا أفهمهم أن ملك خطة الرسالة ـ عليه أكمل التحية ـ قد شرف المدينة المنورة.

أيـا سـعد سـعد الأوس كـن أنت مانعًـا

ويـا سـعد سـعد الخزرجـين الغـطارف

أجيبـا إلـى داعـى الهـدى تَمَنَّيَـا

مـن الله فـى الفـردوس زلفـة عـارف

وكان طلحة أو الزبير بن العوام - رضى الله عنهما - من أهالى مكة عائدين من الشام فى تلك الآونة، وقد تلاقى بقائد جماعة الأصفياء - عليه سلام الله الأعلى - فى مكان بين الحرمين فعرض عليه عددين من الخرقة الشامية البيضاء علامة للإخلاص والمخادنة ورجاه أن يتفضل بقبولهما.

وقبل سيد الأتقياء (عليه أزكى التحية) هاتين الخرقتين من ذلك الشخص قصد تلطيفه فلبس إحداهما وألبس الأخرى لجناب الصديق واستمرا فى طريقهما.

عندما وصل خبر قيام النبى ﷺ إلى أهالى المدينة المنورة غشيهم بحر من الفرح والسرور - المهاجرين والأنصار - وكانوا يذهبون إلى مكان يسمى «حرة واقم» وضيعهم وشريفهم كل صباح حتى ينالوا قصب السبق وهم متجهون لتلك القبلة التى تبشر بالمستقبل السعيد إلا أنهم كانوا يعودون وقت الزوال غير متحملين حرارة الشمس الشديدة.

وفى يوم الاثنين من أول ربيع الأول أو الثانى عشر منه من السنة الهجرية الأولى كانوا قد خرجوا أيضًا لإجراء مراسم الاستقبال إلى الحرة المذكورة عند حلول وقت الزوال.

ورأى أحد اليهود الذين ظلوا خارج المدينة المنورة بغتة الموكب النبوى وبدلاً من أن يقول: «يا معشر الكرام! قد شرف الشخص الذى أجلتم أبصاركم مدة مديدة منتظرين وصوله السعيد»، قال على طريق التنظيم «هذا جدكم» يعنى ظل بمجرد الصدفة ذلك اليهودى المذكور خارج المدينة وبينما يرسل نظراته المتجسسة إلى الأطراف والأكناف إذا به يرى فى طريق مكة عدة أشخاص بملابس بيضاء قد

ظهروا منيرين الطريق وحينما أدرك أن الذى شرف النبى ورفيقه لم يمتلك صبره وصاح قائلاً: يا بنى قَيْلَة[1] هذا جدكم».

إن أخيار الأنصار وهم أفراد قبائل الأوس والخزرج قد سروا من الخبر الذى يجلب الصفاء والذى ينشره اليهودى بسرعة فتسلح جميعهم وامتطوا جيادهم حتى يكونوا فى شرف استقبال الركب المحمدى الذى يرسل أنواره كنور القمر وذهبوا إلى الحرة المذكورة من قبل وبعد أن نال كل واحد منهم شرف تقبيل قدم حبيب رب العزة قدم أهل المدينة الذين وصلوا واحدًا تلو الآخر بإيراد خطب مناسبة، وقد أظهر المستعدون لقبول الإيمان الفرح والسرور وخرجوا خارج المدينة كما أن اليهود والمشركين قد خرجوا خارج المدينة مغتاظين متنفرين حتى خلت دار الهجرة فى ذلك اليوم المنير من الناس.

وأحنى الأنصار البررة جباههم لتراب أقدام سيد الكونين وعرضوا على رَيَاحِيْنَ إخلاصهم وطاعتهم وأظهر كل واحد منهم فرحته وسروره على طريقته، وأنشد من كان شاعرًا فيهم ولاسيما الذين سروا من مقام سيدنا محمد فيهم قصائد مدح ممتازة للنبى ﷺ، فسر النبى ﷺ من هذه الحالة وتحرك فرحًا مسروراً وإذ رأى موحدى أرض يثرب عامة حالة الفرحة والصفاء التى سادت الموقف أخذ كل واحد منهم يأتى بحركة تدل على عدم المبالاة إلا أنها كانت فى حدود الأدب، وفى الواقع فإن تلك الساعة كانت من أجل أهل المدينة المحظوظين كانت ساعة من مسرة خاصة بهم حتى إن سكان الملأ الأعلى قد خرجوا لمشاهدتها ونشرت الشمس وأرسلت أضواء الفرحة والمباهاة فوق أهل يثرب، وحينما تحرك الموكب النبوى من موقع الحَرَّة، تقدمه أبطال الأوس والخزرج وقاموا بمهمة الدلالة، ووصل الذات النبوى العالى إلى منازل بنى عمرو بن عوف، ونزل فى ظل نخلة وقام من هناك ليضع ظله الجليل فى منزل «كلثوم بن هِدْم» من العرب المعروفين أو فى منزل «طاهر بن يحيى» فى القرب من بئر غرس، وكان يقول للصحابة الذين يرجونه أن يشرف منازلهم «إننى سأذهب إلى منازل بنى النجار

(١) هم الأنصار؛ وقيلة اسم جَدَّةٍ كانت لهم.

أخوال جدى عبد المطلب حتى أجاملهم» وكان ذلك اليوم السعيد يوم الاثنين من شهر ربيع الأول والثانى عشر من شهر أيلول من يوم انتصار الإسكندر فى سنة ٩٣٣ وكان فى وقت الظهر عند اشتداد الحرارة وكان قد مر منذ أن خرج من غار ثور إلى وصوله إلى قرية «قباء» ودخوله فيها اثنا عشر يوما.

بناء على هذا التقدير أنهم وصلوا إلى المدينة المنورة فى اليوم الخامس عشر منذ خروجهم من مكة المكرمة. لأنهم دخلوا فى غار ثور يوم الاثنين وخرجوا منه بعد ثلاثة أيام وظلوا فى الطريق اثنى عشر يوما، إن هذه الرواية باعتبار دخول سرور الموجودات (عليه أفضل التحيات) فى داخل المدينة! إذ قطعوا المسافة التى بين غار ثور والمدينة المنورة فى تسعة أيام، لأنهم كانوا قد وصلوا إلى قرية «قباء» قبل انتقالهم إلى المدينة المنورة بثلاثة أيام، بناء على هذا الحساب قد تفضلوا بالإقامة فى قرية «قباء» ثلاثة أيام. ومع هذا قال بعض المؤرخين أنه ظل فى قرية قباء أحد عشر يومًا أو واحدًا وعشرين يومًا وقال ابن مالك ظل فى قباء أربعة عشر يوما وقول حضرة أنس يرجح على الأقوال الأخرى.

تصادف غريب ـ سئل أعلم الأنبياء ـ عليه أجمل التحايا ـ ما الحكمة من استمراركم فى صوم يوم الاثنين؟. فقال صاحب الرسالة: «إننى ولدت يوم الاثنين وأصبحت نبيًا يوم الاثنين» وهكذا بين أن يوم الاثنين من الأيام المباركة، وفى الواقع ذلك اليوم يوم منير مشحون بالسعادة، لأن باعث إيجاد العالم ﷺ ولد يوم الاثنين، ولبس عباءة الرسالة المزينة يوم الاثنين، كما أنه وضع الحجر الأسود فى مكانه يوم الاثنين عندما حرر القرشيون الكعبة المشرفة وأبعد النزاع بين القبائل. ووفق فى فتح مكة يوم الاثنين وشرف عالم العقبى يوم الاثنين، ونزلت سورة المائدة فى يوم الاثنين.

مسألة

وليست هناك شبهة أن يوم الاثنين من الأيام المباركة الشريفة، إلا أن أفضل الأيام وأكثرها بركة لدى العلماء أيام العشرة المباركة لذى الحجة، وقد اجتمعت

فى الأيام التى تكون فيها أمهات الطاعات والعبادات حتى إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أقسم بتلك الليالى إذ قال ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (سورة الفجر أية ٢)، إن الإمام القسطلانى قد قدم أيام ذى الحجة العشرة على أيام رمضان العشرة الأخيرة.

ويروى العلماء: كما أن هناك أيام فضلى لأيام الدنيا هناك أيام مباركة وفضلى لأيام الآخرة، وقالوا عن أفضل أيام الآخرة: هو اليوم الذى سيتجلى فيه خالق الكائنات ـ تعالى شأنه عن الرواية والإدراك ـ لأهل الجنة دون حجاب، رزقنا بلطفه وفضله.

قال أئمة الدين هناك ليالى فضلى مقابل الأيام الفضلى، قال بعض أئمة الشافعية إن أفضل الليالى هى ليلة اليوم الذى شرف فيه الرسول الأكرم الدنيا، وبعدها ليلة القدر، وبعدها ليلة الإسراء والمعراج، وبعدها ليلة عرفات وبعدها ليلة الجمعة، وبعدها ليلة نصف شعبان، وبعدها ليلة العيد، هذا ما أحصوه، كما فضل مؤلف «كتاب النهر» وأئمة أخرى ليلة «المزدلفة» على ليلة القدر ورجحوها. والله أعلم بالصواب. انتهى.

حينما جلس سلطان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ فى ظل النخلة قد اختار السكوت، ومن هنا ذهب الذين لم يروا النبى ﷺ من الأنصار من قبل، إلى أن أبا بكر هو نَبِىٌّ آخر الزمان؛ لأن الصديق الأكبر كان فى سن واجدة مع سيد البشر وغير هذا فهو كان يتحدث مع الأنصار الذين يأتون ويذهبون، إلى أن زال ظل النخلة واشتدت الحرارة تحت الشمس، فخلع الصديق الأعظم (رضى الله عنه الأكرم) خرقته التى أهداها له الزبير بن العوام فى أثناء الطريق وظلل بها على النبى ﷺ، فعرف أهل المدينة سيد الأنام من هذه الحركة وأخذوا يعظمونه ويحترمونه، وكان الخزرجيون يرغبون فى نزول النبى فى منازل الأوس، كما أن الأوسيين كانوا يودون نزول ـ النبى عليه السلام ـ فى دور الخزرج، وكان سبب ذلك وجود العداوة بين أبناء الأوس والخزرج.

وقتل أسعد بن زرارة فى واقعة «يوم بعاث» نبيل بن الحارث ومع ذلك بقدوم النبى الميمون تبدلت تلك العداوة فى تلك الساعة والحين إلى المودة والمحبة.

ظل الرسول الأكرم ـ عليه سلام الله الأعظم ـ فى منازل بنى عوف ما يقرب من أربع عشرة ليلة[1] وفى هذه الفترة أسس مسجد قباء وأخذ يصلى فى داخله مع أصحابه الكرام علنًا.

إن أول مسجد أسس فى الدولة الإسلامية الأبدية المعبد الذى طرح وبنى فى قرية قباء كما أن أول معبد شريف أقيمت فيه الصلاة علنًا هو ذلك المسجد الأقدس.

وبعد أن أتم سلطان الأنبياء بناء مسجد قباء ركب ناقته الخاصة وخرج إلى الطريق مستصحبًا بنى النجار وذلك ليشرف المدينة المنورة، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ولما وصل إلى قرية بنى سالم بن عوف حل وقت صلاة الجمعة فنزل مع مائة نفر الذين كانوا فى ركابه المستطاب فى وادى «ذى صلب» الكائن داخل وادى «رانونا» وأدوا الصلاة فى هذا الوادى بادى السعادة.

بما أن صلاة الجمعة قد أديت فى هذا الموقع من المدينة المنورة فقد أحيط ذلك الموقع بجدار منخفض وأطلق عليه مسجد الجمعة فيما بعد.

ولهذا المسجد اسم آخر هو «عبيب» ويقع فى الجهة اليمنى من الذين يذهبون إلى قباء.

وبعد أن أدى سيد الزاهدين ـ عليه سلام الله المعين ـ صلاة الجمعة امتطى ناقته واستمر فى طريقه. وبعد مرور وقت قصير وصل إلى المدينة المنورة ومر من أمام منازل أشراف المدينة المنورة الذين رجوه أن ينزل عندهم ولكنه استمر فى طريقه وفى أثناء ذلك كان يصيب باليأس الذين يمدون أيديهم إلى زمام ناقته القصواء حبًا فى نيل ضيافة النبى ﷺ إذ يقول: «إن زمام ناقتى مسلم ليد القدر

(١) هذه الرواية منقولة عن أنس بن مالك، وقال ابن زبالة أن صاحب الرسالة ظل فى منازل بنى عوف واحدًا وعشرين يومًا وفى بنى عروه أحد عشر يومًا.

لا تستطيع أن تتقدم خطوة من المكان الذى أمرت بأن تقف فيه، ولا تشغلوا أنفسكم ولا تتعبوها بغية ضيافتى واتركوا زمام ناقتى كما أمسك بزمام الناقة من سكان حى بنى سالم ومن أغنياء المدينة المنورة ورؤسائهم «عتبان بن مالك، ونوفل بن عبد الله بن مالك بن عجلان» و«عبادة بن الصَّامت بن نضلة» وقالوا: «يا رسول الله! بما أننا نفوق البطون الأخرى كثرة فى العدد ووفرة فى الغنى فنحن أقدر على رعايتكم» وطلبوا نزوله عندهم راجين إلا أن الرسول ﷺ أجاب قائلاً: «لا تتعرضوا لناقتى إذ إنها مأمورة من قبل الله تعرف مكان النزول».

وحينما وصل خطيب منبر الرسالة ـ عليه أكمل التحية ـ إلى مسجد بنى سالم، فألقى خطبة فى الأصحاب ذوى الاحترام الذين وجدوا فى ركاب النبى السلطانى ثم ركب راحلته وأمال زمامها إلى الجهة اليمنى من الطريق وكم كانت خطبته البليغة المعجبة فصيحة حتى إن سكان الملأ الأعلى صاحوا محسنين لها.

عندما وصل فى محاذاة منازل بنى حبلى أراد أن ينزل عند دار «عبد الله بن أبى»، إلا أنه أرخى عنان ناقته لعدم وجود صاحب الدار فى منزله وعندما وصل إلى محلات «سعد بن عبادة» وبنى ساعدة تلاقى مع «منذر بن عمرو» و«أبى دجانة» وفى الأمام مع «سعد بن الربيع» و«عبد الله ابن رواحة» و«بشر بن سعدة» وفى حى بنى بياضه مع «زياد بن وليد» و«فروة بن عمرو» و«عدى بن النجار» وإن كان هؤلاء أيضًا أرادوا أن يستضيفوه إلا أنهم تلقوا نفس الإجابة التى سبق ذكرها.

وأراد جمهور المؤرخين أن يثبتوا أن الضيافة قد عرضت على النبى ﷺ أولاً من بنى بياضة وبعدهم من بنى سالم وعقب ذلك من بنى عدى بن النجار إلا أن ابن إسحاق قال إنه قد عرض عليه ﷺ النزول أولاً من بنى سالم ثم بنى بياضه وبعدها من بنى الحارث وفى النهاية من بنى النجار. وكلما كان النبى يركب البراق ـ عليه صلوات الله الرزاق ـ يجيب الذين يرجونه النزول عندهم الإجابة سالفة الذكر كانت الناقة كريمة الأطوار تنظر يمينًا ويسارًا، ونهاية الأمر بركت أمام بئر جمل وعندئذ أحاط به أبطال بنى النجار وأخذوا يزورون النبى ﷺ.

وبعد أن وقفت الناقة عريقة الأصل أمام بئر «جمل» قليلاً، قامت وسارت وبركت أمام باب دار أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ الذى كان فى اتصال منزلى ابن عائذ وسعيد بن منصور، وبعد عدة دقائق قامت لتبرك مكان المنبر الحالى لمسجد السعادة وأخرجت صوتًا خاصًا بالنياق ومدت رقبتها عندئذ ترجل النبى ﷺ قائلاً: «هذا المنزل إن شاء الله»، وبناء على إذن الرسول ﷺ أخذه أبو أيوب الأنصارى إلى داره وقد ساعده زيد بن حارثة على حمل ملابسه عليه السلام ـ وأشياءه الخاصة.

عندما بركت ناقة النبى ﷺ أمام باب دار أبى أيوب الأنصارى خرجت جوارى بنى النجار فى الشوارع أخذن فى إنشاد.

نحن جوار من بنى النجار

يا حبذا محمد من جار

ويضربن الدفوف[1] وأخذن فى إظهار سرورهن وقال ذلك النبى محبوب العالم ﷺ لهن هل تحببننى؟ فقلن: «نعم وإننا نعلن عن سرورنا بهذه الطريقة» فقال: «ثلاث مرات أقسم بالله وإننى أحبكن» وعلى رواية «يعلم الله إننى أيضًا أحبكن» وزاد سرورهن بهذه الالتفاتة النبوية الكريمة فزدن فى إظهار علامات الفرح والابتهاج.

وقد زاد فرح وابتهاج أهالى دار الهجرة الكرام فى ذلك اليوم وقد تحولت دار القرار المدينة المنورة فى ذلك اليوم إلى منزل عرس وخرجت نساء الخدور إلى الشوارع وهن ينشدن:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

(١) حينما مر بنو إسرائيل من بحر فرعون كانت أخت موسى «كلثوم» أيضًا قد غنت وهى تضرب الدف للإعلان عن سرورها.

أيهـــــا المبعـــــوث فينـــــا
جئـــت بالأمـــــر المطـــــاع
جئـــــت شـــــرفت المدينـــــة
مرحبًـــــا يـــــا خيـــــر داع

كما أن بعضهم أظهروا علامات سرورهم قائلين.

أشـــرق البـــــــدر علينـــا
واختفـــت منـــــه البـــــدور
مثـــلك مـــــا رأينـــــا
قـــــط يـــا وجـــه الســـرور

لم يستطع سكان دار السكينة فى ذلك اليوم أن يتمالكوا حرية إرادتهم وأخذوا يظهرون فرحهم وسرورهم على طريقتهم ولاسيما الأطفال كانوا يهنئ بعضهم البعض ببشرى «جاء محمد رسول الله»، ولما لم ير كل الناس من شدة الازدحام صاحب الرسالة وجماله النبوى صعدوا فوق أسطح المنازل وأخذ يسأل بعضهم بعضًا، هذا هو محمد؟ هذا هو رسول الله.

لما كانت ثنية الوداع مكانًا فى الطرف الشامى من المدينة المنورة ذهب بعض المؤرخين إلى أن النبى ﷺ قد شرف المدينة المنورة من ناحية الشام؛ إلا أنهم مخطئون فى ذهابهم هذا؛ وفى الواقع وإن كانت ثنية الوداع فى ناحية الشام؛ إلا أن كل ثنية يودع فيها الناس بعضهم تسمى «ثنية الوداع» ومن هنا ففى المدينة عدة ثنيات للوداع، وليس هناك شك فى أن النبى ﷺ قد شرف مقبلاً من ناحية مكة المكرمة حتى إن مصراع «من ثنيات الوداع» يدل على أن المدينة المنورة عدة ثنيات.

إن منزل أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ السعيد كان قصرًا يجذب القلوب بناه تبع الحميرى لملك العالم ـ ﷺ ـ قبل وقوع الهجرة النبوية النافعة قبل سبعمائة سنة كما ذكر فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة لمرآة مكة.

وفى أثناء انتقاله من يد لآخر أخذ كل واحد من ملاكه يضيف إليه زينة حتى وصل إلى يد خالد بن زيد وتحت تصرفه وبناء على هذا التقدير قد شرف سيد العرب والعجم المنزل الذى أسس وطرح من أجله منذ سبعمائة عام.

وكانت منازل بنى النجار فى ذلك العصر فى غاية المتانة بالنسبة لمنازل الأنصار، والمكان الذى بركت فيه الناقة وهى ترعى هو الساحة التى بنى فيها فيما بعد المسجد النبوى الشريف.

وكانت ساحة مسجد السعادة فى مائة ذراع طولاً وعرضًا وكان مكانًا مخصصًا لتجفيف البلح وكان يمتلكها يتيمان وسيمان ابنا رافع بن عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك ابن النجار واللذان تربيا فى حجر معاذ بن عفراء وعلى قول، أسعد بن زرارة وكان معاذ خال عبد المطلب بن هاشم، لأن كل واحد من أهل المدينة فى تلك الأوقات له ساحة لتجفيف البلح قدر حاله، وقد اشترى النبى ﷺ هذه الساحة بعشر قطع ذهبية وطرح عليها مسجده الشريف وأسسه.

قد امتلك منزل أبى أيوب الأنصارى عبدة بن أفلح وباعه فيما بعد لمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف قطعة ذهبية، وقد اشتراه بعد مدة الملك المظفر ابن أيوب بن شادى وهدمه وبنى على ساحته مدرسة مكتملة خاصة بعلماء المذاهب الأربعة وجعل فى داخلها مكتبة ووقف لها كتبًا كثيرة نفيسة متنوعة.

كما أوقف مشروطًا لتلك المدرسة والمكتبة بعض البساتين فى المدينة وعقارات متعددة فى الشام، كما اشترى كثيرًا من الدكاكين والأراضى فى بلده وأوقفها، ولكن لشدة الأسف! أن تقلبات الزمان قد محت ولم تترك اسمًا ولا ذكرًا لهذه الأشياء سواء أكانت تلك الكتب النفيسة التى أوقفها أو ما أوقفه من عقارات وأملاك شرط تعمير المدرسة وترميمها.

وكانت هذه المدرسة فى العصور القديمة عامرة ومشهورة بين الأهالى بالمدرسة «الشهابية» وقد خربت قبل عدة مئات من السنين، ويروى المؤرخون أن فى الميدان الصغير الذى كان فى داخل المدرسة «الشهابية» وفى الطرف الغربى

الجنوبى من الميدان محراب وكانت ساحة هذا المحراب مستناخا للناقة النبوية وأن الحجاج الرائحين والآتين كانوا يزورون ذلك المحراب. وأدخل المحراب الشريف فيما بعد داخل كوخ للمحافظة عليه، إلا أن المدرسة الشهابية قد حولت من صفة المدرسة ووضعت لهيئة زاوية، كما أن تلك الزاوية خربت ومن هنا اقتنع المخلصون الذين حرموا من زيارة مستناخ الناقة النبوية أن هذا الموقع سيخرب بعد مرور فترة من الزمن. وفى سنة ١٢٥٩هـ وجه الأمر السلطانى الصادر من أمانة البناء إلى عهدة شخص يسمى «خضير أفندى» هدمت تلك الزاوية وجددت فى صورة كاملة وتم التجديد فى أواخر ربيع الأول من سنة ١٢٦١هـ.

وفتح فى وسط الأبنية الجديدة منفذاً للريح كما فتحت فى ناحية الشارع نافذة كبيرة وبهذا دخلت زاوية الشهابية إلى هيئة تكية وكان أصحاب الاشتياق يزورونها، وهذه المدرسة تعرف فى أيامنا بـ الزاوية الجنيدية.

إن التوفيق فى إحياء هذا الأثر اللطيف الذى ظل معطلاً عن الزيارة منذ سنين وفيرة ستكون خدمة فريدة لصاحب الرسالة. إلا أن اتصاف خضير أفندى بضعف إخلاصه واعتقاده أضاع ذلك الأثر النبوى السعيد لأنه وسع محيط كوخ مستناخ ناقة الرسول عشرة أذرع وثلاثة أرباع ذراع طولاً وخمسة أذرع وربع عرضا ولم يضع علامة يستدل بها على نقطة مستناخ الناقة وبهذا ضاع الموقع اللطيف لذلك الأثر الشريف.

وكان غرض السلطان عبد المجيد من إحياء المدرسة الشهابية المحافظة على مستناخ الناقة النبوية الشريفة إلا أن الحقير خضير أفندى لاحظ عند تجديد المدرسة نظام وانتظام الأبنية وسعتها وبهذا ارتكب دناوة الإساءة ـ تجاوز الله من سيئته.

إخطار

ولم يمح أصحاب الخيرات المآثر الجليلة، مثل خضير أفندى، ولكنهم بنوا أبنية فى الأماكن التى ثبت ولو بقول ضعيف كونها من الآثار واتخذوها زوايا بنية خالصة وفكر صحيح، حتى يعبد فيها الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة.

فى بيان وقائع سنين الهجرة وتفصيلاتها الإجمالية.

وعندما استقر النبى ﷺ وشرف المدينة طيبة وتم وقت اقتران فيض نوره عليه السلام. كان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة المكرمة، وذهب معهما عبد الله بن أبى بكر وهناك أخذوا معهم السيدة فاطمة وأم كلثوم وسودة وأسامة بن زيد وأم أيمن وأولاد وعيال الصديق الأعظم ـ رضى الله عنهم ـ ورجعوا إلى المدينة، وآخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار وعقد مع طوائف اليهود المعاهدة، وقد عاش فى المدينة المنورة بالإجماع، ما يقرب من عشر سنين وارتحل عن دنيانا يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول والسنة الحادية عشرة من الهجرة، ومرض فى الأيام العشرة الأخيرة من شهر صفر من تلك السنة وارتحل فى ربيع الأول، وصلى عليه بدون إمام فى داخل الحجرة المعطرة على رواية أو فى داخل الروضة المطهرة على رواية أخرى.

ولم يستطع الأصحاب الكرام أن يقتنعوا بارتحال النبى عن دنيانا، وقد مدت أسماء بنت عميس يدها إلى ظهر النبى وعرفت أن خاتم النبوة قد رفع وحكمت أن روح النبى ﷺ قد قبضت.

وظهرت عندئذ بعض علامات الموت على أظفاره المباركة نوع من الزرقة يعنى بدء تغير لون أظفاره ـ عليه السلام ـ فحكم من قبل عامة الأصحاب الكرام أن النبى ﷺ قد ارتحل عن دنيانا ودفنوا نعشه المقدس اليوم الرابع من يوم ارتحاله وعلى قول فى الليلة الثالثة أو اليوم الرابع أو الثالث على رواية أخرى من يوم قبض روحه اللطيفة والمكان الذى قبضت فيه روحه ـ عليه السلام ـ وقد تنافسّ الأصحاب الكرام فى تعيين موقع دفن جثمانه الشريف ـ عليه السلام ـ طويلاً فقال بعضهم يدفن فى «البقيع الشريف» وقال بعضهم يدفن فى المسجد اللطيف،

وأخيراً قرروا دفنه فى داخل حجرته المعطرة. ودفنوه حيث قبضت روحه ـ عليه السلام ـ وقد سطر هذا القرار بناء على رأى مذكور فى الصورة الثانية من الوجهة الثالثة.

السنة الأولى للهجرة

* سنة بناء مسجد قباء: إن هذا المعبد كان سبب نزول الآية الكريمة ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ﴾ (التوبة: ١٠٨) وقد طرح أساس منبره المصون من الأندلس من طرف معمار منزل الدين عليه السلام.

* ومن أحداث تلك السنة: تأسيس مسجد المدينة.

* ورود فاطمة وأم كلثوم، وعائشة الصديقة، وأم أيمن[1] وأسامة بن زيد (رضى الله عنهم) وأم أيمن زوجة زيد بن حارثة ووالدة أسامة.

* وزفاف عائشة ـ رضى الله عنها ـ عقد على السيدة عائشة رضى الله عنها فى مكة المكرمة وعمرها ست سنوات وزفت فى السنة الأولى الهجرية.

* وفرض ركعات الصلاة حيث كانت الصلوات ركعتين فأصبحت أربع ركعات.

* المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد عقد خمسة وأربعون شخصًا من المهاجرين والأنصار روابط الأخوة على التعاون والتناصر.

* معاهدة اليهود ـ القصد من هؤلاء اليهود قبائل بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ـ التى كانت تسكن فى أطراف المدينة الطاهرة وقد عقدت معاهدة بشرط ألا يعينوا أعداء الموحدين وألا يهينوا حلفاء المسلمين.

* نقل وباء الطاعون.

(١) كانت حاضنة الرسول الأكرم وأم أسامة بن زيد واسمها «بركة بنت ثعلبة». وكانت فى الأصل جارية حبشية مملوكة لعبد الله بن عبد المطلب وكانت متزوجة بشخص اسمه عبيد الحبشى وكانت حاضنة النبى ﷺ ولما كان أيمن ابنها من صلب عبيد الحبشى فاشتهرت بالإضافة إليه. وتزوجت بعد عبيد الحبشى بزيد بن حارثة الذى أهدته خديجة إلى النبى ﷺ ومن صلبه جاء أسامة.

* نزول آيات القتال.

* بعث السرايا، وعقد رايات الغزوات، وقد صدرت فى هذه السنة الأوامر الإلهية بسل السيوف لمخاذيل المشركين فتفضل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعقد رايات الغزوات وإرسال السرايا، والغزوات التى زينها بحضوره الشخصى (١٩) غزوة وقد حدث قتال فى تسع منها. والسرايا التى بعثها تحت قيادة أحد القواد (٤٧) غزوة أو سرية، ويروى أنها (٥٦) سرية.

لازمة ـ تطلق على الحروب التى قاد الكتائب فيها النبى ﷺ بالذات غزوة فى اصطلاح أهل السير، كما تطلق على الجيوش التى ساقها تحت قيادة أحد قواده سرية.

وعلى قول تطلق السرية على الجنود الذين يسيرون بالليل ويختفون نهارًا سرية، وعلى الذين يسيرون نهارًا تحت قيادة أحد القواد وجه تسميتها مأخوذ من كلمة السر، وسمى أهل السير الفرق العسكرية حسب مقدار الجنود وكميتهم الذين يساقون إلى الحروب «سرية»، «بعث»، «منسر»، «مقنب»، «كتيبة»، جيش وفريق، وجحفل، وخميس، والجيش العظيم، وقالوا للذين أرسلوا للجهاد ويقل عددهم عن ثلاثة «غزاة» وإذا كانوا راكبين «جزيرة» وإذا كان كلهم مشاة «بعث» وإذا كانوا من ثلاثين إلى أربعين نفرًا وعلى قول من أربعين إلى ستين أومن مائة إلى مائتين من الفرقة الخيالة قالوا عنهم «المنسر» وقالوا لفرقة الفرسان بين مائة أو أربعمائة «مقنب» وإذا وصل الفرسان إلى خمسمائة «السرية» وألف نفر من المشاة «كتيبة» وفرقة مكونة من أربعة آلاف يطلق عليها «جيش»، «فريق» و«جحفل» والجيش المكون من اثنى عشرة ألف «خميس» ولأكثر من هذا قالوا عنه «الجيش العظيم».

* ومن أحداثها أيضًا: ولادة عبد الله بن الزبير.

* عقد لواء لحمزة بن عبد المطلب ـ إن أول الجنود الذين جهزوا فى الدولة الإسلامية الأبدية سرية حمزة بن عبد المطلب، وكانت تتكون من ثلاثين من

شجعان المهاجرين إذ تقابلوا مع القافلة القرشية التى تتكون من ٣٠٠ نفر وتحت قيادة أبى جهل ولكنهم صرفوا عن القتال بواسطة مجدى بن عمرو الجهمى.

* عقد لواء عبيدة بن الحارث، الجنود الذين بعثوا للمرة الثانية هم الذين كانوا تحت قيادة عبيدة بن الحارث، وكانوا ستين من المهاجرين إذ انتصروا فى موقع ودان الكائن فى بطن رابغ على أبى سفيان وعلى رأى آخر على جيوش قريش المائة تحت قيادة عكرمة بن أبى جهل وشتتوهم أيما تشتت، ويروى أن هذه السرية كانت فى الدفعة الأولى.

* عقد لواء سعد بن أبى وقاص قائد السرية التى أرسلت للمرة الثالثة، قد ذهب مع عشرين نفرا من المهاجرين وعاد دون أن يصادف أعداء الدين.

* وفاة أبى أمامة.

* وفاة أم كلثوم بنت هدم.

* هلاك وليد بن المغيرة.

* هلاك عاص بن وائل.

* إسلام سلمان.

* إسلام عبد الله بن سلام.

* إجراء اليهود عداوتهم فى حق محبوب الرب الودود.

وكان هؤلاء الأشخاص الذين أظهروا العداوة من أحبار اليهود وهم حُيَى بن أخطب، أبو رافع الأعور، كعب بن الأشرف، عبد الله ابن صوريا، زبير بن باطا، وليد بن أعصم، وهم هؤلاء الأنجاس المفسدون الذين ذهبوا إلى دار البوار كل واحد بطريقة ما كما هو مذكور فى أمهات كتب السير.

* التجاء المنافقين مثل أبى بن سلول مع آخرين من مَخْذُولى المنافقين إلى الإسلام عن طريق النفاق.

• سنة الأذان المحمدى:

المعلومات المهمة فى حق الأذان، إلى هذه السنة أنه كان يعلن عن وقت الأذان إذ ينادى المنادى قائلاً الصلاة جامعة، وفى خلال هذه السنة علم عبد الله

بن زيد فى رؤياه الأذان المحمدى وأصبح الأذان سنة على تلك الطريقة، إلا أن بعض كتب السير كتبت أن الواقعة المذكورة حدثت فى السنة الثانية الهجرية.

أول من أذن فى المدينة المنورة هو بلال الحبشى وأول من أذن فى مكة المكرمة حبيب ابن عبد الرحمن ـ رضى الله عنهما ـ وأول من أذن لصلاة الجمعة هو عبادة بن الصامت ـ وعلى قول هو أبو يعلى ـ وأول من أذن فى مصر فوق المئذنة هو شرحبيل بن عامر المرادى الصحابى.

والأذان الأول الذى يؤذن يوم الجمعة هو من سنة عثمان ـ رضى الله عنه ـ إذ كثر الناس فى عهده السامى وتفرقوا، وحتى يترك الناس أعمالهم ويسرعوا إلى المسجد الشريف اتخذ أن يتلى الأذان قبل الصلاة، وعين للقيام بهذه المهمة أشخاصًا مكلفين وموظفين بهذا الأمر، وكان هذا الأذان يؤدى إلى عهد أبان بن عثمان كالأذان الثانى فوق المحفل ومقصورة المسجد وقد أحدث أبان بن عثمان أصول أداء الأذان فوق المآذن.

كما أن أمراء بنى أمية أحدثوا عادة أداء الأذان ثلاثة أنفار معًا من فم واحد، ومازال هذا الأصل جاريًا فى البلاد العربية.

وأحدث ناصر الدين محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون فى خلال سنة ٧٠٠ الهجرية بتصويب المحتسب نجم الدين الطبندى وتشجيعه قراءة الصلاة والسلام قبل أذان الجمعة فوق المآذن، وكان قصده إسماع الناس قرب حلول وقت صلاة الجمعة، إلا أنه كان يقال (الصلاة والسلام على رسول الله) وبعد مرور ٦٧ سنة قرر الملك المنصور محمد بن مظفر بن ناصر الدين محمد بن قلاوون بناء على عرض وترتيب المحتسب صلاح الدين البرلسى أن يقال (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله) وبعد مرور ٢٤ سنة قرر فى عهد الملك الصالح بن الأشرف شعبان بن حسين بن ناصر الدين محمد بن قلاوون أن تقرأ الصلاة عقب أذان صلوات الأوقات الخمسة ما عدا أيام الجمعة.

أصول التسبيح فوق المآذن:

كان موسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ يسبح فى الأوقات المباركة وقبل أذان صلوات الصباح بصوت مرتفع، وقد عين حضرة داود موظفين خاصين للاحتفاظ بهذه الأصول وجعلهم يسبحون الله فى الثلث الأخير من الليل حتى قرب الفجر، واستمر هذا النظام حتى وفاة يحيى عليه السلام، وقام اليهود ضد عيسى ـ عليه السلام ـ عقب استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ وتسببوا فى إبطال نظام التسبيح وتركه والعمل حسب أحكام شرائع بنى إسرائيل.

وقد جرى أصول التسبيح فى العهد الإسلامى أولا فى مصر وفى وقت إمارة مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نيار الأنصارى، وفى سنة (٥٨)، لأن حضرة مسلمة قد صنع فى مسجد عمرو بن العاص مئذنة[١] واعتاد أن يعتكف فى هذا المسجد، وقال للمؤذن شرحبيل بن عامر فى أثناء اعتكافه يا شرحبيل، إننى أنزعج فى الصباح من دقات الناقوس، هل هناك حل لهذا الموضوع؟، فقال له نعم أبدأ فى الأذان من نصف الليل وأطيله إلى طلوع الفجر وبهذا سر مسلمة بن مخلد ووضع نظام قراءة الأذان من نصف الليل وبهذا النظام استطاع مسلمة بن مخلد أن يحافظ على سكينة قلبه درجة ما، وعندما أصبح أحمد بن طولون ملك مصر سنة (٢٥٤) رفع نظام أداء الأذان هكذا لفترة طويلة وعين مؤذنين متعددين وربط لهم المرتبات الخاصة ووضع نظام أن يصعدوا إلى المآذن قرب الصباح وأن يقرءوا القصائد الخاصة بالزهد والعشق الإلهى والأشعار، كما أن صلاح الدين الأيوبى قرر فى سنة (٥٦٨) قراءة القصائد والأناشيد الخاصة بالعقيدة الأشعرية بدلاً من الذكر والتسبيح.

ومازال حكم هذا النظام جاريًا فى جوامع مصر والشام.

السنة الثانية للهجرة

* عرس السيدة فاطمة رضى الله عنها.

* وغزوة أبواء، هذه الغزوة مقدمة الغزوات التى وجد فيها قائد المجاهدين

(١) إن المئذنة التى بنيت فى الجوامع والمساجد هى هذه المئذنة.

نبينا ﷺ بذاته، وبما أنها وقعت على بعد ستة أميال لناحية ودان اشتهرت بغزوة «ودان» كما ذكر فى بعض كتب المغازى أنها حدثت قبل السرايا سالفة الذكر.

* غزوة «بواط» وهى الغزوة الثانية التى وقعت فى خلال السنة المذكورة، وبما أنه لم يتصادف لقافلة قريش رجوع وبما أنه قد نصبت الخيام فى مكان يسمى «بواط» بالقرب من ينبع سميت بذلك الاسم.

* غزوة العشيرة وهى الغزوة الثالثة فى السنة المذكورة، وذهب إلى بلاد قبيلة بنى مُدْلِج فى ناحية ينبع وإلى منزل «عُشَيْرَة» لنهب القافلة التى تحت إدارة أبى سفيان التى تعود من الشام، ولما عرف أن القافلة قد فاتت رجع من هناك بعد عدة أيام، وقد لقب على المرتضى فى هذه الغزوة الغراء بكنية «أبى تراب».

* هجوم كرز بن فهر على المدينة.

* سرية بن أبى وقاص الثانية.

* سرية عبد الله بن جحش.

سل سيف جناب عبد الله مع ٨ ـ وعلى رأى ١٢ ـ نفر من المهاجرين وحربه الدامية مع قافلة قريش فى بطن نخلة وقهره لعمرو بن علاء الحضرمى وتدمير عثمان بن عبد الله، وأسر حكم بن الكيسانى وتكبيله بالسلاسل والاستيلاء على قافلة قريش، وهذه السرية هى أول سرية فى عصر السعادة حدث فيها قتل الأعداء وأخذ الأسرى واغتنام الأشياء.

* فرض الصيام.

* تحويل القبلة.

* وقعة بدر الأولى.

* غزوة بدر الكبرى.

* وجوب صدقة الفطر، أداء صلاة العيد.

* غزوة بنى قينقاع. كان يهود بنى قينقاع من القبائل اليهودية التى عقدت الصلح والاتفاق مع المسلمين فى السنة الأولى الهجرية وظلت ساكنة هادئة إلى

شوال من السنة الثانية الهجرية، ونقضت العهد فى خلال شهر شوال إذ قتلت مسلمًا فى سوق المدينة، فبناء على ذلك حوصرت حصونهم وضيق عليها الخناق مدة خمسة عشر يومًا وحوربت، وضبطت أملاكهم وصودرت أشياؤهم وأجلوا إلى ديار الشام.

* غزوة السويق.

* غزوة قرقرة الكُدْر، هناك من يروى أن الغزوة المذكورة وقعت فى السنة الثالثة.

* قتل عمير بن عدى العصماء[1].

* قتل سالم ابن عمير أبا غفل.

وفاة رقية بنت النبى عليه السلام.

السنة الثالثة الهجرية

* غزوة أنمار.

* سرية القردة.

كان زيد بن حارثة قائد سرية فى هذه الواقعة، فأغار على قافلة قريش فى مكان يسمى القردة واغتنم أمتعتها وأخرج ٢٥٠٠٠ ألف درهم خمسًا.

* قتل كعب من الأشرف اليهودى، كان هذا الرجل رئيس قبيلة عمرو بن عوف وكان يؤذى النبى ﷺ.

* زفاف عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ لما كان عثمان بن عفان تزوج برقية ثم بأم كلثوم ـ رضى الله عنهما ـ لقب بلقب ذى النورين.

* زفاف حفصة بنت عمر بن الخطاب وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهما.

* وفاة السيدة زينب بعد مرور شهرين من زواجها.

* ولادة سبط النبى المكرم حضرة حسن بن على رضى الله عنهما.

* غزوة أحد.

(١) انظر خَبَرَهُ فى الإصابة ٥/ ٣٤ الترجمة رقم ٦٠٣٨.

* غزوة حمراء الأسد.

* استشهاد حمزة، استشهاد عمرو بن الجموح.

* استشهاد أنس بن النضير، استشهاد سعد بن الربيع رضى الله عنهم.

* تحريم الخمر، وهناك من يروى أن الخمر حرمت فى السنة الرابعة الهجرية.

السنة الرابعة الهجرية

* وقعة بئر معونة.

* غزوة بنى النضير.

* ولادة الإمام حسين السعيدة.

* غزوة الرجيع.

* بدر الموعود[1].

* زفاف أم سلمة، وزينب بنت جحش رضى الله عنهما.

* غزوة ذات الرقاع ويروى أن هذه الغزوة وقعت فى السنة الخامسة.

* استشهاد عامر بن فهيرة، استشهاد عاصم بن ثابت، وفاة عبد الله بن عثمان.

السنة الخامسة الهجرية

* غزوة دومة الجندل ويروى أن هذه الغزوة وقعت فى السنة السادسة.

* غزوة بنى المصطلق وهناك من يرى أن هذه الغزوة أيضًا وقعت فى السنة السادسة.

* رخصة التيمم.

* عتق سلمان الفارسى وتحريره.

* كسوف القمر.

* أداء صلاة الكسوف.

* وفود بلال بن الحارث المزنى، قدوم ضمام بن ثعلبة.

(١) قيل لها كذلك لأن أبا سفيان بن حرب كان قد نادى رسول الله ﷺ يوم أحد: موعدنا معكم بدر فى العام المقبل، فأمر رسول الله ﷺ بعض أصحابه أن يجيبه بـ «نعم»، وكانت فى شعبان فى السنة الرابعة انظر: ابن هشام ٣/ ٣٣٠، ابن سعد ٢/ ١/ ٤٢، الطبرى ٢/ ٥٥٩، الدرر ص ١٦٨.

* غزوة المريسيع.
* قصة إفك عائشة رضى الله عنها المؤلمة.
* غزوة الخندق.
* غزوة بنى قريظة استشهاد سعد بن معاذ.
* استشهاد خلاد بن سويد.
* هلاك أمية بن الصلت.
* مبارزة على، ضيافة جابر بن عبد الله عقب غزوة الخندق.
* حكم سعد بن معاذ على بنى قريظة، وفاة أم سعد بن عبادة.
* سرية عبد الله بن أنيس.
* وقعة عرنة.
* إسلام عمرو بن العاص وخالد بن سنان.

السنة السادسة الهجرية

* أسر شمام بن أنال.
* كسوف الشمس.
* نزول حكم الظهار.
* سرية محمد بن مسلمة.
* غزوة بنى لحيان.
* فرض الحج على أصح الأقوال، وهناك من يدعى أن الحج فرض قبل الهجرة أو فى السنة السابعة أو الثامنة.
* سرية زيد بن حارثة.
* سرية حيدر.
* سرية عبد الرحمن بن عوف.
* صلح الحديبية. يروى أن هذا الصلح وقع فى السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة.

* غزوة ذى قرد، يقال لهذه الغزوة غارة عيينة بن حصين الفزارى أيضًا.
* سرية عكّاشة.
* سرية أبى عبيدة.
* سرية خالد بن الوليد.
* سرية زيد بن حارثة.
* سرية كرز ابن جابر.
* استسقاء النبى (عليه السلام).
* وفاة أم رومان.
* وفاة عتبة بن أسد.
* ورود أبى نصير وأصحابه.
* زفاف جويرية بنت الحارث.
* إرسال الرسائل إلى الملوك، وهناك من يعد كتابة الرسائل من وقائع السنة السابعة.

السنة السابعة الهجرية

* قدوم مهاجرى الحبشة.
* وقعة فتح خيبر.
* زفاف أم حبيبة بنت أبى سفيان.
* عمرة القضاء.
* زفاف ميمونة بنت الحارث الهلالية.
* ورود مارية القبطية.
* سرية بشير بن سعد.
* سفر عمر بن الخطاب إلى قبائل هوازن.
* سرية غالب بن عبد الله.
* وفاة بشر بن البراء.
* وفاة ثويبة المرضعة.

* وفاة وليد بن الوليد.
* وفاة يسار الحبشى.
* غزوة ابن أبى العوجاء.
* تسميم الرسول.
* محاصرة وادى القرى.

السنة الثامنة الهجرية

* سرية غالب بن عبد الله.
* سرية شجاع بن وهب.
* اتخاذ النهر.
* سرية نوبة.
* غزوة ذات السلاسل.
* سرية الخَبَط.
* سرية أبى قتادة.
* فتح مكة المكرمة.
* غزوة بنى خزيمة.
* غزوة حنين.
* غزوة الطائف.
* قدوم وفد هوازن.
* ولادة إبراهيم بن الرسول.
* قدوم عروة بن مسعود.
* استشهاد جعفر بن أبى طالب.
* استشهاد زيد بن حارثة.
* استشهاد عبد الله بن رواحة.
* غزوة مؤتة.

* غلبة خالد بن الوليد.

* كشف أحوال قتلى مؤتة.

* زفاف زينب بنت رسول الله ـ رضى الله عنها ـ.

السنة التاسعة الهجرية

* إسلام كعب بن زهير.

* غزوة تبوك وهذه الغزوة آخر غزوات النبى ﷺ.

* سرية قتيبة.

* سرية الضحاك.

* سرية علقمة بن محرز.

* سرية على بن أبى طالب.

* سرية عكاشة.

* اعتزال النبى زوجاته.

* قدوم وفد ثقيف.

* قدوم وفد أسد.

* قدوم وفود الداريين.

* قدوم وفد تميم.

* ورود كتب الملوك.

* قدوم وفد بهرا، وفد بنى البكا ووفد بنى فزارة.

* وفاة النجاشى وصلاة النبى على النجاشى، وقعة إيلاء وقضية اللعان.

* وفاة أم كلثوم بنت النبى ـ رضى الله عنها ـ.

* قدوم أسعد بن تميم.

* حج أبى بكر.

* وفاة سهل بن البيضاء.

* رجم الغامدية.

* تأسيس وتخريب دار النفاق مسجد الضرار وهلاك رئيس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول.

السنة العاشرة الهجرية

* وفد نجران، ووفد عامر بن الطفيل.

* قدوم الجارود بن عمرو فى طائفة من قومه عبد القيس ووفد بنى حنيفة.

* قدوم زيد الخيل فى وفد طَيّء.

* قدوم عدى بن حاتم.

قدوم فروة بن مُسَيك.

* قدوم وفد زُبَيْد وعمرو بن معد يكرب.

قدوم الأشعث بن قيس فى وفد كِنْدة.

* بعث الأمراء على الصدقات ويروى أن هذا حدث فى خلال السنة الثانية للهجرة.

* وفد الأَزْد.

* حجة الوداع.

* سرية أسد الله على بن أبى طالب على اليمن.

السنة الحادية عشرة الهجرية

* تجهيز سرية أسامة بن زيد.

* وفد النخع.

* ظهور مسيلمة الكذاب.

* ظهور الأسود العنسى.

* مرض النبى ﷺ، وارتحال النبى ﷺ عن دنيانا.

الوجهة السادسة

وتشتمل على إحدى عشرة صورة تعرف بالتفصيل توسيع وتجديد المسجد الشريف ودار فاطمة رضى الله عنها السعيدة.

كما تعرف محل محراب النبى القديم والأساطين الشريفة وصفة أصحاب الصفة والمواقع المباركة الأخرى.

فى ذكر صورة طرح وتأسيس مسجد السعادة على صاحبه أفضل التحية.

سكن مؤسس مبانى أركان الدين الرصين ـ عليه سلام الله المعين ـ فى البيت الذى يملكه أبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ ما يقرب من سبعة أشهر، أقام فيه متعبداً وبعد ذلك استدعى أصحاب الساحة التى بركت فيها الناقة ذات الصفات الممدوحة «القَصْوَاء» فى المكان الأول لوح لهم قائلاً «إذا كنتم ترغبون فى بيع هذه الحظيرة لاشتريتها لأبنى عليها مسجداً»، وبهذه البراعة بين لهم أنه يفكر فى شراء تلك الساحة، فعرض عليه «سهل وسهيل» سالفا الذكر ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك أن يتفضل بقبول تلك الساحة بدون ثمن، ورجوا النبى ﷺ فى ذلك وأصرا ولكن النبى ﷺ لم يستصوب أن يأخذ تلك الساحة مجانًا لأن صاحبيها كانا أطفالا، فجلب معاذ بن عفراء ـ وعلى قول آخر أسعد بن زرارة[1] ـ وأعطى له عشر قطع ذهبية[2] ليسلمها لهما.

كانت هذه الساحة مقبرة فى أيام جاهلية العرب، وبيعت فيما بعد وانتقلت من يد لأخرى حتى انتقلت لملكية ابنى رافع بن عمرو، ولم تكن تلك الساحة مستوية الأرض، لذا قد تكونت عليها بعض مياه الأمطار وتراكمت على شكل مياه البرك، فأمر النبى ﷺ بتسطيح الأرض، وبعد إعداد لوازم البناء أرسى أساس المسجد، وفى العام الثانى الهجرى أكمل البناء فى شهر صفر الخير وسقفه بجريد النخل.

وكان لذلك المسجد الذى أسسه معمار ديوان الشريعة ـ عليه أفضل التحية ـ محراب واحد وثلاثة أبواب. وكان المحراب الشريف المذكور متجهًا إلى بيت

(١) الراجح أنه أسعد بن زرارة، إذ كان الغلامان يتيمين فى حجره، وكان أسعد بن زرارة يصلى فيه ويجمع قبل مقدم الرسول الله ﷺ، إلى المدينة انظر: إعلام الساجد، ص ٣٢٣.

(٢) وكانت هذه القطع الذهبية ثمن تلك الساحة فدفعها الصديق الأكبر على أنها من قبل رسول الله ﷺ.

المقدس، أى كان فى مكان البوابة التى يطلق عليها فى زماننا باب التوسل وكان أحد الأبواب فى مكان المحراب الشريف الحالى وكان الثانى مكان باب جبريل وكان الثالث حيث استقر باب الرحمة، واشتهر الباب الذي كان مكان المحراب الشريف بباب الحملة وكان خاصًا لدخول الجماعة وخروجها وكانت الأبواب الأخرى خاصة لدخول النبى ﷺ فى حجراته وكان البابان اللذان خصصا لدخول النبى ﷺ يعرف أحدهما فى العصر النبوى بباب «عثمان» والآخر بباب «عاتكة» وكان سمك جدران المسجد الشريف ثلاثة أذرع وكان عمق حفرة الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع، وكان الأساس إلى الجدران الظاهرة من الأرض من الحجر وما يعلوه من اللبن، وكان السقف قد رفع فوق ستة أعمدة موزونة ثلاثة على يمين المنبر وثلاثة أخرى على يساره كل واحد فى حذاء الآخر وظلت الروضة المطهرة بين منبر السعادة والحجرة المنيفة.

وكان طول وعرض المسجد ـ توأم حرم الجنة ـ مائة ذراع لكل منهما، وبناء على بعض الأقوال أن طوله وعرضه أقل من مائة ذراع، إلا أن فريقًا من المؤرخين قالوا إن طول ساحة مسجد السعادة كان سبعين ذراعًا وكان عرضه ستين ذراعًا، وصنع الطين اللازم سواء أكان لأعمال الجدران أو فى صنع اللبن فى حفرة «بقيع خبخبة» الكائن فى اتصال بئر خالد بن زيد وفى جهة «بقيع الغرقد».

استطراد

خبخبة اسم شجرة نبتت من قبل الله أمام البئر سالفة الذكر؛ وكانت هذه الشجرة فى داخل مقبرة بقيع الغرقد وبجانب ضريح إبراهيم ابن الرسول ـ عليه وعلى أبيه التسليم ـ ويظل هذا المكان الآن فى الجهة اليمنى من زوار مقبرة البقيع.

وقد نسيت حفيرة خبخبة التى يلزم أن تكون بئر خالد بن زيد، اسمها ورسمها مع مرور الزمن ولم يبق أحد يعرف مكانها، إلا أن مصطفى عشقى أفندى من مجاورى المدينة المنورة المخلصين قد تحرى عنها مئات المرات متوسلاً من روح النبى ﷺ العون واستطاع أن يظهرها فى سنة ١٢٦٠هـ، والبئر المذكورة بجانب

مسجد يحيى بن طلحة بن عبيد الله، وهذا المسجد فى داخل الحديقة ذات النخيل التى تسمى حديقة أولاد صفى.

حديقة أولاد صفىّ:

بالخروج من باب البقيع الشريف حصن المدينة المنورة وبعد قطع مسافة ربع ميل من الطريق الذى يؤدى إلى مشهد حمزة يظهر بستان واسع، وهناك زقاق يتفرع إلى يمين البستان وعلى جهتى هذا الزقاق عدة بساتين والبستان الذى وقف لأغوات حرم السعادة يشتهر ببستان «أولاد صفى». وفى داخل الحديقة المذكورة بئر ينزل إليها بسلم ودرج، وفى الجهة الجنوبية منها مسجد لطيف على شكل منزل وفى طول ثمانية أذرع وكذلك العرض؛ هذا المسجد هو مسجد «يحيى بن طلحة» والبئر التى بجانبه بئر أبى أيوب الأنصارى المعروف باسم «خبخبة». انتهى.

بعد أن أتم النبى ﷺ بناء مسجد المدينة بنى تسع حجرات خاصة بزوجاته المطهرات على يمين مسجد السعادة ويساره وقد خص أقرب الحجرات ـ وهى الحجرة التى دفن فيها ـ بالسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما خصص الحجرة الملاصقة بها للسيدة سودة[1] ـ رضى الله عنها ـ كما فتح طريقًا من دار عائشة، إلى المسجد الشريف.

يخبر المؤرخون عن مساحة المسجد الشريف بوجود أربع روايات: **الرواية الأولى**: أن الذراع فى تلك الوقت كان مقياسًا قريبًا من شبرين ـ أو أكثر منه قليلاً، وبناء على **الرواية الثانية**: أن كلاً من الطول والعرض كان مائة ذراع، وعلى **الرواية الثالثة**: أن كلاً من الطول والعرض كان يقل قليلاً عن المائة.

وبناء على ما تفيد **الرواية الرابعة** كان الطول والعرض يقلان عن مائة ذراع، وعندما حدث تحويل القبلة أبلغا إلى مائة ذراع.

رأى ومطالعة

عند بناء مسجد السعادة وتأسيسه كان طوله الشرقى فى نهاية الحجرة الشريفة،

(١) كانت حجرة سودة اللطيفة خلف دار عثمان بن عفان.

كما كان عرضه عند اتصال جدار الحجرة المعطرة مع الجدار الغربى، وبما أن هذا المكان لا يتجاوز سبعين أو ستين ذراعًا زيد إلى مائة ذراع عند تحويل القبلة.

وقد بنيت جدران مسجد السعادة أولاً على طراز «سميط» وبعده على طراز «سعيدة» وترك بدون سقف. ولما تبين للأصحاب الكرام فى فترة ما أنه لن يستطاع تحمل حرارة الشمس، فسقفوا المسجد بجريد النخل ولأجل الوقاية من الأمطار وضعت فوق سطح السقف أوراق الأشجار ثم وضعوا فوقها التراب وهكذا أحكموا بناءه امتثالاً لأوامر الرسول ﷺ.

إخطار

يطلق طراز «السميط» على نوع البناء الذى توضع فيه لبنة فوق لبنة، وطراز «السعيدة» هو وضع اثنتين من اللبنات بالعرض وإحداهما بالطول، ووضعها مناصفة فوق اللبنتين العرضيتين. وقد صنع اللبن اللازم لبناء مسجد السعادة رجل من حضرموت، ولما كان هذا الرجل بارعًا فى صنع اللبن عين من قبل النبى ﷺ لأداء هذه المهمة.

وقد صنع النبى ﷺ بانى قصر الإسلام القوى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد إتمام بناء الحجرات ظل محراب مسجد السعادة على أن تكون مأوى للمساكين ومسكنًا. والتى تعرف باسم «صُفّة أصحاب الصفة» وأسكن الغرباء الذين يأتون فى هذه الظلة وآواهم.

المكان الذى قيل عنه الظلة كان عريشة مصنوعة من جريد النخيل وكان مقرى الضيفان ـ ﷺ ـ يؤوى الغرباء والمحرومين فى هذا المكان، وعندما يحل المساء كان يطعم بعضهم كما يختار بعضهم ويرسلهم إلى بيوت الأنصار. وبعد أن أتم سيد العالمين بناء المسجد الشريف وحجرات بيوته أى فى خلال صفر الخير من السنة الثانية للهجرة انتقل بالعز والإقبال من دار أبى أيوب الأنصارى إلى البيت اللطيف الذى بنى له.

وبذل الأنصار الكرام غاية جهدهم وحرصوا على إجراء مراسم الضيافة للنبى

ﷺ طول فترة وجوده فى دار خالد بن زيد، وتناوبوا فى تقديم الأطعمة بل تباروا فيه وكانوا يلاطفون بعضهم قائلين «النوبة لى فى هذه الليلة وكان ثلاثة أو خمسة منهم يأخذون أطعمتهم ويذهبون عند النبى ﷺ، ولم تمر ليلة فى تلك المدة المذكورة إلا وكان فى مائدة الرسول ﷺ ثلاثة أو خمسة من أصحابه السعداء، وكانت امرأة تدعى «هديدة»[1] أول من قدمت الطعام، وعندما نالت «هديدة» شرف الحضور عند النبى ﷺ كانت تحمل فوق رأسها مائدة صغيرة فوقها خبز طازج واللبن الزبادى والزبد وأنزلت المائدة، وقالت: «إن والدتى ـ جاريتكم ـ هى التى أرسلت هذه الأشياء».

ودعا النبى ﷺ بالخير والبركة سواء أكان للطعام أو العفيفة التى جاءت بالطعام والأخرى التى أرسلت ثم قام بتناوله.

ثم قدمت مائدة سعد بن عبادة فى المرة الثانية، وكان فى هذه المائدة طعام الثريد المطبوخ حديثًا فتفضل بالتناول منه، وبعد هذا كانت تقام فى كل ليلة فى بيت أبى أيوب الأنصارى مائدة حيث يحضرها خمسة أو عشرة من الصحابة، ولما كانت والدة أبى أيوب الأنصارى هند بنت سعيد بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة ابن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج تطبخ بدون أن تضع الثوم والبصل وفق مزاج النبى ﷺ فالسلطان الجديد ـ عليه صلوات الله المجيد ـ كان يفضل الأطعمة التى تطبخها ويحبها.

عندما نوى طرح أساس المسجد الشريف نزل جبريل ـ عليه السلام ـ باسطًا أجنحته وأوصى النبى ﷺ أن يكون ارتفاع جدران الأبنية السعيدة سبعة أذرع[2] وألا تنقش ولا تزين أية جهة من جهاتها وأن تكون مونتها من الطين وعندئذ أخذ النبى ﷺ قطعة من الحجر وشرع فى طرح الأساس وذكر اسم الله ثم أمر كلاً من أبى بكر الصديق وبعده عمر بن الخطاب وبعده عثمان بن عفان وبعده على بن أبى طالب حيدر الكرار أن يضعوا قطعة من الحجر فى الأساس وقال للذين سألوا عن حكمة ذلك إنها إشارة إلى ترتيب خلافة هؤلاء.

(١) لم أجدها فى الصحابيات «فالله أعلم».

(٢) هناك من يقول إنه أوصى بأن يكون ارتفاع الجدران خمسة أذرع.

تبين توسيع مسجد السعادة وتحويل المحراب الشريف.

وظلت أبنية المسجد الشريف التى أسسها بانى مبانى الشريعة (عليه أقوى التحية) فى خلال السنة الأولى الهجرية إلى رجب الفرد[1] من السنة الثانية الهجرية على هيئتها الأصلية، ولما أوحى قبل غزوة بدر الكبرى باتخاذ كعبة الله قبلة مرة أخرى فأمر النبى ﷺ بإغلاق باب المسجد الذى يتجه إلى مكة المكرمة[2] وفتح بابًا جديدًا مقابله أى فى الجدار الشامى لمسجد السعادة وبناء على هذا التقدير أنه قد صلى فى المدينة المنورة متجهًا إلى بيت المقدس ما يقرب من ستة عشر شهرًا[3].

إخطار

كان النبى ﷺ يستقبل كعبة الله عندما كان يصلى فى مكة المكرمة، وقبل هجرة النبى ﷺ بفترة أخذ أمر استقبال قبلة الأنبياء صخرة الله تأليفا لقلوب اليهود فاتخذ البيت المقدس قبلة، إلا أنه كلما كان يقوم للصلاة كان يستقبل الركن اليمانى حتى لا يستدير البيت المعظم. لأن وسط هذين الركنين يحاذى الجهة الجنوبية من البيت المقدس، وإن أراد أن يستقبل تلك الجهة بعد الهجرة لم يمكنه ذلك لتخالف الجهات فاضطر أن يستدير كعبة الله، إلا أن قلبه الشريف كان حزينًا ومنكسرًا بصورة دائمة، وحينما نزلت الآية الجليلة «فَوَلِّ وَجْهَكَ» يعنى حينما أمر باتخاذ المسجد الحرام قبلة الأنام. وأخذ يستقبل جهة ميزاب الرحمة من

(١) روى ابن حبيب بقاء المسجد الشريف على حاله القديم إلى يوم الثلاثاء من الخامس عشر من شهر شعبان للسنة الثانية من الهجرة.

(٢) اسم هذا الباب «باب التوسل».

(٣) قد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن هذه المرة كانت سبعة عشر شهرًا والفريق الآخر على أنها كانت ثمانية عشر شهرًا.

بيت العزة، لأن الذين يستقبلون الكعبة المعظمة من المدينة المنورة يتجهون إلى جهة «حجر إسماعيل» من تلك البقعة المشرفة.

بينما كان النبى ﷺ صاحب القبلتين حينما أمر باستقبال بيت الله، كان يصلى الركعة الثالثة من صلاة الظهر متوجهًا إلى صخرة الله فتحول إلى ميزاب كعبة الله دون أن يخرج من الصلاة وكان ذلك فى مسجد حى بنى سلمة ومن هنا أطلق على هذا المسجد الشريف «مسجد القبلتين»، وإلى الآن لهذا المسجد محرابان ينظر أحدهما إلى الكعبة المعظمة والآخر إلى البيت المقدس ويقابل بعضهما البعض.

وبعد أن أتم معمار قصر الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ صلاة الظهر فى مسجد القبلتين شرف مسجد السعادة ونزل بعد وصول صاحب الرسالة بقليل جبريل الأمين باسطًا أجنحته وقال له: «إننى قد رفعت ما بين الحرمين من الأشجار والأحجار فعينوا مكان محراب مسجدكم الشريف ناظرًا إلى بيت الله».

ورأى حقائق الأشياء البيت المحترم رؤية العين، وعين موقع المحراب الشريف ولما كان لم يبق شىء يحول دون رؤية العيون النبوية ما بين الحرمين فأخبر أن موقع المحراب الشريف فى نقطة تقابل ميزاب الرحمة.

وقد وقعت هذه الواقعة الجميلة قبل ملحمة بدر الكبرى بشهرين. قال بعض المؤرخين «إن مسجد السعادة قد أسس على يد أسعد بن زرارة بدون سقف قبل الهجرة وكان عبارة عن أربعة جدران وكان محرابه فى الجدار الذى فى جهة البيت المقدس، وأن هذه الجدران كان يصلى فيها النبى ﷺ مع أصحابه وكان يجتمع فيها مع أصحابه من المؤمنين الذين يأتون من الأطراف»، إلا أنهم يخطئون فى رأيهم إذا أرادوا بذلك مسجد قباء، فهذا ليس بصحيح كما ذكرت تفصيلاته فى البحث الخاص به.

فى ذكر الأماكن السعيدة التى صلى فيها من المسجد الشريف إمامُ محراب الملكوت ـ عليه السلام.

بما أنه لم يكن محراب مخصوص لأداء الصلاة سواء أكان فى عصر السعادة أو فى عصر الخلفاء الراشدين قبل تحويل القبلة إلى الكعبة المعظمة كان سيد الزاهدين يؤدى فى مكان اسطوانة يطلق عليها الأسطوانة المخلقة أى فى النقطة التى فى الجهة الشامية من المكان الذى يؤدى فيه إلى الآن أئمة الحرم الشريف. وهذا المكان هو المكان الذى يقع فى الجهة اليسرى من المحراب الشريف، وفى وسط الروضة المطهرة والذى يعرف بأسطوانة عائشة، ولما كان إمام صفوف الأنبياء عليه أجمل التحايا استمر يصلى فى هذا المكان بعد تحويل القبلة أطلق على الأسطوانة المنسوبة للسيدة عائشة «أسطوانة النبى» أيضًا.

وتفضل إمام المتقين فيما بعد بأداء الصلاة فى المكان الذى عرف بـ «محراب النبى» وهذا المكان فى وسط الحجرة اللطيفة والمنبر المنير مع ميل إلى جهة منبر السعادة.

ولم يترك الخلفاء الراشدون والأئمة الكرام ذلك المحراب واستمروا يؤدون الصلاة فيه، واهتم صلحاء الأمة فى تتبع آثارهم، ونصبت اسطوانة حتى لا ينسى مكان مصلى النبى ﷺ ووضعوا المصحف الذى أرسله الحجاج الظالم على يمين تلك الأسطوانة، بعد أن وضعوه فى داخل صندوق.

يروى ابن النجار ناقلاً عن الإمام مالك أن الحجاج بن يوسف الثقفى أرسل إلى أمهات القرى مصحفًا، وكان المصحف الذى أرسله إلى المدينة المنورة مصحفًا لطيفًا موضوعًا فى داخل صندوق غاية فى الكبر ووصل الجهة اليمنى من الأسطوانة المذكورة على أن يكون علامة للمصلى النبوى الشريف وكان الذين

يزورون المصلى النبوى ـ عارفين مكانها ـ يصلون ويدعون عند الأسطوانة التى ركزت بجانب صندوق المصحف الشريف لتكون علامة لموقف النبى ﷺ عند أدائه الصلاة، يروى عن يزيد بن أبى عبيد المدنى ـ مولى سلمة بن الأكوع ـ قال: كنت أتى مع سلمة فيصلى عند الأسطوانة التى عند المصحف، فقلت يا أبا مسلم! أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة؟ قال: فإنى رأيت النبى ﷺ يتحرى الصلاة عندها[1].

وفى رواية: أنه كان يأتى إلى سبحة الضحى فيعمد إلى الأسطوانة دون المصحف فيصلى قريبًا منها. . .،[2] الحديث.

وبناء على هذا كان يلزم أن تكون الأسطوانة المخلقة إما فى قرب قبلة النبى وإما فى قرب المحراب النبوى وعلى هذا يرجح القول الثانى وفق أقوى الأقوال، وبناء على ما ذكر آنفًا لم يكن فى عصر السعادة أو فى عهد الخلفاء الراشدين محراب مجوف.

مؤسس محراب مسجد السعادة:

وضع محراب مسجد السعادة عمر بن عبد العزيز، إذْ جمع فى عهد الوليد بن عبد الملك صناديق المهاجرين وكبار الأنصار وبعد أن صنع فى المحل الذى كان يصلى فيه النبى ﷺ محرابًا قال لهم لا تقولوا إن عمر بن عبد العزيز غير محرابنا، هذه هى قبلتكم، وحتى يلصق هذا المحراب بجدار مسجد السعادة، رفع حجرا من الجدار القديم ووضع مكانه حجرًا آخر، إن المحراب المجوف الذى وضعه عمر بن عبد العزيز فى حذاء الجدار الذى كان يصلى فيه النبى ﷺ، إذا لم يكن المشار إليه قد وضع المحراب المذكور لأصبح من الصعوبة بمكان معرفة موقع محراب النبى بل أصبح مستحيلاً.

---

(١) صحيح أخرجاه: البخارى فى كتاب الصلاة، باب الصلاة إلى الأسطوانة حديث رقم (٥٠٢) الفتح ١: ٥٧٧ ومسلم فى كتاب الصلاة حديث (١١١٥، ١١١٦)، باب دنو المصلى من السترة، شرح النووى مع صحيح مسلم ٢/ ٦٤٢ ـ ٦٤٣ ط. دار الغد العربى.

(٢) هذه الرواية عند ابن ماجة حديث (١٤٣٠) كتاب الصلاة، باب ما جاء فى توطين المكان فى المسجد يصلى فيه ص (٤٥٩)، وقوله يأتى: يعنى سلمة بن الأكوع.
وقوله دون المصحف يعنى قريبًا منه، وهو مصحف عثمان رضى الله عنه.

عندما يصلى فى المحراب الذى وضعه عمر بن عبد العزيز فى مصلى النبى ﷺ يظل المنبر المنير على منكب المصلى الأيمن، وبهذا لم يتغير موقف النبى ﷺ كما أن المنبر المنير لم يغير من مكانه ويظل صندوق المصحف الشريف الذى ذكر آنفًا، كسترة بين محراب النبى وأساطين مسجد السعادة.

وأراد المرحوم «آقشهرى» من مؤرخى المدينة المنورة أراد أن يعين موقع محراب النبى ﷺ قائلاً: «بما أن صندوق المصحف الشريف فى مكان المصلى النبوى يلزم أن يكون المصلى النبوى أمام المكان الذى يؤدى فيه أئمة عصرنا الصلاة والمكان الذى يؤدى فيه الأئمة فى عصرنا يقع فى الجهة الخلفية من مصلى النبى ﷺ، إلا أن قوله هذا ورأيه لا يسلم من الخطأ بالنسبة للأقوال الموثوقة الأخرى.

وفى الواقع لا ينكر أن بين محراب السعادة والقبلة يعنى جدار المحراب العثمانى فاصلة بمقدار عشرين ذراعًا وستة أصابع إلا أن هذه الفاصلة أضيفت بعد وفاة سيد البشر، وإذا ما نظر بدقة إلى تلك الفاصلة يحكم أن محراب السعادة فى مكانه القديم، لأن صندوق المصحف الشريف سالف الذكر كان فى مكان جدار القبلة القديمة، وقبل هدم هذا الجدار كان عرض المسجد الشريف واحدًا وعشرين ذراعًا وثمانية عشر أصبعًا.

وقال الإمام السمهودى فى كتابه الذى ألفه عن تاريخ المدينة والذى رأى لبنات الجدار القديم عند زيارته: «كان سمك جدار المسجد القديم الذى كان بين جدار المسجد الجنوبى والمصلى اللطيف أكثر من ذراع ونصف ذراع وبعد أن هدم الجدار المذكور أصبح عرض المسجد الشريف عشرين ذراعًا ستة أصابع ورفع صندوق المصحف الشريف فوق أساس هذا الجدار» وبهذا بين سمك الجدار الذى صنع فى عصر السعادة، وعرض مسجد السعادة فى أثناء هدم هذا الجدار وإذا ما أضيف إلى العرض الذى يصل إلى عشرين ذراعًا وستة أصابع سمك الجدار يكون العرض فى هذا التقدير واحدا وعشرين ذراعًا وثمانية عشر أصبعًا بالتمام.

إن تعريف الإمام السمهودى يعين لنا الموقع المنيف الذى أدى فيه إمام محراب الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ صلاته إذا ما وقف شخص جاعلاً باب المنبر المنير فى محاذاة منكبه الأيمن واستقبل محراب السعادة فالفاصلة التى تبقى بينه وبين

محل الجدار القديم هو المكان الذى أدى فيه النبى ﷺ صلاته، والمنبر الشريف الذى ذكر هنا هو المنبر القديم وهذا المنبر مع الإفريز المصنوع من حجارة أساس الحفرة على شكل حوض وعلى يمين هذا الإفريز ثلمة وعلى ويساره ثلمة وفوق هاتين الثلمتين آثار الرصاص وهما مكان التقاء أعمدة المنبر المنير القديم.

نظم

عند الصلاة ولِّ وجهك شطر المحراب..
وعند الدعاء نكّس الرأس نحو التراب..
انحنى منه حاجب ذات الوجه الجميل..
وبدا الهلال وهو يجعل سمت مرقاته إلى العرش فى السماء..
وعلى العرش والكرسى عرشه شاء..
فى تلك اللحظة لا تعقل لسانك فى بكائك..
افتح شفتيك وفى شوق ترنم بغنائك..

السلام عليك يا خير الخلق.

السلام عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين.

السلام عليك يا سيد الخلائق أجمعين.

السلام عليك يا رسول الله.

السلام عليك يا من دنا فتدلى وكان منزله قاب قوسين أو أدنى.

السلام عليك يا من ذا الذى ما زاغ البصر وما طغى.

السلام عليك يا من أوحى إلى عبده ما أوحى.

السلام عليك ما جَدَّ الجديدان واختلفت الألوان والقطران واستقبل الفرقدان[1]، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين.

«فتوح الحرمين»

(١) هما نجمان متجاوران أحدهما: النجم القطبى، وهو قريب من القطب الشمالى، ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يهتدى به، وهو المقصود فى قوله تعالى: ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ (سورة النحل /١٦). المعجم انظر: الوجيز (فرقد) وغيره.

فى تعريف جزعة مسجد السعادة والمحل القديم لمحراب النبى ﷺ.

كان فى الجهة الجنوبية لصندوق المصحف الشريف قبل أن يحترق المسجد النبوى لوحة[1] مصنوعة من الخشب تسمى «جزعة»[2] وكانت كبيرة، وكان يطلق عليها فى تلك الأوقات «خرزة فاطمة الزهراء» وتعود الرجال والنساء أن يجتمعوا خلف تلك اللوحة وكانت تقع بعض الأمور غير اللائقة.

وكانت امرأة تستند على هذه اللوحة فوقعت وانكشف مكان عورتها ومن هنا رفع زين الدين أحمد بن المصرى من أفاضل المجاورين الذى كان يشتهر باسم «ابن حنا» هذه اللوحة وهكذا منع من حدوث هذه الأشياء الغير لائقة خلفها وذلك فى سنة (٧٠١) هـ.

وكانت لوحة فضية سميكة على جدار محراب السعادة فى ذلك الوقت وكانت فى وسط هذه اللوحة مرآة جذابة، يروى أن هذه المرآة كانت ملكًا للسيدة «عائشة»، وكان فوق تلك اللوحة رخام مذهب وفى جهة ما من هذا الرخام «حدبة» فى حجم رأس الطفل وتحت الحدبة رخام منحوت ومصقول وعلى قاعدته وتر مغروس كان النبى إمام محراب الشريعة ـ عليه أعظم التحية ـ يتكئ عليه ويستتر بعد إتمام الصلاة، وبعد الحريق الثانى وسع محل المحراب القديم وغير وبدلوا المكان المقدس الذى أمام الصندوق الذى احتوى على المصحف الشريف وركزوا مكانه محرابًا مرتفعًا منحوتًا من الرخام وذلك فى سنة (٨٨٨)هـ وكان يقتضى إبقاء هذه الأماكن على حالها تعظيما لها إلا أن «شمس بن زمن» الحقير غير أكثر الآثار وبدلها ووضع مكانها المحراب الجديد.

(١) وكان الذين فى الجهة الشامية من هذه اللوحة لا يرون ما يجرى خلفها.

(٢) يقال الخرزة للمجوهرات مثل: ياقوت، زمرد، الماس، والخرزات اليمنية..

إخطار

إن العثور على المحراب القديم لأداء ركعتى التحية أمام محراب الملكوت وزيارته يقتضى الوقوف على الجهة اليمنى لمحراب النبى الحالى وجعل منكبه الأيسر فى محاذاة المحراب الشريف الأيمن.

وكان يلزم أن تؤخذ مبانى محراب السعادة إلى جهة المنبر المنير فأخذت وسحبت ناحية قبر السعادة وكان سببا فى هذا الخطأ تعنت شمس بن زين بالجهل والذى كان أمين البناء بعد الحريق الثانى لمسجد السعادة.

بما أن المسافة بين المحراب الجديد والمنبر القديم أربعة عشر ذراعًا وشبرًا وكذلك المسافة بين الطرف الشرقى من أسطوانة التوبة ومنبر السعادة الحالى أربعة عشر ذراعًا وشبرًا فالذين يوفقون فى أداء الصلاة طبق التعريف السابق لاشك فى أنهم سيؤدون الصلاة فى الموقف النبوى لأن المسافة بين الحجرة المعطرة والمصلى النبوى ثمانية وثلاثين ذراعًا والمسافة بين المصلى الشريف ومنبر السعادة أربعة عشر ذراعًا وشبرًا يثبت أن المحل المذكور آنفًا مصلى النبى وبهذا يظل التغيير فى الجهة الشرقية فقط.

وبناء على هذا التعريف يلزم أن تكون المسافة بين قبر السعادة والمنبر المنير اثنين وخمسين ذراعًا وشبرًا وبما أن سمك قاعدة منبر السعادة ذراعان وثمانية عشر أصبعًا وإذا أضيف مقدار هذا السمك إلى المسافة ما بين قبر السعادة والمنبر المنير تكون المسافة بين القبر الجليل ومنبر الرسول خمسة وخمسين ذراعًا. وكان هناك عمود قريب من جدار القبلة قبل الحريق الثانى، وصندوق المصحف الشريف الذى تكرر ذكره مرات كثيرة كان خلف هذا العمود وكان الزوار الكرام يذهبون إلى أن هذه القطعة الخشبية قد انتحبت لفراق محبوب الخالق وأنها بقية «جذع النخلة»، ولأجل ذلك يحرصون على زيارته زيارة خاصة ويمسحونه بأيديهم.

هناك من يدعى أن ذهاب الزوار هذا خاطئ إلا أن الذين يخطئونهم هم المخطئون، لأن قطعة من النخيل أوصلت بالرصاص قد ظهرت بين الأساطين.

وإن ادعى مجد الدين اللغوى قائلاً: «إن قطعة النخلة التى يزورها الزوار ليست قطعة النخلة التى يظنونها بل أنها قطعة عادية من الخشب الذى ركز ليكون علامة على مصلى النبى، وقلعها» عز بن جماعة سنة (٧٥٥) وأراد بهذا أن يخطىء الزوار الذين يظنون أنها قطعة من النخلة المذكورة إلا أن العلماء الذين وجدوا فى عصر «عز بن جماعة صدقوا ما ذهب إليه الزوار» وقال «هذه القطعة من العمود من قطع النخلة التى أنتجت فى عصر السعادة» كما أثبتوا أن قطعة من اللبنة التى ظهرت فى أثناء تجديد مسجد السعادة من بقايا المبانى التى صنعت فى حياة النبى ﷺ.

تنبيه

كانت هناك فاصلة بين المكان الذى يصلى فيه سيد العالمين والجدار القبلى الذى بنى فى عصر النبوة تسمح بمرور شاة وإن هذه الفاصلة كانت المكان الذى يظل فى أثناء السجدة وبناء على هذا التعريف فالفاصلة بين النبى ﷺ والجدار وهو قائم كانت فى وسع ثلاثة أذرع، ومن هنا يقتضى للذين يريدون أن يؤدوا الصلاة فى محراب النبى تبركًا أن يتركوا فاصلة تسمح بالسجدة بين رءوسهم وجدار محراب السعادة. وقد كتب على حجر رخام منقوش من الطرف الأيمن من المحراب النبوى عبارة «هذا مصلى رسول الله ﷺ» وفوق هذه العبارة يعنى فى الجزء الأعلى من طاق المحراب الشريف خارجًا منه وبدءا من وسطه وسائرا من فوق الكمر إلى وسط الطرف الأيسر منه الآيات الشريفة «بسم الله الرحمن الرحيم».

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾. (البقرة: ١٤٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. (الأحزاب: ٥٦).

وفى الوسط الداخلى للمحراب المقدس سطر الآية المنيفة بخط قديم جلى مذهب.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (التوبة: ١١٢).

والآية الكريمة «التائبون الحامدون» بدأت من اليمين واتجهت إلى اليسار فى شكل مرتب.

وقد كتب فى أعلى طاق المحراب الشريف المذكور بخط غليظ جميل الآية الكريمة ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ (آل عمران: ٣٧) وعلى الطرف الأيسر منها الحديث الشريف قال النبى عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين» وفى اتصال هذا الحديث العبارة المنجية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وفوق الأسطوانة المخلقة المتصلة بالمحراب المسعود عبارة «هذه الأسطوانة المخلقة» وفى مكان مواجهة جدار محراب السعادة والجهة الجنوبية منه كتبت عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد؛ أمر بعمارة هذا المحراب الشريف النبوى العبد الفقير المعروف بالتقصير مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى، خلد الله ملكه بتاريخ شهر ذى الحجة الحرام سنة ثمان وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية».

وقد كتب فوق الباب المشبك المصنوع من النحاس والذى يفتح إلى الروضة المطهرة والذى يقع فى الجهة اليمنى من المحراب الشريف بخط جلى «قال النبى عليه الصلاة والسلام إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»، وفى الطرف الجنوبى للباب الذى ينظر إلى المحراب العثمانى وفى الجهة القبلية من الباب كتب الحديث الشريف «قال النبى عليه السلام؛ ومن زار قبرى وجبت له شفاعتى» كما كتب على الباب الصغير النحاس المشبك الذى ينظر إلى الروضة المطهرة وباتصال الجهة اليسرى من الحديث «قال النبى عليه السلام؛ ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» (حديث شريف) وفى الطرف الجنوبى لهذا الباب

والذى ينظر إلى المحراب العثمانى المركوز فى الجدار الجنوبى لهذا الباب كتب الخبر الصحيح اللطيف «قال النبى ﷺ: من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى» (حديث شريف) بخط فى غاية الجمال والذى يجذب الأنظار إليه أنه قد كتب بخط جميل ومقبول، وكل الخطوط مطلية بذهب خالص العيار.

وقد حصلنا على نسخة من القصيدة الوصفية التى تحتوى على محاسن مسجد السعادة وآثاره المسعودة ومدائحه والتى ألقاها إبراهيم كاظم باشا من أجلة شعراء العصر فى مواجهة العتبة النبوية ورأينا تذييلها لهذه الصورة تبركا بها.

نعت شريف

بـــاركَ الله أيُّهـــا المعبـــدُ يـا مـن عنـد العـرش عتبَـتك
لا أوحـــش الله أيهـــا المـكرم وفخـر الدنيـا روضـتك
أنـــت مســـجد ولـــكنك قبـــلة الكعبـــة وبابـــــك
تحســـد الشـمس حـــلقته كمـــا تحسـد السماء طاقتك
إنـك روضـة ولـكن النـار بجانبها تبدو وشـيكًا للعيان
إنهـا شـعلة شـــجر تجـلى ورد روضـــة الـلا مـــكان
يـــا لهـــا مـــن ريـــاض إلهيـــة وتـــرابها الأقـــدس
يفخر العرش بوجوده من تراب الأرض إنها أرج الجنة
وســـيل دمـــع العـــين العاشـــق الولهـــان
شـــمعة تحـــوم روح جبـــريل حولهـــا
والملائـــكة شـــوقًـا إلـــى إيوانهـــا
جـــواهر أرواح الخلائـــق فتـــات فيهـــا
ويـــداس النـــاس كالرمـــال فـــى ســـاحتها
جامـــع حـــكمة لمحـــرابه أركـــان

تقوست كأنها حاجب الحسان
لا يبلغ الروح الأمين ارتفاع المنبرين
إن الأفلاك والعقول تعدها مرقاتين مرقاتين
كأن شجرة الطور كل سارية ومغارة
تقدم لأهل العشق للتجلى أمارة
إنها برعم اللاهوت وليست قبة خضراء
لقد جعلها الله من شجرة الورد تشع الضياء
ما عسى أن أقول فى محشر الأرواح وكيف أصف
فى كل موضع منه إنسىٌّ وجنىٌّ معتكف
الفرق بينه وبين الجمع والانتشار
فالجمع فى المحشر يومًا وفيه خمس مرات
ليس ما يظهر فى أيامه زجاج بلورى
عين الملائكة إليه ترنو
كل مؤذن فيه بلبل يسجع سجعا
ويقول الله أكبر من ألقى إليه سمعا
تمزقت صدورهم واضطربت قلوبهم لمكنسته
وشعر حور الجنان مثل قلبى من الغبطة والحسد
على سقفه هل أنارت قباب
أم أنها على لجة القدرة حباب
الزفرات تحت قلنسوته إلى العرش تصل
وكأن روح المولوى كل شمعدان مشتعل
كلا بل إن كل شمعة جرح فى جنان

إن يـــد كـــليم الله البيضـــاء تبـــدو للعيـــان
إن العليـــل ريحاهـــى أصـــل أنفـــاس المســـيح
والوصـــال فـــى الهـــوى أصـــل للـــروح
إن فـــى دلـــو لبئـــر للشـــمس محـــوها
إذا مـــا أبـــدت فـــى الفـــلك خيـــط شـــعاع لهـــا
هديـــل حمامـــة يشـــنف مـــن الحـــور الآذان
ولوحـــة الرخـــا يثيـــر غيـــرة الجنـــان
مـــا ضـــر لـــو كـــانت أعـــز مـــن الـــروح ذرة مـــن ترابـــه
إن ســـيد الـــكون والمـــكان فـــى رحابـــه
إنـــه مـــلك الدنيـــا يتـــبوأ سريـــرهـــا
ولـــروح موســـى عصـــى يحرســـه بهـــا
ســـيد الدنيـــا ذلـــك العظـــيم
الـــذى وصـــف صـــفاتـــه الله الـــكريم
حبيـــب الله وجـــوده الأكـــرم الأمثـــل
وهـــو للإنـــس والجـــن موئـــل
لـــه ســـجايـــا عنـــد الله عـــلمـــت
وفـــى اللـــوح المحفـــوظ بالقـــلم رقمـــت
مـــلك تاجـــه «لـــى مـــع الله» وســـلطان الديـــن
عبـــد مـــلك ماســـوا والرســـول الســـعيد
نـــور أوج الهدايـــة ومشـــرق نـــور الظهـــور
وعلـــة خـــلق مرايـــا فيهـــا للجمـــال ســـفور
فخـــر الأمم وســـيد المرســـلين

الرسول الأكرم خاتم النبيين
أحمد الرسل ملاذ الأنبياء الذى جعل ذاته
تحمل لوجه الحق مرآته
القابض بيده على قاب قوسين
ومن يرمق وجهه على الدوام بالعين
من الحق إن للماهية ماء جوهر
فيه الله أمر
لعله الطاهر على خيمة العرش هلال يمتد
وأثر قدمه لعين روح الملائكة مكحلة الأسمر
إذا أثر ماء لطف شربة فى النار
أصبح أصلا لحياة الخلود كل الشرار
أما إذا وقع على الماء شرار قهره
أصبح حباب الماء تنور يقذف بناره
وإن كان لمكنته فى إقليم العدم سحاب
أصبح جنات ذلك الباب
وإذا ما بلغته منه بعوضا أعان
كان لها حكم الدنيا كسليمان
وإذا ما نظر إلى بلبل حزين السر ليل
كان لنواحه ما لصور إسرافيل
من نظر إلى جبينه وحاجبه وأهدابه
رأى سر الحكمة فى غورها والعقل فى لبابه
وإذا شاء أن يكون لحكمه صفة الأضداد فى آن

بـــدا مـــــن ذلـــك تقلبـــات الزمـــــان
هـــذا مـــا لشـــمس عدلـــه مـــن آثـــار
فبـكل شـعاع منـها لمـلك تدهـــور وانهـيار
للبلبـــل موئـــل مـــن شـــوك حولـــه
ويحمـى الشـمع مـن الريـح زجـاج مصـباح حولـه
لقـد ألفـت إلـى مـالا يتناهـى مـن بعـد الصـحراء
يـد قدرتـه إذا مـا قدمت الكرة بالصولجان فى الهواء
يـا رسـول الله لـك الجمـال مـع الجـلال
همـا ربيـع بـلا خريـف وشـمس بـلا زوال
يـا رسـول الله يـا مـن أنـت نَـبِيٌّ آخـر الزمـان
بعثـك رحمـة للعالمـين الرحـمان
إن نـور وجهـك مصـباح محفـل الكبريـاء
غـدا نـراك ووجـنتك هـى لـؤلـؤ الضـياء
إذا وقـع غبـار مكحلتـك فـى عـين عـليل
بـدت صـورة السـر الخفـى برقـا فـى مرآتـه
إذا اشتاقـت عينـى الباكيـة شـفتك
بحـرا ومعدنـا للجواهـر واللآلـى مـع الدمـع صنعت
لا تحسبن أن قوس قزح يظهر بظهر المجرة فـى المساء
عبـدك مقيـد العنـق هـو السـماء
إذا مـا بـدا الهـلال فـى السـماء
فإلـى هـلال حـاجبـك الإيمـاء
لا يبـدو فـى صـدرى جـراح منـك بالسـنان

وإن كـــان جـــرح فـــم فيـــه ألـــف لســـــان
حبـــذا ســـكير العشـق الـذى لا يعـرف لـه صـهباء
ســـوى دمـــاء يزرفهـــا فـــى البـــكاء
وددت لـــى صديقًـــا أفضـــى إليـــه بســـرى
ما عسى أن أصنع إن سرى لا يفشو ولو انقضى عمرى
إن ألـــف جبريـــل فـــى ركابـــك مقيـــدون
أمـــا أنـــا فيوســـف فـــى أســـرى المســـلمين
إن كـــاظم ســـوف يبقـــى إلـــى آخـــر الزمـــان
مـــا دام وجـــد مـــرة مـــع هـــذا القمـــر الاقتـــران
رحـــماك يـــا رسـول الله أعـنى فلـى زورق مـن أفـــار
تتقاذفـــه الأمـــواج فمالـــه مـــن قـــرار
مـــن شـــر هـــذه الدنيـا التفـكر فـى هـول يـوم الحـشر
وضـــيق ذات اليـــد مـــن ذلك الطـــالع الأنـــكد
لا يتحصـــل مـــن كـــل غـــمك وهـــمك مـــن نـــفع
لـــو اختلطـــت قطـرة المـطر بـذرات العـالم أجـمع
ارمقـــنى بنظـــرة مـــن رحـــمات
حتـــى يثـــير حـــالـــى غيـــرة حـدائـــق الجنـــات
تم الكـــلام وحـــان وقـــت للدعـــاء
فابســـط حجـــرًا لحـاجتـــى والتجائـــى
مـــا دام نـــور الحـــق يتـــلألأ فـــى روضـــك
فالملائـــكة عـــلى الـــدوام تطـــوف بمســـجدك
يســـر العفـــو والغـــفران لأمـــتك
ولتســـعد وتقـــر عيـــنا بوصـــلك

تبين سبب تأسيس منبر مسجد النبى وصورته وجزع ونحيب النخلة[1].

لما كان مسجد المدينة الشريف خاليًا من المنبر لإلقاء الخطبة كان مؤسس مبانى الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ يقف طويلاً على رجله فى أثناء إلقائه الخطبة ويتعب كثيرًا، وتأثر الأصحاب الكرام من هذه الحالة فأتوا بنخلة وركزوها فى المحل الذى يلقى فيه خطيب منبر الرسالة ـ عليه أسنى التحية ـ ورجوه أن يتكئ عليها فى أثناء إلقائه الخطبة، وبعد فترة ألمح أحد النجارين من المدينة المنورة وهو «باقوم الرومى» من عبيد سعيد بن العاص، لتميم الدارى من الصحابة والذى كان من معارفه وقال: «إذا أمكن الحصول على إذن من الرسول ﷺ لصنعت له منبرًا» وهكذا أومأ بأنه مستعد لصنع منبر لمسجد السعادة وعرض تميم الدارى الأمر على الرسول ﷺ واستحصل منه الإذن على أن يكون المنبر المصنوع ذا ثلاثة أرجل أو أربع وبعد صنعه عرضه على النبى ﷺ فأعجب به وأصبح منبره وصعد عليه لإلقاء خطبه.

وإذ ابتدر الرسول ﷺ فى إلقاء الخطبة صاعدًا على المنبر، فالنخلة التى استند عليها من سنين أخذت تنتحب وتصيح كالناقة التى فقدت وليدها وبعد فترة ما سقطت على الأرض وكادت أن تكون ألف قطعة.

وحينما رأى شفيق الكائنات ـ عليه أفضل التحيات ـ حالة النخلة هذه نزل من المنبر الجديد ودعا تلك النخلة واستجابت النخلة سالفة الذكر للدعوة النبوية شاقة الأرض فمسها بيده الشريفة المعجزة وأمرها أن تعود إلى حالتها الأولى فاستجابت لأمره ـ عليه السلام ـ ورجعت إلى مكانها الأول ووقفت معظمة الرسول فخاطبها الرسول قائلاً: «أيها النخلة! أين تريدين أن ترجعى إلى الحديقة التى قطعت

(١) انظر فتح البارى الحديث ٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥ وشرحه من كتاب المناقب.

منها؟ أم إلى رياض الفردوس، حيث تغرسين فى واحدة منها؟ فخيرتك فى اختيار أحد الأمرين، إذا أردت مكانك القديم أعيدك هناك! لتنمين وتكبرين وتثمرين كما كنت من قبل أما إذا أردت رياض الجنان أغرسك فى فردوس النعيم، حتى تستفيدى من أنهار الجنات وتجددين شبابك فى كل آن وتثمرين فيأكل من ثمارك أولياء الله» وبعد أن قال ضاحكًا «نعم قد فعلت»، فدفنها تحت المنبر الجديد وعلى قول على الجهة اليسرى منه أو فى المحل الذى كان مغروسا فيه.

مثنوى

قال النبى أيها العمود ماذا ترغب
قال قلبى من فراقك قد تلهب
منى لك عرشًا طلبت
وعلى منبرك عرشًا صنعت
تريد لك نخلة تزرع
وفى الشرق والغرب تمرها يجمع
قال أريد أن يدوم لها البقاء
اسمع أيها الغافل لا تكن أدنى من البلهاء
فدفن هذا العمود فى التراب
ليبقى فيه إلى يوم الحساب

إن راوى هذه القصة المليئة بالعبر الحسن البصرى، يروى أن الأصحاب الكرام قد تعجبوا من قول النبى ﷺ «نعم قد فعلت» وسألوه عن تفسير ذلك، فأجابهم قائلاً: «إن ذلك الخشب الجاف قد اختار الجنة، وإننى وعدته بأن أسعفه فى تحقيق طلبه»، وكان حسن البصرى يبكى وهو يزين لسانه بالمقال الآتى: «يا عباد الله الذين فطرهم بالعقل والشعور! بينما تنتحب الأشجار الجافة لمفارقتها الرسول ﷺ، بينما نحن من أمته!! هل يليق بنا أن نظل ملتفين بستائر الغفلة».

وكانت تلك القطعة من النخلة فى يمين محراب النبى ﷺ وملتصقة بجدار القبلة، وفى وقتنا فى مكان قاعدة الشمعة التى على يمين محراب الأئمة.

وإن كان يروى أن هذه القاعدة توجد فى الجهة الجنوبية منها أسطوانة وهى فى مكان قطعة النخلة المذكورة إلا أن هذه الرواية غير صحيحة.

ويعرف المحدثون الكرام هذه الواقعة بحنين الجذع والجذع هو جسم الشجرة ابتداء من جذورها إلى فروعها، والحنين هو الأنين من شدة الشوق، وقد روى هذه الواقعة تسعة من الصحابة مثل أبى ابن كعب، جابر بن عبد الله، أنس بن مالك، عبد الله بن عمر، عبد الله بن عباس، سهل بن سعد أبو سعيد الخدرى، أم سلمة والمطلب بن أبى وداعة، أى أن الوقعة قد نقلت متواترة، لذا فلا شك فى صحتها.

استطراد

وقصة حنين الجزع وصورة وقوعها ذكرها الإمام البخارى[1] والنسائى والإمام أبو ـ داود عليه رحمة الله الودود ـ ناقلاً عن جناب جابر رضى الله عنه الذى قال: كان النبى ﷺ إذا خطب اتكأ إلى جذع من سوارى المسجد، فلما صنع المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التى كان يخطب عليها حتى كادت أن تنشق فنزل عليه السلام حتى أخذها فضمها إليه، وكانت تئنّ أنين الصبى الذى يسكت حتى استقرت، قال النبى ـ عليه السلام ـ بكت على ما كانت تسمع من الذكر.

وقد صدقت الرواية بهذا الحديث الشريف يعنى أن حضرة جابر قال وهو يبسط تلك القصة بينما كان النبى ﷺ معلم العالم يخطب مستنداً لإحدى أساطين مسجد السعادة وهى جذع نخلة وكان يتحدث عن الأوامر والنواهى الشرعية وأحكامها ويوصلها إلى مسامع المسلمين، ولما توسطت شمس الإيمان كبد السماء وماج بحر حقائق الحكمة ودخل قبائل العرب والعجم بناء على السر الجليل الذى يقول «يدخلون فى دين الله أفواجا» واقتحموا شعار الإسلام وبعد ما كانت الفرقة الناجية المؤمنة قطرة فأصبحت بحراً وبعد أن كانت ذرة أصبحت شمساً

(١) فى كتاب المناقب الحديث، ٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥، باب علامات النبوة فى الإسلام.
فتح البارى ٦/ ٦٩٦ ـ ٦٩٨ ط. الريان.

وهكذا تزايدوا وكثروا فأصبح الذين يظلون فى آخر المسجد النبوى من البررة الكرام لا ينالون متعة رؤية وجه النبى الجميل ويتمتعون بصوت النبى ﷺ ويحرمون من فوائد فرائد ألفاظ حبيب الإله وذلك لشدة الزحام فصنعوا منبراً جديداً فصعد النبى ﷺ فوق المنبر وجلس عليه، عندئذ صاح العمود صيحة حنين حينًا وأن أنينًا آخر حتى كاد أن ينشق قطعتين وسمع أهل المجلس صيحة الجزع الأليمة بآذانهم، ونزل النبى ﷺ من المنبر رحمة بحال العمود الحزين وضمه بصدره وعانقه بكل رقة وشفقة. ومن هنا أخذ الجزع يبكى ويئن كصبى صغير وفى آخر الأمر سكن من تسلية الرسول ﷺ له كما يسكت الطفل عندما يسليه أبوه وأمه وانقطع عن الصيحة والأنين وبناء على خطب الرسول ﷺ فى أصحابه الكرام قال يا أمتى وأصحابى! قد أن هذا العمود وبكى لأنه تأثر من مفارقته ما سمعه من الذكر والتسبيح الخاصين بالأوصاف الإلهية. انتهى.

هذه المعجزة من المسائل المشهورة والمصدقة بين الأئمة. قد حكى مؤلف المناقب الشافعية ابن أبى حاتم نقلاً عن والده عن عمرو بن سَوَّاد عن والإمام الشافعى أن الإمام الشافعى قال: «إن النبى الأكرم قد أعطى الله له من المعجزات ما لم ينعم به على أحد من الأنبياء» وحكى ذلك فى صورة مفصلة. يقول عمرو بن سواد: «كنت قد قلت أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد أعطى معجزة إحياء الموتى» قال الإمام الجليل «وقد أنعم الله على النبى ﷺ بمعجزة حنين الجزع حتى سمع صوت الجذع، وهذا أكبر من معجزة إحياء الموتى»[1].

قد روى بكاء الجزع وأنينه وصيحته بسبب فراقه الأليم للنبى ﷺ، سواء أكان المؤرخون أو العلماء الذين شغلوا أوقاتهم من أئمة الحديث بنقل الأخبار النبوية وإخراجها، يعنى أن الأصحاب الكرام ـ رضى الله عنهم ـ الذين حضروا أحداث القصة المشروحة فى يوم وقوعها وسمعوا بآذانهم حديث حنين الجزع كأبناء البشر ونطقه وهو يعرض حاله للنبى ﷺ وأقاموا على ذلك بينة عادلة إلا أن زمرة

(١) انظر: فتح البارى ٦/٨٩٨.

المعتزلة والفلاسفة حملت حديث الأحجار والحبوب، والأشجار والنباتات على المجاز وتجرءوا على تأويل معجزة حنين الجزع وقالوا إن حنين جذع النخلة وأنينه قد أسمع للنبى ﷺ وأصحابه المختارين سماعا باطنيا وملكوتيا مع أن القول الصحيح سماع أنين ذلك العمود وصياحه ظاهرًا بالأذن، وبعض العلماء الذين يشغلون أنفسهم بتأويل هذا القول وتوجيهه ينكرون مثل المعتزلة والفلاسفة أن الجمادات والنباتات والحيوانات يعرفون الله ورسوله وأنها تسبح الله سبحانه وتعالى تسبيحًا حقيقيًا، لأن أكثر علماء الكلام الذين اختاروا مذهب المعتزلة والفلاسفة حملوا الكلام والصيحة اللذين ظهرا من الجزع على المجاز قطعيًا وقالوا، لم يكن فى الجزع شعور حتى يصدر منه صوت، يمكن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أظهر الكلام كمعجزة للنبى ﷺ فى ذلك الوقت، لأن النطق والكلام والتقديس والتسبيح والخوف والخشية فى حاجة إلى العقل والعقل فى حاجة إلى الحياة والحياة فى حاجة إلى اعتدال مزاج وجوارح وأجهزة مستعدة للنطق والكلام، وإن التسبيح فى قول الله تعالى ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ (الإسراء / ٤٤) تسبيح بلسان الحال، وأولوا الخشية التى فى قول الله تعالى ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ٧٤) إنها انقياد وطاعة بناء على فحوى أن الخشية مجاز عن الانقياد وحملوها على الانقياد كما حملوا ما صدر من عمود الحنان من صياح على المجاز.

مثنوى

قل ما تقول ما لم يكن من يعلمون
ولك أن ترد كل ما يقولون
ما أكثر هؤلاء المتشككين
وهم فى شكهم يعمهون

ومع هذا فقد رد أصحاب المشاهدة والمشايخ الصوفية كما بين فى تفسيرى معالم التنزيل، وأبى الليث ردًا قويًا على جماعات الفلاسفة والمعتزلة وأبطلوا تأويلاتهم فى هذا الخصوص وأظهروا الحقيقة.

مثنوى

فـى مجـلس وعـظ يخـتـص بالحاضـرين
فيــه تـرى الشـباب والشـيوخ مزدحمـين
وقــع فــى الحيــرة أصــحاب الرســول
مـن صـيحة عمـود ذى عـرض وطــول

وقد عَرف كاشف الأسرار مولانا جلال الدين الرومى وهو من كبار أهل المكاشفة والمشاهدة وبين فى كثير من مواقع كتابه المثنوى الشريف أن الجمادات والنباتات والحيوانات تنطق وتسبح وتهلل.

مثنوى

كمـا تعـلم مـن يتجـه بالخطا إلى الله اعلم
أنـه مـن يقـطع العـلائق بيـنه وبـين دنيـاه
كـل مـن كـانت لـه صـلة بـالله وجـــد
الحبيــب وانقــطع عــن كــل مـا سـواه

حكاية

قال أحد الأشخاص من كبار المشايخ لإخوانه حتى يبين لهم درجة فيكنون له من المحبة ـ بقدر إدراكهم وفهمهم ـ ويبين لهم ماهية المحبة فى الحقيقة ويرشدهم كلهم مرة واحدة: «إذا كنتم تحبوننى، اخرجوا لهذه الصحراء وهاتوا لى زهر الشتاء على قدر محبتكم لى»، وقد جمع كل واحد من الدراويش الذين خرجوا إلى الصحراء بنية خالصة لكسب محبة شيخهم ما استطاعوا وحملوه إليه. وقد أحضر أحد الدراويش غريب الأطوار وأكثرهم عشقًا وقلبه مكشوف وكبده محروق بنار الحب الإلهى نَبْتَةً واحدة جافة خالية من الرائحة وعرضها على

شيخه، وعندما قال له شيخه يا ترى أنك تحبنى بهذا القدر فقط؟ ألا ترى أن إخوانك أتى كل واحد منهم بحزم من الزهر؟، فقال له الدرويش: «يا سيدى إن الحقير يحبكم أكثر من جميع الإخوان، إلا أننى كلما مددت يدى لأقطف زهرة وجدتها مشغولة بذكر الله وتسبيحه ورأيت ذلك بعينى وسمعت بأذنى، ومن هنا خفت من أن أكون مانعًا فى الاستمرار فى تسبيحها وذكرها فلم أتجرأ على قطفها، وهذه النبتة التى تجرأت على تقديمها لك كانت قد فرغت عن التسبيح والتهليل فاصفرت وذبلت وجفت فأخذتها وأتيت بها!!!» وبهذا بين أن النباتات تسبح الله وتذكره وتنطق وهى حية فَصَّلَ ذلك. انتهى.

وخلاصة الكلام إذا أراد الإنسان أن يسمع نطق النباتات بأذنه حقيقة يجب عليه أن يرفع من نفسه الموانع المعنوية والحجب البشرية وستائر العقلانية وهو يسعى لمعاشه أن يزيلها من فوق أسماع روحه وأن يجرد بصيرته من غشاء الغفلة والعمى وغطاء البطالة والكسل وإلا فالذين قد سدت أسماع عقولهم بسدادة الغفلة فلابد وأن ينكروا ذلك السر الجليل حاملين ذلك على المجاز. انتهى.

استطراد

اختلف المؤرخون فى الشخص الذى صنع منبر السعادة وقال بعضهم «أنه من صنع معمارى الكعبة المعظمة باقوم»، وقال بعضهم صنعه نجار يسمى «ميمونة» وقال بعضهم صنعه عبد العباس، فقابله قائلاً: «بما أن حضرة عثمان بن عفان خليفة رسول الله ﷺ قد خلص من اختيار عمل مرهق صعب فمن هنا فله عليكم حقوق كثيرة! لو لم يكن عثمان بن عفان على الدرجة الثالثة من منبر خطيب الإسلام ﷺ الزم على ذات عظمتكم أن تخطبوا فى أسفل السافلين من قبر الأرض» وبهذه الإجابة المح بأن طعن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ غير لائق؛ رحمة الله عليه رحمة واسعة.

فى ذكر عدد المرات التى جدد فيها منبر السعادة وعدد المرات التى عمر.

ظل المنبر الشريف إلى عهد الحكم ابن أبى سفيان على الهيئة التى صنعها باقوم النجار، كما ذكر من قبل.

أراد معاوية عندما عاد من مكة المكرمة أن يأخذ المنبر الشريف إلى الشام بعد أن أضاف إليه درجتين إلا أنه لم يوفق فى ذلك، وأحد أسباب عدم نجاحه فيه بل سببه المستقل المهم هو كسوف الشمس؛ لأنه قد حدث كسوف مفزع، عندما أمر بفك المنبر الشريف وحله فأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم فى السماء وتحولت مدينة الرسول إلى سجن مظلم واستولى الفزع والقلق على أهل المدينة وأخذوا يطلقون ألسنتهم ضد ابن أبى سفيان، وإذ رأى ابن أبى سفيان أن سكان دار السكينة سيقومون كلهم ضده وأن نقل منبر السعادة سيؤدى إلى شر عظيم وسيحطم القلوب، غير أفكاره بسرعة ومهد لها قائلاً: «ليس قصدى نقل المنبر الشريف إلى الشام! إذ رأيت بعض أجزاء منبر السعادة قد بليت بمرور الزمن، وخفت من سقوطه؛ لذا أردت أن أطهر وأسوى تحته وأن أصلح وأرمم أجزاءه التى مالت للسقوط والانهدام!!!» وبسط عذره بهذا الشكل فسكن من ثائرتهم وطمأن علماء المدينة بهذه الطريقة ثم قفل راجعا إلى الشام فى سنة ٤٩هـ.

وكان غرض معاوية من محاولة نقل منبر السعادة إلى الشام، بناء على قول ابن الأثير، هو أن يجافى أهل المدينة ويهينهم لأنهم تغافلوا عن قتل عثمان بن عفان وتهاونوا فى قتله، وحاول أن يأخذ عصا النبى ﷺ المحفوظة لدى سعد القرظى أيضًا، وكان أبو هريرة وجابر بن عبد الله قالا له لا يجوز انتزاع منبر النبى الذى وضعه بنفسه من مكانه إلا أنه لم يعر سمعًا لأقوالهما، إلا أن كسوف الشمس التى تنير العالم ـ كما عرف آنفًا ـ وظهور النجوم الزاهرة وانكشافها نهارا

جعله ترك التعرض لمنبر السعادة ولم يستطع أن ينفذ ما فى ضميره ومن هنا فهم أنه غير مصيب فى رأيه ومخطئ فى اجتهاده.

وقال بعض المؤرخين الذين ذهبوا إلى أن الذى أراد أن يقلع منبر السعادة من مكانه هو مروان بن الحكم.

أمر ابن أبى سفيان واليه فى المدينة المنورة مروان بن الحكم أن يقلع المنبر الشريف من مكانه وأن يرسل به إلى الشام وذلك من خلال الرسائل الخاصة، وقد فتح مروان ابن الحكم رسائل معاوية وقرأها وتجرأ أن يرسل بعض النجارين على أن ينتزعوا منبر السعادة من مكانه ليرسل إلى الشام، وذلك دون أن يخبر أحدا، إلا أن الجو اكفهر فجأة وأظلمت الدنيا حتى أصبحت العيون ترى عيونا كما أن عاصفة هوجاء ثارت وملأت قلوب الناس رعبًا فاستغرقوا فى بحار الهم والغم ومن هنا غير ابن الحكم رأيه بناء على هذا وغير الأمر الذى أصدره للنجارين وطلب منهم أن يضيفوا إلى المنبر ثلاث وعلى قول ست درجات وهكذا أوصل درجات المنبر إلى تسع درجات.

وأكثر المؤرخين على أن أحدًا لم يزد من درجات منبر السعادة قبل ابن الحكم كما أن أحدا من بعده لم يتجرأ على أن يقوم بهذا العمل المستكره وأثبتوا ذلك بإيراد أدلة مقنعة.

واستأذن المهدى العباسى الإمام مالك قائلاً: «إننى أريد أن أعيد المنبر الشريف لسابق عهده» وتصور أنه يستطيع أن يهدم الدرجات التى أضيفت من قبل مروان ابن الحكم وأراد أن يعيده لحالته الأولى على الهيئة التى صنعها باقوم النجار؛ إلا أنه قد تخلى عن فكرته هذه بناء على قول الإمام مالك: «قد صنع المنبر الشريف من خشب شجرة الطرفاء وسمر ما أضافه مروان على المنبر القديم» وبهذا قد أفهم المهدى أن ترك المنبر الشريف على حالته هذه لا يخلو من الحسنات، وبناء على هذه الرواية فإن الأمر يقتضى قبول الرواية الثانية وتصديقها، والتى مفادها أن مروان بن الحكم هو المتشبث بنقل منبر السعادة إلى الشام.

وقال ابن الأثير مبينًا أن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حاولا أن ينقلا المنبر الشريف إلى الشام إلا أنهما لم يوفقا فى ذلك، حينما أصبح عبد الملك بن مروان ملكا على بلاد الشام قام محاولا لنقل منبر السعادة إلى الشام إلا أن حضرة قبيصة بن ذؤيب قال له يا عبد الملك تذكر ما حدث فى عهد معاوية، وقرأ له الحديث الذى ورد فى حق المنبر الشريف.

وبناء على هذا تراجع عبد الملك عن فكرته هذه، وأراد الوليد بن عبد الملك أن يحقق فكرة أبيه فى أثناء حجه إلا أنه لم يوفق أيضًا فى مسعاه.

إن قاعدة منبر السعادة، الذى كان من اختراع باقوم ذراع مربع واحد وكان ارتفاعه ذراعين وكان له ثلاث درجات مع مقعده وتبتعد كل درجة عن الأخرى مقدار شبر واحد وفى الوسع شبرين وأضاف مروان بن الحكم فيما بعد لدرجاته ست درجات من الأسفل وبهذا ابلغ ارتفاعه إلى سبعة أذرع من حيث قاعدته كما أبلغ درجاته إلى تسع درجات؛ وبناء على هذا الحساب يلزم أن تصل درجات المنبر المنير مع مقعده إلى تسع درجات وارتفاعه إلى ستة أذرع، ولكن بما أن للمنبر القديم أساس طوله ذراع واحد فارتفاع المنبر ستة أذرع وطول سطحه ستة أذرع.

كان عرض باب المنبر القديم السعيد أى ما بين عموديه خمسة أشبار، وقد كسا مروان بن الحكم جميع درجات المنبر من جهاتها الأربع بخشب أبنوس فى غاية الرقة ما عدا الدرجة الثالثة التى كانت خاصة لجلوس النبى ﷺ، إذ غطاها بقطعة واحدة من خشب الآبنوس اللامعة كما رفع فوقها قبة حتى يحفظ مجلس النبى ﷺ من جلوس الآخرين.

والقباب المزينة التى ترفع فوق المنابر فى أيامنا هذه فكأنما للإشارة إلى الدرجة التى كان يجلس عليها صاحب الرسالة ﷺ.

قد قام الإمام البخارى «عليه رحمة البارى» بزيارة المنبر القديم الذى أعلى ارتفاعه وعمر درجاته مروان بن الحكم ذاتيًا وبين لأحبابه أن المنبر الشريف

محفوظ بألواح خشبية من الآبنوس وذكر لهم ذلك، وكان زوار تلك الأيام يحرصون على زيارة تلك اللوحة التى تشبه المسلة والتى وضعت فوق الدرجة الثالثة ويقتحمون المكان للتبرك، وهذا الحرص لاقتحام المكان يدل على أن المنبر القديم كان قد حفظ بألواح خشبية من الآبنوس.

وخلاصة القول بناء على تحقيقات المؤرخين ورواية الإمام البخارى وتعريفاتهم يثبت أن المنبر القديم قد رفع فوق المنبر الجديد الذى صنع فى عهد مروان بن الحكم، وقد أشرف المنبر الذى صنع فى عهد مروان بن الحكم على السقوط والخراب ومال للانهدام ومن هنا قد هدم حتى الأرض وجدد فى سنة ٥٧٨ هـ وقد صنع من قطع خشبه غير الصالحة للاستعمال أنشاطا وأرسل لأشراف المماليك والبلاد للتبرك بها.

قد وضعت لوحة خشبية أخرى فوق مستراح النبى فى المنبر المجدد وترك مكانًا مكشوفًا حتى يستطيع أن يتبرك به الناس وترك باب المنبر مفتوحًا أيام الجمع ليتبرك الناس بمستراح النبى وأغلقت بقية الأيام الأخرى، واحترق المنبر الشريف فى سنة ٦٥٤هـ مع مستراحه وظل المسجد الشريف بدون المنبر ومن هنا أرسل حاكم اليمن السلطان مظفر منبرًا جميلاً بعد سنتين من الحريق.

وكان للمنبر الذى أرسله الملك المظفر عمودان منحوتان من خشب الصندل فى غاية الجمال، وقد وضع اللآلئ مكان المنبر القديم وألقيت الخطب عليها ما يقرب من عشر سنوات، وفى سنة ٦٦٦هـ رفعوا هذا المنبر ووضعوا مكانه المنبر الذى أرسله «الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى».

وكان ارتفاع المنبر الذى أرسله ركن الدين البندقدارى أربعة أذرع وكان طوله يتجاوز سبعة أذرع وكان له تسع درجات وكان هذا المنبر بالنسبة للمنابر الأخرى ذات مميزات تستحق التقدير والثناء من وجوه شتى، وكان لهذا المنبر باب ذو مصراعين وفوق كل مصراع رمانة فضية وكانت الرمانتان تظهران فى داخل المسجد النبوى كجسمين فضيين محبوبين وكان فوق رمانة الباب الأيسر اسم صانعه وشهرته؛ وكان فى صحبة المنبر الشريف أحد صلحاء النجارين يطلق عليه

أبو بكر النجار حتى يضع المنبر فى مكانه ويركزه بالضبط، وكره هذا الشخص العود إلى بلاد مصر بعد أن وضع المنبر فى مكانه وظل فى المدينة المنورة إلى آخر عمره.

وقد وضع المنبر الذى أرسله ركن الدين البندقدارى فى مكانه ورصنت وأصلحت الأماكن التى تحتاج للترصين والإصلاح إلا أن أماكنه الملاصقة للأرض أخذت تَبْلَى فى سنة ٧٩٧ هـ وعلى هذا أرسل من قبل «الظاهر برقوق المصرى»[١] منبرًا فى غاية التزيين والترصيع وانتزع المنبر الذى أرسله «ركن الدين البندقدارى» من مكانه فى أواخر السنة المذكورة ووضع مكانه المنبر الذى أرسله «الظاهر برقوق» وبناء على هذا الحساب فإنه ما أمكن استخدام منبر ركن الدين البندقدارى الجميل أكثر من ١٣١ سنة.

وبعد أن وضع منبر «الظاهر برقوق المصرى» مكانه بثلاث وعشرين سنة أرسل «الشيخ المؤيد المصرى»[٢] منبرًا لطيف المظهر فرفع منبر برقوق ووضع مكانه منبر الشيخ المؤيد وذلك فى سنة ٨٢٠ هـ.

وكان المنبر الذى أرسل من قبل الشيخ المؤيد غاية فى جمال الصنعة ولا مثيل له ومزينًا وأجمل من المنبر القديم من حيث الصنعة ولكن لشدة الأسف قد احترق مع المسجد الشريف فى حريق سنة ٨٨٠ هـ وانمحى ذكره بعد وضعه فى مكانه لستين سنة.

وكان المنبر اللطيف سالف الذكر زاد ارتفاعا ستة أذرع وثمانية أصابع وكان طوله السطحى ثمانية أذرع واثنى عشر إصبعا وله تسع درجات وبين كل درجة فاصلة ذراع ونصف ذراع وكان موضوعًا فى جهة السور الخشبى الذى فى الناحية القبلية من الروضة المطهرة أى فى خارج الجدار القبلى الذى صنع فى عصر السعادة بثلاثة أذرع.

وظل مسجد المدينة بعد حريق ثمانمائة وثمانين مدة ست سنوات بدون منبر،

(١) هذا الشخص أول ملوك الشراكسة الذين حكموا مصر.

(٢) وكان الشيخ المؤيد رابع ملوك الشراكسة وكان معروفًا باسم الملك المؤيد الشيخ المحمودى الظاهرى.

وبما أن ملوك البلاد الإسلامية لم يرسلوا خلال هذه الفترة منبرًا ليوضع فى مسجد المدينة فبنى سكان دار السكينة فى مكان ما من المسجد منبرًا من اللبن ظانين أنه محل المنبر القديم وجصصوا داخله وخارجه وذلك فى سنة ٨٨٦ هـ وأخذ خطباء مسجد السعادة يخطبون فوق هذا المنبر، وبعد سنتين هدم هذا المنبر وقلع من مكانه وركز مكانه المنبر الذى أرسله «قايتباى» المصرى وبهذا تغير مكان المنبر الذى صنع فى عصر السعادة؛ لأن السلطان قايتباى المصرى كان قد صنع منبرًا حجريًا وأرسله، وذلك فى سنة (٨٨٨) هـ وقرر هدم المنبر الذى صنعه أهالى المدينة المنورة فى خلال شهر رجب الفرد من نفس العام، وحفروا الأساس ليوضع مكانه المنبر الجديد ولم يجدوا حيث حفروا أساس المنبر القديم فتركوا هذا المكان وحفروا مكانًا آخر؛ وظهرت بقية أساس المنبر القديم فى الجهة الشرقية من المكان المحفور للمرة الثانية، إلا أن القائمين لم يطمئنوا أن هذا المكان هو مكان الأساس القديم فتركوه وأمروا بحفر مكان آخر إلا أن علائم الأساس القديم لم تظهر فى هذا المكان أيضًا، وعلى هذا أصر شمس الدين بن زين متعمدًا على أن يوضع المنبر حيث حفر أول مرة أى فى المكان الذى بنى فيه أهل المدينة المنبر الترابى قبل سنتين مع أن أهل المدينة لم يفكروا فى التحرى عن أساس المنبر القديم كما أنهم لم يحاولوا بناء منبرهم على أساس المنبر القديم.

وقد أتى الإمام السمهودى بأدلة واضحة على أن المكان الذى حفر للمرة الثانية حيث وجدت بقايا الأساس القديم أنه المكان الذى وضع فيه باقوم النجار أساس المنبر الذى صنعه فى عصر السعادة، وبين أن المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى المصرى يجب أن يوضع فوق تلك الحفرة وكسب فى هذا الصدد كثيرًا من المؤيدين له من العلماء إلا أن «شمس الدين بن زين» أصر على فكرته وتنفيذ رأيه الفج، وادعى أن أهل المدينة حينما بنوا منبرهم فى سنة ٨٨٦ هـ بالتخمين بنوه على أساس المنبر القديم، وعلى هذا يجب أن يوضع هذا المنبر فوق أساس منبر أهل المدينة ولن أتنازل عن هذا، وابتدأ فى تنفيذ رأيه وأمر بردم الحفرة التى أشار إليها الإمام السمهودى وركز المنبر فى المكان الذى حفر أولاً ثم ترك بناء على

الشك فيه، لأجل ذلك وضع المنبر الجديد بعيدًا عن أساس المنبر القديم بثلاثة وعشرين أصبعًا فى الجهة القبلية يعنى قد أدخل المنبر الجديد مقدار ٢٣ إصبعًا فى داخل الروضة المطهرة بناء على إصرار شمس الدين بن زين فضاقت ساحة الروضة المطهرة مقدار ٢٣ أصبعًا عن مساحتها الأصلية وخلاصة القول أن المنبر الجديد قد أدخل قدر خمسة أصابع من المنبر القديم إلى الجهة الشرقية من المسجد الشريف وضع طول المنبر الجديد السطحى أطول من طول المنبر العتيق قدر ثمانية عشر أصبعًا ومن هنا صغرت الروضة المطهرة قدر ٢٣ أصبعًا.

استخدم المنبر الذى وضعه السلطان قايتباى المصرى تحت نظارة شمس الدين بن زين ما يقرب من مائة واثنتى عشرة سنة ولم يتقدم أحد بهذه الفترة لصنع منبر آخر أو إرساله، ولكن السلطان مراد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ من السلاطين العثمانيين المعروفين بكثرة خيراته وميراثه أراد أن يقوم بخدمة خاصة بنية خالصة للمدينة المنورة؛ ولذا أرسل منبرًا مزينًا فى غاية الجمال والصنع وأرسل معه كثيرًا من النجارين المهرة والمهندسين المتفننين وأمر أن يوضع هذا المنبر مكان منبر السلطان قايتباى المصرى وأن يعمر ويجد له ما يقتضى تعميره وتجديده من مسجد السعادة بهذه المناسبة.

وبين أهالى المدينة للسلطان أن مسجد السعادة ليس فى حاجة إلى التعمير والتجديد وإن كان تنفيذ الأمر السلطانى واجبًا على كل فرد إلا أن تجديد المسجد بدون مسوغ شرعى لا يجوز، إلا أن السلطان أمر مؤكدًا أن يوضع المنبر الجديد الذى أرسله فى المكان الذى عينه مطلقًا وأن تصلح الآثار الأخرى التى تحتاج التجديد والإصلاح ومن هنا قلعوا المنبر القديم ووضعوا مكانه المنبر الجديد الوارد من استانبول وذلك فى سنة ٩٩٨ هـ.

وكان للمنبر الذى أرسل من قبل السلطان مراد تسع درجات فى داخل بابه وثلاث درجات فى خارجه وكانت جملة درجاته اثنتى عشرة درجة ويصعد إلى

باب المنبر من الأرض بثلاث درجات وكانت ظلة علمه من الفضة وكان غطاؤه من جوخ أحمر وستارة بابه من الأطلس الأخضر.

بعد وضع المنبر الذى أرسل من باب السعادة فى مكانه نقل المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى إلى مسجد قباء وبعد ما تم وضع ذلك المنبر فى مكانه، أصلحوا وعمروا المساجد التى تحتاج إلى الإصلاح وكذلك الأماكن المقدسة الأخرى، والمنبر الكائن الآن هو ما أرسله السلطان مراد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ من باب السعادة ومازال جديداً كأنه صنع اليوم.

قد جدد المنبر الذى صنعه وجدده مروان بن الحكم سنة ٥٧٨ هـ ومع ذلك جدد وبدل ثمانى مرات فى خلال ثلاثمائة وإحدى وسبعين سنة، وقد أرسل منبر السلطان مراد قبل يومنا هذا بـ ٣٠٣ سنة ومع ذلك ظل سليمًا متينًا وكأن النجارين قد انتهوا من صنعه اليوم، وإذا ما نظر لهذا يفهم مدى متانة هذا المنبر ورصانته.

إن المنبر اللطيف الذى أرسل ليوضع فى ساحة مسجد السعادة ذات الفيوضات بكل تعظيم وتوقير من باب السعادة صنع من رخام مجلى وحك أعلى طاقته هذا التاريخ بعبارة سلسلة.

أرسل السلطان مراد بن السليم
مستزيداً خير زاد للمعاد
دام فى أوج البلاد سلطاننا
آمنًا فى ظله خير البلاد
نحو رضى المصطفى صلى الله على
ربنا الهادى به كل العباد
منبر قد أسست أركانه
بالهدى واليمن من صدق الفؤاد

منبـــر يعـــلى الهـــدى أعـــــلاه

دام منصـــوراً لأصـــحاب الرشـــــاد

قـال سـعد ملهـمًا تاريـخه سـلطان مـراد

منبـــــر عمـــــــر ســـــــنة ٩٩٨

وبعد وضع منبر السلطان مراد فى موضعه تم نقل منبر السلطان قايتباى إلى مسجد قباء، وتمت إقامة مدرسة تقابل مسجد قباء ومدرسة أخرى بالقرب من مسجد الصديق، وتم بناء رباط وخصصت واردات كافية لمعاش سكانه، وبعد المحاسبة وجد أنه قد بقيت مبالغ كثيرة ورخام ولما تحقق ذلك استخدم هذا الرخام والعقود فى بناء محفل لمؤذنى حرم باب السعادة للتكبير محفلاً فى غاية الجمال فى سنة ٩٩٨ هـ.

إن مقصورة المؤذنين كانت مصنوعة من الرخام الخالص وبما أن مسجد السعادة كان خاليًا من المقصورة للمؤذنين فى ذلك الوقت، سر جميع مسلمى الأرض من بناء هذه المقصورة وقرءوا الفاتحة داعين للسلطان، ولما جدد والد السلطان كثير المحامد السلطان عبد المجيد بصورة أجمل من المقصورة سالفة الذكر أسس مكبرية من الخشب أيضًا فى سنة ١٢٦٧هـ.

والمقصورة الرخامية فى داخل الروضة المطهرة والمكبرية الخشبية فى نهاية الحرم الشريف، وإن كانت المقصورة الرخامية خاصة بالأيام العادية، والمقصورة الخشبية للتكبير خاصة بالمواسم وأيام الأعياد والحج إلا أنه فى الأعياد والمواسم يقوم المؤذنون بالتكبير فى كلتا المقصورتين ليسمعوا أصوات التكبير لجماعات المصلين كلهم.

إخطار

يطلق على الأماكن التى تمتد من صفة أصحاب الصفة إلى المئذنة السليمانية ومن هنا إلى المئذنة المجيدية ومن المئذنة المجيدية إلى باب الرحمة، تحت القبة وقد زينت نوافذ هذه وجميع القباب بالزجاج الملون ليمنع دخول المطر والغبار

وتركت أطراف بعضها مكشوفة لدخول الضوء والنور وكلها قد صنعت فى صورة محكمة رصينة قوية.

بدل الخلفاء العباسيون ستارة باب منبر السعادة وأعدوا ستارة من الحرير الأسود المنسوج واتخذوا تعليق الستارة السوداء عادة لهم، واستصوبوا ترك الستارة معلقة ليلاً ونهارًا وتركوا إجراء ذلك لشيخ خدم الحرم الشريف؛ وبعد ذلك تذكروا الحادث الذى وقع فى أيام عبد الله بن الزبير وقرروا أن تعلق الستارة فى أيام الجمع خائفين من وقوع تلك الحادثة مرة أخرى؛ لأنه حدث أن سرقت امرأة فى عهد عبد الله بن الزبير ستارة المنبر الشريف وأقيم عليها الحد الشرعى وقطعت يدها.

اعتاد البغداديون تجديد ستارة المنبر الشريف وكانوا يرسلون ستارة كل سنة، وتكاثرت مع مرور السنين الستائر فى خزانة النبى ومن هنا تقرر فى خلال سنة ١٣٨ هـ وفى عهد عبد الله الحارثى أمير المدينة إرسال ستارة كل ست سنوات مرة، وأرسلت فيما بعد كل سبع سنوات، وفيما بعد كل عشر سنوات. إلا أنه فى زماننا ترسل من عيد الجلوس إلى عيد الجلوس، إلا أن السلطان محمود بن عبد الحميد والسلطان عبد المجيد خان المرحومين أرسلا مرتين كل سنة.

كانت هذه الستائر ترسل إلى المدينة فى صورة غير منتظمة إلى دور إسماعيل بن محمد ناصر الصالحى من الملوك المصريين وهذا الشخص قد أخذ من بيت مال الحكومة المصرية قرية ووقفها لصنع كسوة لمنبر السعادة والحجر الشريف فى مصنعها وجعل ذلك من عاداته الحميدة وبناء على هذا كانت هذه الستائر تبدل كل خمس سنوات أو ست سنوات على قول آخر، أما فى زماننا فلا ترسل كسوة بل ترسل ستارة وكانت هذه الستائر تعلق يوم الجمعة إلى الانتهاء من إقامة صلاة الجمعة وبعد ذلك كانت ترفع بواسطة موظفين خاصين وتوضع فى المخزن الذى بجانب باب جبريل، وإن كان حفظ ستائر المحاريب والستائر التى تعلق فى شبكة حجرة السعادة حفظها فى المخزن سالف الذكر من الأصول المتبعة؛ إلا أنها لا

تعلق فى أيام الجمع بل ينحصر تعليقها على أيام مواسم الحج إذ تعلق عندما يأتى الزوار لزيارة المدينة المنورة وكانت هذه الستائر كلها مصنوعة من الأقمشة الغالية ونقشت على الأطلس الأخضر بخيوط من ذهب خالص العيار ونقشت عليها الأماكن الخاصة بتعليقها كما أن فى زواياها نقشت أسماء الخلفاء الراشدين.

إلى قرب تولى مشيخة شيخ الحرم المرحوم حافظ محمد باشا لم يكن تعليق الستائر فى شبكة السعادة من الأصول المتبعة ومن هنا كلما كنس مسجد السعادة امتلأت شبكة الحجرة الشريفة بالغبار، وبلغ المرحوم حافظ باشا والأهالى عتبة باب السلطان وعرض عليه أن تعلق حول شبكة السعادة ستارة كما أرسل مقاييس الستائر اللازم صنعها من حيث الطول والعرض والارتفاع.

وبناء على الأمر الصادر من السلطان صنعت ستائر من أطلس أخضر فى غاية جمال الصنع والزينة وأرسلت إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٨٢ هـ.

وكانت هذه الستائر مكونة من أربع قطع كل قطعة من جزئين منفصلين إلا أنها حينما وصلت إلى المدينة الطيبة كان حافظ باشا قد ودع الحياة، وقد سمر العدد الكافى من المسامير إلى الكمر التى تحمل قبة السعادة أى القبة الصغيرة الجميلة التى تحت القبة الخضراء وعلقت الستائر الواردة على هذه المسامير فى سنة ١٢٨٢هـ.

فى بيان الأساطين التى ركزت فى مسجد السعادة فى عصر النبى السامى ﷺ.

كانت الأساطين الأصلية لمسجد السعادة ثمانية أعمدة موزونة متساوية، وقد زيد مؤخرًا عدد أساطين المسجد الشريف المنيفة إلا أننا سنذكر هنا عدد الأساطين الشريفة التى كانت فى عصر السعادة فقط وسنخبر عن عدد الأساطين التى فى زماننا فى ذيل الصورة على شكل استطراد.

١ـ الأسطوانة المخلقة: هى الأسطوانة الأولى التى كانت فى عصر النبوة والتى كانت علامة على مُصَلَّى النبى ﷺ وقد اشتهرت بالأسطوانة المخلقة لأنها قد عطرت بالطيب.

كانت النخلة التى يستند إليها سلطان الأنبياء ـ عليه أجمل التحايا ـ متصلة بهذه الأسطوانة، وبناء على ما عرف قبل هذه الصورة وفى الصورة السابقة كان كرسى الشمعة الذى يقع يمين الإمام الذي يقف على محراب النبى مكان النخلة التى سبق ذكرها.

كان سلمة بن الأكوع يصلى دائمًا فى هذا المكان اللطيف وإذا ما سئل عن سبب ذلك يجيب قائلاً: إننى رأيت النبى ﷺ يصلى فى هذا المكان، يروى عن الإمام مالك بن أنس أنه قال: «إن أقدس مكان لأداء النوافل هو المكان الذى كانت فيه الأسطوانة المخلقة»، إلا أن فى الفرائض يلزم أن تصلى فى الصف الأول، قد كتبت على هذا العمود «هذه الأسطوانة المخلقة وتعرف الأسطوانة المخلقة بهذه الكتابة من بين الأساطين وبعض أجزاء هذه الأسطوانة ملصقة بجدار المحراب النبوى».

٢ـ أسطوانة عائشة: ولهذه الأسطوانة الموزونة ثلاثة أسماء أخرى وهى:

«أسطوانة القرعة، وأسطوانة المهاجرين، وأسطوانة المخلق» وقد كتب عليها بخط جلى جميل: «هذه أسطوانة عائشة رضى الله عنها» وهذه العبارة قد ذُهِّبَتْ وزينت بحالة جيدة ومن هنا نستطيع أن نحكم بأن هذه الأسطوانة لائقة بأن تكون أسطوانة عائشة.

إن هذا العمود المبارك كان فى وسط المسجد الشريف وكانت هذه الأسطوانة قبل توسيع المسجد الشريف الأسطوانة الثالثة من منبر السعادة كذلك الأسطوانة الثالثة من قبر الرسول وكذلك الثالثة من جدار القبلة وكذلك الأسطوانة الثالثة من جهة الشام، وكان فخر العالم ﷺ يؤدى صلاته فى هذا المكان المقدس بعد تحويل القبلة بعشرة أيام وكان يخاطب أصحابه مستندًا لهذا العمود، ونقل مكانه فيما بعد إلى المحراب القديم السعيد.

وقد اعتاد كل من الصديق والفاروق الأعظم وعبد الله بن الزبير بن العوام وعامر بن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهم ـ أداء الصلاة بجانب هذا العمود كما اعتاد المهاجرون الكرام أن يجتمعوا محلقين حول هذا المكان ليتداولوا الأفكار، وقد قال ملك ممالك الرحمة ـ عليه أجمل التحية ـ فى حق الأسطوانة المذكورة «إن فى مسجدى بقعة إذا كان الناس يعرفون قيمة هذا المكان وقدره لكانوا يجرون القرعة ليصلوا إلى هذا المكان محرمين» وهذا القول كان سببًا فى اشتهار ذلك العمود بأسطوانة المهاجرين وأسطوانة القرعة.

عندما نقلت أمنا عائشة زوجة الرسول ﷺ هذا الحديث أسرع أبناء الأصحاب الكرام الذين كانوا عندها باستكشاف ذلك المكان إلا أنهم لم يجدوا ذلك المكان بعد ما بذلوا جهودًا مضنية وإذا بعبد الله بن الزبير كان قد ظل فى المكان المشار إليه ليعرف ذلك الموقع المبارك، وقال أبناء الصحابة من الممكن أن تكون السيدة عائشة قد عرفت بمكان تلك البقعة المباركة لعبد الله بن الزبير ومن هنا جلسوا فى مكان خفى بعد أن تشاوروا فيما بينهم ليروا أين سيصلى عبد الله بن الزبير بعد خروجه من بيت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وبعد مدة دخل عبد الله بن

الزبير فى مسجد السعادة واستقبل أسطوانة المهاجرين وعلى قول آخر صلى على يمين تلك الأسطوانة وعلى هذا فهموا أن تلك البقعة المباركة التى ذكرت فى الحديث الشريف المكان الذى ركبت فيه أسطوانة المهاجرين فاعتادوا الصلاة فى ذلك المكان طول حياتهم.

وذهب بعض الرواة إلى أن البقعة المباركة المذكورة فى الحديث الشريف فى وسط قبر السعادة والمنبر الشريف، وقالوا، إن الدعاء الذى يقال فى هذا المكان يستجاب ويقبل لدى الله سبحانه وتعالى.

٣ـ **أسطوانة التوبة**: يقال لهذا العمود الشريف أسطوانة أبو لبابة[١] أيضًا. وسبب تسميتها بهذا الاسم أنه ربط نفسه بهذه الأسطوانة، إذ كان أبو لبابة يتلاقى كثيرًا مع بنى قريظة فى الجاهلية.

ولما عجز بنو قريظة فى غزوة بنى قريظة عن مقابلة قائد كتيبة العز والعلا ـ ﷺ ـ طلبوا من النبى ﷺ راجين أن يرسل لهم أبا لبابة حتى يستعلموا منه طريق السلامة والنجاة، وقد استجاب لرجائهم فأرسل أبو لبابة داخل حصن بنى قريظة حيث استقبل بصيحات اليهود وعويلهم الرذيل ومزقوا وجوههم نادمين متحيرين وارتموا على الأرض من مكان لآخر وقالوا لأبى لبابة أبا لبابة! قل لنا الحقيقة حتى لا نضيع حقوقنا السابقة عليك، ما رأيك فى هذا الخصوص؟ هل نخرج من حصننا بناء على حكم محمد العالى؟ أم نستمر فى مقاومتنا؟ كيف ستنجو سفينة حياتنا؟ ما الرياح التى نتبعها حتى نرسل إلى ساحل السلامة؟ كيف يمكن النجاة من هذا الطوفان الذى سيغرق المال والثروة؟ وما الجهة التى يجب أن نتجه إليها حتى يمكن النجاة؟. وتعلقوا بأطراف ثوبه صائحين متضرعين.

وبما أن تعبيرات اليهود الرقيقة وكلماتهم التى تثير الشفقة والرحمة قد أثرت فى ضمير أبى لبابة فقال لهم: «يا قوم شؤم! ليس هناك طريق للسلامة غير الانصياع لحكم الرسول والخروج من الحصن وتسليم أنفسكم إلى الرسول ﷺ»

(١) أبو لبابة أخو بنى عمرو بن عوف بن الأوس.

وبعد هذه الإجابة أشار إلى حلقة، وكأنه يريد أن يلمح ويومئ أنهم حتى إذا خرجوا إلى الخارج من حصونهم ليسلموا أنفسهم لن ينجوا أن يكونوا طعمًا لحد السيف وكان غرضه من هذه الإشارة أن يشفق لحالة اليهود الميئوسة؛ ولكنه فى النهاية فهم الخطأ الذى وقع فيه سهوا وندم قائلاً يا ويلاه! إننى خنت الله ورسوله ثم عاد إلى المدينة المنورة دون أن يظهر لرسول الله، وجعل نفسه مقيدًا لتلك الأسطوانة، وقرر فى نفسه ألا يحل قيده حتى تقبل توبته وألا تطأ أقدامه حيث وجد بنو قريظة، حتى إن فى أوقات الصلاة كانت زوجته العفيفة تأتى وتحل قيوده وبعد أداء الصلاة كانت تربطه مرة أخرى، ودامت هذه الحالة أكثر من عشر ليال حتى أصاب أذنيه الصمم من صوت السلاسل وأصبحت عيناه لا تبصران ولما عرض أمره على قائد جنود الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا.

وظل مربوطًا ست أو خمس عشرة ليلة على اختلاف الروايات إلى أن قبلت توبته وأبلغت الكيفية بالآية المنزلة للنبى ﷺ فتفضل النبى ﷺ، بحل سلاسل يديه المباركتين، حتى إن بعض الأصحاب الكرام قد أخطروا أبا لبابة بنزول الآية بخصوص إطلاق سراحه وأرادوا أن يفكوا سلاسله إلا أنه قد أقسم قائلاً لا، يجب أن يفك النبى السلاسل بذاته فلا أقبل أن يحلها الآخرون وبناء على هذا تلطف معدن الرحمة والشفقة بحل سلاسله بذاته وإطلاق سراحه، وأطلق بعد هذه الحادثة المشهورة على هذا العمود أسطوانة أبى لبابة بن المنذر.

قالت طائفة من المؤرخين إن سبب حدوث هذه الواقعة أى أن قيد أبى لبابة نفسه إلى أسطوانة التوبة وربطه نفسه هو تخلفه عن الاشتراك فى غزوة تبوك لأن النبى ﷺ عندما عاد قال لأبى لبابة لماذا تخلفت عن هذه الغزوة؟ فاضطرب أبو لبابة من السؤال ولم يجد جوابًا وذهب إلى الأسطوانة التى أمام غرفة أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وربط نفسه وأخذ يتجرع مصاعب الصبر والتحمل وأخذ يستغفر ما يقرب من سبعة أيام وفى النهاية نزلت الآية الكريمة التى تفيد قبول توبته فحلت سلاسله بواسطة السيدة أم سلمة، وقال بعضهم أيضًا إن ثمامة بن أثال الحنفى أيضًا قد قيد لتلك الأسطوانة.

كان إمام صف الأنبياء ـ عليه لوائح التحايا ـ كان يؤدى صلوات النوافل عند أسطوانة التوبة وفى كل صباح عقب الصلاة يتكئ على تلك الأسطوانة الموزونة ويحادث أصحابه.

وكان المساكين الضعفاء ومرضى المدينة والمسافرون والمؤلفة القلوب من الموحدين والمسلمون بلا مأوى ولا مسكن يجلسون بعد أداء صلاة الصبح وكان طبيب مرضى قلوب الأمة ـ عليه أطيب التحية ـ يشرف هذه الجماعة ويستند على تلك الأسطوانة ويقرأ الآيات التى نزلت تلك الليلة أو يفسر الرؤيا للذين رأوا الرؤيا فى تلك الليلة ويعرضونها على النبى ـ عليه السلام ـ ويستمر جالسًا فى ذلك المكان إلى طلوع الشمس.

وزادت تلك الجماعة وازدحم المكان إلى درجة لم يجد بعض الناس مكانًا للجلوس حتى أصبح التنفس صعبًا، وفى يوم من الأيام ضاق أشراف المدينة من كثرة الازدحام وتضايقوا، وأظهر بعض الناس سأمهم ومللهم فأنزل الله سبحانه وتعالى: «الآية الكريمة»

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. (الكهف: ٢٨).

فشغل الذين أظهروا مللهم وضيقهم بعرض ندمهم الشديد واستغفارهم.

كان سيد الخلق سيدنا محمد يعتكف بجانب هذه الأسطوانة وكان يأمر ببسط فراشه خلف أسطوانة أبى لبابة وفى رواية أخرى أن سرير فرشه يبسط فى الجهة القبلية من تلك الأسطوانة وكان يستند فى أيام اعتكافه على ذلك السرير. وبين أسطوانة التوبة والقبر الجليل أسطوانة أخرى.

وبناء على قول عبد الله بن عمر أن أسطوانة أبى لبابة هى الأسطوانة الثانية من جهة القبر النبوى والرابعة من جهة المنبر الشريف ومن جهة الساحة

الرملية الثالثة وتبعد عن المضجع النبوى عشرين ذراعًا، وتقع أسطوانة أبى لبابه بين أسطوانة عائشة والأسطوانة الملاصقة لشبكة الحجرة المعطرة وفى وقتنا هذا فهى الأسطوانة الرابعة من جهة المنبر المنير النبوى ومن جهة قبر النبى الجليل الثانية ومن الجهة القبلية الثالثة ومن جهة الساحة الرملية الأسطوانة الخامسة.

يروون وجود محراب بجانب عمود التوبة كعلامة مميزة له قبل الحريق إلا أن ذلك المحراب قد احترق فى الحريق الثانى ولم يصنع بعد ذلك، وإن كان قد ذهب بدر بن فرحون من علامة المؤرخين إلى أن المحراب وهو العلامة المميزة لأسطوانة التوبة كان ملاصقًا لشبكة حجرة السعادة إلا أن مؤرخى الأسلاف جرحوا رأى ابن فرحون وقالوا إن المحراب المذكور كان بجانب أسطوانة أبى لبابة، وأتوا بدلائل مقنعة تحمل على تصديق أقوالهم ومن هنا فقول ابن فرحون موضع شك وشبهة.

قد حُكَّت على هذه الأسطوانة بخط جلى نفيس عبارة «هذه أسطوانة أبى لبابة وتعرف بالتوبة» بذهب خالص العيار ونقشت بذهب.

٤ـ أسطوانة السرير:

وبما أنَّ سرير سيد البشر المصنوع من خشب النخلة بناء على قول الأكثرية كان بجانب الأسطوانة الرابعة ذات إعجاز ظل اسم هذه الأسطوانة أسطوانة السرير وكتب عليها بخط جلى نفيس عبارة «هذه أسطوانة السرير» حُلِّيَتْ بذهب والعمود المذكور بين القبر الشريف وقناديل الروضة المنيفة وبناء على تعريف الإمام السمهودى فهى الأسطوانة التى فى الجهة الشرقية من أسطوانة التوبة والملاصقة للشبكة السعيدة.

ظل السرير النبوى قبل توسيع المسجد الشريف فى صورة دائمة بجانب أسطوانة التوبة وبعد أن تفضل معمار بنيان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ بتوسيع الجهة

الشرقية من المسجد الشريف نقل السرير بجانب أسطوانة السرير، والأسطوانات الثلاث التى عرفت قبل هذه الأسطوانة قد ركزت من جهة المنبر الشريف إلى جهة قبر السعادة فى صف واحد؛ وليست هناك أسطوانة ملاصقة بالشبكة الشريفة بين هذه الأسطوانات إلا هذه الأسطوانة النصفية أى الأسطوانة التى نحن بصدد تعريفها وهى أسطوانة السرير، وإن هذه الأسطوانة النصفية من المحقق أنها ركزت عندما أسس الأشرف قايتباى المصرى القبة الجسيمة فوق حجرة السعادة وبما أنها كانت تجاور حجرة السعادة كتبت عليها عبارة هذه أسطوانة السرير.

٥ـ **أسطوانة المحرس:** إن هذه الأسطوانة فى الجهة الشمالية من أسطوانة التوبة فالذين يذهبون من دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى الروضة المطهرة تقابلهم هذه الأسطوانة. وكان سادات المدينة يجتمعون فى الأوائل لأداء صلواتهم بجانب هذه الأسطوانة.

ولما كان على بن أبى طالب يداوم على أداء الصلاة بجانبها وكان يقوم الليالى على حفظ النبى ﷺ من مكائد الأعداء بجانبها عرفت هذه الأسطوانة باسطوانة على بن أبى طالب كما نقش عليها بماء الذهب عبارة «هذه أسطوانة الحرس»، وذُهِّبَتْ.

٦ـ **أسطوانة الوفود:**[1] هذه الأسطوانة خلف أسطوانة المحرس من جهة الشمال أى أنها أمام المكان الذى أضيف إلى المسجد الشريف لتوسيعه، وفى اتصال الشبكة التى بين مربع القبر الجليل والحجرة المعطرة، وكان النبى ﷺ يستقبل وفود العرب أى السفراء الذين بعثتهم القبائل العربية بجانب هذه الأسطوانة وقد أدى اجتماع أفاضل الصحابة الكرام بجانب هذه الأسطوانة إلى اشتهارها بمجلس القلادة كانت أسطوانة الوفود قد نُقِش عليها عبارة بخط جلى لا مثيل له «هذه أسطوانة الوفود» وأطلق على باب الشبكة الذى بين أسطوانة المحرس وهذه الأسطوانة باب الوفود.

(١) أحد أسماء أسطوانة الوفود مجلس القلادة.

إخطار

مؤلف تاريخ «نزهة الناظرين فى مسجد سيد الأولين والآخرين» وهو آخر مؤرخى المدينة ومسقط رأسه مهجر النبى ـ عليه السلام ـ يقول مخطئًا المؤرخين القدماء فى الأساطين المأثورة، إن الذين عينوا الأساطين التى كتبت عليها أسماؤها مثل الوفود والمحرس يعنى الذين كتبوا على الأسطوانات هذه الأسطوانات أسطوانات الوفود والمحرس بما أنهم كلفوا كتابتها دون أن يطالعوا كتب ابن زبالة، ابن النجار، والمطرى والسمهودى من المؤرخين القدامى كذلك كتب المؤرخين الذين أتوا قرب الألف من الهجرة النبوية، لذلك ارتكبوا خطأ كبيرًا، وهاتان الأسطوانتان اللتان كتبا عليهما أسماءهما ليستا الوفود والمحرس المأثورتين إننى قمت بمطالعة عريضة وعميقة بقراءة كتب المتقدمين ورسائل المتأخرين، وطالعت تاريخى المطرى والإمام السمهودى وكتاب الجوهر المنظم للعلامة ابن حجر وشرح ابن علاء على إيضاح النووى «والدرة المضيئة» للعلامة على القارى «والذخر النافع» للعلامة محمد بن سليمان الكردى المدنى وأمررت نظرى على الآثار النفيسة للأشخاص الآخرين على حدة، وكل هذه الكتب من الآثار النادرة التى ألفها العلماء الأعلام من الحنفية والشافعية والمالكية، وكلها يصدق فكرى، وإن كان العلامة القليوبى يدعى صحة الأسماء التى كتبت على الأسطوانتين الوفود والمحرس إلا أنه أخطأ فى مذهبه هذا؛ إذ زار هذا الشخص المدينة المنورة ورأى الكتابة فوق هاتين الأسطوانتين وظن أنها كتبت بعد التحقيق فمن هنا أدرج فى كتابه ونقله بعينه، مع أن هذه الكتابات كتبت بناء على الأمر الصادر من السلطان سليم مع قصيدته التى نظمها بالذات على الأسطوانات عندما أمر بتعمير أسطوانات مسجد السعادة فى خلال سنة ألف وزار ابن حجر المكى المدينة ذاتيًا فى سنة ٩٥٦ هـ وألف كتابه نادر الذكر «الجوهر المنظم» ووجد الأسطوانتين المذكورتين بعد تدقيقات كثيرة وأدرجهما فى كتابه بعد ذلك، لأنه بالذات ولا العلماء الذين أتوا قبله لم يقتنعوا بصحة العبارات التى كانت مكتوبة عليها وبما أن العلامة ابن سليمان قد كتب أثره الذخر النافع فى المدينة سنة ١١٥٨ هـ، وكتب

عن الأسطوانتين السابقتين ما يؤكد تحقيقنا، وقد بين ابن سليمان فى كتابه المذكور ما كتب على هاتين الأسطوانتين ولم يعرف جهتهما، إذ قال: «إن أسطوانة المحرس التى خلف أسطوانة التوبة من الجهة الشمالية كتب عليها هذه أسطوانة على ـ رضى الله عنه ـ كما كتب على أسطوانة الوفود التى تقع خلف هذه الأسطوانة: «هذه أسطوانة الوفود» ويفهم من تعريف ابن سليمان أنه قد تبدلت مواقع الأسطوانتين وغيرت كتاباتها خطأ، إذ كتبت على الأسطوانة التى خلف أسطوانة السرير من الجهة الشمالية عبارة «هذه أسطوانة الحرس» والأسطوانة التى خلف هذه الأسطوانة من الجهة الشمالية كتبت عبارة «هذه أسطوانة الوفود» إن خطأ نقل هذه المكاتبات إلى الأسطوانتين سالفتى الذكر حدث من ذهاب ابن فرحون إلى أن الأسطوانة الملاصقة بالشبكة أسطوانة التوبة، لأن الذين كلفوا بكتابة هذه الكتابات ظنوا أن أسطوانتى الوفود والحرس خلف أسطوانة التوبة من الجهة الشمالية فكلفوا بكتابة العبارات السابقة فوق الأسطوانتين الملاصقتين خلف الشبكة وهذا يؤيد رأى ابن فرحون ويصدقه، مع أن الأسطوانة الملاصقة بالشبكة أسطوانة السرير، وإننى قد راجعت الباشا شيخ الحرمين لنقل هذه الكتابات إلى الأسطوانتين اللتين خلف أسطوانة التوبة بعد أن استشرت أفاضل علماء أهل المدينة وذلك فى سنة ١٢٨٧ هـ.

وقد استصوب فكرى سواء أكان أمين باشا أو قاضى المدينة محمد توفيق أفندى ولم يعيرا آذانًا صاغية لوشايات الفرقة المخالفة، ولكن بما أن أمين باشا قد انفصل عن المشيخة لم يتيسر تحقيق المرام.

٧ـ **أسطوانة مربعة القبر**: إن أسطوانة مربعة القبر الجليل فى مكان يطلق عليه مقام جبريل أى فى اتصال الانحراف الغربى الشمالى وهو عمود موزون.

وبما أنه بين أسطوانة الوفود وأسطوانة مربعة القبر الشريف وفى اتصال شبكة الحجرة المعطرة أسطوانة أخرى، فأسطوانة الوفود، الأسطوانة الأولى وأسطوانة مربعة القبر الثالثة والأسطوانة الموجودة بين الاثنين الأسطوانة الثانية بالنسبة

للأسطوانتين وبما أن باب دار سعادة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان بجانب أسطوانة مربعة القبر الجليل كان النبى ﷺ يفتح باب الدار المشار إليها كل صباح ويورد بالآية الجليلة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. (الأحزاب: ٣٣). وعلى قول يقول ملاطفًا كريمته المحترمة الصلاة الصلاة ويلمح أن الوقت قد حان لإيقاظ الحسنين لأداء الصلاة.

قال العلامة ابن سليمان يجب ألا ينسى أداء الصلاة فى هذا المكان؛ لأن باب دار السيدة فاطمة كان هنا، هذا ما قاله لى مسلم.

وبما أن أسطوانة مربعة القبر الجليل والأسطوانة غير المسماة سالفة الذكر قد أدخلتا داخل الحجرة المعطرة لا يستطيع الزوار الكرام أن يتنعموا بزيارة هاتين الأسطوانتين ومحراب فاطمة والأسطوانة التى تحمل هذا المحراب وبما أن ذلك المكان المذكور يحاذى قبر السعادة لا يستطيعون حتى أداء الصلاة فيه.

وكان علماء الأسلاف قد اعترضوا على عمل الشبكة التى تحيط بحجرة السعادة كما اعترضوا على غلق الأبواب التى تفتح لهذه الشبكة وسدها حين صنعها ولكن اعتراضهم لم يفد شيئًا.

٨ـ **أسطوانة التهجد:** بما أن إمام المجتهدين ـ عليه السلام ـ قد اعتاد أداء صلاة التهجد بجانب هذه الأسطوانة اشتهرت بأسطوانة التهجد.

كان سيد الأبرار بعد أداء صلاة العشاء وانصراف الأصحاب الكرام إلى منازلهم يفرش بجانب أسطوانة التهجد قطعة من الحصير ويداوم على أداء صلاة الليل، وكان ينصب فى هذا المكان خيمة من الحصير ويعتكف فيه فى الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، وقد أطلع على هذا الأمر المدققون من الأصحاب فأخذوا يؤدون صلاة الليل مقتدين بالنبى والذين رأوهم فعلوا مثلهم فزاد عدد المصلين صلاة الليل مع مرور الأيام ورفع سيد الواقفين على أسرار الحكمة ﷺ حصيرته فى ليلة من الليالى ودخل إلى حجرته، وقال لأصحابه الكرام الذين

استقصوا على الأمر متأسفين: «خفت من أن تفرض عليكم صلاة الليل! لأنكم غير قادرين على أداء صلاة الليل». وهكذا بين لهم ما فى ضميره.

تقع أسطوانة التهجد خلف الجهة الشمالية من المنزل الخاص بالسيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وبنى فى المحل المذكور مؤخرًا محرابٌ أشار إلى المكان الذى كان يتهجد فيه النبى ﷺ والذين يستقبلون ذلك المحراب يكونوا قد جعلوا باب جبريل على شمالهم وباب الرحمة على يمينهم.

يخبرنا المؤرخون مؤكدين على صحة إقامة محراب فى المكان الذى كان يتهجد فيه النبى ﷺ وأنه قد أطلق على هذا المحراب محراب التهجد، فالذين يقفون فى محل المحراب المنير المذكور متجهين إلى جهة الشرق يلزم أن يظل باب جبريل على الجهة اليسرى منهم، إلا أن ذلك المقام ذا الفيوضات ظل فى داخل شبكة السعادة وقد كتبت عبارة: «هذا مُتَهَجَّد النبى ﷺ» فوق الرخام الذى وضع فوق طاق محراب التهجد الذى يرى خلف المحراب من خارج الشبكة وقد حدد هذا المحراب فى عهد الإمام السمهودى ووضع فوق قطعة الرخام سالفة الذكر رخام آخر وكتب عليه برز الأمر بتجديد أعمدة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباى أعز الله أنظاره وتم ذلك على يد ابن الخواجة الشمس بن زمن وكتب فوق هذه العبارة تاريخ تعميره، إلا أن حريق سنة ٨٨٦ هـ قد محا الخطوط المنقوشة فوق الأعمدة وأزالها وأبدلت أساطين حجرة السعادة القديمة، وأسس مكان محراب التهجد القديم محراب جديد.

والمحراب الجديد ملاصق لمقبرة السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ من ناحية قدميها وترتفع مقدار ذراعين والمحل المعد للصلاة منخفض قليلاً وأعلاه عمودى وشكله مربع.

٩ـ محراب باب الجنائز: يقع هذا المحراب على يسار من يتجهوا إلى الجهة القبلية وبما أنه فى داخل شبكة السعادة فمن المتعسر زيارته، وبما أن المحراب الشريف مستور وتلك الجهات من شبكة السعادة مظلمة فسيضطر خدام المسجد أن

يفتحوا باب حجرة السعادة عندما يصنعون فتائل وزيوت قناديل المسجد، فالذين يريدون أن يسعدوا بزيارة المحراب الشريف ينتظرون فتح باب الحجرة اللطيفة كما سبق ذكره، لعلهم يوفقون فى زيارته، وإلا فزيارته فى الأوقات العادية غير محتمله، إلا إذا وجدوا طريقًا آخر بإعطاء جوائز وفيرة أو بإيجاد واسطة ما، وفى جانب هذا المحراب المقدس وفى خارج شبكة السعادة محراب صغير أيضًا وما سبق ذكره عاليه بمحراب التهجد إنه ذلك المحراب الشريف وكتب على جناحه اليمين واليسار.

«أمر بعمارة هذا المتهجد الشريف العبد الفقير المعروف بالتقصير السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى نصره الله سنة ٨٨٨» كما كتب فوق طاقة المعلا بخط جلى «بسم الله الرحمن الرحيم» وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم قال الله تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾**. (الإسراء: ٧٩).

كتبت تلك الآية مذهبة كما علقت فوق هذا الخط اللوحة المزينة التى كتبت بخط يد السلطان محمود خان العدلى ابن السلطان عبد الحميد خان المرحوم «حسبنا الله ونعم الوكيل».

إن المحراب الشريف الذى عرف على قدر الإمكان هو المحراب الذى يزوره الزوار متبركين على أنه محراب التهجد، وإن هذا الأثر الذى أثبت المؤرخون بالأدلة القطعية أنه أثر مقدس هو الأسطوانة النفيسة والمسعودة التى ظلت فى داخل الشبكة وقد جددت فى عصر السلطان عبد المجيد وكتب فوقها آية التهجد، ومع هذا ففضل كل مكان وموقع وشرفه غير قابل للاعتراض عليه، فأى مكان من المسجد لو شرف بالزيارة فمن المأمول الحصول على أجر عظيم ومكافأة روحية كبيرة.

إن الأعمدة التى كانت فى عصر السعادة تلك الأعمدة الثمانية التى ذكرناها وقد بلغ عددها فيما بعد إلى ثلاثمائة عمود وسبعة أعمدة، وكلما وجد مسوغ

شرعى لتوسعة المسجد الشريف زاد عدد أساطينه، ولكن بما أن المهاجرين والأنصار من الصحابة العظام قد تقيدوا ووصلوا حول هذه الأعمدة الثمانية فعلى الذين يريدون أن يزوروا حجرة السعادة أن يقفوا وأن يصلوا بجانب كل واحد من تلك الأعمدة الثمانية على حدة محرمين.

وفى الروضة المطهرة للنبى ﷺ ثلاثة صفوف من الأساطين التى لا تقدر بثمن على أن تدخل فيها بعض الأساطين المشروحة وفى كل صف أربعة أعمدة.

وقد كتبت فى عهد السلطان سليم خان الثالث فوق أربعة من هذه الأعمدة المباركة أربعة أبيات وعلى سبع منها بيتان وعلى واحد منها بيت واحد بديع التركيب وزينت بالتذهيب وهذه الأبيات فاضت بها قريحة السلطان سليم الثالث بن السلطان مصطفى خان الثالث وهى مما يدل على تقواه وورعه وشعار تدينه ـ عليهم الرحمة والغفران.

الأبيات التى سطرت على الأساطين الأربع من الصف الأول:

الأسطوانة الأولى[1]

السلام عليك يا مهبط الوحى الأمين

يا من يعشقك بروحه الروح الأمين

إنما الأرض على السماء فخرت

لأنها جسمك الطهور حوت

عماد شوكتك طاق الفلك

لذا أصبح الركن الركين بك

لتكن لسليم خان نعم المعين

إنه وطد الأساس للملك والدين

(١) هذه الأسطوانة الأولى بدءاً من منبر السعادة.

الأسطوانة الثانية[1]

يـا مليـك الـكرم أيهـا السـلطان الـكريم
بعبـوديتـك يفخـــر الســلطان ســليم
كأنمـــا يتمســـك بقائمـــة عرشـــك
وهـــو يعظـــم أركـــان شـرعـــك
أنـــا عبـــد لـــك جـــد بالإحسـان عـــلى
وليـكن فـــى الدنيـــا والآخـــرة لـــدى
على روضتك المطهرة صلوات وصلوات
وعـلى كـل صـلاة تسـليمات وتسليمات

الأسطوانة الثالثة[2]

يـــا زهـــرة روضـــة ديـــن الإســـلام
عليـــك فـــى كـــل لحظـة سـلام وسـلام
كيـــف لا يـكون مـــن الياقـــوت جسـد
ولقصـــرك مـــن الرخـــام عمـــد
طوبـــى للســـلطان ســـليم الأجـــل
الـــذى أنجـــز هـــذا العمـــل الأمثـــل
أكرمـــه يـــا مـــن أنـــت سـيد الـكرام
فاللطـف بالعبيـد مـن الـكرام يـرام

الأسطوانة الرابعة[3]

رفيـع الروضـة فخـــر الرسـالات
تحـــت عرشـــه روضـــة الجنـــات

(١) وهذه أيضًا الثانية بدءا من منبر السعادة.
(٢) هذه الأسطوانة هى الثالثة من ناحية المنبر.
(٣) هذه الأسطوانة هى الرابعة من ناحية المنبر.

أيمـــا إنســـان إلـــى عمـــودك نظـــر

أمـــن مـــن كـــل ضـــجر وكـــدر

سـليم خـان ابن مصـطفى خـــان المؤيـد.

يـــا حَـــبَّذا مـــا قـــدم مـــن يـــد

هبـــه يـــا رسـول الله بركتـك فـى دنيـاه

وأنلـــه ســـعادتك فـــى أخـــراه

إن الأساطين الآتية الذكر أمام محراب النبى وإنها مرتبة فى صف واحد من منبر السعادة إلى شبكة الحجرة المعطرة.

الأسطوانة الخامسة[1]

أجـــرى أن يـكتـب النعـت القـــلم

واصـــفا بـــه رســـول الله الأعـــظم

حبـذا حبـيب الحـق منقـطع القريـن

كأنـه سـرة نـور فـى عـين الناظريـن

الأسطوانة السادسة[2]

كانت ذاتـه الطاهـرة لخلق الكون السبب

بـين عـلو قـدره والعـرش الأعـلى نسب

حمـد الله الـذى جعـلنا مـن أمتـه قـدرًا

أنـــى يـؤدى عـلى تـلك النعمـة شـكرًا

الأسطوانة السابعة[3]

شـــراء النـاس مـن أهـل الجـهل والـكفر

إن آمنـوا عرفـوا يـا لـه مـن قـــدر

(١) هذه الأسطوانة هى الخامسة من ناحية المنبر.

(٢) هذه الأسطوانة هى السادسة من ناحية المنبر.

(٣) هذه الأسطوانة هى السابعة من ناحية المنبر.

إثمـد بصرى مـا تحـت قدمـه مـن رغـام

غبـار طريقـه يبـدد يـوم الحـشر الظـلام

الأسطوانة الثامنة[1]

أنـت شـمس العالمـين يـا خيـر الرسل

شعار شمسك منه الدين والدنيا فى أبهى الحلل

أنـت لا تضـن عـلى عبدك بلطف ورحمة

يـا مـلك الـكون فاقـض لـه الحاجـات

وهذه الأساطين الأربع المباركة تقع أيضًا خلف الأسطوانات التى فى الصف الأول وتعد كذلك ابتداء من منبر السعادة.

الأسطوانة التاسعة[2]

ألهمت ذكـر ألـف صفة مـن صـفاتـه

فنظمت نَعْتَـهُ الطاهـر أمـلا فـى شفاعتـه

كيـف أسـتطيع وصـفه بمـا بـه يليـق

الحـق مـن يصـفه بمـا هـو بـه حقـيق

الأسطوانة العاشرة[3]

يا معدن الكرم أطلقتنى من ظلمة الغم

أنا ملك ولكن لست من عبده من رحمة حرم

شمعة شوقى إليك لها فى القلب شعاع

وزاد بكرمك ما لها من حرقة واندلاع

(١) هذه الأسطوانة هى الثامنة من ناحية المنبر.

(٢) هذه الأسطوانة هى التاسعة من ناحية المنبر.

(٣) هذه الأسطوانة هى العاشرة من ناحية المنبر.

الأسطوانة الحادية عشرة[1]

فى الأفلاك التسعة كل إنس وجن وملك له عبد

ونجدته كان لكل مليك ما له من سؤدد ومجد

فليكن وردى دائمًا ذكرت صلاته

سيد الرسل إن بركته منحنى

الأسطوانة الثانية عشرة

على روحه الطاهرة ألف صلاة وسلام

تلهمنى الرجا فى نيل رخصة شفاعته

إن هذه الأساطين الأربعة هى الأساطين المباركة التى فى الصف الثالث وبما أن الأسطوانة الثانية عشرة ملتصقة بمقصورة المؤذنين يطلق عليها أسطوانة المكبرين أيضًا.

استطراد

فى زماننا هذا فى مسجد السعادة ٢٢٩ أسطوانة بما فيها الأساطين المباركة، خمس وعشرون منها فى داخل الروضة المطهرة وما حولها والبقية فى الجهات الأخرى من المسجد الشريف، ولكن أسس الركائز التى ظلت فى داخل الجدران لا تدخل فى هذا الحساب.

(١) هذه الأسطوانة هى الحادية عشرة من ناحية منبر السعادة.

الصورة الثامنة

فى ذكر وبيان المقام واجب الاحترام الذى يطلق عليه «الصُفَّة» وأين تقع هذه الصفة فى مسجد السعادة ومما تتكون ومن هم الأشخاص الذين يطلق عليهم «أصحاب الصُفَّة».

كانت الصفة الشريفة التى كانت محل إقامة أصحاب الصفة بناء على تحقيق المرحوم القاضى عياض وروايته فى نهاية مسجد المدينة السعيد الشمالى، وكان الصحابة الفقراء الذين يردوا إلى المدينة المنورة المهجر النبوى يسكنون فى الصفة الشريفة، وكانوا يعبدون الله ليلاً ونهاراً، لما كانت الصلاة تؤدى فى اتجاه البيت المقدس كان محراب المسجد الشريف مكان الصفة المسعودة، وبعد أن تحولت القبلة إلى مكة المعظمة أصبح ذلك المكان وقفًا لإقامة المهاجرين الغرباء، وبما أنه بعد تحويل القبلة لم يبق فى ذلك المكان محراب مخصوص فعقب تحويل القبلة صنع فى ذلك المكان مظلة لإقامة الأصحاب الغرباء واعتاد بناء على ذلك أن يقيم فى هذه المظلة من لا مأوى ولا سكن ولا عيال ولا أولاد لهم.

وكما أوضحنا فى الصورة الأولى من الوجهة السادسة عندما تكاثر المهاجرون الكرام الذين لا صلة لهم بأهالى المدينة رأى النبى ﷺ الذى يطيب خاطر أمته أنْ يؤوى هؤلاء الضعفاء فى هذا المكان المبارك ويحدثهم ويخفف عنهم كربهم ويرفع من معنوياتهم إلى أعلى مكانة، ولما زاد إحسان النبى ﷺ لمهاجرى دار ضيافة المدينة ولسكان الصفة المباركة ساعةً بعد ساعة حتى تمنى أهالى المدينة وأغنياء المهاجرين أن يكونوا من أصحاب الصفة، وأخذ فقراء المدينة يداومون على الإقامة مع أهل الصفة حتى يشاركوا أهل الصفة فيما يتناولونه من آيات الغفران، وهكذا عدوا من أصحاب الصفة وبناء على ذلك كان العبيد الذين يحررهم النبى ﷺ ويعتقهم والذين كانوا يفتخرون بخدمة النبى يصرون على ألا ينفصلوا عن قرب النبى لأجل ذلك يفضلون أن يصبحوا من أصحاب الصفة كما كان يعد

أقرباء سلطان الدين والسادات والأنصار والمهاجرون وأشخاص آخرون أن يجلسوا ويحادثوا أصحاب الصفة من أقصى آمالهم، وبهذا أدخلوا ضمن الجماعة السعيدة من أصحاب الصفة وعدوا منهم.

وكان فَقْرُ أصحاب الصفة وشدة حاجاتهم فى حالة تجل عن الوصف، وبناء على ما يرويه الصحابى أبو هريرة كان بينهم بعض الأشخاص الذين كادوا أن يكونوا عراة من شدة حاجتهم وإنهم استطاعوا أن يتداركوا بعد آلاف المشقات والصعوبة قطعة من قماش لا تكاد تستر محال عوراتهم، ولم تكن قطعة القماش التى اتخذوها ملابس على طول واحد إذ كان بعضها أميل إلى الطول وكان بعضها قصير، وكانوا يسترون بها ما تحت خصورهم، وكان الذين لهم أقمشة قصيرة يغطون بها جسمهم من خصورها إلى ركبهم فقط ومن كان قطع أقمشتهم أطول كانوا يغطون إلى سيقانهم، وكان أداء الصلاة بهذه الحالة وفقًا للآداب الشرعية يكاد أن يكون مستحيلاً لأجل ذلك كانوا يدخلون قطع القماش ما بين سيقانهم بصعوبة كالإزار وبهذا ينقذون صلواتهم من الكراهة وبعد أداء الصلاة كانوا يلفون بهذه الأقمشة خصورهم.

وكانت أقوات أصحاب الصفة اليومية من الأشياء الرخيصة مثل البلح، إلا أنهم عندما تقوم الحروب كانوا يشاركون فيها غالبًا وكانوا يقاتلون فى منتهى الشجاعة.

قال أحد فضلاء الأصحاب وهو فضالة بن عبد الله: كنت أصلى يومًا فى زاوية من الزوايا الشمالية من المسجد، وفجأة قام أصحاب الصفة على أرجلهم ووقفوا وقفة الاحترام والتعظيم وفى سكوت تام، إذ كان سلطان عرش الدين - عليه صلوات الله المعين قد شرف المكان، وقال فريد العالم ﷺ فى أثناء تقربه من صفوف أهل الصفة، «لو وقفتم على مدى حب الله لكم لتمنيتم أن تزدادوا فقرا وحاجة».

وكان أصحاب الصفة فى غاية الفقر وكانوا فى حاجة إلى نصف لقمة من الخبز ومن هنا كان معدن السخاء - عليه وعلى آله أصفى التحايا - يطعمهم صباحًا

ومساءًا وكان الأصحاب الأغنياء يمتثلون لأوامر النبى ﷺ التى يطيعها العالم كله ويصحبون معهم اثنين أو ثلاثة من هؤلاء إلى منازلهم لإطعامهم كل على قدر ثروته.

وإن كان ما يرويه حضرة فضالة كافيًا لإيضاح مدى فقر أصحاب الصفة وشدة جوعهم وشدة تحملهم للحاجة والفقر إلا أن أبا هريرة بما أنه كان معينًا للاطلاع على أحوالهم وشئونهم من قبل الرسول ﷺ؛ لذا فهو يعرف أحوالهم أكثر من الأصحاب الآخرين.

يتفضل حضرة أبو هريرة قائلاً: «رأيت أن بين رفقائى سبعين نفرًا كانوا عراة تمام العرى إذ لم يكن معهم إزار أو رداء وإن كان بعضهم قد وجد قطعة من القماش وستروا أماكن عوراتهم إلا أن أكثرهم لم يستطيعوا العثور على قطعة قماش قديمة فغطوا أمامهم بأيديهم وستروا عوراتهم بهذا الشكل.

أقسم بالله الذى لا إله غيره ـ تعالى شأنه عما يقولون ـ إننى لم أستطع أن أتحمل يومًا الجوع وأسندت بطنى على الأرض متصورًا أنه يساعدنى على الصبر والتحمل ومع مرور الزمن اشتد جوعى وزاد اضطراب جسمى فالتقطت من الأرض حجرًا وشددت به بطنى، كان غرضى أن أجد حلاً للجوع وقد وصلت حالتى لدرجة أنى يئست من الحياة، وخرجت إلى الطريق لعلى أجد أحدًا من أهل المروءة يمر من الطريق، وبعد وقت قصير ظهر الصديق الأكبر وبعده ظهر الواقف على أسرار البشر، ونظر إلى بابتسامة تبعث الحياة وأجال نظره ثم قال: «تَعَالَ يا أبا هريرة» فمشيت خلفه ودخلت بيته بعد الاستئذان ووجد قدحًا من اللبن وسأل عن الذى أتى بهذا اللبن فقيل له إن أحد خدم الحرم أهداه وقدمه، ثم توجه إلى بالحديث قائلاً: «إن هذا اللبن من حق أصحاب الصفة! اذهب وَائْتِ بجميع إخوانك إلى هنا، إنكم ضيوف المسلمين الأعزاء والمحترمين؛ إنكم لا تملكون أهلاً ولا عيالاً ولا أموالاً وليس لكم مأوى ولا مسكن!» وكان جوعى قد تجاوز حده ورأيت اللبن فى القدح قليلاً ومن هنا قلت يا رسول الله كيف يشبع قدح من اللبن هؤلاء! إنهم سبعون رجلاً بالتمام والكمال وأردت بهذا أن

أشير إلى عدم كفاية اللبن، إلا أننى قد أخذت منه الجواب المعجز إذ قال: «ما عليك إلا أن تأتى بهم فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ينعم بالبركة للبن» فذهبت إلى أصحاب الصفة وسحبتهم خلفى حتى عفرت وجهى بتراب أرجل الرسول ﷺ وشربنا من ذلك اللبن حتى شبعت بطوننا وقدح اللبن ينتقل من يد إلى يد ولم تنقص قطرة من لبن القدح، إلا أننا لم نستطع أن نشرب أكثر مما شربنا وقد شبعنا إلى درجة أنه بعد أن شربنا بحرص الجائع أصبحنا نتنفس بصعوبة.

يفهم من تعريف أبى هريرة هذا أن فقر أصحاب الصفة وشدة حاجتهم لم يكونا ينقصان من قدرهم لدى النبى ﷺ بل كان يزيد قدرهم عنده كلما زاد فقرهم وحاجتهم وكلما كان حامى دين الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ يشرف مسجد السعادة كان يلاطف المشار إليهم ويطيب خاطرهم بالحديث إليهم وعقب الصلوات كان يستدعى كل واحد منهم على حدة إلى مجلسه مجلس الملائكة ويستفسر عن أحوالهم.

فى الوقت الذى أخذت القبائل ترسل سفراءها لغرض قبول الإسلام، وعندما كثر القرشيون فى المدينة دار السكينة متحيرين بين قبول الإسلام ورده، حسد أشراف قريش ما يظهره النبى ﷺ نحو أهل الصفة من آيات المودة وأخذوا يتقولون فى طرد المشار إليهم من المجلس النبوى وإبعادهم منه، حتى إن الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى والآخرين نالوا شرف حضور المجلس النبوى ورأوا أن ثلاثين من أصحاب بدر الفقراء يحيطون بالنبى ﷺ كهالة القمر فأخذتهم العزة والغرور بالإثم وخرجوا عن شعورهم ووعيهم وقالوا: «يا رسول الله أبعد عن مجلسك العالى ابن مسعود، وبلال الحبشى ومقداد بن الأسود وسلمان الفارسى وصهيب بن سنان الربيعى وأمثالهم من الغرباء! إننا من العظماء الذين يرعى جانبهم بين الأقوام القرشية فيجب رعاية جانبنا، نحن نتحادث مع ذاتك الكريمة ونستفسر عن الإسلام ونستمع إلى الأحاديث والقرآن، إن الوفود العربية تأتى وتذهب بكثرة ويروننا بين أسافل الناس، وإن هذه الحالة تجلب لنا العار!! إننا ذوو قدر وتوقير بين الناس، فإذا ما

خصص لنا مكان عال يصدق سفراء أقوام العرب فضلنا ورحمائنا على الفقراء!» وتباهوا وتفاخروا بمثل هذه الكلمات.

وقال سيدنا سرور الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إننى لا أستطيع أن أطرد المؤمنين من مجلسى» مجيبًا، إلا أنهم قالوا إن مجالسة الفقراء تجلب لنا العار والحقارة والخجل، على الأقل فكلما نأتى إلى مجلسك فلينصرف هؤلاء الفقراء من مجلسك متعللين بأى سبب كان إذا ما روعى هذا النظام فنحن نعرض انقيادنا وطاعتنا لك وأرادوا بهذا النهج أن يحصلوا على رضا النبى ﷺ وأن يعطى لهم عهدًا بذلك وإذ رجوا ذلك أحضر معدن الحلم والكرم ﷺ سيدنا على حيدر الكرار ليكتب لهم عهدًا وفق مطالب المذكورين، ولكن عقب ذلك أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الآية التى تقول ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾. (الأنعام: ٥٢). فصرف النبى ﷺ النظر عن كتابة العهد وأحضر أصحاب الصفة ـ رضى الله عنهم ـ وقرأ عليهم الآية التى نزلت فى حقهم.

استطراد

كان فى ذلك الوقت بين القبائل العربية وخاصة بين شعبتى بنى أمية بَنِى مخزوم كثير من الحمقى انتعلوا الغطرسة والتكبر والتعظم وهم من الطائفة العرشية.

وقد وصل الغرور ببعضهم حد أنهم لم يجدوا فى هذه الدنيا الواسعة رجلاً يستحق مصاحبتهم وقالوا: «لا يدانينا إلا فرقدا[1] السماء».

وإنهم لم يدركوا أن الكبر يجلب غضب الحق ويستوجب نفرة الخلق وأنه عندما ينفر الناس من أحد لن يستطيع أن يعيش حياة طبيعية سليمة وبناء على القول الذى يقول فى حق المتكبر: «الكبر على أهل الكبر صدقة» فكل الناس سينظرون إليه بالحقارة ومن هنا لن تستقيم حياته.

(١) الفرقدان: نجمان ظاهران فى مكان ثابت تقريبًا يهتدى بهما ليلاً. أحدهما النجم القطبى، وآخر بجانبه.

أنعم أشرف الأنبياء سيدنا محمد على وائل بن حجر واقتطع له قطعة من الأرض وكلف حضرة معاوية بكتابة وثيقة بملكيتها وأن يرى حدود هذا الموقع؛ وبعد أن أخذ وائل قطعة الورقة التى سطرت عليها ملكيته للأرض ركب جمله وخرج مع حضرة معاوية إلى الطريق.

وقطعا مسافة لا بأس بها، وكان معاوية ماشيًا على قدميه لأنه لا يمتلك جملاً ولما اشتدت حرارة الشمس مع مرور الوقت وأصبح المشى فوق التحمل استأذن معاوية من وائل أن يكون رديفه فى ركوب الجمل كما جرت العادة بين العرب، وكان هذا الرجاء قد جرح عظمة وائل وكبره إذ قال له يا معاوية إنك لست جديرًا بأن تكون رديفًا لواحد من أعاظم العرب وأشرافهم وعندئذ قال له معاوية إذا كان كذلك فأعرنى نعليك فإنهما أكثر متانة من نعلى حتى لا تؤذى قدماى فقال له وائل: «يا ابن أبى سفيان، إننى لست رجلاً بخيلاً؛ ولكن الملوك الذين فى حوالينا إذا ما سمعوا الخبر سيؤذى كبريائى، كفى لك شرفا بأن تسير فى ظل جملى»، وبهذا بين له أنه لن يتنازل حتى عن نعليه، وبعد مدة استولى على عظمة وائل وأرضه جيوش الفقر وتبدلت أحواله بينما أصبح معاوية بن أبى سفيان واليا على معظم سواد الشام، وسافر ابن حجر إلى الشام ليشتكى تقلبات الزمان الظالمة وتلاقى بمعاوية مضطرًا، فاستقبله معاوية باحترام عظيم وأجلسه على سريره الخاص وسره بأن أجزل له العطاء ولم يتذكر الواقعة السابقة بل أخجل ابن حجر وأومأ له بأن الذين يتخلقون بالأخلاق المحمدية يتصفون بهذه المزايا العظيمة.

إذا ما وازنا مقابلة معاوية الجميلة لابن حجر فى ضمائرنا نحكم أن أخلاق أشراف القبائل العربية قد تبدلت فى عصر السعادة تبدلاً جذريًا.

قد فهم متكبرو الطوائف العربية أن الكبر والعظمة من الصِّفَات التى توجب غضب رب العزة وأنهم لاشك قد أصلحوا من أخلاقهم فى عصر النبى ﷺ إلا أن المرويات الآتية تثبت أنه كلما ابتعد عصر السعادة حدثت تحويلات كبيرة فى حال متكبرى العرب وشأنهم.

مثال ـ عندما قيل فى عصر الخلفاء العباسيين لأحد المتكبرين من بنى عبد الدار لماذا لا تسافر إلى الخليفة وتعمل على كسب حسن توجهه نحو قبيلتنا؟ فأجاب أخاف ألا يتحمل الجسر الذى سأعبر عليه أو الجمل الذى سأركبه ثقل شرفى ومزيتى وكأنه أراد أن يرمى إلى أن الخليفة إذا ما قصر فى حسن قبولى ورعايتى سيؤذى كبرى.

وكان الحجاج بن أرطأة من متكبرى العرب القدماء يتجنب الصلاة مع الجماعة، ويقول للذين يسألونه عن عدم إتيانه إلى المسجد لأداء الصلاة مع الجماعة إننى أخجل أن يقف على جانبى رجال بسطاء لأداء الصلاة.

وكان كبر ابن ثوابه يفوق جميع تكبر جميع متكبرى العرب وكان تعاظمه ونخوته أشنع وأقبح بدرجات عن غرور الحجاج بن أرطأة وهذا الأحمق الذى كان من عظماء العرب إذا ما أضطر لمكالمة أحد الزراع كان يغسل فاه بعد المكالمة.
لمؤلفه الفقير:

إذا مـا عـرف المتـكبر مضـرة كبـره
بقبضـة الندامـة يضـرب صـدره

«انتهى»

فهؤلاء وأمثالهم من المتكبرين من رجال قبائل العرب والمتعاظمين كانوا يعدون وجود جماعات أصحاب الصفة فى مجلس السعادة حقارة لهم وإقلالاً من شأنهم؛ لذا سعوا معهم بطردهم منه؛ وكانت لهم وسائلهم وحيلهم الشيطانية وفى النهاية أطلعوا النبى ﷺ على ما فى ضمائرهم وطلبوا كتابة عهد بذلك؛ ولكن هذه الجماعة العظيمة كانت قد انصرفت سواء أكانت عن الدنيا أو عن مكاسبها كلية ولازموا مسجد السعادة وادموا فى عبادة رب العزة ومن هنا لم يستطع هؤلاء المتكبرون ترويج أفكارهم المسمومة، وقد صدقت الآية الجليلة (ولا تطرد الذين...) (الأنعام: ٥٢) صدقهم وصفاء قلوبهم، ويعد بعض الناس عدد أهل الصفة أربعمائة نفر ويوصلهم البعض إلى ستمائة نفر، وبناء على تدقيق أبى نعيم الأصفهانى فى مؤلفه «حلية الأولياء» بغض النظر عما ورد فى أسماء

أصحاب الصفة من الاختلافات أن بعض أصحاب الصفة قد تأهلوا وتركوا الإقامة فى الصفة الشريفة كما أن بعضهم خرجوا للسياحة ولم يقيموا فيها فى صورة دائمة ومن هنا لا يمكن تعيين عددهم بالضبط: ولكن سواء أكان المتزوجون فيهم أو مَنْ خرجوا للسياحة كانوا يعدون موجودين فى الصفة ويتساوون حسب المزية فى درجة واحدة، وكان بينهم من لهم نفوذ ومن يراعى جانبهم وكان أبو هريرة، كما أشير أعلاه، يعد رئيسهم ونقيبهم. حتى إن أبا هريرة كان يتولى تفقد أحوالهم والاستفسار عن شأنهم بموجب الأمر النبوى ويعرض أحوالهم إلى السدة النبوية وكان يعمل وفق الأوامر التى تصدر من النبى ﷺ.

أصحاب الصفة الذين أورد أبو نعيم أسماءهم الجميلة ومناقبهم الجليلة من بين هؤلاء:

أوس بن أوس الثقفى، أسماء ابن حارثة الأسلمى، أبو عبد الله ثوبان بن بجدد، أبو سعد ثابت بن وديعة الأوسى، أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى، أبو عبد الرحمن جرهد الأسلمى، أبو سريحه حذيفة بن أسيد الغفارى، أبو عبد الله حارثه بن النعمان الأنصارى، أبو عبد الله سلمان الفارسى، أبو عبد الرحمن سفينة، أبو كبشه سليم الفارس، أبو هريرة عبد الرحمن الدوسى، أبو رزين أبو فراس الأسلمى، ابن الخصاصية، بشير بن يزيد، أبو عبيده عامر بن عبد الله الجراح، أبو مويهبة، أبو ريحانة شمعون الأزدى، وبرة، نضلة بن عبيد الأسلمى، أبو عسيب أحمر، أبو عيسى بن مريم بن سالم، أبو اليقظان عمار بن ياسر، بلال بن رباح الحبشى، ثابت بن الضحاك الأشهلى، جرهم أبو ثعلبه الحسينى، جعيل بن شرأفة الضميرى الغفارى، جارية بن حُميل الأشجعى، حبيب بن زيد الأنصارى، حازم بن حرملة الأسلمى، حنظلة بن أبى عامر، حجاج بن عمرو المازنى، حكم بن عمرو الثمالى[1]، حرملة بن إياس، خُبَيْبُ بن إِسَافٍ الخزرجى، الحسين بن على بن أبى طالب، حجاج بن عمرو الأسلمى،

(١) انظر الإصابة ٢/ ٨٠ ترجمة رقم ٢٠٩٩، وقبلها ٢/ ٣٠ ترجمة رقم ١٧٨٢.

خباب بن الأرت التَّميْميّ، خنيس بن حذافة السهمى، خالد بن زيد الخزرجى، خريم بن أوس الطائى، دكين بن سعيد الخثعمى، رفاعة بن عبد المنذر الأوسى، زيد بن الخطاب العدوى، سعد بن مالك أبو وقاص الزهرى، سعيد بن عامر الجُمَحّى، سعد بن مالك الخزرجى، سالم بن عبيد، سالم بن عمرو الأنصارى، سائب بن خلاد، سالم مولى أبى حذيفة، شداد بن أسيد السلمى، صالح شقران الحبشى، صفوان بن دهب الفهرى، صهيب بن سنان الرومى، طخفة بن قيس الغفارى؛ طلحة بن عمرو البصرى، عبد الله بن ذو البجادين المزنى، عبد الله بن حرام السلمى، عبد الله بن مسعود الهذلى، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، عبد الله بن حرام السلمى، عبد الله بن زيد الجهنى، عبد الله بن أنيس الجهنى، عبد الله بن حارث الزيدى، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن قرط الأزدى الثمالى، عبد الرحمن بن جبير الحارثى، عتبة بن غزوان، عقبة بن عامر الجهنى، عباد بن خالد الغفارى، عمرو بن تغلب النمرى، عويم بن ساعدة الأوسى، عويمر بن عامر الخزرجى، عبيد بن سليم، عكاشة بن محصن الأسدى، عرباض بن سارية السلمى، عبد الله بن حبيش الخثعمى، عتبة بن عبد السلمى، عتبة بن النُّدَّر السلمى، عمرو بن عبسة السلمى، عبادة بن قرط الليثى، عياض بن حِمَارٍ المجاشعى، عبد الله بن طهفة الغفارى، عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، عبد الله بن منذر الجهنى، فضالة بن عبيد الأوسى العمرى، فرات بن حيان البكرى العجلى، كعب بن عمرو الخزرجى، كعب بن عمر السلمى، كناز بن حصين الغنوى، كنانة بن حصين العدوى أبو المدينة، مصعب بن عمير العبدرى، مقداد بن الأسود، مسطح بن أثاثه القرشى، مسعود بن ربيعة الهونى، معاذ بن الحارث النجارى، معاوية بن الحكم السلمى، مسعود بن ربيعة القارى وهو الهونى المتقدم، واثلة بن الأسقع الليثى، وابصة بن معبد الأسدى، هلال بن مولى المغيرة، هند بن حارثة بن هند، هبيب[1] بن يسار - رضى الله عنهم الستار.

(١) لم أجد فى الصحابة بهذا الأسم إلا هبيب بن مُغْفِل. انظر: الإصابة ٦/ ٢٨١ الترجمة ٨٩٣٥.

كيفية إعاشة أصحاب الصفة:

تعرضت أشجار النخيل فى أواخر عهد السعادة لنوع من الآفات وأشجار النخيل التى أصابها الآفة عندما أشرفت على إظهار ثمارها ذبلت أزهارها وبليت وسقطت على الأرض وأصابت الآفة خمسة وتسعين فى المائة من النخيل، وبهذا الشكل كان رأسمال الملاك وثروتهم قد ذهبا هباء ومُحيا تمامًا. وقام الزراع للقضاء على هذه الآفة بآلاف المحاولات حتى يجدوا حلاً سريعًا لهذه الآفة، وقاموا فى سبيل ذلك ببعض التضحيات إلا أن سعيهم وجهودهم ذهبت هباء، وإذا ما دامت هذه الحالة أصبح احتمال الحصول على المحاصيل من حدائق المدينة مستحيلاً، ومن هنا راجعوا طبيب الكائنات ـ عليه أسبغ التحيات ـ راجين أن يجد دواء لدائهم. فما كان من النبى ﷺ الواقف على أسرار الحكمة إلا أن اتخذ قراراً بأن يأتى كل من أصابت الآفة نخيله بعنقود من البلح صدقة خالصة لأصحاب الصفة وبنية صحيحة، وامتثل للأمر النبوى معاذ بن جبل من سادات الأصحاب وكان أول من امتثل وأسرع بقطف عنقود من البلح الطازج وأتى به إلى مسجد السعادة وبما أن الآفة انقطعت من حديقة معاذ بن جبل إثر هذا العمل وأبلغ الأهالى الرسول ﷺ أصدر النبى ﷺ تعليماته أن يأتى كل من ابتلى بالآفة بعنقود بلح لتوزيعه على أصحاب الصفة وأعلن ذلك على الزراع.

ومن هنا اتخذ أصحاب الحدائق عادة ألا يطعموا أولادهم وعيالهم قبل أن يقدموا عنقودا من البلح لأصحاب الصفة، واستمر أصحاب اليسار والثروة بعد زوال الآفة فى تقديم البلح إلى مسجد السعادة كصدقة لأهل الصفة متبركين وعدوا هذا العمل كنفع عام ومن هنا تنافسوا فى هذا العمل المبارك.

وتولى معاذ بن جبل بحفظ ما يقدم من البلح وأخذ يوزعه على أصحاب الصفة فى أوقات معينة مخصوصة، وكان محمد بن مسلمة من أكابر الصحابة معروفًا بالسماحة والسجايا السامية وكان رجلاً فاضلاً يسلك دائمًا أحسن المسالك، إذ كان فى باكورة مواسم البلح يأتى بعناقيد البلح التى يجمعها ويضعها

بين عمودين من أعمدة المسجد ومن رأى ذلك اتخذ عادة الإتيان ببعض عناقيد البلح ويضعها بجانب عناقيد البلح المشار إليه، ولما كان هذا النظام الحسن سببًا فى إعاشة أصحاب الصفة وتسهيل حياتهم فقد تعمم تقديم البلح حتى أصبح كقانون البلد، وعمل زراع البلد بهذا القانون ذو الفرائد واستمروا على ذلك فى عصر السعادة وهكذا أطعموا حضرات أصحاب الصفة.

وعندما كثرت عناقيد البلح فى مسجد السعادة ربط معاذ بن جبل بين الأعمدة التى تراكمت فيها العناقيد حبلاً وعلق عليه العناقيد وكان الأصحاب الكرام يهزون العناقيد بعصيهم ويدعون أصحاب الصفة وبعد تناول البلح كان أصحاب الصفة ينصرفون إلى الأروقة التى صنعت من أجلهم فى نهاية مسجد السعادة من جهة الشمال حيث يمضون أوقاتهم فى الطاعة والعبادة.

واستمر توزيع البلح بهذه الصورة إلى أزمنة الخلفاء الراشدين، ولكن فيما بعد كثرت حقول البلح وكثر الغرباء من الوافدين إلى المدينة حيث أصبحت الصفة الخاصة بأصحاب الصفة لا تتسع لإيوائهم ومن هنا أخذ ولاة المدينة المنورة ما يتبرع به الزراع من بلح التبرك وباعوا بعضه واشتروا بعض قرب الماء والنعال وأشياء أخرى وأخذوا يطعمون الفقراء الوافدين فى مواسم الحج طول إقامتهم حسب النظام السابق وأسعدوهم عند عودتهم بإعطاء كل واحد منهم قربة ماء ومقدارًا من البلح، وقد ألغى الولاة المتأخرون النظام السابق وأحالوا إدارة الزوار الفقراء إلى دار الضيافة النبوية، وبما أنه لم يبق الآن فى المدينة المنورة، لا الزراع الذين يقدمون البلح لإطعامهم ولا القادرون الذين يعنون بإطعام الفقراء ويفكرون فيه ومن هنا فالفقراء الذين نفدت نقودهم وطعامهم لم يجدوا إلا صاحب الرسالة عليه أكمل التحية يعرضون عليه حاجتهم وهكذا ينالون مطالبهم كما سيفصل فى المقال الذى فى خاتمة الكتاب.

ومكان المظلة والرواق اللذان صنعا خصيصًا من أجل أصحاب الصفة الذين يعيشون كما سبق ذكره فى الجهة الشمالية من محراب التهجد وتقع هذه الصفة

المسعودة بين محراب التهجد الشريف إلى باب جبريل تظل مقصورة محراب التهجد فى الجهة اليمنى ومقصورة صفة أصحاب الصفة المباركة فى الجهة اليسرى.

وأراد الأسلاف الكرام أن يحافظوا على مكان الصفة الشريف إلى يوم القيامة وبهذا التفكير المصيب رفعوا الصفة عن سطح المسجد الشريف بمقدار ذراع واحد وأحاطوا أطرافها بسور خشبى فى ارتفاع نصف ذراع وخصصوها لجلوس أغوات حجرة السعادة، ويقيم الزوار الأفاضل وشيخ الحرم والآخرون من الذوات الكرام ليصلوا الصلوات المفروضة فى صفة أصحاب الصفة كما أن حراس الحجرة المعطرة يمضون أوقات نوبتهم فى هذا المكان الجميل بقراءة أورادهم الخاصة، إن هذا المكان موضع مبارك فى غاية اللطف والروحانية ولا ينكر أهمية الصلوات التى تؤدى فى هذا المكان لشرفه إلا أن أداء الصلاة فى الروضة المطهرة ما دام يجد الإنسان مكانًا خاليًا أفضل من الصلاة فى الصُّفَّة. ولكن فى حالة ازدحام الروضة المطهرة بالمصلين وعدم وجود مكان للصلاة تؤدى الصلاة فى مقصورة أصحاب الصفة، وإذا ما تذكر الإنسان تراحم أحوال أصحاب الصفة ومناقبهم وفضائلهم فلابد أن يقدر أهمية موقع ذلك المكان.

وكيف لا يبعث هذا المكان صفاء وسكونًا للقلب؟ فمحراب التهجد أمامه ودار السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ خلف محراب التهجد والروضة المطهرة فى الجهة الشرقية القبلية منه وحجرة النبى ﷺ المعطرة فى التقاء الروضة المقدسة من الجهة الغربية.

فى تعريف الحجرة النبوية المعطرة.

ترك بانى أساس الشريعة عديم الاندراس ـ عليه أكمل التحية ـ عندما تفضل بوضع أسس مسجد المدينة مكانًا خاليًا فى جهة من جهات المسجد ليبنى عليه لزوجاته المطهرات أمهات المؤمنين حجرة عالية لكل واحدة منهن، وبعد ما تم بناء المسجد الشريف ابتدر ببناء دارين للسيدتين سودة وعائشة[1] ـ رضى الله عنهما ـ وسواء أكانت عمق هاتين الدارين أو حجرات زوجات النبى الأخريات كاملة ملكًا لحارثة بن النعمان، أو قدم حضرة حارثة العَرْصَةَ المذكورة للنبى ﷺ ورحل إلى مكان آخر وهكذا نال شرف مجاورة النبى ﷺ الغالية لمدة مديدة.

وقد كان لحارثة بن النعمان أولاً عَرْصَةُ الدارين سالفتى الذكر ورحل إلى الدار التى على اتصال بهذه الساحة، وتعود أن يعطى قطعة أرض للنبى ﷺ كلما احتاج لبناء دار ويرحل هو إلى دار أخرى وبهذه الطريقة كان قد تنازل عن جميع ما يملكه من الأرض عندما تم بناء حجرات زوجات النبى ﷺ.

إن الحجرات التسعة التى أسسها النبى ﷺ لزوجاته كان بعضها مبنيًا من الحجر والطين اللبن وبعضها من جذوع النخيل قد طلى فوقها بالطين وصنعت أسقفها جميعًا من جريد النخيل، وكان ارتفاع جدرانها عامة فى حدود ثلاثة أذرع، وكانت بين دار السيدة عائشة وباب الرحمة، أى حجرات نسائه جميعًا كانت فى الجهة القبلية والشرقية والجهة الشمالية للمسجد الشريف، والدار التى كان يحبها النبى ﷺ وأكثر ما كان يسكن ويقيم فيها كانت دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ وكان يفتح بابها إلى الساحة الرملية وكان مصراعه مصنوعًا من خشب العرعر أو من خشب الساج على قول آخر، وكان الأصحاب الكرام والتابعين يدخلون فى

(١) عندما بنى مسجد السعادة لم تكن للنبى ﷺ إلا زوجتان.

حجرات النبى بعد ارتحاله عن دنيانا ويؤدون فيها ركعات التحية ويذكرون المحاسن النبوية وينتحبون متحسرين كما أن المشتاقين للجمال المحمدى يؤدون صلاة الجمعة فى داخلها، وهذا التصرف دليل كاف للدلالة على مدى حب أصحاب النبى الكرام لرسولهم.

حكاية

رأى النبى ﷺ يومًا من الأيام ثوبان - رضى الله عنه - فى غاية الهم والغم وهو واقف فى حضرته فسأله قائلاً: «يا ثوبان مالى أراك فى هذه الدرجة من الحزن والهم؟» فتحضر حضرة ثوبان للإجابة قائلاً «يا رسول الله إنك ستكون فى مقام عال مع الأنبياء الكرام! ففكرت ماذا سيكون إلى فى ذلك الوقت إذا سأحرم من رؤية جمالك الكامل، ومن أجل ذلك ملأنى الهم والغم» وبناء على قوله هذا نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم**﴾. الآية (٦٩: النساء) ويروون هذه القصة فى حق زيد بن عبد ربه أيضًا، كان زيد يحب النبى ﷺ حبًّا جَمًّا، وعندما ارتحل النبى ﷺ كان زيد مشغولاً فى حديقته، وعندما جاء ابنه وأخبره بهذا الخبر المؤثر رفع يديه عاليًا وقال: «يا رب أزل نور عينى!!! حتى لا تريا بعد وجه رسول الله ﷺ أحدا!» وأصاب سهم دعائه هدفه فعميت عيناه من تلك اللحظة؛ رضى الله عنه.

حكاية أخرى

كان زيد بن الدثنة من الذين يحبون الرسول الأكرم حبًا مفرطًا، ولما وقع فى يد مشركى مكة وأخرجوه من الحرم ليعيدوه جاء أبو سفيان وقال: «يا زيد قل لى بالله لما كنت تود أن يكون مكانك محمد وضرب عنقه بدل عنقك وتعود أنت إلى عيالك» فأجابه قائلاً: «يا أبا سفيان لو شاكت شوكة الرسول ﷺ حيث يجلس وكنت أنا بين أولادى وعيالى، لكنت تألمت من ذلك» فقال أبو سفيان، إننى لم أر أحدًا من أبناء آدم يحب أحدًا كما يحب أصحاب محمد محمدًا وهكذا أظهر.. شدة تعجبه. انتهى.

لما زادت الجماعات الإسلامية ووصل الأمر إلى درجة أنهم ملئوا حرم المسجد الشريف هدموا الحجرات العليا كلها وألحقوها بالمسجد الشريف، وكانت هذه الحجرات فى عهدة إحدى زوجات النبى المطهرات إلا أن دار زينب ـ رضى الله عنها آلت إلى أم سلمة ـ بعد رحيل الأولى، كما أن دار سودة ـ رضى الله عنها ـ آلت إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما أن دار صفية ـ رضى الله عنها ـ بعد مضى بعض الوقت بيعت إلى معاوية من قبل أوليائها.

كما أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أعطت الدار التى انتقلت إليها لعبد الله بن الزبير بشرط أن يقيم فيها بذاته.

وكانت السيدة سودة قد أوصت فى حياتها بإعطاء دارها لعائشة، إلا أن ابن أبى سفيان اشترى دار والدتنا صفية من ورثتها بمائة وثمانين ألف درهم.

يروى بعض المؤرخين أن حضرة معاوية اشترى دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى رواية بمائة وثمانين ألف درهم وفى رواية أخرى بثمانين ألف درهم فقط وكانت دار حفصة أصبحت من ميراث عبد الله بن عمر فانتزعها منه الحجاج الظالم بالقوة ليلحقها بالمسجد، إلا أن رواية شراء ابن أبى سفيان من عائشة غير صحيحة، لأن عائشة وهبت تلك الدار المذكورة وملكتها لعبد الله بن الزبير فقدم من شدة فرحته لأمنا المذكورة هدية حمل خمسة جمال كما رجاها ألا تُغادرها مادامت حية.

فى تعريف دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ السعيدة.

كان بين حجرتى السيدة فاطمة وعائشة ـ رضى الله عنهما ـ حيث تقيمان باب صغير، وكانت دار النبى ﷺ الطاهرة متصلة بهذا الباب الصغير، وكانت دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ مائلة نحو الحجرة المعطرة، ومن هنا كلما وجد نبينا ﷺ فى داره الطاهرة كان يستفسر عن حال السيدة فاطمة؛ وفى ليلة من الليالى حدث قيل وقال بين عائشة وفاطمة ـ رضى الله عنهما ـ فغضبت السيدة فاطمة من عائشة ـ رضى الله عنهما ـ ورجت من النبى ﷺ أن يسد ذلك الباب الصغير، وبناء على ذلك سد النبى ﷺ ذلك الباب.

ودار فاطمة فى الجهة القبلية من محراب التهجد الذى يقع فى الجهة الشامية من الحجرة النبوية وبابها أمام مربعة القبر الجليل ولما كانت فخر النساء ـ رضى الله عنها ـ زفت فى داخل هذه الحجرة فأحيط حولها، لأجل التعظيم بسور خشبى، واستخدم فترة كالمقصورة وأخذ مؤخرًا داخل شبكة السعادة.

وبالنظر لهيئة مسجد السعادة الحالية فإن دار فاطمة بين مربع القبر الجليل وأسطوانة محراب التهجد وقد أصبحت ذاتها العالية عروسًا بجانب أسطوانة محراب التهجد، ومن هنا فهذا المكان من جميع الوجوه جدير بالتعظيم والتقديس، والدار التى نحن فى صدد تعريفها بين باب دارى عثمان بن عفان وأسماء بنت حسن بن عبد الله وجهتها الشامية فى طرف باب النساء.

وكلما عاد النبى ﷺ من سفر كان يدخل أولاً فى المسجد وبعد أن يصلى ركعتين يزور حجرة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ثم يزور حجرات زوجاته بالترتيب، كل هذه الروايات مروية عن الحسن البصرى الذى كان من أجلة

التابعين، كان يقول هذا الذات السامى كلما يتحدث عن الحجرات النبوية «إننى قد زرت حجرات زوجات النبى المطهرات قبل البلوغ وكنت أستطيع أن أمسك بيدى أسقف الحجرات بالرغم من صغر سنى».

وبهذا القول كان يبين مدى انخفاض الحجرات العليا عندما أسست؛ رحمة الله عليه.

فى تعريف كيفية إغلاق الأبواب التى تواجه مسجد النبى فى عصر السعادة.

كان لكل واحد من المنازل التى تحيط بالمسجد الشريف فى عصر السعادة بابان كان يواجه أحدهما المسجد الشريف والآخر ينظر إلى جهات أخرى، وبناء عليه كان أصحاب تلك البيوت يستطيعون أن ينظروا داخل المسجد الشريف وقتما شاءوا. وصعد النبى ﷺ قبل ارتحاله إلى دار البقاء وقال: «إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خير عبده بين ذاته الوحدانية وبين زهرة الدنيا فاختار عبده ذاته الإلهية، وذلك قوله ﷺ: «لو كنت خيرت أن أتخذ غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ خليلاً لاتخذت أبا بكر الصديق خليلاً لما له من أيادى على أن أسعدنى بصحبته وساعدنى بماله، ومع ذلك بيننا الأخوة والمودة الإسلامية، وأوصيكم بأن تسدوا جميع الأبواب الناظرة إلى مسجدى غير باب أبى بكر الصديق»، وكانت الخطبة مؤثرة ذات معان بليغة وفى هذه الخطبة أمر بإغلاق جميع الأبواب الناظرة إلى المسجد الشريف إلا أنه حدث عقب هذه الخطبة بين الأصحاب قيل وقال ووصل ذلك إلى الرسول ﷺ.

وبناء على ذلك استدعى يومًا أصحابه وقال لهم قد سمعت أن الخطبة التى ألقيتها بالأمس بها أمر بأن تسد جميع الأبواب غير باب أبى بكر أدى إلى شيوع القيل والقال! إن النور الذى أبصره يقينى والذى أشاهده فى باب أبى بكر لا أشاهده فى أبواب سائر الأصحاب وكلمة العبد التى ذكرت فى الخطبة السابقة كانت المقصود بها الذات النبوى، وقد فهم أبو بكر الأمر، وعرف أن الوقت قد آن لانتقال الرسول ﷺ إلى الآخرة وتشريفها وإن أشار لذلك فى مبدأ الخطبة، ومن هنا حزن حزنًا شديدًا وأخذ يبكى بكاء شديدًا من شدة ألمه حتى تحير وتعجب الأصحاب الذين فى المسجد، ولما أمر الرسول ﷺ بسد الأبواب الناظرة

إلى المسجد فى خطبته الثانية فأسرع الأصحاب بسدها كلها وقال بعض الرواة إن الباب الذى استثنى عن السد هو باب على بن أبى طالب، ولما كان بيته بجانب المسجد لم يكن له باب آخر، ونقلوا بخصوص سد الأبواب كثيرًا من الأحاديث المتباينة، وقد ورد فى بعض تلك الأحاديث استثناء باب أبى بكر الصديق وفى الأحاديث الأخرى استثناء باب على بن أبى طالب، وإذا ما قيل إن الأمر الذى صدر بسد الأبواب كان فى خطبتين استثنى فى الأولى سد باب أبى بكر الصديق وفى الثانية باب على بن أبى طالب، وبهذا نكون قد وفقنا بين الروايات المختلفة، وكان الأمر بسد الأبواب كان نظرًا لما سيحدث من الانقلابات فى الأزمنة الآتية، لأنه كان قد فتح لجميع المنازل التى حول المسجد أبوابا تنظر إلى المسجد الحرام، فإذا لم تكن الأبواب قد سدت كانت المنافسة التى ظهرت قليلاً رويدًا كانت تؤدى إلى توسيع المنازل وعندئذ ستلتصق جدران المنازل بجدران مسجد السعادة، وهذا قد يؤدى إلى الحريق، كما أن صياح الأطفال ومشاجرتهم كانت ستسلب راحة بال جماعات المصلين كما أن ترك تلك الأبواب مفتوحة ستؤدى إلى محاذير مضرة، وإذا ما قيل إن فى هذه الحالة كان يقتضى الأَمْرُ سد باب على بن أبى طالب كغيره من الأبواب التى طلب ﷺ سدها فما السبب فى تركه مفتوحًا؟ أجيب: إن دار على بن أبى طالب كانت متصلة بالمسجد الشريف ولم يكن لها باب آخر يفتح إلى جهات أخرى وبما أنه كان محتاجًا لباب للدخول والخروج ترك بابه مفتوحًا.

وقد انزعج الأصحاب الكرام من انسداد الأبواب وتأثروا متألمين ومن هنا أخذوا من النبى ﷺ إذنًا بفتح نوافذ صغيرة فى بيوتهم، وسدوا أبوابهم وفتحوا نوافذ صغيرة، ولكن النبى ﷺ أمر قبل وفاته بسد تلك النوافذ أيضًا وترك نافذة أبى بكر الصديق مفتوحة، وكأنه ألمح بهذه الإشارة الخفية لزوم بيعة المشار إليه والإسراع بتصديق خلافته.

الوجهة السابعة

تجمع خمس صور تبين وتظهر عدد المرات التى جددت فيها حدود المسجد النبوى ووسعت ومن الذين حددوها وأشكال القبور الثلاثة فى حالتها الحاضرة.

فى ذكر توسيع مسجد الرسول لأول مرة.

انشغل حضرة الصديق فى زمن خلافته بحركات الردة التى ظهرت بين العربان فى شكل مفزع مخيف ولم يهتم بتجديد مسجد الرسول وتوسيعه إلا أنه أصلح وعمر بعض أماكنه، وتكاثرت فيما بعد الجماعات الإسلامية حتى أصبح المسجد الشريف لا يستوعبها، واستدعى الفاروق الأعظم فى السنة السابعة عشرة كبار المهاجرين والأصحاب وقال لهم: «إننى كنت قد سمعت من فم النبى ﷺ المحسن قوله يلزم توسيع المسجد الشريف» ولما رأيت الآن بعين الافتخار والمباهاة تكاثر الجماعات الإسلامية فأرغب فى توسيع حرم ساحة المسجد الشريف وقد تلقى العموم هذا الرأى بالاستحسان وتحمسوا له، وبناء على ذلك هدم الجدار القبلى دون أن يمس جهة حجرات النبى وسحب الجدار إلى الخلف ما يقرب من عشرة أذرع ووسع مسجد السعادة بقدر استيعاب الجماعات الإسلامية التى فى عهده وأعلى جدرانه قليلاً، وأعلى أخشاب سقفه مقدار ذراعين وعلى قول آخر مقدار ثلاثة أذرع، وفتح ستة أبواب اثنان منهما فى جهة باب السلام واثنان فى جهة باب جبريل والاثنان الآخران فى جهة باب النساء، كما أنه بنى جدران المسجد بحجارة منحوتة قدر ارتفاع ذراعين من الأرض.

وبناء عليه قد اكتسب مسجد السعادة فى ذلك الوقت شهرة بنظامه وانتظامه يمكن أن يقال إنه بالنسبة لزمنه أنه فوق العادة، وبلغ طول سطحه الداخلى أربعين ومائة وعمقه عشرين ومائة ذراع، وقد أضيف إلى المسجد فى هذا التعمير لتوسيعه من الجهة القبلية والشامية أرض تقترب من ثلاثين ذراعًا.

قال بعض الرواة إن الجهة القبلية من المسجد النبوى كانت فى طول أحد عشر ذراعًا ومن الجهة القبلية إلى الجدار الشامى كان فى امتداد ما يقرب من أربعين ذراعًا، فى ذلك الوقت وعلى هذا الحساب يكون حضرة الفاروق قد أضاف

عشرين ذراعًا عرضًا؛ وبعد أن أنهى حضرة الفاروق عمليات التجديد والتعمير والتوسيع فرش جهة باب النساء بالرمل وجعلها مثل الساحة الرملية للمسجد الحرام، وكانت الساحة الرملية لمسجد السعادة متصلة بالرباط المنسوب لخالد بن الوليد وكان الصحابة الكرام يجتمعون فى هذه الساحة لإنشاد الشعر، وكانت هذه العادة غير مذمومة اقتداء بالرسول ﷺ الذى وضع كرسيًا فى المسجد الشريف لحسان بن ثابت وجعله يلقى القصائد فى ذم الكفار، إلا أن هذه العادة أسئ استخدامها فيما بعد إذ أخذ فى إنشاد الأشعار فى كل مكان من المسجد بطريقة غير لائقة خارجة عن توقير المسجد واحترامه؛ لذا تأثر حضرة الفاروق من هذه الحالة وألغى عادة إنشاد الشعر فى مسجد الرسول توأم حرم الجنة وفى ذلك الوقت رأى سائب بن يزيد قد تَمدَّد فى المسجد وظل نائمًا فأيقظه وهو غاضب أشد الغضب وقال له: «لو لم تكن من أهل الطائف أى من قبائل مكة المعظمة لأوسعتك ضربًا». وعاتبه بهذه الأقوال ثم فرش فى منتهى الجهة الشامية من المسجد الشريف رملاً وحصر ذلك المكان لإقامة من يريدون إلقاء الشعر وفصله عن الحرم الشريف، وكان الجدار الذى أقامه حضرة الفاروق وما نصبه من الأساطين قد بنى على شكل مستحسن مطبوع، وكان أسفل الجدران من الحجارة وأعلاها من اللبن.

إن الأساطين التى فى الصف الأول خارج السور الخشبى الذى فى الجهة القبلية من الروضة المطهرة حتى الآن من الأساطين التى نصبها عمر بن الخطاب، وبعد الحريق قد جددت على الشكل السابق وقد حولها السلطان عبد المجيد خان إلى الرخام وقويت وبدت فى غاية المتانة.

استدعى حضرة الفاروق قبل أن يشرع فى توسيع المسجد العباس بن عبد المطلب ومهد لطلبه قائلاً: يا عباس قد كثر المسلمون بفضل الله ولطفه وإحسانه، ومن هنا ظهرت الحاجة الشرعية لتوسيع المسجد. قد اشتريت جميع المنازل التى حول المسجد كلها ودفعت ثمنها، ولم تظل إلا دور أمهات المؤمنين ودارك، إننى أستحى أن أشترى دور أمهات المؤمنين التى تضارع الثريا؛ ولكننى آمل أن آخذ دارك، إذا ما بعتم دفعت لكم ثمنها وإذا ما تبرعتم بها أعرض لكم

شكرى وحمدى، وبهذه المقدمة طلب منه داره، فأجابه العباس: «قد أعطانى الرسول ﷺ ساحة هذه الدار وساعدنى فى بنائها متنازلاً؛ وأنى لكم الحق فى مطالبتى بها وأنت تعرف هذه الأمور؟!» وبعدما أدارا كئوس الحوار فترة أحالوا الأمر لفصل القضية لحكم أبى بن كعب من أفاضل الصحابة؛ وفتح أبى بن كعب فمه ناقلاً عن النبى ﷺ أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ جل شأنه عن الشبيه ـ أن يبنى داود ـ عليه السلام ـ مسجدًا وطلب منه ذلك، وخط داود ـ عليه السلام ـ حول عَرْصَة بيت المقدس خطا مربع الأضلاع دائرًا ما دار، وبما أنه سيتخذ هذه الساحة مسجدًا فإنه يأمل أن يشترى جميع المنازل التى تقع فى داخل الدائرة التى خطها.

وأنبأ أصحاب الدور بذلك، وتقبل جميع أصحاب البيوت التى فى داخل الدائرة عرض النبى داود قبولاً حسنًا وقبلوا أن يتنازلوا عن دورهم إلا واحدا منهم خالف داود ـ عليه السلام ـ ورفض إعطاء منزله فبين له داود ـ عليه سلام الله الودود ـ أنه سيقدر لمنزله قيمة وسيدفع له هذا الثمن المقدر ويستولى على بيته جبرًا، عندئذ صدر من الله ـ سبحانه ـ خطابه معاتبًا يا داود هل تريد أن تدخل مالاً مغصوبًا فى البيت الذى ستؤسسه من أجلى وهذا لا يليق، وبهذا الخطاب أقلق داود عليه السلام، وهكذا جعل أبى بن كعب الحق بجانب العباس بن عبد المطلب، وقد سر العباس بن عبد المطلب من حكاية أبى بن كعب المحايدة وتنازل عن داره للمسجد الشريف بلا مقابل متبركًا. وتقع هذه الدار فى مكان الأعمدة التى فى الصف الأول ابتداء من المنبر المنير والتى تنتهى إلى باب السلام فى مكان العمود الخامس من تلك الأعمدة التى ألحقت بمسجد السعادة والمكان المواجه لها دار مروان بن الحكم.

ويروى البعض أن الدار التى كانت مثار المنازعة فى أخذها وشرائها هى الساحة التى كان النبى ﷺ قد اختارها لجعفر بن أبى طالب الذى كان فى الحبشة، واشترى نصف هذه الساحة عمر بن الخطاب واشترى نصفها الآخر عثمان بن عفان وألحقها بالمسجد الشريف، ويروون أن عمر بن الخطاب دفع لنصف هذه الساحة ألف درهم ومائة ثمنًا لها.

الصورة الثانية

فى ذكر كيفية تجديد مسجد السعادة وتوسيعه للمرة الثانية.

ظل مسجد السعادة ثلاث عشرة سنة وفى قول ثمانى عشرة سنة على الهيئة التى جددها الفاروق الأعظم إلا أن عدد المسلمين زاد رويداً رويداً حتى أصبح الحرم الشريف لايستوعبهم؛ ولأجل ذلك هدم عثمان بن عفان مبانيه كلية فى السنة التاسعة والعشرين أو السنة الثلاثين وفى رواية فى السنة الحادية والثلاثين أو فى نهاية سِنِيِّ خلافته فى خلال شهر ربيع الأول من السنة الخامسة والثلاثين ووسعه وجدده على أجمل شكل وهيئة منتظمة كما بنى لنفسه مقصورة وأتم عمليات البناء فى ظرف عشرة أشهر وهذا التعمير يعد التوسعة الثانية للمسجد الشريف.

يبين بعض المؤرخين لهدم مسجد السعادة وتجديده أسبابًا عدة، أحد هذه الأسباب بل أهمها قول بعض أهالى المدينة من أصحاب العز والمثول إن الجماعات يظلون خارج المسجد يوم الجمعة ولايستطيعون أداء الصلاة، فإذا ما وسع مسجد السعادة قليلاً لاستوعب كل الجماعات الآتين للصلاة وقد استحسن عثمان بن عفان رأى من يريدون توسيع مسجد السعادة واستشار أصحاب الشورى، ثم قرر أن يهدم المسجد الشريف كله، وتوسيعه، وصعد يومًا بعد أداء صلاة الظهر على منبر السعادة وألقى خطبة بليغة تحوى المعانى التالية يا أصحاب رسول الله، إننى سأجدد المسجد الشريف وأوسعه بعد هدمه، وقد تذاكرت مع أصحاب الشورى فى هذا الخصوص، فاستصوب كلهم رأيى وأقروا أن الحرم السعيد فى حاجة إلى التوسيع والتجديد. وقال للذين رفعوا قامتهم معترضين:[1] «إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول الذين يبنون مسجداً لوجه الله فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سينعم

(١) وكان غرض المعترضين تجديد المسجد بلا زينة لأن الكل كان يتمنى توسيع المسجد وتجديده.

عليهم فى الجنة مثل المسجد الذى أسسوه فى الدنيا وسيتبعنى سلفى فى هذا الخصوص وإننى سأموت وأقلده فى هذا، وأسكتهم بهذه الإجابة الصائبة. وقد أدت الخطبة التى ألقاها عثمان إلى قيل وقال إلا أن الجميع قد اتفق فى الاجتماع العام على لزوم توسيع المسجد وتوسيعه على صورة مطبوعة جميلة وصدقوه وبناء عليه جلب الخليفة القدر الكافى من العمال وابتدر بهدم المسجد بذاته وهو صائم، وترك الجهة الشرقية من المسجد على حالها، وهدم الجدار القبلى كاملاً ووسعت هذه الجهة وجدد جدران جهاتها الأربعة بحجارة منقوشة بعد هدمها ونصب عمودًا ذات قاعدة مربعة فى الجهة الغربية يعنى فى جهة «باب السلام». إن هذا العمود هو السابع إذا ما عد ابتداء من منبر السعادة ناحية باب السلام، وقد جعلت قاعدته مربعة للدلالة على أن هذا المكان منتهى توسيع حضرة عثمان مبتدأ تجديد الوليد بن عبد الملك، وقد بلغ طول المسجد فى هذا التعمير إلى ١٦٠ أو ١٧٠ ذراعًا وعرضه إلى ١٥٠ ذراعًا أى أن عثمان بن عفان قد وسع مسجد السعادة ثلاثين ذراعًا عرضًا وعشرين ذراعًا طولاً وأبقى على جميع أبوابه القديمة.

وتوجد فى الجهة الشامية من المسجد الشريف منازل أبى سبرة بن أبى رهم وعمار بن ياسر وطلحة بن عبيد الله ومنزل حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجات النبى ﷺ، وفى الجهة القبلية منزل العباس بن عبد المطلب، واشتهرت تلك المنازل كلها برصانتها فوق العادة ومتانتها، قد اشترى حضرة عثمان جميع هذه المنازل وأرضى أصحابها بطريقة ما وطيب خواطرهم وألحقها بساحة مسجد السعادة المشحون بالفيض.

ولما قالت له زوجة الرسول حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنهما ـ إذا ضممتم منزلى هذا إلى المسجد الشريف فأين المنزل الذى سأقيم فيه أجابها قائلاً سنجد لك منزلاً ونفتح له طريقًا خاصًا يفضى إلى مسجد السعادة وأعطاها دار عبد الله بن عمر وفتح منها طريقًا واسعًا يفضى إلى المسجد وهكذا أرضى أمنا حفصة ـ رضى الله عنها ـ وطيب خاطرها.

وكانت عمارة عثمان بن عفان للمسجد أن بدل الأعمدة الخشبية بالأبنية من

اللبن وبدل الأعمدة المبنية باللبن بالحجر وجعل السقف من خشب الساج وجمع الجهة القبلية إلى شبكة الحجرة المعطرة، كما بنى المحراب المقدس الذى يشتهر «بالمحراب العثمانى» وهو من الآثار الجليلة التى زيدت فى المسجد وفى الجهة اليمنى من طاق ذلك المحراب الشريف كتب اسم الجلالة وفى الجهة اليسرى منه اسم النبى الطاهر وفى وسط هاذين الاسمين كتب اسم الجلالة الآخر.

والمحراب العثمانى فى وسط الجدار القبلى للحرم الشريف وفى الجهة اليمنى منه كتبت أربعة أسطر كتابة بخط جلى نفيس وفى السطر الأول من هذه الكتابات الآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦) وفى السطر الثانى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ١٤٤) وفى السطر الثالث ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤) وفى السطر الرابع الحديث (قال رسول الله ﷺ، إن سركم أن تقبل صلواتكم فليؤمكم علماؤكم فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم وفى رواية فليؤمكم خياركم) (حديث شريف) وكل هذه الكتابات قد زخرفت والحديث الذى سطر فى السطر الرابع قد كتب على ثلاثة أسطر ذات أربع زوايا، وفى الجهة اليسارية كما فى الجهة اليمنى أربعة السطر من الكتابة كتب على السطر الأول منها قول الله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨) وعلى السطر الثانى ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤) وعلى السطر الثالث ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤) وكتب على السطر الرابع (قال رسول الله ﷺ (أقيموا صفوفكم فإنما تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة وحاذوا بين المناكب ولينوا بأيدى إخوانكم وسدوا الخلل ولا تجعلوا فرجة للشيطان فمن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفًا قطعه الله عز وجل) (حديث شريف) والسطور الأولى من هذه الكتابات كتب بالخط الكوفى وكلها مزخرفة ومطلية بالذهب.

وقد كتبت قصيدة البردة البليغة فى داخل القباب التى فى الصفين الأولين دائرًا

ما دار، وتمتد هذه القباب فى داخل حرم السعادة ابتداء من باب السلام إلى الجدار الشرقى الملاصق للمئذنة الرئيسية ذلك الجدار الذى به المحراب الأقدس المذكور، وقد بدأت هذه القصيدة البديعة من جهة باب السلام وتمت فى مواجهة السعادة التى تتصل بالجدار الشرقى ولأجل ذلك كتبت فى داخل بعض القباب المتبقية سورة يس وسورة الملك كما كتب فى بعضها الآيات القرآنية المناسبة ورئى فى سنة ١١٩٨هـ فى جدران محراب عثمان علامات السقوط والأنهيار وأبلغ الأمر سريعا إلى السلطان عبد الحميد خان ـ طاب ثراه ـ بن السلطان أحمد خان فأمر بتجديده وتزيينه وأرسل الشخص الذى كلف بالبناء بلا تأخير إلى المدينة المنورة، وكشف هذا الشخص وتفقد المحراب المذكور مع سادات البلد وأشرافه وموظفى الدولة وبناء على القرار المتخذ أنزلت الحجارة الرخامية التى على طرفى المحراب المذكور ودون أن يفسدوا ما عليها من تاريخ قايتباى المصرى، وجددوا ما يلزم تجديده من الجدران القبلية ورتبوا تاريخ الملك قايتباى على شرطين ووضعوه فى مكانه كتبوا ما بين التاريخ المذكور بسم الله سورة الضحى الكريمة وكتبوا فى خاتمتها (صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ﷺ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ورضى الله عنهم وعن سادات أصحاب رسول الله أجمعين) وكتب فوق هذا التاريخ القصيدة البليغة (بنور الله أشرقت الدنيا، ففى نوره كل يحيى ويذهب وكتب فوق هذه القصيدة بعد بسم الله الآية الكريمة) ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥) والآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (إبراهيم: ٣٧) وفى نهايتها الآيات البينات ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس: ٥٨)، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨)، ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ إلى قوله ﴿وَضَعَتْهَا أُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦) وكتبوا على ذيولها الآية الكريمة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢) ولذيلها بدء من الآية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾ إلى قوله ﴿عَاقِرٌ﴾ (آل عمران: ٤٠) وبعدها القول الجليل ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣) وكتبت الآية الكريمة ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ﴾ وقد كتبت هذه الآيات الكريمة مرتبة على سطر واحد وانتهى السطر الطويل بخاتمة (صدق الله العظيم) كتبه الفقير نقشى الأسكدارى غفرت ذنوبه سنة ١١٩٨ هـ، وكتب فوق طاقة المحراب الشريف المذكور بعد البسملة الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ﴾ إلى قول الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الأحزاب: ٤٠) وقول الله تعالى بعد البسملة ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ﴾ إلى قول الله تعالى ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨) وكتب فى ذيلها (اللهم شفع هذا النبى فى مجدده السلطان عبد الحميد خان نصره الله)، هذه الجملة الدعائية وكتب على يمين المحراب الشريف بعد البسملة الآية ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وكتب فى نهايتها على سطرين الحديث الشريف (قال رسول الله ﷺ إن سركم أن تقبل صلواتكم فليؤمكم) إلى آخر الحديث وعلى طرفى هذا الحديث الشريف كتبت أسماء النبى ﷺ وكتبت على الجهة اليسرى من المحراب الشريف المذكور (قال رسول الله ﷺ أقيموا صفوفكم) إلى آخر الحديث وقد وشحت أطراف هذا الحديث الشريف أيضًا بأسماء النبى الشريفة وقد زينت أعلى وأسفل هذه السطور بأحجار منقوشة من الصينى.

وهذا هو تاريخ قايتباى المصرى الذى أنزل دون أن يفسد ويتضرر فى أول التجديد ثم وضع فى مكانه فى ختامه دون إضرار.

بعد البسملة (إنما يعمر مساجد الله) إلى قول الله الجليل (عنده أجر عظيم) صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم أمر بعمارة الحرم النبوى الشريف بعد

احتراقه فى ليلة صباحها عند ثالث عشر رمضان المعظم قد جرى تعميره سنة ثمانمائة وثمانين، سيدنا ومولانا العبد الفقير المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير خادم الحرمين الشريفين الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره وذلك بنظارة العبد الفقير محمد بن زمن وأنشأ العمارة بالحرمين الأمير سنقر الحالى وذلك فى أيام الأمير شيخ الحرم الشريف غفر الله لهم. (بسم الله الرحمن الرحيم، إن الذين ينفقون أموالهم) إلى قوله الشريف (واسع عليم) صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ورضى الله عن الصحابة أجمعين، أمر بعمارة هذا الحرم النبوى الشريف المعظم من فضل الله تعالى الفقير الملك المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير قايتباى وناظر العمارة محمد بن الزمن بمباشرة القاسم الفقير شيخ الحرم وأمير السادات الحالى سنقر غفر الله لهم وكان الفراغ من عمارة هذا الحرم الشريف فى شهر رمضان سنة ثمانمائة وثمانين.

مقصورة مسجد السعادة

تطلق المقصورة على المحافل التى تصنع فى محاذاة المحاريب فى المساجد الشريفة من أجل الملوك.

وفى يمين ويسار أبواب المساجد عند الدخول مقصورتان وقد أحدثت هاتان المقصورتان قبل عصرنا بقليل.

وذهب المؤرخون إلى أن أول من أنشأ مقصورة مسجد الرسول هو عثمان بن عفان (رضى الله عنه الرحمن) وقالوا بأن عثمان بن عفان عندما جدد المسجد الشريف طرح مقصورة أمام الجدار القبلى لمسجد السعادة أعلى من أرض المسجد مقدار ذراعين وكانت أطرافها مشبكة واختص بها نفسه حتى ينجو من شرور الخونة الذين اعتدوا على عمر الفاروق وأخذ يجرى الإمامة فى داخل هذه المقصورة، ويُرْوَى أن مروان بن الحكم هو الذى بنى هذه المقصورة ويعللون

ذلك بقيام «دب»[1] التهامى ضده؛ لأن مروان بن الحكم كان قد أرسل إلى تهامة جابيًا وكان هذا الموظف قد ظلم واحدًا من آل تهامة يُسَمَّى دُبًّا وحمله ما لا يطاق وجعله يمل حياته؛ ودب هذا قد تحير فيما يعمله وفى النهاية قرر قتل مروان بن الحكم وإعدامه، وذهب إلى المدينة ولكنه لم يوفق فى قصده وقبض عليه فى داخل المسجد، استنطقه مروان ووجه إليه سؤالاً لماذا أقدمت على هذا الأمر الوخيم وأردت قتلى؟! فقال له: «إنك كنت قد أرسلت إلى تهامة عاملاً ظالمًا، وبمجرد وصول هذا الرجل قد اغتصب زادى وذخيرتى واستولى على كل ما فى يدى وترك أولادى وعيالى جائعين بدون دواء وأنا أقسمت على قتل الآمر الذى أرسل هذا العامل، وهذا هو سبب الإقدام على قتلك». وبعد هذه الإجابة حبس الرجل وسجنه وبنى من خوفه مقصورة وهيأ مقدارًا كافيًا من الحجارة المنقوشة وصنع مقصورة وأوصل أطرافها ودعمها.

ويروى أن حضرة معاوية صنع هذه المقصورة ليحمى نفسه من غدر برك بن عبد الله من الخوارج.

واستهجن فيما بعد عمر بن عبد العزيز وجود مقصورة فى داخل المسجد فأمر بهدمها، إلا أن فريقًا من المؤرخين قالوا: إن المقصورة التى صنعها ابن أبى سفيان جددها محمد المهدى بالله ابن أبى جعفر المنصور متخذًا خشب الساج فى تجديدها، وإذا كانت هذه الرواية صحيحة ينبغى ألا يهدم عمر بن عبد العزيز المقصورة التى صنعها معاوية بن أبى سفيان، والمقصورة الآن هى الأماكن التى خصصت لأداء الملوك الصلاة فيها وهو المحل الموقر الذى يطلق عليه المحفل السلطانى، ويوجد فى جميع المساجد الكبيرة ويلاصق جدار القبلة وفى الجهة اليمنى أو اليسرى من المحاريب.

(١) بناء على تحقيق بعض الرواة أن اسم «دب» كان ذبابا.

فى ذكر كيفية تجديد مسجد الرسول ﷺ وتوسيعه للمرة الثالثة.

وسع المسجد النبوى فى المرة الثالثة الوليد بن عبد الملك وجدده، وظل المسجد الشريف إلى قرب عهد عبد الملك الشامى على الحالة والهيئة التى صنعها عثمان بن عفان وظل فى حالته تلك واسعًا متين البناء لا يحتاج للتعمير، إلا أن الوليد ابن عبد الملك رغب فى توسيع مسجد السعادة وتجديده على شكل أكثر نظامًا وزينه فى طرز جديد، فكتب إلى حاكم القسطنطينية فيلبوس طالبًا منه أن يرسل مقدارًا كافيًا من العمال المتفننين المهرة وقدرًا كافيًا من الفسيفساء الجميلة، فأرسل فيلبوس ثمانين نفرًا من مهرة العمال المشهورين نصفهم من القبط والنصف الآخر من الروم كما أرسل ثريًا نادرة تساوى أربعين ألف دينار.

وسر الوليد بن عبد الملك من ورود الثريا والعمال المرسلين من القسطنطينية وأرسل هؤلاء العمال و النقود والمواد اللازمة لتجديد مسجد الرسول إلى ابن أخيه عمر ابن عبد العزيز[1] وأعطى رسالة مستفزة للشخص الذى كلفه بإيصال الأشياء المذكورة يقول فيها أرسلت إليكم النقود واللوازم الكافية لتجديد مسجد الرسول وتوسيعه وبعض العمال، وعند وصول هذه الأشياء اشتر منازل الزوجات المطهرات للنبى ﷺ ثم منازل المحترمين من الناس واشرع فى تجديد المسجد وتوسيعه على هذا الأساس وأعط بدلات قيمة المنازل التى اشتريتها، وإذا وجد من يخالف بيع منازلهم وإعطائه فأظهر لهم القوة الجبرية واهدم منازل هؤلاء الأشخاص وخربها، وإذا رفضوا أخذ المبالغ المقدرة فوزع النقود على فقراء

(١) وكان عمر بن عبد العزيز فى ذلك الوقت والى الحجاز ويقيم فى المدينة المنورة. وكان جده مروان بن الحكم وكان اسم والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وهو الإمام الجليل وخامس الخلفاء الراشدين العادل، وحكم ما يقرب من سنتين وخمسة أشهر ولما كان عمره أربعين عاما ارتحل عن دنيانا فى مكان يسمى دير سمعان من أرض حمص ليسكن فى عرش الآخرة.

الأرض وتصدق بها سريعًا، ولما وصل الشخص المكلف بهذه المهمة من الخليفة إلى عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنورة أعطاه رسالة الوليد فتسلم اللوازم والأشياء المرسلة بموجب سجل وأخذها وجمع سادات المدينة وعظماءها والأشراف.

وأحضرهم وأظهر لهم الرسالة الى أرسلها الوليد بن عبد الملك وأوصاهم بأن يوافقوا على إجراء ما جاء فى مضمون هذه الرسالة وقال لهم: «إن كان مندرجات هذه الرسالة تحتوى على وجوب إجراء بعض الأمور الصعبة وغير اللائقة فيجب السكوت عليها، لأن واقعة الحرة لم تزل قريبة منا ولم يمر وقت طويل حتى تنسى».

وبما أن رسالة الوليد قد أقلقت سادات المدينة الكرام ولاسيما جملة هدم حجرات نساء النبى العليا، فإن المضرة أصابت أذهانهم بالسوء فأسرعوا بتشكيل مجلس عام أداروا كئوس المذاكرة وأقداح المحاورة، وأبدى كل فرد رأيه فى حرية تامة فالتزموا فكر عدم السماح بهدم الحجرات وأصروا عليه، ولكن بعض القلقين من بينهم أرادوا أن يقنعوا هيئة الشورى قائلين: «إن الطريق الذى أراه لنا عمر بن عبد العزيز موافق للعقل والحكمة، إذا ما خالفنا رأيه السديد نكون لم نستفد بعد من واقعة الحَرَّة الأليمة ولم ننتبه بعد، وبدلاً من أن نعرض الروضة المطهرة للتلويث تحت أقدام الشاميين النجسة فمن الخير أن نوافق على أمر الوليد». وبذلوا جهودًا لذلك وساد المجلس هدوء طويل وبعده وافقوا على توسيع مسجد السعادة كما أراد الوليد قائلين: «إذا رفضنا نكون قد عرضنا الروضة المطهرة للتلويث وسلمنا أولادنا وعيالنا بأيدينا إلى أيادى الأعداء» وذلك حتى لا يتسببوا فى واقعة حرة أخرى، وعرضوا رسالة ابن عبد الملك للناس جميعًا سائرين من الحى إلى الحى وأعلنوا القرار الواقع وأشاعوه.

وكان أهل المدينة يريدون أن يتركوا للأخلاق أثرًا عظيما يبين طرفًا من حياة سلطان عرش الإسلام ـ عليه السلام ـ يبين طريقة معيشة النبى ـ عليه السلام ـ ومن هنا كان رفضهم الهدم لحجرات نساء النبى ﷺ.

ولم يفكر الوليد فى مثل هذه الأمور الدقيقة بل طلب من عمر بن عبد العزيز هدم حجرات زوجات النبى ﷺ وإدخالها فى ساحة المسجد وهذا الطلب قد ملأ القلوب باليأس وجلب الحزن والهم والغم للجميع ومن هنا رجوا من عمر بن عبد العزيز أن يطلب من الوليد بن عبد الملك أن يترك حجرات نساء النبى ﷺ على حالها حتى يراها الزوار والحجاج ويعرضون عن زخارف الدنيا، وعرض عمر بن عبد العزيز ما اتفق عليه فقهاء المدينة وأجمعوا عليه، ولكن الوليد لم يرجع عن رأيه وأمر بأن تهدم مطلقًا، فاضطر هنا عمر بن عبد العزيز إلى تنفيذ أمر وليد ولكنه أبقى حجرة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ولم يهدمها.

وحينما عرضت رسالة الوليد الغير مهذبة الأسلوب على سكان دار السكينة فلا يمكن وصف ما أحدثته الرسالة من هياج بين أهل المدينة فى ذلك اليوم، وأخذ الذين سمعوا بهدم حجرات الآيات النبوية أخذوا يبكون وينتحبون ويصيحون بحالة قد ترق لها حتى الجمادات، وقد انسحب كل واحد منهم فى ناحية وأخذ يبكى مهمومًا حتى أقلقوا من بالملأ الأعلى وغشيتهم بحار الهموم، وقد بلغ مقدار ما أظهره الوليد من الوقاحة فى هذا الشأن درجة أنه أراد أن يشرف بنفسه على هذا العمل دون أن يهدم الحجرات ويثير القيل والقال، فذهب محرما إلى مكة المكرمة بنية الحج ومر بالمدينة عند العودة، ولما رأى أن الحجرات المطهرة قد هدمت كلها بالقوة وأبقى حجرة فاطمة دون هدم فغضب غضبًا شديداً واعتلى المنبر السعيد وألقى خطبة شنيعة.

وكان القائم على دار سعادة السيدة فاطمة فى ذلك الوقت هو «محسن بن الحسن بن على بن أبى طالب» ـ رضى الله عنهم ـ وكان محسنا يجلس فى منزله ويستمع إلى خطبة الوليد من نافذته.

وبما أن موقف محسن بن الحسن هذا أثار خصومة الوليد وغضبه نزل من على منبر الرسول وقال لابن أخيه عمر بن عبد العزيز، بما أنك هدمت جميع حجرات نساء النبى فمن غير المناسب أن تبقى على منزل فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قائمًا، ولهذا آمرك أن تهدمه أيضًا وعلى قول، نزل من على المنبر النبوى وأمر بهدم

ذلك البيت السعيد وأجاب على محسن بن الحسن الذى قال كيف تهدم البيت وأنا لن أخرج منه؟ أجاب إذن أهدمه على رأسك ثم أحضر مقدارًا كافيًا من العمال وأخذ فى هدم المنزل، فرأى الناس أن الوليد مصر على عناده ومحسن صابر وثابت فى عدم الخروج من ذلك المنزل، فأخذوا ينصحون محسنًا بالخروج حتى لا تحدث نكبة أخرى للموحدين تظل ذكراها إلى يوم القيامة وأرضوه وأخرجوه مع جميع أفراد أسرته ونُقِلُوا إلى دار لا عيب فيها يقال لها دار على فى ذلك الوقت.

وينقل بعض المؤرخين هذه الواقعة بشكل آخر؛ إذ يقولون: «كان الوليد بن عبد الملك وصلته الأخبار وهو فى الشام بعدم هدم منزل فاطمة السعيد، فأرسل تعليماته إلى والى الحجاز عمر بن عبد العزيز بالإسراع فى هدمه لإدخاله فى حرم المسجد الشريف». فأعطى عمر بن عبد العزيز محسن بن الحسن بن على وفاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب مبلغ ثمانية آلاف دينار، وبما أنهما لم يرضيا فآثر السكوت متأدبًا، وكتب ردا على رسالة الوليد يقول فيه: «قد أعطيت لأصحاب بيت السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ محسن بن الحسن وبنت عمه فاطمة بنت الحسين ـ رضى الله عنهم ـ ثمانية آلاف دينار فلم يقبلاه وبما أنك، صاحب الإمارة، تعرف أنهما من أعاظم سادات البتول، فلا يجوز أن نتجاوز حدودنا معهما وتعاملهما معاملة الناس العاديين وألمح له أن ترك ذلك البيت القيم على حاله أنسب، وكان عمر بن عبد العزيز يأمل أن يسكت الوليد بناء على هذه الرسالة، إلا أن الوليد قد غضب غضبًا شديدًا من محسن ابن الحسن بعد استلامه رسالة عمر بن عبد العزيز وكتب رسالة مسهبة أخرى قال فيها «يجب أن يرضى هذان أيضًا ولا محالة وإذا لم يرضيا يجب أن تستعمل القوة الجبرية لأخذ منزلهما وهدمه» فأحضر عمر بن عبد العزيز المشار إليهما وأرضاهما ونقلهما إلى دار على المستقرة فى القرب من الحرة الشرقية وآواهما.

وجمع عمر بن عبد العزيز لبنات هذه الدار السعيدة ولبنات حجرات زوجات النبى ـ رضى الله عنهن ـ السليمة عند هدمها مع لبنات جدران مسجد الرسول، أى

جمع لبنات مسجد الرسول مع أنقاض حجرات نساء النبى فى مكان واحد ثم نقلهن إلى مكان يطلق عليه حرة حيث بنى لنفسه من هذه اللبنات دارا متبركًا بها.

يقول الإمام السمهودى بناء على المعلومات الموثوقة التى حصل عليها، إن الجرأة[1] التى اتصف بها الوليد فى تجديد مسجد الرسول وأظهرها وكذلك فى هدم منزل فاطمة السعيد ـ رضى الله عنها ـ آتية من أن جاسوسًا قال له: «إن فى المدينة شخص مليح المنظر ملائكى الوجه ومادام هذا الشخص ساكنًا فى المكان الذي فيه فلا يمكن أن تسيطر على أهل المدينة» لأن الوليد كان يرسل كل سنة جاسوسًا إلى المدينة ليطلع على أطوار أهل المدينة وأعمالهم، فقال له أحد جواسيسه الذين يأتون إلى المدينة ويذهبون «يا وليد! قد اطلعت فى المدينة على شىء، ومادام هذا الشىء باقيًا هناك فلن ينفذ حكمك على المدينة والأرض» وعندما استوضح الوليد الأمر أجابه قائلا: «وجدت يومًا فى مسجد الرسول، هناك فى الجهة الغربية من المسجد مكانًا وكان متصلاً به ومستورًا، وفى أوقات الصلاة ترفع ستارة ذلك المكان ويصلى من بداخله مؤتمين بالإمام، وبعد أداء الصلاة يرخون الستارة، فأثار هذا العمل فضولى فألقيت نظرة لذلك المكان الذى يشبه الفردوس فرأيت فى داخله رجلاً ذا وجه ملائكى محبوبًا ممدوح الأخلاق، وكان فى يده مكحلة، والأخرى مرآة، فسألت عن كنهه، فقيل لى إنه محسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، والمكان الأنور الذى فيه داره التى انتقلت إليه من والدته وأظهروا له احترامهم، ومادام هذا الرجل فى داخل المسجد وظل منزله السعيد فى داخل المسجد كما هو الآن لا أظن أن حكمك سيسرى فى المدينة دار الميمنة».

ولما سأله الوليد قائلاً «وما هو الحل والتدبير؟» أجابه «إلحاق منزل فاطمة بالمسجد بوسيلة تجديد مسجد السعادة» فأمر الوليد عمر بن عبد العزيز توا بإجراء ما يقتضى بخصوص هذا الموضوع، ولم يكن منزل حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ إلى تلك الواقعة قد أخذ منها وبعد أخذ عمر بن عبد العزيز دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وضمها إلى ساحة مساحة المسجد النبوى استدعى

(١) قد ذكرت الأسباب التى جرأت الوليد بهذا القدر فى آخر هذه الصورة بالاستطراد.

أسرة عمر بن الخطاب وخاطبهم قائلاً: «قد أمر الوليد بن عبد الملك بإدخال منزل حفصة ـ رضى الله عنها ـ الجميل فى ساحة مسجد السعادة والذى يوجد على يمين الباب الصغير الخاص بآل عمر إذ تعرفون أن أبناء السبيل لا يراعون حرمة المكان وهم يمرون من بين المرقد النبوى الجميل والذى يقع بين منزل المشار إليها وحجرة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهذا غير لائق ويخالف قواعد الأدب والتعظيم وكان دهليز القبر الجليل ممرًا لأبناء السبيل، ومن هنا أخذت المكان الذى كان ممرًا وألحقته بالمسجد الشريف حتى أمنع تلك التصرفات التى لا تتسم بالرعاية لحرمة المقدسات، وعلى هذا يقتضى إلحاق دار حفصة ـ رضى الله عنها ـ بالمسجد الشريف أيضًا»، وبهذه المقدمة طلب حجرة حفصة، ولما قال آل عمر إننا نتحاشى ونحترز من بيع بيت حفصة بالنقود أجابهم قائلاً إننى أريد أن أضم ساحته إلى مسجد السعادة فقالوا له ذلك أمر يخصك ولكننا نريد طريقًا خاصًا بنا عندئذ أمر بهدم ذلك المنزل وإلحاقه بمسجد السعادة وفتح طريقًا من أجل آل عمر وبهذا جعلهم رهن الفرح والسرور.

وكان طريق آل عمر القديم شديد الضيق يكاد لا يسمح بمرور شخص واحد، ولكن المشار إليه فتح طريقًا واسعًا فقدره الأهل وأثنوا عليه.

ويرى البعض أن الحجاج بن يوسف الثقفى أراد أن يأخذ ذلك المنزل الذى يشبه الثريا من عبد الله بن عبد الله ولما قال له عبد الله إننى لا أستطيع أن أبيع بيت رسول الله طمعًا فى ثمن قليل، أجاب الحجاج لابد أن أهدم ذلك المنزل وأخرجه فقال له إنك لا تستطيع أن تهدمه إلا إذا هدمته فوق رأسى، إننى لن أخرج من دارى حتى تستطيع أن تهدمه وعندما أخذ الحجاج هذا الرد منه أحضر عمالاً وأخذ يهدم فى المنزل وعبد الله بن عبد الله فى داخله، وإن كان عبد الله بن عبد الله أصر على عدم الخروج إلا أن أفراد بنى عدى توسطوا فى الموضوع وقالوا يا عبد الله مازلنا إلى الآن فى أشد الألم من نار فراق المرحوم والدك، فكيف لنا الصبر على النار التى ستفجعنا بها ذاتك السامية وأخرجوا المشار إليه.

ظن الحجاج الصفيق أن عمله هذا أى إخراج عبد الله من بيته نجاحًا كبيرًا

فأخبر الوليد بن عبد الملك بما فعله، وأجابه الوليد بأن يعطى النقود التى قدرت ثمنًا لبيت حفصة إلى عبد الله وفى حالة رفضها أن تصرف تلك النقود فى أمور مسجد السعادة، إلا أن عمر بن عبد العزيز أعطى الجزء الذى لم يدخل فى ساحة مسجد السعادة لعبد الله بن عبد الله وفتح طريقًا منتهيًا إلى مسجد السعادة كما فتح بوابة من بيت المشار إليها إلى الطريق المذكورة وهكذا طيب خاطر عبد الله.

ويفهم من كل هذه الروايات أن الوليد بن عبد الملك هو الذى اشترى الحجرات؛ إلا أن زين المراغى نقل رواية عن الإمام السهيلى تبين أن تلك المنازل قد اشتريت فى زمن عبد الملك بن مروان وأدخلت فى مسجد السعادة إلا أنها لم تهدم تبركًا بها، ويتحقق من كل هذه الروايات أن عبد الملك ابن مروان سمح للمسلمين أن يدخلوا فى الحجرات ليؤدوا الصلاة فيها، كما أن ابنه الوليد هدمها كلها وضم ساحتها إلى مسجد السعادة وقد ثبت عن المؤرخين أن الناس كانوا يدخلون أيام الجمع فى حجرات زوجات النبى ويصلون فيها.

وبعدما انتهت منازعات إعطاء البيوت كما سبق شرحه، هدم عمر بن عبد العزيز المنازل المشتراة وسطح ساحتها وضمها إلى مسجد السعادة، وابتدر فى وضع أساس البناء المقدس وبنى جدار القبلة فى مكانه الأول وجدار جهة باب السلام أوصل إلى الأسطوانة المربعة كما سحب جدار جهة الشام إلى العمود العاشر من الأساطين المربعة للقبر الجليل، وإذا عد هذا العمود من أعمدة الجدار الشامى فهو الرابع، وأضاف إلى الجهة الغربية أسطوانتين[1]، وبهذا أوصل طول مسجد السعادة إلى ١٦٧ ذراعًا وعرضه إلى ١٣٥ ذراعًا.

وعند البعض أوصل طول مسجد السعادة إلى ٢٠٠ ذراع وعرض الطرف الشامى إلى ١٨٠ ذراعًا وعرض الطرف القبلى إلى ٢٠٠ ذراع وأدخل قبر النبى الجليل ومقبرتى الشيخين الجليلين فى داخل المسجد وإدخال القبرين الشريفين فى المسجد الشريف يومئ إلى اتخاذ المقابر مسجدًا وهو أمر غير مسموح شرعًا من

(١) كان مكان أحد هاتين الأسطوانتين ساحات حجرات نساء النبى وثلاثة منازل لعبد الرحمن بن عوف يقال لها قرائين

هنا اعترض على ذلك من قبل سعيد بن المسيب بعض الاعتراض إلا أن أحدًا لم يعر له أذنًا.

وقد استخدمت الأحجار المنحوتة فى بناء الجدران كما أن الأعمدة قد دعمت بالحديد والنحاس وعلقت الثريا التى أرسلها الحاكم فيلبوس من القسطنطينية فى جهة مناسبة وزينت الجدران من الداخل والخارج برخام مجلى والذهب والفسيفساء، كما أن أسفل الأعمدة وأعلاها ذهبت بأنواع مختلفة من الذهب كما زينت عتبات الأبواب.

معجزة جليلة: قال أحد عمال الروم الذين أرسلهم فيلبوس لزملائه إننى سأتبول فوق قبر محمد ﷺ الذى يحترمه المسلمون أعظم احترام ويعزونه كثيرًا وأخذ يحل حزامه ولكن زملاءه منعوه عن ذلك فلم يستطع أن ينفذ ما فى ضميره، وبعد دقيقتين من هذا الحوار غير اللائق وقع هذا الشخص سخيف الأفكار على أم رأسه وذهب إلى دار البوار وبناء على ذلك أسلم جميع زملائه.

وقطع عمر بن عبد العزيز واقتلع أشجار النخيل التى فى نهاية الجدار الشرقى للمسجد الشريف وأبطل نظام إقامة صلاة الجنازات فى داخل المسجد وألغاه[1]، وأتم بناء مسجد السعادة فى خلال سنة إحدى وتسعين[2] وعرض الأمر على الوليد بن عبد الملك، وسافر وليد بن عبد الملك محرمًا بنية الحج إلى مكة المعظمة، ومر بعد الحج بالمدينة المنورة وأَجَال نَظَرَهُ فى حرم السعادة وأمر بأن تهدم جميع سقوف مسجد السعادة وأن يصنع سَقْفٌ جديد مثل سقف المقصورة، فأجابه عمر بن عبد العزيز قائلا: «إن هذا المكان الذى لم يعجبك قد صنع بإنفاق خمسة وأربعين ألف دينار، واستنفذت كل المبالغ التى فى بيت مال المسلمين ولن تستطيع خزانة المسلمين أن تدفع مبلغًا مثل هذا من أجل إرشائك» وقد انزعج وليد من هذه الإجابة وقال له «ما هذه الخسة؟ كأنك أنفقت هذا المال من جيبك» وأظهر غضبه بهذا العتاب وخاطب أبان بن عثمان الذى كان بجانبه «كيف ترى

(١) كان فى ذلك الوقت فى نهاية الجدار الشرقى للمسجد نخلتان وكانت صلاة الجنازة تؤدى بالقرب منهما.

(٢) شرع فى تجديد المسجد الشريف سنة ٨٨ وتم بناؤه فى سنة ٩١.

هذا المسجد فى حالته هذه وحالته القديمة» فأجابه قائلاً: «كان يشبه فى حالته الأولى المسجد والآن تحول إلى كنيسة»، وعلى هذا عزل ابن أخيه من ولاية الحجاز وشفى صدره بهذه الطريقة.

فائدة التوكل: عند عودة الوليد بن عبد الملك من الحج استقبله عمر بن عبد العزيز من وجهاء البلد وأعيانه وأدخله إلى المسجد الشريف رأسًا وزار الوليد جهات المسجد الأربعة وأدى صلاة التحية فى بعض أماكنه، وكانوا قد أخلوا المسجد من الناس حتى يزور الوليد المسجد بمفرده إلا أن سعيد بن المسيب ظل فى ركن من أركان المسجد وقد لبس أسمى الألبسة.

وكان عمر بن عبد العزيز يغير طريقه وسيره فى داخل المسجد حتى يخفى سعيد بن المسيب عن أنظار الوليد إلا أنه لمح سعيد بن المسيب وقال من هذا الشخص؟ ألا يكون سعيد بن المسيب؟ وقال عمر بن عبد العزيز لو كان قد عرفك لكان يقوم ويحييك، بما أن بصره ضعيف لم يستطع أن يعرف سيادتك!!! قال الوليد إننى أعرف أنه لا يعادينا، وإنه رجل عالم تقى، لنذهب ونزوره وذهب إلى المكان الذى يجلس فيه سعيد بن المسيب وسلم عليه وسأله عن أحواله وصحته ثم ودعه، ومدحه بعده قائلاً إن هذا الرجل أفقه الناس. وأمر بتغطية قبر السعادة بقطعة قماش لطيفة.

كان عمر بن عبد العزيز عُين واليًا للمدينة مكان الأول المعزول هشام بن إسماعيل سنة ٨٦ الهجرية، وعزل فى أواسط سنة ٩٣ الهجرية على الصورة التى ستذكر فيما بعد وعلى هذا الحساب قد دامت ولايته بين ما يقرب من سبع سنين، وقد عاش آل دار الهجرة فى تلك الفترة تحت حمايته فى أمن وراحة وطمأنينة وناموا مستقرين، وحينما جاء عمر بن عبد العزيز إلى المدينة نزل فى دار مروان واستقبل الذين أتوا لتحيته بسلامة الوصول فى هذه الدار، ولما حل وقت الظهر أدى فريضة الظهر ثم استدعى عروة بن الزبير، أبا بكر بن أبى خيثمة، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، سليمان بن يسار، قاسم بن محمد، سالم بن عبد الله ابن عمر، عبد الله بن عبيد الله بن

عمر، عبد الله بن عامر ابن ربيعة، خارجة بن زيد من فقهاء المدينة وقال لهم إننى دعوتكم لأرجو عونكم فى تدبير أمور الحكومة وإدارتها.

وإذا لم ينضم إلى رأيى رأيكم جميعًا أو بعضكم فلن أتخذ أى قرار قط، وبناء عليه فإذا استمعتم إلى أى شىء يخرج عن الحدود الشرعية فعليكم فى المسارعة بإخطارى وشارك الفقهاء المشار إليهم بالمشاورة والمذاكرة.

وحتى ذلك التاريخ لم يكن لمسجد السعادة لا محراب ولاشرفات، فأحاط عمر بن عبد العزيز حوائط مبانى المسجد دائرًا ما يدور بالشرفات، وقوى ميزابه ودعمه وما برز من السقف بأن صب عليها الرصاص وبعد ذلك نصب محرابًا فى غاية الجمال.

وإن كان جمهور المؤرخين يصدقون أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أمر بصنع محراب لمسجد السعادة، إلا أنهم اختلفوا فيمن صنع الشرفات، إذ قال بعض المؤرخين، إن الذى أمر بصنع شرفات مسجد السعادة هو عبد الواحد بن عبد الله النصرى والي المدينة فى سنة أربعمائة هجرية، وبما أنها احترقت فى الحريق الأول جددها فى سنة ٧٦٧ هـ الأشرف شعبان بن حسين بن محمد من ولاة المدينة إلا أن أكثر مؤرخى المدينة ولا سيما المشهورين منهم الذين يؤيدون أقوالهم بالأدلة الموثوقة ترددوا فى تصديق هذه الرواية وقروا أن الشرفات أيضًا من آثار عمر بن عبد العزيز.

المآذن: حتى عصر عمر بن عبد العزيز لم تكن للمسجد النبوى الشريف مئذنة وقد أمر المشار إليه بصنع أربع مآذن على زوايا المسجد الأربع على أن تكون مئذنتى زاويتى جُدْرَان القبلة أعلى قليلا من مئذنتى زاويتى جُدْرَان الجهة الشامية، وبهذا كان هو مؤسس مآذن مسجد الرسول إلا أن بعد ذلك غيرت أى فى خلال السنة الهجرية (٩١) أمر سليمان بن عبد الملك بهدم مئذنة باب السلام، لسفسطة تزعم أن المؤذنين يرون أهل دائرتى وعلى هذا ظل مسجد السعادة قائمًا بثلاث مآذن لمدة ستمائة وخمسة عشر عاما.

مطالعة

كان أمر هدم مئذنة باب السلام قد صدر من سليمان بن عبد الملك لأن تلك المئذنة تصادف اتصالها بمنزل مروان بن الحكم، هل من الممكن ألا يتأسف إنسان لمثل هؤلاء الحكام الذين يحافظون على حرمة منازلهم بهذه الدرجة ثم يقدمون على هدم حجرات النساء الطاهرات؟ وهل هناك وقاحة أكبر من ذلك؟

انتهى.

وكان ارتفاع هذه المآذن الثلاث ـ كل واحدة منها ـ ستين ذراعًا وكان سطح قاعدة كل واحدة منها أربعة وستين ذراعًا مربعًا وكان ارتفاع المئذنة الحبشية فى الزاوية الغربية خمسين ذراعًا، وعلى قول البعض أن المئذنتين اللتين على زاويتى الجدار الشامى كانتا قصيرتين على شكل أبراج، وكانت المئذنتان اللتان على الجدار القبلى طويلتين مثل مآذن عصرنا هذا.

وقال بعض المؤرخين إذا ما قيست هذه المآذن من قاعدتها إلى أعلى قمتها فإن المئذنة، الرئيسية يبلغ ارتفاعها ١٢٠ ذراعًا والشرقية يعنى السنجارية ٧٩ ذراعًا والمئذنة الغربية أى الحبشية ٧٢ ذراعًا، إلا أن شيخ الخدمة فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملوك المصرية كافور المظفرى الحريرى[1] جدد بناء المئذنة التى هدمها سليمان بن عبد الملك فى سنة ٧٠٦ هـ فأصبح المسجد الشريف ذا أربع مآذن بعد أن ظل إلى سنة ٦١٥هـ بثلاث مآذن بهدم سليمان بن عبد الملك مئذنة باب السلام، وبينما كان يحفر أساس مئذنة باب السلام ظهر باب صغير يفتح إلى باب مروان وكان هذا الباب منخفضًا عن سطح المسجد الشريف قدر قامة رجل وكان مصراعه المصنوع من خشب الساج لم يبل بعد، وعندما عمقوا الحفرة أكثر من ذلك وجدوا مجرى ماء لا يعلم منتهاه، وكان هذا المجرى قد أدخل من ساحة الحرم الشريف الرملية القديمة ولما كان لون الرمال المفروشة فى هذا المكان شديد السمرة فهم أنه قد جيء به من جبل سلع.

(١) كان هذا الشخص قد عين شيخ الخدمة بعد أن مات عزيز الدولة.

وأصبحت مئذنة باب السلام المجددة أعلى من جميع المآذن الأخرى، أى بلغ ارتفاعها إلى ٩٥ ذراعًا إلا أن مئذنته الرئيسية قد أعليت عندما جددت بعد الحريق الثانى حتى بلغت مائة ذراع وبهذا أصبحت أعلى من مئذنة باب السلام، ولما كان السلطان قايتباى المصرى قد عمر المئذنة الرئيسية بشكل جميل فى سنة ٨٩٠ هـ وأعلى ارتفاعها عشرين ذراعًا فتجاوز طول هذه المئذنة ١٢٠ ذراعًا ثم بنيت بعد ذلك مئذنة أخرى بجانب باب الرحمة[١] فبلغ عدد مآذن مسجد السعادة إلى خمسة.

ولما كانت مآذن مسجد السعادة قد عمرت ورممت عامة فى زمان السلطان عبد المجيد خان الذى تميز بالأعمال الخيرية تذكر تلك المآذن فى زمننا بأسماء الأبواب الرئيسية، باب السلام، باب الرحمة، المجيدية والعزيزية، ويُعْلن فى شهر رمضان حلول وقت الإمساك بواسطة قناديل المئذنة الرئيسية لأن فى أعلى المئذنة الرئيسية بكرات مربوطة وعندما ينزل رئيس المؤذنين من فوق المئذنة فى ليالى رمضان يرفع فوق ذروة المئذنة بواسطة تلك البكرات ثلاثة قناديل وعقب ذلك تطلق مدافع الإمساك.

كان يطلق فيما مضى على مئذنة العزيزية الحبشية وعلى مئذنة المجيدية السنجارية وفيما بعد أطلق عليها الشكلية، ولما جدد السلطان عبد المجيد مئذنة السنجارية كأنه بناها من جديد فعرفت تلك المئذنة باسمه، أى أطلق عليها المجيدية وكان يطلق على مئذنة الحبشية السليمانية من سنة ٩٤٠هـ إلى سنة ١٢٧٧هـ، ولما كانت هذه المئذنة قد عمرت فى صورة تامة كاملة فى عهد عبد العزيز خان وأوائل سلطنته أطلق عليها العزيزية كما ذكر فى الوجهة العاشرة والصورة الثالثة منها، ولما كان المسجد النبوى خاليًا من المآذن فى عصر الرسول لأجل ذلك كان بلال يصعد فوق سطح إحدى المنازل القريبة من منازل بنى النجار ويؤذن، وكان ذلك المنزل عاليا مباركًا وكانت صاحبته امرأة من بنات بنى النجار، وقال بعض المؤرخين كان بلال يؤذن فيما بعد صاعدًا فوق الأسطوانة

(١) بانى هذه المئذنة قايتباى المصرى.

العالية التى كانت بجانب عتبة المنزل الذى انتقل إلى ملكية عبد الله بن عمر، وقال المؤرخون الذين ادعوا هذا أن تلك الأسطوانة كانت مربعة الشكل تابعة للمنزل الذى يعرف فيما بعد بدار عبد الله بن عبد الله والذى يعرف فى زماننا بدار العشرة واشتهرت باسم أسطوانة المعمار.

صورة أداء صلاة الجنازة فى مسجد السعادة وسبب منعه

بعدما أتم عمر بن عبد العزيز بناء مسجد السعادة على أكمل وجه، عين حارسًا حتى يحافظ على نظافة المسجد الدائمة وأمره بألا يدخل الجنازات فى داخل المسجد ومن وقتها كانت صلوات الجنازات تؤدى خارج المسجد وإن كان هناك من اعترض على ذلك وخالفوا الأوامر إلا أن من كان يدخل جنازته إلى داخل المسجد تخرج إلى خارجه، وكان الذين يلحون على إبقاء جنازتهم داخل المسجد يضربون ويهانون، وظهر هذا النظام فى عصر الوليد بن عبد الملك وصلاة الجنائز إلى ذلك التاريخ كانت تؤدى فى داخل المسجد الشريف، وكانت صلوات بعض الذوات الذين توفوا فى عصر السعادة تؤدى أمام الحجرة النبوية ومن هنا كان أهل المدينة يضيقون بهذا المنع، لأن عمر الفاروق صلى على جنازة الصديق كما صلى حضرة صهيب على جنازة عمر الفاروق أمام المنبر المنير، كما أن جنازات بعض الصحابة أدخلت إلى داخل المسجد للصلاة عليها.

وإن كانوا فى ذلك الوقت قد التزموا جانب عدم إدخال الجنازة إلى مسجد السعادة؛ حتى إن بعض الصحابة أرادوا أن يعترضوا على طلب زوجة الرسول عائشة ـ رضى الله عنها ـ قائلة لابد أن تؤدى صلاة جنازة سعد بن أبى وقاص فى داخل المسجد أولا أنها قالت عجبًا لكم! ما أسرع ما نسيتم أن رسول الله ﷺ كان قد صلى على جنازتى سهل بن بيضاء، وعقب ذلك على أخيه فى داخل المسجد الشريف وأخجلت بهذا العتاب الذين يتحدثون بدون تفكير، ولما كان أهل المدينة واقفين على هذه الدقائق تمام الوقوف فلم يستحسنوا قانون المنع الذى وضع من أجل الجنازات.

ومع مرور الأيام لم يبق حكم لهذا المنع وقرر أن تصلى على جنازات السادات العلوية والأشراف فى داخل الروضة المطهرة وعلى جنازات العامة خلف الجدار الشرقى للمسجد الشريف وأموات خاصة الناس تؤخذ داخل الحرم ثم قرر أن يصلى على جميع جنازات المسلمين داخل المسجد الشريف فى الروضة المقدسة ما عدا جنازات طوائف الخوارج[1] ومازال هذا النظام ذو المحاسن الشاملة باق. فتؤخذ جنائز من مات فى المدينة داخل الروضة المطهرة وتصلى عليها صلاة الجنازة إذا لم يكن الميت من طائفة الخوارج.

وإن كان هذا النظام قد اتخذ صيانة لحق رسول الله ﷺ بما أن رجل الميت الذى سيصلى عليه ستوجه ناحية الرأس النبوى الشريف فهذا مناف للآداب الإسلامية، ولأجل ذلك كان بعض الذوات من علماء المدينة يوصون بأداء صلاة الجنائز فى موضع الجنائز وكان سبب منع أداء صلاة الجنازة لعمر بن عبد العزيز فى داخل المسجد هذه الفكرة وكأنه كان ينبئ إلى رعاية النعش النبوى العالى، وكما لم يكن فى عصر النبوة مكانًا خاصًا لأداء صلاة الجنازة كان النبى ﷺ يعود الذين يحتضرون وبعد وفاتهم يعود إلى مسجد السعادة ثم يذهب ويؤدى صلاة جنازاتهم.

وقد رأى الأصحاب الكرام فيما بعد أن هذا الأمر شاق علىٰ النبى ﷺ فوضعوا نظام الصلاة على الموتى فى موضع الجنائز بعد الاستئذان من النبى ﷺ.

وفي إستانبول يطلق موضع الجنائز على المكان الذى يسمى بمصلى وكان موضع الجنائز فى عصر السعادة فى مكان بين نخلتين كائن فى الجهة الشرقية من مسجد السعادة ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن أداء صلاة الجنائز فى الروضة المطهرة إساءة إلى النبى ﷺ، اشترى المكان المذكور من أصحابه وقطع أشجار النخيل وألمح إلى أنه يجب أن تؤدى صلاة الجنائز فى هذا المكان والذين لا يقبلون هذا الأمر كان يزجرهم ويهددهم بالضرب والإهانة.

(١) الذى منع إدخال جنازات الخوارج فى داخل المسجد هو طاهر جقمق المصرى.

وصلى إمام محراب الدين - ﷺ - فى هذا المكان كثيراً من صلوات الجنائز وأصبح فى حكم العادة بين الأصحاب أن تؤدى صلاة الجنازة فى الموضع المذكور قرب وفاة سعد بن أبى وقاص.

وبما أن النبى ﷺ كان يصلى نادراً صلاة الجنائز فى داخل مسجد السعادة بناء على الواقع الذى أخطرت به السيدة عائشة، أجاز أئمة المذاهب الثلاثة الصلاة على الجنائز فى داخل المسجد كما بينه ابن حجر بعد التدقيق، وإن كان أئمة الحنفية يعترضون على ذلك إلا أنهم يجيزون تقليد أئمة المذاهب الثلاثة بشرط أداء صلاة الجنائز فى الحرمين فقط، وبناء على هذا يؤتى بالجنائز داخل مسجد السعادة ويصلى عليها فى المحراب العثمانى ثم تمرر من داخل الروضة المطهرة وتدفن فى القبر الذى فى البقيع الشريف، كما أن أموات الغرباء تغسل وتجهز وتكفن فى مكان يسمى شر شورة وتصلى على جنازاتهم خارج المسجد وفى جهة باب جبريل ثم تدفن فى البقيع.

ولكن جنائز الخوارج لا يصلى عليها فى المصلى، إنما يصلى عليها فى خارج المدينة فى مكان خاص بهم بواسطة جماعاتهم وبما أنه لا يشاركهم فى ذلك شخص غريب عنهم فلا يطلع أحد من غيرهم على كيفية الصلاة والتكفين والدفن.

اللائحة: قال علماء المذهب الحنفى كما ذكر آنفا بما أن المساجد قد بنيت لأداء الصلوات الخمس من هنا يلزم أداء صلاة الجنائز خارجها ولكن أئمة المذهب الشافعى رأوا أداء صلاة الجنائز فى داخل المسجد أولى. وقال الإمام أبو يوسف: «أداء صلاة الجنائز فى داخل المسجد اقتداء بأهل الحرمين الشريفين» وأفتى بناء على قوله.

وبما أن الصلوات التى تؤدى للجنائز فى داخل أحد الحرمين ستتميز بكثرة الجماعة وسيكون ذلك موضع شرف للميت فلا يعترض على أداء أهل الحرمين الشريفين صلوات الجنائز بهما إذ يغلب على الظن أن الجنائز التى دخلت فى

الروضة المطهرة دخلت الجنة فى الدنيا ويؤمل من اللطف الإلهى ألا يخرج من الجنة من دخل فيها.

ومن هنا ندعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الذى يصلى على جنازته فى داخل أحد الحرمين أن ينعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه بالجنة وأن ينال شفاعة حبيب رب العزة، ألا فليجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ مؤلف هذا الكتاب من زمرة هؤلاء السعداء؛ آمين بحرمة سيد المرسلين.

ويروى المؤرخون بخصوص هذا الموضوع أقوالاً كثيرة، يقول ابن النجار فى كتابه مازال نظام أداء صلاة الجنائز فى الحرمين فى موضع الجنائز باقيًا، إلا من يرغب من سادة العلويين والسادة والأعيان الذين يراعى خاطرهم يصلى على جنازتهم فى داخل المسجد النبوى، وغير هؤلاء من عامة الناس يصلى على جنازتهم خلف الجدار الشرقى لمسجد السعادة ويظل قبر الرسول ﷺ على يمين الإمام الذى يؤم الناس.

وقال الإمام السمهودى موضحًا إن ما ذكره ابن النجار سقط عن الحكم الآن، أما الآن فمعظم الجنازات تدخل فى المسجد النبوى وتصلى صلاة جنازاتهم فيه، إلا أن جنازات الأعيان والوجهاء يصلى عليها بين منبر السعادة وقبر الرسول كرعاية خاصة لهم، وتؤدى صلوات جنائز عامة الناس أمام الروضة المطهرة، وفى سنة ٨٤٢ هـ منع إدخال جنائز الخوارج فى داخل مسجد السعادة بناء على الأمر الذى ورد من الملك جقمق إلا إذا كان بينهم أسرة علوية وماتوا يصلى على جنازاتهم فى داخل المسجد ومازالت هذه العادة جارية فتدخل جنازات أفراد المذاهب الحقة عامة فى المسجد ويصلى عليها ما عدا أموات الفقراء والغرباء يصلى على جنازاتهم فى المكان الذى ذكر من قبل.

ويدخل أهل المدينة جنازاتهم فى المسجد الشريف من باب الرحمة وإن كانت منازلهم فى جهات أخرى. وغرضهم من ذلك التيمن وتمنى رحمة الله والتفاؤل.

وتمرر الجنازة من باب الرحمة يُؤتى بها فى مواجهة قبر الرسول، وبعد أن

يستشفع من الرسول ﷺ يضعون الجنازة فى مواجهة قبر الصديق وبعد مواجهة قبر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ ثم توصل أمام المحراب العثمانى حيث يصلى عليها ثم يمر بين الروضة المطهرة وتخرج من باب جبريل وتدخل فى مقبرة بقيع الغرقد، والجنازة التى يصلى عليها أمام المحراب العثمانى تظل رجلاها فى يسار الإمام وإذا ما صلوا عليها فى داخل الروضة المطهرة يجعلون رجليها يمين الإمام حتى يكون رأس الجنازة ناحية قبر السعادة.

وهذا النظام خاص بالشافعية وإذا صلى للجنائز، سواء أكانت فى داخل الروضة المطهرة أو أمام المحراب العثمانى يجعلون الجنازة دائمًا على الشكل المذكور. إلا أن وضع جنازة المرأة التى يصلى عليها فى الروضة المطهرة لا يكون على وضع الذكور، إنهم يجعلون رأسها فى يسار الإمام؟ لأن فى وضع رجليها نحو قبر السعادة إساءة للأدب.

قال الإمام السمهودى فى كتابه «ذروة الوفاء» وإن لم يكن أداء صلاة الجنازة فى الروضة المطهرة بدعة إلا أنه يقتضى ألا تمد رجلا الجنازة التى تقام لها الصلاة ناحية قبر السعادة».

وكانت أول جنازة تستوقف فى مواجهة قبر السعادة للاستشفاع جنازة سبط النبى الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ لأنه كان قد أوصى أخاه الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ قائلاً: «إذا لم يسمحوا بدفن جنازتى بحجرة السعادة فخذوها إلى مواجهة الحجرة حيث تقفون بها قليلاً ثم ادفنى بجانب والدتى فى البقيع» ولما كان سيدنا الحسين أوفى بوصية أخيه أصبح أخذ الجنازة أمام قبر الرسول ﷺ وطلب الشفاعة منه ـ عليه السلام ـ عادة بين أهل المدينة.

استطراد

ظهرت عداوة بنى أمية للسادة الكرام منذ الوقائع المؤسفة التى برزت على منصة الأحداث منذ أن اعتلى على بن أبى طالب عرش الخلافة، إذ يعتقد هؤلاء الأشقياء ويزعمون أنهم من فروع أحفاد عبد مناف بن قصى ويلزم ألا يزيد فضل

وشرف وسيادة أبناء عبد المطلب بن هاشم على فضل وشرف وسيادة أبناء أمية بن عبد شمس ومع أنهم يعرفون جيداً أن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف لا يعادل ولا يماثل هاشم بن عبد مناف كما أن حرب بن أمية لا يعادل عبد المطلب بن هاشم وأن أبو سفيان صخر لا يماثل أبا طالب وأن عبد الملك بن مروان لا يعادل أبناء السبطين العظام ومع هذا كانوا يسعون إلى إخفاء فضائل حيدر الجليلة ومناقبه الجميلة.

ولجئوا فى هذا السبيل إلى حيل ودسائس كثيرة حتى يقنعوا الناس بصواب أفكارهم وتصوراتهم ولما كانت حكومة بنى أمية أسست على فكرة حمل الناس على نسيان خصال المرتضى ذات الدلائل الباهرة أخذوا يضيقون على الذين ينتسبون إلى آل النبى وأسرته ذات الأركان الرصينة ويزعجونهم كما أنهم منعوا ذكر اسم فارس المشارق والمغارب أبى الحسنين على بن أبى طالب فى أى مكان لأى إنسان طول مدة حكمهم، ومنعوا ذكر محاسن أهل البيت فى المحافل والمجالس.

وإن قتل البطلين المكرمين بصورة شنيعة، وحبس الذين يؤيدون على بن أبى طالب والذين يثنون على أهل البيت ويمدحونهم مدة طويلة، وإخراج محسن بن الحسن وفاطمة بنت الحسين ـ رضى الله عنهم ـ من المنزل الذى كانا يسكنان فيه فى حقارة وامتهان وهدم البيت الذى ينسب إلى فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بدون إرضاء أصحابه وتطييب خاطرهم وجعل المدينة المنورة منهبًا للشوام ووقوع أمثال هذه الإساءات والسماح لها كل هذه نتيجة مؤلمة لتلك الدعوى الباطلة.

وكان غرض الوليد الأساس ومن تبعوا غرض الوليد الذى جدد مسجد السعادة نبى الزهد فى الدنيا والابتعاد عن زينتها، والإبقاء على سلطنة الدنيا سريعة الزوال فى يد الأمويين والسعى من أجل ذلك، مع أن كل هذه المساعى من الوليد أو ممن سبقوه من الحكام أو أتوا بعده كانت سببًا فى زيادة شرف أهل البيت وتعالى أفضالهم وغلبة شهرتهم وبناء على هذا كانت هذه الكيفية مثارا لوفور وقاحة الأمويين وانتشار فضائحهم.

ولا يقل العباسيون فى تحقير العلويين عن الأمويين، ومن الأعمال غير اللائقة والحركات الوحشية فى عهد بنى العباس؛ حتى لا يخرجوا زمام الخلافة من أيديهم وهو خيال محال، سقوا بقايا الأئمة الكرام من آل البيت سم الهلاك قتلوا أولادهم وأحفادهم وساموهم أنواع التعذيب الذى لا يخطر على البال.

وإن كانت الآثار النبوية الصريحة والأخبار المصطفوية الصحيحة التى تزين الصدور والسطور زائدة عن العدّ والإحصاء فى المناقب الجليلة التى تفوق إدراك عقول البشر لوارث العلوم النبوية حضرة الإمام على ـ كرم الله وجهه ورضى الله عنه ـ إلا أننا لو نظرنا إلى صفحة من صفحات التاريخ نظرة إمعان وجدنا أن عهد السلاطين العثمانيين مصون عن الجور ورأينا أن أكثر السادات العظام كانوا قبل سلاطين آل عثمان نافرين من الملوك ومغضوب عليهم من السلاطين الذين يفتقرون إلى السلوك الإسلامى، والمقالة الآتية موازنة واضحة فى هذه المسألة.

موازنة تاريخية

إن الموازنة بين طرق المعاملة لآل بيت النبوة الذين اكتسبت بهم مكة المكرمة والمدينة المنورة القدسية من قبل الخلافات المتقدمة مثل الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية والخلافة العثمانية تكون مداراً عظيمًا على إثبات قياسها بالرعاية التامة لمنصب الخلافة الجليلة حاملة لقب خادم الحرمين الشريفين.

كما أن هذه الموازنة تظهر مامدى صدق روايات بعض المؤرخين القدماء؛ لأن حكم الشىء الذى يقال له التاريخ لا يثبت عن طريق الرواية فقط بل يجب أن تؤيد الأقوال التى قيلت فى التاريخ والمدائح والثناءات لابد وأن تتحول إلى الأفعال، لأن الأقوال التى لا تؤيد بالأفعال تظل ألفاظا لا معنى لها.

إن الأعمال التخريبية التى قام بها القادة مثل ابن ارطأة والحجاج الظالم ومسلم بن عقبة على مكة المكرمة والمدينة المنورة فى عهد الأمويين قد وصل إلى درجة التواتر، حتى إننا نرى تفصيلها من قبيل إعلام المعلوم، وإن معاملة القادة

مثل الحجاج الظالم وابن أرطأة ومسلم ـ يفتضح اسمه ـ معاملة حسنة لسادات الحرمين الشريفين وأشرافها يقتضى عدها من الأمور المستغربة.

وإلا فمن المحال أن ينتظر خير عندما يذكر أسماء الحجاج الظالم وابن أرطأة ومسلم لأجل الآل والمحال المباركة وهذا ما يميزه حتى أصحاب العقول القاصرة ويفرقونه إن الجرم الذى ارتكبه عبد الملك بن مروان الأموى ضد الكعبة المكرمة عندما أراد قتل ابن الزبير قد وصل إلى درجة الإخلال بسلامة البيت المعظم الذى روعى جانبه حتى فى عهد الجاهلية، إن سيف الجور والتعدى الذى سحبه من غمده دون مراعاة امتياز المكان وقدسيته لم يقتل فقط جناب ابن الزبير بل قتل آلافا من الذوات الكرام وسفح دماءهم وأجرى هذه الشدة ضد المبانى المقدسة عَمَّتْهَا حتى لم تترك مساجد جليلة ولا آثار شريفة دون التخريب والتدمير.

وأظهر سليمان بن عبد الملك، وهو أقل خلفاء الأمويين إساءة عداوته بهدم مئذنة باب السلام لمجرد حجة قربها من بيته الفاخر وأنها تكشفه.

واشتهر من الأمويين وخاصة الوليد بن عبد الملك بظلمه لآل البيت إذ حول إلى الحجاز قوة تخريبية إحدى المرات وأمر أن تهدم منازل زوجات النبى ﷺ على رءوس أصحابها وهم بداخل المنازل وكيف يتفق تخريب هذه المنازل ومبادئ الإسلام وكيف يتقبل محبو آل البيت مثل هذه الأعمال؟ ولا يعد ما قام به الوليد الظلم الوحيد الذى ارتكبه الأمويون إذ يجب أن يتذكر ما ساقه يزيد بن معاوية على دار الهجرة من الجنود الفاجرين الذين اعملوا سيوفهم فى رقاب أحد عشر ألفا وسبعمائة من المدنيين والذى ثبت بروايات متواترة.

وكان ضمن هؤلاء كثير من أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين والبقية الباقية من أولاد وأحفاد صحابة النبى ﷺ وكان سبعمائة منهم يحفظون القرآن الكريم.

وسيق بقية آل المدينة إلى خارج المدينة وقد قيدت أياديهم وأرجلهم بسلاسل الجور ولم تحل أكبالهم من رقابهم وأيديهم إلا بعدما أقسموا أنهم سيسيرون وفق

إرادة الملك الأموى وقد استحى المحررون الخوض فى تفصيل ما ارتكب فى أثناء تلك المظالم من انتزاع الأصحاب الكرام وإباحة أعراض النساء للجنود.

وبما أن الملل الإسلامية لم ترض فى صورة عامة عن الأمويين يلزم ألا يستغرب من مثل هذه الأعمال التى صدرت منهم ولكنه من الضرورة بمكان الاستغراب مما صدر من الخلفاء العباسيين من المساوئ فى هذا السبيل، هذا هو السفاح الذى أراد أن يعلن عن سطوته الملوكية على الجميع، بعد ضعفه وعجزه اللذين قد يجران استخفاف الناس له يعذب الآلاف ويؤذى لدرجة القتل ولم يَنْجُ أهل الحجاز المباركة من هذا الظلم الذى يعد أوائل مظالم العهد العباسى، وحينما سبقت الجنود فى زمن المنصور إلى المدينة للقبض على أحد المخالفين وهو على الرضا من السادة الكرام وقد قبض عليه مع أولاده وعياله وأصحابه ومحبيه وقتلهم جميعًا واحدًا تلو آخر ولم يكتف بذلك بل أراق دماء كثير من آل المدينة الآمنة ودخلت هذه الحادثة ضمن الأحداث التى أبكت آل الحرمين دما بدل الدموع.

ولم يتأخر آل عباس بعد المنصور عن منافسة السادة الكرام من آل النبى ﷺ والسبب الأصلى للمنافسة بينهما ما أشير إليه فى الاستطراد السابق، شرف النسب إذ حسدوا السادات الكرام الذين يعدون من آل النبى وأولاده بدون واسطة رأسا، وادعوا أنهم يتفوقون عليهم نسبًا وأقبلوا كلما وجدوا فرصة على أن يعدموا السادة الكرام إما بالسم وإما بالخنق وجعلوا هذا دينهم.

ولم يكن السادات الذين اكتسبوا شهرة طيبة فى سبيل الاستشهاد من النوادر، كما أن العباسيين الذين لوثوا سمعتهم بإيقاع المظالم عليهم لم تبق أعمالهم فى حكم النوادر. وكان أحد أسباب إهانة العباسيين لآل بيت النبى قضية الاستيلاء على ما يمتلكه هؤلاء من الأملاك والأراضى حول مكة المكرمة والمدينة المنورة بمد يد الاغتصاب إليها، وبناء عليه فإن أى واحد من آل البيت يقع فى يد العباسيين الغادرة تقع أملاكه تحت يد اغتصاب غادرة، ومن هنا ساءت أحوال السادات

الكرام يومًا بعد يوم. حتى هارون الرشيد الذى اشتهر بين الخلفاء العباسيين بالقوة والعظمة والشوكة لم يخل عهده من الظلم واللوث والتحقير لمشكلة نور الإسلام، إذ قبض على الإمام موسى الكاظم فى مسجد السعادة بملابسه الليلية بكل عنف وشدة وقيد رجليه وكبل من رقبته بالسلاسل وأرسل إلى البصرة فعاقبه عيسى بن جعفر بن المنصور بإلقائه فى السجن.

وقد بعث أبو جعفر المنصور العباسى إلى المدينة فرقة عسكرية قوامها أربعة آلاف جندى تحت قيادة عمه عيسى بن موسى، وأمره بأن يقبض على النفس الزكية من أبناء على بن أبى طالب وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين وجعله شهيدًا مع ثلاثمائة من أشراف الحرمين وسادتهم بأن قتلهم بسيف الغدر، وضم فوق هذا الظلم تحقير الموتى بأن منع دفن هؤلاء الشهداء فى مقابر المسلمين وأمر بدفنهم فى مقابر اليهود. وكأن هذا التصرف مدادًا للافتخار إذ جاء برءوس الشهداء إلى بغداد وشهر بهم بأن غرس الرءوس على رءوس الأوتاد وهذا العمل من المظالم الملعونة التى تجعل أصحاب الحمية الإسلامية يتقيئون دمًا، ونضيف لهذه الفاجعة أنه فى أثناء تلك الأحداث رجح بأن يقتل بعض السادة والأشراف فى بغداد بدلاً من المدينة وذلك تهديدًا لأهل بغداد وكان من ضمن هؤلاء والد النفس الزكية عبد الله وقد استشهد هؤلاء فى بغداد بطريقة لا تليق حتى بالمجرمين وسط أذى عظيم وتعذيب شديد.

وإننا نكتفى بذكر هذه الأمثلة فيما تعرض له الحرمان الشريفان وأهاليهما وأشرافهما تحت حكم خلفاء الدولة الأموية والعباسية من الجور والظلم والتحقير، ولما كانت غايتنا الأصلية هى بيان ما قام به سلاطين آل عثمان نحو الأماكن المباركة قبلة المسلمين ونحو السادة الكرام والأشراف ذوى المقام العالى من معاملات طيبة جميلة وجليلة سنسرع فى تحويل القول إلى ذلك الوادى، ولا يظن أن الحقارة اقتصرت على ما ذكرناه، فقد اغتر بعض منهم بتمزيق القرآن وافتخر قسم منهم بمسألة خلق القرآن وهكذا كان الأمويون والعباسيون دائمًا فى منافسة شديدة مع آل النبى ﷺ وكانوا يستفيدون من أقل شىء للإخلال ـ حاشا

ـ بشأنهم، وإذا ما نظرنا إلى طورهم الدائم كانت الإساءة إليهم، وإن وجد من بينهم من لم يسئ إلى أحد، إلا أنهم كذلك لم يحسنوا لأحد وهذا ما يجب أن نعتبر به.

والحقيقة أن العباسيين، ما عدا بضعة منهم لم يقوموا بخدمة عظيمة للحرمين الشريفين، وأهم هذه الأعمال تعمير السيدة زبيدة للعين المنسوبة إليها وتعبيد الطريق من بغداد إلى مكة فوق الصحراء يستطيع أن يسير عليها حتى الأعمى ويعد من الأعمال السهلة التى لا تقاس بالطرق المعبدة فى الأماكن الجبلية من بلادنا.

وقد حكم الفاطميون، مكة والمدينة باغتصاب عنوان الخلافة قبل أن تنتقل الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين إلا أنهم عدوا أنفسهم من أولاد النبى بشرط عدم علم مدى أحقيتهم فى ذلك ومع ذلك لم يتركوا فسادًا لم يرتكبوه، مثل ارتكاب الأشراف الذين فى منصب الإمارة جميع أنواع الجور لإبعاد الشريف الآخر من منصبه إذ كانوا ضحايا لمؤامرة الفاطميين، أو وجود شريفين فى منصب الإمارة فى نفس الوقت من الأحوال التى حدثت بسبب الفاطميين.

وعندما نصل إلى العائلة العثمانية عالية العنوان، نجد أن أولاد أرطغرل اعتادوا حتى قبل تسلم السلطان سليم خان عصا الخلافة وصولجان السلطة على أن يرسلوا مستلزمات المحبة والإسلام وذلك بإرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين، وقد ثبت بما قيد فى صفحات التاريخ أنهم بعد أن نالوا لقب الخلافة بعد فتحهم مصر، لم يسيئوا فى استخدام سلطتهم واستقلال حكومتهم الذى نالوه فى ظل الدولة المحمدية وذلك بإظهار قوتهم وعرضها على أهالى الأماكن المقدسة كما فعل الملوك السابقون كما أنهم لم يخدموا الحرمين الشريفين من أجل الأغراض الدنيوية مخالفين بذلك الشريعة الغراء الأحمدية جاحدين لمآثرها، بل ليخدموا الحرمين الشريفين حق الخدمة بدون أى غرض دنيوى.

حتى يروى أن السلطان سليم خان حينما أحضر أمامه مكنسة من المكانس

الخاصة داخل البيت المعظم رفع تلك المكنسة عاليًا كأنه يريد أن يعلقها على تاجه وبهذا أظهر أن هذا هو شأن من يلقب بخادم الحرمين المحترمين، وأن هذا الاحترام حركة مناسبة لما أظهره أجداده الأماجد من غيرة نحو الحرمين الشريفين كما أن أولاده وأحفاده ذوى الأصول العريقة اتخذوه قدوة لهم.

ولم يسمع من أحد عن وقوع أى قدر من الجفاء والجور ولو بمقدار ذرة صغيرة سواء أكان على الحرمين المحترمين أو الأرض الحرام من قبل الأسرة العالية بعنوان السلطنة السنية بل على العكس فإن كافة آل عثمان قد بذلوا خدمات حسنة قليلة كانت أو كثيرة وهذه الأعمال تزين صفحات شكر لتاريخ المحال المقدسة، ونحن نقول إذ نذكر ببعض هذه الأعمال:

كانت عين عرفات قد سدت تقريبًا سدًا كليا فى عهد السلطان سليمان خان، وأوشك أهل مكة الذين تعودوا على أن يرووا ظمأهم من مائها اللذيذ على الهلاك مثل شهداء كربلاء من العطش، فتحمل ذلك السلطان الخير نفقات باهظة فطهر عين عرفات وأجراها إلى مكة المكرمة بعد تطهيرها وتوسيعها، ومن ذلك الوقت إلى زماننا هذا فالعين المذكورة هى التى تروى وتسقى مكة المكرمة ولما خربت فى الأيام الأخيرة كان تجديدها وتعميرها بصورة أفضل وتوسيعها من نصيب ملكنا السلطان عبد الحميد خان الذى مازال جالسًا على الأريكة السلطانية القوية، إن هذا الماء الزلال الذى به الحياة لم يسق مكة المكرمة فقط ويرويها بل كاد أن يغرقها بفضله وهذا ما سيشهد به من رأوا العين المذكورة رؤية العين.

والحكم الذى ينطبق على عين عرفات فى مكة المكرمة هو نفس الحكم الذى ينطبق على عين الزرقاء فى المدينة المنورة، ولما كانت هذه العين أيضًا على وشك الانسداد فقد طهر مجراها ووسع قدر ضعفه فى عهد السلطان عبد المجيد خان الغازى والد سلطاننا كثير المحامد.

ولم يكتب لأية دولة إسلامية القيام بمثل هذين العملين الذين قامت بهما الدولة العثمانية التى لا تنكر خدماتها فى أحباء الحرمين الشريفين ومع هذا فلما

أشرفت مبانى البيت الأعظم على الانهيار والخراب فى سنة ١٠٤٢ الهجرية فتجديده من أساس مبانيه قد انتظم ضمن جملة الأعمال التى قام بها السلاطين العثمانيين وهذه الخدمة لم تتيسر لأية واحدة من الدول الإسلامية وكانت من نصيب دولتنا وولى نعمتنا والتى ترفع شأن آل عثمان إلى أعلى عليين.

ولما كان غرضنا هنا عقد مقارنة بين الخلافات المتقدمة والخلافة الجليلة والإسلامية العثمانية فيما قدمت من الخدمات الجليلة للحرمين الشريفين وإلا فالتفصيل ذكر ودرج فى الصورة الثالثة من الوجهة التاسعة فى قسم مرآة المدينة من مرآة الحرمين، فالذين يريدون أن يعرفوا مدى ما وصلت إليه محبة السلاطين العثمانيين للنبى ﷺ صاحب الرسالة ووفرة عبوديتهم عليهم أن يراجعوا الوجهة المذكورة.

ولما كان عرض الحال الذى قدمه السلطان محمود خان إلى عتبة صاحب الرسالة العالية بمناسبة إهدائه شمعدان إلى الحجرة المعطرة سنة ١٢٣٥ هـ يدل على محبة ذلك السلطان وإخلاصه فرأينا إدراجه فى هذا المكان.

لقد تجرأت بإهداء هذا الشمعدان يارسول الله
وغرضى هو خدمة الدرجة العليا يارسول الله
ولا تليق بروضتك هديتى المتواضعة أنا العاجز
لتشملنى بإحسانك وعنايتك بقبولها يارسول الله
فمن غيرك أكشف به يارسول الله
فالإحسان والمروءة من ديدنك يارسول الله
دخيلك الأمان ثم الأمان قد وقفت على عتبتك
فلترحمنى وتشفع لى يارسول الله
فاستصحب محمود عدلى فى الدارين
فالدولة لك فى الأولى والآخرة يارسول الله

إن التضرع الذى صدر من السلطان محمود خان فى عرض الحال هذا على شكل منظوم من مقتضيات التضرع الذى يليق بالمسلمين وتذلل المحبين من شأن الأسرة العثمانية ولا مجال لقياسها بسلوك الملوك الآخرين الذى اتسم دائمًا بالتكبر والتفاخر، وخارج عن حد إمكانية مقارنتهما بسلوك الملوك الآخرين.

ولما كان ما قام به السلطان محمود من تعمير مجرد تعمير لم يصل إلى درجة التزيين يليق بشأن الحرمين الشريفين إذ لم تسمح مشاغله الكثيرة بهذا العمل، ويلزمنا أن ندقق النظر فيما نقوله من كلمة «مشاغل» ولم تكن هذه المشاغل عبارة عن الألفاظ المجردة، بل كان العصيان الذى عم فى مصر، وألبانية، وإلغاء الانكشارية، وهجمات روسيا، وكانت مشكلة واحدة منها كافية لأن تترك عدة السلاطين العظام عاجزين عن العمل، وهذه المشاغل التى فى خلالها قام السلطان محمود بإجراء تعميرات كانت كافية لجعل مكة والمدينة أجمل من ذى قبل، إلا أن عبد المجيد خان لم يكتف بذلك، فتح جيب حميته وسماحته ليعمر من جديد مكة والمدينة ويزينهما ويكمل تجديدهما على أكمل وجه.

ولا تكفى هذه المقالة المختصرة لتعداد المساجد المباركة التى قام بتزيينها فى أثناء هذا العمل، وحتى نكون قد قلنا كلامًا للعموم نقول: «إن جميع المساجد التى توجد فى تلك الجهات من المسجد النبوى قد أخذت حصتها من التزيين الذى وفق إلى إجرائه السلطان عبد المجيد خان».

والمسكنة التى أظهرها السلطان عبد المجيد فى أثناء الترتيبات الجليلة الجميلة فاقت المسكنة التى أظهرها والده وبهذا أثبت أنه خير خلف للسلطان محمود العدلى.

وقد كتب بخط يده تحت الذى سيفرش فى الحجرة المنيفة اسمه وشهرته بعبارات تدل على الذلة وصفحات متواضعة وبهذه الصورة يكون قد مسح وجهه على ذلك التراب بالواسطة.

ولاسيما أنه لم يقبل الأوصاف السلطانية والتعبيرات الملوكية التى كتبت على

قطعة تاريخية ونظمت، على أن يعلق فوق طاق باب السلام بما أن السلطنة خاصة بصاحب الرسالة حضرة محمد فى الدارين فاستحى من عرض خدمته أمام النبى ﷺ بصفته السلطانية، وإن مبلغ هذا التعظيم للنبى ﷺ لم ير فى أحد من الملوك ما عدا السلاطين العثمانية.

وبما أن الخلافة تستلزم الخدمة والحماية، فالموازنة التى عقدناها بين الخلافات المتقدمة والخلافة العثمانية تبين لنا بالبداهة أى الخلافتين كان أكثر رعاية لهذا الشأن.

ولكن سلطاننا الكريم سلطان المسلمين وقرة عين آل عثمان ملك ملوكنا الغازى الذى لا يُدَانى، السلطان عبد الحميد خان الثانى قد فاق والده فى تعظيمه للحرمين الشـريفين والذى جلب لهما الشفاعة ﷺ، على أسلافه من الملوك حقًا.

وقبل أن نعرض الخدمات التى قام بها ولى نعمتنا فى حق الحرمين المعظمين المحترمين نذكرهم بمراعاة جانب آل الأماكن المباركة، وقد بلغت مروءته السلطانية ولطفه الملوكى إلى الدرجة القصوى ليس فقط فى حق آل بيت رسول الله ﷺ رأسًا بل لكافة أصحاب اللياقة من آل الحرمين المباركين، إذ دعا بعض هؤلاء إلى باب السعادة فى صورة خاصة وأقامهم بجانب سلطنته وأنعم عليهم بمرتبات مستوفاة وأحسن إليهم فجعلهم كلهم ممتنين بكرمه ولطفه وهذه المزية لم تُر إلا فى آثار هذا السلطان العادل كالفاروق، وعندما نعرج على بحث التعميرات والتزيينات فتعمير المسجد الحرام وتزيينه اللذان يصلان إلى درجة إبهار العيون من الآثار الحميدة لذلك السلطان، كما أن تزيينه لضريح خديجة الكبرى ومولد النبى ومولد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ترك الذين قارنوا حالتها الأولى بحالتها الحالية فى حالة الذهول، وقد ذكر إجراؤه لعين عرفات إلى مكة المكرمة من قبل، وأما الصهريج وعين الماء ذات الستة عشر صنبورًا اللذان بناهما فى منى فقد أحيت آلافا من الحجاج كل عام خلا الأرض.

وكان ما أحصيناه من الأشياء التى يفتخر بتعميرها وتزيينها أحد الملوك ليس كل ما قام به إذ كان سلطاننا القوى حريصًا على حب التعمير مثل والده فشملت حميته الدينية المبسوطة كافة الآثار الجليلة للحرمين، فقد عَمّر مقام يحيى ـ عليه السلام ـ واجب الاحترام وضريح السيد بلال وأضرحة الأنبياء الآخرين، ومقامات الأولياء ورتبها وزينها لا يشك فى خدمة من تلك الخدمات، وإحياؤه وإنشاؤه زاوية لا مثيل لها بدلاً من التكية الخربة بعد ٥٠٠ عام.

وبناء على المعلومات التى أمدنا بها الإمام تقى الدين عبد الرحمن أبو الفرح الحواسبى فى حق هذا المقام فى كتابه النفيس: «ترياق المحبين فى ذكر طبقات المشايخ العارفين»، أن التكية الرفاعية أربعة مبان متداخلة بعضها فى بعض وكانت قد بنيت على أربعة آلاف عقدة، وكان مائة ألف زائر يجتمع فيها وكانت التكية تستوعبهم كلهم، وكانت سماحة القطب الجليل وكرمه يكفيان لإطعام الضيوف كلهم وكان يطعم فى التكية الشريفة ما عدا هؤلاء المجتمعين عشرون ألفا من المريدين، وإن كانت قضية الإطعام هذه تعلن عن وجود ثروة عظيمة فى الميدان إلا أن انتفاع الشيخ وأولاده وأخلافه الكرام ندعه جانبًا إذ كانوا بسطاء بدرجة لا تفرقهم عن مريديه، وفى هذه الحالة لا يشك أن تلك الثروة مجرد رزق للفقراء وأنهم مفتقرون لذلك الرزق. والغرض من هذا الإيضاح هو لفت الأنظار إلى الزاوية الرفاعية وعرض أهميتها وأهمية أحبائها من قبل السلطان وبناء على ذلك نستمر فى الإيضاح ونقيد الآتى: «قد تولى المعين مهمة الإرشاد فى سنة ٥٤٠ الهجرية وقد بلغ عدد الرسائل التى تلقاها من مريديه الذين وصلوا إلى أربعين فردًا بعد سبع سنوات، سبعمائة ألف رسالة، وكثرة إرشاداته لهذه الدرجة هى محل موازنة للفيوضات الإلهية التى وهبها الله لذلك الشخص عالى المقام، وقد بنى التكية بناء على توسع جمعية وكثرة مريديه وقد قيد فى التواريخ أنه لم يبق فرد فريد فى قرى ومدن، واسط وبطايح من لم يمد يد العون لهذه التكية.

وكان سبب انقراض تلك التكية الوباء الذى ظهر فى سنة ثمانمائة الهجرية؛ وبما أن الوباء المذكور لم يترك قرية أو مدينة فى نواحى واسط وبطايح دون أن

يهلك أهاليها، وكان سببًا فى هلاك عمومى ومن هنا قد خربت التكية الرفاعية أيضًا ومن ذلك الوقت إلى زماننا هذا لم يوفق أحد فى تعميرها وها هو ذا سلطاننا الغازى عبد الحميد خان الثانى ييسر له تعميرها.

إن لذلك المقام الجليل أهمية سياسية غير أهميتها الروحانية ومن هنا احتاج بيان ذلك للتفصيلات الآتية:

وكانت بلدة واسط تشمل على بطايح، فم الصلح، نهر دقلى، حدادية، عثمانية، ملحا، رقة، داور دان، برقة الجوز، هرث، شحينة، حارزة، همامية، أونية، بدورة، جعرا، فاروث من المدن الشهيرة والنواحى المعمورة وحينما ساق المستنصر بالله معدن الحاكم بأمر الله المنصور جيشا إلى نواحى بغداد للاستيلاء عليهم ظل سكان واسط من فرط جهلهم فى الضلالة، وحينما كان المصريون يهزون هزًا تحت قيادة بساسيرى الذى تجرأ على أن يخترع بدعة حى على خير العمل بدلاً من حى على الفلاح فى الأذان المحمدى يهزون نواحى واسط والبصرة دخل معظم سكانها فى دائرة الإلحاد والرفض وكادت تلك المنطقة الواسعة أن تخرج من تحت إدارة دار الخلافة فى بغداد.

واستطاع القائم بأمر الله عبد الله السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين أن يقبض على بساسيرى ويقتله ووفق فى كسر شوكة المستنصر بالله العلوى وقوته ونصب السيد يحيى المكى المغربى الحسينى نقيبًا للأشراف فى البصرة ـ وهذا الشخص عالى القدر أول من شرف البصرة من السادات الحسينية والجد الأمجد للسيد أحمد الرفاعى الكبير، ولما كان هذا الشخص عالى القدر يشتهر بالصلاح والزهد واتباع الأثر المميز للنبى ﷺ ومقتديًا بأبيه عينه نقيبًا للأشراف حتى يطفئ بالشريعة الغراء وما بها من ماء الحياة نار الرفض والإلحاد التى انتشرت فى أطراف واسط وبغداد وعين خط حركة بإعطائه أمرًا بذلك.

إن التوفيق الذى حدث بجهود السيد يحيى المكى ليس فقط طرد ودفع الرفض والإلحاد كليا من تلك النواحى، بل إعداد مئات من الذوات الكرام الذين كانوا

ثمرة إرشاد التكية الرفاعية والتى أصبحت فيما بعد منبع العلماء ومنشأ الأولياء وضمن هؤلاء الذوات الكرام شيخ الكل الحافظ الإمام تقى الدين الواسطى، وشيخ الطوائف وإمام الطرائق تاج العارفين أبى محمد طلحة الشنبكى الأنصارى الحدادى الحسينى، والأستاذ الكبير شيخ القوم الإمام الأجل أبى بكر بن هواز البطايحى، والفقيه الصوفى أبو محمد الداور دانى والشاعر الشهيد أبو الغنايم نجم الدين الهرثى الواسطى وشيخ البقرى الصوفى. الجاروزى، والشيخ حسين بن الحليم المحدث الجليل والحافظ قاسم بن محمد الشافعى الواسطى، والحافظ قاسم بن الحجاج الواسطى والشيخ الكبير أبو بكر الهمدانى والحافظ شيخ الإسلام جمال الدين أبى محمد الخطيب الأونيوى الفقيه والشيخ الكبير ثابت بن الصالح الحدادى الصوفى، والإمام الحافظ المفسر وحجة المحدثين عز الدين أحمد بن محيى الدين إبراهيم ابن الشيخ عمر أبى الفرج الفاروثى الواسطى والعلامة ابن سعدويه الواسطى وأبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار الواسطى، وتقى الدين إبراهيم بن على الواسطى، والحافظ الإمام الكبير تقى الدين عبد الرحمن الأنصارى الواسطى، وشيخ القراء الإمام المحدث أبو القراء محمد بن الحسين الواسطى، والعلامة مجد الدين يحيى بن الربيع الواسطى والحافظ ابن محمد الواسطى، والإمام مهذب الدولة سيد على بن عثمان الرفاعى الواسطى، وأخوه، والسيد عبد الرحيم، قدس الله أسرارهم.

والمؤرخون مثل: الذهبى والبرازانى، وابن كثير، وابن خلكان والعينى، وابن حوزى، وابن شحنة والصفدى، وابن حماد، وابن المهذب والآخرون قد زينوا الصحائف بترجمة أحوالهم.

وهكذا كانت التكية الرفاعية موقعًا مهما عاليا وظلت متساوية مع الأرض مئات السنين وهذا ما أثار نخوة السلطان الدينية وحميته الإسلامية وقد عنى بإحيائها على أحسن صورة وأجملها فى هذه المرة ويرجى أن يعيد هذا التعمير والتجديد أهمية التكية الأولى.

وقد أراد السلطان صاحب الحكمة أن يوضح مدى رعايته للقطب الجليل واحترامه له فأمر بألا يجند أولاد السادة الذين من سلالة أحمد الرفاعى، كما أمر بإعمار حول مرقده المبارك بإسكانه بالناس، وهذا التوفيق العظيم أثار رضا وسرور جميع سكان البلاد العراقية من القبائل والعشائر واستفادوا من هذا التعمير؛ لذا بعث إلى مقام الخلافة الجليلة نقيب الأشراف فى ولاية البصرة السلطانية والسكان فى التكية الرفاعية السيد سعيد أفندى وعشرون شخصًا من أكابر السادات الرفاعية ببرقية عارضين عليه شكرهم وثناءهم، إن هذا الكرم السلطانى الذى لا مثيل له لدليل واضح على عودة العمار والانتعاش اللذين كانت تتمتع بهما واسط وبطائح وما حولها، كما يذكر لنا التاريخ.

وفى ضمن إنشاءات سلطاننا العظيم التى وفق فيها ثكنتان للمشاة وثكنة للمدفعية فى مكة المكرمة المسميتان بغيرتية والحميدية نسبة لاسمه ودائرة حكومية ومركز كبير للشرطة، ولما كانت مكة المكرمة قد تعرضت لهجمات الأشقياء والظالمين فى عهد الدول الإسلامية الأخرى فإن هذه الإنشاءات السياسية والعسكرية ستؤمن هذه البلاد وبهذا نستطيع أن نقول إن هذه المدينة المباركة ستظل مصونة من هجمات الأشرار إلى الأبد.

والآن إن حمل لقب خادم الحرمين الشريفين يقتضى القيام بمثل هذه الحماية الجليلة والخدمات المهمة ومن هنا يتضح أن أية دولة إسلامية أخرى لم تقم بإحياء منبع زلال الإسلام مثل السلاطين العثمانيين ولما كان سلطاننا قد تفوق على أسلافه الكرام فى هذا الخصوص فمن واجبنا نحن العثمانيين بل من واجب جميع المسلمين الذين يسكنون على وجه البسيطة أن يرفعوا أياديهم بدعاء الخير المترتب على ما قدمته الذات السلطانية من خدمات شاكرين له.

الصورة الرابعة

فى تعريف تجديد مسجد السعادة وكيفية توسيعه للمرة الرابعة

وقد وسع المسجد الشريف للمدينة للمرة الرابعة المهدى بالله ابن أبى جعفر المنصور من خلفاء بغداد.

كتب حضرة حسن بن زيد بعد تجديد الوليد بن عبد الملك مسجد السعادة رسالة إلى أبى جعفر المنصور وهو ثانى الخلفاء العباسيين وبين له أن بعض أماكن مسجد السعادة فى حاجة إلى التعمير والترميم، وذكر له إذا ما أضيف إليه بعض المحال فى الجهة الشرقية أن قبر السعادة الجليل سيظل فى نقطة تتوسط مسجد السعادة.

ورغب المنصور أن يوسع المسجد ويجدده فى صورة طبيعية فأسند إلى الحسن بن زيد أمانة البناء وأمره أن يجدده ويوسعه كما يريد، ولما توفى عقب ذلك لم يشرع الحسن بن زيد فى إجراء عمليات التجديد، وفى ذلك الوقت سافر المهدى بن أبى جعفر إلى مكة المكرمة محرمًا بنية، الحج، وبعد الحج أسند ولاية المدينة إلى جعفر بن سليمان وأمره بأن يُعين، عبد الله بن عاصم بن عمر ابن عبد العزيز الذى أحال له أمانة البناء لتوسيع مسجد السعادة أن يعينه ماديًا ومعنويًا وعاد إلى دار الخلافة بغداد فى سنة ١٦٠.

ومات عبد الله بن عاصم مؤخرًا وعين مكانه عبد الله بن موسى الحمصى وقد أسرع المشار إليه إلى القيام بمهمتهما وأضافوا ابتداء من العمود الخامس عشر من الجهة الشامية إلى باب النساء فى مربع قبر السعادة خمسة عشر عمودا وجعلوا

قاعدة العمود الخامس عشر القديم مربعًا لتكون علامة على مبدأ تجديد المهدى وأبلغوا طول الجهات الثلاث لحرم السعادة إلى ٣٠٠ ذراعًا وعرضه إلى مائة وثمانين ذراعا.

إخطار

إن الذراع الذى ذكر إلى الآن والذى سيذكر فيما بعد والذى يسمى ذراعا آدميا فى البلاد العربية هذا الذراع يساوى سبعة أجزاء من ثمانية من المقياس الحديدى الذى يستعمل إلى الآن فى البلاد المصرية والبلاد الحجازية وقدره شبر تقريبًا، ويطلق على ضعف مثله أو على أربعة أشبار ذراع معمارى انتهى.

والمنازل التى ألحقت بمسجد السعادة كانت دور خادم الآخرة عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف وشرحبيل بن حسنة ومسور بن مخرمة وكان يطلق فى ذلك الوقت على دار ابن مسعود دار قرى وعلى دار ابن عوف دار ملكية.

وشرعت فى هذا التعمير فى خلال سنة ١٦١ وأتم سنة ١٦٥ وسد باب عمر بن الخطاب الذى فتحه عمر بن عبد العزيز ناظر دار حفصة ـ رضى الله عنها ـ والمقصورة التى بناها عثمان ابن عفان أو مروان بن الحكم قد جددت وزينت فى صورة مطلوبة.

وإن كان ما ألحقه المهدى القدر الذى حرر آنفا إلا أن الأماكن التى جددت قد زينت فى صورة فوق التعريف وذُهِّبَ ونقش طلاؤها وقد زينت جميع أماكنها على طراز جديد وثمين وفرشت؛ ولكن للأسف الشديد قد احترق كل شىء ولم يبق له أثر. وقال بعض المؤرخين إن الخليفة المأمون كان قد وسع المسجد الشريف وزينه فى سنة ٢٠٢هـ إلا أن المأمون لم يُضِفْ شيئًا لمسجد السعادة واكتفى بتجديد بعض أماكنه وتعمير المواقع التى تحتاج إلى ذلك.

وبعد تعمير المأمون كانت الحكومات البغدادية ترسل إلى ولاة المدينة المبالغ الكافية والأوامر الأكيدة ويصلحون الأماكن المحتاجة للتعمير والتسوية؛ ولما

أصبح الناصر لدين الله خليفة جعل من عادته أن يرسل كل سنة ألف قطعة ذهبية وبعض العمال المهرة واتبع الخلفاء الذين أتوا بعده أثر الناصر لدين الله، وكان أجر عمال اليومية يزيد على ألف قطعة ذهبية وتؤدى من قبل حكومة المدينة وكلما احتاجت مبانى مسجد السعادة والآثار المسعودة إلى التعمير ترمم بلا استئذان.

وتعهد الملوك المصريون بتعمير الحرمين بعد انقراض الخلفاء العباسيين، وقاموا بترميم السبيل بهمم عظيمة وخدمات جليلة، والملك الأشرف قايتباى كان أكثر من خدم الحرمين الشريفين من سلاطين مصر وانتقلت خدمة الحرمين الشريفين بعد انقراض هؤلاء إلى السلاطين العثمانيين ـ أيد الله ملكهم إلى يوم الآخرة ـ وقد قام السلاطين المشار إليهم بخدمات جليلة تخجل أرواح ملوك الأسلاف كما سيذكر فيما بعد.

فى تعريف الحجرة المعطرة والقبور الثلاثة المنورة

إن الموقع الذى يطلق عليه الحجرة المعطرة هو الساحة المباركة لحجرة حبيبة حبيب الله السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق ـ رضى الله عنها وعن أبيها ـ وهذا القبر ظاهر الأنوار يصدق عليه هذا البيت الذى يثير الأشواق.

إنـه قطعـة مـن الجنـة المسكن الممزوج بالرحمة

إنه هبة العرش المشرف والفرش واللوح والقلم وكان ارتفاعها فى حياة الرسول ثمانية أذرع وأكثر من ستة أذرع فى العرض وكان لها بابان هما باب الرحمة. والحجرة اللطيفة كانت قد بنيت باللبن ومن سعف النخيل وظلت على تلك الحال إلى قرب خلافة عمر الفاروق، وأراد عمر بن الخطاب أن يعرض تعظيمه وتوقيره للسيدة عائشة فأحاطها بسور منخفض وقد هدم هذا الجدار والسور عبد الله بن الزبير فيما بعد وقد دعت الحاجة إلى تجديده.

كان الجدار الذى أحاط به عمر بن الخطاب حول المقبرة النبوية والذى جدده عبد الله بن الزبير مكشوفا وكان له باب فى الجهة الشامية للدخول منه لزيارة قبر الرسول ﷺ. كان ريحانة النبى السيد الحسن بن على قد أوصى أخاه حين احتضاره أن تؤخذ جنازته داخل المربع الذى فيه قبر الرسول وتعرض هناك قد أوصى بذلك أخاه الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وقد أخذ حضرة الحسين ـ رضى الله عنه ـ جنازة أخيه كما ذكر فى ذيل الصورة الثالثة من هذه الوجهة بناء على وصيته إلى مربع قبر الرسول لإيفاء الوصية وقد ظن بعض السفلة أن حضرة الحسين يريد أن يدفن أخاه فى داخل حجرة السعادة فقاموا ومنعوا إدخال الجنازة

فى داخل المربع وأوصلوا المنازعة إلى درجة المقاتلة؛ وفى النهاية انتهى الأمر بتدخل بعض الذوات ذوى الهمة نهاية حسنة ودفن حضرة الحسن فى مقبرة بقيع الغرقد، وحتى لا يحدث مثل هذه الأمور أغلق باب مربع قبر السعادة وسد تمامًا.

ولما كانت هذه الواقعة من تدبير الوليد إذ رفع الجدار الذى كان يحيط بمربع قبر السعادة وغطاه وهكذا أخفى القبور الشريفة عن أعين الخلق وسترها، وكان غايته كما ذكر عاليه ألا يُتْرَكَ مجال فيما بعد لإيقاع الفتنة والفساد.

وعندما أعلى الجدار المذكور وسقف وكان باب المربع قد سد من قبل فى الواقعة المؤسفة فنمت فى داخل كل إنسان أمنية زيارة قبر رسول الإنس والجن من داخل السور الذى بنى ورفع.

الحجرة المسعودة: يعنى الدار المقدسة التى تنسب للسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت دويرة صغيرة ولم يكن سقفها عاليًا حتى لايمسه ولا يتبرك به إنسان بيده، وقال حسن البصرى سواء أكانت فى حق هذه الحجرة اللطيفة أو حجرات النبى الأخرى، كنت فى طفولتى أدخل فى حجرات زوجات النبى المطهرات وكنت أرفع يدى وأمسك بأسقفها، كانت جميع منازل النبى حجرات معطرة صغيرة وقد روى هذا القول موثقًا، وكانت كل حجرة مصنوعة من اللبن وسعاف النخيل، وكان فوق أبوابها ستائر قديمة من الملس، هذا ما رواه كما روى أن للحجرة المعطرة بابين يفتح أحدهما ناحية الغرب والآخر ناحية الشام وكانت الأبواب ذات مصراع واحد مصنوع من خشب شجر الساج أو العرعر والباب الذى يسمى الآن باب محرس من الأبواب التى كانت فى عصر السعادة.

وكان بين بيت حضرة الصديقة ـ رضى الله عنها ـ وبيت حفصة ـ رضى الله عنها ـ طريق[1] وكانتا كلما تتلاقيان تتحدثان معًا.

وكان بيت حضرة حفصة ـ رضى الله عنها ـ الذى ذكر فى الجهة اليمنى لنافذة آل عمر التى ذكرت أعلاها وساحة هذه الدار المسعودة هى الموقف الذى يزوره زوار زماننا سواء أكانوا فى داخل الشبكة أو خارج الشبكة.

(١) هذا المكان الآن موقع القبر الجليل.

وحينما ارتحل النبى ﷺ شرع أهل المدينة عقب ذلك يأخذون من ترابه العنبرى مقداراً من التراب للاستشفاء وبهذا جعلوا قبر الرسول منقوبا محفوراً، ولما كانت هذه الحال مخلة بأدب التعظيم، فقامت الصديقة ـ رضى الله عنها ـ ببناء حائط حول مضجع السعادة حتى يحافظ عليه، وقام أصحاب الإخلاص بثقب هذا الحائط أيضًا إلا أن الصديقة قد سدت هذه الثغرة أيضًا ومن هنا ظل قبر الرسول فى جهة من الجدار المبنى وذاتها السامية فى جهة أخرى من الجدار، وبهذا قسمت الحجرة المعطرة إلى جزأين، وكانت المشار إليها حينما تزور قبر الرسول وتنظفه بالكنس لم تكن تتستر وتظل مكشوفة، ولما توفى والدها ودفن بجانب النبى ﷺ ظلت على تلك الحالة إذ كانت تدخل فى الحجرة بدون حجاب، ولكن بعد ما دفن فيها عمر بن الخطاب بعد موته كلما كانت تذهب ناحية قبر السعادة كانت تتستر لأن حضرة الفاروق لم يكن محرما، أى أنها لم تزر الحجرة بعد دفن عمر فيها مكشوفة دون حجاب.

وظل مربع مرقد السعادة إلى أن وسع عمر بن عبد العزيز المسجد الشريف على الهيئة التى جددها عبد الله بن الزبير عليها يعنى ظل مكشوفا وبالباب، وقد أحاط عمر بن عبد العزيز كما سبق ذكره أعلاه، السور المنخفض الذى بناه عمر بن الخطاب حول مرقد السعادة بجدار متين؛ وحتى لا يكون هذا الحائط شبيهًا بالكعبة المعظمة بناه على شكل شبه مثلث.

ولما كان الجدار الذى أقامه عمر بن عبد العزيز فى غاية الارتفاع ومسقوفًا فكانت رؤية القبور من الخارج غير ممكنة، وقد جعل أحد جهات ذلك الجدار على شكل شبه مثلث بناء على رأى عروة بن الزبير واجتهاده، إذ تذكر الوليد بن عبد الملك الإهانة التى لحقت بالحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ من أسافل الناس بسبب جنازة أخيه الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ وفكر فى إحاطة مربع مرقد السعادة بجدار قوى الأساس ليحجب القبور الثلاثة عن أعين الناس، ويخيفها وكتب الأمر والكيفية إلى أمير المدينة عمر بن عبد العزيز، وحينما أخذ عمر بن عبد العزيز الرسالة التى كتبت بهذا الخصوص استهجن تنفيذ هذا الأمر

غير اللائق مع ذلك راجع عروة ابن الزبير قائلاً له: «إننى أحترز من إحراز هذا الأمر الخطير ولكن الوليد يصر على ذلك، فما رأيك فى هذا الخصوص فأجابه عروة قائلاً: «ما دام الوليد يصر كما أن مولانا يرغب فى تنفيذ أمر الوليد مع الكراهية له، يجب أن تأمر أن يكون البناء الذى سيبنى على شكل شبه مثلث ويتجه طرفها المدبب ناحية بيت السيدة فاطمة»، وكان الوليد أمر فى الرسالة التى كتبها هدم الحجرات العاليات وضم ساحاتها إلى مسجد السعادة، وقد فكر عمر بن عبد العزيز فى هذا الأمر كثيراً وفى يوم من الأيام جلس فى مكان مناسب فى حيرة واضطراب وأصدر أمره بهدم الحجرات العاليات وهدم سكان أهل المدينة وهم ينتحبون ويصيحون من الحسرة وجعلوها أثرا بعد العين وشرعوا فى وضع الأساس وفق رأى عمر بن عبد العزيز وتعريفه.

وفى أثناء هدم الجهة التى فيها المدفن الأقدس لحجرة السعادة انهارت الجهة الشامية من الجدار الذى أقامه عبد الله بن الزبير قضاء وقدراً ونتيجة لذلك سقط مقدار من السور القديم الذى كانت أقامته حضرة الصديقة، ولما ظهرت فى داخل مربع قبر السعادة ثلاثة قبور قد فرش فوقها بالرمل قال عمر بن عبد العزيز، «إن هذه القبور هى قبور الرسول ﷺ الذى نال حياة أبدية وأبى بكر وعمر رضى الله عنهم، يا مزاحم[1] يجب أن تسوى هذا المكان بنفسك ذاتها». ثم ظهَرت عليه علامات الندامة وقال لا، لا، إننى سأسويه بنفسى وسواه بنفسه، إلا أنه فى أثناء ذلك قد سقطت الجهة الشرقية لأحد القبور وانتشرت رائحة طيبة فى شوارع دار السكينة وستر ذلك المكان بقطعة قماش وجدد ذلك المكان فى اليوم الثانى تجديدا جيدا.

قال عبد الله بن محمد: «كان جدى عقيل يذهب إلى مسجد السعادة فى الثلث الأخير من الليل وبعد أن يسلم على النبى الجليل يدخل إلى الحرم الشريف، وفى ليلة من الليالى توجه إلى مسجد السعادة وشم رائحة طيبة لم

(١) مزاحم هو عبد لعمر بن عبد العزيز.

يشمها طيلة عمره أمام بيت المغيرة بن شعبة رائحة تثير الأشواق وتسحر القلوب فمثل وغاب عن نفسه، وإذا بتلك الليلة كانت الليلة العجيبة التى تهدم فيها بيت عائشة - رضى الله عنها - وظهرت القبور الثلاثة المشحونة بالنور! واقترب جدى وهو مغمور بهذه الفرحة والابتهاج من مرقد السعادة ورأى أن الجدار الشرقى لمربع القبر الجليل قد انهار وأن عمر بن عبد العزيز كان منهمكًا بتعليق ستارة للجهة المنهارة من مربع القبر وعرف أن الرائحة التى غمرت دار الهجرة المدينة المنورة قد انتشرت من مرقد السعادة وعندئذ عاد إلى بيته وجمعنا حوله وأخبرنا بما حدث».

واستدعى عمر بن عبد العزيز صباح الليلة التى انهار فيها جدار مربع قبر السعادة ابن الوردان[1] وأمره بأن يدخل فى داخل مربع قبر السعادة ليعاين ويتفقد الجدار المنهار، ولما بين له ابن الوردان أنه فى حاجة إلى من يعينه فى داخل المربع فشمر عمر بن عبد العزيز ساعديه وأراد أن يدخل فى داخل المربع، ولما رأى قاسم بن محمد وسالم بن عبد الله يستعدان أيضًا قال لهما: «لماذا تستعدان؟» فأجاباه قائلين: «نريد أن نعين ابن الوردان».

فقال إننى أحترز أن أقلق أهل القبور بكثرة الازدحام؛ يامزاحمَ ادخل بمفردك وأعن ابن الوردان وبهذا تخلى عن الدخول بنفسه وبموقفه هذا أراد أن يومئ ويشير إلى عدم جواز دخول الشخصين الذين رغبا فى الدخول فى مربع قبر السعادة. وبينما كان ابن الوردان منهمكًا بإجراء اللازم بعد أن وجد أساس الجدار المنهار قد رأى فى داخل القبر الشريف الذى سقط من صدمة الجدار المنهار قدمين توأمين فانسحب إلى جهة وأخذ يرتعش من الخوف والفزع وقلق، واضطرب اضطرابًا شديدًا.

وعندما رأى عمر بن عبد العزيز قلق ابن الوردان واضطرابه فتقدم إلى الأمام ليتحقق من الأمر فرأى فى داخل القبر الشريف الذى كان تهدم من قبل القدمين

(١) كان هذا الشخص فى ذلك الوقت رئيس المعماريين للأبنية المقدسة.

الشريفين، القبر الذى كان فى اتصال أساس مربع قبر السعادة فرجع وهو فى شدة الدهشة وغاب عن شعوره ووعيه.

وكان عبد الله بن عبيد الله جهة قبر عمر بن الخطاب لامع الأنوار، وعرف الأمر الذى أخاف ابن الوردانى وملأ قلب عمر بن عبد العزيز بالرهبة والقلق وقال أى عمر! لا تخف! إن القدمين اللذين رأيتهما فهما قدما جدك عمر بن الخطاب وكانا قد بقيا فى داخل أساس جدار الحجرة المنيفة، وهكذا وضح الأمر عندئذ قال عمر بن عبد العزيز لابن الوردان، يا ابن وردان! خف واستر ما رأيته ـ أى قدمى ابن الخطاب ـ وبهذا القول أظهر فرحته وسروره؛ لأنه كان قد ظن أن القدمين اللذين رآهما قدمى رسول الله ﷺ من هنا استولت عليه الحيرة والدهشة. وبعد أن بنى ابن الوردان الجدار المنهار، أحاط الجهات الأربع للجدار القديم بحائط أعلى وأوضح من الجدار الأول، وسقف مربع قبر السعادة كسابق عهده ثم أمر ببناء الباب الذى كان قد سد عقب الحوادث التى وقعت ضد جنازة الحسين بن على، بشكل متين محكم وصبغه والجدران التى كانت جددت فى عصر عبد الله بن الزبير كانت قد بنيت بحجارة سوداء صبغت صبغة جيدة وجعلت الجهة القبلية أكثر ارتفاعًا من الجهات الأخرى وسُد باب الرحمة الذى فى الجهة الشامية.

ولم تكن الفاصلة التى كانت بين الحائط القديم والحائط الذى مده عمر بن عبد العزيز متساوية فى جهاته الأربعة، فقد كانت الجهة الشرقية ذراعين، والطرف الغربى ذراع واحد، والطرف القبلى شبرًا واحدًا، أما جهة الشام فكانت واسعة جدًا وبما أن عمر بن عبد العزيز أمر بطلاء الجهات الأربع لجدران حجرة السعادة طلاء جيدًا وأخفى الباب المسدود بحيث لا يميز فمن هنا لم يستطع أحد أن يعين مكان الباب المذكور.

وإن يروى المؤرخون أن أبا غسان قال: «قد عمر سقف مسجد السعادة سنة ١٩٣ هـ، وإننا كنا قد عرفنا مكان الباب المسدود إلا أن الإمام السمهودى قال قد

جدد المسجد الشريف والحجرة اللطيفة فى زماننا وعمر، ولكن ما أمكن أن يُعَيّن الباب المسدود فضلاً عن مكانه وهذا القول يؤيد الرواية الأولى ويؤكدها، وإن كان غرض الإمام السمهودى أن يشير إلى أن الباب المسدود قد أصبح مجهول المكان بمرور الزمان فمن المحتمل أن يكون قد شوهد مكان الباب المذكور فى سنة ١٩٣هـ حتى يقترن قول أبى غسان بالصحة.

يقول أبو غسان وهو يخبرنا أن الفاصلة التى بين الجدار الذى مده عمر بن عبد العزيز وجدار الحجرة المعطرة القديمة قد مسحت سنة ١٩٣: «قد مسحت، فى زماننا، الفاصلة التى بين جدران الحجرة المقدسة ووجد طرفها الشرقى ٣ أذرع وطرفها الغربى ذراعًا واحدًا وبلغت فى هذا الوقت الجهة الشرقية من الطرف القبلى ذراعًا واحدًا، إلا أن جميع أماكن هذه الجهة لم تكن متساوية فالمحل القريب من وجهة السعادة كان فى اتساع شبر والأسفل منه فترة ما بين الإبهام والسبابة ـ وكانت نهاية الجدار الشرقى ضيقة بحيث لا تسمح بالمرور.

وكان بعض أماكن جدار الحجرة الشريفة القديم قد انهارت تقريبًا فى سنة خمسمائة أو ٦١٣ أو ٦٤٠ وعمرت مستأذنًا من مركز الخلافة وأصلحت دون تأخير، وبينما كان الجدار ينهار فى خلال سنة ٥٢٠ سمع صوت من داخل مربع القبر الجليل إلا أن سكان أهل المدينة لم يتجرءوا أن يخبروا به أحدًا رعاية للنبى ﷺ مدة أربعين عامًا، وفى النهاية أخبروا وعرضوا الأمر فى سنة ٥٧٠ على المستضىء بالله العباسى.

وبناء على القرار الذى اتخذه المجلس الذى عقده المستضىء بالله سنة ٥٧٠ تحت رياسته والذى ضم أكابر العلماء وأفاضل الفقهاء أمر واليه فى المدينة أن يُدخل فى داخل حجرة السعادة واحدًا من فضلاء خدام الحرم النبوى ومتبحريهم لأجل الفحص، واتحدت آراء أهل المدينة على أن يوكل هذا الأمر إلى شخص زاهد من بنى العباس يسمى بدر الدين.

ودخل حضرة بدر الدين من الباب الصغير الذى فتح فى الجهة الشرقية إلى

الحجرة الشريفة ورأى أن بعض الأماكن فى الجهة الغربية من السور القديم الذى فى داخل الجدار الذى بنى فى عصر عمر بن عبد العزيز قد انهار، فصنع مقداراً كافيًا من اللبن من تراب مسجد السعادة وعمرت الأماكن المنهدمة من الجدار وأخذ منه الصحن الخشبى الذى وجده بجانب الجدار المنهار وأخرجه وبعثه إلى بغداد، وكان هذا الصحن قد ظل فى داخل الجدار الذى جدده عبد الله بن الزبير، ولما انهار الجدار انكسر أحد جوانبه وظل الباقى فى داخل الجدار فبدر الدين الضعيف أخذ معه الجزء المنكسر فيه كما أخذ من تراب الجدار المنهار قدراً من التراب بقصد التبرك فقط وذهب، وقد عرضت الكيفية إلى مقام الخلافة الجليلة مفصلاً من قبل إلى المدينة.

اليوم السعيد الذى دخل فيه بدر الدين إلى بغداد كان عيداً كبيراً وعظيمًا فترك الجميع أعمالهم واستقبلوا جناب بدر الدين وأوصلوه إلى دار السلام فى تعظيم وتوفير واحترام.

وقد سمع أيضًا فى سنة ٥٤٨ هـ صوت انهيار الجدار فى داخل الحجرة المعطرة الشريفة وأبلغ الأهالى أمير المدينة قاسم بن مهنى الحسينى، وأمر قاسم بن مهنى بإنزال شخص يتصف بالزهد والصلاح والعفة والاستقامة ومتدينًا فى داخل القبر الجليل وقد قوبل هذا الرأى الرزين باتفاق الجميع ورئى أن من المناسب تعيين عمر النسائى الموصلى من المشايخ الصوفية وأفاضل المجاورين والذى عرف فى المدينة بالزهد التام والتدين والتقى وبلغ المشار إليه الفاضل بهذا الأمر[1].

ولما كان حضرة عمر النسائى مصابًا بمرض سلس البول استمهل لبعض الوقت حتى يستجمع قوة بدنه لتكفى للدخول والخروج فى قبر السعادة، وذلك بالتريض.

وبعد ذلك ربط حضرته بحبل وأخذ معه شمعةً وأدوات أخرى لازمة ودخل فى الفاصلة التى بين غطاء مربع قبر السعادة وحجرة السعادة ومن هناك من قبة

(١) يروى بعض الرواة أنه قد جعل بجانب عمر النسائى هارون المشانى وشخص آخر.

الحجرة أى من المتنفس الذى فوق سقف الحجرة المنورة إلى داخل مربع القبر وأوقد الشمعة وألقى نظرة حول القبور ورأى أن بعض الأتربة قد سقطت من سقف الحجرة، فكنس التراب المذكور بلحيته وخرج من حيث دخل.

المعجزة: قد نجا حضرة عمر النسائى بعد خروجه من حجرة السعادة من علة سلس البول وعاد إلى آخر عمره مستريحًا.

قال ابن النجار «شَمَّ قاسم بن مهنى الحسينى فى سنة ٥٥٤ هـ فى ربيع الآخر من تلك السنة رائحة عفنة من داخل الحجرة الشريفة فأنزل بيان الاسم من خدمة الحجرة الشريفة، وأصغى الموصلى بقولى المسجد الشريف والشيخ هارون الشادى من أفاضل الزمان فى داخل الحجرة المنيفة ووجد الذوات المشار إليهم بين الفاصلة التى بين الجدران جيفة هرة ميتة وأخرجوها، وكان اليوم الذى دخل فيه هؤلاء داخل حجرة السعادة وخرجوا منها يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة، وبعد ذلك إلى زماننا هذا لم يدخل أحد فى قبر السعادة ولم يخرج، وأراد بهذه الرواية أن يسقط القول الذى قيل فى حق عمر النسائى عن الاعتبار وليس بعيدًا أن تكون الحكاية التى نقلت عن عمر النسائى نفس القصة التى رواها ابن النجار إلا أنها رويت بطرق مختلفة.

وإن كانت أبنية الحجرة المعطرة مربعة إلا أن هناك من يدعى أنها مخمسة، مع أن الإمام السمهودى الذى يرد ادعاءات هؤلاء ويخرجها قائلا: «إن أبنية الحجرة المعطرة المقدسة مربعة، فالذين اعتقدوا أنها مخمسة قد أخطئوا، إننى دخلت فى داخل الحجرة الشريفة وقمت بمسحها بنفسى».

وبناء على حسابى داخل الجهة الشامية من حجرة السعادة أحد عشر ذراعا بثلاثة أرباع ذراع وكل واحد من عرض الشرقى والغربى سبعة أذرع خمسة أرباع ذراع وعلى كل حال فهذا الحساب يشير إلى مقارنته لمسح ابن شيبة ويحيى، وعرض الجهات الثلاث غير داخل الجدار القديم الشرقى الذى حدد ذراع ونصف ذراع وعقدتان كما أن الجدار الشرقى المجدد ذراع وخمسة أرباع، وارتفاع

الجدران ثلاثة أذرع وثلاثة أرباع لكل جهة، إلا أن بعض أماكنها قد رفعت قليلاً وبما أن أعلاها قد صنع من الآجر قدر ذراع واحد قد فهم أنه قد أضيف فيها بعد.

السور الخشبى الذى حول حجرة السعادة، لم يكن أى شىء حول الجدار الخارجى لحجرة السعادة حتى عصر جمال الدين الأصفهانى وقد أحاط جمال الدين الأصفهانى الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز حول الحجرة المعطرة بسور مصنوع من خشب شجرة الصندل والآبنوس، وأوصل ارتفاع هذا السور إلى سقف المسجد الشريف وألصقه به، إلا أنه قد احترق فى الحريق الأول كما سيحرر فى الصورة الثامنة من الوجهة الثامنة فجدد سنة ٦٦٨هـ وسمى بالمقصورة وبعد ذلك قد جدد وعمر مراراً. انتهى.

جدران أبنية الحجرة المعطرة القديمة أعلى من الجدران التى مدها عمر بن عبد العزيز قدر خمسة عشر ذراعًا بما أن أرض الجدار الجديد أعلى من أرضية الجدار القديمة فمن هنا تظهر الجدران فى ارتفاع واحد. وبناء على أرجح الروايات بين الجدارين فاصلة ما تقرب من ذراع ونصف ذراع.

والجدار الذى مده عمر بن عبد العزيز ـ كما يرى فى الشكل الآتى: مثلث الشكل فى الجهة الشمالية وهذا الشكل المثلث ما بين الجدار القديم والجديد فالفاصلة التى تمتد من الزاوية الشمالية إلى الجدار القديم ثمانية أذرع، وكان فوق سقف الحجرة المعطرة اللطيف قطعة قماش مشمع على شكل الخيمة وكان فوق هذا الغطاء سقف مسجد السعادة وفوق هذا السقف يعنى فوق سقف المسجد الشريف باب[1] صغير وبين القماش المشمع وسقف المسجد فاصلة قدر ذراعين، الشكل والهيئة التى ذكرت كانت الحالة التى عليها قبل الحريق الأول؛ لأن ما بين سقف المسجد الشريف وغطاء الحجرة المعطرة قد أغلق ببعض الألواح الخشبية التى كُسِيَتْ بالمشمع وفتحت نافذة وسط سقف الحجرة الشريفة تسمى قبة النور[2] وأغلق بالقفل بعد الحريق، وإن كان بعض المؤرخين قالوا كان يدخل للفاصلة

(١) إن المنفس الذى وسم أعلاه، بـ «قبة الحجرة» عبارة عن هذا الباب الصغير.

(٢) كان يقال لهذه النافذة قبل الحريق قبة حجرة قبر النبى ﷺ.

التى بين الجدار القديم والجديد من الباب الصغير الذى فتح فى سقف حجرة السعادة إنهم لم يصيبوا الحقيقة فى ذهابهم هذا وابتعدوا عن الصحة.

وإن أراد ابن رشد أن يرد الأقوال المشهورة إذ ادعى أنه لم يكن فوق القبر الجليل سقف وقال لم يكن قديمًا فوق القبر الشريف سقف غير سقف مسجد السعادة، وبما أنه قد مات سنة ٥٢٠هـ فادعاؤه هذا يشير إلى هيئة المسجد الشريف قبل الحريق، ومع هذا فرواية الإمام مالك ـ عليه الرحمة ـ بخصوص الكسوة الشريفة تؤيد أن الحجرة المعطرة كانت مسقوفة قبل الحريق الأول، حتى إنهم وجدوا بقية ميزاب السقف العتيق عندما كانوا يجددون المسجد فى عصر الأشرف قايتباى وبهذه العلامة والدليل حكموا أن حجرة السعادة كانت مسقوفة فى الصدر الأول وأن الميزاب العتيق كان مصنوعًا من خشب شجرة الساج، جاء فى صحيح الدارمى أنه قد وقع فى حياة السيدة عائشة الصديقة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبى قحط وغلاء اشتكى الناس ذلك لذاتها السامية ورجوها أن تجد لها حلاً.

قالت السيدة عائشة: «افتحوا نافذة فوق قبر السعادة حيث لا يبقى شىء يحول بين سقف القبر الجليل وبين السماء ! وبهذا أمرت أن تفتح نافذة صغيرة فوق سقف القبر الجليل وقد استحسن أهل المدينة رأى والدتنا المشار إليها وقرروا فى النهاية فتح نافذة صغيرة فوق قبر السعادة وأطلق عليها «قبة النور»، «قبة المجرة».

وفى أثناء فتح سكان المدينة، بناء على توصية الصديقة ـ النافذة فوق قبر الرسول ظهرت فى السماء علامات المطر وأخذ المطر فى النزول وغرقت الغبراء بالمياه ونمت الحشائش فى الأودية والصحارى وأخذت الدواب فى الرعى. وقد سر أهل المدينة من هذه الحالة وسموا تلك السنة بـ (عام الفتق) وكانوا بعد ذلك كلما احتاجوا إلى شىء أو المطر فتحوا النافذة التى فوق قبر الرسول، وقد دام هذا النظام إلى الحريق الثانى، حتى إنهم كانوا قد فتحوا منفذًا فوق القبة الخضراء المصنوعة من الحجر كالحالة السابقة بعد الحريق الأول، وتركوا فيما بعد هذه

الأصول، لسبب ما، وأخذوا يدعون فاتحين باب الرحمة المقابل لوجه النبى ﷺ فى مقصورة النور التى تحيط بالحجرة المعطرة، ودام هذا النظام إلى عهد شاهين إلى وقوع الحريق الثانى لأن شاهين الجمالى قد بنى فوق سقف مسجد السعادة قبة حجرية كما فتح فوق ذروتها نافذة وركب عليها قفصًا حديديًا كما ركب فوق النافذة التى صنعت فوق سقف الحجرة الشريفة اللطيفة قفصًا آخر، وركب فى وسطه منفسا مغلقًا، وكلما كان أهل المدينة يتعرضون لداهية دهياء يفتحون ذلك المنفس، بما أنهم كانوا يستسقون واقفين بجانب المنفس المذكور فى سنين القحط والغلاء.

وإن كانت قبة النور التى هى نافذة قبة السعادة موجودة فى أيامنا هذه إلا أن نظام فتحها لأجل الدعاء غير حاصل، والآن يدعون فاتحين الباب المعلا الذى يطلق عليه باب الوفود الذى يقابل أسطوانة الوفود التى توجد فى جهة الروضة المطهرة من حجرة السعادة، وبناء على ما أخبره مسنو المدينة وأصحاب العلم أنه كلما دعى وذلك الباب مفتوح فلابد أن يظهر أثر الاستجابة سريعًا.

قد اختلف مؤرخو الأسلاف كثيرًا فى تعيين مراقد المدفونين فى داخل الحجرة المعطرة وفى نهاية القيل والقال بينوا اقتضاء تصديق سبع روايات، وادعت كل فرقة صحة روايات رواتها ولكننا حينما رأينا أن أربعًا من هذه الروايات لا تستند على حجة قوية تركناها وذكرنا صور الروايات الثلاث المؤيدة بأقوى الأقوال.

الصورة الأولى: أن قبر النبى الأقدس أمام قبرى حضرة الصديق وعمر بن الخطاب قليلاً، يعنى أن رأس الصديق الأكبر فى محاذاة منكبى الرسول ﷺ ورأس الفاروق الأعظم فى محاذاة منكبى جانب الصديق الأعظم ولما كانت هذه الصورة أكثر وجاهة وافق على تصديقها وصحتها أغلب العلماء.

كان الوليد بن عبد الملك قد ذهب إلى المدينة المنورة فى أثناء تجديده لمسجد السعادة ليرى مدى متانة صنعه ورصانته وليرى إذا كان منزل فاطمة ـ رضى الله

عنها ـ قد ألحق بساحة المسجد أو لم يلحق، وفى أثناء المعاينة أمسك بيد عمر بن عبد العزيز وسأله مشيرًا إلى حجرة السعادة هل أبو بكر وعمر وسيد البشر فى هذه الحجرة؟ فرد عليه قائلا نعم قال: أين عثمان بن عفان؟ أننى لا أغادر هذا المكان إلى أن أخرج هذين الشخصين من الحجرة المعطرة، وأنقلهما إلى مكان آخر وظل واقفًا فترة لينفذ ما فى ضميره، فقال له: عمر بن عبد العزيز عندما استشهد عثمان بن عفان كان الناس مشغولين بإطفاء نار الفتنة وكانوا يدفنونه قطعا فى حجرة السعادة إذا كان الاستقرار سائدًا وبهذا القول أومأ إلى أن رأى الوليد غير صحيح، وبعد أن سمع الوليد هذا القول سكت قليلاً وتخلى عن إيفاء ما فى ضميره.

الشكل الأول

قبر النبى ﷺ

قبر أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه

الصورة الثانية: كما نرى فى الشكل الآتى:

أن رأس أبى بكر الصديق فى محاذاة منكبى رسول الله ﷺ وأن رأس عمر بن الخطاب فى وصف قدمى النبى ﷺ الأنورين قد صدق أبو داود والحاكم هذه الصورة ورجحاها على الصورة الأخرى ومن هنا أراد بعض الذوات ترجيح الصورة الثانية على الصورة الأولى، إلا أن قاسم بن محمد بن أبى بكر قال: لأصحابه؛ حينما كنت أزور القبر الجليل كنت أرى رأس جدى أبى بكر خلف منكبى الرسول ﷺ وأرى رجليه فى محاذاة رأس الفاروق الأعظم وقول قاسم هذا يؤيد حكم الرواية التى ترجح الصورة الأولى على الصورة الثانية لأن جناب قاسم بن محمد ذهب إلى بيت أخت أبيه عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال لها: «يا أم المؤمنين، إذا أذنت لى سأزور القبور الثلاثة وفتحت أمنا المشار إليها باب مدفن السعادة وسمحت لابن أخيها قاسم بن محمد بالزيارة».

وبناء على رواية قاسم بن محمد فإن القبور الثلاثة منفصلة عن بعضها قليلاً وفرش فوقها برمل أحمر ذات حصاة كبيرة جلبت من وادى الحمراء.

الشكل الثانى

قبر النبى ﷺ / قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قبر أبى بكر الصديق رضى الله عنه

الصورة الثالثة: وبناء على ما يرى فى الشكل الآتى أن رأس الصديق المبارك فى محاذاة قدمى سلطان عرش الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقبر عمر بن الخطاب لامع الأنوار خلف قبر النبى ﷺ هذا ما روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أمنا إلا أن رواة هذا القول مجروحون بتهمة النسيان وهذا ما يحكم عنهم.

الشكل الثالث

قبر النبى ﷺ / قبر أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وهذا الشكل يكذب ويخرج القول الذى روى بأن قدمى عمر بن الخطاب رئيتا فى أساس الجدار الذى تهدم فى عصر عمر بن عبد العزيز، لأن الجدار الذى سقط فى ذلك الوقت كان الجدار الشرقى وإن كانت هذه الرواية قد رويت ونقلت عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فبناء على هذه الرواية يقتضى أن يكون القدمان اللذان ظهرا قدمى جناب الصديق المباركين ولما كانت هذه الصورة تثير الشك والشبهة فأبو داود والحاكم قد صدقا الصورة الأولى والثانية وترددا فى صحة الصورة الثالثة.

وقول عبد الله الذى كان عنده معلومات صحيحة عن قبر عمر بن الخطاب لامع الأنوار من بين القبور الثلاث لعمر بن عبد العزيز: «يا عمر! لا تخف إن القدمين الشريفين اللتين رأيتهما قدما جدك عمر بن الخطاب كانتا قد ظلتا داخل

أساس الحجرة المنيفة» يصدق صحة الصورة الثانية، ويصرح بأن الرواية الثالثة ليست صحيحة ولما كان مكان الجدار الشرقى الذى سقط فى ناحية الركن الشامى لابد وأن ترجح الرواية الأولى على الصور الأخرى.

الهيئة المرئية للقبور الثلاث المقدسة فوق الأرض:

وقد انقسم المؤرخون على فرقتين فى تعيين شكل القبر الجليل هل هو مسنم[1] أم مستو قال الفريق الأول إن قبر السعادة مسنم وهو مثل المقابر التى نعرفها أعلى من الأرض قليلاً وعاليه مدبب قليلاً وقال الفريق الثانى ليس بمسنم ولكنه مستو ومع هذا فالفريقان صادقان فى أقوالهما إذ الذين يدعون أنه مستوهم الذين شاهدوا شكله الأول والذين قالوا مسنم شاهدوا طرزه الجديد؛ لأن المرقد الشريف ظل مستويا إلى قرب عهد عمر بن عبد العزيز؛ فعندما تهدم الجدار الشرقى لحجرة السعادة فسنم القبر الجليل المنيف، وكان قبرا الشيخين إلى سقوط الجدار الشرقى مستويين وجعل سقوط الجدار الشرقى قبريهما مسنمين.

وعند إجالة النظر لهذه الصور الثلاثة يرى فى داخل حجرة السعادة مكانا خاليا يكفى لدفن جنازة، ويروى أن هذا المكان سيكون مدفن عيسى بن مريم، وكان كل من عبد الرحمن بن عوف وحضرة الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ استحصلا على إذن بدفنهما فى هذا المكان الخالى من السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولكنهما عندما توفيا اعترض أمراء بنى أمية على ذلك ودُفنت جنازتاهما فى بقيع الغرقد، وهذه حكمة تؤيد أن الاعتراض كان بسبب أن هذا المكان مدفن عيسى.

شبكة قبر السعادة

حجرة السعادة ـ كما عرف آنفا طراز وهيئة ـ فوقها قبة كبيرة وحولها ـ دائرا ما دار ـ سور شبكى أخضر اللون، إن القفص الذى يحيط بمر قبر السعادة مصنوع من الصلب، إلا أن واجهتها حيث يقف الزوار على شكل باب صغير مصنوع من

(١) المسنم يعنى كظهر السمكة.

الفضة وقد سطرت على طاقة العبارة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والزوار الكرام يزورون القبر من خارج هذا القفص ويطلقون على هذا القفص شبكة قبر السعادة.

وإن كان بين القفص الذى عُرف والمرقد السعيد مكانًا خاليًا لإيقاد الشمعدانات ليلاً إلا أن الجهة التى فيها مرقد السعادة قد غطيت بقماش ذهبى فلا يستطيع أن يرى داخل الغطاء فرد فريد.

والغطاء المزركش الذى فوق مرقد السعادة قد نسج على أعلى مستوى من الدقة والمهارة فهو قطعة قماش نادر ـ كتب عليها نسجا العبارة البديعة الله محمد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين وبعض أسماء النبى.

روايـة

يروى عن كعب الأحبار أنه قال: أنه سيتواجد فى حجرة السعادة كل يوم إلى صباح يوم الحشر ما يقرب من سبعين ألف ملك لعرض باقات ورد الصلاة والسلام من هنا يتنزل كل يوم من السماء سبعون ألف ملك يظلون يقومون بالصلاة والسلام وفى غروب الشمس يعرجون إلى السماء ويهبط مكانهم نفس العدد يظلون حتى الصباح يصلون ويسلمون.

الوجهة الثامنة

وتحتوى على تسع صور وتشمل تفصيلات

عن علامات رأس النبى الشريف ومقام جبريل الأمين السامى

وكيف تحفظ وتعلق الهدايا الواردة

وفى أى عصر وتاريخ أسست القبة الخضراء ومقصورة القبر الحديدية

فى ذكر علامة الجهة

التى يوجد فيها رأس الرسول ﷺ

كانت العلامة الفارقة لرأس النبى الشريف فى الصدر الأول صندوقًا مغطى بألواح فضية، وكان هذا الصندوق بجانب العمود الملاصق لجدار القبر وكان ذلك العمود فى منتهى الناحية الغربية لجدار الحجرة المعطرة وفى محاذاة أسطوانة التوبة وأسطوانة السرير، وزمن وضع ذلك الصندوق وتاريخه يكاد يكون مجهولاً فى نظر التاريخ إلا أنهم يروون أنه قد وضع قبل حريق سنة خمسمائة وثمانين رواية قوية ولا شك فى صحة هذه الرواية، وكانت فى جهة رأس الرسول شجرة مزينة فوق الصندوق الصغير تحيط بالأسطوانة المثبتة بجانب الرأس، ولما احترقت هذه الشجرة من الصندوق فى الحريق الثانى ركزوا مكانها عمودا رخاميا وكتبوا عليه بخط جميل البسملة الشريفة والصلوات المنيفة ووضعوا بجانب العمود صندوقًا صغيرًا، والآن فعلامة الرأس الشريف النبوى هذا العمود.

ومازال ذلك الصندوق الصغير موجودًا ولكنه تحت غطاء قبر السعادة، ويوضع فيه كل سنة خشب الصندل الهندى ويؤخذ القديم منه وبقيت هذه العادة من عهد عمر بن الخطاب وقد حفظ بالصندوق ماء الورد والعنبر والصندل لتبخير المسجد والأشياء الأخرى فى داخل ذلك الصندوق وقد أصبح وضع الأشياء المذكورة فى داخل ذلك الصندوق فى حكم العادة لدى الخلفاء والملوك الذين بعده؛ ولكن مسجد السعادة اتسع وكثرت تلك الأشياء الواردة لتبخير المسجد فاستصوبوا وضع تلك الأشياء فى أماكن أخرى مكتفيًا بوضع الصندل الهندى فقط داخل ذلك الصندوق علامة رأس النبى الشريف ﷺ.

أصول تجديد الصندل: هناك نظام جميل بين أغوات حرم السعادة خاص بصورة تجديد الصندل الموضوع فى داخل الصندوق، وهذا النظام جار إلى يومنا هذا، عندما يحين الوقت المعين للتجديد تولم وليمة ويقدم طعام من قبل شيخ الحرم أو نائبه فى دائرة الحرم لبعض أهل حرم المدينة.

ولكن جميع المدعوات من النساء يطحن الصندل المجهز وهن يصلين ويسلمن على النبى بالفقرات المسجوعة طحنًا جيدًا قبل الطعام وعندما تنتشر رائحته إلى الجهات الأربعة يخلطنه بماء الورد أو أنواع أخرى من العطور وفى ختام ذلك يتناولن الطعام الذى أعده صاحب البيت ويرسلن ما جهزنه إلى أغوات الحجرة المعطرة ليضعوه فى الصندوق الذى تحت غطاء قبر السعادة، ويعبئ الأغوات الصندوق المذكور بالصندل الجديد بعد أن يفرغوه من الصندل القديم وفى أثناء ذلك يهللون ويكبرون ويصلون على النبى ﷺ ويسلمون ويرسلون الصندل القديم لأحبائهم للتبرك.

والفقرات المسجوعة التى ترددها النساء فى أثناء وجودهن فى جمعية دق الصندل الذى يستلزم المفخرة هى: لما بدينا * على النبى صلينا * العادة يا سادة.

والوقت المعين لتجديد الصندل الليلة التاسعة عشرة من ذى القعدة كل سنة، وبعدما يدق بأدوات مزينة ويغربل بغرابيل فضية يمزج بعطور مثل ماء الورد، عنبر ودهان الورد ثم يعجن كالعجين ثم يوضع فى صحون ذهبية وفضية ويحمل إلى حجرة السعادة التى تغسل وفى اليوم الثانى يدخل فى داخل شبكة السعادة فى موكب خاص، ولا يدخل من هذا الموكب فى داخل حجرة السعادة غير شيخ الحرم، ونائبه، وخازن الحرم.

والصندوق الذى يضعون فيه الصندل تحت عقد الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز والغطاء الذهبى لقبر السعادة فوق هذا العقد فالصندل الجديد يوضع من ناحية الرأس الشريف النبوى للقبة التى تحيط بمرقد النبى الجليل.

إخطـار

وليس الصندوق الذى يوضع فيه الصندل هو الصندوق الخاص بوضع المصحف الشريف عليه بل هو الصندوق الذى وضع بجانب أسطوانة السرير فى داخل المقصورة، وإن كان بعض الرواة يروون أن المصحف الشريف الذى يوضع فوق ذلك الصندوق هو المصحف الذى كان فى يد حضرة عثمان بن عفان حين استشهاده، إلا أن هذه الرواية غير صحيحة.

وبناء على قول ابن النجار أو بعض كتب تاريخ المدينة أن ذلك المصحف المنيف هو الذى أرسله الحجاج من الشام وكان قد وضع فوق الصندوق الذى أمامه المصلى؛ لأن مصحف الشهيد عثمان انتقل إلى يد ابنه خالد وظل فى يد أولاده من بعده.

وبناء على القول الذى نقله بعض مشايخ الشام لابن قتيبة أن المصحف المذكور نقل إلى أرض طوس فى فترة ما، كما ادعى الإمام مالك أن البلد الذى يوجد فيه ذلك المصحف غير معروف، مع أن ابن سلام قال: «إننى رأيت فى خزانة بعض الأمراء المصحف الذى تحدث عنه الإمام مالك حتى كان فى بعض أماكنه آثار دم وبهذا أراد أبو جعفر النحاس أن يرد رواية الإمام مالك وادعائه، إلا أن احتمال الحصول على ذلك المصحف المنيف بعد موت الإمام وإرساله إلى المدينة جائز ومن هنا فهناك نظر فى تخريج رواية الإمام مالك، وإن كان فى زماننا ثلاثة مصاحف فى كل من المدينة ومكة المكرمة ومصر وعلى الآية الكريمة:

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

آثار دماء، إلا أن هذه المصاحف ليست المصحف الشريف الذى لطخ بالدم فى أثناء شهادة حضرة عثمان بل أنها مصاحف كتبت تقليداً لذلك المصحف والآية الجليلة لونت بلون أحمر فى لون الدم. وبناء على ذلك فالمصاحف الموجودة سواء أكانت فى المدينة أو مكة أو مصر باسم المصحف العثمانى فهى المصاحف التى أرسلها الحجاج إلى بلاد مختلفة، لأن عند استشهاد عثمان بن عفان كان

يمسك بين يديه مصحفًا واحدًا، وغير هذه المصاحف ففى مسجد السعادة كثير من المصاحف التى كتبت بخط نفيس جميل مزينة مذهبة بأجمل الزينة والتى أرسلت من الملوك والسلاطين، وأصحاب الخير.

وأجزاء لطيفة من القرآن الكريم، ومن ضمن هذه المصاحف مصحف مرسل فى سنة (١٢٥٠) هـ بين المصاحف المرسلة من ملوك الهند كهدية مصحف فى غاية الكبر فى الحجم وحتى يزار عند إهدائه وضع فوق كرسى خاص بجانب باب السلام وأغلق بالقفل من الأعلى، إلا أنه نقل عند التعمير الأخير مع كرسيه إلى المخزن القريب من الباب المذكور، وقد حُررت فى الوجهة الخاصة أسماء مهدى هذا المصحف والمصاحف الأخرى وتاريخ إهدائها وعددها وصفاتها.

الصورة الثانية

ترى وتعرف علامة جهة وجه النبى اللطيف

فى الجهة القبلية من الشبكة الشريفة التى تحيط بحجرة السعادة مسمار ساطع الأنوار من فضة علامة جهة وجه النبى ﷺ هى هذا المسمار الذى يبعد عن الزاوية الغربية قدر خمسة أذرع، وقد بين علماء الأسلاف جهة وجه السعادة قائلين: «كل من يقف تحت القنديل الذى فى مواجهة رأس السعادة واستقبل العمود الرخامى يكون قد توجه إلى الوجه اللطيف النبوى، إلا أن هذا التعريف خاص بوضع الحجرة النبوية قبل الحريق إذ لم يكن حينئذ فى محاذاة وجه السعادة إلا قنديل واحد معلق، وبما أن القناديل كثرت فيما بعد فما كان يعرف أى القناديل المعلقة يلزم الوقوف تحتها. والآن فمن يريد أن يكون فى مواجهة وجه السعادة، يقتضى أن يستقبل العمود الأحمر الرخامى فى محاذاة مسمار الفضة، إن هذا المسمار علامة الوجه الشريف، وقد سقط المسمار المذكور سنة (٧١٠) هـ وخلا المكان منه فترة وبعد عشر سنوات وضع فى مكانه سنة (٧٢٠) هـ. وعندما فرش رخام أرضيته الحجرة المعطرة فى (٢٣٢) نزع المسمار المذكور وعندما تم الفرش وسوى أضيف ثلاثة مسامير فضية أخرى بحيث وضع أحدها فى الجدار القبلى والاثنان فى الجدار الغربى ووضعت الأربعة كلها مرة واحدة فى أماكنها، وللأسف الشديد احترقت المسامير الثلاثة الجديدة وبقى المسمار القديم، وبما أن الشخص الذى كان أمين البناء قد ركب على باب المقصورة قفصًا غليظ الصنع كما كان لا يمكن رؤية المسمار العتيق ولا تشخيص وتمييز مكان مواجهة رأس السعادة، وكان زوار ذلك الوقت يقفون فى الجهة القبلية ويستقبلون قبر السعادة وبِحِسٍّ وجدانى يشيرون إلى جهة المسمار القديم قائلين

إن هذه الجهة هى جهة وجه النبى ﷺ، إلا أن شاهين الشجاعى الذى عين أمينًا للبناء فى عهد السلطان قايتباى المصرى قد بدل قفص المقصورة ذلك بالنحاس وأظهر المسمار المذكور وأبرزه فأبهج زوار مرقد السعادة وملأهم فرحًا وسرورًا. رحمه الله.

فى تعريف مقام جبريل الأمين وتعيينه.

كان مقام جبريل الأمين السامى بجانب مربع القبر الشريف، إن ذلك المسمار الفضى الذى وضع لتعيين المقام الشريف وعلامة خاصة لذلك كان فى انحراف زاوية الجدار الشمالى لمربع الحجرة الشريفة، وفى النهاية سقط ذلك المسمار ولم يوضع فى موضعه مرة أخرى وستر مكانه، من هنا ليست هناك علامة خاصة بمقام جبريل، ويعد هذا المكان ـ بناء على قول ابن جبير ـ من الحجرة المعطرة النبوية، ومن هنا يطلق على الغطاء الذى وضع فوقها مهبط جبريل ـ عليه السلام ـ إذ يدعى أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان ينزل غالبًا فى هذا المكان المقدس باسطًا أجنحته.

اختلف المؤرخون فى وجه تسمية هذا المكان المقدس، وقال بعضهم إن جبريل ـ عليه السلام ـ ظهر فى هذا المكان فى غزوة بنى قريظة، وقال بعضهم تسمى كذلك لقربه من باب جبريل، ومن المحتمل أن باب جبريل كان أولاً متصلاً بهذا المقام الشريف ثم نقل إلى مكانه الأول.

الصورة الرابعة

فرش حجرة السعادة وتعميرها وتجديدها

كان فى الزمن القديم حجر ألصق بالجدار القريب بمربع القبر الجليل، ويروى أن النبى ﷺ كان كلما زار دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان يصلى بجانب ذلك الحجر نظير الجوهرة، وعلى قول آخر أن أمنا فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كانت تؤدى الصلوات الخمسة بجانب ذلك الحجر.

ويروى أن ذلك الموقع اللطيف هو المكان المنيف الذى ولد فيه السبطان المحترمان. وبناء على ذلك كلما أحس الحسين بن عبد الله بجسمه بمرض أو وجع كان يذهب ويحك محل الوجع بذلك الحجر ويحظى بالبرء والشفاء عقب ذلك، ولكن لشدة الأسف عندما فرش داخل الحجرة المعطرة بالرخام ضاع ذلك الحجر ولم يعثر عليه بعد، وفى الأوائل لم يكن فى داخل أو خارج حجرة السعادة فرش رخامى؛ وفى سنة (٢٣٢) هـ وفى عصر المتوكل بالله العباسى فرش داخل الحجرة الشريفة وخارجها بالرخام من قبل إسحاق بن سلمة من كبار معمارى ذلك العصر، وفى سنة ٥٨٤ هـ جدد حجرة السعادة قرب الحريق الأول فى غاية الرصانة والزينة.

ومد جمال الدين المشار إليه حول أطراف الحجرة المقدسة الأربعة جدار فى ارتفاع قامة إنسان من الرخام، ولم يمس أية جهة من الحجرة أحد إلا أنها جددت فى سنة (٨٨١)هـ[1] وسنة (٨٨٧) هـ [2] مرتين على صورة مطلوبة.

وكان الفرش الرخامى سواء أكان فى داخل حجرة السعادة أو خارجها أو الأماكن الأخرى من المسجد الشريف كل هذا فرش بعد الحريق الثانى؛ ولم يكن إلى ذلك الحريق فرش رخامى فى غير مكان المحراب العثمانى، والآن الفرش

(١) كان قبل الحريق الأول.

(٢) كان بعد الحريق الثانى وجدد من قبل الأشرف قايتباى المصرى.

الرخامى على يمينه ويساره، وحولت جميع الأماكن التى بين مآذن الركن الشرقى والغربى والأعمدة التى حول باب السلام والمنبر المنيف والحجرة اللطيفة ومحفل المؤذن إلى أعمدة رخامية، فى أزمنة الظاهر جقمق والسلطان قايتباى المصرى، وإن كان داخل الحجرة المعطرة فى عهد قايتباى المصرى قد فرش بالرخام إلا أن السلطان مراد الرابع قد بدل جميع قطع الرخام تلك بالقيشانى وجدد السلطان عبد الحميد جميع قطع القيشانى التى فرشها السلطان مراد مزينة بقطع أخرى بشكل أجمل.

ينقل عن أحد الذوات الذين قاموا بأنفسهم بتعمير الحرم النبوى الشريف فى العمارة الأخيرة ـ إذ كان من موظفى الحرم النبوى الشريف ـ هذه الحكاية الغريبة: «لما كان السلطان عبد المجيد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ قد أرسل جميع الأشياء اللازمة لفرش حجرة السعادة من باب السعادة وأمر بأن تفرش هذه الأشياء من قبل الأشخاص الذين كسبوا احترام الأرض والذين عرفوا بينهم بالزهد والتقوى ومن هنا فرشها الأشخاص الذين عرفوا بشدة تدينهم وبسماتهم الفاضلة من بين آل المدينة إذْ كان اثنان أو ثلاثة منهم يدخلونها مناوبة».

قال راوى هذه الحكاية الغريبة: «قمت أنا أيضًا بهذه الخدمة المقدسة، وكنت يومًا عجزت عن أن أضع إحدى قطع القيشانى فى مكانها، فأتيت بشمعة وعاينت مكانها، فرأيت أن قطعة القيشانى مزينة مجلاة وكانت خالية من العيوب، فقلبت ظهرها فوجدت أنها محلاة ومصقلة مثل وجهها وقد سطرت فى وسطها عبارة» المست عبد المجيد؛ «فنظرت إلى القطعة فكانت كتلك التى افتقدتها».

ألا فَلْيُنِلْ الله ـ سبحانه وتعالى ـ شفاعة الحبيب الأكرم ذلك السلطان المشار إليه، وإن كانت تلك الحكاية صحيحة يفهم منها مدى حب الملوك العثمانيين لسلطان الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ ولاسيما السلطان عبد المجيد خان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ ومدى إخلاصهم فى هذا الحب، من تلك الحكاية الغريبة.

ذيل

ولما رويت الحكاية الآتية تأييدًا لصحة الرواية الغريبة التى ذكرت فأدرجناها هنا لتوضيح المدعى.

حكاية

قال أحد الذين يثنون على والد السلطان كثير المحامد إنه سمع هذه الحكاية من الكاتب السلطانى الأسبق فريد أفندى ذاتيًا: «قد اعتاد السلطان عبد المجيد خان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ فى مرض موته أن يقرأ المعروضات التى ترسل إليه من الباب العالى فى حجرة نومه وهو مستلق على فراشه، وأن يُضَبَّط أوامره السلطانية، ويومًا ما ظهرت بين المعروضات بعض الأوراق الخاصة بالمدينة المنورة فأمر أن يؤتى بمخدتين توضعان على جانبيه ثم جلس على ركبتيه واضعًا يديه عليهما فى أدب، مع أنه كان عاجزًا عن القيام من الفرش ليقرأ تلك الأوراق حتى غير المهمة منها وأمر رأسًا بإجراء ما يقتضى إجراؤه، ثم غير وضعه وأعيد رأسه إلى الوسادة؛ رحمة الله عليه رحمة واسعة.

فى تعريف ستارة الحجرة المعطرة.

كان جمال الدين الأصفهانى قد صنع حول حجرة السعادة سورا مشبكا من خشب الصندل والأبنوس، كما سبق ذكره فى الصورة الخامسة من الوجهة السابقة، وقد دامت هذه الشبكة الخشبية فترة، وفى سنة ٥٦٦ هـ جهز حسين بن أبى الهيجاء صهر صالح الوزير - من وزراء الملوك المصريين - ستارة من الحرير الأبيض مزركشة وأرسلها إلى المدينة المنورة تتعلق تبركًا فى حجرة السعادة، تحدوه نية خالصة. وبعد استأذن أمير المدينة المنورة قاسم بن مهنى المستضئ بأمر الله العباسى وعلق تلك الستارة فى حجرة السعادة.

كانت تلك الستارة البيضاء منسوجة من الحرير الأحمر والأصفر ومزينة بخرز مختلف الألوان ومطرزة بلآلئ ذات قيمة غالية، وسطرت على حزامها المصنوع من الحرير منسوجًا بالحرير الأحمر سورة يس الشريفة؛ ولما أرسل بعد سنتين من بغداد دار الخلافة ستارة نفيسة أخرى منسوجة بحرير بنفسجى وخيوط ذهبية فأنزلت الستارة التى أرسلت من طرف حسن بن أبى الهيجاء وعلقت الستارة الجديدة. وأرسلت الستارة القديمة إلى مشهد على بن أبى طالب؛ وكانت عبارة المستضئ بالله مكتوبة على الستارة التى أرسلت من بغداد، وكانت هذه الستارة بنفسجية اللون وكانت على أطرافها أطر قد رصت بلآلئ وكتبت على جوانبها أسماء النبى ﷺ، كما أن الناصر لدين الله أرسل ستارة منسوجة من حرير أسود فى أثناء خلافته كما أن والدته أرسلت ستارة أخرى جميلة عقب ذلك، وبما أن هاتين الستارتين علقتا فوق بعضهما فاجتمعت فوق حجرة السعادة ثلاث ستائر فى وقت واحد وظلت حجرة السعادة إلى عصر هارون الرشيد بالستارتين اللتين أهداهما المستضئ بأمر الله والناصر لدين الله، وزار هارون الرشيد مع والدته

الخيزران القبر النبوى الجليل وعلقا على الحجرة الشريفة ستارة نفيسة وأظهرا احترامهما ورعايتهما لهذه الحجرة وذلك فى سنة (١٧٠)هـ.

واشترى الملك الصالح بن الناصر محمد المصرى فى سنة (٧٦٠) هـ ثلاث قرى من قرى مصر المعمورة، وأوقفها بشرط أن يصنع بإيرادها كسوة للحجرة المعطرة والكعبة المعظمة وعلى أن يكون لون هذه الستارة أسود ويشغل بالحرير الأبيض وأن تحاط بإطار مصنوع ومطرز بخيوط ذهبية وأن يحيط طولها وعرضها بحجرة السعادة، وكان يبعث بعد ذلك كل خمس سنوات كسوة للكعبة المعظمة وحجرة السعادة.

وقال تقى الدين الفاسى وزين المراغى من المؤرخين، وترسل كل ست سنوات إلى الحجرة الشريفة ستارة من قماش أسود ويكتب فوق هذه الستارة بعض الآيات الشريفة بحرير أبيض وكانت طرزها (شراشيبها) مصنوعة من خيوط ذهبية (صرمه) وكان حكم الكسوة القديمة فى حكم الكسوة القديمة للكعبة الشريفة وتقسم بين الخدم[1]، ولكنهما قالا بأن الستارة الخاصة بمنبر السعادة يشترط فى صنعها أن تكون بيضاء اللون.

وقد اتخذت عادة إرسال ستائر خضراء فيما بعد إلا أنه قد أرسلت ستائر فى ألوان أخرى حتى إنه قد أرسل فى سنة ١٢٩٧هـ من باب السعادة مع محمل الشام ستارة مطرزة مزينة فى غاية الجمال ذات حزام أحمر، وكان فوق الستارة التى أرسلت من باب السعادة قطعًا مزينة من الأطلس الأحمر كتب فوق كل قطعة اسمًا من أسماء النبى ﷺ واسم المرحوم السلطان عبد المجيد خان وإن كانت هذه الستارة أرسلت فى عهد عبد العزيز خان وأهديت؛ إلا أنها كانت قد صنعت فى عهد السلطان عبد المجيد المميز بالبر والخير، والآن ترسل ستائر غير ستارة قبر السعادة، إلى تابوت فاطمة ومحاريب القبلة الثلاثة وباب مئذنة جدار القبلة الرئيسى ومقام جبريل والألوان الخمسة.

(١) بما أن بحث تقسيم الكسوة قد ذكر بدقة مفصلاً فى صورة بيان جواز تقسيم الكسوة من (مرآة مكة المكرمة) نوصى الذين يريدون أن يقفوا على ذلك أن يطالعوا ذلك الكتاب.

وكلها فى شكل واحد عام، كما أن هذه الأقمشة يطلق عليها بين الأهالى ستارة تعلق فى أماكنها من أول رجب إلى نهايته ومن عشرين ذي القعدة إلى عشرين من محرم الحرام وفى غير هذه المواسم تحفظ فى دواليب حجرة السعادة.

وفى كل جهة من جهات الحجرة المعطرة ولاسيما على أبوابها وعلى المنبر المنير النبوى ستائر وتعليق هذه الستائر خاصة بالأيام التى ذكرت، وكل هذه الستائر من قماش أطلس أخضر وعليه خطوط جميلة وأزهار مرسومة.

أصول تعليق ستارة قبر السعادة وتجديدها

والقاعدة تغيير ستارة حجرة السعادة كل ثلاثين عامًا أو أربعين عاما وعندما يراد تعليق الستارة الجديدة يصعد فوق مربع قبر السعادة لامع الأنوار من السلم الملاصق لأعمدة الجدار الذى تحت الستارة القديمة والذى أقامه عمر بن عبد العزيز ويربطون حبال الستارة الجديدة بالحلقان الخاصة لتعليق الستائر ويحلون حبال الستارة القديمة ويعلقون الستارة الجديدة فى محلها الخاص وينزلون الستارة القديمة.

وعندما يراد إنزال الستارة القديمة يقف الشخص الذى صعد فوق الجدار ليربط حبال الستارة الجديدة على أرض الحجرة وينتظر بجانب الطرف الشامى من الشبكة السعيدة، فتؤخذ الستارة القديمة على الأرض من حيث يقف هذا الشخص رويدًا رويدًا.

ومن العادات القديمة المرعية أن يكون الشخص الذى يصعد فوق جدار مربع قبر السعادة الذى تحت الستارة القديمة وكذلك الشخص الذى يكلف بالصعود فوق الجدار الشريف لإنزال الستارة القديمة أن يكونا من أغوات حجرة السعادة المسنين والمعروفين بالصلاح، ولا يخرج هذان الشخصان من حجرة السعادة قبل أن يكنسا التراب المتراكم بين قبر السعادة والستارة القديمة منذ أعوام طويلة.

الجوهر الشريف ـ الجوهر الشريف يطلق على التراب الذى يخرج من كناسة ما بين قبر السعادة والستارة القديمة بين الأرض ولما كان هذا التراب قد جاور مربع

قبر السعادة ما يقرب من ثلاثين عاما أو أربعين عاما ومن هنا اكتسب التوقير والقداسة.

وكل من ينال شرف هذه الخدمة التى تدعو إلى الفخر من أغوات الحرم يشترون ثلاثة أو أربعة من العبيد ويحررونهم، وإن كان من يحرر أكثر من هؤلاء فالذين لا يستطيعون ذلك يذبحون ثلاثة أو أربعة قرابين ويتصدقون بلحمها.

تعريف حجرة السعادة بالإجمال ـ قد عرفت الحجرة المعطرة بالتفصيل فى الوجهة الخاصة بها. إلا أن هذا التفصيل لم يكن بشكل متسلسل بل كتب كل ما جاءت المناسبة، لذلك استصوبنا إضافة بند خاص بعنوان (تعريف حجرة السعادة مجملاً) متذكرين لزوم تعريف الحجرة المعطرة بحيث يفهمها كل فرد فهمًا جيداً.

الحجرة المعطرة ـ هى دار أمنا السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لما كان النبى ﷺ قد ارتحل فى داخل هذه الدار السعيدة عن الدنيا كان قد دفن فى المحل الذى فيه قبضت روحه الشريفة.

وأحاط عمر الفاروق هذه الدار حتى يحافظ على هيئتها الأصلية بجدار، ومد عمر بن عبد العزيز خارج جدار عمر بن الخطاب جداراً آخر، ولكن حتى لا يكون على شكل الكعبة المعظمة ذات أربع زوايا دبب الجهة التى تقع ناحية الساحة الرملية لمسجد السعادة على شكل مثلث؛ وبنى فوق سقفه قبة غاية فى الصغر وأطلق على هذه القبة قبة الحجرة، قبة النور وعلى القبة الكبيرة التى فوق هذه القبة الخضراء والكسوة الشريفة التى ترسل من قبل الملوك إلى قبر السعادة تغرس فوق تلك القبة الصغيرة.

وقد مد فيما بعد حول حجرة السعادة قفص ويطلق على هذا القفص شبكة السعادة وفى داخل شبكة السعادة ستارة خضراء وفى خارجها ستائر ذات أهداب من خيوط ذهبية وفى غاية الجمال والزينة وتطلق عليها ستارة والستائر الخضراء تعلق من عند العقود التى تحمل القبة الخضراء.

وشبكة السعادة مصنوعة من حديد عادى ومدهون باللون الأخضر وتتكون من الشبكة ودار السيدة عائشة. التى هى مربع قبر السعادة أى ما بين الجدران

الأربعة يطلق عليه الحجرة المعطرة ولكنها فى الأصل داخل دار السيدة عائشة. ويقال للجهة القبلية من شبكة السعادة المواجهة الشريفة وعلى جهتها الغربية قدم السعادة وعلى جهتها الشرقية الروضة المطهرة على طرفها الشامى دار فاطمة السعيدة وقد نسجت فوق شبكة المواجهة بسلك أصفر شبكات صغيرة وكتبت فوق كل واحدة من هذه الشبكات عبارة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، سيدنا محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

وتطلق على الأبواب التى فى الجهة الشرقية من شبكة حجرة السعادة والغربية والشامية أبواب الحجرة ومفاتيحها من الفضة.

لا يستطيع أحد أن يدخل فى حجرة السعادة غير أغوات الحرم الشريف، إلا أن من يريدون أن يزوروا النبى ﷺ من داخل الشبكة يستطيعون أن يدخلوا مع الأغوات الذين يدخلون داخل الشبكة قبل عشرين دقيقة من صلاة المغرب لإيقاد القناديل.

ولا يستطيع أن يعرف ما بين الكسوة الشريفة والجدار الذى مده عمر بن عبد العزيز لا أغوات الحرم الشريف ولا أى شخص آخر، لأنه لا يوجد بين هذا الجدار والجدار الذى سبق تعريفه آنفا منفذ من باب أو نافذة غير تلك القبة الصغيرة التى سبق ذكرها، إلا أنه فتح ثقب صغير لتلك القبة فوق محاذاة قبر السعادة وحتى يمنع دخول الحمام أو الحيوانات الأخرى أو سقوطها قد سد بقفص منسوج بالسلك.

وبناء على بعض الروايات أن قبة النور داخل هذا الثقب؛ والغاية من فتح هذا الثقب ألا يترك حائل بين مرقد السعادة والسماء وحتى يؤمن هذا الأمر فتح منفذ آخر للقبة الخضراء فى محاذاة ذلك الثقب وعندما تكون الشمس المنيرة فى وسط النهار تدخل أشعتها إلى منفذ القبة الخضراء بين هذا المنفذ إلى منفذ قبة الحجرة ومن هنا ينشر الضوء فوق قبر السعادة وينير داخل مربع قبر السعادة، ولما كان المطر ينزل كان ولابد أن ينزل فوق قبر السعادة.

والفرجة التى بين شبكة السعادة وبيت فاطمة قد فرشت بالرخام والجهة العليا من هذه الفرجة حصرت لتعليق الأشياء التى يتبرك بها.

بين حجرة السعادة ودار السيدة فاطمة شبكة حديدية وفى هذه الشبكة باب صغير تدخل منه الشمعدانات التى اتخذ إدخالها إلى حجرة السعادة ليلاً عادة، وهى من الذهب.

لحجرة السعادة مائة قنديل ذات سلاسل ذهبية وفضية كما أن حول مرقد فاطمة أربعون قنديلاً ذات سلاسل ذهبية وفضية وهذه القناديل توقد كل ليلة؛ الكسوة التى فوق مرقد السيدة فاطمة هى كنفس الكسوة التى فى حجرة السعادة والأعلام التى ركزت على طرفى المزار الشريف قد زينت ورصعت بمجوهرات متنوعة، وهذه الأعلام قد أهديت من قبل والدة السلطان عبد العزيز ـ أسكنه الله فسيح جناته.

فى تعريف صورة تخليق[1] حجرة السعادة.

ذهبت والدة هارون الرشيد من خلفاء بنى العباس السيدة خيزران إلى الحجاز سنة (١٧٠) هـ وذلك بنية أداء فريضة الحج وهى محرمة وعند عودتها مرت بالمدينة وتسمى مؤنسة حتى تشرف على ذلك العمل.

وكانت مؤنسة تلك قد وضعت نظامًا معينًا لتخليق قبر السعادة وأسطوانة التوبة، وعلامة مصلى النبى ﷺ بناء على التعليمات التى وجهت إليها.

وقال إبراهيم بن فضل من صلحاء العصر لمؤنسة (إنك أبدعت قاعدة لم تر من قبل، وهذا شىء لا احتمال لنا بقبوله!!!) وأراد بهذا أن يمنع استمرار هذا النظام، إلا أن المشار إليها قالت له: هذا العمل ليس من رأيى، مادامت والدة الخليفة ترغب فى ذلك فلابد من أن نستمر فى ذلك، وبهذه الإجابة ردت ما عارضه إبراهيم بن فضل ومع هذا فقد تركت هذه القاعدة بعد مرور بعض الوقت.

(١) تركيب رائحة طيبة من الزعفران والمسك وصندل يقال له خلوق واستعمال هذا التركيب يقال له تخليق.

فى بيان وتعريف قناديل الحجرة الشريفة.

لا يعرف مهدى القناديل الذهبية والفضية ووقت إهدائها وتعليقها لمسجد السعادة والحجرة المعطرة، وقال: ابن النجار بعد أن أجرى التدقيقات التامة وهو يبين ويعرف عدد تلك القناديل وأنواعها وأماكن تعليقها.

كان فى صدر الإسلام بين شبكة الحجرة المنيفة والجدار القبلى للمسجد الشريف[1] أكثر من أربعين قنديلا معلقا على سقف المسجد الشريف، وكان بعض هذه القناديل من الذهب والأخرى مصنوعة من الفضة وكان بعضها كبيراً وكان بعضها فى حجم صغير وكانت أهديت من قبل حكام الزمان والأصدقاء المخلصين. وكان أحد هذه القناديل مصنوعًا من البلور والآخر من الذهب كانا ثريتين فى غاية من الجمال وكان مرغوبًا فيهما لعدم وجود مثيل لهما فى ذلك العصر، وفيما بعد زادت رغبة أهل الإيمان فى إهداء القناديل إلى الحجرة المعطرة وزادت القناديل التى وردت حتى ضاقت الحجرة النبوية بها حتى لم يَبْقَ مكان فى داخلها لتعليق القناديل فيها.

وحينما رأى السادة وموظفو الحكومة أن الهدايا ترد واحدة تلو أخرى ولم يبق فى داخل حجرة السعادة مكان لتعليق القناديل، عندها أخذوا يخرجون القناديل القديمة فى قبة المسجد الشريف، والهدايا التى أرسلت فى خلال سنة (٨١٠) هـ زادت إلى حد أنه إذا سرقت إحداها فلا يعرف الشىء المسروق أى وصلت الهدايا المرسلة بحيث تزيد على العد والإحصاء، ومن هنا رأى المشار إليهم من أصحاب الرأى حفظ هذه القناديل فى داخل الصناديق المعدة لها حتى يحموها من سرقة عربان البادية الذين يردون فى مواسم الحج على أن يخرجوها فى الليالى المباركة

(١) وكان هذا المكان مواجهة السعادة، وهو المحل الذي يقف فيه زوار قبر السعادة.

لإيقادها مناوبة، ولكن حدث فى الوقت الذى قرر تنفيذ القرار السابق أن الشريف حسين بن عجلان الحسينى الذى عين لإمارة الحجاز من قبل ملك مصر الناصر فرج لبعض الأسباب عزل والى المدينة حجاز بن هبة الحجاز بن منصور الحسينى ونصب مكانه ثابت بن نصير المنصورى واليًا وعينه، إلا أن ثابت بن نصير مات قبل الوصول إلى المدينة، وعرف حجاز بن هبة الحجاز، أنه سيعين مكان ثابت بن نصير المتوفى شخص آخر بعزله، فأظهر عصيانه وضم إلى تبعيته بعض العربان الجهلة الحمقى وداس على شرف الإسلام ونهب منازل أعيان المدينة وسادتها بإغراء كلاب العربان ونباحهم.

واستولوا على القناديل الذهبية والفضية التى فى داخل مسجد السعادة والتى توضع بعد فى الصناديق المعدة لذلك وبهذه الطريقة أعلنوا عن عداوتهم وأظهروا شقاوتهم. هل أكتفى حجاز بن هبة بهذا القدر من الشقاوة واقتنع بها؟!! لا ـ وبعد هذه الوقاحة والسفالة أحضر سلمًا خاصًا لإنزال القناديل المعلقة وستارة مرقد السعادة الثمينة ولكنه لم يوفق فى ذلك وأخذ ستائر أبواب الحجرة المعطرة التى فى الخزانة النبوية وهرب من المدينة المنورة سنة (٨١١)هـ.

وإن كانت الحكومة المصرية استطاعت أن تقبض على السافل حجاز بن هبة بعد سنتين وقتلته إلا أن ذلك الخائن لم يكشف عن الأماكن التى دفن فيها الأشياء المنهوبة سواء أكان وقت عصيانه أو وقت استجوابه ومن هنا لم يخرج شىء منها إلى حيز الوجود.

والأشياء التى نهبها حجاز بن هبة الحجاز من مسجد السعادة صندوقان ذهبيان، خزانة صغيرة ذات درجين المملوءة بالذهب، وقناديل من الفضة تزن سبعة عشر قنطارا و٧٤٨٥ درهمًا.

وتراكمت كثير من الهدايا فى خزينة حجرة السعادة بعد هذه الواقعة الأليمة إلى سنة (٨٢٤) الهجرية فى ظرف ثلاث عشرة سنة إلا أن عزيز بن هبازع الذى كان واليا فى خلال تلك السنة استولى على هذه الهدايا قائلاً: «فلتبق هذه

الأشياء عندى على طريق الأمانة ولم يبق شيئًا سواء أكان فى الحجرة المقدسة أو الخزانة النبوية، وسيق عزيز بن هبازع تحت الحراسة إلى مصر بناء على إخبار بعض الذوات من السادات، وفى أثناء الاستجواب والتعذيب لم يؤخذ منه شىء. مع أنه قد ثبت بأدلة قاطعة أنه استولى على تلك الأشياء الثمينة وبناء على ذلك ظل مسجونا إلى أن توفى.

ومن سنة ٨٢٤ هـ إلى سنة ٨٦٠ هـ لم يمد أحد يد الإساءة والعدوان إلى ما أهدى إلى حجرة السعادة من قناديل ذهبية أو فضية، وفى خلال ٨٦٠ هـ مضى إلى المدينة المنورة شخصان بقصد زيارة المرقد الجليل وهما دبوس بن سعد الحسينى الطفيلى وبرغوث بن ثبير بن جريس الحسينى، إن هذين الخبيثين قد مدا نظرهما بالطمع إلى القناديل المعلقة فى حجرة السعادة، وفى الليلة السابعة والعشرين من ذى الحجة من سنة ٨٦٠ هـ دخلا فى الدار التى يطلق عليها «دار شباك»[1] وعرجا من هناك إلى جدار مسجد السعادة ودخلا من تحت الطنف داخل المسجد الشريف طمعًا فى سرقة قناديل قيمة وذلك بأخذ قنديل من بين كل قنديلين، وبما أن القناديل كانت كثيرة ومعلقة ملاصقة بعضها لبعض لم يحس أحد لمدة طويلة أن القناديل سرقت من مسجد السعادة وأخيرًا فهم الأمر وقبض على الرجلين وأخذ ما فى أيديهم من قناديل وقتلوهما جزاء وفاقا.

غريبة

عندما سرق برغوث المنحوس قناديل مسجد السعادة هرب إلى ينبع ولما عرف ذلك كتب إلى مديرية ينبع البحر وألقى القبض عليه وألقى فى السجن إن هذا الشخص أليف الشقاوة هرب من سجن ينبع البحر وعاد إلى المدينة وحرص على أن يختفى فى مكان خفى.

إلا أن محل اختفائه أبلغ إلى الحكومة فقبض عليه وأخذت القناديل التى تحت

(١) إن ساحة سبيل المدرسة الشرقية الملاصقة لباب الرحمة كانت فى ذلك الوقت مكان «دار شباك» وكان هذا المنزل فى اتصال سقف مسجد السعادة وكانت دارا غير مسكونة.

يده ثم أرسل إلى دار البوار، وعندما ألقى السارق المذكور إلى السجن فى المدينة المنورة لاستجوابه سأله أحد المسجونين يا برغوث! بينما نجوت هاربا من سجن ينبع البحر ما سبب مجيئك إلى المدينة؟

فأجابه قائلا فى الواقع هذا سؤال وجيه مع أننى حينما هربت من سجن ينبع البحر وأردت أن ألجأ إلى الجبال كلما اتجهت إلى جهة ما قوبلت بسد حديدى سديد أمامى، كأن هناك من يدفعنى ناحية المدينة المنورة ويشوقنى للذهاب إليها وكلما توجهت ناحية المدينة أحسست فى قلبى انشراحا عجيبا، إننى لم آت هنا طلبا للمدينة ولم أتوجه أبدا ناحية طريق المدينة وللأسف الشديد وجدت نفسى وأنا أجول هنا وهناك، فى داخل حصن المدينة فاضطررت لأن أختفى فى جهة ما وأنا نفسى متحير فى الموضوع. انتهى.

وقد رأى شمس الدين زين الذى أرسل إلى المدينة المنورة من مصر مسندا إليه مهمة إمارة البناء قبل الحريق الثانى أن القناديل الذهبية والفضية قد كثرت فى مسجد السعادة وأن اللصوص يسرقونها كلما وجدوا فرصة سانحة أن يرسل القناديل التى تفيض عن الحاجة إلى مصر القاهرة لتذاب هناك وتضرب سككا لإنفاقها فى تجديد وتعمير مبانى مسجد السعادة وعرض ذلك على السلطان قايتباى المصرى وأعلمه وقد حازت تلك الفكرة من القبول لدى الحكومة المصرية وكتبت إلى والى ولاية المدينة بعمل ما يقتضى إجراؤه ومنها جمع كل ما أهدى إلى حجرة السعادة من الأشياء الثمينة ما عدا الستائر المهداة من قبل الملوك العلية واللوحة المرصعة والمزينة بالجواهر المعلقة على جدار ضريح السعادة وإرسالها إلى خزانة مصر فى سنة (٨٨٤) هـ.

وأنفق ما ضرب من المسكوكات فى تعمير الأبنية السعيدة، إلا أنهم ـ فى رأى ـ خالفوا أحكام الشريعة الإسلامية الغراء لأن الإمام السبكى يقول فى كتابه «تنزيل السكينة على قناديل المدينة»: «يجوز إهداء القناديل القيمة إلى حجرة السعادة وتعليقها إلا أن استيلاء الحكومة عليها لصرف قيمتها إلى مسجد السعادة غير جائز».

يدعى بعض المؤرخين بناء على ما تلقوه من المنابع الموثوقة من الأدلة المروية أنه عندما أخرجت تلك القناديل من خزانة حجرة السعادة قد احتفظ أحد المشايخ من مشايخ الحرم النبوى المرعى الخاطر ببعض تلك المعاليق وأنفقها فى وجوه البر والخير. وبعد عهد شمس بن زمن اتخذ ملوك الزمان مرة عادة إهداء الهدايا إلى حجرة السعادة ومن هذا القبيل ما أرسله إلى المدينة المنورة ناصر بن محمد بن قلاوون المصرى فى زمن سلطنته قنديلا فى غاية الجمال فى الصنع وفى الزينة ليعلق فى وسط قبة حجرة السعادة.

وفعلا علق ذلك القنديل وفق رأى ذلك الملك وتصويبه فى قبة الحجرة المسعودة ثم علق فى مكان مقابل محراب النبى بناء على استئذان شيخ الحرم شاهين جمالى بعد فترة.

كان ذلك القنديل الذى لا مثيل له قد صنع من صلب مذهب مزينا فى غاية الزينة وكتب على أطرافه دائرا ما دار قد جاء بهذا القنديل محمد بن قلاوون وعلقه وكلما أوقد كان يصدر من صقل صنعه نور مشع كأنه مصباح مصنوع من الجوهر وكان يغشى داخل حرم السعادة بأمواج الأنوار.

وإن كانت القناديل التى قدمت بعد ناصر بن قلاوون لا يعرف من أهداها ولا تاريخ إهدائها إلا أنه فى عصر الإمام السمهودى كان فى الحجرة المعطرة ثلاثون قنديلا من ذهب والباقى من الفضة ويبلغ عدد القناديل الكلية إلى ثلاثمائة خمسة وسبعين قنديلا وكان ثقل القناديل الفضية ستة وأربعين ألفا وأربعمائة ألف درهم، وورد فوق هذا فى سنة (٨٦٧) هـ ذهبا فى ثقل (١١٥٥) درهم ذهبا فى ثقل (٨٨٥) درهم فضة، ومن سنة (٨٦٢) إلى سنة (٨٦٩) ذهب فى ثقل (٢٢٥) درهم وقناديل فضية فى ثقل (١٢٧٥) درهما كما ورد فى سنة ثمانمائة إحدى وثلاثين (٤٢) درهما ذهبا و(٩٥٠) درهما من الفضة وبعده بسنة (١١٥٥) درهما فضة وفى ثمانمائة ثلاثة وثمانين ورد (٢٠) درهما ذهبا و(١١١٣) درهما

من الفضة وفى سنة ثمانمائة أربع وثمانين أيضًا (٧٤٥) درهمًا من قنديل فضى وفى ظرف هذه المدة أرسلت (١٣٠٠٠) قطعة عملة ذهبية وظل مهدى هذه المبالغ مجهولا فى نظر التاريخ ويا للأسف!! أن أمير المدينة حسن بن الزبير بن المنصور قام فى سنة (٩٠١) هـ ضد شريف مكة محمد بن بركات وأعد بعض المجرمين المسلحين فى السادس من ربيع الأول من نفس السنة وفى وقت الظهر دخل الحرم الشريف وقد أعد أدوات الحفر مثل الفأس والمجرفة وكسر باب خزانة حجرة السعادة ونهب جميع تلك الأشياء الثمينة كما أخذ مبلغ (١٣٠٠٠) المحفوظ فى الخزانة لصرفه على لوازم مسجد السعادة وانسحب إلى قلعته التى تسمى حصن الأمير ومعه تلك الأموال وأحضر الصياغ من السوق وأذاب جميع القناديل المصنوعة من الذهب والفضة.

وأدخل حسن بن الزبير كثيرا من أراذل الناس فى الحرم الشريف لينهبوا الخزانة النبوية وحملهم ما اغتصبه من القناديل كما حمل حصانين وبغلا بما اغتصبه ولما كان قد بقى تسعة أجولة من الفضة جاء بالحمالين من السوق وحملهم بها، هذا ما يروون.

قد جمع بعد هذا الحادث الحزين كثيرا من الأشياء النفيسة تزيد على العد والإحصاء فى حجرة السعادة وقد ذهب أكثر هذه الأشياء فى فتنة (١٠٩٩) وذلك بسبب إساءة محافظ جدة فى ذلك الوقت محمد بك أبو الشوارب.

لأن الشريف أحمد بن زيد الذى نال منصب الإمارة الجليلة فى عصر السلطان أحمد خان الثانى ابن السلطان إبراهيم مرض فى سنة (١٠٩٩) هـ واستدعى أشراف مكة قبل وفاته ووصاهم بأن ينصبوا نائبا له باتفاقهم قبل أن يرد الأمر من السلطان بذلك وأن يبذلوا جهودهم لحفظ حوالى الحجاز وحراسته بهذه الطريقة، ونصب محافظ جدة أبو الشوارب نائبا قبل أن ترد الإرادة السنية من باب السعادة وذلك باتفاق الأشراف ووصية الشريف أحمد بن زيد.

وأخذ ـ ليس من الشريف الذى بعث الأهالى طلبا إلى باب السعادة يرشحونه

لمنصب الإمارة متحدثين عن صلاحيته واستحقاقه للإمارة وتنصيبه شريفا، بل من خصمه الذى يناصبه العداء وهو الشريف أحمد بن غالب كثيرا من الأموال وقدم بعض ما أخذه من النقود الذهبية لأعيان مصر راجيا منهم أن يعملوا على إرسال الأمر العالى بإمارة الحجاز باسم أحمد بن غالب، وحتى لا يطلع الأشراف على هذا الأمر وكيفية سير الأمور أبرز أمر سلطانى مزيف وهرب الشريف القائم مقام (النائب) إلى اليمن وهكذا قد حصل الشريف أحمد بن غالب على منصب الإمارة قبل أن يرد الأمر السلطانى بذلك وأخذ يمد يده إلى أموال الأهالى بحرص شديد وتكتم فاستولى على جميع أموال التجار من سكان مكة المكرمة المجاورين وقتل كثيرين منهم فأخافهم، أرسل رسله إلى المدينة المنورة واغتصب كثيرا من النقود والمجوهرات عن طريق القرض، ثم هرب إلى البلاد العثمانية حتى ينجو من سطوة السلطان القاهرة.

أخذ الشريف أحمد بن غالب فى هذه الواقعة واغتصب كل ما جمع فى الخزانة النبوية من أشياء غالية نفيسة والمعاليق كلها، إلا أنه لم يستطع أن يمد يده للوحة الكوكب الدرى التى كان قدمها السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد خان الرابع بعد أن نظمها.

إن الجوهر الذى يلمع ليلا والذى يشتهر بالكوكب الدرى ظل ماكثا من سنين طويلة فى الناحية التى تواجه الوجه النبوى الكريم من جدار ضريح السعادة لامع الأنوار فجلبه السلطان المشار إليه إلى خزانته على وجه التبرك وأرسل مكانه لوحة ذات جوهر منير.

كان السلطان أحمد خان الثالث أضاف إلى اللوحة المرصعة قطعة كبيرة من الماس، وكانت هذه القطعة من الماس بشدة لمعانها تملأ الجدار بالنور والضياء ومن هنا أطلق عليها (شب چراغ) أى منير الليل وكانت قد اشتريت فى عصر والد السلطان محمد خان الثالث بخمسين ألف دينار خالص العيار وقد أهداها بعد أن وضعها فوق لوحة ذهبية وزين أطرافها (٢٢٧) قطعة ذى قيمة من قطع ما سبق

لتعليقها مكان الكوكب الدرى وهو يقول بدلا ما تكون زينة الدنيا الزائلة أى بدلا ما يصنع منها فصا لخاتم يلبسه على إصبع أخرى أن تكون زادًا للآخرة وذخيرة عافية وكان قد أرسلها مع حسن باشا الذى كلفه توصيل ميزاب الرحمة وأشياء أخرى لبيت الله.

وأكمل حسن باشا مهمته الخاصة بمكة المعظمة أوصل تلك اللوحة المرصعة نادرة المثال إلى دار الهجرة النبوية ووضعها على جدار المرقد النبوى ساطع الأنوار وقلع الجوهر والكوكب الدرى، الذى اكتسب قيمته بوجوده فى ذلك المحل ذو المكانة العالية واكتسب شرفًا بقطع النظر عن قيمته المادية التى لا تدانى اللوحة المشار إليها وحمله إلى باب السعادة وأتى به.

وقد نقل مؤرخو الإسلام كل واحد منهم طريقا خاصا به ولكن أصح الروايات فيما بينهم رواية مؤلف «نزهة الناظرين» إذ قال والكوكب الدرى، قطعة من الماس الفاخرة وأصغر قليلا من بيض الحمام، وتحتها قطعة من الماس الأخرى وإن هذه الأخرى أكبر من الجوهرة التى فوقها، ويقدرون قيمة الكبيرة منها بثمانين ألف قطعة ذهبية.

قال العلامة الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى فى كتابه «كانوا وضعوا الكوكب الدرى مكان المسمار الفضى أى وضعوه فى محاذاة مواجهة السعادة، كان المسمار المذكور مزينا بالذهب وكان فوق رخام أحمر اللون وكان يقال لهذا الرخام الكوكب الدرى أيضا والمسافة بين هذا الرخام والمبدأ الغربى لحجرة السعادة خمسة أذرع وكل من يستقبل هذا الكوكب يكون قد اتجه نحو وجه السعادة والذين يريدون أن يعرضوا على النبى صلوات كباقات الورد ويريدون أن يقفوا فى هذا المكان عليهم أن يتخذوا الكوكب المذكور أمامهم، وما من مؤرخ أنكر أن هذا المكان يحاذى وجه السعادة إلا أن الشبكة التى مدت حول الحجرة الشريفة حالت دون رؤية ذلك المكان».

والآن إذا وقف أمام المصراع الأيمن لباب الشبكة الذى يسمى باب التوبة، نكون قد وجدنا فى مكان يحاذى وجه السعادة.

وكان السلطان مراد بن السلطان أحمد خان بعث مع السلحدار مصطفى باشا فى سنة ألف وأربعين لوحة مزينة، وبما أن هذه اللوحة كانت مزينة بجواهر متنوعة علقت تحت الكوكب الدرى أى على جدار ضريح السعادة، وفى سنة ١١٥٤ جاء إلى المدينة مشير جيش بلغراد على بن عبدى باشا وهو أمير حاج لمحمل الشام، وقدم المذكور عدة قطع جواهر مرصعة من جملة غنائم بلغراد إلى حجرة السعادة وعلقوا تلك الجواهر تحت اللوحة التى وردت فى تاريخ ١٠٤٠. وكان قد كتب على هذه اللوحة التى وضعت عليها تلك الجواهر أسماء النبى ﷺ وكريمته فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وأسماء أصحابه الأربع المختارين الشريفة ـ رضى الله عنهم ـ.

وإنه مما لاشك فيه أن حجرة سيد الأنبياء ـ عليه ألمع التحايا ـ المعطرة من أسباب الاحتشامات الإضافية أى أن المرقد النبوى السعيد ذا نور باهر لا يحتاج إلى تزينه بالذهب والنقود إلا أن غرض المرحوم السلطان الذى اعتاد على الإخلاص أن يوقف إلى الحجرة المعطرة أثرًا يكفى ثمنه لتعمير وتجديد مبانى الحرمين الشريفين فلا أحوجنا الله لذلك. انتهى.

وعرض على حجرة السعادة بعد واقعة الشريف أحمد بن غالب من قبل الملوك العثمانيين أيضا هدايا كثيرة وقدمت حتى إن السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى خان الثانى أهدى فى سنة ١١٦٢هـ مائدتين مزينتين بالذهب وعدد من الشمعدانات الذهبية وثريا ذكر شكلها وهيئتها فى الوجهة الحادية عشر والصورة الثالثة منها ثريا لا مثيل لها.

وقد قدم فيما بعد من قبل السلاطين الآخرين كثير من التحف النفيسة النادرة وكثير من ثريات مرصعة ذات سلاسل ذهبية وشمعدانات ذات جواهر وكثير من سلاسل مرصعة لتعليق الثريات فزينت سواء أكان ضريح السعادة أو خزانة حرم

الرسالة حتى صارت فى غاية الروعة وبهذا قد تراكمت فى الحجرة المنورة ذات الفيوضات الباهرة أشياء نفيسة وثمنية أكثر من العصور السابقة.

وكان فى خدمة الحجرة الطاهرة ضابط يسمى «مستلم» مكلف بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من النفائس التى سُرِقت من دار السكينة وقام ذلك الشخص بمهمته وأنقذ بعض ما يمكن إنقاذه، وبعث السلطان محمود رسولاً خاصًا لجلب ما أضير من قطعتين من الثريا المرصعتين بالزمرد والجوهر إلى إستانبول وبعد تعميرهما أعادهما إلى موقعهما المحترمين كما أرسل معهما ثلاث قطع من الثريا نفيسة من عنده دليلاً على مناقبه العالية.

وكانت إحدى الثريتين اللتين بعثهما السلطان محمود بعد صنعها مرصعة بماسة عريضة على مينا زرقاء وبنية ومزينة بالطغراء ذات سلسلة ذهبية وطرة على شكل بيض النعامة والأخرى قد رصعت من قطع الماس فوق الذهب وذات قطع ثلاث من الزمرد وذات طرة لؤلئى وسلسلة ذهبية.

ولها أرضية مصنوعة من قطعة واحدة من زمرد حتى يعلق عليها وأعلاها مرصع بالماس والياقوت على شكل غطاء علبة وذات تعليقه على شكل تاج، وكانت الثالثة على أرضية من مينا بنفسجى وعليها قطع مصنوعة من ماس «روزة» ذات سلسلة ذهبية وطرة لؤلؤية وعلى شكل بيض النعامة.

ولما كانت تلك الثريات غاية فى النفاسة والقيمة استقبلت فى حين وصولها إلى مدينة الرسول بتعظيم كامل وتفخيم وتبجيل وعلقت فى الأماكن المناسبة، كما أهدى فيما بعد السلطان عبد المجيد خان زوجا من شمعدان مرصعتين بالذهب وذات سمات ملكية تليق بالخليفة.

وهذه الأشياء سواء أكانت القناديل والثريات أو ما أرسل من طرف السلطان مراد الرابع والسلطان أحمد خان ـ عليهم الرحمة والغفران ـ من القناديل الذهبية والشمعدانات أو ما أرسله السلطان عبد المجيد خان والسلطان الحالى صاحب المفاخر من شمعدانات مرصعة من الذهب والفضة وأشياء أخرى ذات قيمة

موجودة كلها فى الخزانة النبوية، وتوقد بالمناوبة فى الحجرة المعطرة بصاحب الرسالة. وعلى كل حال فقد كتب عن مقدار هذه الأشياء وكميتها، وأنواعها وأجناسها فى صور الوجهة التاسعة كل واحد على حدة.

وإن كان مؤلف «نزهة الناظر» يذكر أن الكوكب الدرى الذى أخذ أهدى إلى شاه إيران وأرسله هذا بدوره بعد مدة إلى حجرة السعادة وفى زماننا تحت قباب مسجد السعادة ستمائة وعشرون قنديلاً غير قناديل الحجرة المعطرة، وسلاسل المعلقة منها فى الجهة القبلية من الجدار من فضة خالصة، وما علق منها فى الجهات الأخرى سلاسلها من النحاس الأصفر وبين أعمدة شبكة حجرة السعادة مائة قنديل وستة والقناديل التى فى مواجهة القبر عددها واحد وثلاثون ومرصعة وقد علقت بسلاسل بعضها ذهب خالص والبقية بسلاسل فضية.

وما علق على يمين ويسار السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ من قناديل ذات سلاسل فضية تدخل هذا الصف.

والشمعدانات الذهبية التى أهديت من قبل والد الخليفة كثير المحامد فى سنة (١٢٧٤) هـ تدخل كل ليلة قبل صلاة المغرب إلى حجرة السعادة وتوقد مناوبة من قبل شيخ الحرم ونائبه ومدير الخزانة، وينحصر إيقادها فى ليالى الجمع لقضاة المدينة، وتظل تلك الشمعدانات موقدة حتى الصباح فى الوجهة الشريفة وفى وقت السحر تخرج بواسطة الخدم وتوضع فى المخزن الذى يتصل بحجرة الأغوات وغير هذه القناديل كثير من الثريات وسواء أكانت هذه أو بعض القناديل المزينة معلقة فى حرم السعادة وبعضها محفوظة فى المخازن.

وتطلق على الثريات والقناديل المزينة المعلقة فى اصطلاح أهل المدينة (زينة الحرم)، ومن جملة ذلك ما علق فى وسط القباب التى من باب السلام إلى مواجهة السعادة من ثريات، يُوقد كل ليلة فى كل ثريا خمس شموع أو قنديل هذه قاعدة متبعة. وقد زين مسجد السعادة فى صورة كاملة وذلك بتعليق ثريا ذات أربعين شمعة فى قبة المحراب العثمانى وفى أسفل منها ثريا ذات ثلاثين

شمعة وفى محاذاة المواجهة الشريفة وفى جهة قدم السعادة ثريات متعددة من الفضة والفوانيس، وفى الساحة الخالية بين باب فاطمة وحجرة الأغوات وفى الروضة المطهرة ولاسيما جهة محراب النبى ومن باب السلام إلى باب الرحمة قد علقت كثير من الثريات البلورية والفوانيس، وكل هذه الثريات ذات شموع وإن كان بعضها أكبر من الأخرى إلا أن الثريا التى وضعت فى نقطة قريبة من قبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ لامع الأنوار أكبر الثريات جميعا لها أمكنة لوضع سبعين شمعة، وإن كان هناك شمعدانان من ثريا مذهبين إلا أن إيقادهما وتسريجهما كان يقتصر على ليالى المواسم والأعياد.

ومن باب السلام إلى المئذنة الرئيسية ومنها إلى مئذنتى المجيدية والعزيزية ومن هذه المآذن إلى القباب الموجودة إلى باب السلام قناديل معلقة بسلاسل فضية وتحت العقود التى تتصل دائرًا مادار بالساحة الرملية قناديل ذات سلاسل من النحاس الأصفر التى كانت قبل ذلك من الفضة ولكن بعضها سرقت من مؤخر حرم السعادة فنقلت البقية من السلاسل الفضية المعلقة إلى الخزانة النبوية وعلقت مكانها سلاسل من النحاس الأصفر.

ويبلغ عدد القناديل التى توقد سواء أكان فى الأماكن التى ذكرت أو فى داخل الأبواب وخارجها إلى ستمائة وأربعين قنديلا وتوقد فى ثلاثمائة منها الشموع وتسرج بقيتها بزيت زيتون، أما الفوانيس التى ركزت على السور الخشبى الذى بين حدود الحرم الشريف وشموع المحاريب الشريفة والشموع الخاصة بقراءة أجزاء القرآن فى الروضة المطهرة وقناديل الحجرة المعطرة والقناديل التى توقد فى ليالى رمضان والمواسم وفى الليالى التى تصل المحامل فيها إلى المدينة والقناديل التى توقد حتى الصباح فوق المآذن يصل عددها إلى ثمانمائة قنديل وهو خارج هذا الحساب.

الصورة الثامنة

فى تعريف الشبكة الشريفة التى تحيط بالحجرة المعطرة ودار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ السعيدة.

تصور السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس المصرى الذى أدى فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ أن يحيط الحجرة الشريفة بسور خشبى بشرط أن تؤدى الصلاة بداخله وعند عودته إلى مصر أمر بصنع ذلك السور الخشبى وفق رأيه وبعثه إلى المدينةالمنورة فى سنة ٦٦٨هـ فأحاط حجرة السعادة دائرا ما دار بشبكة خشبية فى ارتفاع قامة رجل وأطلقوا لهذه الشبكة المقصورة ولما استحال أداء صلاة حيث تمر الشبكة أراد العلماء أن يصرف النظر عن وضع هذه الشبكة وبلغوا بعد ذلك مُعَرِّضين بهذا العمل محاولين أن يثيروا الأهالى إلا أن أحدًا لم يعر أذنا صاغية لتلك التبليغات والتعريضات.

وكانت للشبكة التى تطلق عليها المقصورة ثلاثة أبواب يفتح أحدها إلى الجهة الشرقية والآخر إلى الجهة الغربية والثالث إلى الجهة القبلية، وبعد ست وعشرين سنة رفع زين الدين كتبغا العادل الشبكة التى أرسلها الظاهر ركن الدين إلى سقف المسجد وفى سنة (٧٢٩) هـ فتح باب آخر إلى الجهة الشامية، وفى سنة ٨٥٣ هـ يعنى فى عهد الظاهر حسن المصرى صنع سقف لطيف أمام الباب الذى فتح مجددا عرضه ستة أذرع وفرش ساحته الأرضية برخام مجلى، واحترقت كل هذه الأشياء فى حريق ٨٨٦ هـ ومن هنا صنعت شبكة جهتها القبلية مصنوعة من النحاس وجهاتها الأخرى الثلاث من الحديد شبكة ملاصقة لسقف المسجد الشريف وغطى أعلاها بقفص مصنوع من أسلاك نحاسية.

والشبكة التى صنعت وفق التعريف المشروح كان بابها فى الجهة القبلية من خشب الساج وأبوابها الأخرى مصنوعة من ألواح حديدية، وقد بدلت مصاريع

الشبكة الشريفة مؤخرا بأقفاص مصنوعة من النحاس وصنعت شبكة أخرى للجهة الشامية من المقصورة وكان ما بين الشبكة الجديدة وحجرة السعادة منفصلا، وكان لهذه الشبكة بابان أحدهما على يمين مثلث الحجرة الشريفة والآخر على اليسار، ولأن جزءًا من حجرة السعادة ظل فى داخل الشبكة التى صنعت مؤخرا كان الدخول إلى شبكة الحجرة الشريفة من شبكة ذلك المثلث وتحفظ دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ السعيدة بهذه الصورة:

وقد سرد بعض المؤرخين بعض الأدلة والبراهين حتى لا يحملوا الظاهر ركن الدين جريرة استحالة الصلاة فى بعض أماكن الروضة المطهرة بسبب هذه الشبكة وقالوا إن الظاهر ركن الدين قد أمر بصنع تلك الشبكة تغطيا للحجرة الشريفة ومقتديا فى ذلك بعمر بن عبد العزيز وذكروا أن هذه الأدلة غير قابلة للاعتراض عليها إلا أن خطأ هؤلاء الذين يرون هذا الرأى واضح، لأن عمر بن عبد العزيز أحاط مدفن السعادة بجدار حتى لا يشبه البيت الحرام وترك أبواب هذا الجدار مفتوحة ليكون لأداء الناس الصلاة فى داخله فى غير مواسم الحج وهذا لا ينكره أحد.

وكانت أبواب الشبكة التى أرسلت من قبل الظاهر ركن الدين مغلقة فى عهد برسباى لغير أرباب اليسار والثروة.

وبناء على ذلك فالذين يدخلون فى الحجرة المعطرة معدودون ويزورونها خفية ليلا، وإن أرسل كثير من الطلبات لرفع مثل هذه البدعة إلا أن جميع هذه الطلبات قوبلت بالصمت والسكوت ولم يستجب إلى ماطلبه الراجون وكان الفساد هو السبب فى ظهور هذه البدعة السيئة فى ذلك العصر لأن كل امرأة كانت يرخص لها فى جميع الأوقات بالدخول فى داخل المقصورة وكان ذلك قاعدة ذلك العصر كُنَّ يصحبن معهن أولادهن وكان الأولاد بحكم طفولتهم يلعبون فى داخل المقصورة ويحطمون ما بأيديهم فيملئون الحجرة المعطرة بالكناسة، وبناء على ذلك اتخذت بدعة عدم إدخال الزوار فى داخل الحجرة المعطرة حتى تحفظ داخل المقصورة الشريفة نظيفة وكم كتبوا من طلبات راجين

رفع السور إلا أنهم فهموا استحالة ذلك وتمنوا على الأقل أن تظل أبواب السور مفتوحة، وفى الواقع أن إنشاء هذه المقصورة منع كثيرا من الشرور.

وقال المؤرخ ابن فرحون وهو يعرف الشرور التى حدثت بعد صنع شبكة المقصورة «ووقت فتح الأبواب كان شر المقصورة التى أحدثت فى الطرف الغربى من حجرة السعادة شرا عامـًا، ولما كانت طائفة الإمامية قد اعتادت أن تجتمع داخل هذه المقصورة لأداء الصلاة وكانوا يظنون أن المقصورة مكان صنع من أجلهم وخاص بهم، من هنا كانوا يشقون صفوف المصلين ويمرون من أمامهم ولا يراعون الأصول.

وفى الواقع قد ندم صانع المقصورة وقد رأى هذه الحالات إلا أن الأمر كان قد حدث ومن هنا لم يملك غير السكوت».

والطائفة الرذيلة التى حصرت داخل المقصورة لجماعتها كان أفرادها يؤذنون بصوت عال ويقولون بدلا من «حى على الصلاة»، «حى على خير العمل» وكان مدرسوهم يعقدون الحلقات ويعظون ويبذلون جهدهم لنشر مذهب الرفض والإباحة وتعميمه، وفى الحقيقة قد انكسر نفوذ الطائفة المذكورة ولم تبق لهم أى قيمة، إذ فتحت أبواب المقصورة وضم بعض أماكنها إلى حجرة السعادة.

وكان ركن الدين بيبرس قد بنى هذه المقصورة بنية عرض تعظيمه وتوقيره لحجرة السعادة، ولكن القضية قد انعكست لأن طائفة الإمامية اتخذت شبكة المقصورة نقطة اجتماع لها.

وبعد أحداث شبكة المقصورة بأربعة وستين سنة يعنى فى سنة ٧٣٢ هـ الهجرية ذهب الملك الناصر إلى الحج أيضا ومر بالمدينة المنورة حين العودة وأمر بغلق أبواب الحجرة المعطرة متبعًا آثار أسلافه فظهرت فى عهده بدعة منع الدخول فى حجرة السعادة فى غير أوقات تعمير القناديل.

ولما ظلت دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ومقام جبريل داخل شبكة حجرة السعادة حرم الناس من زيارتها، وكان سبب حرمان الناس من زيارة دار فاطمة

ـ رضى الله عنها ـ ومقام جبريل قاضى الشام نجم الدين أفندى، إذ جاء نجم الدين أفندى لأداء الحج مع قافلة الشام ورأى اقتحام الناس حجرة السعادة مزدحمين فأفتى بغلق الأبواب، وإن كان ولى الدين العراقى أفتى بعد فترة بفتح الأبواب ففتحت أبواب الحجرة الشريفة إلا أن نجم الدين أفندى أفتى فتوى جديدة فى سنة ٨٢٨ هـ وأغلق أبواب حجرة السعادة.

واستصوب فى تلك الفترة الإمام السمهودى أن تظل أبواب الحجرة الشريفة مفتوحة لزيارة الناس، ووقف كثير من علماء المدينة الميمونة ضد الفتوى الصادرة من قاضى الشام نجم الدين أفندى وأيدوا الفتوى التى أصدرها ولى الدين أفندى العراقى وصدقوا الإمام السمهودى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا موظفى الحكومة فظلت أبواب الحجرة المعطرة مغلقة.

قال الإمام السمهودى لأحد أحبابه وهو يبين وجهة نظره فى فتح أبواب الحجرة المعطرة «يا أخى، إن إغلاق أبواب حجرة السعادة يؤدى إلى تعطيل ذلك المكان والناس يمسون هذا المكان أو ذاك بنية الاستعارة ويعطون ظهورهم لشبكة السعادة وهذا غير لائق، ورأيى أن تفتح أبواب حجرة السعادة حتى يحال بين الناس وبين ارتكاب الحرام، وهذا موافق لحكم الشرع وبهذا ندفع المكروه، وكنت أبحث عن طريقة للحصول على إرادة سنية من الملك الأشرف قايتباى الذى أتى إلى المدينة سنة ٨٨٠ هـ للزيارة لفتح أبواب حجرة السعادة وقد قام بأداء مراسم الزيارة من مكان قريب من باب السلام ناهيك عن دخول الحجرة المعطرة، وفى النهاية تقربت منه وقلت له بعد أن مهدت بمقدمة مناسبة لو كنت دخلت فى الحجرة المعطرة لنلت من الفوائد الدينية والدنيوية وأردت بهذا النهج الإشارة إلى لزوم دخوله إلى الحجرة المعطرة.

فقال لى «إذا أمكن زيارة صاحب الرسالة ـ عليه السلام ـ من مكان أبعد لما تجرأت أن أقترب منه بهذا القرار» ولما سمعت رد قايتباى المصرى هذا اضطررت للسكوت وإذا كنت قلت له لو أمرت برفع بدعة إغلاق الأبواب كان من البديهى أن إجابته بجواب الرفض وهذا لا يحتاج إلى تفكير عميق. انتهى.

إن فكرة الإمام السمهودى هذه صحيحة جدا ومخلصة، إلا أن ذاته الفاضلة لو أدرك العصور التى ظلت أبواب حجرة السعادة مغلقة ولم يعن فيها تطهير حرم السعادة وتنظيفه مع وجود كثيرين من الخدم لمسجد السعادة والأوقات التى تعقد فيها حلقات الاجتماعات حيث يجلس فيها كما يجلس فى الأسواق وحيث ينم فيها هذا أو ذاك العصر الذى يسكت فيه عن هذه البدعة الموظفون الشرعيون والسياسيون لو أدرك تلك العصور لاشك فى أنه كان سيحكم بإصابة القاضى نجم الدين فى فتواه.

وقد أطلق على الشبكة التى أمر بصنعها الظاهر ركن الدين المقصورة فى ذلك الوقت ولكن فيما بعد ترك اسم المقصورة وأطلق عليها الشبكة ولداخلها الحجرة المعطرة ولأبواب المقصورة أبواب الحجرة وللقناديل المعلقة داخل هذه الشبكة قناديل الحجرة المعطرة[1].

تعريف شكل شبكة السعادة وما عليها من خطوط: إن الشبكة التى تحيط بالحجرة المعطرة دائرًا مادار ذات أربعة زوايا وقد صنعت فى غاية الإتقان فى الصنع وفى هيئة مكلفة ودقيقة.

وتتكون جهاتها الشرقية والغربية كل واحدة منها من ست قطع وجهاتها الجنوبية والشمالية كل واحدة منها من ثلاث قطع أى أنها كلها تتكون من ثمانى عشرة قطعة شبكة وفى كل زاوية من زواياها باب ذو فيوضات وكان يطلق على الباب الذى ينظر جهة الشرق أى الباب الذى يوجد فى الجهة الشرقية من الشبكة باب فاطمة من الأبواب الثلاثة التى فتحت للمقصورة فى عهد الظاهر ركن الدين وباب المعلا هذا يفتح ناحية البقيع ويروى أنه قبر السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ يوجد فى داخل هذا الباب ويطلق على الباب الذى فى الجهة الغربية من الحجرة المعطرة باب الوفود وباب التوبة، والباب الذى بباب الوفود ينظر داخل الروضة المطهرة ووجه تسميته بهذا الاسم استقبال وفود العرب ومساكن القبائل فى هذا المكان فى عصر النبى ﷺ وإكرامهم وإطعامهم فيه، والباب اللطيف

(١) مازالت إلى الآن معروفة بهذا الاسم.

الذى يقع فى الجهة الجنوبية للحجرة الشريفة يطلق عليه باب المواجهة والباب الذى يقع فى الطرف الشمالى يعرف بباب التوسل[1].

وينظر باب المواجهة نحو جدار القبلة وباب التوسل الذى فتح فى سنة (٢٩) هـ ناحية محراب التهجد ينظر ناحية الشام أى إلى مؤخرة حرم السعادة وتوجد فى يمين باب التوسل ويساره لوحة علقت فى عهد السلطان قايتباى وقد حُكت عليها بالذهب العبارة المباركة «لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين». الشبكة ذات الثمانى عشرة قطعة التى شرحت وفصلت جهاتها قد كتب بخط قديم جلى فوق جهاتها العليا دائرا ما دار القصيدة البليغة الآتية وإن هذه القصيدة للثناء من الآثار الجليلة التى وفق فى تسطيرها السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان سنة (١١٩١) هـ وقد حررت بدءًا من الجهة الخارجية لشبكة حجرة السعادة ومن الناحية التى تنظر إلى الجدار القبلى.

القصيدة

يـا سيدى يـا رسـول الله خـذ بيـدى ... مـالى سواك ولا الـورى إلـى أحـد
فـأنت نـور الهـدى فـى كـل كائنـة ... وأنت سـر النـدى يا خـير معتمـد
وأنت حقـا غيـاث الخـلق أجمعهم ... وأنت هـادى الورى لله ذى السـؤدد
يـا من يقـوم مقـام الحمـد منفـردًا ... للواحـد الفرد لـم يولـد ولـم يـلد
يـا مـن تفجـرت الأنهـار نابـعة ... من أصبعـه فـأروى الجيـش بالمـدد
إنـى إذا مسـنى مـا يـرو عـنى ... أقول يـا سـيد السـادات يا سـندى
كـن لى شـفيعا إلى الرحمن من زلل ... يوافين على بمـا لا كـان فى خلـدى
وانظر بعـين الرضى لـى دائمـا أبـدا ... واستر بفضـلك تقصيرى مدى الأمد

(١) يقال لهذا الباب: الباب الشامى أيضا.

واعطف عـلى بعفو منك يشملنى فإننى عنك يا مولاى لم أحد
إنى توسلت بالمختار أشرف من رقى السموات سر الواحد الأحد
رب الحجال تعالى الله خالقه فمثله فى جميع الخلق لم أجد
خير الخلائق أعلا المرسلين ذرى ذخر الأنام وهاديهم إلى الرشد
به التجأت لَعَلَّ الله يغفر لى هذا الذى هو فى ظنى ومعتقدى
فمدحه لم يزل لأبى مدى عمرى وحبُّه عند رب العرش مستندى
عليه أزكى صلاة لم تزل أبدًا مع السلام بلا حصر ولا عدد
والآل والصحب أهل المجد قاطبةً بحر السماح وأهل الجود والكرم

هناك فى الجهة القبلية من حجرة السعادة أى فى الجهة التى يطلق عليها «مواجهة السعادة»، ثلاث شبكات نورية كل واحدة من هذه الشبكات ذات مصراعين وعلى طرز أقفاص أربعة صفوف وهى محفورة وفوق الحفر (أويمة) قد حفرت العبارة المنجية (لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين) وكذلك قد سطرت العبارة سالفة الذكر فى سطرين على باب مواجهة السعادة الذى يطلق عليه باب المواجهة الصغير والذى يوجد فى وسط الشبكة الثانية.

محراب التهجد: يقع محراب التهجد فى وسط ثلاث قطع من التى تقع من الجهة الشمالية من حجرة السعادة وكتب فى نطاق مقعر المحراب الشريف المذكور وطاقه الذهبى بخط جلى الآية الكريمة ﴿ **فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء: ٨٠] وعلى جهته اليمنى كتب بخط كوفى ﴿ **نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الصف: ١٣) يا محمد.

على جهته اليسرى كتب أيضا بخط كوفى الآية الكريمة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وكلها منقوشة بذهب خالص العيار كما كتبت الآية الكريمة بخط كوفى على يمين الباب الذى يسمى باب التوسل أو الباب الشامى وهو فى الشبكة الأولى من الشبكات الثلاث.

﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف : ١٣)

كما كتبت فوق الجدار المتصل بالشبكة الثالثة بخط كوفى الآية الكريمة المنيفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ وكتب فوق الجدار المتصل بالشبكة الأولى التى تقع فى الطرف الغربى من حجرة السعادة ﴿ **اللهم صل على سيدنا محمد الذى أخبر فى صحيح الخبر أن حول العرش ستين ألف عالم يستغفرون لمحب أبى بكر وعمر ويلعنون مبغض أبى بكر وعمر** ﴾ كما كتب فى الذيل هذا الحديث قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ما بين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة، ومنبرى على ترعة من ترع الجنة»[1] الخبر الصحيح اللطيف، وعلقت لوحة مذهبة مزينة تحتوى على القطعة الآتية البديعة، على الأسطوانة التى بين الحجرة المقدسة ومحراب النبى.

القطعة

هذا الرسول المجتبى الذى هو أيضا رحمة للعالمين.

قال جبريل الأمين إذ زار روضته:

لتفخر الأرض على الأفلاك قائلة..

فىَّ دفن الرسول هذه هى جنات عدن.. فادخلوها خالدين.

(١) سبق تخريجه.

فى ذكر قبة حجرة السعادة

قبل أن يحترق مسجد مدينة دار السكينة لم تكن فوق الحجرة المعطرة قبة منفصلة فبنى فوق سقف مسجد السعادة جدار من اللبن ارتفاع ذراع ونصف ذراع ليكون علامة على الحجرة المنيفة وموقع مدفن السعادة.

بنى السلطان الصالح قلاوون المصرى فى سنة (٦٧٨) هـ قبة جميلة قاعدتها مربعة وسطحها مثمن وغطى فوقها بالرصاص.

وصنع حول القبة المذكورة سورًا خشبيا حتى يرى مكان الجدار سالف الذكر علامة الحجرة المنيفة، كما أحاط ما بين سقف المسجد والقبة الجديدة بشبكة خشبية وكانت عقود القبة المذكورة فوق أعمدة الحجرة المعطرة التى تحاذى أسطوانة الصندوق، ووقعت منافرة أدت إلى القيل والقال بين أحمد كمال ابن هارون عبد القوى الربعى الذى أشرف على بناء هذه القبة وبين ولاة المدينة، وصادر والى المدينة علم الدين الشجاعى أموال أحمد كمال كلها وهدم بيته وخربه وبين أن من لا ينفذ أمر ولاة المدينة يتعرضون للعقاب وهذه هى عادة مرعية بين ولاة المدينة ثم اقتلع أحجار البيت الذى هدمه وبنى بها مدرسة المنصورية.

وكان غرض أحمد كمال بن هارون من هذه الخدمة أداء عمل خالص لصاحب الرسالة بناء على الأمر الذى تلقاه من الحكومة المصرية، ولا شبهة فى ذلك، ولكنه إذ سمح لبعض النجارين القيام بحركات غير لائقة فوق مرقد السعادة من هنا يقتضى أن يقع تحت براثن العقوبة.

وظلت قبة الحجرة المعطرة التى بناها السلطان الصالح قلاوون إلى عصر الملك

الناصر حسن بن محمد قلاوون على هيئتها الأصلية وفى هذه الفترة لم تمد إليها يد الإصلاح والتعمير.

حتى إن غطاءها الرصاص قد فسد وخرب وأخذت مياه الأمطار تنفذ من خلاله ومن هنا جدده الملك الناصر أول مرة فى خلال سنة (٧٥٥) هـ كما جددها شعبان حسين بن محمد فى خلال سنة (٧٦٥) هـ مرة ثانية وفى آخر الأمر جددها الملك الظاهر جقمق المصرى تحت إشراف أمير برديك فى غاية المتانة وأصلحها وعمرها، ولما احترقت فى الحريق الثانى جددها السلطان قايتباى بانيا جدرانها من حجارة سوداء وأعمدتها من حجارة بيضاء منحوتة جددها فى غاية المتانة وفوق المطلوب وذلك فى سنة (٨٨٧) هـ.

وبناء على هذا التقدير فإن قبة الحجرة المعطرة كانت من الخشب فى الصدر الأول ثم حولت إلى البناء الحجرى فى عهد قايتباى المصرى.

وروى الإمام السمهودى أن القبة التى تحولت إلى البناء الحجرى كان ارتفاعها من أعلى قمتها ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع وبناء على هذا حالت دون رؤية كسوة مرقد السعادة.

الوجهة التاسعة

وتحتوى على ثمانى صور

تذكر وتفصل ما علق فى داخل الحجرة المصطفوية اللطيفة

وبعض أوصاف وتعريفات الأشياء المباركة النفيسة والمتنوعة

التى حفظت فى أماكن مخصوصة والتى تستخدم وقت الاقتضاء

وأسماء واقفيها المعروفين وشهرتهم

فى تعريف المصاحف الشريفة والأجزاء القرآنية اللطيفة وكتب الأدعية الموجودة فى الخزينة النبوية.

١- مصحف شريف بالخط الكوفى قطعه كبير، فى حالة كاملة جيدة ومحفوظ داخل ستارة مذهبة من القماش وهو علامة لأثر قلم جامع القرآن حضرة عثمان بن عفان.

٢- مصحف شريف فى شكل مجلة أى فى هيئة طويلة ومحفوظ داخل كيس مصنوع من المخمل ذو لون قرمزى داكن قد كتبت سورة الفاتحة وسورة البقرة فى الصفحة الأولى منها بالخط الكوفى الجلى وغاية فى الزينة ومذهب فى حجم يميل إلى الكبر ولا يعرف كاتبه ولا واقفه.

٣- مصحف شريف فى حجم يميل إلى الكبر صورة تذهيبه تجذب الأنظار لجمال زينتها وصغرها، لم يكتب أسماء كاتبيه ولكن بناء على شهادة السادة أنيس المولوى ونورى قرر بخط الشيخ حمد الله الذى عرف، بابن الشيخ.

٤- مصحف شريف قطعه كبير ووقف الشيخ أحمد بن عبد الله بن على بن عثمان، وبخط ميرزا أحمد التبريزى، قد أهدى وعرض من قبل شخص غير معروف الاسم فى سنة ١١٢١ هـ قد بذل أقصى الجهد فى تجليده وتذهيبه، وطرز خطه إيرانى ووقف الحاج محمد رضا وكاتبه مجهول وذات قطعة كبيرة جداً ومقبولة للطبع.

٥- مصحف شريف قطعه كبير وطرز خطه لاهورى صورة تذهيبه وتزيينه فى غاية الجمال واسم كاتبه وشهرته مجهول وقف محمد ارونك من ملوك الهند.

٦- مصحف شريف حجمه كبير خطه لاهورى تذهيبه وتزيينه فى غاية الروعة واقفه وكاتبه مجهولان.

٧- مصحف شريف قطعه كبير وعنوانه مذهب أبيض وفى غاية الزينة والتكلفة قد كتبت فاتحته الشريفة فى الصفحة الأولى والثانية بخط ثلث ومذهب أبيض. والصفحات الأخرى منه إما سطراه كتبا بحبر بنفسجى وسطره ذهب وإما سطراه كتبا بذهب وسطره بحبر أحمر وبخط ثلث كذلك وسطوره الأخرى كتبت بحبر عادى وبخط إيرانى قديم وبدون أسماء كُتّابه فكاتبه مجهول، وقد وقف لروضة يحيى - على نبينا وعليه السلام - فى الجامع الأموى الشريف لتلاوته هناك وفى سنة ١٢١٥هـ أخذ من أحمد بن محمد بن زرون وقدم إلى الحجرة المعطرة من قبل الحاج مصطفى أغا.

٨- مصحف شريف كبير الحجم ولاهورى الخط وقد كتب بين سطوره بالحبر الأحمر والأسود بخط جلى وكل صفحاته ذات ستة أسطر وكل جهاته مذهبة فى صورة جميلة وواقفه من نواب الهند زواق خان ابن شيرخان إلا أن كاتبه مجهول.

٩- مصحف شريف كتب أحد أسطره بالذهب والآخر بحبر بنفسجى وحيثما ذهب رسم وزين فى روعة من الصنعة.

١٠- مصحف شريف لا يعرف كاتبه ولا واقفه ذات قطع كبيرة وصفحاته حمراء.

١١- مصحف شريف قطعه كبير، وكتابة صفحاته حمراء اللون واقفه مجهول بعض أماكنه من الأول والآخر ناقص غير تام.

١٢- مصحف شريف نفيس الخط وزينته الذهبية صنعت فى مهارة لا توصف وحجم قطعه كبير ولطيف وقف المرحوم بشير أغا من أغوات باب السعادة وأثر قلم ابن خواجة محمد أفندى.

١٣- مصحف شريف قد فسر آيات بين سطوره باللغة الفارسية عذب البيان وحجم قطعه كبير.

١٤- مصحف شريف كبير القطع وبعض سطوره جلية وذات جاذبية واقفه معلوم وصفحاته غير مذهبة وهو أثر لطيف وقد كتبه الشيخ محمد سزيدى.

١٥- مصحف شريف وقف محمد على خان خطه جلى واضح وكبير القطع ومجهول الكاتب.

١٦- مصحف شريف خط ابن الحلاق حاجى إبراهيم بن محمد وكل ثلاثة أسطر من صفحاته كتبت بحبر أسود وبنفسجى وأحمر وبخط الثلث والسطور الأخرى التى كتبت على ورق نصفه ذى لون سكرى والنصف الآخر على ورق ذى لون وردى قد خط بالنسخ.

قد ذُهِبَ وزين بطريقة جميلة وهو كبير الحجم مستحسن واقفه رئيسة نساء السلطان عبد الحميد خان الأول (روحشاه قادين).

١٧- مصحف شريف قد كتب بخط نسخ عريض قليلا ومذهب وحجم قطعه يميل إلى الكبر ولم يكتب اسم كاتبه ووافقه المرحوم عباس أغا من أغوات باب السعادة.

١٨- مصحف شريف قد كتب بخط نسخ عريض منظم ومذهب بصورة جميلة ومزين حجم قطعه كبير وكاتبه مصطفى بن مجدى بن الحاج يوسف أفندى.

١٩- مصحف شريف خطه لاهورى وصورة زينته وتجميله ذات صنعة متقنة وكتب على نوع من الورق يشبه الحرير ووقف وأهدى من قبل شخص يسمى محمد نظم الدولة وهو نسخة لطيفة ذات حجم كبير، وبما أن اسم كاتبه لم يذكر فهو مجهول الكاتب.

٢٠- مصحف شريف طرز خطه جلى ونفيس رسومه وتزيينه وتذهيبه تجذب الأشواق وقدم من طرف ابن الصدر الأعظم محمد باشا سليم أغا من رؤساء الحجاب فى الباب العالى، وإن كان قطعه كبير إلا أن كاتبه مجهول.

٢١- مصحف شريف خطوطه جلية وأماكن وقفه مذهبة وكتابته حمراء وخاتمته طالبة من اسم كاتبه وحجمه كبير واقفه الملك قايتباى من ملوك مصر.

٢٢- مصحف شريف حجم قطعه كبير وأماكن وقوفه مع أطر زوايا صفحاته مذهبة وكتب على صفحات الورق سكرى اللون وقف تابع أمير اللواء مرجان أغا.

٢٣- مصحف شريف قطعه مائل إلى الكبر وكتب على ورق آبادى وخال عن الزينة العارضة جميل فى بساطة وقف الشيخ شاكر السمرقندى.

٢٤- مصحف شريف له تفسير بالفارسية بين سطوره بسيط وجميل وحجم قطعه كبير وجميل ووقف الشيخ كول محمد أفندى.

٢٥- مصحف شريف قد أهدى فى سنة ١٢٩٢هـ من طرف بيفم القدس قطعه مائل إلى الكبر وهو نسخة مباركة قد طلى عنوانه بلون بنفسجى وجهاته المذهبة فى غاية الزينة والجمال صفحات الاثنين منها بنفسجى الثالث أحمر اللون.

٢٦- مصحف شريف كتابة صفحاته اثنتان منها ذات إكليل وإحداها بنفسجية مزينة بثلاثة خطوط وديباجته ذات تكلفة ومذهبة وحجم قطعه كبير وحسن وطرز الخط فارسى، وأعلى الصفحات وأطرافها ذات حاشية فى أصول القراءة والتعريف به وليس عليه اسم كاتبه أو إشارة أخرى مجهول الواقف والكاتب.

٢٧- مصحف شريف قد كتب بخط نسخ نفيس بطرز جميل وقد سطر اثنان من سطوره بحبر بنفسجى والاثنان الآخران بحبر أحمر قان وقد زين ما بين كل

سطرين بلون بنفسجى ونقشه وواقفه جلاء بن عودلة المغربى وذات حجم كبير.

٢٨- مصحف شريف قد أهدى من قبل الحاج صالح[١] ابن إبراهيم رئيس مهندسى أبنية السعادة فى سنة ١٢٧٩هـ وهو أثر قيم من قطع كبير وطرز خطه عربى وأطراف صفحاته حمراء اللون.

٢٩- مصحف شريف وقف محمد سعيد أغا من غلمان المتصرف الأسبق لأورفة شلبى باشا وبخط ملا محمد البغدادى وقطعه كبير وديباجته مذهبة وثلاثة أسطر من صفحاته مكتوب بخط الثلث والباقى بالنسخ والخط الثلث كتب بالذهب.

٣٠- مصحف شريف واقفه وكاتبه مجهولان وحجم قطعه كبير وطبيعى وديباجته مذهبة، وصفحاته ذات عشرة أسطر وما بين كل سطرين خطان أحمران ترك فى أوله وآخره ورق أبيض خال من الكتابة يكفى لكتابة جزء فى كل منهما وقد صنع هذا الورق من حرير صنع على طريقة بخارية[٢] وجلده طبيعى.

٣١- مصحف شريف حجم قطعه متوسط وما سطر فى ديباجته من سورة الفاتحة ناقص من أوله إلى قوله تعالى ﴿ **رب العالمين** ﴾ وقد التصقت صفحاته الأولى والثالثة فى بعض وقد كتب بطرز خط قريب من الثلث وذات خمسة أسطر والجزء الثانى بخط النسخ ذات ثلاثة أسطر كتب فى طرز عجيب وقد كتب على هامش صفحة من جزئه الرابع واقفه وهو محمد بن محمود بن عبد الله الشيرازى المعروف بالحاج عطا وختم بالآية الجليلة ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم** ﴾.

٣٢- مصحف شريف سطر إلى سورة يونس بخط النسخ وحجم قطعه كبير، وصفحته الأولى مذهبة وكتبت صفحاته الأخرى قد رتبت على أن

(١) المشار إليه مدرس اللغة الفارسية والتاريخ فى المدرسة الحربية السلطانية وهو القائم مقام صالح بك.
(٢) نسبة إلى بخارى إحدى المدن الإسلامية فى أواسط آسيا.

يكتب سطر منها بحبر ذات لون أحمر داكن والسطر الآخر بحبر بنفسجى ولما كان خاليا من اسم كاتبه أو أى إشارة أخرى فهو مجهول الواقف والكاتب.

٣٣- مصحف شريف قد نظم ورتب على أن يكون سطراه باللون الأحمر الثانى وواحد منه باللون البنفسجى على ثلاثة خطوط وعلى هامش كتابة صفحاته قد قيدت بعض الروايات الخاصة بخواص القرآن والموثوقة وذات قطعة مائلة للكبر وبما أنه قد كتب فى أكثر من مكان محمد خالون خان بن محمد على بن عبد الله داد هو واقفه فى سنة ١٢٩١هـ كما أن طرز خطه على قاعدة النسخ فهم أن واقفه سالف الذكر محمد خالون خان بن محمد على خان ابن محمد على بن عبد الله داد.

٣٤- مصحف شريف قطعه مائل إلى الكبر وقد زينت جميع جهات صفحاته بألوان بنفسجية وصفراء وخضراء ومذهبة بالذهب وذيل كل سطر تراجم بعبارة فارسية وغير ذلك كتب على هوامش صفحاته التفسير الحسنى.

٣٥- مصحف شريف وهذا أيضا من وقف محمد خالون سالف الذكر وأثر قلم الحافظ محمد يوسف ابن محمد ساكين كون عيسى، قطعه مائل إلى الكبر، وقد ذهبت صفحته الأولى والثانية على الطريقة الهندية، ونقش ما بين سطور كل صفحة بحبر أحمر اللون وخارج كتاباته حررت بعض فوائد القرآن وخواصه.

٣٦- مصحف شريف قد كتب إلى الآية الجليلة ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الكهف: ٥٩] وأصول كتابته وتذهيبه فى غاية دقة الصنع والجمال وديباجته مزينة وفقا للقاعدة الهندية وكل نقطه قد وضعت وحررت بالذهب قطعه كبير وصفحاته كلها تسعة أسطر كتبت بخط الثلث وقد خطط على أطراف كل صحيفة سبعة خطوط ذهبية وهو خال عن إشارة إلى كاتبه وواقفه فهما مجهولان.

٣٧- مصحف شريف حجم قطعه كبير، وقد كتب بخط الثلث الجلى ديباجته وخاتمته مزينتان ومذهبتان بطريقة مكلفة وقد رسمت الفاتحة الشريفة على صفحتيه الأولى والثانية فوق شمس ذهبية بخط أبيض وقد نظمت صفحاته الأخرى على أساس أحد عشر سطرا وكل ما بين سطريه مذهب وأطرافها ملونة ومزينة بخط أو خطين ولما كان خاليا من اسم كاتبه وواقفه فهما مجهولان.

٣٨- مصحف شريف قد أهدى من طرف الشيخ سموأل الداغستانى فى سنة (١٢٨٧) هـ كاتبه علاء الدين التبريزى وأوراقه سميكة وآبادية وقطعته كبيرة وديباجته مذهبة فى صورة دقيقة ومزينة وقد كتبت الألفاظ الشريفة (إياك نعبد وإياك نستعين، (ويقيمون الصلاة) وثلاثة أسطر من صفحاته الأخرى كتبت بخط الثلث مذهبة وأسطره الأخرى كتبت بخط النسخ وبحبر أسود عادى.

٣٩- مصحف شريف فى شكل مجلة وفى داخل كيس أخضر مصنوع من المخمل، خطه كوفى وقطعه متوسط وهيئته مائلة إلى الزينة وهو من وقف المرحوم نجال أفندى المترجم الأسبق لديوان الترجمة السلطانية كما أنه بخط يده.

٤٠- مصحف شريف حجم قطعه غاية فى الصغر وجلده زيتونى حسن وصفحاته مزينة ومذهبة كما هو مطلوب، وبمحفظته والسلاسل التى ربطت بالمحفظة من ذهب خالص، وهو أثر قلم شعبان بن محمد أفندى ووقف من قبل خورشيد أفندى مدير تعميرات المدينة المنورة فى سنة (١٠٤١) هـ.

٤١- مصحف شريف وهو يفتح من طوله وله أطراف فضية فى داخل محفظة صغير وذات قطعة طبيعية، وهو المصحف الذى كتبه مير محمد بن التبريزى سنة ٩٨٣ هـ وقطعه يوسفى وصفحاته سورتى الفاتحة والبقرة مذهبة وما بين سطورها قد زين باللون الأحمر والبنفسجى وجميع الآيات التى تجمعها هاتان

السورتان قد كتبت على أرضية صنعت من ذهب داكن بذهب فاتح اللون وكتب داخل الحلقات التى خارج الكتابة كلمة (عشر بخط كوفى).

٤٢- مصحف شريف وهو وقف أحمد عطاء الله أفندى وخط مصطفى خلوصى أفندى قطع متوسط وإكليلى الكتابة.

٤٣- مصحف شريف هذا أيضا من آثار أحمد عطاء الله أفندى وقطعه متوسط وكتابه صفحاته إكليلية.

٤٤- مصحف شريف مذهب متوسط القطع بخط النسخ من وقف المرحوم عبدى أغا من متوقى عبد القادر باشا.

٤٥- مصحف شريف كتب بالحبر الأحمر وخط النسخ صغير القطع وغير مذهب ووقف صالح بن محمد أفندى.

٤٦- مصحف شريف متوسط القطع خطه على طرز عربى وغير مذهب من وقف درويش محمد أفندى.

٤٧- مصحف شريف متوسط القطع خطه عربى وغير مذهب، هدية الحاج برهان بن الحاج على أفندى ذو كتابة بالحبر الأحمر إلا أن كاتبه وواقفه غير معلوم.

٤٨- مصحف شريف قد كتبت الصفحة الأولى لسورة الفاتحة وكذلك الصفحة الأولى من سورة البقرة بالذهب وزينت بلون بنفسجى وعلى أطراف كل صفحة مقرات منقوشة بلون بنفسجى وكتب بقلم فى غاية الدقة وبطرز فارسى ذات أربعة أسطر قطعه غاية فى الصغر وهو أثر مبارك هدية المرحوم محمد أغا من أغوات دار السعادة.

٤٩- مصحف شريف وقف شيخ الحرم الأسبق المرحوم طيفور بن عبد الغفور أغا أفندى وقد رتبت صفحاته من خمسة عشر سطرا وكل جهاته مزينة مذهبة متوسط القطع.

٥٠- مصحف شريف خطه خط الحافظ محمد شكرى أفندى كتابته عريضة نوعا ما ومذهبة وقد رتبت صفحاته على أساس خمسة عشر سطرا ديباجته ذات طرز هندى ومزينة وما بين سطور كل صفحة لون باللون الأصفر والأسود وحجمه طبيعى للغاية ومستحسن.

٥١- مصحف شريف خطه عادى غليظ ومتوسط القطع مذهب وقف محمد فيضى نهرى من بخارى.

٥٢- مصحف شريف خط محمد نقى الشوشرى متوسط القطع مذهب الأوراق تنقصه ثلاث صفحات من أوله وواقفه مجهول.

٥٣- مصحف شريف وقف السيد الحاج محمد أمين بن صالح بن حسين أفندى وخطه مصطفى ده ده ابن الشيخ حمد الله المشهور وهو مذهب قطع متوسط.

٥٤- مصحف شريف وقف مرجان أغا القلعوى من أتباع محمد على باشا المصرى وأثر قلم حسن فوزى السروجى صغير القطع مذهب.

٥٥- مصحف شريف وقف محبوب أغا من أتباع الإمرة الأولى لمحمد على باشا المصرى كذلك وخط إسحق نورى بن مصطفى، مذهب قطع صغير صفحاته ذات عشرين سطرا.

٥٦- مصحف شريف وقف خديجة بنت الشيخ درويش أنس آل عبد السلام الخاتون وخط الشيخ عبد الشكور المولوى قطعه صغير بسيط فى غاية من الجمال.

٥٧- مصحف شريف وقف باقى زاده الحاج إبراهيم ابن الحاج عثمان أفندى وخط إبراهيم شوقى أفندى صغير القطع أوراقه مذهبة ورتبت صفحاته على أن تكون لآياتها هوامش.

٥٨- مصحف شريف خطه لاهورى قطعه صغير يعنى يوسفى وقف جب بن

حسين الهندى. صفحتاه الأولى والثانية وخاتمته فى غاية من الزينة وفيما بين السطور مذهب ومستحسن.

٥٩- مصحف شريف ـ متوسط القطع كاتبه صالح أفندى، واقفه مجهول وصفحاته مذهبة.

٦٠- مصحف شريف ـ طرز خطه عثمانى الرسم، وصفحات أوراقه مذهبة، أثر لا يدانى، وقف المرحوم بسيم آغا نائب الحرم وأثر سيد على شكرى.

٦١- مصحف شريف ـ وقف حليلة المرحوم نافذ باشا «زيبا هانم» قد كتب بخط النسخ النفيس ومنقوش بالذهب وألوان مختلفة من الزينة وقد سطرت هوامش صفحاته أصول القراءات السبع دون اسم كاتبه.

٦٢- مصحف شريف ـ ذات قاعدة الخط القديم متوسط القطع به جداول حمراء وخط هداية الله ابن عبد الرحمن أفندى وواقفه مجهول.

٦٣- مصحف شريف ـ مسطور بخط عربى عادى قطع متوسط وقف حامد بن على أفندى دون اسم كاتبه.

٦٤- مصحف شريف ـ وقف محمد باشا قبودان المحيطات ـ رحمه الله ـ وخط مصطفى ابن عمر أفندى من حى «أبواب» صفحاته ذات خمسة عشر سطرا مذهبة قطعه صغير وهو أثر نفيس.

٦٥- مصحف شريف ـ كتب وفق القاعدة المصرية خال من اسم كاتبه وغير مذهب ووقف مبروك المرئى مالكى المذهب.

٦٦- مصحف شريف وقف أحمد بن على بن سليمان آر بنود، كتب بخط النسخ الوزيرى الواضح خال من اسم كاتبه قد وقف فى الرابع من شهر صفر الخير سنة ١٢٥٤هـ.

٦٧- مصحف شريف وقف السيدة عاتكة بنت الشيخ عبد اللطيف خطه غاية فى القدم وصفحاته خمسة عشر سطرًا وذات كتابة إكليلية وخال من اسم كاتبه.

٦٨- مصحف شريف وقف محمد خالون بن محمد على خان بن محمد على بن عبد الله داد وخط محمد عارف بن الحاج محمد فاضل بن الشيخ عيسى وقف ستة ١٢٩١.

٦٩- مصحف شريف وقف محمد أفندى الأنقروى وذو خط قديم مختلط ولا يعرف كاتبه وقد استصلحت صحيفته الأولى والثانية والثالثة بإلصاق ورق.

٧٠- مصحف شريف ـ طرز خطه مغربى، ورقه فستقى حركاته حمراء خال عن اسم كاتبه قد وقف يوم الثامن عشر من صفر الخير سنة ١٢٨٦هـ من شخص مجهول الاسم.

٧١- مصحف شريف ـ قد ألصق على صفحاته الأولى والثانية والثالثة بل على أغلب صفحاته ورق ووقف سنة ١٢١٢هـ من قبل بيفم القدس ولم يذكر اسم كاتبه وذات أحد عشر سطرا فى كل صفحة.

٧٢- مصحف شريف ـ قد ألحق على صفحاته الأولى والثانية وعلى سور البقرة بدءا من بسملته إلى الآية الجليلة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وقد كتبت صفحاته على أن يكون فى كل صفحة خمسة عشر سطرا وكاتبه وواقفه مجهولان.

٧٣- مصحف شريف ـ وقف عمر بن صالح بن فهير صفحاته ذات أحد عشر سطرا وما بين كل سطرين ذات خط أحمر ولا يعرف كاتبه صفحتاه الأولى والثانية مذهبتان.

٧٤- مصحف شريف ـ وقف حسين العياط خط درويش حسن الشركسى وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا ذهبت بالإكليل.

٧٥- مصحف شريف ـ نسخة شريفة ذات خط متفرق كاتبه وواقفه مجهولان.

٧٦- مصحف شريف ـ وقف سيد حسن كوسه الدمشقى وخط الحاج حسين أفندى خطه على الطراز الشامى وأطراف صفحاته قد زينت بخطين أحمرين وذات خمسة عشر سطرا فى الصفحة.

٧٧- مصحف شريف ـ وقف ابن البغدادى الحاج شعبان ابن الحاج صالح أفندى وخط محمد قاسم ابن الحاج محمد التبريزى اثنا عشر سطرا فى الصفحة وقد ذهب بقلم صنعت وديباجته منظمة وفقا للترتيب الهندى.

٧٨- مصحف شريف ـ وقف زاهدة خانم زوجة المرحوم الشيخ شموئيل الداغستانى وخط محمد الكاظمى وقد رتبت صفحاته على أربعة عشر سطرا وأطرافه غير مذهبة وأهدى سنة (١٢٨٨) هـ.

٧٩- مصحف شريف ـ وقف السيدة حفيظة بنت عبد المتعال الرشيدى، وخط عبد الله وصفى أفندى صفحاته ذات خمسة عشر سطرا وذهبت أطرافها بالإكليل.

٨٠- مصحف شريف ـ خط محمد حامد أفندى بطلب حميد الدين خان، طرز لاهورى صفحاته ذات خمسة عشر سطرا قد طلى داخل صفحاته بالذهب وأطرافه مقطوعة مجهول الواقف.

٨١- مصحف شريف ـ وقف الشيخ عبد الله الفردى وخطه مغربى قطعه كبير وسورة الفاتحة مفقودة خال من اسم كاتبه.

٨٢- مصحف شريف ـ كتبت سورة فاتحته مؤخرا، واسم واقفه منسى وصفحاته ذات أحد عشر سطرًا وكتاباته سطران منها ذات خط أحمر وسطر أزرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] وهذه الآية آخر ما فى المصحف.

٨٣- مصحف شريف ـ وقف الشيخ أبو نواز وخط الفقير ميثور ذات اثنى عشر سطرًا فى الصفحة وإكليلى فى الكتابة وكتب سنة (٥٠٦) هـ.

٨٤- مصحف شريف ـ خطه لاهورى وجلى، وقد فقدت سوره كلها ماعدا الأنبياء إلى سورة الإخلاص، مجهول الكاتب والواقف وصفحاته ذات أحد عشر سطرا، وعلى أطرافها حاشية فى تعريف أصول القراءة وغير مذهب، وفى غاية الكبر فى قطعه.

٨٥- مصحف شريف ـ واقفه وكاتبه حسن على خان الحيدرى الآبادى ابن المرحوم على ياور خان الأصفهانى خطه جلى وذات طرز ريحانى وحجم قطعه مائل للكبر وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا وغير مذهب وفى ظهر فاتحته مسطور دعاء ختم القرآن.

٨٦- مصحف شريف ـ صفحاته ذات عشرة أسطر قطعه صغير وفارسى الخط كاتبه وواقفه مجهولان وكتب سنة ١٢١١ هـ وفى خاتمته اكتملت بهذه الجملة «استفت بهذا الكلام».

٨٧- مصحف شريف ـ وقف الحاج أحمد شعبان ابن الحاج حسين السعيدى وخطه مغربى مقلد وقطعه وزيرى وخال من اسم كاتبه.

٨٨- مصحف شريف ـ أجزاؤه ما بعد الجزء السادس عشر مفقودة واقفه غير معروف واسم كاتبه مسطور فى نهاية دعاء ختم القرآن الذى كتب بخط التعليق، وكاتبه محمد جعفر بن الشيخ غلام حسين وطرز خطه نسخ يميل إلى السمك وخطان من كتابته بحبر أحمر وواحد باللون البنفسجى.

٨٩- مصحف شريف ـ وقف السيدة خديجة بنت مختار وخط «حاجى بابا بن ميكائيل بن اغا جاى أفندى خطه ورسومه الذهبية على طرز داغستانى داخل صفحاته ذات إكليل وعلى كتابته جدول أحمر اللون وخط على فراغ هذا الجدول خط آخر أحمر اللون وكتب فى سنة (١٢٨٢) هـ.

٩٠- مصحف شريف ـ وقف الحاج حبيب وطرز خطه لاهورى خال من اسم كاتبه، الصفحة الأولى والثانية من الصفحات وما بين سطور هاتين الصفحتين مزين بالإكليل وكتابات صفحاته الأخرى منقوشة بجدول لازوردى وجدولين باللون الأحمر وقد ختم أوله وآخره بكلمة «وقف» نسخة بيعية ذات حجم كبير.

٩١- مصحف شريف ـ وقف بيد السيدة خديجة بنت الشيخ موسى جلبى متولية ماردينى زاده سيد محمد رشيد، فى عام ١١١٤هـ خال من اسم كاتبه

وأسلوب خطه الريحانى والصفحتان الأولى والثانية أهلكتا بصورة كبيرة وقد حددت صفحته الأخيرة وهو أثر لطيف كبير الحجم.

٩٢- مصحف شريف ـ كتاباته وما بين سطور كل صفحة ذات جداول مزدوجة وأوراقه بنفسجية اللون وجلده أخضر مطبوع مجهول الكاتب والواقف.

٩٣- مصحف شريف ـ كتابة صفحاته ذات جداول مزدوجة ووقف الخان «إيمان خان ابن ككران خال من اسم كاتبه.

٩٤- مصحف شريف ـ قد خط على أطراف صفحاته ثلاثة خطوط اثنان منها أحمر اللون وواحد منها لازوردى ومدت خارج هذه الخطوط بإصبعين خط لازوردى ورسم فى ذيل خاتمته شكل شطرنج وهو كلام قديم ذات قطعة متوسطة وكاتبه مجهول.

٩٥- مصحف شريف ـ وقف شخص يدعى عبد الله بن عبد الله وكل صفحاته ذات جداول، أحمر اللون، قطعه كبير، خال من اسم كاتبه، وقف (١٢٨٥) وكلام قديم كتب وفق القاعدة الخطية المصرية.

٩٦- مصحف شريف ـ وقف السيدة فاطمة بنت عبد الله، خال من اسم كاتبه وقد جددت واستصلحت بعض الأوراق فى أوله وآخره.

٩٧- مصحف شريف ـ صفحاته ذات عشرة أسطر ووقف الحاج عبد الرزاق الكوينى الحنبلى وجزؤه الأول والثانى مفقودان وقطعه كبير وخال من اسم كاتبه.

٩٨- مصحف شريف ـ متنوع الخط والأوراق ووقف من قبل عبد الوهاب بن سليمان فى سنة (١٢٧٣) هـ وهو أثر لطيف مجهول اسم كاتبه.

٩٩- مصحف شريف ـ ناقص الصفحات مجهول الكاتب والواقف وخطه يوافق القاعدة المصرية فى الكتابة وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا.

١٠٠- مصحف شريف ـ صفحاته ذات خمسة عشر سطرا مجرى الخط وخال من اسم كاتبه، أهداه محمد حبار فى سنة (١٢٨٦)هـ.

١٠١- مصحف شريف ـ لاهورى الخط ووزيرى القطع أى مستطيل وما بين صفحته الأولى وصفحته الثانية مذهب وعلى قدر من الزينة وبين سطرى صفحاته الأخرى تراجم فارسى العبارة وعلى أطراف كتابته كتب بعض ما يستفاد منه مثل أسباب نزول الآيات وعلى ظهر الصفحة الأخيرة كتب البيت الآتى بالفارسية تم تحرير وكتابة القرآن المجيد فى ظل السلطان ذو السيرة المليئة بالنور فى سنة جلوسه ولم يبين اسم الكاتب والواقف.

١٠٢- مصحف شريف ـ خطه هندى وكتاباته ذات خطين أحمرين وصفحاته ذات اثنى عشر سطرا. واقفه بيفم القدس كاتبه مجهول أهدى سنة ١٢١٢هـ وعرض، بما أن بعض صفحاته فى الآخر قد فسدت وأصلحت بورق خارجى.

١٠٣- مصحف شريف ـ صفحاته ذات أربعة عشر سطرا صفحتاه الأولى والثانية مذهبتان على طريقة هندية وخطه أبيض، وقد ألصق ورق فى بعض أماكنه وكتبت على أطراف الكتابة أسباب النزول وبعض الفوائد القرآنية بخط التعليق وأسلوب خطوطه فارسى وقد كتبت خلف ديباجته وظهرها. عبارة الطالب محمد خان وهو ممهور بخاتم محكوم، خال من اسم كاتبه وقف وأهدى سنة ١١١٥هـ.

١٠٤- مصحف شريف ـ صفحاته ذات أحد عشر سطرا وليس هناك أى علامة لكاتبه وواقفه ولما بلى بدرجة كبيرة جُلِّدَ وقطعت أطرافه كليا.

١٠٥- مصحف شريف ـ ذات غطاء قماش وبلى بدرجة لا يمكن قراءته ومن هنا دفن من قبل المجلد فى البقيع.

١٠٦- مصحف شريف ـ أصابت علامات القدم صفحاته الأولى والأخيرة وقف من قبل سعدية بنت العنبرة خاتون لم يذكر اسم كاتبه وصغير الحجم.

١٠٧- مصحف شريف ـ وقف بيفم القدس اسم كاتبه غير مذكور صفحاته ذات اثنى عشر سطرا كتاباته ذات ثلاث جداول اثنان منها أحمر اللون وواحد منها لازوردى وفى شكل طولى على شكل مجلة وطرز خطه تقليد للقاعدة الهندية.

١٠٨- مصحف شريف ـ وقف أحمد بن الشيخ عبد القادر صفحاته ذات أربعة أسطر لم يذكر اسم كاتبه، صغير الحجم ناقص الأول والآخر بمقدار ما.

١٠٩- مصحف شريف ـ وقف الحاج رجب بن الحاج صالح بك وخط عبد الرحمن بن عثمان الشطارى أفندى نقش أوائله بإكليل ولازورد أخضر من الألوان مرتب الصفحات بخمسة عشر سطراً، ووقف سنة ١٢٦٥هـ.

١١٠- مصحف شريف ـ واقفه ريحان أغا الدرينى وكتاباته ذات خطين ولم يذكر اسم كاتبه وقف سنة ١٢٨٤ وبعض أوراقه مفقودة لذا حدد.

١١١- مصحف شريف ـ وقف السيدة عائشة بنت أزمير صفحاته ذات تسعة أسطر كاتبه غير مذكور وما فوق الآية الكريمة «هنالك الولاية لله الحق» ناقص.

١١٢- مصحف شريف ـ بعض أماكن من أوله وآخره ناقص لا اسم لكاتبه قد أصلح بعض صفحاته ونسى ذكر اسم واقفه.

١١٣- مصحف شريف ـ خطه مغربى وصفحاته ذات أحد عشر سطراً واثنتين من كتاباته ذات جداول أحمر اللون وحداتها لازوردى وذات ثلاثة خطوط ومستطيلة ولكن ذات قطعة غليظة لا اسم لكاتبه وواقفه مجهول.

١١٤- مصحف شريف ـ صفحاته ذات عشرة أسطر وخطه لعلى بن الشيخ أحمد عصفور واقفه مجهول.

١١٥- مصحف شريف ـ كاتبه مجهول وما بعد سورة الكهف مفقود وقف بلال آغا.

١١٦- مصحف شريف ـ خطه خمسة عشر سطرًا قطعه صغير، مجهول الكاتب والواقف.

١١٧- مصحف شريف ـ وقف كريمة الحاج أحمد الفخر صفحاته ذات خمسة عشر سطرا وبخط مصرى مجهول الكاتب.

١١٨- مصحف شريف ـ صفحاته ذات سبعة عشر سطرا ووقف الشيخ بلال مجهول الكاتب.

١١٩- مصحف شريف ـ صفحاته ذات ثمانية عشر سطرا وكتاباتها ذات خط واحد ذهبى وذات ثلاثة خطوط سوداء وبدون اسم كاتبه وقد كتب فى بعض أماكنه عبارة «هذا وقف الروضة فاقرءوا» ومجهول الواقف.

١٢٠- مصحف شريف ـ صفحاته ذات خمسة عشر سطرا وذات كتابة إكليلية ولم يذكر اسم كاتبه وقف الحاجة بنت حواء المصرية.

١٢١- مصحف شريف ـ صفحاته ذات ثلاثة عشر سطرًا ذات كتابة لازوردية، قد زينت ديباجته وذهبت على الطريقة الهندية مجهول الكاتب والواقف.

١٢٢- مصحف شريف ـ خط نعمت خانم وصفحاته ذات ثلاثة عشر سطرا وكتاباته ذات جدولين وبعض أوراقه من أوله مفقودة وواقفه غير معلوم.

١٢٣- مصحف شريف ـ صفحته اثنا عشر سطرا وبين كل سطرين جدول مزدوج، قطعه كبير، مجهول الكاتب والواهب والواقف.

١٢٤- مصحف شريف ـ قد زينت ديباجته على الطريقة الهندية وقد كتبت على أطراف كتاباته بخط التعليق بعض الشروح وذيول سطوره مترجمة وأوائل بعض سوره مصنعة ومشغولة وصفحاته ذات أحد عشر سطرا مجهولة الواقف والكاتب.

١٢٥- مصحف شريف ـ جلده هندى الشكل وصفحته الأولى لازوردية الحبر مصنعة وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا وأطراف كتاباته ذات ترجمة

فارسية ذات قطعة مائلة إلى الكبر وخط سيد جعفر أفندى واقفه مجهول.

١٢٦- مصحف شريف ـ وقف الخان شريف رمضان وصفحاته ذات تسعة أسطر مجهول الكاتب وينقصه سورة الفاتحة.

١٢٧- مصحف شريف ـ صفحاته ذات اثنى عشر سطرا، خطه مصرى واقفه وكاتبه مجهولان أكثر أماكن صفحاته التى تمسك باليد قد أصلحت أوراقها.

١٢٨- مصحف شريف ـ وقف الست المصونة وخط أحمد ابن محمد أفندى صفحاته ذات اثنى عشر سطرا.

١٢٩- مصحف شريف ـ خط مسعدة بنت مبارك بن أحمد زكوان وذات ثلاثة عشر سطرا واقفه مجهول ونصفه ناقص.

١٣٠- مصحف شريف ـ قد طرزت سورة الفاتحة والصفحة الأولى من سورة البقرة والصفحات التى كتبت عليها المعوذتان بحبر ذهبى ولازوردى وأطراف صفحاته الأخرى قدر نصف إصبع قد أثر فيه الماء وكل صفحاته ذات أحد عشر سطرا ولا اسم لكاتبه وختم ذيله بالعبارة الآتية «كنج شاه، نور خان فيروز معز الدولة معين بهادر عباسى» وموقع باسم عبد الغنى خان عباسى.

١٣١- مصحف شريف ـ من آثار «قلس صزا نشار» الهندى وعبد الباقى وطرزه فارسى مذهب ذات إحدى وثلاثين ورقة وصفحاته ذات واحد وأربعين سطرا ولون ورقه سكرى وأطراف كتاباته أزرق فاتح واقفه مجهول.

١٣٢- مصحف شريف ـ فد طبع فى مطبعة سيد عفداد ابن سيد عدل الأفغانى، وذو قطعة مستطيلة وفى ذيول سطوره تفسير فارسى واقفه وكاتبه مجهولان.

أجزاء القرآن الشريفة:

٣٠ جزء - كبير أوسط، صغير القطع لا اسم لكاتبه مطبوع بخط النسخ واقفه مجهول.

٣٠ جزء ـ وقف أمير الحاج عبد الرحمن كتخدا من جبل الأرز لا اسم لكاتب وعلى هوامشها كتبت أصول القراءات السبعة.

٣٠ جزء ـ كذلك من وقف عبد الرحمن كتخدا من جبل الإوز وخط على البغدادى وعلى هوامشها تفسير البيضاوى وبه إشارة إلى القراءات السبع وفى غاية الزينة والتذهيب.

٣٠ جزء ـ صفحاته ذات تسعة أسطر وذات خط عادى وذات كتابة حمراء لا اسم لكاتبه ووقف عبد الله المعصرانى.

٣٠ جزء ـ صفحاته ذات خمسة عشر سطرا صغير القطع فى غاية النفاسة مذهب لا اسم لكاتبه ووقف سعدى أفندى المدير الأسبق للحرم النبوى الشريف.

٣٠ جزء ـ وقف وكيل الخزانة عبد الغنى آغا وخط على شكرى صفحاته ذات أحد عشر سطرا وكتابته حمراء اللون وأماكن وقوفه مذهب بالإكليل صغير القطع.

٣٠ جزء ـ متوسط القطع، وذات جدول بال وأحمر اللون لا اسم لكاتبه وقف المرحوم سنان باشا.

٣٠ جزء ـ وقف أمير الأمراء إبراهيم كتخدا أثر قلم على أفندى ابن رضوان ومذهب.

٣٠ جزء ـ رءوس سوره مذهب على الطريقة الهندية وآخر كل آية مفسر باللغة الفارسية وصفحاته ذات سبعة أسطر لا اسم لكاتبه وقف محمد خالون بن محمد على خان بن عبد الله داد.

١ جزء ـ جزء (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) لا اسم لكاتبه وقف شخص اسمه كنج موسى بن محمد الترشيال بهجت مليار.

٤ جزء ـ وقف الحاج «أحمد بن الحاج عربى الأكش» وخط محمد بن أحمد صفحاته ذات ستة عشر سطرا وأسلوب خطه مغربى.

٣٠ جزء ـ وقف من قبل السيد محمد بن سيد عبد الرزاق الشيخ البراورى فى سنة ١٢٨٧هـ كاتبه مجهول صفحاته ذات أحد عشر سطرا.

٣٠ جزء ـ وقف من قبل «محمد نورى بك» فى سنة ١٢٦٤هـ، وكان أمير آلاى الفرسان الأول للجيش السلطانى فى البلاد، مجهول ناسخه، وصفحاتها تضم أحد عشر سطرا.

١٧ جزء ـ وقف كبير الشاويشية الأسبق أمير احمد من أتباع حسين آغا من جبل الأرز مكتوبة بخط النسخ، وصفحاتها ذات تسعة أسطر، مجهولة الناسخ.

٦ جزء ـ وقف الخازنة «خديجة نورسته» مجهولة الناسخ وصفحاتها ذات تسعة أسطر.

٢٩ جزء ـ وقف الحاج عبد الصمد بن على الدمشقى، وخطها على الطراز المصرى وصفحاتها ذات ثلاثة عشر سطرا، مجهولة الناسخ.

٢٦ جزء ـ هى الأجزاء الشريفة التى أهداها شيخ الحرم أحمد أغا فى سنة ١١٢٠هـ وهى من القطع الصغير، وذات خمسة عشر سطرا، ولا تحمل اسم ناسخها.

٤١ جزء ـ وقف محمد سيد مصطفى وصفحاتها ذات خمسة عشر سطرا، ومن القطع الصغير، مجهولة الناسخ.

٢٩ جزء ـ مصرية الخط، وصفحاتها ذات خمسة عشر سطرا، وقد كتب فى بعض مواضعها عبارة: «هذا الوقف إلى المدينة الطيبة فاقرءوها فى المسجد»؛ ناسخها وكاتبها مجهول.

١٤ جزء ـ وقف حاصر أبى عبد النبى، مجهولة الناسخ، وصفحاتها ذات تسعة أسطر وكتب فى بعض مواضها عبارة «وقف لله»، مجهولة الناسخ والواقف.

١ جزء ـ كتب فى بعض صفحاته عبارة: «وقف الحرم النبوى» وطرز خطه تقليدا للقاعدة المصرية وهو مجهول الواقف والناسخ.

١ جزء ـ وقف الحاج محمود عبد المجيد وأسطر صفحاته سبعة، وهو مجهول الناسخ.

٧ أجزاء ـ وقف أحمد أفندى ـ من أمراء ألوية الجيوش المصرية، أسطر صفحاته تسعة، وهى مجهولة الناسخ.

١ جزء ـ وقف الحاج محمود بن أحمد وأسطر ثلاثة من صفحاته مكتوبة بالخط الثلث والباقى بخط النسخ، ومجهول الناسخ.

١ جزء ـ وقف محمد من جبل الأرز صفحاته ذات سبعة أسطر ومكتوبة على هامشه باللون الأحمر أصول القراءة وناسخه غير معروف.

١٢ جزء ـ وقف خديجة بنت عبد الحى وصفحاته ذات سبعة أسطر، ولا تحمل اسم ناسخها.

٣١ جزء ـ كاتبها وواقفها مجهولان.

٣١ جزء ـ كتب على هامشها بعض الأدعية، مجهولة الواقف والناسخ.

١ جزء ـ وقف الحاج عبد الله أغا، لا يعرف ناسخها.

١ جزء ـ وقف الأمير عثمان كتخدا من جبل الأرز باسم (السيدة شيوه كار البيضاء) وصفحاتها ذات تسعة أسطر وقد كتب على هامش صفحاته بخط أحمر وأخضر أصول القراءة، مجهول الناسخ.

٤ جزء ـ وقد كتب من أول (إنا لنحن الغالبون) (سورة الشعراء) إلى الآية الكريمة (إليه راجعون) ومن سورة بنى إسرائيل إلى (فسوف يكون لزاما)

ومن سورة (ق) إلى آخرها تقريبا وصفحاته ذات خمسة أسطر وكتاباته ذات خط إكليلى.

٢ جزء ـ من آية (التوراة والإنجيل وأخلق لكم من الطين) إلى آية (فى طغيانهم يعمهون) ومن آية (لن تنالوا البر) إلى آية (إذ أعجبتكم كثرتكم) كتبت بحبر ذهبى وبخط الثلث وصفحاته ذات خمسة أسطر ومصنع غاية التصنيع ومذهب وقد رسمت خاتمته من طرف كاتبه (زكريا ابن عبد الله بن محمد بن محمود بدر الهمدانى ومهديه غير معروف).

٣٠ جزء ـ ذات أحد عشر سطرا وذات كتابة بخطين من اللون الأحمر وقف مرجان آغا لا اسم لكاتبه.

٣٠ جزء ـ ديباجته مذهبة وصفحاته ذات تسعة أسطر كتب بخط جميل واقفه وكاتبه مجهولان.

٢٢ جزء ـ وقف شيخ الحرم الحاج أحمد آغا كتب بخط نسخ جميل وكتاباته ذات جدول إكليلى ولا اسم لكاتبه.

٢٧ جزء ـ مطبوع وصفحاته ذات ثلاثة عشر سطرا واقفه وكاتبه مجهول.

٢٠ جزء ـ صفحاته ذات تسعة أسطر وخطه ذات قاعدة مصرية ولا اسم لكاتبه واقفه سنان باشا.

٩ أجزاء ـ صفحاتها فى أحد عشر سطرا، وبخط النسخ وقف عثمان آغا رئيس القصابين لايوجد اسم كاتبه.

١٤ جزء ـ صفحاتها فى تسعة أسطر وذو كتابة إكليلية وهو وقف يحيى أفندى رئيس المستحفظين مجهول الكاتب.

٢٥ جزء ـ وقف مصطفى آغا أمين الخزينة الأسبق للحرم الشريف صفحاتها فى عشرة أسطر كاتبه غير معروف.

٥ أجزاء ـ الأجزاء التى وقفها حسين بن أحمد الخضرى فى عام ٢٣٥هـ أو هى ذات خط مصرى وصفحاتها فى ثلاثة عشر أسطر ولا اسم لكاتبها.

١٣ جزء ـ لا اسم لواقفها ولا اسم لكاتبها.

وهكذا يكون عدد مجموع الأجزاء التى كتبت (٧١٥).

الدلائل[1] الشريفة

١ دليل ـ بخط محمد مختار بن مالك بن أحمد أفندى وخطه ذو طرز مغربى واقفه غير معلوم.

١٦ دليل ـ واقفها وكاتبها غير معروفين كتاباتها مطبوعة.

١ دليل ـ وقف إحصاء بن محمد القبين ذو خط مغربى كاتبه مجهول.

١ دليل ـ واقفه وكاتبه مجهولان مغربى الخط ومجموع الدلائل الشريفة ثلاثون عددا.

(١) بقصد به كتاب دلائل الخيرات للشيخ الجازولى العارف المحقق أبو عبد الله محمد بن سليمان السهلالى الشريف الحسنى المتوفى ٨٧٠ هـ.
قبره بالمغرب يزار، وهو كائن بحى رياض العروس بمدينة مراكش.

فى تعريف وذكر وتفصيل جنس الأشياء النفيسة ومقدار الأشياء المحفوظة فى داخل حجرة السعادة المشحونة بالنور.

عـــدد

(١) مسبحة ـ فى ناحية رأس سيدتنا فاطمة (رضى الله عنها) ذات قطعة كبيرة جوهر مرجان مقدمتها من ذهب، وذات خمسمائة حبة ثمينة، لا يعرف عاملها وواقفها.

(١) مسبحة ـ بدون مقدمة، ذات قطعة كبيرة و ٣٩٥ حبة مجوهرة مرجان واقفها وصانعها مجهولان، ومحفوظة فى ناحية رأس السيدة الزهراء رضى الله عنها.

(١) مسبحة ـ ذات قطعة متوسطة و٩٣ حبة، لا مقدم لها مجوهرة بالمرجان واقفها وصانعها مجهولان ومحفوظة فى جهة رأس السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(١) مسبحة ـ مقدمتها وعلامتها مصنوعة من لآلى صغيرة ذات (شراشيب) وبعض حباتها من الزمرد ذات قطعة متوسطة ذات مائة حبة لؤلؤ.

(١) مسبحة ـ لا نظير لها لا يعرف واقفها محفوظة كذلك فى ناحية رأس السيدة فاطمة.

(١) مسبحة ـ أطرافها ذات علامات فضية، (شرشوبها) من الحرير المخلوط بالقصب (الحرير المقصب) ذات قطعة كبيرة وذات مائة حبة، أهدى ووقف من قبل تاجر هندى مجهول.

مسبحة من العنبر تحفظ كذلك ناحية رأس السيدة المشار إليها، انتهى.

الأشياء المتنوعة

عـــدد

(١) غلاف مصحف، مرصع بالفيروز والياقوت، ومغلف بالذهب، واقفه مجهول، ومحفوظ داخل صندوق محكم.

(١) حافظة مصحف، صنعت من الفيروز والياقوت والزمرد، مغلفة بالذهب، واقفها مجهول، ومحفوظة كذلك داخل صندوق.

(١) حافظة مصحف مصنوعة من الفيروز والياقوت واللؤلؤ، مغلفة بالذهب، واقفها مجهول ومحفوظة فى داخل صندوق.

(١) حافظة مصحف مرصعة كذلك بالفيروز والياقوت واللؤلؤ، متقنة الصنع، وغلافها من الذهب، واقفها مجهول، وموضوعة داخل صندوق متين.

(١) حلة مغلفة بقطعة واحدة من الفضة، مقدمة من رئيس السعادة عمر آغا فى سنة ١٢٣١هـ، محفوظة داخل حافظة ذات زخارف.

(١) رحلة مجهول واقفها، مغطاة بمخمل أحمر، وبعض مواضها مصنوع من الفضة وهى فى غاية الزينة والفخامة.

(١) مروحة واقفها غير معروف، وذات طبقة صغيرة مرصعة بجواهر مثل الياقوت والزمرد، مغلفة بالذهب.

(٢) مروحتان: مقابضهما مغطاة بالفضة، مجهول واقفهما.

(٣) مراوح: مجهول واقفها، مقابضها صنعت على الطراز الهندى، إحداهما مصنوعة من ريش ذيل الطاووس، والأخرى من الشعر والأخيرة لا وجود لنظيرها فى زماننا هذا.

عـــدد

(١) سيف ـ قبضته محاطة بالذهب، حديدى القاعدة واقفه وصانعه غير معروفين.

(١) سيف ـ قبضته فضية، قاعدته ذو كتابة ذهبية على الحديد، وصنعه على الطريقة الشرقية غير معروف الواقف.

(١) جكمجة (صندوق صغير) ـ مصنوعة من الصدف ذات ست زوايا رسومها ونقوشها صينية على طريقة هندية، الماس ـ لا يعرف عياره ومقداره لصغر حجم الذهب.

(٢) سواران ـ واقفه مجهول صنع على طرز خاص بأهالى الأناضول.

(١) مرجان ـ مجهول الواقف، لطيفة المنظر ذات ثلاثة أفرع.

(١) خاتم ـ كحة لك واقفه مجهول قد صنع على شكل شفاف.

(١) قرط ـ من الفضة صنع الأناضول.

(١) قرط ـ من الذهب ومن صنع الأناضول.

(١) السوار[١] ـ ذات قطعة صغيرة مجهول الواقف.

(٣) حلقات[١] قد صنعت من سلك فضى رفيع واقفه مجهول.

(١) قرطان ـ يقال لهذا النوع من القرط عند العرب «ريشمى» صورة صنعه فى غاية الغرابة[٢].

(٢) لافتتان ـ لوزى الشكل فى طرزه وفى وسط كل منها قطعة نقود من ذات عشرين (بارة) وحوالى كل واحد منهما إحدى عشرة سلسلة.

(١) قد علقت فوق هذا السوار والحلقان خمسة أعداد من ذهب الربعية وثلاثة أعداد من ذهب السلطان محمود.

(٢) إن هذه الأقراط ذات نسج وأماكنها التى تعلق منها إلى الآن ذات زينة بحجارة الفيروز.

عـدد

(٣) ذهب ـ هى من الزينات الخاصة بالصبيان تعلق على رأس الأطفال لوقايتهم من إصابة العين بالحسد وعلى كل واحد منها كتابة أحدها صغير والثانى متوسط والآخر صغير واهبهما المعلمان إبراهيم وعمر الشاميان.

(١) قلادة ـ مصنوعة من ثلاثة مثاقيل من الذهب، ومرتبة من رسم شعيرة عددها (٨٦) حبة فى ثقل تسعة دراهم ونصف درهم وقد أهديت من قبل مفتى اللاذقية مجهول الاسم وكريمته مجهولة الاسم أيضا.

الأشياء المذكورة المتنوعة محفوظة فى داخل صندوق مصنوع من النحاس وفى داخل الحجرة المعطرة.

فى ذكر وبيان جنس ومقدار الأشياء التى تبرع بها والتى علقت فى داخل الحجرة المعطرة التى تعدل الجنة.

(١) كوكب درى ـ قطعة من الماس ذات حجم كبير ذات أربع زوايا موضوع فوق قاعدة ذهبية وهى فى الموقع المتصل بضريح السعادة فى الواجهة النبوية الشريفة، قد سطر على الجوهر المذكور عبارة «سلطان أحمد بن محمد»[١] وكان تحت هذا الجوهر قطعة كبيرة من الماس رسمت على شكل نصف بيضة وقد زينت جوانبها بالياقوت وتحت هذا الماس ماسة أخرى ثبتت على قاعدة من ذهب أبيض وتحتها جوهرة أخرى أهديت من قبل السلحدار مصطفى باشا ووضعتا على قاعدة من ذهب أبيض وبما أن كل هذه الجواهر تبرق وتلمع بشدة سميت المجموعة الكوكب الدرى واشتهرت به.

يقول مؤلف «أثمار التواريخ» شمعى أفندى بناء على تحقيق «قد شريت قطعة الماس التى تسمى «كوكب درى» بخمسين ألف ذهب موضوعة وسط لوحة ذهبية تتكون من ٢٢٧ قطعة ذى قيمة من الجواهر».

(١) لوحة ذهبية ـ أهديت من قبل صاحبة البر والإحسان (عادلة) السلطانة علية الشأن وهى حرم المرحوم محمد على باشا قبطان البحر الأسبق وكريمة السلطان محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول، وهى معلقة فى مواجهة السعادة وطرفاها مرتبان بشرائط مرصعة كما أن وسطها مزين بأزهار مرصعة وفي وسطها كلمة التوحيد الجليلة قد نقشت فوق

(١) هو بانى الجامع الذى شرع فى بنائه سنة ١٠١٨ وتم بناؤه سنة ١٠٣٦ وهو السلطان الغازى أحمد بن السلطان محمد خان الثالث.

الذهب بأغلى أنواع الملبس وكتبت ذات سلسلة ذهبية وذات ذوائب من اللؤلؤ فى زنة[1] خمسة وأربعين صفا وفى شكل بيضة النعامة.

(١) تعليقة ذهبية ـ هدية حضرة السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثانى، وهى مزينة بأحجار الفلمنك على مبينة خضراء ولازوردية، ومرصعة بثلاث قطع من الطغراء السلطانية وذات سلسلة ذهبية وذات ذوائب من اللؤلؤ فى زنة خمسين صفًا وفى صورة بيضة النعامة.

(١) تعليقة كبيرة من الزمرد ـ وهى هدية من حضرة السلطان مصطفى خان الثانى بن السلطان أحمد خان الثالث وهى ذات ثلاث زوايا، وفى زاويتين منها عقد ذهبية مرصعة ، وفوق كل عقدة مزين بالماس فى شكل القبة ومربوطة بالسلاسل، وقد عقد فوق السلاسل بأزرار من الياقوت، ورأس التعليقة الأصلى المرصع تحت تلك الأزرار التى سبق ذكرها تحتها وفوقها أنه واحد وخمسين صفحة ذات ذوائب ياقوتية.

(١) تعليقة كبيرة من الزمرد ـ هدية السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان الثالث وهى ذات ست زوايا وذات زرين وفوقها على شكل قبة مزين بالماس والياقوت وقد ربطت قبته من فوقها بسلسلة ذهبية إلى حجر من الفلمنك[2] وسلسلتها ذات زاويتين وصف عليها صفان من قطع الماس قد صنعت قاعدتها من ست قطع حجمها متوسط وفى وسط القاعدة كتبت عبارة (السلطان أحمد خان الأول بن السلطان محمد خان الثانى سنة ١٠٦٩هـ وبين الزرين كتبت جملة (قيمتها ٦٠٠٠ قطعة ذهبية).

(١) تعليقة من الجوهر وهى هدية ممتازة محاطة بالذهب من طرف السلطان عبد الحميد خان الأول، الأبيات رأس تعليقة مزينة ومرصعة بأحجار الماس وفوق رأس التعليقة حبة من الزمرد مستديرة تقريبًا فى زنة خمسة وعشرين

(١) طارطى زنة (صف واحد) ويساوى ٤٥ ديزى مثقالا واحدا، وكلما قل ديزى زنة المثقال كلما زادت قيمته.
(٢) يقال لحجر الفلمنك السفلى ذات ست قطع، والأوسط ذات اثنتى عشرة قطعة، والعلوى ذات ثمانى عشرة قطعة ويعرف ذات اثنتى عشرة قطعة بالنصف، وذات ثمانى عشرة قطعة بالكامل.

قيراطا وفوق هذه الحبة صينية ذهبية وفوق هذا الحجر الزمردى قطعة كبيرة عريضة وفوق هذا الحجر زمردة معيوبة وأخرى مرصعة كبيرة وفى اتصالها رأس تعليقة أخرى صنعت أطرافها بنوع من الماس وعلى اسم ناجى القادرى وفوق جناحى ١٤ عددا من اللؤلؤ ذات حجم متوسط وكبير وأحدهما ذات زنة سبعة عشر صفا من اللؤلؤ والآخر ذات ثلاثة وستين عددا بين اللؤلؤ الكبير، وعددان من الذوائب ذات زنة مائة تسع وعشرين من اللآلى، وفى رأس كل شرشوبة زمردة مستقلة كبيرة وسلسلة طويلة ذات ثلاثة أشياء من الفضة، ومسبحة ذات خمس وأربعين حبة من اللؤلؤ، وقد سقطت إحدى حبات الزمرد التى أحصيت ولكنها محفوظة فى مكانها.

(١) تعليقة مرصعة ـ واقفها غير معلوم إلا أن رسمها وشكلها ونفاسة صنعها تدل على أنها وقف أحد السلاطين العثمانيين السعيد، وهى ذات ستة أعداد من الزمرد وذات أزرار مرصعة وزنها ثمان وأربعون صفا ذات شراشيب لؤلؤية مزينة بست قطع من الماس ولا سلسلة لها وثلاثة من أزرارها ذات ست زوايا وكبيرة وواحد منها مستو واثنان منها مقوس، إلا أنها أصغر من حيث القطعة من ذات الزوايا.

(١) تعليقة مرصعة ـ واقفها مجهول وشكلها على رأس الراية غلاف أحد طرفيها ذهب والآخر فضة ومزين بالياقوت والزمرد والفيروز واللؤلؤ ورصع وسطها بجوهر نفيس تشبه حجر (روقو قونجق)[1] ذات حجر نجفى وذات حبتين من نجف وذات سلسلة فضية.

(١) تعليقة مرصعة ـ ذات غطاء ذهبى وعلى طراز نوع من الأزهار التى تشبه السمك مجهولة الواقف.

(١) تعليقة مرصعة ـ يفهم من هيئتها المرئية أنها صناعة الهند، فى وسطها نوع

(١) (روقوقونجق) هو حجر بنفسجى اللون ويعبر عنه الصناع باسم (جيرتوقوم).

من جوهر كبير يشبه الحجر الذى يطلق عليه سيلان[1] وفوق هذا الجوهر حجر أصغر من نوع الحجر الذى على لون سيلان وتحت الجوهر الكبير حجر فى خمس حجمه ولكنه من نفس النوع، وحول الجوهر الكبير عددان من الجوهر الذى يطلق عليه (كبيرى[2]) أحدهما مقوس والآخر مستو والكبيرى من جنس الياقوت وعددان آخران من الزمرد الفاتح وبعض اليواقيت صغيرة الحجم وتحتها جوهر ذات خمس قطع شبيه بالزمرد الزبرجد الصغير وعدد من جواهر الماس وزر من الزمرد يزن ذيله خمسة قراريط يقينًا، وفوق هذا الزر خمس قطع من حجر (روزه) وكلها من الزبرجد والفيروز وفوقها ياقوت وفوقها زمرد وياقوت وقد زينت تسع قطع من سلاسلها الفضية التى تربط بين أجزاء بعضها ببعض بقطع زبرجد صغيرة.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف مصنوعة على شكل سلسلة الساعة القديمة أولها وأخيرها ووسطها زينت بحبات اللؤلؤ والزمرد الصغيرة.

(١) تعليقة مرصعة ـ وقف السيدة نورس، زوجة المرحوم نافذ باشا وهى ذات أحجار من الفلمنك مرصعة على مينا مشبك وذات نجوم خضر وذات ثلاث وردات وست زهرات لوز، وخاتم ومدى وكلها مشغول بحجر الفلمنك وذات سلاسل فضية.

(١) تعليقة مرصعة ـ وهى من السيدة فاطمة كريمة المرحوم نافذ باشا وهى ذات سلاسل من الفضة، وذات أحجار من الفلمنك مرصعة على مينا خضراء مشبكة، وذات نقوش، ومع هذا فهى ذات ثلاث وردات وستة أعداد من زهر اللوز فى الصنع ولها زر مثل خاتم على شكل ورد وكل هذا مزين بحجر الفلمنك.

(١) تعليقة مرصعة ـ فهى أثر نادر من آثار المرحوم السلطان محمد خان الثانى بن

(١) من ناحية القيمة فإنه أغلى من النجف وهو جوهر قرمزى اللون فاقع.

(٢) وهو من نوع الياقوت وهو جوهر أحمر اللون فاقع.

السلطان عبد الحميد خان الأول ومزينة بحجر الفلمنك وهى ذات ورود عددها ثمان وثلاثون منها الكبير والصغير ومع ذلك فهى مزينة وذات زرائر زنتها ثلاثة عشر صفا وذات ذوائب لؤلؤية وذات سلاسل ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة ـ فهى هدية قيمة من السلطانة مهرشاه والدة المرحوم السلطان سليم خان الثالث ابن السلطان مصطفى خان الثالث على شكل قنديل بللورى وذات سلسلة ذهبية ومزينة بحجارة الفلمنك وروزه ذات ستة وجوه وكلها مرصعة بالذهب.

(١) تعليقة مرصعة ـ واقفها غير معروف وهى من الذهب المشبك بأكملها ذات ستة أوجه مرصعة بأحجار الماس والزمرد والياقوت وعلاقتها مزينة بالزمرد الصغير وذات سلسلة ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة مجهولة الواقف كذلك، مصنوعة مع غطائها من الذهب وقد صنعت جهاتها الثلاث من قطع الماس والزمرد والياقوت والجهة اليسرى منها كذلك غطائها قد زينت من زنة أربعة وخمسين صفا ستة من صفوفها ذات ذوائب لؤلؤية.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف كذلك، قد صنعت سلسلتها من الذهب وعلى طرفيها عدد واحد كبير وفى وسطها ثلاثة أعداد صغيرة من الزمرد وعلى شكل القمر النصفى.

(١) تعليقة مرصعة مجهولة الواقف كذلك، مشبكة الصنع وعلّاقتها مرصعة زنة صفين وذات ستة وثلاثين عدد من اللؤلؤ وذات اثنى عشرة وجه من ما بين الفلمنك وذات سلسلة ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف مصنوعة من الفضة وقد زينت وسطها بِصَف وأسفلها بصفين من قطع الماس والأواتب المعلقة على أطرافها على شكل القمر تنتهى بثلاثة أحجار ومكان العلاَّقات مرسوم بالشروط ومشبك ومزين.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف ومصنوعة من فضة مشبكة ذات رسم خاتم وردى ذات خمس عشرة قطعة وذات ستة وجوه قد زينت بحجر الفلمنك وذات نقوش.

(١) تعليقة مرصعة ـ وقفت من طرف مصطفى بك ابن تحسين بك من صدور عظام السلطان أحمد خان الثالث بن سلطان محمد ذات ست شموع مغطى وذات سلسلة، وهى محلاة فى بعض أماكنها بالياقوت والزمرد وأعلاها بالفضة وفى وسطها طوق مزين بالياقوت والزمرد كذلك قاعدتها، وهى نجفة على شكل إناء ماء.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف أسفلها مشبك وذات أزهار بارزة على شكل القمر حولها وذات سلسلة ذهبية وذات علاَّقة ذهبية فى قيمة ثلاثة صفوف.

(٢) تعليقة مرصعة ـ هدية المرحومة السلطانة ريحانة فى سنة ١٢٢٨هـ وهى مصنوعة من الذهب ذات لون ليلاقى فاتح ولها مينا لازوردى وذات غطاء ذهبى ولها سلسلة ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السلطانة أسماء زوجة قبطان البحر حسين باشا الصغير وكريمة السلطان عبد الحميد خان الأول بن السلطان أحمد خان الثالث، ذات زخرفة ذهبية مشبكة على شكل ثريا ستة فروع ذات قطعة متوسطة.

(١) تعليقة مرصعة ـ وقف السيدة نوفدان رئيسة نساء السلطان محمود خان الثانى مشبكة فمها على شكل نصف الشمس وذات شراشيب فضية ومصنوعة من الفضة.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السيدة نوفدان أيضا مصنوعة من الفضة وهى على شكل الزهرية ومحل القنديل مشبك وذات صنعة بارزة وقد عقد وسطها بعقدة الستارة بصورة فنية وذات شراشيب فضية وذات سلسلة فضية.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السلطان أحمد خان الثالث حلقها زمردة فى شكل ورقة شجرة ووسطها مزين بالياقوت ذات طوق ذهبى وسلسلة ذهبية فى شكل قلة ماء.

(١) تعليقة مرصعة ـ قد قدمت من طرف السيدة قمر الثانية من حرم حضرة السلطان محمود خان الثانى وهى مشبكة على رسم سطل وذات علاقات على شكل سمك «بلامود» مصنوعة من الفضة.

(١) تعليقة مرصعة ـ هى الهدية العلية من السيدة أسماء السلطانة سالفة الذكر كريمة السلطان عبد الحميد خان الأول وهى ذات أزهار مبرزة وشبكة وحللها ذات أوراق مثل أوراق الملفوف وذات سلسلة على شكل أوراق الشجر ومحل شراشيبها ذات علاَّقات فضية وقطعتها كبيرة.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السيدة عشق بيجان والدة السلطان صالحة عليه الشأن زوجة خليل رفعت باشا رئيس الهند السابق وكريمة السلطان محمود خان الثانى ممولة من الفضة وفى شكل السطل وذات تعليقة على شكل سمك «بلامود» وذات صنعة راقية.

(١) تعليقة مرصعة ـ قدمت من طرف والدة السلطان عبد المجيد خان والد الخليفة كثير المحامد ومصنوعة من الفضة ذات ثلاثة قناديل وسلاسلها ذات زخرفة ذهبية ذات قطعة متوسطة ومعلقة ناحية رأس السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وصلى الله وسلم على أبيها.

(٢) تعليقة قنديل ـ واقفها مجهول مصنوعة من الفضة المشبكة ذات غطاء ومائلة للعرض إحداها متوسطة والأخرى صغيرة وهى مكسورة غير صالحة للاستخدام.

(١) تعليقة من الفضة ـ وقف مصطفى بك ابن تحسين بك من الصدور العظام ابن المحصل الأسبق لقبرص الحاج محمود آغا الشامى ذات ست شموع ذات غطاء وسلسلة.

(٣) تعليقات فضة ـ واقفها مجهول مصنوعة من الفضة على طرز قديم ذات سلسلة فضية كمثرى الشكل متوسط القطعة جميلة الصنع.

(٢) تعليقتان من النحاس ـ مجهولتا الواقف مصنوعتان من النحاس أحدهما عادية على شكل كرة بسيطة جميلة والأخرى مزينة بمائة وأربعة أعداد من حجر عتيق على رسم زاوية مصنوعة فى بلاد الغرب.

(١) تعليقة فضة ـ قدمت من طرف «غلام عباسى رو أمين جيد آباديى» من أهالى الهند: وصنعت على طرز هندى أسفلها من الفضة ولكنها قديمة.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ وقف المرحوم خسرو باشا من وزراء محمود خان الثانى ذات ثلاث شموع ومشبكة وذات زخرفة ذهبية قطعتها مائلة للكبر.

(٢) تعليقة إناء القهوة ـ وقف محمد طيفور آغا مصنوعتان من نحاس مموه بالزنك.

(١) تعليقة من فضة ـ واقفها مراد ميرزا ومعلقة على صندوق فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) وصنعت على شكل زهرة من ستة وأربعين درهم فضة ومحكوك أعلاها عبارة بالفارسية «من أتباع إيران مدير النواب العلاة، نواب الشرف والاحترام سلطنة السلطان مراد ميرزا».

(١) فانوس من الزجاج ـ عضادته من الفضة واقفه الحاج على أفندى ابن السائس.

(١) طرة ـ مغلفة بالذهب ومزينة بأربعين ياقوتة وخمس وعشرين زمردة زنة صفين من لؤلؤ مجهول الواقف الزمردة فى وسطها مائلة إلى الكبر وصناعته قديمة.

(١) تعليقة قنديل من الذهب ـ مجهولة الواقف مصنوعة من الذهب المشبك ذات شراشيب من اللؤلؤ زنة تسعة صفوف.

(١) تعليقة قنديل من الذهب ـ واقفها غير معلوم كذلك مصنوعة من الذهب صغير الحجم.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ واقفها مجهول كذلك مصنوعة من الفضة ذات سلسلة مزخرفة بالذهب.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ من وقف إبراهيم آغا محافظ ينبع ومن رؤساء بوابى الباب العالى، وعلى شكل الثريا وذات أماكن للشموع وسلسلتها ذات غطاء.

(٦) تعليقة قنديل من الفضة ـ مجهولة الواقف وعلى طرز قنديل زجاجى وقد صنعت مع سلاسلها من الفضة العادية.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ أهدى القنديل الأول من قبل سلطانة فاطمة والآخر من زينب خانم الصغيرة والثالث من السيدة خوشياد والرابع من السيدة (دل سرا) والخامس من الحاضنة بأدره والسادس من الحاضنة تفافل وهى شبكة مصنوعة من الفضة ذات صنعة قديمة ومتوسطة القطعة.

(٩) تعليقة قنديل من الفضة ـ واقفوها مجهولون مصنوع من الفضة بعضها شبك وبعضها دقيق الصنع وفوق علاَّقة أحدها عدد علق واحد من الذهب الفازى وكلها تقريبًا قديم الصنعة ذات قطع صغيرة ومتوسطة.

٥٩٧ سلسلة من الفضة ـ من هدايا السلطان محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول على أحد أطراف كل واحدة من محافظها عبارة «خادم الحرمين الشريفين ٢٥٣» وأطرافها الأخرى كتبت طغراء غراء «محمد العدلى» وقد علقت ثلاثمائة وثلاثون منها داخل الحرم الشريف ووضعت مائتان وأربع وستون فى خزينة حجرة السعادة داخل صناديق.

٣٩ سلسلة فضة ـ هدية من خديجة سلطان كريمة حضرة السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان أحمد خان الثالث وكتب عليها اسم المشار إليها.

١٥ سلسلة فضية ـ مقدمة من قبل شيخ الحرم الأسبق حافظ عيسى آغا.

٢١ سلسلة فضية ـ وقف من عنبر آغا شيخ الحرم الأسبق.

١١ سلسلة فضية ـ قدمت من قبل وكيل الخزانة على جوهر آغا الإبرى.

٥٠ سلسلة فضية ـ قدمت من قبل مصطفى بن رجب آغا.

٧١ سلسلة فضية ـ واقفوها غير معروفين.

٧٥ سلسلة ذهبية ـ قدمت من قبل السلطان محمود خان الثانى وخاصة بالقناديل المعلقة فى حجرة السعادة.

(٤) أكرة رأس الشبكة ـ هدية السلطانة «برتوبياله» والدة المرحوم السلطان عبد العزيز خان أوجهها ذات رسوم نصف قمر وأطرافها مزينة بماس برلنت ومصنوعة من فضة خالصة وموضوعة على زوايا صندوق قبر والدتنا فاطمة (رضى الله عنها).

(٢) وفى بيفم القدس من حكام الهند من فضة خالصة وهى شكل دبوس «آلة حرب» وفى ثقل مائة وتسعين درهما.

(١) رأس راية وقف بيفم القدس كذلك وهو من فضة فى رسم كف «المخلب» وهو فى وزن مائتين وأربع وعشرين ونصف درهم.

(١) خاتم ورد واقفه مجهول وهو مصنوع من سبع قطع من الماس وحجرين من الفلمنك وفى وسطه قطعة ماسة برلنت ذات خمسة قراريط وأطرافها مزينة بتسعة أعداد من قطع الماس «برلنت»[1] ذات أحجام صغيرة وكبيرة.

(١) إبر مجوهرة هدي السيدة الثانية خوشيار من حرم السلطان محمود خان الثانى ذات خمسة وثلاثين قيراطا مرصعة بأربعة أعداد من ماسة «برلنت» وسطها مزين بحجر ذات قيراطين ونصف قيراط وعلى شكل زهرة.

(١) إبر مجوهرة هدية فاطمة هانم المتواضعة زوجة عبد العزيز بك من ضباط دار الهندسة السلطانية مزينة بحجر «روزه» وعلى شكل نجمة.

(١) إبر مجوهرة وقف السيدة نورس زوجة المرحوم نافذ باشا ناظر المالية الأسبق

(١) يقال لدى الصياغ على الدرجة الأولى من ما س(برلنت) لوندره أو إنجلترا وعلى الدرجة الثانية منه قراوانة.

وهى فى ثقل ثمانية عشر قيراطا ومزينة بحجر من الماس ومصنوعة من الفضة وهى فى رسم زهرة من تسعة فروع.

(١) إبر مجوهرة قد قدر من طرف نيبة هانم والدة والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا، قد ركبت قطعة ماس برلنت على فضة وفى رسم زهرة.

(١) زهرة من الماس أرسلت من قبل بفم القدس من حكام الهند ذات شراشيب بثلاثة عشر صفا من اللؤلؤ وما بين اللآلئ وأطرافها مشغول بقطع من الزمرد وأعاليها مشغولة بقطع واحدة من حجر الياقوت كما أن لوحتها قد شغلت فوق مينا خضراء بماس هندى وسرتها مزينة بماسة برلنت لوندريه فى زنة قيراطين ونصف قيراط وموضوعة فوق أوراق زمردية فهى تحفة بديعة المنظر.

(١) دبوس مجوهر (بروش) قد أرسل ليعلق على صندوق قبر السيدة فاطمة ـ ـ رضى الله عنها ـ والدتنا من قبل الحاضنة الخازنة شمس وهو أثر نادر قد زين وسطه بحجر زمرد كبير الحجم وحول هذه الزمردة زهرة ذات أربعة أوراق صغيرة وخمسة أوراق كبيرة وجهة الزهرة اليمنى ذات أوراق كبيرة وصغيرة وأعلاها على شكل برعم الورد ومتشعب على ثلاثة أفرع من الذهب ومزين بماسة لوندره ذى مقبض مرصع وقطعته كبيرة طبيعية.

(١) إبرة مجوهرة مرسلة من طرف مدير نواب سلطنة السلطان مراد ميرزا من أتباع الإيران لتعلق على صندوق والدتنا المشار إليها مزينة بحجارة ذات ثقل قيراطين ونصف من ٦٨ عددا من حجارة روزه.

(١) اللوحة المجوهرة هدية علية لحضرة صاحبة البر والإحسان السلطانة عالية الشأن الزوجة الجليلة للمرحوم محمد على باشا قبطان البحر الأسبق وكريمة السلطان محمود خان الثانى جعل مثواه الجنة قد صنعت السلسلة التى ستعلق بها من الفضة وعلى زواياها الأربع زهرة مزخرفة بماس برلنت وكتب بديباجتها لفظ الجلالة بخط نفيس على حجر منحوت من معدن النجف الذى

يظهر فى الجبل الأحمر بالمدينة، وقد رصعت أطراف هذا الحجر باثنى عشر عددا من الياقوت الأحمر وأطراف هذه اليواقت زينت بقطع ماسات كثيرة وذيلها مرصعة بجواهر البرلنت بعض أبيات فى رثاء كما زين أسفلها.

(٢٢) لوحة الحلقة الشريفة أهديت من قبل السيدة نوفدان من حريم السلطان محمود خان الثانى أطرافها مزخرفة ذات إطار فضى وداخلها مشغول باللؤلؤ وبالخيوط الذهبية على المُخَمَّل الأخضر وظهرها مصنوع من الفضة ومزخرف، كبيرة الحجم وعليها صورة الشمس وجهاتها الأربعة ذات قضبان فضية وفرقها مزينة ببرلنت لوندره حيث رسم اسم النبى ﷺ.

فى ذكر وتعريف أطقم البخور والسكات من الفضة والذهب والمحفوظة فى داخل الحجرة المعطرة والتى تخرج كلما اقتضت الحاجة إليها.

عـــدد

(٣) أدوات البخور المجوهرة واقفها مجهول، مصنوع من الذهب المجرى وأوراقها التى تحت قنينة الماء وأعلاها مزينة ببرلنت قراوانة فى وزن خمسة وعشرين قيراطا وتتكون من ٣٩٥ درهم من الذهب وإحداها قنينة ماء والثانية مجمرة والثالثة صينية.

(١) قنينة ماء من الذهب وقف السيدة خوشيار من حريم السلطان محمود خان الثانى وسطها ربطت بستارة من برلنت والورقة السفلية من أعلاها ذات أزرار من برلنت ومجموعها معمول من أربع وثمانين درهم من الذهب وهى منقوشة بمهارة.

(١) مجموعة ذهبية هذه أيضا هدية المشار إليها وهى ذات أربعة أرجل وأطرافها ذات نقش ملتو أسود وموضوعة على صينية ذهبية ومصنوعة من ٢٠٣ درهم من الذهب وأوراق أزرارها مزينة ببرلنت قراوانه وهى ذات منظر عجيب وغاية فى الجمال.

(١) عُلْبَة بخور مجوهرة هدية لا نظير لها للسيدة خوشيار من حريم السلطان محمود خان الثانى والتى صيغت من الذهب ذات تسعة وثلاثين درهما وزينت العلبة من فوقها باثنى عشر عددا زنة كل واحد منه فى ثقل وزن حبة ونصف حبة من حبات القمح كما زينت أطرافها ببرلنت فى ثقل ثلاثة عشر

قيراطا من برلنت شبيه بكثير من طوباج[1] وداخل غطائها مزين بمينا ذى لون لطيف وخارج الغطاء ذات أرضية وردى اللون وعليه رسم موقع رأس الرأى فى إستانبول.

(٥) مجموعة البخور مع الصوانى.

الذهب	عـدد	
٧٠٧	١	صينية طولانية.
٢٨٦	١	قنينة ماء مع قاعدة ذات قوائم أرجل القواعد.
٤١٧	٢	مبخرة مع قواعدها ذات قوائم ذات مينا.
٧٦	١	مبخرة مع قاعدة من الساج خشب ساج.
١٤٨٦	٥	

وتلك الأشياء الغالية ذات مينا خضراء ولازوردية وأزهار منسوجة وهى مصنوعة فوق الذهب وكلها فوق صينية طولية مزينة بمينا أزرق غليظ ومهداة من طرف كلزار هانم والدة المرحوم إلهامى باشا بن عباس باشا والى مصر الأسبق.

(٤) مباخر وقنينة ماء من الذهب.

الذهب	عـدد	
٣٧٠	١	مبخرة مع.
١١٢	١	قنينة ماء جميلة.
١١٠	١	قنينة ماء منقوضة.
٣٧٦	١	مبخرة.
٩٦٨	٤	

الأشياء النفيسة المذكورة أهديت وعرضت من قبل خديجة سلطان كريمة المرحوم مصطفى خان الثانى.

(١) الطوباج: نوع من الجوهر يشبه النجف، أبيض اللون.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الذهب هدية والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا موضوع على منضدة ذات قوائم ذهبية وأرضية مينا وردية اللون وأعاليها ذات أوراق ذهبية من مينا وأسافلها ذهب على أرضية ميناء أزرق.

(٤) قنينة فضية ومبخرة.

٢ قنية ذات قوائم وأوراق
٢ مبخرة ذات منضدة
٤

الأشياء النفيسة التى ذكرت قدمت فى عام ١٢٧٤هـ من قبل برستو قادين الرابعة من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد خان.

(٤) قنينة ماء ومبخرة من الفضة

٢ قنينة ذات قوائم وذات أوراق
٢ مبخرة ذات منضدة
٤

قد أهديت الأشياء المذكورة من قبل والده المرحوم السلطان عبد العزيز خان سنة ١٢٧٤هـ ومصنوع من فضة خالصة.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الفضة

١ قنينة ذات قوائم وأراق
١ مبخرة ذات منضدة
٢

هدية شايسته هانم الثالثة من حريم السلطان عبد المجيد خان من الفضة ومزخرفة وكبيرة الحجم.

(٤) ٢ قنينة ماء

٢ مبخرة ذات منضدة
٤

هدية خوشيار هانم من حرم السلطان محمود خان الثانى

(٤) قنينة ماء ومبخرة

١ صينية من الفضة
١ مبخرة كبيرة ذات منضدة
٢ مبخرة صغيرة ذات منضدة
٤

من تبركات النفيسة رأفت هانم من حريم السلطان سليم خان الثالث.

(١٠) قنينة ماء ومبخرة من الفضة.

٤ مبخرة كبيرة أغطيتها مزينة
٢ قنينة ماء بالورد
٤ شمعدان بخور صغير إلى حد ما والمباخر مزخرفة وأسفلها ذات طرة مزدانة بالجوهر وذات أوراق سداسية.

هدية جليلة تفضلت بإهدائها إلى الروضة المطهرة فى عام ١٢٧٤هـ عادلة سلطان صاحبة البر والإحسان كريمة المرحوم السلطان محمود خان.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الفضة.

١ قنينة ماء كبيرة
١ مبخرة حدما
٢

هدية قدمتها ذواقة الطعام المعلمة لبابه فى عام ١٢٤٠هـ صناعة قديمة ومنقوشة.

(٢) قنينة ماء ورد ومبخرة من الفضة.

١ قنينة ماء
١ مبخرة
٢

هدية زوجة أمين المعادن حافظ مصطفى باشا خواجة أمنية هانم وذات صنع قديم.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الفضة.

١ قنينة ماء
١ مبخرة
٢

مجهولة الواقف على شكل الفستق وشم عادى.

(٤) قنينة ماء ورد ومبخرة من الفضة.

٢ قنينة ماء ورد
٢ مبخرة
٤

وقف من فاطمة قادين وهى صغيرة الحجم

(٣) قنينة ماء ورد ومبخرة.

٢ قنينة ماء

١ مبخرة

٣

وقف بسيم أغا المصاحب صغير الحجم

(٢) قنينة ماء ورد ومبخرة

١ قنينة ماء

١ مبخرة وذات صنع قديم

٢

وقف سنبل أغا رئيس أغوات السلطانة هبة الله.

(٢) قنينة ماء ورد ومبخرة

١ قنينة ماء

١ مبخرة

٢

واقفها غير معروف ذات صناعة هندية كبيرة طويلة وأسفلها مصنوع من الفضة.

(١) ومبخرة من الفضة

١ مبخرة عنبر

أهدى فى سنة ١٢٣٥ من قبل على أغا رئيس الحلاقين ذات طرز قديم فى الصنع.

(١) مبخرة من الفضة

١ مبخرة كبيرة

واقفها غير معروف ذات صنعة قديمة

(١) مبخرة من الفضة

١ مبخرة صغيرة

واقفها مجهول ذات صنعة قديمة.

(١) مبخرة فضة

١ مبخرة

قدمت من طرف الحاضنة كلفرين صغيرة الحجم وقديمة الصنع.

(١) مبخرة فضية

١ مبخرة

واقفها مجهول ذات صنعة قديمة وبدون غطاء.

(١) مبخرة ذهبية

١ مبخرة	مصنوعة من ذهب مشبك وقف لأزاد على محمد بك مدير أعمال والى مصر الأسبق محمد على باشا.

(٤) ومبخرة وقنينة ماء من الفضة

٣ مبخرة	أغا باب السعادة محمد طيفور أهداها سنة ١٢٦٠ صغيرة الحجم ومزخرفة بالذهب.
١ قنينة ماء	
٤	

(١) مبخرة من الفضة

١ مبخرة	واقفها غير معلوم

(١) علبة بخور فضية

١ علبة البخور	واقفها غير معروف

(١) شمعدان البخور من الذهب هدية السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد خان الأول مصنوعة من الذهب موضوعة فوق منضدة ذات ثلاث قوائم ومصنوعة من تسعين مثقالا من الذهب ومشجرة ذات تسعة فروع.

(١) تعليقة بخور من الفضة واقفها غير معروف وهى ذات زخرفة ذهبية وسلسلة فضية.

(١) تعليقة بخور من الفضة أرسلت من قبل رئيس الخزنة فى سنة ١٢٤٠هـ وهى مجهولة الاسم ذات نقوش ذهبية مشبكة على طرز قديم وذات سلسلة فضية.

(١) تعليقة بخور فضة أرسلت من قبل السلطان عبد الحميد خان الأول فى سنة ١١٩١هـ ذات سلسلة فضية وزخرفة ذهبية وصناعة دار سك النقود السلطانية العامرة.

(٤) مباخر فضية ومناضدها

٢ مبخرة	الهدية التى عرضها الهندى حبيب فى سنة ١٢٧١هـ صناعة هندية ذات غطاء مشبك وذات مقبض داخلها ومكان نارها فى غاية الدقة فى الصنعة.
٢ منضدة	
٤	

(١) مبخرة فضية غير معروفة الواقف على شكل شمعدان

(١) تعليقة مبخرة ذهبية كذلك واقفها مجهول ذات ثلاث سلاسل ذهبية وفى ثقل ٦٨٤ درهما وعلى شكل تعليقة القهوة.

(١) مبخرة فضية واقفها مجهول أيضا وهى على شكل فانوس توضع على القاعدة ومصنوعة من الفضة مشبكة، وأعلاها نجف على شكل اسم (على) ومزينة بقطع الماس الصغيرة وفى غاية الغرابة.

(١) علبة خشب عود مصنوعة من الفضة هدية من نقش فلك هانم وهى ذات مقبض منقوش.

(١) علبة بخور واقفها مجهول وهى مصنوعة من الخشب العادى وهى ذات غطاء من الفضة.

(١) طبق بخور من الفضة أهدى من قبلالرستو هانم فى عام ١٢٧٤هـ وهى من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد خان وهو صغير الحجم.

(١) صينية بخور من الفضة وهى ذات قطعة متوسطة تم تقديمها من قبل فاطمة هانم زوجة المرحوم طوسون باشا شيخ الحرم الأسبق.

(٤) صينية بخور من الفضة من الهدايا التى أرسلت فى عام ١٢٧٤هـ من قبل عادلة سلطان كثيرة البر والإحسان كريمة السلطان محمود خان الثانى واثنتان منها صغيرة والأخرى متوسطة.

(١) صينية بخور من الفضة هدية من السيدة شايسة وهى من حريم المرحوم السلطان عبد المجيد وهى طولية الشكل.

(١) صينية بخور من الفضة وهى هدية من بروتوبيالة سلطان والدة المرحوم السلطان عبد العزيز خان وهى مربعة طولية ولونها أبيض وذات مقبض.

(١) صينية بخور من الفضة وهى هدية من السيدة برستو من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد خان ولونها أبيض وذات مقبضين.

(١) جاروف نار فضى من أجل البخور هدية من إحدى حريم السلطان عبد المجيد وواحد منها مشبك جميعه وواحد منها فتحته الأمامية مشبكة ومذهبة والآخر بدون مقبض ومكسور.

فى ذكر تفصيل الشمعدانات والأشياء الأخرى المحفوظة فى داخل حجرة السعادة جنسها ومقدارها والتى تستخدم كلما دعت الحاجة إلى استعمالها.

(٢) شمعدان من الذهب.

١ شمعدان مع مكان للشمع هدية والدة السلطان محمود خان الثانى
١ مائدة الشمعدان ذات قطعة متوسطة وقد صنع مع مائدته
٢ من الذهب.

(٢) شمعدان ذهبى ذات قطعة
متوسطة وهما شمعدانان متوسطان للحرم أرسلا من والى مصر الأسبق محمد على باشا مصنوعان من الذهب ويجهل مكان شمعة أحدهما.

(١٢) شمعدان ذهبى مجوهر مع فتحة شمعدان ومنضدة وشمعدان

٢ شمعدان ١ كبير
١ وسط
٢

٢ شمعدان

٤ منضدة لفتحة الشمعدان محفورة أطرافها على شكل صينية

٢ قمع شمعدان
١٠

٢ قمع الشمعدان المزخرف على شكل صينية هدية المعلمة شوق نهال الخازنة.
١٢

وقد أرسل إضافة إلى القمعين اللذين سمحا بإرسالهما للمعلمة شوق نهال، عشرة أطقم من الشمعدانات كاملة من طرف والد الخليفة كثير المحامد السلطان عبد المجيد خان.

وكانت الشمعدانات مزينة (١٦٢٨٢) بعدد من حجارة برلنت وقد رتبت ورصعت على شكل جميل وتكلف صنع هذه الشمعدانات مائة وخمسين ومائة ألف من قطع الذهب المجيدية من ذات فئة مائة مجيدية كل قطعة، ويروى أهل المدينة ويبينون أنهم لم يروا إلى ذلك الوقت شمعدانا أرسل إلى الحجرة المعطرة فى هذه القيمة الباهظة. وقد أوصلت هذه الشمعدانات خلال سنة (١٢٧٤هـ) إلى المدينة المنورة حيث كان فى استقبالها جميع رجال الدولة والحكومة وكبراؤها وكان استقبالا رائعا فوق العادة، ووضع أحد الشمعدانات فى نقطة محاذية للرأس النبوى الشريف والآخر فى نقطة محاذية لقدمى النبى الشريفين.

وقد أحضر تلك الشمعدانات أمير آلاى إبراهيم بك من رجال القصر السلطانى، ولما كان إبراهيم بك يستعد للسفر إلى المدينة استدعاه السلطان عبد المجيد وأمره بأن يقول عندما يقف أمام النبى ﷺ رسول الله!! إن هذه الأشياء هدية من أحد أفراد أمتك المذنب عبد المجيد ويرجو أن تتلطف بقبولها، وهذا ما حكاه المشار إليه بذاته.

(٨) مع طقم الشمعدان الذهبى.

٢ شمعدان

٢ منضدة متوسطة القطعة

٢ منضدة ذات قطعة كبيرة

٢ منضدة جلدية فى قطع كبيرة

٨

إن هذه الهدايا ذات ثمانى قطع مرسلة من قبل السلطان محمود خان الثانى

وكل الشمعدانان من قطعة متوسطة ومصنوعة من الذهب الخالص ومن شمعدانات المحراب وكان يوضع أحدهما على رأس النبى والآخر على قدمى النبى ﷺ ويوقدان فى الليالى من قبل شيخ الحرم أو نائبه كما أنهما كانا يرفقان بواسطتهما.

(٤) شمعدان من الفضة ورحلة

٢ شمعدان	أهديت من قبل السيدة إينجو زوجة والى
٢ رحلة	مصر الأسبق المرحوم سعيد باشا.

(٥٥) شمعدان وقمع فضى ونحاس.

فضة	نحاس		
٢٨ شمعدان البخور	١٠	شمعدان	نقوشها البارزة من النحاس
٧ منضدة فضية	١٠	منضدة جلدية	
٣٥	٢٠		

وهذه الأشياء من وقف المرحوم السلطان أحمد خان الأول وهى صنع قديم ومزخرف وكتب فوق الطغراء هذه العبارة وقف حضرة السلطان أحمد خان فى المدينة.

(١) المبخرة ذات تعليقة من فضة

١ مبخرة ذات تعليقة ٧٥٢	وقف السلطان عبد المجيد خان مزخرفة ذات أربع سلاسل فضية

(١) مبخرة فضية

١ مبخرة ٢١٠	هدية سنية من السيدة لطفيار الثانية من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد فى عام ١٢٨٤هـ وهى مصنعة بالنقوش ذات قبة مستديرة ذات ستة ثقوب وزواياها مدموغة وفوق منضدتها كتب اسم من وقفتها.

(١) مبخرة فضية
(٢) مبخرة

هدية شوق أفزا هانم من حرم السلطان محمود خان الثانى من الفضة وذات زخارف وحول منضدتها ٩٦٠ مشبكك وذات قوائم ثلاث على شكل خرشوف لها نجفة مجدولة.

(٦) مبخرة وقنينة ماء فضيتان

عـــدد				
٦٤٠	٥	٤	مبخرة كبيرة	وقف عادلة سلطان كريمة المرحوم السلطان محمود
١	٢		قنينة ماء	السلطان محمود خان الثانى قد سطر ٢٢٣ ٦ ٦ فوقها من خيرات السلطانة خيريه.

(٢) المنضدة مع شمعدان فضى

٢ المنضدة وشمعدان — أهدى من قبل الخليفة واضح الشرف السلطانى سنة ١٢٩٤هـ بعلم نائب الحرم على أن يوقدا ليلا ونهاراً مناوبة فى داخل الحجرة المعطرة النبوية.

(٢) شمعدان فضى

٢ شمعدان ذات قطعة متوسطة بدون منضدة كتب عليه (من خيرات المرحوم محمد على باشا سنة ١٢٨١هـ).

والحقيقة أنه مع عدم وجود إشارة خاصة فإنه مأمول أن تكون هذه الهدايا قد أرسلت من قبل زوجته الجليلة إذ كان الباشا المشار إليه قبطان البحار الأسبق.

(٢) شمعدان فضى

٢ شمعدان محراب كبير هدية والى مصر محمد على باشا قد حكت عليهما عبارة العبد المذنب محمد على والى مصر سنة ١٢٢٨هـ).

(٧) شمعدان فضى

٧ شمعدان كبير ذات قمع هدية والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا قدمت سنة ١٢٦٨هـ.

(٢) منضدة شمعدان فضية

٧ منضدة شمعدان هدية السلطان عبد المجيد خان المرحوم ذات غلاف خشبى وقدمت خاصة للمشعدانات السبع التى بعثها عباس باشا والتى ذكرت سابقا.

(١) شمعدان فضى

١ شمعدان متوسط القطعة هدية زوجة والى مصر الأسبق محمد على باشا أمينة هانم صنعته قديمة وذات مناضد تحت مكان وضع الشموع.

(٢) شمعدان فضى منضدة ذات مسامير من نحاس أصفر.

٤ شمعدان ذات قطعة كبيرة مجهول الواقف مصنوع من الفضة اثنان بدون منضدة منقوش ذات فتحات وأماكن للشموع.

٢ منضدة ذات مسامير من نحاس أصفر.

(١) شمعدان من الفضة هدية من السيدة خوشيار وهى من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان محمود خان الثانى وهى ذات ثلاثة أماكن للشموع ومنضدته قطعة واحدة معه وذات مجرى من الفضة وهى فى قطعة متوسطة.

(١) شمعدان من الفضة أهدى من قبل رقيقة هانم سنة ١٢٤٣هـ زوجة المرحوم عثمان باشا ابن أمين مخزن والى طربزون أسفله من الفضة وأعمدته من النحاس الأصفر.

(١) شمعدان من الفضة واقفه غير معروف وهو فى قطعة واحدة متوسطة صناعة قديمة ذات أماكن للشموع.

(٢) شمعدان للبخور الهدية التى قدمها على أغا رئيس الحلاقين فى سنة ١٢٣٥هـ.

(١) شمعدان فضى قدم تبركا من قبل سارة هانم الكلكشلى سنة ١٢٤٧هـ.

(٣) شمعدان فضى مصنوع من فضة صناعة قديمة مجهول الواقف.

(١) شمعدان فضى مجهول الواقف صغير الحجم صناعة قديمة.

(٢) شمعدان فضى.

١ ذات قطعة متوسطة هدية والى مصر الأسبق محمد على باشا

١ ذات مسامير فضة ينقصه المسماران

منضدة قديمة الصنع

(١) شمعدان فضى مجهول الواقف مصنوع من الفضة ذات أماكن للشموع وذات نقوش ذهبية.

(١) شمعدان من طومباق مجهول الواقف ومصنوع من الطومباق.

(٢) مقراض شمع من الفضة هدية من أمينة هانم زوجة المرحوم محمد على باشا والى مصر الأسبق وهما مصنوعان من الفضة الخالصة.

(١) مقراض شمع من الفضة واقفه مجهول وهو مصنوع فى رسم الطائر.

(٢) مقراض شمع من الفضة.

١ مقراض مغلفان بفضة واقفاهما مجهولان.

١ منضدة

(٢٧) ممسكة فتيلة القنديل الفضة واقفها مجهول وذات ثلاث قوائم مصنوعة من الفضة.

(٢) مزيتة أهديت من قبل الحاج إسماعيل بن الحاج حبيب سيد مشبكة وطولية ومربعة قد رصعت أطراف خزينتها بأربعة أوراق فى شكل المكحلة ذات ميل فى حجم البندقة صنعت ذات قوائم مستديرة كروية.

(٢) شمعدان بخور من الفضة مجهول الواقف ثلاثى الوجه.

(٢) مبخرة وقنينة فضيتان.

عدد

١ ١٦٥ مبخرة هدية نوفدان هانم من السراى

١ ١٠٤ قنينة وقدمت سنة ١٢٨٤هـ.

٢ ٢٦٩

(٢) قنينة ماء ذات جواهر مرسلة من طرف (نواب إسكندر بيغم) من حكام الهند عن طريق سيف الدولة على حسين خان، وهى مصنوعة مزينة بالماس والياقوت والهندى على مينا هندية الصنع خضراء ولازوردية وأحمر وفى أعلاها سبع زمردات صغيرة وياقوت.

(١) معطرة ذات جواهر والذهب مرسلة أيضا من قبل المشار إليه ومصنوعة من ذهب خالص والصينية التى تحتها ذات ميناء أخضر فاتح وأحمر هندى الصنع والميناء الأخضر والأحمر ذات أزهار وأطرافها من ميناء أخضر مشغولة بالماس وذات اثنتى وثلاثين ورقة مرصعة ومكان العطر مشغول بماس هندى فوق مينا لازوردى وعلى شكل شجرة كبيرة.

(٢) قنينة ماء ومبخرة فضيتان.

١ قنينة بالغطاء هدية زوجة أمين بك كاتب القصر السلطانى.

١ مبخرة الأول فتحتها لوذى الشكل وأطراف صينيتها ذات نقوش بارزة محفورة وغطاء المزيتة ذات أزهار وذات مقابض وبعض أجزائها مزخرفة.

(١) المزيتة الذهبية هدية عبد بواسع خان الشهم قد ثبتت فوق صينيتها وغطاؤها ذات سلاسل ومصنوعة من ٦٣ مثقال من ذهب.

(٢) مبخرة فضية مرسلة من قبل الشريفة زبيدة هانم وقد صنعت من ٥١٦ درهم

من ذهب خالص، وهى حليلة تحسين بك من أعضاء ديوان المحاكمات الأسبق. وذات صينية وحولها مشغول بقلم فنان وفوقها المبخرة التى ستوضع عليها خشب العود، ذات ثلاث قوائم كمثرية الشكل، وأعلاها ذات أوراق صغيرة وذات بروز فستقى، وبعض أماكنها مزخرفة.

(٢) قنينة ماء ورد، وهما كذلك مرسلتان من قبل زبيدة هانم، وهما من الفضة الخالصة، ويزنا ٣٢٩ درهمًا، وهما على شكل كمثرى، وعليها نقوش وزخارف بالذهب.

(١) مبخرة من الفضة وهى مرسلة من قبل شب اهنك قادين أفندى، من الدائرة السلطانية للسلطان عبد العزيز خان رحمه الله وتزن ٣٣٢ درهما ولها قاعدة من الفضة ومقبض وموقدها كذلك من الفضة.

(١) مبخرة من الفضة وهى كذلك من إهداء المشار إليها وتزن ١٥٥ درهما وينحصر استخدامها على إحراق أعواد البخور.

(٢) علبتا بخور من الفضة هى وقف محمد كامل أغا غلام الباب الرئيسى لوالدة السلطان الرتونياله ومن حريم المرحوم السلطان محمود خان الثانى ومصنوعتان من ١٣٠ درهم من الفضة.

(٢) مبخرتان ذهبيتان أرسلا من قبل نواب رانبور كلب على خان من حكام الهند ومصنوعتان من أربعمائة وأربعين درهما من المعمول على طريقة هندية.

(٤) مقراض الشمع الذهبى.
٢ كبير واقفوها مجهولون داخل أحدها مغلف بالحديد.
١ وسط وواحد منها مكسور المقبض.
١ صغير

٤

(١) شمعدان من الفضة مصنوع من فضة النقود وهو ذو قطعة كبيرة.

(٣) شمعدان من الفضة وصينية

١ شمعدان كبير هدية نازلى هانم كريمة محمد على باشا والى مصر الأسبق ذات قطعة كبيرة.

٢ صينية من الفضة مبرزة

(٢) شمعدان من طومباق منقوش.

(٢) شمعدان مصنوع من حجر آسكى شهر.

(١) شمعدان مصنوع ومنقوش بخطوط سوداء.

(٤) شمعدان قديم من طومباق.

(١) شمعدان صناعة هندية مصنوع من الفضة.

(٢) شمعدان البخور مصنوع من النحاس.

(٢) شمعدان من الرجاجة من طومباق مصبوب.

(١) شمعدان بخور من النحاس الأصفر تذكار على أغا بن موسى.

(٢) كذلك تذكار سليم أغا من أدرنه.

(١) شمعدان بخور من النحاس الأصفر هدية أسعد أغا رئيس المدفعية.

(١) كذلك واقفه مجهول.

(١١) مقراض الشمع كبيرة وصغيرة واقفوها وأجناسها مجهولة.

(١) قنديل معلق هدية السيدة بسيمة زوجة ابن درويش باشا المتوفى إسكندر بك أسفله مصنوع من الفضة فى زنة ٢١ درهم مطوق وعليه نسج من السلك الأصفر والبلّور ذو سلسلة.

(٢) ثريا من البلور هدية الشيخة نورس زوجة وزير المالية الأسبق المرحوم نافذ باشا مشغول على بلور وردى اللون أزهار صفراء بالقلم ذات ثلاث عقد

وذات سلسلة وفوق السلاسل مغطى وحول أغطيتها والعقد علقت ثريات فى طول إصبع وعلى شكل زهرية.

(٢) شمعدان من الفضة مع مقراض.

١ شمعدان وقف محمد عادل والحاج حسين الهندى وتحت إدارة أمين مكتبة الروضة المطهرة النبوية على أن توقد فيها ٢ ٢٤٠٠جـ شمعدان من طومباق ١ متوسط القطعة رسم محمودى محل شموعه وذات ثلاثة نقوش

١ مقراض.

قنينة ماء ٥ من الطومباق ومزخرفة واقفاها مجهولان

(٢) خشب العود على دهن الورد

١ علبة خشب عود وقف عاصم بك بن راش جاويش.

١ علبة خشب دهن الورد مصنوعة بنوع من الزجاج.

(٤) إبريق ومقراض وإناء ماء

١ ٣٨٠ جـ هدية عبد الواسع خان ذات هيئة جميلة على طراز هندى.

٢ ٦٥ جـ شهابة منذ صيغ غطاء الإناء فى ١ ٨٥

١ ٨٥ جـ

* * *

فى تعريف الأشياء الفضية النفيسة ـ جنسها ومقدارها ـ المحفوظة فى خزينة الحجرة المعطرة الجليلة.

(٢) طست فضى وإبريق

١ إبريق أرسلت من قبل حليلة المرحوم طوسون باشا فى سنة ١٢٦٥هـ من

١ طست ذو غطاء آثار نفيسة منقوشة

٢

(٢) طست فضى وإبريق

١ إبريق هدية أبى البركات الهندى من التبركات الهندية المرغوبة

١ طست ذو غطاء

٢

(٩) إبريق فضى وسطل

٣ إبريق زيت الزيتون من الآثار المبروكة التى تركتها خديجة

٦ سطل سلطان كريمة المرحوم السلطان مصطفى خان الثالث سنة ١٢٣٢هـ.

٩

(١) إبريق زيت زيتون مصنوع من الفضة وقف السيدة فاطمة دليزر فى سنة ١٢٣٢هـ.

(١) جاروف فضى مزخرف الهدية التى أرسلها المعلم جورى خازن السلطان محمود خان الثانى.

(١) جاروف فضى الهدية الغالية لوالدة المرحوم عباس باشا النيه هانم.

(٢) إناء مسك (مسكية فى زنة ثلاثمائة درهم) وقف رئيس أغوات عادله سلطان علية الشأن باسم أغا.

(٦) مسكية أهديت سنة ١٢٣٤ من قبل الحاج مصطفى رشيد أفندى.

(١) دواة فضية هدية السلطانة خديجة كريمة السلطان مصطفى خان الثالث.

(٢) رأس علم فضى تذكار من والى مصر الأسبق المرحوم سعيد باشا.

(١) رأس راية من النحاس الأصفر مجهول الواقف مزخرف.

(١٠) أكرة صندوق فضى.

٤ ذات فتحات ست على شكل كمثرى وقف المعلمة خديجة.

٦ هدية كريمة إبراهيم باشا صهر السلطان السيدة خديجة سنة ١١٦٣هـ.

١٠

(١) جاروف نار فضى وقف الشيخ حسن أغا.

(٣) قفل فضى معلق وقف السلطان أحمد خان الأول سطر عليه اسم المشار إليه.

(١) قفل فضى معلق القفل الكبير الذى أرسله السلطان محمود خان الثانى صنعته قديمة.

(١) قفل معلق فولاذى واقفه مجهول مصنوع من فولاذ قديم غاية فى الصنعة عليه زخارف ذهبية.

(٨) مفتاح فى داخل محفظة وهو صنع قديم واقفه غير معلوم.

(٢) علم من الفضة علم راية أرسل من طرف المرحوم السلطان محمود الثانى فى عام ١٢٣٢هـ.

(٥) منخل من الفضة.

جـ	عـدد	
٥٢٠	١	خاص لنخل خشب الصندل هدية برتونياله والدة سلطان
٥٧٢	١	
٥٧٠	١	
٤٧٥	١	
٥٩٥	١	
٢٧٣٢	٥	

(٤) منخل من الفضة

جـ	عدد	
١٠٠	١	كبير إلى حدما خاص بنخل صندل حجرة السعادة
٩٥٠	١	مختلف وهى هدايا والدة سلطان برتونياله
١٣٥٠	٢	صغير
٢٤٠٠	٤	

(١٠) صينية مع غطاء من الفضة

٥ صينية تلك أيضا وقف المشار إليها

٥ غطاء مزخرف بقلم

١٠

(٤) طست مع غطاء من النحاس مزخرف

٢ طست كبير أرسلت من قبل المشار إليها أيضا

٢ غطاء ذو مقبض مثل ظهر السمك

٤

(١٠) صينية مع غطاء من الفضة

٥ صينية للصندل — أهديت من قبل السيدة برستو من الحريم السلطانى

٥ غطاء ذو قفص مزخرف — زوجة عبد المجيد خان سنة ١٢٧٤هـ.

١٠

(٢) علم فضى أرسل من قبل السلطان عبد المجيد خان مصنوع من فضة خالصة مزخرف يوضعان على جهتى باب منبر السعادة فى أيام الجمعة مع رايتيهما.

(١٤) محاط فضى خالص لتعليق قناديل حجرة السعادة رءوسها ونهايتها بالفضة واقفوها غير معروفين.

(٤) طست فضى مع الكوب

٢ طست أوسط — خاص بغسل القناديل أهدتها زوجة السلطان سليم

٢ كوز — سليم خان الثالث الزوجة الرابعة

(١) مكنسة فضية مصنوعة من ٣٥٠ درهم من الفضة هدية والدة السلطان بورتونياله.

(١) مكنسة فضية مقبضها من الفضة أهدتها والدة والى مصر الأسبق عباس باشا النبه هانم سنة ١٢٦٦.

(٢) قدر فضى

١ قدر — خاص بإطفاء الشموع التى توقد فى حجرة السعادة ذات

١ قدر — مقبض وغطاء أهدى أحدهما من السلطان عبد المجيد

٢ — خان والآخر من السيدة أروفتان

طاسة فضية ومجمرة نحاسية

١ طاسة من فضة رديئة

٦ مجمرة من النحاس واقفهما مجهولان

٧

(١) إناء ماء فضى مجهول الواقف وعلى شكل فيل لهذا يحفظ فى دار خازن الحرم النبوى سالم أغا.

(٥) مقبض نحاس.

(١) زمزمية كبيرة من النحاس واقفوها غير معروفين.

(١) إبريق ذو زخارف من النحاس الأصفر.

(١) سطل من نحاس.

(٣) مجمرة مصنوعة من النحاس إحداها بدون مقبض واقفوها غير معروفين.

(١٨) قدر مصنوعة من النحاس من صنع هندى على شكل دلو.

فى تعريف وتفصيل الستائر والأغطية التى تغطى أبواب حجرة السعادة والمقامات المنيفة الأخرى مقدارها وأنواعها.

(١١) ستارة خاصة بأبواب الحجرة النبوية الشريفة وهى الكسوة العتيقة والستائر مشغولة بالخيوط الذهبية الثقيلة على أطلس أخضر اللون.

(٢) راية خاصة بمنبر السعادة مشغولة بخيوط ذهبية فوق أطلس ثقيل.

(١) ستارة هى الستارة القديمة الداخلية لحجرة السعادة قد شغلت على أطلس أخضر بألوان جميلة. صورة محراب وكتابات وأطرافها ذات شراشيب حريرية وبطانة ذات أطلس أخضر.

(٢) راية أرسلت من طرف المرحوم والى مصر سعيد باشا وهى راية المنبر الصغير وبها شغل فوق مخمل أخضر بخيوط ذهبية وذات بطانة أطلس أخضر.

(٢) ستارة من تبركات الباشا المشار إليه كذلك وهى ستائر حجرة السعادة الثلاث العتيقة وقد شغل رسم الشمس على أطلس أخضر وأطرافها ذات ذوائب من الحرير.

(٤٥) قطعة ستارة

(٣) ستائر للمحاريب الثلاثة.

(٥) ستائر للأبواب الشريفة.

(١) ستارة منبر النبى الشريف.

(١) ستارة المئذنة الرئيسية.

هذه هى التبركات النفيسة التى أرسلها السلطان عبد المجيد خان عليه الرحمة والغفران سنة ١٢٢٧هـ للمحاريب الشريفة والأبواب والحجرة المعطرة والشبكة المنورة والمنبر المنير المزهر خاصة، وهى مشغولة على أطلس بخيوط ذهبية ثقيلة.

(٢٨) ستائر شبكة حجرة السعادة.

(٤) ستائر نوافذ قدم السعادة.

(١) ستارة محراب التهجد فى داخل حجرة السعادة.

(١) راية منبر الشريف ٤٥.

(١) ستارة خاصة بصندوق قبر حضرة فاطمة (رضى الله عنها) وقد أرسلت كذلك من قبل سلطان السلاطين المشار إليه معلقة على شكل دانتيلا ومشغولة بخيوط ذهبية.

(١١) ستارة كبيرة وهى ستائر شبكة حجرة السعادة الخارجية وهى هدايا السلطان المشار إليه كذلك، وذات قماش من أطلس أخضر وذات صنف من الحرير المقصب بالفضة إن الستائر والكسى النفيسة قد قدمت قديما من جانب السلطان محمود خان الثانى صاحب المناقب العالية.

ولما كان السلطان عبد المجيد أهدى بعض التبركات من جديد صنعت الكسى القديمة فى خزينة حجرة السعادة وبناء على الأمر السلطانى أرسلت خمس قطع من الكسى القديمة بمعرفة يحيى بك الذى كلف بتوصيل الكسوة الجديدة إلى باب السعادة.

* * *

الصورة الثامنة

تبين وتعرض الشمعدانات والتعليقات والثريات أنواعها ومقدارها وأسماء مهديها وشهرتهم والتى وضعت وعلقت فى المحاريب الشريفة ومواجهة السعادة والروضة اللطيفة العالية.

(٤) شمعدان نحاس أصفر.

(٢) ذات قطعة كبيرة وهو شمعدان موضوع فى المحراب النبوى.

(٢) ذات قطعة صغيرة مصبوب ذات فتحات من النحاس الأصفر ووقف السلطان المشار إليه وهو فى المحراب السليمانى.

(٨) شمعدان من نحاس أصفر من وقف المغفور له السلطان المشار إليه وذات شمعة واحدة وأطرافه محاطة بالزجاج وموضوع فى الروضة المطهرة.

(٢) تعليقة فضية وقف بزم عالم سلطان والدة السلطان عبد المجيد خان وذات أربع شمعات ذات سلاسل مزخرفة متوسطة القطعة ومعلقة فى مواجهة السعادة.

(١) ثريا فضية ذات ست وثلاثين شمعة وذات فانوس معلقة فى المحراب العثمانى وذات قطعة كبيرة.

(١) ثريا فضية ذات ست وثلاثين شمعة وبدون فانوس ذات قطعة كبيرة معلقة فى جهة مواجهة السعادة.

(١) ثريا بلورية ذات أربع وعشرين شمعة بدون فانوس ذات قطعة كبيرة معلقة فى جهة قدم السعادة.

(١) ثريا بلورية ذات سبع وأربعين شمعة ذات فانوس وقطعة كبيرة معلقة فى داخل الروضة المطهرة.

كل هذه الثريات أهديت من والى مصر الأسبق عباس باشا وكانت شموعها ترسل من مصر حتى سنة ١٢٧٠هـ وبما أنها لم ترسل من بعد فنظم إرسالها من باب السعادة.

(١) ثريا بللورية وقف التاجر الهندى إبراهيم ذات فانوس وذات ثمانية شموع ومعلقة فى داخل الروضة المطهرة.

(١) شمعدان بللورى وقف والى مصر الأسبق عباس باشا على شكل شجرة ذات اثنتين وثلاثين شمعة وقطعة كبيرة ومعلقة داخل الروضة المطهرة.

(١) شمعدان بلورى وقف الباشا المشار إليه كذلك ذات ثمانى وعشرين شمعة على شكل شجرة معلقة داخل الروضة المطهرة.

(١) شمعدان بلورى كذلك وقف الباشا المذكور على شكل شجرة ذات ثمان وعشرين شمعة وذات قطعة كبيرة معلقة فى الحرم الشريف.

(١) شمعدان معدن وقف الشيخ الهندى التاجر إسماعيل ذات خمس شمعات على كرسى له ثلاث قوائم مصنوع من المعدن وذات فانوس وموضوع فى الحرم الشريف.

(١) ثريا بللورية وقف عبد الله افندى محافظ المدينة المنورة الأسبق وذات ست شمعات، وذات فانوس معلقة أمام باب الوفود.

(١) ثريا معلقة من البلور وقف من عبد الفتاح أفندى من تجار بيروت ذات شمعة واحدة ومعلقة داخل الروضة المطهرة.

(١) ثريا معلقة من البلور وقف التاجر الهندى الشيخ إسماعيل وذات اثنتى عشرة شمعة وذات فانوس معلقة أمام دكة الآغوات.

(١) ثريا من البللور وقف المشار إليه الشيخ أيضا وذات اثنتى عشرة شمعة وذات فانوس معلقة على شبكة قبر فاطمة (رضى الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها).

(١) ثريا من البللور كذلك وقف المشار إليه الشيخ وذات ثمانى شموع وذات فانوس معلقة على باب المئذنة الرئيسية.

(١) ثريا من البللور وقف الشيخ المشار إليه كذلك وذات سبعة شموع وفانوس معلقة فى جهة المحراب العثمانى.

(٢) ثريا من البللور كذلك وقف الشيخ المشار إليه وذات فانوس معلقة فى باب السلام.

(١٦) ثريا من البللور وقف الشيخ المشار إليه وذات سبعة وثمانين قنديلاً بللوريًا معلقة فى جهات الحرم الشريف المتعددة.

(٢) ثريا من البللور إحداهما ذات شمع والأخرى ذات قنديل بللورى، معلقتان فى آخر حرم السعادة مجهول الواقف.

(١) تعليقة فضية وقف أسماء هانم ذات ستة فروع وعلى كل فرع سلسلة مدلاة وذات قطعة متوسطة معلقة فى مواجهة السعادة.

(١) ثريا بللورية أرسلت من قبل حاكم بسيلة فى بلاد الهند مير خان، مصنوعة من ألف ومائة وخمسين درهما أى من اثنتى عشرة أوقية وسبع وخمسين وثلاثمائة درهم من فضة خالصة ذات ست عشرة شمعة ومعلقة أمام باب الوفود.

(١) ساعة كبيرة هدية السلطان عبد العزيز خان ومركوزة فى دكة الأغوات.

(١) ساعة كبيرة هدية والدة ملك الملوك المشار إليه برتو نياله السلطان موضوعة أمام محراب مقابل دكة الأغوات وفى اتصالها.

خلاصة

عدد القناديل والشمعدانات التى توقد كل ليلة فى مسجد السعادة ثمانمائة وستة وخمسين عددا منها قناديل كروية بطيخية الشكل ومائة وأربعة عدد من نحاس أصفر وواحد وعشرون شمعدانًا فضياً وكبيراً وثمانية وثلاثة شمعدانات كبيرة ذهبية واثنان منها مجوهران فيبلغ عددها كلها إلى ١٠٦٦ شمعدان، إلا أن القناديل والشمعدانات التى توقد فى ليالى الإحياء ورمضان فى جوانب مسجد السعادة الأربعة خارجة عن عدد القناديل التى ذكرت.

والذين نذروا زيارة المسجد الحرام مترجلين فسبب وجوب الوفاء بنذرهم كون المسجد الحرام من مصادر المناسك.

ولما كان المسجد النبوى يحتوى على مرقد السعادة الجليل الذى يفضل الكعبة

المعظمة والمسجد الأقصى فالذين ينذرون زيارة المسجد النبوى ولابد أن فى نيتهم الخالصة زيارة قبر الرسول ﷺ ومن هنا كان الوفاء بهذا النذر ألزم وإن كان الأئمة قد اتفقوا فى الوفاء بنذر زيارة الكعبة المعظمة إلا أنهم اختلفوا فى الوفاء بنذر زيارة مسجد الرسول والمسجد الأقصى وهذا الاختلاف من حيث الزيارة فالذين ينذرون بزيارة قبر السعادة يقتضى عليهم الوفاء بنذورهم.

مسألة

استفتى الشيخ أبو محمد بن أبى زيد عن الشخص الذى أخذ نقودًا ليحج نيابة عن الشخص الآخر الذى اشترط زيارة مرقد السعادة، فأوفى بالحج ولكنه لم يستطيع أن يزور قبر الرسول لبعض الأسباب وعاد فهل يلزم لهذا الشخص أن يرد النفقات التي أخذها للزيارة لصاحبها؟ وقد أفتى الشيخ ابن زيد بأنه يقتضى إعادة ذلك المبلغ ورده.

إخطار

وإن كان يلزم أن يعرف صورة اتخاذ النبى ﷺ وسيلة لأننا ذكرنا ذلك مع آداب الزيارة وشروط المجاورة فى خاتمة الكتاب، ولم نر أن الحاجة تمس إلى ذكر ذلك وتفصيل فوائده إلا أننا خفنا التكرار.

قطعة

إنه وقت الصلاة والسلام وقد بلغ الفصل للنهاية
لأن التحية حسن الخاتمة لهذا الفصل
قد اعتاد القلب حسرة الوصل بغتة
فالفم والابتهاج رفقاء صحبته دائما
فليؤثر الله ورضاه دائما بالصلاة
حتى إن فهم مقدارها خاص بحضرته

* * *

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الرابع

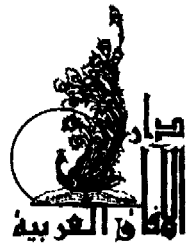

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

الوجهة الحادية عشرة

تحتوى على صورة واحدة

وفيها يذكر ويفصل تحويل سقف حجرة السعادة إلى قبة

وتجديد مربع القبر المبارك والأشكال الخمسة لحجرة السعادة

وصب حائط من الرصاص حول القبر النبوى الجليل

وجناية محاولة نقل النعوش الثلاثة المباركة المقدسة إلى

قاهرة مصر فى عهد العبيديين

فى تعريف هيئة الحجرة المعطرة النبوية بعد أن تحول سقف الحجرة إلى قبة بعد تجديد مربع قبر السعادة وتعميره

أبلغ السلطان قايتباى المصرى قبل الحريق الثانى بقليل أن مسجد السعادة وخاصة أسطوانة صندوق القبر فى حاجة إلى التعمير، وأرسل المشار إليه شخصًا يسمى شمس الدين بن زمن بعد أن عينه أمينًا للبناء إلى المدينة المنورة ليسوى قطع رخام الحجرة المعطرة بعد أن يصلح أسطوانة الصندوق الشريف التى انشقت بعد أن أمده بمال كاف وذلك فى سنة ٨٨١هـ.

وبناء على التعليمات التى تلقاها شمس الدين بن زمن عاين حرم السعادة، وجدد أساطينه ورمم أسطوانة الصندوق الشريفة بإنقاص إحدى أسطوانات مسجد قباء، ورفع قطع الرخام التى على أرضية الحجرة المعطرة من الزاوية الشمالية للجدار الذى أقامه عمر بن عبد العزيز إلى زاوية الجدار الشرقية.

وبينما كان ينزل كسوة القبر وجد فرجة فى الجدار السابق الذكر مغطاة بالطوب اللبن وصبغت بمونة من الجص وأمر بفتح هذه الفرجة بقصد كشف ما بين الجدارين ومعاينته، ومن هنا ألقى نظرة إلى الجدار الذى أحاط به عمر بن عبد العزيز القبور الثلاثة ورأى فرجة فى هذا الجدار أيضا فرجة مستديرة فأمر بفتحها أيضا، وكان هذا الثقب فرجة تسع يدًا فى التقاء زاويتى الشرق والشمال للجدار القديم فوسع شمس الدين بن زمن هذه الفرجة وعاين داخل مربع القبر وكشفه، وفى آخر الأمر فكر قائلاً كيف أسد هذه الفرجة التى فى الجدار القديم؟ فتحير واضطرب وترك هذا العمل فى الإصلاحات وجمع فى داخل

مقصورة الحجرة المعطرة مجموعة من الناس وعقد مجلسًا فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة حتى يعرف كيف يستفتى فى هذا الموضوع.

وقررت هيئة الشورى التى اجتمعت داخل المقصورة الشريفة تجديد الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز قديمًا و فى الرابع عشر من شعبان فى تلك السنة هدموا ذلك الجدار إلى أن بقى إلى سطح الأرض أربعة أذرع، وأنزلوه على الأرض وذلك بعد رضا شمس بن زمن ورأيه، وبينما كان يهدم هذا الجدار ظهرت بعض الأخشاب محروقة الأطراف من بقايا الحريق الأول، وأخرجوا سواء أكانت هذه الأخشاب المحترقة أو أجزاء الأنقاض الكبيرة التى بين الجدار القديم والجدار الجديد.

كان الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز أو الجدار القديم قد بُنِى مقدار أربعة أذرع منها بالحجارة، وكان نصف الأسطوانة من الأسطوانة التى فى الجهة الشمالية من الجدار القديم ظل خارج الجدار ونصفها فى داخل الجدار المذكور مع ذلك لم يكن هناك باب للدخول فى داخل مربع القبر الشريف.

وقد رأى ابن زمن فكرة هدم جدار عمر بن عبد العزيز وجدار الجهة الشامية من مربع قبر السعادة وتحويل السقف إلى القبة كما صوبت هيئة مجلس المقصورة تلك الفكرة السخيفة دون أن تراعى الأدب وأخذ يهدم الجدار القديم.

وكان الإمام السمهودى على قيد الحياة فى ذلك الوقت، فذهب إلى شمس بن زمن إذ رأى جرأته المتولدة من الجهل وقال له: «إن هذه الحركة منافية لقانون الأدب ورعاية الأخلاق، إذ يلزم الاختصار فى تجديد مبانى الحجرة المعطرة على قدر الإمكان». والتزم الرأى الذى يرجح عدم هدم الجدار القديم، ولكن أحدًا لم يعر اهتمامًا رأيه فهدموا جدار مربع حجرة السعادة فى الجهة القبلية والغربية أربعة أذرع منها وعندما أرادوا أن يهدموا جدران الجهة القبلية والغربية حتى الأرض وأن يبنوها من جديد، وجدوا جدارًا صغيرًا مبنيًا باللبن فى طول أكثر من ذراع وفى عرض نصف ذراع تركوه تيمنا فظل فى داخل الجدار القبلى فى ارتفاع

ذراع واحد كما وجدوا مثل هذا الأثر لبناء قديم فى الجهة الغربية فلم يتجرءوا على هدم جدران هاتين الجهتين هدمًا تامًا.

يوم أن هدمت حجرة السعادة امتلأ داخل مربع القبر الشريف بأنقاض الجدران المتهدمة، فدخل كثير من الناس داخل مربع القبر اللطيف فأخرجوا التراب والغبار خارج المربع ونظفوا داخل الحجرة المعطرة.

وكان الإمام السمهودى قد دُعِىَ لهذا الاجتماع السامى أيضا إلا أنه لم يستجب خوفًا من أن يحدث ما يعكر الصفو وسوء الأدب وفى الآخر أرسل له أمين البناء شمس بن زمن رسولاً خاصًا ورجاه أن يشرف الاجتماع ولما كان غلب عليه شوق زيارة داخل حجرة السعادة استجاب للدعوة الثانية بلا تردد ودخل بكل خضوع وخشوع بعدأن استأذن من روح النبى والرسول ﷺ.

عرف أحد أصدقاء الإمام السمهودى كيفية دخوله وخروجه من مربع قبر السعادة إذ قال له: «عندما دخلت فى داخل حجرة قبر السعادة تأثر دماغى برائحة لم تشمها قوة شامتى فى طول عمرى».

«بعد أن أديت مراسم الصلاة والسلام ورجاء الشفاعة من صاحب الشفاعة العظمى النبى ﷺ، ففتحت عينى وألقيت نظرة إلى ساحة السعادة المباركة، لم يكن على سطح الحجرة الشريفة ما يشبه القبر، ورأى الذين كانوا معى مكانًا مرتفعًا فى وسط الحجرة وذهبوا إلى أن هذا المكان هو القبر الجليل، وشرعوا يأخذون من فوقه بعض الأتربة تيمنًا وأن يخفوه، إلا أنهم كانوا مخطئين فى رأيهم هذا، لأن قبر السعادة كان فى الجهة القبلية من الحجرة المعطرة وجدارها حتى إن اللحد الشريف يعد جزءًا منه تحت أساس الجدار القديم، إذ يروون نقلاً عن جابر بن عبد الله الأنصارى، عندما دفن جسد النبى المبارك نثر ماء فوق قبر النبى لامع الأنوار وبدأ من جهة رأس النبى ﷺ وأتم فى ناحية قدمى الرسول المباركة، ولما كان المرور من بين القبر الشريف والجدار القديم غير ممكن يعنى لم يكن هناك فاصل بين الجدار القبلى لحجرة السعادة والقبر المنيف إلا قدر

إصبعين، فصب بلال الماء إلى هذه الجهة من القبرة من فوق الجدار الذى فى الناحية القبلية من الحجرة المعطرة». انتهى.

ومن مؤلف طبقات ابن سعد نقلاً عن محمد بن عبد الرحمن أن محمد بن عبد الرحمن قال: «كان أبى حاضراً عندما انهار الجدار الذى فى مربع السعادة فى عهد عمر بن عبد العزيز؛ وكان يقول: «عندما انهار جدار مربع قبر السعادة كنت بجانب حجرة السعادة، فنظرت من مكان السقوط داخل مربع القبر الجليل. كان ما بين مرقد السعادة وحجرة عائشة ـ رضى الله ـ عنها المنيرة قدر شبر واحد، فأنا أيضًا أصدق أن نعش النبى ﷺ قد وضع إلى اللحد الشريف من الناحية القبلية وأؤيد تلك الرواية، وبما أن روح النبى ﷺ قبضت فى هذا المكان فالمكان الذى توفى فيه هو أشرف بقاع الأرض ومن هنا دفن فى هذا المكان»، انتهى.

بعد أن كنس سطح حجرة السعادة وأخرجت أنقاض الجدار المنهار إلى الخارج شرع شمس بن زمن فى بناء الأماكن المنهدمة ذاكرًا اسم الله فجعل عرض الجدار الشرقى فى عرض أساسه الأصلى يعنى فى سمك ثلاثة أذرع كذلك ذراعين ونصف من السمك، وأدخل العمود الملاصق للجدار الشامى فى داخل الجدار المذكور، ومن هنا جاء سمك الجدار الشامى لمربع قبر السعادة أكثر سمكًا من جدران الجهات الأخرى وأصبحت جدار جميع الجهات يختلف بعضها عن البعض فى السمك، وكان اليوم الذى بدأت فيه العمليات يوافق السابع عشر من شهر شعبان من السنة المرقومة[1].

ولما كان ما بين الجهة الغربية والشرقية على شكل طولى، وكان بناء القبة عليه يرى غير قابل للتنفيذ.

ولكن بما أن قرار إنشاء قبة فوق مربع القبر الجليل كان قطعيًا والتحرك خارج هذا القرار غير ممكن لذا قد جعل شمس ابن زمن بناء على تصويب المهندسين ورأيهم حجرة السعادة مربعة وذلك بفتح باب من جهة قدمى السعادة من الحجرة

(١) سنة ٨٨١ هـ.

المعطرة، فى ارتفاع اثنى عشر ذراعًا يعنى قد ضيق وقصر طول الجدارين والباب المفتوح وجعل داخل مربع حجرة السعادة فى شكل مربع ولما بنى الجدار الشامى بأحجار منحوتة شاد فوقه قبة فى ارتفاع ثمانية عشر ذراعًا آدميًا عن سطح الأرض وفتح فى وسط الجدار الشامى بابًا صغيرًا وأدخل الحجرة الشريفة ابن أخيه وصهره لتسوية ما فوق القبور الثلاثة، والرجلان اللذان أدخلا داخل قبر السعادة قد فرشا فوق القبور الثلاثة رملاً على شكل ظهر السمك مثل قبور بلاد الروم حَسْبَ تصورهما وبخرا مرقد السعادة بإيقاد كثير من العود والعنبر وكانت القبور الثلاثة بجانب الجدار القبلى.

بينما كانت القبور الثلاثة تبخر وتسوى قدم كثير من العرض حالات المكتوبة إلى عتبة الرسول صاحب الشفاعة الموفورة وسد الباب الصغير الذى فتح فى وسط الجدار الشامى وركز فوق القبة العالية التى ارتفعت إلى السماء علم مصنوع من النحاس وطلى بذهب خالص.

وإن كان شمس بن زمن قد بنى وأسس هذه القبة فى غاية المتانة إذ جعل بين الأعمدة الموجودة أعمدة أخرى قدر اللزوم وعقد عقودًا فوق تلك الأعمدة، إلا أن قمة القبة قد انتقضت وسقطت بعض أجزائها، وبناء على الأمر الذى ورد من الحكومة المصرية قام شيخ الحرم شاهين الشجاعى بهدم الأماكن التى تحتاج إلى الهدم بعد الكشف عنها، وقام ببنائها من جديد وكان ذلك فى عام ٨٩٢

وقبل أن يهدم شاهين الشجاعى المواضع التى فى حاجة للهدم أمر بكنس داخل الحجرة الشريفة احترامًا ورعاية للقبر الشريف، وأمر بعمل سقف احتياطى وتصور بأنه بهذه الطريقة سيحمى داخل الحجرة الشريفة من سقوط الكناسة وجعل العمال يعملون بهدوء حتى انتهوا من التجديد.

ودامت حجرة السعادة خمسًا وأربعين سنة بعد أن عُمِّرَتْ على تلك الصورة متماسكة إلا أنه قد شوهدت علامات الانهيار فى الجدار الغربى والخلل، وأعلم

بالأمر العتبة السليمانية، عتبة البر والإحسان فما كان من السلطان إلا أن عين الموظفين والمهندسين لتعمير وتشييد ذلك الجدار، وأرسلهم إلى المدينة، ووصل الموظفون المكلفون إلى المدينة فى سنة ٨٩٣ هـ وشيدوا ذلك الجدار بكل احترام وتعظيم وأحكموا بناءه ثم فرشوا خارج الحجرة المعطرة وداخلها بقطع رخام مجلاة كما زخرفوا الجهات الأخرى وزينوها بشكل يجذب الأنظار، وغلفوا القبة الخضراء بألواح رصاصية وجعلوا رأس العلم الذى وضع فى مركز القبة من ذهب خالص وأماكنه الأخرى من فضة ووضعوه فى شكل بحيث يُنِيرُ ويضئ مسافات بعيدة وجعل العمال الذين استخدموا فى البناء يعملون بكل تعظيم وتفخيم للمكان فلم يحس أن فى الحجرة المعطرة نجارين أو بنائين يعملون.

ولما تم تجديد الجدار الغربى سنة ٩٤٠ كتبوا عليه هذين البيتين:

ألا يا رسول الله يا خير رافـع ... وأكـرم مبعوث إلى خير أمـة
من يحمـى التنزيـل بجاهـه ... ومن هو للمأمول أعظم شافع

وبعد أن ذيلوها ببسملة وتصلية كتبوا عبارة (جدد هذا المكان الشريف السلطان الملك المظفر سليمان خان بن السلطان سليم خان بن بايزيد خان فخر آل عثمان خلد الله ملكه بمحمد وآله وصحبه وسلم؛ تاريخ إتمامه شهر جمادى الآخرة فى سنة (٩٤٠).

وعلقت فوق التاريخ المذكور لوحة مزينة كتبت عليها بخط التعليق القطعة الآتية إلا أنه لا يعرف من صاحب هذه القطعة ولا التاريخ الذى علقت فيه لعدم وجود أية إشارة لذلك كما أن واقفها مجهول.

قطعة

يامزين العرش إكليل زينة عمرك أرسلناك
لما كان هناك مكان لشئ لو لم ينفذ أمر خطة مولاك
ليس بشيء أن يكون بابك المقدس تاجًا للملوك
فأنت ملك الملوك يا سلطان مولاك

بعد تعميرات المرحوم السلطان سليمان بـ (٢٩٣) سنة أبلغ الباب العالى أن أعلى قبة مسجد السعادة قد انشق، وبناء على الأمر السلطانى الذى صدر لأشراف مكة فهدموها وجددوا أعلى القبة وجعلوها فى غاية المتانة والرصانة، وحتى تصان قبة حجرة السعادة من التراب والغبار صنع بين القبتين سقف احتياطى وجعل العمال يشتغلون فى غاية الأدب فى الداخل، وقد تطوع كثير من أهالى مكة فى هذا العمل متيمنين متبركين، ولما أبلغ الأمر إلى باب من له القرار أرسل السلطان محمود خان العدلى من جيبه الخاص الهدايا للأشخاص الذين عملوا متطوعين متيمنين.

وبعد الحساب نال كل واحد منهم مائتين وخمسين قرشًا وذلك فى سنة (١٢٣٣هـ).

وكان لون قبة مسجد السعادة الكبيرة إلى سنة ١٢٥٣هـ فى لون الرصاص، وكانت تعرف بالقبة البيضاء والقبة الزرقاء والقبة الفيحاء وبناء على الأمر الذى صدر من السلطان المشار إليه طلوها باللون الأخضر وبعد ذلك أطلق عليها القبة الخضراء، وفى سنة ١٢٨٩هـ جدد لون القبة الشريفة المذكورة باللون الأخضر وفى الجهة القبلية منها وفى محاذاة الحجرة الشريفة باب صغير، وكان يقال لهذا الباب فى ذلك الوقت باب القبة البيضاء، وكان ذلك البويب قد فتح بناء على رأى السيدة عائشة؛ وقد غطى شاهين الشجاعى باب القبة البيضاء بقفص من حديد ـ كما ذكر فى بحث القبور الثلاثة ـ وفتح نافذة تحت الباب المذكور وفى محاذاة النافذة التى فوق قبة الحجرة المعطرة نافذة أخرى غطاها أيضا بقفص؛ ولما كانوا قد ركبوا مصراعًا لهذه النافذة كانوا يفتحون ذلك المصراع عند الدعاء، أما فى زماننا يفتحون باب التوبة.

والشكل الآتى بين هيئة حجرة السعادة التى جددت فى عهد السلطان قايتباى سنة ٨٨١هـ وتحت نظارة شمس بن زمن وبما أنها ظلت سليمة بعد الحريق الثانى فهى مازالت باقية إلى الآن.

والخط الدقيق الذى يرى فى خارج هذا الشكل فهو الجدار الجديد الذى بنى فى عهد عمر بن عبد العزيز والخط الثانى الغليظ يمثل الجدار القديم الذى بنى قديمًا لربع قبر السعادة، إن الفاصلتين اللتين فى الجهة الشرقية والشمالية علامة على أن هذه الأماكن ليست من داخل الحجرة المعطرة.

والموقع المبارك الذى أرى بخط موسوم فى الجهة الشمالية هو بيت خاص بوالدتنا السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وأن قبرها المنير من الساحة السعيدة التى ذكرت آنفًا والأرقام الموضوعة فوق الشكل فهى إشارات توضيحية للأماكن التى يحويها الشكل فى أسفله.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	الجهة القبلية
٢-	المسمار الفضى.
٣-	أسطوانة الصندوق
٤-	الأسطوانة التى تصفها فى داخل الجدار والنصف الآخر فى خارجه.
٥-	هذه الأسطوانة متصلة بالجدارين.
٦-	هذه الأسطوانة أسطوانة قبر السعادة.
٧-	قبة الحجرة الشريفة.
٨-	بقيت هذه الأسطوانة داخل الجدار.
٩-	مقام جبريل عليه السلام.
١٠-	دار فاطمة رضى الله عنها.
١١-	الأسطوانة الشمالية
١٢-	هذا الخط الرفيع علامة الجدار الجديد.
١٣-	هذا الخط الغليظ إشارة للجدار القديم والخط الوهمى الذى يحيط الشكل من جهاته الأربع علامة شبكة الحجرة المعطرة.

وإن كان هذا الشكل يمثل وضع الحجرة المعطرة الذى تم تحت نظارة شمس بن زمن ولا شك فى ذلك إلا أن مؤرخى الأسلاف اختلفوا فى صورة تنظيم ورسم خريطة حجرة السعادة إلى خمسة أقسام أو فرق ورسمت كل فرقة خريطة وادعوا أن الخريطة التى رسموها هى الصحيحة.

إذا ما ألقيت نظرة لأية واحدة من هذه الخرائط الخمس فمن الطبيعى أن تقبل الخريطة سالفة الذكر والتى صدقت صحتها من قبل المؤرخين المتأخرين، والخريطة الرابعة من الخرائط الخمس من البديهى أنها توافق الشكل المذكور بالنسبة للأخريات.

فبما أن كل هذه الخرائط الخمس تمثل خريطة حجرة السعادة فرأينا عرض جمعها من الوظائف المبروكة.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	الجهة القبلية
٢-	الحجرة المعطرة
٣-	الخط الغليظ علامة الجدار القديم والخط الرفيع الذى حوله علامة الجدار الجديد.
٤-	الجهة الشمالية
٥-	الجهة الغربية
٦-	الجهة الشرقية والخط الوهمى الذى يحيط بالشكل من جهاته الأربع علامة الشبكة المباركة.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	حجرة السعادة
٢-	علامة الجدار القديم
٣-	يستقبل الشرقية، كان باب النبى ﷺ وباب على فى هذه الجهة وهدم مؤخراً وضمت ساحتهما فى مسجد السعادة.
٤-	الباب الذى كان ينظر إلى جهة الشام لدار عائشة كان هنا.
٥-	بيت فاطمة.
٦-	علامة الجدار الذى مدته السيدة عائشة قد فصلوا الحجرة المعطرة بهذا الجدار.
٧-	الجدار الذى هدم فى عصر عمر بن عبد العزيز.
٨-	الجهة الغربية
١٠-	أسطوانة مقام جبريل
١١-	أسطوانة مربع القبر الشريف.
١٢-	علامة جهة رأس النبى.
١٣-	المسمار الفضى.
١٤-	الأسطوانة
١٥-	شبكة السعادة
١٦-	علامة الجدار الجديد
١٧-	الجهة الشمالية
١٨-	الجهة القبلية وكانت حجرات زوجات النبى المطهرات فى هذا المكان.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	جهة القبلة
٢-	مسمار الفضة.
٣-	اسطوانة الصندوق
٤-	الاسطوانة التى نصفها فى داخل ونصفها الآخر خارج هذا الحائط.
٥-	الأقدام المباركة لحضرة الفاروق رئيت من هنا.
٦-	أسطوانة الصندوق.
٧-	حجرة السعادة.
٨-	الحائطان الملتصقان بعضهما ببعض.
٩-	أسطوانة مربعة القبر الجليل وهيئتها الخارجية المثمنة.
١٠-	مقام جبريل.
١١-	بيت الحائط الذى سقط.
١٢-	مكان المحل الشريف الذى تشقق فى عصر شمس الدين بن زمن.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	جهة القبلة.
٢-	المسمار الفضى.
٣-	الأسطوانة التى نصفها فى الداخل ونصفها فى الخارج.
٤-	أسطوانة الصندوق.
٥-	الأسطوانة.
٦-	مربع القبر الشريف
٧-	مقام جبريل.
٨-	حجرة السعادة
٩-	الأسطوانة التى ظلت داخل الحائط.
١٠-	بيت فاطمة.

الرقم	الإشارات المخصوصة
٢-	الأسطوانة التى فى مواجهة حضرة الفاروق.
٣-	أسطوانة الصندوق
٤-	أسطوانة مربع القبر الشريف
٥-	المكان الذى يلتصق فيه الجداران.
٦-	مقام جبريل
٧-	حجرة السعادة
٨-	الحائط الذى انهار فى عهد عمر بن عبد العزيز.
٩-	هذا الخط العريض علامة الجدار القديم والخط الرفيع إشارة الجدار الجديد.
١٠-	شبكة السعادة.

بعد أن نقلنا هذه الخرائط مختارين من كتاب وفاء الوفاء وهو كتاب تاريخ عتيق، اضطررنا إلى مراجعة النموذج الذى عرض على حضرة الخليفة وهى الخريطة التى صنعت من قبل العاجز[1] مطابقة لآخر خريطة أخذت بعد التعمير الأخير وصنعت بالمساحة لتوضع فى جامع خرقة السعادة للسلطان المرحوم عبد المجيد خان ليفهم أيَّة واحدة من هذه الخرائط مقارنة للصحة، ولا يخطئ الشخص إذا ما حكم على أن خريطة حرم السعادة المستخرجة من النماذج المختلفة على الشكل الآتى وبناء على هذا الشكل فالخريطة التى خطها الإمام السمهودى يعنى الخريطة التى عرضت فى الشكل الأول صحيحة.

(١) يقصد المصنف بكلمة العاجز نفسه.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	حجرة السعادة
٢-	الخط الداخلى علامة الجدار الداخلى والخط الخارجى علامة الجدار الخارجى.
٣-	بيت فاطمة الشريف
٤-	مقام جبريل
٥-	جهة القبلة
٦-	جهة الشرق
٧-	جهة الغرب
٨-	جهة الشمال

إحاطة حجرة السعادة بجدار من الرصاص

كان الملك العادل الشهيد نور الدين محمود بن زنكى أقسنقر من صلحاء الملوك، وكان من عادته أن يتهجد كل ليلة بعد أداء صلاة العشاء وبعد أداء الصلاة كان يتلو القرآن ويقرأ أورادًا خاصة، وفى ليلة من الليالى قام بأداء الصلاة وقراءة أوراده الخاصة وفق عادته، ثم ذهب لينام، وفى أثناء نومه رأى ثلاث مرات النبى ﷺ كنز خزنة الإعجاز، وفى كل مرة يرى فيه صاحب الآيات الباهرة عليه التحية الزاهرة كان يريه شخصين قبيحى السحنة أحمرى الوجه ويقول: يا نور الدين! خلصنى من هذين الشخصين!!! وحينما استيقظ من نومه استدعى وزيره جمال الدين الموصلى والذى كان من صلحاء الأمة، وبناء على رأى وزيره اصطحب معه عشرين من جنوده الفرسان، ودون أن يخبر أى مخلوق توجه صوب المدينة المنورة عن طريق مصر وقيل من الشام ووصل إلى دار السكينة بعد ستة عشر يومًا وبعد الزيارة أراد أن يوزع العطايا من الذهب والفضة على أهالى المدينة فردًا فردًا وفق ما هو مقيد فى سجلات الأسماء.

وكان هدف الشهيد نور الدين من توزيع العطايا أن يجد أو يتعرف على الخائنَيْن من بين أهل المدينة وأن يعاقبهما العقاب الذى يستحقانه، وأخذ الناس يردون إلى حضرته ليحصلوا على عطاياهم، وكان يقارن وجوه كل من أتوه بصورة وجوه هذين الشخصين اللذين رآهما فى منامه؛ وكان متلهفًا لإظهار هذين الشخصين ولكن للأسف لم يتمكن من العثور على هذين الشخصين ضمن الذين حضروا لتلقى الصدقة، وانقطع سيل الواردين من أهل المدينة، عندئذ قال: «أليس هناك من لم يأخذ صدقته؟! إذا كان هناك من لم يأت استدعوهم لينالوا صدقاتهم». «فقالوا» لن يأتى أحد لأخذ الصدقة لأنه لم يبق هناك أحد؛ إلا أن هناك شخصان يتصفان بعزة النفس وزهد عن الدنيا وهما من أهل المغرب ومعروفان بكمال الصدق والعفة وهما فقيران مستدينان ولن يقبلا أخذ الصدقة»، وعندما تلقى هذا الرد قال: «لا، لابد من إحضارهما أيضا، وبهذه الإفادة الصائبة أمر بإحضار هذين الملعونين ظاهرى القذارة، ولما رأى مواطنو دار السكينة أن نور الدين مصر على رأيه، أحضروا مضطرين هذين اللذين تشبه سحنتهما سحنتى الغيلان، ولما كان هذان الشخصان يشبهان الخنزيرين اللذين أراه النبى ﷺ تمام الشبه، أخذهما نور الدين إلى حجرتهما الكائنة[1] قرب حجرة السعادة ورأى كتبًا نفيسة وأشياء غالية ولم يغتّر بشهادة الذين كانوا معه لهذين الوغدين بحسن السيرة، ورفع الحصيرة التى تغطى الحجرة فرأى نفقًا عميقًا وكان هذا النفق طريقًا مائلاً إلى السعة وينتهى إلى حجرة السعادة!! وكان سادات المدينة يشهدون بحسن سلوك هذين النجسين ويثنون عليهما، وعندما حدث ما حدث أحنوا رءوسهم خجلاً واستحياء ولم يجدوا ما يقولون، وتولى نور الدين بنفسه استنطاق هذين الخبيثين وشمر ساقه مستفسرًا عن حفر النفق، إلا أنهما أصرا على إنكارهما وهنا أمر بتعذيبهما وتهديدهما حتى يحصل على السبب الحقيقى فى حفرهما النفق، وضربهما ضربًا مبرحًا، وعندئذ عرف المغربيان أنهما لن يخلصا من آلة التعذيب بدون قول الحقيقة وشرعا فى

(١) كانت أبنية رباط العجم فوق ساحة هذه الحجرة.

الكلاتم وقالا: «إننا من مشركى أرض المغرب، ولسنا مسلمين إلى الآن، وقد جئنا إلى المدينة بحيلة أداء فريضة الحج وزيارة مرقد صاحب المعراج وأقمنا فى هذه الحجرة وغايتنا أن نسرق نعش النبى محمد ونحمله إلى أرض المغرب!!، وقد بعث لنا المغاربة نقودًا طائلة أكثر أنفقناها واستهلكناها ولَمَّا رأينا أننا لن نستغفل أهل المدينة بصرف النقود وإنفاقها لبسنا رداء الزهادة والتففنا بستار العفة حتى نظهر فى هيئة الصدق والوفاء وبهذه الصورة وفقنا فى استغفال الأهالى.

وأخذنا فى مزاولة عملنا، كنا نقضى الليالى بحفر النفق، وفى النهار كنا نملأ الأكياس بتراب ما حفرناه ونذهب إلى مقبرة بقيع الغرقد بقصد زيارتها حيث نفرغ الأكياس من التواب، وعندما اقتربنا بقبر السعادة ظهرت فى السماء أصوات الرعود والصواعق، الأمر الذى أقلقنا بل أخافنا خوفًا شديدًا، وفى الصباح انتشر خبر تشريف سلطنتكم، هذه هى الحقيقة.

واستمع نور الدين إلى هذه الأقوال بآذان ملؤها الحيرة والاضطراب وأسال دموع الرقة فى نهايتها، وأمر بقتل وإعدام المغربيين فأعدما بدون توقف تحت الشباك الشريف، وبهذا بين أن الذين يقصدون حجرة السعادة بسوء يستحقون جزاء الإعدام.

علاوة وإضافة

سمعت أنا محرر هذه الحروف من بعض الأشخاص أن الشهيد نور الدين أوقد فانوسًا ونزل فى النفق المحفور وذهب حتى نهاية الحفرة وهنا سقط بعض التراب وامتدت يد جسمان النبى الطاهر فقبلها وعادت، فما أحسن ما ناله من سعادة أبدية، ونعم ما حصل عليه من عناية سرمدية.

بعد أن أعدم حضرة نور الدين هذين السافلين حفر حول الحجرة الشريفة التى طاف حولها بخشوع وأزال التراب قرب سطح الماء ولما صار المكان الذى أخرج منه التراب خندقًا عميقًا فأسال فى هذا الخندق العميق رصاصًا مُذَابًا أى حفر خندقًا حول مرقد السعادة حتى مكان ظهور الماء دائرًا ما دار وملأ داخل هذا

الخندق برصاص مذاب فأحاط حجرة السعادة بسور من الرصاص، وذلك فى سنة (٥٥٧هـ).

ونقل المؤرخ جمال الدين المطرى هذه القصة بصورة أخرى ولم يذكر الجدار الرصاصى الذى مد حول مرقد السعادة، وبناء على نقل جمال الدين المطرى أنه فى سنة خمسمائة وسبع وخمسين دخل السلطان نور الدين محمود بن زنكى بن أقسنقر إلى المدينة الطاهرة بغتة بألف من الفرسان، وأخذ يوزع العطايا ـ كما ذكر آنفًا، ولكنه لم ير أحدًا ممَّن يشبه الغيلان مثل اللذين رآهما فى رؤياه فسأل: هل هناك من لم يأخذ الصدقة؟ فأجيب من قبل سادات المدينة المنورة أن هناك فى داخل الديار العشر أى فى دار آل عمر التى تقع فى الجهة القبلية للحجرة الشريفة يسكن مجاوران إلا أنهما معروفان بأنهما لا يأخذان الصدقة وموصوفان بالزهد والصلاح فإنهما لن يأتيا هنا فأحضرهما بالقوة وابتدر فى إجراء التعذيب وفهم منهما أنهما قد أرسلا من متعصبى مشركى المغاربة بغرض نقل نعش الرسول ﷺ إلى بلادهما فقطع عنقيهما أمام الجدار الشرقى للمسجد الشريف وبين أن هذين الشخصين قاما بحفر بئر فى دار آل عمر فى داخل الديار العشرة وملئوا هذه البئر بتراب النفق الذى حفراه.

رواية المطرى هذه تشعر بوصول الشهيد نور الدين إلى المدينة المنورة، وإذا ما نظر إلى أن الرباط[1] الذى سكن فيه المغربيان يعرف اليوم برباط العجم فالرواية الأولى أقرب إلى الصحة.

قال بعض أصحاب الوقوف من أهالى المدينة: «لما استدعى الشهيد نور الدين أهل المدينة لتوزيع العطايا أولم وليمة بعد أن نصب خيمة أمام باب الحصن الذى يطلق عليه الآن اسم باب الضيافة، وأطلق فيما بعد على هذا المكان اسم دار الضيافة وبهذا التعريف يقصون مجئ المشار إليه إلى المدينة المنورة حسبما فصل أعلاه، إلا أنه ليس بصحيح أن الشهيد نور الدين أقام ضيافة وإطلاق دار الضيافة لذلك المكان.

(١) دائرة المشيخة يعنى دار شيخ الحرم فوق ساحة هذا الرباط.

وإن كان فى الجهة الشامية من مئذنة العزيزية دكانًا يطلق عليه دار الضيافة إلا أنَّ هذا المكان ليس الموقع الذى استضاف فيه الشهيد نور الدين أهل المدينة بل ساحة البيت الذى كان يملكه حضرة عبد الرحمن بن عوف، وبما أن النبى ﷺ الكريم المحب للضيافة يطعم الضيوف الواردين فى هذه الدار أطلق عليها دار الضيافة وظل اسمها كذلك، وبما أن شارع حصن المدينة الميمونة يمر من هنا وينتهى إلى الباب الذى فى تلك الجهات فأطلق على هذا الباب باب الضيافة.

ينقل ابن النجار فى تاريخه الذى سطره عن بغداد ـ شبيهة الجنة ـ حكاية تشبه واقعة الشهيد نور الدين ويقول: «إن زنادقة العبيديين ذوو أفكار مشينة ابتدروا فى دس الدسائس واحتالوا على إضلال ملك مصر وقالوا: «إذا وجدنا يا ملكنا طريقة لإحضار أجساد النبى ﷺ وأبى بكر الصديق وعمر إلى مصر ذات الأهرامات، كان كبراء الممالك التى حولنا وأشراف بلاد الأكناف، يأتون إلى هذه الجهة رغبة فى الزيارة وبهذا تصبح القاهرة تكية الأنام ومستند الإسلام».

استحسن ملك البلاهة ما عرضه الزنادقة وتلقاه قبولاً حسنًا ورأى أن يبنى فى مصر ضريحًا مزينًا فخمًا وينقل جسد النبى الشريف فى هذا الضريح، وأمرأبا الفتوح من أقرب عبيده لنفسه وأخلص أتباعه بعد أن أرسله إلى المدينة واستعجله بأن يرسل الأجساد الثلاثة إلى مصر بأية طريقة كانت، ولما وصل أبو الفتوح إلى المدينة أخذ يلمح إلى سادات الأهالى عمّا فى ضميره وأنه سيعمل على إيفاء مأموريته وبين لهم سبب وروده إلى المدينة. وأراد السادات الذين أصابهم الهم والغم من هذا الموضوع أن لا يكشفوا عن الموضوع إلى أهل المدينة علنًا بل أن يفهموهم ضمنًا.

ومن هنا أحضروا المرحوم الزلبانى من مشاهير قراء المدينة وطلبوا منه أن يقرأ

عشرًا من القرآن الكريم، وتلاه المرحوم الزلبانى ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٣).

وقد فهم الحاضرون مما تفيده الآيات الكريمة من المعانى سبب مجئ أبى الفتوح وأخذوا فى القيل والقال وبعد منازعات طويلة ومناقشات مديدة قرروا أن يقتلوا الخوف والهم إلا أنهم قالوا: «إن البلاد الحجازية تحت الإدارة المصرية الآن، فإذا ما قتلنا أبا الفتوح فكأننا نثير غضب ملك مصر ونستدعيه ليبعث جنودًا كثيرة إلى المدينة ليؤدب سكان دار السكينة، ومن رأينا أن نعيد أبا الفتوح إلى مصر صفر اليدين من هنا تفرق القوم وقد صرفوا النظر عن قتل أبى الفتوح، وانسحب كل واحد منهم إلى جهة ما وكونوا جماعات صغيرة وبادروا فى التشاور فيما يجب عمله بهذا الخصوص.

عندما رأى أبو الفتوح هذه الحالة فاق لنفسه واستجمع عقله وقال: «إن الخوف من الله خير من الاحتراز عن عباده، وإننى لن أتجرأ بعد ذلك على إجراء مهمتى وإن تأكدت أن ملك مصر سيهلكنى لعدم تنفيذ هذا العمل الشنيع».

وقد بلغ قلقه واضطرابه حدًا لم يعرف منهما كيف انصرف من المجلس، ومع ذلك كان يرجو أن يظهر فى الميدان حكمة ما تسكن من غيظ وحدة ملك مصر، وبعد انتهاء الاجتماع ظهرت عاصفة شديدة وترك أهالى المدينة دون عقل وشعور وكأن الكرة الأرضية قد تحركت وأخذت تضرب الحيوانات بعضها ببعض الحيوانات التى تسير فى الصحارى والحقول والجبال فأتلفتها جميعًا، وهذه الحالة كانت باعثًا للفرح والسرور لأبى الفتوح، إذ عاد إلى مصر دون تأخير قائلاً: «أعرض على ملك مصر هذه الحالة المفزعة وأعتذر له عن عدم تنفيذ أمره».

إخطار

كلما تعرضت الحجرة المعطرة لسوء قصد ظهر فى المدينة الزلازل المفزعة والعواصف المخيفة، وفى الواقع لم تظهر فى المدينة المنورة بعد نار الحجاز المنذرة عواصف يحترز عنها ولا الزلازل ولا الحالات المخيفة ما لم تتعرض الحجرة الشريفة لسوء قصد ولم يثبتها التاريخ ولكن كلما حدث سوء قصد للحجرة الشريفة أو حدث شيء مخلاً بالآداب أمام القبر النبوى حدث إما زلزال كبير وإما عواصف شديدة مخيفة وقد حدثت لتوقظ أهالى المدينة من غفلتهم، الزلزلة الأخيرة فى سنة ١٢٩٦ الهجرية فى شهر المحرم ثلاث مرات فى يوم واحد مائلة إلى الشدة مما أقلق أهل المدينة وملأهم فزعًا.

وسبب هذه الزلزلة ما أظهره نائب الحرم والحجرة المعطرة تحسين أغا من وقاحة وسوء أدب أمام قبر النبى ﷺ إذ ذهب حالت باشا والى الحجاز فى السنة المذكورة لزيارة المدينة المنورة وأراد تحسين أغا أن يعرض له ولاءه التام لأنه أراد أن يكسب رضا حالت باشا وحسن توجهه له ونتيجة لهذه الفكرة الفجة قال له: «ياحضرة الباشا إن أهل دائرتك يظهرون مخلصين وذوى عقيدة متينة، والمعلومات التى وصلتنا عن حريم سيادة الوالى فى نفس المستوى، هذه فرصة لا تحدث دائمًا يجب أن تقتنصها إذا أذنتم سيادتكم، ندخل عقائل حريمكم توائم العصمة إلى داخل الحجرة المعطرة ونبهج خواطرهن بشرف زيارة القبر النبوى، «وقال حالت باشا»: «إن النساء قد لا يستطعن أن يظهرن واجبات الحرمة والزيارة حسب المقتضى، فإذا ما زرن من الخارج فهذا أفضل»، فأجابه تحسين أغا قائلاً: «لا، لا إن زيارة النساء عادة هنا، تتوضأ النساء ويدخلن داخل الحجرة ويزرن وإذا ما تفضلتم بالموافقة على أصول البلد تحسنوا الصنع»، وهكذا استحصل تحسين أغا الإذن من الباشا، وبناء على هذا جلب تحسين أغا جميع النساء فى دائرة الباشا فى الساعة الرابعة ليلاً من ليالى أوائل شهر محرم الحرام وأدخلهن واحدة تلو الأخرى وجعلن يزرن حجرة السعادة، وكان غرض تحسين أغا أن تنال

النساء شرف الزيارة ولم يكن يعرف أن دخول النساء الحائضات داخل الحجرة المعطرة غبر جائز ولم يخطر بباله أنه يجب ألا تكون بين الزائرات حائضة.

لذا حدث زلزال شديد ثلاث مرات متتالية صباح ليلة الزيارة تماسك الأهالى فيما بينهم، وفى النهاية عرف ما حدث وظهرت الحقيقة فأخرج حالت باشا من المدينة المنورة فى صورة مهينة وأرسل إلى مكة! وإذا كانت الأمور ظلت على هذه الحالة لأمكن أن يقال إنها تأديب خفيف، إذ تعرض حالت باشا بسبب هذه الزيارة للكثير من الكوارث إذ هلك جميع أفراد دائرته واضمحلوا وتشتتوا فى أرجاء الدنيا.

نعم، فالذين يسيئون أدبهم أمام النبى ﷺ يمحون ويتشتتون عقب إساءتهم أمَّا محاكمة تحسين أغا يظهر أنها ستجرى أمام حكيم الأنبياء لأنه كان سببًا فى القضاء على حالت باشا.

جرأة غريبة

حدث فى زمن شيخ خدمة الحرم السعيد شمس الدين أن بعض الحلبيين أرادوا أن يخرجوا نعش أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ليأخذوهما إلى بلدهم.

ودخلوا فى ليلة إلى مسجد السعادة، كما سيأتى تعريفه فيما بعد ـ إلا أن كلهم هلكوا وانعدموا وقد بلعتهم الأرض.

كتب مؤلف الرياض النضرة محب الطبرى راويًا عن هارون بن الشيخ عمر بن قائلاً: «قال شيخ خدمة الحرم النبوى شمس الدين صواب اللمطى بالذات: «كان لى صديق من خاصة والى المدينة المنورة وكل ما يتعلق بالأعمال الحكومية كنت أكلف هذا الشخص القيام به، وشرفنى يومًا فى حجرتى المتواضعة وقال: جاء اليوم بعض الناس من حلب ورجوا أن يؤذن لهم بإخراج الجسدين اللطيفين للشيخين الكريمين ـ رضى الله عنهما ـ وأخذوا إذنًا من أمير المدينة بذلك وقد

أعطوه نقودًا طائلة وبمجرد ما أنهى كلامه جاء رسول من قبل أمير المدينة المنورة وقال تفضلوا معى إن أمير المدينة يريدك، فأخذنى وذهب بى عند الوالى، وعندما دخلنا فى الدائرة الحكومية ورآنى الوالى فقال مؤكدًا: «يا صواب سيدق باب مسجد السعادة بعض الناس ووقتما يدق الباب يجب أن تفتح الباب وتدخل من دقوه فى الداخل ولا تعترض على أى شىء يفعلون وأن تصمت» هذا كان أمره، إننى جلست هذه الليلة فى جهة من جهات المسجد وأخذت أبكى من شدة الهم والغم وسبحت فى بحر الفكر والحيرة عسانى أجد حلاً لهذا الموضوع».

وعقب صلاة العشاء أغلقت الأبواب حسب الأحوال الجارية ثم جلست فى جانب من حجرة السعادة وأخذت أبكى، ودق فى منتصف الليل الباب الذى فى محاذاة دار الوالى، وبناء على الأمر الذى تلقيته فتحت الباب ووقفت خلف مصراعه، فدخل بعض الناس فى الداخل وأغلقوا الباب، فأحصيتهم فردًا فردا كانوا أربعين نفرًا كاملين وكان كل واحد منهم يحمل على ظهره زنبيلاً أو زنبيلين مملؤين بأدوات الحفر، فتوجهوا رأسًا إلى حجرة السعادة، وفى الوقت الذى مروا من محاذاة مئذنة باب السلام واقتربوا إلى أمام المنبر السليمانى، فانشقت أرض المسجد وبلعت هؤلاء الناس جميعًا بآلاتهم وأدواتهم واختفوا عن الوجود، ولما التأمت الأرض المنشقة ظل نصف ملابس أحد الأشخاص الذين ابتلعتهم الأرض خارجها وهكذا أشير من قبل الحق أن هذا المكان هو مكان الانشقاق[1] وبعد مرور مدة طويلة استدعانى والدى عنده وقال لى: «كنت بعثت لك بعض الأشخاص، هل أتوا؟ وكان يريد بهذا السؤال أن يستكشف الأحوال، فقلت له نعم قد أتوا إلا أن الأرض انشقت وبلعتهم ونقلت له القصة كما حدثت، فقفز من مكانه وذهب إلى مسجد السعادة ورأى قطعة الملابس التى ظلت خارج

(١) ويخبر بعض أهل المدينة أن الكيفية قد عرفت للناس فى تلك الليلة بصوت من الهاتف.

الأرض وفهم حقيقة ما حدث ثم التفت إلى قائلاً إذا ما قلت شيئًا فى هذا الموضوع سأعدمك وبعد هذا التهديد أوصانى بأن أكتم ما حدث.

كتب هذه الحكاية أبو محمد بن عبد الله بن المرجانى أيضا فى تاريخ المدينة إلا أن الأشخاص الذين ابتلعتهم الأرض كانوا خمسة عشر نفرًا أو عشرين، ثم أضاف إننى سمعت هذه الحكاية من أبى عبد الله بن أبى محمد المرجانى كما أنه سمع من أبيه محمد المرجانى، كما أن محمد المرجانى سمع من خدم الحجرة الشريفة، وفى آخر الأمر سمعت أنا من ناقله، وبهذه الرواية نقل وبين الحكاية السالفة.

وإن كانت الرواية التى ينقلها أبو محمد تظهر مختلفة عن رواية محب الطبرى إلا أن القول الأول بما أنه منقول عن شمس الدين صواب اللمطى بالذات فإنه مرجح على القول الثانى.

يخبرنا مؤلف طريقة محمد بعد أن ينقل ما قاله حضرة صواب برواية محب الطبرى، كيف مات والى المدينة، وأين تعرض حضرة صواب ومن طرف أى الأشخاص للهجمات بصورة واضحة، وبناء على تحقيق المؤلف المشار إليه أن والى المدينة قد تعرض لمرض الجذام عقب هذه الواقعة وارتحل إلى دار البوار بعد أن تقطعت أعضاء جسمه إربًا إربًا.

إن الزنادقة الظالمين أرسلوا بعض السفاحين وقد اطلعوا على مصير الأشخاص الذين بعثوهم من حلب وكيف بلعتهم الأرض واختفوا إلى الأبد أرسلوهم ليقضوا على حضرة صواب ويقتلوه وقد فرح هؤلاء الأشخاص وابتهجوا إذ دعوا صوابا إلى مجلس حيث تجرءوا لقطع لسانه، إلا أن النبى ﷺ مسح على لسان صواب فرجع اللسان على حالته الأولى كأثر من آثار المعجزة النبوية وأخذ يتحدث ومن هنا تبدل فرح هؤلاء السفاحين وابتهاجهم غما وهما.

أرادت فرقة الزنادقة أن يخفوا ما ارتكبوه من الإهانة عن أهالى الممالك المتجاورة وذلك بفكرة رفع وجود صواب المبارك عن خريطة الحياة فدبروا له

حيلة ورموه فى السجن وجرحوا جسمه المبارك ومزقوه وعرضوه لجروح غير قابلة للالتئام، ولكن طبيب أدواء الأمة ﷺ أخرج صوابًا من السجن. كما أنه ـ عليه السلام ـ أزال جميع آثار الضرب والجروح ومن هنا أمكن إخفاء أحداث الواقعة وسترها.

وأراد والى المدينة أن يخفى عن الناس مكان قطعة الملابس بقطعها ولكن صوابًا كان قد أرى مكان انشقاق الأرض لأهالى البلدة المباركة فى أثناء وقوعه فى أجولة السفاحين، وشرح لهم ما حدث ومن هنا وضع الناس فى هذا المكان قطعة من الحجارة وعرفوا الزوار الذين يقصدون قبر السعادة بأن ذلك المكان مكان الانشقاق ومع مرور الأيام تبدل ذلك الحجر، وفى النهاية وضعت قطعة من الرخام متعددة الألوان الأصفر يختلف لونها عن قطع الرخام الأخرى لتجذب الأنظار.

وما زالت هذه القطعة الرخام فى زماننا هذا، فإذا ما سئل أى واحد من أهالى المدينة يشيرون إليها، وبما أنه لا يوجد فى ساحة حرم السعادة الرخامية قطعة رخام أخرى تشبهها فلا داعى للسؤال عنها من زيد أو عمرو، وعلى الزوار الذين يريدون أن يروا هذه الرخامة أن يبحثوا عنها فى الساحة الرخامية فى مواجهة السعادة بعد أن يدخلوا من باب السلام بين مئذنة باب السلام والمنبر السليمانى.

ينقل لنا مؤلف روضة الأبرار أن لعينًا اسمه أرناط حاكم قلعة كرك مدينة صغيرة فى ولاية الشام وهى ملحقة بسنجق البلقاء يسكنها ثمانية آلاف، نسمة ستة آلاف منهم مسلمون والألفان مسيحيون.

ومركز هذه المدينة قرية كرك التى تقع على مسافة خمس أو ست مراحل من نابلس التى تقع فى الجهة الجنوبية من البلقاء أراضيها ذات محصول وفير منبتة خصبة، لكن بما أن سكانها عشائر غير متحضرة فأحوالها العامة غير منضبطة، وإدارتها محولة إلى الشيخ الذى يطلق عليه القائم مقام، وهذه القرية فى ممر قوافل مصر والحجاز، ولما كان موقعها ذا استحكام طبيعى كانت فى الأوائل

مركزًا تجاريًا، وقام الصليبيون ببناء بعض الحصون فيها كما أن الأيوبيين قاموا بتعميرها وإصلاحها بصورة رصينة متينة حتى أصبحت فى حالة فوق العادة من العمارة ومازالت بعض قلاعها قائمة إلى الآن آثار ملك الفترة المزدهرة.

وقع أرناط فى سنة ٥٧٨هـ فريسة لفكرة نبش مرقد النبى المنير ونقل جسده الشريف تلك الفكرة الخائبة، ومن هنا أمر بصنع بعض المراكب الصغيرة فى قلعة (كرك) وأوصلها إلى البحر الأحمر جَرًا على اليابسة، كما أرسل ثلاثمائة وخمسين نفرًا من الأشقياء السفلة لاستخدامهم فى تسيير المراكب ولإرسالهم إلى المدينة المنورة إذا اقتضت الأحوال.

وكان غرضه أن يؤخذ الجسد النبوى الطاهر إلى ميناء ينبع ومن هناك إلى بلاده، ولما وصلت تلك المراكب إلى ميناء ينبع تكونت جماعة كبيرة مع العربان الذين وافقوا على الفكرة وترك فى الميناء قدر كاف من الحراس لحراسة السفن وأخذ الباقى يتسرب إلى ناحية المدينة المنورة منفردين، ثم اجتمعوا فى مكان معين وأخذوا يتقدمون، ولما وصل هذا الخبر الذى أثار الدهشة إلى مسامع مَنْ يُعْرَفُ بين المشايخ باسم الشيخ محيى الدين النووى فى الشام ظَنَّ أَنَّ والى الشام يريد إرسال الكتب النفيسة التى فى مكتبة الجامع الأنورى الشريف إلى ديار أخرى.

وعندما اطلع الإمام على حقيقة الأمر ذهب إليه وأراد أن يثنيه عن قراره بكلام لين ونصيحة خالصة، ولما رأى أن كلامه لا يؤثر فيه غير كلامه وأخذ يهدده بفقرات باردة، وظن الوالى أن الإمام شخص عادى كآحاد الناس فأمر بحبسه وتوقيفه فابتدر مَنْ بجانبه الشَّيْخَ ليحملوه معهم، لكن فراء الأسود والنمور التى كانت مفروشة فى الحجرة تراءت لهم كالحيوانات المفترسة الحية فامتلأ قلب الوالى بالخوف والفزع ولاسيما قلوب الذين كانوا أمسكوا بالإمام وهكذا جعلتهم يفرون جميعًا، وبناء على ذلك ثاب الوالى إلى رشده وندم على ما فعل وطيب خاطره وقبل يده وقدمه إنقاذا من هذه الورطة المخيفة المفزعة.

بينما تصدر الأمور الخارقة للعادة من الإمام النووى والآخرين مِمَّنْ يتباهون بانتسابهم إلى الرسول ﷺ فكيف يجوز التردد فى تصديق ما ينسب إلى الرسول ﷺ، ملك جنود الملائكة من الخوارق هذا النبى الذى اتخذه خالق العالم - جل شأنه - حبيبًا له.

كن مجذوبًا بحب الله ... وكن فى كمال الأدب أمام النبى.

الوجهة الثانية عشرة
تشتمل على ثلاث صور
فى ذكر الوقت الذى احترق فيه مسجد السعادة
وكيف احترق ومن الذى جدده

تعرف كيفية احتراق مسجد السعادة للمرة الأولى وكيف جدد

دخل أبو بكر بن أوحد[1] من فراشى المسجد النبوى فى ليلة يوم الجمعة الأولى سنة ٦٥٤ الهجرية[2] إلى مخزن القناديل الكائن بالزاوية الشمالية لجدار المسجد الغربى ليخرج قناديل المآذن ووضع الشمعة التى فى يده فوق قفص أحد القناديل ونسى أنه ترك الشمعة فوق قفص القناديل ولما كان ذلك القفص قابلاً للاحتراق فاحترق فجأة وانتقل الحريق إلى الأقفاص الأخرى للقناديل ومن هناك سرت النار إلى حصير المخزن ثم إلى سقف المسجد الشريف وتركت المسجد فى ظرف ساعة فى حالة أليمة من شدة الحريق واللهيب، وأخبرت الإدارة الحكومية قبل أن تسرى النار إلى الأطراف فجاء أهل المدينة مع السادات والموظفين وبذلوا الجهود لإطفاء الحريق ولكن محاولاتهم ذهبت سدى فاحترق الحرم الشريف تمامًا ولم يمكن إخراج شيء من داخله.

ولم يصب الحريق المسجد النبوى وحده، إذ كان فى ذلك التاريخ فوق صندوق قبر النبى ﷺ إحدى عشرة قطعة غطاء بعضها فوق بعض ومصاحف شريفة وكتب نفيسة وأشياء ذهبية ثمينة فاحترقت كلها فظهرت عظمة الأنوار الإلهية كالشعلة الملتهبة.

وقد وقع هذا الحريق بعد نار الحجاز المنذرة وكان هذا الحريق إشارة إلى ما ارتكبه الخوارج فى داخل مدينة الرسول وسوء عاقبة الذين يتصرفون خارج الآداب الشرعية هؤلاء الخوارج الذين فصلت أحوالهم وجرمهم وعرفت فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة وفى الصورة العاشرة من الوجهة الأولى، إذ

(١) اشتغل هذا الشخص قيمًا فترة ما.

(٢) ادعى بعض المؤرخين أن هذا الحريق وقع فى عام ٦٥٥ ولكن الحقيقة أنه وقع فى عام ٦٥٤.

ظهر بعض الزنادقة عقب نار الحجاز المنذرة، كما فصل فى الصور المذكورة، وأحدثوا بدعًا كثيرة خارج الأدب المشروع للشريعة الإسلامية.

وقد رأى أهل المدينة هذين البيتين قد كتبا عل جدران مسجد السعادة فملأهم خوفًا ورهبة وخشية.

لـم يحتـرق حـرم النبـى لحـــادث

يخشـــى عليـــه ومـــا بـــه مـن عـار

لكنمـــا أيـدى الروافـــض لامســـت

تلـك الرســـــوم فَطُهِّـرَتْ بالنـــار

إن البيتين اللذين رؤيا بعد الحريق على جدران مسجد السعادة يدلان على أن الروافض كانوا سببًا فى الحريق بسلوكهم المشين إلا أن الأبيات الآتية التى ذكرت بعد الحريق بـ ٦٥٠ سنة توضح أسباب الحريق فى صورة أكثر وضوحًا.

وكان يقضى أن الروافض هم الذين يتحملون عذاب تلك النار، فأفهمهم بطريقة ظريفة حكمة احتراق مسجد السعادة وقائل الأبيات محمد أبو الهدى الجالس على صدر ديوان الأدب وزينة مجمع البلغاء.

تجـــاوز فى المقـــام حـــدود شـــرع

أنـاس غافلـــــون عـــن الإشـــاره

أراد الحـــــق إعظامـــــًا لحقـــه

عقابهـــم فأرســـل عـــز نـــــاره

فقـــال بغيـــرة رب اهـــد قـومى

فـــرد النـــار عنهـــم للحجـاره

ولم يبق فى الحريق المذكور غير القبة[1] التى أمر بصنعها الناصر لدين الله لحفظ لوازم مسجد السعادة، فالصناديق التى كانت موجودة فى المخازن الموجودة فى خارج مسجد السعادة، وفى الجهات الأخرى من مسجد السعادة احترقت كلها.

وكانت القبة التى بناها الناصر لدين الله فى وسط المسجد وكان فى داخل القبة المصحف الشريف العثمانى، وبعض الصناديق الكبيرة التى صنعت فى السنة الثلاثمائة من الهجرة فنجت النصاديق المذكورة من النار بحرمة المصحف الشريف الذى كتبه حضرة عثمان بيده، وبعد أن انطفأت النار تمامًا كانت الأعمدة التى ظلت فى الساحة تهتز كأنها أشجار النخيل وتتمايل على جهتين وقد ذاب الرصاص الذى فيها وأخذت تسقط على الأرض واحدة تلو الأخرى.

وكان بين هذه الأعمدة أعمدة لم يذب رصاصها ولم تقع إلا أنها تأثرت من صدمة وقوع الأعمدة الأخرى وأخذت تسقط واحدًا تلو الآخر ولم يبق عمود يمسك سقف المسجد الشريف فوقع سقف المسجد الشريف فوق الحجرة المعطرة كما أن سقف الحجرة المعطرة وقع على مرقد النبى الجليل، وفى اليوم الثانى نظف من ساحة المسجد الشريف المحترق ما يستوعب عدد مصلى صلاة الجمعة وأبلغ الأمر إلى المستعصم بالله بن المنتصر بالله البغدادى وبعثوا المحضر العمومى الذى كتبه الأهالى راجين من الخليفة سرعة تعمير المسجد.

وبعثت الأشياء اللازمة من قبل المستعصم من بغداد مع قافلة حجاج بغداد مع الأمر بسرعة الشروع فى تجديد البناء فبدئ فى إجراء عمليات البناء وفكروا فى تجديد حجرة السعادة أولاً ورفع الردم الذى وقع فوق القبور الشريفة وتطهير

(١) وقد عمرت هذه القبة سنة ٥٧٦ وأطلق عليها اسم قبة الشمع، فهدمها السلطان عبد المجيد وأضاف ساحتها لساحة حرم السعادة الرملية فى سنة ١٢٧٧هـ.

داخل الحجرة المعطرة قدر الإمكان وفعلاً فهذا ما كان يجب عمله، ولأن سقف الحجرة المعطرة كان قد احترق ووقعت الحجارة والتراب وما يشبههما فوق القبور الشريفة، ولكن مهابة القبور الشريفة والرهبة منها حالت دون ذلك، فلم يتجرءوا عل تنفيذ ذلك؛ ومن هنا اجتمع مجلس شورى برئاسة والى المدينة منيف بن شيخة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسينى وقرر فى هذا المجلس بموافقة أكابر المدينة كتابة عريضة وإرسالها إلى بغداد لتبليغ الأمر إلى الخليفة ولما كان ذلك فى أثناء استيلاء التتار على بغداد لم يأخذوا أى رد فتركوا مسجد السعادة على حالته تلك.

لما كان الضمير لن يقبل ترك مسجد السعادة فى حالة خراب كما أن ورود الإذن بخصوص تعمير المسجد قد تأخر كثيراً فعمر ورمم سادات المدينة وعلماؤها وأعيانها جهات الحجرة المعطرة الثلاث تاركين الجهة الشامية، وفهموا أن الحكومة البغدادية وموظفيها لن يستطيعوا تعمير مسجد السعادة لما ابتلوا بهجوم التتار فى المحرم الحرام من سنة ٦٥٦هـ، فراجعوا ملوك المسلمين الآخرين فى الأطراف، وكانت تعميرات الأهالى لحجرة السعادة مقتصرة على تغطيتها فقط، وقد بدئ فى هذا التعمير سنة ٦٥٥هـ فصنعوا غطاء من قماش يسمى محايس يمنية وغطوا فوقها، وكانت بطانة هذا الغطاء من قماش أزرق وكانت الستارة أربع قطع وكانت كل قطعة على شكل باب فضموا بعضها ببعض وألصقوها بلوحة خشبية مصنوعة من خشب يسمى الساج الهندى ولم تكن فى هذه اللوحة زينات ونقوش وكان اسم عاملها محكوكًا عليها.

إن أول من استجاب لطلبات الأهالى لتجديد المسجد الشريف صاحب مصر المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى وأرسل الأشياء اللازمة للبناء، ثم وصلت اللوازم التى أرسلها صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن المنصور بن عمر بن رسول فقرر بناء مسجد السعادة من جديد وشرع فى العمل بناء على أمر صاحب مصر وإشعاره وبعد أن بنيت الجهة القبلية

إلى باب السلام تولى ملك مصر المظفر سيف الدين محمود بن ممدود خوارزم شاه، بدلاً من منصور نور الدين على مظفر بن الملك عز الدين أيبك الصالحى للتعطيل، وبذل سيف الذين المعزى أيضا لإعمار مسجد السعادة جهده، فَبَنَى الجهة الشرقية من باب السلام إلى باب الرحمة والجهة الغربية من باب جبريل إلى باب النساء فى صورة متينة، إلا أنه مات فى نهاية السنة المذكورة مقتولاً فتعرضت مبانى الحرم الشريف للتعطيل ثانية.

وتولى حكم مصر والشام بعد سيف الدين الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى البندقدارى، ولما كان يرجو أن يكمل بناء مسجد السعادة عَيَّنَ جمال الدين محسن الصالحى من رجالات مصر لأمانة البناء وأرسله إلى المدينة المنورة فى رفقة ثلاثمائة وخمسون نفر من العمال المهرة كما دبر له المال اللازم والأشياء الأخرى وأرسلها إلى جمال الدين محسن دون تأخير.

عندما وصل جمال الدين إلى دار الهجرة بنى المسجد الشريف للمرة الثانية من باب الرحمة إلى باب النساء وجعل للجهات الغربية والشرقية والقبلية سقفين لطيفين فأعاد أبنية المسجد لحالتها الأولى.

وظل مسجد السعادة تسعة وأربعين عامًا إلى أوائل عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى على هيئة بناء الظاهر ركن الدين، وفى سنتى ٧٠٥، ٧٠٦هـ هدم محمد بن قلاوون الصالحى السقوف التى على يمين جهة الساحة الرملية ويسارها وجددها بأن جعلها سقفًا واحدًا[1] مثل الجهة الشمالية وبعد ٢٣ سنة أضاف عقدين إلى الجهة القبلية فوسع المسجد الشريف قليلاً ورمم الجهات التى فى حاجة إلى التعمير وجعلها فى غاية المتانة وذلك فى سنة ٧٢٩هـ ولكن العقدين اللذين أقامهما محمد بن قلاوون لحق بهما البلى ولم يعودا صالحين وخيف من سقوطهما بغتة فيكون ذلك سببًا فى هلاك الناس وهذا ما أزعج الناس وأقلقهم، ولما عرف الأمر الملك الأشرف برسباى بعث أمين البناء مقبل

(١) كانت الجهة الشمالية لمسجد السعادة وجهاته الأخرى مبنية بسقفين.

القائد وأعطى له مقدارًا من النقود التى حصل عليها من حوالى جزيرة قبرص فجدد العقدين المذكورين كما جدد الأماكن التى فى حاجة إلى التجديد فى السقف الشمالى، وذلك فى سنة ٨٣٧هـ.

ولما لزم تعمير بعض أماكن المسجد الشريف بعد ٢٢ عامًا بعث الظاهر جقمق المصرى فى سنة ٨٥٣هـ المهندس أمير برد لتجديد سقوف الروضة المطهرة وسقوف الأماكن الأخرى المباركة كما أن الأشرف قايتباى جدد فى سنة ٨٧٩ بعلم شمس بن زمن بعض أماكن السقف الشرقى بعد هدمها إلى المئذنة الشرقية.

وجدد شمس بن زمن بعد سنتين سقف الجهة القبلية وبدل قبة الحجرة المعطرة[1] بقبة حجرية وهكذا رصن حجرة السعادة.

ولكن عندما ضاقت جهة مسجد السعادة الشرقية كثيرًا أضاف إليها من الخارج ذراعين وربع ذراع فوسع حرم السعادة كما أن هذا الجدار قد سحب إلى الخارج عند التعمير الأخير أى فى عصر السلطان عبد المجيد قدر خمسة أذرع ولم يكن لذلك الوقت قبة فوق الحجرة المعطرة فكان بناء عمر بن عبد العزيز متصلاً بسقف مسجد السعادة على شكل سقف مستو ولكى ينفصل عن سقف المسجد الحرام أقيمت حظيرة من الآجر بارتفاع ذراعين، وحَوَّلَ الملك المظفر هذه الحظيرة إلى قبلة مثمنة فى أعلاها ومربعة فى أسفلها، وغلفها من أعلاها بألواح خشبية وغلف الألواح الخشبية بألواح رصاصية ثم غطاها بستارة من المشمع.

وفى سنة ٧٥٦ جدد تلك القبة المذكورة الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون وجددها مرة أخرى بعد اثنتى عشرة سنة إلا أنها حولت فى سنة ٨٨٦هـ إلى قبة حجرية فى عهد الأشرف قايتباى المصرى.

(١) وقد قدر الأهالى هذه القبة فى ذلك الوقت وسموها القبة الزرقاء.

فى تعريف احتراق مسجد السعادة للمرة الثانية وكيفية وصورة تجديده

فى الليلة الثالثة، وعلى رواية فى الليلة الثالثة عشرة، من رمضان سنة ٨٨٦هـ وفى الثلث الأخير منها بينما كان رئيس المؤذنين شمس الدين بن الخطيب يهم بالطلوع على المئذنة الرئيسية والمؤذنون الآخرون إلى المآذن الأخرى للتهليل والتذكير والترحيم.

ظهرت فجأة على وجه السماء غيوم سوداء مخيفة وظهرت أصوات مدهشة كأنها طلقات المدافع فأصبحت دار العزة ونواحيها المتجاورة داخل نار ملتهبة، وزادت أصوات الرعود والصواعق بالتدريج فأصابت صاعقة شديدة مئذنة رئيسية فهدمت أعلى شرفتها والجهة الشرقية من المسجد الشريف وخربته وقتلت شمس الدين بن الخطيب وعشرة من الخدم والجماعة وكان من ضمنهم نائب خازن الحرم.

والصاعقة التى هدمت المئذنة الرئيسية وخربتها سرت نيرانها إلى سقف مسجد السعادة ومن هناك دخلت داخل المسجد بحيث أصبح مسجد السعادة فى وسط النيران فجأة.

وإن كان أغوات حجرة السعادة فتحوا أبواب الحرم الشريف وأخبروا الأهالى بالحادث فتكاثروا وتكاتفوا لإطفاء الحريق وبذلوا كل جهودهم، ولكن النيران الملتهبة قد أحاطت بجهات مسجد السعادة الأربعة بشدة حالت بين من يحاول أن يدخل إلى داخل المسجد ومع هذا فمن دخلوا داخل المسجد مضحين بأرواحهم اندفعوا خارج المسجد بطريقة شديدة حتى ينجوا بأرواحهم وزادت النار التهابًا واشتعالاً فلم يبق أمام الأهالى إلا أن ينسحبوا بعيدًا وأن يتفرجوا على النار.

بينما كان مسجد السعادة يحترق والنار تنتقل من هناك لهنا أخذ الأهالى ينقلون أشياءهم إلى خارج المدينة وفى نفس الوقت ينظرون إلى النار المخيفة نظرة حيرة ودهشة؛ ولم يخرُج من داخل المسجد إلا بعض المصاحف الشريفة فى أول الحريق، واحترقت الكتب النادرة القيمة والأشياء الثمينة وكل ما أهدى من قبل السلاطين والأسلاف من الأشياء الذهبية الثمينة ولم ينقذ إلا القبة التى كانت فى وسط الحرم الشريف واحترق عشرة أنفار من الذين دخلوا داخل المسجد بغتة لنقل بعض الأشياء وماتوا متأثرين من النار.

استطراد

اسم القبة التى ذكرت اسمها قبة الشمع وقد بنيت من قبل الناصر لدين الله لتوضع فيها لوازم حرم السعادة وهى الأشياء التى ترد منذ ثلاثمائة سنة حتى مصحف عثمان بن عفان كان محفوظًا فى داخل هذه القبة، ولما ساءت حالتها مع مرور الزمان وخربت، هدمها السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى سُوّيت بالأرض وبناها من جديد فى تاريخ ٩٧٤هـ وكتب على القطعة الرخامية التى وضعت خارج جدارها الخارجى بخط جلى مُذَهَّب (لمولانا السلطان الملك المظفر ملك البرين والبحرين، السلطان سليمان أعز الله نصره)، ولما رأى محمد رائف باشا الذى عين لأمانة البناء من قبل السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٤هـ أن إبقاء القبة داخل مبانى حرم السعادة مضرًا، رفع تلك القبة من ساحة الحرم الشريف الرملية وأخرجها إلى خارج الجدار الشامى كما ذكر فى الصورة الثالثة من هذه الوجهة، وفعلاً قام بعمل مناسب. انتهى.

وقد اتسعت تلك النار واشتدت واشتعلت حتى إنها جعلت المسجد الشريف يتحول إلى بحر من شعل ولهيب حتى ظن الناس أنها ستحرق جميع حوانيت المدينة المنورة ومنازلها فهربوا إلى أماكن بعيدة، إلا أنها لم تسر خارج المسجد.

معجزة باهرة

رأى أحد الصالحين فى رؤياه أن بعض الجراد ينتشر إلى الأطراف وعقب ذلك شاهد ظهور شرارة النار وأن النبى ﷺ يقول: «إننى أمنع هذه النار وفعلاً منع انتشار النار إلى الأطراف، هذا ما نقله هذا الرجل الصالح»، وفعلاً قد رئى فى أثناء الحريق ظهور طيور بيضاء لا حصر لها وتمنع بأجنحتها انتشار النار خارج مسجد السعادة.

وقد رئيت تلك الرؤيا فى الليلة الثانية من رمضان أو الليلة الثانية عشرة ونقلت إلى أمير المدينة السيد الشريف زين الدين ابن الشريف زين بذاته أن الشخص الذى رأى الرؤيا من صلحاء العرب ونال حسن ظن جميع الناس.

حـــرم النبى محمـــــد فيمـــــا مضـــى

مســـته مـــن أثـــر الصواعـــق نـــــار

مـــا تلك صاعقـــــة ولكـــن لمعـــة

نوريـــة قدحـــت بهـــا الأنـــــوار

وســـرى زفيـــر المذنبـــين ملامســـا

لحبالهـــا فبـــدى لهـــا الآثـــــار

وهذه الأبيات ارتجلها بداهة بسبب احتراق الحرم السعيد للمرة الثانية مفخرة العلماء وسند الفضلاء صاحب السماحة أبو الهدى أفندى ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا نظير لمثل هذه الموهبة الشعرية فى شعراء الأسلاف.

بعد انطفاء الحريق بعدة أيام أطفأ أهالى دار الهجرة النار الباقية فوق القبة الخضراء، وعجبوا لما رأوا أن القبة المزينة التى بنيت قبل الحريق فوق الحجرة المعطرة لم تحترق واحترقت فقط القبة الخضراء التى فوقها وذاب الرصاص الذى فوقها وأخذ يسيل فوق قبة حجرة السعادة ولكنه لم يضر الأشياء التى كانت فى داخل الحجرة المعطرة.

عبرة

والغريب فى الأمر أن القبة الكبيرة التى تحيط بالقبة الصغيرة والمخازن التى فى داخل مسجد السعادة والمصاحف الشريفة و ١٢٠ من الأساطين الحجرية ومقصورة مرقد السعادة ومنبر النبى المنير وصندوقه مصلى السعادة قد احترقت كلها وانمحت الأعمدة المتصلة بالحجرة اللطيفة المسعودة، ورفعت بعد الحريق الأشياء التى كانت فى الجهة القبلية من الحجرة المعطرة ونجت بعض أجزائها كالأشجار والبقايا الأخرى من الحريق إلى جهة الجدران الشامية وكتب الأمر إلى السلطان قايتباى المصرى وقد حزنت قوافل الزوار التى وردت من مكة وتكدرت.

ظهور السيل المروع بجوار مسجد الحرم

عند عودة الذين احترقت قلوبهم بنار احتراق مسجد السعادة كانت تنتظرهم مصيبة أخرى عند عودتهم إلى مكة المكرمة، وذلك بظهور سيل عظيم وكأنه بحار متلاطمة، ملأت الصحارى والأودية وفى النهاية ملئ حرم الكعبة المعظمة فهدم كثيراً من المنازل والدكاكين وليس فى الإمكان إحصاء من غرقوا فمن قائل أنهم كانوا ثمانين غريقًا ومنهم من يقول مائة ووجدت جثثهم بعد انقطاع السيل، وروى أنه لم يقع مثل هذا السيل العظيم بعد الجاهلية.

تجديد مسجد السعادة وقصر عزة الوحدانية

لما أطلع السلطان قايتباى على تعرض الكعبة العلياء موئل الرحمة والوحدانية الحرم المحترم لهجوم السيل وخرابه حتى تحول كل ركن منه إلى عش بوم أو غراب، فعين سيفى سنقر الجمالى لأمانة بناء الكعبة المعظمة وشمس بن زمن لأمانة بناء المدينة المنورة وأخرجهما إلى الطريق وأمر بأن يبعث الأدوات اللازمة للبناء عن طريق جبل الطور وينبع البحر وهما فى مصر وأن يصاحب كلا من سنقر الجمالى وشمس بن زمن أربعمائة من مهرة العمال وكذلك الدواب اللازمة للنقل.

وتوجه سنقر الجمالى وشمس بن زمن نحو مكة المكرمة فى خلال شهر ربيع

الأول سنة ٨٨٦هـ، وحيثما نزلوا فى الطريق أو قضوا ليلهم وجدوا كثيراً من الموظفين المكلفين بحمل الأدوات اللازمة للبناء كما أرسل موظفون لإحصاء المكلفين بقطع الخشب اللازم من حوالى المدينة المنورة والأخشاب التى وردت من المدينة المنورة ونواحيها ولوازم البناء قد تحولت إلى جبال راسيات وامتلأ الطريق البحرى والبرى بالأشياء اللازمة لتعمير الأماكن المقدسة، ورأوا أن أهالى كل بلدة وضيعهم أو شريفهم مشغولين بنقل مهمات البناء.

وبمجرد أن وصل شمس بن زمن إلى دار العز المدينة المنورة شرع فى هدم الجهة القبلية للمسجد ابتداء من المئذنة الرئيسية إلى باب السلام وهدم الجهة الشرقية إلى باب جبريل وأخرج الجهة الشرقية إلى خارج ما يقرب من ذراع ونصف ذراع ووسع محراب عثمان الشريف وجعله فى صورة جميلة وطبيعية وجدده، ورفع عليه قبة جميلة وقصر من طول الأعمدة ووضع عليها عقودًا من اللبن ورفع هذه العقود بالأخشاب وصنع عليها سقوفًا كاملة منتظمة، وصنعوا قبابًا عالية متينة على الأساطين التى بجانب محراب عثمان والأساطين التى تحيط بحجرة السعادة وغيروا الأعمدة التى فى مقصورة الحجرة المعطرة فى شكل جميل.

ولما كانت القبة التى أقيمت فوق حجرة السعادة أعلى من القباب الأخرى وضع مهندسو التعمير عقودًا محكمة فوق الأساطين التى على جوانب الجدار الشرقى الأربعة والشمالى حول هذه القبة وبنوا فوق تلك العقود أربعة أعداد من القباب المتينة وفتحوا منافذ بين المئذنة الرئيسية والعقود سالفة الذكر لتيار الهواء، عندما كانت تمد عقود القباب الجديدة أضيف للجهة الشامية لمثلث حجرة السعادة عمود وعندما كان يحفر أساس هذا العمود ظهرت علامة قبر، ولما حكم أمين البناء شمس بن زمن أن هذا القبر قبر حضرة (فاطمة) رضى الله عنها فجعل ذلك القبر داخل علامة خاصة، وبعد وضع هذه العلامة أخذ زوار الرسول ﷺ يزورون هذا المكان أيضا.

كان مكان باب المئذنة الرئيسية قبل الحريق فى الطرف الغربى أى فى المكان الذى يوجد الآن فأداره شمس بن زمن إلى جهة الشام وأسس صفة أمام الأبواب الجديدة ذات الأربع درجات خصصت هذه الصُّفة لاستراحة الأئمة يوم الجمعة إلا أن شاهين الجمالى عندما جدد المئذنة الرئيسية فى سنة (٧٩٨) هدم تلك الصفة وأعاد باب المئذنة إلى مكانه القديم أى الجهة الغربية.

والآن يجلس خطباء مسجد السعادة قبل الخطبة أمام هذا الباب، و بعد أن أتم شمس بن زمن عمليات المواقع المذكورة زين باب السلام بقطع رخام ملونة، وبنى قبتين رصينتين فى جهة الباب الداخلية فقوى ورصن ذلك الباب، ثم أمر بحفر أطراف الروضة المطهرة الأربعة وسوى أرضية المسجد وسطحها، وركز محل الصندوق الذى كان علامة مصلى النبى عمودًا وزين أعلاه بالحجارة الملونة الخاصة بالمحراب النبوى، وفرش أطراف الحجرة المعطرة بالرخام كشكلها القديم، ثم أتم عمليات المقصورة ومنبر السعادة والمحفل، وعقب ذلك أمر بصنع صفة صغيرة فى المحل الذى بين باب السلام ونهاية المسجد، ولكن الصفة التى فى الجهة الشمالية أعلى قليلاً من الصفة التى صنعها شمس بن زمن.

بعد ما تمت عمليات المحلات المشروحة هدم رباط الحصن العتيق الذى فى جهة باب السلام ثم هدم مدرستى دار شباك وجوبانية و بنى على ساحتيهما مدرسة جميلة باسم السلطان قايتباى، وبنى كذلك رباطا، وقد أقيمت مبانى هذه المدرسة والرباط المذكور فوق ثلاثين عقدًا وكانت ذات ثلاثة طوابق وكان بناء ضخمًا له ثلاثة أبواب، والنافذة التى تنسب إلى أسبق المهاجرين وأفضل أصحاب الدين حضرة أبو بكر الصديق أحد أبواب ذلك المبنى الضخم وهو الباب الذى استثنى عندما أمر النبى ﷺ بسد الأبواب الأخرى.

كان شمس بن زمن أمر ببناء عقود كثيرة على جدار مسجد النبى القبلى وهو يتصور أنه سيبنى الرباط والمدرسة المنسوبين إلى السلطان قايتباى فى الجهة القبلية لحرم السعادة، ولكنه غير فكره مؤخرًا وسد جميع العقود التى صنعت فى الجهة

القبلية ما عدا العقود التى تحاذى المحراب العثمانى، ولذلك زينها كلها بقطع زجاج ملونة بمختلف الألوان وشبك طرفها الخارجى بأسلاك نحاسية، ثم شرع فى تأسيس الرباط والمدرسة[1] سالفى الذكر وبنى مئذنة فى جهة باب الرحمة للمدرسة كما بنى حمامًا وعمارة وسبيلاً وطاحونة[2] ومخبزًا ومطبخًا للدشيشة[3] ووكالة، وأتم كل هذه الإنشاءات فى سنة ٨٨٨هـ وأبلغ الأمر إلى مصر وعرضه، وعاد ولكن السلطان قايتباى قد أبلغ أن تزيينات مسجد السعادة الداخلية وتذهيباته ليست منسقة وجميلة فأرسل فى سنة ٨٨٩هـ بعض النقاشين والرسامين من مهرة العمال والأشياء اللازمة لذلك فزينوا داخل الحرم الشريف فى صورة غاية فى جمال الصنعة، وأرسل من مصر مصاحف شريفة وكُتبًا نادرة لتقوم مقام المصاحف المحترقة والرسائل النفيسة، وهكذا أكمل وظائف عبوديته، وأرسل بعد مدة لأجل الرباط سالف الذكر عشرة أعداد من القدور الكبيرة وجميع أنواع لوازم الطبخ، وأصدر أوامر مشددة بخصوص إبطال المكوس وأنه سيبعث بدل المكوس ألف إردب من قمح لولاة المدينة سنويًا كما كتب أن القمح سيرسل سنة عن طريق ينبع.

مكوس

جمع مكس وهو أخذ الخراج من الأشياء التى تباع فى الأسواق والطرق ومن الأشياء التى تخرج من المعايير وشراء شيء أقل ثمنًا من الآخر ويروى أنه من مخترعات النمرود وقبله لم يكن هذه الأشياء موجودة.

وبعد ما أتم السلطان قايتباى آيات بره المشروحة، أولم وليمة لأهالى دار العز لم يروا مثلها من قبل، ثم اشترى من يد السادات المنازل التى تسمى عباسا وما حولها من المساكن والبيوت وبنى مكانها الرباط والوكالة سابقتى الذكر وأوقف لأهالى المدينة ألف وخمسمائة إردب قمح سنويًا واللوازم الأخرى وعين لكل

(١) واليوم تسمى هذه المدرسة «المدرسة المحمودية».

(٢) وإلى هذا الوقت لم يكن فى المدينة حمام ولا طاحونة.

(٣) حساء يصنع بطحن القمح فى طاحونة يدوية وهو يصنع من القمح المكسر مثل البرغل.

واحد من أهالى المدينة شهريًا سبع أرادب مصرية قمح وهى تساوى خمسة أمداد مدنية، كما عين؟ للمجاورين كل يوم قطعتين من خبز ومقدارًا كافيًا من طعام الدشيشة وجعل للأغنياء والفقراء معينات وافية لكل واحد حسب حاله، وصار عطاءه هذه الأشياء كل سنة عادة.

يقول الإمام السمهودى: إن السلطان قايتباى المصرى أنفق لأجل اللوازم والأدوات وأجور الدواب فى سبيل تجديد المبانى المقدسة مائة وعشرين ألف دينار.

وأخبر مؤلف روضة الأبرار: أنه أنفق مائتى ألف قطعة ذهبية خالصة العيار تقربا للرسول الله ﷺ وأتم عمليات تجديد وتعمير الأبنية المقدسة فى حوالى سنتين. وهذه الأخبار أخبار دقيقة.

ذيل

ولا ينكر أن ما قام به قايتباى المصرى فى إيجاد العمارات والوقف شىء لم يسبق إليه من قبل وأن هذا العمل تضحية عظيمة، إلا أنه فى عهد السلطنة العثمانية والخلافة الكبرى قد زادت المرتبات الحجازية وترقت وقد روعى جانب سكان المدينة بدرجة لو كان السلطان قايتباى حيًا وعرف ذلك لشعر بالخجل، وكل ما يقال عن خدمة الخلفاء العثمانيين للأماكن المقدسة بشهادة صفحات التاريخ وباعتراف أولى الأبصار.

وبناء على ما فصل فى الصورة الثامنة من الوجهة الأولى فإنه قد طرأ فى فترة ما تقصير وإهمال فى توزيع الصدقات فأعطيت مخصصات الأهالى أربعة أشهر وتركوا ثمانية أشهر مكشوفين؛ ولما سمع ذلك بعث بالموظفين المخصوصين لتحرى الأسباب المؤدية لذلك، ثم عين شيخ الحرم المتصف بالعدل والتزام الحق، فأعطيت مخصصات الأهالى شهرًا بشهر فدعوا للسلطان بالخير.

كان السلطان قايتباى المصرى أرسل سنة ٨٩١هـ شاهين الجمالى إلى المدينة المنورة ونصبه شيخ الخدم وتولى سماطًا وطعامًا وأودعه الأدوات والأشياء اللازمة لتعمير وتشييد مئذنة السعادة، وجددها فى صورة متينة رصينة جميلة بأحجار

منحوتة وبعد ست سنوات أصابت الصاعقة تلك المئذنة وخربت وأصبحت مأوى للبوم والغربان فهدمها حتى الأرض وجددها فى شكل منسق جميل بعد الاستئذان.

فى بيان عرض الخدمات والعبودية من قبل السلاطين المشار إليهم إلى المسجد النبوى

أوشكت بعض جدران مسجد السعادة وقبة حجرة السعادة ومبانى مسجد قباء على الانهيار ومالت إلى الانهدام والسقوط حتى أصبحت الصلاة فى داخل الحرم النبوى الشريف خطرًا، وبلغ الأمر إلى باب أصحاب القرار، ولما كان هدم حرم السعادة هدمًا كاملاً غير مستساغ شرعيًا طلب أن يسمح بهدم بعض الأماكن الآيلة إلى السقوط من المواقع الشريفة.

وقد وصل الطلب الذى أرسل من قبل سادات وأعيان المدينة باهرة السكينة فى خصوص الأمر المعروض فى الوقت الذى يعمر فيه سور المدينة المنورة فصدر الفرمان السلطانى إلى والى مصر أن يبلغ المكلفين بتعمير السور بهذا الأمر، وأن يعد الأدوات اللازمة والمبالغ الكافية والعمال ورؤساء العمال وأن يرسل سريعًا إلى المدينة المنورة، وأرسل الأمر السلطانى بعد أن كتب فى قلم الديوان السلطانى إلى والى مصر، ولما كانت الإدارة السلطانية الهامة ومطالبها قد فصلت فى كشف خاص وعرف بها الوالى المذكور فهيأ والى مصر المهندسين والمعماريين ورؤساء العمال والبناءين والمبالغ الكافية وأرسل جميع المطالب برًا وبحرًا بكل احترام وتعظيم كما بعث رسالة إلى أمناء البناء بها تعليمات خاصة. وتفقد أمين البناء كافة المواقع مع السادات والأعيان بناء على ورود الأشياء اللازمة والتنبيهات التى وردت من والى مصر.

وشيد وأصلح داخل الحجرة المعطرة وخارجها كما سبق أن عرف فى بحث حجرة السعادة ثم هدم باب مسجد السعادة المشهور بـ (باب السلام) وبنى مكانه بابًا عظيمًا من الرخام المجلى يجذب الأنظار وذلك فى سنة ٩٤١هـ.

وبعد هذا التعمير بست سنوات هدم ابتداء من الباب الذى يطلق عليه باب الرحمة إلى المئذنة الشكلية مع المئذنة والجدار الواقع فى الجهة الغربية وجدد كل هذه الأماكن فى صورة رصينة محكمة وذلك فى سنة ٩٤٧هـ، وبعد أن جدد هذا الجدار الشريف على الوجه المطلوب فهدم الجدار الشرقى الذى يمتد من باب النساء إلى آخر الحرم مع مئذنته وجدده.

وبنى قبة الشمع وبنى فوقها مكان خلوة عاليًا كما أسس بجانب مئذنة الشكلية واتصالها دار خلوة أخرى فشيد تلك المئذنة من جديد على شكل مآذن بلاد الروم؛ وذلك فى سنة ٩٤٨هـ.

وبعد أن تغير شكل هذه المئذنة أصبح الأهالى يذكرون مئذنة الشكلية باسم المئذنة السليمانية[1].

وبعد التعمير المذكور بست وعشرين سنة أخذت بعض أماكن الجدار الغربى لامعة الأنوار تخرب، فأمر السلطان سليمان ـ عليه رحمة الله المنان ـ بهدم الجدار الذى يمتد من باب الرحمة إلى آخر حرم السعادة وجدده كما جدد تلك الأماكن التى مالت للخراب وغير أعلام محراب النبى ﷺ والمنبر النبوى والمآذن التى هى من شعائر الدين المصطفوى، وأضاف إلى قناديل وشمعدانات الروضة المطهرة والحجرة المطهرة كثيرًا من القناديل والشمعدانات الأخرى، فأضاء مسجد السعادة كقلوب الموحدين، ثم اشترى بيوت الديار العشرة المشهورة وأسس رباطًا خاصًا بالفقراء والغرباء.

كما بنى عشرين رباطًا أخرى غير هذا الرباط إلا أن كلها قد اندرس وزال؛ وخرج رباط الديار العشرة من شكل العمارة وجعل مكانه مخازن لوضع لوازم مسجد السعادة ودائرة خاصة لإدارة شيخ الحرم وسبيلاً وحديقة جملية.

وليس إشراف رباط الديار العشر على الخراب حالة يؤسف عليها حالته هذه

(١) يطلق على هذه المئذنة الآن العزيزية.

أنفع لمسجد السعادة؛ من حالته الأولى؛ لأنه قد فتحت فى الجدار القبلى للمسجد الشريف نافذة كبيرة تحاذى نافذة المواجهة الشريفة وهذا ما زاد حرم السعادة جمالاً على جمال؛ ولو كانت أطراف المسجد كلها حديقة لما بقى أثر للعفونة ولما وجد فى مسيرة الكائنات مكان أكثر بهجة وانشراحًا من هذا المكان.

عندما جدد باب الرحمة كتبت على يمينه ويساره التواريخ بعد البسملة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أمر بتجديد هذا الباب الشريف سيدنا ومولانا السلطان الملك المظفر؛ السلطان سليمان بن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد خان، ابن السلطان أورخان خان ابن السلطان عثمان خان، خلد الله ملكه وأعز نصره، بمحمد وآله وذلك فى شهر رمضان المعظم سنة سبع وأربعين وتسعمائة، كما كتب على يمين ويسار باب السلام الذى صنع مجدّدًا أيضا بعد البسملة.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠)

اللهم أدم له العزة والتمكين والنصر والفتح المبين بقاء عبدك ومولانا السلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن السلطان محمد بن السلطان بايزيد ابن السلطان مراد بن السلطان اورخان بن السلطان عثمان خان، أعز الله نصره وخلد الله ملكه وختم بالصالحات أعماله بمحمد وآله وصحبه وسلم.

وذلك مع تاريخ سنة إحدى وأربعين وتسعمائة فى شهر صفر، كما كتب على الجهة اليمنى لهذه التواريخ مولانا السلطان الملك المظفر سليمان شاه بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، خلد الله ملكه.

شعر

رســـــــول الله إنـــى مستجيـــــــر

بجاهـــــك والزمـــــــان لـــه اعتداء

وجاهـــك يا رســـول الله جـــاه
رفيـــع مـــا لرفعتـــه انتهـاء

كتبت هذه القطعة، كما كتب على رواقها الخارجي الآية الكريمة الجليلة.

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

والآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وبعد ذلك كتب النعت الشريف

وظنـــى فيـــك يـا طـــه جميـــل
ومنـك الجـــود يعهـــد والسخـــاء
وحاشـــــــا أن أرى خزيًـــا وذلا
ولـــى نســـب بمدحـــك وانتمـــاء
وكـــم لـك يـا رســـول الله فضـــل
كقـــدر الأرض لابـــل والسمـــاء
وكـــم لـك معجـــزات ظاهـــرات
كضـوء الشمـــس ليـس لـه خفـــاء

وفوق هذا البيت كتب على طاق الرواق المذكور حديث «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى»، صدق رسول الله ﷺ وعلى أصحابه الطاهرين.

وطهر محمد باشا، وهو من وزراء السلطان سليمان بن السلطان سليم، مجرى عين الزرقاء ووكل فى ذلك السيد أحمد بن سعد الحسينى نقيب أشراف المدينة المنورة وطلب منه راجيًا أن يعمر ويحيى تلك الأماكن، وأخذ السيد أحمد أفندى بستان عيينة المشهور وعقب ذلك بئر الخاتمى وهى فى جهة قباء باسم محمد

باشا وأجرى مياه هذه الأماكان إلى مجرى عين الزرقاء وحتى يزيد من مياهها قد حفر عدة آبار أخرى فوسع وطهر مجرى العين المذكورة إلى باب الرحمة، وصنع سبيلاً بالقرب من باب الرحمة، ومن هنا فتح طريقًا إلى حى الأغوات وجعل منهلاً فى ذلك الحى ينزل إليه بسلم والماء الذى أوصله إلى هذا المنهل، أجرى مياه هذا المنهل إلى حوش المغاربة بحفر مجرى خاص، وصنع فى داخل أربطة الديار العشر والمغاربة سبيلاً لكل واحد منهما كما صنع حمامًا بجوار القلعة وطهر بئر على وعمقها فى النهاية.

بعدما انتهى سيد أحمد أفندى من هذه الأعمال، بنى سبيلا أمام مسجد قباء وميضأة ثم اشترى بستانًا أوقفه للحمام، ثم بنى بيتًا فى منصة بئر خاتمى ثم أمر بحفر حوض بالقرب من هذا البيت، ثم اشترى البيت المتصل بهذا البيت ووضع فى طرف من أطرافه محرابًا فجعله على شكل المسجد، ووقف المنزل الذى يمتلكه لإقامة الفقراء والغرباء واشترط ذلك، وكل ذلك رعاية للصاحب القديم لذلك البيت وذلك فى سنة (٩٩٢هـ) لأن ذلك المنزل كان المنزل السعيد الذى كان يسكن فيه الصديق الأكبر.

ولكن لشدة الأسف أن مدير الحرم الشريف جدد مسجد أحمد أفندى باسم محمد باشا والنزل الذى بنى باسم سيد أحمد أفندى ثم وقف، جددهما وجعلهما مسكنًا لأهله وترك الفقراء المجاورين فى العراء وأظهر دناءته إذ بنى على الساحة التى تنسب للصديق الأكبر حمامًا وميضأة وذلك فى سنة (١٢٥٤هـ).

وكان السيد أحمد أفندى قد اشترى البستان الذى أمام حمام محمد باشا وبنى أمامه حوضًا يملأ بمياه عين الزرقاء وحصر المياه الزائدة لهذا الحوض لرى البستان المذكور ثم وقف سواء أكان البستان أو الحوض لحمام محمد باشا.

إن الحوض الذى حفر مقابل بستان حمام محمد باشا كان غاية فى الكبر وبما

أنه فى طرف الساحة الواسعة التى ينصب عليها قوافل محامل مصر والشام خيامها كان أهالى القافلة يستخدمون هذا الماء ومازالوا يرتوون منه.

ولا يعرف الآن ما حدث لحمام محمد باشا إلا أنه يوجد فى زماننا فى المدينة المنورة حمامان يستخدم أحدهما فى دائرة الترجمة للحرم النبوى وهو حمام أحمد نظيف أفندى فى المناخة والنزل الذى اتخذ مستشفى للعساكر النظامية السلطانية مقابل هذا الحمام، وأحد الحمامين المذكورين فى حى حارة الزوران التى تلاصق السور الداخلى لمسجد السعادة من الجهة القبلية، وهو الحمام الذى ينسب إلى الشهيد نور الدين. انتهى.

لقد أقام السيد أحمد أفندى أيضا مستشفى على اسم محمد باشا خاصة لعلاج غرباء دار السكينة، ولقد كفل لها الأطباء والخدم اللازمين وأوقف لها مقدارًا كافيًا من العقارات والأملاك، ومع مرور الأيام انهارت أكثر أماكن هذه المستشفى وخربت؛ وإن لم ترمم أبنيتها لقد خصص فى سنة ١٢٥٥هـ جراية خبز لمرضاها، ومن هنا كان المرضى الذين ملوا من حياتهم لشدة حاجتهم وامتداد عللهم يدخلون فى هذه المستشفى حتى يسلموا أرواحهم فيها.

وقد عمر والد السلطان كثير المحامد الأماكن الخربة من هذه المستشفى وألحق بها صيدلية ومخزن أدوية وخصص لها الأدوية الطبية واللوازم الجراحية كما هيأ لها ما يلزمها من أطباء وجراحين وصيادلة والخدم، وكانت هذه المعدات كافية لعموم أهالى المدينة والحجاج، وبهذا أحيا أهالى المدينة من هذه الجهة أيضا.

وقد أدخل السلطان مراد خان الثالث بن السلطان سليم خان الثانى شونة مخزن ينبع البحر داخل السور حفظًا لها من هجمات العربان وأسس مخزنًا آخر لوضع ما خرب من الجدار القبلى ومحرابه وأصلح جدرانه الأخرى وشيدها فى غاية من المتانة والإحكام وأعاده إلى حالته الأولى، كما عمر وأحكم المرفأ الذى على شاطئ البحر والذى يبلغ عرضه ٥٣ ذراعًا وطوله ٢٤ ذراعًا والذى كان

أشرف على الانهيار، وخصص بعد ختام هذه الأعمال صرة سلطانية تحتوى على أربع و أربعين قطعة ذهبية على أن يكون أحد عشر ألف دينار منها لأهل مكة وباقيها لسكان دار السكينة المدينة المنورة، وذلك كل سنة، كما عين بعد ذلك لجيران رسول الله أربعة آلاف إردب قمحًا وللحجاج الذين انقطع بهم الطريق خمسمائة إردب قمحًا وذلك فى سنة (٩٨٦هـ) وكانت هذه الذخيرة ترسل من مصر إلى ينبع ومن هناك إلى المدينة المنورة وتوزع على الأهالى المحتاجين وتقسم عليهم.

وقد جدد السلطان المشار إليه فى سنة ٩٨٨هـ مطبخ الدشيشة «وهى عبارة عن نوع من الحساء المصنوع من القمح المدشوش» وسر خدمته بإعطائهم قطعة ذهبية يوميًا كما سر طباخيه بإعطائهم إردب قمح فوق القطع الذهبية؛ وذلك فى سنة ٩٨٨هـ.

وعانى فى هذه الفترة أهالى المدينة فى محلاتهم مضطربين من العطش، ولما أبلغ الكيفية إلى مسامع السلطان أسس فى القرب من باب المضر سبيلاً وخصص لكل واحد من خدمه ونظاره مقدار ستين درهمًا من النقود وعين لهم سنويًا خمسين اردبًا قمحًا لكل واحد منهم وأمر أن يملأ هذا السبيل يوميًا بواسطة السقائين ليروى عطاشى المسلمين وذلك فى عام ٩٩٠هـ.

وبعده بعام خصص لأغوات الحرم الشريف (حب الجراية) يوميًا كما خصص لعبيد عين الزرقاء (حب الجراية)[1] يوميًا وعين لفقراء المجاورين والعلماء الصالحين ألف إردب حنطة سنويًا وكان ذلك فى سنة ٩٩١هـ عندما كان عدد أغوات الحرم الشريف سبعة وخمسين وعبيد عين الزرقاء سبعة عشر نفرًا.

وكان المسجدان الشريفان اللذان لأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ أشرفا على الخراب وحرم الزوار الكرام من شرف زيارتهما،

(١) كان يطلق على الخبز المصنوع من الحبوب المرسلة من مصر حب الجراية.

ولما وصلت الكيفية إلى أسماع السلطان أمر بترميم وتعمير هذين المسجدين كذلك ما بجوارهما من الأربطة القديمة الخربة، وجامل خدمها بأن خصص لهم عامة رواتب كافية، وذلك فى سنة ٩٩٤هـ، وفى خلال تلك السنة كان الجدار الذى فى جهة باب النساء من حرم السعادة قد مال للسقوط وأصبح تعميره واجبًا ورُجى من السلطان صاحب القرار أن يأذن بإجراء ما يقتضى عمله، وبناء على الأمر السلطانى الصادر هيئ الموظفون والعمال والأدوات اللازمة للبناء وأرسلوا عن طريق مصر القاهرة، وعندما وصل أمين البناء إلى المدينة المنورة وتفقد المسجد الشريف بناءًا على آراء السادات والأهالى، وقرر أن يهدم الجدار الشرقى للمسجد ابتداء من باب النساء إلى نهاية حرم السعادة، ولما استلم القرار من قبل العلماء هدم المكان المذكور من أساسه وأبلغ وجوب تجديده إلى عتبة الباب العالى السامى، ووافق هذا القرار رأى وأفكار السلطان، وبناء على ذلك أبلغ الأمر كتابيًا إلى أمين البناء وطلب منه الإسراع فى تجديد المكان المذكور وفقًا لإرادة الأهالى الكرام كما أرسل قطعة من التاريخ محكوكة على رخام، وبين فى الرسالة الكتابية أن وضع هذا التاريخ فى مكان مناسب وإلصاقه من بعض الأوامر السلطانية.

وشرع أمين البناء بناء على التعليمات السلطانية العالية فى أداء مهمته وفى ختام العمليات وضع حجر التاريخ فى ركن من أركان الجدار المجدد، وبين الأمر وأبلغه إلى مركز السلطنة ولأجل ذلك أرسل لأمانة البناء وسائر الموظفين وأعيان البلدة خلعًا فاخرة وعطايا وفيرة وذلك فى سنة ٩٩٥هـ.

وكان طول الجدار الذى جدد ٩٥ ذراعًا وارتفاعه ١٧ ذراعًا والتاريخ الذى أرسل من باب السعادة لإلصاقه على الجدار المذكور يتضمن الآتى: «اللهم خلد ملك من جدد هذا الجدار المحترم وهو مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأكرم، سلطان القبلتين وخادم الحرمين الشريفين، السلطان مراد خان».

تاريخه:

جدد جدار المسجد النبوى، السلطان مراد لوجه الله، سنة خمس وتسعين وتسعمائة فى سنة ٩٩٥.

وبعد سنة خمس وتسعين ببضع سنين تعرضت ثلاثة صفوف من سقف حرم السعادة للضرر إذ أصابها حريق ورعود فاكْتَسَتْ منظرًا قبيحًا مخيفًا، واستحال أداء الصلاة فى تلك الجهات، وإن إبقاء حرم السعادة على حالته الحاضرة إلى أن تنهار تلك الأسقف كليًا سيؤدى إلى هدم وخراب حجرة السعادة، ولما كان هذا غير جائز أبلغ الأمر بمحضر كتابى إلى الباب العالى، ودرس الموضوع طويلاً فى الباب العالى، وبعد أن خمن الأضرار التى ستتسبب عن هذا الأمر فى المستقبل والخسائر التى سيؤدى إليها، عرض الأمر على السدة السلطانية فأمر السلطان بإرسال أحد الأمراء الصالحين، بعد تعيينه لأداء هذا العمل وتدبير الأدوات اللازمة التى تقتضيها المهمة وإرسالها سريعًا إلى دار العز المدينة المنورة وأبلغ هذا الأمر إلى والى مصر وأرسل الأمر الصادر من قبل السلطان أيضا إليه، فأرسل أمين البناء المعين مع المهمات التى دبرت ومهرة العمال إلى دار السكينة.

ولما وصل الموظفون الذين أرسلوا من مصر إلى المدينة المنورة تفقدوا الأماكن التى تحتاج للتعمير والتجديد من حرم السعادة وذلك مع موظفى الحكومة فى المدينة وسادتها، وبناء على الإرادة السلطانية وآراء العلماء والأهالى قوضت ثلاثة صفوف من الأسقف التى اقتضى الأمر هدمها، وبنى مكانها ثلاثة صفوف من القباب الخشبية بمبان حجرية.

وكتب فوق الجدار الشامى الذى فى ناحية الساحة الرملية: هذا تاريخ بناء الروضة الشريفة روضة النبى خير العباد قام بتجديده السلطان مراد، فى سنة ٩٩٩هـ.

وأبلغ الأمر بواسطة والى مصر إلى عتبة صاحب القرار، ومن هنا جزا السلطان من يستحقون المكافأة بالعطايا السلطانية وبالخلع الفاخرة التى لا مثيل لها.

والثلاثة صفوف التى جددت كان كل صف منها يتكون من تسعة قباب، وفتحت فى محاذاة الصف الأول من القباب وفى التقاء سطح حجرة السعادة هوايتين لتلطيف جو حرم السعادة فى أيام الصيف وتبريده وقد اكتسب مسجد السعادة بهاتين الهوايتين زينة أخرى.

وقبل أن تختتم عمليات بناء القباب المذكورة، صدرت الإرادة السلطانية السنية لشراء ساحة كبيرة فى غاية الوسع لبناء عمارة منسوبة لاسم السلطان السامى، وبعد إتمام عمليات مسجد السعادة قد دبروا الساحة فى خارج المدينة وبنوا هناك عمارة كبيرة عظيمة جميلة كما أسس فى قرية قباء رباطًا خاصًا بالفقراء وعين له الموظفين اللازمين وذلك فى سنة ٩٩٨هـ ولم يسمع أهالى الحرمين حتى ذلك اليوم عن مثل هذه العمارة ولم يروا مثلها.

وقد بنيت هذه العمارة بطلب الأهالى وإرادتهم وأنشئ لإسكان خدمها أربعة عشر بيتًا مستقلاً، فأطلق أهالى المدينة المنورة على تلك العمارة التكية المرادية لإظهار مدى سرورهم القلبى وابتهاجهم.

وعندما يقال لهذه العمارة تكية، فلا يفهم أنها تكية عادية للذكر والفكر، والتى يطلق عليها خانقاه، ولم تكن هذه التكية من التكايا التى نعرفها بل كانت عمارة خاصة بجميع الأهالى.

وكانت ثمانية أو أربعة عشر منزلاً خاصة لسكنى المتزوجين من الخدم وستة فيها خاصة لسكنى الخدم العزاب.

وكانت تلك التكية فى ناحية باب المضر وخارج السور وكان لها مخزن كبير ومطبخ ومخازن صغيرة متعددة وفى داخلها طواحينها وعدة مخابز وحجرات لوضع اللوازم الأخرى، وكان يخبز الخبز كل يوم فيها وكانت تصنع الحلوى فى ليلتى الجمعة والاثنين أكثر مما اعتيد.

ويطبخ فيها الأرز والزردة (وهو طعام حلو يطبخ بالزعفران) ويوزع على الفقراء، وكانت هذه العمارة تعد مبرة خيرية لا مثيل لها فى البلاد العربية كما كانت تقدم ما تقوم به حياة كل الفقراء من الأهالى.

وكانت الأطعمة التى تطبخ فى التكية المرادية نفيسة وكثيرة بدرجة حتى إنها كانت توزع فى ليلتى الاثنين والجمعة ما عدا الغرباء والفقراء على جميع أهالى المدينة، وبناء على الروايات الموثوقة أن فقراء أهالى المدينة كانو يُصفُّون ما يحصلون عليه من التكية من طعام الأرز ويئتدمون بزيته عدة أيام، وقد اشترى السلطان فى مصر عدة قرى وأوقفت محاصيلها على تلك العمارة، وكان يرسل من مصر سنويًا محاصيل تساوى خمسة وعشرين ألف قطعة ذهب.

وبناء على المعلومات التى أفرها مؤلف لطائف الأخبار من مؤرخى مصر أن القرى التى شريت لأجل التكية المرادية ووقفت لها هى: لفلا، ظاهرية[1] سُبك الأحد، شبرا زنجى[2]، طنان، كفر زريق، طوخ الملقة، سد طنان، سهرا[3]، سندوب، زريبة، بهداد، بلوصوره، سفط الخمارة، كفر حيدره، قيس، انسوح، ريده منية سمنود، أبو الحسن[4]، كوم برا، تهيا[5]، بلقيا، دنديل، حكامنا، دشنا، ضوابط، أهناس المدينة أهناس الخضراء، وكانت الحكومة المصرية تُدرُّ من محاصيل هذه القرى واحدًا وعشرين ألف إردب من الحبوب وترسلها إلى بندر السويس ومن هناك إلى ينبع بواسطة نوع من المراكب تسمى سبنودا من هناك إلى المدينة المنورة محملة على الجمال وكانت هذه الحبوب وقف دشيشة التكية المرادية.

إلى هذا التاريخ لم تكن فى المدينة المنورة مؤسسة خيرية مثل هذه وكان أهل المدينة محتاجين لمثل هذه التكية حقًا لأجل ذلك يهدى أهل المدينة إلى الآن لروح السلطان المغفور له المشار إليه الفاتحة بكل إخلاص.

(١) تتبع هاتان القريتان ناحية البحيرة لعلها «نكلا، ظاهرية».

(٢) كانت من توابع ناحية المنوفية.

(٣) كانت تتبع ناحية القليوبية.

(٤) كانت هذه القرى من نواحى الدقهلية.

(٥) كانت هذه القرى داخل نواحى بهنساوية والوجه القبلى.

نكتة لطيفة

كان قد خصص للبغلين اللذين يستخدمان لإدارة الطاحونة التى فى داخل العمارة المرادية إردبين من الشعير يوميًا لكل واحد منهما، ولما كان إردبان من الشعير اللذان خصصا بالإرادة السلطانية كثيرًا جدًا، سأل رجال الدولة السلطان قائلين: «ما الحكمة فى تخصيص إردبين من الشعير يوميًا لكل واحد من البغلين مع أنكم تعرفون أن إردبين من الشعير يكفيان لإطعام ثمانية وأربعين بغلا فى اليوم؟ فأجابهم قائلاً: «يأتى يوم لا يقدم لهذين البغلين المسكينين من هذين الإردبين حتى حفنة واحدة» وفعلاً هذا ما حدث فيما بعد.

تأسف

ولم تبق من العمارة العظيمة المذكورة فى زماننا غير خرابة وليس فيها قطرة ماء فى خزانة سبيلها فضلاً عن المأكولات والمشروبات، وكان قد اتخذ ركن فيها قبل يومنا هذا مدرسة يعلم فيها ثلاثة أو خمسة من الأطفال، والآن يقيم فيها العساكر السلطانية من ركاب الهجين.

وكان السلطان مراد المرحوم قد أسس بجانب التكية مدرسة مشترطًا أن يدرس فيها خمسون طفلاً سنويًا، ويأخذ مكان الأطفال الذين يحفظون القرآن الكريم ويغادرونها أطفال آخرون وما خصص لمدرسى هذه المدرسة وطلابها من المخصصات لإعاشتهم والملابس كانت توزع عند حلول مواعيدها.

وعقب ختام بناء تلك المدرسة بنيت زاوية، وعمرت بعشرة من المتصوفة وشيخهم، وخصصت لهم الأشياء اللازمة لإعاشتهم من العمارة سالفة الذكر ثم أضيف لها عدد من الخبز لتحسين أحوالهم وذكر الله فيها صباحًا ومساءًا.

وفى ختام مبانى تلك الزاوية المذكورة وظف من الصلحاء أربعون نفسًا نفيسًا وخصص لكل واحد منهم اثنى عشر دينارًا سنويًا، وكان هؤلاء الصلحاء

يجتمعون فى داخل الروضة المطهرة يتوغلون فى تلاوة سورة الأنعام ويهدون أجر ذلك للروح المحمدية اللطيفة وكانوا يتوسلون بالروح النبوية من أجل نصرة الجنود المسلمين، كما وظف مؤخرًا ثلاثون فقيهًا وخصص لكل واحد منهم قطعتين من الذهب سنويًا وكلفوا قراءة القرآن فى داخل الروضة المطهرة كل يوم، وهؤلاء أيضا كانوا يرفعون أياديهم بالدعاء ويهبون أجر مثوبة قراءاتهم لأرواح سلاطين المسلمين.

وقد رتب كذلك ثلاثون من قراء أجزاء القرآن بشرط أن يختم القرآن فى داخل الروضة كل يوم مرة، على أن يأخذ كل واحد منهم سنويًا ثلاثة دنانير ونصف دينار كما عين مائة نفر لأداء الحج لابسين ملابس الإحرام واقفين على جبل عرفات فى مواقيت الحج على أن يأخذوا سنويًا عشرة دنانير، وكان قراء أجزاء القرآن يختم كل واحد منهم القرآن على الوجه المشروع كما أن الذين وظفوا لأداء الحج كانوا يلبسون ملابس الإحرام فى مواقيت الحج ويسافرون إلى مكة وكانوا يواظبون فى أثناء وقفة عرفات على الدعاء لترقى الدولة وسعادتها ولزيادة شوكة الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد وظف خمسة من المدرسين من المذاهب الأربعة وخصص لهم رواتب كافية، بشرط أن يكون أحدهم من خطباء الشافعية وكان لكل واحد منهم وظيفة تدر عليه أربعين درهمًا سنويًا.

ولا تقتصر الخدمات التى أداها مراد الرابع للبلدة النبوية المسعودة على هذا، بل رمم سطح الحرم النبوى الشريف كاملاً لاقتضاء الأمر ذلك، كما جدد آجر الروضة المقدسة، وغير صبغة جدران مسجد السعادة لتوأم حرم الجنة الأربعة وأمر بطلاء عدد أسطوانات مسجد السعادة البالغة ثلاثمائة أسطوانة على لون واحد.

والفنانون الذين استخدموا فى طلاء هذه الأعمدة بشموس ونجوم كل واحدة

منها تختلف عن الأخرى قد أظهروا فى عملهم هذا مهارة جعلت الذين يدخلون إلى حرم السعادة السعيدة يرتعشون من شدة التعجب ويتحولون إلى الجدران الساكنة ويبتهلون.

من مؤلف طبقات ابن سعد نقلاً عن محمد بن عبد الرحمن أن محمد بن عبد الرحمن قال: «كان أبى حاضرًا عندما انهار الجدار الذى فى مربع السعادة فى عهد عمر بن عبد العزيز؛ وكان يقول: عندما انهار جدار مربع قبر السعادة كنت بجانب حجرة السعادة، فنظرت من مكان السقوط داخل مربع القبر الجليل. كان من بين مرقد السعادة وحجرة عائشة ـ رضى الله عنها ـ المنيرة قدر شبر واحد، فأنا أيضًا أصدق أن نعش النبى ﷺ قد وضع إلى اللحد الشريف من الناحية القبلية وأؤيد تلك الرواية، وبما أن روح النبى ﷺ قبضت فى هذا المكان فالمكان الذى توفى فيه أشرف بقاع الأرض فمن هنا يؤخذ أنه ﷺ دفن فى هذا المكان لذلك». انتهى.

بعد أن كنس سطح حجرة السعادة وأخرجت أنقاض الجدار المنهار إلى الخارج شرع شمس بن زمن فى بناء الأماكن المنهدمة ذاكرًا اسم الله وجعل عرض الجدار الشرقى فى عرض أساسه الأصلى يعنى فى سمك ثلاثة أذرع كذلك ذراعين ونصف من السمك، وأدخل العمود الملاصق للجدار الشامى فى داخل الجدار المذكور، ومن هنا جاء سمك الجدار الشامى لمربع قبر السعادة أكثر سمكًا من جدران الجهات الأخرى وأصبحت جدران جميع الجهات يختلف بعضها عن البعض فى السمك، وكان اليوم الذى بدأت فيه العمليات يوافق السابع عشر من شهر شعبان من السنة المرقومة.

ولما كان ما بين الجهة الغربية والشرقية على شكل طولى، وكان بناء القبة عليه يرى غير قابل للتنفيذ ولكن بما أن قرار اقتضاء إنشاء قبة فوق مربع القبر الجليل كان قطعيًا والتحرك خارج هذا القرار غير ممكن فقد جعل شمس ابن زمن ـ بناء

على تصويب المهندسين ورأيهم ـ حجرة السعادة مربعة وذلك بفتح باب من جهة قدمى السعادة من الحجرة المعطرة، فى ارتفاع اثنى عشر ذراعًا، يعنى قد ضيق وقصر طول الجدارين والباب المفتوح وجعل داخل مربع حجرة السعادة فى شكل مربع ولما بنى الجدار الشامى بأحجار منحوتة شيد فوقه قبة فى ارتفاع ثمانية عشر ذراعًا آدميًا عن سطح الأرض وفتح فى وسط الجدار الشامى بابًا صغيرًا وأدخل الحجرة الشريفة ابن أخيه وصهره لتسوية ما فوق القبور الثلاثة، والرجلان اللذان أدخلا داخل قبر السعادة قد فرشا فوق القبور الثلاثة رملاً على شكل ظهر السمك مثل قبور بلاد الروم. انتهى.

بعد أن وقف السلطان محمد خان القرى المصرية ضعف مرتبات الحرمين حسب الترتيب، ثم أرسل إلى الروضة المطهرة سجادة منسوجة من الحرير وسجادة أخرى لتفرش على محراب النبى وكسا مرقد السعادة بكسوة مزخرفة جميلة وذلك فى سنة ١٠٠٣هـ وكانت فوق الكسوة الشريفة التى أهداها لمسجد السعادة، قد كتبت الكلمة المنجية الشهادتان والصلاة والسلام وأسماء أصحاب النبى الكرام نَسْجًا، كما رسم فى ذيلها اسم السلطان وما اشتهر به من الألقاب.

وأراد السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث أن يلاطف ويجامل أهالى الحرمين الشريفين من جديد، فوحد إدارات دشيشة الحرمين فى سنة ١٠١٣هـ وأعطى نظارتها لشخص اسمه داود أغا وأحال الإشراف على حسن تسوية الأمور وتمشيتها فى جميع ما يتعلق بهذه الإدارات لمحافظ مصر إبراهيم باشا، وسبب هذه التعيينات وحكمتها ما عرف من ضياع حقوق سكان مدينة الرسول بسبب عدم اهتمام محافظى مصر ووقاحة نظار الدشيشة وطمع مشايخ العربان إذْ كانت الدشائش التى اعتيد إرسالها إلى أهالى الحرمين الشريفين مثل الدشيشة الكبرى، والمرادية والمحمدية والخاصكية ودشائش الأوقاف وأخرى من غلال الجراية والصدقات فضلاً عن عدم إرسالها فى وقتها كانت المقَّررات ترسل ناقصة وغير منتظمة ومن هنا تعرض أهالى الحرمين لمضايقات شاقة، ولما

وصلت هذه الفوضى لأسماع السلطان أدركته الغيرة وأراد أن يقف دون هذه الشرور وأن ينقذ أهالى البلدتين الطيبتين من بلاء القحط والغلاء فألغى نظارات الدشيشة كلها، ورفعها ثم أمر بأن تضم جميع النظارات تحت نظارة واحدة بعد أن خصص ألف إردب قمحًا لهذه النظارة كما عُرف صورته فى الأمر العالى الذى سيأتى فيما بعد، وهذا التصرف دليل واضح على ما أولاه السلاطين العثمانيون من الرعاية والحرمة نحو الحرمين الشريفين ولا شك أن رعاية هذه البقاع المقدسة وتطييب خاطر سكانها فرض عين على العامة والخاصة ولاسيما الملوك العظام.

صورة الأمر المرسل إلى المحافظ إبراهيم باشا من قبل السلطان و الخاصة بنظارة الدشيشة الكائنة فى مصر:

هذا الحكم الصادر لإبراهيم باشا وزيرى فى محافظة مصر، لما كانت مكة ووادى البطحاء غير ذى زرع ولما كان انتعاش سكان الحرمين ومعاشهم متوقفًا على الجراية والحبوب التى ترسل من الديار المصرية ووصولها إليهم، وأن دشائش الأوقاف مثل الدشيشة الكبيرة والمحمدية والخاصكية وغلال الجراية والصدقات لم تكن ترسل فى وقتها منذ عهد المرحوم المغفور له والدنا العظيم، وذلك لعدم اهتمام أمير الأمراء بإرسالها وبسبب كثرة أطماع النظار ومشايخ العربان وقلة تدينهم، فضلا عن إرسالها ناقصة، فزادت حالة فقراء الحرمين الشريفين والخدم والمجاورين بؤسًا بسبب القحط والغلاء وصاروا يعانون الآن جميعًا من الضيق الشديد، لَمَّا ألقى إلى مسامعنا السلطانية بحثنا عن سبب هذا الإهمال فوجدنا أن لكل دشيشة ناظرًا ومُبَاشِرًا خاصًا وأن النظار وأمراء الحج لا يحرصون على إيصال العربان الدشائش وغلال الصدقات ونقلها بجمالهم فى أوقاتها، بل يحرصون على نقل غلالهم الخاصة التى سيبيعونها كما أن بعض الأشخاص من الخارج يؤجرون جمال العربان لينقلوا غلالهم الخاصة.

وعدم نقل غلال الدشيشة فى وقتها وأكلها بالاتفاق بين النظار والعربان من الأمور التى اعتادوا عليها، ورأينا أن حَل هذه المشكلة أن تلغى نظارات الدشيشة الكبيرة، والمرادية والمحمدية والخاصكية وغلال الصدقات والجرايات، وأن توحد نظارتها وتسند إلى إنسان موثوق فيه، يعتمد عليه، رجل متدين قانع يكتفى بما يأخذ من الرسوم العوائد العادية، فلا يطمع فى حق الفقراء ولا يتجاوز حقه، كما أن مشايخ العربان عندما يرون قناعة الناظر وعفة نفسه فإنهم لا يخونون ولا يتجاوزون الاعتدال فى تعاملهم، وبهذا يمكن أن تنقل غلال الدشيشة والجراية والصدقات إلى أماكنها فى أوقاتها تمامًا هذا ما نهاه إلينا بعض أهل الخير وأصحاب العارفين بحقيقة الأمر، والآن لما كان احترام أقدس بقاع الأرض الحرمين الشريفين ورعاية جانب سكانهما ومساعدتهم من واجب العامة والخاصة ولاسيما السلاطين العظام، ولما كان أجدادنا السلف الصالح قد حملوا لقب خادم الحرمين الشريفين واستحقاق هذا اللقب قائم على رعاية سكان الحرمين الشريفين واحترام وتحسين حالتهم المعيشية بتوسيع أرزاقهم ونفقاتهم وأن ثبات هذه النعمة السلطانية العظيمة ودوامها لا يتيسر إلا بإقبال هذه الطائفة من الناس الصالحين بالدعاء المجاب لها فارغى البال ومترفى الحال، وهذا ما جزم به اعتقادى السلطانى، لذا فأقصى مرادى ومبتغى فؤادى أن تصل غلال الدشائش والصدقات والجرايات إلى أصحابها فى وقتها فى عز سلطنتى الميمونة فمن هنا قررت أن تلغى جميع نظارات الدشائش المذكورة وتجمع كلها تحت نظارة واحدة، وإننى أرى أن يكون هذا الشخص داود أغا من خدم الحرم المحترمين سابقًا ومعتمد المتقاعد حاليًا فى المحمية المصرية قدوة الخواص، والمقربين ومعتمد الملوك والسلاطين، وبما أننى أعتمد على وفرة تدينه وأمانته وفرط استقامته رأيت أن أعينه ناظرًا على جميع الدشائش، وكذلك رأيت أن توضع دشيشة الملك قايتباى تحت نظارة المشار إليه داود أغا بناء على رأيك وبناء على شرط الواقف؟ الذى جعلنى ناظرًا عليه أصالة وجعلك ناظرًا بالوكالة، وصدر أمرنا عليه أن توضع جميع الدشائش تحت نظارة داود أغا.

ولتوزع بعد ذلك دشائش الحرمين الشريفين على جمال العربان التى ستحمل غلال الدشيشة والصدقات والجراية على قدر ما تتحمل جمالهم، ويجب ألا يتعدى أمير الحاج أو غيره على جمل واحد من جمال العربان أو يتعرض إليه قبل أن تنقل الأشياء المذكورة إلى بندر السويس، كما يدبر من مخازن مصر ألف إردب قمحًا وصدقة باسم جلالتى وتنقل إلى الحرمين الشريفين قبل جميع الدشائش التى ترسل عقب إرسال صدقتى، هذا ما صدر به أمرى العالى مقرونًا برسالتى.

وقد تفضلت بمجرد وصول أمرى هذا أن توضع دشائش الدشيشة الكبيرة، والأشرفية، والمرادية والمحمدية والخاصكية وكذلك نظارة الصدقات الأخرى والجرايات تحت تصرف المشار إليه، وتوزع الدشائش التى عينت إلى مشايخ العربان لتنقل بواسطتهم إلى ميناء السويس، ولتحرص على ألا يتعرض أمير الحاج أو شخص آخر إلى جمل من جمال الحمل والنقل وما عين من قبل جلالتى مجددًا من ألف إردب قمحًا من مخازن مصر صدقة لأهل الحرمين وأن تنقل بعدها الدشائش الأخرى وغلال الصدقات والجراية، منبها بألا ينقص قدح قمح واحد عند إرساله ونقله وإننى أعتمد فى هذا الخصوص على تدينك وأمانتك ومهارتك واستقامتك وحسن فراستك ومزيد كياستك وإن ثقتى فيك لا يعلو عليها شىء.

وزد اهتمامك بهذا الموضوع لأن الدشائش والصدقات والجرايات من حق الفقراء فإذا ما وصلت تامة كاملة وفى وقتها المحدد، أُنقذ فقراء الحرمين من القحط والغلاء ويعمهم الرخص والسعة ويخلو بالهم وتتحسن حالتهم المعيشية فيقبلون على الدعاء بالغدو والآصال لدولتى وعلو شأنها.

وإذا ما أبرز أحد من أغوات الحرمين المحترمين أو واحد من أمراء مصر أو غيرهم أمرًا أو إذنا من قبل ديوانى السلطانى أو إدارتى المالية، بعد فرمانى السلطانى هذا، فلا يلتفت إليه ويسحب منه رخصته ويرسل إلى عتبتى

السلطانية، وابعث إلىّ بأسماء الذين يعوقون وصول الدشائش أو يؤخرون وصولها، والذين يتدخلون فى أمور جمال العربان ويتعرضون لهم، ويجب عليك أن تتخذ حكمى السلطانى هذا دستور عملك وأن تصونه من التغيير والتبديل وقف دون الذين يريدون مخالفة ما جاء فى مضمونه.

تحريرًا فى سنة ثلاث عشرة وألف. انتهى.

وقد جدد السلطان أحمد خان فى يوم جلوسه الميمون أبسطة حرم السعادة وستائر الكعبة المعظمة والحجرة المعطرة المزركشة، والكسوة التى فوق قبر حضرة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وغطاءى[1] عمودى الحنان والمنان وأرسل خمسة آلاف دينار لتوزيعها على أهالى الحرمين الشريفين كصدقة سلطانية، وأرسل لوحة غالية الثمن تتكون من ٢٢٧ قطعة ماسية، وقد سبق تعريفها فى مقالة خاصة، على أن تعلق مكان الكوكب الدرى الذى فى ضريح السعادة وذلك فى سنة ١٠١٢هـ.

وبعد أن علق لوحة الكوكب الدرى المزينة، دليل حبه السلطانى الذى يفوق الحد للنبى ﷺ، فى ضريح ظاهر الأنوار كشارة لوحة النبى الكريم، فى تعليقها فوق الباب الذى يطلق عليه باب التوبة، وكانت لوحة جميلة مصنوعة من الفضة الخالصة ومزينة غاية التزيين، وذلك فى سنة ١٠٢٦هـ، وكان طول اللوحة ذراعين وعرضها ذراع واحد كتب عليها تاريخها باللغة العربية.

لوح السلطان أحمد أهداه حبًا خالصًا وقطع وقفًا على أعتابك يا سيدى لتقبيل تراب عتبتك وياله من تراب، وقمنا تجاه الوجه نرجو الشفاعة إلى الله فى بحر الإساءة والذنب.

وقد علقت هذه اللوحة على الكمر الخارجى لباب التوبة وكانت ترى من داخل الروضة المطهرة.

وقد ضم السلطان أحمد خان لصرة الحرمين ألف قطعة ذهبية سنويًا، وأنعم بعطايا كثيرة لأيتام السادة والأشراف لا تعد ولا تحصى، وأمر رجال الدولة أن

(١) قطعة القماش هذه كانت نسجت من ١٨١٥١ مثقال من الخيوط الذهبية.

يقتدوا بآثاره السلطانية، وبناء على هذه الإرادة السلطانية وبهذه المعونات الكافية زوجت بنات السادات بأكفائهن.

كما بنى مؤخراً منسوبًا للاسم السلطانى الكريم سبيلٌ بالقرب من باب الرحمة كما بنى للطلاب الذين ينتمون للمذهب الحنبلى مدرسة خاصة لإقامتهم، كما صنع حوضٌ وبركة فى طريق المحمل المصرى لسقيا الحجاج، وخصص لتعميرها كثير من النقود، ومازالت البركة والحوض موجودين مع السبيل الذى لا مثيل له بالقرب من باب الرحمة وأبناء السبيل ينتفعون منه إلا أن المدرسة التى أنشئت من أجل الطلبة فى المذهب الحنبلى خربت مع مرور الأيام ولم تعمر بعد ذلك.

كان السلحدار مصطفى باشا المغفور له قد أرسل بواسطة قاضى مصر شعبان أفندى لوحة فى غاية الزينة زينت أطرافها الأربعة بأحجار ملونة لوحة ماسية كبرى وذلك فى عهد السلطان مراد برجاء تعليقها فى ذيل الكوكب الدرى سالف الذكر، وعندما وصل المرحوم شعبان أفندى إلى المدينة علق اللوحة التى حملها تحت لوحة الكوكب الدرى هدية السلطان أحمد فى سنة ١٠٤٧هـ.

وفى عهد السلطان محمد خان بن السلطان إبراهيم أشرفت مئذنة باب السلام وبعض أماكن حرم السعادة على الانهيار والسقوط، وقد أبلغ إلى السلطان صاحب القرار فى حزن وألم فما كان إلا أن أمر والى مصر أحمد باشا بأن يرسل إلى دار الهجرة من يقومون بإصلاح ما يقتضى إصلاحه مع تدبير المبالغ اللازمة والأدوات إلى المدينة فأرسل الباشا المشار إليه الأشياء اللازمة إلى دار السكينة متتالية فهدمت مئذنة باب السلام من أساسها وجددت فى صورة جميلة وطراز بديع وفرشت الساحة الرملية التى حول الروضة المطهرة بقطع رخام مجلاة وذلك فى سنة ١٠٦٠هـ.

غريبة

كان أحمد باشا سالف الذكر الذى قد وفق فى فرش الساحة الرملية بالرخام كان قد نوى أداء الحج فى حين ولايته لديار بكر ومصر إلا إنه ذهب إلى مكة

المكرمة بعد عزله، بينما كان أحمد باشا ذاهبًا إلى المدينة المنورة مع قاضى مكة محمد بن إسماعيل أفندى فى يوم من الأيام قال مخاطبًا محمد أفندى إننى أريد أن أعرض على أعتاب الومضات النبوية خدمة، وحصول أملى هذا يتوقف على أن أتولى ولاية مصر، فأرجو منك إذا ما قدر لنا أن نتعبد فى الحجرة المعطرة واضعين جباهنا على ساحتها ساجدين لنستدر من الله شفاعة الرسول ﷺ لهذا العبد العاصى العاجز وأن تدعوه ـ تعالى ـ أن يشفعه ﷺ فى تحقيق ما فى ضميرى بأن يسند إلى عهدة هذا العبد العاجز ولاية إيالة مصر ولما وصلا إلى المدينة المنورة وأخذا فى زيارة حجرة السعادة، تذكر محمد أفندى بن إسماعيل رجاء المرحوم أحمد باشا وشرع فى دعاء مخلص محرق قائلا: «يارسول الله! إن عبدك الذى يقف أمامك رافعًا يديه معظمًا من عبيدك يتمنى أن ينال شفاعتك يوم القيامة، وإنه يريد أن تطلبوا أن توجه إليه ولاية إيالة مصر حتى يقوم بخدمة لعتبة مرتبتك النبوية!!!» «ولم يكن محمد أفندى قد أنهى دعاءه بعد إذ استولى على أحمد باشا حالة وجدانية خاصة وقال لمحمد أفندى: «كفى، كفى قد استجيب دعاؤك، من قبل الله» فقال له محمد أفندى متعجبًا، «ماذا حدث؟» قال له: «ما أعجبك!! ألم تر الهياكل النورانية التى أمامنا؟ وقد رأيتها أنا ولله الحمد والمنة! بينما كنت تدعو كانوا يؤمنون على دعائك» وعرف ما حدث وفى ختام كلامه استولت على الزوار حالة غريبة؛ والله على كل شىء قدير. انتهى.

وصار أحمد باشا بعد هذه الغريبة بمدة حسب القدر واليًا على مصر، وأمر من قبل السلطان محمد خان بتجديد مئذنة باب السلام بعد هدمها وقام بالمهمة التى أحيلت إليه خير قيام ولم يطمع فى غلال صرة الحرمين أدنى طمع وأرسلها فى وقتها وزمانها وأخيرًا أصبح صدرًا أعظم وارتحل عن الدنيا مقتولاً شهيدًا رحمة الله عليه.

وبناء على إبلاغ مقام الخلافة العليا بأن جدران سور المدينة احتاجت إلى تعمير شامل فى خلال سنة ١٠٧٧هـ وأن الباب الذى فتح فى جهة البقيع ساء حاله وأصبح لا يفتح ولا يغلق صدر الأمر السلطانى إلى مدير حرم السعادة إبراهيم

أغا بتعمير سواء أكان الباب المذكور أو جدران السور التى أشرفت على الانهيار فى صورة لائقة كما أرسل مقدارًا كافيًا من النقود والمهمات فعمر ورمم إبراهيم أغا أماكن السور التى تحتاج إلى التعمير تعميرًا جيدًا، كما قوى وشيد باب البقيع بلوحات حديدية وكتب تاريخ التجديد فوق أكماره.

جدده السلطان الغازى محمد خان ابن إبراهيم خان، سنة ثمان وسبعين وألف وأبلغ ما تم عمله مركز السلطنة السنية فى سنة (١٠٧٨).

وبعد فترة أخطر باب السعادة برسائل متعددة ومحاضر أن مؤخرة حرم السعادة وسقوف دكة الأغوات قد خربت وأشرفت على الانهيار فجأة، وفهم من المضبطة التى صدرت من المجلس الذى انعقد لدراسة هذا الموضوع أن ترك المواقع المقدسة على حالتها تلك سيؤدى إلى فتح باب نفقات كثيرة، فى المستقبل كما أن سقوطها فجأة سيؤدى إلى إتلاف نفوس كثيرة فوجه إلى مدير حرم السعادة سابق الذكر أمانة البناء بتعمير وتقوية الأماكن التى تحتاج إلى التعمير بالفرمان السلطانى الصادر إليه.

وأرسل مهندسًا ماهرًا والمبالغ المقتضية ولوازم الأبنية، وجدد إبراهيم أغا بقرار الأهالى ورأيهم السقوف اللازم تجديدها بعد هدمها وشيد بعضها بالترميم ثم كتب التاريخ على مؤخرة سقف الحرم السعيد:

«جدد الحرم الشريف من فضل الله تعالى وعونه وجزيل عطائه العميم السلطان محمود خان بن السلطان إبراهيم خان كان له ناظرًا إبراهيم أغا وكان الفراغ فى سنة ألف وثلاث وتسعين».

كما كتب عليه قصيدة مناسبة ثم أبلغ الأمر بواسطة شيخ الحرم عثمان أغا إلى مركز السلطنة، ولما حظى هذا العمل باستحسان السلطان أكرم كثيرًا من سادات البلاد والموظفين الحكوميين الكثيرين وذكر ما بذله الأغا المذكور من سعى وجهد وذلك فى كشف مخصوص وقدر عمله وذلك فى سنة (١٠٣٩هـ).

كما أحيا إبراهيم أغا كثيرًا من الآثار الجليلة باسم المرحوم السلطان محمد

خان، إلا أن مرور الأيام ودوران الزمن خرب جميع هذه الآثار ولم يبق أحد يعرف حتى أماكن هذه الآثار الخربة، إلا أن إبراهيم أغا قد صنع صهريجًا كبيرًا وحوضًا واسعًا عميقًا فى جهة المساجد الأربعة التى تقع فى ناحية جبل سلع وخلفه وذلك بناء على الأمر السلطانى الذى تلقاه، وأسس فوق هذا الضريح قصرًا مرتفعًا بهيجًا، وكانت أطرافه الأربعة محاطة بحقل أخضر خال من الجبال والمنازل على مدى الرؤية، واشترى لزوار المساجد الأربعة وأبناء السبيل.

ومازال الصهريج الذى صنعه إبراهيم أغا قائمًا ينتفع منه المارُّون إلا أنه أشرف عل الخراب والانهيار.

وإذا ما ترك فترة مهملاً فمن اليقين أنه سيصبح غير صالح للاستخدام.

ومن السلاطين الذين رعوا حرمة أهالى الحرمين السلطان مصطفى خان الثانى.

وقد راعى جانب أهالى الحرمين وقدم لمبانى مسجد السعادة خدمات كثيرة، فإلى عهده لم تكن الحفلات تقام بمناسبة الولادة النبوية مرة فى السنة وقد استن فى عهده انعقاد الجمعيات مرة فى السنة لقراءة منظومة المولد النبوى وأمر بتدبير ٣٣٠٠ قرش من الخزانة المصرية وإرسالها إلى المدينة وذلك فى سنة ١١١٣هـ.

وكانت هذه المجالس تنعقد بعد إشراق شمس اليوم الثانى عشر من ربيع الأول كل سنة، وتعقد الاحتفالات بالمولد النبوى الباهر فى زماننا فى الليل.

صورة انعقاد مجالس الاحتفالات بالمولد النبوى الميمون

كان مدير حرم السعادة قبل ليلة تلاوة المولد بيوم يجهز مشروبات حلوة ويملأ بها زوارق حرم السعادة ويرسل إلى منازل أعيان البلاد وموظفى الحكومة وأصحاب الخواطر عدة زوارق من الشراب يشير بذلك إلى انعقاد جمعية الاحتفالات بالمولد النبوى فى حرم السعادة ويعلنه ويفرش على ساحة مسجد

السعادة ـ حسب عادة البلد ـ الأغطية والسجاجيد والمقاعد ويأتى بالكراسى ويزين المكان، وبما أن كل من أرسل إلى بيته الشراب يُعَدُّ مدعوًا للاشتراك فى الجمعية ففى القرب من مساء اليوم الثانى، يأتى المدعوون الكرام أفواجًا إلى مسجد السعادة، وأفراد الجماعات الذين يرون هؤلاء المدعوين يتركون أعمالهم ويتجهون إلى مسجد السعادة حتى يكونوا فى هذا المجلس البهيج ويجلسون فوق الأغطية والوسائد والسجاجيد التى فرشت.

وقد توضع فى ساحة مسجد السعادة كراسى ذات غطاء[1] أبيض تكون الوسائد التى بالقرب من دكة الأغوات قد غطيت بأقمشة حمراء فيجلس شيخ الحرمين ومدير الحرم ونائب الحرم والمفتون والقضاة والأغوات وأعاظم السادات، وموظفو الحكومة فوق هذه الوسائد ويوقدون أعواد العود والعنبر فى المباخر الفضية ويستغرق الجماعات عامة فى بحار السكوت والحيرة نتيجة لهذه الروحانية المدهشة التى يكتسبها المكان، وبعدما يستمر هذا الصمت فترة يجلس أربعة من الخطباء ذوى أصوات رخيمة حزينة فوق الكرسى سالف الذكر بعد أداء مراسم الصلاة والسلام ويشرعون فى تلاوة منظومة المولد النبوى، وبعد الحمد والصلاة يدعون دعاء مؤثرًا مناسبًا للسلطان مؤسس هذه الجمعية وللسلطان الذى مازال حَيًّا، ثم ينزلون من الكرسى.

وبعد أن ينزل هؤلاء الخطباء الأربعة من فوق الكرسى يصعد خطيب آخر ويدعو على الطريقة التى سبق ذكرها وينزل، وبعده يصعد خطيبان واحد تلو الآخر ويكملان الدعاء الخاص بمجلس الجمعية النبوية لمولد النبى وينزلان، وبعدهما يصعد خطيب آخر يتلو منقبة ولادة سيد العالمين وعقب ذلك يلقى قصيدة[2] بليغة فيملأ قلوب الحاضرين بالبهجة والسرور.

(١) أرسلت أغطية هذا المقعد المزينة فى عصر السلطان أحمد بن السلطان محمود خان، وكان قبل ذلك خاليًا من الغطاء.

(٢) تركت قراءة هذه القصيدة فى وقتنا الحالى.

وبينما تتلى منظومة المولد الشريف يسقى السقاة[1] بشراب حلو يروى الجماعة العطشى، ويُكْسَىُ من اشترط الواقف إتحافهم بالخلع خلعًا فاخرة.

تكون فى هذه الجمعية أشواق وشفافية وروحانية بما لا يمكن وصفه، وتتولد دهشة فوق العادة من الأعمدة ذات القباب والخيم والهيئات المرئية للسادة الخطباء فوق الكرسى، دهشة وجدانية فتترك الجماعة غائبين عن وعيهم وعقلهم.

وتعقد عين هذه الجمعية كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من رمضان فى مكة المكرمة على أن تعطى نفقاتها من وقف السلطان مصطفى خان المشار إليه.

والجمعية التى تعقد فى مكة المعظمة تعقد فى جهة المحكمة من ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات، ويجتمع فى هذه الجمعية أمير مكة المعظمة ووالى الحجاز والعلماء وجميع الصالحين وإن لم يكن توزيع الشراب فى الزوارق من النظام المتبع فى تلك الجمعية إلا أن من العادة فرش الحرم الشريف وتهيئته، فنائب الحرم يفرش الجهة التى تقع فى ناحية المحكمة بمقدار كاف من السجاجيد والوسائد فى يوم انعقاد الجمعية ويدير مقدارًا كافيًا من الشراب واللوازم الأخرى ويفيد الحضور الذين اعتادوا المجئ بنفس الكيفية، ويأتى سواء أكان الأشخاص اللذين أخبروا بالأمر أو موظفو الدوائر الحكومية لابسين ملابسهم الرسمية إلى الحرم الشريف ويجلسون فوق السجاجيد التى هيئت كل واحد منهم حسب مراتبهم، وبعد مدة وجيزة توقد المجامر بالعود والعنبر فيمسكونها بأيديهم ويتوجهون إلى مسقط الرأس الشريف للنبى محمد ﷺ، إلى الدار التى شهدت ولادة النبى ﷺ وكل ذلك فى موكب فخم عظيم، إن هذه الدار قد اشتهرت باسم مولد النبى وفى هذا المكان الذى يشبه الجنة تتلى منظومة المولد الشريف وتلبس الخلع بجانبه حسب النظام المتبع.

(١) فى زماننا كان الأغوات هم الذين يوزعون الشراب.

وبعد ذلك تعود هيئة الجمعية إلى المسجد الحرام ويشرعون فى تلاوة الأدعية المأثورة وينهون الاجتماع بشرب الشراب الذى أعده نائب الحرم.

وقد أضاف لهذه الجمعية فى أواسط سلطنته السلطان عبد العزيز المأكل الحلو والملبس واتخذ إرسال هذه الملابس من باب السعادة نظامًا خاصًا ومن هنا يرسل كل سنة مع محمل الشام هذه الملابس، وعند عقد جمعية المولد يوزع أطباق منه إلى الحاضرين.

أشرفت فى سنة ١١٠٧هـ بعض أماكن من سقوف مسجد السعادة على الخراب كما أوشكت بعض أعمدته على الانهيار والخراب، فأبلغ ذلك من قبل بكر أغا شيخ الحرم إلى باب صاحب القرار وبناء على هذا الأمر السلطانى أرسل المهندس سليمان بك إلى المدينة المنورة بمهمة تعمير الأماكن المقدسة التى تحتاج إلى ذلك وأمر والى مصر بتدبير المبالغ اللازمة ولوازم المبانى وإرسالها إلى المدينة المنورة، وتحرك سليمان بك من مصر القاهرة وقد أخذ معه ما جهز من المهمات وما دبر من المبالغ إلى دار الهجرة ووصل إليها فى سنة ١١٠٨هـ وبقرار وجوه البلاد وكبار موظفى الدولة شرع فى العمل فجدد السقوف المتضررة ومعها اثنى عشر عمودًا كما أصلح من مسجد السعادة وبعد أن زين كل جهات حرم السعادة بأنواع النقوش والرسوم، هدم مسجد قباء والمصلى النبوى، ومسجد على ، من أسسها وجددها بناءًا حجريًا جاعلاً لها قبابًا وأسس بجانب مسجد على مدرسة ودار كتب وسبيلاً مشهورًا باسم الاسم السلطانى، وبعد أن أتم هذه الأعمال كما فصل فى أماكنها جدد مشهد حمزة ـ رضى الله عنه ـ وأتم مهمته بأن طَهَّرَ مجرى عين الزرقاء وبئرى على، وعاد إلى باب السعادة وحظى عمله هذا بالابتهاج السلطانى فأحسن إليه حيث رقى إلى رتبة أمير الأمراء.

وقد نظم أحد شعراء المدينة المنورة تاريخًا يعرف ما قام به سليمان بك من إحيائه لبعض المواقع وقد كتب هذا التاريخ بعد الاستئذان على قطعة رخام وحك وألصق على عمود بالقرب من باب الوفود.

وهذه صورة التاريخ المذكورة الذى مازال قائمًا.

عربى

حمدًا من آل عثمان الملوك المصطفين

حيث جاد كالمطر على من أعلى القلم

وقصر للخير نسلاً بعد نسل فانتهى

دور إحسان إلى من كان ينبوع الكرم

حضرة سلطان ثانى مصطفى أولهم

صب أموالاً لتجديد الخير المحتشم

ثم أحيا مسجد التقوى المؤسس فى قباء

والذى يدعى مُصَلَّى الحبيب المحترم

مشهد حمزة عم النبى المصطفى

جدد والحمد لله على الوجه الأتم

ونظف فى ذى الحُلَيْفَةَ داخل بئر على

أحلى فى مظاهر منتها الذى كان الأهم

ثم أجرى عين الزرقاء من أم القبة

بعد تنظيف لها من طين مجرى منقسم

طول مجراها من الأم إلى أرض الجرف

طال ما لم يتفق تطهيرها منذ القدم

جاء مقبول العرب من عون أنظار العجم

فارق الله تعالى بالقبول والرضا

صانه صاخرا اليوم تلتقيه لاجرم

ثم إن حاولت تاريخًا لتجديد ذكر

فاستمع من حق ما يتلى عليك من رقم

عد مفصولات الفات فذاك التاريخ

جدد السلطان الأعظم مصطفا هذا الحرم

فى سنة ١١١١هـ.

خرب أحد سقوف مؤخرة حرم السعادة إذ أصابته صاعقة وذلك بعد عودة سليمان باشا إلى باب السعادة بعدة أشهر، وبناء على ما قدم من الرجاء قد رقى الباشا المشار إليه إلى رتبة أعلى وأسندت إليه ولاية جدة وأمر بأن يهتم بتعمير سقوف الحرم السعيد الذى تعرض للخراب، فوصل سليمان باشا إلى المدينة المنورة وعمر المواقع المذكورة كما يجب وعلى الوجه المطلوب وكتب على ركن من أركان ذلك السقف:

جدد هذا السقف الشريف، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين السلطان الغازى مصطفى خان، خلد الله ملكه وذلك بنظارة العبد الفقير المعترف بالتقصير، الحاج سليمان باشا، المحافظ فى جدة المعمورة المشرف بخدمة رسول الله ﷺ وذلك فى سنة ١١١٢هـ.

وللسلطان أحمد خان الثالث بن السلطان محمد خان الرابع خدمات مشكورة لحرم السعادة، قد أخبر فى سنة ١١٣٢هـ أن اثنى عشر عموداً متصلة بالساحة الرملية التى فى الجهة الغربية لجدران حرم السعادة أشرفت على الخراب، من قبل أعيان البلدة وموظفى دار السكينة وصدرت الإدارة السلطانية بإرسال موظف بسرعة لتجديد تلك الأعمدة وتعميرها فوجهت أمانة البناء لشخص يدعى الحاج موسى أغا وأرسل إلى المدينة المنورة.

ووصل الحاج موسى إلى دار الهجرة العالية وبعد كشف المواقع الشريفة بدلالة أصحاب الخبرة جدد تلك الأعمدة الإثنى عشر والجهات الأخرى من حرم السعادة

فى صورة كاملة فى سنة (١١٣٣هـ) وكتب على أحد الأعمدة التى ركزت جديداً أيد الله نصر دولة من جدد هاتين المنامتين الشريفتين، ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان بن السلطان الغازى أحمد خان، ابن الغازى محمد خان، خلد الله ملكه وذلك بمباشرة العبد الضعيف، الحاج موسى ووافق بتجديد تاريخ المنامتين بالمسجد، سنة ألف ومائة وثلاثة وثلاثين، وأمر بكتابة هذا التاريخ.

وبعد أن أتم تعمير الأعمدة المذكورة فهم بعد الكشف والمعاينة أن بعض أعمدة حرم السعادة آلت إلى الخراب فهدم تلك الجهات فى الحال أيضا وأحكم تشييدها هكذا ثم عاد إلى باب السعادة وقد أتم مهمته على خير وجه، وقد رقى إلى رتبة أمير الأمراء ومنح مكافأة سلطانية خاصة له.

وخدمات السلطان محمود خان الأول بن السلطان مصطفى خان للحرمين كثيرة بدرجة فوق العادة، فقد ظهرت علامات السقوط والانهيار فى سقف حرم السعادة وأبلغ ذلك إلى الباب العالى وعرض الأمر إلى عتبة السلطان المشار إليه، فأحال الأمر إلى الحاج أحمد باشا والى جدة على أن يرسل أحد الأشخاص الذين يعتمد عليهم فى تعمير السقف الشريف فأرسل الباشا المذكور محمد أغا من خاصة أتباعه وذهب محمد أغا إلى المدينة المنورة وقام بأداء مهمته وكتب حول السقف الذى جدده عبارة: «أمر بعمارة هذا الرواق الشريف، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان الغازى محمود خان، بن المرحوم السلطان مصطفى خان، عز نصره وذلك بمعرفة الحاج أحمد باشا محافظ بندر جدة المعمورة وبمباشرة تابعه الحاج محمد آغا ثم عاد، وذلك فى سنة ١١٤٩.

كان السلطان المشار إليه قد أرسل ثريا مجوهرة لتعليقها فى قبر الرسول كما أرسل غطاءً جميلاً من أجل قبر فاطمة الزهراء وأرسل إلى الروضة المطهرة ٨٨ قطعة من أبسطة وعددين من الشمعدان الذهبى، وقد أرسلت الأشياء المذكورة فى عهدة عثمان أغا من أغوات باب السعادة، وبما أن المؤرخين قد وصفوا هذه

الهدايا بأن كل واحدة منها كانت أغلى ما أرسل وأجمل ما بعث إلى الحجرة المعطرة وأجملها؛ اقتضى الأمر أن نعطى فرصة لقلمنا ليجول ويصول فى وصف كيفية صنع تلك الأشياء وصورة إرسالها.

وكان أحد الأشياء التى أوصلها أغا باب السعادة عثمان أغا إلى المدينة المنورة كما سبق ذكره أعلاه قطعة من ثريا لا مثيل لها، كانت هذه الثريا فى صفاء الماء وألوان أزاهير نباتات الحقول ومن حيث لمعانها تضارع لمعان سهيل اليمانى، وزنها ٧٢٥ قيراط مثلثة الشكل، وكانت فى الجهة الأخرى منها زمردة أخرى تتوهج كعين شمس تبهر العيون وزنها ٧٦٨ قيراط، وكانت فى الجهة الثالثة قطعة زمرد أخرى نورها كأنوار الصباح تلمع فى الجهات الأربع قطعة تحير العقول بجمالها وفى وزن ٢٥٧ قيراط، وقد بلغ مجموع وزنها ٢٢٧٢ قيراط.

وهذه القطع الثلاث من الزمرد التى تشتهر بالمعدن القديم والتى لا نظير لها كانت أطرافها دائرة ما دار وأعلاها مرصع باثنتى عشرة قطعة كبيرة من الماس كأنها بدر ينير محيط الأبراج السماوية وبأربعين قطعة ماس من حجم متوسط واثنتين وستين قطعة من الماس أقرب إلى الوسط و١١٤ قطعة ماس التى تعتبر صغيرة بالنسبة للقطع الكبيرة لم يكن لها مثيل، وقطعة ماس كبيرة تحير العقول، وكان طوق تلك الثريا مزينًا بتسع عشرة قطعة من الماس مختلفة وكانت حلقتها التى تعلق بها والتى تشبه هالة البدر مزينة بأربع قطع من الماس وكانت تتكون من ٣٥٢ حبة قيمة من الدر اليتيم مع ثلاثة عشر صفًا من المزين بثلاث عشرة حبة من الزمرد وكانت لائقة أن تكون ثريا عذارى الحور العين.

وكانت الثريا تشمل فى الأماكن التى تجذب الأنظار دررًا وغررًا وجواهر لا عَدَّ لها كما تشتمل على صورة غريبة وكانت فى غنى عن الوصف حقاً.

إن النقوش تحير العيون والتى نقشت على وجهها الواحد هى أثر من فنانى الياقوت ومن هنا فهى كانت فى نظر من رآها من المؤرخين كعروس تجلت فى حجرة نومها بل كانت من قبيل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وبعد أن صنفت الثريا التى سبق تعريفها فى مكانها اللائق، نسجت قطع الأقمشة والأغطية والسجاجيد التى صدر الأمر بصنعها ووضعها فى مشهد الحرم القدسى والروضة المطهرة التى يخدمها الملائكة، وكانت قطعة القماش كسوة جدران المرقد النبوى تعانق دائرًا ما دار الحجرة فى جهاتها الأربعة وكانت أرضية هذا القماش الساحر من ستين ذراعًا من الأطلس الأخضر وجها وبطانة وقد سطر على هذا القماش الذى يبعث الفرحة السورة الشريفة «الفتح» باستعمال ٧٠٠٠ مثقال من خيوط الفضة النادرة، وزينت ما بين سطورها بجداول لحسنها فبدت كأنوار الشفق وظهرت فى ساحة الأخيار وتمنى رضوان الجنة أن يمسح وجهه عليها.

وحتى يربط ما بين الغطاء الشريف المذكور أرسل ٥٧ قطعة أطلس فى لون الزرع وكل قطعة فى أربعة عشر ذراعًا، كتبت عليها بعض الآيات الكريمة وكلمة الشهادة المباركة والصلوات الشريفة ثم أرسلت وأكملت بلوازمها الأخرى، ثم أرسلت أغطية ضريح وردة بستان النبوة، وثمرة سدرة المنتهى للرسالة، سيدة قصر العفة زينة بيت الشرف والسعادة درة السيادة السماوية ولؤلؤة العصمة سيدة النساء وقطعة كبد حبيب الله فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وكانت أرضيتها الغالية حمراء اللون ولون بطانتها خضراء.

وقد كتب فوق (١١) قطعة من أجمل أقمشة الأطلس بالخيوط الذهبية بعض الأحاديث الشريفة ببراعة أساتذة الفن، ولما تم صنع أعمالها الأخرى أرسلت إلى المدينة المنورة لتعلق على جدران المسجد النبوى والمعبد المصطفوى توأم الجنة كما أرسلت ثمان وثمانين قطعة سجاد مزخرفة بأنواع نقوش الأزاهير إلى المدينة المنورة لتفرش على ساحة الحرم النبوى، وكان مقدار هذه السجاجيد بالحساب التربيعى ٣٠٨١ ذراع من القماش والشمعدانان اللذان أرسلا لإنارة المكان الذى بشر بالحديث الشريف الذى يقول «بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»، وطاف المحراب المشحون بالرحمة حيث توافر أجنحة الروحانية ذات عرب وكانًا كأنهما نيران من حيث الشكل أو مثل الفرقدين وكانا مرصعين بأنواع الرسوم

البديعة وكانا من الذهب الخالص مع مقعدين مطليين بالذهب وقد أمر بجعلهما مصباحين لإنارة هذا المكان المبارك مهبط الوحى.

وأرسل الشمعدانان والسجاجيد التى ذكرت بحرًا وأرسلت الأغطية والثريا المزينة برًا، بعد أن أودعت فى أمانة الصف ووصلت تلك الأشياء التى أرسلت برًا يوم الخميس وبناء على الأمر المطاع من الجميع الأمر السلطانى الذى يحترمه الجميع أخرجت تلك الثريا أمام الباشا الحاج وشيخ الحرم النبوى الحاج عبد الرحمن أغا وقاضى المدينة وأمين الصف وكافة العلماء والخطباء والأئمة والأشراف وحضورهم وبعدما رآها الجميع أخذت بمراسم الآداب والخشوع وقراءة الأوراد والتحيات إلى حجرة سيد الورى المنظمة ـ عليه أفضل التحايا ـ حيث علقت فى مكان مناسب.

وهكذا أدى مهمته، وبعد ذلك أخرجت أغطية المرقد النبوى وفق المراسم القديمة بكل تعظيم وتفخيم وعلقت على جدران المشهد المصطفوى وبعدما كُسِىَ مضجع سلطان القصرين ولم يقصر أحد فى بذل أقصى ما يقدر عليه من التوقير والإجلال حين كُسى المضجع النبوى ألبست أغطية مرقد الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وبما أنه قد وصلت ٨٨ قطعة من السجاجيد ذات النقوش البديعة والشمعدانان فبسطت السجاجيد على ساحة الحرم النبوى الشريف والروضة المطهرة المصطفوية، ووضع الشمعدانان مع مقعديهما يمين محراب النبى ويساره.

وكان السلطان محمود خان قد أرسل قبل ذلك ثريا أخرى وبما أنها كانت مثل الثريا التى سبق تعريفها فصرف النظر عن تعريف شكلها وهيئتها.

ومن السلاطين الذين خدموا حرم السعادة السلطان الغازى السلطان عثمان خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثانى، إذ كان قد أرسل أمين الصف إبراهيم أغا مكلفًا بمهمة كشف وتعمير سقوف مؤخر حرم السعادة التى أشرفت على الخراب بعد ما استأذن منهم بذلك فى سنة (١١٦٩هـ) وأبلغ والى مصر بأن يرسل إلى المدينة الأشياء اللازمة للتعمير سريعًا.

ولما وصل إبراهيم أغا إلى المدينة المنورة وجد لوازم البناء التى أرسلت من مصر قد وصلت فعمر السقوف التى أشرفت على الخراب وما احتاج للإصلاح من مواقع حرم السعادة وكتب على السقف الجديد هذه العبارة:

«أمر بعمارة الحرم الشريف السلطان الأعظم السلطان عثمان خان، بن السلطان مصطفى خان، خلد الله ملكه وذلك بمباشرة الحاج المعتمر الأمين إبراهيم أغا، أمين الحرمين الشريفين، وأمين بناء المسجد النبوى بتوفيقه من الله؛ سنة ألف ومائة وسبعين.

والسلطان مصطفى خان الثالث بن السلطان أحمد خان الثالث من السلاطين العثمانية الذين كانوا يبذلون المهج فى سبيل النبى ﷺ، وقد وصل إلى أعتاب سلطنته أن علامات الانهيار والسقوط قد ظهرت فى بعض أماكن سقف حرم السعادة وبناء على ذلك صدر الأمر السلطانى بالإسراع فى تعمير وتجديد الأماكن التى اقتضت ذلك وأرسل إلى المدينة المنورة بصحبة محمد أمين بن فيض الله أغا مهرة العمال والمعماريين المقتدرين.

ووصل محمد أمين أغا إلى دار السكينة وأصلح الأماكن التى أشرفت على الخراب من سقوف الحرم الشريف بالاتفاق مع أعيان البلاد وموظفى الحكومة وبقرارهم، وعمر بعد ذلك الجدار الذى على يمين مضجع السعادة ويساره بأحجار ملونة مختلفة، وزين جميع جهات الحرم النبوى توأم الجنة.

وجعله مثالاً للبيت الذى يقول:

ما حاجتنا لتعريف الشمس بالنور فآثـار نـوره ظاهـرة للعيـان

وكتب فوق السقف الذى جدده

أمر بعمارة هذا الحرم الشريف السلطان عبد الحميد خان، بن السلطان أحمد خان خلد الله ملكه مدى الزمان وذلك بمباشرة المفتقر إلى الله، العبد محمد أمين بن فيض الله؛ سنة واحد وتسعين ومائة وألف.

وكتب على اللوحتين المعلقتين مقابل الجدار النبوى من اليمين والشمال تاريخ

مقام المصطفى قف به منكس الرأس ما تريد
وتبتل لله الأحد فوق الذى، نرجوه مما عليه مزيد
وادع لمن فاق الملوك الأولى، قد خدموا هذا المكان السعيد
سلطاننا عبد الحميد الذى، فى ملكه إذا أمسى نظام جديد
واسأل لأمين بَنَّآء محمد شفاعته إنه بها سعيد
مسجد طه أوجه الأنبياء، جدده الخان عبد الحميد

كتب هذه المنظومة وكتب قطعة.

يا خير من دفنت فى القاع أعظمه
فطاب من طيبه القاع والأكم
نفسى فداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

على العمودين الرخاميين المربعين على يمين ويسار ذلك الموقع الشريف، وكتب حول شبكة السعادة دائراً ما دار قصيدة «يا رسول الله! خذ بيدى» البليغة بخط جميل وذهبها، فى سنة ١١٩١.

وقد عمر السلطان عبد الحميد خان بعد هذا التعمير بعشر سنوات بواسطة حامل أسلحة السلطان الحاج محمد أغا ونظارته الباب الخشبى وأساطين الروضة المطهرة، وكان ذلك الباب الخشبى على يسار محراب النبى ﷺ، وقد أصلح هذه الأماكن فى طراز جميل وكتب الجملة المنجية لا إله إلا الله، الملك الحق المبين وحديث «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» (حديث شريف) فى المكان الذى ينظر إلى الجدار القبلى للباب المذكور، وكتب فى ذيل هذه الكتابات عبارة (عمره السلطان عبد الحميد خان (١٢٠١).

وبعد عام أقيمت مدرسة تضم سبع عشرة حجرة ومحلاً للاستذكار ومكتبة وجعل سواء أكان للطلبة الساكنين أو المدرسين أو أمناء دار الكتب مقدارًا كافيًا من المرتبات واشترى حديقة النخيل وبستان الخضر القريبين من المدرسة ووقف محاصيلها للطلبة الساكنين فى المدرسة وذلك فى سنة (١٢٠٢).

ومن السلاطين العثمانيين السلطان سليم الذى فخم الحرمين المحترمين أعظم تفخيم وعظم أهاليهما الكرام أعظم تعظيم، وهو السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثالث، قد أمر فى عصره السعيد بناء على استئذان الأهالى بتعمير وإصلاح جدران الحرم النبوى مخدوم الملائكة والأساطين التى فى داخل الروضة المطهرة التى تعد من الآثار النبوية، وغلف الأساطين الشريفة المذكورة مقدار ذراعين من الأرض بقطع رخام ملون، ونظم قصيدة بذاته لتكتب على قطع الرخام الملونة وأرسلها إلى أمانة البناء، وقد كتبت هذه القصيدة فى بحث الأساطين الملونة، ذلك فى سنة ١٢٠٨هـ.

وبعد هذا التعمير بأربعة أعوام قد زين وعمر يمين ويسار جدران باب جبريل قدر ذراعين من الأرض وجدار محراب التهجد كاملاً بالصينى، وطهر ونظف مجرى عين الزرقاء وذلك بنظارة والى الشام عبد الله باشا.

وقد أنفق السلطان الغازى محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول كثيرًا من النقود للحرمين الشريفين وأظهر بهذه الطريقة شدة حبه ووداده للنبى ﷺ.

والحبوب التى خصصت لأهالى الحرمين من السلطنة السنية العثمانية فى عصره، قد شريت وبيعت لسوء إدارة موظفى الدولة وطمع سكان المدينة الأغنياء والتجار، وترك الفقراء والضعفاء جوعى ومرضى دون علاج وأخذ فقراء الحرمين يعانون أشد العناء وأخبر بذلك السلطان وعرض النبأ على عتباته، واستحصل منه على إرادة سنية بخصوص إحصاء السكان لإعادة توزيع المرتبات وتقسيمها من

جديد، وكلف الوالى إبراهيم باشا الذى كان فى ذلك الوقت فى المدينة المنورة بإحصاء نفوس أهالى المدينة، كما عين محافظ مكة خليل باشا لإحصاء عدد سكان أهالى مكة المعظمة.

وقد حرر إبراهيم باشا أسماء سكان المدينة المنورة وقيدها بأسرها كما حرر خليل باشا أيضا أسماء سكان مكة المكرمة وحدا الدفترين وبعد ختمهما أرسلاهما إلى والى مصر محمد على باشا كما أن الباشا المذكور أرسل الدفترين ملفوفين بالكشف الذى ستبين صورته فيما يأتى إلى الباب العالى.

وظن بعض الأهالى من هذا الإحصاء أن الدولة تريد أن تجند أبناءهم وأخفوا عددهم، لذا لم يدرج أسماء كثيرين منهم فى الدفاتر ولكن المجربين منهم فهموا الموضوع ووجدوا طريقة لإدراج أسمائهم فى آخر الدفاتر بواسطة موظفى الإدارة المصرية ولكن الذين لا يعرفون أحدًا ظلوا غير مقيدين.

صورة القائمة التى كتبها محمد على باشا إلى مقام الصدارة العظمى السامى:

إن الغلال التى خصصت ورتبت من مصر فى السنين السابقة لأهالى الحرمين عَفَى نظامها مع مرور السنين وأبدل وأخذت تباع وتشترى فيما بينهم حتى استولى عليها الأغنياء، واضطروا فقراءها للبحث عن أقواتهم اليومية وكان إدخالهم تحت النظام غير ممكن.

وقد رأينا أن نرسل إلى أهالى الحرمين الشريفين من المخازن المصرية مجددًا مقدارًا كافيًا من الغلال بنية خالصة على أن تعد هذه الغلال من جملة الآثار الخيرية للسلطان المهيب ذا الشوكة ملجأ الإسلام ظل فضل الله، وفى نعم كافة الأمم، محمولة على المراكب حتى تستجلب لذاتكم السلطانية أدعية مضاعفة من أهالى الحرمين، وبناء عليه قد رأى ابن عبدكم إبراهيم باشا عند عودته من الباب العالى إلى المدينة المنورة إعداد دفتر لكتابة أسماء أهالى المدينة المنورة لإحصاء عددهم، وذلك بعلم أغا شيخ الحرم ورأيه وبضم آراء قاضى المدينة ومفتيها وفضلاء علمائه ووجوه البلاد، كما اتخذ دفترًا آخر حرر بعلم صاحب السعادة

محافظ مكة خليل باشا وعلم الشريف يحيى وبمعرفة قاضى مكة المكرمة ومفتيها إلى أعتاب عظمتكم السلطانية، والعلة الغائبة من هذا العمل الخيرى هى استجلاب الدعاء بالخير لجانب سلطنتكم، وقد بلغ مقدار الغلال السنوية الخاصة بالحرمين الشريفين إلى ١٦ ألف إردب وبعد هذه السنة سترسل الغلال الخاصة بالحرمين الشريفين فى ميعادها دون تفويت وقتها وقد بدأنا بذلك فى هذه السنة وببيان ذلك أعرض لجانب سلطنتكم طاعتى، انتهى.

ولما أطلع السلطان على ما جاء فى الدفترين أمر بتنفيذ ما جاء فيهما، وبناء على ذلك شرع فى إرسال الغلال إلى الحرمين، إلا أن المساكين الذين لم تدرج أسماؤهم فى الدفترين حرموا من العطايا السلطانية ولكن بناء على رجاءات وجوه البلد واسترحاماتهم أضيف إلى العطايا ألف إردب حنطة فوصلت المخصصات الحجازية إلى سبعة عشر ألف إردب من حنطة وهذه المخصصات ترسل الآن.

سبب تشكيل مديرية الخزانة

إلى أن حل الوقت الذى بلغت المرتبات الحجازية إلى سبعة عشر ألف إردب قمح، كان أمناء الصرة ثانى يوم وصولهم إلى المدينة الأمينة يفرشون على ساحة حرم السعادة الأبسطة ويوزعون ما سلم لهم من المبالغ لإعطائها لأهالى دار السكينة من باب السعادة ويستدعون من حُرِّرَتْ أسماؤهم فى الدفاتر التى أعطيت لهم من خزانتى الأوقاف والمالية، وفى حضور أشراف البلاد وموظفى الحكومة يسلمون لهم بأيديهم مخصصاتهم، ولما لم تكن فى ذلك الوقت دوائر فرعية خاصة بمديرية الخزانة كانت مستحقات كل فرد تسلم له دفعة واحدة من قبل أمين الصرة، ولما كان صرف واستهلاك المبالغ التى أخذت دفعة واحدة فى خلال أيام قليلة حسب الحاجة الطبيعية، كان سكان دار السكينة ينفقون مخصصاتهم خلال عدة شهور بوفرة ثم يعانون من قلة المال خلال الثمانية أشهر الباقية، ولما أطلع السلطان محمود على هذه الحالة ألغى هذا النظام وأنقذ الأهالى من هذه المعاناة

بوضع نظام تقسيم مخصصات كل فرد إلى اثنى عشر شهراً وإعطائها لهم فى كل شهر.

وحتى تعطى هذه الرواتب الشهرية وتوزع فى صورة منتظمة شكل مديرية خزانة المدينة المنورة وعين لها موظفين وبين لكل واحد منهم وظيفته، ويسلم الآن أمناء الصرة ما حملوه من الأمانات لخزانة المديرية بموجب الدفاتر كما أن موظفى الخزانة يوزعونها شهراً بشهر لأصحابها، ومديرية الخزانة دائرة غاية فى النظام فلها دفاترها المنظمة، وسجلاتها التفصيلية ولها محققوها ومدققوها، وتجرى معاملاتها فى دائرة النظم الموضوعة.

ولا يضيع حق أحد فى ظل حضرة الخليفة العادل، ولا يبرز إنسان قائلاً: «قد أضيع وأخفى». وذلك فى سنة ١٢٣٣هـ، انتهى.

وقد أصبح المسجد النبوى فى أشد الحاجة إلى الإصلاح، فأعلم والى مصر محمد على باشا مركز السلطنة العثمانية بذلك ولما جاء الرد لمحمد على باشا يطلب منه أن يعين رجلاً مناسبًا لأمانة البناء لتعمير الحرم النبوى على أحسن وجه، فكوفئ كاتب الديوان المصرى طاهر أفندى وهو من صلحاء الرجال المصريين بتعيينه أمينًا للبناء وأرسله إلى المدينة المنورة ذات الشرف العالى.

ووصل طاهر أفندى إلى دار الهجرة واطلع مع وجوهها واتفاق آرائهم على حرم السعادة، وقرر تعمير وتقوية قبة حجرة السعادة وأحاط الحائط الذى بنى فى عهد عمر بن عبد العزيز بسور آخر، فأحكم تشييد القبة الخضراء على وجه لائق بكل تعظيم وتوقير.

واهتم قاضى البلدة وشيخ الحرم النبوى وأعيان البلد وكبار موظفى الدولة بأداء الخدمة وهم لابسون أفخر ثيابهم، وبعد أن عمر الحجرة المعطرة على الوجه الأكمل جعل النقاشين الذين أرسلوا من باب السعادة يصبغونها وزين جدرانها برسوم مختلفة الشكل ثم كتب الحديث الشريف فوق الباب الخشبى الذى يقع

فى جهة المرقد النبوى من محراب النبى قال رسول الله ﷺ: «**من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى، ومن زارنى وجبت له شفاعتى**»، صدق رسول الله ﷺ، كتبه الفقير قوناقجى زاده إبراهيم النقشى ثم كتب على رخام مستدير فى الجهة الداخلية من باب جبريل عبارة: «عمر السلطان الغازى محمود خان نصره الله تعالى سنة ١٢٢٨»، وفى الجهة الداخلية من جهة اليسار كتبت جملة: «عمر الحرم الشريف أمين كاتب الديوان المصرى محمد طاهر ١٢٢٨ وذهبها».

وقد وفق السلطان محمود خان العدلى فى إحياء هذه المآثر لوالى مصر محمد على باشا بتعمير وإصلاح المساجد والآثار التى تخربت وإحيائها وكتب بذلك إلى والى جدة ومحافظ المدينة المنورة نجله النجيل إبراهيم باشا وأرسل ما يلزمه من المبالغ ولوازم البناء قدر ما بلغ، واستدعى إبراهيم باشا من باب السعادة ومصر مهرة العمال الذين تمرسوا فى دقائق أعمال البناء.

كما جلب من الشام قوالب الصينى وابتدر فى تعمير هذه الآثار وإحيائها، وجدد أولاً داخل حرم مسجد الحبيب والقبة الخضراء وخارجها وبعد ذلك أضرحة البقيع ثم أبنية المساجد والمشاهد فى صورة لائقة، ثم وضع قطع الرخام التى وردت من باب السعادة فوق كمرات أبواب الأضرحة وزين كل مسجد وكل أثر كحسناء محبوبة، وعين أصحاب الأضرحة بكتابة الأبيات فوق طاقاتها ولم يترك حاجة للزوار للسؤال عن أصحاب تلك الآثار ونوعها.

إذا كان قد كتب فوق قطع الرخام التى أرسلت من باب السعادة والتى وضعت وألصقت فوق أبواب هذه الآثار والأضرحة كتب عليها بعبارة مختارة وأحيانًا بينت أسماء أصحاب الأضرحة وحقيقة الأثر وكنهه، وكانت الأبيات المذكورة ثمرة قريحة ابن كيجة جى عزت منلا المرحوم من شعراء عهد السلطان محمود خان العدلى المشهورين قد كتبت وحُكَّت مُذَهَّبَةً فى باب السعادة، ومازالت منها مذكورة فى بحث تعريف الآثار والأضرحة.

وبعد أن أتم إبراهيم باشا المرحوم بتعمير حرم السعادة أمر بكتابة المدحية[1] العبارة عن الثمانين بيت المنظومة بعبارة عربية فوق جدار القبلة الذى يقع خارج باب السلام، وكتب على الجهة اليمنى من هذه المدحية بخط أبيض فى صورة الشمس:

«قد كان الوكيل بعمارة الحرم الشريف النبوى والى مصر محمد على باشا أدام الله إجلاله آمين» وكتب البيت الشريف تحت الجملة السابقة بخط أبيض على شكل صورة الشمس:

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

وفوقه بنفس الطريقة:

ما شاء الله كان هذا باب كليم الله فى سنة ١٢٣٣.

وعلى طاق الباب المذكور كذلك: هذه عمارة الحرم الشريف النبوى فى أيام إبراهيم باشا والى جدة ومحافظ المدينة المنورة عام ١٢٣٣.

وفى نهاية هذا الكلام:

فاق النَبِيينَ فى خَلْق وفى خُلُق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وفوقه على هيئة الشمس كذلك: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾ صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم..

كما أمر بكتابة التاريخ القديم الذى ظل من عهد السلطان قايتباى حول هذه الخطوط دائرًا ما دار.

وبعد أن أتم إبراهيم باشا تجديد مسجد السعادة توأم الجنة أسرع لتجديد مسجد قباء فَشَيَّدَ حرم السعادة المذكور فى صورة محكمة أحيا وجدد فى شكل جميل وبنى مبرك الناقة ومنزلة الآية ومسجد على ومسجد فاطمة، ومسجد عمر، مسجد بئر خاتم، والسبيل الذى فى هذه الناحية وسبيل السلطان أحمد فى اتصال

(١) هذا المديح قائمة صورته إلى يومنا هذا فوق هذا الجدار المذكور إلا أن معظم أبياتها محيت لدرجة أن بعض مصاريعها تلفت بدرجة يصعب معها قراءتها فلم نستطع أن ننقلها فى هذا المكان.

جدار مقبرة البقيع التى فى داخل المدينة ومسجد بغلة، ومسجد بنى ظفر، مسجد أبى بن كعب فى داخل مقبرة البقيع، ومسجد مصلى العيد المصطفوى الذى فى ميدان المناخة، ومسجد الصديق الأكبر.

ثم بنى مدرسة باسم السلطان بالقرب من باب السلام وأصلح مدرسة السلطان عبد الحميد خان فصارت فى غاية الجمال والمتانة وأحياها، وهكذا استجلبوا الدعاء لجانب السلطان السنى.

وقد طهر السلطان المشار إليه مجرى عين الزرقاء إثر السيول التى ظهرت فى سنة ١١٢٤هـ مثل البحار وخربته إلى قبة البئر ثم أعطى ثلاثمائة صرة من الدراهم لتوزيعها على الحجاج الذين أضيروا بسبب السيول كما تصدق بثلاثمائة قطعة من الملابس لتقسم على الفقراء وأهدى حصرًا وأبسطة لفرشها فى حجرة السعادة، كما أهدى خَمْسًا وسبعين قطعة من السلاسل الذهبية وأربعمائة وعشرين عددًا من السلاسل الفضية لتعلق فى حجرة السعادة، وبعض الشمعدانات لتوضع على يمين ويسار محراب النبى والمحراب السليمانى وأضاء داخل حرم السعادة الذى يشبه الجنة، وذلك فى سنة ١٢٣٥هـ.

وكانت كل واحدة من السلاسل الذهبية فى ثقل مائتى درهم وكانت كل واحدة من السلاسل الفضية مائة وأربعين درهما، وكان مع الشمعدانان عرض حال سلطانى كتبت صورته فيما يأتى:

نظم

تجـرأت أهدى الشمعدان يـــا رســـول الله

قصدى أن أخدم عتبتك العليا يـــا رســول الله

لا تليق بروضتك الثريا التى قدمتها يدى العاجز

فـــاحـــسن إلى بقبولهـــا يـــا رســـول الله

ليـــــس لى أحـــــد أشكـــــو حالـــى

فمن جنابك الإحسان والمروءة يا رسول الله

دخيلك الأمان قد وقفت ببابك

ارحمنى وكن شفيعى يا رسول الله

فاستصحبنى فى العالمين، السلطان محمود العدلى

فالدولة لك فى الأول والآخر يا رسول الله

وبعد إرسال الهدايا المذكورة علم من قبل السلطان أن قطع الرخام التى بين الروضة المطهرة وجدار القبلة قد خربت بطريقة سيئة وبناء على الأوامر الصادرة أصلحت وجددت قطع الرخام التى فى المكان المذكورة ابتداء من مواجهة السعادة إلى باب السلام ولما كان ما بين باب السلام إلى باب الرحمة ترابًا فرش هذا المكان وكذلك الساحة التى فى محاذاة الأعمدة فى الساحة الرملية بالقطع الرخامية، وذهبت الخطوط التى فى السقوف وعمر حمام محمد على باشا الذى كان قد فجر اللغم من قبل، وأسست مدرسة جميلة فى قرية قباء ثم حفرت بالقرب من مشهد حمزة بئر واسعة وحوض.

وما عدا هذه بنيت بالقرب من باب السلام دار توقيت على أن تكون فى إحدى جهاتها مدرسة وفى جهة غرفًا للمؤقتين، كما أُسِّسَ أمام دار التوقيت سبيل جميل وهكذا أحيا أهالى المدينة.

وبما أنه أرسلت ساعة من باب السعادة لتوضع فى داخل دار التوقيت وتاريخًا ليُحَكَّ فى أعلى طاق المبانى التاريخ الذى حرر بالشكل اللائق، فوضعت الساعة فى مكانها الخاص كما حُكَّ التاريخ فوق كمر باب دار التوقيت وذُهِّبَ وهذه صورة تاريخ دار التوقيت:

التاريخ

قد قام ملك ملوك الزمان بأثر محمود

بنى فى داخل حصن المدينة هذه الدار للتوقيت

كن من هذا الارتفاع الصامت دليلاً على عظمة السلطان
قـــد زاد الزمـان ساعـة بعـد ساعـة بـنوره
فليمـلأ الدهـر بمفتاح الشريفـة مثـل الساعة
فلتكـن روح النـبى فى عـون ذلك السلطـان دائمًا
قـد زين بهـذا الشكـل زينـة محمود التاريخ
السلطان محمود هو الذى أوجد دار التوقيت
فى سنة ١٢٥٣.

وبعد تصليح دار التوقيت المذكورة بسنة ونصف كان قد أرسل من باب السعادة خمسة أنفار من المجلدين لتعمير وتذهيب الكتب الموجودة فى دور كتب المدينة المنورة، وأُعْلِمَ باب السعادة أن هؤلاء المجلدين قد عاينوا دور كتب المدينة المنورة بواسطة موظفى الدولة وعمروا سبعة آلاف مجلد من الكتب وذهبوها، وقد أُجِرَ كل واحدمن هؤلاء ألفًا وخمسمائة قرش معاشًا شهريًا.

ولما كان نظام خدمة حرم السعادة احتاج للإصلاح صدر الأمر السلطانى أن تكتب أسماء الخدم، فى دفاتر خاصة وقد جعل لعشرة من الشيوخ ثلاثون قرشًا وقد خصص للشيوخ أجرًا أسبوعيًا مقداره أربعون قرشًا وللفراشين خمسة وعشرون قرشًا وأكرم الجميع بهذه الطريقة وذلك فى سنة ١٢٥٥.

ومازال هذا النظام مرعى الجانب إلى الآن وكل شيخ يقوم بأداء مهمته أسبوعيًا مع رفقائه، وفى يوم الجمعة يحصلون على أجورهم الأسبوعية ويعودون، والذين لا يواظبون فى أداء خدماتهم تخصم منهم يومياتهم بموجب الدفتر.

وأرسل السلطان المشار إليه إلى حرم السعادة نسخة من البخارى والشفاء الشريف كما أرسل ثلاثين عددًا من الكلام القديم[1] وثلاثين عددًا من دلائل الخيرات وثلاثين قطعة من أجزاء القرآن الكريم، وعين لتلاوة كل واحد منها شخصًا وأراح باله بأن ربط له راتبًا بمقدار كاف.

(١) يعنى القرآن.

ومازال سواء أكانت الأجزاء اللطيفة أو البخارى والشفاء الشريفين فى المسجد النبوى وتقرأ صباح مساء أمام محراب التهجد يتحف ثواب قراءتها وأجرها لروح الواقف.

ولم يخدم السلطان محمود خان الحرمين الشريفين فحسب بما عرض من الخدمات إذ إنه كذلك جدد وعمر ـ كما سنبين فى الصور الآتية ـ مسجد قباء، والمساجد الأخرى والآثار العالية وأضرحة مقبرة بقيع الغرقد التى هدمها وخربها طوائف الخوارج الرذيلة، ومشهد حمزة، ومقبرة الشهداء، والمشاهد الأخرى والآثار المسعودة، كما أمر بكتابة منظومة فوق أطواف المساجد والآثار.

خارقة

كان السلطان محمود خان العدلى جدد غطاء مرقد السعادة الذهبى للمرة الثانية، والغطاء الذى أرسله فى المرة الثانية، حينما وصل إلى الحجرة المعطرة وشرع فى تغطية المرقد لزم قلع الغطاء القديم، وبينما شرع فى قلع الغطاء القديم الذى قد سكر باحتضان القبر النبوى الشريف عدة سنوات صدر من الهاتف صوت حزين يقول واه حسرتاه واه فرقتاه وهكذا عرض ذلك الغطاء نار حسرته وفرقته وقد سمع هذا الصدى المثير للشوق كل من كان فى داخل الحجرة النبوية وفقدوا عقلهم وشعورهم.

وإن كانت هذه الخارقة غير مصدقة عند أهل الاستدلال، إلا أن الذين يصدقون أن الجذع الشريف الذى ارتمى على الأرض وأصبح جذاذًا وأخذ يئن ويصيح عندما وضع مكانه منبر السعادة لا يستبعدون ظهور مثل هذا الصوت عندما كان الغطاء القديم يخلع من على المرقد النبوى.

لمن يوفق أحد من ملوك الأسلاف إلى إسداء الخدمات لحرم السعادة مثل ما قدمها السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الثانى، إذ لم يترك ذاته السلطانية مكانًا فى مسجد السعادة أو الحجرة المعطرة لم يجدده أو يعمره، إذ بنى ٢٩ قبة فوق السقف القديم الذى صنعه السلطان مراد الرابع والذى يقع الآن فى الجهة القبلية من الساحة الرملية كما هو مبين فى الخريطة

الخاصة، كما جدد القباب الموجودة منفقًا ما لا يحصى من النقود، وفرش فوق أسطح القباب الموجودة بقطع من الرخام المجلاة، وعنى بتزيينها، وجدد الخطوط التى فى داخل مسجد السعادة وخارجه وهى التى تحدد حدود الحجرة المعطرة وقطع رخام حرم السعادة عامة، وهكذا قام بخدمة عظيمة فإنه أسس أبنية المسجد النبوى الشريف المسعودة من جديد، وأسس فوق باب التوسل مكاتب وعدة مخازن أعلاه وأسفله فأصبح باب حرم السعادة فى غاية اللطف مؤخرًا. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

دخول السلطان عبد المجيد فى حجرة السعادة

يروى أصحاب الوقوف من أهالى المدينة ومهرة بنائى الحجارة الذين استخدموا فى عمليات تجديد قبة السعادة فى حق المرحوم المشار إليه حكايتين غريبتين ولكن لهما مغزى ويدعون أنهما غير قابلتين للتكذيب.

١ـ الحكاية الأولى:

نقشت الطغراء الغالية التى أرسلت من إستانبول فوق قطعة رخام مجلاة وذهبت لتكون علامة واضحة على أن السلطان عبد المجيد قد جدد وعمر مبانى الحرم العالية وعقب ختام فروغ عمليات المبانى المقدسة تركت فى جهة ما على أن توضع فوق كمر باب مناسب من الأبواب مغطاة، وكان قد مر بعض الوقت من حينه، فجاء أحد المجذوبين الذى لم يتحدث فى حياته مع أحد فأشار بأن توضع الطغراء فى مكانها بعد أن كشف غطاءها، ولم يتأخر عن الإلحاح والإصرار قبل أن تلصق الطغراء المذكورة إلى مكانها وأخبر بالأمر موظفو الحكومة، وإذا فى ذلك اليوم كان السلطان عبد المجيد قد ارتحل إلى قصر سواحل الجنة وجلس مكانه أخوه عبد العزيز خان! وعلم بهذا بعد ذلك بخمسة وعشرين يومًا.

وبما أننا لا نصدق مثل هذه الحكاية فضلاً عن أننا لا نريد أن تأخذ هذه الواقعة مكانًا فى عالم الوجود، فاستوضحنا الأمر من بعض الموظفين الذين كانوا فى مهمة تجديد تلك المبانى المقدسة فعرفنا أن الحقيقة كانت على الوجه الآتى: إن الطغراء التى حُكَّتْ مذهبة فوق قطعة الرخام وفى تاريخ إتمامها كانت أبنية حرم

السعادة وإنشاءاتها قد وصلت إلى ختامها إلا أنه ظلت بعض كتاباتها ولما أكملت هذه الكتابات فوق الرخام ونقوشها تركت فى مكان محفوظ بعد أن غطيت حتى توضع فى مكانها، وبعد فترة ما لم يبق فى الحرم الشريف محل فى حاجة إلى التجديد والتعمير ورفع رخام الطغراء من مكانه، فجاء بعض المسافرين من جانب مكة المعظمة وأتوا بخبر وفاة السلطان عبد المجيد خان فى صورة غير رسمية، إلا أن هذا الخبر لم يوثق به ولم يعتمد عليه، ومن هنا أخذ خطباء المسجد يذكرون فى خطبتهم يوم الجمعة اسم السلطان عبد المجيد ويدعون له وقالوا: لو كانت هذه الرواية صحيحة جاءتنا الأخبار من جانب الإمارة الهاشمية فى مكة المكرمة وكنا نؤمر بذكر اسم عبد العزيز خان وتلاوته وهذا لزوم شرعى، وكان لابد أن يأتى الأمر السلطانى يشهد بجلوس السلطان عبد العزيز وكان ما قالوه معقولاً.

وبما أن عمليات مبانى حرم السعادة أصبحت رهن الختام ولم يبق لقائل أن يقول: «فى هذا المكان قصور أو نقص» إذ أصبحت الروايات المتواترة أن من ينظر إلى المبانى العالية يراها مازالت ناقصة ومن هنا كان يلزم تبديل الطغراء باسم السلطان الجديد، ولما كان هذا خلاف الواقع وضع البَنَّاءون رخامة الطغراء التى أعدت من قبل فى مكانها فوق باب السلام وبهذا بين أن عمارة المسجد الأخيرة قد تمت فى عهد السلطان عبد المجيد المليئ بالخيرات وبهذه الجرأة المقدرة ودلالتها بان أنه متصف بالاستقامة والنزاهة وقد عرض هذا الوضع اللائق على السلطان عبد العزيز فى صورة غير لائقة وأدى ذلك لغضب ذلك السلطان، إلا أن المنافقين الذين عرضوا ذلك الأمر على السلطان عن طريق الغمز واللمز قد ارتكبوا عن طريق الرياء المذموم ظلمًا كبيرًا؛ لأن عمارة حرم السعادة قد تمت فى اليوم الأولى من ذى الحجة سنة ١٢٧٧هـ ووضعت طغراء عبد المجيد خان الغراء فوق باب السلام وعلى طاقه، وكان السلطان عبد العزيز قد جلس على عرش السلطنة يوم الثلاثاء السابع عشر من ذى الحجة من السنة المذكورة ويوجد تفاوت قدر ستة عشر يومًا بين الحادثين، لو كان موظف مبانى السعادة امتنع عن وضع

رخامة الطغراء فوق طاق باب السلام مصدقًا رواية مسافرى مكة وكان بدل باسم السلطان عبد العزيز خان بعد الاستئذان كان سينال رضا السلطان بناء على أقوال المنافقين الذين تدخلوا فى الموضوع، وسيحظى بالتفات ونعم السلطان، ولم يكن هناك شبهة أنه سينال الترقية فى المناصب الدنيوية ولكنه بما أنه رفض أن يختار طريق الخداع والكذب للحصول على المراتب الدنيوية لأجل اجتنابه النواهى الإلهية لأنه كان سيتعرض للمسئولية وغضب الله، ولا شك أن عرض الإخلاص والعبودية عن طريق الحيل والخدع والدسائس لم يكن أمرًا مقبولاً ولا مقدرًا لدى السلطان عبد العزيز خان، فلنفرض أن بعض أجزاء من حرم السعادة قد تم تعميره فى عهد السلطان عبد العزيز واكتملت تعميرات المبانى فى زمنه أليس الحكم بأن تعمير المبانى قد تم فى عهد السلطان عبد العزيز خان دون النظر إلى ما بذله السلطان عبد المجيد من الجهود والهمم فى خلال اثنى عشر عامًا منافيًا لقاعدة العدل والإنصاف ومغايرًا لرضى عبد العزيز خان الذى يتصف بحبه للحق والإنصاف.

٢ـ الحكاية الثانية:

قبل أن يرى خبر وفاة السلطان عبد المجيد خان بشهر، قد رأى أحد سكان المدينة المنورة ممَّنْ يظن بهم الصلاح والزهد رأى فى رؤياه أنه كان فى داخل الروضة المطهرة وإذا بذات عالى القدر ذات احتشام ملكى يدخل من باب السلام بكل وقار ووقف أمام باب الوفود وبعد فترة فتح باب الوفود وأدخل ذلك الشخص ذا السمات الروحانية داخل حجرة السعادة، هذا ما شاهده ورآه، وقد انتظر صاحب الرؤيا فى الروضة المطهرة إلا أنه رأى أن الشخص عالى القدر الذى أخذ داخل الحجرة النبوية لم يخرج خارجها، واستيقظ حينئذ من نومه وبعد فترة تلقى نبأ وفاة السلطان عبد المجيد خان واطلع بعد الحساب أن ارتحال السلطان المذكور يوافق الليلة التى رأى فيها الرؤيا، وعبَّرَ رؤياه بأن ما قدم ذلك السلطان من خدمات عظيمة لحرم السعادة قد حظى بالقبول عندالرسول ﷺ، وفعلاً فإن هذا التعبير صحيح وهو عين الواقع.

وبناء على ما يروى من هذا الشخص المبارك الذى رأى الرؤيا أن الشخص الذى قبل فى داخل الحجرة كان لابسًا ملابس بيضاء من رأسه إلى أخمص قدميه وكان خلفه رجل يحمل سيفًا، والمظنون أن هذا الشخص هو السلطان عبد العزيز خان، قد عاد بعد دخول السلطان عبد المجيد خان فى حجرة السعادة بكل وقار وسكينة وبعد مرور خمس أو عشر دقائق دخل فى حرم السعادة عدة أنفار من الجنود ذات عمائم خضراء وأحذية سوداء.

وقد أخبر صاحب الرؤيا أن أشكال هؤلاء الأنفار كانت تشبه للجنود الذين كانوا يرافقون الحاج وسيم باشا الذى أتى بأمر تولى عبد العزيز خان الحكم خلفا للسلطان عبد المجيد، وذلك عندما جاء ذلك الباشا إلى المدينة المنورة.

ولا شك أن الذين يعرفون عظمة ما يكنه السلطان عبد المجيد من المحبة والعبودية لسلطان الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيصدقون صورة تعبير هذه الرؤيا.

وبناء على ما سطر فى تواريخ الحرمين القديمة وما يجرى على ألسنة سكان دار الهجرة ليس هناك ملك جلس على كرسى العرش مثل السلطان عبد المجيد الذى أنفق من النقود وبذل من الجهود لتجديد مسجد السعادة وتعميره وتزيينه، وبما أن المشار إليه قد جعل جميع أفكاره وشعاراته الملكية لخدمة سلطان الأنبياء فى كل آن وساعة وعرض عبوديته الصحيحة المخلصة يرون ظهور بعض الكرامات على يدى ذاته الملكية.

قد تعرض مصطفى عشقى بن عمر أفندى من أفاضل مجاورى المدينة المنورة لعلة القلب وتعرض من جراء ذلك إلى مضايقات وصعوبات فى إدارة وإعاشة أولاده؛ وعليه قرر فى فترة ما ترك المدينة المنورة والسياحة فى بعض البلاد، واستأذن من الحجرة المعطرة، وبناء على الأمر الذى صدر جاء إلى إستانبول دار الأمان فى سنة ١٢٩٧هـ وقد سطر فى آخر الكتاب الحالات التى أجبرته على

اختيار هذه السياحة والإرادة العالية التى صدرت من قبل النبى ﷺ بعد الاستخارة بالتفصيل.

ولما كان عشقى أفندى لم ير إستانبول وكان مشتاقًا لرؤية وجه سلطان العصر ومشاهداته ذهب إلى دار المولوية فى بشكطاش حين وروده إلى إستانبول وجلس فى ركن من أركانها، وبما أنّ ذلك اليوم كان يوم المقابلة شرف الخانقاه المذكورة السلطان عبد المجيد، ولما لفت شكل عشقى أفندى الأنظار السلطانية بعث بموظف خاص يسأله عن اسمه ومن أين أتى، وأين يستضاف ولم يعرف عشقى أفندى هوية هذا الموظف كما أنه لم يعرف الشخص الذى أرسله، حتى أنه لم يعرف أن السلطان فى تلك التكية، ولكنه عرف أنه سيكون الاجتماع فى يوم الجمعة فى مسجد بكلربكى اللامع الأنوار، فذهب فى ذلك اليوم هناك حيث وقف فى الممر السلطانى بكل تعظيم، وكان غرضه رؤية جمال وجه السلطان ولما جاء السلطان عبد المجيد فى محاذاة عشقى أفندى توقف وقال لرئيس كتابه مصطفى باشا: «يا باشا سلم من قبلى لهذا الشخص، وبما أنه شرف إستانبول حديثًا فلينعم قدر ما شاء وليتنزه وليشاهد جميع أماكن باب السعادة، ولا يفكر فى أولاده وعياله».

إننى أفكر فى أولاده وعياله نائبًا عنه، قد خصصت له راتبًا ثلاثمائة قرش، فليعش مستريح البال مادام حيًا وليدعو لدولتنا بقوتها وبقائها!!!».

هل هناك كرامة أكبرمن هذا لأجل سلطان؟ ومن هنا يقال إن السلطان عبد المجيد قد حظى بحسن القبول لدى الجانب النبوى العالى كما أنه قد كلف تنفيذ الأوامر النبوية، لأن عشقى أفندى كان قد أرسل من جانب النبى عظيم المناقب لطفًا به.

انتهى.

فى تعريف كيفية تعمير حرم السعادة وتجديده فى المرة السابعة

قد قام بتعمير الحرم الشريف، ممسح جباه الموحدين والذى يقوم بخدمته الملائكة خدم سيد المرسلين، قد قام بتعميره وتجديده للمرة السابعة السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان العدلى.

وجه إلى شيخ المهندسين محمد رائف باشا من الثلاثة ذوى المكانة عند الوكلاء من محافظة طرابلس الغرب سابقًا ومن كرام الأمراء وأحيل إليه وظيفة أمانة المبانى وأرسل إلى المدينة المنورة.

وخرج محمد رائف باشا من باب السعادة فى ربيع الأول سنة ١٢٦٧هـ ووصل فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان فى نفس السنة إلى المدينة المنورة وشغل بإتمام ما لم يتم عمله من الجبل طريق الأمر الذى سواه سلفه حليم أفندى الصغير، واقتلع الخيم التى تؤوى العمال والآلات التى فى الجبل الأحمر وبنى مكانها دورًا حتى يحمى العمال والأدوات من عربان البادية والحيوانات المتوحشة وعلى بعد عشرة أذرع من هذه الدور حفر بئر يبلغ عمقها خمسين ذراعًا.

الحوادث المحلية

عندما أتم محمد رائف باشا حفر البئر وأخذ العمال يستفيدون منها، عصى عربان البادية وتسلطوا على قوافل الحجاج وأبناء السبيل، وحاصروا المدينة المنورة وقطعوا الطرق والموارد عنها حتى يضيقوا على العمال والمسافرين وجيران سيد المرسلين، ومنعوا جلب الحجارة من الجبل الأحمر إلى المدينة كما منعوا جلب المياه إلى العمال من البئر سالفة الذكر وهجموا على العمال ونهبوا الحيوانات الأميرية وعملوا على قتل من يصادفهم من الناس وتسلح عمال الجبل الأحمر

وأنشئوا متاريس وأبراج لحماية أنفسهم، مع أن العربان حاصروا الجهات الأربعة للجبل الأحمر و أخذوا يسببون الخسائر للمحاصرين وكانوا يهربون كلما أرسل ضدهم الجنود والعساكر وقد تصدعت المواضع التى رممت من قبل من مسجد السعادة، كما أشرفت بعض مواضعه على الانقراض، وساءت حالة المسجد إلى أقصى درجة من درجات السوء فى خلال سنة ١٢٦٠هـ، ولما كانت السقوف والقباب قد تصدعت فى عدد من المواضع وخيف من سقوطها فجأة، أسف موظفو الحكومة لذلك أشد الأسف وحاروا فيما يفعلون، ثم اجتمعوا للتشاور وتدبير الأمر، فقر قرارهم على رفع الأمر إلى الباب العالى.

وقد وصلت حالة الأبنية فى عهد داود باشا شيخ الحرم رحمه الله، إلى درجة من السوء بحيث كان الأهالى الكرام يتحاشون الاقتراب من بعض مواضعها، وكانوا يدعون الله كى يلهم السلطان بما ينبغى عمله نحو حرم السعادة، وفى نهاية المطاف اتفق أعيان المدينة وسادتها على رفع الأمر إلى داود باشا الذى كان فى شدة الألم من إشراف مبانى الحرم النبوى الشريف على الانقضاض وكونها فى أشد الحاجة إلى التعمير والترميم، فما كان من داود باشا إلا أن أحضر الدواة والقرطاس وكتب إلى مقام الصدارة العظمى رسالة بين فيها إشراف مبانى الحرم النبوى الشريف على الانهيار ما لم ينظر إلى حل هذه المشكلة الآن وأرسل هذه الرسالة إلى باب السعادة فى سنة ١٢٦٣هـ.

ولما وصلت رسالة داود باشا هذه إلى باب السعادة وعلم فحواها أولو الأمر أدركوا الحالة التى وصلت إليها أبنية حرم السعادة، وحصلوا على معلومات كافية بخصوص هذا الأمر، وقد شكلت لجان فى دار الإفتاء السلطانى لمذاكرة الأمر فى عمق، وفى ظل المسائل الشرعية، ثم قرروا كإجراء أولى إرسال مهندس مجرب ليقوم بالكشف على تلك الأماكن ثم يتداولون الأفكار وفقًا لما يرسمه ذلك المهندس من خريطة لتلك الأماكن، وبناء على الأمر السلطانى الذى صدر بعد

الاستئذان أرسل فى رفقة رمزى أفندى من رجال الدولة أمير الاى عثمان بك الأمرد من ضباط دائرة المدفعية السلطانية العامرة وبعد أن شرح له الموضوع وبينت الكيفية أرسل إلى المدينة المنورة.

ووصل رمزى أفندى مع عثمان بك إلى دار الهجرة واطلعا بناء على القرار العالى على أحوال المسجد النبوى الشريف وعادا إلى الأستانة وعرضا الخريطة التى خطوها وشرحا رأيهما ووجهة نظريهما ثم اجتمع الوزراء فى دار الإفتاء السلطانية والمجلس الخاص ودققوا النظر فى الخريطة المذكورة وعاينوها، وقرروا تجديد المسجد بتعميره وبناء على صدور الأمر السلطانى بذلك أرسل حليم أفندى الصغير مدير الأبنية الخاصة من رجال الدولة العلية بوظيفة الإشراف على المبانى المفتخرة إلى مدينة الرسول فى سنة ١٢٦٦هـ.

وأرسل المهندسون وعمال البناء المهرة والعمال والأشياء المتنوعة عن طريق باب السعادة[١] ومن مصر القاهرة بالتتابع، كما أرسل ما أمكن تدبيره من النقود تدريجيا، وأبلغ شيخ الحرم النبوى وقاضى المدينة المنورة بإشعارات مختلفة على أن يبدأ العمل بعد أن شكل مجلس خاص من مشاهير السادات والعلماء من المدينة المنورة يتولى توصية العمال الذين سيرسلون بحسن أداء أعمالهم وأن يحافظوا على الأدوات المرسلة من التلف وأن يعملوا فى الإنشاءات وفق الشريعة الأحمدية وأن يعملوا بكل تعظيم وحرمة لصاحب المقام وألا تصدر منهم ألفاظ مخلة بالآداب وألا يرفعوا أصواتهم وألا يقوموا بحركات غير لائقة وأن يعنوا أعظم عناية بأداء صلواتهم فى جماعات كما فى السابق، وقد أمر السلطان ذو الخصال البايزيدية أن تكون المبالغ التى ستنفق فى تجديد حرم السعادة من الحلال

(١) كان حسين أفندى معاون الأبنية من أصحاب الرتبة الثانية قد عين مشرفًا على تحسين الرواتب التى ستربط لمعيشة أولاد وعيال العمال المسافرين ولإرسال العمال والأدوات اللازمة التى ستدبر من باب السعادة فى الوقت المحدد إلى المدينة.

وقد فضل حسن شوقى أفندى عمله الخاص بحرم السعادة على أشغاله الأخرى وقام به أحسن قيام وقد نال إخلاصه فى عمله هذا تقدير الجهات العالية ولما أريد مكافأته على إخلاصه دنيويًا قد كوفئ فى ختام عمله بأن أحسن إليه بقطعة من وسام مجيدى قيم سنة ١٢٧٩.

الطيب مهما كان مقدارها ولما كان إنقاذ واردات الخزانة المالية السلطانية من الواردات المخلوطة من شبهة لضيق الوقت، فكلما احتيج إلى إرسال النقود إلى المدينة المنورة لتعمير الحرم النبوى كان يبادل ما تهيأ فى الخزانة السلطانية من أموال مع من يثق بهم من الذوات عن طريق الاقتراض أى كان يرسل هذه المبالغ موافقة لأحكام الشريعة الغراء.

وقد سطر فى التواريخ القديمة أنه كلما احتاج الحرمان الشريفان ومبانيهما للتجديد والتعمير أن الأموال التى ستنفق لذلك كانت تصرف من أموال الجوالة التى يصدق العلماء أن أموالها حلال.

وكان السلطان عبد المجيد خان يرسل الأموال اللازمة للإنفاق على الأبنية المذكورة على الوجه المشروح السابق رحمه الله رحمة واسعة.

أرسل حليم أفندى الصغير الذى أسندت إليه عهدة البناء عندما وصل إلى ينبع رئيس البناء الحجرى نواحى دار الهجرة لعلهم يجدون محجرًا، كما أنه توجه نحو المدينة المنورة ووصل إليها فى أوائل رجب الفرد وتفقد لوازم البناء التى وصلت قبله وبعد أن جمع ورتب مجلس العلماء الذى أمر بتشكيله بالإرادة السنية، فأراد أن يشرع فى عمله باتفاق الآراء، ولكن بما أنه كان فى حاجة إلى تهيئة الأحجار التى تستخدم فى البناء وتسهيل الحصول عليها اضطر أنْ ينتظر وصول رئيس البنائين إبراهيم أغا، إلا أن إبراهيم أغا عاد يائسًا من أنه لم يصادف معدنًا من هذا القبيل، وطلب منه أن يبعثه إلى مكان آخر مع الحجارين حتى يتحرى عن الحجارة، وتشكل عندئذ مجلس ليبحث هذا الأمر فرأى المجلس أن يرافق المجلس لإبراهيم أغا عدة حجارين من أهل المدينة وشرح له الجبال التى يحتمل وجود الحجارة فيها، وتحرى إبراهيم أغا هذه المرة جميع الجبال التى حول المدينة المنورة ثم وجد فى جهة بيارعلى من وادى العقيق على بعد ساعتين من المدينة المنورة فى جهة مكة المكرمة، محجرًا غنيًا بالحجارة وكانت هذه الحجارة

المستخرجة غاية فى اللطف وكان لونها قريبًا من اللون الوردى، فسُرَّ أفراد الهيئة و أهالى المدينة من هذا الأمر وقالوا: «إن ظهور هذا المعدن من جملة ما وفق فيه السلطان».

وهذا عين الصواب، ولا يخفى على الذين يقفون على الوقائع التاريخية لمدينة الرسول ﷺ أن الملوك الذين بذلوا المساعى والجهود لتعمير مآثر البلدة النبوية لم يوفقوا فى كشف معدن مثل ذلك واضطروا لجلب تلك الحجارة اللازمة للتعمير من مصر والجهات الأخرى البعيدة، وقد ظهر هذا المعدن اللطيف فى وادى العقيق الذى عظم قدره بحديث مخصوص.

العقيق

كما عرف فى مكانه واد مبارك، كان اسمه القديم السليل، ولما قال تبع الحميرى هذا عقيق الأرض فعرف باسم العقيق، ومن المحتمل تسميته بهذا الاسم لاحمرار رماله.

غريبة

بينما كان إبراهيم أغا يتحرى عن الحجارة فى الجبال مع أصحاب الوقوف من أهل المدينة، ظهر شخص على شكل أعرابى وقال له: «يا إبراهيم أغا إننى أعرف فى هذه الأماكن معدنًا، تعالى أريك إياه. قد ينفعك فقادهم وهو سائر أمامهم إلى الجبل الأحمر حتى وجد ذلك المعدن فى هذا المكان وأراه لهم، وسر إبراهيم أغا من مروءة هذا الأعرابى وأراد أن يكافئه بعطية، إلا أن الأعرابى قد اختفى عن الأنظار فى الحال.

إن هذه الإشارة علامة شاملة البشارة على أن خدمات والد السلطان كثير المحامد قد حظيت بحسن القبول عند رسول الله ﷺ.

ونصب حليم أفندى على الجبل المذكور الخيم وبعث الآلات والأدوات اللازمة: النجارين، والحجارين وفتح منجمًا فى قمة الجبل، ورفع الصخور التى عليه فاستخرج قطع حجارة كبيرة وأمر بنحتها لتكون صالحة للاستعمال.

لأن الحجارة التى استخرجت كانت غير قابلة للنقل من جهة إلى أخرى فضلاً عن نقلها وحملها على الجمال، وفى الآخر سوى الطرق التى بين الجبل المذكور والمدينة المنورة، وهيأ مكانًا واسعًا خاصًا بالحجارين، وبعد مدة عين محمد رشيد أفندى محافظ المدينة وكيلاً له ثم عين شريف أفندى من أقاربه لرياسة معتمر العمال، ولما ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج انقطعت أنفاسه الأخيرة فى منى وارتحل عن دنيانا، ورحل حليم أفندى الذى أتى من باب السعادة كما أن أشرف أفندى هو الآخر قد ارتحل عن دنيانًا فى منى أيضا بعد وفاة حليم أفندى.

وكان هذا الشخص قد أرسل من قبل حليم أفندى إلى باب السعادة بعض ذهب مجيدى من فئة مائة، وإثر وفاته قد اخذت هذه المبالغ الذهبية بمعرفة الحكومة وأرسلت إلى شورى هيئة البناء المقدس. وإن كان حليم أفندى قضى ما يقرب من ستة أشهر فى مهمة البناء المقدس وبذل جهده لأداء عمله على أحسن وجه إلا أنه فى أثناء هذه المدة وجد المعدن المذكور وسهل الصعوبات التى ظهرت فى نقل تلك الحجارة من الجبل الأحمر ومهده وبنى محلاً خاصًا لتقطيع الحجارة ونحتها فى موقع يطلق عليه دار الضيافة وجهز الآلات والأدوات اللازمة فقط ومن هنا لم تتقدم عمليات مسجد السعادة.

وعقب وفاة حليم أفندى أرسل رجل يصدق لدى الباب العالى درايته وأهليته، لكشف أبنية مسجد المدينة المسعودة ومعاينتها إلى دار السكينة، وقرر فى مجلس الوزراء الخاص تفويض هذا الأمر الجليل إلى محمد أسعد[1] مؤلف «دريكتا» من أجلاء العلماء المتبحرين الذى قرر أن يذهب فى تلك السنة إلى

(١) محمد أسعد أفندى المشار إليه يعرف باسم إمام زاده وكان فى ذلك الوقت من أعضاء المجلس الأعلى.

أراضى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستأذن السلطان فى هذا الأمر وصدرت الإرادة السنية بذلك وأخبر بذلك أسعد أفندى وكان فى هذا الكشف الثانى والى الحجاز آكاه باشا أيضا ولما فسر قرار مجلس الوزراء بخصوص كيفية كشف ذلك المقام السامى بطريقة مع داود باشا شيخ الحرم النبوى، وبين له المهمة التى كلف بها ثم استفسر منه فى أثناء حديثه عن الذين يقتضى وجودهم معه فى أثناء كشف الأماكن المقدسة، وسر داود باشا من اختيار محمد أسعد لهذه المهمة وبين له أصحاب المعلم فى هذا الموضوع ذكر أسماؤهم وأسرع بتشكيل هيئة كشف من سادات البلد وموظفى الحكومة ومن العالمين بكشف المكان وأصحاب الوقوف فيه.

وقد كشفت تلك الهيئة وعاينت داخل حرم السعادة وخارجه وعثرت على الجدران المتشققة والقباب التى بليت والسقوف التى مالت للسقوط والانهيار وبعد أن رأى تلك الأماكن قال شيخ الحرم، السيد المحترم، قد عرفتم أن تعمير الحرم الشريف قد وصل إلى درجة الاستحالة، فإذا ما أصلح بعض أماكنه بإنفاقه نقود طائلة، فمن البديهى أن المواقع الأخرى ستحتاج إلى الإحكام والإصلاح وهذا بديهى، وإذا التزم جانب إصلاحه وتعمير بعض أماكنه فعلى هذا التقدير سيكون قد فتح باب لصرف نفقات باهظة بإصلاحه كل عام.

إلا أن محمد أفندى أسعد قال: «إن المبالغ التى ستنفق لتعمير أبنية الحرم النبوى تقتضى أن تكون من الحلال الطيب المطلق»، وألمح أنه ليس مع الذين يريدون أن يعمروا الحرم النبوى كاملاً وبين أنه يمكن إحكام الحرم النبوى بتعمير بعض جهاته، وأسكت الذين يقولون بأن تعمير بعض جهات الحرم النبوى مضر للخزانة السلطانية.

وقد تأثر شيخ الحرم داود باشا[1] من رأى محمد أسعد أفندى أعظم تأثر كما

(١) منذ أن دخل الحجاز فى حوزة السلاطين العثمانيين إلى يومنا هذا لم ير الناس شيخًا للحرم فى نبل داود باشا.

أن الأهالى عامة تغيروا منه ولم يلتزموا جهة إقناعه بإتيان أدلة مقنعة ولكنهم بالاتفاق توجهوا ناحية سلطان الأنبياء ـ على نبينا وعليهم التحايا ـ وعطفوا النظر إلى الحجرة المعطرة وحصروا أنظارهم قبل حضرة النبى ﷺ لعله تصدر منه إشارة معنوية، وسكتوا عن الأمر.

ولما رأى محمد أفندى أسعد تأثر داود باشا وأعاظم أهل المدينة وساداتها وعلمائها واغبرارهم، ندم على أنه اتخذ رأيًا يؤدى إلى إنقاص الخاطر، إلا أنه على حق لأنه ما كان يستطيع أن يتصرف خلاف التعليمات التى صدرت له من الباب العالى.

سقوط قبة ـ كان ذلك عقب أداء صلاة الصبح بعد أن شكل محمد أسعد أفندى الهيئة الكشفية لكشف ومعاينة مسجد السعادة، وعقب القرار أخذت تسقط قطع طلاء قبة من القباب التى فى مقدمة الجهة القبلية من حرم السعادة، وكأنها تخطر بلسان حالها لزوم تجديد أبنية المسجد، الشريف المقدسة، إن هذه الحالة قد أقنعت إمام زاده بلزوم تجديد المسجد، قد أدت الأنقاض التى سقطت من القبة إلى مقتل الشيخ محمد إسكندر الذى كان يقف أمام نافذة المواجهة النبوية وفى النقطة التى يقف فيها من يزورون عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ولو وجدت الهيئة الكشفية فى النواحى التى وقعت الأنقاض فيها فى هذه الساعة، لحدثت مصائب أكثر من ذلك، قد توفى محمد أفندى متأثرًا بإصابته بالجرح فى رأسه وتوفى قبل أن ينقل إلى الحى الذى يسكن فيه، وكان من الإسكندرية ومن أجلاء طلاب الشيخ الصاوى وكان رجلاً فطنًا وغاية فى الإخلاص، رحمه الله رحمة واسعة وانهار عقب هذه الواقعة جهة سقف من سقوف مسجد السعادة فى الجهة الشرقية وبما أنه لم يكن تحته إنسان لم يتسبب فى أية خسائر فى الأرواح.

ولما ظهرت تلك المعجزة المذكورة استيقظ إمام زاده من نوم غفلته الثقيل وفهم رأيه السقيم وأذعن لخطئه وأخذ يستغفر نادمًا وصدق قرار مجلس المدينة سالف الذكر ونقل مكانه مدير الخزانة النبوية عبد اللطيف أفندى وعين بدرى أفندى من

الكتبة لكتابة مصاريف الأبنية السعيدة، وأمر بفتح المضيفة التى فى الجهة الشامية من المسجد وجعلها سكنًا للكتاب والعمال كما عين إسطبلات عديدة للحيوانات التى تستخدم فى عمليات البناء وعاد بعد ذلك إلى باب السعادة وكتب تقريراً عن مشاهداته الذاتية ومطالعاته من أولها إلى آخرها.

وبناء على المضبطة التى فهمت من قبل الباب العالى وبناء على التقرير الذى قدمه محمد أسعد صدرت الإرادة من الخلافة المعظمة بسرعة إجراء ما يقتضيه الحال.

ولما عاود العمال العمل مرة أخرى فى إعمار حرم السعادة كان العربان يتعدون على العمال، وقد دامت هذه الاضطرابات فترة طويلة وفى النهاية أرسل من باب السعادة الفريق الحاج خالد باشا فشتت شملهم وذلك فى سنة ١٢٧٤هـ.

وكان محمد رائف باشا فى أثناء عصيان العربان يسعى لأداء مهمته ويهتم بالمحافظة على الجهات التى فى الجبل الأحمر وطريقه ومع ذلك يتأسف ويحزن كلما رأى حال مؤخر حرم السعادة المؤسف ويضطرب، لأن فى الوقت الذى بين وفاة حليم أفندى وتاريخ وصوله إلى المدينة توقفت عمليات بناء الأبنية المقدسة فساءت حالة بعض جهات مؤخر حرم السعادة وأوشكت على الانهيار فجأة وبناء عليه قد قويت الأعمدة التى اعوجت بدعامات وبهذا قد أنقذت لوقت قليل من المخاطر الآتية، بعد ما أحكم محمد رائف باشا تلك الدعائم كشف وعاين بكل دقة وعناية حرم السعادة وفهم أنه إذا لم تقتلع الأعمدة المعوجة وتركز أعمدة جديدة رصينة فى أماكنها لن يسلم سقف مؤخر المسجد النبوى من الخطر، ولن تنقذ الساحة الرملية من الضيق والازدحام إلى أن يفتح باب فى الجدار الشامى وذلك بنقل قبة الشمع الكائنة في الساحة الرملية إلى خارج الجدار الشامى، ونظم فى هذا الخصوص خريطة كاملة وعرضها على من يهمه الأمر وقال: «إنه يجب أن يطلق على هذا الباب، الباب المجيدى وتنشأ على جهتى هذا الباب مدارس فوقه وتحت وأن نطلق عليها، مكاتب مجيدى، وأرسل نسخة من هذه

الخريطة إلى الباب العالى ليعرض على الأنظار السلطانية وإذا ما استلم هذه الخريطة فإنه سيحدد مؤخر حرم السعادة وفقًا لهذه الخريطة.

ولما كان نقل قبة الشمع خارج الجدار الشامى وإنشاء مدارس خاصة من أجل الصبيان خدمة عظيمة تسدى لرعية المسجد النبوى الشريف.

من هنا كان تدبير محمد رائف باشا الواقعى من جميع الوجوه يستحق التقدير بل الحمد والثناء لأن أطفال سكان المدينة المنورة كانوا يتلقون تعليمهم الابتدائى قبل قباب مؤخرة حرم السعادة فى حالة متفرقة وكانوا يقومون حسب الصباوة بحركات غير لائقة، ولما كانت هذه الحالة تخالف الحديث الشريف الذى رواه ابن ماجة عن واثلة بن الأسقع والذى يقول ما معناه: «أبعدوا عن مساجدكم أطفالكم ومجاذيبكم وامنعوا البيع والشراء والخصومات وإقامة الحدود ورفع الأصوات وسل سيوفكم واجتنبوا مثل هذه الحالات وداوموا فى تبخير مساجدكم أيام الجمع»[1].

ولما كانت فى تلك الأوقات فى الحرم الشريف نظيفة، كما أنه لم تنعم جماعات الموحدين فى الحرم الشريف بالسكون من وقاحة من يسمون بالمجاذيب من الحمقى غير المتدينين، كما أنه لم يبق مجال للتأمل والتفكير أمام المواجهة النبوية من ثرثرة المزورين والأغوات، ووجود قبة الشمع فى الساحة الرملية وإدخال الجمال التى تحمل زيت الوقود من باب الرحمة إلى حوض تلك القبة قد أخلت نهائيًا بالتعظيم والرعاية اللازمين للحرم الشريف.

وقد حظيت الخريطة المرسلة إلى باب السعادة بالتقدير وأمر أن يجدد مؤخر الحرم الشريف كما جاء فى الخريطة المذكورة وأن يحول اسم الباب المجيدى إلى أسم باب التوسل وأن يؤخذ آراء ورضا أهل المدينة بخصوص الأماكن التى

(١) ونص الحديث: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وخصوماتكم، وأصواتكم وسل سيوفكم وإقامة حدودكم، وجمروها فى سبع واتخذوا على أبواب مساجدكم المطاهر» وحديث واثلة رواه ابن ماجة ورواه الطبرانى عن أبى الدرداء وأمامة وواثلة، وينحوه عن معاذ بن جبل وانظر: مجمع الزوائد للهيثمى ٢ / ٢٥ ـ ٢٦.

يقتضى الأمر تجديدها، بهذا صدر الأمر السلطانى وأبلغت الكيفية إلى محمد رائف باشا بالرسالة وبناء على التحريرات السامية التى وردت عرض الباشا تلك التحريرات إلى من يقتضى الأمر عرضها عليهم وبين أنه سيعمل وفق هذه الأوامر السلطانية وإن كان بعض الأهالى اعترضوا على تغيير الأساطين وقالوا: «لا لزوم لتغيير الأساطين، وإذا ما غيرنا الأعمدة التى ظلت لمدة مديدة فى مؤخرة حرم السعادة وجاورت الحجر المعطرة نكون قد ارتكبنا نوعًا من عدم الرعاية؛ ولأجل ذلك يقتضى الأمر إبقاء هذه الأعمدة فى أماكنها وتقويتها بدعائم كما أن القباب التى تحملها تجدد بهذا الشكل». وبهذا التزموا القول الذى يقول بإبقاء جميع الأعمدة التى فى مؤخرة حرم السعادة وأن تعمر وتجدد دون أن يحدث أى تغير فى جميع جهات الحرم النبوى الشريف.

فأجابهم محمد رائف باشا قائلا: «إن هذه الأعمدة كثيفة جدًا أولاً وضيقة وبالية، فإذا ما اقتلعنا هذه الأعمدة وحولنا وبدلنا أماكنها نكون قد وسعنا أماكن الصلاة، كما ننقذ القباب التى ستصنع من المخاطر المستقبلية، وكافة الأعمدة القديمة قد ركزت فوق حجارة عادية وبما أن تلك الأحجار قد وضعت فوق الأرض وقد تكسرت بثقل القباب وتضييقها وظلت الأسياخ الحديدية التى فى أطرافها فى الأرض».

وإذا ما لم تغير هذه الأعمدة فالقباب التى تقرر تجديدها مهما كانت خفيفة تحطم الأعمدة القديمة التى يراد إبقاؤها كما أنها تقتل من تحتها منهارة بعد مرور وقت قليل، وإذا لم نهتم بالمخاطر المعروضة وبنينا القباب، نكون قد بذرنا الأموال بعملنا وهذا عمل يخالف الشريعة الغراء وهو عمل غير معقول لا تقبله ضمائر الموحدين، وإذا ما اسْتَرْخَصْنَا بصنع القباب التى صدر الأمر السلطانى بتبديلها بالبناء فالقباب الخشبية التى سنصنعها لا تتحملها هذه الأعمدة القديمة، وإذا ما سمحتم فلنقتلع أولا واحدا من هذه الأعمدة ونعاينها».

فإن لم يتحقق ما قلته نبقيها على هيئاتها الأصلية، وإذا كانت الأخرى نلجأ لرأى عموم الناس وفكرهم و نتحرك وفق رأى الأهالى وقرارهم وبهذا الجواب المفخم أقنع معترضيه من الوجهاء والأعيان من سكان البلد فقبلوا أن يقتلع أحد الأعمدة لمعاينتها ظانين أنه سيكون فى حالة سليمة متينة نظرًا لهيئتها الخارجية وجعل من أحضرهم من نجارى المدينة يعاينون ذلك العمود، وإذا بالعمود كان قد ركز فى أيام قايتباى فوق حجر أسود بال وضع فوقه التراب دون قاعدة والأحجار المذكورة قد تحطمت تحت ثقل القباب وصدمات الزمان المتقلب وتسببت فى اعوجاج الأعمدة والأسياخ الحديدية التى فى أطرافها فدست فى الأرض وتسببت فى انحراف الأعمدة عن مراكزها.

كانت الأسطوانة التى اقتلعت وعرضت على فريق العمل والأهالى كانت مكونة من عدة أعمدة مجوفة وسبب ذلك إبقاء الأعمدة على هيئتها الأصلية كلما عمر حرم السعادة وكل عمود قد صبغ مرة واحدة وهذه الصبغة قد تحجرت بمرور الأيام وظلت على شكل أسطوانة مجوفة. وابتدر قسم من سكان المدينة إذ رأوا الاسطوانة المقلوعة كما وصفها الباشا فوافقوا على تغيير الأساطين رأسًا وقال قسم آخر وقد اطلع على الأمر أن الأساطين القديمة ستنتزع والقباب ستعلق فوق الأعمدة وستقلل الأعمدة وستبدل إلى أسطوانتين أو ثلاث قطع من الأعمدة الرخامية المجلاة هذا الإنسان لا يسمع الكلام، ولا يريد أن يراعى هيئات الأبنية العالية المقدسة، ويريد أن يغير ويبدل الأعمدة التى لم يمس طرازها ورسمها، كاملة ويغير أماكنها ويقلل عدد الأساطين.

وأمعنوا، أفكارهم بنشر هذه الأقوال المضرة وعملوا على تشويش أفكار العامة، لكن رائف باشا لم يعر سمعًا لهذه الاعتراضات فانتزع جميع الأعمدة التى فى مؤخرة الحرم الشريف بعد أن أسند القباب التى فيه وفق ما جاء فى الخريطة ووضع أسس وقواعد الأعمدة الجديدة التى سيركزها فى نسبة واحدة وبعد أن ملأ البئر التى حفرها بين الباب الشامى وباب الضيافة وخارج سور المدينة المنورة بالتراب والأنقاض التى نتجت عن تلك العمليات، وهدم

الجدار الشامى للحرم الشريف وأخذ يجدده وأسس على طرفى باب التوسل الذى فتحه وسط الجدار المذكور أربع مدارس مجيدية كما أسس أربعة مخازن لوضع زيت الوقود والأشياء الأخرى على الجدار الشامى وبهذا وسع الساحة الرملية قدرًا ما.

وهناك فى داخل المدينة المنورة وفى المواقع التى سيأتى ذكرها إحدى عشرة مدرسة أخرى ما عدا المدارس المجيدية التى سبق ذكرها وتلك المدارس من جملة ما بناه محمد رائف باشا.

١ ـ فى داخل الرباط الذى فى جهة الطاحونة من مسجد بهرام أغا من أغوات باب السعادة فى العنبرية.

٢ ـ هذه المدرسة فى السبيل الكائن فوق جسر سيل أبى جيد.

٣ ـ فى التكية المرادية التى خربت.

٤ ـ وهذه المدرسة بالقرب من المخبز الأميرى وهى مدرسة سليم أفندى وهو من قرناء السلطان عبد المجيد الرئيسية.

٥ ـ مدرسة الحوش التاجوري.

٦ ـ مدرسة بيت الخليفة أمام المناخة.

٧ ـ مدرسة زاوية العشاقي.

٨ ـ مدرسة زقاق النخاول.

٩ ـ مدرسة السلطان محمود خان الأول فى داخل دار توقيت باب السلام.

١٠ ـ مدرسة قبة سيدنا مالك رضى الله عنه.

١١ ـ مدرسة زقاق قفا.

وكل هذه المدارس خاصة بالصبيان الذكور وهناك مدارس كثيرة خاصة بالإناث ولا حاجة لذكرها.

وكان حفر محمد رائف باشا البئر التى خارج السور لوضع ودفن الأتربة والأنقاض المتبقية من التعمير كان برجاء الأهالى واسترحامهم، لأن الحجارة ذات الحجم الكبير التى نقلت من الجبل الأحمر كانت تصطدم ببعض المنازل ويزعج ذلك الأهالي، وبما أن الأهالى رجوا محمد رائف باشا أن يجد حلاً لهذه المشكلة فتح بابًا فى سور المدينة فى الجدار الذى يوازى ويحاذى دار الضيافة وبعد الاستئذان أطلق عليه الباب المجيدي.

والمبانى التى يطلق عليها الأهالى قبة الشمع هى المبانى التى فوق حوض زيت الزيتون الذى يحضر من مواقع معلومة والذى حفر لحفظ الزيت ووضعه فيه، وكانت الجمال التى تحمل الزيت تدخل من مدخل باب الرحمة، كما ذكر آنفًا وتوصل الزيت داخل تلك الأبنية وكان هذا العمل قد دخل فى حكم العادة بين الجمالين.

وقد وفق محمد رائف باشا بخدماته هذه فى عرض مراسم التعظيم والتفخيم للحجرة المعطرة وذلك بإخراج مبانى القبة المذكورة خارج الجدار الشامى وبتسطيحه الساحة الرملية وسع وسط حرم السعادة ووضع نظامًا حسنًا بعدم إدخال الجمال فى داخل الحرم الشريف المشحون بالنور، كما هدم وجدد الجدار الذى بين باب الرحمة والمئذنة المجيدية[1] والقباب والأساطين الكائنة فى الجهة الغربية من هذا الجدار، والجدار الذى بين باب جبريل والمئذنة الرئيسية، ومع هذا قد اعترض عليه لأنه جدد الجدار الذى فى باب جبريل، وكانت تلك الاعتراضات كلها على غير وجه حق، لأن المحل الشريف الذى هدم وجدد فيما بين باب جبريل والمئذنة الرئيسية، كان فى الجهة الشرقية من الأبنية العالية المقدسة وكان فى محاذاة قدم السعادة ذات شرف، كان الفراغ بين الحجرة المعطرة والجدار الذى هدم ضيقًا جدًا وكان يحول دون مرور الزوار وعبورهم وكان هذا الأمر يؤدى بالضرورى إلى ما يخل بآداب الزيارة وأراد

(١) كان يقال لهذه المئذنة قبل التجديد الشكلية.

محمد رائف باشا أن يزيل ما كان يحدث من عدم رعاية آداب الزيارة وأن يحقق للزائرين الطمأنينة.

وأراد أن يوسع ذلك المكان المذكور قدر الإمكان، فنقل جدار جهة باب جبريل إلى الخارج مقدار خمسة أذرع وجدده وقلل عدد الأعمدة وغير أماكنها وركز اسطوانة رصينة قوية موزونة بدل كل ثلاثة أعمدة وشيد أعمدة وقباب تلك الجهة على طراز جديد وفى شكل جميل متناسق فأعجب الناس من رصانتها وتناسقها، إلا أنه لم يهتم بما فى مؤخرة الحرم الشريف من أشياء أخرى متفرعة وتركها فى حالة خراب.

واستقبح من قبل الأهالى هدمه الجدار الذى فى ناحية القدم النبوى السعيد ونقله إلى الخارج مقدار خمسة أذرع دون أن يأخذ رأى أحد أو رضاهم وأدى إلى قيل وقال وإشاعة أقوال فى حقه ومن هنا طلب بعض خواص الناس أن يعتنى بمؤخرة حرم السعادة أيضا وأن يراعى جانبه، وقال المعترضون من عامة الناس: «إننا لم نستطع أن نبين قلة رعاية هذا الرجل وقد أظهر عدم احترامنا حينما دفن أنقاض الحرم الشريف فى البئر التى حفرها خارج السور، فإذا ما سكتنا لفعله هذا لا نكون قد أَحْسَنّا فعلاً ولهذه الحركات التى تدل على عدم الاحترام مسئولية كبيرة وهى فى أعناقنا وقد اقتنع هؤلاء الخاصة بمثل هذه الأقوال وعرضوا الأمر إلى باب صاحب القرار وقد أوردوا أقوالاً عجيبة واشتكوا من محمد رائف باشا ورجوا منه أن يعين مكانه شخصًا آخر ويرسله إلى المدينة المنورة.

ولما كانت أنقاض حرم السعادة وترابه كلما يتجدد أو يعمر تدفن فى مكان على سفوح جبل أحد وكان هذا المكان قد أحيط بسور من جهاته الأربعة، لذا كان الأهالى محقين فى هذا الخصوص، ومازال هذا المكان موجودًا إلى يومنًا هذا وهو من المزارات التى يزورها الناس ويصلون هناك ركعتى

صلاة التحية، ولكن محمد رائف باشا قد دفن الأنقاض والأتربة الناتجة من التعمير والتجديد فى البئر التى حفرها خارج السور مراعاة لمصروفات خزينة الدولة، وكان ذلك سببًا فى قول الأهالي: «إن محمد رائف باشا لا يراعى حرمة الأماكن المقدسة»

وإن كنا نحن أيضا نوافق الأهالى فى خطأ محمد رائف باشا وشكاياتهم فى حفره ذلك البئر المذكور، إلا أن تأخير الجدار التى فى مواجهة قدم السعادة إلى الخلف وما فيه من حسنات غير قابل للإنكار فادعاءات المعترضين فى هذا الخصوص كانت واهية، لأن المكان الذى وُسِعَ كان مكانًا ضيقًا فى دائرة الحرم الفاخر وكان زوار الحجرة المعطرة يعانون أعظم معَاناة عند زيارتها من الازدحام.

ولنعرف حال مسجد السعادة القديم والأماكن التى حددها محمد باشا واحدًا واحدًا بناء على القواعد الهندسية لنبين مدى ضعف ادعاءات المعترضين الذين قاموا ضده، حتى لا يظلم الموصى إليه من قبل القراء.

حال مسجد السعادة
والمواقع التى أنشأها محمد رائف باشا

كانت أكثر أماكن المسجد الشريف تتكون من سقوف واقعة على أعمدة صنعت من حجر أسود والعقود المصنوعة من الخشب، كانت الحجارة التى تشكل هذه الأعمدة قد وضعت بعضها فوق بعض قطعة قطعة وكانت قطع الحديد التى تربط بين الحجرين قد ربطت بالرصاص المذاب، وقد هدم محمد باشا هذه السقوف من جهة الشام إلى المئذنة السنجرية.

وبما أن الجدار الذى بين مئذنة السنجرية والمئذنة الشكلية والخشبية قد هدم مع المئذنة السنجرية فى أواخر عهد السلطان سليمان وحدد؛ فظلت تلك المئذنة باسم السليمانية، ولما كانت الأعمدة التى هدمت فى الجهة الشامية والتى كانت تحمل سقوفها أربعة صفوف وكانت متقاربة من بعضها وكأنها متلاصقة فجعلها محمد رائف باشا صفين وبنى عقودها من الحجارة التى أحضرها من الجبل الأحمر

وبدل القباب القديمة التى كانت مصنوعة من الخشب إلى قباب حجرية، وفتح بابًا كبيرًا فى المكان الذى يلى المئذنة السليمانية وسماه باب التوسل.

يفرض أن يكون باب التوسل فى مكان مقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ كان الوليد بن عبد الملك أدخل ذلك البيت داخل مسجد السعادة، ولما آلت تلك الدار إلى حميد بن عبد الرحمن عن طريق الميراث من جده وكان النبى ﷺ اعتاد أن يُضيِّف ضيوفه فى هذا المكان فسمى ذلك البيت فى عصر السعادة بدار السعادة.

كانت دار حميد بين مئذنتى الشكلية والسنجرية فى نقطة تتصل بخارج الجدار الشامى للمسجد الحرام وكان فى جهتها الشامية مخبز ولبعض الدور والمخازن أبواب تفتح من داخل المسجد، وكانت توضع فيها قناديل حرم السعادة والأشياء التى تتعلق بالقناديل. وكانت ميضأة[1] الأغوات التى يفتح بابها إلى داخل المسجد فى مكان متصل بهذه المخازن، واشترى محمد رائف باشا تلك المنازل والمخبز من أصحابها بإعطائهم خمسمائة وسبع وعشرين قطعة ذهبية، وهدم سواء أكانت هذه الدور أو ميضأة الأغوات وما بجوارها من المخازن ومئذنة الشكلية التى تشققت حتى الأرض والسقوف الغربية التى تتصل بهذه المئذنة وبنى يمين ويسار باب التوسل سالف الذكر مدرستين فوقيتين وجعل أقفاصًا حديدية لنوافذ هاتين المدرستين كانت تفتح إلى مسجد السعادة، وخلف الحجرات التى تصادف للجهة اليسارية من باب التوسل صنع حنفية طويلة أى شادروان ثم أسس على جهة يقال لها الزقاق الشامى من تلك الحنفية ميضأة ذات دورين بدلاً من ميضأة الأغوات كما أسس فى جهة الميضأة التى فى الدور الثانى حمامًا خاصًا يخدم حجرة السعادة، ولحمام ميضأة الأغوات باب يفتح إلى داخل المسجد وعند الضرورة يُخْرَجُ من هذا الباب بسلم كما ينزل إلى الميضأة من فوق الكمر الذى فوق الحنفية، وبعد ما أنهى محمد رائف باشا عمليات ميضأة الأغوات

(١) وكانت والدة الخليفة الناصر لدين الله هى التى أسست هذه الميضأة.

بنى أربعة من المخازن على الطرف الغربى من الميضأة أى فوق سلم المخازن التى سلف ذكرها.

ولهذه المخازن ميدان واسع مكشوف، وتحفظ فيها زيوت زيتون قناديل مسجد السعادة ولوازمه الأخرى، وقد فتح بابًا كبيرًا خارج المسجد لتدخل من المخازن المذكورة المحروقات والباب القديم الذى فتح فى داخل المسجد ترك على حاله فى مكانه لينفتح عندما يصلح قناديل حرم السعادة، وبنى فوق أرض ميضأة الأغوات مخزنًا آخر لوضع الأشياء الخاصة بالمسجد الشريف ولهذا المخزن بجانب باب المئذنة وفى داخل المسجد باب يفتح للزقاق الواقع فى الجهة الغربية من المسجد وهو باب مشبك.

وبعد أن أتم محمد رائف باشا بناء هذا المخزن أزال المخزن الذى فى جهة مئذنة الشكلية لعدم نفعه وحفر مقدار ذراع المرتفع الذى فى الجهة القبلية من مسجد السعادة وسواه وهدم الدكك التى انتشرت هنا وهناك فهدم القبة التى فى وسط الحرم الشريف، بينما هدمت هذه القبة وكانت تسوى أرضها بفرش الرمل ظهر حوض تحت الأرض ينزل إليه بالسلم، ويلزم أن يكون هذا الحوض البركة التى عرفها ابن النجار.

قال ابن النجار وهو يصف هذا الحوض: «كان فى وسط مسجد السعادة وفى الجهة الغربية من النخيل ينزل إليه بسلم من عدة درجات، قد صُنِعَ مِنَ الأحجار والجص والألواح الخشبية وكان ماؤه يتدفق من فسقية فى وسطه، وكان ماؤه من عين الزرقاء، وكان خاصًا بموسم الحج والعثور على الماء فيه فى الأيام العادية غير محتمل».

وذهب إلى أن هذا الحوض أثر من آثار أحد أمراء الشام يسمى شامة ولكن رأيه هذا لا يخلو من خطأ.

إذ قال المؤرخ المصرى: وينسب هذا الحوض إلى الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء، إن الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء حفر فى تاريخ خمسمائة وستين هجرى من عين الزرقاء إلى باب السلام فأجرى إلى الميدان الذى

بجانب الباب المذكور مقدارًا كافيًا من الماء، ومؤخرًا أدخل جزءًا من هذا الماء فى الساحة الرملية لمسجد السعادة، وصنع هنا منهلاً كما صنع فوقه كمرًا وتحته فسقية؛ كان الناس يجدون هنا وضوءهم، ثم حدث ما يهتك حرمة الحرم الشريف بجانب الحوض، بعد أن أزال محمد رائف باشا قبة الشمع من ساحة الحرم الرملية هدم ما بين جدار مسجد السعادة الشرقى مع مئذنته الرئيسية وبنى باب جبريل وسحب جدرانه إلى الخلف قدر خمسة أذرع وربع ذراع إلى الخارج وبنى مكانًا للخَلْوَة فى دورين فى الميدان الصغير الذى استُحْدِثَ نتيجة للهدم بين مئذنته الرئيسية وركن الجدار الجديد، ولم يلمس الأعمدة التى حول حجرة السعادة ودعاماتها ولكنه أراد أن يقوى ما جدده من أعمدة الجدران وعقد القباب الجديدة فركز الأعمدة فى محاذاة الأعمدة المدعمة لحجرة السعادة، وأبقى باب جبريل فى مكانه وزين باب المئذنة الرئيسية بأحجار منحوتة حمراء لترصيعها وصنع لهذا الباب سلمًا ذا أربع درجات وترك مكان الباب العتيق للسادة الخطباء، وبينما كان يحفر أسس الجدران الجديدة ظهر مصرف مياه ولعله كان مكان اجتماع مياه البالوعات، وكان فوق الرصيف وخارج مسجد السعادة؛ وإن كان ذلك المصرف بعيدًا عن الحجرة النبوية إلا أنه نقل إلى مكان أبعد تعظيمًا للمسجد النبوى، ولما وصلت أعمال حرم السعادة لهذه النقطة وقبل أن تركب عقود القباب الشرقية، كانت شكايات المعترضين وصلت إلى الباب العالى حيث دُرِسَتْ وحتى يُقْضَى على النزاعات والخلافات التى حدثت نُقِل محمد رائف باشا وعُيِّن الفريق أبو بكر باشا ناظر معهد الهندسة البرية السلطانية مكانه وأرسل إلى المدينة المنورة.

وتحرك أبو بكر باشا من باب السعادة وفى رفقته الحاج محمود أغا الجناح، وهو من مدرسى معهد الهندسة المذكور[1] وعثمان باشا الذى عين شيخًا للحرم ووصلا إلى المدينة المنورة فى اليوم الحادى عشر من شعبان المعظم سنة ١٢٦٩ الهجرية، وكشف الباشا المذكور وعاين كل ما تم عمله سواء أكان فى عهد حليم

(١) ومازال الحاج محمود أفندى مدرسًا فى المدرسة الحربية السلطانية للرسم ويحمل رتبة قائم مقام.

أفندى الصغير أو محمد رائف باشا، من طريق الجبل ومواقع الحرم المبجل، ثم وضع خريطة أخرى وفق أفكاره وصمم على أن يجدد ويعمر جميع جهات مسجد السعادة حتى تصير رصينة متينة وعزم على الشروع فى العمليات ـ كسلفه ـ من جهة مؤخرة حرم السعادة، ولما رأى أن القباب التى بين المئذنة الرئيسية وباب جبريل أولى بالتعمير من الجهات الأخرى أكمل تلك القباب، وأسرع فى حفر وتعميق أساس المئذنة الشكلية، وبما أن المياه زادت قدر قامة رجل كلما حفر ذلك الأساس وعمق فغرس أوتادًا وبنى قاعدة صلبة وجعل أساس المئذنة فوق هذه القاعدة وبنى المئذنة حتى كرسيها ثم عمر الأماكن التى انهارت من قديم فانتقل إلى الجهة الغربية من مسجد السعادة، وبما أن جدران هذه الجهة كانت رصينة لم يَمَسَّها ووسع فقط ما بين الأعمدة التى تحمل القباب وأحد السقوف، لأن هذا المكان كان يتكون من أربعة سقوف مبنية على أربعة صفوف من الأعمدة.

وألغى أحد الصفوف من الأعمدة وسقفًا واحدًا فنظم هذه الجهات على ثلاثة سقوف فوق ثلاثة صفوف من الأعمدة وألصق صفًا من الأعمدة على الجدار حتى يضع عليها العقود، وهذه الأعمدة مراكزها ملاصقة للجدران، كما سبق ذكره، وعقد عقود القباب فوق هذه الأعمدة ثم انتقل إلى الجهة الشرقية فهدم الجدار الذى بين المئذنة السليمانية وباب النساء، ونصب بعض الأعمدة وأخذ يبنى الجدار الذى هدمه بحجارة سوداء وقبل أن يكمل عمله وكَّلَ عبد اللطيف أفندى من رجال الدولة العالية وأنابه عن نفسه ثم سافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وعاد بعد الحج وبذل جهده لإتمام عمليات الجهة الشرقية من مؤخرة حرم السعادة، ولكنه توفى قبل أن يختم عمليات الجهة ودفن يوم التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٧١ فى القبر الذى هيئ له فى البقيع الشريف، رحمة الله عليه.

كان أبو بكر باشا فى الوقت الذى عزم فيه على الحج كتب تقريرًا إلى شيخ الحرم النبوى عثمان باشا فى أن يعين عبد اللطيف أفندى وكيلاً له وأخذ من الباشا المشار إليه الجواب الآتى:

الأمر:

إننى عجزت عن فهم تقرير الباشا مدير الأبنية العلية ولما كانت للأبنية المسعودة مواد جسيمة وأمور عظيمة ولما كُنْتَ الموظف المسئول عن نقل هذه الأشياء، ولما كان النفع والضر عائدًا لك لمسئوليتكم وحتى لا يحدث ما يؤدى إلى تعطيل سير الأمور وتأخيرها ولبذل الهمم للمقبوضات والنفقات فعملتم على اختيار وكيل لكم وهذا منوط ولائق لرأيكم السامى.

صورة التقرير:

وقد قررت كما تعرفون أن أسافر فى هذه الأيام إلى مكة المكرمة بنية أداء الحج المفروض ولما لزم أن تدار المهمة التى ألقيت على عاتقى وقبلت نظارتها بواسطة وكالة أحد موظفى الأبنية العلية، يا ترى هل من المناسب أن يختار لها أحد المقربين إلى وهو مدير الحرم الشريف صاحب العزة لطيف أفندى الذى سبق أن وجهت له الوكالة، أو ترون شخصًا آخر أنسب لهذه المهمة؟ ومهما كان اختياركم للشخص الذى ستنتخبونه وكيلاً مكانى أرجو أن تبينوا فوق هذه الورقة البيضاء ما ترونه وأن تسطروه والأمر فى هذا الخصوص لمن له الأمر.

حرر فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٧٠.

وقد صادفت وفاة أبو بكر باشا للوقت الذى كان فيه دلاور باشا شيخًا للحرم، وبناء على التكليف الذى حدث من محافظ المدينة ومن هيئة مجلس الشورى إلى دلاور باشا كان قد قبل وكالة أمانة البناء حتى لا تتعثر عمليات البناء، وأمر بأن تهدم الجهات التى فى ناحية باب الرحمة الغربية فبناها مجددًا وتمم الأماكن التى ظلت ناقصة فى الجهة الشرقية بأن جعل سقفها فى وسع سقوف الجهة الشامية والغربية، وبنى أمام الجدار القبلى الرصيف الواسع الذى يطل عليه موضع الجنائز وعلى يسار من يخرجون من باب جبريل، يعنى فى الجهة الشامية من ذلك الرصيف، محلين مشبكين ومسقفين وفرش ما بين المحلين بقطع رخامية.

وكان كثيرون من الفقراء والغرباء يبيتون فى هذا الموقع الشريف فى أيام

الصيف مثل أصحاب الصُفَةِ وعندما يرد الحجاج والزوار كانوا يجتمعون فى هذا المكان ويؤدون الصلاة.

أُبْلِغَ الباب العالى بوفاة أبى بكر باشا وإحالة وكالة أمانة البناء إلى شيخ الحرم دلاور باشا، وأسند أمانة الأبنية العالية إلى أمير الأمراء ناظر المدرسة البحرية سابقًا أدهم باشا بعد أن انتخب لذلك المنصب فى مجلس خاص بالوزراء وصدر الأمر السلطانى بذلك بعد الاستئذان فى أواخر سنة ١٢٧١هـ وأرسل إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٧١هـ.

وصل أدهم باشا إلى المدينة دار العز فى الخامس عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٧٢هـ، وثابر فى إيفاء مهمته وجدد فى فترة، تقرب من سنتين، الأساطين والقباب التى بين باب النساء ومئذنة العزيز والجدران الكائنة فى تلك الجملة فى صورة غاية فى الكمال والنظام.

كان السلطان سليمان خان الغازى قد جدد فى سنة ٩٤٠هـ المئذنة العزيزية الجميلة كما بين فى الصورة الثامنة من الوجهة الأولى وجعلها ذات شرفات ثلاث مثل مآذن باب السعادة، لذا أُطْلِقَ عليها فى ذلك الوقت المئذنة السليمانية.

وتلك المئذنة محاذية للمئذنة الشكلية التى وفق فى تجديدها المرحوم السلطان عبد المجيد، وعندما عُمر مسجد السعادة اقتضى الأمر إصلاح تلك المئذنة أيضا فربط ـ عندئذ ـ محمد راشد أفندى من موظفى أمانة البناء حبالاً ما بين المئذنتين ليعلق عليها المحيا مثل مساجد باب السعادة إستانبول وذكر أن هذا الفعل سيعطى للمدينة المنورة الميمونة رونقًا آخر وزينة أخرى، واستأذن بعد تعمير المئذنة السليمانية بأن تقام محيًا[1] هناك فى ليالى رمضان واستكره السلطان الذى يتصف بصفات الزهد لشدة حبه لشفيع المذنبين ﷺ وفرض عبوديته إحداث بدعة فى دار

(١) إن بناء محيا فى الجوامع ذات المنارتين كان بدعة سيئة أحدثها إبراهيم باشا الذى تولى الصدارة نحو اثنتى عشرة سنة فى عهد السلطان أحمد الثالث وذلك فى عام ١١٣٢ هـ.

الهجرة وتجنب ذلك بتقبيح الفكرة التى عرضها محمد راشد أفندى ولذلك تأخر تعمير المئذنة المذكورة، ولما كان جميع لوازم بنائها جاهزة فعمرت فى عهد السلطان عبد العزيز بشرط عدم إقامة المحيا، وأنفق لتعميرها بعد الكشف عليها خمسة وأربعين ألف قرش وسميت بالعزيزية.

بينما كان أدهم باشا مشغولاً بتعمير وتجديد جهة باب الرحمة صدر الأمر السلطانى بخصوص إرسال محمد راشد أفندى من أعضاء دار الشورى العسكرية لأنه كان قد التزم قديمًا من جانب محمد رائف باشا تجديد القباب والأعمدة التى فى مقدم الحرم الشريف كقباب وأساطين مؤخر الحرم الشريف وكان قد رأى فى هذا العمل نوعا من المحسنات والجمال لحرم السعادة.

ولكن العمل بهذا الرأى كان سببًا فى وقوع منازعة كبيرة، وكان أهالى المدينة فى ذلك الوقت قد أبلغوا الأمر مع بعض الأوراق والمضابط إلى باب صاحب القرار كما سبق ذكره ورجوا من السلطان أن يجدد داخل حرم السعادة وفق أفكار وآمال الأهالى؛ ومن هنا قرر إرسال محمد راشد أفندى وتعيينه ليحقق فى منشأ هذا النزاع وللكشف عن تعميرات مبانى الحرم الشريف وكيفية سير العمل فيها، وحساب نفقات تجديدها.

وصل محمد راشد أفندى سنة ١٢٧٢هـ خلالها، إلى دار السكينة وكشف عن الأماكن المتنازع عليها فى مؤخرة حرم السعادة وفى داخله، وبعد العودة سلم الباب العالى لائحة رأيه الشخصى مع المضابط التى قدمت من طرف الأهالى وموظفى الدولة مع الخريطة والأوراق الأخرى إلى الباب العالى، وبعد عمل ما يجب إجراؤه عرض الأمر على عتبة السلطان العالية الذى أصدر أمره بأن يدرس الموضوع فى مجلس خاص للوزراء ثم استذكرت الناحية الشرعية من الموضوع فى مجلس دار الإفتاء السلطانى الذى يتكون من العلماء والفضلاء والوزراء القدماء وقرر المجلس المذكور عدم جواز تغيير محال و أشكال ثمانية أعداد من الأعمدة التى تعد من الآثار النبوية الجليلة الخالية من العيب وكذلك الأساطين التى ركزت

فى عهدى عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ عندما وسعا مواضع الصلاة فى المسجد باتفاق آراء الصحابة، من مائة وثلاثة وأربعين عمودا فى حاجة إلى التعمير فى داخل الحرم النبوى الشريف، وبما أن شكل القباب والأساطين ومحالها التى أضيفت فى عهدى السلطان مراد خان الرابع، وقايتباى المصرى لم تخضع للتغيير فى زمانهما، ورأى أن يعمر ويجدد الأعمدة التى ستحمل عليها القباب الحجرية بدلاً من السقوف على هيئاتها الحالية، وبما أن الأساطين القديمة كانت مصنوعة من الحجر الأسود ومغلفة بقطع رخامية رئى أن تترك الأساطين غير المحتاجة إلى التعمير والتصليح فى حالتها القديمة والقباب من دكة الأغوات إلى باب الرحمة التى قرر صنعها بناء على الكشف القديم، وأن يجدد الجدار القبلى من باب السلام إلى المئذنة الرئيسية وألا تترك أنقاضها ومربع مرقد السعادة سيحتاج إلى التشييد والإحكام وعرض الأمر على العتبة السلطانية ملخصًا فى مضبطة.

وأن تجدد وتعمر المواقع المسعودة على الوجه المذكور والمشروح وأرسل ذلك الأمر[1] السلطانى بمضبطة مخصوصة إلى طوسون باشا شيخ الحرم النبوى.

وكان مضمون ومندرجات اللائحة التى أرسلت إلى طوسون باشا الانتباه إلى ما جاء من قرارات فى اجتماع مجلس الوزراء الخاص والعمل بموجبها ووقاية الأشياء التى تستخدم فى البناء من التلف والإسراف فيها، وتكوين مجلس من الموظفين المحليين ومهندسى الأبنية ورؤساء الحجارين بخصوص النظارة على العمال وحسن استخدامهم؛ وتعيين الوظائف الأساسية لهذا المجلس وذيل اللائحة بتوقيعات أعضاء المجلس الفخم كما صدقت من مقام الصدارة العظمى.

وكان سبب حدوث المنازعة هو كشف محمد رائف باشا داخل الحرم الشريف

(١) قد كتبت صورة من هذا الأمر السلطانى فى ذيل الصورة تحت رقم (١). (فى أصل المؤلف).

وتعميره لمؤخرة حرم السعادة وكانت تعميرات حرم السعادة تنقسم إلى قسمين الصورة الأولى عمليات مؤخرة حرم السعادة ومتفرعاتها، والصورة الثانية تعمير داخل الحرم الشريف ومشتملاته وفق الخريطة لتعمير مؤخرة حرم السعادة وتجديده والتى قدمت للمقام السلطانى السنى وحازت الموافقة، وفعلاً قد بدئ فى العمل وفقًا لهذه الخريطة، وختم بهدم آثار قايتباى مع مشتملاتها من محاذاة باب الرحمة إلى آخر الحرم الشريف الملاصق لتلك الآثار وبما أنه كان قد تم الاتفاق على هدم قباب قايتباى وإنشاء قباب جديدة؛ لهذا لم يكن فيه ما يثير النزاع، ولكن الأساطين التى تحمل السقوف والقباب فى داخل حرم السعادة والتى صنعت من حجارة صغيرة ومع مرور الزمن انفصلت عن بعضها ولما رئى أنها ستكون سببًا فى سقوط السقوف والقباب أحيطت بآحزمة حديدية وظلت بعضها معوجة متمايلة، ومن هنا وجب تعميرها ورضى الأهالى على ذلك، وأراد محمد رائف باشا أن يجدد الحرم النبوى فى طراز جديد جميل بتقليل عدد الأعمدة وتغيير شكلها مثل أعمدة مؤخر حرم السعادة وأن يوسع مواقع الصلاة وأراد أن يعين ثمانية أعداد من الأعمدة التى تعد من الآثار النبوية بتركها على حالتها القديمة، لو كان مسجد المدينة قد جدد وعُمِّرَ على هذا الشكل لكان الحرم الشريف اتسع وبلغت زينة البناء إلى الكمال وحدث تطابق وتناسب وتناسق فى هذه القضية الفنية، وكل ذلك بناء على قول محمد رائف باشا.

وإذا ما طبق فن الهندسة على تعمير مبانى الحرم فكان رأى محمد رائف باشا صحيحًا كما أن الأدلة التى ساقها بخصوص زينة المبانى ترى لا غبار عليها، إلا أن كون داخل حرم السعادة من الآثار المباركة القديمة كما أن جميع الأعمدة التى فى هذه الجهة من الأعمدة التى تتشرف بِقِدَمِهَا، جعل مسألة تغيير تلك الأعمدة وتغيير أماكنها بادعاء توسيع الموقع والمحل، مسألة غير لائقة.

ومن أجل رد خواص دار السكينة آراء الباشا المذكور الفنية وملاحظاته، قالوا ردًّا على رأى الباشا: «إن عدد الأساطين التى تحتاج للتعمير فى الحرم الشريف مائة وثلاثة وأربعون عمودًا ثمانية منها من الآثار النبوية، ولا يجوز تغيير أشكالها

ومواقعها بالمرة، وكانت الأعمدة التى أضافها حضرة عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ كان بقصد توسيع مواقع الصلاة وبإجماع آراء الصحابة وبما أن هذه الأساطين قد ركزت باتفاق الصحابة وإجماعهم ولم يتجرأ أحد إلى الآن على تغيير طرزها وهيئاتها، يقتضى النظر إليها على أنها من الآثار أيضا ولا يجوز تغيير هيئاتها أو تقليلها بحجة التناسق الفنى، ولا بأس فى تغيير غير هذه الأعمدة، كما أنه لن يحدث تناسب بتقليل عدد الأعمدة وتغيير أماكن الأعمدة التى أضافها السلطان مراد الرابع طاب ثراه والسلطان قايتباى المصرى، ومع هذا كانت القباب التى صنعت وأسست فى عهد السلطان محمد الرابع كانت قد أسست فوق الأساطين التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، ولما كانت الأساطين التى ستؤسس وتوضع عليها عقود الباب التى تصنع الآن تستدعى التعمير والترميم لميلها وقرب سقوطها فإذا ما رممت على هيئاتها الحاضرة، وبهذا يراعى جانب الآثار القديمة، وامتنع عن تغيير صورها وهيئاتها وإذا ما صنع ما قُرّر تعميره من الأساطين القديمة من الحجر الأسود حتى تشبه الأساطين الأخرى، فهذا هو رأينا».

إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا محمد رائف باشا فعرضوا الموضوع إلى باب السلطان ذى القرار العادل وتسببوا فى صدور الفرمان السلطانى الذى سطرت صورة منه فى ذيل المقال.

ادعاءات الأهالى هذه جديرة بالتصديق والقبول، لأن داخل حرم السعادة لا يقاس بمؤخرة المسجد ولما كانت هذه الجهة قد جددت وفق الخريطة التى وضعت لها وكان لتجديدها مُسَوِّغٌ شرعى صريح، وأجرى لها ما يلزم، ولما ثبت بالدلائل الواضحة أن أحدًا لم يَتَصَدَّ لتجديد الحرم الشريف بإحداث التناسب فى داخله ولم يقدم أحد على تغيير رسمه ومحله، ومن هنا لا يجوز تغيير تجليات الآثار القديمة بتقليل عدد أساطينها وتغيير نقطها أو توسيع مواقع الصلاة فيه فهذه أفكار فجة سطحية، فتخريب الوليد بن عبد الملك حجرات زوجات النبى العليا لم تؤد إلا إلى انقراض الدولة الأموية وزوالها.

وقد رممت الأساطين الثمانية التى ركزت فى عهد النبى ﷺ والأساطين التى ركزت فى العهد الميمون القريب من عهده وعمرت على هيئاتها القديمة، وقد حدث اتفاق عام بناء على وجود مسوغ شرعى لتغيير شكل وأماكن الأساطين التى أضافها السلطان مراد خان الرابع والسلطان قايتباى المصرى.

وإذا ما صنع وفق الطرز الجديد بتقليل عددها وتغيير أماكنها وإذا ما اتبع طريق تجديد القباب على الهيئة المطلوبة منسوبًا لاسم السلطان عبد المجيد، فإنه لن يؤدى إلى التناسب الفنى ويكون داخل حرم السعادة قد جدد بعض أماكنه حسب النظام الجديد وسيظل الباقى على النظام القديم، والأمكنة التى عدت بمرور الزمان ومجاورة الحجرة المعطرة من الآثار القديمة المباركة تكون قد بدلت هيئاتها ومواقعها وغيرت.

وبدلا من أن تبذر الأموال عبثًا لتجديد الأعمدة التى انحرفت قليلاً أو اعوجت والتى يمكن تعميرها وتقويتها وتحويل أماكنها وشكلها، فإذا رممت الأساطين الموجودة على هيئاتها وأشكالها حيث وجدت بحيث تتحمل القباب الحجرية وإذا ما رممت بالأحجار السوداء مثل الأعمدة المتينة المصنوعة من الحجر الأسود وإذا ما غلفت الأساطين التى كانت مغلفة بقطع الرخام نكون قد ادخرنا النقود وحافظنا على أشكالها وهيئاتها الأصلية، ولما كانت الأساطين التى تحمل القباب العالية المصنوعة من عهد السلطان مراد ثمانية أو عشرة أعمدة منها فى حاجة إلى الترميم والتعمير، ولما كان بناءُ القباب الحجرية مكان السقوف جائزًا شرعًا لوقاية أبنية الحرم من الخطر وكان عامة الناس متفقين فى هذا الموضوع ولم يكن فى هذا سبب يؤدى إلى النزاع، والمنشأ الحقيقى للنزاع كان فى تقليل عدد الأساطين داخل الحرم النبوى وتغيير أماكنها، وقد اختار أهل المدينة شق تعمير وترميم الأساطين فى أماكنها، ورجحوا ذلك على استصواب محمد رائف باشا من تقليل الأعمدة وتغيير أماكنها، عرضوا الأمر على الباب العالى ورجوا بأن يعمر داخل حرم السعادة وفق ما يرغبون، وقد بحث الأمر فى دار الإفتاء

السلطانية بعمق وعرض ولما كان رأى أهل المدينة الكرام موافقًا للشرع الشريف عرض الأمر على العتبة السلطانية التى أصدرت أمرها بذلك وأرسل الفرمان السلطانى إلى المدينة المنورة.

وبما أن تغيير شكل وهيئة الأبنية العالية غير جائز أرسل لأدهم باشا للعمل بما جاء حسب ما يقتضى الأمر السلطانى كما أرسل له تحريرات سامية توصى ببذل الجهود فى هذا الأمر إذا كان مدير أمانة البناء.

وجدد أدهم باشا دكة الأغوات بحجارة منحوتة حمراء فى غاية الجمال وصنع على أطرافها أربعة أسوار مشبكة وأسس فى ذيل هذه الدكة دكة أخرى ويُذهَبُ من بين هاتين الدكتين إلى باب جبريل.

ولما كان محراب التهجد فى وسط مقصورة الدكة التى صنعت فى مواجهة دكة الأغوات وفى طرف الجهة الشامية شبكة السعادة التى جددها أيضا، ووضعوا حول الدكة الأسوار المصنوعة من النحاس الأصفر، وكان بجانب دكة محراب التهجد مخزنان، فهدمهما و جددهما بأن جعلهما أربع حجرات، كما أمر ببناء سقف عال لخلف دكة الأغوات وجهتها اليسارية وتحت هذين السقفين محرابًا وعدة حجرات عالية خاصة بخدم الحجرة المعطرة، ويذهب إلى السقفين الجديدين من بين باب النساء ودكة الأغوات.

كان مشايخ الحرم النبوى يؤدون صلواتهم الخمس فى النقطة التى يوجد فيها المحراب سالف الذكر فى الأوائل ثم أخذوا يصلون فى دكة الأغوات، والآن يصلى الأشخاص الذين يتولون مشيخة الحرم فى هذا المكان ويحدث أحيانًا أن يصلوا فى دكة التهجد التى أمام دكة الأغوات، ولكن صلوات التراويح لابد أن يؤدوها بجانب المحراب سالف الذكر.

وأمر أدهم باشا فصنع خارج باب النساء وفى جهة باب جبريل من ذلك الباب، وجدد فمد القفص الخشبى الذى أحدث سنة ١٢٥٠، هذا القفص كائن ما بين كل ثلاث أسطوانات من باب النساء إلى مؤخرة مسجد السعادة فتؤدى

النساء صلواتهن داخل هذا القفص، واستشار شيخ الحرم حافظ محمد باشا مع علماء المدينة فى غضون سنة ١٢٨٠هـ فمد ذلك القفص إلى قرب محاذاة المئذنة السليمانية، لأن جماعات النساء تكاثرت ولم يستوعبهن القفص كلهن فكانت بعض النساء يؤدين الصلاة خلف النخيل، ولما كان الرجال الذين يدخلون من باب التوسل لا يجدون أماكن للصلاة أمامهم فيضطرون أن يؤدوها خلف النساء.

ويطلق أهالى المدينة على هذا القفص قفص النساء ولونه أخضر وله أبواب مصنوعة من القطع المشبكة، تأتى النساء فى ليالى الجمع ويؤدين الصلاة، ويحضرن أولادهن حديثى العهد بالولادة فى يوم الأربعين من ولادتهم لإدخالهم فى شبكة حجرة السعادة، وتأتى بهم أمهاتهم أو أقاربهم ويسلمونهم لموظفى إدارة الأغوات، ويطلق أهل المدينة على مثل هؤلاء الأطفال الذين تُركوا فترة تحت أغطية مربع القبر الشريف فى حجرة السعادة ولد الحجرة فيلزم أن يكون خاصة أهل المدينة من هؤلاء الأطفال.

ولما كان أدهم باشا قد توفى بعد أن أكمل تلك الأقفاص بفترة قليلة فى أواخر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٣هـ، فاختير معاون المبانى المقدسة صالح أفندى لوكالة أمانة البناء باتفاق موظفى الحكومة وأعاظم السادات وعلماء البلاد وبلغ الأمر مع وفاة أدهم باشا إلى باب صاحب القرار العظيم.

وكانت وفاة أدهم باشا قبل أن يكمل سقف الجهة القبلية وسقف الجهة الغربية الذى يمتد من باب السلام إلى باب الرحمة إلا أنه كان جدد هذه الأماكن والقباب الجديدة التى أمر السلطان بإنشائها فى اتصال الساحة الرملية لحرم السعادة، ودكة الأغوات مستلهمًا أمر السلطان كما أنشأ كل هذه الأماكن مطابقة لآمال الأهالى وأفكارهم.

حدود السقوف العتيقة: كانت فى الجهة القبلية من مسجد السعادة ثلاثة أروقة، وألحق كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فى عهديهما رواقًا كما ألحق الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى للجهة الشامية رواقين كما أن السلطان

مراد خان الرابع ألحق ثلاثة أروقة فى الجهة الشامية أيضا ولما لم ينته بناء هذه الجهات ظهرت الحاجة إلى بناء عدة أروقة أخرى فى هذه الجهة، وعقب وفاة أدهم باشا، استصوب صالح أفندى إضافة رواقين بموافقة رأى مجلس هيئة الأبنية السعيدة، وشرع فى العمل من هذه الجهة، وأراد أن يساوى ما بين أسطوانات الجهة القبلية لأسطوانات الجهات الثلاث الأخرى، فرأى أن ترفع بعض الأسطوانات من هذه الجهة وإزالتها وبين الكيفية للهيئة العامة للمجلس الذى انعقد تحت رياسة شيخ الحرم لأن توسيع هذه الجهة فى حالتها هذه غير قابل للتوسيع والإصلاح وقام بعض الذوات معترضين على هذا أيضا إلا أن هيئة المجلس[1] استصوبت رأى صالح أفندى بالأغلبية واستحسنته وأثنوا عليه، وكتبوا فتاوى شاملة بجواز رفع الأعمدة بنية توسيع المسجد الخالصة حتى يسكتوا المعترضين معتمدين على الشرع.

وأراد المعترضون أن يسقطوا حكم الفتاوى التى صدرت من العلماء واحتجوا على عدم جواز إزالة الأعمدة المأثورة القديمة بالأحاديث التى أوردها الإمام السَّمْهُودى من البخارى وابن النجار والتى تقول: يجب أن يصلى فى جميع جهات مسجد السعادة، الصحابة الكبار قد صلوا فى جميع جهات هذا المسجد وقد أجابتهم هيئة المجلس إجابات مقنعة إلا أنهم طوروا الموضوع حتى وصل إلى مرتبة الجدال والنزاع، وأبلغوا الحالة بمضبطتين مستقلتين إلى الباب العالى وقرروا تأجيل العمل فى مسجد السعادة إلى أن يصل الرد، وحينما وصلت المضبطتين إلى باب السعادة وأطلع الوزراء على مضمونيهما، وصدق قرار الأغلبية رأيها وأحالوا الموضوع إلى محمد راشد أفندى الذى كان قد سافر إلى المدينة وحقق فى النزاع الأول الذى حدث فى أمانة البناء العالى، فاستدعوه وأمروه بأن يسافر حالاً إلى المدينة المنورة.

وشرع محمد راشد أفندى فى العمل من بقية مؤخرة حرم السعادة، وأتم العمل فى الأساطين التى تقع بين باب الرحمة وباب السلام، وفى بعض عقود

(١) وكان للسادة والأهالى فى هذا المجلس نفوذ، وكذلك أكابر العلماء وكل المفتين.

القباب، وخمسة عشر ذراعًا من المكان الذى فى جهة باب السلام من الجدار القبلى، وعندما أوصل تعميرات الحرم الشريف إلى حدود الروضة الميمونة التى يصدق عليها الحديث الشريف روضة من رياض الجنة وعندئذ ظهرت وتجددت المنازعة المعلومة مع أن محمد راشد أفندى كان مطلعًا على مندرجات الفرمان السلطانى فأصر على تطبيق أفكار محمد رائف باشا فى حصول تناسب، وابتدر فى تغيير مواضع الأساطين التى فى جهة المدرسة المحمودية للحرم الشريف والتى أضافها إلى الحرم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبهذا أثار الناس مرة أخرى، ومع هذا أخذ يعرض على الباب العالى بعض أشياء غير مفيدة، وأخذت محاضر الشكاوى من قبل الأهالى تصل تباعًا، كل هذا أوقع الباب العالى فى الشك والشبهة فعزله وأرسل مكانه عمر جمال الدين أفندى من رجال الدولة القدماء، ولكنه توفى حين وصوله إلى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٥هـ فتعطلت تعميرات الأبنية المقدسة فترة ما.

قد أخذت فرقة المدينة المنورة المعترضة خزانة الدولة، وبما أن هذا الشخص كان جريئًا وحريصا استطاع أن يهيئ أكثر الأشياء اللازمة لعمليات أبنية السعادة والحجارة المنحوتة اللازمة للأساطين، إلا أن هذه الغيرة والسعى وشدة الاهتمام أنتجت قيام المعترضين ضده؛ لأن أفراد الفرقة المخالفة كانت لهم منافع شخصية فى تدخلاتهم فى عمليات البناء لأنهم كانوا يريدون أن تطول هذه العمليات أطول مدة حتى يحافظوا على تلك المنافع، ومنذ أن عزل محمد راشد أفندى إلى تعيين عمر جمال الدين أفندى وإلى ورود أحمد أسعد أفندى بعد وفاة سلفه قد أعطيت كثير من الأجور للمستخدمين فى أمور أبنية السعادة من الكتبة والعمال بدون فائدة، واستمرت هذه الفترة ما يقرب من سبعة أشهر، إذ مات عمر جمال الدين أفندى وعرض الأمر على باب السعادة وكان أحمد أسعد أفندى فى ذلك الوقت قاضى مكة المكرمة فوصل إلى المدينة المنورة فى جمادى الأولى أوائله من سنة ألف ومائتين وست ١٢٧٦ وسبعين هجرية.

وكانت الفرقة المعترضة قامت ضد محمد راشد أفندى باحثين عن تغيير مواضع بعض الأعمدة وكان هذا موضع النزاع.

إلا أن هذا القيام لم يكن كالقيام السابق إذ كان بدون وجه حق وبدون مناسبة، إذ استصلح محمد راشد أفندى أماكن السقوف التى هدمت من قبله وهى التى تلى السقف الذى ألحق فى الجهة القبلية، وبترميمات قليلة للأعمدة التى ركزت فى عهد صالح أفندى نقلها فى محاذاة الأعمدة الأخرى وحرص على أن يركز هذه الأعمدة فى أماكنها القديمة ولكن فيما بين أعمدة السقوف الثلاثة التى تلى الجهة القبلية حدث تخلف قدر ثلاثة أذرع بينها وبين الأعمدة التى ركزت مجددًا، وقد وقف محمد راشد أفندى لهذا التخلف وهو يهدم الفاصلة التى تفصل بين سقف الجهة القبلية والأسقف الثلاثة التى تليه، وإن هذا التخلف ظاهر فى العمود الرابع من صفوف الأساطين الأربعة التى تقع فى اتصال الساحة الرملية التى فى الركن الشرقى من مسجد السعادة ولا يوجد فى أساطين الصفوف الأخرى، وإن كان فى أساطين الركن الغربى من الساحة الرملية تخلفًا جزئيًا وإذا لم يمعن النظر فيه فلا يمكن تعيينه فهذا التخلف إذا ما طبق على قواعد الفن المعمارى الكلية فلا يعد من العيوب، وكان اثنا عشر عمودًا ما الأعمدة الستة عشر التى يعرف التخلف فيها من النظرة الأولى والتى تكون الصفوف الأربعة من الأعمدة، كانت ركزت من قبل أسلافه ولما كانت الفرقة المعترضة غير راعية بهذا الموضوع ظنوا أن هذا التخلف قد حدث فى عهد محمد راشد أفندى وخدعوا الناس بهذا الزعم الباطل وأغروهم بالقيام ضده. انتهى.

قد خدم محمد راشد أفندى فى تزيين داخل مسجد السعادة وقد تركت جهة الجدران الغربية أعلى من الجهات الأخرى كعلامة على الجدران القديمة وكان هذ الارتفاع أساء لجمال سطح المسجد.

أزال محمد راشد أفندى هذا العلو وأبقى جملة «هذا حد مسجد النبى» التى كانت محكوكة على هذا الصف من الأعمدة، لو كان حدد هذه الجملة قائلاً: «هذا حد المسجد الأصلى» لأحسن فعلاً لأن عبارة «هذا حد مسجد النبى» تفيد أن خارج هذا الحد ليس من جملة مسجد النبى وهو ليس كذلك.

بعد أن سوى محمد راشد أفندى وسطح ومهد أرض المسجد وهدم المخازن فى التقاء الحد القبلى للمسجد الأصلى أنشأ جدارًا منخفضًا من شبكة الحجرة المعطرة إلى انتهاء الأعمدة التى فى الجهة الغربية من جدار باب السلام وبنى فوقه سورًا مشبكًا جميلاً مصنوعا من النحاس الأصفر وفتح ثلاثة أبواب من الروضة المطهرة للخروج منها ناحية القبة العثمانية، ولما انتهى من سقوف الجهة القبلية لمسجد السعادة إلى محاذاة الساحة الرملية جهز حجرًا أحمر مزينًا لكتابة التاريخ وأرسله إلى باب السعادة حتى يكتب عليه ما انتخب مما كتبه أدباء المدينة ثم يأمر بإعادته إلى المدينة، إلا أن السلطان ذا الخصال الحميدة لم يستصوب أن يكتب لذلك المكان المقدس التاريخ وأمر بأن يعطى للمؤرخين اثنا عشر ألف قرش وحتى يتخذ قرارًا ما ينبغى إحالة الموضوع إلى مجلس العلماء المنعقد فى المشيخة الجليلة، وقرر فى المجلس أن يكتب على هذا الحجر الحديث الشريف، وفق اقتراح أمين الفتوى للمجلس محمد رفيق أفندى «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، وأبلغ الأمر إلى دار الخلافة. وأمر الخليفة أحمد أسعد أفندى الذى تعين لأمانة أبنية السعادة بعد عمر جمال الدين أفندى بإجراء ما يقتضى الأمر عمله.

والتواريخ التى ستذكر فيما بعد هى التواريخ التى اختارها محمد راشد أفندى لتحظى بالنظرة السلطانية وأرسلها إلى الباب العالى.

عربى[1]

بشرى مليك الورى عبد المجيد

بما قد فاز من فخر دنياه وعقباه

توجهت بعظيم الأجر همته

وكى ينالَ من المختار زلفاه

فجددت مسجداً تهوى ملائكة

لو أصبحت فيه من عمال مبناه

ولكن بذاك إله الحق خصصه

يا فوز من خصه بالخير مولاه

وإنه أثر ما حازه ملك

من قبله بل ولا من بعد يحظاه

بطالع اليمن والإقبال آخره

على أساس التقى مذ تم منشاه

قالت الملائكة البشرى مؤرخة

على قواعد يمن عز أخراه

١٢٧٥

الآخر[2]

الله أكبر فاز سلطان الورى

عبد المجيد بأعظم الإحسان

(١) هذا التاريخ الفريد للفاضل حسن أفندى الاكسوبى.

(٢) هذا التاريخ للأديب عمر أفندى.

طوبى لـــــه قد شـــــاد أرفـــع مسجد

يسمـــــو على الأفـــــلاك بالعدنـــــان

حَـــرَمٌ زهى بالروضـــــة الفيحـــــا التى

جلـــت وأضحـــــت مـــــن رياض الجنان

ويميـــــــز الهـــــادى سمـــــو بحجرة

هى مهبـــــــط الأمـــلاك والغفـــــران

بشرى لقـــــد حـــــاز الثوابَ مليكُنا

وحدىُ عظيـــــم الأجـــر مـــن رحمان

برفيـــــــع همتـــه أجـــاد بنـــاءه

فى غايـــــة الأحكـــــام والإتقـــــان

حـــرم علـــى تاريخـــه حَقًّا زهـــــى

تـــــم البـــــناء بهمـــــة السلطـــــان

١٢٧٥

وظلت أعمال المئذنة المجيدية ناقصة وقد أنشأها محمد راشد أفندى على طراز مآذن بلاد الروم وفى غاية الجمال وجعل حول شرفاتها أسوارًا بشبكة حديدية.

التاريخ الآتى الذكر هو التاريخ الذى ذكره الأديب كامل عبد الجليل براده[1] بخصوص المئذنة المجيدية.

عربى

سلطانـــنا الملـــك الغـــازى المجيـــد بـــنى

فـــى مسجـــد الهاشـــمى المصطـــفى طـــه

(١) هذا الشخص رئيس كتاب السجلات اليومية.

منـــارة لم تطـــاول رفعـــة وبهـــا

يحق للـــدهر فخـــراً لَوْبِهَـــا باهـــا

فريـــــدة إن بـــدا شكـــل يماثلهـا

فإنمـــا ذاك حقـــا عكس مرآهـــا

ودت نجـــوم السمـــاء لـــو أنهـــا

انتظمـــت فى جـيدها تزهو ثرياهـــا

لغايـــة ابتهـــاج الفكـــر أرخهـــا

منـــارة بالبهـــاء تـم مبنـــاهـــا

١٢٧٥

ولما مات عمر جمال الدين أفندى ـ الذى بُعِثَ مكان محمد راشد أفندى ـ توفى وهو يؤدى فريضة الحج المشروعة فى أثناء وجوده فى مكة المكرمة؛ اقتضى تعيين شخص آخر وإرساله لتولى وظيفة أمانة المبانى العالية فأبلغ ذلك من قبل أمير مكة المعظمة شرف عبد الله باشا إلى الباب العالى وعرض ذلك السلطان من قبل الصدر الأعظم محمد باشا القبرصى وشيخ الإسلام سعد الدين أفندى وتَأَنَّى فى تعيين شخص وإرساله، وسكت السلطان فترة وهو يفكر ثم شرع فى الإجابة قائلاً: «لابد أن فى هذا الأمر سِرًّا خَفِيًّا وحكمة، وقد أرسلنا هناك من الباب العالى من نثق فيهم مثل حليم أفندى الصغير، ومحمد راشد أفندى، وعمر جمال الدين أفندى فلم يستطيعوا أن يكملوا مهمتهم، ثم أرسلنا من أمراء جيوشنا من له اليد الطولى فى فن الهندسة مثل محمد رائف وأبو بكر وأدهم من الباشوات، وكذلك لم يوفقوا فى إتمام المهمة؛ فلنول ـ كتجربة ـ أحدًا من رجال الطريق العلمى المقتدرين، يا سعد الدين أفندى فاعثروا على رجل يتصف بالصدق والروية ومعروف بالتقى والتدين وأرسلوه إلى المدينة المنورة حتى يكمل تلك الخدمة التى تجلب الفخر والزهو، ولما قال له سعد الدين أفندى الأمر لكم

ياسلطاننا، وإننا سنعثر على داعية مستقيم الأفكار قد سلح نفسه وزينها بأفكار توافق أفكار سلطنتك وسنعرض الأمر على عتبة سلطنتك بعد الاستئذان، فقال له السلطان لا كلا لا لزوم لتعيين موظف من هنا.

وحتى لا تتعرض تعميرات البناء المقدس للانقطاع فترة أخرى قد أحلت مهمة أمانة الأبنية العالية إلى ابن عريانى أحمد أسعد[1] أفندى قاضى المدينة المنورة ـ على صاحبها أكمل التحية ـ والذى يوجد الآن فى مكة المكرمة وفوضت الأمر إليه لكفائته، ولما كان أحمد أسعد أفندى أبا عن جد من رجالنا المشهورين والداعين للدولة والمستقيمين فإننى أثق فيه، بسبب تجاربى السابقة، وإن شاء الله يوفق فى إتمام مهمته على أحسن وجه، وتلقى أحمد أسعد أفندى هذه الإجابة التى تنطوى على الإرادة السلطانية فأرسل الفرمان السلطانى الذى يتضمن تعيين أحمد أسعد أفندى بالمدينة المنورة سنة ١٢٧٥هـ وبُلغت التوجيهات السلطانية وحسن ظن السلطان فيه عن طريق آخر، كما طلب منه أن يبادر فى العمل دون تأخير وأن يبذل أقصى جهوده لإتمام مهمته، وأوصى بإخطارات أخرى مبينًا دقة الموقف وأهميتها وبلغت إدارة مكة المكرمة أنه إذا ما استدعى الأمر من جانب أحمد أسعد أفندى نزاع الأهالى فعلى أمير مكة أن يذهب بذاته إلى المدينة المنورة لحل المشكلة.

ولما أخذ أحمد أسعد أفندى الأمر[2] السلطانى بتعيينه فى عمارة المسجد النبوى بكى من سروره وسجد لله ـ سبحانه وتعالى ـ على تعيينه لتلك الخدمة المسعودة دون أن يكون له دراية بهذا الموضوع، فتحرك رأسًا من مكة المعظمة ووصل إلى المدينة المنورة فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٧٦هـ.

وزار حجرة الرسول ﷺ المعطرة ـ عليه أعظم التحايا ـ وعرض عليه تذلله وافتقاره وأبان عجزه واستعان برسول الله ﷺ فى إتمام مهمته راجيًا نصرته وعونه وشرع فى إتمام مهمته بعد أن بدأ فى عمله ذاكرًا اسم الله، وأتم ذلك العمل

(١) تولى الأفندى المشار إليه منصب المفتى فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة عام ١٢٩٥.
(٢) وصورة هذ الفرمان مندرجة فى ذيل الصورة رقم (٢).

المعقد فى أول ذى الحجة من سنة ١٢٧٧ دون أن يستعين حتى بالشريف عبد الله باشا ودعوته إلى المدينة، وأنهى تلك الأعمال التى عجز عن إتمامها أسلافه الكرام فى سبع أو ثمانى سنوات فى ظرف سنتين ونصف سنة كما سيعرف فيما بعد وعرض الأمر على الباب العالى وأعلمه.

مطالعة ورأى

إذا ما نظرنا إلى إتمام العمل وحسن عريانى قاضى المدينة المنورة، ندرك أن إتمام العمل وختامه سواء أكان فى حرم المدينة المنورة توأم الجنة أو حرم المسجد الذى تخدمه الملائكة وتعميرهما قد تم على يد موظفين ينتمون إلى العلوم الشرعية، ومن يعمق الفكر فى هذا الموضوع يجده من غرائب المصادفة فى العصر ومن أحكام اللطائف الغيبية وهذا بديهى، كيف لا تعد من الاتفاقات الغريبة وقد تمت عمليات تعمير وتجديد مبانى الكعبة المعظمة فى عهد السلطان مراد خان الرابع على يد صاحب الفتوى سيد محمد أفندى الأنقروى الذى كان فى ذلك الوقت قاضى مكة المكرمة والذى رقى إلى مقام المشيخة الإسلامية فى سنة ١٠٩٧هـ، كما تم إجراء عين عرفات التى بدأت العمليات فيها فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم خان الغازى وتمت فى عهد السلطان سليم الثانى على يد وعلم مفتى مكة الشافعى حسين بن أبى بكر الحسينى، ولا سيما تطهير مجرى عين عرفات الذى دام سبع عشرة سنة.

والذين تولوا نظارة عمليات التطهير قد توفوا الواحد تلو الآخر وقد أتم المشار إليه حسين أفندى أبو بكر ما لم يستطع إتمامه أسلافه فى ظرف سبعة عشر عامًا أتمها فى ظرف خمسة أشهر وبصورة وعلى هيئة كان يتمناها الجميع.

والتعميرات الكاملة للمسجد الحرام تمت فى ظرف أربع سنوات إذ كانت تحت نظارة المفتى المشار إليه.

وأراد أحمد أسعد أفندى ـ وقد تلقى الأمر السلطانى والإرادة السنية ـ أن يعمل بموجب النص الجليل ويجدد داخل حرم السعادة موضع المنازعة فيه،

وحتى ينفرد بذلك العمل عين سيد محمد أفندى من أفاضل علماء المدينة نائبًا له فى المحكمة الشرعية فاستدعى السادة الكرام والعلماء المشهورين والموظفين ذوى الاحترام للمدينة المنورة وعقد معهم اجتماعًا للمذاكرة والدراسة فى المكان الذى يطلق عليه الديار العشر والذى يقع فى الجهة القبلية من المسجد النبوى، وعرض جميع جهات العمل واستشارهم فيها، وبعد دراسة الخرائط التى وضعها أسلافه وتدقيق النظر فيها، قرر العمل بناء على قاعدة هدم الجهات التى يُراد تجديدها وإتمام العمل فيها ثم الانتقال إلى الجهة الأخرى وهدمها وتشييدها، وبدأ العمل من مؤخرة الحرم الشريف يعنى من النقطة التى كان محمد راشد أفندى قد اقترب من بدايتها داخل الحرم الشريف، كما أرى فى مسطح الرأس المضبوط فجدد تجديدًا متينا رصينًا مزينًا القباب التى بالقرب من باب السلام إلى المئذنة الرئيسية مع عقودها وبقية الجدار القبلى مع القبة العثمانية الجسيمة وقباب الروضة المطهرة مع القباب التى فى مواجهة قبر الرسول والقباب البالية الأخرى مع عقودها ومع مصاريفها وخلاصة القول كافة أسس أساطين وطاقات المسجد الشريف النبوى وقبابه المختلفة.

كما عَمَّر وقوى الحجرة المعطرة النبوية والمئذنة الرئيسية ومآذن باب السلام وباب الرحمة كلها وفق ما جاء فى فكر الأمر السلطانى وأحكامه وطبقًا لقرار مجلس الاستشارة، وهكذا أتم تعمير جميع جهات حرم السعادة كما سبق تعريفه على أحسن وجه وجعل جميع القباب الخشبية التى شيدها من الحجر وبهذا قد حظى بشكل وثناء أهالى الحرمين المحترمين، شكر الله سعيه.

كان شيخ الحرم النبوى فى عهد أحمد أسعد أفندى شيخ الوزراء المرحوم مصطفى باشا فى اسكودار وكان لمهارته فى فن العمارة وهمته وغيرته وجهوده فى استكمال أسباب إنشاءات المبانى المقدسة، ومساعى محافظ دار الهجرة من قدماء الرفقاء الكرام المرحوم خالد باشا ومعاونته وإقدام واستقامة رئيس مراجعى الأبنية العالية بدر الدين (!) ورئيس المهندسين الحاج محمود أفندى وسائر الموظفين، أكبر أثر فى تسهيل المهمة وسرعة إنجازها ومن ثمة فى إتمام إنشاءات حرم السعادة قبل الأوان بفترة.

وقد حُكَّ مذهبًا ليوضع فوق طاق باب السلام ذى الفيوضات منظومة تاريخية كما صنع طغراء غراء على أن توضع فوق المكان الخاص الذى هيئ فى وسط القباب المجيدية العالية التى تقع فى جهة من الساحة الرملية فى مؤخرة حرم السعادة، وقد أرسلت المنظومة التاريخية التى كتبها قاضى المدينة المنورة السابق يعقوب عاصم أفندى ليعرض على أعتاب السلطان بواسطة أحمد أسعد أفندى إلى شيخ الإسلام سعد الدين أفندى وأن تعاد إلى المدينة فى حالة نيلها القبول.

وقُدمَ ذلك التاريخ إلى السلطان حتى يلقى عليه نظرة، وإن كان قد وافق مزاج السلطان الفطرى إلا أن استخدام بعض التعبيرات التى توافق الصنعة الشعرية أراد السلطان ذو السمات الملائكية الذى يتوسل إلى روح محمد ـ عليه صلوات الأحد ـ فى كل أمور السلطنة وخصوصياته أن يحرر التاريخ الذى سيوضع فى داخل المسجد النبوى الشريف من الخيالات الشعرية وفى صنعة معبرة عن سليقة الإخلاص ولذا قال: «من أنا حتى أتجرأ على تعليق الطغراء داخل البناء المقدس الذى بناه سلطان الأنبياء ـ عليه أعظم التحايا ـ بذاته! فمن الأنسب أن يكتب فى المكان بدلا من التاريخ والطغراء حديث شريف مناسب لذلك المقام المقدس ويعلق هذا التاريخ بعد تصحيحه فوق كمر أحد أبواب حرم السعادة وهذا أنسب، وبعد أن يصحح زيور[1] أفندى هذا التاريخ فليرسل إلى المدينة المنورة باهرة الشرف»؛ وبناء على هذا الأمر السلطانى صحح ذلك التاريخ وأرسل إلى المدينة على أن يعلق فوق طاق أحد أبواب حرم السعادة، وأن يكتب على حجر التاريخ، الذى أرسله محمد راشد أفندى قديمًا ولم يَلْقَ قبولاً لدى السلطان، الخبر الصحيح: «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، وأن يكتب مكان الطغراء عبارة «قال النبى عليه السلام» وبما أن هذا الأمر السلطانى قد أبلغ إلى أمانة المبانى العالية قد وقر وفخم ذلك المقام ووُجِدَ الاحترام للأمر السلطانى ووضعت الطغراء الغراء المجيدية فوق طاق باب السلام مذهبة حيث زينته.

(١) هو من مشاهير الشعراء، تولى منصب وزارة الأوقاف لمدة طويلة وتولى منصب مشيخة الحرم مؤخرًا.

وبعد أن جدد وعمر وشيد وأصلح جميع القباب والأساطين الكائنة فى مؤخرة حرم السعادة أو فى داخله كما عرف آنفًا، وحتى يقووا ويدعموا أساس القبة الخضراء المرتفعة التى فوق الحجرة بنوا جدارًا لصق أسس شبكة الحجرة المعطرة وبإقامة بعض العقود فوق هذا الجدار دعموا القبة الخضراء الشريفة وحافظوا عليها فى صورة متينة.

وإن كانت تلك القبة اللطيفة عمرت فى عهد السلطان محمود خان الثانى إلا أن جهة من عقود القباب الجديدة التى ستؤسس فوق جدران القبة الخضراء أدرك لدى الكشف عليها أن هذه الجدران ليست متينة بدرجة تتحمل العقود الجديدة ومن هنا قرر تدعيم قواعد الجدار العتيق، وبناء على هذا القرار حفر حول الشبكة الشريفة أساسًا عميقًا قدر ستة أذرع وجدد أساس الجدار الذى صنع فى عهد السلطان محمود فأسس وطرح أسس الجدار الجديد مطابقًا لهذا الأساس الغير قابل للاندراس.

فالقبة اللطيفة التى عمرت فى عهد السلطان محمود خان العدلى قد حفرت قاعدة أساسها إلى أن ظهر تراب سليم، والحجارة التى وضعت كأساس كانت فى غاية الصلابة والإحكام وفوق ذلك قد ربطت بعضها ببعض بقيود من حديد ورصاص مذاب، وإن كان هذا الأمر تبين عند المعاينة.

ولكن حتى توضع عقود ما اقتضى تجديده من القبة العالية وحتى تقوى وتحكم الجوانب الأربعة للقبة الخضراء درجة أخرى رئى أن يُبْقَى على الجدار الذى بنى فى عهد السلطان محمود خان حول الحجرة المعطرة وأن يبنى حول هذا الجدار جدار آخر وتوضع عليه عقود القباب الجديدة فوق الجدار الجديد، وبهذه الطريقة قد رصنت سواء أكانت القبة الخضراء أو القباب الأخرى العالية فوق المطلوب، وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يرى الجداران المحدثان من الخارج إلا أن شبكة السعادة العارضة تحيط سواء أكان بالجدارين اللذين بنيا فى عهد السلطان محمود أو الجدارين اللذين بنيا فى عهد السلطان عبد المجيد، وبما أن

شبكة الحجرة المعطرة اللطيفة كما سبق تعريفها ظلت بين القواعد والدعامات التى أنشئت لتشييد القبة الخضراء ولأجل ذلك فرؤية هذه الجدران غير ممكنة.

وبناء على ما فُهِمَ من هذا التفصيل فالقبة الخضراء التى تشاهد من خارج المسجد الشريف هى تلك القبة التى تطلق عليها القبة الخضراء فهى قبة خضراء كبيرة فوق قبة الحجرة التى تقع فوق مربع قبر السعادة، وكما سيبين فيما بعد أن القفص المصنوع من السلك الذى يغطى المربع المقدس تحته قبة صغيرة وهذه القبة فوق مرقد السعادة وتعرف باسم قبة الحجرة.

وكان داخل الجدران الأربعة المتصلة والذى يقال له مربع القبر الشريف كان فى الأصل دار أمنا السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فنعوش صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق ـ رضى الله عنهما ـ مدفونة فى داخل هذا المكان السعيد.

قد زينت الأطراف الأربعة لمربع القبر الشريف بالأغطية الغالية التى أرسلها السلاطين العثمانيون خاصة للحجرة المعطرة، لهذا ليس هناك من رأى ظهر مربع قبر السعادة فى الأزمنة القريبة، ويرددون أن هذا المحل مستور بقفص مصنوع من الأسلاك وظهر هذا القفص الجهة الداخلية للقبة الخضراء التى ذكرت، ويدخل شعاع الشمس من نافذة قبة النور التى تقع فى الناحية القبلية من هذه القبة، فينير سواء أكان داخل مربع القبر الشريف أو جدرانه وما بين القفص الذى يطلق عليه شبكة السعادة.

ليس فى زماننا من رأى داخل مربع قبر السعادة، يعنى داخل الجدار الذى يحيط بأطراف القبور الثلاثة، وإن كان للمربع المقدس فى جهة السعادة نافذة صغيرة، ومن الواضح أن من ينظرون من هذه النافذة الصغيرة يستطيعون أن يروا داخل مربع القبر الشريف إلا أن من رعاية شروط الأدب عدم النظر إلى داخل المربع ولأجل ذلك لا يمكنهم أن يجيلوا أنظارهم فى داخل المربع، ويجرى

أهالى المدينة رسم الولادة كما عرف فى الصورة الثالثة من الوجهة الثالثة، بأن يلقوا أولادهم حديثى العهد فى داخل هذه النافذة.

كان قد أخرجت خلال سنة ٥٥٤ من داخل مربع قبر السعادة جيفة هرة متعفنة، وبناء على الظن القوى أن تلك الهرة قد دخلت من تلك النافذة ولم تستطع الخروج فهلكت وتعفنت وحتى يزال أثر تعفن الجيفة الكريه قد ترك فى داخل المربع الشريف من تلك النافذة خشب شجرة الصندل الذى نقع بدهن الورد وهذه القصة تروى بين الأهالى بسند قريب من الصحة؛ حتى إن تعطير الحجرة المعطرة على هذا المنوال قد أخذ صفة العادة.

حتى إنهم فى زماننا ـ كما سبق تعريفه فى المكان الخاص ـ يعطرون نشارة كافية من شجرة الصندل بدهن الورد ويلقونها فى يوم معين داخل مربع قبر السعادة من تلك النافذة، وبعد سنة يستردون القديم ويضعون الجديد ويقتسمون القديم فيما بينهم، ومع ذلك فسواء عند استرجاع نشارة الصندل أو إلقائها لا يدققون النظر إلى داخل حجرة السعادة، وهذه الشبكة أى القفص الحديدى الذى يحيط بمربع قبر السعادة من جوانبه الأربعة يطلق عليه شبكة السعادة، ويقال لداخل هذه الشبكة الحجرة المعطرة، وينال الزوار الكرام مرامهم بزيارة قبر السعادة من خارج هذه الشبكة[1].

بعض تفصيلات مهمة:

لما جاء الدور لتعمير قباب الروضة المطهرة صنعت ستارة خشبية عارضة فوق الأعمدة التى بين حدود الحجرة المعطرة والروضة المطهرة حتى لا يسقط تراب ولا تقع حالات تؤدى إلى عدم الرعاية والاحترام، ولم يحدث أن هتك العمال الذين يشتغلون فى هذا المكان ستارة الاحترام والأدب، فيعمل العمال فوق الستارة الممدودة بكل وقار وهدوء وينهمك العباد الذين فى داخل الروضة المطهرة فى

(١) وإن كان الزوار المتصفون بالجراءة يزورون الحجرة بالواسطة من داخلها إلا أن زيارتها من الخارج أولى تأدبًا.

عبادتهم وطاعتهم دون إحداث ضجة حتى الهمسة ما كانت تسمع حتى يظن أن فوق الستارة الخشبية لا يوجد عمال يعملون، ابتداء من الأعمدة التى فى الصف الثالث التى توجد فى الحدود الأصلية لمسجد النبى من ناحية الشام إلى أسطوانة الوفود، وفى الجهة الغربية من المسجد الثانية من المنبر النبوى وباعتبار ما بين الأسطوانتين الواقعتين فى جهة الجنوب ومن الجدار القبلى.

وسواء هاتين الأسطوانتين أو الأساطين الشريفة الأخرى إلى أنصافها كانت مزينة بألوان بيضاء وحمراء ومحلاة بذهب خالص ومذهبة وكانت هذه من آثار السلطان سليم بن السلطان عبد الحميد خان المبرورة قد أبقيتْ كما هى وغيرت زخارفها، ومن تلك الأساطين ماتكسّرت قطع رخامها بشكل لا يمكن ترميمها وقد صنعت جيداً وحتى يعرف أنها كانت مرممة كالأساطين الأخرى قد نقشت عليها رسوم الرخام باللون الأبيض والأحمر، وشبهت بالأخرى وجميع الأعمدة التى فى الجهة الشرقية من الأعمدة الملاصقة لشبكة المنبر المنير وتحت المنبر الشريف المذكور بنى هذه الأساطين إلى السقوف التى أمام الروضة المطهرة كلها وقد جددت قطع رخامها، ولكن قطع رخام الأعمدة التى بين مواجهة السعادة وحول الحجرة اللطيفة لم تغير، على أنها علامة لازمة لحدود الروضة المطهرة من الجهة الشمالية، وأصلح ورمم بعض أماكنها، وبهذا قد حفظ حكم الحديث الشريف الذى يقول: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» والأسطوانات التى سطرت عليها قصيدة السلطان سليم بن عبد الحميد خان والتى سبق ذكرها فى موضوع الأساطين كانت ضمن الأساطين المذكورة التى بقيت كلها على حالاتها القديمة وغيرت زخارفها وخطوطها فقط.

وبينما كان يحفر أسس أسطوانة السرير فى محاذاة رأس السعادة وأسطوانة التوبة ظهر ماء عذب لطيف، ولما كان لهذا الماء رائحة طيبة أخذ منه أكثر الأهالى وتبركوا به وأرسلوا منه إلى أهالى البلاد الأخرى، قد انهمك الأهالى بتدبير

الأوانى والزوارق لأخذ الماء ولما وصل صياحهم إلى قدر هتك ستارة الأدب فُألقى الأساس رأسًا حُفِظَتْ حرمة المسجد.

وبينما كانت أسس هذه الأسطوانات والأسطوانات الأخرى تحفر وتفتح نُثِرَ البخور، وأحرقت أقراص الطيب وأنواع أخرى من الطيب، فى نقط وضع الأساطين، وحينما كان يحفر أساس الأسطوانة التى فى ركن الجهة الغربية القبلية للشبكة التى تحيط بالحجرة المعطرة ظهرت بئر تنزل إليها بسلم ذات تسع درجات وكان ارتفاع وعرض كل درجة شبرًا واحدًا، وكان وليد بن عبد الملك قد حفرها للسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنها ـ فى دار عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ويلزم أن تكون هذه البئر مخرج الطريق الذى سده موظفو السلطان قايتباى حتى يمنعوا اختلاط الرجال بالنساء، وكان عمر بن عبدا لعزيز قد أخذ بأمر الوليد بن عبد الملك دار أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ التى كانت فى الجهة القبلية من دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ وأعطى لها فيما بعد فى مقابلها الدار التى يطلق عليها دار عمر بن عبد الله[1].

وكان قد فتح لهذه الدار طريقًا إلى مسجد النبى، ظل ذلك الطريق مفتوحًا إلى الوقت الذى زار فيه الخليفة المهدى المدينة المنورة ولكن موظفى الحكومة لم يستصوبوا ذهاب المهدى من هذا الطريق إلى مسجد السعادة لأسباب خفية، فسدوا الباب الذى يؤدى إلى المسجد، وفتحوا طريقًا من دار عبد الله بن عمر من تحت الأرض حتى شبكة السعادة حتى يدخل المهدى فى داخل المقصورة دون أن يراه أحد، وهذا هو الطريق الذى نتحدث عنه، وقد ذهب المؤرخون إلى أن فى مخرج الطريق الذى فتح ثلاث درجات وأطالوا فى تعريف هذا الموضوع.

ولما كان عدد الدرجات التى ظهرت تسع كما حرر من قبل فيصل خطأ رأى

(١) وسبب تسمية هذه الدار بدار عبد الله بن عمر انتقالها من السيدة حفصة إلى عبد الله بن عمر والدار المسعودة المعروفة اليوم بديار عشرة أقيمت على أرض تلك الدار.

المؤرخين إلى درجة الثبوت، حتى إن مقدار ذراع ونصف ذراع من مخرج الطريق الذى ظهر مليًا، ولما كان محتملاً أن يكون فى هذا المكان ثلاث أو أربع درجات يقتضى أن يكون مخرج ذلك الطريق ثلاث عشرة درجة، وبعد زيارة الخليفة المهدى بعدة عصور أصبحت زيارة حجرة السعادة بهذه الطريقة عادة، ولكن فيما بعد حدثت أشياء منكرة ولم تراع الأدب والحرمة فسد باب المخرج الذى فى داخل شبكة السعادة فى سنة ٨٨٤ وهكذا أنهيت تلك الأحوال المنكرة.

بينما كانت نوافذ الجدار القبلى لقبة المحراب العثمانى تجدد على حالتها القديمة أضيف عقد كبير لتدعيمه وجددت الأعمدة التى تحمل القبة بحجر أحمر ووسعت الجهة العليا من القبة وفتح على أطرافها صفان من النوافذ إحداها فوق الأخرى، وجعلوا أعالى النوافذ مقوسة فظهرت على شكل فى غاية الحسن والجمال، وحتى يقووا ويدعموا القبة التى فوق مواجهة السعادة ركزوا فى الجهة الشرقية من القبة العثمانية أسطوانتين كبيرتين مصنوعتين من الحجر الأحمر مثل الأساطين الموجودة حول الحجرة المعطرة، والقبة العثمانية الجميلة أكبر وأوسع وأكثر زينة من جميع قباب مسجد السعادة ما عدا القبة الكبيرة الخضراء التى تعلو على القبة الصغيرة التى فوق الحجرة المعطرة وقد أسست أول مرة فى عهد السلطان قايتباى عقب الحريق الثانى، وإن كان رمم وأصلح بعض جهاتها فى عهد السلطان محمد بن إبراهيم خان ـ عليهما الرحمة والغفران ـ ولكنها سقطت فى سنة ١١٤٧ وانهارت فجددت فى عصر السلطان محمد بن مصطفى بن السلطان محمد خان سنة ١١٤٨ لعدم حرمان هذا المكان من جماعة الصف الأول، بدون أن يركز أعمدة فى الجهة القبلية من الجدار مكتفيًا بالعقود الملقاة على الجدار المذكور.

وقد خالف محمد راشد أفندى آمال الأهالى وأفكارهم حيث ركز أربعة أعمدة بجانب باب السلام، وبما أن نقاط هذه الأعمدة قد حرمت من شرف أداء الصلاة

فيها طلب إزالتها، ولكن رفع هذه الأعمدة وإزالتها كانت تحتاج لنفقات كبيرة وهذا العمل سيؤدى إلى إضرار خزانة الدولة كما أنها لو أبقيت لن تصيب زينة المبانى المقدسة ورزانتها بعيب أو نقص فلم يمسوها، كما أبقت هيئة الشورى الأسطوانة التى تكون فى الجهة اليسرى للصاعدين على المئذنة الرئيسية، على أنها من جملة الأساطين القديمة مع أن رفع هذه الأسطوانة كان أولى. انتهى.

وبعد ما تمت عمليات الأبنية العالية بكل مشتملاتها ومتفرعاتها، كتبت جميع الكتابات التى كانت فوق طلاء داخل القباب وداخل الجدار القبلى باهر الأنوار كما سبق ذكره فى مكانه، وزُيِّنَ ذلك المقام العالى مرة أخرى، وكانت الخطوط المنقوشة من آثار قلم زهدى أفندى[1] من سلالة تميم الدارى ـ رضى الله عنه ـ من صحابة النبى ﷺ ومن تلاميذ رئيس العلماء الحاج مصطفى عزت المشهورين، وهى آثار لم يشهد لها مثيل.

وأراد السلطان الغازى عبد المجيد خان أن يحتفظ بصورة مصغرة لما كتب لهيئة مسجد النبى القديمة فى جامع خرقة السعادة، لذلك أمر بصنع هيكل مجسم لمسجد النبى حينما أمر بتجديده، وقد عهد بهذا الأمر واجب الامتثال وإجراء مضمونه إلى البكباشى الرسام الحاج عزت[2] أفندى من أعضاء مدرسة الهندسة البحرية السلطانية.

كما وجه إليه هندسة المبانى المقدسة العالية وأرسل إلى المدينة المنورة.

وعندما وصل عزت أفندى إلى المدينة المنورة دار السكينة قاس مساحة الحجرة المعطرة إلى أن وصل إلى جدار الضريح من الداخل والخارج أو حرم السعادة بدقة شديدة وبعد ذلك صنع تمثالاً هيكليًا من الخشب وأرسله إلى باب السعادة سنة ١٢٦٨، وقد نال ذلك الهيكل القبول الحسن وحسن التقدير وبناء على الأمر

(١) استطاع زهدى أفندى كتابة هذه الخطوط خلال ثلاثة أشهر.

(٢) عزت أفندى أخو القائم مقام شكرى بك مدرس رسم بمدرسة البحرية السلطانية.

السلطانى نقل إلى جامع خرقة السعادة بجانب جامع على باشا القديم، ووضع فى مقصورة المؤذنين ومازال محفوظًا فى صندوق زجاجى.

وذلك المعبد من جملة الخيرات الجليلة للسلطان المذكور المشار إليه، وكان ذلك الهيكل نفس المسجد النبوى الذى يخدمه الملائكة بشكله القديم، وكانت مساحته الطولية جزءا من خمسين جزء منه[1]، ويروى أن نحته الخشبى قد صنع من قبل الحافظ الحاج على[2] أفندى الذى وجد فى قطعة الحجاز المقدسة سنة ١٢٦٧هـ وهو صاحب ألف فن.

ولما كان هذا التمثال يشبه أصله مشابهة تامة نوصى أصحاب الإخلاص والمحبة برؤيته فالنظر إليه ومشاهدته يشبهان زيارة مسجد المدينة الشريف، وفى هذا النموذج بناء على ما تم عده وبناء على قيده وكتابته فى التواريخ القديمة (٣٠) قبة فى الجهة الغربية و (٢٢) فى الشمال و (٦٨) فى الشرق (٣٤) فى الجهة الجنوبية و (٥٩) فى الجهة الغربية من الحجرة المعطرة وكانت جميع قباب مسجد السعادة قبل تجديده (٢١٣) قبة متناسقة، وقد صنع (١٨٣) قبة فى سنة ٨٦٨هـ من قبل السلطان قايتباى المصرى، كما أن (٤٩) قبة منها صنعت من قبل السلطان مراد خان الرابع، وقد زين السلطان قايتباى مبانى المسجد النبوى الشريف من جهاته الأربعة دائرًا ما دار بالقباب المنيرة والسقف الملاصق للقباب سالفة الذكر والقباب التى فى مؤخرة حرم السعادة رعاية للهيئة القديمة الأصلية مكشوفًا وفرشه بالرمل الأحمر، ولما احتاج السقف الذى أنشأه السلطان قايتباى فى عهد السلطان مراد خان الرابع إلى التعمير هدم هذا السقف واستصوب تحويله إلى قباب كسائر الجهات، ودُرِسَتْ الكيفية فى الاجتماع الذى عقد من علماء المدينة وأصبحت موضع البحث وقرر تجديد النصف الشامى من ذلك السقف على حاله

(١) لما كان هذا الجزء بمقياس الذراع المعمارى فإن الذراع الواحد من التمثال الهيكل يساوى ثلاثة وخمسين ذراعًا من سطح المسجد النبوى اللطيف.

(٢) كان هذا الشخص من خدمة السلطان محمود خان الثانى وأحيل إلى التقاعد لكبر سنه فى فترة ما، وبعد ذلك عين معلمًا فى المدرسة التى أنشأها مصطفى أفندى قريبًا من شهر أمين مضافة إلى حى يايلاق بجانب جامع إبراهيم جاوش، ومازال موجودا وليس له مثيل فى فن النحت الخشبى.

وتحويل النصف الثانى من القبلى إلى القباب لما فى ذلك من محسنات، وقد عرضت المذاكرات السابقة على مقام الخلافة وقد وافق العرض للأفكار السلطانية وأرسل مع الموظف إلى المدينة عددًا من العمال المهرة حيث يتم إجراء الأمور على وجه السرعة فهدمت السقوف المذكورة وبنى على النصف القبلى ثلاثين عددًا من القباب العالية وعلى النصف الثانى من الشامى وهى الجهة الرملية، بنى سقفا جديدا لطيفًا.

وكانت السقوف التى صنعت فى عهد السلطان مراد الرابع (١٩٥) والمساحة الرملية التى تركت مكشوفة فى عهد السلطان قايتباى المصرى (٣٨٢٥) ذراعًا معماريا مربعًا، وبناء على هذا الحساب أن غير (٤٠٢٠) ذراعًا معماريًا من الساحات قد أخذت كلها تحت السقوف والقباب، بالقرب إلى سنة ١٢٧٧هـ قد أمر السلطان عبد المجيد خان بأن تحول السقوف والقباب التى صنعت فى عهد السلطان مراد خان إلى أبنية حجرية وتشيد وتقوى المبانى المقدسة فى صورة لائقة كما أرى فى خريطة تجديد حرم السعادة وهيئته القديمة، وبناء على ما جاء فى خريطة هدم السقف سالف البيان بنى مكانه تسع عشرة قبة لطيفة إحداها أبيض اللون وكبيرة وثمان وعشرين منها مستديرة وأصغر من الأولى وحوّل جميع القباب الأخرى إلى بناء حجرى وبذل جهودًا جبارة لتشيد مبانى حرم السعادة على الوجه المطلوب، وبلغ عدد قباب المسجد النبوى إلى (٢٤٢) قبة وعدد أساطين المسجد إلى (٤٢٣) أسطوانة مع أساطين مؤخرة حرم السعادة، إذ كان داخل حرم السعادة وخارجه (٤٢٣) عمود وكان (٣١٣) منها غير قابل للاستخدام وفى حاجة قصوى إلى التعمير بعد هدمها، وقد هدم منها مائة وعشر أعمدة وجددت وعمر (٣١٣) منها وشيدت، وقد رصنت جميع الجهات الأربعة للجدران والأساطين والقباب العالية بأحجار منحوتة، وأمن جميع جهاته قبل أن يتطرق إليها الخطأ والخلل وكذلك جميع مشتملاته وفروعه.

ألا فليحفظه الله من جميع الآفات السماوية والأرضية، وقد عمر مسجد

السعادة بطريقة متينة، لم تَبْقَ جميع جهاته بدون تعمير عدة قرون فلن يتعرض للمخاطر.

وسيظل مصونا بدون شك حتى إذا قضى الموجودون من الفرقة المنجية الإسلامية عمرهم كله تاركين أعمالهم، الشكر والثناء على ما قام به السلطان عبد المجيد خان من الخدمات ما أوفوا بحقه.

وما أعظم الخدمات التى أسداها هذا السلطان للمسجد النبوى الشريف وما أعظم ما أنفقه من النقود، فما بذله من السعى والجهد إلى أيامنا هذه يفوق بكثير ما بذله ملوك بنى أمية.

وعندما تمت عمليات أبنية السعادة وأصبحت رهن الختام فى سنة ١٢٧٧هـ فى أواخر ربيع الأول ولم يبق إلا أشياء صغيرة تافهة، وأماكن محدودة للمفتين والمجاورين أولم أحمد أسعد أفندى وليمة للأهالى فى الجبل الأحمر، وكانت وليمة عظيمة حضرها موظفو الحكومة وأكابر البلاد والعلماء والأغنياء ومالا يحصى من الفقراء والمساكين، وتليت منقبة مولد السعادة وعلق على المحجر لوحة كتبت عليها عبارة: «قد أخرج من هنا الأحجار التى احتيج إليها لتجديد حرم السعادة.

وقد وقع تحت النظر فى دفتر إجمال النفقات أنه قد أنفق لتعميرات الأبنية العالية والإنشاءات الجليلة سبعمائة ألف قطعة من الذهب المجيدى وكل قطعة تساوى مائة قرش ومائة وأربعين ألفا من الصرر والدراهم، كما أن ما أرسل من باب السعادة من الألواح الخشبية والحديد والقصدير، والنحاس وأشياء ثقيلة أخرى كان خارج هذا الحساب، وقد استخدم فى العمل يوميا ثلاثة وخمسين عاملا ما عدا الموظفين والكتبة والمهندسين والمباشرين، وهذا التوفيق الخارق للعادة من آثار والد السلطان الكثير المحامد السلطان عبد المجيد خان المشكورة والجميلة.

ومازال أهالى البلاد الحجازية يقدسون روح السلطان المشار إليه ويعرضون

شكرهم وثناءهم عليه فى كل آن وساعة كما أنهم يذكرون بكل خير عريانى زاده أحمد أسعد أفندى الذى بذل جهودًا مشكورة فى سرعة إنجاز عمليات الإنشاء والتعمير.

ولم يقتنع السلطان عبد المجيد خان بتوفيقه فى إحياء وتعمير حرم السعادة، فقد هدم مدرسة بشير أغا التى أشرفت على الخراب من أساسها بنى مكانها سبيلاً فى سنة ١٢٦٢هـ، كما طهر البالوعات التى حول حرم السعادة وأصلح الأرصفة ونظفها فأنقذ أطراف المسجد الأربعة من القذارة والتعفن وأرسل مقدارًا كافيًا من السجاجيد لفرشها فى حرم السعادة وأرسل قطعتين من الشمعدانات الكبيرة فى ناحية المحراب العثمانى وأضاء تلك النواحى السعيدة مثل جهات المسجد الأخرى، وقد كانت جهات المحراب العثمانى فى تلك الأوقات خالية من الشمعدانات وكانت جماعات المسلمين من قبل يؤدون صلواتهم فى الظلام.

وبناء على ما كتب فى مرآة مكة، قد عمر السلطان عبد المجيد وجدد سور مقبرة المعلا، والأساطين التى أشرفت على الخراب فى المسجد الحرام، وجدار الحطيم الشريف ومسجد الخيف ومسجد الطائف ومرقد الطاهر ابن الرسول، ومحمد بن الحنفية ابن حيدر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم، ومولد الصديق الأكبر ومولد على بن أبى طالب ودار مولد النبى السعيدة ودار الخيزران ومولد حمزة وبركة اليمانى ومرقد الشيخ محمود، وقباب مقبرة الشهداء ومذبح إسماعيل وضريح ميمونة رضى الله عنها.

للأمر السلطانى الذى صدر متضمنًا كيفية إعمار الأبنية العالية

إلى الدستور المكرم، والمشير المفخم، نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ومتم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والإجلال المحفوف بصنوف عواطف الملأ الأعلى، من مشيرى الجنود النظامية السلطانية شيخ الحرم النبوى الحائز على الوسام المجيدى السلطانى من الطبقة الأولى وزيرى طوسون باشا ـ أدام الله تعالى إجلاله.

وإلى المختص بمزيد عناية الملك الدائم، من رجال دولتى المتميزين ومدير المدينة المنورة والحائز الوسام المذكور من الدرجة الثانية وحامله، وفخر الأمراء الكرام، معتمد الكبراء الفخام، ذو القدر والاحترام، صاحب العزة والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى، من كرام أمير أمرائى موظف الأبنية العالية أدهم باشا، دام إقباله.

وإلى أقضى قضاة المسلمين والى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع الأعلام الشريفة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، المختص بمزيد عناية الملك المعين، مولانا قاضى المدينة المنورة ـ زيدت فضائله ـ.

فليكن فى علمكم عندما يصل فرمانى الرفيع الشأن، أن الحاج محمد راشد ـ دام علوه ـ وهو من أعضاء دار الشورى العسكريين ومن رجال دولتى الممتازين، افتخار الأعالى والأعاظم كان قد أرسل إلى المدينة المنورة بمهمة تفتيش وتحقيق التعميرات التى تجرى فى ممسح جباه الموحدين الحرم النبوى الشريف فعاد من هناك بمعلومات جديدة وآراء محلية ومضابط وخرائط والأوراق الأخرى فمن مقتضى الأمر الملكى أن يدرس هذا الموضوع بناء على ما استجد من المعلومات

وليدرس ويذاكر فى مجلس خاص للوزراء علما بأن هذه التعميرات الجليلة تنقسم إلى قسمين:

الأول: مؤخرة الحرم الشريف ومتفرعاته.

الثانى: تعمير مشتملات داخل الحرم الشريف.

وبما أن كيفية تجديد مؤخرة حرم السعادة وتعميره قررت حتى إن أكثر عملياته قد ختمت على أحسن وجه كما أكمل بعض مشتملاته وتفرعاته كما قرر بالاتفاق العام، فى محله أن تنشأ آثار قايتباى الملتصقة بآخر الحرم الشريف على الهيئة الجديدة إلى القباب التى أنشئت حديثًا فى محاذاة باب الرحمة.

والآن فموضوع البحث هى المسألة الثانية، قضية كيفية تعمير القباب والسقوف والأساطين التى تحمل تلك السقوف، وبناء على الكشف والتحقيقات فالسقوف المذكورة مصنوعة من الخشب والأساطين التى تحتها صنعت من حجارة صغيرة أخذت فى التفتت والتجرد فربطت بدعامات حديدية، وبعضها مال للانحراف فاتفق على لزوم تجديدها وتعميرها فى محلها وبناء على هذا الاتفاق حدث مسوغ شرعى، ولكن الجانب الجدير بالتدقيق فى هذ البحث والذى أدى إلى الاختلاف والنزاع فى محله مسألة تغير هيئتها القديمة أو عدم تغيرها، والمهم أن يعرف لهذا الموضوع الحكم الشرعى الصحيح، وحتى ندقق النظر فيما أورد من الدلائل النقلية والعقلية بموجب الشرع الشريف وتعرف أهميتها للمصلحة العامة أمرت بتشكيل مجلس خاص يتكون من فحول العلماء وبعض الوزراء فى دار الإفتاء، وبعد معاينة الأوراق والمضابط والخريطة التى أرسلت من المدينة، وتدقيق النظر فيها كلها وصلوا إلى قرار وهو أنه يمكن تقليل عدد الأساطين وتغيير أماكنها وتعديلها لتوسيع أماكن الصلاة ولإحداث تناسق بين الأساطين وقدموا أدلتهم وحججهم وإن كانت كل هذه الأدلة لا بأس بها، وبهذا يمكن أن يوسع داخل الحرم الشريف لدرجة ما، ويتناسق مع مؤخرة الحرم الشريف الذى جدد على هيئة حديثة إلا أن هذه المواقع التى جددت فى مؤخرة حرم السعادة، كان تجديدها

مبنيًا على مسوغ شرعى صريح، إلا أن داخل الحرم الشريف لا يمكن مقارنته بمؤخرة الحرم، كما أن تعمير آثار قايتباى باتفاق وأجرى التجديد بناء على هذا بالاتفاق، وبما أن داخل الحرم الشريف الأصلى من الآثار القديمة الجليلة ويتشرف بهيئته القديمة، وإن مسألة التناسق والتناسب لن تكون لتحويل رسم وهيئة المسجد الحرام، ولما كان عدد الأساطين التى تحتاج إلى التعمير والترميم مائة وبضعة وأربعين، وأن ثمان منها من الآثار النبوية لا يجوز تغييرها وتبديلها قطعيًا، كما أن الأساطين التى ركزت فى داخل الحرم الشريف فى عهد أبى بكر الصديق وعمر الفاروق ـ رضى الله عنهما ـ زيدت باتفاق الصحابة فى توسيع المسجد فهى فى حكم الآثار، فمثل هذه الآثار التى وجدت باتفاق الصحابة والتى لم يسم أى جانب من جوانبها فلا يجوز تغيير هيئات أماكنها لمجرد التوسيع والتنسيق، وهذا من الأمور المسلمة، وفى هذه الحالة فالأسطوانات التى ستجدد على طراز حديث ستكون عرضة للتغير وللتبديل فهى الأساطين التى أضافها وأنشأها السلطان مراد خان والسلطان قايتباى وتترك الأساطين الأخرى، ومع تغيير هذه الأساطين وتحويل أماكنها فلن يحدث التناسق المنتظر.

ومع هذا فالقباب القديمة من آثار السلطان مراد قد وضعت فوق الأساطين التى كانت قائمة ولم يتصدَّ أحد، فى ذلك طالبا تغيير رسم وأماكن تلك الأساطين، والتوسيع المرغوب حدث منسوبًا إلى اسمى، وبإنشاء المواقع والقباب الجديدة حاليًا، وبناء على الأقوال الموثوقة وإن كان بين هذه الأساطين ما يحتاج للتجديد، ولكن بعض ما انحرف منها وبعض ما احتاج للتعمير الجزئى منها، فلا يلزم تجديدها فمثل تلك الأساطين ترمم وتسوى فى أماكنها على هيئاتها القائمة، بحيث تقوى على حمل القباب الحجرية التى ستوضع عليها، وبما أن الأساطين الموجودة فى المسجد مبنية بحجارة سوداء فمن المستحسن أن تنشأ ما يراد تجديدها من الحجارة السوداء حتى تشبهها، وعند تعمير الأساطين التى غلفت بقطع الرخام تغطى أيضًا بالرخام بعد تعميرها، ولما كان معظم قباب السلطان مراد سليمة والأساطين المحتاجة للتعمير لا تتجاوز ثمانية أساطين أو عشرة، ولما كانت

بعض أماكن المسجد النبوى قبابًا حجرية وكان أكبرها سقوفًا خشبية احتاجت إلى التعمير وستعمر على هيئة القباب الحجرية، وبهذا ستجنب المخاطر مثل الحرائق وغيرها، وعلى هذا لن يكون هناك أى مسوغ لتغيير أماكن هذه الأساطين أو تقليل عددها أو تغيير الآثار المباركة بها، وبناء على هذه التفصيلات المشروحة رجح الرأى القائل بتجديد وتعمير ما فى داخل حرم السعادة فى مكانه وعلى هيئته وشكله القائمين، وعلى هذا تعين إجراء العمليات كما تبين من الواقع، ويشرع فى العمل من بين باب الرحمة وبين باب السلام ومن بين باب السلام إلى ما بين المئذنة الرئيسية، وبما أن المحراب العثمانى وسقوفه قد كشف أولاً فمن الأهمية تجديد القبة العثمانية، وإنشاء ما بين دكة الأغوات إلى باب الرحمة، وتعمير القباب الجديدة وتشييدها وإحكامها والأبنية العالية كذلك والتى تقرر إنشاءها بناء على المسوغ الشرعى وتوسيع الأماكن التى يمكن توسيعها والتى قد وضعت أسسها لن تخلو من الحسنات وإتمام بناء تلك الأماكن وفق كشوفها، وبما أن الجدار الكبير الذى يبدأ من المئذنة الرئيسية وينتهى عند باب السلام قد ظهر ميله وانحرافه فليزال ويجدد ويعمر على الوجه المطلوب، وبما أنه لا يجوز وضع الأنقاض المختلفة من عمليات التعمير والترميم والأحجار المكسرة التى سَتُخَلَّفُ من تعمير وتجديد الأساطين فى أماكن غير مناسبة فمن الأجدر أن تستخدم فى بناء الجدران العادية من الحرم الشريف أو فى مثل هذه الأشياء، ولما كانت حجارة المكان الذى بين شبكة السعادة والحجارة المفروشة، والستارة قد تزحزحت من أماكنها، يجب أن توضع فى أماكنها بدون إحداث أى تغير، وقد نبه مرارًا على ألا يرفع أحد صوته فى أثناء العمل وألا يأتى بحركة مخلة للآداب، وأن يظهر أقصى ما يمكن للإنسان أن يقوم به من توقير وحرمة للمكان، وقد جاء ذكر كل هذه الأشياء فى المجلس الخاص وقيدت فى مضبطة.

ولما كانت هذه التعليمات الشرعية الدقيقة التى بحثت ستؤدى فى الآخر إلى عدم تغيير ما لا يراد تغيير هيئته الحالية من جهة وأن تتحقق قضية المتانة والرصانة

من جهة أخرى، يجب أن تنفذ العملية وفقًا لما سبق شرحه وذكره، وأن تحفظ الأشياء التى ستصرف للأبنية العالية من التلف والسرقات، وأن يراعى حسن معاملة العمال المستخدمين، وأن تشكل هيئة مؤقتة من الموظفين الموجودين والمهندسين ورؤساء الحجارين للإشراف على أمور الإنشاء والتعمير.

وقد تقرر فى مجلس الوزراء الخاص أن يعمل أعضاء تلك اللجنة المكونة وفقًا لما جاء فى اللائحة التنظيمية لسير العمل، وعرض هذا الأمر على ذاتى السلطانية بعد الاستئذان، فتعلقت إرادتى السلطانية على أن ينفذ ما جاء فى قرار مجلس الوزراء الخاص وصدر أمرى هذا إعلامًا وتنبيها وتقييدا من ديوانى السلطانى وقد ذيلت اللائحة المنظمة بختم أعضاء المجلس الأعلى، وصدق من مقام الصدارة العظمى، ثم أرسلت فرمان بأمرى السلطانى.

والآن وأنتم شيخ الحرم ومدير المبانى العالية وموظفىَّ الذين أثق فيهم فلتعلموا، أن كل أملى وأقصى منای أن تعملوا على إتمام بناء ذلك المكان المبارك السامى رصينا متينا واسعا! بحيث يسر الروح النبوى، ولن يتحقق هذا إلا باتباع ما جاء فى فرمانى هذا وألا تجيزوا أبدًا تغيير هيئات الأساطين أو تبديل أماكنها لأن هيئتها وأشكالها القديمة مما يتشرف بها، وأن يبذل كل مافى طاقة الإنسان من إظهار الاحترام والتوقير لإسعاد روح النبى ﷺ وأن تعملوا على إجراء التعميرات وفق القرار الذى ذكر عاليه، وأن تحرص أن تتحرك وفق ما جاء فى اللائحة التنظيمية وأن تتجنب وتتقى العمل خلاف القرار مغيرًا لأحكام اللائحة التنظيمية، لأن المخالفة ستؤدى إلى عدم رضا الله وإلى عدم إسعاد روح النبى ﷺ فضلاً عن المسئولية والندامة فى الدنيا والآخرة وسيخالف رضاى السلطانى من جميع الوجوه، وعدم إظهار أى نوع من التكاسل والتراخى فى هذا الخصوص من مقتضى إرادتى الملكية القاطعة فأعد نفسك وفق ما جاء فى هذا الأمر واعمل على إتمام تعميرات هذا المكان الجليل بكل ما فى طاقتك من جهد وبذل وسعى، فليكن هذا فى علمكم، واعتمدوا على علامتى الشريفة.

تحريرًا فى أوائل ذى الحجة الشريفة سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف سنة (١٢٧٣).

للفرمان العالى الذى صدر إلى عريانى زاده أحمد سعد بن محمد أفندى بخصوص تعينيه لمأمورية الأبنية العالية

إلى الدستور المكرم، المشير المفخم، نظام العالم، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى، والحائز على وسامى المجيدى السلطانى من الدرجة الأولى والحامل حاليًا لقب شيخ الحرم النبوى وزيرى المحب مصطفى[1] باشا أدام الله تعالى إجلاله، وإلى أولى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والدين، المختص بعناية الملك المعين، وهو قاضى المدينة المنورة حاليًا، مولانا أسعد ـ زيدت فضائله ـ والذى عهد إليه فى هذه المرة مهمة إدارة مبانى الحرم النبوى العالية، فليكن فى علمكم عندما يصل فرمانى بتوقيعى السلطانى الرفيع، قد مات عمر جمال موظف الأبنية العالية للحرم النبوى توأم الجنة ولزم تعيين من يناسب فى مكانه، وأنتم ذلك الشخص المناسب بما اتصف به من العفة والاستقامة والحكمة وبعد النظر وقد رئى تعيينك لوظيفة مأمورية الأبنية المباركة.

وبناء على ثقتى فيك واعتمادى على أمانتك قد صدر أمرى أن تظل فى المدينة المنورة حتى تكمل تعمير وتجديد الأبنية العالية بعد أن تنتهى مدة مهمتك الأولى، وعليك أن تعمل بموجب هذا الأمر وأن تكمل تعمير الأبنية العالية وتجديدها على هيئة تسعد روح النبى ﷺ وهذا هو الغاية ألزم بها ذاتى السلطانى، وفى هذا الخصوص أن ترسلوا سريعًا بموجب الكتابات التى أرسلت لكم من وزارة المالية

(١) إن هذا الشخص يعرف بـ «اسكوداري» وقد أبلى بلاء حسنًا فى تجديد الأبنية الشريفة.

حساب النفقات التى صرفت سواء أكان من قبل الموظفين المستقلين أو القائم مقامهم أو كلاهما وما استلموه مما أرسلت لهم الدولة، والاطلاع على هذه الحسابات المستقلة والدفاتر اللازمة الموضحة لتلك الحسابات، وأن يعامل المستخدمون من العمال بطريقة حسنة وأن يعطوا رواتبهم فى وقتها، وأن يعملوا بكل خضوع وخشوع وأن يلزموا جانب الأدب والتعظيم والتوقير، وأن يؤدوا صلاتى الظهر والعصر مع الجماعة وألا يلجئوا إلى طرق ملتوية للتنصل من العمل، وعليك ألا تهمل ما يجب إتمامه من الأعمال المهمة حتى لا يتعطل العمل، وأن تبذل كل جهدك بما عرف عنك من إخلاص فى العمل والحرص عليه، وأن تعنى بأداء مهام وظيفتك متفقًا مع شيخ الحرم المشار إليه، وأن تحقق ما تنتظره منك ذاتى الملكية من المآثر العظيمة والفطانة، وأن تبذل أقصى طاقتك، وعندما تجزم بمضمون أمرى الشريف وأنت ذلك الشيخ المحترم للحرم الشريف عليك أن تنفذ إرادتى السنية الملكية ضاما جهودك مع الآخرين موحدين طاقاتكم وقد صدر أمرى هذا فليكن ذلك فى علمكم، اعتمدوا على علامتى الخاصة.

حرر فى اليوم الخامس عشر من شهر صفر الخير سنة ست وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٦) هـ.

نريد أن نعقد هنا مقارنة فكرية بين الملوك العثمانيين وأسلافهم من الملوك من حيث نيتهم وأعمالهم متخذين ما أدوه من خدمات للحرمين الشريفين دليلاً لذلك، وقد ثبت لدى نظر التاريخ أن أكثر من خدم الحرمين الشريفين هم: أمراء بنى أمية وخلفاء بغداد، وملوك الشراكسة، وإن كانت خدمات هؤلاء لا تقارن بالخدمات المشكورة التى أداها السلاطين العثمانيون محبو الخير والبر، لو لم تكن خدمات هؤلاء تنطوى على أغراض نفسيه لكانت خدماتهم أيضا موضع الشكر والثناء، ولكن لأشد الأسف ما أدوه من خدمات لم تساو شيئًا لأنهم أخافوا أهل الحرمين وروعوهم، وربما يكونوا قد خدموا الحرمين رثاء الناس، وكان وليد بن عبد الملك أكثر بنى أمية خدمة لآثار الحرمين الجليلين، ولما كان فكره غير صائب ونيته غير خالصة فإن كل ما أنفقه من النقود فى هذا السبيل كانت لتحقير

الأحفاد المصطفوية والأولاد المرتضوية وإجراء خبثه فيهم بما كان يضمره، وبناء على ذلك هدم حجرات زوجات النبى ﷺ وخربها، وأخرج أولاد أحفاد السبطين من منازلهم مرتكبًا فى حقهم من الإهانات التى لا تليق حتى بالأعداء وجعل سادات المدينة وأعيانها يتجرعون الدماء وحقر زاهدًا عابدًا مثل عمر بن عبد العزيز بأن عز له من وظيفته.

وكان منصور العباسى أعظم من خدم البلدتين المذكورتين، وكان قد أمر بتهيئة مصلب فى البلد الآمن المنجى الذى قيل عنه «ومن دخله كان آمنا» لسفيان بن سعيد الثورى لمجرد إسماعه الحق، وساق كثيرين من الذرية المحمدية من المدينة المنورة مقيدين مكبلين إلى بغداد وتجرأ على إعدامهم وإتلافهم فى صورة شنيعة ملعونة، وسار خلفه على طريقته وهكذا أعلنوا وأشاعوا ما يضمرونه فى قلوبهم من عداوة قديمة لآل النبى ﷺ ذوى الكمال.

قايتباى المصرى أعقل ملوك الشراكسة وأعلمهم، فخدماته للحرمين أكثر من خدمات أسلافه وأخلافه، وهذا أيضا قد أظهر دناءته ـ بناء على ما سيأتى ذكره فيما بعد ـ إذ غير موقع منبر النبى الأنور لتحقير فضلاء الحرمين متبعًا رأى المتمرد شمس بن زمن وكأنه قام بعمل خير إذ بنى رباطًا للفقراء باغتصاب ثلاثة أو خمسة أذرع من أرض شارع المسعى، وعزل من يصدقون فى الكلام من وظائفهم وأتى مكانهم بمن يكذبون وينافقون، ينقل لنا قطبى فى أثره تاريخ مكة هذه الحكاية ويرويها: «كان الملك الأشرف قايتباى المصرى قد اتخذ الشيخ شمس الدين محمد بن عمر بن زمن مصاحبًا له قبل أن يرتقى عرش مصر، وعندما تولى سلطنة مصر أرسل شمس بن زمن لتعمير المسجد الحرام وبناء بعض المؤسسات الخيرية باسمه إلى مكة المكرمة، فاشترى شمس بن زمن مبانى الميضأة التى فى شارع المسعى وبين الميلين الأخضرين وهدمها حتى الأرض، وكانت هذه الميضأة تنسب إلى الملك الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون وكانت أمام الباب العالى، وكانت جهتها الشرقية متصلة بمنازل الأهالى، والجهة الغربية بالمسعى الشريف والجهة الجنوبية متصلة بسوق الليل، والجهة الشمالية بدار

العباس بن عبد المطلب، وحفر شمس بن زمن أساس رباط يريد أن يقيمه لإسكان الغرباء مكان الميضأة إلا أنه دخل ثلاثة أذرع فى شارع المسعى رغبة فى توسيع البناء، وأثار هذا العمل بين الأهالى القيل والقال، فرجا قاضى مكة برهان الدين إبراهيم بن على ظهيرة الشافعى شمس بن زمن لترك الأرض التى اغتصبت من المسعى، وبين له أنه لا يوجد مسوغ شرعى لإقامة مبان فى هذا المكان.

وبما أنّ شمس بن زمن رد هذ الطلب، فتكون مجلس علمى للشورى بإغراء علماء المذاهب الأربعة واستدعوا شمس بن زمن وقالوا له أمام الفقهاء «أيها السيد الفاضل! كان عرض المسعى الشريف (٣٥) ذراعًا، وقد قسناه من حفرة أساس الرباط الذى أقمتموه فبقى (٢٧) ذراعًا، وأرادوا أن يثبتوا مدعاهم قائلين بأن مساحة المسعى الشريف فى تاريخ الفاكهى خمسة وثلاثون ذراعًا، إلا أن شمس بن زمن رد عليهم قائلا: فقولوا ما تقولون إننى لن أتنازل عن فكرى مستمعًا إلى أقوالكم، وإنكم غير قادرين على منعى من القيام بهذا العمل فأطال العلماء القول فى هذا الموضوع وانضم الأهالى أيضا إلى العلماء وخالفوا ابن زمن فأجبروه على ترك العمل وكتبوا محضرًا فى هذا الخصوص، وأودعوه لدى العلماء الذين حملوه إلى قايتباى فى مصر، كما أن شمس بن زمن كتب رسالة خاصة وأرسلها إلى قايتباى (فالذى يعجبكم من فعل قايتباى؟!) فعزل قاضى مكة وعين مكانه أحد الذين أيدوا شمس بن زمن، وأعاد العلماء الذين قدموا المحضر يائسين مكسورى الخواطر، وجلب الشخص الذى عين فى تلك السنة أميرًا للحج وأمره قائلا: «عندما تصل إلى مكة يجب عليك أن تحفر أساس الرباط وفق رأى شمس بن زمن، وأن تشرف بنفسك على العمال وقد أوصل أمير الحج موكب الحج إلى مكة سنة ٨٧٥هـ وبمجرد وصوله إلى مكة جمع العمال رأسًا وجعلهم يحفرون أساس الرباط ليلاً حتى الصباح، وأنقذ أمر قايتباى، انتبهوا لذلك! كيف انكشف قايتباى الذى أراد أن يصل إلى تنفيذ فكره الأنانى السيئ ضمن خدمته التى يريد أن يقوم بها لكعبة الله، وإن كان شمس بن زمن على قدر

من العلم ويسعى لعمل الخيرات والحسنات إلا أنه بذل أقصى جهده لتحقيق علم لا يسوغه الشرع.

وإن كان قايتباى أعقل ملوك الشراكسة وأزهدهم إلا أنه قد أظهر فى هذا الموضوع تعصبًا كبيرًا،و وقد أصر على التمسك برأيه وقد خدعه شمس بن زمن وساعده على اغتصاب ثلاثة أذرع من مكان المسعى، وعزل قاضى مكة الذى أراد أن يمنعه عن ارتكاب الفعل المنكر، وكأنه لم تكن غايته خدمة الحرمين، بل كان غرضه إظهار سطوته وشوكته وإجلاله على صورة خدمة الحرمين.

وقد تحاشى السلاطين العثمانيون الأغراض النفسية وإبراز العداوة وفوق ذلك فإنهم وقفوا بجانب الأهالى، كما تبين ذلك فى صورة الفرمان العالى المكتوب عاليه، ولم يكن الأهالى بجانب الحق وكانوا يريدون أن يطيلوا عمليات تعمير المسجد الشريف والمبانى المقدسة وذلك بتعويقها بعض الوقت ليستفيدوا من ذلك ماديًا وقد ثبت ذلك، ومع هذا أمر السلطان عبد المجيد أن يتم العمل وفقًا لآراء الأهالى وأفكارهم وفى سبيل ذلك عزل أصدقاءه مثل: محمد رائف باشا، ومحمد راشد أفندى ونقل مكانهم الآخرين وعينهم وبهذا أظهر للأصدقاء والأعداء أن خدماته السلطانية لم تكن إلا لإسعاد الروح المحمدى العالية خالية من جميع الأغراض النفسية والمادية.

رحمه الله رحمة واسعة انتهى.

الوجهة الثالثة عشر
وتحتوى على عشر صور

فى ذكر حجرات مسجد السعادة وبالوعاته

إخطار ـ يطلق فى البلاد العربية على الحجارة المصقولة الموضوعة فوق الحفر ضيقة الفوهة واسعة الجوف وخاصة لإجراء مياه الأمطار حتى لا تتراكم فى الميادين «بلاعة» وهى البالوعات التى نحن بصدد تعريفها، سواء أكانت هذه الأحواض تُملأ ماءً أو كانت تملأُ بتراب مخلوط بالملح والحفر التى ملئت بهذا الشكل ستبلع المياه المضبوطة مهما كانت كثيرة لأجل ذلك أطلق عليها «بالوعة» أو «بلاعة».

كان فى الأوائل لمسجد السعادة ٦٤ بالوعة وكان فوق كل واحدة منها حجر مستدير مستقر لرمى الطيور، وقد قضت تقلبات الزمن على كل هذه البالوعات وأبقت واحدة فقط.

ثم دبر تسعة عشر سقاية بدل البالوعات الخربة، وبما أنه قد فهم مؤخرا عدم جدوى تلك السقايات قد أزيلت بالاتفاق مع الأهالى من قبل القاضى شرف الدين الأسيوطى والأعيان مثل الشيخ ظهير الدين.

وبعد مدة أنشأ أحد أمراء الشام يسمى «شامة» فى وسط مسجد السعادة حوضا ذا فوارة وملأه بمياه عين الزرقاء وأحيا الجماعات الإسلامية إذ دبر له مياهًا للوضوء.

وقد أسئ استخدام الحوض الذى صنع من قبل «شامة» الشامى وأضاع حرمة حرم السعادة الخاصة، وامتلأ فى فترة ما بالتراب والطين ولم يبق به مكان للوضوء.

وبنت أم الخليفة الناصر لدين الله خلف جدار مسجد السعادة الشامى سقاية كبيرة ودور خلاء متعددة وفتحت بابا من داخل السقاية وبابا للدخول فى المسجد الشريف منه.

ومع مرور الوقت كل هذه المبانى خربت ولم يبق ما يدل عليها، لأجل ذلك بنى والد السلطان كثير المحامد الخليفة السلطان عبد المجيد خان فوق نطاق باب التوسل مدارس فوقية وخلف هذه المدارس كثيرا من الميضات ودور خلاء وهكذا سهل للناس حاجاتهم.

حجرات مسجد السعادة:

توجد فى داخل مسجد المدينة الشريفة غير الحجرة المعطرة اللطيفة ثمانى حجرات تطلق عليها خزانة وكل اثنتين منهما توجد ملاصقة كل مئذنة.

فالسادة المؤذنون يصعدون المآذن مارين من هذه الحجرات ويضعون فى بعضها حاجياتهم. إحدى هذه الحجرات فى الجهة الشمالية من المئذنة الغربية، وكان يطلق على هذه المئذنة المئذنة الخشبية وكان خدمة المسجد الحرام يجمعون فى الحجرة التى تتصل بها بعض أشيائهم. وكان بعض الذوات يعتكفون فى داخلها، وإحدى الحجرات المذكورة فى اتصال الحجرة التى بجانب المئذنة المذكورة، وكانت إحداهما بين باب جبريل وباب النساء.

وحجرة أخرى بجانب تلك الحجرة التى بين البابين المذكورين، والحجرة اللطيفة التى بجانب الحجرة التى بين باب النساء وباب جبريل فى الطرف الشمالى إلى المقصورة «صفة أصحاب الصفة» والتى خصت لإقامة الأغوات الذين يقومون بخدمة الحجرة المعطرة، وتحفظ فى هذه الحجرة زيوت القناديل التى أخرجت من الحجرة المعطرة وبقايا الشموع، وهناك حجيرة أخرى فى محاذاة باب بيت الصديق الصغير وفى اتصال الجدار الغربى.

وهذا الباب الصغير يعد الباب الثالث إذا ما عد من ناحية باب السلام من الأبواب التى فتحت على مسجد السعادة من أبواب البيت الذى ينسب لأبى بكر

الصديق والباب الذى بين باب النساء وباب جبريل خاص بوضع أشياء الخدم وكان فى اتصالها حجرة وكان الشخصان اللذان يحرسان مسجد السعادة يبيتان فى هذه الحجرة، وكان بجانب هذه الحجرة صندوق يحفظ فيه كل ما يلزم من زيت زيتون لإيقاد القناديل كل ليلة.

وفى سنة ١٢٧٢ جدد الفريق أدهم باشا من موظفى أبنية مسجد السعادة حجرة النوبة وبنى فوق هذه الحجرة حجرة صغيرة ليوضع فيها الصندوق ولوازم المسجد الأخرى لتحفظ فيها.

وأغلق من أطرافها بقفص خشبى يصعد إلى هذه الحجرة من السلم الذى فى داخل حجرة الحراسة.

وتحفظ فى هذه الحجرة العلوية نهارا العصى الخاصة بتعليق شمعدانات حجرة السعادة وقناديلها والفوانيس التى يوقدها الخدمة بعد صلاة العشاء ليتفقدوا داخل المسجد الشريف ويعاينوه.

رواية

كان الخدم فى الأوائل يوقدون عدة مشاعل بعد أداء صلاة العشاء ويتجولون فى داخل مسجد السعادة، ويخرجون الجماعات المتبقية ويغلقوا الأبواب، وهذه سُنة متبقية من عهد سيدنا عمر الفاروق، ولكن فيما بعد تحقق مضرة إيقاد الشموع فبدلوها ووضعوا عادة إيقاد الفوانيس يقول أحمد بن يحيى البلاذرى «كان عمر الفاروق بعد أن يصلى صلاة العشاء كل ليلة، يتجول فى أنحاء المسجد وكان يسوق الجماعات المتبقية أمامه ويخرجهم خارج المسجد، ولكنه كان يترك من كان يؤدى الصلاة، وفى ليلة من الليالى اتفق أن تلاقى مع جماعة كان بينهم أبى بن كعب.

وأجيب على سؤال الفاروق «من هؤلاء؟ «بالرد» بعض الأشخاص من الصحابة».

«وأجيب على سؤاله»: «ما أنتم فاعلون بعد ذلك؟ «؛» سنجلس ونذكر الله الذى لا ينام «فجلس عمر الفاروق وشغل معهم فى ذكر الله».

وفى ختام الذكر دعا باكيا حتى جعل أهل السماء يمرقون أيضا، وفى ختام الدعاء أمر بأن يعود جميع الناس وأن تغلق أبواب المسجد ومن تلك الأوقات والتاريخ أصبح تفقد مسجد السعادة بإيقاد الشموع عادة وإغلاق الأبواب كذلك ولكن شبل الدولة كافور المظفرى الحريرى حينما أصبح شيخ الخدم، رفع عادة التجول فى داخل المسجد بالمشاعل وأعد ستة فوانيس وأوقدها وأخرج من بقى من الموجودين وأغلق الأبواب وأوقد فى الليالى المباركة أربعة مشاعل فى الساحة الرملية للمسجد وأضاءه وأصبح هذا التصرف عادة بعد ذلك، وكانت فى ذلك الموقف فى المسجد الشريف سلاسل معلقة وكانت القناديل تعلق عليها فى الليالى المباركة ـ ليالى الإحياء ـ وتوقد، يقول ابن فرحون: «عندما أصبح شبل الدولة شيخ الخدم كان من عادة الخدم أن يتجولوا فى أنحاء المسجد وعندما يصلون إلى باب النساء يطفئون المشاعل التى فى أيديهم ويتركونها خارج الباب، ولكن داخل جدران المسجد وخارجها يسود من الدخان الصادر من المشاعل فوضع الشيخ شبل الدولة عادة إيقاد الفوانيس وأبطل عادة إشعال المشاعل وكانت الجماعات تخرج إلى خارج المسجد كل ليلة بإيقاد الفوانيس ومازالت هذه العادة باقية وتجرى على غاية من النظام».

موقف الأئمة:

كانت صلواتهم الأوقات الخمسة إلى سنة ٨٦٥هـ فى محراب النبى اقتداء بالإمام من المذهب الشافعى، وكان أئمة مواسم الحج ينقلون إلى المحراب العثمانى، وزاد أفراد جماعة المذهب الحنفى قليلا واقترب من عدد جماعات المذاهب الأخرى فرجا جماعات للمذهب الحنفى وجود إمام للمذهب الحنفى وأسعف رجاء الحنفية بالقبول وعين عليهم إمام يؤمهم فى صلواتهم فى سنة ٨٦٠هـ.

وكان أفراد المذاهب الثلاثة الأخرى من المدينة المنورة ومن أصحاب النفوذ

والمكانة فيها، لذا لما كان يؤم إمام الحنفية جماعته فى محراب النبى يصلى بهم خلف أحد الأعمدة صلوات الأوقات الخمسة المفروضة.

وقد سر الحنفيون من تعيين إمام لهم لأداء صلواتهم فى جماعة وكذلك فى تعيين محراب له، وعد الحنفيون هذه الحالة نجاحا عظيما وكتب كل واحد منهم لمجموعتهم كما كتب بعضهم على لوحات علقوها على جدران منازلهم عبارة «وقد وضع هذا العام محراب للحنفيين» وذكروا مؤسس المحراب رئيس الخدم الشيخ طوغان ـ عليه رحمة المنان ـ بكل خير.

كان المرحوم الشيخ طوغان بذل جهودا كبيرة فى عهد الملك الأشرف إينال راجيا أن يقام محراب للحنفية، ولكنه لم يوفق ويرجع عدم نجاحه فى مهمته إلى وقوف أحد الحقراء من الأمراء المصريين يسمى جمال الدين يوسف فى صف المتغلبة من أهل المدينة.

وقد مات هذا الحقير فى سنة ٨٦٠ فنال الشيخ طوغان مطلبه وأراد للحنفيين محرابا فى مسجد السعادة ولكن لشدة الأسف تغير المحراب لم يكون محرابا عاديا فى داخل المسجد بل كان مكانا خلف أحد الأعمدة كما سبق ذكره، لأن الحكومة المصرية كانت قد استصدرت تعيين إمام واحد للحنفية وأن يؤم جماعته خلف أحد الأعمدة.

ومع هذا قد نجح الشيخ طوغان فى أن يؤم الإمام الحنفى جماعته بعد أن يؤدى الإمام الشافعى صلاته خلف محراب النبى ﷺ، خلف العمود المعين له وأن يصلى الإمامان معا فى وقت واحد أيام شهر رمضان.

وكان سبب عمل الشيخ طوغان على تعيين إمام خاص للحنفية غَلَبَة طائفة الزنادقة الذين استولوا على أراضى المدينة المنورة وعلى أهل السنة.

ولما كان أئمة الطائفة المذكورة اعتادت أداء الصلوات فى محراب النبى كان أفراد المذهب الحنفى يصلون هنا وهناك منفردين ويحرمون من فضيلة أداء الصلاة فى جماعة ويأسفون لذلك أشد الأسف.

وازدادت جماعات المذهب الحنفى فى عهد السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان يوما بعد يوم. وصدر الفرمان السلطانى بإقامة محراب خاص لهم.

فأُرسل من باب صاحب القرار النجارون والمهذبون وما يقتضى بناء المحراب من الأدوات والأحجار فأقيم محراب فخم على يمين منبر السعادة من قطع رخام ملونة خاص بالجماعة الحنفية.

فى جمادى الأولى فى سنة ٨٥١هـ قُرر أن يؤدى أئمة المذهب الحنفى صلواتهم فى هذا المحراب، وظل الإمام الحنفى يؤدى الصلوات فى هذا المحراب قرابة سنتين.

إلا أن الأمر السلطانى قد صدر بأن يصلى فى محراب النبى الإمام الشافعى وفى اليوم الآخر الإمام الحنفى، وأخذ أئمة المذهب الحنفى والشافعى يؤدون الصلاة مناوبة فى المحراب النبوى ما يقرب من ٢٦٩ سنة، ولما ذهب والى مصر محمد على باشا إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٢٩ بقصد زيارة الحجرة المعطرة ووضع نظام أن يؤدى كل من أئمة المذهبين كل يوم الصلاة فى المحراب النبوى، ومازال هذا النظام جاريا، فيصلى الإمام الشافعى صلوات الصباح قبل الإمام الحنفى ويصلى الإمام الحنفى صلوات الأوقات الأخرى قبل الإمام الشافعى، ولكن فى أيام مواسم الحج يصلى الإمام الحنفى فى المحراب العثمانى ويصلى الإمام الشافعى فى المحراب النبوى بعدما يتم الإمام الحنفى صلاته.

وهذا النظام بمواسم الحج، ويصلى الإمامان صلوات التراويح فى وقت واحد.

صورة ظهور المذهب الحنفى وزمان ظهوره:

بعد أن نقل ابن فرحون فى هذا الخصوص أقوالا كثيرة، قال: «كان سكان المدينة المنورة إلى عصر شمس الدين العجمى يعتنقون مذهبى مالك والشافعى.

وعندما هاجر شمس الدين أفندى إلى المدينة شجع بعض علماء المذهب الشافعى على الاشتغال بمسائل المذهب الحنفى، وكان هؤلاء العلماء قد دققوا النتائج الأساسية لذلك المذهب، وأخذ علماء المذهب المذكور يتكاثرون إذ أخذوا يتفقهون وأصبحوا أئمة زمانهم من هنا أخذ الأهالى يستفيدون من علومهم ويستفتونهم ومن ذلك الوقت أخذ المذهب الحنفى ينتشر فى المدينة المنورة سنة ٧٢٣هـ.

إن المحراب السليمانى يقع ـ بناء على تعريف مؤلف «الجواهر الثمينة» من مؤرخى المدينة المنورة ـ فى الجهة اليمنى من محراب النبى وعلى يسار منبر السعادة وبجانب العمود الثالث ابتداء من المنبر الشريف، وفى نهاية الطرف الغربى لما أضافه عمر بن الخطاب، قد بنى ذلك المحراب كما ذكر آنفا السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة ٩٥٨هـ وخصه بأئمة المذهب الحنفى والمالكى، وعرف بالمحراب السليمانى».

وكان أئمة الحنفية لا يؤمون الناس إلى سنة ٨٥٨هـ فى مسجد السعادة وكانت مهمة القضاء والإفتاء منحصرتين فى علماء المذهب المالكى.

وفى عام ٨٦٥ بناء على طلبات ملوك مصر المؤثرة وضع نظام أن يصلى أئمة الشافعية صلاة الصبح قبل المالكية وأن يصلى أئمة المالكية مع جماعتهم الكبرى الصلوات الأخرى قبل الشافعية.

وبعد إقامة المحراب السليمانى أصبحت الجماعة الكبرى، الصلوات التى تؤدى خلف أئمة المذهب الحنفى كما سبق تفصيله، وأخذ أئمة المذهب الشافعى يؤدون الصلاة بعد الحنفية، وبعدهم أئمة المذهب المالكى، إلا صلوات الصبح كان يؤديها أولا أئمة المذهب الشافعى وبعدهم المالكية وبعدهم الحنفية، وهذا النظام هو السارى الآن.

وقد كتب فوق طاق ذلك المحراب بخط عريض آية

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ (آل عمران: ٣٧).

الجليلة وقد رتبت هذه الآية الكريمة محصورة مستديرة مذهبة، وكتب ابتداء وسط الجهة اليمنى لهذا المحراب ثم خارجا منه إلى الطاق ملتفا من حوله إلى وسط الجهة اليسرى «بسم الله الرحمن الرحيم».

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

صدق الله العظيم. والآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وكذلك كتب من الجهة الداخلية اليمنى للمحراب إلى النقطة التى تنتهى فيها الجهة الداخلية اليسرى.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١٢).

وكتبت هذه الآيات بخط جلى قديم.

ولهذا المحراب المعلى باب شبكى ينفتح إلى اليمين واليسار، وقد كتبت على المصراع الذى فى الجهة اليمنى الجملة المباركة «محمد رسول الله، صادق الوعد الأمين» وفوقه اسم محمد «الطاهر بالخط الجلى المذهب، ولكن الخطوط المذكورة فى الجهة الشامية من مصراعى الباب المذكور أى فى مؤخر حرم السعادة.

وإذا جئنا إلى الجهة الجنوبية من هذا الباب أى إلى الجهة القبلية منه قد كتبت

على الباب الأيمن من المحراب الأحاديث الشريفة «قال النبى عليه الصلاة والسلام، شفاعتى يوم القيامة: حق، فمن لم يؤمن بها لم يكُنْ من أهلها «وكذلك كتب فوق مصراع الباب الذى فى الجهة اليسرى الحديث الشريف» قال النبى ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» بخط جلى نفيس وكتبت عبارة: «أنشأ هذا المحراب المبارك، الملك المظفر السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان أعز الله نصره بمحمد وآله وسلم، تاريخه شهر جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وتسعمائة من هجرة النبى ﷺ.

على ظهر الجدار الذى يواجه الجهة القبلية من المحراب السليمانى.

فى ذكر الوقت الذى فرش فيه مسجد السعادة برمل وكيفية فرشه ومنذ متى حدث تعليق القناديل فيه

حدث فى ليلة من الليالى التى أمطرت فيها السماء مطرا غزيرا أن سالت المياه المتراكمة ودخلت فى مسجد السعادة، وجاء صحابى يريد أن يؤدى صلاة الصبح فلم يجد فى داخل المسجد مكانا جافا لأداء الصلاة فأتى من خارج المسجد بمقدار من الرمل وفرشه وجلس عليه منتظرا قدوم الناس، وصلى بالناس بعد الإقامة مقتديا بالنبى ﷺ وبعد أن أنهى النبى ﷺ الصلاة بالسلام التفت إلى الصحابى الذى صلى فوق الرمل وقال «ما أحسن الصلاة على الرمل» والذين رأوا استحسان النبى ﷺ هذا بالفعل احضروا مقداراً من الرمل ونشروه وفرشوه فى داخل المسجد، واتخذ بعض المؤرخين الحكاية التى وردت فى سنن أبى داود حجة وقالوا «إن فرش المسجد الشريف بالرمال عادة أثرت من عصر السعادة».

وقال بعضهم مدعين أن مسجد السعادة قد حصب فى عهد ابن الخطاب، عندما شرع عمر بن الخطاب فى توسيع المسجد فكر فى شىء يفرشه فى سطح وسط المسجد الداخلى حتى تعم فائدته، وعرض بعض الصحابة فرشه بالحصير ورأوه مناسبا، إلا أن حضرة الفاروق رد قائلا: «لا لا كنت سمعت عن النبى ﷺ أن وادى العقيق واد مبارك، والمستحسن إذا فرشناه برمل ذلك الوادى» فأحضر قدرا كافيا من الرمل من ذلك الوادى وحصب ساحة الحرم الشريف.

وأصبح تحصيب مسجد السعادة عادة، وكلما اقتضت الحاجة كانوا يفرشون ساحة مسجد السعادة بالرمل، ولكن بما أن وادى العقيق خالٍ من الرمل الأحمر كانوا يحضرون من مسيل الوادى.

وبعد أن يغربلوه يفرشونه.

فى الطرف الغربى من ساحة المسجد الرملية صفان من القباب وفى طرفه الشرقى ثلاثة صفوف من القباب، وقد خصص تحت القباب الواقعة فى الجهة الغربية لصلاة النساء، والجهة الملاصقة للساحة الرملية شبكة بقفص أخضر اللون وبهذه العلامة بينوا أن هذا المكان خاص لأداء الصلاة للنساء، كما سبق تعريفه فى محله.

ابتداء تعليق قناديل مسجد السعادة:

قال بعض المؤرخين لم تعلق فى عصر السعادة قناديل أو ثريات فى مسجد السعادة، وتصور عمر بن الخطاب فى زمن خلافته أداء صلاة التراويح خلف إمام واحد ولما كان هذا يتوقف على إنارة المسجد دبر عدة قناديل وعلقها إلا أن الإمام القرطبى يضعف هذه الرواية فى تفسيره المشهور قائلاً: «كانت فى عصر السعادة قناديل معلقة فى المسجد الشريف، كان تميم الدارى قد أحضر هذه القناديل من بلاد الشام وعلقها» هذا ما كتبه محققا هذا الأمر.

رواية الإمام القرطبى هذه لا تقبل الكذب، لأن حضرة تميم حينما ذهب إلى الشام اشترى كثيراً من القناديل ولا بأس أن يكون قد اشترى معها قدراً من زيت الزيتون، كما كان اشترى بعض الحبال لتعليق هذه القناديل وعاد.

وعندما وصل إلى المدينة المنورة بعث مع خادمه «أبو البراء» القناديل التى اشتراها، ثم ذهب بنفسه وعلق تلك القناديل فى أماكن مناسبة وأوقدها قبل صلاة العشاء ونال ثناء النبى ﷺ الذى قال له قد أنرت الجمعية الإسلامية»، وبناء على قول ضعيف أن أول من أضاء داخل المسجد بتعليق القناديل هو حضرة معاوية.

وهذا القول مهما كان ضعيفا فإنه ليس كذبا ولكنه خطأ، لأن أول من أنار المسجد الشريف تميم الدارى ولا شك فى ذلك، والاختلاف بين المؤرخين ليس فيمن جاء بالقناديل إلى الحرم الشريف ولكن الاختلاف فيمن علقها، وأقوى

الأقوال أن تميم الدارى هو الذى أتى بالقناديل وعلقها فى جهة من جهات المسجد كما أن حضرة معاوية قد أتى ببعض القناديل وعلقها فى أماكن مناسبة.

كما وضع معاوية نظام إعطاء بعض زيت الزيتون لإيقاده فى قناديل مسجد السعادة على أن يسوى حسابه فيما بعد من بيت المال وتطيب الكعبة المعظمة بالمجامر والخلوق وإنزال الستائر التى بقيت من العهد الجاهلى على الكعبة المعظمة معاوية هو الذى أمر بذلك.

وذهب بعض المؤرخين إلى أن من أنزل الكسوة الجاهلية من فوق الكعبة هو على بن منبه عامل عثمان بن عفان فى اليمن وعلى هذا التقدير يكون عثمان بن عفان هو الذى أنزل الكسوة الجاهلية من على الكعبة، كما أن حضرة عثمان بن عفان أول من كسا منبر النبى المنير.

فى ذكر الذين عطروا المسجد الشريف بأشياء ذات رائحة طيبة

كان النبى ﷺ يخطب يوما، فأمر بتنظيف بعض الأماكن التى أمام جدار القبلة سريعا، بعد أن نظف الناس ذلك المكان مسحوه جيدا ووضعوا عليه بعض الزعفران.

ولما جلس عثمان بن عفان على كرسى الخلافة عطر جميع أنحاء مسجد السعادة وحتى يدوم هذ النظام عين بعض المؤذنين للقيام بهذا العمل.

وعطر عمر بن عبد العزيز فى تاريخ جلوسه الجدار القبلى فقط كما أن هارون الرشيد أمر بتعطير الحجرة الشريفة وجهات مسجد السعادة الأربعة فى سنة ١٧٥ الهجرية.

إيقاد البخور فى مسجد السعادة:

لم يكن إيقاد البخور من الأصول المرعية فى عهد الرسول ﷺ وحين خلافة الصديق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ ثم أصبح ذلك عادة فى عهد عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وسبب ذلك إيقاد بعض العود الذى أهدى له فى داخل المسجد، والعود الذى أهدى لم يكن قابلا للانقسام.

عندما وردت هذه الهدية خاطب الخليفة من بجانبه من الصحابة: «لو قسمنا شجرة العود هذه فيما بيننا فبسبب قلتها سيأخذ بعض منكم ويسعد ويحرم الآخرون فيحزن؛ وحتى لا يحدث هذا فمن الأفضل أن يوقد فى داخل المسجد فيسعد من فى المسجد الشريف ومن بخارجه»؛ فأعطى العود إلى رئيس المؤذنين ليوقده فى داخل المسجد.

فأخذ رئيس المؤذنين العود بناء على الأمر الصادر إلى مسجد السعادة فوضعه فى مجمرة وأوقده مع وجود جماعة المسلمين فى المسجد، ومنذ ذلك الوقت أصبح إيقاد خشب العود فى داخل المسجد عادة بين الصحابة، حتى إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما عاد من الشام أحضر معه مجمرة فضية وأعطاها لسعد ـ رضى الله عنه ـ الذى كان فى ذلك الوقت رئيس مؤذنى مسجد النبى ﷺ، وأصدر أمره بأن يبخر المسجد فى ليالى الجمع والليالى المباركة ولاسيما فى أيام الجمع.

وجناب سعد ـ فخر المؤذنين ـ كان يوقد المجمرة طول حياة الخليفة عمرو، يتركها أمامه.

وقد راعى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ هذه العادة الطيبة وأصبح يوقد فى أيام الجمع والليالى المباركة العود والبخور ولم يترك هذه العادة إلى وفاته.

إيقاد خشب العود والبخور من الأصول المرعية لدى الجماعات الإسلامية، وتجرى هذه العادة سواء أكانت فى الحرمين الشريفين ومساجد الممالك الأخرى، ولم يترك إيقاد العود والبخور عند قراءة المولد الشريف وعندما يختم القرآن مع جماعات فى المساجد.

ولما كان إرسال البخور والعنبر والعطور الأخرى من العادات الطيبة التى يعتز بها المسلمون أوردنا فى الصورة الرابعة من الوجهة الثالثة لمرآة الحرمين كميات العود والعنبر والبخور التى ترسل لتوقد فى ليالى الإحياء وأيام الجمع فى منبر النبى المنير ومحرابه العالى، وبجانب باب كعبة الله ومقام إبراهيم والآثار المسعودة الأخرى.

يطلق أهل المدينة على تعطير الحجرة السعيدة وتبخيرها أصول التعطير، ولما كان أصول التعطير وصورته إجراء خاص بأيام الجمع؛ فإن الموظفين يأخذون الحصص المقررة لكل يوم جمعة من دهن الورد ومائه بعد أداء صلاة المغرب

ويدخلون ومعهم بخور العود والعنبر فى حجرة السعادة فيبخرونها وستارة قبر السعادة ثم يخرجون.

وإن كانت أصول التعطير عبارة عن هذا، فإن أصول التبخيرأيضا لكل ليلة ويوم جمعة فالموظفون يضعون كل ليلة قبل صلاة العشاء على طرفى محراب النبى مجمرة من العود كما يضعون كل يوم جمعة قبل الصلاة على طرفى المحراب مجمرة من «الند» وتظل المجمرتان موقدتين إلى أن يتم أداء الصلاة.

الند:

يخرج الند عند إشعاله رائحة قريبة من رائحة العنبر وهو طيب يستحسنه أهل الحجاز ويقدرونه، وبما أنه نادر ولا يمكن إعداده نقيا يصنع فى زماننا بمادة عادية، يطلقون على أعواد البخور الطويلة «ند» يستعملونها بدلا منه.

جدول مساحة حرم السعادة

الأصبع	الذراع	
١٢	١٤٧	من باب المئذنة الرئيسية إلى الجدار الشرقى لمئذنة باب السلام
١٢	١٥٩	من الجدار الشرقى لباب جبريل إلى عتبة السلام «عرض»
٠٠	٢٣٠	من الجدار القبلى حيث المحراب العثمانى إلى الجدار الشامى منتهى، مسجد السعادة «طولى»
٠٠	١٦	من جدار المحراب العثمانى إلى شبكة حجرة السعادة.
٠٠	١٤	من الجدار الشرقى إلى شبكة سبيكة النور لقدم السعادة.
١٢	٦٦	من المئذنة الرئيسية إلى عتبة الخزانة[1] المتصلة بدكة الأغوات.

(١) يقال للخزانة المتصلة بدكة الأغوات (خلوة) لفتح باب هذه الخلوة ناحية القبلة وهى خاصة بالأغوات ليضعوا فيها بعض لوازمهم. وتوضع فى هذه الخلوة زوارق الماء وأشياء خفيفة أخرى ويجتمع أمام باب هذه الخلوة قبل المغرب بنصف ساعة شيخ الحرم النبوى ومدير الأغوات والفراشون ويدعون أمام شيخ الفراشين، وبعد ذلك يأخذ شيخ الحرم الشمعدان الذى يوضع على رأس السعادة كما يأخذ نائبه الشمعدان الذى يوضع على قدم السعادة كما يأخذ الفراشون الشمعدانات التى توضع فى الجهات الأخرى للحجرة اللطيفة ويوقدونها فى أدب كامل وتعظيم ويضعونها فى أماكنها ثم يعودون.

الأصبع	الذراع		
٦	٨	من باب الجنائز إلى مرقد فاطمة رضي الله عنها	(هذا المكان أوسع قليلاً).
٠	٢	طول المصطبة	يطلق اسم المصطبة على مكان الجلوس
١٨	٢	عرض المصطبة وكذلك طول الطريق الممتد من داخل باب الهجر والمنتهى إلى باب الجنائز.	والمصطبة هنا غرفة اللوازم المتصلة بالخلوة سابقة الذكر وهى خاصة لإقامة شيخ الحرم فى المساء إلى أن توقد القناديل فى هذه الحجرة.
١٨	١٥	عرض الطريق المذكور	هذا المكان جهة الجدار الشامى للمرقد المنير الذى ينسب إلى فاطمة الزهراء.
١٢	٦	عرض الطريق الذى يمر من دكة الأغوات إلى باب الجنائز.	أعلى من الأرض مقدار ذراع ومفروش بأحجار رخامية مزين ومنقودش.
٠٠	٤		
٠٠	١٥	طول دكة الأغوات	هذه الدكة هى صفة أصحاب الصفة وقد أحيط أطرافها بسور خشبى وتعلو عن الأرض ما يقرب من ذراعين.
٠٠	١١	عرض الدكة المذكورة	
١٢	٢	عرض دكة البطالين	هذه الدكة فى مقابل صفة أصحاب الصفة وخاصة بإقامة الأغوات. الذين يطلق عليهم بطال.
٦	١٢ ٩	مؤخرة حرم السعادة من الجدار الشرقى إلى الجدار الغربى.	
١٢	١٢	من المنبر النبوى إلى المحراب الشريف.	عرض حرم السعادة
٠٠	٣٨	من منبر السعادة إلى الحجرة المعطرة يعنى داخل الروضة المطهرة.	جزء من روضة السعادة داخل فى شبكة حجرة السعادة.

عرض حرم السعادة من باب الوفود إلى الجدار الغربى.	١١ ٧	٠٠
عرضه من باب الرحمة إلى باب النساء.	١٤ ٣	١٢
من السقف الشريف الواقع فى جهة باب النساء إلى آخر عرض الحرم[1] الشريف.	٢١	٠٠
عرضه إلى آخر حرم السعادة.	٣٤	٠٠
عرض سقف مؤخر حرم السعادة.	٣٥	٠٠
طول ساحة حرم السعادة الرملية.	١٠	١
عرض ساحة حرم السعادة الرملية.	٤٩	٠٠
عرض ما تحت القباب من باب الجنائز إلى الساحة الرملية.	٧٩	١٢
طول شبكة السعادة إلى نهاية شبكة فاطمة الزهراء.	٤٥	١٢
عرض الشبكة الشامية.	٢٦	٠٠
الجهة الغربية للشبكة.	٤٠	٠٠
جهة المواجهة الشريفة للشبكة.	٣٠	٠٠
ارتفاع جدار حديقة الرسول ﷺ.	٣	٠٠
طول حديقة الرسول ﷺ.	٢٣	٠٠
عرض حديقة الرسول ﷺ.	١٦	٠٠

كانت الساحة الرملية التى فى حرم السعادة أوسع قليلاً سواء كانت طولا أو عرضا، وعندما زين السلطان محمود خان العدلى الموقع الذى يسمى الآن المنطقة الرخامية زاد مقدار الأحجار الرخامية عن الحاجة ففرش موظفو الحكومة جهات الساحة الأربعة بتلك الحجارة الزائد فضاقت الساحة الرملية. أى فرشوا بالرخام فى الجهة القبلية من الساحة الرملية مقدار ١٦ ذراعا وخمسة أذرع من الجهة الغربية منها و ستة أصابع، ومن الجهة الشامية منها أربعة أذرع وستة أصابع، إذ

(١) فى الجهة الرمليلة عمود وهذا العمود إشارة إلى المحل الذى وصل إليه توسيع مسجد النبى ﷺ فى المرة الثانية ومن هذه الإشارة إلى المحراب السليمانى ٨٦ ذراعا وإلى المحراب العثمانى ١٥٤ ذراع و٦ أصابع.

فرشوا من الجهة القبلية طولا من باب الرحمة إلى باب النساء وفرشوا غربا من الجهة القبلية إلى آخر العمود وبين الأعمدة الشرقية والغربية لجهة الشام كما فرشوا فى الجهة الشرقية إلى آخر حرم السعادة بالأحجار الرخامية المجلاة.

كانت فى حديقة الرسول سبع عشرة من أشجار النخيل كبيرة وصغيرة وأشجار التمر الهندى ولكن كان ماء هذا البئر فى غاية المرارة قديما، إلا أنه اكتسب عذوبة من قبيل المعجزة وكانت كافية لإدارة أمر أهل المدينة، ولما كانت هذه العذوبة والحلاوة مازالت مستمرة يعد أهل المدينة هذه المياه فى قيمة ماء زمزم.

الوجهة الرابعة عشرة

تتألف من أربع صور وفيها:

ذكر للأبواب العتيقة والجديدة للمسجد الشريف

والمنازل القديمة وأفاريزها ومنازل الصحابة الواقعة

على جانبى هذه الأفاريز وحال وشأن المكان

الذى اتخذ سوقًا فى عصر النبوة

فى تعريف أبواب مسجد السعادة العتيقة والجديدة

كان للمسجد النبوى قديما عشرون بابا قديما، ثمانية منها فى الجهة الغربية وثمانية منها فى الجهة الشرقية، وأربعة منها فى جهة الشام، وكانت أربعة أبواب أخرى لدخول خواص الناس وخروجهم وهى فى الجهة القبلية، وقيل إن مروان بن الحكم هو الذى أمر بفتح تلك الأبواب، وبقيت الأبواب سالفة الذكر الأربع والعشرين بناء على القول الأخير إلى عهد الخليفة محمد المهدى بالله بن أبى جعفر المنصور.

ولكن عشرين من تلك الأبواب أغلقت فى عهد الخليفة المذكور وأبقيت الأربعة مفتوحة، وفى عهد السلطان عبد المجيد خان فتح باب جديد وأصبح للمسجد خمسة أبواب:

١ـ الباب العثمانى:

هذا الباب أقرب الأبواب إلى الحجرة النبوية المعطرة وقد جدده السلطان عبد المجيد خان.

وكان باب الرحمة تجاه دار عثمان بن عفان ولذلك عرف باسم (باب عثمان) وكان يسمى كذلك باب النبى لأنه ﷺ كان يمر منه وهو فى طريقه إلى مقبرة بقيع الغرقد، ويسمى هذا الباب الآن (باب جبريل) ووجه هذه التسمية أن جبريل عليه السلام كان ينتظر النبى عنده، ففى غزوة بنى قريظة كان جبريل على فرسه لابسا الدرع يرقب النبى ﷺ عند هذا الباب.

وإن كانت مبانى باب جبريل من جملة ما رممه وعمره السلطان قايتباى المصرى

إلا أنَّ السلطان عبد المجيد قد رممه فى عام ١٢٠١هـ على هيئة غاية فى المتانة وفرش جوانبه الأربعة بالرخام وقد أزيلت عنه الأتربة على أنه ملاذ للملائكة وزينت كل جهة فيه بالخطوط الجميلة المتنوعة.

وبما أن الخطوط التى كتبت على أطراف ذلك الباب فى غاية النفاسة ورتبت على شكل جميل كان الباب العثمانى أكثر الأبواب جمالا وزينة من حيث الخطوط، وكتب الشخص الذى نظم تلك الخطوط المبسوطة فوق طاق الباب بعد البسملة.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٤)

وكتب مبتدئا من الجهة اليمنى من ذلك الطاق إلى نهاية الجهة اليسرى مع البسملة ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٩٧).

والآية:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

وكتب فى ذيل هذا السطر بخط جلى بعد البسملة الآية الكريمة

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ (ص: ٥٠).

وبيت:

وحط فى بابنا ما شئت من ثقل وكل شىء يرى صعبا يهون بنا

وفى نهاية الآية:

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (سورة الزمر/ آية ٧٣)

وفوق الجدار الأيسر للباب كتب تاريخ: «أمر بعمارة هذ الحرم الشريف النبوى حضرة مولانا السلطان عبد الحميد خان بنظر المعتمد الحاج محمد سلاحشورى سنة (١٢٠١)».

والباب العثمانى الشريف أو الأبواب التى تقع فى الجهة الشرقية من حرم السعادة من الناحية القبلية وقد هدمت فى التعميرات الأخيرة فى عهد سلطنة عبد المجيد خان كليا وغير بعض رسومه القديمة ونقشت من جديد.

وقد كتب الآن فوق طاق الباب الخارجى بخط جلى الآية الجليلة قال الله العليم الخبير فى كتابه العزيز.

: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم: ٤).

«صدق الله خالقنا رب العالمين».

وفوق طاقه الداخلى البيت البليغ فى سطرين بخط جلى:

وحط فى بابنا ما شئت من ثقل فكل شىء يرى صعبا يهون بنا

وكتبت فوق مصراعيه الأيمن والأيسر بخط جلى الآية الكريمة

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ (ص: ٥٠).

وكتبت فى ذيل هذه الآية الكريمة عبارة: «عمره السلطان عبد المجيد».

وعلى حلقاته اليمنى واليسرى كتبت الجملة المنجية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مذهبة.

وبالخروج من باب جبريل وعلى مسافة قدرها ثلاثة أذرع وشبر وفى اتجاه البقيع حجر كبير يعلو عن الأرض شبرا ويقال إن هذا الحجر قد وضع علامة على المكان الذى وقف فيه جبريل ـ عليه السلام ـ فى عصر النبوة ولكن بناء على

القول الصحيح للزم أن يكون الحجر الموضوع فى الجهة اليمنى فى داخل المسجد هو ذلك الحجر الذى وضع عليه علامة الموقع الذى وقف فيه جبريل.

حتى إن إطلاق اسم «نافذة جبريل» على النافذة الثانية التى تقع فى الجهة القبلية من ذلك الباب يومئ إلى هذه الحلقة، وقد كتب فوق النافذة المسماة بنافذة جبريل الآية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٦)

وذهبت على شكل جميل، وهناك فى الجهة القبلية من باب جبريل أى فوق جدار القدم النبوية أسس فى عهد السلطان عبد المجيد خمس نوافذ مستديرة من أعلى قد كتبت فى وسط عقودها الداخلية والخارجية فى شكل مستدير أسماء جماعات الملائكة، وقد كتب على النافذة الأولى (جبريل عليه السلام) وعلى النافذة الثانية (ميكائيل عليه السلام) وعلى النافذة الثالثة (إسرافيل عليه السلام) وعلى النافذة الخامسة (رضوان عليه السلام)، كتبت مذهبة.

وأمام هذا الباب الرباط الذى أقامه جمال الدين بن أبى المنصور الأصفهانى من وزراء الدولة الزنكية، ولقد وقف جمال الدين هذا الرباط لإيواء فقراء العجم[1] وحفر فى داخله قبرا لنفسه.

إن الرباط الذى أقامه جمال الدين الأصفهانى يتألف من ثلاثين حجرة فى أعلاه وأسفله، وبين جداره الخارجى وشبكة الحجرة المعطرة مسافة قدرها ثلاثة وأربعون ذراعا.

رواية

جمال الدين المذكور هذا ابن أخى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين بن أيوب، وقال أسد الدين شيركوه هذا ذات يوم لابن أخيه، أى واحد منا يتوفى

(١) سبب إطلاق اسم رباط على ذلك الرباط ما ذكر.

قبل الآخر يدفنه من بقى على قيد الحياة فى المدينة المنورة» وقبل جمال الدين ما أوصى به عمه إلا أن الأجل المحتوم وافاه بعد مدة[1] فقام عمه أسد الدين بإرسال نعش ابن أخيه إلى المدينة حسب الاتفاق وأنفق نقودا كثيرة وأحال الأمر إلى الشيخ أبى القاسم الصوفى ليقوم بما يقتضيه الأمر، وقد أخذ المشار إليه الشيخ أبو القاسم النعش أولا إلى مكة المكرمة وطاف بنعشه حول الكعبة ثم صلى عليه ثم أوصله إلى المدينة المنورة ودفنه فى القبر الذى أمر بحفره.

غريبة

عندما وصل الشيخ أبو القاسم الصوفى مستصحبا نعش المتوفى المذكور إلى حدود كعبة الله عاملا برأى أسد الدين شيركوه أعلن إلى الناس بأنه سيصلى عليه وطلب منهم أن يستعدو لذلك، وفى الوقت الذى يستعد للقيام بالصلاة على المتوفى قام أحد الشبان فى مكان عال، لا يعرف هويته وأنشد بصوت مرتفع القطعة الآتية:

سرى نعشه فوق الرقـاب وطالمـا ... سرى وجوه فوق الركاب ومائله

يمـر عـلى الـوادى فتثنـى رمالـه ... عليـه وبالنـادى فتثـنى أراملـه

يقول ابن سعد الذى نقل هذه الغريبة فى طبقاته بعد أن أظهر شدة تعجبه وحيرته منها: عندما استمعت إلى قطعة: «سرى نعشة» ارتفع النواح والنحيب فى صلاة جمال الدين الأصفهانى، عندما استمعت إلى هذه القطعة صلى على جنازته دون توقف حينما وجبت ثم أخذت الجنازة إلى المسجد الحرام وصلوا عليه، وبعد أن طافوا بها كعبة الله أخذوها إلى المدينة المنورة حيث صلوا عليها صلاة ثالثة، ثم دفنوا جنازته فى القبر الذى حفره.

يروي المؤرخون أن القبر الذي دفن فيه جمال الدين المشار إليه في داخل رباط العجم، وبما أنه لا يوجد الآن في داخل الرباط قبر يلزم أن يكون الضريح الذي

(١) يرى المؤرخون أن جمال الدين محمد بن أبى منصور مات فى خلال سنة ٥٧٦ مسجونا.

يلاصق ذلك الربط مدفنه، ولا ندرى كيف أخرج هذا الضريح إلي خارج رباط العجم.

المتوفي المشار إليه من وزراء بني زنكي يروي عنه معاصره المؤرخ ابن الأثير أنه زين وفرش جدار الحطيم الشريف في مكة المكرمة وما حول البيت الأعظم من جهاته الأربعة في صورة جميلة، وعَمَّرَ وجدد مسجد الخيف وحفر أحواضا في جبل عرفات وأسال الماء الذي كان قد انقطع، وأنقذ الزوار الذين يزورون بجبل الرحمة بأن صنع سلما ذا خمس أو عشر درجات تهون من المشقة، والحصن النهري حول المدينة أثر من آثار جمال الدين الخيرية.

وخلاصة القول أن المرحوم كان من أصحاب البر والخير وله في البلاد الأخرى آثار خيرية لا تعد ولا تحصى، رحمة الله عليه.

٢ـ باب ريطة (باب النساء):

وباب ريطة الباب الثاني من أبواب مسجد الرسول وبما أنه أمام دار ريطة بنت أبي العباس السفاح سمي باب ريطة.

وساحة منزل ريطة بنت أبي العباس السفاح كانت أرض المدرسة الثمينة التي بناها بازكوش من أمراء الشام خاصة للعلماء الحنفية، ولما كان بازكوش قد بذل جهدا ونقودا كثيرة لبناء هذه المدرسة أوصى أن يدفن في حظيرة هذه المدرسة ودفن فعلا بعد وفاته في داخل المدرسة بناءً على وصيته.

وبعد فترة سمي باسم بازكوش وعرف المكان باسم «زاوية الشيخ عبد القادر الجيلاني»، والآن يطلق عليه «زاوية السمان» السمان اسم رجل من رجال الطريقة الصوفية القادرية وقد عرف بالزهد والصلاح وهو ينتسب إلى بنت السمان، والزاوية المذكورة وقفت لأولاد وأحفاد هذا الشخص.

و«محمد أبو الحسن» مازال حيا وهو أصغر أبناء الشخص المذكور ولم يبق أحد آخر من أولاده.

وقد ارتحل الصِّدِّيق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ عن دنيانا إلى دار الاخرة فى الجانب الشرقى من هذه المدرسة، وبما أن حضرة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ قد سمع النبى ﷺ يقول «إننى وقفت هذا الباب للنساء» لذلك خَصَّ باب ريطة فى وقت خلافته لدخول النساء وخروجهن، ولما كان عبد الله بن عمر حيا ويعيش فى الصفة الدنيوية لم يدخل ولم يخرج من هذا الباب اقتفاءً لأثر والده، ومازال باب ريطة إلى اليوم، إلا أنه معروف باسم باب النساء.

وهو الباب الثانى من الأبواب الواقعة فى الناحية الشرقية من حرم السعادة من الناحية القبلية، وقد أبرزت جهته الخارجية بأسطوانتين وأجزاء من جدار الحرم الشريف والجهة التى أخرجت إلى الخارج وقد كتب بخط جلى على عقد الجدار الذى لف فوق الأسطوانتين الآية:

قال الله تعالى وتبارك وجل وتقدس:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وكتب كذلك على طاق الباب الأصلى الخارجى والذى يوجد فى محاذاة جدار الحرم الشريف الآية الجليلة بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل: ٣٠)، والآية:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وكتب على طاق النافذة التى تتصل بالباب من الخارج الحديث: «النجاة فى الصدق» صدق رسول الله، وعلى الطاق الداخلى للباب المذكور الآية الجليلة:

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣١)

وفوق هذه الآية الكريمة أى فى المكان الذى فوق عقد الباب المذكور نقشت هذه الآية الكريمة:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٣٢)

٣- باب عاتكة (أوباب الرحمة):

الباب الثالث للحرم النبوى الشريف هو الباب الذى يسمى «بباب الرحمة، الذى يقع فى محاذاة دار[١] عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية وكان يشتهر فى زمانها باسم «باب عاتكة».

ولما كانت سوق المدينة الميمونة أمام باب عاتكة قديما عرف واشتهر ذلك الباب فترة باسم «باب السوق».

ولكن حدث أن النبى ﷺ كان يستعد لخطبة يوم الجمعة إذْ جاء رجل من جهة «دار القضاء» وقال: «يا نبى الله! قد نفقت حيواناتنا من قلة الماء وتعب أولادنا وعيالنا، نرجوك أن تدعو الله لأجلنا أن يبعث لنا مطرا»، وبمجرد رفع النبى ﷺ يديه داعيا ظهرت ناحية جبل سلع علامات المطر والرحمة فنزلت الأمطار التى سقت مدينة الرسول ونواحيها لأجل ذلك أطلق على باب عاتكة «باب الرحمة».

دار القضاء التى ذكرت آنفا كانت داراً واسعة تمتد من باب الرحمة إلى باب السلام، وكانت ملك عمر بن الخطاب، وكان أوصى بأن تباع عند وفاته لقضاء دينه، وعندما مات بيعت لمعاوية بن أبى سفيان وقضيت ديونه لأجل ذلك عرفت من ذلك التاريخ بدار القضاء، إلا أن بعض المؤرخين ينسبون هذه الدار إلى عبد الرحمن بن عوف وأنه انزوى فى هذا البيت إلى أن بيع لحضرة عثمان.

(١) انتقلت هذه الدار بعد وفاة صاحبتها إلى يحيى بن خالد.

عندما كان زياد بن عبد الله خال السفاح العباس واليا على المدينة اشترى تلك الدار فى خلال سنة (١٣٨هـ) وألحقها بحرم مسجد السعادة.

وفصلوها بعيدًا عن المسجد الشريف وبنوا هناك بناء ليكون دائرة حكومية، وتلك هى الأبنية الجسيمة التى أسست فى ذلك الوقت والذى عرف باسم «الحصن العتيق» وفى سنة ٨١٤هـ اشتراها حاكم البنغال السلطان غياث الدين وبنى مكانها بناء جميلا بعد هدمها.

وكانت المدرسة التى بناها الأمير جوبان من قيادة الجنود المتغلبة فى سنة ٧٢٤ فى الجهة القبلية من ذلك الرباط.

كان الأمير جوبان بنى لنفسه ضريحا فى هذه المدرسة إلا أنه لم ينل شرف الدفن فيه.

وكانت «دار الشباك» المنسوبة إلى شيخ الخدم المرحوم الحريرى فى جهة باب الرحمة.

وفى سنة ٨٨٨هـ اشتريت تلك الأماكن كلها من السلطان قايتباى وهدمت وبنيت فوق مساحتها المدرسة والرباطان المنسوبان للملك المذكور وسمى ذلك الرباط فيما بعد برباط السلطان وسميت المدرسة بالمحكمة، وكان قضاة المدينة المنورة إلى وقت قريب يقيمون فى هذه المدارس، ونقلت المحكمة فيما بعد ذلك إلى مكان آخر، كما أن المدرسة آلت إلى الخراب فيما بعد فجددها السلطان محمود خان العدلى فى صورة مكملة وأضاف إليها مكتبة وأسس دارا بين باب الرحمة والمدرسة المذكورة لإقامة تلك المدرسة، وزين المكتبة المذكورة بكتب نادرة ورسائل نفيسة لم تكن موجودة فى المدينة.

وبعد خمسين عاما أشرفت سواء أكانت المدرسة أو الدار المذكورة على الخراب فجددت من قبل نجله النجيل السلطان عبد العزيز خان فأضيفت إلى تلك المدرسة حجرات عديدة فى الطابق الأول والثانى تحت نظارة شيخ الحرم أمين باشا وهدمت كليا وبنيت على أن تكون مدرسة مرة أخرى فى سنة ١٢٨٨هـ.

كان شخص يسمى أبو بكر بن مزهر[1] قد صنع فسقية فى اتصال عقد «باب الرحمة» وكانت فسقية ذات قبة سنة ٨٩٣هـ، ومازالت هذه الفسقية إلى يومنا هذا. ويقع فى الجهة اليمنى لمن يدخلون إلى مسجد السعادة من هذا الباب صنبور كان السلطان عبد المجيد قد أسسها قبل تجديد المسجد الشريف، وهذا الصنبور أمام السبيل والميضأة اللتين أقامهما السلطان أحمد خان ولم يكن للمسجد قبل ذلك باب سوى هذا الباب أى باب الرحمة فى الجهة الغربية منه، هذا الباب فى يومنا الحالى هو الباب الثانى فى الجدار الغربى للحرم الشريف، وعلى طاق هذ الباب كتبت الآية الكريمة، بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى فى كلامه الكريم:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر ٥٣).

صدق الله العظيم، وفى الطرف الداخلى لهذا الطاق:

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام ٥٤).

وعلى المصراع الشرقى (يا مفتح الأبواب) وكذلك على المصراع الغربى (افتح لنا خير الباب) مزدوجا، وعلى حلقتى المصراعين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والبسملة الشريفة سالفة الذكرُ ذُهِّبَتْ ونُسقت على هيئة الطغراء الغراء.

٤ـ باب السلام:

الرابع من أبواب مسجد السعادة الموجودة الباب الذى يعرف باسم «باب السلام» وبما أن ذلك الباب كان لصق بيت مروان بن الحكم كان يعرف فى حياته بـ «باب مروان».

وهدم سيف الدين قلاوون من الملوك المصرية فى سنة ٨٨٦هـ بيت ابن الحكم

(١) كان أبو بكر بن مزهر رئيس ديوان الإنشاء للحكومة المصرية ويعرف باسم «المقر الزينى» وكانت لهذا الشخص مدرسة فى ناحية باب الرحمة.

الذى كان متصلا بباب السلام وأسس مكانه «دار ميضأة» وبعد ذلك عرف باب السلام «بباب الخشوع».

إخطار

قد أسُس على ساحة دار الميضأة مؤخرا مدرسة بشير أغا المشهورة ونقلت الميضأة فى أثناء بناء المدرسة إلى الجهة الغربية من مسجد السعادة، وهذه الميضأة الآن أمام الشارع المعروف بـ (زرندى) وهذا الشارع على يمين من يمضى إلى الباب المصرى.

وباب السلام الباب الأول من الأبواب التى فى الجهة الغربية من حرم السعادة من الناحية القبلية، وأكبر أبواب مسجد النبى الخمسة وأكبرها زينة، وطلاؤه أخضر مائل إلى الزرقة وأحيانا أبيض وقد كتب عليه خطوط جميلة متلونة مما جعل هذا المكان أشبه شىء بالحديقة.

والخطوط التى أريد أن أعرف منظرها، وقد بدأت الكتابة من الجدار الذى على الجهة اليمنى عند الدخول.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ (الإسراء: ٨٠-٨٣).

كما كتبت الآية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ

اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴿٢٥﴾﴾ (الأحزاب: ٢١-٢٥).

وكتبت فى الصف الثالث القصيدة البليغة:

فداك أبى وأمى يا رسول الله

رســـول الله إنى مستـــــــجير
بجاهـــك والزمـــــان له اعتداء
وجاهك يـــا رسول الله جـــاه
رفيـــع مـــا لرفعته انتهـــاء
وظنى فيـــك يـــا طـه جمـيل
ومنـــك الجـــود يُعْهَدُ والسخـاء
وحـاشـــا أن أرى ضيقـــا وذلا
ولى نســـب بمدحـــك وانتمـاء
رجوتك يـــا ابن آمنـــــة لأنى
محب والمحـب لـــه رجـــاء
عسى بـك تنجـلى عنـى كروبى
وكـــم كرب لـــه منـــك انجلاء
وكم لك يـــا رســـول الله فضل
تضيـــق الأرض عنـــه والسماء
وكم لك معـجزات ظـــاهـرات
كضـــوء الشمـــس لـــه ضيـــاء
وأنت لنـــا عـــلى خلـــق عظيم
ونحـــن على العمـــوم لك الفداء

وكتب فى الصف الرابع «اللهم أيد بالنصر والعز مولانا السلطان عبد العزيز بن عبد المجيد بن محمود بن مصطفى بن سليم بن عبد المجيد بن مصطفى بن عثمان بن محمود بن أحمد بن أحمد بن سليمان بن محمد بن إبراهيم بن مراد بن مصطفى بن عثمان بن مصطفى بن أحمد بن محمد بن سراد بن سليم بن سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه، أيد الله ملكهم إلى آخر الزمان ونهاية الدوران».

وكتب على مصراع الباب الأيمن الآيات:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (الحجر ٤٥).

وعلى مصراعه الأيسر:

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ (الحجر ٤٦)

وكتبت جملة «هذه خوخة سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه» فوق باب (الخلوة) التى تقع فى الجهة الداخلية للجدار الأيسر، يعنى فوق طاقة الباب الذى استثنى من الغلق عندما صدر الأمر النبوى بسد جميع الأبواب التى تنظر إلى الحرم الشريف.

باب الخوخة الذى كتبت على طاقته الجملة السابقة الذكر هو الباب الثالث فى ناحية «باب السلام» من الجهة اليسرى.

لأن الخوخة الذى كانت بين باب السلام وباب الرحمة عرفت بخوخة أبى بكر كانت أمام المخزن وبمحاذاته، وقد ألحقت تلك الخوخة والمخزن فى عهد وليد بن عبد الملك بمسجد السعادة.

وصنعوا خوخة فى محاذاة الخوخة التى كانت تنسب إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

ولذا كانوا يبنون المدرسة الأشرفية وفتح باب المدرسة فى هذه الجهة من مسجد

السعادة، أى بين باب السلام وباب الرحمة ثلاثة أبواب وعبارة «هذه خوخة. . .» فى الباب الثالث من هذه الأبواب.

فى المكان الذى يصادف الداخلين إلى المسجد من باب السلام وعلى يمينهم أى فى الجهة الجنوبية لداخل المسجد النبوى وبعيد هذا المكان من الجهة الداخلية لجدار حرم السعادة القبلى، هناك أربعة أسطر من الخطوط النفيسة المحكوكة على حجارة، وكلها خطوط جلية وقد كتبت فى الصف الأول:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة: ١٨٥-١٨٦)

قال الله تعالى فى كتابة العزيز:

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت ٤٢).

والآية:

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٣)

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ

مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٤-١٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران: ٣٥)

إلى قوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(النساء: ٦٥)

وقوله تعالى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧)

والسطر الثانى قوله تعالى:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

صدق الله ربنا العظيم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: ١١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾

(إلى قوله)

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم رضى الله تعالى عنهم أجمعين، بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦١-٢٦٢).

صدق الله العظيم، بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

صدق الله العظيم، بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾

إلى قوله:

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (الفتح: ٢٩).

وفى الصف الثالث: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور: ٣٦-٣٧).

قال الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم،

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٩٨).

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح)

إلى آخر السورة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين أجمعين.

وفى الصف الثالث: هذه أسماء النبى ﷺ، محمد ﷺ) إلى آخر الأسماء الجليلة.

عدد أسماء النبى الشريفة مائتان وواحد، وقد كتبت كلها فى السطر والصف

الرابع، وقد كتبت ورتبت كلها على شكل مربع، جعلت صلاتها فى شكل مستدير، من زاوية باب السلام التى فى زاوية الجدار القبلى لحرم السعادة وأكُملت أمام المواجهة الشريفة.

الأبواب التى ذكرت إلى هنا وفُصِّل تعريفها أكبر من جميع الأبواب الأخرى، قد اعتيد ترك هذه الأبواب الأربعة مفتوحة من الصباح إلى المساء إلى أن أصبح عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة وكانت بعض الحيوانات تدخل إلى مسجد السعادة، فصنع عمر بن عبد العزيز فى داخل الأبواب وخارجها سياجا خشبية فحال دون دخول البهائم فى المسجد إلا أن الزوار زادوا فيما بعد فازدحم الناس فى الدخول والخروج حتى حدثت أحيانا المجادلات من أجل النعال أمام قبر الرسول ﷺ، مما يسئ إلى الرسول ﷺ، كما ظهرت فكرة أخرى أن تُرفع تلك السياج وتبدل بسلاسل حديدية وأزيلت هذه السلاسل أيضا فيما بعد وتركت الأبواب مكشوفة مفتوحة مما سبب المنازعة من أجل النعال. والأبواب فى زماننا هذا خالية من السياج والسلاسل الحديدية وتترك مفتوحة حتى المساء، وبما أنه قد صنع مكان لوضع النعال وعين لذلك موظفون عديدون فانعدمت منازعات النعال. وأصبح المصلون كالمصلين فى مساجد استانبول يخلعون نعالهم عند باب المسجد ويسلمونها لمن يتولى حفظها وعند استلامها لدى الخروج ينفحون بعض القروش لهم على سبيل الصدقة، ويرتزق بضعة من الفقراء بهذه الطريقة ويجدون قوت يومهم.

٥. باب التوسل:

الباب الخامس من أبواب مسجد النبى ﷺ هو باب التوسل ويقع فى الجهة الشامية لمسجد النبى الشريف، وقد فتح هذا الباب فى عام (١٢٦٧هـ) على عهد السلطان عبد المجيد.

ولذلك يسمى كذلك «الباب المجيدى» إلا أن ظن عامة الناس بأن «الباب المجيدى» و«باب التوسل» بابان مختلفان ظن خاطى لأن باب التوسل باب داخلى وخارجى، وبين هذين البابين تسع مدارس فوقية وتحتية قد خصصت إحدى هذه المدارس لتدريس اللغة الفارسية والبقية لتعليم اللغة العربية عذبة البيان، وأحد هذين البابين فى الجهة الخارجية للمدارس المذكورة والآخر فى جهة مسجد السعادة، ولما كان الباب الذى يفتح إلى حرم السعادة يواجه باب التوسل الذى يقع فى الجهة الشمالية للحجرة.

المعطرة أطلق عليه باب التوسل بإيحاء من السلطان عبد المجيد ووُسِمَ الباب الذى يفتح إلى خارج الحرم باسم «الباب المجيدى» وكتبت الآية الجليلة على طاق الباب المجيدى أى على طاقة مصراعى الباب الذى يفتح إلى الخارج من باب التوسل: قال الله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ صدق الله ربنا المعين. (المائدة: ٣٥)

وقد كتبت على أول عمود يقابل الداخل من أى واحد من الأبواب الخمسة إلى حرم السعادة، عبارة «نويت سنة الاعتكاف»، وكان باب التوسل أمام دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف وفى القديم كان هنا باب كذلك كما سبق تعريفه فى بحث تعمير مسجد السعادة، وعندما جدد جدار هذه الجهة من المسجد فسد ذلك الباب القديم لسبب ما. وعند الخروج من هذا الباب يُرى فى الجهة اليسرى منه صنبور وفى مواجهة الميضأة التى تشتمل على بيت الخلاء أيضا هذه المبانى الضخمة من آثار والد السلطان كثير المحامد المبرورة.

والأبواب التى عرفت إلى الآن مازالت قائمة مع باب التوسل الذى فتحه السلطان عبد المجيد والأبواب التى سيأتى ذكرها فى الآتى كلها مسدودة إلى حد أنه لا تعرف أماكنها.

١ـ باب مروان:

أحد الأبواب المسدودة المجهولة، وكان هذا الباب خاصا بدخول أمراء الأسلاف وخروجهم وكان يفتح إلى مقصورة مسجد السعادة وكان يعرف بـ (باب مروان).

٢ـ باب بيت زيت القناديل:

كان أحد الأبواب المسدودة على يمين باب مروان المسدود وكان يعرف بباب بيت زيت القناديل وبناء على ما ترويه التواريخ كان مروان بن الحكم فتحه حينما بنى البيت الذى باسمه، وبما أن وجوده وعدمه كانا يتساويان سُدَّ عندما جددت مئذنة باب السلام.

٣ـ باب المقصورة:

من الأبواب التى سُدت الباب الذى كان يقع على يسار باب مروان وهو الباب الصغير الذى كان يسمى بباب المقصورة.

٤ـ باب خوخة آل عمر:

الرابع من الأبواب المسدودة الباب الذى يعرف بخوخة آل عمر بن الخطاب فى ناحية زقاق «ديار عشرة» كان الباب المذكور قديما يفتح للزوار ويراعيه واحد من البوابين، ولما أسئ استعماله فيما بعد لاجتماع الرجال بالنساء فيه أغلق فى عصر السلطان قايتباى سنة (٨٨٨هـ) وخصص لبوابه وظيفة أخرى.

٥ـ باب على:

الخامس من الأبواب المسدودة، باب على الذى يستقر فى الجدار الشرقى أساسًا ولما كان هذا الباب مقابل دار على التى كانت متصلة بحجرة السعادة فعرف باسم (باب على) وعندما جدد الجدار الشرقى سد هذا الباب وتركت فتحة صغيرة لزيارة الدار من الخارج، وحتى من كان يدقق النظر من هذه الفتحة كان يرى داخل حجرة السعادة، ثم سُدَّتْ هذه الفتحة بالحجارة.

٦ـ باب النبى صلى الله عليه وسلم:

من الأبواب المسدودة الباب الذى اشتهر بباب النبى وسبب تسميته بذلك الاسم وقوعه أمام دار السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبى ﷺ، وعند تجديد الجدار الشرقى سد هذا الباب أيضا ووضع مكانه شبكة حجرة السعادة، والآن يقف الزوار الكرام على مساحة هذه الدار ويعرضون صلاتهم وسلامهم على سلطان الأنبياء (عليه أجمل التحايا).

٧ـ باب أسماء:

السابع من الأبواب المسدودة باب أسماء وبما أنه كان أمام بيت أسماء بنت حسين بن عبد الله بن عبيدة بن العباس بن عبد المطلب كان يقال له باب أسماء وقد سد فى سنة ٥٨١هـ عندما جددت المئذنة الشرقية الشمالية.

وقد هدمت دار أسماء بنت حسين بن عبد الله سالفة الذكر وبنى مكانها رباط خاص بالنساء.

٨ـ باب خالد بن الوليد:

أحد الأبواب المسدودة الباب الذى كان أمام بيت خالد بن الوليد، وسبب تسميته بذلك الاسم وقوعه أمام دار خالد بن الوليد، وقد هدمت دار خالد بن الوليد هذه مؤخرا وبنى على مساحتها رباط وسبيل وكان بيت عمرو بن العاص فى الطرف الشمالى إلى الرباط.

٩ـ باب زقاق دار المناصع:

باب زقاق دار المناصع يواجه شارع دار المناصع، وكان هذا الباب بين دار عمرو بن العاص وبيوت الصدفية ودار على العسكر المشهورة و«حوش الحسن» كانت أمام هذا الباب وقبل أن يسد كانت طائفة النساء تدخل وتخرج من هذا الباب.

١٠ـ باب أبيات الصوافى:

هو الباب العاشر المسدود وكان فى منتهى الجدار الشرقى للمسجد الشريف

وأمام الدار التى يقال لها دار موسى بن إبراهيم المخزومى وبقى مؤخرا فى داخل الجدار، واشترى الشيخ صفى الدين سلامى هذه البيوت التى تسمى أبيات الصوافى ووقفه أولا لأقاربه ثم لإيواء الفقراء، وكانت للأبيات المذكورة باب اخر يدخل منه لعمارة الشيخ صفى المشار إليه والتى تعرف باسم «رباط النخلة» وسد فيما بعد هذا الباب أيضا.

١١ ـ باب دار الضيافة:

واحد من الأبواب المسدودة هو الباب الذى كان فى الجهة الشامية من مسجد السعادة وأمام دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف، وكان حضرة عبد الرحمن قد تعود أن يطعم ضيوف النبى ﷺ، ولهذا سمى «باب دار الضيافة» وفى سنة ٦٢٧هـ اشترى المستنصر دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف وأنشأ هناك مستشفى وجعلها مأوى للمرضى الغرباء ومسكنا.

١٢ ـ باب دار الحميد:

ولما كان هذا الباب يقابل الجهة الأخرى من دار الحميد بن عبد الرحمن بن عوف اشتهر بباب دار الحميد ثم سد هذا الباب أيضا مثل الأبواب الأخرى، وساحة دار حميد فى هذه الجهة مساحات رباط الطاهرية والشرشورية.

١٣ ـ باب أبيات خالصة:

الثالث عشر من الأبواب المسدودة «باب خالصة»، الذى يقع أمام دار الحميد التى فى مقابل أبيات خالصة، والرباط الذى أحياه الشيخ شمس الدين التسترى كان بجانب هذا الباب.

١٤ ـ باب بقية أبيات خالصة:

أحد الأبواب المسدودة باب «بقية أبيات خالصة» لما كان الباب المذكور فى نهاية الأبواب الشامية وفى الجهة الأخرى من أبيات خالصة، أطلق عليه «باب بقية أبيات خالصة».

١٥ ـ باب دار منيرة:

أحد الأبواب المسدودة الباب الذى يقال له باب دار منيرة، وهذا الباب من أبواب الجهة الغربية بما أنه فى اتصال دار منيرة الحاضنة جارية أم موسى كان يعرف باسم باب دار منيرة، ودار منيرة الحاضنة من جملة بيوت عبد الرحمن بن عوف وانتقلت من يد لأخرى حتى وصلت ليد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ومنه إلى جارية أم موسى منيرة الحاضنة كما أن ساحة. دور ابن عوف فى زقاق قياشين انتقلت ليد قاضى الحرمين المشهور السيد محيى الدين الحنبلى.

فأسس محيى الدين الحنبلى فوق هذه الساحة داراً فى غاية الفخامة وبعد مدة وقفت هذه الدار لإقامة قضاة الحنابلة. وفى هذا العصر يقيم مفتيو الحنابلة فى هذه الدار ويستريحون.

١٦ ـ باب بقية دار منيرة:

السادس عشر من الأبواب المسدودة كان الباب الذى يقابل الجهة الأخرى من دار منيرة الحاضنة والذى يشتهر بباب بقية دار منيرة، ووقفت هذه الجهة من الدار فيما بعد لإقامة خدم مسجد السعادة وسُدّ الباب المذكور، وأحد هذين البابين كان ظاهر الآثار إلى وقت قريب.

فى ذكر المنازل القديمة
التى تحيط بمسجد السعادة من جهاته الأربعة

يقع منزل عبد الله بن عمر بن الخطاب فى الجانب الشرقى لجدار مسجد السعادة القبلى وفى الأصل كان هذا المنزل دار السيدة حفصة (رضى الله عنها).

وكانت ساحة هذه الدار فى الأول مكانا لتجفيف البلح عندما وسع عثمان بن عفان المسجد اشترى الساحة من صاحبها وأهداها إلى والدتنا المشار إليها، وفتح لها بابا إلى المسجد الشريف، وبعدما فتح هذا الباب اشتهرت ساحة ذلك البيت بـ «دار آل عمر» وفى آخر الأمر انتقلت تلك الدار لملكية عبد الله بن عمر.

وكانت فى الجهة الغربية من دار آل عمر دار «مروان» بن الحكم، وبقى جزء من ساحة هذه الدار من ساحة بيت حضرة عباس، لأن عمر بن الخطاب عندما وسع مسجد السعادة للمرة الأولى ضم نصف هذا البيت إلى مسجد السعادة وظل النصف الآخر خاليا وأصبح هذا المكان ميدانا صغيرا، فاشترى فيما بعد مروان بن الحكم هذا الميدان وبنى منزله المذكور.

قد بنى منصور قلاوون المصرى فى سنة ٦٨٦هـ فوق ساحة دار مروان بن الحكم ميضأة كاملة، إلا أن وجود الميضأة بجانب مسجد السعادة أصبح غير لائق بسبب الرائحة الكريهة التى تنبعث من هذه الميضأة والتى جعلت الوقوف داخل المسجد الحرام مستحيلاً، فهدم شيخ الحرم النبوى بشير أغا دور الخلاء تلك فى عهد السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى خان وبنى هناك مدرسة كاملة منسوبة لاسم السلطان.

المدارس ـ

كانت فى البلدة الطاهرة غير المدرسة المحمودية سالفة الذكر اثنا عشر مدرسة أخرى هى.

١ ـ المدرسة المحمودية.
٢ ـ مدرسة بشير أغا.
٣ ـ مدرسة أزبك.
٤ ـ مدرسة ناظر الكيل.
٥ ـ مدرسة الشيخ مظهر.
٦ ـ مدرسة حسين أفندى.
٧ ـ مدرسة ساقزلى
٨ ـ مدرسة ثروت أفندى.
٩ ـ مدرسة أرنبود أفندى.
١٠ ـ مدرسة قره باشا.
١١ ـ مدرسة الشفاء.
١٢ ـ مدرسة فنايرجى.

إلا أن أشهر المدارس وأكثرها نظاما كانت المدرسة المحمودية، وسبب ذلك وجود هذه المدرسة متصلة بمسجد السعادة بين باب السلام وباب الرحمة، وفى الواقع كفى هذا شرفًا لهذه المدرسة فالحاجة للبحث عن أشياء أخرى لا يرجح كفة المدرسة على المدارس الأخرى.

وكان لمدرسة المحمودية ما يقرب من أربعين حجرة لإقامة الطلبة، وفى وسطها حديقة وفى الجهة الغربية شادروان فسقية، ومن حيث الانتظام كانت أولى مدارس البلدة الطاهرة وقد جددها السلطان محمود خان العدلى فى سنة ١٢٣٧ فى صورة جميلة.

وكانت لمدرسة المحمودية مكتبة جميلة وحجرات منتظمة وكان لسكان الحجرات رواتب كافية من مصر، وكنت تجد فى مكتبتها أى كتاب تبحث عنه.

المكتبات ـ المكتبات المشهورة والمعروفة اليوم فى البلدة الطاهرة بعد مكتبة المحمودية هى:

١ ـ مكتبة شيخ الإسلام السابق عارف حكمت بك، وهذه المكتبة تقع مقابل دائرة نائب الحرم النبوى فى ديار عشرة.

٢ ـ مكتبة شيخ الحرم أمين باشا ـ هذه المكتبة قريبة من الشرشورة وعلى شارع المديرية.

٣ ـ مكتبة بشير أغا ـ مكتبة أغا دار السعادة الشريفة الأسبق بشير أغا فى داخل مدرسة بشير آشكا الملاصقة لباب السلام.

٤ ـ مكتبة الحميدية ـ هذه المكتبة فى داخل المدرسة الحميدية وفى مكان يقال له «حارة الحزارة» فى نهاية الرصيف الذى فى حى الساحة.

٥ ـ مكتبة جمل الليل ـ هذه المكتبة فى دار المرحوم السيد جمل الليل.

٦ ـ مكتبة البساطى ـ وهى مكتبة أحمد بساطى أفندى من أهالى المدينة المنورة ومن خطباء الحرم الشريف.

٧ ـ مكتبة رباط سيدنا عثمان ـ فى داخل الرباط المنسوب لحضرة ذى النورين.

٨ ـ مكتبة المرحوم شيخ الإسلام السابق فيض أفندى وهى فى داخل مدرسة الشفاء.

٩ ـ مكتبة قره باشا عمر أفندى ـ فى داخل المدرسة المنسوبة لقره باشا عمر أفندى من الموالى الكرام.

١٠ ـ مكتبة مصطفى أفندى من ساقز ـ فى داخل المدرسة المنسوبة لمصطفى أفندى من الموالى الكرام.

١١ ـ مكتبة أرنبود ـ فهى من آثار مصطفى أفندى من المجاورين يعرف «بإحسانية».

١٢ ـ مكتبة الشيخ غفور أفندى ـ وقف عبد الغفور أفندى البخارى من المجاورين فى داخل التكية التى تنسب له.

١٣ ـ مكتبة مظهر أفندى ـ أثر الشيخ مظهر أفندى من أولاد الإمام

الربانى مجد الألف الثانى الشيخ أحمد الفاروقى السر هندى وهى داخل التكية المنسوبة له.

١٤ ـ مكتبة حسين أغا ـ وقف حسين أغا ناظر التكية المصرية الأسبق فى المدرسة التى تنسب لاسمه.

١٥ ـ مكتبة فنايرجى ـ تنسب للمرحوم أمين أفندى من المجاورين فى داخل المدرسة التى تنسب لاسمه.

١٦ ـ مكتبة ثروت أفندى ـ وقف محمد ثروت أفندى من المجاورين القدماء الذى مازال حيا.

١٧ ـ مكتبة الكيلى ـ أثر ناظر الكيل وهو من المجاورين فى داخل المدرسة التى تنسب له.

١٨ ـ مكتبة سليم بك ـ وهى وقف سليم بك أفندى من رؤساء حجاب السلطان عبد المجيد خان.

١٩ ـ كمية ومقدار المصاحف الشريفة والكتب النفيسة فى داخل المكتبات المذكورة من حيث المجموع.

عدد	مكان وجودها
١٨٠١	المصاحف الشريفة الموجودة فى الروضة المطهرة مضافًا إليها المصاحف الشريفة التى عرفت فى الصورة المخصوصة.
٥٤٠٤	ما فى مكتبة عارف حكمت.
٠١٥٨	ما فى مكتبة الحاجى أمين باشا.
٢٠٦٣	ما فى مكتبة بشير أغا.
١٦٥٩	ما فى المكتبة الحميدية.
٠٠٠٠	لم يحقق ما فى داخل مكتبة جمل الليل من كتب.
١٢٤٦	ما فى مكتبة بساطى أفندى.
٠٠٠٠	لم يحقق ما فى داخل مكتبة رباط سيدنا عثمان.
١٢٤٦	ما فى مكتبة فيض الله أفندى.

عدد	مكان وجودها
١٢٤٦	ما فى مكتبة قرة باش.
٠٥٩٣	ما فى مكتبة ساقزلى.
٤٦١	ما فى مكتبة أرنبود.
١٢٩	ما فى مكتبة الشيخ عبد الغفور.
١١٠٠	ما فى مكتبة مظهر.
٠١٠٠	ما فى مكتبة حسين أغا.
٠١٥٠	ما فى مكتبة فنايرجى.
٠٢٠٦	ما فى مكتبة ثروت أفندى.
٠١٥٧	ما فى مكتبة الكيلى.
٠٥٠٠	ما فى مكتبة سليم بك.
٠٤٥٦٩	ما فى مكتبة المحمودية.
٢٢٦١٥	المجموع

ما عد هذه المكتبات المذكورة كان فى كل مدرسة مكتبة، ولما كانت هذه الكتب بالنسبة للكتب الموجودة فى هذه المكتبات التى ذكرت أقل القليل صرف النظر عن ذكرها. انتهى.

وكان كذلك ليزيد بن عبد الملك منزل فى الجهة الغربية من دار مروان بن الحكم مكان منزل آل أبى سفيان، وكان منزل يزيد بن عبد الملك عند إنشائه أجمل المنازل فى المدينة، فهدم مؤخرا وصنع مكانه سبيل ووكالة، وبنى بجانب ساحة هذا المنزل الغربى القبلى مبنى من قبل السلطان قايتباى المصرى فى غاية الكمال فأسكن فيه الفقراء والمجاورين فأحيوا، ولكن ما بنته خاصكى سلطان، والسلطان مراد الرابع من عمائر قضت على شهرة عمارة قايتباى.

وكانت خاصكى سلطان إحدى زوجات السلطان سليمان بن السلطان سليم خان، وكانت العمارة التى بنتها خارج سور المدينة بالقرب من المصلى النبوى

وكانت عمارة ذات طابقين لا مثيل لها، وكان فى وسط هذه العمارة مسجد ذو مئذنة واحدة وله كثير من الأئمة الموظفين والخدم وكان أهالى السوق الذين لا يستطيعون أداء الصلاة فى المسجد النبوى يصلون فى هذا المسجد.

وكان يصنع فيها حساء الدشيشة والخبز فى كل يوم وتوزع على الفقراء والضعفاء والمساكين والغرباء ولكن لشدة الأسف قد استولى على هذه العمارة بعد مرور وقت محافظو المدينة وبعد فترة اتخذوها دائرة حكومية فسكن فى حجرات الطابق الأعلى بعض أغوات المحافظين ذات الأهمية كما كان يحبس المتهمون فى حجرات الدور الأرضى، ومازالت مئذنة المسجد قائمة ولكنها أشرفت على الخراب، ولا يليق أن يصل ما بناه أجداد السلاطين العثمانيين معبدا إلى هذا الحد من السوء، فإذا ما جعل لسكنى الفقراء على الأقل كان فيه منفعة أخروية.

والمدرسة الفخمة التى بنتها خاصكى سلطان فى مكان قريب جدا من المسجد الحرام فى مكة قد استولى عليها القادرون من أهل مكة المكرمة وتؤجر للحجاج المسلمين، وإن كان تحسين حالة العمارة المذكورة فى المدينة غير ممكن، فإن المدرسة التى فى مكة المكرمة مازالت قائمة، وبما أنها تؤجر الآن للحجاج ترى هينة، ولو أجرت هذه المدرسة للموظفين الذين يعملون فى الدوائر الحكومية ستجذب إلى خزانة الدولة الجليلة ـ بقيد ما يدفعونه ـ إيرادا للخزانة؛ لأن المدرسة لا يستفيد منها الآن غير متسلطى الزمان. انتهى.

كان أمام بيت يزيد بن عبد الملك الدار التى اقتطعها الرسول ﷺ لـ «مطيع بن أسود. ويقال لهذه الدار «دار ابن مطيع» أيضا، وكان بياعو الفواكه فى ذلك العهد يبيعون ويشترون أمام باب هذا المنزل.

وانتقلت هذه الدار مؤخرا لإدريس بن سعد بن أبى السرح، وفى خلال سنة ٨٤٠هـ اشتراها عبد الباسط الزينى من أبى السرح وهدمها حتى الأرض وبنى فوق ساحتها مدرسة الباسطية أمام المدرسة التى تسمى «الأشرفية».

وكان فى ناحية الجدار الغربى للمسجد الشريف منزل (ابن مكمل) ولما اشتهر هذا المنزل بالشؤم هدم فيما بعد وبنيت مكانه مدرسة «جوبانية».

وفى الجهة الشمالية لابن مكمل منزل «تخام العدوى» وبين هذين البيتين طريق فى عرض ستة أذرع؟ ودار تخام العدوى مقابل باب الرحمة وكان لها باب يفتح إلى زاوية ساحة دار القضاء، والآن سبيل مدرسة الزهرية على ساحة تلك الدار.

وكان بجانب بيت تخام العدوى منزل جعفر بن يحيى، «ومنزل عاتكة» بنت يزيد الجميل وبرج حسان» بن ثابت الذى يقال له «فارغ» كانا فى داخل هذا المنزل وبما أنه خرب وانهار بنوا مكانه مدرسة الزهرية».

وكان فى الجهة الشامية لمنزل جعفر بن يحيى رباط «كليركية» والمنزل الخاص بسكنى السيدة سكينة[1] رضى الله عنها والذى كان يسمى دار النصير. واشترى الإمام السمهودى دار النصير هذه ووقفها لإقامة أقاربه. وأمام دار النصير طريق فى عرض ستة أذرع ينتهى إلى دار طلحة بن عبد الله. وفى الجهة الشامية من هذا الطريق منازل طلحة بن عبد الله، وفى غرب منزل طلحة منازل أبناء الزبير بن العوام «عودة» و «عمرو» وفى اتصالهما منزل منيرة جارية أم موسى الذى انتقل لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب.

وفى اتصال دار منيرة من الجهة الشامية، أى فى زاوية الشارع الذى يعطف إلى المخبز فى تلك الجهات باب صغير لآل يحيى بن طلحة، وفى اتصال هذا الباب، بيت «طلحة بن أبى طلحة» الأنصارى، وفى اتصاله البيت المشهور باسم «نزيل الكرام»، وفى الجهة الأخرى من هذا البيت طريق فى عرض خمسة أذرع وفى الجهة الأخرى من هذا الطريق منزل جارية تسمى «هالة» وفى الجهة الشرقية من هذا البيت مستشفى المستنصر بالله، وفى جنبها «دار الحميد» المنسوب لـ «أبى

(١) السيدة سكينة بنت حسين بنت على رضى الله عنها بنت حسين بن على من صلبه اسمها الأصلى «امينة» وكانت تشتهر بين علماء عصرها الأدباء بالظرف والفضيلة والعلم وحسن الطبع وإن كان يروى أنها مدفونة فى الشام فالحقيقة أنها مدفونة فى مصر مع «زينب الكبرى» بنت فاطمة الزهراء والآخرين من أهل بيت النبوة وضريحها مشهور رضى الله عنها وعنهن أجمعين.

لغيث بن المغيرة» بن حميد بن عبد الرحمن، وهو البيت الذى خصصه عبد الرحمن بن عوفٌ - رضى الله عنه - لاستقبال وإقامة ضيوف النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ أمر بذاته ببناء هذه الدار. وساحة هذه الدار السعيدة وأرضها الآن المحل الذى أقيم فيه «رباط الطاهرية» فى جانب دار الحميد والذى يعرف اليوم باسم دار الضيافة. وفى اتصالها كانت دار ابن مسعود الموسومة بـ «دار القرار». وقد أُخذ بعض أجزاء دار القرار فى عهد وليد بن عبد الملك والجزء الآخر فى عهد مهدى بن هارون الرشيد، وألحق بمسجد السعادة وإن كان المؤرخون رووا أن بعض أجزاء دار القرار. التى فى الجهة الشامية من المئذنة الشرقية والجهة الشرقية من دار المضيف، ظلت خارج مسجد السعادة إلا أن هذا القول غير صحيح.

وفى الجهة الشرقية من جدار مسجد السعادة منزل موسى بن إبراهيم مقابل دار الضيافة، وفى جهته الشرقية الميضأة المعطلة ودار رئيس المؤذنين، وبين هذين البيتين. كان الطريق الذى يسمى بـ «خرق الجمل» وبما أن هذا الطريق كان ينتهى إلى حصون المدينة المنورة القديمة اشتهر «بزقاق الجمل» ومازال معروفا إلى الآن بهذا الاسم.

وكان منزل «أنس بن مالك» السعيد فى الجهة الشامية من سور المدينة وبين هذا المنزل وبين «زقاق الجمل» بيت «فاطمة بنت قيس» وفى اتصاله أرض «دار موسى» من بيوت قهيطم. واشترى هذه المنازل وساحة «دار رسام» فى اتصالها القاضى الفاضل فيما بعد وبنى على أرضها رباطا فاخرا. وكان منزل «عمرو بن عاص السهمى» فى جهة الطريق الذى ينتهى إلى حى حوش حسن، وكان هذا الطريق فى اتصال هذا الرباط، وفى جهة منتهى رباط السبيل[1] وكان بجانب دار عمرو بن العاص السهمى دار «خالد بن الوليد» ولما انقطعت ذرية خالد بن الوليد انتقلت تلك الدار إلى أولاد أخيه عبد الله بن الوليد.

(١) الجزء الأمامى من هذا الرباط ساحة الدار المنسوبة لخالد بن الوليد.

وقد عرض خالد بن الوليد على النبى ﷺ ضيق هذه الدار وعدم استيعابها لأولاده وعياله فرد عليه النبى ﷺ «إذا أردت تستطيع أن ترقيها وتعليها حتى السماء» يعنى تستطيع أن تضيف إليها عدة حجرات أخرى.

وكان بجانب دار خالد بن الوليد منزل «جبلة بن عمرو الساعدى» وبجانبه منزل ريطة بنت أبى العباس، وكان منزل جبلة بن عمرو الساعدى - رضى الله عنه - بنى فوق ساحة منزل الصديق الأعظم - رضى الله عنه - وانتقل فى فترة ما إلى أسماء بنت الحسين العباسى، وهدم مؤخرا وبنى مكانه «رباط النساء».

وكان بيت الصديق الأكبر الذى انتقل إلى جبلة بن عمرو الساعدى أمام دار عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الصغيرة وفى شارع بقيع الغرقد. وكانت هذه الدار الصغيرة خلف بيت عثمان بن عفان الكبير. وهذه الحجرة المباركة ماتزال قائمة حتى الآن وتعرف «بمشهد عثمان».

وأمام الدار الصغيرة طريق فى عرض خمسة أذرع ويمتد حتى مقبرة بقيع الغرقد. والدار الكبيرة التى تنسب لعثمان بن عفان فى مقابل مدرسة الشهابية، يفصل بينهما طريق فى عرض خمسة أو ستة أذرع. قد بنيت فوق مساحة الدار الكبيرة دائرة مشيخة خاصة بشيوخ الحرم إذ استصغر شريف باشا، وكان شيخ الحرم النبوى فى عهد السلطان عبد الحميد خان، دائرة المشيخة القديمة وحصل على إدارة سنية لبناء دار جديدة للمشيخة وبنى دائرة تشتمل على خمس وأربعين حجرة وأعلى من القبة الخضراء النبوية وكانت هذه الدائرة الواسعة فى الجهة الشرقية من حجرة السعادة وعلى بعد خمسة عشر ذراعا ومع ذلك بنى قصرين لا مثيل لهما أمام باب جبريل، ولم يتجرأ أحد أن يبنى فى داخل المدينة مبنى فى هذا الاتساع وهذا العلو تأدبا. فكتب بعض المعترضين على جدران تلك الدائرة ليلا بيتًا ضَمَّنَهُ عدم الارتياح لما قام به شريف باشا:

وأخذ الناس يتحدثون فى اجتماعاتهم شريفهم ووضيعهم قائلين إن شريف باشا لن يستطيع أن يقيم فى هذه الدائرة الفخمة.

وفعلا حدث ما يتوقعون. إذ وجه إليه ولاية جدة ولما يتم بناء دائرة المشيخة وبهذه المناسبة لم يستطع أن يجلس ولو ساعة واحدة لإجراء الحكم فى الدائرة التى بناها وفقا لأفكاره الهندسية (لسان الخلق أقلام الحق).

وساحة المدرسة الشهابية أى الساحة المقابلة لدار عثمان بن عفان هى أرض دار أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ حيث استضاف النبى ﷺ. وقد انتقل ذلك البيت الذى لا مثيل له من يد إلى أخرى وفى النهاية اشتراه مظفر شهاب الدين الغازى أخو الشهيد سلطان نور الدين وبنى مكانه المدرسة الشهابية وخص بها علماء المذاهب الأربعة، وكان فى اتصال بيت أبى أيوب الأنصارى بيت الإمام الهمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام حسين بن الإمام على بن أبى طالب «رضى الله عنهم».

وكان السبيل والمسجد الشريف اللذان ينسبان لأوقاف الإمام كانا فى داخل هذه الدار، ولقد انتقلت تلك الدار مؤخرا ليد حارثة بن النعمان، وتنازل ابن نعمان، بدوره عنها لشاهين الجمالى الشجاعى. وبنى شاهين الجمالى هناك داراً خاصة به وجدد مسجد الإمام جعفر فى صورة عظيمة، وأحياه.

وكان منزل الإمام حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب مقابل منزل الإمام جعفر من الجهة الغربية وفوق ساحة الحصن المعروف بـ «قويرع» وفى النهاية دخل سواء أكانت دار الإمام حسن بن زيد أو بيت الإمام جعفر تحت تصرف أمير الحرمين السيد الشريف محمد بن بركات.

وكان بيت فرج الحصين مقابل بيت حسن بن زيد أى فى مقابل المدرسة الشهابية، وكان منزل عامر بن عبد الله بن عبد الله بن الزبير بن العوام بجانب دار فرج الحصين، والدار التى كان يطلق عليها دار آل عمر فى اتصال دار عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام والرباط الذى يعرف الآن باسم (مراغة) فوق عرضه دار فرج الحصين.

فى ذكر الأرصفة التى كانت تحيط المسجد النبوى الشريف فى عصر السعادة وبيوت الصحابة التى استقرت على جانبى هذه الأرصفة (رضى الله عنهم)

اختلف المؤرخون القدماء فى الوقت الذى صنعت فيه الأرصفة التى على جهات مسجد السعادة الأربعة، قال بعضهم: «إن أرصفة المدينة المنورة أحدثت فى عهد حضرة معاوية»، وقال بعضهم رادين قول الأوائل: «وإذا ما نظرنا عندما دخل جابر بن عبد الله مع رسول الله إلى مسجد السعادة وقوله «وتركت جملى على الرصيف» ورواية رجم يهوديين على الرصيف وما نقل أن عثمان بن عفان كان قد توضأ فوق الرصيف ظهر أن هذا الرصيف كان فى عهد الرسول ﷺ».

والرصيف الذى أنشأه معاوية بن أبى سفيان رصيف موضع الجنائز الذى فى الناحية الشرقية من مسجد السعادة.

ونحن أيضا نحكم بصحة القول الثانى لما ساقوا من أدلة قوية ترجح قولهم».

بناء على قول الثقاة الذين يبحثون عن الحق كان هناك عدة أرصفة متصلة بمسجد السعادة.

١ ـ الرصيف الأول من هذه الأرصفة «كان يبدأ من باب الرحمة مارًا بسوق الصياغ والعطارين ويستمر إلى ضريح مالك بن سنان «رضى الله عنه» ومن هناك يميل وينعطف قليلا ناحية دار السلام ثم يعود فيتصل أمام باب الرحمة.

٢ ـ الرصيف الثانى من الأرصفة التى كانت فى عصر السعادة كان يبدأ من باب السلام ويمتد إلى أن يتصل ببوابة الحصن التى كان يطلق عليها باب السويقة دون انعطاف ولا انحراف إلى أى جهة ثم كان يعود إلى ناحية مصلى العيد

وينتهى عند منزل ابن هشام، كان هذا الرصيف يمتد إلى نهاية مسجد السعادة بطريق الجهة الشرقية عن طريق بقيع الغرقد إلى منزل المغيرة بن شعبة ومن الناحية الشامية إلى نهاية مسجد السعادة كما قلنا، وكان أحد الجهتين يتصل برصيف باب الرحمة فيعود من هناك وينقطع عند الدار الكبيرة التى تنسب لعثمان بن عفان لأن الأبنية التى فى الجهة القبلية من مسجد النبى ﷺ بنيت ملاصقة للأبنية المقدسة لذلك لم تكن فى هذه الجهة أرصفة، وبناء على هذا التعريف فإن الرصيف الذى كان ينتهى إلى المصلى النبوى كان أكبر الأرصفة وكانت جهتاه مزينتين ببيوت عالية، وكان فى الجهة اليسرى لمن يتوجهون إلى مسجد السعادة من مصلى العيد النبوى منزل إبراهيم بن هشام وفى الجهة اليمنى التى تميل إلى الغرب يوجد منزل سعد بن أبى وقاص، وكان يفصل بين هذين المنزلين طريق كبير.

والجهة اليمنى من منزل سعد بن أبى وقاص كان المنزل الذى أخذه من الإمام أبى رافع وفى الجهة اليسرى أيضا بيت منسوب للمشار إليه وكان يفصل بين هذين المنزلين طريق فى عرض عشرة أذرع. وكان حضرة سعد قد وقف جميع هذه المنازل فى حياته.

وكان فى اتصال منزل سعد الثانى وفى الجهة الشامية دار مشهورة بدار نوفل بن مساحق العامرى منسوبا إلى آل خراش من بنى عامر بن لؤى. كما أن خلف هذا المنزل كان «مكتب العودة» متصلا بمسجد بنى زُرَيْق. وكان فى الجهة اليمنى من منازل آل خراش الدار التى يطلق عليها «منزل حفصة» وفى الجهة القبلية من هذه الدار. دار عمار بن ياسر وفى جهتها الشرقية دار عبد الرحمن بن الحارث، وفى الجهة القبلية من هذه المنازل مسجد «بنى زريق» وفى الطرف الشرقى منها شارع «دار عبد الرحمن بن الحارث» ودار أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ فى هذا الصف، ولكن تلك الدار ستذكر فى الطريق الذى كان النبى ﷺ يعود منه من صلاة العيد، وإذا ما دخل الآن من باب المدينة المنورة إلى داخل المدينة واتجه ناحية مسجد السعادة فأول زقاق يصادفه الإنسان أرض دار عبد الرحمن بن

الحارث. وإذا ما رجع الإنسان من هناك لبقيت تلك الأرض فى اليمين. ومن كان فى هذا الموضع يصادف للجهة اليمنى القبلية مسجد بنى زريق. والذين يدخلون من باب المدينة إلى الداخل ففى جهتهم اليسرى الشامية توجد «دار آل خراش» ودار الربيع، ودار نافع بن عتبة بن أبى وقاص، وعلى الطرف الأيسر منهم «دار حويطب بن عبد العزى ودار آمنة بنت سعد بن أبى وقاص» وعلى جانبه «دار عمرو بن أبى وقاص، وفى اتصالها زقاق عبد الرحمن بن الحارث وفى الجهة اليمنى فى هذا الزقاق «دار عبد الرحمن بن عوف»، وعلى يمينها» زقاق أبى أمية بن المغيرة وأمامه وعلى يمين الزقاق، «دار خالد بن سعد! يقال لها بيت ومنزل ابن عقبة ـ أيضا ـ وأمامه دار أبى الجهم مالك بن أبى عامر، وبجانبهم «دار نوفل بن عدى» وكل هذه المنازل كانت منازل ذلك العصر المشهورة والمنتظمة.

قال موسى بن عقبة: قتلوا يهود بنى قريظة وأعدموهم على الرصيف الذى بجانب دار أبى الجهم، حتى سالت دماؤهم على حجارة[1] المحلات التى تبيع زيت الزيتون إلا أن قول موسى بن عقبة مخالف لأقوال أئمة السير الذين قالوا إن النبى ﷺ حفر حفرة فى سوق المدينة حيث قطعت أعناقهم بالسيف.

ومن هنا فقول موسى غير قابل للتأويل والقبول.

(١) هذه الحجارة بجانب مشهد مالك بن سنان وأمام البيت الذى أعطاه عمر بن الخطاب لعباد بن عبد المطلب، ويقال لهذا المكان فى عصرنا «قبان الزيت».

فى تعريف السوق التى أرادها النبى ﷺ لأهل المدينة وجهاتها

أراد النبى ﷺ أن يعين لأصحابه الكرام مكانا للسوق للأخذ والعطاء فشرف أولا سوق «بنى قينقاع» ثم سوق المدينة وضرب الأرض برجليه المباركتين قائلا «هاهنا سوقكم، فلا يضايق بعضكم البعض، فلا تأخذوا ضريبة وجزية»، وبناء على قول ابن زبالة أن النبى ﷺ، شرف يوما حى بنى ساعدة ليختار مكانا للسوق، وخاطب أفراد بنى ساعدة قائلا: «لا إننى جئت إليكم طالبا حاجة منكم، أعطونى مقبرتكم، وسووها واتخذها سوقا».

وبما أن جماعات بنى ساعدة قبلوا ذلك وأعطوا مقبرتهم فضرب بقدميه على الأرض قائلا «ها هى السوق التى ستقيمونها للتجارة» وعين لهم حدودها الأربعة، وعلى ذلك سطحت مقبرة بنى ساعدة وأقيمت هناك السوق، وكانت مقبرة بنى ساعدة فى الجهة الشرقية لدار أبى ذئب.

وكانت إحدى جهات السوق التى أرادها النبى ـ عليه السلام ـ مصلى العيد، وجهة أخرى منها الفاصلة التى بين سبيل سعد بن عبادة، الجهة الثالثة سبيل سعد بن عبادة، والجهة الرابعة حدود «ثنية الوداع» وكان حدود «بقيع الخيل الأربعة» داخل السوق التى عُرِّفَتْ.

كان أهل المدينة يتبادلون التجارة فى السوق المذكورة إلى عصر عبد الملك بن مروان، وقد اشترى إبراهيم عبد الملك فى عهد حكم أخيه هشام بن عبد الملك ١٠٦هـ المحالّ المذكورة، وأغلق أبواب ونوافذ تلك البيوت الناظرة إلى السوق، وسد وأغلق كل المعابر كل واحد من تلك المحال ثم أسس كثيرا من البيوت

والمنازل وأجرها. وفتح أبوابا لكل منزل أجره لتكون خاصة للمستأجرين بالذين أستأجروها لعبورهم ومرورهم فى زاوية منزل عمر بن عبد العزيز الواقع فى الجهة الشامية من تلك البيوت التى أنشأها وفى نهاية رصيف مصلى العيد يعنى بجانب دار عباس المعروفة بـ «الزوراء» التى فى قرب ضريح مالك بن سنان وأغلق جميع مناظر ومناور البيوت الكائنة فى جهة دار عباس «الزوراء» ولكن بيوت الإيجار التى بناها إبراهيم بن عبد الملك هدمت بعد وفاة هشام بن عبد الملك من قبل سكنة دار السكينة.

وأعيدت إلى حالتها الأولى فى سنة ١٢٥هـ، وظل هذا السوق فترة طويلة على هذه الحالة إلا أنه كلما تباعد عصر السعادة واتسعت البلدة الطاهرة تحقق لزوم إنشاء أسواق أخرى فى الأحياء الأخرى. واتخذ نظام إقامة الأسواق عادة بين الأهالى وأخذوا يطلقون على كل واحدة منها اسما خاصا، إلا أن كل هذه الأسواق لم تكن أسواقا منتظمة تزينها المحلات والدكاكين، وشأنها شأن أسواق استنبول والبلاد الأخرى تتألف من «أكشاك» خشبية وكراسى والدكاكين الوقتية وهنا أسواق عديدة بدكاكينها. إلا أنها كانت متقاربة وكان كلها فى ميدان المناخة كما أن بين الأحياء محلات العطارة وما يشبهها من الدكاكين الصغيرة.

والأسواق التى يذكرها أهل المدينة بأسمائها هى:

سوق الجباية «السوق التى تطلق عليها الجباية» أعظم وأهم أسواق المدينة وأكثرها نظاما، ودكاكينها «أكشاك» ذات مظلتين وجهة تسميتها بهذا الاسم قصر بناء الحيوانات لهذه السوق.

سوق التجارة ـ هذه السوق فى الدرجة الثانية من أسواق المدينة وفى الجهة القبلية من سوق الجباية. وفيها يباع التمر ودكاكينها «أكشاك» معروشة.

سوق السمانة ـ هى سوقى الزياتين والرواسة، **وسوق بياعى الأكارع** وبما أنهما متصلتان يعد الاثنان سوقا واحدة فى نظر الأهالى وتتكون الأكشاك والدكاكين من العروش.

سوق الفلتية ـ مثل الأسواق الأخرى تتكون من عدة دكاكين معروشة يباع فى دكاكين هذه السوق:

سوق «الأعشاب، والجلود، الحبال، الفحم، الحطب» وما يشبهها من اللوازم الأخرى.

الخضرية ـ سوق الخضراوات هذه تقع فى الجهة الشرقية للسوق سالفة الذكر، ودكاكين بائعى الخضر أكشاك معروشة.

سوق الجزارة ـ هى سوق بيع اللحم التى تقام فى الجهة القبلية لسوق الخضراوات، والقصابون يعرضون الأغنام المذبوحة معلقة على العلاقات ويبيعونها.

سوق العطارة ـ تقع مقابل سوق القصابين، وتمتد هذه السوق إلى شارع النخاولة، وتنتهى بالباب المصرى ويُتجر فيها بمواد العطارة والأقمشة، والتبغ والطباق، وفى جهة من جهاتها مقهيان.

سوق البياطرة ـ تقع فى الطرف الشمالى إلى سوق الجباية وهى سوق الخيل، ويباع فيها النحاس أيضا.

سوق البرسيم ـ سوق يباع فيها البرسيم.

سوق الفطارين ـ سوق تباع فيها هذه الفطائر والطعام ويتم البيع فيها إما فى الأكشاك المفروشة أو فى أماكن مكشوفة.

سوق الدلال الخردجية ـ سوق تباع فيها الأشياء القديمة مثل «سوق المقمل» فى إستانبول حيث تباع الأشياء القديمة ويقع سبيل فاطمة فى الجهة الغربية من داخل هذه السوق وبالقرب من باب مصر.

وفى هذه السوق أو فى الأسواق الأخرى عدة مقاهى للاستراحة.

الوجهة الخامسة عشرة
تحتوى على أربع صور فيها ذكر مصلى العيد النبوى
والمساجد والمنازل القائمة فى ممرات بهذه المساجد
ومسجد قباء وبيت النفاق الضرار
والمعابد النبوية المعلومة وغير المعلومة

فى ذكر المساجد التى صلى فيها سيد الزاهدين محمد صلى الله عليه وسلم صلاة العيد ومنازل الصحابة الموجودة فى طريقها

أول صلاة عيد أداها إمام الأنبياء ـ عليه أعظم التحايا ـ فى المدينة هما صلاتا عيد الفطر وعيد الأضحى اللتان أداهما النبى ﷺ فى السنة الثانية للهجرة.

وبناء على قول الإمام الواقدى أن النبى ﷺ صَلَّى هاتين الصلاتين للعيدين فى المكان الذى خلف بيت حكيم بن عدى بن بكر بن هوازن والمستقر بجانب أصحاب المحامل.

وحمل معه الحربة التى أعطاها النجاشى ملك الحبشة للزبير بن العوام.

ويحمل أئمة المدينة اليوم وهم يذهبون لأداء صلاة العيد تلك الحربة معهم. وكان ذلك الميدان فى الجهة الغربية فى المصلى المشهور الذى سبق تعريفه، وفى اتصال حديقة «العريضية لا من جهتها الشمالية». وأحيط أخيرا بسور من جهاته الأربعة واتخذ مسجدا.

وعندما حاصر المصريون حضرة عثمان بن عفان وضيقوا عليه الخناق وأَمَّ على بن أبى طالب الناس فى هذا المسجد بقى اسمه «مسجد على» وإن كان هذا ما يروونه إلا أن عليًا بن أبى طالب لم يكن يؤدى الصلاة فى مكان لم يصل فيه نبينا إمام قبلة الدين ـ عليه السلام ـ وبناء عليه يلزم ألا يكون لهذه الرواية أساس.

ويروى بعض المؤرخين أن أبنية ذلك المسجد قد اندرست مع مرور الزمن ولم يبق لها أثر، وقد اعتادت قوافل الحجاج أن يدفن فى خرائبه جنازات من يموتون

منهم، ولقد عثر فى سنة ٨٨١هـ والى المدينة المنورة خرائب هذا المسجد وطهرها وبنى الأبنية التى عليها اليوم، إلا أن هذه الرواية تخالف الرواية التى نقلها كتابة.

يقول إبراهيم بن أمية ناقلا عن شيخ جليل ذو ضمير حى لامع فى الرواية التى نقلها كتابة:

صلى النبى ﷺ أول صلاة عيد فى المدينة المنورة بجانب منزل ابن أبى الجنوب فى محلة «الدوسى» وصلى صلاة العيد الثانى خلف منزل حكيم بن عدى بجانب دار حفرة، وصلى صلاة العيد الثالثة بجانب منزل عبد الله بن درة المزنى الكائن بين دار معاوية ودار كثير بن الصلت. وصلى صلاة العيد الرابعة بين الحجارة السوداء القريبة من المصلى المشهور وصلاة العيد الخامسة داخل منزل محمد بن عبد الله بن كثير بن الصلت، وصلاة العيد السادسة فى محل المصلى المشهور.

كان منزل ابن أبى الجنوب فى الجانب الغربى من وادى «البطحاء» وداخل منزل حكم حفرة سالف الذكر وكان منزل ابن درة[1] المزنى على الجانب الغربى من المصلى ودار كثير بن الصلت فى الجهة القبلية من المصلى المذكور والمكان الذى أشير إليه بالحجارة السوداء فى داخل حديقة «العريضية».

القريبة من مصلى العيد. ويوجد الآن فى الحديقة التى كانت تعرف بالريشهية فى ذلك الوقت المسجد الذى ينسب إلى الصديق الأعظم. لما كان الصديق الأكبر يصلى صلوات الله على أرض هذا المسجد عندما كان خليفة سمى هذا المسجد «مسجد أبى بكر».

صلى النبى ﷺ صلاة العيد الأولى بالقرب من دار الشفاء وصلاة العيد الثانية فى محلة «الدوسى» وصلاة العيد الثالثة فى المكان الأنور الذى يسمى مصلى العيد، بعد ذلك لم يترك هذا المكان حيث أدى جميع صلوات

(١) درة اسم قبيلة تتشعب عن جماعة مزينة.

العيد بعد ذلك فى هذا المكان فى حياته، هذا هو المروى وهذه الرواية جديرة بالترجيح على تدقيقات الإمام الواقدى وإبراهيم بن موسى لقول ابن شيبه ناقلا عن شيخه ومصاحب الإمام مالك: من باب مروان ـ أى من الباب الذى عرف بباب السلام ـ إلى مسجد السعادة ومصلى العيد ألف ذراع وليس فى المدينة المنورة فى طريق مصلى العيد مكان أقدس من مصلى العيد بعد المسجد النبوى الشريف.

ينقل عن جناح النجار أنه قال: كنت قد ذهبت إلى مكة مع أخت سعد بن أبى وقاص «عائشة» فقالت لى فى أثناء الطريق: «أين تقيم فى المدينة؟» فقلت لها: أسكن فى بيت قائم على رصيف من أرصفة باب السلام. عندئذ قالت لى: «إذا كان كذلك فلا تترك هذا البيت، لأن والدى سمع عن رسول الله ﷺ: «إن ما بين مسجدى والمكان الذى صلى فيه العيد جنة من رياض الجنة»، وبهذا بين قداسة الطريق الذى بين المسجد الشريف ومصلى العيد وعرف أشرفيته.

وكلما كان النبى ﷺ عائداً من أحد أسفاره ويصل إلى مصلى العيد، يستقبل القبلة ويدعو. وكان يذهب من طريق لأداء صلاة العيد ويعود عن طريق آخر، كان يذهب إلى المصلى من شارع باب السلام ويعود من الطريق الذى يمر من أمام دار عمار بن ياسر وكان الصحابى أبو هريرة يتباهى ويتفاخر قائلا: «إن زاوية دارى أحب إلى وأجمل من كل شىء وكيف لا تكون كذلك؟! والنبى ﷺ كان يذهب من إحدى زواياها إلى مصلى العيد ويعود من زاويتها الأخرى».

وقد خرب مصلى العيد النبوى وفيما بعد جدد فى سنة ٧٤٨هـ من قبل السلطان ناصر الدين حسن بن قلاوون، وإلى الآن فوق طاقة حجر كتبت عليه العبارة الآتية: «قد جدده شيخ الحرم النبوى عز الدين بإدارة ناصر حسن بن محمد بن قلاوون سلطان مصر سنة ٧٤٨».

ويقع المسجد المذكور فى الجهة اليسرى من حديقة «عريضية» وكان قد جدد

أيضًا فى سنة ٧٦٢هـ ولما كان مسجد مصلى النبى ﷺ فى مدخل حديقة عريضية كان الدخول فى هذه الحديقة يتم من داخل المسجد الشريف وكانت ساحة المسجد الشريف تلوث بسبب الحيوانات التى تدخل وتخرج من و إلى الحديقة ووصلت القذارة أحيانًا إلى كل مكان لدرجة أن المصلين لا يجدون فيه قبة لأداء الصلاة. فاستدعى الأمير إينال صاحب الحديقة واستأذنه وصنع للحديقة بابا آخر. وصنع للمسجد سقفًا مخصوصًا وفتح للشبكة التى فى الجهة الغربية باباً فى جدارها وجعل دهليزًا خاصًا لدخول الحيوانات. وبما أن الحيوانات منعت من الدخول لحرم مسجد النبى ﷺ فى المصلى ظل دائمًا نظيفًا؛ وفى سنة ٨٦١هـ وبما أن باب مصلى العيد كان خاليًا من المصراع فتحوا بابًا فى مواجهة المحراب لجداره الشامى. وركبوا لبابه القديم مصراعًا؛ وكان للباب الذين فتح حديثًا من خارجه مكان يصعد إليه بسلم؛ وعمرت صفة ذلك المكان اللطيف فى عهد الأشرف إينال تحت نظارة الأمير برد بك فى سنة (٨٦١) وكان الأئمة الذين يؤمون الناس فى صلوات الجمع والأعياد والخطباء يجلسون فى هذه الصفة. بينما كان الأمير يرد بك يعمر هذه الصفة جعل للخارجية فاعتاد الأعيان من أهل السنة أن يجلسوا فى هذا المكان من الأئمة والخطباء وعندما يحين وقت الصلاة كانوا يدخلون فى المسجد.

أول من قام بالإمامة والخطابة تحت هذه السقيفة من قضاة أهل السنة هو العلامة «سراج الدين أحمد ـ رحمه الله ـ الذى عينه منصور قلاوون الصالحى وأرسل إلى المدينة المنورة سنة ٦٨٢هـ وبما أن جميع القضاة والخطباء قبل سراج الدين أفندى كانوا من طوائف الزنادقة قد تعرض سراج الدين أفندى من أفراد الزنادقة لكثير من التحقير والإهانة كما عرف ذلك فى الصورة العاشرة من الوجهة الأولى والصورة العاشرة من الوجهة الثالثة.

ابن فرحون من المؤرخين الذين أدركوا الدور الذى ظهر فيه أفراد الزنادقة على أهل دار السكينة وتغلبوا عليهم. وقال فى تاريخه: «إننى رأيت بنفسى ما ألحقته طائفة الملاحدة لائمة أهل السنة من الإهانات رأى العين، كانوا يرجمون

أئمة أهل السنة الذين يصلون فى المحراب والخطباء الذين يخطبون على المنبر وبلغ من جرأتهم و غلوائهم أن الأئمة الذين يؤمون المصلين فى صلاة العيد كانوا لا يستطيعون أن يخرجوا من الباب الرئيسى بل يخرجون من الأبواب الصغيرة التى فتحت فيما بعد. ولا يستطيعون أن يخطبوا مواجهين الجمهور وكانوا يصعدون من سلم الصفة التى عمرت فى عهد الأشرف إينال ويخطبون وهم يستدبرون القبلة؛ ولكن السقيفة التى صنعت فيما بعد من قبل أمير المعمار برد بك تحول دون رؤية وجه الخطيب، وإلقاء الخطبة بهذا الشكل كان مخالفًا للسنة النبوية الشريفة إلا أن إلقاء الخطباء خطبهم بهذا الشكل كان مبنيًا على رأى الأهالى الذين يرددون أن النبى ﷺ قد ألقى الخطبة فى ذلك المكان الميمون. وبعد أن غلبت طائفة الملاحدة الرذيلة على أمرها، تركت الحالة السابقة كليًا وأخذت الخطب تلقى على الوجه المسنون».

إن المعبد اللطيف الذى ذكرناه طويلاً سابقًا مازال موجودًا إلى يومنا هذا ويعرف باسم «مسجد النبى» ويشتهر بذلك.

تذكر وتعرف مسجد قباء

بناء على ما ورد فى الكلام عن سنة الهجرة شرف النبى ﷺ قرية قباء بالنزول فيها. وسكن محلة بنى عمرو بن عوف أكثر من عشرة أيام وتفضل بإقامة مسجد قباء، هذه الرواية منقولة عن أئمة السير، إلا أن فرقة من المؤرخين يرغبون فى رد هذه الرواية، وبناء على أدعاء هؤلاء المؤرخين تبين لنا أن النبى ﷺ أقام ثلاث ليال[1] فى محلة بنى عمرو بن عوف فى مكان وأخذوا يصلون فى مربد كلثوم بن هِدْم حيث أسسوا مسجد قباء، وكان النبى ﷺ يصلى مدة وجوده فى محلة بنى عمرو بن عوف على ساحة هذا المسجد وذهبت فى فرقة من المؤرخين إلى أن أسعد بن زرارة قد أسس مسجد قباء قبل الهجرة وقالوا موضحين ذلك كانت ساحة مسجد قباء مربد كلثوم بن هدم، وكان أسعد بن زرارة قد أحاط هذا المكان من جهاته الأربعة بجدار حتى يصلى فيه الصحابة - رضى الله عنهم - الذين هاجروا قبل الرسول ﷺ وليجتمع مع سائر المسلمين الذين سيأتون يوم الجمعة من سائر القرى، وصلى النبى ﷺ فى داخل هذا المكان وأمرهم بأن يتخذ أهل قباء هذا المكان مسجداً لهم.

وإننا نحكم بأن ما قالته هذه الطائفة من المؤرخين خطأ من أساسه ونرى أن ما ذكرته الطائفة الأولى من المؤرخين أقرب إلى الصحة، لأن النبى أثناء مقامه فى محلة بنى عمرو بن عوف صلى فى ساحة مسجد قباء، وهذا قطعى الثبوت

(١) اختلف الرواة فى المدة التى أقامها رسول الله ﷺ فى قباء، فقيل أربعة، وقيل أربعة عشر وقيل اثنان وعشرون.
انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٠-٨٣. ط دار الفكر بتحقيق محمد فهمى الرجانى. والدرر لابن عبد البر من ٨٥، وغيرها.

وروايته تستند إلى أقوال موثوق بها. بينا ادعى جابر بن سمرة أن الرسول ﷺ أسس وبنى مسجد قباء بعد تشريفه مدينة العز المدينة المنورة وقال: قام النبى ﷺ فى المدينة المنورة وشرف قرية قباء، وقال لمستقبليه من أهل قباء: «يا سكان قباء»، وبعد ما هيأ أهل قباء مقدارا كافيًا من الحجارة خط رسول الله ﷺ بحربته حدود المسجد الميمون وأمر بحفر أساسه، وحمل بنفسه قطعة من الأجُرّ ووضعها فى المكان الذى سيتخذ محرابا، ثم خاطب أبا بكر الصديق وقال له: «يا أبا بكر خذ أنت أيضًا حجرًا وضعه فوق حجرى، ويا عمر احمل أنت أيضًا حجرًا وضعه فوق حجر أبى بكر، ويا عثمان ضع أنت أيضًا الحجر الذى حملته بجانب حجر عمر ويأايتها الجماعة، ابنوا الجدران بوضع الحجارة حيثما تريدون».

وهكذا أمرهم بطرح وبناء مسجد قباء المقدس؛ انتهى.

ويفهم مما أورده جابر بن سمرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قد حضر وصنع أساس المسجد المذكور الذى سيُتخذ المحراب المذكور وأن أهل قباء قد أكملوا بناء جدران وسقف المسجد بعد أن شرف النبى ﷺ المدينة المنورة، وبناء على هذا أقول يقتضى الحكم بصحة ما ادعاه سواء أكان أهل السير أو المؤرخون.

قد حضرت شموس بنت نعمان وضع أساس مسجد قباء وعندما أخذ النبى ﷺ حجرًا ووضعه فى المكان الذى سيتخذ محرابا وكانت تقول كلما تعرف وضع أساس المسجد المذكور: إننى أجلت النظر فى الصحابة الكرام الواحد تلو الآخر فى أثناء إرساء أساس مسجد قباء، وقد حمل النبى حجرًا كبيرًا وكان فى غاية الثقل كان ثقل الحجر يؤثر فى سرته المباركة؛ ولما رآه واحد من الصحابة الكرام على هذه الحالة قال للرسول ﷺ يارسول الله فداؤك أبى وأمى، اترك هذا الحجر حتى أحمله عنك فقال له الرسول! لا فليحمل كل واحد منكم حجرًا كبيرًا حتى تكملوا إرساء أساس المسجد؛ لأن جبريل ـ عليه السلام ـ يرينى الكعبة المعظمة.

وأضافت شموس: من هنا أعرف أن مسجد قباء أقوم المساجد من حيث اتخاذ القبلة.

ورواية شموس بنت نعمان[1] هذه «مسجد قباء أقوم المساجد من حيث اتخاذ القبلة رواية صحيحة، ولكن بناء مسجد قباء كان قبل تحويل القبلة، وبما أن القبلة تحولت بعد ذلك بسنة فمحراب أبنية مسجد قباء الذى كان فى ذلك الوقت غير موجود الآن.

اختلفت الأئمة فى سبب نزول الآية الكريمة

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ (التوبة: ١٠٨)

أنزلت فى مسجد قرية قباء أم أنها نزلت فى مسجد النبى فى المدينة؟

فقالت طائفة منهم: إنها نزلت فى مسجد قباء، وقال بعضهم: إنها نزلت فى مسجد الرسول ﷺ، أما حجة الطائفة الأولى وسندها فهى قوله تعالى ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ (التوبة: ١٠٨) ومن هنا فهذا مرجح على القول الثانى ولما وجد من العلماء من يرجحون القول الثانى وفق العلماء المدققون بين الأقوال المختلفة بأن وجهوا الآية الكريمة قائلين أنها نزلت فى حق كلا المسجدين. دقائق هذا البحث وتفصيلاته مدونة فى الصورة الثالثة من الوجهة الثانية.

وطيلة المدة التى أقام فيها النبى ﷺ فى المدينة المنورة كان يزور مسجد قباء كل يوم سبت راجلاً أو على صهوة فرس، حيث يؤدى ركعتين تحية للمسجد، كما يروى أنه ﷺ كان يمضى إلى هذا المسجد فى أيام الاثنين وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

كان عمر بن الخطاب يزور مسجد قباء يومى الاثنين والخميس فى أيام خلافته وكان يتوقى عدم ترك هذه السنة ويحافظ عليها؛ حتى إنه ذهب فى يوم من الأيام إلى المسجد ولما لم يجد فيه الناس غضب غضبًا شديدًا وقال: «والذى نفسى بيده، لقد رأيت النبى ﷺ وأبو بكر كانا يحملان حجارة كبيرة حينما وضع أساس هذا المسجد، وكان جبريل الأمين يُرى للرسول البيت المعظم؛ أقسم بالله لو كان هذا المسجد فى بلد من البلاد المجاورة لكانوا ذهبوا لزيارته أفواجًا أفواجًا.

(١) ترجمتها فى الإصابة ٨/ ١٢٢-١٢٣، وذكر لها الحافظ ابن مجر طرق الحديث الوارد هنا.

فأتونى بمكنسة وعندما أُتى له بمكنسة خلع ثيابه وأخذ يكنسه بعد أن نظفه من خيوط العنكبوت، وقال للذين طلبوا منه أن يترك لهم كنس المسجد إنكم لن تستطيعوا أن توفوه حقه من التنظيف مثلى.

ونقل عن زيد بن أسلم أنه قال: «نشكر الله على أن مسجد قباء فى مدينتنا لو كان فى مكان بعيد للزم أن نزوره راكبين الجمال».

كما نقل عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص أنها قالت كان أبى يقول: إن أداء ركعتين من الصلاة فى مسجد قباء خير من زيارتين للمسجد الأقصى، ولو عرف الناس ما فى مسجد قباء من فيوضات إلهية، لقدموا لزيارته من كل صوب وحدب».

وهذا مروى بأسانيد قوية. والحقيقة أن الصلاة فى مسجد قباء أفضل من الصلاة فى المسجد الأقصى، كما أن ركعتين وفى رواية أربع ركعات فى هذا المسجد تعدل ثواب عمرة، وهذا ما ثبت بالأحاديث الصحيحة.

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو فى طريقه إلى زيارة مسجد قباء لسائليه الذين استفسروا عن الجهة التى يقصد إليها أنا ذاهب للصلاة فى مسجد قباء الكائن فى منازل عمرو بن عوف؛ لأنى سمعت النبى ﷺ يقول: «كل من صلى فى مسجد قباء كان ثواب صلاته ثواب العمرة».

ويقول سعيد جبير الأسدى: «ذهب أنس بن مالك إلى مسجد قباء وصلى ركعتين وبعد الصلاة جلس فى ركن من أركان المسجد وأنا أيضًا جلست قليلاً ثم ذهبت إليه وجلست بجانبه عندئذ خاطبنى قائلاً: يا سعيد! ما أعظم قدر هذا المسجد، لو كان على بعد شهرين من الزمن لوجبت زيارته! وكل من خرج من بيته ناويًا زيارة مسجد قباء وأداء أربع ركعات من الصلاة فيه، فالله يثيبه أجر عمرة»[1].

(١) رواه ابن ماجه وغيره من حديث سهل بن حنيف، ورواه الطبرانى فى الكبير من حديث كعب بن عجرة، كلاهما بمعناه وحديث سهل بن حنيف فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وحديث كعب بن عجرة فى رواته يزيد بن عبد الملك النوفلى، وهو ضعيف.
انظر: مجمع الزوائد: ٤/ ١١.

وعلى كل من يريد أن يعرف المحل المقدس الذى أدى فيه النبى ﷺ الصلاة أن يزور العمود الثالث بعد دخوله المسجد وأن يؤدى بجانبه أربع ركعات تحية، وهذا العمود هو أقرب مكان إلى ساحة المسجد أى إلى الميدان المكشوف.

وقد بنى مؤخراً إلى الجانب الشرقى من هذا العمود محراب وكان هذا إشارة مصلى النبى ﷺ. ولا شك أن المحراب الذى بنى فيما بعد كان قبل تحويل القبلة وأنه يومئ إلى المكان الذى كان يؤدى فيه الرسول ﷺ صلاته، إلا أن النبى ﷺ كان يؤدى صلاته فى ذلك المسجد بعد تحويل القبلة فى الجهة الشرقية من العمود الثالث[1] اعتباراً من الساحة الرملية للمسجد المذكورة.

ولا شك فى صحة هذه الرواية إلا أن المسجد وسع فيما بعد وتغير مكان الأسطوانة المعلقة وإذا عدت الآن الأساطين القائمة بناء على تعريف المؤرخين فمن الصعب العثور على العمود الذى يشير إلى المصلى النبوى بل من المستحيل؛ وخاصة أن باب المسجد فى ذلك الوقت كان خلف منزل سعد بن خيثمة، وفى زماننا هذا الباب مسدود ومجهول الموقع؛ لأجل ذلك ركزوا عموداً خاصاً علامة على مصلى النبى ﷺ؛ وبناء على هذا لا يقتضى عد الأعمدة بل البحث عن العمود الذى رُكز إشارة وعلامة للمصلى النبوى. وإن كان قد وضع على أحد الأعمدة المتصلة بالساحة الرملية محراب وكتب على طاقه الآية الكريمة.

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ (التوبة: ١٠٨)

وأشير إلى أن هذا المكان هو المصلى النبوى.

إلا أن هذا المكان ليس المصلى النبوى بل مكان نزول الآية الكريمة المذكورة. وفى مواجهة هذا المحراب الذى كتبت على طاقه الآية الجليلة حظيرة من خشب عليه قبة مكسوة بالرصاص، وأخبرنا ابن جبير أن هذه الحظيرة مبرك ناقة النبى ﷺ، إلا أن المؤرخين الآخرين ترددوا فى تصديق رواية ابن جبير.

جدد مسجد قباء فى عصر السعادة فوسع طولاً وعرضًا بمقدار ستة وستين ذراعًا وكانت ساحة المسجد طولاً خمسين ذراعًا وعرضًا ستة وعشرين ذراعًا، وأضاف عثمان بن عفان مؤخرًا الجدار[1] القبلى وعند البعض إن هذه الإضافات كانت فى عهد وليد بن عبد الملك.

وعندما كان عمر بن عبد العزيز واليًا على المدينة وسع مسجد قباء وزين جدرانه وسقوفه بالفسيفساء والنقوش. وأضاف إليه مئذنة وعدة عقود. وصنع سقفه من خشب الساج وترك ساحته التى فى الوسط مكشوفة.

وبما أن ما جدده عمر بن عبد العزيز أشرف على الانهيار والخراب مع مرور الزمن فجدد فى سنة ٥٥٥هـ كما جدد عمود المحراب سالف الذكر سنة ٦٧١هـ، كما جدد بعض جهات من سقفه سنة ٧٣٣ وفى سنة ٨٤٠هـ الجهات الأخرى من السقف المذكور. وقد أصلح وعُمِّرَ فى سنة ٥٥٥ من قبل جمال الدين الأصفهانى ومن الناصر قلاوون المصرى سنة ٧٣٣ وفى سنة ٨٤٠ من قبل الأشرف برسباى المصرى، على قدر الإمكان.

ومال سقف المسجد ومئذنته للوقوع بفعل مرور الزمن، فبعث الأهالى فى سنة ٩٥٠هـ إلى السلطان سليمان ـ طيب الله ثراه ـ يسترحمونه ويرجونه فأرسل المختصين فهدموا مئذنته وما خرب من سقفه وبناهما من جديد، وزين ونور داخل المسجد وخارجه بالقناديل والثريات التى أرسلت من باب السعادة كما عين للمسجد الخطباء والأئمة والمؤذنين. ودام هذا التعمير ما يقرب من ١٦٠ سنة، وبما أنه لم يعمر ولم يرمم فى هذه الفترة من قبل أحد، فأوشكت جدرانه ومئذنته على الانهيار فحرم عشاق النبى ﷺ من زيارة ذلك المسجد، وبناء على هذا عرض الأمر من قبل أهالى دار السكينة، وموظفى المدينة على الأعتاب السلطانية فصدر الأمر السلطانى للقيام بما يقتضى، وأعلم بالأمر المعمار سليمان بك الذى أرسله السلطان مصطفى خان بن السلطان محمد خان لتعمير مسجد

(١) تسمى هذه الأسطوانة الأسطوانة المعلقة وليس فى جهته القبلية أسطوانة غيرها.

السعادة ونبه بإجراء اللازم، وبعد ما أتم سليمان بك تعمير مسجد السعادة وجدده قام بتجديد جدران مسجد قباء ومئذنته بعد ما هدمهما. وبنى قبة على أربعة أعمدة فوق مبرك الناقة ثم بنى خارج المسجد سبيلاً وعدة دور للخلاء وحفر فى ساحة المسجد الرملية بئراً عميقة تمد السبيل ودور الخلاء بالمياه وهكذا أوْفَى مهمته على أحسن وجه فى سنة ١١١١هـ.

ودام هذا التعمير ١٣٣ سنة وأُهْمِلَ المسجد نتيجة لتقلب الزمن وساءت حالة المسجد أكثر لغض المدينة النظر عن حالة المسجد حتى أوشك على الانهيار بغتة، فعرض الأمر على عتبة السلطان محمود خان بمحضر عام فى سنة ١٢٤٤هـ.

فما كان من السلطان محمود إلا أنْ ببناء المسجد بعد هدم جميع مشتملاته. وبناء على ذلك سافر إلى المدينة المنورة المهندس عزت خليفة وأمين البناء وحيد أفندى بعد ما تم اختيارهما تعيينهما من قبل الباب العالى. وبمجرد وصولهما ثابرا فى إيفاء مهمتهما فهدما مسجد قباء مع قبابه وجدرانه بالكامل وجددوه. فى صورة محكمة قوية. وكانت أعمدة المسجد المذكور أصبحت فى حالة غير لائقة للاستعمال فهدمها وحيد أفندى وجددها.

وهدم كذلك المحراب القديم محراب النبى، ومحراب منزل الآية، وقبة مبرك الناقة، وسبيل محمد باشا وجددها على طراز جديد. وأمر بكتابة الأبيات التى أرسلت من باب السعادة فوق طاقات هذه الآثار الشريفة. والأبيات التى كتبت فوق عقود الآثار الشريفة هى: البيت الذى لا نظير له والذى كتب على طاق محراب الكشف:

«أصبح طاق الكشف لمحراب النبى علما ومن هنا انكشفت أرض الحرم لحضرته»

البيت المؤثر الذى كتب على محراب مبرك الناقة:

إن اسم هذا الموضع الطهور مبرك الناقة فأصبح قصوى جوا لآيات السلطان مولاك»

البيت اللطيف المحرر على محراب منزل الآية المختار:

«يقولون إن آية ﴿ أُسِّسَ ﴾ (التوبة: ١٠٨) نزلت ها هنا تعال وقم هنا يا أيها المقتدى بأثر الرسول»

الحديث الشريف الذى كتب على المحراب الجديد:

قال النبى ﷺ، «من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان كأجر عمرة»[1].

التاريخ الذى كتب على طاق باب مسجد قباء الشريف.

إمام المسلمين ملك الدنيا السلطان محمود خان
الخلافة مختصة بذاته والكرامة مهيأة لطبعه
حينما سمع ما حل بالمسجد من خراب
بادر فى التو إلى تطييب خاطر أهل طيبة بترميمه
نزلت آية التأسيس فى حق هذا المسجد
فليشهد بمكانة هذا السلطان الذى جدد
كلما كان هذا المكان مسجداً لأهل
الحاجة فليُكتب للدين والدولة البقاء.
كتبت التاريخ أنا «برتو» وسجدت شاكراً
كان هذا المسجد خرابًا فعمره محمود خان

فأرسل من باب صاحب القرار النجارون والمهذبون وما يقتضيه بناء المحراب من الأدوات والأحجار فأقيم محراب فخم على يمين منبر السعادة من قطع رخام ملونة خاص بالجماعة الحنفية فى جمادى الأولى من سنة ١٢٥٨هـ وقرر أن يؤدى أئمة المذهب الحنفى صلواتهم فى هذا المحراب، وظل الإمام الحنفى يؤدى الصلوات فى هذا المحراب قرابة سنتين.

(١) سبق تخريج الحديث.

إلا أن الأمر السلطانى قد صدر بأن يصلى فى محراب النبى الإمام الشافعى وفى اليوم الآخر الإمام الحنفى أخذ أئمة المذهب الحنفى والشافعى يؤدون الصلاة مناوبة فى المحراب النبوى ما يقرب من ٢٦٩ سنة، ولما ذهب والى مصر محمد على باشا إلى المدينة المنورة بعد واقعة الوهابية فى سنة ١٢٢٩هـ بقصد زيارة الحجرة المعطرة وضع نظام أن يؤدى كل من أئمة المذهبين كل يوم الصلاة فى المحراب النبوى، ومازال هذا النظام جاريا، فيصلى الإمام الشافعى صلوات الصباح قبل الإمام الحنفى ويصلى الإمام الحنفى صلوات الأوقات الأخرى قبل الإمام الشافعى، ولكن فى أيام مواسم الحج يصلى الإمام الحنفى فى المحراب العثمانى ويصلى الإمام الشافعى فى المحراب النبوى بعدما يتم الإمام الحنفى صلاته.

وهذا النظام خاص بمواسم الحج، ويصلى الإمامان صلوات التراويح فى وقت واحد.

صورة ظهور المذهب الحنفى وزمان ظهوره:

بعد أن نقل ابن فرحون فى هذا الخصوص أقوالا كثيرة، قال: «كان سكان المدينة المنورة إلى عصر شمس الدين العجمى يعتنقون مذهبين المالكى والشافعى».

وعندما هاجر شمس الدين أفندى إلى المدينة شجع بعض علماء المذهب الشافعى على الاشتغال بمسائل المذهب الحنفى، وكان هؤلاء العلماء قد دققوا النتائج الأساسية لذلك المذاهب، وأخذ علماء المذهب المذكور يتكاثرون أخذوا يتفقهون وأصبحوا أئمة زمانهم من هنا أخذ الأهالى يستفيدون من علومهم ويستفتونهم ومن ذلك الوقت أخذ المذهب الحنفى ينتشر فى المدينة المنورة سنة ٧٢٣هـ.

إن المحراب السليمانى يقع ـ بناء على تعريف مؤلف «الجواهر الثمينة» من مؤرخى المدينة المنورة ـ فى الجهة اليمنى من محراب النبى ﷺ وعلى يسار منبر السعادة وبجانب العمود الثالث ابتداء من المنبر الشريف، وفى نهاية الطرف

الغربى لما أضافه عمر بن الخطاب، وقد بنى ذلك المحراب كما ذكر آنفا السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة ٩٥٨هـ وخصه بأئمة المذهب الحنفى والمالكى، وعرف بالمحراب السليمانى ا.هـ.

وكان أئمة الحنفية لا يؤمون الناس إلى سنة ٨٥٨هـ فى مسجد السعادة وكانت مهمة القضاء والإفتاء منحصرتين فى علماء المذهب والمالكى.

وفى عام ٨٦٥هـ بناء على طلبات ملوك مصر وضع نظام أن يصلى أئمة الشافعية صلاة الصبح قبل المالكية وأن يصلى أئمة المالكية مع جماعتهم الكبرى الصلوات الأخرى قبل الشافعية.

وكان من عادة النبى ﷺ كلما شرف مسجد قباء بزيارته أن يمر بدار أم حرام[٢] زوجة عبادة بن الصامت وكان لا يجيد عن هذه العادة ذات الحكمة النبوية.

ويروى أن النبى ﷺ كان يشرف دار سعد بن خيثمة فى قرية قباء وكانت دار حضرة سعد فى ذلك الوقت فى الركن الغربى لجدار المسجد القبلى. وفى وقتنا هذا فموقع مسجد على فوق ساحة هذا المنزل الذى لا نظير له. وكان سعد بن خيثمة يؤدى صلاته طول عمره فى ذلك المكان المبارك. وبناء على قول ابن شيبة أن النبى ﷺ كان من عادته أن يستريح مضجعًا فى دار سعدٍ ويجدد وضوءه ومن هنا كان سعد بن خيثمة يؤدى صلاته فى المكان الذى كان يضطجع فيه النبى إلى أن توفى.

وكان قصر كلثوم بن هدم الساحر خلف الجدار القبلى لمسجد قباء. وقد شرف

(١) يلزم أن يكون هذا الطريق فى زماننا فى مواجهة محل يسمى سويقة فى الطريق القبلى لسور حصن المدينة.

(٢) لما كان هذا المنزل فى داخل منازل بنى سالم الكائنة فى الجهة الغربية من مسجد الجمعة ومن هنا يتضح ويثبت أن النبى ﷺ كلما كان يشرف مسجد قباء يمر من جهة مسجد الجمعة.
والخبر صحيح كما جاء فى صحيح البخارى وغيره. انظر: الإصابة ٨/ ٢٢٢-٢٢٣.

الرسول ﷺ فى أول هجرته دار كلثوم بن هِدْم وصحب معه أبا بكر الصديق واستضافه فى ذلك المنزل اللطيف ومن هنا يعد من الآثار المباركة والمنازل المقدسة.

وقد اتخذت هذه الدار المباركة مؤخراً مسجداً والمسجد اللطيف الذى يعرف فى أيامنا باسم مسجد فاطمة قد أقيم فوق ساحة منزل ابن هدم.

مسجد ضرار

كان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً: خذام بن خالد من بنى عبد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد وموالى بنى أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر، وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة، ونبتل بن الحارث، وهم من بنى ضبيعة، وبجاد بن عمران وهو من بنى ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وموالى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنذر.

كان أبو عامر من أفراد قبيلة الخزرج، وكان ملمًا بعلوم التوراة والإنجيل وكان يمارس تعليماتهما وكان سالكًا بطريقة الزهد والعبادة وكان منهمكا باستحصال الرياسة العلمية وقد اختار قبل البعثة طقوس النصرانية وكان يكتسى الملابس القديمة ومن هنا اكتسب لقب الراهب. وكان قد اطلع على أوصاف النبى ﷺ بالاستماع إلى علماء الإنس والجن وكان يصفه لأهالى أرض يثرب قبل الهجرة ويعدد المنافع الدنيوية والأخروية فى اتباعه ويرغب أهل المدينة فى تصديق النبوة المحمدية ويشوقهم إلى ذلك.

وعندما أبهج النبى ﷺ بقدومه الميمون المدينة وأصبح مغتبطًا من أهل الأرض والسماء وأخذ أهل المدينة وأطرافها يبدون للنبى ﷺ علامات الميل والركون ملأ هذا قلب أبى عامر القاسى بالحزن والحقد، وأخذ يسعى لمنع أهل الإيمان عن متابعة باعث المغفرة ويبعدهم عنه بنشر ترهاته التى تقول: إن الشخص الذى

وصفت مقدمًا شمائله المباركة ونبى آخر الزمان الذى عرفته ليس الشخص الذى أتى إلى بلدنا وادعى النبوة. وإن كان له بعض علاماته الظاهرة وتردد أبو عامر مع المنافقين الذين يشاركونه فى أفكاره فى قبول الإسلام كما أشير إلى ذلك فى الآية:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩)

ودب دبيب الحسد فى نفسه للنصر الذى أحرزه المسلمون فى غزوة بدر الكبرى، ومضى إلى مكة وحرض القرشيين على الحرب والثأر وتجرأ فى وقعة أحد المكدرة أن يرمى أول سهم على المسلمين من أجل ذلك لقبه النبى صادق القول بـ «أبو عامر الفاسق».

قال بعض أئمة السير حينما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة مثل أبو عامر الفاسق أمام النبى ﷺ وقال له: يا محمد! ما نوع الأشياء التى تقول أنك أحضرتها من قبل الله فأجابه النبى ﷺ إنه دين إبراهيم الحنيف فتفوه قائلاً: أنا أيضًا أتبع شريعة الدين الحنيف وأعلم بأحكامها وأراد بهذا أن يعرض أنه كان يعتنق قبل البعثة دين خليل الرب الجليل.

فقال النبى ﷺ: ألا إننى جئت بدين إبراهيم على المحجة البيضاء، لا على ما ظننت وخمنته فغضب أبو عامر على أنه كذب بهذا الشكل وقال: «فليجاز الله الكذاب بالطرد والانعزال»، وهكذا أظهر غيظه وحقده ونجى من القتل فى غزوة أحد وهاجر إلى بلاد الشام، وانتسب بالمرة إلى حاكم القسطنطينية هرقل وحثّه على السعى لتجهيز الجيوش ضد المسلمين ولكنه لم يوفق فى ترويج أمله وتحقيقه.

وعندما عاد إلى المدينة قبل وقعة تبوك بمدة واشتغل بنشر العلوم حتى يستطيع

فعل ما فى ضميره من الفساد وأرسل إلى قومه واجب اللوم من منافقى بنى غنم رسالة ذات أسلوب لعين تتضمن نفاقه الذى اعتاده يقول فيها: «إننى سأعود إلى المدينة مستصحبًا معى عساكر من قيصر الروم، فاستعدوا أنتم أيضا بتجهيز الأسلحة اللازمة وانتظروا قدومى، وابذلوا جهدكم لبناء مسجد رصين الجدار أمام مسجد قباء وفى حى أصحاب النفاق».

وحينما أخذ منافقو بنى غنم الذين سبقت أسماؤهم أعلاه رسالة أبى عامر فأسرعوا ببناء مبنى فى قرية قباء قبيل غزوة تبوك وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يشرف هذا المكان ويباركه بأداء ركعتين صلاة فيه، فقالوا: «يا رسول الله! بنينا فى قريتنا مسجدًا ليصلى فيه العجزة وأصحاب العلل والأعذار فى ليالى الشتاء الممطرة وكل رجائنا أن تشرفوه بأداء ركعتين صلاة فيه فأجابهم النبى ﷺ: «الآن قد خرجنا من المدينة بنية الغزو فإذا ما يسرت لنا العودة نفعل إن شاء الله» فعاد المنافقون وقد تلقوا الرد الصائب.

وعندما عاد النبى ﷺ من تبوك وقرر أن يستريح قليلاً فى مكان يسمى ذى أوان على بعد ساعة فى ناحية تبوك من المدينة المنورة. فجاء منافقو بنى غنم مرة أخرى متذللين متمسكنين وطلبوا من النبى ﷺ أن يشرف مسجدهم مسجد ضرار إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حسم الموضوع إذ أنزل الآية الكريمة:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٧-١٠٨).

وهكذا فضحت الآية الكريمة أفكار بنى غنم وكشفتهم، وبعث النبى ﷺ مالك بن الدخشم وسعد بن عدى وأخاه عامر أو عاصم بن عدى لهدم وتخريب مسجد ضرار فى قرية قباء فذهب هؤلاء إلى قباء حيث هدموا وخربوا مسجد

ضرار أولا ثم جلبوا سعف النخيل وأحرقوه وجعلوا المكان مقلبًا للقمامة لأهل القرية.

يقول خزيمة بن ثابت: «كان أبو عامر الراهب قبل البعثة يعرف بأقوال النبى وأفعاله ويمدحه ويثنى عليه وكان يتجنب الشرك والكفر ويرغب فى اتباع دين إبراهيم الحنيف ويحرص على التوحيد، واجتمع بكثير من علماء اليهود والنصارى وتشاور معهم وسافر كثيرا ليدقق دين إبراهيم وعرف أن الدين الحنيف المذكور سيظهر مع مبعث الرسول الأكرم، واطلع على كثير من شمائل ذلك النبى المقدسة.

ووجد أبو عامر يومًا فى مجلس أعيان الأوس والخزرج وأخذ يذكر اسم النبى وصفاته وبين أنه ظهر فى مكة المكرمة وأنه سيهاجر إلى المدينة الطاهرة، وعندئذ قال له أبو الهيثم بن التيهان القضاعى الذى كان فى ذلك المجلس، وكان من الذين دخلوا فى الدين الحنيف، يا أبا عامر! كيف أتصرف إذا ما أدركت بعثة هذا النبى وقال له أبو عامر أقسم بأن الجن والإنس قد وصفوه لى وبينوه فقال له أبو الهيثم يا ترى، فالذين وصفوه لك من بين البشر رأوا صفاته فى كتاب الله؟ أو سمعوها من الجن؟ فنحن لا ندرى شيئا من هذا الموضوع؟ قال أبو عامر، أخبرنى بذلك كاهن فى اليمن، وكان الكاهن المذكور مشهورًا جدًا فى الأخبار العربية العجيبة، وكنت خرجت فى شهر رجب فى ليلة مقمرة منفردًا لأتلاقى مع ذلك الكاهن. وفى أثناء سيرى كان قلبى قد نام ومر وقت غير قليل، ولما استيقظت من نومى رأيت أن دابتى قد انحرفت عن الطريق ودخلت فى مكان لا يعرف أين سينتهى. وبدأت أرتعش حزينًا وأخذت أجيل النظر حولى من شدة الخوف ورأيت أمامى نارًا فاتجهت نحوها. ولم يكن لى دليل. وعندما وصلت إلى جانب النار كنت قد شعرت بالدفء من كثرة تجوالى حولها، إلا أن هذه النار لما كانت لاهى مثل الإنسان ولا الحيوان ولم تكن حولها منازل ولا خيام ولم تكن لائقة بأن يطلق عليها اسم النار ومن هنا أصابنى الخوف والفزع وانتصب شعرى حتى أصبحت كل شعرة كأنها شوكة. وارتعشت قوائم ناقتى فبدأت تسرع فى سيرها.

وما تصورته نارًا تمثلته أربعة أنفار مردة ذات أشكال مخيفة وهجموا على هجومًا عنيفًا، فصحت بأعلى صوتى واستغثت برئيسهم، وكان من هؤلاء الأنفار كلب يمنعهم من الهجوم على؛ فأتوا إلى جانبه وجلسوا بعد التحية، كانت وجوهم مخيفة ومناظرهم قبيحة كريهة، فخاطبنى واحد منهم قائلاً: «من أنت؟» فقلت لهم: «إننى شخص من بنى غسان الذى ينتهى إلى بنى قيلة[1] فقيل لى أين تذهب وعم تبحث» فقلت لهم: «إننى خرجت إلى الطريق باحثًا عن كاهن يخبرنى عن أحكام الدين الحنيف؛ ولكننى ضللت الطريق وأتيت هنا وهكذا وضحت لهم ما فى ضميرى، ثم ختمت مقالى قائلاً: «نحن من معاشر البشر، ونعتمد على الكهنة الذين يستقون منكم الأخبار وينشرونها بيننا، إننى فرد غريب يرغب فى ملاقاة الذين يتبعونكم لأجل ذلك أسير فى البلاد. فإذا ما طلبتم منى الذهاب نفذت أمركم فأشار الثلاثة إلى شخص رابع معهم والذى افتتح كلامه قائلاً ما اسمك؟ «فقلت له اسمى أبو عامر فقال لى: «يا أبا عامر افتح عيونك، وإننى أؤمنك بأننى لن أكذب عليك، لتعلق قلبى بك. يا أبا عامر أقسم لك إنه قد ظهر نبى من سلالة بنى هاشم بن عبد مناف وبسبب هذا الغيث مثل العنبر قد أحضر إلى العالم الذى أوشك على الخراب، وجهه منير مثل شمس الدنيا المضيئة واسع الصدر، قامته ليست طويلة ولا قصيرة بل هى موزونة، ولا ينظر إلى شيء أكثر من اللازم وعندما ينظر لا تطرف عيناه وعيونه ذات حكمة ومكحولتان بالفطرة واسعتان جميلتان، وفى عينيه مقدار من الحمرة وبين كتفيه خاتم النبوة، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، مبعوث بالدين الحنيف، يظهر أن الخلق جميعًا سيتبعونه ويسيرون فى آثاره وأنه سيتحدث للملائكة ذوات الأجنحة وبعد قوله هذا انسحب من جانبى وتقدم إلى الأمام فتبعه رفقاؤه، وأنا رأيت أن الصباح قد حان فوجدت طريقى وعدت».

يفهم من حكاية خزيمة هذه أن أبا عامر الفاسق أخبث الخلائق كأنه تدين بدين الخليل الجليل قبل البعثة النبوية وقد استقى المعلومات عن البعثة المحمدية

(١) قيلة أم الأوس والخزرج.

وترهب حتى يكتسب شرفًا ومكانة بين الأهالى وتوغل فى الصحارى يعنى اكتسى بالملابس الخلقة وتستر بستائر النفاق راغبًا فى خداع الناس؛ ولكنه باء بالخذلان والخسارة إذ أنكر الرسالة المحمدية، لأنه التقى بعد الهجرة بالنبى ﷺ وقال له: «يا محمد ما الدين الذى بعثت به؟» وتلقى الرد الصائب من النبى ﷺ إذ قال له: «بعثت بالدين الحنيف الذى بحثت عنه فترة من الزمن» فتجرأ أن يرد على النبى وهو يهذى» إنك قد مزجت بهذا الدين البدعة» فرد عليه النبى ﷺ قائلاً: «بل أتيتُ به على المحجة البيضاء» فغضب من تلقيه هذا الرد وغادر مجلس النبى ﷺ مجلس الملائكة. حتى إن النبى ﷺ عندما قال له «يا أبا عامر! ألست تنتظر قدومى؟ ألم تكن تنقل أوصافى التى تلقيتها من علماء اليهود والنصارى لأبناء الأوس والخزرج؟ «فرد على الاستفهام النبوى قائلا: «لست الشخص الذى وصفه علماء اليهود والنصارى، لم يحن بعد وقت بعثته» وأمن على دعاء النبى الذى قال: فليجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكذاب مستحقًا لجزاء الموت طريدًا وحيدًا فاستجاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعاء النبى ﷺ إذ هرب مؤخراً إلى بلاد الشام ثم إلى القسطنطينية وهلك وحيدًا طريدًا.

حنظلة بن أبى عامر الفاسق الذى هرب إلى القسطنطينية رافضًا الإسلام، قد استشهد فى غزوة أحد من قبل شداد بن أسود وعلى قول من أبى سفيان قد بشر بالحديث الشريف هو حنظلة غسيل الملائكة.

ومكان خرابة مسجد ضرار مجهول فى عصرنا، وكان المحل المبارك الذى بنى عليه مسجد قباء حظيرة لحيوانات امرأة مخلصة تسمى لينة؛ لذلك قال منافقو بنى غنم: «إننا نرى أن إقامة صلاة فوق مكان حظيرة حيوانات لينة غير مناسب؛ لأجل ذلك فنحن سنبنى فى المكان الذى عينه أبو عامر مسجدًا عظيمًا حيث سنتعبد»، وفعلاً بنوا مسجدًا عاليا رصينًا جميل الشكل فى جوار مسجد قباء وهذا محقق.

ولما كانت جميع الروايات التى تتحدث عن جهته وشكله وهيئة بنائه من

الأقوال الضعيفة وبناء على ذلك لا يمكن تعيين مكان خرابته. ومعلوم لدى الجميع أنه كان فى داخل قرية قباء وفى مكان قريب من مسجد قباء وبما أنه قد بنى لتفريق الجماعة الإسلامية فقد كان مبنيًا متينًا محكما لدرجة ما ومن الروايات الموثوقة أنه قد انبعث من الساحة القذرة لهذا المسجد دخان عجيب فى عصر السعادة كما أن هذا الدخان قد انبعث مرة أخرى فى عهد أبى جعفر المنصور.

فى ذكر مواقع المساجد النبوية التى تزار اليوم

استحب العلماء الكرام الصلاة تبركًا فى الأماكن التى صلى فيها النبى ﷺ.

وبينوا أنه يجب الاهتمام بالصلاة فى الأماكن سواء أكانت أسماء هذه المساجد التى أسست فى هذه المواقع معلومة أو مجهولة وأن هذه المساجد قد أقيمت عامة فى أيام ولاية عمر بن عبد العزيز، ثم جددت كلما احتاج أىٌّ موقع من مواقعها إلى التعمير والتجديد من قبل ملوك ذلك الزمان.

١ـ مسجد الجمعة:

يقع هذا المسجد بالمدينة المنورة وقرية قباء فى واد يعرف بذى صلب وفى رواية يعرف بـ «ذى رانونا» وهو بالقرب من التقاء مياه مجرى هذين الواديين.

إن هذا المسجد اللطيف أول معبد أدى فيه النبى ﷺ عند هجرته إلى المدينة المنورة وكان فى ميدان وادى ذى صلب وكان مكشوف الجوانب.

أحاطه أحد الخيرين اسمه عبد الصمد بجدار فى ارتفاع ذراع واحد وجعله على شكل مسجد.

ولما كان الجدار الذى أقامه عبد الصمد من الحجر الأسود خاليًا من كل شئ انهار بعد مدة واندرست خرائبه قليلاً قليلاً وهدمت فجدده أحد الفرس على شكل مسجد ولما مال هذا أيضًا إلى الانهيار والسقوط أصلحه وسقفه الشيخ شهاب الدين قلاوون وأحكم تشييده، ولهذا المسجد فى زماننا طاقان فوق عمود واحد وسقف مستقيم وطوله عشرون ذراعًا وعرضه ستة عشر ذراعًا وله ساحة رملية مكشوفة.

والحصن الذى اتخذه عتبان بن مالك مسجداً فى الجهة الشمالية من ذلك المسجد ومازالت آثار أطلاله قائمة حتى اليوم. وأخذا مما يرى كان عتبان يجمع رجال قبيلته فيه ويؤدون الصلاة فى الأيام المطيرة وذلك بإذن من النبى ﷺ.

عندما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة قام فى قرية قباء وواصل سيره وعندما وصل إلى ملتقى مجارى مياه، ذى صلب وذى رانونا حل وقت صلاة الجمعة فنزل من على ظهر ناقته التى كان يركبها وأدى صلاة الجمعة واتجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وكانت منازل سالم بن عوف فى ناحية ذلك المسجد، ويطلق على هذا المسجد اسم مسجد عاتكة أيضًا.

٢ـ الثانى هو مسجد الفضيح:

هذا المسجد معبد صغير مربع الشكل على شاطئ نهير فى الجهة الشرقية من مسجد قرية قباء، والجهات الأربع لمسجد فضيح خمسة عشر ذراعا قد أحيط أطرافه الأربعة بجدار من حجر أسود دون مؤنة وكان أبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ يسهر فى المكان الذى كان فيه مسجد فضيح قبل حرب بنى النضير. فسمعوا خبر تحريم الخمر فجأة وأراقوا ما فى أيديهم من الفضيح وسموا بعد ذلك المكان بالفضيح. وكانت إراقة الشراب فى ذلك المكان قبل أن يتخذ مسجدا وقبل أن يعرف أن الخمر بخسة مطلقا. وكان النبى ﷺ قد أمر أصحابه الكرام أن ينصبوا خيامهم فى مكان قريب من مسجد فضيح فى غزوة بنى النضير. واتخذ المكان الذى سمر فيه أبو أيوب الأنصارى مصلى وصلى فيه ما يقرب من ست ليال.

هذا وهناك من يطلق على مسجد الفضيح «مسجد الشمس»، ولكن إذا ما نظر إلى وقوع قصة رد الشمس الصحيحة المشهورة فى صحراء خيبر فخطأ هذ الرأى واضح.

كان مسجد الفضيح قد نسى تماما فى العصر الأخير وبناء عليه خربت مبانيه وإنهدمت آثار أساسه وانمحت فمسحت من الذاكرة حتى ساحة بنائه، إلا أن

مصطفى أفندى عشقى من المجاورين فى المدينة جدده فى سنة ١٢٦٦هـ ووفق فى إحيائه، وجدده مؤخرا السلطان عبد المجيد فى صورة لائقة فطول أبنيته وعرضها أحد عشر ذراعا.

وخلف الجدار القبلى للمسجد بستانان مشهوران ومعموران وهما الأشرية وسايور وبجانبهما قرية وحصن وأطلال بيدر عظيم.

٣ـ الثالث مسجد بنى قريظة:

مسجد بنى قريظة أمام باب حديقة النخيل والمعروفة بالحاجزة فى تلال قرية بنى قريظة من جهة الشرق، وجهاته الأربعة أربعة وأربعون ذراعا وعلى جوانبه آثار أطلال منازل بنى قريظة.

بنى ذلك المسجد الشريف الوليد بن عبد الملك وضم إليه ساحة منزل إحدى نساء بنى خضر، لأن النبى ﷺ كان قد صلى فى ذلك المنزل. وساحة هذا المنزل الآن بجانب مئذنة ذلك المسجد الحالية.

كان الأصحاب الكرام قد استقبلوا سعد بن معاذ فى غزوة بنى قريظة فى ساحة ذلك المنزل. يعنى أن الأصحاب الكرام من قبيلة الأوس استقبلوا سعد بن معاذ الذى تُرك لرأيه اختيار الجزاء اللائق ليهود بنى قريظة وقالوا له: «يا سعد! إن النبى ﷺ قد أحال لك تحديد الجزاء الذى يستحقه يهود بنى قريظة وبما أن لنا مع هذه القبيلة حقوق ومعرفة قديمة نرجو منك ألا تضيع هذه الحقوق والمعرفة». كان قديما لمسجد بنى قريظة ١٦ عمودا ومئذنة واحدة مثل مسجد قباء. وفيما بعد انهارت مئذنته وأعمدته وجدران أطرافه واندرست، وظلت قاعدة مئذنته فى الركن الغربى الشمالى من خرابته، فأحاطوه فى سنة ٧٢٠هـ بجدار. وقد جدد ذلك الجدار شاهين الشجاعى سنة ٨٩٣هـ وأسس على قاعدة مئذنته صفة جيدة وهكذا عاد المسجد إلى حالته القديمة، وطول مسجد بنى قريظة وعرضه أربعة وأربعون ذراعا، ولما كان خاليا من السقف فالذين يصلون فى داخله يكونون غير مصونين من حرارة الشمس.

٤ـ المسجد الرابع هو مسجد مشربة أم إبراهيم:[١]

مشربة أم إبراهيم معبد جميل فى فى الطرف الشرقى لمسجد بنى قريظة وهو بجوار التل وبين حديقة أشراف القواسم[٢].

ومشربة أم إبراهيم من الصدقات التى انتقلت إلى النبى ﷺ من مخاديق اليهود وكانت فى الماضى حوش جميل واقع بين بيوته وهو خاص بإقامة مارية القبطية وهو مسقط رأس إبراهيم. وحينما كانت أم إبراهيم تضع مولودها اتكأت إلى شجرة ويقال إن هذه الشجرة مازالت قائمة إلى الآن.

وقد ثبت أن النبى ﷺ صلَّى فى مشربة أم إبراهيم، لذا اتخذت ساحة الحوش سالف الذكر مصلى وطول هذا المسجد أربعة عشر ذراعًا وعرضه تسعة أذرع وقد هدمت أبنيته واندرس أساسه وجداره، وأحيط مؤخرا بجدار منخفض وأرى أنه ساحة المسجد النبوى الشريف.

وعلى الجهة الشمالية من مسجد مشربة أم إبراهيم ساحة منزل خرب يزورها الناس على أنها منزل دار بنى مازن بن النجار فالناس مخطئون فى ظنهم. وهذا المنزل الذى يزار بناء على ظن دون سند طوله أحد عشر ذراعا وعرضه أربعة عشر ذراعا وفى الجهة الشرقية منه سقف لطيف وبالقرب منه حديقة نخيل يعرف بالنخل الزبيرى وهذه الحديقة حديقة النخيل التى وقفها الزبير بن العوام.

٥ـ المسجد الخامس بنى ظفر:

بنو ظفر أحفاد جماعة من قبيلة الأوس ويطلق على معبدهم الذى فى جانب الحرة القريبة التى تقع فى الجهة الشرقية من بقيع الغرقد مسجد بغلة أيضا.

بعد أن صلى إمام الأنبياء ﷺ فى هذا المكان المقدس جلس على صخرة بجانبه، وبعد ذلك كلما جلست فوق هذه الصخرة امرأة عقيمة كانت تحمل

(١) المشربة بمعنى العريشة.

(٢) المراد بأشراف القواسم أبناء قاسم بن إدريس بن جعفر وهو أخو جعفر بن حسن العسكرى.

دائما، وأراد زياد بن عبيد انتزاع تلك الصخرة من مكانها لينقلها إلى مكان آخر، إلا أنه لم يتجرأ على ذلك بسبب معارضة علماء عصره، وليس هناك فى زماننا حجر مثل ذلك، ولكن الحجر الموجود على يسار باب مسجد بغلة ليس بعيد أن تكون تلك الصخرة التى سبق ذكرها.

وجلس النبى ﷺ فوق تلك الصخرة المذكورة وطلب أن يتلو عشر من القرآن الكريم وكان معه خادمه محمود العاقبة عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهما من الفضلاء.

وشرع أحد الصحابة ـ بعد البسملة ـ فى تلاوة العشر إلى أن جاء إلى الآية:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٤١-٤٢)

عندئذ تأثر النبى ﷺ تأثرا شديدا وبكى بكاء حتى اخْضَلَّتْ لحيته الشريفة بالدموع.

وليس لمسجد بنى ظفر أعمدة ولكن له محراب وطول جهاته الأربعة واحد وعشرون ذراعًا وقد تخربت أبنيته وقد رممه أبو جعفر المنصور المستنصر بالله خلال عام ٦٣٠هـ وكتبت على كمر بابه عبارة: «خلد الله الملك الإمام أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين عمره سنة ثلاثين وستمائة»

إلا أنه آل إلى السقوط والانهيار فيما بعد فجدده شيخ الحرم مصطفى مظلوم أغا وأقام إلى جانبه مسجدين فى عام ١٠٣٢هـ، ويسمى أحد المسجدين مسجد بغلة ويسمى الآخر مسجد المائدة ولما كانت فى مسجد بغلة بعض آثار الحوافر يروى موثوقًا بأن هذا الموقع هو مبرك ناقة النبى ﷺ.

وفى خارج مسجد بغلة حجر، وفى هذا الحجر خدوش ويعتقد أهل المدينة أن هذه الخدوش أثر حوافر بغلة النبى ﷺ وفى الجهة الغربية لهذا الحجر حجر آخر

عليه حفرة هى أثر مرفق النبى ﷺ، وإلى جانبه حجر آخر فيه حفر هى آثار أصابعه عليه السلام وجاءت فى ذلك رواية موثوقة.

٦ـ السادس مسجد الإجابة:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى لمقبرة بقيع الغرقد، وعلى يسرة الذاهب إلى محلة العريضى وطوله خمسة وعشرون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا وقد أرسى أساس هذا المسجد وسط قرية بنى معاوية بن مالك بن عوف الأوسى، ويقال إن ثمة أنقاضًا فى أطرافه هى أنقاض بيوت القرية المذكورة.

وقد ذهب النبى ﷺ مع بعض صحابته إلى مسجد الإجابة وصلى فيه ركعتين وبعد السلام دعا دعاء طويلاً وبعد ما انتهى منه قال: «قد طلبت فى هذا الدعاء من معطى العطايا ثلاثة أشياء قبل هذان منهما ورد واحدًا، أما الدعاءان اللذان قبلا فهما ألا تهلك أمتى بالقحط والغرق أما الدعاء الذى لم يستجب له رفع الخلاف والمباينة والاختلاف بين أهل الإيمان».

يروون نقلاً عن عبد الله بن جابر بن عتبة أن عبد الله تحدث على هذه الوتيرة: «حينما كنت فى قرية بنى معاوية جاء عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقال: يا عبد الله! هل تعرف المكان الذى أدى فيه النبى الصلاة فى مسجد الإجابة والأشياء الثلاثة التى طلب من الله عقب صلاته؟ فقلت له ـ نعم أعرف. وبعد ما أريته المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ قلت أما دعاؤه فكان ألا تهلك أمته بالقحط والغرق. وألا يقع بين المسلمين اختلاف وقتال فقبل عدم هلاك أمته بالقحط والغرق وردَّ طلبه بعدم وقوع خلاف بين أمته. وهكذا فصلت له الواقع، فقال ابن الخليفة يظهر أن الأمة المحمدية ستتقاتل فيما بينها إلى يوم القيامة»[1]، وأيد روايتى بهذا القول وصرح بأنه واقف لذلك الحديث.

كان النبى ﷺ سيد العالمين قد صلى ركعتين على مسافة ذراعين من يمين محراب مسجد الإجابة والذين يعرفون ذلك من الزوار عندما يزورون مسجد الإجابة. يحرصون على أداء الصلاة فيه على بعد ذراعين من يمين المحراب.

(١) الحديث من رواية ابن عباس ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١/ ١١٧.

رواية

يروى أهل المدينة المنورة أن مسجد الإجابة مجمع الأقطاب ويحكون أن أثر الفضلاء الذين لم يُرَوا فى المدينة المنورة يمكن رؤيتهم فى داخل هذا المسجد وهم يتعبدون فى حلقات.

يطلق فى المدينة المنورة على الأشخاص الذى يزورون المدينة المنورة فى موسم الحج أشخاص مجهولون، فلا يفهم من هذا أن زيارة هذا المسجد حصر على مواسم الحج؛ لأنه قد رئى فى داخل هذا المسجد فى ليالى الجمعة والاثنين بعض الذوات يذكرون الله موحدين فى حلقات وإن هؤلاء ليسوا من سكان دار السكينة والنواحى القريبة منها.

ولا حاجة هناك لإثبات أن مسجد الإجابة من الآثار المقدسة بروايات الأهالى. وكما هو معروف لزوار هذا المسجد اللطيف كلما يراه الإنسان يرتعش جسمه من المهابة التى أحدثها الروحانيون فيه.

كما أن باب هذا المسجد يترك ليلاً ونهارًا مفتوحًا وليس له حراس ولا خدم ولا مراقبون ومع ذلك لا يدخل فيه حيوان، أليس هذا دليلاً كافيًا لإثبات المدعى.

ويروى موثوقًا أن خضر عليه السلام يصلى كل يوم صلاة الإشراق فى مسجد الإجابة. ومع هذا كان لهذا المسجد فى أوائل سلطنة السلطان محمود خان الثانى عدة أسطوانات ومحراب جميلة؛ وفيما بعد تهدمت أبنيته ومحرابه المذكور وأعمدته حتى الأرض وظل فى حالة خراب إلى عهد السلطان محمود خان الثانى. الذى عمره وأحياه بتجديده، كما أن السلطان عبد المجيد خان اهتم بترميمه وتعميره، والآن هو عامر كالمساجد الأخرى ومعروف بين الأهالى ومشهور.

دعاء مسجد الفتح:

لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، اللهم لك الحمد هديتنى من الضلالة، فلا مكرم لمن أهنت ولا مهين لمن أكرمت، ولا معز لمن أذللت ولا مذل لمن أعززت، ولا ناصر لمن خذلت، ولا خاذل لمن نصرت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا رازق لما حرمت، ولا حارم لما رزقت، ولا رافع لمن خفضت، ولا خافض لمن رفعت، ولا خارق لمن سترت، ولا ساتر لمن خرقت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لمن قربت، اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أحول وبك أصول وبك أقاتل، اللهم يا نصير المستصرخين والمكروبين، ويا غياث المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم واكشف عنى كربى وهمى وحزنى وغمى كما كشفت عن حبيبك ورسولك ﷺ كربه وحزنه وهمه فى هذا المقام وأنا أستشفع إليك به ﷺ فى ذلك فقد ترى حالى وتعلم عجزى وضعفى يا حنان يا منان يا ذا الجود والإحسان أسألك من خير ما سألك منه عبدك وحبيبك سيدنا محمد ﷺ وأستعيذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك وحبيبك سيدنا محمد ﷺ. انتهى.

إخطار

بعدما ينتهى الزوار من هذا الدعاء يقتضى الأمر أن يعرضوا ما فى ضمائرهم بأية لغة كانت، وفى الطرف الغربى منه مسجد أبى بكر وبالقرب منه صهريج وفوق الصهريج غرفة، وهذه الغرفة من أوقاف إبراهيم أغا بانى هذا الصهريج. وفى الجهة الغربية من ذلك الصهريج بستان كبير. وبما أن موقع هذه الحديقة طيب الهواء وجميل المنظر وبنى فى مكان مناسب منها فى تاريخ ١٠٤٨ سبيل حسن فيجلس المارون والعابرون بجانبه ويدعون لصاحب الوقف بالخير. انتهى.

وبما أن المساجد الثلاثة التى سبق تعريفها فى جهة جبل سلع حيث اتخذ حجاج القوافل الشامية النزول حول هذا الجبل عادة مرعية استنبتت فى الجهة الغربية من هذا الجبل كثير من البساتين والمزارع. وتنزل القوافل الشامية فى الجهة

الشرقية من هذه البساتين والمزارع وتقيم هناك حسب المدة اللازمة، والبساتين المشهورة مثل المكارية، السنانية، الحمامية، الفيروز التى تنسب إلى الوزير مصطفى باشا فهى فى المحل الذى تنزل فيه قوافل الشام وتقيم هناك.

٧- كهف سلع

تطلق على هذه المغارة الشريفة كهف بنى خرام فهو فى مطلع بنى خرام الذى أمامه حديقة النقيبة وعلى يمين الذين يتجهون من المدينة المنورة إلى مساجد الفتح الثلاثة. وعلى هذا التقدير تظل حديقة النقيبة على يسار الذاهبين إلى الكهف المقدس المذكور.

مطلع بنى خرام ـ هو المكان الذى كان يسكنه قديمًا أفراد قبيلة بنى خرام، ومازالت أطلال ديارهم ماثلة للأعين إلى اليوم.

تقع حديقة النقيبة فى مجرى السيل الذى يجرى من جبل سلع إلى وادى البطحان وكهف بنى خرام فى الجهة اليمنى من مقدم الجهة الشرقية لهذا المجرى. وإن كانت من جبل سلع وعلى ربوه صغيرة ويصعد إليه من جهته الشرقية والشمالية بسلالم.

وفى الناحية القبلية لهذا المسجد مسجدان كذلك ويسميان بمسجد الفتح أيضًا ولكن وجه تسميته بالفتح أن النبى ﷺ قد دعا الله على ساحة هذا المسجد فى غزوة الأحزاب ابتداء من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء وقد استجيب لدعاء النبى ﷺ فى يوم الأربعاء بين الصلاتين فانهزمت أحزاب المشركين حالا وخابت آمالها.

إذا كان الدعاء فى مسجد الفتح قرين الإخلاص فلابد أن ينال القبول والاستجابة لدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويروون أن حضرة جابر قال: ما من حاجة رجوت من الله تحقيقها فى مسجد الفتح إلا ونلت أملى.

كان النبى ﷺ فى ابتداء غزوة الأحزاب فى مكان يطلق عليه جرف ثم انتقل إلى محل مسجد الفتح وشارك معظم الصحابة الكرام فى دعائه وواظبوا عليه.

ولقد أكثروا من الابتهال والتضرع إلى الله حتى دام ذلك فى الصباح حتى المساء، حتى إنهم لم يستطيعوا أداء صلوات الظهر والعصر والمغرب وقاموا بعد المغرب وصلوا صلوات الأوقات الثلاثة فى وقت واحد على ساحة الفتح. والمكان المبارك الذى أدى فيه النبى ﷺ يقع فى الساحة الرملية لذلك المسجد وفى مواجهة المحراب، وإذا ما نظرنا إلى وضعه الحالى فإنه فى المكان الذى ركز فيه العمود الثانى؛ لأن لمسجد الفتح ثلاثة أعمدة متحاذية.

التأسف

وبناء على تعريف المؤرخين أن المكان المبارك الذى أدى فيه النبى ﷺ صلاته هو المكان الذى ركز فيه العمود الثانى ولشدة الأسف عندما جدد ذلك المسجد من قبل السلطان عبد المجيد فى سنة (١٢٧٠هـ) انتزع المختصون بأمور البناء العمود الثانى عن مكانه وغرسوه فى مكان آخر بسبب جهلهم، فمكان ذلك الأثر مجهول الآن.

وفى الجهة القبلية من مسجد الفتح مسجد سليمان وخلفه مسجد على وخلف مسجد على مسجد أبو بكر.

وهدم الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء من وزراء الملوك العبيديين المصرية سنة ٥٧٥هـ مسجد الفتح وفى سنة ٥٧٩هـ مسجد سلمان وجددت فيما بعد على أشكال جميلة كما أن أحد أهل السنة جدد مسجد أبى بكر فى سنة ٦٠٢هـ فأصبح مثل المساجد الأخرى.

وطول مسجد الفتح عشرون ذراعًا وعرضه (١٧) ذراعًا وطول مسجد سلمان (١٧) ذراعًا وعرضه (١٤) ذراعًا وطول مسجد على (١٦) ذراعًا وعرضه (١٣) ذراعًا وكان صلحاء الإسلام عندما يزورون مسجد الفتح يدعون بالدعاء الذى مر ذكره:

هنا مغارة أخرى إلا أن المغارة التى نحن بصدد تعريفها على يمين مطلع بنى خرام وكان النبى ﷺ يبيت فيها قائمًا يصلى لخالق العباد.

٨ـ المسجد الثامن مسجد القبلتين:

يقع مسجد القبلتين فى ناحية بئر عثمان بجبل سلع، وله محرابان ينظر أحدهما إلى البيت المقدس والآخر إلى الكعبة المعظمة، وإن كان بعض المؤرخين قالوا إن تحويل القبلة حدث فى مسجد بنى خرام الذى يقع فى صحراء خالية، إلا أنهم مخطئون فى ادعائهم. لأن مسجد القبلتين كان فى قرية بنى سلمة وكان معروفًا فى ذلك الوقت بمسجد بنى سلمة بينما كان النبى ﷺ يؤدى صلاة الظهر فى مسجد بنى سلمة مستقبلاً بيت المقدس توجه إلى ميزاب الكعبة: وهذا هو سبب اشتهار هذا المسجد بمسجد القبلتين.

استطراد

بينما كان سيد البشر ﷺ، يزور مقلمة أم بشر بن البراء بن معرور ـ رضى الله عنها ـ يوم الاثنين فى أواخر شهر رجب الفرد فى السنة الثانية للهجرة وكانت من ساكنات محلة بنى سلمة إذ حان وقت صلاة الظهر بعد أن تناول الرسول ﷺ الطعام مضى إلى مسجد المحلة المذكورة ليؤدى صلاة الظهر.

وقام مصليًا، وبينما كان فى الركعة الثانية من الفرض نزلت الآية الكريمة:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٠).

فاستقبل النبى ﷺ البيت الحرام وهو يصلى فتبعته الجماعة الحاضرة واستقبلوا مع الرسول ﷺ الكعبة المعظمة وأتموا صلاتهم وسموا المسجد بمسجد القبلتين.

وكان النبى ﷺ إمام المتقين حزينًا، لأنه يستدبر البيت الحرام متجهًا إلى القدس لأنه كان يسمع بأذنه ما تقوله اليهود: «إن محمد يستقبل قبلتنا ويحتقر ديننا» ولما تحولت القبلة قد سر سرورًا لا حد له.

وقد تخرب مسجد القبلتين بمرور الزمان وتقلبات الأيام وفى عام (٨٩٣هـ) جدد شاهين الشجاعى سقفه فقط وأقام حوله جدارًا صغيرًا فحافظ على ساحته الرملية. إن سطح ذلك المسجد المقدس يرتفع عن سطح الأرض مقدار ذراعين وقد سمع رواية أن بابه خال من المصاريع وجدران أطرافه أشرفت على الخراب بعد تشققها. وقد رئى ذلك ذاتيًا فى سنة ٨٩٢هـ، وبما أن جميع آثار الحرمين تعمر وترمم تحت عناية السلطان وظله فلا شك أن هذا المسجد أيضًا سيعمر على الوجه اللائق.

٩ـ التاسع مسجد السقيا:

إن معبد السقيا اللطيف يقع فى جهة مكة وفى الجهة الغربية عن طريق المدرج قليلاً حيث فرق ﷺ مجاهدى ملحمة بدر الكبرى ودعا لأوزان طيبة وأكيالها بالخير والبركة.

كان هذا المسجد قد خرب تمامًا واندرس أساسه ولم يعرف مكانه، فليرض الله عن الإمام السمهودى الذى بذل جهودًا مدة طويلة حتى وجد أطلاله ومكان محرابه وأظهر ساحته وكشفها، وإن كان أساس جدرانه قد ظل تحت التراب مقدار نصف ذراع إلا أن الإمام المذكور قد رفع عنه التراب وبنى جدران أطرافه الأربعة وأعاد بناءه بقدر كاف وأعاده إلى هيئته الأولى. والآن طول كل ضلع من أضلاعه الأربعة سبعة أذرع، ولكن الأبنية التى جددها الإمام السمهودى لم تصمد طويلاً فتخربت، وفى العصر العثمانى جدده قاسم أغا من قواد جيش العثمانيين وهو أحد أصحاب الخير، كما ظهر وعمق بئر السقيا الذى بجواره، ويعرف الآن بئر السقيا بسبيل قاسم أغا.

١٠ـ العاشر مسجد الذبابة:

ويسمى أهل المدينة مسجد الإجابة بمسجد راية أيضًا. ويقع هذا المسجد على يسار القادمين من الشام إلى المدينة المنورة وهو على جبل صغير وفى مكان قريب

من ثنية الوداع وفى رواية موثوقة أن النبى ﷺ نصب خياما فى ساحة هذ المسجد وصلى فيها.

كان مروان بن الحكم قد قتل أحد الأشخاص يسمى ذباب وأتى به فى ساحة يطلق عليها ذباب وهى نفس ساحة ذلك المسجد المقدس، وصلبه وشهر به هناك، فعاتبته الصديقة زوجة الرسول السيدة عائشة قائلة له: كان الرسول ﷺ يؤدى الصلاة فى ذلك المكان المبارك، وأنت تجرأت أن تتخذ مصلى النبى مصلبًا؛ لذلك استحققت أن تكون مظهراً للخذلان.

وكان القتيل المذكور رجلا من اليمن، وكان عامل مروان على اليمن قد اغتصب وأخذ ثور المذكور، وعندما فصل العامل من عمله تتبعه ذباب إلى المدينة وقتل الرجل فاعتقل من قبل مروان وقبض عليه وصلب. وبعد قتل ذباب فى هذا المكان أصبح هذا المكان مصلبًا للأمراء إلا أن هشام بن عروة قال لزياد بن عبد الله أحد ولاة المدينة وا أسفاه!! لقد اتخذ موضع خيمة النبى ﷺ مكانا للصلب، وأصبح شغل الحكومة الشاغل الآن العمل على خلاف الآداب المرعية وبناء على هذا القول أبطلت عادة صلب الناس فى هذا الموضع. عندما اصطف فى غزوة الخندق كان النبى ﷺ قد نصب خيمة على جبل ذبابة وهناك من يدعى أن النبى ﷺ نصب خيمته فى غزوة الخندق على ساحة مسجد الفتح وإن كانت صحة هذه الرواية ظاهرة إلا أن النبى ﷺ لم يبق فى مسجد الفتح فقط بل وجد فى مسجد ذبابة أيضًا. ولما استجيب لدعائه فى ساحة مسجد الفتح أطلق على المسجد الذى أقيم على هذه الساحة مسجد الفتح. كانت أبنية مسجد ذبابة قد خربت تمامًا وانمحى أثر أساسه إلا أن أحد أهل الخير يسمى فيروزى أمين مرجان عمر وجدد هذا المسجد فى سنة ٨٤٥ أو ٨٤٦؛ رحمة الله عليه...

١١ - المسجد الحادى عشر مسجد أحد:

ولما كان مسجد أحد فى مكان ملاصق لجبل أحد فيظل على يمين الذاهبين إلى مهراس بطريق بين الجبل، ولما كانت مبانى جبل أحد صغيرة جداً وقديمة قد

خربت وكان معروفًا إلى سنة ١٢٦٩هـ بمسجد الفتح، فعمره فى السنة المرقومة مصطفى عشقى أفندى من مجاورى المدينة وأحياه وبهذا أنقذ ساحته من أن تكون مقرًا للدواب، وطول المسجد ثمانية عشر ذراعًا وعرضه اثنا عشر ذراعًا.

كان النبى إمام الأصفياء ﷺ، قد أدى صلاة الظهر والعصر على ساحة هذا المسجد فى ختام غزوة أحد، ونزلت عليه الآية الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١١).

١٢ـ المسجد الثانى عشر مسجد ركن جبل عينين:

يقع هذا المسجد فوق قمة الجبل الذى أمام مشهد حمزة بن عبدالمطلب ـ رضى الله عنه ـ والجهة الشرقية منه وكانت مبانيها خربة إلى سنة ١٢٦٧هـ وكان أساس خرائبه مجهولاً. وعثر عليه فى السنة المذكورة المرحوم عشقى أفندى من مجاورى المدينة وجدده، إن ما يطلق عليه مسجد «صرعه» هو نفس هذا المسجد ومساحته السطحية طولاً وعرضًا ثمانية عشر ذراعًا.

وقد كلُف أربعون من الرّماة تحت قيادة عبد الله بن جبير للدفاع عن ظهر الجيش الإسلامى ووضعوا فى ساحة هذا المسجد، قد أصيب حضرة حمزة فى هذا المكان ونال رتبة الشهادة العالية، ويروى أن جسراً كان قائمًا بالقرب من هذا المكان، فى عصر السعادة وأن النبى ﷺ قد صلى بجانب ذلك الجسر وهو مسلح فى وقفة أحد، ولكن فى زماننا لم يبق لذلك الجسر أى أثر.

١٣ـ المسجد الثالث عشر مسجد الوادى:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى لجبل العينين وفى مكان قريب من مسجد ركن جبل العينين. كانت أبنيته القديمة بنيت بأحجار منقوشة فى غاية من الزينة والمتانة وقد أشرفت على الخراب والانهدام، وجَدَّده فى خلال سنة ٥٠٨هـ

حسين بن أبى الهيجاء وكتب على طاق بابه: «هذا مصرع حمزة بن عبد المطلب ومصلى رسول الله ﷺ عمره حسين بن أبى الهيجاء سنة ثمان وخمسمائة».

وكان حضرة حمزة قد طعن فى ساحة مسجد ركن الجبل وسقط على ساحة مسجد الوادى، وأمر النبى ﷺ بإحضار جثمانه على ساحة مسجد الوادى الذى سبق تعريفه وصلى عليه.

وعلى رواية: أنه أدى صلاة الصبح فى هذا المكان ذلك اليوم هناك بين مسجد الوادى ومشهد حمزة.

وفى الجهة الغربية من المسجد المذكور مبنى مقبب يعرف باسم قبة الثنايا وهو أثر من آثار المرحوم سليم بك أحد كاتمى أسرار السلطان عبد المجيد وزملائه، كانت ثنية النبى ﷺ قد تكسرت فى هذا المكان الذى تحت القبة.

مع أن هذا المكان المبارك مركز وقعة أحد الأليمة إلا أنه أصبح الآن مسيرة للناس، قد بنى هناك كثير من المحال والمنازل واعتاد الأهالى أن يذهبوا هناك من وقت لآخر.

وفى مواسم الحج يشتد الزحام هناك ليلاً ونهاراً، ولا سيما عندما ترد طائفة الرحبيين ويقيم أهل المدينة فى المنازل التى هناك ويبذلون جهدهم ليحملوا الزوار والواردين على الزيارة، ولكن بهجة هذا المكان وزيارة آثاره تكون مهددة بأطماع عربان البادية وإذا طغى العربان وثاروا فلا مجال لذهاب الزائرين إلى هناك كما أنه ليس فى الإمكان إقامة الأهالى فى تلك البيوت آمنين مستريحين. وفى مثل هذه الأوقات يذهب الزوار فى جماعات كبيرة حتى يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد اللصوص والمسلحين، وإذا ما اقتضى الأمر حربهم فإنهم يقاتلون العربان ويشتتون شملهم.

ومن يخرجون من أهل المدينة لزيارة شهداء أحد يحملون السلاح، ويقولون إن حمل السلاح عند زيارة شهداء أحد سنة شريفة، لأن النبى ﷺ كان يحمل السلاح حينما كان يزور شهداء أحد.

١٤ـ المسجد الرابع عشر مسجد السافلة:

يقع هذا المسجد على يمين المتوجه إلى قبر حمزة وهو بالقرب من حديقة نخيل تسمى بجير وهو فى بقيع الأسواق فى طرف جبل حنين ويبلغ طوله ثمانية أذرع ويعرف بمسجد «أبى ذر الغفارى».

ويروى أن عبد الرحمن بن عوف[1] قال شخصيًا: إنه بينما كان فى الساحة الرملية لمسجد «سافلة» رأى النبى ﷺ وقد خرج من الباب الذى فى جهة المقبرة ودخل إلى حديقة فى الأسواق حيث توضأ وصلى ركعتين ثم سجد، وبعد مدة رفع رأسه المبارك وقال إن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل اليوم باسطًا أجنحته وأنزل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وفى هذه البقعة كذلك مسجد الثنية، وإلى عام ١٢٥٥هـ كان مجهول الاسم والمكان. وفى خلال هذا العام عثر عشقى أفندى على موضعه، وهذا المسجد يقع على ناحية إلى مسجد الفتح من مسجد حمزة، وهو مسجد صغير وطوله وعرضه خمسة عشر ذراعًا.

وأهل المدينة يدعون الزوار إلى زيارة موضعين آخرين فى هذا الموقع.

أحدهما: صخرة عظيمة ملاصقة لجبل أحد ولها فتحة قدر حجم رأس الإنسان، ويعتقد الزوار أنها أثر رأس النبى ﷺ.

والآخر: غار على مسافة من هذه الصخرة، ويقولون إن النبى ﷺ دخل فى هذا الغار، إلا أن هذان القولان ما هما إلا وهم وظن، ولو كانتا من الروايات الصحيحة لكان المؤرخون القدماء ذكروهما فى كتبهم وبينوهما.

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦١، تفسير سورة الأحزاب الآية ٥٦.

١٥ـ المسجد الخامس عشر مسجد البقيع:

يقع هذا المسجد على يمنة الخارج من باب مقبرة جنة البقيع وهو فى غرب قبر عقيل، وقبور أمهات المؤمنين ويقال إن عمودًا واحدًا تبقى من مبناه القديم. وكان لهذا المسجد عقدان قديمان ومصنوعان من الحجر المنقوش. وكانت أنقاض هذين العقدين ظاهرة ماثلة للعين إلى عام ٧٢٠هـ وبما أن شاهين الجمالى جدده فى نفس العام لم يبق لهما أثر الآن.

ولما كان مسجد البقيع متصلاً بدار أبى بن كعب كان اسم المسجد القديم «مسجد أبى بن كعب» واشتهر فى فترة ما باسم مسجد جديلة وكذلك.

وقد صلى النبى ﷺ مرارًا وتكرارًا فى مسجد البقيع وقال ﷺ لو لم أحترز من اقتداء الناس بى وميلهم للصلاة فيه لأكثرت من الصلاة فى هذا المكان.

وظل مسجد البقيع فيما بعد خربا تمام الخراب، وفى عام ١٢٦٥هـ أمر محافظ المدينة المنورة شمس الدين أفندى بإقامة جدار حوله فى ارتفاع ثلاثة أذرع وبهذا أنقذ المسجد من قاذورات البهائم.

وفى الجهة الشرقية من هذا المسجد قبور كثيرة لأعاظم السلف وفضلائهم ومن هذه القبور قبور صاحب الطريقة محمد سمان المدنى وأولاده.

فى ذكر المساجد التى تعرف جهاتها ولا تعرف مواضعها

١ـ المسجد الأول مسجد جديلة:

ويظهر أن هذا المسجد هو المسجد المنسوب إلى أبى بن كعب وقد ذكر جهته عندما ذكر مسجد البقيع.

٢ـ المسجد الثانى مسجد بنى حرام:

يقع هذا المسجد غرب مساجد الفتح فى وادى البطحان وبين جبل بنى عبيد وبئر معاوية وروىَ عن جابر أن النبى ﷺ صلّى فى هذا المسجد.

وكان فى المحل المذكور مسجد محلة بنىَ حرام، ومازالت أطلاله قائمة إلى الآن إلا أن المسجد الشريف خرب ولا يرى أساسه ومبانيه.

٣ـ المسجد الثالث مسجد الخربة:

وبما أن بطن بنى عبيد الذى ينحدر من قبيلة بنى سلمة قد أقاموا فوق جبل الدويخل القريب من جبل بنى عبيد وفى الجهة الغربية من قرية «بنى خرام» يلزم أن يكون مسجد الخربة فوق جبل بنى عبيد.

قد زار النبى ﷺ دار لبراء معرور من أهالى قرية بنى خرام وقد صلى النبى ﷺ فى موضع يسمى قراضة خلف نخل جابر بن عبد الله ولذلك فلا شك فى أن هذا المكان هو ساحة مسجد الخربة.

٤ـ المسجد الرابع مسجد جهينة:

كان هذا المسجد فى داخل القرية التى تنسب إلى قبيلة جهينة والتى تقع بين ثنية عثعث وجبل سلع وقد نصب بعض الأشخاص من قبيلة بلى والذين هاجروا

إلى القرية المنسوبة إلى قبيلة جهينة خيامهم حول هذا المسجد حيث أقاموا لفترة طويلة، ظل مسجد «بلى» اسما آخر لهذا المسجد قد شرف النبى ﷺ قرية جهينة على دعوة أبى مريم الجهينى وخط حول ساحة المسجد الذى سبق تعريفه خطًا وطلب منهم أن يصلوا فى داخله. وأسرع أفراد هاتين القبيلتين ببناء مسجد فوق الخط الذى خطه النبى ﷺ حيث أدوا صلواتهم. وقد خرب فيما بعد مسجد جهينة ولم لا موقعه ولا خرابته.

٥ـ المسجد الخامس مسجد بيوت المطر:

يقع فى الجهة الغربية للطريق المقابل للجهة القبلية لثنية عثعث.

وكان أفراد قبيلة بنى غفار يؤدون الصلاة فى ساحة هذا المسجد.

وقد ثبت أن النبى ﷺ صلى فى هذا المسجد إلا أن أبنيته تهدمت بمرور الزمن ولم تجدد ولم يبق أحد فى زماننا يعرف أساس أطلاله.

٦ـ السادس مسجد بنى زريق:

بنى زريق اسم قبيلة ينتهى نسبها إلى الخزرج بن ثعلبة، وهذا المسجد المنسوب إلى تلك الجماعة فى ثنية الوداع التى تبعد عن سور المدينة مقدار ميل واحد، ولا يستطيع أحد أن يعين موضعه فى يومنًا الحاضر. وروى المؤرخون أن شمس الدين محمد بن أحمد السلاوى بنى فى سنة ٨٥٠هـ مسجدين، أحدهما مسجد بنى زريق إلا أنهم ترددوا فى تعيين وتحديد واحد منها على أنه مسجد زريق.

ولقد التقى رافع بن مالك الزرقى[1] فى عقبة جبل ثبير بمكة المكرمة مع النبى ﷺ وتعلم منه عدة آيات كريمة ثم عاد إلى المدينة وجمع قومه فى ساحة مسجد بنى زريق وتلى ما تلقاه عن النبى ﷺ من الآيات الكريمة، وبذلك تُلى القرآن الكريم فى المدينة المنورة أول ما تُلى فى هذا المسجد.

(١) أحد النقباء الذين بايعوا النبى ﷺ بالعقبة، وأول من قدم المدينة بسورة يوسف. لما لقى رسول الله ﷺ بالعقبة وبايعه أعطاه ما أنزل عليه من القرآن فى العشر السنين التى خلت فقدم به المدينة وجمع قومه فقرأ عليهم فى موضعه. انظر: الأصابة ٢/١٨٩-١٩٠.

ولم يصل النبى ﷺ فى هذا المسجد بل توضأ فى ساحته ولبث فيها وقتًا للراحة، فتحصلت البركة للمسجد وهو محل مبارك فى غاية اللطف ويقع على يمين الداخلين فى حصن المدينة المنورة.

٧ـ المسجد السابع مسجد بنى ساعدة:

مسجد بنى ساعدة مسجد فى غاية القداسة ويقع فى المدينة المنورة وفى داخل محلة[١] بنى ساعدة، وسقيفة[٢] بنى ساعدة تقع بجانبه.

جلس النبى ﷺ يومًا فى هذه السقيفة وطلب من سهل بن سعد أن يسقيه، فشرب ما أحضره سهل ـ رضى الله عنه ـ من الماء وطلب منه أن يحضر له مرة أخرى فلما أحضر شربه أيضًا وقال ملاطفًا سهل بن سعد يا سهل! الماء الأخير ألذ من الماء الأول وأعذب.

٨ـ المسجد الثامن مسجد بنى ساعدة الآخر:

هذا المسجد قريب من جبل ذبابة ويروى أن النبى ﷺ قد صلى فى هذا المكان أيضًا.

٩ـ المسجد التاسع مسجد بنى خذارة:

مسجد بنى خذارة، بجانب مسجد بنى ساعدة الذى ذكر آنفا وقد رسول الله ﷺ فى هذا المسجد وقص شعره، وكان بنو خذاره الذين ينتسب إليهم المسجد يقيمون بجانب سبيل سعد بن عبادة فى ناحية حصن المدينة.

١٠ـ المسجد العاشر مسجد راتج:

راتج اسم الحصن المشهور الذى يقع فى الطرف الشرقى من جبل ذباب، وكان مسجد راتج بجانب هذا الحصن وبجانب بئر أبى الهيثم بن التيهان المشهور باسم جاسم. كان النبى ﷺ فى هذا الموقع المقدس وشرب من ماء بئر جاسم.

(١) كانت فى الجهة الشمالية لسوق المدينة المنورة وكانت هذه السوق مقبرة لبنى ساعدة وقد ابتاع النبى ﷺ هذا الموضع من بنى ساعدة وجعله سوقًا لأهل المدينة كما ذُكر من قبل.

(٢) هذه هى السقيفة التى بويع فيها أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بالخلافة.

١١ـ المسجد الحادى عشر مسجد بنى عبد الأشهل:

يقع فى حرة واقم وبين محلة بنى ظفر وبنى حارثة وكان بنو عبد الأشهل المنسوبون إلى قبيلة الأوس يصلون فيه، ويقال لهذا المسجد مسجد واقم كذلك. كان النبى ﷺ كلما شرف محلة عبد الأشهل كان يصلى صلاة المغرب فى مسجد واقم وكان يسبح طويلاً ثم يقول: يقال لهذه الصلاة صلاة البيوت.

وكان من عادة النبى ﷺ أن يتردد كثيراً إلى هذه المحلة فى حياة سعد بن معاذ الأشهلى وما كان يعود كلما شرف المحلة دون أن يصلى صلاتى العصر والمغرب فى ذلك المسجد.

١٢ـ المسجد الثانى عشر مسجد القرصة:

كان هذا المسجد فى الحرة الشرقية الواقعة فى الجهة الشمالية من محلة بنى عبد الأشهل، ولم يكن هناك من يعرف موقعه. وجزم المرحوم الإمام السمهودى أن الخرابة التى بجانب بئر قرصة هى خرابة مسجد القرصة، ومن هناك اقتنع الأهالى بأن هذه الخرابة هى ساحة خرابة المسجد المذكور.

١٣ـ المسجد الثالث عشر مسجد بنى حارثة:

من المؤكد أن مسجد بنى حارثة اللطيف فى قرية بنى حارثة، وبما أنه لم يبق فى زماننا من يعرف الجهة التى كان يقع بها المسجد من جهات القرية فأرضه مجهولة.

١٤ـ المسجد الرابع عشر مسجد الشيخين:

إذا ما ذهب إلى مسجد الشيخة عن الطريق الشرقى يظل المسجد بين جبل أحد والمدينة المنورة، وقد دفن قائد جيش النبى مصعب[1] بن عمير فى مكان يسمى بمهد حمزة وفى داخل جبل أحد.

وقد قضى النبى ﷺ فيه وقتًا فى غزوة أحد، ومضى إلى حومة الوغى فى

(١) كان مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ قد أرسل من قبل النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ليعلم السابقين من الأنصار المسائل الدينية ويؤمهم فى الصلاة ويخطب فيهم وقد آمن ثلثا الأنصار الكرام بفضل جهوده.

الصباح وصلى صلوات العصر والعشاء والفجر فى هذا الموقع المقدس، ويسمى هذا المسجد كذلك «مسجد البدائع» لأن فى المكان الذى يطلق عليه البدائع كان حصنان مشهوران باسم الشيخين.

١٥ـ المسجد الخامس عشر مسجد بنى دينار:

مسجد بنى دينار منسوب إلى دينار بن النجار من أحفاد الخزرج بن ثعلبة وهو بالقرب من موضع يسمى المغسلة[١] وخلف وادى البطحان ولا يعرف موضع ساحة مسجد بنى دينار ولكن بما أن صاحب نخيل المغسلة وجد هناك حجراً كتب عليه بالخط الكوفى: «هذا مسجد رسول الله ﷺ» بنى فى المكان الذى وجد فيه الحجر بنى مسجداً جميلاً وألصق ذلك الحجر فوق باب المسجد وبناء عليه ليس ببعيد أن يكون هذا المكان مسجد بنى دينار ويروى أن النبى ﷺ كثيراً ما صلى فى هذا المسجد.

١٦ـ المسجد السادس عشر مسجد بنى عدى بن النجار:

كان هذا محلة بنى عدى بن النجار واغتسل النبى ﷺ فى هذا المكان.

١٧ـ المسجد السابع عشر مسجد دار نابغة:

هذا المسجد أيضًا فى هذا المكان، وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان.

وعلى رواية صلى أيضًا فى مسجد بنى عدى. ومسجد دار نابغة يستلزم أن يكون هو الضريح الذى دفن فيه والد النبى ﷺ عبد الله بن عبد المطلب.

وفى سنة ١١٤١ اشترى السلطان محمود خان العدلى، من الساحة المتصلة بالمسجد وخاصة بدار الفحل عشرين ذراعًا وضمها للمسجد فجدده ووسعه. وكانت دار نابغة فى المحل الذى دفن فيه عبد الله بن عبد المطلب كما أن دار بنى عدى فى الجهة الشامية لمسجد بنى جديلة.

(١) المغسلة اسم حديقة نخل مشهور بالقرب من المدينة وكانوا قديمًا يغسلون جنازاتهم فى هذا المكان.

١٨ـ المسجد الثامن عشر مسجد بنى مازن بن النجار:

مسجد بنى مازن فى الطرف الشرقى القبلى لمحلة بنى زريق وهو الآن فى مكان يسمى ناحية أبى مازن وقد أمر النبى ﷺ بنفسه بحفر أساس هذا المسجد، وصلى فى الدار التى تسكنها أم بردة المازنية[1]، ولما كانت أم بردة المازنية مرضعة ابن الرسول إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ظل النبى بجوارها حين احتضارها.

١٩ـ المسجد التاسع عشر مسجد بنى عمر بن مبذول بن مالك بن النجار:

ويقع هذا المسجد بالقرب من بقيع الزبير ويروى أن النبى ﷺ كان يصلى فى هذا المكان، إلا أن ساحته المقدسة غير معلومة.

٢٠ـ المسجد العشرون مسجد بقيع الزبير:

كان مسجد بقيع الزبير بجوار محلة بنى عم وفى الطرف الشرقى لبدال بنى زريق والموثوق أن مكانه مكان المسجد القديم فى طريق بقيع الغرقد ويروى أن النبى ﷺ صلَّى فى هذا المكان المقدس ثمانى ركعات من صلاة الضحى.

٢١ـ المسجد الحادى والعشرون مسجد صدقة الزبير:

كان هذا المسجد فى محلة بنى محمد والتى يطلق عليها الزبيريات وهى فى الجهة الغربية لمشربة أم أبراهيم، والطرف القبلى لهذا المسجد قريب من حدائق خناقة أعواف من صدقات النبى ﷺ، وما فيه الزبير بن العوام وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان أيضًا.

٢٢ـ المسجد الثانى والعشرون مسجد بنى خذرة الخزرجية:

هذا مسجد فى قرية بنى خذرة وهو مسجد صغير تجاه بنت الحية وبانية زكوى بن الصالح.

٢٣ـ المسجد الثالث والعشرون مسجد بنى الحرث بن الخزرج ومسجد السخ:

مسجد بنى الحرث فى مكان يسمى تربة الحارث أى فى محلة بنى الحارث التى

(١) انظر: الإصابة ٨/ ٢١٥.

فى وادى بطحان. ومسجد النسخ على بعد ميل من الحجرة المعطرة وفى محلة جشم وزيد بن بنى الحارث، وفى زماننا فساحتا هذين المسجدين مجهولتان إلا أنهم يروون أن دار زوجة الصديق، بنت حارثة على ساحة مسجد النسخ.

٢٤ـ المسجد الرابع والعشرون مسجد بنى الحبلى:

رهط أبى بن سلول الخزرجى، كان مسجد بنى حبلى فى محلة بنى حبلى وفى الطرف الشرقى لبطحان، أى كان فى مكان بين المدينة المنورة وقرية قباء.

٢٥ـ المسجد الخامس والعشرون مسجد بنى بياضة الخزرجى:

يقع فى وادى البطحان فى محلة بنى سالم المتصلة بمحلة بنى مازن.

٢٦ـ المسجد السادس والعشرون مسجد بنى فاطمة ومسجد العجوز أوس:

هذان المسجدان فى عوالى المدينة المنورة وفى الجهة الشرقية من مسجد الشمس وبجانب قبر براء بن المعرور الذى وبايع النبى ﷺ فى بيعة العقبة ومن الأنصار السابقين للإسلام والذى توفى قبل الهجرة.

٢٧ـ المسجد السابع والعشرون مسجد بنى امية بن زيد الأوس:

كان هذا المسجد اللطيف بين قريتى العرش ونواعم. وأنهارت مبانيه مع مرور الزمان وقد تراكمت فوقه الرمال والتراب حتى تكونت هناك ربوة صغيرة.

٢٨ـ المسجد الثامن والعشرون مسجد بنى وائل الأوس:

مسجد بنى وائل المقدس فى قرية قباء، وعلى رأى فى الجهة الشرقية لمسجد شمس، وقد ركز بين العمودين وَتَدٌ للدلالة على المكان الذى أدى فيه النبى ﷺ الصلاة. وبناء على رواية ابن شيبة أن ذلك الوتد بعد عن المحراب مقدار خمسة أذرع.

٢٩ـ المسجد التاسع والعشرون مسجد بنى واقف:

كان المسجد المذكور فى محلة بنى واقف يُشَكُّ فى الجهة التى يقع فيها، إلا أن بعض الموقفين يروون احتمال وجوده فى الجهة القبلية من مسجد الفضيح.

٣٠ـ المسجد الثلاثون مسجد بن أنيف:

إلى جماعة بلى من الخلفاء الأوس ومسجدهم فى الجهة القبلية الغربية من قباء بجانب بئر عذف وفى داخل قرية بنى أنيف.

٣١ـ المسجد الحادى والثلاثون مسجد دار سعد بن خيثمة:

كان مسجد دار سعد فى الجهة القبلية من مسجد قباء المشهور، وعند الهجرة النبوية سكن فى هذه الدار الصديق أبو بكر والسيدة عائشة الصديقة وجناب فاطمة الزهراء وأسماء بنت الصديق وأم رومان والسيدة سودة وعلى بن أبى طالب.

٣٢ـ المسجد الثانى والثلاثون مسجد التوبة:

وإن كان هذا المسجد فى الجهة الغربية من مسجد قباء إلا أنه لم يبق أحد الآن يعرف مكانه.

وكان هذا المسجد لقبيلة بنى جَحْجَبَى المنتسبة إلى بنى عمرو بن عوف وكانوا يقيمون بجانب حصن يسمى «هجيم» وفى مكان يسمى «عصية» وهناك بئر أيضًا. والآن فى موقع عصية عدة آبار ومزارع ولكن لا يعرف بجانب أية واحدة من هذه الآبار كانت ساحة مسجد التوبة.

٣٣ـ المسجد الثالث والثلاثون مسجد النور:

ومسجد النور بناء على بعض الأقوال فى قرية قباء وبناء على الأقوال الأخرى فى المدينة المنورة. ولم يكن يعرف سبب تسمية موقعه وساحته بهذا الاسم إلى سنة ١٢٧١هـ وقد وجد مكانه مصطفى عشقى أفندى من المجاورين مستعينًا بالتواريخ القديمة وروايات المسنين من أهل المدينة وجدده. وإذا به كان من جهة حدائق النخيل التى تسمى بستان قائم فى قرية قباء، بينما كان عشقى أفندى يحفر الأماكن التى بدت له ظهر أساس جداره القديم وقد صدق المسنون من قرية قباء أن هذا الأساس أطلال مسجد النور ودعوا بالخير للمرحوم عشقى أفندى.

كان ذلك المسجد دار أبى بكر الصديق وبناء على تدقيقات عشقى أفندى وتحقيقاته فإن النبى ﷺ شرف فى عصر السعادة بيت الصديق الأكبر، وكان معه عمر الفاروق أيضًا. وعند عودتهما خرج منها نورٌ لهما وأنار الشريفة وبناء على ذلك أطلق على بيته السعيد مسجد النور.

٣٤ـ المسجد الرابع والثلاثون مسجد عتبان بن مالك

إن مسجد عتبان فى محلة بنى سليم الخزرجى وفى داخل برج عتبان بن مالك وهذا البرج فى الجهة الشرقية من مسجد الجمعة، وبما أن النبى ﷺ قد صلى فى داخل برج عتبان بن مالك فقد اتخذ من هذا المكان مسجداً وكان يؤم جماعته فى الصلاة فى الأيام العطرة.

٣٥ـ المسجد الخامس والثلاثون مسجد مثيب:

وهذا المسجد من صدقات النبى ﷺ وقد انهدم بمرور الزمن.

٣٦ـ المسجد السادس والثلاثون مسجد المنارتين:

فى طريق الجبل الأحمر الذى يطلق عليه العقيق الكبير، انهارت أبنيته مع مرور الزمان ولم يجدد ولم يعمر، وأطلاله ظاهرة.

٣٧ـ المسجد السابع والثلاثون مسجد فيفاء الجنادر:

خلف حمام خالد الذى فى الجهة الغربية من جبل يسمى ذات الجيش، وموقعه مجهول الآن. وفى غزوة العشيرة تقدم النبى ﷺ نحو نقب بنى دينار ونزل فى فيفاء الجنادر وبعد أن صلى تحت شجرة ذات السابق[1] التى كانت فى بطحاء ابن أزهر. تناول طعامه وشرب من ماء ثبير[2]، وثبير اسم البئر التى بجانب ذات الساق.

---

(١) اسم شجرة كبيرة.

(٢) اسم ماء فى ديار مزينة أقطعه النبى ﷺ شرَيسَ بْنَ ضَمْرَةَ.
انظر: اللسان (ثبر) ص ٤٧٠ ط. دار المعارف.

٣٨ ـ المسجد الثامن والثلاثون مسجد بنى جثجاثة وبئر شداد:

يقع مسجد بنى جثجاثة فى العقيق تجاه مقبرة بقيع الغرقد وبين ثنية الشريد وخُليفة وبما أن النبى ﷺ فى هذا المكان واستراح فيه جالسا فقد اشتراه عبد الله بن سعد للتبرك وبنى عليه مسجداً عالى البناء.

الوجهة السادسة عشرة
وتشتمل على أربع صور

فى ذكر وتعريف فضائل مقبرة البقيع الثابتة
والمدفونين فى داخلها من شهداء أحد

تعرف وتظهر فضائل مقبرة بقيع الغرقد الباهرة

معنى البقيع المكان الذى ازدحم بأشجار متنوعة حتى تحول إلى غابة، ولما كان بقيع الغرقد فى الأصل منبت أشجار يطلق عليها الغرقد فأضيف الغرقد إلى البقيع.

ومقبرة بقيع الغرقد خارج باب الجمعة لحصن المدينة فى طرفها الغربى حدائق النخيل وفى جهتها الشرقية حصن المدينة الميمونة. وسيول وديان المدينة الظاهرة تمر من جانبى تلك المقبرة، وعندما يشتد المطر فالسيول الواردة تجرف أسوارها.

قد قال النبى ﷺ «كل من يدفن فى مقبرتنا بقيع الغرقد هذه فإننا نشفع له يوم القيامة أو نشهد له» (حديث شريف) ووصفت التوراة بقيع الغرقد باسم «كفتة» وبين أنها بين تلين. وفعلاً فى جهة من جهاتها الحرة الشرقية وفى الجهة الأخرى الحرة الغربية ورد فى الخبر أن سبعين ألفا وجوههم مشرقة مثل القمر، سيحشرون يوم القيامة من مقبرة بقيع الغرقد وستملأ أنوار نواصيهم المشعة بين السماوات والأرض.

يقال إن هذه الرواية مسطورة فى التوراة، كان مصعب بن عمير ذاهبًا يومًا مع ابن رأس الجالوت عن طريق بقيع الغرقد إلى المدينة المنورة، ولما دخلا فى حدود مقبرة بقيع الغرقد رأيا أن تلك المقبرة بين تلين فتصدى ابن رأس الجالوت للحديث وقال يا مصعب إننى رأيت فى التوراة أن هناك مقبرة الجهة الشرقية منها بيوت والجهة الغربية نخيل، إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيبعث ويحشر من هذه المقبرة سبعين ألف رجل وجوههم منيرة كالبدر.

وقد بحثت عن هذه المقبرة مدققًا النظر فى كثير من المقابر ولكننى لم أجد المقبرة المذكورة فى التوراة.

شعر

فى يوم القيامة حينما ينفخ فى الصور

يقوم كل هؤلاء فى أشعـــار مـــن نور

وإذا ما ارتفعت من الغبار رؤوسهم

اتجهـــت إلى الحبيـــب عيونهـــم

لما دخل النبى فى دار عقيل بن أبى طالب وكانت فى البقيع وقف فى ركن منها وأخذ يدعو قائلاً: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اعف عن أهل بقيع الغرقد.

وعلى قول السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين والمستأخرين.

وعلى رواية: اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم.

وعلى قول السلام عليكم يا أهل القبور ويغفر الله لنا ولكن أنتم لنا سلف ونحن بالأثر. وقام فى ليلة من نومه وذهب إلى البقيع مصاحبًا غلامًا له يسمى «أبا موهبة» وأخذ يدعو قائلاً: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى»، وكان فى ذلك الوقت فى مرض موته.

وبما أن زاوية عقيل موقف رسول الله ﷺ يقتضى على الزوار أن يقفوا فى هذا المكان وأن يدعوا، سواء أكان هذا المكان أو الأماكن الأخرى التى تنسب إليه من الأماكن التى تستجاب فيها الأدعية فمن المستحب الدعاء فيها.

فى ذكر من دُفن فى مقبرة بقيع الغرقد من الصحابة وسادات أهل البيت وكبار التابعين

والذين تعرف قبورهم اليوم يتجاوز عدد من دفن فى مقبرة بقيع الغرقد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ اثنى عشر ألفا. ولكن بعض هؤلاء ماتوا فى عصر السعادة وبعضهم فى عهود الخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية. وبما أن فى أوائل الإسلام لم ترفع قباب فوق المقابر ولم تنصب الحجارة ظلت مواضع قبورهم وجهاتهم مجهولة ما عدا هؤلاء الذين ستكتب أسماؤهم فيما بعد:

إبراهيم ابن الرسول ﷺ وعلى أبيه ـ: إبراهيم ابن الرسول مدفون بجانب ضريح عثمان بن مظعون أخى النبى ﷺ فى الرضاعة وفى داخل ضريح خاص له.

شعر

لا مجـــال لقـــــدم الأجنبى

نـــام هنا جوهـــــر صلـــب النبى

فى هـــذا الركن المعطـــر بالعنـــبر

اعْتَـــشَّ فى الجـــنة كـــل طـــير

ويرى بعض الناس أن عبد الرحمن بن عوف وأبا هريرة ـ رضى الله عنهما ـ دفنا بجانب هذا الضريح المزهر.

ولكن قبر ابن عوف معروف لدى التاريخ وسيعرف فيما بعد.

وفى شرق هذين القبرين وفى مكان يصادف وسط مقبرة البقيع أى بجوار الباب الشامى للمقبرة قبور بعض المشاهير من شهداء أحد، وهؤلاء الأشخاص

الذين دفنوا فى هذه القبور قبل أن ينزل الوحى بدفن الشهداء حيث استشهدوا؟ لذا نقلوا هنا ودفنوا فى البقيع. وبجانب القبر المذكور بعض الفساقى[1] الكبيرة ويقول الأهالى إن الغرباء والزوار الذين ماتوا ماتوا فى أوبئة السنين الماضية دفنوا فى هذه الفساقى.

وأم حضرة إبراهيم مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى سيدنا محمد ﷺ وولد إبراهيم فى ذى الحجة من السنة الثانية الهجرية وتوفى بعد مرور (١٦) أو (١٨) شهراً من ولادته. قام بتغسيله الفضل بن عباس وأنزله فى القبر بعون أسامة بن زيد، وبما أن النبى ﷺ صب بنفسه الماء فوق قبره بعد الدفن أصبح صب الماء على القبور بعد ذلك سنة. لما مات إبراهيم سأل الصحابة الكرام عن المكان الذى سيدفن فيه فأجابهم الرسول ﷺ احفروا له قبراً وجهزوه بجانب قبر عثمان بن مظعون؛ فحفروا فى ذلك المكان قبراً ودفنوه، فالقبر الذهبى فى ذلك الوقت كان فى ركن دار عقيل بن أبى طالب من الجهة اليمانية.

وكانت مقبرة بقيع الغرقد إلى وفاة حضرة إبراهيم ذات نخيل، بعدما دفن إبراهيم فى المكان الذى سبق تعريفه رغب الجميع فى دفن جنازاتهم فى البقيع واختارت كل قبيلة جهة من جهاته مقبرة وقطعوا أشجارها وسوَّوْا أرضها.

وكان عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الجمحى والمكنى بأبى السائب واسم والدته مستحيلة بنت العنبس بن أهبان بن حذافة بن جمح وهو الرابع عشر من سابقى المسلمين، هاجر مع ابنه سائب وبأشخاص آخرين إلى ديار الحبشة أولاً وبعدها إلى مدينة دار السكينة. كان شخصاً مفضالاً يصوم النهار ويقوم الليل، مات بعد مرور اثنين وعشرين شهراً من غزوة بدر ومات قبل إبراهيم ـ عليه وعلى أبيه التعظيم ـ ودفن فى البقيع فى مكان يطلق عليه الزوار الروحاء وفى الجهة الشرقية من ابن النبى.

(١) **الفسقية**: تقال للجحور المستطيلة الخاصة بدفن أموات الغرباء وأعلاها ذات عقود، ففساقى مصر تبنى عموديا على هذا الشكل.

أول من دفن فى البقيع الشريف هو عثمان بن مظعون. وكان النبى ﷺ قد نصب حجرًا على القبر من ناحية رأسه كعلامة خاصة.

ولما أصبح مروان بن الحكم واليا على المدينة المنورة أخرج تلك العلامة فجعل القبر مجهولاً، أو على رواية أخرى نقل الحجر إلى قبر عثمان بن عفان ساطع الأنوار.

سانحة: نَصْبُ الحجارة شئ أحدث فيما بعد، وفى الأول كانوا ينصبونها على قبور من اشتهروا بالعلم والصلاح، وفيما بعد تعمم الأمر. وبما أن الشيخ أبا صالح التركماني قد كره بدعة نصب الحجر فقد رغب فى عدم نصب حجر على قبره وترك وصية مكتوبة فى هذا الخصوص لأحفاده.

رقية بنت النبى ـ رضى الله عنها ـ كريمة رسول الله ﷺ: وقبرها بجوار قبر أختها أم كلثوم وبجانب قبر عثمان بن مظعون.

وقال الرسول ـ ﷺ الواقف على أسرار الحكمة ـ عندما نصب ذلك الحجر على قبر عثمان بن مظعون: «فليكن هذا الحجر علامة على قبر أخى فى الرضاعة وليدفن من يتوفى من أهل بيتى فى هذا المكان»، لأجل ذلك قالت رقية وهى على فراش الموت فى حالة احتضارها: ادفنونى بجانب عثمان بن مظعون ومسح النبى ﷺ دموع السيدة فاطمة بجانب هذا القبر المنيف لأن السيدة فاطمة كانت قد تأثرت أشد التأثر من موت أختها وكانت تبكى بجانب هذا القبر لامع الأنوار.

السيدة رقية التى تشرف عثمان بن عفان بالزواج منها أولى الجميلتين اللتين نال شرف الزواج منهما.

ولما كان والدها الجليل ﷺ قد زوجها بعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عندما كان بمكة المكرمة وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فى الهجرة الأولى وبعد العودة هاجرت إلى المدينة المنورة فى الهجرة الثانية. وقد مرضت فى السنة الثانية للهجرة وبناء على ذلك لم يشترك فى غزوة بدر ليظل بجانب زوجته المحترمة تنفيذاً للإرادة النبوية، وقد لحقت بالرفيق الأعلى، حينما وصلها خبر

انتصار الجيش النبوى إلى المدينة المنورة ومن هنا تزوج عثمان بن عفان أختها الصغرى أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ فسعد. ولما كانت فى الحبشة ولدت ابنها عبد الله بن عثمان وعاش الغلام خمس أو ست سنوات بناء على بحث ابن الأثير ثم نقر عينه الديك فتورم وجه الصغير المعصوم ومات فى خلال السنة الرابعة الهجرية، وفى شهر جمادى الأولى متأثرًا بهذا الحادث.

سواء أكانت رقية أو أختها أم كلثوم ـ رضى الله عنهما ـ كان عقد نكاحهما أولاً لابنى أبى لهب عتبة وعتيبة، أى عقد نكاح رقية لعتبة ونكاح أم كلثوم لعتيبة، وبما أن زوجة أبى لهب أم جميل شعرت بالخزى والعار عند نزول سورة ﴿تبت﴾ فسخت نكاحهما قبل الزفاف، مع أن هذا الفعل كان بالنسبة إلى المشار إليهما مصدر خير ولطف وإحسان وبالنسبة لعتبة وعتيبة مجلب ذل وخسران وهوان.

فاطمة بنت أسد ـ رضى الله عنها ـ بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشى ووالدة سيدنا على أبن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ المشفقة. قد دفنت فى دار عقيل أول أضرحة بنى هاشم والضريح كان أمام حمام[1] أبى مطيعة فى الروجاء وعند البعض بالقرب من ضريح عباس بن عبد المطلب.

قطعة شعرية

هى جوهـــــر ســـبط اللآلـــىء

فاطمة بنت أسد أم حيدر الكرار على

أثنى عليهـــا الحق تعالى كـــل الثنـاء

إنهـــا جدة جميـــع الشرفـــــاء

وإن كانوا ينسبون القبر والضريح الذى فى آخر مقبرة البقيع إلى فاطمة بنت أسد، ولكن على أرجح الأقوال أنها لم تدفن فى هذا الضريح بل دفنت فى

(١) هذا الحمام ليس حماما عاديًا إنه اسم نخلة مشهورة فى الجهة الشمالية لقبر إبراهيم ـ عليه وعلى أبيه التعظيم.

الضريح سالف الذكر. لأن النبى ﷺ كان يحب السيدة فاطمة حبًا جمًا وهذا ثابت وبما أنها ماتت فى حياة الرسول فمن المحال أن يكون قد دفنها خارج البقيع الشريف، ويمكن الاستدلال على ذلك بما قاله النبى ﷺ عندما نصب حجرًا على رأس قبر ابن مظعون قائلاً: «فليكن هذا الحجر علامة قبر أخى فى الرضاعة وليدفن هنا من توفى من أهلى»، وبناء على ذلك فقبر المشار إليها إما فى «الروحاء» أو فى «دار عقيل» ولا شك فى ذلك وقد كفن النبى ﷺ فاطمة بنت أسد بقميصه وأنزلها بنفسه فى القبر وبعدما أهال التراب فوق التراب وغطى القبر بكى كثيرًا.

التوضيح: لم ينزل النبى ﷺ فى أى قبر لوضع الجنازات إلا فى قبر خديجة الكبرى، عبد الله المزنى، وابن الخديج، وأم رومان، وفاطمة بنت أسد.

وأنزل الأشخاص الذين ذكرناهم فى قبورهم ودعا لهم بما يليق. حتى أنه جلس على رأس قبر فاطمة بنت أسد بعد الدفن وبكى بكاء شديدًا مديدًا ودعا على النهج التالى:

«الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت، اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين».

عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ: دفن بالقرب من قبر عثمان بن مظعون الكائن فى الجهة الشرقية لزاوية دار عقيل، قد أرسلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أحدًا إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يحتضر ليقول له إذا ما شئت هيأت لك قبرًا بالقرب من قبر النبى.

فرد قائلاً لا أستطيع أن أضيق لك بيتك، وكنا قد تعاهدنا مع عثمان بن مظعون على أن يدفن الثانى بجانب الذى يموت أولاً فادفنينى بجانبه فأتت بجنازته وبعد الصلاة عليها أمرت بدفنها فى دار عقيل.

وكان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين من الأصحاب بالجنة، وأبوه عوف بن عبد الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة، وأمه شفاء بنت عوف بن

الحارث بن زهرة، ولد بعد عام الفيل بعشر سنين، وأسلم بواسطة الصديق الأكبر قبل اختفاء المسلمين فى دار الأرقم، هاجر أولا إلى الحبشة وبعد عودته منها هاجر إلى المدينة المنورة وتآخى هو وسعد بن الربيع، واشترك فى جميع غزوات النبى ﷺ. ومات فى السنة الحادية والثلاثين من الهجرة وعمره سبعون عاما أو خمسة وسبعون عامًا على قول آخر، وأوصى أن ينفق خمسون ألف دينار من ماله فى سبيل الله، كما أوصى أن يعطى لبقية أصحاب بدر لكل واحد منهم أربعمائة دينار[1].

وبقى له بعد وفاته مائة رأس فرس و (٣٠٠٠) غنم و (١٠٠٠) جمل، وأصاب كل واحدة من زوجاته الأربع ثمانون ألف دينار كحصة إرثية، عندما هاجر إلى المدينة المنورة عقد رابطة الأخوة مع سعد بن الربيع سالف الذكر وأخذ فى الأخذ والعطاء والتجارة. وبفضل دعاء النبى ﷺ أحسن الله إليه وأنعم له بأموال لا تحصى ونقود لا تعد ونال بسهولة المعيشة الرغدة فى الدنيا، وقد استخرج مما تركه من سبائك الذهب والفضة من حفرة خزانتها بالفأس والمجرفة.

وقد جرحت يدى حافر حفرة الخزانة إلى أن أخرج السبائك كلها. وأوصى أن تعطى لأمهات المؤمنين حديقة نخيل غير ما أوصى بإعطائه لأصحاب بدر. وقد بيعت الحديقة التى عين اسمها لإعطائها لأمهات المؤمنين بأربعمائة قطعة ذهبية وعرضت لأمهات المؤمنين كن على قيد الحياة. كان عبد الرحمن بن عوف سخيًا كريمًا لاحد لسخائه وكرمه، حتى إنه حرر فى يوم واحد ثلاثين نفرًا من ربقة العبودية. وتصدق فى ذلك اليوم بسبعمائة ناقة عائدة من التجارة بكل ما تحمله من أمتعة وأغذية. وكان فضل المشار إليه وكمال أخلاقه كما يجب إذ اشترك فى غزوة تبوك وتولى أمانة النبى ﷺ فسماه النبى ﷺ أمين هذه الأمة.

سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ: دفن سعدبن أبى وقاص فى الجهة الشرقية السامية من دار عقيل حيث أراه بنفسه وعينها. إذ أخذ ذاته السامية قبل وفاته عدة أوتاد مدببة وذهب مع الصحابى أبو دهقان إلى مقبرة بقيع الغرقد

[1] كان حيًا عندما توفى عبد الرحمن بن عوف من غزاة بدر وأصحاب الصفة مائة نفر.

وركز تلك الأوتاد فى الركن الشرقى الشامى من المنزل سالف الذكر ثم قال: «يا أبا دهقان! إذا ما مت احفروا هذا المكان وادفنونى فيه» وحينما توفى بحث أبو دهقان عن ابن المتوفى وروى له الحكاية وأراه المكان المذكور ذاهبًا إلى بقيع الغرقد فأخرج ابن سعد الأوتاد ودفن جنازة والده هناك وأوفى بوصيته.

كان سعد يكنى بأبى إسحاق وأبوه وهيب أو أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن أبى وقاص مالك، وأمه بنت سفيان أو أبو سفيان ابن أمية بن عبد شمس حمنة أسلم وعمره سبعة عشر عامًا اشترك فى جميع غزوات النبى ﷺ وكان الخامس أو السابع من السابقين إلى الإسلام وهو أحد المبشرين العشرة بالجنة وأحد أصحاب الشورى الستة.

وقد مات فى عام خمسة وخمسين هجرية بناء على قول الواقدى أو فى ثمانية وخمسين من السنة الهجرية بناء على قول أبى نعيم الفضل بن دكين أو مات فى سنة أربع وخمسين من الهجرة بناء على تدقيق وتحقيق الزبير بن عمرو، ومات فى مكان ما من وادى العقيق على بعد سبعة أميال من المدينة المنورة ثم حمل نعشه إلى المدينة المنورة ودفن فى المكان الذى سبق وصفه، وهو آخر من توفى فى المدينة من المهاجرين الكرام. وفى حالة احتضاره خلع جبته الصوفية، وقال موصيًا: ادفنونى بهذه لأنها كانت على ظهرى حينما لاقيت مشركى قريش فى بدر.

عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: مات عبد الله بن مسعود فى السنة الثانية والثلاثين من الهجرة وقد تجاوز الستين من عمره ودفن فى مكان قريب من ضريح عثمان بن مظعون. لأنه قد ذهب قبل موته إلى البقيع وأوصى بأن يدفن فى ذلك المكان الذى عينه. وكان حضرته من فضلاء الصحابة الزاهدين وأبوه مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن فار بن مخزوم ابن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل ابن مدركة بن إلياس بن مضر، وأمه أم عبد الله بنت عبد ود بن سواء الهذلية.

وكان عثمان بن عفان حين وفاة عبد الله بن مسعود خليفة فزاره وعاده عند احتضاره وقال له عند عزمه على العودة:

إذا ما رضيت فأنا أرغب فى أن أقدم لبناتك بعض العطايا وكان يريد بهذا الاستفسار أن يحسن إلى بنات عبد الله بن مسعود. فرد ابن مسعود قائلاً أنا لا أخشى على بناتى من الفقر والخصاصة، وقد نبهتهن إلى ضرورة قراءة سورة الواقعة كل ليلة مرة وأوصيهن بأن يداومن على هذه الأصول لأنى كنت سمعت النبى ﷺ يقول: كل من داوم على قراءة سورة الواقعة فى الليالى يأمن تسلط الفقر والحاجة عليه.

وبهذا القول امتنع عن تقديم العطايا لبناته؛ رضى الله عنه.

حنيس بن خذافة السهمى[1] ـ رضى الله عنه ـ كان خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب بن لؤى القرشى السهمى زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب الأول وهو أحد مهاجرى الحبشة، خرج فى غزوة أحد ومات بعد ملحمة بدر الكبرى بخمسة وعشرين عامًا ودفن فى مكان قريب من ضريح عثمان بن مظعون.

أسعد بن زرارة[2] ـ رضى الله عنه ـ: هو سعد بن زرارة أبو أمامة ابن زرارة بن عُدَس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم ابن مالك بن النجار بن ثعلبه بن الخزرج الأنصارى وهو أحد الأنصار السابقين للإسلام بل أولهم ونصب نقيبًا من قبل رسول الله ﷺ لقبيلة بنى ساعدة التى ينتسب إليها.

وقد وجد فى بيعات العقبة الأولى والثانية والثالثة وعرض البيعة قبل الكل وتوفى فى خلال شهر شوال من العام الهجرى؛ فدفن فى مكان قريب من ضريح عثمان بن مظعون، وقبره لامع الأنوار فى وسط مقبرة البقيع، وبجانب ضريح ابن الرسول عليهما السلام إلا أنه ليس لقبره علامة خاصة. وعندما يزار ضريح إبراهيم ـ عليه التعظيم ـ فلا تَنْسَ قراءة الفاتحة على روحه لتذكره.

فاطمة بنت رسول الله «عليهما الصلاة والسلام»: ارتحلت السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ عن دنيانا بعد والدها بسبعين يومًا ودفنت ـ على القول الأرجح ـ على زاوية دار عقيل اليمانية التى تقع فى داخل مقبرة بقيع الغرقد.

(١) انظر ترجمته فى الإصابة ٢/ ١٤٢.
(٢) انظر ترجمته فى الإصابة ١/ ٣٢.

قطعة شعرية

إن فاطمـــة مـــن شمـــس الرسالـــــة نـــــور

فاجعل مـن غبـــار عتبتهـــا لعينيـــك الـــدواء

فليس فى الإمكان دخول إلـــى سلطـــان كونهـــا

وبناء على الروايات الموثوقة اغتسلت قبل احتضارها ولبست ملابس جديدة وقالت إننى الآن سأستجيب لدعوة «ارجعى» ولكننى لست فى حاجة للغسل والكفن!!!

وسلمت روحها بعد ذلك ودفنت فى المكان المذكور.

قطعة شعرية

ثمرة القلب وقـرة عـين الرســول

زهـــرة فلك النبـــوة البتـــول

سيدة كـل نســاء الجنـــان بقيـــت

ورأسها على حجر عند قدم الرسول

وقرر المؤرخون بناء على قول على بن حسين بن على بن أبى طالب، أن السيدة فاطمة مدفونة فى مكان يبعد عن دار عقيل خمسة عشر ذراعًا وعلى قول ثلاثة وعشرين ذراعًا وفى مواجهة الطريق المتصل بالزاوية اليمانية لدار عقيل وقول عبد الله بن رافع الذى قال: قد دفنت فخر النساء فى مخرج الطريق الذى يقع بين دار عقيل بن أبى طالب، ودار أبى، وبناء على الروايات الأخرى أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى مقبرة بقيع الغرقد الشريفة، ولكن البعض الآخر ـ روى خطأ هذا القرار وخرجوه وادعوا أن قبرها الشريف فى جهة صفة أصحاب الصفة من شبكة مرقد السعادة، وأيدوا ادعاءهم هذا بما يروى عن عمر بن عبد العزيز بأنه قال: بأن السيدة فاطمة قد دفنت فى دارها من جهة أسماء

بنت عبد الله بن الزبير أى فى الجهة الشامية من الحجرة المعطرة، وقال إن هذه الرواية قد نقضت الرواية الأولى، ولكن إذا نظرنا لما قاله ريحانة النبى ﷺ الحسين بن على بن أبى طالب حين احتضاره ادفنونى فى البقيع بجانب والدتى ودفن بعد موته فى مقبرة البقيع بناء على وصيته، وإذا ما نظر إلى قطعة الرخام التى عثر عليها فى سنة ٣٣٢هـ فوق قبر فى بقيع الغرقد حيث كتب عليها هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين.

وقبر الحسن بن على وعلى بن الحسين بن على وقبر محمد بن على وجعفر بن محمد - رضى الله عنهم بالبقيع - هذا يقتضى التصديق بأنها دفنت فى البقيع الشريف.

وقد كشف الشيخ أبو العباس المرسى - وهو من مشاهير أولياء الله - ظاهر الكرامات بأن قبر السيدة فاطمة فى مقبرة بقيع الغرقد كان يقف فى داخل ضريح عباس ابن عبد المطلب وفى الجهة القبلية منه ويقرأ الفاتحة لروح المشار إليها وجعل ذلك عادته مدة حياته. ويقول أهل المدينة بأن السيدة فاطمة - رضى الله عنها - فى داخل حجرة السعادة ويزورون إلى الآن حجرتها فى داخل المسجد النبوى، إلا أنهم عندما يزورون قبر عم النبى ﷺ عباس - رضى الله عنه - يقفون حيث وقف الشيخ أبو العباس المرسى ويقرءون الفاتحة لروح فاطمة الزهراء أيضًا، لأن الرواية التى تقول بأنها مدفونة فى داخل شبكة الحجرة المعطرة نقل فقط عن الأحمق شمس الدين بن زمن؛ فلا قيمة لهذه الرواية حتى بين علماء المدينة المنورة.

التأسف

إن المدفن الذى عين على أنه مدفن فاطمة - رضى الله عنها - فى زمن شمس بن زمن قد زين بستائر مزركشة وغطيت أطرافه الأربعة بستائر ذات أهداب ذهبية إلا أن مدفنها الذى فى البقيع والذى ثبت دفنها هناك فيه بأقوى الأسانيد

والأقوال ظل ضريحها فى البقيع مغطى بقطعة قماش خضراء قديمة عادية مما يثير فى قلوب الزائرين الأسى والأسف.

وإن كان قيمة القماش الغطاء لا يزيد فى فضل صاحبة القبر إلا أنه مهما وُقرت واحترمت السيدة فاطمة دعا ذلك إلى ابتهاج الروح النبوية، ويقاس مدى حب أهل الإيمان لنبيهم بمدى ما يظهرون إلى المشار إليهم من الرعاية والاهتمام ومن هنا يقتضى الأمر أن يحظى ضريحها فى بقيع الغرقد بالعناية والنظام.

ألا فليرض الله سبحانه وتعالى عن والد السلطان كثير المحامد قد أحاط قبر والدتنا المشار إليها دائرا ما دار بسياج من النحاس وبهذا أزال ما جاش فى قلوب المحبين للنبى ﷺ من الأسف والحزن درجة ما.

استمرت سيدة النساء بعد أن ارتحل والدها الكريم تنوح وتنتحب فى المكان الذى محل قبرها فى البقيع حتى أطلق عليه دار الحزن، ومسجد فاطمة، وذلك المكان المقدس قبة أهل البيت ويقع فى الجهة القبلية من جوار ضريح عباس بن عبد المطلب، وقد جدده السلطان محمود خان الثانى فى سنة ١٢٣٣هـ ورمز له بكتابة القطعة الآتية فوق طاق بابه:

لحاكم الدهر لطف الله

لا يردن على الخاطر لماذا

ابك وادع لذلك السلطان

الذى أقام مسجد الحزن هذا

الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه: قبره الأنور بجانب والدته السعيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ والكائن فى داخل ضريح العباس بن عبد المطلب، كان قد بعث قبل وفاته إلى أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ من يخبرها

راجيا بأنه يرغب أن يدفن داخل حجرة السعادة فأجابته قائلة: وفعلاً فى داخل حجرة السعادة مكان يسع لقبر واحد وكنت قد هيأته لنفسى مادام ذاته السامية يرغب فى الدفن فى مدفن السعادة أتنازل عن المكان الذى هيأته لنفسى وأقدمه له وأدبر لنفسى قبراً فى مكان آخر.

وأخذ أمراء بنى أمية ينشرون ترهاتهم ويثرثرون هنا وهناك قائلين: فلا سبيل لدفن الحسن بن على - رضى الله عنه - فى مدفن الرسول إننا سنخالف رغبة الإمام الحسن هذه بل أننا سوف نتجرأ على مقاتلة بنى هاشم فى هذا السبيل.

وانفعل الحسن بن على من أمراء بنى أمية وغضب وقال مخاطبًا أخاه الحسين الشهيد إننى تنازلت عن رغبة الدفن فى مدفن الرسول فادفنونى بجانب والدتى فى البقيع ولكن لا تحملوا جنازتى إلى البقيع قبل أن تذهبوا بها أمام مواجهة السعادة للتشفع، هذه كانت وصيته. وعندما ارتحل عن دنيانا أراد حضرة حسين أن يدفنه فى حجرة السعادة، ولكن المعاندين من بنى أمية تصدوا لذلك قائلين فلن نوافق على ذلك أبدًا فهيأ حسين قبراً فى البقيع بجانب قبر أمه باهر الأنوار ودفنه فيه بعد أن حمل جنازته إلى مواجهة السعادة للاستشفاع وهكذا وفى بوصية أخيه - رضى الله عنه - ولم يكن والى المدينة فى ذلك الوقت سعيد بن العاص يمانع فى دفن حضرة الحسن فى الحجرة المعطرة إلا أن مروان بن الحكم جمع أعوانه وعارض الحسين وخالفه فى فكرته وعندما أحس مروان من الإمام شدة دفاعه قال له: كان أخوك قال إذا لوحظ ظهور الفتنة فادفنونى فى البقيع فسكت حضرة الحسين، وصلى على الحسن عمرو بن سعيد بن العاص وقال الحسين - رضى الله عنه - لو لم تكن صلاتك على أخى سنة لما سمحت لك بالصلاة عليه.

حكمة

عارض أمراء بنى أمية دفن الحسن بن على وعثمان بن عفان - رضى الله عنه - فى المحل الخالى فى الحجرة المعطرة على اعتبار أن هذا الموضع سيكون مدفن عيسى ابن مريم.

لأن النبى ﷺ قد تفضل قائلا: إنَّ عيسى بن مريم سيهبط على وجه الأرض وسيتزوج وسينجب الأولاد وبعد أن يعيش ما يقرب من خمسة وأربعين عامًا سيتوفى ويدفن بجانب قبرى ولسوف أبعث أنا وعيسى بن مريم بين أبى بكر وعمر.

ودفن الإمام زين العابدين وابنه الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر الصادق بجانب الإمام الحسن بن على بن أبى طالب كما أن رأس الإمام الحسين دفنت بجانب قبورهم، لأن يزيد الشقى كان قد أرسل رأس سيد الشهداء المقطوع إلى والى المدينة عمرو بن سعيد بن العاص فجهزه وكفنه ودفنه بجانب قبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى بقيع الغرقد، والآن عندما يزور الكرام ضريح عباس بن عبد المطلب يتذكرون الأئمة الكرام المشار إليهم ويعرضون عليهم تحيتهم ويتحفظون سلامهم هناك من يدعى أن رأس الإمام حسين لم يدفن فى البقيع حتى إنهم يمنعون من يريد زيارة الشهيد ممن يصدقون وجود رأسه هناك. ولكن العلامة ابن سليمان يؤكد على وجود رأس الحسين المبارك فى البقيع فى كتابه «الذخر النافع» كما ذكر الزبير بن بكار بإسناد موثوق أن جنازة على بن أبى طالب قد نقلت إلى البقيع مؤخرًا، ومن هنا فذكر اسميهما عند الزيارة تبركا مع تذكر أهل البيت لا يخلو من فائدة **العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه:** عباس بن عبد المطلب مدفون بجانب قبر منسوب لفاطمة بنت أسد ـ رضى الله عنها ـ، أم على بن أبى طالب وضريحه المنيف أول مقابر بنى هاشم ومدفنه قريب من دار عقيل، والقبة التى تشمل على قبر عباس يطلق عليها قبة أهل البيت ولضريحه بابان شامى وغربى وتنحصر وظيفة الحراسة فى سلالة زنجية ببراءة من مفتى المدينة الشافعى سيد جعفر بن سليمان.

صفية بنت عبد المطلب ـ رضى الله عنها: قبر والدتنا صفية فى مكان عند المخرج من باب البقيع أى فى اتصال دار المغيرة بن شعبة. وفى زماننا لا يزورون هذا المكان ويزورون الضريح الذى خارج البقيع وفى اتصال سور المدينة، ويقولون هذا هو قبر صفية بنت عبد المطلب ولكن قول الزبير بن العوام بن

صفية للمغيرة بن شعبة عندما كان يبنى بيته يا مغيرة ارفع رفرف سقف دارك من فوق قبر أمى وتحويل مغيرة بن شعبة مجرى سقف بيته إلى جهة أخرى يؤيد ويؤكد صحة القول الأول.

سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه: سفيان بن الحرث مدفون فى داخل دار عقيل بن أبى طالب كان سفيان ينتزه فى داخل مقبرة بقيع الغرقد فى السنة العاشرة من الهجرة وعلى قول فى السنة الثانية والعشرين من الهجرة عندما ذهب إلى الحج ورجع منه، فلاقاه عقيل بن أبى طالب وقال له: ابن عمى! لما تتمشى هنا؟ فرد سفيان قائلاً: أريد أن أهيئ لنفسى مكانًا للقبر ثم دخل فى دار عقيل بن أبى طالب، ثم قال له احفر هنا قبرًا لى. عنده ساعة جلس وجعل عقيلاً يحفر له قبرًا، ومات بعد يومين ودفن فى القبر الذى حفره عقيل، وعلى رواية أخرى، حفر بنفسه ومات بعد ثلاثة أيام ودفن فى القبر الذى حفره بنفسه ولا شبهة فى أن سفيان ابن الحرث مدفون فى الضريح الذى ينتسب إلى عقيل بن أبى طالب، ولكن الشخص الذى دفن فى هذا الضريح ليس عقيل بن أبى طالب بل عقيل بن النجار، لأن عقيل بن أبى طالب قد توفى فى الشام.

والدة سفيان بن الحرث غزنة بنت قيس بن طريف بن فهد بن مالك وأبو أبيه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى فهو عم النبى ﷺ وبما أنه رضع من حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية[1] فهو الأخ للنبى من الرضاعة. وقبل أن يسلم كان ضد النبى ﷺ وكان قد جرح خاطر النبى بما كتب فى حقه من الهجاء، وبعد الإسلام قام بأعمال لا بأس بها وحاز إعجاب النبى ﷺ.

عبد الله بن جعفر الطيار: عبد الله بن جعفر الطيار ابن أبى طالب مدفون فى دار عقيل أيضًا، بما أن حضرة عبد الله كان أجود العرب كان يلقب بـ جواد القبيلة وإن كان بعض المؤرخين قالوا إن عبد الله توفى فى خلال سنة ٩٠ الهجرية ودفن فى الأبواء لكن القول الأول أكمل من الرواية الثانية.

الأزواج الطاهرات ـ رضى الله عنهن ـ أجمعين: أولى زوجات النبى ﷺ

(١) أنظر نسبها فى: ابن هشام ١/١٦٨، الإصابة ٨/ ٥٢-٥٣.

خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عها ـ مدفونة بمقبرة الجنة المعلا فى مكة المعظمة كما أن أمنا «ميمونة رضى الله عنها» مدفونة فى مكان اسمه سرف بين وادى فاطمة ووادى التنعيم كل واحدة فى ضريحها الخاص.

وغيرهما، كلهن، مدفونات فى مقبرة بقيع الغرقد وفى الضريح الخاص لزوجات النبى المطهرات فى الجانب الشرقى من دار عقيل بن أبى طالب.

روايـة

لما أشرفت حبيبة حبيب الله عائشة ـ رضى الله عنها ـ أمنا على الموت استدعت عبد الله بن الزبير وقالت له مواجهة «ادفنى بجانب صاحباتى اللائى فى داخل بقيع الغرقد» ونفذت وصيتها بعد موتها.

رواية: حفر عقيل بن أبى طالب فى داره التى فى البقيع بئرًا ولما وجد فى حين حفره حجرًا محكوكًا عليه فسد البئر المحفورة وبنى فوقها منزلاً عظيمًا، وكان مكتوبًا على الحجر المذكور «قبر أم حبيبة بنت صخر بن حرب» أى أم المؤمنين حينئذ دخل حضرة ابن السائب داخل البناء الذى أسسه وزار قبر أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ وحفر محمد بن زيد بن على محلاً مكشوفًا على بعد ثمانية أذرع من قبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فوجد حجرًا محكوكًا عليه «إنه قبر أم سلمه زوج رسول الله ﷺ» وقد نقل هذا محمد بن زيد بنفسه، وظهور هذه الحجارة يدل على أن ذلك المكان مكان قبر زوجات النبى ﷺ، كما أن قول عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «ادفنى بجانب صاحباتى..» يؤيد الرواية التى تحكى أن الأزواج المطهرات دفن فى بقيع الغرقد.

أزواج النبى الطاهرات هن: خديجة، عائشة، سودة، حفصة، أم حبيبة، أم سلمة، زينب بنت جحش، زينب الهلالية، جويرية، ميمونة، صفية ـ رضى الله تعالى عنهن أجمعين ـ ومجموعهن إحدى عشر سيدة المقرونات بالعصمة وتسع منهن دفن فى الضريح الذى سبق تعريفه.

عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ المنان: استشهد عثمان بن عفان فى السنة

الخامسة والثلاثين من الهجرة فى السابع عشر من شهر ذى الحجة، وعلى قول الثامن عشر. وقيل مات يوم الجمعة ودفن فى مقبرة بقيع الغرقد وفى ساحة بستان يقال له حش كوكب وفى منتهى ذلك االبستان.

وكان الشهيد المشار إليه قد حصل فى حياته على رخصة من أمنا عائشة ليدفن فى داخل الحجرة المعطرة ولكن المصريين الذى تجرءوا على قتله رفضوا دفنه فى مدفن السعادة قائلين: نحن سنمنع الصلاة على جنازة عثمان بن عفان فضلاً عن دفنه فى حجرة السعادة، وبمثل هذه الوقاحة أتموا دناءتهم، وتلفظوا فى هذا الخصوص بكلمات غير مستحبة وكل ذلك داخل مسجد السعادة، ولما طال الوقت ولم يدفن ذهبت والدتنا أم حبيبة من زوجات النبى المطهرات إلى باب المسجد وقالت: أعطونى جنازة عثمان لأدفنها فإذا امتنعتم عن إعطائها أرفع ستارة مرقد السعادة وأشكوكم للرسول ﷺ! ولما ترك المصريون الجنازة وانسحبوا إلى جهة ما أخذ جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير وكثيرون من الأجلاء نعش عثمان المبارك وحملوه إلى البقيع، إلا أنهم قوبلوا أيضًا بالمخالفة والرفض أى رفضوا دفنه فى البقيع الشريف فنقلوه من هناك إلى بستان يقال له حَشّ كوكب حيث حفروا قبرًا ودفنوه.

ومنذ استشهاد حضرة عثمان- رضى الله عنه- أخذت طائفة الجن تولول وتنتحب فوق مسجد السعادة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.

حكمة

وإن كان سبب عدم دفن الشهيد المشار إليه فى الظاهر مخالفة المصريين لذلك ورغبتهم فى دفنه بعيدًا عن النبى ﷺ ولكن السبب المعنوى لذلك قد وضح فى الصورة الأولى من الوجهة السادسة عشرة وفى بحث بئر أريس وهو عندما بشر حضرة عثمان بالجنة والمصيبة لم يكن قد وجد بجانب الرسول محلاً خاليًا وجلوسه فى مكان بعيد عنه.

يروى الإمام مالك أن قتلة عثمان بن عفان لم يسمحوا بدفن جثته إلا فى

اليوم الثالث من استشهاده. وسبب ذلك فقد الصوت الذى سمع من الهاتف صلوا على جنازة عثمان وادفنوها، إن الله سبحانه وتعالى قد رحمه.

قال الإمام: بناء على الأخبار التى تلقيتها، عندما سمع القتلة ذلك الصوت من الهاتف تحيروا واستولى عليهم قلق عظيم، فتركوا النعش الشريف فى مسجد السعادة وتفرقوا، ولما تركت الجنازة وحدها وفى ليلة ذلك اليوم أخذ جدى ومعه أحد عشر رجلاً الجنازة من المسجد وأخرجوها منه وخرجوا للطريق ليحملوا الجنازة إلى المقبرة. فصادفهم بعض الرجال من كلاب قبيلة بنى مازن وقالوا: إن كنتم تريدون أن تدفنوا الجنازة فى مقبرة البقيع نخبر القتلة ونجعلهم يخرجونها من قبرها.

فخافوا من وقوع فاجعة أخرى وحملوا الجثمان إلى بستان «حش كوكب» لدفنه فيه، كانت بنات حضرة عثمان يسرن أمام التابوت وقد أمسكن فى أيديهن القناديل فى تلك الليلة العجيبة بينما رأس الجثمان يصطدم بالتابوت الخشبى ويخرج صوتًا، ولما ساروا قليلاً سمعوا خشخشة فخاف الذين يحملون التابوت وزاد هذا الضجيج وأحاط بهم من الجهات الأربعة قالوا: لا تخافوا أتينا لنحضر صلاة جنازة الخليفة وإذا بهذه الخشخشة كانت قد صدرت من أجنحة الملائكة واهتزازتها الذين أتوا ليحضروا صلاة جنازة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقد اختلف فيمن صلى على الجنازة، ففى قول أن الذى صلى هو جبير بن مطعم أو مروان ابن الحكم وفى قول آخر حكيم بن حزام، ودفنوها فى المقبرة التى هيئت فى البستان المذكور، وحضر الدفن الزبير بن العوام وحسن بن على وأبو جهم بن حذيفة ومروان بن الحكم.

وألحق أمراء بنى أمية بعد مدة بستان حش كوكب بمقبرة البقيع، وهكذا وسعوا هذه المقبرة وأخذ الناس يدفنون جنازاتهم فى هذا المكان، كان أهل المدينة يتجنبون دفن موتاهم فى حش كوكب من قبل وكأنهم تمنوا بأن يدفن أحد الصلحاء فى بستان حش كوكب حتى يقبل الناس على دفن موتاهم هناك. هذا ما

كان يتمناه عثمان - رضى الله عنه - وكأنه أومأ بهذا بأنه سيدفن فى بستان حش كوكب وسيلحق هذا البستان فيما بعد بمقبرة بقيع الغرقد وأخذ الأهالى يدفنون موتاهم فى هذا البستان وألحقوه بمقبرة بقيع الغرقد.

وقد أبتلى كل واحد من قتلة عثمان بالجنون، وهلك كل منهم إثر فضيحة لحقت به، وقد ندم قتلته على ما ارتكبوا من جريمة شنعاء والتجئوا إلى مسجد السعادة يعرضون ندمهم وتوبتهم وأخرج كل واحد منهم مصحفًا وأخذوا فى تلاوته بكل خشوع وندم وهم يبكون إلا أنه ظهر على وجه السماء شخص على شكل إنسان وخاطب هؤلاء وهو يقرأ الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (سورة الأنعام / ١٥٩)

سعد بن معاذ الأشهلى ـ رضى الله عنه: إن سعد بن معاذ مدفون فى الضريح الذى ينسب إلى فاطمة بنت أسد بن هاشم الذى فى نهاية مقبرة البقيع، وقد ذهب بعض الناس إلى أن فاطمة بنت أسد مدفونة فى هذا الضريح. إلا أنه من المحقق أنها لم تدفن فى هذا الضريح كما فصل فى موضوع قبرها.

كان حضرة سعد معروفا بكنيته أبى عمرو، ووالده معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس الأنصارى الأشهلى، وأمه كبشة بنت رافع، وقد جرح فى ملحمة الخندق جرحًا بالغًا ولكنه دعا إلى الله أن يمد عمره حتى يرى نهاية يهود بنى قريظة، ولما استجيبت دعوته انقطع نزيف جرحه، أسندت إليه مسألة تحديد جزاء يهود بنى قريظة، فحكم بقتل جميع ذكور يهود بنى قريظة كما هو مفصل فى كتب السير وانفجر نزيف جرحه عقب ذلك وارتحل عن الدنيا، فصلى عليه النبى ﷺ ودفن فى أقصى مقبرة البقيع وبجانب بيت المقداد بن الأسود فى القبر الذى حفر له.

وكان النبى ﷺ بجانب سعد بن معاذ حين وفاته ودعا له بأن تصعد روحه إلى

أعلى العليين، فاستجيب دعاؤه فنزل من قبل الله على وجه الأرض سبعون ألفا من الملائكة وأوصلوا روحه الشريفة إلى رياض الجنان بكل إعزاز وإكرام

أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه: حضرة أبو سعيد الخدرى سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر وهو خدرة ابن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الخدرى واسمه زيد، ومات سنة أربع وستين من الهجرة ودفن فى المكان الذى أراده بنفسه فى انتهاء مقبرة البقيع، قال لابنه عبد الرحمن قبل موته بثلاثة أيام. «يا بنى قد تقدم بى السن وعجزت وسئمت تحريك رجلى، أمثالى وأقرانى توفوا، خذ بيدى لنذهب إلى البقيع» وأخذنى إلى مقبرة البقيع، وتمشينا فترة بين القبور، وفى النهاية وجد محلا خاليًا فى أقصى المقبرة حيث لم يدفن أحد وقال لى ادفنى فى هذا المكان حينما أموت.

وقد خرب الضريح الذى فوق قبر أبى سعيد الخدرى فى الوقعة الوهابية فجدده السلطان محمود خان الثانى وكتب فوق بابه البيتين الآتيين.

قطعة

أقيم قبر أبى سعيد الخدرى
فكان مثيراً لحسد حرم السماء السابعة
كل ما تعاون مع السلطان
رضى الله تعالى عنهم

كان بالقرب من ضريح أبى سعيد الخدرى قبر منسوب إلى حليمة السعدية.

قطعة

شرفت بأن تكون لخير الرسل ظئرا
حليمة السعدية حسبها هذا فخرا

أراد السلطان محمود خان الثانى أن يعرض للنبى ﷺ خدمة مقبولة فبنى فوق قبرها ضريحًا وقبة.

مشهد النفس الزكية اللطيف

النفس الذكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- مدفون فى جوف المسجد الكبير الواقع بالجانب الشرقى فى جبل سلع وليس فوق قبره قبة خاصة، ومنهل عين الأزرق، خلف الجدار القبلى لذلك المسجد وسقَّاءو المدينة يأخذون منها الماء ليمدوا البيوت والمحال بالماء.

ويروى أيضًا بأنه دفن فى موقع أحجار الزيت القريب من ضريح مالك بن سنان المنيف أى المكان الذى استشهد فيه. إلا أن هذه الرواية ضعيفة لدى أهل المدينة فالأرجح القول الأول.

استشهد النفس الزكية فى زمان أبى جعفر المنصور من خلفاء العباسيين، وسبب استشهاده نفرة أهالى المدينة الطاهرة من أبى جعفر المنصور وعرضهم البيعة للمشار إليه وتبعيتهم له، وسبب نفرة أهالى المدينة جميعًا غدر المنصور وإهانته لهم، لأن المنصور المختلف الشعور هذا كان قد حبس والد الشهيد المشار إليه فترة طويلة مع جميع أقاربه ونتج عنه غضب أهل المدينة منه وعرض جمع غفير منهم البيعة على النفس الزكية، وخرجوا ضد المنصور وخالفوه.

وبمجرد ما سمع المنصور هذه الواقعة اختل شعوره وأرسل عمه عيسى بن موسى بأربعة آلاف من الجند إلى المدينة الطاهرة حتى يقف دون تطور الأمور. وقبض عيسى بن موسى على النفس الزكية فى مكان يطلق عليه «أحجار الزيت» وقتله وضرب الإمام مالك ضربًا مبرحًا واستولى على السيف الذى وصل إلى النفس الزكية عن طريق الإرث من على بن أبى طالب وهو ذو الفقار وقدمه لأبى جعفر المنصور.

توضيح:

حج المنصور فى سنة ١٤٤هـ فى مكة المكرمة وبعد عرفة مر بالمدينة المنورة فاستقبله أشراف وسادات المدينة الميمونة حتى كان فى ضمن مستقبليه من أعاظم العلويين عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب، وسر المنصور من تنازل عبد الله باستقباله ودعاه أن يحضر طعام المساء، وأثناء تناول الطعام سأل المنصور عبد الله قائلاً: ما سبب عدم تنازل ولديك إبراهيم ومحمد لاستقبالى فرد عبد الله على هذا السؤال غير اللائق: إننى لا أعرف مكانهما حتى أعرف سبب عدم حضورهما لاستقبالك وأقسم على ذلك، ولكن المنصور لم يهتم بجوابه ولا قسمه وكرر السؤال فغضب عبد الله من هذا الإصرار وقال: يا منصور قلت لك إننى لا أعرف مكانهما وأقسمت على ذلك فلم تقتنع، وبعد الآن إن أقف على مكان وجودهما فلن أخبرك به فاغتصب ذلك الغدار جميع أموال عبد الله وصادر جملة أملاكه وألقاه فى السجن مع أحد عشرولدًا من أولاده، وأمر ألا يخرجوا من الحبس إلى الأبد، ويرد بعض المؤرخين هذه الرواية قائلين إن والى المدينة المنورة رباح بن عثمان هو الذى حبسهم بناء على الرسالة التى وردت له من المنصور. وسبب حبس المنصور عبد الله والسؤال عن ابنيه إبراهيم ومحمد بيعة بعض الناس فى أواخر الدولة الأموية من أهالى الحجاز النفس الزكية محمد بن عبد الله بالخلافة، مع أن المنصور كان أحد المبايعين له ولكن بعدما أخذت شمس الخلافة تنتشر أشعتها على مفرقة آل عباس وانتقل زمام الحكم بعد فترة إلى يد المنصور قال فى نفسه إننى كنت قد بايعت قديمًا محمد بن عبد الله بالخلافة، وإننى إذا لم أقتل محمدًا وأخاه إبراهيم لن أستطيع أن أقوم بمهام الخلافة، وبهذا الوهم أخذ يبحث عن سبب لقتلهما. واطلّع هذان على أوهام المنصور المضرة فسافرا إلى اليمن أولاً ثم إلى الهند حيث تنزها قليلاً ثم عادا إلى المدينة المنورة بعد فترة واختارا الانزواء فى ركن منها، ولكن ذوى المصالح كتبوا رسالة وأرسلوها إلى جعفر المنصور قائلين عاد محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم ا المدينة المنورة واختفيا فى مكان ما فيها وأخذا يثابران لتكليف أهل المدينة بالب

لهما فانزعج المنصور من هذا الخبر أشد الانزعاج وأخذ يفكر فى التخلص منهما بالقضاء عليهما، وقرر أن ينفق فى هذا السبيل ما لا يحصى من الأموال ولأجل ذلك كان يغير ولاة المدينة من حين لآخر بالعزل والتبديل ويخشى ما فى ضميره لكل واحد منهم، ولما كان المشار إليهما مطلعين على سوء نية أبى جعفر فإنهما كانا يسافران فى موسم الحج إلى مكة المكرمة ويعودان بعد عرفة إلى المدينة المنورة حيث يختفيان فى مكان ما.

وقد فهم المنصور أن الأمر الذى يريد أن ينفذه لن يتم بواسطة الولاة الذين يبعثهم إلى المدينة أى فهم أن من لديه أقل ذرة من الإيمان لن يقوم بهذا العمل، فأخذ يتحرى عن شخص غدار سفاك ليثق فيه وأخيرًا وجد رجله فى رباح بن عثمان الموصوف بالقسوة عديم الرحمة محتاج لفلس أحمر وفهم من عينيه أنه كلب بن كلب، فاستدعاه فجاءه ليلة من الليالى وعهد إليه بولاية المدينة المنورة قائلاً: يا عثمان! يجب أن تذهب سريعًا إلى المدينة المنورة وأن تبحث عن حل سريع لقتل محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم، وهكذا نبهه وأمره بقتل المشار إليهما وجهز له كل ما يلزم من عظمة ودبدبة ووجه ذلك الدنئ الذى يخرب البيوت بعد أن رقاه إلى والى المدينة، وكان رباح بن عثمان دنيئًا لا يتحرج حتى عن قتل الأنبياء وهدم البيت العالى ولا يتورع عن ارتكاب أى جرم، وعندما وصل إلى المدينة أراد أن يتظاهر أمام الأهالى بأنه من أنصار الحق فذهب تلك السنة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وبعد العودة أخرج السادة والعظام الذين كان قد حبسهم المنصور بنفسه من آل حسن بن على من السجن فكبل أرجلهم وأيديهم بأكبال حديدية وربط كل واحد منهم بالآخر بالسلاسل الحديدية وارتكب دناءة وجرم سوقهم بهذا الشكل إلى بغداد دار الخلافة.

وكان مع المسجونين المشار إليهم من يلقب بـ «الديباج» لكمال حسنه وملاحته: أبو عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن عفان.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الديباج كان أخا عبد الله ابن حسن لأم وقطعة كبد فاطمة بنت حسين بن على بن أبى طالب، وكانت بنتة رقية متزوجة بابن

أخيه إبراهيم بن عبد الله، وكان الشاميون يحبونه ويرعونه. قال رباح بن عثمان في الرسالة التى كتبها إلى أبى جعفر: إن الشاميين يرعون أبا عبد الله بدرجة لا يمكن تعريفها ويسمعون كلامه ويطيعونه؛ لذا يخاف أن يرعى هذا الخلافة أيضًا على هذه الفقرة المضرة المفجعة لقلبه أمره المنصور بأن يؤخذ مع آل حسن بن على رضى الله عنهم ويشاركهم مصيرهم.

ولما وصل المسجونون الذين أرسلهم رباح بن عثمان مقيدين فى السلاسل إلى بغداد أحضرهم أبو جعفر كلهم مرة واحدة وعرى أبا عبد الله من ملابسه تماما وتجرأ على أن يأمر بضرب أبى عبد الله مائة وخمسين على جسمه الذى يشبه الفضة المحلاة على جسمه الرقيق اللطيف. وأصابت إحدى ضربات السوط عينه ففقئت وانطفأ نورها ثم ضرب مائه سوط على رأسه فاسود جسده المنير وكأنه جسم زنجى وترك فى هذه الحالة إلى جانب أخيه عبد الله فى السجن.

ولما رأى عبد الله هذه الحالة المستهجنة صرخ قائلاً: «أبا جعفر... أعاملنا الأسرى الذين أخذناهم منكم فى غزوة بدر مشركين بهذه الحقارة!!؟؟» وتهور المنصور الغدار وخجل من هذا الكلام وهذه التورية فأمر بإلقائهم كلهم فى السجن الذى هيئ لهم والذى يعرف بالهاشمية.

وكان سجن الهاشمية سجنًا فظيعًا، ولا يسمع فى داخله لا صوت الأذان ولا يعرف وقت حلول الصلاة.

ولما كان محمد بن إبراهيم ابن الحسن المسمى بالديباج الأصفر ذا ملاحة وحسن وجمال مسجونا مع الأشخاص المكبلين المسجونين كان أهل العراق يذهبون لزيارته ورؤيته جماعات جماعات وخاف المنصور من ازدحام الزائرين والمشاهدين حتى لا تظهر وعوته بين هؤلاء المسجونين فأحضر الديباج الأصفر، وهدده قائلاً: سأقضى عليك بموت لم ير مثيله، ثم حصره بين عمودين وعذبه عذابًا شديدًا حتى مات أو على قوله قتله بإلصاقه على جدار وقتل جميع المسجونين الهاشميين بطريقة غير لائقة.

كان أهل خراسان يرجون أن يعفى عن محمد الأموى ويطلق سراحه فما كان من أبى جعفر الذى لا يستحى إلا أن قطع رأس المشار إليه وهو غاضب وأرسله إلى الخزان وبهذا ملأ قلوب الخراسانيين ومحبى أهل البيت بالحزن والألم.

ولما رأى عبد الله بن حسن استشهاد محمد بن عبد الله الأموى بعد أن طلب الخراسانيون إطلاق سراحه بعد عفو: «إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا كنا آمنين من كل شئ فى عهد الأمويين بفضل قرابتنا لمحمد بن عبد الله، ولما تحولت السلطة إلى ناحيتنا قتل محمد بن عبد الله معذوراً بالسيف، هل يمكن ألا يتعجب الإنسان من هذا».

ولما وصل ظلم المنصور وإهانته لهذه الدرجة حكم أنس بن مالك صاحب أحسن المسالك بأن أبا جعفر من الطغاة والبغاة وحتى أعلن فى داخل المدينة قائلاً: «يا سكنة دار السكينة! ليس طبيعيا أن تعرضوا بيعتكم لأبى جعفر المنصور! وقد تحقق أن المنصور من الطغاة. والآن يجوز خلعه من الخلافة ومبايعة محمد بن عبد الله! وانسحب إلى داره».

وخرج محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب المعروف بلقب النفس الزكية بناء على إفادة الإمام مالك وبتحريض ومعاونة خمسين شخصًا من أهل المدينة وفى خلال سنة ١٤٥هـ ضد الدولة العباسية وهجم على الدائرة الحكومية .وقبض على رباح بن عثمان وألقاه فى السجن. ثم صعد على منبر السعادة، وأعلن أن الخلافة حقه الصريح وأن غرضه من الخروج وتوليه الخلافة هو أمن البلاد وراحة القلوب وبهذا استطاع أن يدخل أغلب أهالى المدينة تحت انقياده وطاعته.

وضرب عيسى بن موسى عم المنصور الإمام مالك بسبب إثارة الناس وتحريضهم على مبايعة محمد بن عبد الله وترغيبهم فيها وبين لهم أن الشرع يسيغ هذا العمل، وإلا فالإمام مالك لم يطلق لسانه فى أبى جعفر كما أنه لم يقاتل عيسى بن موسى.

وكان محمد بن عبد الله بعد ما أدخل أهالى المدينة فى دائرة بيعته ساق مقداراً كافيًا من الجنود للاستيلاء على مكة المعظمة وبلاد اليمن وسواد الشام ولم يلق سمعًا لما بعثه أبو جعفر من رسائل مهددة، وإن كان محمد بن عبد الله لم يستطع أن يستولى على بلاد الشام إلا أنه أقلق بخروجه أبا جعفر المنصور وبحث عن حل سريع لحل هذه المشكلة فأمد والى الكوفة عيسى[1] بن موسى المعروف بقسوة القلب بأربعة آلاف من الجنود إلى المدينة المنورة وأمره بأن يقتل محمدًا بن عبد الله وكل من تبعه واحدًا تلو آخر.

وكان من الممكن أن يقاوم محمد بن عبد الله مع أهالى دار العزة المدينة المنورة عيسى بن موسى. ولكن كان عيسى بن موسى قد هدد أهالى المدينة بإرسال رسائل مزورة لهم، وبما أن وقعة حرة واقم لم تزل فى ذاكرتهم أخذوا ينسحبون من جانب محمد بن عبد الله واحدا إثر الآخر. ودفعوا ذلك الشخص العالى القدر بثلاثمائة من المغاوير الأبطال أمام أربعة آلاف من سفاحى بغداد.

ولما رأى محمد بن عبد الله أن الذين تحت تبعيته أخذوا يهربون إلى جهة ما وأخذت قوته تنقص شيئًا أخذ يحفر فى أطراف المدينة خنادق عميقة من شدة ولهه وحيرته ويقول من شدة يأسه «كل من لا يرد أن يحارب المنصور فليغادرنى» ومع مرور الزمن من تناقض عدد جنوده حتى لم يبق بجانبه إلا ثلاثمائة من الفدائيين، وكان والى الكوفة ظالما غشومًا ومشهورًا بعداوته لآل النبى ﷺ فأقام معسكره خارج المدينة المنورة وبعث يقول: يجب أن يتخلى محمد بن عبد الله عن فكرة الخلافة وأن يطيع وينقاد لأبى جعفر المنصور وأن ينسحب مَنْ حوله تاركين محمدًا بمفرده وأن الذين لا ينسحبون من حوله سيندمون فى نهاية الأمر. ولما رأى أن محمد بن عبد الله مازال متمسكًا بفكرته كما أن الفدائيين الذين حوله مازالوا ثابتين بجانبه اغتاظ غيظًا شديدًا وتجرأ على أن يسوق مَنْ تحت إمرته من السفاحين إلى داخل المدينة المنورة وأخذ يحارب وهو يسب محمدًا بن عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب علنًا بصوت عال.

(١) وكان عيسى بن موسى ولى عهد المنصور وعمه كذلك.

وإن كان محمد بن عبد الله حمل على العدو مع من استعدوا لفدائه بأرواحهم وكانوا ثلاثمائة من الأبطال الشجعان وأشعلوا نار الحرب وأقدموا على أعداء آل نبى الله وقتلوا كثيرين منهم، إلا أنه فى عاقبة الأمر استشهد فى مكان يطلق عليه أحجار الزيت بعد أن طعن، وقد حدث هذا الحادث المؤسف المؤلم بعد العصر من شهر رمضان فى الرابع عشر منه، وقد أهلك محمد بن عبد الله وهو متقلد ذا الفقار الحيدرى سبعين نفرًا من سفاحى بغداد وحاز بهذا إعجاب أصدقائه وأعدائه كذلك؛ رضى الله عنه.

وأخذ ذا الفقار الذى كان فى يد محمد عبد الله عيسى بن موسى وأرسله إلى المنصور فتوارث هذا السيف الخلفاء العباسيون مدة طويلة، وضرب أحد بنى عباس كلبًا على سبيل التجربة بهذا السيف، وبما أن ضرب الكلب بهذا السيف كانت من الحركات المستهجنة فانكسر ذلك السيف ولم يستعمل بعد.

وأرسل عيسى بن موسى سفاك الدماء رأس محمد بن عبد الله إلى بغداد كما أرسل جسمه إلى مشهده الذى دفن فيه، وبعد أن أرسل السادات والأشراف الذين بايعوا محمدًا بن عبد الله إلى مكان ما فى خارج المدينة وصلبهم فى صفين، وبعد ثلاثة أيام ألقاه فى الخندق الذى حفره فى مقبرة اليهود وغطاهم بالحجارة والتراب وأسند ولاية دار العز إلى كثير بن حصين لأن رباح بن عثمان كان قد قتل فى أثناء استشهاد محمد بن عبد الله فى سجنه ـ وعاد إلى دار الخلافة بغداد فى التاسع عشر من شهر رمضان.

ولما وصل رأس محمد بن عبد الله إلى بغداد سر المنصور سرورًا لا مزيد عليه وأمر أن يشهر به بالطواف فى جميع مراكز القضاء وعين عبد الله بن الربيع واليًا على المدينة بعد أن عزل كثير بن حصين حتى يقبض على أشراف المدينة وساداتها واحدًا تلو الآخر ويرسلهم إلى بغداد. ولم تكن بين العلويين الكرام والعباسيين إلى السنة المذكورة أى نوع من العداوة ولم تكن هناك أية مشكلة تبعثه على نفرة

بعضهم من البعض. وقد ألقى سلوك المنصور بين أولاد الأخوين عداوة حتى إن الأحداث الأليمة أحدثت فى الأكباد الإسلامية جرحًا لن يلتئم حتى صباح الحشر. لأن المنصور السفاح قتل غدرًا فى تلك السنة محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم ووالدهما البالغ من العمر سبعين عامًا عبد الله بن حسن المثنى بن حسن بن على بن أبى طالب وأخا عبد الله حسن بن الحسين وأخاه لأم محمد بن عمر بن عثمان بن عفان فى سنة ١٤٥.

وبما أن عبد الله بن حسن بن على كان من أعاظم علماء المدينة موصوفًا بالزهد والصلاح وفقيها معروفًا فكان ملوك الأمويين يحترمونه ويرعون جانبه ويجلونه كل الإجلال كما أن السفاح أبا العباس أظهر تبجيله له بإرسال مليون درهم من العطية، ولكن لشدة الأسف أن خلفه المنصور المغرور أضاع قدر المشار إليه الجليل وأظهر دناءته.

وصلى على عبد الله بن حسن أخوه حسن بن حسن كما صلى عليه أخوه لأمه محمد بن عمر بن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

فى ذكر جبل أحد وشهداء غزوة أحد

وبما أن جبل أحد قد خلق منفصلا عن الجبال التى حوله سمى بجبل أحد. وبما أن حضرة هارون ـ عليه السلام ـ مدفون فى هذا الجبل مما ميز هذا الجبل عن الجبال الأخرى.

كلما كان النبى ﷺ يأوى إلى جبل أحد كان يقول «أحد يحبنا ونحن نحب أحد» وقال مرة «جبل أحد فوق باب من أبواب الجنان، ويحبنا ونحن نحبه أيضًا»، وهذا الجبل يعنى «جبل عير» يبغضنا ونحن نبغضه إلا أنه فوق باب من أبواب النار». وقال مرة أخرى «أحد على ركن من أركان الجنة، وعير على ركن من أركان جهنم» ومرة أخرى «أربعة جبال من جبال الجنان وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربع ملاحم من الجنان، وأحد الجبال الأربعة جبل أحد ويحبنا ونحن نحبه! وأحدها ورقان والثالث طور والآخر لبنان».

والذين كانوا بين الجبل الذى حدثت فيه غزوة أحد والذى وصف فى الأحاديث وبين الجهة الشامية من الوادى الذى بين المدينة وأحد ونالوا الشهادة ومرتبتها العالية صدر الأمر بأن يدفنوا فى مكان مناسب من ميدان القتال فجمعهم كلهم ودفنوا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة فى قبر واحد، ولما كانت بعض الجنازات قد رفعت من أماكنها من قبل أهلها قبل أن يسمعوا الأمر النبوى، فدفنوا جنازاتهم حيث ورد الأمر النبوى بملابسهم.

لأن النبى ﷺ كان قد تفضل قائلا: بما أننى مطلع على جميع أحوال شهداء أحد هؤلاء فإننى سأشهد على حسن حالهم يوم القيامة فلفوهم بملابسهم وادفنوهم حالاً، ومن كان فيهم أكثر حفظًا للقرآن ضعوه فوق الآخر فى اللحد وادفنوا اثنين فاثنين فى قبر واحد أو ثلاثة فثلاثة، والسبب فى وضع أكثر من

جنازة فى قبر واحد والإذن به ما عرض على النبى ﷺ من شكوى فى صعوبة حفر قبر لكل واحد من الشهداء، بناء على ما نقله الإمام الزهرى. وفى الواقع قد أصيب الأنصار فى ذلك اليوم بجراحات عديدة ومشاق شديدة ومن هنا كان قد اشتكى للرسول ﷺ من صعوبة حفر قبر لكل شهيد. فرحمهم النبى ﷺ وأشفق عليهم وأمرهم بأن يدفنوا فى كل قبر أكثر من واحد اثنين أو ثلاثة قائلاً: عمقوا وأوسعوا وادفنوا الاثنين والثلاثة.

وقبور الشهداء الذين دفنوا فى وادى أحد الاثنين أو الثلاثة معلومة الآن ولكن مواقع الشهداء الذين رفعوا من ميدان القتال أو مدافنهم كانت مجهولة إلى سنة ١٢٦٨هـ.

ولكن مصطفى عشقى أفندى من المجاورين الكرام استطاع أن يعثر على مدافن هؤلاء الشهداء وأحاطها بجدار فى ١٢٦٨هـ حتى عندما كان يحفر أساس هذا الجدار ظهر قبر وكان فى داخله نعش كان صاحبه قد استغرق فى نوم هادئ هذا ما رآه العمال الذين وجدوا هناك.

وجدد الجدار الذى بناه عشقى أفندى فى سنة ١٢٧٥هـ وكتب فوق بابه القطعة الآتية.

القطعة الشعرية

لأحـــد هنـــا مرقـــد الشهـداء
إن زرتـــه فاقرأ الفـاتحة وارفـع الدعـاء
ومـــن لهـــذا البنـــاء مـــن المجددين
شفاعـــة النبى فى يـــوم الديـــن

كان النبى ﷺ يزور كل سنة قبور شهداء أحد ويقف فى حرة واقم حيث ترى القبور من هناك يقول: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

وبعد ذلك ودع كل واحد منهم كأن هؤلاء يتمتعون بالحياة.

كانت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ تزور قبر حمزة ـ رضى الله عنه ـ مرة كل يومين وتبذل جهداً لتضع علامة خاصة حتى لا ينسى القبر الجليل. وفى ليلة كل جمعة تذهب وتصلى طويلاً وتبكى مدة طويلة وتعود، وقد رعت هذا النظام إلى أن توفيت، وكلما كان النبى ﷺ يزور مقبرة شهداء أحد يقول: من يزورهم ومن يسلمون عليهم يردون عليهم السلام.

وهناك حكايات جمة تؤيد هذا الحديث الجليل وتروى بسند جيد ما قالته خالة عطاف بن خالد: «إننى زرت شهداء أحد، فردوا على سلامى ثم سمعت صوتًا هاتفًا يقول: «نحن نعرفكم كما تعرفون بعضكم بعضًا» فأغمى علىّ من شدة حيرتى». وروت فاطمة بنت خريمة قائلة كنا نمر مع أختى من ميدان معركة أحد وكانت الشمس قد غربت فأخذت أختى وتوجهت معها لزيارة مشهد حمزة ـ رضى الله عنه ـ وبعد الوصول قلت «السلام عليك يا عم رسول الله» فسمعت أنه يرد السلام قائلاً وعليكم السلام ورحمة الله هذا» ما يروونه.

بناء على رواية الإمام البيهقى محركًا السند من هشام بن محمد العمرى كان ابن عمر يقول: «خرجنا مع أبى يوم الجمعة قبل شروق الشمس لزيارة قبور الشهداء! ولما دخلنا المقبرة قال والدى بصوت عَالٍ: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» وسمع عقب ذلك صوتًا يقول «وعليك السلام يا أبا عبد الله» فقال لى «أنت الذى تجيب» فقلت له «لا إن صاحب القبر هو الذى رد على سلامك ثم أخذنى فى الجهة اليمنى منه فسلم على كل قبر فرد كل صاحب قبر السلام ثلاث مرات، فتعجب والدى من هذه الحالة الغريبة فعرض شكره وثناءه على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو ساجد».

وبناء على تحقيق أئمة السير أنه قد استشهد فى معركة أحد سبعون نفسًا نفيسة فدفن أكثرهم فى ميدان المعركة فى أحد وبعضهم فى بقيع الغرقد وبعضهم فى داخل حصن المدينة.

ودفن عبد الله بن جحش ابن أخت حضرة حمزة مع مصعب بن عمير[1] فى الضريح المعروف باسم مشهد حمزة وفى قبر واحد.

واستشهد جناب حمزة أمام ربوة صغيرة حمراء لجبل أحد الذى يطلق عليه بطن الوداى وظل حيث صرع[2] فحمله النبى ﷺ حيث قبره المقدس وكفنه فى بردته الشريفة ثم عثر على مصعب بن عمير فدفنهما معًا فى قبر واحد؛ وبناء على بعض الأقوال أن المكان الذى دفن فيه المشار إليهما كان المكان الذى استشهد فيه عبد الله بن جحش فدفن الثلاثة معًا. وخرج بعد المؤرخين هاتين الروايتين وقالوا إن حمزة دفن فى قبر منفرد ودفن جناب مصعب بن عمير مع عبد الله بن جحش فى قبر واحد معًا إلا أن الزوار بناء على العادة القديمة يسلمون على الثلاثة معًا محتاطين للأمر.

سهل بن قيس[3] رضى الله عنه ـ: ينتمى سهل بن قيس إلى أفراد بنى سلمة وهو مدفون بين قبر حمزة بن عبد المطلب وبين جبل أحد أى فى الجهة التى تصادف الجهة الشمالية لقبر حمزة.

عمرو بن الجموح رضى الله عنه[4]: دفن عمرو بن الجموح مع عبد الله بن عمرو بن حرام[5] فى قبر واحد على جانب مجرى السيل. ولما كان السيل قد حفر قبر المشار إليهما فأخرج جسدهما المبارك بعد معركة أحد بست وأربعين سنة نقلا إلى مكان آخر حيث دفنا وكان جثمانهما غضين طريين كأنهما قد توفيًا منذ لحظة ولم تتغير بشرتهما قدر ذرة والذين نالوا شرف زيارتهما ظنوا أنهما يبتسمان.

وظلت يد عبد الله بن عمرو بن حرام فوق جرحه بعد موته. فنزلوها بجانبه لأجل التجربة لأن جسده المبارك لم يكن قد تجمد مثل أجساد سائر الأموات أينما حركته كان يتحرك بسهولة. ولما وضعت يده بجانبه أخذ جرحه ينزف وظل ينزف

(١) أرسل مصعب بن عمير قبل الهجرة إلى المدينة المنورة ليعلم سابقى الأنصار المسائل الدينية ويؤمهم فى الصلاة ويخطب فيهم فأسلم ثلثا الأنصار الكرام تقريبًا على يديه.

(٢) فى هذا المكان الآن قبة لطيفة ويعرف بمصرع حمزة.

(٣) الإصابة ٣/ ١٤٢.

(٤) الإصابة ٤/ ٢٩٠.

(٥) والد جابر بن عبد الله رضى الله عنهما. انظر: الإضافة ٤/ ١١٠.

فترة كأنه جرح جديد، فقلق الذين تجرءوا على إنزال يده ولم يجدوا بعد السعى وسيلة لإيقاف النزيف، وفى النهاية وضعوا يده فوق جرحه وبهذا وفقوا فى إيقاف النزيف.

خارجة بن زيد[1] ـ **رضى الله عنه**: دفن خارجة بن زيد مع سعد بن الربيع ونعمان بن مالك عبادة بن الخشخاش فى قبر واحد. والمرقد السامى حيث دفنوا فى الجهة الغربية من قبر حضرة حمزة على بعد خمسمائة ذراع أى على الربوة التى فى الجهة الغربية من مجرى السيل يظل مجرى السيل فى الجهة القبلية لذلك القبر.

ولما كان ابن عمرو بن الجموح خلاد وأبو أيمن مولى عمرو بن الجموح[2] فوق تلك الربوة فالزوار عندما يزورون هذا المكان يسلمون على هؤلاء الأشخاص الثمانية، أى يذكرون فى ذلك المحل المقدس أسماء عمرو بن جموح، عبد الله بن عمرو بن حرام، خارجة بن زيد، سعيد بن الربيع، نعمان بن مالك، عبادة بن الخشخاش، أبو أيمن مولى عمرو بن الجموح خلاد بن بن عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنهم ـ ويسلمون على كل واحد منهم منفردين.

وغير هؤلاء من الأصحاب الكرام الذين استشهدوا فى ملحمة أحد وقبورهم مجهولة.

وإن كانت بين جبل أحد وضريح حمزة مقبرة قد سورت أطرافها فهى ليست من قبور الشهداء. إن هذه المقبرة قبور الشحاذين هاجروا إلى المدينة فى عهد هشام بن عبد الملك وظلوا بجانب مقابر الشهداء إلى آخر حياتهم وعندما ماتوا دفنوا فى هذه المقبرة. وليست هذه المقبرة مقبرة الشهداء، ويلزم أن تكون قبور الشهداء على الجهة الغربية من مجرى السيل. والسبب فى هذا الظن الخاطئ للأهالى إحاطة شاهين الشجاعى مقبرة الأعراب بسور ظنًا منه أنها مقبرة الشهداء. واستمر هذا الظن مع الزمن حتى اعتقد أن الشهداء مدفونون داخل هذا السور، لذا كلما هدم جدد من قبل أصحاب الخيرات.

(١) الإصابة ٢/ ٨٤.

(٢) الإصابة ٧/ ١٢.

وقد ذكر أعلاه أن النبى ﷺ أمر بدفن الشهداء حيث استشهدوا كما أمر بدفن الذين رفعوا من ميدان المعركة حيث سمعوا الأمر النبوى، وفعلاً دفن الذين رفعوا أجساد شهدائهم حيث بلغهم الأمر النبوى، بدون تأخير. حتى دفن جثمان مالك بن سنان ـ رضى الله عنه ـ فى مكان يسمى أحجار الزيت فى سوق العباءات كما دفن بعضهم فى مقابر بنى سليم وبنى زريق وقباء لأنهم كانوا قد سمعوا بالأمر النبوى فى هذه الأماكن.

لم نستطع أن نحصل على رواية توضح الذين دفنوا فى مقبرة بنى سليم، إلا أنه بناء على تحقيق رجال ثقاة أن رافع بن مالك الزرقى مدفون فى مقبرة بنى زريق وعبد الله بن سلمة ومجدر بن الزياد قد دفنا فى مقبرة قرية قباء.

لاحقة

حينما جرح مالك بن سنان فى ميدان المعركة يئس من الحياة وعاد إلى المدينة المنورة حتى يتلاقى مع والدته مرة أخرى ولكنه عندما وصل إلى مكان ضريحه الآن وقع وارتحل عن دنيانا، ورد هذا فى بعض الكتب واشتهر بين الناس حتى وصلت هذه الرواية لدرجة التصديق إلا أن الإمام السمهودى لم يهتم بذلك القول وأهمله تمام الإهمال. وإذا ما نظرنا إلى أن المذكور من سكان المدينة المنورة ومؤرخ المدينة يلزم ألا يكون لتلك الرواية أصل.

واختلف المؤرخون فى تحديد شهداء أحد إذ قال بعضهم أنهم (٦٣) وقال الآخرون أن عددهم (٧٠) وقال بعضهم أن عددهم خمسة وسبعون أربعة منهم من المهاجرين وستة وستون منهم من الأنصار، والقول الثانى مصدق عند الأكثر. ورأينا من واجبنا ذكر أسمائهم هنا متبركين.

أسماء شهداء أحد السامية:

١ ـ حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (وحمزة من بطن هاشم بن عبد مناف وقد قتل بحربة غلام جبير بن مطعم: الوحشى).

٢ ـ عبد الله بن جحش (من بطن بنى أمية بن عبد شمس).

٣ ـ مصعب بن عمير (من بطن بنى أسد بن خزيمة المنتهى إلى بنى عبد الدار وقاتله عبد الله بن قمئة الليثى).

٤ شمَّاس بن عثمان «من بطون بنى مخزوم، هؤلاء الأربعة الذين ذكروا من المهاجرين الكرام وستة وستون سيذكرون فيما بعد من قبائل الأنصار الكرام).

٥ ـ عمرو بن معاذ بن نعمان.

٦ ـ حارث بن أنس بن رافع.

٧ ـ عمارة بن زياد بن السكن.

٨ ـ سلمة بن ثابت بن وقش.

٩ ـ عمرو بن ثابت بن وقش.

١٠ ـ ثابت بن وقش.

١١ ـ رفاعة (وعلى قول) رباعة بن وقش.

١٢ ـ اليمان حُسَيْل بن جابر (هذا الشخص هو أبو حذيفة اليمانى واستشهد خطأ من قبل الأصحاب وسددت ديته).

١٣ ـ صيفى بن قيظى بن عمرو.

١٤ ـ خباب بن قيظى.

١٥ ـ عباد بن سهل.

١٦ حارث بن أوس بن معاذ.

هؤلاء الأشخاص الاثنا عشر من قبيلة بنى عبد الأشهل.

١٧ ـ إياس بن أوس بن عتيك الأشهلى.

١٨ـ عبيد (وعلى رأى) عتيك بن التيهان.

١٩ ـ حبيب بن زيد بن تميم (هؤلاء الأشخاص الثلاثة من أهل راتج).

٢٠ ـ زيد بن حاطب بن أمية بن رافع (المشار إليه هذا من قبيلة بنى ظفر).

٢١ ـ أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد (أويزيد).

٢٢ ـ حنظلة الغسيل ابن أبى عامر صيفى بن نعمان (من قبيلة بنى عمرو بن عوف وبنى ضبعة قد قتل حنظلة شداد بن الأسود).

٢٣ ـ أنيس بن قتادة (المشار إليه من بطن عبيد بن زيد)

٢٤ ـ أبو حبة[1] بن عمرو بن ثابت (المشار إليه أخو سعد بن خيثمة لأمه)

٢٥ ـ عبد الله بن جبير بن نعمان (كان رئيس الرماة فى جبل عينى وينتمى مع أبى حبة من أفراد قبيلة بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف)

٢٦ ـ خيثمة أبو سعد بن خيثمة (من قبيلة بنى سلمة بن امرئ القيس بن مالك بن أوس)

٢٧ ـ عبد الله بن سلمة (من طائفة بنى عجلان وكان حليف بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف)

٢٨ ـ وسيع بن حاطب (وعلى رأى) سبيع بن حاطب بن الحارث ابن قيس (من قبيلة بنى معاوية بن مالك)

٢٩ ـ عمرو بن قيس بن زيد

٣٠ ـ قيس بن عمرو بن قيس بن زيد

٣١ ـ ثابت بن عمرو بن زيد

٣٢ ـ عامر بن مخلَّد (من بطن بنى النجار المنتهى إلى بنى سواد بن مالك بن غنم)

٣٣ ـ أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة بن عمرو بن ثقيف بن مالك بن مبذول

٣٤ ـ عمرو بن مطرف بن علقمة (هذان من بطن بنى مبذول)

٣٥ ـ علقمة بن عمرو بن ثقيف بن مالك بن مبذول

٣٦ ـ أوس بن ثابت بن المنذر (هو أخو حسان بن ثابت من قبيلة ابن عمرو بن مالك)

٣٧ ـ أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد بن النجار (من بطن بنى عدى النجار)

٣٨ ـ قيس بن مخلد

٣٩ ـ كيسان (هو عبد قيس بن مخلد، هو وسيده من طائفة بنى مازن بن النجار)

(١) ويقال فيه أبو حنة ـ بالنون ـ، وأبو حية ـ بالياء.

٤٠ ـ سليم بن الحارث

٤١ ـ نعمان بن عبد عمرو (هؤلاء كذلك من بطن بنى مازن بن النجار)

٤٢ ـ خارجة بن زيد أبى زهير

٤٣ ـ سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير (هذان مدفونان فى قبر واحد)

٤٤ ـ أوس بن الأرقم بن زيد بن قيس (هؤلاء الثلاثة من قبيلة بنى الحارث بن الخزرج)

٤٥ ـ مالك بن سنان بن عبد بن أبجر والد أبى سعيد الخدرى

٤٦ ـ سعيد بن سويد بن قيس بن عامر بن عباد بن الأبجر

٤٧ ـ عتبة بن ربيع بن رافع بن معاوية (هؤلاء الثلاثة من بنى خدرة من بطون بنى الأبجر)

٤٨ ـ ثعلبة بن سعد بن مالك الساعدى

٤٩ ـ ثقيف بن فروة بن البدن (هؤلاء من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج)

٥٠ ـ عبد الله بن عمرو بن وهب بن ثعلبة

٥١ ـ ضَمَّرَةُ الجهنى (هو حليف بنى طريف هو وعبد الله بن عمرو من بطون بنى طريف)

٥٢ ـ نوفل بن عبد الله

٥٣ ـ عامر بن عبادة بن نضلة بن مالك بن عجلان

٥٤ ـ نعمان بن مالك بن ثعلبة

٥٥ـ مُجذَّر بن زياد (حليف سنان بن مالك)

٥٦ ـ عبادة بن الخَشْخَاش (هؤلاء الخمسة من بنى عمرو بن عوف بن الخزرج المنتهى إلى مالك بن عجلان وقد دفن نعمان بن مالك ومجدر وعبادة فى قبر واحد)

٥٧ ـ رفاعة بن عمرو بن الجموح

٥٨ ـ عبد الله بن عمرو بن الجموح

٥٩ ـ عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام (قد دفنا فى قبر واحد)

٦٠ ـ خلاد بن عمرو بن الجموح
٦١ ـ أبو أيمن (وهؤلاء الأربعة من بطن بنى سَلِمة المنسوب إلى بنى حرام)
٦٢ ـ سليم بن عمرو بن حديدة
٦٣ ـ عنترة مولى سليم بن عمرو بن حديدة.
٦٤ ـ سهل بن قيس بن أبى كعب بن القين (هؤلاء من طائفة سواد بن غَنْم)
٦٥ ـ ذكوان بن عبد قيس
٦٦ ـ عبيد بن المعلى (هؤلاء من قبيلة بنى زريق بن عامر)
٦٧ ـ مالك بن نميلة (حليف بنى معاوية بن مالك)
٦٨ ـ حارث بن عدى بن خَرَشَة بن أمية بن عامر بن خطمة (من قبيلة خطمة مزينة اسمه عبد الله بن جشمه بن مالك بن أوس)
٦٩ ـ مالك بن إياس بن عدى (من بطن بنى سواد بن مالك)
٧٠ ـ عمرو بن إياس (من بطون بنى سالم بن عوف)

قد نال هؤلاء الرجال الكرام رتبة الشهادة العالية فى هذه المعركة الأليمة وحازوا قصب السبق، كما مات من قدماء المشركين ١٢ شخصًا أو ثلاثة عشر على قول آخر بسيوف المسلمين واستقروا فى جهنم.

وكان ينتمى أثنا عشر شخصًا منهم إلى قريش التى تنحدر من نسل شخص عبد الدار بن قصى واثنان منهم من بطن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وأربعة منهم من بطن بنى مخزوم بن يقظة واثنان منهم من بطن بنى جمح بن عمرو والاثنان الآخران من بطن بنى عامر بن لؤى ومن هلكوا من بطن بنى عبد الدار كانوا من حاملى ألوية جيوش الكفار.

أسماء القتلى المشركين.

١ ـ طلحة بن أبى طلحة (اسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار وقتل ابنه طلحة بسيف على بن أبى طالب).

٢ ـ عثمان بن طلحة (أخو طلحة سالف الذكر قتل بسيف حمزة)
٣ ـ أبو سعيد بن أبى طلحة (أخو طلحة أيضًا بسيف على فى رواية وفى قول آخر قتل بيد سعد بن أبى وقاص)
٤ ـ مسافع بن طلحة
٥ ـ جلاس بن طلحة (هؤلاء أبناء طلحة المقتول وقتلوا بسيف عاصم بن ثابت بن أبى الأَقْلَح)
٦ ـ كلاب بن طلحة
٧ ـ حارث بن طلحة (هؤلاء كذلك أبناء طلحة وقتلوا بسيف حليف بنى ظفر قزمان. وعلى قول آخر أن قاتل كلاب هو عبد الرحمن بن عوف)
٨ ـ أرطاة بن عبد شرحبيل بن عبد مناف بن عبد الدار (قاتل هذا حمزة بن عبد المطلب)
٩ ـ أبو يزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أخو مصعب بن عمير (مقتول قزمان سالف الذكر)
١٠ ـ شريح بن قارصة (لا يعرف اسم قاتله)
١١ ـ صُؤَاب (كان عبد شريح وقتله كذلك قزمان وعلى قول آخر قتله على بن أبى طالب أو سعد بن أبى وقاص أو أبو دجانة)
١٢ ـ قاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (قاتل هذا أيضا قزمان إن هؤلاء المشركين الاثنا عشر من بطن قريش ينتهى نسبهم إلى بنى عبد الدار وكان طلحة حامل علم قريش ولما قتل هؤلاء والذين ذكرناهم أخذوا الراية من طلحة واحدة أثر الآخر وهلكوا جميعًا)
١٣ ـ عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد (قاتله على بن أبى طالب)
١٤ ـ سِبَاع بن عبد العزى بن نضلة الخزاعى
١٥ ـ هشام بن أبى أمية بن المغيرة (كان هذا الشخص حليف بنى أسد وقتل من قبل حمزة بن عبد المطلب وهو مع عبد الله بن حميد بن بطن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى)

١٦ ـ وليد بن العاص بن هشام بن المغيرة (ومع هؤلاء اثنان أيضًا لا يعرف اسميهما والأربعة من بطن بنى مخزوم بن يقظة وقاتلهم جميعًا قزمان)

١٧ ـ عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة بن جمح (وهذا الرجل يسمى أبا عزة وهو شاعر ناقض للعهد)

١٨ ـ أبى بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح (واثنان من هؤلاء من بطن بنى جمح بن عمرو وقتلا بالسيف النبوى)

١٩ ـ عبيدة بن جابر

٢٠ ـ شيبة بن مالك بن المضرب (هؤلاء من بطن عامر بن لؤى وقتد قزمان، وعلى وقول قتل عبيدة بن جابر عبد الله بن مسعود)

صرح ابن إسحاق بهذه الأسماء وروى أنهم قتلوا فى يوم أحد وأضاف الإمام القسطلانى لجملة هؤلاء ثلاثة أشخاص فبلغ عدد المشركين إلى ثلاثة وعشرين ولكنه لم يحدد أسماءهم.

الوجهة السابعة عشرة
تضم ثلاث صور

تعرض مواسم وأسواق المدينة المنورة ومحاسن أهلها
وترى وتحصى الآبار والعيون المنسوبة إلى
النبى صلى الله عليه وسلم

تبين الأشهر والأيام التى تقام فيها الأسواق العربية ومواسمها فى اثنى عشر شهراً من أشهر السنة وتعرف بعض محاسن أهل المدينة

إخطار ـ الموسم هو سوق العرب وسوق الحجاج ويطلق على مثل هذه الأيام فى بلادنا «يناير» معرض وسوق.

محرم الحرام:

المحرم الحرام هو الشهر الأول فى السنة القمرية وعند عودة حجاج أهل المدينة من عرفات يدخلون فى المدينة المنورة فى اليوم الأول أو الثانى من ذلك الشهر. ويوم عودة هذه القافلة يوم بهجة وسرور ويستقبل أهل المدينة المنورة كغيرهم من أهل المدن الأخرى حُجَّاجهم ويلاقونهم ويحصلون على دعواتهم. ثم يوصلونهم إلى منازلهم ثم يزورونهم عقب ذلك منفردين.

ورود المحمل المصرى:

يصل بعد قافلة حجاج المدينة المحمل المصرى وينصب خيامه فى الأماكن المخصوصة له ويقيم ثلاثة أو أربعة أيام للراحة، ويصل المحمل المصرى بالهدايا السلطانية والعطايا الخاقانية والرواتب فتسلم هذه الأشياء إلى موظفى الدولة وتوزع على أهالى المدينة وتقسم لهم أمام أكابر المدينة؛ لذا يفرح الأهالى بورود المحمل المصرى ويعدون يوم وصوله من المواسم المخصوصة.

يقول قطب الدين الحنفى ـ رحمه الله ـ من مؤرخى مكة المكرمة فى تاريخه المشهور: «لم ير أهالى الحرمين حتى زمن الدولة العثمانية هذا النوع من الكرم ولا هذا القدر؛ لأجل ذلك يسارعون فى إظهار فرحهم وسرورهم ويدعون بطول بقاء الدولة العثمانية» وما يقوله القطب المكى عين الصواب وحقيقة الأمر أن أهل

الحرمين فى عهد أمراء بنى أمية والمنصور والمهدى وهارون الرشيد وسائر الخلفاء ومن جاءوا من بعدهم من ملوك السلف قد نالوا كثيرًا من عطاياهم ونفحاتهم حتى أكرمهم الملوك بالثلج والبرد وألبسوهم خلعًا كثيرة وصرفوا لهم آلاف الدنانير وبهذا أظهروا مآثر سماحتهم وجودهم، إلا أن هذه الهدايا والعطايا كانت تظهر كثيرة بالنسبة لعدد السكان. والآن قد تضاعف عدد سكان الحرمين خمس أو ست مرات بالنسبة للسكان الذين كانوا فى ذلك الوقت، وخصبت الصرر والرواتب لكل السنين ومن هنا فكل ما قدم سواء أكان أمراء بنى أمية أو خلفاء العباسيين أو ملوك آخرون لا يصل ما أعطوه إلى عشر معشار ما يقدمه الملوك العثمانيون.

منقبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم:

فى الليلة الثانية من ورود المحمل المصرى وبناء على الأمر السلطانى تتلى فى صحن مسجد السعادة منقبة مولد النبى ﷺ؛ ويحضر فى هذا الاجتماع الميمون أمير حج المحمل المصرى والموظفون وأعيان المدينة وأهاليها. وهذا من مقتضيات النظام الموضوع. وتوقد كثير من الشموع. كما توقد أنواع البخور ويوزع على الحاضرين الحلوى والشراب. وبعد يومين أى بعد وصول المحمل إلى المدينة بثلاثة أيام أو أربعة يخرج الموكب المصرى من المدينة المنورة ويتجه إلى مصر ذات الأهرام فى حفاوة واحتفال.

ورود المحمل الشامى:

وبعد أن يتحرك المحمل المصرى يأتى المحمل الشامى وينزل فى ميدان المناخة وفى الجهة الشمالية من جبل سلع حيث يستريح أفراده ما يقرب من عشرة أيام ويزورون الآثار المباركة.

يوم الزينة:

يطلق على اليوم الثانى عشر من المحرم يوم الزينة وميقات الديون لدى أهل المدينة وسبب تسميته بذلك هو استطاعة أصحاب المرتبات والهدايا تسوية ديونهم فى خلال تلك الأيام.

ورود المحمل العراقى:

تصل قافلة العراق فى شهر المحرم أيضًا إلى المدينة وتبيت فى الجهة الشرقية منها فى موقع مراحة ويقيمون هناك سوقًا كبيرة ويشرعون فى تبادل السلع الأخذ والعطاء. وورود القافلة العراقية من الأيام المعدودة والمواسم المشهورة المشهودة لدى أهل المدينة.

صفر الخير:

يبسط خدم الحجرة المعطرة أبسطة مسجد السعادة ويخرجون الكتب وأجزاء القرآن المحفوظة فى صواوين الحجرة المعطرة ويبادر العلماء ذوو الاحترام فى تدريس العلوم، ومن جملة محاسن سكان المدينة المنورة أن طلبة العلم يهتمون بتحصيل العلوم الدينية ولا يهتمون بالفلسفة وعلم الكلام والرياضيات، ويقولون إن العلوم ثلاثة أنواع رئيسية، نفيسة، وخسيسة، فالرئيسية مثل الفقه والحديث من العلوم الدينية، والنفيسة القواعد العربية، والخسيسة الفلسفة والحكمة وتحصيل النوع الأول يكفى لنا.

قدوم موكب المرزوقى:

تأتى قافلة المرزوقى فى العاشر من صفر، وهذه القافلة تتكون من تجار اليمن ويستفيد الأهالى بتبادل التجارة معهم، ومن هنا كان ورود قافلة المرزوقى من أسباب الفرح والسرور لأهل المدينة.

شهر ربيع الأول:

ففى ليلة أول جمعة من ربيع الأول مولد القطب الصمدى سيد أحمد البدوى وفى الليلة الثانية عشرة تعقد اجتماعات المولد النبوى.

رمضان العظيم:

تعمر جوانب مسجد السعادة فى رمضان كل يوم. حيث يتلو الأهالى والزوار ليلاً ونهارًا القرآن الكريم جهرًا وخفية كما أنهم يدرسون كتبًا مثل الشمائل

والمصابيح والمشارق وصحيح البخارى ويطالعون ويوقدون ليلاً مئات القناديل والشموع ويؤدون صلاة التراويح.

عادات أهل الزوايا:

وبعد أداء صلاة التراويح تشعل القناديل والشموع فى الزوايا وتقرأ القصائد المتقابلة وفى البداية ينشد ناشدى الجهة اليسرى على قاعدة خاصة بأهل اليمن منظومة التروية. وهذه القصيدة مرتبة على الحروف الهجائية وهى قصيدة نقية مخمسة ويقرأ الزوار الكرام عقب كل بيت الصلوات الشريفة بلحن مؤثر.

وبعد ذلك يقرأ ناشدى الجهة اليسرى بيتًا من قصيدة طرائفية وقد نظمت قصيدة الطرائفية كنظيرة لقصيدة التروية وهى أبيات بديعة تبدأ بالغزل. هكذا يُصَلّى أهل الزوايا إلى الصباح وتستمر الأذكار اليمانية إلى طلوع الفجر الأول ويتم مجلس الذكر بختم القرآن ثم يذهبون إلى مسجد السعادة لأداء صلاة الفجر والسامعون المنفردون يدهشون من أحوال أهل الزوايا ويثنون من شدة تأثرهم. والأشخاص الذين نطلق عليهم المنفردين هم الغرباء الذين يقيمون فى الزاوية.

زيارة مسجد قباء:

يزور مجاورو المدينة المنورة فى السابع عشر من رمضان مسجد قباء وبما أنهم يعدون هذه الزيارة من السنن النبوية يتجنبون ترك الزيارة. كما يشترك كثير من الأهالى فى هذه الزيارة.

شهر شوال المبارك:

وبما أن أول أيام شوال عيد الفطر فالأهالى يؤدون صلاة العيد فى مسجد السعادة ثم يزورون مقبرة بقيع الغرقد ويعودون إلى منازلهم ويقومون بمراسم العيد بزيارة بعضهم البعض إلى مساء اليوم الثالث من العيد.

قطع الخدم المكنسة:

يزور خدم مسجد السعادة فى الثانى عشر من شوال مسجد قباء ويقطعون من

البساتين قلوب النخيل ويعودون. وبما أن ذهابهم إيابهم يستحقان الرؤية والفرجة لأنهم يسيرون فى موكب فيخرج الناس إلى وادى البطحان للتنزه كما أنهم يتفرجون على موكب الخدم.

شهر ذى القعدة الحرام:

اليوم السابع عشر من شهر ذى القعدة هو يوم كنس مسجد السعادة ولما كان هذا اليوم من الأيام السارة بين الأهالى كانوا يجتمعون فى صحن مسجد النبى ﷺ ثم يصعد شيخ الحرم وقاضى المدينة وعامة الخدمة فوق سطح المسجد ويكنسونه ويلقون التمر على من فى صحن المسجد من الأطفال والغرباء. ويتصايح هؤلاء قائلين: «العادة يا سادة»، وبعد إتمام تنظيف السطح الشريف ينزلون وينقلون ما فى الروضة المطهرة من الكتب إلى الحجرة المعطرة والبسط إلى المخازن ثم يخرجون إلى البساتين للنزهة.

مقدم المحمل الشامى:

يدخل المحمل الشامى إلى المدينة المنورة فى اليوم السابع والعشرون من شهر ذى القعدة، ويوم وصول المحمل من الأيام المعدودة وموسم مشهور عند أهل المدينة، فلا يبقى فى هذا اليوم من أهل المدينة من لا يبتهج ابتهاجًا عظيمًا، ويأتى أمين الصرة بالأمانات العثمانية إلى المسجد النبوى ويسلمها إلى خزانة المديرية لتوزيعها على الأهالى.

مسألة:

يجرى على ألسنة العوام قوله أن الحج الذى يصادف فيه يوم عرفة ليوم الجمعة أنه يساوى سبعين حجة إلا أن ابن الجوزية قال: «أقول أنه لا أصل لهذا القول، ولم أصادف مثل هذا القول ولكن لا شك أن حج يوم الجمعة خير من أيام حج سائر الأيام؛ لأن يوم الجمعة أفضل من سائر الأيام». وأيد ابن زيد المالكى فى

(مناسكه) هذ القول ولكن عليًّا القارى حكم أن مزية وقفة يوم الجمعة أزيد من مزية وقفة سائر الأيام بسبعين مرة.

مسألة:

إذا ما سئل: هل الحج كان واجبًا على الأمم التى خلت من قبل الإسلام؟ وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة وبناء على أنه لم يكن واجبًا. إلا أن مشروعيته مستمرة منذ عهد آدم إلا أن حجاجه كانوا من الأنبياء والملائكة. هذا ما جاء فى المناسك.

يجتمع أهالى المدينة فى اليوم التاسع من ذى الحجة فى مسجد السعادة حيث ينتظرون النفحات الإلهية لأن النبى ﷺ يشرف فى ذلك عرفات حيث يقف.

عيد الأضحى:

ولما كان اليوم العاشر من ذى الحجة العيد الأكبر يقوم أهل المدينة بمراسم الزيارة والمعايدة كما كانوا يفعلون فى عيد الفطر.

تنمية:

ولا شك أن أهل المدينة الكرام بفضل مجاورتهم النبى ﷺ انتمائهم بالصدق لصفات النبى ﷺ فهم أسعد أمة ويوجد بينهم فئة من الناس بناء على حكم المثل أوصاف «الأشراف أشرف الأوصاف»، فقدرهم ومزيتهم مثل اللآلىء الغالية، والأبيات الآتية تصور خلاصة أوصافهم:

نظم

قوم هم فى الدجى للناس أقمار

وهم لمن هجروا الأوطان أوطان

وأين حلوا يحل الخصب حومتهم

كأنهم مثل ما قد قيل أمطار

هـم العيـون فـإن تبصـر هدى فبه

وفى الهـدى ليس بعـد العين آثار

سلهم وسل عنهم إن كنت ذا وطر

فعنـدى لذوى الحاجـات أخبـار

وحـل ساحتهـم تسعد فهم عرب

تحمى النزيـل ولا يؤذى لهم جـار

وانعم إذا كنت تهواهـم بعيشهـا

واصحبهـم إن نأت يومًا بك الدار

وفيهم أخرى: يحترزون من آفة الشهرة حتى وإن كانوا غارقين فى أشد أنواع الفقر والحاجة يظهرون علامات اليسار والغنى. وإن ظلوا جائعين أياما يظهرون أنفسهم شبعانين، ويرجحون الوحدة على الكثرة والضرورة والضيق على السعة والثروة ويتخذون من الصفات ما جاء فى المنظومة الآتية:

نظم

إذا قنعت بقوت ولبس ثوب مرقـع

ولم يكن لى عيال نفسى لهم تتفجع

ولا بنون صغـار قلبى لهم يتقطـع

ولا صـديق صـدوق فراقه أتوقع

وكـان بـالله أنـسى

فمـا بى الـدهـر يصنـع

وصنف منهم وإن كانوا فى شدة الضيق وبين مخالب الحاجة كانوا ينفقون ما يحصلون عليه من النقود لمن هم أكثر حاجة منهم بناء لحكم البيت الآتى:

ليس العطـــاء من الفضول سماحة

حتى تجـــود ومـــا لديك قليـــــل

قوم مضـــــوا كانت الدنيـــــا بهم

والدهر كالعـــيد والأوقات أوقات

ماتوا فعاشوا وعشنـــا بعـــد موتهم

ونحن فى صـــور الأحيـــاء أموات

ويرى فيهم فئة من الناس يكدون ويكدحون حتى الليل مع ذلك لا يكسبون ما يكفى عيالهم وأولادهم ويتمرغون داخل الفقر والحاجة لا يوصفون فيتحملون الفقر، ويضطربون؛ ومع ذلك لايشتكون من حالتهم هذه ولا يسعون لتحسين أحوالهم وتأمين مستقبلهم وينتظرون من الله ـ سبحانه وتعالى الرفيع الدرجات والذى يسر الوصول إلى الآمال ـ الفرج ويدعون له. وكانوا مثالاً للتوكل والاصطبار كما جاء فى المثل الآتى:

«سعف النخيل خير من إسعاف الخليل»

لا تظهـــــرن لعـــاذل أو غـــــادر

حـــالك فى الســـــراء والضـــــراء

فلرحمـــــة المـــتوجعـــين حـــرارة

فى القلب مـــثل شماتـــة الأعـــداء

وفى الواقع أهم ما يجب أن يعنى به الإنسان أن يسلك طريق حرفة ما حتى ينجو من الذل والحاجة ودواهى الدنيا وأن يعيش أولاده وعياله. ويروى أن حضرة آدم صفى الله اشتغل بالزراعة وأن سبعين نبيًا ارتحلوا عن دنيانا وهم جوعى وأن حضرة على ـ كرم الله وجهه ـ دعا ربه قائلاً: «إللهم صن وجهى باليسار ولا تشن وجهى بالإقتار، فأسترزق طالبى رزقك وأستعطف شرار

خلقك، فأُمْتَحَنُ بحمد من أعطانى، وأُفْتَنُ بذم من منعنى، وأنت من وراء ذلك كله وَالىٌّ الإعطاء والمنع إنك على كل شىءٍ قدير، يا نعم المولى ويا نعم النصير».

يارب لا تحينى إلى زمن أكون فيه كلاً على أحد

خذ بيدى قبل أن أقول لمن أراه عند القيام خذ بيدى

وهناك صنف آخر بين أهالى المدينة كل فرد منهم يملك ثروة وغنى وهو صاحب نفوذ وقدرة وهم يمضون أوقاتهم فى غاية الرفاهية والجاه والعظمة كما أنهم يراعون الأهالى الفقراء وضعفاء المجاورين وهم الفئة التى يقال له الجامع بين الحسنتين.

وأهل المدينة عامة يحبون التنزه والفرجة، وينشطون قلوبهم بالتجوال فى الحقول والمتنزهات دون كلفة وأما بالنسبة للأكل والشرب يكتفون بالمودة سالكين مسلك الاكتفاء بما وجد. واختار بعضهم السياحة فى البلدان والممالك حتى يزيدوا من ثروتهم وغناهم. كما أن بعضهم يتركون دورهم وديارهم باحثين عن أرزاقهم، كما أن بعضهم يتبعون أفكارًا أخرى. ولا يتفقون كلهم فى أفكارهم وآرائهم، فيهم من يسلك مسالك الهوى والهوس. يقول ابن فرحون من المؤرخين القدماء: «كان مجاورو المدينة فى الأوائل من الصلحاء وأهل اليسار؛ لذلك كان رؤساء الأهالى يكرمونهم ويخدمونهم، ويقضون لهم حاجاتهم الضرورية ويقدمون لهم التحف والهدايا ويحاولون بهذا أن ينالوا حبهم. ويعتقدون فيهم خيرًا ويلتمسون دعاءهم وهمتهم. والآن انعكس الأمر إذ انعدمت الثقة والاستقامة فى المجاورين، كما أن أهالى الحرمين لا يحترمون كذلك من لا يراعى جانب الآثار المسعودة، وقد تغيرت الملابس والأفكار من أجل اجتذاب القلوب كما يقول المثل: «تغيير الشكل من أجل الأكل» فى كل مكان يمزقون أستار الحرمة والرعاية وفى كل طور وفعل يظهرون شعائر الإساءة والدناءة يتفوهون فى داخل الحرم الشريف بكل ما يرد على ألسنتهم ولا يتذكرون

ما نص عليه من الصمت والهدوء فى داخل الحرم بل يقومون بما لا يليق، مع أصحاب الفقه والاستقامة والصلاح والتقوى».

ويمد أهالى الحرمين يد العون والخدمة للغرباء الواردين ولكنهم يفرطون أحيانا فى عونهم وإظهارهم هذا القدر من التظاهر لا يستحب أحيانًا، حتى قال العلامة، الشيخ إبراهيم ابن أبى الحرم المدنى: «لا ينبغى لأهالى هذه البلاد أن يفرطوا فى إجلال وتعظيم من يترددون على هذه الديار من الزوار؛ لأن الإفراط فى ذلك يفضى إلى سوء العاقبة، ويجرئهم، فيقصرون فى آداب الزيارة للآثار المباركة مظهرين ذلهم وخشوعهم ومسكنتهم. إننى قد نظمت الأبيات الآتية حتى أعرف الناس هذا الأمر ورتبت إجابة على لسان الحال:

قطعة

يا أهـــل طيبـة لازالـــت شمائلكـم
بلطفهـــا فى الورى مأمونـــة العتب
لكـــن رعايتكـــم للغُرْبِ تحملهـــم
على تجـاوزهـــم للحـــد فى الأدب
مولاى إن صروف الدهر قد حكمت
وأعـــوزت أن يذل الـرأس للذنب
كـم من مقبل كـــف لـــو تمكن من
تقطيعهـــا فكـــن ممن فـــاز بالأدب

قيل فى حق سكان دار السكينة «جار الدار أحق بدار الجار وجار الدار أحق من غيره»، وكما أن أهالى المدينة أليق عن أهالى البلاد الأخرى بالتجاوز والسماح والفوز والنجاة والنجاح، لأجل ذلك يجب على الذين يختارون المجاورة والإقامة فى المدينة المنورة أن يكونوا لينى الأعطاف، هينى الانعطاف

فيحترمون كل موقع فى تلك البلدة المباركة ويراعون جانب كل فرد من سكنتها ويتخلقون بما جاء فى الكلمات الآتية:

يشاركهم فى أنديتهم لا فى أغذيتهم، ويزاحمهم فى أوقاتهم لا فى أقواتهم، ويكتسب من أخلاقهم لا من أرزاقهم، ويقتبس من برهم لا من بُرِّهم، فيتصل بهم كثيراً ويشاركهم فى محاسن أخلاقهم وعاداتهم، ولكن لا يعمل على مشاركة أرزاقهم وأقواتهم ويخطفها من أيديهم. ويرغب فى حبهم وموالاتهم ولا يطمع فى حبوبهم وأطعمتهم. وألا يزعجهم بالاستيلاء على دور فقرائهم وإطالة يد الطمع لصدقاتهم وألا يسعى فى منع معروفهم وإبطاله. إذ قيل:

لا تقطعن يـد المعروف عن أحـد

مـا دام يمكن فالإمكـان تـارات

واشكر فضيلة لطف الله إذْ جعلت

إلـيك لا لك عنـد الناس حاجات

فليقل أصحاب الاعتراض ما يقولون فى حق أهل المدينة. ونيسندوا إليهم ما يسندون، فمحبتهم وإكرامهم وتعظيمهم واحترامهم واجب على كل مؤمن موحد. فأهل المدينة جيران النبى ﷺ وبناء على الحكم الجليل: «مازال جبريل يوصينى بالجار..» فحق جوارهم ثابت ومهما ارتكبوا من الإساءات فإنهم لن يحرموا من حق الجوار وهذا حق محقق. ومهما ترك المدنى من الاتباع واخترع عادات غير مقبولة وابتدع، فيجب ألا يترك دون إكرام ويقطع احترامه. لأن هذه الأمور لا تسقط شرف جواره وحسن العاقبة مأمول له. يجب أن ينظر إلى كل فرد منهم بعين تعظيم وإكرام وتفخيم. وألا يبحث عن أحوالهم الظاهرة ولا يفتش عن أفعالهم الباطنية وأسرارهم لما كانت جميع الذنوب تحت حكم مشئية الله ما عدا الشرك فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعذب فاعله إن شاء ويعفو عنه ويطلقه إن شاء.

فى تعريف الآبار التى تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالتفصيل ورتبت أسماء تلك الآبار حسب الحروف الهجائية

١ـ بئر أريس:

أريس على وزن جليس ومعناه الفلاح وهو اسم واحد ينتسب إلى الطوائف اليهودية.

أحد الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ البئر التى يطلق عليها أريس وهى على الجهة الغربية من قباء بجانبها حجر فى ارتفاع ثلاثة أذرع.

حكاية

يروى أبو موسى الأشعرى قائلاً: خرجت فى يوم من الأيام من بيتى بعد أن توضأت، وذهبت إلى مسجد السعادة، وأرونى الطريق الذى سلكه النبى ﷺ قائلين ذهب لتلك الجهة، وبما أننى خرجت من ذلك اليوم بنية خالصة لأقوم بخدمة النبى ﷺ تتبعت أثره. وعرفت المكان الذى اتجه إليه سائلاً كل من رأيته، حتى وصلت إليها ودخلت من باب مبانيها وجلست بجانب بابه المصنوع من خشب النخيل. فابتعد النبى ﷺ رغبة فى قضاء حاجته، وبعد الرجوع توضأ وجلس على حافة البئر المصنوعة من الخشب مدليًا رجليه فى البئر. فألقيت عليه السلام ثم عدت إلى مجلسى. وكانت نيتى أن أقوم فى ذلك اليوم بحراسة النبى ﷺ. فدق الباب بعد فترة أبو بكر الصديق. فسألت عن الطارق. وفهمت أنه أبو بكر الصديق قلت يا رسول الله إن أبا بكر قد دق الباب حتى يتشرف بالمثول بين يديك، ولما قال النبى ﷺ أدخله بعد أن تخبره بأنه بشر بالجنة. ففتحت باب البئر

وقلت تفضلوا! فقد بشرك النبى ﷺ بالجنة فأغلقت الباب بعد دخوله وجلست فى مكانى القديم وبعد أن دخل بناء على إذن النبى ﷺ جلس على يمين النبى ﷺ وأدلى رجليه فى البئر، ودق الباب مرة أخرى بعد قليل. قلت: من أنت؟ قال: أنا عمر بن الخطاب إذا ما أذن لى أريد أن أرى رسول الله ﷺ فذهبت إلى الرسول وأخبرته أن عمر بن الخطاب يريد المثول بين يديك واستأذنت منه بهذا الشكل فقال الرسول ﷺ فليأت أبشره أيضًا بالجنة ففتحت الباب وقلت له تفضل إن الرسول ﷺ يبشرك بالجنة فدخل وجلس بأمر من الرسول ﷺ على يساره وأدلى رجليه فى البئر. أما أنا فذهبت إلى مكانى القديم وجلست. وبعد مدة جاء عثمان بن عفان. فقمت وقلت لرسول الله ﷺ إن عثمان بن عفان يستأذن أيضًا للتشرف بالمثول بين يديك. وعرضت على الرسول ﷺ أنه ينتظر الأمر بالدخول. وقال النبى ﷺ الواقف على سرائر الدنيا والآخرة «فليأت لأبشره بالجنة وبلوى المصيبة» ففتحت باب مبنى البئر وأدخلته وقلت له: يا عثمان إن النبى ﷺ يبشرك بالجنة وآفة المصيبة فمثل عثمان أمام النبى ﷺ ولما لم يجد محلاً يجلس عليه فى يمين النبى ويساره جلس أمامه؛ وكانت هذه الإشارة المليئة بالحكمة سببًا فى عدم دفن عثمان بن عفان فى الحجرة المطهرة يعنى أن النبى ﷺ لم يجد مكانًا على يمينه وشماله فأشار له بأن يجلس أمامه وهكذا جلس فى مكان بعيد عنه، الأمر حين قتل يدفن فى الحجرة المعطرة!!! ودفن فى بستان حش كوكب ليس مخالفة الفرق المخالفة لدفنه فى الحجرة المطهرة.

وكان النبى ﷺ كلما شرف مسجد قباء كان يذهب إلى بئر أريس وكان يقول: إن كل من يذهب يوم السبت إلى مسجد قباء ويصلى فيه ركعتين ثم يشرب من ماء بئر أريس ينال ثواب عمرة. وفى يوم قائظ اغترف ﷺ مع الخلفاء الأربعة من ماء بئر أريس لتلطيف الحرارة ووضع يده فى الدلو.

معجزة:

لما وضع النبى ﷺ يديه فى الدلو سقط خاتمه فى قاع البئر فارتفع ماء البئر.

وعرض عليه خاتمه وقدمه له. وانتقل الخاتم من بعد إلى أبى بكر ثم إلى عمر بن الخطاب ثم إلى عثمان بن عفان إلا أن هذا الخاتم وقع فى البئر مرة أخرى فى العام الخامس من خلافة عثمان ولكنه لم يستخرج.

وعمق بئر أريس (١٩) ذراعًا وارتفاعه (١٠٤) ويقال أنها كانت قديمًا تحت بناء مرتفع. إلا أن تقلبات الدهر هدمت مبانى جهتها القبلية وخربتها. فعمرها شاهين الشجاعى ورفع الحجارة التى حولها ثلاثة أذرع وجعل لها مرقاة. وإن كانت الآن غير مكشوفة إلا أن أبنيتها ليست مرتفعة ورصينة كما أخبر المؤرخون. ولها بناء الآن يحميها من حر الشمس ولها مصلى فى جهة مسجد قباء وعلى طاق محراب هذا المصلى هذا البيت:

أمن عجب أن يزورها ليل نهار الإنس والجان

بئـــر خاتـــم الأنبيـــاء هـــو هـــذا المكـــــان

النخيل المتكلم:

فى حديقة النخيل التى فى الطرف الغربى لبئر أريس النخلة أو النخلتان المعروفتان باسم النخيل المتكلم وكما سيرى فى شكل هذه الأشجار فهى تنحنى كحلقات وترتفع فقط غصونها التى ستنتج الفاكهة. وكانت هذه الأشجار فى عصر النبوة فى غاية العلو وكان اقتطاف ثمرتها غير ممكنة. ولما كانت النخلة المذكورة مَدمَرّ بها النبى ﷺ فانفرشت على الأرض وقالت: يا رسول الله! إن تمرى جدير بالأكل، فكل منى عدة تمرات وأرفع رأسى بين أمثالى من النخيل وظلت على هيئتها تلك.

ومازال جيش النخلة التى تمددت على الأرض لتعرض بلحها على النبى ﷺ قائمة! وفروعها التى تنبت حولها وتنمو وتستدير حلقات سنة بعد سنة وتظل كذلك إلى أن تزول. ومع هذا إذا ما أخذ فروع منها وغرست فى مكان آخر وإذا لقح إلى نخلة أخرى فلا ينفع حتى إذا نفع فلا تستدير فروعها حلقات بل ترتفع مثل أشجار النخيل الأخرى.

٢- بئر الأعواف:

والثانية من الآبار المباركة بئر الأعواف وهى من الصدقات النبوية.

وكان النبى ﷺ قد توضأ على حافة هذه البئر. وحيث مس ماء وضوء النبى اكتسب خضرة ونضارة ومازال كذلك حتى يومنا هذا.

كان فى عصر السعادة بجانب هذه البئر حجر ولما كان هذا الحجر قد قبض على لص هرب من النبى ﷺ فاقتلعه ووضعه فى مكان بين «الأعواف» و«الشطبية» لما كان النبى ﷺ قد لمسه بيده الكريمة أخذ أهل المدينة يزورون هذا الحجر. وللأسف لم يبق فى عصرنا من يعرف مكان هذا الحجر. وفى الواقع فى عصرنا من يعرف مكان هذا الحجر. وفى الواقع فى عصرنا فى المكان الذى يسمى «الأعواف» مكان طرفه القبلى «مربوعة» وطرفه الشامى «خنافة» وبين هذين المكانين كثير من الآبار ولكن ليس هناك من يعرف مكان «الشطبية». ومن المحتمل أن يكون المحل المشهور باسم «عتبى» فى الطرف الشرقى من خنافة الشطبية المذكورة.

٣- بئر أُناء:

البئر الثالثة من الآبار المقدسة بئر أُناء واسم هذه البئر على رواية أُناء بضم الهمزة وفتح النون، وفى رواية أخرى أَنَّاء بفتح الهمزة وتشديد النون. فى ناحية بنى قريظة.

وعندما حوصر حصن بنى قريظة أقيمت خيمة النبى ﷺ على حافة هذه البئر، وشرب النبى ﷺ من ماء هذا البئر وهو جالس فى خيمته. وربط دابته على شجرة النبق التى ببيت مريم بنت عثمان وصلى على ساحة مسجد بنى قريظة، ولكن الآن لا يعرف ساحة ذلك المسجد.

٤- بئر أنس بن مالك بن النضر:

والبئر الرابعة من الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ بئر أنس بن مالك بن النضر

وكانت فى داخل دار أنس بن مالك بن النضر فى محلة تسمى جديلة والبئر التى وقفت لـ «رباط اليمن» فى وقتنا هذا يلزم أن تكون تلك البئر. لأنها تقع بالقرب من دار فحل[1] وفى الطرف الشامى من الحديقة المسماة برومية يعنى بالقرب من ضريح والد النبى عبد الله بن عبد المطلب. وأساسًا كان من ممتلكات والد أنس بن مالك بن النضر تعرف فى الجاهلية باسم برور كما سبق ذكرها فى بحث بئر سقيا. وقد ألقى النبى ﷺ فيها بصاقه فاحلو ماؤها إلى حد أنها صارت ذات ماء ألذ وأخف من جميع مياه آبار المدينة المنورة.

٥ـ بئر إهاب:

الخامسة من الآبار المحترمة البئر التى اشتهرت باسم إهاب وكانت فى داخل القصر الذى يسكنه أساسًا إسماعيل بن وليد والذى يقع فى داخل حدائق النخيل الكائنة فى الجهة القبلية للحرة الغربية.

لما أخرجت فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب من بيت جدتها فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كانوا قد أعطوها ذلك القصر وانتقل هذا القصر أخيراً لابن هشام.

وكانت بئر إهاب أساسًا بئر والد عبادة سعد بن عثمان. ولما تفضل النبى ﷺ قائلاً يظهر أن عُمْرَانَ المدينة المنورة سيصل إلى بئر إهاب ولأجل ذلك أطلق أهل المدينة المنورة على تلك البئر اسم بئر زمزم وأرسلوا ماءها إلى البلاد الأخرى للتبرك. ولما كانت فاطمة بنت حسين بن على هى التى حفرت تلك البئر فمن العجب أن يطلق عليها بئر زمزم دون أن يطلق عليها بئر فاطمة.

٦ـ بئر البَصَّة:

السادسة من الآبار العزيزة البئر التى يطلق عليها بصة على وزن حَبَّة.

(١) دار فحل: من الأبنية القديمة، وهى الآن من أملاك أولاد برادة ويقيم فيها بنو عم عبد الجليل أفندى رئيس كتبة «إدارة الروزنامه» ولما كانت بحديقة هذه الدار نخلة عقيم لا تؤتى أكلها، فقد نسبت الدار إلى هذه النخلة وسميت باسمها.

وتقع بجانب نخلة قريبة من مقبرة بقيع الغرقد وفى طريق قرية قباء.

ويميل ماء هذه البئر إلى الخضرة وقد هدمت السيول التى تمر بجانبها جميع جهاتها وخربتها. ولكنها عمرت تعميراً جيداً مؤخراً. عرض فوهتها فى قطر سبعة أذرع. وبجانب هذه البئر بئر أخرى فى عرض ستة أذرع، وكان مؤرخو الأسلاف قد اختلفوا فى تعيين أية واحدة منهما بئر «البصة»؛ والبئر الصغيرة ولما كانت أمام برج والد أبى سعيد الخدرى مالك بن سنان فليس من المستبعد أن تكون تلك البئر بئر «البصة» ولأجل ذلك استولى زكوى ابن صالح على ساحة برج مالك بن سنان وبنى عليها منزلاً عاليًا وصنع سلما للبئر الصغيرة، كما أن شيخ الخدم عزيز الدولة وريحان البدرى الشهابى اشترى بستان النخيل الذى بجانب المنزل الذى بناه ابن صالح ووقفه على الفقراء الذين يمرون من جانبه.

زار النبى ﷺ دار أبى سعيد الخدرى فى يوم جمعة وطلب منه مقداراً من سدر وغسل بالسدر رأسه وصب الماء المستخدم فى البئر.

٧ـ بئر بضاعة:

السابعة من الآبار المقدسة هى بئر بضاعة التى بين الحديقتين اللتين تميلان إلى الجهة الشمالية من غرب بئر حاء واشترى شاهين الجمالى هاتين الحديقتين ووحدهما وصنع حوضًا بجانب بئر بضاعة وبنى مسجداً ووقف الحديقتين لتعمير المسجد المذكور والحوض والبئر سالفة الذكر.

وفى عهد الجاهلية كان ماء بئر بضاعة عديم القيمة؛ لذا كانت تلقى فيها النساء الحوائض خرق الحيض كما أن الساكنين حوله يلقون فيها الكناسة وجثث الحيوانات.

ولما توضأ الرسول وشرب من مائه وتفل أخبر أن ماءه شفاء للمرضى. ومنذ ذلك الوقت أخذ الناس يشربون من مائه راغبين فيه ويرجحونه على مياه الآبار الأخرى.

ولما كان الناس يمرضون فى عصر السعادة كان النبى ﷺ يوصيهم بالاغتسال بماء بئر بضاعة، وكان الذين يغتسلون بماء هذه البئر الطاهر يشفون من مرضهم فى الحال.

٨ـ بئر جاسوم:

الثامنة من الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ البئر التى تقع فى مكان يقال له راتج لأبى الهيثم بن التيهان ويطلق عليها. بئر جاسوم وشرب النبى ﷺ من مائها وصلى فى الحديقة التى بجانبها وللأسف ليس فى زماننا مَنْ يعرف بئر الجاسوم ولا حتى مكانًا يسمى بجاسوم.

٩ـ بئر جمل:

هو التاسعة من الآبار المقدسة بئر الجمل التى تقع فى ناحية الجُرْف وفى نهاية وادى العقيق، وعلى رواية أخرى تقع تلك البئر فى الطرف الشامى من بقيع الغرقد وسبب تسميتها إما لأن حافرها اسمه جمل أو لأنه وجد بجانبها جثة جمل. وبما أن النبى ﷺ توضأ من هذه البئر فإنه لا ينكر فضلها.

١٠ـ بئر حاء:

العاشرة من الآبار المكرمة هى بئر حاء التى تقع أمام الباب المجيدى لسور المدينة. وكان النبى ﷺ كثيرًا ما كان يشرف حديقة النخيل التى فيها هذه البئر يشرب من مائها ويستريح جالسًا فى ظلال النخيل.

ولما كانت هذه البئر أساسًا فى داخل حديقة النخيل التى يملكها أبو طلحة تصدق بهذه الحديقة لأبى بن كعب وحسان بن ثابت من جهة قرابتهما. وباع حسان مؤخرًا نصيبه من الحديقة لابْن أبى سفيان، فبنى فيها حضرة معاوية قصره الصيفى الذى اشتهر بقصر بنى جديلة، وبناء على ذلك ظلت بئر حاء على طرف من قصر جديلة، وكان لذلك القصر بابان يفتح أحدهما إلى الشارع والثانى إلى بيت محمد بن طلحة التميمى، وقد اندرس قصر جديلة فى زماننا وظلت بئر حاء

داخل حديقة النخيل صغيرة. ولما كان ماؤها فى غاية العذوبة واللذة، اشترتها مَنْ تُدْعَى نويرية ووقفتها مع حديقتها لأبناء السبيل، لأجل ذلك يطلق على تلك الحديقة حديقة نويرية.

وفى الطرف القبلى لتلك البئر جامع صغير وهذا المسجد الشريف فى مكان قريب من حصن المدينة.

١١ـ بئر حلوة:

الحادية عشرة من الآبار المقدسة بئر حلوة التى تقع بالقرب من دار آمنة بنت سعد فى الرصيف الأيسر لباب السلام، ولكن ليس هناك من يعرف مكان هذه البئر فى زماننا.

وفى عهد السعادة كان بجوار البئر شجرة من نوع شجرة الآراك، ويقال إن النبى ﷺ كان ينام وقت الضحى تحت هذه الشجرة المذكورة.

١٢ـ بئر ذرع:

البئر الثانية عشرة التى تنسب إلى النبى ﷺ هى بئر ذرع التى تقع فى قرية «بنى خطمة» التى تقع على الجهة الشرقية من مسجد العوالى. شرف النبى ﷺ قرية بنى خطمة وصلى فى دار امرأة عجوز وبعد ذلك توضأ وألقى ببصاقه فى داخل البئر. كانت بئر ذرع فى ذلك الوقت خلف مسجد بنى خطمة وموقع تلك القرية الآن بجانب الخرابة التى تسمى ماجشونية التى ما تزال بيوتها الخربة ظاهرة للعيان.

١٣ـ بئر رومة:

البئر الثالثة عشرة من الآبار المحترمة التى تقع فى نهاية وادى العقيق حيث تتحد سيول الأودية والتى تعرف فى زماننا بـ «بئر عثمان» بئر عثمان. والبئر المذكورة بالقرب من مسجد القبلتين وأقدم آبار المدينة المنورة.

ولا يعرف صاحبها ولا حافرها إلا أنه يروى أنها بئر قديمة حتى إن تُبَّعَ

الحميرى الذى مر بالمدينة قبل الهجرة بسبعمائة سنة شرب من مائها اللطيف وأعجب به.

وفى أوائل الهجرة النبوية لم يكن الصحابة الكرام يجدون ماء غير ماءها بثمن غال للشرب. فقال النبى ﷺ «بئر مزنى - يعنى روما - ما أحسنها من بئر» وبناء على رواية قال «ما أحسنه من حفيرة حفيرة مزنى».

وأحضر صاحبه وقال له: يلزم أن تبيع هذه البئر بدل بئر من الجنة وبهذه الطريقة أراد أن يتصدق بها صاحبها، ولكنه قال «يا رسول الله ليس عندى شىء آخر لأتعيش منه» ولما أحس عثمان بن عفان بأن اليهودى لا يريد أن يعطى للنبى ﷺ متعللاً بالأعذار فأرضى اليهودى بأن اشترى البئر بعشرين ألف درهم أو على قول آخر بخمسة وثلاثين ألف درهم. ووقفها. وكان قد اشترى نصف البئر أولاً لأن صاحبها لم يرد أن يبيعها كلها قائلا إننى لا أستطيع أن أبيع البئر كلها مرة واحدة إذا أردت أبيع نصفها لك فلتكن لك يومًا واليوم الآخر لى، وفى اليوم الذى لك لا آخذ منها ماء كما أنك لا تأخذ فى اليوم الذى لى ماء!!! وكان حضرة عثمان أخذ نصف البئر بإعطائه اثنى عشر ألف درهم. ووقفها. ولما رأى اليهودى أن المسلمين يأخذون من الماء ما يكفيهم لأربع وعشرين ساعة فى اليوم الخاص بحضرة عثمان وأصبحوا لا يشترون ماء فباع لحضرة عثمان نصفها الثانى بثمانية أو على قول آخر ثلاثة وعشرين ألف درهم وترك البئر نهائيًا.

وظلت البئر زمنًا طويلاً عذبة الماء وكان ماؤها مرغوبًا بين الأهالى وكانت تروى سكان المدينة إلا أن أبنيتها تخربت وغاض ماؤها فترة من الزمن. فجدد قاضى مكة المكرمة أحمد شهاب بن محمد المحب الطبرى أبنيتها وطهرها وذلك خلال عام ٧٥٠هـ وبعد مائتين وتسعين سنة أى فى عام ١٠٤٠ هـ فعمرها بشكل جيد الشخص الذى تولى مشيخة الحرم النبوى وأحياها بأن غرس حولها الأشجار وبنى بجانبها مسجدًا ووقفها. والآن يمر بها الفقراء ويزورونها وأحيانًا

يقضون بجانبها لياليهم متعبدين حتى الصباح والمسجد الذى بنى فيما بعد مكشوف الجانب من الناحية الشامية.

١٤ـ بئر سقيا:

البئر الرابعة عشرة من الآبار المكرمة بئر سقيا التى فى داخل القرية التى يطلق عليها فى الجاهلية قناد وتقع هذه البئر على يسار المتوجهين إلى قرية بئر على وفى داخل حجر منحوت.

وكانت بئر سقيا قد تخربت مع مرور الأيام، ولما عمرها وجددها أحد أهل الخير من طائفة الأعاجم فى سنة ٧٧٨هـ فهى تعرف فى زماننا بـ «بئر الأعاجم» وفى الجهة الشامية من هذه البئر مبنى حيث ينصب الحجاج الكرام خيامهم ويستريحون. وكانت زوجة الرسول أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ تجلب الماء من هذه البئر وكان النبى ﷺ يشرب من ماء تلك البئر.

١٥ـ بئر العقبة:

وينسب ماؤها للنبى ﷺ وهى البئر الخامسة عشرة من الآبار المقدسة، يقول بعض المؤرخين إن النبى ﷺ جلس على حافة هذه البئر مدليًا قدميه فيها وأجلس أبا بكر وعمر على طرفيه وعثمان أمامه. ولكن ناقل الواقعة وكان حارس النبى ﷺ فى ذلك اليوم وهو أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ ينسب تلك الواقعة إلى بئر أريس فليزم أن يكون قول المؤرخين هذا غير صحيح إلا أنه يمكن أن يكون اسم بئر العقبة اسمًا آخر لبئر أريس، أو أن الواقعة تكررت فى البئر الثانية.

١٦ـ بئر عتبة:

هى البئر السادسة عشرة من الآبار المكرمة وتقع على ميل واحد من المدينة المنورة فى جهة مكة المكرمة وفوق حرة بئر السقيا. وقد نظم النبى ﷺ، غُزَاةَ بدر فى هذا الموضع، وفصل الأطفال عن الجيش وأعادهم إلى المدينة المنورة. يقول بعض المؤرخين إن المسلمين فى غزوة بدر عند ذهابهم باتوا فى بئر السقيا

وعند عودتهم باتوا فى ساحة بئر أبى عتبة. وماء هذا البئر أعذب من جميع آبار الوادى وتعرف بين الناس بـ «بئر الوادى».

١٧ـ بئر العهن:

البئر السابعة عشرة من الآبار المقدسة. وتقع فى قرية بنى أمية الأنصارى وفى أعلى جهة بالمدينة وكان قديمًا بجوار هذه البئر شجرة تسمى السدرة ثم قطعت هذه الشجرة وسويت أرضها وأصبحت حقلاً. والبئر المذكورة فى سفح الجبل وماؤها عذب فرات، ولكن موقعها اليوم غير معلوم. ويقال إنها بئر يسيرة التى سيأتى ذكرها فيما بعد.

١٨ـ بئر غرس:

هى البئر الثامنة عشرة، تقع على بعد ميل أو نصف ميل من الجانب الشرقى الشمالى لمسجد قباء. وكان الماء يجلب للنبى ﷺ من بئر غرس يومًا ومن بئر السقيا يومًا آخر. وقد غسل جثمان النبى ﷺ بماء بئر غرس، فقد أوصى النبى ﷺ قبل وفاته قائلاً «غسلونى بسبعة قرب من ماء بئر غرس».

وعرض تلك البئر المقدسة عشرة أذرع وعرضها أزيد من طولها وماؤها عذب بارد ورجحان عذوبة مائها وأفضليته ثابتة بالحديث النبوى الشريف. إذ بين فضل مائها ومزيتها قائلاً: «إننى رأيت فى رؤياى أننى سأصبح فى الصباح بجانب بئر من آبار الجنة» ولما أصبح الصبح وجدتنى بجانب بئر غرس»، وتوضأ ذلك اليوم وألقى بصاقه فى داخل البئر. وبهذا سكب ما أهدى له من العسل المصفى فى داخل البئر.

وتخربت بئر غرس، ولم تعد صالحة للشرب منها، وفى خلال عام سبعمائة جددت وبعد مائة واثنين وثمانين عامًا اشترى السيد حسين بن الشهاب أحمد القاوانى ما حول البئر من حقول وأحاط البئر بسور وصنع حديقة للنخيل وأنشأ سلمًا للنزول فى البئر وبنى مسجدًا وفتح طريقًا واسعًا للدخول إلى المسجد من الخارج ثم وقفها للمارين وعابرى السبيل. ظلت تلك الحديقة المذكورة عامرة ما

ما يقرب من مائة وثمانية عشر عامًا. وانتفع المارة والعابرون بها ودعوا لواقفها ولكن للأسف قد سد طريقها الخارجى فأبطل وقف حسين بن الشهاب.

١٩- بئر القراضة:

التاسعة عشرة من الآبار المباركة بئر القراضة. وهذه البئر فى داخل حديقة والد جابر بن عبد الله الواقعة فى الجانب الغربى لمسجد الفتح. قد توضأ النبى ﷺ بماء هذه البئر وصلى فى ساحة مسجد الخربة.

معجزة:

عندما مات والد جابر بن عبد الله كان قد ترك ديونًا كثيرة وترك أمر تسديد هذه الديون لجابر. فأراد جابر أن يعطى حديقة نخيل بئر القراضة بثمارها للدائنين. إلا أنه لم يستطع أن يرضى الدائنين بهذا الشكل، فحكى الموضوع للنبى ﷺ بشكل يثير رحمة السامع واستمد العون من النبى ﷺ. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن ذهب إلى حديقة بئر القراضة وألقى بصاقه المبارك فى البئر ودعا الله أن يخلص جابرًا من دين أبيه عبد الله، وبناء على ذلك زادت محاصيل تلك الحديقة سنة بعد سنة وكانت سببًا فى تسديد الديون. ولكن لشدة الأسف فتلك الحديقة انتقلت من يد إلى أخرى، مع مرور الزمن وأهملت حتى لم يبق أحد يعرف مكانها فى زماننا.

٢٠- بئر القريضة:

هى البئر العشرون من الآبار المنسوبة إلى النبى ﷺ. ويحتمل أن تكون هى بئر القريضة التى تقع بالقرب من بئر القراضة، أو أن القريضة تصغير القراضة، وعلى ذلك تكون كلتاهما بئرًا واحدة، ويروى كذلك أن خاتم النبى ﷺ وقع فى هذه البئر.

٢١- بئر اليسيرة:

هى البئر الحادية والعشرون من الآبار المنسوبة إلى النبى ﷺ ويسيرة بمعنى

سهلة. قيل إن النبى ﷺ جلس على حافة بئر فى قرية بنى أمية ابن زيد، وسأل عن اسمها، فقالوا «عسيرة» فأجاب قائلاً: «كلا كلا يسيرة إن شاء الله». وتفل فيها ودعا لها بالخير والبركة وتوضأ وهذا وجه تسميتها ـ قال فاضل العشقى.

لينظم القلم الدر فى سمط الشعر وليجعل للمصطفى ألف بئر

ومن بئر أعواف بضم الهمزة ومن بئرى أنا اشرب

وكذا من بئر أنس وهو النبى من صحب

وكذلك بئر إهاب وبصة وبئر بضاعة وماؤها شفاء

ذكرت كذلك بئر جاسوم والجمل رفعت عن سرها الخفاء

وكذا بئر حاء حلوة وبئر ذرع ورومة

فلتذكر وادع الله إن كنت عن بئر السقيا تخبر

وبئر عهن وعقبة وبئر عنبسة

وبئر غرس إذا ما ذكرن ذلك

أما بئر قراضة وقريضة وبئر اليسير

كلها ما سمعت ولا رأيت من ينكر فضلها

وقد ثبت أن عدد الآبار غير المكررة تسعة عشر بئرًا ولكن مع مرور الزمن لم يبق أحد يعرف مكان اثنتى عشرة منها فحصر أهل المدينة الآبار المأثورة فى سبعة آبار. وأسماء تلك الآبار فى الأبيات الآتية. لمؤلفه العبد لله.

نظم

فى المدينة يا صاح[1] سبع من الآبار

ولها بريق النبى المبارك إيثار

(١) صاح: مُخَفَّف: ياصاحبى.

لبعـــــض غرس، ورومـــــــة، بضاعـــــــة أسمـاء
ومنهـــا العهـــن ومنهـــا البصـة ولا يشرب من مائها الأشرار
منهـــــا بئر أريس وبئر حـــــاء ولهمـــــا باسمهمـا شهرة
يمتـــــد لهمـــــا أهـــــل المدينـــــة كـــــل مـــرة

وكلما تباعد عصر السعادة زاد سكان المدينة واقتضى تطور المزروعات ـ بناء على حاجة الناس ـ حفر المزيد من الآبار؛ فحفر الأسلاف فى جوانب المدينة الأربعة كثيراً من الآبار، واستصلحوا الأراضى لتكون صالحة للزراعة وأنبتوا كثيراً من المزروعات. وكما كانت هذه المزارع منها قوية خصبة ومنها ضعيفة قليلة الإنتاج بالنسبة لبعضها البعض، وكانت الآبار كذلك منها ما هو عذب الماء ومنها ما هو مر الماء مالح. والآبار المشهورة اليوم بئر قويم، بئر العباسة، بئر صفية، بئر البويرة، بئر العصبة، بئر العسيلية، بئر المبعوث، بئر رومة، بئر قطعة، بئر مغيسيلة، بئر فاطمة، بئر عروة.

وبئر قويم مع بئر عباسة وبئر صفية وبئر البويرة فى قرية قباء ومياه بعضها ألذ و أعذب بالنسبة للأخرى. وبئر عسيلية من آبار قرية العوالى. وليست فى هذه القرية بئر ماؤها أعذب من ماء بئر عسيلية، وبما أن بئر مبعوث فى الجهة القبلية من ناحية عريضى وفى وسط مجرى سيل مهزور فهى أعذب الآبار فى الحرة الشرقية على الإطلاق وأعظمها، وبئر رومة من الآبار القديمة وقف عثمان بن عفان.

وبئر فاطمة أَلْطَفُ ماء من جميع الآبار، وبئر عروة أعذب ماء من جميع الآبار والعيون والمياه الجارية. وبما أن هذه البئر فى مجرى وادى العقيق كان الأهالى يهدون ماءها للملوك لعذوبة مياهها كما أن أصحاب المزاح يدعون أن ماءها ألذ وأعذب من ماء عين زرقاء.

الأراضى المزروعة:

تقع مزارع المدينة المنورة فى الجهة القبلية منها، وإن كانت فى جهاتها الأخرى أراض مزروعة. إلا أن جميع أراضى الجهة القبلية صالحة للزراعة.

يا ترى هل لاتصالها بالحرة؟ أو لسبب آخر؟ إن أراضيها سبخة وترابها أبيض، فإذا مزجت بقدر من السماد يكثر محصولها ويكون نبتها أكثر إنتاجًا.

والأراضى الموجودة فى الناحية الغربية أى الأراضى الممتدة من الجُرُف إلى عيون والتى فى وادى العقيق رملية ولكن بعض أراضيها ممتزجة بالطِّين لينة مثل أرض العيون فى الجهة الشامية. فمحاصيل مثل هذه الأراضى وافرة، يروى أن أراضيها تنتج فى السنين التى تنجو من الآفات السماوية ثلاثين ضعفًا على واحد.

والجهة الشرقية أى محاصيل ناحية عريضى وما حواليها إن مدت بالمياه وسُمِّدَت تكون من غير تبن. ومع هذا ففى الأراضى التى تقع فى الظل يؤخذ منها تبن فقط. وهناك وقت لا يؤخذ منها حتى التبن.

فى ذكر العيون الصافية التى تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم

إفادة خاصة:

يطلق أهالى المدينة على المياه التى تجرى من الآبار من تحت الأرض عينًا وجمعها عيون.

إن إنبات النخلة بدون ماء محال، ولما كان التمر والبلح هو القوت الذى يحفظ الحياة على أهل المدينة وبناء على أنه لا توجد مياه جارية تجرى من الجبال القريبة التى تحيط بالمدينة إلى الأراضى المسطحة فحفر الأهالى قديمًا الآبار فوق الجبال البعيدة العالية، وأجروا ماءها إلى أطراف المدينة فأنشئوا حدائق كثيرة. ولما ازدادت الحاجة إلى الماء كلما زاد عدد السكان فزادت جداول المياه الجارية على قدر اتساع العمران ومازالت تزيد.

والآن كلما احتاجوا جلب المياه إلى مكان ما حفروا بئرًا فى مكان مرتفع جدًا وعندما يصلون إلى مائها يحفروا فى أسفل منها بئرًا أخرى. ويحفرون مجرى تحت الأرض بين البئرين ويجرون ماء البئر الأولى إلى البئر الثانية وبهذه الطريقة يحفرون فى كل أربعين خطوة بئرًا ويجرون مياهها بعضها إلى بعض متسلسلاً حتى يوصلوها إلى مستوى المحل ومن هنا يحفرون المجارى فوق سطح الأرض ويروون الأماكن التى يريدونها ولما كانت عادة الأهالى توفير المياه لرى الحدائق بهذه الطريقة فى المدينة فوجدت عيون المدينة بهذه الطريقة.

الوجبة: لما كان إجراء الماء من الجبال البعيدة بالطريقة التى سبق ذكرها يحتاج إلى رأس مال كبير وهذا يتوقف على ثروة وغنى مال. لا يقدر على ذلك فرد

بذاته ومن هنا كلما احتاجت جهة ما لجلب الماء تكونت شركة من أصحاب الأراضى التى فى تلك الجهة. وتقسم هيئة تلك الشركة ما تحت أيديهم من حدائق النخيل إلى أربع وعشرين حصة كما أنهم يقسمون كل حصة إلى أجزاء ويبيعونها. ولما كان بيع الحصة خارج أفراد الشركة غير ممكن يشترى أفراد هيئة الشركة هذه الحصص وبهذا الشكل يهيئون رأس المال اللازم وعندئذ يجرون الماء بعد عمليات الحفر فوق السطح وبعد أن يحفروا مجرى عظيمًا، يفتحون جداول خاصة لأراضى أصحاب الحصة ومهما كانت أجزاء الحصة فمجموعها تعد ساعة واحدة ولمثل هذه الساعة تطلق وجبة.

وكل شخص يملك عددًا من الوجبات من أصحاب الأراضى الذين حصلوا على الحصص بمعرفة الشركة المتشكلة يستطيع أن يحصل على ماء بقدر ما يملكه من الوجبات.

ومع هذا فبعض الوجبات عبارة عن ثلاثة أو أربعة أجزاء وكل جزء من هذه الأجزاء فى يد شخص واحد بناء على هذا التقدير يقتضى الأمر ألا يستطيع أن يأخذ مثل هؤلاء من أصحاب النخيل من الماء فى كل أربع وعشرين ساعة إلا فى فترة ربع ساعة. وبما أن ما يملكونه جزءًا صغيرًا فيمكن سقيه فى هذه الفترة بهذا المقدار من الماء. انتهى.

١ـ عين كهف حرام:

كان هذا الماء فى غار بنى حرام الواقع فى الجانب الغربى من جبل سلع. والآن أمام مسجد النبى ﷺ وفوقه قبة مكملة؛ كان النبى ﷺ عندما وقعت غزوة الخندق يتوضأ من عين كهف بن حرام ليلاً ثم يدخل فى غار بنى حرام حيث يبيت.

٢ـ عين الخفيف:

هذا الماء كائن فى وادى ناحية السُّنْح ويرد من عوالى المدينة.

وبُنَاءً على قول ابن النجار ان هذا الماء يتفجر من تحت صخرة ويسقى مزارع ناحية السُّنْح التى فى جدار مساجد الفتح. وانقطع هذا الماء مؤخرًا وأضرّ انقطاعه أصحاب المزارع وإن كان شمس بن زمن حفر طريقه وطهره قرب منبعه الذى فى جهة قرية قباء إلا أنه لم يوفق لجفاف منبعه.

٣. عين الأزرق:

هذا الماء أمام مصلى العيد (أى المسجد النبوى) وتحت قبة كبيرة. ومنبعه الأصلى بئر فى داخل حديقة الجعفرية وعلى الجهة الغربية من المسجد الشريف.

ولما كانت مياه هذه العين تقوم عليها حياة أهل المدينة أوصلها مروان بن الحكم إلى المدينة وبنى أمام مصلى النبى ﷺ موضع تقسيم عظيم وبهذا العمل قسم المياه إلى محال المدينة فتجرى المياه أولاً من هذا المقسم ويسقى بيوت الجهة الشرقية ابتداء ثم الجهة الشمالية ثم الجهات الأخرى من منازل المدينة.

٤. عين النبى:

كان هذا الماء بناء على قول ابن النجار بئرًا بجانب غار بنى حرام.

واندرس مجراه وانقطع ماؤه مع مرور الزمن. ولكننا إذا ما وفقنا بين الروايات المتخالفة يلزم أن يكون شرعة مقسم عين النبى وكانت هذه الشرعة معروفًا بمقسم عين الأزرق وتذكرنا أن منهل ماء الذكر شرعة عين النبى فإن ماء منبع عين الأزرق عندما جلب من قرية قباء إلى المدينة قد عثر على ماء عين النبى ووُحِّدَا وهذا غير بعيد من الاحتمال.

وقد فتح الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء فى خلال سنة ٥٦٠هـ مجرى من مقسم عين الأزرق إلى باب المصلى وباب مصر ليحصن المدينة. وأوصل هذا المجرى إلى باب السلام وبنى مقسمًا صغيرًا أمام مدرسة زمنية وفرق الماء إلى المنازل التى تقع فى هذه الجهات، ثم أجرى الماء الزائد بواسطة مجرى حفره إلى مناهل المحلات التى حول سوق العطارين ثم طاف بالمجرى المذكور

خلف المدينة فى الجهات الشرقية والشمالية حتى أوصله إلى الساحة الرملية لمسجد السعادة حيث الفسقية وألقى مقداراً من الماء لإدارة هذه الفسقية. وصنع مقسماً وبنى فوقه عقداً وأنفق فى ذلك نقوداً لا تعد ولا تحصى.

٥ـ مسير العين:

هذه العين تَصُبُّ فى عين يطلق عليها عيون حمزة وهذا الماء أيضاً ينفصل من مقسم عين الأزرق ويجرى إلى القرب من سور المدينة بالمجرى الذى فى الجهة الشمالية ويصل من هنا إلى الطرف الشرقى من ساحة حصن الأمير الرملية حيث يسكن أمير المدينة ومن هنا إلى المقسم الذى بجانب مشهد النفس الزكية، وتتحد بعد ذلك بمجارى العيون الأخرى وتصب فى الحوض الذى ينصب بجانبه حجاج الشام خيمهم. وإن أهالى المدينة يعتقدون أن الماء الذى يطلق عليه عيون حمزة قد أجرى من قبل حضرة معاوية ـ رضى الله عنه ـ إلا أن الماء الذى أجراه معاوية ـ رضى الله عنه ـ قد خرب مجراه ونضب ماؤه. ومع هذا فالماء الذى جلبه يمر من الجهة الشامية من جبل سلع ويصب فى المقسم الذى بجانب مسجد الراية. ويخرج من هناك ويمر من الجهة الغربية لمساجد الفتح ويتوجه إلى منهل الأمراء. وبناء على ذلك فاعتقادات الأهالى فى هذا الخصوص كانت واهية والآن قد قضى على هذا الرأى وتبينت الحالة الحقيقية.

غريبة:

يروى عن جابر بن عبد الله أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ أمر عامله فى المدينة بسرعة إجراء هذا الماء فأجابه قائلاً لا يمكن إجراء هذا الماء ما لم يمر بقبور الشهداء فأمره بنبش قبور الشهداء ونقل أجسادهم إلى مكان آخر، وبناء عليه فتح العامل القبور ونقل أجسادهم عامة حتى إن قدم حمزة ـ رضى الله عنه ـ أصابها فاس فدميت.

٦ـ عين الوادى:

هذه العين بجانب ضريح حضرة حمزة ـ رضى الله عنه ـ ولكن ماءها انقطع

مع مرور الأيام. وبناء على قول بدر بن فرحون، أن الشهيد نور الدين هو الذى أجرى أولاً هذا الماء وعمره بعد الخراب وأجراه الأمير ودى. وإن كان الماء الذى جلبه حضرة معاوية ـ رضى الله عنه ـ فى داخل هذا الوادى إلا أنه غاب تحت الرمل مع مرور الزمن وخربت مجارى الاثنين ولم يبق لهما اسم ولا أثر. ومازالت خرابتهما ظاهرة للعيان.

كانت أسماء ومنابع المياه التى ذكرت إلى الآن فى الأوائل مختلفة. ثم جمعت كلها وأوصلت إلى المقسم الذى صنعه مروان بن الحكم. ثم وزعت على مناهل محلات دار الهجرة. فأصبح اسمها كلها عين الزرقاء ولا يوجد فى المدينة المنورة ماء غير عين الزرقاء كان اسم عين الزرقاء القديم عين أزرق لأن مروان بن الحكم الذى جلب هذا الماء أزرق العينين وصادف ظهور هذا الماء لوقت ولايته؛ لذا أسموا الماء علين الأزرق وتسمية هذا الماء بهذا الاسم لا بأس به من قبيل تسميته الشيء باسم موجده.

وإن كان أهل المدينة قد حُلَّت مشكلة الماء بالنسبة لهم بعد أن جمعت المياه كلها فى عين واحدة هى عين الزرقاء إلا أن طرف عين الزرقاء لم تعمر لمدة طويلة وملأت السيول مجرى الماء بالرمال وخربته، فأصبح الناس بدون ماء مرة أخرى. وبناء عليه احتاج أهل المدينة لتضحيات كثيرة لجلب الماء من وادى العقيق.

وعرض الأمر على السلطان سليمان فالتزم السلطان جانب إراحة أهالى المدينة بأى صورة كانت.

صدر الأمر السلطانى بذلك فعمرت طرق عين الزرقاء تعميرًا جيدًا وعمق مجراها القديم وطهر وهكذا أنقذ أهل المدينة من خطورة قلة الماء فى سنة (٩٣٢هـ) ولكن السيول المفزعة التى تظهر من حين لآخر والتى توقع أهالى الحرمين فى بحار الاضطراب خربت مرة أخرى مجرى عين الزرقاء فاشترى السلطان مراد خان فى سنة ٩٩٠ بئر غربال التى تزيد على عين الزرقاء بعشرة

أمثال وضمها إليها كما أن المهندس سليمان بك الذى أمر من قبل السلطان مصطفى بن السلطان محمد خان بتعمير مسجد السعادة فى سنة (١١١١) اشترى بئر العقد بأمر من السلطان وضمها لعين الزرقاء وطهر مجرى عين الزرقاء إلى وادى جُرْف. كما أن أمير الإسطبلات السلطانية مصطفى أغا عمر طرق المياه فى صورة منتظمة وذلك فى عهد السلطان مصطفى بن السلطان أحمد خان. وقد عرض أمر سكان المدينة الذين لن يتحملوا لمدة طويلة شح الماء على السلطان عبد المجيد، ولما كان كل أمل السلطان ألا يتعرض أهل الحرمين الشريفين لأية مضايقة، فأمر بتطهير المجرى المذكور فى صورة كاملة.

ورصد لهذا الخصوص مبالغ طائلة وعين الموظفين المخصوصين وأرسلهم إلى المدينة. ولما وصل هؤلاء الموظفون إلى المدينة المنورة عاينوا وتفقدوا مع السادات والأعيان مجرى العين وقرروا البدء فى تطهيرها من جهة بئر خاتم، ولما كان فى هذه الجهة خمس عشرة حديقة فإذا ما طهر المجرى من هذه الجهة بناء على رأى سادات المدينة وأعيانها كان الأمر يقتضى قطع ما يقرب من مائة نخلة كثيرة الثمار وسيؤدى ذلك إلى خراب الحدائق وينتج عنه انقطاع الماء ما يقرب من ستة أشهر، وهذا سيزعج الأهالى ويضرهم، وعلى ذلك اعترض الموظفون على هذا الرأى واستصوبوا أن تتخذ بئر المرحوم على أغا الطويل وحفر مجرى جديداً بحيث لا يضر ذلك أحداً.

وأقنعوا بهذا الرأى عامة الأهالى وقرروا على أن يبدءوا فى الحفر بناء على النهج.

وهكذا أصبحت بئر على أغا الطويل المنبع الجديد لعين الزرقاء وكانت البئر داخل بستان يسمى عذق وتحت قبة خاصة.

وبناء على القرار المشروح شرع فى حفر المجرى يوم السبت السادس من ربيع الأول سنة ١٢٦٢ من بئر المرحوم عثمان أغا ووحدوا المجرى الذى حفروه ببئر خاتم التى فى بستان محمد باشا ومياه بئر الغربال التى فى داخل الرباط الذى أمام

مسجد قباء وبمياه بئر أهل القلعة وفتحوا طريقًا فى غاية الوسع والعمق. وكانت فى طريق المجرى الجديد بعض أشجار النخيل فلم تقطع ولم تقع فحفروا تحتها بعض الأنفاق وبنيت عليها عقود رصينة ومتينة.

ووسع المجرى القديم الذى كان فى غاية الضيق قدر مرور شخصين أو ثلاثة بجانب بعض وصنعت على غاية من المتانة وأنهى العمل بدون أن يتضرر إنسان. فرطب جميع أهل المدينة ألسنتهم بالدعاء لوالد الخليفة كثير المحامد. وكانت المنافذ فى المجرى القديم لدخول المارين وخروجهم أقل مما يحتاج إليه، ولما ثبت أن هذا كان سببًا من أسباب خراب المجرى فأضاف الموظفون عشرة منافذ من بئر على أغا إلى البركة فبلغ عدد المنافذ إلى مائتين وعشرة ويطاق بين الأهالى على هذه المنافذ قصبة ولكى لا يمتلئ المجرى بالرمال التى تجلبها السيول أحاطوا كل منفذ بجدار فى ارتفاع ذراع معمارى على طراز حافة البئر.

وفى المدينة غير مجرى عين الزرقاء مجرى آخر لرى البساتين بالماء، ولما كان هذا المجرى أيضًا بالغ الأهمية فقد طهر وعمق على القدر المطلوب.

وطول مجرى الماء العذب من بئر على أغا إلى باب القلعة ٥٠٥ ذراع معمارى ومن باب القلعة إلى مشرع البركة ٥٨٥٧ ذراع معمارى وطول مجرى الماء العذب الذى تسقى منه محلة الأغوات من البركة ٩٣٩ ذراع ومجرى الماء المر ٩٣٣ وطول مجرى الماء العذب من المناخة إلى باب السلام ٥٩٠ ذراع وطول مجرى الماء المر ٧٠٠ ذراع والمجرى المستقيم من مشرع البركة إلى المنبع القديم ٧٢٢٩ ذراع والمقنطرات لتقسيم المياه إلى الميلة الخالية من العمارة ٦٠٠ ذراع. وطول المجرى المحفور عامة ٢٣١٢٣ ذراع و ٧٢٩ ذراع من هذا المجرى الطويل حفر لسقى المساجد والآثار والمدارس.

والمجرى الذى ذكر طوله يحتوى على ٣٦ بركة وعينًا وسبيلاً عشرة منها فى مجرى محلة الأغوات. وأربعة منها فى مجرى باب السلام. واثنتان منها فى مجرى المناخة، واثنتان فى مجرى القلعة، وثلاث منها فى مجرى سيدنا على العرضى والباقى بالقرب من بركة مشرع.

وجعلوا السبل الموجودة فى المناخة وسبل أخرى فى القلعة خاصة من أجل النساء والمياه الزائدة التى تبقى من هذه السبل تجرى ناحية وادى جرف لرى حدائق النخيل التى فى تلك الجهات.

الأسبلة: فى المدينة ثمانية عشر سبيلاً إضافة إلى مناهل عين الزرقاء، وهى التى صنعها أصحاب البر والخيرات وهذه مواقع تلك الأسبلة:

١ ـ سبيل فى المناخة فى شارع العنبرية
٢ ـ سبيل بالقرب من منزل أمير آلاى أحمد بك
٣ ـ بجانب منزل سيد جعفر
٤ ـ بجانب مسجد مصلى[١]
٥ ـ بجانب مصلى الإمام المشروطة.
٦ ـ بجانب مركز شرطة الخالدية.
٧ ـ بجانب الباب المصرى
٨ ـ بجانب مركز شرطة باب الصغير
٩ ـ بجانب منزل ذى النون أغا
١٠ ـ بجانب بيت الخليفى
١١ ـ بجانب وكالة الشريف شدقمى
١٢ ـ بجانب الباب الشامى
١٣ ـ فى حارة حرازى
١٤ ـ تحت ميقاتى باب السلام
١٥ ـ فى ديار عشرة
١٦ ـ بجانب رباط العجم[٣]
١٧ ـ بجوار زاوية سمان

(١) هذا السبيل من أوقاف سليم أفندى الذى كان من رجال السلطان عبد المجيد.
(٢) وقف الأميرة عادلة.
(٣) من أوقاف الشهيد نور الدين.

١٨ بجانب باب الرحمة

١٩ ـ بجانب باب الجمعة.

المياه المرة:

يقال على المياه المرة بين الأهالى العين السلطانى. ويأتى هذا الماء من قرية قباء ومن تحت مجرى عين الزرقاء إلى البلدة الطاهرة وبعد أن يطهر مع مياه المجارى والبالوعات التى حول حرم السعادة يتحد مع فائض مياه عين الزرقاء وتجرى نحو الحدائق، ولعين السلطان منهل بجانب جبل ذباب وبالقرب من ساحة مسجد الراية التى يطلق عليها قرين التحتانى.

ومجرى هذا المنهل ينقسم إلى ثلاثة جداول فى الجهة القبلية وفى النقطة التى تتصل بمجرى أبو جيدة ويسقى أحد هذه الجداول حديقة الصدقة التى تصرف فيها شركة سيد علوى سقاف والثانى الأراضى التى تملكها شركة سيد هاشم جمل الليل والثالث البساتين التى فى الجهة الشامية من وادى ذباب.

وإن كانت هذه المياه كافية لدفع حاجات أهالى البلدة الطاهرة، إلا أنها لا تقدر على سقى الحدائق التى أنبتت خارج السور تمامًا، ومن جهة أن الأراضى التى تستصلح والحدائق تزيد يومًا بعد يوم باطراد مع زيادة السكان فهيئت المياه المذكورة وخرجت إلى خارج المدينة ومازالت توصل؛ ومن هنا فجميع المدينة المنورة نجت من الحاجة إلى المياه.

المياه التى فى الجهة القبلية من بلدة الرسول:

وإن لم يكن منبع العين الكبيرة معروفًا إلا أن مبدأ مجراها بجانب حديقة تسمى مرجلين. وحديقة مرجلين وسط الربوة التى تصادف الطرف الشرقى فى سيل وادى رانوناء والذى يجرى من قرية قباء فى الجهة الغربية من ناحية بطحاء إن الأراضى التى فى الجهة القبلية من مهجر الرسول أكثرها صخرية ومواقعها المستوية كلها أشجار النخيل وبما أنه لا يمكن نقب وثقب هذه الحجارة والصخور بحفر جدول وإجرائه من بين أشجار النخيل فإنه لا يوجد فى هذه الجهة ماء غير

العين الكبيرة. ولأجل رى هذه البساتين فى فصل الصيف يعتمدون على آبار قباء وقربان. إلا أن المياه تتكاثر فى الشتاء ولا تمس الحاجة إلى الآبار. والحدائق التى زرعت وتزرع فى تلك الجهات تنبت العنب والرمان والليمون الحامض والحلو، الموز، والخوخ، الكباد شمام الشجرة، والتين الأفرنكى والأشجار المختلفة ومن الأزهار الورد والفل والحبق والأزهار الأخرى التى تزين الحدائق والبلح الذى تثمره نخيل هذه الأراضى يرجح على جميع أنواع البلح التى فى الجهات الأخرى. وسبب ذلك عذوبة مياه قرى قباء وقربان، وإن كانت مياه قرية العوالى عذبة أيضًا إلا أن أراضيها غير صالحة لإنبات الأشجار والأزهار وأراضى هذه الجهات صالحة لزراعة النخيل وشجرة النبق والحبوق المتنوعة وتبعد هذه القرى الثلاث عن المدينة خمسة أذرع وتستغنى أشجار النخيل التى تنبت هنا عن الرى وأكثر هذه الأشجار ملك عربان صيارين وجزء منها ملك أهالى المدينة.

يمضى عربان الصيارين الصيف فى هذه الحدائق وفى الساعة التى يأخذون فيها محاصيل البلح ينقلونها إلى بلادهم. وقد شغف الناس بزراعة النخيل فى أيامنا هذه فى هذه الجهات، ولو استمروا على ذلك عامًا أو عامين على زرع النخيل، لاتصلت الحدائق بالسور الخارجى للمدينة.

أما إذا ما تحدثنا عن مياه الجهة الشرقية فنجد أن الجهة الشرقية للمدينة أرض صخرية ومن ثم يجرى ماء هناك إلا نهير وادى القناة، ويسمى هذا النهير مسيل حمزة ومن مجراه يتشعب أحد عشر جدولاً، وبعض هذه الجداول جارية وبعضها الآخر نضب ماؤها وخربت مجاريها، والنخيل الذى فى الحدائق إنما يسقى بماء المطر كالأشجار التى تنبت طبيعيًا، لأجل ذلك لا يستفيد أصحاب هذه الأراضى منها.

والأراضى التى بين الحرة الشرقية وسور المدينة لا تنبت زرعًا، وهى أرض سبخة، وإن كانت فى الواقع فى هذه الجهة من المدينة أشجار مثمرة مثل أشجار

النخيل والسدر والرمان، وهذه الأشجار فى ناحية باب الجمعة من السور وفى عدة حدائق.

والمسافة بين داخل السور والموقع الذى يطلق عليه «دشم» من الحرة الشرقية ألفا ذراع[1]. والمياه التى فى ناحية الشام هى:

عين الأغوات:

وهذا الماء ملك أغوات الحجرة المعطرة ومن لهم حصص فيه، وبعد أن يسقى حدائقهم يروى حدائق الأهالى التى بجانب جبل ذباب.

عين سيد هاشم:

هذا الماء على يسار الذاهبين من المدينة إلى بئر عثمان وفى الجهة الغربية من عين الأغوات وقد أجراه سيد هاشم جمل الليل وبعض الأهالى فى سنة ١٢٩٩هـ، وعين الأغوات من مجموع المياه التى أجريت فى تلك السنة.

عين الصدقة:

هذا الماء فى جزع الصدقة الواقع فى الجهة الشرقية من عين الأغوات وعين سيد هاشم وملك السيد علوى السقاف وشيخ الفراشين برى أفندى وكافٍ لسقى ألفين من أشجار النخيل الموجودة.

العين الجديدة:

هذه العين على بعد ربع ساعة فى الجهة الشامية من المياه المذكورة وإن كان صاحبها شيخ السادات العلوية سيد حسن بافقى أفندى والذين لهم حصص فيها. فامتلأ منبعها وجف، مبدأ جريانه الذى فى حرة المستراح.

عين عامرة:

هذا الماء منسوب لشركة موسى أفندى وفى اتصال أراضى أصحاب العين

(١) «الذراع» فى طول أربع بوصات متوسطة، «السرة» المسافة ما بين الأصبع الكبير والسبابة.

الجديدة. ويسقى حديقة السرائية وفى هذه الحديقة غير الرمان والتين ثلاثة آلاف نخلة.

عين الحازمية:

ماء الحازمية فى ناحية أراضى الحديقة التى ترويها عين عامرة. وفى الطرف الغربى منها. والحديقة التى يسقيها هذا الماء تشتمل على ألف وخمسمائة نخلة وملك السيد مدنى المنوفى وصاحب الحصص. ونصف هذه العين يسقى حدائق السيد مدنى وبنى على أيضًا.

عين مصرع:

تروى هذه العين ألف نخلة، ولما خرب مجراها قبل ثلاثين سنة انقطعت.

تلك العين المذكورة ماء قديم ما يقرب من خمسمائة عام كانت تسقى أراضى الشريف ورى التى أمام وادى القناة والتى تمتد على يمين ويسار الطريق الذى من المدينة إلى مشهد حمزة. وفى فترة ما اشترى معظم هذه الأراضى السيد عبد الواحد المدنى وأراد أن يشترى الباقى من شريكه بنى على. إلا أن بنى على لم يرضوا ببيعها وحاولوا بأنفسهم أن يطهروا المجرى فلم يستطيعوا؛ وقل الماء، وتوفى السيد عبد الواحد فبيعت حصته من قبل ورثته إلى السيد مدنى. وأراد السيد المدنى أن يشترى الماء الذى أراد شراءه عبد الواحد من بنى على فلم يوفق فى ذلك. وترك مجرى عين مصرع التى لم يستطع بنو على تعميرها فى حالة متخربة وفتح الماء الذى يخصه مجرى آخر واشترى من أجل سقى أراضيه التى فى مصرع ثمانى وجبات من الماء من عين الحازمية، واشترى بنو على ثلاث حصص ونصف حصة من الماء من عين الحازمية واضطروا لرى الأراضى التى يمتلكونها فى عين مصرى.

إن ما قام به السيد المدنى من محاولة غير لائقة أدت إلى جفاف نهير كان يجرى من خمسمائة عام.

عين شربونى:

هذا الماء فى سفوح جبل أحد الذى يقع فى الجهة الشامية من مسيل حمزة، وبما أن مجراه قد خرب فانقطع ولم يبق فى الحديقة التى كان يسقيها إلا خمسون نخلة وشجرة سدر.

عين الثنايا:

يطلق على هذا الماء عين معاوية أيضًا، وهى فى الطرف الغربى لمسجد حمزة وهى تحت إدارة أبى السعود أفندى الداغستانى المفتى السابق وأصحاب الحصة فيها، وتوجد فى الحديقة التى تسقيها غير الأشجار المثمرة المتعددة أربع آلاف نخلة.

عين السلامة:

هذه العين فى الطرف الغربى لعين الثنايا وتحت إدارة شركة أبى السعود أفندى ومجراها من أعظم مجارى مياه المدينة وأقواه وأسلمه وما تسقيه من الأراضى أجود محصولاً من أراضى المواقع الأخرى، وتسقى ما عدا أشجار التين والليمون، والرمان ما يقرب من خمسة آلاف من أشجار النخيل.

عين غرابية:

هذا الماء فى غرب عين سلامة واسمه الآخر عين جنانية، إلا أن مجراه خرب ولما كان ملاكها متخاصمين انقطعت العين عن الجريان. ولم يبق فى الحديقة التى كانت تمر منها إلا ألف وخمسمائة نخلة.

عين سيد عبد الله: وماء سيد عبد الله، فى الطرف القبلى لعين غرابية وفوق مسيل الوادى وكان يمتلكها كاتب الخزينة النبوية المرحوم سيد عبد الله جعفر أفندى وتروى حديقة تحتوى على سبعمائة نخلة.

إخطار: تتجمع مياه أسبلة حمزة سبيل أبى جيدة وسبيل رانوناء، وسبيل عقيق وتلتقى فى نقطة واحدة وتجرى معًا فى مجرى واحد إلى وادى الغابة، وأراضى العيون التى تسيل فيها مجتمعة قسمان:

١. القسم الأول:

سفوح جبل أحد الشرقية، والجهة التى يمتد إليها الوادى المذكور إلى موقع الحيدرية يقال لها الجزع الشرقى.

٢. القسم الثانى:

الجهة الغربية من الوادى يطلق على هذه الجهة جزع الصادقية.

جزع الصادقية: من يريد أن يذهب إلى جزع الصادقية بطريق البركة إلى الصادقية ومن يريد أن يذهب إلى الحيدرية يدخل فى شارع الجزع الشرقى، ويذهبون إلى الحيدرية من بين حدائق عين سلامة وعين غرابية. انتهى.

وما عدا الحدائق التى ذكرت أعلاه خمس وثلاثون حديقة أخرى تحتوى على ثلاث آلاف وخمسمائة نخلة مثلها من العيون والعيون التى انقطعت مياهها والتى ينتظر أن يجرى ماؤها فى خلال سنتين أو ثلاث والتى لم يغرس نخيلها خارج هذا الحساب. ولما كانت هذه العيون والحدائق على الجهات للأربعة لمدينة الرسول، فإذا ما أبعدت عن المدينة مسافة خمس أو ست ساعات وسقيت بالعيون التى مازالت جارية الحدائق التى انقطعت مياهها وأشجار النخيل المغروسة فيها كثيرة بحيث تحير العقول. وغير هذه الحدائق حدائق متعددة منتظمة فى الجهة الشامية خارج سور المدينة وبساتين إلا أنها تروى بمياه الآبار وإذا ما قورنت هذه الحدائق بالحدائق التى تروى بالمياه الجارية فهى أقل من القليل لأن الحدائق التى فى هذه الجهة من البلدة الطاهرة تروى وتسقى بالمياه الجارية أى من الجداول والعيون.

ولكن قد حفر كثير من الآبار حتى لا تترك الحدائق والبساتين دون ماء حينما يشح الماء فى العيون.

الحدائق القريبة من سور المدينة فى الجهة الشامية من البلدة المقدسة هى: الداودية، حديقة ألزكى، السبيل، بضاعة، بضيعة، الطرناوية، الفيروزية، الزينية، الدرويشية، بئر حاء، بئر حاء الصغيرة، التوانيه، الجودية، الكاتبية، السمانية،

عبد الجليل برادة أفندى، الروميه ولم يفصل بين السور والحدائق غير طريق واسع وقد اتصلت الجهة الشامية من هذه الحدائق حتى حصة الصدقة وشملها العمران. وفى كل حديقة قصور عظيمة مرتفعة والدواوين والأحواض التى تملأ بالدلاء وتنبت فيها ثمار وفواكه مثل البلح والعنب والرمان والتين والسدر وأشجار مثمرة أخرى. والقسم الأعظم من محاصيلها ملك أغوات حرم السعادة.

وإن كان فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة كثير من حدائق النخيل والبساتين إلا أنها ليست جميلة مثل الحدائق القريبة من السور. ولكن فى الحدائق التى خارج باب قباء مبان ساحرة وإن كانت فى الجهة الشامية من المدينة، نحو جبال الغابة فى طول خمسة وعشرين ألف ذراع من الأراضى إلا أن معظمها غير مزروع، واستصلاح هذه الأراضى يحتاج إلى حفر آبار وإعداد عيون. وقد كثرت مجارى وقنوات الأنهار التى فى الجهة الشرقية والقبلية وإجراء العيون بحفر المجارى والجداول سيخرب مزروعات هاتين الجهتين وحدائقها؛ لذلك فهذا غير جائز.

وإضافة إلى عين السيد علوى سقاف والسيد هاشم جمل الليل وعين الأغوات. المياه الجارية التى فى هذه الجهات تسير مجاريها عن طريق الجهة الشرقية من البقيع الشريف وتمر من وسط الحدائق وأشجار النخيل التى تنبت من نفسها نحو مسيل أبى جيد. ومنابع هذه المياه، كما ذكرت آنفًا فى مسيل حمزة ودويخلة، ومنابع بعضها فى وادى جرف؛ ولهذا فمياه عموم أنهارها مر، وبما أن مياه جزع الصدقة من آبار وادى جرف فهى عذبة وصالحة لرى الأشجار وبئر عثمان بئر من آبار جرف.

وتروى مزارع الجهة الغربية من البلدة المسعودة وهى فى منتهى ذى الحليفة بمياه الآبار. لأنه لا توجد مياه جارية فى هذه الجهة منها. وإن كانت شركة سزنى قد أعدت عينًا فى سنة ١٣٠١هـ وبما أنها لم تغرس بعد أشجار النخيل فالحدائق التى على الجهات الأربعة لهذا الماء تروى بماء الآبار. ولما كانت هذه الآبار قليلة

وعميقة فيتم الحصول على مائها بعد مشقة شديدة. وفى الحرة الغربية على جانب مجرى سيل العقيق كثير من الآبار والمزارع يقال لها عنابس، وعندما ينزل من المدرج إلى وادى نقاء توجد بعض المزارع والحدائق، الحديقة الكبيرة المتصلة بالجهة الشرقية للحرة تقع فى الجهة القبلية لمعسكر الجنود السلطانية. وكانت هذه الحديقة تتبع إلياس تاج الدين فباعها قبل عدة سنوات لعبد الله عرب الميمنى. وعلى الطرف القبلى من تلك الحديقة حديقة مغيسلة التى يمتلكها عمر زاهد أفندى. ومياه هاتين الحديقتين عذبة والمبانى التى فى داخلها فى غاية الرصانة والمتانة وغير ذلك فمغروساتها حسنة وآبارها غير عميقة قريبة المياه.

الوجهة الثامنة عشرة
تشتمل على أربع صور وتبين ما ينسب
إلى النبى صلى الله عليه وسلم
من الأوقاف الشريفة والمساجد التى بين الحرمين
والمساجد التى أدى فيها الصلاة فى أثناء الغزوات

فى ذكر ما ينسب
إلى النبى صلى الله عليه وسلم من صدقات

روى ابن شهاب أن جميع الصدقات النبوية تتكون مما ترك وتبرع مخيريق[1] من أحبار اليهود من الأموال، وكان مخيريق المذكور من أصحاب الثروة والغنى وبما أنه أرباب العلوم العقلية والشرعية أعتقد بان النبى ﷺ خاتم الأنبياء الذى بشرت الكتب السماوية قدومه فرغب فى أن يسلم قبل جميع الناس. ولكنه لم يرد أن يحدث سوء تفاهم بينه وبين معاندى اليهود، فلم يظهر شعائر الإسلام، ولما ظهرت شرارة غزوة أحد وشرع النبى ﷺ فى الحرب، فجمع مخيريق أعيان طوائف اليهود ورؤساءهم وألقى خطبة مؤثرة إذ قال لهم: «بناء على أحكام الكتب المنزلة فمحمد ـ عليه وعلى آله صلوات الله الأمجد ـ الموجود الآن فى ساحة المعركة نبى آخر الزمان، وحسب الديانة لنذهب حتى نعينه ولما قوبل بجواب خلاف أفكاره المخلصة قال إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينبغى أن نظاهره فيه ونفدى فى سبيله بأرواحنا» وانطلق إلى حومة الوغى.

وأعلن إسلامه أمام النبى ﷺ وقال إذا ما نلت الشهادة أرجوك أن تقبل جميع ما أمتلكه من أموال!!! ثم دخل فى الحرب وبعدما قتل بعض الأعداء نال الشهادة ونال ثناء النبى ﷺ عليه إذ قال: «مخيريق خير اليهود».

وروى عبد العزيز بن عمران أن مخيريق من بقايا يهود بنى قينقاع.

كما روى الإمام الواقدى بأنه من أخيار أحبار يهود بنى النضير.

وقال الإمام الذهبى بما أنه صدق نبوة محمد ﷺ فهو من جملة الصحابة الكرام.

قال الإمام الواقدى: ظل مخيريق على اليهودية ولم يسلم وتوفى فى معركة

(١) انظر: الإصابة ٦/ ٧٣، الدرر ص ١٥١. الطبرى ٢/ ٥٣١ ابن هشام ٣/ ٢٩.

أحد، ودفن فى مقبرة المسلمين ولكن لم يصل عليه وادعى بهذا القول عدم إيمان مخيريق، ولكن ابن شهاب فند قول الواقدى هذا وقال: «كان مخيريق ترك جميع ما يملكه إلى النبى ﷺ وأهداه له واستشهاده فى معركة أحد باعث لقول النبى ﷺ «مخيريق سابق اليهود، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة».

وإذا ما نظرنا إلى ما يفيد الحديث الشريف الذى يصرح بإسلام مخيريق يلزم أن نحكم أن الإمام الواقدى أخطأ فى قوله هذا».

والذى عرض مخيريق للنبى ﷺ سبعة أموال:

١ ـ دلال

٢ ـ برقة

٣ ـ أعواف

٤ ـ صافية

٥ ـ ميثب

٦ ـ حسنى

٧ ـ مشربة أم إبراهيم[١].

وهى سبع مزارع، فأوقف النبى ﷺ ـ جامع مكارم الأخلاق ـ الأموال السبعة كلها.

وأربع من المزارع السبع وهى صافية، برقة، دلال، ميثب، فى مكان يسمى عالية خلف قصر مروان بن الحكم وهى متقاربة بعضها من بعض ومتجاورة وكان يسقى بالماء الذى يمر من وادى مهزور، وفى عصرنا يطلق على مزرعة صافية، زهيرة وهى فى الطرف الشرقى للمدينة المنورة، ومازالت برقة حديقة معروفة بهذا الاسم فى الجهة القبلية لزهيرة وحديقة دلال التى وقفت لمدرسة الشهابية بجانب حديقة برقة. وهذه الحدائق الثلاث متصلة بعضها ببعض ومن المحتمل أن حديقة مثيب أيضًا بالقرب من هذه الحدائق أو متصلة بها. ولكن فى زماننا هذا ليس هناك شخص يعرف مكانها.

(١) تقال لفظة مشربة على البيت العالى.

ومشربة أم إبراهيم بجانب مسجد المشربة كما بين فى فصل المساجد و حسنى فى ناحية قف وكانت تسقى بماء وادى مهزور.

والحديقة المسماة بحسينات بالقرب من جزع دلال وقريبة من ماجشونية. يظهر أنها مكان عرصات مشربة وحسنا. ومزرعة أعواف فى محل يسمى ببئر أعواف وهذه أيضًا تسقى بماء وادى مهزور. وعلى هذا التقدير فالأموال السبعة كلها موجودة ولكن تغيرت أسماؤها مع مرور الزمان.

والمزارع التى عرفت أماكنها من مزارع الصدقة انتقلت كلها من مخيريق وهذا معروف لدى أئمة السير. إلا أن المؤرخين اختلفوا فى تعريف الصدقات النبوية فقال بعضهم. الصدقات النبوية من أموال بنى قريظة وبنى النضير. حتى إن مزرعة دلال كانت ملك امرأة من قبيلة بنى النضير وقد غرست أشجارها من قبل الصحابة بشرط أن تطلق سراح عبدها سلمان وتحرره.

وذهب بعضهم إلى أن الصحابة غرسوا أشجار مزرعتى برقة ومثيب للزبير بن باطاء القرظى لعتق سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ وأن مزرعة أعواف كانت ملك امرأة تسمى خناقة من بنى قريظة.

وقد أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأموال بنى قريظة وبنى النضير وأهل فدك التى فتحت وأخذت بدون حرب قال الله تعالى:

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال) (الحشر: ٧)

وقسم النبى ﷺ أكثر أموال بنى النضير للمهاجرين وأخذ لنفسه مزارع مخيريق السبع. ثم انتقلت هذه المزارع السبع إلى أيادى بنى فاطمة لأن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ذهبت إلى أبى بكر الصديق فى عهد خلافته وطلبت الأموال

المذكورة نصيب الرسول ﷺ من غنائم فدك وخيبر إلا أن أبا بكر الصديق رفض إعطاءها محتكمًا إلى الحديث الشريف «نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة»

إلا أن على بن أبى طالب وعمه عباس ـ رضى الله عنهما ـ طالبا بالأموال المذكورة من عمر الفاروق فى عهد خلافته، فاتفق الخليفة معهم على إعطائهما أموال مخيريق السبعة دون حدائق فدك وخيبر قائلا: «يجب عليكم أن تديروا أمر هذه المزارع السبع كما أدارها النبى ﷺ وخليفته أبا بكر» وأعطاهما هذه الأموال بشرط توليه إدارتها. وإن كان بعض المؤرخين يدعون أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد غضبت من أبى بكر الصديق فى هذا الخصوص إلا أن رأى أبى بكر الصديق كان إدارة الصدقات النبوية من قبل خلفاء النبى ورأى عمر كان أن يتولى إدارتها العباس بن عبد المطلب مع على بن أبى طالب. وبناء على هذا عندما سمح عمر بن الخطاب لعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب تولى إدارة الصدقات النبوية اتفق معهما على أن تدار بناء على الشروط المشروحة.

وتولى إدارة الصدقات السبعة بعد سيدنا على بن أبى طالب الحسن بن على وبعده أخوه الحسين بن على وبعده على بن الحسين والحسن بن الحسين، ولما تولى بنو عباس عرش الخلافة والحكم أخذوا إدارة الصدقات من أيدى أبناء فاطمة وتصرفوا فيها كما يشاءون وأسندوا إدارتها لمن يريدون وأخذوا يوزعون محاصيلها لفقراء المدينة المنورة.

واضحة: يروى بعض المؤرخين أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ غضبت من أبى بكر الصديق كما ذكر آنفًا ولكن ليس لهذا الموضوع أصل ولا أساس وكانت المشار اليها عقب وفاة النبى ﷺ قد قالت لأبى بكر الصديق مخاطبة كان النبى ﷺ أنعم على فى حياته بحدائق نخيل فدك.

ويعرف هذا زوجى على وأم أيمن وإذا اقتضى الأمر يشهدان بذلك. وبناء على ذلك أطلب أن تكون لى النظارة على ذلك النخيل. فإذا أثبت أن النبى ﷺ

قد وهب لك نخيل فدك وملكك لا أتردد فى إحالة نظارتها عليك. فقال لها ما معناه: وأنت تعرفين جيدًا أنه إذا كانت شاهدة دعوة من الإناث، فإنه بمقتضى شريعتنا أن شهادة امرأتين تقوم مقام شهادة رجل واحد ومن هنا يلزم أن تأتى شاهدة أخرى مع أم أيمن.

ولما رأت هذه الإجابة الصحيحة تنازلت عن القضية. وما يقوله المؤرخون بأن السيدة فاطمة غضبت من أبى بكر جراء هذه الواقعة. لا يصح لأنه لم يظهر بين المشار إليهما أى نزاع يوجب أن يغضب أحدهما الآخر؛ لأن الصديق ـ رضى الله عنه ـ لم يقل قولاً خارج الشريعة الغراء حتى يغضب فاطمة ولم يظهر فى حقها أقل شىء يسئ إليها ويزعجها.

وطالب على ابن أبى طالب بحدائق النخيل تلك فى خلافة عمر بن الخطاب وأرضاه بدرجة ما. إلا أن العباس بن عبد المطلب بين استحقاقه لتلك الحدائق وأنه يستحق كذلك حدائق نخيل فدك وحدائق خيبر وأطال القول فى هذا الموضوع وأوصل الموضوع إلى درجة الخصومة ومن هنا طالب على بن أبى طالب عمر الفاروق بأن لا يعطى لأى واحد منهما حتى لا يكون الموضوع باعثا على الخصومة. وظلت المسألة مسكوتًا عنها إلى عهد عمر بن عبد العزيز. ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أظهر تعظيمه وحرمته لآل النبى ﷺ بأن سلم نخيل فدك لأولاد فاطمة. إلا أن تلك الحدائق قد استردت فيما بعد وهكذا أوذى أحفاد النبى مرة أخرى وأهينوا وكان عمر بن عبد العزيز قد أسعد بنى فاطمة وجبر خاطرهم بأمر واليه فى المدينة فى أوائل جلوسه على عرش الخلافة بأن ملك نخيل فدك لأبناء على بن أبى طالب ولآل النبى ﷺ إلا أن يزيد بن عبد الملك الذى تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز استرد نخيل فدك وترك آل بيت الكرام فى براثن العوز والحاجة إلى أن رد السفاح العباسى فى أثناء جلوسه على عرش الخلافة تلك الحدائق إلى أبى الحسن بن الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ فأجبر خاطرهم. وإن كان أبو جعفر المنصور أهان أهل البيت وجفاهم واسترد منهم حديقة فدك وترك شجرة سعى السفاح دون الثمار. ولكن عندما جلس

المهدى على كرسى الخلافة استهجن عمل والده ورد نخيل فدك إلى أحفاد على بن أبى طالب وأسعدهم ولكن موسى الهادى أخذه منهم وترك المشار إليهم فى حالة حزن وألم وأصبح أخذ نخيل فدك من أبناء فاطمة و إعطائها لهم عادة بين الخلفاء، وقد تحمل العلويون هذه الحقارة إلى عهد المأمون العباسى المصون من الظلم، ولكنهم بعثوا فى عهده رسولاً وطالبوا الخليفة بنخيل فدك للعلويين بالشرط المذكور سابقًا. وبينوا أنه غير قابل بعد ذلك للاسترداد. وذلك فى سنة (٢١٢هـ) واستهجن أسافل الناس موقف المأمون وأنشدوا البيت الآتى فى معرض الاستهزاء.

البيت العربى

أصبح وجـه الزمـان قد ضحكا برد مأمـون هاشـم فدكا

وفى رواية أخرى أن معاوية بن أبى سفيان أقطع نخيل فدك لمروان بن الحكم.

كما أن ابن الحكم وهب نصفه لعبد العزيز وعبد الملك. ولما جلس عمر بن عبد العزيز على عرش الخلافة وهب حصته والحصص الأخرى لبنى فاطمة وملكهم.

وعلى رواية أن عثمان بن عفان هو الذى ترك وأقطع فدك لمروان بن الحكم. ولكن الرواية الأولى أقوى من الرواية الثانية.

فى ذكر المساجد النبوية التى بين الحرمين

إخطار:

ليس بخاف أن تلك المساجد تقع فى طريق النبى الذى سلكه من المدينة إلى مكة المكرمة. فهذا الطريق معروف باسم طريق الأنبياء وهذا الطريق يتفرع من الروحاء ومسجد غزالة ويتجه نحو قريتى خيف والصفراء ومن هناك يمر إلى مكة المكرمة. وإن كان هذا الطريق أقصر الطرق إلا أن قوافل الحجاج لا تسلك هذا الطريق منذ فترة وبظهور بعض الموانع ترك الحجاج السير فى ذلك الطريق المليئ بالفيض والبركة. والآن يمرون من شارع الروحاء ومضيق جديدة وأحيانًا أخرى يمرون بالصفراء ومن محل قريب من ساحة معركة بدر الكبرى، ويقال لهذا الطريق السلطانى، والذين يسلكون الطريق السلطانى يحرمون من زيارة المساجد التى سيأتى ذكرها إلا أنه فى السنين الآمنة تسلك الحجاج الطريق الذى فيه المساجد المذكورة، وغرضنا هو أن نذكر ونبين المساجد النبوية المأثورة وبيان المواقع التى صلى فيها الرسول ﷺ وبهذا نكون قد خدمنا العالم الإسلامى؛ فإذا ما ذكرنا وعرفنا طريق الحرمين فقط فلا نكون قد تبركنا بذكر المساجد النبوية وهذا ما نقصد إليه. ومع ذلك ستعرف طرق القوافل التى يسلكها الحجاج فى ذهابهم وإيابهم إلى الحرمين فى صورة خاصة. انتهى.

١. مسجد الشجرة:

اسم هذا المسجد الآخر مسجد ذى الخليفة ويقع فى ميقات المدينة المنورة وبجانب شجرة يطلق عليها سمرة من جِيْشِ[١] أُمّ غَيْلاَن، وكان النبى ﷺ كلما حج أو اعتمر يصلى تحت هذه الشجرة ثم يلبى حيث الجمال ويقضى ليله فى ذلك المكان؛ ومبانى هذا المسجد المقدس كبيرة جدًا وله بعض العقود فى جهته

(١) الجِيْشُ: نَبَاتٌ له قضبان طوال خضر. اللسان (جيش) وأم غَيْلاَنَ: شجر السَّمُرِ. اللسان (غيل).

القبلية وله فى الجهة الغربية الشمالية مئذنة. وقد خرب بمرور الأيام واندرس أساسه، فجدده زين الدين الاستدارى المصرى فى سنة ٨٦١هـ وبنى حوله سوراً كما صنع للآبار التى بجواره سلالم لكل واحدة منها. وجهات ذلك المسجد الأربعة السطحية من الداخل اثنين وخمسين ذراعًا. ومازال عامرًا إلى الآن. ولما كان مرويًا أن النبى ﷺ قد صلى على ساحة مسجد الشجرة فى الجهة القبلية بنى عمر بن عبد العزيز على ذلك المكان مسجداً صغيراً.

٢ـ مسجد المعرس:

إن مسجد المعرس اللطيف اسم المسجد الذى بناه عمر بن عبد العزيز فى ذى الحليفة ويحرم الحجاج الكرام فى مسجد الشجرة. وبين هذين المسجدين مسافة مرمى السهم، فخربت السيول التى نزلت مسجد المعرس وملأت ساحته بالرمل فمكانه مجهول الآن.

كان النبى ﷺ، كما سبق ذكره أعلاه، عندما يسافر إلى مكة المكرمة للحج والعمرة كان يصلى تحت تلك الشجرة التى بنى مكانها الآن المسجد، وعند عودته يبيت فى ساحة بطن الوادى الرملية ويستريح حتى الصباح، وفى ليلة عندما كان فى بطن الوادى قد نال شرف خطابه فى رؤياه أنك فى بطن البطحاء الآن وكان ذلك الوادى السعيد وادى العقيق وكان قضى ليلة بجانب ذلك الوادى.

وكلما كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يحج اعتاد أن يقضى ليلة حيث قضى النبى ﷺ ليله وذلك المكان المقدس بين الطريق المشهور المذكور وبطن الوادى.

٣ـ مسجد شرف الروحاء:

يروى أن النبى ﷺ أدى الصلاة فى مسجد شرف الروحاء، ولما كان المسجد المذكور قريبًا جدًا من مكان شرف الروحاء فسمى بمسجد شرف الروحاء وهو مسجد صغير فى غاية الصغر. وبناء على الرواية التى تنقل عن عبد الله بن عمر أن ذلك المسجد الصغير يظل على يمين الذاهبين إلى مكة المكرمة وعلى مرمى

حجر من المسجد الكبير الذى يسمى مسجد الروحاء. والمسافة من مسجد شرف الروحاء إلى موقع السيالة ميلان، ومن مسجد الروحاء إلى موقع السيالة أحد عشر ميلاً ومن السيالة إلى ملل حيث سكن حسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وبعض القرشيين سبعة أميال.

وفى موقع ملل عدة آبار إلا أن مياه هذه الآبار ليست عذبة مثل بئر السويقة التى تبعد مسافة ميل واحد. وبئر سويقة ملك عبد الله بن الحسن ـ رضى الله عنهما ـ ولكنها انتقلت فيما بعد لأيدى الأعداء.

وشرف الروحاء فى نهاية حدود الوادى الذى يسمى سيالة. وقريب من المسجد الذى عرفناه وما بين شرف الروحاء والسيالة مفصول بمكان يسمى صُخَيْرَات اليَمَام ولأجل ذلك من يهبط من موقع ملل ويدور نحو اليسار ويستقبل القبلة يكون قد دخل فى سيالة.

وبجانب مسجد شرف الروحاء مقبرة تشتهر بأنها مقبرة أهل سيالة ويروى أن هذه المقبرة مقبرة أهل بيت رسول الله الذين استشهدوا غدرًا وهم يقيمون بجانب بئر سويقة. والذين ينزلون من مسجد شرف الروحاء إلى وادى الروحاء مستقبلين القبلة يدخلون وادى بنى سالم وقوم بنى سالم قبيلة من جماعة بنى حرب.

٤ـ مسجد عرق الظبية:

يقع هذا المسجد على بعد ميلين من الروحاء. قد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان صلاة الفجر. وهنا تذاكر مع أصحابه التدابير العسكرية لغزوة أحد وتفضل قائلاً: هذا الجبل جبل من جبال الجنة فليباركه الله لنا ولأهله، وهذا الجبل يلطف جو الروحاء وهذا الوادى من وديان الجنة، قد صلى فى هذا المكان سبعون ألفًا من الأنبياء.

والذين يريدون أن يعثروا على المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ، ثم بنى عليه المسجد، ليصلوا فيه يجب أن ينزلوا إلى الروحاء ويتوجهوا إلى الجهة

القبلية وعند الوصول إلى محاذاة طريق الجبل الذى على الجهة اليسرى يستدار إلى الجهة الغربية ويسار إلى سفح الجبل؛ لأن المسجد الشريف على يمين ذلك الجبل.

وأول ما يصادفه الذين وصلوا إلى سفح الجبل هو موقع المسجد الشريف. وإن كانت أبنيته خربة مندرسة ولكن من الممكن التشرف برؤية موقعه اللطيف.

٥ـ مسجد الروحاء:

هذا المسجد بجانب بئر الروحاء فى وادى الروحاء. وعندما ذهب النبى ﷺ إلى غزوة بدر قام من موقع عرق الظبية ووصل إلى الروحاء فى يوم الأربعاء وكان نصف شهر رمضان فاستراح قليلاً وصلى. وكانت آبار عدة فى وادى الروحاء فى ذلك الوقت. ثم انهارت كلها وامتلأت بالرمل ولم تبق سوى بئر الروحاء وخرائب تلك الآبار.

٦ـ مسجد المنصرف:

يسمى كذلك مسجد الغزالة ويقع أسفل الجبل الكائن فى نهاية وادى الروحاء وبينه وبين الروحاء ثلاثة أميال. ويظل على يسار من يذهبون إلى مكة المعظمة وكان عبد الله بن عمر لا يصلى فى داخل هذا المسجد بل يستدبر مسجد المنصرف ويستقبل مكانًا يسمى عرق ويصلى وكان يقول إن النبى ﷺ صلَّى فى هذا المكان، وكان فى عهد عبد الله بن عمر بجانب ساحة المسجد المذكور شجرة مغيلان كان يصلى المشار إليه تحت هذه الشجرة ثم يسكب الماء الباقى لجذور تلك الشجرة ويقول: هكذا فعل الرسول ﷺ. ويدور حول الشجرة ويكمل السقى. ولكن لشدة الأسف فقوافل الحجاج تركوا هذا الطريق ولم يبق لمسجد المنصرف حتى الأسس.

٧ـ مسجد الرويثة:

يقع فى الجهة اليمنى للطريق القريب من قرية رويثة. وقد نزل النبى ﷺ هناك وصلى فى ظل سرخة ضخمة، وبين قرية رويثة والروحاء ثلاثة عشر ميلاً، وعلى قول ستة عشر ميلاً، ويقع فى جهة مكة ومقابل جبل الحمراء وفيه حياض عديدة وآبار كثيرة وهواؤه جيد طيب.

٨ـ مسجد ثنية ركوبة:

ويقع على الجهة اليمنى من ثنية العابر عقبة عرض عَرْج وبعيد عن عَرْج بثلاثة أميال، وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان حيث بنى مسجداً.

٩ـ مسجد الإثابة:

مسجد الإثابة على بعد من موقع عَرْج بميلين فى جهة المدينة.

قد صلى ﷺ ركعتين بجانب بئر إثابة والبئر التى يطلق عليها الإثابة على بعد ميل من موقع عَرْج المذكور من ناحية مكة المكرمة. وفى مكان اسمه بدارج وبما أن الحدود الحجازية تنقطع قبل النزول فى هذا الوادى فبئر الإثابة فى نقطة انتهاء الحدود الحجازية.

١٠ـ مسجد الغرس:

هذا المسجد على بعد ميل من مسجد الإثابة فى جهة مكة المكرمة، قد أدى الرسول ﷺ على ساحة ذلك المسجد الصلاة ونام فيها بالضحى.

١١ـ مسجد طرف تلعة:

مسجد تلعة على جهة مكة وعلى بعد خمسة أميال أو ثلاثة من مسجد عرج يروى وجود مسجد آخر فى ساحة تلعة يسمى هضيبة إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك المسجد مسجد العرج.

وإن كان على جهة ما لمسجد تلعة عدة قبور محاطة بسور من جهاتها الأربعة. إلا أنه لا يعرف أصحاب هذه القبور.

١٢ـ مسجد حى جمل:

هذا المسجد بجانب قرية بئر طلوب البعيد عن مسجد عَرْج بأحد عشر ميلاً. والمسافة من بئر طلوب إلى قاحة خمسة أميال ومن هناك إلى مسجد سقيا ميل واحد وماء بئر طلوب ثقيل وغير لطيف. وقد احتجم الرسول فى هذا الموضع وهو محرم وفى قول آخر إنه احتجم فى وادى قاحة. قال بعض المؤرخين إن حى الجمل اسم ماء يقع بين السقيا والأبواء وهذا يؤيد قول القاضى عياض فى حق حى الجمل الذى يبعد عن السقيا سبعة أميال. يطلق حى الجمل على عقبة الجحفة.

١٣ـ مسجد السُقيا:

يقع على جانب الجبل الكائن فى سقيا. وبجانب بئر عذبة الماء.

١٤ـ مسجد مدلجة تعهن:

هذا المسجد على بعد ثلاثة أميال من بئر السقيا فى جهة مكة. وقد صلى النبى ﷺ على ساحته ثم بنى عليها مسجداً.

١٥ـ مسجد الرمادة:

مسجد الرمادة على بعد ميلين من أبيار على بعد أحد عشر ميلاً من المدينة والسقيا من جهة مكة. وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان أيضًا.

١٦ـ مسجد الأبواء:

أبواء قرية لطيفة حيث آبار عديدة وحدائق كثيرة والمسجد فى وسط هذه القرية. وقد أدى النبى ﷺ الصلاة فيه أيضًا.

١٧ـ مسجد البيضة:

يقع على بعد خمسة أميال من قرية أبواء، ناحية مكة وصلى فيه النبى ﷺ.

١٨ـ مسجد عقبة الهرشى:

يقع بالقرب من عقبة الهرشى التى تبعد عن أبواء ستة أميال، تقع عقبة الهرشى على بعد ميل من العلامة التى توضح أن هذا المكان هو منتصف الطريق بين المدينة المنورة ومكة المعظمة. وقد نزل النبى ﷺ بجانب الأشجار التى على حافة المسيل الذى فى الجهة اليسرى من الطريق الذى أمام عقبة الهرشى. ويقع المسيل المذكور على ربوة الهرشى وبينهما وبين منتصف الطريق المذكور كان عبد الله بن عمر يصلى تحت أقرب الأشجار إلى الطريق.

١٩ـ مسجد الجحفة:

فى الموقع اللطيف المسمى بجحفة ثلاثة مساجد شريفة. وأحد هذه المساجد أمام الجحفة والآخران بجانب العلمين يقال لها مسجد الأئمة ويطلق على المسجد الذى أمام الجحفة مسجد غورت وأحد المساجد الثلاثة على بعد ثلاثة أميال أو أربعة من الجحفة وعلى يسار الطريق على حافة المسيل يطلق على هذا المسجد غدير الخم أيضًا. وبناء على تعريف القاضى عياض أن غدير الخم اسم تربة كبيرة وهناك نهير صغير يصب فى هذه البركة ومسجد غدير الخم فى وسط هذا النهير والبركة سابقة الذكر؛ لذا سمى المسجد مسجد غدير الخم.

وقد نزل النبى ﷺ على حافة تلك البركة وصلى صلاة الظهر فى ظل شجرة، وأمسك على بن أبى طالب من يده وقال: اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه.

٢٠ـ مسجد القديد:

معبد القديد اللطيف على مسافة ثلاثة أميال من موقع القديد المشهور. كانت ساحته مكان خيمة أم معبد. ومناة التى كان يعبدها عرب الجاهلية كانت منصوبة على يمين المحل المذكور وفى مكان مرتفع.

٢١ـ مسجد حرة:

على قمة عقبة خليص والمسافة بين مسجد حرة وعقبة خليص ثلاثة أميال.

٢٢ـ مسجد خليص:

يقع على جانب ماء ابن ربيع وعلى جوانبه حوض مملوء بالماء وبركة وكثير من حدائق النخيل.

٢٣ـ مسجد بطن مر الظهران:

كان مسجد بطن مر الظهران فى واد بطن مر الظهران الذى يبعد عن مكة المكرمة سبعة عشر ميلاً. وإن كانت أبنيته انهارت وخربت ولم يبق أثر يستطيع الرائى أن يقول هنا كانت خرابة مسجد إلا أنه لما كان معروفًا بالتحقيق أنه كان بجانب الحوض الذى يملؤه نهير العقيق، لذا يصلى الزوار بجانب هذا الحوض متبركين.

وليس ببعيد أن يكون مسجد الفتح المؤسس على حافة مجرى نهير العقيق الذى على يسار الذاهبين إلى مكة من المدينة وفى المحلة التى يطلق عليها جموم من مر الظهران.

لأن النبى ﷺ كان قد نزل على ساحل مجرى النهير المذكور.

والمحل الذى يطلق عليه جموم فى داخل وادى مر الظهران.

٢٤ـ مسجد سرف:

يقع مسجد سرف على بعد ثلاثة أميال من المسجد الذى ينسب إلى روح النبى ﷺ عائشة ـ رضى الله عنها ـ حيث يلبس ملابس الإحرام وفى جهة وادى فاطمة. والسيدة ميمونة ـ رضى الله عنها ـ من زوجات النبى ﷺ مدفونة بجانب ذلك المسجد وبنى ضريحها بأمر النبى ﷺ.

٢٥ـ مسجد التنعيم:

يقع هذا المسجد فى ساحة وادى نعمان وعلى ثلاثة أميال من ضريح ميمونة ـ رضى الله عنها ـ من جهة مكة المكرمة، وعلى الجهة اليسرى منه جبل ناعم وعلى الجهة اليمنى جبل نعيم ويقال للمسجد التنعيم مسجد هليليجة أيضًا.

ويروون أن هناك شجرة بجانبه ولكن اليوم لم يبق أى أثر من المسجد ولا من الشجرة.

٢٦ـ مسجد ذى طوى:

هذا المسجد اللطيف ما بين حجونى مكة والموقع الذى يقال له ما بين الثنيتين، أى فى الموقع الذى ينصب فيه محمل مصر خيامه وقد قضى النبى ﷺ ليلته فى سنة حجة الوداع على ساحة مسجد ذى طوى وبعد أن أدى صلاة الفجر فيها توجه إلى الكعبة المعظمة يطوفها عن طريق مقبرة المعلى.

فى تعريف المساجد التى توجد فى الطريق الذى يسلكه الحجاج فى عصرنا ذاهبين راجعين

كلما ذهب النبى ﷺ محرمًا بنية الحج إلى مكة المكرمة كان ينزل بجانب بئر شعبة بعد المرور بالجبال التى يطلق عليها جبال المضيق وفى موضع يطلق عليه دَبَّة مستعجلة حيث يشرب الماء. والمستعجلة اسم جبل مشهور بين الحرمين، وبعد ما تمر قوافل الحجاج بوادى النازية متجهة إلى الصفراء تصعد على هذا الجبل. كان النبى ﷺ ينزل بعد القيام من بئر شعبة فى شِعْب سَيَر الذى يطلق عليه شعب كبث أيضًا الذى يقع بين المستعجلة وقرية الصفراء، وهذا المكان هو الموقع الذى وزعت فيه غنائم بدر الكبرى ولم ينقطع ماء بئره فى أى وقت من الأوقات. والدَّبَّة معناها كومة الرمل، وكومة الرمل التى يطلق عليها دبة مستعجلة على بعدنصف فرسخ من جبل مستعجلة وبين جبلين. وبجانب دبة جبل مستعجلة حوض حيث ينزل حجاج القوافل فيستريحون والجبال التى تحيط بجانبى هذه الكومة يطلق عليها جبال المضيق:

١ـ مسجد ذات أجدال:

وهذا المسجد اللطيف فى وادى الصفراء حيث يوجد مسجدان أيضًا وهما جيزتان وذَفَرَان كان النبى ﷺ صلَّى فيهما. وذفران اسم مجرى النهير الذى يمر ويجرى فى قرية الصفراء. وكان النبى ﷺ على جهة من هذا النهير وهو محرم، وفى المكان الذى صلى فيه النبى ﷺ بئر والبئر المحفورة صادفت المكان الذى سجد فيه الرسول ﷺ، ولعله لهذا السبب أن ماء هذا البئر ألطف ماء وأخفه من مياه جميع الآبار التى فى تلك الناحية. وفى عصرنا هذا ذفران اسم الوادى الذى

يمر منه قبل الوصول إلى الصفراء والاسم الآخر لوادى يسيرة، ومياه السيل التى تتكون فى هذا الوادى تجرى من الجهة الغربية من وادى الصفراء.

والقافلة المصرية تنفصل من هنا عند عودتها وتذهب إلى ينبع. وعند انصرافها تتجه ناحية اليمين سالكة الطريق ثم تنزل إلى قرية الصفراء التى ظلت فى الجهة اليسرى، وكان النبى ﷺ قد عاد من هذا الطريق بعد غزوة بدر، وهناك مسجد آخر على يسار من يذهبون إلى ينبع البحر مسجد مبارك آخر يزوره زوار سيد الأبرار بنيّة زيارة مسجد ذفران، ويرى محل آخر مرتفع عن الطريق قليلاً فى المحل الذى يطلق عليه الرابية بناء على أن هناك مسجد مأثور، وبما أن جميع هذه المساجد فى حدود قرية الصفراء فجوانب كل واحد منها مزينة ومعمورة بالبيوت والمحال.

وقبر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب من جرحى بدر الكبرى فى داخل قرية الصفراء وبجانب المسجد الذى ينسب إلى النبى ﷺ، وقال بعض المؤرخين إن قبر عبدة ابن الحرث بجانب مسجد ذفران والآخرون فى وادى النازية.

وقد صلى النبى ﷺ فى ثنية المبرك أيضًا. ويقع هذا المحل المقدس فى الجهة الغربية على يسار طريق الصفراء إلى الجهة اليسرى عندما تتجه من المدينة إلى ينبع البحر والمسافة بين المسجد المبارك ومنزل دعان خمسة أميال وعلى رأى ستة أميال.

٢ـ مسجد بدر:

ساحة هذا المسجد اللطيف المقدسة موضع العريشة التى صنعت من أجل النبى ﷺ فى ملحمة بدر الكبرى. واليوم بجانب حديقة النخيل، وعلى الجهة القبلية من المسجد اللطيف الذى يطلق عليه الأهالى مسجد النصر وكان هنا بئر أيضًا، وقد خربت مبانى مسجد النصر ولم يبق حتى أثر لأساسه ولا يوجد الآن من يعرف ساحة ذلك المسجد أو بئر الماء.

٣ـ مسجد العشيرة:

مسجد العشيرة فى داخل قرية بطن ينبع ينزل فى هذا المكان حجاج قافلة مصر كان الناس يروون أن بجانب ذلك المسجد عين جارية تسمى بولا ولكن اسمها تغير الآن.

٤ـ مسجد الفرع:

هذا المسجد فى طريق مكة المكرمة وممر مسافرى المدينة المنورة قد نام النبى ﷺ فى مكان يطلق عليه أكمة فى موقع الفرع، وبعد النوم صلى فى مكان تحت أكمة صلاة الظهر وسار مستقبلاً المحل الذى يطلق عليه الفرع. وعندما وصل إلى مضيق الفرع نزل وصلى بجانب وديان برود وذات حماط[1] وكهف أعشار وكذلك فى مخرج ذات حماط الضيّقة[2] صلوات منفصلة.

(١) ذات حماط اسم نهير يقع فى طرف وادى العقيق.

(٢) هذا هو الموضع الذى صلى فيه من كانوا فى غزوة بنى المصطلق.

فى ذكر المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته

١ـ مسجد عامرة:

يقع على مرحلة من المدينة من جهة خيبر كان النبى ﷺ فى هذا المكان وهو فى طريقه إلى غزوة خيبر.

٢ـ مسجد صهباء:

تقع صهباء فى وادى روحه بين المدينة المنورة وخيبر. ومسجد فضيح[1] الذى حدث فى ساحته معجزة رد الشمس فى هذا الوادى.

٣ـ مسجد منزلة:

هذا المعبد المبارك فى موضع قريب من خيبر يطلق عليه موضع الصخرة كان النبى ﷺ قد نام ليلاً بجانب هذه الصخرة قدر ساعة وهو ذاهب إلى خيبر وصلى النوافل مدة ما، ولما ركب ناقته وأراد أن يتقدم، ترددت الناقة فى التقدم إلى الإمام حينئذ، قال: اتركوا زمام الناقة فلتذهب حيث أمرت بالذهاب إليه وترك زمام الناقة، وبناء عليه رجعت الناقة الأصيلة وذهبت إلى جانب الصخرة المذكورة وبركت فسطح ذلك المكان مؤخراً واتخذ مسجداً، ومازال أهل خيبر يستمرون فى الصلاة فى هذا المكان معظمين متبركين.

وهناك مسجد آخر فى مكان يقال له «عوسنجة» بين الشَّقِّ ونِطَاة من قلاع خيبر المشهورة ويروون أن ساحته كانت مصلى للنبى ﷺ.

(١) اسم آخر لمسجد صهباء.

٤ـ مسجد شمران:

اسم مكان فى ناحية شمران سهم بنى البراز فمسجد شمران يقع على قمة جبل من الجبال الخيبرية.

٥ـ مساجد تبوك:

يختلف المؤرخون فى تعيين عدد مساجد تبوك، يقول البعض إنها ستة عشر والبعض الآخر يقول أنها عشرون والآخرون أكثر من هذا عدداً ولكنهم لم يستطيعوا أن يحددوا أماكنها تماماً، والآن فى طريق تبوك عشرون مسجداً وأول هذه المساجد تبوك نفسها والعشرون مسجد ذى خشب.

وقد قرر متفقا أن النبى ﷺ صلى فى جميع هذه المساجد فى أثناء وقعة تبوك، والمساجد التى عددها المؤرخون أن يبينوا مواقعها فمساجد تبوك هى المساجد الآتية التى سنذكر أسماءها.

مساجد تبوك:

١ ـ مسجد تبوك[١]

٢ ـ مسجد ثنية مدران[٢]

٣ ـ مسجد ذات الزراب[٣]

٤ ـ المسجد الأخضر[٤]

٥ ـ مسجد ذات الخطمى[٥]

٦ ـ مسجد بالى[٦]

٧ ـ مسجد تبرا[٧]

(١) الذى شيد هذا المسجد هو عمر بن عبد العزيز.

(٢) أمام تبوك.

(٣) بعيد عن تبوك مسافة مرحلتين.

(٤) أربع مراحل لتبوك.

(٥) خمس مراحل لتبوك.

(٦) يقال له مسجد بولا أيضًا على خمس مراحل من تبوك

(٧) فى منتهى المكان الذى يعرف بكواكب وفى جانبه منزل (تبر).

٨ ـ مسجد شق تارا[١]

٩ ـ مسجد ذو الحليفة[٢]

١٠ ـ مسجد ذى الحليفة الآخر[٣]

١١ ـ مسجد شوشق

١٢ ـ مسجد الحوض[٤]

١٣ ـ مسجد حجر[٥]

١٤ ـ مسجد صعيد[٦]

١٥ ـ مسجد وادى القرى[٧]

١٦ ـ مسجد بنى عذرة[٨]

١٧ ـ مسجد الرقعة[٩]

١٨ مسجد ذى المروة[١٠]

١٩ ـ مسجد فيفاء[١١]

٢٠ ـ مسجد ذى خشب.[١٢]

---

(١) فى منزل جويرة.

(٢) ليس هذ المكان ذى الحليفة حيث الميقات فهو ذو الحليفة أخرى إلا أن الجغرافيين لم يعطوا عنه معلومات كافية.

(٣) يقرأ البعض هذا المنزل بكسر خاء المعجمة والآخرون بفتحها وأتى بعضهم بدلاً من الخاء المعجمة جيما مكسورة كما أتى بعضهم بحاء مفتوحة.

(٤) فى وسط محل يقال له حوض أو فى نهايته.

(٥) يعرف ابن زبالة هذا المسجد باسم علاء ولكن سواء أكان منزل حجر أو علاء فإنه فى داخل وادى القرى.

(٦) فى محل يقال له صغير قزح يقال له فى زماننا مسجد وادى القرى.

(٧) فى وادى القرى.

(٨) فى قرية بنى عذرة.

(٩) هذ المسجد فى مكان يسمى رقعة الثوب يروى أنه فى منزل رقمه بجوار قرية بنى عذرة أو سقيا.

(١٠) على مسافة ثمانية بريد من المدينة المنورة.

(١١) فى وادى يطلق عليه فيفاء محلتين وهو على بعد مسافة يوم من المدينة المنورة فى أسفله صخرة.

(١٢) على بعدمرحلة من المدينة وفى منزل يسمى بدومة.

وقد أدى النبى ﷺ الصلوات فى غير هذه الأماكن مثل: فى وسط حديقة فى مزارع بنى أشجع وفى بطن نخلة من الحدود النجدية وقريب من هذه النخلة فى مكان يطلق عليه كديد[1] وفوق جبل من بلاد بنى أشجع.

٦ـ مسجد الحديبية:

هذا المسجد فى القرب من قرية جدة بين جدة ومكة المكرمة فى مكان يطلق عليه حديبية وداخل الوادى القريب من منزل بلدح: والمسجد المذكور بالقرب من البئر المشهور باسم بئر شمس وبناء على ما نقل من أسانيد جيدة أن المصالحة التى عقدت بين المسلمين ومشركى قريش قد وقعت بجانب هذا المسجد كما أن بيعة الرضوان حدثت فى ساحة مسجد حديبية.

٧ـ مسجد ذات عرق:

هذا المسجد على بعد ميلين ونصف ميل من مكان يسمى ذات عرق ساحته المقدسة محل إحرام وميقات لمكة المكرمة.

٨ـ مسجد جعرانة:

معبد جعرانة اللطيف بجانب وادى جعرانة وفى مكان مرتفع، بناه أحد أهل الخير من قريش وأنبتت بجانبه أشجار النخيل.

٩ـ مسجد لِيّة:

هذا المسجد الممتاز فى وادى ليه البعيد عن الطائف ثمانية أميال وبجانبه حجر وعلى الحجر بعض الخطوط أو ما يشبهها ويعتقد أهل الطائف أن هذه الخطوط آثار حوافر ناقة النبى الأصيلة، ووقف النبى ﷺ بجانب شجرة الذرة القريبة من المسجد وفى ناحية القرن الأسود واستقبل المحل الذى يقال له نَخْب ووقف جميع الذين كانوا بجانب النبى واستراحوا قليلاً هذا مما يروى.

(١) ليس كديد الذى فى المحل الذى يسمى عفان.

١٠ـ مسجد الطائف:

هذا المسجد هو المسجد الكبير الذى بنى على ساحة خيمتى السيدة عائشة[١] وأم سلمة رضى الله عنهما ـ اللتين نصبتا عند محاصرة بلدة الطائف وظل مكان الخيمتين المذكورتين فى مؤخرة المسجد ورفع فوقهما قبتان صغيرتان ودفن فى ركنه القبلى أعلم الناس عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه.

تزييل

إن الشريف عبد الله الذى خدم إمارة مكة الجليلة ما يقرب من عشرين عامًا بجانب قبر ابن عباس بن عبد المطلب وهو من السلالة الطاهرة الزيدية وابن من أثبت جدارته ثلاث مرات فى منصب الإمارة وهو الشريف محمد بن عوف. وأحرز رتبة الوزارة السامية فى سنة ١٢٤٧هـ وأسند إلى عهدته إمارة مكة المكرمة وأنعم عليه بالوسام المرصع المجيدى العثمانى، وتوفى فى سنة ١٢٩٤هـ يوم الأحد اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الآخرة وهو فى منزله الصيفى فى الطائف، ووجه منصب الإمارة إلى أخيه الشريف حسين باشا وأحيل إليه. وقد خدم عبد الله باشا المشار إليه السلطنة السنية بإخلاص ولاسيما فى أثناء المسألة الروسية بذل جهودًا عظيمة لجمع الإعانات الحربية واستطاع أن يدبر مبالغ كبيرة من النقود. وأن يوصلها إلى أصحاب الشأن، واستطاع أن يكسب طوال مدة توليه للإمارة رضا سكان الحجاز ورعى بكل مودة الحجاج الواردين وحفظهم وكان شخصًا أصيلاً نجيبًا من السلالة الهاشمية وذات عقيدة سليمة، رحمه الله رحمة واسعة. وساحة مسجد الطائف هى ساحة مصلى النبى القديمة وهى الساحة التى أم فيها المجاهدين من غزاة الدين، وهذه الساحة هى ما بين خيمتى السيدة أم سلمة والسيدة عائشة[٢] ـ رضى الله عنهما ـ ثم رفع بين ساحتى

(١) قال الواقدى: الأخرى زينب بنت جحش. يقصد أنه مَنْ كان مع النبى ﷺ من نسائه: أم سلمة، وزينب بنت جحش رضى الله عنها. الطبرى ٣/ ٨٣.

(٢) والسيدة زينب بنت جحش على ما فى الطبرى ٣/ ٨٣.

الخيمتين قبتين صغيرتين أبو أمية بن عمرو وبن وهب بن معتب بن مالك وهذا إشارة إلى أن ما بين القبتين كان المصلى النبوى. وبعد ما بين الإمام الواقدى موقع مسجد الطائف وشكله أضاف أن فى ذلك المسجد عمود لا يرى نور الشمس إلا ويسمع بجانب هذا العمود صوت التسبيح الهاتفى. وبناء على تعريف المطرى أن المسجد اللطيف الذى بناه عمرو بن أمية هو الآن الجامع الكبير، وقد صنع فى عهد الناصر أحمد بن المستضئ منبر مرتفع عبد الله بن عباس مدفون فى الركن الأيمن من هذا المنبر. وبناء على قول تقى الفاسى أن فى خارج جداره القبلى حجر وكتبت عليه عبارة: أمرت أم جعفر بنت أبى الفضل أمام ولاة عهد المسلمين بعمارة مسجد رسول الله ﷺ بالطائف وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائة والمظنون أن الجامع المذكور وضريح ابن عباس بنيا فى عهد المستعين العباسى.

الوجهة التاسعة عشرة

تحتوى على ثلاث صور
تعرف مفصلاً الأودية والأحراش وبعض الجبال
والأماكن والأوطان والقرى التى تنسب إلى المدينة المنورة

١ ـ وادى العقيق:

والوادى هو المكان المنخفض الذى تجرى فيه الأنهار والسيول ووادى العقيق هو اسم الوادى الذى يمتد من موقع قصر المراجل إلى البقيع ومن زغابة إلى قصر المراجل ووادى العقيق المشهور فى الواقع واديان أحدهما العقيق الأصغر والآخر العقيق الأكبر، ويمتد العقيق الأكبر من أراضى عروة بن الزبير فى جهة حرة المدينة إلى قصر المراجل، ومن جهة حماء من قصر عبد العزيز بن عبد الله العثمانى الذى فى جماد إلى قصر المراجل يخرج أحد طرف هذه الحدود إلى نهاية البقيع ونهاية الجهة السفلى العقيق الصغير ونهاية أعلاها وديان عقيق البقيع.

والوادى الذى يطلق عليه عقيق البقيع يبدأ من مكان يطلق عليه برام إلى حضر هذا المكان نهاية حدود البقيع حيث ينتهى، والوادى المذكور يذهب من هنا إلى زغابة مجمع السيول الذى فى أعلى منزل إضم، ومنزل إضم بناء على قول المطرى يبدأ من البئر المحترم وينتهى إلى الجهة الغربية وهذا المكان ملاصق بالمدينة المنورة من ساحة بئر عثمان التى سميت بالعقيق، وينقسم إلى جهتين فى حدود دار العز المدينة يشكل قسم منهما وادى العقيق الأصغر والآخر يشكل وادى العقيق الأكبر، وبناء على هذا التعريف فإن الصحراء التى يطلق عليها البقيع يلزم أن تكون وسط وادى العقيق حيث انقسم وادى العقيق هنا أيضًا إلى قسمين يقال للجهة الملاصقة للمدينة المنورة العقيق الأصغر وللجهة العليا العقيق الأكبر، وأصغر هذين الواديين الصحراء التى توجد فيها بئر عثمان وأكبره الصحراء التى توجد فيها بئر عروة، ووادى العقيق الأكبر الذى لا يلاصق المدينة المنورة يتصل بالقرية التى فى بلاد مزينة، وانقسام وادى المدينة إلى اثنين سيؤدى إلى انقسام السيول بجانب حرة المدينة إلى جهتين وتنقطع.

إن كان لوادى العقيق اسم قديم إلا أن الملك تُبَّع قال حينما زار المدينة هذا عقيق الأرض وعلى ساحته سليلة وهذا عرضه الأرض. وعلى قول لما كان لون وادى العقيق فى غاية الاحمرار كان سببا فى إطلاق اسم العقيق عليه وانسى اسمه القديم.

ووادى العقيق من أعظم وديان الحجاز ويمتد من حدود الطائف ويمر بالمدينة إلى أن يتصل بالبحر الأحمر، لقد منح النبى ﷺ هذا الوادى لبلال بن الحارث المزنى ليستغله بطريق المقاطعة. ولما ترك هذا الوادى إلى عهد عمر بن الخطاب دون إعمار قال عمر الفاروق لبلال «يا بلال! إذ عمرت الوادى الذى أخذته عن النبى بالمقاطعة أتركه لك؛ وإذا لا تريد إعماره أقطعته للآخرين» ولما أخذ منه جوابًا بالنفى ترك جزءًا من الوادى فى يد بلال وأقطع الباقى للذين يرغبون وأعطاهم.

وقد قدر فى أوائل الإسلام فضل وادى العقيق ومزيته ومناظره الجميلة التى تسحر النفوس فعمر واستصلح بكل عناية مما أثر فى قرائح الشعراء فأنشدوا قصائد مدح فى حسنه وجماله قصائد لا تعد ولا تحصى. وقد تعود عمر بن الخطاب كلما ظهرت السيول فى وادى العقيق أن يذهب مع أهل المدينة إلى مجراه ويشرب منه الماء. وقد أخبر النبى ﷺ بقداسة وادى العقيق عندما قال: «جاءنى أحد فى هذه الليلة وقال لى صَلِّ فى هذا الوادى» وفى يوم آخر قال بعد أن ذهب إلى وادى العقيق ورجع «يا عائشة! وادى العقيق ما أجمله من مكان، وما أحلى ماءه وما أطرى ترابه؟!!» فوصف وادى العقيق مادحا وعندما قالت له «إذا كان كذلك فلماذا لا نقيم فى وادى العقيق» فأجابها قائلا: «إن الناس قد استقروا هناك وأعدوا لهم منازل خاصة ومن هنا فإن النقل والهجرة إلى وادى العقيق غير ممكن». وبين بهذا أن انتقال أهل المدينة إلى وادى العقيق أمر شاق، وقال فى يوم آخر لأنس بن مالك، وكان النبى ﷺ قد زار وادى العقيق فى ذلك اليوم «ملأت هذه المَطَرَةَ من واد يحبنا ونحن نحبه» وهكذا أظهر حبه لوادى العقيق.

(١) المَطَرَةُ: القربة.

كان سلمة بن الأكوع اعتاد أن يقدم للنبى ﷺ من لوم ما يصطاده.

يروى عنه أنه قال: «سألنى النبى ﷺ يومًا فى أية جهة تصطاد من أجلى؟» فأجبته قائلاً: «فى وادى يثب الذى فى ناحية قناة» عندئذ تفضل قائلاً: «لو كنت تصطاد فى وادى العقيق، لكنت أودعك عند الذهاب وأستقبلك عند الإياب».

٢ـ وادى بطحان:

إن وادى بطحان روضة غالية من فراديس الجنة كما جاء فى الأثر. وهذ الوادى من الوديان التى تقع فى وسط المدينة ويجرى ماؤه من جهة الحرة اليمانية ويجرى نحو موقع جفاف ثم يذهب إلى صحراء بنى خطمة، ويعود من هنا ويمر من وسط وادى البطحان فيجرى نحو الأراضى المتسعة فى زغابة.

يبدأ هذا الوادى من جلاتين على بعد سبعة أميال من المدينة المنورة، وينتهى إلى وادى جفاف الذى فى الجهة الشرقية من مسجد قباء ويتحد بنهير رانو بار.

٣ـ وادى رانو ناء:

يقال لهذا الوادى رانون أيضًا، وينزل سيله من جبل مقمن الواقع فى الجهة اليمانية من جبل عير ومن جبل جرش الذى فى الحرة الشرقية ويذهب نحو محل يسمى بـ «قرين المضرطة» ومن هناك إلى سد عبد الله بن عمرو بن عثمان المعروف بـ «سد عنتر» ومن هنا يمر بمنزل صفاصف وبموقع عصبة ثم يعبر من الجهة اليمنى لقرية قباء إلى «عوسا حوسا» وبعده يجرى إلى مكان يسمى بطن وادى حصب ويتحد هنا بالسيول التى تأتى من جهة ذى حصب وحرة. ويمر من قعر حوض بنى بياضة عن طريق ذى صلب وينقسم إلى قسمين ويجرى قسم منهما إلى بئر جسيم التى فى بلاد بنى بياضة وبهذا الطريق إلى وادى بطحان والقسم الآخر يجرى إلى وادى بطحان رأسًا.

٤ـ وادى قناة:

وكان اسم هذا الوادى القديم شظاة ولكن عندما بات تبع الحميرى فى الربوة

التى على مجراه قال: «إن هذا المكان قناة الأرض فعرف بين أهل المدينة بوادى قناة ووادى قناة ينفصل من الطائف ويسيل من بين جبال أرخصية ومن هناك إلى قرقرة المكدر، ومن هناك إلى بئر معاوية وبعده يمر من مكان يسمى قدوم أى من المكان الذى دفن فيه شهداء أحد إلى صحراء زغابة حيث تتحد سيول الأنهار الأخرى، وإن كان يُعد من وديان المغرب فهذا أكبر الأنهار التى تسيل إلى دار العزة المدينة المنورة غير وادى العقيق ويصل إلى سد نار الحرة فى الجهة الشرقية».

وسد نار الحرة، المحل الذى انطفأت فيه نار الحجاز المنذرة، وكانت سببا فى انقطاع مياهه مدة مديدة، وفاض بعد ذلك كأنه بحيرة كما جاء ذكره فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة تفصيلاً، وقد انشق ذلك السد فى سنة ٦٩٠هـ وقد تكاثرت مياهه ما يقرب من سنة بين الجبلين وأخذت تجرى فى صورة مخيفة وسريعة وأخذت تنقص السنة التى بعدها ثم نقصت بدرجة مخيفة، ثم تكاثرت المياه مرة أخرى فى خلال سنة سبعمائة وأخذت تجرى على نسق واحد فى خلال سنة كاملة ونقصت فى خلال ثلاث وثلاثين سنة تدريجيًا ولكنها فاضت فى سنة ٧٣٤هـ بسبب الأمطار العادية والمتوالية وفتحت لنفسها مجرى جديدًا وطغى سيل مثل البحار وجرى مجراه القديم إلى جهات الضريح الذى دفن فيه حضرة حمزة - رضى الله عنه - وسال مجراه الجديد إلى الجهات القبلية لجبل عيين، فجعل الضريح المذكور والجبل سالف الذكر فى الوسط، ولما بقى ضريح حضرة حمزة بين ماءين عظيمين فحرم أهالى المدينة من شرف الزيارة ما يقرب من أربعة أشهر. وقالوا إذ كشفوا السيول التى فاضت متراكمة أمام باب البقيع، إذا ارتفعت هذه المياه أكثر من هذا بنصف ذراع لا شك أن دار الهجرة ستتعرض للخراب والدمار، ولكن المياه انسحبت قليلا بلطف من الله وأغرق أهالى المدينة فى بحار البهجة والسرور واستقرت المياه ما يقرب من سنة فى النهيرات التى فى الجهات الشمالية والقبلية.

وكانت المياه قد فتحت قنوات العين القديمة وخربتها. وإن كان الأمير وردى أصلح ما فسد وخرب من القنوات ومجاريها وجددها، ولكن الأماكن التى

أصلحها الأمير وردى اندثرت تماما مع مرور الزمن ولم تظهر مرة أخرى ولم تعمر فانمحت العين المذكورة واندثرت.

٥ـ وادى مذينب:

ومياه هذا النهير شعبة من سيول وادى بطحان، لأن مياه بطحان تنقسم فى حديقة بنى أمية، إلى خمسة عشر جدولاً وتسقى أراضى بنى أمية فتتحد جميع الجداول وتدخل فى بطحان، ومياه هذا النهير كما ذكر آنفا يظهر من الخلاء الذى يسمى صعب وتمر بوادى زغابة، وتتصل فى ديار بنى خطمة بنهير مهزور وسبب ذلك اجتماع المياه وتراكمها فى حرة واحد.

يطلق على المذكور ماء وادى مذينب أيضًا وينفصل فى زماننا من الحرة الشرقية مارًا بالجهة القبلية من قرية بنى قريظة فيمر بالجهات الشرقية من قريتى نواعم وعهن وبعد أن يسقى حدائقهما يجتمعان فى المكانين اللذين يطلق عليهما بقيع الزرندى وناصرية. ثم يتجه إلى نهير جفاف الواقع فى الجهة الشرقية من مسجد الفضيح، وبعد أن ينصب فى الصحراء الكائنة خلف ماجشونية وبعد أن يتحد بشعبة من نهير مهزور فيجرى إلى نهير بطحان الواقع فى الجهة العليا من مسجد المس، وهنا يختلط بمياه رانوناء ويمر بالناحية الغربية من المصلى النبوية يجرى إلى أراضى مدينة دار السكينة.

٦ـ وادى مهزور:

تجرى سيول هذا النهير إلى أراضى بنى قريظة الكائنة على ربوة شوران وبعده يجرى إلى حدائق دار العز المدينة المنورة وبناء على قول ابن شبَّه أنه يظهر على ربوتى هكر وصمعه الكائنتان فى الحرة الشرقية وينصب إلى أراضى بنى قريظة حيث ينقسم إلى عدة شعب يجرى إلى نهير مذينب من بين منازل قرية بنى أمية بن زيد ويتحد فى صحراء بنى خطمة بسيول بنى قريظة ويصل إلى نهير مهزور وهنا يتخذ شكل نهر كبير ينقسم إلى شعبتين فتسقى شعبة منهما الأراضى التى فى تلك الجهات والشعبة الأخرى تسقى ما عدا حديقة مشربة أم

إبراهيم وجميع الصدقات النبوية وبعد ذلك يسيل ناحية قصر مروان بن الحكم ومن هناك إلى قصر بنى يوسف الذى فى بطن الوادى إلى المسجد المستقر فى بطن بنى حديلة عن طريق بقيع الغرقد وكرمة أبى الحمراء ويتحد فى النهاية بنهير قناة.

وشعبة من السيول العظيم الذى يتكون من اتحاد النهيرين مهزور ومذينب بعد أن يسقى الصافية وما حولها من الصدقات النبوية يمر عن طريق قصور من أطراف بقيع الغرقد ينصب فى وادى بطحان عن طريق الجدول الذى فتحه شيخ الحرم مرجان الزينى، وبما أن هذا الفرع من السيل المذكور يسبب خسارة للنخيل الذى حول البقيع الشريف حفر سالف الذكر مرجان الزينى جدولاً وأنقذ حدائق النخيل التى حول بقيع الغرقد من طغيان السيول، وقد فاض نهر مهزور فى عهد سيدنا عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بشكل مخيف وأحدث سيلاً عظيمًا كالبحر ومخيفًا حتى ظُنَّ أنه سيغرق ويمحو مدينة دار العز. وأراد عثمان بن عفان أن ينقذ الحرم النبوى الشريف والمدينة المنورة من هجوم السيل فأنشأ بجانب بئر مدرى سدا حجريًا متينًا وحول مجرى نهر مهزور إلى مجرى نهر بطحان، وبهذا أنقذ المدينة الطاهرة من هجوم السيل إلا أن ذلك السيل فاض مرة أخرى فيضانًا مخيفًا فى خلال سنة المائة الهجرية وفى عهد خلافة أبى جعفر المنصور فغمرت المياه الصدقات النبوية ثم هجمت على المدينة فملأت قلوب سكان دار السكينة بالهموم والغموم، وبناء عليه اتفق الأهالى على بناء سد، وفعلاً استطاعوا بناء سد قوى متين فى مكان يسمى برقة وذلك بدلالة امرأة عجوز على عينها، وحولوا سيول مهزور، ومع ذلك فاض نهرا مهزور وبطحان ليلة الانتهاء من عمليات السد واقتحمت المياه قريتى بطحان والسُّنح وغمرتهما فسببت خسائر عظمية لكثير من الناس، وخربت ما لا يحصى من المنازل وبعد ظهور السيل تراكمت واتحدت نهيرات العقيق ورانوناء وأذاخر وذى صلب وذى ريش وبطحان ومهزور وقناة فى مكان يقال له زغابة وكونت بحيرة عظيمة.

إن السيول التى تشبه البحار التى يطلق عليها أهالى المدينة السيول العوالى

تحدث من اتصال تلك السيول بعضها ببعض وانصبابها فى بعض فتتجمع فى موقع زغابة وفى الأراضى المنسوبة لسعد بن أبى وقاص، ومحل اجتماع السيل العظيم الذى يتكون من اتصال تلك النهيرات مع بعض فى الجهة العليا من وادى زغابة، ولما كانت مياه مدينة دار الهجرة كلها فى هذا المكان سمى هذا المكان بـ «إضم».

وكان ما نطلق عليه فى زماننا الضَّيْقَة هو ذلك المكان، وبعد أن تنضم مياه تلك السيول بعضها ببعض تكون بحرًا صغيرًا يمر بنهاية الصحراء الفسيحة التى يقال لها زغابة ومن هناك النهاية السفلى لـ عين أبى زياد وهى نهرا نعمى ونعمان وبعده إلى ذى خشب نهيرات ملل وأظلم وجنينة ثم يمر بالمردبان التى فى الجهة الغربية حرار ولواط والوديان التى فى الجهة الشرقية ذو آدان وإثمة وما فى الجهة الشامية من واد رمة وما فى الجهة القبلية من وادى ترعة وفى النهاية إلى وادى عيص ثم إلى وادى حجر وجزل فى داخل ذى المروة الكائن فى وادى سقيا ورحبة من هناك ينزل إلى وادى سفان المكان الذى ينصرف فيه السيل إلى البحر أسفل ذى المروة ومن هنا يمر إلى الأماكن التى يقال لها يعبوب، بنيجة، حقيب التى فى سفح جبال أراك.

وبناء على قول المطرى يمر بالمحل الذى يسمى اكرى فى طريق مصر وينصب فى البحر الأحمر وهذه المواقع الثلاثة تبعد عن البحر ثلاثة أميال.

فى ذكر أحراش المدينة المنورة

١ـ حِمَى النقيع:

معنى «حمى» المكان المحفوظ لرعى الدواب والنَّقيع المكان كثير الماء. والحمى المعروف بالنقيع يبعد عن المدينة ثمانية وأربعين ميلا، وعلى قول ستين ميلا، وهو فى جهة اليمن وماؤه غزير وجهاته الأربعة محفوظة، وهذه الأحراش طولها ميل وعرضها كذلك.

أحراش حمى النقيع:

تقع فى صحراء ساحرة وفضاء فرح ويحيط ماء وادى العقيق بالجهات الأربعة لهذه الصحراء وتجرى بجزيرة مسموع، وينبت فيها البرسيم والنباتات التى تنمو تلقائيًا كما تنبت أشواك الغرقد وستنجان التى يأكلها الجمال وسلم وعضاة من جِيْشِ أمِّ غَيْلاَن وأشجار أخرى. والنخيل الذى ينمو فى موسمه والأعشاب تطول حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يرى من يسير بينها من الفرسان راكبى الخيول، من الخارج وحصر النبى ﷺ ذلك المكان لرعى خيول المسلمين فحفظه من جهاته الأربعة واستمروا على حمايتها مدة عمره كما حفظ حضرة أبو بكر وفيما بعد عمر بن الخطاب هذا المكان وجعلاه مكان رعى لدواب المسلمين.

وكانت هذه المراعى إلى عصر عمر الفاروق يحدها من الجهة الشرقية حرة بنى سليم ومن الغرب تحدها مواقع رام شقراء، وبرة، ذات الصخور، بطن نقيع، ولما ضاقت مراعى المدينة عن استيعاب دواب المسلمين وسع عمر الفاروق مرعى النقيع، وقد تكاثرت خيول المسلمين وجمالهم حتى كان يساق إلى الشام والعراق أربعين ألف رأس جمل كل سنة للتجارة، وكان يربى أربعين ألف بعير لإعطائها للمشاة الذين لا يملكون الجمال فى أثناء الحرب.

٢ـ مرعى حمى الربذة:

ربذة اسم قرية من أعمال المدينة فى نجد وعلى بعد أربعة أيام من المدينة المنورة وهى القرية التى دفن فيها أبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ وكانت ربذة فى الأصل قرية مشهورة، وقد استولى عليها القرامطة فى سنة ٣١٩هـ وخربوها وأجبروا أهاليها على الهجرة.

وسبب استيلاء القرامطة على ربذة كان بدعوة أهالى قرية ضَرِيّة للقرامطة، لأن الحروب كانت متوالية ومستمرة بين سكان قريتى ربذة وقرية ضرية وكان النصر دائمًا بجانب أهل ربذة. ولما رأى سكان ضرية أن الانتصار على أهل ربذة مستحيل، طلبوا العون من القرامطة وكان القرامطة يريدون أن يستولوا على الحرمين المحترمين، ولما ساعدوا أهالى قرية ضرية بسوق كتائبهم فاضطر أهل قرية ربذة إلى ترك قراهم وهاجروا إلى أماكن أخرى ولم يعودوا إليها بعد.

وقد أمر النبى ﷺ برعى إبل الصدقة القادمة من البلاد الإسلامية فى قرية ربذة وعلى رأى آخر أن أبا بكر وعمر الفاروق هما اللذان أرسلا جمال الصدقة إلى قرية ربذة، وكان طول مرعى ربذة فى ذلك الوقت يصل إلى اثنى عشر ميلاً وكذلك عرضه وقد حرص ولاة المدينة على توسيع حدود المرعى حرصًا شديدًا والولاة الذين تولوا الولاية إلى عصر أبى بكر الزبيرى عنوا عناية شديدة بحماية ذلك المرعى فكانت حيوانات أهل المدينة ترعى فى مرعى ربذة إلى زمان جعفر بن سليمان.

٣ـ مرعى حمى الشرف:

وإن كان شرف المكان الذى اتخذه عمر بن الخطاب مرعى فالمحل الذى يطلق عليه شرف الروحاء فى مكان آخر، ومرعى شرف واد واسع كبير فى داخل مكان اسمه كبد نجد، وقرى قبيلة آكل المُرَار الكِنْدِى[1] من بنى حجر تتصل بمرعى شرف، كما أن مرعى ضرية أيضا بجانب جِبَال تلك القرية. وعلى جهة تميم من هذا المرعى مراعى ربذة، وبجانبه قرية شريف يفصل بينهما محل يسمى سرير،

(١) قيل: هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن كندى، ويقال كندة. وقيل هو حجر جدّ الحارث بن عمرو من ملوك إمارة كندة. انظر: الدرر ص ٢٥٧، وغيرها.

وتقع على الجهة الشرقية من المرعى المذكور موقع شريف، وعلى الجهة الغربية منه يطلق شرف ومراعى ضرية وربذة فى الصحراء الواسعة التى يشكلها المحل الذى يطلق عليه شرف.

٤ـ مرعى حمى الضَرِيَّة[١]:

ضرية على وزن غنية فى طريق حجاج البصرة، واسم قرية على بعد سبع مراحل من مدينة الرسول من جهة مكة المكرمة، عرفت باسم ضرية بنت ربيعة بن نزار أم حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وعلى رواية عرفت باسم بئر ضرية ذات ماء عذب خفيف. ومرعى ضرية مرعى خصب ومشهور ويروى أهل البادية أن أول من اتخذها مرعى هو كليب بن وائل، وحافظ على جهاته الأربعة، ويؤيدون رأيهم قائلين إن هذا القبر قبر كليب بن وائل.

وقد خص سيدنا عمر الفاروق المرعى المذكور لجمال الصدقة وحفظه من الحيوانات المتوحشة بوضع علامات خاصة فى جهاته الأربعة كل ستة أميال فى المحلات المكشوفة، فظلت قرية ضرية فى داخل تلك العلامات. وزادت جمال الصدقة تدريجيًا فلم يكف المرعى المذكور لاستيعابها. فاشترى سيدنا عثمان الماء الخاص بديار «جنيبة» وأضاف الأراضى التى فيها ذلك الماء إلى أراضى ضرية فوسع المرعى.

الماء الذى ألحقه سيدنا عثمان إلى مرعى ضرية كان معروفًا باسم بركة من مياه «بنى جنيبة» ولما كان هذا الماء بجانب القمم المدببة التى تسمى ببكرات وعلى بعد عشرة أميال من مرعى «ضرية»، فاشترى المشار إليه بعد فترة تلك القمم فألحقها بمرعى «ضرية» فأوصل المرعى إلى حيث يستوعب حيوانات المرعى.

ونافس الولاة فى أوائل عهد الدولة الأموية فى توسيع مرعى «ضرية» والحفاظ عليه إلا أن الولاة الذين أتوا فيما بعد تبدلت أفكارهم واتخذوا ذلك المرعى كَلأً لأنفسهم ومزرعة؛ فوسعوا حدود المرعى وضيقوا على الأهالى فى

(١) الطبرى ٢/٢٦٦.

قرية ضرية الذين كانوا حراسا للمرعى حتى عجزوا عن حراسة المرعى فخالفوا أوامر الولاة حتى إنهم أشعلوا نار الحرب ضد إبراهيم بن هشام المخزومى الذى كان أشد الولاة ظلمًا وغدرًا والذى أعد ألف جمل فى كل لون وأراقوا فى تلك الوديان دمًا بدلاً من الماء.

وبئر ضرية من مياه ديار ضباب قد مدح ذى الجوشن الضبابى الذى كان من شعراء الجاهلية ووالد قاتل حضرة حسين بن على أبى بن طالب ـ رضى الله عنه ـ العين المذكورة بالقطعة الآتية:

دعـــوت الله إذ سقـــــت عيـــالى

ليجعـــل لى لـــدى وســـط طعاما

فأعطانى ضريـــــة خير بـــــئر

تمج المـــاء والحـــب التئامـــــا

و«وسط» الذى ذكره ذو الجوشن فى قطعته المذكورة اسم جبل على بعد ستة أميال من ماء ضرية، ويمر حجاج القوافل من أسفل هذا الجبل، وفى أعلى الصحراء التى تسمى عسس التى تقع على يسار هذه الجبال ماء آخر ويعرف باسم «قنبع» فهو بين جبل وسط وصحراء عسس تجلب الفرح والسرور.

وعسس اسم جبل أحمر، وقد خلق هذا الجبل بشكل غريب مرتفعًا نحو السماء فالذين يرونه من بعيد يظنونه رجلاً ضخم الجثة جالسًا.

ولما كان ماء ضرية تحت تصرف عثمان بن عتبة بن أبى سفيان فقد أنبت عتبة حول الماء كثيرًا من حدائق النخيل وحتى يسقى هذه الحدائق سد فتحة النهر وجعل نهر ضرية فى حالة مضحكة، ولما انتقلت الخلافة إلى أيدى العباسيين ضبط العباسيون حدائق عتبة واستولوا عليها واستخدموها حتى انقراضهم.

عندما انقرضت دولة بنى عباس كانت زوجة الشخص الذى يتصرف فى ملك عثمان بن عتبة من قبيلة بنى جعفر بن كلاب المخزومى، وجاء مرة عمها ضيفا وبات على ساحل نهر ضرية طلب منها بعض الأراضى فتركت لعمها بعض

الأراضى وطيبت خاطره، ولما كان عمها من البدو كان يمتلك كثيراً من الحيوانات، وفى وقت ترطيب البلح وحينما طاب للأكل هاجر العم مع أولاده وعياله وخدمه ودوابه إلى شاطئ ذلك النهر وأخذ يطعم الضيوف الواردين ويجلب نياقه وأخذ يسقى اللبن للواردين ويظهر مظاهر كرمه.

ولما تجاوز البلح وقت ترطيبه جاء عنده اثنان من الضيوف فبعث إلى صاحبة الأرض وطلب منها بعضا من الرطب الطازج ولما كان وقت البلح الطازج قد مر فقطف خادمها مقداراً من البلح وأحضره وأخطره بأنه لم يجد بلحًا طازجًا فى الحديقة. قال البدوى إن صنعكم هذا من أجل إكرام ضيوفى غيث، وأعاد الخادم المسكين، وجاء الخادم مرة ثانية بمقدار من العجور وبين أن موسم الرطب قد مر فعاتبه قائلاً: «فليسود وجهك مثل الشىء الذى أحضرته»، ولامه وكره ما أهدى له من حدائق النخيل وباعها لعامل يمامه عبد الله الهاشمى بألفى قطعة من الذهب، وهذا ما يروونه، وأما عبد الله الهاشمى فقسم ما اشتراه من الحديقة إلى قسمين، وبنى فى وسطها كثيراً من الدكاكاين وسماها سوق ضرية وأجرها بثمانية آلاف درهم سنويًا.

٥ـ حمى فيد:

المرعى المسمى بفيد هو المرعى الذى اختاره حضرة عمر الفاروق وهى فى طريق حجاج العراق وعلى بعد تسع مراحل من المدينة فى ناحية نجد ويشتمل مرعى فيد على كثير من العيون وبرك وتقام سوق كبيرة فى جهة منه وسبب تسميته بهذا الاسم إقامة فيد بن حام أول مرة فى هذا المكان.

وفى المكان الذى تقام فيه السوق بئران وهما عين النخل وجاره وأمر بحفر عبن النخل حضرة عثمان وبئر جاره أبو جعفر المنصور، كما أمر المهدى البغدادى بحفر بئر أخرى فى خارج القرية وعلى الطريق.

ولا ينكر أن الآبار الموجودة قد بقيت من العهد الجاهلى إلا أنه قد حفرت فى صدر الإسلام آبار كثيرة وبُذِلت الجهود لإعمار البلاد الحجازية.

يقول بعض المؤرخين أن حافر بئر عين النخل هو أبو الدلم، وهذا الشخص أول من حفر بئرًا فى صدر الإسلام، وكان من موالى الفزارى وحفر البئر المذكورة فى زمن بنى مروان.

وأنبت بجانبها حديقة نخيل منتظمة وخصبة وتعيش بمحاصيلها إلى ظهور بنى عباس، وقد اغتصب بنو عباس حديقة نخيل ذلك الرجل. إلا أن هذه الرواية تجعل القول السابق غير قابل للتصديق. إذ إن البئر التى يطلق عليها عين النخل هى البئر التى حفرها عثمان بن عفان.

وبناء عليه فأول من حفر بئرًا فى العهد الإسلامى هو حضرة عثمان ـ رضى عنه الله المنان.

فى ذكر الجبال والأماكن والأوطان والقرى التى تنسب إلى المدينة المنورة مرتبة حسب الحروف الهجائية

حرف الألف

«آرة»: على وزن حارة اسم جبل كبير من جبال بلاد مزينة. وحوله كثير من الجداول والقرى مثل فرع أم العيال[1] مضيق، محضة، وبرة، خضرة، فعوه وغيرها.

وتتحد مجارى السيول التى تجرى من ذلك الجبل وبعد أن تشكل صحراوين وسبعتين تصب فى وادى الأبواء وبعده فى وادى ودان وفى صحراء حقل قرية اسمها وبعان وفى صحراء خلص قرية معمورة أخرى تسمى عرام.

«آبار»: على وزن آثار و«أُبيره» على وزن رويده اسم نهرين يصبان فى وديان منزل آجر إلى ينبع البحر.

أبرق خترب: الأبرق منفرداً معناها الأرض الغليظة التى اختلطت رملها بالطين والحجارة إلا أن أبرق خترب اسم أرض صخرية فى مرعى ضَرِيّة. يروون أن هذه الصخور من معدن الفضة، وأبرق الداث أرض صخرية فى مجرى نهر راشا الكبير فى مرعى ضرية.

أبرق العزاف: أرض حجرية بين المدينة وقرية ربذة وعلى بعد عشرين ميلا من ربذة، عزاف اسم ماء مشهور فى بلاد قبيلة أسد بن خزيمة بن مدركة ويجرى من مكان يسمى حومانة الدراج إلى ماء عزاف ومن هناك إلى بطن النخلة ومن هناك إلى محل يسمى طرف ومنها يذهب إلى دار العز المدينة المنورة، وحول هذا الماء عدة آبار ذات مياه غليظة وقديمة. قال خريم بن فاتك

(١) من أوقاف سيدة النساء.

مبينا إسلامه «كنت بِتُّ ليلة فى أربق العزاف حينما أخذ الجو يظلم استولى على الخوف والرهبة استعذت قائلاً «أعوذ بعزيز هذا الوادى من سفهته» فسمعت من الهاتف:

عــذ يا فتى بالله ذى الجــلال

واقــرأ بآياتـــه من الأنفال

ووحـــد الله ولا تبـــال

فقلت يأيها الهاتف النبى! ماذا تريد أن تقول؟ مرادك أن تضلنى؟ أم أن تهدينى؟ فأخذت الجواب الهاتفى:

النـــبى عـــالى الشـــأن

الذى ظهـــر فى المدينـــة

صـــاحب الخـير والإحســان

يدعـــو الناس إلى طريـــق النجاة

طريـق الإســلام والخـير!!

عندما سمعت ذلك استولت على الرغبة فى الإسلام.

ومن اطلع على شرح قصيدة بانت سعاد العصماء لا يخفى عليه أن كعب بن زهير التقى بأخيه بجير فى مرعى أبرق العزاف، وهذا سبب اعتناقه للإسلام، وثمة أرض صخرية تقع بجانب حصن القيماء المعروف بالأبلق القرد ويزعم العرب أن سليمان ـ عليه السلام ـ هو بانى هذا الحصن.

أُبْلَى: على وزن حُبْلَى اسم عدة جبال تقع بين السوارقية والرخصية وهو من جبال بنى سالم، وعلى بعد ثلاثة أو أربعة أيام من المدينة.

الأبواء: على وزن حلواء. اسم قرية وربما أن النهر الذى كان بجانب هذه

القرية قد فاض وتبوأ فى منزل من منازل القرية ومن هنا أطلق على هذه القرية أبواء إلا أن عند البعض أن أبواء اسم جبل على يمين تلك القرية ذات أوبئة كثيرة فأطلق اسم أبواء على تلك القرية عن طريق القلب.

وثمة واد بين إثابة وروثة وعرج.

إثابة: اسم بركة فى وادى العقيق بين أراضى عبد الله بن الزبير ونخيل يحيى بن الزبير.

اثيفية: على وزن زبيرية اسم ماء فى وادى العقيق يعرف أيضًا بأثيفية.

أُثيل: على وزن زبير، اسم موضع بين قريتى بدر وصفراء، وكان هنا بئر منسوبة لآل جعفر بن أبى طالب، وعندما رجع النبى ﷺ من غزوة بدر الكبرى نزل هنا وصلى صلاة العصر وقتل نضر بن الحارث مع وجود ميكائيل، وفى بلاد بنى حمزة أيضًا مكان يسمى أثيل.

ذات أجوال: اسم موضع فى مضيق صفراء.

أجرد: أسماء حصن فى مكان يسمى «لصة»، واسم جبل فى الجهة الشامية من بواط وهو تابع لقبيلة جهينة، واسم جبل آخر أمام مدلجة تعهن[1]، أو موقع.

أجشى: اسم حصن ينسب لبنى أنيفة أو أَجُم بنى ساعدة اسم حصن منسوب لقبيلة بنى ساعدة بالقرب من مكان يسمى ذاب.

وأجم على وزن جرم

إخطار:

والحصون التى ذكرت والتى ستذكر فيما بعد ليست حصونًا وقلاعًا عادية بل إنها أبراج صنعت للتحصن فيها حسب اقتضاء الحاجة.

أحباب:

على وزن أسباب اسم بلدة بجانب موقع سوارقية.

(١) تعهن: بضم التاء والعين، وتشديد الهاء. وأصحاب الحديث يقولونه بكسر التاء وسكون العين. اللسان (تعهن) ص ٤٣٤. ط. دار المعارف.

تطلق أحجار الزيت على أحجار مرتفعة بجانب منازل بنى عبد الأشهل أى بالقرب من ضريح مالك بن سنان رضى الله عنه.

إخطار:

كان الزياتون قبل الهجرة النبوية يضعون فوق هذه الأحجار زيت الزيتون ويتاجرون. ولكن مع انقلابات الزمان ارتفعت أرضية ذلك المكان واندرست الأحجار المذكورة وظلت تحت التراب وأصبح هذا المكان طريقًا مستويًا على طرف منه سور المدينة وفى الجهة الأخرى بيوت ومحلات، وحدثت وقعة الحرة المشهورة بالقرب من أحجار الزيت وبجانبه استشهد النفس الزكية.

أحجار المراء:

هو اسم المكان الذى نزل فيه حضرة جبريل فى قرية قباء وأحياء الجهة السفلى من ثَنيّة المرة الواقعة المكان الذى بعث فيه رسول ﷺ سرية عبيدة بن الحارث[1].

أَخْزَمُ: على وزن أَحْمَدُ اسم جبل بين مَلَل وروحاء ويعرف فى زماننا بخزيم.

وأخضر: اسم منزل بالقرب من تبوك عندما كان النبى ﷺ ذاهبا إلى غزوة تبوك نزل فى هذا المكان.

أذاخر: اسم ثنية قريبة من مكة المكرمة.

أزين: اسم منزل عند مدخل مضيق صفراء.

أرْتَدْ على وزن أَحْمدَ اسم وادى أبواء.

أرخصيته اسم قرية ذات آبار ومزارع متعددة فى ناحية أبلى فى محاذاة قرية حجر، ويقال لها رخصية وبكسر الراء أيضًا.

أسقف: اسم جبل فى ناحية رابغ.

أسواف: وقف زيد بن ثابت فى الطرف الشامى للبقيع وفى شارع جبل أحد، وأساويف اسم آخر لذلك الوقف الذى يتوارثه طائفة عرب زيدون، وكان النبى ﷺ يشرف الأسواف كلما ذهب لزيارة سعد بن ربيع الأنصارى، وكان يجلس على السجادة التى تفرشها زوجة سعد، وبشر أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضى الله

(١) انظر: الطبرى ٢/ ٤٠٤.

عنهم ـ بالجنة فى بئر أسواف وكان واسطة التبشير حضرة بلال[1]، وعلى هذا التقدير فإنهم بشروا بالجنة مرتين.

الأشعر: أحد الجبال التى نالت ثناء النبى ﷺ عندما قال خير الجبال أحد والأشعر والورقان.

أشنف: أحد الحصون أمام مسجد الخربة.

إضاءة بنى غفار: اسم موضع فى الجهة الغربية من سوق المدينة، حيث تلاقى جبريل مع الرسول ﷺ فى هذا الموقع، ويقال لجبال جهينة التى تنتهى عند بطحان إضاءة بنى غفار أيضًا.

أُضاح: على وزن غُراب اسم مكان سوق ويبعد عن الموقع المسمى عرفجا مسافة ليلة.

أضافر: جمع ضفير أسماء بعض الربى الرملية بين الحرمين حينما ذهب النبى ﷺ إلى غزوة بدر مر بهذه التلال الرملية بعد موضع ذفران، وتلال الرمال التى تبعد عن الموقع الذى يطلق عليه هرشى يقال أضافر كذلك.

إضم: على وزن عِنب اسم وادى ضيقة القديم.

ومياه الأنهار الأخرى تتحد فوق هذا النهر ويلف من ناحية زغابة، ويطلق على ما بين موضعى ذى خشب وذى المرة على الجبال التى بين هذين الموضعين إضم كذلك ويبعد عن المدينة ثلاثة أميال قد تلاقى النبى ﷺ فى هذا المحل أيضًا مع جبريل عليه السلام.

أطول: اسم حصن فى محلة بنى عبيد التى تقع فى الجهة القبلية لمسجد الخربة.

أعشار: نهر فى وادى العقيق والأعشار فى مجرى هذا النهر.

أعظم: على وزن هفتم اسم جبل كبير فى الجهة الشمالية من موضع ذات الجيش.

يروى أن فوق هذا الجبل قبر أحد الصالحين أو نبى مجهول الاسم.

(١) مر فى موضع سابق أن من بشرهم كان أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ وعلى ذلك يكون قد بشروا مرتين.

وأعمار: كان اسم أربعة حصون فيما بين مزار وويخل، كما أنه اسم جبل فى بلاد قبيلة بنى عبيد، وجهة من جهتى هذا الجبل بلاد بنى حرام والجهة الأخرى بلاد جماعة قبائل بنى عبيد.

أعواف: اسم حديقة نخيل من الأوقاف النبوية يعرف أيضًا باسم عواف.

أعوض: على وزن أحمر اسم موضع بين بئر السائب وبئر المطلب فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة.

أفراق: على وزن أعمال وعند البعض على وزن إنسان اسم حديقة من حدائق المدينة.

آب: على وزن جو آب اسم نهر من أنهار جبل أشعر أسفل عين العلا والذى يلتقى بمضيق صفرا.

الهان: على وزن مسان كان اسم موضع ينسب إلى بنى قريظة واسم الماء الذى وقفته أم العيال حضرة فاطمة أنَا وبجانبه مكان حيث تقام السوق، وكان هذا الماء تحت إدارة ابن طلحة بن عبد الله، وقد أنفق المشار إليه ثمانين ألف درهم وغرس عشرين ألف نخلة واعتاد أن يكسب من حاصلاتها أربعة آلاف درهم سنويًا، وبما أن العين المذكورة قد انتقلت فيما بعد لسيدة النساء فوقفتها.

أمج: اسم نهر ينفصل هذا النهر مع نهر غرابة من قيمة بنى سليم ويسير حتى البحر وعلى بعد ميل من نهر أرزق فى جهة مكة وعلى بعد ميلين من منزل خليص من جهة مكة

أَمَر: على وزن أمل اسم قرية على ثلاث مراحل من المدينة فى جهة فيد أو اسم حديقة، كان الرسول ﷺ أقطع هذه الجهة لعوسجة الجهنى.

إمرة: على وزن كسوة وعلى قول على وزن كعبة أسماء الآبار التى تقع بجانب جبل مغارية.

أنعم: اسم جبل يقع على يمين من يأتون من جهة رقيقين من طريق العقيق

واسم جبل آخر قريب من مرعى ضرية وفى موضع بطن عاقل. والجبل الذى على طريق العقيق بضم العين على وزن ينجم، والجبل الذى فى بطن عاقل على وزن أكرم بفتح العين.

إهاب: على وزن كتاب اسم موضع بجانب الحرة الغربية وبئر أهاب فى هذا المكان.

ذو أوان، اسم بلدة فى جهة تبوك على بعد ساعة من المدينة المنورة، عندما عاد النبى ﷺ من غزوة تبوك نزل فى هذه البلدة واطلع على حيلة مسجد ضرار.

أوساط: اسم موضع بالقرب من قرية سعد بن عبادة والذين كانوا يصلون إلى هذا المكان فى الجاهلية يدخلون تحت حماية سعد بن عبادة وتحت ضمانه وكفالته.

حرف الباء

بئر أرمى: أرمى على وزن أعلا، اسم بئر على بعد ثلاثة أميال، حيث وقعت غزوة ذات الرقاع الجليلة.

بئر اليت: على وزن ألبت اسم بئر على بعد يومين من المدينة المنورة.

بئر جشم: على وزن هنر، على الطرف الغربى من مجرى نهر رانوناء أى فى قرية بنى بياضة وفى مكان يسمى حُرْف فهو اسم بئر.

بئر خارجة: اسم بئر فى المدينة المنورة، وقد عرفت باسم رجل أولم وليمة بجانب هذه البئر إلا أنه لا وجود لهذه البئر فى هذا العصر.

بئر خُريف: على وزن زُبير اسم بئر قريبة من بئر أرمة.

بئر الدريك: دريك على وزن شعيب اسم بئر فى قرية بنى خطمة، يقال بئر زريق أيضًا،

بئر ذَرْوان: على وزن مَرْوان اسم بئر، يقال لهذه البئر ذى أروان أيضًا. وهذه البئر بئر لبيد ابن الأعصم الذى سحر النبى ﷺ وهو حليف زريق، قد

ألقى المنافق المذكور ما أعده من سحر لسحر النبى فى هذه البئر وقد أخبر جبريل النبى ﷺ بالموضوع فأخرج النبى ﷺ من البئر السحر الذى صنعه لبيد، كما سيأتى بيانه فيما يأتى، ثم سد بئر ذروان بالتراب والحجر، إن شمس الملة البيضاء أخذت تنشر ضياءها إلى الجهات الستة من الآفاق فاشتعلت فى أعماق اليهودى الدون نار الحقد والحسد فتخيل أنه يمكن أن يضر النبى ﷺ، ولم يستطع اليهود أن يصلوا إلى آمالهم بالحيل والدسائس، وعندئذ تولى الأمر لبيد بن الأعصم وكان من مشاهير السحرة ولم يكن له مثيل فى ميدان الشر وكان فى الفتن رأس الأفعى فسحر وتدًا فعقده فى أحد الأماكن منه وغرز فى كل عقدة إبرة ودفنه فى قبر قديم، ثم أخرجه من هناك وتركه تحت حجر فى بئر ذروان وقد تأثر النبى ﷺ جسميًا من هذا السحر لحكمة ما وأخذ يتخيل أنه فعل الأشياء التى لم يفعلها وأخذ ﷺ يتضايق من هذه الحالة حينئذ أتى جبريل - عليه السلام - بسورتى المعوذتين اللتين تحتويان على إحدى عشرة آية.

وأخبر النبى ﷺ أن لبيد بن الأعصم قد وضع الوتد الذى سحره تحت حجر فى بئر ذروان، وبناء على المعلومات التى استقاها من جبريل - عليه السلام - أرسل على بن بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى بئر ذروان فأخرج الوتد المذكور من بئر ذروان.

وبناء على تعليمات جبريل قرأ على الوتد المعوذتين وعقب كل آية كانت عقدة من العقد تنحل ولما انحلت جميع العقد تخلص جسم النبى ﷺ من قيود الاضطراب الثقيلة واكتسب خفة ونشاطًا وسرورًا وفى ختام قراءة السورتين الجليلتين أفاق كليا، ولما كان النبى ﷺ يقرأ السورتين كان يشترك جبريل مع النبى ﷺ بالدعاء قائلاً بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك.

بئر رِآب: رأب على وزن كِتاب اسم بئر فى موضع محيص.

بئر ركانة: بئر تقع على طريق العراق وعلى بعد عشرة أميال من المدينة.

بئر زمزم: بئر فى موقع إهاب.

بئر سائب: على بعد يوم واحد من المدينة فى جهة نجد كما أنه اسم جبل أمام موقع شباع وعلى بعد يوم واحد من شقرة ويروون أن حضرة إبراهيم نزل على قمة ذلك الجبل.

بئر عائشة: اسم حصن واقع فى الجانب القبلى لمسجد فصيح.

بئر عذق: عذق على وزن شوق اسم بئر فى جهة قباء وفى داخل محلة بنى أنيف.

بئر عروة: اسم بئر مشهورة فى وادى العقيق.

بئر العقيق:

بئر ذات العلم: اسم بئر أمام موقع الروحاء ينقلون أن على بن أبى طالب قاتل الجن فى نهاية عقبة هرشى القريبة من البئر المذكورة.

بئر عاصر: فى جهة بئر أريس واسم بئر وقفها عثمان بن عفان.

بئر فاطمة: اسم البئر التى حفرتها بالقرب من الحرة الغربية بنت حسين بن على بن أبى طالب فاطمة ـ رضى الله عنهما ـ لما أخرجت المشار إليها من دار والدة حضرة حسين جناب فاطمة ـ رضى الله عنهما ـ صلت بجانب الحرة المذكورة ركعتين من الصلاة وبعدما حفرت المكان الذى صلت فيه أمرت أن يحفر فى هذا المكان بئر، ووجد حفار البئر الماء فيها بكل سهولة فبنوا حولها.

ولما أراد إبراهيم بن هشام بناء دار فى ذلك المكان ونقل سوق المدينة فى هذا المكان أراد أن يحفر بئرًا واسعة كالحوض ليسهل أمور أهل السوق ولكن حينما بدأ بحفر البئر صادف صخرة عظيمة لا يمكن نقبها ولا حفرها مما أدى إلى بقاء الحوض الذى عمق وحفر بدون ماء، فاشترى البيت الذى بنته حضرة فاطمة بجانب البئر من ابنها عبد الله بن حسن بن حسين بن على ـ رضى الله عنهم ـ وترك البئر لأهل السوق كهدية، وإن كان من يروى فى وقتنا أن تلك البئر هى بئر زمزم المشهورة إلا أن هذه الرواية خاطئة لأن بئر زمزم بجانب بئر فاطمة.

بئر فجار: ستذكر بئر فجار فى شاطبية.

بئر مدرى: على وزن عِندى، اسم بئر بجانب السد الذى بناه عثمان بن عفان لينقذ الحَرم الشريف من فيضان نهر مهزور.

بئر مرق: اسم البئر التى فى حدائق النخيل التى تنسب لبنى ظفر ويطلق على تلك الحدائق فى عصرنا مرقية.

بئر مطلب: اسم بئر على بعد ستة أميال من المدينة المنورة فى جهة نجد على قارعة الطريق ووجه تسميتها أن مطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومى هو الذى أمر بحفرها.

بئر معون: اسم بئر فى موقع الرجيع حيث كانت المذبحة الأليمة.

بئر الملك: اسم بئر فى موضع قناة، حفرها تبع الحميرى.

بئر الهجيم: اسم بئر بجانب منزل العصبة وبجانبها خرائب حصن قديم.

«بترا»: اسم مكان مر عليه الرسول ﷺ فى غزوة بنى لحيان ثم مال متجها إلى اليسار ودخل بين بعض الصخور.

بجرات: اسم المياه التى تتراكم فى جبل شورى.

بُحران: على وزن نُعمان وعلى قول شعبان وفوق موضع يسمى فرع يروون حدوث غزوة أو سَرية فى هذا المكان.

يخرج كان اسم حصن قديم فى قرية قباء.

بدار: اسم موقع بجانب وادى القرى.

بدر: اسم البئر التى حفرها بدر بن قريش بن مخلد ابن النضير من بنى غفار فى ناحية بدر وسميت باسم حافرها، وقعت غزوة بدر الكبرى بجانب هذه البئر، وعلى رواية أخرى أن بدر بن قريش ذلك من أفراد قبيلة بنى حمزة، ووجه تسمية البئر ببدر إقامته بجانب تلك البئر، ويطلق على ذلك الموضع بدر الموعود بدر القتال بدر الثالثة أيضًا، وقد أعز الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه المعركة

الموحدين، استشهد فيها ثلاثة عشر من الصحابة غير عبيدة بن الحارث وتوفى عبيدة متأثرًا بجراحه التى أصيب بها فى بدر فى مكان يسمى صفر حيث دفن.

صدى الطبل فى مذبحة بدر الكبرى:

وبناء على تدقيق وتحقيق المرحوم المرجانى أنه سمع فى مذبحة بدر الكبرى التى حدثت فى أوائل الدولة الإسلامية صوت طبل المعصر وأن هذا الطبل سيدق إلى يوم القيامة، وهذا ثابت بالآثار الصحيحة.

ويروى أن بعض الذين يمرون من موقع المعركة يسمعون صوت الطبل ويحكى أنه يرى فى ذلك المكان احمرار فى السماء بالليالى.

عجيبة:

يقول نخبة أهل الوثوق ابن مرزوق ـ رضى الله عنه ـ استمعت من أكثر الحجاج أنهم لما مروا بوادى بدر سمعوا أصوات طبل ملكى وأن هذا الصدى دليل انتصار المسلمين، وإننى لم أستطع أن أصدق هذه القصة أبدا وكبر الموضوع فى ذهنى حتى وصل إلى درجة الإنكار أحيانًا وأحيانًا عزوت هذا الصوت إلى أصوات حوافر الخيول فى أرض بدر الصلبة الخشنة وصرفت الفكر عن الموضوع. وعرفت فيما بعد أن أرض بدر ساحة رملية لينة، وأن أكثر الدواب التى تنتقل بين الحرمين جمال وأن أقدام الجمال لا تصدر صوتًا حتى فى الأرض الصلبة الخشنة وبناء عليه تخليت عن التأويل السابق واستغرقت فى بحار الحيرة وبقيت مضطربًا قلقًا إلى أن مررت بنفسى من وادى بدر، وفى السنة التى سافرت فيها إلى مكة محرمًا لأداء فريضة الحج كنت نسيت الخواطر التى حول بدر وكان قائد القافلة الموقر قد ساق القافلة إلى وادى بدر فنزلت من على ظهر الجمل وأخذت أسير مترجلاً دون أن يكون فى خاطرى الفكرة المشروحة وكانت فى يدى عصا من خشب شجرة أم غيلان وبجانبى غلام من الجمالين حبشى السحنة، وعندما وصلنا إلى المكا الذى تحدث عنه بالحجاج قال لى الغلام المذكور هل تسمع

هذا الصوت؟ فذكرنا بالموضوع السابق فاستمعت إليه وفعلا يسمع صوت شبيه بصوت الطبل فتملكتنى رعشة من الهيبة واقشعر شعر جسمى وخرج من ملابسى كالإبر.

ولما كان الجو عاصفًا ترددت فى الذى سمعته من صوت الطبل الملائكى وقلت يظهر أن العصا التى فى يدى تصدر صوتًا بفعل اصطدام الريح بها فرميت العصا وحصرت سمعى حتى أطلع على حقيقة الحال، وكان صوت الطبل يسمع مستمرًا من جهتى اليمنى ومنذ أن باتت القافلة فى وادى بدر إلى قيامها استمعت إلى ذلك الصوت سالف الذكر فحللت مشكلتى، ولاشك أن سماع تلك الأصوات غير مقدر لكل شخص.

الإمام القسطلانى «مؤلف المواهب اللدنية» من الذين سمعوا صوت الطبل المذكور إذْ يقول المشار إليه فى كتابه كان ينتقل سماع صوت الطبل المعهود فى المكان الذى وقع فيه غزوة بدر الجليلة، فجربت الاستماع فى الحقيقة سمعت صوت الطبل، حتى إننى سمعت صوته عندما نزلت فى اليوم الذى نزلت فيه بدرًا، ويقال إن كل شخص لا يستطيع أن يسمع هذا الصوت، وقد سمعه أيضًا مؤلف تاريخ الخميس حسين بن محمد من ديار بكر، يقول فى تاريخه: أنا أيضًا كنت مشتاقا لتجربة هذا الموضوع، وعندما كنا ذاهبين من المدينة إلى مكة المكرمة بتنا ليلة فى بدر حيث أقمنا فيها يومًا وبعدما أدينا صلاة الفجر وصل إلى أذنى صوت طبل كان يوم الأربعاء من أوائل شهر شعبان من السنة المذكورة، وظَنَنْتُ أن ذلك الصوت يأتى من الجبل المرتفع الذى يقع فى الجهة الشمالية من بدر فأسرعت بالصعود إلى ذلك الجبل، مع أن مائة من رجال القافلة ونسائها استمعوا إلى الصوت، ولم أسمع فوق الجبل صوت طبل فنزلت إلى سفح الجبل، وبدأت أسمع صوت الطبل آتيًا من تجاه ذلك الجبل، والذين سمعوا الصوت ظنوا أن الصوت آت من تجاه ذلك الجبل، ظللنا هناك مدة طويلة، وكان ذلك الصوت يأتى أحيانًا من تحتنا وأحيانًا من فوقنا وأحيانًا من خلفنا وأحيانًا من أمامنا أحيانًا من يميننا وأحيانًا من يسارنا.

وعندما استمعنا لهذا الصوت كان الهواء راكدًا ولم تكن الريح تهب من آية

ناحية، والذين يستمعون لهذا الصوت ما كانوا يفرقونه عن صوت الطبل المعهود.

براق خبت: خبت على وزن جهة اسم مكان فى صحراء تبدأ من بدر وتنتهى فى مكة.

برام: على وزن أنام أو على وزن إمام، اسم جبل مشهور قمته مثل الخيمة وعلى الجهة الغربية منه ترى سلاسل جبال نقيع وعلى الجهة الشرقية منه ترى سلاسل جبال عسيب.

بُرقة: على وزن دفته أو على وزن نكته اسم موضع من الأوقاف النبوية.

برقة العيران: اسم موضع ذات منظر غاية فى الغرابة من الجمال بين مرعى ضرية وبيسان وله طول وعرض مسافة نصف ساعة.

ويطلق اسم برقة بين العرب على أماكن حجرية ورملية وطينية ولما كانت برقة العيران على خلاف ذلك نالت ثناء الشاعر المشهور امرئ القيس ومدحه.

برك: اسم مكان يقع فى محاذاة موقع يقال له شواحظ فى ناحية سوارقية.

بُركة: على وزن عُزبة يطلق على مقسم مياه عين الزرقاء.

بَرمة: على وزن جزمة اسم موقع قريب من موضع بلاكت ما بين وادى القرى وخيبر، فى هذا المكان مياه كثيرة وحدائق يطلق عليها ذو البيضة.

برود: على وزن حسود اسم مكان ما بين أشعر وملل واسم موضع فى جهة حرة النار.

بَزواء: على وزن حَلواء اسم بلدة مرتفعة الحرارة بين واديى ودان وجار وأعلى قليلاً من الساحل. وكانت قبيلة بنى ضمرة من قبائل كنانة ساكنة فى هذا البلد.

وعزة معشوقة كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعى من الشعراء المشهورين كانت من هذه البلدة.

وإن كان كثير بن عبد الرحمن مشهوراً بين الناس لجودة أشعاره ورقتها إلا أنه كان أحمق يظهر عداوته وغيظه للعلويين الذين ينتسبون إلى حضرة على بن أبى طالب.

مضحكة

ينقلون عنه هذه الحكاية دليل بلاهة خلقه، لازم كثير الفراش يوما وهو مريض، فذهب بعض ظرفاء العصر لعيادته وأخذوا يستفسرون عن حاله مراعاة لأصول العيادة، فخاطبهم كثير قائلاً الظاهر أننى سأتوفى غالبًا. فسألوه قائلين وطيبوا خاطره: لا كلا! إن وفاتك ستتأخر بعض الوقت، فأجابوا كثيراً بناء على قوله: أرجوكم أيها الإخوة، إذا كان بين الناس معلومات صحيحة بخصوص طول عمرى، أخبرونى فقالوا له رداً على هذا: إن الناس قاطبة يعتقدون أنك دجال! وبما أن ظهور الدجال سيطول قليلاً، فإنك ستعيش مدة طويلة بعد الآن، فأجابهم قائلاً: «نعم! إن قولكم ليس بسيئ اعتقادكم فى محله، قد أصبت من مدة ليلة بضعف البصر وضعف بصرى هذا يدل على صحة اقتناعكم».

ينقل عن الذين عرفوا كيف عشق كثير عزة ثم بينوا ذلك أنه مر ومعه بعض الأغنام، ببلاد بنى ضمرة وأخذ فى البيع والشراء. بينما كان يمر بجانب جماعة من النساء فبعثن بعزة طالبات غنما على أن يدفع ثمنه بعد فترة، وإن كانت عزة بنتا صغيرة فصيحة اللسان متحدثة ذات إفادة عذبة واشتهرت بذلك حتى نساء القبائل.

فذهبت إليه وقالت بأسلوب جميل ولسان عذب فصيح بعثتنى هؤلاء النسوة اللائى أمامك وقلن إذا ما أعطى لنا غنما بالدين فعند رجوعه نؤدى له دينه، ففتن كثير بمشية عزة ووجهها، وخاصة سحر حديثها وطريقة أسلوبها، وأعطى لها من الغنم ما ترغب فيه.

ومَرَّ كثير بعد فترة بجماعة النساء من بنى ضمرة ورأى أنهن جلسن فى نفس

المحل وتلكأ قليلاً، وكانت النساء قد دبرت ثمن ما أخذن من غنم فأعطين إحداهن وأرسلناها مع النقود إلى كثير، وأرادت أن تعطى النقود لكثير قائلة هذه نقود الغنم التى اشتريناها من قبل فقال كثير ليس لى دين عند أحد غير البنت التى أخذت منى الغنم وأنشد البيت الآتى:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه

وعزة ممطول مُعَنًّى غريمها

وعادت المرأة عندئذ وأعطت النسوة دينهن إلى عزة وأرسلنها إلى كثير.

سبب وفاة كثير:

حج زوج عزة وأخذ معه زوجته، ولما بلغ كثيرًا هذا الخبر ذهب ليزور الكعبة المعظمة عله يرى جمال معشوقته مرة أخرى. ولما عرفت عزة أن كثيرًا فى مكة خططت لرؤية كثير. وظل كثير يسأل جميع قوافل الحجاج فى مكة فردًا فردًا باحثًا عن عزة، ولكنه لم يكتب لهما اللقاء، وفقد كثير جمله بعد عرفات وذهب لناحية ما بينما الحجاج يطوفون طواف الوداع رأت عزة جمل كثير وأظهرت حنينها وشوقها ومسحت ما بين عينى الجمل ولاطفته ودعت له قائلة حييت يا جمل، ولما عرف كثير الكيفية رجع إلى جانب الجمل إلا أن عزة كانت قد عادت فأنشد القطعة الآتية:

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت

فحى ويحك من حياك يا جمل

لو كنت حييتها مازلت ذا شرف

عندى ولا مسك الإدلاج والعمل

وهكذا أبرز شدة حبه وشوقه لعزة.

وبينما كان كثير يلقى هذه القطعة بكل حماس وجد بجانبه الشاعر المشهور

الفرزدق فسأله قائلاً: «أنت من ياترى؟» فأجابه «أنا كثير» فقال له «إذًا فأنت الذى يطلقون عليه كثير عزة؟» فقال له «نعم هكذا يسمينى الناس»، ولكن من تكون أنت؟ فعرف أنه الفرزدق بن غالب التميمى فقال له: هل أنت القائل لهذه الأبيات:

وجـدت جمـالهم بكل أسيلـة
تركت فـؤادى هائمًا مخمـولا
لو كـنت أملكهم إذا لم يرحلوا
حتى أودع قلبـى المتبـولا
ساروا بقلبى فى الخـدود وغادروا
جسمى يعالـج زفـرة وعويـلا

فلما أخذ الرد بالإيجاب وقد رأى تلك الأبيات تنطبق على حاله فتأثر منها أشد التأثر فقال «يا فرزدق! لو لم أكن أمام البيت المعظم لصحت صيحة عظيمة انزعج منها هشام الذى يجلس على العرش فى سواد الشام ويظن أن القيامة قامت واستولى عليه الفزع، ولكن ما الفائدة فحرمة بيت الله الجليل تقف دونها!!» ولما تأثر الفرزدق من هذه الكلمات أشد التأثر فقال له «يا كثير، سأعرض ما قلته على هشام عندما أصل إلى الشام». وفعلا عرض الأمر عليه عندما وصل إلى الشام وبين له شدة حب كثير لعزة، ولما كان تطليق عزة من زوجها وتزويجها من كثير ممكنا فأمر بأن يدعى كثير إلى الشام، فبلغ الفرزدق الأمر لكثير كتابة وطلب منه أن يحضر إلى الشام دون تأخر. ولما أخذ كثير الرسالة المبشرة من الفرزدق تحرك من مقر مقره سعيدًا وتوجه إلى الشام قاطعا المراحل وطاويا البوادى والمنازل، ولكنه تصادف أن غرض لناظريه غراب قبل أن يصل إلى الشام بعدة مراحل فتطير، وكان الغراب الذى أفزعه فوق شجرة بان يفلى ريشه ويسقط شعره. ولما رأى الغراب فى هذه الحالة استولى على قلبه خوف واصفر وجهه. وذهب إلى قبيلة بنى نهد ليسقى دابته وهو فى شدة الحرص على سلامته.

ولما كانت تلك القبيلة من زجرة الطير فقال عجوز وقد استدل من صفرة وجه كثير على خوفه، يا ابن أخى! هل هناك شىء أخافك؟ «فقال له كثير نعم» وحكى له حكاية الغراب فتشاءم العجوز من هذه الواقعة وقال له هذه الحكاية إشارة على فراقك واغترابك. ولما زاد غم كثير وهمه من هذا القول أرخى عنان دابته حتى لايصل إلى الشام سريعًا، ولما وصل إلى الشام وجد جنازة موضوعة على حجر المصلى وقام مصليًا مقتديًا بالإمام، ولما فرغ من الصلاة قيل له: إننا لا نستطيع ألا نتعجب من غفلتك فى هذا اليوم الحزين فقال لهم أى يوم هذا تتعجبون من غفلتى؟! فقالوا إن عشيقتك عزة توفيت والجنازة التى صليت عليها كانت جنازة عزة فكيف لا نتعجب لحالتك؟! فتأثر كثير من هذه الإجابة ووقع على الأرض مغشيًا عليه وبعد أن أفاق قال:

مـا أعـــرف النهـــدى لادر دره

وأزجـــره للطـــير لاعـــز نصـره

رأيـــت غرابـــًا واقفًا فوق بانه

ينتـــف أعـلى ريشـــه ويطـايره

فقـــال غراب اغتراب من النـــوى

وبانـــه بين مـــن حبيب تعاشـــره

وبعد أن ألقى هذه الأبيات صاح صيحة عظيمة ومات ودفن بجانب عشيقته.

مات كثير فى خلال سنة ١٠٥ الهجرية، ولما توفى فى نفس اليوم عكرمة غلام ابن عباس فقيل فيهما: توفى اليوم أفقه الناس مع أشعر الناس رحمهما الله.

البضَيع: على وزن النصير اسم مشهور أصل ماء قبيلة بنى غفار، وهو بين جبلين فى وادى العقيق.

(١) الزجر هو إبعاد الطائر بتخويفه عند الذين يتفاءلون بالطير إذا كان الفال سيئًا.
تفصيل هذا مسطور فى الصورة الثامنة من الوجهة الثانية من مرآة مكة.

بطحان: يطلق على الصحراء التى تستقر فيها مساجد الفتح.

بطن نخلة: يطلق على بطن نخلة على حديقة النخيل التى تقع على مسافة يومين من المدينة المنورة فى ناحية فيه، وحول حديقة النخيل هذه أكثر من ثلاث مائة بئر ذات مياه عذبة والوادى الذى فيه يلتصق بطريق وادى ربذة.

بعاث: الاسم القديم لموضع قوران وفى الجهة العليا للموضع الذى يطلق عليه دلال وعلى بعد ميلين من قرية بنى قريظة من جهة المدينة. وعند البعض اسم حصن منسوب لبنى قريظة أو حديقة نخيل.

بعد أن قتل محمد بن مسلمة واليهودى كعب بن الأشرف مر بقبيلة بنى قريظة ثم بموقع بعاث وهكذا إلى رنوة عريض ومن هناك عاد إلى المدينة المنورة.

بعبع: كان اسم حصن فى قرية قباء.

بغيبغة: اسم بئر قريبة من موقع رشاء. ويطلق على الساحة التى فيها هذه البئر بـ غيبات أيضا.

عندما شرف على بن أبى طالب ينبع البحر حفر كثيرا من الآبار فى ساحة بغيبات، ووقفها، وحدائق النخيل التى غرست فى عهده كانت تسقى من الآبار المذكور ونذر سنويا ألف وسق من البلح.

توضيح:

الوسق: يستوعب ستين صاعا ـ أو يقال لحمل بعير وبناء على القول الأول أن (٣٢٠) رطلا عند الحجازيين و(٤٨) رطلا عند العراقيين والرطل (١٢) أوقية والأوقية (٤١) درهما. ولكن هذا الحساب بناء على الرطل الشامى لأن الرطل العراقى أزيد (١٢٨) درهم.

قد أعطى ريحانة الرسول جناب حسين بن على حدائق نخيل بغيبات لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب بشرط ألا يزوج ابنته ليزيد ابن معاوية وقال: «تستطيع أن تسوى بمحاصيل هذه الحدائق ديونك وأن تدبر أمور معيشة أهلك».

وقد تملك واستولى على هذه الحدائق بنو هاشم فيما بعد ولكن عبد الله بن حسن بن وضح الأمر إلى مقام الخلافة فرد إلى وقف على بن أبى طالب وأخذ من يد بنى هاشم. وأن أبا جعفر المنصور قد استولى عليها فى زمن خلافته إلا أن الخليفة المهدى أعادها لحسين بن زيد بن حسن. ويرى البعض أن حدائق بغيبات ظلت إلى عهد المأمون فى يد بنى عبد الله بن جعفر فأعادها المأمون إلى بنى فاطمة وأعطى لبنى عبد الله حديقة نخيل أخرى.

بقال: اسم موضع فى داخل المدينة المنورة، والمنازل التى فى هذه المنطقة تجاور بعضها بقيع الغرقد وبعضها يجاور بقيع الزبير.

بَقعاء: على وزن صفراء اسم ذى القصة القديم والتى تبعد عن دار الهجرة أربعة وعشرين ميلا وهو الموقع الذى جهز أبو بكر فيه الجنود لإرسالهم ضد العرب المرتدين.

بُقَع: بضم الباء وفتح القاف اسم بئر واقعة فى موضع سقيا.

بقيع بطحان: اسم موضع فى وادى بطحان.

بقيع الجنجنة: اسم شجرة تنبت دون غارس ذاتيا، حيث أعد طين لبنات المسجد النبوى، وكان فى ناحية مشهد إبراهيم فى بقيع الغرقد.

بقيع الخيل: اسم موضع فى الجهة الشرقية أو الجنوبية من مصلى العيد (يقال له الآن مسجد النبى ويشتهر الآن ببقيع المصلى.

بقيع الزبير: فى محلة بنى غنم اسم محل حيث كانت منازل الزبير بن العوام فى الجهة الشرقية من موقع البقال سالف الذكر، وكان النبى ﷺ قد أقطعه للزبير بن العوام ويروى أن الميدان الذى فى طريق الغرقد من المنازل الزبيرية.

بقيع الغرقد: اسم المقبرة التى يقال لها جنة البقيع وكانت ساحة هذه المقبرة قبل الهجرة غابة من أشجار الغرقد. قد أمر النبى ﷺ بقطع الأشجار واتخذه مقبرة.

بكرات: تطلق على بعض الربا التى فى مرعى ضرية.

بلاكت: على وزن منَاظر يطلق على موقع فى بطن إضم.

بلحان: كان اسم حصن بموقع سجيرة.

بليدة: بلدة اسم موقع قريب من مكان يطلق عليه فقير من وديان جبل أشعر، وينسب لعلى بن أبى طالب.

بواطان: اسم جبلين مدببين فى الجهة الشامية من جبل أشعر وهذان الجبلان جبل واحد فى الواقع ولما كان له قمتان مزدوجتان أطلق عليه هذا الاسم.

بضيعة المثنى: وبين هذه الجبال طريق جبلى ضيق قد سار النبى ﷺ من هذا الطريق فى غزوة العشيرة.

بويرية: اسم البئر التى حفرها أولاد الحارث بن الخزرج لدى حدائق النخيل.

بويرتة: وان كان بئر صغير بجانب حدائق نخيل بنى النضير ولكن بناء على رواية صحيحة أنه اسم جدول فتح لبئر بويرتة لدى حدائق نخيل القبيلة المذكورة. ولم يكن هذا الجدول فى وقتنا فى بويرتة التى فى الجهة القبلية الغربية من مسجد قباء.

بويلة: على وزن رويدة اسم مرج واقع فى قرية بنى النضير.

بيداء: اسم موقع بين ذى الحليفة ودارة مفرح. وفى هذا المكان علم مركوز ويروى أن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال فى حق هذا العلم «العلامة المركوزة فى موقع بيداء وضعت إشارة أن هذا المكان مخرج الإمام المهدى».

بيسان: على وزن ميدان اسم ماء مر بين خيبر والمدينة المنورة ونزل النبى ﷺ بجانب تلك البئر فى غزوة ذى قرد وسماه بعمان ووصف حلاوة وعذوبة ذلك الماء فتحول طعم الماء واكتسب لذة وعذوبة وأصبح ماء فى غاية العذوبة واللطف فاشتراه جناب طلحة ووقفه.

تَبوك: على وزن صَبور اسم موضع مشهور وعلى اثنتى عشرة مرحلة من دار الهجرة فى جهة الشام ويقع بين الشام ووادى القرى. وفى ذلك المكان حديقة وبستان منسوبان للنبى ﷺ. ذهب النبى ﷺ فى السنة التاسعة الهجرية قاصدا غزوة تبوك ونصب خيامه بجانب البئر التى فى موضع تبوك.

حيث قام وأمر أصحابه بألا يمدوا أيديهم للبئر سالفة الذكر إلا أن اثنين من الصحابة الكرام لم يسمعا التنبيه الذى صدر من النبى ﷺ وبما أنهما قد عرفا أن ماء تلك البئر قليل وغير كاف وأرادا أن يعمقا البئر لإكثار مائه ووجدا عصا وأخذا يقلبان ماءها فرآهما النبى ﷺ وقال لهما «مازلتما تبكوانها فسميت تلك البئر تبوك».

وبعد أن حذر النبى ﷺ المشار إليهما ومنعهما من تقليب مياه تلك البئر بقوله «مازلتما تبكواها» ثم ضرب بحربته إلى ثلاثة أماكن من تلك البئر حيث تفجر من هذه الأماكن الثلاثة ماء فى غاية اللذة واللطف فغسل وجهه ثم صب الماء المستعمل فى البئر.

تُربان: على وزن عُربان موقع بين ذات الجيش وملل.

ترعة: اسم واد فى ناحية فدان وهو من أوقاف على بن أبى طالب ويتصل بالجهة القبلية لموضع إضم.

تسرير: اسم واد فى مرعى ضرية.

تُضارع: على وزن مُضارع اسم بحيرة بموضع فى العقيق.

تعار: على وزن كبار اسم جبل يقع فى الجهة القبلية لموضع وابلى

تعُهن[1]: على وزن دشمن اسم ماء على بعد ثلاثة أميال من موضع سقيا فى جهةَ مكَة.

تمنى: على وزن تغنى موضع فى طريق عقبة هرشى يقال للجبال التى بجانبها جبال بياض.

(١) تقدّم ضبطه فى أول هذه الصورة. راجع (أجرد).

تنَاضب: على وزن بَرابط طريق جبلى يبدأ من منزل داود وينتهى إلى وادى العقيق.

تبدو: على وزن هيئت اسم من أسماء دار الهجرة كما يطلق على واد من وديان أجرد.

كما يطلق على جبل فى بلاد جهينة تبدد وبجانب هذا الجبل عدة آبار.

تِيس: على وزنت بِيك اسم حصن تتحصن به قبيلة بنى عتبان التى تنتهى إلى بنى ساعدة.

تيم: على وزن كرم اسم جبل يقع فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة.

تيماء: بلدة ملحقة بالمدينة المنورة على بعد ثمانى مراحل منها.

حرف الثاء

ثاجة: اسم ماء فى موقعى حرض وحراضى.

ثاقل: اسم جبلين أحدهما صغير والآخر كبير بين الحرمين وبينهما طريق جبلى.

بثار: على وزن صغار اسم موضع مشهور قتل فيه عبد الله بن أنيس الذى وقع فى أسر ابن رزام اليهودى.

زفاف صفية رضى الله عنها تزوج النبى ﷺ فى غزوة خيبر من زينب بنت حيى بن الأخطب ولما وصل إلى موقع بثار سالف الذكر وهو عائد أراد أن يدخل عليها. فخالفت المشار إليها الإرادة النبوية. ولما وصلا إلى منزل صهبا ومالوا إلى جهة دومة الجندل وانعطفا نحوها فرضيت وأطاعت الرسول ﷺ قائلة: «أرجو ألا تكون قد غضبت من حركتى الأنانية فى المنزل المذكور، لأن ذلك المكان كان قريبا من بلاد اليهود فلم يكن بعيدا أن يصل أذى تلك الفئة المكروهة إلى سيد البشر. والآن قد عرفت أن أهالى القرى والبلاد التى تحيط بنا كلهم تحت طاعتك

ولن يستطيع اليهود أن يؤذوك هنا» وهكذا مهدت بهذه الكلمات لجبر خاطر الرسول ﷺ.

اسم المشار إليها زينب وأبوها حيى بن أخطب بن سعنه بن ثعلبة بن عبيد بن كعب ابن الخزرج بن أبى حبيب ابن النصير بن النحام وأمها برة بنت سموأل. ولما اصطفاها الرسول ﷺ من غنائم خيبر سماها صفية. ولم ترد جناب صفية أن تسلم فى أول الأمر إلا أنها بعد مرور عدة أيام عرضت رغبتها فى الدخول فى الإسلام، وكانت خيوط سلسلة نسب أبيها حيى بن أخطب تنتهى مع بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع إلى سبط لاوى بن يعقوب أى ترتبط بهارون عليه السلام وكان من عظماء هذه القبائل وفى ليلة زفافها، تولى حراسة خيمة النبى ﷺ أبو أيوب الأنصارى مسلحا حتى الصباح.

وخرج النبى ﷺ فى فترة ما من خيمته ولما رأى أبا أيوب الأنصارى يتجول حول خيمته متسلحا فسأله عن سبب ذلك. فقال له «يا رسول الله! بما أن صفية حديثة السن. وأنك قد قتلت أقاربها أباها وزوجها ربما تكون متأثرة ومتألمة بهذا وقد تحاول نتيجة لهذا أن تقصدك بشر ولما فكرت فى هذ الأمر جفا النوم عينى وقررت أن أقوم بحراستك تاركا الراحة والنوم». ولما سمع الرسول هذا الرد فرد عليه قائلا «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى».

وظل أبو أيوب الأنصارى طول حياته تحت وقاية ربه الذى لا ينام. ونتيجة لهذا الدعاء أصبح مرقده المقدس تحت حراسة سكان باب السعادة حيث يتوسلون بروحه السامية فيلتمسون البركة والشفاء. يروى أن حتى النصارى كانوا يذهبون إلى قبره متبركين به ويستسقون المطر به وذلك قبل فتح إستانبول.

ثراء: اسم موقع بجانب واد يسمى جى بين موضعى صفراء ورويثة.

ثريا: اسم ماء مشهور لموقع ضبا فى مرعى ضرية. وإن هذا الماء ينسب إلى قبيلة بنى محارب التى تسكن فى جبيل شعبى.

ثعال: اسم طريق بين رويثة والروحاء.

الثمال: اسم المحجر الذى يطلق عليه صخرات اليمام.

الثمغ: اسم ملك بالقرب من كومة بنى الحمراء فى الجهة الشمالية للمدينة وهو من غنائم يهود بنى حارث وكان من حصة عمر بن الخطاب فوقفه بمجرد أن أخذه.

وعلى رواية أن عمر الفاروق وقف الملك المذكور أولا ثم وقف مؤخرا ما اغتنمه من أراضى خيبر.

ورغم أن هذا القول صحيح يحتمل أن يكون ثمغ اسم لموضعين.

ثنية البول: وهو طريق جبلى بين المدينة المنورة وذى خشب.

وثنية الحوض: وهو طريق جبيل يقع أسفل الموقع المدرج فى مجرى وادى العقيق. ولوجود حوض لمروان بن الحكم بجانب الثنية المذكورة. فقد أطلق على هذا الطريق ثنية الحوض.

ثنية الشريد: وهو طريق جبلى فى وادى العقيق ولوجود كثير من بساتين الفاكهة لأحد الأشخاص من بنى سليم إلى جانب ثنية الشريد، فقد ملكها سيدنا معاوية لفترة. وهى على يمين الطريق الذى سلكه الرسول ﷺ فى رحلته إبان رحيله إلى المدينة المنورة.

ثنية العثعث: وهى تل من تلال جبل حفن بالمدينة تقع بين قاعد المدينة المسماة حصن الأمير وجبل سليع.

ثنية مدران: وهى طريق يقع إلى جوار مسجد تبوك.

ثنية مرة: طريق يقع إلى جوار البئر المجاورة للموضع المسمى الأحياء فى ضواحى رابغ، وقد حارب عبيدة بن الحرث فى هذا الموضع.

ثنية المرار: وهى طريق جبلى ينتهى بالحديبية.

ثنية الوداع: وهى طريق قريب من جبل سلع فى الجهة الشامية لدار الهجرة.

بين مسجد الراية ومشهد النفس الزكية وكان خلف هذا الطريق فى أول أمره سوف يودع جنود المدينة المنورة الذاهبين لغزوة تبوك بجوار هذا الطريق فقدسمى بثنية الوداع. واشتهر بهذا الاسم ويروى أن ثنية الوداع اسم يعود إلى الجاهلية لأنه على حد زعم اليهود فان من يدخلون المدينة فى ذلك الوقت كان يصيبهم المرض ويموتون.

ومن لم يمت وكتبت له النجاة، فإنه لن يعود أدراجه من الثنية المذكورة، ولهذا فإنه لو شاهد أهالى يثرب ضيفا عائدا إلى ثنية الوداع، كانوا يقولون له متفكهين استودعناك الوباء، فلا يحق من بعد ذلك.

ولدى البعض هو اسم المكان الذى يسلكه الذاهبون من المدينة بالوداع وعل يرأى أنه المكان الذى ودع فيه الرسول ﷺ صحابته.

وفى عام ١٢١٤ حفر كور يوسف باشا والى جده هذه الثنية وساوها، وبنى فيها قصرا له ثلاث قباب أطلق عليه قصر يوسف باشا، وذلك الطريق ممهد ومستوى إلى أقصى درجة.

حرف الجيم

جار: اسم قرية فى جهة البحر الأحمر على مسافة أربعين ساعة بطريق الإبل.

جاعس: كانت قلعة خاصة بقبيلة بنى حرام غرب مساجد الفتح.

جبار: على وزن كِبار اسم موضع داخل حدود غطفان.

جبانة: على وزن خردانة جبانة بالقرب من موضع ذباب.

جبل بنى عبيد: جبل يقع فى قرية بنى عبيد فى الجهة الغربية من مساجد الفتح.

جثجانة: على وزن مستانة اسم موضع بالقرب من وادى العقيق.

جَحَّاف: على وزن شَفَّاف اسم مزرعة فى الجهة المسماة سميحة بالمدينة المنورة.

جُحْفَة: على وزن مُهْرَة اسم قرية على بعد خمس مراحل من المدينة المنورة.

جداجد: صحراء مستوية للغاية بين الموضعين اللذين يسميان ذى كثب واجرر.

جد الأثافى: بئر قديمة فى وادى العقيق، وأثافى على وزن منادى جمع أثفية والأثفية تطلق على الحجارة التى تتخذ موقدا ومعناها حجر النار.

ذو الجدر: اسم موقع على بعد ستة أميال من المدينة من جهة قباء ومن هذا المكان يبدأ سيل بطحان.

جذمان: على وزن نعمان اسم موضع فى بلاد أدس ولهم فى هذا المكان حصن متين لما حارب تبع الحميرى أهل المدينة ـ وهذا القتال من نتائج وقعة مالك بن عجلان، قطع النخيل الذى فى هذا المكان والآن هناك نخلة واحدة يقال لها جرمان ولعلها تصحيف جذمان.

جراديج: اسم القمم السوداء التى بين السويقة والمثغر.

جرف: اسم موقع على بعد ثلاثة أميال من ناحية الشام ويختلط بصحراء بئر روبة.

ووجه تسميته قول تبع اليمانى: «هذا جرف الأرض» بينما كان يمر من هناك قد توفى مقداد بن الأسود فى هذا المكان فنقل إلى البقيع حيث دفن وقد صلى على جنازته عثمان بن عفان.

جر هشام: اسم السبيل الذى بناه هشام بن إسماعيل فى وادى العقيق.

جزل: وإن كان معناه الحطب الجاف إلا أنه اسم نهر يلتقى فى ذى المروة بنهر إضم.

جاف: اسم موقع يضم بساتين مرغوبة ورياض ممدوحة فى عوالى المدينة.

جفر: اسم بئر فى ناحية مرعى ضرية واسم ماء قريب من فرش ملل.

جلس: اسم محل فى الأراضى النجدية.

جماوات: اسم ثلاثة جبال فى وادى العقيق وسطحها مستو الآن معنى جما غير مدببة.

جمدان: اسم جبل فى وادى أزرق بينما كان النبى ﷺ يمر من وادى أزرق قال أرى حضرة موسى يمر من هذا الطريق ملبيا ويهبط إلى جبل جمدان.

جموم: اسم موضع فى ناحية الموضعين اللذين يطلق عليهما كشب ومران فى ناحية قباء.

جمة: الماء الجارى الذى سماه النبى ﷺ قسمة الملائكة فى خيبر.

إن قسمين من هذا النهر إلى جهة وقسم منه إلى جهة أخرى ولحكمة ما فى صورة إذا ما رميت فى منبع هذا النهر ثلاث تمرات تذهب اثنتان منهما حيث يجرى الثلث الآخر والغرابة فى أن أحدا لم يستطع أن يزيد أو ينقص المياه فى أحد المجريين بتغيير المجرى أو خلط المياه.

جناب: اسم موضع بين فيد وأراضى خيبر.

جنفا: على وزن معما ماء جار من مياه بنى فزارة بين خيبر وفيد كذلك.

جنينة: على وزن رويده اسم موضع بين وادى القرى وتبوك واسم الحديقة المسمى بـ «روضة الجنينة» بين مرعى ضرية وحزن بنى يربوع.

جواء: اسم ماء جار فى مرعى ضرية.

جوانبه: اسم موضع بين جبل أحد والمدينة المنورة وفى جهة الحرة الشرقية.

جيار: اسم مكان فى خيبر.

ذات الجيش: اسم موضع على بعد ستة أو عشرة أميال من ذى الحليفة فى جهة بدر. عندما ذهب النبى ﷺ إلى بدر فمر بهذا الموقع.

ذو الجيفة: اسم قرية على حدود تبوك.

جى: اسم موضع بين موقعى عرج ورويثة وهنا تنتهى حدود جبل ورقان. كان فى هذا المكان بعض المنازل وبئران مياههما عذبة وقد اقتحمها سيل بينما أهلها نيام وأغرقهم جميعا وتخربت بيوت القرية.

حرف الحاء

حاجر: موضع يقع فى غرب نقاء وهو من أودية العقيق وينتهى إلى تل يسمى بره وهو موضع نزه جميل وكان شعراء السلف يمتدحونه.

وإن كان فى صحراء نقاء موضعان يطلق عليهما حاجز البيداد حاجز الثناء ولكن عندما يطلق حاجز مجردا لا يشمل الآخرين.

حاطب: على وزن طالب اسم طريق بين خيبر والمدينة المنورة.

حبره: على وزن دجلة اسم برج فى داخل دار الهجرة كما أنه اسم قرية منسوبة إلى جماعة بنى قينقاع واسم موقع قريب للعلافين فى المدينة المنورة.

حلس: على وزن عنف اسم الموقع الذى اندلعت منه نار الحجاز المنذرة.

حبيش: على وزن قبيس كان حصنا على جبل قريب من قرية بنى عبيد.

حجاز: يطلق على القطعة المقدسة التى تشتمل على مكة المعظمة والمدينة المنورة وملحقات اليمن وعلى قول الأصمعى يطلق على الأرضى المحاطة بقمم حرة ليلى وحرة واقم وحرة نار ـ وبناء على هذا يلزم أن تكون قرية بنى سليم المحاطة بجبال متصلة ومنفصلة كاملة بداخل قطعة الحجاز ويستدل على هذا المؤرخون القدامى بأن النبى ﷺ وقف على ثنية تبوك فأشار إلى جهة الشام قائلا هنا الشام وأشار إلى جهة المدينة وهنا اليمن وبناء على هذا يقتضى أن يكون

الحجاز من القطعة اليمانية إلا أن هناك من يعتقد أن نصف المدينة من الحجاز والنصف الآهر من أراضى تهامة.

حجر: على وزن فكر قرية من محاذاة الموضع المشهور باسم «أوخصيته» وفى هذه القرية آبار كثيرة ومياه جارية منسوبة لبنى سليم ويروون أن أمامها جبل صغير يسمى قنة الحمر وتعرف تلك القرية فى زماننا بحجرية.

جديلة: على وزن جديدة اسم القرية التى تسكنها جماعة بنى حديلة.

حُراض: على وزن نُحاس اسم واد من وديان أشعر التى تقع على الجهة الشامية من موضع حورة.

حربى: اسم المحل الذى كان يمتد من جنب مسجد القبلتين إلى موقع يسمى بمزاد وهذا الاسم اسمه القديم وقد غيره النبى ﷺ باسم صلحة.

حرض: الاسم الآخر للوادى الذى يطلق عليه ذو حرض بالقرب من جبل أحد.

حرة أشجع: اسم المحل الذى بجانب حرة النار وهى ذى حجارة سوداء.

إخطار:

يسمى العرب الموضع الذى احترقت حجارته وتفتتت بالحرة، وبوادى قطعة الحجاز لكل قبيلة حرة خاصة حيث يقيمون فى أيام الصيف ناصبين خيامهم وبعد أن يمضوا فصل الشتاء يعودون إليها مرة أخرى ويسمون الجمال التى ترعى فى هذه الأماكن حرى:

حرة بنى بياضة: بجانب حرة المدينة المنورة الغربية

حرة حقل: فى وادى أزه.

حرة الحوض: بجانب حوض زبالة بن أبيه الذى بين وادى العقيق ودار الهجرة.

حرة راحل: فى بلاد بنى عبس.

حرة رجلة: فى المكان الذى يسمى بلاد بنى القين بين الشام والمدينة والمنورة.

حرة رماح: فى المحل الذى يسمى دهناء.

حرة زهرة: فى حرة واقم.

حرة بنى سليم: فى أسفل الموقع الذى يسمى قاع وعلى الطرف الشرقى من مرعى البقيع.

حكمة

بناء على تدقيق مؤلف نخبة الدهر وبيانه أن غير سواد حجارة حرة بنى سليم فوجوه سكانها أيضا ذو سواد شديد، حتى حيواناتهم إلى كلابهم سوداء اللون.

ولما كانت هذه الحالة من خاصية تلك الحرة فإذا ما أخذ حيوان أبيض من الخارج واستخدم تغير لونه فى فترة قصيرة فيسود والله على كل شىء قدير.

حرة شوران: فى وسط وادى مهزور.

حرة عباد: فى أسفل المدينة المنورة.

حرة عضيدة: فى غرب وادى بطحان.

حرة قباء: فى الجهة القبلية لدار الهجرة.

حرة ليلى: قمة فى بلاد بنى مرة بن غفطان وبين وادى القرى والمدينة المنورة. ولحرة بنى مرة ينابيع كثيرة ومنابت نخيل.

حرة معاصم: فى موقع ذى الجدر ومبدأ مجرى نهر بالحان.

حرة ميطان: جبل فى الطرف الشرقى من بلاد بنى قريظة.

حرة النار: فى ناحية خيبر وفى مكان قريب من حرة ليلى، وعند البعض بين وادى القرى وبلدة تيماء ومن المحتمل أن تكون حرة فداء.

وقد أطفا خالد بن سنان النار التى اشتعلت فى الحرة المذكورة دون أن تمتد شرارتها إلى الجهات الأخرى.

ويعتقد بعض المؤرخين أن النار المذكورة ظهرت فى الجبل الواقع فى حرة الأشجع وأن هذه النار ـ على حد قول المؤرخين المتقدم ذكرهم ـ قد اشتعلت وتأججت بحيث انبعثت أضواؤها إلى وادى رندة الذى يبعد ثلاث ليال، بحيث كانت الجمال التى ترعى فى هذا الوادى لا ترى من شدة الضوء.

وإن لم يعين المؤرخون تاريخ ظهور تلك النار، إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك فى عهد الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ إذ إنه رأى شخصا غريبا فى المدينة فسأله: «ما اسمك؟» فقال: «أنا حمزة بن شهاب» فقال له وما بلدك؟ فقال «أبى من قبيلة حرقة وأسكن فى حرة النار الكائنة فى ذات اللظى»، فقال له «إن الحرة قد احترقت». وبهذه الإشارة أخطره بظهور النار. ولما علم حمزة بن شهاب بهذا الخبر عاد إلى قريته دون إبطاء فرآها قد تخربت من جراء النيران المشتعلة.

وحرة واقم: اسم قمة فى الجهة الشرقية من دار الهجرة. وكان بنو الأشهل قد بنو إلى جانب هذه الحرة برجا سموه برج واقم؛ وإلى هذا مرد تسميتها بذلك الاسم. وتقال لهذه الحرة حرة بنى قريظة وحرة زهرة أيضا والمقتلة الهائلة التى حدثت كانت فى هذا الموقع كما عرف فى الصورة التاسعة من الوجهة الثالثة.

حرة الوبرة: على ثلاثة أميال فى الجهة الغربية من المدينة وتلى وادى العقيق، وينسب قصر عروة ومزارع هذا القصر فى خُيْفِ الوبر الذى ينسب إلى الحرة المذكورة.

حزرة: اسم الوادى الذى يقيم فيه بنو عبد الله بن الحصين الأسلمى وقبيلته.

وفى نهاية قرية بنى عبد الله نهر مشهور والذى ينتهى إلى فقارته من وديان أشعر.

حزن: طريق بين خيبر والمدينة ولم يستصوب النبى ﷺ أن يسلك هذا الطريق بل طريق مرحب.

حساء: وإن كان معروفا بأنه موضع فى ديار بنى أسد، ولكن إذا ما نظر إلى شعر عبد الله بن رواحة الآتى، إذ ذكر المشار إليه حساء لما كان ذاهبا إلى مؤتة من الشام يلزم أن يكون الموضع المذكور فى طريق مؤتة.

إِذَا أَدَّيْتَنِى وَحَمَلْتَ رَحْلِى
مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَـاءِ
فَشَأْنُكَ أَنْعُمٌ وَخَلَاكَ ذَمٌّ

وَلاَ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِى وَرَائِى[1]

حسنى: اسم جبل قريب من ينبع البحر، واسم صحراء بين موضعى عذيبة وخار، واسم حديقة من الأوقاف النبوية.

حسيكة: محل واقع فى الجهة الغربية من موضع ذباب وكان فى الجاهلية مقر اليهود. تطلق الحسيكة أيضا على الحدائق التى بجانب قصر ابن شمعل والى الناحية التى يوجد فيها قصر ابن عمر فى أراضى ابن ماقية. وكلها أسفل المكان الذى يسمى جرف.

حشاء: الاسم الآخر لجبل الإيوان ويروى أنه اسم موضع فى الجهة اليمنى من وادى آره.

حشان: اسم برج يطل على الجهة اليمنى للذاهبين إلى مقبرة الشهداء فى أحد.

وحشاشين: اسم قرية منسوبة إلى بنى قينقاع وكان حصن طلحة بن أبى طلحة الأنصارى فى بستان متصل ببستان عبد الرحمن بن عوف فى الجهة الشامية من مدينة الرسول.

حضرة: اسم موضع على ثلاث مراحل فى خارج المدينة، وكان اسمه القديم عفره فبدله الرسول ﷺ بحضرة. رجا سكان ذلك المكان أن يجدما حلا لعلة الوباء الذى يظهر فى مساكنهم بكثرة وأن ينقذهم منه، فقال لهم «هاجروا إلى مكان طيب الهواء والماء». فقالوا له: «كيف يمكننا أن نترك مكانا كان موطن آبائنا وأجدادنا؟ وقد دبرنا لأهلنا وعيالنا البساتين والمنازل كما دبرنا مآكل دوابنا وأماكن إيوائها واستطعنا أن نتدبر طريقة معيشتنا إلى درجة ما» وهكذا عرضوا عذرهم فى عدم مغادرة مساكنهم وعندئذ قال لهم عمر بن الخطاب: «إذن فلابد أن تبحثوا عن مكان قريب من مفازتكم لتنتقلوا هناك وأن تتناولوا فى الصباح قليلا من زيت الزيتون واستعملوا بعض العطور ولا تمشوا حافيى الأقدام ولا تناموا نهارا»، وبين هلم فى صورة حكيمة أنهم إذا راعوا القواعد الصحية بإمكانهم أن ينجو من الوباء.

(١) البيتان فى الطبرى ٣/٣٨.

حضير: فى أول عقيق وهو موضع ذو آبار ومزارع متعددة وأرض مستوية.

حفياء: موضع على بعد ستة أميال أو على سبعة أميال من المدينة ويروى حيفا أيضا وفى أسفل الموضع المسمى غابة.

حفير: اسم ماء فى ديار بنى سعيد وأطرافه محاطة بحدائق الخيل، واسم محل بين الحرمين.

وحفير المشهور فى زماننا موقع بين ذى الحليفة وملل.

حقل: يطلق حقل على ثلاثة مواقع يقال للأول «أرة الصحراء» الحقل، وللآخر روضة حقل، وللثالث حرة حقل.

حلاء: على وزن نساء عدة جبال جرداء فى القرب من جبل ميطان الواقع فى محاذة موقع شوران لا ينبت فوق هذه الجبال الأشجار أو ما يشبهها.

حلا: بأصعب وهو عبارة عن جبال حلا يرد من هنا سيول نهر بطحان.

حليت: اسم جبل عظيم بجانب مرعى فيد وهذا الجبل أعلى الجبال التى فى هذه الناحية غير جبل شعبى وفوقه منجم ذهب اقتحمه ماء ويروى أن فى القديم قد أخرج من هذا المنجم ذهب وفير.

حُليف: على وزن زُبير، اسم منزل فى داخل قطعة نجد وعندما خرج بنو كُلاب من المدينة سكنوا فى هذا المنزل.

حليفة: اسم نبات معروف إلا أنه اسم نهر فى وادى العقيق واسم موضع بين ذات العراق وجادة، واسم منزل بين المدينة وتبوك، ويحرم حجاج المدينة فى ذى الحليفة. ويطلق أهل المدينة على منزل الحليفة بئر على ويعتقدون أن حضرة على قاتل طوائف الجن فى هذا المنزل ولا أصل لهذه الحكاية. ولما كان الماء الذى فى حليفة بئر جماعة قبيلة مزينة فنسبة هذه البئر إلى على بن أبى طالب خطأ، ولا يعرف ذلك المنزل بالحليفة فقط بل يشتهر باسم ذى الحليفة إلى المدينة.

قال ابن إسحاق إن المدينه على بعد خمسة أميال ونصف من ذى الحليفة الذى يقع فى جهة مكة، كما سطر على اللافتة التى ركزت فى ذى الحليفة أن المسافة من المدينة إلى ذى الحليفة خمسة أميال ونصف ميل. وهناك لافتتان فى جهة مكة فى ذى الحليفة وهذا المكان يبعد عن المدينة ستة أميال. لأن فى كل من مدخل ذى الحليفة ومخرجه علمان ولافتتان. وحكم ابن صلاح أن المسافة بين المدينة وذى الحليفة ثلاثة أميال. إلا أن ابن حزم قال: إننى قست المسافة من عتبة باب السلام للمسجد النبوى إلى عتبة مسجد الشجرة فى ذى الحليفة فوجدتها (٩٧٣٢) ذراعًا. وإذا ما نظرنا إلى هذا القول نجد أن المسافة بين المدينة وذى الحليفة خمسة أميال وثلثا ميل إلا مائة ذراع. وإن هذه الرواية أقرب إلى الصحة.

استطراد:

توجد طرق متعددة للدخول إلى البلدة النبوية الطاهرة من الخارج فى جهاتها الأربع وكل قافلة تسير وفق الطريق الذى يناسبها، وكل الطرق فى الجهة الواحدة تتصل فى نقطة واحدة.

الجهة الغربية:

إن الطرق التى توجد فى هذه الجهة هى: سلطانى، ملف، فرع، غابر وكلما تقترب هذه الطرق من المدينة المنورة تلتصق بعضها ببعض وعندما تصل إلى موقع ذى الحليفة (بئر على) تتحد الطرق الأربعة وتكون طريقًا واسعًا عظيمًا. وباب العنبرية من أبواب حصن المدينة الخارجى يقع فى هذه الجهة بين تكية المرادية والمعسكر السلطانى. وبناء على هذا فقوافل الحجاج والزوار والتجار تدخل وتخرج على الدوام من هذا الباب ويبيت محمل مصر مع جنوده فى مكان قريب من هذا الباب. والباب الذى فى هذه الجهة من داخل الحصن أجمل وأشهر من الأبواب الأخرى وبما أنه بين بعض الأسواق اشتهر بالباب المصرى.

وإن كان الرصيف الذى بين مسجد السعادة ومسجد الغمامة ممتداً إلى الباب المصرى؛ إلا أن الجهة التى من مسجد الغمامة إلى الباب المذكور قد اندرست واختلط ترابها بحجارتها لا يعرف أنه رصيف.

ولمسجد السعادة النبوية بابان فى الجهة الغربية وللحجرة المعطرة باب واحد. وأحد أبواب مسجد السعادة باب السلام والآخر باب الرحمة وإذا قارنا بين السلام من حيث الحجم والزينة والأبواب الأخرى فنجد أنه فى الدرجة الأولى وباب الرحمة فى الدرجة الثانية. ويطلق على الباب الذى فى هذه الجهة للحجرة المعطرة: باب الوفود، وكلما فتح هذا الباب يستخرج من الحجرة المعطرة المصحف العثمانى الذى يحفظ فيها ويتلى. ويشترط فى ذلك أن يكون من يتلوه من العلماء الصالحين. لأن كل من يتلوه يموت فى اليوم الثالث، إذا لم يمت فى اليوم الثالث يكاد أن يكمل سنة واحدة. وقد تلاه السيد عبد الله الدراجى التونسى والسيد محمد ابن السانوسى الفاسى والشيخ عبد الغنى الهندسى النقشبندى وارتحل الثلاثة فى ظرف سنة واحدة عن دنيانا وكانوا كلهم من العلماء العاملين والمشايخ الكاملين.

وإن يشتهر بين الأهالى أن ذلك المصحف هو المصحف الذى كان فى يد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ حين استشهاده إلا أن هذا الظن خاطئ. وفى الحجرة المعطرة مصحف آخر يدعون أنه قد كتب من قبل حضرة على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وقد كتب الاثنان على ورقة خضراء بخط كوفى. إلا أن خط المصحف الذى ينسب إلى سيدنا على أرق وأدق من الآخر.

والمسافرون الذين يقومون من بئر على ذاهبين إلى المدينة المنورة يجعلون جبل عير على يمينهم وقمم جماوات على يسارهم ويمرون من الطرف الشامى لمجرى سيل العقيق ويصلون إلى أراضى أبى بريقة المتصلة بالجهة الشامية من جبل عير.

وهناك حقول مزروعة وحدائق نخيل صغيرة وماء عين السرانى. ولكن مجرى عين السرانى قد حفر حديثا فلم تنبت بعد حدئق النخيل على طرفيها.

فالذين يقومون من منزل أبى بريقه يصلون إلى الحرة الغربية ومن هنا إلى مدرج. وإن كان فى الحرة الغربية بناء قديم يطلق عليه عوام الناس قلعة اليهود إلا أن هذا المبنى قصر بنى فى عهود بنى أمية لحبس شخصية كبيرة وتوقيفه فما يذهب إليه العوام غير صحيح.

كان يقال لمدرجة فى الأوائل نقب بنى دينار والبئر المشهورة التى يطلق عليها بئر عروة فى الجهة اليسرى من منزل مدرج ففى جهة منه أراض لزراعة الشمام والبطيخ والجهة الأخرى مجرى نهر العقيق. ويخرج من هذا المجرى إلى مدرج إلى الأمام ففى الجهة اليمنى بناء قديم وبركة ومزارع غير معمورة يعرف ذلك البناء باسم سبيل قائد.

وعلى القمة التى تقع فى نهاية الموقع الذى يقال له رقيقين من مدرج مسجد المنارتين الذى يطلق عليه قبة الخضر وبعد أن يتجاوز المسافرون قبة الخضر يدخلون إلى أراضى نقاء التى زرع جهاتها اليمنى بالذرة وحديقة أم الرحم وجهاتها اليسرى قد زينت بمزارع بئر الوردى وبئر زمزم ومزارع أخرى والمسجد الذى يطلق عليه قبة الروس مسجد السقيا وهو فى وسط وادى نقا وبئر سقيا أيضًا فى الجهة القبلية من ذلك المسجد.

كان شخص من مجاورى المدينة الطاهرة يسمى عبد الله عرب الميمنى اشترى مزرعة صغيرة فى منزل نقا. وقد استصلح هذه المزرعة وبنى على الجهة التى تقابل الطريق منزلاً واسعًا وحفر حوضًا كبيرًا. وأقام على جوانب هذا الحوض مساقى صغيرة تشرب منها الدواب كما صنع مخزنًا خاصًا بالعمال الذين يعملون فى المزرعة على الجهة الغربية من ذلك المنزل. وكان المارون وعابرو السبيل يسقون حيواناتهم ثم يستريحون فى ذلك المنزل ويستظلون.

هناك فى الجهة اليسرى من مسجد السقيا مزرعة وتنسب هذه المزرعة للسيد أحمد الرفاعى والذين يتجاوزون هذه المزرعة يصلون بعد مدة قصيرة إلى باب عنبرية.

وبجانب باب العنبرية ركن المعسكر السلطانى والثكنات. وأمام هذه الثكنات طريق واسع على يمين الثكنات السلطانية مبانى مستشفى الغرباء التى بدأ العمل فيها ولكنها تركت قبل إتمامها، وعلى شمال تلك المبانى السور الداخلى وحديقة قاضى ينبع السابق إبراهيم عداد وطريق آخر يؤدى إلى سنح والمساجد الأربعة وإلى نواحى جرف وعقاب والقبلتين وإلى المواقع المختلفة فى خارج المدينة.

وإذا ما ترك هذان الطريقان ودخل من باب العنبرية يقع فى الجهة اليمنى من الباب باب ثكنات الجنود وعلى الجهة اليسرى عمارة والى مصر الأسبق محمد على باشا وإذا ما تجاوزناهما نكون قد دخلنا فى العنبرية.

ولما كان شارع العنبرية أوسع طرق البلدة الطاهرة وأكبرها انتظاما فالحجاج والزوار وقوافل التجار يدخلون دائمًا من هذا الباب ويخرجون ولما كان ماؤه وهواؤه معتدلين وجيدين فهذا المكان دائم الازدحام.

وعلى الطرف القبلى من هذا الطريق: حوش ظوافير الذى يشتمل على ستين حجرة ذات باب تحتانى.

وأمامه حوش الراعى الذى يشتمل على مائتى حجرة[1] وبجانب هذا الحوش مسجد صغير المئذنة رباط جديد، وفى اتصال الرباط طاحونة آلية ومنزل خاص لمن يديرون هذه الطاحونة من العمال وبجانب المنزل مقهى وتلك الطاحونة مع جميع مشتملاتها وقف أغا باب السعادة المرحوم بهرام أغا.

وكان أمام الطاحونة منزل شيخ الحرم النبوى الأسبق المرحوم خالد باشا. وبما أنه احتيج إليه لوضع مشتملات الطاحونة المذكورة اشتراه بهرام أغا.

وكان أمام المقهى المتصلة بدائرة الطاحونة منزل أحمد أغا من الأهالى، وكان لهذا الحوش ستون حجرة وفناء واسع.

وبجانب باب حوش أحمد أغا دار زوجة أغا الطابور حافظ أفندى وأمامها منازل كبيرة ملك أسرة ظوافير وحوش طويل، وحوش أبى جنب، وفى اتصالهما

(١) وبعض حجرات حوش ظوافير سفلية ولكن أكثرها علوية.

منازل أسرة ظوافير ومنازل بعض الفرسان وفى الجهة القبلية منها دار فاطمة حازمية، وفى اتصالها الشرقى دار سيد جعفر الهاشمية، وأمامها دار على موسى أفندى وبجانبها دار عامر الجعفر العلاف، وبجانب دار عامر الجعفر طريق حديقة الهاشمية، وأمام باب هذه الحديقة حوش عبيد[1]، وأمامه خرابة أبى جود الحمدانى. ولكن بين حوش عبيد وخرابة أبى جود الحمدانى وشارع كاتبية. وحوش معيكة وحوش سنان فى هذا الشارع، وفى نهايته عدة منازل وطاحونة وزاوية منسوبة إلى الشيخ محمد بن سانوسى ذات مئذنة وزقاق كاتبية مسدود.

وفى اتصال خرابة أبى جود الحمدانى حوش خيارى وأمام هذا الحوش بعض المنازل وطاحونة وعدة دكاكين وخرابة وقف أسعدية. ودور أبى الجود وأمامها دار الشريفة الهاشمية، وعلى طرفها الشرقى زقاق السلطان، وفى مدخل زقاق السلطان منزل كبير منسوب إلى المغاربة، وبقربه منازل حيارى وسمان والشيخ أحمد الفقيه وأحمد الصابغ المصرى والعمارات[2] المنسوبة لمبرة مراد الرابع العثمانية وبجانب هذه العمارة مجرى سيل أبو جيده، وفى الجهة الغربية من هذا المجرى مخبز وبجانبه جسر سنان باشا وعندما يصعد فوق الجسر يرى فى مجرى الجسر من الحديد.

وبعض دور المجاروين فى جهة باب قباء لجسر سنان باشا وحوش عميرة[3] وفى اتصاله زاوية السيد محضار وفى اتصال هذه الزاوية حوش متاع، وفى الجهة القبلية لباب هذا الحوش مركز شرطة باب قباء وفى الجهة الشامية دار محمد بن صالح الحيدرى، ومن المجرى إلى الجسر قنوات عين الزرقاء فمياه الثكنات السلطانية وعمارة المرادية ومياه أهالى محلة العنبرية ودور الإيجارية التى فى هذه الناحية والذين يسكنون فى ناحية تجرى وتسير مياهها فى هذه القنوات

(١) حوش عبيد من مبانى آل خيار المسقفة.

(٢) وإن كانت هذه العمارة فى غاية السعة إلا أنها ظلت فى حالة خراب وقد خصت لسكنى عساكر الهجين والخيالة.

(٣) يتألف حوش عميرة من مائة وخمسين حجرة ومن هذه الحجرات حجرات علوية ذات سطوح.

ومجرى السيل الذى فى الطرف الشامى للجسر من جبل سلع ومن بين طرق عين الزرقاء ومن الجهة الغربية لعين غرابية ثم يلتصق بمجرى سيل حمزة الواسع.

وبجانب جسر سنان باشا المشار إليه بركة القوافل المصرية وبجانب هذه البركة دار لطيف أفندى مترجم خزانة المديرية، وفى الطرف الشامى من هذا المنزل دار مصطفى بلا جلى فوق مجرى السيل. وبجانبها البيوت العشرة وفى الجهة الغربية دار أحمد أفندى سالف الذكر وخلفها الحوش الكبير الجديد. وفى الطرف الشرقى من هذا الحوش حما مناخه. والبركة التى ذكرت آنفًا حوض كبير وعميق وبما أنه كان يملأ أولاً من عين الزرقاء سمى ببركة الحج الشامى.

وأمام البيوت العشرة بيوت الصعايدة العالية المنتظمة وخلف هذه البيوت زقاق السلطانية وفى هذا الزقاق بعض بيوت للإيجار وحديقة صيارى ومئذنة قديمة. وإن كانت هذه المئذنة مئذنة مسجد العمارة المرادية وبما أن المسجد قد انهدم واندرست ساحته وانعدمت فلا يؤذن فوق هذه المئذنة.

وهناك طريق يمتد من زقاق السلطانية إلى وادى «سح» ومن هنا إلى زقاق قشاشى و بعده إلى مناخة وزقاق طيار وفى زقاق طيار حديقة عبد القادر خوج وأمام هذه الحديقة دار على الصياد وبجانبها حوش درج فى الطرف الشمالى لحوش أبو شوشة.

وحوش طوطى وأحواش أخرى. ولما كان حوش أبى شوشة فى غاية الكبر ويشمل على أماكن ملاصقة للجهة الشامية من السور الخارجى وغرف كثيرة. وأمام دار المترجم أحمد نظيف أفندى مدرسة خاصكى السلطان وفى الجهة الشرقية من سيل أبى جيده وفى الجهة الشرقية من هذه المدرسة المخبز الميرى وأمامه باب حمام أحمد نظيف أفندى والمنازل التى يسكنها.

وبجانبها بعض المنازل القديمة وفى نهايتها المنزل[1] الذى وقفه المرحوم سليم

(١) يقيم فى هذا المنزل السيد علوى السقاف شيخ السادات العلوية

بك من حجاب السلطان عبد المجيد والد السلطان لسبيله وأمامه داران ومدرسة للصبية.

وأصبحت مدرسة خاصكى سلطان فترة ما دائرة حكومية ثم اتخذت مستشفى للعساكر السلطانية وفى داخلها حديقة صغيرة ومسجد ذات مئذنة فى غاية الظرف والجمال.

وفى الطرف الشرقى لتلك المنازل المذكورة ومدرسة الصبية بعض البيوت وفى نهايتها منزل آكاه أفندى من نقباء النظامية وبين المدرسة والمخبز الميرى حوش منصور وأمام هذا الحوش وفى الجهة الشامية من الطريق وبالقرب من جدار مسجد الغمامة[1] الكائن فى ميدان مناخة منازل صغيرة وفى شرق الطريق سالف الذكر دكاكين الخزانة النبوية وأمامها مركز شرطة خالدية وفى الجهة الغربية من مركز الشرطة دكاكين الخزانة النبوية أيضًا مع منزل[2] إمام مسجد غمامة، وأمامه سبيل سليم بك، وفى الطرف الشامى من هذا الطريق زقاق طريق حديقة الداودية الخاصة بشيخ الفراشين برى أفندى، وفى الجهة الشرقية من هذا الزقاق منزل السيد علوى السقاف، وفى الجهة الشرقية من هذا البيت منزل شيخ الفراشين برى أفندى وأبناء عمه ومن هذا البيت منازل مصفوفة تنتهى إلى باب الكرمة، وفى الجهة التى تقابل مناخة لهذه المنازل ثلاثة أزقة منفصلة بعضها عن بعض.

وبجانب منزل برى أفندى خرابة خاصة بآل برزنجى وبجانبها مسجد منسوب إلى الصديق الأعظم وبجانبه عين الزرقاء التى تسمى عين مناخة.

وإن كان مسجد الصديق من المساجد التى كانت مصلى النبى ﷺ وبما أنه من غير منبر لا يصلى فيه صلاة الجمعة وتؤدى صلاة الجمعة فى مسجد السعادة ومسجد غمامة ومسجد قباء ويغلق فى الأذان الأول مصارع بابى المصرى وباب الصغير.

(١) ولمسجد الغمامة اسم آخر هو مصلى العيد النبوى.

(٢) قد أشرف هذا المنزل على الخراب فجدده السلطان وجعله رصينًا متينًا

وبجوار عين مناخة منهل آخر خاص بالنساء وبجانب هذا المنهل عدة دكاكين ومقهى.

ومن الدكاكين التى تواجه ميدان مناخة الذى على الطرف الشامى من هذا المقهى إلى مسجد سيدنا على والرباط صف من المنازل موقوفة بشروطه. لإقامة عبيد العين فجميع الذين يستخدمون فى أمور عين الزرقاء وقنواتها يسكنون فى هذه المنازل، وفى طرف من مسجد على دار مفتى المدينة المنورة السابق عبد الرحمن إلياس بن تاج الدين، وفى الطرف الآخر الطريق الذى ينقسم إلى زقاق الطيار وزقاق قشاشى.

وزقاق الطيار يمتد إلى حديقة حسين بافقيه العلوى، وفى هذا الزقاق عدة أزقة مسدودة، ومنازل تستأجر ومخابز وطواحين وبعض منازل فاخرة.

ولما كان زقاق قشاشى شارعًا ينتهى إلى ناحية سح والزقاق السلطانى ويمكن المضى إلى أى مكان منه، وزاوية قشاشى فى هذا الطريق. وبين زقاق الطيار وزقاق جعفر عدة منازل فى مواجهة السور الداخلى ونهاية زقاق الطيار المتسعة نهايته زقاق جعفر. وهذه النقطة مبدأ ميدان المناخة.

ومنزل قرة باش الذى يستأجر له باب ينفتح على زقاق الطيار وباب كبير ينفتح على ميدان المناخة. بين المنازل التى تواجه السور الداخلى. وهناك طريق يمتد من زقاق جعفر منازل كثيرة ويتجاوز منزل شيخ الفراشين والوصول إلى مسجد الغمامة، رصيف يسميه أهل المدينة بلاطيًا وطول هذا الرصيف بمقياس ذراع اليد من عتبة مسجد غمامة إلى عتبة باب السلام ألف ذراع. ويروى أنه كان فى القديم من باب السويقة إلى عتبة باب مصر رصيف واسع كالرصيف المذكور إلا أن هذا الرصيف قد اندرس الآن وبين مسجد غمامة وباب مصر وبين سبيل فاطمة أسواق عُرِفَت مساحتها ومواقعها فى وجهة خاصة.

ينسب سبيل فاطمة لبعض الملوك إلا أن إدارته فى يد الأوقاف المصرية. وفى

الطريق إلى حرم السعادة على يمين الشارع الذى يؤدى من الباب المصرى إلى باب السلام خمسة أزقة وعلى يساره ستة أزقة.

والأزقة التى على يمين الشارع ثلاثة منها طريق عام والاثنان طريق عام. والأربعة طريق خاص وأحد طرق الجهة اليمنى شارع مقعد بنى حسين. ويتشعب شعبتين تنتهى إحداهما إلى قصر السيد محمد جمل الليل الذى أمام مناخة وتنتهى الأخرى إلى المخازن الأميرية كل واحد منهما منتظمان ومزينان بمنازل منتظمة.

ويعد طريق مقعد بنى حسين بشعبتيه من الطرق الخمسة.

طريق المخزن الأميرى.

ويطلق أهل المدينة على هذا الطريق زقاق الشونة وهو أمام الخان الجديد الذى بناه السيد صافى حديثًا، ويتصل بأحياء الصالحية الذروان. وحارة الأغوات، وبالطرق التى حول أطراف حرم السعادة الثلاثة، وبعد زقاق الشونة أزقة الذرندى وبعده سقيفة الرصاص، وبعده زقاق الحمزاوى.

وإن كان زقاق الذرندى طريق مسدود فشارع سقية الرصاص يؤدى إلى الحمام الذى فى ذروان وإلى الأماكن الأخرى المقصورة وزقاق الحمزاوى يؤدى إلى الأماكن المرغوبة فى الذهاب إليها. ولما كان فى زقاق الحمزاوى بعض دكاكين الخياطين فالاسم الآخر لهذا الشارع شارع الخياطين وإن كان زقاق الحمزاوى قريبًا جدًا من باب السلام إلا أن بينهما مدرسة بشير أغا.

وطرق الجهة اليسرى ابتداء من الباب المصرى أولها زقاق سوق الشروق، والثانى زقاق العينية، والثالث زقاق الدكة، والرابع زقاق الشقرة والخامس زقاق الكبريت والسادس زقاق العياشة، ولما كان بائعو العباءات يقيمون أسواقًا فى زقاق الشروق قديمًا فإن الاسم الآخر لهذا الزقاق سوق العباية ومازال حتى الآن يفرش بائعو العباءات بضاعتهم فى هذا الزقاق. ومن سوق العباية يمضى إلى قبر أبى النبى سيدنا عبد الله بن عبد المطلب فى زقاق الطوال. ومرقد مالك بن سنان

الأنصارى فى هذا الزقاق كذلك منازل السادة الأسعدية وأمام مرقد مالك بن سنان زقاق سقيفة الأمير وفى الجهة الشامية منه زقاق حماطة. وكان يطلق على زقاق الحماطه قديمًا مخاطة، ومن الممكن الذهاب من هذا الطريق سواء أكان إلى الباب الشامى والباب الصغير أو الأماكن الأخرى.

زقاق الدكة: أمام زقاق الشونة الذى يقع أسفل خان السيد صافى الجعفرى وزقاق الشقرة بجوار خان المذكور كذلك، وزقاق الكبريت فى صف هذه الأزقة إلا أن هذه الأزقة الثلاثة أزقة مسدودة.

سوق العياشة: طريق ينتهى إلى باب الرحمة وساحة الباب الشامى؛ وبين باب السلام وهذا الطريق منزل الأزميرلى وتحت هذا المنزل عين باب السلام وفى اتصاله المحمودية.

وفى الجهة الشامية من البلدة الطيبة شوارع رخامى، كنانة، مخيط وهذه الشوارع الثلاثة تتحد فى موقع ثنية المدينة التى تعرف فى زماننا بقصر يوسف باشا، وتصبح طريقًا متسعًا.

وطريق رخامى يمضى إلى جهات حائط وحويط، جبل شمر، تيماء وطريق كنانة يمضى إلى وادى حمض، وطريق مخيط إلى بلاد الشام وينبع البحر ومصر فالقوافل والزوار يسلكون هذا الطريق فى ذهابهم وإيابهم.

الأبواب: وللمدينة المقدسة ثلاثة أبواب: أحدها فى السور الخارجى والاثنان فى السور الخارجى أمام جبل سلع لذا يطلق عليه باب الجبل، وباب الكرمة ويستخدم هذا الباب فى الدخول والخروج سكان جفرة المتصلة بجبل فقر من قبائل عنابة والمساجد الأربعة وأحامد وأصحاب الحدائق التى فى جهة سح وكذلك زوار غار بنى حرام والمساجد المذكورة. وكذلك الحيوانات التى تساق إلى المذبح الذى بجانب قبة السلام تدخل وتخرج من هذا الباب. يطلق على أحد بابى السور الداخلى: الباب الشامى، وعلى الآخر باب السحيمى. والباب

الشامى بجانب القلعة السلطانية وفى الجهة الشرقية منها وباب السحيمى مجمع مجارى ميضأة الحرم الشريف وللحجرة الشريفة باب واحد فى هذه الجهة ويعرف ويشتهر بالباب الشامى.

لما كانت دكة الأغوات فى الطرف الشامى من هذا الباب تخرج شمعدانات الحجرة المعطرة من هذا الباب فى ليالى رمضان عقب أداء صلاة التراويح.

والأطراف الثلاثة عيون، جرف، سيدنا حمزة التى تنتهى إلى مدينة الرسول من هذه الجهة تتحد عند الثنية التى يطلق عليها قرين بجوار داوودية والذى يصلون إلى هذه الثنية يكونون قد اتخذوا جبل سلع على يمينهم.

وبما أن جبل سلع فى موقع يشرف على منظر المدينة المنورة وجهاتها الأربعة وبما أن الأهالى قد تعودوا على الصعود فوقه للتنزه فى مواسم خاصة فعليه دكك كثيرة لجلوس الناس، والضريح المذكور لسيدنا محمد زكى الدين الذى استشهد فى العصر العباسى فى المحل الذى يسمى أحجار الزيت فى سفوح ذلك الجبل وخلف القبة التى تحيط بمرقده حديقة على أغا العرزانى، وفى الجهة القبلية منه منهل عين الزكى، وفى الطرف الشرقى منه حديقة داود باشا والى بغداد الأسبق، وفى الجهة الشرقية منها طريق سيدنا حمزة، وفى الجهة الشرقية من هذا الطريق الشارع الذى ينتهى إلى بلدة أحمد بساطى، وفى الطرف الشرقى من هذا الشارع ناحية صدقة وشارع النخيل الذى فى هذه الجهات وبعد ذلك موقف المحمل الشامى.

وحديقة داود باشا حديقة عظيمة للنخيل فيها قصر فخم وحوض كبير. وبناء على ما يرويه أهل المدينة أنه لا يوجد قصر فخم فى حدائق المدينة الطاهرة يضارع القصر الذى فى داخل حدائق داود باشا. وفى موقع المحمل الشامى مسجد يعرف باسم مسجد السبق وفى سفوح هذا الجبل الذى فى الجهة الغربية من هذا المسجد منازل دكانه.

وفوق قمة هذا الجبل قصر معلى المؤسس على بعض العقود. ولما جدد هذا

القصر شيخ الحرم المرحوم شريف باشا ظل اسم القصر قرين شريف باشا ويذهب إليه الناس من حين لآخر حيث يتنزهون.

وفوق جبل سلع مسجد دكانة الصغير وأسفل هذا المسجد بعض الأكواخ الخاصة بفقراء العربان، وعلى الجهة اليسرى منها بعض الخرائب وبعدها حديقة السبيل وسبيل والدة السلطان وبركة المحمل الشامى، وفى الجهة القبلية من حديقة السبيل مقهى القواسين، وتُملأ بركة المحمل الشامى من آبار الحديقة.

فمن يتجاوزون مقهى القواسين كانوا قد وصلوا إلى الباب الشامى، والباب المذكور من أعظم أبواب السور الداخلى، وأشهرها ملاصق للقلعة السلطانية التى جددت فى خلال سنة ١٢٦٧هـ.

وفى مدخل عقد الباب الشامى مركز شرطة للعساكر النظامية وهذا المركز خاص لإقامة العساكر السلطانية الذين يحرسون هذ الباب وهو فى الجهة اليسرى للذين يدخلون من الباب الشامى إلى المدينة المقدسة.

المخافر: لما انهدم السور الخارجى للمدينة ولم يبق له أثر يسمى السور أنشئ عند كل باب للسور الداخلى مخفر. وقد أنشئت هذه المخافر لتكون مقر إقامة للأفراد الذين يتناوبون الحراسة فوق الأبراج التى فى محيط السور الخارجى. وإلى سنة ١٢٢٢هـ لم يكن هناك سور خارجى للمدينة ولما أراد القائمون بأمور المدينة فى القرون الماضية أن يحافظوا على المدينة من تسلط أشقياء العربان بنوا بعض الأبراج على أطراف مناخة بين كل برج فاصلة قدر مائتى ذراع وعينوا لحراستها بعض المحافظين والحراس.

بنى محمد على باشا والى مصر بين الأبراج جداراً فأخذ مناخة داخل سور خاص وفتح فى الجهة الغربية باب العنبرية وفى الجهة القبلية باب قباء وفى الجهة الشرقية باب العوالى وفى الجهة الشامية باب الكومة، ولما عين عساكر مصرية لحراسة هذه الأبواب سمى هذا السور بالسور الخارجى، وكان جداره من اللبن. ولما انهارت كل جهات هذا السور رئى من الضرورى إقامة مخافر عند أبواب

السور الداخلى. وفعلاً نفذ هذا الأمر وجعلت المدينة المنورة تحت الحفظ والحراسة.

وقد أنشئت غير المخافر المذكورة ثلاثة مخافر فى ميدان مناخة وهى[1] خالدية،[2] سبيل باب الصغير،[3] خصكية، ومخفر آخر فى رباط ابن زمن حيث مستشفى البلدية، وأقيم فى كل مخفر من قبل محافظة المدينة المنورة عددٌ كَافٍ من العساكر السلطانية.

ويوجد اليوم فى البلدة الطاهرة ثلاثة طوابير من العساكر السلطانية ويشتمل كل طابور على ثلثمائة وخمسين نفراً من المشاة وهناك طابوران من الضباط أحدهما من الفرسان وراكبى الهجين والآخر من المشاة، وكل طابور منهما لا يقل عن مائتى نفر. وتصل مهماتهم وأسلحتهم ولوازمهم من باب السعادة عن طريق مرفأ ينبع.

وفى اتصال مخفر الباب الشامى مخبز ومقهى وسبيل عادلة سلطان. وفى اتصال ذلك السبيل حى عادلة سلطان وحدائق منسوبة إليها. ويتصل أحد أطراف حى السلطانة عادلة لمنهل عين الساحة، والمنازل كلها فى هذا الحى بمشتملاتها من وقف المشار إليها السلطانة عادلة.

وعلى يمين الداخلين من الباب الشامى باب القلعة السلطانية. وبعده باب سجن النساء وبجانبه الدائرة الحكومية وأمام باب منهل عين الساحة. ثلاثة طرق.

والقلعة سالفة الذكر جددها شيخ الحرم أمين باشا بأمر صادر من قبل السلطان عبد العزيز وأقام فيها مخازن للذخيرة، كما رمم حجرات الجند ومواقدهم الحديدية وحظائر الدواب والصهاريج وغير ذلك، وفى القلعة نوعان من الماء أحدهما عذب والآخر مر وشرعتان وحديقة صغيرة. وفى اتصال الدائرة الحكومية سجن الذكور مع إدارته ومخالسة الضبطية. ويلقى أصحاب الجنايات

(١) الاسم الآخر لهذا الشارع الإودية.

(٢) شارع شجرية الذى بجانب المحكمة الشرعية التى صدرت الإرادة بتجديدها.

(٣) اسم الموضع الذى تغسل فيه جنازات الفقراء والغرباء.

حسب القوانين فى هذا السجن إلا أن السادة وخطباء حرم السعادة والأئمة والمؤذنون من الذين يقتضى الأمر سجنهم لا يلقون فى السجن، هؤلاء يؤدبون باعتقالهم وتوقيفهم فى منازلهم.

يقع أحد الطرق الثلاثة التى أمام عين الساحة على يمين الذين يتوجهون إلى باب العين المذكور وهذا الطريق يسمح بالتوجه إلى مناخة أو الجهات الأخرى.

الثانى من الطرق الثلاثة زقاق الخماطة الذى فى اتصال السور الداخلى ويمضى هذا الطريق إلى زقاق مالك بن سنان ومرقده إلى سقيفة الأميرة وزقاق الطوال وإلى سوق الشروق إلى الباب المصرى ومن الشارع الكبير إلى باب السلام والثلاثة من الأزقة المذكورة طريق حى الساحة الذى يعد أكبر طرق أحياء المدينة. ومنازل أغا باب السعادة تحسين أغا ومدير التعميرات السابق خورشيد والسيد صافى الجفرى وكاتب المحكمة السابق حسين هاشم فى حى الساحة الذى ينتهى إليه هذا الطريق. وإن كان فى هذا الحى منازل فخمة أخرى منتظمة ولكن منازل الأشخاص الذين ذُكرت أسماؤهم لا مثيل لها فى المدينة فهى مرتفعة وكاملة.

وبالاتجاه من الساحة إلى باب السلام يقع زقاق حوش برى، زقاق القفار، زقاق سقيفة الأمير، زقاق الطوال، زقاق المدراسى، زقاق حوش الجمال، زقاق كومة حشيفة، زقاق الوكالة، زقاق حوش الجبرات على يمين طريق باب السلام، كما يقع على الجانب الأيسر: زقاق جوارى، زقاق حوش دكانة، زقاق دار البيضاء، زقاق الجيش، زقاق عنبر أغا زقاق شجرية، زقاق سقيفة شيخى، زقاق باب الرحمة، زقاق المديرية، زقاق الحنابلة، زقاق الشامى، زقاق الفرن، وزقاق شرشورة ويخرج من هذه الأزقة إلى الشوارع التى يقصد الذهاب إليها.

وفى الجهة الشرقية من البلدة الطيبة شارعان يطلق عليها حناكية، طريق الخنق وأبو الرشيد نقطة التقاء هذين الطريقين عندما يسد الطريق السلطانى أى عندما يحاصر الأشقياء هذا الطريق فالزوار راكبوا الهجين يسلكون طريق الخنق.

وبابا مسجد السعادة اللذان يسميان باب جبريل وباب النساء، وكذلك باب

فاطمة الذى يدخل ويخرج منه خدم الحجرة المعطرة صباحًا ومساء فى هذه الجهة.

ونقطة التقاء الطرق الشرقى، موقع بجانب مسجد سيدنا على العرضى. وبعدما تلتقى هذه الطرق فى أبى الرشيد تشكل بجانب عين السرانية شارعين، وقوافل الحجاج تسير من الجهة الغربية لهذين الطريقين إلى مسراح حمزة ومنه إلى المدينة الطاهرة، والمسافرون الآخرون ينزلون إلى زقاق الجنائز من منهل عين السرانية بطريق الحرة الشرقية إلى الموقع المسمى زرب البهتيم[1] بجانب مسجد الإجابة فى نهاية الحرة المذكورة ويقومون من هناك ويسيرون من الطرق التى بين أشجار النخيل والفرجة التى بين بقيع الغرقد وبقيع العمات بمحاذاته باب البقيع.

وهناك طريق آخر يمضى من زقاق الجنائز إلى ميدان مناخة ومن جانب قبة بقيع العمات ومن موقع صدقة إلى الباب المجيدى وأماكن أخرى. إلا أن المسافرين لا يسلكون هذا الطريق ويدخلون إلى المدينة من باب الجمعة رأسًا، وعلى يمين المخفر الذى فى داخل هذا الباب حارة الأغوات وعلى يسار المخفر طرق عدة تنتهى إلى مرقد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق ومن هناك بطريق الأغوات إلى ذروان ومواقع أخرى.

وباب العوالى، من جملة أبواب السور الخارجى فى هذه الجهة أيضًا وفى الجهة الغربية من جدار بقيع الغرقد. ويسلك هذا الطريق عند الذهاب والإياب إلى قرية العوالى وذلك الباب، وبين البلدة الطاهرة وقرية العوالى حدائق عديدة ومزارع وأشجار نخيل تنبت دون غرس.

والمنازل التى توجد على جانبى الطريق الذى بين باب الجمعة وحارة الأغوات على يمينها زقاق الرباط، زقاق الصندل، زقاق الشرك وعلى الجهة اليسرى زقاق رستمية، وزقاق الديار العشرة.

(١) وتعنى زرب الموضع الذى يجتمع فيه البدو، وثمة موضعين لاجتماع البدو، أحدهما يسمى «زرب هيثم» والآخر يسمى «زرب بنى على».

والرباط الذى يوجد فى الزقاق الأول، رباط الشيخ مظهر النقشبندى، وليس فى المدينة المباركة رباط أكبر منه، وحول الرباط المذكور كثير من المنازل والاحتفالات التى يقوم بها أغوات حجرة السعادة فى اليوم الرابع من عيد الفطر تقام فى المدرسة الرستمية الكائنة فى زقاق الرباط.

وزقاق الرستمية على الطرف الشرقى من منهل عين الزرقاء الذى فى حارة الأغوات. ودوائر شيخ الحرم النبوى فى شارع الديار العشرة، ورباط سيدنا عثمان بن عفان وسبيل نور الدين ورباط العجم فى الطرف الشرقى من الشارع المذكور.

ويقع الطرف الشرقى من حرم السعادة أمام باب رباط العجم وركن زاوية سمان التى بين باب جبريل وباب النساء حنفية عشرة صنابير وقد أسست حتى يستطيع أن يجدد من يريدون أن يدخلوا فى المسجد الحرام وضوءهم إذا كانوا من غير وضوء.

الطريق المعروف الذى ينفصل عن شارع الحرة الشرقية إلى قرى قباء، قربان، عوالى، فى الجهة القبلية للبلدة الطاهرة فالباب الصغير الذى فى السور الداخلى وباب قباء الذى فى السور الخارجى يقعان فى هذه الجهة من المدينة المقدسة الشهيرة.

والباب الصغير فى مناخة وبين السورين كما عرف آنفًا، والدائرة الحكومية فوق الباب المذكور والسجون الخاصة بالرجال والنساء بجانب الدائرة الحكومية ولكنها جهة القلعة السلطانية التى أسست فى عصر السلطان بن السلطان سليم خان.

وليس لحرم السعادة باب فى الجهة القبلية، ولكن له نافذة مشبكة تنظر ناحية حديقة الديار العشرة، ويطلق عليها نافذة مواجهة السعادة.

كما أن حجرة السعادة ليس لها باب فى هذه الجهة ولكن فوق شبكة حجرة السعادة باب صغير مشبك محاذى لنافذة مواجهة السعادة وبما أن هذا الباب فى محاذاة الكوكب الدرى يعرف بين الناس بباب التوبة.

ولكن ليس فى زماننا شخص يعرف أن ذلك الباب قد فتح إلى الآن.

ومجمع طرق الذين يأتون إلى البلدة النبوية المباركة منها من الجهة القبلية قرية قباء.

إذا ما أريد الخروج من قرية قباء يمر من أمام حديقة بئر أريس بطريق مسجد قباء ومن هناك إلى سبيل الشهيد نور الدين ومن هنا إلى نخيل بويرة، بئر عذف، بئر شدق، بئر خاتم، بئر قويم، بئر برى، بئر شميلة، وبئر عصبة وليس لحدائق النخيل هذه مثيل لا فى قرية قباء أو فى المواقع الأخرى لمدينة طيبة المقدسة.

وفى الطرف الشامى لمسجد قرية قباء مقبرة خاصة بأهالى تلك القرية يروى بعض الناس أن ساحة هذه المقبرة عرصة موقع مسجد ضرار وهناك طريق من المقبرة المذكورة وينتهى إلى قرية قربان وفى الطرف الشامى لهذا الطريق إلى البوابة التى يطلق عليها باب قباء فى سور المدينة أراضى مزينة بكثير من الحدائق مزروعة بالنخيل أو أشجار النخيل التى تنبت ذاتيًا وكل هذه ذات مناظر ساحرة تجلُّ عن الوصف.

والمسافرون الذين يأتون من قرية قربان يمرون من بطحان الذى يعد مجرى سيل الوجيدة، من باب قرية تحسين أغا التى فى طريق قباء ومن الجهة الغربية من طريق بلاد عمر زاهد الذى يقال له مغيسلة ومن الجهة القبلية لحديقة محمد بدوى ومن بين مجارى سيل رانون وسيل أبى جيده المرجلين ومن الحدائق العديدة التى تقع فى الجهة الشرقية من هذا الطريق ومن خرابة شيخ الحرم المرحوم أمين باشا. ويصلون إلى باب السور الخارجى وهذه الأماكن والجهات الخلفية للبعض حجرات حوش منصور وخاصة مسجد عمر الفاروق ودار خضر أفندى وعمارة مخاصلى التى اتخذت مستشفى للعساكر السلطانية. وتقع هذه الأماكن على يمين من يستقبلون مسجد السعادة من أمام باب السور الخارجى ويقع على يسارهم مخفر باب قباء وحوش متاع وحوش عميرة والمنازل التى تمتد إلى جسر سنان باشا.

والذين يريدون أن يذهبوا من هذا المكان إلى حرم المسجد النبوى يعبرون جسر سنان باشا ويسيرون بطريق الجهة الشرقية إلى سوق الحبابة ومن هنا إلى الباب المصرى ثم يصلون إلى الحرم الشريف، ومن يريدون أن يخرجوا من باب العنبرية بعد ما يعبرون الجسر سالف الذكر يسلكون بطريق الجهة الغربية باب العنبرية. انتهى.

حُمام اله: اسم موضع بالقرب من بليدة حُمام على وزن زكام موقع بين فرس وملل يشتهر باسم عميس الحمام.

حماضة: اسم بستان فى ديار بنى بياضه.

حمت: الاسم الآخر لجبل ورقان واسم عقبة فى طريق القدس الشريف.

حمراء الأسد: اسم موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة فى جهة مكة المكرمة. واسم أشجار النخيل القريبة من قرية صفراء.

حنان: اسم تل رملى جبلى يقع على يمين من يذهبون إلى بدر.

حنذ: القرية التى كان يسكنها أُحَيْحَةُ[1] بن جُلاَح.

حورتان: اسم حورتين إحداهما حورة يمانية والأخرى حورة شمالية والحورة الشمالية فى جهة عفرة من وادى أشعر يقال لها حويرة.

والحورة اليمانية فى واد يطلق عليه ذى الهدى وكان اسمه القديم ذو الضلالة، وأهدى شداد بن أمية الذهبى للنبى ﷺ مقداراً من العسل فسأله النبى ﷺ من أين أنت فقال له ما يشير إلى أنه من وادى ذو الضلالة فقال له النبى ﷺ كلا كلا أنت من وادى الهدى وظل بعد ذلك اسم ذلك الوادى ذو الهدى.

حوضى: حوض فى تبوك.

حوض مروان: حوض فى وادى العقيق.

حوض هشام: حوض فى الحرة الغربية للمدينة.

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢١-٢٢.

حرف الخاء

خاخ: اسم قرية معروفة بروضة خارخ على يمين حمراء الأسد، وكانت مقر محمد بن جعفر وعلى بن موسى الرضا ـ رضى الله عنهم ـ وأئمة آخرين، وبناء على رأى الواقدى قرية «ظعينة» التى فى خارج المدينة المنورة أى قرية المرأة التى حملت الرسالة التى كتبها حاطب بن أبى بلتعة يخبر سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل بأن النبى ﷺ يستعد للسفر إلى مكة المكرمه لفتحها ولكنَّها قبض عليها وأخذت منها الرسالة.

استطراد:

قال بعض المؤرخين: إن حاطب بن أبى بلتعة كان قد أرسل رسالة مع مغنية تسمى سارة وكانت المغنية المذكورة جارية أبى عمرو بن هاشم بن عبد مناف، وقد ذهبت إلى بلدة الرسول فى أثناء تجهيز النبى للجنود للرحلة الميمونة لفتح مكة وبعد لوازم السفر وقد أجابت على سؤال النبى الذى قال لها: «هل أتيت لتسلمى أم أتيت مهاجرة إلى المدينة».

فأجابت: «بعد أن مات صاحبى أصبحت فى ضيق من العيش» فأومأ النبى ﷺ أن ما تقوله غير قابل للتصديق لأن مشركى قريش يراعون المغنيات وحديثها عن حاجتها غير مقنع، فقالت المشار إليها «نعم أن ما تقوله صحيح إلا أن بعد موقعة بدر الكبرى لم يبق فى بيوت مكة ومنازل بكة مجال للفرح والسرور والبهجة. وقد تحول فرحهم وسرورهم وابتهاجهم إلى الغم والهم والكدر»، وهكذا أظهرت المسكنة وبينت أحوال أهالى مكة وحكت أقوالهم ونالت عطايا النبى ﷺ.

وإن كان حاطب بن أبى بلتعة كتب رسالته وأعطاها إياها وأخفت المذكورة الرسالة بين شعر رأسها، وتحركت من المدينة المنورة متوجهة إلى مكة المكرمة إلا أن جبريل أُنْزِلَ باسطًا أجنحته وأخبر الرسول بالموضع كما أخبر أن سارة لم تصل بعد إلى منزل ذى الحليفة فاستدعى النبى ﷺ على بن أبى طالب والزبير بن العوام ومقداد بن أسود فأمرهم كلهم معًا وقال لهم: توجهوا الآن ناحية مكة

وعندما تصلون إلى روضة خاخ ستلقون سارة المغنية ومعها رسالة من حاطب بن أبى بلتعة بين فيها استعداداتنا وتدابير سفرنا نحو مكة، لابد وأن تأخذوها وتعودوا بها إلينا»، وفعلاً وصل المشار إليهم إلى روضة خاخ حيث تلاقوا مع سارة وأخذوا الرسالة وعادوا كما ذكرت فى كتب السير[1] بالتفصيل. وبناء على هذا فرواية الواقدى موضع نظر.

صورة الرسالة التى كتبها حاطب بن أبى بلتعة:

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة اعلموا أن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم، فإن الله تعالى نصيره ووليه وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم.

وإن كانت صورة هذه الرسالة منقولة بشكل آخر ولما كانت هذه الصورة مسطورة فى صفحة ٣٦٧ من محمود السير فلم نجد حاجة لبيانها. انتهى.

خاص: واد فى خيبر فمزارع قصدى، وحيدة، سلالم، كثيبة، وطيخ فى هذا الوادى.

خَب: نهر من وديان موضع كاثب فينزل من الموضع المذكور إلى أسفل ويمر من خلف حرة كثب يتصل بجانب قرية قباء من الأسفل.

خبان: اسم جبل بين معدن بقرة وفدك.

خبراء الغدق: اسم موضع فى ناحية صمان يشتمل على عشب سدر وهو كثير الماء الزرع.

خبراء صائف: اسم منزل بين الحرمين.

خرار: مكان فى الناحية الشامية من وادى مشعر وقعت هنا معركة سرية سعد بن أبى وقاص.

خزباء: منزل خاص ببنى سلمة بين مسجد القبلتين وموقع مزاد وقد سماه النبى ﷺ مؤخراً صالحة.

خزما: اسم بئر فى وادى صفراء. **خزيف:** اسم واد يبدأ من موقع يقال له جار ويتصل بينبع البحر.

(١) انظر: الطبرى ٣/٤٨-٤٩، سيرة ابن هشام ٢/٢٦٦-٢٦٧، الدور ص ٢١٣-٢١٤.

(خزيم): طريق جبلى بين المدينة وبدر الكبرى. قد عاد النبى ﷺ من غزوة بدر من هذا الطريق.

خشب: اسم واد يقع على بعد ليلة من المدينة إلى جهة تبوك يقال له ذو خشب أيضًا، وكان لمروان بن الحكم قصر فى هذا الوادى.

«خشرمة»: واد قريب من ينبع البحر يمتد حتى ساحل البحر.

«خشين»: جبلان أحدهما أصغر من الآخر فى أراضى خشين.

خصى: كانا برجين فى الجهة الشرقية من مسجد قباء لبنى سليم وبنى الحارث.

خضيرة: اسم موضع خاص لبنى محارب فى قطعة نجد، كانت سرية أبى قتادة أرسلت لهذا الموضع - وعلى رأى - اسم قرية من قرى جبل آره - وبناء على رأى - كان يقال لموضع خضرة فى الجاهلية عفرة فسماه النبى ﷺ خضرة كما سمى شعب الضلالة شعب الهدى وبنى الزينة بـ بنى الرشد.

«خضينت»: اسم نهر وقرية بين المدينة وينبع البحر. وعند البعض طريقان ينتهى أحدهما إلى ينبع والآخر إلى خشرمة.

«خفية»: اسم نهر فى وادى العقيق.

«خلائق»: جمع خليقة، خلائق هذه ملك عبد الله بن أبى أحمد بن جحش وغير خليقة آل زبير وآل أبى أحمد أراض بعيدة من المدينة مقدار اثنى عشر ميلاً. ولكل جزء منها يقال خليقة. ونهر العقيق يسقى أراضى خلائق هذه وكل خليقة تشتمل على مزارع كثيرة وأشجار نخيل وآبار عذبة لطيفة.

خلص: صحراء واسعة يروى موثوقًا أن حكيم بن حزام رأى الملائكة ينزلون فى هذا الوادى يوم بدر.

«خل»: اسم منزل بين الحرمين وقريب من مزحج. ولما كان الطريق الذى ينتهى إلى قصر حرة ينفصل من هذا المنزل يقال لهذا القصر المذكور قصر خل أيضًا.

«خم»: اسم بحيرة قريبة من جحفة والذى يسمى بغدير خم. ولما كان أحد الشجعان العرب يسكن بجانب تلك البحيرة ويستضيف المارين والعابرين سمى

بهذا الاسم. وعند البعض اسم واد قريب من جحفة ولما كان هذا الوادى مشهوراً عند أهل الجاهلية بأنه مقر الوباء ومركز الحمى كان أهاليه ينتقلون إلى البلاد والوديان الأخرى. حتى إن حافظ مندى قال: فالذى يولد فى قرية واقعة فى هذا الوادى إذا لم ينتقل إلى محل آخر لا يمكنه أن يعيش.

إلا أن جميع هذه الشرور قد زالت من أرض يثرب بعد الهجرة فظهر قدر النبى الجليل مثل الشمس. هناك فى الجهة الشرقية على مسافة ميل من غدير الخم موضع لا ينقطع المطر منه أبداً والسيول التى تتجمع من هذه الأمطار تجرى فى صورة دائمة من الأودية وتصب فى البحر؛ لذا لا يتعرض من يمرون من هذه الأماكن للعطش.

خندق: اسم الخندق المشهور الذى أمر النبى ﷺ بحفره قبل غزوة الأحزاب.

صورة حفر الخندق الذى حفر فى عصر الرسول[1] ﷺ:

يرى المؤرخ المطرى والذين تابعوه من المؤرخين: بناء على المعلومات التى استقرأها من النبى ﷺ حفر خندقًا فى غاية الاتساع والعمق قبل وقوع غزوة الأحزاب الجليلة من فوق وادى البطحان إلى الجهة الغربية منه، ومن الحرة الغربية إلى مصلى النبى ﷺ ومن مصلى النبى ﷺ إلى ساحة مسجد الفتح، منها إلى الجبلين الصغيرين الواقعين فى الجهة الغربية من وادى البطحان، وجعل جبل السلع فى الخلف ونصب الخيمة النبوية بجانب مسجد الفتح ـ وعلى قول على جانب من جوانب وادى ذبابٍ ـ وعلى هذا التقدير تكون الجيوش الإسلامية قد ظلوا فى جهة جبل السلع وأحزاب المشركين فى جهة جبل أحد.

ولكن ابن سعد والإمام البيهقى ذهبوا إلى خلاف هذا الرأى وقالوا. قد بدئ فى حفر الخندق من جهة من جانب محلات بنى حارثة حليف بنى عبد الأشهل أى من جهة الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية إلى جانب محلة بنى سلمة التى تقع فى سفح جبل بنى عبيد ومساجد الفتح وقد قسم هذا الموقع أجزاء ووزع كل جزء ليحفره جماعة من الصحابة الكرام.

(١) انظر فى غزوة الخندق: سيرة ابن هشام ٣/ ٢٢٦، مغازى الواقدى ٣٦٢، وابن سعد ٢/ ١/ ٤٧ تاريخ الطبرى ٢/ ٥٦٤. وغيرها.

وعلى هذا بدأ المهاجرون الكرام فى الحفر من ناحية راتج إلى موقع ذباب والأنصار من ذباب إلى جبل بنى عبيد موقع منازل بنى سلمة وأفراد بنى دينار من محلة بنى سليمة إلى محاذاة منزل ابن أبى سلول وبنو عبد الأشهل حفروا إلى محلة منازل بنى حارثة التى تقع فى الطرف الشرقى من موقع ذباب وعمقوها. وبناء على هذا التعريف أن الخندق المذكور كان فى الجهة الشامية من المدينة المنورة وهذا المكان يمتد من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية ولما كانت تلك الجهات محاطة بالمبانى والأشجار وجبال متسلسلة فهجوم العدو من تلك الجهة غير ممكن. ومازالت خرائب الخندق الذى حفر فى ذلك الوقت قائمة فالماء الذى جلب من قرية قباء قد أمر من داخل تلك الخرابة وأوصل إلى حديقة سح التى حول مساجد الفتح. وملئت حفرة الخندق وغرس عليها أشجار النخيل وأصبحت أرضها سطحًا مستويًا. ومن المحقق أن ٣٠٠٠ آلاف من الصحابة قد عملوا فى عمليات الحفر ولكن اختلف فى صورة الفتح. وبناء على أشهر الأقوال وأصحها أن النبى ﷺ تحرك من المدينة المنورة بثلاثة آلاف صحابى. ونصب خيامه بين جبل سلع ودار السكينة حيث أقام وقرر بناء على عرض جناب سلمان ورأيه حَفَرَ خندقا عميقا فى المكان الذى يحتمل هجوم المشركين من جهته على أن يكون عرضه وعمقه خمسة أذرع، وفرق لكل عشرة أنفار من الصحابة أربعين ذراعًا من الأرض، واستصوب أن يستعير أدوات الحفر من يهود بنى قريظة الذين كانوا فى حالة صلح مع المسلمين، وكما عرف أعلاه قد عرف كل قبيلة المحل الذى ستحفره بدءوا فى الحفر معًا وأتموا الحفر فى ست ليال أو أربع وعشرين أو فى عشرين ليلة وكملوا.

وبناء على هذا الحساب أن طول الخندق كان ١٢٠,٠٠٠ مائة وعشرين ألف ذراع.

ولما تم حفر الخندق وصلت أحزاب المشركين وحاصروا المسلمين خمسة عشر يومًا أو عشرين ليلة أو شهرا كاملاً وأشعلوا نار الوغى. كما فصل فى كتب السير وفى نهاية الأمر عادوا منهزمين.

إن ما نقله جماهير أئمة السير وما كتبوه تحت عنوان معجزة الخندق الجليلة فى

حق الصخرة التى قاومت الكسر انبثق فى كسرها معجزات غيبية كثيرة وفتوحات عظيمة.

وقد ظهرت تلك المعجزة أسفل الموقع الذى يطلق عليه ذباب أو بجانب جبل بنى عبيد. وكان فى موقع الصخرة التى كانت سببًا فى ظهور المعجزة عبد الله بن عمرو بن عوف وسلمان ونعمان بن مقرن - رضى الله عنهم - فلم يوفقوا فى نقب أو شق تلك الصخرة فأوكلوا المسألة إلى النبى ﷺ بوساطة حضرة سلمان فشرف النبى ﷺ وحطم تلك الصخرة كما ذكر فى كتب السير مفصلاً وهكذا أظهر معجزة الخندق العظيمة.

والموقع الذى حدثت فيه غزوة الأحزاب هو المكان الذى يستقر فيه الآن المساجد الأربعة على بعد نصف ساعة فى خارج المدينة. والموقع الذى يسمى الآن مسجد الفتح هو المكان الذى نصبت فيه الخيمة النبوية ونزلت فيه سورة الفتح بناء على قول.

والمساجد الثلاثة الأخرى يطلق على واحد منها مسجد أبى بكر الصديق وعلى الآخر مسجد على وعلى الثالث مسجد سلمان كما كتب فى الصورة الثالثة من الوجهة الثالثة.

وبناء على عقيدة أهل المدينة فإن ساحة تلك المساجد الثلاثة كانت المواقع التى نصب عليها المشار إليهم خيامهم. وبما أن مؤرخى المدينة لم ينقلوا أى قول بخصوص هذا الموضوع فنحن نتردد فى قبول ذلك وتصديقه. ولكنه لا شك أن مسجد الفتح قد أقيم على الساحة التى نصب عليها النبى ﷺ خيمته.

خيبر: بلد لا نظير لها من حيث وجود رياض وفيرة ومزارع وحصون كثيرة وهو ولاية كبيرة على بعد ثلاثة أيام من مدينة الرسول، وعلى يسار الذاهبين إلى المدينة من الشام. ويظن أن خيبر فى اللغة اليهودية بمعنى قلعة وبناء على ذلك يطلقون على قلاع الولاية المذكورة خيابر وهذا التعبير ليس وجه تسميتها بخيبر، لأن تسميتها بخيبر يعود إلى أن أخا الشخص الذى يدعى يثرب وهو خيبر بن قائنة بن مهليل بن أرم بن عبيل نزل فى أرض خيبر وأقام فيها، وأقام النبى ﷺ

فترة غزوة خيبر ما يقرب من شهر أمام قلاع خيابر وفتح القلاع واحدة تلو الأخرى وسخرها.

ثم عاد بعدما أبقى سكنتها فى أماكنهم بشرط أن يعطوا نصف محاصيل خيبر المتنوعة لبيت المال وكان قد خطط لإجلاء يهود خيبر إلى البلاد الأخرى ونقلهم فقالوا: «يا رسول الله!! نحن نعرف طبيعة هذه الأراضى نرجوك أن تبقينا هنا». فأشفق النبى ﷺ عليهم ورحمهم وأبقاهم فى أماكنهم على أن يكون نصف محاصيل المزارع لهم كأجور عمل ولم يقرهم على ملكية الأرض. أى على أن يجليهم إلى أماكن أخرى وقت ما شاء.

وبعد فترة وجد أخو عبد الله بن سهل مقتولاً فى أرض خيبر وبناء على طلبه كتب النبى ﷺ رسالة وأرسلها إلى يهود خيبر وكانت الرسالة تتضمن إعطاء دية عبد الله المقتول أو أن يستعدوا للحرب والقتال، إلا أن اليهود أقسموا بالله وبرءوا ذممهم من قتل عبد الله بن سهل وعلى هذا أعطى النبى ﷺ من بيت المال مائة جمل وسوى مسألة الدية وبين أنه قد حان الوقت لإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب بإخراج النصارى واليهود منها. ولأجل ذلك أجلى عمر بن الخطاب فى عهد خلافته اليهود من خيبر وأسكن مكانهم من يرغب من أهل الإيمان وآواهم، لأن مطهر بن رافع بينما كان عائدًا من الشام مع عشرة من العبيد فى أيام خلافته اختار أن يبيت ليلة فى خيبر التى كانت على طريقه. إلا أن اليهود الملاعين ألَّبوا عليه العبيد قائلين: «بينما أنتم عشرة أنفار كيف يذلكم هذا الرجل وتتحملون المشقات الجمة والمتاعب الكثيرة؟ أهذا من شأن العاقل؟! ونقول هذه الكلمات لأننا نرقّ لحالكم ونعطف عليكم. وإلا فما لنا؟! إذا أردتم أن تنجوا من الشقاء الأبدى، اقتلوا هذا الرجل بعد خروجكم من خيبر بهذا الخنجر الحاد ثم اهربوا كل واحد منكم إلى جهة ما» وبعد هذا التلقين أعطوا لهم الخنجر وقتل هؤلاء المجرمون بناء على تلقين اليهود مطهر بن رافع فى الطريق وعادوا إلى خيبر و أسرع اليهود بإعطائهم زاد طريقهم وإعادتهم إلى سواء الشام وعندما شاع هذا الخبر المؤلم وتردد صداه فى المدينة ذهب عبد الله بن عمر إلى خيبر ليسترد

أموال مطهر بن رافع المتروكة، وهجم أهل خيبر على عبد الله بن عمر ليلة ما على غفلة، ولأن ابن عمر نجا فى فترة ما وعاد إلى دار الخلافة إلى المدينة وأبلغ والده بما حدث؛ صعد حضرة عمر على المنبر دون تأخير وبين أن أهل خيبر قد تجرءوا على أذى عبد الله وقتل مطهر بن رافع وعبد الله بن سهل وتسببوا فى الخسارة وارتكبوا الفظائع وأن النبى ﷺ قال فى حق هؤلاء الملاعين «أقركم ما أقركم الله» وأنه قد وقت إجلاءهم من قطعة خيبر الفسيحة وأجبر المهاجرين والأنصار على تصديق قراره وقرر عمر لمردهم وعندما وصل ما قرره عمر بن الخطاب إلى خيبر جاء ابن أبى الحقيق إلى المدينة ومسح جبينه على تراب رجلى عمر بن الخطاب مهادنا ثم قال يا عمر، كيف تريد أن تنفينا وتجلينا من بلدنا وأنت تعرف أن محمدا ﷺ أبقانا ووطننا فى بلدنا فما سبب ذلك؟ وأنت تريد أن تتصرف خلاف الإرادة النبوية؟ فاستجوبه على هذا النحو. فقال له عمر هل تظن أنى نسيت ما قاله النبى ﷺ فى حقكم عندما قال «تستطيعون أن تبقوا الآن فى دوركم وديياركم ولكن كيف سيكون حالكم عندما تخرجون من بيوتكم ودوركم؟!» فقال له إن ما صدر من أبى القاسم كان من قبيل الهزل ولم يكن جادًا فى قوله، ولما رأى عمر بن الخطاب أنه يستخدم فى حق النبى ﷺ لغة الاستهزاء والسخرية قال له: «يا عدو الله، قد افتريت فجميع أقوال النبى ﷺ قول فصل وليس بهزل وبناء على هذا قد أهملتكم ثلاثة أيام ما عدا دخولكم وخروجكم!».

وفى هذه المدة غادروا منطقة الحجاز من جزيرة العرب!!!

وعاد وقد تلقى هذه الإجابة وأعطى أمير المؤمنين سواء أكان أثمان أموال يهود خيبر أو نصارى نجران من فيافيهم كلهم إلى الممالك الأخرى ثم وزع أموالهم وأشياءهم بين الأصحاب.

والسبب الذى دعا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى الصعود على المنبر النبوى وترغيب الصحابة الكرام فى نفى يهود خيبر من بلادهم ووطنهم ما

سمعه من النبى ﷺ قوله: «لا يبقى دينان فى جزيرة العرب» وبالنظر إلى معنى الحديث الشريف: «إن عشت إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من الحجاز» فلفظ جزيرة العرب الذى ورد فى الحديث سالف الذكر المقصود به بلاد الحجاز المقدسة، ويهود خيبر الذين أجلاهم عمر بن الخطاب كانوا أربعين ألفا من الشجعان المتسلحين وقد سمح لبعضهم بالإقامة فى تيماء وهذا يدل على أن المقصود بالجزيرة العربية التى فى الحديث قطعة الحجاز وإن كانت أرض تيماء فى داخل الجزيرة العربية ولا تعد من أراضى الحجاز لأن بلاد الحجاز تشمل الحرمين واليمامة، وخيبر مربوط بالمدينة كما أن الطائف مرتبط بمكة المكرمة.

وقد حدثت هذه الوقائع فى السنة التاسعة الهجرية فأجلى يهود خيبر ووادى القرى إلى حدود الشام، وأهالى نجران إلى أرض الكوفة. وهكذا أخليت بلاد الحجاز من النصارى واليهود بناء على الإرادة النبوية.

وظهرت فى خلال تلك السنة المذكورة نار عالية اللهيب وانتشرت إلى الأطراف والنواحى بذلت جهود جبارة لإطفائها فلم يمكن إطفاؤها.

وعرضوا الأمر على مقام الخلافة ورجوه أن يجد حلا لهذه الكارثة العظمى وأمر الفاروق الأعظم - رضى الله عنه - بالتصدق واتخذ الإجراءات اللازمة فانطفأت تلك النار فنجا الجميع.

خيط: اسم برج فى الجهة الشرقية لمسجد القبلتين خاص بقبيلة بنى سواد.

«خيل»: اسم محل بجانب دار زيد بن ثابت التى فى سوق المدينة القديمة، واسم جبل بين موقعى مجنب وضرار، واسم حديقة فى أراضى نجد، ويطلق على الحل الذى بجانب دار زيد بن ثابت بقيع الخيل، وعلى الحديقة التى فى أراضى نجد روضة الخيل.

حرف الدال

دار النخلة: دار قريبة من المحل الذى يقال له «زوراء» فى دار الهجرة، وجه تسميتها بهذا الاسم انعزالها عن المنازل الأخرى منفردة فى داخل حدائق النخيل.

دَبَّة: على وزن مكَّة اسم محل فى مضيق صفراء يطلق عليه «دبة المستعجلة» واسم موضع بين «وادبى أضافر» وبدر، واسم قرية قريبة من بدر على وزن نكتة.

دَرَّ: بفتح الدال وتشديد الراء، اسم بحيرة كائنة تحت حرة بنى سليم وفوق موقع يطلق عليه نقيع.

درك: على وزن سمك اسم موضع كان يقاتل فيه الأوس والخزرج فى الجاهلية. كما يطلق عليه دريك على وزن زبير.

دهنا: على وزن رغيا موقع قريب من ينبع كما يطلق على تلال رمل محاذية لديار تميم، وما بين كل تلين مزين بكثير من القرى والمدن وإن لم تكن لها مياه وفيرة فمحاصيلها السنوية تفى لعربان البادية وتزيد لطيب هوائها وصفائها لا يشغلون أنفسهم بالحمية.

وتتصل أنهارها بوادى «متعج» وبعده «دوتة».

دوداء: على وزن صحراء موضع قريب من ورقاق.

دوران: على وزن توران واد يقع على جهة جحفة من منزل قديد.

دومة الجندل: قد ضبط هذا الموقع ابن زيد على شكل «دومة الجندل» والموقع المذكور وفق قول ابن فقيه من ملحقات المدينة المنورة سمى باسم ابن حضرة إسماعيل بن إبراهيم وقرية قريبة من جبل «طى» الواقع بين المدينة المنورة وأراضى خطة الشام. وفى هذه القرية حصن حصين يعرف بمارد قلعة الملك المسمى «بأكيدر». أو اسم قرية من قرى وادى القرى وقد بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى الحصن المذكور وقال له ستجد أكيدر وهو يصطاد الثور الوحشى وبناء على قول ابن سعد إن دومة الجندل فى جهة الشام وتبعد عن الشام خمس ليال وعن المدينة المنورة خمس عشرة ليلة. وقد شرف النبى ﷺ هذه البلدة وظل هناك فترة طويلة وأرسل سرايا إلى البلاد المجاورة من هناك.

دويخل: اسم جبل بنى عبيد وأحد الجبلين اللذين فى الجانب الغربى لمسجد الفتح.

حرف الذال

ذات أجدال: موضع فى مضيق صفراء.

وذات القطب: نهر من أنهار العقيق المشهورة.

ذات النصب: الموضع الذى أنعم به النبى ﷺ على بلال بن الحارث المزنى عن وأقطعة إياه على أربع مراحل من المدينة فى الجهة القبلية.

ذات الرقاع: بئر من آبار الجاهلية وتقع بين وادى سعد وشقرة أو اسم جبل ملون بألوان بيضاء وحمراء وسوداء. وعلى رواية أخرى اسم شجرة بجانب هذا الجبل.

وعند البعض قد أديت فى المحل المذكور صلاة الخوف أو أن الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - ربطوا أرجلهم بالخرق فى الغزوة التى وقعت هنا وهذا هو وجه التسمية.

ذباب: اسم الصحراء التى أسس فيها مسجد الراية ويقال لها ذو باب أيضا.

ذرع: اسم بئر بنى خطمه.

ذروان: اسم بئر فى محلة بنى زريق المستقرة خلف البيوت التى فى الجهة القبلية من المدينة المنورة، وتشتهر باسم بئر ذروان.

ذفران: اسم واد واقع بين الحرمين.

حرف الراء

رائع: اسم موضع فى وادى «العقيق»

رابغ: اسم نهر فى جهة جحفة، واسم بحيرة فى وادى أسقف، وهذه البحيرة فى جهة غدير سيالة لا يجف ماؤها أبدًا وكان يقال لها فى الأوائل رابوغ والآن يطلق عليها حساء.

راتج: اسم أطم يعرف باسم الناحية التى تميل إلى جهة الشام فى الطرف الشرقى لموضع ذباب وكانت محلة أولاد بنى عبد الأشهل وأخوه وبناء على قول المطرى أن «راتج» اسم جبل يقع بجانب جبال بنى عبيد، وإذا كان ما ذهب إليه المطرى أن هذه الأطم فإنه يقتضى أن يكون غير الأطم سالف الذكر. ومع هذا لم يبق أثر سواء من الأطم أو ساحته.

تعريف البرج الذى يقال له «أطم» بين أهالى المدينة القدماء:

«أُطُمْ» بضم الهمزة والطاء وسكون الميم بمعنى جوسق عادى وقصر إلا أن الأغنياء من أسلاف المدينة اعتادوا أن يبنوا بيوتهم أبراجا مستحكمة حسب إمكانات عصورهم ويحيطون أسطحها بمتاريس بطول قامة رجل ويجعلون لتلك المتاريس فتحات يتقون بها ما يطلق عليهم، ويتحصنون فى داخل هذه الأبراج عند اللزوم ويطلقون على مثل هذه المبانى أطم ويجمعونها على آطام. وكانت حصون تلك الأزمنة وقلاعهم من هذا القبيل إلا أنها كانت بالنسبة للآطام أكثر استحكاما وكانت لها عدة أبراج وكانت لكل قبيلة عدة آطام والقبيلة التى تنهزم فى ميدان القتال كان يدخل أفرادها داخل هذه الحصون ويدافعون عن أنفسهم ويتحملون هجمات الأعداء مدة طويلة، لأنهم كانوا يدخرون فى داخل هذه الحصون من الأغذية ما تكفى لمعيشة ما يستوعبه الحصن من الأشخاص عدة شهور. وكانت القبائل تشن الغارات وتحارب الأخرى مستندة على هذه الحصون ولم تكن الحصون التى فى الجاهلية مثل ما نعرفه اليوم من القلاع والحصون التى تقاوم الأسلحة النارية. انتهى

رادان: اسم ناحية مشهورة ملحقة بالمدينة المنورة.

رامة: اسم منزل على بعد مرحلة من المدينة المنورة فى جهة طريق حجاج العراق وهناك قمتان على شكل نهدى امرأة.

رَانُوناء: على وزن عاشوراء اسم واد.

راية الأعمى: اسم نهر فى وادى «العقيق».

رَباب: على وزن كَباب جعل فى الجهة القبلية للمدينة.

رَيا: على وزن دَعا اسم منزل بين الحرمين وبين أبواء وسقيا.

ربَذة: بتشديد الباء على وزن مكة اسم قرية على مسافة أربعة أيام من المدينة فى جهة نجد قد اتخذ عثمان ـ رضى الله عنه ـ هذه القرية مرعى لإبل الصدقة.

ربيع: اسم ناحية من نواحى المدينة وبما أن الأوس والخزرج تقاتلوا فى هذا المكان قتالاً عظيما يذكرون هذ القتال بـ «يوم الربيع».

رَجَام: على وزن خَرَام اسم جبل مستطيل على بعد ثلاثة عشر ميلا من مرعى ضرية فى جهة ديار أضاح.

رجيع: وهو واد قريب من خيبر، وقد نزل النبى ﷺ فى هذا الوادى فى موقعة خيبر وكان غرضه منع قبائل غطفان من تقديم العون والمدد لأهل خيبر.

وبين مكة المعظمة وبلدة الطائف واد منسوب لبنى هذيل يطلق على هذا الوادى رجيع أيضا، إلا أن الرجيع ليس اسم الوادى المنسوب إلى بنى هذيل بل هو اسم ماء يقع فى هذا الوادى، وهذا الماء فى بلاد قبيلة هذيل، وعلى بعد سبعة أميال من هذا الموضع وادى عسفان وقد وقعت سرية سيدنا عاصم ـ رضى الله عنه ـ على رأس هذا الماء، حيث استشهد سيدنا عاصم ـ رضى الله عنه ـ، ومرثد بن أبى مرثد، والآخرون من الصحابة غدرا وقد قبض على خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة أحياء وقتلا صلبا فى مكة المعظمة.

سرية عاصم بن ثابت ـ رضى الله عنه[1]:

قد نال بعض الناس من قبيلتى عَضَل وقاره شرف المثول بين يدى الرسول ﷺ ورجوا منه أن يرسل لهم بعضًا من أصحابه الكرام ليعلموهم أحكام الشريعة، فأرسل إليهم النبى ﷺ عاصم بن ثابت ومرثد بن أبى مرثد وخبيب بن عدى

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٢/٥٣٨، سيرة ابن هشام ٢/١٦٧-١٦٨.

وزيد بن الدَّثِنة من الأشخاص الكرام، وكانوا كلهم من قراء القرآن، وعندما وصل المشار إليهم إلى ساحة ماء الرجيع هجم عليهم أفراد بنى هذيل على غفلة فقتلوا أغلبهم بسيف الغدر والخيانة، وقبضوا على خبيب بن عدى وزيد بن الدّثِنة أحياء وساقوهما إلى مكة فقتلا صلبًا فى جبل تنعيم. ولما حدثت هذه الواقعة الأليمة جهارًا فالذين يريدون أن يطلعوا على صورة وقوعها عليهم أن يطالعوا صفحة مائتين وعشرين من كتاب محمود السير[1].

ركابة: على وزن جفادة اسم موضع فى ديار بنى بياضة.

رجية: على وزن نرده اسم موضع قريب من وادى القرى وسقيا الجزل الواقعين فى بلاد عذرة.

رحقان: على وزن عسان اسم واد يمتد إلى ناحية بنى سال عندما يمضى الطريق من وادى نازية إلى مضيق مستعجلة ويقع على الجهة اليمنى من هذا الطريق.

رُحيب: على وزن زُبير اسم جبل معروف بالقرب من أراين.

رُحْية: على وزن رُؤْية اسم بئر بين المدينة والجحفة.

رديهة: على وزن نليجة اسم نهر بوادى العقيق.

رس: اسم ماء فى الجهة القبلية من دار الهجرة واسم واديين فى أراضى نجد أو اسم موضعين، واسم ماء بجانب وادى آذر بابجان وفى الوادى الذى فى ناحية آذر بابجان كان فى وقت ما ينتج الرمان والزبيب بدرجة لا مثيل لهما وهى قرى منتظمة.

ولما عصى وبغى أهالى تلك القرى وكذبوا نبيهم أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ جبلين من جبال الطائف أن يقوما بتأديب هؤلاء القوم المذمومين وقد انهار الجبلان المذكوران فوق سكان تلك القرى فهلكوا جميعا ولم يبق لهم أثر.

(١) وانظر أيضًا الطبرى ٢/٥٣٨-٥٣٩.

وكان لقوم ثمود بئر باسم رس ألقوا نبيهم فى هذه البئر وسدوا فوهتها بالحجر.

رشاد: كان واديا فى بلاد أجرد كان اسمه القديم عون فبدله الرسول ﷺ برشاد ولما وصل إلى قبيلة جهينة جامل أفراد بطن بنى عنان قائلاً أنتم بنو رشدان.

ذات الرضم: موضع على بعد ستة أميال من وادى القرى.

رضمة: وادى بالقرب من وادى صفراء.

رضوى: جبل مشهور مبارك فى مكان يبعد عن المدينة أربعة أيام وعن ينبع البحر يوما واحدا ويستخرج من فوقه منجم لحجر المسن، قد أخبر النبى ﷺ أنه من جبال الجنة.

رعل: اسم برج فى قرية بنى عبد الأشهل.

رقمتان: اسم ساحتى رمل بجانب الحرة الغربية للمدينة المنوره، ولونها أصفر مائل إلى الحمرة، موضعان مشهوران فى ديار بنى أسد كما أن هنا قريتين بهذا الاسم إحداهما فى وادى القرى والأخرى فى الأراضى النجدية.

رقم: تقال للمنزل الذى يسكن فيه أربد بن الصيفى فى الجهة الشرقية من المدينة. واربد هذا جاء إلى المدينة بقصد قتل رسول الله ﷺ وسكن فى ذلك البيت فترة ما ثم يئس من قتله ـ عليه السلام ـ فعاد وفى أثناء عودته أصابته الصاعقة ومضى إلى جهنم وكان قد أطلق على هذ المكان الذى هلك فيه هذا الرجل سهام الرقميات، ومازال معروفًا بهذا الاسم إلى الآن. كما أن فى بلاد بنى غطفان جبل باسم رقم بجانب هذا الجبل مجرى ماء يعرف بنفس الاسم.

رقيبة: اسم جبل طويل فى خيبر.

ركابيه: اسم موضع على بعد عشرة أميال من المدينة من عرج وهى عقبة فى غاية الصعوبة عند الطلوع عليها.

وبجانب هذه العقبة عقبة عائز قد مر النبى ﷺ عندما هاجر من هذه العقبة

ومن الغرابة بمكان أن ابن حجر عندما عرف نار الحجاز قال إن عقبة ركوبه فى الطرف الشامى من المدينة وقد مر النبى ﷺ بهذه العقبة فى وقعة تبوك وأنها عقبة صعبة الصعود ووصف وعرف عقبة ركوبه طولا وعرضا وحددها، وإذا كانت رواية ابن حجر صحيحة فمن المحتمل أن يكون فى ذلك المكان عقبة أخرى باسم ركوبة.

تطلق العقبة على الجبال الوعرة صعبة التسلق لما يقال على الجبال والهضاب ذات طلوع ونزول كما أن ثنية بمعنى عقبة.

رمة: صحراء يمتد طولها سبع ليال فى أراضى نجد فى جهة منها حرة فدك والجهة الأخرى أرض قصيم.

وإن كان هناك موقع يطلق عليه. **بطن الرم** إلا أن هذا المكان فى طريق المدينة المنورة التى تنتهى إلى فيد وفى داخل بلاد بنى غطفان.

روادة: اسم بحيرة كبيرة تمر منها سيول العقيق.

روايتان: اسم هذه البحيرة أيضا.

الروحاء: موضع يبعد عن المدينة المنورة اثنين وأربعين ميلا، وذهب بعض المؤرخين إلى أنها على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة والبعض الآخر على أنها ثلاثين ميلا من المدينة المنورة وهذا الاختلاف يعود إلى أن المؤرخين قاس بعضهم من أولها والآخرون من وسطها والبعض الآخر من نهايتها ولما كانت الروحاء واديا بيرا ففى أولها لافتتان كما أن فى آخرها أيضا لافتتان فالذين قالوا أنها تبعد ثلاثين ميلا قاسوا المسافة من مدخل الوادى والذين قالوا أنها تبعد ستة وثلاثين ميلا قاسوا المسافة من وسط الوادى والذين قالوا أن المسافة اثنين وأربعين ميلا قاسوا من مخرج الوادى، وبناء على هذا التقدير فطول الوادى يمتد على طول اثنى عشر ميلا.

ووجه تسمية الوادى بهذا الاسم أنه واد فى غاية الاتساع أو أن الملك «تبع» قد استراح فى هذا الوادى ويوصى أكثر الرواة بأن القول الثانى أحق بالاعتماد عليه أى أن وجه تسميته استراحة الملك تبع قليلا فى وادى الروحاء بعد أن قاتل

يهود المدينة وهذا يؤيد القول الثانى ولا ينفى أيضا إمكان صحة القول الأول. كان فى وادى الروحاء قصران ومسجد، والعديد من الآبار. والمحل الذى دفن فيه إبراهيم بن الرسول ـ عليه السلام ـ فى بقيع الغرقد روحاء أيضا.

روضة الأحوال: اسم حديقة فى ناحية ودان.

روضة الأجواد: قرية كائنة فى ديار بنى غطفان وفى إحدى وديان قصيبة وفى الطرف القبلى من هذه القرية خيبر وفى طرفها الشرقى أراضى عصيرة.

روضة أحام: فى وادى العقيق.

وروضة الخزرج: موضع فى داخل المدينة وروضة الخزرج تنسب لبنى خزرج.

روضة الحماط: المحل الذى يطلق عليه ذات الحماط فى العقيق.

روضة الصهباء: اسم حديقة تقع على بعد ثلاثة أيام من المدينة فى ناحية الشام.

روضة عربتة: واد فى ناحية رخصية، وكان هذا الوادى قد اتخذ مرعى لرعى الخيول فى الجاهلية وأوائل العهد الإسلامى.

روضة العقيق: فى وادى العقيق.

وروضة مرخ: اسم حديقة فى داخل المدينة.

ذو رولان: اسم واد ينسب لقبيلة بنى سليم بالقرب من رخصية.

رويثة: اسم منزل على بعد ستة أميال فى جهة مكة المكرمة «رهاط» اسم دار الصنم المسمى بسواع الذى اتخذه بنى هذيل إليها وهى فى داخل أراضى البحر، كما أنه اسم قرية بجانب جبل شمنصبر. والذين يريدون أن يتعرفوا على ذلك الصنم أكثر من هذا يستطيعون أن يطالعوا صحائف مرآة مكة.

ريان: اسم برجين منسوبين لقبلتى بنى حارثة وبنى زريق واسم ماء كائن أسفل الجبل الأحمر الطويل الذى فى مرعى ضرية واسم واد بجانب الجبل المذكور واسم جبل فى ديار بنى عامر واسم قصور متعددة فى منجم بنى سليم.

ريدان: على وزن ميدان كان اسم برج خاص ببنى واقف من القبائل الأوسية وفى الجهة القبلية من مسجد الفضيح.

ريم: اسم الوادى الذى فى بلاد مزينة والذى يصل جبل ورقان بوادى العقيق ويبدأ هذا الوادى على ثلاثة أميال من المدينة المنورة وينتهى على بعد ثمانية وأربعين ميلا.

حرف الزاى

زبالة: اسم موضع مشهور بجانب التل الترابى الذى فى بلاد حمراء الأسد وفى مبدأ حدود أرض يثرب من جهة الشام، وفى عصر الجاهلية غمر هذا الموضع الماء فهلك معظم ساكنيه، وعلى قول أن زبالة بنت مسعود من بقية العمالقة نزلت فى هذا الموضع وأقامت قرية هناك وهذا هو وجه تسمية ذلك الموضع باسم زبالة.

زج: اسم موضع فى مرعى ضرية وقد أقطع النبى ﷺ هذا الموضع لعداء بن خالد من قبيلة ربيعة بن عامر.

زرود: اسم موضع بالقرب من أبرق العذاف أو اسم موضع قريب من منزل ثعلبية فى طريق فيد الذى يعد من منازل حجاج العراق، وعندما أرسل سيدنا عمر الفاروق سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ إلى العراق مضى سعد أولا إلى «فيد» حيث أقام مدة شهر ثم عاد إلى منزل «زرود» سالف الذكر.

زغابة: موقع سيول وادى العقيق أى فى الموقع الذى تتجمع فيه مياه وادى العقيق الذى فى الجهة الغربية من مقبرة سيدنا حمزة ـ رضى الله عنه ـ وفى أعلى المكان الذى يطلق عليه «إضم»، وأسفل المكان الذى يطلق عليه «شظات»، لأن الوادى الذى يضم المدينة المنورة المقدسة يطلق عليه «إضم» وكان هذا الوادى يجمع بين مواضع متعددة وكان يطلق على المكان الذى فيه مدينة الرسول ﷺ «قناة» وعلى أعلى هذا الموقع أى على المكان الذى بجانب سد القناة «شظاة» وعلى المكان الأسفل «إضم».

زمزم: بئر فى داخل المدينة كما وضح فى فصل الآبار وسبب تسميتها بهذا الاسم هو توزيع مياهها إلى أطراف المدينة للتبرك.

زهرة: اسم قرية بين الحرة الشرقية وموقع سافلة.

زور: اسم واد أو جبل بجانب السوارقية.

زوراء: اسم موضع بجانب ضريح حضرة مالك بن سنان وفى مكان السوق القديم كما جاء فى مبحث الأسواق وكان فى هذا المكان داراً لعثمان بن عفان تسمى زوراء وكانوا يعلنون حلول وقت صلاة الجمعة من هذا المكان فى عهد خلافته، كما يطلق على الموضع الذى يوجد فيه مرقد ابن رسول الله إبراهيم عليه السلام.

زين: اسم مزرعة فى موقع جرف.

حرف السين

سائر: اسم ناحية فى المدينة المنورة تعرف أيضًا باسم سائرة.

سافلة: الجهة المقابلة للموضع الذى يطلق عليه العالية فى المدينة المنورة؛ وذلك لإطلاق على جهة من جهات المدينة العالية وعلى الجهة الأخرى السافلة وتبدأ العالية من المسجد الشريف وتنتهى فى وادى سخ وهذ المكان يمتد قدر ميل فى ناحية قباء ونقطة الاتصال هذه ابتداء السافلة وعلى هذا يقتضى أن تكون جهة المدينة المنورة الشامية العالية وإن كان بعض الناس يطلقون على جهة من المدينة المقدسة العالية وعلى الجهة الأخرى السافلة فهم مخطئون فى قولهم هذا.

ساهية: اسم واد من وديان العقيق.

ساية: اسم الوادى فى سفوح جبل شمنصير، وهذا الوادى صحراء جسيم يشتمل على آبار كثيرة وحدائق نخيل. كما أن الرمان والعنب والموز من جملة فواكه هذه الحدائق.

ستار: اسم جبل خلف مرعى ضرية واسم جبل فى ديار بنى سليم كما أنه اسم جبال ذات حجارة سوداء على بعد ثلاث مراحل من ينبع البحر.

سجاسج: الاسم الآخر لوادى الروحاء ولما كان هواؤه معتدلا أطلق عليه سجاسيج. لأن سجسج يطلق على الجو المعتدل الخالى من الحرارة.

السد: اسم السد الذى أقامه عبد الله بن عمرو بن عثمان ليقطع سيل رانوناء.

سراة: اسم الجبل العظيم الذى يفصل بين نجد وتهامة. وذلك الجبل من أعاظم الجبال ويبدأ من قعر اليمن ويمتد إلى أطراف الشام. ولما كانت بلاد الحجاز على الجهة الشرقية من هذا الجبل يطلق العرب عليها الحجاز.

«ذو السرج» اسم نهير قريب من وادى ملل.

سر: اسم موقع خاص بأفراد قبيلة بنى أسد واسم منزل فى بلاد تميم. وكانت سرارة اسم حديقة فى قرية بنى بياضة ويطلق عليها فى زماننا سرارة إلا أن هذه الحديقة ليست حديقة بنى بياضة ولكنها حديقة أخرى.

سَرغ: اسم قرية فى وادى تبوك على ثلاث مراحل من المدينة وهذه القرية أبعد منزل لمدينة النبى ﷺ ومبدأ حدود بلاد الحجاز المقدسة وعلى بعد مرحلة من تبوك.

سُرير: على وزن زُبير اسم نُهير بجانب قرية جار واسم الصحراء التى توجد فيها. نطاة وشق من القلاع الخيرية.

سَعْد: اسم سوق تقام فى طريق «فيد»، وأسماء الجبال التى على بعد ثلاثة أميال من وادى كرير، وفى القرب من قرية ذات الرقاع، وعلى جبل سعد منازل كثيرة.

سَقا: على وزن صَفا ناحية من نواحى المدينة.

سَقان: اسم مجرى النهر الذى يوصل سيل إضم إلى البحر.

سَفَوان: اسم ناحية من نواحى بدر حيث وقعت غزوة بدر الأولى.

سقاية سليمان بن عبد الملك: فى محل يسمى جرف حيث ينفصل حجاج الشام إلى طريق الشام.

سقيا: على وزن رؤيا الاسم القديم لوادى جزل الذى يبعد عن مدينة الرسول ﷺ سبع مراحل وبالقرب من وادى القرى واسم «سقياء» سعد فى الحرة الغربية واسم بئر على بعد يومين من المدينة المنورة بناء على قول الإمام قتيبة.

وبناء على رواية أخرى أنها اسم قرية على طريق مكة القديم وبما أن أهالى هذه القرية قد اعتادوا سقى الحجاج بالماء العذب فقد سمُيت بهذا الاسم.

وعند البعض أن تبع الحميرى نزل فى هذه القرية وعطش ولم يجد فى جوارها ماء صالحًا للشرب وإذا بمطر يمطر فجأة وينال مرامه لذا أطلق على ذلك المحل سقيا.

سقيفة بنى ساعدة: يطلق على بنيان الديوان الذى اجتُمِعَ فيه للتشاور فى مبايعة أبى بكر الصديق خليفة. ويطلق «سقيفة» على كل صفة بنيت على أربعة أعمدة مكشوفة الجوانب وكانت صفات منازل البلاد الرومية من هذا القبيل. وقد قال الإمام السمهودى إن سقيفة بنى ساعدة كانت فى الطرف الغربى لبئر بضاعة إلا أنه لا يوجد أحد فى زماننا يعرف ساحة تلك السقيفة.

سكاب: اسم جبل من جبال المدينة القبلية.

سَلاح: على وزن فَلاح أسفل خيبر لما كان بشير بن سعد الأنصارى ذاهبًا إلى اليمن تلاقى فى هذا المكان مع الغطفانيين[1]، كما أنه اسم ماء مر فى ديار بنى كلاب وكل من كان يشرب من هذا الماء كان يتقيأ.

سلاسل: اسم ماء فى مكان يطلق عليه أرض الجذام وهى التى تقع خلف وادى القرى ويبعد عن المدينة بمسيرة عشرة أيام.

سُلالم: حصن فى خيبر.

ذو السلاسل: اسم نهر بين المدينة ووادى فروع.

سَلعْ: اسم جبل فى مواجهة مسجد الفتح وكهف بنى جذام فوق هذا الجبل.

سُليع، على وزن زبير: اسم جبل مقابل جبل السلع، وقد بنى حجاز بن شيخه فوق ذلك الجبل حصنًا رصينًا فى سنة ٦٧٠ حيث سكن. وانتقلت هذه القلعة مع مرور الأيام إلى أمراء المدينة لذلك عُنيت بها أعظم عناية وحُرست فى الليالى من قبل الجنود إلا أنها تركت فيما بعد لسبب غير معروف، يروون أن المنازل التى كانت تخص جماعة أسلم بن قصى كانت فى هذ الجبل.

(١) الخبر فى الطبرى ٣/ ٢٣.

وقد بنى فى زماننا على سفوح الجبل التى تمتد ناحية المدينة المقدسة بعض البيوت من اللبن ونصب كثير من الخيام حيث أسكن الغرباء الذين انفصلوا عن قبائلهم البدوية، كما أسكن فى البيوت بعض الجماعات. ويتعايش سكان الخيم على رعى الإبل والأبقار والثيران وبيعها وبحراسة البساتين، كما أن أعيان البلد وأغنياءها يمدون إليهم يد العون.

استطراد:

هناك ثلاثة جبال بعضها منفصل عن البعض على الطريق الذى يمتد إلى ناحية جرف من الجبال المذكورة ويطلق على أحد منها جبل «حصانية» وهذا الجبل أقرب الجبال إلى المساجد الأربعة. ويطلق على الآخر جبل «فته» وهو الجبل الذى يقع فى الجهة الشامية من حصانة والجبل الذى يقع على الجهة الغربية من جبل فته يقال له جبل «أم منيع» وهذه الجبال الثلاثة فى الجهة الشامية من البلدة الطاهرة وفى داخل المنطقة التى حرمها النبى ﷺ.

والجبال التى يسميها الأهالى «الجماعات» ثلاثة فى الطرف الغربى للحرة الغربية حيث مجرى العقيق الذى يطلق عليه جرف والجبل الذى بجانب الحرة الغربية يقال له «عصيفرين» ويقال للجبل الذى فى الطرف القبلى لـ «مدرح» أى فى وسط الحرة الغربية «الضليع الأحمر».

ضليع البرى: إنه فى جهة العيون وفى الطرف الشامى للبركة وجبال منخفضة خلف المواقع التى تسمى هريسة وعين صدقة وعين ريان وأم هجول التى خلف الجبل الذى لا اسم له. والأهالى لا يعرفون أسماء هذه الجبال والجبل الذى ذكر اسمه فى الحديث الشريف وهو «جبل عير» هو الجبل الذى يمتد إلى آبار على. ولونه أسود. وهناك جبل طويل مظلم فى الطريق الذى يأتى من جهة «غائر» وفرع فلا يعد هذا الجبل من جبل عير، وهناك جبل «ثور» أيضًا وهو جبل صغير أحمر وفى نهاية مجرى ماء صادقية من الجهة الشامية، والأراضى التى خلف هذه الجبال ظلت خارج المنطقة التى حرمت. والحرة التى فى الجهة الشرقية وإن

كانت خارج حدود الحرم فنصف هذا الجبل ملتصق بالحدود الشريفة فنصفه الخارجى قد احترق عندما اشتعلت نار الحجاز المنذرة، فى الناحية الشمالية للمدينة أراض تعرف بـ عورة وهذه الأراضى تنقسم قسمين فالجهة التى تؤدى إلى ضرُيح حمزة ـ رضى الله عنه ـ فأكثر ترابها أبيض، حتى إن البنائين والنقاشين يحرقون الكلس فى هذا المكان. وبعض أماكنها موحلة، ولما كان كل جهاته مزروعة ولما كان المهاجرون والمجاورون يتكاثرون فى هذه الفترة فقد أخذوا فى إعمار هذه الأماكن ببناء منازل عشوائية. والجهات القبلية لهذه الأراضى تنسب إلى جماعة من قبائل مسروح والذين يقيمون فى طريق غاير وفرع، والأراضى التى بين المدينة وقباء من ممتلكات قبلية، فهذه وقرية قربان التى بين قباء وعوالى أراضيها خاصة بجماعة من قبائل «وهوب» و «غردة» وقرية «عوالى» التى تقع فى الجهة الشرقية من القربان خاصة بقبيلة بنى على وأفرادها.

والأراضى التى تقع على الجهة الشرقية من طريق مشهد حمزة هى أراضى صدقة، عين حازمية، تعرع، سرائية، عين حسين، شربوقة وهى تتكون من الأراضى التى تمتد إلى سفوح جبل أحد. وهذه الأراضى تابعة لبنى على سالفى الذكر.

والمواقع التى على غرب طريق مشهد حمزة إلى جبل فته ديار قبيلة أشراف بنى حسين وأراضى أشراف بنى حسين إلى مجرى عين الزرقاء الجهة الشامية منها ديار قبيلة حنانية، والجهة القبلية من هذا الموقع ديار قبيلة خوارزم وأراضى العيون التى تقع فى جهة الشام ومزارع الجرف التى تقع على الجهة الغربية لهذه الأراضى، وجهات أبى بريقه، ذى الحليفة، وسيطة، علاوة أيضًا على جبل الحمراء بلاد أفراد بنى عمر من المسروحين، فهذه الأماكن تسمى بأسماء تلك القبائل المذكورة. وإن كانت فى هذه المواقع أموال القبائل الأخرى أيضًا إلا أن أسماءهم لا تذكر، لأن أراضى جزيرة العرب قد قسمت قديمًا وقد قرر أن تذكر قطعة الأرض والتى كانت من نصيب أية قبيلة باسم وكنية تلك القبيلة واتخذ

ذلك قانونًا، وبناءً عليه وإن انتقلت بعض أجزاء تلك الأراضى إلى الآخرين عن طريق الشراء أو الإرث، تذكر تلك الأراضى بأسمائها القديمة حسب القانون.

سليل، اسم صحراء العقيق.

سُليلة: اسم موضع فى وادى.

سليم: على وزن زبير: اسم النهر الذى يسمى ذات السليم فى صحراء العقيق.

سمران: على وزن عثمان اسم الجبل الذى فى خيبر حيث صلى على قمته النبى ﷺ.

ذو سمر: اسم ماء فى وادى العقيق.

سميحة: اسم بئر قديمة فى المدينة المنورة.

سُنح: يقال لأطم زيد بن الحارث الذى يقع على بعد ميل من المسجد النبوى فى جهة العالية، وبما أن النقطة التى يوجد فيها هذا الأطم نهاية حدود جهة العالية للمدينة فسموا تلك الناحية بسخ. كانت زوجة حضرة أبى بكر الصديق الأنصارية من ساكنات ناحية سنح.

إن أطم كما ذكر أعلاه هى الأبراج التى كان يقيمها سراة عرب الجاهلية فوق سطوح منازلهم، إلا أن الأطم الذى يطلق عليه «سنح» لم يكن من قبيل تلك الآطام بل كانت أبنية متينة تشبه الحصون وتبنى خارج القرى للتحصن بها وقت الحاجة.

وتوجد مثل هذه المبانى فى بلاد الروم ويطلق عليها أهاليها كلمة «برج» و«خاى».

وعندما يقتضى الأمر فإنهم يتحصنون فى داخلها بأولادهم وعيالهم ويقاومون الأعداء.

وليس هذا فى العصر الذى نتباهى بإدراكه فى عصر السلطان الذى يستقر فيه السلام والأمن بل كان فى أيام أمراء الإقطاع.

وكان فى تلك الأوقات لكل مدينة أمير وكان الأمراء يغيرون على بعضهم ويتقاتلون من حين لآخر.

وتوجد أبراج وما يشبه القلاع فى أكثر الممالك إلا أنها بنيت بقصد حماية الأموال والعيال ضد قطاع الطرق واللصوص كما يروى أن بعض أغنياء البلاد المختلفة يبنون فى الأماكن ذات الهواء الجيد منازل يصطافون فيها عندما يشتد الحر.

سنّ: على وزن جن اسم جبل فى محاذاة جبلين يطلق عليهما «ميطان» و«شوران».

سواج: على وزن قماش جبل من جبال مراعى ضرية يشتهر بأنه مساكن الجن.

سوارق: اسم ماء فى غاية العذوبة بالقرب من سوارقية.

سوارقية: اسم قرية تشتهر بوفرة فواكهها وكثرة رياضها ولم يكن فرد من بنى سليم فى هذه القرية غير مالك لشىء.

سوق بنى قينقاع: اسم مكان سوق تقام عند جسر بطحان، وكان عرب الجاهلية يقيمون سوقا فى هذا المكان عدة مرات فى سنة واحدة وكان جماعات القبائل العربية يحتشدون فيها فوجا متباهين وينشدون الأشعار، اجتمع سيدنا حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ مع نابغة بنى ذبيان فى هذه السوق.

ونابغة: اسم امرأة من بنى ذبيان تنتسب إلى نساء قينقاع وتشتهر بالبلاغة والفصاحة، وإن كان يقال نابغة لكل شاعر فصيح إلا أن نوابغ الأسلاف ثمانية من الشعراء لا مثيل لهم وأسماؤهم:

١ ـ زياد بن معاوية الذبيانى

٢ ـ قيس بن عبد الله الجعدى.

٣ ـ عبد الله بن مخارق الشيبانى.

٤ ـ يزيد بن إبان الحارثى.

٥ ـ نابغة بن القنوى

٦ ـ حارث بن بكر اليربوعى.

٧ ـ حارث بن عدوان التغلبى

٨ ـ نابغة العدوانى.

سويداء: اسم موضع فى جهة ذى خشب على بعد ليلتين من المدينة.

سويد: برج فى الطرف الشامى لحديقة حماضة فى قرية بنى بياضية.

سويقة: اسم موضع على بعد ثلاثين ميلاً من مرعى ضرية له بئر ماؤها فى غاية من العذوبة واللطافة، وبين الحرمين ناحية تسمى سويقة ولما كانت هذه الناحية من جملة أوقاف سيدنا على ـ كرم الله وجهه وتقع على يمين من يتجهون من وادى السيالة. كان بعض الرجال من آل على يقيمون فى تلك الناحية. وكانت تلك الناحية فى غاية العمار فى أوائل عهودها وكانت مشهورة جداً فى تلك النواحى إلا أنها قد خربت فى عهد المتوكل بالله العباسى وأخذ عمارها يقل يومًا بعد يوم، لأن محمد بن صالح الحسنى الذى رفع راية العصيان فى عهد المتوكل بالله العباسى جهز جنوده ورتب أمورهم فى هذه الناحية.

وبعدما انتصر المتوكل على محمد بن صالح قتل أكثر جنوده وأحرق مساكنهم ومعاقلهم وخربها كما أحرق حدائق نخيله فجعلها مأوى للبوم والغربان فلم تعمر بعد ذلك. وبين ينبع البحر والمدينة الميمونة جبل يطلق عليه «سويقة» ولما أقام إبراهيم بن عبد الله فى هذا الجبل فإنه يطلق على هذا الجبل فى عصرنا سويقة منازل بنى إبراهيم.

سى: اسم الناحية التى قاتل فيها الشجاع وهب مع قبيلة هوازن على بعد خمس ليال من المدينة المنورة.

سَيالة: اسم الوادى الذى يوجد فيه مسجد شرف الروحاء. ومنتهى هذا الوادى على بعد ثلاثين ميلا من المدينة المنورة يعرف باسم شرف.

سيح: الجهة الغربية لمساجد الفتح يظهر أنها ناحية سنح سالف الذكر.

سير: اسم الموضع الذى قسم فيه غنائم بدر وهو بجانب وادى صفراء ونازية على بعد نصف فرسخ من مضيق مستعجلة، ويطلق فى زماننا على المكان الذى يسمى فركات الخيف سيراً وبجانب هذا المكان حوض قديم.

حرف الشين

شابة: اسم جبل بين وادى ربذة ووادى سليلة.

شاش: كان شاش برج بنى عطية بن زيد فى ساحة مسجد قباء الرملية.

شبا: اسم واد فيه بئر خيف الشبا فى ديار أيثل.

شباع: اسم جبل مقابل لبئر ثابت.

شبَاك: اسم موضع كان بين المدينة المنورة وأبرق العذاف. واسم منزل فى وادى شفوان.

شبعان: اسم برج فى مكان يسمى بشمغ شبكة اسم مزرعة فى موضع إضم والتى تتبع ذى خشب.

شجرة: اسم الشجرة المشهورة فى مسجد ذى الحليفة، تقال أيضًا شجرة لمزرعة منسوبة لجماعة بنى قريظة.

شَذَخ: اسم واد والمنزل الذى يطلق عليه نخلة كان فى داخل هذا الوادى.

شراة: اسم جبل فى غاية العلو على شمال وادى عسفان.

شرج: اسم موضع شجرة العجوز فى خارج المدينة المنورة حيث قتل اليهودى كعب بن الأشرف، واسم مجرى ماء فى أراضى نجد، وكذلك اسم دار فى ديار فزارة وفى وادى فزارة بئر مشهورة أيضًا.

شرَةِ عِبَى: كان اسم برج أسفل وادى ذباب.

شَرَف: مكان مرتفع بين واديى الروحاء والسيالة يقال لهذا المكان شرف الروحاء و شرف السيالة أيضًا.

شريق: اسم مجرى ماء من أنهار وادى العقيق.

شُطأن: اسم بئر واد من وديان المدينة.

شطون: اسم بئر فى وادى مثعر.

شظاة: اسم نهر قناة شعب واد ينتهى إلى صفراء حيث كثير من أشجار النخيل.

شعاب: «شعب أحد» قد شرَّف النبى ﷺ هذا الشعب يوم غزوة أحد.

شعب العجوز: المكان الذى قتل فيه اليهودى كعب بن أشرف فى خارج المدينة.

شعب المشاش: خلف جماء العاقل فى وادى العقيق.

شعب الشوكة: يقال له شعب على أيضًا وهى طرق عديدة والشعب يقال لمكان مكشوف بين الجبلين أو على رأى آخر يطلق على الطريق الجبلى الضيق صعب المرور.

شُعْبة: اسم بئر قريب من وادى يليل واسم مجرى ماء فى وادى أبلى.

شعث: على وزن كرز موضع بين منجم بنى سليم وقرية السوارقية.

شعر: على وزن جسر اسم جبل مقابل منجم مأوان.

شعبى: اسم قرية بين أراضى أيلة والمدينة، واسم منزل سقيا التى تقع فى نقطة اتصال الطرق التى تؤدى من مصر والشام.

شُفر: اسم ماء فى وادى ربذة واسم جبل لمنجم مأوان.

شُقرة: موضع يقع فى طرق فيد وبين الجبال التى يطلق عليها مجرا كان بعض

منهزمى غزوة أحد قد هربوا إلى هذه الأماكن التى تبعد عن المدينة مسافة يومين.

شَقْ: اسم قلعة من قلاع الخيابر.

شلول: اسم ناحية فى المدينة.

شماح: كان اسم برج فى الجهة القبلية من بيوت بنى سالم.

شمنَصبُر: اسم جبل مشهور فى وادى ساية.

شناصير: ناحية من نواحى المدينة.

شنولة: اسم جبل على ميل من شرف الروحاء وفى مقابل الطريق الذى يقال له شعب على.

شوَاجد: جبل فى قرية سوارقية قد حدثت مقاتلة عظيمة فى هذا الجبل فى جاهلية العرب وهى فى داخل وقائع العرب فى الجاهلية.

شوْران: جبل فى محاذاة جبل ميطان وتنسب حرة شوران لهذا الجبل وحرة شوران لما كانت مراعى أطرافها الأربعة خصبة فالإبل التى ترعى هنا تسمن وتكتسب ضخامة.. حتى إن النبى ﷺ رأى فى شوران جملاً سمينًا فسأل «أين رعيتم هذا الجمل؟» ولما قيل رعيناه فى حرة شوران، تفضل قائلاً: «بارك الله فى شوران».

شوط: اسم موضع بالقرب من منازل بنى ساعدة.

الشيخان: برجان فى جهة والج يطلق على أحدهما الشيخ وعلى الآخر الشيخة لما كان هذان البرجان فى الطريق الذى يؤدى إلى أحد عن طريق الحرة الشرقية ولما مضى النبى ﷺ إلى معركة أحد كان قد صلى فى الأرض المستوية بين البرجين، وكان شجعان وقعة أحد باتوا ليلة فى هذه الساحة المستوية.

صَاخَة: اسم أحد التلال الخمسة التى فى وادى العقيق لا ينبت العشب فوق هذه التلال.

صارى: اسم جبل فى الجهة القبلية للمدينة المنورة.

صُخَرة: اسم موضع فى الجهة الغربية للبقيع.

صَحْتُ: جبل فى أعلى السوارقية على قمة بئر كثيرة الحجارة.

صدار: اسم موضع فى وادى الروحاء يعرف بـ صَدارُة.

صرار: كان برجا فى الطرف الشامى لدار الهجرة. كما يطلق على المحل الذى وزُعت فيه غنائم غزوة قرقرة الكدر وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة كما يسمى جبل من جبال المدينة القبلية وبئر قريبة من مدينة الرسول ﷺ التى بقيت من أيام الجاهلية صرار أيضًا. وهذه البئر فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة قد شيع عمر بن الخطاب إلى هذه البئر المجاهدين الذين ساقهم إلى الكوفة.

صعبة: تطلق على المزارع المنسوبة إلى بنى سليم بالقرب من جبل أملى وفى هذا المكان آبار عديدة ذات مياه عذبة.

صفاح: اسم موضع فى وادى الروحاء.

صفا: صف اسم موضع بين سد عبد الله العثمانى ومنزل عصية.

صفراء: وادى يضم كثيراً من حدائق النخيل وفيه آبار كثيرة، وكان النبى ﷺ قد شرف هذ المكان عدة مرات.

صفر: جبل أحمر فى وادى «فرش ملل» وعليه مبنى لحسن بن زيد.

صفنة: كانت داراً منسوبة لنبى عطية فى الساحة الرملية لمسجد قباء.

صفينة: على وزن دفينه دار بين منازل بنى سالم وبيوت قباء ـ وعلى رواية ـ كان بلدا فى ديار بنى سليم.

صلحه: على وزن نسخة اسم دار فى داخل قرية بنى سلمة.

صَلْصَل: على وزن أكمل، جبل معروف على بعد سبعة أميال من المدينة فى الجهة القبلية وهو قريب من ذى الحليفة والآية الخاصة بالتيمم نزلت فى هذا الجبل. كما يروى.

صلاصل: اسم مكان فى وادى بطحان.

صمد: اسم ماء قريب من المدينة واسم موضع فى قرية قباء.

صمان: على وزن دساس اسم الجبل الأحمر القريب من سبعة جبال رملية فى دهناء التى فى أراضى ديار تميم. وبالقرب من جبل رمل عالج من الجبال السبعة.

صوار: اسم موضع فى المدينة.

صورى: اسم مجرى ماء فى أودية النقيع يطلق عليه فى زماننا صعورية.

صَوَرَان: على وزن دَوَرَان الموضع الذى يشمل على حدائق النخيل فى نهاية مقبرة بقيع الغرقد. كان النبى ﷺ مر بهذا المكان عندما توجه إلى غزوة بنى قريظة.

ذو صويرة: واد قريب من مجرى ماء الصورى من وديان العقيق. كان أعلم الناس عبد الله بن عباس قد وقف مزرعته التى فى هذا المكان.

صياصى: أربعة عشر برجًا فى قرية قباء، مفردها، صيصة.

حرف الضاد

ضاحك: على وزن ناطق جبل فى وادى فرش ملل. وبين هذا الجبل.

ضويحك: مجرى ماء.

ضارج: اسم موضع بجانب ماء عذيب واسم منزل فى بلاد اليمن.

ضأس: اسم واد بين ينبع البحر والمدينة.

ضاف: اسم واد فى جهة بقيع جوانبه محاطة بالجبال.

ضباء: قرية من قرى المدينة ماؤها عذب كثيرة الآبار، وفيها أشجار يطلق عليها مقل.

ضبع: اسم ماء من أنهار العقيق.

ضبوعة: منزل قريب من موضع بليل وبين وادى مثيرب وحلائق.

ضجنان: اسم موضع على مسافة يومين من قديد من جهة مكة.

ضحَبان: اسم برج فى منزل عصية لأحيحة بن الجلاح.

ضرعاء: اسم موضع بجانب جبل شمنصير.

ضريه: قرية على بعد سبعة عشر ميلاً من المدينة فى جهة البصرة لها بئر تسمى ببئر ضرية.

ضرَىَ: اسم بئر فى مرعى ضرية بقيت من قوم عاد.

ضع دزع: كان برجًا بجانب بئر بنى خطمة.

ضفن: بئر بنى فيد وخيبر لقبيلة بنى فزارة وبجانبها الحديقتان المعروفتان باسمى كرانيف وحائط.

ضفر: مكان قريب من المدينة حيث دفن أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى.

حكاية:

كان أبو عبيدة هذا من أجواد العرب المطعمين. وقد ذكر إبراهيم بن هشام وهو فى طريقه إلى المدينة أن أبا عبيدة كان رجلاً كريمًا جوادًا، مر ببيته وقال له: «إننى لن أنتظر، إذا كان لديكم طعام جاهز فهذا يسرنى وإذا لم يكن عندك طعام أستمر فى طريقى حتى لا أتأخر» فقال له: «ليس عندى طعام يكفى لإطعام من معك من الناس، وإنى أستعد الآن لأنحر عدة بقرات حتى أعد لهم طعاما،

فأرجوكم أن تظلوا هذه الليلة عندى فى داركم». وعرض عليه أن يظل ضيفًا عنده تلك الليلة.

ولما كان عرض إبراهيم بن هشام اختبار مدى جود أبى عبيدة فقد قال «لا لا لابد من ذهابى».

فرد إبراهيم على هذا اقتضى إحضار الموجود من الطعام أحضر تسعين من كرشة الأبقار وكان بجانبها تسعون من رأس الأبقار المشوى. فتعجب إبراهيم من هذه الحالة وقال يظهر أن هذا الرجل يذبح كل يوم تسعين بقرة لإطعام الضيوف الواردين وهكذا أثنى عليه ومدحه.

ضفيرة: تضفير ضفر اسم واديين من وديان العقيق وتقال الضفرة على أكوام الرمل التى ينهار بعضها فوق البعض وينعقد وهناك فى وادى العقيق أكوام رمال متراكمة نتيجة للسيول التى تجرف الرمال وضفيرة اسم واحد من تلك الأكوام.

ضلع الشيطان: منزل احتشاد طائفة من مشركى الجن وضلع بنى مالك موقع احتشاد بطن من الجن المؤمنين بناء على ما يروى. ويحكى أيضًا أن هذين الضلعين اسما جبلين فى مرعى ضرية وبين هذين الجبلين وادى تسرير الذى يمتد اثنتى عشرة ساعة ويزعم العرب أن هاتين الطائفتين من الجن تقاتلا فى هذا الوادى. إن سكنة وادى تسرير يرعون دوابهم فى ضلع بنى مالك ويصطادون ولكنهم يتجرءون لا على الرعى ولا على الصيد فى ضلع الشيطان.

حرف الطاء

طَاشَا: على وزن باشا اسم واد من وديان جبل أشعر الذى ينتهى إلى وادى صفراء.

طخفة: جبل أحمر مستطيل فى مرعى ضرية، فى محاذاته لسقى الدواب آبار متعددة.

طَرفَ: على وزن شَرفَ اسم بئر تبعد عن المدينة المنورة خمسة وعشرين ميلا

فى جهة العراق وأسفل الحديقة التى يقال لها «نخيل»، وتبعد عن بطن النخلة عشرين ميلا. وعلى جوانب هذا الماء الأربعة هناك العديد من الآبار والكثير من البرك.

طُفَيل: يقال لجبل صغير بجانب بزوا.

طُوَبْلَعْ: اسم موضع فى المدينة من المنورة أو فى أراضى نجد.

حرف الظاء

ظاهرة: اسم الجهة التى يطلق عليها نقا بجانب الحرة الغربية.

ظبية: اسم موضع فى ديار جهينة كان النبى ﷺ أعطى الموضع المذكور حتى حدود ذى المروة لعوسجة الجهنى. كما أنه موقع بين ينبع وغيقة والذى يمتد إلى شاطئ البحر، واسم ماء فى أراضى الحجاز طبية أيضًا. كما أن ظبية اسم علم أو علامة تسمى «عرق الظبية» بين الحرمين كما أنها اسم نوع من الشجر التى تشبه شجرة «قتادة».

ظِهار: على وزن كِبار حصن من حصون خيبر.

حرف العين

عابد: على وزن ثابت وعَيُود على وزن وَدُود عُبيد على وزن زُبير أسماء ثلاث قطع من الجبال بين وادى «فرش ملل» و«مدفع مريين». وأكبر هذه الجبال عيود على بعد مرحلة من المدينة.

عاص: وعويص اسمان لواديين كبيرين بين الحرمين.

عاصم: اسم برج لبنى عبد الأشهل فى نهاية بيوت بنى النجار وفى موضع فقارة. واسم برج آخر بجانب البئر التى تسمى قباء فى قرية قباء واسم العقد الذى بناه عاصم بن عدى بن العجلان خليف قبائل مزينة عندما نزل إلى البقيع الذى فى وادى أوس والعقيق والذى يعرف باسم ذى عصم.

عاقل: اسم جبل فى مرعى ضرية.

عالية: موضعان أحدهما من البلاد الحجازية الواسعة والآخر من عوالى المدينة.

عالية الحجاز: أعلى البلاد الحجازية وأشرفها.

عالية المدينة: هى قرية قباء التى فى الجهة القبلية من مسجد السعادة و أعالى هذه القرية ومبدؤها على بعد ميل من مسجد السعادة، ومنتهاها ثلاثة أو أربعة أميال. ولكن هذا التعريف بالنسبة للجهات المعمورة من عالية المدينة منتهى العالية غير عامرة تبعد عن المدينة ستة أميال وعلى قول ثمانية أميال.

عاند: واد قبل الوصول إلى منزل السقيا فى الجهة الأخرى من ناحية فرع على بعد ميل، وادى العاند ووادى القاحة أسماء أخرى لهذا الوادى.

عاير: طريق جبلى يقع على الجهة اليمنى من عقبة ركوبة وهو صعب الارتقاء والصعود، وتعرف بثنية العاير.

ثنية ـ يقال للطريق الجبلى أو الطريق المتعرج الذى يصعد منه إلى الجبل ثنية كما أن عقبة تستعمل فى نفس هذا المعنى.

عبابيد: موضع بجانب بئر تعهن يذكر أيضًا باسمى عبابيت وعثبانية.

عباثر: جمع نبات عبيثرات اسم مجرى ماء من مجارى جبل أشعر ويقع بين جبل بواط ووادى نخل.

عترة: على وزن فطرة اسم جبل فى الجهة القبلية من المدينة.

عثاعث: عدة من جبال صغيرة سوداء فى مرعى ضرية وتشرف على وادى مهزور.

عُدْنه: على وزن جُمْلة قمة فى «فرش ملل» واسم موضع فى أراضى شربه.

عُزيبة: على وزن رُويدة كان برجا بين موضع صفاصف ووادى عصية الواقعان فى موضع عصية فى قرية قباء.

عزيبة: اسم ماء بين قرية جار وبلد ينبع البحر.

عُراقيب: اسم منجم فى مرعى ضرية واسم قرية.

عُربَى: على وزن حبلى الاسم الآخر لوادى نقم.

عَرَج: اسم قرية كبيرة على ثلاث مراحل من مدينة الرسول. ووجه تسميتها بهذا الاسم حسبما يرى تبع الحميرى أنه عندما وصل إلى هذه القرية وجد بعض الناس أو بعض المسافرين يعرجون فى أعلى هضبة.

ومن روايات تواريخ العرب القديمة أن جبال قرية عرج تمتد إلى جبل لبنان ومن سلسلة جبال لبنان تتصل بجبل لكام فى إنطاكية ومن هناك إلى جبل جزر وعلى هذا يمتد ما يقرب من خمسمائة فرسخ وعلى ظهرها أقوام يتكلمون اثنتين وسبعين لغة.

عرضه: اسم موقع قريب من وادى العقيق.

عرض: على وزن حرص الاسم الآخر لناحية جرف، وعند البعض إنه اسم المزارع التى فى أطراف مسجد القبلتين التى تقع فى الجهة القبلية من جرف. وعلى كل يطلق على الأماكن الصالحة للزراعة فى المدينة المنورة أو على القرى التى تقع فى مجارى المياه أعراض.

عرفات: قمة على الجهة القبلية من قباء كان النبى ﷺ يقف على هذه القمة فى أيام الوقفة ويشاهد موقف عرفات.

عريان: على وزن قربان كان اسم برج منسوب لآل نضرة.

عُريض: على وزن قُبيس اسم مجرى ماء قريب من وادى قناة فى الجهة الشامية من الحرة الشرقية.

عُرَيْفَتَان: اسم مجرى ماء فى وادى ابلى.

عُرينة: على وزن رُويدة اسم قرية فى طريق المدينة الذى ينتهى إلى الشام.

عراف: على وزن صراف اسم الساحة الرملية لبنى سعد فى القرب من موضع زرود، واسم الماء الذى يسمى «إبرق العزاف» فى ديار بنى أسد واسم جبل بالقرب من جبال الدهناء السبعة.

عروزى: على وزن حدودى اسم موضع بين الحرمين.

عسس: اسم جبل فى مرعى ضرية فتنسب صحراء عسس إلى ذلك الجبل.

عُفان: على وزن نعمان قرية جميلةٌ بين الحرمين على بعد يومين من مكة فى جهة المدينة كان لها فى الأوائل آبار كثيرة وبرك عديدة وبئر عولاء الشهيرة. والآن قد تخربت كافة الآبار وجفت البرك ولم تبق إلا بئر عولاء

عسية: اسم موضع فى ناحية المنجم القبلى.

عُس: اسم مجرى ماء فى وادى عيق.

عشيرة: اسم منزل بين الحرمين، واسم مجرى ماء فى العقيق واسم موضع فى مكان يقال له صمان، واسم قلعة واقعة بين ينبع البحر وذى المروة يقال لها ذو العشيرة.

عصبة: على وزن تحفة اسم منزل فى الجهة الغربية من مسجد قباء. واسم موضع فى داخل قرية قباء.

عضبة: على وزن فضة اسم جبل فى طريق المدينة الذى ينتهى إلى خيبر، وعندما ذهب النبى ﷺ إلى خيبر مر من هذا الجبل.

عظم: على وزن عجم اسم مزرعة منبتة من مزارع خيبر.

عقرب: كان اسم برج خاص ببنى بياضة فى وادى الروحاء.

علاء: على وزن نواء اسم برج أو موضع فى المدينة المنورة واسم قصر فى ناحية وادى القرى.

عَمْق: على وزن دَنْك منزل من منازل الحجاج بين منجم بنى سليم وسليلة. واسم مجرى ماء ينتهى إلى أراضى فرع.

عميس: على وزن نفيس اسم واد فى ناحية فرش ملل.

عَناب: على وزن رَباب اسم الطريق الذى يوصل من المدينة إلى فيد أو اسم جبل فى هذا الطريق وعند البعض أن الجبل المذكور بين سقيا وذى المروة فى طريق الشام وبناء على هذه الرواية فالقول الأول مرجح. عنابس على وزن ملابس تطلق على المزارع التى فى الجهة القبلية من مسجد القبلتين.

عناية: اسم ماء وبركة فى ديار بنى كلاب اسم موضع بالقرب من سميراء عناقة اسم ماء قريب من مرعى ضرية أو هضبته.

إخطار:

تقال هضبة على الجبال المنخفضة والعريضة أو لمثل هذه الربا، وعلى رأى، أنها تقال للصخور الجامدة التى تتكون من قطعة واحدة أو على القمم الصعبة الصعود أو الجبال التى انفردت منفصلة عن الأخرى، وتوجد مثل هذه الجبال أو القمم بين الجبال ذات التراب الأحمر.

عَير: على وزن خَير اسم جبلين ثبت بالأحاديث الشريفة المروية أنهما من ترع جهنم.

عيص: على وزن تيز مجرى ماء على بعد أربع ليال من المدينة المنورة وفى جهة ذى المروة.

عينان: اسم جبل على الجهة القبلية لمرقد حضرة حمزة، رضى الله عنه، وكان النبالة فوقه فى غزوة أحد. وبناء على قول صاحب القاموس يقال لهذا الجبل عِينين بكسر العين ولما كان مسجد أحد على الركن الشرقى لهذا الجبل وكان بجانب المسجد قنطرة العين وبجانبها عين الشهداء سمى الجبل عينان.

عين إبراهيم بن هشام: اسم بئر فى فرش ملل.

عين أبى زياد: اسم بئر فى منتهى وادى غابة.

عين أبى نيرز: اسم البئر التى وقفها حضرة على بن أبى طالب فى ينبع وسميت باسم ابن النجاشى ملك الحبشة أبى نيرز الذى اشتراه على بن أبى طالب ثم أعتقه.

وقد رد بعض المؤرخين القول الذى يدعى أن سيدنا على بن أبى طالب اشترى «أبا نيرز» ثم عتقه، وقالوا: أن «أبا نيرز» قد أدرك النبى ﷺ ولما كان فى غاية الصغر فتربى فى حجر فاطمة مع الحسنين رضى الله عنهم. ولما كان على بن أبى طالب عينه مؤخراً لحراسة البئر سالفة الذكر فاشتهرت مضافة لاسمه.

عين البحير؛ وعين بولا: البئران اللتان حفرهما على بن أبى طالب بنفسه.

وهاتان البئران أيضًا فى ينبع البحر ومسجد ذى العشرة بجانب هاتين البئرين.

عين تحنس: اسم المنهل الذى اشتراه على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ فى المدينة بسبعين ألف دينار.

عين الحديد: بئر فى وادى «أضم».

عيون: الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن أبى طالب، وهذه الآبار ثلاثة آبار إحداها فى المضيق والثانية فى ذى المروة والثالثة فى وادى سقيا.

عين الخيف: اسم الماء الذى يسقى المزارع التى فى مناطق مساجد الفتح ويطلق عليه فى عهدنا «شبشب».

عين الشهداء: يقال لها كاطمية أيضًا وهى بالقرب من عين جلش ومجرى سيول عالية ولقد كان الأمير ودان قد عمر مجراه وجدده.

عين الفوراء: فى وادى إضم.

عين القشيرى: بئر بين الحرمين وبين وادى سقيا وأبواء كانت حدائق نخيل عبد الله بن الحسين العلوى فى هذا المكان.

عين النبى ﷺ ذكرت فى فصل الآبار.

حرف الغين

غابة: اسم واد فى الجهة الشامية من المدينة وكان هذا المكان فى الأوائل، ثم غمرته المياه فخربت أموال الأهالى وأملاكهم. لما مات الزبير بن العوام فبيعت أملاكه التى فى وادى غابة بمليون وستمائة ألف دينار، وإن لم يكن وادى غابة بعيداً جداً عن المدينة المنورة إلا أن منتهاه ليس بقريب أيضًا ومن المتواتر أن العباس ـ رضى الله عنه ـ كان يصعد فوق جبل سلع ويدعو خدمه وإنهم كانوا يجيبون وإن كانوا فى منتهى وادى غابة قائلين لبيك مع أن بينهما مسافة ثمانية أميال. إن كانت هذه الرواية صحيحة يلزم أن يكون الخدم فى مبدأ الوادى وليس فى منتهاه، لأن إسماع الصوت على بعد ثمانية أميال مستحيل. مع هذا ينقلون أن المشار إليه كان يسمع صوته لمسافة اثنى عشر ميلا، وفى الواقع كان عباس ـ رضى الله عنه ـ جهورى الصوت حيث أنه صاح بالمنهزمين فى غزوة حنين وأسمع صوته للصحابة الذين كانوا على مسافة بعيدة وكان سببًا فى التفافهم حول الرسول ﷺ.

ذات الغار: اسم بئر ذات ماء عذب لا ينضب وهى فى مكان على بعد ثلاثة فراسخ من سوارقية واسم غار فى طريق جبل أحد كذلك اسم غار فى شرف السيالة أيضًا.

غبيب: يقال لساحة مسجد الجمعة المقدس.

غدير الأشطاط: اسم غدير على بعد ثلاثة أميال من قرية عفان من جهة مكة المكرمة.

غراب: اسم جبل فى الجهة الشامية من المدينة يطلق عليه غراب الصّائلة **وغرابات:** اسم مضيق فى طريق رخصية وفى محل يبعد عن المدينة المنورة يومًا واحدًا.

غرة: كان اسم برج مبنى مكان مئذنة مسجد قباء.

غَزة: اسم قرية بنى خطمة. ولما كانت كثيرة السكان، شُبه بغزة الشام وسميت بالاسم المذكور.

غزال: اسم مجرى ماء خاص ببنى خزاعة فى ناحية شمنصير.

غشية: اسم موضع فى الجهة القبلية من ناحية معدن.

ذو الغصن : اسم مجرى ماء فى وادى العقيق.

غضور: موضع بين الحرمين ينسب إلى بنى خزاعة.

ذو الغضوين: موقع مر به الرسول ﷺ حين هجرته.

غمرة: اسم ماء فى طريق نجد ينسب إلى بنى أسد.

غموض: اسم الحصن الذى بناه اليهودى المسمى بحقيق فى خيبر، وعند البعض أنه قلعة قموض.

غميم: موضع بين جحفة ورابغ.

ومن المحتمل أن يكون هذا المكان كراع الغميم وقد سمى باسم من يدعى بغميم. وإن قال ابن شهاب إن غميم بين وادى عسفان وضجنان إلا أنه بناء على قول القاضى عياض إنه واد على بعد ثمانية أميال من عسفان بل إنه اسم جبل أسود فى جهة كراع الحَرة ينتهى للوادى المذكور.

غور: اسم موضع فى ديار بنى سليم واسم السيول التى تجرى من الجهة القبلية إلى ينبع واسم سيل يجرى عن طريق تهامة من بين ذات عراق.

غيقة: اسم موضع على شاطئ البحر لقرية جار حيث يتصل بوادى ينبع واسم موضع فى خارج حرة النار التى تنسب لبنى ثعلبة بن سعد.

حرف الفاء

فارع: كان برجًا أمام باب الرحمة وكان النبى ﷺ يجلس تحت ظلها أحيانًا ثم انهار فيما بعد وأضيفت ساحته إلى دار جعفر البرمكى ـ كما أنها قرية فى أعلى ناحية من وادى ساية الذى يشتمل على أشجار النخيل والعيون.

فاضجة: اسم أشجار نخيل فى ناحية جفاف واسم واد يبدأ من قرية الشعبى وينتهى إلى مرعى ضرية.

فاضح: اسم جبل فى وادى ريم واسم مجرى ماء فى موضع شريف.

فج الروحاء: اسم موضع ينتهى إلى وادى سيالة.

فحلان: اسم موضع فى جبل أحد.

فحلتان: اسم قناتين عاليتين بجانب الصحراء التى تعرف بفيفاء الفحلتين.

فدك: اسم البلدة التى بات فيها فدك بن حام مع أولاده وعياله ثم أقام فيها واسم البلدة التى قاتل فيها على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قبيلة بنى سعد بن بكر، ولها قلعة حصينة باسم «مسروح» بجانب قلاع جيد، وذهب بعض المؤرخين إلى أنها تبعد عن المدينة عشرة أيام فى ناحية خيبر، ويذهب الآخرون إلى أنها على بعد ستة أميال، إلا أن الرأى الأخير يبدو أرجح وأصح قولا. وكان الفدكيون يهودا أصلا. ولما أصبحت القلاع الخيبرية من أملاك الدولة الإسلامية طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ بشرط تسليم بلادهم فوافقهم الرسول ﷺ وبهذا دخلت بلدة فدك ضمن الممتلكات النبوية.

صورة فتح بلدة فدك وتسخيرها:

عندما فتح النبى ﷺ قلاع خيبر دعا سكانها لاعتناق الدين الإسلامى وإذا رفضوا ذلك سيتعرض بلدهم لاجتياح سنابك خيل المسلمين وأرسل لهم محيصة بن مسعود وحارثة ليعلمهم بذلك.

وسافر محيصة إلى بلدة فدك وقام بأداء الرسلة النبوية ولكن حمقى فدك قالوا إن أبطال خيبر عشرة آلاف من الشجعان وتحت قيادة أبطال مثل عامر وياسر وحارث ومرحب وإنهم منتظرون قدوم فرسان المسلمين فى داخل الحصن ويجب عليكم أن تنقذوا أنفسكم من أيديهم قبل أن تهدونا وترهبونا. فاضطر للعودة أمام هذه الأقوال. ولكن بعض القلقين منهم قالوا له نرجوك أن تنتظر قليلاً

حتى نطلع على آراء كبرائنا بعد أن نستشيرهم وبناء على هذا قرر البقاء فى فدك عدة أيام، وشاع فى تلك الفترة وقوع حصن «ناعم» القوى فى يد الغزاة المسلمين فى الحرب فتعرضت قلوب أهل فدك القاسية لخفقات الخوف والخشية فندموا على الأقوال التى صدرت منهم أولاً وتشبثوا بذيول الرجاء وطلبوا الأمان فاختاروا من بينهم بعض اليهود من رؤسائهم الذين اسودت وجوههم مثل قلوبهم وابيض شعر رءوسهم بحيث لا تستطيع أن تفرقه من الكتان وأرسلوهم تحت رئاسة أحد أعيانهم يسمى نون بن يوشع إلى النبى ﷺ باسطين له ـ عليه السلام ـ بساط الذل والمسكنة فاستطاعوا أن يأخذوا عهداً بالأمان بشرط أن تكون نصف أملاكهم من نصيب بيت مال المسلمين.

واستمرت أملاك فدك إلى خلافة عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ على النظام الذى سبق بيانه، وبما أن المشار إليه اشترى النصف الثانى من فدك بخمسة آلاف درهم من بيت المال وبناء على هذا أصبحت فدك من البلاد الإسلامية.

فراء: جبل على الطرف الغربى من جبل عير من جبال وادى العقيق التى تحيط بثنية الشريد بين هذا الجبل وجبل عير.

فرش ملل: موضعان مشهوران على بعد اثنين وعشرين ميلا من المدينة المنورة يفصل بينهما وادى مثغر. وكان فيما مضى مشهورا بكثرة قراه ومنازله.

فرُع: بلد واسع جسيم على بعد أربع مراحل من المدينة دار العز وعلى يسار الموقع الذى يطلق عليه سقيا وفى داخل حدوده مسجد ينسب للنبى ﷺ.

وعندما مضى سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع السيدة هاجر إلى مكة المكرمة رأيا هذه البلدة أولاً.

وقد قال بعض اللغويين إن فرع تقرأ بفتح الفاء والراء وليس بضمها. إلا أن فرَع بفتح الفاء والراء أحد وديان جبل أشعر بالقرب من السويقة على مسافة مرحلة من المدينة المنورة، ويقال له فرع المسور بن إبراهيم الزهرى

فَرِيْقات: اسم مجرى ماء ينتهى إلى المحل المسمى هلوان فى وادى العقيق.

فضاء: اسم الصحراء التى ينصب فيها سيول نهر بطحان بالقرب من ماجشونية وفى ديار بنى خطمة حيث تلتقى مجارى مياه مهزور ومذينب مع سيول وادى بطحان.

فَقْوَه: قرية على سفح جبل آره.

فقارة: اسم موقع يقال له فقرة فقير.

فى مدينة الرسول موضعان معروفان باسم فقيران قد أقطعهما النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب، لأن النبى ﷺ أقطع لعلى بن أبى طالب لكونه صهره أربعة أماكن، وبناء على قول جعفر الصادق الاثنان من تلك الأماكن الأربعة الفقيران سالفا الذكر، أحدهما بئر قيس والآخر شجرة. وبناء على قول ابن شبة، الفقيران فى جهة العالية من المدينة المنورة حتى إن أحدهما أشجار النخيل التى تقال لها حديقة وكان هذا المكان قريبًا من قرية بنى قريظة.

فُلجان: تقال لأراضى سقيا فى الحرة الغربية.

فُلْحَة: يقال لوادى على مجرى الماء الذى فى ذى رولان، ولبعض الحدائق التى جهة سوارقية. وقد حفرت المجارى الكثيرة بجانب الحدائق المذكورة لتجميع السيول التى تتكون من جراء الأمطار وبما أن هذا الموقع قد اشتهر بجودة الهواء فأغنياء دار السكينة يقضون فى هذا المحل مواسم فصل الربيع، والغدير الذى يطلق عليه الغدير المختبى فى ذلك المحل.

فُلَيجْ: اسم بئر فى وادى أضم بجانب نقطة التقاء مياه أنهار المدينة.

حرف القاف

قائم: مزرعة فى الجهة القبلية من قرية قباء.

قاحة: اسم واد بعيد على ثلاث مراحل من المدينة وعند البعض اسم واد من وديان عبابيد فى موضع سقيا على بعد ميل منه فى جهة المدينة المنورة، وعلى رواية اسم ماء فى موضع داره.

قاع: اسم ساحة مسجد بنى حرام الذى فى الجهة الغربية من مساجد الفتح واسم موضع فى طريق مكة. واسم مكان يسمى قاع النقيع فى ديار بنى سليم.

قُباء: بضم القاف اسم قرية مباركة مشهورة فى جهة عوالى للمدينة المنورة.

حدود قرية قباء ووجه تسميتها بقباء:

كانت قرية قباء فى أوائل العهد الإسلامى مدينة لا نظير لها متصلة بالمدينة المنورة فحدودها الشرقية والغربية موضعا بئر غرس وغضبة وحدودها القبلية مسجد قباء الشريف وحدودها الشمالية البئر المشئوم التى اشتهرت بقباب وكانت بلدة قباء مشهورة بهذا الاسم فى الأوائل وظلت فترة يطلق عليها هذا الاسم، وفى النهاية استهجن أهاليها لفظة قباء وحولوها قبا وظلت قبا إلى يومنا هذا معروفة بهذا الاسم.

وقل عدد سكانها على مر الزمان، فانهدمت منازلها وخربت ودرست وبقيت قرية صغيرة، ولكن أول مسجد أقيم فيها وهو مسجد قبا، لذا ستظل معززة مكرمة بين هيئات البلاد الإسلامية المعظمة.

والطريق الممتد من مسجد قبا بين أشجار النخيل التى تقع بين البلدتين وكانت منازل بنى عمرو بن عوف الذى يعد من أقارب النبى ﷺ كانت بالقرب من البئر المشئومة قباء التى تعد الحدود الشمالية للقرية المذكورة.

يروى المؤرخون أن المسافة بين مسجد السعادة ومسجد قبا ميلان أو ثلاثة أميال.

ولكن الإمام السمهودى من فضلاء مؤرخى المدينة المنورة قد قاس المسافة من عتبة باب عثمان بن عفان الذى يطل على بقيع الغرقد، إلى عتبة باب مسجد قبا فوجدوها سبعة آلاف ذراع ومائتى ذراع. أو أكثر قليلاً. وبناء على هذا يقتضى أن تكون المسافة أكثر من ميلين.

وفى ناحية كشيب من مرعى ضرية قرية تحمل اسم قبا أيضًا يروون أن لهذه القرية آبارًا كثيرة ومزارع وحدائق نخيل.

قباب: كان اسم برج بنى فى المدنية المنورة. واسمه الآخر قبابة قبلية من نواحى فرع حيث يمر منها الحجاج، وبناء على قول الزمخشرى أن بين ينبع البحر والمدينة المنورة جبل ويطلق على السيول التى تجرى ناحية ينبع غور وعلى المياه التى تجرى ناحية المدينة تطلق قبلية وأن سيول قبلية تجرى من مجارى الجبال التى بين شرف السيالة وجبال عرك التى يسمى جب فى بلاد جهينة.

قدس: اسم بعض سلاسل الجبال العظيمة المتصلة مع بعضها فى الجهة التى تصادف الطرف الغربى لوادى الضاق فى موضع نقيع. ويسكن أفراد قبيلة مزينة فى هذه الجبال حيث أنبتوا بساتين كثيرة ومزارع وأشجار مثمرة، وبناء على قول أسدى إن قدس اسم جبل يبدأ من وادى الأعرج ويمتد إلى الجهة اليسرى لماء عين قشيرى التى فى مشرف، وفى قطعة الحجاز جبلان باسم قدس يطلق على أحدهما قدس أسود وعلى الآخر قدس أبيض.

قدوم: اسم شق مجرى ماء يلتقى عند قبور الشهداء، واسم عقبة فى وادى سراة، واسم الموضع الذى ختن فيه حضرة إبراهيم فى وادى نعمان، واسم جبل فى ديار الدوس.

قدير: اسم قرية بين الحرمين تعرف بكثرة مياهها.

قَدَيْمَة: اسم جبل من جبال المدينة.

قراصنة: اسم الحديقة التى تنسب إلى جابر بن عبد الله.

قرائن: كانت تطلق على ثلاثة منازل لعبد الرحمن بن عوف، عندما وسع مسجد السعادة هدمت تلك المنازل وضمت ساحاتها إلى ساحة الحرم النبوى الشريف.

قراقر: اسم موضع ينسب إلى آل حسين بن على فى المدينة.

قران: واد بالقرب من المكان الذى يطلق عليه أبلى.

قورح: موضع على مسافة يوم أو يومين من المدينة فى جهة خيبر.

قرد: موضع على مسافة يوم أو يومين من المدينة فى جهة خيبر.

قرْده: اسم ماء فى أراضى نجد، وحدثت سرية زيد بن حارثة بجانب هذ الماء.

قرقرة الكدر: موضع على بعد ست أميال من خيبر وفيها قتل ابن رزام الذى قام ضد الإسلام.

قسيْان: اسم مجرى ماء من أنهار العقيق.

قصر إبراهيم بن هشام: كان قصرا فى وادى ناعمة بجانب قصر بنى حديلة ولم يعد له وجود الآن إلا أن ساحته تعرف بقصر إبراهيم بن هشام.

قصر خل: اسم القصر الذى بناه زيد بن نعمان من أجل حضرة معاوية فى طريق رومة، ولما كان على قارعة الطريق ولما كانت أطراف هذا الطريق تعرف بخل أطلق عليه قصر خل، وبناء على قول ابن شبة قد استخدم ذلك القصر للسجن فى فترة ما.

قصر ابن عراك: كان قصرا بجانب مقبرة عبد الأشهل التى فى طريق أحد.

قصور العقيق: التى ثبتت ميزتها بالأحاديث النبوية كانت فى صحراء وادى العقيق ولما كان وادى العقيق معروفا بجودة هوائه وموقعه اللطيف جذب قلوب أمراء المدينة واعتبروا، مبنى كل واحد منهم قصرا مزينا ولأجل ذلك أطلق على البيوت التى فى وادى العقيق قصور العقيق وكانت تمدح من قبل شعراء العصر.

قصر ابن ماء: أسفل بئر جهنم.

قصر مروان بن الحكم: بالقرب من صدقات النبى، وقصر نفيس فى حرة واقم وقصر بنى يوسف أسفل قصر مروان بن الحكم.

ذو القصة: كان موضعًا فى جهة نجد على بعد بريد من المدينة المنورة وعلى قول على بعد ١٥ ميلاً. وعند البعض أن ذو القصة اسم موقع على بعد أربعة

عشر ميلا من المدينة فى طريق ربذة، وقد تقاتل ابن سعد بن محمد بن مسلمة مع بنى ثعلبة وبنى عوال فى هذا الموقع.

قصيبة: مجرى ماء بين خيبر والمدينة المنورة.

ذو القطب: اسم مجرى ماء فى وديان العقيق.

قف: يطلق على الوادى الذى يجمع الأوقاف النبوية وهى قمم تشبه الجمال التى بركت وهى خالية من الأشجار وممتلئة أطرافها بالحجارة، والأراضى التى يطلق عليها فى زماننا خمسين هى الوادى الذى يشتمل على الصدقات النبوية وبما أنه فى غاية الخصوبة والإنبات يطلق عليه ثمانين أيضًا، يقول أبو داود: دعا اليهود النبى ﷺ بهذا الوادى فاستجاب النبى ﷺ ولبى دعوتهم فصلى فى بيت مدارس وكان بيت مدارس بجانب مشربة أم إبراهيم من الأوقاف النبوية حتى إن واحدًا من الأنصار صلى فى حديقة من وادى قف وقال: كان النبى ﷺ قد صلى فى هذا المكان، وقد اشترى عثمان بن عفان وادى قف بخمسين ألف دينار ووقفه وهذا هو سبب تسميته بخمسين.

قلادة: اسم الجبل الذى يطلق عليه قلادة العنق فى الجهة القبلية من المدينة المنورة.

قلهيار: حفرة حفرت على شكل صهريج بالقرب من المدينة المنورة، التى انسحب إليها حضرة سعد بن أبى وقاص منعزلاً عن الناس بعد وقعة قتل عثمان بن عفان المحزنة عازمًا على ألا يتحدث مع أحد ما لم يتصالح المسلمون قائلاً: «ما لم تتم المصالحة فلا أريد أن أسمع شيئًا» لذا ينسبون هذه الحفرة إلى سعد بن أبى وقاص.

قلَهَى: قرية منسوبة إلى بنى سليم فى وادى رولان.

قموص: جبل فى خيبر كان حصن يهود بنى حقيق الحصين فوق ذلك الجبل.

قناة: اسم واد مشهور.

قنيع: موضع فى مرعى ضرية.

قوافل: كانت برجا أمام منزل عصية.

قوبَعْ: اسم ماء من أنهار العقيق.

قوران: اسم واد بالقرب من السوارقية.

حرف الكاف

كاظمة: اسم موضع فى المدينة، أو بين مكة والبصرة أو اسم ماء مر على بعد ثلاث مراحل من البصرة فى جهة مكة.

كبا: اسم موضع فى وادى بطحان.

كتانة: بئر بين واديى صفراء وأثيل.

كُتَيْبَةَ: قلعة فى خيبر، بعد أن فتح النبى ﷺ حصنى شق ونطاة فتح كتيبة لأنه كان آمنا وأكثر استحكاما من الحصون الأخرى وتجمع مكان الحصون الأخرى فى هذه القلعة وقاموا مدة ما.

كدَر: اسم ناحية منسوبة لمنجم بنى سليم وخلف سد معاوية القريب من موقع رخصية وكانت قرقرة الكدر ملحقة بهذه الناحية.

كَديد: اسم واد بالقرب من موضع نخيل، وماء واقع فى أيمن الطريق الذى يبعد عن خليص بثمانية أميال.

كُرْ: جزيزة على بعد ستة أميال من منزل جحفة.

كفته: الاسم الآخر لمقبرة بقيع الغرقد.

كلاب: اسم ماء فى نواحى مرعى ضرية.

كلب: اسم برج فى المدينة، كما أنه اسم الجبل الذى يطلق عليه رأس الكلب.

كُلَيْته: قرية قريبة من ماء مر يطلق عليه مستورة يبعد عن موضع جحفة اثنى عشر ميلا.

كِمْلَى: الاسم الآخر للبئر التى وضع فيها السحر الذى صنع لسيدنا محمد.

كِنَس حُصَيْن: برج قريب من مهراس فى قرية قبا.

كواكب: اسم جبل مشهور، وعلى قول آخر: اسم جبال بين المدينة وتبوك.

كومة أبى حمراء: كومة معناها التراب المتراكم فكومة أبى حمراء هى كوم التراب المتراكم الذى يطلق عليه كومة المدر والتى فى الجهة الشامية من المدينة.

كوير: جبل فى مرعى ضرية.

كويرة: جبل من جبال المدينة القبلية.

كَيْنَقة: السهم الذى أعطاه النبى ﷺ لعبد الرحمن بن عوف من أموال بنى النضير. اشترى عثمان بن عفان هذا السهم بأربعين ألف دينار ملكه لزوجات النبى ﷺ الطاهرات وفقراء المسلمين وأفراد بنى زهرة وقسمه بينهم.

حرف اللام

لأيا: على وزن صَيْفَا اسم ناحية من نواحى المدينة لأيتان تثنية لأية أسماء الحرات التى فى جهتى المدينة الشرقية والغربية والحرة بمعنى تل وقمة.

الحيا جَمَل: جبل على طريق فيد.

لظى: منزل من منازل جهينة فى جهة خيبر يعرف باسم ذات اللظى.

لعباء: موضع كثير الحجارة فى المدينة المنورة.

لفت: اسم عقبة فى طريق مكة أو اسم واد بجانب موضع هرشى.

لعلع: اسم جبل بالقرب من المدينة أو اسم ماء فى الصحراء.

لقف: اسم واد فيه آبار كثيرة عذبة فى ناحية السوارقية الكائنة خلف قوارق.

لِوَى: اسم برج فى ديار بنى بياضة، واسم واد فى قرية بنى سليم، واسم موضع على بعد أربعين ميلا من مرعى ضرية.

حرف الميم

مايه: مزرعة بنى أنيفة فى قبا، كان بينهما وبين موقع قائم برج.

ماجشونية: حديقة مشهورة فى وادى بطحان.

مِثْب: أحد الأوقاف النبوية.

مبرك: المكان الذى ترك فيه جمل النبى ﷺ فى محلة بنى غنيم، وكان حول منزل أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ البارى كما يقال مبرك للمكان الذى يطلق عليه ثنية المبرك الذى يقع بين المدينة وينبع البحر ما بين أملى، ويمتد هذا المكان أربعة أو خمسة أميال.

مَنْصَنَعة: ما بين موضعى رويته وجى.

مشعر: واد بين حوزة وثاخة.

مثقب: طريق ينتهى إلى مكة من المدينة ومن مكة إلى الكوفة.

مَجْدَل: كان اسم منزل فى ديار بنى هذيل واسم برج أمام سقاته سليمان بن عبد الملك.

مَجَر: على وزن حجر اسم غدير بين تلال قوران.

محضه: قرية على سفح جبل آره.

مختص: موضع بالمدينة.

مخابل: ثلاثة مجارى مياه فى وادى العقيق.

مختبى: غدير فى وادى العقيق.

مخرا: على وزن صفرا جبل أمام جبل المسلح. حنيما كان النبى ﷺ ذاهبا إلى غزوة بدر كره أن يمر من بين هذين الجبلين ومر من يمين وادى ذفران.

مخيص: بين الحرمين أحد الجبال الذى صعده النبى ﷺ.

مدراج المنزل: والبخور الذى يقال له عقبة العرج.

مدجج: واد فى طريق مكة مدرج ينحدر ينزل يقال له فى زماننا عنفة الوادى وعلى قمته خرابة بناء قديم.

مدعا: اسم نهر فى ناحية ضرية يصب فى ذى عثعث كانت بئر جعفر بن كلاب فى هذا الوادى.

مدين: محل محاذٍ لتبوك بالقرب من البحر الأحمر، وهو البئر التى أخرج منها موسى ـ عليه السلام ـ الماء لسقى أغنام شعيب.

مذاد: كان برجًا خاصًا ببنى حرام فى الجهة الغربية لمساجد الفتح.

مذاهب: كان برجًا مبنيًا فى إحدى نواحى المدينة.

مرابد: موضع فى وادى العقيق.

مراح: مجرى ماء فى وادى العقيق يعرف بـ مراح الصخر.

مراض: اسم ناحية على بعد ثلاثين ميلا من المدينة.

مرَان: قرية كبيرة فى جهة وادى كشب.

مِرْواح: برج فى قرية قباء.

مربد الغنم: اسم المحل الذى كان يحسب فيه الغنم فى عصر عمر الفاروق على بعد ميلين من المدينة.

مِرْبَع: اسم برج ينسب لبنى حارثة..

مربح: اسم واد بالقرب من المدينة أو إلى ودان على رأى آخر منسوب إلى حسين بن على رضى الله عنهما.

مرجح: أحد المنازل بين الحرمين من منازل الهجرة النبوية.

مَرْحب: الطريق الذى اختاره النبى ﷺ عند ذهابه إلى خيبر.

ذو المَرخ: اسم موضع قريب إلى ينبع فى ناحية الشاطئ.

ذو مرح: اسم واد فى واد فدك، واسم موضع فى وادى العقيق.

ذو المرمرة: المحل الأقدس الذى صلّى فيه الرسول ﷺ فى وادى القرى.

مزيح: برج خاص ببنى قينقاع يظل فى الجهة اليمنى للذين يتوجهون إلى المدينة المنورة فى نهاية جسر بطحان.

مُريخ: اسم شجرة يقال لها القرن الأسود فى مكان قريب من ينبع البحر.

مُفرَض: كان برجًا لبنى قريظة فى داخل الحدائق التى فى البقيع وكان بنو قريظة كلما يضطرون دخلوا فى البرج ليدافعوا ضد الأعداء.

مُعْرفة: الطريق الذى فر منه أفراد قريش فى غزوة بدر ينتهى إلى ساحل البحر.

مغسلة: حديقة من حدائق المدينة المشهورة يطلق عليها فى زماننا يغسلة.

مُغيث: واد بين معدن النقرة وربذة.

مقوْثة: موقع بالقرب من المدينة.

مقاعد عثمان: يطلق على الدكاكين التى بالقرب من منزل عثمان بن عفان بباب جبريل.

وقد صُلى على جنازة إبراهيم بن الرسول ﷺ فى هذا المكان.

مَقْشَير: اسم جبل من جبال المدينة القبلية.

مُلْتَد: موقع حديقة النخيل التى فى وادى العقيق.

ملجاء: واد فى العقيق، ملحة برج منسوب لبنى قريظة.

ملحتان: اسم مبحرين ماء أحدهما ملحة الريث والآخر ملحة المريض فى الجهة الشامية من وادى أشعر.

ملل: واد مشهور فى جهة مكة على بعد عشرين ميلا وعلى رواية على ثمانية

عشر ميلا وبناء على رواية ثالثة على بعد ليلتين من المدينة، لما كان تبع الحميرى قد تعب فى هذا المكان ومَلَّ، لذا سمى بهذا الاسم.

مناصع: اسم المكان الذى تخرج إليه نساء المدينة لقضاء حاجتهن، ولم يكن اتخاذ بيوت الخلاء فى دور المدينة معروفا بعد.

وبناء على ما أورده المؤرخون من المحتمل أن يكون ذلك المكان بجانب الموضع الذى يقال له بئر أبى أيوب، وكان فى الجهة الشامية لمقبرة بقيع الغرقد وفى الجهة الشرقية لحصن المدينة اليوم يعرف باسم بئر أيوب.

مناقب: جبل من جبال مكة وهو ذات عقبتين.

منجبس: الاسم الآخر لوادى عرج.

مُنْتجِز: موضع فى جهة المحل الذى يسمى مثعر لفرش ملل منحنى فى الجانب القبلى لمصلى العيد.

مُنْشِد: اسم حمراء النملة التى على الجهة اليمنى من موضع حمراء الأسد واسم المكان الذى بين وادى رضوى والموقع الذى على شاطئ البحر واسم بلدة فى ديار تميم.

مُنْعَج: اسم واد فى موضع أضاح واسم امرأة فى مرعى ضرية، وقد يقال مُنْجع بتقديم الجيم.

منقى: موضع أسفل موقع أعوض وفى الطرف الشرقى للمدينة، كان المسلمون المنهزمون فى وقعة أحد فروا حتى هذا المكان.

مَنْكَثة: اسم مجرى ماء ترد سيوله من واد فى آجرو فى الجهة القبلية من المدينة المنورة. واسم جبل فى ديار جهينة.

مَنور: اسم جبل خلف حرة بنى سليم، أو اسم موضع واسم سرج لبنى النضير.

منيع: كان برجًا منسوبًا إلى سواد فى الجهة اليمانية لمسجد القبلتين.

منيف: كان برجًا منسوبًا لبنى دينار بن النجار بجانب مسجد بنى النجار.

مُريسيع: اسم ماء يصب إلى البحر فى ناحية قديد، واسم ماء آخر منسوب لخزاعة على بعد يومين من ناحية قديد.

مزاحم: اسم برج خلف منازل بنى حُبلّى واسم سوق تقام فى زقاق ابن جبير. وهذه السوق مثل الأسواق الموسمية وكانت تقام فى الجاهلية وأوائل العهد الإسلامى. وتركت مؤخراً.

مُزْج: غدير فى وادى العقيق والمياه التى تجرى من نهر خضير تصب فى هذا الغدير.

مستظل: كان برج أحيحة بن الجلاح فى بئر الفرس، وانتقل فيما بعد لبنى عبد المنذر.

مستعجلة: مضيق يبدأ من ناحية نازية وينتهى فى ناحية خيف.

مستنذر: جبل صغير فى المكان الذى تنزل فيه قافلة الشام وعلى الطرف الشرقى من مشهد النفس الزكية. وعلى ذروته خرائب منازل بنى الديل.

مُسير: كان برجًا منسوبا إلى بنى عبد الأشهل.

مسكبة: موضع على الطرف الشرقى من مسجد قبا وكان البرج المشهور الذى يطلق عليه واقعًا فى هذا المكان.

مشاش: مجرى ماء متصل بوادى العقيق.

مِشقْط: كان برج بنى حديلة الذين كانوا يسكنون فى الطرف الغربى لمسجد أبى.

مشعل: موضع بين الحرمين.

مشفق: واد بين المدينة المنورة وتبوك.

معجزة: هناك ماء جار ينحدر من أعلى بين هذا الوادى ووادى الناقة. فوضع النبى ﷺ يده الشريفة تحت الماء المذكور. وصب المياه التى تجمعت بين أنامله

الشريفة إلى النهر مرة أخرى ودعا. وفى ختام الدعاء صدر من ذلك الماء صوت يشبه صوت الصاعقة وسمع هذا الصوت جميع الذين كانوا بجانب الرسول ﷺ، انتهى.

مُشَلَّل: العقبة التى نصب عليها الصنم الذى كان يطلق عليه فى جاهلية العرب «مناة» بجانب قرية قريب.

مَصَرَ: واد وادفى أعلى مرعى ضرية.

مصلوق: ماء منسوب إلى بنى عمرو بن كلاب.

مضُيق: قرية فى وادى آرة.

مطلوب: بئر فى غاية العمق بالقرب من الجهة الشامية للمدينة هناك بئر تنسب إلى بنى خثعم. تطلق عليها مطلوب أيضًا. كان عبد الملك قد وَحَّدَ جميع المزارع التى حول هذا الماء وأنشأ مزرعة واحدة فى غاية الكمال.

مطعن: واد بين سقياء وأبواء.

معجب: حديقة النخيل التى وقفها عبد الله بن رواحه يقال لها فى زماننا مُعْجب.

معد الأحسن: موضع فى بلاد المدينة وقرية فى أراضى اليمامة.

معدن بنى سليم: قرية على ثمانية منازل من المدينة فى جهة جدة.

معدن الماء: واد ينتهى إلى وادى مغيث.

معدن النقرة: موضع على بعد يومين من بطن نخلة.

مُعَرَّس: موضع مسجد المعرس.

مهايع: قرية كبيرة بالقرب من وادى ساسة.

مهراس: حفرة تملأ بمياه المطر فى نهاية مضيق جبل أحد. قد أحضر للنبى ﷺ فى وقعة أحد الأليمة بعض المياه من تلك الحفرة وكانت رائحتها كريهة بدرجة لا

تصلح للشرب، فغسل النبى ﷺ بعض أجزاء جسمه الدامية وصب قليلاً منها فوق رأسه.

مهزور: موضع فى سوق المدينة المنورة.

مهروز: واد بالقرب من المدينة، مهزول واد أم بئر ضرية.

مهيعة: الاسم الآخر لحجفة.

مُوجَاء: كان برجًا منسوبًا لبنى وائل بن زيد.

مَيْطان: جبل محاذ لجبل شوران الذى يقع فى الجهة الشرقية لقرية بنى قريظة.

ميفعة: موضع فى وادى بطن نخلة على بعد ستة وتسعين ميلا من المدينة.

حرف النون

نازية: صحراء مشهورة فى غاية الاتساع بين الحرمين، كما يطلق على البئر التى ملئت بالطين والتراب فى وادى أبلى الواسع.

نازين: موضع فى مضيق صفرا، حيث مات أبو معاوية عبيدة بن الحارث عند رجوعه من غزوة بدر الغراء ودفن فيه.

ناعم: اسم قلعة من قلاع الخيابر حيث قتل محمد بن مسلمة.

ناعمة: حديقة مشهورة فى عوالى المدينة.

نويعمة: ولما كانت حديقة نويعمة بجانب حديقة ناعمة فيطلقون حيث توجدان نواعم.

نباع: مجرى ماء فى أرض العقيق.

نُبَيع: موضع فى الجهة القبلية.

نجير: ماء فى محاذاة صفية.

نخل: موضع على مسافة يومين من جهة نجد والذى يطلق عليه شدخ كان النبى ﷺ قد نزل فى هذا المكان فى غزوة ذات الرقاع.

نخاى: مجرى ماء من مجارى مياه جبل أشعر يصب فى ينبع البحر وفى أسفل هذا الوادى كثير من الآبار لحسن بن حسن.

نخيل: بئر بعيدة خمسة أميال من مدينة الرسول ﷺ كما يطلقون على منزل فى طريق يعد نخيلاً أيضًا حيث توجد مياه كثيرة وآبار منسوبة إلى حسين بن على المقتول. فى هذا المنزل مسجد للنبى ﷺ.

نساز: عدة جبال فى ضرية.

نسر: اسم موضع فى بلاد مزينة.

نسح: بئر تنسب للنبى ﷺ فى وادى العقيق. نصنع بعض الجبال ذات حجارة سوداء بين الصفراء وينبع.

نطاة: اسم برج من قلاع أراضى خيبر.

نعمان: واد فى ناحية أحد.

نعيم: وإن كان موضعًا قريبًا من المدينة يقال له نعائم قاصدين ما حوله.

نفاع: كان برجًا فى بئر العمارة ينسب إلى قرية بنى خطمة.

ذو نفر: اسم محل على بعد ثلاثة أميال من موضع سليلة ويقع خلف وادى ربذة.

نقاب: موضع فى ملحقات المدينة المنورة فى هذا المكان طريقان يؤدى أحدهما إلى وادى القرى والآخر إلى وادى المياه.

نقاء: منزل بين بئر الالمحام ووادى بطحان.

نقيب بنى دينار بن النجار: طريق فى الحرة الغربية أى بجانب سقيا بنى سعد. كما أن نقيب المدينة اسم آخر لهذا الطريق؛ لأن من المدنية إلى بدر طريقان أحدهما طريق الوادى. وهو الطريق الذى نطلق عليه نقيب مدينة. والآخر شارع فيفاء الجنار قد سلك النبى ﷺ فى غزوة بدر هذا الطريق الذى يرافقه النصر.

نقعاء: اسم ماء خلف الوادى الذى فى مرعى النقيع فى ديار مزينة.

نُقْيع: مشهور بين الأنام باعتدال هوائه وعذوبة مائه وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلاً من المدينة المنورة. وأراضيه خصبة ومناظر مراعيه تسر الناظرين، وكل من شاهده فتن بجماله ولا يمكن لإنسان أن يرى من يسير بين أعشابه ونباتاته ولو كان فارسًا، وهو مرغوب منقطع النظير فى الجمال. وقد جعله النبى ﷺ مرعى لخيول المسلمين لما رآه أنه يفوق جميع مراعى المدينة المنورة من حيث جمال المنظر وخصوبة أراضيه وبما أن أمراء بنى أمية وسعوا ذلك المرعى فأصبح أوسع مراعى المدينة المنورة.

نقيع الخصمات: الخصمة هى النبقة اللينة والأراضى التى تنبت النباتات اللينة، إلا أن نقيع الخصمات اسم المرعى الذى حفظه من جهاته الأربعة وهو فى داخل بلاد مزينة.

نمرة: موضع فى جهات قديد.

نملى: اسم ماء بالقرب من المدينة، أو اسم سلسلة من الجبال بناء على قول آخر.

نوبة: اسم موضع على بعد مسافة ثلاثة أميال من المدينة واسم قمة ربوة رملية ذات لون أحمر. فى أرض بنى بكر بن كلاب.

نير: اسم عدة جبال فى مرعى ضرية واسم جبل فى أعالى أراضى نجد.

نيق: العقاب موضع قريب من جحفة.

حرف الهاء

هَجرَ: اسم قرية بالقرب من المدينة واسم ناحية فى البحرين.

هَدَبَيه: ثلاث آبار لأراضى السوارقية المكشوفة.

هُدُن: اسم ماء ماوى وادى القرى.

هِرْشى: تلال رمل فى صحراء مستوية وعلى الجهة الشرقية من وادى ودان.

وما بين هذه التلال الرملية والوادى سالف الذكر صحراء مستوية أخرى تتصل بشاطئ البحر وثنية هِرْشى فوق تلال الرمال المذكورة.

علامة نصف طريق الحرمين، على الأماكن المكشوفة من ثنية هِرشى بميل علم مركوز وهذا العلم علامة أن تلك النقطة منتصف طريق الحرمين: وإن كان بجانب ذلك العلم طريق يشعب إلى جهتين إلا أن كلا جهتى الطريق يوصلان لمكان واحد وفق ما يفيده البيت الآتى:

خـذ ألف هرشى أوقفـا فإنمـا

كلا جانبى هرشى لهـن طريـق

هكرَ: موضع على أربعين ميلا من المدينة ذات ماء عذب جميل.

هكران: جبل فى محاذاة قرية قباء وفى داخل ناحية كشب.

هُمَيْحْ: موضع يشمل على كثير من الآبار والحدائق فى ناحية وادى القرى.

هيفاء: موضع على بعد سبعة أميال من المدينة المنورة وعلى ميل واحد من بئر مطلب.

حرف الواو

وايل: اسم موضع فى أعالى المدينة.

وادى: بدون إضافة مجرى ماء فى وادى الروحاء إلا أنه على رأى البعض أن هذا المجرى فى جهة خيبر أو تبوك.

وادى أبو بكر: ابتداء الحفرة التى فى أعلى مسجد.

وادى أزرق: موضع أمام المكان الذى يطلق عليه فج روحاء بميل.

وادى بطحان: اسم مجرى ماء فى داخل المدينة.

وادى الجزل: مجرى ماء بالقرب من ذى المروة

وادى السمك: ماء جار فى ناحية الصفراء.

وادى القرى: واد يضم قرى متعددة. أو بلدة بين الشامة والمدينة على بعد سبع ليال من المدينة المنورة.

واسط: اسم برج منسوب لبنى خدرة، وبنى حزيمة، وبنى مازن من القبائل، واسم موضع بين بدر وينبع البحر، كما يطلق على الجبل الذى يتكون عنده سيول العقيق وأن مجارى مياه وادى العقيق تتجمع فى الجبل المذكور وتجرى ناحية جثجاثة.

وأقم: اسم برج خاص ببنى عبد الأشهل واسم برجين فى قرية قباء.

والج: حديقة فى الجهة الشامية من المدينة وبئر فوق جبلى بره وآرة. وقرية حول جبال بعان وآرة.

وحيدة: موضع بين الحرمين.

ودان: قرية واقعة على بعد مرحلة من محلة جحفة.

ودعان: موضع فى ينبع.

هضب الوران: جبل فى مرعى ضرية.

ورقان: جبل كبير بين الحرمين ويظل على يسار من يتجهون إلى مكة ورقان على يمينهم وكذلك سيالة وروحاء ورويثة. وفى جبل ورقان كل أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة وعيون متعددة وسكانه من جماعة بنى أوس، والجبل المذكور من جبال الجنان.

وسط: جبل فى مرعى ضرية.

وطيح: قلعة كبيرة من قلاع خيبر تسمى باسم رجل من قوم ثمود.

وظيف الحمار: محل بين سقاية عبد الملك ووادى زغابة.

وعيره: موضع فى حدود الحرم النبوى الشريف.

حرف الياء

يثرب: اسم مدينة الرسول القديم.

يدبع: ناحية بين فدك وخيبر ذات مياه متعددة وعيون كثيرة مقر قبيلة بنى فزارة.

يراجم: غدير فى وادى النقيع. قد توضأ النبى ﷺ من هذا الغدير وخاطب سكان القرى التى حوله إنكم تسكنون فى بقعة مباركة.

يُرَعة: موضع فى ديار فزارة بين موقعى ثوبية وصراخه.

يَلَيْن: يقال له ألين أيضًا. اسم غدير فى نقيع الحمار.

يليل: اسم نهير ينصب فى البحر الأحمر وناحية صفراء.

والبئر الذى يطلق عليه نجير فى ذلك الوادى ينبع ماؤه من الرمل. وهناك موضع آخر يسمى.

يليل: بين عقنقل وناحية بدر وبالقرب من صنبوعة.

ينبُع: على أربعة أيام فى ناحية شاطئ البحر من المدينة وهو بلد عظيم على ساحل بحر السويس على خط العرض الشمالى (٢٤ درجة وخمس دقائق) وعلى (٣٦ درجة) فى الطول الشرقى وعدد سكانها ثمانية آلاف تقريبًا. ومرفأ المدينة الرئيسى ويشمل على ١٧٠ منهلا وعيون كثيرة ولذلك عرف وسمى ينبع.

يقال لبحر السويس «بحر القلزم» والبحر الأحمر ويقال له فى اللغة التركية بحر الشاب وخليج العرب ويحيط بالساحل الغربى للجزيرة العربية ويفصل بين قارتى آسيا وإفريقيا.

وقد أقطع النبى ﷺ موضع ذى العشيرة من بلدة ينبع لصهره على بن أبى طالب، كما أن عمر الفاروق قد أضاف لهذه المواضع محلات أخرى، فوقف على بن أبى طلب هذه الأماكن والأماكن الأخرى التى اشتراها بنفسه، وبناء على هذا ظلت أكثر مواضع ينبع تحت إدارة أشراف بنى حسن.

يهيق: هذا هو ما جاء فى الحديث النبوى عندما قال ما معناه: «يظهر أن بيوت المدينة ستمتد حتى تتصل بيهيق» وهو موقع مشهور بالقرب من دار العزّ المدينة المنورة.

يَيْن: واد على اثنى عشر ميلا من المدينة المنورة فيه ماء واحد فقط.

مناجاة وقصيدة.. ودعاء

هلم أيها القلب ليتفتح بعين الشهود قلبنا والعينان..
حسبنا عمانا بدل ما لم وما كان..
على هواها نفسنا تابعنا..
وفى طريق من النجاد والوهاد أبلينا قدمنا..
ما هذه المتاهة التى نسلكها من طمعنا؟
وأى جدوى لما يقلقنا؟
لقد حفيت كذلك فى الرغبة قدمنا..
ليت شعرى ما جدوى هذا من صنيعنا؟!
عمرنا يومان ونحن على أهبة الرحيل..
فعجبا لفكرنا فى البقاء الطويل..
إذا لم تبلغ بك القدس قدماك..
فأنت حبيس وجود فى دنياك..
ليكن وضوءنا دمع الندم.
ولنعفر جبين الدعاء على ما للسجود من قدم..
لنذب سويداء قلبنا..
ونجعلها دمًا فى دمعنا..
حسان هو أنا جعلن فى حريم قلبنا..
مذبلة الوثنين وسومنات الهند لنا..
فى قيد ما سوى الله اختلج طائر قلبنا..
وفى جعالة أخرى تردى هوى نفسنا..

أى خلاص يحتمل لنا..
مادامت رغائبنا قيوداً لنا..
إن طول الأمل فى قلبى خيال..
وفى رأسى أغلوطة المال..
يستوى فى أذن الروح فى حيرتها.
نواح النائح وما للأوتار من نغمتها..
إن فى دار الفتنة هذه إنما كان حرصى على عمرى.يزيد ويزيد.
من طبع جبلت عليه عنيد..
ما بالك أيها الغافل الغر..
إن مثل هذا الفكر الفاسد من الفتنة يكثر..
ما جدواك من خسة طبعك..
لما كانت عبادة هواك من عبادتك..
لقد خدعت فلا تؤمل السراب..
إنما مسح أهل الجاه ناصيتهم بالتراب..
أطلب من الله ما لديك من مأمول..
فاللعرش الأعظم منه حسن القبول..
تقدم بكل ما أنت تريد..
إلى ما يحبه الله المجيد..
ذلك الذى يقتعد من الفلك السرير..
وله من الملائكة جند كثير..
المقيم فى خيمة الجبروت وله كلام الكليم.
ونديم محبة الله العظيم..
من نال شرف منزلة هى مقام القرب.
ومن نال ذروة العلياء باللقب.
خاتم النبوة وأميرها..

ومن هو يوم القيامة للشفاعة لَبشيرها..
ملاذ للأمم وموئل..
ومن يوم الحشر يؤمل..
طه يزين المنبر وهو خطيب..
وصاحب الوحى المقرب الحبيب..
مآل الناسوت والجوهر
وعلة هذا الخلق التى لا تنكر
النبى الأكرم محمد المحمود
كريم الذات وصفوة هذا الوجود
من شرف بالرسالة مطلق الذات
جاء تلك الدنيا بالهدى
وما امتلك قط مالاً لبدا
حمى الوطيس فى غزواته
وكل من خالفوه من عصاته
وبلطفه لا ينال المسيئ بسوء
وكأى من مذنب بذنبه ينوء
أى جدوى لوفرة حسناته
مادمت لا تحظى بمرضاته
ياحبذا كرمه ومنه القطرة..
تخمد من نار جهنم كل شررة
لو كان الناموس الأكبر عن عتبته طريدا
كان عن باب القرب مردوداً
لو تعلق بذيل شفاعته الشيطان.
دخل من الرحمة فى إيوان
إن هذه الدنيا لمن تردوا فى الحجيم..

ومن ساروا فى خطى الشيطان الرجيم..
هذه الدنيا للجنة والناس
والمنتبهون من غفلتهم.. فجرت الدموع مدرارا من مقلتهم
فى ذلك اليوم الذى فيه الجبار العنيد.. يعرف النار ذات الوقود
فى ذلك اليوم الذى عاتقه تحت الأمان ناء.. إن يوم أدار الأمانة جاد
وتضيف منته ضعفًا شديدًا.. فيشبه فى جموده جلمودا
أدرك يا رسول الله هذه الأمة أدركها.. قبل أن يوضع قيد النار فى عنقها
نج هذه الأمة من البلاء وكن لها مجير.. قبل أن تتحرق فى السعير
وخذ بيد العالمين من نار وحجارة هم فيها من المتمردين
وكن الشفيع للخلائق يوم الجزاء.. وهم من عذاب النار فى أشد بلاء
أدرك فى ذلك اليوم العالمين.. فى جهنم صاعدين هابطين
وفى أنامل كرمك لى أمل.. فحلّ بها ما تعقد لى فى سمطى العمل
ولنبك قليلاً ونتضرع.. فباب اللطف هذا الأهل مؤهل الفقر يقرع
بحقه وهو الغفار ذو الجود.
والمهيمن المعبود
إنه الأوحد فى هذا الوجود كريم الصفات.. حى ودود
باسمه وهو ذو الغفران.. الذى يأله إليه الإنس والجان
برمز آية قاف وبحكمة حم.. لسورة هود وسر نون العظيم
وبفضل من يعتكفون الأربعين.. يضعف الدخان وقوة الصخر الرصين
بقصة الكهف العجيبة.. وقصة الأخدود الرهيبة
بانقياد الذبيح وبموضع ثراه.. بنار النمرود للخليل وبلواه
بأصحاب الرس وخسفهم.. وبعقابهم وأحجارهم
بعز ملك سليمان والخيل المطهمات.. باستماع الطير وما لداود من نغمات
بشدة الهموم.. وبما لا يتنهى من غموم
بيأس مسار الفراق وأمل صبح التلاق.. بصد الدلال بعد رغبة الوصال

بقدر سيد المرسلين.
بفوز هذ االرائد الأغر..
واجعلنا إلى طريق رضوان من المهتدين.. فنحن بالضلالة من الهالكين
فهذه الدنيا إلى فناء.. وكل ما فيها إلى انتهاء
بالسهو لا تجعل قد منا تذل.. حينما قدمنا على الصراط ننقل
ليكن لهذا الفقير زاد النجاة.. إذا تحركت بالنعت الشريف منه شفاه

ولما كانت هذه القصيدة لأحد أصحاب الطريق المعنوى والذى أنشدها فى أثناء استقرائه عندما وصل لمقام الغناء فى الرسول وهى قصيدة نادرة فريدة قد رأينا أن ندرجها هنا متبركين بها.

القصيدة

هذا الجناب الذى تشفى به الكرب
ويـذهب البؤس والآلام والـنصب
هــذا الجنــاب الذى تشتاقــه أبدا
هذامنى النفس هذا السؤال والطلب
فعفـر الخــد ذلا فــوق تربتــه
والثــم ثراه وخــل الدمع ينسكب
وقر عينا وطب نفساو تهْ فرحا
لقد بلَغت الذى ترجو وترتقب
قد كنت صابه لا تستفيق جوى
يهزك الشوق من ذكراه والطرب
إن هبت الريح من تلقاء كاظمة
أو لاح برق الحمى تبكى وتنتحب
وإن ترنم حـادث رحـت ذا قلــق
فــالعقل مختبــل والقلب مكتئب

ترعى نجوم الدجى وجداً وفرط أسى
والجفن يَهْمِل والأحشاء تلتهب
هذا الحبيب الذى ترجو شفاعته
فليهنك القرب زال الهم والتعب
فاخنع على سائق الأظعان معتذراً
حشاشة شفها التبريح والوصب
وهب له النفس شكرانا وما ملكت
فذاك فى حقه بعض الذى يجب
منازل كنت تهوى قربها أبداً
فالنوم شوقًا لها والصبر مستلب
انزل هنيئًا مريئًا خير منزلة
علت فدون علاها السبعة الشهب
وَاقْرِ السلام على المختار من مضر
من اهتدى بهداهُ العجم والعرب
محمد خير خلق الله قاطبة
المصطفى الطهر من زالت به الريب
أزكى النبيين أعلى الخلق منزلة
من قد علت بمعالى قدره العَرَبُ
طه البشير الذى تجرى مواهبه
ومن زكا قوله والفعل والنسب
بر رؤوف رحيم قد علا شرفا
من هاشم وبنى عدنان منتخب
وبشرت سائر الرسل الكرام به
وأعربت عن معالى وصفه الكتب

له العلا والنهى والفضل منتسب
والعلم والحلم والآلاء والأدب
إذا بدا فبدور التم كاسفة
والبحر متصف بالنقص إذ يهب
بنانه قصرت عن فيضها السحب
وعنده عرف المعروف والحسب
أسرى به الله تشريفًا لرتبته
وقال سل فلك العلياء والأرب
دنا وشاهد رب العرش وارتفعت
من دونه حين ناجى ربه الحجب
وبالملائك صلى رفعته وعلا
وهو الشفيع إذا اشتدت بنا النوب
أتى بمعجز قرآن غدا عَجَبًا
وكم له معجزات كلها عجب
تظله الشمس من حر النهار ولم
تزل على رفعة فى ظله السحب
وخمسة إذ تشكى القوم من ظمأ
غدت ومنها الزلال العذب ينسكب
أطعم الجيش إذ باتوا على سغب
نزر الطعام فزال الجهد والسغب
والبدر شق له والوحش خاطبه
والوجود والبر من علياء يكتسب
وكان بالرعب والأملاك منتصراً
ولم يزل لعداه الويل والحرب

وانشق إيوان كسرى عند مولده
وأحرقت سارقى سمع السماء الشهب
وأصبحت سائر الأصنام ناكثة من
بعد عز علاها الذل والعطب
فى كفه سبحت صم الحصى علنًا
والجذع حن له إذ قام يحتطب
بنى صدق ورضوان ومغفرة
لكل خير وإحسان هو السبب
هو الذى جَـلَّ أن تحصى فضائله
حدث عن البحر ما شئت لاعجب
هو الحبيب الذى سحت مكارمه
هو الرسول الذى تعظيمه يجب
هو الذى طابت الدنيا بمولده
هو النبى الذى عزت به العرب
هو الذى جاء بالبيضاء ساطعة
هو النجيب الصفى الفرد لا كذب
شعاره الزهد والإجمال والرهب
والذكر والفكر والإرشاد والرغب
صـام النهـار وقامـا الليل محتسـبًا
ولم يثبت جده لهو ولا لعب
تشرف الكون وانجابت حنادسه
ببعثه وأزهرت أبوابه القشب
يا من يؤمل أن يحصى مدائحه
لقد حكيت ولكن فاتك الشعب

هو الذى نزل القرآن يمدحه
فما عسى أن يقول الشاعر الدرب
إليك ها يا رسول الله زاهرة
من دونها لعُلاك الدر والذهب
تجلو مناقبك الحسنى التى بهرت
تثنى القلوب وللألباب تختلب
وذو الرجاء أبو بكر منظمها
عبد لبابك أمسى وهو منتسب
فاشفع له كرما يا خير ذى كرم
ومن فضائله فى الكون تنسكب
وإن ما بيت منك يرجوا العطف ممتدحا
فما لصارم العضب بعد السل يتدب
عبد بفضلك قد أمسى أخاثقة
على جميلك بعد الله يحتسب
فكن له شافعا فضلا ومرحمة
إذا جهنم قد جادت لها لهب
ووالديه فجد واشفع لهم كرما
فإن فضلك للراجين مقترب
وأنت أرحم من لاذ المسئ به
وخير من يرتجى إن جلت الكرب
شوقى إليك شديد لا يفارقنى
حتى أرى سائرا والنعش لى قتب
صلى عليك إله العرش ما طلعت
شمس وأصبح نجم وهو محتجب

ولاح برق أهاج الشوق لامعــة
وهب نشر الصبا فاهتزت القصُـب
وألك الغر والصحب الذين غـدوا
هم السادة الكرام والسادة النجب
أجل آل وصحب فضلوا شرفــا
زكوا وطابوا فلا لغو ولا صخب
هم نجوم الهدى والفائزون غــدا
ومن فضلهم والنهى يملى ويكتتب

القصيدة

التى يقرؤها أهل المدينة فى حضرة السعادة

يـا رحمـــة للخلق يا واصـل ... يـا بحر جود مـا لـه ساحـل
يـا مـن بـه لا يحرم السائـل ... أنت شفيع الخلق حصن النزيل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

يـا مـن عليه الضب قد سلما ... والظبى تعظيمـا لـه كلمـا
يـا من رويت الجيش بعد الظما ... ماءا فراتـا من نبـات يسيـل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

يـا مـن عليـه الله قـد أنزلا ... ذكـراً حكيمـا معجـزا للملا
كـن لى معينـا فى البـلا ... لاسيمـا فى الحشر عنـد الجليل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

يـا مـن له تجلى جميع الكروب ... لهوت عن موقف يوم الخطوب
ما فقت حتى أو بقتنى الذنوب ... وما بقى فى العمر إلا القليل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

جـاوزت خمسينـا ولم أنتبـه ... بين حـرام عشت والمشتبـه
آمنـت بـالله ومـا جئت بـه ... وبـالذى حدثت عـن جبريـل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

أزكى صـلاة الله طـول المدى ... إليك تهـدى يـا نبى الهـدى
وآلك الأمجـاد أهـل النـدى ... جـارك يرجـو بك سترا جميل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

استطراد

إن هذه القصيدة التى اعتاد أهل المدينة حفظها قصيدة بليغة تنسب إلى عثمان البصير الحموى قصيدة للثناء والمدح.

وعثمان البصير من قرية دير سمعان[1] التابعة لمدينة معرة النعمان وأخذ الإنابة من المرحوم ابن الجندى شيخ الصلحاء الشيخ عبد الرحمن والشيخ اسحق، وضرب مثلا فى فضله وكماله فى ديار الشام وحلب، وكان متفوقا فى العلوم والفنون العربية مع كونه ضريرا، وتاريخ ولادته ليس مضبوطًا، ولكن وفاته بعد سنة ١٢٥٠ الهجرية.

وكان الأديب المشار إليه قد يئس من قرار الأطباء وحزن أشد الحزن وبعد الحزن الشديد ترك اللجوء إلى الأسباب الظاهرية واختار مسلك الإمام البوصيرى «عليه رحمة الله القوى».

إذ مسح النبى ﷺ فى رؤياه جسم عثمان البصير العليل المشلول بيمناه الكريمة ولمسه ولم يبق أثر من مرض الشلل فى جسمه واستيقظ من نومه وقام وأخذ يسير ويمشى.

ولما كان الشيخ عثمان البصير شخصا فاضلا يحب المرح والتحدى فبعدما شفى من مرضه واطمان تمام الطمأنينة على زواله فاستدعى الطبيب المسيحى الذى وعى عدم وجود دواء لمرض الشلل قائلا الفالج لا تعالج وطلب منه أن يعالج مرضه ولكن الطبيب المعالج قال إننى وجدت دواء سريع التأثير وأنشد القصيدة التى نظمها تلك الليلة وهو يتمشى وانبهت ذلك الطبيب وتحيره.

وأجبرت هذه القصيدة الطبيب المتحير على التصديق بنبوة محمد ﷺ ولكنه لم يظهر إسلامه خائفا من ضياع ما فى يده من الثروة والغنى. إلا أنه مات على الإسلام هذا ما يرويه العارفون بالتواتر انتهى.

(١) دُفن عمر بن عبد العزيز فى هذه القرية.

فضائل المدينة خواص تراب المدينة المنورة وفواكهها

يلزم أن يكون معلوما لدى الذين سافروا فى الأراضى الحجازية المقدسة وقاموا بالسياحة ولا سيما الذين اطلعوا على الأحاديث النبوية والذين يعتقدون فيها أن الغبار الصحى من قبل الله ـ للمدينة المنورة يشفى من علتى «الجذام والبرص»، والعلل الأخرى المزمنة المخيفة، ومن المروى المحقق أن الذين يستخدمون تراب المدينة بإخلاص تام وعقيدة صحيحة يشفون من أمراضهم إن الذين حملوه إلى بلاد الروم والممالك الأخرى واستعملوه فى أى علة من العلل شفوا وأفاقوا من عللهم، إذ قال شافى مرضى المعصية عليه أقوى التحية: «غبار المدينة شفاء من الجذام» وبهذا الحديث الشريف بين أن غبار المدينة ذو رائحة عنبرية وترابها دواء شاف من مرض الجذام.

عندما كان الرسول ﷺ داخلاً إلى المدينة عائداً من غزوة تبوك الغراء استقبله بعض الذين لم يستطيعوا أن يشتركوا فى تلك الغزوة لأسباب مختلفة من سكان دار الهجرة، استقبلوا الجيش الظافر النبوى، وعندما تلاقى المستقبلون بصفوف الغزاة ارتفع الغبار نتيجة لحركات أقدام الجمال والخيول وزاد عن حد الاعتدال فأزكم أنوف الغزاة، فانزعج الأصحاب الكرام وأمسكوا أنوفهم؛ فلما رأى قائد فرسان الأنبياء «عليه أكمل التحايا» ذلك قال: «والذى نفسى بيده إن غبار المدينة الطاهر دواء لكل داء وهو شفاء لمرضى الجذام والبرص». وبهذه البشارة نشر فى نفوس الصحابة التسلية والحبور.

خاطـرة

إن مثل هذه الكلمات التى تطيب خاطر الجنود تلقى لتهدئتهم ودفع الملل والضجر عنهم، حتى إن قواد الجيوش والفيالق يلقون بعض الخطب الحماسية

وبعض الكلمات المثيرة للشوق والحماس للجنود الذين تحت قيادتهم حتى يزيلوا ما فى نفوسهم من الضجر والانزعاج، وأن يشحنوا نفوسهم بالغيرة والشوق الجديد، إذا ما قيل هذا، فتقول لهم: إن ما يسرده قواد الجيوش فى خطبهم من الأدلة وما يستندون إليه من النقاط والحجج والمسائل ليست خالية من النفع والفائدة، ولكن أليست هذه الأدلة التى يأتون بها تذكر بالنعم الإلهية التى بشرت بها الأحاديث الشريفة؟ وإذا اشتملت هذه الخطب لبعض درجات الوعود وإذا ما تحققت مقاصد القواد بحمية الجنود وهممهم وغيرتهم فإذا ما قيل لا يبق لتلك الوعود أى قيمة وكأنها لم تكن فهذا صحيح وهو محقق كذلك.

ولكن هل يقاس منزلة القواد لدى الملوك بالمكانة التى يتمع بها النبى ﷺ عند الله سبحانه وتعالى؟

وهل يتصور قائد لم يكذب على الأقل مرة واحدة؟ وأين هو ذلك القائد الذى قدم جنده على نفسه؟! ومع هذا فمن المحقق أن الملوك يلون بدون تردد شكر قوادهم وشكاياتهم فى أثناء الحرب، وعندما يساق الجنود لإنقاذ شرف الدولة والمحافظة عليها، وليس فقط فى مثل هذه النقاط المهمة حتى الآن يقبل شكر القواد وشكاياتهم ولايرد.

وبما أن الأقوال الصادرة من فم النبى ﷺ المحسن تقترن بالوحى الإلهى، فالأحاديث الشريفة مهما كان موضوعها ومحتواها فيجب أن يبعد عن الذهن عدم صحتها، أعاذنا الله تعالى من مثل هذه الأمور؛ فالذين يتخيلون مثل ذلك يقتضى عليهم أن يصححوا عقائدهم وأن يجددوا إيمانهم. انتهى.

قد حدث ذات يوم أن قام بعض الأفراد من قبيلة بنى الحارث بالتظاهر بالمرض والضعف وقالوا إنهم فى غاية الضعف والتعب من جراء مرض الحمى، فنالوا شرف المثول بين يدى النبى ﷺ، فأخذ كاشف الغُمة «عليه السلام والتحية» بعضًا من التراب من مكان يقال له حصيب ووضعه فى مقدار من الماء ثم قال لهم فليتفل واحد منكم وينفخ فى هذا الماء قائلا: «بسم الله من تراب أرضنا، بريق

بعضنا، شفاء لمريضنا، بإذن ربنا»، ثم يشرب كل واحد منكم من هذا الماء، ففعلوا مثل ما أمرهم رسول الله ﷺ فنجوا من مرضهم، إن هذا الحديث يكفى للدلالة على أن تراب المدينة شفاء مَحْض.

فائدة

كان قريبًا من حديقة «مدشونية» حفرة، وكان أهل المدينة يأخذون من هذه الحفرة قليلاً من التراب وكانوا يسقونه لمرضى الحمى كما ذكر فى الحديث الشريف، قال ابن النجار: إننى قد رأيت تلك الحفرة، وما زال الناس يأخذون ترابها ويرسلونه إلى أطراف البلاد بأمل الشفاء، ويروون أن من يتداوى به يشفون من أمراضهم، وقد استعملته بنفسى.

وقال الإمام السمهودى: «إن الحفرة المذكورة ما زالت فى زمنه وإن الناس يأخذون من ترابها ويرسلونه إلى بلاد بعيدة، كما أن علماء السلف قد أروا تلك الحفرة لتلاميذهم فاكتسبوا الشفاء باستعماله وكثيرون من الصالحين استعملوه وشفوا».

ثم قال: إننى تأكدت من صحة ما يقال باستعماله شخصيًا «ثم أضاف: كان أحد أقاربى تعرض لمرض الحمى ولم يستطع أن يتخلص منها مدة عام كامل، فأخذت مقداراً من التر اب وضعته فى ماء كما سبق توضيحه وسقيته بعد التفل، قد شفى المريض فى ذلك اليوم وقام على رجليه» وبكلامه هذا أكد رواية ابن النجار وصدقها.

ويبتدر بعض الناس الآن غسل المريض بالحمى بأخذ تراب من حفرة ما معتقدين أنها تلك الحفرة المذكورة ويخلطونه بمقدار من الماء ولكن الأولى أن يستخدم وفقًا للرواية التى سبق ذكرها آنفا، ثم الاغتسال بعد ذلك حتى يشفى وفق مفهوم الحديث سالف الذكر، والله الشافى.

أنا المؤلف لم أوفق فى زيارة حفرة المدشونية، ولكننى رأيت بعض الناس يأخذون تراب تلك الحفرة وبعد التخمير يمهرونه بمهر خاص بتراب بتراب خاص ويوزعونه على الحجاج مقابل عطاياهم، إنه تراب مائل إلى اللون الأبيض، وإذا

ما نظر إلى شفاء الذين يستعملون ذلك التراب بعد التخمير يمكن الحكم بأنه مأخوذ من حفرة «المدشونية» التى عرفها الإمام السمهودى.

المدشونية: اسم بستان جميل يقع فى جهة المدينة المنورة من البساتين التى يطلق عليها العوالى، وفى داخل هذ البستان الجميل عدة حفر قديمة ومع خلو هذا البستان من سور يحميه فاللصوص لا يستطيعون أن يصلوا إلى محاصيله ويسرقوها، مع أن البساتين المحاطة بالأسوار وفى داخلها عدة حراس تنقذ محاصيلها من البلح بصعوبة كبيرة، وعلى هذا يمكن أن يعد عدم دخول اللصوص فى بستان المدشونية من جملة خصائصه. انتهى.

وكان النبى ﷺ كلما أحضر له مريض أو مجروح يتلو الدعاء سالف الذكر ثم يأخذ من الأرض قليلاً من الغبار بأصابعه المباركة ويمسح به المريض؛ جاءه يومًا مريض يشتكى من جرح رجله وعرض عليه أنه لا يستطيع أن يتحمل الأوجاع فما كان من النبى ﷺ مداوى جروح أمته إلا أن رفع قطعة الحصير التى كان يجلس عليها وأخذ قليلاً من الغبار بسبابته[1] المباركة ومزجه بريقه السعيد ثم قال: «بسم الله ريق بعضنا يشفى سقيمنا» ثم مس به جرح الجريح، وبناء على ما نقله من كان فى مجلس النبى ﷺ فى ذلك اليوم قد التئم جرح المجروح وعُوفى من علته وعاد سالما معافىً.

كما أن بلح المدينة يفيد من شفاء بعض العلل والأمراض، إذ ترى مرضى البلدة الطاهرة يشفون بتناول سبعة أعداد من العجوة صباحًا فى سبعة أيام، وإذا ما سئل عن سبب يشفون يقولون: «إن الصديقة ـ رضى الله عنها ـ نبهت المصابين بعلة[2] «الدوام والدوار» يأكل فى كل صباح سبعة تمرات وينقل عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «قد مرضت فى فترة ما وشرفنى إذ ذاك طبيب مرضى القلوب من أمته ـ رضى الله عنه ـ فى منزلى ووضع يده السعيدة بين نهدى وطيب خاطرى بلفتة كريمة تساوى الدنيا بما فيها قائلاً «إنك رجل شجاع»

(١) يطلق السبابة على إصبع الشهادة.

(٢) دوام دوار: يعنى الصداع المزمن يقال للصداع المزمن فى الاصطلاح الطبى دوار الرأس.

وإذ ذاك ورد من الأطباء الحذاق الحارث بن كلدة، فأحضر عدد سبع حبات من بلح العجوة واسحقها وأخذ ماءها وبدأ يعالجنى بها وسقانى من ذلك الماء، وفى الواقع أن بلح المدينة المنورة يجمع خصائص عديدة فمن يأكلونه فى الأوقات التى عينتها الأحاديث الشريفة لا يؤثر فيهم لا السحر ولا سُمّ هلاهل المهلك، لأن النبى ﷺ قال: «ومن تصبح بسبع تمرات من العجوة لم يضره يومئذ سم ولا سحر» و «من أكل سبع تمرات عجوة ما بين لابتى[1] المدينة على الريق لم يضره فى يومه ذلك شىء حتى يمسى وإن أكلها حين يمسى لم يضره شىء حتى يصبح» و«من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» «حديث شريف».

و«اعلموا أن الكمأة[2] دواء العين» و«إن العجوة من فاكهة الجنة، والكمأة من المن وماءها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهى شفاء السم». «حديث شريف».

البرنى:

وبما أن البلح المسمى بالبرنى كان من البلح المرغوب لدى الرسول ﷺ لأجل ذلك مدحه النبى ﷺ قائلاً: «يا أهالى المدينة إن أفضل أنواع البلح الذى ينبت فى بلدكم البرنى» «حديث شريف» إنه يخرج الأمراض والعلل من بطن آكله وإنه غير مضر ولا يجلب العلل» والحديث الشريف الذى يشمل ذلك المعنى «خير تمركم البرنى يخرج الداء ولا داء فيه»، ولا نعرف حكمة تخصيص الشفاء بسبعة أعداد من بلح العجوة ولا سره، ولكنه يلزم الاعتقاد بكل إخلاص وطمأنينة لحكم الحديث الشريف وأن يعتمد على أن البلح العجوة يجمع الفيض والبركة، لأن الذين داوموا على أكله قد تواتر شفاؤهم.

إن العجوة معروفة لدى أهل مكة، إنها نوع من البلح يحتوى على الشفاء المحصن، لأنها خلقت من بقايا طين حضرة أبى البشر[3] وتجمع بين جميع

(١) **لابتى**: معناه التل والربوة.

(٢) **كمأة**: نوع من عش الغراب ينبت فى أماكن ظليلة وجمعها أكماء. وانظر فى هذه الأحاديث كتاب الطب النبوى لابن القيم ص ٢١١٤ وما بعدها. ط١٤ دار الوعى ـ حلب بتحقيق الدكتور عبد المعطى أمين قلعجى.

(٣) جاء فى الحديث الشريف: «أكرموا عماتكم النخلة..». انظر تفصيل ذلك فى كتاب النخلة للسجستانى.

الخواص لذا ينقل أنها أنفع الفواكه جميعًا للإنسان، وبناء على قول ابن الأثير، إن هذا البلح من نوع أكبر من «الصيحانى» ولكن لونه مائل إلى السواد. وإن كان الإمام داود يذهب إلى أن العجوة أوسط أنواع البلح من إنتاج المدينة وذهب بعض المؤرخين إلى أنها من أنواع بلح مكة، إلا أن الإمام البزار قال: «إن بلح العجوة من جنس البلح الذى غرسه النبى ﷺ بنفسه» لذلك رجّح أهالى المدينة قول الإمام البزار على سائر الأقوال وينقلون أن اليهود قد أحرقوا نواة تمرة ثم قدموها إلى النبى ﷺ قائلين يا محمد: أغرس هذه النواة فإذا ما نمت وترعرعت نصدق نبوتك» فأخذها النبى ﷺ وابتدر بغرس النواة بنفسه ومن هذه النخلة نشأت العجوة وأثمرت الشجرة فى الحال»، وفى سبيل تأييد مدعاهم استدلوا على ذلك بالرائحة الخاصة التى تمتاز بها العجوة، وفى الواقع أن ما يدعيه أهالى المدينة الطيبة مقترن بالصحة إذ يحس فى حين تناولها برائحة طيبة.

ومع هذا ليس هذا البلح عين ما غرسه صاحب المعجزات بيديه السعيدتين من البلح.

ولم يبق فى عصرنا شىء من التمر الذى غرسه النبى ﷺ بيده المؤيدة بالإعجاز، هناك من يدعى وجود نخلة واحدة بين نخيل المدينة المنورة من جنس التمر الذى غرسه النبى ﷺ إلا أن هذا الادعاء من قبيل الظنيات، وإن كان بلح العجوة موجودًا الآن إلا أنه ليس من نوع البلح الذى غرسه النبى ﷺ ولكنه نوع متفرع من بلح يسمى «الجادى». ويلزم أن يكون تمر النبى من صنف البلح الذى يعرف بـ «الحلية» إلا أن العجوة نوع من البلح بين الحلية، وحجمها يشبه حجم الحادى ولونها يشبه لون البلح المسمى «غراب» وطعمها يشبه للحلية، وحجمها يشبه حجم الجادى، لذلك يظن الذين لا يعرفون أشياء عن أجناس البلح أن العجوة بلح النبى ﷺ، كما أن الذين لا يعرفون عن حقيقة بلح الحلية شيئًا يدعون أنه لم يبق بلح من جنس بلح النبى ﷺ، كما ذكر آنفا إلا أن أهل الخبرة أثبتوا مدعاهم بكثير من الأدلة المقنعة والتى تؤكد على أن لهم خبرة ومهارة فى تعيين جنس البلح أثبتوا أن بلح الحلية من جنس بلح النبى ﷺ.

ولما كان النبى ﷺ يحب العجوة حبًا جَمًّا أمر ورغب أهالى مكة فى أكل هذا البلح، ولما كان الأصحاب الكرام يعملون بموجب الأمر النبوى أحبوا بلح العجوة وأقبلوا على أكله وفق تعليمات النبى ﷺ، ومازال أهل المدينة يراعون هذه الأصول إذ يجمعون بلحهم فى موسم الجنى ويملئون به أزيار ويأكلونه فى أيام الشتاء وإنهم يحرصون على حفظ البلح أكثر من أى شئ آخر، وليس هناك مدنى لم يحفظ فى أيام الصيف ما يكفيه من العجوة لأيام الشتاء.

وفى إستانبول يعد الناس الحطب والفحم، وفى البلاد العثمانية الأخرى يعدو للشتاء جَرِيش البر المسلوق «برغل، وما يلزم لحساء «طارخنة»[1] والذين لا يخزنون هذه الأشياء فى مواسمها يعانون كثيرًا فى الشتاء ويتعبون، هكذا يعانى من لم يخزن بلح العجوة فى الشتاء من سكان دار السكينة ويتعبون كثيرًا، ومازالت هذه العادة قائمة إلى الآن بين أهالى المدينة، ولكن ما جمعوه وادخروه من البلح على أنه عجوة ليست من العجوة المأثورة، ويطلع على ما يدخرونه من البلح «مجلات وحشية» وهو خليط ومزيج من هجين نوع من البلح، ولما كان هذ النوع من البلح أرخص ثمنًا فعربان البوادى والفقراء من الناس يرغبون فى تخزينه ظنا منهم أنهم يخزنون بلح العجوة، أما الأغنياء من الناس يخزنون للشتاء بلحًا من جنس«حلية، شقرى، بيض، حلوة» وثمن هذه الأنواع أغلى بالنسبة للبلح المخلوط.

ويبين مؤرخو المدينة الطيبة سبق تسمية بلحها بأسماء معينة ويقولون فى تعريف بلح الصيحانى: إن نخلة قد صاحت مصدقة للنبوة أو أن البلح نبت أولاً فى حديقة يطلق عليها الصيحانى، والذى نقل القول الأول هو جابر بن عبد الله الأنصارى، ولما كان هذا القول يروى مستندا إلى أسانيد جيدة يرجح على القول الثانى وتؤتى هذه الرواية بكرامة أهل البيت وقربتهم وشرفهم.

وقال حضرة جابر وهو يبين سبب تسميته بلح الصيحانى، كنت قد ذهبت يومًا

(١) نوع من الحساء يصنع من الزبادى أو الحليب المتخمر ويخلط بالدقيق أو بماء اللحم ثم ينشف فيطحن.

مع النبى - عليه صلوات الله الملك المنان - إلى بساتين النخيل، وكان معنا على بن أبى طالب وكانت يده المؤيدة بالفيض فى يد النبى ﷺ .

وكان كلاهما أمامى بعدة خطوات، ومرا بجانب نخلة وكانت تلك النخلة موزونة القامة فصاحت صيحة شوق وابتهاج وقالت «إن ذلك الشخص سيد الأنبياء محمد «عليه صلوات الأحد» وبجانبه سيد الأولياء أبو الأئمة الطاهرين» كذلك نطقت إحدى النخيل القريبة منها وقالت صائحة: «إن هذا الشخص محمد رسول الله وبجانبه على سيف الله» فقال رسول الله ﷺ «يا على «فلتسم هذه الأشجار بعد هذا «بصيحانى»، وانتشر الخبر بين الأهالى وشاع وأخذوا يطلقون لهذا الجنس من النخيل «الصيحانى» انتهى.

وإن كان بلح المدينة كثير الأجناس مختلف الأنواع إلا أننى استطعت أن أعد ما يقرب من مائة وثلاثين نوعا «ولا يشبع للطاقة نوعى العجوة والبرنى وحلاوة مذاقها».

بناء على ما فصل فى الصورة الثانية من الوجهة الأولى لم تبق من أنواع البلح فى زماننا القدر الذى ذكره المرحوم السمهودى، لذا قرر أن يطلق على جميع أنواع البلح «اللون»[1] ما عدا الأسماء التى ذكرت فى الوجهة المذكورة وعددت.

(١) روى فى بعض كتب التاريخ أن أول من غرس النخلة هو شيث عليه السلام.

فى بيان وتعريف نجاة سكنة دار السكينة من مضرة الطاعون والدجال

قال النبى ﷺ ليبين مدى حبه القلبى للمدينة المنورة «اللهم حبب لنا المدينة كحب مكة أو أشد»، وبهذه الطريقة كرر النبى ﷺ الدعاء للمدينة، وسبب تكراره يومئ بزيادة رغبته ـ عليه السلام ـ، والداعى لهذا الدعاء ما قاله بلال بن رباح الحبشى اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن أبى ربيعة وأمية بن خلف إنهم أخرجونا من بلادنا وكانوا سببًا فى الهجرة إلى بلد كثيرة الوباء.

قال بعض الأئمة: «إن النبى ﷺ قد كرر الدعاء المذكور مرات عديدة؛ مع أن استجابته قد ظهرت بعد أول مرة»، إن الحكمة من هذا التكرار هى وفرة الوفرة فى أوزان دار الهجرة وأكيالها على شكل محسوس، إذ أن الفيض والبركة اللذين فى مد أوصاع المدينة المنورة لا يظهران فى أكيال وأوزان سائر البلاد، لأن النبى ﷺ كلما عاد من سفر إلى المدينة المنورة كان يمد نظره إلى جدران تلك المدينة وأحجارها وأسواقها وأشجارها ويرخى النظر بالفرح والابتهاج إليها، ثم يدعو عارضًا دعاءه إلى واهب الآمال إذ يقول: «يارب قدر لنا القرار فى المدينة ويسر لنا سبل المعيشة بالرزق الحسن، يارب! بارك فى المدينة بضعفى بركة مكة، اللهم اجعل مد المدينة وصواعها وأكيالها مباركًا لهم».

وكما هو معلوم لدى من يدققون النظر أن الفيض والبركة اللذين يسودان المدينة فى يومنا هذا هما أثر من آثار استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذلك الدعاء إن مؤونة إدارة المدينة المنورة لسنة كاملة تقابل مؤونة إدارة البلاد الأخرى لستة أشهر، إذ يحدث أحيانًا أن طعامًا يرى غير كاف لإشباع نفر واحد يشبع عدة أشخاص ثم يفيض أيضا، إن هذه الأمور الدقيقة معروفة سواء أكان عند أهالى

المدينة أو كان لدى المجاورين والمسافرين الواردين، كما أن المدققين من الزوار يزيدون من محبتهم ورعايتهم لأهل المدينة إذا جربوا ذلك ورأوا بأعين رءوسهم ذلك الفيض وتلك البركة.

وإذا كانت الأشياء محسوبة لهذا البلد هذا القدر من الفيض والبركة لا شك فى أن أهالى ذلك البلد يفضلون الآخرين فى أمور دينهم وآخرتهم وبناء على هذا فإن طاعات وعبادات سكنة دار الهجرة تستلزم تضاعف أجرها ومثوبتها.

وكان أهالى دار الهجرة فى عصر النبوة عندما ينضج التمر ويصل إلى كماله، يأخذ كل واحد منهم عنقوداً من التمر ويقدمونه لعتبة رسول الله حتى ينالوا دعاء رسول الله ﷺ بالبركة، وكان الرسول ﷺ يمسك التمر بيديه المباركتين ويدعو لأهل المدينة بسبب ما يؤخذ إليه من البلح الطازج قائلا: اللهم أنعم على مدينتنا وأكيالها بالبركة، يارب كان إبراهيم عبدك ورسولك، وإننى عبدك ورسولك، وقد دعا إبراهيم لمكة المكرمة، وأنا أدعو أن تنعم بمثل ما أنعمت على مكة المكرمة من الفيض والبركة على المدينة المنورة، وشرف فى يوم ما مع على بن أبى طالب المحل الذى كان يسكنه سعد بن أبى وقاص فى «حرة سقيا» وتوضأ الرسول ﷺ فى هذا المكان ثم استقبل القبلة ودعا قائلاً: اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ودعاك لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك فى مدهم وصاعهم مثلى ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين، وقال ابن شَبّة: إن ملك السرائر المصطفى ـ عليه من الصلوات أصفاها ـ قد كبر فى خاتمة دعائه.

وخرج رئيس ينابيع الفيض والبركة ـ عليه أصفى التحية ـ فى يوم ما للذهاب إلى مكان يقال له «بيرحاء» فى نواحى المدينة المنورة، وكان فى معيته أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ، وعندما وصلا إلى المكان المذكور استقبل الرسول ﷺ القبلة ورفع يديه حتى ظهر بياض إبطيه تحت منكبيه وقال: يارب كان إبراهيم خليلك ودعا لأهل مكة، أنا أيضا رسولك، أدعو لأهل المدينة طالبًا الفيض

والبركة، وكما أحسنت إلى أهل مكة فالق ببركتك لمد سكان المدينة وصواعهم وضاعف قليلهم وكثيرهم ضعفين، يارب كل من يقصد أهل المدينة بالسوء فأجله وأذبه كما يذيب الماء الملح[1]» «حديث شريف» هذه الرواية منقولة عن أبى هريرة بالتواتر.

نقل علة الحمى خارج المدينة المنورة

تعرض بعض أصحاب النبى ﷺ فى ابتداء الهجرة المستلزمة للحكمة لعلة الحمى واشتكوا إلى رسول الله ﷺ، فصعد شافى الأمة من أدوائها ـ عليه أجمل التحية ـ المنبر وقال: «اللهم أنقل عنا الوباء» وبهذا الدعاء رجا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكيم المطلق العلة إلى نقل العلة إلى أو إلى أماكن أخرى وفى الغد قال: قد جاءتنى الليلة عجوز فى ملابس سوداء وقالت لى: إن العلة التى دعوت لنقلها هذه هى فأين تريد أن أنقلها من المدينة المنورة؟ فأجبتها، أن تنقلها إلى «خم» وبهذا أخبر بأن علة الحمى قد نقلت إلى موقع «خم» وبعده بيوم مثل أحد أبناء السبيل أمامه آتيا من جهة مكة، فسأله قائلا: من الذى قابلته فى الطريق؟ فأخذ الرد الذى يقول «لم أقابل أحدًا غير عجوز منكوشة الشعر فى ملابس سوداء» فقال المطلع على السرائر ـ عليه سلام الله القادر ـ إن تلك العجوز علة الحمى وإنها لن تستطيع أن تعود إلى المدينة مرة أخرى.

وهكذا نقل ما جرى، وعلى هذا فعلة الحمى بين حرات قريضة وعريض، اللهم أحمنا فى المدينة وأنقل حماها إلى مهيعة[1]! وإذا بقى منها شىء أبقه خلف مشعط[2]، وقال إذا كان فى جزء من المدينة وباء فهو فى «ظل مشعط» وكل من شرب ماء فى جحفة بعد هذا الدعاء تعرض للحمى، وكل طائر طار من فوق نواحى هذه القرية أصيب بمرض ووقع على الأرض.

وجاء فى سيرة ابن هشام، أن تلك الأحاديث تومئ إلى أنه قد ظل فى المدينة نوع من المرض قليل الخطر وهو المرض الذى فى المدينة الآن، ولكن هذا المرض

(١) تقدم تخريج هذه الأخبار.

(٢) مهيعة اسم آخر للجحفة.

(٣) مشعط على وزن مرفق اسم قلعة فى بلاد بنى هذيل وفى الجانب الغربى من مسجدهم وبالقرب من «بقيع الغرقد».

ليس بشيء خطير نتيجة لاستجابة دعاء الرسول الكريم، ولكنه مرض رجع فى عصر الرسول لكفارة الذنوب وهو مرض خفيف، وهذا المرض هو حمى «أم ملدم» وبناء على الروايّة التى نقلت عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أن حكيم الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ حينما دعا، فى الصورة المشروحة، رأى ذلك المرض ورغب أن يرحل إلى نواحى «قباء» وكان المرضى الذى رآه الحمى المسمى بـ «أم ملدم» الذى اتجه ناحية قباء رأسًا، بناء على الأمر الذى صدر له من النبى ﷺ، وأخذ يزعج سكانها، ولم يكن فى استطاعة مخلوق أن يفهم سر هذا الحكم وقد انزعج سكان قرية قباء من الحمى العارضة لبلدهم، وذهبوا إلى الرسول ﷺ يعرضون عليه ما حدث وطلبوا منه أن يدفع عنهم تلك الحمى.

فرد عليهم الرسول ﷺ قائلا: «الدعاء لرفع الحمى وإزالتها ممكن ولكن تحملكم لها كفارة لذنوبكم» فقالوا: «إننا نتحمل المرض بأمنية كفارة الذنوب ثم عادوا».

إخطار

وإذا قيل بما أن المرض من الأشياء المحسوسة فكيف يظهر على شكل امرأة عجوز؟ يقال لهؤلاء: إن أقوال النبى ﷺ وأفعاله إخضاعها لقواعد العلوم المضبوطة والفنون المعلومة من جهة، ومن هنا يجب أن تنحى فكرة التحليل والتطبيق جانبًا تأدبًا، ومن جهة أخرى ينبغى أن يقبل كل ما يروى عن النبى ﷺ دون تردد، وأن يصدق. انتهى.

إن النبى ﷺ المطلع على أسرار الحكمة قد تفضل قائلا: قد أرانى جبريل الطاعون والوباء ومرض الحمى، وكلفنى أن أبقى واحدًا من هذه العلل فى المدينة، وإننى أبقيت على الحمى ورددت الطاعون، وإن كان الطاعون باعث استشهاد لأمتى إلا أنه زاجرا للكفار، وهذا ما ينقل عن النبى ﷺ ويروى؛ لذا لا يقدر لا الطاعون ولا الوباء الدخول فى المدينة المنورة، أما الحمى فهى ليست وباء ولكنها رحمة من الله.

قد فكر علماء الحديث فى هذا الموضوع ورتبوا هذا الحوار الذى يشتمل على السؤال والجواب:

السؤال: إذا كان الطاعون سببًا فى الاستشهاد، فهل يصح أن يدعو النبى ﷺ بعد دخوله إلى المدينة؟

الجواب: الطاعون عبارة عن طعن الجن، مع أن دخول الشيطان والكفار من الممنوعات من الدخول فى المدينة، وإن دخلا فلا يقدران على ضرر أحد، وهذا مما يدعو إلى الثناء والمدح للمدينة؛ لأجل ذلك دعى بعدم دخولهما، أو أن الطاعون فى المدينة لا يصل إلى شدة الطاعون الذى ظهر فى «عمواس، وجارف».

الحكم:

مع الاحتمالات الموجودة فى هذه الإجابة ليس هناك تاريخ يخبرنا بدخول الطاعون فى المدينة، والطاعون الذى أجرى حكمه فى سنة ٧٤٩ فى جميع أرجاء البلاد العربية حتى فى مكة المكرمة لم يدخل المدينة المنورة الميمونة، انتهى.

لما كانت الحمى فى المدينة مرضًا بدلاً من الطاعون فلا شك فى استشهاد فيمن يموتون فيها، ومن الخطأ أن يورد إنسان فى خاطره سؤال، يا ترى ماذا كانت الحكمة فى اختيار حاذق الأنبياء ﷺ علة الحمى من أجل أهل المدينة؟

عندما دعت الحاجة إلى الجهاد وحرب مشركى الحجاز وقتالهم ونزلت الآيات الجليلة تدعو إلى القتال كانت علة الحمى أضعفت الأصحاب الكرام فتفضل النبى ﷺ بالدعاء لنقل الحمى إلى الجحفة، وقد أصبحت المدينة المنورة التى كانت مركز العلل والأمراض أصبحت بفضل دعاء النبى ﷺ أصح بلاد الله وأصلحها، وقد اختيرت علة الحمى حتى ينال مرتبة الشهادة من لم يستشهدوا فى الجهاد وماتوا بسبب الحمى، ولم يقدر وباء الطاعون أن يدخل المدينة المنورة بعد دعاء النبى ﷺ وبهذا تحقق أن دعاء النبى ﷺ كان رهن الاستجابة. وإن جاء وقت لبيان آراء أطباء عصرنا فى وباء الحرمين ومناقشة هذه الآراء إلا أننا تركنا ذلك لذيل الصورة.

وإنه قد عين من قبل الله سبحانه وتعالى كثير من الملائكة فى طريق المدينة ليحولوا دون دخول الطاعون والدجال فيها، كما جاء فى الخبر، وإن كان الدجال سيقدم إلى قرب سور المدينة إلا أنه لن يستطيع الدخول فى داخل المدينة، ليس هناك بلاد مصونة من دخول الدجال غير الحرمين، وليس فى الحرمين شارع يخلو من حراس من الملائكة، وسيتوجه بالدجال عن طريق الشرق إلى المدينة الأمينة وسيتعرب من خلف جبل أحد وعندما يصل إلى هذا الجبل سيعيده الملائكة إلى مكان ظهوره ويهلكونه، وسيكون للمدينة فى ذلك الوقت سبعة مداخل وسيكون فى كل باب ملكان والمنافقون سيخرجون من هذه المداخل ويبايعتون الدجال.

ووقف النبى ﷺ يومًا من الأيام بين رايتين وخاطب أصحابه قائلا: «ما أجمله من مكان المدينة المنورة، عندما يخرج الدجال فى يوم الضلالة ستحمى الملائكة شوارع المدينة وأطرافها، ولن يدخلوه إلى المدينة، وإنه لن يبقى منافق لا يبايع الدجال فى ذلك اليوم وسيكون معظمهم من طائفة النساء، إن اسم ذلك اليوم يوم «الخلاص» وفى يوم الخلاص ستطرد المدينة المنورة المنافقين وتزيلهم عن المدينة كما يزيل كير الحداد وسخ الحديد وينقيه، وسيكون مخيم الدجال فى ذلك الوقت فى مكان يسمى «مجمع السيول» وسيكون معه سبعون ألفا يهوديًا مسلحًا، وخاطبهم فى يوم آخر قائلاً: «يا أهل المدينة! تذكروا يوم الخلاص!» وأجاب على سؤال الصحابة» أى يوم، يوم الخلاص؟» هو اليوم الذى سيتوجه فيه الدجال إلى المدينة المنورة، ويأخذ المنافقين والمشركين فى دائرة بيعته ويظل المؤمنون وحدهم إذ تخلصوا منهم».

لم يتفق الأئمة الكرام فى تعيين المحل الذى سينزل فيه الدجال فى المدينة المنورة فقال الإمام أحمد بن حنبل: إنه سينصب خيامه فى ممر محل يطلق عليه «جرف»، وقال ابن ماجه إنه سيعسكر فى مكان ينتهى إلى ممر جرف من الطريق

الأحمر. وقال الزبير بن بكار إنه سينصب خيامه فى موقع «مجمع السيول» ومع هذا فالثلاثة صادقون فى أقوالهم، وإن ظهرت الأماكن التى ذكروها مختلفة إلا أن كلها فى ساحة الميدان فالألفاظ مختلفة ولكن مفادها واحد.

وأينما نصب الدجال فى المدينة سيمنع من قبل الملائكة كما ورد فى الحديث الشريف، ولن يدخل المدينة المنورة وسيعرض المشركون والمنافقون بيعتهم على الدجال وقد أصابهم الهلع والقلق من حركات الأرض وبهذا لن يبقى داخل أسوار المدينة إلا المسلمون الخُلص وبهذا سيتضح أن المدينة المنورة الطيبة تنفى الخبث وتزيل الوسخ، ويرون أن أكثر من سيعرض بيعته للدجال من الطوائف النساء والجوارى.

مهمة

دجال مأخوذ من كلمة «دجل» بمعنى سحار وكذاب، وبناء على عقيدة أهل السنة أنه سيظهر فى آخر الزمان وإنه سيحكم ما يقرب من أربعين يومًا ما بين الشرق والغرب، وستظهر على يديه بعض الخوارق مثل، إنزال المطر، وتنمية العشب، إحياء الموتى، الكشف عن الكنوز، وإنه سيدعو الذين بايعوه إلى عبادته ويأمرهم مدعيًا الألوهية، وعندئذ سينزل عيسى بن مريم على الأرض بقدرة القادر المطلق وسيقتل الدجال بجانب «لد» من جبال الشام وعلى قول إن الدجال حينما يرى حضرة عيسى ـ على نبينا وعليه التحايا ـ سيذوب مثل الملح والذين بايعوه سيتعرضون جميعًا للقتل ويزالون من الوجود.

إن الأخبار الصحيحة والأسرار الخفية التى ذكرت من الغوامض الشرعية التى أنبأ بها النبى ﷺ ماهى إلا وحى من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن التبليغات العلمية التى أبلغنا بها الأولياء الكرام والصلحاء ذوى الاحترام بعد الاطلاع على الآثار النبوية، وإن هذه التبليغات الشرعية خارج الاطلاعات البشرية والإيمان بها يعد من الضرورات الدينية وحسن تلقيها من الوظائف المذهبية، كما هو معلوم لدى أربابها.

ذيل

سُئِلَ أحد الذين أجلوا أداء فريضة الحج لوقت شيخوخته وهو مالك للقدرة الشرعية للذهاب إلى دار الأمن حرم الله محرمًا «لماذا تتردد فى إيفاء الحج وما هو السبب؟» ولا شك أنه سيجيب قائلاً: «إننى مازلت فى طور الشباب! إذا ما ذهبت إلى الحج لن أستمزج بماء البلاد الحجازية وهوائها، ولاسيما الازدحام والكثرة يسببان انتشار الأمراض المعدية، ومن المحتمل أن أصاب بهذه الأمراض وأموت فى شرخ شبابى، وإذا فرض بأننى نجوت من الأمراض المعدية فإننى سأتبع هواى وأرتكب الذنوب بطيش الشباب وعندئذ أكون قد أنفقت النقود فى لاشئ، كما أننى أكون قد ضاعفت عصيانى لله.

ولكن الحجاج الذين يعودون سالمين يجب عليهم أن يتصفوا بمحاسن الأخلاق! ولا يكون هذا إلا باجتناب ارتكاب المعاصى والآثام وبالاحتراز من الاختلاط بالذين تعودوا على ارتكاب الآثام، ولما كان أصدقائى قد تغلبت عليهم حظوظهم النفسية ومادمت أننى سأختلط بهم عند عودتى فلن أتمكن من القيام بالأعمال الصالحة، لأن بلية الشباب لن تمكننى من الابتعاد عن بؤرة الفساد».

يرى فى هذا الجواب غير المعقول، كما لا يخفى على أهل التدقيق، أن هناك سببان مستقلان فى عدم ذهاب شبابنا» أقصد بهم من تجاوز الثلاثين: «**السبب الأول** عدم قدرتهم على مقاومة الأهواء النفسية بعد الرجوع من الحج، **والثانى**: وجود الأمراض فى الحرمين» وهو زعم فاسد.

وفى الواقع أن هذا الجواب يجذب الانتباه؛ فالذين يعتقدون فى القدرة الإلهية يتحاشون من تلك الإجابة ويجتنبونها، وإن كان هذا السؤال يبدو موافقًا لعقائد الموحدين، إلا أن أغلب شباب زماننا يحملون فى رءوسهم هذه الأفكار.

قد ألقيت ـ أنا جامع هذه الحروف ـ هذا السؤال سالف الذكر على الكثير من الناس وتلقيت منهم إجابات أبشع من ذى قبل، ولكننى وفقت فى تصحيح عقائد

غير قليلين منهم، ويجب ألا يخفى علينا أن هذه الإجابات ليست ثمار أذهانهم بل هى محاصيل بعض أشخاص ذوى أفكار فاسدة واعتقادات مضرة، والتى بذرت فى مزارع قلوب بعض المسلمين السذج، وكأن البلاد الحجازية ذات المغفرة مستعدة لإنبات الأمراض المعدية وإنه عندما يرد إليها الحجاج فى موسم الحج فمن المحال ألا تظهر فيها بسبب الازدحام الشديد، وباء الكوليرا، والأمراض الأخرى المعدية المخيفة وأن ذهاب الشباب إليها فى هذه الحالة يستدعى سفرهم حتى الآخرة أليست هذه العقيدة غريبة؟!.

وما يؤسف له، بينما كان تراب الحرمين الشريفين محفوظًا من قبل الله - سبحانه وتعالى - وأن الأوبئة والطواعين والعلل الأخرى المعدية قد طردت نتيجة لدعاء النبى ﷺ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة، إلا أن ما ينشره الأجانب ذوو الأغراض السيئة يتلقى قبولاً حسنًا ويعتقد فى صحته التامة! مع أن عمر الإنسان مقدر من قبل الله لا يزيد دقيقة ولا ينقص ثانية، كما يؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٤).

إن كشوف أطباء أوربا الوهمية أن أراضى الحجاز المقدسة موطن ومولد مرض الطاعون قد دفعت بعض أهالى أوربا فى أوائل القرن الحالى إلى تصديق ادعاءاتهم، ونتيجة لهذا التصديق تطرق خلل لعقائد قصار النظر من العوام، إلا أن عدم استناد الكشفيات المشكوكة لهؤلاء الأطباء إلى أساس لم يثبت حتى فى تلك الأوقات، وإن كشفهم ما هو إلا وهم مطلق.

ليس هناك أحد من هؤلاء الأطباء الحاذقين قد زار أراضى الحرمين الشريفين حتى تؤخذ تجاربه وكشوفه مأخذ الجد، وترقى إلى كونها حكمًا.

ولما كان فن الطب قد تقدم فى عصرنا إلى أقصى حد، وقد وجد أطباء أوربا منشأ الطاعون ومولده وخطئوا أسلافهم وقد أجروا فى هذا الخصوص تدقيقات كاملة ونشروا الحقيقة فى مؤلفات عديدة.

وإن كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكيم يعمل على تصديق فكرنا الصائب إلا أن بعض المسلمين السذج الذين بذر فى قلوبهم بذور الفساد لم يستطيعوا أن يخرجوا من مستنقع آرائهم العتيقة، فما أغرب أن يعتقد فيما قاله أطباء أوربا غير مشهورين إن أراضى الحرمين تنبت العلل المعدية، ثم يتردد فى تصديق ما قاله أطباء أوربا الحذاق «من: أن منشأ مرض الطاعون هو الهند وهذا ثابت قطعيًا» وتردد أطباء الإسلام فى تصديق ما قاله الأوربيون: إن الحرمين منبت العلل المعدية أى أن منشأ الطاعون البلاد الحجازية المقدسة، وأخذوا يتحرون عن جهات ظهور تلك العلة وأسبابها ويفحصون، وعندما أثبت «جاقود» أحد أساتذة مدرسة الطب الفرنسية وأحد مشاهير أطباء أوربا المتسم بالحذاقة والمتحلى بالرزانة الفكرية والفصاحة العلمية والمصدق لدى الجميع، إذ استنبط من المؤلفات التى كتبها علماء المدرسة المتمدنة فيم كتب عن الأمراض الباطنية أن مرض الطاعون «الكوليرا» المخيف يظهر فى أراضى الهند ويعرف الأسباب التى توجب ظهوره وذلك بالأدلة، وقد صدق أطباء الإسلام بلا تردد ما جاء فى ذلك الكتاب وقرروا أن منشأ ظهور مرض الطاعون الهند.

ولما نال أثر «جاقود» هذا ورأيه الرزين إعجاب الجميع قد رأينا من الواجب ترجمة هذه الرأى آملين بأنه سيكون سببا فى تصحيح أفكار الشباب المسلمين وعقائدهم:

أسباب تولد الطاعون وظهوره

يقول جاقود: إن السم القاتل المتسبب فى تولد الطاعون يتولد فى الأراضى الهندية ثم يندس فى البدن ويتغلغل فيه ليظهر المرض المخيف وإن كان السم القاتل فى أول ظهوره يشبه الأمراض البلدية فى قوته إلا أنه ينتقل من إنسان لآخر وهذا دليل قاطع على أنه من الأمراض المعدية، ولم يعرف إلى الآن سبب ظهور هذ السم فى مواطنه.

والحال أنه إذا ما حلل تراب المكان الذى يجرى فيه حكمه كأنه مرض محلى

عادى فأكثر أراضيه مستنقعات يرى فى هذا التراب مواد نباتية وحيوانية بوفرة! وحينما ينزل المطر وينخل تراب تلك الأراضى المذكورة يشتد تأثير تلك المواد النباتية والحيوانية الطبيعية، وإذا ما نزل المطر لفترة يومين بعد جفاف دام فترة ما، يجدد المطر وينبه الطاعون الذى قل أو نمى كليا.

ومع ذلك فطبيعة السم والأسباب الأخرى للمرض مجهولة إلا أن لإقامة الناس فى الأراضى الزراعية مزدحمين غير مهتمين بالنظافة دخل كبير فى تولد علة الطاعون ومن البواعث التى تنضم إلى المؤثرات الإقليمية التى تولد الطاعون هى عدم الاهتمام بالطهارة والنظافة وعدم الاعتدال فى الشرب والأكل بين الزوار الذين يجتمعون محتشدين فى مصب نهر «غُنج» وفى موقع يطلق عليه «جمته»[1].

ومع هذا ليس من الجائز أن نحكم أن المرض مربوط بالأراضى ذات الطبيعة المعينة والأراضى الزراعية نظرًا لوجود المرض الدائم فيها، وأن كل هذه الأسباب العديدة سبب يولد مرض، لأنه قد تحقق وجود المرض كمرض محلى فى الأماكن الأخرى من الأراضى الهندية حيث لا يزدحم الزوار والناس.

يطلق على المجتمعين من الهنود فى مصب نهر «غنج» وموقع «جمنة» حجاج، ولما ثبت يقينًا ظهور الطاعون بينهم فتعبير «يظهر الطاعون فى الحجاج» نشأ من هنا وبهذه القرينة قد أطلق على البلاد الحجازية المباركة «مولد الطاعون».

فالذين يتذكرون بعد المسافة بين نهر غنج والبلاد الحجازية والذين يعرفون أن مدينة الله آباد[2] حيث يلتقى النهر المذكور بنهر جمنة تبعد عن ميناء «جدة» ألف وخمسين ميلاً جغرافيًا فمن المحال ألا يعتقدون أن ما يدعيه أطباء أوربا ما هو إلا وهم مطلق ومن هنا لزم مد القراء ببعض المعلومات عن ذلك النهر المذكور، إن نهر «غنج» على وزن «كنج» نهر يستغنى عن تعريفه لدى أربابه، ينبع من جبال

(١) إن هذه الأماكن بسبب رطوبة المجرى تظل فى حالة المستنقعات.

(٢) تقع مدينة الله آباد فى الجهة الغربية الشمالية من مدينة «قالكوته» وعلى بعد ٤٧٠ ميلاً منها وعلى ٢٨ درجة طولية شرقية و٢٥ درجة وعلى ٤٥ دقيقة فى العرض الشمالى.

«هيمالايا» المستورة بالثلوج فى صورة دائمة وينصب فى خليج «البنغال» وهو نهر غاية فى العظمة والكبر، ويرتفع منبعه عن سطح البحر بـ «١٣٨٠٠) قدمًا فهو أعظم أنهار الهند وأهمها سواء أكان من الناحية التجارية أو من حيث الاتساع، وبما أن منبعه ومصبه فى بلاد واحدة أى فى داخل الهند فهو مرجح على الأنهار الأخرى التى تنبع من بلد وتصب فى بلد آخر، فمجرى ذلك النهر على العموم من البنجاب الذى يقع فى الجهة الشرقية الشمالية إلى «البنغال» والمياه الجارية التى فى أطرافها وأكنافها تتحد مع بعضها مثل عروف الأشجار وأوراقها ثم تلتقى كلها بنهر غنج ويشكل منظرها هيئة غريبة على شكل أوراق الأشجار، وإلى أن ينزل مجرى نهر الغنج من منبعه إلى هضبة مستوية شديدة الانحدار ومن مبدأ هذه الهضبة إلى خليج «البنغال» ١٣٠٠ ميل.

وعندما يصل هذا النهر للهضبة المذكورة المستوية، يساعد على سير الفلائك المحلية وبعدها بمائة ميل على سير مراكب كبيرة نوعا ما، وفى داخل مصبه بأربعمائة وسبعين ميلاً عند مدينة «الله أباد» يتحد بنهر «جمنة» على وزن عمرة ويكون اتساعه ما يقرب من ميل إلا أن اتساعه فيما بعد وعمقه يختلفان درجة بعد درجة، وفى داخل مصب هذين النهرين اللذين يكتسبان الضخامة باتحادهما بـ ٢٨٠ ميلا وفى الجهة اليمنى منها تتشعب مياه صغيرة وتكون نهر «هولى» الذى يقع عند مدينة» قالكوته «ولكن مجراه القديم يتحد بنهر براهمة بوتره» الذى يقع فى الجهة السفلى من قالكوتة وكلما آقترب من البحر انقسم إلى شعب متعددة وصَبَّ فى البحر من عشرين مصبًّا تقريبًا.

والجزر التى تتكون بين هذه المصبَّات تكون فى كل المواسم فى حالة المستنقعات هواؤها ردئ مهلك ومضر للإقامة وغير صالحة للحياة.

وتقع مدينة الله أباد عند نقطة التقاء نهرى غنج وجمنة ولما كان هذا الموقع مكانًا غاية فى السعد والقداسة بناء على اعتقاد الهندوس، فمن المستحيل تعيين الزوار الذين يأتون ويذهبون إلى المدينة، ويطلق الهندوس على الذين يزورون نقطة التقاء النهرين «الحجاج» والذين يدينون بمذهب «البراهمة» يعدون من يزور

نهر «براهمه بوترا» من أعزة الناس، والهندوس الذين يعتقدون فى هذا ولاسيما من يتبعون مذهب البراهمة يزيد احترامهم لتلك الأنهار المذكورة ويقدمون مدينة الله آباد ونهر براهمة بوتره حتى إنهم يعبدونها كمعبود مطلق ويرمون جنازاتهم فيها بعد أن يربطوها بأشياء ثقيلة.

مطالعة

إن ما يطلق عليهم أطباء أوربا «الحجاج» هم بعض الهنود الذين يزورون مدينة الله آباد، ولما كان هؤلاء الناس يميلون إلى القذارة بطبيعتهم ولما كانت الأماكن التى يزورونها فى حالة من القذارة ومستنقعات، فلا يحتاج إلى إقامة دليل أنها ستكون مواطن أمراض، والجدير بالدقة والانتباه أن الزوار الذين يجتمعون فى مصب نهر غنج وأراضى جمنه ينقلون أمراضهم إلى أوطانهم الأصلية عند عودتهم، وبعضهم ينقلونها إلى البلاد الحجازية المستورة.

إن تحول حكم مرض البلد عند عودة الزوار يعنى اشتداد المرض وظهور الأمراض المعدية عند وجود الزوار يفهم من الفرق الذى يلاحظ كل سنة.

وإن كان أثر السم الذى يولد الطاعون يظهر عقب إصابته ببضع ساعات إلا أن تفريخه «أى ظهوره تدريجيًا فى حكم مرض مخيف» يمتد من ثلاثة أيام إلى خمسة أيام فالشخص الذى يصاب بذلك السم ينقله من مكان إصابته إلى مكان آخر فى أثناء انفراخ المرض وعندما تنتهى المدة المعينة يتبين بأنه أصيب بالمرض إذ تظهر آثاره عليه، وفى بعض الحالات فإن العدوى لا تؤثر فى المريض بحيث تمنعه من الحركة فى الحياة اليومية، إلا أنه يرى بعض الأعراض وحسب وإن هاتين الحالتين المضرتين تجعل القافلة تظن أنها عادت سالمة من إقليم المرض ولكن أفراد القبيلة ينقلون العدوى من مكان ظهورها إلى أماكن أخرى وبلاد مختلفة، إن انتشار الطاعون على الوجه المحرر يعنى انتقال العلة بواسطة الوسائل المشروحة هنا وهناك أصبح منبعًا جديدًا لعدوى ذلك السم إذ يهاجر المرض من موقعه الأصلى إلى أماكن أخرى مع القافلة التى تتحرك وإن ظن ملأ القافلة أنهم تركوا الطاعون فى مكانه:

شكر الخاتمة

هذا الكتاب الذى تزدان ديباجته بصفات السلطان عبد الحميد الثانى ـ الذى لازال محفوفا بالتوفيق الصمدانى استوجب أن تتضمن خاتمته نبذة عن حميد صفاته وهذا ما أراه سعادة لى وفخرا وإبراء للذمة.

ما كان من سلطان مثله فى عدله

ها هى آثاره البديعة وتلك آثار السلف

بنور عدل هذا السلطان العظيم المنشور

أصبحت مرآة العالم من الظلم محرر

ولا ريب أن صفات السلطان الملكية مجتلى حكمة الله بديعة التدبير. وكيف يرتاب فى ذلك؟! وقد اعتلى العرش العثمانى وجسم الدولة الجسيمة قد أوشك على الانهيار ولكنه استطاع بمنة الله أن يضع يده على نقطة الداء بتدابيره الحكيمة وهمته الملكية وأن يشفيه ويبرئه فى مدة وجيزة فرفعت الدولة رأسها قائمة على رجليها مما جعل كبار رجال الدولة يلهجون بالشكر والحمد أمام هذه الأعمال الفجائية العظيمة فضلا على الأجانب الذين وقفوا مبهوتين مستغربين مما حدث.

وبفضل هذه التدابير الحكيمة ونتائجها المثمرة كسبت عاصمة ملكه إستانبول الأهمية السياسية وأصبحت مركزاً موازنًا لأوربا كلها. ونظم الجيش على نحو لم يسبق له مثيل قبل هذا. واستطاعت خزانة الدولة التى كانت تمر بأزمة مالية نتيجة للظروف السيئة أن تتخلص قليلا من مشاكلها وأن تمد يد العون لرفاهية الرعايا فى أنحاء المملكة الشاسعة كما أن بذل الجهود لتطبيق أحكام العدل فى الممالك السلطانية فى جميع أرجائها زاد من الأمن والاستقرار مما ألهج الألسنة بالشكر والعرفان وانتشرت العلوم والفنون فى جميع أطراف السلطنة وبهذا نجا أفراد الرعايا من ظلام الجهل والأمية.

ولما رأى أصحاب الفضل والكمال وأرباب القلوب الزكية والأدباء وأرباب الفنون ما فى دار الخلافة من مأمن واستقرار اتخذوها ملجئًا وملاذًا.

وطبعت فى العصر السلطانى كتب كثيرة تتضمن موضوعات مادية ومعنوية وتجمع بين فوائد عظيمة دينية ودنيوية وآثار ممتازة أخرى.

وأراد هذا العبد العاجز[1] أن يسعد بالاشتراك فى أفكار السلطان التى تشجع الرقى فى المعارف والعلوم فألفت مرآة الحرمين حيث أسست الكعبة فتحدثت عن المناسك والمعاملات وما تحملت البلدتان المباركتان من صدمات منذ مطلع النور كذلك ما تحمل أهالى حوالى تلك المنطقة من المصاعب وضمنت كتابى كل ما يديم الطمأنينة فى قلوب الموحدين، وفصلت كل شئ ومستمدا العون من شمس السلطان التى تنير دنيا العالم الإسلامى.

إقرار النعمة:

أليس التوفيق فى استجلاب الدعاء من ألسنة المؤمنين للعبد المخلص الصادق السلطان الذى كان سببا فى الدنيا والآخرة شرف عظيم ومجلبة شكر وثناء وحمد؟!.

وبما أننى منذ أن أمسكت القلم بيدى وقفت نفسى لخدمة النبى ﷺ وإن كان كل ما نشرت من آثار كانت مختارات فريدة فى الدين والرسائل الشرعية.

إلا أن كتابى مرآة الحرمين يحتوى على الأسرار المجلية والأحكام الخفية التى لم يطلع عليها حتى المتبحرون من علماء الإسلام وعرضت كل الأحداث بأدلة متقنة يستطيع حتى الأطفال استيعابها، لذا فالكتاب مستجلب الدعاء لأمير المؤمنين من المسلمين فى جميع أنحاء العالم. وجاءتنى بهذا الخصوص رسائل كثيرة وهذا يبشر بأن للسلطان أمير المسلمين منزلة عظيمة عزيزة لدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعند رسول الله ﷺ وبما أن المؤلف كان واسطة لإظهار هذه المكانة فهو يفتخر بذلك ويشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على توفيقه. «المنة لله تعالى وفقط»

(١) يعنى المؤلف بكلمة العاجز نفسه تواضعًا منه لله عز وجل.

عرض العذر:

وإن لسانى ليعجز عن تعبير الشكر لحضرة السلطان ولو جزء من الألف لما رأيته بعينى من عطفه على كما أن قدرتى تعجز فى التعبير عما أشعر به من الشكر والامتنان نحو جلالة السلطان، وأمام هذا العجز لم أستطع إلا أن أتوجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفق السلطان فى قيادة الدولة العثمانية وأن يشترك فى رجائى هذا أفراد مملكة الدولة العثمانية المعظمة.

دعاء مفروض الأداء

يا مليك ملك الاستغناء.. مليك الحقيقة والمناء
يا أحكم الحاكمين ومالك من أشباه يا حاكما يحكم بعدل الإله
يا مالك ملك قباب الفلك ويا نافذ الأمر فى الأنس والجن والملك
أعز ملك السلام بالنصر وسهل له كل أمر
اللهم اجعل مليك الزمان السلطان عبد الحميد خان
اجعل له على الأعداء النصر المطلق ولدولته على الدوام الرونق
ما أعظم ما له من بر وإحسان وما رأى أحد مثله فى ملوك الزمان
له طالع المشترى ومن القمر طلعة ومن الفلك رتبة ومن الملك خصلة
الفارس المغوار حارس الأوطان ذو الفضل وعظيم الشان
مسعود الطالع حكيم التدبير ولا مع التنوير
اللهم أطلْ عمره واجعل ملكه المعمور وأدم على رعيته الرضا والسرور
ألق عليه ظل الأمان واجعل الأمن للعباد فى كل آن
مُنّ على وزرائه بالتوفيق.. ومُنّ على آماله بالتحقيق
وليجد الناس فى عصره كل الرخاء ولتلهج له الألسنة بالدعاء
اجعل من يضمر له السوء ذليلا.. واجعل عدو دينه مخذولا
ومد ظله على الأيام.. واغمر بالرخاء كل الأنام
اللهم خلصنى من حبائل الشيطان.. واجعلنى لك خيرة العبدان..
واجعل الشيطان قاطعا منى الأمل..

واجعل آخر كلامى كلمة التوحيد حين يأتينى الأجل..
من شره وكيده يا رحمن..
صُنْ مالى مَن إيمان..
اللهم جد علينا برضوانك..
واجعلنا فى حرزك وأمانك..
وتفضل علينا بجودك وإحسانك.. بمجاورة حبيبك المصطفى فى الدارين..
والفوز من اتباع سنته بما تقرُّ به العين..
وثبت قلوبنا على الهدى.. وسلمنا من الزيغ والردى..
ونجنا من الفتن.. وخلصنا من كدورات هذه الحياة الدنيا.
ووفقنا للقيام بما أمرتنا قولا وفعلا.. وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم
وسامحنا وأساتذتنا وإخواننا أخواتنا وأحبابنا وجميع المسلمين
ولاسيما من اشتغل بهذا الكتاب ورغب به من الطلاب والكتاب.

«آمين بحرمة من جاء رحمة للعالمين»

فرغت من ترتيب هذا الكتاب بعون الله الملك الوهاب فى اليوم المبارك الرابع والعشرين من الربيع الأول سنة تسعة وتسعين ومائتين بعد الألف من أعوام هجرة صاحب أكمل الوصف وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا وسيد العالمين محمد وعلى آله وصحبه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل أجمعين والحمد لله رب العالمين.

تقديم ٧

الوجهة الأولى

في تعريف الأحوال الجغرافية للمدينة المنورة، وعادات أهلها ١١

الصورة الأولى: في ذكر أحوال المدينة الجغرافية، وأوضاع أسوارها وطرزها ١٣

موقع المدينة المنورة بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض ١٣

سورها وأبوابه ١٤

درب المصلى ١٤

الدرب الصغير ١٥

الدرب الشامي ١٥

درب البقيع ١٥

الصورة الثانية: وجوب مراعاة حق جيران رسول الله ﷺ ٢٢

الصورة الثالثة: كيفية دفن من أدركه الأجل في المدينة ٢٥

الصورة الرابعة: كيف يستقبل شهر رمضان وكيف يكون بالمدينة ٢٨

أداء صلاة التراويح ٢٩

موكب الشموع ٢٩

الصورة الخامسة: موكب الشموع بعد صلاة التراويح ٣١

الصورة السادسة: صلاة الفجر وصلاة عيد الفطر ٣٣

الصورة السابعة: الهيئة الكاملة لمسجد السعادة ٣٥

الصورة الثامنة: في بيان أبواب حجرة السعادة وقناديلها وشمعداناتها وخدمها ومعنى الفراشة.. الخ ٤١

سبب وتاريخ استخدام الأغوات في الحجرة المنيفة ٤٣

تعريف مقدار خدمة الفراشة الشريفة ٤٥
مقام أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ٤٦
صورة غسل حجرة السعادة ٤٧
الخدمة الدائمة للخدم ٤٧
تأديب الأغوات ٤٨
تسكين الأغوات ٥٢
خدمات مسجد السعادة الدائمة والمؤقتة ٥٤
الخطباء والأئمة فى الحرم النبوى الشريف ٥٤
مكبرو الحرم الشريف ٥٥
سقاء والحرم الشريف ٥٦

الوجهة الثانية

فى شد الرحال إلى المدينة وزيارة المسجد الشريف

وفضل المجاورة بالمدينةوفضل المنبر والروضة الشريفة ٦٣
الصورة الأولى: فى ذكر الأحاديث الواردة فى شد الرحال إلى مسجد الرسول ﷺ، وتفصيل ذلك ٦٤
الصورة الثانية: فى فضائل مسجده ومنبره وروضته ﷺ ٧٣
مواقع يتضاعف الأجر والثواب فيها فى المدينة المنورة ٧٧
المصلى النبوى وبيان حدوده ٧٩

الوجهة الثالثة

فى تعريف أسماء المدينة، وفضائلها وبعض أحكامها ٨٥
الصورة الأولى: فى بيان أسماء المدينة وألقابها ٨٧
الصورة الثانية: فى فضل المدينة على سائر الممالك ٩٥
الصورة الثالثة: ماورد فى الذين اختاروا المدينة دارًا لهم، ومَنْ أبدعوا البدع فيها ١٠٠

الوجهة الرابعة

فى أوائل حال المدينة المنورة وسكانها وما كان بينهم من حروب قبل الإسلام ١١١

الصورة الأولى: فى أحوال المدينة الأولى وسكانها القدماء ١١٣

الصورة الثانية: فى ذكر من كان بالمدينة وقت أن هاجر إليها الأوس والخزرج ١١٨

ظهور مالك بن عجلان على يهود المدينة ١٢٤

الصورة الثالثة: قرى ومجال قبائل الأوس بالمدينة ١٢٧

الصورة الرابعة: قرى ومنازل الخزرج بالمدينة ١٣٠

الصورة الخامسة: ما كان من ملاحم وحروب بين قبائل الأنصار قبل الإسلام ١٣٣

وقعة سمير ١٣٣

يوم الرحابة ١٣٤

سلمى ١٣٦

يوم حرب حصين ١٣٨

يوم ربيع الظفرى ١٣٨

يوم فارع ١٣٩

يوم الجسر ١٣٩

يوم الربيع ١٤٠

حرب الفجار ١٤١

يوم الحدائق ١٤١

يوم المعبس والمضرس ١٤٢

يوم الفجار الثانى ١٤٣

يوم بعاث ١٤٤

الوجهة الخامسة

فى إرسال مصعب بن عمير - رضى الله عنه -

إلى المدينة ووقائع الهجرة النبوية ١٤٧

الصورة الأولى: فى ذكر بيعة السابقين من الأنصار ودعوة مصعب أهل المدينة إلى الإسلام ١٤٩

حكمة كون النبى ﷺ أنصاريًا من الخزرج ١٥٥

الصورة الثانية: هجرة النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ١٥٧

الصورة الثالثة: فى بيان وقائع سنين الهجرة إجمالاً ١٧٥

السنة الأولى للهجرة ١٧٦

السنة الثانية للهجرة ١٨٠

السنة الثالثة للهجرة ١٨٢

السنة الرابعة ١٨٣

السنة الخامسة ١٨٣

السنة السادسة ١٨٤

السنة السابعة ١٨٥

السنة الثامنة ١٨٦

السنة التاسعة ١٨٧

السنة العاشرة الهجرية ١٨٨

السنة الحادية عشرة ١٨٨

الوجهة السادسة

فى توسيع وتجديد المسجد الشريف ودار فاطمة - رضى الله عنها -

ومحراب النبى ﷺ وصفة اصحاب النبى ١٨٩

الصورة الأولى: فى تأسيس مسجد السعادة وكيف بنى أولاً ١٩١

الصورة الثانية: توسيع مسجد السعادة وتحويل المحراب ١٩٦

الصورة الثالثة: الأماكن التى صلى فيها النبى ﷺ وموقعها من المسجد الشريف ١٩٨

مؤسس محراب المسجد الشريف ١٩٩
الصورة الرابعة: تعريف جزعة مسجد السعادة ٢٠٢
الصورة الخامسة: سبب تأسيس المنبر وصورته وحنين الجزع ٢١٢
الصورة السادسة: عدد المرات التى عمر فيها المنبر أو جدد ٢١٩
السورة السابعة: أساطين المسجد فى عصر السعادة ٢٣٠
ـ الأسطوانات المختلفة ٢٣٠
ـ أسطوانة عائشة ٢٣٠
ـ أسطوانة التوبة ٢٣٢
ـ أسطوانة السرير ٢٣٥
ـ أسطوانة المحرس ٢٣٦
ـ أسطوانة الوفود ٢٣٦
ـ أسطوانة مربعة القبر ٢٣٨
ـ أسطوانة التهجد ٢٣٩
ـ محراب باب الجنائز ٢٣٩
الصورة الثامنة: الصفة وأهل الصفة ٢٤٧
كيفية إعاشتهم ٢٥٦
الصورة التاسعة: فى تعريف الحجرة النبوية الشريفة ٢٥٩
الصورة العاشرة: دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ٢٦٢
الصورة الحادية عشرة: إغلاق الأبواب التى كانت تواجه مسجد السعادة فى عصر السعادة ٢٦٤

الوجهة السابعة

فى عدد مرات تجديد مسجد السعادة ومَنْ جدده والزيادة فى حدوده وكذلك الحجرة الشريفة ٢٦٧

الصورة الأولى: توسيع مسجد الرسول ﷺ لأول مرة ٢٦٩
الصورة الثانية: توسيع وتجديد المسجد للمرة الثانية ٢٧٢

مقصورة المسجد ٢٧٧
الصورة الثالثة: توسيع وتجديد المسجد للمرة الثالثة ٢٧٩
ـ أداه صلاة الجنازة فى المسجد وسبب منعها زمن عمر
بن عبد العزيز ٢٩١
ـ موازنة تاريخية بين معاملة سلاطين آل عثمان لأهل
البيت ومعاملة سابقيهم من الأمراء والخلفاء ٢٩٧
الصورة الرابعة: تجديد وتوسيع المسجد للمرة الرابعة ٣١٠
الصورة الخامسة: فى تعريف الحجرة المعطرة والقبور الثلاثة ٣١٣
ـ مواقع القبور الثلاثة ٣٢٥
ـ الهيئة المرئية للقبور الثلاث فوق الأرض ٣٢٧
ـ شبكة قبر السعادة ٣٢٧

الوجهة الثامنة

تذكر علامات الرأس الشريف، ومقام جبريل وكيفية حفظ وتعليق
الهدايا الواردة، وتاريخ تأسيس القبة الخضراء والمقصورة ٣٢٩
الصورة الأولى: فى ذكر العلامة الدالة على جهة رأس الرسول ﷺ ٣٣١
الصورة الثانية: علامة جهة وجه النبى ﷺ ٣٣٥
الصورة الثالثة: تعريف مقام جبريل وتعيينه ٣٣٧
الصورة الرابعة: مربع القبر الجليل وتجديد فرش حجرة السعادة ٣٣٨
الصورة الخامسة: فى تعريف ستارة الحجرة المعطرة ٣٤١
ـ أصول تعليق ستارة القبر وتجديدها ٣٤٣
ـ الجوهر الشريف ٣٤٣
ـ تعريف حجرة السعادة إجمالاً ٣٤٤
ـ الحجرة المعطرة ٣٤٤
الصورة السادسة: تَخْلِيق(*) حجرة السعادة وكيفيته ٣٤٧

(*) يعنى تطييبها بالخَلُوق، وهو خليط من أنواع الطيب المختلفة.

الصورة السابعة: قناديل الحجرة الشريفة ٣٤٨
الصورة الثامنة: الشبكة الشريفة التى تحيط بالحجرة المعطرة ودار فاطمة رضى الله عنها ٣٦٠
شكل الشبكة وما عليها من خطوط ٣٦٤
الصورة التاسعة: قبة حجرة السعادة ٣٦٨

الوجهة التاسعة

فى ذكر المعلقات والأشياء النفيسة الخاصة بالمسجد والحجرة النبوية والتى حفظت فى أماكن مخصوصة لاستخدامها وقت الأقتضاء وأسماء من أهدوها أو وقفوها ٣٧١

الصورة الأولى: المصاحف والأجزاء والأدعية الموجودة فى الخزينة النبوية ٣٧٣
الصورة الثانية: تفصيل الأشياء النفيسة المحفوظة داخل حجرة السعادة ٣٩٦
الصورة الثالثة: جنس ومقدار الأشياء التى تبرع بها وعلّقت داخل الحجرة المعطرة
الصورة الرابعة: أطقم البُخُور والمسكوكات من الذهب والفضه المحفوظة داخل الحجرة المعطرة ٤١٢
الصورة الخامسة: الشمعدانات والأشياء الأخرى ٤٢٠
الصورة السادسة: الأشياء الفضية النفيسة ٤٣٠
الصورة السابعة: الستائر والأغطية التى تغطى أبواب حجرة السعادة والمقامات الأخرى ٤٣٥
الصورة الثامنة: الشمعدانات والتعليقات والثريات وأسماء من أهداها الموضوعة فى المحاريب الشريفة ومواجهة الروضة الشريفة وحجرة السعادة ٤٣٧

الوجهة الحادية عشر

فى تحويل سقف حجرة السعادة إلى قبة، وتجديد مربع القبر الشريف وجناية محاولة نقل النعوش الثلاثة ٤٤٧

الصورة الأولى: فى تعريف هيئة الحجرة المعطرة ٤٤٩
الأثارات المخصوصة داخل مسجد السعادة ٤٥٦
إحاطة حجرة السعادة بجدار من الرصاص ٤٦١
ماذا لو تعرضت الحجرة الشريفة لسوء قصد ٤٦٧
محاولة إخراج نعش أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ٤٦٨

الوجهة الثانية عشرة

فى ذكر احتراق المسجد النبوى وتجديده ٤٧٥

الصورة الأولى: فى كيفية احتراق مسجد السعادة وكيف جدد للمرة الأولى ٤٧٧

الصورة الثانية: احتراق المسجد للمرة الثانية وكيفية تجديده ٤٨٣
معجزة باهرة ٤٨٥
ظهور السيل بجوار المسجد ٤٨٦
تجديد المسجد ٤٨٦
عرض خدمات سلاطين آل عثمان للمسجد النبوى الشريف ٤٩١
نص كتاب السلطان إلى محافظ مصر والخاص بنظارة الدشيشة المبعوثة إلى أهالى الحرمين من مصر ٥٠٦
انعقاد مجالس الاحتفالات بالمولد النبوى ٥١٣
إنشاء مديرية الخزانة الخاصة بالمدينة المنورة ٥٢٧
خارقة ٥٣٤
دخول السلطان عبد المجيد فى حجرة السعادة ٥٣٥

الصورة الرابعة: فى تعريف كيفية تعمير حرم السعادة وتجديدة فى المرة السابقة ٥٤٠
الحوادث المحلية ٥٤٠
حال مسجد السعادة والمواقع التى أنشأها محمد رائف

باشا ٥٥٥
تفصيلات مهمة فى أثناء تعمير الحجرة الشريفة ٥٨٢
صورة الأمر السلطانى فى كيفية إعمار الأبنية العالية
المشرفة ٥٩١
صورة الفرمان العالى الصادر بخصوص تعيين عريانى
زاده مشرفًا على الأبنية العالية المشرفة ٥٩٦
الوجهة الثالثة عشر ٦٠١
الصورة الأولى: فى ذكر حجرات مسجد السعادة ٦٠٣
ظهور المذهب الحنفى ٦٠٨
الصورة الثانية: فرش مسجد السعادة وتعليق القناديل فيه ٦١٢
الصورة الثالثة: فيمن عطروا المسجد الشريف ٦١٥
مساحة حرم السعادة ٦١٧
الوجهة الرابعة عشرة
فى ذكر الأبواب العتيقة والجديدة، والأماكن القديمة
حوله وأصحابها، والمكان الذى اتخذ سوقًا فى عصر النبوة ٦٢١
الصورة الأولى: فى تعريف أبواب المسجد القيمة والجديدة ٦٢٣
ـ الباب العثمانى ٦٢٣
ـ باب ريطة (النساء) ٦٢٨
ـ باب عاتكة (الرحمة) ٦٣٠
ـ باب السلام ٦٣٢
ـ باب مروان ٦٤٢
ـ باب بيت زيت القناديل ٦٤٢
ـ باب المقصورة ٦٤٢
ـ باب خوخة آل عمر ٦٤٢
ـ باب على ٦٤٢

- باب النبى ﷺ ٦٤٣
- باب أسماء ٦٤٣
- باب خالد بن الوليد ٦٤٣
- باب زفاق دار المناصع ٦٤٣
- باب أبيات الصوافى ٦٤٣
- باب دار الضيافة ٦٤٤
- باب دار الحميد ٦٤٤
- باب أبيات خالصة ٦٤٤
- باب بقية أبيات خالصة ٦٤٤
- باب دار منيرة ٦٤٥
- باب بقية دار منيرة ٦٤٥

الصورة الثانية: فى ذكر المنازل القديمة المحيطة بالمسجد النبوى من جهاته الأربعة ٦٤٦

الصورة الثالثة: فى ذكر الأرصفة التى كانت تحيط المسجد النبوى، وبيوت الصحابة رضى الله عنهم ٦٥٦

الصورة الرابعة: السوق التى أرادها النبى ﷺ لأهل المدينة ٦٥٩

أسواق أهل المدينة ٦٦٠

الوجهة الخامسة عشرة

فى ذكر مصلى العيد والمساجد والمنازل القائمة فى ممرات بهذه المساجد ومسجد قباء، والضرار، والمعابد النبوية المعلومة وغير المعلومة ٦٦٣

الصورة الأولى: فى الأماكن التى صلى فيها النبى ﷺ العيد، ومنازل الصحابة التى فى طريقها ٦٦٥

الصورة الثانية: مسجد قباء ٦٧٠

مسجد الضرار ٦٨٠

الصورة الثالثة: مواقع المساجد النبوية التى تزار اليوم ٦٨٧

١- مسجد الجمعة ٦٨٧
٢- مسجد الفضيح ٦٨٨
٣- مسجد بنى قريظة ٦٨٩
٤- مسجد مشربة أم أبراهيم ٦٩٠
٥- مسجد بنى ظفر ٦٩٠
٦- مسجد الإجابة ٦٩٢
٧- كيف سلع ٦٩٥
٨- مسجد القبلتين ٦٩٧
٩- مسجد السقيا ٦٩٨
١٠- مسجد الذبابة ٦٩٨
١١- مسجد أحد ٦٩٩
١٢- ركن جبل عينين ٧٠٠
١٣- مسجد الوادى ٧٠٠
١٤- مسجد السافلة ٧٠٢
١٥- مسجد البقيع ٧٠٣

الصورة الرابعة: فى المسجد التى تعرف جهاتها ولا تعرف مواضعها

١- مسجد جديله ٧٠٤
٢- مسجد بنى حرام ٧٠٤
٣- مسجد الخربة ٧٠٤
٤- مسجد جهينة ٧٠٤
٥- مسجد بيوت المطر ٧٠٥
٦- مسجد بنى زريق ٧٠٥
٧- مسجد بنى ساعدة ٧٠٦
٨- مسجد بنى ساعدة الآخر ٧٠٦
٩- مسجد بنى خذارة ٧٠٦

١٠- مسجد راتج ٧٠٦
١١- مسجد بنى عبد الأشهل ٧٠٧
١٢- مسجد القرصة ٧٠٧
١٣- مسجد بنى حارثة ٧٠٧
١٤- مسجد الشيخين ٧٠٧
١٥- مسجد بنى دينار ٧٠٨
١٦- مسجد بنى عدى بن النجار ٧٠٨
١٧- مسجد دار نابغة ٧٠٨
١٨- مسجد بنى مازن بن النجار ٧٠٩
١٩- مسجد بنى عمرو بن مبذول البَحَّارى ٧٠٩
٢٠- مسجد بقيع الزبير ٧٠٩
٢١- مسجد صدقة الزبير ٧٠٩
٢٢- مسجد بنى خذرة الخزرجية ٧٠٩
٢٣- مسجد بنى الحارث بن الخزرج ومسجد السخ ٧٠٩
٢٤- مسجد بنى الحبلى ٧١٠
٢٥- مسجد بنى بياضة ٧١٠
٢٦- مسجد بنى فاطمة ومسجد العجوز أوس ٧١٠
٢٧- مسجد بنى أمية بن زيد الأوس ٧١٠
٢٨- مسجد بنى وائل الأوس ٧١٠
٢٩- مسجد بنى واقف ٧١٠
٣٠- مسجد بنى أنيف ٧١١
٣١- مسجد دار سعد بن خيثمة ٧١١
٣٢- مسجد التوبة ٧١١
٣٣- مسجد النور ٧١١
٣٤- مسجد عتبان بن مالك ٧١٢

٣٥- مسجد مثيب ٧١٢
٣٦- مسجد المنارتين ٧١٢
٣٧- مسجد فيفاء الجنادر ٧١٢
٣٨- مسجد بنى جثجاثة، وبئر شداد ٧١٣

الوجهة السادسة عشرة

فى فضائل البقيع والمدفونين بها من شهداء أحد ٧١٥

الصورة الأولى: فى فضائل مقبرة بقيع الغرقد ٧١٧

الصورة الثانية: فى من دفن فى البقيع من الصحابة وآل البيت وكبار التابعين ٧١٩

الصورة الثالثة: مشهد النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على رضى الله عنه ٧٣٨

الصورة الرابعة: فى ذكر جبل أحد وشهداء غزوة أحد ٧٤٦

الوجهة السابعة عشرة

مواسم المدينة وأسواقها وآبارها وعيونها المنسوبة إلى النبى ﷺ ٧٥٩

الصورة الأولى: أسواق المدينة ومواسمها على مدى ١٢ شهرًا ومحاسن أهلها ٧٦١

الصورة الثانية: فى تعريف الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ ٧٧٢
١- بئر أريس ٧٧٢
٢- بئر الأعواق ٧٧٥
٣- بئر أناء ٧٧٥
٤- بئر مالك بن النضر ٧٧٥
٥- بئر إهاب ٧٧٦
٦- بئر البصة ٧٧٦
٧- بئر بضاعة ٧٧٧
٨- بئر جاسوم ٧٧٨

٩- بئر جمل ٧٧٨
١٠- بئر حساء ٧٧٨
١١- بئر حلوة ٧٧٩
١٢- بئر ذرع ٧٧٩
١٣- بئر رومة ٧٧٩
١٤- بئر سفيا ٧٨١
١٥- بئر العقبة ٧٨١
١٦- بئر عتبة ٧٨١
١٧- بئر العهن ٧٨٢
١٨- بئر غرس ٧٨٢
١٩- بئر القراضة ٧٨٣
٢٠- بئر القريضة ٧٨٣
٢١- بئر اليسيرة ٧٨٣
الصورة الثالثة: فى ذكر العيون المنسوبة إلى النبى ﷺ ٧٨٧
١- عين كهف حرام ٧٨٨
٢- عين الخفيف ٧٨٨
٣- عين الأزرق ٧٨٩
٤- عين النبى ٧٨٩
٥- مسير العين ٧٩٠
٦- عين الوادى ٧٩٠
الأسبلة فى المدينة ٧٩٤
المياه المرة ٧٩٥
المياه التى فى الجهة القبلية من المدينة ٧٩٥
عين الأغوات ٧٩٧
عين سيد هاشم ٧٩٧

عين الصدقة ٧٩٧
العين الجديدة ٧٩٧
عين عامرة ٧٩٧
عين الحازمية ٧٩٨
عين مصرع ٧٩٨
عين شربونى ٧٩٩
عين الثنايا ٧٩٩
عين السلامة ٧٩٩
عين مشرابية ٧٩٩

الوجهة الثامنة عشرة

فيما ينسب إلى النبى ﷺ من الأوقاف الشريفة والمساجد التى بين الحرمين والمساجد التى أدى فيها الصلاة فى أثناء الغزوات ٨٠٣

الصورة الأولى: ما ينسب إلى النبى ﷺ من صدقات ٨٠٥
الصورة الثانية: المسجد النبوية التى بين الحرمين ٨١١
١- مسجد الشجرة ٨١١
٢- مسجد المعرس ٨١٢
٣- مسجد شرف الروحاء ٨١٢
٤- مسجد عرق الظبية ٨١٣
٥- مسجد الروحاء ٨١٤
٦- مسجد المنصرف ٨١٤
٧- مسجد الروينة ٨١٥
٨- مسجد ثنية ركوبة ٨١٥
٩- مسجد الإقابة ٨١٥
١٠- مسجد الغرس ٨١٥
١١- مسجد طرف تلعة ٨١٥

١٢- مسجد حى جمل ٨١٦
١٣- مسجد القيا ٨١٦
١٤- مسجد مدلجة تعهن ٨١٦
١٥- مسجد الرمادة ٨١٦
١٦- مسجد الأبواء ٨١٦
١٧- مسجد البيضة ٨١٧
١٨- مسجد عقبة الهرش ٨١٧
١٩- مسجد الجحفة ٨١٧
٢٠- مسجد القديد ٨١٧
٢١- مسجد حرة ٨١٨
٢٢- مسجد خليص ٨١٨
٢٣- مسجد بطن مر الظهران ٨١٨
٢٤- مسجد سرف ٨١٨
٢٥- مسجد التنعيم ٨١٩
٢٦- مسجد ذى طوى ٨١٩
الصورة الثالثة: فى تعريف المساجد التى فى طريق الحجاج ٨٢٠
١- مسجد ذات أجدال ٨٢٠
٢- مسجد بدر ٨٢١
٣- مسجد العشيرة ٨٢٢
٤- مسجد الفرع ٨٢٢
الصورة الرابعة: فى ذكر المساجد التى صلى فيها النبى ﷺ فى غزواته ٨٢٣
١- مسجد عامرة ٨٢٣
٢- مسجد صهباء ٨٢٣
٣- مسجد منزلة ٨٢٣
٤- مسجد شمران ٨٢٤

٥- مساجد تبوك ٨٢٤
٦- مسجد الحديبية ٨٢٦
٧- مسجد ذات عرق ٨٢٦
٨- مسجد جعرانة ٨٢٦
٩- مسجد ليه ٨٢٦
١٠- مسجد الطائف ٨٢٧

الوجهة التاسعة عشرة

فى ذكر أودية وأحراش وجبال وأماكن تنسب إلى المدينة ٨٢٩
الصورة الأولى: أودية المدينة ٨٣١
١- وادى العقيق ٨٣١
٢- وادى بطحان ٨٣٣
٣- وادى رانوناء ٨٣٣
٤- وادى قناة ٨٣٣
٥- وادى مذينب ٨٣٦
الصورة الثانية: فى ذكر أحراش المدينة ٨٣٨
١- حمى النَّقيع ٨٣٨
٢- مرعى حمى الرندة ٨٣٩
٣- مرعى حمى الشرف ٨٣٩
٤- مرعى حمى الضربة ٨٤٠
٥- مرعى حمى فيد ٨٤٢
الصورة الثالثة: فى ذكر الجبال والأماكن والقرى التى تنسب إلى المدينة مرتبة على حروف الهجاء (الفبائيًا) ٨٤٤
مناجاة وقصيدة ودعاء ٩٥٧
القصيدة التى يقرأها أهل المدينة فى حضرة السعادة ٩٦٧
فضائل المدينة وخواص ترابها وفاكهتها ٩٦٩

نجاة أهل المدينة من الطاعون والدجال ٩٧٧
نقل علة الحمى خارج المدينة ٩٧٩
شكر الخاتمة ٩٩١
الفهرس ٩٩٥

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الثالث

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

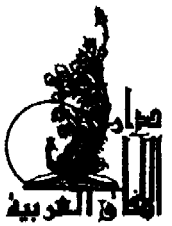

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري **الدكتور عبد العزيز عوض**

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد والثناء والمحامد لله سبحانه وتعالى الذى فاض نوره وتقدست ذاته والذى تجلت أنواره الفياضة فى سناء الوجود وتلألأت أنواره اللامعة فى عيون الشهود والذين اعترفوا بألوهيته إذ استجابوا قائلين «لله الواحد القهار» (غافر: ١٦) لسؤاله بديع المعنى والمآل «لمن الملك اليوم» سبحانه وتعالى جل شأنه قد جعل طيبة الطيبة مجتلى سلطنة الذى خلق من أجله الكون والمكان، وجعل ذلك الوادى المقدس نتيجة المفاجآت وملجأ الفلاح والنجاة لأفراد أمته القلقين، كما جعل لموسى وادى طوى منار الهدى عندما استجاب لأمره البليغ فى «اخلع نعليك» والصلاة والسلام، لحظة فلحظة، على صاحب الروضة الرضية ﷺ تلك الروضة التى تفوح منها روائح ورود رياض الثقلين، الصلاة والسلام عليه إذ ملأ عقول الباحثين عن الحقيقة بالهداية السرمدية، كما هدى الضالين وأفعم قلوبهم بعطور الرشد والسعادة، ولتهب نسمات رحمة الله سبحانه وتعالى على آله وأصحابه حراس العقيدة واليقين الذين كانوا كل واحد منهم مظلة الهداية والسلام لسكان الصحراء الذين ظلوا فى الفيافى وخزعبلاتها.

أما بعد ـ فلا يخفى على أنظار أصحاب الرأى المستنير أن وقائع الحرمين الشريفين التى حدثت فى عهد الأسلاف، والتى تحمل العبر والعظات، ظلت مدة مديدة مرتدية رداء اللغة العربية أمام أهل الرأى والمطالعة، لكن العثمانيين الذين كانوا ذوى دين وشوق إلهى ظلوا محرومين من القيام بمراسم الترحيب لهذين المشهدين على مراحل التوحيد، إذ ظلوا بعيدين عن أحداثهما لجهل معظمهم باللغة العربية الفصيحة واللغة الفارسية المزخرفة، وفى عصر السلطان الغازى

«عبد الحميد» العصر المبرور الذى شاهد نشر المعالى والعلوم، ظهرت إحدى هاتين الجملتين مرتدية ملابس اللغة العثمانية وذلك بإيعاز وتشجيع من صاحب السلطنة، تحت عنوان «مرآة مكة» أما الأخرى فلم يكتب لها الظهور لتقلب أحداث عجلات الزمان تقلب لون الحرباء.

وأخذ المطلعون على أحوال الحرمين الشريفين المقانع[1] من أصحاب الوجد يَرجوننى قائلين: «لتلبس تلك الحسناء العربية ملابس الفتاة الرومية»، كما أن الأصدقاء الكرام ضموا أصواتهم لرغبة هؤلاء إذ رأوا أن ظهور أحد شعارى التوحيد مكتسيًا بالزى العثمانى وترك الآخر على المحرومين من مشاهدة الروضة المطهرة واشتراكهم مع المحبين فى مجلس الصحبة ـ مما لا يتماشى مع شيمة العدل والتدين وبهذه البراعة فى الاستهلال دفعونى إلى القيام بهذا العمل، كما أننى أقبلت على هذا العمل مكررًا ببعض قدرتى وقلة حيلتى، آخذًا من كتاب الإمام السمهودى «خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى» هذا الكتاب الذى انتشر فى أرجاء العالم الأربعة حاويًا الأفكار البديعة والأخبار الشيقة مستمدا منه مادتى العلمية اللازمة لكتابتى، مضيفا إليه معلوماتى الشخصية وما حصلت عليه من الأخبار من تحقيقاتى الذاتية وبهذا ألبست تلك المحبوبة الجميلة ما قمت بتفصيله من الزى العثمانى، وبما أنه سيعكس أنوار عيون أصحاب الدين سميته «مرآة المدينة».

كما أن كتابى هذا الذى لا يخلو من الأخطاء نتيجة لقلة بضاعتى قد يبدو عديم القيمة والأهمية، ومع هذا فهو أول كتاب يشتمل على الأحوال العامة والخاصة للمدينة المنورة باللغة التركية، ومن هنا حاز شرف الأولية، كما أنه صدر فى عهد خلاصة السلالة العثمانية كهف الثقلين وخادم الحرمين ولى نعمتنا السلطان ابن السلطان ابن السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى وبهذا نال شرفًا آخر.

(١) العدول المرضيين.

فإذا ما نال هذا الكتاب شرف شمول نظرات السلطان الحكيمة سيكتب له قيمة سرمدية لا حد لها وبهذا الأمل أقدمه على عتبات نظرات الخليفة ظل الله على أرضه وأدعو الله أن يستجيب لدعائى هذا:

اللهم اجعل عرش ظلك الظاهر السلطان عبد الحميد خان مستقراً ما استمرت الدنيا قائمة، ومن الله التوفيق.

الوجهة الأولى

وتحتوى على عشر صور فى تعريف الأحوال الجغرافية لمدينة طيبة مهجر النبى ﷺ وتورد عادات أهلها.

فى ذكر الأحوال الجغرافية للمدينة الميمونة والبلدة الطاهرة وأوضاع أسوارها الجديدة والقديمة: طرزها وهيئاتها ومتانتها.

المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والتحية من الممالك المعمورة والبلاد المنتظمة، الثانية فى البلاد الحجازية، ولا يوجد بلد يشبهها من حيث المياه الجارية والرياض المتعددة والأبنية المنتظمة المزينة.

لم يهتم بها فى الزمن الجاهلى، كما ظلت فى صدر الإسلام لفترة طويلة فى حالة خراب، ولكن كلما تقدمت العصور الإسلامية وتجددت وترفت، أنفق السلاطين العظام أموالا زاخرة وبذلوا المساعى الجمة حتى أصبحت مدينة جديرة بمهجر سيد الأنبياء ـ عليه وعليهم التحايا ـ وذاع صيتها بذلك.

إن المدينة المذكورة والبلدة الطيبة المباركة تقع فوق واد مسطح مرتفع بين درجة ٢٥، ٢٠ دقيقة فى الشمال عرضا وبين درجة ٣٧، ٣ دقائق فى الشرق طولاً، ويحدها من الشمال جبل أحد ومن الشرق جبل الطبرى.

يروى أن عدد سكان المدينة المنورة وضواحيها يبلغ ثلاثين ألف نسمة إلا أنه لم يبق من ذرية الصحابة الكرام اليوم على أصح الروايات إلا رجل وبضع إناث، أما الباقون فقد أتى أجدادهم مجاورين واستوطنوا فى المدينة. لأن حجاج المسلمين يريدون أن ينالوا الأسرار الجليلة التى صدرت فى شفاعة النبى ﷺ فى حديثه: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[1] (حديث شريف) ويقبلون على زيارة «الروضة المطهرة» قبلة العاشقين والمتضرعين والمتوسلين بغية

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد، باب فيما بين القبر والمنبر: ٨/٤ - ٩. عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى، وعزاهما لأحمد بإسناد صحيح. إلا أنه قال: ما بين بيتى ومنبرى..»، وعزاه لأحمد وأبو يعلى والبزار عن جابر بن عبد الله، وعزاه أيضًا للطبرانى عن ابن عمر، ورجاله ثقات.

نيل الشفاعة الموعودة ويدخلون فى «الحجرة المعطرة» حيث يحلو لبعضهم أن يظلوا مجاورين لهذه الأماكن المباركة. وقد بلغ عدد هؤلاء أو الذين تركوا ديارهم مع أولادهم وعيالهم محتاجين الإقامة مجاورين الرسول محبة فيه، بلغ عدد هؤلاء اليوم ألفين أو ثلاثة آلاف شخص[1]. وأولاد المجاورين الذين ولدوا وعاشوا فى المدينة الطاهرة، يعدون من أهل البلدة الطيبة، وبهذا يكون أغلب سكان المدينة من ذرية أسلاف المجاورين الذين تكاثروا جيلا بعد جيل وكونوا جماعة كبيرة واشتهر بعضهم بأولاد «برى» كما اشتهر بعضهم بأولاد السمهودى كما اشتهر الآخرون بأسماء أخرى.

إن الذوات الذين عرفوا باسم أولاد «برى» أصلهم من الغرب، وأبناء السمهودى من البلاد المصرية المجاورة، والآخرون ينتمى كل واحد منهم إلى بلد ما. تقع هذه البلدة السعيدة فى الجهة الشمالية الغربية من مكة المكرمة وعلى بعد أربعمائة كيلو متر منها، وعلى بعد مائة كيلو متر من الجانب الشرقى من البحر الأحمر وفى نهاية صحراء عظيمة، وطريقها البرى الواصل إلى مكة المعظمة عبارة عن صحراء رملية وجبال صخرية ووديان قابلة للزراعة.

وهى محاطة بسور على شكل قطع ناقصة وجميلة من جهاتها الأربعة، والجهات الأربعة لهذا السور محاطة بجبال متسلسلة ومحددة، وفى جهتها التى تهب منها رياح السموم قطعة واحدة من صخرة نصبت حولها قلعة قديمة ولكنها متينة تعرف بقلعة «أروج حصار».

وطول هذا السور «١٤٠٠٠ ذراع» تخمينا وارتفاعه عشرون ذراعا وسمكه عشرة أذرع، وأحجاره فى غاية الصلابة والمتانة، وله خمسة أبواب اشتهرت بأسماء: درب المصلى، درب الصغير، درب الشامى، درب السوارقية، درب البقيع.

درب المصلى: ويطلق عليه درب السويقة وباب السوق وباب المصر، وقد كتب

(١) فى زمن المؤلف.

فوق طاقته ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٠) وقد طرحت مبانيه وأسست من حجر أسود فى غاية الإحكام إلا أن بعض أماكنها أخذت تتشقق والباب المذكور فى الجهة الغربية من السور وفى جهة «مصلى عيد النبى» وما بينه وبين باب السلام «ستمائة خمسة وأربعون» ذراعا.

الدرب الصغير: ويقع بالقرب من حصن الأمير وفى جهة درب المصلى.

الدرب الشامى: ويطلق عليه الدرب الكبير أيضا.

درب البقيع: هو الباب الكبير الذى يقع فى الجهة الشرقية من السور، وهو الباب الذى يعرف بباب الجمعة، وبينه وبين باب جبريل مسافة أربعمائة ثلاثة وثلاثون ذراعا.

إخطار

الذراع الذى أذكره فى تعريف هذا السور هو الذراع المعمارى، ولكن فى قياس الحجرة المعطرة أو ساحة مسجد السعادة، اعتبر الذراع الذى يستخدم فى البلاد المصرية والحجازية، وعلى هذا يلزم أن يكون هذا المقياس مقياسا فى طول شبرين، لأن الذراع الآدمى ومقياس مصر والحجاز ذراع وثلث ذراع.

درب البقيع: ظل هذا الباب مسدودا إلى سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وقام الملك الصالح المصرى بفتح هذا الباب فى خلال تلك السنة وأدخل السرور فى قلوب سكان هذه الجهة، ولكنه سده مرة أخرى بعد فترة، واندرس أساسه وانمحى شكله وبهذا أصبح عدد أبواب أسوار المدينة أربعة. ولما وفق والد السلطان كثير المحامد فى تجديد مسجد السعادة أمر بفتح الباب الشامى لتسهيل نقل أنقاض مبانى مسجد السعادة عند تجديده وبهذا أصبحت أبواب المدينة المنورة خمسة أبواب مرة أخرى.

إن الأبواب الخمسة أكثر الأبنية نظاما بالقياس للمبانى الموجودة فى البلاد

الحجازية، وكل واحد منها قد أسس وفتح تحت أبراج منقوشة بألوان متنوعة ومستحكمة بنيت لصد هجمات عربان البوادى، ويبعد كل واحد عن الآخر مسافة منزل رصاص وبنيت مطابقة لفن وقواعد بناء القلاع والحصون على شكل نصف دائرى، وصنع فوق جدران الأسوار بعض الأبراج وزرعت فى داخل المدينة وخارجها أشجار نخيل لا تعد ولا تحصى وذلك بمساعدة وفرة المياه وجودة الهواء.

ولم يكن فى عصر السعادة أسوار ولا مستحكمات، وكانت دور أجداد الأنصار من قبائل «الأوس والخزرج» متصلة بعضها ببعض مثل قرى متسلسلة، لذا كان شكل المدينة الطاهرة بلدة طولية جسيمة وقد وصل أحد أطرافها إلى قرية «قباء» التى تثير الشوق إليها. وقد دام عمارها الذى حدث فى عصر النبى ﷺ إلى واقعة الحرّة الشهيرة، وبعد ذلك آلت إلى الخراب تدريجيا، وبما أنها قد صغرت إلى أقصى حد فى عهد طائع الله بن المطيع لله العباسى، فقد أخذ العربان الذين يسكنون الصحراء يثورون من حين لآخر ويطوفون ويمضون ثم يغيرون على المدينة وينهبون أموال الأهالى ويستولون على كل ما يمتلكون، فأراد عضد الدولة[1] ابن بويه أن يحمى سكان دار السكينة وأموالهم من نهب أشقياء البدو وأن يخلصهم من تسلطهم، فأحاط تلك المدينة بسور متين فى سنة «٣٦٠هـ»[2]، ودام السور الذى بناه عضد الدولة وأسسه ما يقرب من مائتى عام، إلا أنه لم يعمر ولم يصلح ولم يرمم لفترة طويلة فآلت أبراجه وجدرانه بالتدريج إلى الخراب واندرس حتى لم يبق أثر لأسسه، وأخذ العربان الذين لا يذعنون فى إزعاج الأهالى، لذا بنى صاحب رباط العجم[3] «جمال الدين محمد بن أبى منصور» الأصفهانى سورا جديدا قويا فوق أنقاض السور القديم المندرس، وبهذا

(١) كان هذا الشخص وزير «طايع الله أبو شجاع ركن الدولة» ومن آثاره الخيرية سوق شيراز الذى يطلق عليه «سوق الأمير» ودار شفاء بغداد، وأضرحة الإمام على والإمام الحسين «رضى الله عنهما» فى النجف بكربلاء

(٢) يروى البعض أن السور المذكور قد طرح فى سنة «٣٦٣هـ».

(٣) قد عرف موقع هذا الرباط فى الصورة الأولى من الوجهة الثانية عشرة.

أنقذ الأهالى الضعاف من شقاوة الأشقياء وذلك فى سنة ٤٥٠هـ مع أن هناك روايات مختلفة كثيرة يتناقلها الناس بخصوص القلعة القديمة التى قام بتجديدها المرحوم جمال الدين فمن المحقق أن تلك القلعة هى التى جددها جمال الدين المذكور إذ قال شهاب الدين ابن أبى شامة فى كتابه نقلا عن ابن الأثير:

بينما كان ابن الأثير يؤدى صلاة الجمعة فى مسجد المدينة المنورة، رأى أن أحد الأشخاص يطيل فى الدعاء لجمال الدين الأصفهانى فسأله عن سبب ذلك؟

فكان رد الرجل: إن أهل دار السكينة يدينون فى كل وقت وآن وساعة بالدعاء لجمال الدين؛ وكيف لا يدعون له؟! أليس هو الذى أنقذ سكان مدينة الرسول من إساءة العربان ومضرة أهل العدوان، إذْ أحاط المدينة بالسور الذى تراه وكانوا قبل ذلك أسرى فى أيادى العربان وكان أشقياء العرب يهاجمونهم فى كل آن وينهبون أموالهم ويغتصبون حيواناتهم ويغيرون عليهم. ولسنا وحدنا نخصه بالدعاء حتى خطباء منبر السعادة يقولون فى أثناء خطبهم اللهم صن حريم من صان حريم نبيك بالسور، محمد بن على بن أبى منصور، فرحمه الله ورضى الله عنه.

إن رواية ابن أبى شامة هذه تؤيد القول الذى يحكى أن بانى هذا السور ومجدده هو جمال الدين محمد بن أبى منصور.

ويجرح ابن خلكان القول الذى يقول إن هذا السور قد بنى من قبل عضد الدولة قائلاً إن «إسحاق بن محمد الجعدى» هو الذى كان قد بنى سور المدينة القديم فى خلال سنة مائتين وثلاث وستين، وكان للسور الذى بناه إسحاق بن محمد أربعة أبواب فى ذلك الوقت يفتح أحدها إلى جهة مقبرة بقيع الغرقد والثانى إلى عضد الدولة وادى العقيق والثالث إلى قبور الشهداء والرابع يفتح إلى جهة الغرب؛ وقد خرب هذا السور الذى بناه إسحاق بن محمد، وهذا هو سبب نسبة السور القديم إلى عضد الدولة ابن بويه وحكم بهذا المقال أن السور القديم من آثار إسحاق بن محمد وبعض المؤرخين يؤيدون هذه الرواية أيضًا

قائلين إن الذى بنى السور القديم هو معز الدولة، وجدده فى سنة أربعمائة وخمسين صاحب رباط عجم جمال الدين الأصفهانى، وإن تمسك المؤرخون بادعائهم هذا إلا أن الرواة الذين نقلوا خبر ابن بويه من الأشخاص الذين يوثق فى أقوالهم وهذا يقتضى ترجيح هذه الرواية على الروايات الأخرى.

والمؤرخون الذين رأوا آثار خرائب السور القديم الذى بناه عضد الدولة ذهبوا إلى أن هذا السور يمتد من جبل سلع إلى وادى بطحان يحتوى فى داخله ما نسميه فى زماننا «بمسجد النبى» والذى كان مصلى العيد المصطفوى، ومبانيه وما حوله من جميع البيوت وبهذا ادعوا أن السور القديم كان سورًا عظيمًا.

وبعد أن جدد المرحوم جمال الدين سور المدينة وأنقذ الأهالى من أن يداسوا تحت سنابك خيول العربان وخلصهم من شرورهم، أخذ سكان مدينة الرسول يزيدون يومًا بعد يوم وبناء على هذا أصبح لازمًا بناء البيوت خارج السور وامتلك فقراء الناس قطعان من الأرض فى خارج السور وأخذ كل واحد منهم يبنى بيتًا على قدر طاقته، إلا أن أشقياء العربان الخبثاء أخذوا يزعجون فقراء السكان فى خارج السور كلما وجدوا فرصة نتيجة لما جبلوا عليه من الخسة إلى أن ورد إلى المدينة الشهيد «نور الدين» وقد ذهب الشهيد نور الدين بغتة إلى المدينة الزاخرة بالرحمة بناء على رؤيا رآها ـ كما ذكر فى الوجهة التاسعة والصورة الأولى ـ وانتهز أصحاب البيوت التى فى خارج السور الفرصة وقدموا طلبًا يفيد لجملة ما يأتى: يا أيها الملك! لم تبق لنا طاقة لتحمل غارات أشقياء العربان، إذ يغيرون علينا من حين لآخر ويستولون على حيواناتنا ويأسرون أولادنا وعيالنا، نرجو أن تنقذنا من شرور هؤلاء بأن تصدروا أمركم ببناء سور يحيط بمنازلنا، وما كان من الملك إلا أن أسعف رجاء الأهالى وأمر بهدم السور القديم الذى آل للسقوط والخراب وأسس سورًا جديدًا يحيط بالمنازل والمحال التى بنيت فيما بعد وما زال هذا السور مشهورًا إلى يومنا هذا، وهكذا أنقذ أصحاب المحلات الجديدة والبيوت من تسلط عربان الصحراء وإضرارهم وذلك فى سنة «٥٥٨».

وقد رأى فريق من المؤرخين فوق الباب الذى فتح فى جهة بقيع الغرقد من السور عبارة: «هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أقسنقر غفر الله له، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» وذهبوا إلى أن السور المذكور قد شيد من قبل محمود بن زنكى. ومن هنا لا شبهة فى أن السور المذكور من أثر بناء الشهيد نور الدين.

والشهيد نور الدين هو «محمد القاسم» ابن الملك المنصور عماد الدين بن أبى الجواد، زنكى أقسنقر.

وقد ولد فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ورحل عن دنيانا سنة تسع وستين وخمسمائة إلى عالم البقاء والخلود وبناء على هذا يكون قد مات وعمره أربع وخمسون سنة رحمه الله.

وقد أمن سور المدينة الطيبة الذى بناه الشهيد نور الدين السكان من تسلط العربان، وحافظ عليهم ما يقرب من مائة وخمسين عامًا، إلا أن تقلبات الزمان ومرور الأيام خربت السور الجديد وحفرة الخندق التى حفرت من قبل سعد بن ثابت وأخذت هجمات الأشقياء المتوالية تزعج سكنة دار الهجرة مرة أخرى، وعندئذ جدد الملك الصالح ابن الناصر قلاوون وهو من الملوك الشراكسة المصريين الأماكن الخربة من ذلك السور فى سنة ٧٥٥، كما شيد وأصلح السلطان قايتباى الأماكن التى خربت وانهدمت من ذلك السور.

شرع فى حفر الخندق سالف الذكر، بتشجيع سعد بن ثابت جماز من ولاة المدينة واتفاق الأهالى واتحاد الأعيان والسادات فى سنة ٧٥١ هجرية، إلا إنه تم حفره فى عهد وولاية فضل بن جماز الذى أصبح واليًا بعد موت سعد بن ثابت. وللأسف الشديد قد امتلأ ذلك الخندق بالأحجار الصغيرة نتيجة للإهمال وأصبح أرضًا مستوية حيث أنبتت بعض الخضر والفواكه.

وكما لم تجدد أى جهة من جهات السور منذ عصر الملك قايتباى المصرى إلى عصر السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عليهما الرحمة والغفران، أخذت

أبراجه وجدرانه تتشقق وتنهار فانفتحت شقوق كبيرة وأخذ البدو يمارسون عاداتهم القديمة المألوفة فيمدون أياديهم إلى أموال الأهالى والمواشى وأخذوا يزعجون سكنة دار السكينة، مما دفع الأهالى إلى عرض أحوالهم على أعتاب السلطان سليمان وإعلامها فى سنة ٩٣٧ هجرية، فصدر الأمر السلطانى بتعمير سور المدينة القديم بشكل متين قوى وإنقاذ الأهالى الكرام من تسلط اللصوص، وتعيين من يقتضى تعيينهم من أجل هذا العمل على وجه السرعة وإرسالهم إلى دار الهجرة، وإشعار ذلك إلى والى ولاية مصر، وبناء على صدور الصحيفة التى تحوى الأمر السلطانى وإرسالها إلى والى مصر، تم تدبير الشخص الذى أنيطت به مهمة أمانة البناء كما دبرت المبالغ اللازمة، وتوجه مستصحبًا معه لوازم البناء إلى المدينة المنورة وتحرك من مصر لينال هذا الشرف وعندما وصل إلى دار الهجرة أخذ يقيس الأماكن التى تحتاج إلى التعمير والبناء من السور فتكشف له أن أربعة آلاف ذراع معمارى من الجدران فى حاجة إلى التأسيس والتشييد من جديد ماعدا الأبراج والدعائم، وكان ارتفاع هذا الجدار سبعة عشر ذراعًا وسمكه عشرة أذرع، وقد جلب أمين البناء العمال المطلوبين من المدينة المنورة، وابتدئ فى حفر الأساس فى أواسط سنة ٩٣٩. وقد بذل أقصى الجهود وأخلص المساعى فى بناء السور وقدمت التسهيلات اللازمة من جميع الجهات ومع ذلك لم يتم بناؤه. إلا فى ظرف سبع سنوات واكتمل فى أواخر سنة ٩٤٦ وفتحت للسور الخارجى أربعة أبواب وللسور الداخلى الذى يطلق عليه «القلعة الداخلية» بابان.

وكان أحد أبواب «القلعة الداخلية» مفتوحًا أو مغلقًا على صورة دائمة بينما كان الآخر قد صمم على أن يفتح ويغلق فى وقت الحاجة فقط لذلك أطلق عليه «الباب السرى».

وقد غطيت مصاريع أبواب القلعة الخارجية والداخلية بألواح حديدية بينما صُنِعَ «الباب السرى» من الحديد الخالص وقد رممت بروج القلعة الخارجية أكثر من بروج القلعة الداخلية، وعمقت حفرة الخندق وشيدت جدرانها قوية متينة على قدر الإمكان، وأجرى مقدار كاف من المياه من «عين الزرقاء» حتى لا يحرم

الأهالى فى داخل السور من المياه وفتح منهلان أحدهما خاص بالرجال والآخر بالنساء.

قال صاحب «مفتاح السعادة» أنفق السلطان سليمان لتجديد السور ستين ألف قطعة ذهبية وقال «السيد كبريت المدنى» أنفق مائة ألف قطعة ذهبية. وأرسل أربعة عشر ألف أردب من الحبوب مثل الأرز والحنطة والفول والشعير، وما لا يحصى ويعد من العدد والأدوات وكان ما أرسل من الآلات والحبوب والأدوات خارج الحساب المذكور.

ولم تنفق كل هذه النقود فى تعمير السور فقط بل أنفقت أيضًا ـ كما سبق فى بحث تعمير الحرم النبوى وتفضيله ـ فى تقويض الجدار الغربى للمسجد النبوى ومئذنة «الشكلية» و«باب الرحمة» كلها من أساسها وتجديدها فيلزم أن تدخل النقود التى ذكرها صاحب كتاب مفتاح السعادة و «السيد كبريت». والبيت المذكور الذى يقول.

(أنظر إلى السلطان سليمان لقد بنى قلعة كسد الاسكندر فاطلب له الرحمة).

يؤكد أن السلطان سليمان ـ عليه رحمة الله المنان ـ هو الذى قام بتجديد سور المدينة المنورة، وصان أهلها من تسلط العربان، وهكذا يئس أشقياء العرب من التسلط على المدينة ونهب أموال الأهالى ومواشيهم ـ رحمه الله رحمة واسعة.

وبخصوص القلعة فإنه من المعلومات التى ذكرت هاهنا، يفهم أن المدينة المنورة كان لها سوران: الأول غربى والثانى شرقى وكانت حدود المدينة المذكورة محاطة بهذين السورين.

وكل من يسكن بين أحد السورين يطلق عليه مدنيًا، وقد جدد السور الغربى بالطوب اللبن فى أوائل الفترة الوهابية من قبل الأهالى على أسس السور القديم.

وجوب مراعاة حق جيران رسول الله ﷺ.

وقد قال سلطان الكائنات وهو يبين توصية جبريل خيراً بأهل المدينة. «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] (حديث شريف). وبناء على هذا يجب أن يخشى قول كلمات غير لائقة فى حق جيران رسول الله، وقد بين الرسول ﷺ وجوب شفاعته للشخص المدنى الذى يظل على إيمانه ويسلم روحه على تلك الحالة فى حديث روى عن الإمام الترمذى وابن ماجة والذى رواه ابن حبان عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها»[2] ومن أجل هذا فمن واجب العباد الموحدين أن يحبوا أهل المدينة الميمونة وأن يظهروا لهم حيثما قابلوهم مظاهر التعظيم والتكريم. إن مراعاة جانب أهل المدينة كأنها توقير وتعظيم لسلطان الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ ولأجل نيل رضا النبى ﷺ قد أبدى «ملوك الأمويين والعباسيين والأيوبيين والشراكسة» أعظم توقير للحرمين الشريفين ورعوا جانب سكانها أعظم رعاية، وبناء على ما سوف يعرف فى الصور الآتية قد تركوا آثاراً خيرية كثيرة ستخلد أسماءهم فى صحيفة العالم.

وقد فاق السلاطين العثمانيون الملوك السابقين فى هذا الصدد إذ خصصوا لأهالى الحرمين ومجاوريهما جرايات مستوفية وتعيينات من الأشوان والمخازن المحلية، والمعاشات من وزارتى المالية والأوقاف وأنعموا عليهم بالصرر والهدايا وعملوا على تأمين راحتهم وإنقاذهم من غارات أشقياء العربان وأحيوا الآثار المسعودة بالتعمير والتجديد. ونذكر خاصة السلطان عبد المجيد خان ـ طيب الله

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب حديث رقم (٦٠١٤، ٦٠١٥) فتح البارى (١٠/ ٤٤١) ومسلم فى كتاب البر والصلة حديث رقم (١٤/ ٢٦٢٤، ١٤١/ ٢٦٢٥ ص (٢٠٢٥) ط. عبد الباقى، باب الوصية بالجار.

(٢) صححه الترمذى والدار قطنى فى العلل الكبير بما يطول ذكره. انظر: إعلام الساجد، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

ثراه ـ كان المسجد النبوى قد أشرف على الخراب فى زمنه. كما بين ذلك فى الصورة الخاصة ـ فأمر السلطان بهدمه من أساسه وبنائه رصينًا متينًا محافظًا على زينته الخارجية. وقد شرع فى بناء المسجد بناء على رغبة السلطان وتم إنشاؤه فى ظرف اثنى عشر عاما، ولا شبهة أن السلطان المذكور قد أبهج روح رسول الله ﷺ بهذه الخدمة المفتخرة وبإظهار الحرمة والتوقير بسكنة الحرمين الشريفين الكرام.

وبما أن الرسول ﷺ العارف العالم برموز الحكم قد بين لزوم محبة أهل المدينة جيرانه بأحاديث كثيرة، فيجب عرض المحبة والمودة لأهل المدينة. ومن علامات العبودية الخاصة حُبُّ من يحبه الرسول ﷺ والابتعاد عمن لا يحبه. ومع كل هذا فمهما أظهر لسكان أهل المدينة من المحبة والوداد والأخوة، فلا يمكن مقابلة ما نراه فيهم من الرعاية والاحترام. والخدمة التى نقدمها لهم، هى إرسال صرة لهم مرة فى السنة مع أنهم يدعون لنا فى صلواتهم الخمسة أمام النبى ﷺ، وإنهم يلاطفون زوار رسول الله ﷺ غاية الملاطفة، وحيثما رأوهم يستفسرون عن أحوالهم ويحاولون إظهار أية خدمة لهم. وإنهم يخجلون من الواحد منهم الذى يخلو بيته من ضيوف فى مواسم الحج ويوبخونه قائلين معاتبين: «لو كنت رجلاً سعيدًا مستقيم الأطوار لبحثت عن ضيف وأطعمته» ومن عاداتهم أن يستقبلوا قوافل الحجاج فى ناحية جرف[1] وأن يظهر أطفالهم فرحهم وسرورهم بقدوم الزوار بإنشاد

سيـــد خواجـه يـأكـــل دجاجة
فى صحن صينى أنـــت سلـــيمى

وإنهم يسارعون فى استضافة كل من يقابلونه من الزوار سواء أكان فى موسم الحج أو غيره بدعوته إلى منازلهم، وكلهم رجالهم ونساءهم ويطيب خواطر الضيوف، وإذا لم يكن عندهم قدرة لاستضافة من يدعونهم إلى دورهم

(١) جرف تبعد عن المدينة مسافة ساعتين.

يستدينون ليقوموا بواجب الضيافة، وإذا قورن ما يقدمه الزوار من النقود والهدايا بما يقدمه أهل المدينة من الرعاية فلا يساوى ما يقدمونه عشر معشار ما يرونه من حسن الرعاية وما يقدم لهم من الضيافة.

قد أقمت أنا مؤلف الكتاب فى سنة ١٢٨٩هـ فى الدار السعيدة دار ابن نقيب الأشراف، من السادات العلوية محمد علوى بافقى أفندى.

وكان معى تسعة من رفقائى، وكان سيد أفندى يحضر لنا فى اليوم مائدتين من الطعام كاملتين، وكان أصدقائى يتحدثون فى أثناء الطعام ويخوضون فى الحديث عن قيمة ما يقدم لهم قائلين إن مثل هذه المائدة يمكن تجهيزها بقطعة ذهبية. يعنى بمائة واثنين وثلاثين قرشًا. ولم يفارقنا سيد أفندى لحظة واحدة فى أثناء إقامتنا عنده، كما أنه لم يترك أثرًا فى المدينة لم يأخذنا إليه، وإذا انتقل بنا الكلام إلى السيدة والدته فمن العادات المرعية بين نساء المدينة أن تقوم أكبر السيدات سنًا بالطبخ، وألا يُدْخَلَ المطبخ دون وضوء. فالسيدة المذكورة لم تغادر المطبخ مدة إقامتنا تاركة النوم والراحة.

ويقتضى الوقوف على دقائق الأحوال فى المدينة وأسرارها، الإقامة فى المدينة فترة ما والاختلاط والائتلاف بوضيعها وشريفها، لذا لا يستطيع أن يعرف دقائق الأمور فى المدينة من يقيم بها يومين أو ثلاثة أيام.

البيت:

فيمحوك الله فى لحظة مثل الرماد

لا تطل يدك ولا لسانك لأهل تلك البلدة

فى ذكر وبيان كيفية دفن من أدركه الأجل فى المدينة الطاهرة.

فى مقابر البقيع، يصلون الصلاة التى حان وقتها ثم يصلون صلاة الجنازة ويخرجون الجنازة من باب جبريل وينقلونها بالتهليل والتوحيد إلى مقبرة البقيع حيث يدفنونها.

وإذا ما وجدت فى المسجد النبوى عدة جنازات سواء أكانت للرجال أو النساء، تصلى عليها فى جماعة واحدة ويصافحون أقارب الميت معزين، وهذه العادة سنة طيبة بقيت بعد وفاة سيدنا «الحسن بن على» رضى الله عنهما، لأن أخاه الحسين وقف بجانب باب مقبرة البقيع بعد دفن الحسن بعد وفاته وتقبل تعازى الناس بكل احترام.

ولما كان غسل الموتى من غير رخصة ممنوعًا منعًا باتًا وقد وضعت هذه القاعدة لمعرفة عدد الذين يموتون فى السنة بالمدينة المنورة، لذا تعطى من المحكمة للوفيات قطعة من تذكرة يطلق عليها «إجازة» ولا توجد فى المدينة الطاهرة مقابر متعددة، ومهما يكن المتوفون ينتسبون إلى أسر كبيرة فلابد أن يدفنوا فى مقبرة «بقيع الغرقد».

ومقبرة بقيع الغرقد ـ كما عُرِّفَتْ فى الصورة الثامنة من الوجهة الثالثة ـ خارج السور الذى ينسب إلى جمال الدين الأصفهانى وأمام باب الجمعة، لذا تخرج الجنائز من باب جبريل وتحمل عن طريق «باب الجمعة» إلى بقيع الغرقد ومقبرة بقيع الغرقد محاطة بسور وجدار فى ارتفاع ثلاثة أذرع ولها خمسة أبواب وفى داخلها أحد عشر ضريحًا.

ولما كانت تلك المقبرة الشريفة من أكثر المقابر بركة، فقد دفن فيها الذين

صعدوا إلى عليين وسكنوا قصور الخلد من بنات وأزواج النبى الطاهرات وأكثر أصحاب رسول الله ﷺ المهتدين وعطروا ترابها، ودفن فيها جميع الذين توفوا فى المدينة منذ عصر السعادة، وقد ثبت بناء على أصح الروايات دفن سبعة آلاف من الصحابة بقطع النظر عن التابعين وأتباع التابعين من الصلحاء والأتقياء.

فالجنائز التى تدفن فى مقبرة البقيع الشريف توضع فى لحد يسمى «قصقية» ولكل قصقية باب مستقل. وبناء على إخبار من اطلع على الأمور، أن لو فتحت قصقية الجنازة التى دفنت اليوم غدا لدفن جنازة أخرى فلا يبقى أثر من عظام الجنازة الأولى ولا تشم لها رائحة عفونة، وذلك من حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه الحالة تصدق مآل الحديث النبوى ﷺ: «كأنهم ينثرون أهل البقيع مثل الورد فى رياض الجنان» (حديث شريف).

ليس فى المدينة تابوت خاص فالميت سواء أكان من الرجال أو النساء يدفن بكفنه، وتغلق أبواب وفتحات اللحود الجديدة التى صنعت من أجل الجنازة باللبن والتراب بعد الدفن.

والذين يتوفون فى المدينة المنورة ويدفنون فيها ينالون ثواب الشهيد الذى قتل فى سبيل الله كما ورد فى الخبر.

بينما كان الرسول ﷺ يوما فى البقيع جاء رجل من الخارج وقال وقد رأى قبراً يحفر «ما أقبح مكان الشخص الذى سيلقى فى هذا القبر» فأجابه الرسول معاتبًا.

«ما أسوأ ما نطقت» وبهذا بين لذلك الصحابى أنه يجب أن يصحح ظنه وعقيدته فقال الصحابى: إننى أردت أن أقول لو كان هذا الرجل مات فى أثناء قتال العدو بدلاً من موته فى الفراش فأجابه الرسول بما معناه: ليس فى الدنيا بلد يماثل هذا البلد، فالذين يموتون هنا كأنهم يستشهدون[1] فى سبيل الله، عندى أن

(١) روى الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن سبيعة الأسلمية، أن رسول الله ﷺ قال:
«من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لا يموت بها أحدٌ إلا كنتُ له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة».
(مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٦).

المكان الذى سيكون قبرى بقعة لا تماثلها بقعة على وجه الأرض. (حديث شريف) وبين أن تلك المقبرة الشريفة مكان فى غاية الاحترام.

بيت

فـلتمت فـى قـرب أحمـد وجـواره

واكتسـب الحيـاة باقيـا فـى هـذا المكـان

ومن حكم عادات أهل المدينة زيارة البقيع الشريف، الصغار والكبار الرجال والنساء جميعًا فى ليلة الجمعة أى بعد عصر يوم الخميس بعد أداء صلاة العصر، ويضع جميع الزوار فوق القبور المعروفة ريحانًا ونباتات خضرًا، وبما أنهم يعتقدون أن هذا من جملة سنة الرسول السنية يخافون تركه.

منظومة

ذلك المتوجـه إلـى أرض البقيـع — أحـد العـروش بـين المقـام الرفيع

كل جـانب منهـا نـور يـزين الأرض — كل تلك النجوم من تلك الجهات الأربع

ولأن المنهى هو حصاد للربح المطلوب — فـإن سـتارة الورد فتيلة لنور القلوب

كان الرجال والنساء يزورون البقيع معًا فى الماضى، وقد ألغيت هذه الأصول وأخذ الرجال يجرون السنة المصونة بالذهاب إلى البقيع يوم الخميس بعد أداء صلاة الظهر كما أن النساء يذهبن يوم الجمعة بعد أداء صلاة الفجر.

توضح وتبين كيف يستقبل شهر رمضان الشريف ـ مظهر الغفران ـ من قبل أطفال المدينة وكيف يكون رمضان فى مدينة طيبة.

استقبال رمضان الشريف:

يجتمع أطفال المدينة الطاهرة ـ كنوع من ألعاب الأطفال ـ فى ميدان ما فى التاسع والعشرين من شهر شعبان كل سنة، وبعد ما يعينون من بينهم ثلاثة أطفال يتصفون بطلاقة اللسان ينصبون أحدهم شيخ الحرم والثانى قاضيًا والثالث أمير الحج، ويخرجون فى وقت الأصيل إلى خارج السور ويعودون ومعهم رمضان الشريف ويقال لهذه اللعبة بين سكان دار السكينة «استقبال الأطفال لرمضان الشريف».

وحيثما مد السمع وأنصت بالدقة فى حين الحيرة لمسجد الحرم النبوى الذى يصير وكأنه قد شعشعت فيه الأنوار كأنها أمواج البحار المتلاطمة تسمع اهتزازات أجنحة الملائكة العظام.

وعندما يحل وقت الإفطار وتطلق المدافع ويؤذن فوق المآذن يدعو أصحاب طعام الإفطار من على يمينهم ويسارهم ولا سيما الضيوف إلى الطعام بتعبير مخلص قائلين: «تفضلوا يا أيها الرفاق» ويحسنون ببقية الطعام إلى الزوار الغرباء وبعد خمس أو ست دقائق تتلى الإقامة فيقوم الجميع لأداء صلاة المغرب.

وبما أن تأخير الإقامة فى صلوات المغرب فى رمضان من العادات القديمة فالسادة المؤذنون يؤخرون الإقامة رعاية لتلك العادة الطيبة إلى ختام الإفطار.

وتتم مراسم الإفطار على الوجه المذكور وبعد أداء الصلاة يستصحب كل شخص من أهل المدينة واحدًا أو اثنين من الضيوف ويذهب إلى منزله وبعد الطعام يعود مرة أخرى إلى المسجد وبناء على هذه الأصول تقام فى حرم مسجد السعادة كل ليلة ما يقرب من مائة مائدة للإفطار.

مطالعة

ويُذكر ما يحدث فى بعض البلاد الإسلامية، ولا ذكرت سيما باب السعادة، من الإفطار قبل صلاة المغرب عادة أهل الحرمين الشريفين التى ذكرت ومن هنا يفهم أنه إنما اتخذت هذه العادة فى الممالك الإسلامية اقتداء بأهالى الحرمين الشريفين.

وفى هذه الأصول ـ أى فى عدم ملء المعدة بالطعام مرة واحدة، بل أكل الطعام بعد إفطار خفيف وأداء صلاة المغرب ـ منافع طبية عظيمة. لأن ملء المعدة الفارغة مرة واحدة يؤدى إلى صعوبة إجراء المعدة وظيفتها ويسوق إلى مشكلات وهذا مضر من جميع الوجوه، ومن المفيد تعويد المعدة على أداء وظيفتها بطعام خفيف.

صورة أداء صلاة التراويح:

بعد الآذان يؤدى المصلون صلاة العشاء فى جماعة واحدة. ثم يُشْرَعُ فى أداء صلاة التراويح وقد انقسمت جماعات المسلمين إلى أربعين أو خمسين فرقة. ولكل فرقة إمامها ومؤذنها وأمامهم شمعدانان كبيران وفوانيس متعددة والفوانيس التى أمام الفرق فى ألوان غير مختلفة وتفترق كل فرقة إلى جهة ما من المسجد فيختم بعضها القرآن فى أثناء صلاة التراويح ويؤدى بعضها صلاتهم بقراءة وتلاوة سور طويلة أو قصيرة. فبعض الأئمة يكبرون وبعض الأئمة يتلون القرآن وهذه الحالة المليئة بالفيوضات الإلهية تجذب الأنظار وتثير الحيرة وينجذب إليها الروحانيون للتأمل والمشاهدة وفى ختام التراويح يجرى مرسم موكب الشموع.

سبب إقامة موكب الشموع:

يضاف فى ليالى رمضان الشريفة إلى الشمعدانين الذهبيين اللذين يوقدان بشمع النحل فى الحجرة المطهرة فى الأيام العادية، ثمانية شمعدانات أخرى حتى تُضَاء الحجرة المطهرة بصورة عظيمة. ومن العادات المستحسنة أن يدعى ثمانية أشخاص من ذوى الهيئات من الخارج لإعادة الشمعدانات التى وضعت فى حجرة

السعادة إلى أماكنها فى المخزن، والقيام بهذا العمل والفوز بخدمة سيد الكونين من الأمور الصعبة ألا فليكتبه الله سبحانه وتعالى لجميعنا، لأن تلك الخدمة التى تستوجب المغفرة تنحصر فى أكابر المدينة المنورة من أعيانها وأشرافها وبعض الموظفين الكبار المحليين؛ وبناء على هذا يكتب لثمانية أشخاص تذاكر دعوة خاصة ويخطرون بوجودهم فى موكب الشموع.

والأشخاص الذين دعوا ليكونوا فى موكب الشموع يذهبون عقب أداء صلاة التراويح مع الخدم ويدخلون فى الحجرة التى فيها قبر الرسول الجليل ويأخذون الشمعدانات التى اعتيد إيقادها فى داخل الحجرة وينقلونها إلى خزانة الشموع[1] الكائنة فى شمال الحرم الشريف ويوصلونها.

(١) يطلق الخزينة بين أهل المدينة على الحجرة والمخزون.

الصورة الخامسة

فى بيان ترتيب وتشكيل موكب الشموع الذى اعتيد إجراؤه فى مسجد السعادة بعد صلاة التراويح.

بينما يحل وقت إجراء موكب الشموع يلبس شيخ الحرم ونائب الحرم[1] جلبابًا واسع الأكمام ويشدون وسطهم بشيلان خاصة للاستخدام فى مواكب الشموع ويرسلون أطرافها إلى الأسفل ثم يذهبون مع المدعوين بتذاكر الدعوة والذين لبسوا مثلها إلى أمام باب الحجرة المعطرة الذى يطلق عليه الباب الشامى ويدخل شيخ الحرم ونائبه فى داخل الحجرة المعطرة وبعد فترة يخرجان وقد حملا الشمعدانين الذهبيين والأغوات الخاصة بالحرم يحملون الشموع الخاصة الثمانية بليالى رمضان ويعودون بكل وقار وتعظيم لائق وتكريم فائق إلى الباب الشامى ويعطون الشمعدانات التى فى أيدى أغوات الحراسة إلى الموظفين الذين بقوا خارج الباب وينظمون صفوفهم والأشخاص المدعوين لحمل الشمعدانات يحمل كل واحد منهم الشمعدان الخاص به والذى أشير إليه فى تذكرة الدعوة ويأخذ الفراشون شموع مسجد السعادة والشموع التى مقابل المحراب الشريف ويسيرون منتظمين كل واحد منهم خلف الآخر يتقدمهم حاملو شموع الحجرة المعطرة وهم يصلون على النبى ويسلمون أثناء سيرهم فى وقار وتؤدة نحو مخزن الشموع وفى أثناء ذلك ينشد مؤذن رخيم الصوت قصائد فى نعت النبى ﷺ وهو يستقبل مرقده ـ عليه السلام ـ وفى ختام الموكب يدعون لملك الزمان ثم ينادون قائلين «الفاتحة».

(١) إن هؤلاء الأشخاص من رؤساء الأغوات الذين يطلق عليهم «خبرى» وضباطهم، قد رتبت أحوالهم وشئونهم فى الصورة التاسعة.

بينما ينظم موكب الشموع يقف أولاد الموحدين مجتمعين أمام حديقة النخيل[1] ويستقبلون الموكب ويأخذون الشموع التى فى أيدى المدعوين ويوصلونها إلى الحجرة التى يطلق عليها الخزانة، ثم يعودون.

لما كان هذا الموكب العالى يثير فى الناس حالة من الروحانية وشوق وشغف يصر أهالى دار السكينة على مشاهدة هذا الموكب.

(١) هذه الحديقة فى الساحة الرملية لمسجد السعادة.

فى تعريف طريقة أداء صلاة الفجر وصلاة العيد فى شهر رمضان.

صورة أداء صلاة الفجر:

وتبدأ كافة الجماعات الذين اشتركوا فى موكب الشموع وشاهدوه حتى انجلت قلوبهم فى العودة إلى المسجد وحدانا وزرافات قبل حلول وقت صلاة الفجر بساعة ونصف ساعة ويوقد كل واحد منهم شمعة ويواظبون فى تلاوة القرآن الكريم «ودلائل الخيرات»[1] وأحزابًا لطيفة وأذكار منيفة. فتئن أرجاء المسجد الشريف أنينًا بأصداء القراء التى تثير الشوق ونداءات وتأوهات للذاكرين. وتعم روائح الحجرة المعطرة والروضة المطهرة جميع الأركان. وينتعش الجميع وهم يشربون من الفيض الربانى ويلفهم الوجد والحيرة. والقصائد المتنوعة التى تقرأ فوق المآذن والصلوات التى تؤدى بين الصفوف والمحامد، والماء البارد الزلال الذى يقدم إلى العِطَاشِ الموحدين من قبل سقائى الخير يجدد الحياة.

وعندما تصل هذه الحالة من الوجد إلى حد الشوق والكمال ويأخذ المؤذنون فى النزول من المآذن يقف رئيس المؤذنين فى مواجهة نافذة الحجرة الطاهرة ويبدأ فى الأذان الداخلى قائلا الله أكبر ويسكت الحاضرون الكرام عن إصدار الصوت وقد عرفوا أن وقت صلاة الفجر قد حان. وهكذا تنتهى أعمال مشتاقى جمال النبى الجميل، وينهمك الأبرار وقد سمعوا صوت المؤذن «أشهد أن محمدًا رسول الله» فى أداء صلاة الصبح مقتدين بالإمام الشافعى المذهب وبعد أداء الصلاة يشنفون أسماعهم بما يسمعون من الوعظ والنصائح من العلماء إلى وقت صلاة الأمام الحنفى[2].

(١) للشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولى السهلالى الشريف الحسنى المتوفى عام ٨٧٠ هجرية.

(٢) معلوم أن الشافعية يصلون الصبح لأول الوقت، أما الحنفية فيؤخرونها قليلاً إلى وقت الإسفار.
والتبكير مذهب مالك والشافعى وأحمد والجمهور. وقال أبو حنيفة: الإسفار أفضل. انظر: شرح النووى على صحيح مسلم ٢/ ٩١٤ طبع دار الغد العربى

صورة أداء صلاة العيد:

بعدما تمضى أيام رمضان كما سبق تعريفه وبعد أداء صلاة العيد وانتهاء الخطبة والدعاء يتجه الناس عمومًا إلى الحجرة المعطرة للدعاء والتضرع. ويقفون أمام رسول الله ﷺ ليسلموا على النبى ﷺ ويعرض كل واحدمنهم ما فى ضميره على النبى ﷺ ويعود إلى بيته.

ومن عادة سكنة المدينة المنورة القديمة الاحتفال بالعيد ثلاثة أيام وثلاث ليال مثل أعياد دار السعادة، تطلق المدافع من القلعة الخارجية عند حلول الأوقات الخمسة وفى هذه الفترة يتزاور الناس ويقبل الصغير يد الكبير وينال دعوته الطيبة، وتقبيل الأيادى فى المدينة المنورة ليس قاصرًا على الأعياد. إذ يقبل جماعة المصلين سواء أكان غنيًا أم فقيرًا أيدى من فى يمينه ويساره.

فى تعريف الهيئة الكاملة لمسجد السعادة فى الوقت الحالى.

تقع مدينة مهجر الرسول ـ على صاحبها أفضل التحية ـ فى نقطة متوسطة من المدينة الساحرة ويقع مضجع حبيب الله ـ أى الحجرة المعطرة التى كانت سببًا لاشتهار مدينة طيبة المقدسة ـ أمام الموقع الذى تطلق عليه «صفة أصحاب الصفة» وبالجانب الشرقى المتصل بالروضة المطهرة.

فالمؤرخون الذين قاسوا مساحة عرض المسجد الشريف المقدس اختلفوا فى أقوالهم ومن ضمن هؤلاء «مولانا عبد الرحمن» الجامى ـ قدس الله سره السامى ـ إذ قال فى أثره القيم[1] إن المسافة من حائط مسجد النبى الجنوبى إلى جداره الشمالى طولاً مائتان وخمسون ذراعًا وعرضه من الجدار الشرقى إلى جداره الغربى مائة وخمسون ذراعًا إلا أن طوله وعرضه فى عهد رسول الله ﷺ كل واحد منهما مائة ذراع. وأضاف «إننى قست الروضة المطهرة وصفة أهل الصفة كل واحدة على حدة وعددت أعمدتها الموجودة واحدًا واحدًا فوجدت طول الروضة المطهرة خمسة وثلاثين ذراعًا وطول الصفة الشريفة اثنى عشر ذراعًا ووجدت عرض الروضة المطهرة عشرين ذراعًا وعرض الصفة عشرة أذرع كما أخبر أن هذا الذراع ذراع شرعى.

قد قست أنا المؤلف ساحة مسجد السعادة من الخريطة المسطحة التى رسمت بعد أن قيست من قبل المهندسين الذين أرسلوا فى عهد السلطان عبد المجيد ـ طيب الله ثراه ـ بالذراع المعمارى فوجدت طول المسجد مائة وستة وخمسين ذراعًا وثمانية أصابع وعرضه جنوبًا سبعة وتسعين ذراعًا وثمانية عشر إصبعا وشمالاً

(١) للجامى مؤلفات كثيرة قيمة أهمها: نفحات الأنس، واللوائح، وشواهد النبوة، وغيرها.
وهو أحد شعراء إيران العظام فى العهد التيمورى، ومن خير المفكرين المسلمين تلقى علوم الحقيقة على مشيخة سعد الدين الكاشغرى شيخ الطريق النقشبندية وصحبه حتى مات عام (٨٦٠هـ)، فاتخذ الجامى مسكنه إلى جوار قبر شيخه ولم يفارقه إلا حاجًا لبيت الله الحرام مرتين إلى أن وافاه الأجل عام ٨٩٨هـ، ودفن مع شيخه سعد الدين الكاشغرى رحمه الله رحمة واسعة.

تسعة وثمانين ذراعًا وستة أصابع إلا أن الجدار الشرقى للمسجد قد زيد فى عهد السلطان المغفور له ما يقرب من ثمانية أذرع فوصل عرض جهته الجنوبية إلى مائة وخمسة أذرع معمارية.

وللمسجد الشريف خمسة أبواب هى: «باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، باب النساء، باب التوسل» ونافذتان تعرفان باسم «نافذة جبريل» و«نافذة المواجهة» وله خمسة محاريب تعرف باسم محراب النبى، محراب عثمان، المحراب السليمانى، محراب التهجد ومحراب النساء. و«باب التوسل» فتح فى عهد السلطان عبد المجيد.

وقد أطلقت هذه الأسماء لبيان الأماكن التى صليت بها، **فمحراب النبى** المكان المقدس الذى صلى فيه النبى ﷺ مؤتما لأصحابه، **ومحراب عثمان** المحراب الذى اتخذ فى عصر عثمان ـ رضى الله عنه ـ **والمحراب السليمانى** المحراب الذى صنعه السلطان سليمان بن السلطان سليم وخصه لأئمة المذهب الحنفى **ومحراب التهجد** هو المحل الذى كان يؤدى فيه الرسول ﷺ صلاة التهجد **ومحراب النساء** هو المكان الذى فى داخل باب النساء وفى مؤخرة حرم السعادة وخاص بالنساء والذى ميز بأقفاص خضراء، وقد أسس «محراب النساء» فى عصر السلطان عبد المجيد خان عصر المبرات عند تجديد مسجد السعادة الأخير.

ولمسجد السعادة فى جهاته الأربعة خمس مآذن، وفى داخل الحرم الشريف أربعمائة وثلاثة وعشرون عمودًا وله أربعون قبة؛ عشر منها كبيرة وست عشرة منها أبيض وأربع وستون منها متوسطة الحجم والباقية صغيرة، وله ألف وسبعمائة وواحد وتسعون قنديلاً، وخمسة وعشرون شمعدانًا، وثلاث عشرة ثريا، وتوقد مائتان واثنان وعشرون من القناديل المذكورة فى ليالى الأيام العادية والبقية فى إحياء ليالى السلطان الشريف وفى الزمن الذى قاسه فيه حضرة «الجامى» كان سبعة وعشرون من أعمدته مصنوعًا من الآجر الملون وسبعة وخمسون منها من الرخام وبعضها من الحجر العادى والبقية منحوتة من الخشب.

وعند التعمير الأخير يعنى عندما جدد المرحوم السلطان عبد المجيد المسجد وأحياه جعل جميع أعمدته من الرخام وخفض عدد الأساطين إلى «٣٢٧».

يقال للأعمدة المصنوعة من الرخام «أسطوانة» فأكثر الأعمدة المصنوعة من الآجر الملون فى داخل الروضة المطهرة وبعضها فى الأماكن الخاصة بإقامة خدمة الحجرة المسعودة والأساطين العادية فى مواقع أخرى.

مائة وأربعة وستون من هذه الأعمدة مربعة، ومائتان وتسعة وخمسون منها مستديرة، وفى التعمير الأخير قد جعل كلها مستديراً فأربعة وخمسون منها فى داخل جدران الجهات الأربعة واثنان وعشرون منها فى داخل الحجرة السعيدة وبيت فاطمة والباقى منها أبواب الحرم السعيد والجهات الأخرى.

يقال لإحدى المآذن «الرئيسية» وللثانية «باب السلام» وللثالثة «باب الرحمة» وللرابعة «المجيدية» وللخامسة «العزيزية» وكل هذه المآذن قصيرة الطول بالنسبة للأخريات وأعلى هذه المآذن المئذنة الرئيسية الخاصة برئيس المؤذنين وباب هذه المئذنة مقابل نافذة الحجرة المعطرة وعلى الركن الشرقى لجدران القبلة.

ويقع المرقد النبوى السعيد فى الجهة الشرقية من الجدار القبلى للمسجد الشريف والروضة المطهرة بين الحجرة المضيئة والمنبر المنير والقبر اللامع لفاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ يقع فى نهاية الحجرة المعطرة الشمالية.

يروى أن قبر السيدة فاطمة الزهراء فى حظيرة ضريح عباس بن عبد المطلب وبجانب قبره فى مقبرة بقيع الغرقد والذى يؤيد صحة هذه الرواية أكثر من الروايات الأخرى قراءة زوار البقيع اليوم الفاتحة لروح السيدة فاطمة وهم يزورون ضريح عباس بن عبد المطلب.

وأطراف الحجرة المعطرة محاطة بشبكة حديدية، ويطلق على المكان الذى يقع بين المنبر المنير والمكان الذى يرقد فيه رأس النبى «الروضة المطهرة»، وعلى الجهة اليمنى لقبر الرسول «المواجهة الشريفة» وعلى اليسار من قبر الرسول حيث محل إقامة خدام الحجرة الشريفة «الدكة»، وللربع الذى فى داخل الشبكة اللطيفة حيث قبر الرسول «الحجرة المعطرة».

ولما كانت الروضة المطهرة والمواجهة الشريفة والدكة اللطيفة خارج شبكة الحجرة المعطرة لا يستطيع الدخول فيها إلا العظماء والسادات والسعداء من أهل المدينة من طينة طيبة أما الزوار السعداء الآخرون فيقفون أمام نافذة المواجهة الشريفة التى فى خارج الشبكة المنورة ويؤدون مراسم الزيارة.

الجهة اليسرى من جدار القبلة ابتداء من باب السلام إلى سبيكة النور شبكة القبر الشريف مفروشة بالرخام، والجهة اليمنى لهذه الأرض المفروشة بالرخام إلى اتصال العمود الشرقى للشبكة اللطيفة أى جهة الاتصال بجدار القبلة محدود بالسور الخشبى[1] فى ارتفاع ذراع ونصف ذراع معمارى وحول محراب النبى والمحراب السليمانى من اليمين واليسار بابان ينفتحان إلى جهة الروضة المطهرة.

إن هذه الساحة الرخامية طريق خاص بالزوار الذين يريدون أن يذهبوا لزيارة الحجرة المعطرة وهو متسع قدر ذراع ونصف ذراع معمارى وهناك ساحة رخامية أخرى تنتهى إلى الساحة الرخامية لباب السلام من الجهة الداخلية وهذه الساحة الرخامية أيضًا طريق للزوار الذين يريدون أن يزوروا الحجرة المعطرة من باب الرحمة.

ويقع محراب النبى ﷺ بين شبكة مرقد السعادة الشريف والمنبر المنير وفى وسط الروضة المطهرة. وقد كتب فوق طاقتى البابين اللذين فى اليمين والشمال كتب فوق أحدهما الحديث النبوى «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[2] (حديث شريف) وفوق طاقة الباب الآخر «من زارنى فى مماتى فكأنما زارنى فى حياتى»[3] (حديث شريف)، وكتب فوق طاقى البابين على جانبى المحراب السليمانى الذى يقع فى جهة باب السلام من المنبر كتب فوق طاق أحدهما «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[4] وفوق طاق الثانى الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

---

(١) حينما لم يكن هذا السور الخشبى موجودًا كان ذلك المكان محدودًا بدواليب خدمة الحرم السعيد وعند التعمير الأخير فى عصر السلطان عبد المجيد صب ذلك السور من النحاس..

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والصغير والأوسط من طرق عن ابن عمر وكلها فيها ضعفاء.
انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٤/ ٢.

(٤) رواه البزار عن ابن عمر بإسناد فيه عبد الله بن إبراهيم الغفارى وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٤/ ٢.

وقد نقش بالذهب فوق كمر نافذة المواجهة السعيدة الحديث الشريف «إنما الأعمال بالنيات»[1].

الميدان الواقع فى شمال الحرم السعيد مفروش برمل أصفر وهذه الساحة مكشوفة وجهاته الأربعة مغطاة بقبة الفلك الربانى ويطلق على الجهة الجنوبية الشرقية وعلى محاذاة صفة أهل الصفة «روضة الرسول» ﷺ وهى حديقة مربعة الأضلاع قد أحيطت بسور خشبى جميل وفى داخل هذه الحديقة: نخلتان كبيرتان وستة من أشجار النخيل وشجرة تمر هندى وشجرة سدر وفى الطرف الذى تهب منه الرياح بئر ذات ماء حلو. وماء هذه البئر فى غاية اللذة وهو ماء مقبول لدى الأهالى وقيم مثل ماء زمزم.

وقد ذهب بعض الرواة إلى أن روضة الرسول هى حديقة الرسول ﷺ وأشجار النخيل التى فى داخلها قد غرسها بيده الشريفة، إلا أن روضة الرسول وحديقة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد غرس بعض أشجار النخيل التى فى داخلها شيخ الخدمة «عزيز الدولة» وقال ابن جبير: إنه كان فيها فى وقت عزيز الدولة خمس عشرة شجرة. وقال مجد الدين اللغوى: كان فيها أكثر من خمس عشرة شجرة. وأشار ابن فرحون إلى أن أشجار النخيل هذه غرست قبل زمن عزيز الدولة.

هَمَّ بعض سادات المدينة ألا يستحسنوا وألا يستصوبوا فكرة غرس عزيز الدولة أشجار النخيل فى الساحة الرملية للحرم السعيد ولكنهم اختاروا الصمت مراعاة لخاطره وتوقيًا من سوء معاملته. وكانت الرياح العاصفة التى هبت فى عصر شيخ الخدمة ياقوت الرسول قد جففت هذه الأشجار، ولكنه انتزع الأشجار اليابسة وغرس مكانها أشجارًا جديدة.

واعترض الأهالى فى هذه المرة على غرسه لأشجار النخيل قائلين «قد ابتدعت

(١) أخرجه البخارى فى أول الصحيح حديث رقم (١) فتح البارى ١/ ١٥، باب بدء الوحى وأعاده فى باب ما جاء إنما الأعمال بالنية والحسبة...، حديث رقم (٥٤)، ومواضع أخرى فى صحيحه حديث ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣.

شيئًا جديدًا» إلا أنهم خسروا دعواهم، وأراد الشيخ طوعان أن يزيد عدد هذه الأشجار فى سنة ٨٧٣ ولكنه لم يوفق نتيجة لاعتراض الناس ومخالفتهم، ولما كانت هذه المسألة موضع اختلاف بين العلماء فلا قيمة لاعتراض الأهالى حينئذ. وقد حكم بعض العلماء بكراهية غرس الأشجار فى حرم مسجد السعادة بينما أباحه الآخرون.

قال مؤلف «زهر البساتين»: ويجوز غرسه مع الكراهة إذا لم تزعج أغصانها الجماعة وإذا غرس بنفسه فهو حرام.

«وقال ابن حجر» تنتفع الجماعة من ظلها واختلف فى حق ثمارها فحكم بعض العلماء قائلين: «فثمارها مباحة لجميع المسلمين مثل ثمار الأشجار التى تنبت فى المقابر» واعترض ابن حجر على هذا الحكم قائلاً: «بما أن غرسها جائز فهى ملك لمسجد السعادة فلا يجوز أكل ثمارها يجب أن تباع ويصرف ثمنها لأمور المسجد».

مازالت أشجار النخيل التى غرسها ياقوت الرسول موجودة وثمارها السنوية خاصة لأغوات حرم السعادة، وتظل أحيانا نخلة واحدة وأحيانًا تزيد وتصل إلى ثلاث أو أكثر من النخلات ويقتطف أغوات الحرم الشريف تمر هذه الأشجار ويهدونه إلى عظماء البلاد الإسلامية وأعيانها.

وقد جدد المسجد النبوى منذ الهجرة النبوية إلى الآن كما ذكر فى الوجهة السابعة سبع مرات وآخر مرة جدد وعمر فى «١١٢٧ و١٢٧٧» هـ.

وإنه لا ينكر ما بذل من الجهود وما أنفق من النقود فى سبيل تعمير وتجديد مبانى مسجد السعادة فى عهود الملوك الأموية والخلفاء العباسيين وملوك الشراكسة المصرين؛ إلا أن ما بذل من المساعى وما أنفق من النقود فى عهد السلاطين العثمانية الخالية من الجهود، ولا سيما فى عهد سلطنة الخليفة عبد المجيد خان والد سلطاننا كثير المحامد، تفوق جميع الجهود التى بذلت فى عهد جميع الملوك السابقين ولا تقاس هممهم بهمم الحكام المسلمين السابقين.

الصورة الثامنة

فى بيان وذكر أبواب حجرة السعادة المعطرة أبوابها وقناديلها وشمعداناتها وعدد خدمها المؤقتة والدائمة عناوينهم، ما معنى الفراشة والقسم، ترتيب، التأديب والمجازاة فى حق الأغوات نوبة الحراسة فى مسجد السعادة ليلاً، وتعريف أداء صلاة الفجر وذكر محاسن الأصول.

للحجرة المعطرة أربعة أبواب هى: باب فاطمة[١]، الباب الشامى[٢]، باب الروضة[٣]، باب الوفود[٤] ولها أربعة وثمانون قنديلاً مثل النجوم.

وشمعدانان من الذهب وإن كانت أبوابها فى عصرنا أربعة إلا أن لها باب مسدود يطلق عليه «باب التوسل».

موقع الباب المسدود هو المحل المبارك الذى يوقف فيه فى الجهة المسعودة، وإذا ما دقق النظر قليلاً يفهم أن ذلك المكان مكان الباب القديم، ويروى أن نعش أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قد أدخل من هذا الباب.

وقد وضعت القناديل التى ذكرت سالفًا فى الأماكن المناسبة من الحجرة المنيفة ويوقد واحد من الشمعدانين الذهبيين لشرف رأس النبى ﷺ والآخر فى ناحية قدميه الشريفين. ويستخدم صنفان من الأغوات فى الحجرة المعطرة حتى لا تترك خالية ليلاً ونهارًا ويقال لأحد أفراد الصنف الأول «بطال» ولأفراد الصنف الآخر

(١) واسم آخر لهذا الباب هو باب على.

(٢) واسم آخر لهذا الباب هو باب عائشة.

(٣) يقال لهذا الباب: باب التوبة أيضًا.

(٤) وإن كان الاسم الآخر لهذا الباب «باب المواجهة» و«باب الإجابة»، وعلى قول آخر أن باب الوفود اسم قديم لباب الروضة.

ويفتح فى الشدة والكرب والمصائب وفى أوقات الفتح والغلاء للدعاء ويستجاب الدعاء مهما كان الدعاء ويظهر أثره فى وقته ومع ذلك فالدعاء فى حاجة إلى عقيدة صحيحة وإخلاص تام..

«خبزى» ويقوم بمراقبة انضباطهم وإدارتهم ضباط يطلق عليهم «البواب، حامل المفتاح» واسم أفراد أغوات البطالين «عجمى» وأفراد هذا الصنف أقل درجة من أفراد الخبزيين والخبزيون أقل درجة من طاقم «البوابين» وهؤلاء أقل من حاملى المفتاح الذى يقال لهم «السبعة الكبار» وكل واحد منهم يحترم الآخر ويطيعونهم حسب رتبهم.

وكان هؤلاء الخدم الذين يطلقون عليهم الأغوات لا يزيد عددهم ولا يقل عن ثمانين شخصًا ويؤخذ مكان الأغوات الذين يموتون من صنف الخبزيين أقدم الأغوات من صنف البطالين، ويؤخذ مكانهم ملازمى صنف البطال ستة عشر من الخبزيين بوابون ويحملون عناوين «نائب الحرم، مستسلم الحرم، خازن الحرم، نقيب الحرم» وفيهم أربعة ضباط وكان أكبرهم «شيخ الحرم» وكان يبعث ويعين من مقام الخلافة الجليل[1] وكانت المحافظة على الحجرة المعطرة تتبع نظامًا مستحسنًا وكان عدد البوابين عند نوبة الحراسة أربعة وكانوا يظلون فى داخل الحجرة المعطرة فى أثناء الحراسة وكانوا يقسمون فيما بينهم ما ينفحهم به الزوار فى أثناء الحراسة وكان الضباط يرقون إلى درجة أعلى حسب أقدميتهم.

وكانت من أحكام القواعد التى اتخذت أن يتواجد فى داخل الحجرة المعطرة تسعة وعشرون شخصًا من الحراس خمسة وعشرون منهم من أغوات الخبزيين أو أغوات البطال غير أربعة بوابين. والذين يخرجون من نوبة الحراسة يجلسون فوق صفة أصحاب الصفة على ركبهم يشغلون وقتهم بالذكر والتهليل وقراءة الأحزاب الشريفة والأوراد المباركة إلى أن تتم نوبة حراستهم وكان خدم الفراشة يدخلون فى داخل الحجرة المعطرة ويوقدون القناديل التى كلفوا إيقادها وخفضوا مؤخرًا عدد الأغوات إلى خمسة أشخاص وأبلغوا عدد الخدم الآخرين وزادوه إلى العدد الذى درج فى الفهرس الأسفل، وكان أحد الأغوات الخمسين مُسْتَسْلِمًا وأحدهم

(١) وظيفة شيخ الحرم الجليلة كانت خاصة بالأشخاص الذين يحرزون الأغوية فى باب السعادة ثم عمم ووجه فيما بعد إلى الوزراء ومشيرى العساكر السلطانية ذوى الاحترام.

نقيبًا واثنا عشر فيهم بوابًا وتسعة عشر منهم خبزيًا وأربعة عشر بطالاً وثلاثة منهم من أفراد الملازمين.

سبب وتاريخ استخدام الأغوات فى الحجرة المنيفة

يقول خير الدين إلياس المدنى نقلاً عن المرحوم فلاح الفلاح راويا: «لم يكن هناك أصول استخدام الأغوات فى الحجرة المعطرة إلى ظهور الدول التركية».

قد استحسن بعض المنتمين إلى الشهيد نور الدين لبعض الأسباب استخدام الأغوات فى الحجرة المنيفة وأبلغوا الأمر بواسطة بعض الأمراء الذين كشفوا الأمر إلى الشهيد نور الدين وأخذوا موافقته على هذا الأمر، وبناء عليه اختاروا اثنى عشر أغا كلهم من حفظة القران الكريم وأرسلوهم إلى المدينة المنورة. واشترطوا فيمن يعين مكان الذين يتوفون منهم فوق حفظه للقرآن الكريم أن يكون حبشيًا إن أمكن وإلا من أهل الروم وإذا لم يوجد أن يكون هنديًا وسقط حكم هذا الشرط بعد فترة فأرسلوا كلهم من الهنود ثم ترك أصول إرسالهم من الهند فعين الأغوات الحاليون وفق النظام الأخير.

وقد أبلغ صلاح الدين الأيوبى عدد الأغوات إلى أربعة وعشرين وعين شخصًا يسمى الشيخ بدر الدين ضابطًا عليهم ووقف إيراد بلدتى «نقادة وقيادة» عشر محاصيلها لإدارة الأغوات وإعاشتهم. وكان الأغوات الذين يستخدمون لذلك الوقت يخدمون حسبة لله ويتعايشون بالهدايا والعطايا التى يرسلها أصحاب البر والخير. وأخذ يطلق على شيخ الخدم بدر الدين الأسدى «شيخ الحرم» فزاد قدرًا ومكانة، وسواء كان الشيخ بدر الدين أو الأشخاص الذين أصبحوا فيما بعد شيوخًا للحرم كانوا يلاقون من موظفى المدينة المنورة ومن وزراء وأمراء المسلمين الذين يزورون المدينة المنورة احترامًا وتوقيرًا، وذلك تعظيمًا لصاحب الروضة «عليه وعلى آله أكمل التحية».

والنظام الذى وضعه صلاح الدين الأيوبى نُقِضَ فيما بعد وأرسل الأغوات إلى الحجرة المعطرة من قبل ملوك المغاربة والسودان وسلاطينها حتى تجاوز

عددهم مع توابعهم وعبيدهم مائتى شخص، وظهرت النفرة والعداوة بينهم وبين أهل المدينة حتى أدت هذه الحالة فى النهاية إلى قيام الجدال والقتال بينهم.

وقد دامت المنافرة بينهم فترة فى الواقع وأخذ عدد الأغوات فيما بعد يزيد وينقص ولم ينحصر إرسال الأغوات إلى الحجرة العطرة فى سلاطين المغاربة والسودان وسلاطينهم إذ أخذ بعض أصحاب الخير يشاورون عبيدا أو يوقفونهم لخدمة الحجرة المنيفة فاختلط جنس الأغوات وزاد فيما بينهم أصحاب الأخلاق الطيبة وتحولت العداوة التى بينهم وبين الأهالى إلى المودة والأخوة فانخفضت العداوة بينهم كليًا فتعاملوا فيما بينهم مثال الأخوة.

لأغوات مسجد السعادة والحجرة المنيفة وظائف شهرية مخصصة لكل واحد منهم حسب موقعه ومكانته ولهم نظم جارية وقوانين مرعية مثل حراسة المسجد والحجرة المطهرة وتنظيف القناديل وإيقادها وقضاء الليل فى داخل المسجد ولهم أرزاق ومرتبات معينة من قبل السلاطين العثمانيين الكرام. ولهم ثكنات موقوفة من قبل أصحاب البر والخيرات وحدائق ذات محاصيل ولهم صرر تبعث من قبل أصحاب البر فى جميع البلاد الإسلامية وتقسم هذه الصرر بعلم شيوخهم ورؤسائهم وتوزع عليهم كلهم. وجميع الأغوات الذين فى زماننا هم من أصحاب الصلاح والخير ويتسمون بالوقار ويوثق بهم. وإذا ظهرت من بعضهم الرعونة ـ حسب البشرية ـ فإنها لا تجاوز الدائرة المنجية للشريعة الغراء وبما أنهم يخدمون ويرعون ملك الكائنات ـ عليه أكمل الصلوات ـ يلزم ألا يؤاخذوا على ذلك فإذا ما أدوا وظائفهم فى وقار تام وأدب تام فلا يتصور عمل أشرف ببنى البشر من أعمالهم.

ينقسم الأغوات الذين ينحصر عملهم فى إيقاد القناديل وإطفائها إلى قسمين يقال لقسم منهم «سندبليس» والقسم الآخر «مكادة»، وبما أن كل جهات حرم السعادة قد عينت وخصصت لأفراد منهم فعندما يحل الوقت المعين ينشغل كل واحد منهم بعمله ولا يجوز لأى واحد منهم أن يوقد أو يطفئ قناديل الآخر

وبهذا لا يتدخلون فى خدمات بعضهم بعضًا ولا توصف السرعة التى ينجزون بها أعمالهم.

تعريف مقدار خدمة الفراشة الشريفة الجليلة:

تطلق على الخدمة القيمة للكعبة المعظمة والحجرة المعطرة الفراشة الشريفة وقد هيئت هذه الخدمة ووضعت وفق عدد قناديل الحجرة الشريفة ومشاعلها.

قد رتب واضع خدمة الفراشة الجليلة مائة وأربعين قطعة من الفراشة على أن تكون كل قطعة منها أربعة وعشرين قيراطًا. وخص أربعة وعشرين قيراطًا منها بالخليفة العالى الشأن واثنى عشر قيراطًا بأشراف مكة المكرمة وست قراريط بالمنتسبين للحجرة المعطرة وست قراريط لنقباء الفراشين وقسم كل قيراط من اثنتين وتسعين قطعة لخمسة أو ستة أو ثمانية أو عشر أشخاص فأوجد بهذا خمسة آلاف أو ستة آلاف من خدمة الفراشة السعيدة. وقد وضع هذا النظام فى عصر الدولة العثمانية عصر الميراث للمشتاقين لخدمة رسول الله ﷺ التى تستوجب المفخرة وقد خصص لكل قيراط منها حبوب وافية لتكريم أهالى المدينة المنورة ومكة المعظمة، والحبوب التى خصصت لكل قيراط تعطى من قبل الشخص الذى نال هذا القيراط بالبراءة والإذن إلى الأشخاص الذين وكلهم لأداء الخدمة اللازمة من أهالى الحرمين. كما أن أصحاب الفراشة يرسلون كل عام إلى من وكلوهم من أهل الحرمين مقدارًا من الهدايا باسم «الصرة» غير الحبوب فوكلاء خدمة الفراشة من أهالى الحرمين يمضون أوقاتهم قانعين بما يأخذون من مرتبات من خزانة الأوقاف السلطانية، وما يرد إليهم من الصرر من موكليهم.

إن الخدمة الجليلة للفراشة قد قسمت إلى مائة وأربعين قطعة وجزءا كما سبق ذكره أعلاه ولكنها قسمت فيما بعد إلى سبعة آلاف قطعة أو ثمانية آلاف ووزعت على أهالى الممالك الإسلامية بإذن من السلطان وكل من نال ربع قيراط من خدمة الفراشة يوكل أحدًا من أهالى الحرمين ـ كما سبق ذكره ـ ويرسلون للأشخاص الذين وكلوهم صرة نقدية كل سنة، وبناء على هذا يمكن أن يوكل

فراش واحد من قبل عشرة أشخاص أو أزيد وبهذا يوجد من وظيفته أن يوقد «شمعة» أو «قنديلاً» كل خمسة عشر يومًا أو عشرين باسم موكله وبهذا يمكن لوكلاء الفراشة أن يتعايشوا بما يأخذون من الوقف السلطانى من المخصصات وما يرسله أصحاب البراءات العالية من الصرر.

أغلب أهالى الحرمين يتعايشون وفق ما حرر أعلاه والمشتاقون لخدمة النبى ﷺ يبتهجون ويتباهون بحصولهم على ربع قيراط من خدمة الفراشة الجليلة، وهذا يبين مدى رعاية السلاطين العثمانية للمرقد النبوى الجليل وحرم المسجد الحرام وعظم تقديرهم لها.

يطلق على رؤساء الوكلاء الذين تعهدوا بالقيام بخدمات الحجرة المعطرة بدلاً من أصحاب الفراشة الشريفة «شيخ الفراشين» وقد أمسك هذا الشخص دفترًا لتقييد أسماء الوكلاء وتسجيلها وقد تحققت أنه قد قيد فى الدفتر الحالى أسماء ما يقرب من ألف وكيل.

ولما كان الشيخ المشار إليه شخصًا عظيم القدر ذا صفات عالية عند أهل المدينة فمن وظائفه أن يدخل إلى الحجرة المنيرة عند إيقاد قناديلها مع شيخ الحرم ونائبه وخازن خزانة الحرم ومن وظيفته الإشراف على عشرين شخصًا هنديًا المعينين لتعمير الثريات والقناديل وترميمها وتنظيفها.

مقام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما:

فى داخل الحجرة المعطرة وتحت الغطاء القماش المصرى المزركش لقبر السعادة. وحيثما وجد هذان القبران فى الحجرة المسعودة قد نسخ فوق قطعة القماش التى تغطى القبر اسم صاحبه كما أن اسم النبى الطاهر قد زين ونقش باللآلىء الغالية.

وأرضية الغطاء القماش أخضر اللون، وخطوطه بيضاء، وقد زين الغطاء ـ غير الأسماء السابقة ـ بالصلوات الشريفة وأسماء النبى ﷺ بخطوط نفيسة.

ولما كان غسل داخل الحجرة المعطرة كل سنة فى اليوم التاسع من ربيع الأول وفى غرة رجب الفرد والثامن عشر من ذى القعدة من الأصول المتبعة فإنها تُطَيَّبُ وتغسل فى الأيام المذكورة.

وإن كان قد خصص ثلاثة أيام لغسل الحجرة المعطرة إلا أن القيام بهذا العمل على ما هو المطلوب غير ممكن لذا أضيف لتلك الأيام المذكورة يوم لكل واحد منها ففى الأيام الأولى تنظف وتغسل الشمعدانات والقناديل. وفى اليوم الثانى ينظفون داخل الحجرة المنيفة وخارجها ويعطرونها وفق الأصول الآتية:-

صورة غسل حجرة السعادة

يقف أغوات الخبزيين العجمى كلهم أمام الباب الشامى منقسمين إلى ثلاث فرق - وذلك فى الأيام التى تغسل فيها وتمسح الحجرة المعطرة - وفى أيادى فرقة منهم مقاشط خاصة بالحجرة المعطرة والفرقة الثانية معهم مكانس مصنوعة من سعف النخيل والفرقة الثالثة يمسكون بقطع من الإسفنج الكبير ويرتب كلهم صفوفهم، ثم يفتحون الباب الشريف المذكور ويدخلون فى داخل الحجرة المعطرة بكل أدب وسكون يقشطون ما يلزم قشطه وبعد أن يكنسوها جيداً ويمسحونها بقطع الإسفنج ثم يخرجون واحداً تلو آخر خارج شبكة القبر الشريف يوزعون الباقى من الماء المستعمل على سادات سكان المدينة فينالون العطايا.

ويستمر الأغوات الذين فى داخل الحجرة الشريفة فى أثناء الغسل فى ذكر «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والأشخاص الذين اجتمعوا فى الحرم الشريف من أصحاب الشوق والإخلاص يصلون ويسلمون على النبى ﷺ فى صوت واحد، ولا يستطيع أصحاب الوجد أن يمسكوا دموعهم فى هذا الوقت الذى قد امتلأ فيه مسجد السعادة بالصفاء والدهشة والمهابة وهذه الحالة المليئة بالروحانية لا يمكن وصفها ولابد من رؤيتها رؤية العين.

الخدمة الدائمة للخدم:

لما كان نيل سعادة خدمة الحجرة المسعودة غير ممكن التصور لأنها خدمة عظيمة

الشأن فالذين ينالون هذه السعادة من الأمور الطبيعية بالنسبة لهم أن يقوموا بأعمالهم بالوجد والحب والحرص الشديد على أداء أعمالهم على خير وجه؛ لذا يجتمع الفراشون بمسجد السعادة والآخرون من المخلصين والمحبين بعد أداء الصلوات المكتوبة كل صباح أمام مخزن الزيت[1] الكائن فى نهاية مسجد السعادة فيدعون حسب العادة.

وبعد إتمام الدعاء يذهبون فى تؤدة إلى الروضة المعطرة وهم يصلون ويسلمون وقد أخذ كل خادم إناءً نحاسيًا صغيرًا ودستة من فتيل مزيت وبعد أن يعطوا لأربعة منهم إبريقًا مزينًا مملوءًا بزيت الزيتون.

ولما كان فى أيادى أغوات الحراسة الذين يسيرون أمام الفراشين عصيان ذات كلاليب فكل واحد منهم ينزل القناديل الخاصة به وبعد أن يغير[2] الفراشون الذين بجانبهم فتائلها يعلقونها فى أماكنها، ثم يصلون صلاة الإشراق ويعودون إلى أماكنهم. وبعد أن ينتهى الفراشون من مسح القناديل وتغيير فتائلها والكناسون من كنس الحرم الشريف ينادى أحد الخدم الذين اجتمعوا أمام الباب الشامى «يا كناس» وكأنه يريد أن يبين لزملائه أن وقت كنس الحجرة المعطرة قد حان، ويسرع الكناسون للاجتماع أمام الباب الشامى من الحجرة المعطرة ويدخلون فى الحجرة المنيفة ويكنسونها وهم يوحدون ويهللون ثم يخرجون.

تأديب الأغوات المتهمين:

من مقتضيات الأصول المرعية أن يقف الأغوات كلهم من خبزيين والعجمى حسب رتبهم مصطفين بعد الانتهاء من خدماتهم فى تنظيف الحجرة اللطيفة والمسجد الشريف، كما سبق تحريره، وذلك لتأديب الأغوات المتهمين. ويأتى الأغا الذى كانت عليه نوبة الحراسة بالمتهمين فى الميدان وينسحب إلى مكانه وعندئذ يتقدم أحد ضباط الأغوات عدة خطوات ويقدم للمتهم بعض النصائح ثم يأمر بإحضار العصا كما أن استجواب المتهمين ومحاكمتهم يتمان فى مكان آخر

(١) يقال لهذه الخزانة «خزانة التعمير» أيضًا.

(٢) إن سرعة إنزال القناديل وتعليقها مرة أخرى مهارة خاصة بخدمة الحجرة المعطرة.

وعند ثبوت التهمة يتم إحضار المتهم وضربه من مقتضيات القانون القديم الخاص بالأغوات.

ولما يُؤْتَى بالعصى يدخل المتهم بواسطة اثنين من الأغوات إلى خزانة الشموع التى تقع أمام الحجرة الشريفة وتدخل رجلاه فى الفلقة[1] ويؤخذ فى ضرب المتهم على رجليه والجهر بكلمة الشهادة عند الضرب بينما يقف الأغوات الآخرون خارج باب خزانة الشموع فى حالة انتباه.

ويأخذ المتهم الذى أدرجت رجلاه فى الفلقة فى الصياح والاستغاثة، وإذا وجد من يشفع له يُخلى سبيله وإذا لم يوجد من يشفع يضرب إلى أن يقول «الفاتحة» ويغلق باب خزانة الشموع بعد الفاتحة، ويجلس الأغوات الذين عليهم نوبة الحراسة فوق صفة أصحاب الصفة متجهين إلى القبلة بينما يذهب الذين أنهوا نوبة حراستهم إلى تناول الطعام بعد أن يمسحوا ظهرهم على العمود الذى يقع فى الجهة اليمنى لمحراب التهجد وتقبيل أيادى الحراس السابقين.

تأسف: يجهل التاريخ وقت اختراع بدعة ضرب الأغوات وتأديبهم فى داخل مسجد السعادة ولما أصبح هذا النظام فى حكم القانون ولم تفترضه أية جهة فمثل هذا العمل يعد بدعة، خارجًا عن دائرة الأدب، ومخالفًا لأحكام الشريعة؛ فقد أحضروا للفاروق الأعظم فتى يستحق الضرب والتأديب، ولما كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى داخل المسجد أمر بأن يخرج المتهم خارج المسجد حيث يضرب ويؤدب، أما فى زماننا فإن الأمر تجاوز حد ضرب وتربية الأغوات بعضهم بعضًا إلى ضرب شيوخ الخدمة وتأديب أى واحد منهم ارتكب هفوة حتى ولو كان أمام قبر الرسول دون خجل واستحياء، فيصرخ المضروبون ويولولون دون أن يراعوا الأدب فى المكان المقدس. وللأسف الشديد فإن السلوك الذى نهى عنه حضرة الفاروق قد أصبح بدعة مستحسنة بل أخذ حكم الطاعة والعبادة.

ذيل: سألت أحد أهالى المدينة الكرام قائلاً: «إن الضرب فى داخل الحرم

(١) الفَلَقَةُ: عود يتصل به حبلان كانت تُمْسَكُ بهما القدمان عند الضرب.

الشريف يخالف الآداب السلوكية يا ترى ضرب الأغوات ـ كما سبق ذكره ـ يستند إلى دليل موثوق؟

«فأجابنى ذلك الرجل على هذا الوجه: «فى الواقع ضرب الإنسان فى داخل مسجد النبى سوء أدب! ولكن لضرب الأغوات وتأديبهم فى داخل المسجد فائدتان:

١ـ **الفائدة الأولى**: إنقاذ واحد من جماعات المسلمين ـ من الزوار، أو المجاورين ـ المتهم من الضرب. إذا جاء وقبلَ يد الضارب يجب أن تقبل شفاعة هذا الرجل ورجاؤه وإن كان رجلا قليل الشأن ويعفى عن المتهم.

٢ـ **الفائدة الثانية**: أن يضرب المتهم فى داخل الأصناف فإذا ما ضرب المتهم خارج المسجد وفى مكان خفى فإن الأغوات قد يضربونه إلى أن يموت لما فطروا عليه من الرعونة والشدة! وإذا قال المتهم تحت الضرب وإننى لم أرتكب هذا الذنب، فإنكم تضربونى بدون وجه حق أو يخرج من فمه ـ كثيراً ـ ألفاظا مخلة بالآداب فيستمرون فى ضربه قائلين: «إنك تعصى من هو أعلى منك رتبة».

قد شوهد تكرار الضرب حتى فى داخل المسجد عدة مرات!! وذات يوم قال شيخ الحرم شوكت باشا: «إن ضرب إنسان فى داخل مسجد السعادة مخل بالآداب. وبعد هذا اليوم فليبلغ عن كل من يرتكب جُرْمًا من قبل ضابطه ثم تشكل هيئة من ضباط الأغوات لاستجواب المتهم ثم يسجن ويؤدب ويضرب فى مكان مناسب».

وألغيت عادة تأديب المتهمين بهذا الشكل داخل مسجد السعادة. وأراد ضباط الأغوات أن يبينوا خطأ رأى شوكت باشا وردهم لهذه الفكرة فقالوا: «إن زمرة الأغوات تتكون من طائفة العجمى فإذا ما ترك هؤلاء أحراراً يضلون كما يشاءون فيصعب الحفاظ على مسجد السعادة ولاسيما الحجرة المعطرة، فتقع الأمانات والأشياء النفيسة المباركة فى يد السفلة. ومن هنا يقتضى الأمر تربية هؤلاء ولابد لهم أن يحترزوا من رؤسائهم» إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا شوكت باشا برأيهم. ولما أصبح عادل باشا شيخًا للحرم، كرر الأغوات مطالبهم السابقة

ورجوا منه أن يسمح لهم بإجراء أحكام عاداتهم السابقة وأصروا عليه. فقال لهم عادل باشا موافقًا: «اعملوا وتصرفوا وفق عاداتكم القديمة» والآن يتصرفون كما كانوا يتصرفون من قبل.

وعندما يقترب المساء وقبل حلول وقت صلاة المغرب بعشر دقائق يشير الموقدون إلى الفراش الذى عين لإيقاد الشموع والذى ينتظر تحت محفل المؤذنين فيعلن هذا الفراش بصوت مرتفع حلول الوقت قائلاً: «بسم الله» وعندئذ يجتمع الخَدَمَةُ كلهم وقد سمعوا الصوت عند شيخ الحرم النبوى ويقفون أمام قبر الرسول ﷺ، فيرفع شيخ الحرم يده داعيا وفقًا للأصول ويخرج من خزانة الشموع الشمعدانين الذهبيين فيعطى أحدهما لشيخ الحرم والآخر لنائب الحرم فيدخلان إلى حجرة السعادة، ويسيران فى داخل الحجرة المعطرة بكل أدب وتعظيم ويضع شيخ الحرم أحد الشمعدانين ناحية رأس النبى ﷺ والآخر ناحية قدميه، وبعد أن يتمسحا بقبة قبر الرسول ﷺ يخرجان. ثم يدخل شيخ الحرم إلى الحجرة الشريفة مرة أخرى بعد أن يعطى لشيخين شمعتين مدببتين لإيقاد قناديل الحجرة وإناءً مدببا من النحاس[1] لكل واحد منهما.

ومن القوانين القديمة ومقتضياتها أن من يضع الشمعدان الذى يوضع بجانب رأس النبى ﷺ هو شيخ الحرم وأن يدخله بذاته، كما أن الشمعدان الذى يوقد بجانب قدمى النبى ﷺ يدخل من قبل نائب الحرم ويخرج كذلك. كما أن القوانين المرعية أن يحمل خازن خزانة الحرم فى أثناء ذلك مبخرة وينهمك شيخ الفراشين بالدعاء؛ إلا أن نقل المبخرة الذى يستوجب الفخر وإن كان خاصًا بالخازن قد شوهد أحيانًا قاضى المدينة المنورة ومدير الحرم السعيد قد حملاها متناوبين.

بعد أن يؤدى شيخ الحرم ونائب الحرم مهمتهما مصلين مسلمين يعودان متقهقرين أحدهما من يمين القبر والآخر من يساره، وبما أن الأشخاص المكلفين بإيقاد القناديل يؤدون مهمتهم ومعهم المشار إليهما، يُؤذَّنُ بعد ذلك وينصرف كل واحد إلى جهة لأداء الصلاة.

(١) تهدى هذه الأوانى من قبل أصحاب الخيرات.

إخطار

إن السعداء الذين يتواجدون فى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ وهم يحملون البراءة السلطانية لخدمة الفراشة يستطيعون أن يؤدوا وظائفهم بأنفسهم بدلالة وكلائهم وذلك مثل إيقاد القناديل. انتهى.

وبعد أن تؤدى صلاة العشاء وتتفرق جماعة المصلين يغلق أغوات الخبزى والعجمى أبواب الحرم وقد أمسكوا فى أياديهم فوانيس ملونة ويخطرون من يصادفونهم من الأفراد بضرورة خروجهم من المسجد قائلين «بسم الله» أو «لا إله إلا الله» وبعد أن يغلقوا أبواب المسجد يستقبلون حجرة السعادة ويصيحون قائلين «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» وهم واقفون أمام باب الرحمة ويصلون على النبى ﷺ مجتمعين فى صوت واحد.

وروحانيته عندما تنضم آيات الفيوضات النبوية إلى سكون مسجد السعادة وهدوئه وروحانيته فإن المهابة والدهشة المعنوية اللتين تحدثهما الصلوات التى يطلقها الأغوات، تلك الصلوات المليئة بالوجد المحمدى تصيبان الإنسان بالقشعريرة وتوقفان شعر بدنه ترفرف روحه حول بدنه كأنها أثير، ولا يمكن لهؤلاء الذين يستمعون لهذه الأصداء التى تثير الأشواق إلا أن يبكوا وإن كانت قلوبهم قدت من صخر.

صورة تسكين الأغوات:

ينسحب الأغوات عقب الصلاة والسلام على محمد ﷺ إلى الساحة الرملية لحرم السعادة، وينامون فى مكان مخصوص لهم أمام باب النساء على وضع غريب، ولكل أغا فرش للنوم يشبه الخيمة، وحينما ينفردون للنوم يضع كل واحد منهم عمته فوق فراش النوم ثم يتجهون برءوسهم نحو الروضة المطهرة وبأرجلهم نحو باب النساء ونصف أجسامهم تحت الخيمة والنصف الآخر خارج الفراش الذى يشبه الخيمة. فإذا ما رأى أحد هذه العمم فوق الفراش يظن أن الأغوات قد وقفوا لأداء الصلاة مصطفين.

ومن أحكام القوانين القديمة أن يظل أحد الأغوات فى داخل مسجد السعادة لنوبة الحراسة وأن يفتح الباب كل ليلة لرئيس المؤذنين الذين يؤذنون قبل الصباح بثلاث ساعات من باب النساء وينادى مخاطبًا أغوات الحراسة قائلاً: «لا إله إلا الله»؛ فيجيب الأغا الذى فى نوبة الحراسة من الداخل «محمد رسول الله» العبارة المنجية ويفتح له الباب. وبعدما يفتح باب النساء ويضع الأغوات فرشهم فى المكان الخاص بها يقف رئيس المؤذنين أمام المئذنة الرئيسية يأخذ الدستور وهو يصلى على النبى ﷺ قائلاً: «اللهم صل وسلم وزد وأنعم وبارك على أسعد العرب والعجم إمام طيبة والحرم سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم ورضى الله تعالى عن كل الصحابة أجمعين الفاتحة»، ثم يصعد على المئذنة سابقة الذكر ويأخذ فى التهليل والتسبيح ويوقظ سكنة دار السكينة من نوم غفلتهم ثم يتبدد الصوت وهو رخيم حزين محرق فى الأذان والذين يسمعون الأذان يستيقظون ويتوضئون ويوقظون أهل البيت ثم يذهبون إلى المسجد الشريف ويواظبون فى قراءة الأذكار إلى أن يحين وقت الصلاة، وذلك لأداء الصلاة والسلام فوق المآذن إلى طلوع الفجر وبعد ذلك يؤذن للإعلان عن حلول وقت صلاة الفجر.

ومن أحكام القوانين الجارية بين الأغوات إغلاق باب النساء بعد دخول المؤذن وعندما يصل المؤذنون الآخرون يفتح الباب المذكور مرة أخرى ويغلق بعد دخولهم وتستغرق الأوقات غير أذان المغرب نصف ساعة وتستغرق التهاليل والتسليمات والتسابيح التى تلقى قبل صلاة الفجر ساعتين ونصف ساعة ويتناوب المؤذنون سواء كان فى الأذان أو التسابيح والتهاليل. ومن عادات أهل المدينة التى لا يطرأ عليها التغيير، صعود رئيس المؤذنين على المئذنة الرئيسية قبل طلوع الفجر بساعة، وإبقاء الأغوات القناديل والثريات عندما يبدأ المؤذن فى الصلاة والسلام، ووصول الأهالى واحدًا تلو آخر ليظلوا فى انتظار حلول وقت صلاة الفجر.

وفى الوقت الذى يمضى بين الأذانين ينهمك بعض الجماعة فى تلاوة القرآن وبعضها فى ذكر الله والبعض الآخر يسفحون دموع الندامة من عيونهم، ويحل

فى المسجد بإصدار أصوات الحفاظ همهمة تخرج أصحاب الوجد والإخلاص من شعورهم، وفى هذه الحالة من السعادة ينزل المؤذنون من المآذن وينادى الذين فى المحفل قائلين، الفاتحة، ويؤدى العلماء الكرام مع الجماعة ركعتى السنة وعند الإقامة يصلون فرض صلاة الفجر مقتدين بإمام المذهب الشافعى ثم يدعون ويبتهلون ثم تبدأ رحلة الوعظ والنصيحة ويستمع إلى القرآن الذى يتلوه الحفاظ المحترمون.

ويمضى الوقت على هذه الحالة ما يقرب من ساعة ثم ينادى أغوات نوبة الحراسة قائلين «الصلاة» فينهى العلماء دروسهم ونصائحهم ثم تقام الصلاة مرة أخرى فتصلى جماعة المذهب المالكى، وبعد أداء الصلاة والدعاء يفتح باب الحجرة ويلج شيخ الحرم ونائب الحرم فى الحجرة الطاهرة ويخرجان الشمعدانين منها ويدعوان بعد إطفاء القناديل.

خدمات خدم مسجد السعادة الدائمة والمؤقتة:

وكان للمسجد الشريف قديمًا غير أغوات حجرة السعادة مائة وعشرون شخصًا من الخدم والموظفين، وكانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام هى «البوابون، الفراشون، والكناسون» وكان كل قسم تحت رياسة شيخ ما، كما كان يستخدم ثلاثون شخصًا من الخارج يطلق عليهم «وكلاء الخدم» وكان للمسجد الشريف فى تلك الأوقات خمسة وعشرون إمامًا حنفيًا، اثنا عشر إمامًا شافعيًا، وعشرون خطيبًا حنفيًا، وعشرة خطباء من المذهب الشافعى، وخطيب مالكى وآخر حنبلى، وخمسة وثلاثون مؤذنًا، وكان هؤلاء كلهم يؤدون خدماتهم بالمناوبة، ومع مرور الأيام زاد عدد الخدم حتى وصلوا إلى العدد الذى سيرى فى الفهرس الآتى:

الخطباء والأئمة فى الحرم النبوى الشريف

العدد	الشخص
٤٦	الخطباء الكرام «يقومون بالإمامة أيضًا بعض الأوقات»

٣٧	الأئمة الكرام
٣١	مراهقون
٣٤	صغير
١	نقيب
١٤٩	المجموع
١	شيخ
٣٨	رؤساء
٣٩	

مكبرو الحرم الشريف

١	شيخ
٢٥	مكبر
٢٦	المجموع
١٩[1]	-
٧	
١	برقى
١	نقيب الرؤساء
١	موقت الحرم الشريف
٣	المجموع

(١) ربما أن من يقومون بمهمة الرؤساء وقد قيدوا فى صف الرؤساء طرحوا من هنا.

بوابو الحرم الشريف
٢ بواب باب الرحمة
٢ بواب باب السلام
٢ بواب باب النساء
٢ بواب باب التوسل
٢ بواب باب جبريل
١ بواب السور الخشبى

---

١١ المجموع

سقاءو الحرم الشريف

١ الشيخ
٩ السقاءون

---

١٠ المجموع
الحراس الذين يقفون مصطفين عندما يفتح باب الحجرة المعطرة صباحًا ومساءً
١ شيخ

استطراد

لم يكن فى صدر الإسلام أمام خطباء المدينة المنورة مؤذن منبر، وبعد ما احترق مسجد السعادة وخرب وضع نظام وجود أحد الأشخاص أطلق عليه مؤذن المحراب لحماية الخطباء من اعتداءات الأشقياء، وكان أكبر دافع لوضع هذا النظام هو اعتداء فرقة من غلاة الفرقة الإمامية وإساءتها، وقد استولت تلك الفرقة المذكورة على المدينة المنورة قبل الحريق وبالتدريج تغلب أفرادها على أفراد مذاهب الحق بالتدريج وسيطروا على مسجد السعادة وعلى جميع المساجد الأخرى والأضرحة التى أداروها وفق تعليمات وطقوس مذهب الرفض والإلحاد ومنعوا أصحاب المذهب الحق من الدخول فى مسجد السعادة وطبقوا فى المسائل الشرعية أحكام مذهبهم وحرفوا دقائق الكتب الفقهية كيفما شاءوا.

وانتزعوا زمام الحكم فى فترة ما واغتصبوا دور إفتاء مذاهب الحق، وتدخلوا فى الأحوال الشخصية لهذه المذاهب الحقة من حيث عقد النكاح وأخضعوا على الأحكام الفرعية لمذهبهم وأصبح لا يعقد النكاح دون الاستئذان من قضاة تلك الطائفة ودون وجود أحد أئمتهم. وطفح كيل أهل المدينة من مظالمهم التى لا تطاق وتشتتوا فى أطراف البلاد الأخرى فرادى ومثانى، واتحد أفراد الملاحدة واتفقوا على ألا يدخلوا أحدًا من علماء المذاهب الحقة فى دار الهجرة، وطردوا العلماء الذين فى داخل المدينة واحدا تلو آخر؛ وبهذا أصبحت المدينة المنورة تحت أيدى طائفة الرافضة وخلع كل واحد منهم برقع الحياء والأدب وخرجوا جميعًا من دائرة الشرع المنجية، وابتدعوا بدعًا كثيرة متعددة وارتكبوا مساوئ تستدعى غضب الله، وهكذا كانوا سببًا فى احتراق مسجد السعادة، حتى إنهم رأوا بعض الأبيات كتبت على جدران المسجد الباقية دون الاحتراق من قبل الرحمن وأخبروا ذلك وكانت الأبيات المشهودة تبين إساءات الطائفة المذكورة وقد سطرت أيضًا فى الصورة من الوجهة الأولى، ولما استمرت وقاحة هذه الطائفة بعد تجديد مسجد السعادة أيضًا قويت إرادة أحد ملوك «نصير» الشراكسة فعين مفتيًا لموحدى المذهب الحق فى المدينة المنورة، وهكذا أرسل إلى طيبة الطيبة المفتى «شاهى» من أفاضل الفقهاء، ولما وصل المفتى المرسل من «نصير» إلى المدينة رأى أن أفراد المذاهب الحقة لا حكم لهم فى المدينة المذكورة لأجل ذلك فضل أن يؤدى مهمته فى مسجد ينسب إلى أبى بكر الصديق وقد أصبح مسجد السعادة تحت سيطرة غلاة الملاحدة وأخذ يصلى هناك ليلاً ونهارًا يعظ وينصح الناس فى خفاء وعزلة، وقد ظهر فى أثناء ذلك كثير من الموحدين الذين احترقت أكبادهم بنار الغيرة على الإسلام، وبذل المفتى جهده للتغلب على طائفة الملاحدة واستطاع بتصرفه الحكيم أن يدخل فى المسجد الحرام مع جم غفير ممن التفوا حوله من أتباعه وأخذ يعظ هناك وينصح وبهذه الطريقة الأصيلة استطاع أن يزيد عدد أتباع جماعات المذهب الحق يومًا بعد يوم وبهذا ظهرت علامة إمكانية التغلب على الملاحدة.

ولما رأت الطائفة المذكورة ازدياد أتباع المذهب الحق أخذت تتبع المفتى حيثما يذهب وتؤذيه فى جسمه وترجمه بحجارة الجور والإهانة حيثما يعظ وينصح من المساجد، إلا أن المفتى قد فتح صدره بالصبر لتحمل اعتراضات الملاحدة وزاد من عدد جماعته يومًا بعد يوم وبهذه الطريقة استطاع أن يعظ ويخطب أحيانًا حتى فى مسجد السعادة إلا أن جور ملاحدة الإمامية وأذاهم زاد قدر سعيه وجهده إذ أخذوا يرجمونه حينما يخطب فى المسجد حتى وهو يستأذن النبى ﷺ واقفًا أمام قبره وتعرض إلى غير ذلك من الأذى والتعب حتى أصبح يخاف على نفسه فقلت جرأته ـ وفق عادات البشر ـ وأراد أن يحصر وظيفته ـ الإمامة والخطابة ـ فى المسجد الذى ينسب لاسم الصديق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ ومع هذا لم يتركوه على راحته حتى فى مسجد أبى بكر ولم يستطع أن يؤدى مهمته مستريحًا.

وقد تأثر أفراد سادات المذاهب الحقة من هذا الوضع وثقل عليهم، لذا قرروا فى مجلس عقدوه لبحث هذا الموضوع أن يخطب المفتى فى مسجد السعادة فإذا ما التزمت الطائفة المذكورة طريقة الإساءة والأذى والتسلط كان له أن يقاومهم بالسلاح وقد كثر عددهم وعلى هذا عادوا يومًا لأداء الصلاة فى مسجد السعادة، وقد اتحد مردة دائرة الرفض والإلحاد على أن يؤذوا ويسيئوا للخطيب فى داخل جماعته إلا أنهم جبنوا عن ذلك لما وصلهم من اتفاق أهل المدينة على المقاومة وأنهم كلهم متسلحون وعلى هذا لم يستطيعوا أن يتسلطوا على الخطيب بالرجم بل أطالوا ألسنتهم وأظهروا خبثهم بهذا الشكل.

وأخذ المفتى بعد هذه الواقعة يكثر من خطبه ومواعظه فى مسجد السعادة. إلا أن هذا العمل أثار غيظ علماء الطائفة المذكورة وغضبهم لذا فكر عقلاء الأهالى أن يحموا شخص المفتى ذو المحاسن من سهام إهانة الأشقياء وعن سوء قصد الملاحدة وقرروا أن يسير أمام الخطيب المفتى حينما يقوم من مكانه الخاص ويتجه إلى منبر السعادة حارسًا وشخصًا آخر أطلقوا عليه مؤذن المنبر، وفى الواقع إن هذا القرار كان صائبًا ومناسبًا لوقته.

وبناء على ما عرف ـ فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة ـ أن الأمور سارت على ذلك المنوال فترة ما إلا أن الأهالى تغلبوا على جماعة الملاحدة المكروهة وأخرجوهم كافة من بلدة المدينة المنورة المباركة إلا أن الأهالى قد أبقوا خدمة مؤذن المنبر لسبب ما، ومن ذلك الوقت أصبح من العادة أن يسير أمام خطباء الحرمين مؤذن منبر فى أيام الجمع والأعياد، والآن يوجد مؤذن منبر أمام الخطباء الذين يتجهون لإلقاء الخطبة رعاية لهذا النظام سواء أكان فى المدينة المنورة أو مكة المكرمة وفى بعض البلاد العربية.

ولا ينكر فوائد هذا النظام الشامل للمحاسن فإن كان مثل هذا النظام فى باب السعادة لما أصيب خطيب جامع الوالدة فى أقسراى بجرح فى أثناء خطبته.

مولد النبى ﷺ يحيى أهالى المدينة ليالى المولد الشريف فى داخل المسجد الشريف ويجتمعون فى حلقات قرب الصباح أمام «باب النساء» وبعد أن يحضروا كرسيًا إلى الساحة الرملية لحرم السعادة، يستمعون إلى المولد الشريف من قبل خمسة أشخاص ذوى أصوات رخيمة والشيخ الخطيب ويشربون الشراب الذى يوزع عادة ويعودون إلى منازلهم.

ويشرع فى قراءة القصيدة المذكورة مع طلوع شمس اليوم الثانى عشر من كل سنة وإن كان قُرَّاء المولد من أئمة مسجد السعادة إلا أن لهم وظائف أخرى، وقارئ المولد الأول خاص بقراءة منقبة مولد السعادة وإنه يصعد فوق كرسى موضوع فى ساحة الحرم الشريف الرملية ويقرأ حديثًا ثم يدعو لسلطان الزمان وينزل، ثم يصعد الثانى ويقرأ ولادة النبى ﷺ الباهرة، ويقرأ الثالث الرضاع، والرابع يقرأ جزءًا خاصًا بالهجرة السنية، والخامس يدعو، وهكذا يؤدى كل واحد منهم وظيفته.

فتح المحال فى يوم مولد النبى للبيع والشراء، والانشغال بأشياء أخرى ممنوع قطعيًا بين أهل المدينة المنورة، يلبس فى ذلك اليوم الفيروزى الكبير والصغير الغنى والفقير كلهم ملابس فاخرة ويحتفلون بالعيد ويهنئ بعضهم بعضًا قائلين

حينما يتقابلون إن هذا اليوم السعيد اليوم الذى ولد فيه سيد الكائنات إن أجسام الكائنات التى كانت ميتة تقريبًا تجددت حياتها، المواسم المقدمة الأخرى خلقت لحرمة هذا اليوم، وقد نزل القرآن الكريم المبين لأجل هذا النبى المختار هذا اليوم يوم العيد الأكبر، هيا نظهر أقصى ما نستطيع من الفرح والسرور ونعلن هذا اليوم بإطلاق المدافع من القلاع وتفجير حشو البارود.

زيارة مشهد حمزة: ولما كان من عادة سكان البلاد الحجازية زيارة ضريح سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ فى الليلة الثانية عشرة من رجب الفرد من كل سنة، فيذهب أهالى المدينة الطاهرة لزيارة مشهد سيدنا حمزة فى الليلة الثانية عشرة من شهر رجب وبعد الزيارة ينتشرون فى الخيم التى نصبت بجوار مرقد الشهيد المشار إليه ويحتفلون إلى الصباح وهم يطلقون حشو البارود.

ويخرجون فى الثالث والعشرين من رجب لاستقبال قافلة الزوار الذين يطلق عليهم «الرجبية» إلى خارج المدينة، وهؤلاء يفدون من الأطراف والأكناف قاصدين الزيارة، وبما أن هؤلاء الزوار يأتون إلى دار الهجرة راكبين الهِجَانَ قد يطلق عليهم «ركاب» أيضًا.

وتتكون طائفة الرجبية من الزوار الذين يأتون من اليمن ومكة والطائف وأهالى البلاد العربية وخاصة من البلاد والقرى القريبة المجاورة لدار الهجرة، وكل هؤلاء يأتون راكبين الهجان ومعهم أولادهم وعيالهم وكل قبيلة قد رفعت عَلَمَهَا وجلبوا رئيس قبيلتهم أمامهم ويدخلون بالشوق والإخلاص داخل حرم السعادة وينالون شرف مسح وجوههم على عتبة مرتبة العرش النبوى ويتلون النعوت الشريفة والصلوات الشريفة ويبكون متأثرين بما يحدث هذا الموقف من أثر شديد فى نفوسهم.

عندما يدخل زوار الرجبية فى حرم السعادة يبكون قليلاً إذ ترق قلوبهم، يسفحون الدموع الدامية إلى حَدّ أن من يرونهم تذوب قلوبهم كالملح وإن كانت فى قساوة الحجر الأسود، إنهم يفدون إلى المدينة المنورة ويقتحمونها مزدحمين

حتى تكاد المدينة طيبة الشهيرة تمتلئ رحباتها يقيمون فى خشوع وخضوع ثلاثة أيام بلياليهن أمام قبر النبى ﷺ وينشدون القصائد والمدائح دون توقف وهى قصائد فى مدح النبى ﷺ ذات أثر بالغ فى النفوس وأناشيد دينية:

مـــرحبًا بـــك يـــا محمـــد مـــرحبًا مـــرحبًا مـــــرحبًا

إلى آخره.

وينتحبون بشدة من أثر مهابة المجلس الذى يعقدونه فى داخل حرم مسجد السعادة إذ يقف من يشهده شعر جسمه من غلبة المحبة المصطفوية عليه ويسفح من عيونه دموع الحيرة وهو صامت ساكن.

واليوم الرابع لورود الطائفة المذكورة تحل ليلة المعراج وبعد أداء صلاة العصر يوضع كرسى مزين فى ساحة باب الرحمة فيجلس عليه شخص رخيم الصوت جميله ويأخذ الشخص فى تلاوة منظومة «المعراجية» بصوت حزين ذات تأثير ويلقى فى قلوب السامعين نار الوجد والمحبة ويغادر الكرسى.

ويجتمع بمنطقة المعراج المبارك كافة أفراد الزوار من الرجبية وأعيان وأشراف البلدة فيمتلئ مسجد السعادة لآخره من الداخل والخارج حتى يكاد يتحول إلى ساحة عرفات ذات الفيوضات ويهتز كل ركن منه بصياح ونحيب الموحدين حتى غروب الشمس.

ولما كان ينتظر وقوع بعض الفوضى والفساد نتيجة لهذا الزحام الشديد قد وضع بعض العساكر ورجال الشرطة حتى يحولوا دون حدوث ذلك وتتشكل هذه الجماعة فى الطرف الغربى من حديقة الرسول وقارئها شخص واحد منفرد. وسواء أكان فى الاحتفالات بالمعراج أو المولد الشريف تنصب خيمة فى خارج مسجد السعادة حيث تجهز المشروعات ويسقى الجماعات الذين فى داخل المسجد بأوان خاصة بالمياه. وتظل هذه الخيمة فى مكانها حتى تتفرق الجماعة تمامًا.

ومن العادات القديمة فى هذين الاحتفالين إرسال شراب حلو إلى منازل ألفين من الموظفين والأهالى ففى الوقت الذى ستزال فيه الخيمة ترسل إلى دائرة

المشيخة ودائرة نائب الحرم وإلى منازل الأغوات والأشخاص الآخرين وإلى العساكر السلطانية وإلى موظفى الحكومة وإلى أعيان البلاد وسادتهم إناءين أو ثلاثة أوان من الشراب وتتحمل كل هذه النفقات خزانة المديرية.

وبما أن وجود زوار آثار السعادة المصطفوية فى ليلة المعراج فى داخل المسجد النبوى من النظم المرعية فطائفة الرجبية يحتفلون فى داخل المسجد توأم الجنة ويزعجون أهالى المدينة بصياحهم وأنينهم حتى الصباح وبعد أن يصلوا صلاة الفجر مقتدين بإمام المذهب الشافعى وبعد أن يمر نصف ساعة من شروق الشمس يمتطون هجانهم ويعودون إلى بلادهم وبعد الوصول يقومون بإجراء مراسم التهنئة فيما بينهم.

ومن العادات القديمة الجارية بين الأهالى توديع طائفة الرجبية وتشييعهم ففى اليوم الذى ستغادر فيه الطائفة المذكورة يخرج عامة الأهالى إلى خارج القلعة ويعودون مبتهلين بالهم والبكاء وقد تأثروا بنياح المفارقين، وصياحهم، ويطلق بين العرب لهذه الزيارة «حج النبى».

الوجهة الثانية

وتعرف حكم شد الرحال إلى المدينة بغرض زيارة مسجد الرسول ﷺ وتفصيل الأحاديث النبوية التى وردت فى الدقة والعناية بآداب الزيارة والمجاورة وفى فضائل المسجد الشريف والمنبر اللطيف والروضة المنيفة.

ذكر الأحاديث الشريفة التى وردت بخصوص شد الرحال لزيارة مسجد الرسول ﷺ وآراء الفقهاء العظام وموقفهم فى هذا الباب.

وعد الرسول ﷺ بشفاعة أمته المخلصة عندما قال بأمر من الوحى «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[1] (حديث شريف) وذلك لكل واحد من الذين يزورون قبره.

بما أن هذا الخبر اللطيف قد روى من قبل أئمة الرواة ابن خزيمة والبزار والدَّارَقُطْنِى والطبرانى عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - فلا شك فى صحته.

ذو الشهامة يزورون المرقد ... لا يحرمون من ألطاف الله
لقد بشر أحمد بالشفاعة ... لتكن مجنونًا إذا لم تحظ بها

كما أن زوار الرسول ﷺ مبشرون بالحديث الشريف الذى روى مرفوعًا عن طريق عبد الرحمن بن زيد عن الإمام البزار عن ابن عمر رضى الله عنهما. «من زار قبرى حلت له شفاعتى»[2] (حديث شريف)، «من جاءنى زائرًا لا يعلم له حاجة إلا زيارتى، كان حقًا على أن أكون له شفيعًا يوم القيامة»[3] (حديث شريف).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عمر، وعزاه للطبرانى فى الكبير والأوسط، وقال: فيه مسلمة بن سالم وهو ضعيف.

وبناء على هذا الحديث الشريف فلا شبهة فى أن النبى ﷺ سيشفع يوم القيامة المفزع للذين يشدون الرحال إلى المدينة المنورة لزيارته ـ عليه السلام ـ وقد نقل وروى أبو بكر بن المقرى فى «معجمه» مرفوعًا عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن طريق مسلمة بن سالم الجهنى هذا الحديث.

وكل من يزور الرسول ﷺ بعد الحج بناء على الخبر الصحيح «من حج فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى»[1] (حديث شريف) يكون كمن شاهد الرسول ﷺ فى حياته، وبناء على قول ابن الجوزى ينال أجر مصاحبة الرسول ﷺ، وقد روى هذا الخبر الإمام الطبرانى فى كتابيه «الكبير» و«الأوسط» عن زوجة الليث عائشة بنت يونس وعائشة عن زوجها الليث كما أنه رواه عن حفص بن أبى دواد القارى، وبما أن ابن الجوزى قد أخبر أن لفظة «صحبنى» من جملة كلمات هذا الحديث الشريف فلا شك فى أن الذين يوفقون فى أداء الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ يكونون قد زاروا الرسول ﷺ فى حياته ونالوا شرف مصاحبته.

ومع ذلك فالذين يذهبون لأداء الحج ولا يزورون قبر الرسول بدون عذر شرعى يكونون قد جفوا الرسول ﷺ، وهذا قد ثبت بالخبر الصحيح الذى رواه الدارقطنى عن طريق نعمان بن شبل وهو «من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى» (حديث شريف) وقد نقل وروى الحديث المذكور نعمان بن شبل عن الإمام مالك والإمام مالك عن نافع عن ابن عمر «رضى الله عنهما» مرفوعًا.

(١) من طريق عائشة بنت يونس رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط قال الهيثمى فى المجمع: «عائشة بنت يونس لم أجد من ترجمها».
مجمع الزوائد ٤/ ٢ ومن طريق حفص بن أبى داود رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط. وحفص بن أبى داود وثقه أحمد وضعفه جماعة من الأئمة.

وقد اعترض بعض الرواة على هذا الحديث قائلين «إن نعمان بن شبل قد انفرد بهذا الحديث[1].

وإذا ما نظرنا إلى ما رواه الدارقطنى عن نافع مرفوعًا عن ابن عمر رضى الله عنهما، «من زارنى إلى المدينة كنت له شفيعًا أو شهيدًا» فالذين لا يزورون النبى ﷺ فمن البداهة أنهم يجفون الرسول ﷺ، لأن الحجاج الذين يذهبون إلى البلاد الحجازية ولا يزورون قبر الرسول ﷺ فكأنهم لم يهتموا بما جاء فى الحديث الشريف من الكرم واللطف والمروءة، لأن رغبة الرسول ﷺ فى الزيارة مبنية على أن ينال الزوار الأجر والمثوبة، لأن الحديث الشريف «من زار بيتى» وعلى قول «من زارنى كنت له شفيعًا أو شهيدًا ومن مات فى أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة» الذى رواه أبو داود الطيالسى ـ رحمه الله ـ يؤكد الحديث الأول كما يؤكد مجافاة الذى لا يزور قبر الرسول ﷺ.

روى منهال بن عمرو عن سعيد بن المسيب: قد رأى بلال الحبشى بعد فتح بيت المقدس فى رؤياه النبى ﷺ وبناء على الأمر النبوى الذى يجب أن يطاع من الكائنات كلها ذهب إلى المدينة وشغل بزيارة قبر الرسول ﷺ.

عمر بن عبد العزيز الذى هو أعدل أهل السلوك وأزهد ملوك بنى أمية بينما كان مستقرًا ومقيمًا فى الشام يأمر بزيارة قبر الرسول ﷺ فى المدينة المنورة فيذهب ويزور قبر الرسول ويعرض سلامه وصلاته عليه.

أما الفاروق الأعظم عندما عاد من فتح بيت المقدس ذهب رأسًا إلى حجرة السعادة، فزارها وألقى السلام على صاحب الرسالة ثم عاد إلى بيته.

ويقول يزيد بن المهدى، وعندما كنت سأعود من جنة الشام إلى مدينة الإسلام

(١) قال ابن حبان فى كتابه «المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين»:
النعمان بن شبل: من أهل البصرة، يروى عن أبى عوانة ومالك، أخبرنا عنه الحسن بن سفيان، يأتى عن الثقات بالطَّامَّات، وعن الأثبات بالمقلوبات، و أورد له هذا الحديث المذكور هنا.
أنظر: المجروحين لابن حبان ٣/ ٧٣، وميزان الاعتدال ٤/ ٢٦٥.

زرت مجلس عمر بن عبد العزيز الذى كان أمير مصر، فقال لى الأمير عند توديعه: «يا يزيد عندما تصل إلى دار السلام قبة الإسلام وتزور قبر سلطان الرسالة ـ عليه أجمل التحية ـ أرجو أن تعرض سلامى وتحياتى لذلك الجوهرة الفريدة للكونين المدفونة تحت ثرى المدينة ذات عطر كالمسك».

وكان عبد الله بن عمر كلما يعود من سفر من أسفاره، كان يدخل فى الحجرة المعطرة ويزور الرسول الكريم ﷺ وبعده قبر الصديق وبعده والده ابن الخطاب ويسلم عليهم وهذه الرواية الصحيحة منقولة من الإمام نافع، إذ يخبرنا الإمام أن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ كان يعرض سلامه وتحاياه على الدرة اليتيمة التى تظهر فى داخل حزمتها المنورة الرسول ﷺ، وإننى قد رأيت ذاته السامية أكثر من مائة مرة وهو يقف فى حضور صاحب الرسالة يقول «السلام عليك يا رسول الله» ثم يقول السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبى ويشغل بالزيارة بهذه الطريقة، بيتى يوصل سلامه إلى المعرض المعلى للرسالة مشافهة ثم إلى رفيقى حياته ومشاركى حجرته الصديق الأكبر والفاروق الأعظم رضى الله عنهما، ثم يعود، وقد دخل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يومًا ما فى المسجد الشريف فرأى مرقد فاطمة «رضى الله عنها» وبكى كثيرا وفى النهاية دخل فى الحجرة المعطرة وبعد أن بكى طويلاً قال «عليكما السلام يا أخوى ورحمة الله» وهكذا سلم على أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وعاد بعد ذلك؛ لأجل ذلك فالفقهاء العظام الذين يتشرفون بلقب حجج الإسلام يتجهون إلى المدينة المنورة بقصد زيارة قبر السعادة.

وبعد أن يصلوا إلى المسجد الشريف الذى يقابل البيت المعمور وهم محرمون وقد اهتزت جنباتهم من الابتهاج والفرح، يزورون الروضة الشريفة التى حسدها روض الجنان، ثم المنبر المنير، ثم القبر المنيف الذى يحتوى على الرسول ﷺ، ثم يزورون الأماكن التى سار فيها وتنزه والأماكن التى جلس فيها مستندا على

الأعمدة التى اتكأ عليها عند نزول الوحى، ثم يزورون ويتبركون برؤية الأماكن الخاصة بالأصحاب الكرام الذين اشتركوا فى بناء المسجد وصرفوا النقود فى تعميره وكذلك التابعين ذوى الشهرة ثم يذهبون إلى آثار الصلحاء وفقهاء الأمة الذين قد أدوا فريضة الحج، فذهاب الحجاج الآن إلى دار الهجرة مبنى على ما فعله الأسلاف.

وقد اختلف علماء الأسلاف فى أفضلية ذهاب الحجاج أولاً إلى المدينة أو العودة إليها من مكة بقصد زيارة قبر السعادة وقد التزم جانب أفضلية الذهاب إلى المدينة أولاً علقمة وأسود وعمرو بن ميمون، وقال الإمام أبو حنيفة «فالأحسن بالنسبة للحجاج الذهاب إلى مكة أولا ثم العودة إلى المدينة بعد عرفة» وقد رجح أبو الليث السمرقندى فى فتاويه القول الثانى على القول الأول، ولما كان عدد من الأئمة اقتنعوا بجواز القول الأول فصحته محققة أيضًا.

إخطار

قد أصبح فى زماننا من حكم العادة ذهاب الحجاج إلى المدينة ورجوعهم منها بين العيدين، ويعود بعض الحجاج إلى بلادهم عن طريق قناة السويس راكبين السفن بعد ذهابهم إلى المدينة بعد وقوفهم بعرفات مع أن الذين يذهبون إلى المدينة بعد عرفة بقصد الزيارة لا يستطيعون أن يبقوا فى المدينة إلا ساعة أو ساعتين ومع هذا يقفون معظم أوقاتهم فى ينبع البحر فى انتظار السفن ويتعرضون لمشكلات كثيرة كما وردت فى ذلك الأخبار الموثوقة، ومن هنا ينبغى على الحجاج الذهاب إلى مكة المعظمة أولاً ثم الذهاب إلى المدينة المنورة بين العيدين، والذهاب إلى المدينة بين العيدين بالنسبة للحجاج الذين يعودون بحرا إلى بلادهم، أما بالنسبة للحجاج الذين يعودون برا فمن الخير لهم أن يزوروا المدينة بعد العودة من عرفات.

نصيحة

كان الذهاب إلى الحج بحرا قبل خمس سنوات أو عشر أهون من حيث النفقات وأدعى للراحة البدنية، ولكن منذ ثلاث أو خمس سنوات تغير الحال فالعودة بحرا أصبحت أمرًا مضرًا ومهلكًا لأن المشكلات التى يتعرض لها الذاهبون والآيبون بحرًا فى مواقع الحجر الصحى زادت من النفقات بالإضافة إلى ضياع الوقت كما تتسبب فى التعب الجسمانى، فالحاج الذى يريد أن يعود بحرًا فى حاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثة أشهر وإلى نفقات من خمسين أو ستين قطعة ذهبية من ذات المائة، فضلاً عن تخمين ما سيتعرض له من المحن والمشاق.

حتى لا يتعرض الحاج لكل هذه المصاعب والمتاعب منفقًا نفقات زائدة يجب عليه أن يذهب إلى أداء الحج بحرًا والعودة برا حتى لا يظل مدة طويلة فى الطريق كما أن الحجاج العائدين عن طريق البر لا يتعرضون لمشاق كثيرة ولا يتأخرون فى الطريق وبهذا ينالون شرف زيارة الآثار واجبة الزيارة.

وليس بقليل ما تتعرض له قوافل الزوار والتجار من مشاق عندما يذهبون من ينبع البحر إلى المدينة ومن المدينة إلى ينبع البحر، وكانت هذه القوافل قبل أربعمائة عام تذهب وتجىء عن طريق «ميناء الجار» ولا يقعون فى مخالب أشقياء العربان، ولكن لشدة الأسف استطاع العربان الذين يسكنون بجوار ينبع البحر أن يتغلبوا على العربان الذين يسكنون بجوار «ميناء الجار».

ووفقوا فى جعل ميناءهم ممر القوافل، ولكن إن كان الذهاب إلى المدينة من ميناء «الجار» يستغرق أربعة أيام فالذهاب من ميناء «ينبع» يستغرق خمسة أيام، فضلاً على ذلك ما يتعرض له المسافرون من متاعب ومخاوف، فالعربان الذين يسكنون فى ناحية «الجار» ليسوا من أهل الجفاء مثل عربان نواحى ينبع بل هم فى غاية الأنس والقناعة، وإذا أرست السفن مراسيها كما فى السابق فى ميناء الجار وانتقلت القوافل فى ذهابها وإيابها عن طريق منياء الجار، تكون قد نجت

من شرور عربان ينبع كما أنها قللت من النفقات، ويتوقف تحويل الطريق إلى ميناء «الجار» على إقامة عدة دكاكين وبعض المخازن ومواقع حراسة قوية وتأسيسها.

ولما كان ميناء «الجار» شبه جزيرة يستوعب كثيرًا من السفن كان فى البداية ميناء مأمونا للفلائك التى ترد من ديار مصر والحبشة، لأنه يقع فى مكان مأمون من المخاطر وهو أقرب الموانى إلى المدينة المنورة.

قد ثبتت زيارة القبر النبوى بإجماع الأمة وذلك بالأدلة التى أتى بها مؤلف «الشفاء الشريف» القاضى عياض والإمام النووى ومن أجل فقهاء الحنفية ابن الهمام ـ عليهم الرحمة والسلام ـ حتى اقتنع بعض النحارير الأكابر بوجوب زيارته، زيارة القبور سنة بإرادة صاحب الشريعة «عليه أكمل التحية» ولما كان قبر السعادة سيد القبور كما هو معروف وثابت فزيارته تكون قد ثبتت بالإجماع، وإن كانت زيارة الرسول المشفق على أمته «عليه أعظم التحية» لأصحاب البقيع وشهداء أحد تومئ بأن زيارة القبور منحصرة للرجال إلا أن الآية الجليلة الآتية آمرة بزيارة قبر السعادة **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾** (النساء: ٦٤).

وبما أن هذه الآية الكريمة تشمل النساء أيضًا ويستثنى فى هذه المسألة زيارة قبر الرسول الجليل؛ لذا يستحب العلماء الأعلام قراءة هذه الآية الكريمة عند زيارة القبر المصطفوى التى تستلزم المغفرة.

شد الرحال من قريب أو بعيد إلى المدينة المنورة بقصد زيارة مرقد السعادة خالصًا لوجه الله، قد أكد بأحاديث «من زار قبرى» و«من جاءنى زائرًا» لذا فزيارة القبور من جملة القربات وهذا برىء من الشبهات والزيارة وسيلة للقربة إذ ثبتت زيارة الرسول لشهداء أحد وهو مسافر من المدينة بالأقوال الصحيحة، وبناء على ذلك فمن يخرج إلى المدينة بأمل زيارة قبر الرسول ﷺ بنية خالصة، قد اتفق علماء الأسلاف أو مدققو الأخلاف على أن هذا العمل إحدى وسائل القربات إلى الله.

ولما كان الحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»[1]، دليلاً كافيًا على أن الذهاب إلى المدينة لزيارة مرقد الرسول وسيلة للقربات فإن الذين لا يعرضون سلامهم وصلاتهم على محبوب الله سبحانه وتعالى يكونون قد تركوا الأفضل ويستحقون الملامة وجديرون بالهجاء والمذمة لتركهم الواجب.

هناك اختلاف أيضًا فى تعيين سبب شد الرحال لغير تلك المساجد المذكورة، قال بعض أئمة الرجال إن شد الرحال لزيارة غير هذه المساجد الثلاثة حرام، وقال بعضهم «إذا كانت الزيارة عن طريق النذر فهى حلال، ويقتضى النظر فى هذا الخصوص إلى نية المتعازم للسفر إذا كان القصد من شد الرحال أداء صلة الرحم أو الدين أو الأمور الخيرية جائز بل واجب، أما إذا لم يكن من الأمور الخيرية فحرام قطعيًا[2].

كان الحسن بن على «رضى الله عنهما» ينهى من يشاهده من الزوار بالقرب من قبر الرسول أن يقتربوا أكثر من ذلك، وكان الإمام زين العابدين يحذر من التقرب لقبر الرسول ذاكرًا الحديث الذى يقول «لا تجعلوا قبرى عيدا ولا بيوتكم قبورا، فإن تسليمكم يبلغنى أينما كنت»[3] (حديث شريف).

هذه الأقوال تحمل على عدم تجاوز حد الاعتدال، حتى أن الإمام مالك كان يكره الجلوس كثيرًا بجانب مرقد السعادة، وكان الإمام زين العابدين فى أثناء زيارته لقبر الرسول ﷺ يقف بجانب العمود الذى يتصل بالروضة المطهرة ويصلى ويسلم وكأنه يومىء بأن المحل المذكور هو الجهة التى فيها رأس النبى الشريف، وكانت حجرات زوجات النبى المطهرات، قبل إلحاقها بالمسجد النبوى موقف زيارة

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٣، وعزاه لأحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث ابى هريرة ورجال أحمد ثقات أثبات وكذلك روى من حديث أبى سعيد الخدرى، ومن حديث على، وابن عمر، وأبى الجعد الضمرى.

(٢) انظر فى المسألة: إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركش ص ٢٦٧ وما بعدها.

(٣) رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفرى ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، وبقية رجاله ثقات.

فكان الزائرون الواردون فى؟ صدر الإسلام يقفون فى ذلك المكان وهذا على قول أمام باب الحجرة المعطرة.

وسأل هارون بن موسى الهارونى جده علقمة قائلاً: «من أين كان يزار قبر الرسول قبل أن تلحق دور النبى ﷺ بمسجد الرسول؟» فأخذ الرد الآتى: «قد سد باب الحجرة المعطرة قبل وفاة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فكان يزار القبر من أمام باب حجرة السيدة عائشة «وهذا منقول عن هارون، والواضح من الحديث ألا يعينوا لزيارة قبر الرسول وقتًا خاصًا كأوقات الأعياد، وكان اليهود والنصارى يجتمعون لزيارة قبور الأنبياء ويمضون أوقاتهم فى اللهو والطرب بجانب القبور. أو «عدم اللهو واللعب عند زيارة القبور وعقد مجالس الطرب والزينة»، ويجب أن يؤول بأن الذين عزموا على زيارة قبر الرسول يجب عليهم أن يسلموا على النبى ﷺ ويدعون له ثم يمضون بلا توقف وإن هذا التأويل أبلغ من توجيه الحافظ المنذرى وأحسن وهذا التأويل يعد أقوى الأقاويل من جهة التعظيم للرسول ﷺ، ومن هنا يجب على الزوار المسلمين أن يعرفوا أن زيارة قبر الرسول ﷺ من أفضل القربات والمستحبات المؤكدة، وأن يكثروا من شد الرحال لزيارته مرة بعد أخرى وبما أن العيد مرة واحدة فى السنة فلا يحصروا زيارة قبر الرسول لمرة واحدة فى العمر، بل عليهم أن يزوروه كلما استطاعوا ذلك وأن يعودوا دون أن يتوقفوا كثيرًا فى حضور قبر الرسول عليه السلام.

قال أبو حنيفة لما كانت زيارة قبر الرسول ﷺ من أفضل المندوبات وأكثر المستحبات تأكيدًا فالزيارة قريبة من الوجوب.

فالذين ينذرون بزيارة قبر الرسول يلزم عليهم الوفاء بنذورهم بناء على رأى الأئمة الشافعيين، وأما الذين ينذرون بزيارة القبور الأخرى فبناء على رأى بعضهم يجب الوفاء بنذورهم بالزيارة بينما الآخرون يرون عدم الوفاء بنذورهم ولكن القول الأول مرجح على القول الثانى[1].

(١) راجع فى المسألة: إعلام الساجد.. للزركش ص ٢٦٧ وما بعدها.

فى ذكر وبيان فضائل المسجد النبوى الشريف والمنبر اللطيف والروضة النبوية المنيفة.

قد وصف الله سبحانه وتعالى مسجد السعادة فى الآية الكريمة:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨).

كما أنه سبحانه بين طهارة هذا المسجد المنيف وجماعته وعرفها فى هذه الآية.

وإن كان العلماء قد اختلفوا فى تعيين أى مسجد نزلت فى حقه هذه الآية إلا أن المفسرين الكرام قد نقلوا أحاديث كثيرة لإثبات أن الآية نزلت فى حق مسجد المدينة المنورة كما استدلوا بنقل قول أبى سعيد الخدرى «إننى قلت لإمام الأنبياء» «عليه أكمل التحايا» ما المسجد الذى أسس على أركان التقوى فتلقيت الرد أنه المسجد الذى أتعبد فيه فى المدينة إن الآية الكريمة لمسجد أسس على التقوى نزلت فى حق مسجد المدينة.

وقال بعض العلماء قد تلا النبى ﷺ هذه الآية مخاطبًا أهل قباء وقال (إن الله يثنى عليكم)، وإذا ما نظر لهذا الحديث يلزم أن تكون تلك الآية قد نزلت فى حق مسجد قباء.

إلا أن المفسرين الكرام ردوا على هذا الادعاء قائلين «لما كان أهل قباء فى ذلك الوقت يداومون على الصلاة فى مسجد المدينة فإن هذه الرواية لا تجرح قول أبى سعيد الخدرى.

وقال أبو رشيد إن قول الجليل (من أول يوم) يلمح أن الآية الكريمة فى حق

مسجد قباء، إن قائد المجاهدين عليه سلام الله المعين عندما شرف المدينة المنورة كان أسس مسجد قباء، إلا إذا كانت كلمة يوم فى قوله تعالى (من أول يوم) تعنى فى ابتداء تأسيسه قد طرح على أركان التقوى.

وإذا تمعنا فى النظر فى الاختلافات الواقعة نستطيع أن نوفق بينها قائلين: «إن تلك الآية نزلت فى حق مسجد المدينة وتشمل مسجد قباء أيضًا»، وبما أن كلاهما قد أسسا على أركان التقوى نستطيع أن ندفع المنافاة والتعارض قائلين قد نزلت الآية الكريمة فى حق مسجد المدينة وكذلك فى حق مسجد قباء.

ومع هذا لو نظرنا لما يفيده الحديث الشريف (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) (حديث شريف) وبما أنه لا يجوز شد الرحال لغير مسجد المدينة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى فيثبت أن تلك الآية قد نزلت فى حق مسجد المدينة.

ينقل أئمة الأحاديث عدة أحاديث أخرى كلها تؤيد الحديث السالف الذكر، ولكن ألفاظها تخالف بعضها بعضا إذ تقول الأحاديث المنقولة لاختيار السفر فى أرض الغبراء الساحرة بوجود ثلاثة مساجد «أحدها الكعبة والآخر مسجدى والثالث المسجد الأقصى» والآخر «المساجد التى تستحق السفر إليها مسجدى هذا والبيت العتيق» وأحدها «إن المساجد التى تشد الرحال لزيارتها مسجد إبراهيم ومسجد محمد[1] ـ عليه سلام الله الأحد».

لما كانت بعض هذه الأحاديث لا تشمل على المسجد الأقصى وبعضها مشهورة بضعف روايتها يلزم ألا يهتم بها.

إن الصلاة فى المسجد الذى أسس على التقوى فى المدينة يفضل ثواب الصلاة التى تؤدى فى المسجد الأقصى ألف مرة فمسجد السعادة خير من جميع المساجد ماعدا المسجد الحرام، لأن النبى ﷺ آخر الأنبياء كما أن مسجد المدينة آخر مسجد لأنبياء.

رواية

أراد حضرة الأرقم ـ رضى الله عنه ـ أن يذهب إلى القدس الشريف لينال

(١) انظر: مجمع الزوائد ٤/ ٣ ـ ٤ باب قوله ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..».

الأجر والثواب بالصلاة فى البيت المقدس وبين الأمر للنبى ﷺ إذ مثل بين يديه عندما ذهب لتوديعه، فقال له الرسول مستفهما ليعرف ما فى ضميره «هل تذهب لأجل التجارة؟» فلما أجابه بقوله «بل أذهب لأصلى فى بيت المقدس لأنال الأجر والثواب» قال له: «إن صلاه تؤدى فى هذا المسجد خير من ألف صلاة تؤدى فى بيت المقدس من حيث الثواب» وعلى آخر «إن صلاة تؤدى فى مسجدى أفضل من ألف صلاة تؤدى فى جميع المساجد الموجودة على سطح الأرض غير المسجد الحرام» وعلى رواية «إن صلاة واحدة تؤدى فى بيت المقدس كألف صلاة تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجدين»[1]، ولا يعرف فضل وقدر هذه الصلاة غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلك لا تعادل الصلاة التى تؤدى فى المسجد الحرام، والمقصود بالمسجد الحرام البقعة المفخمة للكعبة المعظمة.

وبناء على هذا التفصيل فالصلاة الواحدة التى تقام فى بيت المقدس تساوى أجر ألف صلاة تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجد الحرام والمسجد النبوى وصلاة تؤدى فى المسجد النبوى فى المدينة تساوى ألف ألف صلاة تؤدى فى المساجد الأخرى.

فاستثناء المسجد الحرام قائم على أن الكعبة المعظمة مساوية من حيث الثواب لمسجد الرسول أو أن المسجد الحرام مفضل بالنسبة لمسجد المدينة أو فاضل يعنى أن الكعبة المعظمة ومسجد الرسول متساويان من حيث الفضيلة أو أن الكعبة المعظمة تفضله فالصلاة التى تقام فى المسجد الحرام أقل من الألف أو هو فاضل فالصلاة التى تقام فيه أكثر من الألف، قد رجح ابن بطال فى هذه المسالة الاحتمال الأول وقال بما أن تفضيل أحدهما على الآخر لن يكون بدون دليل فتبين تساويهما، والإمام مالك ذهب إلى صحة الاحتمال الثانى يعنى قرر أن المسجد الحرام مفضول، إلا أن الأصحاب الكرام أوهموا أن ثواب مكة المعظمة أكثر من ثواب المدينة المنورة معتمدين على سند الرواية التى نقل عن عمر بن

(١) انظر الأحاديث الواردة فى: مجمع الزوائد ٤/ ٤ ـ ٨.
والمسألة فى إعلام الساجد ص ١١٥ ـ ١٢٧، ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

الخطاب، لأن الحديث المميز الذى نقله أبو الدرداء وهو «فضل الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفى مسجدى ألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة»[1].

وقال ابن ماجة: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا أبو الخطاب الدمشقى، حدثنا زُرَيق أبو عبد الله الألهانى، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل فى بيته بصلاة، وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته فى المسجد الذى يُجَمَّعُ فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته فى مسجدى بخمسين ألف صلاة، وصلاته فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة»[2].

إن هذا التفاضل فى الفرائض والنوافل على قول الإمام النووى وبناء على قول الإمام الطحاوى وسائر الأئمة المالكية إن هذا التفاضل فى حق الفرائض فقط ولما كان الحديث الشريف (أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة) يؤيد حكم القول الثانى يلزم أن يكون قول النووى من الأقوال الضعيفة، وقال الإمام أبو حنيفة ومالك إن تضاعف الثواب يشمل الفرائض فقط وأجاب الإمام الشافعى مبينا الدقائق فى هذا الأمر بما حاصله أن أفضلية الصلوات المؤداة فى البيت لا يمنع زيادة الثواب ومن هناك لا ينافى الواقع المدعى، فالفاضل بالنسبة للمفضول لا ينتج زيادة الثواب، فقد لا يوجد فى الفاضل الثواب الذى فى المفضول رحمة الله رحمة واسعة.

إخطارمهم

وإن كان تضاعف الأجر وزيادة الثواب فى حق الصلاة فى الأماكن الثلاثة متفق عليه بين العلماء إلا إنه لا يستلزم سقوط الصلوات الفائتة، يعنى أن الصلاة المؤداة فى المسجد الحرام لا تقوم مكان الصلوات المتروكة.

---

(١) رواه البزار بإسناد حسن احتج به ابن عبد البر.
انظر: إعلام الساجد، ص ١١٧.

(٢) فى الزوائد: إسناده ضعيف؛ أبو الخطاب الدمشقى لا يعرف حاله، زريق فيه مقال، قال ابن حبان فى الضُعَفَاء ينفرد بالأشياء لا يشبه حديث الأثبات، لا يجوز الاحتجاج به إلا عند الوفاق.
انظر: سنن ابن ماجة حديث رقم ١٤١٣ ص ٤٥٣.

وإن كان العلماء الكرام متفقين فى تضاعف الأجر والثواب كذلك على كل أنواع العبادات والطاعات التى تؤدى سواء أكان فى المسجد الحرام أو مسجد سيد الأنام يتضاعف أجرها وثوابها، إن الحديث الذى رواه الإمام البيهقى عن جابر بن عبد الله وهو (الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، والجمعة فى مسجدى هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام وشهر رمضان فى مسجدى هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام) والحديث الجليل الذى نقله الإمام الطبرى عن بلال بن الحارث (رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان) دليلان واضحان على أن العبادات والطاعات المتنوعة فى المساجد الثلاثة تتضاعف فى أجرها وثوابها.

المواقع التى تحوز الخاصية الجليلة لتضاعف الأجر والثواب فى المدينة المنورة حيث دفن كنز السعادة.

قد قصر بعض الذوات من أئمة الحديث تضاعف الثواب للعصر الذى عاش فيه إمام الأنبياء (عليه أكمل التحايا) على حدود المسجد الشريف الداخلية والتى بناها فى حياته، ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا مدعاهم بأدلة واضحة، ومن هنا قد قرر أن الطاعات والعبادات المؤداة فى أى ناحية من نواحيها وفى كل مكان فى المسجد النبوى الشريف يتضاعف أجرها، إذ قال سيد الأبرار ـ عليه صلوات الله الستار ـ (لو مد هذا المسجد إلى باب درای ما عدوت أن أصلى فيه وهذا مسجدى وما يزيد فيه فهو منه ولو بلغ بمسجدى صنعاء كان مسجدى وقال عمر بن الخطاب لو مد مسجد الرسول من الشامية وزيد فيه حتى يبلغ الجبانة كان مسجد رسول الله ﷺ «ولو مد مسجد رسول الله ﷺ إلى ذى الحُليفة لكان منه» وقد وسع الأصحاب الكرام المسجد النبوى فى زمنه «ولما كانت هذه الأدلة تكفى لإثبات المدعى فالظاهر تضاعف الأجر والثواب فى أى موقع من مواقع المدينة الطاهرة ولأجل ذلك روى الإمام أحمد والطبرانى عن أنس بن مالك بواسطة رجال ثقاة

الحديث «من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لا تفوته صلاة، كُتِبَ له براءة من النار وبراءة من العذاب وبراءة من النفاق»[1].

كما روى ابن ماجة أيضًا عن أبى هريرة إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدى فرجل كتب له حسنة ورجل تحط عنة خطيئة.

كما أن الإمام يحيى روى عن سهل بن سعدً من دخل مسجدى هذا يتعلم فيه خيرا ويعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ومن دخل بغير ذلك من أحاديث الناس كان كالذى يرى ما يعجبه وهو لغير الله.

كما أن أبا سعيد المقبرى روى أيضًا عن رجال ثقاة يعتمد عليهم فى الحديث الشريف الذى يقول (لا أخال أن لكل رجل منكم مسجدًا فى بيته فوالله لو صليتم فى بيوتكم لتركتم مسجد نبيكم ولو تركتم مسجد نبيكم لتركتم سنته ولو تركتم سنته إذن لضللتم) إن هذه الأحاديث الشريفة والآثار المروية الأخرى لدليل كاف على أن يثبت ما يتمتع به المسجد الشريف من قدر ومزية، ومن هنا يقتضى أن يبقى إلى يوم القيامة تضاعف الأجر والثواب للطاعات فى كل موقع من مواقع البلدة المقدسة التى تحتوى على مسجد السعادة.

إخطار

إن الذين يوفقون فى زيارة مثل هذا المسجد يجب أن يعتبروا زيارة الروضة المطهرة ومنبر النبى المنيف غنيمة عظيمة وأن يبذلوا غاية جهدهم فى رعاية تلك الأماكن المقدسة وأداء الصلوات المكتوبة والنوافل فيها، لأن قائد الأنبياء (عليه أتم التحية) أخبرنا أن ما بين بيت عائشة الحجرة المعطرة والمنبر المنير روضة من رياض الجنة كما أن المنبر قائم فوق حوض الكوثر.

وإن كان فى تعريف الروضة المطهرة وتعيين حدودها اختلاف فى الألفاظ مثل (ما بين قبرى ومنبرى) وجاء فى بعض الأحاديث (ما بين بيتى ومنبرى) والأخرى (ما بين بيتى إلى منبرى) إلا أن كلها تؤدى نفس المعنى لأن مرقد السعادة فى داخل الحجرة المعطرة للسيدة عائشة، وإذن فليس هناك فرق بين بيت النبى والمرقد المصطفوى.

(١) انظر مجمع الزوائد ٤/٨.

وبناء على ما رواه الإمام أحمد بواسطة رجال ثقاة عن سهل بن سعد أن منبر السعادة قائم على ترعة تثير الشوق.

وبناء على قول أبى واقد الليثى أن أرجل المنبر فوق أرض الجنة الساحرة وأن الروضة المطهرة والمنبر المنير المزهر مهما مدحا وأثنى عليهما يستحقان ذلك، وقال معاذ بن الحارث من أصحاب النبى ﷺ الكرام إننى سمعت رسول الله ﷺ وهو فوق منبره يقول «إن قدمى على ترعة[1] من ترع الجنة» ونقل أبو سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ فى أثناء خطبة فوق منبره يقول «أنا قائم الساعة على[2] حوضى» كما نقل ابن زبالة أن النبى ﷺ قال «أنا على الحوض[3] الآية» كما نقل نافع بن جبر هذا الخبر الصحيح «أحد شقى المنبر على عقر الحوض فمن حلف عنده يمين فاجره يقطع بها حق امرىء مسلم فليتبوأ مقعده من النار» وروى أبو داود وابن حبان وحاكم هذا الحديث.

نقل النسائى حديث «من حلف عند منبرى هذا يمينا كاذبة استحل بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صَرْفٌ ولا عدل» ونقل الطبرانى حديث «منبرى على ترعة الجنة وما بين منبرى وبيت عائشة روضة من رياض الجنة» وقد نقلا هذين الحديثين الشريفين ليعرفا أن الروضة المطهرة والحجرة المعطرة والمنبر اللطيف أماكن واجبة الاحترام.

بيان المصلى النبوى وبيان حدوده

قال خاتم الأنبياء ﷺ ليعين حدود مصلاه الميمونة «ما بين حجرتى ومصلاى روضة من رياض الجنة» ومن هنا اختلف علماء السلف فى تعيين حدود مصلى النبى ﷺ

(١) الترعة بمعنى البئر أو حديقة مرتفعة عن الأرض. وانظر مجمع الزوائد ٤/ ٨ ـ ٩.

(٢) العقر يقال للمكان الذى يشرب منه الماء أو على قول يطلق على خلف الحوض إذ ينبع ماء الحوض من هنا. وانظر فى هذا الحديث: المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٨.

(٣) المقصود بهذا الحوض حوض الكوثر وبناء على ما جاء فى الحديث الشريف «زواياه سواء وأنه حوض متساوى الأضلاع مربع الشكل».

قال بعض الأئمة الكرام: المقصود بهذا اللفظ هو مسجد السعادة وقال الآخرون المقصود من المصلى هو مصلى العيد النبوى إذا ما نظر إلى ما رواه راوى الحديث الثانى عقب حديثه أن أباه يحيى قال إننى سمعت عندما، سمع سعد بن أبى وقاص هذا الحديث سارع بشراء بيت فخم بين المسجد الشريف ومصلى العيد وبالنظر أيضًا إلى ما قاله، جناح النجار كنت ذهبت مع عائشة بنت أبى وقاص إلى مكة فسألتنى ونحن نخرج من المدينة قائلة «يا جناح أين يقع المنزل الذى تسكنه؟» فلما أجبت قائلا «فى بلاط المدينة» فقالت: «أحذر من التفريط فى هذا المنزل لأن والدى سعد بن أبى وقاص كان يقول إنه سمع الرسول ﷺ يقول: «بين مسجدى ومصلاى روضة من رياض الجنة». ومن هنا يلزم المصلى التى وردت فى الأحاديث أن يكون مصلى العيد.

التوضيح: بما أن الموقع المسمى ببلاط قد عرف فى بحث (أرواق المدينة) فهو رصيف الجادة الواسعة الذى يبدأ من المسجد النبوى وينتهى عند مصلى العيد. وبما أنه قد ثبت أن ما بين مصلى العيد ومسجد السعادة روضة من رياض الجنة فمن هنا يلزم أن يكون مسجد السعادة كله الروضة المطهرة ويومئ ما ذكره طاهر بن يحيى وجناح النجار اقتضاء هذا الحكم.

وعلى هذا التقدير قد بين أفضل الناس (عليه الصلوات) أن منبر السعادة سيحشر يوم القيامة مثل سائر المخلوقات وأنه سيوضع فى محله الذى فيه الآن وأن الذين أدوا الصلاة بجانب المنبر ذى الفيوضات سيكونون كالذين أدوا الصلاة فى عقر الكوثر فالذين يداومون على أداء الصلاة فى الروضة المطهرة كأنهم يتعبدون فى جهة من حوض الكوثر وقاموا بأعمال صالحة تتيح لهم شرب الماء من ذلك الحوض، قد بين ذلك فى الأحاديث التى سطرت فيما سبق وبهذه الإشارة الواضحة رغب ضعفاء أمته للتعبد بجانب منبر السعادة وقد اتفق العلماء فى نقل منبر السعادة إلى عرصة العرصات فى يوم القيامة إلا أنهم اختلفوا فى كون المنقول المنبر الحالى أو سيخلق ويصنع منبر آخر لائق بخطيب منبر اللاهوت عليه السلام؟ قال فريق من العلماء إن المنبر الحالى سينقل كما هو إلى أرض

المحشر وأنه سيركز فى عقر حوض الكوثر وقد قرر فريق آخر أنه سيخلق منبر آخر قد رجح ذلك ابن عساكر ومن يوافقون رأيه من الأكابر كما أن ابن النجار قبل ذلك الرأى ونشره.

وقد حمل الإمام مالك فى بحث تعريف الروضة المقدسة الحديث السالف على ظاهره وقال: الروضة المطهرة روضة نفيسة من رياض الجنان، لأجل ذلك لن تمحى وتباد مثل المنازل الأخرى وستنقل إلى أرض الجنان الساحرة على هيئتها، وقد قبل أكثر العلماء هذا الرأى المصيب حتى قال برهان بن فرحون ناقلا عن ابن الجوزى وآخرين إن الصلوات التى تؤدى فى الروضة تستلزم دخول الجنة المطهرة وتنزل أقسام الرحمة فإنها مثل رياض الجنة من حيث المداومة فى العبادة فى الروضة المطهرة وملازمتها.

وقال إن استمرار النبى ﷺ فى العبادة والطاعة فى ذلك المكان المطهر محمول على هذا السر وبهذا أيد قول الإمام مالك.

وأن الحكم على موقع بأنه مسعود ومبارك يتوقف على أن ذلك الموقع قد اكتسب شرفا وسعادة بطاعات رسول الله ﷺوعباداته، وإذا قيل بمقتضى (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) إن العبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ حيثما تكون تؤدى إلى دخول الجنة يلزم منه أن تخصيص المنبر المنير والروضة المطهرة بزيادة الشرف الثابت بدلالة الأحاديث الصحيحة لا فائدة منه ولا قيمة له، وهذا لا يجوز، ومن هنا فمن الأولى أن يحكم أن الروضة المطهرة جزء من الجنة بناء على قول الإمام مالك كما يقال إن الحجر الأسود من حجارة الجنان.

يقول ابن زبالة إن أسامة بن زيد بن حارثة رأى ناقل الحديث إبراهيم مصليا فى ركن من أركان المسجد الشريف وبعد السلام أمسكه من يده وذهب به إلى المنبر الشريف وقال يلزم عليك أن تصلى ها هنا فمن المحتمل أن يكون هذا المكان بالذات من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسعد من أحجار الجنة! إن الروضة المطهرة ستنقل إلى الجنة فى يوم الحشر إن هذه المزيه تدل على منزلة نبينا ﷺ،

كما تدل على متابعته لإبراهيم (على نبينا وعليه التسليم). قد أنعم الله سبحانه وتعالى على إبراهيم بالحجر الأسود وهو من حجارة الجنة كما أنعم على نبينا ﷺ بالروضة المطهرة.

كما لا يخفى على أهل الفهم والذوق أن هناك فرق بين التخصيص والتنصيص فإذا حمل الحديث السالف الذكر على ظاهره وفق قول الإمام مالك المختار فرجحان المدينة المنورة على سائر البلاد وفضلها ومزيتها يصل إلى درجة اليقين والثبوت نورها الله تعالى إلى يوم القيامة.

إن الروضة المطهرة التى ثبت بالبراهين المقنعة أنها جنة من رياض الجنان إلا أن العلماء قد اختلفوا فى تعيين وتعريف حدودها، فقال بعضهم إنها من المنبر المنير إلى أن يتصل بالجهة القبلية والشمالية من الجهة القبلية والشمالية للحجرة المعطرة بالتدريج.

ولما كان طول منبر السعادة خمسة أشبار تظهر الروضة المطهرة تقريبًا مثلثا ذى أربعة أضلاع، وبناء على هذا التعريف يلزم أن يكون داخل الخطوط الأربعة فى الشكل الأول الروضة المطهرة وبناءً على هذا يقتضى ألا تكون مقدارًا من الأرض التى توجد فى الجهة القبلية بين القبر الشريف والحجرة اللطيفة يعنى المحل الذى يتسع لصف من المصلين وألا يعد من الروضة المطهرة، مع أن هذا المكان الذى ما بين الصف الأول من الأساطين التى فى الجهة القبلية للروضة المقدسة والسور الخشبى الذى أمام محراب النبى ولما كان وجود مكان سجود النبى ﷺ يكسب الروضة المطهرة مزية فلا يحكم على صحة القول المذكور.

وقال بعض العلماء إن الجهات الأربعة للروضة المطهرة متساوية إلا أن محاذاة الحجرة المعطرة التى هى بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الشمال والجنوب فى محاذاة منبر السعادة فى الناحية الشمالية والجنوبية.

وبناء على ما يظهر فى الشكل الثانى فإنه عندما تعرض المنبر الشريف مع جدرانه ومسجد السعادة للحريق مرة ثانية ورئى تجديدهما سحب الجدار الجديد

ناحية الحجرة المعطرة وبهذا قد خرج عن محاذاة الجدار القديم قليلا ومد ناحية الجنوب وبهذا أخذت هيئة الروضة المطهرة شكلاً مربعا ولما كان المحل الملحق مسقفا فى عصر السعادة فحكم على أنه من الروضة المطهرة.

قد ذهب بعض الناس من المؤرخين العلماء إلى أن بعض محراب النبى ـ وعلى قول ـ كله أنه الطرف الخارجى للروضة المقدسة، ولم يرد دليل قوى يؤيد هذه الرواية وتردد العلماء قديما فى التصديق على أن يكون محراب النبى خارج الروضة المطهرة وبناء على هذا فلابد أن يكون المؤرخون مخطئين فى ذهابهم إلى هذا إذا ما نظر إلى الشكل الثالث بدقة يرى أن المصلى الشريف فى داخل الحجرة المعطرة فيفهم من أول نظرة أن الرأى الذى ذهب إليه حكم باطل.

وإن كان هناك اختلاف فى المسافة التى بين مرقد النبى والمنبر الشريف من حيث مساحته الذراعية إلا أن هذا الاختلاف فى تعيين مدى سمك جدران حجرة السعادة وقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن المسافة بين المنبر المنير ومرقد السعادة أربعة وخمسون ذراعا وستة أصابع وذهب فريق آخر إلى أن المسافة ثلاثة وخمسون ذراعا وستة وشبر واحد وفى الحقيقة أن المسافة ثلاثة وخمسون ذراعا وستة أصابع وبناء على هذا الحساب فإن الفريق الثانى قد قاسها من داخل الحجرة الشريفة.

الوجهة الثالثة

تحتوى على ثلاث صور فى تعريف أسماء المدينة الطاهرة وفضائلها التى ترجحها على البلاد الأخرى وخصائصها الفائقة وبعض أحكامها التى توحى بحكم جليلة.

فى بيان أسماء المدينة المنورة الجميلة وألقابها الجليلة (على صاحبها أفضل التحية).

ذكر العلماء الكرام للبلدة الطيبة دار هجرة النبى ﷺ ما يقرب من سبعة وتسعين اسما ساميا مستخرجين ذلك من الكتب المقدسة والأحاديث الشريفة، ومن الواضح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ومن البديهى أن لتلك المدينة المفخمة أسماء كثيرة إلا أن مجد الدين اللغوى قد ذكر الأسماء التى اتفق عليها العلماء وميزها بحرف [ز] وهذه الأسماء لم تتجاوز سبعة، ولكننا كتبنا جميع الأسماء التى صادفتنا متبركين بها والأسماء التى ميزت بحرف [ز] أشرنا إليها بنفس الحرف كذلك وقد رتبناها حسب ترتيب حروف الهجاء وكتبناها:

حرف الهمزة:

١ـ أثرب: هذه الكلمة على وزن أسعد بفتح الهمزة، وفى فترة ما أبدلوها بياء وقالوا يثرب، وأثرب اسم شخص من أبناء سام بن نوح ـ عليه السلام ـ الذى سكن أول واحد فى أرض المدينة.

يثرب: لما كان لفظ يثرب يتضمن معنى الفساد فاستهجنه الواقف على الحكم الخفية (عليه أجمل التحية) فبدله طابه وطيبة وعند البعض أن النبى ﷺ ذكر هذه المدينة باسم (يثرب).

توجيه وجيه: إذا ما قيل أبقيت المدينة أولا باسمها القديم ثم استهجن ذلك الاسم فألغى نكون قد وفقنا بين الأقوال.

وعند أبى عبيدة أن يثرب، يطلق على جميع جوانب المدينة وهو المحل الذى يقع بين الناحية التى يطلق عليها «جرب وقناة»، و«يثرب» فى زماننا اسم موضع

يقع جهة مشهد حمزة (رضى الله عنه) وفى الطرف الشرقى لبركة نصر وبجانب العين الأزق، إن هذا المكان هو بستان النخيل الذى يعرف باسم «أثاب» وكان ساحة قرية بنى الحارثة، وقد نزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾. (الأحزاب: ١٣).

فى هذا الموضع فى يوم الأحزاب وكان مشركو قريش قد احتشدوا هناك لضرب خيامهم ونصبها وعلى هذا التقدير يقتضى أن يطلق اسم يثرب على هذا المكان أى محل بستان النخيل السالف الذكر، إلا أن نبى الله ﷺ أطلق اسم يثرب على مكان فى موقع «زباله» والذى يعرف إلى الآن بموقع يثرب والآية المذكورة قد نزلت فى حق منافقى المدينة.

٣,٢ ـ أرض الله، أرض الهجرة: [ز] وهذا الاسم اللطيف الذى ثبت بالآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. (النساء: ٩٧).

لأن بعض المفسرين فسر «الأرض الواسعة» بالساحة الواسعة للمدينة المنورة.

٥,٤ ـ أكالة البلدان [ز]، أكالة القرى [ز]: إن هذين الاسمين يدلان على أن المدينة الطاهرة تفوق المدن الأخرى فى الفضل والمزية. وهما مستنبطان من الحديث الشريف «أمرت بقرية تأكل القرى»[1].

٦ـ الإيمان [ز] وهذا الاسم كناية عن أن تلك المدينة ستكون مظهر الإيمان ومصيره، وقد عين بالآية الجليلة:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي

(١) صحيح رواه مسلم حديث ١٠٠٦، باب المدينة تنفى شرارها.

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (الحشر: ٩).

وما قاله عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر «بما أن هذه المدينة مظهر الإيمان فتسمية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لها بـ «دار إيمان» محمول على هذه النكتة.

حرف الباء:

٨,٧ ـ البارة [ز] وهذا يومئ بأن مدينة الرسول منبع فيض وبركات وأنها مصدر خير لجميع الكائنات.

١١,١٠,٩ ـ ومن أسمائها الشريفة بحْره، بُحَيرَة، بَحِيرَة [ز] وهذه الأسماء الثلاثة تدل على فضل وبركة تلك المدينة.

١٢ ـ بلاط [ز]: بمعنى الرصيف وكان اسم الرصيف القائم بين المسجد الشريف والسوق وفيما بعد أصبح من أسماء المدينة.

١٣ ـ بلد [ز]: هذا الاسم مأخوذ من قول الله تعالى:

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. (البلد).

وقالت طائفة من المفسرين الكرام أن «بلد اسم مكة المكرمة» إلا أن طائفة أخرى قالت إنه اسم المدينة المنورة.

١٤ ـ بيت الرسول، ﷺ [ز]: وهذا الاسم ثابت بقول الله تعالى:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾. (الأنفال: ٥)

لأن المقصود بالبيت المذكور فى الآية المدينة المنورة.

حرف التاء:

١٥، ١٦ ـ تَنْدَرْ [ز] تَيْدَرْ [ز]: وإن كان كلا الاسمين على وزن جعفر من أسماء

المدينة الجليلة إلا أن بناء على قراءة ابن عباس وابن جماعة يلزم أن يكون نيدر على أنه نداء وسيأتى ذكره فى حرف الراء.

حرف الجيم:

١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ ـ جابرة [ز] جِبَار، جبَابَرة [ز] جَبَّارة: وينقلون أن هذه الأسماء مستخرجة من التوراة الشريفة.

٢١ ـ جزيرة العرب [ز]: وهذا الاسم ثابت بالحديث الشريف الذى يقول «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

حرف الحاء:

٢٣ ـ الحبيبة: وسبب تسميتها بهذا الاسم مدى حب حبيب الله لهذه المدينة.

٢٤ ـ حَرَم: وهذا الاسم ثابت بالحديث الشريف «المدينة حرم آمن» قال النبى ﷺ «إن حرم ابن آزر مكة المكرمة وحرمى المدينة وكل من يخيف ويحذر أهل المدينة سبحانه وتعالى يخيفه».

٢٥، ٢٦ ـ حرم رسول الله [ز]، حسنة: وهذا الاسم مأخوذ من الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. (النحل: ٤٢).

حرف الخاء:

٢٧، ٢٨ ـ خَيْرَه، خِيرَه: وهذان الاسمان اللطيفان ثابتان بالحديث «المدينة خير لهم».

حرف الدال:

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ ـ الدار [ز] دار الأبرار، دار الأخيار [ز] دار الإيمان [ز] دار السلام [ز] دار السنة [ز] دار السلامة [ز] دار الفتح [ز] دار الهجرة: ولما كانت هذه الأسماء من الأسماء المعروفة فوجه تسميتها

بها ظاهر. لأن جميع البلاد والأمصار قد فتحت وسخرت بسوق الجنود الأبرار من مدينة دار الهجرة، كما أن شمس السنة السنية أشرقت من آفاق المدينة وأضاءت أقطار العالم والممالك، لأن النبى ﷺ هاجر إلى المدينة بعد أن ظهرت الدعوة فى مكة المكرمة.

٣٨ ـ درع، الحصينة [ز]: ودرجة التسمية بهذا الاسم يعود على قول سلطان الدين ـ عليه صلوات الله المعين ـ «قد رأيت نفسى فى رؤيا داخل درع محكم الصنع وأولت هذا الدرع بأنه المدينة».

حرف الذال:

٣٩ ـ ذات الحجر [ز]: وسبب تسميتها بهذا الاسم وجود المدينة داخل جبال حجرية.

٤٠ ـ ذات الحرار [ز]: وسبب تسميتها بهذا الاسم أن المدينة محاطة بالتلال. إن كاهنا من كهنة اليمن الذى يطلق عليه ضافير الحميرى قال «كنت سألت عن أحد أفراد الجن فى أى بلاد أتحرى عن الدين الحق فقال هذا الجن: ابحث عن هذا الدين الحق فى الحرار»، وبهذا الاسم أومأ الجن إلى المدينة المنورة.

٤١ ـ ذات النخل [ز]: وقد ثبت هذا الاسم بالحديث الشريف «أريت دار هجرتى ذات نخل».

حرف السين:

٤٢ ـ سلق: إن هذا الاسم مسطور فى التوراة ويقرأ على ثلاثة وجوه سَلَق، سَلْق (٤٣) وسِلْق (٤٤) وكون هذا البلد فى موقع واسع وجبال بعيدة بعضها عن بعض ومتجاورة. وكونه ذا حرارة شديدَة فهذا هو وجه تسميتها بهذا الاسم. ويروى أن لفظ (سَلْقَهْ) يجمع بين معنى الوسع والحرارة.

٤٥ ـ سيدة البلاد [ز]: وقد نقل ابن عمر (رضى الله عنه) مرفوعا عن ـ النبى ﷺ ـ أنه قال «يا طيبة يا سيدة البلدان» وكان هذا الحديث الشريف سببا فى تسمية المدينة المنورة بهذا الاسم.

٤٦ ـ شافية [ز]: وهذا الاسم مأخوذ من الحديث الشريف «ترابها دواء من كل داء».

حرف الطاء:

٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠ ـ طابَهْ، طَيبهَ، طَيبة، طائب [ز]: يروى أن هذه الأسماء منقولة من كتاب التوراة المقدسة ووجه تسميتها بهذا الاسم بناء على قول وهب بن منبه كونها ذات رائحة طيبة ولطهارتها من دنس الشرك والنفاق وانتسابها الطيب بهجرة الرسول الموقر، كما أن مطَيبه (٥١) وطبابا (٥٢) من أسماء المدينة الجليلة.

حرف الظاء:

٥٣، ٥٤ ـ ظيابا [ز] ظبابا: وقد سميت بهذين الاسمين لكونها قطعة مستطيلة مسعودَة فى أراضى الحجاز المقدسة.

حرف العين:

٥٥ ـ عاصمة: سبب تسميتها بهذا الاسم لأنها حمت المهاجرين الكرام عن تسلط الأعداء كالدرع أو لأنها معصومة من الطاعون والدجال.

٥٦ ـ عذراء: لأنها مصونة من شر الأشرار لرصانتها الجغرافية ومتانتها الطبيعية أو أنها تحمل معنى البكارة لأنها استسلمت للنبى ﷺ دون حرب وقتال. والاسم مأخوذ من التوراة.

٥٧ ـ عَرَاء [ز]: عدم ارتفاع مبانيها القديمة سبب تسميتها بهذا الاسم.

٥٨ ـ عروض: لكونها على أرض مستوية ولوجود أودية السيول ومجاريها فيها.

حرف الغين:

٥٩، ٦٠ ـ غراء [ز]: غالبه [ز]: وسبب تسميتها بهذين الاسمين تغلب قبيلتى الأوس والخزرج عندما نزلتا فى المدينة على طوائف اليهود. وتفوقها فى العهد الإسلامى على القرى الأخرى.

حرف الفاء:

٦١ ـ فاضحة [ز] سميت كذلك لتملكها خاصية فضح أهل البدعة.

حرف القاف:

٦٢ ـ قاصمة [ز]: وهذا الاسم منقول من التوراة سميت بهذا الاسم لهلاك الذين يسيئون إلى أهلها.

٦٣، ٦٤. ٦٥، ٦٦، ٦٧ ـ قرية [ز] قرية الأنصار [ز] قبة الإسلام، قرية الرسول، قلب الإيمان [ز] وجه تسميتها بهذه الأسماء ظاهر، إلا أن الدجال هو الذى سيطلقه عليها «قرية الرسول» لأنه عندما يصل إليها سيعرف أعوانه بأنها دار هجرة الرسول قائلا «هذه قرية ذلك الرجل».

حرف الميم:

٦٨ ـ مؤمنة [ز]: وقد أخذ هذا الاسم من التوراة ويومئ بأن سكنتها سينجون من شرور الأعداء الأشرار والأمراض والكوارث والطاعون والأوبئة ودخول الدجال.

٦٩ ـ ١٠٣ مباركة [ز] متبوئ الحلال والحرام [ز] مبين الحلال والحرام [ز] مجبورة، محبة، محبَّبَة، محبوبة، محبورة، [ز] محرمة [ز] محروسة [ز] محفوفة [ز] محفوظة [ز] ممتازة [ز] مدخل صدق [ز] مدينة، مدينة الرسول، مرحومة، مرزوقة [ز] مسجد الأقصى [ز] مسكينة، مسلمة [ز] مضجع الرسول [ز] مطيبة، مرجية [ز] مقدسة [ز] مقر [ز] مكتان [ز] مكينة [ز] مهاجر الرسول [ز] موفية: ولا حاجة لتعريف وجه تسمية هذه الأسماء.

حرف النون:

١٠٤، ١٠٥، ١٠٦ ـ ناجية [ز] نبلاء [ز] نجر [ز] وسبب تسميتها ظاهر.

حرف الهاء:

١٠٧، ١٠٨ ـ هرزاء [ز] هز: بعض هذه الأسماء مأخوذة من التوراة الشريفة وبعضها من الكتب المقدسة الأخرى.

حرف الياء:

١٠٩، ١١٠، ١١١ ـ يثرب، يندد [ز]: إن هذه الأسماء الشريفة أخذت أكثرها من التوراة ومن الكتب الأخرى كما ذكر أعلاه وبناء على قول الدراوردى إن فى التوراة أربعون اسما آخر لدار الهجرة الطيبة ـ نورها الله تعالى إلى يوم القيامة ـ وبما أن أكثرها يتغير ويتميز بتخالف الحركات، لذا صرف علماء الأسلاف النظر عن ذكرها وعددها.

فى ذكر الروايات التى نقلت من الآثار الموثوقة والأخبار الصحيحة فى فضل ورجحان المدينة المنورة على سائر الممالك.

لا يخفى على أهل الرأى المخلصين أن التراب الطاهر الذى التصق بجسم نافع الكونين المحمدى فى المدينة المنورة أفضل من جميع بقاع الأرض وحتى من البيت الأعظم والعرش المعظم، ولأجل ذلك يفضل العلماء الأجلاء المضجع الجليل المقدس على السماء التى تفوق الأرض فى الأفضلية والرجحان.

وإن كان لا يشك فى أفضلية مكة المكرمة والمدينة المنورة على البلاد الأخرى ورجحانهما، إلا أن المسألة الأصلية فى رجحان أحدهما على الأخرى وترجيحها.

بعد أن اختلف علماء الأسلاف فى هذه المسألة كثيرا رأى عمر بن الخطاب وكثير من الذوات المحترمين من الأصحاب الكرام وعلماء البلدة المقدسة الطيبة تفضيل المدينة المنورة على مدينة مكة المعظمة وقال الإمام أحمد إن هذا الاختلاف فى الأماكن الأخرى من مكة المكرمة، لأن البقعة المحترمة (كعبة الله) أفضل من مرقد رسول الله.

وبهذا الحكم فضُلت مكة المكرمة على المدينة المنورة، قد رأى الإمام مالك صواب القول الأول وقال إن المدينة أفضل من مكة المكرمة لأن التراب الذى يلتصق بجسم صاحب الرسالة محمد ﷺ أشرف وأجل من رجحان جميع بقاع الأرض المنيرة، والفقرة الثانية من ادعائه أى أن التراب العاطر الذى يلتصق بجسم المصطفى ﷺ مفضل على جميع البقاع الأرضية قد صدقت من قبل جميع الأئمة.

إن البلدة المقدسة البطحاء قد اكتسبت شرفا سابقا بالاستناد إلى حضرة إبراهيم

وابنه إسماعيل ـ عليهما صلوات الله ـ إلا أن مجاورة حافظة الجواهر والبر والفضل ـ عليه التحية ـ بالغدو والآصال عندما أسندت إليه الرسالة أضافت علوا وشرفا لهذه البلدة وإن كان هذا لا يقبل الإنكار إلا أن شرف مجاورة النبى ﷺ قد زال بعد الهجرة، واكتسبت المدينة المنورة بالهجرة مزية حقيقية فوق العادة. وإذا قيل، لماذا لم تنل الأشياء الأخرى التى جاورت النبى ﷺ هذا الشرف ولعل الأفضلية ليست وقفا على الملاصقة بل إن هذه الأرض التى دفن فيها الرسول ﷺ أصبحت جزءا من جسم الرسول ولأجل ذلك كسبت المدينة المنورة أفضلية ورجحانا على الأماكن الأخرى لأن الملك الموكل بعجن طينة الإنسان قد قسمها إلى ثلاثة أقسام فيضع أحدها فى رحم الأم عند سقوط النطفة ويضع الثانى فى الأراضى الخصبة التى سيعيش عليها فى حياته، ويلقى بالقسم الثالث فى المكان الذى سيدفن فيه، ومادام التراب الذى التصق بأعضاء النبى المكرم قد كان جزءا انفصل من جسمه فمرقد صاحب الرسالة المؤيد بالفيض النبوى، يرجح قطعا من حيث الشرف على مكة المكرمة. وهذا هو سر رجحان تراب المدينة المنورة العاطر الذى التصق بالجسم النبوى الميمون، من المدينة التى دفنت فيها الرحمة، وحكمة هذه الأفضلية ترجع إلى أن أجر ومثوبات الأعمال الصالحة فى إحداهما أكثر من الأخرى.

وقال الرواة الذين أيدوا الإمام مالك فى رجحان المدينة المنورة على مكة المكرمة فى ضمن إثبات مدعاه ـ قال مؤلف كتاب الوفاء ـ نقلا عن كعب الأحبار ـ عندما أراد الله القادر المطلق أن يخلق ويوجد نور صاحب الرسالة الأقدس أمر جبريل الأمين أن يجهز ويهيئ العنصر المحمدى اللطيف ـ عليه أفضل التحية ـ وجد جبريل الأمين قبضة من التراب الأبيض وأحضره، ولما كان هذا التراب الطاهر موقع مرقد سيد البشر خمر وعجن جبريل ذلك التراب بماء الجنة الزلال وعرف أنه عنصر محبوب الله ـ عليه أجمل التحايا ـ وامتلأ عجبا إذ تأمل أهمية قدره وجلالة وعظمة وفضل جوهره، ولم يكن سكان عالم السماء حتى ذلك الوقت قد سمعوا حتى اسم أبى البشر ـ عليه سلام الله الأكبر.

وقال ابن جرير ونقل فى إثبات مدعاه أن كل شخص يدفن فى المكان الذى خلق منه وذلك من مقتضى الحكم الإلهى. ما قاله ابن سيرين إننى إذا أقسمت أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق النبى ﷺ وأبا بكر وعمر من نوع من تراب ثم ردهم إلى نفس التراب أكون قد أقسمت يمينا صادقا.

ونقل ما قاله ابن عباس آتيا بالحديث الشريف إن الطين العطر النبوى من تراب الكعبة المعظمة التى تمثل سرة الأرض. وقال العلماء الكرام إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما خاطب السماوات والأرض. ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (فصلت ١١).

فأول من لبى الخطاب الإلهى من الأرض أرض موقع الأنور الكعبة ومن السماء المكان الذى يحاذى البيت الأكرم ومع ذلك فإن التراب المطهر الذى استجاب من موقع الكعبة المعظمة كان التراب الذى اختلط بالعنصر النبوى وبالمادة اللطيفة المصطفوية، ثم انفصل عن أرض الغبراء المبسوطة من تراب الكعبة المكرمة ثم بسط وفرش وعلى هذه الرواية يقتضى الأمر أن يدفن ماء وطين ـ عليه سلام الله المعين ـ فى داخل الكعبة ودفنه فى تراب المدينة المنورة العاطرة أى دفن صاحب الرسالة فى مكان بعيد عن مكة المعظمة وإفراده يظهر عظمته وفضله وأنه متبوع وليس بتابع.

عندما تموجت مياه طوفان نوح وهاجت المياه فوق ذروة الكعبة فصلت الطينة الطاهرة النبوية ونقلت إلى المكان الذى يرقد فيه سيد الأنام الآن وهكذا ثبت أن المرقد المقدس للنبى ﷺ جزء من جسم النبى اللطيف، لأجل ذلك دفن فى هذا المكان فأصبح محل راحته مضجعه الأقدس الذى كان أصل طينته الطيبة.

ويثبت هذا المدعى ما يروى أن حضرة سليمان ـ على نبينا وعليه السلام ـ حينما مر من أرض يثرب محل مرقد السعادة قال إنه سيكون هنا مدفن ملك يثرب وبطحاء ـ عليه أفضل التحايا ـ وقد ترك ما يقرب من أربعمائة حبر من أحبار اليهود آراءًا قوية فى هذا الخصوص.

وإن كان يلزم أن يتساوى فضل ومزية الحرمين من حيث مبدأ الخلقة إلا أن

فصل أمواج الطوفان المادة النبوية اللطيفة من بطن الكعبة وحملها إلى مضجع السعادة القدسية، وبهذا الفضل والمزية رجحت المدينة المنورة من حيث جيرتها لمرقد السعادة الذى يحتوى على الجسم اللطيف النبوى يقتضى تفضيلها على مكة المعظمة.

عندما توفى صاحب المقام المحمود ـ عليه سلام الله الودود ـ اختلف العلماء فى المكان الذى يلزم دفنه فيه ـ عليه السلام ـ عندئذ قال سيدنا على «إن المكان الذى قبضت فيه نفس الرسول النفيسة أجمل وأفضل من جميع الأماكن التى على وجه الدنيا» وكان أبو بكر الصديق فى هذا المجلس وقال «سمعت من فم سيد الأخيار نفسه» أن الأنبياء يدفنون فى المكان الذى يقبضون فيه» وقد وافقت آراء الأصحاب الكرام رأى المشار إليهما ومن هنا قرروا دفنه فى منزله اللطيف، إن سبب تأكد العلماء الكرام وجرأتهم على تفضيل المدينة المنورة على مكة المكرمة هو وقوفهم على هذا السر الجليل.

وإنه لاشك فى أن المحل الذى أحبه النبى ﷺ سيكون أحب عند الله عن سائر الأماكن. ألا يرجح المحل الذى أحبه الله سبحانه وتعالى واختاره النبى ﷺ على المكان الآخر؟ وفى هذه الحالة ألا يرجح مضجع السعادة المنيف على الكعبة المعظمة؟

قد دعا فخر الكونين ـ عليه أكمل التحايا ـ حينما كان يغادر مكة «يا إلهى مادمت أخرجتنى من مكان أحبه فأسكنى فى مكان تحبه!!» وإذا ما نظر إلى اتخاذ أرض يثرب بعد هذا الدعاء دار الهجرة النبوية بعد أن دعا قائلا «يا رب أسكنى فى بلاد تحبها» واختياره الإقامة لآخر عمره فى مدينة طيبة الشهيرة يظهر من هذا أن المدينة المنورة أحب إلى الله من البلاد الأخرى.

إنها تلك البلدة المقدسة قد هاجر إليها خلاصة الماء والتراب ـ عليه سلام الله خالق الأفلاك ـ وارتحل عن دنيانا فى هذه البلدة كما حرص أصحابه الكرام على الإقامة فيها، هل ينكر بعد كل هذا مزية رجحان هذه البلدة وأفضليتها على البلاد الأخرى؟

وقد رجح بعض العلماء مكة المكرمة على المدينة المنورة مستدلين بالأحاديث «إن مكة أحب بلاد الله إلى الله» و«إن مكة خير بلاد الله»، وإن كان الإمام أبو حنيفة والإمام الشافعى رأيا هذا الرأى وصدقا العلماء المشار إليهم إلا أن هذين الحديثين قد صدرا قبل أفضلية مكة المكرمة ـ عند سائر الأئمة ـ طالما كان صاحب المعجزات مقيما فى مكة المكرمة، وقالوا إن رجحان المدينة دار السكينة بعد الهجرة وفضلها قد ثبتا بعد الهجرة.

وإن كان ثبت تضاعف الأجر والمثوبة فى مكة المكرمة إلا أن هذا الأمر لا يقتضى أفضليتها، فمثلا يلزم للذين يذهبون إلى عرفات أن يصلوا خمس أوقات فى منى، ومع هذا فإن مكة المكرمة أكثر ثوابًا وأجرا من الصلوات التى تؤدى فى منى وهذا الأمر محقق ومصدق لدى العلماء. ولأجل ذلك قال ابن عمر، إن تضاعف الثواب والأجر فى مكة ثابت ومع ذلك لا ترجح على المدينة دار السكينة وهكذا بين أن تضاعف الثواب لا يقتضى الأفضلية والرجحان وأن المفضول قد يرجح على الفاضل أحيانا.

وبناء على هذا الفهم الدقيق أجاب الإمام مالك على سؤال: أى الحرمين أولى بالمجاورة فى رأيك؟ فقال لهم بناء على رأيى إن المجاورة فى المدينة الطاهرة أولى من المجاورة فى مكة المقدسة وأوجب.

كيف لا تكون دار الهجرة المحترمة أفضل من مكة المكرمة وكيف لا تكون المجاورة فى تلك البلدة أحب وأجمل؟ وقد مر الجالس على سرير الأمراء المصطفى ـ عليه أكمل التحية ـ بكل شوارع تلك البلد. المباركة ذهابا وإيابا، بما أن جبريل الأمين نزل فى أكثر بقاعها باسطًا أجنحته وأوصل الوحى الجليل ومن هنا قال الواقف على خفايا الحكمة ـ عليه بدائع التحية ـ المدينة خير من مكة والمدينة أفضل من مكة، وقد أخبر بهذا الحديث الصحيح عن لزوم تفضيل المدينة المنورة على مكة المعظمة نورها الله تعالى إلى يوم الآخرة.

الصورة الثالثة

فى ذكر الأحاديث الشريفة التى وردت فى حق الذين اختاروا الإقامة فى المدينة الطاهرة والذين أحدثوا البدعة والمبدعين والذين يعاونونهم.

وقد فتح سلطان الرسالة ـ عليه أسمى التحية ـ فاه الشريف مبينا عظمة وقدر وفضل المدينة المنورة وقال ما معناه أنه سيأتى زمان على الناس سينقل فيه كل شخص أولاده وعياله وقومه وقبيلته إلى أماكن رخيصة وذات سعة فى العيش وكما تدخل الثعابين فى جحرها خائفة من أعدائها هكذا سينسحب نور الإيمان فى ذلك الوقت من البلاد الأخرى وسيتوجه نحو مدينة دار السكينة، وأقسم بالله الذى نفسى بيده بأن الذين لا يقدرون عظمة وخيرية المدينة المنورة ولا يذعنون لذلك ويغادرون المدينة المنورة ويفارقونها إلى البلاد الأخرى فسيأتى مكانهم من هو خير منهم، وإن كل نفر يعرض عن المدينة ويهاجر إلى البلاد الأخرى إلا وبدله الله سبحانه وتعالى بشخص يرغب فى الإقامة فى المدينة ويصبر على بلائها وعنائها.

يعنى يرسل إليها من هم خير من القادرين، وكل من يتحمل ضيق وعناء وشدة دار السكينة فإنه ﷺ يشهد فى يوم القيامة ذى الأهوال الشديدة على طاعة أهل الصبر ويبالغ فى شفاعته لأمته.

ذهب حضرة سعيد مولى المهرى إلى أبى سعيد الخدرى عقب توالى الظلم والغدر أيام واقعة الحرة فشكى من ضيق الحال وكثرة العيال ونقل إليه رغبته فى الهجرة إلى بلاد أخرى بهدف معايشة عياله وأولاده فى رفاهية وسرور. فأجابه أبو سعيد الخدرى قائلا «أوه لحالك هذه إننى «لا أرى من المناسب أن تترك هذا البلد وتضحى به» فأورد له الحديث الشريف الذى يقول حق المدينة «لا يصبر على لأوائها أحد إلا كنت له شهيدًا أو شفيعا يوم القيامة»[1] وفى نفس ذلك الوقت

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ٢/ ١٥٥، ٣/ ٢٩، ٦٩، وانظر مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٠.

المشحون بالفيض الإلهى لقى شخص آخر عبد الله ابن عمر وقال «يا أبا عبد الرحمن. قد حل زمن زاد فيه الجور والظلم وزادت حالة العباد ضيقا واشتدادًا وبناء على هذا فأنا أريد أن أهاجر إلى بلد ذى شهرة بالرخص». فذكر له عبد الله بن عمر الحديث الطويل سالف الذكر وقال له لا تفارق مكانك الذى أنت فيه ولو خطوة واحدة.

إن تفضل الآمر بالحكمة ـ عليه أفضل التحية ـ قائلا «أكون إما شفيعا أو شهيدا على من يتحملون بلايا المدينة المنورة بالصبر عليها» لا يشك فيه لأن معناه أكون شاهدا للمطيعين وشفيعا للعصاة ولما كانت هذه الشفاعة أخص من الشفاعة العامة فإن ذلك الحديث يدل على أن سكنة تلك المدينة المذكورة يتوفون على إيمانهم و معلوم أن الشفاعة ستكون فى حق أهل الإيمان.

إن تبشير متوفى المدينة جعل سكان دار السكينة رهن السرور ومما لاشك فيه أن الحديث الشريف (من مات بالمدينة كنت له شفيعا يوم القيامة)[1] سيسر الذين يؤثرون الفداء بأرواحهم فى المدينة المنورة، ويروى ابن عمر أن النبى ﷺ كان يدعو فى أثناء وجوده فى مكة قائلا «نرجو من المعطى ألا يتوفانا فى مكة المكرمة» وذلك عن صحبته له ـ عليه السلام ـ ويروى من مصدر موثوق أن صاحب الآيات ـ عليه أفضل التحيات ـ يقول «إن الذين لهم ملك فى المدينة يجب أن يحرصوا على المحافظة على أملاكهم وأن يسعى الذين لا يملكون شيئا فى المدينة لبذل الجهود على أن يمتلكوا شيئا فيها»، كما أنه ـ عليه السلام ـ نبه المهاجرين إلى البلدة الطيبة أن يهيئوا لأنفسهم ولو شجرة نخلة[2] واحدة.

وقد روى الإمام الزهرى مرفوعًا «لا تتخذوا الأموال بمكة واتخذوها فى دار هجرتكم فإن الرجل مع ماله» كما روى ابن عمر الحديث اللطيف «لا تتخذوا من وراء الرق حاملا ولا ترتدوا على أعقابكم بعد الهجرة ولا تنكحوا بناتكم طلقاء

(١) عند الترمذى بلفظ: «مَنْ استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها» وفى رواية الطبرانى: «فإنه من مات بها كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة».
وقال: حسن صحيح. انظر: إعلام الساجد ص ٢٤٨، مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٦.
(٢) راجع مجمع الزوائد ٣/ ٣٠١.

أهل مكة» وبهذا ينقلون أن النبى ﷺ حض على عدم امتلاك الأموال فى مكة بل فى المدينة لأن مال كل إنسان يكون بجانبه.

إن مدينة دار السكينة مثل[1] كير الحداد يفرق بين المخلصين من الموحدين وأهل النفاق وتفصل بينهما، كما أن الكير يفصل بين الحديد وخبثه وهكذا تفصل المدينة المنورة تمحص قذارة ووسخ أهل النفاق وتبعدهم عنها وتصفى وتبقى على أهل الإخلاص.

قال أحد الأعراب ـ وكان قد مرض بالمدينة ـ للرسول ﷺ يا رسول الله! أقلنى عن بيعتى[2].

فَأَبَى الرسول ﷺ وأعرض عنه، وغادر الأعرابى المدينة.

عندئذ قال خير البرايا ـ عليه أكمل التحايا ـ «وإن المدينة المنورة مثل كير الحداد يزيل الخبث ويصفى الطيب»[3] يفهم من هذا الحديث أن المدينة المنورة لا تقبل أهل الفساد والبدعة وتطردهم بعيدا، وما زالت هذه الخاصية فى المدينة الشهيرة ومشهورة بها.

وإن قال بعض الذوات أن الخاصية بالمدينة تنحصر فى عصر السعادة فبناء على حكم القول الشريف «لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها»[4] وبناء على ما قاله عمر بن عبد العزيز عندما كان يفارق المدينة المنورة «أخاف أن أكون من الذين تبعدهم المدينة وتطردهم» فخاصية المدينة المنورة ستستمر إلى ظهور الدجال، ولكن الأشخاص الذين ستطردهم المدينة هم الكفار الذين يتصفون بالخبث الكامل، أما العصاة الذين لم يصلوا إلى درجة الكفر ينقلون إلى أماكن مناسبة بواسطة الملائكة بعد ارتحالهم وموتهم، ويفهم من هذا أن أهل المدينة الذين لا

(١) يطلق الكير على موقد الحداد موقد المعادن.

(٢) الإقالة الادعاء بأن الإنسان قال شيئا وفى الحقيقة لم يقل شيئا كالافتراء.

(٣) الخبر فى الصحيحين: انظر صحيح مسلم ٣٢٩٦ فتح البارى ١٣/ ٢٠٠، ٢٠١ باب بيعة الأعراب، عمدة القارى ١٠ / ٢٤٥.

(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب الحج، باب المدينة تنفى شرارها، حديث ٣٢٩٣. ط دار الغد العربى.

يستحقون الشفاعة ينفون إلى أماكن أخرى لإزالة ومسح ذنوبهم أو أنهم يمحون ذنوبهم بزيادة أجورهم ومثوباتهم كما تفيد الآية الجليلة:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾. (هود: ١١٤).

أو أنها تظهر خباثة وفساد من فى قلوبهم الفساد والخبث.

وقد ثبت بحكم الأحاديث الشريفة أن الذين يحدثون البدعة فى المدينة أو يعينون على ذلك سيلعنون من قبل الرحمن، وأن صلوات مثل هؤلاء الرجال المفروضة ونوافلهم لن تقبل منهم فالآثام الصغيرة التى ترتكب فى المدينة المنورة تعد من الكبائر بناء على الإفادة العاتبة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمحو الذين يسيئون إلى أهل المدينة المنورة كما يذيب الماء الملح يذيبهم فى جهنم مثل الملح والرصاص[1].

هناك اختلاف فى مدلولى لفظى المحو والإذابة إذ قال بعضهم إن الذين يتعرضون بالسوء إلى أهل المدينة المنورة سيؤاخذون على فعلتهم يوم القيامة، كما حكم بعضهم على أن هؤلاء سيؤاخذون على أعمالهم فى حياتهم، وإذا ما نظر إلى تلف المسلم الذى يناقض اسمه ـ أى مسلم بن عقبة[2] ـ والذى تجرأ فى ارتكاب حادثة الحرم الشهيرة، وكذلك إلى تلف يزيد[3] المفضوح الذى عينه للقيام بهذه المهمة الحزينة متعاقبين ترى صحة مؤدى القول الثانى وأصالته، وإذا ما نظر إلى تأخير مؤاخذة بعض الظالمين يرى أن القول معقول كذلك، ولاسيما إذا نظرنا إلى مصير طوائف القرامطة الباغية، ولكننا إذا ما نظرنا إلى مصير المغاربة الذين كانوا سببا فى إحاطة الشهيد نور الدين مرقد السعادة بجدار من الرصاص وإلى مصير المخذولين الأذلة الذين أساءوا إلى المدينة إذ تعرضوا ـ إن عاجلا أو آجلا ـ إلى أنواع المصائب والبلايا يقتضى ترجيح صحة القول الثانى.

وبما أنه قد ثبت أن الجبابرة الذين أساءوا إلى دار الهجرة المدينة المنورة قد نالوا جزاءهم من الآلام والعذاب حتى كانوا عبرة لأمثالهم ومثار الانتباه فلا شبهة أنهم

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى حديث ٣٢٩٩ ط. دار الغد العربى. وإعلام الساجد، ص ٢٥٧.

(٢) أهلكه الله منصرفه عن المدينة.

(٣) هلك يزيد بن معاوية أثر إغزائه أهل المدينة.

سيصيرون إلى الدرك الأسفل من النار ويذوبون مثل الرصاص. وقال الفرد الأكمل والأجمل ـ عليه سلام الله عز وجل ـ «يا إلهى!! استعجل فى هلاك كل واحد يسيئ إلى أو إلى المدينة المنورة بلدى وحرمى، وكل من يظلم أهل المدينة يخيفهم فأخفه»[1]، وبهذا يومئ بهذا الدعاء أن الذين يظلمون أهل المدينة أو يخيفونهم سيتعرضون للعنة الله ومذمة الناس ويستحقونها.

الاستطراد: كان بُسْر بن أبى أرطاه أحد أمراء الفتنة، فلما قدم المدينة كان بصر جابر بن عبد الله قد ذهب، فقيل لجابر: لو تنحيت عنه؟ فخرج يمشى بين ابنيه فَنُكِّبَ. فقال: تعس مَنْ أخاف رسول الله ﷺ؛ فقال ابْنَاهُ أو أحدهما يا أبت وكيف أخاف رسول الله ﷺ وقد مات؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبى[2].

إفادة مخصوصة: كان بُسْر بن أبى أرطأة ذهب إلى مكة لإجراء التعليمات التى يحملها فى خلال السنة التاسعة والثلاثين الهجرية بعد المرور بالمدينة المنورة، وأقدم على هتك حرمة الحرمين الشريفين على سبيل الإهانة. وبعد أن أتلف بسيف الغدر كثيرين من أهل الحرمين الذين لا يوافقونه فيما يرتكب وأعدمهم ثم ذهب إلى ديار اليمن وهناك أيضا جعل رءوس مئات من المسلمين ذوى العقيدة الطاهرة والمساكين ضحية سيفه الغادر الظالم. وكان أبو أيوب الأنصارى والى المدينة قد ترك دار السكينة المدينة المنورة فى اليوم الذى دخل ابن أرطأة فيها.

جمع ابن أرطأة أهالى المدينة المنورة فى مكان واحد وقال مخاطبا لهم «قد هرب أبو أيوب من هنا حتى لا يبايع معاوية ابن أبى سفيان مع أنى سأقبض عليه بأى طريقة كانت فأقتله! يجب عليكم كلكم أن تضعوا رءوسكم فى ربقة بيعة معاوية وأن تطيعوه، يجب عليكم أن تبحثوا عن جابر بن عبد الله وأن تسوقوه إلى،! وقال يا أفراد بنى سليم. إذا لم تأتوا إلى بجابر لن أقبل بيعتكم وسأقتلكم كلكم بالسيف وسأظهر لكم سطوتى وجلادتى».

(١) انظر مجمع الزوائد ٣/٣٠٦.

(٢) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح: انظر: مجمع الزوائد ٣/٣٠٦.

بناء على ما حققه ابن عبد البر فيما كتبه أن الخائن ابن أبى أرطأة قد بعث لدعوة الناس إلى مبايعة معاوية وفى حالة عدم مبايعتهم فإنه مأذون أن يستخدم معهم الشدة والغلظة، مع أن الذين رأوا ما أظهره حضرة جابر من شجاعة فى هذا الموضوع أعجبوا بها وقالوا لا يستطيع أن يقبل هذه البيعة وانسحب إلى حرة بنى سليم رافضين عرضه واتحد جابر مع أفراد بنى سليم ونجى من يد غدر ابن أرطأة وظلمه. ومع هذا لما فهم حضرة جابر أنه لن ينجو من يد بُسْر إذا لم يبايع معاوية وأن غرض بُسْر الحقيقى كان أن يقبض على جابر مهما بذل فى سبيل ذلك من تضحيات أو مال وفعلا بدأ فى التحريات فى هذا الخصوص. ولما اطلع جابر على ذلك لقى أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ من أمهات المؤمنين وقال لها إن البيعة التى يطلبها بُسْر بيعة ضالة باطلة، ولكننى إذا رفضتها فلا شك بأنه سيقتلنى فما رأيكم فى هذا الخصوص؟ فقالت له: «على رأيى يجب أن تذهب بنفسك وتبايعه حتى تمنع وقوع نار الفتنة! فقد بعثت بابنى عبد الله[1] بن أبى سلمة أيضا لذلك وإنه سيذهب للمبايعة». وبما أن أم سلمة رضى الله عنها أفتت بلزوم البيعة فبايع مضطرا وهكذا نجى بنفسه من يد ظلم ابن أرطأة.

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن يوصى برعاية أهل المدينة ويحذر من إخافتهم وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة ومن ضمن ما قاله أمير الممالك والشفقة ـ عليه أطيب التحية ـ «المدينة دار هجرتى والمكان الذى رحلت إليه، فمن واجب أمتى اجتناب الكبائر ومراعاة جانب جيرانى، وكل من لا يحترمهم ولا يرعاهم يسقيهم الله يوم القيامة من عصارة أهل النار. والحديث إن المدينة مهجرى ومضجعى! إننى سأبعث من هناك فالذى يليق بأمتى رعاية جيرانى والمحافظة عليهم! وكل من يحافظ على وصيتى فإننى سأكون له شهيدا يوم القيامة، والذين يضيعون وصاياى فالله سبحانه وتعالى يسقيهم يوم القيامة من

(١) عبد الله بن أبى سلمة هذا قد استشهد فى داخل الحرم النبوى من قبل مسلم بن عقبة فى وقعة الحرة إذ رفض أن يبايع يزيد.
والذى فى تاريخ الطبرى أنه عمر ابن أبى سلمة. تاريخ الطبرى ٥/ ١٣٩.

حوض الخبال[1] ويرويهم».

والحديث «جعل الله سبحانه وتعالى المدينة دار هجرة لى! إننى سأبعث من المدينة وسأحشر منها، فيجب على أمتى اجتناب الكبائر والمحافظة على جيرانى وكل من يحترم أهل المدينة ويرعاهم فى سبيل حرمتى وتعظيمى أكون له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة. وكل من يضيع حرمتى فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يسقيه من حوض خبال».

وبناء على هذا حينما طلب المهدى العباسى من الإمام مالك أن يوصيه فقال له «أوصيك بالاعتراف بوحدانية الله وأن تبذل من لطفك وعطفك لأن الرسول ﷺ قال المدينة دار هجرتى، فى صحراء القيامة سأبعث من المدينة قبرى فى المدينة، وأهل المدينة جيرانى والواجب على أئمتى أن يتقيدوا بالمحافظة على أمتى! كل من يرعاهم ويحافظ عليهم يحافظون على حقوقى!

ومن يحافظ على حقوقى أكون شفيعا له فى يوم القيامة وشهيدا. والذين لا يحافظون على وصيتى يسقيهم الله من طينة الخبال يوم القيامة ويرويهم».

عندما زار الخليفة المهدى المدينة المنورة وذهب لزيارة الحجرة المعطرة، استقبله الإمام مالك وسادات البلد وأشرافه وجملة الأعيان وكبار موظفى الحكومة من عدة أميال من المدينة. وعندما رأى المهدى الإمام الجليل فاحتضنه وعانقه، ثم استدعى من معه واحدًا تلو الآخر وصافحهم بحرارة. وعندما رأى الإمام مدى التفات الخليفة لأهل المدينة ورعايته لهم وقف ناصحا له وقال يا أمير المؤمنين «إنك ستدخل الآن إلى المدينة وسترى فى يمينك ويسارك بعض الناس، وبما أن جميع هؤلاء الذين سيراهم بصرك من أحفاد المهاجرين والأنصار ـ رضى الله عنهم ـ فيلزم عليك أن تحيى كل واحد منهم متفردًا وتسلم عليهم وتعرض عليهم

(١) الخبال: عصارة أهل النار من العصاة وهو صديد وعرق أهل النار والحديث رواه الطبرانى فى الكبير على ما ذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣/ ٣١٠. وفيه عبد السلام بن أبى الجنوب، وهو متروك قلت: وعبد السلام قال على بن المدينى: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: متروك، وضعفه الدارقطنى وجرحه ابن حبان. انظر الضعفاء الكبير للعقيلى ٢/ ١٥٠.

احترامك لهم، لأنه لا توجد على وجه الأرض عشيرة خير وأفضل منهم. كما لا توجد بلدة أفضل من بلادهم «وقد رد الإمام على سؤال المهدى الذى قال له» وما هو دليلك الذى تستند عليه فى هذا القول «وليس على وجه الأرض قبر معلوم لنبى من الأنبياء غير قبر الرسول ـ عليه السلام ـ وإن هذه الطائفة التى استوطنت على أطراف المرقد النبوى ففضلهم ورجحانهم على سكنة البلاد الأخرى ظاهران.

وإذا ما نظرت إلى نصائح الإمام مالك للخليفة المهدى وأمعنت النظر فيما قاله محبوب الأنبياء ـ عليه أعظم التحية: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] يفهم بداهة أفضلية مجاورة قبر الرسول ـ ﷺ ـ اللامع. ورأيت ما للمدينة المنورة من الفضل والمزية، وأمكنك ترجيح سكنتها على سكنة مكة المكرمة التى تمتاز بتضاعف الأجر والمثوبة لسكانها.

وبناء على وصية الإمام مالك قد راعى الخليفة جانب سكان دار السكينة ولاطفهم وسرهم ببذل عطايا كثيرة لهم.

فلتسر روح المرحوم دده عاشق الرب فما أجمل منظومته هذه ذات المعانى الكثيرة فى مدح المدينة المنورة:

المدينة هى مدينة المصطفى الطاهرة

إنها محل نظر الله المتكبر

المدينة هى منزل القرآن والوحى

وهى أيضا مهبط رسول الله

المدينة هى مضجع المختار أحمد

وهى مطاف الإنس والجن وأهل السماء

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٨٥، ١٦٠ ومواضع كثيرة. وغيره من كتب السنن.

فـــى حديثـــه قـــال فخـــر العـالم

كـــان ترابـــك شـــفاء للعليـــل

المدينـــة هـــى منبـــع الفيـض والإحســـان

وهـــى راويـــة المحتـاج لمراجعـة الحقيقـة

المدينـــة هـــى فاتحـــة بلـــدان الإســـلام

خصـــوصا فـاتحـــة أم القـــرى

وهـى مـكان الغفـران لقضـاة المـؤمنين

مدينـــة محـــو العصـــيان والخـــطأ

وهـــى حديقـــة الـــورد وهـــى فريـــدة

وهـى كشـف الغطـاء عـن شهود المعرفة

تـرى هـل نفـس عيسـى تـرابها الطـاهر

فهـــى تعطـــى الـــروح للقـلب الميـــت

أنت سريـد بيضـــاء لموســـى طـــاهرة

أنـت مليئـــة بالنـــور للقـلب المظـــلم

المدينـــة مرقـــد خيـــر البشـــر

وشـــفيع المـــؤمنين يـــوم الجـــزاء

أنـــت سريـــر ســـلطنة النبـــوة

المدينـــة هـــى العـــرش المجتلـــى

إنـــه الحـــريم المحـــرم لـــولاك لـــولاك

فـالمدينـــة مجتلـــى ســـر الأم

المدينـــة دار الأنصـــار والمهاجريـــن

هـــذا مـكان الـدين والإيمـان والحيـــاة
المدينـــة هـــى ناشـــرة الرحمـة للعـالم
وخيـــرها دائـــم خاصـــة لأهلهـــا
فـالـــذى يـــراها مـرة يتحسـر قائـلا
ليتنى أراهـا مـرة أخـرى فلقاؤها محبوب

هكذا انظر كم من مشكلات يحلها ذلك السلطان فمن الصعب أن يحلها العالم فى الحقيقة وإن كان لا ينكر ما خص به أهل مكة من مزايا مثل تضاعف الأجر والثواب فيها ومجاورة بيت الله الوهاب إلا أن أهل المدينة يرجحون ويفضلون على أهل مكة بسبب مجاورتهم وقربهم من حبيب رب العزة والطبيب المداوى قلوب أمته، وتؤيد الحكم السابقة ما قاله أحمد بن حنبل لما سأل أبو بكر بن حماد «يا أبا عبد الله! ما هو أولى والأحب بالنسبة لك المجاورة فى مكة المكرمة أم السكنى فى المدينة المنورة؟» قال له «المجاورة أولى وأحب بالنسبة للذين يختارون السكنى بالمدينة صابرين على مصائبها وبلاياها».

والقول المختار فى هذا الموضوع أن اختيار المجاورة فى أى من البلدين مستحب لحبه ذلك البلد ولما يوجبه من مزية زيادة الأجر والثواب، إلا أن الذين ذهبوا إلى أولوية المجاورة فى المدينة على مكة المكرمة كرهوا مجاورة مكة المعظمة[1] رغبو فى الإقامة فى المدينة الأمينة وأحبوها.

(١) إنما كرهها من كرهها لأمور، منها: خوف الملل، وقلة الحرمة للانس وخوف ملابسة الذنوب، فإن الذنب فيها اقبح منه فى غيرها.
انظر: شرح النووى على مسلم باب الترغيب فى سكنى المدينة كتاب الحج ٤/ ٩٢٠ ط. دار الغد العربى.

الوجهة الرابعة

تشمل خمس صور تفصل أوائل حال المدينة المنورة وسكانها القدماء والقبائل التى انتشرت من سلالة «أوس بن ثعلبة» مساكنهم ومأواهم، والحروب التى قامت قبل الإسلام بين قبائل الأنصار.

فى ذكر أحوال المدينة الأولى وأطوار سكانها القدماء وأحوالهم.

بما أن أحوال الأقوام التى سكنت أرض يثرب السعيدة قبل الطوفان وشأنهم مجهولة فى نظر التاريخ فالمؤرخون أخبروا فقط عن أحوال القبائل التى سكنت فى المدينة المنورة بعد الطوفان، تكاثر أحفاد حضرة نوح «عليه السلام» وانقسموا إلى اثنتين وسبعين فرقة وانسحبت كل فرقة إلى المكان الذى اختارته وهاجر شخص يسمى «يثرب بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام» أو «يثرب بن قائنة مهلائيل بن أدم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام» وعلى رواية «عملاق بن أرفخشذ بن سام» من الفرق التى تتحدث باللغة العربية مع أسرته إلى أرض يثرب وبعد أن ظل هناك فترة رحل إلى مكان يسمى «جحفة» من ملحقات المدينة المنورة.

كانت جحفة إلى ذلك الوقت مكانا لا اسم له، وعقب ورود يثرب بن عبيل فى ذلك المكان أخذت الأمطار تنزل بغزارة وظهر سيل كبير وأجحف بنى يثرب فقيل لذلك الموقع «جحفة».

وأخبر المؤرخون أن هذه الهجرة تَتَزَامَنُ مَعَ حكومة كنعان بن حام من نمارذة بنى حام، إلا أن المرحوم منجم باشى[1] قد ذهب إلى أن الطوفان قد وقع فى سنة ٦٧٩ وفى عهد إمارة فالغ بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح «عليه السلام».

وبناء على تدقيقات المؤرخين الذين قبلوا الرواية الثالثة أى الذين رووا أن الهجرة إلى أرض يثرب قد حدثت أولا فى عهد عملاق بن أرفخشذ بن سام وعندما كثر أولاد وأحفاد عملاق بن أرفخشذ والذى كان يشتهر بضخامة جسمه،

(١) أحمد بن لطف الله صاحب كتاب جامع الدول.

أظهر كل واحد منهم الكبر والغرور والنخوة وأخذوا يبنون منازل متينة هنا وهناك، فأوسعوا بلدة يثرب وعمروها، وحتى يزينوا أطرافها أخذوا يغرسون الأشجار حيثما وجدوا لذلك سبيلاً ومنذ أن ظهر من بينهم رجال يعرفون فن الزراعة، استولوا بكتائبهم على بلاد الحجاز والشام وتوسعوا فى حدودهم فاستولوا على ممالك البحرين وعمان، مثيرين الفزع والدهشة.

وأخذوا يحكمون البلاد التى استولوا عليها وأهالى القرى والمدن بصورة وحشية وظالمة.

يروى المؤرخون عن العمالقة الذين اشتهروا بضخامة أجسامهم أنهم كانوا يعيشون ما يقرب من مائتى عام وأن الغزلان كانت تربى صغارها فى فتحات مآقيهم.

ووصل ظلم أحفاد عملاق بن أرفخشذ إلى أنهم حتى اشتهروا بين القبائل «بجبابرة العمالقة» وأضروا سكان البلاد التى حواليهم وأوقعوا فيهم الخسائر تحت سنابك خيولهم، وزاد جورهم وأذاهم تدريجيا حتى أن أطفالهم الذين يلوثون الوجود كانوا يشرعون فى البغى والشقاوة وهم مازالوا فى مهدهم.

واشتد عندئذ الكفر والشقاوة بين القبائل الوحشية التى تنتسب إلى جبابرة تسمى «سقل وفالح» والتى ظهرت حينئذ فأشعلت نيران الشر والقتال حتى أوشك الأهالى الضعاف على الفناء والاضمحلال من جراء الأعمال الدامية لهؤلاء، فأرسلوا الرسل إلى سيدنا داود ـ عليه سلام الله الودود ـ يستمدون منه العون فساق عليهم كتائب الصولة والقوة فقتل أكثر رجالهم وأعدمهم وأسر نساءهم وأطفالهم وكبلهم بالحديد.

واستطاع أن ينجو بعض هؤلاء من الأبطال الذين بعثهم سيدنا داود منسحبين إلى قمم الجبال إلا أنهم عادوا بعد فترة إلى ناحية «جرف» وأخذوا فى ارتكاب الشقاوة كما فى السابق ولكن لحكمة ما ظهرت فى رقابهم دودة أودت بهم إلى دار البوار ماعدا امرأة تسمى «زهرة» وهكذا أصبحوا غذاء للنمل والثعابين.

ويروون أن المقبرة التى تحت سفوح الجبل مقابر هؤلاء الأشقياء. و«زهرة» التى نجت رقبتها من الداهية الدهياء التى أصيب بها هؤلاء القوم تعرضت لمرض الدودة الذى تعرض له قومها وتلفت، وكان يتوطن على أرض يثرب شخص آخر بعد انقراض هؤلاء القوم، وكثر أولاد هذا الشخص وأحفاده وانتشروا فى البلاد المجاورة حتى استولوا على البلاد الحجازية كلها وحكموا إلى التاريخ الذى أغرق فيه كليم الله ـ عليه السلام ـ الفراعنة فى بحر القلزم ولما كان هؤلاء قد تجرءوا على إضرار أهالى الممالك المجاورة وإزعاجهم بإيقاع أنواع الظلم والدناءة عليهم وبما أن موسى ـ عليه السلام ـ كان مُكَلَّفًا بمهنة تأديب جبابرة الحجاز وتنكيلهم، بعد أن اضمحل جبابرة مصر والشام. أرسل إلى أرض يثرب بمقدار كاف من الجنود وأوصى قيادة تلك الحملة بتعليمات خاصة فى أن يقتلوا جميع الرجال والذكور الذين بلغوا سن البلوغ وسبى طوائف النساء والأطفال وأسرهم وبعد أن ودع هؤلاء الجنود انتقل إلى إقليم البقاء.

وقد وصل الجنود الذين أرسلهم سيدنا موسى بعد فترة إلى ساحة يثرب الفياضة وأشعلوا دائرة القتال.

وتغلبوا ـ بعون الله وعنايته ـ على مشركى العمالقة وبناء على التعليمات التى معهم كبلوا من استطاعوا أن يمسكوا بهم من الأطفال والنساء بالسلاسل جعلوا الذكور علفا لحد السيف.

وكان ضمن الأسرى ابن حاكم الحجاز أرقم بن أرقم ولما كان هذا فتى فى غاية الحسن والجمال قرروا أن يعرضوه إلى عتبة كليم الله.

وأخذوه حيا إلى الشام حتى يعملوا وفق رأى القضاء الذى سيصدر من قبل العتبة النبوية.

وعندما وصلوا إلى الشام مغادرين المدينة استقبلهم الأهالى بكل احترام وتوقير وبعد أن أخبروهم بموت موسى قالوا «يا غزاة الدين»!! إذا ما قلنا بأنا لم نرض ولم نُسَرَّ من خدماتكم لا نكون قد كذبنا لأنكم قد أذنبتم بمخالفتكم أوامر الله

ورسوله وبتأخير قتل ابن الأرقم تحركتم خلاف إرادة الوحى النبوى، ومن هنا نخاف أن ندخل العصاة والمذنبين فى بلادنا! اذهبوا بعد الآن حيثما شئتم، ولما كانت البلاد الحجازية أفضل البلاد فمن رأينا أن تعودوا إلى أرض يثرب وأن تقضوا حياتكم هناك إلى آخر أعماركم وأن تستقروا هناك.

وأراد الجنود أن يقنعوا أهل الشام بعرض أفكارهم وقراراتهم بخصوص ابن أرقم ولكنهم لم يوفقوا واضطروا أن يعودوا إلى يثرب وبعد فترة وصلوا إلى موضع يقال له «زهرة» وبعد مرور زمن نزلوا فى المدينة المنورة ونصبوا خيامهم فى محل قريب من «زغابة»[1].

وكان فى ضمن الجنود أبناء بنى قريظة و«إخوته» بنو هذال وعمرو وصريخ ونضير بن النَّحام ثم الخزرج بن الصريخ الذين يرتبط نسبهم بسلسلة نسب هارون عليه السلام.

ونزل هؤلاء فى أعالى المواقع التى تطلق عليها «مذينب ومهزول».

وفى حالة الأخذ بما ورد فى هذه الرواية فإن أقوام بنى إسرائيل الذين سكنوا أرض يثرب بعد العمالقة، لا مفر أن يكونوا هم الجنود الذين لم يقبلهم الشاميون بعد ارتحال موسى.

مع أن الرواية المنقولة عن سيدنا أبى هريرة تكذب هذا القول وتجرحه إذ تفضل المشار إليه قائلاً: «إن علماء بنى إسرائيل كانوا قد رأوا فى صفحات التوراة أن «أمير الأصفياء» ـ عليه أجمل التحايا ـ رسولنا الكريم سينقل إلى قرية كثيرة النخيل وسيهاجر إليها وأن اسمها يثرب وإنهم فكروا فى أن يجدوا هذه القرية وقرروا الإقامة فيها إذ خرجوا بعد واقعة «بُخْت نَصَّر» من الشام وتجولوا فى المدن التى تقع بين الشام واليمن مدينة بعد مدينة ولما رأوا أن المدينة المنورة هى المدينة التى تقع بين أشجار النخيل وأن اسمها يثرب فبقوا فى البلدة الطيبة منتظرين وقت هجرة الرسول ﷺ، وكان بينهم عدة أشخاص من حفدة هارون ـ

(١) زغابة موقع يقع بين حرة زهرة وسافلة ويسمى «القف» ويقال لهذا الموقع فى زماننا مجمع السيول.

عليه السلام ـ ولم يبلغ عمر هؤلاء العلماء إلى عصر السعادة واستدعوا أولادهم فى حالة احتضارهم وأوصوهم قائلين: إذا أدركتم زمن ظهور نبى آخر الزمان فأسرعوا بتصديق نبوته وابذلوا أرواحكم فى سبيله واخدموه بكل إخلاص ويا لشدة الأسف أن الذين أدركوا منهم عصر السعادة حسدوا الأنصار السابقين للتصديق وظلوا فى الشقاوة الأبدية.

والذين يريدون أن يطلعوا على تفصيلات هذه الأمور نرجوهم أن يراجعوا الصفحة الثالثة والثمانين من كتاب «محمود السير» الذى طبع ونشر سنة ١٢٨٨.

وذهب بعض المؤرخين إلى أن وجود بنى إسرائيل فى مدينة يثرب قبل العمالقة، وقالوا إن كليم الله ـ على نبينا وعليه التسليم ـ مر بيثرب بعد الحج ورأى بعض العلماء الذين كانوا فى معيته السامية أن منظر أرض يثرب الطيبة يوافق أوصاف دار الهجرة التى ذكرت فى التوراة بمدينة المصطفى واستدلوا بهذا على أنها المدينة المقدسة وسكنوا فى مكان يسمى «بنى قينقاع» ومع مرور الزمن أدخلوا سكان القرى المتجاورة من طوائف العرب فى دين موسى وإن كان هذا المؤرخ أيد مدعاه بهذا المقال ولكن بناء على حكم ما نقله ابن أبى شيبة مرفوعا عن النبى ﷺ يقتضى أن تكون إقامة طوائف العماليق فى المدينة المذكورة أقدم من بنى إسرائيل، لأن موسى ـ عليه السلام ـ حينما مر مع أخيه هارون بيثرب أقام فوق قمة جبل أحد حتى يأمنا هجمات العمالقة، وهذا الخبر السديد يؤيد الأقوال التى تحكى توطن طائفة العمالقة فى يثرب قبل بنى إسرائيل.

فى ذكر القبائل التى كانت فى أرض يثرب وقت أن هاجر إليها الأوس والخزرج بن ثعلبة[١].

عندما هاجر الأوس والخزرج بن ثعلبة إلى المدينة المنورة كانوا من أفراد قبائل بنى أنيف[٢] بن مزيد بن معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم.

بنو الجذماء[٣]، بنو قريظة، بنو قصيص، بنو ناعضة، بنو هذال، بنو عمرو، بنو نفير، بنو زعورا، بنو ثعلبة، أهل زهره، أهل جوانيه، بنو ماسكة، بنو محمم، بنو زيد، بنو قينقاع، بنو حجر، بنو عكوة، بنو نزاية، بنو شوط، بنو والج، بنو زبالة[٤] وبنو أنيفلة وبنو ناعضة[٥] وبنو قصيص من هؤلاء سكنوا فى قرية «قبا» وفى قرية بنى قريظة سكن بنو نضير[٦] فى موقع نواعم وسكن بنو زعورا فى قرية سبيل أم إبراهيم وبنو زيد[٧] فى مكان يقال له «لات» وبنو قينقاع فى مكان واقع فى جهة العالية من جسر بطحا، وبنو زهرة وبنو ثعلبة[٨] فى زهرة

(١) قبائل الأنصار كلها من سلالة هذين الشخصين.

(٢) أفراد هذه القبيلة كانوا بقايا أقوام العمالقة.

(٣) كان هؤلاء من أهل اليمن.

(٤) كان هؤلاء من طوائف اليهود.

(٥) كانت هذه القبيلة طائفة من أهل اليمن سكنوا إلى خلافة حضرة الفاروق فى منازل شعب بنى حرام، وفى خلافة ابن الخطاب حملهم من ذلك المكان وأسكنهم فى حى مساجد الفتح.

(٦) وكان كعب بن الأشرف من مشاهير اليهود من صناديد بنى النضير على رواية فى ناحية «عهر» وكان منازل بنى مزيد المتشعب من هذه القبيلة فى «بنى حاطمة» وكانت منازل بنو ناعمة بن هيم بن هشام وبنى معاوية فى موقع «بنى أمية بن مزيد» وكان بنو ماسكة بجانبهم. ويروى أن الخرائب التى ترى الآن فى الجهة القريبة من موقع يطلق عليه «ضيات» وفى قرية «مغر» من بقايا حصون تلك القبائل.

(٧) بناء على قول ابن زبالة إن سلسلة نسب هاتين القبيلتين تنتهى إلى جماعة يرتبط نسبهم بحضرة يوسف ـ عليه السلام ـ وهم من أجداد عبد الله بن سلام «رضى الله عنه العلام».

(٨) وكان فيطون الدون الذى اعتاد فض بكارة عرائس أهل المدينة، من رؤساء أفراد قبائل بنى ثعلبة.

وبنو جوانية فى قرى الجوانية وبنو جذماء[1] بنى مقبر بَنى أشهل وقصر ابن عراك.

وكان بنو عكوة وبنو حارثة وبنو نزاية يسكنون فى قرية «ناس» وبنو زبالة فى قرية «عين فاطمة» وبلغوا إذ ذاك إلى ما يقرب من سبعين قبيلة[2] إذ ارتبطوا واتحدوا واتفقوا مع جيرانهم من قبائل العربان واتخذت جماعة كل قبيلة برجًا فى حدود ثروته ويساره أو برجين وأسسوا حول هذه الأبراج بيوتًا منظمة ومنازل مستحكمة وشكلوا جماعة كبيرة بالنسبة لتلك الأوقات.

وكان لليهود إلى وقعة سيل العرم المشهورة تسع وخمسون قرية وقدر كثرة هذه القرى من النفوس، لذا كانوا متغلبين على القبائل الأخرى، ولكن بعد ظهور الوقعة المذكورة أخذت قوتهم وشوكتهم تزول وتنقرض ولاسيما فى عهد بنى ثعلبة صاروا يداسون تحت الأرجل.

وقد حدث سيل العرم نتيجة لهطول الأمطار لمدة طويلة، وعلى قول بسبب انهيار سد مأرب.

وعرف عمرو مزيقيا أبو ثعلبة خراب السد وتوقع انهياره قبل وقوعه كما سنبين فيما يأتى وترك وطنه.

عمرو مزيقيا ـ هو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أو عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. وكان نقطة استناد أهالى اليمن فى كل الأمور وكان له ثلاثة عشر ولدًا[3] من امرأته «طريفة الحميرية» من الكاهنات المهرة.

(١) نقل أفراد هذه القبيلة إلى مكان يسمى «راتج» فيما بعد.

(٢) وكان العشرون من القبائل المذكورة من بقايا العماليق واليهود والباقى من قبائل العربان ولكن طائفة اليهود كانت بالنسبة للأقوام الآخرين أكثر اجتماعًا ومدنًا.

(٣) وكان عشرة منهم يعيشون فى حياة أبيهم يعنى «ثعلبة (١) حارثة (٢) جفنة (٣) وداعة (٤) أبا حارثة (٥) الحارث (٦) عوف (٧) كعب (٨) مالك (٩) عمران (١٠) وكان الأوس والخزرج ابنى ثعلبة و«خزاعة» بنى حارثة و«غسان» ابن جفنة وكلهم كانوا من حفدة عمرو مزيقيا.

وبما أنه كان من أصحاب الثراء المفرط؛ كان يعيش حياة رفاهية ولا شك أن إلى عمرو مزيقيا ينتهى نسب أفراد قبائل اليمن، قد اختلف المؤرخون الأسلاف فى تعريف قحطان قال بعضهم أن قحطان هو بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ـ عليه السلام ـ وقال بعض منهم أنه هود ـ عليه السلام ـ نفسه.

إن عمران أخو عمرو مزيقيا كان محروما من النعمة الجليلة للتناسل وكانت مهارته فى الكهانة معروفة لدى الجميع.

وقد تكهن يومًا بانهيار سد مأرب وخرابه وأخبر أخاه عمرو مزيقيا بذلك، وأيدت طريفة الحميرية ما قاله عمران ببعض العبارات المسجوعة قائلة: «إذا ظهرت الفئران حول السد فهى علامة انهياره» ونبئ يومًا أن الفئران التى ظهرت فى أماكن قريبة من السد، وأنها أخذت تحرك الحجارة التى لا يستطيع تحريكها خمسون أو ستون رجلاً وقلبها وحرقها وصدق عمرو مزيقيا ما قاله أخوه وأصبح رهنا لليأس والحرمان، وقال: «إن الفئران التى تتصف بهذه القدرة تستطيع أن تهدم وتخرب سد مأرب وقتما تشاء» وقد عرف يقينًا أن لا بقاء لهذا السد، وقد شغل هذا القلق فكره وفى نهاية الأمر كتم الأمر عن أهل سبأ وقرر فى نفسه أن يترك وطنه ويبيع ما يملكه؛ وأَوْلَمَ وليمة للأهالى عامة وأخذ المنازعة التى حدثت فى أثناء الطعام سببا لانفعاله وغضبه، وقال: «بما أن هذا الموضوع قد جرح شرفى وكبريائى فلا أستطيع أن أبقى فى هذه البلاد» ثم باع أمواله وأشياءه وأخذ القليلين ممن عرضوا عليه تبعيتهم من قبيلة بنى أزد وخرج تاركًا أرض سبأ.

ينقل المؤرخون سبب هجرة عمرو مزيقيا من بلاد سبأ على هذه الصورة أيضًا فيقولون:

قد تيقن عمرو مزيقيا أن بلاد سبأ سترضخ لاسم الله الجليل «القهار» وذلك سواء أكان من خلال ما سمع من أخيه الكاهن المشهور عمران، أو زوجته الكاهنة طريفة التى رأت الرؤى المفزعة أو مما استخرجا من علامات مخوفة بمقتضى كهانتهما، وهى أسباب كافية تؤدى إلى الهجرة إلى بلاد أخرى بأولاده

وعياله وأحفاده وتوابعه، وأخذ يبحث عن سبب يؤدى إلى الهجرة ويختلقه، وبناء على هذه الفكرة هيأ مأدبة دعا لها وجوه البلد وأعيانه كما أوجد فيها كثيرين من عامة الناس، وكان بين المدعوين رجل قد تيتم صغيراً فبسط عمرو عليه حمايته وصحبه ورباه حتى أصبح فى زمن قصير من أغنياء أهالى مأرب الأوائل وتزوج باختيار عمرو وتصويبه واكتسب مكانة بين الأهالى، وقد دعا عمرو مزيقيا ذلك الشخص قبل إقامة المأدبة خفية وقال له منبها: «إننى سآمرك فى أثناء الطعام ببعض الأوامر فعليك أن تتحرك خلاف أوامرى، ويجب أن تخالف جميع أقوالى وإذا سببتك فقابلنى بالمثل وأظهر لى الخصومة قولاً وفعلاً وإذا لزم الأمر اصفعنى عدة صفعات!! وعندما أخبره الرجل أنه لن يستطيع أن يقوم بمثل هذا السلوك المشين ولن يتجرأ على ذلك، فرجا منه عمرو أن يوافق على اقتراحه مبينًا له أن هذا العمل سيكون محض خير فى حقه وحق عمرو، ولما حل يوم الوليمة وأخذ الأهالى يتوافدون زرافات، وشغلوا بالطعام وأخذوا يأكلون ويشربون متآنسين ومتحدثين، عندئذ أحضر عمرو مزيقيا الشخص الذى اتفق معه وطلب منه أن يهيئ بعض الأشياء اللازمة للمجلس وأن يحضرها ولكنه قوبل بمعاملة غير لائقة، فأظهر عمرو الحدة وبادر بضربه بالعصا التى فى يده مهدداً، إلا أن الرجل أخذ العصا من يد عمرو رئيس البلد ولكمه عدة لكمات، وساد الوجوم فى المجلس وسر بعض الناس اغْتَمَّ الآخرون، وقد تأثر عمرو مزيقيا من إهانته وعدم إعانة أولاده وأحفاده وأعوانه فأقسم على أنه سينتقل ويرتحل من سبأ. وأعلن أنه سيبيع كل ما يملكه ويهاجر إلى بلاد أخرى فى المجلس نفسه.

وطمع بعض من لهم نفوذ من الأهالى فى الرياسة كما طمع آخرون فى شراء أموال عمرو بثمن رخيص حتى يغتنوا ومن هنا أظهروا سرورهم من هجرة عمرو وأقبلوا على شراء ممتلكاته، كما أن عمرو أخذ معه أولاده وأحفاده وزوجاته ومن يتبعونه من أعوان وخرج من حدود بلاد سبأ.

وبناء على بعض الأقوال أن عمرو مزيقيا مات قبل ظهور «سيل العرم»[1]

(١) قد كتبت كيفية حدوث سيل العرم فى الصورة الثالثة بالوجهة الأولى من مرآة الجزيرة استطرادا.

واطلع ثعلبة ابنه على انهيار سد مأرب وهاجر من أرض سبأ، وأن الكاهنة طريفة ليست أمه بل زوجته.

وعلى رأى من يرجحون هذه الأقوال أن عامر أصبح رئيس قبيلة بعد وفاة أخيه عمرو مزيقيا وقام بإقامة وليمة عظيمة لأهالى سبأ وفى أثناء الطعام لطم ابن أخيه حارثة صفعة.

ولم يتحمل حارثة الإهانة التى تعرض لها على ملأ من الناس وعقد النية على ترك الوطن، وإن كان عامر ندم كثيرًا وقال: «يا حارثة إننى ضربتك فاضربنى أنت أيضًا» وأسرع يرجو منه ذلك مُلحًا حتى يهدئ ثائرة نفس ابن أخيه إلا أن حارثة لم يستطع أن يقنع ضميره بضرب عمه، وإهانته كما أنه لم يستطع أن يكظم غيظه وغضبه ومن هنا خرج من أرض سبأ مهاجرًا.

وأدت هجرة عمرو مزيقيا إلى انتشار الإشاعات بين الأعيان وقام والناس بعضهم ضد بعض؛ وفى أثناء ذلك هبطت الأمطار متتالية ولم تراعى منافذ السد وظهرت وقعة «سيل العرم» فانهار سد مأرب المشهور فغرق جملة الأهالى وهلكوا وخربت آثار تلك البلاد الميمونة وامحت وأصبح ذلك السد الذى قام منذ عدة آلاف سنة خرابا يبابا ومسرحًا للبوم والغراب.

هاجر عمرو مزيقيا من أرض سبأ ومعه قبائل «بنو أزد، آل سدير، آل خزيمة»، وانتشر بنو أزد فى بلاد عمان، وآل وداعة فى «أرض همدان»، وبنو خزاعة فى «بطن مكة»، والأوس والخزرج فى أرض يثرب، وآل جفنة وآل غسان فى «البصرة»، وآل سدير فى «ممالك الشام»، وآل خزيمة فى «ديار العراق»، وهيأ كل هؤلاء حيث وجدوا أملاكًا وأراضى كافية لمعيشتهم وتوطنوا فيها.

وظل بعض أفراد قبيلة أزد على سواحل نهر يسمى غسان عندما هاجر عمرو مزيقيا من أرض سبأ تجول كثيرًا راغبًا فى إسكان القبائل التى فى رفقته فى مكان واسع المرعى كثير المياه هادئ وأدخل أهالى البلاد فى طاعته ووصل إلى حدود الميمونة كعبة الله، ونزل فى مكان مناسب وبعث ابنه ثعلبة إلى مكة المعظمة

وأفهم أهلها «أنه سيقيم فترة فى ساحة حرم الله السعيد». وقال ثعلبة ضمن ما قاله فى تليين أفكار الأهالى: «منذ أن خرجنا من موطننا بلاد سبأ حيثما مررنا بمكان سكَنَّا برضا أهله هناك حتى نجد لنا مكانًا يليق بإقامتنا، وبهذه الصورة وصلنا هنا فأذنوا لنا بالإقامة فى بلادكم فترة وعندما يصل أبناء قومنا إلى هذا المكان سيبعثون عدة أشخاص إلى الإمام ليبحثوا ويتحروا عن بلاد مناسبة وعندما يرد هؤلاء سيرتحلون من هنا، وعلى كل حال فنحن نريد عونكم» وبذل سعيه بهذه الطريقة ليكتسب رضا أهالى مكة، إلا أن أهالى مكة الذين كانوا من الطوائف المتسلطة والجراهمة العصاة الذين كانوا اغتصبوا حجابة الكعبة من أيدى بنى إسماعيل وحكومتها واعتادت على أن تمنع القبائل التى لا تريدها من الدخول إلى أرض مكة فأعادوا ثعلبة خائبًا إذ رفضوا طلبه.

وعندما اطلع عمرو مزيقيا على أفكار المكيين القاسية بعث ابنه مرة أخرى وهو يهدد قائلاً: «مهما كان الأمر فإننى قد هيأت السبل والأسباب لقتال الجراهمة حتى آخر نفر من قبيلتى لأدخل مدينة مكة المعظمة!!» والتقى ثعلبة للمرة الثانية بأعيان الجراهمة وصناديدهم وافتتح كلامه ذاكرًا أن والده قد تهيأ للحرب والقتال وقال: «لابد وأننا سنقيم فى بلدة مكة المفخمة المعظمة! إذا ما وافقتم على ذلك فإننا سنعرض عليكم مراسم شكرنا ونحمد لكم موقفكم! أما إذا أظهرتم الرفض والمخالفة والخصومة، سنستولى على مراعيكم وآباركم فى ظل قوة أدرعتنا وشجاعتنا وننتزع حكومة مكة الجليلة من أيديكم. ولن نعطى لأفراد قبيلتكم قطرة من الماء، إلا إذا رضيتم بشرب ما زاد عن حيواناتنا من مياه موحلة، أما إذا قابلتمونا بالمثل عندئذ سنشعل وطيس الوغى ونقاتلكم فنقهر أبطالكم وندمرهم ونكبل أطفالكم ونساءكم بالسلاسل».

وردت طائفة الجراهمة ثعلبة بالرفض مرة أخرى مستندين على كثرة عددهم وقوة نفوذهم واحتضنوا أسلحتهم وحاربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهارًا، ولكنهم انهزموا انهزامًا غير منتظر وتشتتوا وتفرقوا.

ودخل عمرو مزيقيا مستصحبًا أفراد قبيلته فى أرض حرم الله عقب انهزام الجراهمة، ونال شرف الإقامة فيها مدة طويلة وأقامت القبائل التى معه فى هذه الأراضى وأمضت فيها فترة ما، وتعرض فيما بعد أفراد القبائل الذين كانوا معه للحمى المحرقة ولم يتحملوا الإقامة فيها، وهاجر كل واحد منهم إلى بلدة ما، واستقر ثعلبة الذى أجرى السفارة لقبائل الجراهمة فى أثناء هذه الاضطرابات فى موقع مشهور بـ «ثعلبة» داخل أراضى الحجاز ووسع دائرة نفوذه وقوته.

وانقسم هؤلاء إلى بطون وفيرة وقبائل كثيرة، فذهب أحفاد عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس، وأولاد سائب بن قصى حفيد عوف بن الخزرج إلى بلاد عمان، وهاجر بعض من أبناء حارث بن الخزرج إلى بلاد أخرى فلم يكتب لهم أن يلتحقوا بزمرة الأنصار الجليلة، وظل بعض من أولاد جفنة بن عمرو بن مزيقيا فى المدينة فانخرطوا فى سلسلة الأنصار الذهبية.

وتوطن بعض أولاد الأخوين الأوس والخزرج فى قرى بنى إسرائيل كما سبق بعضهم فى أماكن خالية من آثار الحياة والعمران.

سبب ظهور وقعة مالك بن عجلان وصورة ظهورها:

كان فيطون[1] الثعلبى حاكم يهود المدينة، وقد اتخذ فى أواخر عهد حكومته عادة فاضحة وهى أن يستفرش العرائس اليهوديات قبل أن يستفرشهن أزواجهن.

وأراد أن يعمم هذه العادة الكريهة الإباحية بين قبيلتى الأوس والخزرج، وأراد مالك بن عجلان السالمى أن يزوج أخته وكان من قبيلة الخزرج إلا أنه لم يطق تكلف مالا يطاق من الذى أعلنه فيطون الدون والذى لا يخالف الدائرة المشروعة فحسب بل الطبيعة البشرية أيضًا وفضل ألا يزوج أخته لفترة ما.

ولكنه لم يستطع أن يتغلب على إلحاح النساء فتزيا بزى النساء وأوصل أخته إلى بيت فيطون واستطاع أن يصل إلى فيطون وقتل عدو العرض والشرف ذلك وبعد ذلك أخذ «رمق بن زيد» الخزرجى من بنى سالم وسافر إلى بلاد الشام

(١) يروى فى قول آخر أن اسم فيطون قطبون.

حيث لاقى أبا جبيلة، وشكا له مظالم يهود يثرب وبين له كيف قتل فيطون ثم قال له، إننى أخاف بعد الآن من العودة إلى المدينة.

قال بعض المؤرخين: «إن مالك بن عجلان» لم يَلْتَقِ فى الشام مع أبى جبيلة بل لاقى عبيد بن سالم بن مالك بن سالم من بنى سالم وعرض له فى ضميره، إلا أن هذا القول غير صحيح بالنسبة للقول الأول، لأن أبى جبيلة من أولاد جشم بن الخزرج، وقد هاجر إلى الشام لأسباب ما واكتسب ثقة الهيئة الحكومية وفرض احترامه على الناس وقد بلغ الواقعة كما جرت إلى ملك الشام وبين أنه قد أتى الوقت لتأديب يهود يثرب وتربيتهم الذين أزعجوا سكان بلاد الحجاز بما ارتكبوا من المظالم فيها. ثم أضاف بـ: إذا اقتضى سوق الجيوش إلى يثرب فإننى أريد أن أقوم بخدمة صغيرة للحكومة الشامية وذلك بأن أذهب شخصيًا إلى هناك، ولما كان أهل الشام أيضًا منزعجين من يهود المدينة، ولما وصلت حركات فيطون الباغية المتوحشة إلى درجة الثبوت قد استصوب سوق فرقة من الجنود بناء على قول أبى جبيلة لتأديب اليهود وإسناد قيادة ذلك الجيش إلى أبى جبيلة لما له من دراية بأمور يثرب. وفعلاً جهز العدد الكافى من الجنود وفوض أمرهم لأبى جبيلة، وفعلاً اصطحب الجنود الذين جهزوا واتجه نحو يثرب بلا توقف، ولما أراد أن يحافظ على جنود الشام وألا يعرضهم للقتل رأى أن يباغت العدو من جهة اليمن.

وكانت هذه الخطة مبنية على إقناع الأهالى بأن جنودا أرسلوا إلى اليمن، وفعلاً سار أبو جبيلة عدة أيام متجهًا إلى اليمن ثم غير طريقه وبعد مدة وصل إلى أرض يثرب ونصب خيامه فى موقع يقال له «ذى حرص» ودعا إليه أعيان اليهود وأعمل سيفه فى رقاب اليهود الذين استجابوا لدعوته. وقطع أنساب الرؤساء الذين سيتولون مناصب الحكومة منهم، وبناء على هذا قد تغلب أفراد قبيلة الخزرج والأوس على طوائف اليهود فى البلاد المقدسة وأصبح كل واحد منهم صاحب أملاك وأصبحت الحكومة فى أيديهم.

وقال بعض المؤرخين: «إن مالك بن عجلان استمد العون من ملك اليمن تبع الأصفر وساق الملك المشار إليه الجيوش إلى أرض يثرب وقتل اليهود وأهلكهم ثم عاد بعد أن كسا البيت الأعظم بالكسوة[1].

إذا ما نظرنا إلى وجود بعض المواقع تنسب إلى تبع الحميرى فى المدينة المنورة وإلى ثبوت كساء البيت المحترم يلزم أن تكون هذه الرواية مقارنة للصحة أو يلزم أن يكون أبو جبيلة وكذلك تبع الأصفر قد أدبا يهود المدينة.

(١) إن تفصيل هذه الواقعة مسطر فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة «لمرآة مكة».

فى ذكر بيان القرى والمحال التى أسسها أفراد قبائل بنى الأوس حول المدينة.

فى أثناء تغلب أفراد القبائل التى تشعبت من سلالة الأوس بن ثعلبة وأخيه الخزرج بقوه أبو جبيلة على طوائف اليهود انتشروا فى نواحى يثرب حتى هيأت كل قبيلة قرية لها، واتحدت عدة جماعات من كل بطن وأنشئوا منازل حيث أعجبهم وأسكنوا فيها أسرهم.

واختار الإقامة بنو عبد الأشهل ابن جشم بن الحارث وحارثة بن الحارث بن الخزرج الأصفر بن عمرو بن مالك بن أوس فى قرية تسمى «دار عبد الدار» يعنى «فى الربوة التى اشتهرت بالَحرَّة الشامية فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة».

وابتدر كل واحد من الأفراد إلى تأسيس بيت حسب حاله وقدرته وهكذا أنشئوا حيًا كبيرًا وبنوا برجا عاليا ليكونوا آمنين إذا ما تعرضوا لهجمات الأعداء يعرف بـ «واقم» وترك أمر إدارة هذا البرج وأمر إدارة الناس الذين قرروا تحصين قراهم وحفظها لحصين بن سماك من مشايخ بنى عبد الأشهل.

بعد أن أقامت قبيلة بنى عبد الأشهل فى قرية «دار عبد الدار» فترة قامت بالاتفاق مع أفراد بنى ظفر ضد أبناء عمومتهم بنى حارثة الذين يشاركونهم سكنى قريتهم واستخدموا الخصومة والسيف لإخراجهم من القرية؛ ولما كان أفراد بنى حارثة من أصحاب البصيرة انتصروا على بنى عبد الأشهل وقتلوا رئيسهم سماك بن رافع وأخرجوا سواء أكان أفراد أسرة سماك المقتول أو كان أفراد قبيلته من برج «واقم» وطاردهم إلى ديار بنى سليم، وفى الأيام الأخيرة قام ابن سماك المقتول مطالبًا بدم أبيه وأخذ يحاصر ناحية بنى عبد الأشهل بالاتفاق مع قبائل بنى سليم ويُضيق عليهم الخناق، وبعد مقاتلة دامت فترة طويلة جعلوا بنى عبد

الأشهل يفرون إلى القرب من خيبر، وبعد هذا القتال بعام واحد تنازل ابن سماك عن دعواه ورضى أن يعود بنو حارثة إلى أرض يثرب، إلا أن بنى عبد الأشهل تشاءموا من النزول إلى نواحى دار عبد الدار وفضلوا النزول فى قرية «شيخان» فى الجهة الشرقية من «الحرة الشرقية».

وأنشأ بنو ظفر أحفاد كعب بن الخزرج الأصفر بن عمرو بن مالك بن الأوس قرى حول «مسجد البغلة» الذى يقع فى الجهة الشرقية من مقبرة بقيع الغرقد، يعنى بجوار قرى بنى عبد الأشهل كما أسس أخو كعب سالف الذكر والذين ينتسبون إلى عوف بن مالك ابن الأوس أنشئوا منازل فى ناحية «قباء» وبعد فترة انقسموا إلى جماعات عديدة وبطون كثيرة.

وقد بنى جماعات القبائل التى نزلت فى ناحية «قباء» أربعة عشر برجا حجريًا متينا وأحد هذه الأبراج الذى يقع فى الناحية الشرقية من مسجد قباء يعرف باسم «مسكبة» والآخر الذى يقع بجوار بئر غرس يعرف باسم «مستظل» وهذان البرجان مشهوران برصانة بنائهما بالنسبة للأبراج الأخرى لأنهما أسسا على غاية من المتانة والرصانة.

وقد اتحد أحفاد وأولاد امرئ القيس بن مالك ابن الأوس مع جماعات بنى واقف وبنى سليم ونزلوا فى الجهة الجنوبية من مسجد الفتح إلا أن أفراد بنى سليم انفصلوا عن جماعة بنى واقف وارتحلوا إلى قرى ابن عوف وانتقلوا إليها[1].

وسكن بنو وائل الذين ينتسبون إلى زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك فى القرى القريبة من مسجد «بنى وائل» كما استقر أولاد عمومتهم بنو أمية بن زيد فى نواحى «بنى أمية» كما استقر أولاد بنى عطية بن زيد فى ناحية «صقفة الواقعة أعلى منازل» بنى حبلى «وقد بنى كل واحد منهم منازل متينة وبعض

(١) إن سلالة بنى سليم قضت حياتها تحت الخيام إلى سنة ١٩٩ وكانت هذه السلالة تقدم ألف مبارز فى الحروب التى تقوم فى الجاهلية.

القلل الرصينة، وكان يقال لأفراد هذه الجماعات ـ يعنى القبائل بنو وائل، بنو أمية، بنو عطية فى ذلك التاريخ «جعادة».

ولما وقعت قرى بنى أمية بن زيد على جانب نهر صغير صدفة كانت حقولها خصبة ومنبتة وذات محاصيل وفيرة وكانت أكثر قيمة من أراضى القرى الأخرى كما أن لأفراد بنى عطية برجًا يسمى «شاشى» بين جدران مسجد قباء الجنوبية.

وسكن بنو سعد بن مرة بن مالك بن الأوس فى ناحية تسمى «راتج» كما أن بنى حطمة بن جشم بن مالك بن الأوس سكنوا بالقرب من «ماجشونية» يعنى فى أطراف قرى بنى حارث وفى المنازل الكائنة فى حى غرس، والخلاصة أن البطون التى انفصلت عن سلالة مالك بن أوس هى فروع القبائل التى ذكرت إلى الآن.

وكانت كل هذه الجماعات والقبائل تسكن فى المواقع التى ذكرت آنفًا والتى تقع أسفل أراضى يثرب.

فى تعريف ووصف القرى والمنازل التى سكنها بعد تهيئتها أبناء قبائل الخزرج وجماعاتها فى جوار مدينة الرسول.

توطن أولاد وأحفاد الحارث بن الخزرج بن ثعلبة فى أول الأمر فى الجهة الشرقية لوادى بطحان واستقر من هؤلاء جشم وزيد بن حارثة منفصلين عن أبيهما فى برج «الناحية» الذى يقع فى موقع «سخ»، وكان هذا البرج بعيدًا عن مسجد السعادة مسافة ميل وكان فى داخل أقرب قرية إلى المسجد الشريف فى تلك الناحية.

وفارق خدارة بن عوف جده الحارث وسكن فى التلال التى يطلق عليها «حرار سعد» وفى الجهة الشامية منها، كما سكن ابن أخيه فى قرب مكان يسمى «بصة» وظل سالم بن عوف وأخوه غنم بن عوف بن عمرو بن الخزرج الأكبر أولاده وأحفاده فى أطراف «مسجد الجمعة» الواقع فى الحرة الغربية.

وكان لبنى خدارة برج يقال له «بئر البصة» كما كان لبنى سالم برج يطلق عليه «قواقل» وكان لكل واحد منهما برج متين ويروى أن برج «بئر البصة» قد أسس من قبل جد أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه البارى.

واستقر بنو عطية من رؤساء بنى سالم بالقرب من مسجد «بنو عطية» فى ناحية قباء وجماعات بنى حبلى من أحفاد مالك بن سالم بن غنم بن عوف استقروا فى القرى الكائنة بين منازل بنى النجار وبنى ساعدة.

وكان لجماعات هاتين القبيلتين خلف المنازل التى يطلق عليها بيوت عبد الله بن أبى، برجًا يقال له «مزاحم» وكان فى غاية الجمال والمتانة.

وسكن جماعة بنى سليمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة ابن زيد بن

جشم بن الخزرج فى الحرة الواقعة بين برج ناحية «بنى حرام» وبين مسجد القبلتين، وسكنت طائفة بنى سواد بن غنم بن كعب بن سلمة فى جهة منازل بنى عبيد والمسجد السالف الذكر وبنوا مسجد القبلتين.

كما استقر أفراد بنى عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة فوق الجبال القريبة من مسجد الحزب وأنشئوا برجًا متينًا فى الجهة الجنوبية من المسجد.

وتوطن بنو حرام بن كعب بن غنيم بن كعب بن سلمة فى جانب المسجد الصغير الواقع فى مكان يقال له «قاع» وفى جهة مقبرة بنى سليم فى جهة «حصار مزاد» وبنوا بجانب بئر جابر بن عتيك[1] برجًا منتظمًا.

وأقام أفراد بنى سلمة فى القرى سالفة الذكر، وتبعوا أمية بن حرام وعاشوا متآخين على قلب واحد وقالب واحد ولم يقم بعضهم ضد البعض مثل القبائل الأخرى؛ ولم تظهر بينهم آثار النفاق والشقاق ومن هنا أصبحوا من أثرياء العرب وأقويائهم فى أرض يثرب.

وأقام بنو بياضة وزريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر، وبنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب.

وبنو عذراة[2]، وبنو أجدع[3] متفقين فى قرية دار بنى بياضة[4] الكائنة فى الجانب الشامى لقرى بنى سالم وفى الجهة الجنوبية من منازل بنى مازن وابتدروا فى بناء ما يقرب من عشرين برجًا لا بديل له.

وانفصل بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر عن آبائهم وانتشروا فى عدة قرى؛ يعنى استقر بنو ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة وأبناء الحارث بن الخزرج بن ساعدة فى قرية «بنى ساعدة» الواقعة فى الجهة الشرقية من سوق المدينة المنورة،

(١) حفر سيدنا معاوية رضى الله عنه بئرًا أخرى إلى جوار تلك البئر.

(٢) هؤلاء بنو كعب بن مالك.

(٣) وهؤلاء بنو معاوية بن مالك بن غضب.

(٤) هذا المكان الحرة الغربية التى تنتهى عند بطحان.

واستقر بنو وقش وبنو عنان بن ثعلبة بن طريق بن الخزرج بن ساعدة بجوار «مسجد الراية» كما استقر بنو مالك بن النجار فى منازل «بنى النجار».

وكانت منازل بنى النجار فى تلك الأوقات فى جهة باب الرحمة للمسجد الشريف وعلى هذا التعريف كانت منازل بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار على الجانب الأيسر بجانب شارع باب الرحمة للمسجد الشريف، وكانت بيوت بنى مقالة على الجانب الأيمن من الشارع المذكور، وكان يسكن بنو مبذول بن عامر بن مالك بن النجار شرق بقيع الغرقد وبنو غنم فى الجهة الجنوبية منه.

وكانت منازل بنى عدى بن النجار فى الجهة الغربية من المسجد الشريف وكانت منازل بنى مازن بن النجار فى الجهة الشرقية من منازل زريق، وكان لأبناء عدى بن النجار فى ساحة المسجد الذى فى «دار نابغة» برج متين يسمى «زهرابة»، وإذا ما نظرنا إلى الأماكن التى أقيمت فيها منازل بنى النجار بعين الإمعان يفهم بداهة أن منازل بنى النجار أقيمت فى نقطة غاية فى الأهمية، وإلى هذه النقطة الدقيقة يشير الحديث الشريف النَّبَوي الذى يقول: «خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة وفى كل دور الأنصار خير»[1] (حديث شريف).

(١) رواه البخارى فى مناقب الأنصار حديث (٣٧٨٩) باب فضل دور الأنصار ٧/ ١١٥ من فتح البارى.
ومسلم فى كتاب الفضائل، باب خير دور الأنصار، حديث رقم (٣٠٦٣) وما بعده ٧/ ٥٧٢ وما بعدها ط. دار الغد العربى. وغيرهما من أصحاب السنن.

فى تعريف رؤية الملاحم التى ظهرت قبل الإسلام بين قبائل الأنصار الكريمة والمعارك المشهورة.

انتصر أفراد القبائل الذين تشعبوا من سلالة الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بعد واقعة مالك بن عجلان، واختارت كل بطن قرية تسكن بها كما سطر آنفًا، وأخذ كل واحد من أفراد القبائل يحث الآخر فى تعمير الأملاك والأراضى وعاشوا متآخين فترة طويلة؛ ولكن ما ظهر بينهم فيما بعد من آثار النفاق والشقاق دفعتهم لاستخدام السيف والسنان ضد بعضهم حتى وصلت الحروب التى قامت بينهم قبل عصر السعادة بمائة وعشرين سنة إلى درجة تسلب عقول العقلاء ويروى المؤرخون أن الحرب آتية الذكر من أشهر معارك تلك القبائل المذكورة.

وقعة سمير ـ إن وقعة سمير أولى الملاحم المحزنة من بين الحروب التى وقعت بين قبائل الأنصار، ولما كان سبب حدوث هذه الواقعة رجل اسمه سمير من قبائل الأوس، قد اشتهرت تلك المعركة باسم وقعة سمير.

إن أصل الواقعة قتل سمير لأحد الأشخاص من الذين دخلوا فى حماية مالك بن عجلان الخزرجى يسمى كعبا بالاتفاق مع أحد أشرار بنى ثعلبة، وكان كعب هذا قد أحدث فتنة وفسادًا بين قبيلته الأصلية بنى ذبيان ثم هرب ناجيًا برقبته واحتمى بمالك بن عجلان.

ولما كان قتل شخص دخل تحت حماية أحد الأشخاص يعد مصيبة بين القبائل تلوث شرف مالك بن عجلان ومكانته، لهذا قام ابن عجلان بطلب دية كاملة من قاتل كعب وعند المخالفة لهذا التقدير أعلم أشرار بنى ثعلبة أن يستعدوا للقتال.

وكانت العادة المرعية فى تلك الأوقات عند العرب أن يعطى لمقتول الحليف نصف دية المقتول النسيب لذلك قال رجال القبائل الأوسية التى ينتسب إليها سمير أن إعطاء دية النسيب[1] لقتيل الحليف[2] مخالف لقانون العرب، وإنها ليست شيئا نعجز عن دفعه إلا أننا نخاف أن يظل كالعادة بين العرب وبناء على هذا نعطى دية الحليف حتى نقف دون احتمال وقوع هذه العادة، ولكن مالك بن عجلان أصر فى ادعائه وطلبه، وحاول رئيس قبائل الأوس أحيحة بن الجلاح أن يقنع مالكًا حتى يحافظ على عادات العرب القديمة.

وطال الإصرار والمدافعة ونتج عن الحوار الجدال والمشاجرة، وتسلح الطرفان وشرع كل طرف فى شتم الآخر وضربه وتضاربا ثمانى ساعات أو عشر، وفى النهاية تغلب الأوس على الخزرج وعينوا منذر بن حرام النجارى الخزرجى جد حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ حكما للفصل بين المتخاصمين.

وأخبر مالك بن عجلان بأنه سيقبل الرأى الذى يقضى به ابن حرام وبحكمه، وبعد أن أخذ منذر بن حرام تأكيدات قوية من أفراد طرفى المحاربين بأنهم سيوافقون على الحكم الذى سيصدره، ثم خاطب الأوس وقال: «يلزم أن تدفع دية النسيب لكعب المقتول على أن يكون لهذه المرة فقط» وإن كان أفراد قبيلة الأوس وافقوا على هذا الحكم وقاموا بتنفيذه وفصلوا هذه الحرب بحكم المنذر إلا أن الطرفين قد غضب بعضهم من بعض وفى النهاية أحدثوا فيما بينهما ملحمة يوم الرحابة.

يوم الرحابة ـ حدثت هذه الواقعة بين بنى حجبا من قبيلة الأوس وجماعات بنى مازن من أقوام الخزرج وقد أدى إلى حدوث هذه الملحمة المؤلمة قتل كعب بن عمرو المازنى من عشيرة مازن بن النجار من قبل بنى حجبا، لأن كعب بن عمرو المازنى كان يتلاقى من حين لآخر بباغية من نساء بنى حجبا، وعندما اطلع بنو حجبا لوقاحة كعب ومجونه حاصروه يومًا فى منزل تلك الفاجرة وقتلوه. وأسرع

(١) النسيب: يقال لمن هو من أصل القبيلة وذريتها.

(٢) الحليف: يقال للذين تعاهدوا وتحالفوا على أن يساعد بعضهم بعضًا.

عاصم بن عمرو أخو كعب يتفق مع أبطال بنى مازن فى المطالبة بثأر كعب وأعلن خصومته كما أن رجال بنى حجبا تهيئوا لأسباب القتال فاجتمع رجال الطرفين فى موقع رحابة وأخذوا يتقاتلون.

وقد تحمل رجال الأوس وتجلدوا فى ميدان المعركة وأظهروا بعض البطولات إلا أنهم لم يتحملوا هجمات رجال الخزرج الشديدة وفروا فى النهاية منهزمين، وانفصل رئيس قبيلة الأوس عن الفارين ودخل فى القلعة المشهورة بـ «ضحيان» مع أتباعه وأغلق أبوابها.

وكان أخو كعب المقتول عاصم بن عمرو يصر على أخذ ثأر أخيه من أحيحة بن الجلاح، وأخذ يبحث عن طريقة للوصول إلى أحيحة وقتله قائلاً: «إنه زمن الانتقام تمامًا» وأخذ يتجول حول ذلك الحصن فى الليالى، وفى ليلة ما كان أحيحة قد خرج من الحصن ليسترق السمع للأحداث وأطلق أمامه الكلاب للأطراف والأكناف وأخذ ينظر إلى أطرافه الأربعة نظرات متجسسة قائلاً: «يا ترى من أين يمكن أن يأتى العدو وقد هيأ عاصم بعض التمر وسار نحو حصن ضحيان ورمى عدة ثمرات لكل كلب يقابله حتى يمنعه من النباح واقترب من الحصن، ولكن أحيحة قد دخل حصنه وقد أقلقه نباح الكلاب أولا وسكوتها بعد ذلك ولكن عاصم قد رأى رغبة دخول أحيحة فى الحصن فأطلق من خلفه سهمًا ولكنه اصطدم بباب الحصن ولم يصب أحيحة ولما رأى ذلك هرب حتى ينجو من الوقوع فى أيدى الأوس.

ولما عرف أحيحة أن السهم الذى أطلق كان يقصده وأدرك أن غير عاصم لن يتجرأ على الاقتراب من الحصن بهذا القدر فجمع فتية القبيلة وأطلقهم من خلف عاصم إلا أن الوقت قد مر حتى يجتمع رجال القبيلة مما أعطى الفرصة لعاصم أن يصل إلى مقر قبيلته فلم يستطع رجال الأوس القبض على عاصم وعادوا وقد اغتاظ أفراد قبيلة أحيحة من فشلهم فى القبض على الفريسة التى أتت برجليها إلى الفخ وعودتهم يائسين وعلى إعطاء فرصة للفرار لعدو كبير قتلوا فى معركة رحابة أخاه كعب بن عمرو هذا.

ومن هنا عزموا على الانتقام من قبيلة الخزرج وذلك بمباغتتهم فى ليلة من الليالى وذلك بتصويب جميع أبطال القبيلة واتحاد رأيهم؛ إلا أن زوجته «سلمى بنت عمرو» النجارية أبلغت الأمر إلى أفراد قبيلتها أى أنها أيقظت الخزرج من نوم الغفلة وذلك بإظهار ما يضمره الأوس من شر لهم، ومن هنا لم يستطع أحيحة أن ينال غرضه، وغضب غضبًا شديدًا من زوجته وبسبب هذا الغضب طلق «سلمى» التى تتمتع بجمال بالغ حتى يتشفى منها؛ إلا أن هذا الغضب أدى إلى ارتباط السلسلة الذهبية النبوية ببنى النجار وكان سببًا ظاهرًا له، لأن هاشم بن عبد مناف الذى يحمل صفات النبى والجد الثانى له قد تزوج بمطلقة أحيحة «سلمى بنت عمرو» وقد حملت المشار إليها منه وولدت جد النبى ﷺ عبد المطلب.

سلمى ـ وكانت هذه الحادثة سببًا فى اشتهار سلمى «بمتدلية» إذ فهمت سلمى ليلة مباغتة الأوس لقبائل الخزرج من استعداداتهم ثم ربطت نفسها بحبل قوى وتدلت من الحصن بهذا الحبل وأخبرت قومها بأحداث الواقعة، وكان هذا العمل سببًا فى طلاقها واشتهارها بلقب «المتدلية» وتكمن فى هذا السر حكمتان خفيتان أولاهما عدم انتقال النور المحمدى إلى نساء الأجانب وثانيتهما ارتباط سلسلة القبائل الخزرجية بالسلسلة النبوية وهذا مما يسر واقعة الهجرة لما عرض عليه الأنصار الكرام من العون والنصرة والانقياد.

عندما طلق أحيحة سلمى كان هاشم بن عبد مناف قد اشتهر فى قطر الحجاز بالحسن والملاحة ولما كان يحتوى على الغرة الغراء من عالم النجابة واليُمْن ولما كانت شمس سيد الأبرار تلمع فيه كلما قابله علماء اليهود والنصارى المطلعون على محتويات الكتب السماوية يسلمون عليه ويصافحونه ويقبلون يديه معًا، وكانوا يعرضون عليه بناتهم للزواج.

وقد انتشر فى الجهات الأربع للعالم أن علماء العصر عرفوا بدلالة الصحف السماوية أن سيكون الجد الثانى لسيد العالم ﷺ ومن هنا كانوا يظهرون له التعظيم والتبجيل ويعرضون عليه بناتهم اللائى بلغن أقصى حد الملاحة والجمال.

ولما وصلت هذه الشائعة إلى أسماع قيصر ملك بلاد الروم أراد أن يدخل إحدى بنتيه المشتهرتين بالجمال المفرط فى العالم كله فى سلك جدات النبى الغاليات وأن يجعل هاشم بن عبد مناف صهرًا له فبعث من يوصل هذا الخبر إلى هاشم يقول فيه: إن عندى بنتين يمكن أن يقال إن أما لم تلد فى مثل جمالهما كنت أود أن أزوجهما لشخص ظاهر الحسب وطاهر النسب ولما ثبت فى العالم كله والأقوام أصالة حسبك وطهارة نسبك فبعثت ببنتى لك فإذا عقدت نكاحك لإحداهما فتكون قد سررتنى كما أنك ترتبط بأسرتى السلطانية وتكتسب بهذا إعلاء قدر وميزة!!! وبعث عقب ذلك ببنتيه إلى ذلك المحبوب الذى حَيَّرَ الدنيا بحسنه.

وكان قصد ملك الروم من هذا أن يكون حما لهاشم بن عبد مناف وأن يكسب إحدى بنتيه شرف الصعود إلى درجة إحدى جدات النبى والتى تساوى شرفى الدنيا والآخرة.

وحينما وصلت بنتا ملك الروم إلى مكة المعظمة مال هاشم إلى أن يتزوج الاثنتين وبعد أن عرض طاعته وعبوديته لله أولا فوق جبل ثبير وبعده أمام الكعبة المعظمة وفق العادة الجاهلية فدخل بيت الزفاف وَفق الأصول، إلا أن حضرة جبريل نزل باسطًا أجنحته ورفع من ظهر هاشم نور النبوة وبهذا قد أعلم أنه لا يحتمل أن تكون صدور الروميات درة الوشاح لجوهر خاتم الأنبياء عليه أفضل التحايا الغالى. وكلما كان هاشم يفترش هاتين البنتين كان جبريل الأمين ينزع نور سيد الأنبياء من مشكاته التى وضع فيها.

دامت هذه الحالة التى تشتمل على الحكمة الإلهية فترة طويلة إلى أن رأى هاشم فى ليلة من الليالى فى رؤياه من يقول له: يا هاشم! يجب عليك أن تعقد نكاحك لسلمى بنت عمرو بن شريد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار بن تيم بن ثعلبة بن عمرو الخزرجى من كرائم كبار النجارين.

ولما كان هاشم ذات سمات جميلة متهيأ للتحرك نحو سواد الشام المعظم بنية التجارة فمر مضطرًا بمدينة طيبة، وتزوج من سلمى بنت عمرو النجارى كما أمر فى رؤياه وهكذا أنقذ مليحات عرب البادية الجميلات من عبث الطمع بالزواج به. انتهى.

كانت سلمى بوفرة عقلها وحلمها وشدة جمالها وسعة علمها خديجة الكبرى فى زمانها، وكان اسم والدتها عمرة بنت صخر بن الحارث بن ثعلبة بن مازن بن النجار واسم جدتها سلمى بنت عبد الأشهل النجارية.

يوم السرارة ـ لم يستطع الخزرجيون أن يتحملوا هزيمة يوم الرحابة، وظلوا ينتظرون حدوث واقعة أخرى وفى نهاية الأمر اختلقوا ملحمة «يوم السرارة» حيث انتصروا وأصبحوا يتباهون على أفراد قبائل الأوس ويتفاخرون عليهم بنصرهم.

وقد ظهرت هذه الحرب الشهيرة بين بنى عوف بن أوس وبنى حارثة الخزرجى وقد قاد محاربى بنى عوف «خضير بن سماك» كما قاد بنى حارثة «عبد الله بن أبى بن سلول أبو الحباب»، وقد تلاقى أفراد القبيلتين فى مكان يسمى «سرارة» وتحاربوا أربعة أيام متتالية وفى نهاية الأمر انتصر الخزرجيون وتفرق الأوسيون منهزمين حتى يعدوا ليوم آخر وهو يوم «حصين».

يوم حرب حصين ـ وقعت هذه الملحمة العظيمة بين بنى وائل من قبائل الأوس وبنى مازن بن النجار من قبائل الخزرج ولم يتخل أى واحد من محاربى الطرفين عن الحرب وقد أصر رجال كل طرف على أن يوقعوا خسائر على الطرف الآخر تخرج عن العد والإحصاء.

يوم ربيع الظفرى ـ وقعت بعد فترة من حرب حصين وقعة «يوم ربيع الظفرى» بين ظفر الأوس وبنى مالك بن النجار الخزرجى، ولما كان رجال بنى النجار فى هذه الحرب متعبين ومرهقين فاتحدوا وتجمعوا فى يوم «فارع» حيث أخذوا

يشتمون بعضهم بعضا وأشعلوا نار الحرب وبذل كل واحد من الطرفين أقصى جهده ليتغلب على الطرف الآخر.

يوم فارع ـ كان قائد القبائل الأوسية فى يوم فارع معاذ بن نعمان بن امرئ القيس الأشهلى والد سعد من الأنصار الكرام وكان قائد القبائل الخزرجية عمرو بن الإطنابة ولم تترك الحرب والقتال إلا بعد تأدية الدية المقطوعة للغلام القضاعى الذى فى حماية معاذ بن نعمان دية أخيه الذى قتل من طرف ابن النجار، وشغلت هذه القبائل من حين لآخر بالقيام ضد بعضها إلا أن أى طرف من الطرفين لم يستطع أن ينتصر على الطرف الآخر انتصارًا قاطعًا لذا رفعا المخاصمة من بينهما بعد يوم فارع واتفقا ضد اليهود.

وعقدا روابط الصداقة بينهما وتركا العداوة بينهما وعاشا متآخين مدة طويلة يعرض كل طرف للطرف الآخر مظاهر المودة والمخادنة ولكن العلاقات بينهما قد ساءت وفسدت وذلك بسبب الدسائس التى ألقيت بينهما فتسببا فى ملحمة يوم الجسر[1] بعد وقعة حرب سمير بمائة سنة.

يوم الجسر ـ وسبب وقوع وقعة يوم الجسر قتل حاطب بن قيس يهوديًا تحت حماية يزيد بن الحارث الخزرجى.

وكان حاطب بن قيس من رؤساء أعيان قبائل الأوس وكان يكرم الضيوف ويقوم بتسوية حاجات غرباء البلد، وجاءه يومًا ضيف من بنى ذبيان وخرج معه إلى السوق ولمس أحد اليهود بظهر الضيف وأخذ يسخر منه وذلك بإيعاز وإلحاح من يزيد بن الحارث، ولم يتحمل ضيف حاطب هذه الإهانة والحقارة وصاح بصوت عال: «يا حاطب!! بينما أنت من أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة، فكيف يتجرأ يهود السوق بإهانة الضيف الذى التجأ إليك واحتمى بك وذلك بمس دبره وإظهار علامات الحقارة له والاستهزاء به هل تتحمل أن يهان ضيوفك بهذه

(١) يقال لهذه الواقعة «حرب حاطب» أيضا.

الدرجة؟!» وبناء على تأسف الضيف لما حدث فما كان من حاطب إلا أن قتل اليهودى متأثرًا من قول الضيف.

وقد مات اليهودى الذى قتله حاطب ضحية فى سبيل ابن الحارث وغضب ابن الحارث من ذلك أشد الغضب وتتبع حاطب إلا أنه لم ينجح فى الإمساك به بل قتل بريئًا خرج أمامه، وفى ذلك الوقت كان ينتمى إلى بنى معاوية ولم يكن له أى علم أو علاقة بقتل اليهودى وكأنه بهذا قد ثأر وانتقم ومن هنا اشتعلت نار الحرب والقتال بين القبيلتين.

والتقى بعض الفتيان من الخزرج والأوس على جسر ردم بنى الحارث وشرعوا فى قتال دام شديد، وكان قائد الأوس فى هذه الحرب خضير بن سماك الأشهلى، وقائد الخزرج عمرو بن نعمان البياضى، وقد انتصر الخزرج على الأوس.

يوم الربيع ـ بعد مرور وقت قصير بعد معركة جسر ردم بنى الحارث اجتمع كثير من الرجال من الخزرج والأوس أمام جدار عتيق يعرف بـ (ربيع) وفى ناحية «السفح» وقد تقاتلوا مدة طويلة وبشدة فإذا ما كان القتال دام أكثر من ذلك لما بقى فرد يتنفس من الفريقين، وعندما عرف رجال الأوس أن القتلى بجانبهم أكثر من القتلى الذين فى فريق الأعداء تركوا الحرب متفقين وهربوا من ميدان القتال ظانين أن رجال الخزرج لن يتبعوهم.

وكان من الأصول المرعية عند العرب أنه عندما تنهزم فرقة وتتشتت وتفر وتدخل فى مسكنها ألا يتتبعها الفريق الغالب، إلا أن رجال الخزرج لم يتذكروا هذه القاعدة فظلوا يطاردون الأوس ودخلوا فى قريتهم. فعرض الأوس المصالحة ولما رأوا أن عرضهم لم يقبل أدخلوا أطفالهم ونساءهم فى داخل الحصون وتحركوا وفقًا للقاعدة «النار ولا العار» وهجموا على أعدائهم مظهرين عليهم سطوة السيف متحدين. وحاربوا حربًا شعواء دامية، وقد خاف الخزرجيون وارتعبوا وأرادوا أن يتركوا الحرب وبما أنهم نقضوا الأصول والعادات أولا

فاستمر الأوسيون فى القتال وطاردوا عدوهم إلى بقيع الغرقد وشتتوا عدوهم وكسبوا الحرب كما انتصروا على الخزرجيين فى واقعة «يوم الفرس» التى حدثت بعد ذلك بقليل.

ويذكر المؤرخون العرب الحروب التى وقعت حول المدينة بعد يوم الفرس بـ «حرب الفجار» سبب ذلك تحرك أفراد قبيلة الأوس خلاف رأى القائد الذى يسمى الأشهلى وأبا أسيد من الأصحاب الكرام وكان قائد الأوس فى وقعة «يوم الفرس» وقد أرسل عقب الحرب سفيرًا إلى الخزرج وأفهمهم أنه مستعد لعقد الصلح بشرط أن يدفع ديات قتلى الذين يزيد عددهم على قتلى الطرف الآخر، وقبل الخزرج اقتراح خضير الكتائب ولما تبين أن قتلى الأوس يزيد ثلاثة أنفار عن الخزرج قد أعطى إلى الأوس ثلاثة أنفار رهائن إلى أن تدفع الدية، وقد نقض الأوس العهد وقتلوا أحد الرهائن ومن هنا سميت الحرب التى حدثت واشتعلت بكل شدة بعد يوم الفرس حرب الفجار ـ ولكن الحروب التى وقعت فى المدينة لا تعد من حروب الفجار التى وقعت بين بنى كنانة وبنى قيس، لأن حروب الفجار بين بنى كنانة وبنى قيس قامت أربع مرات لأول مرة فى السنة العاشرة من الولادة النبوية والثانية فى السنة الثانية عشرة والثالثة فى السنة الرابعة عشرة والرابعة فى السنة العشرين وزمن وقوعها شهور «رجب، وذى الحجة، ومحرم، وصفر» وصادفت الأشهر الحرم ولما وعى المقاتلون ذلك قالوا متأسفين نادمين «قد فجرنا» وأطلق على هذه الحروب حروب الفجار.

يوم الحدائق ـ بدء حروب الفجار بالمدينة كان عقب وقعة يوم الفرس مع ملحمة يوم الحدائق وسبب هذه الحرب قتل أحد الرهائن التى أعطيت فى يوم الفرس، إذ قام الخزرجيون عامة للحرب، عقب نقض الأوس عهدهم بقتل أحد الرهائن واستطاعوا أن يضيقوا الخناق على الأوس بين بستانين نخيل المدينة وذلك لما رتَّبَهُ ونظمه قائدهم عبد الله بن أبى بن سلول من الدسائس والحيل، وأشعلوا نار الحرب وبذلوا كل جهدهم حتى شتتوا القبائل الأوسية وجرحوا قائدهم أبا قيس من عدة أماكن فى جسمه.

يوم المعبس والمضرس ـ وقعت معركة المعبس والمضرس بعد وقعة يوم الحدائق، وقد وقع هذا الجدال خلف جدارين، وقد تحشد رجال الأوس الذين نجوا يوم الحدائق خلف جدار يعرف «بمعبس» كما احتشد رجال الخزرج خلف جدار آخر يقال له «مضرس» وتحاربوا وتقاتلوا أسابيع وفى النهاية انهزم الأوسيون وتشتتوا وأغلقوا أبواب الأبراج التى كانت تعد من الحصون فى تلك العصور على أنفسهم وأطلق لهذه الحرب اسم يوم «معبس ومضرس» وبعد فترة رغبت جماعة بنى عوف فى عقد الصلح مع الخزرج ولكن بنى عبد الأشهل وبنى ظفر والرجال الآخرون الذين يوافقون رأيهم امتنعوا عن ذلك قائلين إننا لا نرضى بعقد صلح قبل أن ننتقم من الخزرجيين من هنا أخذ الخزرجيون يزعجون الأوس من حين لآخر ويطردونهم من مساكنهم؛ حتى إن جماعة بنى سلمة باغتت قرية بنى عبد الأشهل ونهبوا أموالهم وأصابوا سعد بن معاذ الأشهلى بالجروح وسببوا له الألم والمحنة.

وذهب رؤساء الأوس بعد نهب قرية بنى عبد الأشهل إلى مكة المعظمة بنية زيارة البيت الأكرم وفى نفس الوقت حرصوا على أن يعقدوا روابط الاتفاق والمعاهدة مع صناديد قريش ضد قبيلة الخزرج وفعلاً وجدوا كثيرين ممن يؤيدونهم، إلا أن أبا جهل اللئيم قد وصل لعلمه عقد اتفاق الأوس مع قريش فقابل أعيان قبيلة قريش الذين تعاهدوا مع الأوس فى دائرة دار الندوة وألقى فيهم هذه الكلمة التى تفتت الكبد إذ قال: كأنكم غافلون من مؤدى المثل الذى يقول: «ويل من أهل المنازل» بما أن الأوس من ذوى القدرة والنفوذ وأصحاب الثروة فإنهم سيطردونكم ويبعدونكم من مكة؛ ولا يخفى لكل من يعرف وقائع الأسلاف أن كل قوم باتوا فى بلاد قوم آخرين إلا وطردوهم من منازلهم وأخرجوهم من مأواهم، وأشار بهذه الكلمات إلى وجوب نقض المعاهدة، وقد جعلت كلمات أبى جهل القرشيين يندمون على عقد اتفاق مع الأوس ولكنهم لم تصل بهم الدناءة لارتكاب حقارة نقض المعاهدة وقالوا: «إننا قد عاهدنا الأوس! كيف نجسر على نقض عهدنا؟ هل هناك دناءة أعظم بين العرب من نقض العهد؟! وأرادوا أن

يسكتوا أبا جهل بهذه الكلمات، إلا أن أبا جهل قال اتركوا هذه النقطة من المسألة لى أنا، وخرج من دار الندوة وتلاقى مع الأوس وقال لهم: «يا أعيان قبائل الأوس! قد عقدتم العقد والميثاق مع القرشيين، وإننى لفى شدة الأسف لعدم وجودى فى ذلك المجلس! وإذا كنت وجدت فى هذا المجلس لكنت عاهدتكم أنا أيضًا، وكنت آتى لعونكم مع أبطال قريش! إذا قبلتم نعقد مقاولة أخرى لتحديد المعاهدة! أننا لا نخفى نساءنا وبناتنا عن بعض ونسمح لجوارينا بملاطفة الرجال بالسر فى أسواقنا! إذا اتفقتم معنا فى هذه الأفكار وسمحتم لنسائكم وجواريكم بملاطفتنا وملاعبتنا، فإننا نعينكم! وإذا لم توافقونا فى أفكارنا فمن العبث أن تنتظروا العون منا!!!.

وبهذه الكلمات قد كشف مسألة إباحة النساء التى كان يحترز منها أهالى المدينة، لأنه كان يعرف جيدًا أن الأوس ينفرون من هذه المسألة غير المشروعة ويتجنبونها.

وصرف الأوسيون النظر عن عون القرشيين إذ فهموا أفكار أبى جهل الضارة وعادوا إلى أرض يثرب وحرصوا على عقد اتفاق مع القبائل اليهودية وأحدثوا «يوم الفجار الثانى» تلك الملحمة الكبرى.

يوم الفجار الثانى ـ ظهرت واقعة يوم الفجار الثانى عقب عودة الأوس إلى المدينة، وذلك عندما عرف الخزرج أن الأوس قد عقدوا الاتفاق مع «بنى قريظة، وبنى النضير» من القبائل اليهودية فأرسلوا إليهم شخصًا يدعوهم إلى القتال معهم، فأجاب اليهود حتى لا تراق الدماء عبثًا: «إننا لم نتفق مع الأوس ولم نفكر فى أن نتفق معهم واضعين أيدينا فى أيديهم»، وأرسلوا أربعين نفرًا من اليهود رهائن حتى يطمئنوا الخزرج، ولكن بما أن قرى اليهود كانت منتظمة وفى أماكن حصينة طبيعية فإنهم طمعوا فى الحصول على قرى اليهود وأرسلوا رجلاً آخر يقول لهم: «اتركوا مواقعكم ابتداء من هذا اليوم وهاجروا إلى أماكن أخرى!» وإذا رفضتم فإننا سنقتل رهائنكم فأجابهم اليهود قائلين: «إننا لا نرى

سببًا يجبرنا للجلاء عن وطننا!!» إذا أجريتم الإهانة فاقتلوا رهائننا وقد غضب الخزرج من هذه الإجابة وتهوروا وقتلوا اليهودى[1] الذى كان فى حفظ عمرو ابن النعمان، ولما رأى اليهود هذا من الخزرج اتحدوا مع الأوس.

وهجموا على القبائل الخزرجية وأحدثوا قتالاً كبيرًا وهذا القتال ملحمة يوم الفجار الثانى.

عندما قتل عمرو بن النعمان الرهينة الذى كان تحت يده وأبرز الإهانة قال عبد الله بن أبى بن سلول لقاتل اليهودى «إنك غدرت» وتخلى عن الاتفاق كما أطلق الأوسيون الذين يتبعون ابن سلول سراح رهائنهم وأرسلوهم إلى قراهم.

يوم بعاث ـ قد اندلعت ملحمة يوم بعاث بشدة بعد يوم الفجار الثانى وبعد هذه الحرب لم يقع قتال قط بين قبائل الأوس والخزرج.

سبب حدوث وقعة يوم بعاث هو سبب وقوع ملحمة يوم الفجار الثانى؛ لأن قبائل بنى قريظة وبنى النضير اتحدت مع قبائل الأوس واتفقت معها وجلبت رجال قبائل مزينة حليفها وجمعتهم، كما أدخل الخزرجيون فى دائرة اتفاقهم حلفاءهم من بطون بنى أشجع وجهينة، وأخذ أفراد الطرفين يستعدون للقتال ويهيئون أدوات وآلات أربعين يومًا بعد حرب يوم الفجار الثانى وجهزوا مالا يحصى من الجيوش وتلاقوا فى النهاية فى مكان يسمى «بعاث» وشرعوا فى قتال شديد، وقد وقعت هذه الحرب فى شكل مفزع وصورة دامية.

وكان خضير الكتائب قائد الأوس وعمرو بن النعمان البياضى قائد القبائل الخزرجية، ولكن عبد الله بن أبى بن سلول ومن يتبعونه ومن كان تحت إدارة بنى حارثة كانوا على الحياد، وبذل أبطال الطرفين أقصى جهدهم وأظهروا غاية شجاعتهم وحرص كل واحد منهم على إهلاك الآخر وإتلافه، وطال القتال مدة وفى النهاية تفرقت فرق الأوسيين وشرعوا فى الهرب.

ولما رأى خضير بن سماك قائد الأوسيين أفراد المقاتلين الذين تحت قيادته أخذوا يفرون وقد تخلوا عن القتال وقد مالت أسباب النصر والظفر إلى طرف

(١) وقد قتل هذا اليهودى عمرو بن النعمان شخصيًا.

الخزرجيين قطعيًا، فغرز رمحه فى رحله وبرك على الأرض مثل الجمل بناء على القاعدة العربية القديمة وقال: «إننى لا أرجع من هنا ما لم أقتل فإذا أردتم أن تتركونى فى حالتى هذه للعدو فاتركونى»، وأنشد بعض الأشعار المناسبة للموقف وهكذا شجع أبناء قبيلته، وقد أشفق رجال الأوس على حال خضير الذى يفكر فى وطنه وهو مجروح ويحرص على الدفاع عنه وحتى لا يتركوه ليد العدو وهو فى حالته هذه فاضطروا للثبات فى ميدان الوغى وأثبتوا شجاعتهم الفطرية بقتلهم قائد الخزرج عمرو بن النعمان[1] البياضى وهزموا عدوهم هزيمة شنعاء وأخذوا يتعقبونهم من خلفهم، وفى أثناء ذلك سمعوا صوتًا هاتفيًا يقول: «يا معشر الأوس لا يليق أن تقتلوا إخوانكم بهذا الشكل، إن مجاورتهم أولى من مجاورة اليهود» حينئذ تركوا الحرب ثم حملوا خضيرًا الذى شجعهم بكل تعظيم وأوصلوه إلى منزله.

وقد فرح خضير بن سماك فرحا لا حد له لانتصار الأوس على الخزرج على الصورة المطلوبة، إلا أن الجرح الذى أصيب به لم يكن قابلاً للالتئام فمات متأثرًا به بعد مرور وقت قليل.

وكان هزيمة الخزرج وتشتتهم شيئًا يبحث عنه الأوسيون ولا يجدونه؛ ولذا نهبوا الخزرجى الذى وقع تحت أيديهم وتركوه مجردًا من كل شىء وهدموا منازلهم وشتتوا أسرهم وهدموا وأحرقوا بساتين نخيلهم وبهذا أظهروا دناءتهم التى لا توصف وجرحوا ثابت بن قيس بن شماس الذى قبضوا عليه وكان ذلك الجرح شارة حريته وأسرعوا فى قطع نخيل بنى سلمة وإحراقها؛ وأسرع سعد بن معاذ الأشهلى حتى أنقذ نخيل قومه.

وأخذت أضواء شمس النبوة تضىء آفاق المدينة المنورة عقب وقعة يوم بعاث وشرعت الدعوة المحمدية تنير أرض يثرب والبطحاء وبدأ السلطان الذى ظهر جديدًا يرفع أستار الظلام والخصومة والعداوة بين قبائل الأوس والخزرج، ولم يُبْقِ لها أثرًا واتحد أفراد جميع القبائل التى تنتسب وتنتهى إلى ثعلبة بن عمرو مزيقيا واتفقوا جميعا فى نصرة الدين الأحمدى واتحدت كلمتهم.

(١) إن هذا الرجل هو الذى قتل الرهينة التى أخذت قبل يوم الفجار الثانى غدرًا.

الوجهة الخامسة

وتشمل ثلاث صور تعين إرسال مصعب ابن عمير إلى يثرب ليقوم بإمامة موحدى أهل المدينة ووقائع الهجرة النبوية التى تستلزم الفخر.

فى ذكر بيعة السابقين من الأنصار للإسلام وفى دعوة مصعب بن عمير أهل المدينة إلى الإسلام.

بينما كان الأوس والخزرج يحاربون بعضهما كان النبى ﷺ رئيس الذاكرين لنعم الله يتلاقى مع الحجاج الواردين من أقطار العالم إلى مكة المعظمة ويدعوهم إلى الإسلام الذى فيه خيرهم فى حياتهم ومعادهم ويبلغهم أحكام الشريعة، وفى السنة الحادية والخمسين من ولادته السعيدة ذهب إلى صحراء منى حتى يلتقى مع الحجاج الواردين وفق عادته وتقابل مع بعض الأشخاص من قبيلة الخزرج الذين يطلبون الهداية فى سفح جبل «ثبير». ولما عرف أنهم من قبيلة الخزرج أخذهم إلى ركن ليحدثهم قليلاً ثم أخذ يبين الدين الحنيف ويعرفهم به وفق رجائهم وتلى لهم بعض الآيات الكريمة أيضًا، وكان الخزرجيون يرغبون فى الدخول من قديم فى حصن الإسلام المتين، وقالوا لابد أن يكون نبى آخر الزمان الذى ينتظر اليهود ظهور نوره وأرادوا أن يسبقوا اليهود فى يثرب فى التصديق وأسلموا بلا تردد وعادوا إلى المدينة وأخذوا يذكرون اسم النبى ﷺ وأوصافه فأسعدوا كل بيت وقصر.

إن الذين يقال عنهم الأنصار السابقون يعنى أول من أسلم من أهل المدينة هم هؤلاء الأشخاص الذين ذكرناهم؛ ولكن اختلف فى عددهم، بناء على أشهر الروايات تقدم فى الإسلام أسعد بن زرارة وستة أشخاص معه، ولكن عند البعض سبعة أشخاص[1] خمسة منهم من الخزرج واثنان من الأوس، رَغَّبهم فى سبق اليهود فى الإسلام ما سمعوه من اليهود: «إننا نبايع نبى آخر الزمان قبلكم»، لأن يهود يثرب كلما كانوا ينهزمون فى المناقشة والجدال مع قبائل

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٢/ ٣٥٣، ابن هشام ٢/ ٦٩، ابن سعد ١/ ١/ ١٤٥، ابن عبد البر (الدرر) ص ٦٧. وهى بيعة العقبة الأولى.

الأوس والخزرج يقولون: «قد اقترب زمن ظهور سيد البشر ﷺ وإننا سنجعلكم علفًا للسيف بمعيته» ويعلقون انتقامهم إلى ظهور نور نبوة محمد ـ عليه وعلى آله صلوات الله الستار.

وفى العام المقبل أى فى السنة الثانية والخمسين من ولادة السلطان الجديد الذى سخرت له الرسالة ﷺ شرف أيضًا صحراء «منى» حتى يدعو الحجاج الواردين إلى الإسلام وليهديهم إلى طريق النور المستقيم ويرحب بحجاج القبائل، وتلا الآيات البينات للذين رأى فيهم استعدادًا لقبول الإسلام وتلاقى فى هذه المرة مع عشرة أنفار من قافلة المدينة عند العقبة عرضوا بيعتهم عليه بالشروط الآتية: «ألا يشركوا بالله، ألا يسرقوا وألا يقتلوا وألا يزنوا، وألا يفتروا على أحد وألا يرموه بالبهتان فى الحال والمستقبل، وألا يعصوا أوامر الشارع وأن يمتثلوا لأوامر النبى المطاعة فى العسر واليسر فى المنشط والمكره، وإن يحبوا النبى ﷺ بأن يقدموه على أنفسهم وألا ينازعوه فى أى شىء وأنه يقول الحق فى جميع الأحوال وألا يخافوا لومة لائم فى إظهار الأمر الحق».

وعقب هذه البيعة[1] فتح النبى ﷺ فمه الشريف ناصحًا وقال: «إذا ثبتم فى أقوالكم موفين بعهدكم لكم الجنة، أما إذا تركتم أحد هذه الأمور فالله ـ سبحانه وتعالى ـ إما يعفو أو يعذب ويعاقب».

عاد الذوات الكرام الذين قبلوا الإسلام وفق الشروط المحررة وبعد أن ودعوا الرسول ﷺ وعندما وصلوا إلى المدينة المنورة أخذوا يظهرون شعار الإسلام وبادروا فى أداء الصلاة هنا وهناك.

وبعث معهم بناء على رجاء الأنصار السابقين مصعب بن عمير[2] حتى يصلى مع المسلمين وليعلمهم أحكام الشريعة الغراء وتلاوة القرآن الكريم على طريقة صحيحة، وأمروا بأن يختاروا أسعد بن زرارة من بينهم لإمامة صلاة الجمعة.

ونزل مصعب بن عمير فى الدار التى يسكن فيها أسعد بن زرارة ونال شرف الإمامة الغالية للأنصار الذين قبلوا الإسلام بجهود مصعب بن عمير وترغيبه.

(١) إن مصعب بن عمير أول من أطلق عليه لقب المقرى من الأصحاب الكرام.

(٢) وهى بيعة العقبة الثانية: انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٧٣، ابن سعد ١/ ١/ ١٤٧، وتاريخ الطبرى ٢/ ٣٥٥، وغيرها.

وقد أخذ أسعد بن زرارة مصعب بن عمير عقب أداء صلاة الجمعة الأولى[1] إلى بيوت الأنصار فى قرية بنى عبد الأشهل ومن هناك أخذه إلى قرية بنى ظفر القريبة من القرية السابقة وطلب من حضرة مصعب أن يدعو أهالى القريتين المذكورتين إلى مائدة الإسلام ذات الفوائد العميمة بينما هو جلس فى ركن من الأركان، وأخذ الناس يقبلون على قبول الإسلام بجهود أسعد بن زرارة وغيرته، واجتمعوا حول مصعب وأقبلوا على استماع القرآن الكريم منه؛ إلا أن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير من أشراف بنى عبد الأشهل غارا من استجابة أهالى القرتين إلى دعوة مصعب ودخولهم إلى الإسلام فرادى وولوجهم فى دائرة الإيمان الباهرة ذات الفيوضات وأخذا بفكران فى أسباب إخراج أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير (رضى الله عنهما) من القريتين سالفتى الذكر.

وكان سعد بن معاذ ابن أخت أسعد بن زرارة، وأحنى سعد رأسه مدة مفكرًا قال رافعًا رأسه: «يا أسيد! إنك شريف بين القبائل ورجل مع علية القوم! فإنك ترى أن مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة (رضى الله عنهما) يحسبان نفسيهما من يمثلان الحق وبهذا يغفلان سادة رجال القرية! عليك أن تزجرهما وتزعجهما وتخرجهما من حدود قريتنا وتطردهما! إن أسعد بن زرارة ليس منا بعد الآن وهكذا شجع رفيقه أسيد بن حُضَيْر.

وأخذ أسيد بن حضير حربته وتوجه بكل شدة وحدة إلى المنزل الذى شرفه مصعب بالإقامة فيه، وكان أسعد بن زرارة قد ركز أنظاره إلى الأطراف والأكناف حتى يعرف كيف سيتحرك سعد بن معاذ، ولم يعجبه وجهة توجه أسيد، ولما أطلع أسعد بن زرارة مصعبًا على شأن أسيد قال مصعب بن عمير: إذا ما ألقى الله سبحانه وتعالى حب الإسلام فى قلبه تتيسر مهمتنا!! وبعد فترة وصل أسيد وقال وهو فى أشد غضبه ما غرضك من جلب مصعب بن عمير إلى قريتنا يا أسعد بن زرارة؟ وما هو قصدك من إضلال وخداع ضعفاء قومنا؟ إذا كانت لكم

(١) أول صلاة الجمعة التى صليت فى المدينة هى التى كانت الإمامة فيها لمصعب وكانت فى هَزم حرَّة بنى بياضة فى بقيع يقال له بقيع الخضمات ـ ويقال نقيع بالنون ـ وكانوا أربعين رجلاً.
انظر: الدر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر، ص ٦٩.

حاجة خاصة بكم بينها، وإلا فقوما وانصرفا من هنا وأراد أن يكدر أسعد بن زرارة بهذه الطريقة، إلا أن مصعب بن عمير قال له: «يا أسيد!! اجلس قليلاً واستمع إلى الأقوال التى سأقولها فإذا ما رأيتها معقولة تقبلها وإذا رأيتها كريهة ترفضها!!» فأجابه قائلاً: «فى الواقع إن قولك هذا حق» وجلس فى ركن من الأركان وآثار البشاشة التى شوهدت على بشرته كانت تدل قطعيا على أنه سيقبل الإسلام ويرضى به دينًا.

وحينما رأى ابن عمير جلوس أسيد بن حضير تلا عدة آيات كريمة ودعاه إلى مائدة الإسلام عميم النوال، وظهرت فى قلب أسيد بن حضير آثار المحبة والقبول، وقال: «ما أحسنها من أقوال! وما أوضحه من طريق هذا الطريق الحق! يا ترى ما التكاليف الشرعية التى يكلف بها الذين يريدون أن يدخلوا فى هذا الدين المختار؟» فأجابه مصعب قائلاً: «يجب على الذين يريدون الإسلام أن يغتسلوا أولا ثم يطهروا ملابسهم، ثم يعترفوا بوحدانية الله تعالى المطلقة ثم يصلوا».

وقد تأثر أسيد بن حضير من الإجابة الصحيحة وابتدر بتجديد ثيابه وفق تعليمات حضرة مصعب بن عمير وأقر بقلب نقى طاهر بتوحيد الله وتعلم أركان الصلاة ثم قال: «هناك بين قبائل الخزرج رجل شريف! إذا ما استطعتم أن تدخلوه فى دائرة الإسلام المنجية فثقوا تمامًا أن قبائل الخزرج كلها ستسلم. ها أنا ذاهب لأرسله إليكم، إن هذا الشخص ذات صفات مشحونة بالهداية هو سعد بن معاذ» قال هذا وقام وذهب.

ولما رأى سعد بن معاذ عودة أسيد بشوش الوجه ونور الإيمان يلمع فى وجهه أحس أنه صدق بالنبوة المحمدية وأدرك ذلك وقال لمن بجانبه من الأشراف: «إن الشخص القادم يشبه أسيد بن حضير، وإن مجيئه بهذا الشكل لا يسرنى، لا أظن إلا أنه قد عرض البيعة لمصعب بن عمير!! فليجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ألا يخفى أمره هذا منا عندما يأتى، لننتظر حتى يصل إلينا» وقد وصل أسيد بمجرد ما انتهى من أقواله فاستجوبه قائلاً: «يا أسيد! ماذا فعلت؟ وكيف تعاملت

مع هذين الشخصين؟ فمنذ أن فارقتنا فأنا قلق» وتلقى من جانب أسيد الإجابة الآتية: «إننى لم أتنسم من أقوالهم رائحة الفساد والغاية السيئة، وأقسم بالله إن قوليهما لا يتعدى التعريف بالإله الواحد واجب الوجود ووصف صدق النبوة المحمدية وبيانها!!» وحينما أخذ سعد بن معاذ هذه الإجابة فتحول إلى قطعة من نار تحرق العالم من شدة حدته ووثب من مكانه وخطف حربته وتوجه إلى مكان المشار إليهما.

وقد ارتعد أسعد بن زرارة واضطرب حينما رأى سعد بن معاذ مقبلاً وهو ينشر إلى أطرافه شرارة الدهشة فأراه لمصعب قائلاً: «إن هذا الشخص المقبل هو من يسمى بسعد بن معاذ الأشهلى وإنه آت بغضب شديد! إذا كان هذا أيضًا يقبل الدين الحق ويصدق بنبوة النبى ﷺ لاشك فى أن القبائل الخزرجية كلها ستسلم كما قال أسيد بن حضير»، وعقب ذلك وصل سعد بن معاذ رافعًا قامته وقال: «يا أسعد! قد غضبت من جنبك شيئًا ننفر منه وهو منكر عندنا بدرجة لو لم تكن بيننا نسبة القرابة لكنت أهلكتك ورميتك فى حفرة الدمار بهذه الحَرْبَة السامة»، ثم كدر مصعب بن عمير بذكر ألفاظ غير لائقة، فرد عليه مصعب بن عمير دون أن يضطرب قائلاً: يا سعد! كان يجب عليك أن تجلس قليلاً حتى تسمع ما سأتلوه من الآيات الكريمة ثم ترد على وتجرحنى وتقبح كلامى، إلا أنك عاتبتنى وكدرتنى بأقوالك دون أن تعرف ما سوف أقوله لك وجرحت الأقوال الشرعية على العمى وقبحتها وعاتبتنى وقلت عن النبوة أنها ليست حقًا وقلت أننا نكره الأوامر، وهذا التصرف مناف لأحكام قانون المناظرة» وخجل سعد بن معاذ واستحيى مما قاله وقال: «فعلاً هذا ما كان يجب أن يكون! إننى لم أفكر فى هذه الأشياء وتجاوزت دائرة الأدب فأرجو أن تعفو عنى وأن تغفر لى سلوكى ثم جلس فى جهة ما» وقد ظهرت عليه دلائل قبول الإسلام إذ أخذ نور الإيمان يتلألأ فوق بشرته ويلمع. واطمأن مصعب بن عمير من حركات سعد بن معاذ الملائمة ثم تلا آية أو آيتين مناسبتين للموقف.

ثم دعاه إلى دار ضيافة الإسلام وكلفه أن يطهر جسمه وثيابه حتى يدخل فى الطريق المستقيم، فما كان من سعد بن معاذ إلا أن غير ملابسه واغتسل وفق

الصورة المسنونة ودخل فى حصن الإسلام المتين، ثم جمع أبناء قبيلته وقال لهم: «يا بنى عبد الأشهل إننى اقتنعت بصحة الإسلام وقبلته! بعد هذا يقتضى أن تسلموا كلكم!!!» وبهذه الطريقة رغب جميع بنى عبد الأشهل فى قبول الإسلام، وبناء على إلحاح سعد بن معاذ المتكرر وتشويقه دخل بنو عبد الأشهل جميعًا رجالاً ونساء فى دائرة الإسلام المنجية وبناء على هذا ترك مصعب بن عمير القرى المذكورة وانتقل إلى دار أسعد بن زرارة رضى الله عنهما منزل الهداية وظل هناك حتى أسلم جميع قبائل الأنصار.

وفى الوقت الذى دخل فيه بنو عبد الأشهل إلى دائرة الإسلام المنجية باغت أفراد بنى النجار دار أسعد بن زرارة (رضى الله عنه) وأخرجوا منها مصعب بن عمير، وهكذا أرادوا أن يزعجوا ويقلقوا مصعب بارتكاب هذه الشرور، إلا أن سعد بن معاذ أخذه تحت حمايته حيث ظل إلى أن أسلم صناديد القبائل مثل عمرو بن الجموح وإلى أن كسروا أوثانهم وأهانوها وأصبح مصعب وهو فى حماية سعد بن معاذ مشعلاً مُنيرًا يهدى إلى طريق النجاة والسلامة وفى هذه الفترة دخل الأنصار الكرام كلهم فى حصن الإيمان المتين وظلوا ينتظرون الهجرة النبوية.

وقبل الهجرة النبوية المشحونة بالبركة أسلم قبائل الأنصار كلهم وكسروا أصنامهم وزاد عددهم بالنسبة لليهود، كما أنهم اكتسبوا شرفًا من الناحية الأخلاقية والتقاليد والمدنية وانتظموا وأصبحوا يعدون من أعيان أهالى أرض يثرب عامة وأشرافها إلا أن القبائل التى كانت تحت إدارة الشاعر «أبو قيس بن صيفىّ ابن الأصلت» ترددت فى قبول الدين المبين دين الإسلام وتلك القبائل هى : «بنو أمية بن زيد، وبنو خَطْمَة، وبنو وائل، وبنو واقد[1] «وظل أفرادها على دينهم القديم قرب وقائع بدر، أحد، والخندق» وذلك لعدم تخلى الشاعر المذكور عن ذم الدين الحنيف الأحمدى وتقبيحه، ولوم الذين أرادوا أن يسلموا وتوبيخهم.

(١) وفى ابن هشام «واقف»، وهنا «وافق»، وفى الدرر لابن عبد البر «واقد».

حكمة

إن إسلام الخزرج قبل قبائل الأوس يعود إلى أن الجدة الثانية لفخر الكائنات عليه أكمل التحيات سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن تيم بن النجار بن ثعلبة بن عمرو، وكانت من بنى النجار، من شعبة الخزرج إذ كانت علة القرابة سببًا فى السبق فى البيعة.

سبب كون النبى ﷺ أنصاريًا من الخزرج:

إن هاشم بن عبد مناف الذى نقل أسباب قرابة النبى ﷺ إلى القبائل الخزرجية والذى كان يسحر العالم بجماله الذى لا نظير له كما يقول المؤرخون إنه كان صاحب شهامة ومروءة لذلك عرف بـ «عمرو العلى» وكان قد مر بيثرب حينما كان ذاهبًا إلى الشام للتجارة وبنية التزوج من سلمى بنت عمرو النجارى بناء على الحكمة التى فى الرؤيا التى رآها والتى ذكرت فى الصورة السادسة من الوجهة الرابعة، ورأى بالصدفة سلمى وتعلق قلبه بجمالها الساحر ورائحة وجهها مثل السنبل وقال إنه يريد أن يتزوجها، كما أن سلمى حينما رأت جمال هاشم بن عبد مناف مثل البدر ولاسيما عندما رأت اللمعان الذى على جبينه لنور سيد البشر وعلمت أنه سيكون من أجداد النبى ﷺ.

وحينما أحست ذلك وأدركته؛ أومأت عارضة أن درة هذه الصلة الغالية ستكون موجب فخرها ومباهاتها إذ سيكون رَحِمُهَا صَدَفَةً لتلك الدرة الغالية، وبناء على رضا الطرفين أجرى عقد النكاح بشرط، إذا ما حبلت أن تضع حملها بين أقاربها.

لما كانت سلمى تعرف علم اليقين أن زوجها السابق أحيحة بن الجلاح سيطلقها كما ذكر آنفًا بالتفصيل ومع ذلك أخبرت الخزرج بالليلة التى سيباغت الأوس الخزرج ومن هنا اكتسبت إعجاب قومها بها وخيرت، مكافأة لها فى اختيار زوجها ولما كان هذا الخيار خلاف الأصول المرعية فى القبائل وعاداتها فلم يحدث مثل هذا لأية واحدة جميلة من بكارى كبار العرب.

ووفق ابن عبد مناف فى عقد النكاح وفق الدستور المسطور وسافر إلى الشام قبل الدخول بها وبعد مدة عاد إلى يثرب وزف إليها وأخذها إلى مكة المكرمة وحينما اقتربت ولادة عبد المطلب أخذها إلى يثرب حيث الاتفاق وسافر لأجل التجارة إلى الشام وارتحل إلى دار البقاء، فى بلدة غزة المشهورة وبما أن سلمى ولدت بعد فترة جد النبى الأول عبد المطلب ومن هنا أصبح النبى ﷺ أنصاريًا خزرجيًا من جهة جدته سلمى وأصبح من جهة أبيه عبد الله بن عبد المطلب قرشيًا هاشميًا مهاجرًا.

وعلى هذا التقدير فجناب سلمى الثانية من جدات النبى ﷺ وعمرو بن أحيحة أخو عبد المطلب لأمه كما أنه عم والد النبى ﷺ عبد الله من جهة والدته.

فى هجرة النبى ﷺ إلى دار الأمن المدينة المنورة.

بعد أن أدخل - بتوفيق الله وإرادته - مصعب بن عمير كما ذكر فى الصورة السابقة كافة قبائل الأنصار إلى الإسلام ذهب إلى مكة المكرمة فى السنة الثالثة والخمسين من ولادة النبى ﷺ ومعه خمسة وسبعون نفرًا من أهل المدينة والتقى بسلطان الرسل عليه صلوات الله فى اليوم الثانى من أيام التشريق من السنة المذكورة فى شعب عقبة وأسرع بتقديم من فى رفقته إلى النبى ﷺ بصورة عظيمة. وعقد البيعة[1] بناء على طلب رفقائه بشروط خاصة وذلك عندما يشرف النبى ﷺ بأنواره البهية المدينة المنورة أن يحموه مما يحمون منه أولادهم وعيالهم من الحادثات الكونية وأنهم سيبذلون له عونهم حتى إذا حاربوا فى سبيل ذلك ملوك العرب والعجم.

وعقب البيعة - التى شرحت - مد النبى ﷺ يده التى أظهرت المعجزات فبادر بمد يده أولاً أبو أمامة أسعد بن زرارة وعلى قول أبو الهيثم بن التيهان وعلى رواية أخرى براء بن معرور وقبل جميع الناس وعقدوا البيعة سبعين شخصًا أو ثلاثة وسبعين رجلاً شهمًا وامرأتين طاهرتى الذيل.

وكان أحد عشر منهم من القبائل الأوسية واثنين وستين منهم من خلفاء الخزرج الأربع وكانت إحدى النساء من سلالة بنى مازن وهى أم عمارة بنت كعب والأخرى أسماء بنت عمرو بن عدى التى ينتهى نسبها إلى بنى سلمة.

واختار النبى الأكرم عقب البيعة اثنى عشر رجلاً من رؤساء القبائل ثلاثة منهم من الأوس وتسعة منهم من الخزرج وقال لهم: «كما كفل حواريو عيسى الأقوام

(١) وهى بيعة العقبة الثالثة: انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٨١ تاريخ الطبرى ٢/ ٣٦٠ ابن سعد ١/ ١/ ١٤٨، والدُّرر لابن عبد البر ص ٧٠ - ٧١

الذين ينتسبون إليهم فيجب عليكم أن تكونوا كفلاء لأفراد قبيلتكم، وأخذ من كل واحد منهم إجابة تضمن كفالتهم فى أماكن مختلفة ثم فوق مجلس البيعة»، وبما أن تلك البيعة عقدت فى ظلام الليل حتى تخفى على قريش؛ إلا أن شيطانًا اسمه «ابن أزب العقبة» نادى قائلاً: «يا معشر قريش! فليكن فى علمكم أن حجاج المدينة أسرعت بعرض البيعة على ابن أخى أبى طالب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وبهذا هيئوا أسباب إشعال كانون الحرب معكم». وهكذا أعلن الأمر إلى مشركى مكة وأثار فى قلوب صناديد قريش الخوف والقلق وبناء على هذا ذهب بعض القرشيين صباحًا إلى خيام قافلة المدينة وقالوا: «يا رؤساء الأوس والخزرج إنه من المحقق عدم حدوث ما يعكر الصفو بيننا من آثار الخصومة والعداوة إلى الآن؛ إلا أنه قد انتشرت شائعة أنكم عرضتم بيعتكم على محمد ﷺ لتحاربونا؛ وإذا كانت هذه الأحداث صحيحة فإننا مستعدون دائمًا وفى كل آن لمحاربتكم ومقابلتكم!» وهكذا أسرعوا فى استيضاح الأمر ولم يستطيعوا أن يتخذوا أى خبر عن هذا الموضوع من مشركى المدينة وعادوا وقد أخذوا ردًا أن مثل هذا الاتفاق لم يتم.

وكان أحد الذين تصدى للإجابة فى الموضوع الذى يريده المكيون من أهل المدينة عبد الله بن أُبَىّ إذ قال: «يا معاشر قريش! إن ما تقولونه من القول إذا كان صحيحًا يحتاج إلى قوة كبيرة ومن الواضح أننا لا نملك تلك القدرة؛ فلم نقم مثل هذه البيعة وكما أننا لم نعلم شيئا عن هذه البيعة!! إذا كان لنا علم فى هذا الأمر فلنحترق فى نار اللات والعزى!!».

وقد نال الأنصار الكرام شرف المثول بين يدى سيد الأنام مرة ثانية ورجوا من النبى ﷺ تشريف المدينة المنورة، ولكن بما أن سيد الأبرار ـ عليه السلام ـ لم يرخص له بعد بالهجرة تحدث معهم على هذا المنهج: «إننى لم أتلق بعد الأمر الإلهى بالنسبة للهجرة إلا إننى أستطيع أن آذن بهجرة أصحابى وهكذا أفهمهم أن هجرته متوقعة على الوحى الإلهى ولكنه أذن بهجرة الأصحاب الكرام إلى المدينة المنورة، وبناء على هذا أسرع الأصحاب الكرام الذين يرغبون فى الهجرة إلى أرض يثرب ابتداء من بعد العودة من عرفات فى السنة المذكورة.

وكان أول الأصحاب الكرام الذين هاجروا إلى مكة زوج أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، وكان هذا الشخص قد هاجر إلى الحبشة قبل بيعة العقبة بعام وعرف أن الأنصار السابقين قد أسلموا فعاد إلى مكة إلا أن مشركى قريش أزعجوه ولذا استفاد من الإذن النبوى فهاجر إلى مدينة الرسول ﷺ؛ وهاجر بعد أبى سلمة: عامر بن ربيعة وزوجته ليلى وعبد الله بن جحش وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وعمر بن الخطاب وأخوه زيد، وعقب ذلك طلحة وصهيب وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنهم ـ وتركوا مكة المكرمة وهاجروا إلى قرى المدينة المنورة ونصب كل واحد منهم خيمة فى موقع حيث أقام واستقر.

واختار الأصحاب الكرام الذين أخذوا الإذن بالهجرة بعد أن أوصوا بكتمان هجرتهم عن مشركى مكة المكرمة وإخفاء السفر والهجرة إلى المدينة المنورة قرب حلول العام الرابع والخمسين للولادة النبوية. قد انهمك الأصحاب الكرام بأمر الهجرة بدرجة عظيمة إذ لم يبق فى مكة المكرمة فى أوائل السنة المذكورة أحد من أصحاب الرسول ﷺ غير الصديق الأكبر وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما.

وقد استولى على مشركى مكة الخوف والقلق نتيجة لترك الأصحاب الكرام مكة المكرمة وأصبحت نفوسهم السوداء المكروهة مضطربة كأنها ديست بسنابك الخيل، وفى النهاية عقدوا مؤتمر الفساد وقالوا: «إذا هاجر محمد ـ عليه سلام الله الأحد ـ إلى يثرب واتفق مع أهلها فلا تكون نتيجته خيراً فى حقنا». وبناء على هذا الرأى أغلقوا باب الندوة على أنفسهم وأخذوا يذاكرون هذا الأمر العسير لعلهم يجدون حلاً له.

ولم يقبل التهاميون الذين كانوا فرقة سيد الأبرار المخلصين فى مجلس شياطين الإنس هذا وقد دخل الإبليس اللعين فى شكل أبى مرة الشيخ النجدى الذى كان معروفًا لدى المشركين ووجد فى دائرة دار الندوة، وبعد مباحثات طويلة ومذاكرات كثيرة قرروا بناء على رأى أبى جهل وتصديق الشيخ النجدى القضاء

على ورد البساتين، واستصوبوا على أن يقطع الرسول ﷺ فى ليلة من الليالى وهو نائم وذلك بواسطة بعض الملاعين البدائيين الذين سيحيطون دار النبى ﷺ من جهاتها الأربع، وعقب هذا القرار نزل جبريل الأمين باسطًا أجنحته للنبى ﷺ وعرض عليه قرار هيئة الندوة وأفهمه أن وقت الهجرة إلى دار السكينة قد حان، عندئذ قرر النبى ﷺ أن يهاجر بعد أن يسلم الأمانات التى لديه إلى أصحابها.

فجعل على ينام على فراشه وأمنه من مكائد أعداء الدين، ونام ذلك البطل ذو قلب الأسد فى فراش الرسول ﷺ بائعًا نفسه لله ـ سبحانه وتعالى ـ ليحمى نفس النبى ﷺ النفيسة مستجيبًا لإرادة رسول الله ﷺ والتف ببردة رسول الله ﷺ الخضراء وراح فى نوم دون فتور، وأول من ضحى بنفسه فى سبيل إنقاذ حياة الرسول ﷺ من الأصحاب الكرام هو على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وتتضمن أبياته الآتية تلك النكتة اللطيفة.

عربى

وقيت بنفسى خير من وطئ الحصا
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول الخلق إذ مكروا به
فنجاه ذو الطول الكريم من المكر
وبت أراعيهم متى ينشرونني
وقد وطنت نفسى على القتل والأسر
وبات رسول الله فى الغار آمنا
موقى وفى حفظ الإله وفى ستر

رواية

حتى الملائكة قد استحسنوا تضحية على بن أبى طالب هذه! إذ يقول الإمام الغزالى فى إحياء العلوم: «قد أوحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لجبريل وميكائيل ـ

عليهما السلام ـ فى الليلة التى نام فيها على بن أبى طالب على فراش النبى ﷺ» وقال لهما «فإذا ما جعلتكم إخوة وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأى واحد منكم كان يريد أن يكون عمره أطول من عمر أخيه؟»، عندئذ قال الله تعالى «إننى جعلت عليًا أخا لحبيبى، قد ضحى على الليلة بعمره لأجل أخيه وقدم موته على حياة أخيه، لماذا لم تصلا إلى درجته فى كمال الأخوة؟ مادامت فضيلة هذه تفوق فضيلتكم، اذهبا الليلة واحفظاه من أعدائه واحمياه».

وبناء على هذا الأمر الإلهى وقف جبريل أمام رأسه كما وقف ميكائيل أمام قدميه وشغلا بحفظه، حتى إن جبريل ـ عليه السلام ـ يهنئ تضحية على هذه قائلاً: «يا أيها السعيد ابن أبى طالب، إن الله تفاخر بك على ملائكته».

وقد اجتمع فى تلك الليلة بعد أن أظلم الجو أبو جهل وأبو لهب، أبى بن خلف وبنيه، منية ابن حجاج، النضر بن الحارث، عقبة بى أبى معيط، الحكم بن العاص، طلحة بن عدى من قبل هيئة دار الندوة.

وبعض الملاعين من سائر أقوام العرب وتحت قيادة بعضهم اجتمعوا لينفذوا الفكرة المستحيلة وهى إعدام حبيب العلام وحاشا وتوجهوا نحو منزل سلطان الأنبياء، ليقوموا بإجراء ما فى ضمائرهم من الفكرة الخبيثة، وأحاطوا ببيت النبى ﷺ من جميع جهاته حتى لا يفلت من أيديهم وحرسوه حتى الصباح متناوبين، وكان ترك إجراء هذا الأمر دسيسة مدبرة من أبى لهب حتى يعلم أبطال بنى عبد المطلب وشجعان بنى هاشم أن العرب متفقون فى إجراء هذا الأمر، مع أن سلطان بلاد الرسالة (عليه أقوى التحية) خرج بكل وقار وإجلال من بيته فاتحًا بابه مع أنه محاط بملاعين المشركين، وأخذ من الأرض حفنة من التراب وقرأ عليه سورة يس الجليلة ونثره فوق أذلة المشركين المحتشدين وخرج من بينهم كالروح السائرة وذهب إلى بيت الصديق الأكبر السعيد.

إن التراب المنثور فوق الكفار المحتقرين الذين يحيطون بدار النبى ذات الفيوضات الباهرة قد أعمى عيونهم بحكمة الله ـ تعالى ـ ولم يروا النبى ﷺ وكل من أصابه هذا التراب قد أصبحوا هدفًا للمرض والموت.

وكان الصديق الأكبر فى انتظار الهجرة[1] من مدة طويلة وقدم أحد الجملين اللذين يملكهما إلى قائد القوافل (عليه أقوى التحايا) بثمانمائة درهم.

كما نبه الدليل وعرفه أن يتواجد فى جبل الثور وهو عبد الله بن أريقط أو عبد الله بن أريقد من رجال قبيلة «دؤل» بعد ثلاثة أيام وخرج فى رفقة النبى ﷺ إلى الطريق ودخلا فى غار الثور خامس يوم الاثنين لبيعة الأنصار الأخيرة.

بعد أن ظل قائد جيش الأنبياء عليه سلام الله الأعلى فى غار الثور ثلاثة أيام توجه إلى المدينة المنورة يوم الاثنين[2] الأول من شهر ربيع الأول وظهرت على يديه معجزات كثيرة فى أثناء الطريق.

وانحرفا عن الطريق المعهود الشهير سارا على شاطئ أرض عسفان مدة مديدة وفى النهاية وجهوا مطاياهم ناحية وادى القديد وبعد أن قطعوا مسافة قليلة فمروا بخيمة «أم معبد» الخزاعية التى كانت منصوبة فى ذلك الوادى.

كانت طائفة الجن أخبرت أهل مكة بنزول محمد ﷺ ضيفًا على أم معبد، إذ يروى عن أسماء بنت أبى بكر بن قحافة ـ رضى الله عنهما ـ أنها قالت: «عندما خرج النبى ﷺ من مكة المكرمة لم نستطع أن نحدد خط سيره»، وأتى إلى منزلنا عدة أشخاص من المشركين الذين يبحثون عنه ـ عليه السلام ـ ومعهم أبو جهل وسألونى عن والدى، وقد أجبناهم قائلين «والله إننا أيضًا لم نعرف بعد مكان وجودهم» فصفعنى أبو جهل على وجهى صفعة عندما تلقى منى هذه الإجابة وكانت صفعة الخبيث شديدة بدرجة أنها أوقعت قرطى من أذنى، ثم تلا أحد الأشخاص البيت الذى يقول:

جـزى الله رب النـاس خيـر جـزائـه
رفيقـين حـلا خيمتـى أم معبـد

وإذ سمع صوت قائل البيت المذكور ولم ير شخصه قد فهمنا أن القائل من طائفة الجن كما فهمنا من مدلول البيت السابق أن الرسول الأكرم فى خيمة أم معبد.

(١) انظر فى حديث الهجرة: الطبرى ٢/ ٣٧٥، ابن هشام ٢/ ١٢٣ وابن سعد ١/ ١/ ١٥٣، والدرر ص ٨٠ وما بعدها.

(٢) هناك من يقول أنه كان يوم الخميس.

إخطار

إن العجائب والأمور الخارقة للعادة التى ظهرت من صاحب المعجزات فى خيمة أم معبد غير قابل للتعريف والتفصيل ولا داعى لذكرها هنا لأن أكثرها قد ذكرت وحكيت فى كتب السير، إلا أننا رأينا لزوم ذكر المعجزة الآتية المنقولة عن هند بنت الجون لأنها غير مذكورة فى كتب السير التركية.

المعجزة

قالت هند بنت الجون: «إن الرسول الأكرم ﷺ غسل يدى إعجازه الشريفتين فى خيمة خالتى أم معبد ثم تمضمض ثم نثر المياه التى ملأ بها فمه المبارك بجانب جذور شجرة العوسج[1] التى فى خارج الخيمة؛ ولما خرج الرسول الكريم من الخيمة وآن وقت الليل نمنا كالعادة.

ولما أصبح الصبح رأينا أن العوسج قد أصبح شجرة كبيرة مثمرة وعليها ثمار فى لون «الورس» وفى حلاوة العسل ذات رائحة طيبة، ولما ثبت بالتجربة أن الذين يأكلون من ثمار هذه الشجرة يشبعون إذا كانوا جائعين ويرتوون إذا كانوا عطشى ويشفون إذا كانوا مرضى، والنياق والنعاج التى تأكل أوراقها تدر لبنًا كثيرًا ومن هنا أطلقنا عليها اسم المباركة، ولما انتشرت هذه المعجزة بين عربان البادية فإذا ما كان فى أية قبيلة أصحاب الأمراض المزمنة كانوا يأتون لزيارة الشجرة ويأكلون من ثمارها فيشفون من أمراضهم، وبعد خمسة أو عشرة أعوام سقطت جميع ثمار الشجرة وذبلت أوراقها وعقب ذلك تلقينا خبر ارتحال الرسول ﷺ عن دنيانا، وبعد فترة نمت الشجرة وكبرت وأدمت كذلك ما يقرب من ثلاثين عامًا، فرأينا فى صباح يوم ما أن ثمارها سقطت وتحولت من أسفلها إلى أعلاها إلى شجرة الشوك، وذهبت عنها نضارتها واصفرت وإذا بعلى بن أبى طالب كان قد ارتحل عن دنيانا.

وبعد هذه الواقعة لم تثمر شجرة العوسج إلا أننا كنا نستفيد من أوراقها، وبعد

(١) هى شجرة شائكة إذا تناول أوراقها الجمال أصابها المرض.

مرور فترة من الزمن رأينا فى ليلة ما أن الدماء الغليظة تنبع من فروعها وذبلت أوراقها وسقط كلها، وهذا علامة شر ومن هنا أخذنا نستطلع الأحوال وننصت للأخبار فعرفنا بعد فترة استشهاد الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وبعد هذه الحادثة لم تفلح شجرة العوسج وقد جفت هذه الشجرة من بعد ذلك من جذورها وانمحت.

(ربيع الأبرار للزمخشرى).

إن أم معبد بنت خالد الخزاعى من الأصحاب الكرام وزوجة أبى معبد الخزاعى وهى الصحابية «عاتكة الخزاعية».

وجاء بعد نهضة النبى ﷺ وخروجه من الخيمة زوج عاتكة أبو معبد ورأى فى داخل الخيمة كثيرًا من اللبن وهذا غير مأمول فقال متحيرًا: «يا أم معبد! ما سبب كثرة هذا اللبن مع أن أغنامنا فى مراعى بعيدة، وكلها خالية من الحمل ولا نملك حيوانًا يدر اللبن؟!»، ولما عَرفت أم معبد زوجها بما وقع وما يتصف به رسول الله ﷺ من شمائل ممتازة بعبارات بليغة فصيحة بالتفصيل أصبح أبو معبد عاشق محبوب الصمد غيابيًا وبعد مدة أسلم مع زوجته ونال شرف الصحبة، رضى الله عنهما.

ولما بحث مشركو قريش عن النبى ﷺ ولم يجدوه استولى عليهم اليأس والحرمان والحيرة ولم يدروا ماذا يفعلون، عندئذ أنشد الهاتف الغائب من فوق جبل أبى قبيس هذا البيت.

فـإن يسـلم السـعدان يصبح محمـد

مـن الأمـن لا يخشـى خـلاف المخـالف

وقالوا عندما استمعوه؛ ليتنا نعرف من هو سعد هذا، فألقى لمشركى قريش هذين البيتين وبهذا أفهمهم أن ملك خطة الرسالة ـ عليه أكمل التحية ـ قد شرف المدينة المنورة.

أيـا سـعد سـعد الأوس كـن أنت مانعًـا

ويـا سـعد سـعد الخزرجـين الغـطارف

أجيبـا إلـى داعـى الهـدى تَمَنَّيَـا

مـن الله فـى الفـردوس زلفـة عـارف

وكان طلحة أو الزبير بن العوام - رضى الله عنهما - من أهالى مكة عائدين من الشام فى تلك الآونة، وقد تلاقى بقائد جماعة الأصفياء - عليه سلام الله الأعلى - فى مكان بين الحرمين فعرض عليه عددين من الخرقة الشامية البيضاء علامة للإخلاص والمخادنة ورجاه أن يتفضل بقبولهما.

وقبل سيد الأتقياء (عليه أزكى التحية) هاتين الخرقتين من ذلك الشخص قصد تلطيفه فلبس إحداهما وألبس الأخرى لجناب الصديق واستمرا فى طريقهما.

عندما وصل خبر قيام النبى ﷺ إلى أهالى المدينة المنورة غشيهم بحر من الفرح والسرور - المهاجرين والأنصار - وكانوا يذهبون إلى مكان يسمى «حرة واقم» وضيعهم وشريفهم كل صباح حتى ينالوا قصب السبق وهم متجهون لتلك القبلة التى تبشر بالمستقبل السعيد إلا أنهم كانوا يعودون وقت الزوال غير متحملين حرارة الشمس الشديدة.

وفى يوم الاثنين من أول ربيع الأول أو الثانى عشر منه من السنة الهجرية الأولى كانوا قد خرجوا أيضًا لإجراء مراسم الاستقبال إلى الحرة المذكورة عند حلول وقت الزوال.

ورأى أحد اليهود الذين ظلوا خارج المدينة المنورة بغتة الموكب النبوى وبدلاً من أن يقول: «يا معشر الكرام! قد شرف الشخص الذى أجلتم أبصاركم مدة مديدة منتظرين وصوله السعيد»، قال على طريق التنظيم «هذا جدكم» يعنى ظل بمجرد الصدفة ذلك اليهودى المذكور خارج المدينة وبينما يرسل نظراته المتجسسة إلى الأطراف والأكناف إذا به يرى فى طريق مكة عدة أشخاص بملابس بيضاء قد

ظهروا منيرين الطريق وحينما أدرك أن الذى شرف النبى ورفيقه لم يمتلك صبره وصاح قائلاً: يا بنى قَيْلَة[1] هذا جدكم».

إن أخيار الأنصار وهم أفراد قبائل الأوس والخزرج قد سروا من الخبر الذى يجلب الصفاء والذى ينشره اليهودى بسرعة فتسلح جميعهم وامتطوا جيادهم حتى يكونوا فى شرف استقبال الركب المحمدى الذى يرسل أنواره كنور القمر وذهبوا إلى الحرة المذكورة من قبل وبعد أن نال كل واحد منهم شرف تقبيل قدم حبيب رب العزة قدم أهل المدينة الذين وصلوا واحدًا تلو الآخر بإيراد خطب مناسبة، وقد أظهر المستعدون لقبول الإيمان الفرح والسرور وخرجوا خارج المدينة كما أن اليهود والمشركين قد خرجوا خارج المدينة مغتاظين متنفرين حتى خلت دار الهجرة فى ذلك اليوم المنير من الناس.

وأحنى الأنصار البررة جباههم لتراب أقدام سيد الكونين وعرضوا على رَيَاحِيْنَ إخلاصهم وطاعتهم وأظهر كل واحد منهم فرحته وسروره على طريقته، وأنشد من كان شاعرًا فيهم ولاسيما الذين سروا من مقام سيدنا محمد فيهم قصائد مدح ممتازة للنبى ﷺ، فسر النبى ﷺ من هذه الحالة وتحرك فرحًا مسروراً وإذ رأى موحدى أرض يثرب عامة حالة الفرحة والصفاء التى سادت الموقف أخذ كل واحد منهم يأتى بحركة تدل على عدم المبالاة إلا أنها كانت فى حدود الأدب، وفى الواقع فإن تلك الساعة كانت من أجل أهل المدينة المحظوظين كانت ساعة من مسرة خاصة بهم حتى إن سكان الملأ الأعلى قد خرجوا لمشاهدتها ونشرت الشمس وأرسلت أضواء الفرحة والمباهاة فوق أهل يثرب، وحينما تحرك الموكب النبوى من موقع الحَرَّة، تقدمه أبطال الأوس والخزرج وقاموا بمهمة الدلالة، ووصل الذات النبوى العالى إلى منازل بنى عمرو بن عوف، ونزل فى ظل نخلة وقام من هناك ليضع ظله الجليل فى منزل «كلثوم بن هِدْم» من العرب المعروفين أو فى منزل «طاهر بن يحيى» فى القرب من بئر غرس، وكان يقول للصحابة الذين يرجونه أن يشرف منازلهم «إننى سأذهب إلى منازل بنى النجار

(١) هم الأنصار؛ وقيلة اسم جَدَّةٍ كانت لهم.

أخوال جدى عبد المطلب حتى أجاملهم» وكان ذلك اليوم السعيد يوم الاثنين من شهر ربيع الأول والثانى عشر من شهر أيلول من يوم انتصار الإسكندر فى سنة ٩٣٣ وكان فى وقت الظهر عند اشتداد الحرارة وكان قد مر منذ أن خرج من غار ثور إلى وصوله إلى قرية «قباء» ودخوله فيها اثنا عشر يوما.

بناء على هذا التقدير أنهم وصلوا إلى المدينة المنورة فى اليوم الخامس عشر منذ خروجهم من مكة المكرمة. لأنهم دخلوا فى غار ثور يوم الاثنين وخرجوا منه بعد ثلاثة أيام وظلوا فى الطريق اثنى عشر يوما، إن هذه الرواية باعتبار دخول سرور الموجودات (عليه أفضل التحيات) فى داخل المدينة! إذ قطعوا المسافة التى بين غار ثور والمدينة المنورة فى تسعة أيام، لأنهم كانوا قد وصلوا إلى قرية «قباء» قبل انتقالهم إلى المدينة المنورة بثلاثة أيام، بناء على هذا الحساب قد تفضلوا بالإقامة فى قرية «قباء» ثلاثة أيام. ومع هذا قال بعض المؤرخين أنه ظل فى قرية قباء أحد عشر يومًا أو واحدًا وعشرين يومًا وقال ابن مالك ظل فى قباء أربعة عشر يوما وقول حضرة أنس يرجح على الأقوال الأخرى.

تصادف غريب ـ سئل أعلم الأنبياء ـ عليه أجمل التحايا ـ ما الحكمة من استمراركم فى صوم يوم الاثنين؟. فقال صاحب الرسالة: «إننى ولدت يوم الاثنين وأصبحت نبيًا يوم الاثنين» وهكذا بين أن يوم الاثنين من الأيام المباركة، وفى الواقع ذلك اليوم يوم منير مشحون بالسعادة، لأن باعث إيجاد العالم ﷺ ولد يوم الاثنين، ولبس عباءة الرسالة المزينة يوم الاثنين، كما أنه وضع الحجر الأسود فى مكانه يوم الاثنين عندما حرر القرشيون الكعبة المشرفة وأبعد النزاع بين القبائل. ووفق فى فتح مكة يوم الاثنين وشرف عالم العقبى يوم الاثنين، ونزلت سورة المائدة فى يوم الاثنين.

مسألة

وليست هناك شبهة أن يوم الاثنين من الأيام المباركة الشريفة، إلا أن أفضل الأيام وأكثرها بركة لدى العلماء أيام العشرة المباركة لذى الحجة، وقد اجتمعت

فى الأيام التى تكون فيها أمهات الطاعات والعبادات حتى إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أقسم بتلك الليالى إذ قال ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (سورة الفجر أية ٢)، إن الإمام القسطلانى قد قدم أيام ذى الحجة العشرة على أيام رمضان العشرة الأخيرة.

ويروى العلماء: كما أن هناك أيام فضلى لأيام الدنيا هناك أيام مباركة وفضلى لأيام الآخرة، وقالوا عن أفضل أيام الآخرة: هو اليوم الذى سيتجلى فيه خالق الكائنات ـ تعالى شأنه عن الرواية والإدراك ـ لأهل الجنة دون حجاب، رزقنا بلطفه وفضله.

قال أئمة الدين هناك ليالى فضلى مقابل الأيام الفضلى، قال بعض أئمة الشافعية إن أفضل الليالى هى ليلة اليوم الذى شرف فيه الرسول الأكرم الدنيا، وبعدها ليلة القدر، وبعدها ليلة الإسراء والمعراج، وبعدها ليلة عرفات وبعدها ليلة الجمعة، وبعدها ليلة نصف شعبان، وبعدها ليلة العيد، هذا ما أحصوه، كما فضل مؤلف «كتاب النهر» وأئمة أخرى ليلة «المزدلفة» على ليلة القدر ورجحوها. والله أعلم بالصواب. انتهى.

حينما جلس سلطان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ فى ظل النخلة قد اختار السكوت، ومن هنا ذهب الذين لم يروا النبى ﷺ من الأنصار من قبل، إلى أن أبا بكر هو نَبِىٌّ آخر الزمان؛ لأن الصديق الأكبر كان فى سن واجدة مع سيد البشر وغير هذا فهو كان يتحدث مع الأنصار الذين يأتون ويذهبون، إلى أن زال ظل النخلة واشتدت الحرارة تحت الشمس، فخلع الصديق الأعظم (رضى الله عنه الأكرم) خرقته التى أهداها له الزبير بن العوام فى أثناء الطريق وظلل بها على النبى ﷺ، فعرف أهل المدينة سيد الأنام من هذه الحركة وأخذوا يعظمونه ويحترمونه، وكان الخزرجيون يرغبون فى نزول النبى فى منازل الأوس، كما أن الأوسيين كانوا يودون نزول ـ النبى عليه السلام ـ فى دور الخزرج، وكان سبب ذلك وجود العداوة بين أبناء الأوس والخزرج.

وقتل أسعد بن زرارة فى واقعة «يوم بعاث» نبيل بن الحارث ومع ذلك بقدوم النبى الميمون تبدلت تلك العداوة فى تلك الساعة والحين إلى المودة والمحبة.

ظل الرسول الأكرم ـ عليه سلام الله الأعظم ـ فى منازل بنى عوف ما يقرب من أربع عشرة ليلة[1] وفى هذه الفترة أسس مسجد قباء وأخذ يصلى فى داخله مع أصحابه الكرام علنًا.

إن أول مسجد أسس فى الدولة الإسلامية الأبدية المعبد الذى طرح وبنى فى قرية قباء كما أن أول معبد شريف أقيمت فيه الصلاة علنًا هو ذلك المسجد الأقدس.

وبعد أن أتم سلطان الأنبياء بناء مسجد قباء ركب ناقته الخاصة وخرج إلى الطريق مستصحبًا بنى النجار وذلك ليشرف المدينة المنورة، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ولما وصل إلى قرية بنى سالم بن عوف حل وقت صلاة الجمعة فنزل مع مائة نفر الذين كانوا فى ركابه المستطاب فى وادى «ذى صلب» الكائن داخل وادى «رانونا» وأدوا الصلاة فى هذا الوادى بادى السعادة.

بما أن صلاة الجمعة قد أديت فى هذا الموقع من المدينة المنورة فقد أحيط ذلك الموقع بجدار منخفض وأطلق عليه مسجد الجمعة فيما بعد.

ولهذا المسجد اسم آخر هو «عبيب» ويقع فى الجهة اليمنى من الذين يذهبون إلى قباء.

وبعد أن أدى سيد الزاهدين ـ عليه سلام الله المعين ـ صلاة الجمعة امتطى ناقته واستمر فى طريقه. وبعد مرور وقت قصير وصل إلى المدينة المنورة ومر من أمام منازل أشراف المدينة المنورة الذين رجوه أن ينزل عندهم ولكنه استمر فى طريقه وفى أثناء ذلك كان يصيب باليأس الذين يمدون أيديهم إلى زمام ناقته القصواء حبًا فى نيل ضيافة النبى ﷺ إذ يقول: «إن زمام ناقتى مسلم ليد القدر

(١) هذه الرواية منقولة عن أنس بن مالك، وقال ابن زبالة أن صاحب الرسالة ظل فى منازل بنى عوف واحدًا وعشرين يومًا وفى بنى عروه أحد عشر يومًا.

لا تستطيع أن تتقدم خطوة من المكان الذى أمرت بأن تقف فيه، ولا تشغلوا أنفسكم ولا تتعبوها بغية ضيافتى واتركوا زمام ناقتى كما أمسك بزمام الناقة من سكان حى بنى سالم ومن أغنياء المدينة المنورة ورؤسائهم «عتبان بن مالك، ونوفل بن عبد الله بن مالك بن عجلان» و«عبادة بن الصَّامت بن نضلة» وقالوا: «يا رسول الله! بما أننا نفوق البطون الأخرى كثرة فى العدد ووفرة فى الغنى فنحن أقدر على رعايتكم» وطلبوا نزوله عندهم راجين إلا أن الرسول ﷺ أجاب قائلاً: «لا تتعرضوا لناقتى إذ إنها مأمورة من قبل الله تعرف مكان النزول».

وحينما وصل خطيب منبر الرسالة ـ عليه أكمل التحية ـ إلى مسجد بنى سالم، فألقى خطبة فى الأصحاب ذوى الاحترام الذين وجدوا فى ركاب النبى السلطانى ثم ركب راحلته وأمال زمامها إلى الجهة اليمنى من الطريق وكم كانت خطبته البليغة المعجبة فصيحة حتى إن سكان الملأ الأعلى صاحوا محسنين لها.

عندما وصل فى محاذاة منازل بنى حبلى أراد أن ينزل عند دار «عبد الله بن أبى»، إلا أنه أرخى عنان ناقته لعدم وجود صاحب الدار فى منزله وعندما وصل إلى محلات «سعد بن عبادة» وبنى ساعدة تلاقى مع «منذر بن عمرو» و«أبى دجانة» وفى الأمام مع «سعد بن الربيع» و«عبد الله ابن رواحة» و«بشر بن سعدة» وفى حى بنى بياضه مع «زياد بن وليد» و«فروة بن عمرو» و«عدى بن النجار» وإن كان هؤلاء أيضًا أرادوا أن يستضيفوه إلا أنهم تلقوا نفس الإجابة التى سبق ذكرها.

وأراد جمهور المؤرخين أن يثبتوا أن الضيافة قد عرضت على النبى ﷺ أولاً من بنى بياضة وبعدهم من بنى سالم وعقب ذلك من بنى عدى بن النجار إلا أن ابن إسحاق قال إنه قد عرض عليه ﷺ النزول أولاً من بنى سالم ثم بنى بياضه وبعدها من بنى الحارث وفى النهاية من بنى النجار. وكلما كان النبى يركب البراق ـ عليه صلوات الله الرزاق ـ يجيب الذين يرجونه النزول عندهم الإجابة سالفة الذكر كانت الناقة كريمة الأطوار تنظر يمينًا ويسارًا، ونهاية الأمر بركت أمام بئر جمل وعندئذ أحاط به أبطال بنى النجار وأخذوا يزورون النبى ﷺ.

وبعد أن وقفت الناقة عريقة الأصل أمام بئر «جمل» قليلاً، قامت وسارت وبركت أمام باب دار أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ الذى كان فى اتصال منزلى ابن عائذ وسعيد بن منصور، وبعد عدة دقائق قامت لتبرك مكان المنبر الحالى لمسجد السعادة وأخرجت صوتًا خاصًا بالنياق ومدت رقبتها عندئذ ترجل النبى ﷺ قائلاً: «هذا المنزل إن شاء الله»، وبناء على إذن الرسول ﷺ أخذه أبو أيوب الأنصارى إلى داره وقد ساعده زيد بن حارثة على حمل ملابسه عليه السلام ـ وأشياءه الخاصة.

عندما بركت ناقة النبى ﷺ أمام باب دار أبى أيوب الأنصارى خرجت جوارى بنى النجار فى الشوارع أخذن فى إنشاد.

نحن جوار من بنى النجار

يا حبذا محمد من جار

ويضربن الدفوف[1] وأخذن فى إظهار سرورهن وقال ذلك النبى محبوب العالم ﷺ لهن هل تحببننى؟ فقلن: «نعم وإننا نعلن عن سرورنا بهذه الطريقة» فقال: «ثلاث مرات أقسم بالله وإننى أحبكن» وعلى رواية «يعلم الله إننى أيضًا أحبكن» وزاد سرورهن بهذه الالتفاتة النبوية الكريمة فزدن فى إظهار علامات الفرح والابتهاج.

وقد زاد فرح وابتهاج أهالى دار الهجرة الكرام فى ذلك اليوم وقد تحولت دار القرار المدينة المنورة فى ذلك اليوم إلى منزل عرس وخرجت نساء الخدور إلى الشوارع وهن ينشدن:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

(١) حينما مر بنو إسرائيل من بحر فرعون كانت أخت موسى «كلثوم» أيضًا قد غنت وهى تضرب الدف للإعلان عن سرورها.

أيهـــــا المبعـــــوث فينـــــا
جئـــت بالأمـــــر المطـــــاع
جئـــــت شـــــرفت المدينـــــة
مرحبًـــــا يـــــا خيـــــر داع

كما أن بعضهم أظهروا علامات سرورهم قائلين.

أشـــرق البـــــــدر علينـــا
واختفـــت منـــــه البـــــدور
مثـــلك مـــــا رأينـــــا
قـــــط يـــا وجـــه الســـرور

لم يستطع سكان دار السكينة فى ذلك اليوم أن يتمالكوا حرية إرادتهم وأخذوا يظهرون فرحهم وسرورهم على طريقتهم ولاسيما الأطفال كانوا يهنئ بعضهم البعض ببشرى «جاء محمد رسول الله»، ولما لم ير كل الناس من شدة الازدحام صاحب الرسالة وجماله النبوى صعدوا فوق أسطح المنازل وأخذ يسأل بعضهم بعضًا، هذا هو محمد؟ هذا هو رسول الله.

لما كانت ثنية الوداع مكانًا فى الطرف الشامى من المدينة المنورة ذهب بعض المؤرخين إلى أن النبى ﷺ قد شرف المدينة المنورة من ناحية الشام؛ إلا أنهم مخطئون فى ذهابهم هذا؛ وفى الواقع وإن كانت ثنية الوداع فى ناحية الشام؛ إلا أن كل ثنية يودع فيها الناس بعضهم تسمى «ثنية الوداع» ومن هنا ففى المدينة عدة ثنيات للوداع، وليس هناك شك فى أن النبى ﷺ قد شرف مقبلاً من ناحية مكة المكرمة حتى إن مصراع «من ثنيات الوداع» يدل على أن المدينة المنورة عدة ثنيات.

إن منزل أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ السعيد كان قصرًا يجذب القلوب بناه تبع الحميرى لملك العالم ـ ﷺ ـ قبل وقوع الهجرة النبوية النافعة قبل سبعمائة سنة كما ذكر فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة لمرآة مكة.

وفى أثناء انتقاله من يد لآخر أخذ كل واحد من ملاكه يضيف إليه زينة حتى وصل إلى يد خالد بن زيد وتحت تصرفه وبناء على هذا التقدير قد شرف سيد العرب والعجم المنزل الذى أسس وطرح من أجله منذ سبعمائة عام.

وكانت منازل بنى النجار فى ذلك العصر فى غاية المتانة بالنسبة لمنازل الأنصار، والمكان الذى بركت فيه الناقة وهى ترعى هو الساحة التى بنى فيها فيما بعد المسجد النبوى الشريف.

وكانت ساحة مسجد السعادة فى مائة ذراع طولاً وعرضًا وكان مكانًا مخصصًا لتجفيف البلح وكان يمتلكها يتيمان وسيمان ابنا رافع بن عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك ابن النجار واللذان تربيا فى حجر معاذ بن عفراء وعلى قول، أسعد بن زرارة وكان معاذ خال عبد المطلب بن هاشم، لأن كل واحد من أهل المدينة فى تلك الأوقات له ساحة لتجفيف البلح قدر حاله، وقد اشترى النبى ﷺ هذه الساحة بعشر قطع ذهبية وطرح عليها مسجده الشريف وأسسه.

قد امتلك منزل أبى أيوب الأنصارى عبدة بن أفلح وباعه فيما بعد لمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف قطعة ذهبية، وقد اشتراه بعد مدة الملك المظفر ابن أيوب بن شادى وهدمه وبنى على ساحته مدرسة مكتملة خاصة بعلماء المذاهب الأربعة وجعل فى داخلها مكتبة ووقف لها كتبًا كثيرة نفيسة متنوعة.

كما أوقف مشروطًا لتلك المدرسة والمكتبة بعض البساتين فى المدينة وعقارات متعددة فى الشام، كما اشترى كثيرًا من الدكاكين والأراضى فى بلده وأوقفها، ولكن لشدة الأسف! أن تقلبات الزمان قد محت ولم تترك اسمًا ولا ذكرًا لهذه الأشياء سواء أكانت تلك الكتب النفيسة التى أوقفها أو ما أوقفه من عقارات وأملاك شرط تعمير المدرسة وترميمها.

وكانت هذه المدرسة فى العصور القديمة عامرة ومشهورة بين الأهالى بالمدرسة «الشهابية» وقد خربت قبل عدة مئات من السنين، ويروى المؤرخون أن فى الميدان الصغير الذى كان فى داخل المدرسة «الشهابية» وفى الطرف الغربى

الجنوبى من الميدان محراب وكانت ساحة هذا المحراب مستناخا للناقة النبوية وأن الحجاج الرائحين والآتين كانوا يزورون ذلك المحراب. وأدخل المحراب الشريف فيما بعد داخل كوخ للمحافظة عليه، إلا أن المدرسة الشهابية قد حولت من صفة المدرسة ووضعت لهيئة زاوية، كما أن تلك الزاوية خربت ومن هنا اقتنع المخلصون الذين حرموا من زيارة مستناخ الناقة النبوية أن هذا الموقع سيخرب بعد مرور فترة من الزمن. وفى سنة ١٢٥٩هـ وجه الأمر السلطانى الصادر من أمانة البناء إلى عهدة شخص يسمى «خضير أفندى» هدمت تلك الزاوية وجددت فى صورة كاملة وتم التجديد فى أواخر ربيع الأول من سنة ١٢٦١هـ.

وفتح فى وسط الأبنية الجديدة منفذاً للريح كما فتحت فى ناحية الشارع نافذة كبيرة وبهذا دخلت زاوية الشهابية إلى هيئة تكية وكان أصحاب الاشتياق يزورونها، وهذه المدرسة تعرف فى أيامنا بـ الزاوية الجنيدية.

إن التوفيق فى إحياء هذا الأثر اللطيف الذى ظل معطلاً عن الزيارة منذ سنين وفيرة ستكون خدمة فريدة لصاحب الرسالة. إلا أن اتصاف خضير أفندى بضعف إخلاصه واعتقاده أضاع ذلك الأثر النبوى السعيد لأنه وسع محيط كوخ مستناخ ناقة الرسول عشرة أذرع وثلاثة أرباع ذراع طولاً وخمسة أذرع وربع عرضا ولم يضع علامة يستدل بها على نقطة مستناخ الناقة وبهذا ضاع الموقع اللطيف لذلك الأثر الشريف.

وكان غرض السلطان عبد المجيد من إحياء المدرسة الشهابية المحافظة على مستناخ الناقة النبوية الشريفة إلا أن الحقير خضير أفندى لاحظ عند تجديد المدرسة نظام وانتظام الأبنية وسعتها وبهذا ارتكب دناوة الإساءة ـ تجاوز الله من سيئته.

إخطار

ولم يمح أصحاب الخيرات المآثر الجليلة، مثل خضير أفندى، ولكنهم بنوا أبنية فى الأماكن التى ثبت ولو بقول ضعيف كونها من الآثار واتخذوها زوايا بنية خالصة وفكر صحيح، حتى يعبد فيها الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة.

فى بيان وقائع سنين الهجرة وتفصيلاتها الإجمالية.

وعندما استقر النبى ﷺ وشرف المدينة طيبة وتم وقت اقتران فيض نوره عليه السلام. كان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة المكرمة، وذهب معهما عبد الله بن أبى بكر وهناك أخذوا معهم السيدة فاطمة وأم كلثوم وسودة وأسامة بن زيد وأم أيمن وأولاد وعيال الصديق الأعظم ـ رضى الله عنهم ـ ورجعوا إلى المدينة، وآخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار وعقد مع طوائف اليهود المعاهدة، وقد عاش فى المدينة المنورة بالإجماع، ما يقرب من عشر سنين وارتحل عن دنيانا يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول والسنة الحادية عشرة من الهجرة، ومرض فى الأيام العشرة الأخيرة من شهر صفر من تلك السنة وارتحل فى ربيع الأول، وصلى عليه بدون إمام فى داخل الحجرة المعطرة على رواية أو فى داخل الروضة المطهرة على رواية أخرى.

ولم يستطع الأصحاب الكرام أن يقتنعوا بارتحال النبى عن دنيانا، وقد مدت أسماء بنت عميس يدها إلى ظهر النبى وعرفت أن خاتم النبوة قد رفع وحكمت أن روح النبى ﷺ قد قبضت.

وظهرت عندئذ بعض علامات الموت على أظفاره المباركة نوع من الزرقة يعنى بدء تغير لون أظفاره ـ عليه السلام ـ فحكم من قبل عامة الأصحاب الكرام أن النبى ﷺ قد ارتحل عن دنيانا ودفنوا نعشه المقدس اليوم الرابع من يوم ارتحاله وعلى قول فى الليلة الثالثة أو اليوم الرابع أو الثالث على رواية أخرى من يوم قبض روحه اللطيفة والمكان الذى قبضت فيه روحه ـ عليه السلام ـ وقد تنافسّ الأصحاب الكرام فى تعيين موقع دفن جثمانه الشريف ـ عليه السلام ـ طويلاً فقال بعضهم يدفن فى «البقيع الشريف» وقال بعضهم يدفن فى المسجد اللطيف،

وأخيراً قرروا دفنه فى داخل حجرته المعطرة. ودفنوه حيث قبضت روحه ـ عليه السلام ـ وقد سطر هذا القرار بناء على رأى مذكور فى الصورة الثانية من الوجهة الثالثة.

السنة الأولى للهجرة

* سنة بناء مسجد قباء: إن هذا المعبد كان سبب نزول الآية الكريمة ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ﴾ (التوبة: ١٠٨) وقد طرح أساس منبره المصون من الأندلس من طرف معمار منزل الدين عليه السلام.

* ومن أحداث تلك السنة: تأسيس مسجد المدينة.

* ورود فاطمة وأم كلثوم، وعائشة الصديقة، وأم أيمن[1] وأسامة بن زيد (رضى الله عنهم) وأم أيمن زوجة زيد بن حارثة ووالدة أسامة.

* وزفاف عائشة ـ رضى الله عنها ـ عقد على السيدة عائشة رضى الله عنها فى مكة المكرمة وعمرها ست سنوات وزفت فى السنة الأولى الهجرية.

* وفرض ركعات الصلاة حيث كانت الصلوات ركعتين فأصبحت أربع ركعات.

* المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد عقد خمسة وأربعون شخصًا من المهاجرين والأنصار روابط الأخوة على التعاون والتناصر.

* معاهدة اليهود ـ القصد من هؤلاء اليهود قبائل بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ـ التى كانت تسكن فى أطراف المدينة الطاهرة وقد عقدت معاهدة بشرط ألا يعينوا أعداء الموحدين وألا يهينوا حلفاء المسلمين.

* نقل وباء الطاعون.

(١) كانت حاضنة الرسول الأكرم وأم أسامة بن زيد واسمها «بركة بنت ثعلبة». وكانت فى الأصل جارية حبشية مملوكة لعبد الله بن عبد المطلب وكانت متزوجة بشخص اسمه عبيد الحبشى وكانت حاضنة النبى ﷺ ولما كان أيمن ابنها من صلب عبيد الحبشى فاشتهرت بالإضافة إليه. وتزوجت بعد عبيد الحبشى بزيد بن حارثة الذى أهدته خديجة إلى النبى ﷺ ومن صلبه جاء أسامة.

* نزول آيات القتال.

* بعث السرايا، وعقد رايات الغزوات، وقد صدرت فى هذه السنة الأوامر الإلهية بسل السيوف لمخاذيل المشركين فتفضل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعقد رايات الغزوات وإرسال السرايا، والغزوات التى زينها بحضوره الشخصى (١٩) غزوة وقد حدث قتال فى تسع منها. والسرايا التى بعثها تحت قيادة أحد القواد (٤٧) غزوة أو سرية، ويروى أنها (٥٦) سرية.

لازمة ـ تطلق على الحروب التى قاد الكتائب فيها النبى ﷺ بالذات غزوة فى اصطلاح أهل السير، كما تطلق على الجيوش التى ساقها تحت قيادة أحد قواده سرية.

وعلى قول تطلق السرية على الجنود الذين يسيرون بالليل ويختفون نهارًا سرية، وعلى الذين يسيرون نهارًا تحت قيادة أحد القواد وجه تسميتها مأخوذ من كلمة السر، وسمى أهل السير الفرق العسكرية حسب مقدار الجنود وكميتهم الذين يساقون إلى الحروب «سرية»، «بعث»، «منسر»، «مقنب»، «كتيبة»، جيش وفريق، وجحفل، وخميس، والجيش العظيم، وقالوا للذين أرسلوا للجهاد ويقل عددهم عن ثلاثة «غزاة» وإذا كانوا راكبين «جزيرة» وإذا كان كلهم مشاة «بعث» وإذا كانوا من ثلاثين إلى أربعين نفرًا وعلى قول من أربعين إلى ستين أومن مائة إلى مائتين من الفرقة الخيالة قالوا عنهم «المنسر» وقالوا لفرقة الفرسان بين مائة أو أربعمائة «مقنب» وإذا وصل الفرسان إلى خمسمائة «السرية» وألف نفر من المشاة «كتيبة» وفرقة مكونة من أربعة آلاف يطلق عليها «جيش»، «فريق» و«جحفل» والجيش المكون من اثنى عشرة ألف «خميس» ولأكثر من هذا قالوا عنه «الجيش العظيم».

* ومن أحداثها أيضًا: ولادة عبد الله بن الزبير.

* عقد لواء لحمزة بن عبد المطلب ـ إن أول الجنود الذين جهزوا فى الدولة الإسلامية الأبدية سرية حمزة بن عبد المطلب، وكانت تتكون من ثلاثين من

شجعان المهاجرين إذ تقابلوا مع القافلة القرشية التى تتكون من ٣٠٠ نفر وتحت قيادة أبى جهل ولكنهم صرفوا عن القتال بواسطة مجدى بن عمرو الجهمى.

* عقد لواء عبيدة بن الحارث، الجنود الذين بعثوا للمرة الثانية هم الذين كانوا تحت قيادة عبيدة بن الحارث، وكانوا ستين من المهاجرين إذ انتصروا فى موقع ودان الكائن فى بطن رابغ على أبى سفيان وعلى رأى آخر على جيوش قريش المائة تحت قيادة عكرمة بن أبى جهل وشتتوهم أيما تشتت، ويروى أن هذه السرية كانت فى الدفعة الأولى.

* عقد لواء سعد بن أبى وقاص قائد السرية التى أرسلت للمرة الثالثة، قد ذهب مع عشرين نفرا من المهاجرين وعاد دون أن يصادف أعداء الدين.

* وفاة أبى أمامة.

* وفاة أم كلثوم بنت هدم.

* هلاك وليد بن المغيرة.

* هلاك عاص بن وائل.

* إسلام سلمان.

* إسلام عبد الله بن سلام.

* إجراء اليهود عداوتهم فى حق محبوب الرب الودود.

وكان هؤلاء الأشخاص الذين أظهروا العداوة من أحبار اليهود وهم حُيَى بن أخطب، أبو رافع الأعور، كعب بن الأشرف، عبد الله ابن صوريا، زبير بن باطا، وليد بن أعصم، وهم هؤلاء الأنجاس المفسدون الذين ذهبوا إلى دار البوار كل واحد بطريقة ما كما هو مذكور فى أمهات كتب السير.

* التجاء المنافقين مثل أبى بن سلول مع آخرين من مَخْذُولى المنافقين إلى الإسلام عن طريق النفاق.

• سنة الأذان المحمدى:

المعلومات المهمة فى حق الأذان، إلى هذه السنة أنه كان يعلن عن وقت الأذان إذ ينادى المنادى قائلاً الصلاة جامعة، وفى خلال هذه السنة علم عبد الله

بن زيد فى رؤياه الأذان المحمدى وأصبح الأذان سنة على تلك الطريقة، إلا أن بعض كتب السير كتبت أن الواقعة المذكورة حدثت فى السنة الثانية الهجرية.

أول من أذن فى المدينة المنورة هو بلال الحبشى وأول من أذن فى مكة المكرمة حبيب ابن عبد الرحمن ـ رضى الله عنهما ـ وأول من أذن لصلاة الجمعة هو عبادة بن الصامت ـ وعلى قول هو أبو يعلى ـ وأول من أذن فى مصر فوق المئذنة هو شرحبيل بن عامر المرادى الصحابى.

والأذان الأول الذى يؤذن يوم الجمعة هو من سنة عثمان ـ رضى الله عنه ـ إذ كثر الناس فى عهده السامى وتفرقوا، وحتى يترك الناس أعمالهم ويسرعوا إلى المسجد الشريف اتخذ أن يتلى الأذان قبل الصلاة، وعين للقيام بهذه المهمة أشخاصًا مكلفين وموظفين بهذا الأمر، وكان هذا الأذان يؤدى إلى عهد أبان بن عثمان كالأذان الثانى فوق المحفل ومقصورة المسجد وقد أحدث أبان بن عثمان أصول أداء الأذان فوق المآذن.

كما أن أمراء بنى أمية أحدثوا عادة أداء الأذان ثلاثة أنفار معًا من فم واحد، ومازال هذا الأصل جاريًا فى البلاد العربية.

وأحدث ناصر الدين محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون فى خلال سنة ٧٠٠ الهجرية بتصويب المحتسب نجم الدين الطبندى وتشجيعه قراءة الصلاة والسلام قبل أذان الجمعة فوق المآذن، وكان قصده إسماع الناس قرب حلول وقت صلاة الجمعة، إلا أنه كان يقال (الصلاة والسلام على رسول الله) وبعد مرور ٦٧ سنة قرر الملك المنصور محمد بن مظفر بن ناصر الدين محمد بن قلاوون بناء على عرض وترتيب المحتسب صلاح الدين البرلسى أن يقال (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله) وبعد مرور ٢٤ سنة قرر فى عهد الملك الصالح بن الأشرف شعبان بن حسين بن ناصر الدين محمد بن قلاوون أن تقرأ الصلاة عقب أذان صلوات الأوقات الخمسة ما عدا أيام الجمعة.

أصول التسبيح فوق المآذن:

كان موسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ يسبح فى الأوقات المباركة وقبل أذان صلوات الصباح بصوت مرتفع، وقد عين حضرة داود موظفين خاصين للاحتفاظ بهذه الأصول وجعلهم يسبحون الله فى الثلث الأخير من الليل حتى قرب الفجر، واستمر هذا النظام حتى وفاة يحيى عليه السلام، وقام اليهود ضد عيسى ـ عليه السلام ـ عقب استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ وتسببوا فى إبطال نظام التسبيح وتركه والعمل حسب أحكام شرائع بنى إسرائيل.

وقد جرى أصول التسبيح فى العهد الإسلامى أولا فى مصر وفى وقت إمارة مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نيار الأنصارى، وفى سنة (٥٨)، لأن حضرة مسلمة قد صنع فى مسجد عمرو بن العاص مئذنة[١] واعتاد أن يعتكف فى هذا المسجد، وقال للمؤذن شرحبيل بن عامر فى أثناء اعتكافه يا شرحبيل، إننى أنزعج فى الصباح من دقات الناقوس، هل هناك حل لهذا الموضوع؟، فقال له نعم أبدأ فى الأذان من نصف الليل وأطيله إلى طلوع الفجر وبهذا سر مسلمة بن مخلد ووضع نظام قراءة الأذان من نصف الليل وبهذا النظام استطاع مسلمة بن مخلد أن يحافظ على سكينة قلبه درجة ما، وعندما أصبح أحمد بن طولون ملك مصر سنة (٢٥٤) رفع نظام أداء الأذان هكذا لفترة طويلة وعين مؤذنين متعددين وربط لهم المرتبات الخاصة ووضع نظام أن يصعدوا إلى المآذن قرب الصباح وأن يقرءوا القصائد الخاصة بالزهد والعشق الإلهى والأشعار، كما أن صلاح الدين الأيوبى قرر فى سنة (٥٦٨) قراءة القصائد والأناشيد الخاصة بالعقيدة الأشعرية بدلاً من الذكر والتسبيح.

ومازال حكم هذا النظام جاريًا فى جوامع مصر والشام.

السنة الثانية للهجرة

* عرس السيدة فاطمة رضى الله عنها.

* وغزوة أبواء، هذه الغزوة مقدمة الغزوات التى وجد فيها قائد المجاهدين

(١) إن المئذنة التى بنيت فى الجوامع والمساجد هى هذه المئذنة.

نبينا ﷺ بذاته، وبما أنها وقعت على بعد ستة أميال لناحية ودان اشتهرت بغزوة «ودان» كما ذكر فى بعض كتب المغازى أنها حدثت قبل السرايا سالفة الذكر.

* غزوة «بواط» وهى الغزوة الثانية التى وقعت فى خلال السنة المذكورة، وبما أنه لم يتصادف لقافلة قريش رجوع وبما أنه قد نصبت الخيام فى مكان يسمى «بواط» بالقرب من ينبع سميت بذلك الاسم.

* غزوة العشيرة وهى الغزوة الثالثة فى السنة المذكورة، وذهب إلى بلاد قبيلة بنى مُدْلِج فى ناحية ينبع وإلى منزل «عُشَيْرَة» لنهب القافلة التى تحت إدارة أبى سفيان التى تعود من الشام، ولما عرف أن القافلة قد فاتت رجع من هناك بعد عدة أيام، وقد لقب على المرتضى فى هذه الغزوة الغراء بكنية «أبى تراب».

* هجوم كرز بن فهر على المدينة.

* سرية بن أبى وقاص الثانية.

* سرية عبد الله بن جحش.

سل سيف جناب عبد الله مع ٨ ـ وعلى رأى ١٢ ـ نفر من المهاجرين وحربه الدامية مع قافلة قريش فى بطن نخلة وقهره لعمرو بن علاء الحضرمى وتدمير عثمان بن عبد الله، وأسر حكم بن الكيسانى وتكبيله بالسلاسل والاستيلاء على قافلة قريش، وهذه السرية هى أول سرية فى عصر السعادة حدث فيها قتل الأعداء وأخذ الأسرى واغتنام الأشياء.

* فرض الصيام.

* تحويل القبلة.

* وقعة بدر الأولى.

* غزوة بدر الكبرى.

* وجوب صدقة الفطر، أداء صلاة العيد.

* غزوة بنى قينقاع. كان يهود بنى قينقاع من القبائل اليهودية التى عقدت الصلح والاتفاق مع المسلمين فى السنة الأولى الهجرية وظلت ساكنة هادئة إلى

شوال من السنة الثانية الهجرية، ونقضت العهد فى خلال شهر شوال إذ قتلت مسلمًا فى سوق المدينة، فبناء على ذلك حوصرت حصونهم وضيق عليها الخناق مدة خمسة عشر يومًا وحوربت، وضبطت أملاكهم وصودرت أشياؤهم وأجلوا إلى ديار الشام.

* غزوة السويق.

* غزوة قرقرة الكُدْر، هناك من يروى أن الغزوة المذكورة وقعت فى السنة الثالثة.

* قتل عمير بن عدى العصماء[1].

* قتل سالم ابن عمير أبا غفل.

وفاة رقية بنت النبى عليه السلام.

السنة الثالثة الهجرية

* غزوة أنمار.

* سرية القردة.

كان زيد بن حارثة قائد سرية فى هذه الواقعة، فأغار على قافلة قريش فى مكان يسمى القردة واغتنم أمتعتها وأخرج ٢٥٠٠٠ ألف درهم خمسًا.

* قتل كعب من الأشرف اليهودى، كان هذا الرجل رئيس قبيلة عمرو بن عوف وكان يؤذى النبى ﷺ.

* زفاف عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ لما كان عثمان بن عفان تزوج برقية ثم بأم كلثوم ـ رضى الله عنهما ـ لقب بلقب ذى النورين.

* زفاف حفصة بنت عمر بن الخطاب وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهما.

* وفاة السيدة زينب بعد مرور شهرين من زواجها.

* ولادة سبط النبى المكرم حضرة حسن بن على رضى الله عنهما.

* غزوة أحد.

(١) انظر خَبَرَهُ فى الإصابة ٥/ ٣٤ الترجمة رقم ٦٠٣٨.

* غزوة حمراء الأسد.

* استشهاد حمزة، استشهاد عمرو بن الجموح.

* استشهاد أنس بن النضير، استشهاد سعد بن الربيع رضى الله عنهم.

* تحريم الخمر، وهناك من يروى أن الخمر حرمت فى السنة الرابعة الهجرية.

السنة الرابعة الهجرية

* وقعة بئر معونة.

* غزوة بنى النضير.

* ولادة الإمام حسين السعيدة.

* غزوة الرجيع.

* بدر الموعود[1].

* زفاف أم سلمة، وزينب بنت جحش رضى الله عنهما.

* غزوة ذات الرقاع ويروى أن هذه الغزوة وقعت فى السنة الخامسة.

* استشهاد عامر بن فهيرة، استشهاد عاصم بن ثابت، وفاة عبد الله بن عثمان.

السنة الخامسة الهجرية

* غزوة دومة الجندل ويروى أن هذه الغزوة وقعت فى السنة السادسة.

* غزوة بنى المصطلق وهناك من يرى أن هذه الغزوة أيضًا وقعت فى السنة السادسة.

* رخصة التيمم.

* عتق سلمان الفارسى وتحريره.

* كسوف القمر.

* أداء صلاة الكسوف.

* وفود بلال بن الحارث المزنى، قدوم ضمام بن ثعلبة.

(١) قيل لها كذلك لأن أبا سفيان بن حرب كان قد نادى رسول الله ﷺ يوم أحد: موعدنا معكم بدر فى العام المقبل، فأمر رسول الله ﷺ بعض أصحابه أن يجيبه بـ «نعم»، وكانت فى شعبان فى السنة الرابعة انظر: ابن هشام ٣/ ٣٣٠، ابن سعد ٢/ ١/ ٤٢، الطبرى ٢/ ٥٥٩، الدرر ص ١٦٨.

* غزوة المريسيع.
* قصة إفك عائشة رضى الله عنها المؤلمة.
* غزوة الخندق.
* غزوة بنى قريظة استشهاد سعد بن معاذ.
* استشهاد خلاد بن سويد.
* هلاك أمية بن الصلت.
* مبارزة على، ضيافة جابر بن عبد الله عقب غزوة الخندق.
* حكم سعد بن معاذ على بنى قريظة، وفاة أم سعد بن عبادة.
* سرية عبد الله بن أنيس.
* وقعة عرنة.
* إسلام عمرو بن العاص وخالد بن سنان.

السنة السادسة الهجرية

* أسر شمام بن أنال.
* كسوف الشمس.
* نزول حكم الظهار.
* سرية محمد بن مسلمة.
* غزوة بنى لحيان.
* فرض الحج على أصح الأقوال، وهناك من يدعى أن الحج فرض قبل الهجرة أو فى السنة السابعة أو الثامنة.
* سرية زيد بن حارثة.
* سرية حيدر.
* سرية عبد الرحمن بن عوف.
* صلح الحديبية. يروى أن هذا الصلح وقع فى السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة.

* غزوة ذى قرد، يقال لهذه الغزوة غارة عيينة بن حصين الفزارى أيضًا.
* سرية عكّاشة.
* سرية أبى عبيدة.
* سرية خالد بن الوليد.
* سرية زيد بن حارثة.
* سرية كرز ابن جابر.
* استسقاء النبى (عليه السلام).
* وفاة أم رومان.
* وفاة عتبة بن أسد.
* ورود أبى نصير وأصحابه.
* زفاف جويرية بنت الحارث.
* إرسال الرسائل إلى الملوك، وهناك من يعد كتابة الرسائل من وقائع السنة السابعة.

السنة السابعة الهجرية

* قدوم مهاجرى الحبشة.
* وقعة فتح خيبر.
* زفاف أم حبيبة بنت أبى سفيان.
* عمرة القضاء.
* زفاف ميمونة بنت الحارث الهلالية.
* ورود مارية القبطية.
* سرية بشير بن سعد.
* سفر عمر بن الخطاب إلى قبائل هوازن.
* سرية غالب بن عبد الله.
* وفاة بشر بن البراء.
* وفاة ثويبة المرضعة.

* وفاة وليد بن الوليد.
* وفاة يسار الحبشى.
* غزوة ابن أبى العوجاء.
* تسميم الرسول.
* محاصرة وادى القرى.

السنة الثامنة الهجرية

* سرية غالب بن عبد الله.
* سرية شجاع بن وهب.
* اتخاذ النهر.
* سرية نوبة.
* غزوة ذات السلاسل.
* سرية الخَبَط.
* سرية أبى قتادة.
* فتح مكة المكرمة.
* غزوة بنى خزيمة.
* غزوة حنين.
* غزوة الطائف.
* قدوم وفد هوازن.
* ولادة إبراهيم بن الرسول.
* قدوم عروة بن مسعود.
* استشهاد جعفر بن أبى طالب.
* استشهاد زيد بن حارثة.
* استشهاد عبد الله بن رواحة.
* غزوة مؤتة.

* غلبة خالد بن الوليد.

* كشف أحوال قتلى مؤتة.

* زفاف زينب بنت رسول الله ـ رضى الله عنها ـ.

السنة التاسعة الهجرية

* إسلام كعب بن زهير.

* غزوة تبوك وهذه الغزوة آخر غزوات النبى ﷺ.

* سرية قتيبة.

* سرية الضحاك.

* سرية علقمة بن محرز.

* سرية على بن أبى طالب.

* سرية عكاشة.

* اعتزال النبى زوجاته.

* قدوم وفد ثقيف.

* قدوم وفد أسد.

* قدوم وفود الداريين.

* قدوم وفد تميم.

* ورود كتب الملوك.

* قدوم وفد بهرا، وفد بنى البكا ووفد بنى فزارة.

* وفاة النجاشى وصلاة النبى على النجاشى، وقعة إيلاء وقضية اللعان.

* وفاة أم كلثوم بنت النبى ـ رضى الله عنها ـ.

* قدوم أسعد بن تميم.

* حج أبى بكر.

* وفاة سهل بن البيضاء.

* رجم الغامدية.

* تأسيس وتخريب دار النفاق مسجد الضرار وهلاك رئيس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول.

السنة العاشرة الهجرية

* وفد نجران، ووفد عامر بن الطفيل.

* قدوم الجارود بن عمرو فى طائفة من قومه عبد القيس ووفد بنى حنيفة.

* قدوم زيد الخيل فى وفد طَيّء.

* قدوم عدى بن حاتم.

قدوم فروة بن مُسَيك.

* قدوم وفد زُبَيْد وعمرو بن معد يكرب.

قدوم الأشعث بن قيس فى وفد كِنْدة.

* بعث الأمراء على الصدقات ويروى أن هذا حدث فى خلال السنة الثانية للهجرة.

* وفد الأَزْد.

* حجة الوداع.

* سرية أسد الله على بن أبى طالب على اليمن.

السنة الحادية عشرة الهجرية

* تجهيز سرية أسامة بن زيد.

* وفد النخع.

* ظهور مسيلمة الكذاب.

* ظهور الأسود العنسى.

* مرض النبى ﷺ، وارتحال النبى ﷺ عن دنيانا.

الوجهة السادسة

وتشتمل على إحدى عشرة صورة تعرف بالتفصيل توسيع وتجديد المسجد الشريف ودار فاطمة رضى الله عنها السعيدة.

كما تعرف محل محراب النبى القديم والأساطين الشريفة وصفة أصحاب الصفة والمواقع المباركة الأخرى.

فى ذكر صورة طرح وتأسيس مسجد السعادة على صاحبه أفضل التحية.

سكن مؤسس مبانى أركان الدين الرصين ـ عليه سلام الله المعين ـ فى البيت الذى يملكه أبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ ما يقرب من سبعة أشهر، أقام فيه متعبداً وبعد ذلك استدعى أصحاب الساحة التى بركت فيها الناقة ذات الصفات الممدوحة «القَصْوَاء» فى المكان الأول لوح لهم قائلاً «إذا كنتم ترغبون فى بيع هذه الحظيرة لاشتريتها لأبنى عليها مسجداً»، وبهذه البراعة بين لهم أنه يفكر فى شراء تلك الساحة، فعرض عليه «سهل وسهيل» سالفا الذكر ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك أن يتفضل بقبول تلك الساحة بدون ثمن، ورجوا النبى ﷺ فى ذلك وأصرا ولكن النبى ﷺ لم يستصوب أن يأخذ تلك الساحة مجانًا لأن صاحبيها كانا أطفالا، فجلب معاذ بن عفراء ـ وعلى قول آخر أسعد بن زرارة[1] ـ وأعطى له عشر قطع ذهبية[2] ليسلمها لهما.

كانت هذه الساحة مقبرة فى أيام جاهلية العرب، وبيعت فيما بعد وانتقلت من يد لأخرى حتى انتقلت لملكية ابنى رافع بن عمرو، ولم تكن تلك الساحة مستوية الأرض، لذا قد تكونت عليها بعض مياه الأمطار وتراكمت على شكل مياه البرك، فأمر النبى ﷺ بتسطيح الأرض، وبعد إعداد لوازم البناء أرسى أساس المسجد، وفى العام الثانى الهجرى أكمل البناء فى شهر صفر الخير وسقفه بجريد النخل.

وكان لذلك المسجد الذى أسسه معمار ديوان الشريعة ـ عليه أفضل التحية ـ محراب واحد وثلاثة أبواب. وكان المحراب الشريف المذكور متجهًا إلى بيت

(١) الراجح أنه أسعد بن زرارة، إذ كان الغلامان يتيمين فى حجره، وكان أسعد بن زرارة يصلى فيه ويجمع قبل مقدم الرسول الله ﷺ، إلى المدينة انظر: إعلام الساجد، ص ٣٢٣.

(٢) وكانت هذه القطع الذهبية ثمن تلك الساحة فدفعها الصديق الأكبر على أنها من قبل رسول الله ﷺ.

المقدس، أى كان فى مكان البوابة التى يطلق عليها فى زماننا باب التوسل وكان أحد الأبواب فى مكان المحراب الشريف الحالى وكان الثانى مكان باب جبريل وكان الثالث حيث استقر باب الرحمة، واشتهر الباب الذي كان مكان المحراب الشريف بباب الحملة وكان خاصًا لدخول الجماعة وخروجها وكانت الأبواب الأخرى خاصة لدخول النبى ﷺ فى حجراته وكان البابان اللذان خصصا لدخول النبى ﷺ يعرف أحدهما فى العصر النبوى بباب «عثمان» والآخر بباب «عاتكة» وكان سمك جدران المسجد الشريف ثلاثة أذرع وكان عمق حفرة الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع، وكان الأساس إلى الجدران الظاهرة من الأرض من الحجر وما يعلوه من اللبن، وكان السقف قد رفع فوق ستة أعمدة موزونة ثلاثة على يمين المنبر وثلاثة أخرى على يساره كل واحد فى حذاء الآخر وظلت الروضة المطهرة بين منبر السعادة والحجرة المنيفة.

وكان طول وعرض المسجد ـ توأم حرم الجنة ـ مائة ذراع لكل منهما، وبناء على بعض الأقوال أن طوله وعرضه أقل من مائة ذراع، إلا أن فريقًا من المؤرخين قالوا إن طول ساحة مسجد السعادة كان سبعين ذراعًا وكان عرضه ستين ذراعًا، وصنع الطين اللازم سواء أكان لأعمال الجدران أو فى صنع اللبن فى حفرة «بقيع خبخبة» الكائن فى اتصال بئر خالد بن زيد وفى جهة «بقيع الغرقد».

استطراد

خبخبة اسم شجرة نبتت من قبل الله أمام البئر سالفة الذكر؛ وكانت هذه الشجرة فى داخل مقبرة بقيع الغرقد وبجانب ضريح إبراهيم ابن الرسول ـ عليه وعلى أبيه التسليم ـ ويظل هذا المكان الآن فى الجهة اليمنى من زوار مقبرة البقيع.

وقد نسيت حفيرة خبخبة التى يلزم أن تكون بئر خالد بن زيد، اسمها ورسمها مع مرور الزمن ولم يبق أحد يعرف مكانها، إلا أن مصطفى عشقى أفندى من مجاورى المدينة المنورة المخلصين قد تحرى عنها مئات المرات متوسلاً من روح النبى ﷺ العون واستطاع أن يظهرها فى سنة ١٢٦٠هـ، والبئر المذكورة بجانب

مسجد يحيى بن طلحة بن عبيد الله، وهذا المسجد فى داخل الحديقة ذات النخيل التى تسمى حديقة أولاد صفى.

حديقة أولاد صفىّ:

بالخروج من باب البقيع الشريف حصن المدينة المنورة وبعد قطع مسافة ربع ميل من الطريق الذى يؤدى إلى مشهد حمزة يظهر بستان واسع، وهناك زقاق يتفرع إلى يمين البستان وعلى جهتى هذا الزقاق عدة بساتين والبستان الذى وقف لأغوات حرم السعادة يشتهر ببستان «أولاد صفى». وفى داخل الحديقة المذكورة بئر ينزل إليها بسلم ودرج، وفى الجهة الجنوبية منها مسجد لطيف على شكل منزل وفى طول ثمانية أذرع وكذلك العرض؛ هذا المسجد هو مسجد «يحيى بن طلحة» والبئر التى بجانبه بئر أبى أيوب الأنصارى المعروف باسم «خبخبة». انتهى.

بعد أن أتم النبى ﷺ بناء مسجد المدينة بنى تسع حجرات خاصة بزوجاته المطهرات على يمين مسجد السعادة ويساره وقد خص أقرب الحجرات ـ وهى الحجرة التى دفن فيها ـ بالسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما خصص الحجرة الملاصقة بها للسيدة سودة[1] ـ رضى الله عنها ـ كما فتح طريقًا من دار عائشة، إلى المسجد الشريف.

يخبر المؤرخون عن مساحة المسجد الشريف بوجود أربع روايات: **الرواية الأولى**: أن الذراع فى تلك الوقت كان مقياسًا قريبًا من شبرين ـ أو أكثر منه قليلاً، وبناء على **الرواية الثانية**: أن كلاً من الطول والعرض كان مائة ذراع، وعلى **الرواية الثالثة**: أن كلاً من الطول والعرض كان يقل قليلاً عن المائة.

وبناء على ما تفيد **الرواية الرابعة** كان الطول والعرض يقلان عن مائة ذراع، وعندما حدث تحويل القبلة أبلغا إلى مائة ذراع.

رأى ومطالعة

عند بناء مسجد السعادة وتأسيسه كان طوله الشرقى فى نهاية الحجرة الشريفة،

(١) كانت حجرة سودة اللطيفة خلف دار عثمان بن عفان.

كما كان عرضه عند اتصال جدار الحجرة المعطرة مع الجدار الغربى، وبما أن هذا المكان لا يتجاوز سبعين أو ستين ذراعًا زيد إلى مائة ذراع عند تحويل القبلة.

وقد بنيت جدران مسجد السعادة أولاً على طراز «سميط» وبعده على طراز «سعيدة» وترك بدون سقف. ولما تبين للأصحاب الكرام فى فترة ما أنه لن يستطاع تحمل حرارة الشمس، فسقفوا المسجد بجريد النخل ولأجل الوقاية من الأمطار وضعت فوق سطح السقف أوراق الأشجار ثم وضعوا فوقها التراب وهكذا أحكموا بناءه امتثالاً لأوامر الرسول ﷺ.

إخطار

يطلق طراز «السميط» على نوع البناء الذى توضع فيه لبنة فوق لبنة، وطراز «السعيدة» هو وضع اثنتين من اللبنات بالعرض وإحداهما بالطول، ووضعها مناصفة فوق اللبنتين العرضيتين. وقد صنع اللبن اللازم لبناء مسجد السعادة رجل من حضرموت، ولما كان هذا الرجل بارعًا فى صنع اللبن عين من قبل النبى ﷺ لأداء هذه المهمة.

وقد صنع النبى ﷺ بانى قصر الإسلام القوى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد إتمام بناء الحجرات ظل محراب مسجد السعادة على أن تكون مأوى للمساكين ومسكنًا. والتى تعرف باسم «صُفّة أصحاب الصفة» وأسكن الغرباء الذين يأتون فى هذه الظلة وآواهم.

المكان الذى قيل عنه الظلة كان عريشة مصنوعة من جريد النخيل وكان مقرى الضيفان ـ ﷺ ـ يؤوى الغرباء والمحرومين فى هذا المكان، وعندما يحل المساء كان يطعم بعضهم كما يختار بعضهم ويرسلهم إلى بيوت الأنصار. وبعد أن أتم سيد العالمين بناء المسجد الشريف وحجرات بيوته أى فى خلال صفر الخير من السنة الثانية للهجرة انتقل بالعز والإقبال من دار أبى أيوب الأنصارى إلى البيت اللطيف الذى بنى له.

وبذل الأنصار الكرام غاية جهدهم وحرصوا على إجراء مراسم الضيافة للنبى

ﷺ طول فترة وجوده فى دار خالد بن زيد، وتناوبوا فى تقديم الأطعمة بل تباروا فيه وكانوا يلاطفون بعضهم قائلين «النوبة لى فى هذه الليلة وكان ثلاثة أو خمسة منهم يأخذون أطعمتهم ويذهبون عند النبى ﷺ، ولم تمر ليلة فى تلك المدة المذكورة إلا وكان فى مائدة الرسول ﷺ ثلاثة أو خمسة من أصحابه السعداء، وكانت امرأة تدعى «هديدة»[1] أول من قدمت الطعام، وعندما نالت «هديدة» شرف الحضور عند النبى ﷺ كانت تحمل فوق رأسها مائدة صغيرة فوقها خبز طازج واللبن الزبادى والزبد وأنزلت المائدة، وقالت: «إن والدتى ـ جاريتكم ـ هى التى أرسلت هذه الأشياء».

ودعا النبى ﷺ بالخير والبركة سواء أكان للطعام أو العفيفة التى جاءت بالطعام والأخرى التى أرسلت ثم قام بتناوله.

ثم قدمت مائدة سعد بن عبادة فى المرة الثانية، وكان فى هذه المائدة طعام الثريد المطبوخ حديثًا فتفضل بالتناول منه، وبعد هذا كانت تقام فى كل ليلة فى بيت أبى أيوب الأنصارى مائدة حيث يحضرها خمسة أو عشرة من الصحابة، ولما كانت والدة أبى أيوب الأنصارى هند بنت سعيد بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة ابن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج تطبخ بدون أن تضع الثوم والبصل وفق مزاج النبى ﷺ فالسلطان الجديد ـ عليه صلوات الله المجيد ـ كان يفضل الأطعمة التى تطبخها ويحبها.

عندما نوى طرح أساس المسجد الشريف نزل جبريل ـ عليه السلام ـ باسطًا أجنحته وأوصى النبى ﷺ أن يكون ارتفاع جدران الأبنية السعيدة سبعة أذرع[2] وألا تنقش ولا تزين أية جهة من جهاتها وأن تكون مونتها من الطين وعندئذ أخذ النبى ﷺ قطعة من الحجر وشرع فى طرح الأساس وذكر اسم الله ثم أمر كلاً من أبى بكر الصديق وبعده عمر بن الخطاب وبعده عثمان بن عفان وبعده على بن أبى طالب حيدر الكرار أن يضعوا قطعة من الحجر فى الأساس وقال للذين سألوا عن حكمة ذلك إنها إشارة إلى ترتيب خلافة هؤلاء.

(١) لم أجدها فى الصحابيات «فالله أعلم».

(٢) هناك من يقول إنه أوصى بأن يكون ارتفاع الجدران خمسة أذرع.

تبين توسيع مسجد السعادة وتحويل المحراب الشريف.

وظلت أبنية المسجد الشريف التى أسسها بانى مبانى الشريعة (عليه أقوى التحية) فى خلال السنة الأولى الهجرية إلى رجب الفرد[1] من السنة الثانية الهجرية على هيئتها الأصلية، ولما أوحى قبل غزوة بدر الكبرى باتخاذ كعبة الله قبلة مرة أخرى فأمر النبى ﷺ بإغلاق باب المسجد الذى يتجه إلى مكة المكرمة[2] وفتح بابًا جديدًا مقابله أى فى الجدار الشامى لمسجد السعادة وبناء على هذا التقدير أنه قد صلى فى المدينة المنورة متجهًا إلى بيت المقدس ما يقرب من ستة عشر شهرًا[3].

إخطار

كان النبى ﷺ يستقبل كعبة الله عندما كان يصلى فى مكة المكرمة، وقبل هجرة النبى ﷺ بفترة أخذ أمر استقبال قبلة الأنبياء صخرة الله تأليفا لقلوب اليهود فاتخذ البيت المقدس قبلة، إلا أنه كلما كان يقوم للصلاة كان يستقبل الركن اليمانى حتى لا يستدير البيت المعظم. لأن وسط هذين الركنين يحاذى الجهة الجنوبية من البيت المقدس، وإن أراد أن يستقبل تلك الجهة بعد الهجرة لم يمكنه ذلك لتخالف الجهات فاضطر أن يستدير كعبة الله، إلا أن قلبه الشريف كان حزينًا ومنكسرًا بصورة دائمة، وحينما نزلت الآية الجليلة «فَوَلِّ وَجْهَكَ» يعنى حينما أمر باتخاذ المسجد الحرام قبلة الأنام. وأخذ يستقبل جهة ميزاب الرحمة من

(١) روى ابن حبيب بقاء المسجد الشريف على حاله القديم إلى يوم الثلاثاء من الخامس عشر من شهر شعبان للسنة الثانية من الهجرة.

(٢) اسم هذا الباب «باب التوسل».

(٣) قد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن هذه المرة كانت سبعة عشر شهرًا والفريق الآخر على أنها كانت ثمانية عشر شهرًا.

بيت العزة، لأن الذين يستقبلون الكعبة المعظمة من المدينة المنورة يتجهون إلى جهة «حجر إسماعيل» من تلك البقعة المشرفة.

بينما كان النبى ﷺ صاحب القبلتين حينما أمر باستقبال بيت الله، كان يصلى الركعة الثالثة من صلاة الظهر متوجهًا إلى صخرة الله فتحول إلى ميزاب كعبة الله دون أن يخرج من الصلاة وكان ذلك فى مسجد حى بنى سلمة ومن هنا أطلق على هذا المسجد الشريف «مسجد القبلتين»، وإلى الآن لهذا المسجد محرابان ينظر أحدهما إلى الكعبة المعظمة والآخر إلى البيت المقدس ويقابل بعضهما البعض.

وبعد أن أتم معمار قصر الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ صلاة الظهر فى مسجد القبلتين شرف مسجد السعادة ونزل بعد وصول صاحب الرسالة بقليل جبريل الأمين باسطًا أجنحته وقال له: «إننى قد رفعت ما بين الحرمين من الأشجار والأحجار فعينوا مكان محراب مسجدكم الشريف ناظرًا إلى بيت الله».

ورأى حقائق الأشياء البيت المحترم رؤية العين، وعين موقع المحراب الشريف ولما كان لم يبق شىء يحول دون رؤية العيون النبوية ما بين الحرمين فأخبر أن موقع المحراب الشريف فى نقطة تقابل ميزاب الرحمة.

وقد وقعت هذه الواقعة الجميلة قبل ملحمة بدر الكبرى بشهرين. قال بعض المؤرخين «إن مسجد السعادة قد أسس على يد أسعد بن زرارة بدون سقف قبل الهجرة وكان عبارة عن أربعة جدران وكان محرابه فى الجدار الذى فى جهة البيت المقدس، وأن هذه الجدران كان يصلى فيها النبى ﷺ مع أصحابه وكان يجتمع فيها مع أصحابه من المؤمنين الذين يأتون من الأطراف»، إلا أنهم يخطئون فى رأيهم إذا أرادوا بذلك مسجد قباء، فهذا ليس بصحيح كما ذكرت تفصيلاته فى البحث الخاص به.

فى ذكر الأماكن السعيدة التى صلى فيها من المسجد الشريف إمامُ محراب الملكوت ـ عليه السلام.

بما أنه لم يكن محراب مخصوص لأداء الصلاة سواء أكان فى عصر السعادة أو فى عصر الخلفاء الراشدين قبل تحويل القبلة إلى الكعبة المعظمة كان سيد الزاهدين يؤدى فى مكان اسطوانة يطلق عليها الأسطوانة المخلقة أى فى النقطة التى فى الجهة الشامية من المكان الذى يؤدى فيه إلى الآن أئمة الحرم الشريف. وهذا المكان هو المكان الذى يقع فى الجهة اليسرى من المحراب الشريف، وفى وسط الروضة المطهرة والذى يعرف بأسطوانة عائشة، ولما كان إمام صفوف الأنبياء عليه أجمل التحايا استمر يصلى فى هذا المكان بعد تحويل القبلة أطلق على الأسطوانة المنسوبة للسيدة عائشة «أسطوانة النبى» أيضًا.

وتفضل إمام المتقين فيما بعد بأداء الصلاة فى المكان الذى عرف بـ «محراب النبى» وهذا المكان فى وسط الحجرة اللطيفة والمنبر المنير مع ميل إلى جهة منبر السعادة.

ولم يترك الخلفاء الراشدون والأئمة الكرام ذلك المحراب واستمروا يؤدون الصلاة فيه، واهتم صلحاء الأمة فى تتبع آثارهم، ونصبت اسطوانة حتى لا ينسى مكان مصلى النبى ﷺ ووضعوا المصحف الذى أرسله الحجاج الظالم على يمين تلك الأسطوانة، بعد أن وضعوه فى داخل صندوق.

يروى ابن النجار ناقلاً عن الإمام مالك أن الحجاج بن يوسف الثقفى أرسل إلى أمهات القرى مصحفًا، وكان المصحف الذى أرسله إلى المدينة المنورة مصحفًا لطيفًا موضوعًا فى داخل صندوق غاية فى الكبر ووصل الجهة اليمنى من الأسطوانة المذكورة على أن يكون علامة للمصلى النبوى الشريف وكان الذين

يزورون المصلى النبوى ـ عارفين مكانها ـ يصلون ويدعون عند الأسطوانة التى ركزت بجانب صندوق المصحف الشريف لتكون علامة لموقف النبى ﷺ عند أدائه الصلاة، يروى عن يزيد بن أبى عبيد المدنى ـ مولى سلمة بن الأكوع ـ قال: كنت أتى مع سلمة فيصلى عند الأسطوانة التى عند المصحف، فقلت يا أبا مسلم! أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة؟ قال: فإنى رأيت النبى ﷺ يتحرى الصلاة عندها[1].

وفى رواية: أنه كان يأتى إلى سبحة الضحى فيعمد إلى الأسطوانة دون المصحف فيصلى قريبًا منها. . .،[2] الحديث.

وبناء على هذا كان يلزم أن تكون الأسطوانة المخلقة إما فى قرب قبلة النبى وإما فى قرب المحراب النبوى وعلى هذا يرجح القول الثانى وفق أقوى الأقوال، وبناء على ما ذكر آنفًا لم يكن فى عصر السعادة أو فى عهد الخلفاء الراشدين محراب مجوف.

مؤسس محراب مسجد السعادة:

وضع محراب مسجد السعادة عمر بن عبد العزيز، إذْ جمع فى عهد الوليد بن عبد الملك صناديق المهاجرين وكبار الأنصار وبعد أن صنع فى المحل الذى كان يصلى فيه النبى ﷺ محرابًا قال لهم لا تقولوا إن عمر بن عبد العزيز غير محرابنا، هذه هى قبلتكم، وحتى يلصق هذا المحراب بجدار مسجد السعادة، رفع حجرا من الجدار القديم ووضع مكانه حجرًا آخر، إن المحراب المجوف الذى وضعه عمر بن عبد العزيز فى حذاء الجدار الذى كان يصلى فيه النبى ﷺ، إذا لم يكن المشار إليه قد وضع المحراب المذكور لأصبح من الصعوبة بمكان معرفة موقع محراب النبى بل أصبح مستحيلاً.

---

(١) صحيح أخرجاه: البخارى فى كتاب الصلاة، باب الصلاة إلى الأسطوانة حديث رقم (٥٠٢) الفتح ١: ٥٧٧ ومسلم فى كتاب الصلاة حديث (١١١٥، ١١١٦)، باب دنو المصلى من السترة، شرح النووى مع صحيح مسلم ٢/ ٦٤٢ ـ ٦٤٣ ط. دار الغد العربى.

(٢) هذه الرواية عند ابن ماجة حديث (١٤٣٠) كتاب الصلاة، باب ما جاء فى توطين المكان فى المسجد يصلى فيه ص (٤٥٩)، وقوله يأتى: يعنى سلمة بن الأكوع.
وقوله دون المصحف يعنى قريبًا منه، وهو مصحف عثمان رضى الله عنه.

عندما يصلى فى المحراب الذى وضعه عمر بن عبد العزيز فى مصلى النبى ﷺ يظل المنبر المنير على منكب المصلى الأيمن، وبهذا لم يتغير موقف النبى ﷺ كما أن المنبر المنير لم يغير من مكانه ويظل صندوق المصحف الشريف الذى ذكر آنفًا، كسترة بين محراب النبى وأساطين مسجد السعادة.

وأراد المرحوم «آقشهرى» من مؤرخى المدينة المنورة أراد أن يعين موقع محراب النبى ﷺ قائلاً: «بما أن صندوق المصحف الشريف فى مكان المصلى النبوى يلزم أن يكون المصلى النبوى أمام المكان الذى يؤدى فيه أئمة عصرنا الصلاة والمكان الذى يؤدى فيه الأئمة فى عصرنا يقع فى الجهة الخلفية من مصلى النبى ﷺ، إلا أن قوله هذا ورأيه لا يسلم من الخطأ بالنسبة للأقوال الموثوقة الأخرى.

وفى الواقع لا ينكر أن بين محراب السعادة والقبلة يعنى جدار المحراب العثمانى فاصلة بمقدار عشرين ذراعًا وستة أصابع إلا أن هذه الفاصلة أضيفت بعد وفاة سيد البشر، وإذا ما نظر بدقة إلى تلك الفاصلة يحكم أن محراب السعادة فى مكانه القديم، لأن صندوق المصحف الشريف سالف الذكر كان فى مكان جدار القبلة القديمة، وقبل هدم هذا الجدار كان عرض المسجد الشريف واحدًا وعشرين ذراعًا وثمانية عشر أصبعًا.

وقال الإمام السمهودى فى كتابه الذى ألفه عن تاريخ المدينة والذى رأى لبنات الجدار القديم عند زيارته: «كان سمك جدار المسجد القديم الذى كان بين جدار المسجد الجنوبى والمصلى اللطيف أكثر من ذراع ونصف ذراع وبعد أن هدم الجدار المذكور أصبح عرض المسجد الشريف عشرين ذراعًا ستة أصابع ورفع صندوق المصحف الشريف فوق أساس هذا الجدار» وبهذا بين سمك الجدار الذى صنع فى عصر السعادة، وعرض مسجد السعادة فى أثناء هدم هذا الجدار وإذا ما أضيف إلى العرض الذى يصل إلى عشرين ذراعًا وستة أصابع سمك الجدار يكون العرض فى هذا التقدير واحدا وعشرين ذراعًا وثمانية عشر أصبعًا بالتمام.

إن تعريف الإمام السمهودى يعين لنا الموقع المنيف الذى أدى فيه إمام محراب الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ صلاته إذا ما وقف شخص جاعلاً باب المنبر المنير فى محاذاة منكبه الأيمن واستقبل محراب السعادة فالفاصلة التى تبقى بينه وبين

محل الجدار القديم هو المكان الذى أدى فيه النبى ﷺ صلاته، والمنبر الشريف الذى ذكر هنا هو المنبر القديم وهذا المنبر مع الإفريز المصنوع من حجارة أساس الحفرة على شكل حوض وعلى يمين هذا الإفريز ثلمة وعلى ويساره ثلمة وفوق هاتين الثلمتين آثار الرصاص وهما مكان التقاء أعمدة المنبر المنير القديم.

نظم

عند الصلاة ولِّ وجهك شطر المحراب..
وعند الدعاء نكّس الرأس نحو التراب..
انحنى منه حاجب ذات الوجه الجميل..
وبدا الهلال وهو يجعل سمت مرقاته إلى العرش فى السماء..
وعلى العرش والكرسى عرشه شاء..
فى تلك اللحظة لا تعقل لسانك فى بكائك..
افتح شفتيك وفى شوق ترنم بغنائك..

السلام عليك يا خير الخلق.

السلام عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين.

السلام عليك يا سيد الخلائق أجمعين.

السلام عليك يا رسول الله.

السلام عليك يا من دنا فتدلى وكان منزله قاب قوسين أو أدنى.

السلام عليك يا من ذا الذى ما زاغ البصر وما طغى.

السلام عليك يا من أوحى إلى عبده ما أوحى.

السلام عليك ما جَدَّ الجديدان واختلفت الألوان والقطران واستقبل الفرقدان[1]، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين.

«فتوح الحرمين»

(١) هما نجمان متجاوران أحدهما: النجم القطبى، وهو قريب من القطب الشمالى، ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يهتدى به، وهو المقصود فى قوله تعالى: ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ (سورة النحل /١٦). المعجم انظر: الوجيز (فرقد) وغيره.

فى تعريف جزعة مسجد السعادة والمحل القديم لمحراب النبى ﷺ.

كان فى الجهة الجنوبية لصندوق المصحف الشريف قبل أن يحترق المسجد النبوى لوحة[1] مصنوعة من الخشب تسمى «جزعة»[2] وكانت كبيرة، وكان يطلق عليها فى تلك الأوقات «خرزة فاطمة الزهراء» وتعود الرجال والنساء أن يجتمعوا خلف تلك اللوحة وكانت تقع بعض الأمور غير اللائقة.

وكانت امرأة تستند على هذه اللوحة فوقعت وانكشف مكان عورتها ومن هنا رفع زين الدين أحمد بن المصرى من أفاضل المجاورين الذى كان يشتهر باسم «ابن حنا» هذه اللوحة وهكذا منع من حدوث هذه الأشياء الغير لائقة خلفها وذلك فى سنة (٧٠١) هـ.

وكانت لوحة فضية سميكة على جدار محراب السعادة فى ذلك الوقت وكانت فى وسط هذه اللوحة مرآة جذابة، يروى أن هذه المرآة كانت ملكًا للسيدة «عائشة»، وكان فوق تلك اللوحة رخام مذهب وفى جهة ما من هذا الرخام «حدبة» فى حجم رأس الطفل وتحت الحدبة رخام منحوت ومصقول وعلى قاعدته وتر مغروس كان النبى إمام محراب الشريعة ـ عليه أعظم التحية ـ يتكئ عليه ويستتر بعد إتمام الصلاة، وبعد الحريق الثانى وسع محل المحراب القديم وغير وبدلوا المكان المقدس الذى أمام الصندوق الذى احتوى على المصحف الشريف وركزوا مكانه محرابًا مرتفعًا منحوتًا من الرخام وذلك فى سنة (٨٨٨)هـ وكان يقتضى إبقاء هذه الأماكن على حالها تعظيما لها إلا أن «شمس بن زمن» الحقير غير أكثر الآثار وبدلها ووضع مكانها المحراب الجديد.

(١) وكان الذين فى الجهة الشامية من هذه اللوحة لا يرون ما يجرى خلفها.

(٢) يقال الخرزة للمجوهرات مثل: ياقوت، زمرد، الماس، والخرزات اليمنية..

إخطار

إن العثور على المحراب القديم لأداء ركعتى التحية أمام محراب الملكوت وزيارته يقتضى الوقوف على الجهة اليمنى لمحراب النبى الحالى وجعل منكبه الأيسر فى محاذاة المحراب الشريف الأيمن.

وكان يلزم أن تؤخذ مبانى محراب السعادة إلى جهة المنبر المنير فأخذت وسحبت ناحية قبر السعادة وكان سببا فى هذا الخطأ تعنت شمس بن زين بالجهل والذى كان أمين البناء بعد الحريق الثانى لمسجد السعادة.

بما أن المسافة بين المحراب الجديد والمنبر القديم أربعة عشر ذراعًا وشبرًا وكذلك المسافة بين الطرف الشرقى من أسطوانة التوبة ومنبر السعادة الحالى أربعة عشر ذراعًا وشبرًا فالذين يوفقون فى أداء الصلاة طبق التعريف السابق لاشك فى أنهم سيؤدون الصلاة فى الموقف النبوى لأن المسافة بين الحجرة المعطرة والمصلى النبوى ثمانية وثلاثين ذراعًا والمسافة بين المصلى الشريف ومنبر السعادة أربعة عشر ذراعًا وشبرًا يثبت أن المحل المذكور آنفًا مصلى النبى وبهذا يظل التغيير فى الجهة الشرقية فقط.

وبناء على هذا التعريف يلزم أن تكون المسافة بين قبر السعادة والمنبر المنير اثنين وخمسين ذراعًا وشبرًا وبما أن سمك قاعدة منبر السعادة ذراعان وثمانية عشر أصبعًا وإذا أضيف مقدار هذا السمك إلى المسافة ما بين قبر السعادة والمنبر المنير تكون المسافة بين القبر الجليل ومنبر الرسول خمسة وخمسين ذراعًا. وكان هناك عمود قريب من جدار القبلة قبل الحريق الثانى، وصندوق المصحف الشريف الذى تكرر ذكره مرات كثيرة كان خلف هذا العمود وكان الزوار الكرام يذهبون إلى أن هذه القطعة الخشبية قد انتحبت لفراق محبوب الخالق وأنها بقية «جذع النخلة»، ولأجل ذلك يحرصون على زيارته زيارة خاصة ويمسحونه بأيديهم.

هناك من يدعى أن ذهاب الزوار هذا خاطئ إلا أن الذين يخطئونهم هم المخطئون، لأن قطعة من النخيل أوصلت بالرصاص قد ظهرت بين الأساطين.

وإن ادعى مجد الدين اللغوى قائلاً: «إن قطعة النخلة التى يزورها الزوار ليست قطعة النخلة التى يظنونها بل أنها قطعة عادية من الخشب الذى ركز ليكون علامة على مصلى النبى، وقلعها» عز بن جماعة سنة (٧٥٥) وأراد بهذا أن يخطىء الزوار الذين يظنون أنها قطعة من النخلة المذكورة إلا أن العلماء الذين وجدوا فى عصر «عز بن جماعة صدقوا ما ذهب إليه الزوار» وقال «هذه القطعة من العمود من قطع النخلة التى أنتجت فى عصر السعادة» كما أثبتوا أن قطعة من اللبنة التى ظهرت فى أثناء تجديد مسجد السعادة من بقايا المبانى التى صنعت فى حياة النبى ﷺ.

تنبيه

كانت هناك فاصلة بين المكان الذى يصلى فيه سيد العالمين والجدار القبلى الذى بنى فى عصر النبوة تسمح بمرور شاة وإن هذه الفاصلة كانت المكان الذى يظل فى أثناء السجدة وبناء على هذا التعريف فالفاصلة بين النبى ﷺ والجدار وهو قائم كانت فى وسع ثلاثة أذرع، ومن هنا يقتضى للذين يريدون أن يؤدوا الصلاة فى محراب النبى تبركًا أن يتركوا فاصلة تسمح بالسجدة بين رءوسهم وجدار محراب السعادة. وقد كتب على حجر رخام منقوش من الطرف الأيمن من المحراب النبوى عبارة «هذا مصلى رسول الله ﷺ» وفوق هذه العبارة يعنى فى الجزء الأعلى من طاق المحراب الشريف خارجًا منه وبدءا من وسطه وسائرا من فوق الكمر إلى وسط الطرف الأيسر منه الآيات الشريفة «بسم الله الرحمن الرحيم».

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾. (البقرة: ١٤٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. (الأحزاب: ٥٦).

وفى الوسط الداخلى للمحراب المقدس سطر الآية المنيفة بخط قديم جلى مذهب.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (التوبة: ١١٢).

والآية الكريمة «التائبون الحامدون» بدأت من اليمين واتجهت إلى اليسار فى شكل مرتب.

وقد كتب فى أعلى طاق المحراب الشريف المذكور بخط غليظ جميل الآية الكريمة ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ (آل عمران: ٣٧) وعلى الطرف الأيسر منها الحديث الشريف قال النبى عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين» وفى اتصال هذا الحديث العبارة المنجية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وفوق الأسطوانة المخلقة المتصلة بالمحراب المسعود عبارة «هذه الأسطوانة المخلقة» وفى مكان مواجهة جدار محراب السعادة والجهة الجنوبية منه كتبت عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد؛ أمر بعمارة هذا المحراب الشريف النبوى العبد الفقير المعروف بالتقصير مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى، خلد الله ملكه بتاريخ شهر ذى الحجة الحرام سنة ثمان وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية».

وقد كتب فوق الباب المشبك المصنوع من النحاس والذى يفتح إلى الروضة المطهرة والذى يقع فى الجهة اليمنى من المحراب الشريف بخط جلى «قال النبى عليه الصلاة والسلام إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»، وفى الطرف الجنوبى للباب الذى ينظر إلى المحراب العثمانى وفى الجهة القبلية من الباب كتب الحديث الشريف «قال النبى عليه السلام؛ ومن زار قبرى وجبت له شفاعتى» كما كتب على الباب الصغير النحاس المشبك الذى ينظر إلى الروضة المطهرة وباتصال الجهة اليسرى من الحديث «قال النبى عليه السلام؛ ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» (حديث شريف) وفى الطرف الجنوبى لهذا الباب

والذى ينظر إلى المحراب العثمانى المركوز فى الجدار الجنوبى لهذا الباب كتب الخبر الصحيح اللطيف «قال النبى ﷺ: من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى» (حديث شريف) بخط فى غاية الجمال والذى يجذب الأنظار إليه أنه قد كتب بخط جميل ومقبول، وكل الخطوط مطلية بذهب خالص العيار.

وقد حصلنا على نسخة من القصيدة الوصفية التى تحتوى على محاسن مسجد السعادة وآثاره المسعودة ومدائحه والتى ألقاها إبراهيم كاظم باشا من أجلة شعراء العصر فى مواجهة العتبة النبوية ورأينا تذييلها لهذه الصورة تبركا بها.

نعت شريف

بـــاركَ الله أيُّهـــا المعبـــدُ يـا مـن عنـد العـرش عتبَـتك
لا أوحـــش الله أيهـــا المـكرم وفخـر الدنيـا روضـتك
أنـــت مســـجد ولـــكنك قبـــلة الكعبـــة وبابـــــك
تحســـد الشـمس حـــلقته كمـــا تحسـد السماء طاقتك
إنـك روضـة ولـكن النـار بجانبها تبدو وشـيكًا للعيان
إنهـا شـعلة شـــجر تجـلى ورد روضـــة الـلا مـــكان
يـــا لهـــا مـــن ريـــاض إلهيـــة وتـــرابها الأقـــدس
يفخر العرش بوجوده من تراب الأرض إنها أرج الجنة
وســـيل دمـــع العـــين العاشـــق الولهـــان
شـــمعة تحـــوم روح جبـــريل حولهـــا
والملائـــكة شـــوقًـا إلـــى إيوانهـــا
جـــواهر أرواح الخلائـــق فتـــات فيهـــا
ويـــداس النـــاس كالرمـــال فـــى ســـاحتها
جامـــع حـــكمة لمحـــرابه أركـــان

تقوست كأنها حاجب الحسان
لا يبلغ الروح الأمين ارتفاع المنبرين
إن الأفلاك والعقول تعدها مرقاتين مرقاتين
كأن شجرة الطور كل سارية ومغارة
تقدم لأهل العشق للتجلى أمارة
إنها برعم اللاهوت وليست قبة خضراء
لقد جعلها الله من شجرة الورد تشع الضياء
ما عسى أن أقول فى محشر الأرواح وكيف أصف
فى كل موضع منه إنسىٌّ وجنىٌّ معتكف
الفرق بينه وبين الجمع والانتشار
فالجمع فى المحشر يومًا وفيه خمس مرات
ليس ما يظهر فى أيامه زجاج بلورى
عين الملائكة إليه ترنو
كل مؤذن فيه بلبل يسجع سجعا
ويقول الله أكبر من ألقى إليه سمعا
تمزقت صدورهم واضطربت قلوبهم لمكنسته
وشعر حور الجنان مثل قلبى من الغبطة والحسد
على سقفه هل أنارت قباب
أم أنها على لجة القدرة حباب
الزفرات تحت قلنسوته إلى العرش تصل
وكأن روح المولوى كل شمعدان مشتعل
كلا بل إن كل شمعة جرح فى جنان

إن يـــد كـــليم الله البيضـــاء تبـــدو للعيـــان
إن العليـــل ريحاهـــى أصـــل أنفـــاس المســـيح
والوصـــال فـــى الهـــوى أصـــل للـــروح
إن فـــى دلـــو لبئـــر للشـــمس محـــوها
إذا مـــا أبـــدت فـــى الفـــلك خيـــط شـــعاع لهـــا
هديـــل حمامـــة يشـــنف مـــن الحـــور الآذان
ولوحـــة الرخـــا يثيـــر غيـــرة الجنـــان
مـــا ضـــر لـــو كـــانت أعـــز مـــن الـــروح ذرة مـــن ترابـــه
إن ســـيد الـــكون والمـــكان فـــى رحابـــه
إنـــه مـــلك الدنيـــا يتـــبوأ سريـــرهـــا
ولـــروح موســـى عصـــى يحرســـه بهـــا
ســـيد الدنيـــا ذلـــك العظـــيم
الـــذى وصـــف صـــفاتـــه الله الـــكريم
حبيـــب الله وجـــوده الأكـــرم الأمثـــل
وهـــو للإنـــس والجـــن موئـــل
لـــه ســـجايـــا عنـــد الله عـــلمـــت
وفـــى اللـــوح المحفـــوظ بالقـــلم رقمـــت
مـــلك تاجـــه «لـــى مـــع الله» وســـلطان الديـــن
عبـــد مـــلك ماســـوا والرســـول الســـعيد
نـــور أوج الهدايـــة ومشـــرق نـــور الظهـــور
وعلـــة خـــلق مرايـــا فيهـــا للجمـــال ســـفور
فخـــر الأمم وســـيد المرســـلين

الرسول الأكرم خاتم النبيين
أحمد الرسل ملاذ الأنبياء الذى جعل ذاته
تحمل لوجه الحق مرآته
القابض بيده على قاب قوسين
ومن يرمق وجهه على الدوام بالعين
من الحق إن للماهية ماء جوهر
فيه الله أمر
لعله الطاهر على خيمة العرش هلال يمتد
وأثر قدمه لعين روح الملائكة مكحلة الأسمر
إذا أثر ماء لطف شربة فى النار
أصبح أصلا لحياة الخلود كل الشرار
أما إذا وقع على الماء شرار قهره
أصبح حباب الماء تنور يقذف بناره
وإن كان لمكنته فى إقليم العدم سحاب
أصبح جنات ذلك الباب
وإذا ما بلغته منه بعوضا أعان
كان لها حكم الدنيا كسليمان
وإذا ما نظر إلى بلبل حزين السر ليل
كان لنواحه ما لصور إسرافيل
من نظر إلى جبينه وحاجبه وأهدابه
رأى سر الحكمة فى غورها والعقل فى لبابه
وإذا شاء أن يكون لحكمه صفة الأضداد فى آن

بـــدا مـــــن ذلـــك تقلبـــات الزمـــــان
هـــذا مـــا لشـــمس عدلـــه مـــن آثـــار
فبـكل شـعاع منـها لمـلك تدهـــور وانهـيار
للبلبـــل موئـــل مـــن شـــوك حولـــه
ويحمـى الشـمع مـن الريـح زجـاج مصـباح حولـه
لقـد ألفـت إلـى مـالا يتناهـى مـن بعـد الصـحراء
يـد قدرتـه إذا مـا قدمت الكرة بالصولجان فى الهواء
يـا رسـول الله لـك الجمـال مـع الجـلال
همـا ربيـع بـلا خريـف وشـمس بـلا زوال
يـا رسـول الله يـا مـن أنـت نَـبِيٌّ آخـر الزمـان
بعثـك رحمـة للعالمـين الرحـمان
إن نـور وجهـك مصـباح محفـل الكبريـاء
غـدا نـراك ووجـنتك هـى لـؤلـؤ الضـياء
إذا وقـع غبـار مكحلتـك فـى عـين عـليل
بـدت صـورة السـر الخفـى برقـا فـى مرآتـه
إذا اشتاقـت عينـى الباكيـة شـفتك
بحـرا ومعدنـا للجواهـر واللآلـى مـع الدمـع صنعت
لا تحسبن أن قوس قزح يظهر بظهر المجرة فـى المساء
عبـدك مقيـد العنـق هـو السـماء
إذا مـا بـدا الهـلال فـى السـماء
فإلـى هـلال حـاجبـك الإيمـاء
لا يبـدو فـى صـدرى جـراح منـك بالسـنان

وإن كـــان جـــرح فـــم فيـــه ألـــف لســـــان
حبـــذا ســـكير العشـق الـذى لا يعـرف لـه صـهباء
ســـوى دمـــاء يزرفهـــا فـــى البـــكاء
وددت لـــى صديقًـــا أفضـــى إليـــه بســـرى
ما عسى أن أصنع إن سرى لا يفشو ولو انقضى عمرى
إن ألـــف جبريـــل فـــى ركابـــك مقيـــدون
أمـــا أنـــا فيوســـف فـــى أســـرى المســـلمين
إن كـــاظم ســـوف يبقـــى إلـــى آخـــر الزمـــان
مـــا دام وجـــد مـــرة مـــع هـــذا القمـــر الاقتـــران
رحـــماك يـــا رسـول الله أعـنى فلـى زورق مـن أفـــار
تتقاذفـــه الأمـــواج فمالـــه مـــن قـــرار
مـــن شـــر هـــذه الدنيـا التفـكر فـى هـول يـوم الحـشر
وضـــيق ذات اليـــد مـــن ذلك الطـــالع الأنـــكد
لا يتحصـــل مـــن كـــل غـــمك وهـــمك مـــن نـــفع
لـــو اختلطـــت قطـرة المـطر بـذرات العـالم أجـمع
ارمقـــنى بنظـــرة مـــن رحـــمات
حتـــى يثـــير حـــالـــى غيـــرة حـدائـــق الجنـــات
تم الكـــلام وحـــان وقـــت للدعـــاء
فابســـط حجـــرًا لحـاجتـــى والتجائـــى
مـــا دام نـــور الحـــق يتـــلألأ فـــى روضـــك
فالملائـــكة عـــلى الـــدوام تطـــوف بمســـجدك
يســـر العفـــو والغـــفران لأمـــتك
ولتســـعد وتقـــر عيـــنا بوصـــلك

تبين سبب تأسيس منبر مسجد النبى وصورته وجزع ونحيب النخلة[1].

لما كان مسجد المدينة الشريف خاليًا من المنبر لإلقاء الخطبة كان مؤسس مبانى الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ يقف طويلاً على رجله فى أثناء إلقائه الخطبة ويتعب كثيرًا، وتأثر الأصحاب الكرام من هذه الحالة فأتوا بنخلة وركزوها فى المحل الذى يلقى فيه خطيب منبر الرسالة ـ عليه أسنى التحية ـ ورجوه أن يتكئ عليها فى أثناء إلقائه الخطبة، وبعد فترة ألمح أحد النجارين من المدينة المنورة وهو «باقوم الرومى» من عبيد سعيد بن العاص، لتميم الدارى من الصحابة والذى كان من معارفه وقال: «إذا أمكن الحصول على إذن من الرسول ﷺ لصنعت له منبرًا» وهكذا أومأ بأنه مستعد لصنع منبر لمسجد السعادة وعرض تميم الدارى الأمر على الرسول ﷺ واستحصل منه الإذن على أن يكون المنبر المصنوع ذا ثلاثة أرجل أو أربع وبعد صنعه عرضه على النبى ﷺ فأعجب به وأصبح منبره وصعد عليه لإلقاء خطبه.

وإذ ابتدر الرسول ﷺ فى إلقاء الخطبة صاعدًا على المنبر، فالنخلة التى استند عليها من سنين أخذت تنتحب وتصيح كالناقة التى فقدت وليدها وبعد فترة ما سقطت على الأرض وكادت أن تكون ألف قطعة.

وحينما رأى شفيق الكائنات ـ عليه أفضل التحيات ـ حالة النخلة هذه نزل من المنبر الجديد ودعا تلك النخلة واستجابت النخلة سالفة الذكر للدعوة النبوية شاقة الأرض فمسها بيده الشريفة المعجزة وأمرها أن تعود إلى حالتها الأولى فاستجابت لأمره ـ عليه السلام ـ ورجعت إلى مكانها الأول ووقفت معظمة الرسول فخاطبها الرسول قائلاً: «أيها النخلة! أين تريدين أن ترجعى إلى الحديقة التى قطعت

(١) انظر فتح البارى الحديث ٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥ وشرحه من كتاب المناقب.

منها؟ أم إلى رياض الفردوس، حيث تغرسين فى واحدة منها؟ فخيرتك فى اختيار أحد الأمرين، إذا أردت مكانك القديم أعيدك هناك! لتنمين وتكبرين وتثمرين كما كنت من قبل أما إذا أردت رياض الجنان أغرسك فى فردوس النعيم، حتى تستفيدى من أنهار الجنات وتجددين شبابك فى كل آن وتثمرين فيأكل من ثمارك أولياء الله» وبعد أن قال ضاحكًا «نعم قد فعلت»، فدفنها تحت المنبر الجديد وعلى قول على الجهة اليسرى منه أو فى المحل الذى كان مغروسا فيه.

مثنوى

قال النبى أيها العمود ماذا ترغب
قال قلبى من فراقك قد تلهب
منى لك عرشًا طلبت
وعلى منبرك عرشًا صنعت
تريد لك نخلة تزرع
وفى الشرق والغرب تمرها يجمع
قال أريد أن يدوم لها البقاء
اسمع أيها الغافل لا تكن أدنى من البلهاء
فدفن هذا العمود فى التراب
ليبقى فيه إلى يوم الحساب

إن راوى هذه القصة المليئة بالعبر الحسن البصرى، يروى أن الأصحاب الكرام قد تعجبوا من قول النبى ﷺ «نعم قد فعلت» وسألوه عن تفسير ذلك، فأجابهم قائلاً: «إن ذلك الخشب الجاف قد اختار الجنة، وإننى وعدته بأن أسعفه فى تحقيق طلبه»، وكان حسن البصرى يبكى وهو يزين لسانه بالمقال الآتى: «يا عباد الله الذين فطرهم بالعقل والشعور! بينما تنتحب الأشجار الجافة لمفارقتها الرسول ﷺ، بينما نحن من أمته!! هل يليق بنا أن نظل ملتفين بستائر الغفلة».

وكانت تلك القطعة من النخلة فى يمين محراب النبى ﷺ وملتصقة بجدار القبلة، وفى وقتنا فى مكان قاعدة الشمعة التى على يمين محراب الأئمة.

وإن كان يروى أن هذه القاعدة توجد فى الجهة الجنوبية منها أسطوانة وهى فى مكان قطعة النخلة المذكورة إلا أن هذه الرواية غير صحيحة.

ويعرف المحدثون الكرام هذه الواقعة بحنين الجذع والجذع هو جسم الشجرة ابتداء من جذورها إلى فروعها، والحنين هو الأنين من شدة الشوق، وقد روى هذه الواقعة تسعة من الصحابة مثل أبى ابن كعب، جابر بن عبد الله، أنس بن مالك، عبد الله بن عمر، عبد الله بن عباس، سهل بن سعد أبو سعيد الخدرى، أم سلمة والمطلب بن أبى وداعة، أى أن الوقعة قد نقلت متواترة، لذا فلا شك فى صحتها.

استطراد

وقصة حنين الجزع وصورة وقوعها ذكرها الإمام البخارى[1] والنسائى والإمام أبو ـ داود عليه رحمة الله الودود ـ ناقلاً عن جناب جابر رضى الله عنه الذى قال: كان النبى ﷺ إذا خطب اتكأ إلى جذع من سوارى المسجد، فلما صنع المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التى كان يخطب عليها حتى كادت أن تنشق فنزل عليه السلام حتى أخذها فضمها إليه، وكانت تئنّ أنين الصبى الذى يسكت حتى استقرت، قال النبى ـ عليه السلام ـ بكت على ما كانت تسمع من الذكر.

وقد صدقت الرواية بهذا الحديث الشريف يعنى أن حضرة جابر قال وهو يبسط تلك القصة بينما كان النبى ﷺ معلم العالم يخطب مستنداً لإحدى أساطين مسجد السعادة وهى جذع نخلة وكان يتحدث عن الأوامر والنواهى الشرعية وأحكامها ويوصلها إلى مسامع المسلمين، ولما توسطت شمس الإيمان كبد السماء وماج بحر حقائق الحكمة ودخل قبائل العرب والعجم بناء على السر الجليل الذى يقول «يدخلون فى دين الله أفواجا» واقتحموا شعار الإسلام وبعد ما كانت الفرقة الناجية المؤمنة قطرة فأصبحت بحراً وبعد أن كانت ذرة أصبحت شمساً

(١) فى كتاب المناقب الحديث، ٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥، باب علامات النبوة فى الإسلام.
فتح البارى ٦/ ٦٩٦ ـ ٦٩٨ ط. الريان.

وهكذا تزايدوا وكثروا فأصبح الذين يظلون فى آخر المسجد النبوى من البررة الكرام لا ينالون متعة رؤية وجه النبى الجميل ويتمتعون بصوت النبى ﷺ ويحرمون من فوائد فرائد ألفاظ حبيب الإله وذلك لشدة الزحام فصنعوا منبراً جديداً فصعد النبى ﷺ فوق المنبر وجلس عليه، عندئذ صاح العمود صيحة حنين حينًا وأن أنينًا آخر حتى كاد أن ينشق قطعتين وسمع أهل المجلس صيحة الجزع الأليمة بآذانهم، ونزل النبى ﷺ من المنبر رحمة بحال العمود الحزين وضمه بصدره وعانقه بكل رقة وشفقة. ومن هنا أخذ الجزع يبكى ويئن كصبى صغير وفى آخر الأمر سكن من تسلية الرسول ﷺ له كما يسكت الطفل عندما يسليه أبوه وأمه وانقطع عن الصيحة والأنين وبناء على خطب الرسول ﷺ فى أصحابه الكرام قال يا أمتى وأصحابى! قد أن هذا العمود وبكى لأنه تأثر من مفارقته ما سمعه من الذكر والتسبيح الخاصين بالأوصاف الإلهية. انتهى.

هذه المعجزة من المسائل المشهورة والمصدقة بين الأئمة. قد حكى مؤلف المناقب الشافعية ابن أبى حاتم نقلاً عن والده عن عمرو بن سَوَّاد عن والإمام الشافعى أن الإمام الشافعى قال: «إن النبى الأكرم قد أعطى الله له من المعجزات ما لم ينعم به على أحد من الأنبياء» وحكى ذلك فى صورة مفصلة. يقول عمرو بن سواد: «كنت قد قلت أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد أعطى معجزة إحياء الموتى» قال الإمام الجليل «وقد أنعم الله على النبى ﷺ بمعجزة حنين الجزع حتى سمع صوت الجذع، وهذا أكبر من معجزة إحياء الموتى»[1].

قد روى بكاء الجزع وأنينه وصيحته بسبب فراقه الأليم للنبى ﷺ، سواء أكان المؤرخون أو العلماء الذين شغلوا أوقاتهم من أئمة الحديث بنقل الأخبار النبوية وإخراجها، يعنى أن الأصحاب الكرام ـ رضى الله عنهم ـ الذين حضروا أحداث القصة المشروحة فى يوم وقوعها وسمعوا بآذانهم حديث حنين الجزع كأبناء البشر ونطقه وهو يعرض حاله للنبى ﷺ وأقاموا على ذلك بينة عادلة إلا أن زمرة

(١) انظر: فتح البارى ٦/٨٩٨.

المعتزلة والفلاسفة حملت حديث الأحجار والحبوب، والأشجار والنباتات على المجاز وتجرءوا على تأويل معجزة حنين الجزع وقالوا إن حنين جذع النخلة وأنينه قد أسمع للنبى ﷺ وأصحابه المختارين سماعا باطنيا وملكوتيا مع أن القول الصحيح سماع أنين ذلك العمود وصياحه ظاهرًا بالأذن، وبعض العلماء الذين يشغلون أنفسهم بتأويل هذا القول وتوجيهه ينكرون مثل المعتزلة والفلاسفة أن الجمادات والنباتات والحيوانات يعرفون الله ورسوله وأنها تسبح الله سبحانه وتعالى تسبيحًا حقيقيًا، لأن أكثر علماء الكلام الذين اختاروا مذهب المعتزلة والفلاسفة حملوا الكلام والصيحة اللذين ظهرا من الجزع على المجاز قطعيًا وقالوا، لم يكن فى الجزع شعور حتى يصدر منه صوت، يمكن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أظهر الكلام كمعجزة للنبى ﷺ فى ذلك الوقت، لأن النطق والكلام والتقديس والتسبيح والخوف والخشية فى حاجة إلى العقل والعقل فى حاجة إلى الحياة والحياة فى حاجة إلى اعتدال مزاج وجوارح وأجهزة مستعدة للنطق والكلام، وإن التسبيح فى قول الله تعالى ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ (الإسراء / ٤٤) تسبيح بلسان الحال، وأولوا الخشية التى فى قول الله تعالى ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ٧٤) إنها انقياد وطاعة بناء على فحوى أن الخشية مجاز عن الانقياد وحملوها على الانقياد كما حملوا ما صدر من عمود الحنان من صياح على المجاز.

مثنوى

قل ما تقول ما لم يكن من يعلمون
ولك أن ترد كل ما يقولون
ما أكثر هؤلاء المتشككين
وهم فى شكهم يعمهون

ومع هذا فقد رد أصحاب المشاهدة والمشايخ الصوفية كما بين فى تفسيرى معالم التنزيل، وأبى الليث ردًا قويًا على جماعات الفلاسفة والمعتزلة وأبطلوا تأويلاتهم فى هذا الخصوص وأظهروا الحقيقة.

مثنوى

فـى مجـلس وعـظ يخـتـص بالحاضـرين
فيــه تـرى الشـباب والشـيوخ مزدحمـين
وقــع فــى الحيــرة أصــحاب الرســول
مـن صـيحة عمـود ذى عـرض وطــول

وقد عَرف كاشف الأسرار مولانا جلال الدين الرومى وهو من كبار أهل المكاشفة والمشاهدة وبين فى كثير من مواقع كتابه المثنوى الشريف أن الجمادات والنباتات والحيوانات تنطق وتسبح وتهلل.

مثنوى

كمـا تعـلم مـن يتجـه بالخطا إلى الله اعلم
أنـه مـن يقـطع العـلائق بيـنه وبـين دنيـاه
كـل مـن كـانت لـه صـلة بـالله وجـــد
الحبيــب وانقــطع عــن كــل مـا سـواه

حكاية

قال أحد الأشخاص من كبار المشايخ لإخوانه حتى يبين لهم درجة فيكنون له من المحبة ـ بقدر إدراكهم وفهمهم ـ ويبين لهم ماهية المحبة فى الحقيقة ويرشدهم كلهم مرة واحدة: «إذا كنتم تحبوننى، اخرجوا لهذه الصحراء وهاتوا لى زهر الشتاء على قدر محبتكم لى»، وقد جمع كل واحد من الدراويش الذين خرجوا إلى الصحراء بنية خالصة لكسب محبة شيخهم ما استطاعوا وحملوه إليه. وقد أحضر أحد الدراويش غريب الأطوار وأكثرهم عشقًا وقلبه مكشوف وكبده محروق بنار الحب الإلهى نَبْتَةً واحدة جافة خالية من الرائحة وعرضها على

شيخه، وعندما قال له شيخه يا ترى أنك تحبنى بهذا القدر فقط؟ ألا ترى أن إخوانك أتى كل واحد منهم بحزم من الزهر؟، فقال له الدرويش: «يا سيدى إن الحقير يحبكم أكثر من جميع الإخوان، إلا أننى كلما مددت يدى لأقطف زهرة وجدتها مشغولة بذكر الله وتسبيحه ورأيت ذلك بعينى وسمعت بأذنى، ومن هنا خفت من أن أكون مانعًا فى الاستمرار فى تسبيحها وذكرها فلم أتجرأ على قطفها، وهذه النبتة التى تجرأت على تقديمها لك كانت قد فرغت عن التسبيح والتهليل فاصفرت وذبلت وجفت فأخذتها وأتيت بها!!!» وبهذا بين أن النباتات تسبح الله وتذكره وتنطق وهى حية فَصَّلَ ذلك. انتهى.

وخلاصة الكلام إذا أراد الإنسان أن يسمع نطق النباتات بأذنه حقيقة يجب عليه أن يرفع من نفسه الموانع المعنوية والحجب البشرية وستائر العقلانية وهو يسعى لمعاشه أن يزيلها من فوق أسماع روحه وأن يجرد بصيرته من غشاء الغفلة والعمى وغطاء البطالة والكسل وإلا فالذين قد سدت أسماع عقولهم بسدادة الغفلة فلابد وأن ينكروا ذلك السر الجليل حاملين ذلك على المجاز. انتهى.

استطراد

اختلف المؤرخون فى الشخص الذى صنع منبر السعادة وقال بعضهم «أنه من صنع معمارى الكعبة المعظمة باقوم»، وقال بعضهم صنعه نجار يسمى «ميمونة» وقال بعضهم صنعه عبد العباس، فقابله قائلاً: «بما أن حضرة عثمان بن عفان خليفة رسول الله ﷺ قد خلص من اختيار عمل مرهق صعب فمن هنا فله عليكم حقوق كثيرة! لو لم يكن عثمان بن عفان على الدرجة الثالثة من منبر خطيب الإسلام ﷺ الزم على ذات عظمتكم أن تخطبوا فى أسفل السافلين من قبر الأرض» وبهذه الإجابة المح بأن طعن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ غير لائق؛ رحمة الله عليه رحمة واسعة.

فى ذكر عدد المرات التى جدد فيها منبر السعادة وعدد المرات التى عمر.

ظل المنبر الشريف إلى عهد الحكم ابن أبى سفيان على الهيئة التى صنعها باقوم النجار، كما ذكر من قبل.

أراد معاوية عندما عاد من مكة المكرمة أن يأخذ المنبر الشريف إلى الشام بعد أن أضاف إليه درجتين إلا أنه لم يوفق فى ذلك، وأحد أسباب عدم نجاحه فيه بل سببه المستقل المهم هو كسوف الشمس؛ لأنه قد حدث كسوف مفزع، عندما أمر بفك المنبر الشريف وحله فأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم فى السماء وتحولت مدينة الرسول إلى سجن مظلم واستولى الفزع والقلق على أهل المدينة وأخذوا يطلقون ألسنتهم ضد ابن أبى سفيان، وإذ رأى ابن أبى سفيان أن سكان دار السكينة سيقومون كلهم ضده وأن نقل منبر السعادة سيؤدى إلى شر عظيم وسيحطم القلوب، غير أفكاره بسرعة ومهد لها قائلاً: «ليس قصدى نقل المنبر الشريف إلى الشام! إذ رأيت بعض أجزاء منبر السعادة قد بليت بمرور الزمن، وخفت من سقوطه؛ لذا أردت أن أطهر وأسوى تحته وأن أصلح وأرمم أجزاءه التى مالت للسقوط والانهدام!!!» وبسط عذره بهذا الشكل فسكن من ثائرتهم وطمأن علماء المدينة بهذه الطريقة ثم قفل راجعا إلى الشام فى سنة ٤٩هـ.

وكان غرض معاوية من محاولة نقل منبر السعادة إلى الشام، بناء على قول ابن الأثير، هو أن يجافى أهل المدينة ويهينهم لأنهم تغافلوا عن قتل عثمان بن عفان وتهاونوا فى قتله، وحاول أن يأخذ عصا النبى ﷺ المحفوظة لدى سعد القرظى أيضًا، وكان أبو هريرة وجابر بن عبد الله قالا له لا يجوز انتزاع منبر النبى الذى وضعه بنفسه من مكانه إلا أنه لم يعر سمعًا لأقوالهما، إلا أن كسوف الشمس التى تنير العالم ـ كما عرف آنفًا ـ وظهور النجوم الزاهرة وانكشافها نهارا

جعله ترك التعرض لمنبر السعادة ولم يستطع أن ينفذ ما فى ضميره ومن هنا فهم أنه غير مصيب فى رأيه ومخطئ فى اجتهاده.

وقال بعض المؤرخين الذين ذهبوا إلى أن الذى أراد أن يقلع منبر السعادة من مكانه هو مروان بن الحكم.

أمر ابن أبى سفيان واليه فى المدينة المنورة مروان بن الحكم أن يقلع المنبر الشريف من مكانه وأن يرسل به إلى الشام وذلك من خلال الرسائل الخاصة، وقد فتح مروان ابن الحكم رسائل معاوية وقرأها وتجرأ أن يرسل بعض النجارين على أن ينتزعوا منبر السعادة من مكانه ليرسل إلى الشام، وذلك دون أن يخبر أحدا، إلا أن الجو اكفهر فجأة وأظلمت الدنيا حتى أصبحت العيون ترى عيونا كما أن عاصفة هوجاء ثارت وملأت قلوب الناس رعبًا فاستغرقوا فى بحار الهم والغم ومن هنا غير ابن الحكم رأيه بناء على هذا وغير الأمر الذى أصدره للنجارين وطلب منهم أن يضيفوا إلى المنبر ثلاث وعلى قول ست درجات وهكذا أوصل درجات المنبر إلى تسع درجات.

وأكثر المؤرخين على أن أحدًا لم يزد من درجات منبر السعادة قبل ابن الحكم كما أن أحدا من بعده لم يتجرأ على أن يقوم بهذا العمل المستكره وأثبتوا ذلك بإيراد أدلة مقنعة.

واستأذن المهدى العباسى الإمام مالك قائلاً: «إننى أريد أن أعيد المنبر الشريف لسابق عهده» وتصور أنه يستطيع أن يهدم الدرجات التى أضيفت من قبل مروان ابن الحكم وأراد أن يعيده لحالته الأولى على الهيئة التى صنعها باقوم النجار؛ إلا أنه قد تخلى عن فكرته هذه بناء على قول الإمام مالك: «قد صنع المنبر الشريف من خشب شجرة الطرفاء وسمر ما أضافه مروان على المنبر القديم» وبهذا قد أفهم المهدى أن ترك المنبر الشريف على حالته هذه لا يخلو من الحسنات، وبناء على هذه الرواية فإن الأمر يقتضى قبول الرواية الثانية وتصديقها، والتى مفادها أن مروان بن الحكم هو المتشبث بنقل منبر السعادة إلى الشام.

وقال ابن الأثير مبينًا أن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حاولا أن ينقلا المنبر الشريف إلى الشام إلا أنهما لم يوفقا فى ذلك، حينما أصبح عبد الملك بن مروان ملكا على بلاد الشام قام محاولا لنقل منبر السعادة إلى الشام إلا أن حضرة قبيصة بن ذؤيب قال له يا عبد الملك تذكر ما حدث فى عهد معاوية، وقرأ له الحديث الذى ورد فى حق المنبر الشريف.

وبناء على هذا تراجع عبد الملك عن فكرته هذه، وأراد الوليد بن عبد الملك أن يحقق فكرة أبيه فى أثناء حجه إلا أنه لم يوفق أيضًا فى مسعاه.

إن قاعدة منبر السعادة، الذى كان من اختراع باقوم ذراع مربع واحد وكان ارتفاعه ذراعين وكان له ثلاث درجات مع مقعده وتبتعد كل درجة عن الأخرى مقدار شبر واحد وفى الوسع شبرين وأضاف مروان بن الحكم فيما بعد لدرجاته ست درجات من الأسفل وبهذا ابلغ ارتفاعه إلى سبعة أذرع من حيث قاعدته كما أبلغ درجاته إلى تسع درجات؛ وبناء على هذا الحساب يلزم أن تصل درجات المنبر المنير مع مقعده إلى تسع درجات وارتفاعه إلى ستة أذرع، ولكن بما أن للمنبر القديم أساس طوله ذراع واحد فارتفاع المنبر ستة أذرع وطول سطحه ستة أذرع.

كان عرض باب المنبر القديم السعيد أى ما بين عموديه خمسة أشبار، وقد كسا مروان بن الحكم جميع درجات المنبر من جهاتها الأربع بخشب أبنوس فى غاية الرقة ما عدا الدرجة الثالثة التى كانت خاصة لجلوس النبى ﷺ، إذ غطاها بقطعة واحدة من خشب الآبنوس اللامعة كما رفع فوقها قبة حتى يحفظ مجلس النبى ﷺ من جلوس الآخرين.

والقباب المزينة التى ترفع فوق المنابر فى أيامنا هذه فكأنما للإشارة إلى الدرجة التى كان يجلس عليها صاحب الرسالة ﷺ.

قد قام الإمام البخارى «عليه رحمة البارى» بزيارة المنبر القديم الذى أعلى ارتفاعه وعمر درجاته مروان بن الحكم ذاتيًا وبين لأحبابه أن المنبر الشريف

محفوظ بألواح خشبية من الآبنوس وذكر لهم ذلك، وكان زوار تلك الأيام يحرصون على زيارة تلك اللوحة التى تشبه المسلة والتى وضعت فوق الدرجة الثالثة ويقتحمون المكان للتبرك، وهذا الحرص لاقتحام المكان يدل على أن المنبر القديم كان قد حفظ بألواح خشبية من الآبنوس.

وخلاصة القول بناء على تحقيقات المؤرخين ورواية الإمام البخارى وتعريفاتهم يثبت أن المنبر القديم قد رفع فوق المنبر الجديد الذى صنع فى عهد مروان بن الحكم، وقد أشرف المنبر الذى صنع فى عهد مروان بن الحكم على السقوط والخراب ومال للانهدام ومن هنا قد هدم حتى الأرض وجدد فى سنة ٥٧٨ هـ وقد صنع من قطع خشبه غير الصالحة للاستعمال أنشاطا وأرسل لأشراف المماليك والبلاد للتبرك بها.

قد وضعت لوحة خشبية أخرى فوق مستراح النبى فى المنبر المجدد وترك مكانًا مكشوفًا حتى يستطيع أن يتبرك به الناس وترك باب المنبر مفتوحًا أيام الجمع ليتبرك الناس بمستراح النبى وأغلقت بقية الأيام الأخرى، واحترق المنبر الشريف فى سنة ٦٥٤هـ مع مستراحه وظل المسجد الشريف بدون المنبر ومن هنا أرسل حاكم اليمن السلطان مظفر منبرًا جميلاً بعد سنتين من الحريق.

وكان للمنبر الذى أرسله الملك المظفر عمودان منحوتان من خشب الصندل فى غاية الجمال، وقد وضع اللآلئ مكان المنبر القديم وألقيت الخطب عليها ما يقرب من عشر سنوات، وفى سنة ٦٦٦هـ رفعوا هذا المنبر ووضعوا مكانه المنبر الذى أرسله «الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى».

وكان ارتفاع المنبر الذى أرسله ركن الدين البندقدارى أربعة أذرع وكان طوله يتجاوز سبعة أذرع وكان له تسع درجات وكان هذا المنبر بالنسبة للمنابر الأخرى ذات مميزات تستحق التقدير والثناء من وجوه شتى، وكان لهذا المنبر باب ذو مصراعين وفوق كل مصراع رمانة فضية وكانت الرمانتان تظهران فى داخل المسجد النبوى كجسمين فضيين محبوبين وكان فوق رمانة الباب الأيسر اسم صانعه وشهرته؛ وكان فى صحبة المنبر الشريف أحد صلحاء النجارين يطلق عليه

أبو بكر النجار حتى يضع المنبر فى مكانه ويركزه بالضبط، وكره هذا الشخص العود إلى بلاد مصر بعد أن وضع المنبر فى مكانه وظل فى المدينة المنورة إلى آخر عمره.

وقد وضع المنبر الذى أرسله ركن الدين البندقدارى فى مكانه ورصنت وأصلحت الأماكن التى تحتاج للترصين والإصلاح إلا أن أماكنه الملاصقة للأرض أخذت تَبْلَى فى سنة ٧٩٧ هـ وعلى هذا أرسل من قبل «الظاهر برقوق المصرى»[١] منبرًا فى غاية التزيين والترصيع وانتزع المنبر الذى أرسله «ركن الدين البندقدارى» من مكانه فى أواخر السنة المذكورة ووضع مكانه المنبر الذى أرسله «الظاهر برقوق» وبناء على هذا الحساب فإنه ما أمكن استخدام منبر ركن الدين البندقدارى الجميل أكثر من ١٣١ سنة.

وبعد أن وضع منبر «الظاهر برقوق المصرى» مكانه بثلاث وعشرين سنة أرسل «الشيخ المؤيد المصرى»[٢] منبرًا لطيف المظهر فرفع منبر برقوق ووضع مكانه منبر الشيخ المؤيد وذلك فى سنة ٨٢٠ هـ.

وكان المنبر الذى أرسل من قبل الشيخ المؤيد غاية فى جمال الصنعة ولا مثيل له ومزينًا وأجمل من المنبر القديم من حيث الصنعة ولكن لشدة الأسف قد احترق مع المسجد الشريف فى حريق سنة ٨٨٠ هـ وانمحى ذكره بعد وضعه فى مكانه لستين سنة.

وكان المنبر اللطيف سالف الذكر زاد ارتفاعا ستة أذرع وثمانية أصابع وكان طوله السطحى ثمانية أذرع واثنى عشر إصبعا وله تسع درجات وبين كل درجة فاصلة ذراع ونصف ذراع وكان موضوعًا فى جهة السور الخشبى الذى فى الناحية القبلية من الروضة المطهرة أى فى خارج الجدار القبلى الذى صنع فى عصر السعادة بثلاثة أذرع.

وظل مسجد المدينة بعد حريق ثمانمائة وثمانين مدة ست سنوات بدون منبر،

(١) هذا الشخص أول ملوك الشراكسة الذين حكموا مصر.

(٢) وكان الشيخ المؤيد رابع ملوك الشراكسة وكان معروفًا باسم الملك المؤيد الشيخ المحمودى الظاهرى.

وبما أن ملوك البلاد الإسلامية لم يرسلوا خلال هذه الفترة منبرًا ليوضع فى مسجد المدينة فبنى سكان دار السكينة فى مكان ما من المسجد منبرًا من اللبن ظانين أنه محل المنبر القديم وجصصوا داخله وخارجه وذلك فى سنة ٨٨٦ هـ وأخذ خطباء مسجد السعادة يخطبون فوق هذا المنبر، وبعد سنتين هدم هذا المنبر وقلع من مكانه وركز مكانه المنبر الذى أرسله «قايتباى» المصرى وبهذا تغير مكان المنبر الذى صنع فى عصر السعادة؛ لأن السلطان قايتباى المصرى كان قد صنع منبرًا حجريًا وأرسله، وذلك فى سنة (٨٨٨) هـ وقرر هدم المنبر الذى صنعه أهالى المدينة المنورة فى خلال شهر رجب الفرد من نفس العام، وحفروا الأساس ليوضع مكانه المنبر الجديد ولم يجدوا حيث حفروا أساس المنبر القديم فتركوا هذا المكان وحفروا مكانًا آخر؛ وظهرت بقية أساس المنبر القديم فى الجهة الشرقية من المكان المحفور للمرة الثانية، إلا أن القائمين لم يطمئنوا أن هذا المكان هو مكان الأساس القديم فتركوه وأمروا بحفر مكان آخر إلا أن علائم الأساس القديم لم تظهر فى هذا المكان أيضًا، وعلى هذا أصر شمس الدين بن زين متعمدًا على أن يوضع المنبر حيث حفر أول مرة أى فى المكان الذى بنى فيه أهل المدينة المنبر الترابى قبل سنتين مع أن أهل المدينة لم يفكروا فى التحرى عن أساس المنبر القديم كما أنهم لم يحاولوا بناء منبرهم على أساس المنبر القديم.

وقد أتى الإمام السمهودى بأدلة واضحة على أن المكان الذى حفر للمرة الثانية حيث وجدت بقايا الأساس القديم أنه المكان الذى وضع فيه باقوم النجار أساس المنبر الذى صنعه فى عصر السعادة، وبين أن المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى المصرى يجب أن يوضع فوق تلك الحفرة وكسب فى هذا الصدد كثيرًا من المؤيدين له من العلماء إلا أن «شمس الدين بن زين» أصر على فكرته وتنفيذ رأيه الفج، وادعى أن أهل المدينة حينما بنوا منبرهم فى سنة ٨٨٦ هـ بالتخمين بنوه على أساس المنبر القديم، وعلى هذا يجب أن يوضع هذا المنبر فوق أساس منبر أهل المدينة ولن أتنازل عن هذا، وابتدأ فى تنفيذ رأيه وأمر بردم الحفرة التى أشار إليها الإمام السمهودى وركز المنبر فى المكان الذى حفر أولاً ثم ترك بناء على

الشك فيه، لأجل ذلك وضع المنبر الجديد بعيدًا عن أساس المنبر القديم بثلاثة وعشرين أصبعًا فى الجهة القبلية يعنى قد أدخل المنبر الجديد مقدار ٢٣ إصبعًا فى داخل الروضة المطهرة بناء على إصرار شمس الدين بن زين فضاقت ساحة الروضة المطهرة مقدار ٢٣ أصبعًا عن مساحتها الأصلية وخلاصة القول أن المنبر الجديد قد أدخل قدر خمسة أصابع من المنبر القديم إلى الجهة الشرقية من المسجد الشريف وضع طول المنبر الجديد السطحى أطول من طول المنبر العتيق قدر ثمانية عشر أصبعًا ومن هنا صغرت الروضة المطهرة قدر ٢٣ أصبعًا.

استخدم المنبر الذى وضعه السلطان قايتباى المصرى تحت نظارة شمس الدين بن زين ما يقرب من مائة واثنتى عشرة سنة ولم يتقدم أحد بهذه الفترة لصنع منبر آخر أو إرساله، ولكن السلطان مراد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ من السلاطين العثمانيين المعروفين بكثرة خيراته وميراثه أراد أن يقوم بخدمة خاصة بنية خالصة للمدينة المنورة؛ ولذا أرسل منبرًا مزينًا فى غاية الجمال والصنع وأرسل معه كثيرًا من النجارين المهرة والمهندسين المتفننين وأمر أن يوضع هذا المنبر مكان منبر السلطان قايتباى المصرى وأن يعمر ويجد له ما يقتضى تعميره وتجديده من مسجد السعادة بهذه المناسبة.

وبين أهالى المدينة للسلطان أن مسجد السعادة ليس فى حاجة إلى التعمير والتجديد وإن كان تنفيذ الأمر السلطانى واجبًا على كل فرد إلا أن تجديد المسجد بدون مسوغ شرعى لا يجوز، إلا أن السلطان أمر مؤكدًا أن يوضع المنبر الجديد الذى أرسله فى المكان الذى عينه مطلقًا وأن تصلح الآثار الأخرى التى تحتاج التجديد والإصلاح ومن هنا قلعوا المنبر القديم ووضعوا مكانه المنبر الجديد الوارد من استانبول وذلك فى سنة ٩٩٨ هـ.

وكان للمنبر الذى أرسل من قبل السلطان مراد تسع درجات فى داخل بابه وثلاث درجات فى خارجه وكانت جملة درجاته اثنتى عشرة درجة ويصعد إلى

باب المنبر من الأرض بثلاث درجات وكانت ظلة علمه من الفضة وكان غطاؤه من جوخ أحمر وستارة بابه من الأطلس الأخضر.

بعد وضع المنبر الذى أرسل من باب السعادة فى مكانه نقل المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى إلى مسجد قباء وبعد ما تم وضع ذلك المنبر فى مكانه، أصلحوا وعمروا المساجد التى تحتاج إلى الإصلاح وكذلك الأماكن المقدسة الأخرى، والمنبر الكائن الآن هو ما أرسله السلطان مراد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ من باب السعادة ومازال جديداً كأنه صنع اليوم.

قد جدد المنبر الذى صنعه وجدده مروان بن الحكم سنة ٥٧٨ هـ ومع ذلك جدد وبدل ثمانى مرات فى خلال ثلاثمائة وإحدى وسبعين سنة، وقد أرسل منبر السلطان مراد قبل يومنا هذا بـ ٣٠٣ سنة ومع ذلك ظل سليمًا متينًا وكأن النجارين قد انتهوا من صنعه اليوم، وإذا ما نظر لهذا يفهم مدى متانة هذا المنبر ورصانته.

إن المنبر اللطيف الذى أرسل ليوضع فى ساحة مسجد السعادة ذات الفيوضات بكل تعظيم وتوقير من باب السعادة صنع من رخام مجلى وحك أعلى طاقته هذا التاريخ بعبارة سلسلة.

أرسل السلطان مراد بن السليم
مستزيداً خير زاد للمعاد
دام فى أوج البلاد سلطاننا
آمنًا فى ظله خير البلاد
نحو رضى المصطفى صلى الله على
ربنا الهادى به كل العباد
منبر قد أسست أركانه
بالهدى واليمن من صدق الفؤاد

منبـــر يعـــلى الهـــدى أعـــــلاه

دام منصـــوراً لأصـــحاب الرشـــــاد

قـال سـعد ملهـمًا تاريـخه سـلطان مـراد

منبـــــر عمـــــــر ســـــــنة ٩٩٨

وبعد وضع منبر السلطان مراد فى موضعه تم نقل منبر السلطان قايتباى إلى مسجد قباء، وتمت إقامة مدرسة تقابل مسجد قباء ومدرسة أخرى بالقرب من مسجد الصديق، وتم بناء رباط وخصصت واردات كافية لمعاش سكانه، وبعد المحاسبة وجد أنه قد بقيت مبالغ كثيرة ورخام ولما تحقق ذلك استخدم هذا الرخام والعقود فى بناء محفل لمؤذنى حرم باب السعادة للتكبير محفلاً فى غاية الجمال فى سنة ٩٩٨ هـ.

إن مقصورة المؤذنين كانت مصنوعة من الرخام الخالص وبما أن مسجد السعادة كان خاليًا من المقصورة للمؤذنين فى ذلك الوقت، سر جميع مسلمى الأرض من بناء هذه المقصورة وقرءوا الفاتحة داعين للسلطان، ولما جدد والد السلطان كثير المحامد السلطان عبد المجيد بصورة أجمل من المقصورة سالفة الذكر أسس مكبرية من الخشب أيضًا فى سنة ١٢٦٧هـ.

والمقصورة الرخامية فى داخل الروضة المطهرة والمكبرية الخشبية فى نهاية الحرم الشريف، وإن كانت المقصورة الرخامية خاصة بالأيام العادية، والمقصورة الخشبية للتكبير خاصة بالمواسم وأيام الأعياد والحج إلا أنه فى الأعياد والمواسم يقوم المؤذنون بالتكبير فى كلتا المقصورتين ليسمعوا أصوات التكبير لجماعات المصلين كلهم.

إخطار

يطلق على الأماكن التى تمتد من صفة أصحاب الصفة إلى المئذنة السليمانية ومن هنا إلى المئذنة المجيدية ومن المئذنة المجيدية إلى باب الرحمة، تحت القبة وقد زينت نوافذ هذه وجميع القباب بالزجاج الملون ليمنع دخول المطر والغبار

وتركت أطراف بعضها مكشوفة لدخول الضوء والنور وكلها قد صنعت فى صورة محكمة رصينة قوية.

بدل الخلفاء العباسيون ستارة باب منبر السعادة وأعدوا ستارة من الحرير الأسود المنسوج واتخذوا تعليق الستارة السوداء عادة لهم، واستصوبوا ترك الستارة معلقة ليلاً ونهارًا وتركوا إجراء ذلك لشيخ خدم الحرم الشريف؛ وبعد ذلك تذكروا الحادث الذى وقع فى أيام عبد الله بن الزبير وقرروا أن تعلق الستارة فى أيام الجمع خائفين من وقوع تلك الحادثة مرة أخرى؛ لأنه حدث أن سرقت امرأة فى عهد عبد الله بن الزبير ستارة المنبر الشريف وأقيم عليها الحد الشرعى وقطعت يدها.

اعتاد البغداديون تجديد ستارة المنبر الشريف وكانوا يرسلون ستارة كل سنة، وتكاثرت مع مرور السنين الستائر فى خزانة النبى ومن هنا تقرر فى خلال سنة ١٣٨ هـ وفى عهد عبد الله الحارثى أمير المدينة إرسال ستارة كل ست سنوات مرة، وأرسلت فيما بعد كل سبع سنوات، وفيما بعد كل عشر سنوات. إلا أنه فى زماننا ترسل من عيد الجلوس إلى عيد الجلوس، إلا أن السلطان محمود بن عبد الحميد والسلطان عبد المجيد خان المرحومين أرسلا مرتين كل سنة.

كانت هذه الستائر ترسل إلى المدينة فى صورة غير منتظمة إلى دور إسماعيل بن محمد ناصر الصالحى من الملوك المصريين وهذا الشخص قد أخذ من بيت مال الحكومة المصرية قرية ووقفها لصنع كسوة لمنبر السعادة والحجر الشريف فى مصنعها وجعل ذلك من عاداته الحميدة وبناء على هذا كانت هذه الستائر تبدل كل خمس سنوات أو ست سنوات على قول آخر، أما فى زماننا فلا ترسل كسوة بل ترسل ستارة وكانت هذه الستائر تعلق يوم الجمعة إلى الانتهاء من إقامة صلاة الجمعة وبعد ذلك كانت ترفع بواسطة موظفين خاصين وتوضع فى المخزن الذى بجانب باب جبريل، وإن كان حفظ ستائر المحاريب والستائر التى تعلق فى شبكة حجرة السعادة حفظها فى المخزن سالف الذكر من الأصول المتبعة؛ إلا أنها لا

تعلق فى أيام الجمع بل ينحصر تعليقها على أيام مواسم الحج إذ تعلق عندما يأتى الزوار لزيارة المدينة المنورة وكانت هذه الستائر كلها مصنوعة من الأقمشة الغالية ونقشت على الأطلس الأخضر بخيوط من ذهب خالص العيار ونقشت عليها الأماكن الخاصة بتعليقها كما أن فى زواياها نقشت أسماء الخلفاء الراشدين.

إلى قرب تولى مشيخة شيخ الحرم المرحوم حافظ محمد باشا لم يكن تعليق الستائر فى شبكة السعادة من الأصول المتبعة ومن هنا كلما كنس مسجد السعادة امتلأت شبكة الحجرة الشريفة بالغبار، وبلغ المرحوم حافظ باشا والأهالى عتبة باب السلطان وعرض عليه أن تعلق حول شبكة السعادة ستارة كما أرسل مقاييس الستائر اللازم صنعها من حيث الطول والعرض والارتفاع.

وبناء على الأمر الصادر من السلطان صنعت ستائر من أطلس أخضر فى غاية جمال الصنع والزينة وأرسلت إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٨٢ هـ.

وكانت هذه الستائر مكونة من أربع قطع كل قطعة من جزئين منفصلين إلا أنها حينما وصلت إلى المدينة الطيبة كان حافظ باشا قد ودع الحياة، وقد سمر العدد الكافى من المسامير إلى الكمر التى تحمل قبة السعادة أى القبة الصغيرة الجميلة التى تحت القبة الخضراء وعلقت الستائر الواردة على هذه المسامير فى سنة ١٢٨٢هـ.

فى بيان الأساطين التى ركزت فى مسجد السعادة فى عصر النبى السامى ﷺ.

كانت الأساطين الأصلية لمسجد السعادة ثمانية أعمدة موزونة متساوية، وقد زيد مؤخرًا عدد أساطين المسجد الشريف المنيفة إلا أننا سنذكر هنا عدد الأساطين الشريفة التى كانت فى عصر السعادة فقط وسنخبر عن عدد الأساطين التى فى زماننا فى ذيل الصورة على شكل استطراد.

١ـ الأسطوانة المخلقة: هى الأسطوانة الأولى التى كانت فى عصر النبوة والتى كانت علامة على مُصَلَّى النبى ﷺ وقد اشتهرت بالأسطوانة المخلقة لأنها قد عطرت بالطيب.

كانت النخلة التى يستند إليها سلطان الأنبياء ـ عليه أجمل التحايا ـ متصلة بهذه الأسطوانة، وبناء على ما عرف قبل هذه الصورة وفى الصورة السابقة كان كرسى الشمعة الذى يقع يمين الإمام الذي يقف على محراب النبى مكان النخلة التى سبق ذكرها.

كان سلمة بن الأكوع يصلى دائمًا فى هذا المكان اللطيف وإذا ما سئل عن سبب ذلك يجيب قائلاً: إننى رأيت النبى ﷺ يصلى فى هذا المكان، يروى عن الإمام مالك بن أنس أنه قال: «إن أقدس مكان لأداء النوافل هو المكان الذى كانت فيه الأسطوانة المخلقة»، إلا أن فى الفرائض يلزم أن تصلى فى الصف الأول، قد كتبت على هذا العمود «هذه الأسطوانة المخلقة وتعرف الأسطوانة المخلقة بهذه الكتابة من بين الأساطين وبعض أجزاء هذه الأسطوانة ملصقة بجدار المحراب النبوى».

٢ـ أسطوانة عائشة: ولهذه الأسطوانة الموزونة ثلاثة أسماء أخرى وهى:

«أسطوانة القرعة، وأسطوانة المهاجرين، وأسطوانة المخلق» وقد كتب عليها بخط جلى جميل: «هذه أسطوانة عائشة رضى الله عنها» وهذه العبارة قد ذُهِّبَتْ وزينت بحالة جيدة ومن هنا نستطيع أن نحكم بأن هذه الأسطوانة لائقة بأن تكون أسطوانة عائشة.

إن هذا العمود المبارك كان فى وسط المسجد الشريف وكانت هذه الأسطوانة قبل توسيع المسجد الشريف الأسطوانة الثالثة من منبر السعادة كذلك الأسطوانة الثالثة من قبر الرسول وكذلك الثالثة من جدار القبلة وكذلك الأسطوانة الثالثة من جهة الشام، وكان فخر العالم ﷺ يؤدى صلاته فى هذا المكان المقدس بعد تحويل القبلة بعشرة أيام وكان يخاطب أصحابه مستندًا لهذا العمود، ونقل مكانه فيما بعد إلى المحراب القديم السعيد.

وقد اعتاد كل من الصديق والفاروق الأعظم وعبد الله بن الزبير بن العوام وعامر بن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهم ـ أداء الصلاة بجانب هذا العمود كما اعتاد المهاجرون الكرام أن يجتمعوا محلقين حول هذا المكان ليتداولوا الأفكار، وقد قال ملك ممالك الرحمة ـ عليه أجمل التحية ـ فى حق الأسطوانة المذكورة «إن فى مسجدى بقعة إذا كان الناس يعرفون قيمة هذا المكان وقدره لكانوا يجرون القرعة ليصلوا إلى هذا المكان محرمين» وهذا القول كان سببًا فى اشتهار ذلك العمود بأسطوانة المهاجرين وأسطوانة القرعة.

عندما نقلت أمنا عائشة زوجة الرسول ﷺ هذا الحديث أسرع أبناء الأصحاب الكرام الذين كانوا عندها باستكشاف ذلك المكان إلا أنهم لم يجدوا ذلك المكان بعد ما بذلوا جهودًا مضنية وإذا بعبد الله بن الزبير كان قد ظل فى المكان المشار إليه ليعرف ذلك الموقع المبارك، وقال أبناء الصحابة من الممكن أن تكون السيدة عائشة قد عرفت بمكان تلك البقعة المباركة لعبد الله بن الزبير ومن هنا جلسوا فى مكان خفى بعد أن تشاوروا فيما بينهم ليروا أين سيصلى عبد الله بن الزبير بعد خروجه من بيت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وبعد مدة دخل عبد الله بن

الزبير فى مسجد السعادة واستقبل أسطوانة المهاجرين وعلى قول آخر صلى على يمين تلك الأسطوانة وعلى هذا فهموا أن تلك البقعة المباركة التى ذكرت فى الحديث الشريف المكان الذى ركبت فيه أسطوانة المهاجرين فاعتادوا الصلاة فى ذلك المكان طول حياتهم.

وذهب بعض الرواة إلى أن البقعة المباركة المذكورة فى الحديث الشريف فى وسط قبر السعادة والمنبر الشريف، وقالوا، إن الدعاء الذى يقال فى هذا المكان يستجاب ويقبل لدى الله سبحانه وتعالى.

٣ـ **أسطوانة التوبة**: يقال لهذا العمود الشريف أسطوانة أبو لبابة[١] أيضًا. وسبب تسميتها بهذا الاسم أنه ربط نفسه بهذه الأسطوانة، إذ كان أبو لبابة يتلاقى كثيرًا مع بنى قريظة فى الجاهلية.

ولما عجز بنو قريظة فى غزوة بنى قريظة عن مقابلة قائد كتيبة العز والعلا ـ ﷺ ـ طلبوا من النبى ﷺ راجين أن يرسل لهم أبا لبابة حتى يستعلموا منه طريق السلامة والنجاة، وقد استجاب لرجائهم فأرسل أبو لبابة داخل حصن بنى قريظة حيث استقبل بصيحات اليهود وعويلهم الرذيل ومزقوا وجوههم نادمين متحيرين وارتموا على الأرض من مكان لآخر وقالوا لأبى لبابة أبا لبابة! قل لنا الحقيقة حتى لا نضيع حقوقنا السابقة عليك، ما رأيك فى هذا الخصوص؟ هل نخرج من حصننا بناء على حكم محمد العالى؟ أم نستمر فى مقاومتنا؟ كيف ستنجو سفينة حياتنا؟ ما الرياح التى نتبعها حتى نرسل إلى ساحل السلامة؟ كيف يمكن النجاة من هذا الطوفان الذى سيغرق المال والثروة؟ وما الجهة التى يجب أن نتجه إليها حتى يمكن النجاة؟. وتعلقوا بأطراف ثوبه صائحين متضرعين.

وبما أن تعبيرات اليهود الرقيقة وكلماتهم التى تثير الشفقة والرحمة قد أثرت فى ضمير أبى لبابة فقال لهم: «يا قوم شؤم! ليس هناك طريق للسلامة غير الانصياع لحكم الرسول والخروج من الحصن وتسليم أنفسكم إلى الرسول ﷺ»

(١) أبو لبابة أخو بنى عمرو بن عوف بن الأوس.

وبعد هذه الإجابة أشار إلى حلقة، وكأنه يريد أن يلمح ويومئ أنهم حتى إذا خرجوا إلى الخارج من حصونهم ليسلموا أنفسهم لن ينجوا أن يكونوا طعمًا لحد السيف وكان غرضه من هذه الإشارة أن يشفق لحالة اليهود الميئوسة؛ ولكنه فى النهاية فهم الخطأ الذى وقع فيه سهوا وندم قائلاً يا ويلاه! إننى خنت الله ورسوله ثم عاد إلى المدينة المنورة دون أن يظهر لرسول الله، وجعل نفسه مقيدًا لتلك الأسطوانة، وقرر فى نفسه ألا يحل قيده حتى تقبل توبته وألا تطأ أقدامه حيث وجد بنو قريظة، حتى إن فى أوقات الصلاة كانت زوجته العفيفة تأتى وتحل قيوده وبعد أداء الصلاة كانت تربطه مرة أخرى، ودامت هذه الحالة أكثر من عشر ليال حتى أصاب أذنيه الصمم من صوت السلاسل وأصبحت عيناه لا تبصران ولما عرض أمره على قائد جنود الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا.

وظل مربوطًا ست أو خمس عشرة ليلة على اختلاف الروايات إلى أن قبلت توبته وأبلغت الكيفية بالآية المنزلة للنبى ﷺ فتفضل النبى ﷺ، بحل سلاسل يديه المباركتين، حتى إن بعض الأصحاب الكرام قد أخطروا أبا لبابة بنزول الآية بخصوص إطلاق سراحه وأرادوا أن يفكوا سلاسله إلا أنه قد أقسم قائلاً لا، يجب أن يفك النبى السلاسل بذاته فلا أقبل أن يحلها الآخرون وبناء على هذا تلطف معدن الرحمة والشفقة بحل سلاسله بذاته وإطلاق سراحه، وأطلق بعد هذه الحادثة المشهورة على هذا العمود أسطوانة أبى لبابة بن المنذر.

قالت طائفة من المؤرخين إن سبب حدوث هذه الواقعة أى أن قيد أبى لبابة نفسه إلى أسطوانة التوبة وربطه نفسه هو تخلفه عن الاشتراك فى غزوة تبوك لأن النبى ﷺ عندما عاد قال لأبى لبابة لماذا تخلفت عن هذه الغزوة؟ فاضطرب أبو لبابة من السؤال ولم يجد جوابًا وذهب إلى الأسطوانة التى أمام غرفة أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وربط نفسه وأخذ يتجرع مصاعب الصبر والتحمل وأخذ يستغفر ما يقرب من سبعة أيام وفى النهاية نزلت الآية الكريمة التى تفيد قبول توبته فحلت سلاسله بواسطة السيدة أم سلمة، وقال بعضهم أيضًا إن ثمامة بن أثال الحنفى أيضًا قد قيد لتلك الأسطوانة.

كان إمام صف الأنبياء ـ عليه لوائح التحايا ـ كان يؤدى صلوات النوافل عند أسطوانة التوبة وفى كل صباح عقب الصلاة يتكئ على تلك الأسطوانة الموزونة ويحادث أصحابه.

وكان المساكين الضعفاء ومرضى المدينة والمسافرون والمؤلفة القلوب من الموحدين والمسلمون بلا مأوى ولا مسكن يجلسون بعد أداء صلاة الصبح وكان طبيب مرضى قلوب الأمة ـ عليه أطيب التحية ـ يشرف هذه الجماعة ويستند على تلك الأسطوانة ويقرأ الآيات التى نزلت تلك الليلة أو يفسر الرؤيا للذين رأوا الرؤيا فى تلك الليلة ويعرضونها على النبى ـ عليه السلام ـ ويستمر جالسًا فى ذلك المكان إلى طلوع الشمس.

وزادت تلك الجماعة وازدحم المكان إلى درجة لم يجد بعض الناس مكانًا للجلوس حتى أصبح التنفس صعبًا، وفى يوم من الأيام ضاق أشراف المدينة من كثرة الازدحام وتضايقوا، وأظهر بعض الناس سأمهم ومللهم فأنزل الله سبحانه وتعالى: «الآية الكريمة»

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. (الكهف: ٢٨).

فشغل الذين أظهروا مللهم وضيقهم بعرض ندمهم الشديد واستغفارهم.

كان سيد الخلق سيدنا محمد يعتكف بجانب هذه الأسطوانة وكان يأمر ببسط فراشه خلف أسطوانة أبى لبابة وفى رواية أخرى أن سرير فرشه يبسط فى الجهة القبلية من تلك الأسطوانة وكان يستند فى أيام اعتكافه على ذلك السرير. وبين أسطوانة التوبة والقبر الجليل أسطوانة أخرى.

وبناء على قول عبد الله بن عمر أن أسطوانة أبى لبابة هى الأسطوانة الثانية من جهة القبر النبوى والرابعة من جهة المنبر الشريف ومن جهة الساحة

الرملية الثالثة وتبعد عن المضجع النبوى عشرين ذراعًا، وتقع أسطوانة أبى لبابه بين أسطوانة عائشة والأسطوانة الملاصقة لشبكة الحجرة المعطرة وفى وقتنا هذا فهى الأسطوانة الرابعة من جهة المنبر المنير النبوى ومن جهة قبر النبى الجليل الثانية ومن الجهة القبلية الثالثة ومن جهة الساحة الرملية الأسطوانة الخامسة.

يروون وجود محراب بجانب عمود التوبة كعلامة مميزة له قبل الحريق إلا أن ذلك المحراب قد احترق فى الحريق الثانى ولم يصنع بعد ذلك، وإن كان قد ذهب بدر بن فرحون من علامة المؤرخين إلى أن المحراب وهو العلامة المميزة لأسطوانة التوبة كان ملاصقًا لشبكة حجرة السعادة إلا أن مؤرخى الأسلاف جرحوا رأى ابن فرحون وقالوا إن المحراب المذكور كان بجانب أسطوانة أبى لبابة، وأتوا بدلائل مقنعة تحمل على تصديق أقوالهم ومن هنا فقول ابن فرحون موضع شك وشبهة.

قد حُكَّت على هذه الأسطوانة بخط جلى نفيس عبارة «هذه أسطوانة أبى لبابة وتعرف بالتوبة» بذهب خالص العيار ونقشت بذهب.

٤ـ أسطوانة السرير:

وبما أنَّ سرير سيد البشر المصنوع من خشب النخلة بناء على قول الأكثرية كان بجانب الأسطوانة الرابعة ذات إعجاز ظل اسم هذه الأسطوانة أسطوانة السرير وكتب عليها بخط جلى نفيس عبارة «هذه أسطوانة السرير» حُلِّيَتْ بذهب والعمود المذكور بين القبر الشريف وقناديل الروضة المنيفة وبناء على تعريف الإمام السمهودى فهى الأسطوانة التى فى الجهة الشرقية من أسطوانة التوبة والملاصقة للشبكة السعيدة.

ظل السرير النبوى قبل توسيع المسجد الشريف فى صورة دائمة بجانب أسطوانة التوبة وبعد أن تفضل معمار بنيان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ بتوسيع الجهة

الشرقية من المسجد الشريف نقل السرير بجانب أسطوانة السرير، والأسطوانات الثلاث التى عرفت قبل هذه الأسطوانة قد ركزت من جهة المنبر الشريف إلى جهة قبر السعادة فى صف واحد؛ وليست هناك أسطوانة ملاصقة بالشبكة الشريفة بين هذه الأسطوانات إلا هذه الأسطوانة النصفية أى الأسطوانة التى نحن بصدد تعريفها وهى أسطوانة السرير، وإن هذه الأسطوانة النصفية من المحقق أنها ركزت عندما أسس الأشرف قايتباى المصرى القبة الجسيمة فوق حجرة السعادة وبما أنها كانت تجاور حجرة السعادة كتبت عليها عبارة هذه أسطوانة السرير.

٥ـ **أسطوانة المحرس:** إن هذه الأسطوانة فى الجهة الشمالية من أسطوانة التوبة فالذين يذهبون من دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى الروضة المطهرة تقابلهم هذه الأسطوانة. وكان سادات المدينة يجتمعون فى الأوائل لأداء صلواتهم بجانب هذه الأسطوانة.

ولما كان على بن أبى طالب يداوم على أداء الصلاة بجانبها وكان يقوم الليالى على حفظ النبى ﷺ من مكائد الأعداء بجانبها عرفت هذه الأسطوانة باسطوانة على بن أبى طالب كما نقش عليها بماء الذهب عبارة «هذه أسطوانة الحرس»، وذُهِّبَتْ.

٦ـ **أسطوانة الوفود:**[1] هذه الأسطوانة خلف أسطوانة المحرس من جهة الشمال أى أنها أمام المكان الذى أضيف إلى المسجد الشريف لتوسيعه، وفى اتصال الشبكة التى بين مربع القبر الجليل والحجرة المعطرة، وكان النبى ﷺ يستقبل وفود العرب أى السفراء الذين بعثتهم القبائل العربية بجانب هذه الأسطوانة وقد أدى اجتماع أفاضل الصحابة الكرام بجانب هذه الأسطوانة إلى اشتهارها بمجلس القلادة كانت أسطوانة الوفود قد نُقِش عليها عبارة بخط جلى لا مثيل له «هذه أسطوانة الوفود» وأطلق على باب الشبكة الذى بين أسطوانة المحرس وهذه الأسطوانة باب الوفود.

(١) أحد أسماء أسطوانة الوفود مجلس القلادة.

إخطار

مؤلف تاريخ «نزهة الناظرين فى مسجد سيد الأولين والآخرين» وهو آخر مؤرخى المدينة ومسقط رأسه مهجر النبى ـ عليه السلام ـ يقول مخطئًا المؤرخين القدماء فى الأساطين المأثورة، إن الذين عينوا الأساطين التى كتبت عليها أسماؤها مثل الوفود والمحرس يعنى الذين كتبوا على الأسطوانات هذه الأسطوانات أسطوانات الوفود والمحرس بما أنهم كلفوا كتابتها دون أن يطالعوا كتب ابن زبالة، ابن النجار، والمطرى والسمهودى من المؤرخين القدامى كذلك كتب المؤرخين الذين أتوا قرب الألف من الهجرة النبوية، لذلك ارتكبوا خطأ كبيرًا، وهاتان الأسطوانتان اللتان كتبا عليهما أسماءهما ليستا الوفود والمحرس المأثورتين إننى قمت بمطالعة عريضة وعميقة بقراءة كتب المتقدمين ورسائل المتأخرين، وطالعت تاريخى المطرى والإمام السمهودى وكتاب الجوهر المنظم للعلامة ابن حجر وشرح ابن علاء على إيضاح النووى «والدرة المضيئة» للعلامة على القارى «والذخر النافع» للعلامة محمد بن سليمان الكردى المدنى وأمررت نظرى على الآثار النفيسة للأشخاص الآخرين على حدة، وكل هذه الكتب من الآثار النادرة التى ألفها العلماء الأعلام من الحنفية والشافعية والمالكية، وكلها يصدق فكرى، وإن كان العلامة القليوبى يدعى صحة الأسماء التى كتبت على الأسطوانتين الوفود والمحرس إلا أنه أخطأ فى مذهبه هذا؛ إذ زار هذا الشخص المدينة المنورة ورأى الكتابة فوق هاتين الأسطوانتين وظن أنها كتبت بعد التحقيق فمن هنا أدرج فى كتابه ونقله بعينه، مع أن هذه الكتابات كتبت بناء على الأمر الصادر من السلطان سليم مع قصيدته التى نظمها بالذات على الأسطوانات عندما أمر بتعمير أسطوانات مسجد السعادة فى خلال سنة ألف وزار ابن حجر المكى المدينة ذاتيًا فى سنة ٩٥٦ هـ وألف كتابه نادر الذكر «الجوهر المنظم» ووجد الأسطوانتين المذكورتين بعد تدقيقات كثيرة وأدرجهما فى كتابه بعد ذلك، لأنه بالذات ولا العلماء الذين أتوا قبله لم يقتنعوا بصحة العبارات التى كانت مكتوبة عليها وبما أن العلامة ابن سليمان قد كتب أثره الذخر النافع فى المدينة سنة ١١٥٨ هـ، وكتب

عن الأسطوانتين السابقتين ما يؤكد تحقيقنا، وقد بين ابن سليمان فى كتابه المذكور ما كتب على هاتين الأسطوانتين ولم يعرف جهتهما، إذ قال: «إن أسطوانة المحرس التى خلف أسطوانة التوبة من الجهة الشمالية كتب عليها هذه أسطوانة على ـ رضى الله عنه ـ كما كتب على أسطوانة الوفود التى تقع خلف هذه الأسطوانة: «هذه أسطوانة الوفود» ويفهم من تعريف ابن سليمان أنه قد تبدلت مواقع الأسطوانتين وغيرت كتاباتها خطأ، إذ كتبت على الأسطوانة التى خلف أسطوانة السرير من الجهة الشمالية عبارة «هذه أسطوانة الحرس» والأسطوانة التى خلف هذه الأسطوانة من الجهة الشمالية كتبت عبارة «هذه أسطوانة الوفود» إن خطأ نقل هذه المكاتبات إلى الأسطوانتين سالفتى الذكر حدث من ذهاب ابن فرحون إلى أن الأسطوانة الملاصقة بالشبكة أسطوانة التوبة، لأن الذين كلفوا بكتابة هذه الكتابات ظنوا أن أسطوانتى الوفود والحرس خلف أسطوانة التوبة من الجهة الشمالية فكلفوا بكتابة العبارات السابقة فوق الأسطوانتين الملاصقتين خلف الشبكة وهذا يؤيد رأى ابن فرحون ويصدقه، مع أن الأسطوانة الملاصقة بالشبكة أسطوانة السرير، وإننى قد راجعت الباشا شيخ الحرمين لنقل هذه الكتابات إلى الأسطوانتين اللتين خلف أسطوانة التوبة بعد أن استشرت أفاضل علماء أهل المدينة وذلك فى سنة ١٢٨٧ هـ.

وقد استصوب فكرى سواء أكان أمين باشا أو قاضى المدينة محمد توفيق أفندى ولم يعيرا آذانًا صاغية لوشايات الفرقة المخالفة، ولكن بما أن أمين باشا قد انفصل عن المشيخة لم يتيسر تحقيق المرام.

٧ـ **أسطوانة مربعة القبر**: إن أسطوانة مربعة القبر الجليل فى مكان يطلق عليه مقام جبريل أى فى اتصال الانحراف الغربى الشمالى وهو عمود موزون.

وبما أنه بين أسطوانة الوفود وأسطوانة مربعة القبر الشريف وفى اتصال شبكة الحجرة المعطرة أسطوانة أخرى، فأسطوانة الوفود، الأسطوانة الأولى وأسطوانة مربعة القبر الثالثة والأسطوانة الموجودة بين الاثنين الأسطوانة الثانية بالنسبة

للأسطوانتين وبما أن باب دار سعادة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان بجانب أسطوانة مربعة القبر الجليل كان النبى ﷺ يفتح باب الدار المشار إليها كل صباح ويورد بالآية الجليلة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. (الأحزاب: ٣٣). وعلى قول يقول ملاطفًا كريمته المحترمة الصلاة الصلاة ويلمح أن الوقت قد حان لإيقاظ الحسنين لأداء الصلاة.

قال العلامة ابن سليمان يجب ألا ينسى أداء الصلاة فى هذا المكان؛ لأن باب دار السيدة فاطمة كان هنا، هذا ما قاله لى مسلم.

وبما أن أسطوانة مربعة القبر الجليل والأسطوانة غير المسماة سالفة الذكر قد أدخلتا داخل الحجرة المعطرة لا يستطيع الزوار الكرام أن يتنعموا بزيارة هاتين الأسطوانتين ومحراب فاطمة والأسطوانة التى تحمل هذا المحراب وبما أن ذلك المكان المذكور يحاذى قبر السعادة لا يستطيعون حتى أداء الصلاة فيه.

وكان علماء الأسلاف قد اعترضوا على عمل الشبكة التى تحيط بحجرة السعادة كما اعترضوا على غلق الأبواب التى تفتح لهذه الشبكة وسدها حين صنعها ولكن اعتراضهم لم يفد شيئًا.

٨ـ **أسطوانة التهجد:** بما أن إمام المجتهدين ـ عليه السلام ـ قد اعتاد أداء صلاة التهجد بجانب هذه الأسطوانة اشتهرت بأسطوانة التهجد.

كان سيد الأبرار بعد أداء صلاة العشاء وانصراف الأصحاب الكرام إلى منازلهم يفرش بجانب أسطوانة التهجد قطعة من الحصير ويداوم على أداء صلاة الليل، وكان ينصب فى هذا المكان خيمة من الحصير ويعتكف فيه فى الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، وقد أطلع على هذا الأمر المدققون من الأصحاب فأخذوا يؤدون صلاة الليل مقتدين بالنبى والذين رأوهم فعلوا مثلهم فزاد عدد المصلين صلاة الليل مع مرور الأيام ورفع سيد الواقفين على أسرار الحكمة ﷺ حصيرته فى ليلة من الليالى ودخل إلى حجرته، وقال لأصحابه الكرام الذين

استقصوا على الأمر متأسفين: «خفت من أن تفرض عليكم صلاة الليل! لأنكم غير قادرين على أداء صلاة الليل». وهكذا بين لهم ما فى ضميره.

تقع أسطوانة التهجد خلف الجهة الشمالية من المنزل الخاص بالسيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وبنى فى المحل المذكور مؤخرًا محرابٌ أشار إلى المكان الذى كان يتهجد فيه النبى ﷺ والذين يستقبلون ذلك المحراب يكونوا قد جعلوا باب جبريل على شمالهم وباب الرحمة على يمينهم.

يخبرنا المؤرخون مؤكدين على صحة إقامة محراب فى المكان الذى كان يتهجد فيه النبى ﷺ وأنه قد أطلق على هذا المحراب محراب التهجد، فالذين يقفون فى محل المحراب المنير المذكور متجهين إلى جهة الشرق يلزم أن يظل باب جبريل على الجهة اليسرى منهم، إلا أن ذلك المقام ذا الفيوضات ظل فى داخل شبكة السعادة وقد كتبت عبارة: «هذا مُتَهَجَّد النبى ﷺ» فوق الرخام الذى وضع فوق طاق محراب التهجد الذى يرى خلف المحراب من خارج الشبكة وقد حدد هذا المحراب فى عهد الإمام السمهودى ووضع فوق قطعة الرخام سالفة الذكر رخام آخر وكتب عليه برز الأمر بتجديد أعمدة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباى أعز الله أنظاره وتم ذلك على يد ابن الخواجة الشمس بن زمن وكتب فوق هذه العبارة تاريخ تعميره، إلا أن حريق سنة ٨٨٦ هـ قد محا الخطوط المنقوشة فوق الأعمدة وأزالها وأبدلت أساطين حجرة السعادة القديمة، وأسس مكان محراب التهجد القديم محراب جديد.

والمحراب الجديد ملاصق لمقبرة السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ من ناحية قدميها وترتفع مقدار ذراعين والمحل المعد للصلاة منخفض قليلاً وأعلاه عمودى وشكله مربع.

٩ـ محراب باب الجنائز: يقع هذا المحراب على يسار من يتجهوا إلى الجهة القبلية وبما أنه فى داخل شبكة السعادة فمن المتعسر زيارته، وبما أن المحراب الشريف مستور وتلك الجهات من شبكة السعادة مظلمة فسيضطر خدام المسجد أن

يفتحوا باب حجرة السعادة عندما يصنعون فتائل وزيوت قناديل المسجد، فالذين يريدون أن يسعدوا بزيارة المحراب الشريف ينتظرون فتح باب الحجرة اللطيفة كما سبق ذكره، لعلهم يوفقون فى زيارته، وإلا فزيارته فى الأوقات العادية غير محتمله، إلا إذا وجدوا طريقًا آخر بإعطاء جوائز وفيرة أو بإيجاد واسطة ما، وفى جانب هذا المحراب المقدس وفى خارج شبكة السعادة محراب صغير أيضًا وما سبق ذكره عاليه بمحراب التهجد إنه ذلك المحراب الشريف وكتب على جناحه اليمين واليسار.

«أمر بعمارة هذا المتهجد الشريف العبد الفقير المعروف بالتقصير السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى نصره الله سنة ٨٨٨» كما كتب فوق طاقة المعلا بخط جلى «بسم الله الرحمن الرحيم» وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم قال الله تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾**. (الإسراء: ٧٩).

كتبت تلك الآية مذهبة كما علقت فوق هذا الخط اللوحة المزينة التى كتبت بخط يد السلطان محمود خان العدلى ابن السلطان عبد الحميد خان المرحوم «حسبنا الله ونعم الوكيل».

إن المحراب الشريف الذى عرف على قدر الإمكان هو المحراب الذى يزوره الزوار متبركين على أنه محراب التهجد، وإن هذا الأثر الذى أثبت المؤرخون بالأدلة القطعية أنه أثر مقدس هو الأسطوانة النفيسة والمسعودة التى ظلت فى داخل الشبكة وقد جددت فى عصر السلطان عبد المجيد وكتب فوقها آية التهجد، ومع هذا ففضل كل مكان وموقع وشرفه غير قابل للاعتراض عليه، فأى مكان من المسجد لو شرف بالزيارة فمن المأمول الحصول على أجر عظيم ومكافأة روحية كبيرة.

إن الأعمدة التى كانت فى عصر السعادة تلك الأعمدة الثمانية التى ذكرناها وقد بلغ عددها فيما بعد إلى ثلاثمائة عمود وسبعة أعمدة، وكلما وجد مسوغ

شرعى لتوسعة المسجد الشريف زاد عدد أساطينه، ولكن بما أن المهاجرين والأنصار من الصحابة العظام قد تقيدوا ووصلوا حول هذه الأعمدة الثمانية فعلى الذين يريدون أن يزوروا حجرة السعادة أن يقفوا وأن يصلوا بجانب كل واحد من تلك الأعمدة الثمانية على حدة محرمين.

وفى الروضة المطهرة للنبى ﷺ ثلاثة صفوف من الأساطين التى لا تقدر بثمن على أن تدخل فيها بعض الأساطين المشروحة وفى كل صف أربعة أعمدة.

وقد كتبت فى عهد السلطان سليم خان الثالث فوق أربعة من هذه الأعمدة المباركة أربعة أبيات وعلى سبع منها بيتان وعلى واحد منها بيت واحد بديع التركيب وزينت بالتذهيب وهذه الأبيات فاضت بها قريحة السلطان سليم الثالث بن السلطان مصطفى خان الثالث وهى مما يدل على تقواه وورعه وشعار تدينه ـ عليهم الرحمة والغفران.

الأبيات التى سطرت على الأساطين الأربع من الصف الأول:

الأسطوانة الأولى[1]

السلام عليك يا مهبط الوحى الأمين

يا من يعشقك بروحه الروح الأمين

إنما الأرض على السماء فخرت

لأنها جسمك الطهور حوت

عماد شوكتك طاق الفلك

لذا أصبح الركن الركين بك

لتكن لسليم خان نعم المعين

إنه وطد الأساس للملك والدين

(١) هذه الأسطوانة الأولى بدءاً من منبر السعادة.

الأسطوانة الثانية[1]

يـا مليـك الـكرم أيهـا السـلطان الـكريم
بعبـوديتـك يفخـــر الســلطان ســليم
كأنمـــا يتمســـك بقائمـــة عرشـــك
وهـــو يعظـــم أركـــان شـرعـــك
أنـــا عبـــد لـــك جـــد بالإحسـان عـــلى
وليـكن فـــى الدنيـــا والآخـــرة لـــدى
على روضتك المطهرة صلوات وصلوات
وعـلى كـل صـلاة تسـليمات وتسليمات

الأسطوانة الثالثة[2]

يـــا زهـــرة روضـــة ديـــن الإســـلام
عليـــك فـــى كـــل لحظـة سـلام وسـلام
كيـــف لا يـكون مـــن الياقـــوت جسـد
ولقصـــرك مـــن الرخـــام عمـــد
طوبـــى للســـلطان ســـليم الأجـــل
الـــذى أنجـــز هـــذا العمـــل الأمثـــل
أكرمـــه يـــا مـــن أنـــت سـيد الـكرام
فاللطـف بالعبيـد مـن الـكرام يـرام

الأسطوانة الرابعة[3]

رفيـع الروضـة فخـــر الرسـالات
تحـــت عرشـــه روضـــة الجنـــات

(١) وهذه أيضًا الثانية بدءا من منبر السعادة.
(٢) هذه الأسطوانة هى الثالثة من ناحية المنبر.
(٣) هذه الأسطوانة هى الرابعة من ناحية المنبر.

أيمـــا إنســـان إلـــى عمـــودك نظـــر

أمـــن مـــن كـــل ضـــجر وكـــدر

سـليم خـان ابن مصـطفى خـــان المؤيـد.

يـــا حَـــبَّذا مـــا قـــدم مـــن يـــد

هبـــه يـــا رسـول الله بركتـك فـى دنيـاه

وأنلـــه ســـعادتك فـــى أخـــراه

إن الأساطين الآتية الذكر أمام محراب النبى وإنها مرتبة فى صف واحد من منبر السعادة إلى شبكة الحجرة المعطرة.

الأسطوانة الخامسة[1]

أجـــرى أن يـكتـب النعـت القـــلم

واصـــفا بـــه رســـول الله الأعـــظم

حبـذا حبـيب الحـق منقـطع القريـن

كأنـه سـرة نـور فـى عـين الناظريـن

الأسطوانة السادسة[2]

كانت ذاتـه الطاهـرة لخلق الكون السبب

بـين عـلو قـدره والعـرش الأعـلى نسب

حمـد الله الـذى جعـلنا مـن أمتـه قـدرًا

أنـــى يـؤدى عـلى تـلك النعمـة شـكرًا

الأسطوانة السابعة[3]

شـــراء النـاس مـن أهـل الجـهل والـكفر

إن آمنـوا عرفـوا يـا لـه مـن قـــدر

(١) هذه الأسطوانة هى الخامسة من ناحية المنبر.

(٢) هذه الأسطوانة هى السادسة من ناحية المنبر.

(٣) هذه الأسطوانة هى السابعة من ناحية المنبر.

إثمـد بصرى مـا تحـت قدمـه مـن رغـام

غبـار طريقـه يبـدد يـوم الحـشر الظـلام

الأسطوانة الثامنة[1]

أنـت شـمس العالمـين يـا خيـر الرسل

شعار شمسك منه الدين والدنيا فى أبهى الحلل

أنـت لا تضـن عـلى عبدك بلطف ورحمة

يـا مـلك الـكون فاقـض لـه الحاجـات

وهذه الأساطين الأربع المباركة تقع أيضًا خلف الأسطوانات التى فى الصف الأول وتعد كذلك ابتداء من منبر السعادة.

الأسطوانة التاسعة[2]

ألهمت ذكـر ألـف صفة مـن صـفاتـه

فنظمت نَعْتَـهُ الطاهـر أمـلا فـى شفاعتـه

كيـف أسـتطيع وصـفه بمـا بـه يليـق

الحـق مـن يصـفه بمـا هـو بـه حقـيق

الأسطوانة العاشرة[3]

يا معدن الكرم أطلقتنى من ظلمة الغم

أنا ملك ولكن لست من عبده من رحمة حرم

شمعة شوقى إليك لها فى القلب شعاع

وزاد بكرمك ما لها من حرقة واندلاع

(١) هذه الأسطوانة هى الثامنة من ناحية المنبر.

(٢) هذه الأسطوانة هى التاسعة من ناحية المنبر.

(٣) هذه الأسطوانة هى العاشرة من ناحية المنبر.

الأسطوانة الحادية عشرة[1]

فى الأفلاك التسعة كل إنس وجن وملك له عبد

ونجدته كان لكل مليك ما له من سؤدد ومجد

فليكن وردى دائمًا ذكرت صلاته

سيد الرسل إن بركته منحنى

الأسطوانة الثانية عشرة

على روحه الطاهرة ألف صلاة وسلام

تلهمنى الرجا فى نيل رخصة شفاعته

إن هذه الأساطين الأربعة هى الأساطين المباركة التى فى الصف الثالث وبما أن الأسطوانة الثانية عشرة ملتصقة بمقصورة المؤذنين يطلق عليها أسطوانة المكبرين أيضًا.

استطراد

فى زماننا هذا فى مسجد السعادة ٢٢٩ أسطوانة بما فيها الأساطين المباركة، خمس وعشرون منها فى داخل الروضة المطهرة وما حولها والبقية فى الجهات الأخرى من المسجد الشريف، ولكن أسس الركائز التى ظلت فى داخل الجدران لا تدخل فى هذا الحساب.

(١) هذه الأسطوانة هى الحادية عشرة من ناحية منبر السعادة.

الصورة الثامنة

فى ذكر وبيان المقام واجب الاحترام الذى يطلق عليه «الصُفَّة» وأين تقع هذه الصفة فى مسجد السعادة ومما تتكون ومن هم الأشخاص الذين يطلق عليهم «أصحاب الصُفَّة».

كانت الصفة الشريفة التى كانت محل إقامة أصحاب الصفة بناء على تحقيق المرحوم القاضى عياض وروايته فى نهاية مسجد المدينة السعيد الشمالى، وكان الصحابة الفقراء الذين يردوا إلى المدينة المنورة المهجر النبوى يسكنون فى الصفة الشريفة، وكانوا يعبدون الله ليلاً ونهاراً، لما كانت الصلاة تؤدى فى اتجاه البيت المقدس كان محراب المسجد الشريف مكان الصفة المسعودة، وبعد أن تحولت القبلة إلى مكة المعظمة أصبح ذلك المكان وقفًا لإقامة المهاجرين الغرباء، وبما أنه بعد تحويل القبلة لم يبق فى ذلك المكان محراب مخصوص فعقب تحويل القبلة صنع فى ذلك المكان مظلة لإقامة الأصحاب الغرباء واعتاد بناء على ذلك أن يقيم فى هذه المظلة من لا مأوى ولا سكن ولا عيال ولا أولاد لهم.

وكما أوضحنا فى الصورة الأولى من الوجهة السادسة عندما تكاثر المهاجرون الكرام الذين لا صلة لهم بأهالى المدينة رأى النبى ﷺ الذى يطيب خاطر أمته أنْ يؤوى هؤلاء الضعفاء فى هذا المكان المبارك ويحدثهم ويخفف عنهم كربهم ويرفع من معنوياتهم إلى أعلى مكانة، ولما زاد إحسان النبى ﷺ لمهاجرى دار ضيافة المدينة ولسكان الصفة المباركة ساعةً بعد ساعة حتى تمنى أهالى المدينة وأغنياء المهاجرين أن يكونوا من أصحاب الصفة، وأخذ فقراء المدينة يداومون على الإقامة مع أهل الصفة حتى يشاركوا أهل الصفة فيما يتناولونه من آيات الغفران، وهكذا عدوا من أصحاب الصفة وبناء على ذلك كان العبيد الذين يحررهم النبى ﷺ ويعتقهم والذين كانوا يفتخرون بخدمة النبى يصرون على ألا ينفصلوا عن قرب النبى لأجل ذلك يفضلون أن يصبحوا من أصحاب الصفة كما كان يعد

أقرباء سلطان الدين والسادات والأنصار والمهاجرون وأشخاص آخرون أن يجلسوا ويحادثوا أصحاب الصفة من أقصى آمالهم، وبهذا أدخلوا ضمن الجماعة السعيدة من أصحاب الصفة وعدوا منهم.

وكان فَقْرُ أصحاب الصفة وشدة حاجاتهم فى حالة تجل عن الوصف، وبناء على ما يرويه الصحابى أبو هريرة كان بينهم بعض الأشخاص الذين كادوا أن يكونوا عراة من شدة حاجتهم وإنهم استطاعوا أن يتداركوا بعد آلاف المشقات والصعوبة قطعة من قماش لا تكاد تستر محال عوراتهم، ولم تكن قطعة القماش التى اتخذوها ملابس على طول واحد إذ كان بعضها أميل إلى الطول وكان بعضها قصير، وكانوا يسترون بها ما تحت خصورهم، وكان الذين لهم أقمشة قصيرة يغطون بها جسمهم من خصورها إلى ركبهم فقط ومن كان قطع أقمشتهم أطول كانوا يغطون إلى سيقانهم، وكان أداء الصلاة بهذه الحالة وفقًا للآداب الشرعية يكاد أن يكون مستحيلاً لأجل ذلك كانوا يدخلون قطع القماش ما بين سيقانهم بصعوبة كالإزار وبهذا ينقذون صلواتهم من الكراهة وبعد أداء الصلاة كانوا يلفون بهذه الأقمشة خصورهم.

وكانت أقوات أصحاب الصفة اليومية من الأشياء الرخيصة مثل البلح، إلا أنهم عندما تقوم الحروب كانوا يشاركون فيها غالبًا وكانوا يقاتلون فى منتهى الشجاعة.

قال أحد فضلاء الأصحاب وهو فضالة بن عبد الله: كنت أصلى يومًا فى زاوية من الزوايا الشمالية من المسجد، وفجأة قام أصحاب الصفة على أرجلهم ووقفوا وقفة الاحترام والتعظيم وفى سكوت تام، إذ كان سلطان عرش الدين - عليه صلوات الله المعين قد شرف المكان، وقال فريد العالم ﷺ فى أثناء تقربه من صفوف أهل الصفة، «لو وقفتم على مدى حب الله لكم لتمنيتم أن تزدادوا فقرا وحاجة».

وكان أصحاب الصفة فى غاية الفقر وكانوا فى حاجة إلى نصف لقمة من الخبز ومن هنا كان معدن السخاء - عليه وعلى آله أصفى التحايا - يطعمهم صباحًا

ومساءًا وكان الأصحاب الأغنياء يمتثلون لأوامر النبى ﷺ التى يطيعها العالم كله ويصحبون معهم اثنين أو ثلاثة من هؤلاء إلى منازلهم لإطعامهم كل على قدر ثروته.

وإن كان ما يرويه حضرة فضالة كافيًا لإيضاح مدى فقر أصحاب الصفة وشدة جوعهم وشدة تحملهم للحاجة والفقر إلا أن أبا هريرة بما أنه كان معينًا للاطلاع على أحوالهم وشئونهم من قبل الرسول ﷺ؛ لذا فهو يعرف أحوالهم أكثر من الأصحاب الآخرين.

يتفضل حضرة أبو هريرة قائلاً: «رأيت أن بين رفقائى سبعين نفرًا كانوا عراة تمام العرى إذ لم يكن معهم إزار أو رداء وإن كان بعضهم قد وجد قطعة من القماش وستروا أماكن عوراتهم إلا أن أكثرهم لم يستطيعوا العثور على قطعة قماش قديمة فغطوا أمامهم بأيديهم وستروا عوراتهم بهذا الشكل.

أقسم بالله الذى لا إله غيره ـ تعالى شأنه عما يقولون ـ إننى لم أستطع أن أتحمل يومًا الجوع وأسندت بطنى على الأرض متصورًا أنه يساعدنى على الصبر والتحمل ومع مرور الزمن اشتد جوعى وزاد اضطراب جسمى فالتقطت من الأرض حجرًا وشددت به بطنى، كان غرضى أن أجد حلاً للجوع وقد وصلت حالتى لدرجة أنى يئست من الحياة، وخرجت إلى الطريق لعلى أجد أحدًا من أهل المروءة يمر من الطريق، وبعد وقت قصير ظهر الصديق الأكبر وبعده ظهر الواقف على أسرار البشر، ونظر إلى بابتسامة تبعث الحياة وأجال نظره ثم قال: «تَعَالَ يا أبا هريرة» فمشيت خلفه ودخلت بيته بعد الاستئذان ووجد قدحًا من اللبن وسأل عن الذى أتى بهذا اللبن فقيل له إن أحد خدم الحرم أهداه وقدمه، ثم توجه إلى بالحديث قائلاً: «إن هذا اللبن من حق أصحاب الصفة! اذهب وَائْتِ بجميع إخوانك إلى هنا، إنكم ضيوف المسلمين الأعزاء والمحترمين؛ إنكم لا تملكون أهلاً ولا عيالاً ولا أموالاً وليس لكم مأوى ولا مسكن!» وكان جوعى قد تجاوز حده ورأيت اللبن فى القدح قليلاً ومن هنا قلت يا رسول الله كيف يشبع قدح من اللبن هؤلاء! إنهم سبعون رجلاً بالتمام والكمال وأردت بهذا أن

أشير إلى عدم كفاية اللبن، إلا أننى قد أخذت منه الجواب المعجز إذ قال: «ما عليك إلا أن تأتى بهم فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ينعم بالبركة للبن» فذهبت إلى أصحاب الصفة وسحبتهم خلفى حتى عفرت وجهى بتراب أرجل الرسول ﷺ وشربنا من ذلك اللبن حتى شبعت بطوننا وقدح اللبن ينتقل من يد إلى يد ولم تنقص قطرة من لبن القدح، إلا أننا لم نستطع أن نشرب أكثر مما شربنا وقد شبعنا إلى درجة أنه بعد أن شربنا بحرص الجائع أصبحنا نتنفس بصعوبة.

يفهم من تعريف أبى هريرة هذا أن فقر أصحاب الصفة وشدة حاجتهم لم يكونا ينقصان من قدرهم لدى النبى ﷺ بل كان يزيد قدرهم عنده كلما زاد فقرهم وحاجتهم وكلما كان حامى دين الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ يشرف مسجد السعادة كان يلاطف المشار إليهم ويطيب خاطرهم بالحديث إليهم وعقب الصلوات كان يستدعى كل واحد منهم على حدة إلى مجلسه مجلس الملائكة ويستفسر عن أحوالهم.

فى الوقت الذى أخذت القبائل ترسل سفراءها لغرض قبول الإسلام، وعندما كثر القرشيون فى المدينة دار السكينة متحيرين بين قبول الإسلام ورده، حسد أشراف قريش ما يظهره النبى ﷺ نحو أهل الصفة من آيات المودة وأخذوا يتقولون فى طرد المشار إليهم من المجلس النبوى وإبعادهم منه، حتى إن الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى والآخرين نالوا شرف حضور المجلس النبوى ورأوا أن ثلاثين من أصحاب بدر الفقراء يحيطون بالنبى ﷺ كهالة القمر فأخذتهم العزة والغرور بالإثم وخرجوا عن شعورهم ووعيهم وقالوا: «يا رسول الله أبعد عن مجلسك العالى ابن مسعود، وبلال الحبشى ومقداد بن الأسود وسلمان الفارسى وصهيب بن سنان الربيعى وأمثالهم من الغرباء! إننا من العظماء الذين يرعى جانبهم بين الأقوام القرشية فيجب رعاية جانبنا، نحن نتحادث مع ذاتك الكريمة ونستفسر عن الإسلام ونستمع إلى الأحاديث والقرآن، إن الوفود العربية تأتى وتذهب بكثرة ويروننا بين أسافل الناس، وإن هذه الحالة تجلب لنا العار!! إننا ذوو قدر وتوقير بين الناس، فإذا ما

خصص لنا مكان عال يصدق سفراء أقوام العرب فضلنا ورحمائنا على الفقراء!» وتباهوا وتفاخروا بمثل هذه الكلمات.

وقال سيدنا سرور الأنام ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إننى لا أستطيع أن أطرد المؤمنين من مجلسى» مجيبًا، إلا أنهم قالوا إن مجالسة الفقراء تجلب لنا العار والحقارة والخجل، على الأقل فكلما نأتى إلى مجلسك فلينصرف هؤلاء الفقراء من مجلسك متعللين بأى سبب كان إذا ما روعى هذا النظام فنحن نعرض انقيادنا وطاعتنا لك وأرادوا بهذا النهج أن يحصلوا على رضا النبى ﷺ وأن يعطى لهم عهدًا بذلك وإذ رجوا ذلك أحضر معدن الحلم والكرم ﷺ سيدنا على حيدر الكرار ليكتب لهم عهدًا وفق مطالب المذكورين، ولكن عقب ذلك أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الآية التى تقول ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾. (الأنعام: ٥٢). فصرف النبى ﷺ النظر عن كتابة العهد وأحضر أصحاب الصفة ـ رضى الله عنهم ـ وقرأ عليهم الآية التى نزلت فى حقهم.

استطراد

كان فى ذلك الوقت بين القبائل العربية وخاصة بين شعبتى بنى أمية بَنِى مخزوم كثير من الحمقى انتعلوا الغطرسة والتكبر والتعظم وهم من الطائفة العرشية.

وقد وصل الغرور ببعضهم حد أنهم لم يجدوا فى هذه الدنيا الواسعة رجلاً يستحق مصاحبتهم وقالوا: «لا يدانينا إلا فرقدا[1] السماء».

وإنهم لم يدركوا أن الكبر يجلب غضب الحق ويستوجب نفرة الخلق وأنه عندما ينفر الناس من أحد لن يستطيع أن يعيش حياة طبيعية سليمة وبناء على القول الذى يقول فى حق المتكبر: «الكبر على أهل الكبر صدقة» فكل الناس سينظرون إليه بالحقارة ومن هنا لن تستقيم حياته.

(١) الفرقدان: نجمان ظاهران فى مكان ثابت تقريبًا يهتدى بهما ليلاً. أحدهما النجم القطبى، وآخر بجانبه.

أنعم أشرف الأنبياء سيدنا محمد على وائل بن حجر واقتطع له قطعة من الأرض وكلف حضرة معاوية بكتابة وثيقة بملكيتها وأن يرى حدود هذا الموقع؛ وبعد أن أخذ وائل قطعة الورقة التى سطرت عليها ملكيته للأرض ركب جمله وخرج مع حضرة معاوية إلى الطريق.

وقطعا مسافة لا بأس بها، وكان معاوية ماشيًا على قدميه لأنه لا يمتلك جملاً ولما اشتدت حرارة الشمس مع مرور الوقت وأصبح المشى فوق التحمل استأذن معاوية من وائل أن يكون رديفه فى ركوب الجمل كما جرت العادة بين العرب، وكان هذا الرجاء قد جرح عظمة وائل وكبره إذ قال له يا معاوية إنك لست جديرًا بأن تكون رديفًا لواحد من أعاظم العرب وأشرافهم وعندئذ قال له معاوية إذا كان كذلك فأعرنى نعليك فإنهما أكثر متانة من نعلى حتى لا تؤذى قدماى فقال له وائل: «يا ابن أبى سفيان، إننى لست رجلاً بخيلاً؛ ولكن الملوك الذين فى حوالينا إذا ما سمعوا الخبر سيؤذى كبريائى، كفى لك شرفا بأن تسير فى ظل جملى»، وبهذا بين له أنه لن يتنازل حتى عن نعليه، وبعد مدة استولى على عظمة وائل وأرضه جيوش الفقر وتبدلت أحواله بينما أصبح معاوية بن أبى سفيان واليا على معظم سواد الشام، وسافر ابن حجر إلى الشام ليشتكى تقلبات الزمان الظالمة وتلاقى بمعاوية مضطرًا، فاستقبله معاوية باحترام عظيم وأجلسه على سريره الخاص وسره بأن أجزل له العطاء ولم يتذكر الواقعة السابقة بل أخجل ابن حجر وأومأ له بأن الذين يتخلقون بالأخلاق المحمدية يتصفون بهذه المزايا العظيمة.

إذا ما وازنا مقابلة معاوية الجميلة لابن حجر فى ضمائرنا نحكم أن أخلاق أشراف القبائل العربية قد تبدلت فى عصر السعادة تبدلاً جذريًا.

قد فهم متكبرو الطوائف العربية أن الكبر والعظمة من الصِّفَات التى توجب غضب رب العزة وأنهم لاشك قد أصلحوا من أخلاقهم فى عصر النبى ﷺ إلا أن المرويات الآتية تثبت أنه كلما ابتعد عصر السعادة حدثت تحويلات كبيرة فى حال متكبرى العرب وشأنهم.

مثال ـ عندما قيل فى عصر الخلفاء العباسيين لأحد المتكبرين من بنى عبد الدار لماذا لا تسافر إلى الخليفة وتعمل على كسب حسن توجهه نحو قبيلتنا؟ فأجاب أخاف ألا يتحمل الجسر الذى سأعبر عليه أو الجمل الذى سأركبه ثقل شرفى ومزيتى وكأنه أراد أن يرمى إلى أن الخليفة إذا ما قصر فى حسن قبولى ورعايتى سيؤذى كبرى.

وكان الحجاج بن أرطأة من متكبرى العرب القدماء يتجنب الصلاة مع الجماعة، ويقول للذين يسألونه عن عدم إتيانه إلى المسجد لأداء الصلاة مع الجماعة إننى أخجل أن يقف على جانبى رجال بسطاء لأداء الصلاة.

وكان كبر ابن ثوابه يفوق جميع تكبر جميع متكبرى العرب وكان تعاظمه ونخوته أشنع وأقبح بدرجات عن غرور الحجاج بن أرطأة وهذا الأحمق الذى كان من عظماء العرب إذا ما أضطر لمكالمة أحد الزراع كان يغسل فاه بعد المكالمة.
لمؤلفه الفقير:

إذا مـا عـرف المتـكبر مضـرة كبـره
بقبضـة الندامـة يضـرب صـدره

«انتهى»

فهؤلاء وأمثالهم من المتكبرين من رجال قبائل العرب والمتعاظمين كانوا يعدون وجود جماعات أصحاب الصفة فى مجلس السعادة حقارة لهم وإقلالاً من شأنهم؛ لذا سعوا معهم بطردهم منه؛ وكانت لهم وسائلهم وحيلهم الشيطانية وفى النهاية أطلعوا النبى ﷺ على ما فى ضمائرهم وطلبوا كتابة عهد بذلك؛ ولكن هذه الجماعة العظيمة كانت قد انصرفت سواء أكانت عن الدنيا أو عن مكاسبها كلية ولازموا مسجد السعادة وادموا فى عبادة رب العزة ومن هنا لم يستطع هؤلاء المتكبرون ترويج أفكارهم المسمومة، وقد صدقت الآية الجليلة (ولا تطرد الذين...) (الأنعام: ٥٢) صدقهم وصفاء قلوبهم، ويعد بعض الناس عدد أهل الصفة أربعمائة نفر ويوصلهم البعض إلى ستمائة نفر، وبناء على تدقيق أبى نعيم الأصفهانى فى مؤلفه «حلية الأولياء» بغض النظر عما ورد فى أسماء

أصحاب الصفة من الاختلافات أن بعض أصحاب الصفة قد تأهلوا وتركوا الإقامة فى الصفة الشريفة كما أن بعضهم خرجوا للسياحة ولم يقيموا فيها فى صورة دائمة ومن هنا لا يمكن تعيين عددهم بالضبط: ولكن سواء أكان المتزوجون فيهم أو مَنْ خرجوا للسياحة كانوا يعدون موجودين فى الصفة ويتساوون حسب المزية فى درجة واحدة، وكان بينهم من لهم نفوذ ومن يراعى جانبهم وكان أبو هريرة، كما أشير أعلاه، يعد رئيسهم ونقيبهم. حتى إن أبا هريرة كان يتولى تفقد أحوالهم والاستفسار عن شأنهم بموجب الأمر النبوى ويعرض أحوالهم إلى السدة النبوية وكان يعمل وفق الأوامر التى تصدر من النبى ﷺ.

أصحاب الصفة الذين أورد أبو نعيم أسماءهم الجميلة ومناقبهم الجليلة من بين هؤلاء:

أوس بن أوس الثقفى، أسماء ابن حارثة الأسلمى، أبو عبد الله ثوبان بن بجدد، أبو سعد ثابت بن وديعة الأوسى، أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى، أبو عبد الرحمن جرهد الأسلمى، أبو سريحه حذيفة بن أسيد الغفارى، أبو عبد الله حارثه بن النعمان الأنصارى، أبو عبد الله سلمان الفارسى، أبو عبد الرحمن سفينة، أبو كبشه سليم الفارس، أبو هريرة عبد الرحمن الدوسى، أبو رزين أبو فراس الأسلمى، ابن الخصاصية، بشير بن يزيد، أبو عبيده عامر بن عبد الله الجراح، أبو مويهبة، أبو ريحانة شمعون الأزدى، وبرة، نضلة بن عبيد الأسلمى، أبو عسيب أحمر، أبو عيسى بن مريم بن سالم، أبو اليقظان عمار بن ياسر، بلال بن رباح الحبشى، ثابت بن الضحاك الأشهلى، جرهم أبو ثعلبه الحسينى، جعيل بن شرأفة الضميرى الغفارى، جارية بن حُميل الأشجعى، حبيب بن زيد الأنصارى، حازم بن حرملة الأسلمى، حنظلة بن أبى عامر، حجاج بن عمرو المازنى، حكم بن عمرو الثمالى[1]، حرملة بن إياس، خُبَيْبُ بن إِسَافٍ الخزرجى، الحسين بن على بن أبى طالب، حجاج بن عمرو الأسلمى،

(١) انظر الإصابة ٢/ ٨٠ ترجمة رقم ٢٠٩٩، وقبلها ٢/ ٣٠ ترجمة رقم ١٧٨٢.

خباب بن الأرت التَّميْميّ، خنيس بن حذافة السهمى، خالد بن زيد الخزرجى، خريم بن أوس الطائى، دكين بن سعيد الخثعمى، رفاعة بن عبد المنذر الأوسى، زيد بن الخطاب العدوى، سعد بن مالك أبو وقاص الزهرى، سعيد بن عامر الجُمَحّى، سعد بن مالك الخزرجى، سالم بن عبيد، سالم بن عمرو الأنصارى، سائب بن خلاد، سالم مولى أبى حذيفة، شداد بن أسيد السلمى، صالح شقران الحبشى، صفوان بن دهب الفهرى، صهيب بن سنان الرومى، طخفة بن قيس الغفارى؛ طلحة بن عمرو البصرى، عبد الله بن ذو البجادين المزنى، عبد الله بن حرام السلمى، عبد الله بن مسعود الهذلى، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، عبد الله بن حرام السلمى، عبد الله بن زيد الجهنى، عبد الله بن أنيس الجهنى، عبد الله بن حارث الزيدى، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن قرط الأزدى الثمالى، عبد الرحمن بن جبير الحارثى، عتبة بن غزوان، عقبة بن عامر الجهنى، عباد بن خالد الغفارى، عمرو بن تغلب النمرى، عويم بن ساعدة الأوسى، عويمر بن عامر الخزرجى، عبيد بن سليم، عكاشة بن محصن الأسدى، عرباض بن سارية السلمى، عبد الله بن حبيش الخثعمى، عتبة بن عبد السلمى، عتبة بن النُّدَّر السلمى، عمرو بن عبسة السلمى، عبادة بن قرط الليثى، عياض بن حِمَارٍ المجاشعى، عبد الله بن طهفة الغفارى، عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، عبد الله بن منذر الجهنى، فضالة بن عبيد الأوسى العمرى، فرات بن حيان البكرى العجلى، كعب بن عمرو الخزرجى، كعب بن عمر السلمى، كناز بن حصين الغنوى، كنانة بن حصين العدوى أبو المدينة، مصعب بن عمير العبدرى، مقداد بن الأسود، مسطح بن أثاثه القرشى، مسعود بن ربيعة الهونى، معاذ بن الحارث النجارى، معاوية بن الحكم السلمى، مسعود بن ربيعة القارى وهو الهونى المتقدم، واثلة بن الأسقع الليثى، وابصة بن معبد الأسدى، هلال بن مولى المغيرة، هند بن حارثة بن هند، هبيب[1] بن يسار - رضى الله عنهم الستار.

(١) لم أجد فى الصحابة بهذا الأسم إلا هبيب بن مُغْفِل. انظر: الإصابة ٦/ ٢٨١ الترجمة ٨٩٣٥.

كيفية إعاشة أصحاب الصفة:

تعرضت أشجار النخيل فى أواخر عهد السعادة لنوع من الآفات وأشجار النخيل التى أصابها الآفة عندما أشرفت على إظهار ثمارها ذبلت أزهارها وبليت وسقطت على الأرض وأصابت الآفة خمسة وتسعين فى المائة من النخيل، وبهذا الشكل كان رأسمال الملاك وثروتهم قد ذهبا هباء ومُحيا تمامًا. وقام الزراع للقضاء على هذه الآفة بآلاف المحاولات حتى يجدوا حلاً سريعًا لهذه الآفة، وقاموا فى سبيل ذلك ببعض التضحيات إلا أن سعيهم وجهودهم ذهبت هباء، وإذا ما دامت هذه الحالة أصبح احتمال الحصول على المحاصيل من حدائق المدينة مستحيلاً، ومن هنا راجعوا طبيب الكائنات ـ عليه أسبغ التحيات ـ راجين أن يجد دواء لدائهم. فما كان من النبى ﷺ الواقف على أسرار الحكمة إلا أن اتخذ قراراً بأن يأتى كل من أصابت الآفة نخيله بعنقود من البلح صدقة خالصة لأصحاب الصفة وبنية صحيحة، وامتثل للأمر النبوى معاذ بن جبل من سادات الأصحاب وكان أول من امتثل وأسرع بقطف عنقود من البلح الطازج وأتى به إلى مسجد السعادة وبما أن الآفة انقطعت من حديقة معاذ بن جبل إثر هذا العمل وأبلغ الأهالى الرسول ﷺ أصدر النبى ﷺ تعليماته أن يأتى كل من ابتلى بالآفة بعنقود بلح لتوزيعه على أصحاب الصفة وأعلن ذلك على الزراع.

ومن هنا اتخذ أصحاب الحدائق عادة ألا يطعموا أولادهم وعيالهم قبل أن يقدموا عنقودا من البلح لأصحاب الصفة، واستمر أصحاب اليسار والثروة بعد زوال الآفة فى تقديم البلح إلى مسجد السعادة كصدقة لأهل الصفة متبركين وعدوا هذا العمل كنفع عام ومن هنا تنافسوا فى هذا العمل المبارك.

وتولى معاذ بن جبل بحفظ ما يقدم من البلح وأخذ يوزعه على أصحاب الصفة فى أوقات معينة مخصوصة، وكان محمد بن مسلمة من أكابر الصحابة معروفًا بالسماحة والسجايا السامية وكان رجلاً فاضلاً يسلك دائمًا أحسن المسالك، إذ كان فى باكورة مواسم البلح يأتى بعناقيد البلح التى يجمعها ويضعها

بين عمودين من أعمدة المسجد ومن رأى ذلك اتخذ عادة الإتيان ببعض عناقيد البلح ويضعها بجانب عناقيد البلح المشار إليه، ولما كان هذا النظام الحسن سببًا فى إعاشة أصحاب الصفة وتسهيل حياتهم فقد تعمم تقديم البلح حتى أصبح كقانون البلد، وعمل زراع البلد بهذا القانون ذو الفرائد واستمروا على ذلك فى عصر السعادة وهكذا أطعموا حضرات أصحاب الصفة.

وعندما كثرت عناقيد البلح فى مسجد السعادة ربط معاذ بن جبل بين الأعمدة التى تراكمت فيها العناقيد حبلاً وعلق عليه العناقيد وكان الأصحاب الكرام يهزون العناقيد بعصيهم ويدعون أصحاب الصفة وبعد تناول البلح كان أصحاب الصفة ينصرفون إلى الأروقة التى صنعت من أجلهم فى نهاية مسجد السعادة من جهة الشمال حيث يمضون أوقاتهم فى الطاعة والعبادة.

واستمر توزيع البلح بهذه الصورة إلى أزمنة الخلفاء الراشدين، ولكن فيما بعد كثرت حقول البلح وكثر الغرباء من الوافدين إلى المدينة حيث أصبحت الصفة الخاصة بأصحاب الصفة لا تتسع لإيوائهم ومن هنا أخذ ولاة المدينة المنورة ما يتبرع به الزراع من بلح التبرك وباعوا بعضه واشتروا بعض قرب الماء والنعال وأشياء أخرى وأخذوا يطعمون الفقراء الوافدين فى مواسم الحج طول إقامتهم حسب النظام السابق وأسعدوهم عند عودتهم بإعطاء كل واحد منهم قربة ماء ومقدارًا من البلح، وقد ألغى الولاة المتأخرون النظام السابق وأحالوا إدارة الزوار الفقراء إلى دار الضيافة النبوية، وبما أنه لم يبق الآن فى المدينة المنورة، لا الزراع الذين يقدمون البلح لإطعامهم ولا القادرون الذين يعنون بإطعام الفقراء ويفكرون فيه ومن هنا فالفقراء الذين نفدت نقودهم وطعامهم لم يجدوا إلا صاحب الرسالة عليه أكمل التحية يعرضون عليه حاجتهم وهكذا ينالون مطالبهم كما سيفصل فى المقال الذى فى خاتمة الكتاب.

ومكان المظلة والرواق اللذان صنعا خصيصًا من أجل أصحاب الصفة الذين يعيشون كما سبق ذكره فى الجهة الشمالية من محراب التهجد وتقع هذه الصفة

المسعودة بين محراب التهجد الشريف إلى باب جبريل تظل مقصورة محراب التهجد فى الجهة اليمنى ومقصورة صفة أصحاب الصفة المباركة فى الجهة اليسرى.

وأراد الأسلاف الكرام أن يحافظوا على مكان الصفة الشريف إلى يوم القيامة وبهذا التفكير المصيب رفعوا الصفة عن سطح المسجد الشريف بمقدار ذراع واحد وأحاطوا أطرافها بسور خشبى فى ارتفاع نصف ذراع وخصصوها لجلوس أغوات حجرة السعادة، ويقيم الزوار الأفاضل وشيخ الحرم والآخرون من الذوات الكرام ليصلوا الصلوات المفروضة فى صفة أصحاب الصفة كما أن حراس الحجرة المعطرة يمضون أوقات نوبتهم فى هذا المكان الجميل بقراءة أورادهم الخاصة، إن هذا المكان موضع مبارك فى غاية اللطف والروحانية ولا ينكر أهمية الصلوات التى تؤدى فى هذا المكان لشرفه إلا أن أداء الصلاة فى الروضة المطهرة ما دام يجد الإنسان مكانًا خاليًا أفضل من الصلاة فى الصُّفَّة. ولكن فى حالة ازدحام الروضة المطهرة بالمصلين وعدم وجود مكان للصلاة تؤدى الصلاة فى مقصورة أصحاب الصفة، وإذا ما تذكر الإنسان تراحم أحوال أصحاب الصفة ومناقبهم وفضائلهم فلابد أن يقدر أهمية موقع ذلك المكان.

وكيف لا يبعث هذا المكان صفاء وسكونًا للقلب؟ فمحراب التهجد أمامه ودار السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ خلف محراب التهجد والروضة المطهرة فى الجهة الشرقية القبلية منه وحجرة النبى ﷺ المعطرة فى التقاء الروضة المقدسة من الجهة الغربية.

فى تعريف الحجرة النبوية المعطرة.

ترك بانى أساس الشريعة عديم الاندراس ـ عليه أكمل التحية ـ عندما تفضل بوضع أسس مسجد المدينة مكانًا خاليًا فى جهة من جهات المسجد ليبنى عليه لزوجاته المطهرات أمهات المؤمنين حجرة عالية لكل واحدة منهن، وبعد ما تم بناء المسجد الشريف ابتدر ببناء دارين للسيدتين سودة وعائشة[1] ـ رضى الله عنهما ـ وسواء أكانت عمق هاتين الدارين أو حجرات زوجات النبى الأخريات كاملة ملكًا لحارثة بن النعمان، أو قدم حضرة حارثة العَرْصَةَ المذكورة للنبى ﷺ ورحل إلى مكان آخر وهكذا نال شرف مجاورة النبى ﷺ الغالية لمدة مديدة.

وقد كان لحارثة بن النعمان أولاً عَرْصَةُ الدارين سالفتى الذكر ورحل إلى الدار التى على اتصال بهذه الساحة، وتعود أن يعطى قطعة أرض للنبى ﷺ كلما احتاج لبناء دار ويرحل هو إلى دار أخرى وبهذه الطريقة كان قد تنازل عن جميع ما يملكه من الأرض عندما تم بناء حجرات زوجات النبى ﷺ.

إن الحجرات التسعة التى أسسها النبى ﷺ لزوجاته كان بعضها مبنيًا من الحجر والطين اللبن وبعضها من جذوع النخيل قد طلى فوقها بالطين وصنعت أسقفها جميعًا من جريد النخيل، وكان ارتفاع جدرانها عامة فى حدود ثلاثة أذرع، وكانت بين دار السيدة عائشة وباب الرحمة، أى حجرات نسائه جميعًا كانت فى الجهة القبلية والشرقية والجهة الشمالية للمسجد الشريف، والدار التى كان يحبها النبى ﷺ وأكثر ما كان يسكن ويقيم فيها كانت دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ وكان يفتح بابها إلى الساحة الرملية وكان مصراعه مصنوعًا من خشب العرعر أو من خشب الساج على قول آخر، وكان الأصحاب الكرام والتابعين يدخلون فى

(١) عندما بنى مسجد السعادة لم تكن للنبى ﷺ إلا زوجتان.

حجرات النبى بعد ارتحاله عن دنيانا ويؤدون فيها ركعات التحية ويذكرون المحاسن النبوية وينتحبون متحسرين كما أن المشتاقين للجمال المحمدى يؤدون صلاة الجمعة فى داخلها، وهذا التصرف دليل كاف للدلالة على مدى حب أصحاب النبى الكرام لرسولهم.

حكاية

رأى النبى ﷺ يومًا من الأيام ثوبان - رضى الله عنه - فى غاية الهم والغم وهو واقف فى حضرته فسأله قائلاً: «يا ثوبان مالى أراك فى هذه الدرجة من الحزن والهم؟» فتحضر حضرة ثوبان للإجابة قائلاً «يا رسول الله إنك ستكون فى مقام عال مع الأنبياء الكرام! ففكرت ماذا سيكون إلى فى ذلك الوقت إذا سأحرم من رؤية جمالك الكامل، ومن أجل ذلك ملأنى الهم والغم» وبناء على قوله هذا نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم**﴾. الآية (٦٩: النساء) ويروون هذه القصة فى حق زيد بن عبد ربه أيضًا، كان زيد يحب النبى ﷺ حبًّا جَمًّا، وعندما ارتحل النبى ﷺ كان زيد مشغولاً فى حديقته، وعندما جاء ابنه وأخبره بهذا الخبر المؤثر رفع يديه عاليًا وقال: «يا رب أزل نور عينى!!! حتى لا تريا بعد وجه رسول الله ﷺ أحدا!» وأصاب سهم دعائه هدفه فعميت عيناه من تلك اللحظة؛ رضى الله عنه.

حكاية أخرى

كان زيد بن الدثنة من الذين يحبون الرسول الأكرم حبًا مفرطًا، ولما وقع فى يد مشركى مكة وأخرجوه من الحرم ليعيدوه جاء أبو سفيان وقال: «يا زيد قل لى بالله لما كنت تود أن يكون مكانك محمد وضرب عنقه بدل عنقك وتعود أنت إلى عيالك» فأجابه قائلاً: «يا أبا سفيان لو شاكت شوكة الرسول ﷺ حيث يجلس وكنت أنا بين أولادى وعيالى، لكنت تألمت من ذلك» فقال أبو سفيان، إننى لم أر أحدًا من أبناء آدم يحب أحدًا كما يحب أصحاب محمد محمدًا وهكذا أظهر.. شدة تعجبه. انتهى.

لما زادت الجماعات الإسلامية ووصل الأمر إلى درجة أنهم ملئوا حرم المسجد الشريف هدموا الحجرات العليا كلها وألحقوها بالمسجد الشريف، وكانت هذه الحجرات فى عهدة إحدى زوجات النبى المطهرات إلا أن دار زينب ـ رضى الله عنها آلت إلى أم سلمة ـ بعد رحيل الأولى، كما أن دار سودة ـ رضى الله عنها ـ آلت إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما أن دار صفية ـ رضى الله عنها ـ بعد مضى بعض الوقت بيعت إلى معاوية من قبل أوليائها.

كما أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أعطت الدار التى انتقلت إليها لعبد الله بن الزبير بشرط أن يقيم فيها بذاته.

وكانت السيدة سودة قد أوصت فى حياتها بإعطاء دارها لعائشة، إلا أن ابن أبى سفيان اشترى دار والدتنا صفية من ورثتها بمائة وثمانين ألف درهم.

يروى بعض المؤرخين أن حضرة معاوية اشترى دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى رواية بمائة وثمانين ألف درهم وفى رواية أخرى بثمانين ألف درهم فقط وكانت دار حفصة أصبحت من ميراث عبد الله بن عمر فانتزعها منه الحجاج الظالم بالقوة ليلحقها بالمسجد، إلا أن رواية شراء ابن أبى سفيان من عائشة غير صحيحة، لأن عائشة وهبت تلك الدار المذكورة وملكتها لعبد الله بن الزبير فقدم من شدة فرحته لأمنا المذكورة هدية حمل خمسة جمال كما رجاها ألا تُغادرها مادامت حية.

فى تعريف دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ السعيدة.

كان بين حجرتى السيدة فاطمة وعائشة ـ رضى الله عنهما ـ حيث تقيمان باب صغير، وكانت دار النبى ﷺ الطاهرة متصلة بهذا الباب الصغير، وكانت دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ مائلة نحو الحجرة المعطرة، ومن هنا كلما وجد نبينا ﷺ فى داره الطاهرة كان يستفسر عن حال السيدة فاطمة؛ وفى ليلة من الليالى حدث قيل وقال بين عائشة وفاطمة ـ رضى الله عنهما ـ فغضبت السيدة فاطمة من عائشة ـ رضى الله عنهما ـ ورجت من النبى ﷺ أن يسد ذلك الباب الصغير، وبناء على ذلك سد النبى ﷺ ذلك الباب.

ودار فاطمة فى الجهة القبلية من محراب التهجد الذى يقع فى الجهة الشامية من الحجرة النبوية وبابها أمام مربعة القبر الجليل ولما كانت فخر النساء ـ رضى الله عنها ـ زفت فى داخل هذه الحجرة فأحيط حولها، لأجل التعظيم بسور خشبى، واستخدم فترة كالمقصورة وأخذ مؤخرًا داخل شبكة السعادة.

وبالنظر لهيئة مسجد السعادة الحالية فإن دار فاطمة بين مربع القبر الجليل وأسطوانة محراب التهجد وقد أصبحت ذاتها العالية عروسًا بجانب أسطوانة محراب التهجد، ومن هنا فهذا المكان من جميع الوجوه جدير بالتعظيم والتقديس، والدار التى نحن فى صدد تعريفها بين باب دارى عثمان بن عفان وأسماء بنت حسن بن عبد الله وجهتها الشامية فى طرف باب النساء.

وكلما عاد النبى ﷺ من سفر كان يدخل أولاً فى المسجد وبعد أن يصلى ركعتين يزور حجرة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ثم يزور حجرات زوجاته بالترتيب، كل هذه الروايات مروية عن الحسن البصرى الذى كان من أجلة

التابعين، كان يقول هذا الذات السامى كلما يتحدث عن الحجرات النبوية «إننى قد زرت حجرات زوجات النبى المطهرات قبل البلوغ وكنت أستطيع أن أمسك بيدى أسقف الحجرات بالرغم من صغر سنى».

وبهذا القول كان يبين مدى انخفاض الحجرات العليا عندما أسست؛ رحمة الله عليه.

فى تعريف كيفية إغلاق الأبواب التى تواجه مسجد النبى فى عصر السعادة.

كان لكل واحد من المنازل التى تحيط بالمسجد الشريف فى عصر السعادة بابان كان يواجه أحدهما المسجد الشريف والآخر ينظر إلى جهات أخرى، وبناء عليه كان أصحاب تلك البيوت يستطيعون أن ينظروا داخل المسجد الشريف وقتما شاءوا. وصعد النبى ﷺ قبل ارتحاله إلى دار البقاء وقال: «إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خير عبده بين ذاته الوحدانية وبين زهرة الدنيا فاختار عبده ذاته الإلهية، وذلك قوله ﷺ: «لو كنت خيرت أن أتخذ غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ خليلاً لاتخذت أبا بكر الصديق خليلاً لما له من أيادى على أن أسعدنى بصحبته وساعدنى بماله، ومع ذلك بيننا الأخوة والمودة الإسلامية، وأوصيكم بأن تسدوا جميع الأبواب الناظرة إلى مسجدى غير باب أبى بكر الصديق»، وكانت الخطبة مؤثرة ذات معان بليغة وفى هذه الخطبة أمر بإغلاق جميع الأبواب الناظرة إلى المسجد الشريف إلا أنه حدث عقب هذه الخطبة بين الأصحاب قيل وقال ووصل ذلك إلى الرسول ﷺ.

وبناء على ذلك استدعى يومًا أصحابه وقال لهم قد سمعت أن الخطبة التى ألقيتها بالأمس بها أمر بأن تسد جميع الأبواب غير باب أبى بكر أدى إلى شيوع القيل والقال! إن النور الذى أبصره يقينى والذى أشاهده فى باب أبى بكر لا أشاهده فى أبواب سائر الأصحاب وكلمة العبد التى ذكرت فى الخطبة السابقة كانت المقصود بها الذات النبوى، وقد فهم أبو بكر الأمر، وعرف أن الوقت قد آن لانتقال الرسول ﷺ إلى الآخرة وتشريفها وإن أشار لذلك فى مبدأ الخطبة، ومن هنا حزن حزنًا شديدًا وأخذ يبكى بكاء شديدًا من شدة ألمه حتى تحير وتعجب الأصحاب الذين فى المسجد، ولما أمر الرسول ﷺ بسد الأبواب الناظرة

إلى المسجد فى خطبته الثانية فأسرع الأصحاب بسدها كلها وقال بعض الرواة إن الباب الذى استثنى عن السد هو باب على بن أبى طالب، ولما كان بيته بجانب المسجد لم يكن له باب آخر، ونقلوا بخصوص سد الأبواب كثيرًا من الأحاديث المتباينة، وقد ورد فى بعض تلك الأحاديث استثناء باب أبى بكر الصديق وفى الأحاديث الأخرى استثناء باب على بن أبى طالب، وإذا ما قيل إن الأمر الذى صدر بسد الأبواب كان فى خطبتين استثنى فى الأولى سد باب أبى بكر الصديق وفى الثانية باب على بن أبى طالب، وبهذا نكون قد وفقنا بين الروايات المختلفة، وكان الأمر بسد الأبواب كان نظرًا لما سيحدث من الانقلابات فى الأزمنة الآتية، لأنه كان قد فتح لجميع المنازل التى حول المسجد أبوابا تنظر إلى المسجد الحرام، فإذا لم تكن الأبواب قد سدت كانت المنافسة التى ظهرت قليلاً رويدًا كانت تؤدى إلى توسيع المنازل وعندئذ ستلتصق جدران المنازل بجدران مسجد السعادة، وهذا قد يؤدى إلى الحريق، كما أن صياح الأطفال ومشاجرتهم كانت ستسلب راحة بال جماعات المصلين كما أن ترك تلك الأبواب مفتوحة ستؤدى إلى محاذير مضرة، وإذا ما قيل إن فى هذه الحالة كان يقتضى الأَمْرُ سد باب على بن أبى طالب كغيره من الأبواب التى طلب ﷺ سدها فما السبب فى تركه مفتوحًا؟ أجيب: إن دار على بن أبى طالب كانت متصلة بالمسجد الشريف ولم يكن لها باب آخر يفتح إلى جهات أخرى وبما أنه كان محتاجًا لباب للدخول والخروج ترك بابه مفتوحًا.

وقد انزعج الأصحاب الكرام من انسداد الأبواب وتأثروا متألمين ومن هنا أخذوا من النبى ﷺ إذنًا بفتح نوافذ صغيرة فى بيوتهم، وسدوا أبوابهم وفتحوا نوافذ صغيرة، ولكن النبى ﷺ أمر قبل وفاته بسد تلك النوافذ أيضًا وترك نافذة أبى بكر الصديق مفتوحة، وكأنه ألمح بهذه الإشارة الخفية لزوم بيعة المشار إليه والإسراع بتصديق خلافته.

الوجهة السابعة

تجمع خمس صور تبين وتظهر عدد المرات التى جددت فيها حدود المسجد النبوى ووسعت ومن الذين حددوها وأشكال القبور الثلاثة فى حالتها الحاضرة.

فى ذكر توسيع مسجد الرسول لأول مرة.

انشغل حضرة الصديق فى زمن خلافته بحركات الردة التى ظهرت بين العربان فى شكل مفزع مخيف ولم يهتم بتجديد مسجد الرسول وتوسيعه إلا أنه أصلح وعمر بعض أماكنه، وتكاثرت فيما بعد الجماعات الإسلامية حتى أصبح المسجد الشريف لا يستوعبها، واستدعى الفاروق الأعظم فى السنة السابعة عشرة كبار المهاجرين والأصحاب وقال لهم: «إننى كنت قد سمعت من فم النبى ﷺ المحسن قوله يلزم توسيع المسجد الشريف» ولما رأيت الآن بعين الافتخار والمباهاة تكاثر الجماعات الإسلامية فأرغب فى توسيع حرم ساحة المسجد الشريف وقد تلقى العموم هذا الرأى بالاستحسان وتحمسوا له، وبناء على ذلك هدم الجدار القبلى دون أن يمس جهة حجرات النبى وسحب الجدار إلى الخلف ما يقرب من عشرة أذرع ووسع مسجد السعادة بقدر استيعاب الجماعات الإسلامية التى فى عهده وأعلى جدرانه قليلاً، وأعلى أخشاب سقفه مقدار ذراعين وعلى قول آخر مقدار ثلاثة أذرع، وفتح ستة أبواب اثنان منهما فى جهة باب السلام واثنان فى جهة باب جبريل والاثنان الآخران فى جهة باب النساء، كما أنه بنى جدران المسجد بحجارة منحوتة قدر ارتفاع ذراعين من الأرض.

وبناء عليه قد اكتسب مسجد السعادة فى ذلك الوقت شهرة بنظامه وانتظامه يمكن أن يقال إنه بالنسبة لزمنه أنه فوق العادة، وبلغ طول سطحه الداخلى أربعين ومائة وعمقه عشرين ومائة ذراع، وقد أضيف إلى المسجد فى هذا التعمير لتوسيعه من الجهة القبلية والشامية أرض تقترب من ثلاثين ذراعًا.

قال بعض الرواة إن الجهة القبلية من المسجد النبوى كانت فى طول أحد عشر ذراعًا ومن الجهة القبلية إلى الجدار الشامى كان فى امتداد ما يقرب من أربعين ذراعًا، فى ذلك الوقت وعلى هذا الحساب يكون حضرة الفاروق قد أضاف

عشرين ذراعًا عرضًا؛ وبعد أن أنهى حضرة الفاروق عمليات التجديد والتعمير والتوسيع فرش جهة باب النساء بالرمل وجعلها مثل الساحة الرملية للمسجد الحرام، وكانت الساحة الرملية لمسجد السعادة متصلة بالرباط المنسوب لخالد بن الوليد وكان الصحابة الكرام يجتمعون فى هذه الساحة لإنشاد الشعر، وكانت هذه العادة غير مذمومة اقتداء بالرسول ﷺ الذى وضع كرسيًا فى المسجد الشريف لحسان بن ثابت وجعله يلقى القصائد فى ذم الكفار، إلا أن هذه العادة أسئ استخدامها فيما بعد إذ أخذ فى إنشاد الأشعار فى كل مكان من المسجد بطريقة غير لائقة خارجة عن توقير المسجد واحترامه؛ لذا تأثر حضرة الفاروق من هذه الحالة وألغى عادة إنشاد الشعر فى مسجد الرسول توأم حرم الجنة وفى ذلك الوقت رأى سائب بن يزيد قد تَمدَّد فى المسجد وظل نائمًا فأيقظه وهو غاضب أشد الغضب وقال له: «لو لم تكن من أهل الطائف أى من قبائل مكة المعظمة لأوسعتك ضربًا». وعاتبه بهذه الأقوال ثم فرش فى منتهى الجهة الشامية من المسجد الشريف رملاً وحصر ذلك المكان لإقامة من يريدون إلقاء الشعر وفصله عن الحرم الشريف، وكان الجدار الذى أقامه حضرة الفاروق وما نصبه من الأساطين قد بنى على شكل مستحسن مطبوع، وكان أسفل الجدران من الحجارة وأعلاها من اللبن.

إن الأساطين التى فى الصف الأول خارج السور الخشبى الذى فى الجهة القبلية من الروضة المطهرة حتى الآن من الأساطين التى نصبها عمر بن الخطاب، وبعد الحريق قد جددت على الشكل السابق وقد حولها السلطان عبد المجيد خان إلى الرخام وقويت وبدت فى غاية المتانة.

استدعى حضرة الفاروق قبل أن يشرع فى توسيع المسجد العباس بن عبد المطلب ومهد لطلبه قائلاً: يا عباس قد كثر المسلمون بفضل الله ولطفه وإحسانه، ومن هنا ظهرت الحاجة الشرعية لتوسيع المسجد. قد اشتريت جميع المنازل التى حول المسجد كلها ودفعت ثمنها، ولم تظل إلا دور أمهات المؤمنين ودارك، إننى أستحى أن أشترى دور أمهات المؤمنين التى تضارع الثريا؛ ولكننى آمل أن آخذ دارك، إذا ما بعتم دفعت لكم ثمنها وإذا ما تبرعتم بها أعرض لكم

شكرى وحمدى، وبهذه المقدمة طلب منه داره، فأجابه العباس: «قد أعطانى الرسول ﷺ ساحة هذه الدار وساعدنى فى بنائها متنازلاً؛ وأنى لكم الحق فى مطالبتى بها وأنت تعرف هذه الأمور؟!» وبعدما أدارا كئوس الحوار فترة أحالوا الأمر لفصل القضية لحكم أبى بن كعب من أفاضل الصحابة؛ وفتح أبى بن كعب فمه ناقلاً عن النبى ﷺ أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ جل شأنه عن الشبيه ـ أن يبنى داود ـ عليه السلام ـ مسجدًا وطلب منه ذلك، وخط داود ـ عليه السلام ـ حول عَرْصَة بيت المقدس خطا مربع الأضلاع دائرًا ما دار، وبما أنه سيتخذ هذه الساحة مسجدًا فإنه يأمل أن يشترى جميع المنازل التى تقع فى داخل الدائرة التى خطها.

وأنبأ أصحاب الدور بذلك، وتقبل جميع أصحاب البيوت التى فى داخل الدائرة عرض النبى داود قبولاً حسنًا وقبلوا أن يتنازلوا عن دورهم إلا واحدا منهم خالف داود ـ عليه السلام ـ ورفض إعطاء منزله فبين له داود ـ عليه سلام الله الودود ـ أنه سيقدر لمنزله قيمة وسيدفع له هذا الثمن المقدر ويستولى على بيته جبرًا، عندئذ صدر من الله ـ سبحانه ـ خطابه معاتبًا يا داود هل تريد أن تدخل مالاً مغصوبًا فى البيت الذى ستؤسسه من أجلى وهذا لا يليق، وبهذا الخطاب أقلق داود عليه السلام، وهكذا جعل أبى بن كعب الحق بجانب العباس بن عبد المطلب، وقد سر العباس بن عبد المطلب من حكاية أبى بن كعب المحايدة وتنازل عن داره للمسجد الشريف بلا مقابل متبركًا. وتقع هذه الدار فى مكان الأعمدة التى فى الصف الأول ابتداء من المنبر المنير والتى تنتهى إلى باب السلام فى مكان العمود الخامس من تلك الأعمدة التى ألحقت بمسجد السعادة والمكان المواجه لها دار مروان بن الحكم.

ويروى البعض أن الدار التى كانت مثار المنازعة فى أخذها وشرائها هى الساحة التى كان النبى ﷺ قد اختارها لجعفر بن أبى طالب الذى كان فى الحبشة، واشترى نصف هذه الساحة عمر بن الخطاب واشترى نصفها الآخر عثمان بن عفان وألحقها بالمسجد الشريف، ويروون أن عمر بن الخطاب دفع لنصف هذه الساحة ألف درهم ومائة ثمنًا لها.

الصورة الثانية

فى ذكر كيفية تجديد مسجد السعادة وتوسيعه للمرة الثانية.

ظل مسجد السعادة ثلاث عشرة سنة وفى قول ثمانى عشرة سنة على الهيئة التى جددها الفاروق الأعظم إلا أن عدد المسلمين زاد رويداً رويداً حتى أصبح الحرم الشريف لايستوعبهم؛ ولأجل ذلك هدم عثمان بن عفان مبانيه كلية فى السنة التاسعة والعشرين أو السنة الثلاثين وفى رواية فى السنة الحادية والثلاثين أو فى نهاية سِنِيِّ خلافته فى خلال شهر ربيع الأول من السنة الخامسة والثلاثين ووسعه وجدده على أجمل شكل وهيئة منتظمة كما بنى لنفسه مقصورة وأتم عمليات البناء فى ظرف عشرة أشهر وهذا التعمير يعد التوسعة الثانية للمسجد الشريف.

يبين بعض المؤرخين لهدم مسجد السعادة وتجديده أسبابًا عدة، أحد هذه الأسباب بل أهمها قول بعض أهالى المدينة من أصحاب العز والمثول إن الجماعات يظلون خارج المسجد يوم الجمعة ولايستطيعون أداء الصلاة، فإذا ما وسع مسجد السعادة قليلاً لاستوعب كل الجماعات الآتين للصلاة وقد استحسن عثمان بن عفان رأى من يريدون توسيع مسجد السعادة واستشار أصحاب الشورى، ثم قرر أن يهدم المسجد الشريف كله، وتوسيعه، وصعد يومًا بعد أداء صلاة الظهر على منبر السعادة وألقى خطبة بليغة تحوى المعانى التالية يا أصحاب رسول الله، إننى سأجدد المسجد الشريف وأوسعه بعد هدمه، وقد تذاكرت مع أصحاب الشورى فى هذا الخصوص، فاستصوب كلهم رأيى وأقروا أن الحرم السعيد فى حاجة إلى التوسيع والتجديد. وقال للذين رفعوا قامتهم معترضين:[1] «إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول الذين يبنون مسجداً لوجه الله فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سينعم

(١) وكان غرض المعترضين تجديد المسجد بلا زينة لأن الكل كان يتمنى توسيع المسجد وتجديده.

عليهم فى الجنة مثل المسجد الذى أسسوه فى الدنيا وسيتبعنى سلفى فى هذا الخصوص وإننى سأموت وأقلده فى هذا، وأسكتهم بهذه الإجابة الصائبة. وقد أدت الخطبة التى ألقاها عثمان إلى قيل وقال إلا أن الجميع قد اتفق فى الاجتماع العام على لزوم توسيع المسجد وتوسيعه على صورة مطبوعة جميلة وصدقوه وبناء عليه جلب الخليفة القدر الكافى من العمال وابتدر بهدم المسجد بذاته وهو صائم، وترك الجهة الشرقية من المسجد على حالها، وهدم الجدار القبلى كاملاً ووسعت هذه الجهة وجدد جدران جهاتها الأربعة بحجارة منقوشة بعد هدمها ونصب عمودًا ذات قاعدة مربعة فى الجهة الغربية يعنى فى جهة «باب السلام». إن هذا العمود هو السابع إذا ما عد ابتداء من منبر السعادة ناحية باب السلام، وقد جعلت قاعدته مربعة للدلالة على أن هذا المكان منتهى توسيع حضرة عثمان مبتدأ تجديد الوليد بن عبد الملك، وقد بلغ طول المسجد فى هذا التعمير إلى ١٦٠ أو ١٧٠ ذراعًا وعرضه إلى ١٥٠ ذراعًا أى أن عثمان بن عفان قد وسع مسجد السعادة ثلاثين ذراعًا عرضًا وعشرين ذراعًا طولاً وأبقى على جميع أبوابه القديمة.

وتوجد فى الجهة الشامية من المسجد الشريف منازل أبى سبرة بن أبى رهم وعمار بن ياسر وطلحة بن عبيد الله ومنزل حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجات النبى ﷺ، وفى الجهة القبلية منزل العباس بن عبد المطلب، واشتهرت تلك المنازل كلها برصانتها فوق العادة ومتانتها، قد اشترى حضرة عثمان جميع هذه المنازل وأرضى أصحابها بطريقة ما وطيب خواطرهم وألحقها بساحة مسجد السعادة المشحون بالفيض.

ولما قالت له زوجة الرسول حفصة بنت عمر ـ رضى الله عنهما ـ إذا ضممتم منزلى هذا إلى المسجد الشريف فأين المنزل الذى سأقيم فيه أجابها قائلاً سنجد لك منزلاً ونفتح له طريقًا خاصًا يفضى إلى مسجد السعادة وأعطاها دار عبد الله بن عمر وفتح منها طريقًا واسعًا يفضى إلى المسجد وهكذا أرضى أمنا حفصة ـ رضى الله عنها ـ وطيب خاطرها.

وكانت عمارة عثمان بن عفان للمسجد أن بدل الأعمدة الخشبية بالأبنية من

اللبن وبدل الأعمدة المبنية باللبن بالحجر وجعل السقف من خشب الساج وجمع الجهة القبلية إلى شبكة الحجرة المعطرة، كما بنى المحراب المقدس الذى يشتهر «بالمحراب العثمانى» وهو من الآثار الجليلة التى زيدت فى المسجد وفى الجهة اليمنى من طاق ذلك المحراب الشريف كتب اسم الجلالة وفى الجهة اليسرى منه اسم النبى الطاهر وفى وسط هاذين الاسمين كتب اسم الجلالة الآخر.

والمحراب العثمانى فى وسط الجدار القبلى للحرم الشريف وفى الجهة اليمنى منه كتبت أربعة أسطر كتابة بخط جلى نفيس وفى السطر الأول من هذه الكتابات الآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦) وفى السطر الثانى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ١٤٤) وفى السطر الثالث ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤) وفى السطر الرابع الحديث (قال رسول الله ﷺ، إن سركم أن تقبل صلواتكم فليؤمكم علماؤكم فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم وفى رواية فليؤمكم خياركم) (حديث شريف) وكل هذه الكتابات قد زخرفت والحديث الذى سطر فى السطر الرابع قد كتب على ثلاثة أسطر ذات أربع زوايا، وفى الجهة اليسارية كما فى الجهة اليمنى أربعة السطر من الكتابة كتب على السطر الأول منها قول الله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨) وعلى السطر الثانى ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤) وعلى السطر الثالث ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤) وكتب على السطر الرابع (قال رسول الله ﷺ (أقيموا صفوفكم فإنما تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة وحاذوا بين المناكب ولينوا بأيدى إخوانكم وسدوا الخلل ولا تجعلوا فرجة للشيطان فمن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفًا قطعه الله عز وجل) (حديث شريف) والسطور الأولى من هذه الكتابات كتب بالخط الكوفى وكلها مزخرفة ومطلية بالذهب.

وقد كتبت قصيدة البردة البليغة فى داخل القباب التى فى الصفين الأولين دائرًا

ما دار، وتمتد هذه القباب فى داخل حرم السعادة ابتداء من باب السلام إلى الجدار الشرقى الملاصق للمئذنة الرئيسية ذلك الجدار الذى به المحراب الأقدس المذكور، وقد بدأت هذه القصيدة البديعة من جهة باب السلام وتمت فى مواجهة السعادة التى تتصل بالجدار الشرقى ولأجل ذلك كتبت فى داخل بعض القباب المتبقية سورة يس وسورة الملك كما كتب فى بعضها الآيات القرآنية المناسبة ورئى فى سنة ١١٩٨هـ فى جدران محراب عثمان علامات السقوط والأنهيار وأبلغ الأمر سريعا إلى السلطان عبد الحميد خان ـ طاب ثراه ـ بن السلطان أحمد خان فأمر بتجديده وتزيينه وأرسل الشخص الذى كلف بالبناء بلا تأخير إلى المدينة المنورة، وكشف هذا الشخص وتفقد المحراب المذكور مع سادات البلد وأشرافه وموظفى الدولة وبناء على القرار المتخذ أنزلت الحجارة الرخامية التى على طرفى المحراب المذكور ودون أن يفسدوا ما عليها من تاريخ قايتباى المصرى، وجددوا ما يلزم تجديده من الجدران القبلية ورتبوا تاريخ الملك قايتباى على شرطين ووضعوه فى مكانه كتبوا ما بين التاريخ المذكور بسم الله سورة الضحى الكريمة وكتبوا فى خاتمتها (صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ﷺ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ورضى الله عنهم وعن سادات أصحاب رسول الله أجمعين) وكتب فوق هذا التاريخ القصيدة البليغة (بنور الله أشرقت الدنيا، ففى نوره كل يحيى ويذهب وكتب فوق هذه القصيدة بعد بسم الله الآية الكريمة) ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥) والآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (إبراهيم: ٣٧) وفى نهايتها الآيات البينات ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس: ٥٨)، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨)، ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ إلى قوله ﴿وَضَعَتْهَا أُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦) وكتبوا على ذيولها الآية الكريمة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢) ولذيلها بدء من الآية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾ إلى قوله ﴿عَاقِرٌ﴾ (آل عمران: ٤٠) وبعدها القول الجليل ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣) وكتبت الآية الكريمة ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ﴾ وقد كتبت هذه الآيات الكريمة مرتبة على سطر واحد وانتهى السطر الطويل بخاتمة (صدق الله العظيم) كتبه الفقير نقشى الأسكدارى غفرت ذنوبه سنة ١١٩٨ هـ، وكتب فوق طاقة المحراب الشريف المذكور بعد البسملة الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ﴾ إلى قول الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الأحزاب: ٤٠) وقول الله تعالى بعد البسملة ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ﴾ إلى قول الله تعالى ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨) وكتب فى ذيلها (اللهم شفع هذا النبى فى مجدده السلطان عبد الحميد خان نصره الله)، هذه الجملة الدعائية وكتب على يمين المحراب الشريف بعد البسملة الآية ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وكتب فى نهايتها على سطرين الحديث الشريف (قال رسول الله ﷺ إن سركم أن تقبل صلواتكم فليؤمكم) إلى آخر الحديث وعلى طرفى هذا الحديث الشريف كتبت أسماء النبى ﷺ وكتبت على الجهة اليسرى من المحراب الشريف المذكور (قال رسول الله ﷺ أقيموا صفوفكم) إلى آخر الحديث وقد وشحت أطراف هذا الحديث الشريف أيضًا بأسماء النبى الشريفة وقد زينت أعلى وأسفل هذه السطور بأحجار منقوشة من الصينى.

وهذا هو تاريخ قايتباى المصرى الذى أنزل دون أن يفسد ويتضرر فى أول التجديد ثم وضع فى مكانه فى ختامه دون إضرار.

بعد البسملة (إنما يعمر مساجد الله) إلى قول الله الجليل (عنده أجر عظيم) صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم أمر بعمارة الحرم النبوى الشريف بعد

احتراقه فى ليلة صباحها عند ثالث عشر رمضان المعظم قد جرى تعميره سنة ثمانمائة وثمانين، سيدنا ومولانا العبد الفقير المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير خادم الحرمين الشريفين الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره وذلك بنظارة العبد الفقير محمد بن زمن وأنشأ العمارة بالحرمين الأمير سنقر الحالى وذلك فى أيام الأمير شيخ الحرم الشريف غفر الله لهم. (بسم الله الرحمن الرحيم، إن الذين ينفقون أموالهم) إلى قوله الشريف (واسع عليم) صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ورضى الله عن الصحابة أجمعين، أمر بعمارة هذا الحرم النبوى الشريف المعظم من فضل الله تعالى الفقير الملك المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير قايتباى وناظر العمارة محمد بن الزمن بمباشرة القاسم الفقير شيخ الحرم وأمير السادات الحالى سنقر غفر الله لهم وكان الفراغ من عمارة هذا الحرم الشريف فى شهر رمضان سنة ثمانمائة وثمانين.

مقصورة مسجد السعادة

تطلق المقصورة على المحافل التى تصنع فى محاذاة المحاريب فى المساجد الشريفة من أجل الملوك.

وفى يمين ويسار أبواب المساجد عند الدخول مقصورتان وقد أحدثت هاتان المقصورتان قبل عصرنا بقليل.

وذهب المؤرخون إلى أن أول من أنشأ مقصورة مسجد الرسول هو عثمان بن عفان (رضى الله عنه الرحمن) وقالوا بأن عثمان بن عفان عندما جدد المسجد الشريف طرح مقصورة أمام الجدار القبلى لمسجد السعادة أعلى من أرض المسجد مقدار ذراعين وكانت أطرافها مشبكة واختص بها نفسه حتى ينجو من شرور الخونة الذين اعتدوا على عمر الفاروق وأخذ يجرى الإمامة فى داخل هذه المقصورة، ويُرْوَى أن مروان بن الحكم هو الذى بنى هذه المقصورة ويعللون

ذلك بقيام «دب»[1] التهامى ضده؛ لأن مروان بن الحكم كان قد أرسل إلى تهامة جابيًا وكان هذا الموظف قد ظلم واحدًا من آل تهامة يُسَمَّى دُبًّا وحمله ما لا يطاق وجعله يمل حياته؛ ودب هذا قد تحير فيما يعمله وفى النهاية قرر قتل مروان بن الحكم وإعدامه، وذهب إلى المدينة ولكنه لم يوفق فى قصده وقبض عليه فى داخل المسجد، استنطقه مروان ووجه إليه سؤالاً لماذا أقدمت على هذا الأمر الوخيم وأردت قتلى؟! فقال له: «إنك كنت قد أرسلت إلى تهامة عاملاً ظالمًا، وبمجرد وصول هذا الرجل قد اغتصب زادى وذخيرتى واستولى على كل ما فى يدى وترك أولادى وعيالى جائعين بدون دواء وأنا أقسمت على قتل الآمر الذى أرسل هذا العامل، وهذا هو سبب الإقدام على قتلك». وبعد هذه الإجابة حبس الرجل وسجنه وبنى من خوفه مقصورة وهيأ مقدارًا كافيًا من الحجارة المنقوشة وصنع مقصورة وأوصل أطرافها ودعمها.

ويروى أن حضرة معاوية صنع هذه المقصورة ليحمى نفسه من غدر برك بن عبد الله من الخوارج.

واستهجن فيما بعد عمر بن عبد العزيز وجود مقصورة فى داخل المسجد فأمر بهدمها، إلا أن فريقًا من المؤرخين قالوا: إن المقصورة التى صنعها ابن أبى سفيان جددها محمد المهدى بالله ابن أبى جعفر المنصور متخذًا خشب الساج فى تجديدها، وإذا كانت هذه الرواية صحيحة ينبغى ألا يهدم عمر بن عبد العزيز المقصورة التى صنعها معاوية بن أبى سفيان، والمقصورة الآن هى الأماكن التى خصصت لأداء الملوك الصلاة فيها وهو المحل الموقر الذى يطلق عليه المحفل السلطانى، ويوجد فى جميع المساجد الكبيرة ويلاصق جدار القبلة وفى الجهة اليمنى أو اليسرى من المحاريب.

(١) بناء على تحقيق بعض الرواة أن اسم «دب» كان ذبابا.

فى ذكر كيفية تجديد مسجد الرسول ﷺ وتوسيعه للمرة الثالثة.

وسع المسجد النبوى فى المرة الثالثة الوليد بن عبد الملك وجدده، وظل المسجد الشريف إلى قرب عهد عبد الملك الشامى على الحالة والهيئة التى صنعها عثمان بن عفان وظل فى حالته تلك واسعًا متين البناء لا يحتاج للتعمير، إلا أن الوليد ابن عبد الملك رغب فى توسيع مسجد السعادة وتجديده على شكل أكثر نظامًا وزينه فى طرز جديد، فكتب إلى حاكم القسطنطينية فيلبوس طالبًا منه أن يرسل مقدارًا كافيًا من العمال المتفننين المهرة وقدرًا كافيًا من الفسيفساء الجميلة، فأرسل فيلبوس ثمانين نفرًا من مهرة العمال المشهورين نصفهم من القبط والنصف الآخر من الروم كما أرسل ثريًا نادرة تساوى أربعين ألف دينار.

وسر الوليد بن عبد الملك من ورود الثريا والعمال المرسلين من القسطنطينية وأرسل هؤلاء العمال و النقود والمواد اللازمة لتجديد مسجد الرسول إلى ابن أخيه عمر ابن عبد العزيز[1] وأعطى رسالة مستفزة للشخص الذى كلفه بإيصال الأشياء المذكورة يقول فيها أرسلت إليكم النقود واللوازم الكافية لتجديد مسجد الرسول وتوسيعه وبعض العمال، وعند وصول هذه الأشياء اشتر منازل الزوجات المطهرات للنبى ﷺ ثم منازل المحترمين من الناس واشرع فى تجديد المسجد وتوسيعه على هذا الأساس وأعط بدلات قيمة المنازل التى اشتريتها، وإذا وجد من يخالف بيع منازلهم وإعطائه فأظهر لهم القوة الجبرية واهدم منازل هؤلاء الأشخاص وخربها، وإذا رفضوا أخذ المبالغ المقدرة فوزع النقود على فقراء

(١) وكان عمر بن عبد العزيز فى ذلك الوقت والى الحجاز ويقيم فى المدينة المنورة. وكان جده مروان بن الحكم وكان اسم والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وهو الإمام الجليل وخامس الخلفاء الراشدين العادل، وحكم ما يقرب من سنتين وخمسة أشهر ولما كان عمره أربعين عاما ارتحل عن دنيانا فى مكان يسمى دير سمعان من أرض حمص ليسكن فى عرش الآخرة.

الأرض وتصدق بها سريعًا، ولما وصل الشخص المكلف بهذه المهمة من الخليفة إلى عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنورة أعطاه رسالة الوليد فتسلم اللوازم والأشياء المرسلة بموجب سجل وأخذها وجمع سادات المدينة وعظماءها والأشراف.

وأحضرهم وأظهر لهم الرسالة الى أرسلها الوليد بن عبد الملك وأوصاهم بأن يوافقوا على إجراء ما جاء فى مضمون هذه الرسالة وقال لهم: «إن كان مندرجات هذه الرسالة تحتوى على وجوب إجراء بعض الأمور الصعبة وغير اللائقة فيجب السكوت عليها، لأن واقعة الحرة لم تزل قريبة منا ولم يمر وقت طويل حتى تنسى».

وبما أن رسالة الوليد قد أقلقت سادات المدينة الكرام ولاسيما جملة هدم حجرات نساء النبى العليا، فإن المضرة أصابت أذهانهم بالسوء فأسرعوا بتشكيل مجلس عام أداروا كئوس المذاكرة وأقداح المحاورة، وأبدى كل فرد رأيه فى حرية تامة فالتزموا فكر عدم السماح بهدم الحجرات وأصروا عليه، ولكن بعض القلقين من بينهم أرادوا أن يقنعوا هيئة الشورى قائلين: «إن الطريق الذى أراه لنا عمر بن عبد العزيز موافق للعقل والحكمة، إذا ما خالفنا رأيه السديد نكون لم نستفد بعد من واقعة الحَرَّة الأليمة ولم ننتبه بعد، وبدلاً من أن نعرض الروضة المطهرة للتلويث تحت أقدام الشاميين النجسة فمن الخير أن نوافق على أمر الوليد». وبذلوا جهودًا لذلك وساد المجلس هدوء طويل وبعده وافقوا على توسيع مسجد السعادة كما أراد الوليد قائلين: «إذا رفضنا نكون قد عرضنا الروضة المطهرة للتلويث وسلمنا أولادنا وعيالنا بأيدينا إلى أيادى الأعداء» وذلك حتى لا يتسببوا فى واقعة حرة أخرى، وعرضوا رسالة ابن عبد الملك للناس جميعًا سائرين من الحى إلى الحى وأعلنوا القرار الواقع وأشاعوه.

وكان أهل المدينة يريدون أن يتركوا للأخلاق أثرًا عظيما يبين طرفًا من حياة سلطان عرش الإسلام ـ عليه السلام ـ يبين طريقة معيشة النبى ـ عليه السلام ـ ومن هنا كان رفضهم الهدم لحجرات نساء النبى ﷺ.

ولم يفكر الوليد فى مثل هذه الأمور الدقيقة بل طلب من عمر بن عبد العزيز هدم حجرات زوجات النبى ﷺ وإدخالها فى ساحة المسجد وهذا الطلب قد ملأ القلوب باليأس وجلب الحزن والهم والغم للجميع ومن هنا رجوا من عمر بن عبد العزيز أن يطلب من الوليد بن عبد الملك أن يترك حجرات نساء النبى ﷺ على حالها حتى يراها الزوار والحجاج ويعرضون عن زخارف الدنيا، وعرض عمر بن عبد العزيز ما اتفق عليه فقهاء المدينة وأجمعوا عليه، ولكن الوليد لم يرجع عن رأيه وأمر بأن تهدم مطلقًا، فاضطر هنا عمر بن عبد العزيز إلى تنفيذ أمر وليد ولكنه أبقى حجرة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ولم يهدمها.

وحينما عرضت رسالة الوليد الغير مهذبة الأسلوب على سكان دار السكينة فلا يمكن وصف ما أحدثته الرسالة من هياج بين أهل المدينة فى ذلك اليوم، وأخذ الذين سمعوا بهدم حجرات الآيات النبوية أخذوا يبكون وينتحبون ويصيحون بحالة قد ترق لها حتى الجمادات، وقد انسحب كل واحد منهم فى ناحية وأخذ يبكى مهمومًا حتى أقلقوا من بالملأ الأعلى وغشيتهم بحار الهموم، وقد بلغ مقدار ما أظهره الوليد من الوقاحة فى هذا الشأن درجة أنه أراد أن يشرف بنفسه على هذا العمل دون أن يهدم الحجرات ويثير القيل والقال، فذهب محرما إلى مكة المكرمة بنية الحج ومر بالمدينة عند العودة، ولما رأى أن الحجرات المطهرة قد هدمت كلها بالقوة وأبقى حجرة فاطمة دون هدم فغضب غضبًا شديداً واعتلى المنبر السعيد وألقى خطبة شنيعة.

وكان القائم على دار سعادة السيدة فاطمة فى ذلك الوقت هو «محسن بن الحسن بن على بن أبى طالب» ـ رضى الله عنهم ـ وكان محسنا يجلس فى منزله ويستمع إلى خطبة الوليد من نافذته.

وبما أن موقف محسن بن الحسن هذا أثار خصومة الوليد وغضبه نزل من على منبر الرسول وقال لابن أخيه عمر بن عبد العزيز، بما أنك هدمت جميع حجرات نساء النبى فمن غير المناسب أن تبقى على منزل فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قائمًا، ولهذا آمرك أن تهدمه أيضًا وعلى قول، نزل من على المنبر النبوى وأمر بهدم

ذلك البيت السعيد وأجاب على محسن بن الحسن الذى قال كيف تهدم البيت وأنا لن أخرج منه؟ أجاب إذن أهدمه على رأسك ثم أحضر مقدارًا كافيًا من العمال وأخذ فى هدم المنزل، فرأى الناس أن الوليد مصر على عناده ومحسن صابر وثابت فى عدم الخروج من ذلك المنزل، فأخذوا ينصحون محسنًا بالخروج حتى لا تحدث نكبة أخرى للموحدين تظل ذكراها إلى يوم القيامة وأرضوه وأخرجوه مع جميع أفراد أسرته ونُقِلُوا إلى دار لا عيب فيها يقال لها دار على فى ذلك الوقت.

وينقل بعض المؤرخين هذه الواقعة بشكل آخر؛ إذ يقولون: «كان الوليد بن عبد الملك وصلته الأخبار وهو فى الشام بعدم هدم منزل فاطمة السعيد، فأرسل تعليماته إلى والى الحجاز عمر بن عبد العزيز بالإسراع فى هدمه لإدخاله فى حرم المسجد الشريف». فأعطى عمر بن عبد العزيز محسن بن الحسن بن على وفاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب مبلغ ثمانية آلاف دينار، وبما أنهما لم يرضيا فآثر السكوت متأدبًا، وكتب ردا على رسالة الوليد يقول فيه: «قد أعطيت لأصحاب بيت السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ محسن بن الحسن وبنت عمه فاطمة بنت الحسين ـ رضى الله عنهم ـ ثمانية آلاف دينار فلم يقبلاه وبما أنك، صاحب الإمارة، تعرف أنهما من أعاظم سادات البتول، فلا يجوز أن نتجاوز حدودنا معهما وتعاملهما معاملة الناس العاديين وألمح له أن ترك ذلك البيت القيم على حاله أنسب، وكان عمر بن عبد العزيز يأمل أن يسكت الوليد بناء على هذه الرسالة، إلا أن الوليد قد غضب غضبًا شديدًا من محسن ابن الحسن بعد استلامه رسالة عمر بن عبد العزيز وكتب رسالة مسهبة أخرى قال فيها «يجب أن يرضى هذان أيضًا ولا محالة وإذا لم يرضيا يجب أن تستعمل القوة الجبرية لأخذ منزلهما وهدمه» فأحضر عمر بن عبد العزيز المشار إليهما وأرضاهما ونقلهما إلى دار على المستقرة فى القرب من الحرة الشرقية وآواهما.

وجمع عمر بن عبد العزيز لبنات هذه الدار السعيدة ولبنات حجرات زوجات النبى ـ رضى الله عنهن ـ السليمة عند هدمها مع لبنات جدران مسجد الرسول، أى

جمع لبنات مسجد الرسول مع أنقاض حجرات نساء النبى فى مكان واحد ثم نقلهن إلى مكان يطلق عليه حرة حيث بنى لنفسه من هذه اللبنات دارا متبركًا بها.

يقول الإمام السمهودى بناء على المعلومات الموثوقة التى حصل عليها، إن الجرأة[1] التى اتصف بها الوليد فى تجديد مسجد الرسول وأظهرها وكذلك فى هدم منزل فاطمة السعيد ـ رضى الله عنها ـ آتية من أن جاسوسًا قال له: «إن فى المدينة شخص مليح المنظر ملائكى الوجه ومادام هذا الشخص ساكنًا فى المكان الذي فيه فلا يمكن أن تسيطر على أهل المدينة» لأن الوليد كان يرسل كل سنة جاسوسًا إلى المدينة ليطلع على أطوار أهل المدينة وأعمالهم، فقال له أحد جواسيسه الذين يأتون إلى المدينة ويذهبون «يا وليد! قد اطلعت فى المدينة على شىء، ومادام هذا الشىء باقيًا هناك فلن ينفذ حكمك على المدينة والأرض» وعندما استوضح الوليد الأمر أجابه قائلا: «وجدت يومًا فى مسجد الرسول، هناك فى الجهة الغربية من المسجد مكانًا وكان متصلاً به ومستورًا، وفى أوقات الصلاة ترفع ستارة ذلك المكان ويصلى من بداخله مؤتمين بالإمام، وبعد أداء الصلاة يرخون الستارة، فأثار هذا العمل فضولى فألقيت نظرة لذلك المكان الذى يشبه الفردوس فرأيت فى داخله رجلاً ذا وجه ملائكى محبوبًا ممدوح الأخلاق، وكان فى يده مكحلة، والأخرى مرآة، فسألت عن كنهه، فقيل لى إنه محسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، والمكان الأنور الذى فيه داره التى انتقلت إليه من والدته وأظهروا له احترامهم، ومادام هذا الرجل فى داخل المسجد وظل منزله السعيد فى داخل المسجد كما هو الآن لا أظن أن حكمك سيسرى فى المدينة دار الميمنة».

ولما سأله الوليد قائلاً «وما هو الحل والتدبير؟» أجابه «إلحاق منزل فاطمة بالمسجد بوسيلة تجديد مسجد السعادة» فأمر الوليد عمر بن عبد العزيز توا بإجراء ما يقتضى بخصوص هذا الموضوع، ولم يكن منزل حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ إلى تلك الواقعة قد أخذ منها وبعد أخذ عمر بن عبد العزيز دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وضمها إلى ساحة مساحة المسجد النبوى استدعى

(١) قد ذكرت الأسباب التى جرأت الوليد بهذا القدر فى آخر هذه الصورة بالاستطراد.

أسرة عمر بن الخطاب وخاطبهم قائلاً: «قد أمر الوليد بن عبد الملك بإدخال منزل حفصة ـ رضى الله عنها ـ الجميل فى ساحة مسجد السعادة والذى يوجد على يمين الباب الصغير الخاص بآل عمر إذ تعرفون أن أبناء السبيل لا يراعون حرمة المكان وهم يمرون من بين المرقد النبوى الجميل والذى يقع بين منزل المشار إليها وحجرة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهذا غير لائق ويخالف قواعد الأدب والتعظيم وكان دهليز القبر الجليل ممرًا لأبناء السبيل، ومن هنا أخذت المكان الذى كان ممرًا وألحقته بالمسجد الشريف حتى أمنع تلك التصرفات التى لا تتسم بالرعاية لحرمة المقدسات، وعلى هذا يقتضى إلحاق دار حفصة ـ رضى الله عنها ـ بالمسجد الشريف أيضًا»، وبهذه المقدمة طلب حجرة حفصة، ولما قال آل عمر إننا نتحاشى ونحترز من بيع بيت حفصة بالنقود أجابهم قائلاً إننى أريد أن أضم ساحته إلى مسجد السعادة فقالوا له ذلك أمر يخصك ولكننا نريد طريقًا خاصًا بنا عندئذ أمر بهدم ذلك المنزل وإلحاقه بمسجد السعادة وفتح طريقًا من أجل آل عمر وبهذا جعلهم رهن الفرح والسرور.

وكان طريق آل عمر القديم شديد الضيق يكاد لا يسمح بمرور شخص واحد، ولكن المشار إليه فتح طريقًا واسعًا فقدره الأهل وأثنوا عليه.

ويرى البعض أن الحجاج بن يوسف الثقفى أراد أن يأخذ ذلك المنزل الذى يشبه الثريا من عبد الله بن عبد الله ولما قال له عبد الله إننى لا أستطيع أن أبيع بيت رسول الله طمعًا فى ثمن قليل، أجاب الحجاج لابد أن أهدم ذلك المنزل وأخرجه فقال له إنك لا تستطيع أن تهدمه إلا إذا هدمته فوق رأسى، إننى لن أخرج من دارى حتى تستطيع أن تهدمه وعندما أخذ الحجاج هذا الرد منه أحضر عمالاً وأخذ يهدم فى المنزل وعبد الله بن عبد الله فى داخله، وإن كان عبد الله بن عبد الله أصر على عدم الخروج إلا أن أفراد بنى عدى توسطوا فى الموضوع وقالوا يا عبد الله مازلنا إلى الآن فى أشد الألم من نار فراق المرحوم والدك، فكيف لنا الصبر على النار التى ستفجعنا بها ذاتك السامية وأخرجوا المشار إليه.

ظن الحجاج الصفيق أن عمله هذا أى إخراج عبد الله من بيته نجاحًا كبيرًا

فأخبر الوليد بن عبد الملك بما فعله، وأجابه الوليد بأن يعطى النقود التى قدرت ثمنًا لبيت حفصة إلى عبد الله وفى حالة رفضها أن تصرف تلك النقود فى أمور مسجد السعادة، إلا أن عمر بن عبد العزيز أعطى الجزء الذى لم يدخل فى ساحة مسجد السعادة لعبد الله بن عبد الله وفتح طريقًا منتهيًا إلى مسجد السعادة كما فتح بوابة من بيت المشار إليها إلى الطريق المذكورة وهكذا طيب خاطر عبد الله.

ويفهم من كل هذه الروايات أن الوليد بن عبد الملك هو الذى اشترى الحجرات؛ إلا أن زين المراغى نقل رواية عن الإمام السهيلى تبين أن تلك المنازل قد اشتريت فى زمن عبد الملك بن مروان وأدخلت فى مسجد السعادة إلا أنها لم تهدم تبركًا بها، ويتحقق من كل هذه الروايات أن عبد الملك ابن مروان سمح للمسلمين أن يدخلوا فى الحجرات ليؤدوا الصلاة فيها، كما أن ابنه الوليد هدمها كلها وضم ساحتها إلى مسجد السعادة وقد ثبت عن المؤرخين أن الناس كانوا يدخلون أيام الجمع فى حجرات زوجات النبى ويصلون فيها.

وبعدما انتهت منازعات إعطاء البيوت كما سبق شرحه، هدم عمر بن عبد العزيز المنازل المشتراة وسطح ساحتها وضمها إلى مسجد السعادة، وابتدر فى وضع أساس البناء المقدس وبنى جدار القبلة فى مكانه الأول وجدار جهة باب السلام أوصل إلى الأسطوانة المربعة كما سحب جدار جهة الشام إلى العمود العاشر من الأساطين المربعة للقبر الجليل، وإذا عد هذا العمود من أعمدة الجدار الشامى فهو الرابع، وأضاف إلى الجهة الغربية أسطوانتين[1]، وبهذا أوصل طول مسجد السعادة إلى ١٦٧ ذراعًا وعرضه إلى ١٣٥ ذراعًا.

وعند البعض أوصل طول مسجد السعادة إلى ٢٠٠ ذراع وعرض الطرف الشامى إلى ١٨٠ ذراعًا وعرض الطرف القبلى إلى ٢٠٠ ذراع وأدخل قبر النبى الجليل ومقبرتى الشيخين الجليلين فى داخل المسجد وإدخال القبرين الشريفين فى المسجد الشريف يومئ إلى اتخاذ المقابر مسجدًا وهو أمر غير مسموح شرعًا من

(١) كان مكان أحد هاتين الأسطوانتين ساحات حجرات نساء النبى وثلاثة منازل لعبد الرحمن بن عوف يقال لها قرائين

هنا اعترض على ذلك من قبل سعيد بن المسيب بعض الاعتراض إلا أن أحدًا لم يعر له أذنًا.

وقد استخدمت الأحجار المنحوتة فى بناء الجدران كما أن الأعمدة قد دعمت بالحديد والنحاس وعلقت الثريا التى أرسلها الحاكم فيلبوس من القسطنطينية فى جهة مناسبة وزينت الجدران من الداخل والخارج برخام مجلى والذهب والفسيفساء، كما أن أسفل الأعمدة وأعلاها ذهبت بأنواع مختلفة من الذهب كما زينت عتبات الأبواب.

معجزة جليلة: قال أحد عمال الروم الذين أرسلهم فيلبوس لزملائه إننى سأتبول فوق قبر محمد ﷺ الذى يحترمه المسلمون أعظم احترام ويعزونه كثيرًا وأخذ يحل حزامه ولكن زملاءه منعوه عن ذلك فلم يستطع أن ينفذ ما فى ضميره، وبعد دقيقتين من هذا الحوار غير اللائق وقع هذا الشخص سخيف الأفكار على أم رأسه وذهب إلى دار البوار وبناء على ذلك أسلم جميع زملائه.

وقطع عمر بن عبد العزيز واقتلع أشجار النخيل التى فى نهاية الجدار الشرقى للمسجد الشريف وأبطل نظام إقامة صلاة الجنازات فى داخل المسجد وألغاه[1]، وأتم بناء مسجد السعادة فى خلال سنة إحدى وتسعين[2] وعرض الأمر على الوليد بن عبد الملك، وسافر وليد بن عبد الملك محرمًا بنية الحج إلى مكة المعظمة، ومر بعد الحج بالمدينة المنورة وأَجَال نَظَرَهُ فى حرم السعادة وأمر بأن تهدم جميع سقوف مسجد السعادة وأن يصنع سَقْفٌ جديد مثل سقف المقصورة، فأجابه عمر بن عبد العزيز قائلا: «إن هذا المكان الذى لم يعجبك قد صنع بإنفاق خمسة وأربعين ألف دينار، واستنفذت كل المبالغ التى فى بيت مال المسلمين ولن تستطيع خزانة المسلمين أن تدفع مبلغًا مثل هذا من أجل إرشائك» وقد انزعج وليد من هذه الإجابة وقال له «ما هذه الخسة؟ كأنك أنفقت هذا المال من جيبك» وأظهر غضبه بهذا العتاب وخاطب أبان بن عثمان الذى كان بجانبه «كيف ترى

(١) كان فى ذلك الوقت فى نهاية الجدار الشرقى للمسجد نخلتان وكانت صلاة الجنازة تؤدى بالقرب منهما.

(٢) شرع فى تجديد المسجد الشريف سنة ٨٨ وتم بناؤه فى سنة ٩١.

هذا المسجد فى حالته هذه وحالته القديمة» فأجابه قائلاً: «كان يشبه فى حالته الأولى المسجد والآن تحول إلى كنيسة»، وعلى هذا عزل ابن أخيه من ولاية الحجاز وشفى صدره بهذه الطريقة.

فائدة التوكل: عند عودة الوليد بن عبد الملك من الحج استقبله عمر بن عبد العزيز من وجهاء البلد وأعيانه وأدخله إلى المسجد الشريف رأسًا وزار الوليد جهات المسجد الأربعة وأدى صلاة التحية فى بعض أماكنه، وكانوا قد أخلوا المسجد من الناس حتى يزور الوليد المسجد بمفرده إلا أن سعيد بن المسيب ظل فى ركن من أركان المسجد وقد لبس أسمى الألبسة.

وكان عمر بن عبد العزيز يغير طريقه وسيره فى داخل المسجد حتى يخفى سعيد بن المسيب عن أنظار الوليد إلا أنه لمح سعيد بن المسيب وقال من هذا الشخص؟ ألا يكون سعيد بن المسيب؟ وقال عمر بن عبد العزيز لو كان قد عرفك لكان يقوم ويحييك، بما أن بصره ضعيف لم يستطع أن يعرف سيادتك!!! قال الوليد إننى أعرف أنه لا يعادينا، وإنه رجل عالم تقى، لنذهب ونزوره وذهب إلى المكان الذى يجلس فيه سعيد بن المسيب وسلم عليه وسأله عن أحواله وصحته ثم ودعه، ومدحه بعده قائلاً إن هذا الرجل أفقه الناس. وأمر بتغطية قبر السعادة بقطعة قماش لطيفة.

كان عمر بن عبد العزيز عُين واليًا للمدينة مكان الأول المعزول هشام بن إسماعيل سنة ٨٦ الهجرية، وعزل فى أواسط سنة ٩٣ الهجرية على الصورة التى ستذكر فيما بعد وعلى هذا الحساب قد دامت ولايته بين ما يقرب من سبع سنين، وقد عاش آل دار الهجرة فى تلك الفترة تحت حمايته فى أمن وراحة وطمأنينة وناموا مستقرين، وحينما جاء عمر بن عبد العزيز إلى المدينة نزل فى دار مروان واستقبل الذين أتوا لتحيته بسلامة الوصول فى هذه الدار، ولما حل وقت الظهر أدى فريضة الظهر ثم استدعى عروة بن الزبير، أبا بكر بن أبى خيثمة، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، سليمان بن يسار، قاسم بن محمد، سالم بن عبد الله ابن عمر، عبد الله بن عبيد الله بن

عمر، عبد الله بن عامر ابن ربيعة، خارجة بن زيد من فقهاء المدينة وقال لهم إننى دعوتكم لأرجو عونكم فى تدبير أمور الحكومة وإدارتها.

وإذا لم ينضم إلى رأيى رأيكم جميعًا أو بعضكم فلن أتخذ أى قرار قط، وبناء عليه فإذا استمعتم إلى أى شىء يخرج عن الحدود الشرعية فعليكم فى المسارعة بإخطارى وشارك الفقهاء المشار إليهم بالمشاورة والمذاكرة.

وحتى ذلك التاريخ لم يكن لمسجد السعادة لا محراب ولاشرفات، فأحاط عمر بن عبد العزيز حوائط مبانى المسجد دائرًا ما يدور بالشرفات، وقوى ميزابه ودعمه وما برز من السقف بأن صب عليها الرصاص وبعد ذلك نصب محرابًا فى غاية الجمال.

وإن كان جمهور المؤرخين يصدقون أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أمر بصنع محراب لمسجد السعادة، إلا أنهم اختلفوا فيمن صنع الشرفات، إذ قال بعض المؤرخين، إن الذى أمر بصنع شرفات مسجد السعادة هو عبد الواحد بن عبد الله النصرى والي المدينة فى سنة أربعمائة هجرية، وبما أنها احترقت فى الحريق الأول جددها فى سنة ٧٦٧ هـ الأشرف شعبان بن حسين بن محمد من ولاة المدينة إلا أن أكثر مؤرخى المدينة ولا سيما المشهورين منهم الذين يؤيدون أقوالهم بالأدلة الموثوقة ترددوا فى تصديق هذه الرواية وقروا أن الشرفات أيضًا من آثار عمر بن عبد العزيز.

المآذن: حتى عصر عمر بن عبد العزيز لم تكن للمسجد النبوى الشريف مئذنة وقد أمر المشار إليه بصنع أربع مآذن على زوايا المسجد الأربع على أن تكون مئذنتى زاويتى جُدْرَان القبلة أعلى قليلا من مئذنتى زاويتى جُدْرَان الجهة الشامية، وبهذا كان هو مؤسس مآذن مسجد الرسول إلا أن بعد ذلك غيرت أى فى خلال السنة الهجرية (٩١) أمر سليمان بن عبد الملك بهدم مئذنة باب السلام، لسفسطة تزعم أن المؤذنين يرون أهل دائرتى وعلى هذا ظل مسجد السعادة قائمًا بثلاث مآذن لمدة ستمائة وخمسة عشر عاما.

مطالعة

كان أمر هدم مئذنة باب السلام قد صدر من سليمان بن عبد الملك لأن تلك المئذنة تصادف اتصالها بمنزل مروان بن الحكم، هل من الممكن ألا يتأسف إنسان لمثل هؤلاء الحكام الذين يحافظون على حرمة منازلهم بهذه الدرجة ثم يقدمون على هدم حجرات النساء الطاهرات؟ وهل هناك وقاحة أكبر من ذلك؟

انتهى.

وكان ارتفاع هذه المآذن الثلاث ـ كل واحدة منها ـ ستين ذراعًا وكان سطح قاعدة كل واحدة منها أربعة وستين ذراعًا مربعًا وكان ارتفاع المئذنة الحبشية فى الزاوية الغربية خمسين ذراعًا، وعلى قول البعض أن المئذنتين اللتين على زاويتى الجدار الشامى كانتا قصيرتين على شكل أبراج، وكانت المئذنتان اللتان على الجدار القبلى طويلتين مثل مآذن عصرنا هذا.

وقال بعض المؤرخين إذا ما قيست هذه المآذن من قاعدتها إلى أعلى قمتها فإن المئذنة، الرئيسية يبلغ ارتفاعها ١٢٠ ذراعًا والشرقية يعنى السنجارية ٧٩ ذراعًا والمئذنة الغربية أى الحبشية ٧٢ ذراعًا، إلا أن شيخ الخدمة فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملوك المصرية كافور المظفرى الحريرى[1] جدد بناء المئذنة التى هدمها سليمان بن عبد الملك فى سنة ٧٠٦ هـ فأصبح المسجد الشريف ذا أربع مآذن بعد أن ظل إلى سنة ٦١٥هـ بثلاث مآذن بهدم سليمان بن عبد الملك مئذنة باب السلام، وبينما كان يحفر أساس مئذنة باب السلام ظهر باب صغير يفتح إلى باب مروان وكان هذا الباب منخفضًا عن سطح المسجد الشريف قدر قامة رجل وكان مصراعه المصنوع من خشب الساج لم يبل بعد، وعندما عمقوا الحفرة أكثر من ذلك وجدوا مجرى ماء لا يعلم منتهاه، وكان هذا المجرى قد أدخل من ساحة الحرم الشريف الرملية القديمة ولما كان لون الرمال المفروشة فى هذا المكان شديد السمرة فهم أنه قد جيء به من جبل سلع.

(١) كان هذا الشخص قد عين شيخ الخدمة بعد أن مات عزيز الدولة.

وأصبحت مئذنة باب السلام المجددة أعلى من جميع المآذن الأخرى، أى بلغ ارتفاعها إلى ٩٥ ذراعًا إلا أن مئذنته الرئيسية قد أعليت عندما جددت بعد الحريق الثانى حتى بلغت مائة ذراع وبهذا أصبحت أعلى من مئذنة باب السلام، ولما كان السلطان قايتباى المصرى قد عمر المئذنة الرئيسية بشكل جميل فى سنة ٨٩٠ هـ وأعلى ارتفاعها عشرين ذراعًا فتجاوز طول هذه المئذنة ١٢٠ ذراعًا ثم بنيت بعد ذلك مئذنة أخرى بجانب باب الرحمة[١] فبلغ عدد مآذن مسجد السعادة إلى خمسة.

ولما كانت مآذن مسجد السعادة قد عمرت ورممت عامة فى زمان السلطان عبد المجيد خان الذى تميز بالأعمال الخيرية تذكر تلك المآذن فى زمننا بأسماء الأبواب الرئيسية، باب السلام، باب الرحمة، المجيدية والعزيزية، ويُعْلن فى شهر رمضان حلول وقت الإمساك بواسطة قناديل المئذنة الرئيسية لأن فى أعلى المئذنة الرئيسية بكرات مربوطة وعندما ينزل رئيس المؤذنين من فوق المئذنة فى ليالى رمضان يرفع فوق ذروة المئذنة بواسطة تلك البكرات ثلاثة قناديل وعقب ذلك تطلق مدافع الإمساك.

كان يطلق فيما مضى على مئذنة العزيزية الحبشية وعلى مئذنة المجيدية السنجارية وفيما بعد أطلق عليها الشكلية، ولما جدد السلطان عبد المجيد مئذنة السنجارية كأنه بناها من جديد فعرفت تلك المئذنة باسمه، أى أطلق عليها المجيدية وكان يطلق على مئذنة الحبشية السليمانية من سنة ٩٤٠هـ إلى سنة ١٢٧٧هـ، ولما كانت هذه المئذنة قد عمرت فى صورة تامة كاملة فى عهد عبد العزيز خان وأوائل سلطنته أطلق عليها العزيزية كما ذكر فى الوجهة العاشرة والصورة الثالثة منها، ولما كان المسجد النبوى خاليًا من المآذن فى عصر الرسول لأجل ذلك كان بلال يصعد فوق سطح إحدى المنازل القريبة من منازل بنى النجار ويؤذن، وكان ذلك المنزل عاليا مباركًا وكانت صاحبته امرأة من بنات بنى النجار، وقال بعض المؤرخين كان بلال يؤذن فيما بعد صاعدًا فوق الأسطوانة

(١) بانى هذه المئذنة قايتباى المصرى.

العالية التى كانت بجانب عتبة المنزل الذى انتقل إلى ملكية عبد الله بن عمر، وقال المؤرخون الذين ادعوا هذا أن تلك الأسطوانة كانت مربعة الشكل تابعة للمنزل الذى يعرف فيما بعد بدار عبد الله بن عبد الله والذى يعرف فى زماننا بدار العشرة واشتهرت باسم أسطوانة المعمار.

صورة أداء صلاة الجنازة فى مسجد السعادة وسبب منعه

بعدما أتم عمر بن عبد العزيز بناء مسجد السعادة على أكمل وجه، عين حارسًا حتى يحافظ على نظافة المسجد الدائمة وأمره بألا يدخل الجنازات فى داخل المسجد ومن وقتها كانت صلوات الجنازات تؤدى خارج المسجد وإن كان هناك من اعترض على ذلك وخالفوا الأوامر إلا أن من كان يدخل جنازته إلى داخل المسجد تخرج إلى خارجه، وكان الذين يلحون على إبقاء جنازتهم داخل المسجد يضربون ويهانون، وظهر هذا النظام فى عصر الوليد بن عبد الملك وصلاة الجنائز إلى ذلك التاريخ كانت تؤدى فى داخل المسجد الشريف، وكانت صلوات بعض الذوات الذين توفوا فى عصر السعادة تؤدى أمام الحجرة النبوية ومن هنا كان أهل المدينة يضيقون بهذا المنع، لأن عمر الفاروق صلى على جنازة الصديق كما صلى حضرة صهيب على جنازة عمر الفاروق أمام المنبر المنير، كما أن جنازات بعض الصحابة أدخلت إلى داخل المسجد للصلاة عليها.

وإن كانوا فى ذلك الوقت قد التزموا جانب عدم إدخال الجنازة إلى مسجد السعادة؛ حتى إن بعض الصحابة أرادوا أن يعترضوا على طلب زوجة الرسول عائشة ـ رضى الله عنها ـ قائلة لابد أن تؤدى صلاة جنازة سعد بن أبى وقاص فى داخل المسجد أولا أنها قالت عجبًا لكم! ما أسرع ما نسيتم أن رسول الله ﷺ كان قد صلى على جنازتى سهل بن بيضاء، وعقب ذلك على أخيه فى داخل المسجد الشريف وأخجلت بهذا العتاب الذين يتحدثون بدون تفكير، ولما كان أهل المدينة واقفين على هذه الدقائق تمام الوقوف فلم يستحسنوا قانون المنع الذى وضع من أجل الجنازات.

ومع مرور الأيام لم يبق حكم لهذا المنع وقرر أن تصلى على جنازات السادات العلوية والأشراف فى داخل الروضة المطهرة وعلى جنازات العامة خلف الجدار الشرقى للمسجد الشريف وأموات خاصة الناس تؤخذ داخل الحرم ثم قرر أن يصلى على جميع جنازات المسلمين داخل المسجد الشريف فى الروضة المقدسة ما عدا جنازات طوائف الخوارج[1] ومازال هذا النظام ذو المحاسن الشاملة باق. فتؤخذ جنائز من مات فى المدينة داخل الروضة المطهرة وتصلى عليها صلاة الجنازة إذا لم يكن الميت من طائفة الخوارج.

وإن كان هذا النظام قد اتخذ صيانة لحق رسول الله ﷺ بما أن رجل الميت الذى سيصلى عليه ستوجه ناحية الرأس النبوى الشريف فهذا مناف للآداب الإسلامية، ولأجل ذلك كان بعض الذوات من علماء المدينة يوصون بأداء صلاة الجنائز فى موضع الجنائز وكان سبب منع أداء صلاة الجنازة لعمر بن عبد العزيز فى داخل المسجد هذه الفكرة وكأنه كان ينبئ إلى رعاية النعش النبوى العالى، وكما لم يكن فى عصر النبوة مكانًا خاصًا لأداء صلاة الجنازة كان النبى ﷺ يعود الذين يحتضرون وبعد وفاتهم يعود إلى مسجد السعادة ثم يذهب ويؤدى صلاة جنازاتهم.

وقد رأى الأصحاب الكرام فيما بعد أن هذا الأمر شاق علىٰ النبى ﷺ فوضعوا نظام الصلاة على الموتى فى موضع الجنائز بعد الاستئذان من النبى ﷺ.

وفي إستانبول يطلق موضع الجنائز على المكان الذى يسمى بمصلى وكان موضع الجنائز فى عصر السعادة فى مكان بين نخلتين كائن فى الجهة الشرقية من مسجد السعادة ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن أداء صلاة الجنائز فى الروضة المطهرة إساءة إلى النبى ﷺ، اشترى المكان المذكور من أصحابه وقطع أشجار النخيل وألمح إلى أنه يجب أن تؤدى صلاة الجنائز فى هذا المكان والذين لا يقبلون هذا الأمر كان يزجرهم ويهددهم بالضرب والإهانة.

(١) الذى منع إدخال جنازات الخوارج فى داخل المسجد هو طاهر جقمق المصرى.

وصلى إمام محراب الدين - ﷺ - فى هذا المكان كثيراً من صلوات الجنائز وأصبح فى حكم العادة بين الأصحاب أن تؤدى صلاة الجنازة فى الموضع المذكور قرب وفاة سعد بن أبى وقاص.

وبما أن النبى ﷺ كان يصلى نادراً صلاة الجنائز فى داخل مسجد السعادة بناء على الواقع الذى أخطرت به السيدة عائشة، أجاز أئمة المذاهب الثلاثة الصلاة على الجنائز فى داخل المسجد كما بينه ابن حجر بعد التدقيق، وإن كان أئمة الحنفية يعترضون على ذلك إلا أنهم يجيزون تقليد أئمة المذاهب الثلاثة بشرط أداء صلاة الجنائز فى الحرمين فقط، وبناء على هذا يؤتى بالجنائز داخل مسجد السعادة ويصلى عليها فى المحراب العثمانى ثم تمرر من داخل الروضة المطهرة وتدفن فى القبر الذى فى البقيع الشريف، كما أن أموات الغرباء تغسل وتجهز وتكفن فى مكان يسمى شر شورة وتصلى على جنازاتهم خارج المسجد وفى جهة باب جبريل ثم تدفن فى البقيع.

ولكن جنائز الخوارج لا يصلى عليها فى المصلى، إنما يصلى عليها فى خارج المدينة فى مكان خاص بهم بواسطة جماعاتهم وبما أنه لا يشاركهم فى ذلك شخص غريب عنهم فلا يطلع أحد من غيرهم على كيفية الصلاة والتكفين والدفن.

اللائحة: قال علماء المذهب الحنفى كما ذكر آنفا بما أن المساجد قد بنيت لأداء الصلوات الخمس من هنا يلزم أداء صلاة الجنائز خارجها ولكن أئمة المذهب الشافعى رأوا أداء صلاة الجنائز فى داخل المسجد أولى. وقال الإمام أبو يوسف: «أداء صلاة الجنائز فى داخل المسجد اقتداء بأهل الحرمين الشريفين» وأفتى بناء على قوله.

وبما أن الصلوات التى تؤدى للجنائز فى داخل أحد الحرمين ستتميز بكثرة الجماعة وسيكون ذلك موضع شرف للميت فلا يعترض على أداء أهل الحرمين الشريفين صلوات الجنائز بهما إذ يغلب على الظن أن الجنائز التى دخلت فى

الروضة المطهرة دخلت الجنة فى الدنيا ويؤمل من اللطف الإلهى ألا يخرج من الجنة من دخل فيها.

ومن هنا ندعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الذى يصلى على جنازته فى داخل أحد الحرمين أن ينعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه بالجنة وأن ينال شفاعة حبيب رب العزة، ألا فليجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ مؤلف هذا الكتاب من زمرة هؤلاء السعداء؛ آمين بحرمة سيد المرسلين.

ويروى المؤرخون بخصوص هذا الموضوع أقوالاً كثيرة، يقول ابن النجار فى كتابه مازال نظام أداء صلاة الجنائز فى الحرمين فى موضع الجنائز باقيًا، إلا من يرغب من سادة العلويين والسادة والأعيان الذين يراعى خاطرهم يصلى على جنازتهم فى داخل المسجد النبوى، وغير هؤلاء من عامة الناس يصلى على جنازتهم خلف الجدار الشرقى لمسجد السعادة ويظل قبر الرسول ﷺ على يمين الإمام الذى يؤم الناس.

وقال الإمام السمهودى موضحًا إن ما ذكره ابن النجار سقط عن الحكم الآن، أما الآن فمعظم الجنازات تدخل فى المسجد النبوى وتصلى صلاة جنازاتهم فيه، إلا أن جنازات الأعيان والوجهاء يصلى عليها بين منبر السعادة وقبر الرسول كرعاية خاصة لهم، وتؤدى صلوات جنائز عامة الناس أمام الروضة المطهرة، وفى سنة ٨٤٢ هـ منع إدخال جنائز الخوارج فى داخل مسجد السعادة بناء على الأمر الذى ورد من الملك جقمق إلا إذا كان بينهم أسرة علوية وماتوا يصلى على جنازاتهم فى داخل المسجد ومازالت هذه العادة جارية فتدخل جنازات أفراد المذاهب الحقة عامة فى المسجد ويصلى عليها ما عدا أموات الفقراء والغرباء يصلى على جنازاتهم فى المكان الذى ذكر من قبل.

ويدخل أهل المدينة جنازاتهم فى المسجد الشريف من باب الرحمة وإن كانت منازلهم فى جهات أخرى. وغرضهم من ذلك التيمن وتمنى رحمة الله والتفاؤل.

وتمرر الجنازة من باب الرحمة يُؤتى بها فى مواجهة قبر الرسول، وبعد أن

يستشفع من الرسول ﷺ يضعون الجنازة فى مواجهة قبر الصديق وبعد مواجهة قبر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ ثم توصل أمام المحراب العثمانى حيث يصلى عليها ثم يمر بين الروضة المطهرة وتخرج من باب جبريل وتدخل فى مقبرة بقيع الغرقد، والجنازة التى يصلى عليها أمام المحراب العثمانى تظل رجلاها فى يسار الإمام وإذا ما صلوا عليها فى داخل الروضة المطهرة يجعلون رجليها يمين الإمام حتى يكون رأس الجنازة ناحية قبر السعادة.

وهذا النظام خاص بالشافعية وإذا صلى للجنائز، سواء أكانت فى داخل الروضة المطهرة أو أمام المحراب العثمانى يجعلون الجنازة دائمًا على الشكل المذكور. إلا أن وضع جنازة المرأة التى يصلى عليها فى الروضة المطهرة لا يكون على وضع الذكور، إنهم يجعلون رأسها فى يسار الإمام؟ لأن فى وضع رجليها نحو قبر السعادة إساءة للأدب.

قال الإمام السمهودى فى كتابه «ذروة الوفاء» وإن لم يكن أداء صلاة الجنازة فى الروضة المطهرة بدعة إلا أنه يقتضى ألا تمد رجلا الجنازة التى تقام لها الصلاة ناحية قبر السعادة».

وكانت أول جنازة تستوقف فى مواجهة قبر السعادة للاستشفاع جنازة سبط النبى الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ لأنه كان قد أوصى أخاه الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ قائلاً: «إذا لم يسمحوا بدفن جنازتى بحجرة السعادة فخذوها إلى مواجهة الحجرة حيث تقفون بها قليلاً ثم ادفنى بجانب والدتى فى البقيع» ولما كان سيدنا الحسين أوفى بوصية أخيه أصبح أخذ الجنازة أمام قبر الرسول ﷺ وطلب الشفاعة منه ـ عليه السلام ـ عادة بين أهل المدينة.

استطراد

ظهرت عداوة بنى أمية للسادة الكرام منذ الوقائع المؤسفة التى برزت على منصة الأحداث منذ أن اعتلى على بن أبى طالب عرش الخلافة، إذ يعتقد هؤلاء الأشقياء ويزعمون أنهم من فروع أحفاد عبد مناف بن قصى ويلزم ألا يزيد فضل

وشرف وسيادة أبناء عبد المطلب بن هاشم على فضل وشرف وسيادة أبناء أمية بن عبد شمس ومع أنهم يعرفون جيداً أن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف لا يعادل ولا يماثل هاشم بن عبد مناف كما أن حرب بن أمية لا يعادل عبد المطلب بن هاشم وأن أبو سفيان صخر لا يماثل أبا طالب وأن عبد الملك بن مروان لا يعادل أبناء السبطين العظام ومع هذا كانوا يسعون إلى إخفاء فضائل حيدر الجليلة ومناقبه الجميلة.

ولجئوا فى هذا السبيل إلى حيل ودسائس كثيرة حتى يقنعوا الناس بصواب أفكارهم وتصوراتهم ولما كانت حكومة بنى أمية أسست على فكرة حمل الناس على نسيان خصال المرتضى ذات الدلائل الباهرة أخذوا يضيقون على الذين ينتسبون إلى آل النبى وأسرته ذات الأركان الرصينة ويزعجونهم كما أنهم منعوا ذكر اسم فارس المشارق والمغارب أبى الحسنين على بن أبى طالب فى أى مكان لأى إنسان طول مدة حكمهم، ومنعوا ذكر محاسن أهل البيت فى المحافل والمجالس.

وإن قتل البطلين المكرمين بصورة شنيعة، وحبس الذين يؤيدون على بن أبى طالب والذين يثنون على أهل البيت ويمدحونهم مدة طويلة، وإخراج محسن بن الحسن وفاطمة بنت الحسين ـ رضى الله عنهم ـ من المنزل الذى كانا يسكنان فيه فى حقارة وامتهان وهدم البيت الذى ينسب إلى فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بدون إرضاء أصحابه وتطييب خاطرهم وجعل المدينة المنورة منهبًا للشوام ووقوع أمثال هذه الإساءات والسماح لها كل هذه نتيجة مؤلمة لتلك الدعوى الباطلة.

وكان غرض الوليد الأساس ومن تبعوا غرض الوليد الذى جدد مسجد السعادة نبى الزهد فى الدنيا والابتعاد عن زينتها، والإبقاء على سلطنة الدنيا سريعة الزوال فى يد الأمويين والسعى من أجل ذلك، مع أن كل هذه المساعى من الوليد أو ممن سبقوه من الحكام أو أتوا بعده كانت سببًا فى زيادة شرف أهل البيت وتعالى أفضالهم وغلبة شهرتهم وبناء على هذا كانت هذه الكيفية مثارا لوفور وقاحة الأمويين وانتشار فضائحهم.

ولا يقل العباسيون فى تحقير العلويين عن الأمويين، ومن الأعمال غير اللائقة والحركات الوحشية فى عهد بنى العباس؛ حتى لا يخرجوا زمام الخلافة من أيديهم وهو خيال محال، سقوا بقايا الأئمة الكرام من آل البيت سم الهلاك قتلوا أولادهم وأحفادهم وساموهم أنواع التعذيب الذى لا يخطر على البال.

وإن كانت الآثار النبوية الصريحة والأخبار المصطفوية الصحيحة التى تزين الصدور والسطور زائدة عن العدّ والإحصاء فى المناقب الجليلة التى تفوق إدراك عقول البشر لوارث العلوم النبوية حضرة الإمام على ـ كرم الله وجهه ورضى الله عنه ـ إلا أننا لو نظرنا إلى صفحة من صفحات التاريخ نظرة إمعان وجدنا أن عهد السلاطين العثمانيين مصون عن الجور ورأينا أن أكثر السادات العظام كانوا قبل سلاطين آل عثمان نافرين من الملوك ومغضوب عليهم من السلاطين الذين يفتقرون إلى السلوك الإسلامى، والمقالة الآتية موازنة واضحة فى هذه المسألة.

موازنة تاريخية

إن الموازنة بين طرق المعاملة لآل بيت النبوة الذين اكتسبت بهم مكة المكرمة والمدينة المنورة القدسية من قبل الخلافات المتقدمة مثل الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية والخلافة العثمانية تكون مداراً عظيمًا على إثبات قياسها بالرعاية التامة لمنصب الخلافة الجليلة حاملة لقب خادم الحرمين الشريفين.

كما أن هذه الموازنة تظهر مامدى صدق روايات بعض المؤرخين القدماء؛ لأن حكم الشىء الذى يقال له التاريخ لا يثبت عن طريق الرواية فقط بل يجب أن تؤيد الأقوال التى قيلت فى التاريخ والمدائح والثناءات لابد وأن تتحول إلى الأفعال، لأن الأقوال التى لا تؤيد بالأفعال تظل ألفاظا لا معنى لها.

إن الأعمال التخريبية التى قام بها القادة مثل ابن ارطأة والحجاج الظالم ومسلم بن عقبة على مكة المكرمة والمدينة المنورة فى عهد الأمويين قد وصل إلى درجة التواتر، حتى إننا نرى تفصيلها من قبيل إعلام المعلوم، وإن معاملة القادة

مثل الحجاج الظالم وابن أرطأة ومسلم ـ يفتضح اسمه ـ معاملة حسنة لسادات الحرمين الشريفين وأشرافها يقتضى عدها من الأمور المستغربة.

وإلا فمن المحال أن ينتظر خير عندما يذكر أسماء الحجاج الظالم وابن أرطأة ومسلم لأجل الآل والمحال المباركة وهذا ما يميزه حتى أصحاب العقول القاصرة ويفرقونه إن الجرم الذى ارتكبه عبد الملك بن مروان الأموى ضد الكعبة المكرمة عندما أراد قتل ابن الزبير قد وصل إلى درجة الإخلال بسلامة البيت المعظم الذى روعى جانبه حتى فى عهد الجاهلية، إن سيف الجور والتعدى الذى سحبه من غمده دون مراعاة امتياز المكان وقدسيته لم يقتل فقط جناب ابن الزبير بل قتل آلافا من الذوات الكرام وسفح دماءهم وأجرى هذه الشدة ضد المبانى المقدسة عَمَّتْهَا حتى لم تترك مساجد جليلة ولا آثار شريفة دون التخريب والتدمير.

وأظهر سليمان بن عبد الملك، وهو أقل خلفاء الأمويين إساءة عداوته بهدم مئذنة باب السلام لمجرد حجة قربها من بيته الفاخر وأنها تكشفه.

واشتهر من الأمويين وخاصة الوليد بن عبد الملك بظلمه لآل البيت إذ حول إلى الحجاز قوة تخريبية إحدى المرات وأمر أن تهدم منازل زوجات النبى ﷺ على رءوس أصحابها وهم بداخل المنازل وكيف يتفق تخريب هذه المنازل ومبادئ الإسلام وكيف يتقبل محبو آل البيت مثل هذه الأعمال؟ ولا يعد ما قام به الوليد الظلم الوحيد الذى ارتكبه الأمويون إذ يجب أن يتذكر ما ساقه يزيد بن معاوية على دار الهجرة من الجنود الفاجرين الذين اعملوا سيوفهم فى رقاب أحد عشر ألفا وسبعمائة من المدنيين والذى ثبت بروايات متواترة.

وكان ضمن هؤلاء كثير من أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين والبقية الباقية من أولاد وأحفاد صحابة النبى ﷺ وكان سبعمائة منهم يحفظون القرآن الكريم.

وسيق بقية آل المدينة إلى خارج المدينة وقد قيدت أياديهم وأرجلهم بسلاسل الجور ولم تحل أكبالهم من رقابهم وأيديهم إلا بعدما أقسموا أنهم سيسيرون وفق

إرادة الملك الأموى وقد استحى المحررون الخوض فى تفصيل ما ارتكب فى أثناء تلك المظالم من انتزاع الأصحاب الكرام وإباحة أعراض النساء للجنود.

وبما أن الملل الإسلامية لم ترض فى صورة عامة عن الأمويين يلزم ألا يستغرب من مثل هذه الأعمال التى صدرت منهم ولكنه من الضرورة بمكان الاستغراب مما صدر من الخلفاء العباسيين من المساوئ فى هذا السبيل، هذا هو السفاح الذى أراد أن يعلن عن سطوته الملوكية على الجميع، بعد ضعفه وعجزه اللذين قد يجران استخفاف الناس له يعذب الآلاف ويؤذى لدرجة القتل ولم يَنْجُ أهل الحجاز المباركة من هذا الظلم الذى يعد أوائل مظالم العهد العباسى، وحينما سبقت الجنود فى زمن المنصور إلى المدينة للقبض على أحد المخالفين وهو على الرضا من السادة الكرام وقد قبض عليه مع أولاده وعياله وأصحابه ومحبيه وقتلهم جميعًا واحدًا تلو آخر ولم يكتف بذلك بل أراق دماء كثير من آل المدينة الآمنة ودخلت هذه الحادثة ضمن الأحداث التى أبكت آل الحرمين دما بدل الدموع.

ولم يتأخر آل عباس بعد المنصور عن منافسة السادة الكرام من آل النبى ﷺ والسبب الأصلى للمنافسة بينهما ما أشير إليه فى الاستطراد السابق، شرف النسب إذ حسدوا السادات الكرام الذين يعدون من آل النبى وأولاده بدون واسطة رأسا، وادعوا أنهم يتفوقون عليهم نسبًا وأقبلوا كلما وجدوا فرصة على أن يعدموا السادة الكرام إما بالسم وإما بالخنق وجعلوا هذا دينهم.

ولم يكن السادات الذين اكتسبوا شهرة طيبة فى سبيل الاستشهاد من النوادر، كما أن العباسيين الذين لوثوا سمعتهم بإيقاع المظالم عليهم لم تبق أعمالهم فى حكم النوادر. وكان أحد أسباب إهانة العباسيين لآل بيت النبى قضية الاستيلاء على ما يمتلكه هؤلاء من الأملاك والأراضى حول مكة المكرمة والمدينة المنورة بمد يد الاغتصاب إليها، وبناء عليه فإن أى واحد من آل البيت يقع فى يد العباسيين الغادرة تقع أملاكه تحت يد اغتصاب غادرة، ومن هنا ساءت أحوال السادات

الكرام يومًا بعد يوم. حتى هارون الرشيد الذى اشتهر بين الخلفاء العباسيين بالقوة والعظمة والشوكة لم يخل عهده من الظلم واللوث والتحقير لمشكلة نور الإسلام، إذ قبض على الإمام موسى الكاظم فى مسجد السعادة بملابسه الليلية بكل عنف وشدة وقيد رجليه وكبل من رقبته بالسلاسل وأرسل إلى البصرة فعاقبه عيسى بن جعفر بن المنصور بإلقائه فى السجن.

وقد بعث أبو جعفر المنصور العباسى إلى المدينة فرقة عسكرية قوامها أربعة آلاف جندى تحت قيادة عمه عيسى بن موسى، وأمره بأن يقبض على النفس الزكية من أبناء على بن أبى طالب وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين وجعله شهيدًا مع ثلاثمائة من أشراف الحرمين وسادتهم بأن قتلهم بسيف الغدر، وضم فوق هذا الظلم تحقير الموتى بأن منع دفن هؤلاء الشهداء فى مقابر المسلمين وأمر بدفنهم فى مقابر اليهود. وكأن هذا التصرف مدادًا للافتخار إذ جاء برءوس الشهداء إلى بغداد وشهر بهم بأن غرس الرءوس على رءوس الأوتاد وهذا العمل من المظالم الملعونة التى تجعل أصحاب الحمية الإسلامية يتقيئون دمًا، ونضيف لهذه الفاجعة أنه فى أثناء تلك الأحداث رجح بأن يقتل بعض السادة والأشراف فى بغداد بدلاً من المدينة وذلك تهديدًا لأهل بغداد وكان من ضمن هؤلاء والد النفس الزكية عبد الله وقد استشهد هؤلاء فى بغداد بطريقة لا تليق حتى بالمجرمين وسط أذى عظيم وتعذيب شديد.

وإننا نكتفى بذكر هذه الأمثلة فيما تعرض له الحرمان الشريفان وأهاليهما وأشرافهما تحت حكم خلفاء الدولة الأموية والعباسية من الجور والظلم والتحقير، ولما كانت غايتنا الأصلية هى بيان ما قام به سلاطين آل عثمان نحو الأماكن المباركة قبلة المسلمين ونحو السادة الكرام والأشراف ذوى المقام العالى من معاملات طيبة جميلة وجليلة سنسرع فى تحويل القول إلى ذلك الوادى، ولا يظن أن الحقارة اقتصرت على ما ذكرناه، فقد اغتر بعض منهم بتمزيق القرآن وافتخر قسم منهم بمسألة خلق القرآن وهكذا كان الأمويون والعباسيون دائمًا فى منافسة شديدة مع آل النبى ﷺ وكانوا يستفيدون من أقل شىء للإخلال ـ حاشا

ـ بشأنهم، وإذا ما نظرنا إلى طورهم الدائم كانت الإساءة إليهم، وإن وجد من بينهم من لم يسئ إلى أحد، إلا أنهم كذلك لم يحسنوا لأحد وهذا ما يجب أن نعتبر به.

والحقيقة أن العباسيين، ما عدا بضعة منهم لم يقوموا بخدمة عظيمة للحرمين الشريفين، وأهم هذه الأعمال تعمير السيدة زبيدة للعين المنسوبة إليها وتعبيد الطريق من بغداد إلى مكة فوق الصحراء يستطيع أن يسير عليها حتى الأعمى ويعد من الأعمال السهلة التى لا تقاس بالطرق المعبدة فى الأماكن الجبلية من بلادنا.

وقد حكم الفاطميون، مكة والمدينة باغتصاب عنوان الخلافة قبل أن تنتقل الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين إلا أنهم عدوا أنفسهم من أولاد النبى بشرط عدم علم مدى أحقيتهم فى ذلك ومع ذلك لم يتركوا فسادًا لم يرتكبوه، مثل ارتكاب الأشراف الذين فى منصب الإمارة جميع أنواع الجور لإبعاد الشريف الآخر من منصبه إذ كانوا ضحايا لمؤامرة الفاطميين، أو وجود شريفين فى منصب الإمارة فى نفس الوقت من الأحوال التى حدثت بسبب الفاطميين.

وعندما نصل إلى العائلة العثمانية عالية العنوان، نجد أن أولاد أرطغرل اعتادوا حتى قبل تسلم السلطان سليم خان عصا الخلافة وصولجان السلطة على أن يرسلوا مستلزمات المحبة والإسلام وذلك بإرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين، وقد ثبت بما قيد فى صفحات التاريخ أنهم بعد أن نالوا لقب الخلافة بعد فتحهم مصر، لم يسيئوا فى استخدام سلطتهم واستقلال حكومتهم الذى نالوه فى ظل الدولة المحمدية وذلك بإظهار قوتهم وعرضها على أهالى الأماكن المقدسة كما فعل الملوك السابقون كما أنهم لم يخدموا الحرمين الشريفين من أجل الأغراض الدنيوية مخالفين بذلك الشريعة الغراء الأحمدية جاحدين لمآثرها، بل ليخدموا الحرمين الشريفين حق الخدمة بدون أى غرض دنيوى.

حتى يروى أن السلطان سليم خان حينما أحضر أمامه مكنسة من المكانس

الخاصة داخل البيت المعظم رفع تلك المكنسة عاليًا كأنه يريد أن يعلقها على تاجه وبهذا أظهر أن هذا هو شأن من يلقب بخادم الحرمين المحترمين، وأن هذا الاحترام حركة مناسبة لما أظهره أجداده الأماجد من غيرة نحو الحرمين الشريفين كما أن أولاده وأحفاده ذوى الأصول العريقة اتخذوه قدوة لهم.

ولم يسمع من أحد عن وقوع أى قدر من الجفاء والجور ولو بمقدار ذرة صغيرة سواء أكان على الحرمين المحترمين أو الأرض الحرام من قبل الأسرة العالية بعنوان السلطنة السنية بل على العكس فإن كافة آل عثمان قد بذلوا خدمات حسنة قليلة كانت أو كثيرة وهذه الأعمال تزين صفحات شكر لتاريخ المحال المقدسة، ونحن نقول إذ نذكر ببعض هذه الأعمال:

كانت عين عرفات قد سدت تقريبًا سدًا كليا فى عهد السلطان سليمان خان، وأوشك أهل مكة الذين تعودوا على أن يرووا ظمأهم من مائها اللذيذ على الهلاك مثل شهداء كربلاء من العطش، فتحمل ذلك السلطان الخير نفقات باهظة فطهر عين عرفات وأجراها إلى مكة المكرمة بعد تطهيرها وتوسيعها، ومن ذلك الوقت إلى زماننا هذا فالعين المذكورة هى التى تروى وتسقى مكة المكرمة ولما خربت فى الأيام الأخيرة كان تجديدها وتعميرها بصورة أفضل وتوسيعها من نصيب ملكنا السلطان عبد الحميد خان الذى مازال جالسًا على الأريكة السلطانية القوية، إن هذا الماء الزلال الذى به الحياة لم يسق مكة المكرمة فقط ويرويها بل كاد أن يغرقها بفضله وهذا ما سيشهد به من رأوا العين المذكورة رؤية العين.

والحكم الذى ينطبق على عين عرفات فى مكة المكرمة هو نفس الحكم الذى ينطبق على عين الزرقاء فى المدينة المنورة، ولما كانت هذه العين أيضًا على وشك الانسداد فقد طهر مجراها ووسع قدر ضعفه فى عهد السلطان عبد المجيد خان الغازى والد سلطاننا كثير المحامد.

ولم يكتب لأية دولة إسلامية القيام بمثل هذين العملين الذين قامت بهما الدولة العثمانية التى لا تنكر خدماتها فى أحباء الحرمين الشريفين ومع هذا فلما

أشرفت مبانى البيت الأعظم على الانهيار والخراب فى سنة ١٠٤٢ الهجرية فتجديده من أساس مبانيه قد انتظم ضمن جملة الأعمال التى قام بها السلاطين العثمانيين وهذه الخدمة لم تتيسر لأية واحدة من الدول الإسلامية وكانت من نصيب دولتنا وولى نعمتنا والتى ترفع شأن آل عثمان إلى أعلى عليين.

ولما كان غرضنا هنا عقد مقارنة بين الخلافات المتقدمة والخلافة الجليلة والإسلامية العثمانية فيما قدمت من الخدمات الجليلة للحرمين الشريفين وإلا فالتفصيل ذكر ودرج فى الصورة الثالثة من الوجهة التاسعة فى قسم مرآة المدينة من مرآة الحرمين، فالذين يريدون أن يعرفوا مدى ما وصلت إليه محبة السلاطين العثمانيين للنبى ﷺ صاحب الرسالة ووفرة عبوديتهم عليهم أن يراجعوا الوجهة المذكورة.

ولما كان عرض الحال الذى قدمه السلطان محمود خان إلى عتبة صاحب الرسالة العالية بمناسبة إهدائه شمعدان إلى الحجرة المعطرة سنة ١٢٣٥ هـ يدل على محبة ذلك السلطان وإخلاصه فرأينا إدراجه فى هذا المكان.

لقد تجرأت بإهداء هذا الشمعدان يارسول الله
وغرضى هو خدمة الدرجة العليا يارسول الله
ولا تليق بروضتك هديتى المتواضعة أنا العاجز
لتشملنى بإحسانك وعنايتك بقبولها يارسول الله
فمن غيرك أكشف به يارسول الله
فالإحسان والمروءة من ديدنك يارسول الله
دخيلك الأمان ثم الأمان قد وقفت على عتبتك
فلترحمنى وتشفع لى يارسول الله
فاستصحب محمود عدلى فى الدارين
فالدولة لك فى الأولى والآخرة يارسول الله

إن التضرع الذى صدر من السلطان محمود خان فى عرض الحال هذا على شكل منظوم من مقتضيات التضرع الذى يليق بالمسلمين وتذلل المحبين من شأن الأسرة العثمانية ولا مجال لقياسها بسلوك الملوك الآخرين الذى اتسم دائمًا بالتكبر والتفاخر، وخارج عن حد إمكانية مقارنتهما بسلوك الملوك الآخرين.

ولما كان ما قام به السلطان محمود من تعمير مجرد تعمير لم يصل إلى درجة التزيين يليق بشأن الحرمين الشريفين إذ لم تسمح مشاغله الكثيرة بهذا العمل، ويلزمنا أن ندقق النظر فيما نقوله من كلمة «مشاغل» ولم تكن هذه المشاغل عبارة عن الألفاظ المجردة، بل كان العصيان الذى عم فى مصر، وألبانية، وإلغاء الانكشارية، وهجمات روسيا، وكانت مشكلة واحدة منها كافية لأن تترك عدة السلاطين العظام عاجزين عن العمل، وهذه المشاغل التى فى خلالها قام السلطان محمود بإجراء تعميرات كانت كافية لجعل مكة والمدينة أجمل من ذى قبل، إلا أن عبد المجيد خان لم يكتف بذلك، فتح جيب حميته وسماحته ليعمر من جديد مكة والمدينة ويزينهما ويكمل تجديدهما على أكمل وجه.

ولا تكفى هذه المقالة المختصرة لتعداد المساجد المباركة التى قام بتزيينها فى أثناء هذا العمل، وحتى نكون قد قلنا كلامًا للعموم نقول: «إن جميع المساجد التى توجد فى تلك الجهات من المسجد النبوى قد أخذت حصتها من التزيين الذى وفق إلى إجرائه السلطان عبد المجيد خان».

والمسكنة التى أظهرها السلطان عبد المجيد فى أثناء الترتيبات الجليلة الجميلة فاقت المسكنة التى أظهرها والده وبهذا أثبت أنه خير خلف للسلطان محمود العدلى.

وقد كتب بخط يده تحت الذى سيفرش فى الحجرة المنيفة اسمه وشهرته بعبارات تدل على الذلة وصفحات متواضعة وبهذه الصورة يكون قد مسح وجهه على ذلك التراب بالواسطة.

ولاسيما أنه لم يقبل الأوصاف السلطانية والتعبيرات الملوكية التى كتبت على

قطعة تاريخية ونظمت، على أن يعلق فوق طاق باب السلام بما أن السلطنة خاصة بصاحب الرسالة حضرة محمد فى الدارين فاستحى من عرض خدمته أمام النبى ﷺ بصفته السلطانية، وإن مبلغ هذا التعظيم للنبى ﷺ لم ير فى أحد من الملوك ما عدا السلاطين العثمانية.

وبما أن الخلافة تستلزم الخدمة والحماية، فالموازنة التى عقدناها بين الخلافات المتقدمة والخلافة العثمانية تبين لنا بالبداهة أى الخلافتين كان أكثر رعاية لهذا الشأن.

ولكن سلطاننا الكريم سلطان المسلمين وقرة عين آل عثمان ملك ملوكنا الغازى الذى لا يُدَانى، السلطان عبد الحميد خان الثانى قد فاق والده فى تعظيمه للحرمين الشـريفين والذى جلب لهما الشفاعة ﷺ، على أسلافه من الملوك حقًا.

وقبل أن نعرض الخدمات التى قام بها ولى نعمتنا فى حق الحرمين المعظمين المحترمين نذكرهم بمراعاة جانب آل الأماكن المباركة، وقد بلغت مروءته السلطانية ولطفه الملوكى إلى الدرجة القصوى ليس فقط فى حق آل بيت رسول الله ﷺ رأسًا بل لكافة أصحاب اللياقة من آل الحرمين المباركين، إذ دعا بعض هؤلاء إلى باب السعادة فى صورة خاصة وأقامهم بجانب سلطنته وأنعم عليهم بمرتبات مستوفاة وأحسن إليهم فجعلهم كلهم ممتنين بكرمه ولطفه وهذه المزية لم تُر إلا فى آثار هذا السلطان العادل كالفاروق، وعندما نعرج على بحث التعميرات والتزيينات فتعمير المسجد الحرام وتزيينه اللذان يصلان إلى درجة إبهار العيون من الآثار الحميدة لذلك السلطان، كما أن تزيينه لضريح خديجة الكبرى ومولد النبى ومولد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ترك الذين قارنوا حالتها الأولى بحالتها الحالية فى حالة الذهول، وقد ذكر إجراؤه لعين عرفات إلى مكة المكرمة من قبل، وأما الصهريج وعين الماء ذات الستة عشر صنبورًا اللذان بناهما فى منى فقد أحيت آلافا من الحجاج كل عام خلا الأرض.

وكان ما أحصيناه من الأشياء التى يفتخر بتعميرها وتزيينها أحد الملوك ليس كل ما قام به إذ كان سلطاننا القوى حريصًا على حب التعمير مثل والده فشملت حميته الدينية المبسوطة كافة الآثار الجليلة للحرمين، فقد عَمّر مقام يحيى ـ عليه السلام ـ واجب الاحترام وضريح السيد بلال وأضرحة الأنبياء الآخرين، ومقامات الأولياء ورتبها وزينها لا يشك فى خدمة من تلك الخدمات، وإحياؤه وإنشاؤه زاوية لا مثيل لها بدلاً من التكية الخربة بعد ٥٠٠ عام.

وبناء على المعلومات التى أمدنا بها الإمام تقى الدين عبد الرحمن أبو الفرح الحواسبى فى حق هذا المقام فى كتابه النفيس: «ترياق المحبين فى ذكر طبقات المشايخ العارفين»، أن التكية الرفاعية أربعة مبان متداخلة بعضها فى بعض وكانت قد بنيت على أربعة آلاف عقدة، وكان مائة ألف زائر يجتمع فيها وكانت التكية تستوعبهم كلهم، وكانت سماحة القطب الجليل وكرمه يكفيان لإطعام الضيوف كلهم وكان يطعم فى التكية الشريفة ما عدا هؤلاء المجتمعين عشرون ألفا من المريدين، وإن كانت قضية الإطعام هذه تعلن عن وجود ثروة عظيمة فى الميدان إلا أن انتفاع الشيخ وأولاده وأخلافه الكرام ندعه جانبًا إذ كانوا بسطاء بدرجة لا تفرقهم عن مريديه، وفى هذه الحالة لا يشك أن تلك الثروة مجرد رزق للفقراء وأنهم مفتقرون لذلك الرزق. والغرض من هذا الإيضاح هو لفت الأنظار إلى الزاوية الرفاعية وعرض أهميتها وأهمية أحبائها من قبل السلطان وبناء على ذلك نستمر فى الإيضاح ونقيد الآتى: «قد تولى المعين مهمة الإرشاد فى سنة ٥٤٠ الهجرية وقد بلغ عدد الرسائل التى تلقاها من مريديه الذين وصلوا إلى أربعين فردًا بعد سبع سنوات، سبعمائة ألف رسالة، وكثرة إرشاداته لهذه الدرجة هى محل موازنة للفيوضات الإلهية التى وهبها الله لذلك الشخص عالى المقام، وقد بنى التكية بناء على توسع جمعية وكثرة مريديه وقد قيد فى التواريخ أنه لم يبق فرد فريد فى قرى ومدن، واسط وبطايح من لم يمد يد العون لهذه التكية.

وكان سبب انقراض تلك التكية الوباء الذى ظهر فى سنة ثمانمائة الهجرية؛ وبما أن الوباء المذكور لم يترك قرية أو مدينة فى نواحى واسط وبطايح دون أن

يهلك أهاليها، وكان سببًا فى هلاك عمومى ومن هنا قد خربت التكية الرفاعية أيضًا ومن ذلك الوقت إلى زماننا هذا لم يوفق أحد فى تعميرها وها هو ذا سلطاننا الغازى عبد الحميد خان الثانى ييسر له تعميرها.

إن لذلك المقام الجليل أهمية سياسية غير أهميتها الروحانية ومن هنا احتاج بيان ذلك للتفصيلات الآتية:

وكانت بلدة واسط تشمل على بطايح، فم الصلح، نهر دقلى، حدادية، عثمانية، ملحا، رقة، داور دان، برقة الجوز، هرث، شحينة، حارزة، همامية، أونية، بدورة، جعرا، فاروث من المدن الشهيرة والنواحى المعمورة وحينما ساق المستنصر بالله معدن الحاكم بأمر الله المنصور جيشا إلى نواحى بغداد للاستيلاء عليهم ظل سكان واسط من فرط جهلهم فى الضلالة، وحينما كان المصريون يهزون هزًا تحت قيادة بساسيرى الذى تجرأ على أن يخترع بدعة حى على خير العمل بدلاً من حى على الفلاح فى الأذان المحمدى يهزون نواحى واسط والبصرة دخل معظم سكانها فى دائرة الإلحاد والرفض وكادت تلك المنطقة الواسعة أن تخرج من تحت إدارة دار الخلافة فى بغداد.

واستطاع القائم بأمر الله عبد الله السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين أن يقبض على بساسيرى ويقتله ووفق فى كسر شوكة المستنصر بالله العلوى وقوته ونصب السيد يحيى المكى المغربى الحسينى نقيبًا للأشراف فى البصرة ـ وهذا الشخص عالى القدر أول من شرف البصرة من السادات الحسينية والجد الأمجد للسيد أحمد الرفاعى الكبير، ولما كان هذا الشخص عالى القدر يشتهر بالصلاح والزهد واتباع الأثر المميز للنبى ﷺ ومقتديًا بأبيه عينه نقيبًا للأشراف حتى يطفئ بالشريعة الغراء وما بها من ماء الحياة نار الرفض والإلحاد التى انتشرت فى أطراف واسط وبغداد وعين خط حركة بإعطائه أمرًا بذلك.

إن التوفيق الذى حدث بجهود السيد يحيى المكى ليس فقط طرد ودفع الرفض والإلحاد كليا من تلك النواحى، بل إعداد مئات من الذوات الكرام الذين كانوا

ثمرة إرشاد التكية الرفاعية والتى أصبحت فيما بعد منبع العلماء ومنشأ الأولياء وضمن هؤلاء الذوات الكرام شيخ الكل الحافظ الإمام تقى الدين الواسطى، وشيخ الطوائف وإمام الطرائق تاج العارفين أبى محمد طلحة الشنبكى الأنصارى الحدادى الحسينى، والأستاذ الكبير شيخ القوم الإمام الأجل أبى بكر بن هواز البطايحى، والفقيه الصوفى أبو محمد الداور دانى والشاعر الشهيد أبو الغنايم نجم الدين الهرثى الواسطى وشيخ البقرى الصوفى. الجاروزى، والشيخ حسين بن الحليم المحدث الجليل والحافظ قاسم بن محمد الشافعى الواسطى، والحافظ قاسم بن الحجاج الواسطى والشيخ الكبير أبو بكر الهمدانى والحافظ شيخ الإسلام جمال الدين أبى محمد الخطيب الأونيوى الفقيه والشيخ الكبير ثابت بن الصالح الحدادى الصوفى، والإمام الحافظ المفسر وحجة المحدثين عز الدين أحمد بن محيى الدين إبراهيم ابن الشيخ عمر أبى الفرج الفاروثى الواسطى والعلامة ابن سعدويه الواسطى وأبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار الواسطى، وتقى الدين إبراهيم بن على الواسطى، والحافظ الإمام الكبير تقى الدين عبد الرحمن الأنصارى الواسطى، وشيخ القراء الإمام المحدث أبو القراء محمد بن الحسين الواسطى، والعلامة مجد الدين يحيى بن الربيع الواسطى والحافظ ابن محمد الواسطى، والإمام مهذب الدولة سيد على بن عثمان الرفاعى الواسطى، وأخوه، والسيد عبد الرحيم، قدس الله أسرارهم.

والمؤرخون مثل: الذهبى والبرازانى، وابن كثير، وابن خلكان والعينى، وابن حوزى، وابن شحنة والصفدى، وابن حماد، وابن المهذب والآخرون قد زينوا الصحائف بترجمة أحوالهم.

وهكذا كانت التكية الرفاعية موقعًا مهما عاليا وظلت متساوية مع الأرض مئات السنين وهذا ما أثار نخوة السلطان الدينية وحميته الإسلامية وقد عنى بإحيائها على أحسن صورة وأجملها فى هذه المرة ويرجى أن يعيد هذا التعمير والتجديد أهمية التكية الأولى.

وقد أراد السلطان صاحب الحكمة أن يوضح مدى رعايته للقطب الجليل واحترامه له فأمر بألا يجند أولاد السادة الذين من سلالة أحمد الرفاعى، كما أمر بإعمار حول مرقده المبارك بإسكانه بالناس، وهذا التوفيق العظيم أثار رضا وسرور جميع سكان البلاد العراقية من القبائل والعشائر واستفادوا من هذا التعمير؛ لذا بعث إلى مقام الخلافة الجليلة نقيب الأشراف فى ولاية البصرة السلطانية والسكان فى التكية الرفاعية السيد سعيد أفندى وعشرون شخصًا من أكابر السادات الرفاعية ببرقية عارضين عليه شكرهم وثناءهم، إن هذا الكرم السلطانى الذى لا مثيل له لدليل واضح على عودة العمار والانتعاش اللذين كانت تتمتع بهما واسط وبطائح وما حولها، كما يذكر لنا التاريخ.

وفى ضمن إنشاءات سلطاننا العظيم التى وفق فيها ثكنتان للمشاة وثكنة للمدفعية فى مكة المكرمة المسميتان بغيرتية والحميدية نسبة لاسمه ودائرة حكومية ومركز كبير للشرطة، ولما كانت مكة المكرمة قد تعرضت لهجمات الأشقياء والظالمين فى عهد الدول الإسلامية الأخرى فإن هذه الإنشاءات السياسية والعسكرية ستؤمن هذه البلاد وبهذا نستطيع أن نقول إن هذه المدينة المباركة ستظل مصونة من هجمات الأشرار إلى الأبد.

والآن إن حمل لقب خادم الحرمين الشريفين يقتضى القيام بمثل هذه الحماية الجليلة والخدمات المهمة ومن هنا يتضح أن أية دولة إسلامية أخرى لم تقم بإحياء منبع زلال الإسلام مثل السلاطين العثمانيين ولما كان سلطاننا قد تفوق على أسلافه الكرام فى هذا الخصوص فمن واجبنا نحن العثمانيين بل من واجب جميع المسلمين الذين يسكنون على وجه البسيطة أن يرفعوا أياديهم بدعاء الخير المترتب على ما قدمته الذات السلطانية من خدمات شاكرين له.

الصورة الرابعة

فى تعريف تجديد مسجد السعادة وكيفية توسيعه للمرة الرابعة

وقد وسع المسجد الشريف للمدينة للمرة الرابعة المهدى بالله ابن أبى جعفر المنصور من خلفاء بغداد.

كتب حضرة حسن بن زيد بعد تجديد الوليد بن عبد الملك مسجد السعادة رسالة إلى أبى جعفر المنصور وهو ثانى الخلفاء العباسيين وبين له أن بعض أماكن مسجد السعادة فى حاجة إلى التعمير والترميم، وذكر له إذا ما أضيف إليه بعض المحال فى الجهة الشرقية أن قبر السعادة الجليل سيظل فى نقطة تتوسط مسجد السعادة.

ورغب المنصور أن يوسع المسجد ويجدده فى صورة طبيعية فأسند إلى الحسن بن زيد أمانة البناء وأمره أن يجدده ويوسعه كما يريد، ولما توفى عقب ذلك لم يشرع الحسن بن زيد فى إجراء عمليات التجديد، وفى ذلك الوقت سافر المهدى بن أبى جعفر إلى مكة المكرمة محرمًا بنية، الحج، وبعد الحج أسند ولاية المدينة إلى جعفر بن سليمان وأمره بأن يُعين، عبد الله بن عاصم بن عمر ابن عبد العزيز الذى أحال له أمانة البناء لتوسيع مسجد السعادة أن يعينه ماديًا ومعنويًا وعاد إلى دار الخلافة بغداد فى سنة ١٦٠.

ومات عبد الله بن عاصم مؤخرًا وعين مكانه عبد الله بن موسى الحمصى وقد أسرع المشار إليه إلى القيام بمهمتهما وأضافوا ابتداء من العمود الخامس عشر من الجهة الشامية إلى باب النساء فى مربع قبر السعادة خمسة عشر عمودا وجعلوا

قاعدة العمود الخامس عشر القديم مربعًا لتكون علامة على مبدأ تجديد المهدى وأبلغوا طول الجهات الثلاث لحرم السعادة إلى ٣٠٠ ذراعًا وعرضه إلى مائة وثمانين ذراعا.

إخطار

إن الذراع الذى ذكر إلى الآن والذى سيذكر فيما بعد والذى يسمى ذراعا آدميا فى البلاد العربية هذا الذراع يساوى سبعة أجزاء من ثمانية من المقياس الحديدى الذى يستعمل إلى الآن فى البلاد المصرية والبلاد الحجازية وقدره شبر تقريبًا، ويطلق على ضعف مثله أو على أربعة أشبار ذراع معمارى انتهى.

والمنازل التى ألحقت بمسجد السعادة كانت دور خادم الآخرة عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف وشرحبيل بن حسنة ومسور بن مخرمة وكان يطلق فى ذلك الوقت على دار ابن مسعود دار قرى وعلى دار ابن عوف دار ملكية.

وشرعت فى هذا التعمير فى خلال سنة ١٦١ وأتم سنة ١٦٥ وسد باب عمر بن الخطاب الذى فتحه عمر بن عبد العزيز ناظر دار حفصة ـ رضى الله عنها ـ والمقصورة التى بناها عثمان ابن عفان أو مروان بن الحكم قد جددت وزينت فى صورة مطلوبة.

وإن كان ما ألحقه المهدى القدر الذى حرر آنفا إلا أن الأماكن التى جددت قد زينت فى صورة فوق التعريف وذُهِّبَ ونقش طلاؤها وقد زينت جميع أماكنها على طراز جديد وثمين وفرشت؛ ولكن للأسف الشديد قد احترق كل شىء ولم يبق له أثر. وقال بعض المؤرخين إن الخليفة المأمون كان قد وسع المسجد الشريف وزينه فى سنة ٢٠٢هـ إلا أن المأمون لم يُضِفْ شيئًا لمسجد السعادة واكتفى بتجديد بعض أماكنه وتعمير المواقع التى تحتاج إلى ذلك.

وبعد تعمير المأمون كانت الحكومات البغدادية ترسل إلى ولاة المدينة المبالغ الكافية والأوامر الأكيدة ويصلحون الأماكن المحتاجة للتعمير والتسوية؛ ولما

أصبح الناصر لدين الله خليفة جعل من عادته أن يرسل كل سنة ألف قطعة ذهبية وبعض العمال المهرة واتبع الخلفاء الذين أتوا بعده أثر الناصر لدين الله، وكان أجر عمال اليومية يزيد على ألف قطعة ذهبية وتؤدى من قبل حكومة المدينة وكلما احتاجت مبانى مسجد السعادة والآثار المسعودة إلى التعمير ترمم بلا استئذان.

وتعهد الملوك المصريون بتعمير الحرمين بعد انقراض الخلفاء العباسيين، وقاموا بترميم السبيل بهمم عظيمة وخدمات جليلة، والملك الأشرف قايتباى كان أكثر من خدم الحرمين الشريفين من سلاطين مصر وانتقلت خدمة الحرمين الشريفين بعد انقراض هؤلاء إلى السلاطين العثمانيين ـ أيد الله ملكهم إلى يوم الآخرة ـ وقد قام السلاطين المشار إليهم بخدمات جليلة تخجل أرواح ملوك الأسلاف كما سيذكر فيما بعد.

فى تعريف الحجرة المعطرة والقبور الثلاثة المنورة

إن الموقع الذى يطلق عليه الحجرة المعطرة هو الساحة المباركة لحجرة حبيبة حبيب الله السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق ـ رضى الله عنها وعن أبيها ـ وهذا القبر ظاهر الأنوار يصدق عليه هذا البيت الذى يثير الأشواق.

إنـه قطعـة مـن الجنـة المسكن الممزوج بالرحمة

إنه هبة العرش المشرف والفرش واللوح والقلم وكان ارتفاعها فى حياة الرسول ثمانية أذرع وأكثر من ستة أذرع فى العرض وكان لها بابان هما باب الرحمة. والحجرة اللطيفة كانت قد بنيت باللبن ومن سعف النخيل وظلت على تلك الحال إلى قرب خلافة عمر الفاروق، وأراد عمر بن الخطاب أن يعرض تعظيمه وتوقيره للسيدة عائشة فأحاطها بسور منخفض وقد هدم هذا الجدار والسور عبد الله بن الزبير فيما بعد وقد دعت الحاجة إلى تجديده.

كان الجدار الذى أحاط به عمر بن الخطاب حول المقبرة النبوية والذى جدده عبد الله بن الزبير مكشوفا وكان له باب فى الجهة الشامية للدخول منه لزيارة قبر الرسول ﷺ. كان ريحانة النبى السيد الحسن بن على قد أوصى أخاه حين احتضاره أن تؤخذ جنازته داخل المربع الذى فيه قبر الرسول وتعرض هناك قد أوصى بذلك أخاه الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وقد أخذ حضرة الحسين ـ رضى الله عنه ـ جنازة أخيه كما ذكر فى ذيل الصورة الثالثة من هذه الوجهة بناء على وصيته إلى مربع قبر الرسول لإيفاء الوصية وقد ظن بعض السفلة أن حضرة الحسين يريد أن يدفن أخاه فى داخل حجرة السعادة فقاموا ومنعوا إدخال الجنازة

فى داخل المربع وأوصلوا المنازعة إلى درجة المقاتلة؛ وفى النهاية انتهى الأمر بتدخل بعض الذوات ذوى الهمة نهاية حسنة ودفن حضرة الحسن فى مقبرة بقيع الغرقد، وحتى لا يحدث مثل هذه الأمور أغلق باب مربع قبر السعادة وسد تمامًا.

ولما كانت هذه الواقعة من تدبير الوليد إذ رفع الجدار الذى كان يحيط بمربع قبر السعادة وغطاه وهكذا أخفى القبور الشريفة عن أعين الخلق وسترها، وكان غايته كما ذكر عاليه ألا يُتْرَكَ مجال فيما بعد لإيقاع الفتنة والفساد.

وعندما أعلى الجدار المذكور وسقف وكان باب المربع قد سد من قبل فى الواقعة المؤسفة فنمت فى داخل كل إنسان أمنية زيارة قبر رسول الإنس والجن من داخل السور الذى بنى ورفع.

الحجرة المسعودة: يعنى الدار المقدسة التى تنسب للسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت دويرة صغيرة ولم يكن سقفها عاليًا حتى لايمسه ولا يتبرك به إنسان بيده، وقال حسن البصرى سواء أكانت فى حق هذه الحجرة اللطيفة أو حجرات النبى الأخرى، كنت فى طفولتى أدخل فى حجرات زوجات النبى المطهرات وكنت أرفع يدى وأمسك بأسقفها، كانت جميع منازل النبى حجرات معطرة صغيرة وقد روى هذا القول موثقًا، وكانت كل حجرة مصنوعة من اللبن وسعاف النخيل، وكان فوق أبوابها ستائر قديمة من الملس، هذا ما رواه كما روى أن للحجرة المعطرة بابين يفتح أحدهما ناحية الغرب والآخر ناحية الشام وكانت الأبواب ذات مصراع واحد مصنوع من خشب شجر الساج أو العرعر والباب الذى يسمى الآن باب محرس من الأبواب التى كانت فى عصر السعادة.

وكان بين بيت حضرة الصديقة ـ رضى الله عنها ـ وبيت حفصة ـ رضى الله عنها ـ طريق[1] وكانتا كلما تتلاقيان تتحدثان معًا.

وكان بيت حضرة حفصة ـ رضى الله عنها ـ الذى ذكر فى الجهة اليمنى لنافذة آل عمر التى ذكرت أعلاها وساحة هذه الدار المسعودة هى الموقف الذى يزوره زوار زماننا سواء أكانوا فى داخل الشبكة أو خارج الشبكة.

(١) هذا المكان الآن موقع القبر الجليل.

وحينما ارتحل النبى ﷺ شرع أهل المدينة عقب ذلك يأخذون من ترابه العنبرى مقداراً من التراب للاستشفاء وبهذا جعلوا قبر الرسول منقوبا محفوراً، ولما كانت هذه الحال مخلة بأدب التعظيم، فقامت الصديقة ـ رضى الله عنها ـ ببناء حائط حول مضجع السعادة حتى يحافظ عليه، وقام أصحاب الإخلاص بثقب هذا الحائط أيضًا إلا أن الصديقة قد سدت هذه الثغرة أيضًا ومن هنا ظل قبر الرسول فى جهة من الجدار المبنى وذاتها السامية فى جهة أخرى من الجدار، وبهذا قسمت الحجرة المعطرة إلى جزأين، وكانت المشار إليها حينما تزور قبر الرسول وتنظفه بالكنس لم تكن تتستر وتظل مكشوفة، ولما توفى والدها ودفن بجانب النبى ﷺ ظلت على تلك الحالة إذ كانت تدخل فى الحجرة بدون حجاب، ولكن بعد ما دفن فيها عمر بن الخطاب بعد موته كلما كانت تذهب ناحية قبر السعادة كانت تتستر لأن حضرة الفاروق لم يكن محرما، أى أنها لم تزر الحجرة بعد دفن عمر فيها مكشوفة دون حجاب.

وظل مربع مرقد السعادة إلى أن وسع عمر بن عبد العزيز المسجد الشريف على الهيئة التى جددها عبد الله بن الزبير عليها يعنى ظل مكشوفا وبالباب، وقد أحاط عمر بن عبد العزيز كما سبق ذكره أعلاه، السور المنخفض الذى بناه عمر بن الخطاب حول مرقد السعادة بجدار متين؛ وحتى لا يكون هذا الحائط شبيهًا بالكعبة المعظمة بناه على شكل شبه مثلث.

ولما كان الجدار الذى أقامه عمر بن عبد العزيز فى غاية الارتفاع ومسقوفًا فكانت رؤية القبور من الخارج غير ممكنة، وقد جعل أحد جهات ذلك الجدار على شكل شبه مثلث بناء على رأى عروة بن الزبير واجتهاده، إذ تذكر الوليد بن عبد الملك الإهانة التى لحقت بالحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ من أسافل الناس بسبب جنازة أخيه الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ وفكر فى إحاطة مربع مرقد السعادة بجدار قوى الأساس ليحجب القبور الثلاثة عن أعين الناس، ويخيفها وكتب الأمر والكيفية إلى أمير المدينة عمر بن عبد العزيز، وحينما أخذ عمر بن عبد العزيز الرسالة التى كتبت بهذا الخصوص استهجن تنفيذ هذا الأمر

غير اللائق مع ذلك راجع عروة ابن الزبير قائلاً له: «إننى أحترز من إحراز هذا الأمر الخطير ولكن الوليد يصر على ذلك، فما رأيك فى هذا الخصوص فأجابه عروة قائلاً: «ما دام الوليد يصر كما أن مولانا يرغب فى تنفيذ أمر الوليد مع الكراهية له، يجب أن تأمر أن يكون البناء الذى سيبنى على شكل شبه مثلث ويتجه طرفها المدبب ناحية بيت السيدة فاطمة»، وكان الوليد أمر فى الرسالة التى كتبها هدم الحجرات العاليات وضم ساحاتها إلى مسجد السعادة، وقد فكر عمر بن عبد العزيز فى هذا الأمر كثيراً وفى يوم من الأيام جلس فى مكان مناسب فى حيرة واضطراب وأصدر أمره بهدم الحجرات العاليات وهدم سكان أهل المدينة وهم ينتحبون ويصيحون من الحسرة وجعلوها أثرا بعد العين وشرعوا فى وضع الأساس وفق رأى عمر بن عبد العزيز وتعريفه.

وفى أثناء هدم الجهة التى فيها المدفن الأقدس لحجرة السعادة انهارت الجهة الشامية من الجدار الذى أقامه عبد الله بن الزبير قضاء وقدراً ونتيجة لذلك سقط مقدار من السور القديم الذى كانت أقامته حضرة الصديقة، ولما ظهرت فى داخل مربع قبر السعادة ثلاثة قبور قد فرش فوقها بالرمل قال عمر بن عبد العزيز، «إن هذه القبور هى قبور الرسول ﷺ الذى نال حياة أبدية وأبى بكر وعمر رضى الله عنهم، يا مزاحم[1] يجب أن تسوى هذا المكان بنفسك ذاتها». ثم ظهَرت عليه علامات الندامة وقال لا، لا، إننى سأسويه بنفسى وسواه بنفسه، إلا أنه فى أثناء ذلك قد سقطت الجهة الشرقية لأحد القبور وانتشرت رائحة طيبة فى شوارع دار السكينة وستر ذلك المكان بقطعة قماش وجدد ذلك المكان فى اليوم الثانى تجديدا جيدا.

قال عبد الله بن محمد: «كان جدى عقيل يذهب إلى مسجد السعادة فى الثلث الأخير من الليل وبعد أن يسلم على النبى الجليل يدخل إلى الحرم الشريف، وفى ليلة من الليالى توجه إلى مسجد السعادة وشم رائحة طيبة لم

(١) مزاحم هو عبد لعمر بن عبد العزيز.

يشمها طيلة عمره أمام بيت المغيرة بن شعبة رائحة تثير الأشواق وتسحر القلوب فمثل وغاب عن نفسه، وإذا بتلك الليلة كانت الليلة العجيبة التى تهدم فيها بيت عائشة - رضى الله عنها - وظهرت القبور الثلاثة المشحونة بالنور! واقترب جدى وهو مغمور بهذه الفرحة والابتهاج من مرقد السعادة ورأى أن الجدار الشرقى لمربع القبر الجليل قد انهار وأن عمر بن عبد العزيز كان منهمكًا بتعليق ستارة للجهة المنهارة من مربع القبر وعرف أن الرائحة التى غمرت دار الهجرة المدينة المنورة قد انتشرت من مرقد السعادة وعندئذ عاد إلى بيته وجمعنا حوله وأخبرنا بما حدث».

واستدعى عمر بن عبد العزيز صباح الليلة التى انهار فيها جدار مربع قبر السعادة ابن الوردان[1] وأمره بأن يدخل فى داخل مربع قبر السعادة ليعاين ويتفقد الجدار المنهار، ولما بين له ابن الوردان أنه فى حاجة إلى من يعينه فى داخل المربع فشمر عمر بن عبد العزيز ساعديه وأراد أن يدخل فى داخل المربع، ولما رأى قاسم بن محمد وسالم بن عبد الله يستعدان أيضًا قال لهما: «لماذا تستعدان؟» فأجاباه قائلين: «نريد أن نعين ابن الوردان».

فقال إننى أحترز أن أقلق أهل القبور بكثرة الازدحام؛ يامزاحمَ ادخل بمفردك وأعن ابن الوردان وبهذا تخلى عن الدخول بنفسه وبموقفه هذا أراد أن يومئ ويشير إلى عدم جواز دخول الشخصين الذين رغبا فى الدخول فى مربع قبر السعادة. وبينما كان ابن الوردان منهمكًا بإجراء اللازم بعد أن وجد أساس الجدار المنهار قد رأى فى داخل القبر الشريف الذى سقط من صدمة الجدار المنهار قدمين توأمين فانسحب إلى جهة وأخذ يرتعش من الخوف والفزع وقلق، واضطرب اضطرابًا شديدًا.

وعندما رأى عمر بن عبد العزيز قلق ابن الوردان واضطرابه فتقدم إلى الأمام ليتحقق من الأمر فرأى فى داخل القبر الشريف الذى كان تهدم من قبل القدمين

(١) كان هذا الشخص فى ذلك الوقت رئيس المعماريين للأبنية المقدسة.

الشريفين، القبر الذى كان فى اتصال أساس مربع قبر السعادة فرجع وهو فى شدة الدهشة وغاب عن شعوره ووعيه.

وكان عبد الله بن عبيد الله جهة قبر عمر بن الخطاب لامع الأنوار، وعرف الأمر الذى أخاف ابن الوردانى وملأ قلب عمر بن عبد العزيز بالرهبة والقلق وقال أى عمر! لا تخف! إن القدمين اللذين رأيتهما فهما قدما جدك عمر بن الخطاب وكانا قد بقيا فى داخل أساس جدار الحجرة المنيفة، وهكذا وضح الأمر عندئذ قال عمر بن عبد العزيز لابن الوردان، يا ابن وردان! خف واستر ما رأيته ـ أى قدمى ابن الخطاب ـ وبهذا القول أظهر فرحته وسروره؛ لأنه كان قد ظن أن القدمين اللذين رآهما قدمى رسول الله ﷺ من هنا استولت عليه الحيرة والدهشة. وبعد أن بنى ابن الوردان الجدار المنهار، أحاط الجهات الأربع للجدار القديم بحائط أعلى وأوضح من الجدار الأول، وسقف مربع قبر السعادة كسابق عهده ثم أمر ببناء الباب الذى كان قد سد عقب الحوادث التى وقعت ضد جنازة الحسين بن على، بشكل متين محكم وصبغه والجدران التى كانت جددت فى عصر عبد الله بن الزبير كانت قد بنيت بحجارة سوداء صبغت صبغة جيدة وجعلت الجهة القبلية أكثر ارتفاعًا من الجهات الأخرى وسُد باب الرحمة الذى فى الجهة الشامية.

ولم تكن الفاصلة التى كانت بين الحائط القديم والحائط الذى مده عمر بن عبد العزيز متساوية فى جهاته الأربعة، فقد كانت الجهة الشرقية ذراعين، والطرف الغربى ذراع واحد، والطرف القبلى شبرًا واحدًا، أما جهة الشام فكانت واسعة جدًا وبما أن عمر بن عبد العزيز أمر بطلاء الجهات الأربع لجدران حجرة السعادة طلاء جيدًا وأخفى الباب المسدود بحيث لا يميز فمن هنا لم يستطع أحد أن يعين مكان الباب المذكور.

وإن يروى المؤرخون أن أبا غسان قال: «قد عمر سقف مسجد السعادة سنة ١٩٣ هـ، وإننا كنا قد عرفنا مكان الباب المسدود إلا أن الإمام السمهودى قال قد

جدد المسجد الشريف والحجرة اللطيفة فى زماننا وعمر، ولكن ما أمكن أن يُعَيّن الباب المسدود فضلاً عن مكانه وهذا القول يؤيد الرواية الأولى ويؤكدها، وإن كان غرض الإمام السمهودى أن يشير إلى أن الباب المسدود قد أصبح مجهول المكان بمرور الزمان فمن المحتمل أن يكون قد شوهد مكان الباب المذكور فى سنة ١٩٣هـ حتى يقترن قول أبى غسان بالصحة.

يقول أبو غسان وهو يخبرنا أن الفاصلة التى بين الجدار الذى مده عمر بن عبد العزيز وجدار الحجرة المعطرة القديمة قد مسحت سنة ١٩٣: «قد مسحت، فى زماننا، الفاصلة التى بين جدران الحجرة المقدسة ووجد طرفها الشرقى ٣ أذرع وطرفها الغربى ذراعًا واحدًا وبلغت فى هذا الوقت الجهة الشرقية من الطرف القبلى ذراعًا واحدًا، إلا أن جميع أماكن هذه الجهة لم تكن متساوية فالمحل القريب من وجهة السعادة كان فى اتساع شبر والأسفل منه فترة ما بين الإبهام والسبابة ـ وكانت نهاية الجدار الشرقى ضيقة بحيث لا تسمح بالمرور.

وكان بعض أماكن جدار الحجرة الشريفة القديم قد انهارت تقريبًا فى سنة خمسمائة أو ٦١٣ أو ٦٤٠ وعمرت مستأذنًا من مركز الخلافة وأصلحت دون تأخير، وبينما كان الجدار ينهار فى خلال سنة ٥٢٠ سمع صوت من داخل مربع القبر الجليل إلا أن سكان أهل المدينة لم يتجرءوا أن يخبروا به أحدًا رعاية للنبى ﷺ مدة أربعين عامًا، وفى النهاية أخبروا وعرضوا الأمر فى سنة ٥٧٠ على المستضىء بالله العباسى.

وبناء على القرار الذى اتخذه المجلس الذى عقده المستضىء بالله سنة ٥٧٠ تحت رياسته والذى ضم أكابر العلماء وأفاضل الفقهاء أمر واليه فى المدينة أن يُدخل فى داخل حجرة السعادة واحدًا من فضلاء خدام الحرم النبوى ومتبحريهم لأجل الفحص، واتحدت آراء أهل المدينة على أن يوكل هذا الأمر إلى شخص زاهد من بنى العباس يسمى بدر الدين.

ودخل حضرة بدر الدين من الباب الصغير الذى فتح فى الجهة الشرقية إلى

الحجرة الشريفة ورأى أن بعض الأماكن فى الجهة الغربية من السور القديم الذى فى داخل الجدار الذى بنى فى عصر عمر بن عبد العزيز قد انهار، فصنع مقداراً كافيًا من اللبن من تراب مسجد السعادة وعمرت الأماكن المنهدمة من الجدار وأخذ منه الصحن الخشبى الذى وجده بجانب الجدار المنهار وأخرجه وبعثه إلى بغداد، وكان هذا الصحن قد ظل فى داخل الجدار الذى جدده عبد الله بن الزبير، ولما انهار الجدار انكسر أحد جوانبه وظل الباقى فى داخل الجدار فبدر الدين الضعيف أخذ معه الجزء المنكسر فيه كما أخذ من تراب الجدار المنهار قدراً من التراب بقصد التبرك فقط وذهب، وقد عرضت الكيفية إلى مقام الخلافة الجليلة مفصلاً من قبل إلى المدينة.

اليوم السعيد الذى دخل فيه بدر الدين إلى بغداد كان عيداً كبيراً وعظيمًا فترك الجميع أعمالهم واستقبلوا جناب بدر الدين وأوصلوه إلى دار السلام فى تعظيم وتوفير واحترام.

وقد سمع أيضًا فى سنة ٥٤٨ هـ صوت انهيار الجدار فى داخل الحجرة المعطرة الشريفة وأبلغ الأهالى أمير المدينة قاسم بن مهنى الحسينى، وأمر قاسم بن مهنى بإنزال شخص يتصف بالزهد والصلاح والعفة والاستقامة ومتدينًا فى داخل القبر الجليل وقد قوبل هذا الرأى الرزين باتفاق الجميع ورئى أن من المناسب تعيين عمر النسائى الموصلى من المشايخ الصوفية وأفاضل المجاورين والذى عرف فى المدينة بالزهد التام والتدين والتقى وبلغ المشار إليه الفاضل بهذا الأمر[1].

ولما كان حضرة عمر النسائى مصابًا بمرض سلس البول استمهل لبعض الوقت حتى يستجمع قوة بدنه لتكفى للدخول والخروج فى قبر السعادة، وذلك بالتريض.

وبعد ذلك ربط حضرته بحبل وأخذ معه شمعةً وأدوات أخرى لازمة ودخل فى الفاصلة التى بين غطاء مربع قبر السعادة وحجرة السعادة ومن هناك من قبة

(١) يروى بعض الرواة أنه قد جعل بجانب عمر النسائى هارون المشانى وشخص آخر.

الحجرة أى من المتنفس الذى فوق سقف الحجرة المنورة إلى داخل مربع القبر وأوقد الشمعة وألقى نظرة حول القبور ورأى أن بعض الأتربة قد سقطت من سقف الحجرة، فكنس التراب المذكور بلحيته وخرج من حيث دخل.

المعجزة: قد نجا حضرة عمر النسائى بعد خروجه من حجرة السعادة من علة سلس البول وعاد إلى آخر عمره مستريحًا.

قال ابن النجار «شَمَّ قاسم بن مهنى الحسينى فى سنة ٥٥٤ هـ فى ربيع الآخر من تلك السنة رائحة عفنة من داخل الحجرة الشريفة فأنزل بيان الاسم من خدمة الحجرة الشريفة، وأصغى الموصلى بقولى المسجد الشريف والشيخ هارون الشادى من أفاضل الزمان فى داخل الحجرة المنيفة ووجد الذوات المشار إليهم بين الفاصلة التى بين الجدران جيفة هرة ميتة وأخرجوها، وكان اليوم الذى دخل فيه هؤلاء داخل حجرة السعادة وخرجوا منها يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة، وبعد ذلك إلى زماننا هذا لم يدخل أحد فى قبر السعادة ولم يخرج، وأراد بهذه الرواية أن يسقط القول الذى قيل فى حق عمر النسائى عن الاعتبار وليس بعيدًا أن تكون الحكاية التى نقلت عن عمر النسائى نفس القصة التى رواها ابن النجار إلا أنها رويت بطرق مختلفة.

وإن كانت أبنية الحجرة المعطرة مربعة إلا أن هناك من يدعى أنها مخمسة، مع أن الإمام السمهودى الذى يرد ادعاءات هؤلاء ويخرجها قائلا: «إن أبنية الحجرة المعطرة المقدسة مربعة، فالذين اعتقدوا أنها مخمسة قد أخطئوا، إننى دخلت فى داخل الحجرة الشريفة وقمت بمسحها بنفسى».

وبناء على حسابى داخل الجهة الشامية من حجرة السعادة أحد عشر ذراعا بثلاثة أرباع ذراع وكل واحد من عرض الشرقى والغربى سبعة أذرع خمسة أرباع ذراع وعلى كل حال فهذا الحساب يشير إلى مقارنته لمسح ابن شيبة ويحيى، وعرض الجهات الثلاث غير داخل الجدار القديم الشرقى الذى حدد ذراع ونصف ذراع وعقدتان كما أن الجدار الشرقى المجدد ذراع وخمسة أرباع، وارتفاع

الجدران ثلاثة أذرع وثلاثة أرباع لكل جهة، إلا أن بعض أماكنها قد رفعت قليلاً وبما أن أعلاها قد صنع من الآجر قدر ذراع واحد قد فهم أنه قد أضيف فيها بعد.

السور الخشبى الذى حول حجرة السعادة، لم يكن أى شىء حول الجدار الخارجى لحجرة السعادة حتى عصر جمال الدين الأصفهانى وقد أحاط جمال الدين الأصفهانى الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز حول الحجرة المعطرة بسور مصنوع من خشب شجرة الصندل والآبنوس، وأوصل ارتفاع هذا السور إلى سقف المسجد الشريف وألصقه به، إلا أنه قد احترق فى الحريق الأول كما سيحرر فى الصورة الثامنة من الوجهة الثامنة فجدد سنة ٦٦٨هـ وسمى بالمقصورة وبعد ذلك قد جدد وعمر مراراً. انتهى.

جدران أبنية الحجرة المعطرة القديمة أعلى من الجدران التى مدها عمر بن عبد العزيز قدر خمسة عشر ذراعًا بما أن أرض الجدار الجديد أعلى من أرضية الجدار القديمة فمن هنا تظهر الجدران فى ارتفاع واحد. وبناء على أرجح الروايات بين الجدارين فاصلة ما تقرب من ذراع ونصف ذراع.

والجدار الذى مده عمر بن عبد العزيز ـ كما يرى فى الشكل الآتى: مثلث الشكل فى الجهة الشمالية وهذا الشكل المثلث ما بين الجدار القديم والجديد فالفاصلة التى تمتد من الزاوية الشمالية إلى الجدار القديم ثمانية أذرع، وكان فوق سقف الحجرة المعطرة اللطيف قطعة قماش مشمع على شكل الخيمة وكان فوق هذا الغطاء سقف مسجد السعادة وفوق هذا السقف يعنى فوق سقف المسجد الشريف باب[1] صغير وبين القماش المشمع وسقف المسجد فاصلة قدر ذراعين، الشكل والهيئة التى ذكرت كانت الحالة التى عليها قبل الحريق الأول؛ لأن ما بين سقف المسجد الشريف وغطاء الحجرة المعطرة قد أغلق ببعض الألواح الخشبية التى كُسِيَتْ بالمشمع وفتحت نافذة وسط سقف الحجرة الشريفة تسمى قبة النور[2] وأغلق بالقفل بعد الحريق، وإن كان بعض المؤرخين قالوا كان يدخل للفاصلة

(١) إن المنفس الذى وسم أعلاه، بـ «قبة الحجرة» عبارة عن هذا الباب الصغير.

(٢) كان يقال لهذه النافذة قبل الحريق قبة حجرة قبر النبى ﷺ.

التى بين الجدار القديم والجديد من الباب الصغير الذى فتح فى سقف حجرة السعادة إنهم لم يصيبوا الحقيقة فى ذهابهم هذا وابتعدوا عن الصحة.

وإن أراد ابن رشد أن يرد الأقوال المشهورة إذ ادعى أنه لم يكن فوق القبر الجليل سقف وقال لم يكن قديمًا فوق القبر الشريف سقف غير سقف مسجد السعادة، وبما أنه قد مات سنة ٥٢٠هـ فادعاؤه هذا يشير إلى هيئة المسجد الشريف قبل الحريق، ومع هذا فرواية الإمام مالك ـ عليه الرحمة ـ بخصوص الكسوة الشريفة تؤيد أن الحجرة المعطرة كانت مسقوفة قبل الحريق الأول، حتى إنهم وجدوا بقية ميزاب السقف العتيق عندما كانوا يجددون المسجد فى عصر الأشرف قايتباى وبهذه العلامة والدليل حكموا أن حجرة السعادة كانت مسقوفة فى الصدر الأول وأن الميزاب العتيق كان مصنوعًا من خشب شجرة الساج، جاء فى صحيح الدارمى أنه قد وقع فى حياة السيدة عائشة الصديقة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبى قحط وغلاء اشتكى الناس ذلك لذاتها السامية ورجوها أن تجد لها حلاً.

قالت السيدة عائشة: «افتحوا نافذة فوق قبر السعادة حيث لا يبقى شىء يحول بين سقف القبر الجليل وبين السماء ! وبهذا أمرت أن تفتح نافذة صغيرة فوق سقف القبر الجليل وقد استحسن أهل المدينة رأى والدتنا المشار إليها وقرروا فى النهاية فتح نافذة صغيرة فوق قبر السعادة وأطلق عليها «قبة النور»، «قبة المجرة».

وفى أثناء فتح سكان المدينة، بناء على توصية الصديقة ـ النافذة فوق قبر الرسول ظهرت فى السماء علامات المطر وأخذ المطر فى النزول وغرقت الغبراء بالمياه ونمت الحشائش فى الأودية والصحارى وأخذت الدواب فى الرعى. وقد سر أهل المدينة من هذه الحالة وسموا تلك السنة بـ (عام الفتق) وكانوا بعد ذلك كلما احتاجوا إلى شىء أو المطر فتحوا النافذة التى فوق قبر الرسول، وقد دام هذا النظام إلى الحريق الثانى، حتى إنهم كانوا قد فتحوا منفذًا فوق القبة الخضراء المصنوعة من الحجر كالحالة السابقة بعد الحريق الأول، وتركوا فيما بعد هذه

الأصول، لسبب ما، وأخذوا يدعون فاتحين باب الرحمة المقابل لوجه النبى ﷺ فى مقصورة النور التى تحيط بالحجرة المعطرة، ودام هذا النظام إلى عهد شاهين إلى وقوع الحريق الثانى لأن شاهين الجمالى قد بنى فوق سقف مسجد السعادة قبة حجرية كما فتح فوق ذروتها نافذة وركب عليها قفصًا حديديًا كما ركب فوق النافذة التى صنعت فوق سقف الحجرة الشريفة اللطيفة قفصًا آخر، وركب فى وسطه منفسا مغلقًا، وكلما كان أهل المدينة يتعرضون لداهية دهياء يفتحون ذلك المنفس، بما أنهم كانوا يستسقون واقفين بجانب المنفس المذكور فى سنين القحط والغلاء.

وإن كانت قبة النور التى هى نافذة قبة السعادة موجودة فى أيامنا هذه إلا أن نظام فتحها لأجل الدعاء غير حاصل، والآن يدعون فاتحين الباب المعلا الذى يطلق عليه باب الوفود الذى يقابل أسطوانة الوفود التى توجد فى جهة الروضة المطهرة من حجرة السعادة، وبناء على ما أخبره مسنو المدينة وأصحاب العلم أنه كلما دعى وذلك الباب مفتوح فلابد أن يظهر أثر الاستجابة سريعًا.

قد اختلف مؤرخو الأسلاف كثيرًا فى تعيين مراقد المدفونين فى داخل الحجرة المعطرة وفى نهاية القيل والقال بينوا اقتضاء تصديق سبع روايات، وادعت كل فرقة صحة روايات رواتها ولكننا حينما رأينا أن أربعًا من هذه الروايات لا تستند على حجة قوية تركناها وذكرنا صور الروايات الثلاث المؤيدة بأقوى الأقوال.

الصورة الأولى: أن قبر النبى الأقدس أمام قبرى حضرة الصديق وعمر بن الخطاب قليلاً، يعنى أن رأس الصديق الأكبر فى محاذاة منكبى الرسول ﷺ ورأس الفاروق الأعظم فى محاذاة منكبى جانب الصديق الأعظم ولما كانت هذه الصورة أكثر وجاهة وافق على تصديقها وصحتها أغلب العلماء.

كان الوليد بن عبد الملك قد ذهب إلى المدينة المنورة فى أثناء تجديده لمسجد السعادة ليرى مدى متانة صنعه ورصانته وليرى إذا كان منزل فاطمة ـ رضى الله

عنها ـ قد ألحق بساحة المسجد أو لم يلحق، وفى أثناء المعاينة أمسك بيد عمر بن عبد العزيز وسأله مشيرًا إلى حجرة السعادة هل أبو بكر وعمر وسيد البشر فى هذه الحجرة؟ فرد عليه قائلا نعم قال: أين عثمان بن عفان؟ أننى لا أغادر هذا المكان إلى أن أخرج هذين الشخصين من الحجرة المعطرة، وأنقلهما إلى مكان آخر وظل واقفًا فترة لينفذ ما فى ضميره، فقال له: عمر بن عبد العزيز عندما استشهد عثمان بن عفان كان الناس مشغولين بإطفاء نار الفتنة وكانوا يدفنونه قطعا فى حجرة السعادة إذا كان الاستقرار سائدًا وبهذا القول أومأ إلى أن رأى الوليد غير صحيح، وبعد أن سمع الوليد هذا القول سكت قليلاً وتخلى عن إيفاء ما فى ضميره.

الشكل الأول

قبر النبى ﷺ

قبر أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه

الصورة الثانية: كما نرى فى الشكل الآتى:

أن رأس أبى بكر الصديق فى محاذاة منكبى رسول الله ﷺ وأن رأس عمر بن الخطاب فى وصف قدمى النبى ﷺ الأنورين قد صدق أبو داود والحاكم هذه الصورة ورجحاها على الصورة الأخرى ومن هنا أراد بعض الذوات ترجيح الصورة الثانية على الصورة الأولى، إلا أن قاسم بن محمد بن أبى بكر قال: لأصحابه؛ حينما كنت أزور القبر الجليل كنت أرى رأس جدى أبى بكر خلف منكبى الرسول ﷺ وأرى رجليه فى محاذاة رأس الفاروق الأعظم وقول قاسم هذا يؤيد حكم الرواية التى ترجح الصورة الأولى على الصورة الثانية لأن جناب قاسم بن محمد ذهب إلى بيت أخت أبيه عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال لها: «يا أم المؤمنين، إذا أذنت لى سأزور القبور الثلاثة وفتحت أمنا المشار إليها باب مدفن السعادة وسمحت لابن أخيها قاسم بن محمد بالزيارة».

وبناء على رواية قاسم بن محمد فإن القبور الثلاثة منفصلة عن بعضها قليلاً وفرش فوقها برمل أحمر ذات حصاة كبيرة جلبت من وادى الحمراء.

الشكل الثانى

قبر النبى ﷺ / قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قبر أبى بكر الصديق رضى الله عنه

الصورة الثالثة: وبناء على ما يرى فى الشكل الآتى أن رأس الصديق المبارك فى محاذاة قدمى سلطان عرش الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقبر عمر بن الخطاب لامع الأنوار خلف قبر النبى ﷺ هذا ما روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أمنا إلا أن رواة هذا القول مجروحون بتهمة النسيان وهذا ما يحكم عنهم.

الشكل الثالث

قبر النبى ﷺ / قبر أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وهذا الشكل يكذب ويخرج القول الذى روى بأن قدمى عمر بن الخطاب رئيتا فى أساس الجدار الذى تهدم فى عصر عمر بن عبد العزيز، لأن الجدار الذى سقط فى ذلك الوقت كان الجدار الشرقى وإن كانت هذه الرواية قد رويت ونقلت عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فبناء على هذه الرواية يقتضى أن يكون القدمان اللذان ظهرا قدمى جناب الصديق المباركين ولما كانت هذه الصورة تثير الشك والشبهة فأبو داود والحاكم قد صدقا الصورة الأولى والثانية وترددا فى صحة الصورة الثالثة.

وقول عبد الله الذى كان عنده معلومات صحيحة عن قبر عمر بن الخطاب لامع الأنوار من بين القبور الثلاث لعمر بن عبد العزيز: «يا عمر! لا تخف إن القدمين الشريفين اللتين رأيتهما قدما جدك عمر بن الخطاب كانتا قد ظلتا داخل

أساس الحجرة المنيفة» يصدق صحة الصورة الثانية، ويصرح بأن الرواية الثالثة ليست صحيحة ولما كان مكان الجدار الشرقى الذى سقط فى ناحية الركن الشامى لابد وأن ترجح الرواية الأولى على الصور الأخرى.

الهيئة المرئية للقبور الثلاث المقدسة فوق الأرض:

وقد انقسم المؤرخون على فرقتين فى تعيين شكل القبر الجليل هل هو مسنم[1] أم مستو قال الفريق الأول إن قبر السعادة مسنم وهو مثل المقابر التى نعرفها أعلى من الأرض قليلاً وعاليه مدبب قليلاً وقال الفريق الثانى ليس بمسنم ولكنه مستو ومع هذا فالفريقان صادقان فى أقوالهما إذ الذين يدعون أنه مستوهم الذين شاهدوا شكله الأول والذين قالوا مسنم شاهدوا طرزه الجديد؛ لأن المرقد الشريف ظل مستويا إلى قرب عهد عمر بن عبد العزيز؛ فعندما تهدم الجدار الشرقى لحجرة السعادة فسنم القبر الجليل المنيف، وكان قبرا الشيخين إلى سقوط الجدار الشرقى مستويين وجعل سقوط الجدار الشرقى قبريهما مسنمين.

وعند إجالة النظر لهذه الصور الثلاثة يرى فى داخل حجرة السعادة مكانا خاليا يكفى لدفن جنازة، ويروى أن هذا المكان سيكون مدفن عيسى بن مريم، وكان كل من عبد الرحمن بن عوف وحضرة الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ استحصلا على إذن بدفنهما فى هذا المكان الخالى من السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولكنهما عندما توفيا اعترض أمراء بنى أمية على ذلك ودُفنت جنازتاهما فى بقيع الغرقد، وهذه حكمة تؤيد أن الاعتراض كان بسبب أن هذا المكان مدفن عيسى.

شبكة قبر السعادة

حجرة السعادة ـ كما عرف آنفا طراز وهيئة ـ فوقها قبة كبيرة وحولها ـ دائرا ما دار ـ سور شبكى أخضر اللون، إن القفص الذى يحيط بمر قبر السعادة مصنوع من الصلب، إلا أن واجهتها حيث يقف الزوار على شكل باب صغير مصنوع من

(١) المسنم يعنى كظهر السمكة.

الفضة وقد سطرت على طاقة العبارة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والزوار الكرام يزورون القبر من خارج هذا القفص ويطلقون على هذا القفص شبكة قبر السعادة.

وإن كان بين القفص الذى عُرف والمرقد السعيد مكانًا خاليًا لإيقاد الشمعدانات ليلاً إلا أن الجهة التى فيها مرقد السعادة قد غطيت بقماش ذهبى فلا يستطيع أن يرى داخل الغطاء فرد فريد.

والغطاء المزركش الذى فوق مرقد السعادة قد نسج على أعلى مستوى من الدقة والمهارة فهو قطعة قماش نادر ـ كتب عليها نسجا العبارة البديعة الله محمد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين وبعض أسماء النبى.

روايـة

يروى عن كعب الأحبار أنه قال: أنه سيتواجد فى حجرة السعادة كل يوم إلى صباح يوم الحشر ما يقرب من سبعين ألف ملك لعرض باقات ورد الصلاة والسلام من هنا يتنزل كل يوم من السماء سبعون ألف ملك يظلون يقومون بالصلاة والسلام وفى غروب الشمس يعرجون إلى السماء ويهبط مكانهم نفس العدد يظلون حتى الصباح يصلون ويسلمون.

الوجهة الثامنة

وتحتوى على تسع صور وتشمل تفصيلات

عن علامات رأس النبى الشريف ومقام جبريل الأمين السامى

وكيف تحفظ وتعلق الهدايا الواردة

وفى أى عصر وتاريخ أسست القبة الخضراء ومقصورة القبر الحديدية

فى ذكر علامة الجهة

التى يوجد فيها رأس الرسول ﷺ

كانت العلامة الفارقة لرأس النبى الشريف فى الصدر الأول صندوقًا مغطى بألواح فضية، وكان هذا الصندوق بجانب العمود الملاصق لجدار القبر وكان ذلك العمود فى منتهى الناحية الغربية لجدار الحجرة المعطرة وفى محاذاة أسطوانة التوبة وأسطوانة السرير، وزمن وضع ذلك الصندوق وتاريخه يكاد يكون مجهولاً فى نظر التاريخ إلا أنهم يروون أنه قد وضع قبل حريق سنة خمسمائة وثمانين رواية قوية ولا شك فى صحة هذه الرواية، وكانت فى جهة رأس الرسول شجرة مزينة فوق الصندوق الصغير تحيط بالأسطوانة المثبتة بجانب الرأس، ولما احترقت هذه الشجرة من الصندوق فى الحريق الثانى ركزوا مكانها عمودا رخاميا وكتبوا عليه بخط جميل البسملة الشريفة والصلوات المنيفة ووضعوا بجانب العمود صندوقًا صغيرًا، والآن فعلامة الرأس الشريف النبوى هذا العمود.

ومازال ذلك الصندوق الصغير موجودًا ولكنه تحت غطاء قبر السعادة، ويوضع فيه كل سنة خشب الصندل الهندى ويؤخذ القديم منه وبقيت هذه العادة من عهد عمر بن الخطاب وقد حفظ بالصندوق ماء الورد والعنبر والصندل لتبخير المسجد والأشياء الأخرى فى داخل ذلك الصندوق وقد أصبح وضع الأشياء المذكورة فى داخل ذلك الصندوق فى حكم العادة لدى الخلفاء والملوك الذين بعده؛ ولكن مسجد السعادة اتسع وكثرت تلك الأشياء الواردة لتبخير المسجد فاستصوبوا وضع تلك الأشياء فى أماكن أخرى مكتفيًا بوضع الصندل الهندى فقط داخل ذلك الصندوق علامة رأس النبى الشريف ﷺ.

أصول تجديد الصندل: هناك نظام جميل بين أغوات حرم السعادة خاص بصورة تجديد الصندل الموضوع فى داخل الصندوق، وهذا النظام جار إلى يومنا هذا، عندما يحين الوقت المعين للتجديد تولم وليمة ويقدم طعام من قبل شيخ الحرم أو نائبه فى دائرة الحرم لبعض أهل حرم المدينة.

ولكن جميع المدعوات من النساء يطحن الصندل المجهز وهن يصلين ويسلمن على النبى بالفقرات المسجوعة طحنًا جيدًا قبل الطعام وعندما تنتشر رائحته إلى الجهات الأربعة يخلطنه بماء الورد أو أنواع أخرى من العطور وفى ختام ذلك يتناولن الطعام الذى أعده صاحب البيت ويرسلن ما جهزنه إلى أغوات الحجرة المعطرة ليضعوه فى الصندوق الذى تحت غطاء قبر السعادة، ويعبئ الأغوات الصندوق المذكور بالصندل الجديد بعد أن يفرغوه من الصندل القديم وفى أثناء ذلك يهللون ويكبرون ويصلون على النبى ﷺ ويسلمون ويرسلون الصندل القديم لأحبائهم للتبرك.

والفقرات المسجوعة التى ترددها النساء فى أثناء وجودهن فى جمعية دق الصندل الذى يستلزم المفخرة هى: لما بدينا * على النبى صلينا * العادة يا سادة.

والوقت المعين لتجديد الصندل الليلة التاسعة عشرة من ذى القعدة كل سنة، وبعدما يدق بأدوات مزينة ويغربل بغرابيل فضية يمزج بعطور مثل ماء الورد، عنبر ودهان الورد ثم يعجن كالعجين ثم يوضع فى صحون ذهبية وفضية ويحمل إلى حجرة السعادة التى تغسل وفى اليوم الثانى يدخل فى داخل شبكة السعادة فى موكب خاص، ولا يدخل من هذا الموكب فى داخل حجرة السعادة غير شيخ الحرم، ونائبه، وخازن الحرم.

والصندوق الذى يضعون فيه الصندل تحت عقد الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز والغطاء الذهبى لقبر السعادة فوق هذا العقد فالصندل الجديد يوضع من ناحية الرأس الشريف النبوى للقبة التى تحيط بمرقد النبى الجليل.

إخطـار

وليس الصندوق الذى يوضع فيه الصندل هو الصندوق الخاص بوضع المصحف الشريف عليه بل هو الصندوق الذى وضع بجانب أسطوانة السرير فى داخل المقصورة، وإن كان بعض الرواة يروون أن المصحف الشريف الذى يوضع فوق ذلك الصندوق هو المصحف الذى كان فى يد حضرة عثمان بن عفان حين استشهاده، إلا أن هذه الرواية غير صحيحة.

وبناء على قول ابن النجار أو بعض كتب تاريخ المدينة أن ذلك المصحف المنيف هو الذى أرسله الحجاج من الشام وكان قد وضع فوق الصندوق الذى أمامه المصلى؛ لأن مصحف الشهيد عثمان انتقل إلى يد ابنه خالد وظل فى يد أولاده من بعده.

وبناء على القول الذى نقله بعض مشايخ الشام لابن قتيبة أن المصحف المذكور نقل إلى أرض طوس فى فترة ما، كما ادعى الإمام مالك أن البلد الذى يوجد فيه ذلك المصحف غير معروف، مع أن ابن سلام قال: «إننى رأيت فى خزانة بعض الأمراء المصحف الذى تحدث عنه الإمام مالك حتى كان فى بعض أماكنه آثار دم وبهذا أراد أبو جعفر النحاس أن يرد رواية الإمام مالك وادعائه، إلا أن احتمال الحصول على ذلك المصحف المنيف بعد موت الإمام وإرساله إلى المدينة جائز ومن هنا فهناك نظر فى تخريج رواية الإمام مالك، وإن كان فى زماننا ثلاثة مصاحف فى كل من المدينة ومكة المكرمة ومصر وعلى الآية الكريمة:

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

آثار دماء، إلا أن هذه المصاحف ليست المصحف الشريف الذى لطخ بالدم فى أثناء شهادة حضرة عثمان بل أنها مصاحف كتبت تقليداً لذلك المصحف والآية الجليلة لونت بلون أحمر فى لون الدم. وبناء على ذلك فالمصاحف الموجودة سواء أكانت فى المدينة أو مكة أو مصر باسم المصحف العثمانى فهى المصاحف التى أرسلها الحجاج إلى بلاد مختلفة، لأن عند استشهاد عثمان بن عفان كان

يمسك بين يديه مصحفًا واحدًا، وغير هذه المصاحف ففى مسجد السعادة كثير من المصاحف التى كتبت بخط نفيس جميل مزينة مذهبة بأجمل الزينة والتى أرسلت من الملوك والسلاطين، وأصحاب الخير.

وأجزاء لطيفة من القرآن الكريم، ومن ضمن هذه المصاحف مصحف مرسل فى سنة (١٢٥٠) هـ بين المصاحف المرسلة من ملوك الهند كهدية مصحف فى غاية الكبر فى الحجم وحتى يزار عند إهدائه وضع فوق كرسى خاص بجانب باب السلام وأغلق بالقفل من الأعلى، إلا أنه نقل عند التعمير الأخير مع كرسيه إلى المخزن القريب من الباب المذكور، وقد حُررت فى الوجهة الخاصة أسماء مهدى هذا المصحف والمصاحف الأخرى وتاريخ إهدائها وعددها وصفاتها.

الصورة الثانية

ترى وتعرف علامة جهة وجه النبى اللطيف

فى الجهة القبلية من الشبكة الشريفة التى تحيط بحجرة السعادة مسمار ساطع الأنوار من فضة علامة جهة وجه النبى ﷺ هى هذا المسمار الذى يبعد عن الزاوية الغربية قدر خمسة أذرع، وقد بين علماء الأسلاف جهة وجه السعادة قائلين: «كل من يقف تحت القنديل الذى فى مواجهة رأس السعادة واستقبل العمود الرخامى يكون قد توجه إلى الوجه اللطيف النبوى، إلا أن هذا التعريف خاص بوضع الحجرة النبوية قبل الحريق إذ لم يكن حينئذ فى محاذاة وجه السعادة إلا قنديل واحد معلق، وبما أن القناديل كثرت فيما بعد فما كان يعرف أى القناديل المعلقة يلزم الوقوف تحتها. والآن فمن يريد أن يكون فى مواجهة وجه السعادة، يقتضى أن يستقبل العمود الأحمر الرخامى فى محاذاة مسمار الفضة، إن هذا المسمار علامة الوجه الشريف، وقد سقط المسمار المذكور سنة (٧١٠) هـ وخلا المكان منه فترة وبعد عشر سنوات وضع فى مكانه سنة (٧٢٠) هـ. وعندما فرش رخام أرضيته الحجرة المعطرة فى (٢٣٢) نزع المسمار المذكور وعندما تم الفرش وسوى أضيف ثلاثة مسامير فضية أخرى بحيث وضع أحدها فى الجدار القبلى والاثنان فى الجدار الغربى ووضعت الأربعة كلها مرة واحدة فى أماكنها، وللأسف الشديد احترقت المسامير الثلاثة الجديدة وبقى المسمار القديم، وبما أن الشخص الذى كان أمين البناء قد ركب على باب المقصورة قفصًا غليظ الصنع كما كان لا يمكن رؤية المسمار العتيق ولا تشخيص وتمييز مكان مواجهة رأس السعادة، وكان زوار ذلك الوقت يقفون فى الجهة القبلية ويستقبلون قبر السعادة وبِحِسٍّ وجدانى يشيرون إلى جهة المسمار القديم قائلين

إن هذه الجهة هى جهة وجه النبى ﷺ، إلا أن شاهين الشجاعى الذى عين أمينًا للبناء فى عهد السلطان قايتباى المصرى قد بدل قفص المقصورة ذلك بالنحاس وأظهر المسمار المذكور وأبرزه فأبهج زوار مرقد السعادة وملأهم فرحًا وسرورًا. رحمه الله.

فى تعريف مقام جبريل الأمين وتعيينه.

كان مقام جبريل الأمين السامى بجانب مربع القبر الشريف، إن ذلك المسمار الفضى الذى وضع لتعيين المقام الشريف وعلامة خاصة لذلك كان فى انحراف زاوية الجدار الشمالى لمربع الحجرة الشريفة، وفى النهاية سقط ذلك المسمار ولم يوضع فى موضعه مرة أخرى وستر مكانه، من هنا ليست هناك علامة خاصة بمقام جبريل، ويعد هذا المكان ـ بناء على قول ابن جبير ـ من الحجرة المعطرة النبوية، ومن هنا يطلق على الغطاء الذى وضع فوقها مهبط جبريل ـ عليه السلام ـ إذ يدعى أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان ينزل غالبًا فى هذا المكان المقدس باسطًا أجنحته.

اختلف المؤرخون فى وجه تسمية هذا المكان المقدس، وقال بعضهم إن جبريل ـ عليه السلام ـ ظهر فى هذا المكان فى غزوة بنى قريظة، وقال بعضهم تسمى كذلك لقربه من باب جبريل، ومن المحتمل أن باب جبريل كان أولاً متصلاً بهذا المقام الشريف ثم نقل إلى مكانه الأول.

الصورة الرابعة

فرش حجرة السعادة وتعميرها وتجديدها

كان فى الزمن القديم حجر ألصق بالجدار القريب بمربع القبر الجليل، ويروى أن النبى ﷺ كان كلما زار دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان يصلى بجانب ذلك الحجر نظير الجوهرة، وعلى قول آخر أن أمنا فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كانت تؤدى الصلوات الخمسة بجانب ذلك الحجر.

ويروى أن ذلك الموقع اللطيف هو المكان المنيف الذى ولد فيه السبطان المحترمان. وبناء على ذلك كلما أحس الحسين بن عبد الله بجسمه بمرض أو وجع كان يذهب ويحك محل الوجع بذلك الحجر ويحظى بالبرء والشفاء عقب ذلك، ولكن لشدة الأسف عندما فرش داخل الحجرة المعطرة بالرخام ضاع ذلك الحجر ولم يعثر عليه بعد، وفى الأوائل لم يكن فى داخل أو خارج حجرة السعادة فرش رخامى؛ وفى سنة (٢٣٢) هـ وفى عصر المتوكل بالله العباسى فرش داخل الحجرة الشريفة وخارجها بالرخام من قبل إسحاق بن سلمة من كبار معمارى ذلك العصر، وفى سنة ٥٨٤ هـ جدد حجرة السعادة قرب الحريق الأول فى غاية الرصانة والزينة.

ومد جمال الدين المشار إليه حول أطراف الحجرة المقدسة الأربعة جدار فى ارتفاع قامة إنسان من الرخام، ولم يمس أية جهة من الحجرة أحد إلا أنها جددت فى سنة (٨٨١)هـ[1] وسنة (٨٨٧) هـ [2] مرتين على صورة مطلوبة.

وكان الفرش الرخامى سواء أكان فى داخل حجرة السعادة أو خارجها أو الأماكن الأخرى من المسجد الشريف كل هذا فرش بعد الحريق الثانى؛ ولم يكن إلى ذلك الحريق فرش رخامى فى غير مكان المحراب العثمانى، والآن الفرش

(١) كان قبل الحريق الأول.

(٢) كان بعد الحريق الثانى وجدد من قبل الأشرف قايتباى المصرى.

الرخامى على يمينه ويساره، وحولت جميع الأماكن التى بين مآذن الركن الشرقى والغربى والأعمدة التى حول باب السلام والمنبر المنيف والحجرة اللطيفة ومحفل المؤذن إلى أعمدة رخامية، فى أزمنة الظاهر جقمق والسلطان قايتباى المصرى، وإن كان داخل الحجرة المعطرة فى عهد قايتباى المصرى قد فرش بالرخام إلا أن السلطان مراد الرابع قد بدل جميع قطع الرخام تلك بالقيشانى وجدد السلطان عبد الحميد جميع قطع القيشانى التى فرشها السلطان مراد مزينة بقطع أخرى بشكل أجمل.

ينقل عن أحد الذوات الذين قاموا بأنفسهم بتعمير الحرم النبوى الشريف فى العمارة الأخيرة ـ إذ كان من موظفى الحرم النبوى الشريف ـ هذه الحكاية الغريبة: «لما كان السلطان عبد المجيد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ قد أرسل جميع الأشياء اللازمة لفرش حجرة السعادة من باب السعادة وأمر بأن تفرش هذه الأشياء من قبل الأشخاص الذين كسبوا احترام الأرض والذين عرفوا بينهم بالزهد والتقوى ومن هنا فرشها الأشخاص الذين عرفوا بشدة تدينهم وبسماتهم الفاضلة من بين آل المدينة إذْ كان اثنان أو ثلاثة منهم يدخلونها مناوبة».

قال راوى هذه الحكاية الغريبة: «قمت أنا أيضًا بهذه الخدمة المقدسة، وكنت يومًا عجزت عن أن أضع إحدى قطع القيشانى فى مكانها، فأتيت بشمعة وعاينت مكانها، فرأيت أن قطعة القيشانى مزينة مجلاة وكانت خالية من العيوب، فقلبت ظهرها فوجدت أنها محلاة ومصقلة مثل وجهها وقد سطرت فى وسطها عبارة» المست عبد المجيد؛ «فنظرت إلى القطعة فكانت كتلك التى افتقدتها».

ألا فَلْيُنِلْ الله ـ سبحانه وتعالى ـ شفاعة الحبيب الأكرم ذلك السلطان المشار إليه، وإن كانت تلك الحكاية صحيحة يفهم منها مدى حب الملوك العثمانيين لسلطان الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ ولاسيما السلطان عبد المجيد خان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ ومدى إخلاصهم فى هذا الحب، من تلك الحكاية الغريبة.

ذيل

ولما رويت الحكاية الآتية تأييدًا لصحة الرواية الغريبة التى ذكرت فأدرجناها هنا لتوضيح المدعى.

حكاية

قال أحد الذين يثنون على والد السلطان كثير المحامد إنه سمع هذه الحكاية من الكاتب السلطانى الأسبق فريد أفندى ذاتيًا: «قد اعتاد السلطان عبد المجيد خان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ فى مرض موته أن يقرأ المعروضات التى ترسل إليه من الباب العالى فى حجرة نومه وهو مستلق على فراشه، وأن يُضَبَّط أوامره السلطانية، ويومًا ما ظهرت بين المعروضات بعض الأوراق الخاصة بالمدينة المنورة فأمر أن يؤتى بمخدتين توضعان على جانبيه ثم جلس على ركبتيه واضعًا يديه عليهما فى أدب، مع أنه كان عاجزًا عن القيام من الفرش ليقرأ تلك الأوراق حتى غير المهمة منها وأمر رأسًا بإجراء ما يقتضى إجراؤه، ثم غير وضعه وأعيد رأسه إلى الوسادة؛ رحمة الله عليه رحمة واسعة.

فى تعريف ستارة الحجرة المعطرة.

كان جمال الدين الأصفهانى قد صنع حول حجرة السعادة سورا مشبكا من خشب الصندل والأبنوس، كما سبق ذكره فى الصورة الخامسة من الوجهة السابقة، وقد دامت هذه الشبكة الخشبية فترة، وفى سنة ٥٦٦ هـ جهز حسين بن أبى الهيجاء صهر صالح الوزير - من وزراء الملوك المصريين - ستارة من الحرير الأبيض مزركشة وأرسلها إلى المدينة المنورة تتعلق تبركًا فى حجرة السعادة، تحدوه نية خالصة. وبعد استأذن أمير المدينة المنورة قاسم بن مهنى المستضئ بأمر الله العباسى وعلق تلك الستارة فى حجرة السعادة.

كانت تلك الستارة البيضاء منسوجة من الحرير الأحمر والأصفر ومزينة بخرز مختلف الألوان ومطرزة بلآلئ ذات قيمة غالية، وسطرت على حزامها المصنوع من الحرير منسوجًا بالحرير الأحمر سورة يس الشريفة؛ ولما أرسل بعد سنتين من بغداد دار الخلافة ستارة نفيسة أخرى منسوجة بحرير بنفسجى وخيوط ذهبية فأنزلت الستارة التى أرسلت من طرف حسن بن أبى الهيجاء وعلقت الستارة الجديدة. وأرسلت الستارة القديمة إلى مشهد على بن أبى طالب؛ وكانت عبارة المستضئ بالله مكتوبة على الستارة التى أرسلت من بغداد، وكانت هذه الستارة بنفسجية اللون وكانت على أطرافها أطر قد رصت بلآلئ وكتبت على جوانبها أسماء النبى ﷺ، كما أن الناصر لدين الله أرسل ستارة منسوجة من حرير أسود فى أثناء خلافته كما أن والدته أرسلت ستارة أخرى جميلة عقب ذلك، وبما أن هاتين الستارتين علقتا فوق بعضهما فاجتمعت فوق حجرة السعادة ثلاث ستائر فى وقت واحد وظلت حجرة السعادة إلى عصر هارون الرشيد بالستارتين اللتين أهداهما المستضئ بأمر الله والناصر لدين الله، وزار هارون الرشيد مع والدته

الخيزران القبر النبوى الجليل وعلقا على الحجرة الشريفة ستارة نفيسة وأظهرا احترامهما ورعايتهما لهذه الحجرة وذلك فى سنة (١٧٠)هـ.

واشترى الملك الصالح بن الناصر محمد المصرى فى سنة (٧٦٠) هـ ثلاث قرى من قرى مصر المعمورة، وأوقفها بشرط أن يصنع بإيرادها كسوة للحجرة المعطرة والكعبة المعظمة وعلى أن يكون لون هذه الستارة أسود ويشغل بالحرير الأبيض وأن تحاط بإطار مصنوع ومطرز بخيوط ذهبية وأن يحيط طولها وعرضها بحجرة السعادة، وكان يبعث بعد ذلك كل خمس سنوات كسوة للكعبة المعظمة وحجرة السعادة.

وقال تقى الدين الفاسى وزين المراغى من المؤرخين، وترسل كل ست سنوات إلى الحجرة الشريفة ستارة من قماش أسود ويكتب فوق هذه الستارة بعض الآيات الشريفة بحرير أبيض وكانت طرزها (شراشيبها) مصنوعة من خيوط ذهبية (صرمه) وكان حكم الكسوة القديمة فى حكم الكسوة القديمة للكعبة الشريفة وتقسم بين الخدم[1]، ولكنهما قالا بأن الستارة الخاصة بمنبر السعادة يشترط فى صنعها أن تكون بيضاء اللون.

وقد اتخذت عادة إرسال ستائر خضراء فيما بعد إلا أنه قد أرسلت ستائر فى ألوان أخرى حتى إنه قد أرسل فى سنة ١٢٩٧هـ من باب السعادة مع محمل الشام ستارة مطرزة مزينة فى غاية الجمال ذات حزام أحمر، وكان فوق الستارة التى أرسلت من باب السعادة قطعًا مزينة من الأطلس الأحمر كتب فوق كل قطعة اسمًا من أسماء النبى ﷺ واسم المرحوم السلطان عبد المجيد خان وإن كانت هذه الستارة أرسلت فى عهد عبد العزيز خان وأهديت؛ إلا أنها كانت قد صنعت فى عهد السلطان عبد المجيد المميز بالبر والخير، والآن ترسل ستائر غير ستارة قبر السعادة، إلى تابوت فاطمة ومحاريب القبلة الثلاثة وباب مئذنة جدار القبلة الرئيسى ومقام جبريل والألوان الخمسة.

(١) بما أن بحث تقسيم الكسوة قد ذكر بدقة مفصلاً فى صورة بيان جواز تقسيم الكسوة من (مرآة مكة المكرمة) نوصى الذين يريدون أن يقفوا على ذلك أن يطالعوا ذلك الكتاب.

وكلها فى شكل واحد عام، كما أن هذه الأقمشة يطلق عليها بين الأهالى ستارة تعلق فى أماكنها من أول رجب إلى نهايته ومن عشرين ذي القعدة إلى عشرين من محرم الحرام وفى غير هذه المواسم تحفظ فى دواليب حجرة السعادة.

وفى كل جهة من جهات الحجرة المعطرة ولاسيما على أبوابها وعلى المنبر المنير النبوى ستائر وتعليق هذه الستائر خاصة بالأيام التى ذكرت، وكل هذه الستائر من قماش أطلس أخضر وعليه خطوط جميلة وأزهار مرسومة.

أصول تعليق ستارة قبر السعادة وتجديدها

والقاعدة تغيير ستارة حجرة السعادة كل ثلاثين عامًا أو أربعين عاما وعندما يراد تعليق الستارة الجديدة يصعد فوق مربع قبر السعادة لامع الأنوار من السلم الملاصق لأعمدة الجدار الذى تحت الستارة القديمة والذى أقامه عمر بن عبد العزيز ويربطون حبال الستارة الجديدة بالحلقان الخاصة لتعليق الستائر ويحلون حبال الستارة القديمة ويعلقون الستارة الجديدة فى محلها الخاص وينزلون الستارة القديمة.

وعندما يراد إنزال الستارة القديمة يقف الشخص الذى صعد فوق الجدار ليربط حبال الستارة الجديدة على أرض الحجرة وينتظر بجانب الطرف الشامى من الشبكة السعيدة، فتؤخذ الستارة القديمة على الأرض من حيث يقف هذا الشخص رويدًا رويدًا.

ومن العادات القديمة المرعية أن يكون الشخص الذى يصعد فوق جدار مربع قبر السعادة الذى تحت الستارة القديمة وكذلك الشخص الذى يكلف بالصعود فوق الجدار الشريف لإنزال الستارة القديمة أن يكونا من أغوات حجرة السعادة المسنين والمعروفين بالصلاح، ولا يخرج هذان الشخصان من حجرة السعادة قبل أن يكنسا التراب المتراكم بين قبر السعادة والستارة القديمة منذ أعوام طويلة.

الجوهر الشريف ـ الجوهر الشريف يطلق على التراب الذى يخرج من كناسة ما بين قبر السعادة والستارة القديمة بين الأرض ولما كان هذا التراب قد جاور مربع

قبر السعادة ما يقرب من ثلاثين عاما أو أربعين عاما ومن هنا اكتسب التوقير والقداسة.

وكل من ينال شرف هذه الخدمة التى تدعو إلى الفخر من أغوات الحرم يشترون ثلاثة أو أربعة من العبيد ويحررونهم، وإن كان من يحرر أكثر من هؤلاء فالذين لا يستطيعون ذلك يذبحون ثلاثة أو أربعة قرابين ويتصدقون بلحمها.

تعريف حجرة السعادة بالإجمال ـ قد عرفت الحجرة المعطرة بالتفصيل فى الوجهة الخاصة بها. إلا أن هذا التفصيل لم يكن بشكل متسلسل بل كتب كل ما جاءت المناسبة، لذلك استصوبنا إضافة بند خاص بعنوان (تعريف حجرة السعادة مجملاً) متذكرين لزوم تعريف الحجرة المعطرة بحيث يفهمها كل فرد فهمًا جيداً.

الحجرة المعطرة ـ هى دار أمنا السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لما كان النبى ﷺ قد ارتحل فى داخل هذه الدار السعيدة عن الدنيا كان قد دفن فى المحل الذى فيه قبضت روحه الشريفة.

وأحاط عمر الفاروق هذه الدار حتى يحافظ على هيئتها الأصلية بجدار، ومد عمر بن عبد العزيز خارج جدار عمر بن الخطاب جداراً آخر، ولكن حتى لا يكون على شكل الكعبة المعظمة ذات أربع زوايا دبب الجهة التى تقع ناحية الساحة الرملية لمسجد السعادة على شكل مثلث؛ وبنى فوق سقفه قبة غاية فى الصغر وأطلق على هذه القبة قبة الحجرة، قبة النور وعلى القبة الكبيرة التى فوق هذه القبة الخضراء والكسوة الشريفة التى ترسل من قبل الملوك إلى قبر السعادة تغرس فوق تلك القبة الصغيرة.

وقد مد فيما بعد حول حجرة السعادة قفص ويطلق على هذا القفص شبكة السعادة وفى داخل شبكة السعادة ستارة خضراء وفى خارجها ستائر ذات أهداب من خيوط ذهبية وفى غاية الجمال والزينة وتطلق عليها ستارة والستائر الخضراء تعلق من عند العقود التى تحمل القبة الخضراء.

وشبكة السعادة مصنوعة من حديد عادى ومدهون باللون الأخضر وتتكون من الشبكة ودار السيدة عائشة. التى هى مربع قبر السعادة أى ما بين الجدران

الأربعة يطلق عليه الحجرة المعطرة ولكنها فى الأصل داخل دار السيدة عائشة. ويقال للجهة القبلية من شبكة السعادة المواجهة الشريفة وعلى جهتها الغربية قدم السعادة وعلى جهتها الشرقية الروضة المطهرة على طرفها الشامى دار فاطمة السعيدة وقد نسجت فوق شبكة المواجهة بسلك أصفر شبكات صغيرة وكتبت فوق كل واحدة من هذه الشبكات عبارة لا إله إلا الله الملك الحق المبين، سيدنا محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

وتطلق على الأبواب التى فى الجهة الشرقية من شبكة حجرة السعادة والغربية والشامية أبواب الحجرة ومفاتيحها من الفضة.

لا يستطيع أحد أن يدخل فى حجرة السعادة غير أغوات الحرم الشريف، إلا أن من يريدون أن يزوروا النبى ﷺ من داخل الشبكة يستطيعون أن يدخلوا مع الأغوات الذين يدخلون داخل الشبكة قبل عشرين دقيقة من صلاة المغرب لإيقاد القناديل.

ولا يستطيع أن يعرف ما بين الكسوة الشريفة والجدار الذى مده عمر بن عبد العزيز لا أغوات الحرم الشريف ولا أى شخص آخر، لأنه لا يوجد بين هذا الجدار والجدار الذى سبق تعريفه آنفا منفذ من باب أو نافذة غير تلك القبة الصغيرة التى سبق ذكرها، إلا أنه فتح ثقب صغير لتلك القبة فوق محاذاة قبر السعادة وحتى يمنع دخول الحمام أو الحيوانات الأخرى أو سقوطها قد سد بقفص منسوج بالسلك.

وبناء على بعض الروايات أن قبة النور داخل هذا الثقب؛ والغاية من فتح هذا الثقب ألا يترك حائل بين مرقد السعادة والسماء وحتى يؤمن هذا الأمر فتح منفذ آخر للقبة الخضراء فى محاذاة ذلك الثقب وعندما تكون الشمس المنيرة فى وسط النهار تدخل أشعتها إلى منفذ القبة الخضراء بين هذا المنفذ إلى منفذ قبة الحجرة ومن هنا ينشر الضوء فوق قبر السعادة وينير داخل مربع قبر السعادة، ولما كان المطر ينزل كان ولابد أن ينزل فوق قبر السعادة.

والفرجة التى بين شبكة السعادة وبيت فاطمة قد فرشت بالرخام والجهة العليا من هذه الفرجة حصرت لتعليق الأشياء التى يتبرك بها.

بين حجرة السعادة ودار السيدة فاطمة شبكة حديدية وفى هذه الشبكة باب صغير تدخل منه الشمعدانات التى اتخذ إدخالها إلى حجرة السعادة ليلاً عادة، وهى من الذهب.

لحجرة السعادة مائة قنديل ذات سلاسل ذهبية وفضية كما أن حول مرقد فاطمة أربعون قنديلاً ذات سلاسل ذهبية وفضية وهذه القناديل توقد كل ليلة؛ الكسوة التى فوق مرقد السيدة فاطمة هى كنفس الكسوة التى فى حجرة السعادة والأعلام التى ركزت على طرفى المزار الشريف قد زينت ورصعت بمجوهرات متنوعة، وهذه الأعلام قد أهديت من قبل والدة السلطان عبد العزيز ـ أسكنه الله فسيح جناته.

فى تعريف صورة تخليق[1] حجرة السعادة.

ذهبت والدة هارون الرشيد من خلفاء بنى العباس السيدة خيزران إلى الحجاز سنة (١٧٠) هـ وذلك بنية أداء فريضة الحج وهى محرمة وعند عودتها مرت بالمدينة وتسمى مؤنسة حتى تشرف على ذلك العمل.

وكانت مؤنسة تلك قد وضعت نظامًا معينًا لتخليق قبر السعادة وأسطوانة التوبة، وعلامة مصلى النبى ﷺ بناء على التعليمات التى وجهت إليها.

وقال إبراهيم بن فضل من صلحاء العصر لمؤنسة (إنك أبدعت قاعدة لم تر من قبل، وهذا شىء لا احتمال لنا بقبوله!!!) وأراد بهذا أن يمنع استمرار هذا النظام، إلا أن المشار إليها قالت له: هذا العمل ليس من رأيى، مادامت والدة الخليفة ترغب فى ذلك فلابد من أن نستمر فى ذلك، وبهذه الإجابة ردت ما عارضه إبراهيم بن فضل ومع هذا فقد تركت هذه القاعدة بعد مرور بعض الوقت.

(١) تركيب رائحة طيبة من الزعفران والمسك وصندل يقال له خلوق واستعمال هذا التركيب يقال له تخليق.

فى بيان وتعريف قناديل الحجرة الشريفة.

لا يعرف مهدى القناديل الذهبية والفضية ووقت إهدائها وتعليقها لمسجد السعادة والحجرة المعطرة، وقال: ابن النجار بعد أن أجرى التدقيقات التامة وهو يبين ويعرف عدد تلك القناديل وأنواعها وأماكن تعليقها.

كان فى صدر الإسلام بين شبكة الحجرة المنيفة والجدار القبلى للمسجد الشريف[1] أكثر من أربعين قنديلا معلقا على سقف المسجد الشريف، وكان بعض هذه القناديل من الذهب والأخرى مصنوعة من الفضة وكان بعضها كبيراً وكان بعضها فى حجم صغير وكانت أهديت من قبل حكام الزمان والأصدقاء المخلصين. وكان أحد هذه القناديل مصنوعًا من البلور والآخر من الذهب كانا ثريتين فى غاية من الجمال وكان مرغوبًا فيهما لعدم وجود مثيل لهما فى ذلك العصر، وفيما بعد زادت رغبة أهل الإيمان فى إهداء القناديل إلى الحجرة المعطرة وزادت القناديل التى وردت حتى ضاقت الحجرة النبوية بها حتى لم يَبْقَ مكان فى داخلها لتعليق القناديل فيها.

وحينما رأى السادة وموظفو الحكومة أن الهدايا ترد واحدة تلو أخرى ولم يبق فى داخل حجرة السعادة مكان لتعليق القناديل، عندها أخذوا يخرجون القناديل القديمة فى قبة المسجد الشريف، والهدايا التى أرسلت فى خلال سنة (٨١٠) هـ زادت إلى حد أنه إذا سرقت إحداها فلا يعرف الشىء المسروق أى وصلت الهدايا المرسلة بحيث تزيد على العد والإحصاء، ومن هنا رأى المشار إليهم من أصحاب الرأى حفظ هذه القناديل فى داخل الصناديق المعدة لها حتى يحموها من سرقة عربان البادية الذين يردون فى مواسم الحج على أن يخرجوها فى الليالى المباركة

(١) وكان هذا المكان مواجهة السعادة، وهو المحل الذي يقف فيه زوار قبر السعادة.

لإيقادها مناوبة، ولكن حدث فى الوقت الذى قرر تنفيذ القرار السابق أن الشريف حسين بن عجلان الحسينى الذى عين لإمارة الحجاز من قبل ملك مصر الناصر فرج لبعض الأسباب عزل والى المدينة حجاز بن هبة الحجاز بن منصور الحسينى ونصب مكانه ثابت بن نصير المنصورى واليًا وعينه، إلا أن ثابت بن نصير مات قبل الوصول إلى المدينة، وعرف حجاز بن هبة الحجاز، أنه سيعين مكان ثابت بن نصير المتوفى شخص آخر بعزله، فأظهر عصيانه وضم إلى تبعيته بعض العربان الجهلة الحمقى وداس على شرف الإسلام ونهب منازل أعيان المدينة وسادتها بإغراء كلاب العربان ونباحهم.

واستولوا على القناديل الذهبية والفضية التى فى داخل مسجد السعادة والتى توضع بعد فى الصناديق المعدة لذلك وبهذه الطريقة أعلنوا عن عداوتهم وأظهروا شقاوتهم. هل أكتفى حجاز بن هبة بهذا القدر من الشقاوة واقتنع بها؟!! لا ـ وبعد هذه الوقاحة والسفالة أحضر سلمًا خاصًا لإنزال القناديل المعلقة وستارة مرقد السعادة الثمينة ولكنه لم يوفق فى ذلك وأخذ ستائر أبواب الحجرة المعطرة التى فى الخزانة النبوية وهرب من المدينة المنورة سنة (٨١١)هـ.

وإن كانت الحكومة المصرية استطاعت أن تقبض على السافل حجاز بن هبة بعد سنتين وقتلته إلا أن ذلك الخائن لم يكشف عن الأماكن التى دفن فيها الأشياء المنهوبة سواء أكان وقت عصيانه أو وقت استجوابه ومن هنا لم يخرج شىء منها إلى حيز الوجود.

والأشياء التى نهبها حجاز بن هبة الحجاز من مسجد السعادة صندوقان ذهبيان، خزانة صغيرة ذات درجين المملوءة بالذهب، وقناديل من الفضة تزن سبعة عشر قنطارا و٧٤٨٥ درهمًا.

وتراكمت كثير من الهدايا فى خزينة حجرة السعادة بعد هذه الواقعة الأليمة إلى سنة (٨٢٤) الهجرية فى ظرف ثلاث عشرة سنة إلا أن عزيز بن هبازع الذى كان واليا فى خلال تلك السنة استولى على هذه الهدايا قائلاً: «فلتبق هذه

الأشياء عندى على طريق الأمانة ولم يبق شيئًا سواء أكان فى الحجرة المقدسة أو الخزانة النبوية، وسيق عزيز بن هبازع تحت الحراسة إلى مصر بناء على إخبار بعض الذوات من السادات، وفى أثناء الاستجواب والتعذيب لم يؤخذ منه شىء. مع أنه قد ثبت بأدلة قاطعة أنه استولى على تلك الأشياء الثمينة وبناء على ذلك ظل مسجونا إلى أن توفى.

ومن سنة ٨٢٤ هـ إلى سنة ٨٦٠ هـ لم يمد أحد يد الإساءة والعدوان إلى ما أهدى إلى حجرة السعادة من قناديل ذهبية أو فضية، وفى خلال ٨٦٠ هـ مضى إلى المدينة المنورة شخصان بقصد زيارة المرقد الجليل وهما دبوس بن سعد الحسينى الطفيلى وبرغوث بن ثبير بن جريس الحسينى، إن هذين الخبيثين قد مدا نظرهما بالطمع إلى القناديل المعلقة فى حجرة السعادة، وفى الليلة السابعة والعشرين من ذى الحجة من سنة ٨٦٠ هـ دخلا فى الدار التى يطلق عليها «دار شباك»[1] وعرجا من هناك إلى جدار مسجد السعادة ودخلا من تحت الطنف داخل المسجد الشريف طمعًا فى سرقة قناديل قيمة وذلك بأخذ قنديل من بين كل قنديلين، وبما أن القناديل كانت كثيرة ومعلقة ملاصقة بعضها لبعض لم يحس أحد لمدة طويلة أن القناديل سرقت من مسجد السعادة وأخيرًا فهم الأمر وقبض على الرجلين وأخذ ما فى أيديهم من قناديل وقتلوهما جزاء وفاقا.

غريبة

عندما سرق برغوث المنحوس قناديل مسجد السعادة هرب إلى ينبع ولما عرف ذلك كتب إلى مديرية ينبع البحر وألقى القبض عليه وألقى فى السجن إن هذا الشخص أليف الشقاوة هرب من سجن ينبع البحر وعاد إلى المدينة وحرص على أن يختفى فى مكان خفى.

إلا أن محل اختفائه أبلغ إلى الحكومة فقبض عليه وأخذت القناديل التى تحت

(١) إن ساحة سبيل المدرسة الشرقية الملاصقة لباب الرحمة كانت فى ذلك الوقت مكان «دار شباك» وكان هذا المنزل فى اتصال سقف مسجد السعادة وكانت دارا غير مسكونة.

يده ثم أرسل إلى دار البوار، وعندما ألقى السارق المذكور إلى السجن فى المدينة المنورة لاستجوابه سأله أحد المسجونين يا برغوث! بينما نجوت هاربا من سجن ينبع البحر ما سبب مجيئك إلى المدينة؟

فأجابه قائلا فى الواقع هذا سؤال وجيه مع أننى حينما هربت من سجن ينبع البحر وأردت أن ألجأ إلى الجبال كلما اتجهت إلى جهة ما قوبلت بسد حديدى سديد أمامى، كأن هناك من يدفعنى ناحية المدينة المنورة ويشوقنى للذهاب إليها وكلما توجهت ناحية المدينة أحسست فى قلبى انشراحا عجيبا، إننى لم آت هنا طلبا للمدينة ولم أتوجه أبدا ناحية طريق المدينة وللأسف الشديد وجدت نفسى وأنا أجول هنا وهناك، فى داخل حصن المدينة فاضطررت لأن أختفى فى جهة ما وأنا نفسى متحير فى الموضوع. انتهى.

وقد رأى شمس الدين زين الذى أرسل إلى المدينة المنورة من مصر مسندا إليه مهمة إمارة البناء قبل الحريق الثانى أن القناديل الذهبية والفضية قد كثرت فى مسجد السعادة وأن اللصوص يسرقونها كلما وجدوا فرصة سانحة أن يرسل القناديل التى تفيض عن الحاجة إلى مصر القاهرة لتذاب هناك وتضرب سككا لإنفاقها فى تجديد وتعمير مبانى مسجد السعادة وعرض ذلك على السلطان قايتباى المصرى وأعلمه وقد حازت تلك الفكرة من القبول لدى الحكومة المصرية وكتبت إلى والى ولاية المدينة بعمل ما يقتضى إجراؤه ومنها جمع كل ما أهدى إلى حجرة السعادة من الأشياء الثمينة ما عدا الستائر المهداة من قبل الملوك العلية واللوحة المرصعة والمزينة بالجواهر المعلقة على جدار ضريح السعادة وإرسالها إلى خزانة مصر فى سنة (٨٨٤) هـ.

وأنفق ما ضرب من المسكوكات فى تعمير الأبنية السعيدة، إلا أنهم ـ فى رأى ـ خالفوا أحكام الشريعة الإسلامية الغراء لأن الإمام السبكى يقول فى كتابه «تنزيل السكينة على قناديل المدينة»: «يجوز إهداء القناديل القيمة إلى حجرة السعادة وتعليقها إلا أن استيلاء الحكومة عليها لصرف قيمتها إلى مسجد السعادة غير جائز».

يدعى بعض المؤرخين بناء على ما تلقوه من المنابع الموثوقة من الأدلة المروية أنه عندما أخرجت تلك القناديل من خزانة حجرة السعادة قد احتفظ أحد المشايخ من مشايخ الحرم النبوى المرعى الخاطر ببعض تلك المعاليق وأنفقها فى وجوه البر والخير. وبعد عهد شمس بن زمن اتخذ ملوك الزمان مرة عادة إهداء الهدايا إلى حجرة السعادة ومن هذا القبيل ما أرسله إلى المدينة المنورة ناصر بن محمد بن قلاوون المصرى فى زمن سلطنته قنديلا فى غاية الجمال فى الصنع وفى الزينة ليعلق فى وسط قبة حجرة السعادة.

وفعلا علق ذلك القنديل وفق رأى ذلك الملك وتصويبه فى قبة الحجرة المسعودة ثم علق فى مكان مقابل محراب النبى بناء على استئذان شيخ الحرم شاهين جمالى بعد فترة.

كان ذلك القنديل الذى لا مثيل له قد صنع من صلب مذهب مزينا فى غاية الزينة وكتب على أطرافه دائرا ما دار قد جاء بهذا القنديل محمد بن قلاوون وعلقه وكلما أوقد كان يصدر من صقل صنعه نور مشع كأنه مصباح مصنوع من الجوهر وكان يغشى داخل حرم السعادة بأمواج الأنوار.

وإن كانت القناديل التى قدمت بعد ناصر بن قلاوون لا يعرف من أهداها ولا تاريخ إهدائها إلا أنه فى عصر الإمام السمهودى كان فى الحجرة المعطرة ثلاثون قنديلا من ذهب والباقى من الفضة ويبلغ عدد القناديل الكلية إلى ثلاثمائة خمسة وسبعين قنديلا وكان ثقل القناديل الفضية ستة وأربعين ألفا وأربعمائة ألف درهم، وورد فوق هذا فى سنة (٨٦٧) هـ ذهبا فى ثقل (١١٥٥) درهم ذهبا فى ثقل (٨٨٥) درهم فضة، ومن سنة (٨٦٢) إلى سنة (٨٦٩) ذهب فى ثقل (٢٢٥) درهم وقناديل فضية فى ثقل (١٢٧٥) درهما كما ورد فى سنة ثمانمائة إحدى وثلاثين (٤٢) درهما ذهبا و(٩٥٠) درهما من الفضة وبعده بسنة (١١٥٥) درهما فضة وفى ثمانمائة ثلاثة وثمانين ورد (٢٠) درهما ذهبا و(١١١٣) درهما

من الفضة وفى سنة ثمانمائة أربع وثمانين أيضًا (٧٤٥) درهمًا من قنديل فضى وفى ظرف هذه المدة أرسلت (١٣٠٠٠) قطعة عملة ذهبية وظل مهدى هذه المبالغ مجهولا فى نظر التاريخ ويا للأسف!! أن أمير المدينة حسن بن الزبير بن المنصور قام فى سنة (٩٠١) هـ ضد شريف مكة محمد بن بركات وأعد بعض المجرمين المسلحين فى السادس من ربيع الأول من نفس السنة وفى وقت الظهر دخل الحرم الشريف وقد أعد أدوات الحفر مثل الفأس والمجرفة وكسر باب خزانة حجرة السعادة ونهب جميع تلك الأشياء الثمينة كما أخذ مبلغ (١٣٠٠٠) المحفوظ فى الخزانة لصرفه على لوازم مسجد السعادة وانسحب إلى قلعته التى تسمى حصن الأمير ومعه تلك الأموال وأحضر الصياغ من السوق وأذاب جميع القناديل المصنوعة من الذهب والفضة.

وأدخل حسن بن الزبير كثيرا من أراذل الناس فى الحرم الشريف لينهبوا الخزانة النبوية وحملهم ما اغتصبه من القناديل كما حمل حصانين وبغلا بما اغتصبه ولما كان قد بقى تسعة أجولة من الفضة جاء بالحمالين من السوق وحملهم بها، هذا ما يروون.

قد جمع بعد هذا الحادث الحزين كثيرا من الأشياء النفيسة تزيد على العد والإحصاء فى حجرة السعادة وقد ذهب أكثر هذه الأشياء فى فتنة (١٠٩٩) وذلك بسبب إساءة محافظ جدة فى ذلك الوقت محمد بك أبو الشوارب.

لأن الشريف أحمد بن زيد الذى نال منصب الإمارة الجليلة فى عصر السلطان أحمد خان الثانى ابن السلطان إبراهيم مرض فى سنة (١٠٩٩) هـ واستدعى أشراف مكة قبل وفاته ووصاهم بأن ينصبوا نائبا له باتفاقهم قبل أن يرد الأمر من السلطان بذلك وأن يبذلوا جهودهم لحفظ حوالى الحجاز وحراسته بهذه الطريقة، ونصب محافظ جدة أبو الشوارب نائبا قبل أن ترد الإرادة السنية من باب السعادة وذلك باتفاق الأشراف ووصية الشريف أحمد بن زيد.

وأخذ ـ ليس من الشريف الذى بعث الأهالى طلبا إلى باب السعادة يرشحونه

لمنصب الإمارة متحدثين عن صلاحيته واستحقاقه للإمارة وتنصيبه شريفا، بل من خصمه الذى يناصبه العداء وهو الشريف أحمد بن غالب كثيرا من الأموال وقدم بعض ما أخذه من النقود الذهبية لأعيان مصر راجيا منهم أن يعملوا على إرسال الأمر العالى بإمارة الحجاز باسم أحمد بن غالب، وحتى لا يطلع الأشراف على هذا الأمر وكيفية سير الأمور أبرز أمر سلطانى مزيف وهرب الشريف القائم مقام (النائب) إلى اليمن وهكذا قد حصل الشريف أحمد بن غالب على منصب الإمارة قبل أن يرد الأمر السلطانى بذلك وأخذ يمد يده إلى أموال الأهالى بحرص شديد وتكتم فاستولى على جميع أموال التجار من سكان مكة المكرمة المجاورين وقتل كثيرين منهم فأخافهم، أرسل رسله إلى المدينة المنورة واغتصب كثيرا من النقود والمجوهرات عن طريق القرض، ثم هرب إلى البلاد العثمانية حتى ينجو من سطوة السلطان القاهرة.

أخذ الشريف أحمد بن غالب فى هذه الواقعة واغتصب كل ما جمع فى الخزانة النبوية من أشياء غالية نفيسة والمعاليق كلها، إلا أنه لم يستطع أن يمد يده للوحة الكوكب الدرى التى كان قدمها السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد خان الرابع بعد أن نظمها.

إن الجوهر الذى يلمع ليلا والذى يشتهر بالكوكب الدرى ظل ماكثا من سنين طويلة فى الناحية التى تواجه الوجه النبوى الكريم من جدار ضريح السعادة لامع الأنوار فجلبه السلطان المشار إليه إلى خزانته على وجه التبرك وأرسل مكانه لوحة ذات جوهر منير.

كان السلطان أحمد خان الثالث أضاف إلى اللوحة المرصعة قطعة كبيرة من الماس، وكانت هذه القطعة من الماس بشدة لمعانها تملأ الجدار بالنور والضياء ومن هنا أطلق عليها (شب چراغ) أى منير الليل وكانت قد اشتريت فى عصر والد السلطان محمد خان الثالث بخمسين ألف دينار خالص العيار وقد أهداها بعد أن وضعها فوق لوحة ذهبية وزين أطرافها (٢٢٧) قطعة ذى قيمة من قطع ما سبق

لتعليقها مكان الكوكب الدرى وهو يقول بدلا ما تكون زينة الدنيا الزائلة أى بدلا ما يصنع منها فصا لخاتم يلبسه على إصبع أخرى أن تكون زادًا للآخرة وذخيرة عافية وكان قد أرسلها مع حسن باشا الذى كلفه توصيل ميزاب الرحمة وأشياء أخرى لبيت الله.

وأكمل حسن باشا مهمته الخاصة بمكة المعظمة أوصل تلك اللوحة المرصعة نادرة المثال إلى دار الهجرة النبوية ووضعها على جدار المرقد النبوى ساطع الأنوار وقلع الجوهر والكوكب الدرى، الذى اكتسب قيمته بوجوده فى ذلك المحل ذو المكانة العالية واكتسب شرفًا بقطع النظر عن قيمته المادية التى لا تدانى اللوحة المشار إليها وحمله إلى باب السعادة وأتى به.

وقد نقل مؤرخو الإسلام كل واحد منهم طريقا خاصا به ولكن أصح الروايات فيما بينهم رواية مؤلف «نزهة الناظرين» إذ قال والكوكب الدرى، قطعة من الماس الفاخرة وأصغر قليلا من بيض الحمام، وتحتها قطعة من الماس الأخرى وإن هذه الأخرى أكبر من الجوهرة التى فوقها، ويقدرون قيمة الكبيرة منها بثمانين ألف قطعة ذهبية.

قال العلامة الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى فى كتابه «كانوا وضعوا الكوكب الدرى مكان المسمار الفضى أى وضعوه فى محاذاة مواجهة السعادة، كان المسمار المذكور مزينا بالذهب وكان فوق رخام أحمر اللون وكان يقال لهذا الرخام الكوكب الدرى أيضا والمسافة بين هذا الرخام والمبدأ الغربى لحجرة السعادة خمسة أذرع وكل من يستقبل هذا الكوكب يكون قد اتجه نحو وجه السعادة والذين يريدون أن يعرضوا على النبى صلوات كباقات الورد ويريدون أن يقفوا فى هذا المكان عليهم أن يتخذوا الكوكب المذكور أمامهم، وما من مؤرخ أنكر أن هذا المكان يحاذى وجه السعادة إلا أن الشبكة التى مدت حول الحجرة الشريفة حالت دون رؤية ذلك المكان».

والآن إذا وقف أمام المصراع الأيمن لباب الشبكة الذى يسمى باب التوبة، نكون قد وجدنا فى مكان يحاذى وجه السعادة.

وكان السلطان مراد بن السلطان أحمد خان بعث مع السلحدار مصطفى باشا فى سنة ألف وأربعين لوحة مزينة، وبما أن هذه اللوحة كانت مزينة بجواهر متنوعة علقت تحت الكوكب الدرى أى على جدار ضريح السعادة، وفى سنة ١١٥٤ جاء إلى المدينة مشير جيش بلغراد على بن عبدى باشا وهو أمير حاج لمحمل الشام، وقدم المذكور عدة قطع جواهر مرصعة من جملة غنائم بلغراد إلى حجرة السعادة وعلقوا تلك الجواهر تحت اللوحة التى وردت فى تاريخ ١٠٤٠. وكان قد كتب على هذه اللوحة التى وضعت عليها تلك الجواهر أسماء النبى ﷺ وكريمته فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وأسماء أصحابه الأربع المختارين الشريفة ـ رضى الله عنهم ـ.

وإنه مما لاشك فيه أن حجرة سيد الأنبياء ـ عليه ألمع التحايا ـ المعطرة من أسباب الاحتشامات الإضافية أى أن المرقد النبوى السعيد ذا نور باهر لا يحتاج إلى تزينه بالذهب والنقود إلا أن غرض المرحوم السلطان الذى اعتاد على الإخلاص أن يوقف إلى الحجرة المعطرة أثرًا يكفى ثمنه لتعمير وتجديد مبانى الحرمين الشريفين فلا أحوجنا الله لذلك. انتهى.

وعرض على حجرة السعادة بعد واقعة الشريف أحمد بن غالب من قبل الملوك العثمانيين أيضا هدايا كثيرة وقدمت حتى إن السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى خان الثانى أهدى فى سنة ١١٦٢هـ مائدتين مزينتين بالذهب وعدد من الشمعدانات الذهبية وثريا ذكر شكلها وهيئتها فى الوجهة الحادية عشر والصورة الثالثة منها ثريا لا مثيل لها.

وقد قدم فيما بعد من قبل السلاطين الآخرين كثير من التحف النفيسة النادرة وكثير من ثريات مرصعة ذات سلاسل ذهبية وشمعدانات ذات جواهر وكثير من سلاسل مرصعة لتعليق الثريات فزينت سواء أكان ضريح السعادة أو خزانة حرم

الرسالة حتى صارت فى غاية الروعة وبهذا قد تراكمت فى الحجرة المنورة ذات الفيوضات الباهرة أشياء نفيسة وثمنية أكثر من العصور السابقة.

وكان فى خدمة الحجرة الطاهرة ضابط يسمى «مستلم» مكلف بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من النفائس التى سُرِقت من دار السكينة وقام ذلك الشخص بمهمته وأنقذ بعض ما يمكن إنقاذه، وبعث السلطان محمود رسولاً خاصًا لجلب ما أضير من قطعتين من الثريا المرصعتين بالزمرد والجوهر إلى إستانبول وبعد تعميرهما أعادهما إلى موقعهما المحترمين كما أرسل معهما ثلاث قطع من الثريا نفيسة من عنده دليلاً على مناقبه العالية.

وكانت إحدى الثريتين اللتين بعثهما السلطان محمود بعد صنعها مرصعة بماسة عريضة على مينا زرقاء وبنية ومزينة بالطغراء ذات سلسلة ذهبية وطرة على شكل بيض النعامة والأخرى قد رصعت من قطع الماس فوق الذهب وذات قطع ثلاث من الزمرد وذات طرة لؤلئى وسلسلة ذهبية.

ولها أرضية مصنوعة من قطعة واحدة من زمرد حتى يعلق عليها وأعلاها مرصع بالماس والياقوت على شكل غطاء علبة وذات تعليقه على شكل تاج، وكانت الثالثة على أرضية من مينا بنفسجى وعليها قطع مصنوعة من ماس «روزة» ذات سلسلة ذهبية وطرة لؤلؤية وعلى شكل بيض النعامة.

ولما كانت تلك الثريات غاية فى النفاسة والقيمة استقبلت فى حين وصولها إلى مدينة الرسول بتعظيم كامل وتفخيم وتبجيل وعلقت فى الأماكن المناسبة، كما أهدى فيما بعد السلطان عبد المجيد خان زوجا من شمعدان مرصعتين بالذهب وذات سمات ملكية تليق بالخليفة.

وهذه الأشياء سواء أكانت القناديل والثريات أو ما أرسل من طرف السلطان مراد الرابع والسلطان أحمد خان ـ عليهم الرحمة والغفران ـ من القناديل الذهبية والشمعدانات أو ما أرسله السلطان عبد المجيد خان والسلطان الحالى صاحب المفاخر من شمعدانات مرصعة من الذهب والفضة وأشياء أخرى ذات قيمة

موجودة كلها فى الخزانة النبوية، وتوقد بالمناوبة فى الحجرة المعطرة بصاحب الرسالة. وعلى كل حال فقد كتب عن مقدار هذه الأشياء وكميتها، وأنواعها وأجناسها فى صور الوجهة التاسعة كل واحد على حدة.

وإن كان مؤلف «نزهة الناظر» يذكر أن الكوكب الدرى الذى أخذ أهدى إلى شاه إيران وأرسله هذا بدوره بعد مدة إلى حجرة السعادة وفى زماننا تحت قباب مسجد السعادة ستمائة وعشرون قنديلاً غير قناديل الحجرة المعطرة، وسلاسل المعلقة منها فى الجهة القبلية من الجدار من فضة خالصة، وما علق منها فى الجهات الأخرى سلاسلها من النحاس الأصفر وبين أعمدة شبكة حجرة السعادة مائة قنديل وستة والقناديل التى فى مواجهة القبر عددها واحد وثلاثون ومرصعة وقد علقت بسلاسل بعضها ذهب خالص والبقية بسلاسل فضية.

وما علق على يمين ويسار السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ من قناديل ذات سلاسل فضية تدخل هذا الصف.

والشمعدانات الذهبية التى أهديت من قبل والد الخليفة كثير المحامد فى سنة (١٢٧٤) هـ تدخل كل ليلة قبل صلاة المغرب إلى حجرة السعادة وتوقد مناوبة من قبل شيخ الحرم ونائبه ومدير الخزانة، وينحصر إيقادها فى ليالى الجمع لقضاة المدينة، وتظل تلك الشمعدانات موقدة حتى الصباح فى الوجهة الشريفة وفى وقت السحر تخرج بواسطة الخدم وتوضع فى المخزن الذى يتصل بحجرة الأغوات وغير هذه القناديل كثير من الثريات وسواء أكانت هذه أو بعض القناديل المزينة معلقة فى حرم السعادة وبعضها محفوظة فى المخازن.

وتطلق على الثريات والقناديل المزينة المعلقة فى اصطلاح أهل المدينة (زينة الحرم)، ومن جملة ذلك ما علق فى وسط القباب التى من باب السلام إلى مواجهة السعادة من ثريات، يُوقد كل ليلة فى كل ثريا خمس شموع أو قنديل هذه قاعدة متبعة. وقد زين مسجد السعادة فى صورة كاملة وذلك بتعليق ثريا ذات أربعين شمعة فى قبة المحراب العثمانى وفى أسفل منها ثريا ذات ثلاثين

شمعة وفى محاذاة المواجهة الشريفة وفى جهة قدم السعادة ثريات متعددة من الفضة والفوانيس، وفى الساحة الخالية بين باب فاطمة وحجرة الأغوات وفى الروضة المطهرة ولاسيما جهة محراب النبى ومن باب السلام إلى باب الرحمة قد علقت كثير من الثريات البلورية والفوانيس، وكل هذه الثريات ذات شموع وإن كان بعضها أكبر من الأخرى إلا أن الثريا التى وضعت فى نقطة قريبة من قبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ لامع الأنوار أكبر الثريات جميعا لها أمكنة لوضع سبعين شمعة، وإن كان هناك شمعدانان من ثريا مذهبين إلا أن إيقادهما وتسريجهما كان يقتصر على ليالى المواسم والأعياد.

ومن باب السلام إلى المئذنة الرئيسية ومنها إلى مئذنتى المجيدية والعزيزية ومن هذه المآذن إلى القباب الموجودة إلى باب السلام قناديل معلقة بسلاسل فضية وتحت العقود التى تتصل دائرًا مادار بالساحة الرملية قناديل ذات سلاسل من النحاس الأصفر التى كانت قبل ذلك من الفضة ولكن بعضها سرقت من مؤخر حرم السعادة فنقلت البقية من السلاسل الفضية المعلقة إلى الخزانة النبوية وعلقت مكانها سلاسل من النحاس الأصفر.

ويبلغ عدد القناديل التى توقد سواء أكان فى الأماكن التى ذكرت أو فى داخل الأبواب وخارجها إلى ستمائة وأربعين قنديلا وتوقد فى ثلاثمائة منها الشموع وتسرج بقيتها بزيت زيتون، أما الفوانيس التى ركزت على السور الخشبى الذى بين حدود الحرم الشريف وشموع المحاريب الشريفة والشموع الخاصة بقراءة أجزاء القرآن فى الروضة المطهرة وقناديل الحجرة المعطرة والقناديل التى توقد فى ليالى رمضان والمواسم وفى الليالى التى تصل المحامل فيها إلى المدينة والقناديل التى توقد حتى الصباح فوق المآذن يصل عددها إلى ثمانمائة قنديل وهو خارج هذا الحساب.

الصورة الثامنة

فى تعريف الشبكة الشريفة التى تحيط بالحجرة المعطرة ودار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ السعيدة.

تصور السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس المصرى الذى أدى فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ أن يحيط الحجرة الشريفة بسور خشبى بشرط أن تؤدى الصلاة بداخله وعند عودته إلى مصر أمر بصنع ذلك السور الخشبى وفق رأيه وبعثه إلى المدينةالمنورة فى سنة ٦٦٨هـ فأحاط حجرة السعادة دائرا ما دار بشبكة خشبية فى ارتفاع قامة رجل وأطلقوا لهذه الشبكة المقصورة ولما استحال أداء صلاة حيث تمر الشبكة أراد العلماء أن يصرف النظر عن وضع هذه الشبكة وبلغوا بعد ذلك مُعَرِّضين بهذا العمل محاولين أن يثيروا الأهالى إلا أن أحدًا لم يعر أذنا صاغية لتلك التبليغات والتعريضات.

وكانت للشبكة التى تطلق عليها المقصورة ثلاثة أبواب يفتح أحدها إلى الجهة الشرقية والآخر إلى الجهة الغربية والثالث إلى الجهة القبلية، وبعد ست وعشرين سنة رفع زين الدين كتبغا العادل الشبكة التى أرسلها الظاهر ركن الدين إلى سقف المسجد وفى سنة (٧٢٩) هـ فتح باب آخر إلى الجهة الشامية، وفى سنة ٨٥٣ هـ يعنى فى عهد الظاهر حسن المصرى صنع سقف لطيف أمام الباب الذى فتح مجددا عرضه ستة أذرع وفرش ساحته الأرضية برخام مجلى، واحترقت كل هذه الأشياء فى حريق ٨٨٦ هـ ومن هنا صنعت شبكة جهتها القبلية مصنوعة من النحاس وجهاتها الأخرى الثلاث من الحديد شبكة ملاصقة لسقف المسجد الشريف وغطى أعلاها بقفص مصنوع من أسلاك نحاسية.

والشبكة التى صنعت وفق التعريف المشروح كان بابها فى الجهة القبلية من خشب الساج وأبوابها الأخرى مصنوعة من ألواح حديدية، وقد بدلت مصاريع

الشبكة الشريفة مؤخرا بأقفاص مصنوعة من النحاس وصنعت شبكة أخرى للجهة الشامية من المقصورة وكان ما بين الشبكة الجديدة وحجرة السعادة منفصلا، وكان لهذه الشبكة بابان أحدهما على يمين مثلث الحجرة الشريفة والآخر على اليسار، ولأن جزءًا من حجرة السعادة ظل فى داخل الشبكة التى صنعت مؤخرا كان الدخول إلى شبكة الحجرة الشريفة من شبكة ذلك المثلث وتحفظ دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ السعيدة بهذه الصورة:

وقد سرد بعض المؤرخين بعض الأدلة والبراهين حتى لا يحملوا الظاهر ركن الدين جريرة استحالة الصلاة فى بعض أماكن الروضة المطهرة بسبب هذه الشبكة وقالوا إن الظاهر ركن الدين قد أمر بصنع تلك الشبكة تغطيا للحجرة الشريفة ومقتديا فى ذلك بعمر بن عبد العزيز وذكروا أن هذه الأدلة غير قابلة للاعتراض عليها إلا أن خطأ هؤلاء الذين يرون هذا الرأى واضح، لأن عمر بن عبد العزيز أحاط مدفن السعادة بجدار حتى لا يشبه البيت الحرام وترك أبواب هذا الجدار مفتوحة ليكون لأداء الناس الصلاة فى داخله فى غير مواسم الحج وهذا لا ينكره أحد.

وكانت أبواب الشبكة التى أرسلت من قبل الظاهر ركن الدين مغلقة فى عهد برسباى لغير أرباب اليسار والثروة.

وبناء على ذلك فالذين يدخلون فى الحجرة المعطرة معدودون ويزورونها خفية ليلا، وإن أرسل كثير من الطلبات لرفع مثل هذه البدعة إلا أن جميع هذه الطلبات قوبلت بالصمت والسكوت ولم يستجب إلى ماطلبه الراجون وكان الفساد هو السبب فى ظهور هذه البدعة السيئة فى ذلك العصر لأن كل امرأة كانت يرخص لها فى جميع الأوقات بالدخول فى داخل المقصورة وكان ذلك قاعدة ذلك العصر كُنَّ يصحبن معهن أولادهن وكان الأولاد بحكم طفولتهم يلعبون فى داخل المقصورة ويحطمون ما بأيديهم فيملئون الحجرة المعطرة بالكناسة، وبناء على ذلك اتخذت بدعة عدم إدخال الزوار فى داخل الحجرة المعطرة حتى تحفظ داخل المقصورة الشريفة نظيفة وكم كتبوا من طلبات راجين

رفع السور إلا أنهم فهموا استحالة ذلك وتمنوا على الأقل أن تظل أبواب السور مفتوحة، وفى الواقع أن إنشاء هذه المقصورة منع كثيرا من الشرور.

وقال المؤرخ ابن فرحون وهو يعرف الشرور التى حدثت بعد صنع شبكة المقصورة «ووقت فتح الأبواب كان شر المقصورة التى أحدثت فى الطرف الغربى من حجرة السعادة شرا عامـًا، ولما كانت طائفة الإمامية قد اعتادت أن تجتمع داخل هذه المقصورة لأداء الصلاة وكانوا يظنون أن المقصورة مكان صنع من أجلهم وخاص بهم، من هنا كانوا يشقون صفوف المصلين ويمرون من أمامهم ولا يراعون الأصول.

وفى الواقع قد ندم صانع المقصورة وقد رأى هذه الحالات إلا أن الأمر كان قد حدث ومن هنا لم يملك غير السكوت».

والطائفة الرذيلة التى حصرت داخل المقصورة لجماعتها كان أفرادها يؤذنون بصوت عال ويقولون بدلا من «حى على الصلاة»، «حى على خير العمل» وكان مدرسوهم يعقدون الحلقات ويعظون ويبذلون جهدهم لنشر مذهب الرفض والإباحة وتعميمه، وفى الحقيقة قد انكسر نفوذ الطائفة المذكورة ولم تبق لهم أى قيمة، إذ فتحت أبواب المقصورة وضم بعض أماكنها إلى حجرة السعادة.

وكان ركن الدين بيبرس قد بنى هذه المقصورة بنية عرض تعظيمه وتوقيره لحجرة السعادة، ولكن القضية قد انعكست لأن طائفة الإمامية اتخذت شبكة المقصورة نقطة اجتماع لها.

وبعد أحداث شبكة المقصورة بأربعة وستين سنة يعنى فى سنة ٧٣٢ هـ الهجرية ذهب الملك الناصر إلى الحج أيضا ومر بالمدينة المنورة حين العودة وأمر بغلق أبواب الحجرة المعطرة متبعًا آثار أسلافه فظهرت فى عهده بدعة منع الدخول فى حجرة السعادة فى غير أوقات تعمير القناديل.

ولما ظلت دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ومقام جبريل داخل شبكة حجرة السعادة حرم الناس من زيارتها، وكان سبب حرمان الناس من زيارة دار فاطمة

ـ رضى الله عنها ـ ومقام جبريل قاضى الشام نجم الدين أفندى، إذ جاء نجم الدين أفندى لأداء الحج مع قافلة الشام ورأى اقتحام الناس حجرة السعادة مزدحمين فأفتى بغلق الأبواب، وإن كان ولى الدين العراقى أفتى بعد فترة بفتح الأبواب ففتحت أبواب الحجرة الشريفة إلا أن نجم الدين أفندى أفتى فتوى جديدة فى سنة ٨٢٨ هـ وأغلق أبواب حجرة السعادة.

واستصوب فى تلك الفترة الإمام السمهودى أن تظل أبواب الحجرة الشريفة مفتوحة لزيارة الناس، ووقف كثير من علماء المدينة الميمونة ضد الفتوى الصادرة من قاضى الشام نجم الدين أفندى وأيدوا الفتوى التى أصدرها ولى الدين أفندى العراقى وصدقوا الإمام السمهودى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا موظفى الحكومة فظلت أبواب الحجرة المعطرة مغلقة.

قال الإمام السمهودى لأحد أحبابه وهو يبين وجهة نظره فى فتح أبواب الحجرة المعطرة «يا أخى، إن إغلاق أبواب حجرة السعادة يؤدى إلى تعطيل ذلك المكان والناس يمسون هذا المكان أو ذاك بنية الاستعارة ويعطون ظهورهم لشبكة السعادة وهذا غير لائق، ورأيى أن تفتح أبواب حجرة السعادة حتى يحال بين الناس وبين ارتكاب الحرام، وهذا موافق لحكم الشرع وبهذا ندفع المكروه، وكنت أبحث عن طريقة للحصول على إرادة سنية من الملك الأشرف قايتباى الذى أتى إلى المدينة سنة ٨٨٠ هـ للزيارة لفتح أبواب حجرة السعادة وقد قام بأداء مراسم الزيارة من مكان قريب من باب السلام ناهيك عن دخول الحجرة المعطرة، وفى النهاية تقربت منه وقلت له بعد أن مهدت بمقدمة مناسبة لو كنت دخلت فى الحجرة المعطرة لنلت من الفوائد الدينية والدنيوية وأردت بهذا النهج الإشارة إلى لزوم دخوله إلى الحجرة المعطرة.

فقال لى «إذا أمكن زيارة صاحب الرسالة ـ عليه السلام ـ من مكان أبعد لما تجرأت أن أقترب منه بهذا القرار» ولما سمعت رد قايتباى المصرى هذا اضطررت للسكوت وإذا كنت قلت له لو أمرت برفع بدعة إغلاق الأبواب كان من البديهى أن إجابته بجواب الرفض وهذا لا يحتاج إلى تفكير عميق. انتهى.

إن فكرة الإمام السمهودى هذه صحيحة جدا ومخلصة، إلا أن ذاته الفاضلة لو أدرك العصور التى ظلت أبواب حجرة السعادة مغلقة ولم يعن فيها تطهير حرم السعادة وتنظيفه مع وجود كثيرين من الخدم لمسجد السعادة والأوقات التى تعقد فيها حلقات الاجتماعات حيث يجلس فيها كما يجلس فى الأسواق وحيث ينم فيها هذا أو ذاك العصر الذى يسكت فيه عن هذه البدعة الموظفون الشرعيون والسياسيون لو أدرك تلك العصور لاشك فى أنه كان سيحكم بإصابة القاضى نجم الدين فى فتواه.

وقد أطلق على الشبكة التى أمر بصنعها الظاهر ركن الدين المقصورة فى ذلك الوقت ولكن فيما بعد ترك اسم المقصورة وأطلق عليها الشبكة ولداخلها الحجرة المعطرة ولأبواب المقصورة أبواب الحجرة وللقناديل المعلقة داخل هذه الشبكة قناديل الحجرة المعطرة[1].

تعريف شكل شبكة السعادة وما عليها من خطوط: إن الشبكة التى تحيط بالحجرة المعطرة دائرًا مادار ذات أربعة زوايا وقد صنعت فى غاية الإتقان فى الصنع وفى هيئة مكلفة ودقيقة.

وتتكون جهاتها الشرقية والغربية كل واحدة منها من ست قطع وجهاتها الجنوبية والشمالية كل واحدة منها من ثلاث قطع أى أنها كلها تتكون من ثمانى عشرة قطعة شبكة وفى كل زاوية من زواياها باب ذو فيوضات وكان يطلق على الباب الذى ينظر جهة الشرق أى الباب الذى يوجد فى الجهة الشرقية من الشبكة باب فاطمة من الأبواب الثلاثة التى فتحت للمقصورة فى عهد الظاهر ركن الدين وباب المعلا هذا يفتح ناحية البقيع ويروى أنه قبر السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ يوجد فى داخل هذا الباب ويطلق على الباب الذى فى الجهة الغربية من الحجرة المعطرة باب الوفود وباب التوبة، والباب الذى بباب الوفود ينظر داخل الروضة المطهرة ووجه تسميته بهذا الاسم استقبال وفود العرب ومساكن القبائل فى هذا المكان فى عصر النبى ﷺ وإكرامهم وإطعامهم فيه، والباب اللطيف

(١) مازالت إلى الآن معروفة بهذا الاسم.

الذى يقع فى الجهة الجنوبية للحجرة الشريفة يطلق عليه باب المواجهة والباب الذى يقع فى الطرف الشمالى يعرف بباب التوسل[1].

وينظر باب المواجهة نحو جدار القبلة وباب التوسل الذى فتح فى سنة (٢٩) هـ ناحية محراب التهجد ينظر ناحية الشام أى إلى مؤخرة حرم السعادة وتوجد فى يمين باب التوسل ويساره لوحة علقت فى عهد السلطان قايتباى وقد حُكت عليها بالذهب العبارة المباركة «لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين». الشبكة ذات الثمانى عشرة قطعة التى شرحت وفصلت جهاتها قد كتب بخط قديم جلى فوق جهاتها العليا دائرا ما دار القصيدة البليغة الآتية وإن هذه القصيدة للثناء من الآثار الجليلة التى وفق فى تسطيرها السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان سنة (١١٩١) هـ وقد حررت بدءًا من الجهة الخارجية لشبكة حجرة السعادة ومن الناحية التى تنظر إلى الجدار القبلى.

القصيدة

يـا سيدى يـا رسـول الله خـذ بيـدى ... مـالى سواك ولا الـورى إلـى أحـد
فـأنت نـور الهـدى فـى كـل كائنـة ... وأنت سـر النـدى يا خـير معتمـد
وأنت حقـا غيـاث الخـلق أجمعهم ... وأنت هـادى الورى لله ذى السـؤدد
يـا من يقـوم مقـام الحمـد منفـردًا ... للواحـد الفرد لـم يولـد ولـم يـلد
يـا مـن تفجـرت الأنهـار نابـعة ... من أصبعـه فـأروى الجيـش بالمـدد
إنـى إذا مسـنى مـا يـرو عـنى ... أقول يـا سـيد السـادات يا سـندى
كـن لى شـفيعا إلى الرحمن من زلل ... يوافين على بمـا لا كـان فى خلـدى
وانظر بعـين الرضى لـى دائمـا أبـدا ... واستر بفضـلك تقصيرى مدى الأمد

(١) يقال لهذا الباب: الباب الشامى أيضا.

واعطف عـلى بعفو منك يشملنى فإننى عنك يا مولاى لم أحد
إنى توسلت بالمختار أشرف من رقى السموات سر الواحد الأحد
رب الحجال تعالى الله خالقه فمثله فى جميع الخلق لم أجد
خير الخلائق أعلا المرسلين ذرى ذخر الأنام وهاديهم إلى الرشد
به التجأت لَعَلَّ الله يغفر لى هذا الذى هو فى ظنى ومعتقدى
فمدحه لم يزل لأبى مدى عمرى وحبُّه عند رب العرش مستندى
عليه أزكى صلاة لم تزل أبدًا مع السلام بلا حصر ولا عدد
والآل والصحب أهل المجد قاطبةً بحر السماح وأهل الجود والكرم

هناك فى الجهة القبلية من حجرة السعادة أى فى الجهة التى يطلق عليها «مواجهة السعادة»، ثلاث شبكات نورية كل واحدة من هذه الشبكات ذات مصراعين وعلى طرز أقفاص أربعة صفوف وهى محفورة وفوق الحفر (أويمة) قد حفرت العبارة المنجية (لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين) وكذلك قد سطرت العبارة سالفة الذكر فى سطرين على باب مواجهة السعادة الذى يطلق عليه باب المواجهة الصغير والذى يوجد فى وسط الشبكة الثانية.

محراب التهجد: يقع محراب التهجد فى وسط ثلاث قطع من التى تقع من الجهة الشمالية من حجرة السعادة وكتب فى نطاق مقعر المحراب الشريف المذكور وطاقه الذهبى بخط جلى الآية الكريمة ﴿ **فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء: ٨٠] وعلى جهته اليمنى كتب بخط كوفى ﴿ **نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الصف: ١٣) يا محمد.

على جهته اليسرى كتب أيضا بخط كوفى الآية الكريمة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وكلها منقوشة بذهب خالص العيار كما كتبت الآية الكريمة بخط كوفى على يمين الباب الذى يسمى باب التوسل أو الباب الشامى وهو فى الشبكة الأولى من الشبكات الثلاث.

﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف : ١٣)

كما كتبت فوق الجدار المتصل بالشبكة الثالثة بخط كوفى الآية الكريمة المنيفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ وكتب فوق الجدار المتصل بالشبكة الأولى التى تقع فى الطرف الغربى من حجرة السعادة ﴿ **اللهم صل على سيدنا محمد الذى أخبر فى صحيح الخبر أن حول العرش ستين ألف عالم يستغفرون لمحب أبى بكر وعمر ويلعنون مبغض أبى بكر وعمر** ﴾ كما كتب فى الذيل هذا الحديث قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ما بين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة، ومنبرى على ترعة من ترع الجنة»[1] الخبر الصحيح اللطيف، وعلقت لوحة مذهبة مزينة تحتوى على القطعة الآتية البديعة، على الأسطوانة التى بين الحجرة المقدسة ومحراب النبى.

القطعة

هذا الرسول المجتبى الذى هو أيضا رحمة للعالمين.

قال جبريل الأمين إذ زار روضته:

لتفخر الأرض على الأفلاك قائلة..

فىَّ دفن الرسول هذه هى جنات عدن.. فادخلوها خالدين.

(١) سبق تخريجه.

فى ذكر قبة حجرة السعادة

قبل أن يحترق مسجد مدينة دار السكينة لم تكن فوق الحجرة المعطرة قبة منفصلة فبنى فوق سقف مسجد السعادة جدار من اللبن ارتفاع ذراع ونصف ذراع ليكون علامة على الحجرة المنيفة وموقع مدفن السعادة.

بنى السلطان الصالح قلاوون المصرى فى سنة (٦٧٨) هـ قبة جميلة قاعدتها مربعة وسطحها مثمن وغطى فوقها بالرصاص.

وصنع حول القبة المذكورة سورًا خشبيا حتى يرى مكان الجدار سالف الذكر علامة الحجرة المنيفة، كما أحاط ما بين سقف المسجد والقبة الجديدة بشبكة خشبية وكانت عقود القبة المذكورة فوق أعمدة الحجرة المعطرة التى تحاذى أسطوانة الصندوق، ووقعت منافرة أدت إلى القيل والقال بين أحمد كمال ابن هارون عبد القوى الربعى الذى أشرف على بناء هذه القبة وبين ولاة المدينة، وصادر والى المدينة علم الدين الشجاعى أموال أحمد كمال كلها وهدم بيته وخربه وبين أن من لا ينفذ أمر ولاة المدينة يتعرضون للعقاب وهذه هى عادة مرعية بين ولاة المدينة ثم اقتلع أحجار البيت الذى هدمه وبنى بها مدرسة المنصورية.

وكان غرض أحمد كمال بن هارون من هذه الخدمة أداء عمل خالص لصاحب الرسالة بناء على الأمر الذى تلقاه من الحكومة المصرية، ولا شبهة فى ذلك، ولكنه إذ سمح لبعض النجارين القيام بحركات غير لائقة فوق مرقد السعادة من هنا يقتضى أن يقع تحت براثن العقوبة.

وظلت قبة الحجرة المعطرة التى بناها السلطان الصالح قلاوون إلى عصر الملك

الناصر حسن بن محمد قلاوون على هيئتها الأصلية وفى هذه الفترة لم تمد إليها يد الإصلاح والتعمير.

حتى إن غطاءها الرصاص قد فسد وخرب وأخذت مياه الأمطار تنفذ من خلاله ومن هنا جدده الملك الناصر أول مرة فى خلال سنة (٧٥٥) هـ كما جددها شعبان حسين بن محمد فى خلال سنة (٧٦٥) هـ مرة ثانية وفى آخر الأمر جددها الملك الظاهر جقمق المصرى تحت إشراف أمير برديك فى غاية المتانة وأصلحها وعمرها، ولما احترقت فى الحريق الثانى جددها السلطان قايتباى بانيا جدرانها من حجارة سوداء وأعمدتها من حجارة بيضاء منحوتة جددها فى غاية المتانة وفوق المطلوب وذلك فى سنة (٨٨٧) هـ.

وبناء على هذا التقدير فإن قبة الحجرة المعطرة كانت من الخشب فى الصدر الأول ثم حولت إلى البناء الحجرى فى عهد قايتباى المصرى.

وروى الإمام السمهودى أن القبة التى تحولت إلى البناء الحجرى كان ارتفاعها من أعلى قمتها ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع وبناء على هذا حالت دون رؤية كسوة مرقد السعادة.

الوجهة التاسعة

وتحتوى على ثمانى صور

تذكر وتفصل ما علق فى داخل الحجرة المصطفوية اللطيفة

وبعض أوصاف وتعريفات الأشياء المباركة النفيسة والمتنوعة

التى حفظت فى أماكن مخصوصة والتى تستخدم وقت الاقتضاء

وأسماء واقفيها المعروفين وشهرتهم

فى تعريف المصاحف الشريفة والأجزاء القرآنية اللطيفة وكتب الأدعية الموجودة فى الخزينة النبوية.

١- مصحف شريف بالخط الكوفى قطعه كبير، فى حالة كاملة جيدة ومحفوظ داخل ستارة مذهبة من القماش وهو علامة لأثر قلم جامع القرآن حضرة عثمان بن عفان.

٢- مصحف شريف فى شكل مجلة أى فى هيئة طويلة ومحفوظ داخل كيس مصنوع من المخمل ذو لون قرمزى داكن قد كتبت سورة الفاتحة وسورة البقرة فى الصفحة الأولى منها بالخط الكوفى الجلى وغاية فى الزينة ومذهب فى حجم يميل إلى الكبر ولا يعرف كاتبه ولا واقفه.

٣- مصحف شريف فى حجم يميل إلى الكبر صورة تذهيبه تجذب الأنظار لجمال زينتها وصغرها، لم يكتب أسماء كاتبيه ولكن بناء على شهادة السادة أنيس المولوى ونورى قرر بخط الشيخ حمد الله الذى عرف، بابن الشيخ.

٤- مصحف شريف قطعه كبير ووقف الشيخ أحمد بن عبد الله بن على بن عثمان، وبخط ميرزا أحمد التبريزى، قد أهدى وعرض من قبل شخص غير معروف الاسم فى سنة ١١٢١ هـ قد بذل أقصى الجهد فى تجليده وتذهيبه، وطرز خطه إيرانى ووقف الحاج محمد رضا وكاتبه مجهول وذات قطعة كبيرة جداً ومقبولة للطبع.

٥- مصحف شريف قطعه كبير وطرز خطه لاهورى صورة تذهيبه وتزيينه فى غاية الجمال واسم كاتبه وشهرته مجهول وقف محمد ارونك من ملوك الهند.

٦- مصحف شريف حجمه كبير خطه لاهورى تذهيبه وتزيينه فى غاية الروعة واقفه وكاتبه مجهولان.

٧- مصحف شريف قطعه كبير وعنوانه مذهب أبيض وفى غاية الزينة والتكلفة قد كتبت فاتحته الشريفة فى الصفحة الأولى والثانية بخط ثلث ومذهب أبيض. والصفحات الأخرى منه إما سطراه كتبا بحبر بنفسجى وسطره ذهب وإما سطراه كتبا بذهب وسطره بحبر أحمر وبخط ثلث كذلك وسطوره الأخرى كتبت بحبر عادى وبخط إيرانى قديم وبدون أسماء كُتّابه فكاتبه مجهول، وقد وقف لروضة يحيى - على نبينا وعليه السلام - فى الجامع الأموى الشريف لتلاوته هناك وفى سنة ١٢١٥هـ أخذ من أحمد بن محمد بن زرون وقدم إلى الحجرة المعطرة من قبل الحاج مصطفى أغا.

٨- مصحف شريف كبير الحجم ولاهورى الخط وقد كتب بين سطوره بالحبر الأحمر والأسود بخط جلى وكل صفحاته ذات ستة أسطر وكل جهاته مذهبة فى صورة جميلة وواقفه من نواب الهند زواق خان ابن شيرخان إلا أن كاتبه مجهول.

٩- مصحف شريف كتب أحد أسطره بالذهب والآخر بحبر بنفسجى وحيثما ذهب رسم وزين فى روعة من الصنعة.

١٠- مصحف شريف لا يعرف كاتبه ولا واقفه ذات قطع كبيرة وصفحاته حمراء.

١١- مصحف شريف قطعه كبير، وكتابة صفحاته حمراء اللون واقفه مجهول بعض أماكنه من الأول والآخر ناقص غير تام.

١٢- مصحف شريف نفيس الخط وزينته الذهبية صنعت فى مهارة لا توصف وحجم قطعه كبير ولطيف وقف المرحوم بشير أغا من أغوات باب السعادة وأثر قلم ابن خواجة محمد أفندى.

١٣- مصحف شريف قد فسر آيات بين سطوره باللغة الفارسية عذب البيان وحجم قطعه كبير.

١٤- مصحف شريف كبير القطع وبعض سطوره جلية وذات جاذبية واقفه معلوم وصفحاته غير مذهبة وهو أثر لطيف وقد كتبه الشيخ محمد سزيدى.

١٥- مصحف شريف وقف محمد على خان خطه جلى واضح وكبير القطع ومجهول الكاتب.

١٦- مصحف شريف خط ابن الحلاق حاجى إبراهيم بن محمد وكل ثلاثة أسطر من صفحاته كتبت بحبر أسود وبنفسجى وأحمر وبخط الثلث والسطور الأخرى التى كتبت على ورق نصفه ذى لون سكرى والنصف الآخر على ورق ذى لون وردى قد خط بالنسخ.

قد ذُهِبَ وزين بطريقة جميلة وهو كبير الحجم مستحسن واقفه رئيسة نساء السلطان عبد الحميد خان الأول (روحشاه قادين).

١٧- مصحف شريف قد كتب بخط نسخ عريض قليلا ومذهب وحجم قطعه يميل إلى الكبر ولم يكتب اسم كاتبه ووافقه المرحوم عباس أغا من أغوات باب السعادة.

١٨- مصحف شريف قد كتب بخط نسخ عريض منظم ومذهب بصورة جميلة ومزين حجم قطعه كبير وكاتبه مصطفى بن مجدى بن الحاج يوسف أفندى.

١٩- مصحف شريف خطه لاهورى وصورة زينته وتجميله ذات صنعة متقنة وكتب على نوع من الورق يشبه الحرير ووقف وأهدى من قبل شخص يسمى محمد نظم الدولة وهو نسخة لطيفة ذات حجم كبير، وبما أن اسم كاتبه لم يذكر فهو مجهول الكاتب.

٢٠- مصحف شريف طرز خطه جلى ونفيس رسومه وتزيينه وتذهيبه تجذب الأشواق وقدم من طرف ابن الصدر الأعظم محمد باشا سليم أغا من رؤساء الحجاب فى الباب العالى، وإن كان قطعه كبير إلا أن كاتبه مجهول.

٢١- مصحف شريف خطوطه جلية وأماكن وقفه مذهبة وكتابته حمراء وخاتمته طالبة من اسم كاتبه وحجمه كبير واقفه الملك قايتباى من ملوك مصر.

٢٢- مصحف شريف حجم قطعه كبير وأماكن وقوفه مع أطر زوايا صفحاته مذهبة وكتب على صفحات الورق سكرى اللون وقف تابع أمير اللواء مرجان أغا.

٢٣- مصحف شريف قطعه مائل إلى الكبر وكتب على ورق آبادى وخال عن الزينة العارضة جميل فى بساطة وقف الشيخ شاكر السمرقندى.

٢٤- مصحف شريف له تفسير بالفارسية بين سطوره بسيط وجميل وحجم قطعه كبير وجميل ووقف الشيخ كول محمد أفندى.

٢٥- مصحف شريف قد أهدى فى سنة ١٢٩٢هـ من طرف بيفم القدس قطعه مائل إلى الكبر وهو نسخة مباركة قد طلى عنوانه بلون بنفسجى وجهاته المذهبة فى غاية الزينة والجمال صفحات الاثنين منها بنفسجى الثالث أحمر اللون.

٢٦- مصحف شريف كتابة صفحاته اثنتان منها ذات إكليل وإحداها بنفسجية مزينة بثلاثة خطوط وديباجته ذات تكلفة ومذهبة وحجم قطعه كبير وحسن وطرز الخط فارسى، وأعلى الصفحات وأطرافها ذات حاشية فى أصول القراءة والتعريف به وليس عليه اسم كاتبه أو إشارة أخرى مجهول الواقف والكاتب.

٢٧- مصحف شريف قد كتب بخط نسخ نفيس بطرز جميل وقد سطر اثنان من سطوره بحبر بنفسجى والاثنان الآخران بحبر أحمر قان وقد زين ما بين كل

سطرين بلون بنفسجى ونقشه وواقفه جلاء بن عودلة المغربى وذات حجم كبير.

٢٨- مصحف شريف قد أهدى من قبل الحاج صالح[١] ابن إبراهيم رئيس مهندسى أبنية السعادة فى سنة ١٢٧٩هـ وهو أثر قيم من قطع كبير وطرز خطه عربى وأطراف صفحاته حمراء اللون.

٢٩- مصحف شريف وقف محمد سعيد أغا من غلمان المتصرف الأسبق لأورفة شلبى باشا وبخط ملا محمد البغدادى وقطعه كبير وديباجته مذهبة وثلاثة أسطر من صفحاته مكتوب بخط الثلث والباقى بالنسخ والخط الثلث كتب بالذهب.

٣٠- مصحف شريف واقفه وكاتبه مجهولان وحجم قطعه كبير وطبيعى وديباجته مذهبة، وصفحاته ذات عشرة أسطر وما بين كل سطرين خطان أحمران ترك فى أوله وآخره ورق أبيض خال من الكتابة يكفى لكتابة جزء فى كل منهما وقد صنع هذا الورق من حرير صنع على طريقة بخارية[٢] وجلده طبيعى.

٣١- مصحف شريف حجم قطعه متوسط وما سطر فى ديباجته من سورة الفاتحة ناقص من أوله إلى قوله تعالى ﴿ **رب العالمين** ﴾ وقد التصقت صفحاته الأولى والثالثة فى بعض وقد كتب بطرز خط قريب من الثلث وذات خمسة أسطر والجزء الثانى بخط النسخ ذات ثلاثة أسطر كتب فى طرز عجيب وقد كتب على هامش صفحة من جزئه الرابع واقفه وهو محمد بن محمود بن عبد الله الشيرازى المعروف بالحاج عطا وختم بالآية الجليلة ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم** ﴾.

٣٢- مصحف شريف سطر إلى سورة يونس بخط النسخ وحجم قطعه كبير، وصفحته الأولى مذهبة وكتبت صفحاته الأخرى قد رتبت على أن

(١) المشار إليه مدرس اللغة الفارسية والتاريخ فى المدرسة الحربية السلطانية وهو القائم مقام صالح بك.
(٢) نسبة إلى بخارى إحدى المدن الإسلامية فى أواسط آسيا.

يكتب سطر منها بحبر ذات لون أحمر داكن والسطر الآخر بحبر بنفسجى ولما كان خاليا من اسم كاتبه أو أى إشارة أخرى فهو مجهول الواقف والكاتب.

٣٣- مصحف شريف قد نظم ورتب على أن يكون سطراه باللون الأحمر الثانى وواحد منه باللون البنفسجى على ثلاثة خطوط وعلى هامش كتابة صفحاته قد قيدت بعض الروايات الخاصة بخواص القرآن والموثوقة وذات قطعة مائلة للكبر وبما أنه قد كتب فى أكثر من مكان محمد خالون خان بن محمد على بن عبد الله داد هو واقفه فى سنة ١٢٩١هـ كما أن طرز خطه على قاعدة النسخ فهم أن واقفه سالف الذكر محمد خالون خان بن محمد على خان ابن محمد على بن عبد الله داد.

٣٤- مصحف شريف قطعه مائل إلى الكبر وقد زينت جميع جهات صفحاته بألوان بنفسجية وصفراء وخضراء ومذهبة بالذهب وذيل كل سطر تراجم بعبارة فارسية وغير ذلك كتب على هوامش صفحاته التفسير الحسنى.

٣٥- مصحف شريف وهذا أيضا من وقف محمد خالون سالف الذكر وأثر قلم الحافظ محمد يوسف ابن محمد ساكين كون عيسى، قطعه مائل إلى الكبر، وقد ذهبت صفحته الأولى والثانية على الطريقة الهندية، ونقش ما بين سطور كل صفحة بحبر أحمر اللون وخارج كتاباته حررت بعض فوائد القرآن وخواصه.

٣٦- مصحف شريف قد كتب إلى الآية الجليلة ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الكهف: ٥٩] وأصول كتابته وتذهيبه فى غاية دقة الصنع والجمال وديباجته مزينة وفقا للقاعدة الهندية وكل نقطه قد وضعت وحررت بالذهب قطعه كبير وصفحاته كلها تسعة أسطر كتبت بخط الثلث وقد خطط على أطراف كل صحيفة سبعة خطوط ذهبية وهو خال عن إشارة إلى كاتبه وواقفه فهما مجهولان.

٣٧- مصحف شريف حجم قطعه كبير، وقد كتب بخط الثلث الجلى ديباجته وخاتمته مزينتان ومذهبتان بطريقة مكلفة وقد رسمت الفاتحة الشريفة على صفحتيه الأولى والثانية فوق شمس ذهبية بخط أبيض وقد نظمت صفحاته الأخرى على أساس أحد عشر سطرا وكل ما بين سطريه مذهب وأطرافها ملونة ومزينة بخط أو خطين ولما كان خاليا من اسم كاتبه وواقفه فهما مجهولان.

٣٨- مصحف شريف قد أهدى من طرف الشيخ سموأل الداغستانى فى سنة (١٢٨٧) هـ كاتبه علاء الدين التبريزى وأوراقه سميكة وآبادية وقطعته كبيرة وديباجته مذهبة فى صورة دقيقة ومزينة وقد كتبت الألفاظ الشريفة (إياك نعبد وإياك نستعين، (ويقيمون الصلاة) وثلاثة أسطر من صفحاته الأخرى كتبت بخط الثلث مذهبة وأسطره الأخرى كتبت بخط النسخ وبحبر أسود عادى.

٣٩- مصحف شريف فى شكل مجلة وفى داخل كيس أخضر مصنوع من المخمل، خطه كوفى وقطعه متوسط وهيئته مائلة إلى الزينة وهو من وقف المرحوم نجال أفندى المترجم الأسبق لديوان الترجمة السلطانية كما أنه بخط يده.

٤٠- مصحف شريف حجم قطعه غاية فى الصغر وجلده زيتونى حسن وصفحاته مزينة ومذهبة كما هو مطلوب، وبمحفظته والسلاسل التى ربطت بالمحفظة من ذهب خالص، وهو أثر قلم شعبان بن محمد أفندى ووقف من قبل خورشيد أفندى مدير تعميرات المدينة المنورة فى سنة (١٠٤١) هـ.

٤١- مصحف شريف وهو يفتح من طوله وله أطراف فضية فى داخل محفظة صغير وذات قطعة طبيعية، وهو المصحف الذى كتبه مير محمد بن التبريزى سنة ٩٨٣ هـ وقطعه يوسفى وصفحاته سورتى الفاتحة والبقرة مذهبة وما بين سطورها قد زين باللون الأحمر والبنفسجى وجميع الآيات التى تجمعها هاتان

السورتان قد كتبت على أرضية صنعت من ذهب داكن بذهب فاتح اللون وكتب داخل الحلقات التى خارج الكتابة كلمة (عشر بخط كوفى).

٤٢- مصحف شريف وهو وقف أحمد عطاء الله أفندى وخط مصطفى خلوصى أفندى قطع متوسط وإكليلى الكتابة.

٤٣- مصحف شريف هذا أيضا من آثار أحمد عطاء الله أفندى وقطعه متوسط وكتابه صفحاته إكليلية.

٤٤- مصحف شريف مذهب متوسط القطع بخط النسخ من وقف المرحوم عبدى أغا من متوقى عبد القادر باشا.

٤٥- مصحف شريف كتب بالحبر الأحمر وخط النسخ صغير القطع وغير مذهب ووقف صالح بن محمد أفندى.

٤٦- مصحف شريف متوسط القطع خطه على طرز عربى وغير مذهب من وقف درويش محمد أفندى.

٤٧- مصحف شريف متوسط القطع خطه عربى وغير مذهب، هدية الحاج برهان بن الحاج على أفندى ذو كتابة بالحبر الأحمر إلا أن كاتبه وواقفه غير معلوم.

٤٨- مصحف شريف قد كتبت الصفحة الأولى لسورة الفاتحة وكذلك الصفحة الأولى من سورة البقرة بالذهب وزينت بلون بنفسجى وعلى أطراف كل صفحة مقرات منقوشة بلون بنفسجى وكتب بقلم فى غاية الدقة وبطرز فارسى ذات أربعة أسطر قطعه غاية فى الصغر وهو أثر مبارك هدية المرحوم محمد أغا من أغوات دار السعادة.

٤٩- مصحف شريف وقف شيخ الحرم الأسبق المرحوم طيفور بن عبد الغفور أغا أفندى وقد رتبت صفحاته من خمسة عشر سطرا وكل جهاته مزينة مذهبة متوسط القطع.

٥٠- مصحف شريف خطه خط الحافظ محمد شكرى أفندى كتابته عريضة نوعا ما ومذهبة وقد رتبت صفحاته على أساس خمسة عشر سطرا ديباجته ذات طرز هندى ومزينة وما بين سطور كل صفحة لون باللون الأصفر والأسود وحجمه طبيعى للغاية ومستحسن.

٥١- مصحف شريف خطه عادى غليظ ومتوسط القطع مذهب وقف محمد فيضى نهرى من بخارى.

٥٢- مصحف شريف خط محمد نقى الشوشرى متوسط القطع مذهب الأوراق تنقصه ثلاث صفحات من أوله وواقفه مجهول.

٥٣- مصحف شريف وقف السيد الحاج محمد أمين بن صالح بن حسين أفندى وخطه مصطفى ده ده ابن الشيخ حمد الله المشهور وهو مذهب قطع متوسط.

٥٤- مصحف شريف وقف مرجان أغا القلعوى من أتباع محمد على باشا المصرى وأثر قلم حسن فوزى السروجى صغير القطع مذهب.

٥٥- مصحف شريف وقف محبوب أغا من أتباع الإمرة الأولى لمحمد على باشا المصرى كذلك وخط إسحق نورى بن مصطفى، مذهب قطع صغير صفحاته ذات عشرين سطرا.

٥٦- مصحف شريف وقف خديجة بنت الشيخ درويش أنس آل عبد السلام الخاتون وخط الشيخ عبد الشكور المولوى قطعه صغير بسيط فى غاية من الجمال.

٥٧- مصحف شريف وقف باقى زاده الحاج إبراهيم ابن الحاج عثمان أفندى وخط إبراهيم شوقى أفندى صغير القطع أوراقه مذهبة ورتبت صفحاته على أن تكون لآياتها هوامش.

٥٨- مصحف شريف خطه لاهورى قطعه صغير يعنى يوسفى وقف جب بن

حسين الهندى. صفحتاه الأولى والثانية وخاتمته فى غاية من الزينة وفيما بين السطور مذهب ومستحسن.

٥٩- مصحف شريف ـ متوسط القطع كاتبه صالح أفندى، واقفه مجهول وصفحاته مذهبة.

٦٠- مصحف شريف ـ طرز خطه عثمانى الرسم، وصفحات أوراقه مذهبة، أثر لا يدانى، وقف المرحوم بسيم آغا نائب الحرم وأثر سيد على شكرى.

٦١- مصحف شريف ـ وقف حليلة المرحوم نافذ باشا «زيبا هانم» قد كتب بخط النسخ النفيس ومنقوش بالذهب وألوان مختلفة من الزينة وقد سطرت هوامش صفحاته أصول القراءات السبع دون اسم كاتبه.

٦٢- مصحف شريف ـ ذات قاعدة الخط القديم متوسط القطع به جداول حمراء وخط هداية الله ابن عبد الرحمن أفندى وواقفه مجهول.

٦٣- مصحف شريف ـ مسطور بخط عربى عادى قطع متوسط وقف حامد بن على أفندى دون اسم كاتبه.

٦٤- مصحف شريف ـ وقف محمد باشا قبودان المحيطات ـ رحمه الله ـ وخط مصطفى ابن عمر أفندى من حى «أبواب» صفحاته ذات خمسة عشر سطرا مذهبة قطعه صغير وهو أثر نفيس.

٦٥- مصحف شريف ـ كتب وفق القاعدة المصرية خال من اسم كاتبه وغير مذهب ووقف مبروك المرئى مالكى المذهب.

٦٦- مصحف شريف وقف أحمد بن على بن سليمان آر بنود، كتب بخط النسخ الوزيرى الواضح خال من اسم كاتبه قد وقف فى الرابع من شهر صفر الخير سنة ١٢٥٤هـ.

٦٧- مصحف شريف وقف السيدة عاتكة بنت الشيخ عبد اللطيف خطه غاية فى القدم وصفحاته خمسة عشر سطرًا وذات كتابة إكليلية وخال من اسم كاتبه.

٦٨- مصحف شريف وقف محمد خالون بن محمد على خان بن محمد على بن عبد الله داد وخط محمد عارف بن الحاج محمد فاضل بن الشيخ عيسى وقف ستة ١٢٩١.

٦٩- مصحف شريف وقف محمد أفندى الأنقروى وذو خط قديم مختلط ولا يعرف كاتبه وقد استصلحت صحيفته الأولى والثانية والثالثة بإلصاق ورق.

٧٠- مصحف شريف ـ طرز خطه مغربى، ورقه فستقى حركاته حمراء خال عن اسم كاتبه قد وقف يوم الثامن عشر من صفر الخير سنة ١٢٨٦هـ من شخص مجهول الاسم.

٧١- مصحف شريف ـ قد ألصق على صفحاته الأولى والثانية والثالثة بل على أغلب صفحاته ورق ووقف سنة ١٢١٢هـ من قبل بيفم القدس ولم يذكر اسم كاتبه وذات أحد عشر سطرا فى كل صفحة.

٧٢- مصحف شريف ـ قد ألحق على صفحاته الأولى والثانية وعلى سور البقرة بدءا من بسملته إلى الآية الجليلة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وقد كتبت صفحاته على أن يكون فى كل صفحة خمسة عشر سطرا وكاتبه وواقفه مجهولان.

٧٣- مصحف شريف ـ وقف عمر بن صالح بن فهير صفحاته ذات أحد عشر سطرا وما بين كل سطرين ذات خط أحمر ولا يعرف كاتبه صفحتاه الأولى والثانية مذهبتان.

٧٤- مصحف شريف ـ وقف حسين العياط خط درويش حسن الشركسى وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا ذهبت بالإكليل.

٧٥- مصحف شريف ـ نسخة شريفة ذات خط متفرق كاتبه وواقفه مجهولان.

٧٦- مصحف شريف ـ وقف سيد حسن كوسه الدمشقى وخط الحاج حسين أفندى خطه على الطراز الشامى وأطراف صفحاته قد زينت بخطين أحمرين وذات خمسة عشر سطرا فى الصفحة.

٧٧- مصحف شريف ـ وقف ابن البغدادى الحاج شعبان ابن الحاج صالح أفندى وخط محمد قاسم ابن الحاج محمد التبريزى اثنا عشر سطرا فى الصفحة وقد ذهب بقلم صنعت وديباجته منظمة وفقا للترتيب الهندى.

٧٨- مصحف شريف ـ وقف زاهدة خانم زوجة المرحوم الشيخ شموئيل الداغستانى وخط محمد الكاظمى وقد رتبت صفحاته على أربعة عشر سطرا وأطرافه غير مذهبة وأهدى سنة (١٢٨٨) هـ.

٧٩- مصحف شريف ـ وقف السيدة حفيظة بنت عبد المتعال الرشيدى، وخط عبد الله وصفى أفندى صفحاته ذات خمسة عشر سطرا وذهبت أطرافها بالإكليل.

٨٠- مصحف شريف ـ خط محمد حامد أفندى بطلب حميد الدين خان، طرز لاهورى صفحاته ذات خمسة عشر سطرا قد طلى داخل صفحاته بالذهب وأطرافه مقطوعة مجهول الواقف.

٨١- مصحف شريف ـ وقف الشيخ عبد الله الفردى وخطه مغربى قطعه كبير وسورة الفاتحة مفقودة خال من اسم كاتبه.

٨٢- مصحف شريف ـ كتبت سورة فاتحته مؤخرا، واسم واقفه منسى وصفحاته ذات أحد عشر سطرًا وكتاباته سطران منها ذات خط أحمر وسطر أزرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] وهذه الآية آخر ما فى المصحف.

٨٣- مصحف شريف ـ وقف الشيخ أبو نواز وخط الفقير ميثور ذات اثنى عشر سطرًا فى الصفحة وإكليلى فى الكتابة وكتب سنة (٥٠٦) هـ.

٨٤- مصحف شريف ـ خطه لاهورى وجلى، وقد فقدت سوره كلها ماعدا الأنبياء إلى سورة الإخلاص، مجهول الكاتب والواقف وصفحاته ذات أحد عشر سطرا، وعلى أطرافها حاشية فى تعريف أصول القراءة وغير مذهب، وفى غاية الكبر فى قطعه.

٨٥- مصحف شريف ـ واقفه وكاتبه حسن على خان الحيدرى الآبادى ابن المرحوم على ياور خان الأصفهانى خطه جلى وذات طرز ريحانى وحجم قطعه مائل للكبر وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا وغير مذهب وفى ظهر فاتحته مسطور دعاء ختم القرآن.

٨٦- مصحف شريف ـ صفحاته ذات عشرة أسطر قطعه صغير وفارسى الخط كاتبه وواقفه مجهولان وكتب سنة ١٢١١ هـ وفى خاتمته اكتملت بهذه الجملة «استفت بهذا الكلام».

٨٧- مصحف شريف ـ وقف الحاج أحمد شعبان ابن الحاج حسين السعيدى وخطه مغربى مقلد وقطعه وزيرى وخال من اسم كاتبه.

٨٨- مصحف شريف ـ أجزاؤه ما بعد الجزء السادس عشر مفقودة واقفه غير معروف واسم كاتبه مسطور فى نهاية دعاء ختم القرآن الذى كتب بخط التعليق، وكاتبه محمد جعفر بن الشيخ غلام حسين وطرز خطه نسخ يميل إلى السمك وخطان من كتابته بحبر أحمر وواحد باللون البنفسجى.

٨٩- مصحف شريف ـ وقف السيدة خديجة بنت مختار وخط «حاجى بابا بن ميكائيل بن اغا جاى أفندى خطه ورسومه الذهبية على طرز داغستانى داخل صفحاته ذات إكليل وعلى كتابته جدول أحمر اللون وخط على فراغ هذا الجدول خط آخر أحمر اللون وكتب فى سنة (١٢٨٢) هـ.

٩٠- مصحف شريف ـ وقف الحاج حبيب وطرز خطه لاهورى خال من اسم كاتبه، الصفحة الأولى والثانية من الصفحات وما بين سطور هاتين الصفحتين مزين بالإكليل وكتابات صفحاته الأخرى منقوشة بجدول لازوردى وجدولين باللون الأحمر وقد ختم أوله وآخره بكلمة «وقف» نسخة بيعية ذات حجم كبير.

٩١- مصحف شريف ـ وقف بيد السيدة خديجة بنت الشيخ موسى جلبى متولية ماردينى زاده سيد محمد رشيد، فى عام ١١١٤هـ خال من اسم كاتبه

وأسلوب خطه الريحانى والصفحتان الأولى والثانية أهلكتا بصورة كبيرة وقد حددت صفحته الأخيرة وهو أثر لطيف كبير الحجم.

٩٢- مصحف شريف ـ كتاباته وما بين سطور كل صفحة ذات جداول مزدوجة وأوراقه بنفسجية اللون وجلده أخضر مطبوع مجهول الكاتب والواقف.

٩٣- مصحف شريف ـ كتابة صفحاته ذات جداول مزدوجة ووقف الخان «إيمان خان ابن ككران خال من اسم كاتبه.

٩٤- مصحف شريف ـ قد خط على أطراف صفحاته ثلاثة خطوط اثنان منها أحمر اللون وواحد منها لازوردى ومدت خارج هذه الخطوط بإصبعين خط لازوردى ورسم فى ذيل خاتمته شكل شطرنج وهو كلام قديم ذات قطعة متوسطة وكاتبه مجهول.

٩٥- مصحف شريف ـ وقف شخص يدعى عبد الله بن عبد الله وكل صفحاته ذات جداول، أحمر اللون، قطعه كبير، خال من اسم كاتبه، وقف (١٢٨٥) وكلام قديم كتب وفق القاعدة الخطية المصرية.

٩٦- مصحف شريف ـ وقف السيدة فاطمة بنت عبد الله، خال من اسم كاتبه وقد جددت واستصلحت بعض الأوراق فى أوله وآخره.

٩٧- مصحف شريف ـ صفحاته ذات عشرة أسطر ووقف الحاج عبد الرزاق الكوينى الحنبلى وجزؤه الأول والثانى مفقودان وقطعه كبير وخال من اسم كاتبه.

٩٨- مصحف شريف ـ متنوع الخط والأوراق ووقف من قبل عبد الوهاب بن سليمان فى سنة (١٢٧٣) هـ وهو أثر لطيف مجهول اسم كاتبه.

٩٩- مصحف شريف ـ ناقص الصفحات مجهول الكاتب والواقف وخطه يوافق القاعدة المصرية فى الكتابة وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا.

١٠٠- مصحف شريف ـ صفحاته ذات خمسة عشر سطرا مجرى الخط وخال من اسم كاتبه، أهداه محمد حبار فى سنة (١٢٨٦)هـ.

١٠١- مصحف شريف ـ لاهورى الخط ووزيرى القطع أى مستطيل وما بين صفحته الأولى وصفحته الثانية مذهب وعلى قدر من الزينة وبين سطرى صفحاته الأخرى تراجم فارسى العبارة وعلى أطراف كتابته كتب بعض ما يستفاد منه مثل أسباب نزول الآيات وعلى ظهر الصفحة الأخيرة كتب البيت الآتى بالفارسية تم تحرير وكتابة القرآن المجيد فى ظل السلطان ذو السيرة المليئة بالنور فى سنة جلوسه ولم يبين اسم الكاتب والواقف.

١٠٢- مصحف شريف ـ خطه هندى وكتاباته ذات خطين أحمرين وصفحاته ذات اثنى عشر سطرا. واقفه بيفم القدس كاتبه مجهول أهدى سنة ١٢١٢هـ وعرض، بما أن بعض صفحاته فى الآخر قد فسدت وأصلحت بورق خارجى.

١٠٣- مصحف شريف ـ صفحاته ذات أربعة عشر سطرا صفحتاه الأولى والثانية مذهبتان على طريقة هندية وخطه أبيض، وقد ألصق ورق فى بعض أماكنه وكتبت على أطراف الكتابة أسباب النزول وبعض الفوائد القرآنية بخط التعليق وأسلوب خطوطه فارسى وقد كتبت خلف ديباجته وظهرها. عبارة الطالب محمد خان وهو ممهور بخاتم محكوم، خال من اسم كاتبه وقف وأهدى سنة ١١١٥هـ.

١٠٤- مصحف شريف ـ صفحاته ذات أحد عشر سطرا وليس هناك أى علامة لكاتبه وواقفه ولما بلى بدرجة كبيرة جُلِّدَ وقطعت أطرافه كليا.

١٠٥- مصحف شريف ـ ذات غطاء قماش وبلى بدرجة لا يمكن قراءته ومن هنا دفن من قبل المجلد فى البقيع.

١٠٦- مصحف شريف ـ أصابت علامات القدم صفحاته الأولى والأخيرة وقف من قبل سعدية بنت العنبرة خاتون لم يذكر اسم كاتبه وصغير الحجم.

١٠٧- مصحف شريف ـ وقف بيفم القدس اسم كاتبه غير مذكور صفحاته ذات اثنى عشر سطرا كتاباته ذات ثلاث جداول اثنان منها أحمر اللون وواحد منها لازوردى وفى شكل طولى على شكل مجلة وطرز خطه تقليد للقاعدة الهندية.

١٠٨- مصحف شريف ـ وقف أحمد بن الشيخ عبد القادر صفحاته ذات أربعة أسطر لم يذكر اسم كاتبه، صغير الحجم ناقص الأول والآخر بمقدار ما.

١٠٩- مصحف شريف ـ وقف الحاج رجب بن الحاج صالح بك وخط عبد الرحمن بن عثمان الشطارى أفندى نقش أوائله بإكليل ولازورد أخضر من الألوان مرتب الصفحات بخمسة عشر سطراً، ووقف سنة ١٢٦٥هـ.

١١٠- مصحف شريف ـ واقفه ريحان أغا الدرينى وكتاباته ذات خطين ولم يذكر اسم كاتبه وقف سنة ١٢٨٤ وبعض أوراقه مفقودة لذا حدد.

١١١- مصحف شريف ـ وقف السيدة عائشة بنت أزمير صفحاته ذات تسعة أسطر كاتبه غير مذكور وما فوق الآية الكريمة «هنالك الولاية لله الحق» ناقص.

١١٢- مصحف شريف ـ بعض أماكن من أوله وآخره ناقص لا اسم لكاتبه قد أصلح بعض صفحاته ونسى ذكر اسم واقفه.

١١٣- مصحف شريف ـ خطه مغربى وصفحاته ذات أحد عشر سطراً واثنتين من كتاباته ذات جداول أحمر اللون وحداتها لازوردى وذات ثلاثة خطوط ومستطيلة ولكن ذات قطعة غليظة لا اسم لكاتبه وواقفه مجهول.

١١٤- مصحف شريف ـ صفحاته ذات عشرة أسطر وخطه لعلى بن الشيخ أحمد عصفور واقفه مجهول.

١١٥- مصحف شريف ـ كاتبه مجهول وما بعد سورة الكهف مفقود وقف بلال آغا.

١١٦- مصحف شريف ـ خطه خمسة عشر سطرًا قطعه صغير، مجهول الكاتب والواقف.

١١٧- مصحف شريف ـ وقف كريمة الحاج أحمد الفخر صفحاته ذات خمسة عشر سطرا وبخط مصرى مجهول الكاتب.

١١٨- مصحف شريف ـ صفحاته ذات سبعة عشر سطرا ووقف الشيخ بلال مجهول الكاتب.

١١٩- مصحف شريف ـ صفحاته ذات ثمانية عشر سطرا وكتاباتها ذات خط واحد ذهبى وذات ثلاثة خطوط سوداء وبدون اسم كاتبه وقد كتب فى بعض أماكنه عبارة «هذا وقف الروضة فاقرءوا» ومجهول الواقف.

١٢٠- مصحف شريف ـ صفحاته ذات خمسة عشر سطرا وذات كتابة إكليلية ولم يذكر اسم كاتبه وقف الحاجة بنت حواء المصرية.

١٢١- مصحف شريف ـ صفحاته ذات ثلاثة عشر سطرًا ذات كتابة لازوردية، قد زينت ديباجته وذهبت على الطريقة الهندية مجهول الكاتب والواقف.

١٢٢- مصحف شريف ـ خط نعمت خانم وصفحاته ذات ثلاثة عشر سطرا وكتاباته ذات جدولين وبعض أوراقه من أوله مفقودة وواقفه غير معلوم.

١٢٣- مصحف شريف ـ صفحته اثنا عشر سطرا وبين كل سطرين جدول مزدوج، قطعه كبير، مجهول الكاتب والواهب والواقف.

١٢٤- مصحف شريف ـ قد زينت ديباجته على الطريقة الهندية وقد كتبت على أطراف كتاباته بخط التعليق بعض الشروح وذيول سطوره مترجمة وأوائل بعض سوره مصنعة ومشغولة وصفحاته ذات أحد عشر سطرا مجهولة الواقف والكاتب.

١٢٥- مصحف شريف ـ جلده هندى الشكل وصفحته الأولى لازوردية الحبر مصنعة وصفحاته ذات خمسة عشر سطرا وأطراف كتاباته ذات ترجمة

فارسية ذات قطعة مائلة إلى الكبر وخط سيد جعفر أفندى واقفه مجهول.

١٢٦- مصحف شريف ـ وقف الخان شريف رمضان وصفحاته ذات تسعة أسطر مجهول الكاتب وينقصه سورة الفاتحة.

١٢٧- مصحف شريف ـ صفحاته ذات اثنى عشر سطرا، خطه مصرى واقفه وكاتبه مجهولان أكثر أماكن صفحاته التى تمسك باليد قد أصلحت أوراقها.

١٢٨- مصحف شريف ـ وقف الست المصونة وخط أحمد ابن محمد أفندى صفحاته ذات اثنى عشر سطرا.

١٢٩- مصحف شريف ـ خط مسعدة بنت مبارك بن أحمد زكوان وذات ثلاثة عشر سطرا واقفه مجهول ونصفه ناقص.

١٣٠- مصحف شريف ـ قد طرزت سورة الفاتحة والصفحة الأولى من سورة البقرة والصفحات التى كتبت عليها المعوذتان بحبر ذهبى ولازوردى وأطراف صفحاته الأخرى قدر نصف إصبع قد أثر فيه الماء وكل صفحاته ذات أحد عشر سطرا ولا اسم لكاتبه وختم ذيله بالعبارة الآتية «كنج شاه، نور خان فيروز معز الدولة معين بهادر عباسى» وموقع باسم عبد الغنى خان عباسى.

١٣١- مصحف شريف ـ من آثار «قلس صزا نشار» الهندى وعبد الباقى وطرزه فارسى مذهب ذات إحدى وثلاثين ورقة وصفحاته ذات واحد وأربعين سطرا ولون ورقه سكرى وأطراف كتاباته أزرق فاتح واقفه مجهول.

١٣٢- مصحف شريف ـ فد طبع فى مطبعة سيد عفداد ابن سيد عدل الأفغانى، وذو قطعة مستطيلة وفى ذيول سطوره تفسير فارسى واقفه وكاتبه مجهولان.

أجزاء القرآن الشريفة:

٣٠ جزء - كبير أوسط، صغير القطع لا اسم لكاتبه مطبوع بخط النسخ واقفه مجهول.

٣٠ جزء ـ وقف أمير الحاج عبد الرحمن كتخدا من جبل الأرز لا اسم لكاتب وعلى هوامشها كتبت أصول القراءات السبعة.

٣٠ جزء ـ كذلك من وقف عبد الرحمن كتخدا من جبل الإوز وخط على البغدادى وعلى هوامشها تفسير البيضاوى وبه إشارة إلى القراءات السبع وفى غاية الزينة والتذهيب.

٣٠ جزء ـ صفحاته ذات تسعة أسطر وذات خط عادى وذات كتابة حمراء لا اسم لكاتبه ووقف عبد الله المعصرانى.

٣٠ جزء ـ صفحاته ذات خمسة عشر سطرا صغير القطع فى غاية النفاسة مذهب لا اسم لكاتبه ووقف سعدى أفندى المدير الأسبق للحرم النبوى الشريف.

٣٠ جزء ـ وقف وكيل الخزانة عبد الغنى آغا وخط على شكرى صفحاته ذات أحد عشر سطرا وكتابته حمراء اللون وأماكن وقوفه مذهب بالإكليل صغير القطع.

٣٠ جزء ـ متوسط القطع، وذات جدول بال وأحمر اللون لا اسم لكاتبه وقف المرحوم سنان باشا.

٣٠ جزء ـ وقف أمير الأمراء إبراهيم كتخدا أثر قلم على أفندى ابن رضوان ومذهب.

٣٠ جزء ـ رءوس سوره مذهب على الطريقة الهندية وآخر كل آية مفسر باللغة الفارسية وصفحاته ذات سبعة أسطر لا اسم لكاتبه وقف محمد خالون بن محمد على خان بن عبد الله داد.

١ جزء ـ جزء (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) لا اسم لكاتبه وقف شخص اسمه كنج موسى بن محمد الترشيال بهجت مليار.

٤ جزء ـ وقف الحاج «أحمد بن الحاج عربى الأكش» وخط محمد بن أحمد صفحاته ذات ستة عشر سطرا وأسلوب خطه مغربى.

٣٠ جزء ـ وقف من قبل السيد محمد بن سيد عبد الرزاق الشيخ البراورى فى سنة ١٢٨٧هـ كاتبه مجهول صفحاته ذات أحد عشر سطرا.

٣٠ جزء ـ وقف من قبل «محمد نورى بك» فى سنة ١٢٦٤هـ، وكان أمير آلاى الفرسان الأول للجيش السلطانى فى البلاد، مجهول ناسخه، وصفحاتها تضم أحد عشر سطرا.

١٧ جزء ـ وقف كبير الشاويشية الأسبق أمير احمد من أتباع حسين آغا من جبل الأرز مكتوبة بخط النسخ، وصفحاتها ذات تسعة أسطر، مجهولة الناسخ.

٦ جزء ـ وقف الخازنة «خديجة نورسته» مجهولة الناسخ وصفحاتها ذات تسعة أسطر.

٢٩ جزء ـ وقف الحاج عبد الصمد بن على الدمشقى، وخطها على الطراز المصرى وصفحاتها ذات ثلاثة عشر سطرا، مجهولة الناسخ.

٢٦ جزء ـ هى الأجزاء الشريفة التى أهداها شيخ الحرم أحمد أغا فى سنة ١١٢٠هـ وهى من القطع الصغير، وذات خمسة عشر سطرا، ولا تحمل اسم ناسخها.

٤١ جزء ـ وقف محمد سيد مصطفى وصفحاتها ذات خمسة عشر سطرا، ومن القطع الصغير، مجهولة الناسخ.

٢٩ جزء ـ مصرية الخط، وصفحاتها ذات خمسة عشر سطرا، وقد كتب فى بعض مواضعها عبارة: «هذا الوقف إلى المدينة الطيبة فاقرءوها فى المسجد»؛ ناسخها وكاتبها مجهول.

١٤ جزء ـ وقف حاصر أبى عبد النبى، مجهولة الناسخ، وصفحاتها ذات تسعة أسطر وكتب فى بعض مواضها عبارة «وقف لله»، مجهولة الناسخ والواقف.

١ جزء ـ كتب فى بعض صفحاته عبارة: «وقف الحرم النبوى» وطرز خطه تقليدا للقاعدة المصرية وهو مجهول الواقف والناسخ.

١ جزء ـ وقف الحاج محمود عبد المجيد وأسطر صفحاته سبعة، وهو مجهول الناسخ.

٧ أجزاء ـ وقف أحمد أفندى ـ من أمراء ألوية الجيوش المصرية، أسطر صفحاته تسعة، وهى مجهولة الناسخ.

١ جزء ـ وقف الحاج محمود بن أحمد وأسطر ثلاثة من صفحاته مكتوبة بالخط الثلث والباقى بخط النسخ، ومجهول الناسخ.

١ جزء ـ وقف محمد من جبل الأرز صفحاته ذات سبعة أسطر ومكتوبة على هامشه باللون الأحمر أصول القراءة وناسخه غير معروف.

١٢ جزء ـ وقف خديجة بنت عبد الحى وصفحاته ذات سبعة أسطر، ولا تحمل اسم ناسخها.

٣١ جزء ـ كاتبها وواقفها مجهولان.

٣١ جزء ـ كتب على هامشها بعض الأدعية، مجهولة الواقف والناسخ.

١ جزء ـ وقف الحاج عبد الله أغا، لا يعرف ناسخها.

١ جزء ـ وقف الأمير عثمان كتخدا من جبل الأرز باسم (السيدة شيوه كار البيضاء) وصفحاتها ذات تسعة أسطر وقد كتب على هامش صفحاته بخط أحمر وأخضر أصول القراءة، مجهول الناسخ.

٤ جزء ـ وقد كتب من أول (إنا لنحن الغالبون) (سورة الشعراء) إلى الآية الكريمة (إليه راجعون) ومن سورة بنى إسرائيل إلى (فسوف يكون لزاما)

ومن سورة (ق) إلى آخرها تقريبا وصفحاته ذات خمسة أسطر وكتاباته ذات خط إكليلى.

٢ جزء ـ من آية (التوراة والإنجيل وأخلق لكم من الطين) إلى آية (فى طغيانهم يعمهون) ومن آية (لن تنالوا البر) إلى آية (إذ أعجبتكم كثرتكم) كتبت بحبر ذهبى وبخط الثلث وصفحاته ذات خمسة أسطر ومصنع غاية التصنيع ومذهب وقد رسمت خاتمته من طرف كاتبه (زكريا ابن عبد الله بن محمد بن محمود بدر الهمدانى ومهديه غير معروف).

٣٠ جزء ـ ذات أحد عشر سطرا وذات كتابة بخطين من اللون الأحمر وقف مرجان آغا لا اسم لكاتبه.

٣٠ جزء ـ ديباجته مذهبة وصفحاته ذات تسعة أسطر كتب بخط جميل واقفه وكاتبه مجهولان.

٢٢ جزء ـ وقف شيخ الحرم الحاج أحمد آغا كتب بخط نسخ جميل وكتاباته ذات جدول إكليلى ولا اسم لكاتبه.

٢٧ جزء ـ مطبوع وصفحاته ذات ثلاثة عشر سطرا واقفه وكاتبه مجهول.

٢٠ جزء ـ صفحاته ذات تسعة أسطر وخطه ذات قاعدة مصرية ولا اسم لكاتبه واقفه سنان باشا.

٩ أجزاء ـ صفحاتها فى أحد عشر سطرا، وبخط النسخ وقف عثمان آغا رئيس القصابين لايوجد اسم كاتبه.

١٤ جزء ـ صفحاتها فى تسعة أسطر وذو كتابة إكليلية وهو وقف يحيى أفندى رئيس المستحفظين مجهول الكاتب.

٢٥ جزء ـ وقف مصطفى آغا أمين الخزينة الأسبق للحرم الشريف صفحاتها فى عشرة أسطر كاتبه غير معروف.

٥ أجزاء ـ الأجزاء التى وقفها حسين بن أحمد الخضرى فى عام ٢٣٥هـ أو هى ذات خط مصرى وصفحاتها فى ثلاثة عشر أسطر ولا اسم لكاتبها.

١٣ جزء ـ لا اسم لواقفها ولا اسم لكاتبها.

وهكذا يكون عدد مجموع الأجزاء التى كتبت (٧١٥).

الدلائل[1] الشريفة

١ دليل ـ بخط محمد مختار بن مالك بن أحمد أفندى وخطه ذو طرز مغربى واقفه غير معلوم.

١٦ دليل ـ واقفها وكاتبها غير معروفين كتاباتها مطبوعة.

١ دليل ـ وقف إحصاء بن محمد القبين ذو خط مغربى كاتبه مجهول.

١ دليل ـ واقفه وكاتبه مجهولان مغربى الخط ومجموع الدلائل الشريفة ثلاثون عددا.

(١) بقصد به كتاب دلائل الخيرات للشيخ الجازولى العارف المحقق أبو عبد الله محمد بن سليمان السهلالى الشريف الحسنى المتوفى ٨٧٠ هـ.
قبره بالمغرب يزار، وهو كائن بحى رياض العروس بمدينة مراكش.

فى تعريف وذكر وتفصيل جنس الأشياء النفيسة ومقدار الأشياء المحفوظة فى داخل حجرة السعادة المشحونة بالنور.

عـــدد

(١) مسبحة ـ فى ناحية رأس سيدتنا فاطمة (رضى الله عنها) ذات قطعة كبيرة جوهر مرجان مقدمتها من ذهب، وذات خمسمائة حبة ثمينة، لا يعرف عاملها وواقفها.

(١) مسبحة ـ بدون مقدمة، ذات قطعة كبيرة و ٣٩٥ حبة مجوهرة مرجان واقفها وصانعها مجهولان، ومحفوظة فى ناحية رأس السيدة الزهراء رضى الله عنها.

(١) مسبحة ـ ذات قطعة متوسطة و٩٣ حبة، لا مقدم لها مجوهرة بالمرجان واقفها وصانعها مجهولان ومحفوظة فى جهة رأس السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(١) مسبحة ـ مقدمتها وعلامتها مصنوعة من لآلى صغيرة ذات (شراشيب) وبعض حباتها من الزمرد ذات قطعة متوسطة ذات مائة حبة لؤلؤ.

(١) مسبحة ـ لا نظير لها لا يعرف واقفها محفوظة كذلك فى ناحية رأس السيدة فاطمة.

(١) مسبحة ـ أطرافها ذات علامات فضية، (شرشوبها) من الحرير المخلوط بالقصب (الحرير المقصب) ذات قطعة كبيرة وذات مائة حبة، أهدى ووقف من قبل تاجر هندى مجهول.

مسبحة من العنبر تحفظ كذلك ناحية رأس السيدة المشار إليها، انتهى.

الأشياء المتنوعة

عـــدد

(١) غلاف مصحف، مرصع بالفيروز والياقوت، ومغلف بالذهب، واقفه مجهول، ومحفوظ داخل صندوق محكم.

(١) حافظة مصحف، صنعت من الفيروز والياقوت والزمرد، مغلفة بالذهب، واقفها مجهول، ومحفوظة كذلك داخل صندوق.

(١) حافظة مصحف مصنوعة من الفيروز والياقوت واللؤلؤ، مغلفة بالذهب، واقفها مجهول ومحفوظة فى داخل صندوق.

(١) حافظة مصحف مرصعة كذلك بالفيروز والياقوت واللؤلؤ، متقنة الصنع، وغلافها من الذهب، واقفها مجهول، وموضوعة داخل صندوق متين.

(١) حلة مغلفة بقطعة واحدة من الفضة، مقدمة من رئيس السعادة عمر آغا فى سنة ١٢٣١هـ، محفوظة داخل حافظة ذات زخارف.

(١) رحلة مجهول واقفها، مغطاة بمخمل أحمر، وبعض مواضها مصنوع من الفضة وهى فى غاية الزينة والفخامة.

(١) مروحة واقفها غير معروف، وذات طبقة صغيرة مرصعة بجواهر مثل الياقوت والزمرد، مغلفة بالذهب.

(٢) مروحتان: مقابضهما مغطاة بالفضة، مجهول واقفهما.

(٣) مراوح: مجهول واقفها، مقابضها صنعت على الطراز الهندى، إحداهما مصنوعة من ريش ذيل الطاووس، والأخرى من الشعر والأخيرة لا وجود لنظيرها فى زماننا هذا.

عـــدد

(١) سيف ـ قبضته محاطة بالذهب، حديدى القاعدة واقفه وصانعه غير معروفين.

(١) سيف ـ قبضته فضية، قاعدته ذو كتابة ذهبية على الحديد، وصنعه على الطريقة الشرقية غير معروف الواقف.

(١) جكمجة (صندوق صغير) ـ مصنوعة من الصدف ذات ست زوايا رسومها ونقوشها صينية على طريقة هندية، الماس ـ لا يعرف عياره ومقداره لصغر حجم الذهب.

(٢) سواران ـ واقفه مجهول صنع على طرز خاص بأهالى الأناضول.

(١) مرجان ـ مجهول الواقف، لطيفة المنظر ذات ثلاثة أفرع.

(١) خاتم ـ كحة لك واقفه مجهول قد صنع على شكل شفاف.

(١) قرط ـ من الفضة صنع الأناضول.

(١) قرط ـ من الذهب ومن صنع الأناضول.

(١) السوار[١] ـ ذات قطعة صغيرة مجهول الواقف.

(٣) حلقات[١] قد صنعت من سلك فضى رفيع واقفه مجهول.

(١) قرطان ـ يقال لهذا النوع من القرط عند العرب «ريشمى» صورة صنعه فى غاية الغرابة[٢].

(٢) لافتتان ـ لوزى الشكل فى طرزه وفى وسط كل منها قطعة نقود من ذات عشرين (بارة) وحوالى كل واحد منهما إحدى عشرة سلسلة.

(١) قد علقت فوق هذا السوار والحلقان خمسة أعداد من ذهب الربعية وثلاثة أعداد من ذهب السلطان محمود.

(٢) إن هذه الأقراط ذات نسج وأماكنها التى تعلق منها إلى الآن ذات زينة بحجارة الفيروز.

عـدد

(٣) ذهب ـ هى من الزينات الخاصة بالصبيان تعلق على رأس الأطفال لوقايتهم من إصابة العين بالحسد وعلى كل واحد منها كتابة أحدها صغير والثانى متوسط والآخر صغير واهبهما المعلمان إبراهيم وعمر الشاميان.

(١) قلادة ـ مصنوعة من ثلاثة مثاقيل من الذهب، ومرتبة من رسم شعيرة عددها (٨٦) حبة فى ثقل تسعة دراهم ونصف درهم وقد أهديت من قبل مفتى اللاذقية مجهول الاسم وكريمته مجهولة الاسم أيضا.

الأشياء المذكورة المتنوعة محفوظة فى داخل صندوق مصنوع من النحاس وفى داخل الحجرة المعطرة.

فى ذكر وبيان جنس ومقدار الأشياء التى تبرع بها والتى علقت فى داخل الحجرة المعطرة التى تعدل الجنة.

(١) كوكب درى ـ قطعة من الماس ذات حجم كبير ذات أربع زوايا موضوع فوق قاعدة ذهبية وهى فى الموقع المتصل بضريح السعادة فى الواجهة النبوية الشريفة، قد سطر على الجوهر المذكور عبارة «سلطان أحمد بن محمد»[١] وكان تحت هذا الجوهر قطعة كبيرة من الماس رسمت على شكل نصف بيضة وقد زينت جوانبها بالياقوت وتحت هذا الماس ماسة أخرى ثبتت على قاعدة من ذهب أبيض وتحتها جوهرة أخرى أهديت من قبل السلحدار مصطفى باشا ووضعتا على قاعدة من ذهب أبيض وبما أن كل هذه الجواهر تبرق وتلمع بشدة سميت المجموعة الكوكب الدرى واشتهرت به.

يقول مؤلف «أثمار التواريخ» شمعى أفندى بناء على تحقيق «قد شريت قطعة الماس التى تسمى «كوكب درى» بخمسين ألف ذهب موضوعة وسط لوحة ذهبية تتكون من ٢٢٧ قطعة ذى قيمة من الجواهر».

(١) لوحة ذهبية ـ أهديت من قبل صاحبة البر والإحسان (عادلة) السلطانة علية الشأن وهى حرم المرحوم محمد على باشا قبطان البحر الأسبق وكريمة السلطان محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول، وهى معلقة فى مواجهة السعادة وطرفاها مرتبان بشرائط مرصعة كما أن وسطها مزين بأزهار مرصعة وفي وسطها كلمة التوحيد الجليلة قد نقشت فوق

(١) هو بانى الجامع الذى شرع فى بنائه سنة ١٠١٨ وتم بناؤه سنة ١٠٣٦ وهو السلطان الغازى أحمد بن السلطان محمد خان الثالث.

الذهب بأغلى أنواع الملبس وكتبت ذات سلسلة ذهبية وذات ذوائب من اللؤلؤ فى زنة[1] خمسة وأربعين صفا وفى شكل بيضة النعامة.

(١) تعليقة ذهبية ـ هدية حضرة السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثانى، وهى مزينة بأحجار الفلمنك على مبينة خضراء ولازوردية، ومرصعة بثلاث قطع من الطغراء السلطانية وذات سلسلة ذهبية وذات ذوائب من اللؤلؤ فى زنة خمسين صفًا وفى صورة بيضة النعامة.

(١) تعليقة كبيرة من الزمرد ـ وهى هدية من حضرة السلطان مصطفى خان الثانى بن السلطان أحمد خان الثالث وهى ذات ثلاث زوايا، وفى زاويتين منها عقد ذهبية مرصعة ، وفوق كل عقدة مزين بالماس فى شكل القبة ومربوطة بالسلاسل، وقد عقد فوق السلاسل بأزرار من الياقوت، ورأس التعليقة الأصلى المرصع تحت تلك الأزرار التى سبق ذكرها تحتها وفوقها أنه واحد وخمسين صفحة ذات ذوائب ياقوتية.

(١) تعليقة كبيرة من الزمرد ـ هدية السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان الثالث وهى ذات ست زوايا وذات زرين وفوقها على شكل قبة مزين بالماس والياقوت وقد ربطت قبته من فوقها بسلسلة ذهبية إلى حجر من الفلمنك[2] وسلسلتها ذات زاويتين وصف عليها صفان من قطع الماس قد صنعت قاعدتها من ست قطع حجمها متوسط وفى وسط القاعدة كتبت عبارة (السلطان أحمد خان الأول بن السلطان محمد خان الثانى سنة ١٠٦٩هـ وبين الزرين كتبت جملة (قيمتها ٦٠٠٠ قطعة ذهبية).

(١) تعليقة من الجوهر وهى هدية ممتازة محاطة بالذهب من طرف السلطان عبد الحميد خان الأول، الأبيات رأس تعليقة مزينة ومرصعة بأحجار الماس وفوق رأس التعليقة حبة من الزمرد مستديرة تقريبًا فى زنة خمسة وعشرين

(١) طارطى زنة (صف واحد) ويساوى ٤٥ ديزى مثقالا واحدا، وكلما قل ديزى زنة المثقال كلما زادت قيمته.
(٢) يقال لحجر الفلمنك السفلى ذات ست قطع، والأوسط ذات اثنتى عشرة قطعة، والعلوى ذات ثمانى عشرة قطعة ويعرف ذات اثنتى عشرة قطعة بالنصف، وذات ثمانى عشرة قطعة بالكامل.

قيراطا وفوق هذه الحبة صينية ذهبية وفوق هذا الحجر الزمردى قطعة كبيرة عريضة وفوق هذا الحجر زمردة معيوبة وأخرى مرصعة كبيرة وفى اتصالها رأس تعليقة أخرى صنعت أطرافها بنوع من الماس وعلى اسم ناجى القادرى وفوق جناحى ١٤ عددا من اللؤلؤ ذات حجم متوسط وكبير وأحدهما ذات زنة سبعة عشر صفا من اللؤلؤ والآخر ذات ثلاثة وستين عددا بين اللؤلؤ الكبير، وعددان من الذوائب ذات زنة مائة تسع وعشرين من اللآلى، وفى رأس كل شرشوبة زمردة مستقلة كبيرة وسلسلة طويلة ذات ثلاثة أشياء من الفضة، ومسبحة ذات خمس وأربعين حبة من اللؤلؤ، وقد سقطت إحدى حبات الزمرد التى أحصيت ولكنها محفوظة فى مكانها.

(١) تعليقة مرصعة ـ واقفها غير معلوم إلا أن رسمها وشكلها ونفاسة صنعها تدل على أنها وقف أحد السلاطين العثمانيين السعيد، وهى ذات ستة أعداد من الزمرد وذات أزرار مرصعة وزنها ثمان وأربعون صفا ذات شراشيب لؤلؤية مزينة بست قطع من الماس ولا سلسلة لها وثلاثة من أزرارها ذات ست زوايا وكبيرة وواحد منها مستو واثنان منها مقوس، إلا أنها أصغر من حيث القطعة من ذات الزوايا.

(١) تعليقة مرصعة ـ واقفها مجهول وشكلها على رأس الراية غلاف أحد طرفيها ذهب والآخر فضة ومزين بالياقوت والزمرد والفيروز واللؤلؤ ورصع وسطها بجوهر نفيس تشبه حجر (روقو قونجق)[1] ذات حجر نجفى وذات حبتين من نجف وذات سلسلة فضية.

(١) تعليقة مرصعة ـ ذات غطاء ذهبى وعلى طراز نوع من الأزهار التى تشبه السمك مجهولة الواقف.

(١) تعليقة مرصعة ـ يفهم من هيئتها المرئية أنها صناعة الهند، فى وسطها نوع

(١) (روقوقونجق) هو حجر بنفسجى اللون ويعبر عنه الصناع باسم (جيرتوقوم).

من جوهر كبير يشبه الحجر الذى يطلق عليه سيلان[1] وفوق هذا الجوهر حجر أصغر من نوع الحجر الذى على لون سيلان وتحت الجوهر الكبير حجر فى خمس حجمه ولكنه من نفس النوع، وحول الجوهر الكبير عددان من الجوهر الذى يطلق عليه (كبيرى[2]) أحدهما مقوس والآخر مستو والكبيرى من جنس الياقوت وعددان آخران من الزمرد الفاتح وبعض اليواقيت صغيرة الحجم وتحتها جوهر ذات خمس قطع شبيه بالزمرد الزبرجد الصغير وعدد من جواهر الماس وزر من الزمرد يزن ذيله خمسة قراريط يقينًا، وفوق هذا الزر خمس قطع من حجر (روزه) وكلها من الزبرجد والفيروز وفوقها ياقوت وفوقها زمرد وياقوت وقد زينت تسع قطع من سلاسلها الفضية التى تربط بين أجزاء بعضها ببعض بقطع زبرجد صغيرة.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف مصنوعة على شكل سلسلة الساعة القديمة أولها وأخيرها ووسطها زينت بحبات اللؤلؤ والزمرد الصغيرة.

(١) تعليقة مرصعة ـ وقف السيدة نورس، زوجة المرحوم نافذ باشا وهى ذات أحجار من الفلمنك مرصعة على مينا مشبك وذات نجوم خضر وذات ثلاث وردات وست زهرات لوز، وخاتم ومدى وكلها مشغول بحجر الفلمنك وذات سلاسل فضية.

(١) تعليقة مرصعة ـ وهى من السيدة فاطمة كريمة المرحوم نافذ باشا وهى ذات سلاسل من الفضة، وذات أحجار من الفلمنك مرصعة على مينا خضراء مشبكة، وذات نقوش، ومع هذا فهى ذات ثلاث وردات وستة أعداد من زهر اللوز فى الصنع ولها زر مثل خاتم على شكل ورد وكل هذا مزين بحجر الفلمنك.

(١) تعليقة مرصعة ـ فهى أثر نادر من آثار المرحوم السلطان محمد خان الثانى بن

(١) من ناحية القيمة فإنه أغلى من النجف وهو جوهر قرمزى اللون فاقع.

(٢) وهو من نوع الياقوت وهو جوهر أحمر اللون فاقع.

السلطان عبد الحميد خان الأول ومزينة بحجر الفلمنك وهى ذات ورود عددها ثمان وثلاثون منها الكبير والصغير ومع ذلك فهى مزينة وذات زرائر زنتها ثلاثة عشر صفا وذات ذوائب لؤلؤية وذات سلاسل ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة ـ فهى هدية قيمة من السلطانة مهرشاه والدة المرحوم السلطان سليم خان الثالث ابن السلطان مصطفى خان الثالث على شكل قنديل بللورى وذات سلسلة ذهبية ومزينة بحجارة الفلمنك وروزه ذات ستة وجوه وكلها مرصعة بالذهب.

(١) تعليقة مرصعة ـ واقفها غير معروف وهى من الذهب المشبك بأكملها ذات ستة أوجه مرصعة بأحجار الماس والزمرد والياقوت وعلاقتها مزينة بالزمرد الصغير وذات سلسلة ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة مجهولة الواقف كذلك، مصنوعة مع غطائها من الذهب وقد صنعت جهاتها الثلاث من قطع الماس والزمرد والياقوت والجهة اليسرى منها كذلك غطائها قد زينت من زنة أربعة وخمسين صفا ستة من صفوفها ذات ذوائب لؤلؤية.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف كذلك، قد صنعت سلسلتها من الذهب وعلى طرفيها عدد واحد كبير وفى وسطها ثلاثة أعداد صغيرة من الزمرد وعلى شكل القمر النصفى.

(١) تعليقة مرصعة مجهولة الواقف كذلك، مشبكة الصنع وعلّاقتها مرصعة زنة صفين وذات ستة وثلاثين عدد من اللؤلؤ وذات اثنى عشرة وجه من ما بين الفلمنك وذات سلسلة ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف مصنوعة من الفضة وقد زينت وسطها بِصَف وأسفلها بصفين من قطع الماس والأواتب المعلقة على أطرافها على شكل القمر تنتهى بثلاثة أحجار ومكان العلاَّقات مرسوم بالشروط ومشبك ومزين.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف ومصنوعة من فضة مشبكة ذات رسم خاتم وردى ذات خمس عشرة قطعة وذات ستة وجوه قد زينت بحجر الفلمنك وذات نقوش.

(١) تعليقة مرصعة ـ وقفت من طرف مصطفى بك ابن تحسين بك من صدور عظام السلطان أحمد خان الثالث بن سلطان محمد ذات ست شموع مغطى وذات سلسلة، وهى محلاة فى بعض أماكنها بالياقوت والزمرد وأعلاها بالفضة وفى وسطها طوق مزين بالياقوت والزمرد كذلك قاعدتها، وهى نجفة على شكل إناء ماء.

(١) تعليقة مرصعة ـ مجهولة الواقف أسفلها مشبك وذات أزهار بارزة على شكل القمر حولها وذات سلسلة ذهبية وذات علاَّقة ذهبية فى قيمة ثلاثة صفوف.

(٢) تعليقة مرصعة ـ هدية المرحومة السلطانة ريحانة فى سنة ١٢٢٨هـ وهى مصنوعة من الذهب ذات لون ليلاقى فاتح ولها مينا لازوردى وذات غطاء ذهبى ولها سلسلة ذهبية.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السلطانة أسماء زوجة قبطان البحر حسين باشا الصغير وكريمة السلطان عبد الحميد خان الأول بن السلطان أحمد خان الثالث، ذات زخرفة ذهبية مشبكة على شكل ثريا ستة فروع ذات قطعة متوسطة.

(١) تعليقة مرصعة ـ وقف السيدة نوفدان رئيسة نساء السلطان محمود خان الثانى مشبكة فمها على شكل نصف الشمس وذات شراشيب فضية ومصنوعة من الفضة.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السيدة نوفدان أيضا مصنوعة من الفضة وهى على شكل الزهرية ومحل القنديل مشبك وذات صنعة بارزة وقد عقد وسطها بعقدة الستارة بصورة فنية وذات شراشيب فضية وذات سلسلة فضية.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السلطان أحمد خان الثالث حلقها زمردة فى شكل ورقة شجرة ووسطها مزين بالياقوت ذات طوق ذهبى وسلسلة ذهبية فى شكل قلة ماء.

(١) تعليقة مرصعة ـ قد قدمت من طرف السيدة قمر الثانية من حرم حضرة السلطان محمود خان الثانى وهى مشبكة على رسم سطل وذات علاقات على شكل سمك «بلامود» مصنوعة من الفضة.

(١) تعليقة مرصعة ـ هى الهدية العلية من السيدة أسماء السلطانة سالفة الذكر كريمة السلطان عبد الحميد خان الأول وهى ذات أزهار مبرزة وشبكة وحللها ذات أوراق مثل أوراق الملفوف وذات سلسلة على شكل أوراق الشجر ومحل شراشيبها ذات علاَّقات فضية وقطعتها كبيرة.

(١) تعليقة مرصعة ـ هدية السيدة عشق بيجان والدة السلطان صالحة عليه الشأن زوجة خليل رفعت باشا رئيس الهند السابق وكريمة السلطان محمود خان الثانى ممولة من الفضة وفى شكل السطل وذات تعليقة على شكل سمك «بلامود» وذات صنعة راقية.

(١) تعليقة مرصعة ـ قدمت من طرف والدة السلطان عبد المجيد خان والد الخليفة كثير المحامد ومصنوعة من الفضة ذات ثلاثة قناديل وسلاسلها ذات زخرفة ذهبية ذات قطعة متوسطة ومعلقة ناحية رأس السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وصلى الله وسلم على أبيها.

(٢) تعليقة قنديل ـ واقفها مجهول مصنوعة من الفضة المشبكة ذات غطاء ومائلة للعرض إحداها متوسطة والأخرى صغيرة وهى مكسورة غير صالحة للاستخدام.

(١) تعليقة من الفضة ـ وقف مصطفى بك ابن تحسين بك من الصدور العظام ابن المحصل الأسبق لقبرص الحاج محمود آغا الشامى ذات ست شموع ذات غطاء وسلسلة.

(٣) تعليقات فضة ـ واقفها مجهول مصنوعة من الفضة على طرز قديم ذات سلسلة فضية كمثرى الشكل متوسط القطعة جميلة الصنع.

(٢) تعليقتان من النحاس ـ مجهولتا الواقف مصنوعتان من النحاس أحدهما عادية على شكل كرة بسيطة جميلة والأخرى مزينة بمائة وأربعة أعداد من حجر عتيق على رسم زاوية مصنوعة فى بلاد الغرب.

(١) تعليقة فضة ـ قدمت من طرف «غلام عباسى رو أمين جيد آباديى» من أهالى الهند: وصنعت على طرز هندى أسفلها من الفضة ولكنها قديمة.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ وقف المرحوم خسرو باشا من وزراء محمود خان الثانى ذات ثلاث شموع ومشبكة وذات زخرفة ذهبية قطعتها مائلة للكبر.

(٢) تعليقة إناء القهوة ـ وقف محمد طيفور آغا مصنوعتان من نحاس مموه بالزنك.

(١) تعليقة من فضة ـ واقفها مراد ميرزا ومعلقة على صندوق فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) وصنعت على شكل زهرة من ستة وأربعين درهم فضة ومحكوك أعلاها عبارة بالفارسية «من أتباع إيران مدير النواب العلاة، نواب الشرف والاحترام سلطنة السلطان مراد ميرزا».

(١) فانوس من الزجاج ـ عضادته من الفضة واقفه الحاج على أفندى ابن السائس.

(١) طرة ـ مغلفة بالذهب ومزينة بأربعين ياقوتة وخمس وعشرين زمردة زنة صفين من لؤلؤ مجهول الواقف الزمردة فى وسطها مائلة إلى الكبر وصناعته قديمة.

(١) تعليقة قنديل من الذهب ـ مجهولة الواقف مصنوعة من الذهب المشبك ذات شراشيب من اللؤلؤ زنة تسعة صفوف.

(١) تعليقة قنديل من الذهب ـ واقفها غير معلوم كذلك مصنوعة من الذهب صغير الحجم.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ واقفها مجهول كذلك مصنوعة من الفضة ذات سلسلة مزخرفة بالذهب.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ من وقف إبراهيم آغا محافظ ينبع ومن رؤساء بوابى الباب العالى، وعلى شكل الثريا وذات أماكن للشموع وسلسلتها ذات غطاء.

(٦) تعليقة قنديل من الفضة ـ مجهولة الواقف وعلى طرز قنديل زجاجى وقد صنعت مع سلاسلها من الفضة العادية.

(١) تعليقة قنديل من الفضة ـ أهدى القنديل الأول من قبل سلطانة فاطمة والآخر من زينب خانم الصغيرة والثالث من السيدة خوشياد والرابع من السيدة (دل سرا) والخامس من الحاضنة بأدره والسادس من الحاضنة تفافل وهى شبكة مصنوعة من الفضة ذات صنعة قديمة ومتوسطة القطعة.

(٩) تعليقة قنديل من الفضة ـ واقفوها مجهولون مصنوع من الفضة بعضها شبك وبعضها دقيق الصنع وفوق علاَّقة أحدها عدد علق واحد من الذهب الفازى وكلها تقريبًا قديم الصنعة ذات قطع صغيرة ومتوسطة.

٥٩٧ سلسلة من الفضة ـ من هدايا السلطان محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول على أحد أطراف كل واحدة من محافظها عبارة «خادم الحرمين الشريفين ٢٥٣» وأطرافها الأخرى كتبت طغراء غراء «محمد العدلى» وقد علقت ثلاثمائة وثلاثون منها داخل الحرم الشريف ووضعت مائتان وأربع وستون فى خزينة حجرة السعادة داخل صناديق.

٣٩ سلسلة فضة ـ هدية من خديجة سلطان كريمة حضرة السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان أحمد خان الثالث وكتب عليها اسم المشار إليها.

١٥ سلسلة فضية ـ مقدمة من قبل شيخ الحرم الأسبق حافظ عيسى آغا.

٢١ سلسلة فضية ـ وقف من عنبر آغا شيخ الحرم الأسبق.

١١ سلسلة فضية ـ قدمت من قبل وكيل الخزانة على جوهر آغا الإبرى.

٥٠ سلسلة فضية ـ قدمت من قبل مصطفى بن رجب آغا.

٧١ سلسلة فضية ـ واقفوها غير معروفين.

٧٥ سلسلة ذهبية ـ قدمت من قبل السلطان محمود خان الثانى وخاصة بالقناديل المعلقة فى حجرة السعادة.

(٤) أكرة رأس الشبكة ـ هدية السلطانة «برتوبياله» والدة المرحوم السلطان عبد العزيز خان أوجهها ذات رسوم نصف قمر وأطرافها مزينة بماس برلنت ومصنوعة من فضة خالصة وموضوعة على زوايا صندوق قبر والدتنا فاطمة (رضى الله عنها).

(٢) وفى بيفم القدس من حكام الهند من فضة خالصة وهى شكل دبوس «آلة حرب» وفى ثقل مائة وتسعين درهما.

(١) رأس راية وقف بيفم القدس كذلك وهو من فضة فى رسم كف «المخلب» وهو فى وزن مائتين وأربع وعشرين ونصف درهم.

(١) خاتم ورد واقفه مجهول وهو مصنوع من سبع قطع من الماس وحجرين من الفلمنك وفى وسطه قطعة ماسة برلنت ذات خمسة قراريط وأطرافها مزينة بتسعة أعداد من قطع الماس «برلنت»[1] ذات أحجام صغيرة وكبيرة.

(١) إبر مجوهرة هدي السيدة الثانية خوشيار من حرم السلطان محمود خان الثانى ذات خمسة وثلاثين قيراطا مرصعة بأربعة أعداد من ماسة «برلنت» وسطها مزين بحجر ذات قيراطين ونصف قيراط وعلى شكل زهرة.

(١) إبر مجوهرة هدية فاطمة هانم المتواضعة زوجة عبد العزيز بك من ضباط دار الهندسة السلطانية مزينة بحجر «روزه» وعلى شكل نجمة.

(١) إبر مجوهرة وقف السيدة نورس زوجة المرحوم نافذ باشا ناظر المالية الأسبق

(١) يقال لدى الصياغ على الدرجة الأولى من ما س(برلنت) لوندره أو إنجلترا وعلى الدرجة الثانية منه قراوانة.

وهى فى ثقل ثمانية عشر قيراطا ومزينة بحجر من الماس ومصنوعة من الفضة وهى فى رسم زهرة من تسعة فروع.

(١) إبر مجوهرة قد قدر من طرف نيبة هانم والدة والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا، قد ركبت قطعة ماس برلنت على فضة وفى رسم زهرة.

(١) زهرة من الماس أرسلت من قبل بفم القدس من حكام الهند ذات شراشيب بثلاثة عشر صفا من اللؤلؤ وما بين اللآلئ وأطرافها مشغول بقطع من الزمرد وأعاليها مشغولة بقطع واحدة من حجر الياقوت كما أن لوحتها قد شغلت فوق مينا خضراء بماس هندى وسرتها مزينة بماسة برلنت لوندريه فى زنة قيراطين ونصف قيراط وموضوعة فوق أوراق زمردية فهى تحفة بديعة المنظر.

(١) دبوس مجوهر (بروش) قد أرسل ليعلق على صندوق قبر السيدة فاطمة ـ ـ رضى الله عنها ـ والدتنا من قبل الحاضنة الخازنة شمس وهو أثر نادر قد زين وسطه بحجر زمرد كبير الحجم وحول هذه الزمردة زهرة ذات أربعة أوراق صغيرة وخمسة أوراق كبيرة وجهة الزهرة اليمنى ذات أوراق كبيرة وصغيرة وأعلاها على شكل برعم الورد ومتشعب على ثلاثة أفرع من الذهب ومزين بماسة لوندره ذى مقبض مرصع وقطعته كبيرة طبيعية.

(١) إبرة مجوهرة مرسلة من طرف مدير نواب سلطنة السلطان مراد ميرزا من أتباع الإيران لتعلق على صندوق والدتنا المشار إليها مزينة بحجارة ذات ثقل قيراطين ونصف من ٦٨ عددا من حجارة روزه.

(١) اللوحة المجوهرة هدية علية لحضرة صاحبة البر والإحسان السلطانة عالية الشأن الزوجة الجليلة للمرحوم محمد على باشا قبطان البحر الأسبق وكريمة السلطان محمود خان الثانى جعل مثواه الجنة قد صنعت السلسلة التى ستعلق بها من الفضة وعلى زواياها الأربع زهرة مزخرفة بماس برلنت وكتب بديباجتها لفظ الجلالة بخط نفيس على حجر منحوت من معدن النجف الذى

يظهر فى الجبل الأحمر بالمدينة، وقد رصعت أطراف هذا الحجر باثنى عشر عددا من الياقوت الأحمر وأطراف هذه اليواقت زينت بقطع ماسات كثيرة وذيلها مرصعة بجواهر البرلنت بعض أبيات فى رثاء كما زين أسفلها.

(٢٢) لوحة الحلقة الشريفة أهديت من قبل السيدة نوفدان من حريم السلطان محمود خان الثانى أطرافها مزخرفة ذات إطار فضى وداخلها مشغول باللؤلؤ وبالخيوط الذهبية على المُخَمَّل الأخضر وظهرها مصنوع من الفضة ومزخرف، كبيرة الحجم وعليها صورة الشمس وجهاتها الأربعة ذات قضبان فضية وفرقها مزينة ببرلنت لوندره حيث رسم اسم النبى ﷺ.

فى ذكر وتعريف أطقم البخور والسكات من الفضة والذهب والمحفوظة فى داخل الحجرة المعطرة والتى تخرج كلما اقتضت الحاجة إليها.

عـــدد

(٣) أدوات البخور المجوهرة واقفها مجهول، مصنوع من الذهب المجرى وأوراقها التى تحت قنينة الماء وأعلاها مزينة ببرلنت قراوانة فى وزن خمسة وعشرين قيراطا وتتكون من ٣٩٥ درهم من الذهب وإحداها قنينة ماء والثانية مجمرة والثالثة صينية.

(١) قنينة ماء من الذهب وقف السيدة خوشيار من حريم السلطان محمود خان الثانى وسطها ربطت بستارة من برلنت والورقة السفلية من أعلاها ذات أزرار من برلنت ومجموعها معمول من أربع وثمانين درهم من الذهب وهى منقوشة بمهارة.

(١) مجموعة ذهبية هذه أيضا هدية المشار إليها وهى ذات أربعة أرجل وأطرافها ذات نقش ملتو أسود وموضوعة على صينية ذهبية ومصنوعة من ٢٠٣ درهم من الذهب وأوراق أزرارها مزينة ببرلنت قراوانه وهى ذات منظر عجيب وغاية فى الجمال.

(١) عُلْبَة بخور مجوهرة هدية لا نظير لها للسيدة خوشيار من حريم السلطان محمود خان الثانى والتى صيغت من الذهب ذات تسعة وثلاثين درهما وزينت العلبة من فوقها باثنى عشر عددا زنة كل واحد منه فى ثقل وزن حبة ونصف حبة من حبات القمح كما زينت أطرافها ببرلنت فى ثقل ثلاثة عشر

قيراطا من برلنت شبيه بكثير من طوباج[1] وداخل غطائها مزين بمينا ذى لون لطيف وخارج الغطاء ذات أرضية وردى اللون وعليه رسم موقع رأس الرأى فى إستانبول.

(٥) مجموعة البخور مع الصوانى.

الذهب	عـدد	
٧٠٧	١	صينية طولانية.
٢٨٦	١	قنينة ماء مع قاعدة ذات قوائم أرجل القواعد.
٤١٧	٢	مبخرة مع قواعدها ذات قوائم ذات مينا.
٧٦	١	مبخرة مع قاعدة من الساج خشب ساج.
١٤٨٦	٥	

وتلك الأشياء الغالية ذات مينا خضراء ولازوردية وأزهار منسوجة وهى مصنوعة فوق الذهب وكلها فوق صينية طولية مزينة بمينا أزرق غليظ ومهداة من طرف كلزار هانم والدة المرحوم إلهامى باشا بن عباس باشا والى مصر الأسبق.

(٤) مباخر وقنينة ماء من الذهب.

الذهب	عـدد	
٣٧٠	١	مبخرة مع.
١١٢	١	قنينة ماء جميلة.
١١٠	١	قنينة ماء منقوضة.
٣٧٦	١	مبخرة.
٩٦٨	٤	

الأشياء النفيسة المذكورة أهديت وعرضت من قبل خديجة سلطان كريمة المرحوم مصطفى خان الثانى.

(١) الطوباج: نوع من الجوهر يشبه النجف، أبيض اللون.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الذهب هدية والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا موضوع على منضدة ذات قوائم ذهبية وأرضية مينا وردية اللون وأعاليها ذات أوراق ذهبية من مينا وأسافلها ذهب على أرضية ميناء أزرق.

(٤) قنينة فضية ومبخرة.

٢ قنية ذات قوائم وأوراق
٢ مبخرة ذات منضدة
٤

الأشياء النفيسة التى ذكرت قدمت فى عام ١٢٧٤هـ من قبل برستو قادين الرابعة من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد خان.

(٤) قنينة ماء ومبخرة من الفضة

٢ قنينة ذات قوائم وذات أوراق
٢ مبخرة ذات منضدة
٤

قد أهديت الأشياء المذكورة من قبل والده المرحوم السلطان عبد العزيز خان سنة ١٢٧٤هـ ومصنوع من فضة خالصة.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الفضة

١ قنينة ذات قوائم وأراق
١ مبخرة ذات منضدة
٢

هدية شايسته هانم الثالثة من حريم السلطان عبد المجيد خان من الفضة ومزخرفة وكبيرة الحجم.

(٤) ٢ قنينة ماء

٢ مبخرة ذات منضدة
٤

هدية خوشيار هانم من حرم السلطان محمود خان الثانى

(٤) قنينة ماء ومبخرة

١ صينية من الفضة
١ مبخرة كبيرة ذات منضدة
٢ مبخرة صغيرة ذات منضدة
٤

من تبركات النفيسة رأفت هانم من حريم السلطان سليم خان الثالث.

(١٠) قنينة ماء ومبخرة من الفضة.

٤ مبخرة كبيرة أغطيتها مزينة
٢ قنينة ماء بالورد
٤ شمعدان بخور صغير إلى حد ما والمباخر مزخرفة وأسفلها ذات طرة مزدانة بالجوهر وذات أوراق سداسية.

هدية جليلة تفضلت بإهدائها إلى الروضة المطهرة فى عام ١٢٧٤هـ عادلة سلطان صاحبة البر والإحسان كريمة المرحوم السلطان محمود خان.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الفضة.

١ قنينة ماء كبيرة
١ مبخرة حدما
٢

هدية قدمتها ذواقة الطعام المعلمة لبابه فى عام ١٢٤٠هـ صناعة قديمة ومنقوشة.

(٢) قنينة ماء ورد ومبخرة من الفضة.

١ قنينة ماء
١ مبخرة
٢

هدية زوجة أمين المعادن حافظ مصطفى باشا خواجة أمنية هانم وذات صنع قديم.

(٢) قنينة ماء ومبخرة من الفضة.

١ قنينة ماء
١ مبخرة
٢

مجهولة الواقف على شكل الفستق وشم عادى.

(٤) قنينة ماء ورد ومبخرة من الفضة.

٢ قنينة ماء ورد
٢ مبخرة
٤

وقف من فاطمة قادين وهى صغيرة الحجم

(٣) قنينة ماء ورد ومبخرة.

٢ قنينة ماء

١ مبخرة

٣

وقف بسيم أغا المصاحب صغير الحجم

(٢) قنينة ماء ورد ومبخرة

١ قنينة ماء

١ مبخرة وذات صنع قديم

٢

وقف سنبل أغا رئيس أغوات السلطانة هبة الله.

(٢) قنينة ماء ورد ومبخرة

١ قنينة ماء

١ مبخرة

٢

واقفها غير معروف ذات صناعة هندية كبيرة طويلة وأسفلها مصنوع من الفضة.

(١) ومبخرة من الفضة

١ مبخرة عنبر

أهدى فى سنة ١٢٣٥ من قبل على أغا رئيس الحلاقين ذات طرز قديم فى الصنع.

(١) مبخرة من الفضة

١ مبخرة كبيرة

واقفها غير معروف ذات صنعة قديمة

(١) مبخرة من الفضة

١ مبخرة صغيرة

واقفها مجهول ذات صنعة قديمة.

(١) مبخرة فضة

١ مبخرة

قدمت من طرف الحاضنة كلفرين صغيرة الحجم وقديمة الصنع.

(١) مبخرة فضية

١ مبخرة

واقفها مجهول ذات صنعة قديمة وبدون غطاء.

(١) مبخرة ذهبية

١ مبخرة	مصنوعة من ذهب مشبك وقف لأزاد على محمد بك مدير أعمال والى مصر الأسبق محمد على باشا.

(٤) ومبخرة وقنينة ماء من الفضة

٣ مبخرة	أغا باب السعادة محمد طيفور أهداها سنة ١٢٦٠ صغيرة الحجم ومزخرفة بالذهب.
١ قنينة ماء	
٤	

(١) مبخرة من الفضة

١ مبخرة	واقفها غير معلوم

(١) علبة بخور فضية

١ علبة البخور	واقفها غير معروف

(١) شمعدان البخور من الذهب هدية السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد خان الأول مصنوعة من الذهب موضوعة فوق منضدة ذات ثلاث قوائم ومصنوعة من تسعين مثقالا من الذهب ومشجرة ذات تسعة فروع.

(١) تعليقة بخور من الفضة واقفها غير معروف وهى ذات زخرفة ذهبية وسلسلة فضية.

(١) تعليقة بخور من الفضة أرسلت من قبل رئيس الخزنة فى سنة ١٢٤٠هـ وهى مجهولة الاسم ذات نقوش ذهبية مشبكة على طرز قديم وذات سلسلة فضية.

(١) تعليقة بخور فضة أرسلت من قبل السلطان عبد الحميد خان الأول فى سنة ١١٩١هـ ذات سلسلة فضية وزخرفة ذهبية وصناعة دار سك النقود السلطانية العامرة.

(٤) مباخر فضية ومناضدها

٢ مبخرة	الهدية التى عرضها الهندى حبيب فى سنة ١٢٧١هـ صناعة هندية ذات غطاء مشبك وذات مقبض داخلها ومكان نارها فى غاية الدقة فى الصنعة.
٢ منضدة	
٤	

(١) مبخرة فضية غير معروفة الواقف على شكل شمعدان

(١) تعليقة مبخرة ذهبية كذلك واقفها مجهول ذات ثلاث سلاسل ذهبية وفى ثقل ٦٨٤ درهما وعلى شكل تعليقة القهوة.

(١) مبخرة فضية واقفها مجهول أيضا وهى على شكل فانوس توضع على القاعدة ومصنوعة من الفضة مشبكة، وأعلاها نجف على شكل اسم (على) ومزينة بقطع الماس الصغيرة وفى غاية الغرابة.

(١) علبة خشب عود مصنوعة من الفضة هدية من نقش فلك هانم وهى ذات مقبض منقوش.

(١) علبة بخور واقفها مجهول وهى مصنوعة من الخشب العادى وهى ذات غطاء من الفضة.

(١) طبق بخور من الفضة أهدى من قبلالرستو هانم فى عام ١٢٧٤هـ وهى من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد خان وهو صغير الحجم.

(١) صينية بخور من الفضة وهى ذات قطعة متوسطة تم تقديمها من قبل فاطمة هانم زوجة المرحوم طوسون باشا شيخ الحرم الأسبق.

(٤) صينية بخور من الفضة من الهدايا التى أرسلت فى عام ١٢٧٤هـ من قبل عادلة سلطان كثيرة البر والإحسان كريمة السلطان محمود خان الثانى واثنتان منها صغيرة والأخرى متوسطة.

(١) صينية بخور من الفضة هدية من السيدة شايسة وهى من حريم المرحوم السلطان عبد المجيد وهى طولية الشكل.

(١) صينية بخور من الفضة وهى هدية من بروتوبيالة سلطان والدة المرحوم السلطان عبد العزيز خان وهى مربعة طولية ولونها أبيض وذات مقبض.

(١) صينية بخور من الفضة وهى هدية من السيدة برستو من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد خان ولونها أبيض وذات مقبضين.

(١) جاروف نار فضى من أجل البخور هدية من إحدى حريم السلطان عبد المجيد وواحد منها مشبك جميعه وواحد منها فتحته الأمامية مشبكة ومذهبة والآخر بدون مقبض ومكسور.

فى ذكر تفصيل الشمعدانات والأشياء الأخرى المحفوظة فى داخل حجرة السعادة جنسها ومقدارها والتى تستخدم كلما دعت الحاجة إلى استعمالها.

(٢) شمعدان من الذهب.

١ شمعدان مع مكان للشمع هدية والدة السلطان محمود خان الثانى
١ مائدة الشمعدان ذات قطعة متوسطة وقد صنع مع مائدته
٢ من الذهب.

(٢) شمعدان ذهبى ذات قطعة
متوسطة وهما شمعدانان متوسطان للحرم أرسلا من والى مصر الأسبق محمد على باشا مصنوعان من الذهب ويجهل مكان شمعة أحدهما.

(١٢) شمعدان ذهبى مجوهر مع فتحة شمعدان ومنضدة وشمعدان

٢ شمعدان ١ كبير
١ وسط
٢

٢ شمعدان

٤ منضدة لفتحة الشمعدان محفورة أطرافها على شكل صينية

٢ قمع شمعدان
١٠

٢ قمع الشمعدان المزخرف على شكل صينية هدية المعلمة شوق نهال الخازنة.
١٢

وقد أرسل إضافة إلى القمعين اللذين سمحا بإرسالهما للمعلمة شوق نهال، عشرة أطقم من الشمعدانات كاملة من طرف والد الخليفة كثير المحامد السلطان عبد المجيد خان.

وكانت الشمعدانات مزينة (١٦٢٨٢) بعدد من حجارة برلنت وقد رتبت ورصعت على شكل جميل وتكلف صنع هذه الشمعدانات مائة وخمسين ومائة ألف من قطع الذهب المجيدية من ذات فئة مائة مجيدية كل قطعة، ويروى أهل المدينة ويبينون أنهم لم يروا إلى ذلك الوقت شمعدانا أرسل إلى الحجرة المعطرة فى هذه القيمة الباهظة. وقد أوصلت هذه الشمعدانات خلال سنة (١٢٧٤هـ) إلى المدينة المنورة حيث كان فى استقبالها جميع رجال الدولة والحكومة وكبراؤها وكان استقبالا رائعا فوق العادة، ووضع أحد الشمعدانات فى نقطة محاذية للرأس النبوى الشريف والآخر فى نقطة محاذية لقدمى النبى الشريفين.

وقد أحضر تلك الشمعدانات أمير آلاى إبراهيم بك من رجال القصر السلطانى، ولما كان إبراهيم بك يستعد للسفر إلى المدينة استدعاه السلطان عبد المجيد وأمره بأن يقول عندما يقف أمام النبى ﷺ رسول الله!! إن هذه الأشياء هدية من أحد أفراد أمتك المذنب عبد المجيد ويرجو أن تتلطف بقبولها، وهذا ما حكاه المشار إليه بذاته.

(٨) مع طقم الشمعدان الذهبى.

٢ شمعدان

٢ منضدة متوسطة القطعة

٢ منضدة ذات قطعة كبيرة

٢ منضدة جلدية فى قطع كبيرة

٨

إن هذه الهدايا ذات ثمانى قطع مرسلة من قبل السلطان محمود خان الثانى

وكل الشمعدانان من قطعة متوسطة ومصنوعة من الذهب الخالص ومن شمعدانات المحراب وكان يوضع أحدهما على رأس النبى والآخر على قدمى النبى ﷺ ويوقدان فى الليالى من قبل شيخ الحرم أو نائبه كما أنهما كانا يرفقان بواسطتهما.

(٤) شمعدان من الفضة ورحلة

٢ شمعدان	أهديت من قبل السيدة إينجو زوجة والى
٢ رحلة	مصر الأسبق المرحوم سعيد باشا.

(٥٥) شمعدان وقمع فضى ونحاس.

فضة	نحاس		
٢٨ شمعدان البخور	١٠	شمعدان	نقوشها البارزة من النحاس
٧ منضدة فضية	١٠	منضدة جلدية	
٣٥	٢٠		

وهذه الأشياء من وقف المرحوم السلطان أحمد خان الأول وهى صنع قديم ومزخرف وكتب فوق الطغراء هذه العبارة وقف حضرة السلطان أحمد خان فى المدينة.

(١) المبخرة ذات تعليقة من فضة

١ مبخرة ذات تعليقة ٧٥٢	وقف السلطان عبد المجيد خان مزخرفة ذات أربع سلاسل فضية

(١) مبخرة فضية

١ مبخرة ٢١٠	هدية سنية من السيدة لطفيار الثانية من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان عبد المجيد فى عام ١٢٨٤هـ وهى مصنعة بالنقوش ذات قبة مستديرة ذات ستة ثقوب وزواياها مدموغة وفوق منضدتها كتب اسم من وقفتها.

(١) مبخرة فضية
(٢) مبخرة

هدية شوق أفزا هانم من حرم السلطان محمود خان الثانى من الفضة وذات زخارف وحول منضدتها ٩٦٠ مشبكك وذات قوائم ثلاث على شكل خرشوف لها نجفة مجدولة.

(٦) مبخرة وقنينة ماء فضيتان

عـــدد				
٦٤٠	٥	٤	مبخرة كبيرة	وقف عادلة سلطان كريمة المرحوم السلطان محمود
١	٢		قنينة ماء	السلطان محمود خان الثانى قد سطر ٢٢٣ ٦ ٦ فوقها من خيرات السلطانة خيريه.

(٢) المنضدة مع شمعدان فضى

٢ المنضدة وشمعدان — أهدى من قبل الخليفة واضح الشرف السلطانى سنة ١٢٩٤هـ بعلم نائب الحرم على أن يوقدا ليلا ونهاراً مناوبة فى داخل الحجرة المعطرة النبوية.

(٢) شمعدان فضى

٢ شمعدان ذات قطعة متوسطة بدون منضدة كتب عليه (من خيرات المرحوم محمد على باشا سنة ١٢٨١هـ).

والحقيقة أنه مع عدم وجود إشارة خاصة فإنه مأمول أن تكون هذه الهدايا قد أرسلت من قبل زوجته الجليلة إذ كان الباشا المشار إليه قبطان البحار الأسبق.

(٢) شمعدان فضى

٢ شمعدان محراب كبير هدية والى مصر محمد على باشا قد حكت عليهما عبارة العبد المذنب محمد على والى مصر سنة ١٢٢٨هـ).

(٧) شمعدان فضى

٧ شمعدان كبير ذات قمع هدية والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا قدمت سنة ١٢٦٨هـ.

(٢) منضدة شمعدان فضية

٧ منضدة شمعدان هدية السلطان عبد المجيد خان المرحوم ذات غلاف خشبى وقدمت خاصة للمشعدانات السبع التى بعثها عباس باشا والتى ذكرت سابقا.

(١) شمعدان فضى

١ شمعدان متوسط القطعة هدية زوجة والى مصر الأسبق محمد على باشا أمينة هانم صنعته قديمة وذات مناضد تحت مكان وضع الشموع.

(٢) شمعدان فضى منضدة ذات مسامير من نحاس أصفر.

٤ شمعدان ذات قطعة كبيرة مجهول الواقف مصنوع من الفضة اثنان بدون منضدة منقوش ذات فتحات وأماكن للشموع.

٢ منضدة ذات مسامير من نحاس أصفر.

(١) شمعدان من الفضة هدية من السيدة خوشيار وهى من الحرم السلطانى للمرحوم السلطان محمود خان الثانى وهى ذات ثلاثة أماكن للشموع ومنضدته قطعة واحدة معه وذات مجرى من الفضة وهى فى قطعة متوسطة.

(١) شمعدان من الفضة أهدى من قبل رقيقة هانم سنة ١٢٤٣هـ زوجة المرحوم عثمان باشا ابن أمين مخزن والى طربزون أسفله من الفضة وأعمدته من النحاس الأصفر.

(١) شمعدان من الفضة واقفه غير معروف وهو فى قطعة واحدة متوسطة صناعة قديمة ذات أماكن للشموع.

(٢) شمعدان للبخور الهدية التى قدمها على أغا رئيس الحلاقين فى سنة ١٢٣٥هـ.

(١) شمعدان فضى قدم تبركا من قبل سارة هانم الكلكشلى سنة ١٢٤٧هـ.

(٣) شمعدان فضى مصنوع من فضة صناعة قديمة مجهول الواقف.

(١) شمعدان فضى مجهول الواقف صغير الحجم صناعة قديمة.

(٢) شمعدان فضى.

١ ذات قطعة متوسطة هدية والى مصر الأسبق محمد على باشا

١ ذات مسامير فضة ينقصه المسماران

منضدة قديمة الصنع

(١) شمعدان فضى مجهول الواقف مصنوع من الفضة ذات أماكن للشموع وذات نقوش ذهبية.

(١) شمعدان من طومباق مجهول الواقف ومصنوع من الطومباق.

(٢) مقراض شمع من الفضة هدية من أمينة هانم زوجة المرحوم محمد على باشا والى مصر الأسبق وهما مصنوعان من الفضة الخالصة.

(١) مقراض شمع من الفضة واقفه مجهول وهو مصنوع فى رسم الطائر.

(٢) مقراض شمع من الفضة.

١ مقراض مغلفان بفضة واقفاهما مجهولان.

١ منضدة

(٢٧) ممسكة فتيلة القنديل الفضة واقفها مجهول وذات ثلاث قوائم مصنوعة من الفضة.

(٢) مزيتة أهديت من قبل الحاج إسماعيل بن الحاج حبيب سيد مشبكة وطولية ومربعة قد رصعت أطراف خزينتها بأربعة أوراق فى شكل المكحلة ذات ميل فى حجم البندقة صنعت ذات قوائم مستديرة كروية.

(٢) شمعدان بخور من الفضة مجهول الواقف ثلاثى الوجه.

(٢) مبخرة وقنينة فضيتان.

عدد

١ ١٦٥ مبخرة هدية نوفدان هانم من السراى

١ ١٠٤ قنينة وقدمت سنة ١٢٨٤هـ.

٢ ٢٦٩

(٢) قنينة ماء ذات جواهر مرسلة من طرف (نواب إسكندر بيغم) من حكام الهند عن طريق سيف الدولة على حسين خان، وهى مصنوعة مزينة بالماس والياقوت والهندى على مينا هندية الصنع خضراء ولازوردية وأحمر وفى أعلاها سبع زمردات صغيرة وياقوت.

(١) معطرة ذات جواهر والذهب مرسلة أيضا من قبل المشار إليه ومصنوعة من ذهب خالص والصينية التى تحتها ذات ميناء أخضر فاتح وأحمر هندى الصنع والميناء الأخضر والأحمر ذات أزهار وأطرافها من ميناء أخضر مشغولة بالماس وذات اثنتى وثلاثين ورقة مرصعة ومكان العطر مشغول بماس هندى فوق مينا لازوردى وعلى شكل شجرة كبيرة.

(٢) قنينة ماء ومبخرة فضيتان.

١ قنينة بالغطاء هدية زوجة أمين بك كاتب القصر السلطانى.

١ مبخرة الأول فتحتها لوذى الشكل وأطراف صينيتها ذات نقوش بارزة محفورة وغطاء المزيتة ذات أزهار وذات مقابض وبعض أجزائها مزخرفة.

(١) المزيتة الذهبية هدية عبد بواسع خان الشهم قد ثبتت فوق صينيتها وغطاؤها ذات سلاسل ومصنوعة من ٦٣ مثقال من ذهب.

(٢) مبخرة فضية مرسلة من قبل الشريفة زبيدة هانم وقد صنعت من ٥١٦ درهم

من ذهب خالص، وهى حليلة تحسين بك من أعضاء ديوان المحاكمات الأسبق. وذات صينية وحولها مشغول بقلم فنان وفوقها المبخرة التى ستوضع عليها خشب العود، ذات ثلاث قوائم كمثرية الشكل، وأعلاها ذات أوراق صغيرة وذات بروز فستقى، وبعض أماكنها مزخرفة.

(٢) قنينة ماء ورد، وهما كذلك مرسلتان من قبل زبيدة هانم، وهما من الفضة الخالصة، ويزنا ٣٢٩ درهمًا، وهما على شكل كمثرى، وعليها نقوش وزخارف بالذهب.

(١) مبخرة من الفضة وهى مرسلة من قبل شب اهنك قادين أفندى، من الدائرة السلطانية للسلطان عبد العزيز خان رحمه الله وتزن ٣٣٢ درهما ولها قاعدة من الفضة ومقبض وموقدها كذلك من الفضة.

(١) مبخرة من الفضة وهى كذلك من إهداء المشار إليها وتزن ١٥٥ درهما وينحصر استخدامها على إحراق أعواد البخور.

(٢) علبتا بخور من الفضة هى وقف محمد كامل أغا غلام الباب الرئيسى لوالدة السلطان الرتونياله ومن حريم المرحوم السلطان محمود خان الثانى ومصنوعتان من ١٣٠ درهم من الفضة.

(٢) مبخرتان ذهبيتان أرسلا من قبل نواب رانبور كلب على خان من حكام الهند ومصنوعتان من أربعمائة وأربعين درهما من المعمول على طريقة هندية.

(٤) مقراض الشمع الذهبى.
٢ كبير واقفوها مجهولون داخل أحدها مغلف بالحديد.
١ وسط وواحد منها مكسور المقبض.
١ صغير

٤

(١) شمعدان من الفضة مصنوع من فضة النقود وهو ذو قطعة كبيرة.

(٣) شمعدان من الفضة وصينية

١ شمعدان كبير هدية نازلى هانم كريمة محمد على باشا والى مصر الأسبق ذات قطعة كبيرة.

٢ صينية من الفضة مبرزة

(٢) شمعدان من طومباق منقوش.

(٢) شمعدان مصنوع من حجر آسكى شهر.

(١) شمعدان مصنوع ومنقوش بخطوط سوداء.

(٤) شمعدان قديم من طومباق.

(١) شمعدان صناعة هندية مصنوع من الفضة.

(٢) شمعدان البخور مصنوع من النحاس.

(٢) شمعدان من الرجاجة من طومباق مصبوب.

(١) شمعدان بخور من النحاس الأصفر تذكار على أغا بن موسى.

(٢) كذلك تذكار سليم أغا من أدرنه.

(١) شمعدان بخور من النحاس الأصفر هدية أسعد أغا رئيس المدفعية.

(١) كذلك واقفه مجهول.

(١١) مقراض الشمع كبيرة وصغيرة واقفوها وأجناسها مجهولة.

(١) قنديل معلق هدية السيدة بسيمة زوجة ابن درويش باشا المتوفى إسكندر بك أسفله مصنوع من الفضة فى زنة ٢١ درهم مطوق وعليه نسج من السلك الأصفر والبلّور ذو سلسلة.

(٢) ثريا من البلور هدية الشيخة نورس زوجة وزير المالية الأسبق المرحوم نافذ باشا مشغول على بلور وردى اللون أزهار صفراء بالقلم ذات ثلاث عقد

وذات سلسلة وفوق السلاسل مغطى وحول أغطيتها والعقد علقت ثريات فى طول إصبع وعلى شكل زهرية.

(٢) شمعدان من الفضة مع مقراض.

١ شمعدان وقف محمد عادل والحاج حسين الهندى وتحت إدارة أمين مكتبة الروضة المطهرة النبوية على أن توقد فيها ٢ ٢٤٠٠جـ شمعدان من طومباق ١ متوسط القطعة رسم محمودى محل شموعه وذات ثلاثة نقوش

١ مقراض.

قنينة ماء ٥ من الطومباق ومزخرفة واقفاها مجهولان

(٢) خشب العود على دهن الورد

١ علبة خشب عود وقف عاصم بك بن راش جاويش.

١ علبة خشب دهن الورد مصنوعة بنوع من الزجاج.

(٤) إبريق ومقراض وإناء ماء

١ ٣٨٠ جـ هدية عبد الواسع خان ذات هيئة جميلة على طراز هندى.

٢ ٦٥ جـ شهابة منذ صيغ غطاء الإناء فى ١ ٨٥

١ ٨٥ جـ

* * *

فى تعريف الأشياء الفضية النفيسة ـ جنسها ومقدارها ـ المحفوظة فى خزينة الحجرة المعطرة الجليلة.

(٢) طست فضى وإبريق

١ إبريق أرسلت من قبل حليلة المرحوم طوسون باشا فى سنة ١٢٦٥هـ من

١ طست ذو غطاء آثار نفيسة منقوشة

٢

(٢) طست فضى وإبريق

١ إبريق هدية أبى البركات الهندى من التبركات الهندية المرغوبة

١ طست ذو غطاء

٢

(٩) إبريق فضى وسطل

٣ إبريق زيت الزيتون من الآثار المبروكة التى تركتها خديجة

٦ سطل سلطان كريمة المرحوم السلطان مصطفى خان الثالث سنة ١٢٣٢هـ.

٩

(١) إبريق زيت زيتون مصنوع من الفضة وقف السيدة فاطمة دليزر فى سنة ١٢٣٢هـ.

(١) جاروف فضى مزخرف الهدية التى أرسلها المعلم جورى خازن السلطان محمود خان الثانى.

(١) جاروف فضى الهدية الغالية لوالدة المرحوم عباس باشا النيه هانم.

(٢) إناء مسك (مسكية فى زنة ثلاثمائة درهم) وقف رئيس أغوات عادله سلطان علية الشأن باسم أغا.

(٦) مسكية أهديت سنة ١٢٣٤ من قبل الحاج مصطفى رشيد أفندى.

(١) دواة فضية هدية السلطانة خديجة كريمة السلطان مصطفى خان الثالث.

(٢) رأس علم فضى تذكار من والى مصر الأسبق المرحوم سعيد باشا.

(١) رأس راية من النحاس الأصفر مجهول الواقف مزخرف.

(١٠) أكرة صندوق فضى.

٤ ذات فتحات ست على شكل كمثرى وقف المعلمة خديجة.

٦ هدية كريمة إبراهيم باشا صهر السلطان السيدة خديجة سنة ١١٦٣هـ.

١٠

(١) جاروف نار فضى وقف الشيخ حسن أغا.

(٣) قفل فضى معلق وقف السلطان أحمد خان الأول سطر عليه اسم المشار إليه.

(١) قفل فضى معلق القفل الكبير الذى أرسله السلطان محمود خان الثانى صنعته قديمة.

(١) قفل معلق فولاذى واقفه مجهول مصنوع من فولاذ قديم غاية فى الصنعة عليه زخارف ذهبية.

(٨) مفتاح فى داخل محفظة وهو صنع قديم واقفه غير معلوم.

(٢) علم من الفضة علم راية أرسل من طرف المرحوم السلطان محمود الثانى فى عام ١٢٣٢هـ.

(٥) منخل من الفضة.

جـ	عـدد	
٥٢٠	١	خاص لنخل خشب الصندل هدية برتونياله والدة سلطان
٥٧٢	١	
٥٧٠	١	
٤٧٥	١	
٥٩٥	١	
٢٧٣٢	٥	

(٤) منخل من الفضة

جـ	عدد	
١٠٠	١	كبير إلى حدما خاص بنخل صندل حجرة السعادة
٩٥٠	١	مختلف وهى هدايا والدة سلطان برتونياله
١٣٥٠	٢	صغير
٢٤٠٠	٤	

(١٠) صينية مع غطاء من الفضة

٥ صينية تلك أيضا وقف المشار إليها

٥ غطاء مزخرف بقلم

١٠

(٤) طست مع غطاء من النحاس مزخرف

٢ طست كبير أرسلت من قبل المشار إليها أيضا

٢ غطاء ذو مقبض مثل ظهر السمك

٤

(١٠) صينية مع غطاء من الفضة

٥ صينية للصندل — أهديت من قبل السيدة برستو من الحريم السلطانى

٥ غطاء ذو قفص مزخرف — زوجة عبد المجيد خان سنة ١٢٧٤هـ.

١٠

(٢) علم فضى أرسل من قبل السلطان عبد المجيد خان مصنوع من فضة خالصة مزخرف يوضعان على جهتى باب منبر السعادة فى أيام الجمعة مع رايتيهما.

(١٤) محاط فضى خالص لتعليق قناديل حجرة السعادة رءوسها ونهايتها بالفضة واقفوها غير معروفين.

(٤) طست فضى مع الكوب

٢ طست أوسط — خاص بغسل القناديل أهدتها زوجة السلطان سليم

٢ كوز — سليم خان الثالث الزوجة الرابعة

(١) مكنسة فضية مصنوعة من ٣٥٠ درهم من الفضة هدية والدة السلطان بورتونياله.

(١) مكنسة فضية مقبضها من الفضة أهدتها والدة والى مصر الأسبق عباس باشا النبه هانم سنة ١٢٦٦.

(٢) قدر فضى

١ قدر — خاص بإطفاء الشموع التى توقد فى حجرة السعادة ذات

١ قدر — مقبض وغطاء أهدى أحدهما من السلطان عبد المجيد

٢ — خان والآخر من السيدة أروفتان

طاسة فضية ومجمرة نحاسية

١ طاسة من فضة رديئة

٦ مجمرة من النحاس واقفهما مجهولان

٧

(١) إناء ماء فضى مجهول الواقف وعلى شكل فيل لهذا يحفظ فى دار خازن الحرم النبوى سالم أغا.

(٥) مقبض نحاس.

(١) زمزمية كبيرة من النحاس واقفوها غير معروفين.

(١) إبريق ذو زخارف من النحاس الأصفر.

(١) سطل من نحاس.

(٣) مجمرة مصنوعة من النحاس إحداها بدون مقبض واقفوها غير معروفين.

(١٨) قدر مصنوعة من النحاس من صنع هندى على شكل دلو.

فى تعريف وتفصيل الستائر والأغطية التى تغطى أبواب حجرة السعادة والمقامات المنيفة الأخرى مقدارها وأنواعها.

(١١) ستارة خاصة بأبواب الحجرة النبوية الشريفة وهى الكسوة العتيقة والستائر مشغولة بالخيوط الذهبية الثقيلة على أطلس أخضر اللون.

(٢) راية خاصة بمنبر السعادة مشغولة بخيوط ذهبية فوق أطلس ثقيل.

(١) ستارة هى الستارة القديمة الداخلية لحجرة السعادة قد شغلت على أطلس أخضر بألوان جميلة. صورة محراب وكتابات وأطرافها ذات شراشيب حريرية وبطانة ذات أطلس أخضر.

(٢) راية أرسلت من طرف المرحوم والى مصر سعيد باشا وهى راية المنبر الصغير وبها شغل فوق مخمل أخضر بخيوط ذهبية وذات بطانة أطلس أخضر.

(٢) ستارة من تبركات الباشا المشار إليه كذلك وهى ستائر حجرة السعادة الثلاث العتيقة وقد شغل رسم الشمس على أطلس أخضر وأطرافها ذات ذوائب من الحرير.

(٤٥) قطعة ستارة

(٣) ستائر للمحاريب الثلاثة.

(٥) ستائر للأبواب الشريفة.

(١) ستارة منبر النبى الشريف.

(١) ستارة المئذنة الرئيسية.

هذه هى التبركات النفيسة التى أرسلها السلطان عبد المجيد خان عليه الرحمة والغفران سنة ١٢٢٧هـ للمحاريب الشريفة والأبواب والحجرة المعطرة والشبكة المنورة والمنبر المنير المزهر خاصة، وهى مشغولة على أطلس بخيوط ذهبية ثقيلة.

(٢٨) ستائر شبكة حجرة السعادة.

(٤) ستائر نوافذ قدم السعادة.

(١) ستارة محراب التهجد فى داخل حجرة السعادة.

(١) راية منبر الشريف ٤٥.

(١) ستارة خاصة بصندوق قبر حضرة فاطمة (رضى الله عنها) وقد أرسلت كذلك من قبل سلطان السلاطين المشار إليه معلقة على شكل دانتيلا ومشغولة بخيوط ذهبية.

(١١) ستارة كبيرة وهى ستائر شبكة حجرة السعادة الخارجية وهى هدايا السلطان المشار إليه كذلك، وذات قماش من أطلس أخضر وذات صنف من الحرير المقصب بالفضة إن الستائر والكسى النفيسة قد قدمت قديما من جانب السلطان محمود خان الثانى صاحب المناقب العالية.

ولما كان السلطان عبد المجيد أهدى بعض التبركات من جديد صنعت الكسى القديمة فى خزينة حجرة السعادة وبناء على الأمر السلطانى أرسلت خمس قطع من الكسى القديمة بمعرفة يحيى بك الذى كلف بتوصيل الكسوة الجديدة إلى باب السعادة.

* * *

الصورة الثامنة

تبين وتعرض الشمعدانات والتعليقات والثريات أنواعها ومقدارها وأسماء مهديها وشهرتهم والتى وضعت وعلقت فى المحاريب الشريفة ومواجهة السعادة والروضة اللطيفة العالية.

(٤) شمعدان نحاس أصفر.

(٢) ذات قطعة كبيرة وهو شمعدان موضوع فى المحراب النبوى.

(٢) ذات قطعة صغيرة مصبوب ذات فتحات من النحاس الأصفر ووقف السلطان المشار إليه وهو فى المحراب السليمانى.

(٨) شمعدان من نحاس أصفر من وقف المغفور له السلطان المشار إليه وذات شمعة واحدة وأطرافه محاطة بالزجاج وموضوع فى الروضة المطهرة.

(٢) تعليقة فضية وقف بزم عالم سلطان والدة السلطان عبد المجيد خان وذات أربع شمعات ذات سلاسل مزخرفة متوسطة القطعة ومعلقة فى مواجهة السعادة.

(١) ثريا فضية ذات ست وثلاثين شمعة وذات فانوس معلقة فى المحراب العثمانى وذات قطعة كبيرة.

(١) ثريا فضية ذات ست وثلاثين شمعة وبدون فانوس ذات قطعة كبيرة معلقة فى جهة مواجهة السعادة.

(١) ثريا بلورية ذات أربع وعشرين شمعة بدون فانوس ذات قطعة كبيرة معلقة فى جهة قدم السعادة.

(١) ثريا بلورية ذات سبع وأربعين شمعة ذات فانوس وقطعة كبيرة معلقة فى داخل الروضة المطهرة.

كل هذه الثريات أهديت من والى مصر الأسبق عباس باشا وكانت شموعها ترسل من مصر حتى سنة ١٢٧٠هـ وبما أنها لم ترسل من بعد فنظم إرسالها من باب السعادة.

(١) ثريا بللورية وقف التاجر الهندى إبراهيم ذات فانوس وذات ثمانية شموع ومعلقة فى داخل الروضة المطهرة.

(١) شمعدان بللورى وقف والى مصر الأسبق عباس باشا على شكل شجرة ذات اثنتين وثلاثين شمعة وقطعة كبيرة ومعلقة داخل الروضة المطهرة.

(١) شمعدان بلورى وقف الباشا المشار إليه كذلك ذات ثمانى وعشرين شمعة على شكل شجرة معلقة داخل الروضة المطهرة.

(١) شمعدان بلورى كذلك وقف الباشا المذكور على شكل شجرة ذات ثمان وعشرين شمعة وذات قطعة كبيرة معلقة فى الحرم الشريف.

(١) شمعدان معدن وقف الشيخ الهندى التاجر إسماعيل ذات خمس شمعات على كرسى له ثلاث قوائم مصنوع من المعدن وذات فانوس وموضوع فى الحرم الشريف.

(١) ثريا بللورية وقف عبد الله افندى محافظ المدينة المنورة الأسبق وذات ست شمعات، وذات فانوس معلقة أمام باب الوفود.

(١) ثريا معلقة من البلور وقف من عبد الفتاح أفندى من تجار بيروت ذات شمعة واحدة ومعلقة داخل الروضة المطهرة.

(١) ثريا معلقة من البلور وقف التاجر الهندى الشيخ إسماعيل وذات اثنتى عشرة شمعة وذات فانوس معلقة أمام دكة الآغوات.

(١) ثريا من البللور وقف المشار إليه الشيخ أيضا وذات اثنتى عشرة شمعة وذات فانوس معلقة على شبكة قبر فاطمة (رضى الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها).

(١) ثريا من البللور كذلك وقف المشار إليه الشيخ وذات ثمانى شموع وذات فانوس معلقة على باب المئذنة الرئيسية.

(١) ثريا من البللور وقف الشيخ المشار إليه كذلك وذات سبعة شموع وفانوس معلقة فى جهة المحراب العثمانى.

(٢) ثريا من البللور كذلك وقف الشيخ المشار إليه وذات فانوس معلقة فى باب السلام.

(١٦) ثريا من البللور وقف الشيخ المشار إليه وذات سبعة وثمانين قنديلاً بللوريًا معلقة فى جهات الحرم الشريف المتعددة.

(٢) ثريا من البللور إحداهما ذات شمع والأخرى ذات قنديل بللورى، معلقتان فى آخر حرم السعادة مجهول الواقف.

(١) تعليقة فضية وقف أسماء هانم ذات ستة فروع وعلى كل فرع سلسلة مدلاة وذات قطعة متوسطة معلقة فى مواجهة السعادة.

(١) ثريا بللورية أرسلت من قبل حاكم بسيلة فى بلاد الهند مير خان، مصنوعة من ألف ومائة وخمسين درهما أى من اثنتى عشرة أوقية وسبع وخمسين وثلاثمائة درهم من فضة خالصة ذات ست عشرة شمعة ومعلقة أمام باب الوفود.

(١) ساعة كبيرة هدية السلطان عبد العزيز خان ومركوزة فى دكة الأغوات.

(١) ساعة كبيرة هدية والدة ملك الملوك المشار إليه برتو نياله السلطان موضوعة أمام محراب مقابل دكة الأغوات وفى اتصالها.

خلاصة

عدد القناديل والشمعدانات التى توقد كل ليلة فى مسجد السعادة ثمانمائة وستة وخمسين عددا منها قناديل كروية بطيخية الشكل ومائة وأربعة عدد من نحاس أصفر وواحد وعشرون شمعدانًا فضياً وكبيراً وثمانية وثلاثة شمعدانات كبيرة ذهبية واثنان منها مجوهران فيبلغ عددها كلها إلى ١٠٦٦ شمعدان، إلا أن القناديل والشمعدانات التى توقد فى ليالى الإحياء ورمضان فى جوانب مسجد السعادة الأربعة خارجة عن عدد القناديل التى ذكرت.

والذين نذروا زيارة المسجد الحرام مترجلين فسبب وجوب الوفاء بنذرهم كون المسجد الحرام من مصادر المناسك.

ولما كان المسجد النبوى يحتوى على مرقد السعادة الجليل الذى يفضل الكعبة

المعظمة والمسجد الأقصى فالذين ينذرون زيارة المسجد النبوى ولابد أن فى نيتهم الخالصة زيارة قبر الرسول ﷺ ومن هنا كان الوفاء بهذا النذر ألزم وإن كان الأئمة قد اتفقوا فى الوفاء بنذر زيارة الكعبة المعظمة إلا أنهم اختلفوا فى الوفاء بنذر زيارة مسجد الرسول والمسجد الأقصى وهذا الاختلاف من حيث الزيارة فالذين ينذرون بزيارة قبر السعادة يقتضى عليهم الوفاء بنذورهم.

مسألة

استفتى الشيخ أبو محمد بن أبى زيد عن الشخص الذى أخذ نقودًا ليحج نيابة عن الشخص الآخر الذى اشترط زيارة مرقد السعادة، فأوفى بالحج ولكنه لم يستطيع أن يزور قبر الرسول لبعض الأسباب وعاد فهل يلزم لهذا الشخص أن يرد النفقات التي أخذها للزيارة لصاحبها؟ وقد أفتى الشيخ ابن زيد بأنه يقتضى إعادة ذلك المبلغ ورده.

إخطار

وإن كان يلزم أن يعرف صورة اتخاذ النبى ﷺ وسيلة لأننا ذكرنا ذلك مع آداب الزيارة وشروط المجاورة فى خاتمة الكتاب، ولم نر أن الحاجة تمس إلى ذكر ذلك وتفصيل فوائده إلا أننا خفنا التكرار.

قطعة

إنه وقت الصلاة والسلام وقد بلغ الفصل للنهاية
لأن التحية حسن الخاتمة لهذا الفصل
قد اعتاد القلب حسرة الوصل بغتة
فالفم والابتهاج رفقاء صحبته دائما
فليؤثر الله ورضاه دائما بالصلاة
حتى إن فهم مقدارها خاص بحضرته

* * *

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الرابع

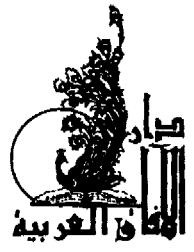

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

الوجهة الحادية عشرة

تحتوى على صورة واحدة

وفيها يذكر ويفصل تحويل سقف حجرة السعادة إلى قبة

وتجديد مربع القبر المبارك والأشكال الخمسة لحجرة السعادة

وصب حائط من الرصاص حول القبر النبوى الجليل

وجناية محاولة نقل النعوش الثلاثة المباركة المقدسة إلى

قاهرة مصر فى عهد العبيديين

فى تعريف هيئة الحجرة المعطرة النبوية بعد أن تحول سقف الحجرة إلى قبة بعد تجديد مربع قبر السعادة وتعميره

أبلغ السلطان قايتباى المصرى قبل الحريق الثانى بقليل أن مسجد السعادة وخاصة أسطوانة صندوق القبر فى حاجة إلى التعمير، وأرسل المشار إليه شخصًا يسمى شمس الدين بن زمن بعد أن عينه أمينًا للبناء إلى المدينة المنورة ليسوى قطع رخام الحجرة المعطرة بعد أن يصلح أسطوانة الصندوق الشريف التى انشقت بعد أن أمده بمال كاف وذلك فى سنة ٨٨١هـ.

وبناء على التعليمات التى تلقاها شمس الدين بن زمن عاين حرم السعادة، وجدد أساطينه ورمم أسطوانة الصندوق الشريفة بإنقاص إحدى أسطوانات مسجد قباء، ورفع قطع الرخام التى على أرضية الحجرة المعطرة من الزاوية الشمالية للجدار الذى أقامه عمر بن عبد العزيز إلى زاوية الجدار الشرقية.

وبينما كان ينزل كسوة القبر وجد فرجة فى الجدار السابق الذكر مغطاة بالطوب اللبن وصبغت بمونة من الجص وأمر بفتح هذه الفرجة بقصد كشف ما بين الجدارين ومعاينته، ومن هنا ألقى نظرة إلى الجدار الذى أحاط به عمر بن عبد العزيز القبور الثلاثة ورأى فرجة فى هذا الجدار أيضا فرجة مستديرة فأمر بفتحها أيضا، وكان هذا الثقب فرجة تسع يدًا فى التقاء زاويتى الشرق والشمال للجدار القديم فوسع شمس الدين بن زمن هذه الفرجة وعاين داخل مربع القبر وكشفه، وفى آخر الأمر فكر قائلاً كيف أسد هذه الفرجة التى فى الجدار القديم؟ فتحير واضطرب وترك هذا العمل فى الإصلاحات وجمع فى داخل

مقصورة الحجرة المعطرة مجموعة من الناس وعقد مجلسًا فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة حتى يعرف كيف يستفتى فى هذا الموضوع.

وقررت هيئة الشورى التى اجتمعت داخل المقصورة الشريفة تجديد الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز قديمًا و فى الرابع عشر من شعبان فى تلك السنة هدموا ذلك الجدار إلى أن بقى إلى سطح الأرض أربعة أذرع، وأنزلوه على الأرض وذلك بعد رضا شمس بن زمن ورأيه، وبينما كان يهدم هذا الجدار ظهرت بعض الأخشاب محروقة الأطراف من بقايا الحريق الأول، وأخرجوا سواء أكانت هذه الأخشاب المحترقة أو أجزاء الأنقاض الكبيرة التى بين الجدار القديم والجدار الجديد.

كان الجدار الذى بناه عمر بن عبد العزيز أو الجدار القديم قد بُنِى مقدار أربعة أذرع منها بالحجارة، وكان نصف الأسطوانة من الأسطوانة التى فى الجهة الشمالية من الجدار القديم ظل خارج الجدار ونصفها فى داخل الجدار المذكور مع ذلك لم يكن هناك باب للدخول فى داخل مربع القبر الشريف.

وقد رأى ابن زمن فكرة هدم جدار عمر بن عبد العزيز وجدار الجهة الشامية من مربع قبر السعادة وتحويل السقف إلى القبة كما صوبت هيئة مجلس المقصورة تلك الفكرة السخيفة دون أن تراعى الأدب وأخذ يهدم الجدار القديم.

وكان الإمام السمهودى على قيد الحياة فى ذلك الوقت، فذهب إلى شمس بن زمن إذ رأى جرأته المتولدة من الجهل وقال له: «إن هذه الحركة منافية لقانون الأدب ورعاية الأخلاق، إذ يلزم الاختصار فى تجديد مبانى الحجرة المعطرة على قدر الإمكان». والتزم الرأى الذى يرجح عدم هدم الجدار القديم، ولكن أحدًا لم يعر اهتمامًا رأيه فهدموا جدار مربع حجرة السعادة فى الجهة القبلية والغربية أربعة أذرع منها وعندما أرادوا أن يهدموا جدران الجهة القبلية والغربية حتى الأرض وأن يبنوها من جديد، وجدوا جدارًا صغيرًا مبنيًا باللبن فى طول أكثر من ذراع وفى عرض نصف ذراع تركوه تيمنا فظل فى داخل الجدار القبلى فى ارتفاع

ذراع واحد كما وجدوا مثل هذا الأثر لبناء قديم فى الجهة الغربية فلم يتجرءوا على هدم جدران هاتين الجهتين هدمًا تامًا.

يوم أن هدمت حجرة السعادة امتلأ داخل مربع القبر الشريف بأنقاض الجدران المتهدمة، فدخل كثير من الناس داخل مربع القبر اللطيف فأخرجوا التراب والغبار خارج المربع ونظفوا داخل الحجرة المعطرة.

وكان الإمام السمهودى قد دُعِىَ لهذا الاجتماع السامى أيضا إلا أنه لم يستجب خوفًا من أن يحدث ما يعكر الصفو وسوء الأدب وفى الآخر أرسل له أمين البناء شمس بن زمن رسولاً خاصًا ورجاه أن يشرف الاجتماع ولما كان غلب عليه شوق زيارة داخل حجرة السعادة استجاب للدعوة الثانية بلا تردد ودخل بكل خضوع وخشوع بعدأن استأذن من روح النبى والرسول ﷺ.

عرف أحد أصدقاء الإمام السمهودى كيفية دخوله وخروجه من مربع قبر السعادة إذ قال له: «عندما دخلت فى داخل حجرة قبر السعادة تأثر دماغى برائحة لم تشمها قوة شامتى فى طول عمرى».

«بعد أن أديت مراسم الصلاة والسلام ورجاء الشفاعة من صاحب الشفاعة العظمى النبى ﷺ، ففتحت عينى وألقيت نظرة إلى ساحة السعادة المباركة، لم يكن على سطح الحجرة الشريفة ما يشبه القبر، ورأى الذين كانوا معى مكانًا مرتفعًا فى وسط الحجرة وذهبوا إلى أن هذا المكان هو القبر الجليل، وشرعوا يأخذون من فوقه بعض الأتربة تيمنًا وأن يخفوه، إلا أنهم كانوا مخطئين فى رأيهم هذا، لأن قبر السعادة كان فى الجهة القبلية من الحجرة المعطرة وجدارها حتى إن اللحد الشريف يعد جزءًا منه تحت أساس الجدار القديم، إذ يروون نقلاً عن جابر بن عبد الله الأنصارى، عندما دفن جسد النبى المبارك نثر ماء فوق قبر النبى لامع الأنوار وبدأ من جهة رأس النبى ﷺ وأتم فى ناحية قدمى الرسول المباركة، ولما كان المرور من بين القبر الشريف والجدار القديم غير ممكن يعنى لم يكن هناك فاصل بين الجدار القبلى لحجرة السعادة والقبر المنيف إلا قدر

إصبعين، فصب بلال الماء إلى هذه الجهة من القبرة من فوق الجدار الذى فى الناحية القبلية من الحجرة المعطرة». انتهى.

ومن مؤلف طبقات ابن سعد نقلاً عن محمد بن عبد الرحمن أن محمد بن عبد الرحمن قال: «كان أبى حاضراً عندما انهار الجدار الذى فى مربع السعادة فى عهد عمر بن عبد العزيز؛ وكان يقول: «عندما انهار جدار مربع قبر السعادة كنت بجانب حجرة السعادة، فنظرت من مكان السقوط داخل مربع القبر الجليل. كان ما بين مرقد السعادة وحجرة عائشة ـ رضى الله ـ عنها المنيرة قدر شبر واحد، فأنا أيضًا أصدق أن نعش النبى ﷺ قد وضع إلى اللحد الشريف من الناحية القبلية وأؤيد تلك الرواية، وبما أن روح النبى ﷺ قبضت فى هذا المكان فالمكان الذى توفى فيه هو أشرف بقاع الأرض ومن هنا دفن فى هذا المكان»، انتهى.

بعد أن كنس سطح حجرة السعادة وأخرجت أنقاض الجدار المنهار إلى الخارج شرع شمس بن زمن فى بناء الأماكن المنهدمة ذاكرًا اسم الله فجعل عرض الجدار الشرقى فى عرض أساسه الأصلى يعنى فى سمك ثلاثة أذرع كذلك ذراعين ونصف من السمك، وأدخل العمود الملاصق للجدار الشامى فى داخل الجدار المذكور، ومن هنا جاء سمك الجدار الشامى لمربع قبر السعادة أكثر سمكًا من جدران الجهات الأخرى وأصبحت جدار جميع الجهات يختلف بعضها عن البعض فى السمك، وكان اليوم الذى بدأت فيه العمليات يوافق السابع عشر من شهر شعبان من السنة المرقومة[1].

ولما كان ما بين الجهة الغربية والشرقية على شكل طولى، وكان بناء القبة عليه يرى غير قابل للتنفيذ.

ولكن بما أن قرار إنشاء قبة فوق مربع القبر الجليل كان قطعيًا والتحرك خارج هذا القرار غير ممكن لذا قد جعل شمس ابن زمن بناء على تصويب المهندسين ورأيهم حجرة السعادة مربعة وذلك بفتح باب من جهة قدمى السعادة من الحجرة

(١) سنة ٨٨١ هـ.

المعطرة، فى ارتفاع اثنى عشر ذراعًا يعنى قد ضيق وقصر طول الجدارين والباب المفتوح وجعل داخل مربع حجرة السعادة فى شكل مربع ولما بنى الجدار الشامى بأحجار منحوتة شاد فوقه قبة فى ارتفاع ثمانية عشر ذراعًا آدميًا عن سطح الأرض وفتح فى وسط الجدار الشامى بابًا صغيرًا وأدخل الحجرة الشريفة ابن أخيه وصهره لتسوية ما فوق القبور الثلاثة، والرجلان اللذان أدخلا داخل قبر السعادة قد فرشا فوق القبور الثلاثة رملاً على شكل ظهر السمك مثل قبور بلاد الروم حَسْبَ تصورهما وبخرا مرقد السعادة بإيقاد كثير من العود والعنبر وكانت القبور الثلاثة بجانب الجدار القبلى.

بينما كانت القبور الثلاثة تبخر وتسوى قدم كثير من العرض حالات المكتوبة إلى عتبة الرسول صاحب الشفاعة الموفورة وسد الباب الصغير الذى فتح فى وسط الجدار الشامى وركز فوق القبة العالية التى ارتفعت إلى السماء علم مصنوع من النحاس وطلى بذهب خالص.

وإن كان شمس بن زمن قد بنى وأسس هذه القبة فى غاية المتانة إذ جعل بين الأعمدة الموجودة أعمدة أخرى قدر اللزوم وعقد عقودًا فوق تلك الأعمدة، إلا أن قمة القبة قد انتقضت وسقطت بعض أجزائها، وبناء على الأمر الذى ورد من الحكومة المصرية قام شيخ الحرم شاهين الشجاعى بهدم الأماكن التى تحتاج إلى الهدم بعد الكشف عنها، وقام ببنائها من جديد وكان ذلك فى عام ٨٩٢

وقبل أن يهدم شاهين الشجاعى المواضع التى فى حاجة للهدم أمر بكنس داخل الحجرة الشريفة احترامًا ورعاية للقبر الشريف، وأمر بعمل سقف احتياطى وتصور بأنه بهذه الطريقة سيحمى داخل الحجرة الشريفة من سقوط الكناسة وجعل العمال يعملون بهدوء حتى انتهوا من التجديد.

ودامت حجرة السعادة خمسًا وأربعين سنة بعد أن عُمِّرَتْ على تلك الصورة متماسكة إلا أنه قد شوهدت علامات الانهيار فى الجدار الغربى والخلل، وأعلم

بالأمر العتبة السليمانية، عتبة البر والإحسان فما كان من السلطان إلا أن عين الموظفين والمهندسين لتعمير وتشييد ذلك الجدار، وأرسلهم إلى المدينة، ووصل الموظفون المكلفون إلى المدينة فى سنة ٨٩٣ هـ وشيدوا ذلك الجدار بكل احترام وتعظيم وأحكموا بناءه ثم فرشوا خارج الحجرة المعطرة وداخلها بقطع رخام مجلاة كما زخرفوا الجهات الأخرى وزينوها بشكل يجذب الأنظار، وغلفوا القبة الخضراء بألواح رصاصية وجعلوا رأس العلم الذى وضع فى مركز القبة من ذهب خالص وأماكنه الأخرى من فضة ووضعوه فى شكل بحيث يُنِيرُ ويضئ مسافات بعيدة وجعل العمال الذين استخدموا فى البناء يعملون بكل تعظيم وتفخيم للمكان فلم يحس أن فى الحجرة المعطرة نجارين أو بنائين يعملون.

ولما تم تجديد الجدار الغربى سنة ٩٤٠ كتبوا عليه هذين البيتين:

ألا يا رسول الله يا خير رافـع ... وأكـرم مبعوث إلى خير أمـة
من يحمـى التنزيـل بجاهـه ... ومن هو للمأمول أعظم شافع

وبعد أن ذيلوها ببسملة وتصلية كتبوا عبارة (جدد هذا المكان الشريف السلطان الملك المظفر سليمان خان بن السلطان سليم خان بن بايزيد خان فخر آل عثمان خلد الله ملكه بمحمد وآله وصحبه وسلم؛ تاريخ إتمامه شهر جمادى الآخرة فى سنة (٩٤٠).

وعلقت فوق التاريخ المذكور لوحة مزينة كتبت عليها بخط التعليق القطعة الآتية إلا أنه لا يعرف من صاحب هذه القطعة ولا التاريخ الذى علقت فيه لعدم وجود أية إشارة لذلك كما أن واقفها مجهول.

قطعة

يامزين العرش إكليل زينة عمرك أرسلناك
لما كان هناك مكان لشئ لو لم ينفذ أمر خطة مولاك
ليس بشيء أن يكون بابك المقدس تاجًا للملوك
فأنت ملك الملوك يا سلطان مولاك

بعد تعميرات المرحوم السلطان سليمان بـ (٢٩٣) سنة أبلغ الباب العالى أن أعلى قبة مسجد السعادة قد انشق، وبناء على الأمر السلطانى الذى صدر لأشراف مكة فهدموها وجددوا أعلى القبة وجعلوها فى غاية المتانة والرصانة، وحتى تصان قبة حجرة السعادة من التراب والغبار صنع بين القبتين سقف احتياطى وجعل العمال يشتغلون فى غاية الأدب فى الداخل، وقد تطوع كثير من أهالى مكة فى هذا العمل متيمنين متبركين، ولما أبلغ الأمر إلى باب من له القرار أرسل السلطان محمود خان العدلى من جيبه الخاص الهدايا للأشخاص الذين عملوا متطوعين متيمنين.

وبعد الحساب نال كل واحد منهم مائتين وخمسين قرشًا وذلك فى سنة (١٢٣٣هـ).

وكان لون قبة مسجد السعادة الكبيرة إلى سنة ١٢٥٣هـ فى لون الرصاص، وكانت تعرف بالقبة البيضاء والقبة الزرقاء والقبة الفيحاء وبناء على الأمر الذى صدر من السلطان المشار إليه طلوها باللون الأخضر وبعد ذلك أطلق عليها القبة الخضراء، وفى سنة ١٢٨٩هـ جدد لون القبة الشريفة المذكورة باللون الأخضر وفى الجهة القبلية منها وفى محاذاة الحجرة الشريفة باب صغير، وكان يقال لهذا الباب فى ذلك الوقت باب القبة البيضاء، وكان ذلك البويب قد فتح بناء على رأى السيدة عائشة؛ وقد غطى شاهين الشجاعى باب القبة البيضاء بقفص من حديد ـ كما ذكر فى بحث القبور الثلاثة ـ وفتح نافذة تحت الباب المذكور وفى محاذاة النافذة التى فوق قبة الحجرة المعطرة نافذة أخرى غطاها أيضا بقفص؛ ولما كانوا قد ركبوا مصراعًا لهذه النافذة كانوا يفتحون ذلك المصراع عند الدعاء، أما فى زماننا يفتحون باب التوبة.

والشكل الآتى بين هيئة حجرة السعادة التى جددت فى عهد السلطان قايتباى سنة ٨٨١هـ وتحت نظارة شمس بن زمن وبما أنها ظلت سليمة بعد الحريق الثانى فهى مازالت باقية إلى الآن.

والخط الدقيق الذى يرى فى خارج هذا الشكل فهو الجدار الجديد الذى بنى فى عهد عمر بن عبد العزيز والخط الثانى الغليظ يمثل الجدار القديم الذى بنى قديمًا لربع قبر السعادة، إن الفاصلتين اللتين فى الجهة الشرقية والشمالية علامة على أن هذه الأماكن ليست من داخل الحجرة المعطرة.

والموقع المبارك الذى أرى بخط موسوم فى الجهة الشمالية هو بيت خاص بوالدتنا السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وأن قبرها المنير من الساحة السعيدة التى ذكرت آنفًا والأرقام الموضوعة فوق الشكل فهى إشارات توضيحية للأماكن التى يحويها الشكل فى أسفله.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	الجهة القبلية
٢-	المسمار الفضى.
٣-	أسطوانة الصندوق
٤-	الأسطوانة التى تصفها فى داخل الجدار والنصف الآخر فى خارجه.
٥-	هذه الأسطوانة متصلة بالجدارين.
٦-	هذه الأسطوانة أسطوانة قبر السعادة.
٧-	قبة الحجرة الشريفة.
٨-	بقيت هذه الأسطوانة داخل الجدار.
٩-	مقام جبريل عليه السلام.
١٠-	دار فاطمة رضى الله عنها.
١١-	الأسطوانة الشمالية
١٢-	هذا الخط الرفيع علامة الجدار الجديد.
١٣-	هذا الخط الغليظ إشارة للجدار القديم والخط الوهمى الذى يحيط الشكل من جهاته الأربع علامة شبكة الحجرة المعطرة.

وإن كان هذا الشكل يمثل وضع الحجرة المعطرة الذى تم تحت نظارة شمس بن زمن ولا شك فى ذلك إلا أن مؤرخى الأسلاف اختلفوا فى صورة تنظيم ورسم خريطة حجرة السعادة إلى خمسة أقسام أو فرق ورسمت كل فرقة خريطة وادعوا أن الخريطة التى رسموها هى الصحيحة.

إذا ما ألقيت نظرة لأية واحدة من هذه الخرائط الخمس فمن الطبيعى أن تقبل الخريطة سالفة الذكر والتى صدقت صحتها من قبل المؤرخين المتأخرين، والخريطة الرابعة من الخرائط الخمس من البديهى أنها توافق الشكل المذكور بالنسبة للأخريات.

فبما أن كل هذه الخرائط الخمس تمثل خريطة حجرة السعادة فرأينا عرض جمعها من الوظائف المبروكة.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	الجهة القبلية
٢-	الحجرة المعطرة
٣-	الخط الغليظ علامة الجدار القديم والخط الرفيع الذى حوله علامة الجدار الجديد.
٤-	الجهة الشمالية
٥-	الجهة الغربية
٦-	الجهة الشرقية والخط الوهمى الذى يحيط بالشكل من جهاته الأربع علامة الشبكة المباركة.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	حجرة السعادة
٢-	علامة الجدار القديم
٣-	يستقبل الشرقية، كان باب النبى ﷺ وباب على فى هذه الجهة وهدم مؤخراً وضمت ساحتهما فى مسجد السعادة.
٤-	الباب الذى كان ينظر إلى جهة الشام لدار عائشة كان هنا.
٥-	بيت فاطمة.
٦-	علامة الجدار الذى مدته السيدة عائشة قد فصلوا الحجرة المعطرة بهذا الجدار.
٧-	الجدار الذى هدم فى عصر عمر بن عبد العزيز.
٨-	الجهة الغربية
١٠-	أسطوانة مقام جبريل
١١-	أسطوانة مربع القبر الشريف.
١٢-	علامة جهة رأس النبى.
١٣-	المسمار الفضى.
١٤-	الأسطوانة
١٥-	شبكة السعادة
١٦-	علامة الجدار الجديد
١٧-	الجهة الشمالية
١٨-	الجهة القبلية وكانت حجرات زوجات النبى المطهرات فى هذا المكان.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	جهة القبلة
٢-	مسمار الفضة.
٣-	اسطوانة الصندوق
٤-	الاسطوانة التى نصفها فى داخل ونصفها الآخر خارج هذا الحائط.
٥-	الأقدام المباركة لحضرة الفاروق رئيت من هنا.
٦-	أسطوانة الصندوق.
٧-	حجرة السعادة.
٨-	الحائطان الملتصقان بعضهما ببعض.
٩-	أسطوانة مربعة القبر الجليل وهيئتها الخارجية المثمنة.
١٠-	مقام جبريل.
١١-	بيت الحائط الذى سقط.
١٢-	مكان المحل الشريف الذى تشقق فى عصر شمس الدين بن زمن.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	جهة القبلة.
٢-	المسمار الفضى.
٣-	الأسطوانة التى نصفها فى الداخل ونصفها فى الخارج.
٤-	أسطوانة الصندوق.
٥-	الأسطوانة.
٦-	مربع القبر الشريف
٧-	مقام جبريل.
٨-	حجرة السعادة
٩-	الأسطوانة التى ظلت داخل الحائط.
١٠-	بيت فاطمة.

الرقم	الإشارات المخصوصة
٢-	الأسطوانة التى فى مواجهة حضرة الفاروق.
٣-	أسطوانة الصندوق
٤-	أسطوانة مربع القبر الشريف
٥-	المكان الذى يلتصق فيه الجداران.
٦-	مقام جبريل
٧-	حجرة السعادة
٨-	الحائط الذى انهار فى عهد عمر بن عبد العزيز.
٩-	هذا الخط العريض علامة الجدار القديم والخط الرفيع إشارة الجدار الجديد.
١٠-	شبكة السعادة.

بعد أن نقلنا هذه الخرائط مختارين من كتاب وفاء الوفاء وهو كتاب تاريخ عتيق، اضطررنا إلى مراجعة النموذج الذى عرض على حضرة الخليفة وهى الخريطة التى صنعت من قبل العاجز[1] مطابقة لآخر خريطة أخذت بعد التعمير الأخير وصنعت بالمساحة لتوضع فى جامع خرقة السعادة للسلطان المرحوم عبد المجيد خان ليفهم أيَّة واحدة من هذه الخرائط مقارنة للصحة، ولا يخطئ الشخص إذا ما حكم على أن خريطة حرم السعادة المستخرجة من النماذج المختلفة على الشكل الآتى وبناء على هذا الشكل فالخريطة التى خطها الإمام السمهودى يعنى الخريطة التى عرضت فى الشكل الأول صحيحة.

(١) يقصد المصنف بكلمة العاجز نفسه.

الرقم	الإشارات المخصوصة
١-	حجرة السعادة
٢-	الخط الداخلى علامة الجدار الداخلى والخط الخارجى علامة الجدار الخارجى.
٣-	بيت فاطمة الشريف
٤-	مقام جبريل
٥-	جهة القبلة
٦-	جهة الشرق
٧-	جهة الغرب
٨-	جهة الشمال

إحاطة حجرة السعادة بجدار من الرصاص

كان الملك العادل الشهيد نور الدين محمود بن زنكى أقسنقر من صلحاء الملوك، وكان من عادته أن يتهجد كل ليلة بعد أداء صلاة العشاء وبعد أداء الصلاة كان يتلو القرآن ويقرأ أورادًا خاصة، وفى ليلة من الليالى قام بأداء الصلاة وقراءة أوراده الخاصة وفق عادته، ثم ذهب لينام، وفى أثناء نومه رأى ثلاث مرات النبى ﷺ كنز خزنة الإعجاز، وفى كل مرة يرى فيه صاحب الآيات الباهرة عليه التحية الزاهرة كان يريه شخصين قبيحى السحنة أحمرى الوجه ويقول: يا نور الدين! خلصنى من هذين الشخصين!!! وحينما استيقظ من نومه استدعى وزيره جمال الدين الموصلى والذى كان من صلحاء الأمة، وبناء على رأى وزيره اصطحب معه عشرين من جنوده الفرسان، ودون أن يخبر أى مخلوق توجه صوب المدينة المنورة عن طريق مصر وقيل من الشام ووصل إلى دار السكينة بعد ستة عشر يومًا وبعد الزيارة أراد أن يوزع العطايا من الذهب والفضة على أهالى المدينة فردًا فردًا وفق ما هو مقيد فى سجلات الأسماء.

وكان هدف الشهيد نور الدين من توزيع العطايا أن يجد أو يتعرف على الخائنَيْن من بين أهل المدينة وأن يعاقبهما العقاب الذى يستحقانه، وأخذ الناس يردون إلى حضرته ليحصلوا على عطاياهم، وكان يقارن وجوه كل من أتوه بصورة وجوه هذين الشخصين اللذين رآهما فى منامه؛ وكان متلهفًا لإظهار هذين الشخصين ولكن للأسف لم يتمكن من العثور على هذين الشخصين ضمن الذين حضروا لتلقى الصدقة، وانقطع سيل الواردين من أهل المدينة، عندئذ قال: «أليس هناك من لم يأخذ صدقته؟! إذا كان هناك من لم يأت استدعوهم لينالوا صدقاتهم». «فقالوا» لن يأتى أحد لأخذ الصدقة لأنه لم يبق هناك أحد؛ إلا أن هناك شخصان يتصفان بعزة النفس وزهد عن الدنيا وهما من أهل المغرب ومعروفان بكمال الصدق والعفة وهما فقيران مستدينان ولن يقبلا أخذ الصدقة»، وعندما تلقى هذا الرد قال: «لا، لابد من إحضارهما أيضا، وبهذه الإفادة الصائبة أمر بإحضار هذين الملعونين ظاهرى القذارة، ولما رأى مواطنو دار السكينة أن نور الدين مصر على رأيه، أحضروا مضطرين هذين اللذين تشبه سحنتهما سحنتى الغيلان، ولما كان هذان الشخصان يشبهان الخنزيرين اللذين أراه النبى ﷺ تمام الشبه، أخذهما نور الدين إلى حجرتهما الكائنة[1] قرب حجرة السعادة ورأى كتبًا نفيسة وأشياء غالية ولم يغتّر بشهادة الذين كانوا معه لهذين الوغدين بحسن السيرة، ورفع الحصيرة التى تغطى الحجرة فرأى نفقًا عميقًا وكان هذا النفق طريقًا مائلاً إلى السعة وينتهى إلى حجرة السعادة!! وكان سادات المدينة يشهدون بحسن سلوك هذين النجسين ويثنون عليهما، وعندما حدث ما حدث أحنوا رءوسهم خجلاً واستحياء ولم يجدوا ما يقولون، وتولى نور الدين بنفسه استنطاق هذين الخبيثين وشمر ساقه مستفسرًا عن حفر النفق، إلا أنهما أصرا على إنكارهما وهنا أمر بتعذيبهما وتهديدهما حتى يحصل على السبب الحقيقى فى حفرهما النفق، وضربهما ضربًا مبرحًا، وعندئذ عرف المغربيان أنهما لن يخلصا من آلة التعذيب بدون قول الحقيقة وشرعا فى

(١) كانت أبنية رباط العجم فوق ساحة هذه الحجرة.

الكلاتم وقالا: «إننا من مشركى أرض المغرب، ولسنا مسلمين إلى الآن، وقد جئنا إلى المدينة بحيلة أداء فريضة الحج وزيارة مرقد صاحب المعراج وأقمنا فى هذه الحجرة وغايتنا أن نسرق نعش النبى محمد ونحمله إلى أرض المغرب!!، وقد بعث لنا المغاربة نقودًا طائلة أكثر أنفقناها واستهلكناها ولَمَّا رأينا أننا لن نستغفل أهل المدينة بصرف النقود وإنفاقها لبسنا رداء الزهادة والتففنا بستار العفة حتى نظهر فى هيئة الصدق والوفاء وبهذه الصورة وفقنا فى استغفال الأهالى.

وأخذنا فى مزاولة عملنا، كنا نقضى الليالى بحفر النفق، وفى النهار كنا نملأ الأكياس بتراب ما حفرناه ونذهب إلى مقبرة بقيع الغرقد بقصد زيارتها حيث نفرغ الأكياس من التواب، وعندما اقتربنا بقبر السعادة ظهرت فى السماء أصوات الرعود والصواعق، الأمر الذى أقلقنا بل أخافنا خوفًا شديدًا، وفى الصباح انتشر خبر تشريف سلطنتكم، هذه هى الحقيقة.

واستمع نور الدين إلى هذه الأقوال بآذان ملؤها الحيرة والاضطراب وأسال دموع الرقة فى نهايتها، وأمر بقتل وإعدام المغربيين فأعدما بدون توقف تحت الشباك الشريف، وبهذا بين أن الذين يقصدون حجرة السعادة بسوء يستحقون جزاء الإعدام.

علاوة وإضافة

سمعت أنا محرر هذه الحروف من بعض الأشخاص أن الشهيد نور الدين أوقد فانوسًا ونزل فى النفق المحفور وذهب حتى نهاية الحفرة وهنا سقط بعض التراب وامتدت يد جسمان النبى الطاهر فقبلها وعادت، فما أحسن ما ناله من سعادة أبدية، ونعم ما حصل عليه من عناية سرمدية.

بعد أن أعدم حضرة نور الدين هذين السافلين حفر حول الحجرة الشريفة التى طاف حولها بخشوع وأزال التراب قرب سطح الماء ولما صار المكان الذى أخرج منه التراب خندقًا عميقًا فأسال فى هذا الخندق العميق رصاصًا مُذَابًا أى حفر خندقًا حول مرقد السعادة حتى مكان ظهور الماء دائرًا ما دار وملأ داخل هذا

الخندق برصاص مذاب فأحاط حجرة السعادة بسور من الرصاص، وذلك فى سنة (٥٥٧هـ).

ونقل المؤرخ جمال الدين المطرى هذه القصة بصورة أخرى ولم يذكر الجدار الرصاصى الذى مد حول مرقد السعادة، وبناء على نقل جمال الدين المطرى أنه فى سنة خمسمائة وسبع وخمسين دخل السلطان نور الدين محمود بن زنكى بن أقسنقر إلى المدينة الطاهرة بغتة بألف من الفرسان، وأخذ يوزع العطايا ـ كما ذكر آنفًا، ولكنه لم ير أحدًا ممَّن يشبه الغيلان مثل اللذين رآهما فى رؤياه فسأل: هل هناك من لم يأخذ الصدقة؟ فأجيب من قبل سادات المدينة المنورة أن هناك فى داخل الديار العشر أى فى دار آل عمر التى تقع فى الجهة القبلية للحجرة الشريفة يسكن مجاوران إلا أنهما معروفان بأنهما لا يأخذان الصدقة وموصوفان بالزهد والصلاح فإنهما لن يأتيا هنا فأحضرهما بالقوة وابتدر فى إجراء التعذيب وفهم منهما أنهما قد أرسلا من متعصبى مشركى المغاربة بغرض نقل نعش الرسول ﷺ إلى بلادهما فقطع عنقيهما أمام الجدار الشرقى للمسجد الشريف وبين أن هذين الشخصين قاما بحفر بئر فى دار آل عمر فى داخل الديار العشرة وملئوا هذه البئر بتراب النفق الذى حفراه.

رواية المطرى هذه تشعر بوصول الشهيد نور الدين إلى المدينة المنورة، وإذا ما نظر إلى أن الرباط[1] الذى سكن فيه المغربيان يعرف اليوم برباط العجم فالرواية الأولى أقرب إلى الصحة.

قال بعض أصحاب الوقوف من أهالى المدينة: «لما استدعى الشهيد نور الدين أهل المدينة لتوزيع العطايا أولم وليمة بعد أن نصب خيمة أمام باب الحصن الذى يطلق عليه الآن اسم باب الضيافة، وأطلق فيما بعد على هذا المكان اسم دار الضيافة وبهذا التعريف يقصون مجئ المشار إليه إلى المدينة المنورة حسبما فصل أعلاه، إلا أنه ليس بصحيح أن الشهيد نور الدين أقام ضيافة وإطلاق دار الضيافة لذلك المكان.

(١) دائرة المشيخة يعنى دار شيخ الحرم فوق ساحة هذا الرباط.

وإن كان فى الجهة الشامية من مئذنة العزيزية دكانًا يطلق عليه دار الضيافة إلا أنَّ هذا المكان ليس الموقع الذى استضاف فيه الشهيد نور الدين أهل المدينة بل ساحة البيت الذى كان يملكه حضرة عبد الرحمن بن عوف، وبما أن النبى ﷺ الكريم المحب للضيافة يطعم الضيوف الواردين فى هذه الدار أطلق عليها دار الضيافة وظل اسمها كذلك، وبما أن شارع حصن المدينة الميمونة يمر من هنا وينتهى إلى الباب الذى فى تلك الجهات فأطلق على هذا الباب باب الضيافة.

ينقل ابن النجار فى تاريخه الذى سطره عن بغداد ـ شبيهة الجنة ـ حكاية تشبه واقعة الشهيد نور الدين ويقول: «إن زنادقة العبيديين ذوو أفكار مشينة ابتدروا فى دس الدسائس واحتالوا على إضلال ملك مصر وقالوا: «إذا وجدنا يا ملكنا طريقة لإحضار أجساد النبى ﷺ وأبى بكر الصديق وعمر إلى مصر ذات الأهرامات، كان كبراء الممالك التى حولنا وأشراف بلاد الأكناف، يأتون إلى هذه الجهة رغبة فى الزيارة وبهذا تصبح القاهرة تكية الأنام ومستند الإسلام».

استحسن ملك البلاهة ما عرضه الزنادقة وتلقاه قبولاً حسنًا ورأى أن يبنى فى مصر ضريحًا مزينًا فخمًا وينقل جسد النبى الشريف فى هذا الضريح، وأمرأبا الفتوح من أقرب عبيده لنفسه وأخلص أتباعه بعد أن أرسله إلى المدينة واستعجله بأن يرسل الأجساد الثلاثة إلى مصر بأية طريقة كانت، ولما وصل أبو الفتوح إلى المدينة أخذ يلمح إلى سادات الأهالى عمّا فى ضميره وأنه سيعمل على إيفاء مأموريته وبين لهم سبب وروده إلى المدينة. وأراد السادات الذين أصابهم الهم والغم من هذا الموضوع أن لا يكشفوا عن الموضوع إلى أهل المدينة علنًا بل أن يفهموهم ضمنًا.

ومن هنا أحضروا المرحوم الزلبانى من مشاهير قراء المدينة وطلبوا منه أن يقرأ

عشرًا من القرآن الكريم، وتلاه المرحوم الزلبانى ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٣).

وقد فهم الحاضرون مما تفيده الآيات الكريمة من المعانى سبب مجئ أبى الفتوح وأخذوا فى القيل والقال وبعد منازعات طويلة ومناقشات مديدة قرروا أن يقتلوا الخوف والهم إلا أنهم قالوا: «إن البلاد الحجازية تحت الإدارة المصرية الآن، فإذا ما قتلنا أبا الفتوح فكأننا نثير غضب ملك مصر ونستدعيه ليبعث جنودًا كثيرة إلى المدينة ليؤدب سكان دار السكينة، ومن رأينا أن نعيد أبا الفتوح إلى مصر صفر اليدين من هنا تفرق القوم وقد صرفوا النظر عن قتل أبى الفتوح، وانسحب كل واحد منهم إلى جهة ما وكونوا جماعات صغيرة وبادروا فى التشاور فيما يجب عمله بهذا الخصوص.

عندما رأى أبو الفتوح هذه الحالة فاق لنفسه واستجمع عقله وقال: «إن الخوف من الله خير من الاحتراز عن عباده، وإننى لن أتجرأ بعد ذلك على إجراء مهمتى وإن تأكدت أن ملك مصر سيهلكنى لعدم تنفيذ هذا العمل الشنيع».

وقد بلغ قلقه واضطرابه حدًا لم يعرف منهما كيف انصرف من المجلس، ومع ذلك كان يرجو أن يظهر فى الميدان حكمة ما تسكن من غيظ وحدة ملك مصر، وبعد انتهاء الاجتماع ظهرت عاصفة شديدة وترك أهالى المدينة دون عقل وشعور وكأن الكرة الأرضية قد تحركت وأخذت تضرب الحيوانات بعضها ببعض الحيوانات التى تسير فى الصحارى والحقول والجبال فأتلفتها جميعًا، وهذه الحالة كانت باعثًا للفرح والسرور لأبى الفتوح، إذ عاد إلى مصر دون تأخير قائلاً: «أعرض على ملك مصر هذه الحالة المفزعة وأعتذر له عن عدم تنفيذ أمره».

إخطار

كلما تعرضت الحجرة المعطرة لسوء قصد ظهر فى المدينة الزلازل المفزعة والعواصف المخيفة، وفى الواقع لم تظهر فى المدينة المنورة بعد نار الحجاز المنذرة عواصف يحترز عنها ولا الزلازل ولا الحالات المخيفة ما لم تتعرض الحجرة الشريفة لسوء قصد ولم يثبتها التاريخ ولكن كلما حدث سوء قصد للحجرة الشريفة أو حدث شيء مخلاً بالآداب أمام القبر النبوى حدث إما زلزال كبير وإما عواصف شديدة مخيفة وقد حدثت لتوقظ أهالى المدينة من غفلتهم، الزلزلة الأخيرة فى سنة ١٢٩٦ الهجرية فى شهر المحرم ثلاث مرات فى يوم واحد مائلة إلى الشدة مما أقلق أهل المدينة وملأهم فزعًا.

وسبب هذه الزلزلة ما أظهره نائب الحرم والحجرة المعطرة تحسين أغا من وقاحة وسوء أدب أمام قبر النبى ﷺ إذ ذهب حالت باشا والى الحجاز فى السنة المذكورة لزيارة المدينة المنورة وأراد تحسين أغا أن يعرض له ولاءه التام لأنه أراد أن يكسب رضا حالت باشا وحسن توجهه له ونتيجة لهذه الفكرة الفجة قال له: «ياحضرة الباشا إن أهل دائرتك يظهرون مخلصين وذوى عقيدة متينة، والمعلومات التى وصلتنا عن حريم سيادة الوالى فى نفس المستوى، هذه فرصة لا تحدث دائمًا يجب أن تقتنصها إذا أذنتم سيادتكم، ندخل عقائل حريمكم توائم العصمة إلى داخل الحجرة المعطرة ونبهج خواطرهن بشرف زيارة القبر النبوى، «وقال حالت باشا»: «إن النساء قد لا يستطعن أن يظهرن واجبات الحرمة والزيارة حسب المقتضى، فإذا ما زرن من الخارج فهذا أفضل»، فأجابه تحسين أغا قائلاً: «لا، لا إن زيارة النساء عادة هنا، تتوضأ النساء ويدخلن داخل الحجرة ويزرن وإذا ما تفضلتم بالموافقة على أصول البلد تحسنوا الصنع»، وهكذا استحصل تحسين أغا الإذن من الباشا، وبناء على هذا جلب تحسين أغا جميع النساء فى دائرة الباشا فى الساعة الرابعة ليلاً من ليالى أوائل شهر محرم الحرام وأدخلهن واحدة تلو الأخرى وجعلن يزرن حجرة السعادة، وكان غرض تحسين أغا أن تنال

النساء شرف الزيارة ولم يكن يعرف أن دخول النساء الحائضات داخل الحجرة المعطرة غبر جائز ولم يخطر بباله أنه يجب ألا تكون بين الزائرات حائضة.

لذا حدث زلزال شديد ثلاث مرات متتالية صباح ليلة الزيارة تماسك الأهالى فيما بينهم، وفى النهاية عرف ما حدث وظهرت الحقيقة فأخرج حالت باشا من المدينة المنورة فى صورة مهينة وأرسل إلى مكة! وإذا كانت الأمور ظلت على هذه الحالة لأمكن أن يقال إنها تأديب خفيف، إذ تعرض حالت باشا بسبب هذه الزيارة للكثير من الكوارث إذ هلك جميع أفراد دائرته واضمحلوا وتشتتوا فى أرجاء الدنيا.

نعم، فالذين يسيئون أدبهم أمام النبى ﷺ يمحون ويتشتتون عقب إساءتهم أمَّا محاكمة تحسين أغا يظهر أنها ستجرى أمام حكيم الأنبياء لأنه كان سببًا فى القضاء على حالت باشا.

جرأة غريبة

حدث فى زمن شيخ خدمة الحرم السعيد شمس الدين أن بعض الحلبيين أرادوا أن يخرجوا نعش أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ليأخذوهما إلى بلدهم.

ودخلوا فى ليلة إلى مسجد السعادة، كما سيأتى تعريفه فيما بعد ـ إلا أن كلهم هلكوا وانعدموا وقد بلعتهم الأرض.

كتب مؤلف الرياض النضرة محب الطبرى راويًا عن هارون بن الشيخ عمر بن قائلاً: «قال شيخ خدمة الحرم النبوى شمس الدين صواب اللمطى بالذات: «كان لى صديق من خاصة والى المدينة المنورة وكل ما يتعلق بالأعمال الحكومية كنت أكلف هذا الشخص القيام به، وشرفنى يومًا فى حجرتى المتواضعة وقال: جاء اليوم بعض الناس من حلب ورجوا أن يؤذن لهم بإخراج الجسدين اللطيفين للشيخين الكريمين ـ رضى الله عنهما ـ وأخذوا إذنًا من أمير المدينة بذلك وقد

أعطوه نقودًا طائلة وبمجرد ما أنهى كلامه جاء رسول من قبل أمير المدينة المنورة وقال تفضلوا معى إن أمير المدينة يريدك، فأخذنى وذهب بى عند الوالى، وعندما دخلنا فى الدائرة الحكومية ورآنى الوالى فقال مؤكدًا: «يا صواب سيدق باب مسجد السعادة بعض الناس ووقتما يدق الباب يجب أن تفتح الباب وتدخل من دقوه فى الداخل ولا تعترض على أى شىء يفعلون وأن تصمت» هذا كان أمره، إننى جلست هذه الليلة فى جهة من جهات المسجد وأخذت أبكى من شدة الهم والغم وسبحت فى بحر الفكر والحيرة عسانى أجد حلاً لهذا الموضوع».

وعقب صلاة العشاء أغلقت الأبواب حسب الأحوال الجارية ثم جلست فى جانب من حجرة السعادة وأخذت أبكى، ودق فى منتصف الليل الباب الذى فى محاذاة دار الوالى، وبناء على الأمر الذى تلقيته فتحت الباب ووقفت خلف مصراعه، فدخل بعض الناس فى الداخل وأغلقوا الباب، فأحصيتهم فردًا فردا كانوا أربعين نفرًا كاملين وكان كل واحد منهم يحمل على ظهره زنبيلاً أو زنبيلين مملؤين بأدوات الحفر، فتوجهوا رأسًا إلى حجرة السعادة، وفى الوقت الذى مروا من محاذاة مئذنة باب السلام واقتربوا إلى أمام المنبر السليمانى، فانشقت أرض المسجد وبلعت هؤلاء الناس جميعًا بآلاتهم وأدواتهم واختفوا عن الوجود، ولما التأمت الأرض المنشقة ظل نصف ملابس أحد الأشخاص الذين ابتلعتهم الأرض خارجها وهكذا أشير من قبل الحق أن هذا المكان هو مكان الانشقاق[1] وبعد مرور مدة طويلة استدعانى والدى عنده وقال لى: «كنت بعثت لك بعض الأشخاص، هل أتوا؟ وكان يريد بهذا السؤال أن يستكشف الأحوال، فقلت له نعم قد أتوا إلا أن الأرض انشقت وبلعتهم ونقلت له القصة كما حدثت، فقفز من مكانه وذهب إلى مسجد السعادة ورأى قطعة الملابس التى ظلت خارج

(١) ويخبر بعض أهل المدينة أن الكيفية قد عرفت للناس فى تلك الليلة بصوت من الهاتف.

الأرض وفهم حقيقة ما حدث ثم التفت إلى قائلاً إذا ما قلت شيئًا فى هذا الموضوع سأعدمك وبعد هذا التهديد أوصانى بأن أكتم ما حدث.

كتب هذه الحكاية أبو محمد بن عبد الله بن المرجانى أيضا فى تاريخ المدينة إلا أن الأشخاص الذين ابتلعتهم الأرض كانوا خمسة عشر نفرًا أو عشرين، ثم أضاف إننى سمعت هذه الحكاية من أبى عبد الله بن أبى محمد المرجانى كما أنه سمع من أبيه محمد المرجانى، كما أن محمد المرجانى سمع من خدم الحجرة الشريفة، وفى آخر الأمر سمعت أنا من ناقله، وبهذه الرواية نقل وبين الحكاية السالفة.

وإن كانت الرواية التى ينقلها أبو محمد تظهر مختلفة عن رواية محب الطبرى إلا أن القول الأول بما أنه منقول عن شمس الدين صواب اللمطى بالذات فإنه مرجح على القول الثانى.

يخبرنا مؤلف طريقة محمد بعد أن ينقل ما قاله حضرة صواب برواية محب الطبرى، كيف مات والى المدينة، وأين تعرض حضرة صواب ومن طرف أى الأشخاص للهجمات بصورة واضحة، وبناء على تحقيق المؤلف المشار إليه أن والى المدينة قد تعرض لمرض الجذام عقب هذه الواقعة وارتحل إلى دار البوار بعد أن تقطعت أعضاء جسمه إربًا إربًا.

إن الزنادقة الظالمين أرسلوا بعض السفاحين وقد اطلعوا على مصير الأشخاص الذين بعثوهم من حلب وكيف بلعتهم الأرض واختفوا إلى الأبد أرسلوهم ليقضوا على حضرة صواب ويقتلوه وقد فرح هؤلاء الأشخاص وابتهجوا إذ دعوا صوابا إلى مجلس حيث تجرءوا لقطع لسانه، إلا أن النبى ﷺ مسح على لسان صواب فرجع اللسان على حالته الأولى كأثر من آثار المعجزة النبوية وأخذ يتحدث ومن هنا تبدل فرح هؤلاء السفاحين وابتهاجهم غما وهما.

أرادت فرقة الزنادقة أن يخفوا ما ارتكبوه من الإهانة عن أهالى الممالك المتجاورة وذلك بفكرة رفع وجود صواب المبارك عن خريطة الحياة فدبروا له

حيلة ورموه فى السجن وجرحوا جسمه المبارك ومزقوه وعرضوه لجروح غير قابلة للالتئام، ولكن طبيب أدواء الأمة ﷺ أخرج صوابًا من السجن. كما أنه ـ عليه السلام ـ أزال جميع آثار الضرب والجروح ومن هنا أمكن إخفاء أحداث الواقعة وسترها.

وأراد والى المدينة أن يخفى عن الناس مكان قطعة الملابس بقطعها ولكن صوابًا كان قد أرى مكان انشقاق الأرض لأهالى البلدة المباركة فى أثناء وقوعه فى أجولة السفاحين، وشرح لهم ما حدث ومن هنا وضع الناس فى هذا المكان قطعة من الحجارة وعرفوا الزوار الذين يقصدون قبر السعادة بأن ذلك المكان مكان الانشقاق ومع مرور الأيام تبدل ذلك الحجر، وفى النهاية وضعت قطعة من الرخام متعددة الألوان الأصفر يختلف لونها عن قطع الرخام الأخرى لتجذب الأنظار.

وما زالت هذه القطعة الرخام فى زماننا هذا، فإذا ما سئل أى واحد من أهالى المدينة يشيرون إليها، وبما أنه لا يوجد فى ساحة حرم السعادة الرخامية قطعة رخام أخرى تشبهها فلا داعى للسؤال عنها من زيد أو عمرو، وعلى الزوار الذين يريدون أن يروا هذه الرخامة أن يبحثوا عنها فى الساحة الرخامية فى مواجهة السعادة بعد أن يدخلوا من باب السلام بين مئذنة باب السلام والمنبر السليمانى.

ينقل لنا مؤلف روضة الأبرار أن لعينًا اسمه أرناط حاكم قلعة كرك مدينة صغيرة فى ولاية الشام وهى ملحقة بسنجق البلقاء يسكنها ثمانية آلاف، نسمة ستة آلاف منهم مسلمون والألفان مسيحيون.

ومركز هذه المدينة قرية كرك التى تقع على مسافة خمس أو ست مراحل من نابلس التى تقع فى الجهة الجنوبية من البلقاء أراضيها ذات محصول وفير منبتة خصبة، لكن بما أن سكانها عشائر غير متحضرة فأحوالها العامة غير منضبطة، وإدارتها محولة إلى الشيخ الذى يطلق عليه القائم مقام، وهذه القرية فى ممر قوافل مصر والحجاز، ولما كان موقعها ذا استحكام طبيعى كانت فى الأوائل

مركزًا تجاريًا، وقام الصليبيون ببناء بعض الحصون فيها كما أن الأيوبيين قاموا بتعميرها وإصلاحها بصورة رصينة متينة حتى أصبحت فى حالة فوق العادة من العمارة ومازالت بعض قلاعها قائمة إلى الآن آثار ملك الفترة المزدهرة.

وقع أرناط فى سنة ٥٧٨هـ فريسة لفكرة نبش مرقد النبى المنير ونقل جسده الشريف تلك الفكرة الخائبة، ومن هنا أمر بصنع بعض المراكب الصغيرة فى قلعة (كرك) وأوصلها إلى البحر الأحمر جَرًا على اليابسة، كما أرسل ثلاثمائة وخمسين نفرًا من الأشقياء السفلة لاستخدامهم فى تسيير المراكب ولإرسالهم إلى المدينة المنورة إذا اقتضت الأحوال.

وكان غرضه أن يؤخذ الجسد النبوى الطاهر إلى ميناء ينبع ومن هناك إلى بلاده، ولما وصلت تلك المراكب إلى ميناء ينبع تكونت جماعة كبيرة مع العربان الذين وافقوا على الفكرة وترك فى الميناء قدر كاف من الحراس لحراسة السفن وأخذ الباقى يتسرب إلى ناحية المدينة المنورة منفردين، ثم اجتمعوا فى مكان معين وأخذوا يتقدمون، ولما وصل هذا الخبر الذى أثار الدهشة إلى مسامع مَنْ يُعْرَفُ بين المشايخ باسم الشيخ محيى الدين النووى فى الشام ظَنَّ أَنَّ والى الشام يريد إرسال الكتب النفيسة التى فى مكتبة الجامع الأنورى الشريف إلى ديار أخرى.

وعندما اطلع الإمام على حقيقة الأمر ذهب إليه وأراد أن يثنيه عن قراره بكلام لين ونصيحة خالصة، ولما رأى أن كلامه لا يؤثر فيه غير كلامه وأخذ يهدده بفقرات باردة، وظن الوالى أن الإمام شخص عادى كآحاد الناس فأمر بحبسه وتوقيفه فابتدر مَنْ بجانبه الشَّيْخَ ليحملوه معهم، لكن فراء الأسود والنمور التى كانت مفروشة فى الحجرة تراءت لهم كالحيوانات المفترسة الحية فامتلأ قلب الوالى بالخوف والفزع ولاسيما قلوب الذين كانوا أمسكوا بالإمام وهكذا جعلتهم يفرون جميعًا، وبناء على ذلك ثاب الوالى إلى رشده وندم على ما فعل وطيب خاطره وقبل يده وقدمه إنقاذا من هذه الورطة المخيفة المفزعة.

بينما تصدر الأمور الخارقة للعادة من الإمام النووى والآخرين مِمَّنْ يتباهون بانتسابهم إلى الرسول ﷺ فكيف يجوز التردد فى تصديق ما ينسب إلى الرسول ﷺ، ملك جنود الملائكة من الخوارق هذا النبى الذى اتخذه خالق العالم - جل شأنه - حبيبًا له.

كن مجذوبًا بحب الله ... وكن فى كمال الأدب أمام النبى.

الوجهة الثانية عشرة
تشتمل على ثلاث صور
فى ذكر الوقت الذى احترق فيه مسجد السعادة
وكيف احترق ومن الذى جدده

تعرف كيفية احتراق مسجد السعادة للمرة الأولى وكيف جدد

دخل أبو بكر بن أوحد[1] من فراشى المسجد النبوى فى ليلة يوم الجمعة الأولى سنة ٦٥٤ الهجرية[2] إلى مخزن القناديل الكائن بالزاوية الشمالية لجدار المسجد الغربى ليخرج قناديل المآذن ووضع الشمعة التى فى يده فوق قفص أحد القناديل ونسى أنه ترك الشمعة فوق قفص القناديل ولما كان ذلك القفص قابلاً للاحتراق فاحترق فجأة وانتقل الحريق إلى الأقفاص الأخرى للقناديل ومن هناك سرت النار إلى حصير المخزن ثم إلى سقف المسجد الشريف وتركت المسجد فى ظرف ساعة فى حالة أليمة من شدة الحريق واللهيب، وأخبرت الإدارة الحكومية قبل أن تسرى النار إلى الأطراف فجاء أهل المدينة مع السادات والموظفين وبذلوا الجهود لإطفاء الحريق ولكن محاولاتهم ذهبت سدى فاحترق الحرم الشريف تمامًا ولم يمكن إخراج شيء من داخله.

ولم يصب الحريق المسجد النبوى وحده، إذ كان فى ذلك التاريخ فوق صندوق قبر النبى ﷺ إحدى عشرة قطعة غطاء بعضها فوق بعض ومصاحف شريفة وكتب نفيسة وأشياء ذهبية ثمينة فاحترقت كلها فظهرت عظمة الأنوار الإلهية كالشعلة الملتهبة.

وقد وقع هذا الحريق بعد نار الحجاز المنذرة وكان هذا الحريق إشارة إلى ما ارتكبه الخوارج فى داخل مدينة الرسول وسوء عاقبة الذين يتصرفون خارج الآداب الشرعية هؤلاء الخوارج الذين فصلت أحوالهم وجرمهم وعرفت فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة وفى الصورة العاشرة من الوجهة الأولى، إذ

(١) اشتغل هذا الشخص قيمًا فترة ما.

(٢) ادعى بعض المؤرخين أن هذا الحريق وقع فى عام ٦٥٥ ولكن الحقيقة أنه وقع فى عام ٦٥٤.

ظهر بعض الزنادقة عقب نار الحجاز المنذرة، كما فصل فى الصور المذكورة، وأحدثوا بدعًا كثيرة خارج الأدب المشروع للشريعة الإسلامية.

وقد رأى أهل المدينة هذين البيتين قد كتبا عل جدران مسجد السعادة فملأهم خوفًا ورهبة وخشية.

لـم يحتـرق حـرم النبـى لحـــادث

يخشـــى عليـــه ومـــا بـــه مـن عـار

لكنمـــا أيـدى الروافـــض لامســـت

تلـك الرســـــوم فَطُهِّـرَتْ بالنـــار

إن البيتين اللذين رؤيا بعد الحريق على جدران مسجد السعادة يدلان على أن الروافض كانوا سببًا فى الحريق بسلوكهم المشين إلا أن الأبيات الآتية التى ذكرت بعد الحريق بـ ٦٥٠ سنة توضح أسباب الحريق فى صورة أكثر وضوحًا.

وكان يقضى أن الروافض هم الذين يتحملون عذاب تلك النار، فأفهمهم بطريقة ظريفة حكمة احتراق مسجد السعادة وقائل الأبيات محمد أبو الهدى الجالس على صدر ديوان الأدب وزينة مجمع البلغاء.

تجـــاوز فى المقـــام حـــدود شـــرع

أنـاس غافلـــــون عـــن الإشـــاره

أراد الحـــــق إعظامـــــًا لحقـــه

عقابهـــم فأرســـل عـــز نـــــاره

فقـــال بغيـــرة رب اهـــد قـومى

فـــرد النـــار عنهـــم للحجـاره

ولم يبق فى الحريق المذكور غير القبة[1] التى أمر بصنعها الناصر لدين الله لحفظ لوازم مسجد السعادة، فالصناديق التى كانت موجودة فى المخازن الموجودة فى خارج مسجد السعادة، وفى الجهات الأخرى من مسجد السعادة احترقت كلها.

وكانت القبة التى بناها الناصر لدين الله فى وسط المسجد وكان فى داخل القبة المصحف الشريف العثمانى، وبعض الصناديق الكبيرة التى صنعت فى السنة الثلاثمائة من الهجرة فنجت النصاديق المذكورة من النار بحرمة المصحف الشريف الذى كتبه حضرة عثمان بيده، وبعد أن انطفأت النار تمامًا كانت الأعمدة التى ظلت فى الساحة تهتز كأنها أشجار النخيل وتتمايل على جهتين وقد ذاب الرصاص الذى فيها وأخذت تسقط على الأرض واحدة تلو الأخرى.

وكان بين هذه الأعمدة أعمدة لم يذب رصاصها ولم تقع إلا أنها تأثرت من صدمة وقوع الأعمدة الأخرى وأخذت تسقط واحدًا تلو الآخر ولم يبق عمود يمسك سقف المسجد الشريف فوقع سقف المسجد الشريف فوق الحجرة المعطرة كما أن سقف الحجرة المعطرة وقع على مرقد النبى الجليل، وفى اليوم الثانى نظف من ساحة المسجد الشريف المحترق ما يستوعب عدد مصلى صلاة الجمعة وأبلغ الأمر إلى المستعصم بالله بن المنتصر بالله البغدادى وبعثوا المحضر العمومى الذى كتبه الأهالى راجين من الخليفة سرعة تعمير المسجد.

وبعثت الأشياء اللازمة من قبل المستعصم من بغداد مع قافلة حجاج بغداد مع الأمر بسرعة الشروع فى تجديد البناء فبدئ فى إجراء عمليات البناء وفكروا فى تجديد حجرة السعادة أولاً ورفع الردم الذى وقع فوق القبور الشريفة وتطهير

(١) وقد عمرت هذه القبة سنة ٥٧٦ وأطلق عليها اسم قبة الشمع، فهدمها السلطان عبد المجيد وأضاف ساحتها لساحة حرم السعادة الرملية فى سنة ١٢٧٧هـ.

داخل الحجرة المعطرة قدر الإمكان وفعلاً فهذا ما كان يجب عمله، ولأن سقف الحجرة المعطرة كان قد احترق ووقعت الحجارة والتراب وما يشبههما فوق القبور الشريفة، ولكن مهابة القبور الشريفة والرهبة منها حالت دون ذلك، فلم يتجرءوا عل تنفيذ ذلك؛ ومن هنا اجتمع مجلس شورى برئاسة والى المدينة منيف بن شيخة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسينى وقرر فى هذا المجلس بموافقة أكابر المدينة كتابة عريضة وإرسالها إلى بغداد لتبليغ الأمر إلى الخليفة ولما كان ذلك فى أثناء استيلاء التتار على بغداد لم يأخذوا أى رد فتركوا مسجد السعادة على حالته تلك.

لما كان الضمير لن يقبل ترك مسجد السعادة فى حالة خراب كما أن ورود الإذن بخصوص تعمير المسجد قد تأخر كثيراً فعمر ورمم سادات المدينة وعلماؤها وأعيانها جهات الحجرة المعطرة الثلاث تاركين الجهة الشامية، وفهموا أن الحكومة البغدادية وموظفيها لن يستطيعوا تعمير مسجد السعادة لما ابتلوا بهجوم التتار فى المحرم الحرام من سنة ٦٥٦هـ، فراجعوا ملوك المسلمين الآخرين فى الأطراف، وكانت تعميرات الأهالى لحجرة السعادة مقتصرة على تغطيتها فقط، وقد بدئ فى هذا التعمير سنة ٦٥٥هـ فصنعوا غطاء من قماش يسمى محايس يمنية وغطوا فوقها، وكانت بطانة هذا الغطاء من قماش أزرق وكانت الستارة أربع قطع وكانت كل قطعة على شكل باب فضموا بعضها ببعض وألصقوها بلوحة خشبية مصنوعة من خشب يسمى الساج الهندى ولم تكن فى هذه اللوحة زينات ونقوش وكان اسم عاملها محكوكًا عليها.

إن أول من استجاب لطلبات الأهالى لتجديد المسجد الشريف صاحب مصر المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى وأرسل الأشياء اللازمة للبناء، ثم وصلت اللوازم التى أرسلها صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن المنصور بن عمر بن رسول فقرر بناء مسجد السعادة من جديد وشرع فى العمل بناء على أمر صاحب مصر وإشعاره وبعد أن بنيت الجهة القبلية

إلى باب السلام تولى ملك مصر المظفر سيف الدين محمود بن ممدود خوارزم شاه، بدلاً من منصور نور الدين على مظفر بن الملك عز الدين أيبك الصالحى للتعطيل، وبذل سيف الذين المعزى أيضا لإعمار مسجد السعادة جهده، فَبَنَى الجهة الشرقية من باب السلام إلى باب الرحمة والجهة الغربية من باب جبريل إلى باب النساء فى صورة متينة، إلا أنه مات فى نهاية السنة المذكورة مقتولاً فتعرضت مبانى الحرم الشريف للتعطيل ثانية.

وتولى حكم مصر والشام بعد سيف الدين الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى البندقدارى، ولما كان يرجو أن يكمل بناء مسجد السعادة عَيَّنَ جمال الدين محسن الصالحى من رجالات مصر لأمانة البناء وأرسله إلى المدينة المنورة فى رفقة ثلاثمائة وخمسون نفر من العمال المهرة كما دبر له المال اللازم والأشياء الأخرى وأرسلها إلى جمال الدين محسن دون تأخير.

عندما وصل جمال الدين إلى دار الهجرة بنى المسجد الشريف للمرة الثانية من باب الرحمة إلى باب النساء وجعل للجهات الغربية والشرقية والقبلية سقفين لطيفين فأعاد أبنية المسجد لحالتها الأولى.

وظل مسجد السعادة تسعة وأربعين عامًا إلى أوائل عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى على هيئة بناء الظاهر ركن الدين، وفى سنتى ٧٠٥، ٧٠٦هـ هدم محمد بن قلاوون الصالحى السقوف التى على يمين جهة الساحة الرملية ويسارها وجددها بأن جعلها سقفًا واحدًا[1] مثل الجهة الشمالية وبعد ٢٣ سنة أضاف عقدين إلى الجهة القبلية فوسع المسجد الشريف قليلاً ورمم الجهات التى فى حاجة إلى التعمير وجعلها فى غاية المتانة وذلك فى سنة ٧٢٩هـ ولكن العقدين اللذين أقامهما محمد بن قلاوون لحق بهما البلى ولم يعودا صالحين وخيف من سقوطهما بغتة فيكون ذلك سببًا فى هلاك الناس وهذا ما أزعج الناس وأقلقهم، ولما عرف الأمر الملك الأشرف برسباى بعث أمين البناء مقبل

(١) كانت الجهة الشمالية لمسجد السعادة وجهاته الأخرى مبنية بسقفين.

القائد وأعطى له مقدارًا من النقود التى حصل عليها من حوالى جزيرة قبرص فجدد العقدين المذكورين كما جدد الأماكن التى فى حاجة إلى التجديد فى السقف الشمالى، وذلك فى سنة ٨٣٧هـ.

ولما لزم تعمير بعض أماكن المسجد الشريف بعد ٢٢ عامًا بعث الظاهر جقمق المصرى فى سنة ٨٥٣هـ المهندس أمير برد لتجديد سقوف الروضة المطهرة وسقوف الأماكن الأخرى المباركة كما أن الأشرف قايتباى جدد فى سنة ٨٧٩ بعلم شمس بن زمن بعض أماكن السقف الشرقى بعد هدمها إلى المئذنة الشرقية.

وجدد شمس بن زمن بعد سنتين سقف الجهة القبلية وبدل قبة الحجرة المعطرة[1] بقبة حجرية وهكذا رصن حجرة السعادة.

ولكن عندما ضاقت جهة مسجد السعادة الشرقية كثيرًا أضاف إليها من الخارج ذراعين وربع ذراع فوسع حرم السعادة كما أن هذا الجدار قد سحب إلى الخارج عند التعمير الأخير أى فى عصر السلطان عبد المجيد قدر خمسة أذرع ولم يكن لذلك الوقت قبة فوق الحجرة المعطرة فكان بناء عمر بن عبد العزيز متصلاً بسقف مسجد السعادة على شكل سقف مستو ولكى ينفصل عن سقف المسجد الحرام أقيمت حظيرة من الآجر بارتفاع ذراعين، وحَوَّلَ الملك المظفر هذه الحظيرة إلى قبلة مثمنة فى أعلاها ومربعة فى أسفلها، وغلفها من أعلاها بألواح خشبية وغلف الألواح الخشبية بألواح رصاصية ثم غطاها بستارة من المشمع.

وفى سنة ٧٥٦ جدد تلك القبة المذكورة الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون وجددها مرة أخرى بعد اثنتى عشرة سنة إلا أنها حولت فى سنة ٨٨٦هـ إلى قبة حجرية فى عهد الأشرف قايتباى المصرى.

(١) وقد قدر الأهالى هذه القبة فى ذلك الوقت وسموها القبة الزرقاء.

فى تعريف احتراق مسجد السعادة للمرة الثانية وكيفية وصورة تجديده

فى الليلة الثالثة، وعلى رواية فى الليلة الثالثة عشرة، من رمضان سنة ٨٨٦هـ وفى الثلث الأخير منها بينما كان رئيس المؤذنين شمس الدين بن الخطيب يهم بالطلوع على المئذنة الرئيسية والمؤذنون الآخرون إلى المآذن الأخرى للتهليل والتذكير والترحيم.

ظهرت فجأة على وجه السماء غيوم سوداء مخيفة وظهرت أصوات مدهشة كأنها طلقات المدافع فأصبحت دار العزة ونواحيها المتجاورة داخل نار ملتهبة، وزادت أصوات الرعود والصواعق بالتدريج فأصابت صاعقة شديدة مئذنة رئيسية فهدمت أعلى شرفتها والجهة الشرقية من المسجد الشريف وخربته وقتلت شمس الدين بن الخطيب وعشرة من الخدم والجماعة وكان من ضمنهم نائب خازن الحرم.

والصاعقة التى هدمت المئذنة الرئيسية وخربتها سرت نيرانها إلى سقف مسجد السعادة ومن هناك دخلت داخل المسجد بحيث أصبح مسجد السعادة فى وسط النيران فجأة.

وإن كان أغوات حجرة السعادة فتحوا أبواب الحرم الشريف وأخبروا الأهالى بالحادث فتكاثروا وتكاتفوا لإطفاء الحريق وبذلوا كل جهودهم، ولكن النيران الملتهبة قد أحاطت بجهات مسجد السعادة الأربعة بشدة حالت بين من يحاول أن يدخل إلى داخل المسجد ومع هذا فمن دخلوا داخل المسجد مضحين بأرواحهم اندفعوا خارج المسجد بطريقة شديدة حتى ينجوا بأرواحهم وزادت النار التهابًا واشتعالاً فلم يبق أمام الأهالى إلا أن ينسحبوا بعيدًا وأن يتفرجوا على النار.

بينما كان مسجد السعادة يحترق والنار تنتقل من هناك لهنا أخذ الأهالى ينقلون أشياءهم إلى خارج المدينة وفى نفس الوقت ينظرون إلى النار المخيفة نظرة حيرة ودهشة؛ ولم يخرُج من داخل المسجد إلا بعض المصاحف الشريفة فى أول الحريق، واحترقت الكتب النادرة القيمة والأشياء الثمينة وكل ما أهدى من قبل السلاطين والأسلاف من الأشياء الذهبية الثمينة ولم ينقذ إلا القبة التى كانت فى وسط الحرم الشريف واحترق عشرة أنفار من الذين دخلوا داخل المسجد بغتة لنقل بعض الأشياء وماتوا متأثرين من النار.

استطراد

اسم القبة التى ذكرت اسمها قبة الشمع وقد بنيت من قبل الناصر لدين الله لتوضع فيها لوازم حرم السعادة وهى الأشياء التى ترد منذ ثلاثمائة سنة حتى مصحف عثمان بن عفان كان محفوظًا فى داخل هذه القبة، ولما ساءت حالتها مع مرور الزمان وخربت، هدمها السلطان سليمان بن السلطان سليم حتى سُوّيت بالأرض وبناها من جديد فى تاريخ ٩٧٤هـ وكتب على القطعة الرخامية التى وضعت خارج جدارها الخارجى بخط جلى مُذَهَّب (لمولانا السلطان الملك المظفر ملك البرين والبحرين، السلطان سليمان أعز الله نصره)، ولما رأى محمد رائف باشا الذى عين لأمانة البناء من قبل السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٤هـ أن إبقاء القبة داخل مبانى حرم السعادة مضرًا، رفع تلك القبة من ساحة الحرم الشريف الرملية وأخرجها إلى خارج الجدار الشامى كما ذكر فى الصورة الثالثة من هذه الوجهة، وفعلاً قام بعمل مناسب. انتهى.

وقد اتسعت تلك النار واشتدت واشتعلت حتى إنها جعلت المسجد الشريف يتحول إلى بحر من شعل ولهيب حتى ظن الناس أنها ستحرق جميع حوانيت المدينة المنورة ومنازلها فهربوا إلى أماكن بعيدة، إلا أنها لم تسر خارج المسجد.

معجزة باهرة

رأى أحد الصالحين فى رؤياه أن بعض الجراد ينتشر إلى الأطراف وعقب ذلك شاهد ظهور شرارة النار وأن النبى ﷺ يقول: «إننى أمنع هذه النار وفعلاً منع انتشار النار إلى الأطراف، هذا ما نقله هذا الرجل الصالح»، وفعلاً قد رئى فى أثناء الحريق ظهور طيور بيضاء لا حصر لها وتمنع بأجنحتها انتشار النار خارج مسجد السعادة.

وقد رئيت تلك الرؤيا فى الليلة الثانية من رمضان أو الليلة الثانية عشرة ونقلت إلى أمير المدينة السيد الشريف زين الدين ابن الشريف زين بذاته أن الشخص الذى رأى الرؤيا من صلحاء العرب ونال حسن ظن جميع الناس.

حـــرم النبى محمـــــد فيمـــــا مضـــى

مســـته مـــن أثـــر الصواعـــق نـــــار

مـــا تلك صاعقـــــة ولكـــن لمعـــة

نوريـــة قدحـــت بهـــا الأنـــــوار

وســـرى زفيـــر المذنبـــين ملامســـا

لحبالهـــا فبـــدى لهـــا الآثـــــار

وهذه الأبيات ارتجلها بداهة بسبب احتراق الحرم السعيد للمرة الثانية مفخرة العلماء وسند الفضلاء صاحب السماحة أبو الهدى أفندى ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا نظير لمثل هذه الموهبة الشعرية فى شعراء الأسلاف.

بعد انطفاء الحريق بعدة أيام أطفأ أهالى دار الهجرة النار الباقية فوق القبة الخضراء، وعجبوا لما رأوا أن القبة المزينة التى بنيت قبل الحريق فوق الحجرة المعطرة لم تحترق واحترقت فقط القبة الخضراء التى فوقها وذاب الرصاص الذى فوقها وأخذ يسيل فوق قبة حجرة السعادة ولكنه لم يضر الأشياء التى كانت فى داخل الحجرة المعطرة.

عبرة

والغريب فى الأمر أن القبة الكبيرة التى تحيط بالقبة الصغيرة والمخازن التى فى داخل مسجد السعادة والمصاحف الشريفة و ١٢٠ من الأساطين الحجرية ومقصورة مرقد السعادة ومنبر النبى المنير وصندوقه مصلى السعادة قد احترقت كلها وانمحت الأعمدة المتصلة بالحجرة اللطيفة المسعودة، ورفعت بعد الحريق الأشياء التى كانت فى الجهة القبلية من الحجرة المعطرة ونجت بعض أجزائها كالأشجار والبقايا الأخرى من الحريق إلى جهة الجدران الشامية وكتب الأمر إلى السلطان قايتباى المصرى وقد حزنت قوافل الزوار التى وردت من مكة وتكدرت.

ظهور السيل المروع بجوار مسجد الحرم

عند عودة الذين احترقت قلوبهم بنار احتراق مسجد السعادة كانت تنتظرهم مصيبة أخرى عند عودتهم إلى مكة المكرمة، وذلك بظهور سيل عظيم وكأنه بحار متلاطمة، ملأت الصحارى والأودية وفى النهاية ملئ حرم الكعبة المعظمة فهدم كثيراً من المنازل والدكاكين وليس فى الإمكان إحصاء من غرقوا فمن قائل أنهم كانوا ثمانين غريقًا ومنهم من يقول مائة ووجدت جثثهم بعد انقطاع السيل، وروى أنه لم يقع مثل هذا السيل العظيم بعد الجاهلية.

تجديد مسجد السعادة وقصر عزة الوحدانية

لما أطلع السلطان قايتباى على تعرض الكعبة العلياء موئل الرحمة والوحدانية الحرم المحترم لهجوم السيل وخرابه حتى تحول كل ركن منه إلى عش بوم أو غراب، فعين سيفى سنقر الجمالى لأمانة بناء الكعبة المعظمة وشمس بن زمن لأمانة بناء المدينة المنورة وأخرجهما إلى الطريق وأمر بأن يبعث الأدوات اللازمة للبناء عن طريق جبل الطور وينبع البحر وهما فى مصر وأن يصاحب كلا من سنقر الجمالى وشمس بن زمن أربعمائة من مهرة العمال وكذلك الدواب اللازمة للنقل.

وتوجه سنقر الجمالى وشمس بن زمن نحو مكة المكرمة فى خلال شهر ربيع

الأول سنة ٨٨٦هـ، وحيثما نزلوا فى الطريق أو قضوا ليلهم وجدوا كثيراً من الموظفين المكلفين بحمل الأدوات اللازمة للبناء كما أرسل موظفون لإحصاء المكلفين بقطع الخشب اللازم من حوالى المدينة المنورة والأخشاب التى وردت من المدينة المنورة ونواحيها ولوازم البناء قد تحولت إلى جبال راسيات وامتلأ الطريق البحرى والبرى بالأشياء اللازمة لتعمير الأماكن المقدسة، ورأوا أن أهالى كل بلدة وضيعهم أو شريفهم مشغولين بنقل مهمات البناء.

وبمجرد أن وصل شمس بن زمن إلى دار العز المدينة المنورة شرع فى هدم الجهة القبلية للمسجد ابتداء من المئذنة الرئيسية إلى باب السلام وهدم الجهة الشرقية إلى باب جبريل وأخرج الجهة الشرقية إلى خارج ما يقرب من ذراع ونصف ذراع ووسع محراب عثمان الشريف وجعله فى صورة جميلة وطبيعية وجدده، ورفع عليه قبة جميلة وقصر من طول الأعمدة ووضع عليها عقودًا من اللبن ورفع هذه العقود بالأخشاب وصنع عليها سقوفًا كاملة منتظمة، وصنعوا قبابًا عالية متينة على الأساطين التى بجانب محراب عثمان والأساطين التى تحيط بحجرة السعادة وغيروا الأعمدة التى فى مقصورة الحجرة المعطرة فى شكل جميل.

ولما كانت القبة التى أقيمت فوق حجرة السعادة أعلى من القباب الأخرى وضع مهندسو التعمير عقودًا محكمة فوق الأساطين التى على جوانب الجدار الشرقى الأربعة والشمالى حول هذه القبة وبنوا فوق تلك العقود أربعة أعداد من القباب المتينة وفتحوا منافذ بين المئذنة الرئيسية والعقود سالفة الذكر لتيار الهواء، عندما كانت تمد عقود القباب الجديدة أضيف للجهة الشامية لمثلث حجرة السعادة عمود وعندما كان يحفر أساس هذا العمود ظهرت علامة قبر، ولما حكم أمين البناء شمس بن زمن أن هذا القبر قبر حضرة (فاطمة) رضى الله عنها فجعل ذلك القبر داخل علامة خاصة، وبعد وضع هذه العلامة أخذ زوار الرسول ﷺ يزورون هذا المكان أيضا.

كان مكان باب المئذنة الرئيسية قبل الحريق فى الطرف الغربى أى فى المكان الذى يوجد الآن فأداره شمس بن زمن إلى جهة الشام وأسس صفة أمام الأبواب الجديدة ذات الأربع درجات خصصت هذه الصُّفة لاستراحة الأئمة يوم الجمعة إلا أن شاهين الجمالى عندما جدد المئذنة الرئيسية فى سنة (٧٩٨) هدم تلك الصفة وأعاد باب المئذنة إلى مكانه القديم أى الجهة الغربية.

والآن يجلس خطباء مسجد السعادة قبل الخطبة أمام هذا الباب، و بعد أن أتم شمس بن زمن عمليات المواقع المذكورة زين باب السلام بقطع رخام ملونة، وبنى قبتين رصينتين فى جهة الباب الداخلية فقوى ورصن ذلك الباب، ثم أمر بحفر أطراف الروضة المطهرة الأربعة وسوى أرضية المسجد وسطحها، وركز محل الصندوق الذى كان علامة مصلى النبى عمودًا وزين أعلاه بالحجارة الملونة الخاصة بالمحراب النبوى، وفرش أطراف الحجرة المعطرة بالرخام كشكلها القديم، ثم أتم عمليات المقصورة ومنبر السعادة والمحفل، وعقب ذلك أمر بصنع صفة صغيرة فى المحل الذى بين باب السلام ونهاية المسجد، ولكن الصفة التى فى الجهة الشمالية أعلى قليلاً من الصفة التى صنعها شمس بن زمن.

بعد ما تمت عمليات المحلات المشروحة هدم رباط الحصن العتيق الذى فى جهة باب السلام ثم هدم مدرستى دار شباك وجوبانية و بنى على ساحتيهما مدرسة جميلة باسم السلطان قايتباى، وبنى كذلك رباطا، وقد أقيمت مبانى هذه المدرسة والرباط المذكور فوق ثلاثين عقدًا وكانت ذات ثلاثة طوابق وكان بناء ضخمًا له ثلاثة أبواب، والنافذة التى تنسب إلى أسبق المهاجرين وأفضل أصحاب الدين حضرة أبو بكر الصديق أحد أبواب ذلك المبنى الضخم وهو الباب الذى استثنى عندما أمر النبى ﷺ بسد الأبواب الأخرى.

كان شمس بن زمن أمر ببناء عقود كثيرة على جدار مسجد النبى القبلى وهو يتصور أنه سيبنى الرباط والمدرسة المنسوبين إلى السلطان قايتباى فى الجهة القبلية لحرم السعادة، ولكنه غير فكره مؤخرًا وسد جميع العقود التى صنعت فى الجهة

القبلية ما عدا العقود التى تحاذى المحراب العثمانى، ولذلك زينها كلها بقطع زجاج ملونة بمختلف الألوان وشبك طرفها الخارجى بأسلاك نحاسية، ثم شرع فى تأسيس الرباط والمدرسة[1] سالفى الذكر وبنى مئذنة فى جهة باب الرحمة للمدرسة كما بنى حمامًا وعمارة وسبيلاً وطاحونة[2] ومخبزًا ومطبخًا للدشيشة[3] ووكالة، وأتم كل هذه الإنشاءات فى سنة ٨٨٨هـ وأبلغ الأمر إلى مصر وعرضه، وعاد ولكن السلطان قايتباى قد أبلغ أن تزيينات مسجد السعادة الداخلية وتذهيباته ليست منسقة وجميلة فأرسل فى سنة ٨٨٩هـ بعض النقاشين والرسامين من مهرة العمال والأشياء اللازمة لذلك فزينوا داخل الحرم الشريف فى صورة غاية فى جمال الصنعة، وأرسل من مصر مصاحف شريفة وكُتبًا نادرة لتقوم مقام المصاحف المحترقة والرسائل النفيسة، وهكذا أكمل وظائف عبوديته، وأرسل بعد مدة لأجل الرباط سالف الذكر عشرة أعداد من القدور الكبيرة وجميع أنواع لوازم الطبخ، وأصدر أوامر مشددة بخصوص إبطال المكوس وأنه سيبعث بدل المكوس ألف إردب من قمح لولاة المدينة سنويًا كما كتب أن القمح سيرسل سنة عن طريق ينبع.

مكوس

جمع مكس وهو أخذ الخراج من الأشياء التى تباع فى الأسواق والطرق ومن الأشياء التى تخرج من المعايير وشراء شيء أقل ثمنًا من الآخر ويروى أنه من مخترعات النمرود وقبله لم يكن هذه الأشياء موجودة.

وبعد ما أتم السلطان قايتباى آيات بره المشروحة، أولم وليمة لأهالى دار العز لم يروا مثلها من قبل، ثم اشترى من يد السادات المنازل التى تسمى عباسا وما حولها من المساكن والبيوت وبنى مكانها الرباط والوكالة سابقتى الذكر وأوقف لأهالى المدينة ألف وخمسمائة إردب قمح سنويًا واللوازم الأخرى وعين لكل

(١) واليوم تسمى هذه المدرسة «المدرسة المحمودية».

(٢) وإلى هذا الوقت لم يكن فى المدينة حمام ولا طاحونة.

(٣) حساء يصنع بطحن القمح فى طاحونة يدوية وهو يصنع من القمح المكسر مثل البرغل.

واحد من أهالى المدينة شهريًا سبع أرادب مصرية قمح وهى تساوى خمسة أمداد مدنية، كما عين؟ للمجاورين كل يوم قطعتين من خبز ومقدارًا كافيًا من طعام الدشيشة وجعل للأغنياء والفقراء معينات وافية لكل واحد حسب حاله، وصار عطاءه هذه الأشياء كل سنة عادة.

يقول الإمام السمهودى: إن السلطان قايتباى المصرى أنفق لأجل اللوازم والأدوات وأجور الدواب فى سبيل تجديد المبانى المقدسة مائة وعشرين ألف دينار.

وأخبر مؤلف روضة الأبرار: أنه أنفق مائتى ألف قطعة ذهبية خالصة العيار تقربا للرسول الله ﷺ وأتم عمليات تجديد وتعمير الأبنية المقدسة فى حوالى سنتين. وهذه الأخبار أخبار دقيقة.

ذيل

ولا ينكر أن ما قام به قايتباى المصرى فى إيجاد العمارات والوقف شىء لم يسبق إليه من قبل وأن هذا العمل تضحية عظيمة، إلا أنه فى عهد السلطنة العثمانية والخلافة الكبرى قد زادت المرتبات الحجازية وترقت وقد روعى جانب سكان المدينة بدرجة لو كان السلطان قايتباى حيًا وعرف ذلك لشعر بالخجل، وكل ما يقال عن خدمة الخلفاء العثمانيين للأماكن المقدسة بشهادة صفحات التاريخ وباعتراف أولى الأبصار.

وبناء على ما فصل فى الصورة الثامنة من الوجهة الأولى فإنه قد طرأ فى فترة ما تقصير وإهمال فى توزيع الصدقات فأعطيت مخصصات الأهالى أربعة أشهر وتركوا ثمانية أشهر مكشوفين؛ ولما سمع ذلك بعث بالموظفين المخصوصين لتحرى الأسباب المؤدية لذلك، ثم عين شيخ الحرم المتصف بالعدل والتزام الحق، فأعطيت مخصصات الأهالى شهرًا بشهر فدعوا للسلطان بالخير.

كان السلطان قايتباى المصرى أرسل سنة ٨٩١هـ شاهين الجمالى إلى المدينة المنورة ونصبه شيخ الخدم وتولى سماطًا وطعامًا وأودعه الأدوات والأشياء اللازمة لتعمير وتشييد مئذنة السعادة، وجددها فى صورة متينة رصينة جميلة بأحجار

منحوتة وبعد ست سنوات أصابت الصاعقة تلك المئذنة وخربت وأصبحت مأوى للبوم والغربان فهدمها حتى الأرض وجددها فى شكل منسق جميل بعد الاستئذان.

فى بيان عرض الخدمات والعبودية من قبل السلاطين المشار إليهم إلى المسجد النبوى

أوشكت بعض جدران مسجد السعادة وقبة حجرة السعادة ومبانى مسجد قباء على الانهيار ومالت إلى الانهدام والسقوط حتى أصبحت الصلاة فى داخل الحرم النبوى الشريف خطرًا، وبلغ الأمر إلى باب أصحاب القرار، ولما كان هدم حرم السعادة هدمًا كاملاً غير مستساغ شرعيًا طلب أن يسمح بهدم بعض الأماكن الآيلة إلى السقوط من المواقع الشريفة.

وقد وصل الطلب الذى أرسل من قبل سادات وأعيان المدينة باهرة السكينة فى خصوص الأمر المعروض فى الوقت الذى يعمر فيه سور المدينة المنورة فصدر الفرمان السلطانى إلى والى مصر أن يبلغ المكلفين بتعمير السور بهذا الأمر، وأن يعد الأدوات اللازمة والمبالغ الكافية والعمال ورؤساء العمال وأن يرسل سريعًا إلى المدينة المنورة، وأرسل الأمر السلطانى بعد أن كتب فى قلم الديوان السلطانى إلى والى مصر، ولما كانت الإدارة السلطانية الهامة ومطالبها قد فصلت فى كشف خاص وعرف بها الوالى المذكور فهيأ والى مصر المهندسين والمعماريين ورؤساء العمال والبناءين والمبالغ الكافية وأرسل جميع المطالب برًا وبحرًا بكل احترام وتعظيم كما بعث رسالة إلى أمناء البناء بها تعليمات خاصة. وتفقد أمين البناء كافة المواقع مع السادات والأعيان بناء على ورود الأشياء اللازمة والتنبيهات التى وردت من والى مصر.

وشيد وأصلح داخل الحجرة المعطرة وخارجها كما سبق أن عرف فى بحث حجرة السعادة ثم هدم باب مسجد السعادة المشهور بـ (باب السلام) وبنى مكانه بابًا عظيمًا من الرخام المجلى يجذب الأنظار وذلك فى سنة ٩٤١هـ.

وبعد هذا التعمير بست سنوات هدم ابتداء من الباب الذى يطلق عليه باب الرحمة إلى المئذنة الشكلية مع المئذنة والجدار الواقع فى الجهة الغربية وجدد كل هذه الأماكن فى صورة رصينة محكمة وذلك فى سنة ٩٤٧هـ، وبعد أن جدد هذا الجدار الشريف على الوجه المطلوب فهدم الجدار الشرقى الذى يمتد من باب النساء إلى آخر الحرم مع مئذنته وجدده.

وبنى قبة الشمع وبنى فوقها مكان خلوة عاليًا كما أسس بجانب مئذنة الشكلية واتصالها دار خلوة أخرى فشيد تلك المئذنة من جديد على شكل مآذن بلاد الروم؛ وذلك فى سنة ٩٤٨هـ.

وبعد أن تغير شكل هذه المئذنة أصبح الأهالى يذكرون مئذنة الشكلية باسم المئذنة السليمانية[1].

وبعد التعمير المذكور بست وعشرين سنة أخذت بعض أماكن الجدار الغربى لامعة الأنوار تخرب، فأمر السلطان سليمان ـ عليه رحمة الله المنان ـ بهدم الجدار الذى يمتد من باب الرحمة إلى آخر حرم السعادة وجدده كما جدد تلك الأماكن التى مالت للخراب وغير أعلام محراب النبى ﷺ والمنبر النبوى والمآذن التى هى من شعائر الدين المصطفوى، وأضاف إلى قناديل وشمعدانات الروضة المطهرة والحجرة المطهرة كثيرًا من القناديل والشمعدانات الأخرى، فأضاء مسجد السعادة كقلوب الموحدين، ثم اشترى بيوت الديار العشرة المشهورة وأسس رباطًا خاصًا بالفقراء والغرباء.

كما بنى عشرين رباطًا أخرى غير هذا الرباط إلا أن كلها قد اندرس وزال؛ وخرج رباط الديار العشرة من شكل العمارة وجعل مكانه مخازن لوضع لوازم مسجد السعادة ودائرة خاصة لإدارة شيخ الحرم وسبيلاً وحديقة جملية.

وليس إشراف رباط الديار العشر على الخراب حالة يؤسف عليها حالته هذه

(١) يطلق على هذه المئذنة الآن العزيزية.

أنفع لمسجد السعادة؛ من حالته الأولى؛ لأنه قد فتحت فى الجدار القبلى للمسجد الشريف نافذة كبيرة تحاذى نافذة المواجهة الشريفة وهذا ما زاد حرم السعادة جمالاً على جمال؛ ولو كانت أطراف المسجد كلها حديقة لما بقى أثر للعفونة ولما وجد فى مسيرة الكائنات مكان أكثر بهجة وانشراحًا من هذا المكان.

عندما جدد باب الرحمة كتبت على يمينه ويساره التواريخ بعد البسملة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أمر بتجديد هذا الباب الشريف سيدنا ومولانا السلطان الملك المظفر؛ السلطان سليمان بن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد خان، ابن السلطان أورخان خان ابن السلطان عثمان خان، خلد الله ملكه وأعز نصره، بمحمد وآله وذلك فى شهر رمضان المعظم سنة سبع وأربعين وتسعمائة، كما كتب على يمين ويسار باب السلام الذى صنع مجدّدًا أيضا بعد البسملة.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠)

اللهم أدم له العزة والتمكين والنصر والفتح المبين بقاء عبدك ومولانا السلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن السلطان محمد بن السلطان بايزيد ابن السلطان مراد بن السلطان اورخان بن السلطان عثمان خان، أعز الله نصره وخلد الله ملكه وختم بالصالحات أعماله بمحمد وآله وصحبه وسلم.

وذلك مع تاريخ سنة إحدى وأربعين وتسعمائة فى شهر صفر، كما كتب على الجهة اليمنى لهذه التواريخ مولانا السلطان الملك المظفر سليمان شاه بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، خلد الله ملكه.

شعر

رســـــــول الله إنـــى مستجيـــــــر

بجاهـــــك والزمـــــــان لـــه اعتداء

وجاهـــك يا رســـول الله جـــاه
رفيـــع مـــا لرفعتـــه انتهـاء

كتبت هذه القطعة، كما كتب على رواقها الخارجي الآية الكريمة الجليلة.

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

والآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وبعد ذلك كتب النعت الشريف

وظنـــى فيـــك يـا طـــه جميـــل
ومنـك الجـــود يعهـــد والسخـــاء
وحاشـــــــا أن أرى خزيًـــا وذلا
ولـــى نســـب بمدحـــك وانتمـــاء
وكـــم لـك يـا رســـول الله فضـــل
كقـــدر الأرض لابـــل والسمـــاء
وكـــم لـك معجـــزات ظاهـــرات
كضـوء الشمـــس ليـس لـه خفـــاء

وفوق هذا البيت كتب على طاق الرواق المذكور حديث «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى»، صدق رسول الله ﷺ وعلى أصحابه الطاهرين.

وطهر محمد باشا، وهو من وزراء السلطان سليمان بن السلطان سليم، مجرى عين الزرقاء ووكل فى ذلك السيد أحمد بن سعد الحسينى نقيب أشراف المدينة المنورة وطلب منه راجيًا أن يعمر ويحيى تلك الأماكن، وأخذ السيد أحمد أفندى بستان عيينة المشهور وعقب ذلك بئر الخاتمى وهى فى جهة قباء باسم محمد

باشا وأجرى مياه هذه الأماكان إلى مجرى عين الزرقاء وحتى يزيد من مياهها قد حفر عدة آبار أخرى فوسع وطهر مجرى العين المذكورة إلى باب الرحمة، وصنع سبيلاً بالقرب من باب الرحمة، ومن هنا فتح طريقًا إلى حى الأغوات وجعل منهلاً فى ذلك الحى ينزل إليه بسلم والماء الذى أوصله إلى هذا المنهل، أجرى مياه هذا المنهل إلى حوش المغاربة بحفر مجرى خاص، وصنع فى داخل أربطة الديار العشر والمغاربة سبيلاً لكل واحد منهما كما صنع حمامًا بجوار القلعة وطهر بئر على وعمقها فى النهاية.

بعدما انتهى سيد أحمد أفندى من هذه الأعمال، بنى سبيلا أمام مسجد قباء وميضأة ثم اشترى بستانًا أوقفه للحمام، ثم بنى بيتًا فى منصة بئر خاتمى ثم أمر بحفر حوض بالقرب من هذا البيت، ثم اشترى البيت المتصل بهذا البيت ووضع فى طرف من أطرافه محرابًا فجعله على شكل المسجد، ووقف المنزل الذى يمتلكه لإقامة الفقراء والغرباء واشترط ذلك، وكل ذلك رعاية للصاحب القديم لذلك البيت وذلك فى سنة (٩٩٢هـ) لأن ذلك المنزل كان المنزل السعيد الذى كان يسكن فيه الصديق الأكبر.

ولكن لشدة الأسف أن مدير الحرم الشريف جدد مسجد أحمد أفندى باسم محمد باشا والنزل الذى بنى باسم سيد أحمد أفندى ثم وقف، جددهما وجعلهما مسكنًا لأهله وترك الفقراء المجاورين فى العراء وأظهر دناءته إذ بنى على الساحة التى تنسب للصديق الأكبر حمامًا وميضأة وذلك فى سنة (١٢٥٤هـ).

وكان السيد أحمد أفندى قد اشترى البستان الذى أمام حمام محمد باشا وبنى أمامه حوضًا يملأ بمياه عين الزرقاء وحصر المياه الزائدة لهذا الحوض لرى البستان المذكور ثم وقف سواء أكان البستان أو الحوض لحمام محمد باشا.

إن الحوض الذى حفر مقابل بستان حمام محمد باشا كان غاية فى الكبر وبما

أنه فى طرف الساحة الواسعة التى ينصب عليها قوافل محامل مصر والشام خيامها كان أهالى القافلة يستخدمون هذا الماء ومازالوا يرتوون منه.

ولا يعرف الآن ما حدث لحمام محمد باشا إلا أنه يوجد فى زماننا فى المدينة المنورة حمامان يستخدم أحدهما فى دائرة الترجمة للحرم النبوى وهو حمام أحمد نظيف أفندى فى المناخة والنزل الذى اتخذ مستشفى للعساكر النظامية السلطانية مقابل هذا الحمام، وأحد الحمامين المذكورين فى حى حارة الزوران التى تلاصق السور الداخلى لمسجد السعادة من الجهة القبلية، وهو الحمام الذى ينسب إلى الشهيد نور الدين. انتهى.

لقد أقام السيد أحمد أفندى أيضا مستشفى على اسم محمد باشا خاصة لعلاج غرباء دار السكينة، ولقد كفل لها الأطباء والخدم اللازمين وأوقف لها مقدارًا كافيًا من العقارات والأملاك، ومع مرور الأيام انهارت أكثر أماكن هذه المستشفى وخربت؛ وإن لم ترمم أبنيتها لقد خصص فى سنة ١٢٥٥هـ جراية خبز لمرضاها، ومن هنا كان المرضى الذين ملوا من حياتهم لشدة حاجتهم وامتداد عللهم يدخلون فى هذه المستشفى حتى يسلموا أرواحهم فيها.

وقد عمر والد السلطان كثير المحامد الأماكن الخربة من هذه المستشفى وألحق بها صيدلية ومخزن أدوية وخصص لها الأدوية الطبية واللوازم الجراحية كما هيأ لها ما يلزمها من أطباء وجراحين وصيادلة والخدم، وكانت هذه المعدات كافية لعموم أهالى المدينة والحجاج، وبهذا أحيا أهالى المدينة من هذه الجهة أيضا.

وقد أدخل السلطان مراد خان الثالث بن السلطان سليم خان الثانى شونة مخزن ينبع البحر داخل السور حفظًا لها من هجمات العربان وأسس مخزنًا آخر لوضع ما خرب من الجدار القبلى ومحرابه وأصلح جدرانه الأخرى وشيدها فى غاية من المتانة والإحكام وأعاده إلى حالته الأولى، كما عمر وأحكم المرفأ الذى على شاطئ البحر والذى يبلغ عرضه ٥٣ ذراعًا وطوله ٢٤ ذراعًا والذى كان

أشرف على الانهيار، وخصص بعد ختام هذه الأعمال صرة سلطانية تحتوى على أربع و أربعين قطعة ذهبية على أن يكون أحد عشر ألف دينار منها لأهل مكة وباقيها لسكان دار السكينة المدينة المنورة، وذلك كل سنة، كما عين بعد ذلك لجيران رسول الله أربعة آلاف إردب قمحًا وللحجاج الذين انقطع بهم الطريق خمسمائة إردب قمحًا وذلك فى سنة (٩٨٦هـ) وكانت هذه الذخيرة ترسل من مصر إلى ينبع ومن هناك إلى المدينة المنورة وتوزع على الأهالى المحتاجين وتقسم عليهم.

وقد جدد السلطان المشار إليه فى سنة ٩٨٨هـ مطبخ الدشيشة «وهى عبارة عن نوع من الحساء المصنوع من القمح المدشوش» وسر خدمته بإعطائهم قطعة ذهبية يوميًا كما سر طباخيه بإعطائهم إردب قمح فوق القطع الذهبية؛ وذلك فى سنة ٩٨٨هـ.

وعانى فى هذه الفترة أهالى المدينة فى محلاتهم مضطربين من العطش، ولما أبلغ الكيفية إلى مسامع السلطان أسس فى القرب من باب المضر سبيلاً وخصص لكل واحد من خدمه ونظاره مقدار ستين درهمًا من النقود وعين لهم سنويًا خمسين اردبًا قمحًا لكل واحد منهم وأمر أن يملأ هذا السبيل يوميًا بواسطة السقائين ليروى عطاشى المسلمين وذلك فى عام ٩٩٠هـ.

وبعده بعام خصص لأغوات الحرم الشريف (حب الجراية) يوميًا كما خصص لعبيد عين الزرقاء (حب الجراية)[1] يوميًا وعين لفقراء المجاورين والعلماء الصالحين ألف إردب حنطة سنويًا وكان ذلك فى سنة ٩٩١هـ عندما كان عدد أغوات الحرم الشريف سبعة وخمسين وعبيد عين الزرقاء سبعة عشر نفرًا.

وكان المسجدان الشريفان اللذان لأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ أشرفا على الخراب وحرم الزوار الكرام من شرف زيارتهما،

(١) كان يطلق على الخبز المصنوع من الحبوب المرسلة من مصر حب الجراية.

ولما وصلت الكيفية إلى أسماع السلطان أمر بترميم وتعمير هذين المسجدين كذلك ما بجوارهما من الأربطة القديمة الخربة، وجامل خدمها بأن خصص لهم عامة رواتب كافية، وذلك فى سنة ٩٩٤هـ، وفى خلال تلك السنة كان الجدار الذى فى جهة باب النساء من حرم السعادة قد مال للسقوط وأصبح تعميره واجبًا ورُجى من السلطان صاحب القرار أن يأذن بإجراء ما يقتضى عمله، وبناء على الأمر السلطانى الصادر هيئ الموظفون والعمال والأدوات اللازمة للبناء وأرسلوا عن طريق مصر القاهرة، وعندما وصل أمين البناء إلى المدينة المنورة وتفقد المسجد الشريف بناءًا على آراء السادات والأهالى، وقرر أن يهدم الجدار الشرقى للمسجد ابتداء من باب النساء إلى نهاية حرم السعادة، ولما استلم القرار من قبل العلماء هدم المكان المذكور من أساسه وأبلغ وجوب تجديده إلى عتبة الباب العالى السامى، ووافق هذا القرار رأى وأفكار السلطان، وبناء على ذلك أبلغ الأمر كتابيًا إلى أمين البناء وطلب منه الإسراع فى تجديد المكان المذكور وفقًا لإرادة الأهالى الكرام كما أرسل قطعة من التاريخ محكوكة على رخام، وبين فى الرسالة الكتابية أن وضع هذا التاريخ فى مكان مناسب وإلصاقه من بعض الأوامر السلطانية.

وشرع أمين البناء بناء على التعليمات السلطانية العالية فى أداء مهمته وفى ختام العمليات وضع حجر التاريخ فى ركن من أركان الجدار المجدد، وبين الأمر وأبلغه إلى مركز السلطنة ولأجل ذلك أرسل لأمانة البناء وسائر الموظفين وأعيان البلدة خلعًا فاخرة وعطايا وفيرة وذلك فى سنة ٩٩٥هـ.

وكان طول الجدار الذى جدد ٩٥ ذراعًا وارتفاعه ١٧ ذراعًا والتاريخ الذى أرسل من باب السعادة لإلصاقه على الجدار المذكور يتضمن الآتى: «اللهم خلد ملك من جدد هذا الجدار المحترم وهو مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأكرم، سلطان القبلتين وخادم الحرمين الشريفين، السلطان مراد خان».

تاريخه:

جدد جدار المسجد النبوى، السلطان مراد لوجه الله، سنة خمس وتسعين وتسعمائة فى سنة ٩٩٥.

وبعد سنة خمس وتسعين ببضع سنين تعرضت ثلاثة صفوف من سقف حرم السعادة للضرر إذ أصابها حريق ورعود فاكْتَسَتْ منظرًا قبيحًا مخيفًا، واستحال أداء الصلاة فى تلك الجهات، وإن إبقاء حرم السعادة على حالته الحاضرة إلى أن تنهار تلك الأسقف كليًا سيؤدى إلى هدم وخراب حجرة السعادة، ولما كان هذا غير جائز أبلغ الأمر بمحضر كتابى إلى الباب العالى، ودرس الموضوع طويلاً فى الباب العالى، وبعد أن خمن الأضرار التى ستتسبب عن هذا الأمر فى المستقبل والخسائر التى سيؤدى إليها، عرض الأمر على السدة السلطانية فأمر السلطان بإرسال أحد الأمراء الصالحين، بعد تعيينه لأداء هذا العمل وتدبير الأدوات اللازمة التى تقتضيها المهمة وإرسالها سريعًا إلى دار العز المدينة المنورة وأبلغ هذا الأمر إلى والى مصر وأرسل الأمر الصادر من قبل السلطان أيضا إليه، فأرسل أمين البناء المعين مع المهمات التى دبرت ومهرة العمال إلى دار السكينة.

ولما وصل الموظفون الذين أرسلوا من مصر إلى المدينة المنورة تفقدوا الأماكن التى تحتاج للتعمير والتجديد من حرم السعادة وذلك مع موظفى الحكومة فى المدينة وسادتها، وبناء على الإرادة السلطانية وآراء العلماء والأهالى قوضت ثلاثة صفوف من الأسقف التى اقتضى الأمر هدمها، وبنى مكانها ثلاثة صفوف من القباب الخشبية بمبان حجرية.

وكتب فوق الجدار الشامى الذى فى ناحية الساحة الرملية: هذا تاريخ بناء الروضة الشريفة روضة النبى خير العباد قام بتجديده السلطان مراد، فى سنة ٩٩٩هـ.

وأبلغ الأمر بواسطة والى مصر إلى عتبة صاحب القرار، ومن هنا جزا السلطان من يستحقون المكافأة بالعطايا السلطانية وبالخلع الفاخرة التى لا مثيل لها.

والثلاثة صفوف التى جددت كان كل صف منها يتكون من تسعة قباب، وفتحت فى محاذاة الصف الأول من القباب وفى التقاء سطح حجرة السعادة هوايتين لتلطيف جو حرم السعادة فى أيام الصيف وتبريده وقد اكتسب مسجد السعادة بهاتين الهوايتين زينة أخرى.

وقبل أن تختتم عمليات بناء القباب المذكورة، صدرت الإرادة السلطانية السنية لشراء ساحة كبيرة فى غاية الوسع لبناء عمارة منسوبة لاسم السلطان السامى، وبعد إتمام عمليات مسجد السعادة قد دبروا الساحة فى خارج المدينة وبنوا هناك عمارة كبيرة عظيمة جميلة كما أسس فى قرية قباء رباطًا خاصًا بالفقراء وعين له الموظفين اللازمين وذلك فى سنة ٩٩٨هـ ولم يسمع أهالى الحرمين حتى ذلك اليوم عن مثل هذه العمارة ولم يروا مثلها.

وقد بنيت هذه العمارة بطلب الأهالى وإرادتهم وأنشئ لإسكان خدمها أربعة عشر بيتًا مستقلاً، فأطلق أهالى المدينة المنورة على تلك العمارة التكية المرادية لإظهار مدى سرورهم القلبى وابتهاجهم.

وعندما يقال لهذه العمارة تكية، فلا يفهم أنها تكية عادية للذكر والفكر، والتى يطلق عليها خانقاه، ولم تكن هذه التكية من التكايا التى نعرفها بل كانت عمارة خاصة بجميع الأهالى.

وكانت ثمانية أو أربعة عشر منزلاً خاصة لسكنى المتزوجين من الخدم وستة فيها خاصة لسكنى الخدم العزاب.

وكانت تلك التكية فى ناحية باب المضر وخارج السور وكان لها مخزن كبير ومطبخ ومخازن صغيرة متعددة وفى داخلها طواحينها وعدة مخابز وحجرات لوضع اللوازم الأخرى، وكان يخبز الخبز كل يوم فيها وكانت تصنع الحلوى فى ليلتى الجمعة والاثنين أكثر مما اعتيد.

ويطبخ فيها الأرز والزردة (وهو طعام حلو يطبخ بالزعفران) ويوزع على الفقراء، وكانت هذه العمارة تعد مبرة خيرية لا مثيل لها فى البلاد العربية كما كانت تقدم ما تقوم به حياة كل الفقراء من الأهالى.

وكانت الأطعمة التى تطبخ فى التكية المرادية نفيسة وكثيرة بدرجة حتى إنها كانت توزع فى ليلتى الاثنين والجمعة ما عدا الغرباء والفقراء على جميع أهالى المدينة، وبناء على الروايات الموثوقة أن فقراء أهالى المدينة كانو يُصفُّون ما يحصلون عليه من التكية من طعام الأرز ويئتدمون بزيته عدة أيام، وقد اشترى السلطان فى مصر عدة قرى وأوقفت محاصيلها على تلك العمارة، وكان يرسل من مصر سنويًا محاصيل تساوى خمسة وعشرين ألف قطعة ذهب.

وبناء على المعلومات التى أفرها مؤلف لطائف الأخبار من مؤرخى مصر أن القرى التى شريت لأجل التكية المرادية ووقفت لها هى: لفلا، ظاهرية[1] سُبك الأحد، شبرا زنجى[2]، طنان، كفر زريق، طوخ الملقة، سد طنان، سهرا[3]، سندوب، زريبة، بهداد، بلوصوره، سفط الخمارة، كفر حيدره، قيس، انسوح، ريده منية سمنود، أبو الحسن[4]، كوم برا، تهيا[5]، بلقيا، دنديل، حكامنا، دشنا، ضوابط، أهناس المدينة أهناس الخضراء، وكانت الحكومة المصرية تُدرُّ من محاصيل هذه القرى واحدًا وعشرين ألف إردب من الحبوب وترسلها إلى بندر السويس ومن هناك إلى ينبع بواسطة نوع من المراكب تسمى سبنودا من هناك إلى المدينة المنورة محملة على الجمال وكانت هذه الحبوب وقف دشيشة التكية المرادية.

إلى هذا التاريخ لم تكن فى المدينة المنورة مؤسسة خيرية مثل هذه وكان أهل المدينة محتاجين لمثل هذه التكية حقًا لأجل ذلك يهدى أهل المدينة إلى الآن لروح السلطان المغفور له المشار إليه الفاتحة بكل إخلاص.

(١) تتبع هاتان القريتان ناحية البحيرة لعلها «نكلا، ظاهرية».

(٢) كانت من توابع ناحية المنوفية.

(٣) كانت تتبع ناحية القليوبية.

(٤) كانت هذه القرى من نواحى الدقهلية.

(٥) كانت هذه القرى داخل نواحى بهنساوية والوجه القبلى.

نكتة لطيفة

كان قد خصص للبغلين اللذين يستخدمان لإدارة الطاحونة التى فى داخل العمارة المرادية إردبين من الشعير يوميًا لكل واحد منهما، ولما كان إردبان من الشعير اللذان خصصا بالإرادة السلطانية كثيرًا جدًا، سأل رجال الدولة السلطان قائلين: «ما الحكمة فى تخصيص إردبين من الشعير يوميًا لكل واحد من البغلين مع أنكم تعرفون أن إردبين من الشعير يكفيان لإطعام ثمانية وأربعين بغلا فى اليوم؟ فأجابهم قائلاً: «يأتى يوم لا يقدم لهذين البغلين المسكينين من هذين الإردبين حتى حفنة واحدة» وفعلاً هذا ما حدث فيما بعد.

تأسف

ولم تبق من العمارة العظيمة المذكورة فى زماننا غير خرابة وليس فيها قطرة ماء فى خزانة سبيلها فضلاً عن المأكولات والمشروبات، وكان قد اتخذ ركن فيها قبل يومنا هذا مدرسة يعلم فيها ثلاثة أو خمسة من الأطفال، والآن يقيم فيها العساكر السلطانية من ركاب الهجين.

وكان السلطان مراد المرحوم قد أسس بجانب التكية مدرسة مشترطًا أن يدرس فيها خمسون طفلاً سنويًا، ويأخذ مكان الأطفال الذين يحفظون القرآن الكريم ويغادرونها أطفال آخرون وما خصص لمدرسى هذه المدرسة وطلابها من المخصصات لإعاشتهم والملابس كانت توزع عند حلول مواعيدها.

وعقب ختام بناء تلك المدرسة بنيت زاوية، وعمرت بعشرة من المتصوفة وشيخهم، وخصصت لهم الأشياء اللازمة لإعاشتهم من العمارة سالفة الذكر ثم أضيف لها عدد من الخبز لتحسين أحوالهم وذكر الله فيها صباحًا ومساءًا.

وفى ختام مبانى تلك الزاوية المذكورة وظف من الصلحاء أربعون نفسًا نفيسًا وخصص لكل واحد منهم اثنى عشر دينارًا سنويًا، وكان هؤلاء الصلحاء

يجتمعون فى داخل الروضة المطهرة يتوغلون فى تلاوة سورة الأنعام ويهدون أجر ذلك للروح المحمدية اللطيفة وكانوا يتوسلون بالروح النبوية من أجل نصرة الجنود المسلمين، كما وظف مؤخرًا ثلاثون فقيهًا وخصص لكل واحد منهم قطعتين من الذهب سنويًا وكلفوا قراءة القرآن فى داخل الروضة المطهرة كل يوم، وهؤلاء أيضا كانوا يرفعون أياديهم بالدعاء ويهبون أجر مثوبة قراءاتهم لأرواح سلاطين المسلمين.

وقد رتب كذلك ثلاثون من قراء أجزاء القرآن بشرط أن يختم القرآن فى داخل الروضة كل يوم مرة، على أن يأخذ كل واحد منهم سنويًا ثلاثة دنانير ونصف دينار كما عين مائة نفر لأداء الحج لابسين ملابس الإحرام واقفين على جبل عرفات فى مواقيت الحج على أن يأخذوا سنويًا عشرة دنانير، وكان قراء أجزاء القرآن يختم كل واحد منهم القرآن على الوجه المشروع كما أن الذين وظفوا لأداء الحج كانوا يلبسون ملابس الإحرام فى مواقيت الحج ويسافرون إلى مكة وكانوا يواظبون فى أثناء وقفة عرفات على الدعاء لترقى الدولة وسعادتها ولزيادة شوكة الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد وظف خمسة من المدرسين من المذاهب الأربعة وخصص لهم رواتب كافية، بشرط أن يكون أحدهم من خطباء الشافعية وكان لكل واحد منهم وظيفة تدر عليه أربعين درهمًا سنويًا.

ولا تقتصر الخدمات التى أداها مراد الرابع للبلدة النبوية المسعودة على هذا، بل رمم سطح الحرم النبوى الشريف كاملاً لاقتضاء الأمر ذلك، كما جدد آجر الروضة المقدسة، وغير صبغة جدران مسجد السعادة لتوأم حرم الجنة الأربعة وأمر بطلاء عدد أسطوانات مسجد السعادة البالغة ثلاثمائة أسطوانة على لون واحد.

والفنانون الذين استخدموا فى طلاء هذه الأعمدة بشموس ونجوم كل واحدة

منها تختلف عن الأخرى قد أظهروا فى عملهم هذا مهارة جعلت الذين يدخلون إلى حرم السعادة السعيدة يرتعشون من شدة التعجب ويتحولون إلى الجدران الساكنة ويبتهلون.

من مؤلف طبقات ابن سعد نقلاً عن محمد بن عبد الرحمن أن محمد بن عبد الرحمن قال: «كان أبى حاضرًا عندما انهار الجدار الذى فى مربع السعادة فى عهد عمر بن عبد العزيز؛ وكان يقول: عندما انهار جدار مربع قبر السعادة كنت بجانب حجرة السعادة، فنظرت من مكان السقوط داخل مربع القبر الجليل. كان من بين مرقد السعادة وحجرة عائشة ـ رضى الله عنها ـ المنيرة قدر شبر واحد، فأنا أيضًا أصدق أن نعش النبى ﷺ قد وضع إلى اللحد الشريف من الناحية القبلية وأؤيد تلك الرواية، وبما أن روح النبى ﷺ قبضت فى هذا المكان فالمكان الذى توفى فيه أشرف بقاع الأرض فمن هنا يؤخذ أنه ﷺ دفن فى هذا المكان لذلك». انتهى.

بعد أن كنس سطح حجرة السعادة وأخرجت أنقاض الجدار المنهار إلى الخارج شرع شمس بن زمن فى بناء الأماكن المنهدمة ذاكرًا اسم الله وجعل عرض الجدار الشرقى فى عرض أساسه الأصلى يعنى فى سمك ثلاثة أذرع كذلك ذراعين ونصف من السمك، وأدخل العمود الملاصق للجدار الشامى فى داخل الجدار المذكور، ومن هنا جاء سمك الجدار الشامى لمربع قبر السعادة أكثر سمكًا من جدران الجهات الأخرى وأصبحت جدران جميع الجهات يختلف بعضها عن البعض فى السمك، وكان اليوم الذى بدأت فيه العمليات يوافق السابع عشر من شهر شعبان من السنة المرقومة.

ولما كان ما بين الجهة الغربية والشرقية على شكل طولى، وكان بناء القبة عليه يرى غير قابل للتنفيذ ولكن بما أن قرار اقتضاء إنشاء قبة فوق مربع القبر الجليل كان قطعيًا والتحرك خارج هذا القرار غير ممكن فقد جعل شمس ابن زمن ـ بناء

على تصويب المهندسين ورأيهم ـ حجرة السعادة مربعة وذلك بفتح باب من جهة قدمى السعادة من الحجرة المعطرة، فى ارتفاع اثنى عشر ذراعًا، يعنى قد ضيق وقصر طول الجدارين والباب المفتوح وجعل داخل مربع حجرة السعادة فى شكل مربع ولما بنى الجدار الشامى بأحجار منحوتة شيد فوقه قبة فى ارتفاع ثمانية عشر ذراعًا آدميًا عن سطح الأرض وفتح فى وسط الجدار الشامى بابًا صغيرًا وأدخل الحجرة الشريفة ابن أخيه وصهره لتسوية ما فوق القبور الثلاثة، والرجلان اللذان أدخلا داخل قبر السعادة قد فرشا فوق القبور الثلاثة رملاً على شكل ظهر السمك مثل قبور بلاد الروم. انتهى.

بعد أن وقف السلطان محمد خان القرى المصرية ضعف مرتبات الحرمين حسب الترتيب، ثم أرسل إلى الروضة المطهرة سجادة منسوجة من الحرير وسجادة أخرى لتفرش على محراب النبى وكسا مرقد السعادة بكسوة مزخرفة جميلة وذلك فى سنة ١٠٠٣هـ وكانت فوق الكسوة الشريفة التى أهداها لمسجد السعادة، قد كتبت الكلمة المنجية الشهادتان والصلاة والسلام وأسماء أصحاب النبى الكرام نَسْجًا، كما رسم فى ذيلها اسم السلطان وما اشتهر به من الألقاب.

وأراد السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث أن يلاطف ويجامل أهالى الحرمين الشريفين من جديد، فوحد إدارات دشيشة الحرمين فى سنة ١٠١٣هـ وأعطى نظارتها لشخص اسمه داود أغا وأحال الإشراف على حسن تسوية الأمور وتمشيتها فى جميع ما يتعلق بهذه الإدارات لمحافظ مصر إبراهيم باشا، وسبب هذه التعيينات وحكمتها ما عرف من ضياع حقوق سكان مدينة الرسول بسبب عدم اهتمام محافظى مصر ووقاحة نظار الدشيشة وطمع مشايخ العربان إذْ كانت الدشائش التى اعتيد إرسالها إلى أهالى الحرمين الشريفين مثل الدشيشة الكبرى، والمرادية والمحمدية والخاصكية ودشائش الأوقاف وأخرى من غلال الجراية والصدقات فضلاً عن عدم إرسالها فى وقتها كانت المقَّررات ترسل ناقصة وغير منتظمة ومن هنا تعرض أهالى الحرمين لمضايقات شاقة، ولما

وصلت هذه الفوضى لأسماع السلطان أدركته الغيرة وأراد أن يقف دون هذه الشرور وأن ينقذ أهالى البلدتين الطيبتين من بلاء القحط والغلاء فألغى نظارات الدشيشة كلها، ورفعها ثم أمر بأن تضم جميع النظارات تحت نظارة واحدة بعد أن خصص ألف إردب قمحًا لهذه النظارة كما عُرف صورته فى الأمر العالى الذى سيأتى فيما بعد، وهذا التصرف دليل واضح على ما أولاه السلاطين العثمانيون من الرعاية والحرمة نحو الحرمين الشريفين ولا شك أن رعاية هذه البقاع المقدسة وتطييب خاطر سكانها فرض عين على العامة والخاصة ولاسيما الملوك العظام.

صورة الأمر المرسل إلى المحافظ إبراهيم باشا من قبل السلطان و الخاصة بنظارة الدشيشة الكائنة فى مصر:

هذا الحكم الصادر لإبراهيم باشا وزيرى فى محافظة مصر، لما كانت مكة ووادى البطحاء غير ذى زرع ولما كان انتعاش سكان الحرمين ومعاشهم متوقفًا على الجراية والحبوب التى ترسل من الديار المصرية ووصولها إليهم، وأن دشائش الأوقاف مثل الدشيشة الكبيرة والمحمدية والخاصكية وغلال الجراية والصدقات لم تكن ترسل فى وقتها منذ عهد المرحوم المغفور له والدنا العظيم، وذلك لعدم اهتمام أمير الأمراء بإرسالها وبسبب كثرة أطماع النظار ومشايخ العربان وقلة تدينهم، فضلا عن إرسالها ناقصة، فزادت حالة فقراء الحرمين الشريفين والخدم والمجاورين بؤسًا بسبب القحط والغلاء وصاروا يعانون الآن جميعًا من الضيق الشديد، لَمَّا ألقى إلى مسامعنا السلطانية بحثنا عن سبب هذا الإهمال فوجدنا أن لكل دشيشة ناظرًا ومُبَاشِرًا خاصًا وأن النظار وأمراء الحج لا يحرصون على إيصال العربان الدشائش وغلال الصدقات ونقلها بجمالهم فى أوقاتها، بل يحرصون على نقل غلالهم الخاصة التى سيبيعونها كما أن بعض الأشخاص من الخارج يؤجرون جمال العربان لينقلوا غلالهم الخاصة.

وعدم نقل غلال الدشيشة فى وقتها وأكلها بالاتفاق بين النظار والعربان من الأمور التى اعتادوا عليها، ورأينا أن حَل هذه المشكلة أن تلغى نظارات الدشيشة الكبيرة، والمرادية والمحمدية والخاصكية وغلال الصدقات والجرايات، وأن توحد نظارتها وتسند إلى إنسان موثوق فيه، يعتمد عليه، رجل متدين قانع يكتفى بما يأخذ من الرسوم العوائد العادية، فلا يطمع فى حق الفقراء ولا يتجاوز حقه، كما أن مشايخ العربان عندما يرون قناعة الناظر وعفة نفسه فإنهم لا يخونون ولا يتجاوزون الاعتدال فى تعاملهم، وبهذا يمكن أن تنقل غلال الدشيشة والجراية والصدقات إلى أماكنها فى أوقاتها تمامًا هذا ما نهاه إلينا بعض أهل الخير وأصحاب العارفين بحقيقة الأمر، والآن لما كان احترام أقدس بقاع الأرض الحرمين الشريفين ورعاية جانب سكانهما ومساعدتهم من واجب العامة والخاصة ولاسيما السلاطين العظام، ولما كان أجدادنا السلف الصالح قد حملوا لقب خادم الحرمين الشريفين واستحقاق هذا اللقب قائم على رعاية سكان الحرمين الشريفين واحترام وتحسين حالتهم المعيشية بتوسيع أرزاقهم ونفقاتهم وأن ثبات هذه النعمة السلطانية العظيمة ودوامها لا يتيسر إلا بإقبال هذه الطائفة من الناس الصالحين بالدعاء المجاب لها فارغى البال ومترفى الحال، وهذا ما جزم به اعتقادى السلطانى، لذا فأقصى مرادى ومبتغى فؤادى أن تصل غلال الدشائش والصدقات والجرايات إلى أصحابها فى وقتها فى عز سلطنتى الميمونة فمن هنا قررت أن تلغى جميع نظارات الدشائش المذكورة وتجمع كلها تحت نظارة واحدة، وإننى أرى أن يكون هذا الشخص داود أغا من خدم الحرم المحترمين سابقًا ومعتمد المتقاعد حاليًا فى المحمية المصرية قدوة الخواص، والمقربين ومعتمد الملوك والسلاطين، وبما أننى أعتمد على وفرة تدينه وأمانته وفرط استقامته رأيت أن أعينه ناظرًا على جميع الدشائش، وكذلك رأيت أن توضع دشيشة الملك قايتباى تحت نظارة المشار إليه داود أغا بناء على رأيك وبناء على شرط الواقف؟ الذى جعلنى ناظرًا عليه أصالة وجعلك ناظرًا بالوكالة، وصدر أمرنا عليه أن توضع جميع الدشائش تحت نظارة داود أغا.

ولتوزع بعد ذلك دشائش الحرمين الشريفين على جمال العربان التى ستحمل غلال الدشيشة والصدقات والجراية على قدر ما تتحمل جمالهم، ويجب ألا يتعدى أمير الحاج أو غيره على جمل واحد من جمال العربان أو يتعرض إليه قبل أن تنقل الأشياء المذكورة إلى بندر السويس، كما يدبر من مخازن مصر ألف إردب قمحًا وصدقة باسم جلالتى وتنقل إلى الحرمين الشريفين قبل جميع الدشائش التى ترسل عقب إرسال صدقتى، هذا ما صدر به أمرى العالى مقرونًا برسالتى.

وقد تفضلت بمجرد وصول أمرى هذا أن توضع دشائش الدشيشة الكبيرة، والأشرفية، والمرادية والمحمدية والخاصكية وكذلك نظارة الصدقات الأخرى والجرايات تحت تصرف المشار إليه، وتوزع الدشائش التى عينت إلى مشايخ العربان لتنقل بواسطتهم إلى ميناء السويس، ولتحرص على ألا يتعرض أمير الحاج أو شخص آخر إلى جمل من جمال الحمل والنقل وما عين من قبل جلالتى مجددًا من ألف إردب قمحًا من مخازن مصر صدقة لأهل الحرمين وأن تنقل بعدها الدشائش الأخرى وغلال الصدقات والجراية، منبها بألا ينقص قدح قمح واحد عند إرساله ونقله وإننى أعتمد فى هذا الخصوص على تدينك وأمانتك ومهارتك واستقامتك وحسن فراستك ومزيد كياستك وإن ثقتى فيك لا يعلو عليها شىء.

وزد اهتمامك بهذا الموضوع لأن الدشائش والصدقات والجرايات من حق الفقراء فإذا ما وصلت تامة كاملة وفى وقتها المحدد، أُنقذ فقراء الحرمين من القحط والغلاء ويعمهم الرخص والسعة ويخلو بالهم وتتحسن حالتهم المعيشية فيقبلون على الدعاء بالغدو والآصال لدولتى وعلو شأنها.

وإذا ما أبرز أحد من أغوات الحرمين المحترمين أو واحد من أمراء مصر أو غيرهم أمرًا أو إذنا من قبل ديوانى السلطانى أو إدارتى المالية، بعد فرمانى السلطانى هذا، فلا يلتفت إليه ويسحب منه رخصته ويرسل إلى عتبتى

السلطانية، وابعث إلىّ بأسماء الذين يعوقون وصول الدشائش أو يؤخرون وصولها، والذين يتدخلون فى أمور جمال العربان ويتعرضون لهم، ويجب عليك أن تتخذ حكمى السلطانى هذا دستور عملك وأن تصونه من التغيير والتبديل وقف دون الذين يريدون مخالفة ما جاء فى مضمونه.

تحريرًا فى سنة ثلاث عشرة وألف. انتهى.

وقد جدد السلطان أحمد خان فى يوم جلوسه الميمون أبسطة حرم السعادة وستائر الكعبة المعظمة والحجرة المعطرة المزركشة، والكسوة التى فوق قبر حضرة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وغطاءى[1] عمودى الحنان والمنان وأرسل خمسة آلاف دينار لتوزيعها على أهالى الحرمين الشريفين كصدقة سلطانية، وأرسل لوحة غالية الثمن تتكون من ٢٢٧ قطعة ماسية، وقد سبق تعريفها فى مقالة خاصة، على أن تعلق مكان الكوكب الدرى الذى فى ضريح السعادة وذلك فى سنة ١٠١٢هـ.

وبعد أن علق لوحة الكوكب الدرى المزينة، دليل حبه السلطانى الذى يفوق الحد للنبى ﷺ، فى ضريح ظاهر الأنوار كشارة لوحة النبى الكريم، فى تعليقها فوق الباب الذى يطلق عليه باب التوبة، وكانت لوحة جميلة مصنوعة من الفضة الخالصة ومزينة غاية التزيين، وذلك فى سنة ١٠٢٦هـ، وكان طول اللوحة ذراعين وعرضها ذراع واحد كتب عليها تاريخها باللغة العربية.

لوح السلطان أحمد أهداه حبًا خالصًا وقطع وقفًا على أعتابك يا سيدى لتقبيل تراب عتبتك وياله من تراب، وقمنا تجاه الوجه نرجو الشفاعة إلى الله فى بحر الإساءة والذنب.

وقد علقت هذه اللوحة على الكمر الخارجى لباب التوبة وكانت ترى من داخل الروضة المطهرة.

وقد ضم السلطان أحمد خان لصرة الحرمين ألف قطعة ذهبية سنويًا، وأنعم بعطايا كثيرة لأيتام السادة والأشراف لا تعد ولا تحصى، وأمر رجال الدولة أن

(١) قطعة القماش هذه كانت نسجت من ١٨١٥١ مثقال من الخيوط الذهبية.

يقتدوا بآثاره السلطانية، وبناء على هذه الإرادة السلطانية وبهذه المعونات الكافية زوجت بنات السادات بأكفائهن.

كما بنى مؤخراً منسوبًا للاسم السلطانى الكريم سبيلٌ بالقرب من باب الرحمة كما بنى للطلاب الذين ينتمون للمذهب الحنبلى مدرسة خاصة لإقامتهم، كما صنع حوضٌ وبركة فى طريق المحمل المصرى لسقيا الحجاج، وخصص لتعميرها كثير من النقود، ومازالت البركة والحوض موجودين مع السبيل الذى لا مثيل له بالقرب من باب الرحمة وأبناء السبيل ينتفعون منه إلا أن المدرسة التى أنشئت من أجل الطلبة فى المذهب الحنبلى خربت مع مرور الأيام ولم تعمر بعد ذلك.

كان السلحدار مصطفى باشا المغفور له قد أرسل بواسطة قاضى مصر شعبان أفندى لوحة فى غاية الزينة زينت أطرافها الأربعة بأحجار ملونة لوحة ماسية كبرى وذلك فى عهد السلطان مراد برجاء تعليقها فى ذيل الكوكب الدرى سالف الذكر، وعندما وصل المرحوم شعبان أفندى إلى المدينة علق اللوحة التى حملها تحت لوحة الكوكب الدرى هدية السلطان أحمد فى سنة ١٠٤٧هـ.

وفى عهد السلطان محمد خان بن السلطان إبراهيم أشرفت مئذنة باب السلام وبعض أماكن حرم السعادة على الانهيار والسقوط، وقد أبلغ إلى السلطان صاحب القرار فى حزن وألم فما كان إلا أن أمر والى مصر أحمد باشا بأن يرسل إلى دار الهجرة من يقومون بإصلاح ما يقتضى إصلاحه مع تدبير المبالغ اللازمة والأدوات إلى المدينة فأرسل الباشا المشار إليه الأشياء اللازمة إلى دار السكينة متتالية فهدمت مئذنة باب السلام من أساسها وجددت فى صورة جميلة وطراز بديع وفرشت الساحة الرملية التى حول الروضة المطهرة بقطع رخام مجلاة وذلك فى سنة ١٠٦٠هـ.

غريبة

كان أحمد باشا سالف الذكر الذى قد وفق فى فرش الساحة الرملية بالرخام كان قد نوى أداء الحج فى حين ولايته لديار بكر ومصر إلا إنه ذهب إلى مكة

المكرمة بعد عزله، بينما كان أحمد باشا ذاهبًا إلى المدينة المنورة مع قاضى مكة محمد بن إسماعيل أفندى فى يوم من الأيام قال مخاطبًا محمد أفندى إننى أريد أن أعرض على أعتاب الومضات النبوية خدمة، وحصول أملى هذا يتوقف على أن أتولى ولاية مصر، فأرجو منك إذا ما قدر لنا أن نتعبد فى الحجرة المعطرة واضعين جباهنا على ساحتها ساجدين لنستدر من الله شفاعة الرسول ﷺ لهذا العبد العاصى العاجز وأن تدعوه ـ تعالى ـ أن يشفعه ﷺ فى تحقيق ما فى ضميرى بأن يسند إلى عهدة هذا العبد العاجز ولاية إيالة مصر ولما وصلا إلى المدينة المنورة وأخذا فى زيارة حجرة السعادة، تذكر محمد أفندى بن إسماعيل رجاء المرحوم أحمد باشا وشرع فى دعاء مخلص محرق قائلا: «يارسول الله! إن عبدك الذى يقف أمامك رافعًا يديه معظمًا من عبيدك يتمنى أن ينال شفاعتك يوم القيامة، وإنه يريد أن تطلبوا أن توجه إليه ولاية إيالة مصر حتى يقوم بخدمة لعتبة مرتبتك النبوية!!!» «ولم يكن محمد أفندى قد أنهى دعاءه بعد إذ استولى على أحمد باشا حالة وجدانية خاصة وقال لمحمد أفندى: «كفى، كفى قد استجيب دعاؤك، من قبل الله» فقال له محمد أفندى متعجبًا، «ماذا حدث؟» قال له: «ما أعجبك!! ألم تر الهياكل النورانية التى أمامنا؟ وقد رأيتها أنا ولله الحمد والمنة! بينما كنت تدعو كانوا يؤمنون على دعائك» وعرف ما حدث وفى ختام كلامه استولت على الزوار حالة غريبة؛ والله على كل شىء قدير. انتهى.

وصار أحمد باشا بعد هذه الغريبة بمدة حسب القدر واليًا على مصر، وأمر من قبل السلطان محمد خان بتجديد مئذنة باب السلام بعد هدمها وقام بالمهمة التى أحيلت إليه خير قيام ولم يطمع فى غلال صرة الحرمين أدنى طمع وأرسلها فى وقتها وزمانها وأخيرًا أصبح صدرًا أعظم وارتحل عن الدنيا مقتولاً شهيدًا رحمة الله عليه.

وبناء على إبلاغ مقام الخلافة العليا بأن جدران سور المدينة احتاجت إلى تعمير شامل فى خلال سنة ١٠٧٧هـ وأن الباب الذى فتح فى جهة البقيع ساء حاله وأصبح لا يفتح ولا يغلق صدر الأمر السلطانى إلى مدير حرم السعادة إبراهيم

أغا بتعمير سواء أكان الباب المذكور أو جدران السور التى أشرفت على الانهيار فى صورة لائقة كما أرسل مقدارًا كافيًا من النقود والمهمات فعمر ورمم إبراهيم أغا أماكن السور التى تحتاج إلى التعمير تعميرًا جيدًا، كما قوى وشيد باب البقيع بلوحات حديدية وكتب تاريخ التجديد فوق أكماره.

جدده السلطان الغازى محمد خان ابن إبراهيم خان، سنة ثمان وسبعين وألف وأبلغ ما تم عمله مركز السلطنة السنية فى سنة (١٠٧٨).

وبعد فترة أخطر باب السعادة برسائل متعددة ومحاضر أن مؤخرة حرم السعادة وسقوف دكة الأغوات قد خربت وأشرفت على الانهيار فجأة، وفهم من المضبطة التى صدرت من المجلس الذى انعقد لدراسة هذا الموضوع أن ترك المواقع المقدسة على حالتها تلك سيؤدى إلى فتح باب نفقات كثيرة، فى المستقبل كما أن سقوطها فجأة سيؤدى إلى إتلاف نفوس كثيرة فوجه إلى مدير حرم السعادة سابق الذكر أمانة البناء بتعمير وتقوية الأماكن التى تحتاج إلى التعمير بالفرمان السلطانى الصادر إليه.

وأرسل مهندسًا ماهرًا والمبالغ المقتضية ولوازم الأبنية، وجدد إبراهيم أغا بقرار الأهالى ورأيهم السقوف اللازم تجديدها بعد هدمها وشيد بعضها بالترميم ثم كتب التاريخ على مؤخرة سقف الحرم السعيد:

«جدد الحرم الشريف من فضل الله تعالى وعونه وجزيل عطائه العميم السلطان محمود خان بن السلطان إبراهيم خان كان له ناظرًا إبراهيم أغا وكان الفراغ فى سنة ألف وثلاث وتسعين».

كما كتب عليه قصيدة مناسبة ثم أبلغ الأمر بواسطة شيخ الحرم عثمان أغا إلى مركز السلطنة، ولما حظى هذا العمل باستحسان السلطان أكرم كثيرًا من سادات البلاد والموظفين الحكوميين الكثيرين وذكر ما بذله الأغا المذكور من سعى وجهد وذلك فى كشف مخصوص وقدر عمله وذلك فى سنة (١٠٣٩هـ).

كما أحيا إبراهيم أغا كثيرًا من الآثار الجليلة باسم المرحوم السلطان محمد

خان، إلا أن مرور الأيام ودوران الزمن خرب جميع هذه الآثار ولم يبق أحد يعرف حتى أماكن هذه الآثار الخربة، إلا أن إبراهيم أغا قد صنع صهريجًا كبيرًا وحوضًا واسعًا عميقًا فى جهة المساجد الأربعة التى تقع فى ناحية جبل سلع وخلفه وذلك بناء على الأمر السلطانى الذى تلقاه، وأسس فوق هذا الضريح قصرًا مرتفعًا بهيجًا، وكانت أطرافه الأربعة محاطة بحقل أخضر خال من الجبال والمنازل على مدى الرؤية، واشترى لزوار المساجد الأربعة وأبناء السبيل.

ومازال الصهريج الذى صنعه إبراهيم أغا قائمًا ينتفع منه المارُّون إلا أنه أشرف عل الخراب والانهيار.

وإذا ما ترك فترة مهملاً فمن اليقين أنه سيصبح غير صالح للاستخدام.

ومن السلاطين الذين رعوا حرمة أهالى الحرمين السلطان مصطفى خان الثانى.

وقد راعى جانب أهالى الحرمين وقدم لمبانى مسجد السعادة خدمات كثيرة، فإلى عهده لم تكن الحفلات تقام بمناسبة الولادة النبوية مرة فى السنة وقد استن فى عهده انعقاد الجمعيات مرة فى السنة لقراءة منظومة المولد النبوى وأمر بتدبير ٣٣٠٠ قرش من الخزانة المصرية وإرسالها إلى المدينة وذلك فى سنة ١١١٣هـ.

وكانت هذه المجالس تنعقد بعد إشراق شمس اليوم الثانى عشر من ربيع الأول كل سنة، وتعقد الاحتفالات بالمولد النبوى الباهر فى زماننا فى الليل.

صورة انعقاد مجالس الاحتفالات بالمولد النبوى الميمون

كان مدير حرم السعادة قبل ليلة تلاوة المولد بيوم يجهز مشروبات حلوة ويملأ بها زوارق حرم السعادة ويرسل إلى منازل أعيان البلاد وموظفى الحكومة وأصحاب الخواطر عدة زوارق من الشراب يشير بذلك إلى انعقاد جمعية الاحتفالات بالمولد النبوى فى حرم السعادة ويعلنه ويفرش على ساحة مسجد

السعادة ـ حسب عادة البلد ـ الأغطية والسجاجيد والمقاعد ويأتى بالكراسى ويزين المكان، وبما أن كل من أرسل إلى بيته الشراب يُعَدُّ مدعوًا للاشتراك فى الجمعية ففى القرب من مساء اليوم الثانى، يأتى المدعوون الكرام أفواجًا إلى مسجد السعادة، وأفراد الجماعات الذين يرون هؤلاء المدعوين يتركون أعمالهم ويتجهون إلى مسجد السعادة حتى يكونوا فى هذا المجلس البهيج ويجلسون فوق الأغطية والوسائد والسجاجيد التى فرشت.

وقد توضع فى ساحة مسجد السعادة كراسى ذات غطاء[1] أبيض تكون الوسائد التى بالقرب من دكة الأغوات قد غطيت بأقمشة حمراء فيجلس شيخ الحرمين ومدير الحرم ونائب الحرم والمفتون والقضاة والأغوات وأعاظم السادات، وموظفو الحكومة فوق هذه الوسائد ويوقدون أعواد العود والعنبر فى المباخر الفضية ويستغرق الجماعات عامة فى بحار السكوت والحيرة نتيجة لهذه الروحانية المدهشة التى يكتسبها المكان، وبعدما يستمر هذا الصمت فترة يجلس أربعة من الخطباء ذوى أصوات رخيمة حزينة فوق الكرسى سالف الذكر بعد أداء مراسم الصلاة والسلام ويشرعون فى تلاوة منظومة المولد النبوى، وبعد الحمد والصلاة يدعون دعاء مؤثرًا مناسبًا للسلطان مؤسس هذه الجمعية وللسلطان الذى مازال حَيًّا، ثم ينزلون من الكرسى.

وبعد أن ينزل هؤلاء الخطباء الأربعة من فوق الكرسى يصعد خطيب آخر ويدعو على الطريقة التى سبق ذكرها وينزل، وبعده يصعد خطيبان واحد تلو الآخر ويكملان الدعاء الخاص بمجلس الجمعية النبوية لمولد النبى وينزلان، وبعدهما يصعد خطيب آخر يتلو منقبة ولادة سيد العالمين وعقب ذلك يلقى قصيدة[2] بليغة فيملأ قلوب الحاضرين بالبهجة والسرور.

(١) أرسلت أغطية هذا المقعد المزينة فى عصر السلطان أحمد بن السلطان محمود خان، وكان قبل ذلك خاليًا من الغطاء.

(٢) تركت قراءة هذه القصيدة فى وقتنا الحالى.

وبينما تتلى منظومة المولد الشريف يسقى السقاة[1] بشراب حلو يروى الجماعة العطشى، ويُكْسَىُ من اشترط الواقف إتحافهم بالخلع خلعًا فاخرة.

تكون فى هذه الجمعية أشواق وشفافية وروحانية بما لا يمكن وصفه، وتتولد دهشة فوق العادة من الأعمدة ذات القباب والخيم والهيئات المرئية للسادة الخطباء فوق الكرسى، دهشة وجدانية فتترك الجماعة غائبين عن وعيهم وعقلهم.

وتعقد عين هذه الجمعية كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من رمضان فى مكة المكرمة على أن تعطى نفقاتها من وقف السلطان مصطفى خان المشار إليه.

والجمعية التى تعقد فى مكة المعظمة تعقد فى جهة المحكمة من ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات، ويجتمع فى هذه الجمعية أمير مكة المعظمة ووالى الحجاز والعلماء وجميع الصالحين وإن لم يكن توزيع الشراب فى الزوارق من النظام المتبع فى تلك الجمعية إلا أن من العادة فرش الحرم الشريف وتهيئته، فنائب الحرم يفرش الجهة التى تقع فى ناحية المحكمة بمقدار كاف من السجاجيد والوسائد فى يوم انعقاد الجمعية ويدير مقدارًا كافيًا من الشراب واللوازم الأخرى ويفيد الحضور الذين اعتادوا المجئ بنفس الكيفية، ويأتى سواء أكان الأشخاص اللذين أخبروا بالأمر أو موظفو الدوائر الحكومية لابسين ملابسهم الرسمية إلى الحرم الشريف ويجلسون فوق السجاجيد التى هيئت كل واحد منهم حسب مراتبهم، وبعد مدة وجيزة توقد المجامر بالعود والعنبر فيمسكونها بأيديهم ويتوجهون إلى مسقط الرأس الشريف للنبى محمد ﷺ، إلى الدار التى شهدت ولادة النبى ﷺ وكل ذلك فى موكب فخم عظيم، إن هذه الدار قد اشتهرت باسم مولد النبى وفى هذا المكان الذى يشبه الجنة تتلى منظومة المولد الشريف وتلبس الخلع بجانبه حسب النظام المتبع.

(١) فى زماننا كان الأغوات هم الذين يوزعون الشراب.

وبعد ذلك تعود هيئة الجمعية إلى المسجد الحرام ويشرعون فى تلاوة الأدعية المأثورة وينهون الاجتماع بشرب الشراب الذى أعده نائب الحرم.

وقد أضاف لهذه الجمعية فى أواسط سلطنته السلطان عبد العزيز المأكل الحلو والملبس واتخذ إرسال هذه الملابس من باب السعادة نظامًا خاصًا ومن هنا يرسل كل سنة مع محمل الشام هذه الملابس، وعند عقد جمعية المولد يوزع أطباق منه إلى الحاضرين.

أشرفت فى سنة ١١٠٧هـ بعض أماكن من سقوف مسجد السعادة على الخراب كما أوشكت بعض أعمدته على الانهيار والخراب، فأبلغ ذلك من قبل بكر أغا شيخ الحرم إلى باب صاحب القرار وبناء على هذا الأمر السلطانى أرسل المهندس سليمان بك إلى المدينة المنورة بمهمة تعمير الأماكن المقدسة التى تحتاج إلى ذلك وأمر والى مصر بتدبير المبالغ اللازمة ولوازم المبانى وإرسالها إلى المدينة المنورة، وتحرك سليمان بك من مصر القاهرة وقد أخذ معه ما جهز من المهمات وما دبر من المبالغ إلى دار الهجرة ووصل إليها فى سنة ١١٠٨هـ وبقرار وجوه البلاد وكبار موظفى الدولة شرع فى العمل فجدد السقوف المتضررة ومعها اثنى عشر عمودًا كما أصلح من مسجد السعادة وبعد أن زين كل جهات حرم السعادة بأنواع النقوش والرسوم، هدم مسجد قباء والمصلى النبوى، ومسجد على ، من أسسها وجددها بناءًا حجريًا جاعلاً لها قبابًا وأسس بجانب مسجد على مدرسة ودار كتب وسبيلاً مشهورًا باسم الاسم السلطانى، وبعد أن أتم هذه الأعمال كما فصل فى أماكنها جدد مشهد حمزة ـ رضى الله عنه ـ وأتم مهمته بأن طَهَّرَ مجرى عين الزرقاء وبئرى على، وعاد إلى باب السعادة وحظى عمله هذا بالابتهاج السلطانى فأحسن إليه حيث رقى إلى رتبة أمير الأمراء.

وقد نظم أحد شعراء المدينة المنورة تاريخًا يعرف ما قام به سليمان بك من إحيائه لبعض المواقع وقد كتب هذا التاريخ بعد الاستئذان على قطعة رخام وحك وألصق على عمود بالقرب من باب الوفود.

وهذه صورة التاريخ المذكورة الذى مازال قائمًا.

عربى

حمدًا من آل عثمان الملوك المصطفين

حيث جاد كالمطر على من أعلى القلم

وقصر للخير نسلاً بعد نسل فانتهى

دور إحسان إلى من كان ينبوع الكرم

حضرة سلطان ثانى مصطفى أولهم

صب أموالاً لتجديد الخير المحتشم

ثم أحيا مسجد التقوى المؤسس فى قباء

والذى يدعى مُصَلَّى الحبيب المحترم

مشهد حمزة عم النبى المصطفى

جدد والحمد لله على الوجه الأتم

ونظف فى ذى الحُلَيْفَةَ داخل بئر على

أحلى فى مظاهر منتها الذى كان الأهم

ثم أجرى عين الزرقاء من أم القبة

بعد تنظيف لها من طين مجرى منقسم

طول مجراها من الأم إلى أرض الجرف

طال ما لم يتفق تطهيرها منذ القدم

جاء مقبول العرب من عون أنظار العجم

فارق الله تعالى بالقبول والرضا

صانه صاخرا اليوم تلتقيه لاجرم

ثم إن حاولت تاريخًا لتجديد ذكر

فاستمع من حق ما يتلى عليك من رقم

عد مفصولات الفات فذاك التاريخ

جدد السلطان الأعظم مصطفا هذا الحرم

فى سنة ١١١١هـ.

خرب أحد سقوف مؤخرة حرم السعادة إذ أصابته صاعقة وذلك بعد عودة سليمان باشا إلى باب السعادة بعدة أشهر، وبناء على ما قدم من الرجاء قد رقى الباشا المشار إليه إلى رتبة أعلى وأسندت إليه ولاية جدة وأمر بأن يهتم بتعمير سقوف الحرم السعيد الذى تعرض للخراب، فوصل سليمان باشا إلى المدينة المنورة وعمر المواقع المذكورة كما يجب وعلى الوجه المطلوب وكتب على ركن من أركان ذلك السقف:

جدد هذا السقف الشريف، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين السلطان الغازى مصطفى خان، خلد الله ملكه وذلك بنظارة العبد الفقير المعترف بالتقصير، الحاج سليمان باشا، المحافظ فى جدة المعمورة المشرف بخدمة رسول الله ﷺ وذلك فى سنة ١١١٢هـ.

وللسلطان أحمد خان الثالث بن السلطان محمد خان الرابع خدمات مشكورة لحرم السعادة، قد أخبر فى سنة ١١٣٢هـ أن اثنى عشر عموداً متصلة بالساحة الرملية التى فى الجهة الغربية لجدران حرم السعادة أشرفت على الخراب، من قبل أعيان البلدة وموظفى دار السكينة وصدرت الإدارة السلطانية بإرسال موظف بسرعة لتجديد تلك الأعمدة وتعميرها فوجهت أمانة البناء لشخص يدعى الحاج موسى أغا وأرسل إلى المدينة المنورة.

ووصل الحاج موسى إلى دار الهجرة العالية وبعد كشف المواقع الشريفة بدلالة أصحاب الخبرة جدد تلك الأعمدة الإثنى عشر والجهات الأخرى من حرم السعادة

فى صورة كاملة فى سنة (١١٣٣هـ) وكتب على أحد الأعمدة التى ركزت جديداً أيد الله نصر دولة من جدد هاتين المنامتين الشريفتين، ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان بن السلطان الغازى أحمد خان، ابن الغازى محمد خان، خلد الله ملكه وذلك بمباشرة العبد الضعيف، الحاج موسى ووافق بتجديد تاريخ المنامتين بالمسجد، سنة ألف ومائة وثلاثة وثلاثين، وأمر بكتابة هذا التاريخ.

وبعد أن أتم تعمير الأعمدة المذكورة فهم بعد الكشف والمعاينة أن بعض أعمدة حرم السعادة آلت إلى الخراب فهدم تلك الجهات فى الحال أيضا وأحكم تشييدها هكذا ثم عاد إلى باب السعادة وقد أتم مهمته على خير وجه، وقد رقى إلى رتبة أمير الأمراء ومنح مكافأة سلطانية خاصة له.

وخدمات السلطان محمود خان الأول بن السلطان مصطفى خان للحرمين كثيرة بدرجة فوق العادة، فقد ظهرت علامات السقوط والانهيار فى سقف حرم السعادة وأبلغ ذلك إلى الباب العالى وعرض الأمر إلى عتبة السلطان المشار إليه، فأحال الأمر إلى الحاج أحمد باشا والى جدة على أن يرسل أحد الأشخاص الذين يعتمد عليهم فى تعمير السقف الشريف فأرسل الباشا المذكور محمد أغا من خاصة أتباعه وذهب محمد أغا إلى المدينة المنورة وقام بأداء مهمته وكتب حول السقف الذى جدده عبارة: «أمر بعمارة هذا الرواق الشريف، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين مولانا السلطان الغازى محمود خان، بن المرحوم السلطان مصطفى خان، عز نصره وذلك بمعرفة الحاج أحمد باشا محافظ بندر جدة المعمورة وبمباشرة تابعه الحاج محمد آغا ثم عاد، وذلك فى سنة ١١٤٩.

كان السلطان المشار إليه قد أرسل ثريا مجوهرة لتعليقها فى قبر الرسول كما أرسل غطاءً جميلاً من أجل قبر فاطمة الزهراء وأرسل إلى الروضة المطهرة ٨٨ قطعة من أبسطة وعددين من الشمعدان الذهبى، وقد أرسلت الأشياء المذكورة فى عهدة عثمان أغا من أغوات باب السعادة، وبما أن المؤرخين قد وصفوا هذه

الهدايا بأن كل واحدة منها كانت أغلى ما أرسل وأجمل ما بعث إلى الحجرة المعطرة وأجملها؛ اقتضى الأمر أن نعطى فرصة لقلمنا ليجول ويصول فى وصف كيفية صنع تلك الأشياء وصورة إرسالها.

وكان أحد الأشياء التى أوصلها أغا باب السعادة عثمان أغا إلى المدينة المنورة كما سبق ذكره أعلاه قطعة من ثريا لا مثيل لها، كانت هذه الثريا فى صفاء الماء وألوان أزاهير نباتات الحقول ومن حيث لمعانها تضارع لمعان سهيل اليمانى، وزنها ٧٢٥ قيراط مثلثة الشكل، وكانت فى الجهة الأخرى منها زمردة أخرى تتوهج كعين شمس تبهر العيون وزنها ٧٦٨ قيراط، وكانت فى الجهة الثالثة قطعة زمرد أخرى نورها كأنوار الصباح تلمع فى الجهات الأربع قطعة تحير العقول بجمالها وفى وزن ٢٥٧ قيراط، وقد بلغ مجموع وزنها ٢٢٧٢ قيراط.

وهذه القطع الثلاث من الزمرد التى تشتهر بالمعدن القديم والتى لا نظير لها كانت أطرافها دائرة ما دار وأعلاها مرصع باثنتى عشرة قطعة كبيرة من الماس كأنها بدر ينير محيط الأبراج السماوية وبأربعين قطعة ماس من حجم متوسط واثنتين وستين قطعة من الماس أقرب إلى الوسط و١١٤ قطعة ماس التى تعتبر صغيرة بالنسبة للقطع الكبيرة لم يكن لها مثيل، وقطعة ماس كبيرة تحير العقول، وكان طوق تلك الثريا مزينًا بتسع عشرة قطعة من الماس مختلفة وكانت حلقتها التى تعلق بها والتى تشبه هالة البدر مزينة بأربع قطع من الماس وكانت تتكون من ٣٥٢ حبة قيمة من الدر اليتيم مع ثلاثة عشر صفًا من المزين بثلاث عشرة حبة من الزمرد وكانت لائقة أن تكون ثريا عذارى الحور العين.

وكانت الثريا تشمل فى الأماكن التى تجذب الأنظار دررًا وغررًا وجواهر لا عَدَّ لها كما تشتمل على صورة غريبة وكانت فى غنى عن الوصف حقاً.

إن النقوش تحير العيون والتى نقشت على وجهها الواحد هى أثر من فنانى الياقوت ومن هنا فهى كانت فى نظر من رآها من المؤرخين كعروس تجلت فى حجرة نومها بل كانت من قبيل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وبعد أن صنفت الثريا التى سبق تعريفها فى مكانها اللائق، نسجت قطع الأقمشة والأغطية والسجاجيد التى صدر الأمر بصنعها ووضعها فى مشهد الحرم القدسى والروضة المطهرة التى يخدمها الملائكة، وكانت قطعة القماش كسوة جدران المرقد النبوى تعانق دائرًا ما دار الحجرة فى جهاتها الأربعة وكانت أرضية هذا القماش الساحر من ستين ذراعًا من الأطلس الأخضر وجها وبطانة وقد سطر على هذا القماش الذى يبعث الفرحة السورة الشريفة «الفتح» باستعمال ٧٠٠٠ مثقال من خيوط الفضة النادرة، وزينت ما بين سطورها بجداول لحسنها فبدت كأنوار الشفق وظهرت فى ساحة الأخيار وتمنى رضوان الجنة أن يمسح وجهه عليها.

وحتى يربط ما بين الغطاء الشريف المذكور أرسل ٥٧ قطعة أطلس فى لون الزرع وكل قطعة فى أربعة عشر ذراعًا، كتبت عليها بعض الآيات الكريمة وكلمة الشهادة المباركة والصلوات الشريفة ثم أرسلت وأكملت بلوازمها الأخرى، ثم أرسلت أغطية ضريح وردة بستان النبوة، وثمرة سدرة المنتهى للرسالة، سيدة قصر العفة زينة بيت الشرف والسعادة درة السيادة السماوية ولؤلؤة العصمة سيدة النساء وقطعة كبد حبيب الله فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وكانت أرضيتها الغالية حمراء اللون ولون بطانتها خضراء.

وقد كتب فوق (١١) قطعة من أجمل أقمشة الأطلس بالخيوط الذهبية بعض الأحاديث الشريفة ببراعة أساتذة الفن، ولما تم صنع أعمالها الأخرى أرسلت إلى المدينة المنورة لتعلق على جدران المسجد النبوى والمعبد المصطفوى توأم الجنة كما أرسلت ثمان وثمانين قطعة سجاد مزخرفة بأنواع نقوش الأزاهير إلى المدينة المنورة لتفرش على ساحة الحرم النبوى، وكان مقدار هذه السجاجيد بالحساب التربيعى ٣٠٨١ ذراع من القماش والشمعدانان اللذان أرسلا لإنارة المكان الذى بشر بالحديث الشريف الذى يقول «بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة»، وطاف المحراب المشحون بالرحمة حيث توافر أجنحة الروحانية ذات عرب وكانًا كأنهما نيران من حيث الشكل أو مثل الفرقدين وكانا مرصعين بأنواع الرسوم

البديعة وكانا من الذهب الخالص مع مقعدين مطليين بالذهب وقد أمر بجعلهما مصباحين لإنارة هذا المكان المبارك مهبط الوحى.

وأرسل الشمعدانان والسجاجيد التى ذكرت بحرًا وأرسلت الأغطية والثريا المزينة برًا، بعد أن أودعت فى أمانة الصف ووصلت تلك الأشياء التى أرسلت برًا يوم الخميس وبناء على الأمر المطاع من الجميع الأمر السلطانى الذى يحترمه الجميع أخرجت تلك الثريا أمام الباشا الحاج وشيخ الحرم النبوى الحاج عبد الرحمن أغا وقاضى المدينة وأمين الصف وكافة العلماء والخطباء والأئمة والأشراف وحضورهم وبعدما رآها الجميع أخذت بمراسم الآداب والخشوع وقراءة الأوراد والتحيات إلى حجرة سيد الورى المنظمة ـ عليه أفضل التحايا ـ حيث علقت فى مكان مناسب.

وهكذا أدى مهمته، وبعد ذلك أخرجت أغطية المرقد النبوى وفق المراسم القديمة بكل تعظيم وتفخيم وعلقت على جدران المشهد المصطفوى وبعدما كُسِىَ مضجع سلطان القصرين ولم يقصر أحد فى بذل أقصى ما يقدر عليه من التوقير والإجلال حين كُسى المضجع النبوى ألبست أغطية مرقد الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وبما أنه قد وصلت ٨٨ قطعة من السجاجيد ذات النقوش البديعة والشمعدانان فبسطت السجاجيد على ساحة الحرم النبوى الشريف والروضة المطهرة المصطفوية، ووضع الشمعدانان مع مقعديهما يمين محراب النبى ويساره.

وكان السلطان محمود خان قد أرسل قبل ذلك ثريا أخرى وبما أنها كانت مثل الثريا التى سبق تعريفها فصرف النظر عن تعريف شكلها وهيئتها.

ومن السلاطين الذين خدموا حرم السعادة السلطان الغازى السلطان عثمان خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثانى، إذ كان قد أرسل أمين الصف إبراهيم أغا مكلفًا بمهمة كشف وتعمير سقوف مؤخر حرم السعادة التى أشرفت على الخراب بعد ما استأذن منهم بذلك فى سنة (١١٦٩هـ) وأبلغ والى مصر بأن يرسل إلى المدينة الأشياء اللازمة للتعمير سريعًا.

ولما وصل إبراهيم أغا إلى المدينة المنورة وجد لوازم البناء التى أرسلت من مصر قد وصلت فعمر السقوف التى أشرفت على الخراب وما احتاج للإصلاح من مواقع حرم السعادة وكتب على السقف الجديد هذه العبارة:

«أمر بعمارة الحرم الشريف السلطان الأعظم السلطان عثمان خان، بن السلطان مصطفى خان، خلد الله ملكه وذلك بمباشرة الحاج المعتمر الأمين إبراهيم أغا، أمين الحرمين الشريفين، وأمين بناء المسجد النبوى بتوفيقه من الله؛ سنة ألف ومائة وسبعين.

والسلطان مصطفى خان الثالث بن السلطان أحمد خان الثالث من السلاطين العثمانية الذين كانوا يبذلون المهج فى سبيل النبى ﷺ، وقد وصل إلى أعتاب سلطنته أن علامات الانهيار والسقوط قد ظهرت فى بعض أماكن سقف حرم السعادة وبناء على ذلك صدر الأمر السلطانى بالإسراع فى تعمير وتجديد الأماكن التى اقتضت ذلك وأرسل إلى المدينة المنورة بصحبة محمد أمين بن فيض الله أغا مهرة العمال والمعماريين المقتدرين.

ووصل محمد أمين أغا إلى دار السكينة وأصلح الأماكن التى أشرفت على الخراب من سقوف الحرم الشريف بالاتفاق مع أعيان البلاد وموظفى الحكومة وبقرارهم، وعمر بعد ذلك الجدار الذى على يمين مضجع السعادة ويساره بأحجار ملونة مختلفة، وزين جميع جهات الحرم النبوى توأم الجنة.

وجعله مثالاً للبيت الذى يقول:

ما حاجتنا لتعريف الشمس بالنور فآثـار نـوره ظاهـرة للعيـان

وكتب فوق السقف الذى جدده

أمر بعمارة هذا الحرم الشريف السلطان عبد الحميد خان، بن السلطان أحمد خان خلد الله ملكه مدى الزمان وذلك بمباشرة المفتقر إلى الله، العبد محمد أمين بن فيض الله؛ سنة واحد وتسعين ومائة وألف.

وكتب على اللوحتين المعلقتين مقابل الجدار النبوى من اليمين والشمال تاريخ

مقام المصطفى قف به منكس الرأس ما تريد
وتبتل لله الأحد فوق الذى، نرجوه مما عليه مزيد
وادع لمن فاق الملوك الأولى، قد خدموا هذا المكان السعيد
سلطاننا عبد الحميد الذى، فى ملكه إذا أمسى نظام جديد
واسأل لأمين بَنَّآء محمد شفاعته إنه بها سعيد
مسجد طه أوجه الأنبياء، جدده الخان عبد الحميد

كتب هذه المنظومة وكتب قطعة.

يا خير من دفنت فى القاع أعظمه
فطاب من طيبه القاع والأكم
نفسى فداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

على العمودين الرخاميين المربعين على يمين ويسار ذلك الموقع الشريف، وكتب حول شبكة السعادة دائراً ما دار قصيدة «يا رسول الله! خذ بيدى» البليغة بخط جميل وذهبها، فى سنة ١١٩١.

وقد عمر السلطان عبد الحميد خان بعد هذا التعمير بعشر سنوات بواسطة حامل أسلحة السلطان الحاج محمد أغا ونظارته الباب الخشبى وأساطين الروضة المطهرة، وكان ذلك الباب الخشبى على يسار محراب النبى ﷺ، وقد أصلح هذه الأماكن فى طراز جميل وكتب الجملة المنجية لا إله إلا الله، الملك الحق المبين وحديث «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» (حديث شريف) فى المكان الذى ينظر إلى الجدار القبلى للباب المذكور، وكتب فى ذيل هذه الكتابات عبارة (عمره السلطان عبد الحميد خان (١٢٠١).

وبعد عام أقيمت مدرسة تضم سبع عشرة حجرة ومحلاً للاستذكار ومكتبة وجعل سواء أكان للطلبة الساكنين أو المدرسين أو أمناء دار الكتب مقدارًا كافيًا من المرتبات واشترى حديقة النخيل وبستان الخضر القريبين من المدرسة ووقف محاصيلها للطلبة الساكنين فى المدرسة وذلك فى سنة (١٢٠٢).

ومن السلاطين العثمانيين السلطان سليم الذى فخم الحرمين المحترمين أعظم تفخيم وعظم أهاليهما الكرام أعظم تعظيم، وهو السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثالث، قد أمر فى عصره السعيد بناء على استئذان الأهالى بتعمير وإصلاح جدران الحرم النبوى مخدوم الملائكة والأساطين التى فى داخل الروضة المطهرة التى تعد من الآثار النبوية، وغلف الأساطين الشريفة المذكورة مقدار ذراعين من الأرض بقطع رخام ملون، ونظم قصيدة بذاته لتكتب على قطع الرخام الملونة وأرسلها إلى أمانة البناء، وقد كتبت هذه القصيدة فى بحث الأساطين الملونة، ذلك فى سنة ١٢٠٨هـ.

وبعد هذا التعمير بأربعة أعوام قد زين وعمر يمين ويسار جدران باب جبريل قدر ذراعين من الأرض وجدار محراب التهجد كاملاً بالصينى، وطهر ونظف مجرى عين الزرقاء وذلك بنظارة والى الشام عبد الله باشا.

وقد أنفق السلطان الغازى محمود خان الثانى بن السلطان عبد الحميد خان الأول كثيرًا من النقود للحرمين الشريفين وأظهر بهذه الطريقة شدة حبه ووداده للنبى ﷺ.

والحبوب التى خصصت لأهالى الحرمين من السلطنة السنية العثمانية فى عصره، قد شريت وبيعت لسوء إدارة موظفى الدولة وطمع سكان المدينة الأغنياء والتجار، وترك الفقراء والضعفاء جوعى ومرضى دون علاج وأخذ فقراء الحرمين يعانون أشد العناء وأخبر بذلك السلطان وعرض النبأ على عتباته، واستحصل منه على إرادة سنية بخصوص إحصاء السكان لإعادة توزيع المرتبات وتقسيمها من

جديد، وكلف الوالى إبراهيم باشا الذى كان فى ذلك الوقت فى المدينة المنورة بإحصاء نفوس أهالى المدينة، كما عين محافظ مكة خليل باشا لإحصاء عدد سكان أهالى مكة المعظمة.

وقد حرر إبراهيم باشا أسماء سكان المدينة المنورة وقيدها بأسرها كما حرر خليل باشا أيضا أسماء سكان مكة المكرمة وحدا الدفترين وبعد ختمهما أرسلاهما إلى والى مصر محمد على باشا كما أن الباشا المذكور أرسل الدفترين ملفوفين بالكشف الذى ستبين صورته فيما يأتى إلى الباب العالى.

وظن بعض الأهالى من هذا الإحصاء أن الدولة تريد أن تجند أبناءهم وأخفوا عددهم، لذا لم يدرج أسماء كثيرين منهم فى الدفاتر ولكن المجربين منهم فهموا الموضوع ووجدوا طريقة لإدراج أسمائهم فى آخر الدفاتر بواسطة موظفى الإدارة المصرية ولكن الذين لا يعرفون أحدًا ظلوا غير مقيدين.

صورة القائمة التى كتبها محمد على باشا إلى مقام الصدارة العظمى السامى:

إن الغلال التى خصصت ورتبت من مصر فى السنين السابقة لأهالى الحرمين عَفَى نظامها مع مرور السنين وأبدل وأخذت تباع وتشترى فيما بينهم حتى استولى عليها الأغنياء، واضطروا فقراءها للبحث عن أقواتهم اليومية وكان إدخالهم تحت النظام غير ممكن.

وقد رأينا أن نرسل إلى أهالى الحرمين الشريفين من المخازن المصرية مجددًا مقدارًا كافيًا من الغلال بنية خالصة على أن تعد هذه الغلال من جملة الآثار الخيرية للسلطان المهيب ذا الشوكة ملجأ الإسلام ظل فضل الله، وفى نعم كافة الأمم، محمولة على المراكب حتى تستجلب لذاتكم السلطانية أدعية مضاعفة من أهالى الحرمين، وبناء عليه قد رأى ابن عبدكم إبراهيم باشا عند عودته من الباب العالى إلى المدينة المنورة إعداد دفتر لكتابة أسماء أهالى المدينة المنورة لإحصاء عددهم، وذلك بعلم أغا شيخ الحرم ورأيه وبضم آراء قاضى المدينة ومفتيها وفضلاء علمائه ووجوه البلاد، كما اتخذ دفترًا آخر حرر بعلم صاحب السعادة

محافظ مكة خليل باشا وعلم الشريف يحيى وبمعرفة قاضى مكة المكرمة ومفتيها إلى أعتاب عظمتكم السلطانية، والعلة الغائبة من هذا العمل الخيرى هى استجلاب الدعاء بالخير لجانب سلطنتكم، وقد بلغ مقدار الغلال السنوية الخاصة بالحرمين الشريفين إلى ١٦ ألف إردب وبعد هذه السنة سترسل الغلال الخاصة بالحرمين الشريفين فى ميعادها دون تفويت وقتها وقد بدأنا بذلك فى هذه السنة وببيان ذلك أعرض لجانب سلطنتكم طاعتى، انتهى.

ولما أطلع السلطان على ما جاء فى الدفترين أمر بتنفيذ ما جاء فيهما، وبناء على ذلك شرع فى إرسال الغلال إلى الحرمين، إلا أن المساكين الذين لم تدرج أسماؤهم فى الدفترين حرموا من العطايا السلطانية ولكن بناء على رجاءات وجوه البلد واسترحاماتهم أضيف إلى العطايا ألف إردب حنطة فوصلت المخصصات الحجازية إلى سبعة عشر ألف إردب من حنطة وهذه المخصصات ترسل الآن.

سبب تشكيل مديرية الخزانة

إلى أن حل الوقت الذى بلغت المرتبات الحجازية إلى سبعة عشر ألف إردب قمح، كان أمناء الصرة ثانى يوم وصولهم إلى المدينة الأمينة يفرشون على ساحة حرم السعادة الأبسطة ويوزعون ما سلم لهم من المبالغ لإعطائها لأهالى دار السكينة من باب السعادة ويستدعون من حُرِّرَتْ أسماؤهم فى الدفاتر التى أعطيت لهم من خزانتى الأوقاف والمالية، وفى حضور أشراف البلاد وموظفى الحكومة يسلمون لهم بأيديهم مخصصاتهم، ولما لم تكن فى ذلك الوقت دوائر فرعية خاصة بمديرية الخزانة كانت مستحقات كل فرد تسلم له دفعة واحدة من قبل أمين الصرة، ولما كان صرف واستهلاك المبالغ التى أخذت دفعة واحدة فى خلال أيام قليلة حسب الحاجة الطبيعية، كان سكان دار السكينة ينفقون مخصصاتهم خلال عدة شهور بوفرة ثم يعانون من قلة المال خلال الثمانية أشهر الباقية، ولما أطلع السلطان محمود على هذه الحالة ألغى هذا النظام وأنقذ الأهالى من هذه المعاناة

بوضع نظام تقسيم مخصصات كل فرد إلى اثنى عشر شهراً وإعطائها لهم فى كل شهر.

وحتى تعطى هذه الرواتب الشهرية وتوزع فى صورة منتظمة شكل مديرية خزانة المدينة المنورة وعين لها موظفين وبين لكل واحد منهم وظيفته، ويسلم الآن أمناء الصرة ما حملوه من الأمانات لخزانة المديرية بموجب الدفاتر كما أن موظفى الخزانة يوزعونها شهراً بشهر لأصحابها، ومديرية الخزانة دائرة غاية فى النظام فلها دفاترها المنظمة، وسجلاتها التفصيلية ولها محققوها ومدققوها، وتجرى معاملاتها فى دائرة النظم الموضوعة.

ولا يضيع حق أحد فى ظل حضرة الخليفة العادل، ولا يبرز إنسان قائلاً: «قد أضيع وأخفى». وذلك فى سنة ١٢٣٣هـ، انتهى.

وقد أصبح المسجد النبوى فى أشد الحاجة إلى الإصلاح، فأعلم والى مصر محمد على باشا مركز السلطنة العثمانية بذلك ولما جاء الرد لمحمد على باشا يطلب منه أن يعين رجلاً مناسبًا لأمانة البناء لتعمير الحرم النبوى على أحسن وجه، فكوفئ كاتب الديوان المصرى طاهر أفندى وهو من صلحاء الرجال المصريين بتعيينه أمينًا للبناء وأرسله إلى المدينة المنورة ذات الشرف العالى.

ووصل طاهر أفندى إلى دار الهجرة واطلع مع وجوهها واتفاق آرائهم على حرم السعادة، وقرر تعمير وتقوية قبة حجرة السعادة وأحاط الحائط الذى بنى فى عهد عمر بن عبد العزيز بسور آخر، فأحكم تشييد القبة الخضراء على وجه لائق بكل تعظيم وتوقير.

واهتم قاضى البلدة وشيخ الحرم النبوى وأعيان البلد وكبار موظفى الدولة بأداء الخدمة وهم لابسون أفخر ثيابهم، وبعد أن عمر الحجرة المعطرة على الوجه الأكمل جعل النقاشين الذين أرسلوا من باب السعادة يصبغونها وزين جدرانها برسوم مختلفة الشكل ثم كتب الحديث الشريف فوق الباب الخشبى الذى يقع

فى جهة المرقد النبوى من محراب النبى قال رسول الله ﷺ: «**من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى، ومن زارنى وجبت له شفاعتى**»، صدق رسول الله ﷺ، كتبه الفقير قوناقجى زاده إبراهيم النقشى ثم كتب على رخام مستدير فى الجهة الداخلية من باب جبريل عبارة: «عمر السلطان الغازى محمود خان نصره الله تعالى سنة ١٢٢٨»، وفى الجهة الداخلية من جهة اليسار كتبت جملة: «عمر الحرم الشريف أمين كاتب الديوان المصرى محمد طاهر ١٢٢٨ وذهبها».

وقد وفق السلطان محمود خان العدلى فى إحياء هذه المآثر لوالى مصر محمد على باشا بتعمير وإصلاح المساجد والآثار التى تخربت وإحيائها وكتب بذلك إلى والى جدة ومحافظ المدينة المنورة نجله النجيل إبراهيم باشا وأرسل ما يلزمه من المبالغ ولوازم البناء قدر ما بلغ، واستدعى إبراهيم باشا من باب السعادة ومصر مهرة العمال الذين تمرسوا فى دقائق أعمال البناء.

كما جلب من الشام قوالب الصينى وابتدر فى تعمير هذه الآثار وإحيائها، وجدد أولاً داخل حرم مسجد الحبيب والقبة الخضراء وخارجها وبعد ذلك أضرحة البقيع ثم أبنية المساجد والمشاهد فى صورة لائقة، ثم وضع قطع الرخام التى وردت من باب السعادة فوق كمرات أبواب الأضرحة وزين كل مسجد وكل أثر كحسناء محبوبة، وعين أصحاب الأضرحة بكتابة الأبيات فوق طاقاتها ولم يترك حاجة للزوار للسؤال عن أصحاب تلك الآثار ونوعها.

إذا كان قد كتب فوق قطع الرخام التى أرسلت من باب السعادة والتى وضعت وألصقت فوق أبواب هذه الآثار والأضرحة كتب عليها بعبارة مختارة وأحيانًا بينت أسماء أصحاب الأضرحة وحقيقة الأثر وكنهه، وكانت الأبيات المذكورة ثمرة قريحة ابن كيجة جى عزت منلا المرحوم من شعراء عهد السلطان محمود خان العدلى المشهورين قد كتبت وحُكَّت مُذَهَّبَةً فى باب السعادة، ومازالت منها مذكورة فى بحث تعريف الآثار والأضرحة.

وبعد أن أتم إبراهيم باشا المرحوم بتعمير حرم السعادة أمر بكتابة المدحية[1] العبارة عن الثمانين بيت المنظومة بعبارة عربية فوق جدار القبلة الذى يقع خارج باب السلام، وكتب على الجهة اليمنى من هذه المدحية بخط أبيض فى صورة الشمس:

«قد كان الوكيل بعمارة الحرم الشريف النبوى والى مصر محمد على باشا أدام الله إجلاله آمين» وكتب البيت الشريف تحت الجملة السابقة بخط أبيض على شكل صورة الشمس:

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

وفوقه بنفس الطريقة:

ما شاء الله كان هذا باب كليم الله فى سنة ١٢٣٣.

وعلى طاق الباب المذكور كذلك: هذه عمارة الحرم الشريف النبوى فى أيام إبراهيم باشا والى جدة ومحافظ المدينة المنورة عام ١٢٣٣.

وفى نهاية هذا الكلام:

فاق النَبِيينَ فى خَلْق وفى خُلُق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

وفوقه على هيئة الشمس كذلك: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾ صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم..

كما أمر بكتابة التاريخ القديم الذى ظل من عهد السلطان قايتباى حول هذه الخطوط دائرًا ما دار.

وبعد أن أتم إبراهيم باشا تجديد مسجد السعادة توأم الجنة أسرع لتجديد مسجد قباء فَشَيَّدَ حرم السعادة المذكور فى صورة محكمة أحيا وجدد فى شكل جميل وبنى مبرك الناقة ومنزلة الآية ومسجد على ومسجد فاطمة، ومسجد عمر، مسجد بئر خاتم، والسبيل الذى فى هذه الناحية وسبيل السلطان أحمد فى اتصال

(١) هذا المديح قائمة صورته إلى يومنا هذا فوق هذا الجدار المذكور إلا أن معظم أبياتها محيت لدرجة أن بعض مصاريعها تلفت بدرجة يصعب معها قراءتها فلم نستطع أن ننقلها فى هذا المكان.

جدار مقبرة البقيع التى فى داخل المدينة ومسجد بغلة، ومسجد بنى ظفر، مسجد أبى بن كعب فى داخل مقبرة البقيع، ومسجد مصلى العيد المصطفوى الذى فى ميدان المناخة، ومسجد الصديق الأكبر.

ثم بنى مدرسة باسم السلطان بالقرب من باب السلام وأصلح مدرسة السلطان عبد الحميد خان فصارت فى غاية الجمال والمتانة وأحياها، وهكذا استجلبوا الدعاء لجانب السلطان السنى.

وقد طهر السلطان المشار إليه مجرى عين الزرقاء إثر السيول التى ظهرت فى سنة ١١٢٤هـ مثل البحار وخربته إلى قبة البئر ثم أعطى ثلاثمائة صرة من الدراهم لتوزيعها على الحجاج الذين أضيروا بسبب السيول كما تصدق بثلاثمائة قطعة من الملابس لتقسم على الفقراء وأهدى حصرًا وأبسطة لفرشها فى حجرة السعادة، كما أهدى خَمْسًا وسبعين قطعة من السلاسل الذهبية وأربعمائة وعشرين عددًا من السلاسل الفضية لتعلق فى حجرة السعادة، وبعض الشمعدانات لتوضع على يمين ويسار محراب النبى والمحراب السليمانى وأضاء داخل حرم السعادة الذى يشبه الجنة، وذلك فى سنة ١٢٣٥هـ.

وكانت كل واحدة من السلاسل الذهبية فى ثقل مائتى درهم وكانت كل واحدة من السلاسل الفضية مائة وأربعين درهما، وكان مع الشمعدانان عرض حال سلطانى كتبت صورته فيما يأتى:

نظم

تجـرأت أهدى الشمعدان يـــا رســـول الله

قصدى أن أخدم عتبتك العليا يـــا رســول الله

لا تليق بروضتك الثريا التى قدمتها يدى العاجز

فـــاحـــسن إلى بقبولهـــا يـــا رســـول الله

ليـــــس لى أحـــــد أشكـــــو حالـــى

فمن جنابك الإحسان والمروءة يا رسول الله

دخيلك الأمان قد وقفت ببابك

ارحمنى وكن شفيعى يا رسول الله

فاستصحبنى فى العالمين، السلطان محمود العدلى

فالدولة لك فى الأول والآخر يا رسول الله

وبعد إرسال الهدايا المذكورة علم من قبل السلطان أن قطع الرخام التى بين الروضة المطهرة وجدار القبلة قد خربت بطريقة سيئة وبناء على الأوامر الصادرة أصلحت وجددت قطع الرخام التى فى المكان المذكورة ابتداء من مواجهة السعادة إلى باب السلام ولما كان ما بين باب السلام إلى باب الرحمة ترابًا فرش هذا المكان وكذلك الساحة التى فى محاذاة الأعمدة فى الساحة الرملية بالقطع الرخامية، وذهبت الخطوط التى فى السقوف وعمر حمام محمد على باشا الذى كان قد فجر اللغم من قبل، وأسست مدرسة جميلة فى قرية قباء ثم حفرت بالقرب من مشهد حمزة بئر واسعة وحوض.

وما عدا هذه بنيت بالقرب من باب السلام دار توقيت على أن تكون فى إحدى جهاتها مدرسة وفى جهة غرفًا للمؤقتين، كما أُسِّسَ أمام دار التوقيت سبيل جميل وهكذا أحيا أهالى المدينة.

وبما أنه أرسلت ساعة من باب السعادة لتوضع فى داخل دار التوقيت وتاريخًا ليُحَكَّ فى أعلى طاق المبانى التاريخ الذى حرر بالشكل اللائق، فوضعت الساعة فى مكانها الخاص كما حُكَّ التاريخ فوق كمر باب دار التوقيت وذُهِّبَ وهذه صورة تاريخ دار التوقيت:

التاريخ

قد قام ملك ملوك الزمان بأثر محمود

بنى فى داخل حصن المدينة هذه الدار للتوقيت

كن من هذا الارتفاع الصامت دليلاً على عظمة السلطان
قـــد زاد الزمـان ساعـة بعـد ساعـة بـنوره
فليمـلأ الدهـر بمفتاح الشريفـة مثـل الساعة
فلتكـن روح النـبى فى عـون ذلك السلطـان دائمًا
قـد زين بهـذا الشكـل زينـة محمود التاريخ
السلطان محمود هو الذى أوجد دار التوقيت
فى سنة ١٢٥٣.

وبعد تصليح دار التوقيت المذكورة بسنة ونصف كان قد أرسل من باب السعادة خمسة أنفار من المجلدين لتعمير وتذهيب الكتب الموجودة فى دور كتب المدينة المنورة، وأُعْلِمَ باب السعادة أن هؤلاء المجلدين قد عاينوا دور كتب المدينة المنورة بواسطة موظفى الدولة وعمروا سبعة آلاف مجلد من الكتب وذهبوها، وقد أُجِرَ كل واحدمن هؤلاء ألفًا وخمسمائة قرش معاشًا شهريًا.

ولما كان نظام خدمة حرم السعادة احتاج للإصلاح صدر الأمر السلطانى أن تكتب أسماء الخدم، فى دفاتر خاصة وقد جعل لعشرة من الشيوخ ثلاثون قرشًا وقد خصص للشيوخ أجرًا أسبوعيًا مقداره أربعون قرشًا وللفراشين خمسة وعشرون قرشًا وأكرم الجميع بهذه الطريقة وذلك فى سنة ١٢٥٥.

ومازال هذا النظام مرعى الجانب إلى الآن وكل شيخ يقوم بأداء مهمته أسبوعيًا مع رفقائه، وفى يوم الجمعة يحصلون على أجورهم الأسبوعية ويعودون، والذين لا يواظبون فى أداء خدماتهم تخصم منهم يومياتهم بموجب الدفتر.

وأرسل السلطان المشار إليه إلى حرم السعادة نسخة من البخارى والشفاء الشريف كما أرسل ثلاثين عددًا من الكلام القديم[1] وثلاثين عددًا من دلائل الخيرات وثلاثين قطعة من أجزاء القرآن الكريم، وعين لتلاوة كل واحد منها شخصًا وأراح باله بأن ربط له راتبًا بمقدار كاف.

(١) يعنى القرآن.

ومازال سواء أكانت الأجزاء اللطيفة أو البخارى والشفاء الشريفين فى المسجد النبوى وتقرأ صباح مساء أمام محراب التهجد يتحف ثواب قراءتها وأجرها لروح الواقف.

ولم يخدم السلطان محمود خان الحرمين الشريفين فحسب بما عرض من الخدمات إذ إنه كذلك جدد وعمر ـ كما سنبين فى الصور الآتية ـ مسجد قباء، والمساجد الأخرى والآثار العالية وأضرحة مقبرة بقيع الغرقد التى هدمها وخربها طوائف الخوارج الرذيلة، ومشهد حمزة، ومقبرة الشهداء، والمشاهد الأخرى والآثار المسعودة، كما أمر بكتابة منظومة فوق أطواف المساجد والآثار.

خارقة

كان السلطان محمود خان العدلى جدد غطاء مرقد السعادة الذهبى للمرة الثانية، والغطاء الذى أرسله فى المرة الثانية، حينما وصل إلى الحجرة المعطرة وشرع فى تغطية المرقد لزم قلع الغطاء القديم، وبينما شرع فى قلع الغطاء القديم الذى قد سكر باحتضان القبر النبوى الشريف عدة سنوات صدر من الهاتف صوت حزين يقول واه حسرتاه واه فرقتاه وهكذا عرض ذلك الغطاء نار حسرته وفرقته وقد سمع هذا الصدى المثير للشوق كل من كان فى داخل الحجرة النبوية وفقدوا عقلهم وشعورهم.

وإن كانت هذه الخارقة غير مصدقة عند أهل الاستدلال، إلا أن الذين يصدقون أن الجذع الشريف الذى ارتمى على الأرض وأصبح جذاذًا وأخذ يئن ويصيح عندما وضع مكانه منبر السعادة لا يستبعدون ظهور مثل هذا الصوت عندما كان الغطاء القديم يخلع من على المرقد النبوى.

لمن يوفق أحد من ملوك الأسلاف إلى إسداء الخدمات لحرم السعادة مثل ما قدمها السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الثانى، إذ لم يترك ذاته السلطانية مكانًا فى مسجد السعادة أو الحجرة المعطرة لم يجدده أو يعمره، إذ بنى ٢٩ قبة فوق السقف القديم الذى صنعه السلطان مراد الرابع والذى يقع الآن فى الجهة القبلية من الساحة الرملية كما هو مبين فى الخريطة

الخاصة، كما جدد القباب الموجودة منفقًا ما لا يحصى من النقود، وفرش فوق أسطح القباب الموجودة بقطع من الرخام المجلاة، وعنى بتزيينها، وجدد الخطوط التى فى داخل مسجد السعادة وخارجه وهى التى تحدد حدود الحجرة المعطرة وقطع رخام حرم السعادة عامة، وهكذا قام بخدمة عظيمة فإنه أسس أبنية المسجد النبوى الشريف المسعودة من جديد، وأسس فوق باب التوسل مكاتب وعدة مخازن أعلاه وأسفله فأصبح باب حرم السعادة فى غاية اللطف مؤخرًا. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

دخول السلطان عبد المجيد فى حجرة السعادة

يروى أصحاب الوقوف من أهالى المدينة ومهرة بنائى الحجارة الذين استخدموا فى عمليات تجديد قبة السعادة فى حق المرحوم المشار إليه حكايتين غريبتين ولكن لهما مغزى ويدعون أنهما غير قابلتين للتكذيب.

١ـ الحكاية الأولى:

نقشت الطغراء الغالية التى أرسلت من إستانبول فوق قطعة رخام مجلاة وذهبت لتكون علامة واضحة على أن السلطان عبد المجيد قد جدد وعمر مبانى الحرم العالية وعقب ختام فروغ عمليات المبانى المقدسة تركت فى جهة ما على أن توضع فوق كمر باب مناسب من الأبواب مغطاة، وكان قد مر بعض الوقت من حينه، فجاء أحد المجذوبين الذى لم يتحدث فى حياته مع أحد فأشار بأن توضع الطغراء فى مكانها بعد أن كشف غطاءها، ولم يتأخر عن الإلحاح والإصرار قبل أن تلصق الطغراء المذكورة إلى مكانها وأخبر بالأمر موظفو الحكومة، وإذا فى ذلك اليوم كان السلطان عبد المجيد قد ارتحل إلى قصر سواحل الجنة وجلس مكانه أخوه عبد العزيز خان! وعلم بهذا بعد ذلك بخمسة وعشرين يومًا.

وبما أننا لا نصدق مثل هذه الحكاية فضلاً عن أننا لا نريد أن تأخذ هذه الواقعة مكانًا فى عالم الوجود، فاستوضحنا الأمر من بعض الموظفين الذين كانوا فى مهمة تجديد تلك المبانى المقدسة فعرفنا أن الحقيقة كانت على الوجه الآتى: إن الطغراء التى حُكَّتْ مذهبة فوق قطعة الرخام وفى تاريخ إتمامها كانت أبنية حرم

السعادة وإنشاءاتها قد وصلت إلى ختامها إلا أنه ظلت بعض كتاباتها ولما أكملت هذه الكتابات فوق الرخام ونقوشها تركت فى مكان محفوظ بعد أن غطيت حتى توضع فى مكانها، وبعد فترة ما لم يبق فى الحرم الشريف محل فى حاجة إلى التجديد والتعمير ورفع رخام الطغراء من مكانه، فجاء بعض المسافرين من جانب مكة المعظمة وأتوا بخبر وفاة السلطان عبد المجيد خان فى صورة غير رسمية، إلا أن هذا الخبر لم يوثق به ولم يعتمد عليه، ومن هنا أخذ خطباء المسجد يذكرون فى خطبتهم يوم الجمعة اسم السلطان عبد المجيد ويدعون له وقالوا: لو كانت هذه الرواية صحيحة جاءتنا الأخبار من جانب الإمارة الهاشمية فى مكة المكرمة وكنا نؤمر بذكر اسم عبد العزيز خان وتلاوته وهذا لزوم شرعى، وكان لابد أن يأتى الأمر السلطانى يشهد بجلوس السلطان عبد العزيز وكان ما قالوه معقولاً.

وبما أن عمليات مبانى حرم السعادة أصبحت رهن الختام ولم يبق لقائل أن يقول: «فى هذا المكان قصور أو نقص» إذ أصبحت الروايات المتواترة أن من ينظر إلى المبانى العالية يراها مازالت ناقصة ومن هنا كان يلزم تبديل الطغراء باسم السلطان الجديد، ولما كان هذا خلاف الواقع وضع البَنَّاءون رخامة الطغراء التى أعدت من قبل فى مكانها فوق باب السلام وبهذا بين أن عمارة المسجد الأخيرة قد تمت فى عهد السلطان عبد المجيد المليئ بالخيرات وبهذه الجرأة المقدرة ودلالتها بان أنه متصف بالاستقامة والنزاهة وقد عرض هذا الوضع اللائق على السلطان عبد العزيز فى صورة غير لائقة وأدى ذلك لغضب ذلك السلطان، إلا أن المنافقين الذين عرضوا ذلك الأمر على السلطان عن طريق الغمز واللمز قد ارتكبوا عن طريق الرياء المذموم ظلمًا كبيرًا؛ لأن عمارة حرم السعادة قد تمت فى اليوم الأولى من ذى الحجة سنة ١٢٧٧هـ ووضعت طغراء عبد المجيد خان الغراء فوق باب السلام وعلى طاقه، وكان السلطان عبد العزيز قد جلس على عرش السلطنة يوم الثلاثاء السابع عشر من ذى الحجة من السنة المذكورة ويوجد تفاوت قدر ستة عشر يومًا بين الحادثين، لو كان موظف مبانى السعادة امتنع عن وضع

رخامة الطغراء فوق طاق باب السلام مصدقًا رواية مسافرى مكة وكان بدل باسم السلطان عبد العزيز خان بعد الاستئذان كان سينال رضا السلطان بناء على أقوال المنافقين الذين تدخلوا فى الموضوع، وسيحظى بالتفات ونعم السلطان، ولم يكن هناك شبهة أنه سينال الترقية فى المناصب الدنيوية ولكنه بما أنه رفض أن يختار طريق الخداع والكذب للحصول على المراتب الدنيوية لأجل اجتنابه النواهى الإلهية لأنه كان سيتعرض للمسئولية وغضب الله، ولا شك أن عرض الإخلاص والعبودية عن طريق الحيل والخدع والدسائس لم يكن أمرًا مقبولاً ولا مقدرًا لدى السلطان عبد العزيز خان، فلنفرض أن بعض أجزاء من حرم السعادة قد تم تعميره فى عهد السلطان عبد العزيز واكتملت تعميرات المبانى فى زمنه أليس الحكم بأن تعمير المبانى قد تم فى عهد السلطان عبد العزيز خان دون النظر إلى ما بذله السلطان عبد المجيد من الجهود والهمم فى خلال اثنى عشر عامًا منافيًا لقاعدة العدل والإنصاف ومغايرًا لرضى عبد العزيز خان الذى يتصف بحبه للحق والإنصاف.

٢ـ الحكاية الثانية:

قبل أن يرى خبر وفاة السلطان عبد المجيد خان بشهر، قد رأى أحد سكان المدينة المنورة ممَّنْ يظن بهم الصلاح والزهد رأى فى رؤياه أنه كان فى داخل الروضة المطهرة وإذا بذات عالى القدر ذات احتشام ملكى يدخل من باب السلام بكل وقار ووقف أمام باب الوفود وبعد فترة فتح باب الوفود وأدخل ذلك الشخص ذا السمات الروحانية داخل حجرة السعادة، هذا ما شاهده ورآه، وقد انتظر صاحب الرؤيا فى الروضة المطهرة إلا أنه رأى أن الشخص عالى القدر الذى أخذ داخل الحجرة النبوية لم يخرج خارجها، واستيقظ حينئذ من نومه وبعد فترة تلقى نبأ وفاة السلطان عبد المجيد خان واطلع بعد الحساب أن ارتحال السلطان المذكور يوافق الليلة التى رأى فيها الرؤيا، وعبَّرَ رؤياه بأن ما قدم ذلك السلطان من خدمات عظيمة لحرم السعادة قد حظى بالقبول عندالرسول ﷺ، وفعلاً فإن هذا التعبير صحيح وهو عين الواقع.

وبناء على ما يروى من هذا الشخص المبارك الذى رأى الرؤيا أن الشخص الذى قبل فى داخل الحجرة كان لابسًا ملابس بيضاء من رأسه إلى أخمص قدميه وكان خلفه رجل يحمل سيفًا، والمظنون أن هذا الشخص هو السلطان عبد العزيز خان، قد عاد بعد دخول السلطان عبد المجيد خان فى حجرة السعادة بكل وقار وسكينة وبعد مرور خمس أو عشر دقائق دخل فى حرم السعادة عدة أنفار من الجنود ذات عمائم خضراء وأحذية سوداء.

وقد أخبر صاحب الرؤيا أن أشكال هؤلاء الأنفار كانت تشبه للجنود الذين كانوا يرافقون الحاج وسيم باشا الذى أتى بأمر تولى عبد العزيز خان الحكم خلفا للسلطان عبد المجيد، وذلك عندما جاء ذلك الباشا إلى المدينة المنورة.

ولا شك أن الذين يعرفون عظمة ما يكنه السلطان عبد المجيد من المحبة والعبودية لسلطان الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيصدقون صورة تعبير هذه الرؤيا.

وبناء على ما سطر فى تواريخ الحرمين القديمة وما يجرى على ألسنة سكان دار الهجرة ليس هناك ملك جلس على كرسى العرش مثل السلطان عبد المجيد الذى أنفق من النقود وبذل من الجهود لتجديد مسجد السعادة وتعميره وتزيينه، وبما أن المشار إليه قد جعل جميع أفكاره وشعاراته الملكية لخدمة سلطان الأنبياء فى كل آن وساعة وعرض عبوديته الصحيحة المخلصة يرون ظهور بعض الكرامات على يدى ذاته الملكية.

قد تعرض مصطفى عشقى بن عمر أفندى من أفاضل مجاورى المدينة المنورة لعلة القلب وتعرض من جراء ذلك إلى مضايقات وصعوبات فى إدارة وإعاشة أولاده؛ وعليه قرر فى فترة ما ترك المدينة المنورة والسياحة فى بعض البلاد، واستأذن من الحجرة المعطرة، وبناء على الأمر الذى صدر جاء إلى إستانبول دار الأمان فى سنة ١٢٩٧هـ وقد سطر فى آخر الكتاب الحالات التى أجبرته على

اختيار هذه السياحة والإرادة العالية التى صدرت من قبل النبى ﷺ بعد الاستخارة بالتفصيل.

ولما كان عشقى أفندى لم ير إستانبول وكان مشتاقًا لرؤية وجه سلطان العصر ومشاهداته ذهب إلى دار المولوية فى بشكطاش حين وروده إلى إستانبول وجلس فى ركن من أركانها، وبما أنّ ذلك اليوم كان يوم المقابلة شرف الخانقاه المذكورة السلطان عبد المجيد، ولما لفت شكل عشقى أفندى الأنظار السلطانية بعث بموظف خاص يسأله عن اسمه ومن أين أتى، وأين يستضاف ولم يعرف عشقى أفندى هوية هذا الموظف كما أنه لم يعرف الشخص الذى أرسله، حتى أنه لم يعرف أن السلطان فى تلك التكية، ولكنه عرف أنه سيكون الاجتماع فى يوم الجمعة فى مسجد بكلربكى اللامع الأنوار، فذهب فى ذلك اليوم هناك حيث وقف فى الممر السلطانى بكل تعظيم، وكان غرضه رؤية جمال وجه السلطان ولما جاء السلطان عبد المجيد فى محاذاة عشقى أفندى توقف وقال لرئيس كتابه مصطفى باشا: «يا باشا سلم من قبلى لهذا الشخص، وبما أنه شرف إستانبول حديثًا فلينعم قدر ما شاء وليتنزه وليشاهد جميع أماكن باب السعادة، ولا يفكر فى أولاده وعياله».

إننى أفكر فى أولاده وعياله نائبًا عنه، قد خصصت له راتبًا ثلاثمائة قرش، فليعش مستريح البال مادام حيًا وليدعو لدولتنا بقوتها وبقائها!!!».

هل هناك كرامة أكبرمن هذا لأجل سلطان؟ ومن هنا يقال إن السلطان عبد المجيد قد حظى بحسن القبول لدى الجانب النبوى العالى كما أنه قد كلف تنفيذ الأوامر النبوية، لأن عشقى أفندى كان قد أرسل من جانب النبى عظيم المناقب لطفًا به.

انتهى.

فى تعريف كيفية تعمير حرم السعادة وتجديده فى المرة السابعة

قد قام بتعمير الحرم الشريف، ممسح جباه الموحدين والذى يقوم بخدمته الملائكة خدم سيد المرسلين، قد قام بتعميره وتجديده للمرة السابعة السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان العدلى.

وجه إلى شيخ المهندسين محمد رائف باشا من الثلاثة ذوى المكانة عند الوكلاء من محافظة طرابلس الغرب سابقًا ومن كرام الأمراء وأحيل إليه وظيفة أمانة المبانى وأرسل إلى المدينة المنورة.

وخرج محمد رائف باشا من باب السعادة فى ربيع الأول سنة ١٢٦٧هـ ووصل فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان فى نفس السنة إلى المدينة المنورة وشغل بإتمام ما لم يتم عمله من الجبل طريق الأمر الذى سواه سلفه حليم أفندى الصغير، واقتلع الخيم التى تؤوى العمال والآلات التى فى الجبل الأحمر وبنى مكانها دورًا حتى يحمى العمال والأدوات من عربان البادية والحيوانات المتوحشة وعلى بعد عشرة أذرع من هذه الدور حفر بئر يبلغ عمقها خمسين ذراعًا.

الحوادث المحلية

عندما أتم محمد رائف باشا حفر البئر وأخذ العمال يستفيدون منها، عصى عربان البادية وتسلطوا على قوافل الحجاج وأبناء السبيل، وحاصروا المدينة المنورة وقطعوا الطرق والموارد عنها حتى يضيقوا على العمال والمسافرين وجيران سيد المرسلين، ومنعوا جلب الحجارة من الجبل الأحمر إلى المدينة كما منعوا جلب المياه إلى العمال من البئر سالفة الذكر وهجموا على العمال ونهبوا الحيوانات الأميرية وعملوا على قتل من يصادفهم من الناس وتسلح عمال الجبل الأحمر

وأنشئوا متاريس وأبراج لحماية أنفسهم، مع أن العربان حاصروا الجهات الأربعة للجبل الأحمر و أخذوا يسببون الخسائر للمحاصرين وكانوا يهربون كلما أرسل ضدهم الجنود والعساكر وقد تصدعت المواضع التى رممت من قبل من مسجد السعادة، كما أشرفت بعض مواضعه على الانقراض، وساءت حالة المسجد إلى أقصى درجة من درجات السوء فى خلال سنة ١٢٦٠هـ، ولما كانت السقوف والقباب قد تصدعت فى عدد من المواضع وخيف من سقوطها فجأة، أسف موظفو الحكومة لذلك أشد الأسف وحاروا فيما يفعلون، ثم اجتمعوا للتشاور وتدبير الأمر، فقر قرارهم على رفع الأمر إلى الباب العالى.

وقد وصلت حالة الأبنية فى عهد داود باشا شيخ الحرم رحمه الله، إلى درجة من السوء بحيث كان الأهالى الكرام يتحاشون الاقتراب من بعض مواضعها، وكانوا يدعون الله كى يلهم السلطان بما ينبغى عمله نحو حرم السعادة، وفى نهاية المطاف اتفق أعيان المدينة وسادتها على رفع الأمر إلى داود باشا الذى كان فى شدة الألم من إشراف مبانى الحرم النبوى الشريف على الانقضاض وكونها فى أشد الحاجة إلى التعمير والترميم، فما كان من داود باشا إلا أن أحضر الدواة والقرطاس وكتب إلى مقام الصدارة العظمى رسالة بين فيها إشراف مبانى الحرم النبوى الشريف على الانهيار ما لم ينظر إلى حل هذه المشكلة الآن وأرسل هذه الرسالة إلى باب السعادة فى سنة ١٢٦٣هـ.

ولما وصلت رسالة داود باشا هذه إلى باب السعادة وعلم فحواها أولو الأمر أدركوا الحالة التى وصلت إليها أبنية حرم السعادة، وحصلوا على معلومات كافية بخصوص هذا الأمر، وقد شكلت لجان فى دار الإفتاء السلطانى لمذاكرة الأمر فى عمق، وفى ظل المسائل الشرعية، ثم قرروا كإجراء أولى إرسال مهندس مجرب ليقوم بالكشف على تلك الأماكن ثم يتداولون الأفكار وفقًا لما يرسمه ذلك المهندس من خريطة لتلك الأماكن، وبناء على الأمر السلطانى الذى صدر بعد

الاستئذان أرسل فى رفقة رمزى أفندى من رجال الدولة أمير الاى عثمان بك الأمرد من ضباط دائرة المدفعية السلطانية العامرة وبعد أن شرح له الموضوع وبينت الكيفية أرسل إلى المدينة المنورة.

ووصل رمزى أفندى مع عثمان بك إلى دار الهجرة واطلعا بناء على القرار العالى على أحوال المسجد النبوى الشريف وعادا إلى الأستانة وعرضا الخريطة التى خطوها وشرحا رأيهما ووجهة نظريهما ثم اجتمع الوزراء فى دار الإفتاء السلطانية والمجلس الخاص ودققوا النظر فى الخريطة المذكورة وعاينوها، وقرروا تجديد المسجد بتعميره وبناء على صدور الأمر السلطانى بذلك أرسل حليم أفندى الصغير مدير الأبنية الخاصة من رجال الدولة العلية بوظيفة الإشراف على المبانى المفتخرة إلى مدينة الرسول فى سنة ١٢٦٦هـ.

وأرسل المهندسون وعمال البناء المهرة والعمال والأشياء المتنوعة عن طريق باب السعادة[١] ومن مصر القاهرة بالتتابع، كما أرسل ما أمكن تدبيره من النقود تدريجيا، وأبلغ شيخ الحرم النبوى وقاضى المدينة المنورة بإشعارات مختلفة على أن يبدأ العمل بعد أن شكل مجلس خاص من مشاهير السادات والعلماء من المدينة المنورة يتولى توصية العمال الذين سيرسلون بحسن أداء أعمالهم وأن يحافظوا على الأدوات المرسلة من التلف وأن يعملوا فى الإنشاءات وفق الشريعة الأحمدية وأن يعملوا بكل تعظيم وحرمة لصاحب المقام وألا تصدر منهم ألفاظ مخلة بالآداب وألا يرفعوا أصواتهم وألا يقوموا بحركات غير لائقة وأن يعنوا أعظم عناية بأداء صلواتهم فى جماعات كما فى السابق، وقد أمر السلطان ذو الخصال البايزيدية أن تكون المبالغ التى ستنفق فى تجديد حرم السعادة من الحلال

(١) كان حسين أفندى معاون الأبنية من أصحاب الرتبة الثانية قد عين مشرفًا على تحسين الرواتب التى ستربط لمعيشة أولاد وعيال العمال المسافرين ولإرسال العمال والأدوات اللازمة التى ستدبر من باب السعادة فى الوقت المحدد إلى المدينة.

وقد فضل حسن شوقى أفندى عمله الخاص بحرم السعادة على أشغاله الأخرى وقام به أحسن قيام وقد نال إخلاصه فى عمله هذا تقدير الجهات العالية ولما أريد مكافأته على إخلاصه دنيويًا قد كوفئ فى ختام عمله بأن أحسن إليه بقطعة من وسام مجيدى قيم سنة ١٢٧٩.

الطيب مهما كان مقدارها ولما كان إنقاذ واردات الخزانة المالية السلطانية من الواردات المخلوطة من شبهة لضيق الوقت، فكلما احتيج إلى إرسال النقود إلى المدينة المنورة لتعمير الحرم النبوى كان يبادل ما تهيأ فى الخزانة السلطانية من أموال مع من يثق بهم من الذوات عن طريق الاقتراض أى كان يرسل هذه المبالغ موافقة لأحكام الشريعة الغراء.

وقد سطر فى التواريخ القديمة أنه كلما احتاج الحرمان الشريفان ومبانيهما للتجديد والتعمير أن الأموال التى ستنفق لذلك كانت تصرف من أموال الجوالة التى يصدق العلماء أن أموالها حلال.

وكان السلطان عبد المجيد خان يرسل الأموال اللازمة للإنفاق على الأبنية المذكورة على الوجه المشروح السابق رحمه الله رحمة واسعة.

أرسل حليم أفندى الصغير الذى أسندت إليه عهدة البناء عندما وصل إلى ينبع رئيس البناء الحجرى نواحى دار الهجرة لعلهم يجدون محجرًا، كما أنه توجه نحو المدينة المنورة ووصل إليها فى أوائل رجب الفرد وتفقد لوازم البناء التى وصلت قبله وبعد أن جمع ورتب مجلس العلماء الذى أمر بتشكيله بالإرادة السنية، فأراد أن يشرع فى عمله باتفاق الآراء، ولكن بما أنه كان فى حاجة إلى تهيئة الأحجار التى تستخدم فى البناء وتسهيل الحصول عليها اضطر أنْ ينتظر وصول رئيس البنائين إبراهيم أغا، إلا أن إبراهيم أغا عاد يائسًا من أنه لم يصادف معدنًا من هذا القبيل، وطلب منه أن يبعثه إلى مكان آخر مع الحجارين حتى يتحرى عن الحجارة، وتشكل عندئذ مجلس ليبحث هذا الأمر فرأى المجلس أن يرافق المجلس لإبراهيم أغا عدة حجارين من أهل المدينة وشرح له الجبال التى يحتمل وجود الحجارة فيها، وتحرى إبراهيم أغا هذه المرة جميع الجبال التى حول المدينة المنورة ثم وجد فى جهة بيارعلى من وادى العقيق على بعد ساعتين من المدينة المنورة فى جهة مكة المكرمة، محجرًا غنيًا بالحجارة وكانت هذه الحجارة

المستخرجة غاية فى اللطف وكان لونها قريبًا من اللون الوردى، فسُرَّ أفراد الهيئة و أهالى المدينة من هذا الأمر وقالوا: «إن ظهور هذا المعدن من جملة ما وفق فيه السلطان».

وهذا عين الصواب، ولا يخفى على الذين يقفون على الوقائع التاريخية لمدينة الرسول ﷺ أن الملوك الذين بذلوا المساعى والجهود لتعمير مآثر البلدة النبوية لم يوفقوا فى كشف معدن مثل ذلك واضطروا لجلب تلك الحجارة اللازمة للتعمير من مصر والجهات الأخرى البعيدة، وقد ظهر هذا المعدن اللطيف فى وادى العقيق الذى عظم قدره بحديث مخصوص.

العقيق

كما عرف فى مكانه واد مبارك، كان اسمه القديم السليل، ولما قال تبع الحميرى هذا عقيق الأرض فعرف باسم العقيق، ومن المحتمل تسميته بهذا الاسم لاحمرار رماله.

غريبة

بينما كان إبراهيم أغا يتحرى عن الحجارة فى الجبال مع أصحاب الوقوف من أهل المدينة، ظهر شخص على شكل أعرابى وقال له: «يا إبراهيم أغا إننى أعرف فى هذه الأماكن معدنًا، تعالى أريك إياه. قد ينفعك فقادهم وهو سائر أمامهم إلى الجبل الأحمر حتى وجد ذلك المعدن فى هذا المكان وأراه لهم، وسر إبراهيم أغا من مروءة هذا الأعرابى وأراد أن يكافئه بعطية، إلا أن الأعرابى قد اختفى عن الأنظار فى الحال.

إن هذه الإشارة علامة شاملة البشارة على أن خدمات والد السلطان كثير المحامد قد حظيت بحسن القبول عند رسول الله ﷺ.

ونصب حليم أفندى على الجبل المذكور الخيم وبعث الآلات والأدوات اللازمة: النجارين، والحجارين وفتح منجمًا فى قمة الجبل، ورفع الصخور التى عليه فاستخرج قطع حجارة كبيرة وأمر بنحتها لتكون صالحة للاستعمال.

لأن الحجارة التى استخرجت كانت غير قابلة للنقل من جهة إلى أخرى فضلاً عن نقلها وحملها على الجمال، وفى الآخر سوى الطرق التى بين الجبل المذكور والمدينة المنورة، وهيأ مكانًا واسعًا خاصًا بالحجارين، وبعد مدة عين محمد رشيد أفندى محافظ المدينة وكيلاً له ثم عين شريف أفندى من أقاربه لرياسة معتمر العمال، ولما ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج انقطعت أنفاسه الأخيرة فى منى وارتحل عن دنيانا، ورحل حليم أفندى الذى أتى من باب السعادة كما أن أشرف أفندى هو الآخر قد ارتحل عن دنيانًا فى منى أيضا بعد وفاة حليم أفندى.

وكان هذا الشخص قد أرسل من قبل حليم أفندى إلى باب السعادة بعض ذهب مجيدى من فئة مائة، وإثر وفاته قد اخذت هذه المبالغ الذهبية بمعرفة الحكومة وأرسلت إلى شورى هيئة البناء المقدس. وإن كان حليم أفندى قضى ما يقرب من ستة أشهر فى مهمة البناء المقدس وبذل جهده لأداء عمله على أحسن وجه إلا أنه فى أثناء هذه المدة وجد المعدن المذكور وسهل الصعوبات التى ظهرت فى نقل تلك الحجارة من الجبل الأحمر ومهده وبنى محلاً خاصًا لتقطيع الحجارة ونحتها فى موقع يطلق عليه دار الضيافة وجهز الآلات والأدوات اللازمة فقط ومن هنا لم تتقدم عمليات مسجد السعادة.

وعقب وفاة حليم أفندى أرسل رجل يصدق لدى الباب العالى درايته وأهليته، لكشف أبنية مسجد المدينة المسعودة ومعاينتها إلى دار السكينة، وقرر فى مجلس الوزراء الخاص تفويض هذا الأمر الجليل إلى محمد أسعد[1] مؤلف «دريكتا» من أجلاء العلماء المتبحرين الذى قرر أن يذهب فى تلك السنة إلى

(١) محمد أسعد أفندى المشار إليه يعرف باسم إمام زاده وكان فى ذلك الوقت من أعضاء المجلس الأعلى.

أراضى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستأذن السلطان فى هذا الأمر وصدرت الإرادة السنية بذلك وأخبر بذلك أسعد أفندى وكان فى هذا الكشف الثانى والى الحجاز آكاه باشا أيضا ولما فسر قرار مجلس الوزراء بخصوص كيفية كشف ذلك المقام السامى بطريقة مع داود باشا شيخ الحرم النبوى، وبين له المهمة التى كلف بها ثم استفسر منه فى أثناء حديثه عن الذين يقتضى وجودهم معه فى أثناء كشف الأماكن المقدسة، وسر داود باشا من اختيار محمد أسعد لهذه المهمة وبين له أصحاب المعلم فى هذا الموضوع ذكر أسماؤهم وأسرع بتشكيل هيئة كشف من سادات البلد وموظفى الحكومة ومن العالمين بكشف المكان وأصحاب الوقوف فيه.

وقد كشفت تلك الهيئة وعاينت داخل حرم السعادة وخارجه وعثرت على الجدران المتشققة والقباب التى بليت والسقوف التى مالت للسقوط والانهيار وبعد أن رأى تلك الأماكن قال شيخ الحرم، السيد المحترم، قد عرفتم أن تعمير الحرم الشريف قد وصل إلى درجة الاستحالة، فإذا ما أصلح بعض أماكنه بإنفاقه نقود طائلة، فمن البديهى أن المواقع الأخرى ستحتاج إلى الإحكام والإصلاح وهذا بديهى، وإذا التزم جانب إصلاحه وتعمير بعض أماكنه فعلى هذا التقدير سيكون قد فتح باب لصرف نفقات باهظة بإصلاحه كل عام.

إلا أن محمد أفندى أسعد قال: «إن المبالغ التى ستنفق لتعمير أبنية الحرم النبوى تقتضى أن تكون من الحلال الطيب المطلق»، وألمح أنه ليس مع الذين يريدون أن يعمروا الحرم النبوى كاملاً وبين أنه يمكن إحكام الحرم النبوى بتعمير بعض جهاته، وأسكت الذين يقولون بأن تعمير بعض جهات الحرم النبوى مضر للخزانة السلطانية.

وقد تأثر شيخ الحرم داود باشا[1] من رأى محمد أسعد أفندى أعظم تأثر كما

(١) منذ أن دخل الحجاز فى حوزة السلاطين العثمانيين إلى يومنا هذا لم ير الناس شيخًا للحرم فى نبل داود باشا.

أن الأهالى عامة تغيروا منه ولم يلتزموا جهة إقناعه بإتيان أدلة مقنعة ولكنهم بالاتفاق توجهوا ناحية سلطان الأنبياء ـ على نبينا وعليهم التحايا ـ وعطفوا النظر إلى الحجرة المعطرة وحصروا أنظارهم قبل حضرة النبى ﷺ لعله تصدر منه إشارة معنوية، وسكتوا عن الأمر.

ولما رأى محمد أفندى أسعد تأثر داود باشا وأعاظم أهل المدينة وساداتها وعلمائها واغبرارهم، ندم على أنه اتخذ رأيًا يؤدى إلى إنقاص الخاطر، إلا أنه على حق لأنه ما كان يستطيع أن يتصرف خلاف التعليمات التى صدرت له من الباب العالى.

سقوط قبة ـ كان ذلك عقب أداء صلاة الصبح بعد أن شكل محمد أسعد أفندى الهيئة الكشفية لكشف ومعاينة مسجد السعادة، وعقب القرار أخذت تسقط قطع طلاء قبة من القباب التى فى مقدمة الجهة القبلية من حرم السعادة، وكأنها تخطر بلسان حالها لزوم تجديد أبنية المسجد، الشريف المقدسة، إن هذه الحالة قد أقنعت إمام زاده بلزوم تجديد المسجد، قد أدت الأنقاض التى سقطت من القبة إلى مقتل الشيخ محمد إسكندر الذى كان يقف أمام نافذة المواجهة النبوية وفى النقطة التى يقف فيها من يزورون عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ولو وجدت الهيئة الكشفية فى النواحى التى وقعت الأنقاض فيها فى هذه الساعة، لحدثت مصائب أكثر من ذلك، قد توفى محمد أفندى متأثرًا بإصابته بالجرح فى رأسه وتوفى قبل أن ينقل إلى الحى الذى يسكن فيه، وكان من الإسكندرية ومن أجلاء طلاب الشيخ الصاوى وكان رجلاً فطنًا وغاية فى الإخلاص، رحمه الله رحمة واسعة وانهار عقب هذه الواقعة جهة سقف من سقوف مسجد السعادة فى الجهة الشرقية وبما أنه لم يكن تحته إنسان لم يتسبب فى أية خسائر فى الأرواح.

ولما ظهرت تلك المعجزة المذكورة استيقظ إمام زاده من نوم غفلته الثقيل وفهم رأيه السقيم وأذعن لخطئه وأخذ يستغفر نادمًا وصدق قرار مجلس المدينة سالف الذكر ونقل مكانه مدير الخزانة النبوية عبد اللطيف أفندى وعين بدرى أفندى من

الكتبة لكتابة مصاريف الأبنية السعيدة، وأمر بفتح المضيفة التى فى الجهة الشامية من المسجد وجعلها سكنًا للكتاب والعمال كما عين إسطبلات عديدة للحيوانات التى تستخدم فى عمليات البناء وعاد بعد ذلك إلى باب السعادة وكتب تقريراً عن مشاهداته الذاتية ومطالعاته من أولها إلى آخرها.

وبناء على المضبطة التى فهمت من قبل الباب العالى وبناء على التقرير الذى قدمه محمد أسعد صدرت الإرادة من الخلافة المعظمة بسرعة إجراء ما يقتضيه الحال.

ولما عاود العمال العمل مرة أخرى فى إعمار حرم السعادة كان العربان يتعدون على العمال، وقد دامت هذه الاضطرابات فترة طويلة وفى النهاية أرسل من باب السعادة الفريق الحاج خالد باشا فشتت شملهم وذلك فى سنة ١٢٧٤هـ.

وكان محمد رائف باشا فى أثناء عصيان العربان يسعى لأداء مهمته ويهتم بالمحافظة على الجهات التى فى الجبل الأحمر وطريقه ومع ذلك يتأسف ويحزن كلما رأى حال مؤخر حرم السعادة المؤسف ويضطرب، لأن فى الوقت الذى بين وفاة حليم أفندى وتاريخ وصوله إلى المدينة توقفت عمليات بناء الأبنية المقدسة فساءت حالة بعض جهات مؤخر حرم السعادة وأوشكت على الانهيار فجأة وبناء عليه قد قويت الأعمدة التى اعوجت بدعامات وبهذا قد أنقذت لوقت قليل من المخاطر الآتية، بعد ما أحكم محمد رائف باشا تلك الدعائم كشف وعاين بكل دقة وعناية حرم السعادة وفهم أنه إذا لم تقتلع الأعمدة المعوجة وتركز أعمدة جديدة رصينة فى أماكنها لن يسلم سقف مؤخر المسجد النبوى من الخطر، ولن تنقذ الساحة الرملية من الضيق والازدحام إلى أن يفتح باب فى الجدار الشامى وذلك بنقل قبة الشمع الكائنة في الساحة الرملية إلى خارج الجدار الشامى، ونظم فى هذا الخصوص خريطة كاملة وعرضها على من يهمه الأمر وقال: «إنه يجب أن يطلق على هذا الباب، الباب المجيدى وتنشأ على جهتى هذا الباب مدارس فوقه وتحت وأن نطلق عليها، مكاتب مجيدى، وأرسل نسخة من هذه

الخريطة إلى الباب العالى ليعرض على الأنظار السلطانية وإذا ما استلم هذه الخريطة فإنه سيحدد مؤخر حرم السعادة وفقًا لهذه الخريطة.

ولما كان نقل قبة الشمع خارج الجدار الشامى وإنشاء مدارس خاصة من أجل الصبيان خدمة عظيمة تسدى لرعية المسجد النبوى الشريف.

من هنا كان تدبير محمد رائف باشا الواقعى من جميع الوجوه يستحق التقدير بل الحمد والثناء لأن أطفال سكان المدينة المنورة كانوا يتلقون تعليمهم الابتدائى قبل قباب مؤخرة حرم السعادة فى حالة متفرقة وكانوا يقومون حسب الصباوة بحركات غير لائقة، ولما كانت هذه الحالة تخالف الحديث الشريف الذى رواه ابن ماجة عن واثلة بن الأسقع والذى يقول ما معناه: «أبعدوا عن مساجدكم أطفالكم ومجاذيبكم وامنعوا البيع والشراء والخصومات وإقامة الحدود ورفع الأصوات وسل سيوفكم واجتنبوا مثل هذه الحالات وداوموا فى تبخير مساجدكم أيام الجمع»[1].

ولما كانت فى تلك الأوقات فى الحرم الشريف نظيفة، كما أنه لم تنعم جماعات الموحدين فى الحرم الشريف بالسكون من وقاحة من يسمون بالمجاذيب من الحمقى غير المتدينين، كما أنه لم يبق مجال للتأمل والتفكير أمام المواجهة النبوية من ثرثرة المزورين والأغوات، ووجود قبة الشمع فى الساحة الرملية وإدخال الجمال التى تحمل زيت الوقود من باب الرحمة إلى حوض تلك القبة قد أخلت نهائيًا بالتعظيم والرعاية اللازمين للحرم الشريف.

وقد حظيت الخريطة المرسلة إلى باب السعادة بالتقدير وأمر أن يجدد مؤخر الحرم الشريف كما جاء فى الخريطة المذكورة وأن يحول اسم الباب المجيدى إلى أسم باب التوسل وأن يؤخذ آراء ورضا أهل المدينة بخصوص الأماكن التى

(١) ونص الحديث: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وخصوماتكم، وأصواتكم وسل سيوفكم وإقامة حدودكم، وجمروها فى سبع واتخذوا على أبواب مساجدكم المطاهر» وحديث واثلة رواه ابن ماجة ورواه الطبرانى عن أبى الدرداء وأمامة وواثلة، وينحوه عن معاذ بن جبل وانظر: مجمع الزوائد للهيثمى ٢ / ٢٥ ـ ٢٦.

يقتضى الأمر تجديدها، بهذا صدر الأمر السلطانى وأبلغت الكيفية إلى محمد رائف باشا بالرسالة وبناء على التحريرات السامية التى وردت عرض الباشا تلك التحريرات إلى من يقتضى الأمر عرضها عليهم وبين أنه سيعمل وفق هذه الأوامر السلطانية وإن كان بعض الأهالى اعترضوا على تغيير الأساطين وقالوا: «لا لزوم لتغيير الأساطين، وإذا ما غيرنا الأعمدة التى ظلت لمدة مديدة فى مؤخرة حرم السعادة وجاورت الحجر المعطرة نكون قد ارتكبنا نوعًا من عدم الرعاية؛ ولأجل ذلك يقتضى الأمر إبقاء هذه الأعمدة فى أماكنها وتقويتها بدعائم كما أن القباب التى تحملها تجدد بهذا الشكل». وبهذا التزموا القول الذى يقول بإبقاء جميع الأعمدة التى فى مؤخرة حرم السعادة وأن تعمر وتجدد دون أن يحدث أى تغير فى جميع جهات الحرم النبوى الشريف.

فأجابهم محمد رائف باشا قائلا: «إن هذه الأعمدة كثيفة جدًا أولاً وضيقة وبالية، فإذا ما اقتلعنا هذه الأعمدة وحولنا وبدلنا أماكنها نكون قد وسعنا أماكن الصلاة، كما ننقذ القباب التى ستصنع من المخاطر المستقبلية، وكافة الأعمدة القديمة قد ركزت فوق حجارة عادية وبما أن تلك الأحجار قد وضعت فوق الأرض وقد تكسرت بثقل القباب وتضييقها وظلت الأسياخ الحديدية التى فى أطرافها فى الأرض».

وإذا ما لم تغير هذه الأعمدة فالقباب التى تقرر تجديدها مهما كانت خفيفة تحطم الأعمدة القديمة التى يراد إبقاؤها كما أنها تقتل من تحتها منهارة بعد مرور وقت قليل، وإذا لم نهتم بالمخاطر المعروضة وبنينا القباب، نكون قد بذرنا الأموال بعملنا وهذا عمل يخالف الشريعة الغراء وهو عمل غير معقول لا تقبله ضمائر الموحدين، وإذا ما اسْتَرْخَصْنَا بصنع القباب التى صدر الأمر السلطانى بتبديلها بالبناء فالقباب الخشبية التى سنصنعها لا تتحملها هذه الأعمدة القديمة، وإذا ما سمحتم فلنقتلع أولا واحدا من هذه الأعمدة ونعاينها».

فإن لم يتحقق ما قلته نبقيها على هيئاتها الأصلية، وإذا كانت الأخرى نلجأ لرأى عموم الناس وفكرهم و نتحرك وفق رأى الأهالى وقرارهم وبهذا الجواب المفخم أقنع معترضيه من الوجهاء والأعيان من سكان البلد فقبلوا أن يقتلع أحد الأعمدة لمعاينتها ظانين أنه سيكون فى حالة سليمة متينة نظرًا لهيئتها الخارجية وجعل من أحضرهم من نجارى المدينة يعاينون ذلك العمود، وإذا بالعمود كان قد ركز فى أيام قايتباى فوق حجر أسود بال وضع فوقه التراب دون قاعدة والأحجار المذكورة قد تحطمت تحت ثقل القباب وصدمات الزمان المتقلب وتسببت فى اعوجاج الأعمدة والأسياخ الحديدية التى فى أطرافها فدست فى الأرض وتسببت فى انحراف الأعمدة عن مراكزها.

كانت الأسطوانة التى اقتلعت وعرضت على فريق العمل والأهالى كانت مكونة من عدة أعمدة مجوفة وسبب ذلك إبقاء الأعمدة على هيئتها الأصلية كلما عمر حرم السعادة وكل عمود قد صبغ مرة واحدة وهذه الصبغة قد تحجرت بمرور الأيام وظلت على شكل أسطوانة مجوفة. وابتدر قسم من سكان المدينة إذ رأوا الاسطوانة المقلوعة كما وصفها الباشا فوافقوا على تغيير الأساطين رأسًا وقال قسم آخر وقد اطلع على الأمر أن الأساطين القديمة ستنتزع والقباب ستعلق فوق الأعمدة وستقلل الأعمدة وستبدل إلى أسطوانتين أو ثلاث قطع من الأعمدة الرخامية المجلاة هذا الإنسان لا يسمع الكلام، ولا يريد أن يراعى هيئات الأبنية العالية المقدسة، ويريد أن يغير ويبدل الأعمدة التى لم يمس طرازها ورسمها، كاملة ويغير أماكنها ويقلل عدد الأساطين.

وأمعنوا، أفكارهم بنشر هذه الأقوال المضرة وعملوا على تشويش أفكار العامة، لكن رائف باشا لم يعر سمعًا لهذه الاعتراضات فانتزع جميع الأعمدة التى فى مؤخرة الحرم الشريف بعد أن أسند القباب التى فيه وفق ما جاء فى الخريطة ووضع أسس وقواعد الأعمدة الجديدة التى سيركزها فى نسبة واحدة وبعد أن ملأ البئر التى حفرها بين الباب الشامى وباب الضيافة وخارج سور المدينة المنورة بالتراب والأنقاض التى نتجت عن تلك العمليات، وهدم

الجدار الشامى للحرم الشريف وأخذ يجدده وأسس على طرفى باب التوسل الذى فتحه وسط الجدار المذكور أربع مدارس مجيدية كما أسس أربعة مخازن لوضع زيت الوقود والأشياء الأخرى على الجدار الشامى وبهذا وسع الساحة الرملية قدرًا ما.

وهناك فى داخل المدينة المنورة وفى المواقع التى سيأتى ذكرها إحدى عشرة مدرسة أخرى ما عدا المدارس المجيدية التى سبق ذكرها وتلك المدارس من جملة ما بناه محمد رائف باشا.

١ ـ فى داخل الرباط الذى فى جهة الطاحونة من مسجد بهرام أغا من أغوات باب السعادة فى العنبرية.

٢ ـ هذه المدرسة فى السبيل الكائن فوق جسر سيل أبى جيد.

٣ ـ فى التكية المرادية التى خربت.

٤ ـ وهذه المدرسة بالقرب من المخبز الأميرى وهى مدرسة سليم أفندى وهو من قرناء السلطان عبد المجيد الرئيسية.

٥ ـ مدرسة الحوش التاجوري.

٦ ـ مدرسة بيت الخليفة أمام المناخة.

٧ ـ مدرسة زاوية العشاقي.

٨ ـ مدرسة زقاق النخاول.

٩ ـ مدرسة السلطان محمود خان الأول فى داخل دار توقيت باب السلام.

١٠ ـ مدرسة قبة سيدنا مالك رضى الله عنه.

١١ ـ مدرسة زقاق قفا.

وكل هذه المدارس خاصة بالصبيان الذكور وهناك مدارس كثيرة خاصة بالإناث ولا حاجة لذكرها.

وكان حفر محمد رائف باشا البئر التى خارج السور لوضع ودفن الأتربة والأنقاض المتبقية من التعمير كان برجاء الأهالى واسترحامهم، لأن الحجارة ذات الحجم الكبير التى نقلت من الجبل الأحمر كانت تصطدم ببعض المنازل ويزعج ذلك الأهالي، وبما أن الأهالى رجوا محمد رائف باشا أن يجد حلاً لهذه المشكلة فتح بابًا فى سور المدينة فى الجدار الذى يوازى ويحاذى دار الضيافة وبعد الاستئذان أطلق عليه الباب المجيدي.

والمبانى التى يطلق عليها الأهالى قبة الشمع هى المبانى التى فوق حوض زيت الزيتون الذى يحضر من مواقع معلومة والذى حفر لحفظ الزيت ووضعه فيه، وكانت الجمال التى تحمل الزيت تدخل من مدخل باب الرحمة، كما ذكر آنفًا وتوصل الزيت داخل تلك الأبنية وكان هذا العمل قد دخل فى حكم العادة بين الجمالين.

وقد وفق محمد رائف باشا بخدماته هذه فى عرض مراسم التعظيم والتفخيم للحجرة المعطرة وذلك بإخراج مبانى القبة المذكورة خارج الجدار الشامى وبتسطيحه الساحة الرملية وسع وسط حرم السعادة ووضع نظامًا حسنًا بعدم إدخال الجمال فى داخل الحرم الشريف المشحون بالنور، كما هدم وجدد الجدار الذى بين باب الرحمة والمئذنة المجيدية[1] والقباب والأساطين الكائنة فى الجهة الغربية من هذا الجدار، والجدار الذى بين باب جبريل والمئذنة الرئيسية، ومع هذا قد اعترض عليه لأنه جدد الجدار الذى فى باب جبريل، وكانت تلك الاعتراضات كلها على غير وجه حق، لأن المحل الشريف الذى هدم وجدد فيما بين باب جبريل والمئذنة الرئيسية، كان فى الجهة الشرقية من الأبنية العالية المقدسة وكان فى محاذاة قدم السعادة ذات شرف، كان الفراغ بين الحجرة المعطرة والجدار الذى هدم ضيقًا جدًا وكان يحول دون مرور الزوار وعبورهم وكان هذا الأمر يؤدى بالضرورى إلى ما يخل بآداب الزيارة وأراد

(١) كان يقال لهذه المئذنة قبل التجديد الشكلية.

محمد رائف باشا أن يزيل ما كان يحدث من عدم رعاية آداب الزيارة وأن يحقق للزائرين الطمأنينة.

وأراد أن يوسع ذلك المكان المذكور قدر الإمكان، فنقل جدار جهة باب جبريل إلى الخارج مقدار خمسة أذرع وجدده وقلل عدد الأعمدة وغير أماكنها وركز اسطوانة رصينة قوية موزونة بدل كل ثلاثة أعمدة وشيد أعمدة وقباب تلك الجهة على طراز جديد وفى شكل جميل متناسق فأعجب الناس من رصانتها وتناسقها، إلا أنه لم يهتم بما فى مؤخرة الحرم الشريف من أشياء أخرى متفرعة وتركها فى حالة خراب.

واستقبح من قبل الأهالى هدمه الجدار الذى فى ناحية القدم النبوى السعيد ونقله إلى الخارج مقدار خمسة أذرع دون أن يأخذ رأى أحد أو رضاهم وأدى إلى قيل وقال وإشاعة أقوال فى حقه ومن هنا طلب بعض خواص الناس أن يعتنى بمؤخرة حرم السعادة أيضا وأن يراعى جانبه، وقال المعترضون من عامة الناس: «إننا لم نستطع أن نبين قلة رعاية هذا الرجل وقد أظهر عدم احترامنا حينما دفن أنقاض الحرم الشريف فى البئر التى حفرها خارج السور، فإذا ما سكتنا لفعله هذا لا نكون قد أَحْسَنّا فعلاً ولهذه الحركات التى تدل على عدم الاحترام مسئولية كبيرة وهى فى أعناقنا وقد اقتنع هؤلاء الخاصة بمثل هذه الأقوال وعرضوا الأمر إلى باب صاحب القرار وقد أوردوا أقوالاً عجيبة واشتكوا من محمد رائف باشا ورجوا منه أن يعين مكانه شخصًا آخر ويرسله إلى المدينة المنورة.

ولما كانت أنقاض حرم السعادة وترابه كلما يتجدد أو يعمر تدفن فى مكان على سفوح جبل أحد وكان هذا المكان قد أحيط بسور من جهاته الأربعة، لذا كان الأهالى محقين فى هذا الخصوص، ومازال هذا المكان موجودًا إلى يومنًا هذا وهو من المزارات التى يزورها الناس ويصلون هناك ركعتى

صلاة التحية، ولكن محمد رائف باشا قد دفن الأنقاض والأتربة الناتجة من التعمير والتجديد فى البئر التى حفرها خارج السور مراعاة لمصروفات خزينة الدولة، وكان ذلك سببًا فى قول الأهالي: «إن محمد رائف باشا لا يراعى حرمة الأماكن المقدسة»

وإن كنا نحن أيضا نوافق الأهالى فى خطأ محمد رائف باشا وشكاياتهم فى حفره ذلك البئر المذكور، إلا أن تأخير الجدار التى فى مواجهة قدم السعادة إلى الخلف وما فيه من حسنات غير قابل للإنكار فادعاءات المعترضين فى هذا الخصوص كانت واهية، لأن المكان الذى وُسِعَ كان مكانًا ضيقًا فى دائرة الحرم الفاخر وكان زوار الحجرة المعطرة يعانون أعظم معَاناة عند زيارتها من الازدحام.

ولنعرف حال مسجد السعادة القديم والأماكن التى حددها محمد باشا واحدًا واحدًا بناء على القواعد الهندسية لنبين مدى ضعف ادعاءات المعترضين الذين قاموا ضده، حتى لا يظلم الموصى إليه من قبل القراء.

حال مسجد السعادة
والمواقع التى أنشأها محمد رائف باشا

كانت أكثر أماكن المسجد الشريف تتكون من سقوف واقعة على أعمدة صنعت من حجر أسود والعقود المصنوعة من الخشب، كانت الحجارة التى تشكل هذه الأعمدة قد وضعت بعضها فوق بعض قطعة قطعة وكانت قطع الحديد التى تربط بين الحجرين قد ربطت بالرصاص المذاب، وقد هدم محمد باشا هذه السقوف من جهة الشام إلى المئذنة السنجرية.

وبما أن الجدار الذى بين مئذنة السنجرية والمئذنة الشكلية والخشبية قد هدم مع المئذنة السنجرية فى أواخر عهد السلطان سليمان وحدد؛ فظلت تلك المئذنة باسم السليمانية، ولما كانت الأعمدة التى هدمت فى الجهة الشامية والتى كانت تحمل سقوفها أربعة صفوف وكانت متقاربة من بعضها وكأنها متلاصقة فجعلها محمد رائف باشا صفين وبنى عقودها من الحجارة التى أحضرها من الجبل الأحمر

وبدل القباب القديمة التى كانت مصنوعة من الخشب إلى قباب حجرية، وفتح بابًا كبيرًا فى المكان الذى يلى المئذنة السليمانية وسماه باب التوسل.

يفرض أن يكون باب التوسل فى مكان مقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ كان الوليد بن عبد الملك أدخل ذلك البيت داخل مسجد السعادة، ولما آلت تلك الدار إلى حميد بن عبد الرحمن عن طريق الميراث من جده وكان النبى ﷺ اعتاد أن يُضيِّف ضيوفه فى هذا المكان فسمى ذلك البيت فى عصر السعادة بدار السعادة.

كانت دار حميد بين مئذنتى الشكلية والسنجرية فى نقطة تتصل بخارج الجدار الشامى للمسجد الحرام وكان فى جهتها الشامية مخبز ولبعض الدور والمخازن أبواب تفتح من داخل المسجد، وكانت توضع فيها قناديل حرم السعادة والأشياء التى تتعلق بالقناديل. وكانت ميضأة[1] الأغوات التى يفتح بابها إلى داخل المسجد فى مكان متصل بهذه المخازن، واشترى محمد رائف باشا تلك المنازل والمخبز من أصحابها بإعطائهم خمسمائة وسبع وعشرين قطعة ذهبية، وهدم سواء أكانت هذه الدور أو ميضأة الأغوات وما بجوارها من المخازن ومئذنة الشكلية التى تشققت حتى الأرض والسقوف الغربية التى تتصل بهذه المئذنة وبنى يمين ويسار باب التوسل سالف الذكر مدرستين فوقيتين وجعل أقفاصًا حديدية لنوافذ هاتين المدرستين كانت تفتح إلى مسجد السعادة، وخلف الحجرات التى تصادف للجهة اليسارية من باب التوسل صنع حنفية طويلة أى شادروان ثم أسس على جهة يقال لها الزقاق الشامى من تلك الحنفية ميضأة ذات دورين بدلاً من ميضأة الأغوات كما أسس فى جهة الميضأة التى فى الدور الثانى حمامًا خاصًا يخدم حجرة السعادة، ولحمام ميضأة الأغوات باب يفتح إلى داخل المسجد وعند الضرورة يُخْرَجُ من هذا الباب بسلم كما ينزل إلى الميضأة من فوق الكمر الذى فوق الحنفية، وبعد ما أنهى محمد رائف باشا عمليات ميضأة الأغوات

(١) وكانت والدة الخليفة الناصر لدين الله هى التى أسست هذه الميضأة.

بنى أربعة من المخازن على الطرف الغربى من الميضأة أى فوق سلم المخازن التى سلف ذكرها.

ولهذه المخازن ميدان واسع مكشوف، وتحفظ فيها زيوت زيتون قناديل مسجد السعادة ولوازمه الأخرى، وقد فتح بابًا كبيرًا خارج المسجد لتدخل من المخازن المذكورة المحروقات والباب القديم الذى فتح فى داخل المسجد ترك على حاله فى مكانه لينفتح عندما يصلح قناديل حرم السعادة، وبنى فوق أرض ميضأة الأغوات مخزنًا آخر لوضع الأشياء الخاصة بالمسجد الشريف ولهذا المخزن بجانب باب المئذنة وفى داخل المسجد باب يفتح للزقاق الواقع فى الجهة الغربية من المسجد وهو باب مشبك.

وبعد أن أتم محمد رائف باشا بناء هذا المخزن أزال المخزن الذى فى جهة مئذنة الشكلية لعدم نفعه وحفر مقدار ذراع المرتفع الذى فى الجهة القبلية من مسجد السعادة وسواه وهدم الدكك التى انتشرت هنا وهناك فهدم القبة التى فى وسط الحرم الشريف، بينما هدمت هذه القبة وكانت تسوى أرضها بفرش الرمل ظهر حوض تحت الأرض ينزل إليه بالسلم، ويلزم أن يكون هذا الحوض البركة التى عرفها ابن النجار.

قال ابن النجار وهو يصف هذا الحوض: «كان فى وسط مسجد السعادة وفى الجهة الغربية من النخيل ينزل إليه بسلم من عدة درجات، قد صُنِعَ مِنَ الأحجار والجص والألواح الخشبية وكان ماؤه يتدفق من فسقية فى وسطه، وكان ماؤه من عين الزرقاء، وكان خاصًا بموسم الحج والعثور على الماء فيه فى الأيام العادية غير محتمل».

وذهب إلى أن هذا الحوض أثر من آثار أحد أمراء الشام يسمى شامة ولكن رأيه هذا لا يخلو من خطأ.

إذ قال المؤرخ المصرى: وينسب هذا الحوض إلى الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء، إن الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء حفر فى تاريخ خمسمائة وستين هجرى من عين الزرقاء إلى باب السلام فأجرى إلى الميدان الذى

بجانب الباب المذكور مقدارًا كافيًا من الماء، ومؤخرًا أدخل جزءًا من هذا الماء فى الساحة الرملية لمسجد السعادة، وصنع هنا منهلاً كما صنع فوقه كمرًا وتحته فسقية؛ كان الناس يجدون هنا وضوءهم، ثم حدث ما يهتك حرمة الحرم الشريف بجانب الحوض، بعد أن أزال محمد رائف باشا قبة الشمع من ساحة الحرم الرملية هدم ما بين جدار مسجد السعادة الشرقى مع مئذنته الرئيسية وبنى باب جبريل وسحب جدرانه إلى الخلف قدر خمسة أذرع وربع ذراع إلى الخارج وبنى مكانًا للخَلْوَة فى دورين فى الميدان الصغير الذى استُحْدِثَ نتيجة للهدم بين مئذنته الرئيسية وركن الجدار الجديد، ولم يلمس الأعمدة التى حول حجرة السعادة ودعاماتها ولكنه أراد أن يقوى ما جدده من أعمدة الجدران وعقد القباب الجديدة فركز الأعمدة فى محاذاة الأعمدة المدعمة لحجرة السعادة، وأبقى باب جبريل فى مكانه وزين باب المئذنة الرئيسية بأحجار منحوتة حمراء لترصيعها وصنع لهذا الباب سلمًا ذا أربع درجات وترك مكان الباب العتيق للسادة الخطباء، وبينما كان يحفر أسس الجدران الجديدة ظهر مصرف مياه ولعله كان مكان اجتماع مياه البالوعات، وكان فوق الرصيف وخارج مسجد السعادة؛ وإن كان ذلك المصرف بعيدًا عن الحجرة النبوية إلا أنه نقل إلى مكان أبعد تعظيمًا للمسجد النبوى، ولما وصلت أعمال حرم السعادة لهذه النقطة وقبل أن تركب عقود القباب الشرقية، كانت شكايات المعترضين وصلت إلى الباب العالى حيث دُرِسَتْ وحتى يُقْضَى على النزاعات والخلافات التى حدثت نُقِل محمد رائف باشا وعُيِّن الفريق أبو بكر باشا ناظر معهد الهندسة البرية السلطانية مكانه وأرسل إلى المدينة المنورة.

وتحرك أبو بكر باشا من باب السعادة وفى رفقته الحاج محمود أغا الجناح، وهو من مدرسى معهد الهندسة المذكور[1] وعثمان باشا الذى عين شيخًا للحرم ووصلا إلى المدينة المنورة فى اليوم الحادى عشر من شعبان المعظم سنة ١٢٦٩ الهجرية، وكشف الباشا المذكور وعاين كل ما تم عمله سواء أكان فى عهد حليم

(١) ومازال الحاج محمود أفندى مدرسًا فى المدرسة الحربية السلطانية للرسم ويحمل رتبة قائم مقام.

أفندى الصغير أو محمد رائف باشا، من طريق الجبل ومواقع الحرم المبجل، ثم وضع خريطة أخرى وفق أفكاره وصمم على أن يجدد ويعمر جميع جهات مسجد السعادة حتى تصير رصينة متينة وعزم على الشروع فى العمليات ـ كسلفه ـ من جهة مؤخرة حرم السعادة، ولما رأى أن القباب التى بين المئذنة الرئيسية وباب جبريل أولى بالتعمير من الجهات الأخرى أكمل تلك القباب، وأسرع فى حفر وتعميق أساس المئذنة الشكلية، وبما أن المياه زادت قدر قامة رجل كلما حفر ذلك الأساس وعمق فغرس أوتادًا وبنى قاعدة صلبة وجعل أساس المئذنة فوق هذه القاعدة وبنى المئذنة حتى كرسيها ثم عمر الأماكن التى انهارت من قديم فانتقل إلى الجهة الغربية من مسجد السعادة، وبما أن جدران هذه الجهة كانت رصينة لم يَمَسَّها ووسع فقط ما بين الأعمدة التى تحمل القباب وأحد السقوف، لأن هذا المكان كان يتكون من أربعة سقوف مبنية على أربعة صفوف من الأعمدة.

وألغى أحد الصفوف من الأعمدة وسقفًا واحدًا فنظم هذه الجهات على ثلاثة سقوف فوق ثلاثة صفوف من الأعمدة وألصق صفًا من الأعمدة على الجدار حتى يضع عليها العقود، وهذه الأعمدة مراكزها ملاصقة للجدران، كما سبق ذكره، وعقد عقود القباب فوق هذه الأعمدة ثم انتقل إلى الجهة الشرقية فهدم الجدار الذى بين المئذنة السليمانية وباب النساء، ونصب بعض الأعمدة وأخذ يبنى الجدار الذى هدمه بحجارة سوداء وقبل أن يكمل عمله وكَّلَ عبد اللطيف أفندى من رجال الدولة العالية وأنابه عن نفسه ثم سافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وعاد بعد الحج وبذل جهده لإتمام عمليات الجهة الشرقية من مؤخرة حرم السعادة، ولكنه توفى قبل أن يختم عمليات الجهة ودفن يوم التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٧١ فى القبر الذى هيئ له فى البقيع الشريف، رحمة الله عليه.

كان أبو بكر باشا فى الوقت الذى عزم فيه على الحج كتب تقريرًا إلى شيخ الحرم النبوى عثمان باشا فى أن يعين عبد اللطيف أفندى وكيلاً له وأخذ من الباشا المشار إليه الجواب الآتى:

الأمر:

إننى عجزت عن فهم تقرير الباشا مدير الأبنية العلية ولما كانت للأبنية المسعودة مواد جسيمة وأمور عظيمة ولما كُنْتَ الموظف المسئول عن نقل هذه الأشياء، ولما كان النفع والضر عائدًا لك لمسئوليتكم وحتى لا يحدث ما يؤدى إلى تعطيل سير الأمور وتأخيرها ولبذل الهمم للمقبوضات والنفقات فعملتم على اختيار وكيل لكم وهذا منوط ولائق لرأيكم السامى.

صورة التقرير:

وقد قررت كما تعرفون أن أسافر فى هذه الأيام إلى مكة المكرمة بنية أداء الحج المفروض ولما لزم أن تدار المهمة التى ألقيت على عاتقى وقبلت نظارتها بواسطة وكالة أحد موظفى الأبنية العلية، يا ترى هل من المناسب أن يختار لها أحد المقربين إلى وهو مدير الحرم الشريف صاحب العزة لطيف أفندى الذى سبق أن وجهت له الوكالة، أو ترون شخصًا آخر أنسب لهذه المهمة؟ ومهما كان اختياركم للشخص الذى ستنتخبونه وكيلاً مكانى أرجو أن تبينوا فوق هذه الورقة البيضاء ما ترونه وأن تسطروه والأمر فى هذا الخصوص لمن له الأمر.

حرر فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٧٠.

وقد صادفت وفاة أبو بكر باشا للوقت الذى كان فيه دلاور باشا شيخًا للحرم، وبناء على التكليف الذى حدث من محافظ المدينة ومن هيئة مجلس الشورى إلى دلاور باشا كان قد قبل وكالة أمانة البناء حتى لا تتعثر عمليات البناء، وأمر بأن تهدم الجهات التى فى ناحية باب الرحمة الغربية فبناها مجددًا وتمم الأماكن التى ظلت ناقصة فى الجهة الشرقية بأن جعل سقفها فى وسع سقوف الجهة الشامية والغربية، وبنى أمام الجدار القبلى الرصيف الواسع الذى يطل عليه موضع الجنائز وعلى يسار من يخرجون من باب جبريل، يعنى فى الجهة الشامية من ذلك الرصيف، محلين مشبكين ومسقفين وفرش ما بين المحلين بقطع رخامية.

وكان كثيرون من الفقراء والغرباء يبيتون فى هذا الموقع الشريف فى أيام

الصيف مثل أصحاب الصُفَةِ وعندما يرد الحجاج والزوار كانوا يجتمعون فى هذا المكان ويؤدون الصلاة.

أُبْلِغَ الباب العالى بوفاة أبى بكر باشا وإحالة وكالة أمانة البناء إلى شيخ الحرم دلاور باشا، وأسند أمانة الأبنية العالية إلى أمير الأمراء ناظر المدرسة البحرية سابقًا أدهم باشا بعد أن انتخب لذلك المنصب فى مجلس خاص بالوزراء وصدر الأمر السلطانى بذلك بعد الاستئذان فى أواخر سنة ١٢٧١هـ وأرسل إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٧١هـ.

وصل أدهم باشا إلى المدينة دار العز فى الخامس عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٧٢هـ، وثابر فى إيفاء مهمته وجدد فى فترة، تقرب من سنتين، الأساطين والقباب التى بين باب النساء ومئذنة العزيز والجدران الكائنة فى تلك الجملة فى صورة غاية فى الكمال والنظام.

كان السلطان سليمان خان الغازى قد جدد فى سنة ٩٤٠هـ المئذنة العزيزية الجميلة كما بين فى الصورة الثامنة من الوجهة الأولى وجعلها ذات شرفات ثلاث مثل مآذن باب السعادة، لذا أُطْلِقَ عليها فى ذلك الوقت المئذنة السليمانية.

وتلك المئذنة محاذية للمئذنة الشكلية التى وفق فى تجديدها المرحوم السلطان عبد المجيد، وعندما عُمر مسجد السعادة اقتضى الأمر إصلاح تلك المئذنة أيضا فربط ـ عندئذ ـ محمد راشد أفندى من موظفى أمانة البناء حبالاً ما بين المئذنتين ليعلق عليها المحيا مثل مساجد باب السعادة إستانبول وذكر أن هذا الفعل سيعطى للمدينة المنورة الميمونة رونقًا آخر وزينة أخرى، واستأذن بعد تعمير المئذنة السليمانية بأن تقام محيًا[1] هناك فى ليالى رمضان واستكره السلطان الذى يتصف بصفات الزهد لشدة حبه لشفيع المذنبين ﷺ وفرض عبوديته إحداث بدعة فى دار

(١) إن بناء محيا فى الجوامع ذات المنارتين كان بدعة سيئة أحدثها إبراهيم باشا الذى تولى الصدارة نحو اثنتى عشرة سنة فى عهد السلطان أحمد الثالث وذلك فى عام ١١٣٢ هـ.

الهجرة وتجنب ذلك بتقبيح الفكرة التى عرضها محمد راشد أفندى ولذلك تأخر تعمير المئذنة المذكورة، ولما كان جميع لوازم بنائها جاهزة فعمرت فى عهد السلطان عبد العزيز بشرط عدم إقامة المحيا، وأنفق لتعميرها بعد الكشف عليها خمسة وأربعين ألف قرش وسميت بالعزيزية.

بينما كان أدهم باشا مشغولاً بتعمير وتجديد جهة باب الرحمة صدر الأمر السلطانى بخصوص إرسال محمد راشد أفندى من أعضاء دار الشورى العسكرية لأنه كان قد التزم قديمًا من جانب محمد رائف باشا تجديد القباب والأعمدة التى فى مقدم الحرم الشريف كقباب وأساطين مؤخر الحرم الشريف وكان قد رأى فى هذا العمل نوعا من المحسنات والجمال لحرم السعادة.

ولكن العمل بهذا الرأى كان سببًا فى وقوع منازعة كبيرة، وكان أهالى المدينة فى ذلك الوقت قد أبلغوا الأمر مع بعض الأوراق والمضابط إلى باب صاحب القرار كما سبق ذكره ورجوا من السلطان أن يجدد داخل حرم السعادة وفق أفكار وآمال الأهالى؛ ومن هنا قرر إرسال محمد راشد أفندى وتعيينه ليحقق فى منشأ هذا النزاع وللكشف عن تعميرات مبانى الحرم الشريف وكيفية سير العمل فيها، وحساب نفقات تجديدها.

وصل محمد راشد أفندى سنة ١٢٧٢هـ خلالها، إلى دار السكينة وكشف عن الأماكن المتنازع عليها فى مؤخرة حرم السعادة وفى داخله، وبعد العودة سلم الباب العالى لائحة رأيه الشخصى مع المضابط التى قدمت من طرف الأهالى وموظفى الدولة مع الخريطة والأوراق الأخرى إلى الباب العالى، وبعد عمل ما يجب إجراؤه عرض الأمر على عتبة السلطان العالية الذى أصدر أمره بأن يدرس الموضوع فى مجلس خاص للوزراء ثم استذكرت الناحية الشرعية من الموضوع فى مجلس دار الإفتاء السلطانى الذى يتكون من العلماء والفضلاء والوزراء القدماء وقرر المجلس المذكور عدم جواز تغيير محال و أشكال ثمانية أعداد من الأعمدة التى تعد من الآثار النبوية الجليلة الخالية من العيب وكذلك الأساطين التى ركزت

فى عهدى عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ عندما وسعا مواضع الصلاة فى المسجد باتفاق آراء الصحابة، من مائة وثلاثة وأربعين عمودا فى حاجة إلى التعمير فى داخل الحرم النبوى الشريف، وبما أن شكل القباب والأساطين ومحالها التى أضيفت فى عهدى السلطان مراد خان الرابع، وقايتباى المصرى لم تخضع للتغيير فى زمانهما، ورأى أن يعمر ويجدد الأعمدة التى ستحمل عليها القباب الحجرية بدلاً من السقوف على هيئاتها الحالية، وبما أن الأساطين القديمة كانت مصنوعة من الحجر الأسود ومغلفة بقطع رخامية رئى أن تترك الأساطين غير المحتاجة إلى التعمير والتصليح فى حالتها القديمة والقباب من دكة الأغوات إلى باب الرحمة التى قرر صنعها بناء على الكشف القديم، وأن يجدد الجدار القبلى من باب السلام إلى المئذنة الرئيسية وألا تترك أنقاضها ومربع مرقد السعادة سيحتاج إلى التشييد والإحكام وعرض الأمر على العتبة السلطانية ملخصًا فى مضبطة.

وأن تجدد وتعمر المواقع المسعودة على الوجه المذكور والمشروح وأرسل ذلك الأمر[1] السلطانى بمضبطة مخصوصة إلى طوسون باشا شيخ الحرم النبوى.

وكان مضمون ومندرجات اللائحة التى أرسلت إلى طوسون باشا الانتباه إلى ما جاء من قرارات فى اجتماع مجلس الوزراء الخاص والعمل بموجبها ووقاية الأشياء التى تستخدم فى البناء من التلف والإسراف فيها، وتكوين مجلس من الموظفين المحليين ومهندسى الأبنية ورؤساء الحجارين بخصوص النظارة على العمال وحسن استخدامهم؛ وتعيين الوظائف الأساسية لهذا المجلس وذيل اللائحة بتوقيعات أعضاء المجلس الفخم كما صدقت من مقام الصدارة العظمى.

وكان سبب حدوث المنازعة هو كشف محمد رائف باشا داخل الحرم الشريف

(١) قد كتبت صورة من هذا الأمر السلطانى فى ذيل الصورة تحت رقم (١). (فى أصل المؤلف).

وتعميره لمؤخرة حرم السعادة وكانت تعميرات حرم السعادة تنقسم إلى قسمين الصورة الأولى عمليات مؤخرة حرم السعادة ومتفرعاتها، والصورة الثانية تعمير داخل الحرم الشريف ومشتملاته وفق الخريطة لتعمير مؤخرة حرم السعادة وتجديده والتى قدمت للمقام السلطانى السنى وحازت الموافقة، وفعلاً قد بدئ فى العمل وفقًا لهذه الخريطة، وختم بهدم آثار قايتباى مع مشتملاتها من محاذاة باب الرحمة إلى آخر الحرم الشريف الملاصق لتلك الآثار وبما أنه كان قد تم الاتفاق على هدم قباب قايتباى وإنشاء قباب جديدة؛ لهذا لم يكن فيه ما يثير النزاع، ولكن الأساطين التى تحمل السقوف والقباب فى داخل حرم السعادة والتى صنعت من حجارة صغيرة ومع مرور الزمن انفصلت عن بعضها ولما رئى أنها ستكون سببًا فى سقوط السقوف والقباب أحيطت بآحزمة حديدية وظلت بعضها معوجة متمايلة، ومن هنا وجب تعميرها ورضى الأهالى على ذلك، وأراد محمد رائف باشا أن يجدد الحرم النبوى فى طراز جديد جميل بتقليل عدد الأعمدة وتغيير شكلها مثل أعمدة مؤخر حرم السعادة وأن يوسع مواقع الصلاة وأراد أن يعين ثمانية أعداد من الأعمدة التى تعد من الآثار النبوية بتركها على حالتها القديمة، لو كان مسجد المدينة قد جدد وعُمِّرَ على هذا الشكل لكان الحرم الشريف اتسع وبلغت زينة البناء إلى الكمال وحدث تطابق وتناسب وتناسق فى هذه القضية الفنية، وكل ذلك بناء على قول محمد رائف باشا.

وإذا ما طبق فن الهندسة على تعمير مبانى الحرم فكان رأى محمد رائف باشا صحيحًا كما أن الأدلة التى ساقها بخصوص زينة المبانى ترى لا غبار عليها، إلا أن كون داخل حرم السعادة من الآثار المباركة القديمة كما أن جميع الأعمدة التى فى هذه الجهة من الأعمدة التى تتشرف بِقِدَمِهَا، جعل مسألة تغيير تلك الأعمدة وتغيير أماكنها بادعاء توسيع الموقع والمحل، مسألة غير لائقة.

ومن أجل رد خواص دار السكينة آراء الباشا المذكور الفنية وملاحظاته، قالوا ردًّا على رأى الباشا: «إن عدد الأساطين التى تحتاج للتعمير فى الحرم الشريف مائة وثلاثة وأربعون عمودًا ثمانية منها من الآثار النبوية، ولا يجوز تغيير أشكالها

ومواقعها بالمرة، وكانت الأعمدة التى أضافها حضرة عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ كان بقصد توسيع مواقع الصلاة وبإجماع آراء الصحابة وبما أن هذه الأساطين قد ركزت باتفاق الصحابة وإجماعهم ولم يتجرأ أحد إلى الآن على تغيير طرزها وهيئاتها، يقتضى النظر إليها على أنها من الآثار أيضا ولا يجوز تغيير هيئاتها أو تقليلها بحجة التناسق الفنى، ولا بأس فى تغيير غير هذه الأعمدة، كما أنه لن يحدث تناسب بتقليل عدد الأعمدة وتغيير أماكن الأعمدة التى أضافها السلطان مراد الرابع طاب ثراه والسلطان قايتباى المصرى، ومع هذا كانت القباب التى صنعت وأسست فى عهد السلطان محمد الرابع كانت قد أسست فوق الأساطين التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، ولما كانت الأساطين التى ستؤسس وتوضع عليها عقود الباب التى تصنع الآن تستدعى التعمير والترميم لميلها وقرب سقوطها فإذا ما رممت على هيئاتها الحاضرة، وبهذا يراعى جانب الآثار القديمة، وامتنع عن تغيير صورها وهيئاتها وإذا ما صنع ما قُرّر تعميره من الأساطين القديمة من الحجر الأسود حتى تشبه الأساطين الأخرى، فهذا هو رأينا».

إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوا محمد رائف باشا فعرضوا الموضوع إلى باب السلطان ذى القرار العادل وتسببوا فى صدور الفرمان السلطانى الذى سطرت صورة منه فى ذيل المقال.

ادعاءات الأهالى هذه جديرة بالتصديق والقبول، لأن داخل حرم السعادة لا يقاس بمؤخرة المسجد ولما كانت هذه الجهة قد جددت وفق الخريطة التى وضعت لها وكان لتجديدها مُسَوِّغٌ شرعى صريح، وأجرى لها ما يلزم، ولما ثبت بالدلائل الواضحة أن أحدًا لم يَتَصَدَّ لتجديد الحرم الشريف بإحداث التناسب فى داخله ولم يقدم أحد على تغيير رسمه ومحله، ومن هنا لا يجوز تغيير تجليات الآثار القديمة بتقليل عدد أساطينها وتغيير نقطها أو توسيع مواقع الصلاة فيه فهذه أفكار فجة سطحية، فتخريب الوليد بن عبد الملك حجرات زوجات النبى العليا لم تؤد إلا إلى انقراض الدولة الأموية وزوالها.

وقد رممت الأساطين الثمانية التى ركزت فى عهد النبى ﷺ والأساطين التى ركزت فى العهد الميمون القريب من عهده وعمرت على هيئاتها القديمة، وقد حدث اتفاق عام بناء على وجود مسوغ شرعى لتغيير شكل وأماكن الأساطين التى أضافها السلطان مراد خان الرابع والسلطان قايتباى المصرى.

وإذا ما صنع وفق الطرز الجديد بتقليل عددها وتغيير أماكنها وإذا ما اتبع طريق تجديد القباب على الهيئة المطلوبة منسوبًا لاسم السلطان عبد المجيد، فإنه لن يؤدى إلى التناسب الفنى ويكون داخل حرم السعادة قد جدد بعض أماكنه حسب النظام الجديد وسيظل الباقى على النظام القديم، والأمكنة التى عدت بمرور الزمان ومجاورة الحجرة المعطرة من الآثار القديمة المباركة تكون قد بدلت هيئاتها ومواقعها وغيرت.

وبدلا من أن تبذر الأموال عبثًا لتجديد الأعمدة التى انحرفت قليلاً أو اعوجت والتى يمكن تعميرها وتقويتها وتحويل أماكنها وشكلها، فإذا رممت الأساطين الموجودة على هيئاتها وأشكالها حيث وجدت بحيث تتحمل القباب الحجرية وإذا ما رممت بالأحجار السوداء مثل الأعمدة المتينة المصنوعة من الحجر الأسود وإذا ما غلفت الأساطين التى كانت مغلفة بقطع الرخام نكون قد ادخرنا النقود وحافظنا على أشكالها وهيئاتها الأصلية، ولما كانت الأساطين التى تحمل القباب العالية المصنوعة من عهد السلطان مراد ثمانية أو عشرة أعمدة منها فى حاجة إلى الترميم والتعمير، ولما كان بناءُ القباب الحجرية مكان السقوف جائزًا شرعًا لوقاية أبنية الحرم من الخطر وكان عامة الناس متفقين فى هذا الموضوع ولم يكن فى هذا سبب يؤدى إلى النزاع، والمنشأ الحقيقى للنزاع كان فى تقليل عدد الأساطين داخل الحرم النبوى وتغيير أماكنها، وقد اختار أهل المدينة شق تعمير وترميم الأساطين فى أماكنها، ورجحوا ذلك على استصواب محمد رائف باشا من تقليل الأعمدة وتغيير أماكنها، عرضوا الأمر على الباب العالى ورجوا بأن يعمر داخل حرم السعادة وفق ما يرغبون، وقد بحث الأمر فى دار الإفتاء

السلطانية بعمق وعرض ولما كان رأى أهل المدينة الكرام موافقًا للشرع الشريف عرض الأمر على العتبة السلطانية التى أصدرت أمرها بذلك وأرسل الفرمان السلطانى إلى المدينة المنورة.

وبما أن تغيير شكل وهيئة الأبنية العالية غير جائز أرسل لأدهم باشا للعمل بما جاء حسب ما يقتضى الأمر السلطانى كما أرسل له تحريرات سامية توصى ببذل الجهود فى هذا الأمر إذا كان مدير أمانة البناء.

وجدد أدهم باشا دكة الأغوات بحجارة منحوتة حمراء فى غاية الجمال وصنع على أطرافها أربعة أسوار مشبكة وأسس فى ذيل هذه الدكة دكة أخرى ويُذهَبُ من بين هاتين الدكتين إلى باب جبريل.

ولما كان محراب التهجد فى وسط مقصورة الدكة التى صنعت فى مواجهة دكة الأغوات وفى طرف الجهة الشامية شبكة السعادة التى جددها أيضا، ووضعوا حول الدكة الأسوار المصنوعة من النحاس الأصفر، وكان بجانب دكة محراب التهجد مخزنان، فهدمهما و جددهما بأن جعلهما أربع حجرات، كما أمر ببناء سقف عال لخلف دكة الأغوات وجهتها اليسارية وتحت هذين السقفين محرابًا وعدة حجرات عالية خاصة بخدم الحجرة المعطرة، ويذهب إلى السقفين الجديدين من بين باب النساء ودكة الأغوات.

كان مشايخ الحرم النبوى يؤدون صلواتهم الخمس فى النقطة التى يوجد فيها المحراب سالف الذكر فى الأوائل ثم أخذوا يصلون فى دكة الأغوات، والآن يصلى الأشخاص الذين يتولون مشيخة الحرم فى هذا المكان ويحدث أحيانًا أن يصلوا فى دكة التهجد التى أمام دكة الأغوات، ولكن صلوات التراويح لابد أن يؤدوها بجانب المحراب سالف الذكر.

وأمر أدهم باشا فصنع خارج باب النساء وفى جهة باب جبريل من ذلك الباب، وجدد فمد القفص الخشبى الذى أحدث سنة ١٢٥٠، هذا القفص كائن ما بين كل ثلاث أسطوانات من باب النساء إلى مؤخرة مسجد السعادة فتؤدى

النساء صلواتهن داخل هذا القفص، واستشار شيخ الحرم حافظ محمد باشا مع علماء المدينة فى غضون سنة ١٢٨٠هـ فمد ذلك القفص إلى قرب محاذاة المئذنة السليمانية، لأن جماعات النساء تكاثرت ولم يستوعبهن القفص كلهن فكانت بعض النساء يؤدين الصلاة خلف النخيل، ولما كان الرجال الذين يدخلون من باب التوسل لا يجدون أماكن للصلاة أمامهم فيضطرون أن يؤدوها خلف النساء.

ويطلق أهالى المدينة على هذا القفص قفص النساء ولونه أخضر وله أبواب مصنوعة من القطع المشبكة، تأتى النساء فى ليالى الجمع ويؤدين الصلاة، ويحضرن أولادهن حديثى العهد بالولادة فى يوم الأربعين من ولادتهم لإدخالهم فى شبكة حجرة السعادة، وتأتى بهم أمهاتهم أو أقاربهم ويسلمونهم لموظفى إدارة الأغوات، ويطلق أهل المدينة على مثل هؤلاء الأطفال الذين تُركوا فترة تحت أغطية مربع القبر الشريف فى حجرة السعادة ولد الحجرة فيلزم أن يكون خاصة أهل المدينة من هؤلاء الأطفال.

ولما كان أدهم باشا قد توفى بعد أن أكمل تلك الأقفاص بفترة قليلة فى أواخر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٣هـ، فاختير معاون المبانى المقدسة صالح أفندى لوكالة أمانة البناء باتفاق موظفى الحكومة وأعاظم السادات وعلماء البلاد وبلغ الأمر مع وفاة أدهم باشا إلى باب صاحب القرار العظيم.

وكانت وفاة أدهم باشا قبل أن يكمل سقف الجهة القبلية وسقف الجهة الغربية الذى يمتد من باب السلام إلى باب الرحمة إلا أنه كان جدد هذه الأماكن والقباب الجديدة التى أمر السلطان بإنشائها فى اتصال الساحة الرملية لحرم السعادة، ودكة الأغوات مستلهمًا أمر السلطان كما أنشأ كل هذه الأماكن مطابقة لآمال الأهالى وأفكارهم.

حدود السقوف العتيقة: كانت فى الجهة القبلية من مسجد السعادة ثلاثة أروقة، وألحق كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فى عهديهما رواقًا كما ألحق الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى للجهة الشامية رواقين كما أن السلطان

مراد خان الرابع ألحق ثلاثة أروقة فى الجهة الشامية أيضا ولما لم ينته بناء هذه الجهات ظهرت الحاجة إلى بناء عدة أروقة أخرى فى هذه الجهة، وعقب وفاة أدهم باشا، استصوب صالح أفندى إضافة رواقين بموافقة رأى مجلس هيئة الأبنية السعيدة، وشرع فى العمل من هذه الجهة، وأراد أن يساوى ما بين أسطوانات الجهة القبلية لأسطوانات الجهات الثلاث الأخرى، فرأى أن ترفع بعض الأسطوانات من هذه الجهة وإزالتها وبين الكيفية للهيئة العامة للمجلس الذى انعقد تحت رياسة شيخ الحرم لأن توسيع هذه الجهة فى حالتها هذه غير قابل للتوسيع والإصلاح وقام بعض الذوات معترضين على هذا أيضا إلا أن هيئة المجلس[1] استصوبت رأى صالح أفندى بالأغلبية واستحسنته وأثنوا عليه، وكتبوا فتاوى شاملة بجواز رفع الأعمدة بنية توسيع المسجد الخالصة حتى يسكتوا المعترضين معتمدين على الشرع.

وأراد المعترضون أن يسقطوا حكم الفتاوى التى صدرت من العلماء واحتجوا على عدم جواز إزالة الأعمدة المأثورة القديمة بالأحاديث التى أوردها الإمام السَّمْهُودى من البخارى وابن النجار والتى تقول: يجب أن يصلى فى جميع جهات مسجد السعادة، الصحابة الكبار قد صلوا فى جميع جهات هذا المسجد وقد أجابتهم هيئة المجلس إجابات مقنعة إلا أنهم طوروا الموضوع حتى وصل إلى مرتبة الجدال والنزاع، وأبلغوا الحالة بمضبطتين مستقلتين إلى الباب العالى وقرروا تأجيل العمل فى مسجد السعادة إلى أن يصل الرد، وحينما وصلت المضبطتين إلى باب السعادة وأطلع الوزراء على مضمونيهما، وصدق قرار الأغلبية رأيها وأحالوا الموضوع إلى محمد راشد أفندى الذى كان قد سافر إلى المدينة وحقق فى النزاع الأول الذى حدث فى أمانة البناء العالى، فاستدعوه وأمروه بأن يسافر حالاً إلى المدينة المنورة.

وشرع محمد راشد أفندى فى العمل من بقية مؤخرة حرم السعادة، وأتم العمل فى الأساطين التى تقع بين باب الرحمة وباب السلام، وفى بعض عقود

(١) وكان للسادة والأهالى فى هذا المجلس نفوذ، وكذلك أكابر العلماء وكل المفتين.

القباب، وخمسة عشر ذراعًا من المكان الذى فى جهة باب السلام من الجدار القبلى، وعندما أوصل تعميرات الحرم الشريف إلى حدود الروضة الميمونة التى يصدق عليها الحديث الشريف روضة من رياض الجنة وعندئذ ظهرت وتجددت المنازعة المعلومة مع أن محمد راشد أفندى كان مطلعًا على مندرجات الفرمان السلطانى فأصر على تطبيق أفكار محمد رائف باشا فى حصول تناسب، وابتدر فى تغيير مواضع الأساطين التى فى جهة المدرسة المحمودية للحرم الشريف والتى أضافها إلى الحرم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبهذا أثار الناس مرة أخرى، ومع هذا أخذ يعرض على الباب العالى بعض أشياء غير مفيدة، وأخذت محاضر الشكاوى من قبل الأهالى تصل تباعًا، كل هذا أوقع الباب العالى فى الشك والشبهة فعزله وأرسل مكانه عمر جمال الدين أفندى من رجال الدولة القدماء، ولكنه توفى حين وصوله إلى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٥هـ فتعطلت تعميرات الأبنية المقدسة فترة ما.

قد أخذت فرقة المدينة المنورة المعترضة خزانة الدولة، وبما أن هذا الشخص كان جريئًا وحريصا استطاع أن يهيئ أكثر الأشياء اللازمة لعمليات أبنية السعادة والحجارة المنحوتة اللازمة للأساطين، إلا أن هذه الغيرة والسعى وشدة الاهتمام أنتجت قيام المعترضين ضده؛ لأن أفراد الفرقة المخالفة كانت لهم منافع شخصية فى تدخلاتهم فى عمليات البناء لأنهم كانوا يريدون أن تطول هذه العمليات أطول مدة حتى يحافظوا على تلك المنافع، ومنذ أن عزل محمد راشد أفندى إلى تعيين عمر جمال الدين أفندى وإلى ورود أحمد أسعد أفندى بعد وفاة سلفه قد أعطيت كثير من الأجور للمستخدمين فى أمور أبنية السعادة من الكتبة والعمال بدون فائدة، واستمرت هذه الفترة ما يقرب من سبعة أشهر، إذ مات عمر جمال الدين أفندى وعرض الأمر على باب السعادة وكان أحمد أسعد أفندى فى ذلك الوقت قاضى مكة المكرمة فوصل إلى المدينة المنورة فى جمادى الأولى أوائله من سنة ألف ومائتين وست ١٢٧٦ وسبعين هجرية.

وكانت الفرقة المعترضة قامت ضد محمد راشد أفندى باحثين عن تغيير مواضع بعض الأعمدة وكان هذا موضع النزاع.

إلا أن هذا القيام لم يكن كالقيام السابق إذ كان بدون وجه حق وبدون مناسبة، إذ استصلح محمد راشد أفندى أماكن السقوف التى هدمت من قبله وهى التى تلى السقف الذى ألحق فى الجهة القبلية، وبترميمات قليلة للأعمدة التى ركزت فى عهد صالح أفندى نقلها فى محاذاة الأعمدة الأخرى وحرص على أن يركز هذه الأعمدة فى أماكنها القديمة ولكن فيما بين أعمدة السقوف الثلاثة التى تلى الجهة القبلية حدث تخلف قدر ثلاثة أذرع بينها وبين الأعمدة التى ركزت مجددًا، وقد وقف محمد راشد أفندى لهذا التخلف وهو يهدم الفاصلة التى تفصل بين سقف الجهة القبلية والأسقف الثلاثة التى تليه، وإن هذا التخلف ظاهر فى العمود الرابع من صفوف الأساطين الأربعة التى تقع فى اتصال الساحة الرملية التى فى الركن الشرقى من مسجد السعادة ولا يوجد فى أساطين الصفوف الأخرى، وإن كان فى أساطين الركن الغربى من الساحة الرملية تخلفًا جزئيًا وإذا لم يمعن النظر فيه فلا يمكن تعيينه فهذا التخلف إذا ما طبق على قواعد الفن المعمارى الكلية فلا يعد من العيوب، وكان اثنا عشر عمودًا ما الأعمدة الستة عشر التى يعرف التخلف فيها من النظرة الأولى والتى تكون الصفوف الأربعة من الأعمدة، كانت ركزت من قبل أسلافه ولما كانت الفرقة المعترضة غير راعية بهذا الموضوع ظنوا أن هذا التخلف قد حدث فى عهد محمد راشد أفندى وخدعوا الناس بهذا الزعم الباطل وأغروهم بالقيام ضده. انتهى.

قد خدم محمد راشد أفندى فى تزيين داخل مسجد السعادة وقد تركت جهة الجدران الغربية أعلى من الجهات الأخرى كعلامة على الجدران القديمة وكان هذ الارتفاع أساء لجمال سطح المسجد.

أزال محمد راشد أفندى هذا العلو وأبقى جملة «هذا حد مسجد النبى» التى كانت محكوكة على هذا الصف من الأعمدة، لو كان حدد هذه الجملة قائلاً: «هذا حد المسجد الأصلى» لأحسن فعلاً لأن عبارة «هذا حد مسجد النبى» تفيد أن خارج هذا الحد ليس من جملة مسجد النبى وهو ليس كذلك.

بعد أن سوى محمد راشد أفندى وسطح ومهد أرض المسجد وهدم المخازن فى التقاء الحد القبلى للمسجد الأصلى أنشأ جدارًا منخفضًا من شبكة الحجرة المعطرة إلى انتهاء الأعمدة التى فى الجهة الغربية من جدار باب السلام وبنى فوقه سورًا مشبكًا جميلاً مصنوعا من النحاس الأصفر وفتح ثلاثة أبواب من الروضة المطهرة للخروج منها ناحية القبة العثمانية، ولما انتهى من سقوف الجهة القبلية لمسجد السعادة إلى محاذاة الساحة الرملية جهز حجرًا أحمر مزينًا لكتابة التاريخ وأرسله إلى باب السعادة حتى يكتب عليه ما انتخب مما كتبه أدباء المدينة ثم يأمر بإعادته إلى المدينة، إلا أن السلطان ذا الخصال الحميدة لم يستصوب أن يكتب لذلك المكان المقدس التاريخ وأمر بأن يعطى للمؤرخين اثنا عشر ألف قرش وحتى يتخذ قرارًا ما ينبغى إحالة الموضوع إلى مجلس العلماء المنعقد فى المشيخة الجليلة، وقرر فى المجلس أن يكتب على هذا الحجر الحديث الشريف، وفق اقتراح أمين الفتوى للمجلس محمد رفيق أفندى «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، وأبلغ الأمر إلى دار الخلافة. وأمر الخليفة أحمد أسعد أفندى الذى تعين لأمانة أبنية السعادة بعد عمر جمال الدين أفندى بإجراء ما يقتضى الأمر عمله.

والتواريخ التى ستذكر فيما بعد هى التواريخ التى اختارها محمد راشد أفندى لتحظى بالنظرة السلطانية وأرسلها إلى الباب العالى.

عربى[1]

بشرى مليك الورى عبد المجيد

بما قد فاز من فخر دنياه وعقباه

توجهت بعظيم الأجر همته

وكى ينالَ من المختار زلفاه

فجددت مسجداً تهوى ملائكة

لو أصبحت فيه من عمال مبناه

ولكن بذاك إله الحق خصصه

يا فوز من خصه بالخير مولاه

وإنه أثر ما حازه ملك

من قبله بل ولا من بعد يحظاه

بطالع اليمن والإقبال آخره

على أساس التقى مذ تم منشاه

قالت الملائكة البشرى مؤرخة

على قواعد يمن عز أخراه

١٢٧٥

الآخر[2]

الله أكبر فاز سلطان الورى

عبد المجيد بأعظم الإحسان

(١) هذا التاريخ الفريد للفاضل حسن أفندى الاكسوبى.

(٢) هذا التاريخ للأديب عمر أفندى.

طوبى لـــــه قد شـــــاد أرفـــع مسجد

يسمـــــو على الأفـــــلاك بالعدنـــــان

حَـــرَمٌ زهى بالروضـــــة الفيحـــــا التى

جلـــت وأضحـــــت مـــــن رياض الجنان

ويميـــــــز الهـــــادى سمـــــو بحجرة

هى مهبـــــــط الأمـــلاك والغفـــــران

بشرى لقـــــد حـــــاز الثوابَ مليكُنا

وحدىُ عظيـــــم الأجـــر مـــن رحمان

برفيـــــــع همتـــه أجـــاد بنـــاءه

فى غايـــــة الأحكـــــام والإتقـــــان

حـــرم علـــى تاريخـــه حَقًّا زهـــــى

تـــــم البـــــناء بهمـــــة السلطـــــان

١٢٧٥

وظلت أعمال المئذنة المجيدية ناقصة وقد أنشأها محمد راشد أفندى على طراز مآذن بلاد الروم وفى غاية الجمال وجعل حول شرفاتها أسوارًا بشبكة حديدية.

التاريخ الآتى الذكر هو التاريخ الذى ذكره الأديب كامل عبد الجليل براده[1] بخصوص المئذنة المجيدية.

عربى

سلطانـــنا الملـــك الغـــازى المجيـــد بـــنى

فـــى مسجـــد الهاشـــمى المصطـــفى طـــه

(١) هذا الشخص رئيس كتاب السجلات اليومية.

منـــارة لم تطـــاول رفعـــة وبهـــا

يحق للـــدهر فخـــراً لَوْبِهَـــا باهـــا

فريـــــدة إن بـــدا شكـــل يماثلهـا

فإنمـــا ذاك حقـــا عكس مرآهـــا

ودت نجـــوم السمـــاء لـــو أنهـــا

انتظمـــت فى جـيدها تزهو ثرياهـــا

لغايـــة ابتهـــاج الفكـــر أرخهـــا

منـــارة بالبهـــاء تـم مبنـــاهـــا

١٢٧٥

ولما مات عمر جمال الدين أفندى ـ الذى بُعِثَ مكان محمد راشد أفندى ـ توفى وهو يؤدى فريضة الحج المشروعة فى أثناء وجوده فى مكة المكرمة؛ اقتضى تعيين شخص آخر وإرساله لتولى وظيفة أمانة المبانى العالية فأبلغ ذلك من قبل أمير مكة المعظمة شرف عبد الله باشا إلى الباب العالى وعرض ذلك السلطان من قبل الصدر الأعظم محمد باشا القبرصى وشيخ الإسلام سعد الدين أفندى وتَأَنَّى فى تعيين شخص وإرساله، وسكت السلطان فترة وهو يفكر ثم شرع فى الإجابة قائلاً: «لابد أن فى هذا الأمر سِرًّا خَفِيًّا وحكمة، وقد أرسلنا هناك من الباب العالى من نثق فيهم مثل حليم أفندى الصغير، ومحمد راشد أفندى، وعمر جمال الدين أفندى فلم يستطيعوا أن يكملوا مهمتهم، ثم أرسلنا من أمراء جيوشنا من له اليد الطولى فى فن الهندسة مثل محمد رائف وأبو بكر وأدهم من الباشوات، وكذلك لم يوفقوا فى إتمام المهمة؛ فلنول ـ كتجربة ـ أحدًا من رجال الطريق العلمى المقتدرين، يا سعد الدين أفندى فاعثروا على رجل يتصف بالصدق والروية ومعروف بالتقى والتدين وأرسلوه إلى المدينة المنورة حتى يكمل تلك الخدمة التى تجلب الفخر والزهو، ولما قال له سعد الدين أفندى الأمر لكم

ياسلطاننا، وإننا سنعثر على داعية مستقيم الأفكار قد سلح نفسه وزينها بأفكار توافق أفكار سلطنتك وسنعرض الأمر على عتبة سلطنتك بعد الاستئذان، فقال له السلطان لا كلا لا لزوم لتعيين موظف من هنا.

وحتى لا تتعرض تعميرات البناء المقدس للانقطاع فترة أخرى قد أحلت مهمة أمانة الأبنية العالية إلى ابن عريانى أحمد أسعد[1] أفندى قاضى المدينة المنورة ـ على صاحبها أكمل التحية ـ والذى يوجد الآن فى مكة المكرمة وفوضت الأمر إليه لكفائته، ولما كان أحمد أسعد أفندى أبا عن جد من رجالنا المشهورين والداعين للدولة والمستقيمين فإننى أثق فيه، بسبب تجاربى السابقة، وإن شاء الله يوفق فى إتمام مهمته على أحسن وجه، وتلقى أحمد أسعد أفندى هذه الإجابة التى تنطوى على الإرادة السلطانية فأرسل الفرمان السلطانى الذى يتضمن تعيين أحمد أسعد أفندى بالمدينة المنورة سنة ١٢٧٥هـ وبُلغت التوجيهات السلطانية وحسن ظن السلطان فيه عن طريق آخر، كما طلب منه أن يبادر فى العمل دون تأخير وأن يبذل أقصى جهوده لإتمام مهمته، وأوصى بإخطارات أخرى مبينًا دقة الموقف وأهميتها وبلغت إدارة مكة المكرمة أنه إذا ما استدعى الأمر من جانب أحمد أسعد أفندى نزاع الأهالى فعلى أمير مكة أن يذهب بذاته إلى المدينة المنورة لحل المشكلة.

ولما أخذ أحمد أسعد أفندى الأمر[2] السلطانى بتعيينه فى عمارة المسجد النبوى بكى من سروره وسجد لله ـ سبحانه وتعالى ـ على تعيينه لتلك الخدمة المسعودة دون أن يكون له دراية بهذا الموضوع، فتحرك رأسًا من مكة المعظمة ووصل إلى المدينة المنورة فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٧٦هـ.

وزار حجرة الرسول ﷺ المعطرة ـ عليه أعظم التحايا ـ وعرض عليه تذلله وافتقاره وأبان عجزه واستعان برسول الله ﷺ فى إتمام مهمته راجيًا نصرته وعونه وشرع فى إتمام مهمته بعد أن بدأ فى عمله ذاكرًا اسم الله، وأتم ذلك العمل

(١) تولى الأفندى المشار إليه منصب المفتى فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة عام ١٢٩٥.
(٢) وصورة هذ الفرمان مندرجة فى ذيل الصورة رقم (٢).

المعقد فى أول ذى الحجة من سنة ١٢٧٧ دون أن يستعين حتى بالشريف عبد الله باشا ودعوته إلى المدينة، وأنهى تلك الأعمال التى عجز عن إتمامها أسلافه الكرام فى سبع أو ثمانى سنوات فى ظرف سنتين ونصف سنة كما سيعرف فيما بعد وعرض الأمر على الباب العالى وأعلمه.

مطالعة ورأى

إذا ما نظرنا إلى إتمام العمل وحسن عريانى قاضى المدينة المنورة، ندرك أن إتمام العمل وختامه سواء أكان فى حرم المدينة المنورة توأم الجنة أو حرم المسجد الذى تخدمه الملائكة وتعميرهما قد تم على يد موظفين ينتمون إلى العلوم الشرعية، ومن يعمق الفكر فى هذا الموضوع يجده من غرائب المصادفة فى العصر ومن أحكام اللطائف الغيبية وهذا بديهى، كيف لا تعد من الاتفاقات الغريبة وقد تمت عمليات تعمير وتجديد مبانى الكعبة المعظمة فى عهد السلطان مراد خان الرابع على يد صاحب الفتوى سيد محمد أفندى الأنقروى الذى كان فى ذلك الوقت قاضى مكة المكرمة والذى رقى إلى مقام المشيخة الإسلامية فى سنة ١٠٩٧هـ، كما تم إجراء عين عرفات التى بدأت العمليات فيها فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم خان الغازى وتمت فى عهد السلطان سليم الثانى على يد وعلم مفتى مكة الشافعى حسين بن أبى بكر الحسينى، ولا سيما تطهير مجرى عين عرفات الذى دام سبع عشرة سنة.

والذين تولوا نظارة عمليات التطهير قد توفوا الواحد تلو الآخر وقد أتم المشار إليه حسين أفندى أبو بكر ما لم يستطع إتمامه أسلافه فى ظرف سبعة عشر عامًا أتمها فى ظرف خمسة أشهر وبصورة وعلى هيئة كان يتمناها الجميع.

والتعميرات الكاملة للمسجد الحرام تمت فى ظرف أربع سنوات إذ كانت تحت نظارة المفتى المشار إليه.

وأراد أحمد أسعد أفندى ـ وقد تلقى الأمر السلطانى والإرادة السنية ـ أن يعمل بموجب النص الجليل ويجدد داخل حرم السعادة موضع المنازعة فيه،

وحتى ينفرد بذلك العمل عين سيد محمد أفندى من أفاضل علماء المدينة نائبًا له فى المحكمة الشرعية فاستدعى السادة الكرام والعلماء المشهورين والموظفين ذوى الاحترام للمدينة المنورة وعقد معهم اجتماعًا للمذاكرة والدراسة فى المكان الذى يطلق عليه الديار العشر والذى يقع فى الجهة القبلية من المسجد النبوى، وعرض جميع جهات العمل واستشارهم فيها، وبعد دراسة الخرائط التى وضعها أسلافه وتدقيق النظر فيها، قرر العمل بناء على قاعدة هدم الجهات التى يُراد تجديدها وإتمام العمل فيها ثم الانتقال إلى الجهة الأخرى وهدمها وتشييدها، وبدأ العمل من مؤخرة الحرم الشريف يعنى من النقطة التى كان محمد راشد أفندى قد اقترب من بدايتها داخل الحرم الشريف، كما أرى فى مسطح الرأس المضبوط فجدد تجديدًا متينا رصينًا مزينًا القباب التى بالقرب من باب السلام إلى المئذنة الرئيسية مع عقودها وبقية الجدار القبلى مع القبة العثمانية الجسيمة وقباب الروضة المطهرة مع القباب التى فى مواجهة قبر الرسول والقباب البالية الأخرى مع عقودها ومع مصاريفها وخلاصة القول كافة أسس أساطين وطاقات المسجد الشريف النبوى وقبابه المختلفة.

كما عَمَّر وقوى الحجرة المعطرة النبوية والمئذنة الرئيسية ومآذن باب السلام وباب الرحمة كلها وفق ما جاء فى فكر الأمر السلطانى وأحكامه وطبقًا لقرار مجلس الاستشارة، وهكذا أتم تعمير جميع جهات حرم السعادة كما سبق تعريفه على أحسن وجه وجعل جميع القباب الخشبية التى شيدها من الحجر وبهذا قد حظى بشكل وثناء أهالى الحرمين المحترمين، شكر الله سعيه.

كان شيخ الحرم النبوى فى عهد أحمد أسعد أفندى شيخ الوزراء المرحوم مصطفى باشا فى اسكودار وكان لمهارته فى فن العمارة وهمته وغيرته وجهوده فى استكمال أسباب إنشاءات المبانى المقدسة، ومساعى محافظ دار الهجرة من قدماء الرفقاء الكرام المرحوم خالد باشا ومعاونته وإقدام واستقامة رئيس مراجعى الأبنية العالية بدر الدين (!) ورئيس المهندسين الحاج محمود أفندى وسائر الموظفين، أكبر أثر فى تسهيل المهمة وسرعة إنجازها ومن ثمة فى إتمام إنشاءات حرم السعادة قبل الأوان بفترة.

وقد حُكَّ مذهبًا ليوضع فوق طاق باب السلام ذى الفيوضات منظومة تاريخية كما صنع طغراء غراء على أن توضع فوق المكان الخاص الذى هيئ فى وسط القباب المجيدية العالية التى تقع فى جهة من الساحة الرملية فى مؤخرة حرم السعادة، وقد أرسلت المنظومة التاريخية التى كتبها قاضى المدينة المنورة السابق يعقوب عاصم أفندى ليعرض على أعتاب السلطان بواسطة أحمد أسعد أفندى إلى شيخ الإسلام سعد الدين أفندى وأن تعاد إلى المدينة فى حالة نيلها القبول.

وقُدمَ ذلك التاريخ إلى السلطان حتى يلقى عليه نظرة، وإن كان قد وافق مزاج السلطان الفطرى إلا أن استخدام بعض التعبيرات التى توافق الصنعة الشعرية أراد السلطان ذو السمات الملائكية الذى يتوسل إلى روح محمد ـ عليه صلوات الأحد ـ فى كل أمور السلطنة وخصوصياته أن يحرر التاريخ الذى سيوضع فى داخل المسجد النبوى الشريف من الخيالات الشعرية وفى صنعة معبرة عن سليقة الإخلاص ولذا قال: «من أنا حتى أتجرأ على تعليق الطغراء داخل البناء المقدس الذى بناه سلطان الأنبياء ـ عليه أعظم التحايا ـ بذاته! فمن الأنسب أن يكتب فى المكان بدلا من التاريخ والطغراء حديث شريف مناسب لذلك المقام المقدس ويعلق هذا التاريخ بعد تصحيحه فوق كمر أحد أبواب حرم السعادة وهذا أنسب، وبعد أن يصحح زيور[1] أفندى هذا التاريخ فليرسل إلى المدينة المنورة باهرة الشرف»؛ وبناء على هذا الأمر السلطانى صحح ذلك التاريخ وأرسل إلى المدينة على أن يعلق فوق طاق أحد أبواب حرم السعادة، وأن يكتب على حجر التاريخ، الذى أرسله محمد راشد أفندى قديمًا ولم يَلْقَ قبولاً لدى السلطان، الخبر الصحيح: «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، وأن يكتب مكان الطغراء عبارة «قال النبى عليه السلام» وبما أن هذا الأمر السلطانى قد أبلغ إلى أمانة المبانى العالية قد وقر وفخم ذلك المقام ووُجِدَ الاحترام للأمر السلطانى ووضعت الطغراء الغراء المجيدية فوق طاق باب السلام مذهبة حيث زينته.

(١) هو من مشاهير الشعراء، تولى منصب وزارة الأوقاف لمدة طويلة وتولى منصب مشيخة الحرم مؤخرًا.

وبعد أن جدد وعمر وشيد وأصلح جميع القباب والأساطين الكائنة فى مؤخرة حرم السعادة أو فى داخله كما عرف آنفًا، وحتى يقووا ويدعموا أساس القبة الخضراء المرتفعة التى فوق الحجرة بنوا جدارًا لصق أسس شبكة الحجرة المعطرة وبإقامة بعض العقود فوق هذا الجدار دعموا القبة الخضراء الشريفة وحافظوا عليها فى صورة متينة.

وإن كانت تلك القبة اللطيفة عمرت فى عهد السلطان محمود خان الثانى إلا أن جهة من عقود القباب الجديدة التى ستؤسس فوق جدران القبة الخضراء أدرك لدى الكشف عليها أن هذه الجدران ليست متينة بدرجة تتحمل العقود الجديدة ومن هنا قرر تدعيم قواعد الجدار العتيق، وبناء على هذا القرار حفر حول الشبكة الشريفة أساسًا عميقًا قدر ستة أذرع وجدد أساس الجدار الذى صنع فى عهد السلطان محمود فأسس وطرح أسس الجدار الجديد مطابقًا لهذا الأساس الغير قابل للاندراس.

فالقبة اللطيفة التى عمرت فى عهد السلطان محمود خان العدلى قد حفرت قاعدة أساسها إلى أن ظهر تراب سليم، والحجارة التى وضعت كأساس كانت فى غاية الصلابة والإحكام وفوق ذلك قد ربطت بعضها ببعض بقيود من حديد ورصاص مذاب، وإن كان هذا الأمر تبين عند المعاينة.

ولكن حتى توضع عقود ما اقتضى تجديده من القبة العالية وحتى تقوى وتحكم الجوانب الأربعة للقبة الخضراء درجة أخرى رئى أن يُبْقَى على الجدار الذى بنى فى عهد السلطان محمود خان حول الحجرة المعطرة وأن يبنى حول هذا الجدار جدار آخر وتوضع عليه عقود القباب الجديدة فوق الجدار الجديد، وبهذه الطريقة قد رصنت سواء أكانت القبة الخضراء أو القباب الأخرى العالية فوق المطلوب، وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يرى الجداران المحدثان من الخارج إلا أن شبكة السعادة العارضة تحيط سواء أكان بالجدارين اللذين بنيا فى عهد السلطان محمود أو الجدارين اللذين بنيا فى عهد السلطان عبد المجيد، وبما أن

شبكة الحجرة المعطرة اللطيفة كما سبق تعريفها ظلت بين القواعد والدعامات التى أنشئت لتشييد القبة الخضراء ولأجل ذلك فرؤية هذه الجدران غير ممكنة.

وبناء على ما فُهِمَ من هذا التفصيل فالقبة الخضراء التى تشاهد من خارج المسجد الشريف هى تلك القبة التى تطلق عليها القبة الخضراء فهى قبة خضراء كبيرة فوق قبة الحجرة التى تقع فوق مربع قبر السعادة، وكما سيبين فيما بعد أن القفص المصنوع من السلك الذى يغطى المربع المقدس تحته قبة صغيرة وهذه القبة فوق مرقد السعادة وتعرف باسم قبة الحجرة.

وكان داخل الجدران الأربعة المتصلة والذى يقال له مربع القبر الشريف كان فى الأصل دار أمنا السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فنعوش صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق ـ رضى الله عنهما ـ مدفونة فى داخل هذا المكان السعيد.

قد زينت الأطراف الأربعة لمربع القبر الشريف بالأغطية الغالية التى أرسلها السلاطين العثمانيون خاصة للحجرة المعطرة، لهذا ليس هناك من رأى ظهر مربع قبر السعادة فى الأزمنة القريبة، ويرددون أن هذا المحل مستور بقفص مصنوع من الأسلاك وظهر هذا القفص الجهة الداخلية للقبة الخضراء التى ذكرت، ويدخل شعاع الشمس من نافذة قبة النور التى تقع فى الناحية القبلية من هذه القبة، فينير سواء أكان داخل مربع القبر الشريف أو جدرانه وما بين القفص الذى يطلق عليه شبكة السعادة.

ليس فى زماننا من رأى داخل مربع قبر السعادة، يعنى داخل الجدار الذى يحيط بأطراف القبور الثلاثة، وإن كان للمربع المقدس فى جهة السعادة نافذة صغيرة، ومن الواضح أن من ينظرون من هذه النافذة الصغيرة يستطيعون أن يروا داخل مربع القبر الشريف إلا أن من رعاية شروط الأدب عدم النظر إلى داخل المربع ولأجل ذلك لا يمكنهم أن يجيلوا أنظارهم فى داخل المربع، ويجرى

أهالى المدينة رسم الولادة كما عرف فى الصورة الثالثة من الوجهة الثالثة، بأن يلقوا أولادهم حديثى العهد فى داخل هذه النافذة.

كان قد أخرجت خلال سنة ٥٥٤ من داخل مربع قبر السعادة جيفة هرة متعفنة، وبناء على الظن القوى أن تلك الهرة قد دخلت من تلك النافذة ولم تستطع الخروج فهلكت وتعفنت وحتى يزال أثر تعفن الجيفة الكريه قد ترك فى داخل المربع الشريف من تلك النافذة خشب شجرة الصندل الذى نقع بدهن الورد وهذه القصة تروى بين الأهالى بسند قريب من الصحة؛ حتى إن تعطير الحجرة المعطرة على هذا المنوال قد أخذ صفة العادة.

حتى إنهم فى زماننا ـ كما سبق تعريفه فى المكان الخاص ـ يعطرون نشارة كافية من شجرة الصندل بدهن الورد ويلقونها فى يوم معين داخل مربع قبر السعادة من تلك النافذة، وبعد سنة يستردون القديم ويضعون الجديد ويقتسمون القديم فيما بينهم، ومع ذلك فسواء عند استرجاع نشارة الصندل أو إلقائها لا يدققون النظر إلى داخل حجرة السعادة، وهذه الشبكة أى القفص الحديدى الذى يحيط بمربع قبر السعادة من جوانبه الأربعة يطلق عليه شبكة السعادة، ويقال لداخل هذه الشبكة الحجرة المعطرة، وينال الزوار الكرام مرامهم بزيارة قبر السعادة من خارج هذه الشبكة[1].

بعض تفصيلات مهمة:

لما جاء الدور لتعمير قباب الروضة المطهرة صنعت ستارة خشبية عارضة فوق الأعمدة التى بين حدود الحجرة المعطرة والروضة المطهرة حتى لا يسقط تراب ولا تقع حالات تؤدى إلى عدم الرعاية والاحترام، ولم يحدث أن هتك العمال الذين يشتغلون فى هذا المكان ستارة الاحترام والأدب، فيعمل العمال فوق الستارة الممدودة بكل وقار وهدوء وينهمك العباد الذين فى داخل الروضة المطهرة فى

(١) وإن كان الزوار المتصفون بالجراءة يزورون الحجرة بالواسطة من داخلها إلا أن زيارتها من الخارج أولى تأدبًا.

عبادتهم وطاعتهم دون إحداث ضجة حتى الهمسة ما كانت تسمع حتى يظن أن فوق الستارة الخشبية لا يوجد عمال يعملون، ابتداء من الأعمدة التى فى الصف الثالث التى توجد فى الحدود الأصلية لمسجد النبى من ناحية الشام إلى أسطوانة الوفود، وفى الجهة الغربية من المسجد الثانية من المنبر النبوى وباعتبار ما بين الأسطوانتين الواقعتين فى جهة الجنوب ومن الجدار القبلى.

وسواء هاتين الأسطوانتين أو الأساطين الشريفة الأخرى إلى أنصافها كانت مزينة بألوان بيضاء وحمراء ومحلاة بذهب خالص ومذهبة وكانت هذه من آثار السلطان سليم بن السلطان عبد الحميد خان المبرورة قد أبقيتْ كما هى وغيرت زخارفها، ومن تلك الأساطين ماتكسّرت قطع رخامها بشكل لا يمكن ترميمها وقد صنعت جيداً وحتى يعرف أنها كانت مرممة كالأساطين الأخرى قد نقشت عليها رسوم الرخام باللون الأبيض والأحمر، وشبهت بالأخرى وجميع الأعمدة التى فى الجهة الشرقية من الأعمدة الملاصقة لشبكة المنبر المنير وتحت المنبر الشريف المذكور بنى هذه الأساطين إلى السقوف التى أمام الروضة المطهرة كلها وقد جددت قطع رخامها، ولكن قطع رخام الأعمدة التى بين مواجهة السعادة وحول الحجرة اللطيفة لم تغير، على أنها علامة لازمة لحدود الروضة المطهرة من الجهة الشمالية، وأصلح ورمم بعض أماكنها، وبهذا قد حفظ حكم الحديث الشريف الذى يقول: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» والأسطوانات التى سطرت عليها قصيدة السلطان سليم بن عبد الحميد خان والتى سبق ذكرها فى موضوع الأساطين كانت ضمن الأساطين المذكورة التى بقيت كلها على حالاتها القديمة وغيرت زخارفها وخطوطها فقط.

وبينما كان يحفر أسس أسطوانة السرير فى محاذاة رأس السعادة وأسطوانة التوبة ظهر ماء عذب لطيف، ولما كان لهذا الماء رائحة طيبة أخذ منه أكثر الأهالى وتبركوا به وأرسلوا منه إلى أهالى البلاد الأخرى، قد انهمك الأهالى بتدبير

الأوانى والزوارق لأخذ الماء ولما وصل صياحهم إلى قدر هتك ستارة الأدب فُألقى الأساس رأسًا حُفِظَتْ حرمة المسجد.

وبينما كانت أسس هذه الأسطوانات والأسطوانات الأخرى تحفر وتفتح نُثِرَ البخور، وأحرقت أقراص الطيب وأنواع أخرى من الطيب، فى نقط وضع الأساطين، وحينما كان يحفر أساس الأسطوانة التى فى ركن الجهة الغربية القبلية للشبكة التى تحيط بالحجرة المعطرة ظهرت بئر تنزل إليها بسلم ذات تسع درجات وكان ارتفاع وعرض كل درجة شبرًا واحدًا، وكان وليد بن عبد الملك قد حفرها للسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنها ـ فى دار عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ويلزم أن تكون هذه البئر مخرج الطريق الذى سده موظفو السلطان قايتباى حتى يمنعوا اختلاط الرجال بالنساء، وكان عمر بن عبدا لعزيز قد أخذ بأمر الوليد بن عبد الملك دار أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ التى كانت فى الجهة القبلية من دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ وأعطى لها فيما بعد فى مقابلها الدار التى يطلق عليها دار عمر بن عبد الله[1].

وكان قد فتح لهذه الدار طريقًا إلى مسجد النبى، ظل ذلك الطريق مفتوحًا إلى الوقت الذى زار فيه الخليفة المهدى المدينة المنورة ولكن موظفى الحكومة لم يستصوبوا ذهاب المهدى من هذا الطريق إلى مسجد السعادة لأسباب خفية، فسدوا الباب الذى يؤدى إلى المسجد، وفتحوا طريقًا من دار عبد الله بن عمر من تحت الأرض حتى شبكة السعادة حتى يدخل المهدى فى داخل المقصورة دون أن يراه أحد، وهذا هو الطريق الذى نتحدث عنه، وقد ذهب المؤرخون إلى أن فى مخرج الطريق الذى فتح ثلاث درجات وأطالوا فى تعريف هذا الموضوع.

ولما كان عدد الدرجات التى ظهرت تسع كما حرر من قبل فيصل خطأ رأى

(١) وسبب تسمية هذه الدار بدار عبد الله بن عمر انتقالها من السيدة حفصة إلى عبد الله بن عمر والدار المسعودة المعروفة اليوم بديار عشرة أقيمت على أرض تلك الدار.

المؤرخين إلى درجة الثبوت، حتى إن مقدار ذراع ونصف ذراع من مخرج الطريق الذى ظهر مليًا، ولما كان محتملاً أن يكون فى هذا المكان ثلاث أو أربع درجات يقتضى أن يكون مخرج ذلك الطريق ثلاث عشرة درجة، وبعد زيارة الخليفة المهدى بعدة عصور أصبحت زيارة حجرة السعادة بهذه الطريقة عادة، ولكن فيما بعد حدثت أشياء منكرة ولم تراع الأدب والحرمة فسد باب المخرج الذى فى داخل شبكة السعادة فى سنة ٨٨٤ وهكذا أنهيت تلك الأحوال المنكرة.

بينما كانت نوافذ الجدار القبلى لقبة المحراب العثمانى تجدد على حالتها القديمة أضيف عقد كبير لتدعيمه وجددت الأعمدة التى تحمل القبة بحجر أحمر ووسعت الجهة العليا من القبة وفتح على أطرافها صفان من النوافذ إحداها فوق الأخرى، وجعلوا أعالى النوافذ مقوسة فظهرت على شكل فى غاية الحسن والجمال، وحتى يقووا ويدعموا القبة التى فوق مواجهة السعادة ركزوا فى الجهة الشرقية من القبة العثمانية أسطوانتين كبيرتين مصنوعتين من الحجر الأحمر مثل الأساطين الموجودة حول الحجرة المعطرة، والقبة العثمانية الجميلة أكبر وأوسع وأكثر زينة من جميع قباب مسجد السعادة ما عدا القبة الكبيرة الخضراء التى تعلو على القبة الصغيرة التى فوق الحجرة المعطرة وقد أسست أول مرة فى عهد السلطان قايتباى عقب الحريق الثانى، وإن كان رمم وأصلح بعض جهاتها فى عهد السلطان محمد بن إبراهيم خان ـ عليهما الرحمة والغفران ـ ولكنها سقطت فى سنة ١١٤٧ وانهارت فجددت فى عصر السلطان محمد بن مصطفى بن السلطان محمد خان سنة ١١٤٨ لعدم حرمان هذا المكان من جماعة الصف الأول، بدون أن يركز أعمدة فى الجهة القبلية من الجدار مكتفيًا بالعقود الملقاة على الجدار المذكور.

وقد خالف محمد راشد أفندى آمال الأهالى وأفكارهم حيث ركز أربعة أعمدة بجانب باب السلام، وبما أن نقاط هذه الأعمدة قد حرمت من شرف أداء الصلاة

فيها طلب إزالتها، ولكن رفع هذه الأعمدة وإزالتها كانت تحتاج لنفقات كبيرة وهذا العمل سيؤدى إلى إضرار خزانة الدولة كما أنها لو أبقيت لن تصيب زينة المبانى المقدسة ورزانتها بعيب أو نقص فلم يمسوها، كما أبقت هيئة الشورى الأسطوانة التى تكون فى الجهة اليسرى للصاعدين على المئذنة الرئيسية، على أنها من جملة الأساطين القديمة مع أن رفع هذه الأسطوانة كان أولى. انتهى.

وبعد ما تمت عمليات الأبنية العالية بكل مشتملاتها ومتفرعاتها، كتبت جميع الكتابات التى كانت فوق طلاء داخل القباب وداخل الجدار القبلى باهر الأنوار كما سبق ذكره فى مكانه، وزُيِّنَ ذلك المقام العالى مرة أخرى، وكانت الخطوط المنقوشة من آثار قلم زهدى أفندى[1] من سلالة تميم الدارى ـ رضى الله عنه ـ من صحابة النبى ﷺ ومن تلاميذ رئيس العلماء الحاج مصطفى عزت المشهورين، وهى آثار لم يشهد لها مثيل.

وأراد السلطان الغازى عبد المجيد خان أن يحتفظ بصورة مصغرة لما كتب لهيئة مسجد النبى القديمة فى جامع خرقة السعادة، لذلك أمر بصنع هيكل مجسم لمسجد النبى حينما أمر بتجديده، وقد عهد بهذا الأمر واجب الامتثال وإجراء مضمونه إلى البكباشى الرسام الحاج عزت[2] أفندى من أعضاء مدرسة الهندسة البحرية السلطانية.

كما وجه إليه هندسة المبانى المقدسة العالية وأرسل إلى المدينة المنورة.

وعندما وصل عزت أفندى إلى المدينة المنورة دار السكينة قاس مساحة الحجرة المعطرة إلى أن وصل إلى جدار الضريح من الداخل والخارج أو حرم السعادة بدقة شديدة وبعد ذلك صنع تمثالاً هيكليًا من الخشب وأرسله إلى باب السعادة سنة ١٢٦٨، وقد نال ذلك الهيكل القبول الحسن وحسن التقدير وبناء على الأمر

(١) استطاع زهدى أفندى كتابة هذه الخطوط خلال ثلاثة أشهر.

(٢) عزت أفندى أخو القائم مقام شكرى بك مدرس رسم بمدرسة البحرية السلطانية.

السلطانى نقل إلى جامع خرقة السعادة بجانب جامع على باشا القديم، ووضع فى مقصورة المؤذنين ومازال محفوظًا فى صندوق زجاجى.

وذلك المعبد من جملة الخيرات الجليلة للسلطان المذكور المشار إليه، وكان ذلك الهيكل نفس المسجد النبوى الذى يخدمه الملائكة بشكله القديم، وكانت مساحته الطولية جزءا من خمسين جزء منه[1]، ويروى أن نحته الخشبى قد صنع من قبل الحافظ الحاج على[2] أفندى الذى وجد فى قطعة الحجاز المقدسة سنة ١٢٦٧هـ وهو صاحب ألف فن.

ولما كان هذا التمثال يشبه أصله مشابهة تامة نوصى أصحاب الإخلاص والمحبة برؤيته فالنظر إليه ومشاهدته يشبهان زيارة مسجد المدينة الشريف، وفى هذا النموذج بناء على ما تم عده وبناء على قيده وكتابته فى التواريخ القديمة (٣٠) قبة فى الجهة الغربية و (٢٢) فى الشمال و (٦٨) فى الشرق (٣٤) فى الجهة الجنوبية و (٥٩) فى الجهة الغربية من الحجرة المعطرة وكانت جميع قباب مسجد السعادة قبل تجديده (٢١٣) قبة متناسقة، وقد صنع (١٨٣) قبة فى سنة ٨٦٨هـ من قبل السلطان قايتباى المصرى، كما أن (٤٩) قبة منها صنعت من قبل السلطان مراد خان الرابع، وقد زين السلطان قايتباى مبانى المسجد النبوى الشريف من جهاته الأربعة دائرًا ما دار بالقباب المنيرة والسقف الملاصق للقباب سالفة الذكر والقباب التى فى مؤخرة حرم السعادة رعاية للهيئة القديمة الأصلية مكشوفًا وفرشه بالرمل الأحمر، ولما احتاج السقف الذى أنشأه السلطان قايتباى فى عهد السلطان مراد خان الرابع إلى التعمير هدم هذا السقف واستصوب تحويله إلى قباب كسائر الجهات، ودُرِسَتْ الكيفية فى الاجتماع الذى عقد من علماء المدينة وأصبحت موضع البحث وقرر تجديد النصف الشامى من ذلك السقف على حاله

(١) لما كان هذا الجزء بمقياس الذراع المعمارى فإن الذراع الواحد من التمثال الهيكل يساوى ثلاثة وخمسين ذراعًا من سطح المسجد النبوى اللطيف.

(٢) كان هذا الشخص من خدمة السلطان محمود خان الثانى وأحيل إلى التقاعد لكبر سنه فى فترة ما، وبعد ذلك عين معلمًا فى المدرسة التى أنشأها مصطفى أفندى قريبًا من شهر أمين مضافة إلى حى يايلاق بجانب جامع إبراهيم جاوش، ومازال موجودا وليس له مثيل فى فن النحت الخشبى.

وتحويل النصف الثانى من القبلى إلى القباب لما فى ذلك من محسنات، وقد عرضت المذاكرات السابقة على مقام الخلافة وقد وافق العرض للأفكار السلطانية وأرسل مع الموظف إلى المدينة عددًا من العمال المهرة حيث يتم إجراء الأمور على وجه السرعة فهدمت السقوف المذكورة وبنى على النصف القبلى ثلاثين عددًا من القباب العالية وعلى النصف الثانى من الشامى وهى الجهة الرملية، بنى سقفا جديدا لطيفًا.

وكانت السقوف التى صنعت فى عهد السلطان مراد الرابع (١٩٥) والمساحة الرملية التى تركت مكشوفة فى عهد السلطان قايتباى المصرى (٣٨٢٥) ذراعًا معماريا مربعًا، وبناء على هذا الحساب أن غير (٤٠٢٠) ذراعًا معماريًا من الساحات قد أخذت كلها تحت السقوف والقباب، بالقرب إلى سنة ١٢٧٧هـ قد أمر السلطان عبد المجيد خان بأن تحول السقوف والقباب التى صنعت فى عهد السلطان مراد خان إلى أبنية حجرية وتشيد وتقوى المبانى المقدسة فى صورة لائقة كما أرى فى خريطة تجديد حرم السعادة وهيئته القديمة، وبناء على ما جاء فى خريطة هدم السقف سالف البيان بنى مكانه تسع عشرة قبة لطيفة إحداها أبيض اللون وكبيرة وثمان وعشرين منها مستديرة وأصغر من الأولى وحوّل جميع القباب الأخرى إلى بناء حجرى وبذل جهودًا جبارة لتشيد مبانى حرم السعادة على الوجه المطلوب، وبلغ عدد قباب المسجد النبوى إلى (٢٤٢) قبة وعدد أساطين المسجد إلى (٤٢٣) أسطوانة مع أساطين مؤخرة حرم السعادة، إذ كان داخل حرم السعادة وخارجه (٤٢٣) عمود وكان (٣١٣) منها غير قابل للاستخدام وفى حاجة قصوى إلى التعمير بعد هدمها، وقد هدم منها مائة وعشر أعمدة وجددت وعمر (٣١٣) منها وشيدت، وقد رصنت جميع الجهات الأربعة للجدران والأساطين والقباب العالية بأحجار منحوتة، وأمن جميع جهاته قبل أن يتطرق إليها الخطأ والخلل وكذلك جميع مشتملاته وفروعه.

ألا فليحفظه الله من جميع الآفات السماوية والأرضية، وقد عمر مسجد

السعادة بطريقة متينة، لم تَبْقَ جميع جهاته بدون تعمير عدة قرون فلن يتعرض للمخاطر.

وسيظل مصونا بدون شك حتى إذا قضى الموجودون من الفرقة المنجية الإسلامية عمرهم كله تاركين أعمالهم، الشكر والثناء على ما قام به السلطان عبد المجيد خان من الخدمات ما أوفوا بحقه.

وما أعظم الخدمات التى أسداها هذا السلطان للمسجد النبوى الشريف وما أعظم ما أنفقه من النقود، فما بذله من السعى والجهد إلى أيامنا هذه يفوق بكثير ما بذله ملوك بنى أمية.

وعندما تمت عمليات أبنية السعادة وأصبحت رهن الختام فى سنة ١٢٧٧هـ فى أواخر ربيع الأول ولم يبق إلا أشياء صغيرة تافهة، وأماكن محدودة للمفتين والمجاورين أولم أحمد أسعد أفندى وليمة للأهالى فى الجبل الأحمر، وكانت وليمة عظيمة حضرها موظفو الحكومة وأكابر البلاد والعلماء والأغنياء ومالا يحصى من الفقراء والمساكين، وتليت منقبة مولد السعادة وعلق على المحجر لوحة كتبت عليها عبارة: «قد أخرج من هنا الأحجار التى احتيج إليها لتجديد حرم السعادة.

وقد وقع تحت النظر فى دفتر إجمال النفقات أنه قد أنفق لتعميرات الأبنية العالية والإنشاءات الجليلة سبعمائة ألف قطعة من الذهب المجيدى وكل قطعة تساوى مائة قرش ومائة وأربعين ألفا من الصرر والدراهم، كما أن ما أرسل من باب السعادة من الألواح الخشبية والحديد والقصدير، والنحاس وأشياء ثقيلة أخرى كان خارج هذا الحساب، وقد استخدم فى العمل يوميا ثلاثة وخمسين عاملا ما عدا الموظفين والكتبة والمهندسين والمباشرين، وهذا التوفيق الخارق للعادة من آثار والد السلطان الكثير المحامد السلطان عبد المجيد خان المشكورة والجميلة.

ومازال أهالى البلاد الحجازية يقدسون روح السلطان المشار إليه ويعرضون

شكرهم وثناءهم عليه فى كل آن وساعة كما أنهم يذكرون بكل خير عريانى زاده أحمد أسعد أفندى الذى بذل جهودًا مشكورة فى سرعة إنجاز عمليات الإنشاء والتعمير.

ولم يقتنع السلطان عبد المجيد خان بتوفيقه فى إحياء وتعمير حرم السعادة، فقد هدم مدرسة بشير أغا التى أشرفت على الخراب من أساسها بنى مكانها سبيلاً فى سنة ١٢٦٢هـ، كما طهر البالوعات التى حول حرم السعادة وأصلح الأرصفة ونظفها فأنقذ أطراف المسجد الأربعة من القذارة والتعفن وأرسل مقدارًا كافيًا من السجاجيد لفرشها فى حرم السعادة وأرسل قطعتين من الشمعدانات الكبيرة فى ناحية المحراب العثمانى وأضاء تلك النواحى السعيدة مثل جهات المسجد الأخرى، وقد كانت جهات المحراب العثمانى فى تلك الأوقات خالية من الشمعدانات وكانت جماعات المسلمين من قبل يؤدون صلواتهم فى الظلام.

وبناء على ما كتب فى مرآة مكة، قد عمر السلطان عبد المجيد وجدد سور مقبرة المعلا، والأساطين التى أشرفت على الخراب فى المسجد الحرام، وجدار الحطيم الشريف ومسجد الخيف ومسجد الطائف ومرقد الطاهر ابن الرسول، ومحمد بن الحنفية ابن حيدر وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم، ومولد الصديق الأكبر ومولد على بن أبى طالب ودار مولد النبى السعيدة ودار الخيزران ومولد حمزة وبركة اليمانى ومرقد الشيخ محمود، وقباب مقبرة الشهداء ومذبح إسماعيل وضريح ميمونة رضى الله عنها.

للأمر السلطانى الذى صدر متضمنًا كيفية إعمار الأبنية العالية

إلى الدستور المكرم، والمشير المفخم، نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ومتم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والإجلال المحفوف بصنوف عواطف الملأ الأعلى، من مشيرى الجنود النظامية السلطانية شيخ الحرم النبوى الحائز على الوسام المجيدى السلطانى من الطبقة الأولى وزيرى طوسون باشا ـ أدام الله تعالى إجلاله.

وإلى المختص بمزيد عناية الملك الدائم، من رجال دولتى المتميزين ومدير المدينة المنورة والحائز الوسام المذكور من الدرجة الثانية وحامله، وفخر الأمراء الكرام، معتمد الكبراء الفخام، ذو القدر والاحترام، صاحب العزة والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى، من كرام أمير أمرائى موظف الأبنية العالية أدهم باشا، دام إقباله.

وإلى أقضى قضاة المسلمين والى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع الأعلام الشريفة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، المختص بمزيد عناية الملك المعين، مولانا قاضى المدينة المنورة ـ زيدت فضائله ـ.

فليكن فى علمكم عندما يصل فرمانى الرفيع الشأن، أن الحاج محمد راشد ـ دام علوه ـ وهو من أعضاء دار الشورى العسكريين ومن رجال دولتى الممتازين، افتخار الأعالى والأعاظم كان قد أرسل إلى المدينة المنورة بمهمة تفتيش وتحقيق التعميرات التى تجرى فى ممسح جباه الموحدين الحرم النبوى الشريف فعاد من هناك بمعلومات جديدة وآراء محلية ومضابط وخرائط والأوراق الأخرى فمن مقتضى الأمر الملكى أن يدرس هذا الموضوع بناء على ما استجد من المعلومات

وليدرس ويذاكر فى مجلس خاص للوزراء علما بأن هذه التعميرات الجليلة تنقسم إلى قسمين:

الأول: مؤخرة الحرم الشريف ومتفرعاته.

الثانى: تعمير مشتملات داخل الحرم الشريف.

وبما أن كيفية تجديد مؤخرة حرم السعادة وتعميره قررت حتى إن أكثر عملياته قد ختمت على أحسن وجه كما أكمل بعض مشتملاته وتفرعاته كما قرر بالاتفاق العام، فى محله أن تنشأ آثار قايتباى الملتصقة بآخر الحرم الشريف على الهيئة الجديدة إلى القباب التى أنشئت حديثًا فى محاذاة باب الرحمة.

والآن فموضوع البحث هى المسألة الثانية، قضية كيفية تعمير القباب والسقوف والأساطين التى تحمل تلك السقوف، وبناء على الكشف والتحقيقات فالسقوف المذكورة مصنوعة من الخشب والأساطين التى تحتها صنعت من حجارة صغيرة أخذت فى التفتت والتجرد فربطت بدعامات حديدية، وبعضها مال للانحراف فاتفق على لزوم تجديدها وتعميرها فى محلها وبناء على هذا الاتفاق حدث مسوغ شرعى، ولكن الجانب الجدير بالتدقيق فى هذ البحث والذى أدى إلى الاختلاف والنزاع فى محله مسألة تغير هيئتها القديمة أو عدم تغيرها، والمهم أن يعرف لهذا الموضوع الحكم الشرعى الصحيح، وحتى ندقق النظر فيما أورد من الدلائل النقلية والعقلية بموجب الشرع الشريف وتعرف أهميتها للمصلحة العامة أمرت بتشكيل مجلس خاص يتكون من فحول العلماء وبعض الوزراء فى دار الإفتاء، وبعد معاينة الأوراق والمضابط والخريطة التى أرسلت من المدينة، وتدقيق النظر فيها كلها وصلوا إلى قرار وهو أنه يمكن تقليل عدد الأساطين وتغيير أماكنها وتعديلها لتوسيع أماكن الصلاة ولإحداث تناسق بين الأساطين وقدموا أدلتهم وحججهم وإن كانت كل هذه الأدلة لا بأس بها، وبهذا يمكن أن يوسع داخل الحرم الشريف لدرجة ما، ويتناسق مع مؤخرة الحرم الشريف الذى جدد على هيئة حديثة إلا أن هذه المواقع التى جددت فى مؤخرة حرم السعادة، كان تجديدها

مبنيًا على مسوغ شرعى صريح، إلا أن داخل الحرم الشريف لا يمكن مقارنته بمؤخرة الحرم، كما أن تعمير آثار قايتباى باتفاق وأجرى التجديد بناء على هذا بالاتفاق، وبما أن داخل الحرم الشريف الأصلى من الآثار القديمة الجليلة ويتشرف بهيئته القديمة، وإن مسألة التناسق والتناسب لن تكون لتحويل رسم وهيئة المسجد الحرام، ولما كان عدد الأساطين التى تحتاج إلى التعمير والترميم مائة وبضعة وأربعين، وأن ثمان منها من الآثار النبوية لا يجوز تغييرها وتبديلها قطعيًا، كما أن الأساطين التى ركزت فى داخل الحرم الشريف فى عهد أبى بكر الصديق وعمر الفاروق ـ رضى الله عنهما ـ زيدت باتفاق الصحابة فى توسيع المسجد فهى فى حكم الآثار، فمثل هذه الآثار التى وجدت باتفاق الصحابة والتى لم يسم أى جانب من جوانبها فلا يجوز تغيير هيئات أماكنها لمجرد التوسيع والتنسيق، وهذا من الأمور المسلمة، وفى هذه الحالة فالأسطوانات التى ستجدد على طراز حديث ستكون عرضة للتغير وللتبديل فهى الأساطين التى أضافها وأنشأها السلطان مراد خان والسلطان قايتباى وتترك الأساطين الأخرى، ومع تغيير هذه الأساطين وتحويل أماكنها فلن يحدث التناسق المنتظر.

ومع هذا فالقباب القديمة من آثار السلطان مراد قد وضعت فوق الأساطين التى كانت قائمة ولم يتصدَّ أحد، فى ذلك طالبا تغيير رسم وأماكن تلك الأساطين، والتوسيع المرغوب حدث منسوبًا إلى اسمى، وبإنشاء المواقع والقباب الجديدة حاليًا، وبناء على الأقوال الموثوقة وإن كان بين هذه الأساطين ما يحتاج للتجديد، ولكن بعض ما انحرف منها وبعض ما احتاج للتعمير الجزئى منها، فلا يلزم تجديدها فمثل تلك الأساطين ترمم وتسوى فى أماكنها على هيئاتها القائمة، بحيث تقوى على حمل القباب الحجرية التى ستوضع عليها، وبما أن الأساطين الموجودة فى المسجد مبنية بحجارة سوداء فمن المستحسن أن تنشأ ما يراد تجديدها من الحجارة السوداء حتى تشبهها، وعند تعمير الأساطين التى غلفت بقطع الرخام تغطى أيضًا بالرخام بعد تعميرها، ولما كان معظم قباب السلطان مراد سليمة والأساطين المحتاجة للتعمير لا تتجاوز ثمانية أساطين أو عشرة، ولما كانت

بعض أماكن المسجد النبوى قبابًا حجرية وكان أكبرها سقوفًا خشبية احتاجت إلى التعمير وستعمر على هيئة القباب الحجرية، وبهذا ستجنب المخاطر مثل الحرائق وغيرها، وعلى هذا لن يكون هناك أى مسوغ لتغيير أماكن هذه الأساطين أو تقليل عددها أو تغيير الآثار المباركة بها، وبناء على هذه التفصيلات المشروحة رجح الرأى القائل بتجديد وتعمير ما فى داخل حرم السعادة فى مكانه وعلى هيئته وشكله القائمين، وعلى هذا تعين إجراء العمليات كما تبين من الواقع، ويشرع فى العمل من بين باب الرحمة وبين باب السلام ومن بين باب السلام إلى ما بين المئذنة الرئيسية، وبما أن المحراب العثمانى وسقوفه قد كشف أولاً فمن الأهمية تجديد القبة العثمانية، وإنشاء ما بين دكة الأغوات إلى باب الرحمة، وتعمير القباب الجديدة وتشييدها وإحكامها والأبنية العالية كذلك والتى تقرر إنشاءها بناء على المسوغ الشرعى وتوسيع الأماكن التى يمكن توسيعها والتى قد وضعت أسسها لن تخلو من الحسنات وإتمام بناء تلك الأماكن وفق كشوفها، وبما أن الجدار الكبير الذى يبدأ من المئذنة الرئيسية وينتهى عند باب السلام قد ظهر ميله وانحرافه فليزال ويجدد ويعمر على الوجه المطلوب، وبما أنه لا يجوز وضع الأنقاض المختلفة من عمليات التعمير والترميم والأحجار المكسرة التى سَتُخَلَّفُ من تعمير وتجديد الأساطين فى أماكن غير مناسبة فمن الأجدر أن تستخدم فى بناء الجدران العادية من الحرم الشريف أو فى مثل هذه الأشياء، ولما كانت حجارة المكان الذى بين شبكة السعادة والحجارة المفروشة، والستارة قد تزحزحت من أماكنها، يجب أن توضع فى أماكنها بدون إحداث أى تغير، وقد نبه مرارًا على ألا يرفع أحد صوته فى أثناء العمل وألا يأتى بحركة مخلة للآداب، وأن يظهر أقصى ما يمكن للإنسان أن يقوم به من توقير وحرمة للمكان، وقد جاء ذكر كل هذه الأشياء فى المجلس الخاص وقيدت فى مضبطة.

ولما كانت هذه التعليمات الشرعية الدقيقة التى بحثت ستؤدى فى الآخر إلى عدم تغيير ما لا يراد تغيير هيئته الحالية من جهة وأن تتحقق قضية المتانة والرصانة

من جهة أخرى، يجب أن تنفذ العملية وفقًا لما سبق شرحه وذكره، وأن تحفظ الأشياء التى ستصرف للأبنية العالية من التلف والسرقات، وأن يراعى حسن معاملة العمال المستخدمين، وأن تشكل هيئة مؤقتة من الموظفين الموجودين والمهندسين ورؤساء الحجارين للإشراف على أمور الإنشاء والتعمير.

وقد تقرر فى مجلس الوزراء الخاص أن يعمل أعضاء تلك اللجنة المكونة وفقًا لما جاء فى اللائحة التنظيمية لسير العمل، وعرض هذا الأمر على ذاتى السلطانية بعد الاستئذان، فتعلقت إرادتى السلطانية على أن ينفذ ما جاء فى قرار مجلس الوزراء الخاص وصدر أمرى هذا إعلامًا وتنبيها وتقييدا من ديوانى السلطانى وقد ذيلت اللائحة المنظمة بختم أعضاء المجلس الأعلى، وصدق من مقام الصدارة العظمى، ثم أرسلت فرمان بأمرى السلطانى.

والآن وأنتم شيخ الحرم ومدير المبانى العالية وموظفىَّ الذين أثق فيهم فلتعلموا، أن كل أملى وأقصى منای أن تعملوا على إتمام بناء ذلك المكان المبارك السامى رصينا متينا واسعا! بحيث يسر الروح النبوى، ولن يتحقق هذا إلا باتباع ما جاء فى فرمانى هذا وألا تجيزوا أبدًا تغيير هيئات الأساطين أو تبديل أماكنها لأن هيئتها وأشكالها القديمة مما يتشرف بها، وأن يبذل كل مافى طاقة الإنسان من إظهار الاحترام والتوقير لإسعاد روح النبى ﷺ وأن تعملوا على إجراء التعميرات وفق القرار الذى ذكر عاليه، وأن تحرص أن تتحرك وفق ما جاء فى اللائحة التنظيمية وأن تتجنب وتتقى العمل خلاف القرار مغيرًا لأحكام اللائحة التنظيمية، لأن المخالفة ستؤدى إلى عدم رضا الله وإلى عدم إسعاد روح النبى ﷺ فضلاً عن المسئولية والندامة فى الدنيا والآخرة وسيخالف رضاى السلطانى من جميع الوجوه، وعدم إظهار أى نوع من التكاسل والتراخى فى هذا الخصوص من مقتضى إرادتى الملكية القاطعة فأعد نفسك وفق ما جاء فى هذا الأمر واعمل على إتمام تعميرات هذا المكان الجليل بكل ما فى طاقتك من جهد وبذل وسعى، فليكن هذا فى علمكم، واعتمدوا على علامتى الشريفة.

تحريرًا فى أوائل ذى الحجة الشريفة سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف سنة (١٢٧٣).

للفرمان العالى الذى صدر إلى عريانى زاده أحمد سعد بن محمد أفندى بخصوص تعينيه لمأمورية الأبنية العالية

إلى الدستور المكرم، المشير المفخم، نظام العالم، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهام الأنام بالرأى الصائب، ممهد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى، والحائز على وسامى المجيدى السلطانى من الدرجة الأولى والحامل حاليًا لقب شيخ الحرم النبوى وزيرى المحب مصطفى[1] باشا أدام الله تعالى إجلاله، وإلى أولى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والدين، المختص بعناية الملك المعين، وهو قاضى المدينة المنورة حاليًا، مولانا أسعد ـ زيدت فضائله ـ والذى عهد إليه فى هذه المرة مهمة إدارة مبانى الحرم النبوى العالية، فليكن فى علمكم عندما يصل فرمانى بتوقيعى السلطانى الرفيع، قد مات عمر جمال موظف الأبنية العالية للحرم النبوى توأم الجنة ولزم تعيين من يناسب فى مكانه، وأنتم ذلك الشخص المناسب بما اتصف به من العفة والاستقامة والحكمة وبعد النظر وقد رئى تعيينك لوظيفة مأمورية الأبنية المباركة.

وبناء على ثقتى فيك واعتمادى على أمانتك قد صدر أمرى أن تظل فى المدينة المنورة حتى تكمل تعمير وتجديد الأبنية العالية بعد أن تنتهى مدة مهمتك الأولى، وعليك أن تعمل بموجب هذا الأمر وأن تكمل تعمير الأبنية العالية وتجديدها على هيئة تسعد روح النبى ﷺ وهذا هو الغاية ألزم بها ذاتى السلطانى، وفى هذا الخصوص أن ترسلوا سريعًا بموجب الكتابات التى أرسلت لكم من وزارة المالية

(١) إن هذا الشخص يعرف بـ «اسكوداري» وقد أبلى بلاء حسنًا فى تجديد الأبنية الشريفة.

حساب النفقات التى صرفت سواء أكان من قبل الموظفين المستقلين أو القائم مقامهم أو كلاهما وما استلموه مما أرسلت لهم الدولة، والاطلاع على هذه الحسابات المستقلة والدفاتر اللازمة الموضحة لتلك الحسابات، وأن يعامل المستخدمون من العمال بطريقة حسنة وأن يعطوا رواتبهم فى وقتها، وأن يعملوا بكل خضوع وخشوع وأن يلزموا جانب الأدب والتعظيم والتوقير، وأن يؤدوا صلاتى الظهر والعصر مع الجماعة وألا يلجئوا إلى طرق ملتوية للتنصل من العمل، وعليك ألا تهمل ما يجب إتمامه من الأعمال المهمة حتى لا يتعطل العمل، وأن تبذل كل جهدك بما عرف عنك من إخلاص فى العمل والحرص عليه، وأن تعنى بأداء مهام وظيفتك متفقًا مع شيخ الحرم المشار إليه، وأن تحقق ما تنتظره منك ذاتى الملكية من المآثر العظيمة والفطانة، وأن تبذل أقصى طاقتك، وعندما تجزم بمضمون أمرى الشريف وأنت ذلك الشيخ المحترم للحرم الشريف عليك أن تنفذ إرادتى السنية الملكية ضاما جهودك مع الآخرين موحدين طاقاتكم وقد صدر أمرى هذا فليكن ذلك فى علمكم، اعتمدوا على علامتى الخاصة.

حرر فى اليوم الخامس عشر من شهر صفر الخير سنة ست وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٦) هـ.

نريد أن نعقد هنا مقارنة فكرية بين الملوك العثمانيين وأسلافهم من الملوك من حيث نيتهم وأعمالهم متخذين ما أدوه من خدمات للحرمين الشريفين دليلاً لذلك، وقد ثبت لدى نظر التاريخ أن أكثر من خدم الحرمين الشريفين هم: أمراء بنى أمية وخلفاء بغداد، وملوك الشراكسة، وإن كانت خدمات هؤلاء لا تقارن بالخدمات المشكورة التى أداها السلاطين العثمانيون محبو الخير والبر، لو لم تكن خدمات هؤلاء تنطوى على أغراض نفسيه لكانت خدماتهم أيضا موضع الشكر والثناء، ولكن لأشد الأسف ما أدوه من خدمات لم تساو شيئًا لأنهم أخافوا أهل الحرمين وروعوهم، وربما يكونوا قد خدموا الحرمين رثاء الناس، وكان وليد بن عبد الملك أكثر بنى أمية خدمة لآثار الحرمين الجليلين، ولما كان فكره غير صائب ونيته غير خالصة فإن كل ما أنفقه من النقود فى هذا السبيل كانت لتحقير

الأحفاد المصطفوية والأولاد المرتضوية وإجراء خبثه فيهم بما كان يضمره، وبناء على ذلك هدم حجرات زوجات النبى ﷺ وخربها، وأخرج أولاد أحفاد السبطين من منازلهم مرتكبًا فى حقهم من الإهانات التى لا تليق حتى بالأعداء وجعل سادات المدينة وأعيانها يتجرعون الدماء وحقر زاهدًا عابدًا مثل عمر بن عبد العزيز بأن عز له من وظيفته.

وكان منصور العباسى أعظم من خدم البلدتين المذكورتين، وكان قد أمر بتهيئة مصلب فى البلد الآمن المنجى الذى قيل عنه «ومن دخله كان آمنا» لسفيان بن سعيد الثورى لمجرد إسماعه الحق، وساق كثيرين من الذرية المحمدية من المدينة المنورة مقيدين مكبلين إلى بغداد وتجرأ على إعدامهم وإتلافهم فى صورة شنيعة ملعونة، وسار خلفه على طريقته وهكذا أعلنوا وأشاعوا ما يضمرونه فى قلوبهم من عداوة قديمة لآل النبى ﷺ ذوى الكمال.

قايتباى المصرى أعقل ملوك الشراكسة وأعلمهم، فخدماته للحرمين أكثر من خدمات أسلافه وأخلافه، وهذا أيضا قد أظهر دناءته ـ بناء على ما سيأتى ذكره فيما بعد ـ إذ غير موقع منبر النبى الأنور لتحقير فضلاء الحرمين متبعًا رأى المتمرد شمس بن زمن وكأنه قام بعمل خير إذ بنى رباطًا للفقراء باغتصاب ثلاثة أو خمسة أذرع من أرض شارع المسعى، وعزل من يصدقون فى الكلام من وظائفهم وأتى مكانهم بمن يكذبون وينافقون، ينقل لنا قطبى فى أثره تاريخ مكة هذه الحكاية ويرويها: «كان الملك الأشرف قايتباى المصرى قد اتخذ الشيخ شمس الدين محمد بن عمر بن زمن مصاحبًا له قبل أن يرتقى عرش مصر، وعندما تولى سلطنة مصر أرسل شمس بن زمن لتعمير المسجد الحرام وبناء بعض المؤسسات الخيرية باسمه إلى مكة المكرمة، فاشترى شمس بن زمن مبانى الميضأة التى فى شارع المسعى وبين الميلين الأخضرين وهدمها حتى الأرض، وكانت هذه الميضأة تنسب إلى الملك الأشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون وكانت أمام الباب العالى، وكانت جهتها الشرقية متصلة بمنازل الأهالى، والجهة الغربية بالمسعى الشريف والجهة الجنوبية متصلة بسوق الليل، والجهة الشمالية بدار

العباس بن عبد المطلب، وحفر شمس بن زمن أساس رباط يريد أن يقيمه لإسكان الغرباء مكان الميضأة إلا أنه دخل ثلاثة أذرع فى شارع المسعى رغبة فى توسيع البناء، وأثار هذا العمل بين الأهالى القيل والقال، فرجا قاضى مكة برهان الدين إبراهيم بن على ظهيرة الشافعى شمس بن زمن لترك الأرض التى اغتصبت من المسعى، وبين له أنه لا يوجد مسوغ شرعى لإقامة مبان فى هذا المكان.

وبما أنّ شمس بن زمن رد هذ الطلب، فتكون مجلس علمى للشورى بإغراء علماء المذاهب الأربعة واستدعوا شمس بن زمن وقالوا له أمام الفقهاء «أيها السيد الفاضل! كان عرض المسعى الشريف (٣٥) ذراعًا، وقد قسناه من حفرة أساس الرباط الذى أقمتموه فبقى (٢٧) ذراعًا، وأرادوا أن يثبتوا مدعاهم قائلين بأن مساحة المسعى الشريف فى تاريخ الفاكهى خمسة وثلاثون ذراعًا، إلا أن شمس بن زمن رد عليهم قائلا: فقولوا ما تقولون إننى لن أتنازل عن فكرى مستمعًا إلى أقوالكم، وإنكم غير قادرين على منعى من القيام بهذا العمل فأطال العلماء القول فى هذا الموضوع وانضم الأهالى أيضا إلى العلماء وخالفوا ابن زمن فأجبروه على ترك العمل وكتبوا محضرًا فى هذا الخصوص، وأودعوه لدى العلماء الذين حملوه إلى قايتباى فى مصر، كما أن شمس بن زمن كتب رسالة خاصة وأرسلها إلى قايتباى (فالذى يعجبكم من فعل قايتباى؟!) فعزل قاضى مكة وعين مكانه أحد الذين أيدوا شمس بن زمن، وأعاد العلماء الذين قدموا المحضر يائسين مكسورى الخواطر، وجلب الشخص الذى عين فى تلك السنة أميرًا للحج وأمره قائلا: «عندما تصل إلى مكة يجب عليك أن تحفر أساس الرباط وفق رأى شمس بن زمن، وأن تشرف بنفسك على العمال وقد أوصل أمير الحج موكب الحج إلى مكة سنة ٨٧٥هـ وبمجرد وصوله إلى مكة جمع العمال رأسًا وجعلهم يحفرون أساس الرباط ليلاً حتى الصباح، وأنقذ أمر قايتباى، انتبهوا لذلك! كيف انكشف قايتباى الذى أراد أن يصل إلى تنفيذ فكره الأنانى السيئ ضمن خدمته التى يريد أن يقوم بها لكعبة الله، وإن كان شمس بن زمن على قدر

من العلم ويسعى لعمل الخيرات والحسنات إلا أنه بذل أقصى جهده لتحقيق علم لا يسوغه الشرع.

وإن كان قايتباى أعقل ملوك الشراكسة وأزهدهم إلا أنه قد أظهر فى هذا الموضوع تعصبًا كبيرًا،و وقد أصر على التمسك برأيه وقد خدعه شمس بن زمن وساعده على اغتصاب ثلاثة أذرع من مكان المسعى، وعزل قاضى مكة الذى أراد أن يمنعه عن ارتكاب الفعل المنكر، وكأنه لم تكن غايته خدمة الحرمين، بل كان غرضه إظهار سطوته وشوكته وإجلاله على صورة خدمة الحرمين.

وقد تحاشى السلاطين العثمانيون الأغراض النفسية وإبراز العداوة وفوق ذلك فإنهم وقفوا بجانب الأهالى، كما تبين ذلك فى صورة الفرمان العالى المكتوب عاليه، ولم يكن الأهالى بجانب الحق وكانوا يريدون أن يطيلوا عمليات تعمير المسجد الشريف والمبانى المقدسة وذلك بتعويقها بعض الوقت ليستفيدوا من ذلك ماديًا وقد ثبت ذلك، ومع هذا أمر السلطان عبد المجيد أن يتم العمل وفقًا لآراء الأهالى وأفكارهم وفى سبيل ذلك عزل أصدقاءه مثل: محمد رائف باشا، ومحمد راشد أفندى ونقل مكانهم الآخرين وعينهم وبهذا أظهر للأصدقاء والأعداء أن خدماته السلطانية لم تكن إلا لإسعاد الروح المحمدى العالية خالية من جميع الأغراض النفسية والمادية.

رحمه الله رحمة واسعة انتهى.

الوجهة الثالثة عشر
وتحتوى على عشر صور

فى ذكر حجرات مسجد السعادة وبالوعاته

إخطار ـ يطلق فى البلاد العربية على الحجارة المصقولة الموضوعة فوق الحفر ضيقة الفوهة واسعة الجوف وخاصة لإجراء مياه الأمطار حتى لا تتراكم فى الميادين «بلاعة» وهى البالوعات التى نحن بصدد تعريفها، سواء أكانت هذه الأحواض تُملأ ماءً أو كانت تملأُ بتراب مخلوط بالملح والحفر التى ملئت بهذا الشكل ستبلع المياه المضبوطة مهما كانت كثيرة لأجل ذلك أطلق عليها «بالوعة» أو «بلاعة».

كان فى الأوائل لمسجد السعادة ٦٤ بالوعة وكان فوق كل واحدة منها حجر مستدير مستقر لرمى الطيور، وقد قضت تقلبات الزمن على كل هذه البالوعات وأبقت واحدة فقط.

ثم دبر تسعة عشر سقاية بدل البالوعات الخربة، وبما أنه قد فهم مؤخرا عدم جدوى تلك السقايات قد أزيلت بالاتفاق مع الأهالى من قبل القاضى شرف الدين الأسيوطى والأعيان مثل الشيخ ظهير الدين.

وبعد مدة أنشأ أحد أمراء الشام يسمى «شامة» فى وسط مسجد السعادة حوضا ذا فوارة وملأه بمياه عين الزرقاء وأحيا الجماعات الإسلامية إذ دبر له مياهًا للوضوء.

وقد أسئ استخدام الحوض الذى صنع من قبل «شامة» الشامى وأضاع حرمة حرم السعادة الخاصة، وامتلأ فى فترة ما بالتراب والطين ولم يبق به مكان للوضوء.

وبنت أم الخليفة الناصر لدين الله خلف جدار مسجد السعادة الشامى سقاية كبيرة ودور خلاء متعددة وفتحت بابا من داخل السقاية وبابا للدخول فى المسجد الشريف منه.

ومع مرور الوقت كل هذه المبانى خربت ولم يبق ما يدل عليها، لأجل ذلك بنى والد السلطان كثير المحامد الخليفة السلطان عبد المجيد خان فوق نطاق باب التوسل مدارس فوقية وخلف هذه المدارس كثيرا من الميضات ودور خلاء وهكذا سهل للناس حاجاتهم.

حجرات مسجد السعادة:

توجد فى داخل مسجد المدينة الشريفة غير الحجرة المعطرة اللطيفة ثمانى حجرات تطلق عليها خزانة وكل اثنتين منهما توجد ملاصقة كل مئذنة.

فالسادة المؤذنون يصعدون المآذن مارين من هذه الحجرات ويضعون فى بعضها حاجياتهم. إحدى هذه الحجرات فى الجهة الشمالية من المئذنة الغربية، وكان يطلق على هذه المئذنة المئذنة الخشبية وكان خدمة المسجد الحرام يجمعون فى الحجرة التى تتصل بها بعض أشيائهم. وكان بعض الذوات يعتكفون فى داخلها، وإحدى الحجرات المذكورة فى اتصال الحجرة التى بجانب المئذنة المذكورة، وكانت إحداهما بين باب جبريل وباب النساء.

وحجرة أخرى بجانب تلك الحجرة التى بين البابين المذكورين، والحجرة اللطيفة التى بجانب الحجرة التى بين باب النساء وباب جبريل فى الطرف الشمالى إلى المقصورة «صفة أصحاب الصفة» والتى خصت لإقامة الأغوات الذين يقومون بخدمة الحجرة المعطرة، وتحفظ فى هذه الحجرة زيوت القناديل التى أخرجت من الحجرة المعطرة وبقايا الشموع، وهناك حجيرة أخرى فى محاذاة باب بيت الصديق الصغير وفى اتصال الجدار الغربى.

وهذا الباب الصغير يعد الباب الثالث إذا ما عد من ناحية باب السلام من الأبواب التى فتحت على مسجد السعادة من أبواب البيت الذى ينسب لأبى بكر

الصديق والباب الذى بين باب النساء وباب جبريل خاص بوضع أشياء الخدم وكان فى اتصالها حجرة وكان الشخصان اللذان يحرسان مسجد السعادة يبيتان فى هذه الحجرة، وكان بجانب هذه الحجرة صندوق يحفظ فيه كل ما يلزم من زيت زيتون لإيقاد القناديل كل ليلة.

وفى سنة ١٢٧٢ جدد الفريق أدهم باشا من موظفى أبنية مسجد السعادة حجرة النوبة وبنى فوق هذه الحجرة حجرة صغيرة ليوضع فيها الصندوق ولوازم المسجد الأخرى لتحفظ فيها.

وأغلق من أطرافها بقفص خشبى يصعد إلى هذه الحجرة من السلم الذى فى داخل حجرة الحراسة.

وتحفظ فى هذه الحجرة العلوية نهارا العصى الخاصة بتعليق شمعدانات حجرة السعادة وقناديلها والفوانيس التى يوقدها الخدمة بعد صلاة العشاء ليتفقدوا داخل المسجد الشريف ويعاينوه.

رواية

كان الخدم فى الأوائل يوقدون عدة مشاعل بعد أداء صلاة العشاء ويتجولون فى داخل مسجد السعادة، ويخرجون الجماعات المتبقية ويغلقوا الأبواب، وهذه سُنة متبقية من عهد سيدنا عمر الفاروق، ولكن فيما بعد تحقق مضرة إيقاد الشموع فبدلوها ووضعوا عادة إيقاد الفوانيس يقول أحمد بن يحيى البلاذرى «كان عمر الفاروق بعد أن يصلى صلاة العشاء كل ليلة، يتجول فى أنحاء المسجد وكان يسوق الجماعات المتبقية أمامه ويخرجهم خارج المسجد، ولكنه كان يترك من كان يؤدى الصلاة، وفى ليلة من الليالى اتفق أن تلاقى مع جماعة كان بينهم أبى بن كعب.

وأجيب على سؤال الفاروق «من هؤلاء؟ «بالرد» بعض الأشخاص من الصحابة».

«وأجيب على سؤاله»: «ما أنتم فاعلون بعد ذلك؟ «؛» سنجلس ونذكر الله الذى لا ينام «فجلس عمر الفاروق وشغل معهم فى ذكر الله».

وفى ختام الذكر دعا باكيا حتى جعل أهل السماء يمرقون أيضا، وفى ختام الدعاء أمر بأن يعود جميع الناس وأن تغلق أبواب المسجد ومن تلك الأوقات والتاريخ أصبح تفقد مسجد السعادة بإيقاد الشموع عادة وإغلاق الأبواب كذلك ولكن شبل الدولة كافور المظفرى الحريرى حينما أصبح شيخ الخدم، رفع عادة التجول فى داخل المسجد بالمشاعل وأعد ستة فوانيس وأوقدها وأخرج من بقى من الموجودين وأغلق الأبواب وأوقد فى الليالى المباركة أربعة مشاعل فى الساحة الرملية للمسجد وأضاءه وأصبح هذا التصرف عادة بعد ذلك، وكانت فى ذلك الموقف فى المسجد الشريف سلاسل معلقة وكانت القناديل تعلق عليها فى الليالى المباركة ـ ليالى الإحياء ـ وتوقد، يقول ابن فرحون: «عندما أصبح شبل الدولة شيخ الخدم كان من عادة الخدم أن يتجولوا فى أنحاء المسجد وعندما يصلون إلى باب النساء يطفئون المشاعل التى فى أيديهم ويتركونها خارج الباب، ولكن داخل جدران المسجد وخارجها يسود من الدخان الصادر من المشاعل فوضع الشيخ شبل الدولة عادة إيقاد الفوانيس وأبطل عادة إشعال المشاعل وكانت الجماعات تخرج إلى خارج المسجد كل ليلة بإيقاد الفوانيس ومازالت هذه العادة باقية وتجرى على غاية من النظام».

موقف الأئمة:

كانت صلواتهم الأوقات الخمسة إلى سنة ٨٦٥هـ فى محراب النبى اقتداء بالإمام من المذهب الشافعى، وكان أئمة مواسم الحج ينقلون إلى المحراب العثمانى، وزاد أفراد جماعة المذهب الحنفى قليلا واقترب من عدد جماعات المذاهب الأخرى فرجا جماعات للمذهب الحنفى وجود إمام للمذهب الحنفى وأسعف رجاء الحنفية بالقبول وعين عليهم إمام يؤمهم فى صلواتهم فى سنة ٨٦٠هـ.

وكان أفراد المذاهب الثلاثة الأخرى من المدينة المنورة ومن أصحاب النفوذ

والمكانة فيها، لذا لما كان يؤم إمام الحنفية جماعته فى محراب النبى يصلى بهم خلف أحد الأعمدة صلوات الأوقات الخمسة المفروضة.

وقد سر الحنفيون من تعيين إمام لهم لأداء صلواتهم فى جماعة وكذلك فى تعيين محراب له، وعد الحنفيون هذه الحالة نجاحا عظيما وكتب كل واحد منهم لمجموعتهم كما كتب بعضهم على لوحات علقوها على جدران منازلهم عبارة «وقد وضع هذا العام محراب للحنفيين» وذكروا مؤسس المحراب رئيس الخدم الشيخ طوغان ـ عليه رحمة المنان ـ بكل خير.

كان المرحوم الشيخ طوغان بذل جهودا كبيرة فى عهد الملك الأشرف إينال راجيا أن يقام محراب للحنفية، ولكنه لم يوفق ويرجع عدم نجاحه فى مهمته إلى وقوف أحد الحقراء من الأمراء المصريين يسمى جمال الدين يوسف فى صف المتغلبة من أهل المدينة.

وقد مات هذا الحقير فى سنة ٨٦٠ فنال الشيخ طوغان مطلبه وأراد للحنفيين محرابا فى مسجد السعادة ولكن لشدة الأسف تغير المحراب لم يكون محرابا عاديا فى داخل المسجد بل كان مكانا خلف أحد الأعمدة كما سبق ذكره، لأن الحكومة المصرية كانت قد استصدرت تعيين إمام واحد للحنفية وأن يؤم جماعته خلف أحد الأعمدة.

ومع هذا قد نجح الشيخ طوغان فى أن يؤم الإمام الحنفى جماعته بعد أن يؤدى الإمام الشافعى صلاته خلف محراب النبى ﷺ، خلف العمود المعين له وأن يصلى الإمامان معا فى وقت واحد أيام شهر رمضان.

وكان سبب عمل الشيخ طوغان على تعيين إمام خاص للحنفية غَلَبَة طائفة الزنادقة الذين استولوا على أراضى المدينة المنورة وعلى أهل السنة.

ولما كان أئمة الطائفة المذكورة اعتادت أداء الصلوات فى محراب النبى كان أفراد المذهب الحنفى يصلون هنا وهناك منفردين ويحرمون من فضيلة أداء الصلاة فى جماعة ويأسفون لذلك أشد الأسف.

وازدادت جماعات المذهب الحنفى فى عهد السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان يوما بعد يوم. وصدر الفرمان السلطانى بإقامة محراب خاص لهم.

فأُرسل من باب صاحب القرار النجارون والمهذبون وما يقتضى بناء المحراب من الأدوات والأحجار فأقيم محراب فخم على يمين منبر السعادة من قطع رخام ملونة خاص بالجماعة الحنفية.

فى جمادى الأولى فى سنة ٨٥١هـ قُرر أن يؤدى أئمة المذهب الحنفى صلواتهم فى هذا المحراب، وظل الإمام الحنفى يؤدى الصلوات فى هذا المحراب قرابة سنتين.

إلا أن الأمر السلطانى قد صدر بأن يصلى فى محراب النبى الإمام الشافعى وفى اليوم الآخر الإمام الحنفى، وأخذ أئمة المذهب الحنفى والشافعى يؤدون الصلاة مناوبة فى المحراب النبوى ما يقرب من ٢٦٩ سنة، ولما ذهب والى مصر محمد على باشا إلى المدينة المنورة فى سنة ١٢٢٩ بقصد زيارة الحجرة المعطرة ووضع نظام أن يؤدى كل من أئمة المذهبين كل يوم الصلاة فى المحراب النبوى، ومازال هذا النظام جاريا، فيصلى الإمام الشافعى صلوات الصباح قبل الإمام الحنفى ويصلى الإمام الحنفى صلوات الأوقات الأخرى قبل الإمام الشافعى، ولكن فى أيام مواسم الحج يصلى الإمام الحنفى فى المحراب العثمانى ويصلى الإمام الشافعى فى المحراب النبوى بعدما يتم الإمام الحنفى صلاته.

وهذا النظام بمواسم الحج، ويصلى الإمامان صلوات التراويح فى وقت واحد.

صورة ظهور المذهب الحنفى وزمان ظهوره:

بعد أن نقل ابن فرحون فى هذا الخصوص أقوالا كثيرة، قال: «كان سكان المدينة المنورة إلى عصر شمس الدين العجمى يعتنقون مذهبى مالك والشافعى.

وعندما هاجر شمس الدين أفندى إلى المدينة شجع بعض علماء المذهب الشافعى على الاشتغال بمسائل المذهب الحنفى، وكان هؤلاء العلماء قد دققوا النتائج الأساسية لذلك المذهب، وأخذ علماء المذهب المذكور يتكاثرون إذ أخذوا يتفقهون وأصبحوا أئمة زمانهم من هنا أخذ الأهالى يستفيدون من علومهم ويستفتونهم ومن ذلك الوقت أخذ المذهب الحنفى ينتشر فى المدينة المنورة سنة ٧٢٣هـ.

إن المحراب السليمانى يقع ـ بناء على تعريف مؤلف «الجواهر الثمينة» من مؤرخى المدينة المنورة ـ فى الجهة اليمنى من محراب النبى وعلى يسار منبر السعادة وبجانب العمود الثالث ابتداء من المنبر الشريف، وفى نهاية الطرف الغربى لما أضافه عمر بن الخطاب، قد بنى ذلك المحراب كما ذكر آنفا السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة ٩٥٨هـ وخصه بأئمة المذهب الحنفى والمالكى، وعرف بالمحراب السليمانى».

وكان أئمة الحنفية لا يؤمون الناس إلى سنة ٨٥٨هـ فى مسجد السعادة وكانت مهمة القضاء والإفتاء منحصرتين فى علماء المذهب المالكى.

وفى عام ٨٦٥ بناء على طلبات ملوك مصر المؤثرة وضع نظام أن يصلى أئمة الشافعية صلاة الصبح قبل المالكية وأن يصلى أئمة المالكية مع جماعتهم الكبرى الصلوات الأخرى قبل الشافعية.

وبعد إقامة المحراب السليمانى أصبحت الجماعة الكبرى، الصلوات التى تؤدى خلف أئمة المذهب الحنفى كما سبق تفصيله، وأخذ أئمة المذهب الشافعى يؤدون الصلاة بعد الحنفية، وبعدهم أئمة المذهب المالكى، إلا صلوات الصبح كان يؤديها أولا أئمة المذهب الشافعى وبعدهم المالكية وبعدهم الحنفية، وهذا النظام هو السارى الآن.

وقد كتب فوق طاق ذلك المحراب بخط عريض آية

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ (آل عمران: ٣٧).

الجليلة وقد رتبت هذه الآية الكريمة محصورة مستديرة مذهبة، وكتب ابتداء وسط الجهة اليمنى لهذا المحراب ثم خارجا منه إلى الطاق ملتفا من حوله إلى وسط الجهة اليسرى «بسم الله الرحمن الرحيم».

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

صدق الله العظيم. والآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وكذلك كتب من الجهة الداخلية اليمنى للمحراب إلى النقطة التى تنتهى فيها الجهة الداخلية اليسرى.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١٢).

وكتبت هذه الآيات بخط جلى قديم.

ولهذا المحراب المعلى باب شبكى ينفتح إلى اليمين واليسار، وقد كتبت على المصراع الذى فى الجهة اليمنى الجملة المباركة «محمد رسول الله، صادق الوعد الأمين» وفوقه اسم محمد «الطاهر بالخط الجلى المذهب، ولكن الخطوط المذكورة فى الجهة الشامية من مصراعى الباب المذكور أى فى مؤخر حرم السعادة.

وإذا جئنا إلى الجهة الجنوبية من هذا الباب أى إلى الجهة القبلية منه قد كتبت

على الباب الأيمن من المحراب الأحاديث الشريفة «قال النبى عليه الصلاة والسلام، شفاعتى يوم القيامة: حق، فمن لم يؤمن بها لم يكُنْ من أهلها «وكذلك كتب فوق مصراع الباب الذى فى الجهة اليسرى الحديث الشريف» قال النبى ﷺ: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» بخط جلى نفيس وكتبت عبارة: «أنشأ هذا المحراب المبارك، الملك المظفر السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان أعز الله نصره بمحمد وآله وسلم، تاريخه شهر جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وتسعمائة من هجرة النبى ﷺ.

على ظهر الجدار الذى يواجه الجهة القبلية من المحراب السليمانى.

فى ذكر الوقت الذى فرش فيه مسجد السعادة برمل وكيفية فرشه ومنذ متى حدث تعليق القناديل فيه

حدث فى ليلة من الليالى التى أمطرت فيها السماء مطرا غزيرا أن سالت المياه المتراكمة ودخلت فى مسجد السعادة، وجاء صحابى يريد أن يؤدى صلاة الصبح فلم يجد فى داخل المسجد مكانا جافا لأداء الصلاة فأتى من خارج المسجد بمقدار من الرمل وفرشه وجلس عليه منتظرا قدوم الناس، وصلى بالناس بعد الإقامة مقتديا بالنبى ﷺ وبعد أن أنهى النبى ﷺ الصلاة بالسلام التفت إلى الصحابى الذى صلى فوق الرمل وقال «ما أحسن الصلاة على الرمل» والذين رأوا استحسان النبى ﷺ هذا بالفعل احضروا مقداراً من الرمل ونشروه وفرشوه فى داخل المسجد، واتخذ بعض المؤرخين الحكاية التى وردت فى سنن أبى داود حجة وقالوا «إن فرش المسجد الشريف بالرمال عادة أثرت من عصر السعادة».

وقال بعضهم مدعين أن مسجد السعادة قد حصب فى عهد ابن الخطاب، عندما شرع عمر بن الخطاب فى توسيع المسجد فكر فى شىء يفرشه فى سطح وسط المسجد الداخلى حتى تعم فائدته، وعرض بعض الصحابة فرشه بالحصير ورأوه مناسبا، إلا أن حضرة الفاروق رد قائلا: «لا لا كنت سمعت عن النبى ﷺ أن وادى العقيق واد مبارك، والمستحسن إذا فرشناه برمل ذلك الوادى» فأحضر قدرا كافيا من الرمل من ذلك الوادى وحصب ساحة الحرم الشريف.

وأصبح تحصيب مسجد السعادة عادة، وكلما اقتضت الحاجة كانوا يفرشون ساحة مسجد السعادة بالرمل، ولكن بما أن وادى العقيق خالٍ من الرمل الأحمر كانوا يحضرون من مسيل الوادى.

وبعد أن يغربلوه يفرشونه.

فى الطرف الغربى من ساحة المسجد الرملية صفان من القباب وفى طرفه الشرقى ثلاثة صفوف من القباب، وقد خصص تحت القباب الواقعة فى الجهة الغربية لصلاة النساء، والجهة الملاصقة للساحة الرملية شبكة بقفص أخضر اللون وبهذه العلامة بينوا أن هذا المكان خاص لأداء الصلاة للنساء، كما سبق تعريفه فى محله.

ابتداء تعليق قناديل مسجد السعادة:

قال بعض المؤرخين لم تعلق فى عصر السعادة قناديل أو ثريات فى مسجد السعادة، وتصور عمر بن الخطاب فى زمن خلافته أداء صلاة التراويح خلف إمام واحد ولما كان هذا يتوقف على إنارة المسجد دبر عدة قناديل وعلقها إلا أن الإمام القرطبى يضعف هذه الرواية فى تفسيره المشهور قائلاً: «كانت فى عصر السعادة قناديل معلقة فى المسجد الشريف، كان تميم الدارى قد أحضر هذه القناديل من بلاد الشام وعلقها» هذا ما كتبه محققا هذا الأمر.

رواية الإمام القرطبى هذه لا تقبل الكذب، لأن حضرة تميم حينما ذهب إلى الشام اشترى كثيراً من القناديل ولا بأس أن يكون قد اشترى معها قدراً من زيت الزيتون، كما كان اشترى بعض الحبال لتعليق هذه القناديل وعاد.

وعندما وصل إلى المدينة المنورة بعث مع خادمه «أبو البراء» القناديل التى اشتراها، ثم ذهب بنفسه وعلق تلك القناديل فى أماكن مناسبة وأوقدها قبل صلاة العشاء ونال ثناء النبى ﷺ الذى قال له قد أنرت الجمعية الإسلامية»، وبناء على قول ضعيف أن أول من أضاء داخل المسجد بتعليق القناديل هو حضرة معاوية.

وهذا القول مهما كان ضعيفا فإنه ليس كذبا ولكنه خطأ، لأن أول من أنار المسجد الشريف تميم الدارى ولا شك فى ذلك، والاختلاف بين المؤرخين ليس فيمن جاء بالقناديل إلى الحرم الشريف ولكن الاختلاف فيمن علقها، وأقوى

الأقوال أن تميم الدارى هو الذى أتى بالقناديل وعلقها فى جهة من جهات المسجد كما أن حضرة معاوية قد أتى ببعض القناديل وعلقها فى أماكن مناسبة.

كما وضع معاوية نظام إعطاء بعض زيت الزيتون لإيقاده فى قناديل مسجد السعادة على أن يسوى حسابه فيما بعد من بيت المال وتطيب الكعبة المعظمة بالمجامر والخلوق وإنزال الستائر التى بقيت من العهد الجاهلى على الكعبة المعظمة معاوية هو الذى أمر بذلك.

وذهب بعض المؤرخين إلى أن من أنزل الكسوة الجاهلية من فوق الكعبة هو على بن منبه عامل عثمان بن عفان فى اليمن وعلى هذا التقدير يكون عثمان بن عفان هو الذى أنزل الكسوة الجاهلية من على الكعبة، كما أن حضرة عثمان بن عفان أول من كسا منبر النبى المنير.

فى ذكر الذين عطروا المسجد الشريف بأشياء ذات رائحة طيبة

كان النبى ﷺ يخطب يوما، فأمر بتنظيف بعض الأماكن التى أمام جدار القبلة سريعا، بعد أن نظف الناس ذلك المكان مسحوه جيدا ووضعوا عليه بعض الزعفران.

ولما جلس عثمان بن عفان على كرسى الخلافة عطر جميع أنحاء مسجد السعادة وحتى يدوم هذ النظام عين بعض المؤذنين للقيام بهذا العمل.

وعطر عمر بن عبد العزيز فى تاريخ جلوسه الجدار القبلى فقط كما أن هارون الرشيد أمر بتعطير الحجرة الشريفة وجهات مسجد السعادة الأربعة فى سنة ١٧٥ الهجرية.

إيقاد البخور فى مسجد السعادة:

لم يكن إيقاد البخور من الأصول المرعية فى عهد الرسول ﷺ وحين خلافة الصديق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ ثم أصبح ذلك عادة فى عهد عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وسبب ذلك إيقاد بعض العود الذى أهدى له فى داخل المسجد، والعود الذى أهدى لم يكن قابلا للانقسام.

عندما وردت هذه الهدية خاطب الخليفة من بجانبه من الصحابة: «لو قسمنا شجرة العود هذه فيما بيننا فبسبب قلتها سيأخذ بعض منكم ويسعد ويحرم الآخرون فيحزن؛ وحتى لا يحدث هذا فمن الأفضل أن يوقد فى داخل المسجد فيسعد من فى المسجد الشريف ومن بخارجه»؛ فأعطى العود إلى رئيس المؤذنين ليوقده فى داخل المسجد.

فأخذ رئيس المؤذنين العود بناء على الأمر الصادر إلى مسجد السعادة فوضعه فى مجمرة وأوقده مع وجود جماعة المسلمين فى المسجد، ومنذ ذلك الوقت أصبح إيقاد خشب العود فى داخل المسجد عادة بين الصحابة، حتى إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما عاد من الشام أحضر معه مجمرة فضية وأعطاها لسعد ـ رضى الله عنه ـ الذى كان فى ذلك الوقت رئيس مؤذنى مسجد النبى ﷺ، وأصدر أمره بأن يبخر المسجد فى ليالى الجمع والليالى المباركة ولاسيما فى أيام الجمع.

وجناب سعد ـ فخر المؤذنين ـ كان يوقد المجمرة طول حياة الخليفة عمرو، يتركها أمامه.

وقد راعى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ هذه العادة الطيبة وأصبح يوقد فى أيام الجمع والليالى المباركة العود والبخور ولم يترك هذه العادة إلى وفاته.

إيقاد خشب العود والبخور من الأصول المرعية لدى الجماعات الإسلامية، وتجرى هذه العادة سواء أكانت فى الحرمين الشريفين ومساجد الممالك الأخرى، ولم يترك إيقاد العود والبخور عند قراءة المولد الشريف وعندما يختم القرآن مع جماعات فى المساجد.

ولما كان إرسال البخور والعنبر والعطور الأخرى من العادات الطيبة التى يعتز بها المسلمون أوردنا فى الصورة الرابعة من الوجهة الثالثة لمرآة الحرمين كميات العود والعنبر والبخور التى ترسل لتوقد فى ليالى الإحياء وأيام الجمع فى منبر النبى المنير ومحرابه العالى، وبجانب باب كعبة الله ومقام إبراهيم والآثار المسعودة الأخرى.

يطلق أهل المدينة على تعطير الحجرة السعيدة وتبخيرها أصول التعطير، ولما كان أصول التعطير وصورته إجراء خاص بأيام الجمع؛ فإن الموظفين يأخذون الحصص المقررة لكل يوم جمعة من دهن الورد ومائه بعد أداء صلاة المغرب

ويدخلون ومعهم بخور العود والعنبر فى حجرة السعادة فيبخرونها وستارة قبر السعادة ثم يخرجون.

وإن كانت أصول التعطير عبارة عن هذا، فإن أصول التبخيرأيضا لكل ليلة ويوم جمعة فالموظفون يضعون كل ليلة قبل صلاة العشاء على طرفى محراب النبى مجمرة من العود كما يضعون كل يوم جمعة قبل الصلاة على طرفى المحراب مجمرة من «الند» وتظل المجمرتان موقدتين إلى أن يتم أداء الصلاة.

الند:

يخرج الند عند إشعاله رائحة قريبة من رائحة العنبر وهو طيب يستحسنه أهل الحجاز ويقدرونه، وبما أنه نادر ولا يمكن إعداده نقيا يصنع فى زماننا بمادة عادية، يطلقون على أعواد البخور الطويلة «ند» يستعملونها بدلا منه.

جدول مساحة حرم السعادة

الأصبع	الذراع	
١٢	١٤٧	من باب المئذنة الرئيسية إلى الجدار الشرقى لمئذنة باب السلام
١٢	١٥٩	من الجدار الشرقى لباب جبريل إلى عتبة السلام «عرض»
٠٠	٢٣٠	من الجدار القبلى حيث المحراب العثمانى إلى الجدار الشامى منتهى، مسجد السعادة «طولى»
٠٠	١٦	من جدار المحراب العثمانى إلى شبكة حجرة السعادة.
٠٠	١٤	من الجدار الشرقى إلى شبكة سبيكة النور لقدم السعادة.
١٢	٦٦	من المئذنة الرئيسية إلى عتبة الخزانة[1] المتصلة بدكة الأغوات.

(١) يقال للخزانة المتصلة بدكة الأغوات (خلوة) لفتح باب هذه الخلوة ناحية القبلة وهى خاصة بالأغوات ليضعوا فيها بعض لوازمهم. وتوضع فى هذه الخلوة زوارق الماء وأشياء خفيفة أخرى ويجتمع أمام باب هذه الخلوة قبل المغرب بنصف ساعة شيخ الحرم النبوى ومدير الأغوات والفراشون ويدعون أمام شيخ الفراشين، وبعد ذلك يأخذ شيخ الحرم الشمعدان الذى يوضع على رأس السعادة كما يأخذ نائبه الشمعدان الذى يوضع على قدم السعادة كما يأخذ الفراشون الشمعدانات التى توضع فى الجهات الأخرى للحجرة اللطيفة ويوقدونها فى أدب كامل وتعظيم ويضعونها فى أماكنها ثم يعودون.

الأصبع	الذراع		
٦	٨	من باب الجنائز إلى مرقد فاطمة رضي الله عنها	(هذا المكان أوسع قليلاً).
٠	٢	طول المصطبة	يطلق اسم المصطبة على مكان الجلوس
١٨	٢	عرض المصطبة وكذلك طول الطريق الممتد من داخل باب الهجر والمنتهى إلى باب الجنائز.	والمصطبة هنا غرفة اللوازم المتصلة بالخلوة سابقة الذكر وهى خاصة لإقامة شيخ الحرم فى المساء إلى أن توقد القناديل فى هذه الحجرة.
١٨	١٥	عرض الطريق المذكور	هذا المكان جهة الجدار الشامى للمرقد المنير الذى ينسب إلى فاطمة الزهراء.
١٢	٦	عرض الطريق الذى يمر من دكة الأغوات إلى باب الجنائز.	أعلى من الأرض مقدار ذراع ومفروش بأحجار رخامية مزين ومنقودش.
٠٠	٤		
٠٠	١٥	طول دكة الأغوات	هذه الدكة هى صفة أصحاب الصفة وقد أحيط أطرافها بسور خشبى وتعلو عن الأرض ما يقرب من ذراعين.
٠٠	١١	عرض الدكة المذكورة	
١٢	٢	عرض دكة البطالين	هذه الدكة فى مقابل صفة أصحاب الصفة وخاصة بإقامة الأغوات. الذين يطلق عليهم بطال.
٦	١٢ ٩	مؤخرة حرم السعادة من الجدار الشرقى إلى الجدار الغربى.	
١٢	١٢	من المنبر النبوى إلى المحراب الشريف.	عرض حرم السعادة
٠٠	٣٨	من منبر السعادة إلى الحجرة المعطرة يعنى داخل الروضة المطهرة.	جزء من روضة السعادة داخل فى شبكة حجرة السعادة.

عرض حرم السعادة من باب الوفود إلى الجدار الغربى.	١١ ٧	٠٠
عرضه من باب الرحمة إلى باب النساء.	١٤ ٣	١٢
من السقف الشريف الواقع فى جهة باب النساء إلى آخر عرض الحرم[1] الشريف.	٢١	٠٠
عرضه إلى آخر حرم السعادة.	٣٤	٠٠
عرض سقف مؤخر حرم السعادة.	٣٥	٠٠
طول ساحة حرم السعادة الرملية.	١٠	١
عرض ساحة حرم السعادة الرملية.	٤٩	٠٠
عرض ما تحت القباب من باب الجنائز إلى الساحة الرملية.	٧٩	١٢
طول شبكة السعادة إلى نهاية شبكة فاطمة الزهراء.	٤٥	١٢
عرض الشبكة الشامية.	٢٦	٠٠
الجهة الغربية للشبكة.	٤٠	٠٠
جهة المواجهة الشريفة للشبكة.	٣٠	٠٠
ارتفاع جدار حديقة الرسول ﷺ.	٣	٠٠
طول حديقة الرسول ﷺ.	٢٣	٠٠
عرض حديقة الرسول ﷺ.	١٦	٠٠

كانت الساحة الرملية التى فى حرم السعادة أوسع قليلاً سواء كانت طولا أو عرضا، وعندما زين السلطان محمود خان العدلى الموقع الذى يسمى الآن المنطقة الرخامية زاد مقدار الأحجار الرخامية عن الحاجة ففرش موظفو الحكومة جهات الساحة الأربعة بتلك الحجارة الزائد فضاقت الساحة الرملية. أى فرشوا بالرخام فى الجهة القبلية من الساحة الرملية مقدار ١٦ ذراعا وخمسة أذرع من الجهة الغربية منها و ستة أصابع، ومن الجهة الشامية منها أربعة أذرع وستة أصابع، إذ

(١) فى الجهة الرمليلة عمود وهذا العمود إشارة إلى المحل الذى وصل إليه توسيع مسجد النبى ﷺ فى المرة الثانية ومن هذه الإشارة إلى المحراب السليمانى ٨٦ ذراعا وإلى المحراب العثمانى ١٥٤ ذراع و٦ أصابع.

فرشوا من الجهة القبلية طولا من باب الرحمة إلى باب النساء وفرشوا غربا من الجهة القبلية إلى آخر العمود وبين الأعمدة الشرقية والغربية لجهة الشام كما فرشوا فى الجهة الشرقية إلى آخر حرم السعادة بالأحجار الرخامية المجلاة.

كانت فى حديقة الرسول سبع عشرة من أشجار النخيل كبيرة وصغيرة وأشجار التمر الهندى ولكن كان ماء هذا البئر فى غاية المرارة قديما، إلا أنه اكتسب عذوبة من قبيل المعجزة وكانت كافية لإدارة أمر أهل المدينة، ولما كانت هذه العذوبة والحلاوة مازالت مستمرة يعد أهل المدينة هذه المياه فى قيمة ماء زمزم.

الوجهة الرابعة عشرة

تتألف من أربع صور وفيها:

ذكر للأبواب العتيقة والجديدة للمسجد الشريف

والمنازل القديمة وأفاريزها ومنازل الصحابة الواقعة

على جانبى هذه الأفاريز وحال وشأن المكان

الذى اتخذ سوقًا فى عصر النبوة

فى تعريف أبواب مسجد السعادة العتيقة والجديدة

كان للمسجد النبوى قديما عشرون بابا قديما، ثمانية منها فى الجهة الغربية وثمانية منها فى الجهة الشرقية، وأربعة منها فى جهة الشام، وكانت أربعة أبواب أخرى لدخول خواص الناس وخروجهم وهى فى الجهة القبلية، وقيل إن مروان بن الحكم هو الذى أمر بفتح تلك الأبواب، وبقيت الأبواب سالفة الذكر الأربع والعشرين بناء على القول الأخير إلى عهد الخليفة محمد المهدى بالله بن أبى جعفر المنصور.

ولكن عشرين من تلك الأبواب أغلقت فى عهد الخليفة المذكور وأبقيت الأربعة مفتوحة، وفى عهد السلطان عبد المجيد خان فتح باب جديد وأصبح للمسجد خمسة أبواب:

١ـ الباب العثمانى:

هذا الباب أقرب الأبواب إلى الحجرة النبوية المعطرة وقد جدده السلطان عبد المجيد خان.

وكان باب الرحمة تجاه دار عثمان بن عفان ولذلك عرف باسم (باب عثمان) وكان يسمى كذلك باب النبى لأنه ﷺ كان يمر منه وهو فى طريقه إلى مقبرة بقيع الغرقد، ويسمى هذا الباب الآن (باب جبريل) ووجه هذه التسمية أن جبريل عليه السلام كان ينتظر النبى عنده، ففى غزوة بنى قريظة كان جبريل على فرسه لابسا الدرع يرقب النبى ﷺ عند هذا الباب.

وإن كانت مبانى باب جبريل من جملة ما رممه وعمره السلطان قايتباى المصرى

إلا أنَّ السلطان عبد المجيد قد رممه فى عام ١٢٠١هـ على هيئة غاية فى المتانة وفرش جوانبه الأربعة بالرخام وقد أزيلت عنه الأتربة على أنه ملاذ للملائكة وزينت كل جهة فيه بالخطوط الجميلة المتنوعة.

وبما أن الخطوط التى كتبت على أطراف ذلك الباب فى غاية النفاسة ورتبت على شكل جميل كان الباب العثمانى أكثر الأبواب جمالا وزينة من حيث الخطوط، وكتب الشخص الذى نظم تلك الخطوط المبسوطة فوق طاق الباب بعد البسملة.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٤)

وكتب مبتدئا من الجهة اليمنى من ذلك الطاق إلى نهاية الجهة اليسرى مع البسملة ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٩٧).

والآية:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).

وكتب فى ذيل هذا السطر بخط جلى بعد البسملة الآية الكريمة

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ (ص: ٥٠).

وبيت:

وحط فى بابنا ما شئت من ثقل وكل شىء يرى صعبا يهون بنا

وفى نهاية الآية:

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (سورة الزمر/ آية ٧٣)

وفوق الجدار الأيسر للباب كتب تاريخ: «أمر بعمارة هذ الحرم الشريف النبوى حضرة مولانا السلطان عبد الحميد خان بنظر المعتمد الحاج محمد سلاحشورى سنة (١٢٠١)».

والباب العثمانى الشريف أو الأبواب التى تقع فى الجهة الشرقية من حرم السعادة من الناحية القبلية وقد هدمت فى التعميرات الأخيرة فى عهد سلطنة عبد المجيد خان كليا وغير بعض رسومه القديمة ونقشت من جديد.

وقد كتب الآن فوق طاق الباب الخارجى بخط جلى الآية الجليلة قال الله العليم الخبير فى كتابه العزيز.

: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم: ٤).

«صدق الله خالقنا رب العالمين».

وفوق طاقه الداخلى البيت البليغ فى سطرين بخط جلى:

وحط فى بابنا ما شئت من ثقل فكل شىء يرى صعبا يهون بنا

وكتبت فوق مصراعيه الأيمن والأيسر بخط جلى الآية الكريمة

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ (ص: ٥٠).

وكتبت فى ذيل هذه الآية الكريمة عبارة: «عمره السلطان عبد المجيد».

وعلى حلقاته اليمنى واليسرى كتبت الجملة المنجية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مذهبة.

وبالخروج من باب جبريل وعلى مسافة قدرها ثلاثة أذرع وشبر وفى اتجاه البقيع حجر كبير يعلو عن الأرض شبرا ويقال إن هذا الحجر قد وضع علامة على المكان الذى وقف فيه جبريل ـ عليه السلام ـ فى عصر النبوة ولكن بناء على

القول الصحيح للزم أن يكون الحجر الموضوع فى الجهة اليمنى فى داخل المسجد هو ذلك الحجر الذى وضع عليه علامة الموقع الذى وقف فيه جبريل.

حتى إن إطلاق اسم «نافذة جبريل» على النافذة الثانية التى تقع فى الجهة القبلية من ذلك الباب يومئ إلى هذه الحلقة، وقد كتب فوق النافذة المسماة بنافذة جبريل الآية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٦)

وذهبت على شكل جميل، وهناك فى الجهة القبلية من باب جبريل أى فوق جدار القدم النبوية أسس فى عهد السلطان عبد المجيد خمس نوافذ مستديرة من أعلى قد كتبت فى وسط عقودها الداخلية والخارجية فى شكل مستدير أسماء جماعات الملائكة، وقد كتب على النافذة الأولى (جبريل عليه السلام) وعلى النافذة الثانية (ميكائيل عليه السلام) وعلى النافذة الثالثة (إسرافيل عليه السلام) وعلى النافذة الخامسة (رضوان عليه السلام)، كتبت مذهبة.

وأمام هذا الباب الرباط الذى أقامه جمال الدين بن أبى المنصور الأصفهانى من وزراء الدولة الزنكية، ولقد وقف جمال الدين هذا الرباط لإيواء فقراء العجم[1] وحفر فى داخله قبرا لنفسه.

إن الرباط الذى أقامه جمال الدين الأصفهانى يتألف من ثلاثين حجرة فى أعلاه وأسفله، وبين جداره الخارجى وشبكة الحجرة المعطرة مسافة قدرها ثلاثة وأربعون ذراعا.

رواية

جمال الدين المذكور هذا ابن أخى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين بن أيوب، وقال أسد الدين شيركوه هذا ذات يوم لابن أخيه، أى واحد منا يتوفى

(١) سبب إطلاق اسم رباط على ذلك الرباط ما ذكر.

قبل الآخر يدفنه من بقى على قيد الحياة فى المدينة المنورة» وقبل جمال الدين ما أوصى به عمه إلا أن الأجل المحتوم وافاه بعد مدة[1] فقام عمه أسد الدين بإرسال نعش ابن أخيه إلى المدينة حسب الاتفاق وأنفق نقودا كثيرة وأحال الأمر إلى الشيخ أبى القاسم الصوفى ليقوم بما يقتضيه الأمر، وقد أخذ المشار إليه الشيخ أبو القاسم النعش أولا إلى مكة المكرمة وطاف بنعشه حول الكعبة ثم صلى عليه ثم أوصله إلى المدينة المنورة ودفنه فى القبر الذى أمر بحفره.

غريبة

عندما وصل الشيخ أبو القاسم الصوفى مستصحبا نعش المتوفى المذكور إلى حدود كعبة الله عاملا برأى أسد الدين شيركوه أعلن إلى الناس بأنه سيصلى عليه وطلب منهم أن يستعدو لذلك، وفى الوقت الذى يستعد للقيام بالصلاة على المتوفى قام أحد الشبان فى مكان عال، لا يعرف هويته وأنشد بصوت مرتفع القطعة الآتية:

سرى نعشه فوق الرقـاب وطالمـا ... سرى وجوه فوق الركاب ومائله

يمـر عـلى الـوادى فتثنـى رمالـه ... عليـه وبالنـادى فتثـنى أراملـه

يقول ابن سعد الذى نقل هذه الغريبة فى طبقاته بعد أن أظهر شدة تعجبه وحيرته منها: عندما استمعت إلى قطعة: «سرى نعشة» ارتفع النواح والنحيب فى صلاة جمال الدين الأصفهانى، عندما استمعت إلى هذه القطعة صلى على جنازته دون توقف حينما وجبت ثم أخذت الجنازة إلى المسجد الحرام وصلوا عليه، وبعد أن طافوا بها كعبة الله أخذوها إلى المدينة المنورة حيث صلوا عليها صلاة ثالثة، ثم دفنوا جنازته فى القبر الذى حفره.

يروي المؤرخون أن القبر الذي دفن فيه جمال الدين المشار إليه في داخل رباط العجم، وبما أنه لا يوجد الآن في داخل الرباط قبر يلزم أن يكون الضريح الذي

(١) يرى المؤرخون أن جمال الدين محمد بن أبى منصور مات فى خلال سنة ٥٧٦ مسجونا.

يلاصق ذلك الربط مدفنه، ولا ندرى كيف أخرج هذا الضريح إلي خارج رباط العجم.

المتوفي المشار إليه من وزراء بني زنكي يروي عنه معاصره المؤرخ ابن الأثير أنه زين وفرش جدار الحطيم الشريف في مكة المكرمة وما حول البيت الأعظم من جهاته الأربعة في صورة جميلة، وعَمَّرَ وجدد مسجد الخيف وحفر أحواضا في جبل عرفات وأسال الماء الذي كان قد انقطع، وأنقذ الزوار الذين يزورون بجبل الرحمة بأن صنع سلما ذا خمس أو عشر درجات تهون من المشقة، والحصن النهري حول المدينة أثر من آثار جمال الدين الخيرية.

وخلاصة القول أن المرحوم كان من أصحاب البر والخير وله في البلاد الأخرى آثار خيرية لا تعد ولا تحصى، رحمة الله عليه.

٢ـ باب ريطة (باب النساء):

وباب ريطة الباب الثاني من أبواب مسجد الرسول وبما أنه أمام دار ريطة بنت أبي العباس السفاح سمي باب ريطة.

وساحة منزل ريطة بنت أبي العباس السفاح كانت أرض المدرسة الثمينة التي بناها بازكوش من أمراء الشام خاصة للعلماء الحنفية، ولما كان بازكوش قد بذل جهدا ونقودا كثيرة لبناء هذه المدرسة أوصى أن يدفن في حظيرة هذه المدرسة ودفن فعلا بعد وفاته في داخل المدرسة بناءً على وصيته.

وبعد فترة سمي باسم بازكوش وعرف المكان باسم «زاوية الشيخ عبد القادر الجيلاني»، والآن يطلق عليه «زاوية السمان» السمان اسم رجل من رجال الطريقة الصوفية القادرية وقد عرف بالزهد والصلاح وهو ينتسب إلى بنت السمان، والزاوية المذكورة وقفت لأولاد وأحفاد هذا الشخص.

و«محمد أبو الحسن» مازال حيا وهو أصغر أبناء الشخص المذكور ولم يبق أحد آخر من أولاده.

وقد ارتحل الصِّدِّيق الأكبر ـ رضى الله عنه ـ عن دنيانا إلى دار الاخرة فى الجانب الشرقى من هذه المدرسة، وبما أن حضرة الفاروق ـ رضى الله عنه ـ قد سمع النبى ﷺ يقول «إننى وقفت هذا الباب للنساء» لذلك خَصَّ باب ريطة فى وقت خلافته لدخول النساء وخروجهن، ولما كان عبد الله بن عمر حيا ويعيش فى الصفة الدنيوية لم يدخل ولم يخرج من هذا الباب اقتفاءً لأثر والده، ومازال باب ريطة إلى اليوم، إلا أنه معروف باسم باب النساء.

وهو الباب الثانى من الأبواب الواقعة فى الناحية الشرقية من حرم السعادة من الناحية القبلية، وقد أبرزت جهته الخارجية بأسطوانتين وأجزاء من جدار الحرم الشريف والجهة التى أخرجت إلى الخارج وقد كتب بخط جلى على عقد الجدار الذى لف فوق الأسطوانتين الآية:

قال الله تعالى وتبارك وجل وتقدس:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وكتب كذلك على طاق الباب الأصلى الخارجى والذى يوجد فى محاذاة جدار الحرم الشريف الآية الجليلة بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل: ٣٠)، والآية:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وكتب على طاق النافذة التى تتصل بالباب من الخارج الحديث: «النجاة فى الصدق» صدق رسول الله، وعلى الطاق الداخلى للباب المذكور الآية الجليلة:

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣١)

وفوق هذه الآية الكريمة أى فى المكان الذى فوق عقد الباب المذكور نقشت هذه الآية الكريمة:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٣٢)

٣- باب عاتكة (أوباب الرحمة):

الباب الثالث للحرم النبوى الشريف هو الباب الذى يسمى «بباب الرحمة، الذى يقع فى محاذاة دار[١] عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية وكان يشتهر فى زمانها باسم «باب عاتكة».

ولما كانت سوق المدينة الميمونة أمام باب عاتكة قديما عرف واشتهر ذلك الباب فترة باسم «باب السوق».

ولكن حدث أن النبى ﷺ كان يستعد لخطبة يوم الجمعة إذْ جاء رجل من جهة «دار القضاء» وقال: «يا نبى الله! قد نفقت حيواناتنا من قلة الماء وتعب أولادنا وعيالنا، نرجوك أن تدعو الله لأجلنا أن يبعث لنا مطرا»، وبمجرد رفع النبى ﷺ يديه داعيا ظهرت ناحية جبل سلع علامات المطر والرحمة فنزلت الأمطار التى سقت مدينة الرسول ونواحيها لأجل ذلك أطلق على باب عاتكة «باب الرحمة».

دار القضاء التى ذكرت آنفا كانت داراً واسعة تمتد من باب الرحمة إلى باب السلام، وكانت ملك عمر بن الخطاب، وكان أوصى بأن تباع عند وفاته لقضاء دينه، وعندما مات بيعت لمعاوية بن أبى سفيان وقضيت ديونه لأجل ذلك عرفت من ذلك التاريخ بدار القضاء، إلا أن بعض المؤرخين ينسبون هذه الدار إلى عبد الرحمن بن عوف وأنه انزوى فى هذا البيت إلى أن بيع لحضرة عثمان.

(١) انتقلت هذه الدار بعد وفاة صاحبتها إلى يحيى بن خالد.

عندما كان زياد بن عبد الله خال السفاح العباس واليا على المدينة اشترى تلك الدار فى خلال سنة (١٣٨هـ) وألحقها بحرم مسجد السعادة.

وفصلوها بعيدًا عن المسجد الشريف وبنوا هناك بناء ليكون دائرة حكومية، وتلك هى الأبنية الجسيمة التى أسست فى ذلك الوقت والذى عرف باسم «الحصن العتيق» وفى سنة ٨١٤هـ اشتراها حاكم البنغال السلطان غياث الدين وبنى مكانها بناء جميلا بعد هدمها.

وكانت المدرسة التى بناها الأمير جوبان من قيادة الجنود المتغلبة فى سنة ٧٢٤ فى الجهة القبلية من ذلك الرباط.

كان الأمير جوبان بنى لنفسه ضريحا فى هذه المدرسة إلا أنه لم ينل شرف الدفن فيه.

وكانت «دار الشباك» المنسوبة إلى شيخ الخدم المرحوم الحريرى فى جهة باب الرحمة.

وفى سنة ٨٨٨هـ اشتريت تلك الأماكن كلها من السلطان قايتباى وهدمت وبنيت فوق مساحتها المدرسة والرباطان المنسوبان للملك المذكور وسمى ذلك الرباط فيما بعد برباط السلطان وسميت المدرسة بالمحكمة، وكان قضاة المدينة المنورة إلى وقت قريب يقيمون فى هذه المدارس، ونقلت المحكمة فيما بعد ذلك إلى مكان آخر، كما أن المدرسة آلت إلى الخراب فيما بعد فجددها السلطان محمود خان العدلى فى صورة مكملة وأضاف إليها مكتبة وأسس دارا بين باب الرحمة والمدرسة المذكورة لإقامة تلك المدرسة، وزين المكتبة المذكورة بكتب نادرة ورسائل نفيسة لم تكن موجودة فى المدينة.

وبعد خمسين عاما أشرفت سواء أكانت المدرسة أو الدار المذكورة على الخراب فجددت من قبل نجله النجيل السلطان عبد العزيز خان فأضيفت إلى تلك المدرسة حجرات عديدة فى الطابق الأول والثانى تحت نظارة شيخ الحرم أمين باشا وهدمت كليا وبنيت على أن تكون مدرسة مرة أخرى فى سنة ١٢٨٨هـ.

كان شخص يسمى أبو بكر بن مزهر[1] قد صنع فسقية فى اتصال عقد «باب الرحمة» وكانت فسقية ذات قبة سنة ٨٩٣هـ، ومازالت هذه الفسقية إلى يومنا هذا. ويقع فى الجهة اليمنى لمن يدخلون إلى مسجد السعادة من هذا الباب صنبور كان السلطان عبد المجيد قد أسسها قبل تجديد المسجد الشريف، وهذا الصنبور أمام السبيل والميضأة اللتين أقامهما السلطان أحمد خان ولم يكن للمسجد قبل ذلك باب سوى هذا الباب أى باب الرحمة فى الجهة الغربية منه، هذا الباب فى يومنا الحالى هو الباب الثانى فى الجدار الغربى للحرم الشريف، وعلى طاق هذ الباب كتبت الآية الكريمة، بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى فى كلامه الكريم:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر ٥٣).

صدق الله العظيم، وفى الطرف الداخلى لهذا الطاق:

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام ٥٤).

وعلى المصراع الشرقى (يا مفتح الأبواب) وكذلك على المصراع الغربى (افتح لنا خير الباب) مزدوجا، وعلى حلقتى المصراعين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والبسملة الشريفة سالفة الذكرُ ذُهِّبَتْ ونُسقت على هيئة الطغراء الغراء.

٤ـ باب السلام:

الرابع من أبواب مسجد السعادة الموجودة الباب الذى يعرف باسم «باب السلام» وبما أن ذلك الباب كان لصق بيت مروان بن الحكم كان يعرف فى حياته بـ «باب مروان».

وهدم سيف الدين قلاوون من الملوك المصرية فى سنة ٨٨٦هـ بيت ابن الحكم

(١) كان أبو بكر بن مزهر رئيس ديوان الإنشاء للحكومة المصرية ويعرف باسم «المقر الزينى» وكانت لهذا الشخص مدرسة فى ناحية باب الرحمة.

الذى كان متصلا بباب السلام وأسس مكانه «دار ميضأة» وبعد ذلك عرف باب السلام «بباب الخشوع».

إخطار

قد أسُس على ساحة دار الميضأة مؤخرا مدرسة بشير أغا المشهورة ونقلت الميضأة فى أثناء بناء المدرسة إلى الجهة الغربية من مسجد السعادة، وهذه الميضأة الآن أمام الشارع المعروف بـ (زرندى) وهذا الشارع على يمين من يمضى إلى الباب المصرى.

وباب السلام الباب الأول من الأبواب التى فى الجهة الغربية من حرم السعادة من الناحية القبلية، وأكبر أبواب مسجد النبى الخمسة وأكبرها زينة، وطلاؤه أخضر مائل إلى الزرقة وأحيانا أبيض وقد كتب عليه خطوط جميلة متلونة مما جعل هذا المكان أشبه شىء بالحديقة.

والخطوط التى أريد أن أعرف منظرها، وقد بدأت الكتابة من الجدار الذى على الجهة اليمنى عند الدخول.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ (الإسراء: ٨٠-٨٣).

كما كتبت الآية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ

اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴿٢٥﴾﴾ (الأحزاب: ٢١-٢٥).

وكتبت فى الصف الثالث القصيدة البليغة:

فداك أبى وأمى يا رسول الله

رســـول الله إنى مستـــــــجير
بجاهـــك والزمـــــان له اعتداء
وجاهك يـــا رسول الله جـــاه
رفيـــع مـــا لرفعته انتهـــاء
وظنى فيـــك يـــا طـه جمـيل
ومنـــك الجـــود يُعْهَدُ والسخـاء
وحـاشـــا أن أرى ضيقـــا وذلا
ولى نســـب بمدحـــك وانتمـاء
رجوتك يـــا ابن آمنـــــة لأنى
محب والمحـب لـــه رجـــاء
عسى بـك تنجـلى عنـى كروبى
وكـــم كرب لـــه منـــك انجلاء
وكم لك يـــا رســـول الله فضل
تضيـــق الأرض عنـــه والسماء
وكم لك معـجزات ظـــاهـرات
كضـــوء الشمـــس لـــه ضيـــاء
وأنت لنـــا عـــلى خلـــق عظيم
ونحـــن على العمـــوم لك الفداء

وكتب فى الصف الرابع «اللهم أيد بالنصر والعز مولانا السلطان عبد العزيز بن عبد المجيد بن محمود بن مصطفى بن سليم بن عبد المجيد بن مصطفى بن عثمان بن محمود بن أحمد بن أحمد بن سليمان بن محمد بن إبراهيم بن مراد بن مصطفى بن عثمان بن مصطفى بن أحمد بن محمد بن سراد بن سليم بن سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه، أيد الله ملكهم إلى آخر الزمان ونهاية الدوران».

وكتب على مصراع الباب الأيمن الآيات:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (الحجر ٤٥).

وعلى مصراعه الأيسر:

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ (الحجر ٤٦)

وكتبت جملة «هذه خوخة سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه» فوق باب (الخلوة) التى تقع فى الجهة الداخلية للجدار الأيسر، يعنى فوق طاقة الباب الذى استثنى من الغلق عندما صدر الأمر النبوى بسد جميع الأبواب التى تنظر إلى الحرم الشريف.

باب الخوخة الذى كتبت على طاقته الجملة السابقة الذكر هو الباب الثالث فى ناحية «باب السلام» من الجهة اليسرى.

لأن الخوخة الذى كانت بين باب السلام وباب الرحمة عرفت بخوخة أبى بكر كانت أمام المخزن وبمحاذاته، وقد ألحقت تلك الخوخة والمخزن فى عهد وليد بن عبد الملك بمسجد السعادة.

وصنعوا خوخة فى محاذاة الخوخة التى كانت تنسب إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

ولذا كانوا يبنون المدرسة الأشرفية وفتح باب المدرسة فى هذه الجهة من مسجد

السعادة، أى بين باب السلام وباب الرحمة ثلاثة أبواب وعبارة «هذه خوخة. . .» فى الباب الثالث من هذه الأبواب.

فى المكان الذى يصادف الداخلين إلى المسجد من باب السلام وعلى يمينهم أى فى الجهة الجنوبية لداخل المسجد النبوى وبعيد هذا المكان من الجهة الداخلية لجدار حرم السعادة القبلى، هناك أربعة أسطر من الخطوط النفيسة المحكوكة على حجارة، وكلها خطوط جلية وقد كتبت فى الصف الأول:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة: ١٨٥-١٨٦)

قال الله تعالى فى كتابة العزيز:

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت ٤٢).

والآية:

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٣)

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ

مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٤-١٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران: ٣٥)

إلى قوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(النساء: ٦٥)

وقوله تعالى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧)

والسطر الثانى قوله تعالى:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

صدق الله ربنا العظيم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: ١١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾

(إلى قوله)

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم رضى الله تعالى عنهم أجمعين، بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦١-٢٦٢).

صدق الله العظيم، بسم الله الرحمن الرحيم،

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

صدق الله العظيم، بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾

إلى قوله:

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (الفتح: ٢٩).

وفى الصف الثالث: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور: ٣٦-٣٧).

قال الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم،

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٩٨).

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح)

إلى آخر السورة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين أجمعين.

وفى الصف الثالث: هذه أسماء النبى ﷺ، محمد ﷺ) إلى آخر الأسماء الجليلة.

عدد أسماء النبى الشريفة مائتان وواحد، وقد كتبت كلها فى السطر والصف

الرابع، وقد كتبت ورتبت كلها على شكل مربع، جعلت صلاتها فى شكل مستدير، من زاوية باب السلام التى فى زاوية الجدار القبلى لحرم السعادة وأكُملت أمام المواجهة الشريفة.

الأبواب التى ذكرت إلى هنا وفُصِّل تعريفها أكبر من جميع الأبواب الأخرى، قد اعتيد ترك هذه الأبواب الأربعة مفتوحة من الصباح إلى المساء إلى أن أصبح عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة وكانت بعض الحيوانات تدخل إلى مسجد السعادة، فصنع عمر بن عبد العزيز فى داخل الأبواب وخارجها سياجا خشبية فحال دون دخول البهائم فى المسجد إلا أن الزوار زادوا فيما بعد فازدحم الناس فى الدخول والخروج حتى حدثت أحيانا المجادلات من أجل النعال أمام قبر الرسول ﷺ، مما يسئ إلى الرسول ﷺ، كما ظهرت فكرة أخرى أن تُرفع تلك السياج وتبدل بسلاسل حديدية وأزيلت هذه السلاسل أيضا فيما بعد وتركت الأبواب مكشوفة مفتوحة مما سبب المنازعة من أجل النعال. والأبواب فى زماننا هذا خالية من السياج والسلاسل الحديدية وتترك مفتوحة حتى المساء، وبما أنه قد صنع مكان لوضع النعال وعين لذلك موظفون عديدون فانعدمت منازعات النعال. وأصبح المصلون كالمصلين فى مساجد استانبول يخلعون نعالهم عند باب المسجد ويسلمونها لمن يتولى حفظها وعند استلامها لدى الخروج ينفحون بعض القروش لهم على سبيل الصدقة، ويرتزق بضعة من الفقراء بهذه الطريقة ويجدون قوت يومهم.

٥. باب التوسل:

الباب الخامس من أبواب مسجد النبى ﷺ هو باب التوسل ويقع فى الجهة الشامية لمسجد النبى الشريف، وقد فتح هذا الباب فى عام (١٢٦٧هـ) على عهد السلطان عبد المجيد.

ولذلك يسمى كذلك «الباب المجيدى» إلا أن ظن عامة الناس بأن «الباب المجيدى» و«باب التوسل» بابان مختلفان ظن خاطى لأن باب التوسل باب داخلى وخارجى، وبين هذين البابين تسع مدارس فوقية وتحتية قد خصصت إحدى هذه المدارس لتدريس اللغة الفارسية والبقية لتعليم اللغة العربية عذبة البيان، وأحد هذين البابين فى الجهة الخارجية للمدارس المذكورة والآخر فى جهة مسجد السعادة، ولما كان الباب الذى يفتح إلى حرم السعادة يواجه باب التوسل الذى يقع فى الجهة الشمالية للحجرة.

المعطرة أطلق عليه باب التوسل بإيحاء من السلطان عبد المجيد ووُسِمَ الباب الذى يفتح إلى خارج الحرم باسم «الباب المجيدى» وكتبت الآية الجليلة على طاق الباب المجيدى أى على طاقة مصراعى الباب الذى يفتح إلى الخارج من باب التوسل: قال الله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ صدق الله ربنا المعين. (المائدة: ٣٥)

وقد كتبت على أول عمود يقابل الداخل من أى واحد من الأبواب الخمسة إلى حرم السعادة، عبارة «نويت سنة الاعتكاف»، وكان باب التوسل أمام دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف وفى القديم كان هنا باب كذلك كما سبق تعريفه فى بحث تعمير مسجد السعادة، وعندما جدد جدار هذه الجهة من المسجد فسد ذلك الباب القديم لسبب ما. وعند الخروج من هذا الباب يُرى فى الجهة اليسرى منه صنبور وفى مواجهة الميضأة التى تشتمل على بيت الخلاء أيضا هذه المبانى الضخمة من آثار والد السلطان كثير المحامد المبرورة.

والأبواب التى عرفت إلى الآن مازالت قائمة مع باب التوسل الذى فتحه السلطان عبد المجيد والأبواب التى سيأتى ذكرها فى الآتى كلها مسدودة إلى حد أنه لا تعرف أماكنها.

١ـ باب مروان:

أحد الأبواب المسدودة المجهولة، وكان هذا الباب خاصا بدخول أمراء الأسلاف وخروجهم وكان يفتح إلى مقصورة مسجد السعادة وكان يعرف بـ (باب مروان).

٢ـ باب بيت زيت القناديل:

كان أحد الأبواب المسدودة على يمين باب مروان المسدود وكان يعرف بباب بيت زيت القناديل وبناء على ما ترويه التواريخ كان مروان بن الحكم فتحه حينما بنى البيت الذى باسمه، وبما أن وجوده وعدمه كانا يتساويان سُدَّ عندما جددت مئذنة باب السلام.

٣ـ باب المقصورة:

من الأبواب التى سُدت الباب الذى كان يقع على يسار باب مروان وهو الباب الصغير الذى كان يسمى بباب المقصورة.

٤ـ باب خوخة آل عمر:

الرابع من الأبواب المسدودة الباب الذى يعرف بخوخة آل عمر بن الخطاب فى ناحية زقاق «ديار عشرة» كان الباب المذكور قديما يفتح للزوار ويراعيه واحد من البوابين، ولما أسئ استعماله فيما بعد لاجتماع الرجال بالنساء فيه أغلق فى عصر السلطان قايتباى سنة (٨٨٨هـ) وخصص لبوابه وظيفة أخرى.

٥ـ باب على:

الخامس من الأبواب المسدودة، باب على الذى يستقر فى الجدار الشرقى أساسًا ولما كان هذا الباب مقابل دار على التى كانت متصلة بحجرة السعادة فعرف باسم (باب على) وعندما جدد الجدار الشرقى سد هذا الباب وتركت فتحة صغيرة لزيارة الدار من الخارج، وحتى من كان يدقق النظر من هذه الفتحة كان يرى داخل حجرة السعادة، ثم سُدَّتْ هذه الفتحة بالحجارة.

٦ـ باب النبى صلى الله عليه وسلم:

من الأبواب المسدودة الباب الذى اشتهر بباب النبى وسبب تسميته بذلك الاسم وقوعه أمام دار السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبى ﷺ، وعند تجديد الجدار الشرقى سد هذا الباب أيضا ووضع مكانه شبكة حجرة السعادة، والآن يقف الزوار الكرام على مساحة هذه الدار ويعرضون صلاتهم وسلامهم على سلطان الأنبياء (عليه أجمل التحايا).

٧ـ باب أسماء:

السابع من الأبواب المسدودة باب أسماء وبما أنه كان أمام بيت أسماء بنت حسين بن عبد الله بن عبيدة بن العباس بن عبد المطلب كان يقال له باب أسماء وقد سد فى سنة ٥٨١هـ عندما جددت المئذنة الشرقية الشمالية.

وقد هدمت دار أسماء بنت حسين بن عبد الله سالفة الذكر وبنى مكانها رباط خاص بالنساء.

٨ـ باب خالد بن الوليد:

أحد الأبواب المسدودة الباب الذى كان أمام بيت خالد بن الوليد، وسبب تسميته بذلك الاسم وقوعه أمام دار خالد بن الوليد، وقد هدمت دار خالد بن الوليد هذه مؤخرا وبنى على مساحتها رباط وسبيل وكان بيت عمرو بن العاص فى الطرف الشمالى إلى الرباط.

٩ـ باب زقاق دار المناصع:

باب زقاق دار المناصع يواجه شارع دار المناصع، وكان هذا الباب بين دار عمرو بن العاص وبيوت الصدفية ودار على العسكر المشهورة و«حوش الحسن» كانت أمام هذا الباب وقبل أن يسد كانت طائفة النساء تدخل وتخرج من هذا الباب.

١٠ـ باب أبيات الصوافى:

هو الباب العاشر المسدود وكان فى منتهى الجدار الشرقى للمسجد الشريف

وأمام الدار التى يقال لها دار موسى بن إبراهيم المخزومى وبقى مؤخرا فى داخل الجدار، واشترى الشيخ صفى الدين سلامى هذه البيوت التى تسمى أبيات الصوافى ووقفه أولا لأقاربه ثم لإيواء الفقراء، وكانت للأبيات المذكورة باب اخر يدخل منه لعمارة الشيخ صفى المشار إليه والتى تعرف باسم «رباط النخلة» وسد فيما بعد هذا الباب أيضا.

١١ ـ باب دار الضيافة:

واحد من الأبواب المسدودة هو الباب الذى كان فى الجهة الشامية من مسجد السعادة وأمام دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف، وكان حضرة عبد الرحمن قد تعود أن يطعم ضيوف النبى ﷺ، ولهذا سمى «باب دار الضيافة» وفى سنة ٦٢٧هـ اشترى المستنصر دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف وأنشأ هناك مستشفى وجعلها مأوى للمرضى الغرباء ومسكنا.

١٢ ـ باب دار الحميد:

ولما كان هذا الباب يقابل الجهة الأخرى من دار الحميد بن عبد الرحمن بن عوف اشتهر بباب دار الحميد ثم سد هذا الباب أيضا مثل الأبواب الأخرى، وساحة دار حميد فى هذه الجهة مساحات رباط الطاهرية والشرشورية.

١٣ ـ باب أبيات خالصة:

الثالث عشر من الأبواب المسدودة «باب خالصة»، الذى يقع أمام دار الحميد التى فى مقابل أبيات خالصة، والرباط الذى أحياه الشيخ شمس الدين التسترى كان بجانب هذا الباب.

١٤ ـ باب بقية أبيات خالصة:

أحد الأبواب المسدودة باب «بقية أبيات خالصة» لما كان الباب المذكور فى نهاية الأبواب الشامية وفى الجهة الأخرى من أبيات خالصة، أطلق عليه «باب بقية أبيات خالصة».

١٥ ـ باب دار منيرة:

أحد الأبواب المسدودة الباب الذى يقال له باب دار منيرة، وهذا الباب من أبواب الجهة الغربية بما أنه فى اتصال دار منيرة الحاضنة جارية أم موسى كان يعرف باسم باب دار منيرة، ودار منيرة الحاضنة من جملة بيوت عبد الرحمن بن عوف وانتقلت من يد لأخرى حتى وصلت ليد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ومنه إلى جارية أم موسى منيرة الحاضنة كما أن ساحة. دور ابن عوف فى زقاق قياشين انتقلت ليد قاضى الحرمين المشهور السيد محيى الدين الحنبلى.

فأسس محيى الدين الحنبلى فوق هذه الساحة داراً فى غاية الفخامة وبعد مدة وقفت هذه الدار لإقامة قضاة الحنابلة. وفى هذا العصر يقيم مفتيو الحنابلة فى هذه الدار ويستريحون.

١٦ ـ باب بقية دار منيرة:

السادس عشر من الأبواب المسدودة كان الباب الذى يقابل الجهة الأخرى من دار منيرة الحاضنة والذى يشتهر بباب بقية دار منيرة، ووقفت هذه الجهة من الدار فيما بعد لإقامة خدم مسجد السعادة وسُدّ الباب المذكور، وأحد هذين البابين كان ظاهر الآثار إلى وقت قريب.

فى ذكر المنازل القديمة
التى تحيط بمسجد السعادة من جهاته الأربعة

يقع منزل عبد الله بن عمر بن الخطاب فى الجانب الشرقى لجدار مسجد السعادة القبلى وفى الأصل كان هذا المنزل دار السيدة حفصة (رضى الله عنها).

وكانت ساحة هذه الدار فى الأول مكانا لتجفيف البلح عندما وسع عثمان بن عفان المسجد اشترى الساحة من صاحبها وأهداها إلى والدتنا المشار إليها، وفتح لها بابا إلى المسجد الشريف، وبعدما فتح هذا الباب اشتهرت ساحة ذلك البيت بـ «دار آل عمر» وفى آخر الأمر انتقلت تلك الدار لملكية عبد الله بن عمر.

وكانت فى الجهة الغربية من دار آل عمر دار «مروان» بن الحكم، وبقى جزء من ساحة هذه الدار من ساحة بيت حضرة عباس، لأن عمر بن الخطاب عندما وسع مسجد السعادة للمرة الأولى ضم نصف هذا البيت إلى مسجد السعادة وظل النصف الآخر خاليا وأصبح هذا المكان ميدانا صغيرا، فاشترى فيما بعد مروان بن الحكم هذا الميدان وبنى منزله المذكور.

قد بنى منصور قلاوون المصرى فى سنة ٦٨٦هـ فوق ساحة دار مروان بن الحكم ميضأة كاملة، إلا أن وجود الميضأة بجانب مسجد السعادة أصبح غير لائق بسبب الرائحة الكريهة التى تنبعث من هذه الميضأة والتى جعلت الوقوف داخل المسجد الحرام مستحيلاً، فهدم شيخ الحرم النبوى بشير أغا دور الخلاء تلك فى عهد السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى خان وبنى هناك مدرسة كاملة منسوبة لاسم السلطان.

المدارس ـ

كانت فى البلدة الطاهرة غير المدرسة المحمودية سالفة الذكر اثنا عشر مدرسة أخرى هى.

١ ـ المدرسة المحمودية.
٢ ـ مدرسة بشير أغا.
٣ ـ مدرسة أزبك.
٤ ـ مدرسة ناظر الكيل.
٥ ـ مدرسة الشيخ مظهر.
٦ ـ مدرسة حسين أفندى.
٧ ـ مدرسة ساقزلى
٨ ـ مدرسة ثروت أفندى.
٩ ـ مدرسة أرنبود أفندى.
١٠ ـ مدرسة قره باشا.
١١ ـ مدرسة الشفاء.
١٢ ـ مدرسة فنايرجى.

إلا أن أشهر المدارس وأكثرها نظاما كانت المدرسة المحمودية، وسبب ذلك وجود هذه المدرسة متصلة بمسجد السعادة بين باب السلام وباب الرحمة، وفى الواقع كفى هذا شرفًا لهذه المدرسة فالحاجة للبحث عن أشياء أخرى لا يرجح كفة المدرسة على المدارس الأخرى.

وكان لمدرسة المحمودية ما يقرب من أربعين حجرة لإقامة الطلبة، وفى وسطها حديقة وفى الجهة الغربية شادروان فسقية، ومن حيث الانتظام كانت أولى مدارس البلدة الطاهرة وقد جددها السلطان محمود خان العدلى فى سنة ١٢٣٧ فى صورة جميلة.

وكانت لمدرسة المحمودية مكتبة جميلة وحجرات منتظمة وكان لسكان الحجرات رواتب كافية من مصر، وكنت تجد فى مكتبتها أى كتاب تبحث عنه.

المكتبات ـ المكتبات المشهورة والمعروفة اليوم فى البلدة الطاهرة بعد مكتبة المحمودية هى:

١ ـ مكتبة شيخ الإسلام السابق عارف حكمت بك، وهذه المكتبة تقع مقابل دائرة نائب الحرم النبوى فى ديار عشرة.

٢ ـ مكتبة شيخ الحرم أمين باشا ـ هذه المكتبة قريبة من الشرشورة وعلى شارع المديرية.

٣ ـ مكتبة بشير أغا ـ مكتبة أغا دار السعادة الشريفة الأسبق بشير أغا فى داخل مدرسة بشير آشكا الملاصقة لباب السلام.

٤ ـ مكتبة الحميدية ـ هذه المكتبة فى داخل المدرسة الحميدية وفى مكان يقال له «حارة الحزارة» فى نهاية الرصيف الذى فى حى الساحة.

٥ ـ مكتبة جمل الليل ـ هذه المكتبة فى دار المرحوم السيد جمل الليل.

٦ ـ مكتبة البساطى ـ وهى مكتبة أحمد بساطى أفندى من أهالى المدينة المنورة ومن خطباء الحرم الشريف.

٧ ـ مكتبة رباط سيدنا عثمان ـ فى داخل الرباط المنسوب لحضرة ذى النورين.

٨ ـ مكتبة المرحوم شيخ الإسلام السابق فيض أفندى وهى فى داخل مدرسة الشفاء.

٩ ـ مكتبة قره باشا عمر أفندى ـ فى داخل المدرسة المنسوبة لقره باشا عمر أفندى من الموالى الكرام.

١٠ ـ مكتبة مصطفى أفندى من ساقز ـ فى داخل المدرسة المنسوبة لمصطفى أفندى من الموالى الكرام.

١١ ـ مكتبة أرنبود ـ فهى من آثار مصطفى أفندى من المجاورين يعرف «بإحسانية».

١٢ ـ مكتبة الشيخ غفور أفندى ـ وقف عبد الغفور أفندى البخارى من المجاورين فى داخل التكية التى تنسب له.

١٣ ـ مكتبة مظهر أفندى ـ أثر الشيخ مظهر أفندى من أولاد الإمام

الربانى مجد الألف الثانى الشيخ أحمد الفاروقى السر هندى وهى داخل التكية المنسوبة له.

١٤ ـ مكتبة حسين أغا ـ وقف حسين أغا ناظر التكية المصرية الأسبق فى المدرسة التى تنسب لاسمه.

١٥ ـ مكتبة فنايرجى ـ تنسب للمرحوم أمين أفندى من المجاورين فى داخل المدرسة التى تنسب لاسمه.

١٦ ـ مكتبة ثروت أفندى ـ وقف محمد ثروت أفندى من المجاورين القدماء الذى مازال حيا.

١٧ ـ مكتبة الكيلى ـ أثر ناظر الكيل وهو من المجاورين فى داخل المدرسة التى تنسب له.

١٨ ـ مكتبة سليم بك ـ وهى وقف سليم بك أفندى من رؤساء حجاب السلطان عبد المجيد خان.

١٩ ـ كمية ومقدار المصاحف الشريفة والكتب النفيسة فى داخل المكتبات المذكورة من حيث المجموع.

عدد	مكان وجودها
١٨٠١	المصاحف الشريفة الموجودة فى الروضة المطهرة مضافًا إليها المصاحف الشريفة التى عرفت فى الصورة المخصوصة.
٥٤٠٤	ما فى مكتبة عارف حكمت.
٠١٥٨	ما فى مكتبة الحاجى أمين باشا.
٢٠٦٣	ما فى مكتبة بشير أغا.
١٦٥٩	ما فى المكتبة الحميدية.
٠٠٠٠	لم يحقق ما فى داخل مكتبة جمل الليل من كتب.
١٢٤٦	ما فى مكتبة بساطى أفندى.
٠٠٠٠	لم يحقق ما فى داخل مكتبة رباط سيدنا عثمان.
١٢٤٦	ما فى مكتبة فيض الله أفندى.

عدد	مكان وجودها
١٢٤٦	ما فى مكتبة قرة باش.
٠٥٩٣	ما فى مكتبة ساقزلى.
٤٦١	ما فى مكتبة أرنبود.
١٢٩	ما فى مكتبة الشيخ عبد الغفور.
١١٠٠	ما فى مكتبة مظهر.
٠١٠٠	ما فى مكتبة حسين أغا.
٠١٥٠	ما فى مكتبة فنايرجى.
٠٢٠٦	ما فى مكتبة ثروت أفندى.
٠١٥٧	ما فى مكتبة الكيلى.
٠٥٠٠	ما فى مكتبة سليم بك.
٠٤٥٦٩	ما فى مكتبة المحمودية.
٢٢٦١٥	المجموع

ما عد هذه المكتبات المذكورة كان فى كل مدرسة مكتبة، ولما كانت هذه الكتب بالنسبة للكتب الموجودة فى هذه المكتبات التى ذكرت أقل القليل صرف النظر عن ذكرها. انتهى.

وكان كذلك ليزيد بن عبد الملك منزل فى الجهة الغربية من دار مروان بن الحكم مكان منزل آل أبى سفيان، وكان منزل يزيد بن عبد الملك عند إنشائه أجمل المنازل فى المدينة، فهدم مؤخرا وصنع مكانه سبيل ووكالة، وبنى بجانب ساحة هذا المنزل الغربى القبلى مبنى من قبل السلطان قايتباى المصرى فى غاية الكمال فأسكن فيه الفقراء والمجاورين فأحيوا، ولكن ما بنته خاصكى سلطان، والسلطان مراد الرابع من عمائر قضت على شهرة عمارة قايتباى.

وكانت خاصكى سلطان إحدى زوجات السلطان سليمان بن السلطان سليم خان، وكانت العمارة التى بنتها خارج سور المدينة بالقرب من المصلى النبوى

وكانت عمارة ذات طابقين لا مثيل لها، وكان فى وسط هذه العمارة مسجد ذو مئذنة واحدة وله كثير من الأئمة الموظفين والخدم وكان أهالى السوق الذين لا يستطيعون أداء الصلاة فى المسجد النبوى يصلون فى هذا المسجد.

وكان يصنع فيها حساء الدشيشة والخبز فى كل يوم وتوزع على الفقراء والضعفاء والمساكين والغرباء ولكن لشدة الأسف قد استولى على هذه العمارة بعد مرور وقت محافظو المدينة وبعد فترة اتخذوها دائرة حكومية فسكن فى حجرات الطابق الأعلى بعض أغوات المحافظين ذات الأهمية كما كان يحبس المتهمون فى حجرات الدور الأرضى، ومازالت مئذنة المسجد قائمة ولكنها أشرفت على الخراب، ولا يليق أن يصل ما بناه أجداد السلاطين العثمانيين معبدا إلى هذا الحد من السوء، فإذا ما جعل لسكنى الفقراء على الأقل كان فيه منفعة أخروية.

والمدرسة الفخمة التى بنتها خاصكى سلطان فى مكان قريب جدا من المسجد الحرام فى مكة قد استولى عليها القادرون من أهل مكة المكرمة وتؤجر للحجاج المسلمين، وإن كان تحسين حالة العمارة المذكورة فى المدينة غير ممكن، فإن المدرسة التى فى مكة المكرمة مازالت قائمة، وبما أنها تؤجر الآن للحجاج ترى هينة، ولو أجرت هذه المدرسة للموظفين الذين يعملون فى الدوائر الحكومية ستجذب إلى خزانة الدولة الجليلة ـ بقيد ما يدفعونه ـ إيرادا للخزانة؛ لأن المدرسة لا يستفيد منها الآن غير متسلطى الزمان. انتهى.

كان أمام بيت يزيد بن عبد الملك الدار التى اقتطعها الرسول ﷺ لـ «مطيع بن أسود. ويقال لهذه الدار «دار ابن مطيع» أيضا، وكان بياعو الفواكه فى ذلك العهد يبيعون ويشترون أمام باب هذا المنزل.

وانتقلت هذه الدار مؤخرا لإدريس بن سعد بن أبى السرح، وفى خلال سنة ٨٤٠هـ اشتراها عبد الباسط الزينى من أبى السرح وهدمها حتى الأرض وبنى فوق ساحتها مدرسة الباسطية أمام المدرسة التى تسمى «الأشرفية».

وكان فى ناحية الجدار الغربى للمسجد الشريف منزل (ابن مكمل) ولما اشتهر هذا المنزل بالشؤم هدم فيما بعد وبنيت مكانه مدرسة «جوبانية».

وفى الجهة الشمالية لابن مكمل منزل «تخام العدوى» وبين هذين البيتين طريق فى عرض ستة أذرع؟ ودار تخام العدوى مقابل باب الرحمة وكان لها باب يفتح إلى زاوية ساحة دار القضاء، والآن سبيل مدرسة الزهرية على ساحة تلك الدار.

وكان بجانب بيت تخام العدوى منزل جعفر بن يحيى، «ومنزل عاتكة» بنت يزيد الجميل وبرج حسان» بن ثابت الذى يقال له «فارغ» كانا فى داخل هذا المنزل وبما أنه خرب وانهار بنوا مكانه مدرسة الزهرية».

وكان فى الجهة الشامية لمنزل جعفر بن يحيى رباط «كليركية» والمنزل الخاص بسكنى السيدة سكينة[1] رضى الله عنها والذى كان يسمى دار النصير. واشترى الإمام السمهودى دار النصير هذه ووقفها لإقامة أقاربه. وأمام دار النصير طريق فى عرض ستة أذرع ينتهى إلى دار طلحة بن عبد الله. وفى الجهة الشامية من هذا الطريق منازل طلحة بن عبد الله، وفى غرب منزل طلحة منازل أبناء الزبير بن العوام «عودة» و «عمرو» وفى اتصالهما منزل منيرة جارية أم موسى الذى انتقل لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب.

وفى اتصال دار منيرة من الجهة الشامية، أى فى زاوية الشارع الذى يعطف إلى المخبز فى تلك الجهات باب صغير لآل يحيى بن طلحة، وفى اتصال هذا الباب، بيت «طلحة بن أبى طلحة» الأنصارى، وفى اتصاله البيت المشهور باسم «نزيل الكرام»، وفى الجهة الأخرى من هذا البيت طريق فى عرض خمسة أذرع وفى الجهة الأخرى من هذا الطريق منزل جارية تسمى «هالة» وفى الجهة الشرقية من هذا البيت مستشفى المستنصر بالله، وفى جنبها «دار الحميد» المنسوب لـ «أبى

(١) السيدة سكينة بنت حسين بنت على رضى الله عنها بنت حسين بن على من صلبه اسمها الأصلى «امينة» وكانت تشتهر بين علماء عصرها الأدباء بالظرف والفضيلة والعلم وحسن الطبع وإن كان يروى أنها مدفونة فى الشام فالحقيقة أنها مدفونة فى مصر مع «زينب الكبرى» بنت فاطمة الزهراء والآخرين من أهل بيت النبوة وضريحها مشهور رضى الله عنها وعنهن أجمعين.

لغيث بن المغيرة» بن حميد بن عبد الرحمن، وهو البيت الذى خصصه عبد الرحمن بن عوفٌ - رضى الله عنه - لاستقبال وإقامة ضيوف النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ أمر بذاته ببناء هذه الدار. وساحة هذه الدار السعيدة وأرضها الآن المحل الذى أقيم فيه «رباط الطاهرية» فى جانب دار الحميد والذى يعرف اليوم باسم دار الضيافة. وفى اتصالها كانت دار ابن مسعود الموسومة بـ «دار القرار». وقد أُخذ بعض أجزاء دار القرار فى عهد وليد بن عبد الملك والجزء الآخر فى عهد مهدى بن هارون الرشيد، وألحق بمسجد السعادة وإن كان المؤرخون رووا أن بعض أجزاء دار القرار. التى فى الجهة الشامية من المئذنة الشرقية والجهة الشرقية من دار المضيف، ظلت خارج مسجد السعادة إلا أن هذا القول غير صحيح.

وفى الجهة الشرقية من جدار مسجد السعادة منزل موسى بن إبراهيم مقابل دار الضيافة، وفى جهته الشرقية الميضأة المعطلة ودار رئيس المؤذنين، وبين هذين البيتين. كان الطريق الذى يسمى بـ «خرق الجمل» وبما أن هذا الطريق كان ينتهى إلى حصون المدينة المنورة القديمة اشتهر «بزقاق الجمل» ومازال معروفا إلى الآن بهذا الاسم.

وكان منزل «أنس بن مالك» السعيد فى الجهة الشامية من سور المدينة وبين هذا المنزل وبين «زقاق الجمل» بيت «فاطمة بنت قيس» وفى اتصاله أرض «دار موسى» من بيوت قهيطم. واشترى هذه المنازل وساحة «دار رسام» فى اتصالها القاضى الفاضل فيما بعد وبنى على أرضها رباطا فاخرا. وكان منزل «عمرو بن عاص السهمى» فى جهة الطريق الذى ينتهى إلى حى حوش حسن، وكان هذا الطريق فى اتصال هذا الرباط، وفى جهة منتهى رباط السبيل[1] وكان بجانب دار عمرو بن العاص السهمى دار «خالد بن الوليد» ولما انقطعت ذرية خالد بن الوليد انتقلت تلك الدار إلى أولاد أخيه عبد الله بن الوليد.

(١) الجزء الأمامى من هذا الرباط ساحة الدار المنسوبة لخالد بن الوليد.

وقد عرض خالد بن الوليد على النبى ﷺ ضيق هذه الدار وعدم استيعابها لأولاده وعياله فرد عليه النبى ﷺ «إذا أردت تستطيع أن ترقيها وتعليها حتى السماء» يعنى تستطيع أن تضيف إليها عدة حجرات أخرى.

وكان بجانب دار خالد بن الوليد منزل «جبلة بن عمرو الساعدى» وبجانبه منزل ريطة بنت أبى العباس، وكان منزل جبلة بن عمرو الساعدى - رضى الله عنه - بنى فوق ساحة منزل الصديق الأعظم - رضى الله عنه - وانتقل فى فترة ما إلى أسماء بنت الحسين العباسى، وهدم مؤخرا وبنى مكانه «رباط النساء».

وكان بيت الصديق الأكبر الذى انتقل إلى جبلة بن عمرو الساعدى أمام دار عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الصغيرة وفى شارع بقيع الغرقد. وكانت هذه الدار الصغيرة خلف بيت عثمان بن عفان الكبير. وهذه الحجرة المباركة ماتزال قائمة حتى الآن وتعرف «بمشهد عثمان».

وأمام الدار الصغيرة طريق فى عرض خمسة أذرع ويمتد حتى مقبرة بقيع الغرقد. والدار الكبيرة التى تنسب لعثمان بن عفان فى مقابل مدرسة الشهابية، يفصل بينهما طريق فى عرض خمسة أو ستة أذرع. قد بنيت فوق مساحة الدار الكبيرة دائرة مشيخة خاصة بشيوخ الحرم إذ استصغر شريف باشا، وكان شيخ الحرم النبوى فى عهد السلطان عبد الحميد خان، دائرة المشيخة القديمة وحصل على إدارة سنية لبناء دار جديدة للمشيخة وبنى دائرة تشتمل على خمس وأربعين حجرة وأعلى من القبة الخضراء النبوية وكانت هذه الدائرة الواسعة فى الجهة الشرقية من حجرة السعادة وعلى بعد خمسة عشر ذراعا ومع ذلك بنى قصرين لا مثيل لهما أمام باب جبريل، ولم يتجرأ أحد أن يبنى فى داخل المدينة مبنى فى هذا الاتساع وهذا العلو تأدبا. فكتب بعض المعترضين على جدران تلك الدائرة ليلا بيتًا ضَمَّنَهُ عدم الارتياح لما قام به شريف باشا:

وأخذ الناس يتحدثون فى اجتماعاتهم شريفهم ووضيعهم قائلين إن شريف باشا لن يستطيع أن يقيم فى هذه الدائرة الفخمة.

وفعلا حدث ما يتوقعون. إذ وجه إليه ولاية جدة ولما يتم بناء دائرة المشيخة وبهذه المناسبة لم يستطع أن يجلس ولو ساعة واحدة لإجراء الحكم فى الدائرة التى بناها وفقا لأفكاره الهندسية (لسان الخلق أقلام الحق).

وساحة المدرسة الشهابية أى الساحة المقابلة لدار عثمان بن عفان هى أرض دار أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ حيث استضاف النبى ﷺ. وقد انتقل ذلك البيت الذى لا مثيل له من يد إلى أخرى وفى النهاية اشتراه مظفر شهاب الدين الغازى أخو الشهيد سلطان نور الدين وبنى مكانه المدرسة الشهابية وخص بها علماء المذاهب الأربعة، وكان فى اتصال بيت أبى أيوب الأنصارى بيت الإمام الهمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام حسين بن الإمام على بن أبى طالب «رضى الله عنهم».

وكان السبيل والمسجد الشريف اللذان ينسبان لأوقاف الإمام كانا فى داخل هذه الدار، ولقد انتقلت تلك الدار مؤخرا ليد حارثة بن النعمان، وتنازل ابن نعمان، بدوره عنها لشاهين الجمالى الشجاعى. وبنى شاهين الجمالى هناك داراً خاصة به وجدد مسجد الإمام جعفر فى صورة عظيمة، وأحياه.

وكان منزل الإمام حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب مقابل منزل الإمام جعفر من الجهة الغربية وفوق ساحة الحصن المعروف بـ «قويرع» وفى النهاية دخل سواء أكانت دار الإمام حسن بن زيد أو بيت الإمام جعفر تحت تصرف أمير الحرمين السيد الشريف محمد بن بركات.

وكان بيت فرج الحصين مقابل بيت حسن بن زيد أى فى مقابل المدرسة الشهابية، وكان منزل عامر بن عبد الله بن عبد الله بن الزبير بن العوام بجانب دار فرج الحصين، والدار التى كان يطلق عليها دار آل عمر فى اتصال دار عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام والرباط الذى يعرف الآن باسم (مراغة) فوق عرضه دار فرج الحصين.

فى ذكر الأرصفة التى كانت تحيط المسجد النبوى الشريف فى عصر السعادة وبيوت الصحابة التى استقرت على جانبى هذه الأرصفة (رضى الله عنهم)

اختلف المؤرخون القدماء فى الوقت الذى صنعت فيه الأرصفة التى على جهات مسجد السعادة الأربعة، قال بعضهم: «إن أرصفة المدينة المنورة أحدثت فى عهد حضرة معاوية»، وقال بعضهم رادين قول الأوائل: «وإذا ما نظرنا عندما دخل جابر بن عبد الله مع رسول الله إلى مسجد السعادة وقوله «وتركت جملى على الرصيف» ورواية رجم يهوديين على الرصيف وما نقل أن عثمان بن عفان كان قد توضأ فوق الرصيف ظهر أن هذا الرصيف كان فى عهد الرسول ﷺ».

والرصيف الذى أنشأه معاوية بن أبى سفيان رصيف موضع الجنائز الذى فى الناحية الشرقية من مسجد السعادة.

ونحن أيضا نحكم بصحة القول الثانى لما ساقوا من أدلة قوية ترجح قولهم».

بناء على قول الثقاة الذين يبحثون عن الحق كان هناك عدة أرصفة متصلة بمسجد السعادة.

١ ـ الرصيف الأول من هذه الأرصفة «كان يبدأ من باب الرحمة مارًا بسوق الصياغ والعطارين ويستمر إلى ضريح مالك بن سنان «رضى الله عنه» ومن هناك يميل وينعطف قليلا ناحية دار السلام ثم يعود فيتصل أمام باب الرحمة.

٢ ـ الرصيف الثانى من الأرصفة التى كانت فى عصر السعادة كان يبدأ من باب السلام ويمتد إلى أن يتصل ببوابة الحصن التى كان يطلق عليها باب السويقة دون انعطاف ولا انحراف إلى أى جهة ثم كان يعود إلى ناحية مصلى العيد

وينتهى عند منزل ابن هشام، كان هذا الرصيف يمتد إلى نهاية مسجد السعادة بطريق الجهة الشرقية عن طريق بقيع الغرقد إلى منزل المغيرة بن شعبة ومن الناحية الشامية إلى نهاية مسجد السعادة كما قلنا، وكان أحد الجهتين يتصل برصيف باب الرحمة فيعود من هناك وينقطع عند الدار الكبيرة التى تنسب لعثمان بن عفان لأن الأبنية التى فى الجهة القبلية من مسجد النبى ﷺ بنيت ملاصقة للأبنية المقدسة لذلك لم تكن فى هذه الجهة أرصفة، وبناء على هذا التعريف فإن الرصيف الذى كان ينتهى إلى المصلى النبوى كان أكبر الأرصفة وكانت جهتاه مزينتين ببيوت عالية، وكان فى الجهة اليسرى لمن يتوجهون إلى مسجد السعادة من مصلى العيد النبوى منزل إبراهيم بن هشام وفى الجهة اليمنى التى تميل إلى الغرب يوجد منزل سعد بن أبى وقاص، وكان يفصل بين هذين المنزلين طريق كبير.

والجهة اليمنى من منزل سعد بن أبى وقاص كان المنزل الذى أخذه من الإمام أبى رافع وفى الجهة اليسرى أيضا بيت منسوب للمشار إليه وكان يفصل بين هذين المنزلين طريق فى عرض عشرة أذرع. وكان حضرة سعد قد وقف جميع هذه المنازل فى حياته.

وكان فى اتصال منزل سعد الثانى وفى الجهة الشامية دار مشهورة بدار نوفل بن مساحق العامرى منسوبا إلى آل خراش من بنى عامر بن لؤى. كما أن خلف هذا المنزل كان «مكتب العودة» متصلا بمسجد بنى زُرَيْق. وكان فى الجهة اليمنى من منازل آل خراش الدار التى يطلق عليها «منزل حفصة» وفى الجهة القبلية من هذه الدار. دار عمار بن ياسر وفى جهتها الشرقية دار عبد الرحمن بن الحارث، وفى الجهة القبلية من هذه المنازل مسجد «بنى زريق» وفى الطرف الشرقى منها شارع «دار عبد الرحمن بن الحارث» ودار أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ فى هذا الصف، ولكن تلك الدار ستذكر فى الطريق الذى كان النبى ﷺ يعود منه من صلاة العيد، وإذا ما دخل الآن من باب المدينة المنورة إلى داخل المدينة واتجه ناحية مسجد السعادة فأول زقاق يصادفه الإنسان أرض دار عبد الرحمن بن

الحارث. وإذا ما رجع الإنسان من هناك لبقيت تلك الأرض فى اليمين. ومن كان فى هذا الموضع يصادف للجهة اليمنى القبلية مسجد بنى زريق. والذين يدخلون من باب المدينة إلى الداخل ففى جهتهم اليسرى الشامية توجد «دار آل خراش» ودار الربيع، ودار نافع بن عتبة بن أبى وقاص، وعلى الطرف الأيسر منهم «دار حويطب بن عبد العزى ودار آمنة بنت سعد بن أبى وقاص» وعلى جانبه «دار عمرو بن أبى وقاص، وفى اتصالها زقاق عبد الرحمن بن الحارث وفى الجهة اليمنى فى هذا الزقاق «دار عبد الرحمن بن عوف»، وعلى يمينها» زقاق أبى أمية بن المغيرة وأمامه وعلى يمين الزقاق، «دار خالد بن سعد! يقال لها بيت ومنزل ابن عقبة ـ أيضا ـ وأمامه دار أبى الجهم مالك بن أبى عامر، وبجانبهم «دار نوفل بن عدى» وكل هذه المنازل كانت منازل ذلك العصر المشهورة والمنتظمة.

قال موسى بن عقبة: قتلوا يهود بنى قريظة وأعدموهم على الرصيف الذى بجانب دار أبى الجهم، حتى سالت دماؤهم على حجارة[1] المحلات التى تبيع زيت الزيتون إلا أن قول موسى بن عقبة مخالف لأقوال أئمة السير الذين قالوا إن النبى ﷺ حفر حفرة فى سوق المدينة حيث قطعت أعناقهم بالسيف.

ومن هنا فقول موسى غير قابل للتأويل والقبول.

(١) هذه الحجارة بجانب مشهد مالك بن سنان وأمام البيت الذى أعطاه عمر بن الخطاب لعباد بن عبد المطلب، ويقال لهذا المكان فى عصرنا «قبان الزيت».

فى تعريف السوق التى أرادها النبى ﷺ لأهل المدينة وجهاتها

أراد النبى ﷺ أن يعين لأصحابه الكرام مكانا للسوق للأخذ والعطاء فشرف أولا سوق «بنى قينقاع» ثم سوق المدينة وضرب الأرض برجليه المباركتين قائلا «هاهنا سوقكم، فلا يضايق بعضكم البعض، فلا تأخذوا ضريبة وجزية»، وبناء على قول ابن زبالة أن النبى ﷺ، شرف يوما حى بنى ساعدة ليختار مكانا للسوق، وخاطب أفراد بنى ساعدة قائلا: «لا إننى جئت إليكم طالبا حاجة منكم، أعطونى مقبرتكم، وسووها واتخذها سوقا».

وبما أن جماعات بنى ساعدة قبلوا ذلك وأعطوا مقبرتهم فضرب بقدميه على الأرض قائلا «ها هى السوق التى ستقيمونها للتجارة» وعين لهم حدودها الأربعة، وعلى ذلك سطحت مقبرة بنى ساعدة وأقيمت هناك السوق، وكانت مقبرة بنى ساعدة فى الجهة الشرقية لدار أبى ذئب.

وكانت إحدى جهات السوق التى أرادها النبى ـ عليه السلام ـ مصلى العيد، وجهة أخرى منها الفاصلة التى بين سبيل سعد بن عبادة، الجهة الثالثة سبيل سعد بن عبادة، والجهة الرابعة حدود «ثنية الوداع» وكان حدود «بقيع الخيل الأربعة» داخل السوق التى عُرِّفَتْ.

كان أهل المدينة يتبادلون التجارة فى السوق المذكورة إلى عصر عبد الملك بن مروان، وقد اشترى إبراهيم عبد الملك فى عهد حكم أخيه هشام بن عبد الملك ١٠٦هـ المحالّ المذكورة، وأغلق أبواب ونوافذ تلك البيوت الناظرة إلى السوق، وسد وأغلق كل المعابر كل واحد من تلك المحال ثم أسس كثيرا من البيوت

والمنازل وأجرها. وفتح أبوابا لكل منزل أجره لتكون خاصة للمستأجرين بالذين أستأجروها لعبورهم ومرورهم فى زاوية منزل عمر بن عبد العزيز الواقع فى الجهة الشامية من تلك البيوت التى أنشأها وفى نهاية رصيف مصلى العيد يعنى بجانب دار عباس المعروفة بـ «الزوراء» التى فى قرب ضريح مالك بن سنان وأغلق جميع مناظر ومناور البيوت الكائنة فى جهة دار عباس «الزوراء» ولكن بيوت الإيجار التى بناها إبراهيم بن عبد الملك هدمت بعد وفاة هشام بن عبد الملك من قبل سكنة دار السكينة.

وأعيدت إلى حالتها الأولى فى سنة ١٢٥هـ، وظل هذا السوق فترة طويلة على هذه الحالة إلا أنه كلما تباعد عصر السعادة واتسعت البلدة الطاهرة تحقق لزوم إنشاء أسواق أخرى فى الأحياء الأخرى. واتخذ نظام إقامة الأسواق عادة بين الأهالى وأخذوا يطلقون على كل واحدة منها اسما خاصا، إلا أن كل هذه الأسواق لم تكن أسواقا منتظمة تزينها المحلات والدكاكين، وشأنها شأن أسواق استنبول والبلاد الأخرى تتألف من «أكشاك» خشبية وكراسى والدكاكين الوقتية وهنا أسواق عديدة بدكاكينها. إلا أنها كانت متقاربة وكان كلها فى ميدان المناخة كما أن بين الأحياء محلات العطارة وما يشبهها من الدكاكين الصغيرة.

والأسواق التى يذكرها أهل المدينة بأسمائها هى:

سوق الجباية «السوق التى تطلق عليها الجباية» أعظم وأهم أسواق المدينة وأكثرها نظاما، ودكاكينها «أكشاك» ذات مظلتين وجهة تسميتها بهذا الاسم قصر بناء الحيوانات لهذه السوق.

سوق التجارة ـ هذه السوق فى الدرجة الثانية من أسواق المدينة وفى الجهة القبلية من سوق الجباية. وفيها يباع التمر ودكاكينها «أكشاك» معروشة.

سوق السمانة ـ هى سوقى الزياتين والرواسة، **وسوق بياعى الأكارع** وبما أنهما متصلتان يعد الاثنان سوقا واحدة فى نظر الأهالى وتتكون الأكشاك والدكاكين من العروش.

سوق الفلتية ـ مثل الأسواق الأخرى تتكون من عدة دكاكين معروشة يباع فى دكاكين هذه السوق:

سوق «الأعشاب، والجلود، الحبال، الفحم، الحطب» وما يشبهها من اللوازم الأخرى.

الخضرية ـ سوق الخضراوات هذه تقع فى الجهة الشرقية للسوق سالفة الذكر، ودكاكين بائعى الخضر أكشاك معروشة.

سوق الجزارة ـ هى سوق بيع اللحم التى تقام فى الجهة القبلية لسوق الخضراوات، والقصابون يعرضون الأغنام المذبوحة معلقة على العلاقات ويبيعونها.

سوق العطارة ـ تقع مقابل سوق القصابين، وتمتد هذه السوق إلى شارع النخاولة، وتنتهى بالباب المصرى ويُتجر فيها بمواد العطارة والأقمشة، والتبغ والطباق، وفى جهة من جهاتها مقهيان.

سوق البياطرة ـ تقع فى الطرف الشمالى إلى سوق الجباية وهى سوق الخيل، ويباع فيها النحاس أيضا.

سوق البرسيم ـ سوق يباع فيها البرسيم.

سوق الفطارين ـ سوق تباع فيها هذه الفطائر والطعام ويتم البيع فيها إما فى الأكشاك المفروشة أو فى أماكن مكشوفة.

سوق الدلال الخردجية ـ سوق تباع فيها الأشياء القديمة مثل «سوق المقمل» فى إستانبول حيث تباع الأشياء القديمة ويقع سبيل فاطمة فى الجهة الغربية من داخل هذه السوق وبالقرب من باب مصر.

وفى هذه السوق أو فى الأسواق الأخرى عدة مقاهى للاستراحة.

الوجهة الخامسة عشرة
تحتوى على أربع صور فيها ذكر مصلى العيد النبوى
والمساجد والمنازل القائمة فى ممرات بهذه المساجد
ومسجد قباء وبيت النفاق الضرار
والمعابد النبوية المعلومة وغير المعلومة

فى ذكر المساجد التى صلى فيها سيد الزاهدين محمد صلى الله عليه وسلم صلاة العيد ومنازل الصحابة الموجودة فى طريقها

أول صلاة عيد أداها إمام الأنبياء ـ عليه أعظم التحايا ـ فى المدينة هما صلاتا عيد الفطر وعيد الأضحى اللتان أداهما النبى ﷺ فى السنة الثانية للهجرة.

وبناء على قول الإمام الواقدى أن النبى ﷺ صَلَّى هاتين الصلاتين للعيدين فى المكان الذى خلف بيت حكيم بن عدى بن بكر بن هوازن والمستقر بجانب أصحاب المحامل.

وحمل معه الحربة التى أعطاها النجاشى ملك الحبشة للزبير بن العوام.

ويحمل أئمة المدينة اليوم وهم يذهبون لأداء صلاة العيد تلك الحربة معهم. وكان ذلك الميدان فى الجهة الغربية فى المصلى المشهور الذى سبق تعريفه، وفى اتصال حديقة «العريضية لا من جهتها الشمالية». وأحيط أخيرا بسور من جهاته الأربعة واتخذ مسجدا.

وعندما حاصر المصريون حضرة عثمان بن عفان وضيقوا عليه الخناق وأَمَّ على بن أبى طالب الناس فى هذا المسجد بقى اسمه «مسجد على» وإن كان هذا ما يروونه إلا أن عليًا بن أبى طالب لم يكن يؤدى الصلاة فى مكان لم يصل فيه نبينا إمام قبلة الدين ـ عليه السلام ـ وبناء عليه يلزم ألا يكون لهذه الرواية أساس.

ويروى بعض المؤرخين أن أبنية ذلك المسجد قد اندرست مع مرور الزمن ولم يبق لها أثر، وقد اعتادت قوافل الحجاج أن يدفن فى خرائبه جنازات من يموتون

منهم، ولقد عثر فى سنة ٨٨١هـ والى المدينة المنورة خرائب هذا المسجد وطهرها وبنى الأبنية التى عليها اليوم، إلا أن هذه الرواية تخالف الرواية التى نقلها كتابة.

يقول إبراهيم بن أمية ناقلا عن شيخ جليل ذو ضمير حى لامع فى الرواية التى نقلها كتابة:

صلى النبى ﷺ أول صلاة عيد فى المدينة المنورة بجانب منزل ابن أبى الجنوب فى محلة «الدوسى» وصلى صلاة العيد الثانى خلف منزل حكيم بن عدى بجانب دار حفرة، وصلى صلاة العيد الثالثة بجانب منزل عبد الله بن درة المزنى الكائن بين دار معاوية ودار كثير بن الصلت. وصلى صلاة العيد الرابعة بين الحجارة السوداء القريبة من المصلى المشهور وصلاة العيد الخامسة داخل منزل محمد بن عبد الله بن كثير بن الصلت، وصلاة العيد السادسة فى محل المصلى المشهور.

كان منزل ابن أبى الجنوب فى الجانب الغربى من وادى «البطحاء» وداخل منزل حكم حفرة سالف الذكر وكان منزل ابن درة[1] المزنى على الجانب الغربى من المصلى ودار كثير بن الصلت فى الجهة القبلية من المصلى المذكور والمكان الذى أشير إليه بالحجارة السوداء فى داخل حديقة «العريضية».

القريبة من مصلى العيد. ويوجد الآن فى الحديقة التى كانت تعرف بالريشهية فى ذلك الوقت المسجد الذى ينسب إلى الصديق الأعظم. لما كان الصديق الأكبر يصلى صلوات الله على أرض هذا المسجد عندما كان خليفة سمى هذا المسجد «مسجد أبى بكر».

صلى النبى ﷺ صلاة العيد الأولى بالقرب من دار الشفاء وصلاة العيد الثانية فى محلة «الدوسى» وصلاة العيد الثالثة فى المكان الأنور الذى يسمى مصلى العيد، بعد ذلك لم يترك هذا المكان حيث أدى جميع صلوات

(١) درة اسم قبيلة تتشعب عن جماعة مزينة.

العيد بعد ذلك فى هذا المكان فى حياته، هذا هو المروى وهذه الرواية جديرة بالترجيح على تدقيقات الإمام الواقدى وإبراهيم بن موسى لقول ابن شيبه ناقلا عن شيخه ومصاحب الإمام مالك: من باب مروان ـ أى من الباب الذى عرف بباب السلام ـ إلى مسجد السعادة ومصلى العيد ألف ذراع وليس فى المدينة المنورة فى طريق مصلى العيد مكان أقدس من مصلى العيد بعد المسجد النبوى الشريف.

ينقل عن جناح النجار أنه قال: كنت قد ذهبت إلى مكة مع أخت سعد بن أبى وقاص «عائشة» فقالت لى فى أثناء الطريق: «أين تقيم فى المدينة؟» فقلت لها: أسكن فى بيت قائم على رصيف من أرصفة باب السلام. عندئذ قالت لى: «إذا كان كذلك فلا تترك هذا البيت، لأن والدى سمع عن رسول الله ﷺ: «إن ما بين مسجدى والمكان الذى صلى فيه العيد جنة من رياض الجنة»، وبهذا بين قداسة الطريق الذى بين المسجد الشريف ومصلى العيد وعرف أشرفيته.

وكلما كان النبى ﷺ عائداً من أحد أسفاره ويصل إلى مصلى العيد، يستقبل القبلة ويدعو. وكان يذهب من طريق لأداء صلاة العيد ويعود عن طريق آخر، كان يذهب إلى المصلى من شارع باب السلام ويعود من الطريق الذى يمر من أمام دار عمار بن ياسر وكان الصحابى أبو هريرة يتباهى ويتفاخر قائلا: «إن زاوية دارى أحب إلى وأجمل من كل شىء وكيف لا تكون كذلك؟! والنبى ﷺ كان يذهب من إحدى زواياها إلى مصلى العيد ويعود من زاويتها الأخرى».

وقد خرب مصلى العيد النبوى وفيما بعد جدد فى سنة ٧٤٨هـ من قبل السلطان ناصر الدين حسن بن قلاوون، وإلى الآن فوق طاقة حجر كتبت عليه العبارة الآتية: «قد جدده شيخ الحرم النبوى عز الدين بإدارة ناصر حسن بن محمد بن قلاوون سلطان مصر سنة ٧٤٨».

ويقع المسجد المذكور فى الجهة اليسرى من حديقة «عريضية» وكان قد جدد

أيضًا فى سنة ٧٦٢هـ ولما كان مسجد مصلى النبى ﷺ فى مدخل حديقة عريضية كان الدخول فى هذه الحديقة يتم من داخل المسجد الشريف وكانت ساحة المسجد الشريف تلوث بسبب الحيوانات التى تدخل وتخرج من و إلى الحديقة ووصلت القذارة أحيانًا إلى كل مكان لدرجة أن المصلين لا يجدون فيه قبة لأداء الصلاة. فاستدعى الأمير إينال صاحب الحديقة واستأذنه وصنع للحديقة بابا آخر. وصنع للمسجد سقفًا مخصوصًا وفتح للشبكة التى فى الجهة الغربية باباً فى جدارها وجعل دهليزًا خاصًا لدخول الحيوانات. وبما أن الحيوانات منعت من الدخول لحرم مسجد النبى ﷺ فى المصلى ظل دائمًا نظيفًا؛ وفى سنة ٨٦١هـ وبما أن باب مصلى العيد كان خاليًا من المصراع فتحوا بابًا فى مواجهة المحراب لجداره الشامى. وركبوا لبابه القديم مصراعًا؛ وكان للباب الذين فتح حديثًا من خارجه مكان يصعد إليه بسلم؛ وعمرت صفة ذلك المكان اللطيف فى عهد الأشرف إينال تحت نظارة الأمير برد بك فى سنة (٨٦١) وكان الأئمة الذين يؤمون الناس فى صلوات الجمع والأعياد والخطباء يجلسون فى هذه الصفة. بينما كان الأمير يرد بك يعمر هذه الصفة جعل للخارجية فاعتاد الأعيان من أهل السنة أن يجلسوا فى هذا المكان من الأئمة والخطباء وعندما يحين وقت الصلاة كانوا يدخلون فى المسجد.

أول من قام بالإمامة والخطابة تحت هذه السقيفة من قضاة أهل السنة هو العلامة «سراج الدين أحمد ـ رحمه الله ـ الذى عينه منصور قلاوون الصالحى وأرسل إلى المدينة المنورة سنة ٦٨٢هـ وبما أن جميع القضاة والخطباء قبل سراج الدين أفندى كانوا من طوائف الزنادقة قد تعرض سراج الدين أفندى من أفراد الزنادقة لكثير من التحقير والإهانة كما عرف ذلك فى الصورة العاشرة من الوجهة الأولى والصورة العاشرة من الوجهة الثالثة.

ابن فرحون من المؤرخين الذين أدركوا الدور الذى ظهر فيه أفراد الزنادقة على أهل دار السكينة وتغلبوا عليهم. وقال فى تاريخه: «إننى رأيت بنفسى ما ألحقته طائفة الملاحدة لائمة أهل السنة من الإهانات رأى العين، كانوا يرجمون

أئمة أهل السنة الذين يصلون فى المحراب والخطباء الذين يخطبون على المنبر وبلغ من جرأتهم و غلوائهم أن الأئمة الذين يؤمون المصلين فى صلاة العيد كانوا لا يستطيعون أن يخرجوا من الباب الرئيسى بل يخرجون من الأبواب الصغيرة التى فتحت فيما بعد. ولا يستطيعون أن يخطبوا مواجهين الجمهور وكانوا يصعدون من سلم الصفة التى عمرت فى عهد الأشرف إينال ويخطبون وهم يستدبرون القبلة؛ ولكن السقيفة التى صنعت فيما بعد من قبل أمير المعمار برد بك تحول دون رؤية وجه الخطيب، وإلقاء الخطبة بهذا الشكل كان مخالفًا للسنة النبوية الشريفة إلا أن إلقاء الخطباء خطبهم بهذا الشكل كان مبنيًا على رأى الأهالى الذين يرددون أن النبى ﷺ قد ألقى الخطبة فى ذلك المكان الميمون. وبعد أن غلبت طائفة الملاحدة الرذيلة على أمرها، تركت الحالة السابقة كليًا وأخذت الخطب تلقى على الوجه المسنون».

إن المعبد اللطيف الذى ذكرناه طويلاً سابقًا مازال موجودًا إلى يومنا هذا ويعرف باسم «مسجد النبى» ويشتهر بذلك.

تذكر وتعرف مسجد قباء

بناء على ما ورد فى الكلام عن سنة الهجرة شرف النبى ﷺ قرية قباء بالنزول فيها. وسكن محلة بنى عمرو بن عوف أكثر من عشرة أيام وتفضل بإقامة مسجد قباء، هذه الرواية منقولة عن أئمة السير، إلا أن فرقة من المؤرخين يرغبون فى رد هذه الرواية، وبناء على أدعاء هؤلاء المؤرخين تبين لنا أن النبى ﷺ أقام ثلاث ليال[1] فى محلة بنى عمرو بن عوف فى مكان وأخذوا يصلون فى مربد كلثوم بن هِدْم حيث أسسوا مسجد قباء، وكان النبى ﷺ يصلى مدة وجوده فى محلة بنى عمرو بن عوف على ساحة هذا المسجد وذهبت فى فرقة من المؤرخين إلى أن أسعد بن زرارة قد أسس مسجد قباء قبل الهجرة وقالوا موضحين ذلك كانت ساحة مسجد قباء مربد كلثوم بن هدم، وكان أسعد بن زرارة قد أحاط هذا المكان من جهاته الأربعة بجدار حتى يصلى فيه الصحابة - رضى الله عنهم - الذين هاجروا قبل الرسول ﷺ وليجتمع مع سائر المسلمين الذين سيأتون يوم الجمعة من سائر القرى، وصلى النبى ﷺ فى داخل هذا المكان وأمرهم بأن يتخذ أهل قباء هذا المكان مسجداً لهم.

وإننا نحكم بأن ما قالته هذه الطائفة من المؤرخين خطأ من أساسه ونرى أن ما ذكرته الطائفة الأولى من المؤرخين أقرب إلى الصحة، لأن النبى أثناء مقامه فى محلة بنى عمرو بن عوف صلى فى ساحة مسجد قباء، وهذا قطعى الثبوت

(١) اختلف الرواة فى المدة التى أقامها رسول الله ﷺ فى قباء، فقيل أربعة، وقيل أربعة عشر وقيل اثنان وعشرون.
انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٠-٨٣. ط دار الفكر بتحقيق محمد فهمى الرجانى. والدرر لابن عبد البر من ٨٥، وغيرها.

وروايته تستند إلى أقوال موثوق بها. بينا ادعى جابر بن سمرة أن الرسول ﷺ أسس وبنى مسجد قباء بعد تشريفه مدينة العز المدينة المنورة وقال: قام النبى ﷺ فى المدينة المنورة وشرف قرية قباء، وقال لمستقبليه من أهل قباء: «يا سكان قباء»، وبعد ما هيأ أهل قباء مقدارا كافيًا من الحجارة خط رسول الله ﷺ بحربته حدود المسجد الميمون وأمر بحفر أساسه، وحمل بنفسه قطعة من الأجُرّ ووضعها فى المكان الذى سيتخذ محرابا، ثم خاطب أبا بكر الصديق وقال له: «يا أبا بكر خذ أنت أيضًا حجرًا وضعه فوق حجرى، ويا عمر احمل أنت أيضًا حجرًا وضعه فوق حجر أبى بكر، ويا عثمان ضع أنت أيضًا الحجر الذى حملته بجانب حجر عمر ويأايتها الجماعة، ابنوا الجدران بوضع الحجارة حيثما تريدون».

وهكذا أمرهم بطرح وبناء مسجد قباء المقدس؛ انتهى.

ويفهم مما أورده جابر بن سمرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قد حضر وصنع أساس المسجد المذكور الذى سيُتخذ المحراب المذكور وأن أهل قباء قد أكملوا بناء جدران وسقف المسجد بعد أن شرف النبى ﷺ المدينة المنورة، وبناء على هذا أقول يقتضى الحكم بصحة ما ادعاه سواء أكان أهل السير أو المؤرخون.

قد حضرت شموس بنت نعمان وضع أساس مسجد قباء وعندما أخذ النبى ﷺ حجرًا ووضعه فى المكان الذى سيتخذ محرابا وكانت تقول كلما تعرف وضع أساس المسجد المذكور: إننى أجلت النظر فى الصحابة الكرام الواحد تلو الآخر فى أثناء إرساء أساس مسجد قباء، وقد حمل النبى حجرًا كبيرًا وكان فى غاية الثقل كان ثقل الحجر يؤثر فى سرته المباركة؛ ولما رآه واحد من الصحابة الكرام على هذه الحالة قال للرسول ﷺ يارسول الله فداؤك أبى وأمى، اترك هذا الحجر حتى أحمله عنك فقال له الرسول! لا فليحمل كل واحد منكم حجرًا كبيرًا حتى تكملوا إرساء أساس المسجد؛ لأن جبريل ـ عليه السلام ـ يرينى الكعبة المعظمة.

وأضافت شموس: من هنا أعرف أن مسجد قباء أقوم المساجد من حيث اتخاذ القبلة.

ورواية شموس بنت نعمان[1] هذه «مسجد قباء أقوم المساجد من حيث اتخاذ القبلة رواية صحيحة، ولكن بناء مسجد قباء كان قبل تحويل القبلة، وبما أن القبلة تحولت بعد ذلك بسنة فمحراب أبنية مسجد قباء الذى كان فى ذلك الوقت غير موجود الآن.

اختلفت الأئمة فى سبب نزول الآية الكريمة

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ (التوبة: ١٠٨)

أنزلت فى مسجد قرية قباء أم أنها نزلت فى مسجد النبى فى المدينة؟

فقالت طائفة منهم: إنها نزلت فى مسجد قباء، وقال بعضهم: إنها نزلت فى مسجد الرسول ﷺ، أما حجة الطائفة الأولى وسندها فهى قوله تعالى ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ (التوبة: ١٠٨) ومن هنا فهذا مرجح على القول الثانى ولما وجد من العلماء من يرجحون القول الثانى وفق العلماء المدققون بين الأقوال المختلفة بأن وجهوا الآية الكريمة قائلين أنها نزلت فى حق كلا المسجدين. دقائق هذا البحث وتفصيلاته مدونة فى الصورة الثالثة من الوجهة الثانية.

وطيلة المدة التى أقام فيها النبى ﷺ فى المدينة المنورة كان يزور مسجد قباء كل يوم سبت راجلاً أو على صهوة فرس، حيث يؤدى ركعتين تحية للمسجد، كما يروى أنه ﷺ كان يمضى إلى هذا المسجد فى أيام الاثنين وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان.

كان عمر بن الخطاب يزور مسجد قباء يومى الاثنين والخميس فى أيام خلافته وكان يتوقى عدم ترك هذه السنة ويحافظ عليها؛ حتى إنه ذهب فى يوم من الأيام إلى المسجد ولما لم يجد فيه الناس غضب غضبًا شديدًا وقال: «والذى نفسى بيده، لقد رأيت النبى ﷺ وأبو بكر كانا يحملان حجارة كبيرة حينما وضع أساس هذا المسجد، وكان جبريل الأمين يُرى للرسول البيت المعظم؛ أقسم بالله لو كان هذا المسجد فى بلد من البلاد المجاورة لكانوا ذهبوا لزيارته أفواجًا أفواجًا.

(١) ترجمتها فى الإصابة ٨/ ١٢٢-١٢٣، وذكر لها الحافظ ابن مجر طرق الحديث الوارد هنا.

فأتونى بمكنسة وعندما أُتى له بمكنسة خلع ثيابه وأخذ يكنسه بعد أن نظفه من خيوط العنكبوت، وقال للذين طلبوا منه أن يترك لهم كنس المسجد إنكم لن تستطيعوا أن توفوه حقه من التنظيف مثلى.

ونقل عن زيد بن أسلم أنه قال: «نشكر الله على أن مسجد قباء فى مدينتنا لو كان فى مكان بعيد للزم أن نزوره راكبين الجمال».

كما نقل عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص أنها قالت كان أبى يقول: إن أداء ركعتين من الصلاة فى مسجد قباء خير من زيارتين للمسجد الأقصى، ولو عرف الناس ما فى مسجد قباء من فيوضات إلهية، لقدموا لزيارته من كل صوب وحدب».

وهذا مروى بأسانيد قوية. والحقيقة أن الصلاة فى مسجد قباء أفضل من الصلاة فى المسجد الأقصى، كما أن ركعتين وفى رواية أربع ركعات فى هذا المسجد تعدل ثواب عمرة، وهذا ما ثبت بالأحاديث الصحيحة.

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو فى طريقه إلى زيارة مسجد قباء لسائليه الذين استفسروا عن الجهة التى يقصد إليها أنا ذاهب للصلاة فى مسجد قباء الكائن فى منازل عمرو بن عوف؛ لأنى سمعت النبى ﷺ يقول: «كل من صلى فى مسجد قباء كان ثواب صلاته ثواب العمرة».

ويقول سعيد جبير الأسدى: «ذهب أنس بن مالك إلى مسجد قباء وصلى ركعتين وبعد الصلاة جلس فى ركن من أركان المسجد وأنا أيضًا جلست قليلاً ثم ذهبت إليه وجلست بجانبه عندئذ خاطبنى قائلاً: يا سعيد! ما أعظم قدر هذا المسجد، لو كان على بعد شهرين من الزمن لوجبت زيارته! وكل من خرج من بيته ناويًا زيارة مسجد قباء وأداء أربع ركعات من الصلاة فيه، فالله يثيبه أجر عمرة»[1].

(١) رواه ابن ماجه وغيره من حديث سهل بن حنيف، ورواه الطبرانى فى الكبير من حديث كعب بن عجرة، كلاهما بمعناه وحديث سهل بن حنيف فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف، وحديث كعب بن عجرة فى رواته يزيد بن عبد الملك النوفلى، وهو ضعيف.
انظر: مجمع الزوائد: ٤/ ١١.

وعلى كل من يريد أن يعرف المحل المقدس الذى أدى فيه النبى ﷺ الصلاة أن يزور العمود الثالث بعد دخوله المسجد وأن يؤدى بجانبه أربع ركعات تحية، وهذا العمود هو أقرب مكان إلى ساحة المسجد أى إلى الميدان المكشوف.

وقد بنى مؤخراً إلى الجانب الشرقى من هذا العمود محراب وكان هذا إشارة مصلى النبى ﷺ. ولا شك أن المحراب الذى بنى فيما بعد كان قبل تحويل القبلة وأنه يومئ إلى المكان الذى كان يؤدى فيه الرسول ﷺ صلاته، إلا أن النبى ﷺ كان يؤدى صلاته فى ذلك المسجد بعد تحويل القبلة فى الجهة الشرقية من العمود الثالث[1] اعتباراً من الساحة الرملية للمسجد المذكورة.

ولا شك فى صحة هذه الرواية إلا أن المسجد وسع فيما بعد وتغير مكان الأسطوانة المعلقة وإذا عدت الآن الأساطين القائمة بناء على تعريف المؤرخين فمن الصعب العثور على العمود الذى يشير إلى المصلى النبوى بل من المستحيل؛ وخاصة أن باب المسجد فى ذلك الوقت كان خلف منزل سعد بن خيثمة، وفى زماننا هذا الباب مسدود ومجهول الموقع؛ لأجل ذلك ركزوا عموداً خاصاً علامة على مصلى النبى ﷺ؛ وبناء على هذا لا يقتضى عد الأعمدة بل البحث عن العمود الذى رُكز إشارة وعلامة للمصلى النبوى. وإن كان قد وضع على أحد الأعمدة المتصلة بالساحة الرملية محراب وكتب على طاقه الآية الكريمة.

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ (التوبة: ١٠٨)

وأشير إلى أن هذا المكان هو المصلى النبوى.

إلا أن هذا المكان ليس المصلى النبوى بل مكان نزول الآية الكريمة المذكورة. وفى مواجهة هذا المحراب الذى كتبت على طاقه الآية الجليلة حظيرة من خشب عليه قبة مكسوة بالرصاص، وأخبرنا ابن جبير أن هذه الحظيرة مبرك ناقة النبى ﷺ، إلا أن المؤرخين الآخرين ترددوا فى تصديق رواية ابن جبير.

جدد مسجد قباء فى عصر السعادة فوسع طولاً وعرضًا بمقدار ستة وستين ذراعًا وكانت ساحة المسجد طولاً خمسين ذراعًا وعرضًا ستة وعشرين ذراعًا، وأضاف عثمان بن عفان مؤخرًا الجدار[1] القبلى وعند البعض إن هذه الإضافات كانت فى عهد وليد بن عبد الملك.

وعندما كان عمر بن عبد العزيز واليًا على المدينة وسع مسجد قباء وزين جدرانه وسقوفه بالفسيفساء والنقوش. وأضاف إليه مئذنة وعدة عقود. وصنع سقفه من خشب الساج وترك ساحته التى فى الوسط مكشوفة.

وبما أن ما جدده عمر بن عبد العزيز أشرف على الانهيار والخراب مع مرور الزمن فجدد فى سنة ٥٥٥هـ كما جدد عمود المحراب سالف الذكر سنة ٦٧١هـ، كما جدد بعض جهات من سقفه سنة ٧٣٣ وفى سنة ٨٤٠هـ الجهات الأخرى من السقف المذكور. وقد أصلح وعُمِّرَ فى سنة ٥٥٥ من قبل جمال الدين الأصفهانى ومن الناصر قلاوون المصرى سنة ٧٣٣ وفى سنة ٨٤٠ من قبل الأشرف برسباى المصرى، على قدر الإمكان.

ومال سقف المسجد ومئذنته للوقوع بفعل مرور الزمن، فبعث الأهالى فى سنة ٩٥٠هـ إلى السلطان سليمان ـ طيب الله ثراه ـ يسترحمونه ويرجونه فأرسل المختصين فهدموا مئذنته وما خرب من سقفه وبناهما من جديد، وزين ونور داخل المسجد وخارجه بالقناديل والثريات التى أرسلت من باب السعادة كما عين للمسجد الخطباء والأئمة والمؤذنين. ودام هذا التعمير ما يقرب من ١٦٠ سنة، وبما أنه لم يعمر ولم يرمم فى هذه الفترة من قبل أحد، فأوشكت جدرانه ومئذنته على الانهيار فحرم عشاق النبى ﷺ من زيارة ذلك المسجد، وبناء على هذا عرض الأمر من قبل أهالى دار السكينة، وموظفى المدينة على الأعتاب السلطانية فصدر الأمر السلطانى للقيام بما يقتضى، وأعلم بالأمر المعمار سليمان بك الذى أرسله السلطان مصطفى خان بن السلطان محمد خان لتعمير مسجد

(١) تسمى هذه الأسطوانة الأسطوانة المعلقة وليس فى جهته القبلية أسطوانة غيرها.

السعادة ونبه بإجراء اللازم، وبعد ما أتم سليمان بك تعمير مسجد السعادة وجدده قام بتجديد جدران مسجد قباء ومئذنته بعد ما هدمهما. وبنى قبة على أربعة أعمدة فوق مبرك الناقة ثم بنى خارج المسجد سبيلاً وعدة دور للخلاء وحفر فى ساحة المسجد الرملية بئراً عميقة تمد السبيل ودور الخلاء بالمياه وهكذا أوْفَى مهمته على أحسن وجه فى سنة ١١١١هـ.

ودام هذا التعمير ١٣٣ سنة وأُهْمِلَ المسجد نتيجة لتقلب الزمن وساءت حالة المسجد أكثر لغض المدينة النظر عن حالة المسجد حتى أوشك على الانهيار بغتة، فعرض الأمر على عتبة السلطان محمود خان بمحضر عام فى سنة ١٢٤٤هـ.

فما كان من السلطان محمود إلا أنْ ببناء المسجد بعد هدم جميع مشتملاته. وبناء على ذلك سافر إلى المدينة المنورة المهندس عزت خليفة وأمين البناء وحيد أفندى بعد ما تم اختيارهما تعيينهما من قبل الباب العالى. وبمجرد وصولهما ثابرا فى إيفاء مهمتهما فهدما مسجد قباء مع قبابه وجدرانه بالكامل وجددوه. فى صورة محكمة قوية. وكانت أعمدة المسجد المذكور أصبحت فى حالة غير لائقة للاستعمال فهدمها وحيد أفندى وجددها.

وهدم كذلك المحراب القديم محراب النبى، ومحراب منزل الآية، وقبة مبرك الناقة، وسبيل محمد باشا وجددها على طراز جديد. وأمر بكتابة الأبيات التى أرسلت من باب السعادة فوق طاقات هذه الآثار الشريفة. والأبيات التى كتبت فوق عقود الآثار الشريفة هى: البيت الذى لا نظير له والذى كتب على طاق محراب الكشف:

«أصبح طاق الكشف لمحراب النبى علما ومن هنا انكشفت أرض الحرم لحضرته»

البيت المؤثر الذى كتب على محراب مبرك الناقة:

إن اسم هذا الموضع الطهور مبرك الناقة فأصبح قصوى جوا لآيات السلطان مولاك»

البيت اللطيف المحرر على محراب منزل الآية المختار:

«يقولون إن آية ﴿ أُسِّسَ ﴾ (التوبة: ١٠٨) نزلت ها هنا تعال وقم هنا يا أيها المقتدى بأثر الرسول»

الحديث الشريف الذى كتب على المحراب الجديد:

قال النبى ﷺ، «من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان كأجر عمرة»[1].

التاريخ الذى كتب على طاق باب مسجد قباء الشريف.

إمام المسلمين ملك الدنيا السلطان محمود خان
الخلافة مختصة بذاته والكرامة مهيأة لطبعه
حينما سمع ما حل بالمسجد من خراب
بادر فى التو إلى تطييب خاطر أهل طيبة بترميمه
نزلت آية التأسيس فى حق هذا المسجد
فليشهد بمكانة هذا السلطان الذى جدد
كلما كان هذا المكان مسجداً لأهل
الحاجة فليُكتب للدين والدولة البقاء.
كتبت التاريخ أنا «برتو» وسجدت شاكراً
كان هذا المسجد خرابًا فعمره محمود خان

فأرسل من باب صاحب القرار النجارون والمهذبون وما يقتضيه بناء المحراب من الأدوات والأحجار فأقيم محراب فخم على يمين منبر السعادة من قطع رخام ملونة خاص بالجماعة الحنفية فى جمادى الأولى من سنة ١٢٥٨هـ وقرر أن يؤدى أئمة المذهب الحنفى صلواتهم فى هذا المحراب، وظل الإمام الحنفى يؤدى الصلوات فى هذا المحراب قرابة سنتين.

(١) سبق تخريج الحديث.

إلا أن الأمر السلطانى قد صدر بأن يصلى فى محراب النبى الإمام الشافعى وفى اليوم الآخر الإمام الحنفى أخذ أئمة المذهب الحنفى والشافعى يؤدون الصلاة مناوبة فى المحراب النبوى ما يقرب من ٢٦٩ سنة، ولما ذهب والى مصر محمد على باشا إلى المدينة المنورة بعد واقعة الوهابية فى سنة ١٢٢٩هـ بقصد زيارة الحجرة المعطرة وضع نظام أن يؤدى كل من أئمة المذهبين كل يوم الصلاة فى المحراب النبوى، ومازال هذا النظام جاريا، فيصلى الإمام الشافعى صلوات الصباح قبل الإمام الحنفى ويصلى الإمام الحنفى صلوات الأوقات الأخرى قبل الإمام الشافعى، ولكن فى أيام مواسم الحج يصلى الإمام الحنفى فى المحراب العثمانى ويصلى الإمام الشافعى فى المحراب النبوى بعدما يتم الإمام الحنفى صلاته.

وهذا النظام خاص بمواسم الحج، ويصلى الإمامان صلوات التراويح فى وقت واحد.

صورة ظهور المذهب الحنفى وزمان ظهوره:

بعد أن نقل ابن فرحون فى هذا الخصوص أقوالا كثيرة، قال: «كان سكان المدينة المنورة إلى عصر شمس الدين العجمى يعتنقون مذهبين المالكى والشافعى».

وعندما هاجر شمس الدين أفندى إلى المدينة شجع بعض علماء المذهب الشافعى على الاشتغال بمسائل المذهب الحنفى، وكان هؤلاء العلماء قد دققوا النتائج الأساسية لذلك المذاهب، وأخذ علماء المذهب المذكور يتكاثرون أخذوا يتفقهون وأصبحوا أئمة زمانهم من هنا أخذ الأهالى يستفيدون من علومهم ويستفتونهم ومن ذلك الوقت أخذ المذهب الحنفى ينتشر فى المدينة المنورة سنة ٧٢٣هـ.

إن المحراب السليمانى يقع ـ بناء على تعريف مؤلف «الجواهر الثمينة» من مؤرخى المدينة المنورة ـ فى الجهة اليمنى من محراب النبى ﷺ وعلى يسار منبر السعادة وبجانب العمود الثالث ابتداء من المنبر الشريف، وفى نهاية الطرف

الغربى لما أضافه عمر بن الخطاب، وقد بنى ذلك المحراب كما ذكر آنفا السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة ٩٥٨هـ وخصه بأئمة المذهب الحنفى والمالكى، وعرف بالمحراب السليمانى ا.هـ.

وكان أئمة الحنفية لا يؤمون الناس إلى سنة ٨٥٨هـ فى مسجد السعادة وكانت مهمة القضاء والإفتاء منحصرتين فى علماء المذهب والمالكى.

وفى عام ٨٦٥هـ بناء على طلبات ملوك مصر وضع نظام أن يصلى أئمة الشافعية صلاة الصبح قبل المالكية وأن يصلى أئمة المالكية مع جماعتهم الكبرى الصلوات الأخرى قبل الشافعية.

وكان من عادة النبى ﷺ كلما شرف مسجد قباء بزيارته أن يمر بدار أم حرام[٢] زوجة عبادة بن الصامت وكان لا يجيد عن هذه العادة ذات الحكمة النبوية.

ويروى أن النبى ﷺ كان يشرف دار سعد بن خيثمة فى قرية قباء وكانت دار حضرة سعد فى ذلك الوقت فى الركن الغربى لجدار المسجد القبلى. وفى وقتنا هذا فموقع مسجد على فوق ساحة هذا المنزل الذى لا نظير له. وكان سعد بن خيثمة يؤدى صلاته طول عمره فى ذلك المكان المبارك. وبناء على قول ابن شيبة أن النبى ﷺ كان من عادته أن يستريح مضجعًا فى دار سعدٍ ويجدد وضوءه ومن هنا كان سعد بن خيثمة يؤدى صلاته فى المكان الذى كان يضطجع فيه النبى إلى أن توفى.

وكان قصر كلثوم بن هدم الساحر خلف الجدار القبلى لمسجد قباء. وقد شرف

(١) يلزم أن يكون هذا الطريق فى زماننا فى مواجهة محل يسمى سويقة فى الطريق القبلى لسور حصن المدينة.

(٢) لما كان هذا المنزل فى داخل منازل بنى سالم الكائنة فى الجهة الغربية من مسجد الجمعة ومن هنا يتضح ويثبت أن النبى ﷺ كلما كان يشرف مسجد قباء يمر من جهة مسجد الجمعة.
والخبر صحيح كما جاء فى صحيح البخارى وغيره. انظر: الإصابة ٨/ ٢٢٢-٢٢٣.

الرسول ﷺ فى أول هجرته دار كلثوم بن هِدْم وصحب معه أبا بكر الصديق واستضافه فى ذلك المنزل اللطيف ومن هنا يعد من الآثار المباركة والمنازل المقدسة.

وقد اتخذت هذه الدار المباركة مؤخراً مسجداً والمسجد اللطيف الذى يعرف فى أيامنا باسم مسجد فاطمة قد أقيم فوق ساحة منزل ابن هدم.

مسجد ضرار

كان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً: خذام بن خالد من بنى عبد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد وموالى بنى أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر، وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة، ونبتل بن الحارث، وهم من بنى ضبيعة، وبجاد بن عمران وهو من بنى ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وموالى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنذر.

كان أبو عامر من أفراد قبيلة الخزرج، وكان ملمًا بعلوم التوراة والإنجيل وكان يمارس تعليماتهما وكان سالكًا بطريقة الزهد والعبادة وكان منهمكا باستحصال الرياسة العلمية وقد اختار قبل البعثة طقوس النصرانية وكان يكتسى الملابس القديمة ومن هنا اكتسب لقب الراهب. وكان قد اطلع على أوصاف النبى ﷺ بالاستماع إلى علماء الإنس والجن وكان يصفه لأهالى أرض يثرب قبل الهجرة ويعدد المنافع الدنيوية والأخروية فى اتباعه ويرغب أهل المدينة فى تصديق النبوة المحمدية ويشوقهم إلى ذلك.

وعندما أبهج النبى ﷺ بقدومه الميمون المدينة وأصبح مغتبطًا من أهل الأرض والسماء وأخذ أهل المدينة وأطرافها يبدون للنبى ﷺ علامات الميل والركون ملأ هذا قلب أبى عامر القاسى بالحزن والحقد، وأخذ يسعى لمنع أهل الإيمان عن متابعة باعث المغفرة ويبعدهم عنه بنشر ترهاته التى تقول: إن الشخص الذى

وصفت مقدمًا شمائله المباركة ونبى آخر الزمان الذى عرفته ليس الشخص الذى أتى إلى بلدنا وادعى النبوة. وإن كان له بعض علاماته الظاهرة وتردد أبو عامر مع المنافقين الذين يشاركونه فى أفكاره فى قبول الإسلام كما أشير إلى ذلك فى الآية:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩)

ودب دبيب الحسد فى نفسه للنصر الذى أحرزه المسلمون فى غزوة بدر الكبرى، ومضى إلى مكة وحرض القرشيين على الحرب والثأر وتجرأ فى وقعة أحد المكدرة أن يرمى أول سهم على المسلمين من أجل ذلك لقبه النبى صادق القول بـ «أبو عامر الفاسق».

قال بعض أئمة السير حينما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة مثل أبو عامر الفاسق أمام النبى ﷺ وقال له: يا محمد! ما نوع الأشياء التى تقول أنك أحضرتها من قبل الله فأجابه النبى ﷺ إنه دين إبراهيم الحنيف فتفوه قائلاً: أنا أيضًا أتبع شريعة الدين الحنيف وأعلم بأحكامها وأراد بهذا أن يعرض أنه كان يعتنق قبل البعثة دين خليل الرب الجليل.

فقال النبى ﷺ: ألا إننى جئت بدين إبراهيم على المحجة البيضاء، لا على ما ظننت وخمنته فغضب أبو عامر على أنه كذب بهذا الشكل وقال: «فليجاز الله الكذاب بالطرد والانعزال»، وهكذا أظهر غيظه وحقده ونجى من القتل فى غزوة أحد وهاجر إلى بلاد الشام، وانتسب بالمرة إلى حاكم القسطنطينية هرقل وحثّه على السعى لتجهيز الجيوش ضد المسلمين ولكنه لم يوفق فى ترويج أمله وتحقيقه.

وعندما عاد إلى المدينة قبل وقعة تبوك بمدة واشتغل بنشر العلوم حتى يستطيع

فعل ما فى ضميره من الفساد وأرسل إلى قومه واجب اللوم من منافقى بنى غنم رسالة ذات أسلوب لعين تتضمن نفاقه الذى اعتاده يقول فيها: «إننى سأعود إلى المدينة مستصحبًا معى عساكر من قيصر الروم، فاستعدوا أنتم أيضا بتجهيز الأسلحة اللازمة وانتظروا قدومى، وابذلوا جهدكم لبناء مسجد رصين الجدار أمام مسجد قباء وفى حى أصحاب النفاق».

وحينما أخذ منافقو بنى غنم الذين سبقت أسماؤهم أعلاه رسالة أبى عامر فأسرعوا ببناء مبنى فى قرية قباء قبيل غزوة تبوك وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يشرف هذا المكان ويباركه بأداء ركعتين صلاة فيه، فقالوا: «يا رسول الله! بنينا فى قريتنا مسجدًا ليصلى فيه العجزة وأصحاب العلل والأعذار فى ليالى الشتاء الممطرة وكل رجائنا أن تشرفوه بأداء ركعتين صلاة فيه فأجابهم النبى ﷺ: «الآن قد خرجنا من المدينة بنية الغزو فإذا ما يسرت لنا العودة نفعل إن شاء الله» فعاد المنافقون وقد تلقوا الرد الصائب.

وعندما عاد النبى ﷺ من تبوك وقرر أن يستريح قليلاً فى مكان يسمى ذى أوان على بعد ساعة فى ناحية تبوك من المدينة المنورة. فجاء منافقو بنى غنم مرة أخرى متذللين متمسكنين وطلبوا من النبى ﷺ أن يشرف مسجدهم مسجد ضرار إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حسم الموضوع إذ أنزل الآية الكريمة:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٧-١٠٨).

وهكذا فضحت الآية الكريمة أفكار بنى غنم وكشفتهم، وبعث النبى ﷺ مالك بن الدخشم وسعد بن عدى وأخاه عامر أو عاصم بن عدى لهدم وتخريب مسجد ضرار فى قرية قباء فذهب هؤلاء إلى قباء حيث هدموا وخربوا مسجد

ضرار أولا ثم جلبوا سعف النخيل وأحرقوه وجعلوا المكان مقلبًا للقمامة لأهل القرية.

يقول خزيمة بن ثابت: «كان أبو عامر الراهب قبل البعثة يعرف بأقوال النبى وأفعاله ويمدحه ويثنى عليه وكان يتجنب الشرك والكفر ويرغب فى اتباع دين إبراهيم الحنيف ويحرص على التوحيد، واجتمع بكثير من علماء اليهود والنصارى وتشاور معهم وسافر كثيرا ليدقق دين إبراهيم وعرف أن الدين الحنيف المذكور سيظهر مع مبعث الرسول الأكرم، واطلع على كثير من شمائل ذلك النبى المقدسة.

ووجد أبو عامر يومًا فى مجلس أعيان الأوس والخزرج وأخذ يذكر اسم النبى وصفاته وبين أنه ظهر فى مكة المكرمة وأنه سيهاجر إلى المدينة الطاهرة، وعندئذ قال له أبو الهيثم بن التيهان القضاعى الذى كان فى ذلك المجلس، وكان من الذين دخلوا فى الدين الحنيف، يا أبا عامر! كيف أتصرف إذا ما أدركت بعثة هذا النبى وقال له أبو عامر أقسم بأن الجن والإنس قد وصفوه لى وبينوه فقال له أبو الهيثم يا ترى، فالذين وصفوه لك من بين البشر رأوا صفاته فى كتاب الله؟ أو سمعوها من الجن؟ فنحن لا ندرى شيئا من هذا الموضوع؟ قال أبو عامر، أخبرنى بذلك كاهن فى اليمن، وكان الكاهن المذكور مشهورًا جدًا فى الأخبار العربية العجيبة، وكنت خرجت فى شهر رجب فى ليلة مقمرة منفردًا لأتلاقى مع ذلك الكاهن. وفى أثناء سيرى كان قلبى قد نام ومر وقت غير قليل، ولما استيقظت من نومى رأيت أن دابتى قد انحرفت عن الطريق ودخلت فى مكان لا يعرف أين سينتهى. وبدأت أرتعش حزينًا وأخذت أجيل النظر حولى من شدة الخوف ورأيت أمامى نارًا فاتجهت نحوها. ولم يكن لى دليل. وعندما وصلت إلى جانب النار كنت قد شعرت بالدفء من كثرة تجوالى حولها، إلا أن هذه النار لما كانت لاهى مثل الإنسان ولا الحيوان ولم تكن حولها منازل ولا خيام ولم تكن لائقة بأن يطلق عليها اسم النار ومن هنا أصابنى الخوف والفزع وانتصب شعرى حتى أصبحت كل شعرة كأنها شوكة. وارتعشت قوائم ناقتى فبدأت تسرع فى سيرها.

وما تصورته نارًا تمثلته أربعة أنفار مردة ذات أشكال مخيفة وهجموا على هجومًا عنيفًا، فصحت بأعلى صوتى واستغثت برئيسهم، وكان من هؤلاء الأنفار كلب يمنعهم من الهجوم على؛ فأتوا إلى جانبه وجلسوا بعد التحية، كانت وجوهم مخيفة ومناظرهم قبيحة كريهة، فخاطبنى واحد منهم قائلاً: «من أنت؟» فقلت لهم: «إننى شخص من بنى غسان الذى ينتهى إلى بنى قيلة[1] فقيل لى أين تذهب وعم تبحث» فقلت لهم: «إننى خرجت إلى الطريق باحثًا عن كاهن يخبرنى عن أحكام الدين الحنيف؛ ولكننى ضللت الطريق وأتيت هنا وهكذا وضحت لهم ما فى ضميرى، ثم ختمت مقالى قائلاً: «نحن من معاشر البشر، ونعتمد على الكهنة الذين يستقون منكم الأخبار وينشرونها بيننا، إننى فرد غريب يرغب فى ملاقاة الذين يتبعونكم لأجل ذلك أسير فى البلاد. فإذا ما طلبتم منى الذهاب نفذت أمركم فأشار الثلاثة إلى شخص رابع معهم والذى افتتح كلامه قائلاً ما اسمك؟ «فقلت له اسمى أبو عامر فقال لى: «يا أبا عامر افتح عيونك، وإننى أؤمنك بأننى لن أكذب عليك، لتعلق قلبى بك. يا أبا عامر أقسم لك إنه قد ظهر نبى من سلالة بنى هاشم بن عبد مناف وبسبب هذا الغيث مثل العنبر قد أحضر إلى العالم الذى أوشك على الخراب، وجهه منير مثل شمس الدنيا المضيئة واسع الصدر، قامته ليست طويلة ولا قصيرة بل هى موزونة، ولا ينظر إلى شيء أكثر من اللازم وعندما ينظر لا تطرف عيناه وعيونه ذات حكمة ومكحولتان بالفطرة واسعتان جميلتان، وفى عينيه مقدار من الحمرة وبين كتفيه خاتم النبوة، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، مبعوث بالدين الحنيف، يظهر أن الخلق جميعًا سيتبعونه ويسيرون فى آثاره وأنه سيتحدث للملائكة ذوات الأجنحة وبعد قوله هذا انسحب من جانبى وتقدم إلى الأمام فتبعه رفقاؤه، وأنا رأيت أن الصباح قد حان فوجدت طريقى وعدت».

يفهم من حكاية خزيمة هذه أن أبا عامر الفاسق أخبث الخلائق كأنه تدين بدين الخليل الجليل قبل البعثة النبوية وقد استقى المعلومات عن البعثة المحمدية

(١) قيلة أم الأوس والخزرج.

وترهب حتى يكتسب شرفًا ومكانة بين الأهالى وتوغل فى الصحارى يعنى اكتسى بالملابس الخلقة وتستر بستائر النفاق راغبًا فى خداع الناس؛ ولكنه باء بالخذلان والخسارة إذ أنكر الرسالة المحمدية، لأنه التقى بعد الهجرة بالنبى ﷺ وقال له: «يا محمد ما الدين الذى بعثت به؟» وتلقى الرد الصائب من النبى ﷺ إذ قال له: «بعثت بالدين الحنيف الذى بحثت عنه فترة من الزمن» فتجرأ أن يرد على النبى وهو يهذى» إنك قد مزجت بهذا الدين البدعة» فرد عليه النبى ﷺ قائلاً: «بل أتيتُ به على المحجة البيضاء» فغضب من تلقيه هذا الرد وغادر مجلس النبى ﷺ مجلس الملائكة. حتى إن النبى ﷺ عندما قال له «يا أبا عامر! ألست تنتظر قدومى؟ ألم تكن تنقل أوصافى التى تلقيتها من علماء اليهود والنصارى لأبناء الأوس والخزرج؟ «فرد على الاستفهام النبوى قائلا: «لست الشخص الذى وصفه علماء اليهود والنصارى، لم يحن بعد وقت بعثته» وأمن على دعاء النبى الذى قال: فليجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكذاب مستحقًا لجزاء الموت طريدًا وحيدًا فاستجاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعاء النبى ﷺ إذ هرب مؤخراً إلى بلاد الشام ثم إلى القسطنطينية وهلك وحيدًا طريدًا.

حنظلة بن أبى عامر الفاسق الذى هرب إلى القسطنطينية رافضًا الإسلام، قد استشهد فى غزوة أحد من قبل شداد بن أسود وعلى قول من أبى سفيان قد بشر بالحديث الشريف هو حنظلة غسيل الملائكة.

ومكان خرابة مسجد ضرار مجهول فى عصرنا، وكان المحل المبارك الذى بنى عليه مسجد قباء حظيرة لحيوانات امرأة مخلصة تسمى لينة؛ لذلك قال منافقو بنى غنم: «إننا نرى أن إقامة صلاة فوق مكان حظيرة حيوانات لينة غير مناسب؛ لأجل ذلك فنحن سنبنى فى المكان الذى عينه أبو عامر مسجدًا عظيمًا حيث سنتعبد»، وفعلاً بنوا مسجدًا عاليا رصينًا جميل الشكل فى جوار مسجد قباء وهذا محقق.

ولما كانت جميع الروايات التى تتحدث عن جهته وشكله وهيئة بنائه من

الأقوال الضعيفة وبناء على ذلك لا يمكن تعيين مكان خرابته. ومعلوم لدى الجميع أنه كان فى داخل قرية قباء وفى مكان قريب من مسجد قباء وبما أنه قد بنى لتفريق الجماعة الإسلامية فقد كان مبنيًا متينًا محكما لدرجة ما ومن الروايات الموثوقة أنه قد انبعث من الساحة القذرة لهذا المسجد دخان عجيب فى عصر السعادة كما أن هذا الدخان قد انبعث مرة أخرى فى عهد أبى جعفر المنصور.

فى ذكر مواقع المساجد النبوية التى تزار اليوم

استحب العلماء الكرام الصلاة تبركًا فى الأماكن التى صلى فيها النبى ﷺ.

وبينوا أنه يجب الاهتمام بالصلاة فى الأماكن سواء أكانت أسماء هذه المساجد التى أسست فى هذه المواقع معلومة أو مجهولة وأن هذه المساجد قد أقيمت عامة فى أيام ولاية عمر بن عبد العزيز، ثم جددت كلما احتاج أىٌّ موقع من مواقعها إلى التعمير والتجديد من قبل ملوك ذلك الزمان.

١ـ مسجد الجمعة:

يقع هذا المسجد بالمدينة المنورة وقرية قباء فى واد يعرف بذى صلب وفى رواية يعرف بـ «ذى رانونا» وهو بالقرب من التقاء مياه مجرى هذين الواديين.

إن هذا المسجد اللطيف أول معبد أدى فيه النبى ﷺ عند هجرته إلى المدينة المنورة وكان فى ميدان وادى ذى صلب وكان مكشوف الجوانب.

أحاطه أحد الخيرين اسمه عبد الصمد بجدار فى ارتفاع ذراع واحد وجعله على شكل مسجد.

ولما كان الجدار الذى أقامه عبد الصمد من الحجر الأسود خاليًا من كل شئ انهار بعد مدة واندرست خرائبه قليلاً قليلاً وهدمت فجدده أحد الفرس على شكل مسجد ولما مال هذا أيضًا إلى الانهيار والسقوط أصلحه وسقفه الشيخ شهاب الدين قلاوون وأحكم تشييده، ولهذا المسجد فى زماننا طاقان فوق عمود واحد وسقف مستقيم وطوله عشرون ذراعًا وعرضه ستة عشر ذراعًا وله ساحة رملية مكشوفة.

والحصن الذى اتخذه عتبان بن مالك مسجداً فى الجهة الشمالية من ذلك المسجد ومازالت آثار أطلاله قائمة حتى اليوم. وأخذا مما يرى كان عتبان يجمع رجال قبيلته فيه ويؤدون الصلاة فى الأيام المطيرة وذلك بإذن من النبى ﷺ.

عندما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة قام فى قرية قباء وواصل سيره وعندما وصل إلى ملتقى مجارى مياه، ذى صلب وذى رانونا حل وقت صلاة الجمعة فنزل من على ظهر ناقته التى كان يركبها وأدى صلاة الجمعة واتجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وكانت منازل سالم بن عوف فى ناحية ذلك المسجد، ويطلق على هذا المسجد اسم مسجد عاتكة أيضًا.

٢ـ الثانى هو مسجد الفضيح:

هذا المسجد معبد صغير مربع الشكل على شاطئ نهير فى الجهة الشرقية من مسجد قرية قباء، والجهات الأربع لمسجد فضيح خمسة عشر ذراعا قد أحيط أطرافه الأربعة بجدار من حجر أسود دون مؤنة وكان أبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ يسهر فى المكان الذى كان فيه مسجد فضيح قبل حرب بنى النضير. فسمعوا خبر تحريم الخمر فجأة وأراقوا ما فى أيديهم من الفضيح وسموا بعد ذلك المكان بالفضيح. وكانت إراقة الشراب فى ذلك المكان قبل أن يتخذ مسجدا وقبل أن يعرف أن الخمر بخسة مطلقا. وكان النبى ﷺ قد أمر أصحابه الكرام أن ينصبوا خيامهم فى مكان قريب من مسجد فضيح فى غزوة بنى النضير. واتخذ المكان الذى سمر فيه أبو أيوب الأنصارى مصلى وصلى فيه ما يقرب من ست ليال.

هذا وهناك من يطلق على مسجد الفضيح «مسجد الشمس»، ولكن إذا ما نظر إلى وقوع قصة رد الشمس الصحيحة المشهورة فى صحراء خيبر فخطأ هذ الرأى واضح.

كان مسجد الفضيح قد نسى تماما فى العصر الأخير وبناء عليه خربت مبانيه وإنهدمت آثار أساسه وانمحت فمسحت من الذاكرة حتى ساحة بنائه، إلا أن

مصطفى أفندى عشقى من المجاورين فى المدينة جدده فى سنة ١٢٦٦هـ ووفق فى إحيائه، وجدده مؤخرا السلطان عبد المجيد فى صورة لائقة فطول أبنيته وعرضها أحد عشر ذراعا.

وخلف الجدار القبلى للمسجد بستانان مشهوران ومعموران وهما الأشرية وسايور وبجانبهما قرية وحصن وأطلال بيدر عظيم.

٣ـ الثالث مسجد بنى قريظة:

مسجد بنى قريظة أمام باب حديقة النخيل والمعروفة بالحاجزة فى تلال قرية بنى قريظة من جهة الشرق، وجهاته الأربعة أربعة وأربعون ذراعا وعلى جوانبه آثار أطلال منازل بنى قريظة.

بنى ذلك المسجد الشريف الوليد بن عبد الملك وضم إليه ساحة منزل إحدى نساء بنى خضر، لأن النبى ﷺ كان قد صلى فى ذلك المنزل. وساحة هذا المنزل الآن بجانب مئذنة ذلك المسجد الحالية.

كان الأصحاب الكرام قد استقبلوا سعد بن معاذ فى غزوة بنى قريظة فى ساحة ذلك المنزل. يعنى أن الأصحاب الكرام من قبيلة الأوس استقبلوا سعد بن معاذ الذى تُرك لرأيه اختيار الجزاء اللائق ليهود بنى قريظة وقالوا له: «يا سعد! إن النبى ﷺ قد أحال لك تحديد الجزاء الذى يستحقه يهود بنى قريظة وبما أن لنا مع هذه القبيلة حقوق ومعرفة قديمة نرجو منك ألا تضيع هذه الحقوق والمعرفة». كان قديما لمسجد بنى قريظة ١٦ عمودا ومئذنة واحدة مثل مسجد قباء. وفيما بعد انهارت مئذنته وأعمدته وجدران أطرافه واندرست، وظلت قاعدة مئذنته فى الركن الغربى الشمالى من خرابته، فأحاطوه فى سنة ٧٢٠هـ بجدار. وقد جدد ذلك الجدار شاهين الشجاعى سنة ٨٩٣هـ وأسس على قاعدة مئذنته صفة جيدة وهكذا عاد المسجد إلى حالته القديمة، وطول مسجد بنى قريظة وعرضه أربعة وأربعون ذراعا، ولما كان خاليا من السقف فالذين يصلون فى داخله يكونون غير مصونين من حرارة الشمس.

٤ـ المسجد الرابع هو مسجد مشربة أم إبراهيم:[١]

مشربة أم إبراهيم معبد جميل فى فى الطرف الشرقى لمسجد بنى قريظة وهو بجوار التل وبين حديقة أشراف القواسم[٢].

ومشربة أم إبراهيم من الصدقات التى انتقلت إلى النبى ﷺ من مخاديق اليهود وكانت فى الماضى حوش جميل واقع بين بيوته وهو خاص بإقامة مارية القبطية وهو مسقط رأس إبراهيم. وحينما كانت أم إبراهيم تضع مولودها اتكأت إلى شجرة ويقال إن هذه الشجرة مازالت قائمة إلى الآن.

وقد ثبت أن النبى ﷺ صلَّى فى مشربة أم إبراهيم، لذا اتخذت ساحة الحوش سالف الذكر مصلى وطول هذا المسجد أربعة عشر ذراعًا وعرضه تسعة أذرع وقد هدمت أبنيته واندرس أساسه وجداره، وأحيط مؤخرا بجدار منخفض وأرى أنه ساحة المسجد النبوى الشريف.

وعلى الجهة الشمالية من مسجد مشربة أم إبراهيم ساحة منزل خرب يزورها الناس على أنها منزل دار بنى مازن بن النجار فالناس مخطئون فى ظنهم. وهذا المنزل الذى يزار بناء على ظن دون سند طوله أحد عشر ذراعا وعرضه أربعة عشر ذراعا وفى الجهة الشرقية منه سقف لطيف وبالقرب منه حديقة نخيل يعرف بالنخل الزبيرى وهذه الحديقة حديقة النخيل التى وقفها الزبير بن العوام.

٥ـ المسجد الخامس بنى ظفر:

بنو ظفر أحفاد جماعة من قبيلة الأوس ويطلق على معبدهم الذى فى جانب الحرة القريبة التى تقع فى الجهة الشرقية من بقيع الغرقد مسجد بغلة أيضا.

بعد أن صلى إمام الأنبياء ﷺ فى هذا المكان المقدس جلس على صخرة بجانبه، وبعد ذلك كلما جلست فوق هذه الصخرة امرأة عقيمة كانت تحمل

(١) المشربة بمعنى العريشة.

(٢) المراد بأشراف القواسم أبناء قاسم بن إدريس بن جعفر وهو أخو جعفر بن حسن العسكرى.

دائما، وأراد زياد بن عبيد انتزاع تلك الصخرة من مكانها لينقلها إلى مكان آخر، إلا أنه لم يتجرأ على ذلك بسبب معارضة علماء عصره، وليس هناك فى زماننا حجر مثل ذلك، ولكن الحجر الموجود على يسار باب مسجد بغلة ليس بعيد أن تكون تلك الصخرة التى سبق ذكرها.

وجلس النبى ﷺ فوق تلك الصخرة المذكورة وطلب أن يتلو عشر من القرآن الكريم وكان معه خادمه محمود العاقبة عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهما من الفضلاء.

وشرع أحد الصحابة ـ بعد البسملة ـ فى تلاوة العشر إلى أن جاء إلى الآية:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٤١-٤٢)

عندئذ تأثر النبى ﷺ تأثرا شديدا وبكى بكاء حتى اخْضَلَّتْ لحيته الشريفة بالدموع.

وليس لمسجد بنى ظفر أعمدة ولكن له محراب وطول جهاته الأربعة واحد وعشرون ذراعًا وقد تخربت أبنيته وقد رممه أبو جعفر المنصور المستنصر بالله خلال عام ٦٣٠هـ وكتبت على كمر بابه عبارة: «خلد الله الملك الإمام أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين عمره سنة ثلاثين وستمائة»

إلا أنه آل إلى السقوط والانهيار فيما بعد فجدده شيخ الحرم مصطفى مظلوم أغا وأقام إلى جانبه مسجدين فى عام ١٠٣٢هـ، ويسمى أحد المسجدين مسجد بغلة ويسمى الآخر مسجد المائدة ولما كانت فى مسجد بغلة بعض آثار الحوافر يروى موثوقًا بأن هذا الموقع هو مبرك ناقة النبى ﷺ.

وفى خارج مسجد بغلة حجر، وفى هذا الحجر خدوش ويعتقد أهل المدينة أن هذه الخدوش أثر حوافر بغلة النبى ﷺ وفى الجهة الغربية لهذا الحجر حجر آخر

عليه حفرة هى أثر مرفق النبى ﷺ، وإلى جانبه حجر آخر فيه حفر هى آثار أصابعه عليه السلام وجاءت فى ذلك رواية موثوقة.

٦ـ السادس مسجد الإجابة:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى لمقبرة بقيع الغرقد، وعلى يسرة الذاهب إلى محلة العريضى وطوله خمسة وعشرون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا وقد أرسى أساس هذا المسجد وسط قرية بنى معاوية بن مالك بن عوف الأوسى، ويقال إن ثمة أنقاضًا فى أطرافه هى أنقاض بيوت القرية المذكورة.

وقد ذهب النبى ﷺ مع بعض صحابته إلى مسجد الإجابة وصلى فيه ركعتين وبعد السلام دعا دعاء طويلاً وبعد ما انتهى منه قال: «قد طلبت فى هذا الدعاء من معطى العطايا ثلاثة أشياء قبل هذان منهما ورد واحدًا، أما الدعاءان اللذان قبلا فهما ألا تهلك أمتى بالقحط والغرق أما الدعاء الذى لم يستجب له رفع الخلاف والمباينة والاختلاف بين أهل الإيمان».

يروون نقلاً عن عبد الله بن جابر بن عتبة أن عبد الله تحدث على هذه الوتيرة: «حينما كنت فى قرية بنى معاوية جاء عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقال: يا عبد الله! هل تعرف المكان الذى أدى فيه النبى الصلاة فى مسجد الإجابة والأشياء الثلاثة التى طلب من الله عقب صلاته؟ فقلت له ـ نعم أعرف. وبعد ما أريته المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ قلت أما دعاؤه فكان ألا تهلك أمته بالقحط والغرق. وألا يقع بين المسلمين اختلاف وقتال فقبل عدم هلاك أمته بالقحط والغرق وردَّ طلبه بعدم وقوع خلاف بين أمته. وهكذا فصلت له الواقع، فقال ابن الخليفة يظهر أن الأمة المحمدية ستتقاتل فيما بينها إلى يوم القيامة»[1]، وأيد روايتى بهذا القول وصرح بأنه واقف لذلك الحديث.

كان النبى ﷺ سيد العالمين قد صلى ركعتين على مسافة ذراعين من يمين محراب مسجد الإجابة والذين يعرفون ذلك من الزوار عندما يزورون مسجد الإجابة. يحرصون على أداء الصلاة فيه على بعد ذراعين من يمين المحراب.

(١) الحديث من رواية ابن عباس ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١/ ١١٧.

رواية

يروى أهل المدينة المنورة أن مسجد الإجابة مجمع الأقطاب ويحكون أن أثر الفضلاء الذين لم يُرَوا فى المدينة المنورة يمكن رؤيتهم فى داخل هذا المسجد وهم يتعبدون فى حلقات.

يطلق فى المدينة المنورة على الأشخاص الذى يزورون المدينة المنورة فى موسم الحج أشخاص مجهولون، فلا يفهم من هذا أن زيارة هذا المسجد حصر على مواسم الحج؛ لأنه قد رئى فى داخل هذا المسجد فى ليالى الجمعة والاثنين بعض الذوات يذكرون الله موحدين فى حلقات وإن هؤلاء ليسوا من سكان دار السكينة والنواحى القريبة منها.

ولا حاجة هناك لإثبات أن مسجد الإجابة من الآثار المقدسة بروايات الأهالى. وكما هو معروف لزوار هذا المسجد اللطيف كلما يراه الإنسان يرتعش جسمه من المهابة التى أحدثها الروحانيون فيه.

كما أن باب هذا المسجد يترك ليلاً ونهارًا مفتوحًا وليس له حراس ولا خدم ولا مراقبون ومع ذلك لا يدخل فيه حيوان، أليس هذا دليلاً كافيًا لإثبات المدعى.

ويروى موثوقًا أن خضر عليه السلام يصلى كل يوم صلاة الإشراق فى مسجد الإجابة. ومع هذا كان لهذا المسجد فى أوائل سلطنة السلطان محمود خان الثانى عدة أسطوانات ومحراب جميلة؛ وفيما بعد تهدمت أبنيته ومحرابه المذكور وأعمدته حتى الأرض وظل فى حالة خراب إلى عهد السلطان محمود خان الثانى. الذى عمره وأحياه بتجديده، كما أن السلطان عبد المجيد خان اهتم بترميمه وتعميره، والآن هو عامر كالمساجد الأخرى ومعروف بين الأهالى ومشهور.

دعاء مسجد الفتح:

لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، اللهم لك الحمد هديتنى من الضلالة، فلا مكرم لمن أهنت ولا مهين لمن أكرمت، ولا معز لمن أذللت ولا مذل لمن أعززت، ولا ناصر لمن خذلت، ولا خاذل لمن نصرت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا رازق لما حرمت، ولا حارم لما رزقت، ولا رافع لمن خفضت، ولا خافض لمن رفعت، ولا خارق لمن سترت، ولا ساتر لمن خرقت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لمن قربت، اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أحول وبك أصول وبك أقاتل، اللهم يا نصير المستصرخين والمكروبين، ويا غياث المستغيثين، ويا مفرج كرب المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم واكشف عنى كربى وهمى وحزنى وغمى كما كشفت عن حبيبك ورسولك ﷺ كربه وحزنه وهمه فى هذا المقام وأنا أستشفع إليك به ﷺ فى ذلك فقد ترى حالى وتعلم عجزى وضعفى يا حنان يا منان يا ذا الجود والإحسان أسألك من خير ما سألك منه عبدك وحبيبك سيدنا محمد ﷺ وأستعيذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك وحبيبك سيدنا محمد ﷺ. انتهى.

إخطار

بعدما ينتهى الزوار من هذا الدعاء يقتضى الأمر أن يعرضوا ما فى ضمائرهم بأية لغة كانت، وفى الطرف الغربى منه مسجد أبى بكر وبالقرب منه صهريج وفوق الصهريج غرفة، وهذه الغرفة من أوقاف إبراهيم أغا بانى هذا الصهريج. وفى الجهة الغربية من ذلك الصهريج بستان كبير. وبما أن موقع هذه الحديقة طيب الهواء وجميل المنظر وبنى فى مكان مناسب منها فى تاريخ ١٠٤٨ سبيل حسن فيجلس المارون والعابرون بجانبه ويدعون لصاحب الوقف بالخير. انتهى.

وبما أن المساجد الثلاثة التى سبق تعريفها فى جهة جبل سلع حيث اتخذ حجاج القوافل الشامية النزول حول هذا الجبل عادة مرعية استنبتت فى الجهة الغربية من هذا الجبل كثير من البساتين والمزارع. وتنزل القوافل الشامية فى الجهة

الشرقية من هذه البساتين والمزارع وتقيم هناك حسب المدة اللازمة، والبساتين المشهورة مثل المكارية، السنانية، الحمامية، الفيروز التى تنسب إلى الوزير مصطفى باشا فهى فى المحل الذى تنزل فيه قوافل الشام وتقيم هناك.

٧- كهف سلع

تطلق على هذه المغارة الشريفة كهف بنى خرام فهو فى مطلع بنى خرام الذى أمامه حديقة النقيبة وعلى يمين الذين يتجهون من المدينة المنورة إلى مساجد الفتح الثلاثة. وعلى هذا التقدير تظل حديقة النقيبة على يسار الذاهبين إلى الكهف المقدس المذكور.

مطلع بنى خرام ـ هو المكان الذى كان يسكنه قديمًا أفراد قبيلة بنى خرام، ومازالت أطلال ديارهم ماثلة للأعين إلى اليوم.

تقع حديقة النقيبة فى مجرى السيل الذى يجرى من جبل سلع إلى وادى البطحان وكهف بنى خرام فى الجهة اليمنى من مقدم الجهة الشرقية لهذا المجرى. وإن كانت من جبل سلع وعلى ربوه صغيرة ويصعد إليه من جهته الشرقية والشمالية بسلالم.

وفى الناحية القبلية لهذا المسجد مسجدان كذلك ويسميان بمسجد الفتح أيضًا ولكن وجه تسميته بالفتح أن النبى ﷺ قد دعا الله على ساحة هذا المسجد فى غزوة الأحزاب ابتداء من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء وقد استجيب لدعاء النبى ﷺ فى يوم الأربعاء بين الصلاتين فانهزمت أحزاب المشركين حالا وخابت آمالها.

إذا كان الدعاء فى مسجد الفتح قرين الإخلاص فلابد أن ينال القبول والاستجابة لدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويروون أن حضرة جابر قال: ما من حاجة رجوت من الله تحقيقها فى مسجد الفتح إلا ونلت أملى.

كان النبى ﷺ فى ابتداء غزوة الأحزاب فى مكان يطلق عليه جرف ثم انتقل إلى محل مسجد الفتح وشارك معظم الصحابة الكرام فى دعائه وواظبوا عليه.

ولقد أكثروا من الابتهال والتضرع إلى الله حتى دام ذلك فى الصباح حتى المساء، حتى إنهم لم يستطيعوا أداء صلوات الظهر والعصر والمغرب وقاموا بعد المغرب وصلوا صلوات الأوقات الثلاثة فى وقت واحد على ساحة الفتح. والمكان المبارك الذى أدى فيه النبى ﷺ يقع فى الساحة الرملية لذلك المسجد وفى مواجهة المحراب، وإذا ما نظرنا إلى وضعه الحالى فإنه فى المكان الذى ركز فيه العمود الثانى؛ لأن لمسجد الفتح ثلاثة أعمدة متحاذية.

التأسف

وبناء على تعريف المؤرخين أن المكان المبارك الذى أدى فيه النبى ﷺ صلاته هو المكان الذى ركز فيه العمود الثانى ولشدة الأسف عندما جدد ذلك المسجد من قبل السلطان عبد المجيد فى سنة (١٢٧٠هـ) انتزع المختصون بأمور البناء العمود الثانى عن مكانه وغرسوه فى مكان آخر بسبب جهلهم، فمكان ذلك الأثر مجهول الآن.

وفى الجهة القبلية من مسجد الفتح مسجد سليمان وخلفه مسجد على وخلف مسجد على مسجد أبو بكر.

وهدم الأمير سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء من وزراء الملوك العبيديين المصرية سنة ٥٧٥هـ مسجد الفتح وفى سنة ٥٧٩هـ مسجد سلمان وجددت فيما بعد على أشكال جميلة كما أن أحد أهل السنة جدد مسجد أبى بكر فى سنة ٦٠٢هـ فأصبح مثل المساجد الأخرى.

وطول مسجد الفتح عشرون ذراعًا وعرضه (١٧) ذراعًا وطول مسجد سلمان (١٧) ذراعًا وعرضه (١٤) ذراعًا وطول مسجد على (١٦) ذراعًا وعرضه (١٣) ذراعًا وكان صلحاء الإسلام عندما يزورون مسجد الفتح يدعون بالدعاء الذى مر ذكره:

هنا مغارة أخرى إلا أن المغارة التى نحن بصدد تعريفها على يمين مطلع بنى خرام وكان النبى ﷺ يبيت فيها قائمًا يصلى لخالق العباد.

٨ـ المسجد الثامن مسجد القبلتين:

يقع مسجد القبلتين فى ناحية بئر عثمان بجبل سلع، وله محرابان ينظر أحدهما إلى البيت المقدس والآخر إلى الكعبة المعظمة، وإن كان بعض المؤرخين قالوا إن تحويل القبلة حدث فى مسجد بنى خرام الذى يقع فى صحراء خالية، إلا أنهم مخطئون فى ادعائهم. لأن مسجد القبلتين كان فى قرية بنى سلمة وكان معروفًا فى ذلك الوقت بمسجد بنى سلمة بينما كان النبى ﷺ يؤدى صلاة الظهر فى مسجد بنى سلمة مستقبلاً بيت المقدس توجه إلى ميزاب الكعبة: وهذا هو سبب اشتهار هذا المسجد بمسجد القبلتين.

استطراد

بينما كان سيد البشر ﷺ، يزور مقلمة أم بشر بن البراء بن معرور ـ رضى الله عنها ـ يوم الاثنين فى أواخر شهر رجب الفرد فى السنة الثانية للهجرة وكانت من ساكنات محلة بنى سلمة إذ حان وقت صلاة الظهر بعد أن تناول الرسول ﷺ الطعام مضى إلى مسجد المحلة المذكورة ليؤدى صلاة الظهر.

وقام مصليًا، وبينما كان فى الركعة الثانية من الفرض نزلت الآية الكريمة:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٠).

فاستقبل النبى ﷺ البيت الحرام وهو يصلى فتبعته الجماعة الحاضرة واستقبلوا مع الرسول ﷺ الكعبة المعظمة وأتموا صلاتهم وسموا المسجد بمسجد القبلتين.

وكان النبى ﷺ إمام المتقين حزينًا، لأنه يستدبر البيت الحرام متجهًا إلى القدس لأنه كان يسمع بأذنه ما تقوله اليهود: «إن محمد يستقبل قبلتنا ويحتقر ديننا» ولما تحولت القبلة قد سر سرورًا لا حد له.

وقد تخرب مسجد القبلتين بمرور الزمان وتقلبات الأيام وفى عام (٨٩٣هـ) جدد شاهين الشجاعى سقفه فقط وأقام حوله جدارًا صغيرًا فحافظ على ساحته الرملية. إن سطح ذلك المسجد المقدس يرتفع عن سطح الأرض مقدار ذراعين وقد سمع رواية أن بابه خال من المصاريع وجدران أطرافه أشرفت على الخراب بعد تشققها. وقد رئى ذلك ذاتيًا فى سنة ٨٩٢هـ، وبما أن جميع آثار الحرمين تعمر وترمم تحت عناية السلطان وظله فلا شك أن هذا المسجد أيضًا سيعمر على الوجه اللائق.

٩ـ التاسع مسجد السقيا:

إن معبد السقيا اللطيف يقع فى جهة مكة وفى الجهة الغربية عن طريق المدرج قليلاً حيث فرق ﷺ مجاهدى ملحمة بدر الكبرى ودعا لأوزان طيبة وأكيالها بالخير والبركة.

كان هذا المسجد قد خرب تمامًا واندرس أساسه ولم يعرف مكانه، فليرض الله عن الإمام السمهودى الذى بذل جهودًا مدة طويلة حتى وجد أطلاله ومكان محرابه وأظهر ساحته وكشفها، وإن كان أساس جدرانه قد ظل تحت التراب مقدار نصف ذراع إلا أن الإمام المذكور قد رفع عنه التراب وبنى جدران أطرافه الأربعة وأعاد بناءه بقدر كاف وأعاده إلى هيئته الأولى. والآن طول كل ضلع من أضلاعه الأربعة سبعة أذرع، ولكن الأبنية التى جددها الإمام السمهودى لم تصمد طويلاً فتخربت، وفى العصر العثمانى جدده قاسم أغا من قواد جيش العثمانيين وهو أحد أصحاب الخير، كما ظهر وعمق بئر السقيا الذى بجواره، ويعرف الآن بئر السقيا بسبيل قاسم أغا.

١٠ـ العاشر مسجد الذبابة:

ويسمى أهل المدينة مسجد الإجابة بمسجد راية أيضًا. ويقع هذا المسجد على يسار القادمين من الشام إلى المدينة المنورة وهو على جبل صغير وفى مكان قريب

من ثنية الوداع وفى رواية موثوقة أن النبى ﷺ نصب خياما فى ساحة هذ المسجد وصلى فيها.

كان مروان بن الحكم قد قتل أحد الأشخاص يسمى ذباب وأتى به فى ساحة يطلق عليها ذباب وهى نفس ساحة ذلك المسجد المقدس، وصلبه وشهر به هناك، فعاتبته الصديقة زوجة الرسول السيدة عائشة قائلة له: كان الرسول ﷺ يؤدى الصلاة فى ذلك المكان المبارك، وأنت تجرأت أن تتخذ مصلى النبى مصلبًا؛ لذلك استحققت أن تكون مظهراً للخذلان.

وكان القتيل المذكور رجلا من اليمن، وكان عامل مروان على اليمن قد اغتصب وأخذ ثور المذكور، وعندما فصل العامل من عمله تتبعه ذباب إلى المدينة وقتل الرجل فاعتقل من قبل مروان وقبض عليه وصلب. وبعد قتل ذباب فى هذا المكان أصبح هذا المكان مصلبًا للأمراء إلا أن هشام بن عروة قال لزياد بن عبد الله أحد ولاة المدينة وا أسفاه!! لقد اتخذ موضع خيمة النبى ﷺ مكانا للصلب، وأصبح شغل الحكومة الشاغل الآن العمل على خلاف الآداب المرعية وبناء على هذا القول أبطلت عادة صلب الناس فى هذا الموضع. عندما اصطف فى غزوة الخندق كان النبى ﷺ قد نصب خيمة على جبل ذبابة وهناك من يدعى أن النبى ﷺ نصب خيمته فى غزوة الخندق على ساحة مسجد الفتح وإن كانت صحة هذه الرواية ظاهرة إلا أن النبى ﷺ لم يبق فى مسجد الفتح فقط بل وجد فى مسجد ذبابة أيضًا. ولما استجيب لدعائه فى ساحة مسجد الفتح أطلق على المسجد الذى أقيم على هذه الساحة مسجد الفتح. كانت أبنية مسجد ذبابة قد خربت تمامًا وانمحى أثر أساسه إلا أن أحد أهل الخير يسمى فيروزى أمين مرجان عمر وجدد هذا المسجد فى سنة ٨٤٥ أو ٨٤٦؛ رحمة الله عليه...

١١ - المسجد الحادى عشر مسجد أحد:

ولما كان مسجد أحد فى مكان ملاصق لجبل أحد فيظل على يمين الذاهبين إلى مهراس بطريق بين الجبل، ولما كانت مبانى جبل أحد صغيرة جداً وقديمة قد

خربت وكان معروفًا إلى سنة ١٢٦٩هـ بمسجد الفتح، فعمره فى السنة المرقومة مصطفى عشقى أفندى من مجاورى المدينة وأحياه وبهذا أنقذ ساحته من أن تكون مقرًا للدواب، وطول المسجد ثمانية عشر ذراعًا وعرضه اثنا عشر ذراعًا.

كان النبى إمام الأصفياء ﷺ، قد أدى صلاة الظهر والعصر على ساحة هذا المسجد فى ختام غزوة أحد، ونزلت عليه الآية الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: ١١).

١٢ـ المسجد الثانى عشر مسجد ركن جبل عينين:

يقع هذا المسجد فوق قمة الجبل الذى أمام مشهد حمزة بن عبدالمطلب ـ رضى الله عنه ـ والجهة الشرقية منه وكانت مبانيها خربة إلى سنة ١٢٦٧هـ وكان أساس خرائبه مجهولاً. وعثر عليه فى السنة المذكورة المرحوم عشقى أفندى من مجاورى المدينة وجدده، إن ما يطلق عليه مسجد «صرعه» هو نفس هذا المسجد ومساحته السطحية طولاً وعرضًا ثمانية عشر ذراعًا.

وقد كلُف أربعون من الرّماة تحت قيادة عبد الله بن جبير للدفاع عن ظهر الجيش الإسلامى ووضعوا فى ساحة هذا المسجد، قد أصيب حضرة حمزة فى هذا المكان ونال رتبة الشهادة العالية، ويروى أن جسراً كان قائمًا بالقرب من هذا المكان، فى عصر السعادة وأن النبى ﷺ قد صلى بجانب ذلك الجسر وهو مسلح فى وقفة أحد، ولكن فى زماننا لم يبق لذلك الجسر أى أثر.

١٣ـ المسجد الثالث عشر مسجد الوادى:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى لجبل العينين وفى مكان قريب من مسجد ركن جبل العينين. كانت أبنيته القديمة بنيت بأحجار منقوشة فى غاية من الزينة والمتانة وقد أشرفت على الخراب والانهدام، وجَدَّده فى خلال سنة ٥٠٨هـ

حسين بن أبى الهيجاء وكتب على طاق بابه: «هذا مصرع حمزة بن عبد المطلب ومصلى رسول الله ﷺ عمره حسين بن أبى الهيجاء سنة ثمان وخمسمائة».

وكان حضرة حمزة قد طعن فى ساحة مسجد ركن الجبل وسقط على ساحة مسجد الوادى، وأمر النبى ﷺ بإحضار جثمانه على ساحة مسجد الوادى الذى سبق تعريفه وصلى عليه.

وعلى رواية: أنه أدى صلاة الصبح فى هذا المكان ذلك اليوم هناك بين مسجد الوادى ومشهد حمزة.

وفى الجهة الغربية من المسجد المذكور مبنى مقبب يعرف باسم قبة الثنايا وهو أثر من آثار المرحوم سليم بك أحد كاتمى أسرار السلطان عبد المجيد وزملائه، كانت ثنية النبى ﷺ قد تكسرت فى هذا المكان الذى تحت القبة.

مع أن هذا المكان المبارك مركز وقعة أحد الأليمة إلا أنه أصبح الآن مسيرة للناس، قد بنى هناك كثير من المحال والمنازل واعتاد الأهالى أن يذهبوا هناك من وقت لآخر.

وفى مواسم الحج يشتد الزحام هناك ليلاً ونهاراً، ولا سيما عندما ترد طائفة الرحبيين ويقيم أهل المدينة فى المنازل التى هناك ويبذلون جهدهم ليحملوا الزوار والواردين على الزيارة، ولكن بهجة هذا المكان وزيارة آثاره تكون مهددة بأطماع عربان البادية وإذا طغى العربان وثاروا فلا مجال لذهاب الزائرين إلى هناك كما أنه ليس فى الإمكان إقامة الأهالى فى تلك البيوت آمنين مستريحين. وفى مثل هذه الأوقات يذهب الزوار فى جماعات كبيرة حتى يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد اللصوص والمسلحين، وإذا ما اقتضى الأمر حربهم فإنهم يقاتلون العربان ويشتتون شملهم.

ومن يخرجون من أهل المدينة لزيارة شهداء أحد يحملون السلاح، ويقولون إن حمل السلاح عند زيارة شهداء أحد سنة شريفة، لأن النبى ﷺ كان يحمل السلاح حينما كان يزور شهداء أحد.

١٤ـ المسجد الرابع عشر مسجد السافلة:

يقع هذا المسجد على يمين المتوجه إلى قبر حمزة وهو بالقرب من حديقة نخيل تسمى بجير وهو فى بقيع الأسواق فى طرف جبل حنين ويبلغ طوله ثمانية أذرع ويعرف بمسجد «أبى ذر الغفارى».

ويروى أن عبد الرحمن بن عوف[1] قال شخصيًا: إنه بينما كان فى الساحة الرملية لمسجد «سافلة» رأى النبى ﷺ وقد خرج من الباب الذى فى جهة المقبرة ودخل إلى حديقة فى الأسواق حيث توضأ وصلى ركعتين ثم سجد، وبعد مدة رفع رأسه المبارك وقال إن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل اليوم باسطًا أجنحته وأنزل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وفى هذه البقعة كذلك مسجد الثنية، وإلى عام ١٢٥٥هـ كان مجهول الاسم والمكان. وفى خلال هذا العام عثر عشقى أفندى على موضعه، وهذا المسجد يقع على ناحية إلى مسجد الفتح من مسجد حمزة، وهو مسجد صغير وطوله وعرضه خمسة عشر ذراعًا.

وأهل المدينة يدعون الزوار إلى زيارة موضعين آخرين فى هذا الموقع.

أحدهما: صخرة عظيمة ملاصقة لجبل أحد ولها فتحة قدر حجم رأس الإنسان، ويعتقد الزوار أنها أثر رأس النبى ﷺ.

والآخر: غار على مسافة من هذه الصخرة، ويقولون إن النبى ﷺ دخل فى هذا الغار، إلا أن هذان القولان ما هما إلا وهم وظن، ولو كانتا من الروايات الصحيحة لكان المؤرخون القدماء ذكروهما فى كتبهم وبينوهما.

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦١، تفسير سورة الأحزاب الآية ٥٦.

١٥ـ المسجد الخامس عشر مسجد البقيع:

يقع هذا المسجد على يمنة الخارج من باب مقبرة جنة البقيع وهو فى غرب قبر عقيل، وقبور أمهات المؤمنين ويقال إن عمودًا واحدًا تبقى من مبناه القديم. وكان لهذا المسجد عقدان قديمان ومصنوعان من الحجر المنقوش. وكانت أنقاض هذين العقدين ظاهرة ماثلة للعين إلى عام ٧٢٠هـ وبما أن شاهين الجمالى جدده فى نفس العام لم يبق لهما أثر الآن.

ولما كان مسجد البقيع متصلاً بدار أبى بن كعب كان اسم المسجد القديم «مسجد أبى بن كعب» واشتهر فى فترة ما باسم مسجد جديلة وكذلك.

وقد صلى النبى ﷺ مرارًا وتكرارًا فى مسجد البقيع وقال ﷺ لو لم أحترز من اقتداء الناس بى وميلهم للصلاة فيه لأكثرت من الصلاة فى هذا المكان.

وظل مسجد البقيع فيما بعد خربا تمام الخراب، وفى عام ١٢٦٥هـ أمر محافظ المدينة المنورة شمس الدين أفندى بإقامة جدار حوله فى ارتفاع ثلاثة أذرع وبهذا أنقذ المسجد من قاذورات البهائم.

وفى الجهة الشرقية من هذا المسجد قبور كثيرة لأعاظم السلف وفضلائهم ومن هذه القبور قبور صاحب الطريقة محمد سمان المدنى وأولاده.

فى ذكر المساجد التى تعرف جهاتها ولا تعرف مواضعها

١ـ المسجد الأول مسجد جديلة:

ويظهر أن هذا المسجد هو المسجد المنسوب إلى أبى بن كعب وقد ذكر جهته عندما ذكر مسجد البقيع.

٢ـ المسجد الثانى مسجد بنى حرام:

يقع هذا المسجد غرب مساجد الفتح فى وادى البطحان وبين جبل بنى عبيد وبئر معاوية وروىَ عن جابر أن النبى ﷺ صلّى فى هذا المسجد.

وكان فى المحل المذكور مسجد محلة بنىَ حرام، ومازالت أطلاله قائمة إلى الآن إلا أن المسجد الشريف خرب ولا يرى أساسه ومبانيه.

٣ـ المسجد الثالث مسجد الخربة:

وبما أن بطن بنى عبيد الذى ينحدر من قبيلة بنى سلمة قد أقاموا فوق جبل الدويخل القريب من جبل بنى عبيد وفى الجهة الغربية من قرية «بنى خرام» يلزم أن يكون مسجد الخربة فوق جبل بنى عبيد.

قد زار النبى ﷺ دار لبراء معرور من أهالى قرية بنى خرام وقد صلى النبى ﷺ فى موضع يسمى قراضة خلف نخل جابر بن عبد الله ولذلك فلا شك فى أن هذا المكان هو ساحة مسجد الخربة.

٤ـ المسجد الرابع مسجد جهينة:

كان هذا المسجد فى داخل القرية التى تنسب إلى قبيلة جهينة والتى تقع بين ثنية عثعث وجبل سلع وقد نصب بعض الأشخاص من قبيلة بلى والذين هاجروا

إلى القرية المنسوبة إلى قبيلة جهينة خيامهم حول هذا المسجد حيث أقاموا لفترة طويلة، ظل مسجد «بلى» اسما آخر لهذا المسجد قد شرف النبى ﷺ قرية جهينة على دعوة أبى مريم الجهينى وخط حول ساحة المسجد الذى سبق تعريفه خطًا وطلب منهم أن يصلوا فى داخله. وأسرع أفراد هاتين القبيلتين ببناء مسجد فوق الخط الذى خطه النبى ﷺ حيث أدوا صلواتهم. وقد خرب فيما بعد مسجد جهينة ولم لا موقعه ولا خرابته.

٥ـ المسجد الخامس مسجد بيوت المطر:

يقع فى الجهة الغربية للطريق المقابل للجهة القبلية لثنية عثعث.

وكان أفراد قبيلة بنى غفار يؤدون الصلاة فى ساحة هذا المسجد.

وقد ثبت أن النبى ﷺ صلى فى هذا المسجد إلا أن أبنيته تهدمت بمرور الزمن ولم تجدد ولم يبق أحد فى زماننا يعرف أساس أطلاله.

٦ـ السادس مسجد بنى زريق:

بنى زريق اسم قبيلة ينتهى نسبها إلى الخزرج بن ثعلبة، وهذا المسجد المنسوب إلى تلك الجماعة فى ثنية الوداع التى تبعد عن سور المدينة مقدار ميل واحد، ولا يستطيع أحد أن يعين موضعه فى يومنًا الحاضر. وروى المؤرخون أن شمس الدين محمد بن أحمد السلاوى بنى فى سنة ٨٥٠هـ مسجدين، أحدهما مسجد بنى زريق إلا أنهم ترددوا فى تعيين وتحديد واحد منها على أنه مسجد زريق.

ولقد التقى رافع بن مالك الزرقى[1] فى عقبة جبل ثبير بمكة المكرمة مع النبى ﷺ وتعلم منه عدة آيات كريمة ثم عاد إلى المدينة وجمع قومه فى ساحة مسجد بنى زريق وتلى ما تلقاه عن النبى ﷺ من الآيات الكريمة، وبذلك تُلى القرآن الكريم فى المدينة المنورة أول ما تُلى فى هذا المسجد.

(١) أحد النقباء الذين بايعوا النبى ﷺ بالعقبة، وأول من قدم المدينة بسورة يوسف. لما لقى رسول الله ﷺ بالعقبة وبايعه أعطاه ما أنزل عليه من القرآن فى العشر السنين التى خلت فقدم به المدينة وجمع قومه فقرأ عليهم فى موضعه. انظر: الأصابة ٢/١٨٩-١٩٠.

ولم يصل النبى ﷺ فى هذا المسجد بل توضأ فى ساحته ولبث فيها وقتًا للراحة، فتحصلت البركة للمسجد وهو محل مبارك فى غاية اللطف ويقع على يمين الداخلين فى حصن المدينة المنورة.

٧ـ المسجد السابع مسجد بنى ساعدة:

مسجد بنى ساعدة مسجد فى غاية القداسة ويقع فى المدينة المنورة وفى داخل محلة[١] بنى ساعدة، وسقيفة[٢] بنى ساعدة تقع بجانبه.

جلس النبى ﷺ يومًا فى هذه السقيفة وطلب من سهل بن سعد أن يسقيه، فشرب ما أحضره سهل ـ رضى الله عنه ـ من الماء وطلب منه أن يحضر له مرة أخرى فلما أحضر شربه أيضًا وقال ملاطفًا سهل بن سعد يا سهل! الماء الأخير ألذ من الماء الأول وأعذب.

٨ـ المسجد الثامن مسجد بنى ساعدة الآخر:

هذا المسجد قريب من جبل ذبابة ويروى أن النبى ﷺ قد صلى فى هذا المكان أيضًا.

٩ـ المسجد التاسع مسجد بنى خذارة:

مسجد بنى خذارة، بجانب مسجد بنى ساعدة الذى ذكر آنفا وقد رسول الله ﷺ فى هذا المسجد وقص شعره، وكان بنو خذاره الذين ينتسب إليهم المسجد يقيمون بجانب سبيل سعد بن عبادة فى ناحية حصن المدينة.

١٠ـ المسجد العاشر مسجد راتج:

راتج اسم الحصن المشهور الذى يقع فى الطرف الشرقى من جبل ذباب، وكان مسجد راتج بجانب هذا الحصن وبجانب بئر أبى الهيثم بن التيهان المشهور باسم جاسم. كان النبى ﷺ فى هذا الموقع المقدس وشرب من ماء بئر جاسم.

(١) كانت فى الجهة الشمالية لسوق المدينة المنورة وكانت هذه السوق مقبرة لبنى ساعدة وقد ابتاع النبى ﷺ هذا الموضع من بنى ساعدة وجعله سوقًا لأهل المدينة كما ذُكر من قبل.

(٢) هذه هى السقيفة التى بويع فيها أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بالخلافة.

١١ـ المسجد الحادى عشر مسجد بنى عبد الأشهل:

يقع فى حرة واقم وبين محلة بنى ظفر وبنى حارثة وكان بنو عبد الأشهل المنسوبون إلى قبيلة الأوس يصلون فيه، ويقال لهذا المسجد مسجد واقم كذلك. كان النبى ﷺ كلما شرف محلة عبد الأشهل كان يصلى صلاة المغرب فى مسجد واقم وكان يسبح طويلاً ثم يقول: يقال لهذه الصلاة صلاة البيوت.

وكان من عادة النبى ﷺ أن يتردد كثيراً إلى هذه المحلة فى حياة سعد بن معاذ الأشهلى وما كان يعود كلما شرف المحلة دون أن يصلى صلاتى العصر والمغرب فى ذلك المسجد.

١٢ـ المسجد الثانى عشر مسجد القرصة:

كان هذا المسجد فى الحرة الشرقية الواقعة فى الجهة الشمالية من محلة بنى عبد الأشهل، ولم يكن هناك من يعرف موقعه. وجزم المرحوم الإمام السمهودى أن الخرابة التى بجانب بئر قرصة هى خرابة مسجد القرصة، ومن هناك اقتنع الأهالى بأن هذه الخرابة هى ساحة خرابة المسجد المذكور.

١٣ـ المسجد الثالث عشر مسجد بنى حارثة:

من المؤكد أن مسجد بنى حارثة اللطيف فى قرية بنى حارثة، وبما أنه لم يبق فى زماننا من يعرف الجهة التى كان يقع بها المسجد من جهات القرية فأرضه مجهولة.

١٤ـ المسجد الرابع عشر مسجد الشيخين:

إذا ما ذهب إلى مسجد الشيخة عن الطريق الشرقى يظل المسجد بين جبل أحد والمدينة المنورة، وقد دفن قائد جيش النبى مصعب[1] بن عمير فى مكان يسمى بمهد حمزة وفى داخل جبل أحد.

وقد قضى النبى ﷺ فيه وقتًا فى غزوة أحد، ومضى إلى حومة الوغى فى

(١) كان مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ قد أرسل من قبل النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ليعلم السابقين من الأنصار المسائل الدينية ويؤمهم فى الصلاة ويخطب فيهم وقد آمن ثلثا الأنصار الكرام بفضل جهوده.

الصباح وصلى صلوات العصر والعشاء والفجر فى هذا الموقع المقدس، ويسمى هذا المسجد كذلك «مسجد البدائع» لأن فى المكان الذى يطلق عليه البدائع كان حصنان مشهوران باسم الشيخين.

١٥ـ المسجد الخامس عشر مسجد بنى دينار:

مسجد بنى دينار منسوب إلى دينار بن النجار من أحفاد الخزرج بن ثعلبة وهو بالقرب من موضع يسمى المغسلة[١] وخلف وادى البطحان ولا يعرف موضع ساحة مسجد بنى دينار ولكن بما أن صاحب نخيل المغسلة وجد هناك حجراً كتب عليه بالخط الكوفى: «هذا مسجد رسول الله ﷺ» بنى فى المكان الذى وجد فيه الحجر بنى مسجداً جميلاً وألصق ذلك الحجر فوق باب المسجد وبناء عليه ليس ببعيد أن يكون هذا المكان مسجد بنى دينار ويروى أن النبى ﷺ كثيراً ما صلى فى هذا المسجد.

١٦ـ المسجد السادس عشر مسجد بنى عدى بن النجار:

كان هذا محلة بنى عدى بن النجار واغتسل النبى ﷺ فى هذا المكان.

١٧ـ المسجد السابع عشر مسجد دار نابغة:

هذا المسجد أيضًا فى هذا المكان، وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان.

وعلى رواية صلى أيضًا فى مسجد بنى عدى. ومسجد دار نابغة يستلزم أن يكون هو الضريح الذى دفن فيه والد النبى ﷺ عبد الله بن عبد المطلب.

وفى سنة ١١٤١ اشترى السلطان محمود خان العدلى، من الساحة المتصلة بالمسجد وخاصة بدار الفحل عشرين ذراعًا وضمها للمسجد فجدده ووسعه. وكانت دار نابغة فى المحل الذى دفن فيه عبد الله بن عبد المطلب كما أن دار بنى عدى فى الجهة الشامية لمسجد بنى جديلة.

(١) المغسلة اسم حديقة نخل مشهور بالقرب من المدينة وكانوا قديمًا يغسلون جنازاتهم فى هذا المكان.

١٨ـ المسجد الثامن عشر مسجد بنى مازن بن النجار:

مسجد بنى مازن فى الطرف الشرقى القبلى لمحلة بنى زريق وهو الآن فى مكان يسمى ناحية أبى مازن وقد أمر النبى ﷺ بنفسه بحفر أساس هذا المسجد، وصلى فى الدار التى تسكنها أم بردة المازنية[1]، ولما كانت أم بردة المازنية مرضعة ابن الرسول إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ظل النبى بجوارها حين احتضارها.

١٩ـ المسجد التاسع عشر مسجد بنى عمر بن مبذول بن مالك بن النجار:

ويقع هذا المسجد بالقرب من بقيع الزبير ويروى أن النبى ﷺ كان يصلى فى هذا المكان، إلا أن ساحته المقدسة غير معلومة.

٢٠ـ المسجد العشرون مسجد بقيع الزبير:

كان مسجد بقيع الزبير بجوار محلة بنى عم وفى الطرف الشرقى لبدال بنى زريق والموثوق أن مكانه مكان المسجد القديم فى طريق بقيع الغرقد ويروى أن النبى ﷺ صلَّى فى هذا المكان المقدس ثمانى ركعات من صلاة الضحى.

٢١ـ المسجد الحادى والعشرون مسجد صدقة الزبير:

كان هذا المسجد فى محلة بنى محمد والتى يطلق عليها الزبيريات وهى فى الجهة الغربية لمشربة أم أبراهيم، والطرف القبلى لهذا المسجد قريب من حدائق خناقة أعواف من صدقات النبى ﷺ، وما فيه الزبير بن العوام وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان أيضًا.

٢٢ـ المسجد الثانى والعشرون مسجد بنى خذرة الخزرجية:

هذا مسجد فى قرية بنى خذرة وهو مسجد صغير تجاه بنت الحية وبانية زكوى بن الصالح.

٢٣ـ المسجد الثالث والعشرون مسجد بنى الحرث بن الخزرج ومسجد السخ:

مسجد بنى الحرث فى مكان يسمى تربة الحارث أى فى محلة بنى الحارث التى

(١) انظر: الإصابة ٨/ ٢١٥.

فى وادى بطحان. ومسجد النسخ على بعد ميل من الحجرة المعطرة وفى محلة جشم وزيد بن بنى الحارث، وفى زماننا فساحتا هذين المسجدين مجهولتان إلا أنهم يروون أن دار زوجة الصديق، بنت حارثة على ساحة مسجد النسخ.

٢٤ـ المسجد الرابع والعشرون مسجد بنى الحبلى:

رهط أبى بن سلول الخزرجى، كان مسجد بنى حبلى فى محلة بنى حبلى وفى الطرف الشرقى لبطحان، أى كان فى مكان بين المدينة المنورة وقرية قباء.

٢٥ـ المسجد الخامس والعشرون مسجد بنى بياضة الخزرجى:

يقع فى وادى البطحان فى محلة بنى سالم المتصلة بمحلة بنى مازن.

٢٦ـ المسجد السادس والعشرون مسجد بنى فاطمة ومسجد العجوز أوس:

هذان المسجدان فى عوالى المدينة المنورة وفى الجهة الشرقية من مسجد الشمس وبجانب قبر براء بن المعرور الذى وبايع النبى ﷺ فى بيعة العقبة ومن الأنصار السابقين للإسلام والذى توفى قبل الهجرة.

٢٧ـ المسجد السابع والعشرون مسجد بنى امية بن زيد الأوس:

كان هذا المسجد اللطيف بين قريتى العرش ونواعم. وأنهارت مبانيه مع مرور الزمان وقد تراكمت فوقه الرمال والتراب حتى تكونت هناك ربوة صغيرة.

٢٨ـ المسجد الثامن والعشرون مسجد بنى وائل الأوس:

مسجد بنى وائل المقدس فى قرية قباء، وعلى رأى فى الجهة الشرقية لمسجد شمس، وقد ركز بين العمودين وَتَدٌ للدلالة على المكان الذى أدى فيه النبى ﷺ الصلاة. وبناء على رواية ابن شيبة أن ذلك الوتد بعد عن المحراب مقدار خمسة أذرع.

٢٩ـ المسجد التاسع والعشرون مسجد بنى واقف:

كان المسجد المذكور فى محلة بنى واقف يُشَكُّ فى الجهة التى يقع فيها، إلا أن بعض الموقفين يروون احتمال وجوده فى الجهة القبلية من مسجد الفضيح.

٣٠ـ المسجد الثلاثون مسجد بن أنيف:

إلى جماعة بلى من الخلفاء الأوس ومسجدهم فى الجهة القبلية الغربية من قباء بجانب بئر عذف وفى داخل قرية بنى أنيف.

٣١ـ المسجد الحادى والثلاثون مسجد دار سعد بن خيثمة:

كان مسجد دار سعد فى الجهة القبلية من مسجد قباء المشهور، وعند الهجرة النبوية سكن فى هذه الدار الصديق أبو بكر والسيدة عائشة الصديقة وجناب فاطمة الزهراء وأسماء بنت الصديق وأم رومان والسيدة سودة وعلى بن أبى طالب.

٣٢ـ المسجد الثانى والثلاثون مسجد التوبة:

وإن كان هذا المسجد فى الجهة الغربية من مسجد قباء إلا أنه لم يبق أحد الآن يعرف مكانه.

وكان هذا المسجد لقبيلة بنى جَحْجَبَى المنتسبة إلى بنى عمرو بن عوف وكانوا يقيمون بجانب حصن يسمى «هجيم» وفى مكان يسمى «عصية» وهناك بئر أيضًا. والآن فى موقع عصية عدة آبار ومزارع ولكن لا يعرف بجانب أية واحدة من هذه الآبار كانت ساحة مسجد التوبة.

٣٣ـ المسجد الثالث والثلاثون مسجد النور:

ومسجد النور بناء على بعض الأقوال فى قرية قباء وبناء على الأقوال الأخرى فى المدينة المنورة. ولم يكن يعرف سبب تسمية موقعه وساحته بهذا الاسم إلى سنة ١٢٧١هـ وقد وجد مكانه مصطفى عشقى أفندى من المجاورين مستعينًا بالتواريخ القديمة وروايات المسنين من أهل المدينة وجدده. وإذا به كان من جهة حدائق النخيل التى تسمى بستان قائم فى قرية قباء، بينما كان عشقى أفندى يحفر الأماكن التى بدت له ظهر أساس جداره القديم وقد صدق المسنون من قرية قباء أن هذا الأساس أطلال مسجد النور ودعوا بالخير للمرحوم عشقى أفندى.

كان ذلك المسجد دار أبى بكر الصديق وبناء على تدقيقات عشقى أفندى وتحقيقاته فإن النبى ﷺ شرف فى عصر السعادة بيت الصديق الأكبر، وكان معه عمر الفاروق أيضًا. وعند عودتهما خرج منها نورٌ لهما وأنار الشريفة وبناء على ذلك أطلق على بيته السعيد مسجد النور.

٣٤ـ المسجد الرابع والثلاثون مسجد عتبان بن مالك

إن مسجد عتبان فى محلة بنى سليم الخزرجى وفى داخل برج عتبان بن مالك وهذا البرج فى الجهة الشرقية من مسجد الجمعة، وبما أن النبى ﷺ قد صلى فى داخل برج عتبان بن مالك فقد اتخذ من هذا المكان مسجداً وكان يؤم جماعته فى الصلاة فى الأيام العطرة.

٣٥ـ المسجد الخامس والثلاثون مسجد مثيب:

وهذا المسجد من صدقات النبى ﷺ وقد انهدم بمرور الزمن.

٣٦ـ المسجد السادس والثلاثون مسجد المنارتين:

فى طريق الجبل الأحمر الذى يطلق عليه العقيق الكبير، انهارت أبنيته مع مرور الزمان ولم يجدد ولم يعمر، وأطلاله ظاهرة.

٣٧ـ المسجد السابع والثلاثون مسجد فيفاء الجنادر:

خلف حمام خالد الذى فى الجهة الغربية من جبل يسمى ذات الجيش، وموقعه مجهول الآن. وفى غزوة العشيرة تقدم النبى ﷺ نحو نقب بنى دينار ونزل فى فيفاء الجنادر وبعد أن صلى تحت شجرة ذات السابق[1] التى كانت فى بطحاء ابن أزهر. تناول طعامه وشرب من ماء ثبير[2]، وثبير اسم البئر التى بجانب ذات الساق.

---

(١) اسم شجرة كبيرة.

(٢) اسم ماء فى ديار مزينة أقطعه النبى ﷺ شرَيسَ بْنَ ضَمْرَةَ.
انظر: اللسان (ثبر) ص ٤٧٠ ط. دار المعارف.

٣٨ ـ المسجد الثامن والثلاثون مسجد بنى جثجاثة وبئر شداد:

يقع مسجد بنى جثجاثة فى العقيق تجاه مقبرة بقيع الغرقد وبين ثنية الشريد وخُليفة وبما أن النبى ﷺ فى هذا المكان واستراح فيه جالسا فقد اشتراه عبد الله بن سعد للتبرك وبنى عليه مسجداً عالى البناء.

الوجهة السادسة عشرة
وتشتمل على أربع صور

فى ذكر وتعريف فضائل مقبرة البقيع الثابتة
والمدفونين فى داخلها من شهداء أحد

تعرف وتظهر فضائل مقبرة بقيع الغرقد الباهرة

معنى البقيع المكان الذى ازدحم بأشجار متنوعة حتى تحول إلى غابة، ولما كان بقيع الغرقد فى الأصل منبت أشجار يطلق عليها الغرقد فأضيف الغرقد إلى البقيع.

ومقبرة بقيع الغرقد خارج باب الجمعة لحصن المدينة فى طرفها الغربى حدائق النخيل وفى جهتها الشرقية حصن المدينة الميمونة. وسيول وديان المدينة الظاهرة تمر من جانبى تلك المقبرة، وعندما يشتد المطر فالسيول الواردة تجرف أسوارها.

قد قال النبى ﷺ «كل من يدفن فى مقبرتنا بقيع الغرقد هذه فإننا نشفع له يوم القيامة أو نشهد له» (حديث شريف) ووصفت التوراة بقيع الغرقد باسم «كفتة» وبين أنها بين تلين. وفعلاً فى جهة من جهاتها الحرة الشرقية وفى الجهة الأخرى الحرة الغربية ورد فى الخبر أن سبعين ألفا وجوههم مشرقة مثل القمر، سيحشرون يوم القيامة من مقبرة بقيع الغرقد وستملأ أنوار نواصيهم المشعة بين السماوات والأرض.

يقال إن هذه الرواية مسطورة فى التوراة، كان مصعب بن عمير ذاهبًا يومًا مع ابن رأس الجالوت عن طريق بقيع الغرقد إلى المدينة المنورة، ولما دخلا فى حدود مقبرة بقيع الغرقد رأيا أن تلك المقبرة بين تلين فتصدى ابن رأس الجالوت للحديث وقال يا مصعب إننى رأيت فى التوراة أن هناك مقبرة الجهة الشرقية منها بيوت والجهة الغربية نخيل، إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيبعث ويحشر من هذه المقبرة سبعين ألف رجل وجوههم منيرة كالبدر.

وقد بحثت عن هذه المقبرة مدققًا النظر فى كثير من المقابر ولكننى لم أجد المقبرة المذكورة فى التوراة.

شعر

فى يوم القيامة حينما ينفخ فى الصور

يقوم كل هؤلاء فى أشعـــار مـــن نور

وإذا ما ارتفعت من الغبار رؤوسهم

اتجهـــت إلى الحبيـــب عيونهـــم

لما دخل النبى فى دار عقيل بن أبى طالب وكانت فى البقيع وقف فى ركن منها وأخذ يدعو قائلاً: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اعف عن أهل بقيع الغرقد.

وعلى قول السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين والمستأخرين.

وعلى رواية: اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم.

وعلى قول السلام عليكم يا أهل القبور ويغفر الله لنا ولكن أنتم لنا سلف ونحن بالأثر. وقام فى ليلة من نومه وذهب إلى البقيع مصاحبًا غلامًا له يسمى «أبا موهبة» وأخذ يدعو قائلاً: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى»، وكان فى ذلك الوقت فى مرض موته.

وبما أن زاوية عقيل موقف رسول الله ﷺ يقتضى على الزوار أن يقفوا فى هذا المكان وأن يدعوا، سواء أكان هذا المكان أو الأماكن الأخرى التى تنسب إليه من الأماكن التى تستجاب فيها الأدعية فمن المستحب الدعاء فيها.

فى ذكر من دُفن فى مقبرة بقيع الغرقد من الصحابة وسادات أهل البيت وكبار التابعين

والذين تعرف قبورهم اليوم يتجاوز عدد من دفن فى مقبرة بقيع الغرقد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ اثنى عشر ألفا. ولكن بعض هؤلاء ماتوا فى عصر السعادة وبعضهم فى عهود الخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية. وبما أن فى أوائل الإسلام لم ترفع قباب فوق المقابر ولم تنصب الحجارة ظلت مواضع قبورهم وجهاتهم مجهولة ما عدا هؤلاء الذين ستكتب أسماؤهم فيما بعد:

إبراهيم ابن الرسول ﷺ وعلى أبيه ـ: إبراهيم ابن الرسول مدفون بجانب ضريح عثمان بن مظعون أخى النبى ﷺ فى الرضاعة وفى داخل ضريح خاص له.

شعر

لا مجـــال لقـــــدم الأجنبى

نـــام هنا جوهـــــر صلـــب النبى

فى هـــذا الركن المعطـــر بالعنـــبر

اعْتَـــشَّ فى الجـــنة كـــل طـــير

ويرى بعض الناس أن عبد الرحمن بن عوف وأبا هريرة ـ رضى الله عنهما ـ دفنا بجانب هذا الضريح المزهر.

ولكن قبر ابن عوف معروف لدى التاريخ وسيعرف فيما بعد.

وفى شرق هذين القبرين وفى مكان يصادف وسط مقبرة البقيع أى بجوار الباب الشامى للمقبرة قبور بعض المشاهير من شهداء أحد، وهؤلاء الأشخاص

الذين دفنوا فى هذه القبور قبل أن ينزل الوحى بدفن الشهداء حيث استشهدوا؟ لذا نقلوا هنا ودفنوا فى البقيع. وبجانب القبر المذكور بعض الفساقى[1] الكبيرة ويقول الأهالى إن الغرباء والزوار الذين ماتوا ماتوا فى أوبئة السنين الماضية دفنوا فى هذه الفساقى.

وأم حضرة إبراهيم مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى سيدنا محمد ﷺ وولد إبراهيم فى ذى الحجة من السنة الثانية الهجرية وتوفى بعد مرور (١٦) أو (١٨) شهراً من ولادته. قام بتغسيله الفضل بن عباس وأنزله فى القبر بعون أسامة بن زيد، وبما أن النبى ﷺ صب بنفسه الماء فوق قبره بعد الدفن أصبح صب الماء على القبور بعد ذلك سنة. لما مات إبراهيم سأل الصحابة الكرام عن المكان الذى سيدفن فيه فأجابهم الرسول ﷺ احفروا له قبراً وجهزوه بجانب قبر عثمان بن مظعون؛ فحفروا فى ذلك المكان قبراً ودفنوه، فالقبر الذهبى فى ذلك الوقت كان فى ركن دار عقيل بن أبى طالب من الجهة اليمانية.

وكانت مقبرة بقيع الغرقد إلى وفاة حضرة إبراهيم ذات نخيل، بعدما دفن إبراهيم فى المكان الذى سبق تعريفه رغب الجميع فى دفن جنازاتهم فى البقيع واختارت كل قبيلة جهة من جهاته مقبرة وقطعوا أشجارها وسوَّوْا أرضها.

وكان عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الجمحى والمكنى بأبى السائب واسم والدته مستحيلة بنت العنبس بن أهبان بن حذافة بن جمح وهو الرابع عشر من سابقى المسلمين، هاجر مع ابنه سائب وبأشخاص آخرين إلى ديار الحبشة أولاً وبعدها إلى مدينة دار السكينة. كان شخصاً مفضالاً يصوم النهار ويقوم الليل، مات بعد مرور اثنين وعشرين شهراً من غزوة بدر ومات قبل إبراهيم ـ عليه وعلى أبيه التعظيم ـ ودفن فى البقيع فى مكان يطلق عليه الزوار الروحاء وفى الجهة الشرقية من ابن النبى.

(١) **الفسقية**: تقال للجحور المستطيلة الخاصة بدفن أموات الغرباء وأعلاها ذات عقود، ففساقى مصر تبنى عموديا على هذا الشكل.

أول من دفن فى البقيع الشريف هو عثمان بن مظعون. وكان النبى ﷺ قد نصب حجرًا على القبر من ناحية رأسه كعلامة خاصة.

ولما أصبح مروان بن الحكم واليا على المدينة المنورة أخرج تلك العلامة فجعل القبر مجهولاً، أو على رواية أخرى نقل الحجر إلى قبر عثمان بن عفان ساطع الأنوار.

سانحة: نَصْبُ الحجارة شئ أحدث فيما بعد، وفى الأول كانوا ينصبونها على قبور من اشتهروا بالعلم والصلاح، وفيما بعد تعمم الأمر. وبما أن الشيخ أبا صالح التركماني قد كره بدعة نصب الحجر فقد رغب فى عدم نصب حجر على قبره وترك وصية مكتوبة فى هذا الخصوص لأحفاده.

رقية بنت النبى ـ رضى الله عنها ـ كريمة رسول الله ﷺ: وقبرها بجوار قبر أختها أم كلثوم وبجانب قبر عثمان بن مظعون.

وقال الرسول ـ ﷺ الواقف على أسرار الحكمة ـ عندما نصب ذلك الحجر على قبر عثمان بن مظعون: «فليكن هذا الحجر علامة على قبر أخى فى الرضاعة وليدفن من يتوفى من أهل بيتى فى هذا المكان»، لأجل ذلك قالت رقية وهى على فراش الموت فى حالة احتضارها: ادفنونى بجانب عثمان بن مظعون ومسح النبى ﷺ دموع السيدة فاطمة بجانب هذا القبر المنيف لأن السيدة فاطمة كانت قد تأثرت أشد التأثر من موت أختها وكانت تبكى بجانب هذا القبر لامع الأنوار.

السيدة رقية التى تشرف عثمان بن عفان بالزواج منها أولى الجميلتين اللتين نال شرف الزواج منهما.

ولما كان والدها الجليل ﷺ قد زوجها بعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عندما كان بمكة المكرمة وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فى الهجرة الأولى وبعد العودة هاجرت إلى المدينة المنورة فى الهجرة الثانية. وقد مرضت فى السنة الثانية للهجرة وبناء على ذلك لم يشترك فى غزوة بدر ليظل بجانب زوجته المحترمة تنفيذاً للإرادة النبوية، وقد لحقت بالرفيق الأعلى، حينما وصلها خبر

انتصار الجيش النبوى إلى المدينة المنورة ومن هنا تزوج عثمان بن عفان أختها الصغرى أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ فسعد. ولما كانت فى الحبشة ولدت ابنها عبد الله بن عثمان وعاش الغلام خمس أو ست سنوات بناء على بحث ابن الأثير ثم نقر عينه الديك فتورم وجه الصغير المعصوم ومات فى خلال السنة الرابعة الهجرية، وفى شهر جمادى الأولى متأثرًا بهذا الحادث.

سواء أكانت رقية أو أختها أم كلثوم ـ رضى الله عنهما ـ كان عقد نكاحهما أولاً لابنى أبى لهب عتبة وعتيبة، أى عقد نكاح رقية لعتبة ونكاح أم كلثوم لعتيبة، وبما أن زوجة أبى لهب أم جميل شعرت بالخزى والعار عند نزول سورة ﴿تبت﴾ فسخت نكاحهما قبل الزفاف، مع أن هذا الفعل كان بالنسبة إلى المشار إليهما مصدر خير ولطف وإحسان وبالنسبة لعتبة وعتيبة مجلب ذل وخسران وهوان.

فاطمة بنت أسد ـ رضى الله عنها ـ بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشى ووالدة سيدنا على أبن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ المشفقة. قد دفنت فى دار عقيل أول أضرحة بنى هاشم والضريح كان أمام حمام[1] أبى مطيعة فى الروجاء وعند البعض بالقرب من ضريح عباس بن عبد المطلب.

قطعة شعرية

هى جوهـــــر ســـبط اللآلـــىء

فاطمة بنت أسد أم حيدر الكرار على

أثنى عليهـــا الحق تعالى كـــل الثنـاء

إنهـــا جدة جميـــع الشرفـــــاء

وإن كانوا ينسبون القبر والضريح الذى فى آخر مقبرة البقيع إلى فاطمة بنت أسد، ولكن على أرجح الأقوال أنها لم تدفن فى هذا الضريح بل دفنت فى

(١) هذا الحمام ليس حماما عاديًا إنه اسم نخلة مشهورة فى الجهة الشمالية لقبر إبراهيم ـ عليه وعلى أبيه التعظيم.

الضريح سالف الذكر. لأن النبى ﷺ كان يحب السيدة فاطمة حبًا جمًا وهذا ثابت وبما أنها ماتت فى حياة الرسول فمن المحال أن يكون قد دفنها خارج البقيع الشريف، ويمكن الاستدلال على ذلك بما قاله النبى ﷺ عندما نصب حجرًا على رأس قبر ابن مظعون قائلاً: «فليكن هذا الحجر علامة قبر أخى فى الرضاعة وليدفن هنا من توفى من أهلى»، وبناء على ذلك فقبر المشار إليها إما فى «الروحاء» أو فى «دار عقيل» ولا شك فى ذلك وقد كفن النبى ﷺ فاطمة بنت أسد بقميصه وأنزلها بنفسه فى القبر وبعدما أهال التراب فوق التراب وغطى القبر بكى كثيرًا.

التوضيح: لم ينزل النبى ﷺ فى أى قبر لوضع الجنازات إلا فى قبر خديجة الكبرى، عبد الله المزنى، وابن الخديج، وأم رومان، وفاطمة بنت أسد.

وأنزل الأشخاص الذين ذكرناهم فى قبورهم ودعا لهم بما يليق. حتى أنه جلس على رأس قبر فاطمة بنت أسد بعد الدفن وبكى بكاء شديدًا مديدًا ودعا على النهج التالى:

«الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت، اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين».

عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ: دفن بالقرب من قبر عثمان بن مظعون الكائن فى الجهة الشرقية لزاوية دار عقيل، قد أرسلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أحدًا إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يحتضر ليقول له إذا ما شئت هيأت لك قبرًا بالقرب من قبر النبى.

فرد قائلاً لا أستطيع أن أضيق لك بيتك، وكنا قد تعاهدنا مع عثمان بن مظعون على أن يدفن الثانى بجانب الذى يموت أولاً فادفنينى بجانبه فأتت بجنازته وبعد الصلاة عليها أمرت بدفنها فى دار عقيل.

وكان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين من الأصحاب بالجنة، وأبوه عوف بن عبد الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة، وأمه شفاء بنت عوف بن

الحارث بن زهرة، ولد بعد عام الفيل بعشر سنين، وأسلم بواسطة الصديق الأكبر قبل اختفاء المسلمين فى دار الأرقم، هاجر أولا إلى الحبشة وبعد عودته منها هاجر إلى المدينة المنورة وتآخى هو وسعد بن الربيع، واشترك فى جميع غزوات النبى ﷺ. ومات فى السنة الحادية والثلاثين من الهجرة وعمره سبعون عاما أو خمسة وسبعون عامًا على قول آخر، وأوصى أن ينفق خمسون ألف دينار من ماله فى سبيل الله، كما أوصى أن يعطى لبقية أصحاب بدر لكل واحد منهم أربعمائة دينار[1].

وبقى له بعد وفاته مائة رأس فرس و (٣٠٠٠) غنم و (١٠٠٠) جمل، وأصاب كل واحدة من زوجاته الأربع ثمانون ألف دينار كحصة إرثية، عندما هاجر إلى المدينة المنورة عقد رابطة الأخوة مع سعد بن الربيع سالف الذكر وأخذ فى الأخذ والعطاء والتجارة. وبفضل دعاء النبى ﷺ أحسن الله إليه وأنعم له بأموال لا تحصى ونقود لا تعد ونال بسهولة المعيشة الرغدة فى الدنيا، وقد استخرج مما تركه من سبائك الذهب والفضة من حفرة خزانتها بالفأس والمجرفة.

وقد جرحت يدى حافر حفرة الخزانة إلى أن أخرج السبائك كلها. وأوصى أن تعطى لأمهات المؤمنين حديقة نخيل غير ما أوصى بإعطائه لأصحاب بدر. وقد بيعت الحديقة التى عين اسمها لإعطائها لأمهات المؤمنين بأربعمائة قطعة ذهبية وعرضت لأمهات المؤمنين كن على قيد الحياة. كان عبد الرحمن بن عوف سخيًا كريمًا لاحد لسخائه وكرمه، حتى إنه حرر فى يوم واحد ثلاثين نفرًا من ربقة العبودية. وتصدق فى ذلك اليوم بسبعمائة ناقة عائدة من التجارة بكل ما تحمله من أمتعة وأغذية. وكان فضل المشار إليه وكمال أخلاقه كما يجب إذ اشترك فى غزوة تبوك وتولى أمانة النبى ﷺ فسماه النبى ﷺ أمين هذه الأمة.

سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ: دفن سعدبن أبى وقاص فى الجهة الشرقية السامية من دار عقيل حيث أراه بنفسه وعينها. إذ أخذ ذاته السامية قبل وفاته عدة أوتاد مدببة وذهب مع الصحابى أبو دهقان إلى مقبرة بقيع الغرقد

[1] كان حيًا عندما توفى عبد الرحمن بن عوف من غزاة بدر وأصحاب الصفة مائة نفر.

وركز تلك الأوتاد فى الركن الشرقى الشامى من المنزل سالف الذكر ثم قال: «يا أبا دهقان! إذا ما مت احفروا هذا المكان وادفنونى فيه» وحينما توفى بحث أبو دهقان عن ابن المتوفى وروى له الحكاية وأراه المكان المذكور ذاهبًا إلى بقيع الغرقد فأخرج ابن سعد الأوتاد ودفن جنازة والده هناك وأوفى بوصيته.

كان سعد يكنى بأبى إسحاق وأبوه وهيب أو أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن أبى وقاص مالك، وأمه بنت سفيان أو أبو سفيان ابن أمية بن عبد شمس حمنة أسلم وعمره سبعة عشر عامًا اشترك فى جميع غزوات النبى ﷺ وكان الخامس أو السابع من السابقين إلى الإسلام وهو أحد المبشرين العشرة بالجنة وأحد أصحاب الشورى الستة.

وقد مات فى عام خمسة وخمسين هجرية بناء على قول الواقدى أو فى ثمانية وخمسين من السنة الهجرية بناء على قول أبى نعيم الفضل بن دكين أو مات فى سنة أربع وخمسين من الهجرة بناء على تدقيق وتحقيق الزبير بن عمرو، ومات فى مكان ما من وادى العقيق على بعد سبعة أميال من المدينة المنورة ثم حمل نعشه إلى المدينة المنورة ودفن فى المكان الذى سبق وصفه، وهو آخر من توفى فى المدينة من المهاجرين الكرام. وفى حالة احتضاره خلع جبته الصوفية، وقال موصيًا: ادفنونى بهذه لأنها كانت على ظهرى حينما لاقيت مشركى قريش فى بدر.

عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: مات عبد الله بن مسعود فى السنة الثانية والثلاثين من الهجرة وقد تجاوز الستين من عمره ودفن فى مكان قريب من ضريح عثمان بن مظعون. لأنه قد ذهب قبل موته إلى البقيع وأوصى بأن يدفن فى ذلك المكان الذى عينه. وكان حضرته من فضلاء الصحابة الزاهدين وأبوه مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن فار بن مخزوم ابن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل ابن مدركة بن إلياس بن مضر، وأمه أم عبد الله بنت عبد ود بن سواء الهذلية.

وكان عثمان بن عفان حين وفاة عبد الله بن مسعود خليفة فزاره وعاده عند احتضاره وقال له عند عزمه على العودة:

إذا ما رضيت فأنا أرغب فى أن أقدم لبناتك بعض العطايا وكان يريد بهذا الاستفسار أن يحسن إلى بنات عبد الله بن مسعود. فرد ابن مسعود قائلاً أنا لا أخشى على بناتى من الفقر والخصاصة، وقد نبهتهن إلى ضرورة قراءة سورة الواقعة كل ليلة مرة وأوصيهن بأن يداومن على هذه الأصول لأنى كنت سمعت النبى ﷺ يقول: كل من داوم على قراءة سورة الواقعة فى الليالى يأمن تسلط الفقر والحاجة عليه.

وبهذا القول امتنع عن تقديم العطايا لبناته؛ رضى الله عنه.

حنيس بن خذافة السهمى[1] ـ رضى الله عنه ـ كان خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب بن لؤى القرشى السهمى زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب الأول وهو أحد مهاجرى الحبشة، خرج فى غزوة أحد ومات بعد ملحمة بدر الكبرى بخمسة وعشرين عامًا ودفن فى مكان قريب من ضريح عثمان بن مظعون.

أسعد بن زرارة[2] ـ رضى الله عنه ـ: هو سعد بن زرارة أبو أمامة ابن زرارة بن عُدَس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم ابن مالك بن النجار بن ثعلبه بن الخزرج الأنصارى وهو أحد الأنصار السابقين للإسلام بل أولهم ونصب نقيبًا من قبل رسول الله ﷺ لقبيلة بنى ساعدة التى ينتسب إليها.

وقد وجد فى بيعات العقبة الأولى والثانية والثالثة وعرض البيعة قبل الكل وتوفى فى خلال شهر شوال من العام الهجرى؛ فدفن فى مكان قريب من ضريح عثمان بن مظعون، وقبره لامع الأنوار فى وسط مقبرة البقيع، وبجانب ضريح ابن الرسول عليهما السلام إلا أنه ليس لقبره علامة خاصة. وعندما يزار ضريح إبراهيم ـ عليه التعظيم ـ فلا تَنْسَ قراءة الفاتحة على روحه لتذكره.

فاطمة بنت رسول الله «عليهما الصلاة والسلام»: ارتحلت السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ عن دنيانا بعد والدها بسبعين يومًا ودفنت ـ على القول الأرجح ـ على زاوية دار عقيل اليمانية التى تقع فى داخل مقبرة بقيع الغرقد.

(١) انظر ترجمته فى الإصابة ٢/ ١٤٢.
(٢) انظر ترجمته فى الإصابة ١/ ٣٢.

قطعة شعرية

إن فاطمـــة مـــن شمـــس الرسالـــــة نـــــور

فاجعل مـن غبـــار عتبتهـــا لعينيـــك الـــدواء

فليس فى الإمكان دخول إلـــى سلطـــان كونهـــا

وبناء على الروايات الموثوقة اغتسلت قبل احتضارها ولبست ملابس جديدة وقالت إننى الآن سأستجيب لدعوة «ارجعى» ولكننى لست فى حاجة للغسل والكفن!!!

وسلمت روحها بعد ذلك ودفنت فى المكان المذكور.

قطعة شعرية

ثمرة القلب وقـرة عـين الرســول

زهـــرة فلك النبـــوة البتـــول

سيدة كـل نســاء الجنـــان بقيـــت

ورأسها على حجر عند قدم الرسول

وقرر المؤرخون بناء على قول على بن حسين بن على بن أبى طالب، أن السيدة فاطمة مدفونة فى مكان يبعد عن دار عقيل خمسة عشر ذراعًا وعلى قول ثلاثة وعشرين ذراعًا وفى مواجهة الطريق المتصل بالزاوية اليمانية لدار عقيل وقول عبد الله بن رافع الذى قال: قد دفنت فخر النساء فى مخرج الطريق الذى يقع بين دار عقيل بن أبى طالب، ودار أبى، وبناء على الروايات الأخرى أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى مقبرة بقيع الغرقد الشريفة، ولكن البعض الآخر ـ روى خطأ هذا القرار وخرجوه وادعوا أن قبرها الشريف فى جهة صفة أصحاب الصفة من شبكة مرقد السعادة، وأيدوا ادعاءهم هذا بما يروى عن عمر بن عبد العزيز بأنه قال: بأن السيدة فاطمة قد دفنت فى دارها من جهة أسماء

بنت عبد الله بن الزبير أى فى الجهة الشامية من الحجرة المعطرة، وقال إن هذه الرواية قد نقضت الرواية الأولى، ولكن إذا نظرنا لما قاله ريحانة النبى ﷺ الحسين بن على بن أبى طالب حين احتضاره ادفنونى فى البقيع بجانب والدتى ودفن بعد موته فى مقبرة البقيع بناء على وصيته، وإذا ما نظر إلى قطعة الرخام التى عثر عليها فى سنة ٣٣٢هـ فوق قبر فى بقيع الغرقد حيث كتب عليها هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين.

وقبر الحسن بن على وعلى بن الحسين بن على وقبر محمد بن على وجعفر بن محمد - رضى الله عنهم بالبقيع - هذا يقتضى التصديق بأنها دفنت فى البقيع الشريف.

وقد كشف الشيخ أبو العباس المرسى - وهو من مشاهير أولياء الله - ظاهر الكرامات بأن قبر السيدة فاطمة فى مقبرة بقيع الغرقد كان يقف فى داخل ضريح عباس ابن عبد المطلب وفى الجهة القبلية منه ويقرأ الفاتحة لروح المشار إليها وجعل ذلك عادته مدة حياته. ويقول أهل المدينة بأن السيدة فاطمة - رضى الله عنها - فى داخل حجرة السعادة ويزورون إلى الآن حجرتها فى داخل المسجد النبوى، إلا أنهم عندما يزورون قبر عم النبى ﷺ عباس - رضى الله عنه - يقفون حيث وقف الشيخ أبو العباس المرسى ويقرءون الفاتحة لروح فاطمة الزهراء أيضًا، لأن الرواية التى تقول بأنها مدفونة فى داخل شبكة الحجرة المعطرة نقل فقط عن الأحمق شمس الدين بن زمن؛ فلا قيمة لهذه الرواية حتى بين علماء المدينة المنورة.

التأسف

إن المدفن الذى عين على أنه مدفن فاطمة - رضى الله عنها - فى زمن شمس بن زمن قد زين بستائر مزركشة وغطيت أطرافه الأربعة بستائر ذات أهداب ذهبية إلا أن مدفنها الذى فى البقيع والذى ثبت دفنها هناك فيه بأقوى الأسانيد

والأقوال ظل ضريحها فى البقيع مغطى بقطعة قماش خضراء قديمة عادية مما يثير فى قلوب الزائرين الأسى والأسف.

وإن كان قيمة القماش الغطاء لا يزيد فى فضل صاحبة القبر إلا أنه مهما وُقرت واحترمت السيدة فاطمة دعا ذلك إلى ابتهاج الروح النبوية، ويقاس مدى حب أهل الإيمان لنبيهم بمدى ما يظهرون إلى المشار إليهم من الرعاية والاهتمام ومن هنا يقتضى الأمر أن يحظى ضريحها فى بقيع الغرقد بالعناية والنظام.

ألا فليرض الله سبحانه وتعالى عن والد السلطان كثير المحامد قد أحاط قبر والدتنا المشار إليها دائرا ما دار بسياج من النحاس وبهذا أزال ما جاش فى قلوب المحبين للنبى ﷺ من الأسف والحزن درجة ما.

استمرت سيدة النساء بعد أن ارتحل والدها الكريم تنوح وتنتحب فى المكان الذى محل قبرها فى البقيع حتى أطلق عليه دار الحزن، ومسجد فاطمة، وذلك المكان المقدس قبة أهل البيت ويقع فى الجهة القبلية من جوار ضريح عباس بن عبد المطلب، وقد جدده السلطان محمود خان الثانى فى سنة ١٢٣٣هـ ورمز له بكتابة القطعة الآتية فوق طاق بابه:

لحاكم الدهر لطف الله

لا يردن على الخاطر لماذا

ابك وادع لذلك السلطان

الذى أقام مسجد الحزن هذا

الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه: قبره الأنور بجانب والدته السعيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ والكائن فى داخل ضريح العباس بن عبد المطلب، كان قد بعث قبل وفاته إلى أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ من يخبرها

راجيا بأنه يرغب أن يدفن داخل حجرة السعادة فأجابته قائلة: وفعلاً فى داخل حجرة السعادة مكان يسع لقبر واحد وكنت قد هيأته لنفسى مادام ذاته السامية يرغب فى الدفن فى مدفن السعادة أتنازل عن المكان الذى هيأته لنفسى وأقدمه له وأدبر لنفسى قبراً فى مكان آخر.

وأخذ أمراء بنى أمية ينشرون ترهاتهم ويثرثرون هنا وهناك قائلين: فلا سبيل لدفن الحسن بن على - رضى الله عنه - فى مدفن الرسول إننا سنخالف رغبة الإمام الحسن هذه بل أننا سوف نتجرأ على مقاتلة بنى هاشم فى هذا السبيل.

وانفعل الحسن بن على من أمراء بنى أمية وغضب وقال مخاطبًا أخاه الحسين الشهيد إننى تنازلت عن رغبة الدفن فى مدفن الرسول فادفنونى بجانب والدتى فى البقيع ولكن لا تحملوا جنازتى إلى البقيع قبل أن تذهبوا بها أمام مواجهة السعادة للتشفع، هذه كانت وصيته. وعندما ارتحل عن دنيانا أراد حضرة حسين أن يدفنه فى حجرة السعادة، ولكن المعاندين من بنى أمية تصدوا لذلك قائلين فلن نوافق على ذلك أبدًا فهيأ حسين قبراً فى البقيع بجانب قبر أمه باهر الأنوار ودفنه فيه بعد أن حمل جنازته إلى مواجهة السعادة للاستشفاع وهكذا وفى بوصية أخيه - رضى الله عنه - ولم يكن والى المدينة فى ذلك الوقت سعيد بن العاص يمانع فى دفن حضرة الحسن فى الحجرة المعطرة إلا أن مروان بن الحكم جمع أعوانه وعارض الحسين وخالفه فى فكرته وعندما أحس مروان من الإمام شدة دفاعه قال له: كان أخوك قال إذا لوحظ ظهور الفتنة فادفنونى فى البقيع فسكت حضرة الحسين، وصلى على الحسن عمرو بن سعيد بن العاص وقال الحسين - رضى الله عنه - لو لم تكن صلاتك على أخى سنة لما سمحت لك بالصلاة عليه.

حكمة

عارض أمراء بنى أمية دفن الحسن بن على وعثمان بن عفان - رضى الله عنه - فى المحل الخالى فى الحجرة المعطرة على اعتبار أن هذا الموضع سيكون مدفن عيسى ابن مريم.

لأن النبى ﷺ قد تفضل قائلا: إنَّ عيسى بن مريم سيهبط على وجه الأرض وسيتزوج وسينجب الأولاد وبعد أن يعيش ما يقرب من خمسة وأربعين عامًا سيتوفى ويدفن بجانب قبرى ولسوف أبعث أنا وعيسى بن مريم بين أبى بكر وعمر.

ودفن الإمام زين العابدين وابنه الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر الصادق بجانب الإمام الحسن بن على بن أبى طالب كما أن رأس الإمام الحسين دفنت بجانب قبورهم، لأن يزيد الشقى كان قد أرسل رأس سيد الشهداء المقطوع إلى والى المدينة عمرو بن سعيد بن العاص فجهزه وكفنه ودفنه بجانب قبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى بقيع الغرقد، والآن عندما يزور الكرام ضريح عباس بن عبد المطلب يتذكرون الأئمة الكرام المشار إليهم ويعرضون عليهم تحيتهم ويتحفظون سلامهم هناك من يدعى أن رأس الإمام حسين لم يدفن فى البقيع حتى إنهم يمنعون من يريد زيارة الشهيد ممن يصدقون وجود رأسه هناك. ولكن العلامة ابن سليمان يؤكد على وجود رأس الحسين المبارك فى البقيع فى كتابه «الذخر النافع» كما ذكر الزبير بن بكار بإسناد موثوق أن جنازة على بن أبى طالب قد نقلت إلى البقيع مؤخرًا، ومن هنا فذكر اسميهما عند الزيارة تبركا مع تذكر أهل البيت لا يخلو من فائدة **العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه:** عباس بن عبد المطلب مدفون بجانب قبر منسوب لفاطمة بنت أسد ـ رضى الله عنها ـ، أم على بن أبى طالب وضريحه المنيف أول مقابر بنى هاشم ومدفنه قريب من دار عقيل، والقبة التى تشمل على قبر عباس يطلق عليها قبة أهل البيت ولضريحه بابان شامى وغربى وتنحصر وظيفة الحراسة فى سلالة زنجية ببراءة من مفتى المدينة الشافعى سيد جعفر بن سليمان.

صفية بنت عبد المطلب ـ رضى الله عنها: قبر والدتنا صفية فى مكان عند المخرج من باب البقيع أى فى اتصال دار المغيرة بن شعبة. وفى زماننا لا يزورون هذا المكان ويزورون الضريح الذى خارج البقيع وفى اتصال سور المدينة، ويقولون هذا هو قبر صفية بنت عبد المطلب ولكن قول الزبير بن العوام بن

صفية للمغيرة بن شعبة عندما كان يبنى بيته يا مغيرة ارفع رفرف سقف دارك من فوق قبر أمى وتحويل مغيرة بن شعبة مجرى سقف بيته إلى جهة أخرى يؤيد ويؤكد صحة القول الأول.

سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه: سفيان بن الحرث مدفون فى داخل دار عقيل بن أبى طالب كان سفيان ينتزه فى داخل مقبرة بقيع الغرقد فى السنة العاشرة من الهجرة وعلى قول فى السنة الثانية والعشرين من الهجرة عندما ذهب إلى الحج ورجع منه، فلاقاه عقيل بن أبى طالب وقال له: ابن عمى! لما تتمشى هنا؟ فرد سفيان قائلاً: أريد أن أهيئ لنفسى مكانًا للقبر ثم دخل فى دار عقيل بن أبى طالب، ثم قال له احفر هنا قبرًا لى. عنده ساعة جلس وجعل عقيلاً يحفر له قبرًا، ومات بعد يومين ودفن فى القبر الذى حفره عقيل، وعلى رواية أخرى، حفر بنفسه ومات بعد ثلاثة أيام ودفن فى القبر الذى حفره بنفسه ولا شبهة فى أن سفيان ابن الحرث مدفون فى الضريح الذى ينتسب إلى عقيل بن أبى طالب، ولكن الشخص الذى دفن فى هذا الضريح ليس عقيل بن أبى طالب بل عقيل بن النجار، لأن عقيل بن أبى طالب قد توفى فى الشام.

والدة سفيان بن الحرث غزنة بنت قيس بن طريف بن فهد بن مالك وأبو أبيه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى فهو عم النبى ﷺ وبما أنه رضع من حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية[1] فهو الأخ للنبى من الرضاعة. وقبل أن يسلم كان ضد النبى ﷺ وكان قد جرح خاطر النبى بما كتب فى حقه من الهجاء، وبعد الإسلام قام بأعمال لا بأس بها وحاز إعجاب النبى ﷺ.

عبد الله بن جعفر الطيار: عبد الله بن جعفر الطيار ابن أبى طالب مدفون فى دار عقيل أيضًا، بما أن حضرة عبد الله كان أجود العرب كان يلقب بـ جواد القبيلة وإن كان بعض المؤرخين قالوا إن عبد الله توفى فى خلال سنة ٩٠ الهجرية ودفن فى الأبواء لكن القول الأول أكمل من الرواية الثانية.

الأزواج الطاهرات ـ رضى الله عنهن ـ أجمعين: أولى زوجات النبى ﷺ

(١) أنظر نسبها فى: ابن هشام ١/١٦٨، الإصابة ٨/ ٥٢-٥٣.

خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عها ـ مدفونة بمقبرة الجنة المعلا فى مكة المعظمة كما أن أمنا «ميمونة رضى الله عنها» مدفونة فى مكان اسمه سرف بين وادى فاطمة ووادى التنعيم كل واحدة فى ضريحها الخاص.

وغيرهما، كلهن، مدفونات فى مقبرة بقيع الغرقد وفى الضريح الخاص لزوجات النبى المطهرات فى الجانب الشرقى من دار عقيل بن أبى طالب.

روايـة

لما أشرفت حبيبة حبيب الله عائشة ـ رضى الله عنها ـ أمنا على الموت استدعت عبد الله بن الزبير وقالت له مواجهة «ادفنى بجانب صاحباتى اللائى فى داخل بقيع الغرقد» ونفذت وصيتها بعد موتها.

رواية: حفر عقيل بن أبى طالب فى داره التى فى البقيع بئرًا ولما وجد فى حين حفره حجرًا محكوكًا عليه فسد البئر المحفورة وبنى فوقها منزلاً عظيمًا، وكان مكتوبًا على الحجر المذكور «قبر أم حبيبة بنت صخر بن حرب» أى أم المؤمنين حينئذ دخل حضرة ابن السائب داخل البناء الذى أسسه وزار قبر أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ وحفر محمد بن زيد بن على محلاً مكشوفًا على بعد ثمانية أذرع من قبر فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فوجد حجرًا محكوكًا عليه «إنه قبر أم سلمه زوج رسول الله ﷺ» وقد نقل هذا محمد بن زيد بنفسه، وظهور هذه الحجارة يدل على أن ذلك المكان مكان قبر زوجات النبى ﷺ، كما أن قول عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «ادفنى بجانب صاحباتى..» يؤيد الرواية التى تحكى أن الأزواج المطهرات دفن فى بقيع الغرقد.

أزواج النبى الطاهرات هن: خديجة، عائشة، سودة، حفصة، أم حبيبة، أم سلمة، زينب بنت جحش، زينب الهلالية، جويرية، ميمونة، صفية ـ رضى الله تعالى عنهن أجمعين ـ ومجموعهن إحدى عشر سيدة المقرونات بالعصمة وتسع منهن دفن فى الضريح الذى سبق تعريفه.

عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ المنان: استشهد عثمان بن عفان فى السنة

الخامسة والثلاثين من الهجرة فى السابع عشر من شهر ذى الحجة، وعلى قول الثامن عشر. وقيل مات يوم الجمعة ودفن فى مقبرة بقيع الغرقد وفى ساحة بستان يقال له حش كوكب وفى منتهى ذلك االبستان.

وكان الشهيد المشار إليه قد حصل فى حياته على رخصة من أمنا عائشة ليدفن فى داخل الحجرة المعطرة ولكن المصريين الذى تجرءوا على قتله رفضوا دفنه فى مدفن السعادة قائلين: نحن سنمنع الصلاة على جنازة عثمان بن عفان فضلاً عن دفنه فى حجرة السعادة، وبمثل هذه الوقاحة أتموا دناءتهم، وتلفظوا فى هذا الخصوص بكلمات غير مستحبة وكل ذلك داخل مسجد السعادة، ولما طال الوقت ولم يدفن ذهبت والدتنا أم حبيبة من زوجات النبى المطهرات إلى باب المسجد وقالت: أعطونى جنازة عثمان لأدفنها فإذا امتنعتم عن إعطائها أرفع ستارة مرقد السعادة وأشكوكم للرسول ﷺ! ولما ترك المصريون الجنازة وانسحبوا إلى جهة ما أخذ جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير وكثيرون من الأجلاء نعش عثمان المبارك وحملوه إلى البقيع، إلا أنهم قوبلوا أيضًا بالمخالفة والرفض أى رفضوا دفنه فى البقيع الشريف فنقلوه من هناك إلى بستان يقال له حَشّ كوكب حيث حفروا قبرًا ودفنوه.

ومنذ استشهاد حضرة عثمان- رضى الله عنه- أخذت طائفة الجن تولول وتنتحب فوق مسجد السعادة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.

حكمة

وإن كان سبب عدم دفن الشهيد المشار إليه فى الظاهر مخالفة المصريين لذلك ورغبتهم فى دفنه بعيدًا عن النبى ﷺ ولكن السبب المعنوى لذلك قد وضح فى الصورة الأولى من الوجهة السادسة عشرة وفى بحث بئر أريس وهو عندما بشر حضرة عثمان بالجنة والمصيبة لم يكن قد وجد بجانب الرسول محلاً خاليًا وجلوسه فى مكان بعيد عنه.

يروى الإمام مالك أن قتلة عثمان بن عفان لم يسمحوا بدفن جثته إلا فى

اليوم الثالث من استشهاده. وسبب ذلك فقد الصوت الذى سمع من الهاتف صلوا على جنازة عثمان وادفنوها، إن الله سبحانه وتعالى قد رحمه.

قال الإمام: بناء على الأخبار التى تلقيتها، عندما سمع القتلة ذلك الصوت من الهاتف تحيروا واستولى عليهم قلق عظيم، فتركوا النعش الشريف فى مسجد السعادة وتفرقوا، ولما تركت الجنازة وحدها وفى ليلة ذلك اليوم أخذ جدى ومعه أحد عشر رجلاً الجنازة من المسجد وأخرجوها منه وخرجوا للطريق ليحملوا الجنازة إلى المقبرة. فصادفهم بعض الرجال من كلاب قبيلة بنى مازن وقالوا: إن كنتم تريدون أن تدفنوا الجنازة فى مقبرة البقيع نخبر القتلة ونجعلهم يخرجونها من قبرها.

فخافوا من وقوع فاجعة أخرى وحملوا الجثمان إلى بستان «حش كوكب» لدفنه فيه، كانت بنات حضرة عثمان يسرن أمام التابوت وقد أمسكن فى أيديهن القناديل فى تلك الليلة العجيبة بينما رأس الجثمان يصطدم بالتابوت الخشبى ويخرج صوتًا، ولما ساروا قليلاً سمعوا خشخشة فخاف الذين يحملون التابوت وزاد هذا الضجيج وأحاط بهم من الجهات الأربعة قالوا: لا تخافوا أتينا لنحضر صلاة جنازة الخليفة وإذا بهذه الخشخشة كانت قد صدرت من أجنحة الملائكة واهتزازتها الذين أتوا ليحضروا صلاة جنازة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقد اختلف فيمن صلى على الجنازة، ففى قول أن الذى صلى هو جبير بن مطعم أو مروان ابن الحكم وفى قول آخر حكيم بن حزام، ودفنوها فى المقبرة التى هيئت فى البستان المذكور، وحضر الدفن الزبير بن العوام وحسن بن على وأبو جهم بن حذيفة ومروان بن الحكم.

وألحق أمراء بنى أمية بعد مدة بستان حش كوكب بمقبرة البقيع، وهكذا وسعوا هذه المقبرة وأخذ الناس يدفنون جنازاتهم فى هذا المكان، كان أهل المدينة يتجنبون دفن موتاهم فى حش كوكب من قبل وكأنهم تمنوا بأن يدفن أحد الصلحاء فى بستان حش كوكب حتى يقبل الناس على دفن موتاهم هناك. هذا ما

كان يتمناه عثمان - رضى الله عنه - وكأنه أومأ بهذا بأنه سيدفن فى بستان حش كوكب وسيلحق هذا البستان فيما بعد بمقبرة بقيع الغرقد وأخذ الأهالى يدفنون موتاهم فى هذا البستان وألحقوه بمقبرة بقيع الغرقد.

وقد أبتلى كل واحد من قتلة عثمان بالجنون، وهلك كل منهم إثر فضيحة لحقت به، وقد ندم قتلته على ما ارتكبوا من جريمة شنعاء والتجئوا إلى مسجد السعادة يعرضون ندمهم وتوبتهم وأخرج كل واحد منهم مصحفًا وأخذوا فى تلاوته بكل خشوع وندم وهم يبكون إلا أنه ظهر على وجه السماء شخص على شكل إنسان وخاطب هؤلاء وهو يقرأ الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (سورة الأنعام / ١٥٩)

سعد بن معاذ الأشهلى ـ رضى الله عنه: إن سعد بن معاذ مدفون فى الضريح الذى ينسب إلى فاطمة بنت أسد بن هاشم الذى فى نهاية مقبرة البقيع، وقد ذهب بعض الناس إلى أن فاطمة بنت أسد مدفونة فى هذا الضريح. إلا أنه من المحقق أنها لم تدفن فى هذا الضريح كما فصل فى موضوع قبرها.

كان حضرة سعد معروفا بكنيته أبى عمرو، ووالده معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس الأنصارى الأشهلى، وأمه كبشة بنت رافع، وقد جرح فى ملحمة الخندق جرحًا بالغًا ولكنه دعا إلى الله أن يمد عمره حتى يرى نهاية يهود بنى قريظة، ولما استجيبت دعوته انقطع نزيف جرحه، أسندت إليه مسألة تحديد جزاء يهود بنى قريظة، فحكم بقتل جميع ذكور يهود بنى قريظة كما هو مفصل فى كتب السير وانفجر نزيف جرحه عقب ذلك وارتحل عن الدنيا، فصلى عليه النبى ﷺ ودفن فى أقصى مقبرة البقيع وبجانب بيت المقداد بن الأسود فى القبر الذى حفر له.

وكان النبى ﷺ بجانب سعد بن معاذ حين وفاته ودعا له بأن تصعد روحه إلى

أعلى العليين، فاستجيب دعاؤه فنزل من قبل الله على وجه الأرض سبعون ألفا من الملائكة وأوصلوا روحه الشريفة إلى رياض الجنان بكل إعزاز وإكرام

أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه: حضرة أبو سعيد الخدرى سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر وهو خدرة ابن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الخدرى واسمه زيد، ومات سنة أربع وستين من الهجرة ودفن فى المكان الذى أراده بنفسه فى انتهاء مقبرة البقيع، قال لابنه عبد الرحمن قبل موته بثلاثة أيام. «يا بنى قد تقدم بى السن وعجزت وسئمت تحريك رجلى، أمثالى وأقرانى توفوا، خذ بيدى لنذهب إلى البقيع» وأخذنى إلى مقبرة البقيع، وتمشينا فترة بين القبور، وفى النهاية وجد محلا خاليًا فى أقصى المقبرة حيث لم يدفن أحد وقال لى ادفنى فى هذا المكان حينما أموت.

وقد خرب الضريح الذى فوق قبر أبى سعيد الخدرى فى الوقعة الوهابية فجدده السلطان محمود خان الثانى وكتب فوق بابه البيتين الآتيين.

قطعة

أقيم قبر أبى سعيد الخدرى
فكان مثيراً لحسد حرم السماء السابعة
كل ما تعاون مع السلطان
رضى الله تعالى عنهم

كان بالقرب من ضريح أبى سعيد الخدرى قبر منسوب إلى حليمة السعدية.

قطعة

شرفت بأن تكون لخير الرسل ظئرا
حليمة السعدية حسبها هذا فخرا

أراد السلطان محمود خان الثانى أن يعرض للنبى ﷺ خدمة مقبولة فبنى فوق قبرها ضريحًا وقبة.

مشهد النفس الزكية اللطيف

النفس الذكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- مدفون فى جوف المسجد الكبير الواقع بالجانب الشرقى فى جبل سلع وليس فوق قبره قبة خاصة، ومنهل عين الأزرق، خلف الجدار القبلى لذلك المسجد وسقَّاءو المدينة يأخذون منها الماء ليمدوا البيوت والمحال بالماء.

ويروى أيضًا بأنه دفن فى موقع أحجار الزيت القريب من ضريح مالك بن سنان المنيف أى المكان الذى استشهد فيه. إلا أن هذه الرواية ضعيفة لدى أهل المدينة فالأرجح القول الأول.

استشهد النفس الزكية فى زمان أبى جعفر المنصور من خلفاء العباسيين، وسبب استشهاده نفرة أهالى المدينة الطاهرة من أبى جعفر المنصور وعرضهم البيعة للمشار إليه وتبعيتهم له، وسبب نفرة أهالى المدينة جميعًا غدر المنصور وإهانته لهم، لأن المنصور المختلف الشعور هذا كان قد حبس والد الشهيد المشار إليه فترة طويلة مع جميع أقاربه ونتج عنه غضب أهل المدينة منه وعرض جمع غفير منهم البيعة على النفس الزكية، وخرجوا ضد المنصور وخالفوه.

وبمجرد ما سمع المنصور هذه الواقعة اختل شعوره وأرسل عمه عيسى بن موسى بأربعة آلاف من الجند إلى المدينة الطاهرة حتى يقف دون تطور الأمور. وقبض عيسى بن موسى على النفس الزكية فى مكان يطلق عليه «أحجار الزيت» وقتله وضرب الإمام مالك ضربًا مبرحًا واستولى على السيف الذى وصل إلى النفس الزكية عن طريق الإرث من على بن أبى طالب وهو ذو الفقار وقدمه لأبى جعفر المنصور.

توضيح:

حج المنصور فى سنة ١٤٤هـ فى مكة المكرمة وبعد عرفة مر بالمدينة المنورة فاستقبله أشراف وسادات المدينة الميمونة حتى كان فى ضمن مستقبليه من أعاظم العلويين عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب، وسر المنصور من تنازل عبد الله باستقباله ودعاه أن يحضر طعام المساء، وأثناء تناول الطعام سأل المنصور عبد الله قائلاً: ما سبب عدم تنازل ولديك إبراهيم ومحمد لاستقبالى فرد عبد الله على هذا السؤال غير اللائق: إننى لا أعرف مكانهما حتى أعرف سبب عدم حضورهما لاستقبالك وأقسم على ذلك، ولكن المنصور لم يهتم بجوابه ولا قسمه وكرر السؤال فغضب عبد الله من هذا الإصرار وقال: يا منصور قلت لك إننى لا أعرف مكانهما وأقسمت على ذلك فلم تقتنع، وبعد الآن إن أقف على مكان وجودهما فلن أخبرك به فاغتصب ذلك الغدار جميع أموال عبد الله وصادر جملة أملاكه وألقاه فى السجن مع أحد عشرولدًا من أولاده، وأمر ألا يخرجوا من الحبس إلى الأبد، ويرد بعض المؤرخين هذه الرواية قائلين إن والى المدينة المنورة رباح بن عثمان هو الذى حبسهم بناء على الرسالة التى وردت له من المنصور. وسبب حبس المنصور عبد الله والسؤال عن ابنيه إبراهيم ومحمد بيعة بعض الناس فى أواخر الدولة الأموية من أهالى الحجاز النفس الزكية محمد بن عبد الله بالخلافة، مع أن المنصور كان أحد المبايعين له ولكن بعدما أخذت شمس الخلافة تنتشر أشعتها على مفرقة آل عباس وانتقل زمام الحكم بعد فترة إلى يد المنصور قال فى نفسه إننى كنت قد بايعت قديمًا محمد بن عبد الله بالخلافة، وإننى إذا لم أقتل محمدًا وأخاه إبراهيم لن أستطيع أن أقوم بمهام الخلافة، وبهذا الوهم أخذ يبحث عن سبب لقتلهما. واطلّع هذان على أوهام المنصور المضرة فسافرا إلى اليمن أولاً ثم إلى الهند حيث تنزها قليلاً ثم عادا إلى المدينة المنورة بعد فترة واختارا الانزواء فى ركن منها، ولكن ذوى المصالح كتبوا رسالة وأرسلوها إلى جعفر المنصور قائلين عاد محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم ا المدينة المنورة واختفيا فى مكان ما فيها وأخذا يثابران لتكليف أهل المدينة بالب

لهما فانزعج المنصور من هذا الخبر أشد الانزعاج وأخذ يفكر فى التخلص منهما بالقضاء عليهما، وقرر أن ينفق فى هذا السبيل ما لا يحصى من الأموال ولأجل ذلك كان يغير ولاة المدينة من حين لآخر بالعزل والتبديل ويخشى ما فى ضميره لكل واحد منهم، ولما كان المشار إليهما مطلعين على سوء نية أبى جعفر فإنهما كانا يسافران فى موسم الحج إلى مكة المكرمة ويعودان بعد عرفة إلى المدينة المنورة حيث يختفيان فى مكان ما.

وقد فهم المنصور أن الأمر الذى يريد أن ينفذه لن يتم بواسطة الولاة الذين يبعثهم إلى المدينة أى فهم أن من لديه أقل ذرة من الإيمان لن يقوم بهذا العمل، فأخذ يتحرى عن شخص غدار سفاك ليثق فيه وأخيرًا وجد رجله فى رباح بن عثمان الموصوف بالقسوة عديم الرحمة محتاج لفلس أحمر وفهم من عينيه أنه كلب بن كلب، فاستدعاه فجاءه ليلة من الليالى وعهد إليه بولاية المدينة المنورة قائلاً: يا عثمان! يجب أن تذهب سريعًا إلى المدينة المنورة وأن تبحث عن حل سريع لقتل محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم، وهكذا نبهه وأمره بقتل المشار إليهما وجهز له كل ما يلزم من عظمة ودبدبة ووجه ذلك الدنئ الذى يخرب البيوت بعد أن رقاه إلى والى المدينة، وكان رباح بن عثمان دنيئًا لا يتحرج حتى عن قتل الأنبياء وهدم البيت العالى ولا يتورع عن ارتكاب أى جرم، وعندما وصل إلى المدينة أراد أن يتظاهر أمام الأهالى بأنه من أنصار الحق فذهب تلك السنة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وبعد العودة أخرج السادة والعظام الذين كان قد حبسهم المنصور بنفسه من آل حسن بن على من السجن فكبل أرجلهم وأيديهم بأكبال حديدية وربط كل واحد منهم بالآخر بالسلاسل الحديدية وارتكب دناءة وجرم سوقهم بهذا الشكل إلى بغداد دار الخلافة.

وكان مع المسجونين المشار إليهم من يلقب بـ «الديباج» لكمال حسنه وملاحته: أبو عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن عفان.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الديباج كان أخا عبد الله ابن حسن لأم وقطعة كبد فاطمة بنت حسين بن على بن أبى طالب، وكانت بنتة رقية متزوجة بابن

أخيه إبراهيم بن عبد الله، وكان الشاميون يحبونه ويرعونه. قال رباح بن عثمان في الرسالة التى كتبها إلى أبى جعفر: إن الشاميين يرعون أبا عبد الله بدرجة لا يمكن تعريفها ويسمعون كلامه ويطيعونه؛ لذا يخاف أن يرعى هذا الخلافة أيضًا على هذه الفقرة المضرة المفجعة لقلبه أمره المنصور بأن يؤخذ مع آل حسن بن على رضى الله عنهم ويشاركهم مصيرهم.

ولما وصل المسجونون الذين أرسلهم رباح بن عثمان مقيدين فى السلاسل إلى بغداد أحضرهم أبو جعفر كلهم مرة واحدة وعرى أبا عبد الله من ملابسه تماما وتجرأ على أن يأمر بضرب أبى عبد الله مائة وخمسين على جسمه الذى يشبه الفضة المحلاة على جسمه الرقيق اللطيف. وأصابت إحدى ضربات السوط عينه ففقئت وانطفأ نورها ثم ضرب مائه سوط على رأسه فاسود جسده المنير وكأنه جسم زنجى وترك فى هذه الحالة إلى جانب أخيه عبد الله فى السجن.

ولما رأى عبد الله هذه الحالة المستهجنة صرخ قائلاً: «أبا جعفر... أعاملنا الأسرى الذين أخذناهم منكم فى غزوة بدر مشركين بهذه الحقارة!!؟؟» وتهور المنصور الغدار وخجل من هذا الكلام وهذه التورية فأمر بإلقائهم كلهم فى السجن الذى هيئ لهم والذى يعرف بالهاشمية.

وكان سجن الهاشمية سجنًا فظيعًا، ولا يسمع فى داخله لا صوت الأذان ولا يعرف وقت حلول الصلاة.

ولما كان محمد بن إبراهيم ابن الحسن المسمى بالديباج الأصفر ذا ملاحة وحسن وجمال مسجونا مع الأشخاص المكبلين المسجونين كان أهل العراق يذهبون لزيارته ورؤيته جماعات جماعات وخاف المنصور من ازدحام الزائرين والمشاهدين حتى لا تظهر وعوته بين هؤلاء المسجونين فأحضر الديباج الأصفر، وهدده قائلاً: سأقضى عليك بموت لم ير مثيله، ثم حصره بين عمودين وعذبه عذابًا شديدًا حتى مات أو على قوله قتله بإلصاقه على جدار وقتل جميع المسجونين الهاشميين بطريقة غير لائقة.

كان أهل خراسان يرجون أن يعفى عن محمد الأموى ويطلق سراحه فما كان من أبى جعفر الذى لا يستحى إلا أن قطع رأس المشار إليه وهو غاضب وأرسله إلى الخزان وبهذا ملأ قلوب الخراسانيين ومحبى أهل البيت بالحزن والألم.

ولما رأى عبد الله بن حسن استشهاد محمد بن عبد الله الأموى بعد أن طلب الخراسانيون إطلاق سراحه بعد عفو: «إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا كنا آمنين من كل شئ فى عهد الأمويين بفضل قرابتنا لمحمد بن عبد الله، ولما تحولت السلطة إلى ناحيتنا قتل محمد بن عبد الله معذوراً بالسيف، هل يمكن ألا يتعجب الإنسان من هذا».

ولما وصل ظلم المنصور وإهانته لهذه الدرجة حكم أنس بن مالك صاحب أحسن المسالك بأن أبا جعفر من الطغاة والبغاة وحتى أعلن فى داخل المدينة قائلاً: «يا سكنة دار السكينة! ليس طبيعيا أن تعرضوا بيعتكم لأبى جعفر المنصور! وقد تحقق أن المنصور من الطغاة. والآن يجوز خلعه من الخلافة ومبايعة محمد بن عبد الله! وانسحب إلى داره».

وخرج محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب المعروف بلقب النفس الزكية بناء على إفادة الإمام مالك وبتحريض ومعاونة خمسين شخصًا من أهل المدينة وفى خلال سنة ١٤٥هـ ضد الدولة العباسية وهجم على الدائرة الحكومية .وقبض على رباح بن عثمان وألقاه فى السجن. ثم صعد على منبر السعادة، وأعلن أن الخلافة حقه الصريح وأن غرضه من الخروج وتوليه الخلافة هو أمن البلاد وراحة القلوب وبهذا استطاع أن يدخل أغلب أهالى المدينة تحت انقياده وطاعته.

وضرب عيسى بن موسى عم المنصور الإمام مالك بسبب إثارة الناس وتحريضهم على مبايعة محمد بن عبد الله وترغيبهم فيها وبين لهم أن الشرع يسيغ هذا العمل، وإلا فالإمام مالك لم يطلق لسانه فى أبى جعفر كما أنه لم يقاتل عيسى بن موسى.

وكان محمد بن عبد الله بعد ما أدخل أهالى المدينة فى دائرة بيعته ساق مقداراً كافيًا من الجنود للاستيلاء على مكة المعظمة وبلاد اليمن وسواد الشام ولم يلق سمعًا لما بعثه أبو جعفر من رسائل مهددة، وإن كان محمد بن عبد الله لم يستطع أن يستولى على بلاد الشام إلا أنه أقلق بخروجه أبا جعفر المنصور وبحث عن حل سريع لحل هذه المشكلة فأمد والى الكوفة عيسى[1] بن موسى المعروف بقسوة القلب بأربعة آلاف من الجنود إلى المدينة المنورة وأمره بأن يقتل محمدًا بن عبد الله وكل من تبعه واحدًا تلو آخر.

وكان من الممكن أن يقاوم محمد بن عبد الله مع أهالى دار العزة المدينة المنورة عيسى بن موسى. ولكن كان عيسى بن موسى قد هدد أهالى المدينة بإرسال رسائل مزورة لهم، وبما أن وقعة حرة واقم لم تزل فى ذاكرتهم أخذوا ينسحبون من جانب محمد بن عبد الله واحدا إثر الآخر. ودفعوا ذلك الشخص العالى القدر بثلاثمائة من المغاوير الأبطال أمام أربعة آلاف من سفاحى بغداد.

ولما رأى محمد بن عبد الله أن الذين تحت تبعيته أخذوا يهربون إلى جهة ما وأخذت قوته تنقص شيئًا أخذ يحفر فى أطراف المدينة خنادق عميقة من شدة ولهه وحيرته ويقول من شدة يأسه «كل من لا يرد أن يحارب المنصور فليغادرنى» ومع مرور الزمن من تناقض عدد جنوده حتى لم يبق بجانبه إلا ثلاثمائة من الفدائيين، وكان والى الكوفة ظالما غشومًا ومشهورًا بعداوته لآل النبى ﷺ فأقام معسكره خارج المدينة المنورة وبعث يقول: يجب أن يتخلى محمد بن عبد الله عن فكرة الخلافة وأن يطيع وينقاد لأبى جعفر المنصور وأن ينسحب مَنْ حوله تاركين محمدًا بمفرده وأن الذين لا ينسحبون من حوله سيندمون فى نهاية الأمر. ولما رأى أن محمد بن عبد الله مازال متمسكًا بفكرته كما أن الفدائيين الذين حوله مازالوا ثابتين بجانبه اغتاظ غيظًا شديدًا وتجرأ على أن يسوق مَنْ تحت إمرته من السفاحين إلى داخل المدينة المنورة وأخذ يحارب وهو يسب محمدًا بن عبد الله بن حسن بن حسين بن على بن أبى طالب علنًا بصوت عال.

(١) وكان عيسى بن موسى ولى عهد المنصور وعمه كذلك.

وإن كان محمد بن عبد الله حمل على العدو مع من استعدوا لفدائه بأرواحهم وكانوا ثلاثمائة من الأبطال الشجعان وأشعلوا نار الحرب وأقدموا على أعداء آل نبى الله وقتلوا كثيرين منهم، إلا أنه فى عاقبة الأمر استشهد فى مكان يطلق عليه أحجار الزيت بعد أن طعن، وقد حدث هذا الحادث المؤسف المؤلم بعد العصر من شهر رمضان فى الرابع عشر منه، وقد أهلك محمد بن عبد الله وهو متقلد ذا الفقار الحيدرى سبعين نفرًا من سفاحى بغداد وحاز بهذا إعجاب أصدقائه وأعدائه كذلك؛ رضى الله عنه.

وأخذ ذا الفقار الذى كان فى يد محمد عبد الله عيسى بن موسى وأرسله إلى المنصور فتوارث هذا السيف الخلفاء العباسيون مدة طويلة، وضرب أحد بنى عباس كلبًا على سبيل التجربة بهذا السيف، وبما أن ضرب الكلب بهذا السيف كانت من الحركات المستهجنة فانكسر ذلك السيف ولم يستعمل بعد.

وأرسل عيسى بن موسى سفاك الدماء رأس محمد بن عبد الله إلى بغداد كما أرسل جسمه إلى مشهده الذى دفن فيه، وبعد أن أرسل السادات والأشراف الذين بايعوا محمدًا بن عبد الله إلى مكان ما فى خارج المدينة وصلبهم فى صفين، وبعد ثلاثة أيام ألقاه فى الخندق الذى حفره فى مقبرة اليهود وغطاهم بالحجارة والتراب وأسند ولاية دار العز إلى كثير بن حصين لأن رباح بن عثمان كان قد قتل فى أثناء استشهاد محمد بن عبد الله فى سجنه ـ وعاد إلى دار الخلافة بغداد فى التاسع عشر من شهر رمضان.

ولما وصل رأس محمد بن عبد الله إلى بغداد سر المنصور سرورًا لا مزيد عليه وأمر أن يشهر به بالطواف فى جميع مراكز القضاء وعين عبد الله بن الربيع واليًا على المدينة بعد أن عزل كثير بن حصين حتى يقبض على أشراف المدينة وساداتها واحدًا تلو الآخر ويرسلهم إلى بغداد. ولم تكن بين العلويين الكرام والعباسيين إلى السنة المذكورة أى نوع من العداوة ولم تكن هناك أية مشكلة تبعثه على نفرة

بعضهم من البعض. وقد ألقى سلوك المنصور بين أولاد الأخوين عداوة حتى إن الأحداث الأليمة أحدثت فى الأكباد الإسلامية جرحًا لن يلتئم حتى صباح الحشر. لأن المنصور السفاح قتل غدرًا فى تلك السنة محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم ووالدهما البالغ من العمر سبعين عامًا عبد الله بن حسن المثنى بن حسن بن على بن أبى طالب وأخا عبد الله حسن بن الحسين وأخاه لأم محمد بن عمر بن عثمان بن عفان فى سنة ١٤٥.

وبما أن عبد الله بن حسن بن على كان من أعاظم علماء المدينة موصوفًا بالزهد والصلاح وفقيها معروفًا فكان ملوك الأمويين يحترمونه ويرعون جانبه ويجلونه كل الإجلال كما أن السفاح أبا العباس أظهر تبجيله له بإرسال مليون درهم من العطية، ولكن لشدة الأسف أن خلفه المنصور المغرور أضاع قدر المشار إليه الجليل وأظهر دناءته.

وصلى على عبد الله بن حسن أخوه حسن بن حسن كما صلى عليه أخوه لأمه محمد بن عمر بن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

فى ذكر جبل أحد وشهداء غزوة أحد

وبما أن جبل أحد قد خلق منفصلا عن الجبال التى حوله سمى بجبل أحد. وبما أن حضرة هارون ـ عليه السلام ـ مدفون فى هذا الجبل مما ميز هذا الجبل عن الجبال الأخرى.

كلما كان النبى ﷺ يأوى إلى جبل أحد كان يقول «أحد يحبنا ونحن نحب أحد» وقال مرة «جبل أحد فوق باب من أبواب الجنان، ويحبنا ونحن نحبه أيضًا»، وهذا الجبل يعنى «جبل عير» يبغضنا ونحن نبغضه إلا أنه فوق باب من أبواب النار». وقال مرة أخرى «أحد على ركن من أركان الجنة، وعير على ركن من أركان جهنم» ومرة أخرى «أربعة جبال من جبال الجنان وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربع ملاحم من الجنان، وأحد الجبال الأربعة جبل أحد ويحبنا ونحن نحبه! وأحدها ورقان والثالث طور والآخر لبنان».

والذين كانوا بين الجبل الذى حدثت فيه غزوة أحد والذى وصف فى الأحاديث وبين الجهة الشامية من الوادى الذى بين المدينة وأحد ونالوا الشهادة ومرتبتها العالية صدر الأمر بأن يدفنوا فى مكان مناسب من ميدان القتال فجمعهم كلهم ودفنوا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة فى قبر واحد، ولما كانت بعض الجنازات قد رفعت من أماكنها من قبل أهلها قبل أن يسمعوا الأمر النبوى، فدفنوا جنازاتهم حيث ورد الأمر النبوى بملابسهم.

لأن النبى ﷺ كان قد تفضل قائلا: بما أننى مطلع على جميع أحوال شهداء أحد هؤلاء فإننى سأشهد على حسن حالهم يوم القيامة فلفوهم بملابسهم وادفنوهم حالاً، ومن كان فيهم أكثر حفظًا للقرآن ضعوه فوق الآخر فى اللحد وادفنوا اثنين فاثنين فى قبر واحد أو ثلاثة فثلاثة، والسبب فى وضع أكثر من

جنازة فى قبر واحد والإذن به ما عرض على النبى ﷺ من شكوى فى صعوبة حفر قبر لكل واحد من الشهداء، بناء على ما نقله الإمام الزهرى. وفى الواقع قد أصيب الأنصار فى ذلك اليوم بجراحات عديدة ومشاق شديدة ومن هنا كان قد اشتكى للرسول ﷺ من صعوبة حفر قبر لكل شهيد. فرحمهم النبى ﷺ وأشفق عليهم وأمرهم بأن يدفنوا فى كل قبر أكثر من واحد اثنين أو ثلاثة قائلاً: عمقوا وأوسعوا وادفنوا الاثنين والثلاثة.

وقبور الشهداء الذين دفنوا فى وادى أحد الاثنين أو الثلاثة معلومة الآن ولكن مواقع الشهداء الذين رفعوا من ميدان القتال أو مدافنهم كانت مجهولة إلى سنة ١٢٦٨هـ.

ولكن مصطفى عشقى أفندى من المجاورين الكرام استطاع أن يعثر على مدافن هؤلاء الشهداء وأحاطها بجدار فى ١٢٦٨هـ حتى عندما كان يحفر أساس هذا الجدار ظهر قبر وكان فى داخله نعش كان صاحبه قد استغرق فى نوم هادئ هذا ما رآه العمال الذين وجدوا هناك.

وجدد الجدار الذى بناه عشقى أفندى فى سنة ١٢٧٥هـ وكتب فوق بابه القطعة الآتية.

القطعة الشعرية

لأحـــد هنـــا مرقـــد الشهـداء
إن زرتـــه فاقرأ الفـاتحة وارفـع الدعـاء
ومـــن لهـــذا البنـــاء مـــن المجددين
شفاعـــة النبى فى يـــوم الديـــن

كان النبى ﷺ يزور كل سنة قبور شهداء أحد ويقف فى حرة واقم حيث ترى القبور من هناك يقول: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

وبعد ذلك ودع كل واحد منهم كأن هؤلاء يتمتعون بالحياة.

كانت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ تزور قبر حمزة ـ رضى الله عنه ـ مرة كل يومين وتبذل جهداً لتضع علامة خاصة حتى لا ينسى القبر الجليل. وفى ليلة كل جمعة تذهب وتصلى طويلاً وتبكى مدة طويلة وتعود، وقد رعت هذا النظام إلى أن توفيت، وكلما كان النبى ﷺ يزور مقبرة شهداء أحد يقول: من يزورهم ومن يسلمون عليهم يردون عليهم السلام.

وهناك حكايات جمة تؤيد هذا الحديث الجليل وتروى بسند جيد ما قالته خالة عطاف بن خالد: «إننى زرت شهداء أحد، فردوا على سلامى ثم سمعت صوتًا هاتفًا يقول: «نحن نعرفكم كما تعرفون بعضكم بعضًا» فأغمى علىّ من شدة حيرتى». وروت فاطمة بنت خريمة قائلة كنا نمر مع أختى من ميدان معركة أحد وكانت الشمس قد غربت فأخذت أختى وتوجهت معها لزيارة مشهد حمزة ـ رضى الله عنه ـ وبعد الوصول قلت «السلام عليك يا عم رسول الله» فسمعت أنه يرد السلام قائلاً وعليكم السلام ورحمة الله هذا» ما يروونه.

بناء على رواية الإمام البيهقى محركًا السند من هشام بن محمد العمرى كان ابن عمر يقول: «خرجنا مع أبى يوم الجمعة قبل شروق الشمس لزيارة قبور الشهداء! ولما دخلنا المقبرة قال والدى بصوت عَالٍ: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» وسمع عقب ذلك صوتًا يقول «وعليك السلام يا أبا عبد الله» فقال لى «أنت الذى تجيب» فقلت له «لا إن صاحب القبر هو الذى رد على سلامك ثم أخذنى فى الجهة اليمنى منه فسلم على كل قبر فرد كل صاحب قبر السلام ثلاث مرات، فتعجب والدى من هذه الحالة الغريبة فعرض شكره وثناءه على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو ساجد».

وبناء على تحقيق أئمة السير أنه قد استشهد فى معركة أحد سبعون نفسًا نفيسة فدفن أكثرهم فى ميدان المعركة فى أحد وبعضهم فى بقيع الغرقد وبعضهم فى داخل حصن المدينة.

ودفن عبد الله بن جحش ابن أخت حضرة حمزة مع مصعب بن عمير[1] فى الضريح المعروف باسم مشهد حمزة وفى قبر واحد.

واستشهد جناب حمزة أمام ربوة صغيرة حمراء لجبل أحد الذى يطلق عليه بطن الوداى وظل حيث صرع[2] فحمله النبى ﷺ حيث قبره المقدس وكفنه فى بردته الشريفة ثم عثر على مصعب بن عمير فدفنهما معًا فى قبر واحد؛ وبناء على بعض الأقوال أن المكان الذى دفن فيه المشار إليهما كان المكان الذى استشهد فيه عبد الله بن جحش فدفن الثلاثة معًا. وخرج بعد المؤرخين هاتين الروايتين وقالوا إن حمزة دفن فى قبر منفرد ودفن جناب مصعب بن عمير مع عبد الله بن جحش فى قبر واحد معًا إلا أن الزوار بناء على العادة القديمة يسلمون على الثلاثة معًا محتاطين للأمر.

سهل بن قيس[3] رضى الله عنه ـ: ينتمى سهل بن قيس إلى أفراد بنى سلمة وهو مدفون بين قبر حمزة بن عبد المطلب وبين جبل أحد أى فى الجهة التى تصادف الجهة الشمالية لقبر حمزة.

عمرو بن الجموح رضى الله عنه[4]: دفن عمرو بن الجموح مع عبد الله بن عمرو بن حرام[5] فى قبر واحد على جانب مجرى السيل. ولما كان السيل قد حفر قبر المشار إليهما فأخرج جسدهما المبارك بعد معركة أحد بست وأربعين سنة نقلا إلى مكان آخر حيث دفنا وكان جثمانهما غضين طريين كأنهما قد توفيًا منذ لحظة ولم تتغير بشرتهما قدر ذرة والذين نالوا شرف زيارتهما ظنوا أنهما يبتسمان.

وظلت يد عبد الله بن عمرو بن حرام فوق جرحه بعد موته. فنزلوها بجانبه لأجل التجربة لأن جسده المبارك لم يكن قد تجمد مثل أجساد سائر الأموات أينما حركته كان يتحرك بسهولة. ولما وضعت يده بجانبه أخذ جرحه ينزف وظل ينزف

(١) أرسل مصعب بن عمير قبل الهجرة إلى المدينة المنورة ليعلم سابقى الأنصار المسائل الدينية ويؤمهم فى الصلاة ويخطب فيهم فأسلم ثلثا الأنصار الكرام تقريبًا على يديه.

(٢) فى هذا المكان الآن قبة لطيفة ويعرف بمصرع حمزة.

(٣) الإصابة ٣/ ١٤٢.

(٤) الإصابة ٤/ ٢٩٠.

(٥) والد جابر بن عبد الله رضى الله عنهما. انظر: الإضافة ٤/ ١١٠.

فترة كأنه جرح جديد، فقلق الذين تجرءوا على إنزال يده ولم يجدوا بعد السعى وسيلة لإيقاف النزيف، وفى النهاية وضعوا يده فوق جرحه وبهذا وفقوا فى إيقاف النزيف.

خارجة بن زيد[1] ـ **رضى الله عنه**: دفن خارجة بن زيد مع سعد بن الربيع ونعمان بن مالك عبادة بن الخشخاش فى قبر واحد. والمرقد السامى حيث دفنوا فى الجهة الغربية من قبر حضرة حمزة على بعد خمسمائة ذراع أى على الربوة التى فى الجهة الغربية من مجرى السيل يظل مجرى السيل فى الجهة القبلية لذلك القبر.

ولما كان ابن عمرو بن الجموح خلاد وأبو أيمن مولى عمرو بن الجموح[2] فوق تلك الربوة فالزوار عندما يزورون هذا المكان يسلمون على هؤلاء الأشخاص الثمانية، أى يذكرون فى ذلك المحل المقدس أسماء عمرو بن جموح، عبد الله بن عمرو بن حرام، خارجة بن زيد، سعيد بن الربيع، نعمان بن مالك، عبادة بن الخشخاش، أبو أيمن مولى عمرو بن الجموح خلاد بن بن عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنهم ـ ويسلمون على كل واحد منهم منفردين.

وغير هؤلاء من الأصحاب الكرام الذين استشهدوا فى ملحمة أحد وقبورهم مجهولة.

وإن كانت بين جبل أحد وضريح حمزة مقبرة قد سورت أطرافها فهى ليست من قبور الشهداء. إن هذه المقبرة قبور الشحاذين هاجروا إلى المدينة فى عهد هشام بن عبد الملك وظلوا بجانب مقابر الشهداء إلى آخر حياتهم وعندما ماتوا دفنوا فى هذه المقبرة. وليست هذه المقبرة مقبرة الشهداء، ويلزم أن تكون قبور الشهداء على الجهة الغربية من مجرى السيل. والسبب فى هذا الظن الخاطئ للأهالى إحاطة شاهين الشجاعى مقبرة الأعراب بسور ظنًا منه أنها مقبرة الشهداء. واستمر هذا الظن مع الزمن حتى اعتقد أن الشهداء مدفونون داخل هذا السور، لذا كلما هدم جدد من قبل أصحاب الخيرات.

(١) الإصابة ٢/ ٨٤.

(٢) الإصابة ٧/ ١٢.

وقد ذكر أعلاه أن النبى ﷺ أمر بدفن الشهداء حيث استشهدوا كما أمر بدفن الذين رفعوا من ميدان المعركة حيث سمعوا الأمر النبوى، وفعلاً دفن الذين رفعوا أجساد شهدائهم حيث بلغهم الأمر النبوى، بدون تأخير. حتى دفن جثمان مالك بن سنان ـ رضى الله عنه ـ فى مكان يسمى أحجار الزيت فى سوق العباءات كما دفن بعضهم فى مقابر بنى سليم وبنى زريق وقباء لأنهم كانوا قد سمعوا بالأمر النبوى فى هذه الأماكن.

لم نستطع أن نحصل على رواية توضح الذين دفنوا فى مقبرة بنى سليم، إلا أنه بناء على تحقيق رجال ثقاة أن رافع بن مالك الزرقى مدفون فى مقبرة بنى زريق وعبد الله بن سلمة ومجدر بن الزياد قد دفنا فى مقبرة قرية قباء.

لاحقة

حينما جرح مالك بن سنان فى ميدان المعركة يئس من الحياة وعاد إلى المدينة المنورة حتى يتلاقى مع والدته مرة أخرى ولكنه عندما وصل إلى مكان ضريحه الآن وقع وارتحل عن دنيانا، ورد هذا فى بعض الكتب واشتهر بين الناس حتى وصلت هذه الرواية لدرجة التصديق إلا أن الإمام السمهودى لم يهتم بذلك القول وأهمله تمام الإهمال. وإذا ما نظرنا إلى أن المذكور من سكان المدينة المنورة ومؤرخ المدينة يلزم ألا يكون لتلك الرواية أصل.

واختلف المؤرخون فى تحديد شهداء أحد إذ قال بعضهم أنهم (٦٣) وقال الآخرون أن عددهم (٧٠) وقال بعضهم أن عددهم خمسة وسبعون أربعة منهم من المهاجرين وستة وستون منهم من الأنصار، والقول الثانى مصدق عند الأكثر. ورأينا من واجبنا ذكر أسمائهم هنا متبركين.

أسماء شهداء أحد السامية:

١ ـ حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (وحمزة من بطن هاشم بن عبد مناف وقد قتل بحربة غلام جبير بن مطعم: الوحشى).

٢ ـ عبد الله بن جحش (من بطن بنى أمية بن عبد شمس).

٣ ـ مصعب بن عمير (من بطن بنى أسد بن خزيمة المنتهى إلى بنى عبد الدار وقاتله عبد الله بن قمئة الليثى).

٤ شمَّاس بن عثمان «من بطون بنى مخزوم، هؤلاء الأربعة الذين ذكروا من المهاجرين الكرام وستة وستون سيذكرون فيما بعد من قبائل الأنصار الكرام).

٥ ـ عمرو بن معاذ بن نعمان.

٦ ـ حارث بن أنس بن رافع.

٧ ـ عمارة بن زياد بن السكن.

٨ ـ سلمة بن ثابت بن وقش.

٩ ـ عمرو بن ثابت بن وقش.

١٠ ـ ثابت بن وقش.

١١ ـ رفاعة (وعلى قول) رباعة بن وقش.

١٢ ـ اليمان حُسَيْل بن جابر (هذا الشخص هو أبو حذيفة اليمانى واستشهد خطأ من قبل الأصحاب وسددت ديته).

١٣ ـ صيفى بن قيظى بن عمرو.

١٤ ـ خباب بن قيظى.

١٥ ـ عباد بن سهل.

١٦ حارث بن أوس بن معاذ.

هؤلاء الأشخاص الاثنا عشر من قبيلة بنى عبد الأشهل.

١٧ ـ إياس بن أوس بن عتيك الأشهلى.

١٨ـ عبيد (وعلى رأى) عتيك بن التيهان.

١٩ ـ حبيب بن زيد بن تميم (هؤلاء الأشخاص الثلاثة من أهل راتج).

٢٠ ـ زيد بن حاطب بن أمية بن رافع (المشار إليه هذا من قبيلة بنى ظفر).

٢١ ـ أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد (أويزيد).

٢٢ ـ حنظلة الغسيل ابن أبى عامر صيفى بن نعمان (من قبيلة بنى عمرو بن عوف وبنى ضبعة قد قتل حنظلة شداد بن الأسود).

٢٣ ـ أنيس بن قتادة (المشار إليه من بطن عبيد بن زيد)

٢٤ ـ أبو حبة[1] بن عمرو بن ثابت (المشار إليه أخو سعد بن خيثمة لأمه)

٢٥ ـ عبد الله بن جبير بن نعمان (كان رئيس الرماة فى جبل عينى وينتمى مع أبى حبة من أفراد قبيلة بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف)

٢٦ ـ خيثمة أبو سعد بن خيثمة (من قبيلة بنى سلمة بن امرئ القيس بن مالك بن أوس)

٢٧ ـ عبد الله بن سلمة (من طائفة بنى عجلان وكان حليف بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف)

٢٨ ـ وسيع بن حاطب (وعلى رأى) سبيع بن حاطب بن الحارث ابن قيس (من قبيلة بنى معاوية بن مالك)

٢٩ ـ عمرو بن قيس بن زيد

٣٠ ـ قيس بن عمرو بن قيس بن زيد

٣١ ـ ثابت بن عمرو بن زيد

٣٢ ـ عامر بن مخلَّد (من بطن بنى النجار المنتهى إلى بنى سواد بن مالك بن غنم)

٣٣ ـ أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة بن عمرو بن ثقيف بن مالك بن مبذول

٣٤ ـ عمرو بن مطرف بن علقمة (هذان من بطن بنى مبذول)

٣٥ ـ علقمة بن عمرو بن ثقيف بن مالك بن مبذول

٣٦ ـ أوس بن ثابت بن المنذر (هو أخو حسان بن ثابت من قبيلة ابن عمرو بن مالك)

٣٧ ـ أنس بن النضر بن ضمضم بن زيد بن النجار (من بطن بنى عدى النجار)

٣٨ ـ قيس بن مخلد

٣٩ ـ كيسان (هو عبد قيس بن مخلد، هو وسيده من طائفة بنى مازن بن النجار)

(١) ويقال فيه أبو حنة ـ بالنون ـ، وأبو حية ـ بالياء.

٤٠ ـ سليم بن الحارث

٤١ ـ نعمان بن عبد عمرو (هؤلاء كذلك من بطن بنى مازن بن النجار)

٤٢ ـ خارجة بن زيد أبى زهير

٤٣ ـ سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير (هذان مدفونان فى قبر واحد)

٤٤ ـ أوس بن الأرقم بن زيد بن قيس (هؤلاء الثلاثة من قبيلة بنى الحارث بن الخزرج)

٤٥ ـ مالك بن سنان بن عبد بن أبجر والد أبى سعيد الخدرى

٤٦ ـ سعيد بن سويد بن قيس بن عامر بن عباد بن الأبجر

٤٧ ـ عتبة بن ربيع بن رافع بن معاوية (هؤلاء الثلاثة من بنى خدرة من بطون بنى الأبجر)

٤٨ ـ ثعلبة بن سعد بن مالك الساعدى

٤٩ ـ ثقيف بن فروة بن البدن (هؤلاء من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج)

٥٠ ـ عبد الله بن عمرو بن وهب بن ثعلبة

٥١ ـ ضَمَّرَةُ الجهنى (هو حليف بنى طريف هو وعبد الله بن عمرو من بطون بنى طريف)

٥٢ ـ نوفل بن عبد الله

٥٣ ـ عامر بن عبادة بن نضلة بن مالك بن عجلان

٥٤ ـ نعمان بن مالك بن ثعلبة

٥٥ـ مُجذَّر بن زياد (حليف سنان بن مالك)

٥٦ ـ عبادة بن الخَشْخَاش (هؤلاء الخمسة من بنى عمرو بن عوف بن الخزرج المنتهى إلى مالك بن عجلان وقد دفن نعمان بن مالك ومجدر وعبادة فى قبر واحد)

٥٧ ـ رفاعة بن عمرو بن الجموح

٥٨ ـ عبد الله بن عمرو بن الجموح

٥٩ ـ عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام (قد دفنا فى قبر واحد)

٦٠ ـ خلاد بن عمرو بن الجموح
٦١ ـ أبو أيمن (وهؤلاء الأربعة من بطن بنى سَلِمة المنسوب إلى بنى حرام)
٦٢ ـ سليم بن عمرو بن حديدة
٦٣ ـ عنترة مولى سليم بن عمرو بن حديدة.
٦٤ ـ سهل بن قيس بن أبى كعب بن القين (هؤلاء من طائفة سواد بن غَنْم)
٦٥ ـ ذكوان بن عبد قيس
٦٦ ـ عبيد بن المعلى (هؤلاء من قبيلة بنى زريق بن عامر)
٦٧ ـ مالك بن نميلة (حليف بنى معاوية بن مالك)
٦٨ ـ حارث بن عدى بن خَرَشَة بن أمية بن عامر بن خطمة (من قبيلة خطمة مزينة اسمه عبد الله بن جشمه بن مالك بن أوس)
٦٩ ـ مالك بن إياس بن عدى (من بطن بنى سواد بن مالك)
٧٠ ـ عمرو بن إياس (من بطون بنى سالم بن عوف)

قد نال هؤلاء الرجال الكرام رتبة الشهادة العالية فى هذه المعركة الأليمة وحازوا قصب السبق، كما مات من قدماء المشركين ١٢ شخصًا أو ثلاثة عشر على قول آخر بسيوف المسلمين واستقروا فى جهنم.

وكان ينتمى أثنا عشر شخصًا منهم إلى قريش التى تنحدر من نسل شخص عبد الدار بن قصى واثنان منهم من بطن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وأربعة منهم من بطن بنى مخزوم بن يقظة واثنان منهم من بطن بنى جمح بن عمرو والاثنان الآخران من بطن بنى عامر بن لؤى ومن هلكوا من بطن بنى عبد الدار كانوا من حاملى ألوية جيوش الكفار.

أسماء القتلى المشركين.

١ ـ طلحة بن أبى طلحة (اسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار وقتل ابنه طلحة بسيف على بن أبى طالب).

٢ ـ عثمان بن طلحة (أخو طلحة سالف الذكر قتل بسيف حمزة)
٣ ـ أبو سعيد بن أبى طلحة (أخو طلحة أيضًا بسيف على فى رواية وفى قول آخر قتل بيد سعد بن أبى وقاص)
٤ ـ مسافع بن طلحة
٥ ـ جلاس بن طلحة (هؤلاء أبناء طلحة المقتول وقتلوا بسيف عاصم بن ثابت بن أبى الأَقْلَح)
٦ ـ كلاب بن طلحة
٧ ـ حارث بن طلحة (هؤلاء كذلك أبناء طلحة وقتلوا بسيف حليف بنى ظفر قزمان. وعلى قول آخر أن قاتل كلاب هو عبد الرحمن بن عوف)
٨ ـ أرطاة بن عبد شرحبيل بن عبد مناف بن عبد الدار (قاتل هذا حمزة بن عبد المطلب)
٩ ـ أبو يزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أخو مصعب بن عمير (مقتول قزمان سالف الذكر)
١٠ ـ شريح بن قارصة (لا يعرف اسم قاتله)
١١ ـ صُؤَاب (كان عبد شريح وقتله كذلك قزمان وعلى قول آخر قتله على بن أبى طالب أو سعد بن أبى وقاص أو أبو دجانة)
١٢ ـ قاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (قاتل هذا أيضا قزمان إن هؤلاء المشركين الاثنا عشر من بطن قريش ينتهى نسبهم إلى بنى عبد الدار وكان طلحة حامل علم قريش ولما قتل هؤلاء والذين ذكرناهم أخذوا الراية من طلحة واحدة أثر الآخر وهلكوا جميعًا)
١٣ ـ عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد (قاتله على بن أبى طالب)
١٤ ـ سِبَاع بن عبد العزى بن نضلة الخزاعى
١٥ ـ هشام بن أبى أمية بن المغيرة (كان هذا الشخص حليف بنى أسد وقتل من قبل حمزة بن عبد المطلب وهو مع عبد الله بن حميد بن بطن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى)

١٦ ـ وليد بن العاص بن هشام بن المغيرة (ومع هؤلاء اثنان أيضًا لا يعرف اسميهما والأربعة من بطن بنى مخزوم بن يقظة وقاتلهم جميعًا قزمان)

١٧ ـ عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة بن جمح (وهذا الرجل يسمى أبا عزة وهو شاعر ناقض للعهد)

١٨ ـ أبى بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح (واثنان من هؤلاء من بطن بنى جمح بن عمرو وقتلا بالسيف النبوى)

١٩ ـ عبيدة بن جابر

٢٠ ـ شيبة بن مالك بن المضرب (هؤلاء من بطن عامر بن لؤى وقتد قزمان، وعلى وقول قتل عبيدة بن جابر عبد الله بن مسعود)

صرح ابن إسحاق بهذه الأسماء وروى أنهم قتلوا فى يوم أحد وأضاف الإمام القسطلانى لجملة هؤلاء ثلاثة أشخاص فبلغ عدد المشركين إلى ثلاثة وعشرين ولكنه لم يحدد أسماءهم.

الوجهة السابعة عشرة
تضم ثلاث صور

تعرض مواسم وأسواق المدينة المنورة ومحاسن أهلها
وترى وتحصى الآبار والعيون المنسوبة إلى
النبى صلى الله عليه وسلم

تبين الأشهر والأيام التى تقام فيها الأسواق العربية ومواسمها فى اثنى عشر شهراً من أشهر السنة وتعرف بعض محاسن أهل المدينة

إخطار ـ الموسم هو سوق العرب وسوق الحجاج ويطلق على مثل هذه الأيام فى بلادنا «يناير» معرض وسوق.

محرم الحرام:

المحرم الحرام هو الشهر الأول فى السنة القمرية وعند عودة حجاج أهل المدينة من عرفات يدخلون فى المدينة المنورة فى اليوم الأول أو الثانى من ذلك الشهر. ويوم عودة هذه القافلة يوم بهجة وسرور ويستقبل أهل المدينة المنورة كغيرهم من أهل المدن الأخرى حُجَّاجهم ويلاقونهم ويحصلون على دعواتهم. ثم يوصلونهم إلى منازلهم ثم يزورونهم عقب ذلك منفردين.

ورود المحمل المصرى:

يصل بعد قافلة حجاج المدينة المحمل المصرى وينصب خيامه فى الأماكن المخصوصة له ويقيم ثلاثة أو أربعة أيام للراحة، ويصل المحمل المصرى بالهدايا السلطانية والعطايا الخاقانية والرواتب فتسلم هذه الأشياء إلى موظفى الدولة وتوزع على أهالى المدينة وتقسم لهم أمام أكابر المدينة؛ لذا يفرح الأهالى بورود المحمل المصرى ويعدون يوم وصوله من المواسم المخصوصة.

يقول قطب الدين الحنفى ـ رحمه الله ـ من مؤرخى مكة المكرمة فى تاريخه المشهور: «لم ير أهالى الحرمين حتى زمن الدولة العثمانية هذا النوع من الكرم ولا هذا القدر؛ لأجل ذلك يسارعون فى إظهار فرحهم وسرورهم ويدعون بطول بقاء الدولة العثمانية» وما يقوله القطب المكى عين الصواب وحقيقة الأمر أن أهل

الحرمين فى عهد أمراء بنى أمية والمنصور والمهدى وهارون الرشيد وسائر الخلفاء ومن جاءوا من بعدهم من ملوك السلف قد نالوا كثيرًا من عطاياهم ونفحاتهم حتى أكرمهم الملوك بالثلج والبرد وألبسوهم خلعًا كثيرة وصرفوا لهم آلاف الدنانير وبهذا أظهروا مآثر سماحتهم وجودهم، إلا أن هذه الهدايا والعطايا كانت تظهر كثيرة بالنسبة لعدد السكان. والآن قد تضاعف عدد سكان الحرمين خمس أو ست مرات بالنسبة للسكان الذين كانوا فى ذلك الوقت، وخصبت الصرر والرواتب لكل السنين ومن هنا فكل ما قدم سواء أكان أمراء بنى أمية أو خلفاء العباسيين أو ملوك آخرون لا يصل ما أعطوه إلى عشر معشار ما يقدمه الملوك العثمانيون.

منقبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم:

فى الليلة الثانية من ورود المحمل المصرى وبناء على الأمر السلطانى تتلى فى صحن مسجد السعادة منقبة مولد النبى ﷺ؛ ويحضر فى هذا الاجتماع الميمون أمير حج المحمل المصرى والموظفون وأعيان المدينة وأهاليها. وهذا من مقتضيات النظام الموضوع. وتوقد كثير من الشموع. كما توقد أنواع البخور ويوزع على الحاضرين الحلوى والشراب. وبعد يومين أى بعد وصول المحمل إلى المدينة بثلاثة أيام أو أربعة يخرج الموكب المصرى من المدينة المنورة ويتجه إلى مصر ذات الأهرام فى حفاوة واحتفال.

ورود المحمل الشامى:

وبعد أن يتحرك المحمل المصرى يأتى المحمل الشامى وينزل فى ميدان المناخة وفى الجهة الشمالية من جبل سلع حيث يستريح أفراده ما يقرب من عشرة أيام ويزورون الآثار المباركة.

يوم الزينة:

يطلق على اليوم الثانى عشر من المحرم يوم الزينة وميقات الديون لدى أهل المدينة وسبب تسميته بذلك هو استطاعة أصحاب المرتبات والهدايا تسوية ديونهم فى خلال تلك الأيام.

ورود المحمل العراقى:

تصل قافلة العراق فى شهر المحرم أيضًا إلى المدينة وتبيت فى الجهة الشرقية منها فى موقع مراحة ويقيمون هناك سوقًا كبيرة ويشرعون فى تبادل السلع الأخذ والعطاء. وورود القافلة العراقية من الأيام المعدودة والمواسم المشهورة المشهودة لدى أهل المدينة.

صفر الخير:

يبسط خدم الحجرة المعطرة أبسطة مسجد السعادة ويخرجون الكتب وأجزاء القرآن المحفوظة فى صواوين الحجرة المعطرة ويبادر العلماء ذوو الاحترام فى تدريس العلوم، ومن جملة محاسن سكان المدينة المنورة أن طلبة العلم يهتمون بتحصيل العلوم الدينية ولا يهتمون بالفلسفة وعلم الكلام والرياضيات، ويقولون إن العلوم ثلاثة أنواع رئيسية، نفيسة، وخسيسة، فالرئيسية مثل الفقه والحديث من العلوم الدينية، والنفيسة القواعد العربية، والخسيسة الفلسفة والحكمة وتحصيل النوع الأول يكفى لنا.

قدوم موكب المرزوقى:

تأتى قافلة المرزوقى فى العاشر من صفر، وهذه القافلة تتكون من تجار اليمن ويستفيد الأهالى بتبادل التجارة معهم، ومن هنا كان ورود قافلة المرزوقى من أسباب الفرح والسرور لأهل المدينة.

شهر ربيع الأول:

ففى ليلة أول جمعة من ربيع الأول مولد القطب الصمدى سيد أحمد البدوى وفى الليلة الثانية عشرة تعقد اجتماعات المولد النبوى.

رمضان العظيم:

تعمر جوانب مسجد السعادة فى رمضان كل يوم. حيث يتلو الأهالى والزوار ليلاً ونهارًا القرآن الكريم جهرًا وخفية كما أنهم يدرسون كتبًا مثل الشمائل

والمصابيح والمشارق وصحيح البخارى ويطالعون ويوقدون ليلاً مئات القناديل والشموع ويؤدون صلاة التراويح.

عادات أهل الزوايا:

وبعد أداء صلاة التراويح تشعل القناديل والشموع فى الزوايا وتقرأ القصائد المتقابلة وفى البداية ينشد ناشدى الجهة اليسرى على قاعدة خاصة بأهل اليمن منظومة التروية. وهذه القصيدة مرتبة على الحروف الهجائية وهى قصيدة نقية مخمسة ويقرأ الزوار الكرام عقب كل بيت الصلوات الشريفة بلحن مؤثر.

وبعد ذلك يقرأ ناشدى الجهة اليسرى بيتًا من قصيدة طرائفية وقد نظمت قصيدة الطرائفية كنظيرة لقصيدة التروية وهى أبيات بديعة تبدأ بالغزل. هكذا يُصَلّى أهل الزوايا إلى الصباح وتستمر الأذكار اليمانية إلى طلوع الفجر الأول ويتم مجلس الذكر بختم القرآن ثم يذهبون إلى مسجد السعادة لأداء صلاة الفجر والسامعون المنفردون يدهشون من أحوال أهل الزوايا ويثنون من شدة تأثرهم. والأشخاص الذين نطلق عليهم المنفردين هم الغرباء الذين يقيمون فى الزاوية.

زيارة مسجد قباء:

يزور مجاورو المدينة المنورة فى السابع عشر من رمضان مسجد قباء وبما أنهم يعدون هذه الزيارة من السنن النبوية يتجنبون ترك الزيارة. كما يشترك كثير من الأهالى فى هذه الزيارة.

شهر شوال المبارك:

وبما أن أول أيام شوال عيد الفطر فالأهالى يؤدون صلاة العيد فى مسجد السعادة ثم يزورون مقبرة بقيع الغرقد ويعودون إلى منازلهم ويقومون بمراسم العيد بزيارة بعضهم البعض إلى مساء اليوم الثالث من العيد.

قطع الخدم المكنسة:

يزور خدم مسجد السعادة فى الثانى عشر من شوال مسجد قباء ويقطعون من

البساتين قلوب النخيل ويعودون. وبما أن ذهابهم إيابهم يستحقان الرؤية والفرجة لأنهم يسيرون فى موكب فيخرج الناس إلى وادى البطحان للتنزه كما أنهم يتفرجون على موكب الخدم.

شهر ذى القعدة الحرام:

اليوم السابع عشر من شهر ذى القعدة هو يوم كنس مسجد السعادة ولما كان هذا اليوم من الأيام السارة بين الأهالى كانوا يجتمعون فى صحن مسجد النبى ﷺ ثم يصعد شيخ الحرم وقاضى المدينة وعامة الخدمة فوق سطح المسجد ويكنسونه ويلقون التمر على من فى صحن المسجد من الأطفال والغرباء. ويتصايح هؤلاء قائلين: «العادة يا سادة»، وبعد إتمام تنظيف السطح الشريف ينزلون وينقلون ما فى الروضة المطهرة من الكتب إلى الحجرة المعطرة والبسط إلى المخازن ثم يخرجون إلى البساتين للنزهة.

مقدم المحمل الشامى:

يدخل المحمل الشامى إلى المدينة المنورة فى اليوم السابع والعشرون من شهر ذى القعدة، ويوم وصول المحمل من الأيام المعدودة وموسم مشهور عند أهل المدينة، فلا يبقى فى هذا اليوم من أهل المدينة من لا يبتهج ابتهاجًا عظيمًا، ويأتى أمين الصرة بالأمانات العثمانية إلى المسجد النبوى ويسلمها إلى خزانة المديرية لتوزيعها على الأهالى.

مسألة:

يجرى على ألسنة العوام قوله أن الحج الذى يصادف فيه يوم عرفة ليوم الجمعة أنه يساوى سبعين حجة إلا أن ابن الجوزية قال: «أقول أنه لا أصل لهذا القول، ولم أصادف مثل هذا القول ولكن لا شك أن حج يوم الجمعة خير من أيام حج سائر الأيام؛ لأن يوم الجمعة أفضل من سائر الأيام». وأيد ابن زيد المالكى فى

(مناسكه) هذ القول ولكن عليًّا القارى حكم أن مزية وقفة يوم الجمعة أزيد من مزية وقفة سائر الأيام بسبعين مرة.

مسألة:

إذا ما سئل: هل الحج كان واجبًا على الأمم التى خلت من قبل الإسلام؟ وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة وبناء على أنه لم يكن واجبًا. إلا أن مشروعيته مستمرة منذ عهد آدم إلا أن حجاجه كانوا من الأنبياء والملائكة. هذا ما جاء فى المناسك.

يجتمع أهالى المدينة فى اليوم التاسع من ذى الحجة فى مسجد السعادة حيث ينتظرون النفحات الإلهية لأن النبى ﷺ يشرف فى ذلك عرفات حيث يقف.

عيد الأضحى:

ولما كان اليوم العاشر من ذى الحجة العيد الأكبر يقوم أهل المدينة بمراسم الزيارة والمعايدة كما كانوا يفعلون فى عيد الفطر.

تنمية:

ولا شك أن أهل المدينة الكرام بفضل مجاورتهم النبى ﷺ انتمائهم بالصدق لصفات النبى ﷺ فهم أسعد أمة ويوجد بينهم فئة من الناس بناء على حكم المثل أوصاف «الأشراف أشرف الأوصاف»، فقدرهم ومزيتهم مثل اللآلىء الغالية، والأبيات الآتية تصور خلاصة أوصافهم:

نظم

قوم هم فى الدجى للناس أقمار

وهم لمن هجروا الأوطان أوطان

وأين حلوا يحل الخصب حومتهم

كأنهم مثل ما قد قيل أمطار

هـم العيـون فـإن تبصـر هدى فبه

وفى الهـدى ليس بعـد العين آثار

سلهم وسل عنهم إن كنت ذا وطر

فعنـدى لذوى الحاجـات أخبـار

وحـل ساحتهـم تسعد فهم عرب

تحمى النزيـل ولا يؤذى لهم جـار

وانعم إذا كنت تهواهـم بعيشهـا

واصحبهـم إن نأت يومًا بك الدار

وفيهم أخرى: يحترزون من آفة الشهرة حتى وإن كانوا غارقين فى أشد أنواع الفقر والحاجة يظهرون علامات اليسار والغنى. وإن ظلوا جائعين أياما يظهرون أنفسهم شبعانين، ويرجحون الوحدة على الكثرة والضرورة والضيق على السعة والثروة ويتخذون من الصفات ما جاء فى المنظومة الآتية:

نظم

إذا قنعت بقوت ولبس ثوب مرقـع

ولم يكن لى عيال نفسى لهم تتفجع

ولا بنون صغـار قلبى لهم يتقطـع

ولا صـديق صـدوق فراقه أتوقع

وكـان بـالله أنـسى

فمـا بى الـدهـر يصنـع

وصنف منهم وإن كانوا فى شدة الضيق وبين مخالب الحاجة كانوا ينفقون ما يحصلون عليه من النقود لمن هم أكثر حاجة منهم بناء لحكم البيت الآتى:

ليس العطـــاء من الفضول سماحة

حتى تجـــود ومـــا لديك قليـــــل

قوم مضـــــوا كانت الدنيـــــا بهم

والدهر كالعـــيد والأوقات أوقات

ماتوا فعاشوا وعشنـــا بعـــد موتهم

ونحن فى صـــور الأحيـــاء أموات

ويرى فيهم فئة من الناس يكدون ويكدحون حتى الليل مع ذلك لا يكسبون ما يكفى عيالهم وأولادهم ويتمرغون داخل الفقر والحاجة لا يوصفون فيتحملون الفقر، ويضطربون؛ ومع ذلك لايشتكون من حالتهم هذه ولا يسعون لتحسين أحوالهم وتأمين مستقبلهم وينتظرون من الله ـ سبحانه وتعالى الرفيع الدرجات والذى يسر الوصول إلى الآمال ـ الفرج ويدعون له. وكانوا مثالاً للتوكل والاصطبار كما جاء فى المثل الآتى:

«سعف النخيل خير من إسعاف الخليل»

لا تظهـــــرن لعـــاذل أو غـــــادر

حـــالك فى الســـــراء والضـــــراء

فلرحمـــــة المـــتوجعـــين حـــرارة

فى القلب مـــثل شماتـــة الأعـــداء

وفى الواقع أهم ما يجب أن يعنى به الإنسان أن يسلك طريق حرفة ما حتى ينجو من الذل والحاجة ودواهى الدنيا وأن يعيش أولاده وعياله. ويروى أن حضرة آدم صفى الله اشتغل بالزراعة وأن سبعين نبيًا ارتحلوا عن دنيانا وهم جوعى وأن حضرة على ـ كرم الله وجهه ـ دعا ربه قائلاً: «إللهم صن وجهى باليسار ولا تشن وجهى بالإقتار، فأسترزق طالبى رزقك وأستعطف شرار

خلقك، فأُمْتَحَنُ بحمد من أعطانى، وأُفْتَنُ بذم من منعنى، وأنت من وراء ذلك كله وَالىٌّ الإعطاء والمنع إنك على كل شىءٍ قدير، يا نعم المولى ويا نعم النصير».

يارب لا تحينى إلى زمن أكون فيه كلاً على أحد

خذ بيدى قبل أن أقول لمن أراه عند القيام خذ بيدى

وهناك صنف آخر بين أهالى المدينة كل فرد منهم يملك ثروة وغنى وهو صاحب نفوذ وقدرة وهم يمضون أوقاتهم فى غاية الرفاهية والجاه والعظمة كما أنهم يراعون الأهالى الفقراء وضعفاء المجاورين وهم الفئة التى يقال له الجامع بين الحسنتين.

وأهل المدينة عامة يحبون التنزه والفرجة، وينشطون قلوبهم بالتجوال فى الحقول والمتنزهات دون كلفة وأما بالنسبة للأكل والشرب يكتفون بالمودة سالكين مسلك الاكتفاء بما وجد. واختار بعضهم السياحة فى البلدان والممالك حتى يزيدوا من ثروتهم وغناهم. كما أن بعضهم يتركون دورهم وديارهم باحثين عن أرزاقهم، كما أن بعضهم يتبعون أفكارًا أخرى. ولا يتفقون كلهم فى أفكارهم وآرائهم، فيهم من يسلك مسالك الهوى والهوس. يقول ابن فرحون من المؤرخين القدماء: «كان مجاورو المدينة فى الأوائل من الصلحاء وأهل اليسار؛ لذلك كان رؤساء الأهالى يكرمونهم ويخدمونهم، ويقضون لهم حاجاتهم الضرورية ويقدمون لهم التحف والهدايا ويحاولون بهذا أن ينالوا حبهم. ويعتقدون فيهم خيرًا ويلتمسون دعاءهم وهمتهم. والآن انعكس الأمر إذ انعدمت الثقة والاستقامة فى المجاورين، كما أن أهالى الحرمين لا يحترمون كذلك من لا يراعى جانب الآثار المسعودة، وقد تغيرت الملابس والأفكار من أجل اجتذاب القلوب كما يقول المثل: «تغيير الشكل من أجل الأكل» فى كل مكان يمزقون أستار الحرمة والرعاية وفى كل طور وفعل يظهرون شعائر الإساءة والدناءة يتفوهون فى داخل الحرم الشريف بكل ما يرد على ألسنتهم ولا يتذكرون

ما نص عليه من الصمت والهدوء فى داخل الحرم بل يقومون بما لا يليق، مع أصحاب الفقه والاستقامة والصلاح والتقوى».

ويمد أهالى الحرمين يد العون والخدمة للغرباء الواردين ولكنهم يفرطون أحيانا فى عونهم وإظهارهم هذا القدر من التظاهر لا يستحب أحيانًا، حتى قال العلامة، الشيخ إبراهيم ابن أبى الحرم المدنى: «لا ينبغى لأهالى هذه البلاد أن يفرطوا فى إجلال وتعظيم من يترددون على هذه الديار من الزوار؛ لأن الإفراط فى ذلك يفضى إلى سوء العاقبة، ويجرئهم، فيقصرون فى آداب الزيارة للآثار المباركة مظهرين ذلهم وخشوعهم ومسكنتهم. إننى قد نظمت الأبيات الآتية حتى أعرف الناس هذا الأمر ورتبت إجابة على لسان الحال:

قطعة

يا أهـــل طيبـة لازالـــت شمائلكـم
بلطفهـــا فى الورى مأمونـــة العتب
لكـــن رعايتكـــم للغُرْبِ تحملهـــم
على تجـاوزهـــم للحـــد فى الأدب
مولاى إن صروف الدهر قد حكمت
وأعـــوزت أن يذل الـرأس للذنب
كـم من مقبل كـــف لـــو تمكن من
تقطيعهـــا فكـــن ممن فـــاز بالأدب

قيل فى حق سكان دار السكينة «جار الدار أحق بدار الجار وجار الدار أحق من غيره»، وكما أن أهالى المدينة أليق عن أهالى البلاد الأخرى بالتجاوز والسماح والفوز والنجاة والنجاح، لأجل ذلك يجب على الذين يختارون المجاورة والإقامة فى المدينة المنورة أن يكونوا لينى الأعطاف، هينى الانعطاف

فيحترمون كل موقع فى تلك البلدة المباركة ويراعون جانب كل فرد من سكنتها ويتخلقون بما جاء فى الكلمات الآتية:

يشاركهم فى أنديتهم لا فى أغذيتهم، ويزاحمهم فى أوقاتهم لا فى أقواتهم، ويكتسب من أخلاقهم لا من أرزاقهم، ويقتبس من برهم لا من بُرِّهم، فيتصل بهم كثيراً ويشاركهم فى محاسن أخلاقهم وعاداتهم، ولكن لا يعمل على مشاركة أرزاقهم وأقواتهم ويخطفها من أيديهم. ويرغب فى حبهم وموالاتهم ولا يطمع فى حبوبهم وأطعمتهم. وألا يزعجهم بالاستيلاء على دور فقرائهم وإطالة يد الطمع لصدقاتهم وألا يسعى فى منع معروفهم وإبطاله. إذ قيل:

لا تقطعن يـد المعروف عن أحـد

مـا دام يمكن فالإمكـان تـارات

واشكر فضيلة لطف الله إذْ جعلت

إلـيك لا لك عنـد الناس حاجات

فليقل أصحاب الاعتراض ما يقولون فى حق أهل المدينة. ونيسندوا إليهم ما يسندون، فمحبتهم وإكرامهم وتعظيمهم واحترامهم واجب على كل مؤمن موحد. فأهل المدينة جيران النبى ﷺ وبناء على الحكم الجليل: «مازال جبريل يوصينى بالجار..» فحق جوارهم ثابت ومهما ارتكبوا من الإساءات فإنهم لن يحرموا من حق الجوار وهذا حق محقق. ومهما ترك المدنى من الاتباع واخترع عادات غير مقبولة وابتدع، فيجب ألا يترك دون إكرام ويقطع احترامه. لأن هذه الأمور لا تسقط شرف جواره وحسن العاقبة مأمول له. يجب أن ينظر إلى كل فرد منهم بعين تعظيم وإكرام وتفخيم. وألا يبحث عن أحوالهم الظاهرة ولا يفتش عن أفعالهم الباطنية وأسرارهم لما كانت جميع الذنوب تحت حكم مشئية الله ما عدا الشرك فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعذب فاعله إن شاء ويعفو عنه ويطلقه إن شاء.

فى تعريف الآبار التى تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالتفصيل ورتبت أسماء تلك الآبار حسب الحروف الهجائية

١ـ بئر أريس:

أريس على وزن جليس ومعناه الفلاح وهو اسم واحد ينتسب إلى الطوائف اليهودية.

أحد الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ البئر التى يطلق عليها أريس وهى على الجهة الغربية من قباء بجانبها حجر فى ارتفاع ثلاثة أذرع.

حكاية

يروى أبو موسى الأشعرى قائلاً: خرجت فى يوم من الأيام من بيتى بعد أن توضأت، وذهبت إلى مسجد السعادة، وأرونى الطريق الذى سلكه النبى ﷺ قائلين ذهب لتلك الجهة، وبما أننى خرجت من ذلك اليوم بنية خالصة لأقوم بخدمة النبى ﷺ تتبعت أثره. وعرفت المكان الذى اتجه إليه سائلاً كل من رأيته، حتى وصلت إليها ودخلت من باب مبانيها وجلست بجانب بابه المصنوع من خشب النخيل. فابتعد النبى ﷺ رغبة فى قضاء حاجته، وبعد الرجوع توضأ وجلس على حافة البئر المصنوعة من الخشب مدليًا رجليه فى البئر. فألقيت عليه السلام ثم عدت إلى مجلسى. وكانت نيتى أن أقوم فى ذلك اليوم بحراسة النبى ﷺ. فدق الباب بعد فترة أبو بكر الصديق. فسألت عن الطارق. وفهمت أنه أبو بكر الصديق قلت يا رسول الله إن أبا بكر قد دق الباب حتى يتشرف بالمثول بين يديك، ولما قال النبى ﷺ أدخله بعد أن تخبره بأنه بشر بالجنة. ففتحت باب البئر

وقلت تفضلوا! فقد بشرك النبى ﷺ بالجنة فأغلقت الباب بعد دخوله وجلست فى مكانى القديم وبعد أن دخل بناء على إذن النبى ﷺ جلس على يمين النبى ﷺ وأدلى رجليه فى البئر، ودق الباب مرة أخرى بعد قليل. قلت: من أنت؟ قال: أنا عمر بن الخطاب إذا ما أذن لى أريد أن أرى رسول الله ﷺ فذهبت إلى الرسول وأخبرته أن عمر بن الخطاب يريد المثول بين يديك واستأذنت منه بهذا الشكل فقال الرسول ﷺ فليأت أبشره أيضًا بالجنة ففتحت الباب وقلت له تفضل إن الرسول ﷺ يبشرك بالجنة فدخل وجلس بأمر من الرسول ﷺ على يساره وأدلى رجليه فى البئر. أما أنا فذهبت إلى مكانى القديم وجلست. وبعد مدة جاء عثمان بن عفان. فقمت وقلت لرسول الله ﷺ إن عثمان بن عفان يستأذن أيضًا للتشرف بالمثول بين يديك. وعرضت على الرسول ﷺ أنه ينتظر الأمر بالدخول. وقال النبى ﷺ الواقف على سرائر الدنيا والآخرة «فليأت لأبشره بالجنة وبلوى المصيبة» ففتحت باب مبنى البئر وأدخلته وقلت له: يا عثمان إن النبى ﷺ يبشرك بالجنة وآفة المصيبة فمثل عثمان أمام النبى ﷺ ولما لم يجد محلاً يجلس عليه فى يمين النبى ويساره جلس أمامه؛ وكانت هذه الإشارة المليئة بالحكمة سببًا فى عدم دفن عثمان بن عفان فى الحجرة المطهرة يعنى أن النبى ﷺ لم يجد مكانًا على يمينه وشماله فأشار له بأن يجلس أمامه وهكذا جلس فى مكان بعيد عنه، الأمر حين قتل يدفن فى الحجرة المعطرة!!! ودفن فى بستان حش كوكب ليس مخالفة الفرق المخالفة لدفنه فى الحجرة المطهرة.

وكان النبى ﷺ كلما شرف مسجد قباء كان يذهب إلى بئر أريس وكان يقول: إن كل من يذهب يوم السبت إلى مسجد قباء ويصلى فيه ركعتين ثم يشرب من ماء بئر أريس ينال ثواب عمرة. وفى يوم قائظ اغترف ﷺ مع الخلفاء الأربعة من ماء بئر أريس لتلطيف الحرارة ووضع يده فى الدلو.

معجزة:

لما وضع النبى ﷺ يديه فى الدلو سقط خاتمه فى قاع البئر فارتفع ماء البئر.

وعرض عليه خاتمه وقدمه له. وانتقل الخاتم من بعد إلى أبى بكر ثم إلى عمر بن الخطاب ثم إلى عثمان بن عفان إلا أن هذا الخاتم وقع فى البئر مرة أخرى فى العام الخامس من خلافة عثمان ولكنه لم يستخرج.

وعمق بئر أريس (١٩) ذراعًا وارتفاعه (١٠٤) ويقال أنها كانت قديمًا تحت بناء مرتفع. إلا أن تقلبات الدهر هدمت مبانى جهتها القبلية وخربتها. فعمرها شاهين الشجاعى ورفع الحجارة التى حولها ثلاثة أذرع وجعل لها مرقاة. وإن كانت الآن غير مكشوفة إلا أن أبنيتها ليست مرتفعة ورصينة كما أخبر المؤرخون. ولها بناء الآن يحميها من حر الشمس ولها مصلى فى جهة مسجد قباء وعلى طاق محراب هذا المصلى هذا البيت:

أمن عجب أن يزورها ليل نهار الإنس والجان

بئـــر خاتـــم الأنبيـــاء هـــو هـــذا المكـــــان

النخيل المتكلم:

فى حديقة النخيل التى فى الطرف الغربى لبئر أريس النخلة أو النخلتان المعروفتان باسم النخيل المتكلم وكما سيرى فى شكل هذه الأشجار فهى تنحنى كحلقات وترتفع فقط غصونها التى ستنتج الفاكهة. وكانت هذه الأشجار فى عصر النبوة فى غاية العلو وكان اقتطاف ثمرتها غير ممكنة. ولما كانت النخلة المذكورة مَدمَرّ بها النبى ﷺ فانفرشت على الأرض وقالت: يا رسول الله! إن تمرى جدير بالأكل، فكل منى عدة تمرات وأرفع رأسى بين أمثالى من النخيل وظلت على هيئتها تلك.

ومازال جيش النخلة التى تمددت على الأرض لتعرض بلحها على النبى ﷺ قائمة! وفروعها التى تنبت حولها وتنمو وتستدير حلقات سنة بعد سنة وتظل كذلك إلى أن تزول. ومع هذا إذا ما أخذ فروع منها وغرست فى مكان آخر وإذا لقح إلى نخلة أخرى فلا ينفع حتى إذا نفع فلا تستدير فروعها حلقات بل ترتفع مثل أشجار النخيل الأخرى.

٢- بئر الأعواف:

والثانية من الآبار المباركة بئر الأعواف وهى من الصدقات النبوية.

وكان النبى ﷺ قد توضأ على حافة هذه البئر. وحيث مس ماء وضوء النبى اكتسب خضرة ونضارة ومازال كذلك حتى يومنا هذا.

كان فى عصر السعادة بجانب هذه البئر حجر ولما كان هذا الحجر قد قبض على لص هرب من النبى ﷺ فاقتلعه ووضعه فى مكان بين «الأعواف» و«الشطبية» لما كان النبى ﷺ قد لمسه بيده الكريمة أخذ أهل المدينة يزورون هذا الحجر. وللأسف لم يبق فى عصرنا من يعرف مكان هذا الحجر. وفى الواقع فى عصرنا من يعرف مكان هذا الحجر. وفى الواقع فى عصرنا فى المكان الذى يسمى «الأعواف» مكان طرفه القبلى «مربوعة» وطرفه الشامى «خنافة» وبين هذين المكانين كثير من الآبار ولكن ليس هناك من يعرف مكان «الشطبية». ومن المحتمل أن يكون المحل المشهور باسم «عتبى» فى الطرف الشرقى من خنافة الشطبية المذكورة.

٣- بئر أُناء:

البئر الثالثة من الآبار المقدسة بئر أُناء واسم هذه البئر على رواية أُناء بضم الهمزة وفتح النون، وفى رواية أخرى أَنَّاء بفتح الهمزة وتشديد النون. فى ناحية بنى قريظة.

وعندما حوصر حصن بنى قريظة أقيمت خيمة النبى ﷺ على حافة هذه البئر، وشرب النبى ﷺ من ماء هذا البئر وهو جالس فى خيمته. وربط دابته على شجرة النبق التى ببيت مريم بنت عثمان وصلى على ساحة مسجد بنى قريظة، ولكن الآن لا يعرف ساحة ذلك المسجد.

٤- بئر أنس بن مالك بن النضر:

والبئر الرابعة من الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ بئر أنس بن مالك بن النضر

وكانت فى داخل دار أنس بن مالك بن النضر فى محلة تسمى جديلة والبئر التى وقفت لـ «رباط اليمن» فى وقتنا هذا يلزم أن تكون تلك البئر. لأنها تقع بالقرب من دار فحل[1] وفى الطرف الشامى من الحديقة المسماة برومية يعنى بالقرب من ضريح والد النبى عبد الله بن عبد المطلب. وأساسًا كان من ممتلكات والد أنس بن مالك بن النضر تعرف فى الجاهلية باسم برور كما سبق ذكرها فى بحث بئر سقيا. وقد ألقى النبى ﷺ فيها بصاقه فاحلو ماؤها إلى حد أنها صارت ذات ماء ألذ وأخف من جميع مياه آبار المدينة المنورة.

٥ـ بئر إهاب:

الخامسة من الآبار المحترمة البئر التى اشتهرت باسم إهاب وكانت فى داخل القصر الذى يسكنه أساسًا إسماعيل بن وليد والذى يقع فى داخل حدائق النخيل الكائنة فى الجهة القبلية للحرة الغربية.

لما أخرجت فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب من بيت جدتها فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كانوا قد أعطوها ذلك القصر وانتقل هذا القصر أخيراً لابن هشام.

وكانت بئر إهاب أساسًا بئر والد عبادة سعد بن عثمان. ولما تفضل النبى ﷺ قائلاً يظهر أن عُمْرَانَ المدينة المنورة سيصل إلى بئر إهاب ولأجل ذلك أطلق أهل المدينة المنورة على تلك البئر اسم بئر زمزم وأرسلوا ماءها إلى البلاد الأخرى للتبرك. ولما كانت فاطمة بنت حسين بن على هى التى حفرت تلك البئر فمن العجب أن يطلق عليها بئر زمزم دون أن يطلق عليها بئر فاطمة.

٦ـ بئر البَصَّة:

السادسة من الآبار العزيزة البئر التى يطلق عليها بصة على وزن حَبَّة.

(١) دار فحل: من الأبنية القديمة، وهى الآن من أملاك أولاد برادة ويقيم فيها بنو عم عبد الجليل أفندى رئيس كتبة «إدارة الروزنامه» ولما كانت بحديقة هذه الدار نخلة عقيم لا تؤتى أكلها، فقد نسبت الدار إلى هذه النخلة وسميت باسمها.

وتقع بجانب نخلة قريبة من مقبرة بقيع الغرقد وفى طريق قرية قباء.

ويميل ماء هذه البئر إلى الخضرة وقد هدمت السيول التى تمر بجانبها جميع جهاتها وخربتها. ولكنها عمرت تعميراً جيداً مؤخراً. عرض فوهتها فى قطر سبعة أذرع. وبجانب هذه البئر بئر أخرى فى عرض ستة أذرع، وكان مؤرخو الأسلاف قد اختلفوا فى تعيين أية واحدة منهما بئر «البصة»؛ والبئر الصغيرة ولما كانت أمام برج والد أبى سعيد الخدرى مالك بن سنان فليس من المستبعد أن تكون تلك البئر بئر «البصة» ولأجل ذلك استولى زكوى ابن صالح على ساحة برج مالك بن سنان وبنى عليها منزلاً عاليًا وصنع سلما للبئر الصغيرة، كما أن شيخ الخدم عزيز الدولة وريحان البدرى الشهابى اشترى بستان النخيل الذى بجانب المنزل الذى بناه ابن صالح ووقفه على الفقراء الذين يمرون من جانبه.

زار النبى ﷺ دار أبى سعيد الخدرى فى يوم جمعة وطلب منه مقداراً من سدر وغسل بالسدر رأسه وصب الماء المستخدم فى البئر.

٧ـ بئر بضاعة:

السابعة من الآبار المقدسة هى بئر بضاعة التى بين الحديقتين اللتين تميلان إلى الجهة الشمالية من غرب بئر حاء واشترى شاهين الجمالى هاتين الحديقتين ووحدهما وصنع حوضًا بجانب بئر بضاعة وبنى مسجداً ووقف الحديقتين لتعمير المسجد المذكور والحوض والبئر سالفة الذكر.

وفى عهد الجاهلية كان ماء بئر بضاعة عديم القيمة؛ لذا كانت تلقى فيها النساء الحوائض خرق الحيض كما أن الساكنين حوله يلقون فيها الكناسة وجثث الحيوانات.

ولما توضأ الرسول وشرب من مائه وتفل أخبر أن ماءه شفاء للمرضى. ومنذ ذلك الوقت أخذ الناس يشربون من مائه راغبين فيه ويرجحونه على مياه الآبار الأخرى.

ولما كان الناس يمرضون فى عصر السعادة كان النبى ﷺ يوصيهم بالاغتسال بماء بئر بضاعة، وكان الذين يغتسلون بماء هذه البئر الطاهر يشفون من مرضهم فى الحال.

٨ـ بئر جاسوم:

الثامنة من الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ البئر التى تقع فى مكان يقال له راتج لأبى الهيثم بن التيهان ويطلق عليها. بئر جاسوم وشرب النبى ﷺ من مائها وصلى فى الحديقة التى بجانبها وللأسف ليس فى زماننا مَنْ يعرف بئر الجاسوم ولا حتى مكانًا يسمى بجاسوم.

٩ـ بئر جمل:

هو التاسعة من الآبار المقدسة بئر الجمل التى تقع فى ناحية الجُرْف وفى نهاية وادى العقيق، وعلى رواية أخرى تقع تلك البئر فى الطرف الشامى من بقيع الغرقد وسبب تسميتها إما لأن حافرها اسمه جمل أو لأنه وجد بجانبها جثة جمل. وبما أن النبى ﷺ توضأ من هذه البئر فإنه لا ينكر فضلها.

١٠ـ بئر حاء:

العاشرة من الآبار المكرمة هى بئر حاء التى تقع أمام الباب المجيدى لسور المدينة. وكان النبى ﷺ كثيرًا ما كان يشرف حديقة النخيل التى فيها هذه البئر يشرب من مائها ويستريح جالسًا فى ظلال النخيل.

ولما كانت هذه البئر أساسًا فى داخل حديقة النخيل التى يملكها أبو طلحة تصدق بهذه الحديقة لأبى بن كعب وحسان بن ثابت من جهة قرابتهما. وباع حسان مؤخرًا نصيبه من الحديقة لابْن أبى سفيان، فبنى فيها حضرة معاوية قصره الصيفى الذى اشتهر بقصر بنى جديلة، وبناء على ذلك ظلت بئر حاء على طرف من قصر جديلة، وكان لذلك القصر بابان يفتح أحدهما إلى الشارع والثانى إلى بيت محمد بن طلحة التميمى، وقد اندرس قصر جديلة فى زماننا وظلت بئر حاء

داخل حديقة النخيل صغيرة. ولما كان ماؤها فى غاية العذوبة واللذة، اشترتها مَنْ تُدْعَى نويرية ووقفتها مع حديقتها لأبناء السبيل، لأجل ذلك يطلق على تلك الحديقة حديقة نويرية.

وفى الطرف القبلى لتلك البئر جامع صغير وهذا المسجد الشريف فى مكان قريب من حصن المدينة.

١١ـ بئر حلوة:

الحادية عشرة من الآبار المقدسة بئر حلوة التى تقع بالقرب من دار آمنة بنت سعد فى الرصيف الأيسر لباب السلام، ولكن ليس هناك من يعرف مكان هذه البئر فى زماننا.

وفى عهد السعادة كان بجوار البئر شجرة من نوع شجرة الآراك، ويقال إن النبى ﷺ كان ينام وقت الضحى تحت هذه الشجرة المذكورة.

١٢ـ بئر ذرع:

البئر الثانية عشرة التى تنسب إلى النبى ﷺ هى بئر ذرع التى تقع فى قرية «بنى خطمة» التى تقع على الجهة الشرقية من مسجد العوالى. شرف النبى ﷺ قرية بنى خطمة وصلى فى دار امرأة عجوز وبعد ذلك توضأ وألقى ببصاقه فى داخل البئر. كانت بئر ذرع فى ذلك الوقت خلف مسجد بنى خطمة وموقع تلك القرية الآن بجانب الخرابة التى تسمى ماجشونية التى ما تزال بيوتها الخربة ظاهرة للعيان.

١٣ـ بئر رومة:

البئر الثالثة عشرة من الآبار المحترمة التى تقع فى نهاية وادى العقيق حيث تتحد سيول الأودية والتى تعرف فى زماننا بـ «بئر عثمان» بئر عثمان. والبئر المذكورة بالقرب من مسجد القبلتين وأقدم آبار المدينة المنورة.

ولا يعرف صاحبها ولا حافرها إلا أنه يروى أنها بئر قديمة حتى إن تُبَّعَ

الحميرى الذى مر بالمدينة قبل الهجرة بسبعمائة سنة شرب من مائها اللطيف وأعجب به.

وفى أوائل الهجرة النبوية لم يكن الصحابة الكرام يجدون ماء غير ماءها بثمن غال للشرب. فقال النبى ﷺ «بئر مزنى - يعنى روما - ما أحسنها من بئر» وبناء على رواية قال «ما أحسنه من حفيرة حفيرة مزنى».

وأحضر صاحبه وقال له: يلزم أن تبيع هذه البئر بدل بئر من الجنة وبهذه الطريقة أراد أن يتصدق بها صاحبها، ولكنه قال «يا رسول الله ليس عندى شىء آخر لأتعيش منه» ولما أحس عثمان بن عفان بأن اليهودى لا يريد أن يعطى للنبى ﷺ متعللاً بالأعذار فأرضى اليهودى بأن اشترى البئر بعشرين ألف درهم أو على قول آخر بخمسة وثلاثين ألف درهم. ووقفها. وكان قد اشترى نصف البئر أولاً لأن صاحبها لم يرد أن يبيعها كلها قائلا إننى لا أستطيع أن أبيع البئر كلها مرة واحدة إذا أردت أبيع نصفها لك فلتكن لك يومًا واليوم الآخر لى، وفى اليوم الذى لك لا آخذ منها ماء كما أنك لا تأخذ فى اليوم الذى لى ماء!!! وكان حضرة عثمان أخذ نصف البئر بإعطائه اثنى عشر ألف درهم. ووقفها. ولما رأى اليهودى أن المسلمين يأخذون من الماء ما يكفيهم لأربع وعشرين ساعة فى اليوم الخاص بحضرة عثمان وأصبحوا لا يشترون ماء فباع لحضرة عثمان نصفها الثانى بثمانية أو على قول آخر ثلاثة وعشرين ألف درهم وترك البئر نهائيًا.

وظلت البئر زمنًا طويلاً عذبة الماء وكان ماؤها مرغوبًا بين الأهالى وكانت تروى سكان المدينة إلا أن أبنيتها تخربت وغاض ماؤها فترة من الزمن. فجدد قاضى مكة المكرمة أحمد شهاب بن محمد المحب الطبرى أبنيتها وطهرها وذلك خلال عام ٧٥٠هـ وبعد مائتين وتسعين سنة أى فى عام ١٠٤٠ هـ فعمرها بشكل جيد الشخص الذى تولى مشيخة الحرم النبوى وأحياها بأن غرس حولها الأشجار وبنى بجانبها مسجدًا ووقفها. والآن يمر بها الفقراء ويزورونها وأحيانًا

يقضون بجانبها لياليهم متعبدين حتى الصباح والمسجد الذى بنى فيما بعد مكشوف الجانب من الناحية الشامية.

١٤ـ بئر سقيا:

البئر الرابعة عشرة من الآبار المكرمة بئر سقيا التى فى داخل القرية التى يطلق عليها فى الجاهلية قناد وتقع هذه البئر على يسار المتوجهين إلى قرية بئر على وفى داخل حجر منحوت.

وكانت بئر سقيا قد تخربت مع مرور الأيام، ولما عمرها وجددها أحد أهل الخير من طائفة الأعاجم فى سنة ٧٧٨هـ فهى تعرف فى زماننا بـ «بئر الأعاجم» وفى الجهة الشامية من هذه البئر مبنى حيث ينصب الحجاج الكرام خيامهم ويستريحون. وكانت زوجة الرسول أمنا عائشة ـ رضى الله عنها ـ تجلب الماء من هذه البئر وكان النبى ﷺ يشرب من ماء تلك البئر.

١٥ـ بئر العقبة:

وينسب ماؤها للنبى ﷺ وهى البئر الخامسة عشرة من الآبار المقدسة، يقول بعض المؤرخين إن النبى ﷺ جلس على حافة هذه البئر مدليًا قدميه فيها وأجلس أبا بكر وعمر على طرفيه وعثمان أمامه. ولكن ناقل الواقعة وكان حارس النبى ﷺ فى ذلك اليوم وهو أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ ينسب تلك الواقعة إلى بئر أريس فليزم أن يكون قول المؤرخين هذا غير صحيح إلا أنه يمكن أن يكون اسم بئر العقبة اسمًا آخر لبئر أريس، أو أن الواقعة تكررت فى البئر الثانية.

١٦ـ بئر عتبة:

هى البئر السادسة عشرة من الآبار المكرمة وتقع على ميل واحد من المدينة المنورة فى جهة مكة المكرمة وفوق حرة بئر السقيا. وقد نظم النبى ﷺ، غُزَاةَ بدر فى هذا الموضع، وفصل الأطفال عن الجيش وأعادهم إلى المدينة المنورة. يقول بعض المؤرخين إن المسلمين فى غزوة بدر عند ذهابهم باتوا فى بئر السقيا

وعند عودتهم باتوا فى ساحة بئر أبى عتبة. وماء هذا البئر أعذب من جميع آبار الوادى وتعرف بين الناس بـ «بئر الوادى».

١٧ـ بئر العهن:

البئر السابعة عشرة من الآبار المقدسة. وتقع فى قرية بنى أمية الأنصارى وفى أعلى جهة بالمدينة وكان قديمًا بجوار هذه البئر شجرة تسمى السدرة ثم قطعت هذه الشجرة وسويت أرضها وأصبحت حقلاً. والبئر المذكورة فى سفح الجبل وماؤها عذب فرات، ولكن موقعها اليوم غير معلوم. ويقال إنها بئر يسيرة التى سيأتى ذكرها فيما بعد.

١٨ـ بئر غرس:

هى البئر الثامنة عشرة، تقع على بعد ميل أو نصف ميل من الجانب الشرقى الشمالى لمسجد قباء. وكان الماء يجلب للنبى ﷺ من بئر غرس يومًا ومن بئر السقيا يومًا آخر. وقد غسل جثمان النبى ﷺ بماء بئر غرس، فقد أوصى النبى ﷺ قبل وفاته قائلاً «غسلونى بسبعة قرب من ماء بئر غرس».

وعرض تلك البئر المقدسة عشرة أذرع وعرضها أزيد من طولها وماؤها عذب بارد ورجحان عذوبة مائها وأفضليته ثابتة بالحديث النبوى الشريف. إذ بين فضل مائها ومزيتها قائلاً: «إننى رأيت فى رؤياى أننى سأصبح فى الصباح بجانب بئر من آبار الجنة» ولما أصبح الصبح وجدتنى بجانب بئر غرس»، وتوضأ ذلك اليوم وألقى بصاقه فى داخل البئر. وبهذا سكب ما أهدى له من العسل المصفى فى داخل البئر.

وتخربت بئر غرس، ولم تعد صالحة للشرب منها، وفى خلال عام سبعمائة جددت وبعد مائة واثنين وثمانين عامًا اشترى السيد حسين بن الشهاب أحمد القاوانى ما حول البئر من حقول وأحاط البئر بسور وصنع حديقة للنخيل وأنشأ سلمًا للنزول فى البئر وبنى مسجدًا وفتح طريقًا واسعًا للدخول إلى المسجد من الخارج ثم وقفها للمارين وعابرى السبيل. ظلت تلك الحديقة المذكورة عامرة ما

ما يقرب من مائة وثمانية عشر عامًا. وانتفع المارة والعابرون بها ودعوا لواقفها ولكن للأسف قد سد طريقها الخارجى فأبطل وقف حسين بن الشهاب.

١٩- بئر القراضة:

التاسعة عشرة من الآبار المباركة بئر القراضة. وهذه البئر فى داخل حديقة والد جابر بن عبد الله الواقعة فى الجانب الغربى لمسجد الفتح. قد توضأ النبى ﷺ بماء هذه البئر وصلى فى ساحة مسجد الخربة.

معجزة:

عندما مات والد جابر بن عبد الله كان قد ترك ديونًا كثيرة وترك أمر تسديد هذه الديون لجابر. فأراد جابر أن يعطى حديقة نخيل بئر القراضة بثمارها للدائنين. إلا أنه لم يستطع أن يرضى الدائنين بهذا الشكل، فحكى الموضوع للنبى ﷺ بشكل يثير رحمة السامع واستمد العون من النبى ﷺ. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن ذهب إلى حديقة بئر القراضة وألقى بصاقه المبارك فى البئر ودعا الله أن يخلص جابرًا من دين أبيه عبد الله، وبناء على ذلك زادت محاصيل تلك الحديقة سنة بعد سنة وكانت سببًا فى تسديد الديون. ولكن لشدة الأسف فتلك الحديقة انتقلت من يد إلى أخرى، مع مرور الزمن وأهملت حتى لم يبق أحد يعرف مكانها فى زماننا.

٢٠- بئر القريضة:

هى البئر العشرون من الآبار المنسوبة إلى النبى ﷺ. ويحتمل أن تكون هى بئر القريضة التى تقع بالقرب من بئر القراضة، أو أن القريضة تصغير القراضة، وعلى ذلك تكون كلتاهما بئرًا واحدة، ويروى كذلك أن خاتم النبى ﷺ وقع فى هذه البئر.

٢١- بئر اليسيرة:

هى البئر الحادية والعشرون من الآبار المنسوبة إلى النبى ﷺ ويسيرة بمعنى

سهلة. قيل إن النبى ﷺ جلس على حافة بئر فى قرية بنى أمية ابن زيد، وسأل عن اسمها، فقالوا «عسيرة» فأجاب قائلاً: «كلا كلا يسيرة إن شاء الله». وتفل فيها ودعا لها بالخير والبركة وتوضأ وهذا وجه تسميتها ـ قال فاضل العشقى.

لينظم القلم الدر فى سمط الشعر وليجعل للمصطفى ألف بئر

ومن بئر أعواف بضم الهمزة ومن بئرى أنا اشرب

وكذا من بئر أنس وهو النبى من صحب

وكذلك بئر إهاب وبصة وبئر بضاعة وماؤها شفاء

ذكرت كذلك بئر جاسوم والجمل رفعت عن سرها الخفاء

وكذا بئر حاء حلوة وبئر ذرع ورومة

فلتذكر وادع الله إن كنت عن بئر السقيا تخبر

وبئر عهن وعقبة وبئر عنبسة

وبئر غرس إذا ما ذكرن ذلك

أما بئر قراضة وقريضة وبئر اليسير

كلها ما سمعت ولا رأيت من ينكر فضلها

وقد ثبت أن عدد الآبار غير المكررة تسعة عشر بئرًا ولكن مع مرور الزمن لم يبق أحد يعرف مكان اثنتى عشرة منها فحصر أهل المدينة الآبار المأثورة فى سبعة آبار. وأسماء تلك الآبار فى الأبيات الآتية. لمؤلفه العبد لله.

نظم

فى المدينة يا صاح[1] سبع من الآبار

ولها بريق النبى المبارك إيثار

(١) صاح: مُخَفَّف: ياصاحبى.

لبعـــــض غرس، ورومـــــــة، بضاعـــــــة أسمـاء
ومنهـــا العهـــن ومنهـــا البصـة ولا يشرب من مائها الأشرار
منهـــــا بئر أريس وبئر حـــــاء ولهمـــــا باسمهمـا شهرة
يمتـــــد لهمـــــا أهـــــل المدينـــــة كـــــل مـــرة

وكلما تباعد عصر السعادة زاد سكان المدينة واقتضى تطور المزروعات ـ بناء على حاجة الناس ـ حفر المزيد من الآبار؛ فحفر الأسلاف فى جوانب المدينة الأربعة كثيراً من الآبار، واستصلحوا الأراضى لتكون صالحة للزراعة وأنبتوا كثيراً من المزروعات. وكما كانت هذه المزارع منها قوية خصبة ومنها ضعيفة قليلة الإنتاج بالنسبة لبعضها البعض، وكانت الآبار كذلك منها ما هو عذب الماء ومنها ما هو مر الماء مالح. والآبار المشهورة اليوم بئر قويم، بئر العباسة، بئر صفية، بئر البويرة، بئر العصبة، بئر العسيلية، بئر المبعوث، بئر رومة، بئر قطعة، بئر مغيسيلة، بئر فاطمة، بئر عروة.

وبئر قويم مع بئر عباسة وبئر صفية وبئر البويرة فى قرية قباء ومياه بعضها ألذ و أعذب بالنسبة للأخرى. وبئر عسيلية من آبار قرية العوالى. وليست فى هذه القرية بئر ماؤها أعذب من ماء بئر عسيلية، وبما أن بئر مبعوث فى الجهة القبلية من ناحية عريضى وفى وسط مجرى سيل مهزور فهى أعذب الآبار فى الحرة الشرقية على الإطلاق وأعظمها، وبئر رومة من الآبار القديمة وقف عثمان بن عفان.

وبئر فاطمة أَلْطَفُ ماء من جميع الآبار، وبئر عروة أعذب ماء من جميع الآبار والعيون والمياه الجارية. وبما أن هذه البئر فى مجرى وادى العقيق كان الأهالى يهدون ماءها للملوك لعذوبة مياهها كما أن أصحاب المزاح يدعون أن ماءها ألذ وأعذب من ماء عين زرقاء.

الأراضى المزروعة:

تقع مزارع المدينة المنورة فى الجهة القبلية منها، وإن كانت فى جهاتها الأخرى أراض مزروعة. إلا أن جميع أراضى الجهة القبلية صالحة للزراعة.

يا ترى هل لاتصالها بالحرة؟ أو لسبب آخر؟ إن أراضيها سبخة وترابها أبيض، فإذا مزجت بقدر من السماد يكثر محصولها ويكون نبتها أكثر إنتاجًا.

والأراضى الموجودة فى الناحية الغربية أى الأراضى الممتدة من الجُرُف إلى عيون والتى فى وادى العقيق رملية ولكن بعض أراضيها ممتزجة بالطِّين لينة مثل أرض العيون فى الجهة الشامية. فمحاصيل مثل هذه الأراضى وافرة، يروى أن أراضيها تنتج فى السنين التى تنجو من الآفات السماوية ثلاثين ضعفًا على واحد.

والجهة الشرقية أى محاصيل ناحية عريضى وما حواليها إن مدت بالمياه وسُمِّدَت تكون من غير تبن. ومع هذا ففى الأراضى التى تقع فى الظل يؤخذ منها تبن فقط. وهناك وقت لا يؤخذ منها حتى التبن.

فى ذكر العيون الصافية التى تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم

إفادة خاصة:

يطلق أهالى المدينة على المياه التى تجرى من الآبار من تحت الأرض عينًا وجمعها عيون.

إن إنبات النخلة بدون ماء محال، ولما كان التمر والبلح هو القوت الذى يحفظ الحياة على أهل المدينة وبناء على أنه لا توجد مياه جارية تجرى من الجبال القريبة التى تحيط بالمدينة إلى الأراضى المسطحة فحفر الأهالى قديمًا الآبار فوق الجبال البعيدة العالية، وأجروا ماءها إلى أطراف المدينة فأنشئوا حدائق كثيرة. ولما ازدادت الحاجة إلى الماء كلما زاد عدد السكان فزادت جداول المياه الجارية على قدر اتساع العمران ومازالت تزيد.

والآن كلما احتاجوا جلب المياه إلى مكان ما حفروا بئرًا فى مكان مرتفع جدًا وعندما يصلون إلى مائها يحفروا فى أسفل منها بئرًا أخرى. ويحفرون مجرى تحت الأرض بين البئرين ويجرون ماء البئر الأولى إلى البئر الثانية وبهذه الطريقة يحفرون فى كل أربعين خطوة بئرًا ويجرون مياهها بعضها إلى بعض متسلسلاً حتى يوصلوها إلى مستوى المحل ومن هنا يحفرون المجارى فوق سطح الأرض ويروون الأماكن التى يريدونها ولما كانت عادة الأهالى توفير المياه لرى الحدائق بهذه الطريقة فى المدينة فوجدت عيون المدينة بهذه الطريقة.

الوجبة: لما كان إجراء الماء من الجبال البعيدة بالطريقة التى سبق ذكرها يحتاج إلى رأس مال كبير وهذا يتوقف على ثروة وغنى مال. لا يقدر على ذلك فرد

بذاته ومن هنا كلما احتاجت جهة ما لجلب الماء تكونت شركة من أصحاب الأراضى التى فى تلك الجهة. وتقسم هيئة تلك الشركة ما تحت أيديهم من حدائق النخيل إلى أربع وعشرين حصة كما أنهم يقسمون كل حصة إلى أجزاء ويبيعونها. ولما كان بيع الحصة خارج أفراد الشركة غير ممكن يشترى أفراد هيئة الشركة هذه الحصص وبهذا الشكل يهيئون رأس المال اللازم وعندئذ يجرون الماء بعد عمليات الحفر فوق السطح وبعد أن يحفروا مجرى عظيمًا، يفتحون جداول خاصة لأراضى أصحاب الحصة ومهما كانت أجزاء الحصة فمجموعها تعد ساعة واحدة ولمثل هذه الساعة تطلق وجبة.

وكل شخص يملك عددًا من الوجبات من أصحاب الأراضى الذين حصلوا على الحصص بمعرفة الشركة المتشكلة يستطيع أن يحصل على ماء بقدر ما يملكه من الوجبات.

ومع هذا فبعض الوجبات عبارة عن ثلاثة أو أربعة أجزاء وكل جزء من هذه الأجزاء فى يد شخص واحد بناء على هذا التقدير يقتضى الأمر ألا يستطيع أن يأخذ مثل هؤلاء من أصحاب النخيل من الماء فى كل أربع وعشرين ساعة إلا فى فترة ربع ساعة. وبما أن ما يملكونه جزءًا صغيرًا فيمكن سقيه فى هذه الفترة بهذا المقدار من الماء. انتهى.

١ـ عين كهف حرام:

كان هذا الماء فى غار بنى حرام الواقع فى الجانب الغربى من جبل سلع. والآن أمام مسجد النبى ﷺ وفوقه قبة مكملة؛ كان النبى ﷺ عندما وقعت غزوة الخندق يتوضأ من عين كهف بن حرام ليلاً ثم يدخل فى غار بنى حرام حيث يبيت.

٢ـ عين الخفيف:

هذا الماء كائن فى وادى ناحية السُّنْح ويرد من عوالى المدينة.

وبُنَاءً على قول ابن النجار ان هذا الماء يتفجر من تحت صخرة ويسقى مزارع ناحية السُّنْح التى فى جدار مساجد الفتح. وانقطع هذا الماء مؤخرًا وأضرّ انقطاعه أصحاب المزارع وإن كان شمس بن زمن حفر طريقه وطهره قرب منبعه الذى فى جهة قرية قباء إلا أنه لم يوفق لجفاف منبعه.

٣. عين الأزرق:

هذا الماء أمام مصلى العيد (أى المسجد النبوى) وتحت قبة كبيرة. ومنبعه الأصلى بئر فى داخل حديقة الجعفرية وعلى الجهة الغربية من المسجد الشريف.

ولما كانت مياه هذه العين تقوم عليها حياة أهل المدينة أوصلها مروان بن الحكم إلى المدينة وبنى أمام مصلى النبى ﷺ موضع تقسيم عظيم وبهذا العمل قسم المياه إلى محال المدينة فتجرى المياه أولاً من هذا المقسم ويسقى بيوت الجهة الشرقية ابتداء ثم الجهة الشمالية ثم الجهات الأخرى من منازل المدينة.

٤. عين النبى:

كان هذا الماء بناء على قول ابن النجار بئرًا بجانب غار بنى حرام.

واندرس مجراه وانقطع ماؤه مع مرور الزمن. ولكننا إذا ما وفقنا بين الروايات المتخالفة يلزم أن يكون شرعة مقسم عين النبى وكانت هذه الشرعة معروفًا بمقسم عين الأزرق وتذكرنا أن منهل ماء الذكر شرعة عين النبى فإن ماء منبع عين الأزرق عندما جلب من قرية قباء إلى المدينة قد عثر على ماء عين النبى ووُحِّدَا وهذا غير بعيد من الاحتمال.

وقد فتح الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء فى خلال سنة ٥٦٠هـ مجرى من مقسم عين الأزرق إلى باب المصلى وباب مصر ليحصن المدينة. وأوصل هذا المجرى إلى باب السلام وبنى مقسمًا صغيرًا أمام مدرسة زمنية وفرق الماء إلى المنازل التى تقع فى هذه الجهات، ثم أجرى الماء الزائد بواسطة مجرى حفره إلى مناهل المحلات التى حول سوق العطارين ثم طاف بالمجرى المذكور

خلف المدينة فى الجهات الشرقية والشمالية حتى أوصله إلى الساحة الرملية لمسجد السعادة حيث الفسقية وألقى مقداراً من الماء لإدارة هذه الفسقية. وصنع مقسماً وبنى فوقه عقداً وأنفق فى ذلك نقوداً لا تعد ولا تحصى.

٥ـ مسير العين:

هذه العين تَصُبُّ فى عين يطلق عليها عيون حمزة وهذا الماء أيضاً ينفصل من مقسم عين الأزرق ويجرى إلى القرب من سور المدينة بالمجرى الذى فى الجهة الشمالية ويصل من هنا إلى الطرف الشرقى من ساحة حصن الأمير الرملية حيث يسكن أمير المدينة ومن هنا إلى المقسم الذى بجانب مشهد النفس الزكية، وتتحد بعد ذلك بمجارى العيون الأخرى وتصب فى الحوض الذى ينصب بجانبه حجاج الشام خيمهم. وإن أهالى المدينة يعتقدون أن الماء الذى يطلق عليه عيون حمزة قد أجرى من قبل حضرة معاوية ـ رضى الله عنه ـ إلا أن الماء الذى أجراه معاوية ـ رضى الله عنه ـ قد خرب مجراه ونضب ماؤه. ومع هذا فالماء الذى جلبه يمر من الجهة الشامية من جبل سلع ويصب فى المقسم الذى بجانب مسجد الراية. ويخرج من هناك ويمر من الجهة الغربية لمساجد الفتح ويتوجه إلى منهل الأمراء. وبناء على ذلك فاعتقادات الأهالى فى هذا الخصوص كانت واهية والآن قد قضى على هذا الرأى وتبينت الحالة الحقيقية.

غريبة:

يروى عن جابر بن عبد الله أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ أمر عامله فى المدينة بسرعة إجراء هذا الماء فأجابه قائلاً لا يمكن إجراء هذا الماء ما لم يمر بقبور الشهداء فأمره بنبش قبور الشهداء ونقل أجسادهم إلى مكان آخر، وبناء عليه فتح العامل القبور ونقل أجسادهم عامة حتى إن قدم حمزة ـ رضى الله عنه ـ أصابها فاس فدميت.

٦ـ عين الوادى:

هذه العين بجانب ضريح حضرة حمزة ـ رضى الله عنه ـ ولكن ماءها انقطع

مع مرور الأيام. وبناء على قول بدر بن فرحون، أن الشهيد نور الدين هو الذى أجرى أولاً هذا الماء وعمره بعد الخراب وأجراه الأمير ودى. وإن كان الماء الذى جلبه حضرة معاوية ـ رضى الله عنه ـ فى داخل هذا الوادى إلا أنه غاب تحت الرمل مع مرور الزمن وخربت مجارى الاثنين ولم يبق لهما اسم ولا أثر. ومازالت خرابتهما ظاهرة للعيان.

كانت أسماء ومنابع المياه التى ذكرت إلى الآن فى الأوائل مختلفة. ثم جمعت كلها وأوصلت إلى المقسم الذى صنعه مروان بن الحكم. ثم وزعت على مناهل محلات دار الهجرة. فأصبح اسمها كلها عين الزرقاء ولا يوجد فى المدينة المنورة ماء غير عين الزرقاء كان اسم عين الزرقاء القديم عين أزرق لأن مروان بن الحكم الذى جلب هذا الماء أزرق العينين وصادف ظهور هذا الماء لوقت ولايته؛ لذا أسموا الماء علين الأزرق وتسمية هذا الماء بهذا الاسم لا بأس به من قبيل تسميته الشيء باسم موجده.

وإن كان أهل المدينة قد حُلَّت مشكلة الماء بالنسبة لهم بعد أن جمعت المياه كلها فى عين واحدة هى عين الزرقاء إلا أن طرف عين الزرقاء لم تعمر لمدة طويلة وملأت السيول مجرى الماء بالرمال وخربته، فأصبح الناس بدون ماء مرة أخرى. وبناء عليه احتاج أهل المدينة لتضحيات كثيرة لجلب الماء من وادى العقيق.

وعرض الأمر على السلطان سليمان فالتزم السلطان جانب إراحة أهالى المدينة بأى صورة كانت.

صدر الأمر السلطانى بذلك فعمرت طرق عين الزرقاء تعميرًا جيدًا وعمق مجراها القديم وطهر وهكذا أنقذ أهل المدينة من خطورة قلة الماء فى سنة (٩٣٢هـ) ولكن السيول المفزعة التى تظهر من حين لآخر والتى توقع أهالى الحرمين فى بحار الاضطراب خربت مرة أخرى مجرى عين الزرقاء فاشترى السلطان مراد خان فى سنة ٩٩٠ بئر غربال التى تزيد على عين الزرقاء بعشرة

أمثال وضمها إليها كما أن المهندس سليمان بك الذى أمر من قبل السلطان مصطفى بن السلطان محمد خان بتعمير مسجد السعادة فى سنة (١١١١) اشترى بئر العقد بأمر من السلطان وضمها لعين الزرقاء وطهر مجرى عين الزرقاء إلى وادى جُرْف. كما أن أمير الإسطبلات السلطانية مصطفى أغا عمر طرق المياه فى صورة منتظمة وذلك فى عهد السلطان مصطفى بن السلطان أحمد خان. وقد عرض أمر سكان المدينة الذين لن يتحملوا لمدة طويلة شح الماء على السلطان عبد المجيد، ولما كان كل أمل السلطان ألا يتعرض أهل الحرمين الشريفين لأية مضايقة، فأمر بتطهير المجرى المذكور فى صورة كاملة.

ورصد لهذا الخصوص مبالغ طائلة وعين الموظفين المخصوصين وأرسلهم إلى المدينة. ولما وصل هؤلاء الموظفون إلى المدينة المنورة عاينوا وتفقدوا مع السادات والأعيان مجرى العين وقرروا البدء فى تطهيرها من جهة بئر خاتم، ولما كان فى هذه الجهة خمس عشرة حديقة فإذا ما طهر المجرى من هذه الجهة بناء على رأى سادات المدينة وأعيانها كان الأمر يقتضى قطع ما يقرب من مائة نخلة كثيرة الثمار وسيؤدى ذلك إلى خراب الحدائق وينتج عنه انقطاع الماء ما يقرب من ستة أشهر، وهذا سيزعج الأهالى ويضرهم، وعلى ذلك اعترض الموظفون على هذا الرأى واستصوبوا أن تتخذ بئر المرحوم على أغا الطويل وحفر مجرى جديداً بحيث لا يضر ذلك أحداً.

وأقنعوا بهذا الرأى عامة الأهالى وقرروا على أن يبدءوا فى الحفر بناء على النهج.

وهكذا أصبحت بئر على أغا الطويل المنبع الجديد لعين الزرقاء وكانت البئر داخل بستان يسمى عذق وتحت قبة خاصة.

وبناء على القرار المشروح شرع فى حفر المجرى يوم السبت السادس من ربيع الأول سنة ١٢٦٢ من بئر المرحوم عثمان أغا ووحدوا المجرى الذى حفروه ببئر خاتم التى فى بستان محمد باشا ومياه بئر الغربال التى فى داخل الرباط الذى أمام

مسجد قباء وبمياه بئر أهل القلعة وفتحوا طريقًا فى غاية الوسع والعمق. وكانت فى طريق المجرى الجديد بعض أشجار النخيل فلم تقطع ولم تقع فحفروا تحتها بعض الأنفاق وبنيت عليها عقود رصينة ومتينة.

ووسع المجرى القديم الذى كان فى غاية الضيق قدر مرور شخصين أو ثلاثة بجانب بعض وصنعت على غاية من المتانة وأنهى العمل بدون أن يتضرر إنسان. فرطب جميع أهل المدينة ألسنتهم بالدعاء لوالد الخليفة كثير المحامد. وكانت المنافذ فى المجرى القديم لدخول المارين وخروجهم أقل مما يحتاج إليه، ولما ثبت أن هذا كان سببًا من أسباب خراب المجرى فأضاف الموظفون عشرة منافذ من بئر على أغا إلى البركة فبلغ عدد المنافذ إلى مائتين وعشرة ويطاق بين الأهالى على هذه المنافذ قصبة ولكى لا يمتلئ المجرى بالرمال التى تجلبها السيول أحاطوا كل منفذ بجدار فى ارتفاع ذراع معمارى على طراز حافة البئر.

وفى المدينة غير مجرى عين الزرقاء مجرى آخر لرى البساتين بالماء، ولما كان هذا المجرى أيضًا بالغ الأهمية فقد طهر وعمق على القدر المطلوب.

وطول مجرى الماء العذب من بئر على أغا إلى باب القلعة ٥٠٥ ذراع معمارى ومن باب القلعة إلى مشرع البركة ٥٨٥٧ ذراع معمارى وطول مجرى الماء العذب الذى تسقى منه محلة الأغوات من البركة ٩٣٩ ذراع ومجرى الماء المر ٩٣٣ وطول مجرى الماء العذب من المناخة إلى باب السلام ٥٩٠ ذراع وطول مجرى الماء المر ٧٠٠ ذراع والمجرى المستقيم من مشرع البركة إلى المنبع القديم ٧٢٢٩ ذراع والمقنطرات لتقسيم المياه إلى الميلة الخالية من العمارة ٦٠٠ ذراع. وطول المجرى المحفور عامة ٢٣١٢٣ ذراع و ٧٢٩ ذراع من هذا المجرى الطويل حفر لسقى المساجد والآثار والمدارس.

والمجرى الذى ذكر طوله يحتوى على ٣٦ بركة وعينًا وسبيلاً عشرة منها فى مجرى محلة الأغوات. وأربعة منها فى مجرى باب السلام. واثنتان منها فى مجرى المناخة، واثنتان فى مجرى القلعة، وثلاث منها فى مجرى سيدنا على العرضى والباقى بالقرب من بركة مشرع.

وجعلوا السبل الموجودة فى المناخة وسبل أخرى فى القلعة خاصة من أجل النساء والمياه الزائدة التى تبقى من هذه السبل تجرى ناحية وادى جرف لرى حدائق النخيل التى فى تلك الجهات.

الأسبلة: فى المدينة ثمانية عشر سبيلاً إضافة إلى مناهل عين الزرقاء، وهى التى صنعها أصحاب البر والخيرات وهذه مواقع تلك الأسبلة:

١ ـ سبيل فى المناخة فى شارع العنبرية
٢ ـ سبيل بالقرب من منزل أمير آلاى أحمد بك
٣ ـ بجانب منزل سيد جعفر
٤ ـ بجانب مسجد مصلى[١]
٥ ـ بجانب مصلى الإمام المشروطة.
٦ ـ بجانب مركز شرطة الخالدية.
٧ ـ بجانب الباب المصرى
٨ ـ بجانب مركز شرطة باب الصغير
٩ ـ بجانب منزل ذى النون أغا
١٠ ـ بجانب بيت الخليفى
١١ ـ بجانب وكالة الشريف شدقمى
١٢ ـ بجانب الباب الشامى
١٣ ـ فى حارة حرازى
١٤ ـ تحت ميقاتى باب السلام
١٥ ـ فى ديار عشرة
١٦ ـ بجانب رباط العجم[٣]
١٧ ـ بجوار زاوية سمان

(١) هذا السبيل من أوقاف سليم أفندى الذى كان من رجال السلطان عبد المجيد.
(٢) وقف الأميرة عادلة.
(٣) من أوقاف الشهيد نور الدين.

١٨ بجانب باب الرحمة

١٩ ـ بجانب باب الجمعة.

المياه المرة:

يقال على المياه المرة بين الأهالى العين السلطانى. ويأتى هذا الماء من قرية قباء ومن تحت مجرى عين الزرقاء إلى البلدة الطاهرة وبعد أن يطهر مع مياه المجارى والبالوعات التى حول حرم السعادة يتحد مع فائض مياه عين الزرقاء وتجرى نحو الحدائق، ولعين السلطان منهل بجانب جبل ذباب وبالقرب من ساحة مسجد الراية التى يطلق عليها قرين التحتانى.

ومجرى هذا المنهل ينقسم إلى ثلاثة جداول فى الجهة القبلية وفى النقطة التى تتصل بمجرى أبو جيدة ويسقى أحد هذه الجداول حديقة الصدقة التى تصرف فيها شركة سيد علوى سقاف والثانى الأراضى التى تملكها شركة سيد هاشم جمل الليل والثالث البساتين التى فى الجهة الشامية من وادى ذباب.

وإن كانت هذه المياه كافية لدفع حاجات أهالى البلدة الطاهرة، إلا أنها لا تقدر على سقى الحدائق التى أنبتت خارج السور تمامًا، ومن جهة أن الأراضى التى تستصلح والحدائق تزيد يومًا بعد يوم باطراد مع زيادة السكان فهيئت المياه المذكورة وخرجت إلى خارج المدينة ومازالت توصل؛ ومن هنا فجميع المدينة المنورة نجت من الحاجة إلى المياه.

المياه التى فى الجهة القبلية من بلدة الرسول:

وإن لم يكن منبع العين الكبيرة معروفًا إلا أن مبدأ مجراها بجانب حديقة تسمى مرجلين. وحديقة مرجلين وسط الربوة التى تصادف الطرف الشرقى فى سيل وادى رانوناء والذى يجرى من قرية قباء فى الجهة الغربية من ناحية بطحاء إن الأراضى التى فى الجهة القبلية من مهجر الرسول أكثرها صخرية ومواقعها المستوية كلها أشجار النخيل وبما أنه لا يمكن نقب وثقب هذه الحجارة والصخور بحفر جدول وإجرائه من بين أشجار النخيل فإنه لا يوجد فى هذه الجهة ماء غير

العين الكبيرة. ولأجل رى هذه البساتين فى فصل الصيف يعتمدون على آبار قباء وقربان. إلا أن المياه تتكاثر فى الشتاء ولا تمس الحاجة إلى الآبار. والحدائق التى زرعت وتزرع فى تلك الجهات تنبت العنب والرمان والليمون الحامض والحلو، الموز، والخوخ، الكباد شمام الشجرة، والتين الأفرنكى والأشجار المختلفة ومن الأزهار الورد والفل والحبق والأزهار الأخرى التى تزين الحدائق والبلح الذى تثمره نخيل هذه الأراضى يرجح على جميع أنواع البلح التى فى الجهات الأخرى. وسبب ذلك عذوبة مياه قرى قباء وقربان، وإن كانت مياه قرية العوالى عذبة أيضًا إلا أن أراضيها غير صالحة لإنبات الأشجار والأزهار وأراضى هذه الجهات صالحة لزراعة النخيل وشجرة النبق والحبوق المتنوعة وتبعد هذه القرى الثلاث عن المدينة خمسة أذرع وتستغنى أشجار النخيل التى تنبت هنا عن الرى وأكثر هذه الأشجار ملك عربان صيارين وجزء منها ملك أهالى المدينة.

يمضى عربان الصيارين الصيف فى هذه الحدائق وفى الساعة التى يأخذون فيها محاصيل البلح ينقلونها إلى بلادهم. وقد شغف الناس بزراعة النخيل فى أيامنا هذه فى هذه الجهات، ولو استمروا على ذلك عامًا أو عامين على زرع النخيل، لاتصلت الحدائق بالسور الخارجى للمدينة.

أما إذا ما تحدثنا عن مياه الجهة الشرقية فنجد أن الجهة الشرقية للمدينة أرض صخرية ومن ثم يجرى ماء هناك إلا نهير وادى القناة، ويسمى هذا النهير مسيل حمزة ومن مجراه يتشعب أحد عشر جدولاً، وبعض هذه الجداول جارية وبعضها الآخر نضب ماؤها وخربت مجاريها، والنخيل الذى فى الحدائق إنما يسقى بماء المطر كالأشجار التى تنبت طبيعيًا، لأجل ذلك لا يستفيد أصحاب هذه الأراضى منها.

والأراضى التى بين الحرة الشرقية وسور المدينة لا تنبت زرعًا، وهى أرض سبخة، وإن كانت فى الواقع فى هذه الجهة من المدينة أشجار مثمرة مثل أشجار

النخيل والسدر والرمان، وهذه الأشجار فى ناحية باب الجمعة من السور وفى عدة حدائق.

والمسافة بين داخل السور والموقع الذى يطلق عليه «دشم» من الحرة الشرقية ألفا ذراع[1]. والمياه التى فى ناحية الشام هى:

عين الأغوات:

وهذا الماء ملك أغوات الحجرة المعطرة ومن لهم حصص فيه، وبعد أن يسقى حدائقهم يروى حدائق الأهالى التى بجانب جبل ذباب.

عين سيد هاشم:

هذا الماء على يسار الذاهبين من المدينة إلى بئر عثمان وفى الجهة الغربية من عين الأغوات وقد أجراه سيد هاشم جمل الليل وبعض الأهالى فى سنة ١٢٩٩هـ، وعين الأغوات من مجموع المياه التى أجريت فى تلك السنة.

عين الصدقة:

هذا الماء فى جزع الصدقة الواقع فى الجهة الشرقية من عين الأغوات وعين سيد هاشم وملك السيد علوى السقاف وشيخ الفراشين برى أفندى وكافٍ لسقى ألفين من أشجار النخيل الموجودة.

العين الجديدة:

هذه العين على بعد ربع ساعة فى الجهة الشامية من المياه المذكورة وإن كان صاحبها شيخ السادات العلوية سيد حسن بافقى أفندى والذين لهم حصص فيها. فامتلأ منبعها وجف، مبدأ جريانه الذى فى حرة المستراح.

عين عامرة:

هذا الماء منسوب لشركة موسى أفندى وفى اتصال أراضى أصحاب العين

(١) «الذراع» فى طول أربع بوصات متوسطة، «السرة» المسافة ما بين الأصبع الكبير والسبابة.

الجديدة. ويسقى حديقة السرائية وفى هذه الحديقة غير الرمان والتين ثلاثة آلاف نخلة.

عين الحازمية:

ماء الحازمية فى ناحية أراضى الحديقة التى ترويها عين عامرة. وفى الطرف الغربى منها. والحديقة التى يسقيها هذا الماء تشتمل على ألف وخمسمائة نخلة وملك السيد مدنى المنوفى وصاحب الحصص. ونصف هذه العين يسقى حدائق السيد مدنى وبنى على أيضًا.

عين مصرع:

تروى هذه العين ألف نخلة، ولما خرب مجراها قبل ثلاثين سنة انقطعت.

تلك العين المذكورة ماء قديم ما يقرب من خمسمائة عام كانت تسقى أراضى الشريف ورى التى أمام وادى القناة والتى تمتد على يمين ويسار الطريق الذى من المدينة إلى مشهد حمزة. وفى فترة ما اشترى معظم هذه الأراضى السيد عبد الواحد المدنى وأراد أن يشترى الباقى من شريكه بنى على. إلا أن بنى على لم يرضوا ببيعها وحاولوا بأنفسهم أن يطهروا المجرى فلم يستطيعوا؛ وقل الماء، وتوفى السيد عبد الواحد فبيعت حصته من قبل ورثته إلى السيد مدنى. وأراد السيد المدنى أن يشترى الماء الذى أراد شراءه عبد الواحد من بنى على فلم يوفق فى ذلك. وترك مجرى عين مصرع التى لم يستطع بنو على تعميرها فى حالة متخربة وفتح الماء الذى يخصه مجرى آخر واشترى من أجل سقى أراضيه التى فى مصرع ثمانى وجبات من الماء من عين الحازمية، واشترى بنو على ثلاث حصص ونصف حصة من الماء من عين الحازمية واضطروا لرى الأراضى التى يمتلكونها فى عين مصرى.

إن ما قام به السيد المدنى من محاولة غير لائقة أدت إلى جفاف نهير كان يجرى من خمسمائة عام.

عين شربونى:

هذا الماء فى سفوح جبل أحد الذى يقع فى الجهة الشامية من مسيل حمزة، وبما أن مجراه قد خرب فانقطع ولم يبق فى الحديقة التى كان يسقيها إلا خمسون نخلة وشجرة سدر.

عين الثنايا:

يطلق على هذا الماء عين معاوية أيضًا، وهى فى الطرف الغربى لمسجد حمزة وهى تحت إدارة أبى السعود أفندى الداغستانى المفتى السابق وأصحاب الحصة فيها، وتوجد فى الحديقة التى تسقيها غير الأشجار المثمرة المتعددة أربع آلاف نخلة.

عين السلامة:

هذه العين فى الطرف الغربى لعين الثنايا وتحت إدارة شركة أبى السعود أفندى ومجراها من أعظم مجارى مياه المدينة وأقواه وأسلمه وما تسقيه من الأراضى أجود محصولاً من أراضى المواقع الأخرى، وتسقى ما عدا أشجار التين والليمون، والرمان ما يقرب من خمسة آلاف من أشجار النخيل.

عين غرابية:

هذا الماء فى غرب عين سلامة واسمه الآخر عين جنانية، إلا أن مجراه خرب ولما كان ملاكها متخاصمين انقطعت العين عن الجريان. ولم يبق فى الحديقة التى كانت تمر منها إلا ألف وخمسمائة نخلة.

عين سيد عبد الله: وماء سيد عبد الله، فى الطرف القبلى لعين غرابية وفوق مسيل الوادى وكان يمتلكها كاتب الخزينة النبوية المرحوم سيد عبد الله جعفر أفندى وتروى حديقة تحتوى على سبعمائة نخلة.

إخطار: تتجمع مياه أسبلة حمزة سبيل أبى جيدة وسبيل رانوناء، وسبيل عقيق وتلتقى فى نقطة واحدة وتجرى معًا فى مجرى واحد إلى وادى الغابة، وأراضى العيون التى تسيل فيها مجتمعة قسمان:

١. القسم الأول:

سفوح جبل أحد الشرقية، والجهة التى يمتد إليها الوادى المذكور إلى موقع الحيدرية يقال لها الجزع الشرقى.

٢. القسم الثانى:

الجهة الغربية من الوادى يطلق على هذه الجهة جزع الصادقية.

جزع الصادقية: من يريد أن يذهب إلى جزع الصادقية بطريق البركة إلى الصادقية ومن يريد أن يذهب إلى الحيدرية يدخل فى شارع الجزع الشرقى، ويذهبون إلى الحيدرية من بين حدائق عين سلامة وعين غرابية. انتهى.

وما عدا الحدائق التى ذكرت أعلاه خمس وثلاثون حديقة أخرى تحتوى على ثلاث آلاف وخمسمائة نخلة مثلها من العيون والعيون التى انقطعت مياهها والتى ينتظر أن يجرى ماؤها فى خلال سنتين أو ثلاث والتى لم يغرس نخيلها خارج هذا الحساب. ولما كانت هذه العيون والحدائق على الجهات للأربعة لمدينة الرسول، فإذا ما أبعدت عن المدينة مسافة خمس أو ست ساعات وسقيت بالعيون التى مازالت جارية الحدائق التى انقطعت مياهها وأشجار النخيل المغروسة فيها كثيرة بحيث تحير العقول. وغير هذه الحدائق حدائق متعددة منتظمة فى الجهة الشامية خارج سور المدينة وبساتين إلا أنها تروى بمياه الآبار وإذا ما قورنت هذه الحدائق بالحدائق التى تروى بالمياه الجارية فهى أقل من القليل لأن الحدائق التى فى هذه الجهة من البلدة الطاهرة تروى وتسقى بالمياه الجارية أى من الجداول والعيون.

ولكن قد حفر كثير من الآبار حتى لا تترك الحدائق والبساتين دون ماء حينما يشح الماء فى العيون.

الحدائق القريبة من سور المدينة فى الجهة الشامية من البلدة المقدسة هى: الداودية، حديقة ألزكى، السبيل، بضاعة، بضيعة، الطرناوية، الفيروزية، الزينية، الدرويشية، بئر حاء، بئر حاء الصغيرة، التوانيه، الجودية، الكاتبية، السمانية،

عبد الجليل برادة أفندى، الروميه ولم يفصل بين السور والحدائق غير طريق واسع وقد اتصلت الجهة الشامية من هذه الحدائق حتى حصة الصدقة وشملها العمران. وفى كل حديقة قصور عظيمة مرتفعة والدواوين والأحواض التى تملأ بالدلاء وتنبت فيها ثمار وفواكه مثل البلح والعنب والرمان والتين والسدر وأشجار مثمرة أخرى. والقسم الأعظم من محاصيلها ملك أغوات حرم السعادة.

وإن كان فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة كثير من حدائق النخيل والبساتين إلا أنها ليست جميلة مثل الحدائق القريبة من السور. ولكن فى الحدائق التى خارج باب قباء مبان ساحرة وإن كانت فى الجهة الشامية من المدينة، نحو جبال الغابة فى طول خمسة وعشرين ألف ذراع من الأراضى إلا أن معظمها غير مزروع، واستصلاح هذه الأراضى يحتاج إلى حفر آبار وإعداد عيون. وقد كثرت مجارى وقنوات الأنهار التى فى الجهة الشرقية والقبلية وإجراء العيون بحفر المجارى والجداول سيخرب مزروعات هاتين الجهتين وحدائقها؛ لذلك فهذا غير جائز.

وإضافة إلى عين السيد علوى سقاف والسيد هاشم جمل الليل وعين الأغوات. المياه الجارية التى فى هذه الجهات تسير مجاريها عن طريق الجهة الشرقية من البقيع الشريف وتمر من وسط الحدائق وأشجار النخيل التى تنبت من نفسها نحو مسيل أبى جيد. ومنابع هذه المياه، كما ذكرت آنفًا فى مسيل حمزة ودويخلة، ومنابع بعضها فى وادى جرف؛ ولهذا فمياه عموم أنهارها مر، وبما أن مياه جزع الصدقة من آبار وادى جرف فهى عذبة وصالحة لرى الأشجار وبئر عثمان بئر من آبار جرف.

وتروى مزارع الجهة الغربية من البلدة المسعودة وهى فى منتهى ذى الحليفة بمياه الآبار. لأنه لا توجد مياه جارية فى هذه الجهة منها. وإن كانت شركة سزنى قد أعدت عينًا فى سنة ١٣٠١هـ وبما أنها لم تغرس بعد أشجار النخيل فالحدائق التى على الجهات الأربعة لهذا الماء تروى بماء الآبار. ولما كانت هذه الآبار قليلة

وعميقة فيتم الحصول على مائها بعد مشقة شديدة. وفى الحرة الغربية على جانب مجرى سيل العقيق كثير من الآبار والمزارع يقال لها عنابس، وعندما ينزل من المدرج إلى وادى نقاء توجد بعض المزارع والحدائق، الحديقة الكبيرة المتصلة بالجهة الشرقية للحرة تقع فى الجهة القبلية لمعسكر الجنود السلطانية. وكانت هذه الحديقة تتبع إلياس تاج الدين فباعها قبل عدة سنوات لعبد الله عرب الميمنى. وعلى الطرف القبلى من تلك الحديقة حديقة مغيسلة التى يمتلكها عمر زاهد أفندى. ومياه هاتين الحديقتين عذبة والمبانى التى فى داخلها فى غاية الرصانة والمتانة وغير ذلك فمغروساتها حسنة وآبارها غير عميقة قريبة المياه.

الوجهة الثامنة عشرة
تشتمل على أربع صور وتبين ما ينسب
إلى النبى صلى الله عليه وسلم
من الأوقاف الشريفة والمساجد التى بين الحرمين
والمساجد التى أدى فيها الصلاة فى أثناء الغزوات

فى ذكر ما ينسب
إلى النبى صلى الله عليه وسلم من صدقات

روى ابن شهاب أن جميع الصدقات النبوية تتكون مما ترك وتبرع مخيريق[1] من أحبار اليهود من الأموال، وكان مخيريق المذكور من أصحاب الثروة والغنى وبما أنه أرباب العلوم العقلية والشرعية أعتقد بان النبى ﷺ خاتم الأنبياء الذى بشرت الكتب السماوية قدومه فرغب فى أن يسلم قبل جميع الناس. ولكنه لم يرد أن يحدث سوء تفاهم بينه وبين معاندى اليهود، فلم يظهر شعائر الإسلام، ولما ظهرت شرارة غزوة أحد وشرع النبى ﷺ فى الحرب، فجمع مخيريق أعيان طوائف اليهود ورؤساءهم وألقى خطبة مؤثرة إذ قال لهم: «بناء على أحكام الكتب المنزلة فمحمد ـ عليه وعلى آله صلوات الله الأمجد ـ الموجود الآن فى ساحة المعركة نبى آخر الزمان، وحسب الديانة لنذهب حتى نعينه ولما قوبل بجواب خلاف أفكاره المخلصة قال إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينبغى أن نظاهره فيه ونفدى فى سبيله بأرواحنا» وانطلق إلى حومة الوغى.

وأعلن إسلامه أمام النبى ﷺ وقال إذا ما نلت الشهادة أرجوك أن تقبل جميع ما أمتلكه من أموال!!! ثم دخل فى الحرب وبعدما قتل بعض الأعداء نال الشهادة ونال ثناء النبى ﷺ عليه إذ قال: «مخيريق خير اليهود».

وروى عبد العزيز بن عمران أن مخيريق من بقايا يهود بنى قينقاع.

كما روى الإمام الواقدى بأنه من أخيار أحبار يهود بنى النضير.

وقال الإمام الذهبى بما أنه صدق نبوة محمد ﷺ فهو من جملة الصحابة الكرام.

قال الإمام الواقدى: ظل مخيريق على اليهودية ولم يسلم وتوفى فى معركة

(١) انظر: الإصابة ٦/ ٧٣، الدرر ص ١٥١. الطبرى ٢/ ٥٣١ ابن هشام ٣/ ٢٩.

أحد، ودفن فى مقبرة المسلمين ولكن لم يصل عليه وادعى بهذا القول عدم إيمان مخيريق، ولكن ابن شهاب فند قول الواقدى هذا وقال: «كان مخيريق ترك جميع ما يملكه إلى النبى ﷺ وأهداه له واستشهاده فى معركة أحد باعث لقول النبى ﷺ «مخيريق سابق اليهود، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة».

وإذا ما نظرنا إلى ما يفيد الحديث الشريف الذى يصرح بإسلام مخيريق يلزم أن نحكم أن الإمام الواقدى أخطأ فى قوله هذا».

والذى عرض مخيريق للنبى ﷺ سبعة أموال:

١ ـ دلال

٢ ـ برقة

٣ ـ أعواف

٤ ـ صافية

٥ ـ ميثب

٦ ـ حسنى

٧ ـ مشربة أم إبراهيم[١].

وهى سبع مزارع، فأوقف النبى ﷺ ـ جامع مكارم الأخلاق ـ الأموال السبعة كلها.

وأربع من المزارع السبع وهى صافية، برقة، دلال، ميثب، فى مكان يسمى عالية خلف قصر مروان بن الحكم وهى متقاربة بعضها من بعض ومتجاورة وكان يسقى بالماء الذى يمر من وادى مهزور، وفى عصرنا يطلق على مزرعة صافية، زهيرة وهى فى الطرف الشرقى للمدينة المنورة، ومازالت برقة حديقة معروفة بهذا الاسم فى الجهة القبلية لزهيرة وحديقة دلال التى وقفت لمدرسة الشهابية بجانب حديقة برقة. وهذه الحدائق الثلاث متصلة بعضها ببعض ومن المحتمل أن حديقة مثيب أيضًا بالقرب من هذه الحدائق أو متصلة بها. ولكن فى زماننا هذا ليس هناك شخص يعرف مكانها.

(١) تقال لفظة مشربة على البيت العالى.

ومشربة أم إبراهيم بجانب مسجد المشربة كما بين فى فصل المساجد و حسنى فى ناحية قف وكانت تسقى بماء وادى مهزور.

والحديقة المسماة بحسينات بالقرب من جزع دلال وقريبة من ماجشونية. يظهر أنها مكان عرصات مشربة وحسنا. ومزرعة أعواف فى محل يسمى ببئر أعواف وهذه أيضًا تسقى بماء وادى مهزور. وعلى هذا التقدير فالأموال السبعة كلها موجودة ولكن تغيرت أسماؤها مع مرور الزمان.

والمزارع التى عرفت أماكنها من مزارع الصدقة انتقلت كلها من مخيريق وهذا معروف لدى أئمة السير. إلا أن المؤرخين اختلفوا فى تعريف الصدقات النبوية فقال بعضهم. الصدقات النبوية من أموال بنى قريظة وبنى النضير. حتى إن مزرعة دلال كانت ملك امرأة من قبيلة بنى النضير وقد غرست أشجارها من قبل الصحابة بشرط أن تطلق سراح عبدها سلمان وتحرره.

وذهب بعضهم إلى أن الصحابة غرسوا أشجار مزرعتى برقة ومثيب للزبير بن باطاء القرظى لعتق سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ وأن مزرعة أعواف كانت ملك امرأة تسمى خناقة من بنى قريظة.

وقد أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأموال بنى قريظة وبنى النضير وأهل فدك التى فتحت وأخذت بدون حرب قال الله تعالى:

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال) (الحشر: ٧)

وقسم النبى ﷺ أكثر أموال بنى النضير للمهاجرين وأخذ لنفسه مزارع مخيريق السبع. ثم انتقلت هذه المزارع السبع إلى أيادى بنى فاطمة لأن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ذهبت إلى أبى بكر الصديق فى عهد خلافته وطلبت الأموال

المذكورة نصيب الرسول ﷺ من غنائم فدك وخيبر إلا أن أبا بكر الصديق رفض إعطاءها محتكمًا إلى الحديث الشريف «نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة»

إلا أن على بن أبى طالب وعمه عباس ـ رضى الله عنهما ـ طالبا بالأموال المذكورة من عمر الفاروق فى عهد خلافته، فاتفق الخليفة معهم على إعطائهما أموال مخيريق السبعة دون حدائق فدك وخيبر قائلا: «يجب عليكم أن تديروا أمر هذه المزارع السبع كما أدارها النبى ﷺ وخليفته أبا بكر» وأعطاهما هذه الأموال بشرط توليه إدارتها. وإن كان بعض المؤرخين يدعون أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد غضبت من أبى بكر الصديق فى هذا الخصوص إلا أن رأى أبى بكر الصديق كان إدارة الصدقات النبوية من قبل خلفاء النبى ورأى عمر كان أن يتولى إدارتها العباس بن عبد المطلب مع على بن أبى طالب. وبناء على هذا عندما سمح عمر بن الخطاب لعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب تولى إدارة الصدقات النبوية اتفق معهما على أن تدار بناء على الشروط المشروحة.

وتولى إدارة الصدقات السبعة بعد سيدنا على بن أبى طالب الحسن بن على وبعده أخوه الحسين بن على وبعده على بن الحسين والحسن بن الحسين، ولما تولى بنو عباس عرش الخلافة والحكم أخذوا إدارة الصدقات من أيدى أبناء فاطمة وتصرفوا فيها كما يشاءون وأسندوا إدارتها لمن يريدون وأخذوا يوزعون محاصيلها لفقراء المدينة المنورة.

واضحة: يروى بعض المؤرخين أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ غضبت من أبى بكر الصديق كما ذكر آنفًا ولكن ليس لهذا الموضوع أصل ولا أساس وكانت المشار اليها عقب وفاة النبى ﷺ قد قالت لأبى بكر الصديق مخاطبة كان النبى ﷺ أنعم على فى حياته بحدائق نخيل فدك.

ويعرف هذا زوجى على وأم أيمن وإذا اقتضى الأمر يشهدان بذلك. وبناء على ذلك أطلب أن تكون لى النظارة على ذلك النخيل. فإذا أثبت أن النبى ﷺ

قد وهب لك نخيل فدك وملكك لا أتردد فى إحالة نظارتها عليك. فقال لها ما معناه: وأنت تعرفين جيدًا أنه إذا كانت شاهدة دعوة من الإناث، فإنه بمقتضى شريعتنا أن شهادة امرأتين تقوم مقام شهادة رجل واحد ومن هنا يلزم أن تأتى شاهدة أخرى مع أم أيمن.

ولما رأت هذه الإجابة الصحيحة تنازلت عن القضية. وما يقوله المؤرخون بأن السيدة فاطمة غضبت من أبى بكر جراء هذه الواقعة. لا يصح لأنه لم يظهر بين المشار إليهما أى نزاع يوجب أن يغضب أحدهما الآخر؛ لأن الصديق ـ رضى الله عنه ـ لم يقل قولاً خارج الشريعة الغراء حتى يغضب فاطمة ولم يظهر فى حقها أقل شىء يسئ إليها ويزعجها.

وطالب على ابن أبى طالب بحدائق النخيل تلك فى خلافة عمر بن الخطاب وأرضاه بدرجة ما. إلا أن العباس بن عبد المطلب بين استحقاقه لتلك الحدائق وأنه يستحق كذلك حدائق نخيل فدك وحدائق خيبر وأطال القول فى هذا الموضوع وأوصل الموضوع إلى درجة الخصومة ومن هنا طالب على بن أبى طالب عمر الفاروق بأن لا يعطى لأى واحد منهما حتى لا يكون الموضوع باعثا على الخصومة. وظلت المسألة مسكوتًا عنها إلى عهد عمر بن عبد العزيز. ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أظهر تعظيمه وحرمته لآل النبى ﷺ بأن سلم نخيل فدك لأولاد فاطمة. إلا أن تلك الحدائق قد استردت فيما بعد وهكذا أوذى أحفاد النبى مرة أخرى وأهينوا وكان عمر بن عبد العزيز قد أسعد بنى فاطمة وجبر خاطرهم بأمر واليه فى المدينة فى أوائل جلوسه على عرش الخلافة بأن ملك نخيل فدك لأبناء على بن أبى طالب ولآل النبى ﷺ إلا أن يزيد بن عبد الملك الذى تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز استرد نخيل فدك وترك آل بيت الكرام فى براثن العوز والحاجة إلى أن رد السفاح العباسى فى أثناء جلوسه على عرش الخلافة تلك الحدائق إلى أبى الحسن بن الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ فأجبر خاطرهم. وإن كان أبو جعفر المنصور أهان أهل البيت وجفاهم واسترد منهم حديقة فدك وترك شجرة سعى السفاح دون الثمار. ولكن عندما جلس

المهدى على كرسى الخلافة استهجن عمل والده ورد نخيل فدك إلى أحفاد على بن أبى طالب وأسعدهم ولكن موسى الهادى أخذه منهم وترك المشار إليهم فى حالة حزن وألم وأصبح أخذ نخيل فدك من أبناء فاطمة و إعطائها لهم عادة بين الخلفاء، وقد تحمل العلويون هذه الحقارة إلى عهد المأمون العباسى المصون من الظلم، ولكنهم بعثوا فى عهده رسولاً وطالبوا الخليفة بنخيل فدك للعلويين بالشرط المذكور سابقًا. وبينوا أنه غير قابل بعد ذلك للاسترداد. وذلك فى سنة (٢١٢هـ) واستهجن أسافل الناس موقف المأمون وأنشدوا البيت الآتى فى معرض الاستهزاء.

البيت العربى

أصبح وجـه الزمـان قد ضحكا برد مأمـون هاشـم فدكا

وفى رواية أخرى أن معاوية بن أبى سفيان أقطع نخيل فدك لمروان بن الحكم.

كما أن ابن الحكم وهب نصفه لعبد العزيز وعبد الملك. ولما جلس عمر بن عبد العزيز على عرش الخلافة وهب حصته والحصص الأخرى لبنى فاطمة وملكهم.

وعلى رواية أن عثمان بن عفان هو الذى ترك وأقطع فدك لمروان بن الحكم. ولكن الرواية الأولى أقوى من الرواية الثانية.

فى ذكر المساجد النبوية التى بين الحرمين

إخطار:

ليس بخاف أن تلك المساجد تقع فى طريق النبى الذى سلكه من المدينة إلى مكة المكرمة. فهذا الطريق معروف باسم طريق الأنبياء وهذا الطريق يتفرع من الروحاء ومسجد غزالة ويتجه نحو قريتى خيف والصفراء ومن هناك يمر إلى مكة المكرمة. وإن كان هذا الطريق أقصر الطرق إلا أن قوافل الحجاج لا تسلك هذا الطريق منذ فترة وبظهور بعض الموانع ترك الحجاج السير فى ذلك الطريق المليئ بالفيض والبركة. والآن يمرون من شارع الروحاء ومضيق جديدة وأحيانًا أخرى يمرون بالصفراء ومن محل قريب من ساحة معركة بدر الكبرى، ويقال لهذا الطريق السلطانى، والذين يسلكون الطريق السلطانى يحرمون من زيارة المساجد التى سيأتى ذكرها إلا أنه فى السنين الآمنة تسلك الحجاج الطريق الذى فيه المساجد المذكورة، وغرضنا هو أن نذكر ونبين المساجد النبوية المأثورة وبيان المواقع التى صلى فيها الرسول ﷺ وبهذا نكون قد خدمنا العالم الإسلامى؛ فإذا ما ذكرنا وعرفنا طريق الحرمين فقط فلا نكون قد تبركنا بذكر المساجد النبوية وهذا ما نقصد إليه. ومع ذلك ستعرف طرق القوافل التى يسلكها الحجاج فى ذهابهم وإيابهم إلى الحرمين فى صورة خاصة. انتهى.

١. مسجد الشجرة:

اسم هذا المسجد الآخر مسجد ذى الخليفة ويقع فى ميقات المدينة المنورة وبجانب شجرة يطلق عليها سمرة من جِيْشِ[١] أُمّ غَيْلاَن، وكان النبى ﷺ كلما حج أو اعتمر يصلى تحت هذه الشجرة ثم يلبى حيث الجمال ويقضى ليله فى ذلك المكان؛ ومبانى هذا المسجد المقدس كبيرة جدًا وله بعض العقود فى جهته

(١) الجِيْشُ: نَبَاتٌ له قضبان طوال خضر. اللسان (جيش) وأم غَيْلاَنَ: شجر السَّمُرِ. اللسان (غيل).

القبلية وله فى الجهة الغربية الشمالية مئذنة. وقد خرب بمرور الأيام واندرس أساسه، فجدده زين الدين الاستدارى المصرى فى سنة ٨٦١هـ وبنى حوله سوراً كما صنع للآبار التى بجواره سلالم لكل واحدة منها. وجهات ذلك المسجد الأربعة السطحية من الداخل اثنين وخمسين ذراعًا. ومازال عامرًا إلى الآن. ولما كان مرويًا أن النبى ﷺ قد صلى على ساحة مسجد الشجرة فى الجهة القبلية بنى عمر بن عبد العزيز على ذلك المكان مسجداً صغيراً.

٢ـ مسجد المعرس:

إن مسجد المعرس اللطيف اسم المسجد الذى بناه عمر بن عبد العزيز فى ذى الحليفة ويحرم الحجاج الكرام فى مسجد الشجرة. وبين هذين المسجدين مسافة مرمى السهم، فخربت السيول التى نزلت مسجد المعرس وملأت ساحته بالرمل فمكانه مجهول الآن.

كان النبى ﷺ، كما سبق ذكره أعلاه، عندما يسافر إلى مكة المكرمة للحج والعمرة كان يصلى تحت تلك الشجرة التى بنى مكانها الآن المسجد، وعند عودته يبيت فى ساحة بطن الوادى الرملية ويستريح حتى الصباح، وفى ليلة عندما كان فى بطن الوادى قد نال شرف خطابه فى رؤياه أنك فى بطن البطحاء الآن وكان ذلك الوادى السعيد وادى العقيق وكان قضى ليلة بجانب ذلك الوادى.

وكلما كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يحج اعتاد أن يقضى ليلة حيث قضى النبى ﷺ ليله وذلك المكان المقدس بين الطريق المشهور المذكور وبطن الوادى.

٣ـ مسجد شرف الروحاء:

يروى أن النبى ﷺ أدى الصلاة فى مسجد شرف الروحاء، ولما كان المسجد المذكور قريبًا جدًا من مكان شرف الروحاء فسمى بمسجد شرف الروحاء وهو مسجد صغير فى غاية الصغر. وبناء على الرواية التى تنقل عن عبد الله بن عمر أن ذلك المسجد الصغير يظل على يمين الذاهبين إلى مكة المكرمة وعلى مرمى

حجر من المسجد الكبير الذى يسمى مسجد الروحاء. والمسافة من مسجد شرف الروحاء إلى موقع السيالة ميلان، ومن مسجد الروحاء إلى موقع السيالة أحد عشر ميلاً ومن السيالة إلى ملل حيث سكن حسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وبعض القرشيين سبعة أميال.

وفى موقع ملل عدة آبار إلا أن مياه هذه الآبار ليست عذبة مثل بئر السويقة التى تبعد مسافة ميل واحد. وبئر سويقة ملك عبد الله بن الحسن ـ رضى الله عنهما ـ ولكنها انتقلت فيما بعد لأيدى الأعداء.

وشرف الروحاء فى نهاية حدود الوادى الذى يسمى سيالة. وقريب من المسجد الذى عرفناه وما بين شرف الروحاء والسيالة مفصول بمكان يسمى صُخَيْرَات اليَمَام ولأجل ذلك من يهبط من موقع ملل ويدور نحو اليسار ويستقبل القبلة يكون قد دخل فى سيالة.

وبجانب مسجد شرف الروحاء مقبرة تشتهر بأنها مقبرة أهل سيالة ويروى أن هذه المقبرة مقبرة أهل بيت رسول الله الذين استشهدوا غدرًا وهم يقيمون بجانب بئر سويقة. والذين ينزلون من مسجد شرف الروحاء إلى وادى الروحاء مستقبلين القبلة يدخلون وادى بنى سالم وقوم بنى سالم قبيلة من جماعة بنى حرب.

٤ـ مسجد عرق الظبية:

يقع هذا المسجد على بعد ميلين من الروحاء. قد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان صلاة الفجر. وهنا تذاكر مع أصحابه التدابير العسكرية لغزوة أحد وتفضل قائلاً: هذا الجبل جبل من جبال الجنة فليباركه الله لنا ولأهله، وهذا الجبل يلطف جو الروحاء وهذا الوادى من وديان الجنة، قد صلى فى هذا المكان سبعون ألفًا من الأنبياء.

والذين يريدون أن يعثروا على المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ، ثم بنى عليه المسجد، ليصلوا فيه يجب أن ينزلوا إلى الروحاء ويتوجهوا إلى الجهة

القبلية وعند الوصول إلى محاذاة طريق الجبل الذى على الجهة اليسرى يستدار إلى الجهة الغربية ويسار إلى سفح الجبل؛ لأن المسجد الشريف على يمين ذلك الجبل.

وأول ما يصادفه الذين وصلوا إلى سفح الجبل هو موقع المسجد الشريف. وإن كانت أبنيته خربة مندرسة ولكن من الممكن التشرف برؤية موقعه اللطيف.

٥ـ مسجد الروحاء:

هذا المسجد بجانب بئر الروحاء فى وادى الروحاء. وعندما ذهب النبى ﷺ إلى غزوة بدر قام من موقع عرق الظبية ووصل إلى الروحاء فى يوم الأربعاء وكان نصف شهر رمضان فاستراح قليلاً وصلى. وكانت آبار عدة فى وادى الروحاء فى ذلك الوقت. ثم انهارت كلها وامتلأت بالرمل ولم تبق سوى بئر الروحاء وخرائب تلك الآبار.

٦ـ مسجد المنصرف:

يسمى كذلك مسجد الغزالة ويقع أسفل الجبل الكائن فى نهاية وادى الروحاء وبينه وبين الروحاء ثلاثة أميال. ويظل على يسار من يذهبون إلى مكة المعظمة وكان عبد الله بن عمر لا يصلى فى داخل هذا المسجد بل يستدبر مسجد المنصرف ويستقبل مكانًا يسمى عرق ويصلى وكان يقول إن النبى ﷺ صلَّى فى هذا المكان، وكان فى عهد عبد الله بن عمر بجانب ساحة المسجد المذكور شجرة مغيلان كان يصلى المشار إليه تحت هذه الشجرة ثم يسكب الماء الباقى لجذور تلك الشجرة ويقول: هكذا فعل الرسول ﷺ. ويدور حول الشجرة ويكمل السقى. ولكن لشدة الأسف فقوافل الحجاج تركوا هذا الطريق ولم يبق لمسجد المنصرف حتى الأسس.

٧ـ مسجد الرويثة:

يقع فى الجهة اليمنى للطريق القريب من قرية رويثة. وقد نزل النبى ﷺ هناك وصلى فى ظل سرخة ضخمة، وبين قرية رويثة والروحاء ثلاثة عشر ميلاً، وعلى قول ستة عشر ميلاً، ويقع فى جهة مكة ومقابل جبل الحمراء وفيه حياض عديدة وآبار كثيرة وهواؤه جيد طيب.

٨ـ مسجد ثنية ركوبة:

ويقع على الجهة اليمنى من ثنية العابر عقبة عرض عَرْج وبعيد عن عَرْج بثلاثة أميال، وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان حيث بنى مسجداً.

٩ـ مسجد الإثابة:

مسجد الإثابة على بعد من موقع عَرْج بميلين فى جهة المدينة.

قد صلى ﷺ ركعتين بجانب بئر إثابة والبئر التى يطلق عليها الإثابة على بعد ميل من موقع عَرْج المذكور من ناحية مكة المكرمة. وفى مكان اسمه بدارج وبما أن الحدود الحجازية تنقطع قبل النزول فى هذا الوادى فبئر الإثابة فى نقطة انتهاء الحدود الحجازية.

١٠ـ مسجد الغرس:

هذا المسجد على بعد ميل من مسجد الإثابة فى جهة مكة المكرمة، قد أدى الرسول ﷺ على ساحة ذلك المسجد الصلاة ونام فيها بالضحى.

١١ـ مسجد طرف تلعة:

مسجد تلعة على جهة مكة وعلى بعد خمسة أميال أو ثلاثة من مسجد عرج يروى وجود مسجد آخر فى ساحة تلعة يسمى هضيبة إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك المسجد مسجد العرج.

وإن كان على جهة ما لمسجد تلعة عدة قبور محاطة بسور من جهاتها الأربعة. إلا أنه لا يعرف أصحاب هذه القبور.

١٢ـ مسجد حى جمل:

هذا المسجد بجانب قرية بئر طلوب البعيد عن مسجد عَرْج بأحد عشر ميلاً. والمسافة من بئر طلوب إلى قاحة خمسة أميال ومن هناك إلى مسجد سقيا ميل واحد وماء بئر طلوب ثقيل وغير لطيف. وقد احتجم الرسول فى هذا الموضع وهو محرم وفى قول آخر إنه احتجم فى وادى قاحة. قال بعض المؤرخين إن حى الجمل اسم ماء يقع بين السقيا والأبواء وهذا يؤيد قول القاضى عياض فى حق حى الجمل الذى يبعد عن السقيا سبعة أميال. يطلق حى الجمل على عقبة الجحفة.

١٣ـ مسجد السُقيا:

يقع على جانب الجبل الكائن فى سقيا. وبجانب بئر عذبة الماء.

١٤ـ مسجد مدلجة تعهن:

هذا المسجد على بعد ثلاثة أميال من بئر السقيا فى جهة مكة. وقد صلى النبى ﷺ على ساحته ثم بنى عليها مسجداً.

١٥ـ مسجد الرمادة:

مسجد الرمادة على بعد ميلين من أبيار على بعد أحد عشر ميلاً من المدينة والسقيا من جهة مكة. وقد صلى النبى ﷺ فى هذا المكان أيضًا.

١٦ـ مسجد الأبواء:

أبواء قرية لطيفة حيث آبار عديدة وحدائق كثيرة والمسجد فى وسط هذه القرية. وقد أدى النبى ﷺ الصلاة فيه أيضًا.

١٧ـ مسجد البيضة:

يقع على بعد خمسة أميال من قرية أبواء، ناحية مكة وصلى فيه النبى ﷺ.

١٨ـ مسجد عقبة الهرشى:

يقع بالقرب من عقبة الهرشى التى تبعد عن أبواء ستة أميال، تقع عقبة الهرشى على بعد ميل من العلامة التى توضح أن هذا المكان هو منتصف الطريق بين المدينة المنورة ومكة المعظمة. وقد نزل النبى ﷺ بجانب الأشجار التى على حافة المسيل الذى فى الجهة اليسرى من الطريق الذى أمام عقبة الهرشى. ويقع المسيل المذكور على ربوة الهرشى وبينهما وبين منتصف الطريق المذكور كان عبد الله بن عمر يصلى تحت أقرب الأشجار إلى الطريق.

١٩ـ مسجد الجحفة:

فى الموقع اللطيف المسمى بجحفة ثلاثة مساجد شريفة. وأحد هذه المساجد أمام الجحفة والآخران بجانب العلمين يقال لها مسجد الأئمة ويطلق على المسجد الذى أمام الجحفة مسجد غورت وأحد المساجد الثلاثة على بعد ثلاثة أميال أو أربعة من الجحفة وعلى يسار الطريق على حافة المسيل يطلق على هذا المسجد غدير الخم أيضًا. وبناء على تعريف القاضى عياض أن غدير الخم اسم تربة كبيرة وهناك نهير صغير يصب فى هذه البركة ومسجد غدير الخم فى وسط هذا النهير والبركة سابقة الذكر؛ لذا سمى المسجد مسجد غدير الخم.

وقد نزل النبى ﷺ على حافة تلك البركة وصلى صلاة الظهر فى ظل شجرة، وأمسك على بن أبى طالب من يده وقال: اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه.

٢٠ـ مسجد القديد:

معبد القديد اللطيف على مسافة ثلاثة أميال من موقع القديد المشهور. كانت ساحته مكان خيمة أم معبد. ومناة التى كان يعبدها عرب الجاهلية كانت منصوبة على يمين المحل المذكور وفى مكان مرتفع.

٢١ـ مسجد حرة:

على قمة عقبة خليص والمسافة بين مسجد حرة وعقبة خليص ثلاثة أميال.

٢٢ـ مسجد خليص:

يقع على جانب ماء ابن ربيع وعلى جوانبه حوض مملوء بالماء وبركة وكثير من حدائق النخيل.

٢٣ـ مسجد بطن مر الظهران:

كان مسجد بطن مر الظهران فى واد بطن مر الظهران الذى يبعد عن مكة المكرمة سبعة عشر ميلاً. وإن كانت أبنيته انهارت وخربت ولم يبق أثر يستطيع الرائى أن يقول هنا كانت خرابة مسجد إلا أنه لما كان معروفًا بالتحقيق أنه كان بجانب الحوض الذى يملؤه نهير العقيق، لذا يصلى الزوار بجانب هذا الحوض متبركين.

وليس ببعيد أن يكون مسجد الفتح المؤسس على حافة مجرى نهير العقيق الذى على يسار الذاهبين إلى مكة من المدينة وفى المحلة التى يطلق عليها جموم من مر الظهران.

لأن النبى ﷺ كان قد نزل على ساحل مجرى النهير المذكور.

والمحل الذى يطلق عليه جموم فى داخل وادى مر الظهران.

٢٤ـ مسجد سرف:

يقع مسجد سرف على بعد ثلاثة أميال من المسجد الذى ينسب إلى روح النبى ﷺ عائشة ـ رضى الله عنها ـ حيث يلبس ملابس الإحرام وفى جهة وادى فاطمة. والسيدة ميمونة ـ رضى الله عنها ـ من زوجات النبى ﷺ مدفونة بجانب ذلك المسجد وبنى ضريحها بأمر النبى ﷺ.

٢٥ـ مسجد التنعيم:

يقع هذا المسجد فى ساحة وادى نعمان وعلى ثلاثة أميال من ضريح ميمونة ـ رضى الله عنها ـ من جهة مكة المكرمة، وعلى الجهة اليسرى منه جبل ناعم وعلى الجهة اليمنى جبل نعيم ويقال للمسجد التنعيم مسجد هليليجة أيضًا.

ويروون أن هناك شجرة بجانبه ولكن اليوم لم يبق أى أثر من المسجد ولا من الشجرة.

٢٦ـ مسجد ذى طوى:

هذا المسجد اللطيف ما بين حجونى مكة والموقع الذى يقال له ما بين الثنيتين، أى فى الموقع الذى ينصب فيه محمل مصر خيامه وقد قضى النبى ﷺ ليلته فى سنة حجة الوداع على ساحة مسجد ذى طوى وبعد أن أدى صلاة الفجر فيها توجه إلى الكعبة المعظمة يطوفها عن طريق مقبرة المعلى.

فى تعريف المساجد التى توجد فى الطريق الذى يسلكه الحجاج فى عصرنا ذاهبين راجعين

كلما ذهب النبى ﷺ محرمًا بنية الحج إلى مكة المكرمة كان ينزل بجانب بئر شعبة بعد المرور بالجبال التى يطلق عليها جبال المضيق وفى موضع يطلق عليه دَبَّة مستعجلة حيث يشرب الماء. والمستعجلة اسم جبل مشهور بين الحرمين، وبعد ما تمر قوافل الحجاج بوادى النازية متجهة إلى الصفراء تصعد على هذا الجبل. كان النبى ﷺ ينزل بعد القيام من بئر شعبة فى شِعْب سَيَر الذى يطلق عليه شعب كبث أيضًا الذى يقع بين المستعجلة وقرية الصفراء، وهذا المكان هو الموقع الذى وزعت فيه غنائم بدر الكبرى ولم ينقطع ماء بئره فى أى وقت من الأوقات. والدَّبَّة معناها كومة الرمل، وكومة الرمل التى يطلق عليها دبة مستعجلة على بعدنصف فرسخ من جبل مستعجلة وبين جبلين. وبجانب دبة جبل مستعجلة حوض حيث ينزل حجاج القوافل فيستريحون والجبال التى تحيط بجانبى هذه الكومة يطلق عليها جبال المضيق:

١ـ مسجد ذات أجدال:

وهذا المسجد اللطيف فى وادى الصفراء حيث يوجد مسجدان أيضًا وهما جيزتان وذَفَرَان كان النبى ﷺ صلَّى فيهما. وذفران اسم مجرى النهير الذى يمر ويجرى فى قرية الصفراء. وكان النبى ﷺ على جهة من هذا النهير وهو محرم، وفى المكان الذى صلى فيه النبى ﷺ بئر والبئر المحفورة صادفت المكان الذى سجد فيه الرسول ﷺ، ولعله لهذا السبب أن ماء هذا البئر ألطف ماء وأخفه من مياه جميع الآبار التى فى تلك الناحية. وفى عصرنا هذا ذفران اسم الوادى الذى

يمر منه قبل الوصول إلى الصفراء والاسم الآخر لوادى يسيرة، ومياه السيل التى تتكون فى هذا الوادى تجرى من الجهة الغربية من وادى الصفراء.

والقافلة المصرية تنفصل من هنا عند عودتها وتذهب إلى ينبع. وعند انصرافها تتجه ناحية اليمين سالكة الطريق ثم تنزل إلى قرية الصفراء التى ظلت فى الجهة اليسرى، وكان النبى ﷺ قد عاد من هذا الطريق بعد غزوة بدر، وهناك مسجد آخر على يسار من يذهبون إلى ينبع البحر مسجد مبارك آخر يزوره زوار سيد الأبرار بنيّة زيارة مسجد ذفران، ويرى محل آخر مرتفع عن الطريق قليلاً فى المحل الذى يطلق عليه الرابية بناء على أن هناك مسجد مأثور، وبما أن جميع هذه المساجد فى حدود قرية الصفراء فجوانب كل واحد منها مزينة ومعمورة بالبيوت والمحال.

وقبر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب من جرحى بدر الكبرى فى داخل قرية الصفراء وبجانب المسجد الذى ينسب إلى النبى ﷺ، وقال بعض المؤرخين إن قبر عبدة ابن الحرث بجانب مسجد ذفران والآخرون فى وادى النازية.

وقد صلى النبى ﷺ فى ثنية المبرك أيضًا. ويقع هذا المحل المقدس فى الجهة الغربية على يسار طريق الصفراء إلى الجهة اليسرى عندما تتجه من المدينة إلى ينبع البحر والمسافة بين المسجد المبارك ومنزل دعان خمسة أميال وعلى رأى ستة أميال.

٢ـ مسجد بدر:

ساحة هذا المسجد اللطيف المقدسة موضع العريشة التى صنعت من أجل النبى ﷺ فى ملحمة بدر الكبرى. واليوم بجانب حديقة النخيل، وعلى الجهة القبلية من المسجد اللطيف الذى يطلق عليه الأهالى مسجد النصر وكان هنا بئر أيضًا، وقد خربت مبانى مسجد النصر ولم يبق حتى أثر لأساسه ولا يوجد الآن من يعرف ساحة ذلك المسجد أو بئر الماء.

٣ـ مسجد العشيرة:

مسجد العشيرة فى داخل قرية بطن ينبع ينزل فى هذا المكان حجاج قافلة مصر كان الناس يروون أن بجانب ذلك المسجد عين جارية تسمى بولا ولكن اسمها تغير الآن.

٤ـ مسجد الفرع:

هذا المسجد فى طريق مكة المكرمة وممر مسافرى المدينة المنورة قد نام النبى ﷺ فى مكان يطلق عليه أكمة فى موقع الفرع، وبعد النوم صلى فى مكان تحت أكمة صلاة الظهر وسار مستقبلاً المحل الذى يطلق عليه الفرع. وعندما وصل إلى مضيق الفرع نزل وصلى بجانب وديان برود وذات حماط[1] وكهف أعشار وكذلك فى مخرج ذات حماط الضيّقة[2] صلوات منفصلة.

(١) ذات حماط اسم نهير يقع فى طرف وادى العقيق.

(٢) هذا هو الموضع الذى صلى فيه من كانوا فى غزوة بنى المصطلق.

فى ذكر المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته

١ـ مسجد عامرة:

يقع على مرحلة من المدينة من جهة خيبر كان النبى ﷺ فى هذا المكان وهو فى طريقه إلى غزوة خيبر.

٢ـ مسجد صهباء:

تقع صهباء فى وادى روحه بين المدينة المنورة وخيبر. ومسجد فضيح[1] الذى حدث فى ساحته معجزة رد الشمس فى هذا الوادى.

٣ـ مسجد منزلة:

هذا المعبد المبارك فى موضع قريب من خيبر يطلق عليه موضع الصخرة كان النبى ﷺ قد نام ليلاً بجانب هذه الصخرة قدر ساعة وهو ذاهب إلى خيبر وصلى النوافل مدة ما، ولما ركب ناقته وأراد أن يتقدم، ترددت الناقة فى التقدم إلى الإمام حينئذ، قال: اتركوا زمام الناقة فلتذهب حيث أمرت بالذهاب إليه وترك زمام الناقة، وبناء عليه رجعت الناقة الأصيلة وذهبت إلى جانب الصخرة المذكورة وبركت فسطح ذلك المكان مؤخراً واتخذ مسجداً، ومازال أهل خيبر يستمرون فى الصلاة فى هذا المكان معظمين متبركين.

وهناك مسجد آخر فى مكان يقال له «عوسنجة» بين الشَّقِّ ونِطَاة من قلاع خيبر المشهورة ويروون أن ساحته كانت مصلى للنبى ﷺ.

(١) اسم آخر لمسجد صهباء.

٤ـ مسجد شمران:

اسم مكان فى ناحية شمران سهم بنى البراز فمسجد شمران يقع على قمة جبل من الجبال الخيبرية.

٥ـ مساجد تبوك:

يختلف المؤرخون فى تعيين عدد مساجد تبوك، يقول البعض إنها ستة عشر والبعض الآخر يقول أنها عشرون والآخرون أكثر من هذا عدداً ولكنهم لم يستطيعوا أن يحددوا أماكنها تماماً، والآن فى طريق تبوك عشرون مسجداً وأول هذه المساجد تبوك نفسها والعشرون مسجد ذى خشب.

وقد قرر متفقا أن النبى ﷺ صلى فى جميع هذه المساجد فى أثناء وقعة تبوك، والمساجد التى عددها المؤرخون أن يبينوا مواقعها فمساجد تبوك هى المساجد الآتية التى سنذكر أسماءها.

مساجد تبوك:

١ ـ مسجد تبوك[١]

٢ ـ مسجد ثنية مدران[٢]

٣ ـ مسجد ذات الزراب[٣]

٤ ـ المسجد الأخضر[٤]

٥ ـ مسجد ذات الخطمى[٥]

٦ ـ مسجد بالى[٦]

٧ ـ مسجد تبرا[٧]

(١) الذى شيد هذا المسجد هو عمر بن عبد العزيز.

(٢) أمام تبوك.

(٣) بعيد عن تبوك مسافة مرحلتين.

(٤) أربع مراحل لتبوك.

(٥) خمس مراحل لتبوك.

(٦) يقال له مسجد بولا أيضًا على خمس مراحل من تبوك

(٧) فى منتهى المكان الذى يعرف بكواكب وفى جانبه منزل (تبر).

٨ ـ مسجد شق تارا[١]

٩ ـ مسجد ذو الحليفة[٢]

١٠ ـ مسجد ذى الحليفة الآخر[٣]

١١ ـ مسجد شوشق

١٢ ـ مسجد الحوض[٤]

١٣ ـ مسجد حجر[٥]

١٤ ـ مسجد صعيد[٦]

١٥ ـ مسجد وادى القرى[٧]

١٦ ـ مسجد بنى عذرة[٨]

١٧ ـ مسجد الرقعة[٩]

١٨ مسجد ذى المروة[١٠]

١٩ ـ مسجد فيفاء[١١]

٢٠ ـ مسجد ذى خشب.[١٢]

---

(١) فى منزل جويرة.

(٢) ليس هذ المكان ذى الحليفة حيث الميقات فهو ذو الحليفة أخرى إلا أن الجغرافيين لم يعطوا عنه معلومات كافية.

(٣) يقرأ البعض هذا المنزل بكسر خاء المعجمة والآخرون بفتحها وأتى بعضهم بدلاً من الخاء المعجمة جيما مكسورة كما أتى بعضهم بحاء مفتوحة.

(٤) فى وسط محل يقال له حوض أو فى نهايته.

(٥) يعرف ابن زبالة هذا المسجد باسم علاء ولكن سواء أكان منزل حجر أو علاء فإنه فى داخل وادى القرى.

(٦) فى محل يقال له صغير قزح يقال له فى زماننا مسجد وادى القرى.

(٧) فى وادى القرى.

(٨) فى قرية بنى عذرة.

(٩) هذ المسجد فى مكان يسمى رقعة الثوب يروى أنه فى منزل رقمه بجوار قرية بنى عذرة أو سقيا.

(١٠) على مسافة ثمانية بريد من المدينة المنورة.

(١١) فى وادى يطلق عليه فيفاء محلتين وهو على بعد مسافة يوم من المدينة المنورة فى أسفله صخرة.

(١٢) على بعدمرحلة من المدينة وفى منزل يسمى بدومة.

وقد أدى النبى ﷺ الصلوات فى غير هذه الأماكن مثل: فى وسط حديقة فى مزارع بنى أشجع وفى بطن نخلة من الحدود النجدية وقريب من هذه النخلة فى مكان يطلق عليه كديد[1] وفوق جبل من بلاد بنى أشجع.

٦ـ مسجد الحديبية:

هذا المسجد فى القرب من قرية جدة بين جدة ومكة المكرمة فى مكان يطلق عليه حديبية وداخل الوادى القريب من منزل بلدح: والمسجد المذكور بالقرب من البئر المشهور باسم بئر شمس وبناء على ما نقل من أسانيد جيدة أن المصالحة التى عقدت بين المسلمين ومشركى قريش قد وقعت بجانب هذا المسجد كما أن بيعة الرضوان حدثت فى ساحة مسجد حديبية.

٧ـ مسجد ذات عرق:

هذا المسجد على بعد ميلين ونصف ميل من مكان يسمى ذات عرق ساحته المقدسة محل إحرام وميقات لمكة المكرمة.

٨ـ مسجد جعرانة:

معبد جعرانة اللطيف بجانب وادى جعرانة وفى مكان مرتفع، بناه أحد أهل الخير من قريش وأنبتت بجانبه أشجار النخيل.

٩ـ مسجد لِيّة:

هذا المسجد الممتاز فى وادى ليه البعيد عن الطائف ثمانية أميال وبجانبه حجر وعلى الحجر بعض الخطوط أو ما يشبهها ويعتقد أهل الطائف أن هذه الخطوط آثار حوافر ناقة النبى الأصيلة، ووقف النبى ﷺ بجانب شجرة الذرة القريبة من المسجد وفى ناحية القرن الأسود واستقبل المحل الذى يقال له نَخْب ووقف جميع الذين كانوا بجانب النبى واستراحوا قليلاً هذا مما يروى.

(١) ليس كديد الذى فى المحل الذى يسمى عفان.

١٠ـ مسجد الطائف:

هذا المسجد هو المسجد الكبير الذى بنى على ساحة خيمتى السيدة عائشة[١] وأم سلمة رضى الله عنهما ـ اللتين نصبتا عند محاصرة بلدة الطائف وظل مكان الخيمتين المذكورتين فى مؤخرة المسجد ورفع فوقهما قبتان صغيرتان ودفن فى ركنه القبلى أعلم الناس عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه.

تزييل

إن الشريف عبد الله الذى خدم إمارة مكة الجليلة ما يقرب من عشرين عامًا بجانب قبر ابن عباس بن عبد المطلب وهو من السلالة الطاهرة الزيدية وابن من أثبت جدارته ثلاث مرات فى منصب الإمارة وهو الشريف محمد بن عوف. وأحرز رتبة الوزارة السامية فى سنة ١٢٤٧هـ وأسند إلى عهدته إمارة مكة المكرمة وأنعم عليه بالوسام المرصع المجيدى العثمانى، وتوفى فى سنة ١٢٩٤هـ يوم الأحد اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الآخرة وهو فى منزله الصيفى فى الطائف، ووجه منصب الإمارة إلى أخيه الشريف حسين باشا وأحيل إليه. وقد خدم عبد الله باشا المشار إليه السلطنة السنية بإخلاص ولاسيما فى أثناء المسألة الروسية بذل جهودًا عظيمة لجمع الإعانات الحربية واستطاع أن يدبر مبالغ كبيرة من النقود. وأن يوصلها إلى أصحاب الشأن، واستطاع أن يكسب طوال مدة توليه للإمارة رضا سكان الحجاز ورعى بكل مودة الحجاج الواردين وحفظهم وكان شخصًا أصيلاً نجيبًا من السلالة الهاشمية وذات عقيدة سليمة، رحمه الله رحمة واسعة. وساحة مسجد الطائف هى ساحة مصلى النبى القديمة وهى الساحة التى أم فيها المجاهدين من غزاة الدين، وهذه الساحة هى ما بين خيمتى السيدة أم سلمة والسيدة عائشة[٢] ـ رضى الله عنهما ـ ثم رفع بين ساحتى

(١) قال الواقدى: الأخرى زينب بنت جحش. يقصد أنه مَنْ كان مع النبى ﷺ من نسائه: أم سلمة، وزينب بنت جحش رضى الله عنها. الطبرى ٣/ ٨٣.

(٢) والسيدة زينب بنت جحش على ما فى الطبرى ٣/ ٨٣.

الخيمتين قبتين صغيرتين أبو أمية بن عمرو وبن وهب بن معتب بن مالك وهذا إشارة إلى أن ما بين القبتين كان المصلى النبوى. وبعد ما بين الإمام الواقدى موقع مسجد الطائف وشكله أضاف أن فى ذلك المسجد عمود لا يرى نور الشمس إلا ويسمع بجانب هذا العمود صوت التسبيح الهاتفى. وبناء على تعريف المطرى أن المسجد اللطيف الذى بناه عمرو بن أمية هو الآن الجامع الكبير، وقد صنع فى عهد الناصر أحمد بن المستضئ منبر مرتفع عبد الله بن عباس مدفون فى الركن الأيمن من هذا المنبر. وبناء على قول تقى الفاسى أن فى خارج جداره القبلى حجر وكتبت عليه عبارة: أمرت أم جعفر بنت أبى الفضل أمام ولاة عهد المسلمين بعمارة مسجد رسول الله ﷺ بالطائف وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائة والمظنون أن الجامع المذكور وضريح ابن عباس بنيا فى عهد المستعين العباسى.

الوجهة التاسعة عشرة

تحتوى على ثلاث صور
تعرف مفصلاً الأودية والأحراش وبعض الجبال
والأماكن والأوطان والقرى التى تنسب إلى المدينة المنورة

١ ـ وادى العقيق:

والوادى هو المكان المنخفض الذى تجرى فيه الأنهار والسيول ووادى العقيق هو اسم الوادى الذى يمتد من موقع قصر المراجل إلى البقيع ومن زغابة إلى قصر المراجل ووادى العقيق المشهور فى الواقع واديان أحدهما العقيق الأصغر والآخر العقيق الأكبر، ويمتد العقيق الأكبر من أراضى عروة بن الزبير فى جهة حرة المدينة إلى قصر المراجل، ومن جهة حماء من قصر عبد العزيز بن عبد الله العثمانى الذى فى جماد إلى قصر المراجل يخرج أحد طرف هذه الحدود إلى نهاية البقيع ونهاية الجهة السفلى العقيق الصغير ونهاية أعلاها وديان عقيق البقيع.

والوادى الذى يطلق عليه عقيق البقيع يبدأ من مكان يطلق عليه برام إلى حضر هذا المكان نهاية حدود البقيع حيث ينتهى، والوادى المذكور يذهب من هنا إلى زغابة مجمع السيول الذى فى أعلى منزل إضم، ومنزل إضم بناء على قول المطرى يبدأ من البئر المحترم وينتهى إلى الجهة الغربية وهذا المكان ملاصق بالمدينة المنورة من ساحة بئر عثمان التى سميت بالعقيق، وينقسم إلى جهتين فى حدود دار العز المدينة يشكل قسم منهما وادى العقيق الأصغر والآخر يشكل وادى العقيق الأكبر، وبناء على هذا التعريف فإن الصحراء التى يطلق عليها البقيع يلزم أن تكون وسط وادى العقيق حيث انقسم وادى العقيق هنا أيضًا إلى قسمين يقال للجهة الملاصقة للمدينة المنورة العقيق الأصغر وللجهة العليا العقيق الأكبر، وأصغر هذين الواديين الصحراء التى توجد فيها بئر عثمان وأكبره الصحراء التى توجد فيها بئر عروة، ووادى العقيق الأكبر الذى لا يلاصق المدينة المنورة يتصل بالقرية التى فى بلاد مزينة، وانقسام وادى المدينة إلى اثنين سيؤدى إلى انقسام السيول بجانب حرة المدينة إلى جهتين وتنقطع.

إن كان لوادى العقيق اسم قديم إلا أن الملك تُبَّع قال حينما زار المدينة هذا عقيق الأرض وعلى ساحته سليلة وهذا عرضه الأرض. وعلى قول لما كان لون وادى العقيق فى غاية الاحمرار كان سببا فى إطلاق اسم العقيق عليه وانسى اسمه القديم.

ووادى العقيق من أعظم وديان الحجاز ويمتد من حدود الطائف ويمر بالمدينة إلى أن يتصل بالبحر الأحمر، لقد منح النبى ﷺ هذا الوادى لبلال بن الحارث المزنى ليستغله بطريق المقاطعة. ولما ترك هذا الوادى إلى عهد عمر بن الخطاب دون إعمار قال عمر الفاروق لبلال «يا بلال! إذ عمرت الوادى الذى أخذته عن النبى بالمقاطعة أتركه لك؛ وإذا لا تريد إعماره أقطعته للآخرين» ولما أخذ منه جوابًا بالنفى ترك جزءًا من الوادى فى يد بلال وأقطع الباقى للذين يرغبون وأعطاهم.

وقد قدر فى أوائل الإسلام فضل وادى العقيق ومزيته ومناظره الجميلة التى تسحر النفوس فعمر واستصلح بكل عناية مما أثر فى قرائح الشعراء فأنشدوا قصائد مدح فى حسنه وجماله قصائد لا تعد ولا تحصى. وقد تعود عمر بن الخطاب كلما ظهرت السيول فى وادى العقيق أن يذهب مع أهل المدينة إلى مجراه ويشرب منه الماء. وقد أخبر النبى ﷺ بقداسة وادى العقيق عندما قال: «جاءنى أحد فى هذه الليلة وقال لى صَلِّ فى هذا الوادى» وفى يوم آخر قال بعد أن ذهب إلى وادى العقيق ورجع «يا عائشة! وادى العقيق ما أجمله من مكان، وما أحلى ماءه وما أطرى ترابه؟!!» فوصف وادى العقيق مادحا وعندما قالت له «إذا كان كذلك فلماذا لا نقيم فى وادى العقيق» فأجابها قائلا: «إن الناس قد استقروا هناك وأعدوا لهم منازل خاصة ومن هنا فإن النقل والهجرة إلى وادى العقيق غير ممكن». وبين بهذا أن انتقال أهل المدينة إلى وادى العقيق أمر شاق، وقال فى يوم آخر لأنس بن مالك، وكان النبى ﷺ قد زار وادى العقيق فى ذلك اليوم «ملأت هذه المَطَرَةَ من واد يحبنا ونحن نحبه» وهكذا أظهر حبه لوادى العقيق.

(١) المَطَرَةُ: القربة.

كان سلمة بن الأكوع اعتاد أن يقدم للنبى ﷺ من لوم ما يصطاده.

يروى عنه أنه قال: «سألنى النبى ﷺ يومًا فى أية جهة تصطاد من أجلى؟» فأجبته قائلاً: «فى وادى يثب الذى فى ناحية قناة» عندئذ تفضل قائلاً: «لو كنت تصطاد فى وادى العقيق، لكنت أودعك عند الذهاب وأستقبلك عند الإياب».

٢ـ وادى بطحان:

إن وادى بطحان روضة غالية من فراديس الجنة كما جاء فى الأثر. وهذ الوادى من الوديان التى تقع فى وسط المدينة ويجرى ماؤه من جهة الحرة اليمانية ويجرى نحو موقع جفاف ثم يذهب إلى صحراء بنى خطمة، ويعود من هنا ويمر من وسط وادى البطحان فيجرى نحو الأراضى المتسعة فى زغابة.

يبدأ هذا الوادى من جلاتين على بعد سبعة أميال من المدينة المنورة، وينتهى إلى وادى جفاف الذى فى الجهة الشرقية من مسجد قباء ويتحد بنهير رانو بار.

٣ـ وادى رانو ناء:

يقال لهذا الوادى رانون أيضًا، وينزل سيله من جبل مقمن الواقع فى الجهة اليمانية من جبل عير ومن جبل جرش الذى فى الحرة الشرقية ويذهب نحو محل يسمى بـ «قرين المضرطة» ومن هناك إلى سد عبد الله بن عمرو بن عثمان المعروف بـ «سد عنتر» ومن هنا يمر بمنزل صفاصف وبموقع عصبة ثم يعبر من الجهة اليمنى لقرية قباء إلى «عوسا حوسا» وبعده يجرى إلى مكان يسمى بطن وادى حصب ويتحد هنا بالسيول التى تأتى من جهة ذى حصب وحرة. ويمر من قعر حوض بنى بياضة عن طريق ذى صلب وينقسم إلى قسمين ويجرى قسم منهما إلى بئر جسيم التى فى بلاد بنى بياضة وبهذا الطريق إلى وادى بطحان والقسم الآخر يجرى إلى وادى بطحان رأسًا.

٤ـ وادى قناة:

وكان اسم هذا الوادى القديم شظاة ولكن عندما بات تبع الحميرى فى الربوة

التى على مجراه قال: «إن هذا المكان قناة الأرض فعرف بين أهل المدينة بوادى قناة ووادى قناة ينفصل من الطائف ويسيل من بين جبال أرخصية ومن هناك إلى قرقرة المكدر، ومن هناك إلى بئر معاوية وبعده يمر من مكان يسمى قدوم أى من المكان الذى دفن فيه شهداء أحد إلى صحراء زغابة حيث تتحد سيول الأنهار الأخرى، وإن كان يُعد من وديان المغرب فهذا أكبر الأنهار التى تسيل إلى دار العزة المدينة المنورة غير وادى العقيق ويصل إلى سد نار الحرة فى الجهة الشرقية».

وسد نار الحرة، المحل الذى انطفأت فيه نار الحجاز المنذرة، وكانت سببا فى انقطاع مياهه مدة مديدة، وفاض بعد ذلك كأنه بحيرة كما جاء ذكره فى الصورة العاشرة من الوجهة الثالثة تفصيلاً، وقد انشق ذلك السد فى سنة ٦٩٠هـ وقد تكاثرت مياهه ما يقرب من سنة بين الجبلين وأخذت تجرى فى صورة مخيفة وسريعة وأخذت تنقص السنة التى بعدها ثم نقصت بدرجة مخيفة، ثم تكاثرت المياه مرة أخرى فى خلال سنة سبعمائة وأخذت تجرى على نسق واحد فى خلال سنة كاملة ونقصت فى خلال ثلاث وثلاثين سنة تدريجيًا ولكنها فاضت فى سنة ٧٣٤هـ بسبب الأمطار العادية والمتوالية وفتحت لنفسها مجرى جديدًا وطغى سيل مثل البحار وجرى مجراه القديم إلى جهات الضريح الذى دفن فيه حضرة حمزة - رضى الله عنه - وسال مجراه الجديد إلى الجهات القبلية لجبل عيين، فجعل الضريح المذكور والجبل سالف الذكر فى الوسط، ولما بقى ضريح حضرة حمزة بين ماءين عظيمين فحرم أهالى المدينة من شرف الزيارة ما يقرب من أربعة أشهر. وقالوا إذ كشفوا السيول التى فاضت متراكمة أمام باب البقيع، إذا ارتفعت هذه المياه أكثر من هذا بنصف ذراع لا شك أن دار الهجرة ستتعرض للخراب والدمار، ولكن المياه انسحبت قليلا بلطف من الله وأغرق أهالى المدينة فى بحار البهجة والسرور واستقرت المياه ما يقرب من سنة فى النهيرات التى فى الجهات الشمالية والقبلية.

وكانت المياه قد فتحت قنوات العين القديمة وخربتها. وإن كان الأمير وردى أصلح ما فسد وخرب من القنوات ومجاريها وجددها، ولكن الأماكن التى

أصلحها الأمير وردى اندثرت تماما مع مرور الزمن ولم تظهر مرة أخرى ولم تعمر فانمحت العين المذكورة واندثرت.

٥ـ وادى مذينب:

ومياه هذا النهير شعبة من سيول وادى بطحان، لأن مياه بطحان تنقسم فى حديقة بنى أمية، إلى خمسة عشر جدولاً وتسقى أراضى بنى أمية فتتحد جميع الجداول وتدخل فى بطحان، ومياه هذا النهير كما ذكر آنفا يظهر من الخلاء الذى يسمى صعب وتمر بوادى زغابة، وتتصل فى ديار بنى خطمة بنهير مهزور وسبب ذلك اجتماع المياه وتراكمها فى حرة واحد.

يطلق على المذكور ماء وادى مذينب أيضًا وينفصل فى زماننا من الحرة الشرقية مارًا بالجهة القبلية من قرية بنى قريظة فيمر بالجهات الشرقية من قريتى نواعم وعهن وبعد أن يسقى حدائقهما يجتمعان فى المكانين اللذين يطلق عليهما بقيع الزرندى وناصرية. ثم يتجه إلى نهير جفاف الواقع فى الجهة الشرقية من مسجد الفضيح، وبعد أن ينصب فى الصحراء الكائنة خلف ماجشونية وبعد أن يتحد بشعبة من نهير مهزور فيجرى إلى نهير بطحان الواقع فى الجهة العليا من مسجد المس، وهنا يختلط بمياه رانوناء ويمر بالناحية الغربية من المصلى النبوية يجرى إلى أراضى مدينة دار السكينة.

٦ـ وادى مهزور:

تجرى سيول هذا النهير إلى أراضى بنى قريظة الكائنة على ربوة شوران وبعده يجرى إلى حدائق دار العز المدينة المنورة وبناء على قول ابن شبَّه أنه يظهر على ربوتى هكر وصمعه الكائنتان فى الحرة الشرقية وينصب إلى أراضى بنى قريظة حيث ينقسم إلى عدة شعب يجرى إلى نهير مذينب من بين منازل قرية بنى أمية بن زيد ويتحد فى صحراء بنى خطمة بسيول بنى قريظة ويصل إلى نهير مهزور وهنا يتخذ شكل نهر كبير ينقسم إلى شعبتين فتسقى شعبة منهما الأراضى التى فى تلك الجهات والشعبة الأخرى تسقى ما عدا حديقة مشربة أم

إبراهيم وجميع الصدقات النبوية وبعد ذلك يسيل ناحية قصر مروان بن الحكم ومن هناك إلى قصر بنى يوسف الذى فى بطن الوادى إلى المسجد المستقر فى بطن بنى حديلة عن طريق بقيع الغرقد وكرمة أبى الحمراء ويتحد فى النهاية بنهير قناة.

وشعبة من السيول العظيم الذى يتكون من اتحاد النهيرين مهزور ومذينب بعد أن يسقى الصافية وما حولها من الصدقات النبوية يمر عن طريق قصور من أطراف بقيع الغرقد ينصب فى وادى بطحان عن طريق الجدول الذى فتحه شيخ الحرم مرجان الزينى، وبما أن هذا الفرع من السيل المذكور يسبب خسارة للنخيل الذى حول البقيع الشريف حفر سالف الذكر مرجان الزينى جدولاً وأنقذ حدائق النخيل التى حول بقيع الغرقد من طغيان السيول، وقد فاض نهر مهزور فى عهد سيدنا عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بشكل مخيف وأحدث سيلاً عظيمًا كالبحر ومخيفًا حتى ظُنَّ أنه سيغرق ويمحو مدينة دار العز. وأراد عثمان بن عفان أن ينقذ الحرم النبوى الشريف والمدينة المنورة من هجوم السيل فأنشأ بجانب بئر مدرى سدا حجريًا متينًا وحول مجرى نهر مهزور إلى مجرى نهر بطحان، وبهذا أنقذ المدينة الطاهرة من هجوم السيل إلا أن ذلك السيل فاض مرة أخرى فيضانًا مخيفًا فى خلال سنة المائة الهجرية وفى عهد خلافة أبى جعفر المنصور فغمرت المياه الصدقات النبوية ثم هجمت على المدينة فملأت قلوب سكان دار السكينة بالهموم والغموم، وبناء عليه اتفق الأهالى على بناء سد، وفعلاً استطاعوا بناء سد قوى متين فى مكان يسمى برقة وذلك بدلالة امرأة عجوز على عينها، وحولوا سيول مهزور، ومع ذلك فاض نهرا مهزور وبطحان ليلة الانتهاء من عمليات السد واقتحمت المياه قريتى بطحان والسُّنح وغمرتهما فسببت خسائر عظمية لكثير من الناس، وخربت ما لا يحصى من المنازل وبعد ظهور السيل تراكمت واتحدت نهيرات العقيق ورانوناء وأذاخر وذى صلب وذى ريش وبطحان ومهزور وقناة فى مكان يقال له زغابة وكونت بحيرة عظيمة.

إن السيول التى تشبه البحار التى يطلق عليها أهالى المدينة السيول العوالى

تحدث من اتصال تلك السيول بعضها ببعض وانصبابها فى بعض فتتجمع فى موقع زغابة وفى الأراضى المنسوبة لسعد بن أبى وقاص، ومحل اجتماع السيل العظيم الذى يتكون من اتصال تلك النهيرات مع بعض فى الجهة العليا من وادى زغابة، ولما كانت مياه مدينة دار الهجرة كلها فى هذا المكان سمى هذا المكان بـ «إضم».

وكان ما نطلق عليه فى زماننا الضَّيْقَة هو ذلك المكان، وبعد أن تنضم مياه تلك السيول بعضها ببعض تكون بحرًا صغيرًا يمر بنهاية الصحراء الفسيحة التى يقال لها زغابة ومن هناك النهاية السفلى لـ عين أبى زياد وهى نهرا نعمى ونعمان وبعده إلى ذى خشب نهيرات ملل وأظلم وجنينة ثم يمر بالمردبان التى فى الجهة الغربية حرار ولواط والوديان التى فى الجهة الشرقية ذو آدان وإثمة وما فى الجهة الشامية من واد رمة وما فى الجهة القبلية من وادى ترعة وفى النهاية إلى وادى عيص ثم إلى وادى حجر وجزل فى داخل ذى المروة الكائن فى وادى سقيا ورحبة من هناك ينزل إلى وادى سفان المكان الذى ينصرف فيه السيل إلى البحر أسفل ذى المروة ومن هنا يمر إلى الأماكن التى يقال لها يعبوب، بنيجة، حقيب التى فى سفح جبال أراك.

وبناء على قول المطرى يمر بالمحل الذى يسمى اكرى فى طريق مصر وينصب فى البحر الأحمر وهذه المواقع الثلاثة تبعد عن البحر ثلاثة أميال.

فى ذكر أحراش المدينة المنورة

١ـ حِمَى النقيع:

معنى «حمى» المكان المحفوظ لرعى الدواب والنَّقيع المكان كثير الماء. والحمى المعروف بالنقيع يبعد عن المدينة ثمانية وأربعين ميلا، وعلى قول ستين ميلا، وهو فى جهة اليمن وماؤه غزير وجهاته الأربعة محفوظة، وهذه الأحراش طولها ميل وعرضها كذلك.

أحراش حمى النقيع:

تقع فى صحراء ساحرة وفضاء فرح ويحيط ماء وادى العقيق بالجهات الأربعة لهذه الصحراء وتجرى بجزيرة مسموع، وينبت فيها البرسيم والنباتات التى تنمو تلقائيًا كما تنبت أشواك الغرقد وستنجان التى يأكلها الجمال وسلم وعضاة من جِيْشِ أمِّ غَيْلاَن وأشجار أخرى. والنخيل الذى ينمو فى موسمه والأعشاب تطول حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يرى من يسير بينها من الفرسان راكبى الخيول، من الخارج وحصر النبى ﷺ ذلك المكان لرعى خيول المسلمين فحفظه من جهاته الأربعة واستمروا على حمايتها مدة عمره كما حفظ حضرة أبو بكر وفيما بعد عمر بن الخطاب هذا المكان وجعلاه مكان رعى لدواب المسلمين.

وكانت هذه المراعى إلى عصر عمر الفاروق يحدها من الجهة الشرقية حرة بنى سليم ومن الغرب تحدها مواقع رام شقراء، وبرة، ذات الصخور، بطن نقيع، ولما ضاقت مراعى المدينة عن استيعاب دواب المسلمين وسع عمر الفاروق مرعى النقيع، وقد تكاثرت خيول المسلمين وجمالهم حتى كان يساق إلى الشام والعراق أربعين ألف رأس جمل كل سنة للتجارة، وكان يربى أربعين ألف بعير لإعطائها للمشاة الذين لا يملكون الجمال فى أثناء الحرب.

٢ـ مرعى حمى الربذة:

ربذة اسم قرية من أعمال المدينة فى نجد وعلى بعد أربعة أيام من المدينة المنورة وهى القرية التى دفن فيها أبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ وكانت ربذة فى الأصل قرية مشهورة، وقد استولى عليها القرامطة فى سنة ٣١٩هـ وخربوها وأجبروا أهاليها على الهجرة.

وسبب استيلاء القرامطة على ربذة كان بدعوة أهالى قرية ضَرِيّة للقرامطة، لأن الحروب كانت متوالية ومستمرة بين سكان قريتى ربذة وقرية ضرية وكان النصر دائمًا بجانب أهل ربذة. ولما رأى سكان ضرية أن الانتصار على أهل ربذة مستحيل، طلبوا العون من القرامطة وكان القرامطة يريدون أن يستولوا على الحرمين المحترمين، ولما ساعدوا أهالى قرية ضرية بسوق كتائبهم فاضطر أهل قرية ربذة إلى ترك قراهم وهاجروا إلى أماكن أخرى ولم يعودوا إليها بعد.

وقد أمر النبى ﷺ برعى إبل الصدقة القادمة من البلاد الإسلامية فى قرية ربذة وعلى رأى آخر أن أبا بكر وعمر الفاروق هما اللذان أرسلا جمال الصدقة إلى قرية ربذة، وكان طول مرعى ربذة فى ذلك الوقت يصل إلى اثنى عشر ميلاً وكذلك عرضه وقد حرص ولاة المدينة على توسيع حدود المرعى حرصًا شديدًا والولاة الذين تولوا الولاية إلى عصر أبى بكر الزبيرى عنوا عناية شديدة بحماية ذلك المرعى فكانت حيوانات أهل المدينة ترعى فى مرعى ربذة إلى زمان جعفر بن سليمان.

٣ـ مرعى حمى الشرف:

وإن كان شرف المكان الذى اتخذه عمر بن الخطاب مرعى فالمحل الذى يطلق عليه شرف الروحاء فى مكان آخر، ومرعى شرف واد واسع كبير فى داخل مكان اسمه كبد نجد، وقرى قبيلة آكل المُرَار الكِنْدِى[1] من بنى حجر تتصل بمرعى شرف، كما أن مرعى ضرية أيضا بجانب جِبَال تلك القرية. وعلى جهة تميم من هذا المرعى مراعى ربذة، وبجانبه قرية شريف يفصل بينهما محل يسمى سرير،

(١) قيل: هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن كندى، ويقال كندة. وقيل هو حجر جدّ الحارث بن عمرو من ملوك إمارة كندة. انظر: الدرر ص ٢٥٧، وغيرها.

وتقع على الجهة الشرقية من المرعى المذكور موقع شريف، وعلى الجهة الغربية منه يطلق شرف ومراعى ضرية وربذة فى الصحراء الواسعة التى يشكلها المحل الذى يطلق عليه شرف.

٤ـ مرعى حمى الضَرِيَّة[١]:

ضرية على وزن غنية فى طريق حجاج البصرة، واسم قرية على بعد سبع مراحل من مدينة الرسول من جهة مكة المكرمة، عرفت باسم ضرية بنت ربيعة بن نزار أم حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وعلى رواية عرفت باسم بئر ضرية ذات ماء عذب خفيف. ومرعى ضرية مرعى خصب ومشهور ويروى أهل البادية أن أول من اتخذها مرعى هو كليب بن وائل، وحافظ على جهاته الأربعة، ويؤيدون رأيهم قائلين إن هذا القبر قبر كليب بن وائل.

وقد خص سيدنا عمر الفاروق المرعى المذكور لجمال الصدقة وحفظه من الحيوانات المتوحشة بوضع علامات خاصة فى جهاته الأربعة كل ستة أميال فى المحلات المكشوفة، فظلت قرية ضرية فى داخل تلك العلامات. وزادت جمال الصدقة تدريجيًا فلم يكف المرعى المذكور لاستيعابها. فاشترى سيدنا عثمان الماء الخاص بديار «جنيبة» وأضاف الأراضى التى فيها ذلك الماء إلى أراضى ضرية فوسع المرعى.

الماء الذى ألحقه سيدنا عثمان إلى مرعى ضرية كان معروفًا باسم بركة من مياه «بنى جنيبة» ولما كان هذا الماء بجانب القمم المدببة التى تسمى ببكرات وعلى بعد عشرة أميال من مرعى «ضرية»، فاشترى المشار إليه بعد فترة تلك القمم فألحقها بمرعى «ضرية» فأوصل المرعى إلى حيث يستوعب حيوانات المرعى.

ونافس الولاة فى أوائل عهد الدولة الأموية فى توسيع مرعى «ضرية» والحفاظ عليه إلا أن الولاة الذين أتوا فيما بعد تبدلت أفكارهم واتخذوا ذلك المرعى كَلأً لأنفسهم ومزرعة؛ فوسعوا حدود المرعى وضيقوا على الأهالى فى

(١) الطبرى ٢/٢٦٦.

قرية ضرية الذين كانوا حراسا للمرعى حتى عجزوا عن حراسة المرعى فخالفوا أوامر الولاة حتى إنهم أشعلوا نار الحرب ضد إبراهيم بن هشام المخزومى الذى كان أشد الولاة ظلمًا وغدرًا والذى أعد ألف جمل فى كل لون وأراقوا فى تلك الوديان دمًا بدلاً من الماء.

وبئر ضرية من مياه ديار ضباب قد مدح ذى الجوشن الضبابى الذى كان من شعراء الجاهلية ووالد قاتل حضرة حسين بن على أبى بن طالب ـ رضى الله عنه ـ العين المذكورة بالقطعة الآتية:

دعـــوت الله إذ سقـــــت عيـــالى

ليجعـــل لى لـــدى وســـط طعاما

فأعطانى ضريـــــة خير بـــــئر

تمج المـــاء والحـــب التئامـــــا

و«وسط» الذى ذكره ذو الجوشن فى قطعته المذكورة اسم جبل على بعد ستة أميال من ماء ضرية، ويمر حجاج القوافل من أسفل هذا الجبل، وفى أعلى الصحراء التى تسمى عسس التى تقع على يسار هذه الجبال ماء آخر ويعرف باسم «قنبع» فهو بين جبل وسط وصحراء عسس تجلب الفرح والسرور.

وعسس اسم جبل أحمر، وقد خلق هذا الجبل بشكل غريب مرتفعًا نحو السماء فالذين يرونه من بعيد يظنونه رجلاً ضخم الجثة جالسًا.

ولما كان ماء ضرية تحت تصرف عثمان بن عتبة بن أبى سفيان فقد أنبت عتبة حول الماء كثيرًا من حدائق النخيل وحتى يسقى هذه الحدائق سد فتحة النهر وجعل نهر ضرية فى حالة مضحكة، ولما انتقلت الخلافة إلى أيدى العباسيين ضبط العباسيون حدائق عتبة واستولوا عليها واستخدموها حتى انقراضهم.

عندما انقرضت دولة بنى عباس كانت زوجة الشخص الذى يتصرف فى ملك عثمان بن عتبة من قبيلة بنى جعفر بن كلاب المخزومى، وجاء مرة عمها ضيفا وبات على ساحل نهر ضرية طلب منها بعض الأراضى فتركت لعمها بعض

الأراضى وطيبت خاطره، ولما كان عمها من البدو كان يمتلك كثيراً من الحيوانات، وفى وقت ترطيب البلح وحينما طاب للأكل هاجر العم مع أولاده وعياله وخدمه ودوابه إلى شاطئ ذلك النهر وأخذ يطعم الضيوف الواردين ويجلب نياقه وأخذ يسقى اللبن للواردين ويظهر مظاهر كرمه.

ولما تجاوز البلح وقت ترطيبه جاء عنده اثنان من الضيوف فبعث إلى صاحبة الأرض وطلب منها بعضا من الرطب الطازج ولما كان وقت البلح الطازج قد مر فقطف خادمها مقداراً من البلح وأحضره وأخطره بأنه لم يجد بلحًا طازجًا فى الحديقة. قال البدوى إن صنعكم هذا من أجل إكرام ضيوفى غيث، وأعاد الخادم المسكين، وجاء الخادم مرة ثانية بمقدار من العجور وبين أن موسم الرطب قد مر فعاتبه قائلاً: «فليسود وجهك مثل الشىء الذى أحضرته»، ولامه وكره ما أهدى له من حدائق النخيل وباعها لعامل يمامه عبد الله الهاشمى بألفى قطعة من الذهب، وهذا ما يروونه، وأما عبد الله الهاشمى فقسم ما اشتراه من الحديقة إلى قسمين، وبنى فى وسطها كثيراً من الدكاكاين وسماها سوق ضرية وأجرها بثمانية آلاف درهم سنويًا.

٥ـ حمى فيد:

المرعى المسمى بفيد هو المرعى الذى اختاره حضرة عمر الفاروق وهى فى طريق حجاج العراق وعلى بعد تسع مراحل من المدينة فى ناحية نجد ويشتمل مرعى فيد على كثير من العيون وبرك وتقام سوق كبيرة فى جهة منه وسبب تسميته بهذا الاسم إقامة فيد بن حام أول مرة فى هذا المكان.

وفى المكان الذى تقام فيه السوق بئران وهما عين النخل وجاره وأمر بحفر عبن النخل حضرة عثمان وبئر جاره أبو جعفر المنصور، كما أمر المهدى البغدادى بحفر بئر أخرى فى خارج القرية وعلى الطريق.

ولا ينكر أن الآبار الموجودة قد بقيت من العهد الجاهلى إلا أنه قد حفرت فى صدر الإسلام آبار كثيرة وبُذِلت الجهود لإعمار البلاد الحجازية.

يقول بعض المؤرخين أن حافر بئر عين النخل هو أبو الدلم، وهذا الشخص أول من حفر بئرًا فى صدر الإسلام، وكان من موالى الفزارى وحفر البئر المذكورة فى زمن بنى مروان.

وأنبت بجانبها حديقة نخيل منتظمة وخصبة وتعيش بمحاصيلها إلى ظهور بنى عباس، وقد اغتصب بنو عباس حديقة نخيل ذلك الرجل. إلا أن هذه الرواية تجعل القول السابق غير قابل للتصديق. إذ إن البئر التى يطلق عليها عين النخل هى البئر التى حفرها عثمان بن عفان.

وبناء عليه فأول من حفر بئرًا فى العهد الإسلامى هو حضرة عثمان ـ رضى عنه الله المنان.

فى ذكر الجبال والأماكن والأوطان والقرى التى تنسب إلى المدينة المنورة مرتبة حسب الحروف الهجائية

حرف الألف

«آرة»: على وزن حارة اسم جبل كبير من جبال بلاد مزينة. وحوله كثير من الجداول والقرى مثل فرع أم العيال[1] مضيق، محضة، وبرة، خضرة، فعوه وغيرها.

وتتحد مجارى السيول التى تجرى من ذلك الجبل وبعد أن تشكل صحراوين وسبعتين تصب فى وادى الأبواء وبعده فى وادى ودان وفى صحراء حقل قرية اسمها وبعان وفى صحراء خلص قرية معمورة أخرى تسمى عرام.

«آبار»: على وزن آثار و«أُبيره» على وزن رويده اسم نهرين يصبان فى وديان منزل آجر إلى ينبع البحر.

أبرق خترب: الأبرق منفرداً معناها الأرض الغليظة التى اختلطت رملها بالطين والحجارة إلا أن أبرق خترب اسم أرض صخرية فى مرعى ضَرِيّة. يروون أن هذه الصخور من معدن الفضة، وأبرق الداث أرض صخرية فى مجرى نهر راشا الكبير فى مرعى ضرية.

أبرق العزاف: أرض حجرية بين المدينة وقرية ربذة وعلى بعد عشرين ميلا من ربذة، عزاف اسم ماء مشهور فى بلاد قبيلة أسد بن خزيمة بن مدركة ويجرى من مكان يسمى حومانة الدراج إلى ماء عزاف ومن هناك إلى بطن النخلة ومن هناك إلى محل يسمى طرف ومنها يذهب إلى دار العز المدينة المنورة، وحول هذا الماء عدة آبار ذات مياه غليظة وقديمة. قال خريم بن فاتك

(١) من أوقاف سيدة النساء.

مبينا إسلامه «كنت بِتُّ ليلة فى أربق العزاف حينما أخذ الجو يظلم استولى على الخوف والرهبة استعذت قائلاً «أعوذ بعزيز هذا الوادى من سفهته» فسمعت من الهاتف:

عــذ يا فتى بالله ذى الجــلال

واقــرأ بآياتـــه من الأنفال

ووحـــد الله ولا تبـــال

فقلت يأيها الهاتف النبى! ماذا تريد أن تقول؟ مرادك أن تضلنى؟ أم أن تهدينى؟ فأخذت الجواب الهاتفى:

النـــبى عـــالى الشـــأن

الذى ظهـــر فى المدينـــة

صـــاحب الخـير والإحســان

يدعـــو الناس إلى طريـــق النجاة

طريـق الإســلام والخـير!!

عندما سمعت ذلك استولت على الرغبة فى الإسلام.

ومن اطلع على شرح قصيدة بانت سعاد العصماء لا يخفى عليه أن كعب بن زهير التقى بأخيه بجير فى مرعى أبرق العزاف، وهذا سبب اعتناقه للإسلام، وثمة أرض صخرية تقع بجانب حصن القيماء المعروف بالأبلق القرد ويزعم العرب أن سليمان ـ عليه السلام ـ هو بانى هذا الحصن.

أُبْلَى: على وزن حُبْلَى اسم عدة جبال تقع بين السوارقية والرخصية وهو من جبال بنى سالم، وعلى بعد ثلاثة أو أربعة أيام من المدينة.

الأبواء: على وزن حلواء. اسم قرية وربما أن النهر الذى كان بجانب هذه

القرية قد فاض وتبوأ فى منزل من منازل القرية ومن هنا أطلق على هذه القرية أبواء إلا أن عند البعض أن أبواء اسم جبل على يمين تلك القرية ذات أوبئة كثيرة فأطلق اسم أبواء على تلك القرية عن طريق القلب.

وثمة واد بين إثابة وروثة وعرج.

إثابة: اسم بركة فى وادى العقيق بين أراضى عبد الله بن الزبير ونخيل يحيى بن الزبير.

اثيفية: على وزن زبيرية اسم ماء فى وادى العقيق يعرف أيضًا بأثيفية.

أُثيل: على وزن زبير، اسم موضع بين قريتى بدر وصفراء، وكان هنا بئر منسوبة لآل جعفر بن أبى طالب، وعندما رجع النبى ﷺ من غزوة بدر الكبرى نزل هنا وصلى صلاة العصر وقتل نضر بن الحارث مع وجود ميكائيل، وفى بلاد بنى حمزة أيضًا مكان يسمى أثيل.

ذات أجوال: اسم موضع فى مضيق صفراء.

أجرد: أسماء حصن فى مكان يسمى «لصة»، واسم جبل فى الجهة الشامية من بواط وهو تابع لقبيلة جهينة، واسم جبل آخر أمام مدلجة تعهن[1]، أو موقع.

أجشى: اسم حصن ينسب لبنى أنيفة أو أَجُم بنى ساعدة اسم حصن منسوب لقبيلة بنى ساعدة بالقرب من مكان يسمى ذاب.

وأجم على وزن جرم

إخطار:

والحصون التى ذكرت والتى ستذكر فيما بعد ليست حصونًا وقلاعًا عادية بل إنها أبراج صنعت للتحصن فيها حسب اقتضاء الحاجة.

أحباب:

على وزن أسباب اسم بلدة بجانب موقع سوارقية.

(١) تعهن: بضم التاء والعين، وتشديد الهاء. وأصحاب الحديث يقولونه بكسر التاء وسكون العين. اللسان (تعهن) ص ٤٣٤. ط. دار المعارف.

تطلق أحجار الزيت على أحجار مرتفعة بجانب منازل بنى عبد الأشهل أى بالقرب من ضريح مالك بن سنان رضى الله عنه.

إخطار:

كان الزياتون قبل الهجرة النبوية يضعون فوق هذه الأحجار زيت الزيتون ويتاجرون. ولكن مع انقلابات الزمان ارتفعت أرضية ذلك المكان واندرست الأحجار المذكورة وظلت تحت التراب وأصبح هذا المكان طريقًا مستويًا على طرف منه سور المدينة وفى الجهة الأخرى بيوت ومحلات، وحدثت وقعة الحرة المشهورة بالقرب من أحجار الزيت وبجانبه استشهد النفس الزكية.

أحجار المراء:

هو اسم المكان الذى نزل فيه حضرة جبريل فى قرية قباء وأحياء الجهة السفلى من ثَنيّة المرة الواقعة المكان الذى بعث فيه رسول ﷺ سرية عبيدة بن الحارث[1].

أَخْزَمُ: على وزن أَحْمَدُ اسم جبل بين مَلَل وروحاء ويعرف فى زماننا بخزيم.

وأخضر: اسم منزل بالقرب من تبوك عندما كان النبى ﷺ ذاهبا إلى غزوة تبوك نزل فى هذا المكان.

أذاخر: اسم ثنية قريبة من مكة المكرمة.

أزين: اسم منزل عند مدخل مضيق صفراء.

أرْتَدْ على وزن أَحْمدَ اسم وادى أبواء.

أرخصيته اسم قرية ذات آبار ومزارع متعددة فى ناحية أبلى فى محاذاة قرية حجر، ويقال لها رخصية وبكسر الراء أيضًا.

أسقف: اسم جبل فى ناحية رابغ.

أسواف: وقف زيد بن ثابت فى الطرف الشامى للبقيع وفى شارع جبل أحد، وأساويف اسم آخر لذلك الوقف الذى يتوارثه طائفة عرب زيدون، وكان النبى ﷺ يشرف الأسواف كلما ذهب لزيارة سعد بن ربيع الأنصارى، وكان يجلس على السجادة التى تفرشها زوجة سعد، وبشر أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضى الله

(١) انظر: الطبرى ٢/ ٤٠٤.

عنهم ـ بالجنة فى بئر أسواف وكان واسطة التبشير حضرة بلال[1]، وعلى هذا التقدير فإنهم بشروا بالجنة مرتين.

الأشعر: أحد الجبال التى نالت ثناء النبى ﷺ عندما قال خير الجبال أحد والأشعر والورقان.

أشنف: أحد الحصون أمام مسجد الخربة.

إضاءة بنى غفار: اسم موضع فى الجهة الغربية من سوق المدينة، حيث تلاقى جبريل مع الرسول ﷺ فى هذا الموقع، ويقال لجبال جهينة التى تنتهى عند بطحان إضاءة بنى غفار أيضًا.

أُضاح: على وزن غُراب اسم مكان سوق ويبعد عن الموقع المسمى عرفجا مسافة ليلة.

أضافر: جمع ضفير أسماء بعض الربى الرملية بين الحرمين حينما ذهب النبى ﷺ إلى غزوة بدر مر بهذه التلال الرملية بعد موضع ذفران، وتلال الرمال التى تبعد عن الموقع الذى يطلق عليه هرشى يقال أضافر كذلك.

إضم: على وزن عِنب اسم وادى ضيقة القديم.

ومياه الأنهار الأخرى تتحد فوق هذا النهر ويلف من ناحية زغابة، ويطلق على ما بين موضعى ذى خشب وذى المرة على الجبال التى بين هذين الموضعين إضم كذلك ويبعد عن المدينة ثلاثة أميال قد تلاقى النبى ﷺ فى هذا المحل أيضًا مع جبريل عليه السلام.

أطول: اسم حصن فى محلة بنى عبيد التى تقع فى الجهة القبلية لمسجد الخربة.

أعشار: نهر فى وادى العقيق والأعشار فى مجرى هذا النهر.

أعظم: على وزن هفتم اسم جبل كبير فى الجهة الشمالية من موضع ذات الجيش.

يروى أن فوق هذا الجبل قبر أحد الصالحين أو نبى مجهول الاسم.

(١) مر فى موضع سابق أن من بشرهم كان أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ وعلى ذلك يكون قد بشروا مرتين.

وأعمار: كان اسم أربعة حصون فيما بين مزار وويخل، كما أنه اسم جبل فى بلاد قبيلة بنى عبيد، وجهة من جهتى هذا الجبل بلاد بنى حرام والجهة الأخرى بلاد جماعة قبائل بنى عبيد.

أعواف: اسم حديقة نخيل من الأوقاف النبوية يعرف أيضًا باسم عواف.

أعوض: على وزن أحمر اسم موضع بين بئر السائب وبئر المطلب فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة.

أفراق: على وزن أعمال وعند البعض على وزن إنسان اسم حديقة من حدائق المدينة.

آب: على وزن جو آب اسم نهر من أنهار جبل أشعر أسفل عين العلا والذى يلتقى بمضيق صفرا.

الهان: على وزن مسان كان اسم موضع ينسب إلى بنى قريظة واسم الماء الذى وقفته أم العيال حضرة فاطمة أنَا وبجانبه مكان حيث تقام السوق، وكان هذا الماء تحت إدارة ابن طلحة بن عبد الله، وقد أنفق المشار إليه ثمانين ألف درهم وغرس عشرين ألف نخلة واعتاد أن يكسب من حاصلاتها أربعة آلاف درهم سنويًا، وبما أن العين المذكورة قد انتقلت فيما بعد لسيدة النساء فوقفتها.

أمج: اسم نهر ينفصل هذا النهر مع نهر غرابة من قيمة بنى سليم ويسير حتى البحر وعلى بعد ميل من نهر أرزق فى جهة مكة وعلى بعد ميلين من منزل خليص من جهة مكة

أَمَر: على وزن أمل اسم قرية على ثلاث مراحل من المدينة فى جهة فيد أو اسم حديقة، كان الرسول ﷺ أقطع هذه الجهة لعوسجة الجهنى.

إمرة: على وزن كسوة وعلى قول على وزن كعبة أسماء الآبار التى تقع بجانب جبل مغارية.

أنعم: اسم جبل يقع على يمين من يأتون من جهة رقيقين من طريق العقيق

واسم جبل آخر قريب من مرعى ضرية وفى موضع بطن عاقل. والجبل الذى على طريق العقيق بضم العين على وزن ينجم، والجبل الذى فى بطن عاقل على وزن أكرم بفتح العين.

إهاب: على وزن كتاب اسم موضع بجانب الحرة الغربية وبئر أهاب فى هذا المكان.

ذو أوان، اسم بلدة فى جهة تبوك على بعد ساعة من المدينة المنورة، عندما عاد النبى ﷺ من غزوة تبوك نزل فى هذه البلدة واطلع على حيلة مسجد ضرار.

أوساط: اسم موضع بالقرب من قرية سعد بن عبادة والذين كانوا يصلون إلى هذا المكان فى الجاهلية يدخلون تحت حماية سعد بن عبادة وتحت ضمانه وكفالته.

حرف الباء

بئر أرمى: أرمى على وزن أعلا، اسم بئر على بعد ثلاثة أميال، حيث وقعت غزوة ذات الرقاع الجليلة.

بئر اليت: على وزن ألبت اسم بئر على بعد يومين من المدينة المنورة.

بئر جشم: على وزن هنر، على الطرف الغربى من مجرى نهر رانوناء أى فى قرية بنى بياضة وفى مكان يسمى حُرْف فهو اسم بئر.

بئر خارجة: اسم بئر فى المدينة المنورة، وقد عرفت باسم رجل أولم وليمة بجانب هذه البئر إلا أنه لا وجود لهذه البئر فى هذا العصر.

بئر خُريف: على وزن زُبير اسم بئر قريبة من بئر أرمة.

بئر الدريك: دريك على وزن شعيب اسم بئر فى قرية بنى خطمة، يقال بئر زريق أيضًا،

بئر ذَرْوان: على وزن مَرْوان اسم بئر، يقال لهذه البئر ذى أروان أيضًا. وهذه البئر بئر لبيد ابن الأعصم الذى سحر النبى ﷺ وهو حليف زريق، قد

ألقى المنافق المذكور ما أعده من سحر لسحر النبى فى هذه البئر وقد أخبر جبريل النبى ﷺ بالموضوع فأخرج النبى ﷺ من البئر السحر الذى صنعه لبيد، كما سيأتى بيانه فيما يأتى، ثم سد بئر ذروان بالتراب والحجر، إن شمس الملة البيضاء أخذت تنشر ضياءها إلى الجهات الستة من الآفاق فاشتعلت فى أعماق اليهودى الدون نار الحقد والحسد فتخيل أنه يمكن أن يضر النبى ﷺ، ولم يستطع اليهود أن يصلوا إلى آمالهم بالحيل والدسائس، وعندئذ تولى الأمر لبيد بن الأعصم وكان من مشاهير السحرة ولم يكن له مثيل فى ميدان الشر وكان فى الفتن رأس الأفعى فسحر وتدًا فعقده فى أحد الأماكن منه وغرز فى كل عقدة إبرة ودفنه فى قبر قديم، ثم أخرجه من هناك وتركه تحت حجر فى بئر ذروان وقد تأثر النبى ﷺ جسميًا من هذا السحر لحكمة ما وأخذ يتخيل أنه فعل الأشياء التى لم يفعلها وأخذ ﷺ يتضايق من هذه الحالة حينئذ أتى جبريل - عليه السلام - بسورتى المعوذتين اللتين تحتويان على إحدى عشرة آية.

وأخبر النبى ﷺ أن لبيد بن الأعصم قد وضع الوتد الذى سحره تحت حجر فى بئر ذروان، وبناء على المعلومات التى استقاها من جبريل - عليه السلام - أرسل على بن بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى بئر ذروان فأخرج الوتد المذكور من بئر ذروان.

وبناء على تعليمات جبريل قرأ على الوتد المعوذتين وعقب كل آية كانت عقدة من العقد تنحل ولما انحلت جميع العقد تخلص جسم النبى ﷺ من قيود الاضطراب الثقيلة واكتسب خفة ونشاطًا وسرورًا وفى ختام قراءة السورتين الجليلتين أفاق كليا، ولما كان النبى ﷺ يقرأ السورتين كان يشترك جبريل مع النبى ﷺ بالدعاء قائلاً بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك.

بئر رِآب: رأب على وزن كِتاب اسم بئر فى موضع محيص.

بئر ركانة: بئر تقع على طريق العراق وعلى بعد عشرة أميال من المدينة.

بئر زمزم: بئر فى موقع إهاب.

بئر سائب: على بعد يوم واحد من المدينة فى جهة نجد كما أنه اسم جبل أمام موقع شباع وعلى بعد يوم واحد من شقرة ويروون أن حضرة إبراهيم نزل على قمة ذلك الجبل.

بئر عائشة: اسم حصن واقع فى الجانب القبلى لمسجد فصيح.

بئر عذق: عذق على وزن شوق اسم بئر فى جهة قباء وفى داخل محلة بنى أنيف.

بئر عروة: اسم بئر مشهورة فى وادى العقيق.

بئر العقيق:

بئر ذات العلم: اسم بئر أمام موقع الروحاء ينقلون أن على بن أبى طالب قاتل الجن فى نهاية عقبة هرشى القريبة من البئر المذكورة.

بئر عاصر: فى جهة بئر أريس واسم بئر وقفها عثمان بن عفان.

بئر فاطمة: اسم البئر التى حفرتها بالقرب من الحرة الغربية بنت حسين بن على بن أبى طالب فاطمة ـ رضى الله عنهما ـ لما أخرجت المشار إليها من دار والدة حضرة حسين جناب فاطمة ـ رضى الله عنهما ـ صلت بجانب الحرة المذكورة ركعتين من الصلاة وبعدما حفرت المكان الذى صلت فيه أمرت أن يحفر فى هذا المكان بئر، ووجد حفار البئر الماء فيها بكل سهولة فبنوا حولها.

ولما أراد إبراهيم بن هشام بناء دار فى ذلك المكان ونقل سوق المدينة فى هذا المكان أراد أن يحفر بئرًا واسعة كالحوض ليسهل أمور أهل السوق ولكن حينما بدأ بحفر البئر صادف صخرة عظيمة لا يمكن نقبها ولا حفرها مما أدى إلى بقاء الحوض الذى عمق وحفر بدون ماء، فاشترى البيت الذى بنته حضرة فاطمة بجانب البئر من ابنها عبد الله بن حسن بن حسين بن على ـ رضى الله عنهم ـ وترك البئر لأهل السوق كهدية، وإن كان من يروى فى وقتنا أن تلك البئر هى بئر زمزم المشهورة إلا أن هذه الرواية خاطئة لأن بئر زمزم بجانب بئر فاطمة.

بئر فجار: ستذكر بئر فجار فى شاطبية.

بئر مدرى: على وزن عِندى، اسم بئر بجانب السد الذى بناه عثمان بن عفان لينقذ الحَرم الشريف من فيضان نهر مهزور.

بئر مرق: اسم البئر التى فى حدائق النخيل التى تنسب لبنى ظفر ويطلق على تلك الحدائق فى عصرنا مرقية.

بئر مطلب: اسم بئر على بعد ستة أميال من المدينة المنورة فى جهة نجد على قارعة الطريق ووجه تسميتها أن مطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومى هو الذى أمر بحفرها.

بئر معون: اسم بئر فى موقع الرجيع حيث كانت المذبحة الأليمة.

بئر الملك: اسم بئر فى موضع قناة، حفرها تبع الحميرى.

بئر الهجيم: اسم بئر بجانب منزل العصبة وبجانبها خرائب حصن قديم.

«بترا»: اسم مكان مر عليه الرسول ﷺ فى غزوة بنى لحيان ثم مال متجها إلى اليسار ودخل بين بعض الصخور.

بجرات: اسم المياه التى تتراكم فى جبل شورى.

بُحران: على وزن نُعمان وعلى قول شعبان وفوق موضع يسمى فرع يروون حدوث غزوة أو سَرية فى هذا المكان.

يخرج كان اسم حصن قديم فى قرية قباء.

بدار: اسم موقع بجانب وادى القرى.

بدر: اسم البئر التى حفرها بدر بن قريش بن مخلد ابن النضير من بنى غفار فى ناحية بدر وسميت باسم حافرها، وقعت غزوة بدر الكبرى بجانب هذه البئر، وعلى رواية أخرى أن بدر بن قريش ذلك من أفراد قبيلة بنى حمزة، ووجه تسمية البئر ببدر إقامته بجانب تلك البئر، ويطلق على ذلك الموضع بدر الموعود بدر القتال بدر الثالثة أيضًا، وقد أعز الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه المعركة

الموحدين، استشهد فيها ثلاثة عشر من الصحابة غير عبيدة بن الحارث وتوفى عبيدة متأثرًا بجراحه التى أصيب بها فى بدر فى مكان يسمى صفر حيث دفن.

صدى الطبل فى مذبحة بدر الكبرى:

وبناء على تدقيق وتحقيق المرحوم المرجانى أنه سمع فى مذبحة بدر الكبرى التى حدثت فى أوائل الدولة الإسلامية صوت طبل المعصر وأن هذا الطبل سيدق إلى يوم القيامة، وهذا ثابت بالآثار الصحيحة.

ويروى أن بعض الذين يمرون من موقع المعركة يسمعون صوت الطبل ويحكى أنه يرى فى ذلك المكان احمرار فى السماء بالليالى.

عجيبة:

يقول نخبة أهل الوثوق ابن مرزوق ـ رضى الله عنه ـ استمعت من أكثر الحجاج أنهم لما مروا بوادى بدر سمعوا أصوات طبل ملكى وأن هذا الصدى دليل انتصار المسلمين، وإننى لم أستطع أن أصدق هذه القصة أبدا وكبر الموضوع فى ذهنى حتى وصل إلى درجة الإنكار أحيانًا وأحيانًا عزوت هذا الصوت إلى أصوات حوافر الخيول فى أرض بدر الصلبة الخشنة وصرفت الفكر عن الموضوع. وعرفت فيما بعد أن أرض بدر ساحة رملية لينة، وأن أكثر الدواب التى تنتقل بين الحرمين جمال وأن أقدام الجمال لا تصدر صوتًا حتى فى الأرض الصلبة الخشنة وبناء عليه تخليت عن التأويل السابق واستغرقت فى بحار الحيرة وبقيت مضطربًا قلقًا إلى أن مررت بنفسى من وادى بدر، وفى السنة التى سافرت فيها إلى مكة محرمًا لأداء فريضة الحج كنت نسيت الخواطر التى حول بدر وكان قائد القافلة الموقر قد ساق القافلة إلى وادى بدر فنزلت من على ظهر الجمل وأخذت أسير مترجلاً دون أن يكون فى خاطرى الفكرة المشروحة وكانت فى يدى عصا من خشب شجرة أم غيلان وبجانبى غلام من الجمالين حبشى السحنة، وعندما وصلنا إلى المكا الذى تحدث عنه بالحجاج قال لى الغلام المذكور هل تسمع

هذا الصوت؟ فذكرنا بالموضوع السابق فاستمعت إليه وفعلا يسمع صوت شبيه بصوت الطبل فتملكتنى رعشة من الهيبة واقشعر شعر جسمى وخرج من ملابسى كالإبر.

ولما كان الجو عاصفًا ترددت فى الذى سمعته من صوت الطبل الملائكى وقلت يظهر أن العصا التى فى يدى تصدر صوتًا بفعل اصطدام الريح بها فرميت العصا وحصرت سمعى حتى أطلع على حقيقة الحال، وكان صوت الطبل يسمع مستمرًا من جهتى اليمنى ومنذ أن باتت القافلة فى وادى بدر إلى قيامها استمعت إلى ذلك الصوت سالف الذكر فحللت مشكلتى، ولاشك أن سماع تلك الأصوات غير مقدر لكل شخص.

الإمام القسطلانى «مؤلف المواهب اللدنية» من الذين سمعوا صوت الطبل المذكور إذْ يقول المشار إليه فى كتابه كان ينتقل سماع صوت الطبل المعهود فى المكان الذى وقع فيه غزوة بدر الجليلة، فجربت الاستماع فى الحقيقة سمعت صوت الطبل، حتى إننى سمعت صوته عندما نزلت فى اليوم الذى نزلت فيه بدرًا، ويقال إن كل شخص لا يستطيع أن يسمع هذا الصوت، وقد سمعه أيضًا مؤلف تاريخ الخميس حسين بن محمد من ديار بكر، يقول فى تاريخه: أنا أيضًا كنت مشتاقا لتجربة هذا الموضوع، وعندما كنا ذاهبين من المدينة إلى مكة المكرمة بتنا ليلة فى بدر حيث أقمنا فيها يومًا وبعدما أدينا صلاة الفجر وصل إلى أذنى صوت طبل كان يوم الأربعاء من أوائل شهر شعبان من السنة المذكورة، وظَنَنْتُ أن ذلك الصوت يأتى من الجبل المرتفع الذى يقع فى الجهة الشمالية من بدر فأسرعت بالصعود إلى ذلك الجبل، مع أن مائة من رجال القافلة ونسائها استمعوا إلى الصوت، ولم أسمع فوق الجبل صوت طبل فنزلت إلى سفح الجبل، وبدأت أسمع صوت الطبل آتيًا من تجاه ذلك الجبل، والذين سمعوا الصوت ظنوا أن الصوت آت من تجاه ذلك الجبل، ظللنا هناك مدة طويلة، وكان ذلك الصوت يأتى أحيانًا من تحتنا وأحيانًا من فوقنا وأحيانًا من خلفنا وأحيانًا من أمامنا أحيانًا من يميننا وأحيانًا من يسارنا.

وعندما استمعنا لهذا الصوت كان الهواء راكدًا ولم تكن الريح تهب من آية

ناحية، والذين يستمعون لهذا الصوت ما كانوا يفرقونه عن صوت الطبل المعهود.

براق خبت: خبت على وزن جهة اسم مكان فى صحراء تبدأ من بدر وتنتهى فى مكة.

برام: على وزن أنام أو على وزن إمام، اسم جبل مشهور قمته مثل الخيمة وعلى الجهة الغربية منه ترى سلاسل جبال نقيع وعلى الجهة الشرقية منه ترى سلاسل جبال عسيب.

بُرقة: على وزن دفته أو على وزن نكته اسم موضع من الأوقاف النبوية.

برقة العيران: اسم موضع ذات منظر غاية فى الغرابة من الجمال بين مرعى ضرية وبيسان وله طول وعرض مسافة نصف ساعة.

ويطلق اسم برقة بين العرب على أماكن حجرية ورملية وطينية ولما كانت برقة العيران على خلاف ذلك نالت ثناء الشاعر المشهور امرئ القيس ومدحه.

برك: اسم مكان يقع فى محاذاة موقع يقال له شواحظ فى ناحية سوارقية.

بُركة: على وزن عُزبة يطلق على مقسم مياه عين الزرقاء.

بَرمة: على وزن جزمة اسم موقع قريب من موضع بلاكت ما بين وادى القرى وخيبر، فى هذا المكان مياه كثيرة وحدائق يطلق عليها ذو البيضة.

برود: على وزن حسود اسم مكان ما بين أشعر وملل واسم موضع فى جهة حرة النار.

بَزواء: على وزن حَلواء اسم بلدة مرتفعة الحرارة بين واديى ودان وجار وأعلى قليلاً من الساحل. وكانت قبيلة بنى ضمرة من قبائل كنانة ساكنة فى هذا البلد.

وعزة معشوقة كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعى من الشعراء المشهورين كانت من هذه البلدة.

وإن كان كثير بن عبد الرحمن مشهوراً بين الناس لجودة أشعاره ورقتها إلا أنه كان أحمق يظهر عداوته وغيظه للعلويين الذين ينتسبون إلى حضرة على بن أبى طالب.

مضحكة

ينقلون عنه هذه الحكاية دليل بلاهة خلقه، لازم كثير الفراش يوما وهو مريض، فذهب بعض ظرفاء العصر لعيادته وأخذوا يستفسرون عن حاله مراعاة لأصول العيادة، فخاطبهم كثير قائلاً الظاهر أننى سأتوفى غالبًا. فسألوه قائلين وطيبوا خاطره: لا كلا! إن وفاتك ستتأخر بعض الوقت، فأجابوا كثيراً بناء على قوله: أرجوكم أيها الإخوة، إذا كان بين الناس معلومات صحيحة بخصوص طول عمرى، أخبرونى فقالوا له رداً على هذا: إن الناس قاطبة يعتقدون أنك دجال! وبما أن ظهور الدجال سيطول قليلاً، فإنك ستعيش مدة طويلة بعد الآن، فأجابهم قائلاً: «نعم! إن قولكم ليس بسيئ اعتقادكم فى محله، قد أصبت من مدة ليلة بضعف البصر وضعف بصرى هذا يدل على صحة اقتناعكم».

ينقل عن الذين عرفوا كيف عشق كثير عزة ثم بينوا ذلك أنه مر ومعه بعض الأغنام، ببلاد بنى ضمرة وأخذ فى البيع والشراء. بينما كان يمر بجانب جماعة من النساء فبعثن بعزة طالبات غنما على أن يدفع ثمنه بعد فترة، وإن كانت عزة بنتا صغيرة فصيحة اللسان متحدثة ذات إفادة عذبة واشتهرت بذلك حتى نساء القبائل.

فذهبت إليه وقالت بأسلوب جميل ولسان عذب فصيح بعثتنى هؤلاء النسوة اللائى أمامك وقلن إذا ما أعطى لنا غنما بالدين فعند رجوعه نؤدى له دينه، ففتن كثير بمشية عزة ووجهها، وخاصة سحر حديثها وطريقة أسلوبها، وأعطى لها من الغنم ما ترغب فيه.

ومَرَّ كثير بعد فترة بجماعة النساء من بنى ضمرة ورأى أنهن جلسن فى نفس

المحل وتلكأ قليلاً، وكانت النساء قد دبرت ثمن ما أخذن من غنم فأعطين إحداهن وأرسلناها مع النقود إلى كثير، وأرادت أن تعطى النقود لكثير قائلة هذه نقود الغنم التى اشتريناها من قبل فقال كثير ليس لى دين عند أحد غير البنت التى أخذت منى الغنم وأنشد البيت الآتى:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه

وعزة ممطول مُعَنًّى غريمها

وعادت المرأة عندئذ وأعطت النسوة دينهن إلى عزة وأرسلنها إلى كثير.

سبب وفاة كثير:

حج زوج عزة وأخذ معه زوجته، ولما بلغ كثيرًا هذا الخبر ذهب ليزور الكعبة المعظمة عله يرى جمال معشوقته مرة أخرى. ولما عرفت عزة أن كثيرًا فى مكة خططت لرؤية كثير. وظل كثير يسأل جميع قوافل الحجاج فى مكة فردًا فردًا باحثًا عن عزة، ولكنه لم يكتب لهما اللقاء، وفقد كثير جمله بعد عرفات وذهب لناحية ما بينما الحجاج يطوفون طواف الوداع رأت عزة جمل كثير وأظهرت حنينها وشوقها ومسحت ما بين عينى الجمل ولاطفته ودعت له قائلة حييت يا جمل، ولما عرف كثير الكيفية رجع إلى جانب الجمل إلا أن عزة كانت قد عادت فأنشد القطعة الآتية:

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت

فحى ويحك من حياك يا جمل

لو كنت حييتها مازلت ذا شرف

عندى ولا مسك الإدلاج والعمل

وهكذا أبرز شدة حبه وشوقه لعزة.

وبينما كان كثير يلقى هذه القطعة بكل حماس وجد بجانبه الشاعر المشهور

الفرزدق فسأله قائلاً: «أنت من ياترى؟» فأجابه «أنا كثير» فقال له «إذًا فأنت الذى يطلقون عليه كثير عزة؟» فقال له «نعم هكذا يسمينى الناس»، ولكن من تكون أنت؟ فعرف أنه الفرزدق بن غالب التميمى فقال له: هل أنت القائل لهذه الأبيات:

وجـدت جمـالهم بكل أسيلـة
تركت فـؤادى هائمًا مخمـولا
لو كـنت أملكهم إذا لم يرحلوا
حتى أودع قلبـى المتبـولا
ساروا بقلبى فى الخـدود وغادروا
جسمى يعالـج زفـرة وعويـلا

فلما أخذ الرد بالإيجاب وقد رأى تلك الأبيات تنطبق على حاله فتأثر منها أشد التأثر فقال «يا فرزدق! لو لم أكن أمام البيت المعظم لصحت صيحة عظيمة انزعج منها هشام الذى يجلس على العرش فى سواد الشام ويظن أن القيامة قامت واستولى عليه الفزع، ولكن ما الفائدة فحرمة بيت الله الجليل تقف دونها!!» ولما تأثر الفرزدق من هذه الكلمات أشد التأثر فقال له «يا كثير، سأعرض ما قلته على هشام عندما أصل إلى الشام». وفعلا عرض الأمر عليه عندما وصل إلى الشام وبين له شدة حب كثير لعزة، ولما كان تطليق عزة من زوجها وتزويجها من كثير ممكنا فأمر بأن يدعى كثير إلى الشام، فبلغ الفرزدق الأمر لكثير كتابة وطلب منه أن يحضر إلى الشام دون تأخر. ولما أخذ كثير الرسالة المبشرة من الفرزدق تحرك من مقر مقره سعيدًا وتوجه إلى الشام قاطعا المراحل وطاويا البوادى والمنازل، ولكنه تصادف أن غرض لناظريه غراب قبل أن يصل إلى الشام بعدة مراحل فتطير، وكان الغراب الذى أفزعه فوق شجرة بان يفلى ريشه ويسقط شعره. ولما رأى الغراب فى هذه الحالة استولى على قلبه خوف واصفر وجهه. وذهب إلى قبيلة بنى نهد ليسقى دابته وهو فى شدة الحرص على سلامته.

ولما كانت تلك القبيلة من زجرة الطير فقال عجوز وقد استدل من صفرة وجه كثير على خوفه، يا ابن أخى! هل هناك شىء أخافك؟ «فقال له كثير نعم» وحكى له حكاية الغراب فتشاءم العجوز من هذه الواقعة وقال له هذه الحكاية إشارة على فراقك واغترابك. ولما زاد غم كثير وهمه من هذا القول أرخى عنان دابته حتى لايصل إلى الشام سريعًا، ولما وصل إلى الشام وجد جنازة موضوعة على حجر المصلى وقام مصليًا مقتديًا بالإمام، ولما فرغ من الصلاة قيل له: إننا لا نستطيع ألا نتعجب من غفلتك فى هذا اليوم الحزين فقال لهم أى يوم هذا تتعجبون من غفلتى؟! فقالوا إن عشيقتك عزة توفيت والجنازة التى صليت عليها كانت جنازة عزة فكيف لا نتعجب لحالتك؟! فتأثر كثير من هذه الإجابة ووقع على الأرض مغشيًا عليه وبعد أن أفاق قال:

مـا أعـــرف النهـــدى لادر دره

وأزجـــره للطـــير لاعـــز نصـره

رأيـــت غرابـــًا واقفًا فوق بانه

ينتـــف أعـلى ريشـــه ويطـايره

فقـــال غراب اغتراب من النـــوى

وبانـــه بين مـــن حبيب تعاشـــره

وبعد أن ألقى هذه الأبيات صاح صيحة عظيمة ومات ودفن بجانب عشيقته.

مات كثير فى خلال سنة ١٠٥ الهجرية، ولما توفى فى نفس اليوم عكرمة غلام ابن عباس فقيل فيهما: توفى اليوم أفقه الناس مع أشعر الناس رحمهما الله.

البضَيع: على وزن النصير اسم مشهور أصل ماء قبيلة بنى غفار، وهو بين جبلين فى وادى العقيق.

(١) الزجر هو إبعاد الطائر بتخويفه عند الذين يتفاءلون بالطير إذا كان الفال سيئًا.
تفصيل هذا مسطور فى الصورة الثامنة من الوجهة الثانية من مرآة مكة.

بطحان: يطلق على الصحراء التى تستقر فيها مساجد الفتح.

بطن نخلة: يطلق على بطن نخلة على حديقة النخيل التى تقع على مسافة يومين من المدينة المنورة فى ناحية فيه، وحول حديقة النخيل هذه أكثر من ثلاث مائة بئر ذات مياه عذبة والوادى الذى فيه يلتصق بطريق وادى ربذة.

بعاث: الاسم القديم لموضع قوران وفى الجهة العليا للموضع الذى يطلق عليه دلال وعلى بعد ميلين من قرية بنى قريظة من جهة المدينة. وعند البعض اسم حصن منسوب لبنى قريظة أو حديقة نخيل.

بعد أن قتل محمد بن مسلمة واليهودى كعب بن الأشرف مر بقبيلة بنى قريظة ثم بموقع بعاث وهكذا إلى رنوة عريض ومن هناك عاد إلى المدينة المنورة.

بعبع: كان اسم حصن فى قرية قباء.

بغيبغة: اسم بئر قريبة من موقع رشاء. ويطلق على الساحة التى فيها هذه البئر بـ غيبات أيضا.

عندما شرف على بن أبى طالب ينبع البحر حفر كثيرا من الآبار فى ساحة بغيبات، ووقفها، وحدائق النخيل التى غرست فى عهده كانت تسقى من الآبار المذكور ونذر سنويا ألف وسق من البلح.

توضيح:

الوسق: يستوعب ستين صاعا ـ أو يقال لحمل بعير وبناء على القول الأول أن (٣٢٠) رطلا عند الحجازيين و(٤٨) رطلا عند العراقيين والرطل (١٢) أوقية والأوقية (٤١) درهما. ولكن هذا الحساب بناء على الرطل الشامى لأن الرطل العراقى أزيد (١٢٨) درهم.

قد أعطى ريحانة الرسول جناب حسين بن على حدائق نخيل بغيبات لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب بشرط ألا يزوج ابنته ليزيد ابن معاوية وقال: «تستطيع أن تسوى بمحاصيل هذه الحدائق ديونك وأن تدبر أمور معيشة أهلك».

وقد تملك واستولى على هذه الحدائق بنو هاشم فيما بعد ولكن عبد الله بن حسن بن وضح الأمر إلى مقام الخلافة فرد إلى وقف على بن أبى طالب وأخذ من يد بنى هاشم. وأن أبا جعفر المنصور قد استولى عليها فى زمن خلافته إلا أن الخليفة المهدى أعادها لحسين بن زيد بن حسن. ويرى البعض أن حدائق بغيبات ظلت إلى عهد المأمون فى يد بنى عبد الله بن جعفر فأعادها المأمون إلى بنى فاطمة وأعطى لبنى عبد الله حديقة نخيل أخرى.

بقال: اسم موضع فى داخل المدينة المنورة، والمنازل التى فى هذه المنطقة تجاور بعضها بقيع الغرقد وبعضها يجاور بقيع الزبير.

بَقعاء: على وزن صفراء اسم ذى القصة القديم والتى تبعد عن دار الهجرة أربعة وعشرين ميلا وهو الموقع الذى جهز أبو بكر فيه الجنود لإرسالهم ضد العرب المرتدين.

بُقَع: بضم الباء وفتح القاف اسم بئر واقعة فى موضع سقيا.

بقيع بطحان: اسم موضع فى وادى بطحان.

بقيع الجنجنة: اسم شجرة تنبت دون غارس ذاتيا، حيث أعد طين لبنات المسجد النبوى، وكان فى ناحية مشهد إبراهيم فى بقيع الغرقد.

بقيع الخيل: اسم موضع فى الجهة الشرقية أو الجنوبية من مصلى العيد (يقال له الآن مسجد النبى ويشتهر الآن ببقيع المصلى.

بقيع الزبير: فى محلة بنى غنم اسم محل حيث كانت منازل الزبير بن العوام فى الجهة الشرقية من موقع البقال سالف الذكر، وكان النبى ﷺ قد أقطعه للزبير بن العوام ويروى أن الميدان الذى فى طريق الغرقد من المنازل الزبيرية.

بقيع الغرقد: اسم المقبرة التى يقال لها جنة البقيع وكانت ساحة هذه المقبرة قبل الهجرة غابة من أشجار الغرقد. قد أمر النبى ﷺ بقطع الأشجار واتخذه مقبرة.

بكرات: تطلق على بعض الربا التى فى مرعى ضرية.

بلاكت: على وزن منَاظر يطلق على موقع فى بطن إضم.

بلحان: كان اسم حصن بموقع سجيرة.

بليدة: بلدة اسم موقع قريب من مكان يطلق عليه فقير من وديان جبل أشعر، وينسب لعلى بن أبى طالب.

بواطان: اسم جبلين مدببين فى الجهة الشامية من جبل أشعر وهذان الجبلان جبل واحد فى الواقع ولما كان له قمتان مزدوجتان أطلق عليه هذا الاسم.

بضيعة المثنى: وبين هذه الجبال طريق جبلى ضيق قد سار النبى ﷺ من هذا الطريق فى غزوة العشيرة.

بويرية: اسم البئر التى حفرها أولاد الحارث بن الخزرج لدى حدائق النخيل.

بويرتة: وان كان بئر صغير بجانب حدائق نخيل بنى النضير ولكن بناء على رواية صحيحة أنه اسم جدول فتح لبئر بويرتة لدى حدائق نخيل القبيلة المذكورة. ولم يكن هذا الجدول فى وقتنا فى بويرتة التى فى الجهة القبلية الغربية من مسجد قباء.

بويلة: على وزن رويدة اسم مرج واقع فى قرية بنى النضير.

بيداء: اسم موقع بين ذى الحليفة ودارة مفرح. وفى هذا المكان علم مركوز ويروى أن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال فى حق هذا العلم «العلامة المركوزة فى موقع بيداء وضعت إشارة أن هذا المكان مخرج الإمام المهدى».

بيسان: على وزن ميدان اسم ماء مر بين خيبر والمدينة المنورة ونزل النبى ﷺ بجانب تلك البئر فى غزوة ذى قرد وسماه بعمان ووصف حلاوة وعذوبة ذلك الماء فتحول طعم الماء واكتسب لذة وعذوبة وأصبح ماء فى غاية العذوبة واللطف فاشتراه جناب طلحة ووقفه.

تَبوك: على وزن صَبور اسم موضع مشهور وعلى اثنتى عشرة مرحلة من دار الهجرة فى جهة الشام ويقع بين الشام ووادى القرى. وفى ذلك المكان حديقة وبستان منسوبان للنبى ﷺ. ذهب النبى ﷺ فى السنة التاسعة الهجرية قاصدا غزوة تبوك ونصب خيامه بجانب البئر التى فى موضع تبوك.

حيث قام وأمر أصحابه بألا يمدوا أيديهم للبئر سالفة الذكر إلا أن اثنين من الصحابة الكرام لم يسمعا التنبيه الذى صدر من النبى ﷺ وبما أنهما قد عرفا أن ماء تلك البئر قليل وغير كاف وأرادا أن يعمقا البئر لإكثار مائه ووجدا عصا وأخذا يقلبان ماءها فرآهما النبى ﷺ وقال لهما «مازلتما تبكوانها فسميت تلك البئر تبوك».

وبعد أن حذر النبى ﷺ المشار إليهما ومنعهما من تقليب مياه تلك البئر بقوله «مازلتما تبكواها» ثم ضرب بحربته إلى ثلاثة أماكن من تلك البئر حيث تفجر من هذه الأماكن الثلاثة ماء فى غاية اللذة واللطف فغسل وجهه ثم صب الماء المستعمل فى البئر.

تُربان: على وزن عُربان موقع بين ذات الجيش وملل.

ترعة: اسم واد فى ناحية فدان وهو من أوقاف على بن أبى طالب ويتصل بالجهة القبلية لموضع إضم.

تسرير: اسم واد فى مرعى ضرية.

تُضارع: على وزن مُضارع اسم بحيرة بموضع فى العقيق.

تعار: على وزن كبار اسم جبل يقع فى الجهة القبلية لموضع وابلى

تعُهن[1]: على وزن دشمن اسم ماء على بعد ثلاثة أميال من موضع سقيا فى جهةَ مكَة.

تمنى: على وزن تغنى موضع فى طريق عقبة هرشى يقال للجبال التى بجانبها جبال بياض.

(١) تقدّم ضبطه فى أول هذه الصورة. راجع (أجرد).

تنَاضب: على وزن بَرابط طريق جبلى يبدأ من منزل داود وينتهى إلى وادى العقيق.

تبدو: على وزن هيئت اسم من أسماء دار الهجرة كما يطلق على واد من وديان أجرد.

كما يطلق على جبل فى بلاد جهينة تبدد وبجانب هذا الجبل عدة آبار.

تِيس: على وزنت بِيك اسم حصن تتحصن به قبيلة بنى عتبان التى تنتهى إلى بنى ساعدة.

تيم: على وزن كرم اسم جبل يقع فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة.

تيماء: بلدة ملحقة بالمدينة المنورة على بعد ثمانى مراحل منها.

حرف الثاء

ثاجة: اسم ماء فى موقعى حرض وحراضى.

ثاقل: اسم جبلين أحدهما صغير والآخر كبير بين الحرمين وبينهما طريق جبلى.

بثار: على وزن صغار اسم موضع مشهور قتل فيه عبد الله بن أنيس الذى وقع فى أسر ابن رزام اليهودى.

زفاف صفية رضى الله عنها تزوج النبى ﷺ فى غزوة خيبر من زينب بنت حيى بن الأخطب ولما وصل إلى موقع بثار سالف الذكر وهو عائد أراد أن يدخل عليها. فخالفت المشار إليها الإرادة النبوية. ولما وصلا إلى منزل صهبا ومالوا إلى جهة دومة الجندل وانعطفا نحوها فرضيت وأطاعت الرسول ﷺ قائلة: «أرجو ألا تكون قد غضبت من حركتى الأنانية فى المنزل المذكور، لأن ذلك المكان كان قريبا من بلاد اليهود فلم يكن بعيدا أن يصل أذى تلك الفئة المكروهة إلى سيد البشر. والآن قد عرفت أن أهالى القرى والبلاد التى تحيط بنا كلهم تحت طاعتك

ولن يستطيع اليهود أن يؤذوك هنا» وهكذا مهدت بهذه الكلمات لجبر خاطر الرسول ﷺ.

اسم المشار إليها زينب وأبوها حيى بن أخطب بن سعنه بن ثعلبة بن عبيد بن كعب ابن الخزرج بن أبى حبيب ابن النصير بن النحام وأمها برة بنت سموأل. ولما اصطفاها الرسول ﷺ من غنائم خيبر سماها صفية. ولم ترد جناب صفية أن تسلم فى أول الأمر إلا أنها بعد مرور عدة أيام عرضت رغبتها فى الدخول فى الإسلام، وكانت خيوط سلسلة نسب أبيها حيى بن أخطب تنتهى مع بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع إلى سبط لاوى بن يعقوب أى ترتبط بهارون عليه السلام وكان من عظماء هذه القبائل وفى ليلة زفافها، تولى حراسة خيمة النبى ﷺ أبو أيوب الأنصارى مسلحا حتى الصباح.

وخرج النبى ﷺ فى فترة ما من خيمته ولما رأى أبا أيوب الأنصارى يتجول حول خيمته متسلحا فسأله عن سبب ذلك. فقال له «يا رسول الله! بما أن صفية حديثة السن. وأنك قد قتلت أقاربها أباها وزوجها ربما تكون متأثرة ومتألمة بهذا وقد تحاول نتيجة لهذا أن تقصدك بشر ولما فكرت فى هذ الأمر جفا النوم عينى وقررت أن أقوم بحراستك تاركا الراحة والنوم». ولما سمع الرسول هذا الرد فرد عليه قائلا «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى».

وظل أبو أيوب الأنصارى طول حياته تحت وقاية ربه الذى لا ينام. ونتيجة لهذا الدعاء أصبح مرقده المقدس تحت حراسة سكان باب السعادة حيث يتوسلون بروحه السامية فيلتمسون البركة والشفاء. يروى أن حتى النصارى كانوا يذهبون إلى قبره متبركين به ويستسقون المطر به وذلك قبل فتح إستانبول.

ثراء: اسم موقع بجانب واد يسمى جى بين موضعى صفراء ورويثة.

ثريا: اسم ماء مشهور لموقع ضبا فى مرعى ضرية. وإن هذا الماء ينسب إلى قبيلة بنى محارب التى تسكن فى جبيل شعبى.

ثعال: اسم طريق بين رويثة والروحاء.

الثمال: اسم المحجر الذى يطلق عليه صخرات اليمام.

الثمغ: اسم ملك بالقرب من كومة بنى الحمراء فى الجهة الشمالية للمدينة وهو من غنائم يهود بنى حارث وكان من حصة عمر بن الخطاب فوقفه بمجرد أن أخذه.

وعلى رواية أن عمر الفاروق وقف الملك المذكور أولا ثم وقف مؤخرا ما اغتنمه من أراضى خيبر.

ورغم أن هذا القول صحيح يحتمل أن يكون ثمغ اسم لموضعين.

ثنية البول: وهو طريق جبلى بين المدينة المنورة وذى خشب.

وثنية الحوض: وهو طريق جبيل يقع أسفل الموقع المدرج فى مجرى وادى العقيق. ولوجود حوض لمروان بن الحكم بجانب الثنية المذكورة. فقد أطلق على هذا الطريق ثنية الحوض.

ثنية الشريد: وهو طريق جبلى فى وادى العقيق ولوجود كثير من بساتين الفاكهة لأحد الأشخاص من بنى سليم إلى جانب ثنية الشريد، فقد ملكها سيدنا معاوية لفترة. وهى على يمين الطريق الذى سلكه الرسول ﷺ فى رحلته إبان رحيله إلى المدينة المنورة.

ثنية العثعث: وهى تل من تلال جبل حفن بالمدينة تقع بين قاعد المدينة المسماة حصن الأمير وجبل سليع.

ثنية مدران: وهى طريق يقع إلى جوار مسجد تبوك.

ثنية مرة: طريق يقع إلى جوار البئر المجاورة للموضع المسمى الأحياء فى ضواحى رابغ، وقد حارب عبيدة بن الحرث فى هذا الموضع.

ثنية المرار: وهى طريق جبلى ينتهى بالحديبية.

ثنية الوداع: وهى طريق قريب من جبل سلع فى الجهة الشامية لدار الهجرة.

بين مسجد الراية ومشهد النفس الزكية وكان خلف هذا الطريق فى أول أمره سوف يودع جنود المدينة المنورة الذاهبين لغزوة تبوك بجوار هذا الطريق فقدسمى بثنية الوداع. واشتهر بهذا الاسم ويروى أن ثنية الوداع اسم يعود إلى الجاهلية لأنه على حد زعم اليهود فان من يدخلون المدينة فى ذلك الوقت كان يصيبهم المرض ويموتون.

ومن لم يمت وكتبت له النجاة، فإنه لن يعود أدراجه من الثنية المذكورة، ولهذا فإنه لو شاهد أهالى يثرب ضيفا عائدا إلى ثنية الوداع، كانوا يقولون له متفكهين استودعناك الوباء، فلا يحق من بعد ذلك.

ولدى البعض هو اسم المكان الذى يسلكه الذاهبون من المدينة بالوداع وعل يرأى أنه المكان الذى ودع فيه الرسول ﷺ صحابته.

وفى عام ١٢١٤ حفر كور يوسف باشا والى جده هذه الثنية وساوها، وبنى فيها قصرا له ثلاث قباب أطلق عليه قصر يوسف باشا، وذلك الطريق ممهد ومستوى إلى أقصى درجة.

حرف الجيم

جار: اسم قرية فى جهة البحر الأحمر على مسافة أربعين ساعة بطريق الإبل.

جاعس: كانت قلعة خاصة بقبيلة بنى حرام غرب مساجد الفتح.

جبار: على وزن كِبار اسم موضع داخل حدود غطفان.

جبانة: على وزن خردانة جبانة بالقرب من موضع ذباب.

جبل بنى عبيد: جبل يقع فى قرية بنى عبيد فى الجهة الغربية من مساجد الفتح.

جثجانة: على وزن مستانة اسم موضع بالقرب من وادى العقيق.

جَحَّاف: على وزن شَفَّاف اسم مزرعة فى الجهة المسماة سميحة بالمدينة المنورة.

جُحْفَة: على وزن مُهْرَة اسم قرية على بعد خمس مراحل من المدينة المنورة.

جداجد: صحراء مستوية للغاية بين الموضعين اللذين يسميان ذى كثب واجرر.

جد الأثافى: بئر قديمة فى وادى العقيق، وأثافى على وزن منادى جمع أثفية والأثفية تطلق على الحجارة التى تتخذ موقدا ومعناها حجر النار.

ذو الجدر: اسم موقع على بعد ستة أميال من المدينة من جهة قباء ومن هذا المكان يبدأ سيل بطحان.

جذمان: على وزن نعمان اسم موضع فى بلاد أدس ولهم فى هذا المكان حصن متين لما حارب تبع الحميرى أهل المدينة ـ وهذا القتال من نتائج وقعة مالك بن عجلان، قطع النخيل الذى فى هذا المكان والآن هناك نخلة واحدة يقال لها جرمان ولعلها تصحيف جذمان.

جراديج: اسم القمم السوداء التى بين السويقة والمثغر.

جرف: اسم موقع على بعد ثلاثة أميال من ناحية الشام ويختلط بصحراء بئر روبة.

ووجه تسميته قول تبع اليمانى: «هذا جرف الأرض» بينما كان يمر من هناك قد توفى مقداد بن الأسود فى هذا المكان فنقل إلى البقيع حيث دفن وقد صلى على جنازته عثمان بن عفان.

جر هشام: اسم السبيل الذى بناه هشام بن إسماعيل فى وادى العقيق.

جزل: وإن كان معناه الحطب الجاف إلا أنه اسم نهر يلتقى فى ذى المروة بنهر إضم.

جاف: اسم موقع يضم بساتين مرغوبة ورياض ممدوحة فى عوالى المدينة.

جفر: اسم بئر فى ناحية مرعى ضرية واسم ماء قريب من فرش ملل.

جلس: اسم محل فى الأراضى النجدية.

جماوات: اسم ثلاثة جبال فى وادى العقيق وسطحها مستو الآن معنى جما غير مدببة.

جمدان: اسم جبل فى وادى أزرق بينما كان النبى ﷺ يمر من وادى أزرق قال أرى حضرة موسى يمر من هذا الطريق ملبيا ويهبط إلى جبل جمدان.

جموم: اسم موضع فى ناحية الموضعين اللذين يطلق عليهما كشب ومران فى ناحية قباء.

جمة: الماء الجارى الذى سماه النبى ﷺ قسمة الملائكة فى خيبر.

إن قسمين من هذا النهر إلى جهة وقسم منه إلى جهة أخرى ولحكمة ما فى صورة إذا ما رميت فى منبع هذا النهر ثلاث تمرات تذهب اثنتان منهما حيث يجرى الثلث الآخر والغرابة فى أن أحدا لم يستطع أن يزيد أو ينقص المياه فى أحد المجريين بتغيير المجرى أو خلط المياه.

جناب: اسم موضع بين فيد وأراضى خيبر.

جنفا: على وزن معما ماء جار من مياه بنى فزارة بين خيبر وفيد كذلك.

جنينة: على وزن رويده اسم موضع بين وادى القرى وتبوك واسم الحديقة المسمى بـ «روضة الجنينة» بين مرعى ضرية وحزن بنى يربوع.

جواء: اسم ماء جار فى مرعى ضرية.

جوانبه: اسم موضع بين جبل أحد والمدينة المنورة وفى جهة الحرة الشرقية.

جيار: اسم مكان فى خيبر.

ذات الجيش: اسم موضع على بعد ستة أو عشرة أميال من ذى الحليفة فى جهة بدر. عندما ذهب النبى ﷺ إلى بدر فمر بهذا الموقع.

ذو الجيفة: اسم قرية على حدود تبوك.

جى: اسم موضع بين موقعى عرج ورويثة وهنا تنتهى حدود جبل ورقان. كان فى هذا المكان بعض المنازل وبئران مياههما عذبة وقد اقتحمها سيل بينما أهلها نيام وأغرقهم جميعا وتخربت بيوت القرية.

حرف الحاء

حاجر: موضع يقع فى غرب نقاء وهو من أودية العقيق وينتهى إلى تل يسمى بره وهو موضع نزه جميل وكان شعراء السلف يمتدحونه.

وإن كان فى صحراء نقاء موضعان يطلق عليهما حاجز البيداد حاجز الثناء ولكن عندما يطلق حاجز مجردا لا يشمل الآخرين.

حاطب: على وزن طالب اسم طريق بين خيبر والمدينة المنورة.

حبره: على وزن دجلة اسم برج فى داخل دار الهجرة كما أنه اسم قرية منسوبة إلى جماعة بنى قينقاع واسم موقع قريب للعلافين فى المدينة المنورة.

حلس: على وزن عنف اسم الموقع الذى اندلعت منه نار الحجاز المنذرة.

حبيش: على وزن قبيس كان حصنا على جبل قريب من قرية بنى عبيد.

حجاز: يطلق على القطعة المقدسة التى تشتمل على مكة المعظمة والمدينة المنورة وملحقات اليمن وعلى قول الأصمعى يطلق على الأرضى المحاطة بقمم حرة ليلى وحرة واقم وحرة نار ـ وبناء على هذا يلزم أن تكون قرية بنى سليم المحاطة بجبال متصلة ومنفصلة كاملة بداخل قطعة الحجاز ويستدل على هذا المؤرخون القدامى بأن النبى ﷺ وقف على ثنية تبوك فأشار إلى جهة الشام قائلا هنا الشام وأشار إلى جهة المدينة وهنا اليمن وبناء على هذا يقتضى أن يكون

الحجاز من القطعة اليمانية إلا أن هناك من يعتقد أن نصف المدينة من الحجاز والنصف الآهر من أراضى تهامة.

حجر: على وزن فكر قرية من محاذاة الموضع المشهور باسم «أوخصيته» وفى هذه القرية آبار كثيرة ومياه جارية منسوبة لبنى سليم ويروون أن أمامها جبل صغير يسمى قنة الحمر وتعرف تلك القرية فى زماننا بحجرية.

جديلة: على وزن جديدة اسم القرية التى تسكنها جماعة بنى حديلة.

حُراض: على وزن نُحاس اسم واد من وديان أشعر التى تقع على الجهة الشامية من موضع حورة.

حربى: اسم المحل الذى كان يمتد من جنب مسجد القبلتين إلى موقع يسمى بمزاد وهذا الاسم اسمه القديم وقد غيره النبى ﷺ باسم صلحة.

حرض: الاسم الآخر للوادى الذى يطلق عليه ذو حرض بالقرب من جبل أحد.

حرة أشجع: اسم المحل الذى بجانب حرة النار وهى ذى حجارة سوداء.

إخطار:

يسمى العرب الموضع الذى احترقت حجارته وتفتتت بالحرة، وبوادى قطعة الحجاز لكل قبيلة حرة خاصة حيث يقيمون فى أيام الصيف ناصبين خيامهم وبعد أن يمضوا فصل الشتاء يعودون إليها مرة أخرى ويسمون الجمال التى ترعى فى هذه الأماكن حرى:

حرة بنى بياضة: بجانب حرة المدينة المنورة الغربية

حرة حقل: فى وادى أزه.

حرة الحوض: بجانب حوض زبالة بن أبيه الذى بين وادى العقيق ودار الهجرة.

حرة راحل: فى بلاد بنى عبس.

حرة رجلة: فى المكان الذى يسمى بلاد بنى القين بين الشام والمدينة والمنورة.

حرة رماح: فى المحل الذى يسمى دهناء.

حرة زهرة: فى حرة واقم.

حرة بنى سليم: فى أسفل الموقع الذى يسمى قاع وعلى الطرف الشرقى من مرعى البقيع.

حكمة

بناء على تدقيق مؤلف نخبة الدهر وبيانه أن غير سواد حجارة حرة بنى سليم فوجوه سكانها أيضا ذو سواد شديد، حتى حيواناتهم إلى كلابهم سوداء اللون.

ولما كانت هذه الحالة من خاصية تلك الحرة فإذا ما أخذ حيوان أبيض من الخارج واستخدم تغير لونه فى فترة قصيرة فيسود والله على كل شىء قدير.

حرة شوران: فى وسط وادى مهزور.

حرة عباد: فى أسفل المدينة المنورة.

حرة عضيدة: فى غرب وادى بطحان.

حرة قباء: فى الجهة القبلية لدار الهجرة.

حرة ليلى: قمة فى بلاد بنى مرة بن غفطان وبين وادى القرى والمدينة المنورة. ولحرة بنى مرة ينابيع كثيرة ومنابت نخيل.

حرة معاصم: فى موقع ذى الجدر ومبدأ مجرى نهر بالحان.

حرة ميطان: جبل فى الطرف الشرقى من بلاد بنى قريظة.

حرة النار: فى ناحية خيبر وفى مكان قريب من حرة ليلى، وعند البعض بين وادى القرى وبلدة تيماء ومن المحتمل أن تكون حرة فداء.

وقد أطفا خالد بن سنان النار التى اشتعلت فى الحرة المذكورة دون أن تمتد شرارتها إلى الجهات الأخرى.

ويعتقد بعض المؤرخين أن النار المذكورة ظهرت فى الجبل الواقع فى حرة الأشجع وأن هذه النار ـ على حد قول المؤرخين المتقدم ذكرهم ـ قد اشتعلت وتأججت بحيث انبعثت أضواؤها إلى وادى رندة الذى يبعد ثلاث ليال، بحيث كانت الجمال التى ترعى فى هذا الوادى لا ترى من شدة الضوء.

وإن لم يعين المؤرخون تاريخ ظهور تلك النار، إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك فى عهد الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ إذ إنه رأى شخصا غريبا فى المدينة فسأله: «ما اسمك؟» فقال: «أنا حمزة بن شهاب» فقال له وما بلدك؟ فقال «أبى من قبيلة حرقة وأسكن فى حرة النار الكائنة فى ذات اللظى»، فقال له «إن الحرة قد احترقت». وبهذه الإشارة أخطره بظهور النار. ولما علم حمزة بن شهاب بهذا الخبر عاد إلى قريته دون إبطاء فرآها قد تخربت من جراء النيران المشتعلة.

وحرة واقم: اسم قمة فى الجهة الشرقية من دار الهجرة. وكان بنو الأشهل قد بنو إلى جانب هذه الحرة برجا سموه برج واقم؛ وإلى هذا مرد تسميتها بذلك الاسم. وتقال لهذه الحرة حرة بنى قريظة وحرة زهرة أيضا والمقتلة الهائلة التى حدثت كانت فى هذا الموقع كما عرف فى الصورة التاسعة من الوجهة الثالثة.

حرة الوبرة: على ثلاثة أميال فى الجهة الغربية من المدينة وتلى وادى العقيق، وينسب قصر عروة ومزارع هذا القصر فى خُيْفِ الوبر الذى ينسب إلى الحرة المذكورة.

حزرة: اسم الوادى الذى يقيم فيه بنو عبد الله بن الحصين الأسلمى وقبيلته.

وفى نهاية قرية بنى عبد الله نهر مشهور والذى ينتهى إلى فقارته من وديان أشعر.

حزن: طريق بين خيبر والمدينة ولم يستصوب النبى ﷺ أن يسلك هذا الطريق بل طريق مرحب.

حساء: وإن كان معروفا بأنه موضع فى ديار بنى أسد، ولكن إذا ما نظر إلى شعر عبد الله بن رواحة الآتى، إذ ذكر المشار إليه حساء لما كان ذاهبا إلى مؤتة من الشام يلزم أن يكون الموضع المذكور فى طريق مؤتة.

إِذَا أَدَّيْتَنِى وَحَمَلْتَ رَحْلِى
مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَـاءِ
فَشَأْنُكَ أَنْعُمٌ وَخَلَاكَ ذَمٌّ

وَلاَ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِى وَرَائِى[1]

حسنى: اسم جبل قريب من ينبع البحر، واسم صحراء بين موضعى عذيبة وخار، واسم حديقة من الأوقاف النبوية.

حسيكة: محل واقع فى الجهة الغربية من موضع ذباب وكان فى الجاهلية مقر اليهود. تطلق الحسيكة أيضا على الحدائق التى بجانب قصر ابن شمعل والى الناحية التى يوجد فيها قصر ابن عمر فى أراضى ابن ماقية. وكلها أسفل المكان الذى يسمى جرف.

حشاء: الاسم الآخر لجبل الإيوان ويروى أنه اسم موضع فى الجهة اليمنى من وادى آره.

حشان: اسم برج يطل على الجهة اليمنى للذاهبين إلى مقبرة الشهداء فى أحد.

وحشاشين: اسم قرية منسوبة إلى بنى قينقاع وكان حصن طلحة بن أبى طلحة الأنصارى فى بستان متصل ببستان عبد الرحمن بن عوف فى الجهة الشامية من مدينة الرسول.

حضرة: اسم موضع على ثلاث مراحل فى خارج المدينة، وكان اسمه القديم عفره فبدله الرسول ﷺ بحضرة. رجا سكان ذلك المكان أن يجدما حلا لعلة الوباء الذى يظهر فى مساكنهم بكثرة وأن ينقذهم منه، فقال لهم «هاجروا إلى مكان طيب الهواء والماء». فقالوا له: «كيف يمكننا أن نترك مكانا كان موطن آبائنا وأجدادنا؟ وقد دبرنا لأهلنا وعيالنا البساتين والمنازل كما دبرنا مآكل دوابنا وأماكن إيوائها واستطعنا أن نتدبر طريقة معيشتنا إلى درجة ما» وهكذا عرضوا عذرهم فى عدم مغادرة مساكنهم وعندئذ قال لهم عمر بن الخطاب: «إذن فلابد أن تبحثوا عن مكان قريب من مفازتكم لتنتقلوا هناك وأن تتناولوا فى الصباح قليلا من زيت الزيتون واستعملوا بعض العطور ولا تمشوا حافيى الأقدام ولا تناموا نهارا»، وبين هلم فى صورة حكيمة أنهم إذا راعوا القواعد الصحية بإمكانهم أن ينجو من الوباء.

(١) البيتان فى الطبرى ٣/٣٨.

حضير: فى أول عقيق وهو موضع ذو آبار ومزارع متعددة وأرض مستوية.

حفياء: موضع على بعد ستة أميال أو على سبعة أميال من المدينة ويروى حيفا أيضا وفى أسفل الموضع المسمى غابة.

حفير: اسم ماء فى ديار بنى سعيد وأطرافه محاطة بحدائق الخيل، واسم محل بين الحرمين.

وحفير المشهور فى زماننا موقع بين ذى الحليفة وملل.

حقل: يطلق حقل على ثلاثة مواقع يقال للأول «أرة الصحراء» الحقل، وللآخر روضة حقل، وللثالث حرة حقل.

حلاء: على وزن نساء عدة جبال جرداء فى القرب من جبل ميطان الواقع فى محاذة موقع شوران لا ينبت فوق هذه الجبال الأشجار أو ما يشبهها.

حلا: بأصعب وهو عبارة عن جبال حلا يرد من هنا سيول نهر بطحان.

حليت: اسم جبل عظيم بجانب مرعى فيد وهذا الجبل أعلى الجبال التى فى هذه الناحية غير جبل شعبى وفوقه منجم ذهب اقتحمه ماء ويروى أن فى القديم قد أخرج من هذا المنجم ذهب وفير.

حُليف: على وزن زُبير، اسم منزل فى داخل قطعة نجد وعندما خرج بنو كُلاب من المدينة سكنوا فى هذا المنزل.

حليفة: اسم نبات معروف إلا أنه اسم نهر فى وادى العقيق واسم موضع بين ذات العراق وجادة، واسم منزل بين المدينة وتبوك، ويحرم حجاج المدينة فى ذى الحليفة. ويطلق أهل المدينة على منزل الحليفة بئر على ويعتقدون أن حضرة على قاتل طوائف الجن فى هذا المنزل ولا أصل لهذه الحكاية. ولما كان الماء الذى فى حليفة بئر جماعة قبيلة مزينة فنسبة هذه البئر إلى على بن أبى طالب خطأ، ولا يعرف ذلك المنزل بالحليفة فقط بل يشتهر باسم ذى الحليفة إلى المدينة.

قال ابن إسحاق إن المدينه على بعد خمسة أميال ونصف من ذى الحليفة الذى يقع فى جهة مكة، كما سطر على اللافتة التى ركزت فى ذى الحليفة أن المسافة من المدينة إلى ذى الحليفة خمسة أميال ونصف ميل. وهناك لافتتان فى جهة مكة فى ذى الحليفة وهذا المكان يبعد عن المدينة ستة أميال. لأن فى كل من مدخل ذى الحليفة ومخرجه علمان ولافتتان. وحكم ابن صلاح أن المسافة بين المدينة وذى الحليفة ثلاثة أميال. إلا أن ابن حزم قال: إننى قست المسافة من عتبة باب السلام للمسجد النبوى إلى عتبة مسجد الشجرة فى ذى الحليفة فوجدتها (٩٧٣٢) ذراعًا. وإذا ما نظرنا إلى هذا القول نجد أن المسافة بين المدينة وذى الحليفة خمسة أميال وثلثا ميل إلا مائة ذراع. وإن هذه الرواية أقرب إلى الصحة.

استطراد:

توجد طرق متعددة للدخول إلى البلدة النبوية الطاهرة من الخارج فى جهاتها الأربع وكل قافلة تسير وفق الطريق الذى يناسبها، وكل الطرق فى الجهة الواحدة تتصل فى نقطة واحدة.

الجهة الغربية:

إن الطرق التى توجد فى هذه الجهة هى: سلطانى، ملف، فرع، غابر وكلما تقترب هذه الطرق من المدينة المنورة تلتصق بعضها ببعض وعندما تصل إلى موقع ذى الحليفة (بئر على) تتحد الطرق الأربعة وتكون طريقًا واسعًا عظيمًا. وباب العنبرية من أبواب حصن المدينة الخارجى يقع فى هذه الجهة بين تكية المرادية والمعسكر السلطانى. وبناء على هذا فقوافل الحجاج والزوار والتجار تدخل وتخرج على الدوام من هذا الباب ويبيت محمل مصر مع جنوده فى مكان قريب من هذا الباب. والباب الذى فى هذه الجهة من داخل الحصن أجمل وأشهر من الأبواب الأخرى وبما أنه بين بعض الأسواق اشتهر بالباب المصرى.

وإن كان الرصيف الذى بين مسجد السعادة ومسجد الغمامة ممتداً إلى الباب المصرى؛ إلا أن الجهة التى من مسجد الغمامة إلى الباب المذكور قد اندرست واختلط ترابها بحجارتها لا يعرف أنه رصيف.

ولمسجد السعادة النبوية بابان فى الجهة الغربية وللحجرة المعطرة باب واحد. وأحد أبواب مسجد السعادة باب السلام والآخر باب الرحمة وإذا قارنا بين السلام من حيث الحجم والزينة والأبواب الأخرى فنجد أنه فى الدرجة الأولى وباب الرحمة فى الدرجة الثانية. ويطلق على الباب الذى فى هذه الجهة للحجرة المعطرة: باب الوفود، وكلما فتح هذا الباب يستخرج من الحجرة المعطرة المصحف العثمانى الذى يحفظ فيها ويتلى. ويشترط فى ذلك أن يكون من يتلوه من العلماء الصالحين. لأن كل من يتلوه يموت فى اليوم الثالث، إذا لم يمت فى اليوم الثالث يكاد أن يكمل سنة واحدة. وقد تلاه السيد عبد الله الدراجى التونسى والسيد محمد ابن السانوسى الفاسى والشيخ عبد الغنى الهندسى النقشبندى وارتحل الثلاثة فى ظرف سنة واحدة عن دنيانا وكانوا كلهم من العلماء العاملين والمشايخ الكاملين.

وإن يشتهر بين الأهالى أن ذلك المصحف هو المصحف الذى كان فى يد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ حين استشهاده إلا أن هذا الظن خاطئ. وفى الحجرة المعطرة مصحف آخر يدعون أنه قد كتب من قبل حضرة على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وقد كتب الاثنان على ورقة خضراء بخط كوفى. إلا أن خط المصحف الذى ينسب إلى سيدنا على أرق وأدق من الآخر.

والمسافرون الذين يقومون من بئر على ذاهبين إلى المدينة المنورة يجعلون جبل عير على يمينهم وقمم جماوات على يسارهم ويمرون من الطرف الشامى لمجرى سيل العقيق ويصلون إلى أراضى أبى بريقة المتصلة بالجهة الشامية من جبل عير.

وهناك حقول مزروعة وحدائق نخيل صغيرة وماء عين السرانى. ولكن مجرى عين السرانى قد حفر حديثا فلم تنبت بعد حدئق النخيل على طرفيها.

فالذين يقومون من منزل أبى بريقه يصلون إلى الحرة الغربية ومن هنا إلى مدرج. وإن كان فى الحرة الغربية بناء قديم يطلق عليه عوام الناس قلعة اليهود إلا أن هذا المبنى قصر بنى فى عهود بنى أمية لحبس شخصية كبيرة وتوقيفه فما يذهب إليه العوام غير صحيح.

كان يقال لمدرجة فى الأوائل نقب بنى دينار والبئر المشهورة التى يطلق عليها بئر عروة فى الجهة اليسرى من منزل مدرج ففى جهة منه أراض لزراعة الشمام والبطيخ والجهة الأخرى مجرى نهر العقيق. ويخرج من هذا المجرى إلى مدرج إلى الأمام ففى الجهة اليمنى بناء قديم وبركة ومزارع غير معمورة يعرف ذلك البناء باسم سبيل قائد.

وعلى القمة التى تقع فى نهاية الموقع الذى يقال له رقيقين من مدرج مسجد المنارتين الذى يطلق عليه قبة الخضر وبعد أن يتجاوز المسافرون قبة الخضر يدخلون إلى أراضى نقاء التى زرع جهاتها اليمنى بالذرة وحديقة أم الرحم وجهاتها اليسرى قد زينت بمزارع بئر الوردى وبئر زمزم ومزارع أخرى والمسجد الذى يطلق عليه قبة الروس مسجد السقيا وهو فى وسط وادى نقا وبئر سقيا أيضًا فى الجهة القبلية من ذلك المسجد.

كان شخص من مجاورى المدينة الطاهرة يسمى عبد الله عرب الميمنى اشترى مزرعة صغيرة فى منزل نقا. وقد استصلح هذه المزرعة وبنى على الجهة التى تقابل الطريق منزلاً واسعًا وحفر حوضًا كبيرًا. وأقام على جوانب هذا الحوض مساقى صغيرة تشرب منها الدواب كما صنع مخزنًا خاصًا بالعمال الذين يعملون فى المزرعة على الجهة الغربية من ذلك المنزل. وكان المارون وعابرو السبيل يسقون حيواناتهم ثم يستريحون فى ذلك المنزل ويستظلون.

هناك فى الجهة اليسرى من مسجد السقيا مزرعة وتنسب هذه المزرعة للسيد أحمد الرفاعى والذين يتجاوزون هذه المزرعة يصلون بعد مدة قصيرة إلى باب عنبرية.

وبجانب باب العنبرية ركن المعسكر السلطانى والثكنات. وأمام هذه الثكنات طريق واسع على يمين الثكنات السلطانية مبانى مستشفى الغرباء التى بدأ العمل فيها ولكنها تركت قبل إتمامها، وعلى شمال تلك المبانى السور الداخلى وحديقة قاضى ينبع السابق إبراهيم عداد وطريق آخر يؤدى إلى سنح والمساجد الأربعة وإلى نواحى جرف وعقاب والقبلتين وإلى المواقع المختلفة فى خارج المدينة.

وإذا ما ترك هذان الطريقان ودخل من باب العنبرية يقع فى الجهة اليمنى من الباب باب ثكنات الجنود وعلى الجهة اليسرى عمارة والى مصر الأسبق محمد على باشا وإذا ما تجاوزناهما نكون قد دخلنا فى العنبرية.

ولما كان شارع العنبرية أوسع طرق البلدة الطاهرة وأكبرها انتظاما فالحجاج والزوار وقوافل التجار يدخلون دائمًا من هذا الباب ويخرجون ولما كان ماؤه وهواؤه معتدلين وجيدين فهذا المكان دائم الازدحام.

وعلى الطرف القبلى من هذا الطريق: حوش ظوافير الذى يشتمل على ستين حجرة ذات باب تحتانى.

وأمامه حوش الراعى الذى يشتمل على مائتى حجرة[1] وبجانب هذا الحوش مسجد صغير المئذنة رباط جديد، وفى اتصال الرباط طاحونة آلية ومنزل خاص لمن يديرون هذه الطاحونة من العمال وبجانب المنزل مقهى وتلك الطاحونة مع جميع مشتملاتها وقف أغا باب السعادة المرحوم بهرام أغا.

وكان أمام الطاحونة منزل شيخ الحرم النبوى الأسبق المرحوم خالد باشا. وبما أنه احتيج إليه لوضع مشتملات الطاحونة المذكورة اشتراه بهرام أغا.

وكان أمام المقهى المتصلة بدائرة الطاحونة منزل أحمد أغا من الأهالى، وكان لهذا الحوش ستون حجرة وفناء واسع.

وبجانب باب حوش أحمد أغا دار زوجة أغا الطابور حافظ أفندى وأمامها منازل كبيرة ملك أسرة ظوافير وحوش طويل، وحوش أبى جنب، وفى اتصالهما

(١) وبعض حجرات حوش ظوافير سفلية ولكن أكثرها علوية.

منازل أسرة ظوافير ومنازل بعض الفرسان وفى الجهة القبلية منها دار فاطمة حازمية، وفى اتصالها الشرقى دار سيد جعفر الهاشمية، وأمامها دار على موسى أفندى وبجانبها دار عامر الجعفر العلاف، وبجانب دار عامر الجعفر طريق حديقة الهاشمية، وأمام باب هذه الحديقة حوش عبيد[1]، وأمامه خرابة أبى جود الحمدانى. ولكن بين حوش عبيد وخرابة أبى جود الحمدانى وشارع كاتبية. وحوش معيكة وحوش سنان فى هذا الشارع، وفى نهايته عدة منازل وطاحونة وزاوية منسوبة إلى الشيخ محمد بن سانوسى ذات مئذنة وزقاق كاتبية مسدود.

وفى اتصال خرابة أبى جود الحمدانى حوش خيارى وأمام هذا الحوش بعض المنازل وطاحونة وعدة دكاكين وخرابة وقف أسعدية. ودور أبى الجود وأمامها دار الشريفة الهاشمية، وعلى طرفها الشرقى زقاق السلطان، وفى مدخل زقاق السلطان منزل كبير منسوب إلى المغاربة، وبقربه منازل حيارى وسمان والشيخ أحمد الفقيه وأحمد الصابغ المصرى والعمارات[2] المنسوبة لمبرة مراد الرابع العثمانية وبجانب هذه العمارة مجرى سيل أبو جيده، وفى الجهة الغربية من هذا المجرى مخبز وبجانبه جسر سنان باشا وعندما يصعد فوق الجسر يرى فى مجرى الجسر من الحديد.

وبعض دور المجاروين فى جهة باب قباء لجسر سنان باشا وحوش عميرة[3] وفى اتصاله زاوية السيد محضار وفى اتصال هذه الزاوية حوش متاع، وفى الجهة القبلية لباب هذا الحوش مركز شرطة باب قباء وفى الجهة الشامية دار محمد بن صالح الحيدرى، ومن المجرى إلى الجسر قنوات عين الزرقاء فمياه الثكنات السلطانية وعمارة المرادية ومياه أهالى محلة العنبرية ودور الإيجارية التى فى هذه الناحية والذين يسكنون فى ناحية تجرى وتسير مياهها فى هذه القنوات

(١) حوش عبيد من مبانى آل خيار المسقفة.

(٢) وإن كانت هذه العمارة فى غاية السعة إلا أنها ظلت فى حالة خراب وقد خصت لسكنى عساكر الهجين والخيالة.

(٣) يتألف حوش عميرة من مائة وخمسين حجرة ومن هذه الحجرات حجرات علوية ذات سطوح.

ومجرى السيل الذى فى الطرف الشامى للجسر من جبل سلع ومن بين طرق عين الزرقاء ومن الجهة الغربية لعين غرابية ثم يلتصق بمجرى سيل حمزة الواسع.

وبجانب جسر سنان باشا المشار إليه بركة القوافل المصرية وبجانب هذه البركة دار لطيف أفندى مترجم خزانة المديرية، وفى الطرف الشامى من هذا المنزل دار مصطفى بلا جلى فوق مجرى السيل. وبجانبها البيوت العشرة وفى الجهة الغربية دار أحمد أفندى سالف الذكر وخلفها الحوش الكبير الجديد. وفى الطرف الشرقى من هذا الحوش حما مناخه. والبركة التى ذكرت آنفًا حوض كبير وعميق وبما أنه كان يملأ أولاً من عين الزرقاء سمى ببركة الحج الشامى.

وأمام البيوت العشرة بيوت الصعايدة العالية المنتظمة وخلف هذه البيوت زقاق السلطانية وفى هذا الزقاق بعض بيوت للإيجار وحديقة صيارى ومئذنة قديمة. وإن كانت هذه المئذنة مئذنة مسجد العمارة المرادية وبما أن المسجد قد انهدم واندرست ساحته وانعدمت فلا يؤذن فوق هذه المئذنة.

وهناك طريق يمتد من زقاق السلطانية إلى وادى «سح» ومن هنا إلى زقاق قشاشى و بعده إلى مناخة وزقاق طيار وفى زقاق طيار حديقة عبد القادر خوج وأمام هذه الحديقة دار على الصياد وبجانبها حوش درج فى الطرف الشمالى لحوش أبو شوشة.

وحوش طوطى وأحواش أخرى. ولما كان حوش أبى شوشة فى غاية الكبر ويشمل على أماكن ملاصقة للجهة الشامية من السور الخارجى وغرف كثيرة. وأمام دار المترجم أحمد نظيف أفندى مدرسة خاصكى السلطان وفى الجهة الشرقية من سيل أبى جيده وفى الجهة الشرقية من هذه المدرسة المخبز الميرى وأمامه باب حمام أحمد نظيف أفندى والمنازل التى يسكنها.

وبجانبها بعض المنازل القديمة وفى نهايتها المنزل[1] الذى وقفه المرحوم سليم

(١) يقيم فى هذا المنزل السيد علوى السقاف شيخ السادات العلوية

بك من حجاب السلطان عبد المجيد والد السلطان لسبيله وأمامه داران ومدرسة للصبية.

وأصبحت مدرسة خاصكى سلطان فترة ما دائرة حكومية ثم اتخذت مستشفى للعساكر السلطانية وفى داخلها حديقة صغيرة ومسجد ذات مئذنة فى غاية الظرف والجمال.

وفى الطرف الشرقى لتلك المنازل المذكورة ومدرسة الصبية بعض البيوت وفى نهايتها منزل آكاه أفندى من نقباء النظامية وبين المدرسة والمخبز الميرى حوش منصور وأمام هذا الحوش وفى الجهة الشامية من الطريق وبالقرب من جدار مسجد الغمامة[1] الكائن فى ميدان مناخة منازل صغيرة وفى شرق الطريق سالف الذكر دكاكين الخزانة النبوية وأمامها مركز شرطة خالدية وفى الجهة الغربية من مركز الشرطة دكاكين الخزانة النبوية أيضًا مع منزل[2] إمام مسجد غمامة، وأمامه سبيل سليم بك، وفى الطرف الشامى من هذا الطريق زقاق طريق حديقة الداودية الخاصة بشيخ الفراشين برى أفندى، وفى الجهة الشرقية من هذا الزقاق منزل السيد علوى السقاف، وفى الجهة الشرقية من هذا البيت منزل شيخ الفراشين برى أفندى وأبناء عمه ومن هذا البيت منازل مصفوفة تنتهى إلى باب الكرمة، وفى الجهة التى تقابل مناخة لهذه المنازل ثلاثة أزقة منفصلة بعضها عن بعض.

وبجانب منزل برى أفندى خرابة خاصة بآل برزنجى وبجانبها مسجد منسوب إلى الصديق الأعظم وبجانبه عين الزرقاء التى تسمى عين مناخة.

وإن كان مسجد الصديق من المساجد التى كانت مصلى النبى ﷺ وبما أنه من غير منبر لا يصلى فيه صلاة الجمعة وتؤدى صلاة الجمعة فى مسجد السعادة ومسجد غمامة ومسجد قباء ويغلق فى الأذان الأول مصارع بابى المصرى وباب الصغير.

(١) ولمسجد الغمامة اسم آخر هو مصلى العيد النبوى.

(٢) قد أشرف هذا المنزل على الخراب فجدده السلطان وجعله رصينًا متينًا

وبجوار عين مناخة منهل آخر خاص بالنساء وبجانب هذا المنهل عدة دكاكين ومقهى.

ومن الدكاكين التى تواجه ميدان مناخة الذى على الطرف الشامى من هذا المقهى إلى مسجد سيدنا على والرباط صف من المنازل موقوفة بشروطه. لإقامة عبيد العين فجميع الذين يستخدمون فى أمور عين الزرقاء وقنواتها يسكنون فى هذه المنازل، وفى طرف من مسجد على دار مفتى المدينة المنورة السابق عبد الرحمن إلياس بن تاج الدين، وفى الطرف الآخر الطريق الذى ينقسم إلى زقاق الطيار وزقاق قشاشى.

وزقاق الطيار يمتد إلى حديقة حسين بافقيه العلوى، وفى هذا الزقاق عدة أزقة مسدودة، ومنازل تستأجر ومخابز وطواحين وبعض منازل فاخرة.

ولما كان زقاق قشاشى شارعًا ينتهى إلى ناحية سح والزقاق السلطانى ويمكن المضى إلى أى مكان منه، وزاوية قشاشى فى هذا الطريق. وبين زقاق الطيار وزقاق جعفر عدة منازل فى مواجهة السور الداخلى ونهاية زقاق الطيار المتسعة نهايته زقاق جعفر. وهذه النقطة مبدأ ميدان المناخة.

ومنزل قرة باش الذى يستأجر له باب ينفتح على زقاق الطيار وباب كبير ينفتح على ميدان المناخة. بين المنازل التى تواجه السور الداخلى. وهناك طريق يمتد من زقاق جعفر منازل كثيرة ويتجاوز منزل شيخ الفراشين والوصول إلى مسجد الغمامة، رصيف يسميه أهل المدينة بلاطيًا وطول هذا الرصيف بمقياس ذراع اليد من عتبة مسجد غمامة إلى عتبة باب السلام ألف ذراع. ويروى أنه كان فى القديم من باب السويقة إلى عتبة باب مصر رصيف واسع كالرصيف المذكور إلا أن هذا الرصيف قد اندرس الآن وبين مسجد غمامة وباب مصر وبين سبيل فاطمة أسواق عُرِفَت مساحتها ومواقعها فى وجهة خاصة.

ينسب سبيل فاطمة لبعض الملوك إلا أن إدارته فى يد الأوقاف المصرية. وفى

الطريق إلى حرم السعادة على يمين الشارع الذى يؤدى من الباب المصرى إلى باب السلام خمسة أزقة وعلى يساره ستة أزقة.

والأزقة التى على يمين الشارع ثلاثة منها طريق عام والاثنان طريق عام. والأربعة طريق خاص وأحد طرق الجهة اليمنى شارع مقعد بنى حسين. ويتشعب شعبتين تنتهى إحداهما إلى قصر السيد محمد جمل الليل الذى أمام مناخة وتنتهى الأخرى إلى المخازن الأميرية كل واحد منهما منتظمان ومزينان بمنازل منتظمة.

ويعد طريق مقعد بنى حسين بشعبتيه من الطرق الخمسة.

طريق المخزن الأميرى.

ويطلق أهل المدينة على هذا الطريق زقاق الشونة وهو أمام الخان الجديد الذى بناه السيد صافى حديثًا، ويتصل بأحياء الصالحية الذروان. وحارة الأغوات، وبالطرق التى حول أطراف حرم السعادة الثلاثة، وبعد زقاق الشونة أزقة الذرندى وبعده سقيفة الرصاص، وبعده زقاق الحمزاوى.

وإن كان زقاق الذرندى طريق مسدود فشارع سقية الرصاص يؤدى إلى الحمام الذى فى ذروان وإلى الأماكن الأخرى المقصورة وزقاق الحمزاوى يؤدى إلى الأماكن المرغوبة فى الذهاب إليها. ولما كان فى زقاق الحمزاوى بعض دكاكين الخياطين فالاسم الآخر لهذا الشارع شارع الخياطين وإن كان زقاق الحمزاوى قريبًا جدًا من باب السلام إلا أن بينهما مدرسة بشير أغا.

وطرق الجهة اليسرى ابتداء من الباب المصرى أولها زقاق سوق الشروق، والثانى زقاق العينية، والثالث زقاق الدكة، والرابع زقاق الشقرة والخامس زقاق الكبريت والسادس زقاق العياشة، ولما كان بائعو العباءات يقيمون أسواقًا فى زقاق الشروق قديمًا فإن الاسم الآخر لهذا الزقاق سوق العباية ومازال حتى الآن يفرش بائعو العباءات بضاعتهم فى هذا الزقاق. ومن سوق العباية يمضى إلى قبر أبى النبى سيدنا عبد الله بن عبد المطلب فى زقاق الطوال. ومرقد مالك بن سنان

الأنصارى فى هذا الزقاق كذلك منازل السادة الأسعدية وأمام مرقد مالك بن سنان زقاق سقيفة الأمير وفى الجهة الشامية منه زقاق حماطة. وكان يطلق على زقاق الحماطه قديمًا مخاطة، ومن الممكن الذهاب من هذا الطريق سواء أكان إلى الباب الشامى والباب الصغير أو الأماكن الأخرى.

زقاق الدكة: أمام زقاق الشونة الذى يقع أسفل خان السيد صافى الجعفرى وزقاق الشقرة بجوار خان المذكور كذلك، وزقاق الكبريت فى صف هذه الأزقة إلا أن هذه الأزقة الثلاثة أزقة مسدودة.

سوق العياشة: طريق ينتهى إلى باب الرحمة وساحة الباب الشامى؛ وبين باب السلام وهذا الطريق منزل الأزميرلى وتحت هذا المنزل عين باب السلام وفى اتصاله المحمودية.

وفى الجهة الشامية من البلدة الطيبة شوارع رخامى، كنانة، مخيط وهذه الشوارع الثلاثة تتحد فى موقع ثنية المدينة التى تعرف فى زماننا بقصر يوسف باشا، وتصبح طريقًا متسعًا.

وطريق رخامى يمضى إلى جهات حائط وحويط، جبل شمر، تيماء وطريق كنانة يمضى إلى وادى حمض، وطريق مخيط إلى بلاد الشام وينبع البحر ومصر فالقوافل والزوار يسلكون هذا الطريق فى ذهابهم وإيابهم.

الأبواب: وللمدينة المقدسة ثلاثة أبواب: أحدها فى السور الخارجى والاثنان فى السور الخارجى أمام جبل سلع لذا يطلق عليه باب الجبل، وباب الكرمة ويستخدم هذا الباب فى الدخول والخروج سكان جفرة المتصلة بجبل فقر من قبائل عنابة والمساجد الأربعة وأحامد وأصحاب الحدائق التى فى جهة سح وكذلك زوار غار بنى حرام والمساجد المذكورة. وكذلك الحيوانات التى تساق إلى المذبح الذى بجانب قبة السلام تدخل وتخرج من هذا الباب. يطلق على أحد بابى السور الداخلى: الباب الشامى، وعلى الآخر باب السحيمى. والباب

الشامى بجانب القلعة السلطانية وفى الجهة الشرقية منها وباب السحيمى مجمع مجارى ميضأة الحرم الشريف وللحجرة الشريفة باب واحد فى هذه الجهة ويعرف ويشتهر بالباب الشامى.

لما كانت دكة الأغوات فى الطرف الشامى من هذا الباب تخرج شمعدانات الحجرة المعطرة من هذا الباب فى ليالى رمضان عقب أداء صلاة التراويح.

والأطراف الثلاثة عيون، جرف، سيدنا حمزة التى تنتهى إلى مدينة الرسول من هذه الجهة تتحد عند الثنية التى يطلق عليها قرين بجوار داوودية والذى يصلون إلى هذه الثنية يكونون قد اتخذوا جبل سلع على يمينهم.

وبما أن جبل سلع فى موقع يشرف على منظر المدينة المنورة وجهاتها الأربعة وبما أن الأهالى قد تعودوا على الصعود فوقه للتنزه فى مواسم خاصة فعليه دكك كثيرة لجلوس الناس، والضريح المذكور لسيدنا محمد زكى الدين الذى استشهد فى العصر العباسى فى المحل الذى يسمى أحجار الزيت فى سفوح ذلك الجبل وخلف القبة التى تحيط بمرقده حديقة على أغا العرزانى، وفى الجهة القبلية منه منهل عين الزكى، وفى الطرف الشرقى منه حديقة داود باشا والى بغداد الأسبق، وفى الجهة الشرقية منها طريق سيدنا حمزة، وفى الجهة الشرقية من هذا الطريق الشارع الذى ينتهى إلى بلدة أحمد بساطى، وفى الطرف الشرقى من هذا الشارع ناحية صدقة وشارع النخيل الذى فى هذه الجهات وبعد ذلك موقف المحمل الشامى.

وحديقة داود باشا حديقة عظيمة للنخيل فيها قصر فخم وحوض كبير. وبناء على ما يرويه أهل المدينة أنه لا يوجد قصر فخم فى حدائق المدينة الطاهرة يضارع القصر الذى فى داخل حدائق داود باشا. وفى موقع المحمل الشامى مسجد يعرف باسم مسجد السبق وفى سفوح هذا الجبل الذى فى الجهة الغربية من هذا المسجد منازل دكانه.

وفوق قمة هذا الجبل قصر معلى المؤسس على بعض العقود. ولما جدد هذا

القصر شيخ الحرم المرحوم شريف باشا ظل اسم القصر قرين شريف باشا ويذهب إليه الناس من حين لآخر حيث يتنزهون.

وفوق جبل سلع مسجد دكانة الصغير وأسفل هذا المسجد بعض الأكواخ الخاصة بفقراء العربان، وعلى الجهة اليسرى منها بعض الخرائب وبعدها حديقة السبيل وسبيل والدة السلطان وبركة المحمل الشامى، وفى الجهة القبلية من حديقة السبيل مقهى القواسين، وتُملأ بركة المحمل الشامى من آبار الحديقة.

فمن يتجاوزون مقهى القواسين كانوا قد وصلوا إلى الباب الشامى، والباب المذكور من أعظم أبواب السور الداخلى، وأشهرها ملاصق للقلعة السلطانية التى جددت فى خلال سنة ١٢٦٧هـ.

وفى مدخل عقد الباب الشامى مركز شرطة للعساكر النظامية وهذا المركز خاص لإقامة العساكر السلطانية الذين يحرسون هذ الباب وهو فى الجهة اليسرى للذين يدخلون من الباب الشامى إلى المدينة المقدسة.

المخافر: لما انهدم السور الخارجى للمدينة ولم يبق له أثر يسمى السور أنشئ عند كل باب للسور الداخلى مخفر. وقد أنشئت هذه المخافر لتكون مقر إقامة للأفراد الذين يتناوبون الحراسة فوق الأبراج التى فى محيط السور الخارجى. وإلى سنة ١٢٢٢هـ لم يكن هناك سور خارجى للمدينة ولما أراد القائمون بأمور المدينة فى القرون الماضية أن يحافظوا على المدينة من تسلط أشقياء العربان بنوا بعض الأبراج على أطراف مناخة بين كل برج فاصلة قدر مائتى ذراع وعينوا لحراستها بعض المحافظين والحراس.

بنى محمد على باشا والى مصر بين الأبراج جداراً فأخذ مناخة داخل سور خاص وفتح فى الجهة الغربية باب العنبرية وفى الجهة القبلية باب قباء وفى الجهة الشرقية باب العوالى وفى الجهة الشامية باب الكومة، ولما عين عساكر مصرية لحراسة هذه الأبواب سمى هذا السور بالسور الخارجى، وكان جداره من اللبن. ولما انهارت كل جهات هذا السور رئى من الضرورى إقامة مخافر عند أبواب

السور الداخلى. وفعلاً نفذ هذا الأمر وجعلت المدينة المنورة تحت الحفظ والحراسة.

وقد أنشئت غير المخافر المذكورة ثلاثة مخافر فى ميدان مناخة وهى[1] خالدية،[2] سبيل باب الصغير،[3] خصكية، ومخفر آخر فى رباط ابن زمن حيث مستشفى البلدية، وأقيم فى كل مخفر من قبل محافظة المدينة المنورة عددٌ كَافٍ من العساكر السلطانية.

ويوجد اليوم فى البلدة الطاهرة ثلاثة طوابير من العساكر السلطانية ويشتمل كل طابور على ثلثمائة وخمسين نفراً من المشاة وهناك طابوران من الضباط أحدهما من الفرسان وراكبى الهجين والآخر من المشاة، وكل طابور منهما لا يقل عن مائتى نفر. وتصل مهماتهم وأسلحتهم ولوازمهم من باب السعادة عن طريق مرفأ ينبع.

وفى اتصال مخفر الباب الشامى مخبز ومقهى وسبيل عادلة سلطان. وفى اتصال ذلك السبيل حى عادلة سلطان وحدائق منسوبة إليها. ويتصل أحد أطراف حى السلطانة عادلة لمنهل عين الساحة، والمنازل كلها فى هذا الحى بمشتملاتها من وقف المشار إليها السلطانة عادلة.

وعلى يمين الداخلين من الباب الشامى باب القلعة السلطانية. وبعده باب سجن النساء وبجانبه الدائرة الحكومية وأمام باب منهل عين الساحة. ثلاثة طرق.

والقلعة سالفة الذكر جددها شيخ الحرم أمين باشا بأمر صادر من قبل السلطان عبد العزيز وأقام فيها مخازن للذخيرة، كما رمم حجرات الجند ومواقدهم الحديدية وحظائر الدواب والصهاريج وغير ذلك، وفى القلعة نوعان من الماء أحدهما عذب والآخر مر وشرعتان وحديقة صغيرة. وفى اتصال الدائرة الحكومية سجن الذكور مع إدارته ومخالسة الضبطية. ويلقى أصحاب الجنايات

(١) الاسم الآخر لهذا الشارع الإودية.

(٢) شارع شجرية الذى بجانب المحكمة الشرعية التى صدرت الإرادة بتجديدها.

(٣) اسم الموضع الذى تغسل فيه جنازات الفقراء والغرباء.

حسب القوانين فى هذا السجن إلا أن السادة وخطباء حرم السعادة والأئمة والمؤذنون من الذين يقتضى الأمر سجنهم لا يلقون فى السجن، هؤلاء يؤدبون باعتقالهم وتوقيفهم فى منازلهم.

يقع أحد الطرق الثلاثة التى أمام عين الساحة على يمين الذين يتوجهون إلى باب العين المذكور وهذا الطريق يسمح بالتوجه إلى مناخة أو الجهات الأخرى.

الثانى من الطرق الثلاثة زقاق الخماطة الذى فى اتصال السور الداخلى ويمضى هذا الطريق إلى زقاق مالك بن سنان ومرقده إلى سقيفة الأميرة وزقاق الطوال وإلى سوق الشروق إلى الباب المصرى ومن الشارع الكبير إلى باب السلام والثلاثة من الأزقة المذكورة طريق حى الساحة الذى يعد أكبر طرق أحياء المدينة. ومنازل أغا باب السعادة تحسين أغا ومدير التعميرات السابق خورشيد والسيد صافى الجفرى وكاتب المحكمة السابق حسين هاشم فى حى الساحة الذى ينتهى إليه هذا الطريق. وإن كان فى هذا الحى منازل فخمة أخرى منتظمة ولكن منازل الأشخاص الذين ذُكرت أسماؤهم لا مثيل لها فى المدينة فهى مرتفعة وكاملة.

وبالاتجاه من الساحة إلى باب السلام يقع زقاق حوش برى، زقاق القفار، زقاق سقيفة الأمير، زقاق الطوال، زقاق المدراسى، زقاق حوش الجمال، زقاق كومة حشيفة، زقاق الوكالة، زقاق حوش الجبرات على يمين طريق باب السلام، كما يقع على الجانب الأيسر: زقاق جوارى، زقاق حوش دكانة، زقاق دار البيضاء، زقاق الجيش، زقاق عنبر أغا زقاق شجرية، زقاق سقيفة شيخى، زقاق باب الرحمة، زقاق المديرية، زقاق الحنابلة، زقاق الشامى، زقاق الفرن، وزقاق شرشورة ويخرج من هذه الأزقة إلى الشوارع التى يقصد الذهاب إليها.

وفى الجهة الشرقية من البلدة الطيبة شارعان يطلق عليها حناكية، طريق الخنق وأبو الرشيد نقطة التقاء هذين الطريقين عندما يسد الطريق السلطانى أى عندما يحاصر الأشقياء هذا الطريق فالزوار راكبوا الهجين يسلكون طريق الخنق.

وبابا مسجد السعادة اللذان يسميان باب جبريل وباب النساء، وكذلك باب

فاطمة الذى يدخل ويخرج منه خدم الحجرة المعطرة صباحًا ومساء فى هذه الجهة.

ونقطة التقاء الطرق الشرقى، موقع بجانب مسجد سيدنا على العرضى. وبعدما تلتقى هذه الطرق فى أبى الرشيد تشكل بجانب عين السرانية شارعين، وقوافل الحجاج تسير من الجهة الغربية لهذين الطريقين إلى مسراح حمزة ومنه إلى المدينة الطاهرة، والمسافرون الآخرون ينزلون إلى زقاق الجنائز من منهل عين السرانية بطريق الحرة الشرقية إلى الموقع المسمى زرب البهتيم[1] بجانب مسجد الإجابة فى نهاية الحرة المذكورة ويقومون من هناك ويسيرون من الطرق التى بين أشجار النخيل والفرجة التى بين بقيع الغرقد وبقيع العمات بمحاذاته باب البقيع.

وهناك طريق آخر يمضى من زقاق الجنائز إلى ميدان مناخة ومن جانب قبة بقيع العمات ومن موقع صدقة إلى الباب المجيدى وأماكن أخرى. إلا أن المسافرين لا يسلكون هذا الطريق ويدخلون إلى المدينة من باب الجمعة رأسًا، وعلى يمين المخفر الذى فى داخل هذا الباب حارة الأغوات وعلى يسار المخفر طرق عدة تنتهى إلى مرقد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق ومن هناك بطريق الأغوات إلى ذروان ومواقع أخرى.

وباب العوالى، من جملة أبواب السور الخارجى فى هذه الجهة أيضًا وفى الجهة الغربية من جدار بقيع الغرقد. ويسلك هذا الطريق عند الذهاب والإياب إلى قرية العوالى وذلك الباب، وبين البلدة الطاهرة وقرية العوالى حدائق عديدة ومزارع وأشجار نخيل تنبت دون غرس.

والمنازل التى توجد على جانبى الطريق الذى بين باب الجمعة وحارة الأغوات على يمينها زقاق الرباط، زقاق الصندل، زقاق الشرك وعلى الجهة اليسرى زقاق رستمية، وزقاق الديار العشرة.

(١) وتعنى زرب الموضع الذى يجتمع فيه البدو، وثمة موضعين لاجتماع البدو، أحدهما يسمى «زرب هيثم» والآخر يسمى «زرب بنى على».

والرباط الذى يوجد فى الزقاق الأول، رباط الشيخ مظهر النقشبندى، وليس فى المدينة المباركة رباط أكبر منه، وحول الرباط المذكور كثير من المنازل والاحتفالات التى يقوم بها أغوات حجرة السعادة فى اليوم الرابع من عيد الفطر تقام فى المدرسة الرستمية الكائنة فى زقاق الرباط.

وزقاق الرستمية على الطرف الشرقى من منهل عين الزرقاء الذى فى حارة الأغوات. ودوائر شيخ الحرم النبوى فى شارع الديار العشرة، ورباط سيدنا عثمان بن عفان وسبيل نور الدين ورباط العجم فى الطرف الشرقى من الشارع المذكور.

ويقع الطرف الشرقى من حرم السعادة أمام باب رباط العجم وركن زاوية سمان التى بين باب جبريل وباب النساء حنفية عشرة صنابير وقد أسست حتى يستطيع أن يجدد من يريدون أن يدخلوا فى المسجد الحرام وضوءهم إذا كانوا من غير وضوء.

الطريق المعروف الذى ينفصل عن شارع الحرة الشرقية إلى قرى قباء، قربان، عوالى، فى الجهة القبلية للبلدة الطاهرة فالباب الصغير الذى فى السور الداخلى وباب قباء الذى فى السور الخارجى يقعان فى هذه الجهة من المدينة المقدسة الشهيرة.

والباب الصغير فى مناخة وبين السورين كما عرف آنفًا، والدائرة الحكومية فوق الباب المذكور والسجون الخاصة بالرجال والنساء بجانب الدائرة الحكومية ولكنها جهة القلعة السلطانية التى أسست فى عصر السلطان بن السلطان سليم خان.

وليس لحرم السعادة باب فى الجهة القبلية، ولكن له نافذة مشبكة تنظر ناحية حديقة الديار العشرة، ويطلق عليها نافذة مواجهة السعادة.

كما أن حجرة السعادة ليس لها باب فى هذه الجهة ولكن فوق شبكة حجرة السعادة باب صغير مشبك محاذى لنافذة مواجهة السعادة وبما أن هذا الباب فى محاذاة الكوكب الدرى يعرف بين الناس بباب التوبة.

ولكن ليس فى زماننا شخص يعرف أن ذلك الباب قد فتح إلى الآن.

ومجمع طرق الذين يأتون إلى البلدة النبوية المباركة منها من الجهة القبلية قرية قباء.

إذا ما أريد الخروج من قرية قباء يمر من أمام حديقة بئر أريس بطريق مسجد قباء ومن هناك إلى سبيل الشهيد نور الدين ومن هنا إلى نخيل بويرة، بئر عذف، بئر شدق، بئر خاتم، بئر قويم، بئر برى، بئر شميلة، وبئر عصبة وليس لحدائق النخيل هذه مثيل لا فى قرية قباء أو فى المواقع الأخرى لمدينة طيبة المقدسة.

وفى الطرف الشامى لمسجد قرية قباء مقبرة خاصة بأهالى تلك القرية يروى بعض الناس أن ساحة هذه المقبرة عرصة موقع مسجد ضرار وهناك طريق من المقبرة المذكورة وينتهى إلى قرية قربان وفى الطرف الشامى لهذا الطريق إلى البوابة التى يطلق عليها باب قباء فى سور المدينة أراضى مزينة بكثير من الحدائق مزروعة بالنخيل أو أشجار النخيل التى تنبت ذاتيًا وكل هذه ذات مناظر ساحرة تجلُّ عن الوصف.

والمسافرون الذين يأتون من قرية قربان يمرون من بطحان الذى يعد مجرى سيل الوجيدة، من باب قرية تحسين أغا التى فى طريق قباء ومن الجهة الغربية من طريق بلاد عمر زاهد الذى يقال له مغيسلة ومن الجهة القبلية لحديقة محمد بدوى ومن بين مجارى سيل رانون وسيل أبى جيده المرجلين ومن الحدائق العديدة التى تقع فى الجهة الشرقية من هذا الطريق ومن خرابة شيخ الحرم المرحوم أمين باشا. ويصلون إلى باب السور الخارجى وهذه الأماكن والجهات الخلفية للبعض حجرات حوش منصور وخاصة مسجد عمر الفاروق ودار خضر أفندى وعمارة مخاصلى التى اتخذت مستشفى للعساكر السلطانية. وتقع هذه الأماكن على يمين من يستقبلون مسجد السعادة من أمام باب السور الخارجى ويقع على يسارهم مخفر باب قباء وحوش متاع وحوش عميرة والمنازل التى تمتد إلى جسر سنان باشا.

والذين يريدون أن يذهبوا من هذا المكان إلى حرم المسجد النبوى يعبرون جسر سنان باشا ويسيرون بطريق الجهة الشرقية إلى سوق الحبابة ومن هنا إلى الباب المصرى ثم يصلون إلى الحرم الشريف، ومن يريدون أن يخرجوا من باب العنبرية بعد ما يعبرون الجسر سالف الذكر يسلكون بطريق الجهة الغربية باب العنبرية. انتهى.

حُمام اله: اسم موضع بالقرب من بليدة حُمام على وزن زكام موقع بين فرس وملل يشتهر باسم عميس الحمام.

حماضة: اسم بستان فى ديار بنى بياضه.

حمت: الاسم الآخر لجبل ورقان واسم عقبة فى طريق القدس الشريف.

حمراء الأسد: اسم موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة فى جهة مكة المكرمة. واسم أشجار النخيل القريبة من قرية صفراء.

حنان: اسم تل رملى جبلى يقع على يمين من يذهبون إلى بدر.

حنذ: القرية التى كان يسكنها أُحَيْحَةُ[1] بن جُلاَح.

حورتان: اسم حورتين إحداهما حورة يمانية والأخرى حورة شمالية والحورة الشمالية فى جهة عفرة من وادى أشعر يقال لها حويرة.

والحورة اليمانية فى واد يطلق عليه ذى الهدى وكان اسمه القديم ذو الضلالة، وأهدى شداد بن أمية الذهبى للنبى ﷺ مقداراً من العسل فسأله النبى ﷺ من أين أنت فقال له ما يشير إلى أنه من وادى ذو الضلالة فقال له النبى ﷺ كلا كلا أنت من وادى الهدى وظل بعد ذلك اسم ذلك الوادى ذو الهدى.

حوضى: حوض فى تبوك.

حوض مروان: حوض فى وادى العقيق.

حوض هشام: حوض فى الحرة الغربية للمدينة.

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢١-٢٢.

حرف الخاء

خاخ: اسم قرية معروفة بروضة خارخ على يمين حمراء الأسد، وكانت مقر محمد بن جعفر وعلى بن موسى الرضا ـ رضى الله عنهم ـ وأئمة آخرين، وبناء على رأى الواقدى قرية «ظعينة» التى فى خارج المدينة المنورة أى قرية المرأة التى حملت الرسالة التى كتبها حاطب بن أبى بلتعة يخبر سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل بأن النبى ﷺ يستعد للسفر إلى مكة المكرمه لفتحها ولكنَّها قبض عليها وأخذت منها الرسالة.

استطراد:

قال بعض المؤرخين: إن حاطب بن أبى بلتعة كان قد أرسل رسالة مع مغنية تسمى سارة وكانت المغنية المذكورة جارية أبى عمرو بن هاشم بن عبد مناف، وقد ذهبت إلى بلدة الرسول فى أثناء تجهيز النبى للجنود للرحلة الميمونة لفتح مكة وبعد لوازم السفر وقد أجابت على سؤال النبى الذى قال لها: «هل أتيت لتسلمى أم أتيت مهاجرة إلى المدينة».

فأجابت: «بعد أن مات صاحبى أصبحت فى ضيق من العيش» فأومأ النبى ﷺ أن ما تقوله غير قابل للتصديق لأن مشركى قريش يراعون المغنيات وحديثها عن حاجتها غير مقنع، فقالت المشار إليها «نعم أن ما تقوله صحيح إلا أن بعد موقعة بدر الكبرى لم يبق فى بيوت مكة ومنازل بكة مجال للفرح والسرور والبهجة. وقد تحول فرحهم وسرورهم وابتهاجهم إلى الغم والهم والكدر»، وهكذا أظهرت المسكنة وبينت أحوال أهالى مكة وحكت أقوالهم ونالت عطايا النبى ﷺ.

وإن كان حاطب بن أبى بلتعة كتب رسالته وأعطاها إياها وأخفت المذكورة الرسالة بين شعر رأسها، وتحركت من المدينة المنورة متوجهة إلى مكة المكرمة إلا أن جبريل أُنْزِلَ باسطًا أجنحته وأخبر الرسول بالموضع كما أخبر أن سارة لم تصل بعد إلى منزل ذى الحليفة فاستدعى النبى ﷺ على بن أبى طالب والزبير بن العوام ومقداد بن أسود فأمرهم كلهم معًا وقال لهم: توجهوا الآن ناحية مكة

وعندما تصلون إلى روضة خاخ ستلقون سارة المغنية ومعها رسالة من حاطب بن أبى بلتعة بين فيها استعداداتنا وتدابير سفرنا نحو مكة، لابد وأن تأخذوها وتعودوا بها إلينا»، وفعلاً وصل المشار إليهم إلى روضة خاخ حيث تلاقوا مع سارة وأخذوا الرسالة وعادوا كما ذكرت فى كتب السير[1] بالتفصيل. وبناء على هذا فرواية الواقدى موضع نظر.

صورة الرسالة التى كتبها حاطب بن أبى بلتعة:

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة اعلموا أن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم، فإن الله تعالى نصيره ووليه وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم.

وإن كانت صورة هذه الرسالة منقولة بشكل آخر ولما كانت هذه الصورة مسطورة فى صفحة ٣٦٧ من محمود السير فلم نجد حاجة لبيانها. انتهى.

خاص: واد فى خيبر فمزارع قصدى، وحيدة، سلالم، كثيبة، وطيخ فى هذا الوادى.

خَب: نهر من وديان موضع كاثب فينزل من الموضع المذكور إلى أسفل ويمر من خلف حرة كثب يتصل بجانب قرية قباء من الأسفل.

خبان: اسم جبل بين معدن بقرة وفدك.

خبراء الغدق: اسم موضع فى ناحية صمان يشتمل على عشب سدر وهو كثير الماء الزرع.

خبراء صائف: اسم منزل بين الحرمين.

خرار: مكان فى الناحية الشامية من وادى مشعر وقعت هنا معركة سرية سعد بن أبى وقاص.

خزباء: منزل خاص ببنى سلمة بين مسجد القبلتين وموقع مزاد وقد سماه النبى ﷺ مؤخراً صالحة.

خزما: اسم بئر فى وادى صفراء. **خزيف:** اسم واد يبدأ من موقع يقال له جار ويتصل بينبع البحر.

(١) انظر: الطبرى ٣/٤٨-٤٩، سيرة ابن هشام ٢/٢٦٦-٢٦٧، الدور ص ٢١٣-٢١٤.

(خزيم): طريق جبلى بين المدينة وبدر الكبرى. قد عاد النبى ﷺ من غزوة بدر من هذا الطريق.

خشب: اسم واد يقع على بعد ليلة من المدينة إلى جهة تبوك يقال له ذو خشب أيضًا، وكان لمروان بن الحكم قصر فى هذا الوادى.

«خشرمة»: واد قريب من ينبع البحر يمتد حتى ساحل البحر.

«خشين»: جبلان أحدهما أصغر من الآخر فى أراضى خشين.

خصى: كانا برجين فى الجهة الشرقية من مسجد قباء لبنى سليم وبنى الحارث.

خضيرة: اسم موضع خاص لبنى محارب فى قطعة نجد، كانت سرية أبى قتادة أرسلت لهذا الموضع - وعلى رأى - اسم قرية من قرى جبل آره - وبناء على رأى - كان يقال لموضع خضرة فى الجاهلية عفرة فسماه النبى ﷺ خضرة كما سمى شعب الضلالة شعب الهدى وبنى الزينة بـ بنى الرشد.

«خضينت»: اسم نهر وقرية بين المدينة وينبع البحر. وعند البعض طريقان ينتهى أحدهما إلى ينبع والآخر إلى خشرمة.

«خفية»: اسم نهر فى وادى العقيق.

«خلائق»: جمع خليقة، خلائق هذه ملك عبد الله بن أبى أحمد بن جحش وغير خليقة آل زبير وآل أبى أحمد أراض بعيدة من المدينة مقدار اثنى عشر ميلاً. ولكل جزء منها يقال خليقة. ونهر العقيق يسقى أراضى خلائق هذه وكل خليقة تشتمل على مزارع كثيرة وأشجار نخيل وآبار عذبة لطيفة.

خلص: صحراء واسعة يروى موثوقًا أن حكيم بن حزام رأى الملائكة ينزلون فى هذا الوادى يوم بدر.

«خل»: اسم منزل بين الحرمين وقريب من مزحج. ولما كان الطريق الذى ينتهى إلى قصر حرة ينفصل من هذا المنزل يقال لهذا القصر المذكور قصر خل أيضًا.

«خم»: اسم بحيرة قريبة من جحفة والذى يسمى بغدير خم. ولما كان أحد الشجعان العرب يسكن بجانب تلك البحيرة ويستضيف المارين والعابرين سمى

بهذا الاسم. وعند البعض اسم واد قريب من جحفة ولما كان هذا الوادى مشهوراً عند أهل الجاهلية بأنه مقر الوباء ومركز الحمى كان أهاليه ينتقلون إلى البلاد والوديان الأخرى. حتى إن حافظ مندى قال: فالذى يولد فى قرية واقعة فى هذا الوادى إذا لم ينتقل إلى محل آخر لا يمكنه أن يعيش.

إلا أن جميع هذه الشرور قد زالت من أرض يثرب بعد الهجرة فظهر قدر النبى الجليل مثل الشمس. هناك فى الجهة الشرقية على مسافة ميل من غدير الخم موضع لا ينقطع المطر منه أبداً والسيول التى تتجمع من هذه الأمطار تجرى فى صورة دائمة من الأودية وتصب فى البحر؛ لذا لا يتعرض من يمرون من هذه الأماكن للعطش.

خندق: اسم الخندق المشهور الذى أمر النبى ﷺ بحفره قبل غزوة الأحزاب.

صورة حفر الخندق الذى حفر فى عصر الرسول[1] ﷺ:

يرى المؤرخ المطرى والذين تابعوه من المؤرخين: بناء على المعلومات التى استقرأها من النبى ﷺ حفر خندقًا فى غاية الاتساع والعمق قبل وقوع غزوة الأحزاب الجليلة من فوق وادى البطحان إلى الجهة الغربية منه، ومن الحرة الغربية إلى مصلى النبى ﷺ ومن مصلى النبى ﷺ إلى ساحة مسجد الفتح، منها إلى الجبلين الصغيرين الواقعين فى الجهة الغربية من وادى البطحان، وجعل جبل السلع فى الخلف ونصب الخيمة النبوية بجانب مسجد الفتح ـ وعلى قول على جانب من جوانب وادى ذبابٍ ـ وعلى هذا التقدير تكون الجيوش الإسلامية قد ظلوا فى جهة جبل السلع وأحزاب المشركين فى جهة جبل أحد.

ولكن ابن سعد والإمام البيهقى ذهبوا إلى خلاف هذا الرأى وقالوا. قد بدئ فى حفر الخندق من جهة من جانب محلات بنى حارثة حليف بنى عبد الأشهل أى من جهة الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية إلى جانب محلة بنى سلمة التى تقع فى سفح جبل بنى عبيد ومساجد الفتح وقد قسم هذا الموقع أجزاء ووزع كل جزء ليحفره جماعة من الصحابة الكرام.

(١) انظر فى غزوة الخندق: سيرة ابن هشام ٣/ ٢٢٦، مغازى الواقدى ٣٦٢، وابن سعد ٢/ ١/ ٤٧ تاريخ الطبرى ٢/ ٥٦٤. وغيرها.

وعلى هذا بدأ المهاجرون الكرام فى الحفر من ناحية راتج إلى موقع ذباب والأنصار من ذباب إلى جبل بنى عبيد موقع منازل بنى سلمة وأفراد بنى دينار من محلة بنى سليمة إلى محاذاة منزل ابن أبى سلول وبنو عبد الأشهل حفروا إلى محلة منازل بنى حارثة التى تقع فى الطرف الشرقى من موقع ذباب وعمقوها. وبناء على هذا التعريف أن الخندق المذكور كان فى الجهة الشامية من المدينة المنورة وهذا المكان يمتد من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية ولما كانت تلك الجهات محاطة بالمبانى والأشجار وجبال متسلسلة فهجوم العدو من تلك الجهة غير ممكن. ومازالت خرائب الخندق الذى حفر فى ذلك الوقت قائمة فالماء الذى جلب من قرية قباء قد أمر من داخل تلك الخرابة وأوصل إلى حديقة سح التى حول مساجد الفتح. وملئت حفرة الخندق وغرس عليها أشجار النخيل وأصبحت أرضها سطحًا مستويًا. ومن المحقق أن ٣٠٠٠ آلاف من الصحابة قد عملوا فى عمليات الحفر ولكن اختلف فى صورة الفتح. وبناء على أشهر الأقوال وأصحها أن النبى ﷺ تحرك من المدينة المنورة بثلاثة آلاف صحابى. ونصب خيامه بين جبل سلع ودار السكينة حيث أقام وقرر بناء على عرض جناب سلمان ورأيه حَفَرَ خندقا عميقا فى المكان الذى يحتمل هجوم المشركين من جهته على أن يكون عرضه وعمقه خمسة أذرع، وفرق لكل عشرة أنفار من الصحابة أربعين ذراعًا من الأرض، واستصوب أن يستعير أدوات الحفر من يهود بنى قريظة الذين كانوا فى حالة صلح مع المسلمين، وكما عرف أعلاه قد عرف كل قبيلة المحل الذى ستحفره بدءوا فى الحفر معًا وأتموا الحفر فى ست ليال أو أربع وعشرين أو فى عشرين ليلة وكملوا.

وبناء على هذا الحساب أن طول الخندق كان ١٢٠,٠٠٠ مائة وعشرين ألف ذراع.

ولما تم حفر الخندق وصلت أحزاب المشركين وحاصروا المسلمين خمسة عشر يومًا أو عشرين ليلة أو شهرا كاملاً وأشعلوا نار الوغى. كما فصل فى كتب السير وفى نهاية الأمر عادوا منهزمين.

إن ما نقله جماهير أئمة السير وما كتبوه تحت عنوان معجزة الخندق الجليلة فى

حق الصخرة التى قاومت الكسر انبثق فى كسرها معجزات غيبية كثيرة وفتوحات عظيمة.

وقد ظهرت تلك المعجزة أسفل الموقع الذى يطلق عليه ذباب أو بجانب جبل بنى عبيد. وكان فى موقع الصخرة التى كانت سببًا فى ظهور المعجزة عبد الله بن عمرو بن عوف وسلمان ونعمان بن مقرن - رضى الله عنهم - فلم يوفقوا فى نقب أو شق تلك الصخرة فأوكلوا المسألة إلى النبى ﷺ بوساطة حضرة سلمان فشرف النبى ﷺ وحطم تلك الصخرة كما ذكر فى كتب السير مفصلاً وهكذا أظهر معجزة الخندق العظيمة.

والموقع الذى حدثت فيه غزوة الأحزاب هو المكان الذى يستقر فيه الآن المساجد الأربعة على بعد نصف ساعة فى خارج المدينة. والموقع الذى يسمى الآن مسجد الفتح هو المكان الذى نصبت فيه الخيمة النبوية ونزلت فيه سورة الفتح بناء على قول.

والمساجد الثلاثة الأخرى يطلق على واحد منها مسجد أبى بكر الصديق وعلى الآخر مسجد على وعلى الثالث مسجد سلمان كما كتب فى الصورة الثالثة من الوجهة الثالثة.

وبناء على عقيدة أهل المدينة فإن ساحة تلك المساجد الثلاثة كانت المواقع التى نصب عليها المشار إليهم خيامهم. وبما أن مؤرخى المدينة لم ينقلوا أى قول بخصوص هذا الموضوع فنحن نتردد فى قبول ذلك وتصديقه. ولكنه لا شك أن مسجد الفتح قد أقيم على الساحة التى نصب عليها النبى ﷺ خيمته.

خيبر: بلد لا نظير لها من حيث وجود رياض وفيرة ومزارع وحصون كثيرة وهو ولاية كبيرة على بعد ثلاثة أيام من مدينة الرسول، وعلى يسار الذاهبين إلى المدينة من الشام. ويظن أن خيبر فى اللغة اليهودية بمعنى قلعة وبناء على ذلك يطلقون على قلاع الولاية المذكورة خيابر وهذا التعبير ليس وجه تسميتها بخيبر، لأن تسميتها بخيبر يعود إلى أن أخا الشخص الذى يدعى يثرب وهو خيبر بن قائنة بن مهليل بن أرم بن عبيل نزل فى أرض خيبر وأقام فيها، وأقام النبى ﷺ

فترة غزوة خيبر ما يقرب من شهر أمام قلاع خيابر وفتح القلاع واحدة تلو الأخرى وسخرها.

ثم عاد بعدما أبقى سكنتها فى أماكنهم بشرط أن يعطوا نصف محاصيل خيبر المتنوعة لبيت المال وكان قد خطط لإجلاء يهود خيبر إلى البلاد الأخرى ونقلهم فقالوا: «يا رسول الله!! نحن نعرف طبيعة هذه الأراضى نرجوك أن تبقينا هنا». فأشفق النبى ﷺ عليهم ورحمهم وأبقاهم فى أماكنهم على أن يكون نصف محاصيل المزارع لهم كأجور عمل ولم يقرهم على ملكية الأرض. أى على أن يجليهم إلى أماكن أخرى وقت ما شاء.

وبعد فترة وجد أخو عبد الله بن سهل مقتولاً فى أرض خيبر وبناء على طلبه كتب النبى ﷺ رسالة وأرسلها إلى يهود خيبر وكانت الرسالة تتضمن إعطاء دية عبد الله المقتول أو أن يستعدوا للحرب والقتال، إلا أن اليهود أقسموا بالله وبرءوا ذممهم من قتل عبد الله بن سهل وعلى هذا أعطى النبى ﷺ من بيت المال مائة جمل وسوى مسألة الدية وبين أنه قد حان الوقت لإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب بإخراج النصارى واليهود منها. ولأجل ذلك أجلى عمر بن الخطاب فى عهد خلافته اليهود من خيبر وأسكن مكانهم من يرغب من أهل الإيمان وآواهم، لأن مطهر بن رافع بينما كان عائدًا من الشام مع عشرة من العبيد فى أيام خلافته اختار أن يبيت ليلة فى خيبر التى كانت على طريقه. إلا أن اليهود الملاعين ألَّبوا عليه العبيد قائلين: «بينما أنتم عشرة أنفار كيف يذلكم هذا الرجل وتتحملون المشقات الجمة والمتاعب الكثيرة؟ أهذا من شأن العاقل؟! ونقول هذه الكلمات لأننا نرقّ لحالكم ونعطف عليكم. وإلا فما لنا؟! إذا أردتم أن تنجوا من الشقاء الأبدى، اقتلوا هذا الرجل بعد خروجكم من خيبر بهذا الخنجر الحاد ثم اهربوا كل واحد منكم إلى جهة ما» وبعد هذا التلقين أعطوا لهم الخنجر وقتل هؤلاء المجرمون بناء على تلقين اليهود مطهر بن رافع فى الطريق وعادوا إلى خيبر و أسرع اليهود بإعطائهم زاد طريقهم وإعادتهم إلى سواء الشام وعندما شاع هذا الخبر المؤلم وتردد صداه فى المدينة ذهب عبد الله بن عمر إلى خيبر ليسترد

أموال مطهر بن رافع المتروكة، وهجم أهل خيبر على عبد الله بن عمر ليلة ما على غفلة، ولأن ابن عمر نجا فى فترة ما وعاد إلى دار الخلافة إلى المدينة وأبلغ والده بما حدث؛ صعد حضرة عمر على المنبر دون تأخير وبين أن أهل خيبر قد تجرءوا على أذى عبد الله وقتل مطهر بن رافع وعبد الله بن سهل وتسببوا فى الخسارة وارتكبوا الفظائع وأن النبى ﷺ قال فى حق هؤلاء الملاعين «أقركم ما أقركم الله» وأنه قد وقت إجلاءهم من قطعة خيبر الفسيحة وأجبر المهاجرين والأنصار على تصديق قراره وقرر عمر لمردهم وعندما وصل ما قرره عمر بن الخطاب إلى خيبر جاء ابن أبى الحقيق إلى المدينة ومسح جبينه على تراب رجلى عمر بن الخطاب مهادنا ثم قال يا عمر، كيف تريد أن تنفينا وتجلينا من بلدنا وأنت تعرف أن محمدا ﷺ أبقانا ووطننا فى بلدنا فما سبب ذلك؟ وأنت تريد أن تتصرف خلاف الإرادة النبوية؟ فاستجوبه على هذا النحو. فقال له عمر هل تظن أنى نسيت ما قاله النبى ﷺ فى حقكم عندما قال «تستطيعون أن تبقوا الآن فى دوركم وديياركم ولكن كيف سيكون حالكم عندما تخرجون من بيوتكم ودوركم؟!» فقال له إن ما صدر من أبى القاسم كان من قبيل الهزل ولم يكن جادًا فى قوله، ولما رأى عمر بن الخطاب أنه يستخدم فى حق النبى ﷺ لغة الاستهزاء والسخرية قال له: «يا عدو الله، قد افتريت فجميع أقوال النبى ﷺ قول فصل وليس بهزل وبناء على هذا قد أهملتكم ثلاثة أيام ما عدا دخولكم وخروجكم!».

وفى هذه المدة غادروا منطقة الحجاز من جزيرة العرب!!!

وعاد وقد تلقى هذه الإجابة وأعطى أمير المؤمنين سواء أكان أثمان أموال يهود خيبر أو نصارى نجران من فيافيهم كلهم إلى الممالك الأخرى ثم وزع أموالهم وأشياءهم بين الأصحاب.

والسبب الذى دعا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى الصعود على المنبر النبوى وترغيب الصحابة الكرام فى نفى يهود خيبر من بلادهم ووطنهم ما

سمعه من النبى ﷺ قوله: «لا يبقى دينان فى جزيرة العرب» وبالنظر إلى معنى الحديث الشريف: «إن عشت إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من الحجاز» فلفظ جزيرة العرب الذى ورد فى الحديث سالف الذكر المقصود به بلاد الحجاز المقدسة، ويهود خيبر الذين أجلاهم عمر بن الخطاب كانوا أربعين ألفا من الشجعان المتسلحين وقد سمح لبعضهم بالإقامة فى تيماء وهذا يدل على أن المقصود بالجزيرة العربية التى فى الحديث قطعة الحجاز وإن كانت أرض تيماء فى داخل الجزيرة العربية ولا تعد من أراضى الحجاز لأن بلاد الحجاز تشمل الحرمين واليمامة، وخيبر مربوط بالمدينة كما أن الطائف مرتبط بمكة المكرمة.

وقد حدثت هذه الوقائع فى السنة التاسعة الهجرية فأجلى يهود خيبر ووادى القرى إلى حدود الشام، وأهالى نجران إلى أرض الكوفة. وهكذا أخليت بلاد الحجاز من النصارى واليهود بناء على الإرادة النبوية.

وظهرت فى خلال تلك السنة المذكورة نار عالية اللهيب وانتشرت إلى الأطراف والنواحى بذلت جهود جبارة لإطفائها فلم يمكن إطفاؤها.

وعرضوا الأمر على مقام الخلافة ورجوه أن يجد حلا لهذه الكارثة العظمى وأمر الفاروق الأعظم - رضى الله عنه - بالتصدق واتخذ الإجراءات اللازمة فانطفأت تلك النار فنجا الجميع.

خيط: اسم برج فى الجهة الشرقية لمسجد القبلتين خاص بقبيلة بنى سواد.

«خيل»: اسم محل بجانب دار زيد بن ثابت التى فى سوق المدينة القديمة، واسم جبل بين موقعى مجنب وضرار، واسم حديقة فى أراضى نجد، ويطلق على الحل الذى بجانب دار زيد بن ثابت بقيع الخيل، وعلى الحديقة التى فى أراضى نجد روضة الخيل.

حرف الدال

دار النخلة: دار قريبة من المحل الذى يقال له «زوراء» فى دار الهجرة، وجه تسميتها بهذا الاسم انعزالها عن المنازل الأخرى منفردة فى داخل حدائق النخيل.

دَبَّة: على وزن مكَّة اسم محل فى مضيق صفراء يطلق عليه «دبة المستعجلة» واسم موضع بين «وادبى أضافر» وبدر، واسم قرية قريبة من بدر على وزن نكتة.

دَرَّ: بفتح الدال وتشديد الراء، اسم بحيرة كائنة تحت حرة بنى سليم وفوق موقع يطلق عليه نقيع.

درك: على وزن سمك اسم موضع كان يقاتل فيه الأوس والخزرج فى الجاهلية. كما يطلق عليه دريك على وزن زبير.

دهنا: على وزن رغيا موقع قريب من ينبع كما يطلق على تلال رمل محاذية لديار تميم، وما بين كل تلين مزين بكثير من القرى والمدن وإن لم تكن لها مياه وفيرة فمحاصيلها السنوية تفى لعربان البادية وتزيد لطيب هوائها وصفائها لا يشغلون أنفسهم بالحمية.

وتتصل أنهارها بوادى «متعج» وبعده «دوتة».

دوداء: على وزن صحراء موضع قريب من ورقاق.

دوران: على وزن توران واد يقع على جهة جحفة من منزل قديد.

دومة الجندل: قد ضبط هذا الموقع ابن زيد على شكل «دومة الجندل» والموقع المذكور وفق قول ابن فقيه من ملحقات المدينة المنورة سمى باسم ابن حضرة إسماعيل بن إبراهيم وقرية قريبة من جبل «طى» الواقع بين المدينة المنورة وأراضى خطة الشام. وفى هذه القرية حصن حصين يعرف بمارد قلعة الملك المسمى «بأكيدر». أو اسم قرية من قرى وادى القرى وقد بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى الحصن المذكور وقال له ستجد أكيدر وهو يصطاد الثور الوحشى وبناء على قول ابن سعد إن دومة الجندل فى جهة الشام وتبعد عن الشام خمس ليال وعن المدينة المنورة خمس عشرة ليلة. وقد شرف النبى ﷺ هذه البلدة وظل هناك فترة طويلة وأرسل سرايا إلى البلاد المجاورة من هناك.

دويخل: اسم جبل بنى عبيد وأحد الجبلين اللذين فى الجانب الغربى لمسجد الفتح.

حرف الذال

ذات أجدال: موضع فى مضيق صفراء.

وذات القطب: نهر من أنهار العقيق المشهورة.

ذات النصب: الموضع الذى أنعم به النبى ﷺ على بلال بن الحارث المزنى عن وأقطعة إياه على أربع مراحل من المدينة فى الجهة القبلية.

ذات الرقاع: بئر من آبار الجاهلية وتقع بين وادى سعد وشقرة أو اسم جبل ملون بألوان بيضاء وحمراء وسوداء. وعلى رواية أخرى اسم شجرة بجانب هذا الجبل.

وعند البعض قد أديت فى المحل المذكور صلاة الخوف أو أن الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - ربطوا أرجلهم بالخرق فى الغزوة التى وقعت هنا وهذا هو وجه التسمية.

ذباب: اسم الصحراء التى أسس فيها مسجد الراية ويقال لها ذو باب أيضا.

ذرع: اسم بئر بنى خطمه.

ذروان: اسم بئر فى محلة بنى زريق المستقرة خلف البيوت التى فى الجهة القبلية من المدينة المنورة، وتشتهر باسم بئر ذروان.

ذفران: اسم واد واقع بين الحرمين.

حرف الراء

رائع: اسم موضع فى وادى «العقيق»

رابغ: اسم نهر فى جهة جحفة، واسم بحيرة فى وادى أسقف، وهذه البحيرة فى جهة غدير سيالة لا يجف ماؤها أبدًا وكان يقال لها فى الأوائل رابوغ والآن يطلق عليها حساء.

راتج: اسم أطم يعرف باسم الناحية التى تميل إلى جهة الشام فى الطرف الشرقى لموضع ذباب وكانت محلة أولاد بنى عبد الأشهل وأخوه وبناء على قول المطرى أن «راتج» اسم جبل يقع بجانب جبال بنى عبيد، وإذا كان ما ذهب إليه المطرى أن هذه الأطم فإنه يقتضى أن يكون غير الأطم سالف الذكر. ومع هذا لم يبق أثر سواء من الأطم أو ساحته.

تعريف البرج الذى يقال له «أطم» بين أهالى المدينة القدماء:

«أُطُمْ» بضم الهمزة والطاء وسكون الميم بمعنى جوسق عادى وقصر إلا أن الأغنياء من أسلاف المدينة اعتادوا أن يبنوا بيوتهم أبراجا مستحكمة حسب إمكانات عصورهم ويحيطون أسطحها بمتاريس بطول قامة رجل ويجعلون لتلك المتاريس فتحات يتقون بها ما يطلق عليهم، ويتحصنون فى داخل هذه الأبراج عند اللزوم ويطلقون على مثل هذه المبانى أطم ويجمعونها على آطام. وكانت حصون تلك الأزمنة وقلاعهم من هذا القبيل إلا أنها كانت بالنسبة للآطام أكثر استحكاما وكانت لها عدة أبراج وكانت لكل قبيلة عدة آطام والقبيلة التى تنهزم فى ميدان القتال كان يدخل أفرادها داخل هذه الحصون ويدافعون عن أنفسهم ويتحملون هجمات الأعداء مدة طويلة، لأنهم كانوا يدخرون فى داخل هذه الحصون من الأغذية ما تكفى لمعيشة ما يستوعبه الحصن من الأشخاص عدة شهور. وكانت القبائل تشن الغارات وتحارب الأخرى مستندة على هذه الحصون ولم تكن الحصون التى فى الجاهلية مثل ما نعرفه اليوم من القلاع والحصون التى تقاوم الأسلحة النارية. انتهى

رادان: اسم ناحية مشهورة ملحقة بالمدينة المنورة.

رامة: اسم منزل على بعد مرحلة من المدينة المنورة فى جهة طريق حجاج العراق وهناك قمتان على شكل نهدى امرأة.

رَانُوناء: على وزن عاشوراء اسم واد.

راية الأعمى: اسم نهر فى وادى «العقيق».

رَباب: على وزن كَباب جعل فى الجهة القبلية للمدينة.

رَيا: على وزن دَعا اسم منزل بين الحرمين وبين أبواء وسقيا.

ربَذة: بتشديد الباء على وزن مكة اسم قرية على مسافة أربعة أيام من المدينة فى جهة نجد قد اتخذ عثمان ـ رضى الله عنه ـ هذه القرية مرعى لإبل الصدقة.

ربيع: اسم ناحية من نواحى المدينة وبما أن الأوس والخزرج تقاتلوا فى هذا المكان قتالاً عظيما يذكرون هذ القتال بـ «يوم الربيع».

رَجَام: على وزن خَرَام اسم جبل مستطيل على بعد ثلاثة عشر ميلا من مرعى ضرية فى جهة ديار أضاح.

رجيع: وهو واد قريب من خيبر، وقد نزل النبى ﷺ فى هذا الوادى فى موقعة خيبر وكان غرضه منع قبائل غطفان من تقديم العون والمدد لأهل خيبر.

وبين مكة المعظمة وبلدة الطائف واد منسوب لبنى هذيل يطلق على هذا الوادى رجيع أيضا، إلا أن الرجيع ليس اسم الوادى المنسوب إلى بنى هذيل بل هو اسم ماء يقع فى هذا الوادى، وهذا الماء فى بلاد قبيلة هذيل، وعلى بعد سبعة أميال من هذا الموضع وادى عسفان وقد وقعت سرية سيدنا عاصم ـ رضى الله عنه ـ على رأس هذا الماء، حيث استشهد سيدنا عاصم ـ رضى الله عنه ـ، ومرثد بن أبى مرثد، والآخرون من الصحابة غدرا وقد قبض على خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة أحياء وقتلا صلبا فى مكة المعظمة.

سرية عاصم بن ثابت ـ رضى الله عنه[1]:

قد نال بعض الناس من قبيلتى عَضَل وقاره شرف المثول بين يدى الرسول ﷺ ورجوا منه أن يرسل لهم بعضًا من أصحابه الكرام ليعلموهم أحكام الشريعة، فأرسل إليهم النبى ﷺ عاصم بن ثابت ومرثد بن أبى مرثد وخبيب بن عدى

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٢/٥٣٨، سيرة ابن هشام ٢/١٦٧-١٦٨.

وزيد بن الدَّثِنة من الأشخاص الكرام، وكانوا كلهم من قراء القرآن، وعندما وصل المشار إليهم إلى ساحة ماء الرجيع هجم عليهم أفراد بنى هذيل على غفلة فقتلوا أغلبهم بسيف الغدر والخيانة، وقبضوا على خبيب بن عدى وزيد بن الدّثِنة أحياء وساقوهما إلى مكة فقتلا صلبًا فى جبل تنعيم. ولما حدثت هذه الواقعة الأليمة جهارًا فالذين يريدون أن يطلعوا على صورة وقوعها عليهم أن يطالعوا صفحة مائتين وعشرين من كتاب محمود السير[1].

ركابة: على وزن جفادة اسم موضع فى ديار بنى بياضة.

رجية: على وزن نرده اسم موضع قريب من وادى القرى وسقيا الجزل الواقعين فى بلاد عذرة.

رحقان: على وزن عسان اسم واد يمتد إلى ناحية بنى سال عندما يمضى الطريق من وادى نازية إلى مضيق مستعجلة ويقع على الجهة اليمنى من هذا الطريق.

رُحيب: على وزن زُبير اسم جبل معروف بالقرب من أراين.

رُحْية: على وزن رُؤْية اسم بئر بين المدينة والجحفة.

رديهة: على وزن نليجة اسم نهر بوادى العقيق.

رس: اسم ماء فى الجهة القبلية من دار الهجرة واسم واديين فى أراضى نجد أو اسم موضعين، واسم ماء بجانب وادى آذر بابجان وفى الوادى الذى فى ناحية آذر بابجان كان فى وقت ما ينتج الرمان والزبيب بدرجة لا مثيل لهما وهى قرى منتظمة.

ولما عصى وبغى أهالى تلك القرى وكذبوا نبيهم أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ جبلين من جبال الطائف أن يقوما بتأديب هؤلاء القوم المذمومين وقد انهار الجبلان المذكوران فوق سكان تلك القرى فهلكوا جميعا ولم يبق لهم أثر.

(١) وانظر أيضًا الطبرى ٢/٥٣٨-٥٣٩.

وكان لقوم ثمود بئر باسم رس ألقوا نبيهم فى هذه البئر وسدوا فوهتها بالحجر.

رشاد: كان واديا فى بلاد أجرد كان اسمه القديم عون فبدله الرسول ﷺ برشاد ولما وصل إلى قبيلة جهينة جامل أفراد بطن بنى عنان قائلاً أنتم بنو رشدان.

ذات الرضم: موضع على بعد ستة أميال من وادى القرى.

رضمة: وادى بالقرب من وادى صفراء.

رضوى: جبل مشهور مبارك فى مكان يبعد عن المدينة أربعة أيام وعن ينبع البحر يوما واحدا ويستخرج من فوقه منجم لحجر المسن، قد أخبر النبى ﷺ أنه من جبال الجنة.

رعل: اسم برج فى قرية بنى عبد الأشهل.

رقمتان: اسم ساحتى رمل بجانب الحرة الغربية للمدينة المنوره، ولونها أصفر مائل إلى الحمرة، موضعان مشهوران فى ديار بنى أسد كما أن هنا قريتين بهذا الاسم إحداهما فى وادى القرى والأخرى فى الأراضى النجدية.

رقم: تقال للمنزل الذى يسكن فيه أربد بن الصيفى فى الجهة الشرقية من المدينة. واربد هذا جاء إلى المدينة بقصد قتل رسول الله ﷺ وسكن فى ذلك البيت فترة ما ثم يئس من قتله ـ عليه السلام ـ فعاد وفى أثناء عودته أصابته الصاعقة ومضى إلى جهنم وكان قد أطلق على هذ المكان الذى هلك فيه هذا الرجل سهام الرقميات، ومازال معروفًا بهذا الاسم إلى الآن. كما أن فى بلاد بنى غطفان جبل باسم رقم بجانب هذا الجبل مجرى ماء يعرف بنفس الاسم.

رقيبة: اسم جبل طويل فى خيبر.

ركابيه: اسم موضع على بعد عشرة أميال من المدينة من عرج وهى عقبة فى غاية الصعوبة عند الطلوع عليها.

وبجانب هذه العقبة عقبة عائز قد مر النبى ﷺ عندما هاجر من هذه العقبة

ومن الغرابة بمكان أن ابن حجر عندما عرف نار الحجاز قال إن عقبة ركوبه فى الطرف الشامى من المدينة وقد مر النبى ﷺ بهذه العقبة فى وقعة تبوك وأنها عقبة صعبة الصعود ووصف وعرف عقبة ركوبه طولا وعرضا وحددها، وإذا كانت رواية ابن حجر صحيحة فمن المحتمل أن يكون فى ذلك المكان عقبة أخرى باسم ركوبة.

تطلق العقبة على الجبال الوعرة صعبة التسلق لما يقال على الجبال والهضاب ذات طلوع ونزول كما أن ثنية بمعنى عقبة.

رمة: صحراء يمتد طولها سبع ليال فى أراضى نجد فى جهة منها حرة فدك والجهة الأخرى أرض قصيم.

وإن كان هناك موقع يطلق عليه. **بطن الرم** إلا أن هذا المكان فى طريق المدينة المنورة التى تنتهى إلى فيد وفى داخل بلاد بنى غطفان.

روادة: اسم بحيرة كبيرة تمر منها سيول العقيق.

روايتان: اسم هذه البحيرة أيضا.

الروحاء: موضع يبعد عن المدينة المنورة اثنين وأربعين ميلا، وذهب بعض المؤرخين إلى أنها على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة والبعض الآخر على أنها ثلاثين ميلا من المدينة المنورة وهذا الاختلاف يعود إلى أن المؤرخين قاس بعضهم من أولها والآخرون من وسطها والبعض الآخر من نهايتها ولما كانت الروحاء واديا بيرا ففى أولها لافتتان كما أن فى آخرها أيضا لافتتان فالذين قالوا أنها تبعد ثلاثين ميلا قاسوا المسافة من مدخل الوادى والذين قالوا أنها تبعد ستة وثلاثين ميلا قاسوا المسافة من وسط الوادى والذين قالوا أن المسافة اثنين وأربعين ميلا قاسوا من مخرج الوادى، وبناء على هذا التقدير فطول الوادى يمتد على طول اثنى عشر ميلا.

ووجه تسمية الوادى بهذا الاسم أنه واد فى غاية الاتساع أو أن الملك «تبع» قد استراح فى هذا الوادى ويوصى أكثر الرواة بأن القول الثانى أحق بالاعتماد عليه أى أن وجه تسميته استراحة الملك تبع قليلا فى وادى الروحاء بعد أن قاتل

يهود المدينة وهذا يؤيد القول الثانى ولا ينفى أيضا إمكان صحة القول الأول. كان فى وادى الروحاء قصران ومسجد، والعديد من الآبار. والمحل الذى دفن فيه إبراهيم بن الرسول ـ عليه السلام ـ فى بقيع الغرقد روحاء أيضا.

روضة الأحوال: اسم حديقة فى ناحية ودان.

روضة الأجواد: قرية كائنة فى ديار بنى غطفان وفى إحدى وديان قصيبة وفى الطرف القبلى من هذه القرية خيبر وفى طرفها الشرقى أراضى عصيرة.

روضة أحام: فى وادى العقيق.

وروضة الخزرج: موضع فى داخل المدينة وروضة الخزرج تنسب لبنى خزرج.

روضة الحماط: المحل الذى يطلق عليه ذات الحماط فى العقيق.

روضة الصهباء: اسم حديقة تقع على بعد ثلاثة أيام من المدينة فى ناحية الشام.

روضة عربتة: واد فى ناحية رخصية، وكان هذا الوادى قد اتخذ مرعى لرعى الخيول فى الجاهلية وأوائل العهد الإسلامى.

روضة العقيق: فى وادى العقيق.

وروضة مرخ: اسم حديقة فى داخل المدينة.

ذو رولان: اسم واد ينسب لقبيلة بنى سليم بالقرب من رخصية.

رويثة: اسم منزل على بعد ستة أميال فى جهة مكة المكرمة «رهاط» اسم دار الصنم المسمى بسواع الذى اتخذه بنى هذيل إليها وهى فى داخل أراضى البحر، كما أنه اسم قرية بجانب جبل شمنصبر. والذين يريدون أن يتعرفوا على ذلك الصنم أكثر من هذا يستطيعون أن يطالعوا صحائف مرآة مكة.

ريان: اسم برجين منسوبين لقبلتى بنى حارثة وبنى زريق واسم ماء كائن أسفل الجبل الأحمر الطويل الذى فى مرعى ضرية واسم واد بجانب الجبل المذكور واسم جبل فى ديار بنى عامر واسم قصور متعددة فى منجم بنى سليم.

ريدان: على وزن ميدان كان اسم برج خاص ببنى واقف من القبائل الأوسية وفى الجهة القبلية من مسجد الفضيح.

ريم: اسم الوادى الذى فى بلاد مزينة والذى يصل جبل ورقان بوادى العقيق ويبدأ هذا الوادى على ثلاثة أميال من المدينة المنورة وينتهى على بعد ثمانية وأربعين ميلا.

حرف الزاى

زبالة: اسم موضع مشهور بجانب التل الترابى الذى فى بلاد حمراء الأسد وفى مبدأ حدود أرض يثرب من جهة الشام، وفى عصر الجاهلية غمر هذا الموضع الماء فهلك معظم ساكنيه، وعلى قول أن زبالة بنت مسعود من بقية العمالقة نزلت فى هذا الموضع وأقامت قرية هناك وهذا هو وجه تسمية ذلك الموضع باسم زبالة.

زج: اسم موضع فى مرعى ضرية وقد أقطع النبى ﷺ هذا الموضع لعداء بن خالد من قبيلة ربيعة بن عامر.

زرود: اسم موضع بالقرب من أبرق العذاف أو اسم موضع قريب من منزل ثعلبية فى طريق فيد الذى يعد من منازل حجاج العراق، وعندما أرسل سيدنا عمر الفاروق سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ إلى العراق مضى سعد أولا إلى «فيد» حيث أقام مدة شهر ثم عاد إلى منزل «زرود» سالف الذكر.

زغابة: موقع سيول وادى العقيق أى فى الموقع الذى تتجمع فيه مياه وادى العقيق الذى فى الجهة الغربية من مقبرة سيدنا حمزة ـ رضى الله عنه ـ وفى أعلى المكان الذى يطلق عليه «إضم»، وأسفل المكان الذى يطلق عليه «شظات»، لأن الوادى الذى يضم المدينة المنورة المقدسة يطلق عليه «إضم» وكان هذا الوادى يجمع بين مواضع متعددة وكان يطلق على المكان الذى فيه مدينة الرسول ﷺ «قناة» وعلى أعلى هذا الموقع أى على المكان الذى بجانب سد القناة «شظاة» وعلى المكان الأسفل «إضم».

زمزم: بئر فى داخل المدينة كما وضح فى فصل الآبار وسبب تسميتها بهذا الاسم هو توزيع مياهها إلى أطراف المدينة للتبرك.

زهرة: اسم قرية بين الحرة الشرقية وموقع سافلة.

زور: اسم واد أو جبل بجانب السوارقية.

زوراء: اسم موضع بجانب ضريح حضرة مالك بن سنان وفى مكان السوق القديم كما جاء فى مبحث الأسواق وكان فى هذا المكان داراً لعثمان بن عفان تسمى زوراء وكانوا يعلنون حلول وقت صلاة الجمعة من هذا المكان فى عهد خلافته، كما يطلق على الموضع الذى يوجد فيه مرقد ابن رسول الله إبراهيم عليه السلام.

زين: اسم مزرعة فى موقع جرف.

حرف السين

سائر: اسم ناحية فى المدينة المنورة تعرف أيضًا باسم سائرة.

سافلة: الجهة المقابلة للموضع الذى يطلق عليه العالية فى المدينة المنورة؛ وذلك لإطلاق على جهة من جهات المدينة العالية وعلى الجهة الأخرى السافلة وتبدأ العالية من المسجد الشريف وتنتهى فى وادى سخ وهذ المكان يمتد قدر ميل فى ناحية قباء ونقطة الاتصال هذه ابتداء السافلة وعلى هذا يقتضى أن تكون جهة المدينة المنورة الشامية العالية وإن كان بعض الناس يطلقون على جهة من المدينة المقدسة العالية وعلى الجهة الأخرى السافلة فهم مخطئون فى قولهم هذا.

ساهية: اسم واد من وديان العقيق.

ساية: اسم الوادى فى سفوح جبل شمنصير، وهذا الوادى صحراء جسيم يشتمل على آبار كثيرة وحدائق نخيل. كما أن الرمان والعنب والموز من جملة فواكه هذه الحدائق.

ستار: اسم جبل خلف مرعى ضرية واسم جبل فى ديار بنى سليم كما أنه اسم جبال ذات حجارة سوداء على بعد ثلاث مراحل من ينبع البحر.

سجاسج: الاسم الآخر لوادى الروحاء ولما كان هواؤه معتدلا أطلق عليه سجاسيج. لأن سجسج يطلق على الجو المعتدل الخالى من الحرارة.

السد: اسم السد الذى أقامه عبد الله بن عمرو بن عثمان ليقطع سيل رانوناء.

سراة: اسم الجبل العظيم الذى يفصل بين نجد وتهامة. وذلك الجبل من أعاظم الجبال ويبدأ من قعر اليمن ويمتد إلى أطراف الشام. ولما كانت بلاد الحجاز على الجهة الشرقية من هذا الجبل يطلق العرب عليها الحجاز.

«ذو السرج» اسم نهير قريب من وادى ملل.

سر: اسم موقع خاص بأفراد قبيلة بنى أسد واسم منزل فى بلاد تميم. وكانت سرارة اسم حديقة فى قرية بنى بياضة ويطلق عليها فى زماننا سرارة إلا أن هذه الحديقة ليست حديقة بنى بياضة ولكنها حديقة أخرى.

سَرغ: اسم قرية فى وادى تبوك على ثلاث مراحل من المدينة وهذه القرية أبعد منزل لمدينة النبى ﷺ ومبدأ حدود بلاد الحجاز المقدسة وعلى بعد مرحلة من تبوك.

سُرير: على وزن زُبير اسم نُهير بجانب قرية جار واسم الصحراء التى توجد فيها. نطاة وشق من القلاع الخيرية.

سَعْد: اسم سوق تقام فى طريق «فيد»، وأسماء الجبال التى على بعد ثلاثة أميال من وادى كرير، وفى القرب من قرية ذات الرقاع، وعلى جبل سعد منازل كثيرة.

سَقا: على وزن صَفا ناحية من نواحى المدينة.

سَقان: اسم مجرى النهر الذى يوصل سيل إضم إلى البحر.

سَفَوان: اسم ناحية من نواحى بدر حيث وقعت غزوة بدر الأولى.

سقاية سليمان بن عبد الملك: فى محل يسمى جرف حيث ينفصل حجاج الشام إلى طريق الشام.

سقيا: على وزن رؤيا الاسم القديم لوادى جزل الذى يبعد عن مدينة الرسول ﷺ سبع مراحل وبالقرب من وادى القرى واسم «سقياء» سعد فى الحرة الغربية واسم بئر على بعد يومين من المدينة المنورة بناء على قول الإمام قتيبة.

وبناء على رواية أخرى أنها اسم قرية على طريق مكة القديم وبما أن أهالى هذه القرية قد اعتادوا سقى الحجاج بالماء العذب فقد سمُيت بهذا الاسم.

وعند البعض أن تبع الحميرى نزل فى هذه القرية وعطش ولم يجد فى جوارها ماء صالحًا للشرب وإذا بمطر يمطر فجأة وينال مرامه لذا أطلق على ذلك المحل سقيا.

سقيفة بنى ساعدة: يطلق على بنيان الديوان الذى اجتُمِعَ فيه للتشاور فى مبايعة أبى بكر الصديق خليفة. ويطلق «سقيفة» على كل صفة بنيت على أربعة أعمدة مكشوفة الجوانب وكانت صفات منازل البلاد الرومية من هذا القبيل. وقد قال الإمام السمهودى إن سقيفة بنى ساعدة كانت فى الطرف الغربى لبئر بضاعة إلا أنه لا يوجد أحد فى زماننا يعرف ساحة تلك السقيفة.

سكاب: اسم جبل من جبال المدينة القبلية.

سَلاح: على وزن فَلاح أسفل خيبر لما كان بشير بن سعد الأنصارى ذاهبًا إلى اليمن تلاقى فى هذا المكان مع الغطفانيين[1]، كما أنه اسم ماء مر فى ديار بنى كلاب وكل من كان يشرب من هذا الماء كان يتقيأ.

سلاسل: اسم ماء فى مكان يطلق عليه أرض الجذام وهى التى تقع خلف وادى القرى ويبعد عن المدينة بمسيرة عشرة أيام.

سُلالم: حصن فى خيبر.

ذو السلاسل: اسم نهر بين المدينة ووادى فروع.

سَلعْ: اسم جبل فى مواجهة مسجد الفتح وكهف بنى جذام فوق هذا الجبل.

سُليع، على وزن زبير: اسم جبل مقابل جبل السلع، وقد بنى حجاز بن شيخه فوق ذلك الجبل حصنًا رصينًا فى سنة ٦٧٠ حيث سكن. وانتقلت هذه القلعة مع مرور الأيام إلى أمراء المدينة لذلك عُنيت بها أعظم عناية وحُرست فى الليالى من قبل الجنود إلا أنها تركت فيما بعد لسبب غير معروف، يروون أن المنازل التى كانت تخص جماعة أسلم بن قصى كانت فى هذ الجبل.

(١) الخبر فى الطبرى ٣/ ٢٣.

وقد بنى فى زماننا على سفوح الجبل التى تمتد ناحية المدينة المقدسة بعض البيوت من اللبن ونصب كثير من الخيام حيث أسكن الغرباء الذين انفصلوا عن قبائلهم البدوية، كما أسكن فى البيوت بعض الجماعات. ويتعايش سكان الخيم على رعى الإبل والأبقار والثيران وبيعها وبحراسة البساتين، كما أن أعيان البلد وأغنياءها يمدون إليهم يد العون.

استطراد:

هناك ثلاثة جبال بعضها منفصل عن البعض على الطريق الذى يمتد إلى ناحية جرف من الجبال المذكورة ويطلق على أحد منها جبل «حصانية» وهذا الجبل أقرب الجبال إلى المساجد الأربعة. ويطلق على الآخر جبل «فته» وهو الجبل الذى يقع فى الجهة الشامية من حصانة والجبل الذى يقع على الجهة الغربية من جبل فته يقال له جبل «أم منيع» وهذه الجبال الثلاثة فى الجهة الشامية من البلدة الطاهرة وفى داخل المنطقة التى حرمها النبى ﷺ.

والجبال التى يسميها الأهالى «الجماعات» ثلاثة فى الطرف الغربى للحرة الغربية حيث مجرى العقيق الذى يطلق عليه جرف والجبل الذى بجانب الحرة الغربية يقال له «عصيفرين» ويقال للجبل الذى فى الطرف القبلى لـ «مدرح» أى فى وسط الحرة الغربية «الضليع الأحمر».

ضليع البرى: إنه فى جهة العيون وفى الطرف الشامى للبركة وجبال منخفضة خلف المواقع التى تسمى هريسة وعين صدقة وعين ريان وأم هجول التى خلف الجبل الذى لا اسم له. والأهالى لا يعرفون أسماء هذه الجبال والجبل الذى ذكر اسمه فى الحديث الشريف وهو «جبل عير» هو الجبل الذى يمتد إلى آبار على. ولونه أسود. وهناك جبل طويل مظلم فى الطريق الذى يأتى من جهة «غائر» وفرع فلا يعد هذا الجبل من جبل عير، وهناك جبل «ثور» أيضًا وهو جبل صغير أحمر وفى نهاية مجرى ماء صادقية من الجهة الشامية، والأراضى التى خلف هذه الجبال ظلت خارج المنطقة التى حرمت. والحرة التى فى الجهة الشرقية وإن

كانت خارج حدود الحرم فنصف هذا الجبل ملتصق بالحدود الشريفة فنصفه الخارجى قد احترق عندما اشتعلت نار الحجاز المنذرة، فى الناحية الشمالية للمدينة أراض تعرف بـ عورة وهذه الأراضى تنقسم قسمين فالجهة التى تؤدى إلى ضرُيح حمزة ـ رضى الله عنه ـ فأكثر ترابها أبيض، حتى إن البنائين والنقاشين يحرقون الكلس فى هذا المكان. وبعض أماكنها موحلة، ولما كان كل جهاته مزروعة ولما كان المهاجرون والمجاورون يتكاثرون فى هذه الفترة فقد أخذوا فى إعمار هذه الأماكن ببناء منازل عشوائية. والجهات القبلية لهذه الأراضى تنسب إلى جماعة من قبائل مسروح والذين يقيمون فى طريق غاير وفرع، والأراضى التى بين المدينة وقباء من ممتلكات قبلية، فهذه وقرية قربان التى بين قباء وعوالى أراضيها خاصة بجماعة من قبائل «وهوب» و «غردة» وقرية «عوالى» التى تقع فى الجهة الشرقية من القربان خاصة بقبيلة بنى على وأفرادها.

والأراضى التى تقع على الجهة الشرقية من طريق مشهد حمزة هى أراضى صدقة، عين حازمية، تعرع، سرائية، عين حسين، شربوقة وهى تتكون من الأراضى التى تمتد إلى سفوح جبل أحد. وهذه الأراضى تابعة لبنى على سالفى الذكر.

والمواقع التى على غرب طريق مشهد حمزة إلى جبل فته ديار قبيلة أشراف بنى حسين وأراضى أشراف بنى حسين إلى مجرى عين الزرقاء الجهة الشامية منها ديار قبيلة حنانية، والجهة القبلية من هذا الموقع ديار قبيلة خوارزم وأراضى العيون التى تقع فى جهة الشام ومزارع الجرف التى تقع على الجهة الغربية لهذه الأراضى، وجهات أبى بريقه، ذى الحليفة، وسيطة، علاوة أيضًا على جبل الحمراء بلاد أفراد بنى عمر من المسروحين، فهذه الأماكن تسمى بأسماء تلك القبائل المذكورة. وإن كانت فى هذه المواقع أموال القبائل الأخرى أيضًا إلا أن أسماءهم لا تذكر، لأن أراضى جزيرة العرب قد قسمت قديمًا وقد قرر أن تذكر قطعة الأرض والتى كانت من نصيب أية قبيلة باسم وكنية تلك القبيلة واتخذ

ذلك قانونًا، وبناءً عليه وإن انتقلت بعض أجزاء تلك الأراضى إلى الآخرين عن طريق الشراء أو الإرث، تذكر تلك الأراضى بأسمائها القديمة حسب القانون.

سليل، اسم صحراء العقيق.

سُليلة: اسم موضع فى وادى.

سليم: على وزن زبير: اسم النهر الذى يسمى ذات السليم فى صحراء العقيق.

سمران: على وزن عثمان اسم الجبل الذى فى خيبر حيث صلى على قمته النبى ﷺ.

ذو سمر: اسم ماء فى وادى العقيق.

سميحة: اسم بئر قديمة فى المدينة المنورة.

سُنح: يقال لأطم زيد بن الحارث الذى يقع على بعد ميل من المسجد النبوى فى جهة العالية، وبما أن النقطة التى يوجد فيها هذا الأطم نهاية حدود جهة العالية للمدينة فسموا تلك الناحية بسخ. كانت زوجة حضرة أبى بكر الصديق الأنصارية من ساكنات ناحية سنح.

إن أطم كما ذكر أعلاه هى الأبراج التى كان يقيمها سراة عرب الجاهلية فوق سطوح منازلهم، إلا أن الأطم الذى يطلق عليه «سنح» لم يكن من قبيل تلك الآطام بل كانت أبنية متينة تشبه الحصون وتبنى خارج القرى للتحصن بها وقت الحاجة.

وتوجد مثل هذه المبانى فى بلاد الروم ويطلق عليها أهاليها كلمة «برج» و«خاى».

وعندما يقتضى الأمر فإنهم يتحصنون فى داخلها بأولادهم وعيالهم ويقاومون الأعداء.

وليس هذا فى العصر الذى نتباهى بإدراكه فى عصر السلطان الذى يستقر فيه السلام والأمن بل كان فى أيام أمراء الإقطاع.

وكان فى تلك الأوقات لكل مدينة أمير وكان الأمراء يغيرون على بعضهم ويتقاتلون من حين لآخر.

وتوجد أبراج وما يشبه القلاع فى أكثر الممالك إلا أنها بنيت بقصد حماية الأموال والعيال ضد قطاع الطرق واللصوص كما يروى أن بعض أغنياء البلاد المختلفة يبنون فى الأماكن ذات الهواء الجيد منازل يصطافون فيها عندما يشتد الحر.

سنّ: على وزن جن اسم جبل فى محاذاة جبلين يطلق عليهما «ميطان» و«شوران».

سواج: على وزن قماش جبل من جبال مراعى ضرية يشتهر بأنه مساكن الجن.

سوارق: اسم ماء فى غاية العذوبة بالقرب من سوارقية.

سوارقية: اسم قرية تشتهر بوفرة فواكهها وكثرة رياضها ولم يكن فرد من بنى سليم فى هذه القرية غير مالك لشىء.

سوق بنى قينقاع: اسم مكان سوق تقام عند جسر بطحان، وكان عرب الجاهلية يقيمون سوقا فى هذا المكان عدة مرات فى سنة واحدة وكان جماعات القبائل العربية يحتشدون فيها فوجا متباهين وينشدون الأشعار، اجتمع سيدنا حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ مع نابغة بنى ذبيان فى هذه السوق.

ونابغة: اسم امرأة من بنى ذبيان تنتسب إلى نساء قينقاع وتشتهر بالبلاغة والفصاحة، وإن كان يقال نابغة لكل شاعر فصيح إلا أن نوابغ الأسلاف ثمانية من الشعراء لا مثيل لهم وأسماؤهم:

١ ـ زياد بن معاوية الذبيانى

٢ ـ قيس بن عبد الله الجعدى.

٣ ـ عبد الله بن مخارق الشيبانى.

٤ ـ يزيد بن إبان الحارثى.

٥ ـ نابغة بن القنوى

٦ ـ حارث بن بكر اليربوعى.

٧ ـ حارث بن عدوان التغلبى

٨ ـ نابغة العدوانى.

سويداء: اسم موضع فى جهة ذى خشب على بعد ليلتين من المدينة.

سويد: برج فى الطرف الشامى لحديقة حماضة فى قرية بنى بياضية.

سويقة: اسم موضع على بعد ثلاثين ميلاً من مرعى ضرية له بئر ماؤها فى غاية من العذوبة واللطافة، وبين الحرمين ناحية تسمى سويقة ولما كانت هذه الناحية من جملة أوقاف سيدنا على ـ كرم الله وجهه وتقع على يمين من يتجهون من وادى السيالة. كان بعض الرجال من آل على يقيمون فى تلك الناحية. وكانت تلك الناحية فى غاية العمار فى أوائل عهودها وكانت مشهورة جداً فى تلك النواحى إلا أنها قد خربت فى عهد المتوكل بالله العباسى وأخذ عمارها يقل يومًا بعد يوم، لأن محمد بن صالح الحسنى الذى رفع راية العصيان فى عهد المتوكل بالله العباسى جهز جنوده ورتب أمورهم فى هذه الناحية.

وبعدما انتصر المتوكل على محمد بن صالح قتل أكثر جنوده وأحرق مساكنهم ومعاقلهم وخربها كما أحرق حدائق نخيله فجعلها مأوى للبوم والغربان فلم تعمر بعد ذلك. وبين ينبع البحر والمدينة الميمونة جبل يطلق عليه «سويقة» ولما أقام إبراهيم بن عبد الله فى هذا الجبل فإنه يطلق على هذا الجبل فى عصرنا سويقة منازل بنى إبراهيم.

سى: اسم الناحية التى قاتل فيها الشجاع وهب مع قبيلة هوازن على بعد خمس ليال من المدينة المنورة.

سَيالة: اسم الوادى الذى يوجد فيه مسجد شرف الروحاء. ومنتهى هذا الوادى على بعد ثلاثين ميلا من المدينة المنورة يعرف باسم شرف.

سيح: الجهة الغربية لمساجد الفتح يظهر أنها ناحية سنح سالف الذكر.

سير: اسم الموضع الذى قسم فيه غنائم بدر وهو بجانب وادى صفراء ونازية على بعد نصف فرسخ من مضيق مستعجلة، ويطلق فى زماننا على المكان الذى يسمى فركات الخيف سيراً وبجانب هذا المكان حوض قديم.

حرف الشين

شابة: اسم جبل بين وادى ربذة ووادى سليلة.

شاش: كان شاش برج بنى عطية بن زيد فى ساحة مسجد قباء الرملية.

شبا: اسم واد فيه بئر خيف الشبا فى ديار أيثل.

شباع: اسم جبل مقابل لبئر ثابت.

شبَاك: اسم موضع كان بين المدينة المنورة وأبرق العذاف. واسم منزل فى وادى شفوان.

شبعان: اسم برج فى مكان يسمى بشمغ شبكة اسم مزرعة فى موضع إضم والتى تتبع ذى خشب.

شجرة: اسم الشجرة المشهورة فى مسجد ذى الحليفة، تقال أيضًا شجرة لمزرعة منسوبة لجماعة بنى قريظة.

شَذَخ: اسم واد والمنزل الذى يطلق عليه نخلة كان فى داخل هذا الوادى.

شراة: اسم جبل فى غاية العلو على شمال وادى عسفان.

شرج: اسم موضع شجرة العجوز فى خارج المدينة المنورة حيث قتل اليهودى كعب بن الأشرف، واسم مجرى ماء فى أراضى نجد، وكذلك اسم دار فى ديار فزارة وفى وادى فزارة بئر مشهورة أيضًا.

شرَةِ عِبَى: كان اسم برج أسفل وادى ذباب.

شَرَف: مكان مرتفع بين واديى الروحاء والسيالة يقال لهذا المكان شرف الروحاء و شرف السيالة أيضًا.

شريق: اسم مجرى ماء من أنهار وادى العقيق.

شُطأن: اسم بئر واد من وديان المدينة.

شطون: اسم بئر فى وادى مثعر.

شظاة: اسم نهر قناة شعب واد ينتهى إلى صفراء حيث كثير من أشجار النخيل.

شعاب: «شعب أحد» قد شرَّف النبى ﷺ هذا الشعب يوم غزوة أحد.

شعب العجوز: المكان الذى قتل فيه اليهودى كعب بن أشرف فى خارج المدينة.

شعب المشاش: خلف جماء العاقل فى وادى العقيق.

شعب الشوكة: يقال له شعب على أيضًا وهى طرق عديدة والشعب يقال لمكان مكشوف بين الجبلين أو على رأى آخر يطلق على الطريق الجبلى الضيق صعب المرور.

شُعْبة: اسم بئر قريب من وادى يليل واسم مجرى ماء فى وادى أبلى.

شعث: على وزن كرز موضع بين منجم بنى سليم وقرية السوارقية.

شعر: على وزن جسر اسم جبل مقابل منجم مأوان.

شعبى: اسم قرية بين أراضى أيلة والمدينة، واسم منزل سقيا التى تقع فى نقطة اتصال الطرق التى تؤدى من مصر والشام.

شُفر: اسم ماء فى وادى ربذة واسم جبل لمنجم مأوان.

شُقرة: موضع يقع فى طرق فيد وبين الجبال التى يطلق عليها مجرا كان بعض

منهزمى غزوة أحد قد هربوا إلى هذه الأماكن التى تبعد عن المدينة مسافة يومين.

شَقْ: اسم قلعة من قلاع الخيابر.

شلول: اسم ناحية فى المدينة.

شماح: كان اسم برج فى الجهة القبلية من بيوت بنى سالم.

شمنَصبُر: اسم جبل مشهور فى وادى ساية.

شناصير: ناحية من نواحى المدينة.

شنولة: اسم جبل على ميل من شرف الروحاء وفى مقابل الطريق الذى يقال له شعب على.

شوَاجد: جبل فى قرية سوارقية قد حدثت مقاتلة عظيمة فى هذا الجبل فى جاهلية العرب وهى فى داخل وقائع العرب فى الجاهلية.

شوْران: جبل فى محاذاة جبل ميطان وتنسب حرة شوران لهذا الجبل وحرة شوران لما كانت مراعى أطرافها الأربعة خصبة فالإبل التى ترعى هنا تسمن وتكتسب ضخامة.. حتى إن النبى ﷺ رأى فى شوران جملاً سمينًا فسأل «أين رعيتم هذا الجمل؟» ولما قيل رعيناه فى حرة شوران، تفضل قائلاً: «بارك الله فى شوران».

شوط: اسم موضع بالقرب من منازل بنى ساعدة.

الشيخان: برجان فى جهة والج يطلق على أحدهما الشيخ وعلى الآخر الشيخة لما كان هذان البرجان فى الطريق الذى يؤدى إلى أحد عن طريق الحرة الشرقية ولما مضى النبى ﷺ إلى معركة أحد كان قد صلى فى الأرض المستوية بين البرجين، وكان شجعان وقعة أحد باتوا ليلة فى هذه الساحة المستوية.

صَاخَة: اسم أحد التلال الخمسة التى فى وادى العقيق لا ينبت العشب فوق هذه التلال.

صارى: اسم جبل فى الجهة القبلية للمدينة المنورة.

صُخَرة: اسم موضع فى الجهة الغربية للبقيع.

صَحْتُ: جبل فى أعلى السوارقية على قمة بئر كثيرة الحجارة.

صدار: اسم موضع فى وادى الروحاء يعرف بـ صَدارُة.

صرار: كان برجا فى الطرف الشامى لدار الهجرة. كما يطلق على المحل الذى وزُعت فيه غنائم غزوة قرقرة الكدر وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة كما يسمى جبل من جبال المدينة القبلية وبئر قريبة من مدينة الرسول ﷺ التى بقيت من أيام الجاهلية صرار أيضًا. وهذه البئر فى الجهة الشرقية من المدينة المنورة قد شيع عمر بن الخطاب إلى هذه البئر المجاهدين الذين ساقهم إلى الكوفة.

صعبة: تطلق على المزارع المنسوبة إلى بنى سليم بالقرب من جبل أملى وفى هذا المكان آبار عديدة ذات مياه عذبة.

صفاح: اسم موضع فى وادى الروحاء.

صفا: صف اسم موضع بين سد عبد الله العثمانى ومنزل عصية.

صفراء: وادى يضم كثيراً من حدائق النخيل وفيه آبار كثيرة، وكان النبى ﷺ قد شرف هذ المكان عدة مرات.

صفر: جبل أحمر فى وادى «فرش ملل» وعليه مبنى لحسن بن زيد.

صفنة: كانت داراً منسوبة لنبى عطية فى الساحة الرملية لمسجد قباء.

صفينة: على وزن دفينه دار بين منازل بنى سالم وبيوت قباء ـ وعلى رواية ـ كان بلدا فى ديار بنى سليم.

صلحه: على وزن نسخة اسم دار فى داخل قرية بنى سلمة.

صَلْصَل: على وزن أكمل، جبل معروف على بعد سبعة أميال من المدينة فى الجهة القبلية وهو قريب من ذى الحليفة والآية الخاصة بالتيمم نزلت فى هذا الجبل. كما يروى.

صلاصل: اسم مكان فى وادى بطحان.

صمد: اسم ماء قريب من المدينة واسم موضع فى قرية قباء.

صمان: على وزن دساس اسم الجبل الأحمر القريب من سبعة جبال رملية فى دهناء التى فى أراضى ديار تميم. وبالقرب من جبل رمل عالج من الجبال السبعة.

صوار: اسم موضع فى المدينة.

صورى: اسم مجرى ماء فى أودية النقيع يطلق عليه فى زماننا صعورية.

صَوَرَان: على وزن دَوَرَان الموضع الذى يشمل على حدائق النخيل فى نهاية مقبرة بقيع الغرقد. كان النبى ﷺ مر بهذا المكان عندما توجه إلى غزوة بنى قريظة.

ذو صويرة: واد قريب من مجرى ماء الصورى من وديان العقيق. كان أعلم الناس عبد الله بن عباس قد وقف مزرعته التى فى هذا المكان.

صياصى: أربعة عشر برجًا فى قرية قباء، مفردها، صيصة.

حرف الضاد

ضاحك: على وزن ناطق جبل فى وادى فرش ملل. وبين هذا الجبل.

ضويحك: مجرى ماء.

ضارج: اسم موضع بجانب ماء عذيب واسم منزل فى بلاد اليمن.

ضأس: اسم واد بين ينبع البحر والمدينة.

ضاف: اسم واد فى جهة بقيع جوانبه محاطة بالجبال.

ضباء: قرية من قرى المدينة ماؤها عذب كثيرة الآبار، وفيها أشجار يطلق عليها مقل.

ضبع: اسم ماء من أنهار العقيق.

ضبوعة: منزل قريب من موضع بليل وبين وادى مثيرب وحلائق.

ضجنان: اسم موضع على مسافة يومين من قديد من جهة مكة.

ضحَبان: اسم برج فى منزل عصية لأحيحة بن الجلاح.

ضرعاء: اسم موضع بجانب جبل شمنصير.

ضريه: قرية على بعد سبعة عشر ميلاً من المدينة فى جهة البصرة لها بئر تسمى ببئر ضرية.

ضرَىَ: اسم بئر فى مرعى ضرية بقيت من قوم عاد.

ضع دزع: كان برجًا بجانب بئر بنى خطمة.

ضفن: بئر بنى فيد وخيبر لقبيلة بنى فزارة وبجانبها الحديقتان المعروفتان باسمى كرانيف وحائط.

ضفر: مكان قريب من المدينة حيث دفن أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى.

حكاية:

كان أبو عبيدة هذا من أجواد العرب المطعمين. وقد ذكر إبراهيم بن هشام وهو فى طريقه إلى المدينة أن أبا عبيدة كان رجلاً كريمًا جوادًا، مر ببيته وقال له: «إننى لن أنتظر، إذا كان لديكم طعام جاهز فهذا يسرنى وإذا لم يكن عندك طعام أستمر فى طريقى حتى لا أتأخر» فقال له: «ليس عندى طعام يكفى لإطعام من معك من الناس، وإنى أستعد الآن لأنحر عدة بقرات حتى أعد لهم طعاما،

فأرجوكم أن تظلوا هذه الليلة عندى فى داركم». وعرض عليه أن يظل ضيفًا عنده تلك الليلة.

ولما كان عرض إبراهيم بن هشام اختبار مدى جود أبى عبيدة فقد قال «لا لا لابد من ذهابى».

فرد إبراهيم على هذا اقتضى إحضار الموجود من الطعام أحضر تسعين من كرشة الأبقار وكان بجانبها تسعون من رأس الأبقار المشوى. فتعجب إبراهيم من هذه الحالة وقال يظهر أن هذا الرجل يذبح كل يوم تسعين بقرة لإطعام الضيوف الواردين وهكذا أثنى عليه ومدحه.

ضفيرة: تضفير ضفر اسم واديين من وديان العقيق وتقال الضفرة على أكوام الرمل التى ينهار بعضها فوق البعض وينعقد وهناك فى وادى العقيق أكوام رمال متراكمة نتيجة للسيول التى تجرف الرمال وضفيرة اسم واحد من تلك الأكوام.

ضلع الشيطان: منزل احتشاد طائفة من مشركى الجن وضلع بنى مالك موقع احتشاد بطن من الجن المؤمنين بناء على ما يروى. ويحكى أيضًا أن هذين الضلعين اسما جبلين فى مرعى ضرية وبين هذين الجبلين وادى تسرير الذى يمتد اثنتى عشرة ساعة ويزعم العرب أن هاتين الطائفتين من الجن تقاتلا فى هذا الوادى. إن سكنة وادى تسرير يرعون دوابهم فى ضلع بنى مالك ويصطادون ولكنهم يتجرءون لا على الرعى ولا على الصيد فى ضلع الشيطان.

حرف الطاء

طَاشَا: على وزن باشا اسم واد من وديان جبل أشعر الذى ينتهى إلى وادى صفراء.

طخفة: جبل أحمر مستطيل فى مرعى ضرية، فى محاذاته لسقى الدواب آبار متعددة.

طَرفَ: على وزن شَرفَ اسم بئر تبعد عن المدينة المنورة خمسة وعشرين ميلا

فى جهة العراق وأسفل الحديقة التى يقال لها «نخيل»، وتبعد عن بطن النخلة عشرين ميلا. وعلى جوانب هذا الماء الأربعة هناك العديد من الآبار والكثير من البرك.

طُفَيل: يقال لجبل صغير بجانب بزوا.

طُوَبْلَعْ: اسم موضع فى المدينة من المنورة أو فى أراضى نجد.

حرف الظاء

ظاهرة: اسم الجهة التى يطلق عليها نقا بجانب الحرة الغربية.

ظبية: اسم موضع فى ديار جهينة كان النبى ﷺ أعطى الموضع المذكور حتى حدود ذى المروة لعوسجة الجهنى. كما أنه موقع بين ينبع وغيقة والذى يمتد إلى شاطئ البحر، واسم ماء فى أراضى الحجاز طبية أيضًا. كما أن ظبية اسم علم أو علامة تسمى «عرق الظبية» بين الحرمين كما أنها اسم نوع من الشجر التى تشبه شجرة «قتادة».

ظِهار: على وزن كِبار حصن من حصون خيبر.

حرف العين

عابد: على وزن ثابت وعَيُود على وزن وَدُود عُبيد على وزن زُبير أسماء ثلاث قطع من الجبال بين وادى «فرش ملل» و«مدفع مريين». وأكبر هذه الجبال عيود على بعد مرحلة من المدينة.

عاص: وعويص اسمان لواديين كبيرين بين الحرمين.

عاصم: اسم برج لبنى عبد الأشهل فى نهاية بيوت بنى النجار وفى موضع فقارة. واسم برج آخر بجانب البئر التى تسمى قباء فى قرية قباء واسم العقد الذى بناه عاصم بن عدى بن العجلان خليف قبائل مزينة عندما نزل إلى البقيع الذى فى وادى أوس والعقيق والذى يعرف باسم ذى عصم.

عاقل: اسم جبل فى مرعى ضرية.

عالية: موضعان أحدهما من البلاد الحجازية الواسعة والآخر من عوالى المدينة.

عالية الحجاز: أعلى البلاد الحجازية وأشرفها.

عالية المدينة: هى قرية قباء التى فى الجهة القبلية من مسجد السعادة و أعالى هذه القرية ومبدؤها على بعد ميل من مسجد السعادة، ومنتهاها ثلاثة أو أربعة أميال. ولكن هذا التعريف بالنسبة للجهات المعمورة من عالية المدينة منتهى العالية غير عامرة تبعد عن المدينة ستة أميال وعلى قول ثمانية أميال.

عاند: واد قبل الوصول إلى منزل السقيا فى الجهة الأخرى من ناحية فرع على بعد ميل، وادى العاند ووادى القاحة أسماء أخرى لهذا الوادى.

عاير: طريق جبلى يقع على الجهة اليمنى من عقبة ركوبة وهو صعب الارتقاء والصعود، وتعرف بثنية العاير.

ثنية ـ يقال للطريق الجبلى أو الطريق المتعرج الذى يصعد منه إلى الجبل ثنية كما أن عقبة تستعمل فى نفس هذا المعنى.

عبابيد: موضع بجانب بئر تعهن يذكر أيضًا باسمى عبابيت وعثبانية.

عباثر: جمع نبات عبيثرات اسم مجرى ماء من مجارى جبل أشعر ويقع بين جبل بواط ووادى نخل.

عترة: على وزن فطرة اسم جبل فى الجهة القبلية من المدينة.

عثاعث: عدة من جبال صغيرة سوداء فى مرعى ضرية وتشرف على وادى مهزور.

عُدْنه: على وزن جُمْلة قمة فى «فرش ملل» واسم موضع فى أراضى شربه.

عُزيبة: على وزن رُويدة كان برجا بين موضع صفاصف ووادى عصية الواقعان فى موضع عصية فى قرية قباء.

عزيبة: اسم ماء بين قرية جار وبلد ينبع البحر.

عُراقيب: اسم منجم فى مرعى ضرية واسم قرية.

عُربَى: على وزن حبلى الاسم الآخر لوادى نقم.

عَرَج: اسم قرية كبيرة على ثلاث مراحل من مدينة الرسول. ووجه تسميتها بهذا الاسم حسبما يرى تبع الحميرى أنه عندما وصل إلى هذه القرية وجد بعض الناس أو بعض المسافرين يعرجون فى أعلى هضبة.

ومن روايات تواريخ العرب القديمة أن جبال قرية عرج تمتد إلى جبل لبنان ومن سلسلة جبال لبنان تتصل بجبل لكام فى إنطاكية ومن هناك إلى جبل جزر وعلى هذا يمتد ما يقرب من خمسمائة فرسخ وعلى ظهرها أقوام يتكلمون اثنتين وسبعين لغة.

عرضه: اسم موقع قريب من وادى العقيق.

عرض: على وزن حرص الاسم الآخر لناحية جرف، وعند البعض إنه اسم المزارع التى فى أطراف مسجد القبلتين التى تقع فى الجهة القبلية من جرف. وعلى كل يطلق على الأماكن الصالحة للزراعة فى المدينة المنورة أو على القرى التى تقع فى مجارى المياه أعراض.

عرفات: قمة على الجهة القبلية من قباء كان النبى ﷺ يقف على هذه القمة فى أيام الوقفة ويشاهد موقف عرفات.

عريان: على وزن قربان كان اسم برج منسوب لآل نضرة.

عُريض: على وزن قُبيس اسم مجرى ماء قريب من وادى قناة فى الجهة الشامية من الحرة الشرقية.

عُرَيْفَتَان: اسم مجرى ماء فى وادى ابلى.

عُرينة: على وزن رُويدة اسم قرية فى طريق المدينة الذى ينتهى إلى الشام.

عراف: على وزن صراف اسم الساحة الرملية لبنى سعد فى القرب من موضع زرود، واسم الماء الذى يسمى «إبرق العزاف» فى ديار بنى أسد واسم جبل بالقرب من جبال الدهناء السبعة.

عروزى: على وزن حدودى اسم موضع بين الحرمين.

عسس: اسم جبل فى مرعى ضرية فتنسب صحراء عسس إلى ذلك الجبل.

عُفان: على وزن نعمان قرية جميلةٌ بين الحرمين على بعد يومين من مكة فى جهة المدينة كان لها فى الأوائل آبار كثيرة وبرك عديدة وبئر عولاء الشهيرة. والآن قد تخربت كافة الآبار وجفت البرك ولم تبق إلا بئر عولاء

عسية: اسم موضع فى ناحية المنجم القبلى.

عُس: اسم مجرى ماء فى وادى عيق.

عشيرة: اسم منزل بين الحرمين، واسم مجرى ماء فى العقيق واسم موضع فى مكان يقال له صمان، واسم قلعة واقعة بين ينبع البحر وذى المروة يقال لها ذو العشيرة.

عصبة: على وزن تحفة اسم منزل فى الجهة الغربية من مسجد قباء. واسم موضع فى داخل قرية قباء.

عضبة: على وزن فضة اسم جبل فى طريق المدينة الذى ينتهى إلى خيبر، وعندما ذهب النبى ﷺ إلى خيبر مر من هذا الجبل.

عظم: على وزن عجم اسم مزرعة منبتة من مزارع خيبر.

عقرب: كان اسم برج خاص ببنى بياضة فى وادى الروحاء.

علاء: على وزن نواء اسم برج أو موضع فى المدينة المنورة واسم قصر فى ناحية وادى القرى.

عَمْق: على وزن دَنْك منزل من منازل الحجاج بين منجم بنى سليم وسليلة. واسم مجرى ماء ينتهى إلى أراضى فرع.

عميس: على وزن نفيس اسم واد فى ناحية فرش ملل.

عَناب: على وزن رَباب اسم الطريق الذى يوصل من المدينة إلى فيد أو اسم جبل فى هذا الطريق وعند البعض أن الجبل المذكور بين سقيا وذى المروة فى طريق الشام وبناء على هذه الرواية فالقول الأول مرجح. عنابس على وزن ملابس تطلق على المزارع التى فى الجهة القبلية من مسجد القبلتين.

عناية: اسم ماء وبركة فى ديار بنى كلاب اسم موضع بالقرب من سميراء عناقة اسم ماء قريب من مرعى ضرية أو هضبته.

إخطار:

تقال هضبة على الجبال المنخفضة والعريضة أو لمثل هذه الربا، وعلى رأى، أنها تقال للصخور الجامدة التى تتكون من قطعة واحدة أو على القمم الصعبة الصعود أو الجبال التى انفردت منفصلة عن الأخرى، وتوجد مثل هذه الجبال أو القمم بين الجبال ذات التراب الأحمر.

عَير: على وزن خَير اسم جبلين ثبت بالأحاديث الشريفة المروية أنهما من ترع جهنم.

عيص: على وزن تيز مجرى ماء على بعد أربع ليال من المدينة المنورة وفى جهة ذى المروة.

عينان: اسم جبل على الجهة القبلية لمرقد حضرة حمزة، رضى الله عنه، وكان النبالة فوقه فى غزوة أحد. وبناء على قول صاحب القاموس يقال لهذا الجبل عِينين بكسر العين ولما كان مسجد أحد على الركن الشرقى لهذا الجبل وكان بجانب المسجد قنطرة العين وبجانبها عين الشهداء سمى الجبل عينان.

عين إبراهيم بن هشام: اسم بئر فى فرش ملل.

عين أبى زياد: اسم بئر فى منتهى وادى غابة.

عين أبى نيرز: اسم البئر التى وقفها حضرة على بن أبى طالب فى ينبع وسميت باسم ابن النجاشى ملك الحبشة أبى نيرز الذى اشتراه على بن أبى طالب ثم أعتقه.

وقد رد بعض المؤرخين القول الذى يدعى أن سيدنا على بن أبى طالب اشترى «أبا نيرز» ثم عتقه، وقالوا: أن «أبا نيرز» قد أدرك النبى ﷺ ولما كان فى غاية الصغر فتربى فى حجر فاطمة مع الحسنين رضى الله عنهم. ولما كان على بن أبى طالب عينه مؤخراً لحراسة البئر سالفة الذكر فاشتهرت مضافة لاسمه.

عين البحير؛ وعين بولا: البئران اللتان حفرهما على بن أبى طالب بنفسه.

وهاتان البئران أيضًا فى ينبع البحر ومسجد ذى العشرة بجانب هاتين البئرين.

عين تحنس: اسم المنهل الذى اشتراه على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ فى المدينة بسبعين ألف دينار.

عين الحديد: بئر فى وادى «أضم».

عيون: الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن أبى طالب، وهذه الآبار ثلاثة آبار إحداها فى المضيق والثانية فى ذى المروة والثالثة فى وادى سقيا.

عين الخيف: اسم الماء الذى يسقى المزارع التى فى مناطق مساجد الفتح ويطلق عليه فى عهدنا «شبشب».

عين الشهداء: يقال لها كاطمية أيضًا وهى بالقرب من عين جلش ومجرى سيول عالية ولقد كان الأمير ودان قد عمر مجراه وجدده.

عين الفوراء: فى وادى إضم.

عين القشيرى: بئر بين الحرمين وبين وادى سقيا وأبواء كانت حدائق نخيل عبد الله بن الحسين العلوى فى هذا المكان.

عين النبى ﷺ ذكرت فى فصل الآبار.

حرف الغين

غابة: اسم واد فى الجهة الشامية من المدينة وكان هذا المكان فى الأوائل، ثم غمرته المياه فخربت أموال الأهالى وأملاكهم. لما مات الزبير بن العوام فبيعت أملاكه التى فى وادى غابة بمليون وستمائة ألف دينار، وإن لم يكن وادى غابة بعيداً جداً عن المدينة المنورة إلا أن منتهاه ليس بقريب أيضًا ومن المتواتر أن العباس ـ رضى الله عنه ـ كان يصعد فوق جبل سلع ويدعو خدمه وإنهم كانوا يجيبون وإن كانوا فى منتهى وادى غابة قائلين لبيك مع أن بينهما مسافة ثمانية أميال. إن كانت هذه الرواية صحيحة يلزم أن يكون الخدم فى مبدأ الوادى وليس فى منتهاه، لأن إسماع الصوت على بعد ثمانية أميال مستحيل. مع هذا ينقلون أن المشار إليه كان يسمع صوته لمسافة اثنى عشر ميلا، وفى الواقع كان عباس ـ رضى الله عنه ـ جهورى الصوت حيث أنه صاح بالمنهزمين فى غزوة حنين وأسمع صوته للصحابة الذين كانوا على مسافة بعيدة وكان سببًا فى التفافهم حول الرسول ﷺ.

ذات الغار: اسم بئر ذات ماء عذب لا ينضب وهى فى مكان على بعد ثلاثة فراسخ من سوارقية واسم غار فى طريق جبل أحد كذلك اسم غار فى شرف السيالة أيضًا.

غبيب: يقال لساحة مسجد الجمعة المقدس.

غدير الأشطاط: اسم غدير على بعد ثلاثة أميال من قرية عفان من جهة مكة المكرمة.

غراب: اسم جبل فى الجهة الشامية من المدينة يطلق عليه غراب الصّائلة **وغرابات:** اسم مضيق فى طريق رخصية وفى محل يبعد عن المدينة المنورة يومًا واحدًا.

غرة: كان اسم برج مبنى مكان مئذنة مسجد قباء.

غَزة: اسم قرية بنى خطمة. ولما كانت كثيرة السكان، شُبه بغزة الشام وسميت بالاسم المذكور.

غزال: اسم مجرى ماء خاص ببنى خزاعة فى ناحية شمنصير.

غشية: اسم موضع فى الجهة القبلية من ناحية معدن.

ذو الغصن : اسم مجرى ماء فى وادى العقيق.

غضور: موضع بين الحرمين ينسب إلى بنى خزاعة.

ذو الغضوين: موقع مر به الرسول ﷺ حين هجرته.

غمرة: اسم ماء فى طريق نجد ينسب إلى بنى أسد.

غموض: اسم الحصن الذى بناه اليهودى المسمى بحقيق فى خيبر، وعند البعض أنه قلعة قموض.

غميم: موضع بين جحفة ورابغ.

ومن المحتمل أن يكون هذا المكان كراع الغميم وقد سمى باسم من يدعى بغميم. وإن قال ابن شهاب إن غميم بين وادى عسفان وضجنان إلا أنه بناء على قول القاضى عياض إنه واد على بعد ثمانية أميال من عسفان بل إنه اسم جبل أسود فى جهة كراع الحَرة ينتهى للوادى المذكور.

غور: اسم موضع فى ديار بنى سليم واسم السيول التى تجرى من الجهة القبلية إلى ينبع واسم سيل يجرى عن طريق تهامة من بين ذات عراق.

غيقة: اسم موضع على شاطئ البحر لقرية جار حيث يتصل بوادى ينبع واسم موضع فى خارج حرة النار التى تنسب لبنى ثعلبة بن سعد.

حرف الفاء

فارع: كان برجًا أمام باب الرحمة وكان النبى ﷺ يجلس تحت ظلها أحيانًا ثم انهار فيما بعد وأضيفت ساحته إلى دار جعفر البرمكى ـ كما أنها قرية فى أعلى ناحية من وادى ساية الذى يشتمل على أشجار النخيل والعيون.

فاضجة: اسم أشجار نخيل فى ناحية جفاف واسم واد يبدأ من قرية الشعبى وينتهى إلى مرعى ضرية.

فاضح: اسم جبل فى وادى ريم واسم مجرى ماء فى موضع شريف.

فج الروحاء: اسم موضع ينتهى إلى وادى سيالة.

فحلان: اسم موضع فى جبل أحد.

فحلتان: اسم قناتين عاليتين بجانب الصحراء التى تعرف بفيفاء الفحلتين.

فدك: اسم البلدة التى بات فيها فدك بن حام مع أولاده وعياله ثم أقام فيها واسم البلدة التى قاتل فيها على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قبيلة بنى سعد بن بكر، ولها قلعة حصينة باسم «مسروح» بجانب قلاع جيد، وذهب بعض المؤرخين إلى أنها تبعد عن المدينة عشرة أيام فى ناحية خيبر، ويذهب الآخرون إلى أنها على بعد ستة أميال، إلا أن الرأى الأخير يبدو أرجح وأصح قولا. وكان الفدكيون يهودا أصلا. ولما أصبحت القلاع الخيبرية من أملاك الدولة الإسلامية طلبوا الأمان من رسول الله ﷺ بشرط تسليم بلادهم فوافقهم الرسول ﷺ وبهذا دخلت بلدة فدك ضمن الممتلكات النبوية.

صورة فتح بلدة فدك وتسخيرها:

عندما فتح النبى ﷺ قلاع خيبر دعا سكانها لاعتناق الدين الإسلامى وإذا رفضوا ذلك سيتعرض بلدهم لاجتياح سنابك خيل المسلمين وأرسل لهم محيصة بن مسعود وحارثة ليعلمهم بذلك.

وسافر محيصة إلى بلدة فدك وقام بأداء الرسلة النبوية ولكن حمقى فدك قالوا إن أبطال خيبر عشرة آلاف من الشجعان وتحت قيادة أبطال مثل عامر وياسر وحارث ومرحب وإنهم منتظرون قدوم فرسان المسلمين فى داخل الحصن ويجب عليكم أن تنقذوا أنفسكم من أيديهم قبل أن تهدونا وترهبونا. فاضطر للعودة أمام هذه الأقوال. ولكن بعض القلقين منهم قالوا له نرجوك أن تنتظر قليلاً

حتى نطلع على آراء كبرائنا بعد أن نستشيرهم وبناء على هذا قرر البقاء فى فدك عدة أيام، وشاع فى تلك الفترة وقوع حصن «ناعم» القوى فى يد الغزاة المسلمين فى الحرب فتعرضت قلوب أهل فدك القاسية لخفقات الخوف والخشية فندموا على الأقوال التى صدرت منهم أولاً وتشبثوا بذيول الرجاء وطلبوا الأمان فاختاروا من بينهم بعض اليهود من رؤسائهم الذين اسودت وجوههم مثل قلوبهم وابيض شعر رءوسهم بحيث لا تستطيع أن تفرقه من الكتان وأرسلوهم تحت رئاسة أحد أعيانهم يسمى نون بن يوشع إلى النبى ﷺ باسطين له ـ عليه السلام ـ بساط الذل والمسكنة فاستطاعوا أن يأخذوا عهداً بالأمان بشرط أن تكون نصف أملاكهم من نصيب بيت مال المسلمين.

واستمرت أملاك فدك إلى خلافة عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ على النظام الذى سبق بيانه، وبما أن المشار إليه اشترى النصف الثانى من فدك بخمسة آلاف درهم من بيت المال وبناء على هذا أصبحت فدك من البلاد الإسلامية.

فراء: جبل على الطرف الغربى من جبل عير من جبال وادى العقيق التى تحيط بثنية الشريد بين هذا الجبل وجبل عير.

فرش ملل: موضعان مشهوران على بعد اثنين وعشرين ميلا من المدينة المنورة يفصل بينهما وادى مثغر. وكان فيما مضى مشهورا بكثرة قراه ومنازله.

فرُع: بلد واسع جسيم على بعد أربع مراحل من المدينة دار العز وعلى يسار الموقع الذى يطلق عليه سقيا وفى داخل حدوده مسجد ينسب للنبى ﷺ.

وعندما مضى سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع السيدة هاجر إلى مكة المكرمة رأيا هذه البلدة أولاً.

وقد قال بعض اللغويين إن فرع تقرأ بفتح الفاء والراء وليس بضمها. إلا أن فرَع بفتح الفاء والراء أحد وديان جبل أشعر بالقرب من السويقة على مسافة مرحلة من المدينة المنورة، ويقال له فرع المسور بن إبراهيم الزهرى

فَرِيْقات: اسم مجرى ماء ينتهى إلى المحل المسمى هلوان فى وادى العقيق.

فضاء: اسم الصحراء التى ينصب فيها سيول نهر بطحان بالقرب من ماجشونية وفى ديار بنى خطمة حيث تلتقى مجارى مياه مهزور ومذينب مع سيول وادى بطحان.

فَقْوَه: قرية على سفح جبل آره.

فقارة: اسم موقع يقال له فقرة فقير.

فى مدينة الرسول موضعان معروفان باسم فقيران قد أقطعهما النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب، لأن النبى ﷺ أقطع لعلى بن أبى طالب لكونه صهره أربعة أماكن، وبناء على قول جعفر الصادق الاثنان من تلك الأماكن الأربعة الفقيران سالفا الذكر، أحدهما بئر قيس والآخر شجرة. وبناء على قول ابن شبة، الفقيران فى جهة العالية من المدينة المنورة حتى إن أحدهما أشجار النخيل التى تقال لها حديقة وكان هذا المكان قريبًا من قرية بنى قريظة.

فُلجان: تقال لأراضى سقيا فى الحرة الغربية.

فُلْحَة: يقال لوادى على مجرى الماء الذى فى ذى رولان، ولبعض الحدائق التى جهة سوارقية. وقد حفرت المجارى الكثيرة بجانب الحدائق المذكورة لتجميع السيول التى تتكون من جراء الأمطار وبما أن هذا الموقع قد اشتهر بجودة الهواء فأغنياء دار السكينة يقضون فى هذا المحل مواسم فصل الربيع، والغدير الذى يطلق عليه الغدير المختبى فى ذلك المحل.

فُلَيجْ: اسم بئر فى وادى أضم بجانب نقطة التقاء مياه أنهار المدينة.

حرف القاف

قائم: مزرعة فى الجهة القبلية من قرية قباء.

قاحة: اسم واد بعيد على ثلاث مراحل من المدينة وعند البعض اسم واد من وديان عبابيد فى موضع سقيا على بعد ميل منه فى جهة المدينة المنورة، وعلى رواية اسم ماء فى موضع داره.

قاع: اسم ساحة مسجد بنى حرام الذى فى الجهة الغربية من مساجد الفتح واسم موضع فى طريق مكة. واسم مكان يسمى قاع النقيع فى ديار بنى سليم.

قُباء: بضم القاف اسم قرية مباركة مشهورة فى جهة عوالى للمدينة المنورة.

حدود قرية قباء ووجه تسميتها بقباء:

كانت قرية قباء فى أوائل العهد الإسلامى مدينة لا نظير لها متصلة بالمدينة المنورة فحدودها الشرقية والغربية موضعا بئر غرس وغضبة وحدودها القبلية مسجد قباء الشريف وحدودها الشمالية البئر المشئوم التى اشتهرت بقباب وكانت بلدة قباء مشهورة بهذا الاسم فى الأوائل وظلت فترة يطلق عليها هذا الاسم، وفى النهاية استهجن أهاليها لفظة قباء وحولوها قبا وظلت قبا إلى يومنا هذا معروفة بهذا الاسم.

وقل عدد سكانها على مر الزمان، فانهدمت منازلها وخربت ودرست وبقيت قرية صغيرة، ولكن أول مسجد أقيم فيها وهو مسجد قبا، لذا ستظل معززة مكرمة بين هيئات البلاد الإسلامية المعظمة.

والطريق الممتد من مسجد قبا بين أشجار النخيل التى تقع بين البلدتين وكانت منازل بنى عمرو بن عوف الذى يعد من أقارب النبى ﷺ كانت بالقرب من البئر المشئومة قباء التى تعد الحدود الشمالية للقرية المذكورة.

يروى المؤرخون أن المسافة بين مسجد السعادة ومسجد قبا ميلان أو ثلاثة أميال.

ولكن الإمام السمهودى من فضلاء مؤرخى المدينة المنورة قد قاس المسافة من عتبة باب عثمان بن عفان الذى يطل على بقيع الغرقد، إلى عتبة باب مسجد قبا فوجدوها سبعة آلاف ذراع ومائتى ذراع. أو أكثر قليلاً. وبناء على هذا يقتضى أن تكون المسافة أكثر من ميلين.

وفى ناحية كشيب من مرعى ضرية قرية تحمل اسم قبا أيضًا يروون أن لهذه القرية آبارًا كثيرة ومزارع وحدائق نخيل.

قباب: كان اسم برج بنى فى المدنية المنورة. واسمه الآخر قبابة قبلية من نواحى فرع حيث يمر منها الحجاج، وبناء على قول الزمخشرى أن بين ينبع البحر والمدينة المنورة جبل ويطلق على السيول التى تجرى ناحية ينبع غور وعلى المياه التى تجرى ناحية المدينة تطلق قبلية وأن سيول قبلية تجرى من مجارى الجبال التى بين شرف السيالة وجبال عرك التى يسمى جب فى بلاد جهينة.

قدس: اسم بعض سلاسل الجبال العظيمة المتصلة مع بعضها فى الجهة التى تصادف الطرف الغربى لوادى الضاق فى موضع نقيع. ويسكن أفراد قبيلة مزينة فى هذه الجبال حيث أنبتوا بساتين كثيرة ومزارع وأشجار مثمرة، وبناء على قول أسدى إن قدس اسم جبل يبدأ من وادى الأعرج ويمتد إلى الجهة اليسرى لماء عين قشيرى التى فى مشرف، وفى قطعة الحجاز جبلان باسم قدس يطلق على أحدهما قدس أسود وعلى الآخر قدس أبيض.

قدوم: اسم شق مجرى ماء يلتقى عند قبور الشهداء، واسم عقبة فى وادى سراة، واسم الموضع الذى ختن فيه حضرة إبراهيم فى وادى نعمان، واسم جبل فى ديار الدوس.

قدير: اسم قرية بين الحرمين تعرف بكثرة مياهها.

قَدَيْمَة: اسم جبل من جبال المدينة.

قراصنة: اسم الحديقة التى تنسب إلى جابر بن عبد الله.

قرائن: كانت تطلق على ثلاثة منازل لعبد الرحمن بن عوف، عندما وسع مسجد السعادة هدمت تلك المنازل وضمت ساحاتها إلى ساحة الحرم النبوى الشريف.

قراقر: اسم موضع ينسب إلى آل حسين بن على فى المدينة.

قران: واد بالقرب من المكان الذى يطلق عليه أبلى.

قورح: موضع على مسافة يوم أو يومين من المدينة فى جهة خيبر.

قرد: موضع على مسافة يوم أو يومين من المدينة فى جهة خيبر.

قرْده: اسم ماء فى أراضى نجد، وحدثت سرية زيد بن حارثة بجانب هذ الماء.

قرقرة الكدر: موضع على بعد ست أميال من خيبر وفيها قتل ابن رزام الذى قام ضد الإسلام.

قسيْان: اسم مجرى ماء من أنهار العقيق.

قصر إبراهيم بن هشام: كان قصرا فى وادى ناعمة بجانب قصر بنى حديلة ولم يعد له وجود الآن إلا أن ساحته تعرف بقصر إبراهيم بن هشام.

قصر خل: اسم القصر الذى بناه زيد بن نعمان من أجل حضرة معاوية فى طريق رومة، ولما كان على قارعة الطريق ولما كانت أطراف هذا الطريق تعرف بخل أطلق عليه قصر خل، وبناء على قول ابن شبة قد استخدم ذلك القصر للسجن فى فترة ما.

قصر ابن عراك: كان قصرا بجانب مقبرة عبد الأشهل التى فى طريق أحد.

قصور العقيق: التى ثبتت ميزتها بالأحاديث النبوية كانت فى صحراء وادى العقيق ولما كان وادى العقيق معروفا بجودة هوائه وموقعه اللطيف جذب قلوب أمراء المدينة واعتبروا، مبنى كل واحد منهم قصرا مزينا ولأجل ذلك أطلق على البيوت التى فى وادى العقيق قصور العقيق وكانت تمدح من قبل شعراء العصر.

قصر ابن ماء: أسفل بئر جهنم.

قصر مروان بن الحكم: بالقرب من صدقات النبى، وقصر نفيس فى حرة واقم وقصر بنى يوسف أسفل قصر مروان بن الحكم.

ذو القصة: كان موضعًا فى جهة نجد على بعد بريد من المدينة المنورة وعلى قول على بعد ١٥ ميلاً. وعند البعض أن ذو القصة اسم موقع على بعد أربعة

عشر ميلا من المدينة فى طريق ربذة، وقد تقاتل ابن سعد بن محمد بن مسلمة مع بنى ثعلبة وبنى عوال فى هذا الموقع.

قصيبة: مجرى ماء بين خيبر والمدينة المنورة.

ذو القطب: اسم مجرى ماء فى وديان العقيق.

قف: يطلق على الوادى الذى يجمع الأوقاف النبوية وهى قمم تشبه الجمال التى بركت وهى خالية من الأشجار وممتلئة أطرافها بالحجارة، والأراضى التى يطلق عليها فى زماننا خمسين هى الوادى الذى يشتمل على الصدقات النبوية وبما أنه فى غاية الخصوبة والإنبات يطلق عليه ثمانين أيضًا، يقول أبو داود: دعا اليهود النبى ﷺ بهذا الوادى فاستجاب النبى ﷺ ولبى دعوتهم فصلى فى بيت مدارس وكان بيت مدارس بجانب مشربة أم إبراهيم من الأوقاف النبوية حتى إن واحدًا من الأنصار صلى فى حديقة من وادى قف وقال: كان النبى ﷺ قد صلى فى هذا المكان، وقد اشترى عثمان بن عفان وادى قف بخمسين ألف دينار ووقفه وهذا هو سبب تسميته بخمسين.

قلادة: اسم الجبل الذى يطلق عليه قلادة العنق فى الجهة القبلية من المدينة المنورة.

قلهيار: حفرة حفرت على شكل صهريج بالقرب من المدينة المنورة، التى انسحب إليها حضرة سعد بن أبى وقاص منعزلاً عن الناس بعد وقعة قتل عثمان بن عفان المحزنة عازمًا على ألا يتحدث مع أحد ما لم يتصالح المسلمون قائلاً: «ما لم تتم المصالحة فلا أريد أن أسمع شيئًا» لذا ينسبون هذه الحفرة إلى سعد بن أبى وقاص.

قلَهَى: قرية منسوبة إلى بنى سليم فى وادى رولان.

قموص: جبل فى خيبر كان حصن يهود بنى حقيق الحصين فوق ذلك الجبل.

قناة: اسم واد مشهور.

قنيع: موضع فى مرعى ضرية.

قوافل: كانت برجا أمام منزل عصية.

قوبَعْ: اسم ماء من أنهار العقيق.

قوران: اسم واد بالقرب من السوارقية.

حرف الكاف

كاظمة: اسم موضع فى المدينة، أو بين مكة والبصرة أو اسم ماء مر على بعد ثلاث مراحل من البصرة فى جهة مكة.

كبا: اسم موضع فى وادى بطحان.

كتانة: بئر بين واديى صفراء وأثيل.

كُتَيْبَةَ: قلعة فى خيبر، بعد أن فتح النبى ﷺ حصنى شق ونطاة فتح كتيبة لأنه كان آمنا وأكثر استحكاما من الحصون الأخرى وتجمع مكان الحصون الأخرى فى هذه القلعة وقاموا مدة ما.

كدَر: اسم ناحية منسوبة لمنجم بنى سليم وخلف سد معاوية القريب من موقع رخصية وكانت قرقرة الكدر ملحقة بهذه الناحية.

كَديد: اسم واد بالقرب من موضع نخيل، وماء واقع فى أيمن الطريق الذى يبعد عن خليص بثمانية أميال.

كُرْ: جزيزة على بعد ستة أميال من منزل جحفة.

كفته: الاسم الآخر لمقبرة بقيع الغرقد.

كلاب: اسم ماء فى نواحى مرعى ضرية.

كلب: اسم برج فى المدينة، كما أنه اسم الجبل الذى يطلق عليه رأس الكلب.

كُلَيْته: قرية قريبة من ماء مر يطلق عليه مستورة يبعد عن موضع جحفة اثنى عشر ميلا.

كِمْلَى: الاسم الآخر للبئر التى وضع فيها السحر الذى صنع لسيدنا محمد.

كِنَس حُصَيْن: برج قريب من مهراس فى قرية قبا.

كواكب: اسم جبل مشهور، وعلى قول آخر: اسم جبال بين المدينة وتبوك.

كومة أبى حمراء: كومة معناها التراب المتراكم فكومة أبى حمراء هى كوم التراب المتراكم الذى يطلق عليه كومة المدر والتى فى الجهة الشامية من المدينة.

كوير: جبل فى مرعى ضرية.

كويرة: جبل من جبال المدينة القبلية.

كَيْنَقة: السهم الذى أعطاه النبى ﷺ لعبد الرحمن بن عوف من أموال بنى النضير. اشترى عثمان بن عفان هذا السهم بأربعين ألف دينار ملكه لزوجات النبى ﷺ الطاهرات وفقراء المسلمين وأفراد بنى زهرة وقسمه بينهم.

حرف اللام

لأيا: على وزن صَيْفَا اسم ناحية من نواحى المدينة لأيتان تثنية لأية أسماء الحرات التى فى جهتى المدينة الشرقية والغربية والحرة بمعنى تل وقمة.

الحيا جَمَل: جبل على طريق فيد.

لظى: منزل من منازل جهينة فى جهة خيبر يعرف باسم ذات اللظى.

لعباء: موضع كثير الحجارة فى المدينة المنورة.

لفت: اسم عقبة فى طريق مكة أو اسم واد بجانب موضع هرشى.

لعلع: اسم جبل بالقرب من المدينة أو اسم ماء فى الصحراء.

لقف: اسم واد فيه آبار كثيرة عذبة فى ناحية السوارقية الكائنة خلف قوارق.

لِوَى: اسم برج فى ديار بنى بياضة، واسم واد فى قرية بنى سليم، واسم موضع على بعد أربعين ميلا من مرعى ضرية.

حرف الميم

مايه: مزرعة بنى أنيفة فى قبا، كان بينهما وبين موقع قائم برج.

ماجشونية: حديقة مشهورة فى وادى بطحان.

مِثْب: أحد الأوقاف النبوية.

مبرك: المكان الذى ترك فيه جمل النبى ﷺ فى محلة بنى غنيم، وكان حول منزل أبى أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ البارى كما يقال مبرك للمكان الذى يطلق عليه ثنية المبرك الذى يقع بين المدينة وينبع البحر ما بين أملى، ويمتد هذا المكان أربعة أو خمسة أميال.

مَنْصَنَعة: ما بين موضعى رويته وجى.

مشعر: واد بين حوزة وثاخة.

مثقب: طريق ينتهى إلى مكة من المدينة ومن مكة إلى الكوفة.

مَجْدَل: كان اسم منزل فى ديار بنى هذيل واسم برج أمام سقاته سليمان بن عبد الملك.

مَجَر: على وزن حجر اسم غدير بين تلال قوران.

محضه: قرية على سفح جبل آره.

مختص: موضع بالمدينة.

مخابل: ثلاثة مجارى مياه فى وادى العقيق.

مختبى: غدير فى وادى العقيق.

مخرا: على وزن صفرا جبل أمام جبل المسلح. حنيما كان النبى ﷺ ذاهبا إلى غزوة بدر كره أن يمر من بين هذين الجبلين ومر من يمين وادى ذفران.

مخيص: بين الحرمين أحد الجبال الذى صعده النبى ﷺ.

مدراج المنزل: والبخور الذى يقال له عقبة العرج.

مدجج: واد فى طريق مكة مدرج ينحدر ينزل يقال له فى زماننا عنفة الوادى وعلى قمته خرابة بناء قديم.

مدعا: اسم نهر فى ناحية ضرية يصب فى ذى عثعث كانت بئر جعفر بن كلاب فى هذا الوادى.

مدين: محل محاذٍ لتبوك بالقرب من البحر الأحمر، وهو البئر التى أخرج منها موسى ـ عليه السلام ـ الماء لسقى أغنام شعيب.

مذاد: كان برجًا خاصًا ببنى حرام فى الجهة الغربية لمساجد الفتح.

مذاهب: كان برجًا مبنيًا فى إحدى نواحى المدينة.

مرابد: موضع فى وادى العقيق.

مراح: مجرى ماء فى وادى العقيق يعرف بـ مراح الصخر.

مراض: اسم ناحية على بعد ثلاثين ميلا من المدينة.

مرَان: قرية كبيرة فى جهة وادى كشب.

مِرْواح: برج فى قرية قباء.

مربد الغنم: اسم المحل الذى كان يحسب فيه الغنم فى عصر عمر الفاروق على بعد ميلين من المدينة.

مِرْبَع: اسم برج ينسب لبنى حارثة..

مربح: اسم واد بالقرب من المدينة أو إلى ودان على رأى آخر منسوب إلى حسين بن على رضى الله عنهما.

مرجح: أحد المنازل بين الحرمين من منازل الهجرة النبوية.

مَرْحب: الطريق الذى اختاره النبى ﷺ عند ذهابه إلى خيبر.

ذو المَرخ: اسم موضع قريب إلى ينبع فى ناحية الشاطئ.

ذو مرح: اسم واد فى واد فدك، واسم موضع فى وادى العقيق.

ذو المرمرة: المحل الأقدس الذى صلّى فيه الرسول ﷺ فى وادى القرى.

مزيح: برج خاص ببنى قينقاع يظل فى الجهة اليمنى للذين يتوجهون إلى المدينة المنورة فى نهاية جسر بطحان.

مُريخ: اسم شجرة يقال لها القرن الأسود فى مكان قريب من ينبع البحر.

مُفرَض: كان برجًا لبنى قريظة فى داخل الحدائق التى فى البقيع وكان بنو قريظة كلما يضطرون دخلوا فى البرج ليدافعوا ضد الأعداء.

مُعْرفة: الطريق الذى فر منه أفراد قريش فى غزوة بدر ينتهى إلى ساحل البحر.

مغسلة: حديقة من حدائق المدينة المشهورة يطلق عليها فى زماننا يغسلة.

مُغيث: واد بين معدن النقرة وربذة.

مقوْثة: موقع بالقرب من المدينة.

مقاعد عثمان: يطلق على الدكاكين التى بالقرب من منزل عثمان بن عفان بباب جبريل.

وقد صُلى على جنازة إبراهيم بن الرسول ﷺ فى هذا المكان.

مَقْشَير: اسم جبل من جبال المدينة القبلية.

مُلْتَد: موقع حديقة النخيل التى فى وادى العقيق.

ملجاء: واد فى العقيق، ملحة برج منسوب لبنى قريظة.

ملحتان: اسم مبحرين ماء أحدهما ملحة الريث والآخر ملحة المريض فى الجهة الشامية من وادى أشعر.

ملل: واد مشهور فى جهة مكة على بعد عشرين ميلا وعلى رواية على ثمانية

عشر ميلا وبناء على رواية ثالثة على بعد ليلتين من المدينة، لما كان تبع الحميرى قد تعب فى هذا المكان ومَلَّ، لذا سمى بهذا الاسم.

مناصع: اسم المكان الذى تخرج إليه نساء المدينة لقضاء حاجتهن، ولم يكن اتخاذ بيوت الخلاء فى دور المدينة معروفا بعد.

وبناء على ما أورده المؤرخون من المحتمل أن يكون ذلك المكان بجانب الموضع الذى يقال له بئر أبى أيوب، وكان فى الجهة الشامية لمقبرة بقيع الغرقد وفى الجهة الشرقية لحصن المدينة اليوم يعرف باسم بئر أيوب.

مناقب: جبل من جبال مكة وهو ذات عقبتين.

منجبس: الاسم الآخر لوادى عرج.

مُنْتجِز: موضع فى جهة المحل الذى يسمى مثعر لفرش ملل منحنى فى الجانب القبلى لمصلى العيد.

مُنْشِد: اسم حمراء النملة التى على الجهة اليمنى من موضع حمراء الأسد واسم المكان الذى بين وادى رضوى والموقع الذى على شاطئ البحر واسم بلدة فى ديار تميم.

مُنْعَج: اسم واد فى موضع أضاح واسم امرأة فى مرعى ضرية، وقد يقال مُنْجع بتقديم الجيم.

منقى: موضع أسفل موقع أعوض وفى الطرف الشرقى للمدينة، كان المسلمون المنهزمون فى وقعة أحد فروا حتى هذا المكان.

مَنْكَثة: اسم مجرى ماء ترد سيوله من واد فى آجرو فى الجهة القبلية من المدينة المنورة. واسم جبل فى ديار جهينة.

مَنور: اسم جبل خلف حرة بنى سليم، أو اسم موضع واسم سرج لبنى النضير.

منيع: كان برجًا منسوبًا إلى سواد فى الجهة اليمانية لمسجد القبلتين.

منيف: كان برجًا منسوبًا لبنى دينار بن النجار بجانب مسجد بنى النجار.

مُريسيع: اسم ماء يصب إلى البحر فى ناحية قديد، واسم ماء آخر منسوب لخزاعة على بعد يومين من ناحية قديد.

مزاحم: اسم برج خلف منازل بنى حُبلّى واسم سوق تقام فى زقاق ابن جبير. وهذه السوق مثل الأسواق الموسمية وكانت تقام فى الجاهلية وأوائل العهد الإسلامى. وتركت مؤخراً.

مُزْج: غدير فى وادى العقيق والمياه التى تجرى من نهر خضير تصب فى هذا الغدير.

مستظل: كان برج أحيحة بن الجلاح فى بئر الفرس، وانتقل فيما بعد لبنى عبد المنذر.

مستعجلة: مضيق يبدأ من ناحية نازية وينتهى فى ناحية خيف.

مستنذر: جبل صغير فى المكان الذى تنزل فيه قافلة الشام وعلى الطرف الشرقى من مشهد النفس الزكية. وعلى ذروته خرائب منازل بنى الديل.

مُسير: كان برجًا منسوبا إلى بنى عبد الأشهل.

مسكبة: موضع على الطرف الشرقى من مسجد قبا وكان البرج المشهور الذى يطلق عليه واقعًا فى هذا المكان.

مشاش: مجرى ماء متصل بوادى العقيق.

مِشقْط: كان برج بنى حديلة الذين كانوا يسكنون فى الطرف الغربى لمسجد أبى.

مشعل: موضع بين الحرمين.

مشفق: واد بين المدينة المنورة وتبوك.

معجزة: هناك ماء جار ينحدر من أعلى بين هذا الوادى ووادى الناقة. فوضع النبى ﷺ يده الشريفة تحت الماء المذكور. وصب المياه التى تجمعت بين أنامله

الشريفة إلى النهر مرة أخرى ودعا. وفى ختام الدعاء صدر من ذلك الماء صوت يشبه صوت الصاعقة وسمع هذا الصوت جميع الذين كانوا بجانب الرسول ﷺ، انتهى.

مُشَلَّل: العقبة التى نصب عليها الصنم الذى كان يطلق عليه فى جاهلية العرب «مناة» بجانب قرية قريب.

مَصَرَ: واد وادفى أعلى مرعى ضرية.

مصلوق: ماء منسوب إلى بنى عمرو بن كلاب.

مضُيق: قرية فى وادى آرة.

مطلوب: بئر فى غاية العمق بالقرب من الجهة الشامية للمدينة هناك بئر تنسب إلى بنى خثعم. تطلق عليها مطلوب أيضًا. كان عبد الملك قد وَحَّدَ جميع المزارع التى حول هذا الماء وأنشأ مزرعة واحدة فى غاية الكمال.

مطعن: واد بين سقياء وأبواء.

معجب: حديقة النخيل التى وقفها عبد الله بن رواحه يقال لها فى زماننا مُعْجب.

معد الأحسن: موضع فى بلاد المدينة وقرية فى أراضى اليمامة.

معدن بنى سليم: قرية على ثمانية منازل من المدينة فى جهة جدة.

معدن الماء: واد ينتهى إلى وادى مغيث.

معدن النقرة: موضع على بعد يومين من بطن نخلة.

مُعَرَّس: موضع مسجد المعرس.

مهايع: قرية كبيرة بالقرب من وادى ساسة.

مهراس: حفرة تملأ بمياه المطر فى نهاية مضيق جبل أحد. قد أحضر للنبى ﷺ فى وقعة أحد الأليمة بعض المياه من تلك الحفرة وكانت رائحتها كريهة بدرجة لا

تصلح للشرب، فغسل النبى ﷺ بعض أجزاء جسمه الدامية وصب قليلاً منها فوق رأسه.

مهزور: موضع فى سوق المدينة المنورة.

مهروز: واد بالقرب من المدينة، مهزول واد أم بئر ضرية.

مهيعة: الاسم الآخر لحجفة.

مُوجَاء: كان برجًا منسوبًا لبنى وائل بن زيد.

مَيْطان: جبل محاذ لجبل شوران الذى يقع فى الجهة الشرقية لقرية بنى قريظة.

ميفعة: موضع فى وادى بطن نخلة على بعد ستة وتسعين ميلا من المدينة.

حرف النون

نازية: صحراء مشهورة فى غاية الاتساع بين الحرمين، كما يطلق على البئر التى ملئت بالطين والتراب فى وادى أبلى الواسع.

نازين: موضع فى مضيق صفرا، حيث مات أبو معاوية عبيدة بن الحارث عند رجوعه من غزوة بدر الغراء ودفن فيه.

ناعم: اسم قلعة من قلاع الخيابر حيث قتل محمد بن مسلمة.

ناعمة: حديقة مشهورة فى عوالى المدينة.

نويعمة: ولما كانت حديقة نويعمة بجانب حديقة ناعمة فيطلقون حيث توجدان نواعم.

نباع: مجرى ماء فى أرض العقيق.

نُبَيع: موضع فى الجهة القبلية.

نجير: ماء فى محاذاة صفية.

نخل: موضع على مسافة يومين من جهة نجد والذى يطلق عليه شدخ كان النبى ﷺ قد نزل فى هذا المكان فى غزوة ذات الرقاع.

نخاى: مجرى ماء من مجارى مياه جبل أشعر يصب فى ينبع البحر وفى أسفل هذا الوادى كثير من الآبار لحسن بن حسن.

نخيل: بئر بعيدة خمسة أميال من مدينة الرسول ﷺ كما يطلقون على منزل فى طريق يعد نخيلاً أيضًا حيث توجد مياه كثيرة وآبار منسوبة إلى حسين بن على المقتول. فى هذا المنزل مسجد للنبى ﷺ.

نساز: عدة جبال فى ضرية.

نسر: اسم موضع فى بلاد مزينة.

نسح: بئر تنسب للنبى ﷺ فى وادى العقيق. نصنع بعض الجبال ذات حجارة سوداء بين الصفراء وينبع.

نطاة: اسم برج من قلاع أراضى خيبر.

نعمان: واد فى ناحية أحد.

نعيم: وإن كان موضعًا قريبًا من المدينة يقال له نعائم قاصدين ما حوله.

نفاع: كان برجًا فى بئر العمارة ينسب إلى قرية بنى خطمة.

ذو نفر: اسم محل على بعد ثلاثة أميال من موضع سليلة ويقع خلف وادى ربذة.

نقاب: موضع فى ملحقات المدينة المنورة فى هذا المكان طريقان يؤدى أحدهما إلى وادى القرى والآخر إلى وادى المياه.

نقاء: منزل بين بئر الالمحام ووادى بطحان.

نقيب بنى دينار بن النجار: طريق فى الحرة الغربية أى بجانب سقيا بنى سعد. كما أن نقيب المدينة اسم آخر لهذا الطريق؛ لأن من المدنية إلى بدر طريقان أحدهما طريق الوادى. وهو الطريق الذى نطلق عليه نقيب مدينة. والآخر شارع فيفاء الجنار قد سلك النبى ﷺ فى غزوة بدر هذا الطريق الذى يرافقه النصر.

نقعاء: اسم ماء خلف الوادى الذى فى مرعى النقيع فى ديار مزينة.

نُقْيع: مشهور بين الأنام باعتدال هوائه وعذوبة مائه وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلاً من المدينة المنورة. وأراضيه خصبة ومناظر مراعيه تسر الناظرين، وكل من شاهده فتن بجماله ولا يمكن لإنسان أن يرى من يسير بين أعشابه ونباتاته ولو كان فارسًا، وهو مرغوب منقطع النظير فى الجمال. وقد جعله النبى ﷺ مرعى لخيول المسلمين لما رآه أنه يفوق جميع مراعى المدينة المنورة من حيث جمال المنظر وخصوبة أراضيه وبما أن أمراء بنى أمية وسعوا ذلك المرعى فأصبح أوسع مراعى المدينة المنورة.

نقيع الخصمات: الخصمة هى النبقة اللينة والأراضى التى تنبت النباتات اللينة، إلا أن نقيع الخصمات اسم المرعى الذى حفظه من جهاته الأربعة وهو فى داخل بلاد مزينة.

نمرة: موضع فى جهات قديد.

نملى: اسم ماء بالقرب من المدينة، أو اسم سلسلة من الجبال بناء على قول آخر.

نوبة: اسم موضع على بعد مسافة ثلاثة أميال من المدينة واسم قمة ربوة رملية ذات لون أحمر. فى أرض بنى بكر بن كلاب.

نير: اسم عدة جبال فى مرعى ضرية واسم جبل فى أعالى أراضى نجد.

نيق: العقاب موضع قريب من جحفة.

حرف الهاء

هَجرَ: اسم قرية بالقرب من المدينة واسم ناحية فى البحرين.

هَدَبَيه: ثلاث آبار لأراضى السوارقية المكشوفة.

هُدُن: اسم ماء ماوى وادى القرى.

هِرْشى: تلال رمل فى صحراء مستوية وعلى الجهة الشرقية من وادى ودان.

وما بين هذه التلال الرملية والوادى سالف الذكر صحراء مستوية أخرى تتصل بشاطئ البحر وثنية هِرْشى فوق تلال الرمال المذكورة.

علامة نصف طريق الحرمين، على الأماكن المكشوفة من ثنية هِرشى بميل علم مركوز وهذا العلم علامة أن تلك النقطة منتصف طريق الحرمين: وإن كان بجانب ذلك العلم طريق يشعب إلى جهتين إلا أن كلا جهتى الطريق يوصلان لمكان واحد وفق ما يفيده البيت الآتى:

خـذ ألف هرشى أوقفـا فإنمـا

كلا جانبى هرشى لهـن طريـق

هكرَ: موضع على أربعين ميلا من المدينة ذات ماء عذب جميل.

هكران: جبل فى محاذاة قرية قباء وفى داخل ناحية كشب.

هُمَيْحْ: موضع يشمل على كثير من الآبار والحدائق فى ناحية وادى القرى.

هيفاء: موضع على بعد سبعة أميال من المدينة المنورة وعلى ميل واحد من بئر مطلب.

حرف الواو

وايل: اسم موضع فى أعالى المدينة.

وادى: بدون إضافة مجرى ماء فى وادى الروحاء إلا أنه على رأى البعض أن هذا المجرى فى جهة خيبر أو تبوك.

وادى أبو بكر: ابتداء الحفرة التى فى أعلى مسجد.

وادى أزرق: موضع أمام المكان الذى يطلق عليه فج روحاء بميل.

وادى بطحان: اسم مجرى ماء فى داخل المدينة.

وادى الجزل: مجرى ماء بالقرب من ذى المروة

وادى السمك: ماء جار فى ناحية الصفراء.

وادى القرى: واد يضم قرى متعددة. أو بلدة بين الشامة والمدينة على بعد سبع ليال من المدينة المنورة.

واسط: اسم برج منسوب لبنى خدرة، وبنى حزيمة، وبنى مازن من القبائل، واسم موضع بين بدر وينبع البحر، كما يطلق على الجبل الذى يتكون عنده سيول العقيق وأن مجارى مياه وادى العقيق تتجمع فى الجبل المذكور وتجرى ناحية جثجاثة.

وأقم: اسم برج خاص ببنى عبد الأشهل واسم برجين فى قرية قباء.

والج: حديقة فى الجهة الشامية من المدينة وبئر فوق جبلى بره وآرة. وقرية حول جبال بعان وآرة.

وحيدة: موضع بين الحرمين.

ودان: قرية واقعة على بعد مرحلة من محلة جحفة.

ودعان: موضع فى ينبع.

هضب الوران: جبل فى مرعى ضرية.

ورقان: جبل كبير بين الحرمين ويظل على يسار من يتجهون إلى مكة ورقان على يمينهم وكذلك سيالة وروحاء ورويثة. وفى جبل ورقان كل أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة وعيون متعددة وسكانه من جماعة بنى أوس، والجبل المذكور من جبال الجنان.

وسط: جبل فى مرعى ضرية.

وطيح: قلعة كبيرة من قلاع خيبر تسمى باسم رجل من قوم ثمود.

وظيف الحمار: محل بين سقاية عبد الملك ووادى زغابة.

وعيره: موضع فى حدود الحرم النبوى الشريف.

حرف الياء

يثرب: اسم مدينة الرسول القديم.

يدبع: ناحية بين فدك وخيبر ذات مياه متعددة وعيون كثيرة مقر قبيلة بنى فزارة.

يراجم: غدير فى وادى النقيع. قد توضأ النبى ﷺ من هذا الغدير وخاطب سكان القرى التى حوله إنكم تسكنون فى بقعة مباركة.

يُرَعة: موضع فى ديار فزارة بين موقعى ثوبية وصراخه.

يَلَيْن: يقال له ألين أيضًا. اسم غدير فى نقيع الحمار.

يليل: اسم نهير ينصب فى البحر الأحمر وناحية صفراء.

والبئر الذى يطلق عليه نجير فى ذلك الوادى ينبع ماؤه من الرمل. وهناك موضع آخر يسمى.

يليل: بين عقنقل وناحية بدر وبالقرب من صنبوعة.

ينبُع: على أربعة أيام فى ناحية شاطئ البحر من المدينة وهو بلد عظيم على ساحل بحر السويس على خط العرض الشمالى (٢٤ درجة وخمس دقائق) وعلى (٣٦ درجة) فى الطول الشرقى وعدد سكانها ثمانية آلاف تقريبًا. ومرفأ المدينة الرئيسى ويشمل على ١٧٠ منهلا وعيون كثيرة ولذلك عرف وسمى ينبع.

يقال لبحر السويس «بحر القلزم» والبحر الأحمر ويقال له فى اللغة التركية بحر الشاب وخليج العرب ويحيط بالساحل الغربى للجزيرة العربية ويفصل بين قارتى آسيا وإفريقيا.

وقد أقطع النبى ﷺ موضع ذى العشيرة من بلدة ينبع لصهره على بن أبى طالب، كما أن عمر الفاروق قد أضاف لهذه المواضع محلات أخرى، فوقف على بن أبى طلب هذه الأماكن والأماكن الأخرى التى اشتراها بنفسه، وبناء على هذا ظلت أكثر مواضع ينبع تحت إدارة أشراف بنى حسن.

يهيق: هذا هو ما جاء فى الحديث النبوى عندما قال ما معناه: «يظهر أن بيوت المدينة ستمتد حتى تتصل بيهيق» وهو موقع مشهور بالقرب من دار العزّ المدينة المنورة.

يَيْن: واد على اثنى عشر ميلا من المدينة المنورة فيه ماء واحد فقط.

مناجاة وقصيدة.. ودعاء

هلم أيها القلب ليتفتح بعين الشهود قلبنا والعينان..
حسبنا عمانا بدل ما لم وما كان..
على هواها نفسنا تابعنا..
وفى طريق من النجاد والوهاد أبلينا قدمنا..
ما هذه المتاهة التى نسلكها من طمعنا؟
وأى جدوى لما يقلقنا؟
لقد حفيت كذلك فى الرغبة قدمنا..
ليت شعرى ما جدوى هذا من صنيعنا؟!
عمرنا يومان ونحن على أهبة الرحيل..
فعجبا لفكرنا فى البقاء الطويل..
إذا لم تبلغ بك القدس قدماك..
فأنت حبيس وجود فى دنياك..
ليكن وضوءنا دمع الندم.
ولنعفر جبين الدعاء على ما للسجود من قدم..
لنذب سويداء قلبنا..
ونجعلها دمًا فى دمعنا..
حسان هو أنا جعلن فى حريم قلبنا..
مذبلة الوثنين وسومنات الهند لنا..
فى قيد ما سوى الله اختلج طائر قلبنا..
وفى جعالة أخرى تردى هوى نفسنا..

أى خلاص يحتمل لنا..
مادامت رغائبنا قيوداً لنا..
إن طول الأمل فى قلبى خيال..
وفى رأسى أغلوطة المال..
يستوى فى أذن الروح فى حيرتها.
نواح النائح وما للأوتار من نغمتها..
إن فى دار الفتنة هذه إنما كان حرصى على عمرى.يزيد ويزيد.
من طبع جبلت عليه عنيد..
ما بالك أيها الغافل الغر..
إن مثل هذا الفكر الفاسد من الفتنة يكثر..
ما جدواك من خسة طبعك..
لما كانت عبادة هواك من عبادتك..
لقد خدعت فلا تؤمل السراب..
إنما مسح أهل الجاه ناصيتهم بالتراب..
أطلب من الله ما لديك من مأمول..
فاللعرش الأعظم منه حسن القبول..
تقدم بكل ما أنت تريد..
إلى ما يحبه الله المجيد..
ذلك الذى يقتعد من الفلك السرير..
وله من الملائكة جند كثير..
المقيم فى خيمة الجبروت وله كلام الكليم.
ونديم محبة الله العظيم..
من نال شرف منزلة هى مقام القرب.
ومن نال ذروة العلياء باللقب.
خاتم النبوة وأميرها..

ومن هو يوم القيامة للشفاعة لَبشيرها..
ملاذ للأمم وموئل..
ومن يوم الحشر يؤمل..
طه يزين المنبر وهو خطيب..
وصاحب الوحى المقرب الحبيب..
مآل الناسوت والجوهر
وعلة هذا الخلق التى لا تنكر
النبى الأكرم محمد المحمود
كريم الذات وصفوة هذا الوجود
من شرف بالرسالة مطلق الذات
جاء تلك الدنيا بالهدى
وما امتلك قط مالاً لبدا
حمى الوطيس فى غزواته
وكل من خالفوه من عصاته
وبلطفه لا ينال المسيئ بسوء
وكأى من مذنب بذنبه ينوء
أى جدوى لوفرة حسناته
مادمت لا تحظى بمرضاته
ياحبذا كرمه ومنه القطرة..
تخمد من نار جهنم كل شررة
لو كان الناموس الأكبر عن عتبته طريدا
كان عن باب القرب مردوداً
لو تعلق بذيل شفاعته الشيطان.
دخل من الرحمة فى إيوان
إن هذه الدنيا لمن تردوا فى الحجيم..

ومن ساروا فى خطى الشيطان الرجيم..
هذه الدنيا للجنة والناس
والمنتبهون من غفلتهم.. فجرت الدموع مدرارا من مقلتهم
فى ذلك اليوم الذى فيه الجبار العنيد.. يعرف النار ذات الوقود
فى ذلك اليوم الذى عاتقه تحت الأمان ناء.. إن يوم أدار الأمانة جاد
وتضيف منته ضعفًا شديدًا.. فيشبه فى جموده جلمودا
أدرك يا رسول الله هذه الأمة أدركها.. قبل أن يوضع قيد النار فى عنقها
نج هذه الأمة من البلاء وكن لها مجير.. قبل أن تتحرق فى السعير
وخذ بيد العالمين من نار وحجارة هم فيها من المتمردين
وكن الشفيع للخلائق يوم الجزاء.. وهم من عذاب النار فى أشد بلاء
أدرك فى ذلك اليوم العالمين.. فى جهنم صاعدين هابطين
وفى أنامل كرمك لى أمل.. فحلّ بها ما تعقد لى فى سمطى العمل
ولنبك قليلاً ونتضرع.. فباب اللطف هذا الأهل مؤهل الفقر يقرع
بحقه وهو الغفار ذو الجود.
والمهيمن المعبود
إنه الأوحد فى هذا الوجود كريم الصفات.. حى ودود
باسمه وهو ذو الغفران.. الذى يأله إليه الإنس والجان
برمز آية قاف وبحكمة حم.. لسورة هود وسر نون العظيم
وبفضل من يعتكفون الأربعين.. يضعف الدخان وقوة الصخر الرصين
بقصة الكهف العجيبة.. وقصة الأخدود الرهيبة
بانقياد الذبيح وبموضع ثراه.. بنار النمرود للخليل وبلواه
بأصحاب الرس وخسفهم.. وبعقابهم وأحجارهم
بعز ملك سليمان والخيل المطهمات.. باستماع الطير وما لداود من نغمات
بشدة الهموم.. وبما لا يتنهى من غموم
بيأس مسار الفراق وأمل صبح التلاق.. بصد الدلال بعد رغبة الوصال

بقدر سيد المرسلين.
بفوز هذ االرائد الأغر..
واجعلنا إلى طريق رضوان من المهتدين.. فنحن بالضلالة من الهالكين
فهذه الدنيا إلى فناء.. وكل ما فيها إلى انتهاء
بالسهو لا تجعل قد منا تذل.. حينما قدمنا على الصراط ننقل
ليكن لهذا الفقير زاد النجاة.. إذا تحركت بالنعت الشريف منه شفاه

ولما كانت هذه القصيدة لأحد أصحاب الطريق المعنوى والذى أنشدها فى أثناء استقرائه عندما وصل لمقام الغناء فى الرسول وهى قصيدة نادرة فريدة قد رأينا أن ندرجها هنا متبركين بها.

القصيدة

هذا الجناب الذى تشفى به الكرب
ويـذهب البؤس والآلام والـنصب
هــذا الجنــاب الذى تشتاقــه أبدا
هذامنى النفس هذا السؤال والطلب
فعفـر الخــد ذلا فــوق تربتــه
والثــم ثراه وخــل الدمع ينسكب
وقر عينا وطب نفساو تهْ فرحا
لقد بلَغت الذى ترجو وترتقب
قد كنت صابه لا تستفيق جوى
يهزك الشوق من ذكراه والطرب
إن هبت الريح من تلقاء كاظمة
أو لاح برق الحمى تبكى وتنتحب
وإن ترنم حـادث رحـت ذا قلــق
فــالعقل مختبــل والقلب مكتئب

ترعى نجوم الدجى وجداً وفرط أسى
والجفن يَهْمِل والأحشاء تلتهب
هذا الحبيب الذى ترجو شفاعته
فليهنك القرب زال الهم والتعب
فاخنع على سائق الأظعان معتذراً
حشاشة شفها التبريح والوصب
وهب له النفس شكرانا وما ملكت
فذاك فى حقه بعض الذى يجب
منازل كنت تهوى قربها أبداً
فالنوم شوقًا لها والصبر مستلب
انزل هنيئًا مريئًا خير منزلة
علت فدون علاها السبعة الشهب
وَاقْرِ السلام على المختار من مضر
من اهتدى بهداهُ العجم والعرب
محمد خير خلق الله قاطبة
المصطفى الطهر من زالت به الريب
أزكى النبيين أعلى الخلق منزلة
من قد علت بمعالى قدره العَرَبُ
طه البشير الذى تجرى مواهبه
ومن زكا قوله والفعل والنسب
بر رؤوف رحيم قد علا شرفا
من هاشم وبنى عدنان منتخب
وبشرت سائر الرسل الكرام به
وأعربت عن معالى وصفه الكتب

له العلا والنهى والفضل منتسب
والعلم والحلم والآلاء والأدب
إذا بدا فبدور التم كاسفة
والبحر متصف بالنقص إذ يهب
بنانه قصرت عن فيضها السحب
وعنده عرف المعروف والحسب
أسرى به الله تشريفًا لرتبته
وقال سل فلك العلياء والأرب
دنا وشاهد رب العرش وارتفعت
من دونه حين ناجى ربه الحجب
وبالملائك صلى رفعته وعلا
وهو الشفيع إذا اشتدت بنا النوب
أتى بمعجز قرآن غدا عَجَبًا
وكم له معجزات كلها عجب
تظله الشمس من حر النهار ولم
تزل على رفعة فى ظله السحب
وخمسة إذ تشكى القوم من ظمأ
غدت ومنها الزلال العذب ينسكب
أطعم الجيش إذ باتوا على سغب
نزر الطعام فزال الجهد والسغب
والبدر شق له والوحش خاطبه
والوجود والبر من علياء يكتسب
وكان بالرعب والأملاك منتصراً
ولم يزل لعداه الويل والحرب

وانشق إيوان كسرى عند مولده
وأحرقت سارقى سمع السماء الشهب
وأصبحت سائر الأصنام ناكثة من
بعد عز علاها الذل والعطب
فى كفه سبحت صم الحصى علنًا
والجذع حن له إذ قام يحتطب
بنى صدق ورضوان ومغفرة
لكل خير وإحسان هو السبب
هو الذى جَـلَّ أن تحصى فضائله
حدث عن البحر ما شئت لاعجب
هو الحبيب الذى سحت مكارمه
هو الرسول الذى تعظيمه يجب
هو الذى طابت الدنيا بمولده
هو النبى الذى عزت به العرب
هو الذى جاء بالبيضاء ساطعة
هو النجيب الصفى الفرد لا كذب
شعاره الزهد والإجمال والرهب
والذكر والفكر والإرشاد والرغب
صـام النهـار وقامـا الليل محتسـبًا
ولم يثبت جده لهو ولا لعب
تشرف الكون وانجابت حنادسه
ببعثه وأزهرت أبوابه القشب
يا من يؤمل أن يحصى مدائحه
لقد حكيت ولكن فاتك الشعب

هو الذى نزل القرآن يمدحه
فما عسى أن يقول الشاعر الدرب
إليك ها يا رسول الله زاهرة
من دونها لعُلاك الدر والذهب
تجلو مناقبك الحسنى التى بهرت
تثنى القلوب وللألباب تختلب
وذو الرجاء أبو بكر منظمها
عبد لبابك أمسى وهو منتسب
فاشفع له كرما يا خير ذى كرم
ومن فضائله فى الكون تنسكب
وإن ما بيت منك يرجوا العطف ممتدحا
فما لصارم العضب بعد السل يتدب
عبد بفضلك قد أمسى أخاثقة
على جميلك بعد الله يحتسب
فكن له شافعا فضلا ومرحمة
إذا جهنم قد جادت لها لهب
ووالديه فجد واشفع لهم كرما
فإن فضلك للراجين مقترب
وأنت أرحم من لاذ المسئ به
وخير من يرتجى إن جلت الكرب
شوقى إليك شديد لا يفارقنى
حتى أرى سائرا والنعش لى قتب
صلى عليك إله العرش ما طلعت
شمس وأصبح نجم وهو محتجب

ولاح برق أهاج الشوق لامعــة
وهب نشر الصبا فاهتزت القصُـب
وألك الغر والصحب الذين غـدوا
هم السادة الكرام والسادة النجب
أجل آل وصحب فضلوا شرفــا
زكوا وطابوا فلا لغو ولا صخب
هم نجوم الهدى والفائزون غــدا
ومن فضلهم والنهى يملى ويكتتب

القصيدة

التى يقرؤها أهل المدينة فى حضرة السعادة

يـا رحمـــة للخلق يا واصـل ... يـا بحر جود مـا لـه ساحـل
يـا مـن بـه لا يحرم السائـل ... أنت شفيع الخلق حصن النزيل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

يـا مـن عليه الضب قد سلما ... والظبى تعظيمـا لـه كلمـا
يـا من رويت الجيش بعد الظما ... ماءا فراتـا من نبـات يسيـل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

يـا مـن عليـه الله قـد أنزلا ... ذكـراً حكيمـا معجـزا للملا
كـن لى معينـا فى البـلا ... لاسيمـا فى الحشر عنـد الجليل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

يـا مـن له تجلى جميع الكروب ... لهوت عن موقف يوم الخطوب
ما فقت حتى أو بقتنى الذنوب ... وما بقى فى العمر إلا القليل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

جـاوزت خمسينـا ولم أنتبـه ... بين حـرام عشت والمشتبـه
آمنـت بـالله ومـا جئت بـه ... وبـالذى حدثت عـن جبريـل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

أزكى صـلاة الله طـول المدى ... إليك تهـدى يـا نبى الهـدى
وآلك الأمجـاد أهـل النـدى ... جـارك يرجـو بك سترا جميل

أيـا رسـول الله! إنى دخيـل

استطراد

إن هذه القصيدة التى اعتاد أهل المدينة حفظها قصيدة بليغة تنسب إلى عثمان البصير الحموى قصيدة للثناء والمدح.

وعثمان البصير من قرية دير سمعان[1] التابعة لمدينة معرة النعمان وأخذ الإنابة من المرحوم ابن الجندى شيخ الصلحاء الشيخ عبد الرحمن والشيخ اسحق، وضرب مثلا فى فضله وكماله فى ديار الشام وحلب، وكان متفوقا فى العلوم والفنون العربية مع كونه ضريرا، وتاريخ ولادته ليس مضبوطًا، ولكن وفاته بعد سنة ١٢٥٠ الهجرية.

وكان الأديب المشار إليه قد يئس من قرار الأطباء وحزن أشد الحزن وبعد الحزن الشديد ترك اللجوء إلى الأسباب الظاهرية واختار مسلك الإمام البوصيرى «عليه رحمة الله القوى».

إذ مسح النبى ﷺ فى رؤياه جسم عثمان البصير العليل المشلول بيمناه الكريمة ولمسه ولم يبق أثر من مرض الشلل فى جسمه واستيقظ من نومه وقام وأخذ يسير ويمشى.

ولما كان الشيخ عثمان البصير شخصا فاضلا يحب المرح والتحدى فبعدما شفى من مرضه واطمان تمام الطمأنينة على زواله فاستدعى الطبيب المسيحى الذى وعى عدم وجود دواء لمرض الشلل قائلا الفالج لا تعالج وطلب منه أن يعالج مرضه ولكن الطبيب المعالج قال إننى وجدت دواء سريع التأثير وأنشد القصيدة التى نظمها تلك الليلة وهو يتمشى وانبهت ذلك الطبيب وتحيره.

وأجبرت هذه القصيدة الطبيب المتحير على التصديق بنبوة محمد ﷺ ولكنه لم يظهر إسلامه خائفا من ضياع ما فى يده من الثروة والغنى. إلا أنه مات على الإسلام هذا ما يرويه العارفون بالتواتر انتهى.

(١) دُفن عمر بن عبد العزيز فى هذه القرية.

فضائل المدينة خواص تراب المدينة المنورة وفواكهها

يلزم أن يكون معلوما لدى الذين سافروا فى الأراضى الحجازية المقدسة وقاموا بالسياحة ولا سيما الذين اطلعوا على الأحاديث النبوية والذين يعتقدون فيها أن الغبار الصحى من قبل الله ـ للمدينة المنورة يشفى من علتى «الجذام والبرص»، والعلل الأخرى المزمنة المخيفة، ومن المروى المحقق أن الذين يستخدمون تراب المدينة بإخلاص تام وعقيدة صحيحة يشفون من أمراضهم إن الذين حملوه إلى بلاد الروم والممالك الأخرى واستعملوه فى أى علة من العلل شفوا وأفاقوا من عللهم، إذ قال شافى مرضى المعصية عليه أقوى التحية: «غبار المدينة شفاء من الجذام» وبهذا الحديث الشريف بين أن غبار المدينة ذو رائحة عنبرية وترابها دواء شاف من مرض الجذام.

عندما كان الرسول ﷺ داخلاً إلى المدينة عائداً من غزوة تبوك الغراء استقبله بعض الذين لم يستطيعوا أن يشتركوا فى تلك الغزوة لأسباب مختلفة من سكان دار الهجرة، استقبلوا الجيش الظافر النبوى، وعندما تلاقى المستقبلون بصفوف الغزاة ارتفع الغبار نتيجة لحركات أقدام الجمال والخيول وزاد عن حد الاعتدال فأزكم أنوف الغزاة، فانزعج الأصحاب الكرام وأمسكوا أنوفهم؛ فلما رأى قائد فرسان الأنبياء «عليه أكمل التحايا» ذلك قال: «والذى نفسى بيده إن غبار المدينة الطاهر دواء لكل داء وهو شفاء لمرضى الجذام والبرص». وبهذه البشارة نشر فى نفوس الصحابة التسلية والحبور.

خاطـرة

إن مثل هذه الكلمات التى تطيب خاطر الجنود تلقى لتهدئتهم ودفع الملل والضجر عنهم، حتى إن قواد الجيوش والفيالق يلقون بعض الخطب الحماسية

وبعض الكلمات المثيرة للشوق والحماس للجنود الذين تحت قيادتهم حتى يزيلوا ما فى نفوسهم من الضجر والانزعاج، وأن يشحنوا نفوسهم بالغيرة والشوق الجديد، إذا ما قيل هذا، فتقول لهم: إن ما يسرده قواد الجيوش فى خطبهم من الأدلة وما يستندون إليه من النقاط والحجج والمسائل ليست خالية من النفع والفائدة، ولكن أليست هذه الأدلة التى يأتون بها تذكر بالنعم الإلهية التى بشرت بها الأحاديث الشريفة؟ وإذا اشتملت هذه الخطب لبعض درجات الوعود وإذا ما تحققت مقاصد القواد بحمية الجنود وهممهم وغيرتهم فإذا ما قيل لا يبق لتلك الوعود أى قيمة وكأنها لم تكن فهذا صحيح وهو محقق كذلك.

ولكن هل يقاس منزلة القواد لدى الملوك بالمكانة التى يتمع بها النبى ﷺ عند الله سبحانه وتعالى؟

وهل يتصور قائد لم يكذب على الأقل مرة واحدة؟ وأين هو ذلك القائد الذى قدم جنده على نفسه؟! ومع هذا فمن المحقق أن الملوك يلون بدون تردد شكر قوادهم وشكاياتهم فى أثناء الحرب، وعندما يساق الجنود لإنقاذ شرف الدولة والمحافظة عليها، وليس فقط فى مثل هذه النقاط المهمة حتى الآن يقبل شكر القواد وشكاياتهم ولايرد.

وبما أن الأقوال الصادرة من فم النبى ﷺ المحسن تقترن بالوحى الإلهى، فالأحاديث الشريفة مهما كان موضوعها ومحتواها فيجب أن يبعد عن الذهن عدم صحتها، أعاذنا الله تعالى من مثل هذه الأمور؛ فالذين يتخيلون مثل ذلك يقتضى عليهم أن يصححوا عقائدهم وأن يجددوا إيمانهم. انتهى.

قد حدث ذات يوم أن قام بعض الأفراد من قبيلة بنى الحارث بالتظاهر بالمرض والضعف وقالوا إنهم فى غاية الضعف والتعب من جراء مرض الحمى، فنالوا شرف المثول بين يدى النبى ﷺ، فأخذ كاشف الغُمة «عليه السلام والتحية» بعضًا من التراب من مكان يقال له حصيب ووضعه فى مقدار من الماء ثم قال لهم فليتفل واحد منكم وينفخ فى هذا الماء قائلا: «بسم الله من تراب أرضنا، بريق

بعضنا، شفاء لمريضنا، بإذن ربنا»، ثم يشرب كل واحد منكم من هذا الماء، ففعلوا مثل ما أمرهم رسول الله ﷺ فنجوا من مرضهم، إن هذا الحديث يكفى للدلالة على أن تراب المدينة شفاء مَحْض.

فائدة

كان قريبًا من حديقة «مدشونية» حفرة، وكان أهل المدينة يأخذون من هذه الحفرة قليلاً من التراب وكانوا يسقونه لمرضى الحمى كما ذكر فى الحديث الشريف، قال ابن النجار: إننى قد رأيت تلك الحفرة، وما زال الناس يأخذون ترابها ويرسلونه إلى أطراف البلاد بأمل الشفاء، ويروون أن من يتداوى به يشفون من أمراضهم، وقد استعملته بنفسى.

وقال الإمام السمهودى: «إن الحفرة المذكورة ما زالت فى زمنه وإن الناس يأخذون من ترابها ويرسلونه إلى بلاد بعيدة، كما أن علماء السلف قد أروا تلك الحفرة لتلاميذهم فاكتسبوا الشفاء باستعماله وكثيرون من الصالحين استعملوه وشفوا».

ثم قال: إننى تأكدت من صحة ما يقال باستعماله شخصيًا «ثم أضاف: كان أحد أقاربى تعرض لمرض الحمى ولم يستطع أن يتخلص منها مدة عام كامل، فأخذت مقداراً من التر اب وضعته فى ماء كما سبق توضيحه وسقيته بعد التفل، قد شفى المريض فى ذلك اليوم وقام على رجليه» وبكلامه هذا أكد رواية ابن النجار وصدقها.

ويبتدر بعض الناس الآن غسل المريض بالحمى بأخذ تراب من حفرة ما معتقدين أنها تلك الحفرة المذكورة ويخلطونه بمقدار من الماء ولكن الأولى أن يستخدم وفقًا للرواية التى سبق ذكرها آنفا، ثم الاغتسال بعد ذلك حتى يشفى وفق مفهوم الحديث سالف الذكر، والله الشافى.

أنا المؤلف لم أوفق فى زيارة حفرة المدشونية، ولكننى رأيت بعض الناس يأخذون تراب تلك الحفرة وبعد التخمير يمهرونه بمهر خاص بتراب بتراب خاص ويوزعونه على الحجاج مقابل عطاياهم، إنه تراب مائل إلى اللون الأبيض، وإذا

ما نظر إلى شفاء الذين يستعملون ذلك التراب بعد التخمير يمكن الحكم بأنه مأخوذ من حفرة «المدشونية» التى عرفها الإمام السمهودى.

المدشونية: اسم بستان جميل يقع فى جهة المدينة المنورة من البساتين التى يطلق عليها العوالى، وفى داخل هذ البستان الجميل عدة حفر قديمة ومع خلو هذا البستان من سور يحميه فاللصوص لا يستطيعون أن يصلوا إلى محاصيله ويسرقوها، مع أن البساتين المحاطة بالأسوار وفى داخلها عدة حراس تنقذ محاصيلها من البلح بصعوبة كبيرة، وعلى هذا يمكن أن يعد عدم دخول اللصوص فى بستان المدشونية من جملة خصائصه. انتهى.

وكان النبى ﷺ كلما أحضر له مريض أو مجروح يتلو الدعاء سالف الذكر ثم يأخذ من الأرض قليلاً من الغبار بأصابعه المباركة ويمسح به المريض؛ جاءه يومًا مريض يشتكى من جرح رجله وعرض عليه أنه لا يستطيع أن يتحمل الأوجاع فما كان من النبى ﷺ مداوى جروح أمته إلا أن رفع قطعة الحصير التى كان يجلس عليها وأخذ قليلاً من الغبار بسبابته[1] المباركة ومزجه بريقه السعيد ثم قال: «بسم الله ريق بعضنا يشفى سقيمنا» ثم مس به جرح الجريح، وبناء على ما نقله من كان فى مجلس النبى ﷺ فى ذلك اليوم قد التئم جرح المجروح وعُوفى من علته وعاد سالما معافىً.

كما أن بلح المدينة يفيد من شفاء بعض العلل والأمراض، إذ ترى مرضى البلدة الطاهرة يشفون بتناول سبعة أعداد من العجوة صباحًا فى سبعة أيام، وإذا ما سئل عن سبب يشفون يقولون: «إن الصديقة ـ رضى الله عنها ـ نبهت المصابين بعلة[2] «الدوام والدوار» يأكل فى كل صباح سبعة تمرات وينقل عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «قد مرضت فى فترة ما وشرفنى إذ ذاك طبيب مرضى القلوب من أمته ـ رضى الله عنه ـ فى منزلى ووضع يده السعيدة بين نهدى وطيب خاطرى بلفتة كريمة تساوى الدنيا بما فيها قائلاً «إنك رجل شجاع»

(١) يطلق السبابة على إصبع الشهادة.

(٢) دوام دوار: يعنى الصداع المزمن يقال للصداع المزمن فى الاصطلاح الطبى دوار الرأس.

وإذ ذاك ورد من الأطباء الحذاق الحارث بن كلدة، فأحضر عدد سبع حبات من بلح العجوة واسحقها وأخذ ماءها وبدأ يعالجنى بها وسقانى من ذلك الماء، وفى الواقع أن بلح المدينة المنورة يجمع خصائص عديدة فمن يأكلونه فى الأوقات التى عينتها الأحاديث الشريفة لا يؤثر فيهم لا السحر ولا سُمّ هلاهل المهلك، لأن النبى ﷺ قال: «ومن تصبح بسبع تمرات من العجوة لم يضره يومئذ سم ولا سحر» و «من أكل سبع تمرات عجوة ما بين لابتى[1] المدينة على الريق لم يضره فى يومه ذلك شىء حتى يمسى وإن أكلها حين يمسى لم يضره شىء حتى يصبح» و«من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» «حديث شريف».

و«اعلموا أن الكمأة[2] دواء العين» و«إن العجوة من فاكهة الجنة، والكمأة من المن وماءها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهى شفاء السم». «حديث شريف».

البرنى:

وبما أن البلح المسمى بالبرنى كان من البلح المرغوب لدى الرسول ﷺ لأجل ذلك مدحه النبى ﷺ قائلاً: «يا أهالى المدينة إن أفضل أنواع البلح الذى ينبت فى بلدكم البرنى» «حديث شريف» إنه يخرج الأمراض والعلل من بطن آكله وإنه غير مضر ولا يجلب العلل» والحديث الشريف الذى يشمل ذلك المعنى «خير تمركم البرنى يخرج الداء ولا داء فيه»، ولا نعرف حكمة تخصيص الشفاء بسبعة أعداد من بلح العجوة ولا سره، ولكنه يلزم الاعتقاد بكل إخلاص وطمأنينة لحكم الحديث الشريف وأن يعتمد على أن البلح العجوة يجمع الفيض والبركة، لأن الذين داوموا على أكله قد تواتر شفاؤهم.

إن العجوة معروفة لدى أهل مكة، إنها نوع من البلح يحتوى على الشفاء المحصن، لأنها خلقت من بقايا طين حضرة أبى البشر[3] وتجمع بين جميع

(١) **لابتى**: معناه التل والربوة.

(٢) **كمأة**: نوع من عش الغراب ينبت فى أماكن ظليلة وجمعها أكماء. وانظر فى هذه الأحاديث كتاب الطب النبوى لابن القيم ص ٢١١٤ وما بعدها. ط١٤ دار الوعى ـ حلب بتحقيق الدكتور عبد المعطى أمين قلعجى.

(٣) جاء فى الحديث الشريف: «أكرموا عماتكم النخلة..». انظر تفصيل ذلك فى كتاب النخلة للسجستانى.

الخواص لذا ينقل أنها أنفع الفواكه جميعًا للإنسان، وبناء على قول ابن الأثير، إن هذا البلح من نوع أكبر من «الصيحانى» ولكن لونه مائل إلى السواد. وإن كان الإمام داود يذهب إلى أن العجوة أوسط أنواع البلح من إنتاج المدينة وذهب بعض المؤرخين إلى أنها من أنواع بلح مكة، إلا أن الإمام البزار قال: «إن بلح العجوة من جنس البلح الذى غرسه النبى ﷺ بنفسه» لذلك رجّح أهالى المدينة قول الإمام البزار على سائر الأقوال وينقلون أن اليهود قد أحرقوا نواة تمرة ثم قدموها إلى النبى ﷺ قائلين يا محمد: أغرس هذه النواة فإذا ما نمت وترعرعت نصدق نبوتك» فأخذها النبى ﷺ وابتدر بغرس النواة بنفسه ومن هذه النخلة نشأت العجوة وأثمرت الشجرة فى الحال»، وفى سبيل تأييد مدعاهم استدلوا على ذلك بالرائحة الخاصة التى تمتاز بها العجوة، وفى الواقع أن ما يدعيه أهالى المدينة الطيبة مقترن بالصحة إذ يحس فى حين تناولها برائحة طيبة.

ومع هذا ليس هذا البلح عين ما غرسه صاحب المعجزات بيديه السعيدتين من البلح.

ولم يبق فى عصرنا شىء من التمر الذى غرسه النبى ﷺ بيده المؤيدة بالإعجاز، هناك من يدعى وجود نخلة واحدة بين نخيل المدينة المنورة من جنس التمر الذى غرسه النبى ﷺ إلا أن هذا الادعاء من قبيل الظنيات، وإن كان بلح العجوة موجودًا الآن إلا أنه ليس من نوع البلح الذى غرسه النبى ﷺ ولكنه نوع متفرع من بلح يسمى «الجادى». ويلزم أن يكون تمر النبى من صنف البلح الذى يعرف بـ «الحلية» إلا أن العجوة نوع من البلح بين الحلية، وحجمها يشبه حجم الحادى ولونها يشبه لون البلح المسمى «غراب» وطعمها يشبه للحلية، وحجمها يشبه حجم الجادى، لذلك يظن الذين لا يعرفون أشياء عن أجناس البلح أن العجوة بلح النبى ﷺ، كما أن الذين لا يعرفون عن حقيقة بلح الحلية شيئًا يدعون أنه لم يبق بلح من جنس بلح النبى ﷺ، كما ذكر آنفا إلا أن أهل الخبرة أثبتوا مدعاهم بكثير من الأدلة المقنعة والتى تؤكد على أن لهم خبرة ومهارة فى تعيين جنس البلح أثبتوا أن بلح الحلية من جنس بلح النبى ﷺ.

ولما كان النبى ﷺ يحب العجوة حبًا جَمًّا أمر ورغب أهالى مكة فى أكل هذا البلح، ولما كان الأصحاب الكرام يعملون بموجب الأمر النبوى أحبوا بلح العجوة وأقبلوا على أكله وفق تعليمات النبى ﷺ، ومازال أهل المدينة يراعون هذه الأصول إذ يجمعون بلحهم فى موسم الجنى ويملئون به أزيار ويأكلونه فى أيام الشتاء وإنهم يحرصون على حفظ البلح أكثر من أى شئ آخر، وليس هناك مدنى لم يحفظ فى أيام الصيف ما يكفيه من العجوة لأيام الشتاء.

وفى إستانبول يعد الناس الحطب والفحم، وفى البلاد العثمانية الأخرى يعدو للشتاء جَرِيش البر المسلوق «برغل، وما يلزم لحساء «طارخنة»[1] والذين لا يخزنون هذه الأشياء فى مواسمها يعانون كثيرًا فى الشتاء ويتعبون، هكذا يعانى من لم يخزن بلح العجوة فى الشتاء من سكان دار السكينة ويتعبون كثيرًا، ومازالت هذه العادة قائمة إلى الآن بين أهالى المدينة، ولكن ما جمعوه وادخروه من البلح على أنه عجوة ليست من العجوة المأثورة، ويطلع على ما يدخرونه من البلح «مجلات وحشية» وهو خليط ومزيج من هجين نوع من البلح، ولما كان هذ النوع من البلح أرخص ثمنًا فعربان البوادى والفقراء من الناس يرغبون فى تخزينه ظنا منهم أنهم يخزنون بلح العجوة، أما الأغنياء من الناس يخزنون للشتاء بلحًا من جنس«حلية، شقرى، بيض، حلوة» وثمن هذه الأنواع أغلى بالنسبة للبلح المخلوط.

ويبين مؤرخو المدينة الطيبة سبق تسمية بلحها بأسماء معينة ويقولون فى تعريف بلح الصيحانى: إن نخلة قد صاحت مصدقة للنبوة أو أن البلح نبت أولاً فى حديقة يطلق عليها الصيحانى، والذى نقل القول الأول هو جابر بن عبد الله الأنصارى، ولما كان هذا القول يروى مستندا إلى أسانيد جيدة يرجح على القول الثانى وتؤتى هذه الرواية بكرامة أهل البيت وقربتهم وشرفهم.

وقال حضرة جابر وهو يبين سبب تسميته بلح الصيحانى، كنت قد ذهبت يومًا

(١) نوع من الحساء يصنع من الزبادى أو الحليب المتخمر ويخلط بالدقيق أو بماء اللحم ثم ينشف فيطحن.

مع النبى - عليه صلوات الله الملك المنان - إلى بساتين النخيل، وكان معنا على بن أبى طالب وكانت يده المؤيدة بالفيض فى يد النبى ﷺ .

وكان كلاهما أمامى بعدة خطوات، ومرا بجانب نخلة وكانت تلك النخلة موزونة القامة فصاحت صيحة شوق وابتهاج وقالت «إن ذلك الشخص سيد الأنبياء محمد «عليه صلوات الأحد» وبجانبه سيد الأولياء أبو الأئمة الطاهرين» كذلك نطقت إحدى النخيل القريبة منها وقالت صائحة: «إن هذا الشخص محمد رسول الله وبجانبه على سيف الله» فقال رسول الله ﷺ «يا على «فلتسم هذه الأشجار بعد هذا «بصيحانى»، وانتشر الخبر بين الأهالى وشاع وأخذوا يطلقون لهذا الجنس من النخيل «الصيحانى» انتهى.

وإن كان بلح المدينة كثير الأجناس مختلف الأنواع إلا أننى استطعت أن أعد ما يقرب من مائة وثلاثين نوعا «ولا يشبع للطاقة نوعى العجوة والبرنى وحلاوة مذاقها».

بناء على ما فصل فى الصورة الثانية من الوجهة الأولى لم تبق من أنواع البلح فى زماننا القدر الذى ذكره المرحوم السمهودى، لذا قرر أن يطلق على جميع أنواع البلح «اللون»[1] ما عدا الأسماء التى ذكرت فى الوجهة المذكورة وعددت.

(١) روى فى بعض كتب التاريخ أن أول من غرس النخلة هو شيث عليه السلام.

فى بيان وتعريف نجاة سكنة دار السكينة من مضرة الطاعون والدجال

قال النبى ﷺ ليبين مدى حبه القلبى للمدينة المنورة «اللهم حبب لنا المدينة كحب مكة أو أشد»، وبهذه الطريقة كرر النبى ﷺ الدعاء للمدينة، وسبب تكراره يومئ بزيادة رغبته ـ عليه السلام ـ، والداعى لهذا الدعاء ما قاله بلال بن رباح الحبشى اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن أبى ربيعة وأمية بن خلف إنهم أخرجونا من بلادنا وكانوا سببًا فى الهجرة إلى بلد كثيرة الوباء.

قال بعض الأئمة: «إن النبى ﷺ قد كرر الدعاء المذكور مرات عديدة؛ مع أن استجابته قد ظهرت بعد أول مرة»، إن الحكمة من هذا التكرار هى وفرة الوفرة فى أوزان دار الهجرة وأكيالها على شكل محسوس، إذ أن الفيض والبركة اللذين فى مد أوصاع المدينة المنورة لا يظهران فى أكيال وأوزان سائر البلاد، لأن النبى ﷺ كلما عاد من سفر إلى المدينة المنورة كان يمد نظره إلى جدران تلك المدينة وأحجارها وأسواقها وأشجارها ويرخى النظر بالفرح والابتهاج إليها، ثم يدعو عارضًا دعاءه إلى واهب الآمال إذ يقول: «يارب قدر لنا القرار فى المدينة ويسر لنا سبل المعيشة بالرزق الحسن، يارب! بارك فى المدينة بضعفى بركة مكة، اللهم اجعل مد المدينة وصواعها وأكيالها مباركًا لهم».

وكما هو معلوم لدى من يدققون النظر أن الفيض والبركة اللذين يسودان المدينة فى يومنا هذا هما أثر من آثار استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذلك الدعاء إن مؤونة إدارة المدينة المنورة لسنة كاملة تقابل مؤونة إدارة البلاد الأخرى لستة أشهر، إذ يحدث أحيانًا أن طعامًا يرى غير كاف لإشباع نفر واحد يشبع عدة أشخاص ثم يفيض أيضا، إن هذه الأمور الدقيقة معروفة سواء أكان عند أهالى

المدينة أو كان لدى المجاورين والمسافرين الواردين، كما أن المدققين من الزوار يزيدون من محبتهم ورعايتهم لأهل المدينة إذا جربوا ذلك ورأوا بأعين رءوسهم ذلك الفيض وتلك البركة.

وإذا كانت الأشياء محسوبة لهذا البلد هذا القدر من الفيض والبركة لا شك فى أن أهالى ذلك البلد يفضلون الآخرين فى أمور دينهم وآخرتهم وبناء على هذا فإن طاعات وعبادات سكنة دار الهجرة تستلزم تضاعف أجرها ومثوبتها.

وكان أهالى دار الهجرة فى عصر النبوة عندما ينضج التمر ويصل إلى كماله، يأخذ كل واحد منهم عنقوداً من التمر ويقدمونه لعتبة رسول الله حتى ينالوا دعاء رسول الله ﷺ بالبركة، وكان الرسول ﷺ يمسك التمر بيديه المباركتين ويدعو لأهل المدينة بسبب ما يؤخذ إليه من البلح الطازج قائلا: اللهم أنعم على مدينتنا وأكيالها بالبركة، يارب كان إبراهيم عبدك ورسولك، وإننى عبدك ورسولك، وقد دعا إبراهيم لمكة المكرمة، وأنا أدعو أن تنعم بمثل ما أنعمت على مكة المكرمة من الفيض والبركة على المدينة المنورة، وشرف فى يوم ما مع على بن أبى طالب المحل الذى كان يسكنه سعد بن أبى وقاص فى «حرة سقيا» وتوضأ الرسول ﷺ فى هذا المكان ثم استقبل القبلة ودعا قائلاً: اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ودعاك لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك فى مدهم وصاعهم مثلى ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين، وقال ابن شَبّة: إن ملك السرائر المصطفى ـ عليه من الصلوات أصفاها ـ قد كبر فى خاتمة دعائه.

وخرج رئيس ينابيع الفيض والبركة ـ عليه أصفى التحية ـ فى يوم ما للذهاب إلى مكان يقال له «بيرحاء» فى نواحى المدينة المنورة، وكان فى معيته أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ، وعندما وصلا إلى المكان المذكور استقبل الرسول ﷺ القبلة ورفع يديه حتى ظهر بياض إبطيه تحت منكبيه وقال: يارب كان إبراهيم خليلك ودعا لأهل مكة، أنا أيضا رسولك، أدعو لأهل المدينة طالبًا الفيض

والبركة، وكما أحسنت إلى أهل مكة فالق ببركتك لمد سكان المدينة وصواعهم وضاعف قليلهم وكثيرهم ضعفين، يارب كل من يقصد أهل المدينة بالسوء فأجله وأذبه كما يذيب الماء الملح[1]» «حديث شريف» هذه الرواية منقولة عن أبى هريرة بالتواتر.

نقل علة الحمى خارج المدينة المنورة

تعرض بعض أصحاب النبى ﷺ فى ابتداء الهجرة المستلزمة للحكمة لعلة الحمى واشتكوا إلى رسول الله ﷺ، فصعد شافى الأمة من أدوائها ـ عليه أجمل التحية ـ المنبر وقال: «اللهم أنقل عنا الوباء» وبهذا الدعاء رجا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكيم المطلق العلة إلى نقل العلة إلى أو إلى أماكن أخرى وفى الغد قال: قد جاءتنى الليلة عجوز فى ملابس سوداء وقالت لى: إن العلة التى دعوت لنقلها هذه هى فأين تريد أن أنقلها من المدينة المنورة؟ فأجبتها، أن تنقلها إلى «خم» وبهذا أخبر بأن علة الحمى قد نقلت إلى موقع «خم» وبعده بيوم مثل أحد أبناء السبيل أمامه آتيا من جهة مكة، فسأله قائلا: من الذى قابلته فى الطريق؟ فأخذ الرد الذى يقول «لم أقابل أحدًا غير عجوز منكوشة الشعر فى ملابس سوداء» فقال المطلع على السرائر ـ عليه سلام الله القادر ـ إن تلك العجوز علة الحمى وإنها لن تستطيع أن تعود إلى المدينة مرة أخرى.

وهكذا نقل ما جرى، وعلى هذا فعلة الحمى بين حرات قريضة وعريض، اللهم أحمنا فى المدينة وأنقل حماها إلى مهيعة[1]! وإذا بقى منها شىء أبقه خلف مشعط[2]، وقال إذا كان فى جزء من المدينة وباء فهو فى «ظل مشعط» وكل من شرب ماء فى جحفة بعد هذا الدعاء تعرض للحمى، وكل طائر طار من فوق نواحى هذه القرية أصيب بمرض ووقع على الأرض.

وجاء فى سيرة ابن هشام، أن تلك الأحاديث تومئ إلى أنه قد ظل فى المدينة نوع من المرض قليل الخطر وهو المرض الذى فى المدينة الآن، ولكن هذا المرض

(١) تقدم تخريج هذه الأخبار.

(٢) مهيعة اسم آخر للجحفة.

(٣) مشعط على وزن مرفق اسم قلعة فى بلاد بنى هذيل وفى الجانب الغربى من مسجدهم وبالقرب من «بقيع الغرقد».

ليس بشيء خطير نتيجة لاستجابة دعاء الرسول الكريم، ولكنه مرض رجع فى عصر الرسول لكفارة الذنوب وهو مرض خفيف، وهذا المرض هو حمى «أم ملدم» وبناء على الروايّة التى نقلت عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أن حكيم الأنبياء ـ عليه أفضل التحايا ـ حينما دعا، فى الصورة المشروحة، رأى ذلك المرض ورغب أن يرحل إلى نواحى «قباء» وكان المرضى الذى رآه الحمى المسمى بـ «أم ملدم» الذى اتجه ناحية قباء رأسًا، بناء على الأمر الذى صدر له من النبى ﷺ، وأخذ يزعج سكانها، ولم يكن فى استطاعة مخلوق أن يفهم سر هذا الحكم وقد انزعج سكان قرية قباء من الحمى العارضة لبلدهم، وذهبوا إلى الرسول ﷺ يعرضون عليه ما حدث وطلبوا منه أن يدفع عنهم تلك الحمى.

فرد عليهم الرسول ﷺ قائلا: «الدعاء لرفع الحمى وإزالتها ممكن ولكن تحملكم لها كفارة لذنوبكم» فقالوا: «إننا نتحمل المرض بأمنية كفارة الذنوب ثم عادوا».

إخطار

وإذا قيل بما أن المرض من الأشياء المحسوسة فكيف يظهر على شكل امرأة عجوز؟ يقال لهؤلاء: إن أقوال النبى ﷺ وأفعاله إخضاعها لقواعد العلوم المضبوطة والفنون المعلومة من جهة، ومن هنا يجب أن تنحى فكرة التحليل والتطبيق جانبًا تأدبًا، ومن جهة أخرى ينبغى أن يقبل كل ما يروى عن النبى ﷺ دون تردد، وأن يصدق. انتهى.

إن النبى ﷺ المطلع على أسرار الحكمة قد تفضل قائلا: قد أرانى جبريل الطاعون والوباء ومرض الحمى، وكلفنى أن أبقى واحدًا من هذه العلل فى المدينة، وإننى أبقيت على الحمى ورددت الطاعون، وإن كان الطاعون باعث استشهاد لأمتى إلا أنه زاجرا للكفار، وهذا ما ينقل عن النبى ﷺ ويروى؛ لذا لا يقدر لا الطاعون ولا الوباء الدخول فى المدينة المنورة، أما الحمى فهى ليست وباء ولكنها رحمة من الله.

قد فكر علماء الحديث فى هذا الموضوع ورتبوا هذا الحوار الذى يشتمل على السؤال والجواب:

السؤال: إذا كان الطاعون سببًا فى الاستشهاد، فهل يصح أن يدعو النبى ﷺ بعد دخوله إلى المدينة؟

الجواب: الطاعون عبارة عن طعن الجن، مع أن دخول الشيطان والكفار من الممنوعات من الدخول فى المدينة، وإن دخلا فلا يقدران على ضرر أحد، وهذا مما يدعو إلى الثناء والمدح للمدينة؛ لأجل ذلك دعى بعدم دخولهما، أو أن الطاعون فى المدينة لا يصل إلى شدة الطاعون الذى ظهر فى «عمواس، وجارف».

الحكم:

مع الاحتمالات الموجودة فى هذه الإجابة ليس هناك تاريخ يخبرنا بدخول الطاعون فى المدينة، والطاعون الذى أجرى حكمه فى سنة ٧٤٩ فى جميع أرجاء البلاد العربية حتى فى مكة المكرمة لم يدخل المدينة المنورة الميمونة، انتهى.

لما كانت الحمى فى المدينة مرضًا بدلاً من الطاعون فلا شك فى استشهاد فيمن يموتون فيها، ومن الخطأ أن يورد إنسان فى خاطره سؤال، يا ترى ماذا كانت الحكمة فى اختيار حاذق الأنبياء ﷺ علة الحمى من أجل أهل المدينة؟

عندما دعت الحاجة إلى الجهاد وحرب مشركى الحجاز وقتالهم ونزلت الآيات الجليلة تدعو إلى القتال كانت علة الحمى أضعفت الأصحاب الكرام فتفضل النبى ﷺ بالدعاء لنقل الحمى إلى الجحفة، وقد أصبحت المدينة المنورة التى كانت مركز العلل والأمراض أصبحت بفضل دعاء النبى ﷺ أصح بلاد الله وأصلحها، وقد اختيرت علة الحمى حتى ينال مرتبة الشهادة من لم يستشهدوا فى الجهاد وماتوا بسبب الحمى، ولم يقدر وباء الطاعون أن يدخل المدينة المنورة بعد دعاء النبى ﷺ وبهذا تحقق أن دعاء النبى ﷺ كان رهن الاستجابة. وإن جاء وقت لبيان آراء أطباء عصرنا فى وباء الحرمين ومناقشة هذه الآراء إلا أننا تركنا ذلك لذيل الصورة.

وإنه قد عين من قبل الله سبحانه وتعالى كثير من الملائكة فى طريق المدينة ليحولوا دون دخول الطاعون والدجال فيها، كما جاء فى الخبر، وإن كان الدجال سيقدم إلى قرب سور المدينة إلا أنه لن يستطيع الدخول فى داخل المدينة، ليس هناك بلاد مصونة من دخول الدجال غير الحرمين، وليس فى الحرمين شارع يخلو من حراس من الملائكة، وسيتوجه بالدجال عن طريق الشرق إلى المدينة الأمينة وسيتعرب من خلف جبل أحد وعندما يصل إلى هذا الجبل سيعيده الملائكة إلى مكان ظهوره ويهلكونه، وسيكون للمدينة فى ذلك الوقت سبعة مداخل وسيكون فى كل باب ملكان والمنافقون سيخرجون من هذه المداخل ويبايعتون الدجال.

ووقف النبى ﷺ يومًا من الأيام بين رايتين وخاطب أصحابه قائلا: «ما أجمله من مكان المدينة المنورة، عندما يخرج الدجال فى يوم الضلالة ستحمى الملائكة شوارع المدينة وأطرافها، ولن يدخلوه إلى المدينة، وإنه لن يبقى منافق لا يبايع الدجال فى ذلك اليوم وسيكون معظمهم من طائفة النساء، إن اسم ذلك اليوم يوم «الخلاص» وفى يوم الخلاص ستطرد المدينة المنورة المنافقين وتزيلهم عن المدينة كما يزيل كير الحداد وسخ الحديد وينقيه، وسيكون مخيم الدجال فى ذلك الوقت فى مكان يسمى «مجمع السيول» وسيكون معه سبعون ألفا يهوديًا مسلحًا، وخاطبهم فى يوم آخر قائلاً: «يا أهل المدينة! تذكروا يوم الخلاص!» وأجاب على سؤال الصحابة» أى يوم، يوم الخلاص؟» هو اليوم الذى سيتوجه فيه الدجال إلى المدينة المنورة، ويأخذ المنافقين والمشركين فى دائرة بيعته ويظل المؤمنون وحدهم إذ تخلصوا منهم».

لم يتفق الأئمة الكرام فى تعيين المحل الذى سينزل فيه الدجال فى المدينة المنورة فقال الإمام أحمد بن حنبل: إنه سينصب خيامه فى ممر محل يطلق عليه «جرف»، وقال ابن ماجه إنه سيعسكر فى مكان ينتهى إلى ممر جرف من الطريق

الأحمر. وقال الزبير بن بكار إنه سينصب خيامه فى موقع «مجمع السيول» ومع هذا فالثلاثة صادقون فى أقوالهم، وإن ظهرت الأماكن التى ذكروها مختلفة إلا أن كلها فى ساحة الميدان فالألفاظ مختلفة ولكن مفادها واحد.

وأينما نصب الدجال فى المدينة سيمنع من قبل الملائكة كما ورد فى الحديث الشريف، ولن يدخل المدينة المنورة وسيعرض المشركون والمنافقون بيعتهم على الدجال وقد أصابهم الهلع والقلق من حركات الأرض وبهذا لن يبقى داخل أسوار المدينة إلا المسلمون الخُلص وبهذا سيتضح أن المدينة المنورة الطيبة تنفى الخبث وتزيل الوسخ، ويرون أن أكثر من سيعرض بيعته للدجال من الطوائف النساء والجوارى.

مهمة

دجال مأخوذ من كلمة «دجل» بمعنى سحار وكذاب، وبناء على عقيدة أهل السنة أنه سيظهر فى آخر الزمان وإنه سيحكم ما يقرب من أربعين يومًا ما بين الشرق والغرب، وستظهر على يديه بعض الخوارق مثل، إنزال المطر، وتنمية العشب، إحياء الموتى، الكشف عن الكنوز، وإنه سيدعو الذين بايعوه إلى عبادته ويأمرهم مدعيًا الألوهية، وعندئذ سينزل عيسى بن مريم على الأرض بقدرة القادر المطلق وسيقتل الدجال بجانب «لد» من جبال الشام وعلى قول إن الدجال حينما يرى حضرة عيسى ـ على نبينا وعليه التحايا ـ سيذوب مثل الملح والذين بايعوه سيتعرضون جميعًا للقتل ويزالون من الوجود.

إن الأخبار الصحيحة والأسرار الخفية التى ذكرت من الغوامض الشرعية التى أنبأ بها النبى ﷺ ماهى إلا وحى من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن التبليغات العلمية التى أبلغنا بها الأولياء الكرام والصلحاء ذوى الاحترام بعد الاطلاع على الآثار النبوية، وإن هذه التبليغات الشرعية خارج الاطلاعات البشرية والإيمان بها يعد من الضرورات الدينية وحسن تلقيها من الوظائف المذهبية، كما هو معلوم لدى أربابها.

ذيل

سُئِلَ أحد الذين أجلوا أداء فريضة الحج لوقت شيخوخته وهو مالك للقدرة الشرعية للذهاب إلى دار الأمن حرم الله محرمًا «لماذا تتردد فى إيفاء الحج وما هو السبب؟» ولا شك أنه سيجيب قائلاً: «إننى مازلت فى طور الشباب! إذا ما ذهبت إلى الحج لن أستمزج بماء البلاد الحجازية وهوائها، ولاسيما الازدحام والكثرة يسببان انتشار الأمراض المعدية، ومن المحتمل أن أصاب بهذه الأمراض وأموت فى شرخ شبابى، وإذا فرض بأننى نجوت من الأمراض المعدية فإننى سأتبع هواى وأرتكب الذنوب بطيش الشباب وعندئذ أكون قد أنفقت النقود فى لاشئ، كما أننى أكون قد ضاعفت عصيانى لله.

ولكن الحجاج الذين يعودون سالمين يجب عليهم أن يتصفوا بمحاسن الأخلاق! ولا يكون هذا إلا باجتناب ارتكاب المعاصى والآثام وبالاحتراز من الاختلاط بالذين تعودوا على ارتكاب الآثام، ولما كان أصدقائى قد تغلبت عليهم حظوظهم النفسية ومادمت أننى سأختلط بهم عند عودتى فلن أتمكن من القيام بالأعمال الصالحة، لأن بلية الشباب لن تمكننى من الابتعاد عن بؤرة الفساد».

يرى فى هذا الجواب غير المعقول، كما لا يخفى على أهل التدقيق، أن هناك سببان مستقلان فى عدم ذهاب شبابنا» أقصد بهم من تجاوز الثلاثين: «**السبب الأول** عدم قدرتهم على مقاومة الأهواء النفسية بعد الرجوع من الحج، **والثانى**: وجود الأمراض فى الحرمين» وهو زعم فاسد.

وفى الواقع أن هذا الجواب يجذب الانتباه؛ فالذين يعتقدون فى القدرة الإلهية يتحاشون من تلك الإجابة ويجتنبونها، وإن كان هذا السؤال يبدو موافقًا لعقائد الموحدين، إلا أن أغلب شباب زماننا يحملون فى رءوسهم هذه الأفكار.

قد ألقيت ـ أنا جامع هذه الحروف ـ هذا السؤال سالف الذكر على الكثير من الناس وتلقيت منهم إجابات أبشع من ذى قبل، ولكننى وفقت فى تصحيح عقائد

غير قليلين منهم، ويجب ألا يخفى علينا أن هذه الإجابات ليست ثمار أذهانهم بل هى محاصيل بعض أشخاص ذوى أفكار فاسدة واعتقادات مضرة، والتى بذرت فى مزارع قلوب بعض المسلمين السذج، وكأن البلاد الحجازية ذات المغفرة مستعدة لإنبات الأمراض المعدية وإنه عندما يرد إليها الحجاج فى موسم الحج فمن المحال ألا تظهر فيها بسبب الازدحام الشديد، وباء الكوليرا، والأمراض الأخرى المعدية المخيفة وأن ذهاب الشباب إليها فى هذه الحالة يستدعى سفرهم حتى الآخرة أليست هذه العقيدة غريبة؟!.

وما يؤسف له، بينما كان تراب الحرمين الشريفين محفوظًا من قبل الله - سبحانه وتعالى - وأن الأوبئة والطواعين والعلل الأخرى المعدية قد طردت نتيجة لدعاء النبى ﷺ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة، إلا أن ما ينشره الأجانب ذوو الأغراض السيئة يتلقى قبولاً حسنًا ويعتقد فى صحته التامة! مع أن عمر الإنسان مقدر من قبل الله لا يزيد دقيقة ولا ينقص ثانية، كما يؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٤).

إن كشوف أطباء أوربا الوهمية أن أراضى الحجاز المقدسة موطن ومولد مرض الطاعون قد دفعت بعض أهالى أوربا فى أوائل القرن الحالى إلى تصديق ادعاءاتهم، ونتيجة لهذا التصديق تطرق خلل لعقائد قصار النظر من العوام، إلا أن عدم استناد الكشفيات المشكوكة لهؤلاء الأطباء إلى أساس لم يثبت حتى فى تلك الأوقات، وإن كشفهم ما هو إلا وهم مطلق.

ليس هناك أحد من هؤلاء الأطباء الحاذقين قد زار أراضى الحرمين الشريفين حتى تؤخذ تجاربه وكشوفه مأخذ الجد، وترقى إلى كونها حكمًا.

ولما كان فن الطب قد تقدم فى عصرنا إلى أقصى حد، وقد وجد أطباء أوربا منشأ الطاعون ومولده وخطئوا أسلافهم وقد أجروا فى هذا الخصوص تدقيقات كاملة ونشروا الحقيقة فى مؤلفات عديدة.

وإن كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكيم يعمل على تصديق فكرنا الصائب إلا أن بعض المسلمين السذج الذين بذر فى قلوبهم بذور الفساد لم يستطيعوا أن يخرجوا من مستنقع آرائهم العتيقة، فما أغرب أن يعتقد فيما قاله أطباء أوربا غير مشهورين إن أراضى الحرمين تنبت العلل المعدية، ثم يتردد فى تصديق ما قاله أطباء أوربا الحذاق «من: أن منشأ مرض الطاعون هو الهند وهذا ثابت قطعيًا» وتردد أطباء الإسلام فى تصديق ما قاله الأوربيون: إن الحرمين منبت العلل المعدية أى أن منشأ الطاعون البلاد الحجازية المقدسة، وأخذوا يتحرون عن جهات ظهور تلك العلة وأسبابها ويفحصون، وعندما أثبت «جاقود» أحد أساتذة مدرسة الطب الفرنسية وأحد مشاهير أطباء أوربا المتسم بالحذاقة والمتحلى بالرزانة الفكرية والفصاحة العلمية والمصدق لدى الجميع، إذ استنبط من المؤلفات التى كتبها علماء المدرسة المتمدنة فيم كتب عن الأمراض الباطنية أن مرض الطاعون «الكوليرا» المخيف يظهر فى أراضى الهند ويعرف الأسباب التى توجب ظهوره وذلك بالأدلة، وقد صدق أطباء الإسلام بلا تردد ما جاء فى ذلك الكتاب وقرروا أن منشأ ظهور مرض الطاعون الهند.

ولما نال أثر «جاقود» هذا ورأيه الرزين إعجاب الجميع قد رأينا من الواجب ترجمة هذه الرأى آملين بأنه سيكون سببا فى تصحيح أفكار الشباب المسلمين وعقائدهم:

أسباب تولد الطاعون وظهوره

يقول جاقود: إن السم القاتل المتسبب فى تولد الطاعون يتولد فى الأراضى الهندية ثم يندس فى البدن ويتغلغل فيه ليظهر المرض المخيف وإن كان السم القاتل فى أول ظهوره يشبه الأمراض البلدية فى قوته إلا أنه ينتقل من إنسان لآخر وهذا دليل قاطع على أنه من الأمراض المعدية، ولم يعرف إلى الآن سبب ظهور هذ السم فى مواطنه.

والحال أنه إذا ما حلل تراب المكان الذى يجرى فيه حكمه كأنه مرض محلى

عادى فأكثر أراضيه مستنقعات يرى فى هذا التراب مواد نباتية وحيوانية بوفرة! وحينما ينزل المطر وينخل تراب تلك الأراضى المذكورة يشتد تأثير تلك المواد النباتية والحيوانية الطبيعية، وإذا ما نزل المطر لفترة يومين بعد جفاف دام فترة ما، يجدد المطر وينبه الطاعون الذى قل أو نمى كليا.

ومع ذلك فطبيعة السم والأسباب الأخرى للمرض مجهولة إلا أن لإقامة الناس فى الأراضى الزراعية مزدحمين غير مهتمين بالنظافة دخل كبير فى تولد علة الطاعون ومن البواعث التى تنضم إلى المؤثرات الإقليمية التى تولد الطاعون هى عدم الاهتمام بالطهارة والنظافة وعدم الاعتدال فى الشرب والأكل بين الزوار الذين يجتمعون محتشدين فى مصب نهر «غُنج» وفى موقع يطلق عليه «جمته»[1].

ومع هذا ليس من الجائز أن نحكم أن المرض مربوط بالأراضى ذات الطبيعة المعينة والأراضى الزراعية نظرًا لوجود المرض الدائم فيها، وأن كل هذه الأسباب العديدة سبب يولد مرض، لأنه قد تحقق وجود المرض كمرض محلى فى الأماكن الأخرى من الأراضى الهندية حيث لا يزدحم الزوار والناس.

يطلق على المجتمعين من الهنود فى مصب نهر «غنج» وموقع «جمنة» حجاج، ولما ثبت يقينًا ظهور الطاعون بينهم فتعبير «يظهر الطاعون فى الحجاج» نشأ من هنا وبهذه القرينة قد أطلق على البلاد الحجازية المباركة «مولد الطاعون».

فالذين يتذكرون بعد المسافة بين نهر غنج والبلاد الحجازية والذين يعرفون أن مدينة الله آباد[2] حيث يلتقى النهر المذكور بنهر جمنة تبعد عن ميناء «جدة» ألف وخمسين ميلاً جغرافيًا فمن المحال ألا يعتقدون أن ما يدعيه أطباء أوربا ما هو إلا وهم مطلق ومن هنا لزم مد القراء ببعض المعلومات عن ذلك النهر المذكور، إن نهر «غنج» على وزن «كنج» نهر يستغنى عن تعريفه لدى أربابه، ينبع من جبال

(١) إن هذه الأماكن بسبب رطوبة المجرى تظل فى حالة المستنقعات.

(٢) تقع مدينة الله آباد فى الجهة الغربية الشمالية من مدينة «قالكوته» وعلى بعد ٤٧٠ ميلاً منها وعلى ٢٨ درجة طولية شرقية و٢٥ درجة وعلى ٤٥ دقيقة فى العرض الشمالى.

«هيمالايا» المستورة بالثلوج فى صورة دائمة وينصب فى خليج «البنغال» وهو نهر غاية فى العظمة والكبر، ويرتفع منبعه عن سطح البحر بـ «١٣٨٠٠) قدمًا فهو أعظم أنهار الهند وأهمها سواء أكان من الناحية التجارية أو من حيث الاتساع، وبما أن منبعه ومصبه فى بلاد واحدة أى فى داخل الهند فهو مرجح على الأنهار الأخرى التى تنبع من بلد وتصب فى بلد آخر، فمجرى ذلك النهر على العموم من البنجاب الذى يقع فى الجهة الشرقية الشمالية إلى «البنغال» والمياه الجارية التى فى أطرافها وأكنافها تتحد مع بعضها مثل عروف الأشجار وأوراقها ثم تلتقى كلها بنهر غنج ويشكل منظرها هيئة غريبة على شكل أوراق الأشجار، وإلى أن ينزل مجرى نهر الغنج من منبعه إلى هضبة مستوية شديدة الانحدار ومن مبدأ هذه الهضبة إلى خليج «البنغال» ١٣٠٠ ميل.

وعندما يصل هذا النهر للهضبة المذكورة المستوية، يساعد على سير الفلائك المحلية وبعدها بمائة ميل على سير مراكب كبيرة نوعا ما، وفى داخل مصبه بأربعمائة وسبعين ميلاً عند مدينة «الله أباد» يتحد بنهر «جمنة» على وزن عمرة ويكون اتساعه ما يقرب من ميل إلا أن اتساعه فيما بعد وعمقه يختلفان درجة بعد درجة، وفى داخل مصب هذين النهرين اللذين يكتسبان الضخامة باتحادهما بـ ٢٨٠ ميلا وفى الجهة اليمنى منها تتشعب مياه صغيرة وتكون نهر «هولى» الذى يقع عند مدينة» قالكوته «ولكن مجراه القديم يتحد بنهر براهمة بوتره» الذى يقع فى الجهة السفلى من قالكوتة وكلما آقترب من البحر انقسم إلى شعب متعددة وصَبَّ فى البحر من عشرين مصبًّا تقريبًا.

والجزر التى تتكون بين هذه المصبَّات تكون فى كل المواسم فى حالة المستنقعات هواؤها ردئ مهلك ومضر للإقامة وغير صالحة للحياة.

وتقع مدينة الله أباد عند نقطة التقاء نهرى غنج وجمنة ولما كان هذا الموقع مكانًا غاية فى السعد والقداسة بناء على اعتقاد الهندوس، فمن المستحيل تعيين الزوار الذين يأتون ويذهبون إلى المدينة، ويطلق الهندوس على الذين يزورون نقطة التقاء النهرين «الحجاج» والذين يدينون بمذهب «البراهمة» يعدون من يزور

نهر «براهمه بوترا» من أعزة الناس، والهندوس الذين يعتقدون فى هذا ولاسيما من يتبعون مذهب البراهمة يزيد احترامهم لتلك الأنهار المذكورة ويقدمون مدينة الله آباد ونهر براهمة بوتره حتى إنهم يعبدونها كمعبود مطلق ويرمون جنازاتهم فيها بعد أن يربطوها بأشياء ثقيلة.

مطالعة

إن ما يطلق عليهم أطباء أوربا «الحجاج» هم بعض الهنود الذين يزورون مدينة الله آباد، ولما كان هؤلاء الناس يميلون إلى القذارة بطبيعتهم ولما كانت الأماكن التى يزورونها فى حالة من القذارة ومستنقعات، فلا يحتاج إلى إقامة دليل أنها ستكون مواطن أمراض، والجدير بالدقة والانتباه أن الزوار الذين يجتمعون فى مصب نهر غنج وأراضى جمنه ينقلون أمراضهم إلى أوطانهم الأصلية عند عودتهم، وبعضهم ينقلونها إلى البلاد الحجازية المستورة.

إن تحول حكم مرض البلد عند عودة الزوار يعنى اشتداد المرض وظهور الأمراض المعدية عند وجود الزوار يفهم من الفرق الذى يلاحظ كل سنة.

وإن كان أثر السم الذى يولد الطاعون يظهر عقب إصابته ببضع ساعات إلا أن تفريخه «أى ظهوره تدريجيًا فى حكم مرض مخيف» يمتد من ثلاثة أيام إلى خمسة أيام فالشخص الذى يصاب بذلك السم ينقله من مكان إصابته إلى مكان آخر فى أثناء انفراخ المرض وعندما تنتهى المدة المعينة يتبين بأنه أصيب بالمرض إذ تظهر آثاره عليه، وفى بعض الحالات فإن العدوى لا تؤثر فى المريض بحيث تمنعه من الحركة فى الحياة اليومية، إلا أنه يرى بعض الأعراض وحسب وإن هاتين الحالتين المضرتين تجعل القافلة تظن أنها عادت سالمة من إقليم المرض ولكن أفراد القبيلة ينقلون العدوى من مكان ظهورها إلى أماكن أخرى وبلاد مختلفة، إن انتشار الطاعون على الوجه المحرر يعنى انتقال العلة بواسطة الوسائل المشروحة هنا وهناك أصبح منبعًا جديدًا لعدوى ذلك السم إذ يهاجر المرض من موقعه الأصلى إلى أماكن أخرى مع القافلة التى تتحرك وإن ظن ملأ القافلة أنهم تركوا الطاعون فى مكانه:

شكر الخاتمة

هذا الكتاب الذى تزدان ديباجته بصفات السلطان عبد الحميد الثانى ـ الذى لازال محفوفا بالتوفيق الصمدانى استوجب أن تتضمن خاتمته نبذة عن حميد صفاته وهذا ما أراه سعادة لى وفخرا وإبراء للذمة.

ما كان من سلطان مثله فى عدله

ها هى آثاره البديعة وتلك آثار السلف

بنور عدل هذا السلطان العظيم المنشور

أصبحت مرآة العالم من الظلم محرر

ولا ريب أن صفات السلطان الملكية مجتلى حكمة الله بديعة التدبير. وكيف يرتاب فى ذلك؟! وقد اعتلى العرش العثمانى وجسم الدولة الجسيمة قد أوشك على الانهيار ولكنه استطاع بمنة الله أن يضع يده على نقطة الداء بتدابيره الحكيمة وهمته الملكية وأن يشفيه ويبرئه فى مدة وجيزة فرفعت الدولة رأسها قائمة على رجليها مما جعل كبار رجال الدولة يلهجون بالشكر والحمد أمام هذه الأعمال الفجائية العظيمة فضلا على الأجانب الذين وقفوا مبهوتين مستغربين مما حدث.

وبفضل هذه التدابير الحكيمة ونتائجها المثمرة كسبت عاصمة ملكه إستانبول الأهمية السياسية وأصبحت مركزاً موازنًا لأوربا كلها. ونظم الجيش على نحو لم يسبق له مثيل قبل هذا. واستطاعت خزانة الدولة التى كانت تمر بأزمة مالية نتيجة للظروف السيئة أن تتخلص قليلا من مشاكلها وأن تمد يد العون لرفاهية الرعايا فى أنحاء المملكة الشاسعة كما أن بذل الجهود لتطبيق أحكام العدل فى الممالك السلطانية فى جميع أرجائها زاد من الأمن والاستقرار مما ألهج الألسنة بالشكر والعرفان وانتشرت العلوم والفنون فى جميع أطراف السلطنة وبهذا نجا أفراد الرعايا من ظلام الجهل والأمية.

ولما رأى أصحاب الفضل والكمال وأرباب القلوب الزكية والأدباء وأرباب الفنون ما فى دار الخلافة من مأمن واستقرار اتخذوها ملجئًا وملاذًا.

وطبعت فى العصر السلطانى كتب كثيرة تتضمن موضوعات مادية ومعنوية وتجمع بين فوائد عظيمة دينية ودنيوية وآثار ممتازة أخرى.

وأراد هذا العبد العاجز[1] أن يسعد بالاشتراك فى أفكار السلطان التى تشجع الرقى فى المعارف والعلوم فألفت مرآة الحرمين حيث أسست الكعبة فتحدثت عن المناسك والمعاملات وما تحملت البلدتان المباركتان من صدمات منذ مطلع النور كذلك ما تحمل أهالى حوالى تلك المنطقة من المصاعب وضمنت كتابى كل ما يديم الطمأنينة فى قلوب الموحدين، وفصلت كل شئ ومستمدا العون من شمس السلطان التى تنير دنيا العالم الإسلامى.

إقرار النعمة:

أليس التوفيق فى استجلاب الدعاء من ألسنة المؤمنين للعبد المخلص الصادق السلطان الذى كان سببا فى الدنيا والآخرة شرف عظيم ومجلبة شكر وثناء وحمد؟!.

وبما أننى منذ أن أمسكت القلم بيدى وقفت نفسى لخدمة النبى ﷺ وإن كان كل ما نشرت من آثار كانت مختارات فريدة فى الدين والرسائل الشرعية.

إلا أن كتابى مرآة الحرمين يحتوى على الأسرار المجلية والأحكام الخفية التى لم يطلع عليها حتى المتبحرون من علماء الإسلام وعرضت كل الأحداث بأدلة متقنة يستطيع حتى الأطفال استيعابها، لذا فالكتاب مستجلب الدعاء لأمير المؤمنين من المسلمين فى جميع أنحاء العالم. وجاءتنى بهذا الخصوص رسائل كثيرة وهذا يبشر بأن للسلطان أمير المسلمين منزلة عظيمة عزيزة لدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعند رسول الله ﷺ وبما أن المؤلف كان واسطة لإظهار هذه المكانة فهو يفتخر بذلك ويشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على توفيقه. «المنة لله تعالى وفقط»

(١) يعنى المؤلف بكلمة العاجز نفسه تواضعًا منه لله عز وجل.

عرض العذر:

وإن لسانى ليعجز عن تعبير الشكر لحضرة السلطان ولو جزء من الألف لما رأيته بعينى من عطفه على كما أن قدرتى تعجز فى التعبير عما أشعر به من الشكر والامتنان نحو جلالة السلطان، وأمام هذا العجز لم أستطع إلا أن أتوجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفق السلطان فى قيادة الدولة العثمانية وأن يشترك فى رجائى هذا أفراد مملكة الدولة العثمانية المعظمة.

دعاء مفروض الأداء

يا مليك ملك الاستغناء.. مليك الحقيقة والمناء
يا أحكم الحاكمين ومالك من أشباه يا حاكما يحكم بعدل الإله
يا مالك ملك قباب الفلك ويا نافذ الأمر فى الأنس والجن والملك
أعز ملك السلام بالنصر وسهل له كل أمر
اللهم اجعل مليك الزمان السلطان عبد الحميد خان
اجعل له على الأعداء النصر المطلق ولدولته على الدوام الرونق
ما أعظم ما له من بر وإحسان وما رأى أحد مثله فى ملوك الزمان
له طالع المشترى ومن القمر طلعة ومن الفلك رتبة ومن الملك خصلة
الفارس المغوار حارس الأوطان ذو الفضل وعظيم الشان
مسعود الطالع حكيم التدبير ولا مع التنوير
اللهم أطلْ عمره واجعل ملكه المعمور وأدم على رعيته الرضا والسرور
ألق عليه ظل الأمان واجعل الأمن للعباد فى كل آن
مُنّ على وزرائه بالتوفيق.. ومُنّ على آماله بالتحقيق
وليجد الناس فى عصره كل الرخاء ولتلهج له الألسنة بالدعاء
اجعل من يضمر له السوء ذليلا.. واجعل عدو دينه مخذولا
ومد ظله على الأيام.. واغمر بالرخاء كل الأنام
اللهم خلصنى من حبائل الشيطان.. واجعلنى لك خيرة العبدان..
واجعل الشيطان قاطعا منى الأمل..

واجعل آخر كلامى كلمة التوحيد حين يأتينى الأجل..
من شره وكيده يا رحمن..
صُنْ مالى مَن إيمان..
اللهم جد علينا برضوانك..
واجعلنا فى حرزك وأمانك..
وتفضل علينا بجودك وإحسانك.. بمجاورة حبيبك المصطفى فى الدارين..
والفوز من اتباع سنته بما تقرُّ به العين..
وثبت قلوبنا على الهدى.. وسلمنا من الزيغ والردى..
ونجنا من الفتن.. وخلصنا من كدورات هذه الحياة الدنيا.
ووفقنا للقيام بما أمرتنا قولا وفعلا.. وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم
وسامحنا وأساتذتنا وإخواننا أخواتنا وأحبابنا وجميع المسلمين
ولاسيما من اشتغل بهذا الكتاب ورغب به من الطلاب والكتاب.

«آمين بحرمة من جاء رحمة للعالمين»

فرغت من ترتيب هذا الكتاب بعون الله الملك الوهاب فى اليوم المبارك الرابع والعشرين من الربيع الأول سنة تسعة وتسعين ومائتين بعد الألف من أعوام هجرة صاحب أكمل الوصف وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا وسيد العالمين محمد وعلى آله وصحبه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كل أجمعين والحمد لله رب العالمين.

تقديم ٧

الوجهة الأولى

في تعريف الأحوال الجغرافية للمدينة المنورة، وعادات أهلها ١١

الصورة الأولى: في ذكر أحوال المدينة الجغرافية، وأوضاع أسوارها وطرزها ١٣

موقع المدينة المنورة بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض ١٣

سورها وأبوابه ١٤

درب المصلى ١٤

الدرب الصغير ١٥

الدرب الشامي ١٥

درب البقيع ١٥

الصورة الثانية: وجوب مراعاة حق جيران رسول الله ﷺ ٢٢

الصورة الثالثة: كيفية دفن من أدركه الأجل في المدينة ٢٥

الصورة الرابعة: كيف يستقبل شهر رمضان وكيف يكون بالمدينة ٢٨

أداء صلاة التراويح ٢٩

موكب الشموع ٢٩

الصورة الخامسة: موكب الشموع بعد صلاة التراويح ٣١

الصورة السادسة: صلاة الفجر وصلاة عيد الفطر ٣٣

الصورة السابعة: الهيئة الكاملة لمسجد السعادة ٣٥

الصورة الثامنة: في بيان أبواب حجرة السعادة وقناديلها وشمعداناتها وخدمها ومعنى الفراشة.. الخ ٤١

سبب وتاريخ استخدام الأغوات في الحجرة المنيفة ٤٣

تعريف مقدار خدمة الفراشة الشريفة ٤٥
مقام أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ٤٦
صورة غسل حجرة السعادة ٤٧
الخدمة الدائمة للخدم ٤٧
تأديب الأغوات ٤٨
تسكين الأغوات ٥٢
خدمات مسجد السعادة الدائمة والمؤقتة ٥٤
الخطباء والأئمة فى الحرم النبوى الشريف ٥٤
مكبرو الحرم الشريف ٥٥
سقاء والحرم الشريف ٥٦

الوجهة الثانية

فى شد الرحال إلى المدينة وزيارة المسجد الشريف

وفضل المجاورة بالمدينةوفضل المنبر والروضة الشريفة ٦٣
الصورة الأولى: فى ذكر الأحاديث الواردة فى شد الرحال إلى مسجد الرسول ﷺ، وتفصيل ذلك ٦٤
الصورة الثانية: فى فضائل مسجده ومنبره وروضته ﷺ ٧٣
مواقع يتضاعف الأجر والثواب فيها فى المدينة المنورة ٧٧
المصلى النبوى وبيان حدوده ٧٩

الوجهة الثالثة

فى تعريف أسماء المدينة، وفضائلها وبعض أحكامها ٨٥
الصورة الأولى: فى بيان أسماء المدينة وألقابها ٨٧
الصورة الثانية: فى فضل المدينة على سائر الممالك ٩٥
الصورة الثالثة: ماورد فى الذين اختاروا المدينة دارًا لهم، ومَنْ أبدعوا البدع فيها ١٠٠

الوجهة الرابعة

فى أوائل حال المدينة المنورة وسكانها وما كان بينهم من حروب قبل الإسلام ١١١

الصورة الأولى: فى أحوال المدينة الأولى وسكانها القدماء ١١٣

الصورة الثانية: فى ذكر من كان بالمدينة وقت أن هاجر إليها الأوس والخزرج ١١٨

ظهور مالك بن عجلان على يهود المدينة ١٢٤

الصورة الثالثة: قرى ومجال قبائل الأوس بالمدينة ١٢٧

الصورة الرابعة: قرى ومنازل الخزرج بالمدينة ١٣٠

الصورة الخامسة: ما كان من ملاحم وحروب بين قبائل الأنصار قبل الإسلام ١٣٣

وقعة سمير ١٣٣

يوم الرحابة ١٣٤

سلمى ١٣٦

يوم حرب حصين ١٣٨

يوم ربيع الظفرى ١٣٨

يوم فارع ١٣٩

يوم الجسر ١٣٩

يوم الربيع ١٤٠

حرب الفجار ١٤١

يوم الحدائق ١٤١

يوم المعبس والمضرس ١٤٢

يوم الفجار الثانى ١٤٣

يوم بعاث ١٤٤

الوجهة الخامسة

فى إرسال مصعب بن عمير - رضى الله عنه -

إلى المدينة ووقائع الهجرة النبوية ١٤٧

الصورة الأولى: فى ذكر بيعة السابقين من الأنصار ودعوة مصعب أهل المدينة إلى الإسلام ١٤٩

حكمة كون النبى ﷺ أنصاريًا من الخزرج ١٥٥

الصورة الثانية: هجرة النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ١٥٧

الصورة الثالثة: فى بيان وقائع سنين الهجرة إجمالاً ١٧٥

السنة الأولى للهجرة ١٧٦

السنة الثانية للهجرة ١٨٠

السنة الثالثة للهجرة ١٨٢

السنة الرابعة ١٨٣

السنة الخامسة ١٨٣

السنة السادسة ١٨٤

السنة السابعة ١٨٥

السنة الثامنة ١٨٦

السنة التاسعة ١٨٧

السنة العاشرة الهجرية ١٨٨

السنة الحادية عشرة ١٨٨

الوجهة السادسة

فى توسيع وتجديد المسجد الشريف ودار فاطمة - رضى الله عنها -

ومحراب النبى ﷺ وصفة اصحاب النبى ١٨٩

الصورة الأولى: فى تأسيس مسجد السعادة وكيف بنى أولاً ١٩١

الصورة الثانية: توسيع مسجد السعادة وتحويل المحراب ١٩٦

الصورة الثالثة: الأماكن التى صلى فيها النبى ﷺ وموقعها من المسجد الشريف ١٩٨

مؤسس محراب المسجد الشريف ١٩٩
الصورة الرابعة: تعريف جزعة مسجد السعادة ٢٠٢
الصورة الخامسة: سبب تأسيس المنبر وصورته وحنين الجزع ٢١٢
الصورة السادسة: عدد المرات التى عمر فيها المنبر أو جدد ٢١٩
السورة السابعة: أساطين المسجد فى عصر السعادة ٢٣٠
ـ الأسطوانات المختلفة ٢٣٠
ـ أسطوانة عائشة ٢٣٠
ـ أسطوانة التوبة ٢٣٢
ـ أسطوانة السرير ٢٣٥
ـ أسطوانة المحرس ٢٣٦
ـ أسطوانة الوفود ٢٣٦
ـ أسطوانة مربعة القبر ٢٣٨
ـ أسطوانة التهجد ٢٣٩
ـ محراب باب الجنائز ٢٣٩
الصورة الثامنة: الصفة وأهل الصفة ٢٤٧
كيفية إعاشتهم ٢٥٦
الصورة التاسعة: فى تعريف الحجرة النبوية الشريفة ٢٥٩
الصورة العاشرة: دار فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ٢٦٢
الصورة الحادية عشرة: إغلاق الأبواب التى كانت تواجه مسجد السعادة فى عصر السعادة ٢٦٤

الوجهة السابعة

فى عدد مرات تجديد مسجد السعادة ومَنْ جدده والزيادة فى حدوده وكذلك الحجرة الشريفة ٢٦٧

الصورة الأولى: توسيع مسجد الرسول ﷺ لأول مرة ٢٦٩
الصورة الثانية: توسيع وتجديد المسجد للمرة الثانية ٢٧٢

مقصورة المسجد ٢٧٧
الصورة الثالثة: توسيع وتجديد المسجد للمرة الثالثة ٢٧٩
ـ أداه صلاة الجنازة فى المسجد وسبب منعها زمن عمر
بن عبد العزيز ٢٩١
ـ موازنة تاريخية بين معاملة سلاطين آل عثمان لأهل
البيت ومعاملة سابقيهم من الأمراء والخلفاء ٢٩٧
الصورة الرابعة: تجديد وتوسيع المسجد للمرة الرابعة ٣١٠
الصورة الخامسة: فى تعريف الحجرة المعطرة والقبور الثلاثة ٣١٣
ـ مواقع القبور الثلاثة ٣٢٥
ـ الهيئة المرئية للقبور الثلاث فوق الأرض ٣٢٧
ـ شبكة قبر السعادة ٣٢٧

الوجهة الثامنة

تذكر علامات الرأس الشريف، ومقام جبريل وكيفية حفظ وتعليق
الهدايا الواردة، وتاريخ تأسيس القبة الخضراء والمقصورة ٣٢٩
الصورة الأولى: فى ذكر العلامة الدالة على جهة رأس الرسول ﷺ ٣٣١
الصورة الثانية: علامة جهة وجه النبى ﷺ ٣٣٥
الصورة الثالثة: تعريف مقام جبريل وتعيينه ٣٣٧
الصورة الرابعة: مربع القبر الجليل وتجديد فرش حجرة السعادة ٣٣٨
الصورة الخامسة: فى تعريف ستارة الحجرة المعطرة ٣٤١
ـ أصول تعليق ستارة القبر وتجديدها ٣٤٣
ـ الجوهر الشريف ٣٤٣
ـ تعريف حجرة السعادة إجمالاً ٣٤٤
ـ الحجرة المعطرة ٣٤٤
الصورة السادسة: تَخْلِيق(*) حجرة السعادة وكيفيته ٣٤٧

(*) يعنى تطييبها بالخَلُوق، وهو خليط من أنواع الطيب المختلفة.

الصورة السابعة: قناديل الحجرة الشريفة ٣٤٨
الصورة الثامنة: الشبكة الشريفة التى تحيط بالحجرة المعطرة ودار فاطمة رضى الله عنها ٣٦٠
شكل الشبكة وما عليها من خطوط ٣٦٤
الصورة التاسعة: قبة حجرة السعادة ٣٦٨

الوجهة التاسعة

فى ذكر المعلقات والأشياء النفيسة الخاصة بالمسجد والحجرة النبوية والتى حفظت فى أماكن مخصوصة لاستخدامها وقت الأقتضاء وأسماء من أهدوها أو وقفوها ٣٧١

الصورة الأولى: المصاحف والأجزاء والأدعية الموجودة فى الخزينة النبوية ٣٧٣
الصورة الثانية: تفصيل الأشياء النفيسة المحفوظة داخل حجرة السعادة ٣٩٦
الصورة الثالثة: جنس ومقدار الأشياء التى تبرع بها وعلّقت داخل الحجرة المعطرة
الصورة الرابعة: أطقم البُخُور والمسكوكات من الذهب والفضه المحفوظة داخل الحجرة المعطرة ٤١٢
الصورة الخامسة: الشمعدانات والأشياء الأخرى ٤٢٠
الصورة السادسة: الأشياء الفضية النفيسة ٤٣٠
الصورة السابعة: الستائر والأغطية التى تغطى أبواب حجرة السعادة والمقامات الأخرى ٤٣٥
الصورة الثامنة: الشمعدانات والتعليقات والثريات وأسماء من أهداها الموضوعة فى المحاريب الشريفة ومواجهة الروضة الشريفة وحجرة السعادة ٤٣٧

الوجهة الحادية عشر

فى تحويل سقف حجرة السعادة إلى قبة، وتجديد مربع القبر الشريف وجناية محاولة نقل النعوش الثلاثة ٤٤٧

الصورة الأولى: فى تعريف هيئة الحجرة المعطرة ٤٤٩
الأثارات المخصوصة داخل مسجد السعادة ٤٥٦
إحاطة حجرة السعادة بجدار من الرصاص ٤٦١
ماذا لو تعرضت الحجرة الشريفة لسوء قصد ٤٦٧
محاولة إخراج نعش أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ٤٦٨

الوجهة الثانية عشرة

فى ذكر احتراق المسجد النبوى وتجديده ٤٧٥

الصورة الأولى: فى كيفية احتراق مسجد السعادة وكيف جدد للمرة الأولى ٤٧٧

الصورة الثانية: احتراق المسجد للمرة الثانية وكيفية تجديده ٤٨٣
معجزة باهرة ٤٨٥
ظهور السيل بجوار المسجد ٤٨٦
تجديد المسجد ٤٨٦
عرض خدمات سلاطين آل عثمان للمسجد النبوى الشريف ٤٩١
نص كتاب السلطان إلى محافظ مصر والخاص بنظارة الدشيشة المبعوثة إلى أهالى الحرمين من مصر ٥٠٦
انعقاد مجالس الاحتفالات بالمولد النبوى ٥١٣
إنشاء مديرية الخزانة الخاصة بالمدينة المنورة ٥٢٧
خارقة ٥٣٤
دخول السلطان عبد المجيد فى حجرة السعادة ٥٣٥

الصورة الرابعة: فى تعريف كيفية تعمير حرم السعادة وتجديدة فى المرة السابقة ٥٤٠
الحوادث المحلية ٥٤٠
حال مسجد السعادة والمواقع التى أنشأها محمد رائف

باشا ٥٥٥
تفصيلات مهمة فى أثناء تعمير الحجرة الشريفة ٥٨٢
صورة الأمر السلطانى فى كيفية إعمار الأبنية العالية
المشرفة ٥٩١
صورة الفرمان العالى الصادر بخصوص تعيين عريانى
زاده مشرفًا على الأبنية العالية المشرفة ٥٩٦
الوجهة الثالثة عشر ٦٠١
الصورة الأولى: فى ذكر حجرات مسجد السعادة ٦٠٣
ظهور المذهب الحنفى ٦٠٨
الصورة الثانية: فرش مسجد السعادة وتعليق القناديل فيه ٦١٢
الصورة الثالثة: فيمن عطروا المسجد الشريف ٦١٥
مساحة حرم السعادة ٦١٧
الوجهة الرابعة عشرة
فى ذكر الأبواب العتيقة والجديدة، والأماكن القديمة
حوله وأصحابها، والمكان الذى اتخذ سوقًا فى عصر النبوة ٦٢١
الصورة الأولى: فى تعريف أبواب المسجد القيمة والجديدة ٦٢٣
ـ الباب العثمانى ٦٢٣
ـ باب ريطة (النساء) ٦٢٨
ـ باب عاتكة (الرحمة) ٦٣٠
ـ باب السلام ٦٣٢
ـ باب مروان ٦٤٢
ـ باب بيت زيت القناديل ٦٤٢
ـ باب المقصورة ٦٤٢
ـ باب خوخة آل عمر ٦٤٢
ـ باب على ٦٤٢

- باب النبى ﷺ ٦٤٣
- باب أسماء ٦٤٣
- باب خالد بن الوليد ٦٤٣
- باب زفاق دار المناصع ٦٤٣
- باب أبيات الصوافى ٦٤٣
- باب دار الضيافة ٦٤٤
- باب دار الحميد ٦٤٤
- باب أبيات خالصة ٦٤٤
- باب بقية أبيات خالصة ٦٤٤
- باب دار منيرة ٦٤٥
- باب بقية دار منيرة ٦٤٥

الصورة الثانية: فى ذكر المنازل القديمة المحيطة بالمسجد النبوى من جهاته الأربعة ٦٤٦

الصورة الثالثة: فى ذكر الأرصفة التى كانت تحيط المسجد النبوى، وبيوت الصحابة رضى الله عنهم ٦٥٦

الصورة الرابعة: السوق التى أرادها النبى ﷺ لأهل المدينة ٦٥٩

أسواق أهل المدينة ٦٦٠

الوجهة الخامسة عشرة

فى ذكر مصلى العيد والمساجد والمنازل القائمة فى ممرات بهذه المساجد ومسجد قباء، والضرار، والمعابد النبوية المعلومة وغير المعلومة ٦٦٣

الصورة الأولى: فى الأماكن التى صلى فيها النبى ﷺ العيد، ومنازل الصحابة التى فى طريقها ٦٦٥

الصورة الثانية: مسجد قباء ٦٧٠

مسجد الضرار ٦٨٠

الصورة الثالثة: مواقع المساجد النبوية التى تزار اليوم ٦٨٧

١- مسجد الجمعة ٦٨٧
٢- مسجد الفضيح ٦٨٨
٣- مسجد بنى قريظة ٦٨٩
٤- مسجد مشربة أم أبراهيم ٦٩٠
٥- مسجد بنى ظفر ٦٩٠
٦- مسجد الإجابة ٦٩٢
٧- كيف سلع ٦٩٥
٨- مسجد القبلتين ٦٩٧
٩- مسجد السقيا ٦٩٨
١٠- مسجد الذبابة ٦٩٨
١١- مسجد أحد ٦٩٩
١٢- ركن جبل عينين ٧٠٠
١٣- مسجد الوادى ٧٠٠
١٤- مسجد السافلة ٧٠٢
١٥- مسجد البقيع ٧٠٣

الصورة الرابعة: فى المسجد التى تعرف جهاتها ولا تعرف مواضعها

١- مسجد جديله ٧٠٤
٢- مسجد بنى حرام ٧٠٤
٣- مسجد الخربة ٧٠٤
٤- مسجد جهينة ٧٠٤
٥- مسجد بيوت المطر ٧٠٥
٦- مسجد بنى زريق ٧٠٥
٧- مسجد بنى ساعدة ٧٠٦
٨- مسجد بنى ساعدة الآخر ٧٠٦
٩- مسجد بنى خذارة ٧٠٦

١٠- مسجد راتج ٧٠٦
١١- مسجد بنى عبد الأشهل ٧٠٧
١٢- مسجد القرصة ٧٠٧
١٣- مسجد بنى حارثة ٧٠٧
١٤- مسجد الشيخين ٧٠٧
١٥- مسجد بنى دينار ٧٠٨
١٦- مسجد بنى عدى بن النجار ٧٠٨
١٧- مسجد دار نابغة ٧٠٨
١٨- مسجد بنى مازن بن النجار ٧٠٩
١٩- مسجد بنى عمرو بن مبذول البَحَّارى ٧٠٩
٢٠- مسجد بقيع الزبير ٧٠٩
٢١- مسجد صدقة الزبير ٧٠٩
٢٢- مسجد بنى خذرة الخزرجية ٧٠٩
٢٣- مسجد بنى الحارث بن الخزرج ومسجد السخ ٧٠٩
٢٤- مسجد بنى الحبلى ٧١٠
٢٥- مسجد بنى بياضة ٧١٠
٢٦- مسجد بنى فاطمة ومسجد العجوز أوس ٧١٠
٢٧- مسجد بنى أمية بن زيد الأوس ٧١٠
٢٨- مسجد بنى وائل الأوس ٧١٠
٢٩- مسجد بنى واقف ٧١٠
٣٠- مسجد بنى أنيف ٧١١
٣١- مسجد دار سعد بن خيثمة ٧١١
٣٢- مسجد التوبة ٧١١
٣٣- مسجد النور ٧١١
٣٤- مسجد عتبان بن مالك ٧١٢

٣٥- مسجد مثيب ٧١٢
٣٦- مسجد المنارتين ٧١٢
٣٧- مسجد فيفاء الجنادر ٧١٢
٣٨- مسجد بنى جثجاثة، وبئر شداد ٧١٣

الوجهة السادسة عشرة

فى فضائل البقيع والمدفونين بها من شهداء أحد ٧١٥

الصورة الأولى: فى فضائل مقبرة بقيع الغرقد ٧١٧

الصورة الثانية: فى من دفن فى البقيع من الصحابة وآل البيت وكبار التابعين ٧١٩

الصورة الثالثة: مشهد النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على رضى الله عنه ٧٣٨

الصورة الرابعة: فى ذكر جبل أحد وشهداء غزوة أحد ٧٤٦

الوجهة السابعة عشرة

مواسم المدينة وأسواقها وآبارها وعيونها المنسوبة إلى النبى ﷺ ٧٥٩

الصورة الأولى: أسواق المدينة ومواسمها على مدى ١٢ شهرًا ومحاسن أهلها ٧٦١

الصورة الثانية: فى تعريف الآبار التى تنسب إلى النبى ﷺ ٧٧٢
١- بئر أريس ٧٧٢
٢- بئر الأعواق ٧٧٥
٣- بئر أناء ٧٧٥
٤- بئر مالك بن النضر ٧٧٥
٥- بئر إهاب ٧٧٦
٦- بئر البصة ٧٧٦
٧- بئر بضاعة ٧٧٧
٨- بئر جاسوم ٧٧٨

٩- بئر جمل ٧٧٨
١٠- بئر حساء ٧٧٨
١١- بئر حلوة ٧٧٩
١٢- بئر ذرع ٧٧٩
١٣- بئر رومة ٧٧٩
١٤- بئر سفيا ٧٨١
١٥- بئر العقبة ٧٨١
١٦- بئر عتبة ٧٨١
١٧- بئر العهن ٧٨٢
١٨- بئر غرس ٧٨٢
١٩- بئر القراضة ٧٨٣
٢٠- بئر القريضة ٧٨٣
٢١- بئر اليسيرة ٧٨٣
الصورة الثالثة: فى ذكر العيون المنسوبة إلى النبى ﷺ ٧٨٧
١- عين كهف حرام ٧٨٨
٢- عين الخفيف ٧٨٨
٣- عين الأزرق ٧٨٩
٤- عين النبى ٧٨٩
٥- مسير العين ٧٩٠
٦- عين الوادى ٧٩٠
الأسبلة فى المدينة ٧٩٤
المياه المرة ٧٩٥
المياه التى فى الجهة القبلية من المدينة ٧٩٥
عين الأغوات ٧٩٧
عين سيد هاشم ٧٩٧

عين الصدقة ٧٩٧
العين الجديدة ٧٩٧
عين عامرة ٧٩٧
عين الحازمية ٧٩٨
عين مصرع ٧٩٨
عين شربونى ٧٩٩
عين الثنايا ٧٩٩
عين السلامة ٧٩٩
عين مشرابية ٧٩٩

الوجهة الثامنة عشرة

فيما ينسب إلى النبى ﷺ من الأوقاف الشريفة والمساجد التى بين الحرمين والمساجد التى أدى فيها الصلاة فى أثناء الغزوات ٨٠٣

الصورة الأولى: ما ينسب إلى النبى ﷺ من صدقات ٨٠٥
الصورة الثانية: المسجد النبوية التى بين الحرمين ٨١١
١- مسجد الشجرة ٨١١
٢- مسجد المعرس ٨١٢
٣- مسجد شرف الروحاء ٨١٢
٤- مسجد عرق الظبية ٨١٣
٥- مسجد الروحاء ٨١٤
٦- مسجد المنصرف ٨١٤
٧- مسجد الروينة ٨١٥
٨- مسجد ثنية ركوبة ٨١٥
٩- مسجد الإقابة ٨١٥
١٠- مسجد الغرس ٨١٥
١١- مسجد طرف تلعة ٨١٥

١٢- مسجد حى جمل ٨١٦
١٣- مسجد القيا ٨١٦
١٤- مسجد مدلجة تعهن ٨١٦
١٥- مسجد الرمادة ٨١٦
١٦- مسجد الأبواء ٨١٦
١٧- مسجد البيضة ٨١٧
١٨- مسجد عقبة الهرش ٨١٧
١٩- مسجد الجحفة ٨١٧
٢٠- مسجد القديد ٨١٧
٢١- مسجد حرة ٨١٨
٢٢- مسجد خليص ٨١٨
٢٣- مسجد بطن مر الظهران ٨١٨
٢٤- مسجد سرف ٨١٨
٢٥- مسجد التنعيم ٨١٩
٢٦- مسجد ذى طوى ٨١٩
الصورة الثالثة: فى تعريف المساجد التى فى طريق الحجاج ٨٢٠
١- مسجد ذات أجدال ٨٢٠
٢- مسجد بدر ٨٢١
٣- مسجد العشيرة ٨٢٢
٤- مسجد الفرع ٨٢٢
الصورة الرابعة: فى ذكر المساجد التى صلى فيها النبى ﷺ فى غزواته ٨٢٣
١- مسجد عامرة ٨٢٣
٢- مسجد صهباء ٨٢٣
٣- مسجد منزلة ٨٢٣
٤- مسجد شمران ٨٢٤

٥- مساجد تبوك ٨٢٤
٦- مسجد الحديبية ٨٢٦
٧- مسجد ذات عرق ٨٢٦
٨- مسجد جعرانة ٨٢٦
٩- مسجد ليه ٨٢٦
١٠- مسجد الطائف ٨٢٧

الوجهة التاسعة عشرة

فى ذكر أودية وأحراش وجبال وأماكن تنسب إلى المدينة ٨٢٩
الصورة الأولى: أودية المدينة ٨٣١
١- وادى العقيق ٨٣١
٢- وادى بطحان ٨٣٣
٣- وادى رانوناء ٨٣٣
٤- وادى قناة ٨٣٣
٥- وادى مذينب ٨٣٦
الصورة الثانية: فى ذكر أحراش المدينة ٨٣٨
١- حمى النَّقيع ٨٣٨
٢- مرعى حمى الرندة ٨٣٩
٣- مرعى حمى الشرف ٨٣٩
٤- مرعى حمى الضربة ٨٤٠
٥- مرعى حمى فيد ٨٤٢
الصورة الثالثة: فى ذكر الجبال والأماكن والقرى التى تنسب إلى المدينة مرتبة على حروف الهجاء (الفبائيًا) ٨٤٤
مناجاة وقصيدة ودعاء ٩٥٧
القصيدة التى يقرأها أهل المدينة فى حضرة السعادة ٩٦٧
فضائل المدينة وخواص ترابها وفاكهتها ٩٦٩

نجاة أهل المدينة من الطاعون والدجال ٩٧٧
نقل علة الحمى خارج المدينة ٩٧٩
شكر الخاتمة ٩٩١
الفهرس ٩٩٥

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الخامس

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الخامس (مرآة جزيرة العرب)

قـــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري

الدكتور عبد العزيز عوض

راجعها على نصها العثماني

أديب عبد المنان على أوزلي

راجعها وأعدها للنشر

محمود جيـــرة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مرآة الجزيرة العربية

أبتهل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحمى ولى نعمتنا السلطان عبد الحميد خان الثانى مجدد العصر ومقيم العدل وناشر الحضارة والمدنية، وأن يحفظ عرشه وسلطنته من كل سوء.

كنت قد ذكرت فى التاريخ الذى كتبته بعنوان مرآة الحرمين، تحت ظل وحماية سلطاننا، فى كل صفحة من صفحاته أحد المواقع من جزيرة العرب كلما تعلق به الموضوع. ولكن من المحال أن يحيط الإنسان علمًا بأحوال الخطة الحجازية الواسعة وحقائقها التاريخية بمطالعة بعض التوضيحات التى قدمت عن الأماكن المقدسة والآثار المفخمة للحرمين الشريفين مطالعة سطحية، قبل أن يتعرف على الأحوال التاريخية والتقسيمات الجغرافية لجزيرة العرب؛ لذلك كتبت هذا التاريخ المختصر وضمنته أحوال شبه جزيرة العرب وألحقته بالمرآة.

وقد رتبت هذه الإضافة وحررت وهى جديرة أن يطلق عليها خلاصة الخلاصة، على أن تكون من حيث محتوياتها ذيلاً للمرآة. وقصدت فى ذلك إلى مد الراغبين فى مطالعة المرآة بمعلومات مجملة كافية عن أحوال جزيرة العرب التاريخية والجغرافية.

الكتب التى نشرت سواء أكانت من قبل المؤرخين المتقدمين أو المتأخرين عن الجزيرة بالعربية تخبرنا إلى درجة ما عن بعض أخبار العرب وأحوالهم، إلا أنها لم تضبط ولم توضح فى صورة لائقة قوانين العربان، وأنظمتهم المرعية وعاداتهم الجارية فى جزيرة العرب فى العصر الحالى، لأجل ذلك قد سطرت معناها على وجه الاختصار فى هذه الجزء من المرآة.

فانجلت صفحات المرآة عن صورة: الأحوال السياسية والتاريخية للعشائر والقبائل العربية التى اتخذت شبه جزيرة العرب مسكنًا ومأوى فى الجاهلية والعصور الإسلامية، وانقسامات قبائلها مع أنسابها، تقسيمات الجزيرة الجغرافية وحال سكانها وشأنهم وتعدادهم وعاداتهم القديمة ومعتقداتهم وقوانينهم وأنظمتهم المرعية وبالله التوفيق.

الوجهة الأولى

١ ـ ذكر أنساب أمم العرب السابقة والقرون السالفة منهم وذكر أحوالهم.

٢ ـ تعريف أحوال القبائل العربية وأطوارها فى الأزمنة الجاهلية والعهود الإسلامية.

٣ ـ ذكر الملوك الجبابرة التى كانت تحكم جزيرة العرب قبل ظهور الدين الإسلامى.

فى ذكر أنساب الأمم السابقة والقرون الماضية
من أنساب العرب وأحوالهم

أقوام العرب:

العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة والعرب المستعجمة.

وهذه أقسام العرب فى أربع طبقات.

العرب البائدة

طبقة العرب البائدة أولى القبائل العربية التى وجدت بعد أن انقسمت الأقوامّ شعوبًا وقبائل بعد نوح (عليه السلام) وهى أقدم تلك الأقوام. وليس هناك بخصوص أحوال أفراد هذه الطبقة وشئونهم معلومات صحيحة، إلا أن المؤرخين يخمنون أن عاد الأولى وثمود وعمالقة وطسم، جديس، أميم، بنى جرهم الأول وحضرموت تشكل جماعات هذه الطبقة، ويتصل نسب هذه الهيئة العامة وسلسلتها المتسلسلة بـ «لاود» و أخيه «إرم بن سام بن نوح» عليه السلام.

عاد الأولى- ابن عوص بن أرم بن سام بن نوح.

وقد توطنت القبيلة التى تفرعت من عوص فى أراضى الأحقاف وأطلق عليها (عاد الأولى). وقد نجا بكر بن معاوية بن بكر بن عاد مع بعض أصدقائه من الهلاك عندما تعرضت عاد الأولى إلى القهر الإلهى وغضبة الله.

ودام هؤلاء الأقوام فترة وأطلقت على الطائفة الثانية بعد هلاك عاد الأولى «عاد الثانية».

ثمود بن جاثر بن أرم بن سام:

وكان قد سكن أفراد القبيلة التى تنتسب إلى ثمود فى وادى القرى الواقع بين

الحجاز والشام. وكان الذين نجوا من بعد هلاك قوم ثمود سكنوا فى مكان يسمى «الرَّسِّ» إلا أنهم أيضا هلكوا فيما بعد.

العمالقة:

لقب جميع البطون التى تفرعت من عمليق بن لاود بن سام، وقد شكلت بطون العمالقة جماعات القبائل التى تناسلت من أبناء عمليق هم: أرزق، طغار، لف، بديل، راحل، هزان، أرقم، جاسم.

وكان يتوطن أبناء أرزق بن عمليق فى الحجاز، وطغار، بديل و راحل بنو عمليق وأحفادهم بجوار نجد، وجماعة لف بنو عمليق بيثرب، والطائفة المنسوبة إلى أرقم بن عمليق يتوطنون فى منطقة تيماء من الحجاز.

طسم:

علم خاص للأقوام التى تفرعت من لاود بن سام.

جديس:

على وزن أمير ابن إرم بن سام وكانت القبائل التى تفرعت منه قد استوطنت اليمامة.

أميم:

على وزن كريم، فهو أبو الشعوب التى يطلق عليها بنى وبار وكان لأميم عدة أبناء، إلا أن المؤرخين قرروا أن اسم وبار هو الاسم الوحيد الصحيح، وربطوا سلسلة سلالة القبائل التى تنتهى إلى أميم بوبار.

بنو جرهم الأول:

يطلق على القبائل التى تفرعت من قحطان بن عابر بن أرفخشذ بن سام بنو جرهم الأول، أسس قحطان حكومة فى اليمن قبل الهجرة بـ (٣٠٥٩) سنة وبعد فترة انتقل إلى دار البقاء. وجلس مكانه ابنه «يعرب» ونصب أخاه جرهم

واليًا على الحجاز، ومع مرور الأيام استقل جرهم وأطلق على القبائل التى تفرعت منه جرهم الثانية.

حضرموت:

حضرموت ابن قحطان، حينما أصبح أخوه يعرب حاكم اليمن عينه واليًا على جبال شحر. وهذا أيضًا استقل عن أخيه فى جبال شحر واستبد بالحكم.

ولم تتحمل هذه القبائل فى بابل قهر بنى حام وتحكمهم فعادت مرة أخرى إلى جزيرة العرب، وأول ورودهم إلى الجزيرة عاشوا كالبدو فى الصحارى، ولكنهم بمرور الأيام ازدادوا قوة واستولوا على كثير من الأراضى، وسلكوا طريق الاستقرار والمدنية وأسسوا فى الجزيرة العربية حكومة كبيرة، وفى فترة ما استولوا على مصر والشام وحكموهما إلى زمن يعرب ابن قحطان، وفى النهاية زالت شوكتهم واضمحلت دولتهم فتشتتوا.

أفراد هذه الطبقة أقدم الأمم السالفة، ولما كانت اللغة العربية لغة خاصة بهم فقد أطلق عليهم اسم العرب العاربة، ومع الأيام لم يبق لهم شأن فقيل لهم «الهالكة» لتمييزهم عن الطبقات الأخرى، كما يسمون أيضًا بالبائدة.

قال بعض المؤرخين إن الذين فتحوا مصر من طائفة العرب العاربة.

العرب العاربة

طبقة العرب العاربة هم الطبقة التى تنتهى جميع قبائلها إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام.

ولما اختلط هؤلاء بأفراد العرب البائدة وتلقوا عنهم اللغة العربية وتعلموها قيل لهم العرب العاربة.

ويروى أن أبا قطحان هو عابر بن شالخ، وبناء على هذا فهو ينتمى إلى سام بن نوح ـ عليه السلام ـ لما كان أولاد وأحفاد قحطان يعيشون فى الصحارى

والفيافى فلم يستطيعوا أن يحرزوا شرف القوة والحشمة فى أول حياتهم. ولكن قوتهم وسطوتهم زادت فيما بعد، فزادت قبائلهم وشعوبهم وتكاثروا وارتفع شأنهم وزادت شهرتهم فى الوقت الذى مالت فيه طبقة العرب البائدة إلى الزوال والاضمحلال، فوسعوا دائرة ملكهم غاية السعة.

واستولوا على اليمن حيث أسسوا دولة عظيمة، وقحطان بن يعرب منهم، كما أن قبائل بنى سبأ تنتمى إلى بطون طبقة العرب العاربة.

وأصل اسم سبأ عبد شمس وأبوه يشجب بن يعرب بن قطحان، وبما أنه هجم على القبائل والممالك واستولى عليها وأخذ منها الأسرى كان سببًا فى تسميته سبأ.

وبعد سبأ ظهر فى الميدان أبناؤه حمير، كهلان، زيدان، أشعر، عاملة وتشعبت من كل واحد منهم قبيلة مشهورة معروفة، وكل القبائل العربية التى تعيش الآن فى اليمن تنحدر من سلالة تنتهي إلى أبناء سبأ.

ويطلق على أفراد طبقة العرب العاربة حسب النسب والانتماء إلى بنى سبأ العرب العاربة القحطانية أو اليمانية.

وأحفاد قحطان بن عابر وفروعه وشعوبه لا يعدون ولا يحصون، فسكن بعضهم فى عمان وبعضهم فى نجران، وبعضهم فى رس اليمن وحول الممالك الأخرى حيث انتشروا واستقلوا، وفصلت من كل واحد منهم بطون، وشكل كل واحد منهم قبائل مستقلة، وحجم مرآة الجزيرة غير كاف لاستيعاب أصول هذه القبائل وفروعها، ولما كان أكثر هذه القبائل قد نُسِيَتْ بتباعد الأزمان، وتسامح النسابين فالذين يريدون أن يحصلوا على تفصيلات كافية فى هذا الخصوص عليهم أن يراجعوا الكتب العربية القديمة.

العرب المستعربة

تكونت طبقة العرب المستعربة من اختلاط نسل حضرة إسماعيل بن إبراهيم «على نبينا وعليهما التحية والتبجيل» بأقوام العرب العاربة.

ولما كانت سلسلة نسب العرب المستعربة مرتبطة بـ «عدنان ونزار» فيطلق عليهم «العدنانية، كما يقال النزارية» أيضًا.

ومن أوائل العرب العاربة قبائل بنى جرهم بن قحطان والجماعات التى تتبعها، وقد اختارت هذه القبائل السكن بجوار كعبة الله، واتخذت هذه القبائل إسماعيل «عليه سلام الله الجليل» صهرًا وزوجًا لإحدى بناتها، واختلط إسماعيل «عليه السلام» وأحفاده ببنى جرهم، وتركوا التحدث بلغتهم العبرانية، واعتادوا التحدث باللغة العربية الخاصة بالجراهمة، وأطلق المؤرخون على نسل إسماعيل والقبائل التى تشعبت منه اسم العرب المستعربة.

إلا أن ابن خلدون يذكرها باسم العرب التابعة للعرب، وبين الفترة التى بدأ فيها إسماعيل «عليه السلام» السكن فى مكة المكرمة وبين هجرة النبى ﷺ ما يقرب من ألفين وسبعمائة و ثلاث وسبعين سنة.

أنجب إسماعيل «عليه السلام» من زوجته الجرهمية اثنى عشر ابنا، وقد تكاثر أولاد هؤلاء الأبناء بمرور الزمن وأصبحوا قبائل وشعوبًا متعددة، وظهرت منهم قبيلتان كبيرتان هى «عدنان» و«قحطان» اللتان تحيطان وتحويان جميع الشعوب والقبائل العربية.

وبناء على هذا التقدير فالشعوب العربية فى القطر الحجازى من أولاد عدنان من نسل إسماعيل «عليه السلام».

كما أن العرب الذين يسكنون فى اليمن وحضرموت وجهات عمان وسائر جهات الجزيرة العربية من أحفاد بنى قحطان.

وقد انفصلت عن قبيلتى عدنان وقحطان اللتين سبق ذكرهما قبائل عديدة وشعوب كثيرة، وكل واحدة من هذه القبائل ذكرت باسم وشهرة آبائها الأول.

استولى القحطانيون فى عصور الجاهلية على رياسة مملكة من الممالك

وحكومة من الحكومات، وأصبحوا ولاة على أجزاء كبيرة من جزيرة العرب، وأخضعوا الأمراء العدنانيين لطاعتهم وتبعيتهم.

العرب المستعجمة

ظهرت طبقة العرب المستعجمة من كثرة اختلاط أفراد العرب المستعربة بأفراد الممالك الأجنبية وأهليها ومن ظهور الأخطاء فى لغتهم التى يتحدثون بها، لأن القبائل العربية انتشرت فى البلاد التى استولت عليها فى الجزيرة العربية لإعلاء كلمة الله عقب سطوع أنوار الإسلام، وحيث صادفت أقواما أجنبية وجماعات واختلطت معها اختلاط مودة وألفة، والهيئة العمومية للطبقة المذكورة لم تترك الجزيرة العربية، ولم تجلُ عنها ولكنها انتشرت فى الأراضى الواسعة التى استولت عليها، وأخذت تختلط بالملل المختلفة مِنْ ذَوِى الأَلْسُن المختلفة اختلاط مودة وألفة، ونتيجة لذلك زادت قدرة العرب المستعجمة باتساع البلاد التى سكنوا فيها، وتغيرت فصاحة لغتهم وبلاغتهم واختلطت لغة الإعجاز المضرى بالألسنة الأخرى، وكونوا طبقة «العرب المستعجمة».

ونزل القرآن الكريم باللسان المضرى اللسان عذب البيان لطبقة العرب المستعجمة.

وقبائل العُرْبَان التى تسكن اليوم الجزيرة العربية تنتسب كافة لطبقة العرب المستعجمة. والقبائل العربية التى تكون هذه الطبقة وإن لم تترك وطنها الأصلى جزيرة العرب إلا أنها عاشت مختلطة بالملل المسلمة والعربان الأجنبية، إلا أنه قد طرأ بعض التغير على لغتهم، ومع هذا فلغتهم بالنظر للغة العرب الذين يسكنون فى بلاد أخرى أكثر فصاحة.

وبما أن أسماء القبائل التى تنتسب إلى العرب العاربة قد سبق ذكرها فلا حاجة لذكرها مرة أخرى فى بحث القبائل العربية الذى سيأتى فيما بعد إلا أننا سنذكر مواطنها.

وما هو الاسم الذى تذكر به قبائلها؟ وما هى الأنظمة والقوانين التى يتبعونها

ويخضعون لها؟ وكم بلغ عدد نفوسها؟ كما سنذكر بعض الحقائق عن أخلاقها وعاداتها وأطوارها.

إذا ما قرنا بين ما ذكره المؤرخون من أحوال العرب السابقين وأفعالهم وأطوارهم وبين أحوال العرب الذين يعيشون اليوم وعاداتهم نكاد لا نجد فرقًا بينها.

حتى إن القبائل الجديدة التى تفرعت وتشعبت من القبائل القديمة رغم مرور الزمن تحمل نفس أسماء القبائل القديمة.

فى تعريف أحوال القبائل العربية وأطوارها
فى الأزمنة الجاهلية والعهود الإسلامية

كان العرب سواء أكانوا فى الجاهلية أو الإسلام ينقسمون إلى قسمين: أهل المدن يعنى أهل المدن والأمصار، وأهل الوبر يعنى سكان البادية الذين يعيشون تحت الخيم ودائمى التنقل.

وكانت القبائل البدوية فى الجاهلية تتبع أديانًا مختلفة. فمثلاً عربان حمير كانوا يعبدون الشمس كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (النمل: ٣٤) كما وصف الهدهد بلقيس الحميرية لسليمان «عليه السلام». وكان عربان قبيلة «لخم» يعبدون المشترى، وعربان «كندة» يعبدون القمر. كما كانت قبيلة حنيفة والقبائل الأخرى تعبد الأصنام وقبائل أخرى على اليهودية والنصرانية، كما ظلت بعضها متمسكة بعبادة الأوثان، واعتنقت قبيلة ربيعة والغساسنة النصرانية، كما اعتنق الحميريون وبنو كنانة بنو الحارث وكندة اليهودية، واعتنق عربان تميم المجوسية، وظل القرشيون متزندقين وشاعت عبادة الأوثان بين العرب.

ولما أشرقت شمس الهداية الإسلامية من الآفاق، وأزالت بأنوارها المحمدية ظلام الكفر والجهالة، وشملت أنوار الشريعة المحمدية أقطار العالم الأربعة، دخل سكان جزيرة العرب عامة إلى حصن الإسلام المتين، وانقادوا للشريعة الإسلامية الغراء، وبهذا نالوا أقصى مطالبهم وأدركتهم السعادة الدنيوية والأخروية، وعملوا على نشر أنوار الدين المبين فى أقطار العالم الأربعة لنيل رضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفتحوا بلادًا كثيرة.

وأخذت قوتهم وقدرتهم وصولتهم تزيد شيئًا فشيئا، وبدأت دولتهم القوية تتسع يومًا بعد يوم، وتغلبوا على الملاك المعاصرين والسلاطين، وتقدموا فى ميادين الفنون والصنائع والعلوم تقدما عظيما، وإن الآثار الجليلة التى تركوها لتدل على أنهم أرادوا أن يوصلوا ملتهم وأقوامهم فى سلم المعرفة والمدنية إلى الدرجة الأولى، لذلك بذلوا كل ما فى وسعهم حتى يصلوا إلى المراتب القصوى فى ميادين الفنون والعلوم والكشوف والاختراعات.

المدارس التى أسست فى بغداد، والمعاهد التى فتحت فى الأندلس وما بذل من الجهود فى سبيل التقدم فى العلوم والفنون يعلن كيف خدم العرب الفكر، وكل هذه الجهود من المباحث التى تزين صفحات التاريخ المنيرة وتوشحها.

ولكن لشدة الأسف فترت هممهم مع مرور الزمن، وأخذ الأوربيون يطورون العلوم والفنون التى تعلموها منهم، وأوصلوها إلى درجة عظمى نتيجة لسعيهم وحرصهم على العمل.

أهل المدر

النوع الأول من سكان جزيرة العرب هم الذين يطلق عليهم أهل المدر والذين يعرفون فيما بينهم بـ «حضرى ـ بلدى» ويسكنون فى المدن والقرى ويعملون ـ على قدر ما يساعد مناخ بلدهم واستعدادهم ـ بالزراعة وتربية أشجار النخيل والعناية بالحدائق والبساتين، ويبذلون جهودهم لتأمين معيشتهم بما ينتجون من محاصيل، كما أنهم يؤمنون معيشتهم من جهة أخرى بالتجارة مع سكان البلاد المجاورة، فيسافرون إلى البلاد التى يرغبون فى الذهاب إليها، ويعرضون خضوعهم للملوك والأمراء والسلاطين الذين يتبعون لهم، كما أنهم يبذلون السعى والجهود لاكتساب المهارات والمعارف والفنون على قدر طاقاتهم ليوسعوا دائرة معيشتهم، وليصلوا إلى درجة من الثروة والغنى واليسار.

أهل الوبر

النوع الثانى من العرب هم العربان والبدو أى «أهل الوبر» وهم عرب البدو

والفيافى والصحارى التى تسكن تحت الخيم، ولما كان أهل الوبر سكان الصحارى عديمى الرغبة فى اكتساب العلوم والفنون فهم يختلفون اختلافا كليا عن أهل المدر فى سبيل تأمين وسائل معيشتهم، فالمساكن التى يسكنونها خالية تمامًا من علامات الجمال، فهى قد أعدت فقط لتقى أجسامهم من شدة حرارة الشمس، ومن تأثير اختلاف الجو وتغيراته ويعيش أغلبهم تحت الخيام التى نسجت من صوف الأغنام أو وبر الجمال أو شعر الماعز أو الخيول.

ويعيش بعضهم فى أكواخ[1] صنعت من سعف النخيل، كما يعيش آخرون فى مساكن بنيت من الحجارة والطين، ومفروشاتهم الحصير الذى نسج من سعف النخيل والأكلمة[2] المصنوعة من الصوف، وملبوساتهم عبارة عن قميص طويل ومشلح وكوفية ومداس، وقمصانهم الطويلة من قماش أزرق ومشالحهم من الصوف، وكوفيات بعضهم من الخيوط القطنية وكوفيات الآخرين من الحرير، والنعال التى يطلقون عليها «المداس» تصنع من جلد الجمال أو جلود الحيوانات الأخرى.

وبما أن الرجال والنساء قد تعودوا على أن يلبسوا قمصانًا وجلابيب فى غاية الطول فإنهم لا يعرفون معنى السراويل، ويتركون صبيانهم الذكور عرايا دون ملابس؛ إلا أن الصبايا يتمنطقن بحزام من جلد ذا شراشيب فيسترون عوراتهن ويخفينها، إنهم لا يزيدون فى أكلهم وشربهم عن حاجتهم الضرورية شيئا، لذا ترى طعامهم زهيدا جدًا وكذلك شربهم، وبما أنهم مكبون على تهيئة الأغذية الطبيعية التى تحفظ لهم حياتهم والتى هم إليها فى أشد الحاجة فأغلبهم يربون الجمال والغنم والماعز، ويدبرون معيشة أولادهم وعيالهم بمنتجاتها، كما أن بعضهم يدبرون قوتهم وقوت أولادهم بالرعى والزراعة والفلاحة. والذين يتعايشون بمنتجاتهم من الحيوانات مثل الجمال والغنم والماعز فى حالة ترحل

(١) يطلق أهل الحجاز على هذه الأكواخ اسم «عشة» أما أهل اليمن فيسمونها «عريش»، وإذا كانت هذه الأكواخ من حجر فيسمونها «مخزن».

(٢) تعرف هذه البسط بين البدو باسم «شملة».

دائم، ويسوق هؤلاء مواشيهم إلى الأماكن التى تمتاز بنقاء هوائها ووفرة مائها وكثرة أعشابها، والذين يشتغلون بالزراعة والفلاحة يسكنون القرى والأراضى الصالحة للزراعة. حتى إن عربان قبيلة عنزة التى تسكن فى الأراضى الواقعة فى شمال جزيرة العرب تمضى الصيف فى الشام وبغداد والجزيرة ذات الأراضى المعشوشبة، وتعود فى الشتاء إلى مواطنها الأصلية وتمضى الشتاء فى الوديان ذات العشب الوفير والماء الغزير.

والبدو تنحصر معايشهم فى منتجات الجمال والغنم والماعز فهم يقيمون فى الخيام، ولا يجدون أية صعوبة عندما يرتحلون من مكان إلى آخر. ولما كان هؤلاء يقضون حياتهم دائمًا فى الفيافى والصحارى منعزلين عن الحضارة لم يستطع أى ملك من الملوك أو سلطان من السلاطين الذين يخضعون لهم أن يدخلوهم تحت طاعتهم مثل الأقوام المتمدنة الأخرى.

أما انقياد البدو فى صدر الإسلام وخضوعهم لدولة الإسلام فيعود السبب فيه إلى ما كانت تتمتع به الدولة من السطوة القاهرة والقوة العظيمة.

والواقع يقتضى أن تكون الدولة التى تحكم جزيرة العرب صاحبة قوة قاهرة، وإذا فرضنا أن ولاة البلاد العربانية ذوو قدرة وقوة، ولكنهم يهملون فى الضبط والربط أو يتساهلون فيهما حتى لا يخلفوا لأنفسهم مشاكل تكون سببًا فى أن عامة العربان يرفعون راية العصيان ويخالفون جميع الأوامر والآراء، وينقادون لمن اختاروه من بينهم شيخًا لهم.

إن المشيخة بين العرب على الأقل شىء موروث أخذوه كابرًا عن كابر، ولما كان كل شيخ راغبًا فى حماية مصالحه الخاصة تراه يعمل على أن يستقل، ووفقًا للمثل القائل «الحكم لمن غلب» فالشيوخ الضعاف والصغار يمضون حياتهم تحت حماية الأمراء الأقوياء الشكيمة من العربان.

وإن كانت طبيعة البدوى تتسم بالخشونة والرعونة، إلا أن هذه الخشونة ليست بدرجة تمنعه من الخضوع والانقياد لأوامر السلاطين العظام، ولديهم قابلية ـ بما

يتمتعون به من دراية فطرية وذكاء جبلّى ـ لقبول شرف المدنية بسهولة، وأكبر دليل على ذلك دخول بعض أفراد القبائل تحت طاعة الدولة دون أن ينخدعوا بحيل مشايخهم، وذلك عندما ساقت الدولة العثمانية جنودها سواء أكان إلى عسير واليمن أو نواحى البحرين، وأخذوا ينشرون العدالة فى الأماكن التى تمركزوا فيها، وذلك عندما رأوا ما يتمتع به الذين يعيشون تحت طاعة أوامر الدولة من راحة وطمأنينة واستقرار.

ويتردد بعض البدو فى تصديق سطوة السلاطين القاهرة، ولما كانوا جهلة بما يعنى قوة الملوك وشوكتهم فهم معذورون فى التردد فى هذا الموضوع.

ومن الحالات الخاصة بالبدو ألا يصدقوا ما يسمعونه بآذانهم ولو كان متواترًا مالم يروا بأعينهم، وقد ضرب المثل المشهور الذى يقول «إن إيمان البدو فى عيونهم» تصديقًا لتلك الحالة.

وبما أن قبائل العربان تعيش فى الصحارى وبين الجبال فى حالة ترحال دائم، لذا فإن بعض أفرادها لم يروا بعض مدن جزيرة العرب مرجعهم لشراء ملبوساتهم وحاجياتهم، ناهيك عن بعض المدن من البلاد العثمانية؟.

والبدو يتفوقون من حيث الشجاعة على المدنيين، والشجاعة أمر ضرورى للبدو، والسبب الرئيسى فى ذلك أنهم ليسوا كالحضريين الذين يحتمون بالدولة والحكومة التى يعيشون تحت جناح صيانتها، ويشتغلون بأمور معيشتهم من الكسب فى راحة وأمن، بل إن البدو يعيشون فى الأماكن الموحشة فى عزلة، وفى الصحارى بين التلال والجبال، ويجدون أنفسهم مضطرين للدفاع عن أولادهم وعيالهم وأموالهم وما يملكون ضد أضرار الأعداء، لذا تراهم يسيرون متسلحين دائمًا مستعدين ليلاً ونهارًا، للدفاع عن أنفسهم ضد الحوادث المضرة التى يتوقعونها فى كل لحظة.

وقد تمكنت هذه الفكرة من ذهن أى عربى بدوى بحيث لا يمكن تزحزحها. ومن الأشياء التى تجلب أنظار المنصفين وتنال تقديرهم وتحير العقول تحمل البدو

الجوع والعطش أيامًا كثيرة، وقطعهم المسافات الطويلة بسرعة دون تعب أو كلل، وتعودهم القتال منذ صباهم جعلهم فى الحرب والمعركة شجعانًا من الدرجة الأولى.

ولقد حرص البدو منذ نشأتهم الأولى إلى يومنا هذا ألا يصيب أطوار بدويتهم وتقاليدهم خلل، وما يزالون إلى يومنا هذا يبذلون أقصى ما فى جهدهم للمحافظة على تلك العادات.

وقد شرفت جميع القبائل العربية التى عاشت فى عصر السعادة باعتناق الإسلام، وتركوا صفاتهم الذميمة التى كانوا يَتَخَلَّقُون بها فى عصور الجاهلية، وسلكوا طريق السلامة واشتركوا فى الغزوات الإسلامية، وقطعوا المسافات فى سبيل الجهاد شرقًا وغربًا، وفتحوا كثيرًا من البلاد وسخروها وأملوا أسماءهم وثبتوها وسجلوها على دفاتر الأيام بسيف الجلالة.

فى ذكر الملوك الجبابرة التى كانت تحكم جزيرة العرب قبل ظهور الدين الإسلامى

ملوك عاد الأولى:

كات بلدتى حضرموت، وشحر حاضرة مُلك ملوك عاد الأولى وكانت رعاياهم من القبائل العربية تسكن فى صحارى الأحقاف الواقعة بين البلاد اليمانية وعمان.

وكان تاريخ ظهور هؤلاء الملوك سنة ألفين وخمسمائة بدء الخليقة، وتاريخ انقراضهم سنة ثلاثة آلاف وأربع وأربعين سنة بدء الخليقه، وبلغت مدة سلطنتهم خمسائة وخمس وأربعين سنة. كان الأولى عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكان الثوانى والثوالث شديد من شداد بن عاد بن عوص، ويروون أن شداد بن عاد قد ذهب مع جميع أتباعه إلى قصر إرم الذى بناه مثيلاً للجنة فى صحراء عدن، وقبل وصوله إليه هلك مع جميع رعاياه إذ حدثت صيحة سماوية فسوتهم جميعًا بالأرضين.

وقال بعض المفسرين إن الآية الجلية ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ (الفجر: ٧، ٨) نزلت فى حق ذلك القصر.

وذهب المؤرخ ابن خلدون إلى أن تلك الآية لم تنزل فى حق قصر إرم بل فى حق قبيلة أرم، ولكن بناء على الروايات الموثوقة أن القصد الإلهى من تلك الآية موقع سكنى قبيلة أرم، وقد اشتهر ذلك المكان بالنسبة لأرم جد قوم عاد ابن سام بن نوح عليه السلام.

لما كان قوم عاد يعبدون الأصنام أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هود بن شالخ

بن أرفخشذ بن سام بن نوح (عليه السلام) نبيًا لهم ليدعوهم إلى طريق الهداية، إلا أن هؤلاء القوم لم يستجيبوا لدعوة هود عليه السلام. وتجرءوا أن يؤذوه بأنواع مختلفة من الإساءات. وفى النهاية ابتلوا بقحط عظيم لانقطاع المطر عنهم، وأصيبت نساؤهم بالعقم، وظهرت عاصفة شديدة قبل الهجرة بـ ٣١٧٢ سنة فى بلادهم فهلكوا جميعًا، وقد نجا المؤمنون منهم إلا أن عددهم كان قليلاً.

قوم ثمود

توفى هود ـ عليه السلام ـ بجوار حضرموت عن عمر ٤٤٠ عامًا وقد كان لقمان وقوم ثمود من طائفة عاد الأولى أيضًا، وكانوا يستوطنون حجر وادى القرى الواقع بين الشام والحجاز.

وقد انحرف قوم ثمود سكان حجر وادى القرى بعد هلاك قوم عاد، وعصوا الله وأخذوا يعبدون الأصنام التى صنعوها بأيديهم، وهكذا طغوا وبغوا فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم صالح «عليه السلام» نبيًا لهم.

كان صالح عبيل بن آسف بن شالخ بن عبيل بن كاثر بن ثمود وكان ثمود بن عابر بن إرم بن سام ساكنًا بجوار عدن، وذهب صالح «عليه السلام» بناء على الأمر الإلهى الصادر له إلى قوم ثمود فى مسكنهم من أرض الحجر، وقال لهم إنكم تمضون الصيف فى السهول، كما تمضون أيام الشتاء فى الجبال فى بيوت منحوتة آمنة من كل شىء، ومع ذلك نسيتم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونسيتم نعمه الجليلة وهذا يعد عصيانًا لله ـ تعالى ـ وأثر من آثار الطغيان فاتركوا العصيان والطغيان واشكروا نعم الله ـ تعالى ـ وإلا هلكتم بعذاب شديد ودعا بهذه الطريقة ثمود إلى الدين الحق.

وأسلم بعض قوم ثمود عبدة الأوثان وأصحاب البغى والطغيان، وأنكر الباقى رسالة حضرة صالح «عليه السلام»، وأخذوا يعاتبونه قائلين إنك تريد أن تمنعنا عن دين آبائنا وعما عبدوه!! وأصروا على إيذاء النبى صالح «عليه السلام»

وإزعاجه هو وأتباعه من المسلمين، وأخذوا يعذبونهم ويستهزئون بهم. وفى فترة ما أخرجوا أصنامهم إلى الصحراء، وأرادوا أن يمتحنوها، وطلبوا من الأصنام التى أخرجوها إلى الصحراء بعض الأشياء، وعندما لم يظهر ما طلبوه من الأصنام قالوا لصالح «عليه السلام»: إن كنت نبيًا حقًا فأخرج لنا من هذه الصحراء ناقة حاملة، ولما دعا صالح «عليه السلام» إلى الله خرجت ناقة من الصخرة التى أشاروا إليها بعد أن أنت الصخرة كالنساء اللائى يضعن حملهن، وانشقت وخرجت من داخلها الناقة التى طلبها قوم ثمود، إلا أن قوم ثمود ظلوا على عنادهم ولم يؤمنوا بصالح وما يدعوا إليه.

وفى النهاية طلب صالح من قوم ثمود بدلالة الوحى الإلهى أن ترتوى ناقة صالح من الماء الذى عندهم يومًا، وتَروى حيوانات قوم ثمود من ذلك الماء يومًا آخر، وقد فعل قوم ثمود هذا الطلب. إلا أن قوم ثمود خالفوا هذا الأمر فيما بعد، واجتمع تسعة من رؤسائهم وأقسموا فيما بينهم أن يقتلوا صالحًا وأتباعه من المؤمنين رافضين الهداية، وأخذوا يسيئون إلى صالح والمسلمين وتجرءوا على قتل الناقة، فما كان من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن أرسل عليهم صيحة قوية، وزلازل شديدة فهلك الذين لم يؤمنوا وقد وقعوا على وجوههم كأشجار خاوية.

وأخذ حضرة صالح أتباعه الذين آمنوا به بعد هلاك ثمود، وذهب بهم إلى فلسطين وهاجر من هناك إلى مكة المكرمة، وارتحل إلى دار النعيم فى تلك البقعة الطاهرة وهو فى الثامنة والخمسين من عمره.

يروى أن الأقوام التى عاشت فى عهد عاد الأولى كانت ذات أجسام ضخمة قوية وتتصف بالظلم والعناد.

ملوك اليمن

انتظر أولاد نوح ـ عليه السلام ـ بعد وقعة الطوفان الهائلة فى أقطار الأرض. واتخذ كل واحد منهم مع أتباعه بقعة من الأرض مأوى لهم. قد سكن من بينهم

عابر و(قحطان) ابن هود (عليه السلام) فى أرض اليمن واستقل بتلك البلاد وأصبح ملكها قبل الهجرة بـ ٣٠٩٥ عامًا.

كان أصل اسم قحطان «يرد» ولما أنقذ الناس فى زمن القحط من المجاعة لقب باسم «قحطان».

وأصبحت منذ ذلك الوقت القطعة اليمانية بلادًا عظيمة مسكونة، وسكانها من سلالة قحطان، وقحطان هذا ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح «عليه السلام» كما سبق ذكر ذلك فى بحث العرب العاربة.

ويطلق على الملوك الذين حكموا فى أرض اليمن الجسيمة على حِمْيَر بن سبأ: «القحطانية» والذين حكموا على حارث الرأس: «الملوك الحميرية»، وأطلق على الذين أتوا بعدهم «حميرية» و «تبابعة».

ومعنى تبع كثير الأتباع والمطاع، وهو لقب خاص بالملوك الذين حكموا ولايات حضرموت وسبأ وحمير.

هناك روايات كثيرة بخصوص ظهور الملوك اليمانية وتاريخهم وانقراضهم ومدة سلطنتهم وعددهم، وبناء على أقوى الروايات فإن الملوك اليمانية ظهروا سنة ثلاثة آلاف وأربع وأربعين، وانقرضوا سنة ستة آلاف واثنتين وتسعين.

وبناء على هذه الرواية تبلغ مدة سلطنة الملوك اليمانية ثلاثة آلاف وثمان وأربعين سنة، إلا أنه لا يوجد تاريخ يعتمد عليه فى معرفة عدد الملوك الذين حكموا فى تلك الفترة.

ولقد وقعت البلاد اليمانية بعد انقراض الملوك الحميرية تحت سيطرة أربعة حكام من الحبشة، وقد ظهر هؤلاء سنة ستة آلاف وثلاث وتسعين، وانقرضوا سنة ستة آلاف ومائة وخمس وستين. وبناء على هذا التقدير فمدة سلطنتهم اثنتين وسبعين سنة.

وبعد ذلك استولى على اليمن مرة أخرى أبو مرة سيف وهو من نسل الملوك

الحميرية بمعاونة كسرى ، إلا أنه قتل بعد استيلائه على اليمن بخمسة عشر عامًا، وعلى رواية بعد أربعة أعوام، وبناء على رواية أخرى قتل من قبل الحبشة[1] وتقول الروايات أنه بعد قتل أبو مرة سيف لم يحكم أحد من نسل الملوك الحميرية اليمن، إلا أنه كان فى ناحية من نواحى اليمن مملكة اتخذت لنفسها واحدًا من نسل حمير ملكًا لها، وحكم هؤلاء الملوك الطوائف، وعلى رواية أن بلاد اليمن ظلت فى يد ملوك الفرس بعد قتل أبو مرة سيف إلى ظهور الإسلام.

والرواية الثانية أرجح على الرواية الأولى، حتى إن الولاة الذين يعينون من قبل الأكاسرة يطلق عليهم مرازبة.

وعدد ملوك المرازبة ثمانية ملوك، وكانت حاضرة ملكهم بلاد اليمن، وكان بدء ظهورهم قبل الهجرة بأربع وأربعين عامًا، وكان زمن انقراض ملكهم بعد الهجرة النبوية بعشر سنوات، وبهذا بلغت مدة ملكهم ثلاثًا وخمسين سنة.

وهذه الرواية صحيحة لأن بازان بن ساسان من الملوك المرازبة وحكم اليمن إلى بداية البعثة النبوية، وبما أنه اهتدى وأسلم فأبقاه النبى ﷺ حاكمًا، ولما توفى فى السنة العاشرة من الهجرة ولى النبى ﷺ ابنه شيرين على بعض البلاد اليمنية، وبهذا الشكل أعلى قدره ومرتبته بين الأهالى.

وكانت حاضرة ملوك حمير والتبابعة صنعاء ومدينة مأرب البعيدة عن صنعاء بمسافة ثلاث مراحل.

كانت مدينة مأرب تقع فى نهاية جبال حضرموت، وكانت فى أماكن غير آهلة بالسكان فى زمانها، وكانت ديار سبأ فى هذه الأراضى الخالية وكان سد مأرب فى هذه الديار كما سيأتى تعريفه فى الاستطراد الآتى.

سد مأرب- العرم- سيل العرم

كان سد مأرب قد بين جبلين عاليين لحماية بلدة مأرب من السيول التى تنزل من الأنهار التى حولها، وكان يطلق على المياه الكثيرة التى تتجمع خلف هذا

(١) ما يطلق عليهم «الحبش» فى التواريخ العربية ليسوا الحبش الحاليين بل هم السودانيون الحاليون.

السد العَرِم بفتح العين وكسر الراء، كما أطلق على السيول العظيمة التى حدثت نتيجة لانهيار سد مأرب سيل العرم.

وبلدة مأرب التى مدحت فى القرآن الكريم ـ ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ (سورة سبأ/ ١٥) ـ كانت بعيدة عن صنعاء بثلاث مراحل، وذات هواء نقى وماء زلال، ومكان جيد وهى أثر من آثار سبأ بن يشجب.

وكان هذا السيل العظيم قد طغى من الجبال التى تقع فى مقدمة هذه البلدة الطيبة واتحد بنهيرات صغيرة كانت تنحدر من الجبال واكتسب ضخامة كأنه بحر.

وكانت بلدة مأرب قد أسست فى الأول من قبل أولاد وأحفاد سبأ بن يشجب السالف الذكر، وكانت قرية صغيرة ولكنها فيما بعد اتسعت وعمرت سواء أكان بأولاد سبأ أو أحفاده وأحفاد أحفاده، والذين تكاثروا بحيث أصبح الوادى الذى يسكنون فيه لا يتسع لهم؛ فانتقل بعض هؤلاء حول هذا الوادى واختاروا منه أماكن جميلة، وأسسوا قرى ومدنًا جميلة، حتى وصل عدد قراها ومدنها إلى أربعة آلاف وسبعمائة كما تخبرنا به التواريخ، وكان أول هذه القرى والمدن التى أنشأها أولاد سبأ وأحفاده فى صنعاء اليمن وآخرها فى حدود الشام وكانت كل قرية بعيدة عن الأخرى ست ساعات ومبنية فى واد مستقيم مسطح بحيث كان الواقف فى قرية يرى القرية الأخرى.

وكان المسافر الذى يسير سيراً متوسطًا يصل إلى القرية الأخرى فى ظرف ست ساعات، وكانت طرقها آمنة من جميع أنواع المخاطر.

وكان الإنسان يستطيع أن يذهب حيثما يريد ليلاً ونهاراً دون خوف، وكانت الطرق خالية من الحشرات المؤذية مثل العقارب والحيات المؤذية، كما أن القرى والمدن خالية من الحشرات مثل: القمل والبرغوث والذباب، و إذا ما وجدت حشرات مثل القمل والبرغوث فوق الذين يأتون من البلاد الأخرى كانت تهلك بمجرد دخولهم إلى بلاد سبأ.

وكانت أطراف الطرق بين المدن والقرى ممتلئة بالحدائق والبساتين، وكل بستان وحديقة مزينة بأنواع الفواكه والأزهار، وكانت هذه الفواكه والأزهار وفيرة كثيرة، بحيث كانت نساء القرى يخرجن للتنزه تحت الأشجار وفوق رءوسهن أسبتة وفى أيديهن خيوط القطن ينسجن وتمتلئ الأسبتة بالفواكه المتساقطة من الأشجار التى يسرن تحتها، ثم يعدن إلى منازلهن وقد تنزهن وحصلن على الفواكه، ومن الطبعى أن يرد للخاطر كيفية سقية هذه الحدائق الواسعة والبساتين الشاسعة فالإجابة على هذا الخاطر أن كثيراً من القنوات والجداول قد شقت حول نهر العرم فسقيت البساتين والحدائق بالمياه التى تجلبها هذه القنوات والجداول.

وبناء على هذا اكتسبت بلدة مأرب جودة فى الماء والهواء، كما أن الخضرة أكسبت البلدة جمالاً ورونقًا فاتسعت البلدة يومًا بعد يوم، وأنشئت بساتين متصلة وحدائق متقاربة حول البلدة والطرقات.

وقد أصاب عقيدة أهالى مأرب الذين نالوا كل هذه النعم الإلهية، وحازوا العناية الإلهية ضعف ووهن إذ قالوا ماذا يحدث لنا؟ وماذا يكون مصيرنا إذا أمطرت السماء بغزارة وفاض نهر العرم وغمرت مياهه حدائقنا وبساتيننا التى بذلنا جهودًا شاقة فى سبيل إنشائها وإنباتها؟ واستولى عليهم القلق والجزع نتيجة لمثل هذه الأفكار، وبناء على هذا فكر سبأ بن يشجب ـ على رواية ـ أو نعمان بن عاد ـ بناء على رواية أخرى ـ فى إقامة سد أمام نهر العرم طوله فرسخ وكذلك عرضه، وفعلاً نفذ الفكرة وأنقذ أهل مأرب من هذا القلق الذى كان يقلق مضجعهم.

اختلف المؤرخون فى تحديد بانى سد مأرب، كما تنقل روايات مختلفة فى تعريف طول السد وعرضه ومتانته وضخامته.

قال الذين ذهبوا إلى أن بانيه نعمان بن عاد، أن طول السد وعرضه كان كل واحد منهما اثنى عشرة ألف خطوة وكان له فى ثلاثين مكانًا قوائم، كما قال الذين زعموا أن بانى السد سبأ بن يشجب أنه لما تيقن أن عمره غير كاف لبناء مثل هذا السد الضخم فكر فى إتمام بنائه فى أقرب وقت ممكن؛ لذا أمر سكان سبعين

واد كبير بأن يشتركوا فى بناء السد، إلا أن عمره لم يف أيضًا بالعمل فى البناء. وإن هؤلاء المؤرخين أشاروا إلى أن عدة من الملوك والحكام توارثوا الملك منذ ابتداء العمل فى السد إلى الانتهاء من بنائه.

ولما كان بناء مثل هذا السد الضخم وإقامته لا يتم فى خلال حكم ملك واحد لأن عمر بنى البشر لا يمتد بهذا القدر، فالرواية الثانية ترجح على الروايات الأخرى.

قد بنى السد المذكور بصخور ضخمة ملصقة بالزيت والقار، وقسم إلى فروع وجعل له مساقى فوقية وتحتية وبعض القنوات وأقيم بين جبلين، وأخذت بعض أماكن السد تخرب بمرور الوقت؛ إلا أن الملكة التي تسمى بلقيس ـ والتى ورثت الحكم من ملوك التبابعة فى بلاد سبأ والتى اكتسبت العز والسعادة بالزواج من سليمان بن داود عليهما السلام ـ عمرت وأصلحت السد بصورة جيدة وقوته وفتحت له منافذ كثيرة. وفتحت ثلاثة أبواب وقوت ما حول الأبواب بصورة متينة رصينة.

وكان أهل مأرب يفتتحون كل سنة بابا من تلك الأبواب، أى كانوا يفتحون سنة الباب الأول، والسنة التى بعدها الباب الثانى، والسنة التى بعدها يفتحون الباب الثالث، ويقسمون المياه الجارية من تلك الأبواب إلى جداول مرتبة، وكانوا يسقون المزارع والبساتين كيفما يشاءون.

وزادت بلاد سبأ عمرانًا بعد أن عمرت بلقيس سد مأرب، ورتبت البساتين التى حول الجداول كأنها رسوم مرسومة فوق الأوراق، وأخذ أهالى بلاد سبأ يتنعمون يومًا بعد يوم، وأخذوا يركنون إلى قضاء أيامهم فى الحدائق والبساتين فى فرح وسرور، وأصابهم الكبر والغرور بل تجرءوا على الكفر والطغيان كما جاء فى القرآن الكريم وعصوا ربهم ولما كان واجبًا على هؤلاء أن يقضوا أيامهم ولياليهم فى العبادة والطاعة والخضوع لله لما وهبوا من نعم لم يوهب مثلها لأى

أحد من أهالى البلاد الأخرى، ولكنهم ارتكبوا العكس فانهمكوا فى الشرك واستحقوا بهذا قهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ القهار.

وكان من رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأهل مأرب وسبأ أن أرسل لهم ثلاثة عشر نبياً متتابعين يدعونهم إلى طريق الهداية؛ ولم يعيروا آذانا ولم يصغوا لنصائح هؤلاء الأنبياء ووصاياهم، إذا قالوا لهم: «ياسكان مأرب التى تشبه جنات الفردوس! احرصوا على شكر الله والثناء عليه وأنتم تأكلون وتشربون من أنعم الله التى بذلها لكم الله سبحانه وتعالى، وبما أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم فسيزيد من نعمتى الدارين عليكم، إذا زدتم فى الشكر لله سبحانه وتعالى!، أما إذا امتنعتم عن اتباع أوامر الله سبحانه وتعالى فسوف ينهار سد العرم ويفرقكم جميعًا فيفنيكم ويهلككم، إلا أنهم قابلوا هذه النصائح والوصايا بالسخرية والاستهزاء، وبينوا أنهم لن يتركوا الأعمال التى تؤدى إلى العار وتستوجب العقاب والخسارة والعذاب، وأظهروا عدم رضاهم عن قرب قراهم ومدنهم بعضها من بعض، وودوا أن تبتعد هذه القرى والمدن بعضها عن بعض وفق ما جاء فى القرآن الكريم ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سبأ: ١٥-١٩).

ولما قال لهم أنبياؤهم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيخرب هذا السد بواسطة الفئران، قالوا لهم إننا سوف نقضى على تلك الفئران التى سيخلقها ـ سبحانه وتعالى ـ لتخريب السد بواسطة الهرر والقطط، وفعلاً أعدوا كثيراً من القطط ـ نتيجة لهذه الفكرة الخاطئة وربطوها بجانب السد.

وفى النهاية نفذ قضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ القهار ولم تفد جميع مساعى أهل مأرب وجهودهم وما اتخذوه من الاحتياطات ليحولوا دون انهيار السد، فأغرقت مياه السيول التى تجمعت خلف سد مأرب بلاد سبأ ومحتها من الوجود، وذلك منذ أربعمائة عام قبل البعثة المحمدية فى عهد عمرو مزيقيا من حكام اليمن، وتحقق ما تنبّأ وأخبر به الأنبياء المشار إليهم. وضاعت معيشتهم المرفهة وأصبحت أحوالهم قصصا تدور على ألسنة الأنام.

لو كان أهل مأرب اطلعوا على الكارثة التى ستصيبهم لعملوا على الأقل على إنقاذ أرواحهم. إلا أنه فى ليلة من الليالى ظهرت فئران أكبر من القطط دون علم أحد وشقت القطط التى رباها الأهالى للدفاع عن القضاء المفاجئ الذى سيقع فجأة، ونقبت أسس السد المتين وهدمته بعون السيول فى النهاية. وقد تجلت قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصفة المنتقم فغرقت جميع بلاد سبأ بتدفق مياه سيل العرم وهجومها عليها. وتحولت أربعة آلاف وسبعمائة من القرى والمدن فى لمح البصر إلى خرائب وأطلال. ولم يبق فى هذه الحدائق والبساتين إلا خمط وأثل وشىء من سدر قليل. وبعض أشجار ونباتات غير صالحة لأكل محاصيلها.

ملوك الغساسنة

وقد تشتت أهالى بلاد اليمن الجسيمة بعد سيل العرم فى البلاد الأخرى. وقد نزلت قبيلة بنوا أزد من نسل كهلان بن سبأ بجانب الماء الذى يعرف باسم غسان فى نواحى الشام، واشتهرت باسم هذا الماء وقد عمل هؤلاء فى فترة من الفترات على الاستيلاء على البلاد الشامية كلها حيث أسسوا حكومة ملوك الغساسنة.

كما أن بعض أفراد هذه القبيلة هاجر إلى ديار بكر حيث أسسوا المملكة الخاصة بملوك كندة أيضاً وكان ابتداء ظهورهم قبل ظهور نور الإسلام بخمسمائة عام، وكانت دار ملكهم معظم سواد الشام. ووصل عدد ملوكهم إلى واحد وثلاثين ملكاً، ودامت مدة سلطتهم ستمائة عام. وكانوا كلهم تابعين لقياصرة الروم. وقد زادت قوتهم تحت هذه التبعية إلا أن ملكهم أواخر حياتهم تعرض للضعف والوهن، وانقرضت قوتهم ودالت دولتهم فى العام السادس عشر من الهجرة النبوية.

وكان جبلة بن الأيهم ـ وهو من فروع ملوك الغساسنة ـ قد تشرف باعتناق الإسلام فى خلافة عمر الفاروق (رضى الله عنه) وقصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وفى أثناء طوافه بالكعبة داس أحد أفراد عربان قبيلة فزارة على طرف ثوبه فغضب جبلة غضباً شديداً، ولكم العربى لكمة قوية وكسر بعض أسنانه. فما كان من المضروب إلا أن تقدم لعدالة وحكم الخليفة طالبًا منه أن يرضى المضروب إما قصاصاً أو يدفع دية. إلا أن جبلة بن الأيهم استهجن الحكم الصادر وعاب حكم الفاروق لأنه ساوى بينه وبين شخص من عامة الشعب. وغضب غضباً شديداً إلا أنه طلب من الخليفة إذناً بالتفكير فى الأمر، وفى الليل عاد إلى دينه القديم الباطل ومات وهو كافر.

المناذرة

آل منذر ـ ملوك المناذرة من أهالى اليمن ومن أبناء كهلان بن سبأ. هؤلاء أيضاً خرجوا إلى مكة المعظمة ومن هنا قصدوا بلاد الحيرة حيث كونوا سلطنة.

وآل مناذرة من أعظم ملوك العرب من حيث قوة دولتهم وعظمتها، وكانت دار ملكهم فى بلدة الحيرة القريبة من الكوفة، لذلك لقبوا بملوك الحيرة كما سموا فترة بـ «اللخميين».

ولا يعرف عدد ملوك المناذرة الذين حكموا البلاد معرفة قطعية، إلا أن مدة سلطنتهم امتدت ستمائة وعشرين عاماً، وكان أول ظهورهم قبل الهجرة النبوية بخمسمائة واثنين وستين عاما، وكان انقراض دولتهم بعد الهجرة النبوية باثنى عشر عاما.

بنو جرهم

ينقسم ملوك الجراهمة الذين حكموا الحجاز إلى قسمين. ويطلق على القسم الأول جرهم الأولى، وعلى القسم الثانية جرهم الثانى، ولما كانت جرهم الأولى معاصرة لقوم عاد فأحوالها الحقيقية مجهولة. أما جرهم الثانية فهم من أبناء قحطان وأحوالهم معروفة لدى أصحاب العقول بدلالة التاريخ.

كان جرهم الثانى أخا يعرب بن قحطان. وبينما كان يعرب ملك ممالك اليمن هاجر الثانى مع ابن عمه قورا آخذا معه أولاده وأتباعه إلى مكة المكرمة، وسكن فى تلك الأماكن المقدسة ثم كون سلطنة، وحكم فترة غير قليلة.

وعدد ملوك جرهم الذين حكموا فى الحجاز أربعة عشر ملكاً، وكانت دار ملكهم مكة المكرمة. وانتقلت حكومة بيت العزة من الجراهمة إلى بنى خزاعة. وخرج أجداد خزاعة الذين استولوا على الحجاز فى رفقة قبيلة أزد من اليمن إلى مكة المعظمة، وتوارثوا حكومة مكة كابراً عن كابر، وبلغوا بقوتهم وقدرتهم إلى درجة الكمال. ولكن قصى بن كلاب من سلالة إسماعيل ـ عليه السلام ـ الطاهرة ورئيس قبيلة قريش وحد بين القبائل القرشية، وبهذا استطاع أن يطرد بنى خزاعة من مكة المكرمة، وقضى على قوتهم وقدرتهم وخرب دولتهم.

وكان قصى بن كلاب من الحكام الذين حكموا من قبيلة قريش مكة المكرمة وهو جد النبي ﷺ الأعلى، وانتقل الحكم بعده إلى أبنائه الذين أداروا حكم مكة إلى ظهور الإسلام. وبعد وفاة سيف الحميرى ـ أى بعد انقراض طبقة ملوك العرب العاربة ـ انتقلت قطعة اليمن لإدارة قيصر الروم فى القسطنطينية، وطلب قيصر الروم وأتباعه الحبش آن يحملوا على اليمن بجيوشهم، وهكذا انتقل حكم اليمن إلى الحبش وبعد ما استولى الأحباش بعون قيصر الروم بالقسطنطينية على اليمن، وحضر موت طمعوا فى الاستيلاء على بلاد الحجاز وساقوا جيشاً كبيراً فى زمان جد النبى ﷺ عبد المطلب بن هاشم إلى مكة المعظمة، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبادهم بواسطة طير أبابيل.

ولم يبق لملوك العرب بعد سيف الحميرى نفوذ فى جزيرة العرب. وإن كان للبدو الذين ينتقلون فى الصحارى والجبال أمراء من أبناء قحطان وحمير إلا أن حكم هؤلاء الأمراء لم يكن يتعدى حدود أفراد قبائلهم. مثل شيوخ القبائل البدوية الذين يحكمون الآن.

وحكم الأمراء أخلاف ملوك المناذرة (الحيرة) فى شرق شمال جزيرة العرب، وملوك الغساسنة فى نواحى العراق فى جهة الشام.

ولما كان آل جفنة (الغساسنة) يتعينون من قبل قياصرة الروم، والحيرة المناذرة يعينون من قبل أكاسرة العجم بشروط معينة فقد كانوا بمثابة ولاة لهم. لذا كانوا يعزلون ويبدلون وفق إرادتهم.

وأشرقت أنوار سلطان الكون والممالك فى فترة انقرض فيها ملوك العرب العاربة ومحى اسمهم من الوجود.

(١) ما يطلق عليهم «الحبش» فى التواريخ العربية ليسوا الحبش الحاليين بل هم السودانيون الحاليون.

الوجهة الثانية

فى ذكر الخلفاء والملوك المسلمين

الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام

أحوال رسول الملك المتعال إجمالاً

الخلفاء الراشدون

الملوك الأموية

سلطنة العباسيين

الفاطميون

الدولة الأيوبية

الخلفاء العباسيون فى مصر والملوك التركمانية

الملوك الشراكسة

السادة الكرام

كيفية تأسيس ولاية مكة وصورة تشكيلها

فى ذكر الخلفاء والملوك المسلمين الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام وأحوال رسول الملك المتعال إجمالاً

ولد النبى ﷺ الذى بعث رسولاً رحمة للعالمين بعد ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ بخمسمائة وتسعة وستين عامًا، وعلى قول بعده بخمسمائة وسبعين عامًا فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول، السابع عشر من شهر أبريل، وبعث شفيع العالمين نبيّاً فى العام الحادى والأربعين من عمره الشريف.

وهاجر النبى ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى العام الثالث عشر من نبوته، ولبى دعوة ربه بعد الهجرة بأحد عشر عاماً. واتخذت هجرة النبى ﷺ التى توافق عام ستمائة اثنين وعشرين من الميلاد، والسادس عشر من شهر يوليو مبدأ تاريخ هجرى من قبل المؤرخين.

وتبلغ مدة نبوته ورسالته ثلاثة وعشرين عاما، ويبلغ عمره ثلاث وستين سنة، وآمن فى خلال هذه الفترة من الزمن أغلب أفراد القبائل العربية فى الحجاز واليمن ونجد والعراق والأماكن الأخرى من جزيرة العرب بالتدريج، وهكذا سعد سكان جزيرة العرب أكثرهم بنيل فيض الأنوار الإسلامية وأحرزوا سعادتى الدنيا والآخرة. ولم يبق فى دائرة الكفر والظلام فى جزيرة العرب إلا بضعة من أفراد القبائل ذوى الحظ العاثر.

وكانت بعض القبائل قد ارتدت عن دائرة الإسلام المنجية عقب وفاة النبى ﷺ، ورجعوا إلى جهالتهم الأصلية. إلا أن كل هؤلاء دخلوا مرة أخرى إلى دائرة الإسلام المنجية فى خلافة أبى بكر الصديق.

الخلفاء الراشدون

قد صدق الجميع على خلافة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه): فى السنة

الحادية عشرة من الهجرة النبوية. وبلغت مدة خلافة الخليفة المكرم سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام كما بلغ عمره ثلاث وستين سنة.

عمر الفاروق (رضى الله عنه): بدأت خلافة عمر بن الخطاب فى السنة الثالثة عشرة من التاريخ الهجرى، وبلغت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام، ونالت ذاته العالية مرتبة الشهادة فى السنة الثالثة والعشرين وتوفى وعمره ثلاث وستون سنة.

عثمان ذو النورين (رضى الله عنه): تولى الخلافة فى السنة الثالثة والعشرين من الهجرة، واستشهد فى السنة الخامسة والثلاثين منها، فكانت مدة خلافته اثنتى عشرة سنة وبلغ عمره اثنتين وثمانين سنة.

الإمام على (كرم الله وجهه ورضى الله عنه): كان ابتداء خلافته فى السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة، وكان استشهاده فى السنة الأربعين، وبهذا تبلغ مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر، وبلغ عمره الشريف ثلاثًا وستين عاماً.

وكان سكان جزيرة العرب تحت حكم الخلفاء الراشدين العدول فى حالة خضوع وطاعة وانقياد للدولة.

وبعد أن استشهد الإمام على (كرم الله وجهه) تولى الخلافة ابنه الإمام الحسن (رضى الله عنه) ستة أشهر، وبعد ذلك تنازل عن الخلافة وترك السلطنة لمعاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية وآثر الانزواء والعزلة وتوفى وقد بلغ عمره الشريف ستة وأربعين سنة.

الملوك الأموية

ظهر الملوك الأمويون فى السنة الحادية والأربعين من الهجرة، وانقرضت دولتهم سنة اثنتين وثلاثين بعد المائة، وكانت مدة حكمهم واحداً وتسعين عاماً، وبلغ عدد ملوكهم فى هذه الفترة ثلاثة عشر شخصا. وكانت دمشق عاصمة ملكهم.

وكان سكان جزيرة العرب خاضعين للأمويين منذ بداية ملكهم إلى انتهائه ومنقادين لهم، وكان (عبد الله بن الزبير) قد دفع راية العصيان عليهم وحكم مكة المكرمة ما يقرب من تسع سنوات.

وتقول الروايات بينما كان أخو معاوية بن أبى سفيان يزيد بن أبى سفيان واليا على الشام من قبل الفاروق الأعظم تنازل عن الولاية سنة عشرين من الهجرة لأخيه معاوية دون أن يستأذن من مقام الخلافة، ولما عرف سيدنا عمر الأمر قبل ولاية معاوية بن أبى سفيان، حتى لا تؤدى الأمور إلى حدوث المشاكل بسبب أمر يسير.

وأبقى معاوية بن أبى سفيان فى وظيفته خلال خلافة عثمان (رضى الله عنه)، وكان ذا قرابة من الخليفة المذكور، وعقب استشهاد عثمان بن عفان قام معاوية بطلب الثأر من قاتلى الخليفة، وحرض أهالى الشام وحلب ومصر ضد الإمام على (رضى الله عنه)، وهكذا أشعل دائرة الخصام ضد الخليفة.

وإن كان منصب الخلافة الجليل انتقل بعد استشهاد الإمام على بن أبى طالب لابنه الإمام الحسن ـ رضى الله عنه ـ إلا أن معاوية بن أبى سفيان ابتدر بإزالة حقوق الإمام الحسن فى الخلافة، وأخذ يتهيأ للقتال للحصول على الخلافة. ولما رأى الإمام الحسن ذلك تنازل عن الخلافة لمعاوية حتى لا يريق دماء المسلمين دون سبب.

وبعد وفاة معاوية بويع ابنه يزيد بالخلافة، ولم يؤبه بأقوال الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير اللذين كانا يدعيان عدم صلاحية يزيد لاعتلاء مقام الخلافة، وعند ذلك هاجر ابن الزبير إلى مكة المكرمة، والإمام الحسن إلى الكوفة بناء على الدعوة المقدمة من أهاليها.

وقد رضى أهل مكة أن يختاروا ابن الزبير خليفة لهم وبايعوه، إلا أن الإمام الحسين استشهد فى كربلاء، ولقى ربه مع أغلب أفراد أسرته فى تلك الأراضى الموحشة، وكان هذا الخبر الأليم مانعاً لأهالى الحرمين من بيعة يزيد، ولأجل

ذلك ساق يزيد، كثيراً من الجيوش لمحاربة عبد الله بن الزبير وأتباعه، وبينما كان هؤلاء الجنود يحاربون عبد الله بن الزبير محاصرين مكة المكرمة جاء خبر وفاة يزيد، فبايع جميع أهالى الحرمين عبد الله بن الزبير فاستقلت بلاد جزيرة العرب، وأصبحت كلها تحت سيطرة عبد الله بن الزبير فى سنة ٦٤ هجرية.

وبعد سنتين خرج رجل فى العراق من قبيلة بنى ثقيف يدعى مختار بن عبد الله الثقفى طالبا الثأر من أجل الإمام الحسين، فانضم له جمع وافر من الجنود، وتجرأ على الاستيلاء على الكوفة فبايعه كثير من أهالى تلك المدينة.

وأخذ المختار بن عبد الله الثقفى ثأر الإمام الحسين من قاتليه كما يخبرنا التاريخ، وقتل ما يقرب من سبعين ألف إنسان، إلا أنه انحرف وأخذ يدعى النبوة. وبناء على هذا عين عبد الله بن الزبير أخاه مصعبًا حاكما للعراق، وأمده بكثير من الجنود وأرسله ليحارب المختار الثقفى.

ولما كان المختار الثقفى قد أظهر عصيانه ومخالفته جهراً قتل فى أثناء دفاعه سنة ٦٧ الهجرية.

وأرسل عبد الملك بن مروان من الملوك الأموية بعد خمس سنوات الحجاج الأظلم الذى فاق فى الجور والظلم متجبرى وطغاة الأسلاف، ومعه أربعون ألف جندى لمحاربة عبد الله بن الزبير فى مكة المكرمة، وبعد معارك كثيرة بينهما استطاع الحجاج أن يسترد جزيرة العرب من يد ابن الزبير، وأن ينيل ذلك الشهم مرتبة الشهادة العالية فى سنة ٧٣ الهجرية.

وفى عهد مروان بن محمد الأموى رفع بعض الخوارج فى الأطراف والأكناف راية التمرد والعصيان حتى إن عبيد الله بن يحيى من حضرموت استولى على البلاد الحجازية واليمن، وحكم فيهما سنة وأربعة أشهر وذلك فى سنة ١٢٠هـ.

ولما كان مروان فريداً فى ميدانى الشجاعة والنصر فقد طرد جميع الخوارج الذين رفعوا راية الفتنة من أملاكه، وخاصة عبد الله بن يحيى طرده من اليمن وبلاد الحجاز، إلا أنه بمرور الأيام فقد مروان أسباب قوته وصولته، فانهارت

الدولة الأموية وجاءت نوبة انتقال الخلافة إلى بنى العباس إذ ظهر أبو مسلم الخراسانى فى قرية من قرى خراسان فى سنة مائة وتسع وعشرين بدعوى أخذ ثأر الإمام الحسين قرة عين الرسول وابن البتول، وأخذ يدعو بالقوة الذين يتمسكون بتبعية الدولة الأموية لبيعة أول الخلفاء العباسيين أبى العباس السفاح، وقتل من المعارضين ما لا يحصى من الخلق، وهكذا خدم بنى العباس خدمة عظيمة سنة ١٣٢هـ.

سلطنة العباسيين

بدأ حكم العباسيين فى أول الأمر فى بلاد العراق ثم سار إلى بلاد مصر العظيمة. وكانت بداية ظهوره كما ذكر آنفاً سنة مائة واثنتين وثلاثين، وانقرضت دولتهم فى سنة ستمائة وست وخمسين الهجرية.

وبناء على هذا الحساب تبلغ مدة حكمهم خمسمائة وأربع وعشرين سنة، ومدة مائة وعشرين سنة من هذه الفترة كانت فترة القوة والشوكة والنصر ولكن بقية المدة وهى أربعمائة وأربع سنوات كانت فترة انحطاط وتناقص تدريجى والسير نحو الانقراض.

يبلغ عدد الملوك الذين شغلوا مقام الخلافة منهم سبعة وثلاثين خليفة، وكان مقر دار الخلافة مدينة بغداد التى تشبه الجنة.

واستطاع خلفاء بنى العباس فى بدء ظهورهم أن يخضعوا معظم البلاد الإسلامية لسيطرتهم. وقد استولوا على جزيرة العرب كلها وأخضعوا سكانها لنفوذهم، وظهرت طائفة القرامطة الباغية فى سنة مائتين وست وتسعين وكسرت سطوة دولة بنى العباس وصولتهم، وأصابت مبانى سلطنتهم بالضعف والفتور والوهن، وبعد ذلك بقليل انتزعت معظم سواد الشام وما حواليه من يد العباسيين.

الفاطميون

وبعد أن استولى القرامطة على الشام وانتزعتها من يد العباسيين طمعت فى الاستيلاء على مصر، ولما بلغ حاكم مصر هذا الخبر المفزع خاف أشد الخوف،

وعرف أنه لن يستطيع أن يصد القرامطة بجنود المصريين فعرض على المعز لدين الله الخليفة الفاطمى الرابع أن يعينهُ ببضعة مئات من الجنود، وأومأ له أنه سيفتح له أبواب مصر وكان هذا ما يتمناه المعز لدين الله، إذ جهز قوة كبيرة أرسلها إلى مصر تحت قيادة جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٨هـ.

وعندما وصل جوهر إلى مصر وجد القرامطة متهيئين للحرب والضرب فحاربهم وأبادهم عن آخرهم، وضم البلاد المصرية إلى ملك الفاطميين.

وفى سنة(٣٥٩)هـ عرض ما تم فعله على المعز لدين الله وبناء على الأمر الذى تلقاه منه بنى مدينة القاهرة، وأسس الجامع الأزهر ولما تم بناء القاهرة أسرع بإخبار المعز لدين الله الذى وفد إلى مصر بأولاده وأحفاده وجميع أقاربه من المهدية، ولما وصل إلى (الجيزة) عبر من فوق الجسر العابر على النيل والذى بناه من أجل روح جوهر، ونزل فى القصر الذى بنى له خصيصاً فى مدينة القاهرة التى اتخذها عاصمة له فى سنة ٣٦٢هـ.

وكان المعز لدين الله شيعى المذهب ويعتقد فى أحكام النجوم. وظل حاكما على مصر ما يقرب من سنتين وسبعة أشهر، ثم ارتحل إلى دار الآخرة فى سنة ٣٦٤ الهجرية.

ولما كانت مدينة القاهرة قد بنيت بأمر من المعز لدين الله أطلق على تلك المدينة فى ذلك الوقت «المعزية»، وبلغ عدد الملوك الفاطميين الذين حكموا مصر عشرة ملوك.

حل الملوك الفاطميون على مصر سنة ٣٦٢هـ وتركوا الحكم ستة خمسمائة وسبع وستين. وتبلغ مدة سلطنتهم مائتين وست سنوات وذكرت أسماء ملوك الفاطميين فوق منابر الحرمين الشريفين مدة مائة وعشر سنوات كما أن الخطب قد ألقيت باسم الخلفاء العباسيين ما يقرب من ثمان وثمانين سنة.

الدولة الأيوبية

وانتقلت سلطنة مصر فى عام خمسمائة وسبعة وستين إلى الأيوبيين واستمر

حكمهم لمصر لسنة ٦٤٧هـ وكان عدد الملوك الأيوبيين الذين حكموا مصر عشرة وامتدت سلطنتهم إلى ثمانين عاما.

واتخذ هؤلاء الملوك مثل ملوك الفاطميين مصر دار النصر مقرا لسلطنتهم، واستولوا على سواد الشام وحلب، ولكنهم لم يحصروا ذكر أسمائهم على أنفسهم فى الخطب التى كانت تلقى على منابر الحرمين الشريفين مثل الفاطميين، بل أشركوا أسماء خلفاء العباسيين بجانب أسمائهم، وهكذا أظهروا لهم احترامهم ولكنهم تجنبوا إشراكهم فى الأمور السياسية.

الخلفاء العباسيون فى مصر والملوك التركمانية

عندما استولى التتار على دار السلام بغداد وخربوا قصور خلفاء العباسيين وشتتوهم سافر أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله العباسى إلى مصر، وبعد ثلاث سنوات من إقامته فى مصر بايعه ملك مصر الظاهر بيبرس بالخلافة تبركا فى سنة ٦٥٩.

وقد تولى الخلافة المعنوية فى مصر سبعة عشر شخصاً من أولاد وأحفاد أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله، ولكن تصريف الأمور كان فى يد ملوك مصر.

وقد انتهت الخلافة المعنوية لسلالة أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله بفتح السلطان سليم خان مصر، والاستيلاء عليها فى سنة ٩٢٢هـ، وبناء على هذا الحساب بلغت مدة خلافتهم فى مصر مائتين وثلاث وستين سنة.

وقد عمل الملوك التركمانية والشركسية على رفع شأن الخلفاء فخصصوا وظائف لهم، وذكروا أسماءهم فى الخطب بجانب أسمائهم وحفروا أسماءهم بجانب أسمائهم فى المسكوكات.

وغلب فيما بعد ملوك الديالمة والسلاجقة أغلب هؤلاء الملوك، وأخذوا من أيديهم زمام السلطنة والخلافة.

كما أن الخلفاء الذين هاجروا إلى مصر مستقلين كخلفاء الدولة العباسية فى بغداد ولكنهم، أمضوا حياتهم تحت حكم الملوك المصرية وتحكمهم.

الملوك التركمانية

ظهر الملوك التركمانيون فى أوائل سنة ستمائة وتسع وأربعين وانقرض ملكهم سنة سبعمائة وأربع وستين ويبلغ عددهم خمسة وعشرين ملكاً، وكانت عاصمة ملكهم القاهرة.

استولى هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المعتصم وقضى على الدولة العباسية فى عهد الظاهر بيبرس رابع الملوك التركمانية فهاجر أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله العباسى الذى سبق ذكره إلى مصر، فصدق الظاهر بيبرس خلافته وبايعه بكل احترام وأجرى بعض الترتيبات بخصوص وظيفته.

الملوك الشراكسة

ابتداء ظهور الملوك الشراكسة سنة سبعمائة وأربع وثمانين، وزمن انقراض دولتهم سنة تسعمائة واثنين وعشرين الهجرية. وقد حكم منهم أربعة وعشرون ملكاً فى اثنتين وثلاثين سنة، وبما أنهم كانوا مملوكين عتقاء سموا المماليك الشراكسة.

وكان الملوك الشراكسة مثل الملوك التركمانيين يبايعون الخلفاء العباسيين الذين هاجروا إلى مصر، ويعاملونهم معاملة طيبة ويحترمونهم.

وإن كانت بلاد الحجاز واليمن ألحقت بمصر فى عهد الملوك التركمانية والشركسية، إلا أن الخلفاء العباسيين الذين يحكمون فعلا فى العراق والذين يحكمون فى مصر معنوياً وصورياً لم ينجوا من أذى بعض الخارجين فى جزيرة العرب فى عهودهم كما سيأتى ذكره فيما بعد.

السادة الكرام

ولما كان شرف السادة الكرام ومنزلتهم ثابتة ومعترف بها من قبل سكنة جزيرة العرب، كما كانوا محترمين من قبل أمراء التركمان والشراكسة، ولأجل ذلك أقدم كثيرون من هؤلاء السادة سواء أكانوا السادة الحُسَيْنِيَّة أو أشراف الحَسَنِيّة على الاستيلاء على الجزيرة العربية طالبين استقلالها، إلا أنهم لم يصلوا إلى غاياتهم لقوة الخلفاء العباسيين وسطوة الملوك المصريين.

وقد ظهرت فى أماكن أخرى من البلاد الإسلامية حكومات متعددة أنشأها السادة والأشراف، واستمرت دولهم مدة مديدة ويرون أن نسب حاكم حكومة فاس يتصل بالسلالة الطاهرة.

كيفية تأسيس ولاية مكة وصورة تشكيلها

عندما فتح النبى ﷺ مكة المعظمة استدعى من أصحابه الكرام «عتاب بن أسيد» بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ رضى الله عنه ـ وأحال له ولاية مكة المكرمة قائلا: «يا عتاب: هل تعرف أننى أعينك واليا على من؟ وأنصبك واليا عليهم؟ إننى بايعتك والياً على خاصة أهل الله!!!»

وكان قصد النبى ﷺ العالى أن يولى ويلمح لعتاب أن أهل مكة يستحقون الاحترام والرعاية.

وظل عتاب بن أسيد إلى السنة الثالثة عشرة من الهجرة واليا على مكة المفخمة دون انقطاع، وفى خلال السنة المذكورة ارتحل الصديق الأعظم إلى دار السرور والبقاء. وتبعه عتاب بن أسيد، وأديرت أمور مكة المعظمة بعده فى خلال خلافة عمر الفاروق وعثمان ذى النورين وعلى بن أبى طالب بواسطة موظف معين من قبلهم.

وفيما بعد أخذ عبد الله بن الزبير على عاتقه إدارة حكومة مكة المكرمة، وبعد ارتحاله تعهد بإدارة أمور مكة موظفون من قبل الدولة الأموية، كما أن داود ابن عم عبد الله السفاح تعهد بإدارة شئون مكة فى عهد العباسيين. ولما كانت المدينة المنورة تابعة لولاية مكة إلى ٢٥١ سنة ظهور إسماعيل بن الأخيضر بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهما) رافعاً علم العصيان، والولاة سيذكر أسماؤهم فى الجدول الذى سيأتى فيما بعد، وفى خلال السنة المذكورة ألغى منصب الولاية وتولى إدارة البلدة المسعودة السادة والأشراف مستقلين بمكة المكرمة وأخذ الأمير الذى يدير حكومة مكة لقب أمير مكة.

الجدول الذى يشمل أسماء الذين تولوا ولاية مكة المكرمة:

عتاب بن أسيد (٨ - ١٣).

نافع بن عبد الحارث الخزاعى (١٣-٣٥).

عبد الله الحضرمى (٣٥-٣٧).

قثم بن العباس (٣٧-٤٢).

خالد بن العاص بن هاشم (٤٢-٦٠).

عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق (٦٠- ٦١).

وليد بن عتبة بن أبى سفيان (٦١- ٦٤).

عبد الله بن الزبير (٦٤- ٧٣).

حجاج بن يوسف الثقفى (٧٣- ٧٥).

أبان بن عثمان بن عفان (٧٥-٨٢).

عمر بن عبد العزيز (٨٧- ٨٩).

خالد بن عبد الله القسرى (٨٩- ٩٦).

عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد (٩٦- ٩٧).

داود بن طلحة الحضرمى (٩٧- ٩٨).

عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد (٩٨- ١٠٣).

عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهرى (١٠٣- ١٠٤).

عبد الواحد النضرى (١٠٤- ١٠٧).

إبراهيم بن هشام بن إسماعيل (١٠٧-١١٤).

محمد بن هشام المخزومى (١١٤-١٢٦)

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى (١٢٦- ١٢٧).

عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (١٢٧- ١٢٩).

عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك (١٢٩- ١٣٠).

محمد بن عبد الملك بن مروان (١٣٠- ١٣٣).

داود بن على بن عبد الله بن العباس (١٣٣- ١٣٤).

يزيد بن عبد الله بن عبد الواحد (١٣٤- ١٣٨).

عباس بن عبد الله بن سعيد (١٣٨ - ١٣٩).

زياد بن عبد الله الحارثى (١٣٩- ١٤٣).

هيثم بن معاوية العتكى (١٤٣- ١٤٤).

سرى بن عبد الله بن الحارث بن عباس (١٤٤- ١٤٦)

عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس (١٤٦- ١٤٩).

محمد بن إبراهيم الإمام (١٤٩- ١٥٠).

إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس (١٥٠- ١٥١).

جعفر بن سليمان (١٥١- ١٥٥).

عبد الصمد بن على (١٥٥- ١٥٨).

محمد بن إبراهيم الإمام (١٥٨- ١٦١).

إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس (١٦١- ١٦٤).

جعفر بن سليمان (١٦٤- ١٨٤).

عبد الله بن القثم بن عباس (١٨٤- ١٨٧).

حماد البربرى (١٨٠- ١٨٧).

فضل بن عباس بن محمد بن على (١٨٧).

عباس بن محمد بن ابراهيم

سليمان بن جعفر بن سليمان

موسى بن عيسى بن موسى

عبد الله بن محمد بن إبراهيم

عبد الله بن القثم بن عباس

عبد الله بن القثم

عبد الله بن محمد بن عمران

عبد الله بن محمد بن إبراهيم

عباس بن موسى بن عيسى

على بن موسى بن عيسى

محمد بن عبد الله العثمانى

أحمد بن إسماعيل بن على (١٩٤).

داود بن عيسى بن موس بن محمد بن على (١٩٤- ٢٠٤).

عبيد الله بن الحسين بن عبيد بن العباس بن على بن أبى طالب (٢٠٤-٢٠٩).

صالح بن العباس بن محمد بن على (٢٠٩- ٢٢١)

محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على (٢٢١- ٢٣٧).

على بن عيسى بن جعفر بن المنصور (٢٣٧-٢٣٩)

عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى (٢٣٩- ٢٤٢).

عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام الزينى (٢٤٥- ٢٤٩).

محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام الزينى (٢٤٢-٢٤٥).

عبد الصمد بن موسى بن محمد (٢٤٩- ٢٥٠).

جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى شاشان ابن الحسن بن على بن أبى طالب (٢٥٠- ٢٥١).

كان ظهور إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فى سنة ٢٥١.

لازمة:

ولما كانت المدينة المنورة تابعة لولاية مكة المكرمة إلى أن استقل إسماعيل بن يوسف الأخيضر، فكان ولاة مكة المعظمة يقيمون فيها ويفوضون تدبير أمور حكومة المدينة إلى شخص آخر نيابة عنهم، كما كانوا يتخذون ـ أحياناً ـ المدينة المنورة مركز ولاية، ويديرون أمور حكومة مكة المكرمة بواسطة وكيل لهم.

بناءً على تلك الأصول فإن أسماء الذين تولوا منصب الولاية فى المدينة المنورة مكتوبة فى الجدول الآتى:

الجدول الذى يشمل أسماء الذين تولوا منصب الولاية فى المدينة المنورة

* تولى فى عهد هشام بن عبد الملك وهو من سنة ١٠٧ إلى ١٢٥ عبد الواحد بن عبد الله النصرى، إبراهيم بن هشام المخزومى، محمد بن هشام المخزومى، نافع بن علقمة الكنانى.
* عهد يزيد بن وليد من سنة ١٢٥ إلى سنة ١٢٦: يوسف بن محمد الثقفى.
* عهد وليد بن يزيد من سنة ١٢٦-١٢٦.
* عهد مروان بن محمد بن مروان من سنة ١٢٦ إلى سنة ١٣٢: عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أبو حمزة الخارجى[1]، عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى، وليد بن عروة السعيدى، محمد بن عبد الملك بن مروان.

(١) كان أبو حمزة الخارجى قد استولى على مكة بالقوة فى ولاية عبد الواحد بن سليمان، كان مروان بن محمد أرسل الحملة التى ساقها ضد أبى حمزة فى قيادة عبد الملك بن محمد، ولما انتصر عبد الملك على أبى حمزة وقتله، عين مروان بن محمد بن عبد الملك والياً على مكة مكافأة له على خدمته.

عهد أبى العباس السفاح[1] من سنة ١٣٢ إلى سنة ١٣٦ داود بن على ابن عبد الله بن عباس، عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن خطاب.

* عهد منصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس من سنة ١٣٦ إلى سنة ١٥٨ - عباس بن عبد الله بن معبد، زياد بن عبد الله الحارثى، هيثم بن معاوية العتكى الخراسانى، سرى بن عبد الله بن الحارث بن العباس، محمد بن الحسن بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب[2].

سرى بن عبد الله بن الحارث بن عباس، عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس، محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن عبد الله بن عباس.

* عهد محمد المهدى بن المنصور من سنة ١٥٨ إلى ١٦٨: إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، جعفر بن على بن عباس، عبيد الله بن قثم بن العباس، محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس.

---

(١) هنا يبدأ عهد الخلفاء العباسيين.

(٢) أبو العباس السفاح هو محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

(٣) نصب محمد بن حسن بن معاوية والياً من قبل محمد بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه والمعروف باسم النفس الزكية.
قام النفس الزكية فى سنة ١٤٥ فى المدينة طالباً الخلافة، وبايعه العلماء الذين فى طبقة الإمام أبى حنيفة والإمام مالك من الأئمة الأربعة وكذلك هذان الإمامان، وكان قد أرسل محمد بن حسن السالف الذكر مع قاسم بن إسحاق الذى عينه والياً على اليمن إلى مكة المكرمة. فأراد والى مكة سرى بن عبد الله أن يدافع عن ولايته فى شعب أذاخر، إلا أنه انهزم وهرب، فاستولى محمد بن حسن على ولاية مكة، ولكنه لما عرف أن جيشا قد أرسل من بغداد تحت قيادة داود بن عيسى بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس لمحاربته فأخذ أمرًا بالعودة إلى المدينة، قبل وصوله فى طريقه إلى المدينة بمرحلة قد سمع بشهاة النفس الزكية فهرب إلى جهة ما فعاد سرى بن عبد الله وتولى الولاية إلى سنة ١٤٦.

* عهد موسى الهادى بن المهدى من سنة ١٦٨ إلى سنة ١٧٠: حسين[١] بن على بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن على بن أبى طالب.

* عهد هارون الرشيد بن محمد المهدى من سنة ١٧٠ إلى ١٩١: أحمد بن إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس[٢]، حماد البربرى، سليمان بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس، عباس بن موسى بن عبد الله بن عباس، عباس بن محمد بن إبراهيم الإمام، عبد الله بن قثم بن عباس، على بن موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، فضل بن عباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، محمد بن عبد الله ابن سعد بن مغيرة بن عمر بن عثمان بن عفان، موسى بن عيسى بن موسى ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس.

* عهد محمد الأمين بن هارون الرشيد من سنة ١٩١ إلى ١٩٨: داود بن عيسى[٣] بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس.

* عهد مأمون بن هارون الرشيد من سنة ١٩٨ إلى ٢١٨: داود بن عيسى بن موسى، حسين بن حسن بن على الأصغر بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب[٤]، على بن محمد بن جعفر الصادق. عيسى بن يزيد

(١) خرج الحسن بن على بن حسن المثنى فى سنة ١٦٩ مطالباً بالخلافة، وذهب مع الذين بايعوه خليفة إلى مكة المكرمة، ولما وصل الخبر إلى موسى الهادى فبعث إلى محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس يأمره بالدفاع، وكان محمد بن سليمان هذا فى قافلة الحجاج فى تلك السنة، فتقابل محمد بن سليمان بحسين بن على وهو محرم يوم التروية فى مكان يسمى «فخ» فقتله مع مائة من أنصاره، و«فخ» اسم مكان بالقرب من زاهر. ويروى أن النبى ﷺ صلّى فى هذا المكان صلاة جنازة، وقال إن فى هذا المكان سيستشهد أحد من أهل بيتى مع فريق من المسلمين.

(٢) وإن كان هؤلاء الولاة قد تعينوا فى عهد هارون الرشيد إلا أن ترتيب تعيينهم ليس صحيحاً.

(٣) أسند إلى داود بن عيسى ولاية المدينة أيضاً، فبعث عيسى ابنه سليمان إلى المدينة نائباً عنه ولكن أهل المدينة كتبوا قصيدة بينوا فيها رجحان المدينة على مكة. ومن هنا اقتضى الأمر وجوده فى المدينة، فرد على أهل المدينة سكان مكة بقصيدة أخرى حيث بينوا رجحان مكة على المدينة، وفى النهاية كتب أحد بنى عجل قصيدة ثالثة أسكتت الطرفين.

(٤) لما تولى مأمون بن هارون الرشيد الخلافة أبقى داود بن عيسى على ولاية مكة، ولكنه فى النهاية خاف من غلبة حسين بن حسن الأفطس ففصل ولاية المدينة عن ولاية مكة المكرمة. لأن «سرى بن منصور الشيبانى» دعا الناس فى العراق أهل البيت وحرص المأمون على توسيع دائرة الاتفاق فعين حسين بن حسن الأفطس والياً على مكة. فخرج حسين الأفطس من المدينة متوجها إلى مكة المكرمة بناء على =

الجلودى، محمد بن عيسى بن يزيد الجلودى، يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومى، إبراهيم بن موسى الكاظم، هارون بن المسيب حمدون بن على بن عيسى، عبد الله بن حسن بن عبد الله بن عباس بن على بن أبى طالب[1]، صالح بن عباس بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس، سليمان بن عبد الله ابن سليمان بن على بن عبد الله، محمد بن سليمان بن عبد الله بن سليمان بن على بن عبد الله، حسن بن سهيل[2] بن عبيد الله بن عبد الله بن حسن بن جعفر بن الحسين بن على بن أبى طالب.

* عهد المعتصم بن هارون الرشيد من سنة ٢١٨ إلى سنة ٢٢٨: صالح بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، أشاش التركى[3]، محمد بن داود بن عيسى.

* عهد الواثق بن المعتصم من سنة ٢٢٨ إلى سنة ٢٣٢: محمد بن داود بن عيسى.

* عهد المتوكل بن المعتصم من سنة ٢٣٢ إلى ٢٤٧: على بن عيسى بن جعفر

= رسالة أخذها من سرى بن منصور ولما وصل إلى مكان يطلق عليه «سرف»، سمع أن داود بن عيسى ترك مكة المكرمة فأسرع بالدخول إلى مكة، وقصد مع الحجاج إلى عرفات. ثم عاد بعد أن قضى فريضة الحج، ولكن لما شاع خبر قتل سرى بن منصور فى سنة (٢٠٠) أراد أن يبايع محمد بن جعفر بالخلافة من شدة خوفه، ولما رفض محمد ذلك بايع ابنه على بن محمد، وأكره الناس على بيعته، ولكن إدارة مكة كانت فى يده. وبعدما مرت عدة أشهر جاء من بغداد عيسى بن يزيد الجلودى وحارب فخلع على بن محمد من الخلافة، واتجه مع عيسى بن يزيد الجلودى إلى العراق. وكان الجلودى قد ترك ابنه محمد بن عيسى بن يزيد، وعلى رواية أخرى محمد بن حنظلة المخزومى وكيلاً عنه، وفى سنة مائتين واثنتين جاء من اليمن شخص يسمى إبراهيم بن موسى الكاظم، واحتل مكة عنوة وقتل يزيد بن حنظلة، وبناء على رواية الإمام الأزرقى أن يزيد بن حنظلة كان وكيلا من قبل حمدون بن على.

(١) فى زمن ولاية عبد الله هذا ألحقت المدينة بمكة المكرمة.

(٢) وإن أصبح حسن بن سهيل واليا على مكة إلا أنه أجرى مهمته بالوكالة.

(٣) كان أشاش التركى ضابطا عسكرياً من عبيد الشراكسة، وأراد أن يحج فى تلك السنة وأخذ من المعتصم براءة تقضى بأن يكون والياً لكل مدينة يدخلها، ولما دخل إلى مكة جعل محمد بن داود وكيلا عنه، إلا أن اسم أشاش ظل يذكر فى الخطب.

بن أبى جعفر المنصور، عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى، محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام، محمد بن المستنصر[1] بن المتوكل بالله إبتاح الغلام[2].

* عهد المستعين بن المعتصم بن هارون الرشيد من ٢٤٨ إلى ٢٥٢: عبد الصمد ابن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثنى[3].

إخطار ـ كانت حكومة المدينة المنورة تابعة لولاية مكة المكرمة إلى وقت استقلال إسماعيل بن يوسف الأخيضر بالبلدين.

إن كانت المدينتان فصلتا عن بعضهما لأسباب قهرية إلا أنهما فى معظم الوقت كانتا ولاية واحدة، وكان الولاة المعينون لإدارتهما يتخذون أحياناً مكة المكرمة مركزاً ويديرون شئون المدينة بواسطة وكيل لهم أو يتخذون المدينة المنورة مركزاً لهم ويديرون شئون مكة بواسطة وكيل لهم.

والولاة الذين دبروا شئون الولاية وفق الأصول المذكورة من المدينة المنورة قد ذكر أسماؤهم فى الجدول الآتى:

سهل بن حنيف الأنصارى

أبو أيوب الأنصارى

مروان بن الحكم

سعيد بن العاص

(١) وإن أصبح محمد بن المستنصر والياً على مكة إلا أنه لم يقم بمهمته بنفسه بل أدار شئون الولاية بإرسال وكيل عنه.

(٢) كان إيتاح من غلمان المعتصم ومن أمرائه ذوى النفوذ قد ظل والياً على مكة إلى وفاة المتوكل.

(٣) استولى إسماعيل بن يوسف الأخيضر على مكة بالقوة فى خلال ولاية جعفر بن فضل. وكان جعفر قد أخذ الزينات الذهبية التى فى مقام إبراهيم وأنفقها فى سبيل الدفاع عن مكة إلا أنه انهزم وفر؛ فاستولى إسماعيل بن يوسف على مكة وبعده على المدينة ومات سنة ٢٥٢ من علة «الجدرى».

مروان بن العاص

وليد بن عتبة بن أبى سفيان

عمرو بن سعيد بن العاص

وليد بن عتبة

عثمان بن محمد بن أبى سفيان

عبد الله بن الزبير

مصعب بن الزبير

جابر بن الأسود

أبان بن عثمان

هشام بن إسماعيل

محمد بن هشام

يوسف بن محمد

عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز

محمد بن عبد الملك

داود بن على

يزيد بن عبد الله

زياد بن عبيد الله

محمد بن خالد

رباح بن عثمان

عبد الله بن الربيع

جعفر بن سليمان

عبد الملك بن صالح

محمد بن عبد الله

موسى بن عيسى

محمد بن إبراهيم

عبيد الله بن مصعب

بكار بن عبد الله

محمد بن على

أبو البخترى

وهب بن منبه

داود بن يحيى

عبيد الله بن الحسين

عمر بن عبد العزيز

عثمان بن صادق

أبو بكر بن محمد بن عمرو

عبد الرحمن بن ضحاك

عبد الواحد النضرى

إبراهيم بن هشام

خالد بن عبد الملك

طلحة بن عبد الله

طارق بن عمرو

حجاج بن يوسف

حسن بن زيد

عبد الصمد بن على

محمد بن عبد الله

زفر بن عبد الله

إبراهيم بن يحيى

إسحاق بن عيسى

عمر بن عبد العزيز

إسحاق بن سليمان

صالح بن العباس

محمد بن داود

عيسى بن جعفر

عبد الله بن محمد

عبد الصمد بن موسى

محمد بن سليمان

عبد الصمد بن موسى

جعفر بن الفضل

ظهور إسماعيل بن يوسف الأخيضر سنة ٢٥٢ .

أمراء الحرمين

انقسمت خطة الحجاز السعيدة بعد عهد الخلفاء الراشدين إلى إمارتين كبيرتين أطلقت على إحداهما (إمارة مكة المكرمة) وأطلقت على الأخرى (إمارة المدينة المنورة)، وظلت إدارة هاتين الإمارتين بعد معارك جمة وحروب كثيرة فى أيدى السلالة الطاهرة التى تنتهى إلى السبطين المكرمين (رضى الله عنهما).

ويظن بعض الذين لم يحسنوا الاطلاع على التاريخ أن إمارة مكة المكرمة ظلت منحصرة فى أشراف الحسنية، فى حين ظلت إمارة المدينة المنورة فى أيدى السادة الحسينية إلا أنه من الثابت بدلالة التواريخ الموجودة أن هؤلاء الأمراء تبادلوا الحكم فى هاتين الإمارتين.

أمراء مكة

ينقسم الأشراف الكرام الذين تولوا إمارة مكة المكرمة إلى أربع طبقات، وقد سمى الأشخاص الذين يشكلون هذه الطبقات بأمراء مكة. وإن كان بين أمراء مكة الحسينية أيضا، ولكن أغلب هؤلاء الحسينية من الذين أقام أجدادهم قبل أن تتحول مكة المكرمة إلى إمارة فى ينبع والبلاد التهامية والنجدية.

١- **طبقة سادات بنى حسن:** يطلق على الذين يشكلون الطبقة الأولى من الطبقات الأربع «بنو أخيضر» وقد ظهر بنو أخيضر الذين حكموا ٩٩سنة فى سنة مائتين وخمسين الهجرية. وانقرضوا فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين الهجرية وحتى سنة ٢٥١ كانت حكومة مكة المكرمة فى يد ولاة الخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية وخلفاء بنى العباس. وقد ظهر بنو أخيضر فى تلك السنة المذكورة، واستولوا على بلاد اليمامة بادروا إلى حكمها.

بنو أخيضر : اتخذ أشراف بنى أخيضر بلاد اليمامة ومقر حكومة لهم أولا ثم مكة المكرمة. وعدد الأمراء الذين تولوا الحكم منهم ثلاثة عشر شريفاً، حكم ثلاثة منهم فى اليمامة فقط، والباقون حكموا فى اليمامة وأرض الحجاز.

وأول ممن ظهر من سادات بنى أخيضر هو إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيمم بن عبد الله بن موسى الجون الحسنى.

ويحكى أن إسماعيل بن يوسف الأخيضر وجد بمكة، وبايع النفس الزكية محمد بن عبد الله المحصن الذى خرج فى أواخر حكومة بنى أمية، وأن المنصور العباسى وجد أثناء هذه البيعة، ومدح واقعة البيعة بقصيدة طويلة وإن هذا البيت كان ضمن هذه المطولة:

بيعتكم تحظى بطاعتنا إن الـ ـخلافة فيكم يا بنى حسن

لما استولى إسماعيل بن يوسف الأخيضر على البلاد اليمانية كان جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن يوسف بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (رضى الله عنه) والياً على مكة من قبل المستعين بن المعتصم العباسى. وانتزع الألواح الذهبية التى وضعها الخليفة المتوكل على مقام إبراهيم، وضرب بها سكة ليدافع بها عن مكة لآخر لحظة، إلا أنه انهزم وبعدما استولى إسماعيل بن يوسف على أطراف مكة المكرمة أيضا قصد إلى المدينة المنورة وهو مريض، وارتحل إلى عالم البقاء فى سنة ٢٥٢ الهجرية.

وانتقلت بلاد اليمامة بعد وفاة إسماعيل بن يوسف الأخيضر لأخيه الشريف أبى عبد الله محمد بن يوسف الأخيضر، وبعد وفاته لأخيه الآخر الشريف أبو جعفر بن يوسف الأخيضر، وبعد ارتحاله انتقلت إلى الشريف حسن بن يوسف الأخيضر أخيه الآخر.

بعدما استولى الشريف حسن على بلاد اليمامة صرف جهده لتوسيع حدود حكومته، وفى النهاية شكل إمارة مكة المكرمة واستقل بها.

وانتقلت حكومة أم القرى بعد وفاة الشريف حسن إلى عمه وإلى أخيه يوسف الأخيضر، ولما مات محمد بن يوسف الأخيضر انتقلت الحكومة إلى ابنه الشريف يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر، ومن بعده إلى أخيه الشريف أبى عبد الله إبراهيم بن محمد، ومن بعده إلى أبى عبد الله إلى الشريف

محمد بن محمد بن يوسف الأخيضر، وبعد وفاة محمد بن محمد الشريف حسن بن يوسف الأخيضر وبعده إلى أخيه، ومن بعد إلى الشريف محمد بن جعفر بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر، وبعد وفاة الشريف محمد إلى الشريف صالح بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر. وهؤلاء هم الذين سعدوا إذ فازوا بإدارة مكة المكرمة.

وكان أولاد وأحفاد الشريف صالح بن إسماعيل فى داخل ممالك السودان، وفى فترة ما هاجروا إلى مدينة «غانا» القريبة من المحيط الأطلسى وكونوا هناك دولة وحكموا فيها.

٢- الطبقة الثانية من الأشراف الحسنية:

والأشراف الكرام الذين يكونون هذه الطبقة هم الأشراف الكرام الذين يطلق عليهم المؤرخون الموسويين أو بنى موسى.

وأول من تولى منهم الإمارة هو الشريف موسى الثانى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهم) وعدد أفراد الموسويين الذين حكموا البلاد الحجازية أحد عشر أميراً.

وظهر الشريف موسى الثانى الذى كان أولهم سنة ٣٥٠، والذين تولوا إمارة الحجاز من بعده استمروا إلى سنة ٤٥٣ إذ انتهت إمارتهم فى خلال تلك السنة.

وبعد وفاة الشريف موسى الثانى بن عبد الله تولى الإمارة ابنه الشريف داود بن موسى الثانى، ومن بعده الشريف محمد الأكبر بن موسى الثانى، وبعد وفاة محمد الأكبر الشريف حسين بن محمد الأكبر، ومن بعده الشريف محمد الثائر بن محمد الأكبر، وبعد وفاة محمد الثائر الشريف أبو هاشم محمد بن محمد الثائر، وبعد ارتحال أبى هاشم الشريف أبو جعفر محمد بن الحسين بن محمد الأكبر واستقل الشريف أبو جعفر محمد بالإمارة فى عهد الملوك الفاطميين

وحكم مكة المكرمة ومواقع أخرى من أرض تهامة ما يقرب من عشرين عاماً.

وبالقرب من أواسط مدة إمارة الشريف أبى جعفر كان ملوك العصر يعينون من قبلهم أميراً خاصاً بهم فى مكة المكرمة، وقد زاد الشريف أبو جعفر من قوته وشوكته، واستقل وبعد هذا الاستقلال انتقلت حكومة مكة المكرمة بالفعل للشرفاء الكرام.

وهناك روايات متعارضة فى بيان سبب استقلال أبى جعفر وتاريخه إلا أنه بناء على أقوى الروايات فإن أبا جعفر استقل عندما كانت مصر تحت إدارة الإخشيديين، وكان كافور الإخشيدى لم يمت بعد، كما أن الملوك الفاطميين لم يكونوا قد تولوا بعد على مصر ويدعى البعض أن وفاة كافور كانت سنة ٣٥٦ هـ وكان استقلال أبى جعفر سنة ٣٥٨.

وكان سبب استقلال المشار إليه الفتنة التى حدثت بين بنى حسن وبنى حسين (رضى الله عنهما)، وعند حدوث هذه الفتنة عاد أبو جعفر من المدينة المنورة إلى مكة المعظمة، وأعلن الاستقلال، وعندما انتقلت حكومة مصر إلى الفاطميين أبقى المعز لدين الله العبيدى على إمارة أبى جعفر وصدق استقلاله.

وتولى الإمارة بعد وفاة الشريف أبى جعفر أبو محمد جعفر بن محمد بن حسين بن محمد الأكبر، وبعده الشريف عيسى بن أبى جعفر محمد، وبعده الشريف أبو الفتوح حسين بن محمد الثائر، وبعد وفاته الشريف تاج المعالى بن أبى حسين بن محمد الثائر.

أرسل حاكم مصر العزيز بالله العبيدى عندما كان ابن أبى جعفر الشريف عيسى أميراً علوياً إلى مكة من قبله. وقد ضغط هذا الشخص على أهالى الحرمين ضغطاً شديداً، وأجبر الأئمة على ذكر اسم العزيز بالله فى الخطب. وبعد وفاة العزيز بالله بعث ابنه الحاكم بأمر الله خطبة عجيبة إلى الشريف أبى الفتوح السالف ذكره، وأمره بأن تقرأ هذه الخطبة على منبر المسجد الحرام، ولما كان فى الخطبة المذكورة بعض الألفاظ الجارحة للأصحاب الكرام وبعض زوجات

النبى ـ رضى الله عنهن ـ وعبارات غير لائقة بهم هجم الأهالى على الخطيب الذى نجا بجلده هارباً، وبعد هذه الحادثة منع الناس من الحديث فى مكة عن مذهب العبيديين.

ولما كان الشريف أبو الفتوح من أشجع أبناء موسى وأكثرهم جرأة رد خطبة الحاكم بأمر الله مبينا زيفها، وخرج عن طاعة العبيديين وبايعه أهالى الحرمين بالخلافة لأن الخطبة التى وردت من الحاكم بأمر الله كانت مليئة بسب الأصحاب الكرام ولعنهم.

وكانت رسالة خاصة للشريف أبى الفتوح مرفقة بالخطبة حيث يلح الحاكم بأمر الله على أن يعمل الشريف على إقناع الأهالى بما جاء فى هذه الخطبة، وعقب ذلك ذهب الشريف أبو الفتوح إلى نواحى الشام، وأعلن استقلاله وخاض حروباً كثيرة وفى سنة (٤٠٣) وعاد إلى مكة وانتقل إلى رحمة ربه بعد فترة وجيزة، ومدة إمارته ٤٣ سنة.

ولما سارع أفراد القبائل العربية بالاعتراف بخلافة الشريف أبى الفتوح، وهو فى طريقه إلى الشام فهم الحاكم بأمر الله وأخافه الأمر وأخذ يستعد للحرب، ولما كان أبو الفتوح لا يريد أن يريق دماء المسلمين عبثاً بعث بأبى حسان مفرح إلى الحاكم بأمر الله يعلمه أنه لا يدعى الخلافة، فسر الحاكم بأمر الله بهذا الخبر وأسرع بالتصديق بإمارته.

كان تاج المعالى بن أبى الفتوح قد وحد بين إمارتى المدينة المنورة ومكة المكرمة. وكانت كنيته «أبا عبد الله» ولقبه (شكر) ومات بلا ولد فى سنة ٤٦١، وعلى قول سنة ٤٦٤، وعلى قول ثالث سنة ٤٥٣. وأراد أحد غلمانه أن يكون أميراً. وفى أثناء سفر أبى الفتوح إلى الشام استولى أبو طالب داود بن عبد الرحمن بن القاسم بن الفاتك عبد الله بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على (رضى الله عنه) على مكة، وانتصر على ذلك العبد وانتزع منه زمام الإمارة، إلا أن إمارة مكة المكرمة الجليلة انتقلت إلى «بنى هاشم» بعد ذلك الحادث بسبع سنوات.

وإن من نال مقام الإمارة من بنى أبى الطيب هو محمد بن أبى القاسم بن عبد الرحمن بن جعفر، وجلس على كرسى الحكم سنة ٤٥٣.

إلا أن ملك اليمن على بن محمد الصليحى استولى على قطر الحجاز، وانتزع إمارة مكة المفخمة من أيدى بنى الطيب. وإن كان يروى بعض المؤرخين أن على ابن محمد الصليحى أودع مقام الإمارة ليد «محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن هاشم» وعاد إلى بلاده.

إلا أن تاج المعالى بن أبى الفتوح مات تاركاً حمزة بن وهاس بن أبى الطيب داود السليمانى من بنى سليمان أميراً، وبعد أن حارب هذا موسى ما يقرب من سبع سنوات، انتقل زمام الإمارة إلى يد محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن هاشم وبعد ارتحاله إلى يد أولاده.

وليس من بنى سليمان من ارتقى كرسى الإمارة غير حمزة بن وهاس بن أبى طالب. وإن كانوا ينقلون أن محمد بن الفاتك وأخويه قد شغلوا كرسى الإمارة، ولما كان من المحقق أن حمزة بن وهاس خاتمة الطبقة الثانية يقتضى عدم صحة هذه الرواية.

بناء على رواية الإمام الفاسى فإن محمد بن جعفر أحد أفراد الأمراء الذين يطلق عليهم (الهواشم) وضبط نسبه على أنه «أبو هاشم محمد بن جعفر بن عبد الله بن أبى هاشم محمد بن الحسين بن محمد الثائر[1] بن موسى الجون بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط (رضى الله عنه)، وظل أبو هاشم ما يقرب من ثلاثين عاماً يشغل منصب الإمارة وأطلق على الذين تولوا مقام الإمارة بعده «الهواشم».

وبنو سليمان الذين كانوا خاتمة هذه الطبقة ليسوا بنى سليمان الذين حكموا بين التلمسان والمغرب الأوسط.

والأشراف الذين حكموا فى تلك البقاع أولاد «سليمان بن عبد الله المحصن

(١) ووجه إطلاق لقب الثائر عليه قيامه بأخذ الثأر والأنتقام من أهل المدينة فى عهد المعتز بن المتوكل العباسى.

بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ إذ انتقل عمهم إدريس إلى المغرب وأبوهم سليمان من البصرة إلى هرات وأصبح حاكم تلك المنطقة بعد أن استقل وذلك فى خلافة بنى عباس. ولما توفى إدريس استولى أخوه على المغرب والتلمسان حيث أدار دفة الحكم مدة مديدة.

٣- **الطبقة الثالثة**: يطلق على السادة الأشراف الذين يكونون الطبقة الثالثة من الطبقات الأربع «الهواشم»

وأشراف طبقة «الهواشم» الذين عرفوا بـ«بنى فليتة» ظهروا فى خلال سنة ٤٦١، أو فى خلال ٤٦٤ بناء على قول آخر، أو سنة ٤٥٣ بناء على رواية ثالثة، وانقرضت حكومتهم سنة ٥٩٨ أو سنة ٦٠١ بناء على قول ثان، أو سنة ٥٩٠ بناء على قول ثالث، بلغت مدة إمارتهم ١٣٧ سنة، وحكم منهم فى خلال هذه الفترة ثلاثة عشر أميراً.

وأسقط أبو هاشم محمد بن جعفر ـ أول سادات الهواشم فى أثناء إمارته ذكر اسم ملك مصر من الخطب وأمر بذكر خليفة بغداد، وبناء على ذلك لم يرسل ملك مصر ما كان يرسله من الهبات إلى أهالى الحرمين. فما كان من الشريف محمد إلا أن انتزع ما فى داخل بيت الله من القناديل الذهبية والفضية المعلقة وما على أبواب بيت الله من الألواح الذهبية، وأنفق ثمنها فى دفع حاجته إلى المال واستمر فى ذكر اسم خليفة بغداد فى الخطب، وأبعد من الأذان جملة «حى على خير العمل» واشتهر اسمه، كما أنه أنفق ما أرسله خليفة بغداد ويبلغ ثلاثين ألف دينار فى تعزيز بنيان حكومته، وبذل جهوداً كبيرة فى التغلب على فرقة بنى سليمان المخالفة إلا أنه لم يوفق فى ذلك ففر إلى ينبع، وبناء على ذلك خلصت حكومة مكة لحمزة بن وهاس السالف الذكر، وفى النهاية أعد فرقة من الجنود الشجعان، وعاد وطرد أنصار حمزة بن وهاس واستقل، وفى خلال سنة ٤٨٤ ارتحل إلى دار البقاء.

وتولى إمارة البلاد الحجازية بعد وفاة الشريف محمد بن جعفر ابنه الشريف

قاسم بن أبى الهاشم محمد، وبعد وفاته ابنه الشريف فليتة بن قاسم بن أبى الهاشم محمد بن جعفر.

استولى «أصهيد بن سارتكين» على مكة المعظمة فى خلال إمارة الشريف قاسم بن محمد وأخذ فى التضييق على أهالى الحرمين إلى سنة ٤٨٧ إلا أن الشريف قاسم بن محمد طرد أصهيد فى سنة ٤٨٨ وحكم حتى سنة ٥١٨، وورث كرسى الإمارة بعد وفاته ابنه فليتة بن قاسم.

ومات الشريف فليتة الذى عرف بكنية «أبو فليتة» سنة ٥٢٧، فجلس مكانه ابنه الشريف هاشم بن فليتة. وأصبح مكان هاشم بن فليتة الذى توفى سنة ٥٤٩ وعلى قول ٥٥١، أميراً عمدة الدين الأمير شجاع قاسم بن فليتة. وهزم عمدة الدين فى النزاع الذى حدث بينه وبين عمه قطب الدين عيسى فسلم إليه زمام الإمارة، وبعد فترة قصيرة انتصر على عمه ولكنه قتل فى النهاية وآلت حكومة إمارة مكة إلى قطب الدين عيسى.

وطرد الشريف مالك أخاه قطب الدين سنة ٥٦٥، وأصبح أميراً مدة نصف يوم إلا أنه فر منهزماً فى وقعة ٥٦٧، فحقق قطب الدين عيسى الاستقلال فى منصب الإمارة وانتقل الأمر بعده إلى الشريف داود بن عيسى، وبعد سنة إلى أخيه الشريف مكثر بن عيسى، وبعده لأمير المدينة المنورة «قاسم بن مهنا الحسينى»، وبعد ثلاثة أشهر إلى الشريف داود بن عيسى للمرة الثانية، وبعد ذلك للمرة الثانية للشريف مكثر بن عيسى، ووجهت الإمارة بعد ذلك فى سنة ٥٩٨ للشريف محمد بن مكثر بن عيسى، وانتقلت حكومة البلد الأمين المقدسة بعد الشريف محمد بن مكثر إلى بنى قتادة وخط خط النهاية لطبقة «أشراف الهواشم».

وكان يؤخذ من الحجاج الذين يردون من موقع «عيذاب» أو ميناء جدة سبع قطع ذهبية من كل واحد منهم وكانت الإمارة تدير أمورها بهذه الضريبة.

خصص ملك مصر صلاح الدين الأيوبى فى إمارة الشريف مكثر ثمانية آلاف إردب قمحاً وألفى قطعة ذهب مصرى على أن توزع على موظفى دوائر الإمارة وأرسل مقدماً ما يكفى سنة وأمر بألا تؤخذ بعد ذلك ضرائب من الحجاج فأمر الشريف مكثر بألا يؤخذ الضرائب منهم كما أمر بأن يذكر فى الخطب اسم ذلك الملك ويدعى له.

٤- **الطبقة الرابعة:** يشكل الطبقة الرابعة من أمراء مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسينى وسلسلة نسبه.

إن أولاد أخى أبى عزيز قتادة الشريف من سادات وأمراء بلاد ينبع والشريف قتادة أبو عزيز من أبطال هذه السلسلة وقد عرف بعلو الهمة والشجاعة. وعندما أصبح أمير قلعة ينبع أحضر العربان الذين تحت إدارته ومشايخهم، وحارب مع أولاد عبد الله المحصن وانتزع منهم بلاد ينبع وأراضى صفرا. وهجم بغتة على مكة فى سنة ٥٩٨، وعلى قول سنة ٦٠١، يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب، وانتزع من السادة الهواشم مكة المعظمة وأرض الحجاز وهدد القبائل العربية بعساكر الترك ومد حدود ملكه إلى قطعة اليمن وهكذا أخضع سكان الحجاز قاطبة لإدارته وأدخلهم تحت طاعته.

ومن الأسباب الرئيسية التى ساعدت على استيلاء أبى عزيز قتادة على مكة المعظمة وجود الشريف محمد بن مكثر فى يوم حملة أبى عزيز قتادة على مكة المكرمة فى وادى التنعيم، لأن أهالى مكة يخرجون كل سنة فى السابع عشر من رجب إلى وادى التنعيم إحياء لسنة عبد الله بن الزبير لأجل العمرة، ويظلون فى هذا الوادى عدة أيام حيث يتنزهون. ومازالت هذه العادة باقية إلى الآن.

وعندما كان محمد بن مكثر فى التنعيم جاء أبو عزيز قتادة من أعلى مكة وأعلن إمارته وحاول الشريف محمد بن مكثر أن يدافع عن مكة إلا أنه فر

منهزماً مغلوباً، وتوفى بعد ذلك بفترة واستطاع الشريف أبو عزيز أن ينتصر على أمير المدينة المنورة الشريف سالم بن قاسم الحسينى وعلى أهل ثقيف عقب ذلك، وسار بعد ذلك إلى جهة اليمن ووفق فى الاستيلاء على ملك الأماكن فقلب حكومة بنى فليتة رأساً على عقب، ووسع دائرة إدارة إمارته كما سبق تعريفه وحكم مستقلاً استقلالا كاملا مدة ستة عشر عاماً، وتوفى فى أواخر سنة ٩١٧، فجاء مكانه ابنه الشريف حسن فخلصت إمارة مكة المعظمة لأولاد هذا وأحفاده.

والشريف عون الرفيق باشا الذى مازال يدير إمارة مكة المعظمة حالياً هو من أعاظم فروع أبى عزيز قتادة.

وجميع الأشراف الذين على وجه البسيطة ينتمون إلى سلالة (الإمام الحسن) كما أن جميع السادة العظام ينتمون إلى سلالة «الإمام الحسين» بن على (رضى الله عنهم)، وليس هناك شك فى أن السادات أولاد وأحفاد «الحسين»، كما أن أولاد الأشراف الأمجاد وأحفادهم من «الحسن».

ويقال الآن «أشراف بنى الحسين وسادات بنى الحسن» إلا أن هذا التعبير غير صحيح كما سبق بيانه فى محله.

حكاية

لما كان الناصر لدين الله العباسى يحب أبا عزيز قتادة حباً جماً طلب منه أن يشرف بغداد. فتحرك أبو عزيز متجهاً إلى بغداد تلبية لدعوة الخليفة، فاستقبله أهالى الكوفة وبجانبهم الأسود، فعاد من رحلته قائلا: «لا أستطيع أن أذهب إلى مكان حيث ذل الأسد بهذه الصورة» انتهى.

ولد أبو عزيز قتادة سنة ٥٢٦، وتوفى سنة ٦١٧ عن تسعين عاماً. وكان قتادة فى غاية الإنصاف، شجاعا بطلا فوق التصور، لأجل ذلك لم يستطع أهل الفساد أن يرفعوا رءوسهم بالفتنة، فعاش أهل الحرمين فى عهده آمنين مطمئنين.

وبعد وفاة أبى عزيز قتادة انتقلت إمارة مكة المكرمة إلى الشريف حسن بن أبى عزيز قتادة. إلا أن مسعود بن محمد ملك اليمن حمل على حسن بن قتادة، بناء على الأمر الذى تلقاه من أبيه محمد ملك مصر، وبعد قتال تغلب على حسن واستولى على مكة، وعاد إلى بلاده بعد أن عين شخصاً يسمى «نور الدين عمر بن رسول» والياً على مكة، وإن كان الشريف حسن تقاتل مع نور الدين على بن رسول فى وادى الحديبية سنة ٦١٠، إلا أنه انهزم وذهب إلى الشام وبعده إلى بغداد حيث توفى سنة ٦٢٦.

والملك مسعود الذى انتزع إمارة مكة من حسن بن قتادة هو يوسف بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر أيوب المشهور بلقب «أقسيس».

وعندما شاع موت حسن بن قتادة نصب الملك مسعود شخصاً يسمى «صارم الدين ياقوت المسعودى» والياً على مكة، ولما مات فى نفس السنة تجرأ نور الدين على بن عمر بن رسول السالف الذكر على الاستيلاء على اليمن وأخذ البيعة لنفسه.

وعندما مات الملك مسعود عين والده الملك الكامل والياً على مكة شخصاً يسمى «طفتكين التركى» من مصر وأرسله إليها إلا أن الشريف راجح بن قتادة طرد طفتكين التركى من مكة بواسطة الجنود الذين أتوا من قبل ملك اليمن نور الدين.

وحرص الملوك المصريون واليمانيون ـ بالجهل ـ على أن يذكر أسماؤهم فوق منابر مكة المعظمة، فالتزم المصريون جانب طفتين التركى واليمانيون جانب الشريف راجح بن قتادة، فأجلسوا الشريف راجح على كرسى الإمارة سبع مرات وأبعدوه سبع مرات، وكذلك طفتكين التركى سبع مرات فى خلال سنة ٦٢٧ إلى ٦٣٧.

وحج ملك مصر الصالح بن كامل فى سنة ٦٣٧ شخصياً، وعين مكان الشريف راجح أمير المدينة الشريف شيخه ابن قاسم الحسينى للقضاء على النزاع

إلا أن ملك اليمن أعاد الشريف راجح فى سنة ٦٣٩، وفى النهاية عزله ونصب مكانه الشريف أبو سعيد حسن بن على بن قتادة، وبناء عليه قام الشريف راجح بصد أبى سعيد واستمد العون من أبناء خاله الذين يسكنون فى المدينة. فتقابل أبو نمى ابن أبى سعيد الذى فى ينبع مع فرقة الشريف راجح فانتصر عليها وأصبح شريكا لأبيه فى الإمارة.

وفى سنة ٦٥١ أصبح الشريف حماز بن حسن بن قتادة، وفى سنة ٦٥٢ الشريف راجح بن قتادة، وفى سنة ٦٥٣ الشريف غانم بن راجح، وبعد عدة أشهر أصبح الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن بن على بن قتادة وعمه الشريف إدريس أمراء واجبى التوقير.

وإن كان الشريف أبو نمى قد شارك عمه الشريف إدريس فى الإمارة إلى سنة ٦٦٧، إلا أنه انفرد بالإمارة فى نفس السنة وانفرد الشريف إدريس بالإمارة فى سنة ٦٦٧، وبعدها بسنة انفرد الشريف أبو نمى مرة أخرى بالإمارة وبعد ذلك بأربعين يوماً أصبح الأمير هو الشريف غانم مع أمير المدينة المنورة الشريف حماز بن شيخه الحسينى، وتولى الإمارة فى سنة ٦٧٠ الشريف أبو نمى، وفى سنة ٦٧٣ إخوته، وبعدهم الشريف أبو نمى مرة أخرى، وفى سنة ٦٧٧ حماز بن شيخه الحسينى، وبعده الشريف أبو نمى وفى صفر الخير من سنة ٧٠٠ الشريف حميضة بن أبى نمى مع الشريف رميثة بن أبى نمى أصبحوا أمراء لإمارة بلد الله.

ولما صعد الشريف أبو نمى مقام الإمارة بعد أن انتصر على أخويه تقاتل فى نفس السنة مع القافلة المصرية فى منى، وقتل أكثر الجنود الذين كانوا يحافظون على القافلة مع قائدهم، لذا جهزت الحكومة المصرية قوة كبيرة ضد الشريف أبى نمى.

إلا أنه بعد توسط العلماء وما بعث به أبو نمى من الهدايا الحجازية مع رسالة يعتذر فيها لم ترسل القوة العسكرية التى أعدت، وأبقى أبو نمى على منصب الإمارة، وقد بلغت مدة إمارة أبى نمى منفرداً ومشاركاً غيره خمسين عاماً، وتوفى بناء على قول سنة ٧٠٣.

كان الشريف حميضة مع أخيه الشريف رميثة إلى حلول موسم الحج، ولما جاء فى تلك السنة أمير «الكرك» ووالیه بيبرس اشتكى الشريف عطيفة وأبو الغيث أخاهما الشريف حميضة والشريف رميثة للأمير بيبرس فعزلهما، وعين مكانهما الشريف عطيفة والشريف أبا الغيث، وأخذ معه الشريفين حميضة ورميثة إلى مصر، إلا أن منصب الإمارة أسند بعد ذلك مرة أخرى إلى حميضة ورميثة، ثم لأخويهما، ثم إلى حميضة ورميثة، وأسندت الإمارة فى سنة ٧١٣ للشريف أبى الغيث بن أبى نمى.

ولم يتحمل الشريف حميضة والشريف رميثة خطورة الجنود الذين أتوا بأبى الغيث من مصر، وهربا إلى جهة اليمن. وقام الشريف حميضة ضد أبى الغيث سنة ٧١٤، وقبض عليه وهو فى سريره وأعدمه، واستقل بمنصب الإمارة إلا أن أخاه رميثة انتصر عليه سنة ٧١٥، فهرب إلى العراق واستنجد بالسلطان خدابند، وعاد سنة ٧١٨، وجعل الخطباء يذكرون فى مكة فى خطبهم اسم ملك العراق أبى سعيد خدابند.

عزلت الحكومة المصرية فى سنة ٧١٩ الشريف حميضة وعين مكانه أخوه رميثة. واستدعى الشريف رميثة بعد ذلك إلى مصر مؤخرا وأسند منصب الإمارة إلى الشريف عطيفة، وفى سنة ٧٢٢ أشرك الشريف رميثة والشريف عطيفة فى الإمارة، إلا أن الشريف رميثة استقل فى سنة ٧٣٤، وفى سنة ٧٣٥ شارك الشريف عطيفه أخوه رميثة، وفى النهاية انفرد الشريف عطيفة بالإمارة، واستدعى فى سنة ٧٣٧ الإثنان معاً إلى مصر وأسند منصب الإمارة إلى الشريف رميثة، وأوقف الشريف عطيفه فى مصر.

خلاصة القول أن الأخوة الأربعة الذين ذكرت أسماؤهم أداروا أمور الإمارة أربعة وثلاثين عاما مشتركين، إلا أن حروباً شديدة كانت تحدث فيما بينهم وكان يصلح بينهم بإرسال الجيوش من قبل الحكومة المصرية أحيانا أو من قبل الملك خدابند أحياناً، وفى النهاية توفوا كلهم واحدا تلو آخر غير الشريف رميثة الذى

حكم منفرداً، إلا أن الحكومة المصرية عزلت الشريف رميثة سنة ٧٤٦ وعينت مكانه ابنه عجلان بن رميثة وبعد سنتين عين ثقبة بن رميثة أيضاً، وبناء على ذلك حكم هذان الأخوان مشتركين.

عندما عاد الشريف عجلان من مصر سنة ٧٤٦ قام أهل مكة باحتفالات عظيمة، ومات أبوه رميثة خلال هذه الأفراح العظيمة.

قد علا الشريف رميثة مقام الإمارة سبع مرات، وحكم مشاركة مع أخيه حميضة عشر سنوات ومع أخيه عطيفة خمس سنوات، كما حكم منفرداً ما يقرب من خمسة عشر عاماً، فبلغت مدة إمارته ثمانين عاماً.

وقد شارك أخوة الشريف عجلان بن رميثة أخاهم فى الإمارة سنة ٧٤٧ وعلى قول آخر فى سنة ٧٤٨. وهم الشريف ثقبة والشريف سند والشريف مغامس شاركوا أخاهم الشريف عجلان فى الإمارة وبعد فترة انفرد الشريف عجلان بالإمارة وعزل إخوته. وبعد فترة انفرد بالإمارة الشريف ثقبة وذلك فى سنة ٧٥١، وأشرك بعد فترة الشريف عجلان فى إمارة ثقبة، وعزل الشريف عجلان سنة ٧٥٧، وعين مكانه ثقبة بن رميثة وبعد فترة عزل الشريف ثقبه، وأسند منصب الإمارة إلى الشريف عجلان وهو مستقل، وفى سنة ٧٥٨ أشرك الشريف ثقبة مع الشريف عجلان. وفى سنة ٧٦٠ عزل كلاهما، وعين مكانهما الشريف سند بن رميثة مع محمد بن عطيفة بن أبى نمى.

وأحضر الشريف عجلان مع ابنه إلى مصر عقب القتال الدامى الذى وقع بين أشراف مكة والجنود المصرية سنة ٧٦١ حيث سجنا.

عندما جلس على عرش مصر الملك المنصور محمد بن المظفر وجه منصب إمارة مكة الجليلة إلى عجلان بن رميثة، وبناء على طلبه أشرك له فى الإمارة أخاه ثقبة بن رميثة.

كان فى ذلك الوقت الأمير ثقبة مريضاً فى وادى «مر» وارتحل منه فى سنة ٧٦٢، وأشرك فى إدارة أمور الإمارة الشريف أحمد بن الشريف عجلان،

وأسقط اسم سند من الخطب ومات ثقبة بن رميثة فى ذلك الوقت، وفوض الشريف عجلان ابنه أحمد بن عجلان فى القيام بأمور الإمارة الخاصة به، فاستقلت إمارة مكة الجليلة وانتقلت لأحمد بن عجلان بن رميثة فقط.

واتخذ ملك مصر فى سنة ٧٦٦ إرسال (١٦) ألف درهم وألف إردب قمحاً عادة، وألا يؤخذ بناء على ذلك الضرائب التى كانت تؤخذ من الحجاج. وبما أن عجلان بن رميثة مات سنة ٧٧٧ عن عمر يناهز سبعين عاماً أعلن ابنه أحمد بن عجلان فى سنة ٧٧٨ مشاركة ابنه محمد بن أحمد فى الإمارة، وبعد عشر سنوات توفى إلى رحمة الله ومات محمد بن أحمد بعد وفاة والده بمائة يوم مقتولا.

هناك عدة روايات فى حق قاتل الشريف محمد، بناء على أحد الأقوال أنه قتل من قبل أحد الأشخاص المجهولين، وبناء على رواية ثانية قتله أحد المصريين، إذ كان فى سجن أحمد بن عجلان كثير من الشرفاء مثل الشريف محمد عم الشريف محمد بن أحمد، وأخواله الشريف أحمد والشريف حسن بن ثقبة، وابن خاله الشريف على بن أحمد بن ثقبة.

طرحت الحكومة المصرية إطلاق سراح هؤلاء المسجونين، إلا أن الشريف أحمد بن عجلان لم يوافق على ذلك فأسلم الشريف محمد بن أحمد بن عجلان شئون هؤلاء الشرفاء عقب وفاة والده، وقد تأثر ملك مصر من عمل الشريف محمد الطائش هذا، فعين عنان بن مغامس بن رميثة أميراً مكان محمد بن أحمد، وكان مغامس هذا قد فر من أحمد بن عجلان إلى مصر، وأرسله مع أمير حج مصر إلى مكة المكرمة، وكان محمد بن أحمد استقبل المحمل المصرى كالعادة. وفى ذلك الوقت ضربه أحد الخونة الباطنية من مصر وقتله، فألبس الشريف عنان خلعة الإمارة وأعلن أميراً. ودخل عنان بن مغامس فى سنة ٧٨٨ مع الموكب المصرى إلى المدينة المقدسة، وإن كان أنصار محمد بن عجلان حاولوا أن يدافعوا عن الشريف عنان فلم يستطيعوا ذلك، وفر كل واحد منهم إلى جهة ما.

فتقدم الشريف عنان بن مغامس بكل حرية ودبدبة إلى دائرة الإمارة وأشرك فى الإمارة ابن عمه أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك بن رميثة.

وعزل عنان بن مغامس بعد سنة ونقل مكانه على بن عجلان بن رميثة. وبعد سنة أشرك عنان بن مغامس على بن عجلان فى الإمارة، وعزل سنة ٧٩٠، ونصب بعد ذلك بأربع سنوات مرة أخرى، وبما أن على بن عجلان قتل سنة ٧٩٧، جاء مكانه محمد بن عجلان، وعين فى سنة ٨٩٨ حسن بن عجلان، وفى سنة ٨٠٩ بركات بن حسن بن عجلان، وفى سنة ٨١١ الشريف أحمد بن حسن بن عجلان أشركوا فى إمارة أبيهم حسن بن عجلان فى إدارة شئون الإمارة.

الشريف حسن بن عجلان

عندما استقل هذا الشريف بالإمارة قبض على قاتلى أخيه على بن عجلان، وكذلك على أصحاب الفتن التى أدت إلى أخيه على بن عجلان، وكذلك على أصحاب الفتن التى أدت إلى هذا الفساد، وقضى عليهم جميعا.

وبعد هذا التوفيق فى القضاء على المفسدين زاد من شرفه ومهابته كما زاد من شجاعته، لذا كسب الحرب التى أعلنها ضد معارضيه بعد فترة وأعلن استقلاله. وكانت حرب حسن هذه ضروسًا دامية، حتى إن معارضيه لم يستطيعوا أن ينالوا العفو وهم يستقبلونه رافعين المصاحف الشريفة! لو كانت الحرب استمرت لحظة أكثر من الزمن لما بقى من المخالفين فرد يتنفس.

وإن تحقق استقلال الشريف حسن بعد القتال بثلاثة أيام إذ ترك بقية السيوف من الفرقة المخالفة فى مكة المعظمة متوجهين إلى اليمن، إلا أن الشريف حسن قد عزل من الإمارة سنة ٨١٨، وأرسل مكانه الشريف رميثة بن محمد بن عجلان.

وما كان من الشريف حسن إلا أنه بعث ابنه بركات إلى مصر، فوعدته الحكومة المصرية بإبقاء والده حسن فى منصب الإمارة، وأشرك الشريف بركات

فى سنة ٨٢٠ فى إمارة أبيه، وأبعد عن شركة الإمارة سنة ٨٢١، وعين مكانه الشريف أحمد.

ورجا الشريف حسن وإبراهيم بن حسن بالمشاركة، وصدقت الحكومة المصرية على مشاركة ابنيه على أن تكون إدارة الأمور فى يده.

واهتم إبراهيم بهذا واغتم وغادر مكة إلى اليمن، إلا أنه عاد فيما بعد و رجا أن يذكر اسمه أيضاً فى الخطب، فأسعف برجائه ونفذ طلبه.

بعد أن تأكدت إمارة الشريف حسن على الصورة التى ذكرت، تعهد الشريف حسن بعد ذلك بسنتين أن يدفع سنوياً للحكومة المصرية عشرة آلاف قطعة ذهبية، وذلك فى سنة (٨٢٥)، على أن يكون ما يدره ميناء جدة من الضرائب لإمارة مكة، وأعشار السفن الهندية للحكومة المصرية. وقبلت هذه الاتفاقية من قبل الحكومة المصرية على أن تكون سارية لمدة سبع سنوات ووقع عليها. إلا أنه عزل سنة ٨٢٧، وأعيد إلى منصبه سنة ٨٢٨، وتولى فى السادس عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٨٢٩.

كان الشريف حسن بن عجلان رجلا خيراً صبوراً، وبنى رباطاً خاصاً بالرجال وآخر خاصا بالنساء فى المدينة المنورة، كما أنه عمر وأصلح المستشفيات الموجودة فى زمانه كما عمر الأربطة القديمة وأحياها، وأرضى المساكين الغرباء وظل جالساً على كرسى الإمارة ما يقرب من ستة عشر عاماً.

الشريف بركات بن حسن بن عجلان:

استدعى الشريف بركات بن حسن بن عجلان إلى مصر سنة ٨٢٩ حيث ألبس خلعة الإمارة، وعزل سنة ٨٤٥ وعلى قول سنة ٨٤٦، وعين مكانه الشريف على بن حسن بن عجلان، وأراد الشريف بركات ألا يتخلى عن زمام الإمارة وألا يدخل على بن عجلان فى مكة المعظمة، إلا أنه فر منهزما وعزل الشريف على بن عجلان فى شوال من نفس السنة وأرسل مكانه الشريف أبو القاسم حسن بن عجلان.

ونال منصب الإمارة سنة ٨٤٩ الشريف بركات والشريف أبو القاسم بن حسين إلى سنة ٨٥١، وبعد ذلك بقليل الشريف بركات مرة أخرى.

وفى سنة ٨٦٠ ابن الشريف بركات محمد بن بركات، وأرسل الشريف محمد بن بركات فى سنة ٨٧٧ قاضى العراق إلى مصر مقبوضا عليه.

لأن ملك العراق حسن الطويل جهز محملا وأرسله إلى مكة بقصد الاستيلاء على الحرمين، وبعث مع هذا المحمل عدداً كافياً من الجنود تحت إمرة أمير للحج يطلق عليه اسم «رستم».

وزود رستم هذا بتعليمات خفية كما أرفق بالمحمل قاضياً ليخدع الحجاج والأهالى، وكان المحمل قد زين برايات متعددة وأعلام متنوعة، وأعطيت هذه الأعلام والرايات لبعض رافعى الرايات لاستخدامها فى وقت اللزوم.

فهم الشريف محمد ما يفكر فيه أمير قافلة العراق العدوانى بطريقة ما، فقبض عليه وعلى القاضى الذى كان معه وأرسلهما إلى مصر وقد حاز هذا العمل رضا الحكومة المصرية وسرورها، فقدرت هذه الخدمة الجليلة التى قدمها الشريف محمد، فكافأته بأن أرسلت له سيفاً وجواداً أصيلاً ومنشوراً.

وكان سرج الجواد الذى أرسل وجميع جهات السيف مزينة بمجوهرات مختلفة ومرصعة بأحجار غالية، وكان مسطوراً فى المنشور بالصراحة: أن ضبط وربط بلاد الشام واليمن ينبع والأقطار الحجازية خاص بالشريف محمد بن بركات، وبناء على هذا أخضعت جميع الأقطار الحجازية وعربانها للحكومة المصرية وذلك بإرسال الشجعان إلى هذه البلاد، وانتشر صيت عدالته وصداها إلى آفاق البلاد. وتوفى سنة ٩٠٣ فانتقلت إمارة مكة المعظمة فى هذه السنة إلى ابنه بركات بن محمد الذى شاركه فى الإمارة سنة ٨٧٨.

وبعد وفاة محمد بن بركات بأربعة أعوام وفى سنة ٩٠٧ أصبح ابنه هزاع بن محمد بن بركات شريكا لأخيه بركات بن محمد فى الإمارة، ولما توفى هذا فى خلال ذلك العام تولى مكانه أخيه أحمد بن بركات الذى اشتهر بين الأهالى بلقب «أحمد جازانى». وفى سنة ٩٠٨ توفى هذا الأخير أيضاً.

وإن كان الشريف أحمد الجازانى قام ضد أخيه بركات بن محمد وأعلن استقلاله بالإمارة عند ورود القافلة المصرية، إلا أنه قتل فى العاشر من شهر رجب يوم الجمعة فى نفس السنة فى أثناء الطواف وعين مكانه أخاه حميضة بن محمد بن بركات، ولما تغلب بركات بن محمد على حميضة فى يوم التروية من نفس العام؛ أعطيت براءة الإمارة للشريف بركات بن محمد على أن يشاركه فى الإمارة على بن بركات بن محمد قايتباى بن محمد. وتوفى على بن بركات سنة ٩١٣ كما توفى محمد[١] بن بركات الذى عين مكانه بعد فترة، كما توفى الشريف قايتباى أيضاً سنة ٩١٨، فظل الشريف بركات بن محمد فى مقام الإمارة منفرداً، وبعث بابنه أبى نمى إلى مصر راجياً بأن يسند مقام الإمارة لأبى نمى مستقلاً. وقبل السلطان الغورى رجاء الشريف بركات وأعطى إدارة حكومة أرض الحجاز وينبع للشريف أبى نمى، وأعطاه البراءة التى كتبت بهذا الخصوص وألبسه الخلعة المزينة بالذهب، وأعاده إلى مكة المعظمة.

الشريف أبو نمى:

ولما كان الشريف أبو نمى عاقلاً، مدبراً وقادراً على الحرب والضرب فقد ارتفع شأنه بين الأهالى فى أثناء إمارته؛ لنجاة الحجاج والأهالى والتجار من أن يلحق بهم الأذى والضرر.

وصادف فتح مصر لزمن إمارته، فذهب إلى مصر وقابل السلطان سليم خان فى قصر الروضة الجميلة على النيل، وعرض عليه خضوعه وبيعته وقدم له بعض التبركات المسعودة ومفتاح الكعبة المعظم. فأحسن له السلطان سليم بأن جعله أميراً على إمارة الأقطار الحجازية حتى حدود اليمن، ومحاصيل جدة المعمورة كما أعطى له ولأبيه خلعة فاخرة وسيفين مرصعين وأعاده إلى بلده.

وإن كان أكثر المؤرخين نقلوا هذه الحادثة فى صورة مبسوطة إلا أنها مخالفة لما رواه مؤرخو مكة. يقول مؤرخو مكة: «فكر السلطان المغفور له أن يبعث قوة

(١) ولد الشريف محمد فى مصر، لذا سماه أبوه بركات بن محمد «محمد الشافعى».

من الجنود ليستولى على مكة المعظمة والبلاد الحجازية فى سنة ٩٢٣، فعلم صالح الدين ابن أبى السعود[١] بن ظهيرة قاضى مكة الذى كان مسجوناً بمصر الأمر، فعرض على السلطان أن الشريف بركات سيخضع للسلطان بلا مخالفة، وسيعرض عليه طاعته وأنه لا داعى لسوق الجيوش إلى مكة المكرمة، إذا ما أذن له السلطان بكتابة رسالة إلى أمير مكة، وبناء على الإذن الصادر له من الإرادة السنية كتب إلى الشريف بركات رسالة يوضح له فيها الأمور. ولما وصلت الرسالة إلى الشريف المشار إليه لم يتردد فى إرسال ابنه أبى نمى برسالة تهنئة خاصة للسلطان إلى مصر. فسر السلطان سليم بوصول أبى نمى إلى مصر، فأيد بقاء والده أميراً على مكة المكرمة ومشاركته له فى الإمارة، وأعاده إلى مكة المكرمة وفى صحبته أعيان مكة الذين كان قبض عليهم السلطان الغورى قديما».

استطراد

إن تسليم أبى نمى الأمانات المقدسة ومفتاح الكعبة إلى السلطان سليم دون أن يطلبها، وتصديقه على خلافة السلطان لأكبر دليل وبرهان على صحة الرؤيا الصالحة التى رآها حاجب السلطان حسن أغا وأولت رؤياه أن السلطان مأمور من قبل النبى ﷺ بالحملة على البلاد العربية.

كان السلطان سليم خان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ يتحرك وفق ما تراه نفسه من رؤى، أوما يراه من رؤى مَنْ يثق فيهم من حاشيته، ولكنه كان يطلع على الرؤيا التى يراها أىٌّ مِنْ حاشيته قبل العرض عليه.

الرؤيا

بينما كان الحاجب السلطانى نائماً فى الحجرة الخاصة به بجانب باب الحرم السلطانى ذات ليلة رأى فيما يراه النائم أن الباب المذكور يدق، فقال من الذى

(١) سبب حبس صلاح الدين عدم تسديد عشرة آلاف دينار مصرى كانت قد فرضت على حكومة مكة ظلماً بغير حق من قبل الحكومة المصرية.

يدق الباب؟ ورأى أن جناح الباب ومصراعه قد فتح بحيث يسمح برؤية من فى خارجه فعطف نظره بدقة على مسلحين يشبهون أهل البلاد العربية، وعلى يد كل واحد منهم راية فتعجب من هذا الأمر.

فتقرب الحاجب وهو مندهش من الباب فخاطبه أحد الأربعة الذين اقتربوا منه قائلاً: هؤلاء العساكر الذين رأيتهم هم أصحاب النبى ﷺ، إن النبى ﷺ أرسلنا إلى سليم خان وفوضه بخدمة الحرمين، هذا الشخص هو الصديق الأعظم وهذا هو عمر الفاروق والذى بجانبى هو عثمان بن عفان. أما أنا فعلى بن أبى طالب هيا أخبر بذلك السلطان!! قالوا هذا وغابوا عن الأنظار».

وظل الحاجب حتى الصباح متحيراً مندهشاً، وبعد أداء صلاة الصبح حكى رؤياه لحسن جان الذى ذهب بدوره إلى السلطان وقال له «يا مولاى السلطان !! إن عبدك حسن هذا لم ير الرؤيا، ولكن عبدك الحاجب حسن رأى الرؤيا» وحكى على مسامع السلطان الرؤية بالتفصيل.

لأن السلطان كان قد أمر حسن جان أن يقص له الرؤيا التى رآها فى تلك الليلة عدة مرات. وقال حسن جان وهو يروى الحكاية عندما بدأ يقص له الرؤيا: «أخذ وجه السلطان يحمر وفى النهاية بكى، وفى ختام الرؤيا خاطب حسن جان قائلاً: «يا حسن! ألم أكن أقول لك؟ إننا لا نتحرك إلى جهة ما دون أن نكون مأمورين!! كان آبائى وأجدادى من أصحاب الكرامة، إننا لا نشبههم» وبهذا القول غمط حق نفسه متواضعاً ثم أمر بتجهيز حملة مصر رحمه الله رحمة واسعة» انتهى.

مات الشريف بركات عن واحد وسبعين عاماً فى سنة ٩٣١، كما أن ابنه أبا نمى مات أيضاً عن ثمانين عاماً فى سنة ٩٩٢، وجلس على كرسى الإمارة بعد أبى نمى حسن بن أبى نمى.

وكانت مدة إمارة الشريف بركات ثلاثًا وخمسين سنة وحكم بمفرده أحياناً، وحكم أحياناً بالمشاركة مع ابنه. ومدة ابن أبى نمى اثنين وسبعين عاما، وشارك أباه مدة اثنى عشر عاما فى الإمارة.

كما اشترك ابن أبى نمى أحمد مع أبى نمى والده ما يقرب من أربع عشرة سنة فى الإمارة، ولكن لما مات أحمد سنة ٩٦١ عين مكانه أخوه حسن بن أبى نمى.

وكانَ السلطان سليمان بن السلطان سليم خان قد استصوب مشاركة الشريف أحمد والده فى الإمارة. لأن سليمان باشا أخذ معه أحمد بن أبى نمى بناء على رغبة أبيه إلى باب السعادة وهو عائد من حملة اليمن، وقد أجلسه السلطان المغفور له من شدة سروره به على يمينه وأشركه فى الإمارة مع أبيه.

قد تولى حسن بن أبى نمى الإمارة ما يقرب من خمسين عاماً ومات فى سنة ١٠١٠، وهو فى التاسعة والسبعين من عمره فى حرب نجد، وعين مكانه حسن بن أبى نمى بن بركات.

وكان الشريف حسن بن أبى نمى قد أشرك أولا ابنه حسين بن حسن بن أبى نمى، ومن بعده مسعود بن حسن بن أبى نمى فى الإمارة، ولما مات الاثنان واحداً تلو الآخر عين ابنه أبا طالب بن حسن بن أبى نمى، ولما مات هو أيضا سنة ١٠١٢ شارك أخوه أبو العون إدريس بن حسن فى تدبير أمور الإدارة.

لما كان الشريف أبو طالب يشارك أباه فى الإمارة كان السلطان محمد خان أرسل لحسن بن أبى نمى سيفاً ذا قبضة مرصعة.

وعندما وصل هذا السيف المرصع إلى مكة المعظمة اجتمع الأعيان والأشراف والضباط مع جنودهم ومشايخ القبائل فى حرم المسجد الحرام الشريف، وألبس الشريف حسن بين بئر زمزم والملتزم ابنه أبا طالب خلعة فاخرة بيده، وأمر بذكر اسم ابنه أبى طالب على المنابر بعد ذكر اسم السلطان.

لما أصبح إدريس بن حسن بن أبى نمى نائباً عن والده أشرك فى الإمارة أخاه فهيد بن حسن مع ابن أخيه محسن بن حسن بن أبى نمى باتفاق آراء الأشراف، ولما مات الشريف فهيد سنة ١٠٢٠ فى باب السعادة[1]. والشريف إدريس أيضاً

(١) والذى يدل على تاريخ وفاة الشريف فهيد بن حسن المصراع الآتى «تمات بالروم فهيد الحسن».

سنة ١٠٣٤، وهو فى الستين من عمره فى جبل شمر، فأعلن محسن بن حسين بن حسن استقلاله بالإمارة[١].

ولما مات الشريف محسن بن حسين سنة ١٠٣٨ وأحمد بن عبد المطلب الذى عين مكانه سنة ١٠٣٩ خلف مسعود بن إدريس الشريف أحمد سنة ١٠٤٠، وخلف عبد الله بن حسن بن أبى نمى مسعود، وجد الشريف عون الرفيق باشا الذى تولى الإمارة الآن فى سنة ١٠٤١ وانتقلت إمارة مكة المكرمة لمحمد بن عبد الله بن حسن بن أبى نمى.

وقد انهار البيت المعظم فى عهد الأمير مسعود بسبب سيل عظيم حدث فى زمن إمارة عبد الله بن حسن.

لما كان الشريف عبد الله قد اكتسى خلعة الإمارة كداهية عين مكانه بعد الحج ابنه محمد، وأشرك فى الإمارة زيد بن محسن منسحباً ومنزوياً فى ركن من الأركان، إلا أن اسمه ظل يذكر فى الخطب تبركاً.

حدثت وقعة جلالى فى عهد إمارة محمد بن عبد الله، وأعلنت إمارة الشريف نامى بن عبد المطلب.

خلاصة واقعة جلالى: خرجت جنود اليمن على طاعة قانصو باشا وهجموا على قنفدة، وأعلنوا هناك إمارة السيد نامى ثم هجموا على مكة، وقتلوا الشريف محمد بن عبد الله الذى أراد أن يدافع عن مكة من جهة الجنوب، وإن كان زيد بن محسن استمر فى الدفاع إلا أنه فهم عدم جدوى الدفاع بعد أن قتل مشاهير الأشراف مثل: أحمد بن حراز، حسين بن موسى، سعيد بن راشد وجرح هزاع بن محمد الحارث، وقتل مائتى رجل من أهل مكة.

فانسحب مع من نجا من القتل إلى وادى (مر الظهران). فدخل الجلاليون

(١) مات الشريف إدريس بن حسن فى مكان يسمى «ياطب» فى جبل شمر ومن المصادفات الغريبة عندما تحسب لفظة «ياطب» تدل على مدة إمارة المتوفى المشار إليه.

مكة وأعلنوا إمارة السيد نامى وشراكة عبد العزيز بن إدريس بن حسن فى إدارة مكة. وبعد ذلك ذهبوا إلى جدة ونهبوا أموال التجار والأهالى، ثم عادوا إلى مكة المكرمة ونهبوا منازل الأشراف، إلا أن الجنود الذين أرسلوا من مصر بَرًّا وبحراً قتلوا كثيراً من الجلاليين، وأعدموهم وأنهو فتنة الجلاليين وأعادوا زيد بن محسن إلى مقام الإمارة.

وبناء على ما يرويه مؤلف «تنقيح التواريخ» عندما كان الشريف سعد بن زيد أمير مكة، قام الشريف حمود بانتزاع الإمارة، وصرف مساعيه لإيقاع الفتن والفساد وتسلط على مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة، وأخذ يكيد على أبناء السبيل ويؤذيهم حتى تجرأ أن يقاتل والى جدة حسن باشا عدة مرات، وبناء على ذلك تغيرت أفكار الشريف سعد وطمع فى أموال التجار والصرة التى ترسل من إستانبول لفقراء الحرمين، وطلب من إمام اليمن أن يرسل له مقداراً كافياً من الجنود ليستولى على ميناء جدة، وأخذ يثير الفتن والفساد حتى إنه حرص على أن يطلق رصاصاً على حسن باشا والى جدة فى أثناء رميه الجمار، وهكذا فسد نظام البلاد وقطع أشقياء القبائل طرق الحرمين ومواردهما، ونهبوا قافلة الشام واغتنموها.

ولما عرض ما قام به الشريف سعد من انتهاكات على العتبة السلطانية رأى السلطان أن يعين والى الشام حسين باشا، وهو أخو سياوش باشا قائداً وأميراً للحج المصرى، وأوزبك بك قائداً للجيوش التى هيئت من مصر، وأن يتوجه إلى مكة المعظمة، فعندما وصل حسين باشا بقافلة الشام إلى مكة اهتم بالقضاء على الفتنة فعزل الشريف سعد، وعين مكانه الشريف بركات السالف الذكر وذلك نزولاً على رغبة عموم الأشراف والسادات ورضاهم.

حرص الشريف زيد بن محسن ما يقرب من خمس وثلاثين سنة على حسن إدارة البلاد الحجازية واليمن بالعدل والحق وتوفى سنة ١٠٧٧. وعين مكانه سعد بن زيد، وشاركه فى الإمارة سنة ١٠٧٩ أخويه الشريف حمود بن زيد

والشريف أحمد بن زيد، وفى سنة ١٠٨٢ أتى مكان الشريف سعد بن زيد الشريف بركات ابن محمد بن إبراهيم.

وتوفى الشريف بركات سنة ١٠٩٣، وعين مكانه ابنه الشريف سعيد بن بركات، وفى سنة ١٠٩٥ الشريف أحمد بن زيد، وفى سنة ١٠٩٩ الشريف سعيد بن سعد بن زيد وعقبه الشريف أحمد بن غالب بن محمد بن مسعود بن حسن بن أبى نمى، وفى سنة ١١٠١ الشريف حسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى، وفى سنة ١١٠٣، إمارته الأولى ستة أشهر، وفى إمارته الثانية ثلاثة أشهر، وفى إمارته الثالثة خمس سنوات وثلاثة أشهر، وبعد موت الشريف سعد بن زيد كلف أكبر أشراف مكة سنا وهو الشريف عبد المحسن بن أحمد، إلا أنه لم يقبلها ورأى أن تعيين عبد الله بن سعيد أنسب من تعيينه أميراً.

وللما استصوب هذا الرأى لدى الأشراف أتى إلى مقام الإمارة الشريف عبد الله وعين سنة ١١٣٠، برأى الشريف عبد المحسن وقراره الشريف على بن سعيد.

وعين أخو الشريف عبد المحسن الشريف مبارك بن أحمد بن زيد فى أوائل الشهر الثامن من إمارة الشريف على بن سعيد ثم شرف الشريف يحيي بن بركات بإلباسه خلعة الإمارة الفاخرة، وعزل الشريف يحيى فى سنة ١١٣٢ وأتى خلفه الشريف مبارك بن أحمد.

وبناء على وفاة الشريف عبد المحسن وهزيمة الشريف يحيى فى الحرب التى أعلنها ضد الشريف مبارك لسعاية بعض الأشراف، وفى سنة ١١٢٣ عين للإمارة الثانية الشريف مبارك، وعزل ولابنه بركات ابن يحيى سنة ١١٣٥، وفى سنة ١١٣٦ للمرة الثالثة لمبارك بن أحمد، وبعد مرور خمسة أشهر للمرة الثانية لعبد الله بن سعيد، وفى سنة ١١٤٣ لمحمد بن عبد الله، وفى سنة ١١٤٦ للمرة الثانية لمسعود بن سعيد، وفى سنة ١١٦٥ لمساعد بن سعيد، وفى سنة ١١٧٢ جعفر بن سعيد، وفى سنة ١١٧٣ للمرة الثانية لمساعد بن سعيد، وفى سنة

١١٨٤ لعبد الله بن سعيد، وبعد مرور زمن قليل لأحمد بن سعيد، وفى خلال نفس السنة لعبد الله بن حسين بن يحيى وفى نفس السنة للمرة الثانية لأحمد بن سعيد، وفى سنة ١١٨٦ لسرور بن مساعد.

لما تولى سرور بن مساعد الإمارة كان فى الثامنة عشرة من عمره وحاربه عمه أحمد بن سعيد لينتزع من يده زمام الإمارة، محرضاً ومشجعاً بعض القبائل العربية سبع عشرة مَرّة على حرب دامية، وانتصر فى بعض حروبه إلا أنه قبض عليه فى المعركة الخامسة عشرة فمات فى سجن جدة فى العشرين من ربيع الثانى سنة ١١٩٥.

وخلف الشريف سرور الذى توفى سنة ١٢٠٢ أخوه الشريف عبد المعين، ولكن بعد نصف يوم، وعلى رواية: بعد عدة أيام، لبس خلعة الإمارة أخوه الشريف غالب، وفى سنة ١٢٢٨ الشريف يحيى بن سرور، وفى سنة ١٢٤٢ الشريف محمد بن عبد المعين بن عون[١]، وفى سنة ١٢٦٦ عبد المطلب بن غالب، وفى سنة ١٢٧٢ الشريف محمد بن عبد المعين بن عون للمرة الثانية، وفى سنة ١٢٧٤ عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون، وفى سنة ١٢٩٤ حسين باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون، وفى سنة ١٢٩٨ عبد المطلب بن غالب للمرة الثانية، وفى سنة ١٢٩٩ الشريف عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون.

ومازال مقام الإمارة يباهى الآن بوجود عون الرفيق باشا الهاشمى.

هذا جدول يحتوى على أسماء الأشراف الذين سعدوا بتولى إمارة مكة المكرمة وقد حكم بعضهم منفرداً والآخرون بالاشتراك مع الآخرين.

الطبقة الأولى[٢]

إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون

(١) رأى والى جدة أحمد باشا تعيين الشريف عبد المطلب مكان الشريف يحيى، وأنبأ بالأمر باب السعادة، وأعلن فى عقب ذلك بالاتفاق مع علماء مكة إمارة الشريف عبد المطلب، ولكن دار السعادة رأت إمارة الشريف محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين بن عبد الله بن حسن بن أبى نمى أنسب للإمارة لذا أخرت إمارة الشريف عبد المطلب.

(٢) أمراء هذه الطبقة ظهروا فى سنة ٢٥١، وانقرض حكمهم سنة ٣٥٠ الهجرية، ومدة حكمهم تسع وتسعون سنة.

الشريف أبو عبد الله محمد بن يوسف الأخيضر

الشريف أبو جعفر أحمد بن يوسف الأخيضر

الشريف حسن بن يوسف الأخيضر[1]

الشريف محمد بن يوسف الأخيضر

الشريف إبراهيم بن أبى عبد الله محمد بن يوسف الأخيضر

الشريف حسن بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر.

الشريف أحمد بن يوسف بن يوسف الأخيضر.

الشريف محمد بن أحمد بن يوسف الأخيضر.

الشريف محمد بن جعفر بن يوسف الأخيضر

الشريف صالح بن إسماعيل بن يوسف الأخيضر

الطبقة الثانية[2]

الشريف حمزة بن عباس بن داود بن عبد الله

الشريف موسى الثانى بن عبد الله

الشريف داود بن موسى بن عبد الله

الشريف محمد الأكبر بن عبد الله

الشريف حسين بن محمد الأكبر بن عبد الله

الشريف محمد الثائر بن محمد الأكبر بن عبد الله

الشريف أبو هاشم محمد بن الثائر بن عبد الله

الشريف أبو جعفر محمد بن حسين بن محمد الأكبر[3]

الشريف أبو محمد جعفر بن محمد بن حسين بن محمد الأكبر

---

(١) ظهر إسماعيل بن يوسف الأخيضر فى بلاد اليمامة، إلا أن أخاه استولى على القطر الحجازى كاملا وهو الشريف حسن.

(٢) قد تأسست الطبقة الثانية سنة ٣٥٠ وانقرضت سنة ٤٥٣، وحكمت بلاد الحجاز ١٠٣ سنة.

(٣) وإن وجد بجانب إدارة الإمارة موظف من قبل ملوك الأسلاف يعمل إلى جانب الأمير إلى أواسط إمارة أبى جعفر إلا أن أباجعفر استقل بإمارة مكة وبقيت إمارة مكة الجليلة من بعده فى أيدى الأشراف الكرام.

الشريف عيسى بن أبى جعفر محمد بن محمد الأكبر

الشريف أبو الفتوح حسين بن محمد الأكبر

الشريف تاج المعالى أبو عبد الله شكر بن أبى الفتوح

الشريف حمزة بن عباس بن داود بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن الإمام حسن السبط

الطبقة الثالثة[1]

الشريف أبو هاشم محمد بن جعفر

الشريف قاسم بن أبى هاشم محمد بن جعفر

الشريف فليتة بن جعفر

الشريف الأمير الشجاع قاس بن قليتة بن جعفر

الشريف قطب الدين فليتة بن قاسم بن جعفر

الشريف داود بن عيسى بن فليتة بن قاسم

الشريف مكثر بن مهنا بن عيسى بن فليتة

الشريف داود بن عيسى بن فليتة

الشريف مكثر بن عيسى بن فليتة

الشريف محمد بن مكثر بن عيسى بن فليتة

الطبقة الرابعة[2]

الشريف أبو عزيز قتادة

الشريف حسن بن أبى عزيز قتادة

الشريف الملك مسعود بن أفسيس

نور الدين على بن عمر بن رسول

(١) ظهرت الطبقة الثالثة للأشراف سنة ٤٦١ وحكموا إلى سنة ٥٩٨ الهجرية أى دام حكمهم ١٣٧ سنة.

(٢) تبدأ هذه الطبقة من سنة ٥٩٨.

طغتكين التركى[1]

الشريف راجح بن قتادة[2]

الشريف شيخة بن قاسم الحسينى[3]

الشريف أبو سعيد حسن بن على

الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن

الشريف جماز بن حسن بن قتادة

الشريف راجح بن أبى عزيز قتادة

الشريف غانم بن راجح بن قتادة

الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن

الشريف إدريس بن على بن قتادة

الشريف أبو نمى بن أبى سعيد

الشريف إدريس بن على بن قتادة

الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن

الشريف غانم بن راجح بن قتادة

الشريف جماز بن شيخة الحسينى

الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن

الشريف جماز بن شيخة الحسينى

الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن

الشريف حميضة بن أبى نمى

الشريف رميثة بن أبى نمى

(١) أصبح طغتكين أميرا على راجح بن قتادة سبع مرات.

(٢) أصبح الشريف راجح سبع مرات أميرا على طغتكين التركى.

(٣) كان الشريف شيخة أمير المدينة المنورة.

الشريف عطيفة بن أبى نمى

الشريف أبو الغيث بن أبى نمى

الشريف حميضة بن أبى نمى

الشريف رميثة بن أبى نمى

الشريف عطيفة بن أبى نمى

الشريف رميثة بن أبى نمى

الشريف عجلان بن رميثة

الشريف ثقبة بن رميثة

الشريف سند بن رميثة

الشريف محمد بن عطيفة

الشريف عجلان بن رميثة

الشريف ثقبة بن رميثة

الشريف أحمد بن عجلان بن رميثة

الشريف محمد بن أحمد بن عجلان

الشريف عنان بن مغامس بن رميثة

الشريف أحمد بن ثقبة بن رميثة

الشريف عقيل بن مبارك بن رميثة

الشريف على بن عجلان بن رميثة

الشريف عنان بن مغامس بن رميثة

الشريف محمد بن عجلان بن رميثة

الشريف حسن بن عجلان بن رميثة

الشريف بركات بن حسن بن عجلان

الشريف أحمد بن حسن بن عجلان

الشريف رميثة بن محمد بن عجلان

الشريف حسن بن عجلان بن رميثة

الشريف بركات بن حسن بن رميثة

الشريف أحمد بن حسن بن عجلان بن رميثة

الشريف على بن حسن بن عجلان

الشريف أبو القاسم حسن بن عجلان

الشريف بركات بن حسن بن عجلان

الشريف محمد بن بركات بن حسن

الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان

الشريف بركات بن حسن بن عجلان

الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان

الشريف بركات بن محمد بن بركات

الشريف هزاع بن محمد بن بركات

الشريف أحمد الجازانى بن محمد بن بركات

الشريف حميضة بن محمد بن بركات

الشريف على بن بركات بن محمد بن بركات

الشريف قايتباى بن محمد بن بركات

الشريف بركات بن محمد بن بركات

الشريف محمد بن بركات[1]

الشريف أبو نمى بن بركات بن محمد

الشريف حسن بن أبى نمى بن بركات بن محمد

الشريف أحمد بن أبى نمى بن بركات

(١) بما أن محمد بن بركات ولد فى مصر سمى محمد الشافعى.

الشريف أبو طالب بن حسن بن أبى نمى

الشريف حسين بن حسن بن أبى نمى

الشريف مسعود بن حسن بن أبى نمى

الشريف أبو العون إدريس بن حسن بن أبى نمى

الشريف فهيد بن حسن بن أبى نمى

الشريف محسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى

الشريف أحمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبى نمى

الشريف مسعود بن إدريس بن حسن بن أبى نمى

الشريف عبد الله بن حسن بن أبى نمى

الشريف محمد بن عبد الله بن حسن بن أبى نمى[1]

الأمير زيد بن محسن

الشريف سعيد بن سعد بن زيد

الشريف أحمد بن غالب بن محمد

الشريف محسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى

الشريف شعيب بن سعد بن زيد

الشريف سعد بن زيد بن محسن

الشريف عبد الله بن هاشم بن محمد

الشريف سعد بن زيد بن محسن

الشريف سعيد بن سعد بن زيد

الشريف عبد المحسن بن أحمد بن غالب

الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلى

الشريف سعيد بن سعد بن زيد بن محسن

الشريف عبد الكريم بن محمد

(١) انهار البيت المعظم فى إمارة محمد بن عبد الله هذا.

الشريف سعيد بن سعد

الشريف عبد الله بن سعيد بن سعد

الشريف يحيى بن بركات

الشريف مبارك بن أحمد بن زيد

الشريف يحيى بن بركات

الشريف بركات بن يحيى بن بركات

الشريف مبارك بن أحمد بن زيد

الشريف عبد الله بن سعيد

الشريف سعد بن زيد بن محسن

الشريف حمود بن زيد بن محسن

الشريف أحمد بن زيد بن إبراهيم

الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم

الشريف سعيد بن بركات بن محمد

الشريف أحمد بن زيد بن محسن

الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد

الشريف مسعود بن سعيد

الشريف مساعد بن سعيد

الشريف جعفر بن سعيد

الشريف مساعد بن سعيد

الشريف عبد الله بن سعيد

الشريف أحمد بن سعيد

الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى

الشريف أحمد بن سعيد

الشريف سرور بن مساعد

الشريف عبد المعين بن مساعد
الشريف عبد المعين بن مساعد
الشريف غالب بن مساعد
الشريف يحيى بن سرور بن مساعد
الشريف محمد بن عبد المعين بن عون
الشريف عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين
الشريف حسين باشا بن محمد بن عبد المعين
الشريف عبد المطلب بن غالب بن مساعد
الشريف عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين

أمراء المدينة

لما كانت إمارة مكة المكرمة فى يد الأشراف الحسنية كانت إمارة المدينة المنورة تحت إدارة السادة الحسينية، وكانوا ينتخبون من مركز الخلافة ويعينون لمنصب الإمارة. كان حسن المثنى ابن الإمام حسن السبط فى عهد بنى أمية يتولى إدارة أوقاف المدينة المنورة[1] وقد بايع عبد الرحمن بن أشعث حسن المثنى فى البلاد العراقية غيابياً، وحرص على إدخال أهالى العراق فى بيعة حسن المثنى ولكنه قتل مسموماً، وعين مكانه زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين على بن الإمام حسين بن على (رضى الله عنهما)، وأسند إليه فى عهد المنصور العباسى إمارة المدينة المنورة بمشتملاتها.

عاش حضرة زيد قرابة مائة عام ولما استشهد، أسندت إمارة المدينة المنورة لمسلم بن عقيل من نسل أخى على بن أبى طالب عقيل وهو مسلم بن عقيل بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب، واستشهد مسلم سنة ٣٣٤ كما أسندت الإمارة إلى أبى القاسم بن مسلم بن أحمد بن مسلم بن عقيل، وبعد وفاته لعبد الله بن حسن بن عبد الله بن عباس بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

(١) ومازال نَسل المشار إليه جالساً على كرسى الإمارة إلى الآن فى سنة ١٣٠٦.

ولما كان عبد الله بن حسن من أفاضل العلماء أخذ على عاتقه قضاء الحرمين المحترمين بجانب الإمارة، وقام بهاتين المهمتين خير قيام، وألبست بعده خلعة إمارة المدينة المنورة لإسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر الطيار (رضى الله عنه) الذى وفق فى طرح وبناء سور المدينة المنورة.

وأصبح مكان إسحاق بن محمد الشريف حسن بن طاهر بن مسلم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن جعفر الحجة ابن عبد الله بن حسين بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهما).

وأصبح أميرا مكانه هانى بن أبى على طاهر بن مسلم، ومن بعده الشريف أبو عمارة مهنا بن أبى هاشم داود ابن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن جعفر الحجة الحسينى أميراً، واستقلت إمارة المدينة المنورة فى عهد حسن بن طاهر وفوضت الإمارة للسادة الحسينية.

كان جد عبد الله بن طاهر الجليل القدر الأمجد مسلم بن عبد الله جديراً بأن يطلق عليه فريد عصره فى ميدان الولاية فى زمنه قد جعل حفيده ابن طاهر وكلاء ملوك الفاطميين يصدقون على إمارته، وجعل الخطباء يذكرون اسمه فى الخطب على منبر مسجد السعادة، ولما وسع دائرة إمارته أشرك ابن عمه الشريف أبى على طاهر فى الإمارة وأسند إليه منصب أمير الجيش.

وعندما توفى أبو على ادعى ابناه هانى ومهنا، استحقاقهما منصب والدهما وتنافسا معاً من أجل ذلك وزاحما على دائرة الإمارة. وقد تأثر حسن بن طاهر من هذه المزاحمات والجرأة عليه، وغضب منهما وسافر إلى خراسان ليستعين بالسلطان محمود سبكتكين، ولكنه ارتحل عن الدنيا هناك فأخذ الأخوان يسوقان ضد بعضهما العساكر وتحاربا مرات وفى النهاية انتصر (مهنا) بن أبى على وأصبح أميراً.

وانتقلت الإمارة بعد مهنا لأخيه هانى، ومن بعده لأبى عمارة مهنا بن أبى هاشم داود بن قاسم الحسينى، وبعده للشريف (حسين بن مخيط) بن أحمد بن

حسين أبى هاشم داود، وبعد سبع سنوات للشريف (شهاب الدين) حسين بن أبى عمارة المهنا ومن بعده لابنه الشريف (مهنا الأعرج) ابن شهاب الدين.

بما أن حسين بن مخيط كان من الزهد والورع بمكان استمرت مدة إمارته سبع سنوات حتى أطلق على أبناء ابنه مهنا الأعرج وأحفاده (المهنائية). وتولى الإمارة بعد مهنا الأعرج (حسين بن مهنا)، ومن بعده أخوه (عبد الله مهنا) بن مهنا الأعرج. وبعده أخوه الآخر أبو فليتة قاسم بن مهنا الأعرج[1].

لما كان لأبى فليتة قدر عظيم بين الأهالى ولما كان فى نفس الوقت شجاعاً مهيباً ومتسامحاً اكتسب صداقة ملك مصر صلاح الدين الأيوبى، ومحبته واشترك فى حروب سنة ٥٨٤ كلها مع صلاح الدين وأظهر بعض البطولات.

وكسيت خلعة إمارة المدينة المنورة بعد وفاة أبى قتادة قاسم لابنه هاشم بن قاسم أبى فليبة، وبعد وفاته لابن أخيه الشريف (عز الدين الجماز) بن قاسم بن مهنا ومن بعده لشيخة[2] ابن هاشم بن قاسم بن مهنا، وبعده لأبى سند جماز[3] بن شيخة.

ذهب هاشم بن قاسم إلى الشام مستنجداً بملك الشام عقب هجمات أمير مكة أبى عزيز قتادة بن إدريس وعاد مستصحباً ما جهزه ملك الشام من الجنود. ولما توفى قبل وصوله إلى المدينة المنورة تحارب ابنه (عز الدين) مع الجنود الذين ساقهم أبو عزيز إلى جوار قرية صفراء، وهزم فريق قتادة هزيمة منكرة حتى استغرب منها المكيون أنفسهم، وسبب لهم خسائر فادحة ثم حاصر قلعة ينبع التى التجأ إليها أبو عزيز قتادة، وأخذ يضيق عليه، وبعد فترة وقع على اتفاق الصلح الذى عرضه أبو عزيز وعاد إلى المدينة المنورة.

عندما خرب هولاكو بغداد كان زمام إمارة المدينة المنورة فى يد عز الدين

(١) وحد الشريف قاسم بن مهنا سنة ٥٧١ فى إمارة المدينة مع مكة المكرمة.
(٢) تعين الشريف شيخة بن قاسم فى سنة ٦٣٧ لإمارة مكة المكرمة أيضاً.
(٣) كان الشريف جماز بن شيخة فى سنة ٦٦٩ أميراً لمكة المكرمة.

الجماز السالف الذكر، كما أن إمارة مكة كانت فى يد ابن أبى سعيد بن على الشريف أبى نمى. لما كان حفيد الشريف جماز أبو سند جماز بن شيخه أميراً غضوباً اشتهر بلقب (حرون)، وعين بعد موته أخوه (منيف) بن شيخة أميراً، ومن بعده ابن عمه (مقبل) بن جماز، ومن بعده (كبش) ابن منصور.

وكان لمنصور أربعة أبناء هم كبش وكبيش وفضيل وعطية فقال لكبش منصب الإمارة، ولما رأى إخوته الآخرون أنهم أكثر استحقاقاً للإمارة من أخيهم الكبير، قاموا ينازعونه الإمارة ويزاحمونه مدة طويلة، فانتزع كبيش الإمارة من أخيه الكبير كبش، كما أن فضيل انتزع الإمارة منه، إلا أن (عطية) انتصر على إخوته الثلاثة بعد فترة واستقل بالإمارة، وفى سنة ٧٨٣ جاء أجله وارتحل عن دنيانا فعين مكانه (محمد بن عطية)، وفى سنة ٧٨٨ (عمير بن قاسم) بن جماز، كما عين مكانه (جمال الدين جماز) ابن هبنة بن منصور.

قام بعض المفسدين فى إمارة جمال الدين جماز بإشعال الفتن، فاضطرب الأمن والاستقرار مما أجبر الحكومة المصرية على التدخل بإرسال جنود كافية وفعلا أرسل الملك الناصر فرقة عسكرية، وانتزع الإمارة من يد جمال الدين وأحال إدارة إمارة المدينة المنورة للأمير (حسن بن عجلان) أمير مكة المكرمة. وأسند حسن بن عجلان إمارة المدينة المنورة لثابت بن نضير هبنة بن منصور وإلى أبيه نضير هبنة بن منصور سنة ٨١١ بعد وفاة ثابت.

ولما مات حسن بن عجلان سنة ٨٢٠ أصبح (عزيز بن هنازع) أميراً مستقلا، وفى سنة ٨٢٥ مات عزيز فاحتل مكانه (حسن بن جماز) ومن بعده (إيبان) بن جماز بن هبنة، وبعده (مانع بن على بن عطية بن منصور. وفى سنة ٨٣٩ (وثبان بن مانع)، وبعد موته أخوه (قايتباى بن مانع)، وبعده (سليمان بن مانع)، وبعد ارتحاله (ايسان بن مانع)، وبعده (سليمان بن عزيز) بن هنازع، وبعد وفاته (زهير بن أيسان)، وبعد عزل زهير أخوه (ضيغم) بن زهير وفيما بعد (قسيطل) بن زهير، ومن بعده (زهير) وعين فى سنة ١٠٩٩ تاريخ وفاة زهير

(حسن بن زهير)، وعند وفاةحسن بن زهيرأحيلت إدارة المدينة المنورة لإمارة مكة المكرمة.

الجدول الذى يشتمل على أسماء السادات الذين تولوا إدارة المدينة المنورة.

حسن المثنى ابن السيد الإمام الحسن السبط رضى الله عنه.

زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين على الحسينى.

مسلم بن عقيل بن محمد العقيلى.

أبو القاسم مسلم بن أحمد

إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفرى

حسن بن طاهر الحسينى

أبو على طاهر الحسينى

هانى الحسينى

مهنا الحسينى

أبو عمارة بن مخيط الحسينى

حسين بن مخيط الحسينى

شهاب الدين الحسينى

مهنا الأعرج الحسينى

حسين الأعرج الحسينى

أبو عبد الله الأعرج الحسينى

عزيز بن هنازع الجمازى الحسينى

حسن الجمازى الحسينى

إيتان الجمازى الحسينى

مانع الجمازى الحسينى

وثبان الجمازى الحسينى

قايتباى الجمازى الحسينى

سليمان الجمازى الحسينى
أبو فليتة الأعرجى الحسينى
هاشم بن أبى عبد الله الأعرجى الحسينى
عز الدين الأعرجى الحسينى
شيخة الأعرجى الحسينى
أبو سند جماز الأعرجى الحسينى
منيف بن شيخة الأعرجى الحسينى
مقبل بن شيخة الأعرجى الحسينى
كبش بن المنصور الحسينى
كبيش بن المنصور الحسينى
فضيل بن المنصور الحسينى
عطية بن المنصور الحسينى
محمد بن عطية الحسينى
عمر بن قاسم الجمازى الحسينى
جمال الدين الجمازى الحسينى
ثابت بن نضير الجمازى
عجلان بن نضير الجمازى
إيسان الجمازى الحسينى
سليمان الجمازى الحسينى
زهير بن إيسان الجمازى الحسينى
ضيغم بن إيسان الجمازى الحسينى
قسيطل بن إيسان الجمازى الحسينى
زهرى بن إيسان الجمازى
حسن بن زهرى الحسينى

فى ذكر الخارجين فى البلاد اليمنية

بنو زيد وبنو مهدى

بنو طباطبا ـ هؤلاء من السادات العلوية ظهروا فى سنة ٢٨٨ واتخذوا صنعاء وصعدة مقراً لحكومتهم فى اليمن.

اسم أول من ظهر فيهم يحيى بن حسين، خرج مغترا بنسبه الذى يتصل بالإمام على فى الدرجة الثامنة مدعياً الإمارة ولقب بلقب الإمام الهادى.

تغلب فى ابتداء خروجه على الموظفين العباسيين وامتلك المنطقة اليمنية كلها بالحرب. وبعد سنة ساق ضده المكتفى بالله البعاسى قوة كافية واستولى على جميع البلاد التى تحت حكم الهادى ما عدا بلدة صعدة فأقام فيها إلى أن مات، وقد قام ستة من سلالة متوالية بالإمامة لأهالى تلك البلدة ثم انقرضوا سنة ٣٥٤.

بنو زياد ـ بنو زياد الذين استولوا على المنطقة اليمانية ستة أفراد، وكان ابتداء ظهورهم فى سنة مائتين وثلاث ونهايتهم فى سنة أربعمائة وسبع. وبناء على هذا الحساب كانت مدة سلطنتهم مائتين وأربع سنوات. وكانت دار ملكهم مدينة زبيد.

وكان أول من تولى الحكم من بنى زياد محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد وقد خرج فى عهد الخليفة المأمون وقبض عليه بتهمة التمرد وسجن وترك أمر حراسته للوزير فضل بن سهل، وفى هذه الفترة اضطربت الأحوال فى الديار اليمانية، ولزم إرسال شخص يستطيع أن يعيد إليها أمنها واستقرارها، ورأى فضل بن سهل أن أصلح شخص لهذه المهمة هو محمد بن إبراهيم، فأرسل إلى اليمن قائداً للجيوش التى كانت قد هيئت للسفر.

استطاع محمد بن إبراهيم أن يتغلب على الذين أفسدوا استقرار اليمن وأمنه

بالحرب، وأسس مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وزاد من قوته العسكرية بما جلب من الجنود، واستولى على إقليم اليمن كله وأصبح حاكماً للبلاد اليمنية إلى أن توفى تاركاً خمسة من أحفاده فقط حكموا بعده.

ولما كان الرابع من بنى زياد قد تولى رياسة الحكومة صغير السن فحكم فى ابتداء حكمه (حسين بن سلامة) وكيلاً عنه إلا أن الحكم قد انتقل إلى يد عبد لحسين بن سلامة يدعى نجاح مرجان. وأطلق بناء على ذلك على بن زياد الذين تفرعوا وحكموا من بنى نجاح النجاحيون، ودار الملك لبنى نجاح كانت مدينة زبيد، وقد ظهروا سنة ٤١٢ وانقرضوا سنة ٥٥٣، وبذلك تكون مدة حكمهم ١٤١ سنة.

حاضرة بنى مهدى ـ أول من ظهر من أفراد بنى مهدى على بن مهدى سنة ٥٥٣، والحكومة التى انتقلت لأحفاده انقرضت وزالت سنة ٥٦٩. ومسقط رأس على بن مهدى قرية (عنبترة) على ساحل زبيد، وبعد سياحته مدة فى الحجاز والعراق عاد على بن مهدى إلى ولايته، وقد تنبّأ بأحوال المستقبل لبلاده وتحققت صحة توقعاته، فاستطاع بهذا أن ينال بيعة خلق زمانه، وبهذه الطريقة استطاع أن يدخل إقليم تهامة، أى أهالى الأراضى التى بين السواحل والجبال، لدائرة احتياله كيفما شاء، ووسع حدود حكومته ثم أطلق على الذين أتوا من تهامة المهاجرين، وعلى سكنة الجبال الأنصار، وجعل كل واحدة من هاتين الفرقتين تحت قيادة نقيب، وانسحب إلى دائرة أخرى حتى لا يختلط بالأهالى وأدار أموره بواسطة هؤلاء النقباء، فنهب القرى والمزارع والصحارى وتصادف خروجه مع زمن عز الدين جماز انقراض بنى نجاح، فاستولى على مدينة زبيد أيضاً أعلن استقلاله سنة ٥٥٤، وانتقل الحكم من بعد وفاته إلى ابنه المهدى، وبعد موته إلى ابنه عبد النبى. واستمر حكمه وحكم أبنائه خمسة عشر عاماً.

فروع الدولة الأيوبية ـ استولى أحد فروع الدولة الأيوبية سنة ٥٦٩ على الخطة اليمانية، وانقرض حكمهم وحكم من أتى بعدهم سنة ٦٢٦. وبناء على هذا التقدير فمدة حكمهم ٥٧سنة، وقد خضع بعض منهم للدولة الأيوبية، ورفض الآخرون الطاعة والانقياد وكان ذلك سبب انقراضهم.

بنو رسول التركمانية: هم من أتباع رسول الأيوبية كان ظهورهم سنة ٦٢٦، وانقراضهم سنة ٨٥٩. وبلغت مدة حكمهم إلى مائتين وثلاث وثلاثين سنة، كما بلغ عدد حكامهم إلى عشرة أشخاص وكان مقر حكومتهم مدينة زبيد.

يدعى المؤرخون أن بنى رسول من أصل يستند إلى الملوك الغسانية، ويرددون الحكاية الآتية فى سبيل إثبات مدعاهم.

الحكاية

كان جبلة بن الأيهم من الملوك الغسانية تشرف باعتناق الإسلام فى عهد عمر الفاروق الذى اتَّسَمَ بالعدالة، ثم ارتد ودخل تحت حماية ملك القسطنطينية وأصر على الكفر.

إلا أن بعض أولاده الذين نشئوا فى القسطنطينية اختاروا أن يتنزهوا ويسيحوا فى البلاد التركمانية، وتآلفوا هناك مع عشيرة بجك وتعلموا لغتهم، ونتيجة لذلك عدوا أنفسهم من أفراد هذه العشيرة.

وذهب واحد منهم وهو محمد بن هارون مع بعض الأقوام الكردية الذين اختلط بهم إلى بغداد، واكتسب صداقة بعض الأمراء من خلفاء العباسيين، وتحيز لهم فأرسل فى فترة ما بمهمة خاصة إلى جهات مصر والشام وسمى رسول.

ووجد هذا الشخص فى أثناء فتن بغداد فى جهة الشام ولما عرف بالأمر قصد مصر وبايع الناصر صلاح الدين من السلاطين الأيوبية ونالت بيعته قبولا واحتراما لديه. وأرسل بمهمة إلى اليمن حيث أعلن استقلاله باليمن بعد فترة.

وحكم خلفاء محمد بن هارون فى إقليم اليمن مستقلين. ووسعوا بلادهم وزادوا من قوتهم حتى أنهم انتصروا على الأئمة الزيدية الذين خرجوا رافعين راية العصيان وشتتوا شملهم.

بنو طاهر ـ ظهر حكام بنى طاهر فى سنة ٨٥٩، وانقرضوا فى خلال سنة ٩٢٢، ولم يستطيعوا أن يثبتوا فى الحكم إلا ٦٣ سنة.

ينتمى بنو طاهر نَسَبًا لعمر بن عبد العزيز من الخلفاء الأمويين.

انتزع عامر بن طاهر حاكمهم الأول بعض أماكن القطعة اليمنية من بنى رسول، وبعض أماكنها من أيادى الأشراف، واستولى فيما بعد على جميع أقاليم اليمن، وانتقل زمام الإدارة بعد وفاته لأخيه، وبعد موته لابن أخيه وبعد موته ليد ابنه. وفى سنة ٩١٧ استولى البرتغاليون على كجرات ودكن من البلاد الهندية، كما استولوا على شواطئ جزيرة العرب الشرقية الجنوبية، كما بنوا على ساحل دكن فى نقطة استراتيجية قلعة حصينة متينة تسمى فوقا، وتمكنوا من مضيق هرمز وأخذوا يؤذون الأهالى من المسلمين الذين يسافرون بحراً أو براً ويضرونهم.

ولما عرف حاكم نجران مظفر وحاكم اليمن عامر بن عبد الوهاب استمدا من ملك مصر السلطان الغورى العون مرسلين له رسائل استغاثة. وما كان من السلطان الغورى إلا أن أرسل الأمير حسين بما جهزه من السفن الموافية والجنود الكافية إلى مضيق هرمز ليدافعوا عن البلاد الإسلامية ضد البرتغاليين. وعندما وصل الأمير حسين إلى جدة، أسرع ببناء قلعة يحتمى بها عند الحاجة وبعد الانتهاء من بناء القلعة توجه نحو مياه كجرات ولما كان المرور من المضيق الذى استولى عليه البرتغاليون من الأول مستحيلاً فعاد إلى جزيرة كمران[1] التى تحت ولاية اليمن وحكمه، وأرسل رسولاً خاصاً إلى حاكم اليمن عامر بن عبد الوهاب يعلمه أنه ظل بدون ذخائر، وبناء عليه يجب أن يرسل له بعض الذخائر.

ولكن عامر بن عبد الوهاب كان غاضباً من الأمير حسين لقضائه وقتاً طويلاً فى جدة عبثاً لبناء القلعة فلم يتنازل حتى بالرد عليه. وأثار غضب عامر بن عبد الوهاب وعدم رده على رسالة الأمير حسين حفيظة الأمير. أخذ يفكر فى انتزاع بلاد اليمن من يد عامر واغتصابها طمعاً فى امتلاكها، وانصرف عن المهمة التى بعث لأجلها من قبل الحكومة المصرية، وساق الجنود الذين تحت إمرته إلى

(١) هذه الجزيرة الآن هى الجزيرة التى يطلق عليها (قمرون).

البلاد اليمانية. واستولى على مدينة زبيد سنة ٩٢٢، ونفر اليمنيون منه بما قام ضد الأهالى من ظلم وبغى.

ولما ألحق السلطان سليم القطعة المصرية بالولايات العثمانية المتسعة فى سنة ٩٢٣، علم بما قام به الأمير حسين من الظلم والبغى ضد أهالى اليمن فبعث برسالة سلطانية إلى أمير مكة الشريف أبى نمى يطلب منه أن يعمل على قتل وإعدام الأمير حسين فما كان من الشريف المشار إليه إلا أن دعا الأمير حسين ليبعث إلى عتبة السلطان سليم ولما جاء أركبه على سفينة فى مياه جدة فلقى حتفه غريقاً.

وعندما أعدم الأمير حسين استولى أحد غلمانه الذى يسمى برسباى على حكومة اليمن بالقوة جامعاً حوله بقية السيوف من حرب مصر، وارتكب كثيراً من الظلم والأذى ضد الأهالى.

وقد أسندت فى سنة ٩٢٣ بعد وفاة الأمير برسباى ولاية اليمن إلى أمير مقربة إسكندر بك بمنشور سلطانى، وأخذ خطباء اليمن يذكرون بعد ذلك فى خطبهم اسم السلطان العثمانى، وفى سنة ٩٢٧ أنهيت خدمات أمراء الشراكسة وحكومتهم.

الأشراف الحسينية ـ كان عبد الله منصور من السادات الحسينية وقد غضب من الخلفاء العباسية وهاجر إلى اليمن حيث أقام مرتاحاً.

ولما أصاب إدارة الإمام فى تلك الفترة ضعف كلى ظاهر بايع الناس الشريف عبد الله منصور سنة (٦٠٠) وهكذا اكتسبت جماعة المشار إليه قوة فاستولى على مدينة صنعاء العظيمة وما حولها وحكم إماماً أربعة عشر عاما، وبعد أن توفى قسم أولاده بلاده إلى قسمين وقاموا بحكمهما كلية.

والذين قاموا بالإمامة إلى وقت قريب كانوا من نسل عبد الله منصور حتى إن أغلب أهالى اليمن وصنعاء اتبعوا المذهب الذى وضعه زيد بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد بن على بن أبى طالب رضى الله عنه كما أن حكام اليمن

يسمون بـ الأئمة الزيدية أيضاً وكان الحكام الذين يحكمون القطعة اليمانية يحكمون جهات حضرموت أيضاً.

إن أراضى نجد وعمان فى داخل القطع الخمس لجزيرة العرب، ولم كانت بعيدة عن قطع الحجاز واليمن تفصل بينها صحارى شاسعة، وكانت هذه الصحارى سدا منيعاً تقف دون ضبط هذه البلاد للحكومات التى تحكم الحجاز واليمن، لذا كان الأهالى المقيمون فى هذه الأراضى يفوضون أمورهم لبعض الأمراء والمشايخ خاضعين لهم منقادين. وقد اتخذ سكنة هذه المناطق فى عهد الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ فى زمن خلافة بنى أمية والخلفاء العباسيين مذهباً مخالفاً لمذهب أهل السنة والجماعة، وأعلنوا أن البيعة والانقياد غير مشروعة للخلفاء وكفروا أهل السنة والجماعة وحاولوا أن يردوهم إلى مذهبهم بالقوة والحرب.

واتفقوا مع الخوارج الذين يرون الجهاد واجباً لرد المسلمين إلى مذاهبهم وحاربوا أصحاب العقائد الصحيحة، وقاتلوهم فترة طويلة وبذلوا أقصى الجهود لنشر أفكارهم، ناهيك عن ترويج مقاصدهم لكن قوتهم وصولتهم اضمحلت فى ظل سيف الشريعة المسلول. وما زال حكم العقائد الباطلة جارياً بين سكان الممالك المذكورة. وقد ظهر فى وقت ما بعض الخبثاء الذين يسمون القرامطة والذين يذهبون لاعتناق خلاصة الخلاصة لمذاهب السابقين والذين أساءوا إساءة بالغة لأهل السنة والجماعة فى زمنهم وإننى سأذكر فى المقالة الآتية كيفية ظهورهم والمضرات والخسائر التى أورثوها للأمة الإسلامية.

الصورة الثالثة

فى بيان ظهور طائفة القرامطة

لما كانت الروايات كثيرة فى بداية ظهور القرامطة ولما سيذكر ما يلزم ذكره فى مكانه فيما يأتى فلا داعى لتفصيله هنا.

بناء على رواية أن شرارة شر وفتن هؤلاء الخونة اشتعلت فى سنة ٢٦١، وفى زمن المعتمد على الله، وعلى رواية أخرى فى عصر الخليفة المعتضد بالله سنة ٢٨٩، وأخمدت سنة ٣٧٣، أو فى سنة ٣٧٦ أى فى عصر الطائع بالله وعلى قول سنة ٣٨٤ أى فى ابتداء خلافة القادر بالله.

وبناء على هذا التقدير فإن الخبثاء القرامطة استمروا فى إجراء شقاوتهم ثمانين عاماً أو مائة وثلاثة عشرين عاما إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا حكومة قوية فى هذه المدة.

أول من ظهر من القرامطة أبو سعيد حسن بن بهرام الجنابى. وكان هذا الخبيث من أهالى قرية جنابة القريبة من أهواز وكان يعمل بالبصرة وزاناً. وذهب فى فترة إلى بلاد البحرين حيث تظاهر بالتقوى والتدين واخترع اعتقادات عجيبة باطلة وخدع الناس وانقاد له بعض الحمقى من العربان والبلهاء وبايعوه.

وكانت غاية أبى سعيد من فعله هذا أن يحلّ ما حرمه الشرع، وأن يخرج بهذه الدسيسة إلى حيز العمل، لأن التمرد الذى فى ضميره لم يكن جائزاً شرعاً، وكان يعرف أن الناس لن يصدقوه ولن يتبعوه.

وفى الواقع أضل بعض القرامطة مثل على بن يعلى الذين لا يبالون بالدين كثيراً، واستولى على مدينة القطيف حرباً أولا ثم هجم على نواحى البحرين ونهب أموال سكانها واغتنمها، وقتل خلقًا كثيرا وهكذا أجرى حكمه الظالم الشقى حسبما يريد.

وأطمع شخصاً يسمى يحيى بن ذكرويه، وأخرجه ليضر الناس وهو يجول

بالبلاد المتجاورة. وكان ابن ذكرويه هذا من أعيان القرامطة، وبناء على تشويق أبى سعيد حسن بن بهرام وتحريضه استطاع أن يدخل بعض القبائل العربية تحت دائرة ضلاله واستولى بهم على حوالى الشام، وزاد من قوته ووسع دائرة حكمه بواسطة الطوائف الباقية المرسلة من قبل حسن بن بهرام.

واستولى على أقاليم نجد، اليمامة، واليمن وتجرأ على أن يقتل آلاف الناس منهم ويسلب أرواحهم وعندما اتحدت هذه الطوائف مع بعضها وكونت قوة عظيمة لم تترك شراً وفساداً وفتنة لم ترتكبها.

هجم القرامطة على حجاج المسلمين فى سنة ٣١٧ بغتة، وذبحوا من قبضوا عليهم من الحجاج. وبعد ذلك هجموا على مكة المكرمة وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه وحملوه إلى بلادهم، واحتفظوا به عندهم ٢٢سنة وتجرءوا على هذا سود وجههم فى الدنيا والآخرة (قبحهم الله).

وكان (الجانى أبو طاهر رئيس القرامطة الذين هجموا على مكة المكرمة واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه وحملوه إلى ديارهم فى بلاد هجر.

هذا الشقى عندما دخل إلى المسجد الحرام قتل ثلاثين ألفا من الحجاج وكان أغلبهم محرمين. وذبح بعض هؤلاء فى حرم مسجد الحرام والآخرون فى داخل بقعة الكعبة المعظمة.

وعرض أبو طاهر الخائن حينما حمل الحجر الأسود إلى بلده الأمر على عبد الله المهدى من ملوك الفاطميين بالكتابة إليه، وبين له أنه يكفر فى ذكر اسمه فى الخطب، وكان عبد الله المهدى قد قبح هذه الفعلة الشنعاء إذ قال له يا للعجب! إنك قد ارتكبت فى بلد الله الأمين جرائم مختلفة وفضائح، وحملت الحجر الأسود إلى هجر، وهتكت حرمة ستارة بيت الله الذى ظل مكرماً معززاً فى العهد الجاهلى والإسلامى!! ومع هذا تريد أن تذكر اسمى فى الخطب! ألا فليلعنك الله وأعوانك. فلما وبخه عبد الله المهدى وعاتبه بهذه الكيفية ترك أبو طاهر العناد وهم بطاعته.

وكان سبب عرض أبى طاهر طاعته وإخلاصه لعبد الله بن المهدى تصديق أن المشار إليه من الأئمة الجعفرية.

لأن عبد الله بن المهدى كان قد خرج منتسباً إلى محمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق. ولما كان عبد الله المهدى صحيح الاعتقاد رد ما يضمره أبو طاهر وخرجه.

قد وجد فى الملوك الفاطمية من روج فكر أبى طاهر وكان الحاكم بأمر الله المنصور الذى جلس على عرش مصر سنة أربعمائة الهجرية من هؤلاء، وقد وصل غدره وظلمه إلى درجة ادعاء الألوهية، وحرص على أن يوقع فيما كتبه من الأوامر بسم الله الحكم الرحمن الرحيم، وأمر بأن يذكر اسمه فى البلاد التى كانت تحت سلطته، وخاصة فى الحرمين الشريفين فى الخطب. وأينما ذكر اسمه كان الناس يقومون على أرجلهم ويبرزون مراسم تعظيمهم له واحترامهم.

قد تجرأ القرامطة فى السنين (٢٨٧ و ٣١٣) على الإغارة على الكوفة وفى سنة (٢٨٦) على البحرين، وفى سنة (٢٨٩ ، ٢٩٣) على الشام ودمشق، وسنة (٣٠٧) على البصرة، وفى سنة (٣١٥) على الأنبار، وفى سنة (٣١٦) على البلاد المشهورة مثل الرحبة والرقة وهيط، وقتلوا أهاليها وقضوا عليهم واستأصلوا قوافل حجاج العراق فى سنة (٢٩٤، ٣١٢، ٣٦١)، وأغلقوا طرق الحج فى سنة (٣١٤، ٣٥٦، ٣٦٣، ٣٨٤).

ودفع ظل تسلطهم الثقيل من فوق أكتاف الناس فى سنة (٣٧٦)، وعلى قول (٣٨٤) فى خلافة الطائع بالله بسيف الشريعة المنتقم.

هناك اختلاف كبير فى بيان حقيقة عقائد القرامطة الباطلة، وبناء على ما يذكره فريق من المؤرخين فإن أول شخص ظهر فيهم قد تجرأ وادعى النبوة. وحاول أن يقنع الناس بكتاب ألفه أنه من الكتب السماوية، وبناء على رأى فريق آخر من المؤرخين وتدقيقاتهم أن أول من ظهر من القرامطة رجل من الأئمة الإسماعيلية، وادعى أنه مبعوث من قبل الإمام المهدى، وأراد أن يقنع الناس بذلك.

ولا يعرف قطعياً أية رواية من هاتين الروايتين صحيحة، ولكن مما ليس فيه شك أن المذهبين يروجان مذهب الرفض والإلحاد.

وإن كان هؤلاء الخبثاء يقتنعون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (رضى الله عنه)، ويعلنون أنهم ينتمون للطائفة الإسماعيلية إلا أنهم يحكمون بإحلال المحرمات الشرعية، ويعتقدون أن سفك دماء المسلمين مباح، كما يحكمون بكفر من لا يعتنق المذهب القرمطى.

وكانوا يعدون طاعة الإمام المعصوم من الصلوات المكتوبة، وإعطاء كل شخص خمس ما يمتلكه من الأموال للإمام المعصوم من أركان دينهم، ويعدون وقاية أسرار المذهب من الصوم، ونشر ما يخص المذهب وإشاعته زناً أو نوع من الزنا. وكل هذه الأشياء كانت عقيدة خاصة بطائفة القرامطة.

ومن جملة عقائدهم الباطلة حصر الصوم ليومين فى السنة، وعدم الغسل والاغتسال من الجنابة، وجعل الخمر حلالا، وقول «أشهد أن محمد ابن الحنفية رسول الله» فى الأذان المحمدى، والذهاب إلى القدس الشريف من أجل أداء فريضة الحج.

وإذا أريد الاطلاع على معلومات مفصلة عن أحوال القرامطة فليراجع نسخ ترجمان الحقيقة التى طبعت سنة (١٢٩٦) ونشرت متفرقة.

الاختلاف والتعديلات

التى حدثت فى الأذان المحمدى

أول من أذن فى المدينة المنورة هو بلال الحبشى، وأول من أذن فى مكة المكرمة الصحابى حبيب بن عبد الرحمن ـ رضى الله عنهما ـ كما سبق توضيحه مختصراً فى الصورة الثالثة من الوجهة الخامسة لمرآة المدينة المنورة.

كما جعل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ رفع الأذان الأول فوق المآذن عادة، وأمر فى أول مرة أن يؤذن عبادة بن الصامت أبو يعلى رضى الله عنه.

وكانت غاية عثمان بن عفان من هذا الأذان هو أن يستعد أصحاب الحرف والتجار لأداء صلاة الجمعة. بناء على ما ينقله محمد بن سعد عن الإمام الشعبى أنه كان للنبى ﷺ ثلاثة مؤذنين، أحدهم بلال الحبشى، والثانى أبو محذورة، والثالث ابن أم مكتوم وعندما يغيب بلال الحبشى يؤدى الأذان أبو محذورة وإذا غاب أبو محذورة[1] كان يقوم بأداء الأذان ابن أم مكتوم.

وكان الأذان فى المدينة المنورة وبعض أسفار النبى ﷺ منحصرا فى بلال الحبشى. ولكن كان يحدث أيضا أن يؤذن الأذان ابن أم مكتوم عمرو بن شريح[2]. ويروى بناء على قول أن اسم عمرو بن قيس هذا كان عبد الله. وكان اسم أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة، وعنكثة قبيلة تنتمى إلى بنى مخزوم.

وكان اسم أبى محذورة أوس (وعلى رواية سمرة) بن معير بن ربيعة بن معير بن عريج بن سعد بن جمح. رجا من النبى ﷺ قراءة الأذان مع بلال الحبشى، وقبل الرجاء من قبل النبى ﷺ فنال شرف قراءة الأذان أحياناً.

وبناء علر رواية الإمام الكلبى أن أبا محذورة كان يرفع الأذان صباحاً فى مكة المكرمة عند وجود النبى ﷺ فيها.

ولما كان النبى ﷺ فى الجعرّانة لتوزيع غنائم حنين عَلَّمَ أبا محذورة الأذان المحمدى ووجه له القيام بالأذان وقراءته فى المسجد الحرام لذا لم يسافر الصحابى الجليل إلى المدينة المنورة وظل فى مكة المكرمة[3].

يروى بعض المؤرخين أن عثمان بن عفان (رضى الله عنه المنان) أذن أيضاً وأن النبى ﷺ كان فى داخل المسجد عندئذ. ولما كان بلال الحبشى لا يزال حيًّا فى عهد الصديق الأعظم قرأ الأذان فى عهده أيضاً، ولكن عندما أصبح عمر بن الخطاب أميراً للمؤمنين لم يقبل تكليفه بقراءة الأذان[4].

(١) بما أن أبا محذورة ظل فى مكة المكرمة فإنه من المحتمل أن يكون هذا النظام خاص بمكة المكرمة.

(٢) شريح بن عامر من أفراد قبيلة ابن لؤى.

(٣) هذه الرواية منقولة عن ابن جريج.

(٤) ناقل هذا الخبر راويه محمد بن سعد.

وأوصى بلال ـ رضى الله عنه ـ عمر بن الخطاب ـ رضى عنه الله الوهاب ـ أن يختار سعد القرظى الذى كان مؤذن الرسول ﷺ فى قباء، واستصوب الخليفة وصية بلال واختار سعد القرظى مؤذناً لمسجد السعادة، وظلت قراءة الأذان فى المسجد النبوى فى آل سعد القرظى إلى أن انقطع نسلهم.

كان فى العصر النبوى فى المدينة المنورة ـ غير المسجد النبوى ـ تسعة مساجد أخرى، ولم يكن لهذه المساجد مؤذنون مختصون كانوا يقيمون الصلاة بأذان بلال[1].

رفع الأذان لأول مرة فى مصر فى جامع عمرو بن العاص لأنه عندما فتح مصر أسس جامعاً قاصداً المحافظة على أداء الصلاة فى جماعة مع الصحابة والتابعين، وذلك سنة رسول الله ﷺ الصالحة.

قال أبو عمرو الكندى وهو يذكر مؤذنى جامع عمرو بن العاص ويعرفهم: «كان أول من أذن فى جامع عمرو بن العاص الكائن فى الفسطاط هو أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادى. وكان هذا الرجل الكريم من الصحابة وكان لقراءة الأذان فى عهد عمر بن الخطاب، ووجد مع الجنود الذين رافقوا عمرو بن العاص فى حملته على مصر، وقام بتأدية الأذان إلى يوم الفتح لعمرو بن العاص.

وعقب فتح مصر أسس عمرو بن العاص مسجده فى الفسطاط، وجعل أبا مسلم رئيسا للمؤذنين وعين له تسعة أنفار من المعاونين وظل أبو مسلم إلى أن مات فى رياسة مؤذنى جامع عمرو، وظلت مهمة أداء الأذان فيما بعد فى ذريته إلى أن انقطعوا عن الدنيا».

وحينما كان يؤذن أبو مسلم فى جامع عمرو يبدأ وينهى الأذان بـ «لا إله إلا الله»، وهذه الرواية منقولة عن أبى الخير. ولما توفى أبو مسلم عين مكانه أخوه شرحبيل بن عامر. حينما كان ابن عامر مؤذناً كان أمير مصر مسلمة بن مخلد.

(١) نقلت هذه الرواية عن الدارقطنى وأبى داود بكير بن عبد الله الأشج.

وقد وسع جامع عمرو بن العاص وأضاف مئذنة وكان خالياً منها، وابن عامر هذا أول من صعد لقراءة الأذان على المئذنة فى مصر.

وقد اعتكف مسلمة بن مخلد فى جامع عمرو بجانب المئذنة إلا أنه انزعج من أصوات نواقيس كنائس الفسطاط فأحضر شرحبيل، وأوصاه بأن يجد لهذا الموضوع حلا. فقال له شرحبيل: «إذن فأنا أبدأ فى قراءة الأذان وأطيله حتى الفجر، وبما أن دق الناقوس فى أثناء قراءة الأذان لن يليق فأصدر أمراً بمنع دق الناقوس فى أثناء الأذان»؛ وأصدر مسلمة بن مخلد أمراً بألا يدق الناقوس ليلا.

وإن كان شرحبيل لم يتخل عن هذه العبادة إلى حين وفاته فى سنة ٦٥ الهجرية، واستمر يؤذن من منتصف الليل إلى الفجر.

إلا أن المساجد والجوامع قد كثرت فى مصر بعد ذلك، وبنى مسلمة بن مخلد لكل مسجد مئذنة ماعدا مسجدى خولان ونجيد وأمر أن يؤذن على هذه المآذن أيضاً.

بعض التغييرات فى الأذان: كان الأذان فى مساجد مصر أذاناً شرعيـًا كما يؤذن فى المدينة المنورة وكما يؤذن الآن إلى أن جاء إلى مصر قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمى جوهر الصقلى. وأسس مدينة القاهرة، وصلى جوهر القائد يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ فى جامع ابن طولون، وتولى الخطبة عبد السميع بن عمر العباسى، وأمر أن يقول المؤذنون بـ «حى على الصلاة حى على خير العمل» وصلى عبد السميع فى الركعة الأولى بـ«الجمعة»، وفى الركعة الثانية دون أن يركع. واحتد قاضى عسكر جوهر «على بن وليدى على عبد السميع وقال صاخباً: «يا جماعة المسلمين، قد فسدت صلاتكم، فصلوا أربع ركعات صلاة الظهر». فلم يهتم أحد بهذا الاعتراض والاحتداد، ثم أمر المؤذنون بأن عليهم بعد ذلك أن يقولوا فى كل أذان «حى على خير العمل، وعمم هذا النظام فى جميع المساجد والجوامع.

واحتد جوهر القائد على عبد السميع لأنه لا يبدأ السورة باسم الله جهراً، كما

آنه لا يجهر بالبسملة فى أوائل الخطب فجعله فى أواخر شهر جمادى الأولى إماماً للجامع العتيق، وأمر بأن يقال فى الأذان «حى على خير العمل» وأن يجهر عند الصلاة فى الجوامع بالبسملة، ولكن الحاكم بأمر الله أصدر أمراً بعد إحدى وأربعين سنة بعد أن جمع جميع مؤذنى المساجد والجوامع وقاضى القضاة مالك بن سعد الفارقى بأن يسقط من الأذان جملة «حى على خير العمل»، وأن يقول مؤذنو القصر عقب كل أذان «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله»، إلا أنه بعد سنة واحدة عادوا يؤذنون قائلين «حى على خير العمل»، وبعد أربع سنوات إلى سنة (٤٠٥) قالوا بدل «حى على خير العمل» ـ «حى على الصلاة» كما أن مؤذنى القصر تلقوا أوامر بأن يقولوا بدل «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله» ـ «الصلاة رحمك الله».

وكون هذا الأمر الصادر لمؤذنى القصر كان لإحياء سنة قديمة متروكة! لأن حضرة بلال ـ رضى الله عنه ـ كان يقف أحيانًا أمام باب حجرة رسول الله ﷺ ويقول: «السلام عليك يا رسول الله، وأحيانًا السلام عليك بأبى أنت وأمى يا رسول الله حى على الصلاة، حى على الصلاة، السلام عليك يا رسول الله[١]، وأحيانًا يقول السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»[٢] ولما تولى أبو بكر الصديق الخلافة كان يقف سعد القرظى أمام باب دائرة الخلافة «ويقول السلام عليك يا خليفة رسول الله»، ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة راعى سعد هذا النظام فى أول خلافته، ولما قال عمر بن الخطاب أنتم مؤمنون وأنا أميركم أصبح يقول: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته حى على الصلاة حى على الفلاح، يا أمير المؤمنين».

ثم أضاف جملة رحمك الله، بناء على الأمر الصادر له من مقام الخلافة[٣] ولم يترك المؤذنون هذه العادة المستحبة إلى عهود خلفاء بنى أمية والخلفاء

(١) ناقل هذه الرواية وراويها الإمام الواقدى.

(٢) هذه الرواية منقولة من البلاذرى.

(٣) ثمة من يقول بأن إضافة عبارة رحمك الله كان فى عهد خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه.

العباسيين، وكانوا ينادون الخلفاء والأمراء على هذه الصورة وكان هؤلاء يؤدون صلواتهم مع الجماعة[1].

وأراد الملوك الفاطميون أن يتبعوا هذه الطريقة، ولكن بما أنهم لم يتعودوا الصلاة الجماعية أخذ مؤذنوهم عقب صلاة الصبح يسلمون فوق المآذن على الملوك والأمراء وهكذا جعلوهم يقررون ما كان يقوله مؤذنو الأسلاف على أبواب الأمراء والخلفاء فوق المآذن.

وغير السلطان صلاح الدين الأيوبى عادات الفاطميين، فأمر بإلقاء الصلاة والسلام فى المآذن تعظيما لخليفة بغداد. وسرى هذا النظام على جوامع مصر والشام والحجاز. وفى خلال سنة ٧٦٠ الهجرية اتخذت عبارة «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» عقب أذان العشاء ليلة الجمعة، وبعد إحدى وثلاثين سنة عقب أذان الصلوات الخمس كلها.

قد شغلت بتغيير الأذان المحمدى الطائفة الإمامية أيضًا فى بعض الأوقات. وكان ذلك الوقت عندما سجن أبو على بن كتبغا بن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله، وبما أنه من متعصبة الطائفة الإمامية ففى سنة ٥٢٤ الهجرية عندما تولى الوزارة أراد أن يخالف أصحاب المذهب الإسماعيلى، فأزال من الأذان جملة «حى على خير العمل»، ووضع مكانها جملة محمد وعلى خير البشر، وأنكر هذا مجتهد المذهب الإسماعيلى، وإسماعيل الذى ينتسب إليه الإسماعيلية هو ابن الإمام جعفر الصادق وقتل بعد سنتين، فظهر الحافظ لدين الله وحذف من الأذان جملة «محمد وعلى خير البشر»، وأعاده كما فى السابق جملة «حى على خير العمل». وأول من أذن من الإمامية قائلاً «محمد وعلى خير البشر» شخص يدعى الأمير كابى شكنبة حسين.

ويروى أن هذا الشخص هو على بن محمد بن على بن إسماعيل بن حسن

(١) وقد تخلى الخلفاء العباسيون فيما بعد عن الصلاة فى جماعة.

بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب. ويحكون أنه أذن فوق إحدى مآذن حلب ذات ليلة على هذه الصورة، وفى عصر سيف الدولة الحمدانى، وأصبحت قراءة الأذان فى هذه الصورة عادة لمن يتبعون المذهب الإسماعيلى.

هذه الرواية تنسب إلى الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة، وقد دامت قراءة الأذان بصيغة «حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر» إلى قرب عهد نور الدين محمود. وبنى محمود مدرسة الحلاوية وافتتحها فدعا لأجل التبرك، أبا الحسن على بن الحسن بن محمد البلخى الحنفى. وقد استجاب أبو الحسن للدعوة مع فقهاء البلدة ولما حل وقت الصلاة طلب أن يصعد أحد الأشخاص على المئذنة ويؤذن بالصورة المشروعة المعروفة وإذا وجد من يرفض ذلك أن يضرب وأن يهدد من قبل الجماعة.

فصعد أحد الفقهاء المئذنة وأذن على الوجه المطلوب ولم تتغير بعد ذلك اليوم صيغة الأذان. واستمرت صيغة أذان مصر إلى سنة ٥٦٧، أى إلى عهد سلطنة صلاح الدين الأيوبى على الصيغة التى كانت عليها فى عهد الفاطميين. ولما كان صلاح الدين الأيوبى شافعى المذهب، وعلى عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رفع بدعة «حى على خير العمل»، وبعد ذلك كانت صيغة الأذان التى تقرأ فى مصر أو الشام أو البلاد الملحقة بهما نفس صيغة الأذان التى تقرأ فى مكة المعظمة. واستمر هذا النظام إلى تأسيس الأتراك المدارس فى الديار المصرية أى إلى سنة (٧٦١) الهجرية، وبعد ذلك انتشر المذهب الحنفى فالأذان الذى كان يؤذن يوافق أذان الكوفيين، وكذلك أذان الصلوات. والأذان الذى يؤذن فى المدارس الأخرى والجوامع كذلك الصلوات تؤدى وفق أذان المكيين وصلواتهم. وكان المؤذنون فى ليالى الجمع عقب أذان العشاء يصلون ويسلمون على النبى ﷺ وقد اتخذ هذا النظام من طرف محتسب القاهرة صلاح الدين عبد الله البرلسى. وفى سنة ٧٩١ الهجرية اتخذت عادة قراءة الصلاة على النبى ﷺ عقب أذان الصلوات المفروضة الخمسة، وذلك بأمر المحتسب نجم الدين محمد الطبندى وعممت على كل الجوامع.

وجرأة نجم الدين الطبندى على تعميم هذا النظام عمله بقول أحد السكارى. ويحكى أن طائفة من السكارى استحسنت قراءة الصلاة على النبى ﷺ بعد أذان صلاة العشاء فى ليلة الجمعة، فقام واحد منهم وقال: «هل ترغبون أن يصلى على الرسول ﷺ عقب كل أذان؟!» فأجابه رفقاؤه: «نعم وما أحسنها من فكرة!!» واستيقظ الشخص الذى أورد هذا السؤال منشرحا باشًا، وقال «قد رأيت الليلة فى منامى ورؤياى الرسول ﷺ وأبلغنى أن أذهب إلى المحتسب ليأمر المؤذنين أن يصلوا فعلاً فذهب إلى المحتسب وأخبره برؤياه».

وكان محتسب مصر فى ذلك الوقت رجلاً مُسِنًّا يسمى (نجم الدين الطبندى)، وكان فى غاية الجهل والحماقة مذمومًا بين الناس لاتصافه بمذموم الصفات. فاستعجب من قول صاحب الرؤيا أن النبى ﷺ أمره بأن يبلغ المؤذنين أن يقولوا عقب كل أذان فى الصلوات الخمس (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله)، وجمع كل المؤذنين وأمرهم أن يصلوا على النبى ﷺ عقب كل أذان بعد الصلوات الخمس[1].

ولم يدر نجم الدين هذا أن النبى ﷺ لن يأمر بعد وفاته بشىء يخالف الشريعة الإسلامية، ولم يتذكر قول الله تعالى ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١].

ولم يخطر بباله قول رسول الله ﷺ «إياكم ومحدثات الأمور» وكان هذا الأحمق سببا فى اتخاذ هذه البدعة التى استمرت إلى يومنا هذا. ويظن بعض الجهلاء فى القرى أن الصلاة والسلام على الرسول ﷺ من تتمة الأذان الشريف ويصرون على عدم تركها، حتى إن بعض الجهلاء يسلمون على أرواح من يعتقدون فى صلاحهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) اتخذت قراءة الصلاة والسلام على مآذن البلاد العثمانية فى عهد السلطان مراد خان الأول بن السلطان أورخان غازى.

التسبيح على المآذن:

التسبيح على المآذن ليلاً سنة تعود إلى عهد موسى (عليه السلام) فقد اعتاد نبى الله موسى (عليه السلام) أن يسبح الله بصوت عال من الثلث الأخير من الليل إلى طلوع الفجر بعد أن غرق فرعون وهلك ونجا بنو إسرائيل.

واتخذ بوقين من الفضة حتى يعلن حلول وقت التسبيح وعلم صورة استعمالهما من قومه. وكان ينفخ فى هذه الأبواق فى الثلث الأخير من الليل وعند الرحيل والنزول وأيام الأعياد، وكلما نفخ فى البوق كانت طائفة بنى (لاوى) من أسباط موسى (عليه السلام) تستيقظ من نومها وتقرأ بصوت عال التوراة الشريفة كما كان المؤمنون من بنى إسرائيل يشغلون بالتسبيح والذكر بصوت مرتفع.

وهذا النوع من العبادة استمر إلى عهد يوشع بن نون، ولما أخذ سيدنا داود (عليه السلام) يؤسس بيت المقدس عين بعض الموظفين من بنى لاوى للمحافظة على هذه السنة.

وكان بعض من هؤلاء الموظفين يذكرون الله حول بيت المقدس (بالعود والمزمار والسنتور والدف) حتى طلوع الفجر وكان الآخرون يقرءون فى داخل بيت المقدس (التوراة) و (الزبور).

وعدد هؤلاء الموظفين كثير وتفصيل الموضوع فى كتابى الزبور ولما كان اللاويون يبتدرون للعبادة فى داخل بيت المقدس وخارجه كما سبق ذكره، وكان سكان بيت المقدس حيثما وجدوا يشرعون فى التسبيح والذكر بصوت مرتفع.

وكان على هؤلاء أن يضربوا على الربابة فالعبادة بالربابة كانت خاصة فى داخل بيت المقدس أو خارجه بمؤذنى بنى لاوى الذين عينهم سيدنا داود. ولما كانت أصوات من يتعبدون حول بيت المقدس تصل وتنعكس على القرى المجاورة كان أهاليها يستيقظون ويأخذون فى التسبيح والذكر بأصوات عالية فتنتشر

الأصوات من قرية إلى أخرى، حتى إن جميع أهالى القرى والمدن يذكرون الله من الثلث الأخير من الليل حتى الفجر.

وقد استمر هذا النظام إلى أن خرب بختنصر البيت المقدس، وهدمه ونقل بنى إسرائيل إلى بابل وأجلاهم من البيت المقدس. ولم يتعبد على الطريقة المذكورة طول وجود بنى إسرائيل فى بابل، واستمرت تلك المدة سبعين عامًا.

وبينما عاد بنو إسرائيل من بابل وأخذوا يسعون لتعمير وتجديد بيت المقدس أخذ أحفاد بنى لاوى يتعبدون على الطريقة التى وصفها داود ـ عليه السلام ـ، واستمر ذلك إلى استشهاد يحيى بن زكريا ـ عليه السلام ـ وبعد استشهاد يحيى خرب بيت المقدس، وثار اليهود على عيسى ـ عليه السلام ـ وتركت العبادة فى البلاد الإسرائيلية وفق شرائع بنى إسرائيل وأبطلت عادة القيام ليلاً للتسبيح والذكر.

وأجريت أصول التسبيح فى العهد الإسلامى فى مصر لأول مرة فى زمن مسلمة بن مخلد وإمارته فى سنة ٥٩ الهجرية. وكان مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نيار الأنصارى قد بنى لجامع عمرو بن العاص مئذنة كما ذكر آنفًا، واعتاد أن يعتكف فى المسجد بجانب هذه المئذنة؛ ولكنه انزعج من أصوات نواقيس الكنائس التى كانت تدق، واستدعى رئيس مؤذنى ذلك الجامع شرحبيل بن عامر وقال له: «إننى أنزعج من أصوات نواقيس الكنائس صباحًا!! ألا نجد لذلك حلاً؟!» فقال له: «إذا ما وافقت على فكرتى فإن ذلك ممكن، إذ أبدأ فى الأذان من منتصف الليل وأمده إلى طلوع الفجر. فتأمروا ألا تدق النواقيس فى أثناء أذانى»، ووافق مسلمة بن مخلد على هذه الفكرة واتخذ شرحبيل الأذان من منتصف الليل إلى الفجر عادة له، كما أن مسلمة أمر بألا تدق النواقيس فى أثناء الأذان وأخذ يتعبد فى سكينة وخشوع.

وفى سنة ٢٥٤ الهجرية منع أبو العباس أحمد بن طولون إطالة الأذان بهذه الصورة ووضع نظام التكبير والتسبيح فى وقت قريب من الصباح، وعين لذلك

المكبرين الذين كانوا يكبرون ويسبحون على المآذن ويقرءون القصائد الخاصة بالزهد والأشعار. وأبقى ابنه أبو الجيش خمارويه المكبرين فى وظائفهم واستمر فى إعطائهم ما خصصه لهم والده من الأجور.

واستمر هذا النظام إلى سنة ٥٦٨ الهجرية، وفى خلال تلك السنة قرر الملك (صلاح الدين) يوسف بن أيوب بناء على رأى وموافقة (صدر الدين) عبد الملك بن درباس الهدبانى المارانى الشافعى الذى عينه شيخًا للإسلام أن تقرأ فوق المآذن بدل التسبيح والذكر، قصائد تمجد عقائد الأشعرية والأناشيد الدينية.

وفعلاً نفذ ذلك القرار. وأبلغ الأمر إلى مؤذنى جوامع مصر والشام ونبههم بأن يسيروا وفق هذا الأمر وينفذوه.

ولما كان صلاح الدين وشيخ إسلامه صدر الدين على مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى العقيدة، دعوا الناس إلى هذه العقيدة وتجرءوا أن يكفروا المخالفين.

وقد اتخذ قرار قراءة الصلاة على المآذن فى يوم الجمع لإعداد الناس لصلاة الجمعة، فى مصر فى خلال سنة ٧٠٦ الهجرية، وبعد ذلك بخمسة وخمسين عامًا نقل هذا النظام إلى دمشق الشام وحلب والبلاد الأخرى، ومازالت هذه العادة جارية فى جميع جوامع العالم الإسلامى إلى الآن.

(سلك الدرر)

الوجهة الثالثة
الأحوال الجغرافية لجزيرة العرب

الموقع الجغرافى

تقع جزيرة العرب فى الجهة الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وتسكنها القبائل البدوية العربية منذ القدم وهى شبه جزيرة كبيرة.

يحدها شمالاً بر الشام وصحراء الجزيرة، وشرقًا خليج البصرة، وجنوبًا المحيط الهندى[١] وغربًا البحر الأحمر[٢] ومضيق باب المندب.

وطولها تقريبًا من الطرف الشمالى إلى جنوبها ألفان وخمسمائة كيلو متر تقريبًا[٣]، وعرضها من الجهة الغربية إلى جهتها الشرقية ألف كيلو متر. وتتسع عرضًا فى جهتها الجنوبية ومساحتها ثلاثة ملايين ومائة وستة وخمسين ألف كيلو متر مربع، وسكانها اثنا عشر مليونا.

ويروى أن الأوروبيين الواقفين على فن الجغرافيا قدروا مساحة جزيرة العرب السطحية بأكبر من بلاد فرنسا أربع مرات، وأن سكانها يبلغون اثنى عشر مليونًا.

إن مكانًا يتسع بهذا القدر ويسكنه اثنا عشر مليون نسمة فقط يدل على أن أكثر أماكنه غير مسكونة. يقول مؤلف تقويم البلدان السلطان (عماد الدين الأيوبى) إن الطواف حول الجزيرة العربية بالسير العادى يستغرق سبعة أشهر وأحد عشر يوما. وبناء على هذا التقدير إذا خرج إنسان من صحراء برية الشام، فالحد الأقصى للجزيرة العربية متجهًا إلى المدينة المنورة يصل إلى مينائها ينبع البحر فى ستة وعشرين يومًا، ومن ينبع البحر إلى ميناء رابغ فى ثلاثة أيام، ومن رابغ إلى جدة فى ثلاثة أيام، ومن جدة إلى عدن ومن عدن إلى سواحل المهرة، ومن

(١) يعنى بحر عمان.
(٢) يعنى بحر جدة.
(٣) مقياس كيلو متر يساوى ألف متر.

سواحل المهرة إلى عمان، ومن عمان إلى الأحساء (أى هجر) فى ثلاثين يومًا بين كل واحدة من هذه البلاد. ومن هجر إلى أول عراق العرب فى ١٥ يوما، ومن أول عراق العرب إلى البصرة فى يومين، ومن البصرة إلى الكوفة فى اثنى عشر يومًا، وإذا ما اعتبر كل يوم منها مرحلة واحدة فيكون من حيث المجموع مائتان وواحد وعشرون يومًا، وبحساب الشهور سبعة أشهر وأحد عشر يومًا.

وتعد المرحلة سبعة فراسخ عربية أى ٣٢ كيلو متر، وبناء على هذا تكون مساحة جزيرة العرب الدورية المحيطية ٧٠٧٢ كيلو متر، ويحصل على هذا الحساب بضرب مائتين واحد وعشرين مرحلة فى اثنتين وثلاثين مترًا.

وسطح أراضى هذه الجزيرة مرتفعة عن البحر قليلاً، وبها أماكن منبسطة قابلة للزراعة. والإقليم المعروف بنجد يقع فى منتصف الجزيرة العربية من حيث المسافة الطولية والعرضية، والأراضى المرتفعة المنبسطة تقع فى دائرة صحارى شاسعة.

وصحاريها فى الجانب الشرقى والطرف الغربى منها رملية والصحارى التى فى شمالها حجرية، وفى خارج هذه المواقع الصحراوية دائرة أخرى وأغلب أماكن هذه الدائرة غير منبت، وعبارة عن سلاسل جبال صغيرة.

إن جبال عسير وصنعاء واليمن فى داخل البقعة المتسعة الجسيمة التى تطل على سواحل القطعة اليمانية وبحر عمان هى أماكن صالحة للزراعة.

إن الأراضى التى بين الجبال المنبسطة والشواطئ البحرية رملية ومستوية. قد أحاط البحر الأحمر بالجزيرة المذكورة من جهاتها الثلاث. وثلثا الجزيرة أماكن منبتة وقابلة للزراعة، وثلثها الآخر غير منبتة، وغير آهلة بالسكان. وفى أراضى رملية حجرية ولا يوجد فيها نهر يجرى، لذا فالأماكن الصالحة للزراعة لا تنبت إلا بمياه الأمطار، وعند انقطاع الأمطار بمياه الآبار.

بما أن أكثر مناطق هذه الجزيرة تقع تحت المناطق الحارة فهى شديدة الحرارة، وأكثر أراضيها حجرية جدباء، ولكن بما أن هذه الجزيرة تشرفت بظهور الدين الإسلامى فيها، ودعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فالجزيرة العربية أسعد مكان على الكرة الأرضية وأكثرها يمنًا وبركة.

فى ذكر البحار التى تحيط بالجزيرة العربية من جهاتها الثلاث

البحر الأحمر:

البحر الأحمر بحر يعرف بالخليج العربى، وبحر القلزم، وبحر الشعاب والشعب، وبحر جدة. يتصل من جهاته الغربية بـ (مصر والحبشة) والجهة الشرقية ببلاد الحجاز واليمن، ويتصل من جهته الشمالية بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة قناة السويس. كما يتصل بالمحيط الهندى من جهته الجنوبية بواسطة باب المندب، ويبلغ طوله ٢٦٠٠ كيلو متر، وعرضه المتوسط ٢٤ كيلو متر. تنقسم جهته الشمالية إلى خليجين ويطلق على الخليج الذى فى جهته الشرقية (خليج العقبة)، ويطلق على الخليج الذى فى جهته الغربية (خليج السويس).

والبحر الأحمر قليل الجزر وإن كان هناك شعب مرجانية فى حالة نمو مثل الأشجار إلا أن هذه الشعب غير مفيدة للسفن مثل الجزر.

وهذه الشعب المرجانية ترتفع فوق سطح البحر مقدار ذراع وبعضها يرتفع من عمق البحر إلى سطحه ولون الشعب المرجانية على السواحل أحمر وأعماقه سوداء ولون الشعب القريبة من سطح البحر أخضر، والسفن التى تسير فى هذا البحر تتعرض لخطر الاصطدام بالشعب المرجانية.

وبما أن الشعب المرجانية فى الأماكن القريبة من الشواطئ فالسفن الصغيرة ذات الشراع والقوارب تسير على الشواطئ مضطرة، فهناك سفن كثيرة تصطدم بالشعب المرجانية وتغرق أو تخرب.

والشعب المرجانية قليلة فى وسط البحر وقد وضع على بعضها منارات

كما أن الذى من غير المنارة منها معروفة لدى رجال البحر، لذا ترى البواخر الكبيرة التى تبحر فى وسط البحر تأمن الاصطدام بالشعب المرجانية وخطرها. وينمو فى هذا البحر الصدف واللؤلؤ، والباغة واليسر وهى أشياء قيمة كما أن أنواع الأسماك المختلفة الكائنة فى هذا البحر نادرة الوجود فى البحار الأخرى.

بحر عمان:

يتصل بحر عمان الذى يعد جزءا من المحيط الهندى الذى يحيط بالشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب من باب المندب إلى مضيق هرمز يتصل بالمحيط الهندى بواسطة مضيق هرمز فى خليج البصرة.

ويخرج من هذا البحر: الصدف واللؤلؤ وصمغ العنبر.

خليج البصرة:

يعرف كذلك بخليج فارس، ويقع فى الجنوب الغربى لقارة آسيا وبين بلاد العرب والعجم وطوله تسعمائة كيلو متر وعرضه أربعمائة وخمسون كيلو متر.

ويتصل من جهته الشرقية بواسطة مضيق هرمز ببحر عمان ينصب لهذا الخليج نهر الفرات بعدما يتحد بنهر الشط.

وأكثر موانيه ازدحامًا بالسفن على شواطئ بلاد فارس، (بندر عباس) و (أبو شهر) وعلى السواحل العربية البصرة و (قطيف). وأغلب أنواع الصدف واللؤلؤ فى هذا الخليج.

وتنقسم جزيرة العرب إلى ست قطع ويطلق على الأراضى التى فى الجهة الغربية الشمالية (الحجاز)، والتى فى الجهة الجنوبية الغربية (اليمن)، الجنوبية (حضرموت) وعلى الأراضى التى فى الجنوب الشرقى (عمان)، التى فى الجهة الشرقية (الأحساء، البحرين، هجر)، والأراضى التى فى وسط الجزيرة العربية (نجد).

بلاد الحجاز:

بلاد الحجاز المسعودة أولى الأقسام المذكورة وتقع ـ كما ذكر آنفًا ـ فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية وفى السواحل الشرقية للبحر الأحمر والتى تمتد من السويس إلى اليمن. وهذا القسم من الجزيرة يحاط ويحد شمالاً ببادية الشام، وشرقًا بنجد، وجنوبًا باليمن، وغربًا بالبحر الأحمر، وشمالاً وغربًا بالبلاد المصرية ومن جانبها الشمالى الشرقى إلى جانبها الجنوبى الشرقى مسافتها البعدية ألف وخمسمائة كيلو متر.

ويطلق على الجزر التى تقع فى الجهة الشمالية الغربية من الأقطار الحجازية (تيه العرب) و (تيه بنى إسرائيل).

والجانب الجنوبى من أراضى تيه العرب صالح للزراعة وآهل بالسكان ومعمور، إلا أن جهته الشمالية محاطة بالجبال وليس فيها مكان صالح للزراعة والمسكن، لذا فهى مهجورة.

فى تيه بنى إسرائيل جبلان أحدهما جبل سينا (أى طور سينا) والآخر (حوراء).

جبل سيناء:

يصل ارتفاع جبل سيناء إلى ٢٨١٤ متر، وسفحه الذى امتد بين (العقبة) وخليج السويس فى وسط البحر الأحمر.

جبل حوراء:

وجبل حوراء بجانب جبل سينا أيضًا. وارتفاعه ٢٤٧٧ متر.

ويطلق على الأراضى الواقعة فى وسط الحجاز وجنوبه (بادية العرب)، وهذه الأراضى تنقسم إلى منطقتين المنطقة التى توجد فى وسط الأقطار الحجازية تسمى (نفس الحجاز)، والمنطقة التى بين جدة واليمن وعلى ساحل البحر تسمى (تهامة).

وللأقطار الحجازية بلاد معروفة مثل (جدة، ينبع، الطائف، أبو عريش، الطور)، إلا أن أشهر مدينتيها مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويطلق على هاتين المدينتين المباركتين (الحرمين الشريفين).

إن الأحوال الجغرافية للمدينتين المذكورتين كان يجب أن تكتب قبل جميع بلاد الجزيرة العربية، ولكن لما كان مجلدات البلدتين المذكورتين قد أعدت إعدادًا خاصًا باسم مرآة مكة ومرآة المدينة فلم نجد هنا ضرورة لتكرارها.

إن القطعة الحجازية المسعودة لا تستطيع أن تنبت المحاصيل الكافية لإدارة سكانها. وإن كان فيها محاصيل (الصمغ النباتى والعنبر) وكانت بعض مواقعها مستوية ومزروعة، إلا أن جهاتها الجبلية كثيرة والخيول التى تربى فى هذه القطعة أجود أجناس الخيول فى العالم.

فى بيان الطبيعة الجغرافية لبلدتى جدة والطائف

جـدة:

من مدن الحجاز المشهورة تقع فى الجهة الغربية لمكة المكرمة، وعلى بعد تسعين كيلو مترًا منها وعلى ساحل بحر السويس فى درجة خط الطول الحادية عشرة وتسع وعشرون دقيقة فى خط العرض الشمالى، وسبع وثلاثين خط الطول الشرقى، وهى أكثر موانى الحجاز ازدحاما بالسفن.

ولما كان الكيلو متر يساوى ٣٢٨١ قدم يلزم أن تكون بلدة جدة على بعد ستة أميال من غرب مكة المعظمة، وتقطع هذه المسافة بسير الجمل فى ثمانى عشرة ساعة أى فى يومين.

صادرات ولاية الحجاز الرئيسية (جلد البقر، البن، الصمغ العربى، العطور المتنوعة، ريش النعام، سن الفيل، صبار، اللؤلؤ، الصدف، البلح، المرجان، الحناء، اليسر، الباغة، العسل) وارداتها حاجيات سكان البلاد الضرورية، وهى التى تستورد من مصر والبصرة وأوربا وأفريقيا وبورصة وسورية وبومباى مثل (الأرز والقمح، الشعير، الدقيق، الزجاج، دهن الورد، الصابون، الأقمشة الصوفية والقطنية، والخشب، سن الفيل، ريش النعام، المسك، الأبسطة والنعال) وكل هذه الأشياء تصدر وتستورد من ميناء جدة، وبناء على ذلك يصل ما يؤخذ من الضرائب فى جمرك جدة خمسة أو ستة ملايين قرش ورسوم الإدخالات.

إن ازدحام ميناء جدة بالعمل جعلها مدينة تجارية عظيمة وكثر مسافروها، ولا

يمكن للإنسان أن يخمن عدد الحجاج والزوار والتجار الذين يأتون فى موسم الحج لعدم اطراده.

ويبلغ عدد سكانها مع مجاورى وتجار مصر والشام والهند واليمن وكلهم مسلمون[1] إلى خمسة وعشرين ألف نسمة.

وبالمقارنة ببلاد سواحل البحر الأحمر فبلدة جدة المعمورة تعد من المدن القديمة. ويحيط جوانبها الأربعة سور بناه أحد ملوك الشراكسة المصريين، وهو الملك الأشرف قنصوه الغورى فى سنة (٩١٢)، وعلى قول آخر بناه سنة (٩١٥).

ولهذا السور ستة أبواب باسم (باب مكة، باب المدينة، باب الشريف، باب الشهداء، باب البحر، باب المغاربة) وله برجان مشهوران يسميان (برج ليلى) و (برج المجنون) ويروون أن ليلى والمجنون مدفونان بجانب البرجين وكل برج يحمل اسم واحد منهما.

وإن لم يُرَ ما يؤيد هذه الرواية فى كتب التاريخ، إلا أن تسمية هذين البرجين بهذين الاسمين مما يؤيد صحة هذه الواقعة.

وباب مكة من الأبواب المذكورة يفتح إلى الشرق، وباب المدينة إلى الشمال وأبواب الشريف واليمن والبحر والمغاربة تفتح إلى جهة البحر.

قد حفظ السور الذى بناه الملك الأشرف مدينة جدة من الأسطول البرتغالى، لأن الأسطول البرتغالى دخل إلى ميناء جدة بعد بناء السور بقليل، وأطلق مدافعه على المدينة ولكن أهالى القلعة أقدموا على الدفاع عن مدينتهم بواسطة المدافع التى عبأها الملك الأشرف فلم يتحمل الأسطول ذلك وانسحب مدحورًا، وأراد البرتغاليون أن ينتقموا لهذه الحادثة فأتوا فى سنة ٩٤٨ بثمانين سفينة، ونزلوا إلى البر من ميناء (أبى الدوائر) بجنود كثيرة، وأخرجوا ذخائر ومهمات إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتقدموا خطوة واحدة لهمَّة أمير مكة المعظمة أبى نمى ومحافظ جدة

(١) وفيها ما يقرب من مائتى نصرانى وأكثر هؤلاء تجار الأغذية وموظفى القنصليات.

على بك، ومساعدة الأهالى والعربان فاضطروا للانسحاب، وبما أن جدة بمثابة مفتاح الحرمين المباركين، أرسل فى سنة ١١٣٨ من استانبول الفرقة ثلاثة وسبعين الإنكشارية مع مقدار كاف من حراس الحدود لتأمين القلعة المذكورة من هجمات الأجانب وتسلطهم، وبعد اثنتين وعشرين عامًا وفى سنة ١١٦٠ عمرت ورممت الأماكن التى اقتضى الأمر إصلاحها فى جدة بواسطة والى جدة والحبش تاتار عثمان باشا المشهور.

وفى جدة المعمورة معسكر للجيش، ودائرة موانى، خمسة جوامع وثلاثون مسجدًا، ودائرة حكومية، ودائرة جمرك وسبعة أضرحة، وبرجان وثلاثمائة صهريج وحمام، وألف وثلاثمائة منزل وتسعمائة دكان وأربعون مقهى وأحد عشر مخزنًا، وسبع وأربعون طاحونة تدار بالحيوانات، ومصبغ، وعشرة مطاعم، وفندقان، وثلاثون خانًا لبيع الغاز والنفظ، وأربعة أحواض، وتسعة سبل ومخزن للماء للسفن وست إدارات للشرطة، وقلعة، ودائرة للبلدية.

وأكثر هذه المبانى منتظمة ومبنية بالآجر، وشوارعها منظمة فى خط مستقيم، ودكاكينها مملوءة بأنواع الأقمشة والأمتعة الهندية، والدائرة الحكومية فى باب المدينة وموقعها فى غاية اللطف، وهواؤها بالنسبة للأماكن الأخرى جيد وخفيف.

وكان موظفو الحكومة قبل ذلك يقيمون فى القصر المنسوب لطوسون باشا ابن والى مصر المشهور محمد على باشا والذى اتخذ الآن سجنًا، وقبل أن ينتقل موظفو الحكومة لهذا القصر كانوا يقيمون فى دائرة قاعة الإمارة، الكائنة فى الحى اليمانى، وكانت هذه الدائرة أقدم دائرة حكومية وآل أمرها إلى الخراب الآن.

وكانت مدينة جدة إلى سنة ١٢٨٠ مركز أيالتى جدة والحبش فنقلت الولاية فى تلك السنة إلى مكة المكرمة. وكان الولاة من الأسلاف وإن كانوا يقيمون فى مدينة جدة إلا أنهم كانوا يمضون مواسم الحج فى مكة المكرمة.

وقد أسس وبنى أحد جوامع جدة قرا مصطفى باشا الذى تولى الصدارة سنة ١٠٥٣. وبنى الجامع الآخر فى سنة ١١٣٤ والى جدة والحبشة بكر باشا.

ومازال جامع بكر باشا معموراً إلى اليوم ويشتهر بكثرة جماعته، والجامع المنسوب لقرا مصطفى باشا يعرف الآن باسم (جامع الإمارة)، وقد بنى حمام جدة وأحد خاناتها قارا مصطفى باشا أيضًا وهما من جملة خيراته.

إن أكثر منازل جدة ـ كما سبق توضيحه ـ مبنية نصفها من الطوب وأكثرها ذو طابقين، وقد بنى الطابق الأول وفق الهندسة والطراز الهندى ونوافذها دون زجاج وأطر، لذا فمن الصعب الجلوس فيها نتيجة للغبار المثار فى الطرقات.

وأهالى جدة عامة يحبون العمل وأغلبهم أغنياء، ويشتغلون بجميع أنواع التجارة، قد اكتسب ميناء جدة من حيث التنظيم الشهرة، والأهمية الطبيعية فى عهد سلطاننا حتى أصبح الميناء الأول للبحر الأحمر، والمدينة الأولى كما أنه ملجأ وملاذ السفن التى تسير فى خليج السويس.

وكافة أهاليها غير نصفة من الأوروبيين وغير مسلمين. ويتاجر بعضهم بالهند والمستعمرات الأجنبية الأخرى، وبعضهم[1] بأعالى الحبشة، وسواكن، ومصر وزنجبار وسومطرة، جاوا اليابان، الصين، الأناضول، والروملى، وسوريا، وبلاد المغرب، نجد، اليمن، العراق، البحرين، مسقط، أوربا، روسيا وإيران) لذا لا ينقطع سيل السفن التى تأتى من جميع الجهات.

ولما كانت الصخور المرجانية كثيرة فى الميناء فالدخول فى الميناء يشكل صعوبة وخطورة، لذلك لا يمكن للسفن الأجنبية الدخول فى الميناء بدون الاسترشاد بالأدلاء المحليين، ولا سيما عندما تبدأ المياه تظلم بعد العصر يصبح الدخول فى الميناء مستحيلاً. ويروى أن كثيراً من السفن التى تجرأ ربّانوها المشئومون على الدخول فى الميناء تعرضوا للمخاطر، لأن ميناء جدة يتشكل من الصخور المرجانية

(١) ومن بين هؤلاء: «محمد يوسف باناجى، محمود خونجى، عبد القادر حاجوم، موسى البغدادى» من الذين لهم معاملة تجارية بلندن، كما أن بيت البنان وسيد عمر سقاف من الذين اشتهروا فى تجارة جدة.

الطبيعية وإن كانت وسائل الأمن والسلامة متسعة بالنسبة للسفن إلا أن مضيقى (المسمارية) و (الشاب الكبير) كثيرًا الخطورة.

ولما كان داخل الميناء عميقًا قدر ثلاثة أذرع إلى سبعة أذرع تدخله السفن الكبيرة وتتجمع فيه خمسون وستون سفينة وثلاث وأربع بواخر بريدية، وثلاث وأربعة سفن شراعية فى صورة دائمة. ويمكن أن يصنع فى نفس ميناء جدة سفينة ذات ثمانين أو تسعين طنًا.

يشتغل قسم من أهالى جدة بصناعة (المسابيح والصياغة وصناعة الصدف، والبقالة، والصباغة، وصيد السمك) وقسم آخر يصطادون المرجان واليسر والصدف واللؤلؤ، ويتاجرون بهذه الأشياء. وقسم منهم يعملون بتسيير القوارب والسفن.

ومن بينهم من ذهبوا إلى المحيط الهندى ورجعوا وأحيانًا ذهبوا إلى موانى الصين، وربانوها تعودوا السفر إلى زنجبار وسنغافورة.

ومن أهل البلد من يمتلكون سفنًا شراعية ذات حمولة ستمائة طن إلى ألف طن، وهناك أكثر من مائتين ممن يمتلكون سنابق، وهذه السفن تنتقل بين موانى (سواكن، مصوع، الوجبة، ينبع البحر، حديدة، زيلع، مسلط، مكلا، البصرة، وشحر).

تهب فى ميناء جدة رياح البحر الرطبة والرياح الشرقية والجنوبية والغربية والشمالية، ويطلق على الرياح الغربية الشمالية عند الأهالى (بحرى)، وعلى الرياح الجنوبية الشرقية (أزيب).

ورياح (البحر)، رطبة ورياح الشرق حارة، ويروون أن لهذه الرطوبة فوائد. كما أن رياح السموم التى تحمل الحرارة غير ضارة.

وتبلغ درجة الحرارة عندما تبلغ أشدها إلى واحد وأربعين درجة سانتفراد إلا أن رطوبة البحر تحمل البرودة فى الليالى.

وتنتشر فى الخريف والشتاء علة الحمى فى جدة إلا أنه بعد أن أجريت مياه

عين (حميدة) فى داخل المدينة فإن هذا المرض قل بنسبة سبعين إلى تسعين فى المائة كما ترويه المصادر الموثوقة.

الصخور المرجانية التى تشكل ميناء جدة:

الصخور المرجانية التى تكون ميناء جدة ثلاثة أقسام.

١- القسم الأول ـ الصخور المرجانية المتصلة بالشاطئ، وعندما يظهر الجزء الأعظم فى البحر تظهر كأنها يابسة.

٢- القسم الثانى ـ الصخور المرجانية القريبة من سطح البحر ومركز ظهورها قاع البحر.

٣- القسم الثالث ـ البعيدة عن سطح البحر يعنى عكس القسم الثانى. ووضع هذه الصخور المرجانية أفقى غير متسلسل وكل واحدة من هذه الصخور موازية فى الخلقة مع الأخرى، وتحدث من ذلك خطوط كثيرة ومن اجتماع الخطوط المائية تحدث تيارات مائية، والصخور المرجانية التى من القسم الأول كلما تنحدر القمة يخف ارتفاعها نحو اليابسة، ويحدث ميول خفيفة ويتشكل من هذه الميول تلال صغيرة.

والصخور المرجانية التى تنمو فى داخل البحر ثلاثة أنواع من حيث الخلقة:

١- النوع الأول ـ الصخور المرجانية القريبة من سطح البحر ومهما بذل من الجهود لتحطيم وكسر هذه الصخور واستخدم فى كسرها أى نوع من الآلات والأجهزة لا يمكن ذلك.

٢- النوع الثانى ـ الصخور المرجانية التى تنبت فى قاع البحر وتنمو مثل الأشجار والنباتات، ولما كانت هذه الصخور من حيث الخلقة قابلة للكسر فإنها تنكسر بسرعة وسهولة.

٣- النوع الثالث ـ التكونات المرجانية التى لم تتجمد بعد ومازالت طرية كالطين.

الجزر والمد :

يحدث فى ميناء جدة نوعان من الجزر والمد يطلق على أحدهما (الجزر الأعظم)، وعلى الآخر (الجزر الأصغر).

الجزر الأعظم:

هو الجزر الذى يحدث فى أوائل مايو، ويمتد إلى شهر أكتوبر والذى يظل ستة أشهر.

وتظهر الصخور المرجانية المتصلة باليابسة، والتى تمتد داخل البحر حيث تنخفض المياه قدر متر ونصف متر فى هذا الموسم، إلا أنه لما تبدأ المياه تزيد تدريجيًا من أول نوفمبر إلى آخر أبريل فإنها تغطى الصخور المرجانية.

الجزر الأصغر:

هو الجزر الذى يحدث كل يوم إذ تزيد المياه كل يوم قدر خمسة وأربعين سنتيمترًا، ثم تنسحب وتعود لحالتها الأولى. وبناء على ما فهم من هذا التعريف فإن ميناء جدة تكون من أوضاع الصخور المرجانية، لذا تضطر السفن التى تأتى لهذا الميناء إلى إلقاء مراسيها على بعد ميلين منه، لذا ترى أن الأشياء والمسافرين الذين يريدون السفر بهذه المراكب ينتقلون إليها بواسطة القوارب التى يقال لها السنابق.

ولكن لشدة الأسف فإن المدينة التى فيها ميناء مزدحم بالسفن لا يوجد فيها ماء عذب جار. لذا ترى القادرين من الأهالى قد بنوا صهاريج كبيرة يملئونها بالمياه المخزونة من الأمطار كما يملئون الحفر الكبيرة التى حفروها بمياه الأمطار، ويبيعون ما يزيد على حاجتهم من المياه للحجاج والزوار، وبهذا يحصلون على ما أنفقوه من النقود من بيع المياه بل يكسبون أيضًا. ويحدث أحيانًا أن تشح الأمطار فى هذه البلاد مدة سنتين أو ثلاث سنوات.

وكان الناس يعانون كثيرًا فى مثل هذه السنين من قلة المياه، وكان ما يحمله جمل واحد من المياه يباع بثلاثين أو أربعين قرشًا.

وقد حفرت آبار فى مكان يسمى (سرورية) على بعد ثلاث ساعات من جدة لتجلب منها المياه عندما تقل، وإن كانت مياه هذه الآبار قابلة للشرب إلا أنها ليست عذبة كمياه الأمطار لأنها مختلطة بمياه السيول والبحر. ويجب أن تشرب تلك المياه وهى جديدة، فإذا ما حفظت ليلة فى الأوانى أو القرب تتعفن. وقد صنعت قرب صغيرة حتى يحولوا دون تعفن المياه، ودهنوا داخل القرب وخارجها بالشحم الداخلى للحيوانات، ومن الصعب للذين لم يتعودوا شرب المياه المختلطة بالشحوم شرب هذه المياه المجلوبة من الآبار.

ولما كانت هناك مياه جارية فى قرية (وادى فاطمة) التى تقع بين سلسلة الجبال التى على بعد ست أو سبع ساعات من شرق مدينة جدة وفى خارج مكة على بعد ست ساعات شمالاً، وهذه القرية تبعد تسع ساعات من جدة فى جهتها الشرقية، ولما كان سطح هذه القرية مرتفعًا عن سطح أراضى جدة فمن السهل إجراء المياه من هذه القرية إلى جدة، ولا سيما بعد ما زادت أهمية ميناء جدة بعد حفر قناة السويس وازدحم بالسفن الآتية من جميع الجهات وزادت حاجة جدة إلى مياه عذبة حتى يستريح أهاليها من مشقة قلة المياه، من هنا فإنقاذ سكان جدة والحجاج المسلمين والذين يمرون بها من غائلة قحط المياه منتظر من ألطاف السلطان اللامتناهية المأمولة.

يروون أن فى داخل المدينة ماء مجلوب قديمًا، إلا أنه لا يعرف إذا كان هذا الماء جلب من قبل أصحاب الخير أو من قبل الحكومة؟!

بناء على قول أن الذى جلب هذا الماء هو الصدر الأعظم قارا مصطفى باشا سنة ألف وخمسين، ولكن حينما وصل مجراه خارج المدينة ارتحل عن دنيانا، ولم يقدر له أن يجرى الماء فى داخل المدينة.

وقد فهم من الكشوف التى أجريت فى العام الماضى أن منبع ذلك الماء بعيد عن جدة ساعتين أو ثلاث، وخرب مجراه بمرور الزمن وامتلأ بالحصى والتراب.

إن تعمير هذا المجرى وتطهيره لا يحتاج إلا لأربعة آلاف أو خمسة آلاف

ليرة، ومثل هذا المبلغ يمكن جمعه من أهالى جدة الأغنياء وتجارها الميسورى الحال بسهولة إلا أن معظم الأغنياء يمتلكون الصهاريج السالفة الذكر، ولا يحتاجون إلى ماء بل إنهم يحاربون مثل هذا المشروع لكسبهم مقداراً من النقود باتجارهم بالماء، وسيعملون على عدم جلب هذا الماء. ومن هنا يتضح أن جلب هذا الماء يقع على عاتق الحكومة السنية، وعلى همة رجالها ويتمنى الأهالى والحجاج أن يتم هذا العمل الخير فى عهد سلطان عصر المبرات والخيرات. وحمداً لله إذ تقرر فى عهد عثمان باشا والى الحجاز إجراء ماء (عين الوزير) إلى جدة، وهيئت أسباب إجرائها اللازمة وصرفت المساعى باتفاق الأهالى وفى ظل حضرة السلطان، وفق فى إدخال الماء المذكور داخل المدينة وسميت (العين الحميدية) وبنيت طرقها بالحجارة فى شكل منتظم.

أنقذ هذا الأثر الجليل الحجاج والأهالى من شرب المياه المتعفنة، وتسبب فى عمران جدة وجلب شكر الناس ودعواتهم لحضرة الخليفة إلى يوم القيامة.

وإن صادف إجراء العين الحميدية لعهد والى الحجاز الحالى صفوت باشا وينسب له فضل هذا التوفيق إلا أن جلب العين المذكورة تَمَّ بِهِمَّة سالف الذكر عثمان باشا وخلفه جميل باشا وما بذلا من جهد عظيم، لذا يخطئ الذين يختصون صفوت باشا بهذا التوفيق.

ومجرى ماء (عين الحميدية) ابتداء من سفوح الجبل الذى على الجهة الشرقية من المدينة وعلى بعد ثلاث ساعات منها إلى نقطة بعيدة ثلاثين دقيقة فى خارج جدة مبنى بالحجارة ومن هنا إلى المقسم الجسيم فى كل اتصاله فرشت اسطوانات مزدوجة قطرها اثنا عشر سنتيمتراً. ومن هذا المقسم للطرق التى تتفرع إلى أربعة فروع فرشت الأسطوانات الطينية.

وقد بنى مخزن كبير فى المحل الذى يسمى (عيدروس) لجدة وهذا المكان فى اتصال باب مكة للسور، يسمى مقسما لماء عين الحميدية وإلى جهة ما لهذا المخزن بنى سبيل كما بنى سبيل آخر بعد ذلك للمياه التى أجريت إلى المستشفى

العسكرى وحفر لحديقة المستشفى حوض كبير وأنبتت بالمياه الفائضة زروع حديقة كبيرة. كما أنشئ سبيل آخر فى ميدان بئر يعقوب، وبنى فى الحى اليمانى سبيل آخر باتصال منزل شيخ مشايخ جدة إبراهيم عراقى أفندى.

وقد صنع سبيل باسم الخليفة مكمل الشكل فى ميدان الميناء وفى وسط هذا السبيل فسقية وحواليه صنابير، وحوله إطار على شكل السد وحوله سور من حديد مشبك.

وقد كتب على باب السبيل فى الجهة الشمالية التاريخ الآتى الذكر، والذى قاله المعلم الشهيد (فيضى)[1] أفندى ووشح فوق التاريخ بالطغراء السلطانى وزين بها.

السلطان الملائكى الشيم ... خاقان ذو عدل وكرم
ذلك الملك المحتشم ... خان الزمان عبد الحميد
قد جعلك ظل الله ... ذاتك السلطانى الإله
فإنك لعباد الله جميعًا ... فيض مستلزم جديد
يعين المسكين ... ويعمر كل البلاد
يوجد آبار خير ... كثير الإحسان فريد اللطيف
لم يكن فى مدينة جدة ... أبدًا الماء الزلال
لم يكن يستخدم فيها ماء ... غير ماء المطر
هاهو ذا سلطان الدين ... باللطف ماء الحياة
أجرى هناك ... فاستفاد منه الأهالى
فأنشأ عينا لا بديل ... له الماء العذب مثل النيل

(١) فيضى أفندى مدرس المدرسة السلطانية.

عينـا تسمـى سلسبـيل وأروى فـم العطـشى
يـا «فيضـى» ادع لـه كلمـا نـزل المطـر
فليكن هذا السلطان دائمـا طويل العمر سعيد الحـظ
اشـرب المـاء بكفيـك وادع للسلطـان حميـد
صنع هذا السبيل الجميـل خان الدنيا عبد الحميـد

قد بنى على رأس الميناء مخزنًا للماء الذى يمد السفن الحربية السلطانية وبواخر الإدارة الخاصة بالمجان وسائر السفن[1] بالنقود وبنى من أول هذا المخزن إلى داخل البحر جسرًا طوله ستة أمتار وعرضه متران ممتدًا إلى داخل البحر وفى داخل الجسر أنابيب معدنية فى نهايتها وصنعت منافس هوائية، لذلك تستطيع السفن والقوارب ملئ أوانى مياهها بكل سهولة.

وقد بنى سبيل فى حى المظلوم وبالقرب من الجامع الشافعى وفى اتصال جامع المعمار وفى اتصال حوض للوضوء خاص بالشافعية، وأمام منزل الحاج محمود سبيل متوسط وفى الدائرة الحكومية سبيل ذو ثلاثة صنابير على مساحة مستشفى الغرباء القديمة التى أمام الدائرة الحكومية، وأنشئت حديقة مزينة جميلة وداخل هذه الحديقة حوض متسع، وأحيطت الحديقة بسور مشبك من الخشب، وفتح فى جهتها الغربية باب جميل وفى داخل المعسكر السلطانى سبيل على طراز جديد كما بنى حوض فى وسط الحديقة، وبهذا قد اكتسب داخل المدينة وخارجها خضرة جميلة ومنظرًا ساحرا. والأهالى يجتمعون فى الأماسى داخل هذه الحديقة حيث يتنزهون.

طريق الوادى:

هناك طريق فخم من جدة إلى مكة يسمى «طريق الوادى» وطرفا هذا الطريق فى غاية التنسيق ويزينهما جبال صغيرة منخفضة وهذه الجبال مثل جبال الحجاز الأخرى جرداء عارية وتسخن فى الصيف فى النهار حتى تحرق طريق الوادى

(١) وكان يباع طن من هذا الماء بفرنكين فرنسيين كما يروى.

بشدة. وإذا ما بذرت على قمم تلك الجبال المائلة نحو الوادى البذور أنبتت أشجارًا تتحمل الحرارة، وهذه الشجيرات تنمو فى فترة قصيرة، وتبرد طريق الوادى وتزين طرفيه، ويصبح الطريق صالحًا للسير فيه ليلاً ونهارًا وتصلح الهواء بشكل لا يتصور.

قمم الصهريج - فى طريق مكة المعظمة وبالقرب من جدة جبال ترتفع ما يقرب من سبعين مترًا أو ثمانين، ترى من فوقها مدينة جدة المعمورة. والجهة المكية من طريق الوادى وعلى طرفيه تلك الجبال الصغيرة مما يكسب طرفى الطريق منظرًا جميلاً.

ولما كانت ظهور قمم الصهريج قليلة الرطوبة وجيدة الهواء فإذا ما بنى أغنياء جدة على هذه الأماكن قصورًا صيفية، وغرسوا أشجارًا وطرحوا حدائق لزينوا مدينة جدة، كما أنهم سيمضون مواسم الصيف فى راحة ودعة.

وكنت تصورت هذه الرغبة فى سنة (١٢٨٩) وبناء على الأخبار التى وصلت سنة (١٣٠٤) علمت أن شخصًا يسمى السيد عمر سقاف بنى على القمم التى فى ناحية جدة وعلى بعد ثلاث أو خمس دقائق منها دائرة مكملة متينة، وزين منزله هذا بتحف هندية وصينية قيمتها ألفان أو ثلاثة آلاف ليرة.

وبناء على تعريف الراوى وتصويره فإن مخزن «بومبارشة» المشهور فى إستانبول يظل بجانب الدائرة المذكورة كدكاكين العرائس فى حى أبى أيوب الأنصارى.

وإن كان السيد عبد الرحمن طاهر باشا بنى بجانب دائرة السيد عمر سقاف دائرة أخرى إلا أن دائرته بالنسبة لدائرة عمر سقاف تظل مثل كوخ السماك. ومهما يكن فمادام أغنياء أهالى جدة فكروا فى إنشاء المبانى فوق قمم الصهريج ففى مدة قصيرة ستبنى فوق هذه القمم قصور صيفية جميلة، ويتعود الناس على قضاء مواسم الصيف فى هذه المصايف، وتتسع المدينة تحت ظل الرعاية السلطانية.

ولما كان لسكان أعلى قمم الصهريج إمكانية الذهاب والعودة إلى جدة كل يوم فإنهم يعانون من إعداد لوازم حياتهم اليومية.

أمنا حواء رضى الله عنها:

إن ضريح جدة البشر الأعلى حواء ـ رضى الله عنها ـ فى مكان قريب من ساحل البحر وقريب من مدينة جدة وكأنه متصل بها.

إن الضريح المذكور فى داخل مقبرة عادية وخال من جميع أنواع الزخارف والزينات، وفى الجهة التى فيها رأسها وناحية قدميها قطعتان من الحجر كعلامة. كما أن فى وسط القبر قبة لطيفة، إلا أنه ليس بعيد الاحتمال أن يستولى الأعداء على الأراضى التى حول القبة، ويظل مقام جدتنا الأعلى داخل هذه الأراضى، ولكن إذا ما بنى فوق مقام والدتنا المشار إليها ضريح جميل بواسطة هيئة خيرية كهيئة عين زبيدة، وإذا وصلت حدائق القصور والمنازل التى تبنى على قمم الصهريج إلى شاطئ البحر، وأنشئ ميناء على ساحل البحر وتركت إدارته ليد الحكومة السنية العادلة عندئذ قد ينقذ المقام الشريف المذكور من هم انتقاله إلى أيادى الأعداء.

بين جدة ومكة بعض أماكن استراحة يطلق عليها بين العربان «مقهى»، فإذا ما زينت أطراف هذه المقاهى بالأشجار وأسس فيها مركز شرطة فبهذا يمكن تأمين طريق جدة من تسلط الأشقياء، وفى نفس الوقت يهيأ الطريق بمنظر جميل أخضر ويزين.

الطائف:

تقع بلدة الطائف والتى تسمى أيضًا بـ «وادى عباس» على الجانب الشرقى من مكة، وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة وعلى سطح جبل غزوان، الذى[1] يرتفع عن سطح البحر ١٥٧٥ مترًا. وعلى بعد مرحلتين من مكة المعظمة عن طريق جبل قرا وعلى ثلاث مراحل من طريق (سيل)، وخلف جبل قرا بأربع ساعات.

تحوى بلدة الطائف أربعمائة منزل تقريبًا وعدد سكانها ألفا نسمة تقريبًا. وفى

(١) الجبل الذى يطلق عليه غزوان شعبة من سلسلة جبال سراة.

الطائف معسكر سلطانى يستوعب أربعة فرق من الجنود، وستة مساجد صغيرة، وفى الجهة الغربية من المدينة مسجد كبير، وستة جوامع وحرم شريف واحد، ومدرسة كبيرة، وأربع مدارس للصبيان صغيرة، وسبيل ومنزل للمدير، ودائرة الولاية، وعشرة قصور صيفية ومائتا دكان، وقلعة، وسور، وتسعة مخابز، وعشرة دكاكين للجزارة، ومذبحان، وحمام واحد، وثلاثة أحواض، ومقابر عبد الله بن عباس والطيب والطاهر من خدام الرسول ﷺ فى ساحة الحرم الشريف السالف الذكر. وفى مقابل الباب الذى فى الجهة الغربية من الحرم الشريف وخارج السور مقبرة زيد بن ثابت كاتب وحى النبى ﷺ[1].

وفى مكان يسمى وهد الأهالى يطلقون عليه «وحاد» وعلى بعد ساعة ونصف قبر سيدنا عكرمة من أجلة الأصحاب الكرام.

وبما أن (وج) بن عبد الحى وهو رجل من العماليق جاء إلى أراضى الطائف من قبيلته، وتوطن فيها ظل اسم الوادى، الذى يقع بين جبلين والذى يطلق عليهما المحترق وأصجدين، ظل يحمل اسم هذا الرجل ويعرف بوادى «وج» وقد حرم هذا الوادى من قبل النبى ﷺ قبل غزوة الطائف.

وجاء سبب تحريم وادى وج فى حديث رواه أبو داود بسنده عن عروة بن الزبير، عن الزبير، قال: لَمَّا أقبلنا مع رسول الله ﷺ مِنْ لِيَّة[2] حتى إذا كُنَّا عند السَّدْرَةِ وقَفَ رسول الله ﷺ فى طرف القرْن الأسود حَذْوها، فاسْتَقْبَلَ نَخبًا[3] ببصره، وقال مرة: واديه. ووقف حتى اتَّقَفَ[4] الناسُ كلهم، ثم قال: «إنّ

(١) هذا الشخص أستاذ عبد الله بن عباس.

(٢) ليه: بكسر اللام وتشديد الياء المثناة جبل قرب الطائف مرّبه النبى ﷺ عند انصرافه من حنين يريد الطائف، وأمر وهوبه بهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان.

(٣) نخب: اسم واد بالطائف.

(٤) قوله: «اتَّقَفَ النّاسُ» أى حتى وقفوا. اتقف مطاوع وقف تقول: وَقَفْتُه فاتَّقَفَ مثل وعدتُه فاتَّعَدَ. والأصل فيه اوتَقَفَ فَقلبت الواو ياءً لسكونها وكسر ما قبلها ثم قلبت الياءُ تاءً وأدغمت فى تاء الافتعال» أ.هـ. انظر لسان العرب مادة «وقف» ص ٤٩٠٠ ط. دار المعارف.

صَيْدَ وَجَّ وعِضَاهَهُ حرامٌ محرّمٌ لله». وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره لثقيف[1].

وبجانب هذا الوادى شجرة سدر، ومن المحتمل أن تكون هذه الشجرة المشقوقة التى ذكرها المؤرخ المطرى.

وبعد انقراض العمالقة سكن الطائف آل ثمود وجعلوها وطنًا لهم، واستولى عليها بنو ثقيف فيما بعد واستوطنوا فيها.

لما كانت أرض الطائف أكثر ارتفاعًا عن مكة المفخمة، فتقل درجة حرارة الطائف عن مكة المكرمة ست أو سبع درجات ويجود هواؤها، لأجل ذلك يصعد أهل مكة معظمهم إلى الطائف عندما تشتد الحرارة فى أشهر الصيف ويقيمون هناك إلى أن تزول الحرارة.

ودرجة حرارة بلدة الطائف فى أواخر شهر أبريل تصل فى الأماسى إلى ١٧ درجة، وفى الصباح إلى ١٨ درجة، وفى أوائل شهر مايو تبلغ درجة الحرارة إلى ٢٣ درجة، وترتفع أحيانًا إلى ٢٤ درجة، ويبرد الهواء فى ليالى هذه الأشهر فلا يمكن الوقوف فى الأماكن المكشوفة بدون ملابس ثقيلة. وليس فى الأقطار الحجازية مكان أبرد من الطائف حتى إن الماء يتجمد شتاء فى نفس الطائف، أو فى القرى الكائنة على سطح الجبل المذكور.

إن أطراف بلدة الطائف اللطيفة والقرى الواقعة فى الجبل أماكن مليئة بالحدائق والبساتين. يوجد فيها جميع أنواع الفواكه، ولا سيما أنواع وأجناس العنب وخاصة أجود أنواع عنب جاويش والتين الإفرنجى، وجميع أنواع الخوخ والتوت الشامى، والتين والمشمش والبرقوق والبلح والليمون، والرمان وأنواع أخرى من الفواكه التى تجود فى هذه الأماكن. ومياهها ألطف وأعذب مياه البلاد الحجازية، وألطفها «ماء سلامة». كان هذا الماء يأتى من جبل خلف (المثنى)، ولكن لشدة الأسف خرب مجراه ولم يصلح فاختفى وأصبح أثرًا بعد عين.

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى الحج (المناسك) (٩٥) باب فى مال الكعبة، حديث رقم (٢٠٣٢)، ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦. ط دار الفكر.

وأجود المياه الآن مياه بئر «عجلان» فى سلامة ومياه البئر التى بجوار مسجد ابن عباس، وهى فى الدرجة الثانية.

كما أن الماء الجارى الذى يعرف بوحاد[1] أى ـ وهد ـ القريب من قبر عكرمة «كان هذا الشخص مولى لعبد الله بن عباس» رضى الله عنهما على بعد ساعة ونصف ساعة من الطائف.

وهناك ماء مشهور بماء «مرسين» بجبل قرا ولما كان هذا الماء يأتى مارًا من تحت أشجار العرعر متضاربًا ببعض الحصى فهو من أصبح مياه الحجاز وأكثرها إدرارًا.

وحول المدينة بعض المياه الجارية الكبيرة باسم مثنى وشورة وكل هذه المياه إذا ملئت بها القلل تبرد بحيث لا تتحملها الأسنان.

عندما مرض الشريف عبد الله باشا المرحوم تشكلت هيئة استشارية للأطباء وقرر هؤلاء الأطباء أن يعنى بالمياه التى يشربها الشريف عبد الله. وبناء على هذا القرار أمر المشار إليه بتحليل المياه الموجودة والكشف عليها. وبناء على معاينة الأطباء وتحليلهم قد تبين أن أجود المياه من حيث الخفة والعذوبة والنفع بعد ماء «قارا قولاق» ـ الأن السوداء ـ: ماء «مرسين» فى الدرجة الأولى، ومياه بئر عجلان فى الدرجة الثانية، وبئر حديقة مغنى الكائن فى جلع فى الدرجة الثالثة، واتفق الأطباء على أن يشرب الباشا المذكور من ماء «مرسين».

فى بلدة الطائف جميع أنواع الأشجار. ويروى المؤرخ المشهور أن فى الطائف عدة أشجار سدر باقية من عصر النبى ﷺ، حتى إن أهالى الطائف يعرفون البعض بهذه الأشجار.

ويروى المؤرخون ـ على أنها من المصادر الموثوق بها ـ أن النبى ﷺ بينما كان يمر من بين هذه الأشجار انشقت إلى قطعتين تعظيمًا للنبى ﷺ وجعل النبى ﷺ يمر بناقته من بين شقيها.

ويحكى الإمام المطرى أنه زار هذه الشجرة سنة ٩٦ الهجرية وأكل من ثمراتها

(١) وحاد اسم قرية وبما أن ماء وحاد فى هذه القرية عرف بها.

وأن أهالى الطائف يقطفون من ثمارها ويأكلونها متبركين وقد ذكر ذلك مفصلاً فى تاريخه.

ويحكى ابن نور بعد أن بين أنه قام بزيارة هذه الشجرة ورآها قائلاً: «كان النبى ﷺ قد نام ليلة ما بين أشجار الحدائق فى رحلته إلى الطائف ولما استيقظ وسار صادف جملة شجرة من جنس السدر فانشقت الشجرة إلي شقين، وترك الجمل يمر من بين هذين الشقين وعلى ظهره النبى ﷺ، ومازالت تلك الشجرة السعيدة قائمة على ساقين وهى مزار مبارك مشهور فى طريق الطائف».

ولشدة الأسف قد جفت تلك الشجرة فى خلال عام ٧٢٩ من جذورها، وزالت عن الوجود. والآن لا يوجد أثر لتلك الشجرة، كما أنه لا يوجد من يعرف مكانها.

لكن معجزة الشجرة الجليلة صحيحة. وكان أهالى الطائف فى العصور السابقة يقتطفون من ثمار الأشجار التى تنبت فى المحل الذى وقعت فيه المعجزة، ويظنون أن تلك الأشجار من نفس جنس الشجرة المعجزة.

الآثار:

فى أطراف بلدة الطائف ثلاثة آثار، ويظن الأهالى أن فى زيارة هذه الآثار خيراً وبركة.

مسجد العداس:

أحد هذه الآثار المذكورة مسجد (عداس) وهذا المسجد فى وسط موقع مثنى البعيد عن الطائف مقدار عشرين دقيقة، وفى داخل حديقة تسمى (عداس)، كان النبى ﷺ شرف الطائف مع عبد الله بن مسعود لدعوة بنى ثقيف للدين الإسلامى، وبما أن بنى ثقيف رفضوا لقاء النبى ﷺ ذهب إلى حديقة (عداس) السالف الذكر حيث جلس يائسًا.

كان عداس غلام صاحب هذه الحديقة فأحضر بعض العنب وقدمه للنبى ﷺ.

ولما سر النبى ﷺ من الغلام سأله عن بلده. وعرف أنه من الموصل وقال له «إذن فأنت من بلد أخى يونس». فقال له عداس: «كان يونس نبيًا!! فكيف يكون أخاك؟» ولما أجابه قائلاً «أنا أيضًا نبى» فأسلم عداس.

ولما كان النبى ﷺ فى ذلك المكان فبنى مؤخرًا على ذلك المكان مسجد!! فالمسجد الذى يطلق عليه مسجد عداس هو المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ.

مسجد النملة:

أحد الآثار الثلاثة مسجد (النملة).

هذا المسجد قائم فى المكان الذى حدثت فيه قصة (النملة) كما ذكرت فى القرآن الكريم. وفى بحث سليمان عليه السلام. ولما كان النبى ﷺ قد زار هذا المكان زيارة خاصة بنى عليه مسجد شريف.

مطمخ الغزال:

الثالث من الآثار المكان المبارك الذى يسمى (مطمخ الغزال).

هذا المكان موجود فى وادى الطائف الشمالى وعلى بعد ربع ساعة من مكان يطلق عليه (جعل). وهو موقع ذو صخور وعلى هذه الصخور آثار أرجل الغزلان هنا وهناك، وبناء على رواية أهل المعرفة من الأهالى أن معجزة الغزال وقعت فى هذا المكان، إذ وقعت غزاله فى يد الصياد عندئذ تكلمت الغزالة، وجعلت النبى ﷺ كفيلاً على أن تعود بعد أن ترضع صغارها، ويقال لهذه الزيارة الآن (زيارة مطمخ الغزال).

الآثار العتيقة أو رسم إيبوقراط:

بين الطائف ومكة المعظمة وبين مجرين الذين يقال لهما السيل الصغير والسيل الكبير (عقبة)، وعلى الجهة الجبلية لهذه العقبة بعشرين ذراعًا، وعلى يمين الذاهبين من مكة إلى الطائف صخرة كبيرة منفردة نقش عليها رسم إنسان ضخم

مدهش ذى لحية وعارى الرأس، وقد كتب تحت هذا الرسم باللغة الأفرنكية اسم أيبو قراط. وصنع هذا الرسم من منتصف الجسم إلى أعلى وحفر بقلم الحفر.

وأراد الشريف عون الرفيق باشا أن يعرف كنه هذا الاسم ومتى حفر هناك، وأخذ يتحرى عن حقيقة هذا الأمر فى الأقطار الحجازية، واطلع على الكتب العربية القديمة إلا أنه لم يصل إلى معرفة شيء عنه.

وفى خلال إمارة أخى الشريف عون الشهيد حسين وقع أحد سياح الإنجليز فى يد العربان بينما كان ذاهبًا من جبل شمر إلى الطائف فى مكان يسمى (سويلة) وهو لابس ملابس البدو، وعرف أنه أجنبى فجرّده البدو وأرقدوه على الأرض ليقتلوه، ورأى ذلك بستانى حديقة الشريف عبد الله باشا فى سويلة وعبده المعتوق وأسرعا إلى البدو وأنقذاه بصعوبة من أيديهم، وأخذوه إلى حسين باشا الذى كان فى الطائف وسلموه له.

استضاف حسين باشا الإنجليزى فى منزل رئيس باور انه محمد أغا. واستردوا جميع أشياءه وأعادوها له وبعثوا به فى رفقة موظف خاص إلى جدة دون أن يمر بمكة.

وكان هذا الشخص قد أعجب بقبة ضريح عبد الله بن عباس (رضى الله عنه) من حيث الفن والصنعة وأخذ لها صورة فوتوغرافية، كما أخذ صورة لرسم أيبو قراط الذى جذب نظره فى أثناء الطريق.

أخطار:

لما كانت الأراضى التى فيها مكة والطائف وجدة وما حواليها غير مسكون فى عهد أيبوقراط كما أن أيبو قراط لم يزر أرض الحجاز وهذا معلوم لدينا، لذلك لن نخوض فى هذا الموضوع ولكننا كمؤرخ سنكتفى بقيد ما سمعناه وشهدناه.

فى تعريف ينبع ورابغ وخيبر وحناكية

لما كان فى الأقطار الحجازية مكانان يحملان اسم ينبع، يطلق على أحدهما (ينبع البحر)، وعلى الآخر (ينبع النخل).

ينبع البحر:

يقع ينبع البحر على الجانب الغربى من البحر الأحمر وعلى شاطئ البحر وعلى بعد ٢٢٥ كيلو متر غرب المدينة المنورة[١] يعنى يبعد عن مكة المكرمة ٥٣ ساعة وهو ميناء مزدحم بالسفن ويسكنه خمسة آلاف نسمة تخمينًا.

ويحيط بالميناء السور الذى جدده فى سنة ١١٢٦ عثمان باشا الذى أرسل من استانبول عام ١١٢٦. وفى داخل السور ثمانمائة منزل وثلاثمائة دكان وثلاثة جوامع ومخزن ودائرة حكومية واحدة.

ولما كان ينبع البحر ميناء جميلاً ومرساة المدينة المنورة يوجد فى تلك المدينة فرقة من جنود المشاة وبعض أفراد المدفعية.

ولما كان ينبع البحر محرومًا من المياه العذبة مثل جدة فالأهالى يشربون من مياه الأمطار المحفوظة فى الصهاريج ومن مياه الآبار غير العذبة المحفورة على طريق سيل بعيد عن بلدة (سهيلى) بأربع ساعات أو ثلاث.

ينبع النخل:

تقع هذه المدينة على الجانب الشرقى من ينبع البحر وعلى بعد ست ساعات منها وهى عبارة عن عدة قرى.

(١) خمس مراحل بسير الجمل.

ولما كانت حول كل قرية مياه جارية فلسكانها بساتين وحدائق ونخيل لا يعد ولا يحصى سميت تلك القرى (ينبع النخل) ومن كثرة مياه ينبع النخل أنها بعدما تسقى الحدائق والبساتين يجرى الفائض منها عبثًا.

ويمكن إجراء إحدى هذه المياه إلى ينبع البحر بصرف بعض المبالغ إلى ينبع البحر، إلا أنه لم يظهر إلى الآن شخص يبذل جهوده فى سبيل هذا الخير.

رابـغ:

رابغ على شاطئ البحر الأحمر بين جدة وينبع البحر وهو مرساة صغيرة، وعلى بعد شمالى جدة بسبعة أميال بحراً وعلى بعد ثلاثين ساعة براً.

ورابغ قرية تتكون من مرفأ وجامع وعدة دكاكين مبنية من سعف النخيل أما سكانها فموظفو الحجر الصحى والجمرك وعدة رجال للشرطة، وعدة فلاحين للبساتين وأصحاب الفلايك، والقوارب.

ومدينة رابغ الأصلية على الجانب الشرقى من المرساة وعلى مسافة ساعة منها، ولها قلعة متينة وسبع آبار وعشرة صهاريج وخمسة جوامع وستون دكانًا و١١٦ منزلاً وعدد سكانها ٣٦٩ نسمة.

ولما كانت تلك المدينة فوق وادٍ رملى منبسط وعلى مسار السيل فأنَّى تَحْفُر يخرج ماء صالح للشرب، ولكنها خالية من المياه الجارية وقد زينت أطرافها الأربعة بالبساتين وأشجار النخيل والموز. ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من ألفين إلا أن كلهم يعيشون فى حالة بدوية.

ويبعد موقع المدينة عن مكة أربع مراحل براً وعن المدينة المنورة ست مراحل. والحجاج المسلمون الذين يتحركون سواء أكان من مكة المكرمة أو من المدينة المنورة إذا وصلوا إلى هذه المدينة فإنهم يقيمون فيها يومًا أو بعض أيام للراحة. وليست المدينة ميقاتًا للحجاج الواردين من الأطراف أو غيرهم، فالذين يذهبون من المدينة إلى مكة المكرمة وحجاج وقوافل مصر والشام يحرمون فى هذا المكان.

لما كانت مدينة رابغ ممر محامل قوافل الشام ومصر فالذخائر اللازم إعطاؤها للمحامل تحفظ فى داخل المخازن التى فى القلعة وهناك مجموعة من العساكر السلطانية وبعض المدافع مع أنفارها.

خيبر:

باللغة اليهودية بمعنى قلعة، لأن الأهالى عندما يذكرون قلاعهم يقولون عنها خيابر.

وعلى رواية أن أخا الشخص الذى بنى مدينة يثرب أولاً وهو يثرب وكان يسمى (خيبر) وكان هذا الشخص بانى قلعة خيبر لذا سميت هذه المدينة (بخيبر).

مدينة خيبر:

لما كانت مدينة خيبر تشتمل على مياه جارية ومزارع كثيرة وأشجار النخيل وحقول الشعير والقمح كانت فيما مضى مدينة كبيرة. أما اليوم فهى خالية من العمران، وسكنتها زنوج تسلسلوا من نسل العبيد الذين أعتقوا يبلغ عددهم نحو ألف نسمة.

ولما لم تسلك طرق المياه الجارية من القديم ولم تظهر مجاريها تكونت هنا وهناك برك من المياه الراكدة، ولم يدر سكانها أن جودة الهواء قد اختلت من تعفنات المياه الراكدة فأثرت فى قواهم الجسمية، وانصرف كل واحد منهم إلى غيرها كى ينجو من الحمى وابتعدوا عن وطنهم.

ومازالت علة الحمى تنتشر بشدة فى تلك الأراضى إلا أنهم يروون أن هواءها ومياهها صالحة لسكانها السود. وهذه الرواية تصدق أن الزنوج يعيشون حيث يختل الهواء ويتعفن.

ويأتى إلى القرية فى مواسم الخريف حينما يطيب البلح الكثير من العربان ويقيمون فى داخل القرية وحولها، وعندما ينتهى موسم البلح يعودون إلى منازلهم وينبت فى خيبر القمح والشعير بكثرة.

إذا ما وجد حل للعفونة والتخلص منها أى إذا ما طهرت مجارى المياه التى تعطلت، وفتحت أماكنها التى امتلأت عندئذ يطيب هواؤها، وسيرغب فى سكناها العربان الذين يرغبون فى حياة مدنية ويشغلون بالزرع والحرث عندئذ سيعود لخيبر عمرانها الذى فقدته وإننا نطلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يخلق أسباب ذلك.

الحناكية:

الحناكية قرية تقع على ثلاث مراحل فى الشمال الشرقى للمدينة المنورة.

وإن كانت هذه القرية فيما مضى قرية مشهورة معمورة وكانت لها قلعة صغيرة وعدة منازل.

وهواؤها لطيف، وأراضيها فى غاية الخصوبة وهى فى نهاية حدود الأقطار الحجازية وقطعة نجد.

كانت قلعتها أشرفت على الخراب فعمرت فى ظل عون السلطان وزيدت قوتها العسكرية.

ولما كانت خصوبة أراضيها تامة ولما كانت مياهها فى عمق الأرض البسيطة بقامتين جذبت إليها العربان من الأطراف والأكناف حيث استوطنوا واشتغلوا بالزراعة والحرث راغبين فى حياة مدنية، ومازالوا يأتون إليها.

إخطار:

وستذكر فيما بعد وحسب المناسبة قبائل العربان ما عدا الذين يسكنون فى بلاد الحجاز المشهورة.

بعض أحوال الأراضى الحجازية

ومحاصيلها الداخلية وطريقة معيشة سكانها وصورة إدارتهم

أكثر أراضى الخطة الحجازية عبارة عن الجبال المكونة من الحجارة والوديان الرملية وصحارى مترعة، ومابين الجبال.

ولا تمطر السماء فيها فى أكثر مواسمها، لذلك فمحاصيلها الداخلية ليست بالدرجة الكافية لسكانها، كما أن جبالها وصحاريها غير صالحة لإنبات العشب، وتنمية محاصيل تكفى الحاجة.

وإن كانت فى داخل تهامة وفى الأماكن المستوية من الجبال أراض منبتة ومياه جارية، وإن كان ما ينبت فى هذه الأماكن مشهور فى داخل الأراضى الحجازية، إلا أن ضرورات الأهالى فى الحبوب وغيرها تأتى من بومباى، ومصر والبصرة وبغداد ومحاصيل القطعة المباركة المحلية هى: (البلح، زيت البلسم، الصمغ العربى، سنامكى، الحنة، الخوخ، البرقوق، التفاح، المشمش، الكمثرى، التوت، السفرجل، العناب، التين، اللوز، التمر الهندى، عين الجمل، العنب، الموز، الشمام، البطيخ، ليم البرتقال، الليمون، شمام الشجرة، خيار، الليمون الحلو، الأجور، التين الأفرنكى، الكوسة، الخرشوف، البصل، البامية، الملوخية، الثوم، الطماطم، الفاصوليا، الباذنجان، الكراث، الكرنب، وغيرها ومن الحيوانات الأغنام وسائر الحيوانات مثل (الجمل، المعز، الخيل، الحمار، الفرس، البغل، البقرة الهجين، الثور) ومن **الحيوانات المتوحشة**: (المعز الجبلى، الحمار الوحشى، البقر الوحشى، القرد، الذئب، والغزال، الضبع، والثعلب،

والفهد) ومن الطيور: (الدراج، البط، الدجاج، اللوز، اليمامة، الحجل، النعامة، مالك الحزين، الحبارى، الديك الرومى، الحمام، الهدهد، الغراب، عقاب النسر بأنواعه، وينبت فى جبل كرا (الزيتون البرى، شجر العرعر، اللوز البرى، الياسمين البرى) وفى جهات تهامة أشجار (التمر الهندى، التوت، البلح، والحنة، الطرفاء والبنج)

جبل (كراء):

جبل ضمن سلاسل جبال يطلق عليها (سراة) فى الجهة الشرقية من مكة المعظمة وعلى بعد اثنتى عشرة ساعة منها وقمته ترتفع عن سطح البحر بألفى متر.

وبما أن أكثر أماكن سلسلة جبال (سراة) صخرية تخلو من النباتات والأشجار، إلا أن بجبل كرا غابات جميلة ومياه جارية ومواقع ذو هواء صحى جيد.

ومواسم الحجاز تنقسم إلى قسمين:

أحدهما جاف والآخر ممطر. وإن كان فصل المطر يجعل الأراضى تخضر فجأة، إلا أن هذا الاخضرار لا يدوم طويلاً لسخونة هوائه التى تدوم طويلاً.

والرياح التى تهب فى هذه البلاد شديدة ومضرة للإنسان، إلا أن رياح السموم أكثر ضرراً من الرياح الأخرى.

والعربان الذين يعيشون بين الجبال ولا سيما العربان الذين يعيشون فى سهل تهامة يعيشون بزراعة (الدخن والذرة) والذين يعيشون على الساحل الحجازى للبحر الأحمر يقتصر نشاطهم البشرى على صيد السمك.

وفى البحر الأحمر أسماك غريبة الشكل وأنواع طيوره ضخمة الأجسام وسلاحفه ضخمة. حتى إن أكثر سكان (جدة، رابغ، وينبع البحر) يأكلون المخلوقات البحرية، ولا سيما الأسماك بدلاً من الخبز، ومعيشتهم تتوقف على ما يصيدونه من الأسماك. أما فى سواحل اليمن فليس للأسماك أهمية كبيرة، وما

يصطادونه من الأسماك يخفضونها ويعلفون بها الحيوانات بدلاً من العشب والتبن.

ويُخرج سكان جدة والشواطئ الأخرى أصدافًا من البحر، ويبيعونها للتجار وقد تُعثر فى داخل هذه الأصداف على الدر النادر كما أن اليسر الذى يستخدم فى صناعة المسابيح وفلاتر السجائر يستخرج من هذا البحر.

الوجهة الرابعة

تشتمل على ست صور

تعرف الطرق الرئيسية بالجزيرة

فى تعريف الطريق الذى يقع بين الحرمين والذى يعرف بالطريق السلطانى

بما أن أهل الإيمان الذين يذهبون ويأتون إلى ومن مكة المكرمة لأداء فريضة الحج يذهبون أيضًا لزيارة الحجرة النبوية المعطرة والروضة المطهرة النبوية «على ساكنها أفضل التحية»، ولما كانت الطرق التى تؤدى إلى المدينة متعددة كما أن بعضها مفزع، وغير خال من المخاطر[1]، رأينا من الواجب ذكر الطرق التى بين الحرمين.

الطريق السلطانى:

أول مقر مبيت واستراحة للذين يخرجون من مكة المكرمة القرية المشهورة بوادى فاطمة، وهذه القرية على بعد ست ساعات من مكة المكرمة بسير الجمال، ولها مياه جارية كثيرة وبساتين كثيرة ونخيل وأشجار أخرى وحدائق. وما يباع فى مكة المكرمة من الليمون واللارنج والخضر المتنوعة غالبًا ما تزرع وتنبت فى هذه القرية.

والمرحلة الثانية للخارجين من مكة (بئر عسفان) والاسم الآخر لهذه المرحلة (بئر التفلة). ومرحلة بئر عسفان على مسافة اثنتى عشرة ساعة من وادى فاطمة ومياه آبارها فى غاية الخفة والعذوبة والبئر التى اختلطت مياهها بريق النبى ﷺ فأصبحت أعذب من مياه النيل والفرات والأنهار الأخرى بل تغبطها مياه الكوثر والتى يسميها العرب (بئر التفلة) فى هذا المكان.

(١) ومن الأصول المرعية يجب أن تسير القوافل من الطريق الذى يراه أمير مكة ووالى ولاية الحجاز مناسبًا والعودة من نفس الطريق الذى أتوا منه.

والذين يقومون من بئر التفلة يصلون إلى قرية (خليص) بعد ثمانى ساعات. وتبعد قرية خليص من مكة المعظمة ثلاث مراحل ولها مياه جارية كثيرة وآبار متعددة، وتشتمل على بساتين كثيرة ونخيل والقوافل التى تنتقل بين مكة والمدينة لا تظل فى مرحلة خليص إلا قدر التزود بالمياه ثم تتحرك نحو (قضيمة).

وقضيمة المرحلة الرابعة وبينها وبين خليص اثنتا عشرة ساعة، ولمرحلة قضيمة ثلاث آبار إلا أن مياه آبارها مالحة قليلا لقربها من شاطئ البحر ولما كانت هذه القرية وفيرة الأسماك فالمسافرون يسرون منها.

والذين يقومون منها يصلون إلى (رابغ) على بعد ست عشرة ساعة من قضيمة. وإن كانت المسافة بين مكة المكرمة إلى رابغ تخلو من الجبال المرتفعة، إلا بعض التلال الصغيرة فيمكن أن يرى من أكثر أماكن هذا الطريق البحر.

ومدينة رابغ قريبة من شاطئ البحر، ولما كان الطريق من قضيمة إلى رابغ رمليًا مستويًا فالسير فيه سهل مريح.

والطرق التى من مكة المعظمة إلى المدينة المنورة تتفرع من رابغ، وتتعدد ويطلق على أكثر هذه الطرق زحامًا (الطريق السلطانى).

وأول مرحلة للطريق السلطانى بعد القيام من (رابغ) موقع (المستورة) الذى يبعد عن رابغ ست ساعات.

وهذه المرحلة فى وسط الصحراء التى يطلق عليها (سهل القرد)، ولها بئران أحدهما عذوبته مقبولة والآخر مائلة إلى الملوحة.

وبعد القيام من مرحلة المستورة يوصل إلى مرحلة يقال لها (بئر الشيخ)، ولها اثنتا عشرة ساعة من بئر الشيخ. وبين هاتين المرحلتين بئر منسوبة إلى (ابن حصانى) وهى بئر مشهورة.

صفـراء:

قرية كبيرة وسكانها خمسمائة نسمة وكلهم بدو، وللقرية المذكورة مياه جارية وبساتين متعددة. إلا أن مغروساتها النخيل وأشجار الليمون والحنة.

وبعد صفراء بثلاث ساعات قرية (حمراء) وفيها مثل قرية صفراء مياه جارية وحدائق، ولما كانت هذه القرية تنتج أحسن أنواع الحنة وزيت البلسم فالحجاج والمسافرون يشترونهما من هذه القرية.

إخطار:

لما كان العربان قد تعودوا على خلط زيت البلسم بالصمغ العربى والماء ليبيعوه بثمن رخيص حتى لا يستكثر المشترون ثمنه، لهذا يجب الانتباه لهذا الموضوع. ويعرف الخالص من زيت البلسم عن مغشوشه بإدخال عود فى داخله وإحراق هذا العود بتقريب عود ثقاب منه فإذا احترق ما على العود من الزيت ملتمعًا ثم ينطفئ من نفسه كان خالصًا أما إذا كان الزيت مغشوشًا يحترق مع الزيت العود أيضًا.

والقوافل التى تقوم من صفراء لا تقيم أكثرها فى حمراء، ويسيرون حتى محل يقال له (جوبة جية) فى أول مضيق (جديدة) وما بين هاتين المرحلتين ست ساعات وفى مرحلة المبيت ماء جار أيضًا.

وبعد حوبة جية يذهب إلى مرحلة (بئر عباس)، ومرحلة بئر عباس على مسافة خمس ساعات من جهة المدينة المنورة من (حوبة جية)، وعند الذهاب نحو هذه المرحلة يمر من مضيق (جديدة) المشهور، وبين هاتين المرحلتين قريتان صغيرتان.

والذين يقومون من بئر عباس يصلون إلى (بئر شربوفى) بعد اثنتى عشرة ساعة، وهنا أيضًا بئر ذات مياه فى غاية العذوبة.

والذين يستأنفون السير من بئر شربوفى يصلون بعد أربع ساعات إلى موقع (الشهداء) وفى هذا المكان بئر ذات مياه عذبة.

والمسافة بين هذه المرحلة والمدينة المنورة أربع عشرة ساعة. ويستقبل أهالى المدينة الكرام الحجاج والزوار الواردين من مكة المعظمة فى البساتين التى تسمى (بيار على)، والتى تقع على بعد ساعتين من جهة مكة المكرمة.

وليس النزول والقيام فى هذه المرحلة عادة متبعة، فالجمالون إذا أرادوا يسيرون مبيتين فى جميع المراحل أو يتزودون بالمياه حيث الآبار، ثم يبيتون فى الأماكن الخالية من الآبار. ولكن من العادات القديمة الدخول فى المدينة المنورة فى اليوم السادس بعد القيام من رابغ.

وإن كان الطريق المذكور طريق المحامل الشريفة وقوافل الحجاج من القديم وذات مياه وافرة، وخال من الطلوع والنزول. إلا أنه محاط بسلسلة الجبال من الطرفين ابتداء من مرحلة (بئر عباس) التى مر ذكرها آنفًا، كما أن به مضايق ضيقة وتعود بعض عربان (بنى حرب) سد هذه المضايق معتدين على القوافل التى تمر بها، وينهبون أموال أفرادها بل يسلبون أرواحهم أحيانًا؛ لذا يفضل مواكب الحجاج وقوافل الزوار الذهاب إلى ذلك المكان مضطرين عن طريقى (فرع وغاير) وهذان الطريقان قد افتتحا منذ بضعة أعوام بعون السلطان.

فى تعريف الطريق الذى يطلق عليه (الفرع)

وأحد الطرق التى تفضى من رابغ إلى المدينة المنورة الطريق الذى يطلق عليه (فرع). والمسافرون الذين يخرجون من رابغ بشرط السير عن طريق فرع يصلون أول مرحلة إلى موضع يطلق عليه (بئر رضوان). وهذه المرحلة على بعد اثنتى عشرة ساعة من رابغ ولها بئران مياههما عذبة.

ويروى أن بئر رضوان تبعد عن رابغ ثلاث عشرة ساعة؛ ولكن الصحيح أنها تبعد اثنتى عشرة ساعة فقط. ويقسم بعض الجمالين هذه المرحلة إلى اثنتين، إذ يعدون (ظهر العقبة) المرحلة الأولى و (بئر رضوان) المرحلة الثانية ويبعد ظهر العقبة عن رابغ سبع ساعات.

ويبلغ إلى قرية (أبو ضياعة) بعد بئر رضوان باثنتى عشرة ساعة ويطلق عند البعض على أبى ضياعة (أم ضياعة) ويروون أن الجمال سليمة البدن تستطيع أن تقطع هذه المسافة فى ثمانى ساعات. وهذه القرية ذات مياه جارية وحدائق متعددة، ولكن مغروساتها أشجار النخيل فقط.

والذين يقومون من أبو ضياعة يصلون إلى قرية (ريان). وهى على بعد عشر ساعات من أبو ضياعة. وبين هذه القرية وأبو ضياعة قريتا (أم العيال) و (مضيق) وفيهما مياه جارية وحدائق متسعة.

ويبلغ بعد ريان إلى مرحلة (صمد) على بعد ثمانى ساعات وبئرا (أعضب) و (رخيص) ذواتى مياه عذبة لذيذة بين هاتين المرحلتين.

والذين يقومون من مرحلة صمد يصلون إلى مرحلة (مَجزْ) وهنا حفرة بركة تسمى (غدير)، وعندما ينزل المطر تتراكم مياه السيول فى هذه البركة.

وبعد (مجز) يوصل إلى مرحلة تسمى (بئر ماشى)، وبين هذه المرحلة ومجز اثنتا عشرة ساعة، ولمرحلة (بئر ماشى) بئر ذات مياه عذبة.

وتحتفظ حكومة المدينة المنورة بعدد من عساكر الشرطة فى هذه المرحلة حتى تحمى المسافرين من هجمات أشقياء العربان. والمسافة بين بئر ماشى والمدينة المنورة ثمانى ساعات ويتصل طريق (فرع)، الذى نعرفه بالطريق السلطانى قبل الوصول إلى (بيار على) التى تبعد عن المدينة المنورة بساعتين.

وبعد مغادرة رابغ بأربع ساعات يحيط الطريق من الجانبين إلى المدينة المنورة سلسلة من الجبال ذات مضايق مخيفة، إلا أن قبيلة بنى عوف التى تسكن بجانب هذه الجبال ليسوا من شرار القبائل كقبيلة بنى حرب التى تسكن بجانب الطريق السلطانى، لذا قلما تقع من أفراد قبيلة عوف اعتداءات وظلم على القوافل التى تمر من هذه الطريق؛ لذا تفضل المحامل الشريفة وأكثر القوافل السير فى طريق (فرع).

(١) بلاط ومثنى اسما بلقا الآخران.

فى ذكر طريق المدينة المنورة الذى يسمى بـ (غاير)

والطريق الثالث من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة الطريق الذى يسمى بغاير).

ويمكن أن يوصل من هذا الطريق إلى المدينة المنورة فى خمسة أيام إلا أن المرور من جبل (غاير) المرتفع فى غاية الصعوبة بالنسبة للجمال المحملة عند الصعود والنزول، فكلما كانت الطرق الأخرى مأمونة من تسلط الأشقياء لا يرغب الجمالون فى المرور من هذا الطريق.

مع أن هذا الطريق بالنسبة للطريق السلطانى وفرع أقصر منهما لذا يفضل راكبو الخيول والهجين والمترجلون السير فى هذا الطريق.

ومن الروايات الموثوقة أن سيد البشر ﷺ قد شرف المدينة المنورة فى سنة هجرته الميمونة من هذا الطريق.

وبعد أن يخرج من رابغ ويقطع مسافة اثنتى عشرة ساعة يبلغ إلى مرحلة (بئر مبيرك) وإن كانت فى هذه المرحلة بئر واسعة إلا أن مياهها مالحة قليلاً.

الذين يقومون من مرحلة بئر (مبيرك) يصلون بعد اثنتى عشرة ساعة إلى مرحلة (رصفه) وإن كانت أراضى هذه المرحلة ذات مياه فالحفر التى يطلق عليها (أشمة) تغنى المسافرين عن الآبار.

ومن مرحلة رصفه السالفة الذكر إلى سفوح جبل (غاير) تبلغ المسافة ست ساعات، ويظهر غالبًا فى سفوح هذه الجبال ماء جار.

ويصعد من سفح جبل غاير إلى سطحه فى ثلاث ساعات وفى الجهة الشرقية

على بعد نصف ساعة من سطح الجبل بئر معروفة باسم (رصد). والمسافة بين أول سطح جبل غاير إلى مرحلة (بئر ماشى) اثنتى عشرة ساعة. ويتصل هذا بالطريق الشرقى فى هذا المكان.

والمسافة من بئر ماشى إلى المدينة المنورة ثمانى ساعات وفى هذه المسافة عدة آبار ذات مياه شديدة العذوبة.

فى تعريف الطريق الشرقى بين المدينة المنورة ومكة المعظمة

الطريق الشرقى طريق متسع. وعندما تشتد حرارة الشمس يتسلط أشقياء العربان على طريق (جديدة)، ولقد سارت المحامل الشريفة والقوافل الأخرى من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة وبالعكس من هذا الطريق. ولما كان هذا الطريق يقع على الجانب الشرقى من الحجاز فقد عرف (بالطريق الشرقى).

والمسافرون الذين يخرجون من مكة المكرمة سالكين الطريق الشرقى يصلون إلى قرية (وادى الليمون) بعد مرور أربع عشرة ساعة. ولمرحلة وادى الليمون بئر على بعد أربع ساعات من مكة المكرمة يسمى (برود) ذات مياه عذبة، وفى أغلب الأوقات تتجمع القوافل بجانب هذه البئر ثم تذهب إلى وادى الليمون.

ولمرحلة وادى الليمون مياه جارية متعددة وكثير من حدائق أشجار الليمون واللارنج. ويصل الخارجون من هذه المرحلة بعشر ساعات إلى مرحلة يطلق عليها (ضريبة)، وتوجد بها مياه فى الحفر التى تسمى (أشمة). ويواصل السير من هذه المرحلة إلى (بركة زبيدة) وتبعد هذه المرحلة عن (ضريبة) عشر ساعات، وإن لم تكن لهذه المرحلة بئر مشهورة، إلا أن لها بركة تُملأ بمياه السيول.

والمسافرون الذين يقومون من مرحلة (بركة زبيدة) يصلون بعد اثنتى عشرة ساعة إلى قريتى (حادة وفرع) ولهاتين القريتين آبار متعددة.

وبعد القرى المذكورة مرحلة (السوارقية)، والمسافة بينها وبين قريتى حادة وفرع ثمان ساعات. ولما كانت (السوارقية) ذات آبار متعددة فسادات بنى حسين يسكنون بها. وبعد (السوارقية) يوُصل إلى مرحلة (الحجرية) والمسافة بين

السوارقية والحجرية عشر ساعات وبهذه المرحلة آبار متعددة أيضًا. والذين يقومون من مرحلة الحجرية يصلون بعد اثنتى عشرة ساعة إلى مرحلة (غراب). ومرحلة غراب ذات مياه وفيرة بحيث لو تحفر أى مكان فيها قدر ذراع أو اثنين تتفجر مياه عذبة.

وبعد هذه المرحلة يدخل فى مضيق يسمى (خنق) والمسافة بين مرحلة خنق ومرحلة غراب تدوم ثلاث عشرة ساعة. وفى مضيق خنق بركة[1] متسعة تكونت من مياه الأمطار المتجمعة، ومن هذه البركة إلى المدينة المنورة اثنتا عشرة ساعة.

وإن كان الطريق الشرقى خال من سلاسل الجبال وأكثره أماكن منبسطة إلا أن المسافة التى بين مرحلة (خنق) وبين المدينة المنورة مسافة اثنتى عشرة ساعة محاطة بالجبال كالطرق الأخرى.

(١) ولا تنقص مياه هذه البركة فى أى وقت من الأوقات.

فى تعريف طريق ينبع البحر
ميناء المدينة المنورة

عندما يتحرك الإنسان من ينبع البحر ـ ميناء المدينة المنورة ـ إلى البلدة المسعودة (طيبة) أول ما يقابله (بئر سعيد).

وهذا المكان على بعد ست عشرة ساعة من ينبع البحر به بئر عذب الماء. وبعد مرحلة بئر سعيد إلى قرية (صفراء) على بعد عشر ساعات منها حيث يتصل الطريق السلطانى بطريق (ينبع البحر).

وقد ذكرت المراحل التى بين الطريق السلطانى والمدينة المنورة فى بحث الطريق السلطانى فلا حاجة لتكرارها مرة أخرى. والمسافة بين ينبع البحر والمدينة المقدسة بسير الجمل خمس مراحل.

ولما كان بين رابغ وينبع البحر ميناء آخر يعرف بـ (رايس) فالمسافرون الذين يذهبون بحرًا ينزلون أحيانًا فى ميناء رايس ثم يتجهون إلى المدينة المنورة.

والذين يقومون من ميناء رايس يصلون بعد مرور ثمانى ساعات إلى قرية (بدر) المباركة وبعد خمس ساعات إلى قرية (صفراء) والصحابة الكرام الذين استشهدوا فى غزوة بدر الكبرى مدفونون فى ساحة قرية (بدر) ويتصل طريق ميناء رايس فى قرية صفراء بالطريق السلطانى فلا لزوم لتكرار المراحل التى بعدها.

وما بين المدينة المنورة وميناء رايس طريقٌ منبسط مستوىً يسمحُ بالسفر بالعربات، إلا أن تسلط العربان حال دون استخدام العربات.

فى تعريف الطرق الأخرى
التى تؤدى إلى مكة المعظمة

إخطار:

لمكة المفخمة سبع طرق أخرى. وكانت قوافل الممالك الإسلامية تستخدم هذه الطرق.

١- طريق الشام.

أحد الطرق السبعة المذكورة. طريق (الشام): وكان محمل الشام يسلك هذا الطريق بعد أن يودع أمير الحج قافلة الشام فى الخامس عشر من شوال حسب الأصول من قبل والى سوريا، ومن قبل مشيرية الجيش الخامس السلطانى، وما رتب من موكب عظيم تخرج القافلة بكل عظمتها من الشام إلى (قبة الحاج)، ومن هنا إلى (الكسوة) ثم تأخذ الحجاج المجتمعين فى (مزيريب)، وتنهض متوجهة إلى مرحلة (خان ذى النون). وكان فى الأوائل يطبخ للحجاج حساء الفتة على حساب وقف ابن الحصن فى خان ذى النون، كما كان يؤخذ من الحجاج بعض النقود لتوزيعها على الحراس.

وكانت القافلة التى تقوم من خان (ذى النون) تمر بموقع يدعى (خان الزيت) ويدخلون فى مرحلة (خيمن) وتلك المرحلة المذكورة ما هى إلا قرية ابن تركمان قواص. وكانت هذه القرية ذات مستنقعات كثيرة وكانت فيها أنواع الطيور وعيدان البوص وديدان العلق، وكانت الديدان التى يتعالج بها أهل الشام تحضر من هذه القرية.

والقافلة التى تتحرك من (خيمن) تصل إلى (تل فرعون) ومن هناك تصل إلى موقع (غباغب). وفى غباغب قلعة من آثار السلطان سليم وحمايتها تخص ابن قواص وأحفاده.

وحماية طريق الحج الذى يمتد من (ذى النون) إلى (خيمن) وحراسته خاص كذلك بابن قواص وأحفاده.

والذين يقومون من (غباغب) يصلون إلى ماء (ديلة) ومن هناك إلى (مزيريب) ومن العادات القديمة المكوث قليلاً عند ماء (ديلة) لإراحة الجمال.

ومزيريب اسم بئر مشهورة فى داخل إقليم حوران، وقد بنى المرحوم السلطان سليم بجانب مزيريب قلعة لحماية الحجاج وجعل لحراستها بعض الجنود.

وبما أن هذا المكان مأمون من هجمات العربان واعتداءاتهم فمن العادة أن يقيم الحجاج مع المحمل الشريف فى هذا المكان عدة أيام، ويتاجرون مع التجار الذين يأتون من الأطراف.

والقافلة التى تقوم من قلعة (مزيريب) تصل إلى مرحلة (كتيبة) التى تقع إلى الجنوب قليلاً ولهذه المرحلة آبار كثيرة ومياه جارية، وبما أن هذه المرحلة فى سمت مخالف لا يبيت فيها الحجاج، ويستمرون فى السير حتى (أذرعات).

وأذرعات قرية فى جهة حوران. وإن كان أمام هذه القرية بنصف منزل محل (مبيت) ولما كان بعيداً عن الماء وعن الطريق ومنعزلاً فى مكان مستو وملتقى السيول فلا يبات هنا ويذهب إلى قرية أذرعات.

والقافلة التى تخرج من قرية أذرعات تستمر فى السير إلى (زرقاء) ومن هناك تصل إلى (أزرق). وزرقاء قرية بها مياه جارية وفى أزرق قلعة خربة. ولها كثير من النخيل والمكان الذى تبيت فيه القافلة مياه وفى الشرق الشمالى على مسافة يوم واحد من زرقاء.

والذين يتحركون من أزرق يواصلون سيرهم إلى منزل (عمرى) و (بلقا) ولمنزل عمرى طاحونة ذات حجرين على طريق (دومة) وفى الجهة الشرقية منها يديرها ماء جار يأتى من عمان ويجرى نحو جهة غور بلقا[1] فى أقصى جنوب الولاية السورية. وبين خط العرض الشمالى ٣٣ واثنتى عشرة دقيقة ودرجة واحدة لخط الطول الشرقى، ولكن مرحلتها التى تنزل فيها القوافل عديمة المياه ومنعزلة.

والقوافل التى تتحرك من (بلقا) تصل إلى مرحلة (قطران) بعد المرور من سبع عقبات. وبعد الخروج من هناك يتوصل إلى منزل (الحسا).

وقد بنى السلطان سليمان فى مرحلة قطران قلعة وأرسل خمسة عشر ألف فيلورى؛ لتطهير بركتها التى امتلأت بالتراب واستوت بالأرض.

وعندما لا تجد القوافل ماء فى بركة (قطران) يبيتون فى جسر (لجون) الذى يقع على الطرف الغربى من المرحلة المذكورة وفى جهة الشمال الشرقى من مرحلة الحسا قريتا (كرك وشوبك) ولما تكون قوافل الحجاج فى الحسا ترسل مؤنتهم من هاتين القريتين.

وإن كانت (شوبك) بين الجبال فمياهها الجارية وسهولها كثيرة. وعلى الجبل الذى فى جهتها الغربية خان وبئر وجسر قريب من الخان.

كـرك:

مدينة تابعة لمركز (بلقاء) الشام إلا أن مركز حكومتها فى قرية (الكرك) التى تبعد عن نابلس خمس أو ست مراحل. وأراضيها منبتة وخصبة إلا أن سكانها عربان وعشائر غير متمدنة، ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة ستة آلاف منهم مسلمون والباقى مسيحيون.

والذين ينهضون من الحسا يتجهون إلى (ظهر عنيزة) ومن هناك إلى قلعة (معان). وإن كان الطريق الذى بين الإحساء وعنيزة متعرجًا فإنه ليس بمخيف

(١) بلاط ومثنى اسما بلقا الآخران.

لظهور حدائق عنيزة للعيان من (شوبك). ومرحلة معان تابعة لناحية الشراة وكان هذا المكان قديمًا مأوى ومساكن رجال بنى أمية. وللسلطان سليمان فى هذا المكان قلعة وبئر. وإن لم تكن مياه البئر مقبولة إلا أنها تزيل عطش المسافرين.

ويتجه من قلعة معان إلى (ظهر العقبة) ومن هناك إلى (ذات الحج). واسم ظهر العقبة الأخر (عبادان). وإن كانت مرحلة عديمة المياه إلا أن بلح (طبيليات) المشهور ينتج هنا. واسم ذات الحج الآخر «حجر» وللسلطان سليمان قلعة أخرى فى هذا المكان، ومياه هذا المكان تتكون من الأشم وسكان القلعة المذكورة يجرون مياهها، ويزرعون فى مجاريها بذور البساتين حيث تنمو أجود أنواع الفواكه، وأنواع البلح البرى فى هذا المكان. والحجاج الذين يقومون من هذا المكان يتجهون إلى قلعة (قاع البسيط) ومن هناك إلى تبوك.

ومرحلة قاع البسيط فى مكان رملى واسمها الآخر (عرابد) والقمة التى يطلق عليها العرب فى وسط هذا المكان الرملى هى (شرورا) ومنزل تبوك يكثر فيه البلح وللسلطان سليمان قلعة حجرية أخرى فى هذا المنزل.

معجزة:

أخذ قائد المجاهدين النبى ﷺ فى غزوة تبوك الجليلة من ماء نهر تبوك ونثره إلى نهير راكد المياه ففاض ذلك النهر، وأخذت تجرى مياهه كالشلالات وماتزال مياهه جارية إلى الآن. وبالقرب من تبوك[1] غدير كبير. والذين يتحركون من تبوك يذهبون إلى منزل (مقابر قلندرية) والذين ينهضون منه يذهبون إلى مرحلة (أخيضر)[2].

(١) اسم تبوك الآخر (البلح العاصى).

(٢) منزل أخيضر فى منتصف طريق مكة المعظمة والشام.

والمقابـر:

ومقابر القلندرية ربوة صغيرة عديمة المياه. وأخيضر منزل متسع فى وسط الجبال وقلعته تحت إدارة حكومة الشام. وهناك ثلاث برك متصلة بالقلعة وسكان القلعة يخرجون المياه من الآبار التى فى داخل القلعة ويملئون تلك البرك.

وبنى قلعة أخيضر (طريان بن قراجا) شيخ عربان قبيلة بنى حارثة بناء على الأمر الذى صدر لوالى الشام مصطفى باشا فى سنة ٩٣٧ فى أوائل جلوس السلطان سليمان. لأن عربان بنى لام وبنى عقبة كلما كانوا يرفعون راية العصيان كانوا يسدون البئر ويفرغون البرك.

وكانت القوافل تتجه من منزل أخيضر إلى (بركة المعظم). ومن هناك إلى مرحلة (مغارش الزير) وبعد ذلك يبلغ إلى (جبل الطاق).

بركة المعظم:

بركة المعظم حوض كبير حفر فى وسط الصحراء ليملأ بمياه السيول، وتظل من غير مياه عند انقطاع الأمطار. ويروون أن هذا الحوض من آثار الملك المعظم عيسى من ملوك بنى أيوب.

مغارش الزير:

ويطلق عليها أيضًا (فرح وأفرع)، وهى تبعد عن جبل الطاق بنصف مرحلة فقط.

جبل الطاق:

وهو الموقع الذى عقرت فيه ناقة صالح (عليه السلام) وبعد أن تصل قوافل الحج إلى هناك تتجه شرقًا نحو (مبرك الناقة)، ثم من هناك إلى حجر.

الحجر:

اسم حجر الآخر (قرى صالح) وهذه القرى عبارة عن المنازل المنحوتة فوق الجبل وتلال الرمال. وإن كان فى هذا المنزل آبار كثيرة إلا أن شرب مياهه منهى عنه.

وقرى صالح موضع ذو جبال منخفضة[1] ورملية وجافة، وعندما مر النبى ﷺ بهذا المكان وهو ذاهب إلى غزوة تبوك نهى عن شرب المياه من آباره وأمر بالمرور منه سريعًا.

والحجر الأراضى التى يطلق عليها (ديار ثمود) وهناك منازل منحوتة فى هذا الجبل، والبقعة الشريفة التى يقال لها مسجد صالح محفورة فى مكان مرتفع كالصفة. وحول هذا المسجد الشريف أشياء عجيبة غريبة ظلت من عهد ثمود.

ويطلق على الجبل الذى فيه مرحلة حجر (أنان) وكان حضرة صالح بن عبيد بن أسفان ما شيخ بن عبيد بن ثمود[1] بن عابر بن أرم بن سام وأبناء عمومتهم ثمود جديس وعاد يسكنون بجوار الحجر، ويعبدون الأصنام فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ صالحًا نبيًا لهم يدعوهم إلى التوحيد. فطلب هؤلاء من صالح أن يخرج ناقة من صخرة.

وبناء على طلبهم خرج من الصخرة ناقة وولدت، وأصر بعضهم على كفرهم، وعينوا يومًا للناقة تشرب فيه، ولما كان رئيسهم (قدار) قد عقر ناقة صالح دخل ولد الناقة فى الصخرة واختفى، فأخبرهم بعد ذلك صالح أنهم سيهلكون بعد ثلاثة أيام، وانسحب صالح ـ عليه السلام ـ إلى بلده (الرملة) الفلسطينية حيث استوطن هناك.

وفعلاً أخذت الحجارة تنزل من السماء والعذاب بعد مرور ثلاثة أيام كما أخبرهم صالح، وهناك قوم ثمود كما ذكر فى الصورة الثانية من الوجهة الأولى.

وتذهب القافلة إلى نصف منزل من الناحية الجنوبية من مغارش الزير، أى تذهب إلى المكان الذى ثقلت فيه ناقة صالح ثم ينزلون من هناك إلى الحجر الذى فى الجانب الشرقى من مغارش ويمرون من هذا المكان صائحين ضاجين حتى لا يسمع صوت الناقة التى فى داخل الصخرة، لأن الجمال التى تسمع صوت الناقة تبرك رأسًا ولا تقوم بعد ذلك أبدًا.

(١) وقبائل الأفراد الذين ينتهى نسبهم إلى أبناء عم ثمود ينسبونهم إلى ثمود.

العـلا:

وتذهب القافلة التى تقوم من الحجر إلى موقع (العلا) فى الجهة الجنوبية لديار ثمود بنصف منزل.

والعلا تبعد عن المدينة المنورة ست مراحل، وتتبع المدينة من الناحية الإدارية، ولها مياه جارية وحدائق وقلعة. والأشياء فيها رخيصة. وكان السلطان سليمان قد جدد قلعتها. إلا أن بعض العربان نهبوا البلح فشكا سكان القلعة ذلك لوالى الشام؛ وبناء على ذلك بنى حصنًا ووضع نظامًا يأخذ بمقتضاه من كل نخلة درهم غلة، لينفق على العساكر. ويحكى أن الغلة رفعت فيما بعد إلى أربعين درهمًا على كل نخلة.

والذين يقومون من (العلا) يذهبون إلى (قطران أو طوامير) وهذا المكان عديم المياه وذو حجارة وصخور وصعب الاجتياز.

ومن هناك يبلغ إلى (شعب النعام) وإن كان هذا الموقع من غير مياه إلا أن مياه المطر المتراكمة حول الطرق تفى بحاجة الحجاج.

ويتجه من (شعب النعام) إلى مرحلة (هدية) ويحصل على المياه فى هذه المرحلة من الأشمات ولما كانت أعشابها (سنامكى) فهى تسبب الإسهال.

منزل الفحلتين:

وبعد مرحلة الهدية يوجد منزل (الفحلتين)، ويشمل منزل الفحلتين على ربوتين صغيرتين، وهو منزل خال من المياه وبجانبه جبل مرتفع فوقه حصن متين.

وبعد القيام من منزل (الفحلتين) يُتجه إلى (وادى القرى)، وبعده إلى (بيار حمزة) ومن هناك إلى المدينة المنورة[1] وفى النهاية إلى (بيار على).

ولا يوجد ماء فى وادى القرى إلا أنه مكان ذو أحراش وأشجار، و (بيار

(١) يوصل من الشام إلى المدينة المنورة فى ٢٤٧ ساعة فى اليوم الثالث والعشرين من ذى القعدة من كل عام.

على) عبارة عن عدة آبار منسوبة إلى سيدنا على ـ رضى الله عنه ـ وعمق هذه الآبار ثلاثة أبواع.

ولما كانت هذه المرحلة ميقات الإحرام، يحرم الحجاج فيها.

قبور الشهداء:

وتصل القافلة التى تتحرك من أبيار على إلي قبور الشهداء وبعدها إلى (جديدة) و (قبور الشهداء) مكان بين جبلين وتؤخذ مياهه من غدير يتكون من مياه الأمطار وعند انقطاع الأمطار يجف الغدير.

وجديدة قرية صغيرة فوق ربوة بين جبلين. ولها مياه كثيرة وحدائق وبساتين وبلح كثير وشمام وبطيخ. ويذهب الذين يقومون من جديدة إلى (بدر)، ومن هناك إلى (قاع البرو) ومن هناك إلى (رابغ).

وبين قرية جديدة ومرحلة بدر عدة قرى معروفة باسم (وادى خضر) ولناحية بدر مياه جارية وحدائق وبساتين مثمرة.

قاع البرو:

وقاع البرو سهل رملى خال من المياه. وإن كانت رابغ فى سهل رملى إلا أنها قريبة من البحر، لذا تخرج من تحت الرمال مياه عذبة حيثما حفرت. وله ابار، وبلح وبساتين كثيرة. والسمك الذى يسمى (علف الغنم) يخرج من هناك. وتسكن رابغ طائفتان إحداهما (روى) والأخرى (روى جماع) ولهما صرة خاصة.

طارق:

ويتجه من رابغ إلى (طارق)، ومن طارق إلى (عقبة السويق)، والقرى التى تسمى بلاد الطارق فى الجهة اليسرى من مرحلة طارق وتلك البلاد المذكورة فوق جبل معمور بالمزارع وأشجار اللوز.

وعندما ينزل الحجاج إلى مرحلة طارق فأهالى قرى بلاد الطارق يبيعون للحجاج اللبن الزبادى والزيت والحبوب المختلفة.

عقبة السويق:

وعقبة السويق فى طريق خليص. وما بين تلك العقبة المذكورة ومرحلة طارق فى غاية الوعورة وذات حجارة وصخور، إلا أن جهة العقبة المكية مستوية ولها بساتين كثيرة، وبئر وبركة جارٍ ماؤها.

ولما كان عربان (زبيد) ساكنين فى هذه الأمكنة فإنهم يأخذون الصرر خاصة حتى لا يعتدوا على القوافل.

عسفان:

والقوافل التى تتحرك من عقبة السويق تصل إلى المرحلة التى يطلق عليها (عسفان). وعسفان من الآبار المأثورة النبوية. وفى هذا المكان آبار كثيرة وبعض منها يوجد فى (مدرج عثمان) الذى يصادف الجهة الشرقية (لبطن مر).

أبو عروة:

وبعد أن تقوم القافلة من مرحلة عسفان تصل إلى قرية (أبو عروة) ومن هنا يُدخل إلى مكة المعظمة[1]، أو تقوم القافلة من عسفان، وتستمر نحو طريق البرقاء ومن هنا تدخل إلى مكة المكرمة عن طريق (وادى المر)[2].

والطريق المذكور على الجهة الشرقية التى عرفت إلى الآن. والذين يرغبون فى أن يسلكوا هذا الطريق يخرجون من الشام إلى (أره بانى بصره) ومن هناك إلى قلعة (الأزرق) ومن هناك إلى منزل (قراقر) ثم إلى مرحلة (قلته) ومن هذه المرحلة إلى (صبيحة) وبعدها إلى (تيماء) ومن تيماء إلى منزل (وادى الصوان)

(١) يوصل إلى مكة المكرمة من المدينة المنورة فى مائة ساعة وست ساعات.
(٢) والطريق من المدينة إلى هذا المكان تكتنفه المخاطر.

ومن هناك بطريق العلا السالف الذكر يذهبون إلى مكة المكرمة. من الشام إلى قلعة أزرق ومن هناك إلى مرحلة قراقر خمسة منازل وفى هذه المنازل قليل من الماء والبلح.

ومن قراقر إلى قلعة منزلان ومن قلعة منزلان إلى صبيحة كذلك منزلان ومن صبيحة إلى تيماء ثلاثة، ومن تيماء إلى العلا أربعة منازل ومن المحتمل أن يوجد مقدار من الماء فى كل منزل. وهذا الطريق عشر مراحل والمسافة بين مرحلتين سبعة وعشرين ميلاً، ومن مكة إلى المدينة طريق آخر وغالبًا ما يسلك أهل المدينة هذا الطريق.

سمحان:

والذين يسلكون هذا الطريق يقومون من آبار على إلى (سمحان)، ومن هناك إلى (جبل مفرح) وبعده إلى (قريش). ومن قريش إلى (قبور الشهداء) ومن قبور الشهداء إلى (روحاء)، ومن هناك إلى (شعب)، ومن شعب إلى (تازى)[1] ومن تازى إلى (خيف بنى عمرو)، ومن هناك يمرون من طريق (الوادى الصغير) إلى حيث يقصدون.

وسمحان موقع بين جبلين، كما أن مفرح جبل صغير. وعندما تصل القافلة إلى هذا المكان يأخذ الجمالون من الحجاج هدايا نقدية. وهذا من العادات القديمة وفى منزل روحاء بئر عميق.

و(شعب): بين جبلين وماؤها فى جهة الجبل.

و(خيف بنى عمرو) عبارة عن عدة قرى فى داخل واد طويل بين جبلين. ولهذه القرية مياه جارية وآبار عذبة المياه ونخيل. وسكان هذه القرى من قبائل بنى عمرو وبنى سالم، وأفراد قبائلهم ألف رجل شجاع ويعدون من مهرة رماة السهام، كما أنهم يمتازون بالغنى والثروة.

(١) والطريق الذى يمتد من المدينة إلى هذا المكان تحيط به المهالك والمعاطب.

وادى الصغير:

وتقع مرحلة وادى الصغير على سفح جبل، ولهذه المرحلة مياه جارية وآبار ذات مياه عذبة ونخيل مثمر، ومياهها ألذ من مياه بنى حنيف وبدر.

وتسكن فى هذه المرحلة طائفة من أشراف الزيدية يحرسون المارين والعابرين من اعتداء العربان، ويأخذون الصرر من الدولة مقابل هذه الخدمة.

٢- طريق مصر:

المرحلة الأولى لقافلة مصر (بركة الحاج):

يصطحب أمير حج محمل مصر الشريف موكبًا عظيمًا من القاهرة، ويذهب إلى مرحلة (بركة الحاج) وهنا ينضم الحجاج المصريون إلى القافلة، ويتحرك الجميع متجهين إلى منزل (هدف البويب). وهدف البويب مرحلة ضيقة بين جبلين فى الجهة اليمنى منها ربوة عالية.

والقافلة التى تتحرك من (هدف البويب) تبيت فى منزل الحمراء، وفى هذا المنزل فسقية للحجاج وبعض المبانى.

وبعد منزل الحمراء منازل (نخيل غانم) وبعده منزل (بركة العجرود).

بركة العجرود:

وبركة العجرود المنهل الأول. ولهذا المنزل ماء يجرى نحو الوادى أحيانًا، وخان ينسب للملك (قانصوه الغورى) وثلاث فسقيات خاصة بالحجاج. والمكان الذى يسمى (عيون موسى) أمام السويس هو محل النزول.

وبعد ما تقوم قافلة مصر من مرحلة (بركة العجرود)، تنزل فى منزل (منصرف)، ومن هنا إلى (قبيبات).

منصرف:

وكان فى مرحلة منصرف بعض الحفر، ويظن أن هذه الحفر كانت محاولات

ملوك الأسلاف ليوحدوا البحر الأبيض بالبحر الأحمر والآن تمر من هناك قناة السويس.

قبيبات:

ووجه تسمية قبيبات بهذا الاسم وجود بعض التلال حولها. وبعد منزل قبيبات يُبات فى مواقع يطلق عليها (أول التيه) وبعده (وسط التيه) واسم وسط التيه الآخر (الروض الجميل).

أول التيه:

والمرحلة التى يطلق عليها (أول التيه) مبدأ تيه بنى إسرائيل، والتيه المذكور صحراء متسعة على يمينها (جبل الطور) وعلى شمالها جبل العريش)، وكل من عرضها وطولها أربعون فرسخًا، ومن الصعب الحياة فيها شتاء لشدة برودتها وصيفًا لشدة حرارتها كما أنها خالية من المياه. ولما تحرك بنو إسرائيل تائهين أربعين سنة بين هاتين المرحلتين فسميت (تيه بنى إسرائيل).

وبعد وسط التيه تأتى مراحل (بطن النخيل) وبعدها (وادى النعمان) وبعدها (وادى القريض). والاسم الآخر لبطن النخيل (وادى التجر) ولها بئر واحدة وقد بنى بها ملك مصر (قانصوه الغورى) حصنًا وفسقية وقام أمير أمراء مصر على باشا بتوسيع الحصن والنافورة.

ويملأ حراس الحصن الفسقية المذكورة وحوضها بمياه البئر ويدفعون عنها العربان ممَّن يريدون أن يفرغوا الحوض، والقافلة التى تقوم من (وادى القريض) تنزل فى منزل (أبيار علاتية)، ومن هناك فى (عراقيب بغلة) القريبة من منزل (ملاحة)، ومن هناك إلى مرحلة (رأس الركب) القريبة من منزل (صقارات)، ومن هذا المنزل إلى منزل سطح العقبة.

أبيار علاتيه:

وتقع مرحلة (أبيار علاتية) فى صحراء واسعة مستوية فى نهاية منحدر طويل

ولها بئران تنسب إحداهما إلى (بيرة) والأخرى إلى (علاتى) وحوض يملأ بماء الأمطار.

رأس الركب:

ويذهب الذين يقومون من مرحلة (رأس الركب) إلى سطح العقبة والذين يقومون من هناك إلى مرحلة يقال لها (منزل) ثم إلى منزل (ظهر حجار) من منحدر ذو حجارة، والذين يتحركون من هناك يذهبون إلى (جرفين)، ومن هنا إلى (شرفة بنى عطية) التى تشتهر بكثرة حطبها ورخص ثمنه ثم يبيتون فى منزل يطلق عليه اسم (مغارة شعيب).

والاسم الآخر لسطح العقبة عقبة (أيلة) وهناك خرائب مدينة كبيرة وحولها قرية لعربان (الحويطات).

منزل:

وإن لم يكن ماء للشرب حيث ينزل الحجاج، ولكن على بعد ميل منها بئر عذب الماء وأشجار النخل.

ومرحلة (منزل) فى ربع المسافة بين الطريق الذى بين مكة المكرمة ومصر. وهو منزل ذات مياه عذبة كثيرة وهو على شاطئ البحر، فجبل الطور على يساره ويمتد قدر ميلين وفى نهاية هذا الجبل منحدران وممر ضيق وعدة آبار ذات مياه عذبة.

مطلات:

ومرحلة مطلات تقع بين جبلين ومسكن جماعة من بنى لام بين هذين الجبلين.

مغارة شعيب:

ومرحلة مغارة شعيب موضع ذو مياه عذبة فى الحفر وذو أشجار يقال لها (أثل مقال)، وفى هذا المكان بعض اللوحات كتبت عليها أسامى الملوك.

ويُسار من مغارة شعيب إلى (قبر الطواشى) ثم يبات فى مرحلة يقال لها (عيون القصب).

عيون القصب:

وعيون القصب واد ذو مياه كثيرة وأعواد وفيرة وحرارة شديدة. ويحكى أن كثيراً ممن يوجد هناك يتعرضون للموت فجأة. وفى محل قريب من ساحل البحر لهذا الوادى قبر ينسبه الناس إلى أحد أبناء إبراهيم عليه السلام.

وبعد القيام من عيون قصب يوصل إلى مرحلة يطلق لها (شرم)، وبعد القيام من الشرم إلى منزل (مويلحة) ومنه إلى (بطن كبريت)، وبعده إلى منزل (قبر الشيخ الكفافى).

شرم ومويلحة:

وشرم مكان قريب من البحر ويطلق على الجبل الذى على يمينه (إشارة). ولما كانت (مويلحة) على شاطئ البحر فمياهها تميل إلى الملوحة. وكان الملك قايتباى قد نزل فى هذا المكان واستراح لذا يطلق عليها (دار قايتباى) أيضًا.

بطن كبريت:

وأول (بطن كبريت) فى غاية الضيق طريقها حجرى وغير مستو والذين يقومون من مرحلة الشيخ الكفافى، يسيرون إلى منزل (أزلم)، ومن هناك إلى (سماق رخانين) ومن هناك إلى ساحة (إسطبل عنتر) ومن هناك إلى (شريت) الذى فى صحراء واسعة، وبعده إلى مرحلة (الوجه).

ومرحلة أزلم هى الربع الثانى من طريق مكة المعظمة، وأرضه مجدبة ومياهها مالحة ونباتاته سنامكى ويقع بين جبلين.

ومنزل رخانين قريب من رخانين فيحرم حجاج مصر ابتداء من هذا المكان.

اسطبل عنتر:

صحراء بين الجبال ذات مياه عذبة. والوجه واد لا مثيل له من حيث وفرة

آباره ذات المياه العذبة وحوض كبير. وقد جدد الحوض المذكور والى مصر إبراهيم باشا سنة ٩٣١، ويملأ كلما تمطر السماء وتأتى السيول.

الوجـه:

مدينة صغيرة فى الجهة الغربية من المدينة المنورة وبها مائتا منزل وعشرون دكانًا. وستة أكشاك للحجر الصحى وجامع ودائرة حكومية وقلعة، وكانت تحت إدارة المدينة المنورة. ولما كانت فى طريق محمل مصر فقد تركت إدارتها مؤقتًا للخديوية المصرية، ولكن حراسة قلعتها تابعة لمجموعة من الجنود السلطانية وخمسة عشر جنديًا من المدفعية، وإدارة المدينة فى يد قائم مقام مصرى.

والقافلة التى تقوم من الوجه تنزل فى (بئر القروى) ومن هناك إلى (حرير) ومن هناك (حوراء) المشهورة بانعدام مياهها ومن حوراء إلى (عقيق) وبعده فى (صحن بياض).

صحن بياض:

ومنزل صحن بياض منزل رملى ذو حيات وحشرات مؤذية كثيرة ومخيف الأطراف.

ويذهب من صحن بياض إلى (نبعاء) ومن هناك إلى (طراطير الراعى) ومنها إلى (وادى النار).

وادى النار:

ووادى النار واد رملى ذو حجارة بين الجبال. ولما كان لهذه المرحلة سبع حجارة ضخمة فقد أسموها (الوعرات السبعة) أيضًا ومرحلة نبعاء ذات مياه عذبة واسمها الآخر (فقاع الحجار).

ويأتى بعد وادى النار (حجراء) من أعمال ينبع ومن بعدها (جبل حمر) وبعدها (وادى تيماء) وبعدها (جبل الزيت).

وبما أن جبل الزيت يشرف على ينبع فحاكم ينبع يستقبل المحمل الشريف فى هذا المكان، ويصلى على السجادة التى تفرش أمام جمل المحمل ركعتين من الصلاة حسب العادة.

والقافلة التى تقوم من جبل الزيت تتجه إلى (ينبع)، وبعدها إلى (دهناء) وبعدها إلى قرية (عديبية) ومنها إلى (واسط) ومنها إلى (بدر) ومن بدر إلى (خيب البز) وهى صحراء واسعة، وبعدها إلى (عتيق) ومن عتيق إلى (عقبة ودان) ومن عقبة إلى (رابغ)، ومن هناك يُسلك الطريق المشهور ليكون الوصول إلى مكة المعظمة.

وكان محمل مصر فى الأوائل يتخذ هذا الطريق طريقًا لسيره. ولكن الآن يحتفل بالمحمل الشريف فى ميدان محمد على فى القاهرة حيث يسلم المحمل من قبل خديوى مصر إلى أمير الحج ويرسل بالقطار إلى مدينة السويس، ومن هناك يرسل بباخرة خاصة إلى جدة. ولكنه يعود من طريق مصر الذى وصفناه.

٣- عدن ثالث الطرق المفروضة:

منزل القافلة التى تخرج من مدينة عدن الأول هو (لحج) وثانيها (يكرد) وثالثه (تعز) ورابعها (كرايجة) وخامسها (وادى الحسناء).

والقافلة التى تقوم من وادى الحسناء تنزل فى حيس ولما كانت خطة عدن تحت الإدارة العثمانية فقد كان محمل صنعاء يخرج من حيس.

بداية محمل اليمن وانقطاعه:

فى سنة ٩٦٣ رتب والى اليمن الوزير مصطفى باشا محملاً بعد أن استأذن مقام الخلافة باسم صنعاء اليمن ليرسله إلى مكة المعظمة، ولما صدر الأمر السلطانى أرسل المحمل الذى رتبه إلى مكة المكرمة. ولما وصل المحمل المذكور إلى مكة المكرمة استقبله الشريف حسن ـ رحمه الله ـ فى (بركة ماجن)، ألبس أميره الخلعة وأدخل المحمل الشريف، وأنزل فى ميدان المعالى. وبعد ذلك أرسل

المحمل كل سنة إلى سنة ١٠٤٩، ولكن بناء على الفتنة التى حدثت خلال تلك السنة انقطع ولم يرسل بعد.

والقافلة التى تقوم من (حيس) تصل إلى (زبيد)، والموقع الذى يطلق عليه (مخا) يقع على الجنوب الشمالى لهذا المنزل.

والقافلة التى تتحرك من زبيد تنزل فى (رفع) ميقات حجاج زبيد ومن هناك تسير إلى (بيت العقبة الصغير) ومنه إلى (قطيع) ومن بعده (إلى المنصورية) ومنها إلى (قلعة فراوع) ومن هناك إلى (غاغية) وتتزل بعد ذلك فى (بيت الفقيه الكبير).

ويأتى حجاج صنعاء أيضًا بطريق (حباب، طويلة، بلاد بنى الخياط، بلاد بنى الأهلية) وهنا يستقيمون فى الطريق. والقوافل التى ترد من أى واحد من هذين الطريقين تنزل بعد بيت الفقيه فى (صعولب) وبعدها فى (دومة) وبعدها فى (حيران) وبعدها فى (عالية) وبعدها فى (أبو عريش) وبعدها فى (سلامة) وبعدها فى (ربيش) وبعدها فى (نماو) ومن نماو فى (عتود) ومن عتود فى (شفيق) ومن شفيق فى أبيار ومن بعد ذلك فى (دهيان).

وفى مرحلة أراضى (دهيان) تكثر شجرة يقال لها (شجر المقل) وتنزل قافلة الحجاج من دهيان فى منزل بركة. وهو من جملة آثار ملوك بنى رسول وعمرو بن منصور ومن هناك إلى مرحلة شفق. ومن هناك تنزل فى منزل (قنونا).

وهذا المنزل واد ذو مياه كثيرة واسمه الآخر (الواديين).

والقافلة التى تقوم من مرحلة قنونا تواصل السير إلى (ليثه)، ومن هنا إلى منزل (هصم) المشهور بغزارة مياهه، وبعد هذه المرحلة تصل القافلة إلى منزل (سعدية) ميقات سكان تهامة واليمن.

ومرحلة (سعدية) كثيرة المياه وبعيدة عن منزل (يلملم) مقدار ثمانية عشر ميلاً، فالقوافل التى تقوم من هناك تصل إلى منزل (أيدر).

ومنزلا أيدر، وأم بيضاء داخل الميقات (مرحلة) وهما مرحلتان ذواتى مياه وافرة، وعندما ينُهض من هناك يوصل إلى (بيضاء) ومن بيضاء إلى (أم قرين) وهى ذات مياه غزيرة، ومن هناك إلى مكة المعظمة.

وهناك طريق آخر لحجاج عدن وصنعاء للسير بطريق نجد واليمن، والقافلة التى ترغب فى السير من هذا الطريق عليها أن تخرج من عدن وتسير حذاء سفح الجبل نحو الشمال، وفى أثناء الطريق يتلاقون بحجاج صنعاء ويسيرون من أعلى صعدة إلى الطائف ومن هناك إلى مكة المعظمة.

وفى جهة عدن طريق آخر، فعندما يُترك عدن يمُر بالبلاد المكرمة إلى (قطب) ومن هناك إلى (حقب)، وبعده إلى (دمت) ومن هناك إلى (شلالة) وبعده إلى (بوريم) ومن هنا إلى (زمار) ومن زمار إلى (زراج) ومنها إلى (خزف) ومن هناك إلى (سيان) ومن سيان إلى صنعاء ثم ينضم إلى حجاج صنعاء فى يسار الطريق المستقيم.

وحجاج شحر يذهبون عن طريق البر إلى حضرموت ومن هناك إلى صنعاء، وهنا يتحدون بحجاج صنعاء ويخرجون إلى الطريق. ومن شحر إلى حضرموت خمسة منازل ومن حضر موت إلى صنعاء أربعة منازل.

وحجاج ظفار الذين يريدون الذهاب إلى صنعاء يصلون إليها بعد قطع خمس عشرة مرحلة وبعد ما ينضمون هناك إلى الحجاج الأخرين يواصلون سيرهم إلى مرحلة (زيد) ومن هناك إلى (أيافث) ومن هناك إلى (خيوان) ومن خيوان إلى (أعمش) ومن هناك إلى (عرف) ومنها إلى (هجر) ومن هجر إلى (سروج) ومن هناك إلى (شج) ومن شج إلى (كشب) ومن هناك إلى (أبيات) ومن هناك إلى (جرم) ثم إلى (حسن) ثم إلى (نيش) ومن هناك إلى (بنيال) ثم إلى (وبيى) ومنه إلى (كدمى) ومن كدمى إلى (صفر) ومن صفر إلى (بوى) ومن بوى إلى (عتيق) ومنها إلى (جدر) ومن جدر إلى (عمر) ومن عمر إلى مكة المفخمة.

٤- طريق عمان:

الطريق الرابع من الطرق السبعة المبسوطة هو طريق عمان يسير حجاج عمان من الحصن إلى (نزوى) ومن هناك إلى (عجلة) ومن هناك إلى (عضوة) ومنها إلى (بئر السلاح) ومن هناك إلى مكة المكرمة.

والطريق المذكور من الحصن إلى مكة المعظمة تسع وعشرون مرحلة. وأربع مراحل من هذه المراحل يتزود فيها من المياه قدر دفع الحاجة لأنها نادرة المياه، أما المراحل السبع عشرة خالية من المياه لأنها أرض رملية، لذا يفضل حجاج عمان طريق البحر.

٥- الطريق الخامس طريق الحسا:

من طرق مكة المعظمة السبعة طريق (الحسا) والقافلة التى تسلك هذا الطريق بعدما تخرج من الحسا تذهب إلى (جود) ومنها إلى (ضان) ومنها إلى (دهناء) ومنها إلى (دحلمى) وبعده إلى (جبل أبو عرب) ومنه إلى (ملهم) ومنه إلى (جعر) ومنه إلى (ربض) ومنه إلى (الدرعيه) ومنه إلى (الحيسية) ومنه إلى (مراه) ومنه إلى (شعراء) ومنه إلى (جنايح) ومنه إلى (مرقب) ومن هناك إلى (مخنا) ومنه إلى (عبل) ومنه إلى (زكيه) ومنه إلى (ذات عرق) وبعد هذه المنازل يكون الوصول إلى مكة المكرمة.

٦- الطريق السادس طريق البصرة:

من الطرق التى تفضى إلى مكة المكرمة طريق (البصرة). والقافلة التى تخرج من البصرة تنزل فى (الدرهمية) التى كانت تسمى البصرة القديمة، ومن هناك إلى (صفوان) ومن هناك إلى جهر.

والقافلة التى تقوم من جهر تتجه إلى (إضافا) التى تعرف بأنها كان فيها حصن موسى وبعدها تمر بـ (ماو) وبعده بـ (عالج الصغير) ومن هناك إلى منازل (دجانى) ذات المياه الوفيرة، ومنه إلى (صدير) ومنه إلى (وشم) ثم (سر) وبعده

إلى (جماين) الذى يعد ثلاثة منازل، ثم تنزل إلى (مران) لكن هذا الطريق طريق الصيف. والسير فى هذا الطريق شتاء مستحيل، وتنزل قوافل الشتاء من (عالج الصغير) إلى (عالج الكبير) وهنا يتفرع الطريق إلى فرعين أحدهما طريق الصيف والآخر طريق الشتاء.

وتسير القوافل من هناك إلى (شوم) وبعده إلى (قصم نميرى) الذى يعد منزلان، ومن قصم نميرى إلى (رسة) ومن هناك إلى (ضربة) ومنها إلى (مران).

والقوافل التى تتحرك من مران تتجه إلى (حر) ومنه إلى (ذات عرق) ميقات حجاج نجد، ومن هناك إلى (بستان بنى عامر) ومن هناك تصل إلى مكة المكرمة.

٧- الطريق السابع طريق بغداد:

من طرق مكة السبع المشروحة طريق بغداد، وتخرج قافلة بغداد من بغداد وتنزل على ربوة (صرصران). وأمراء الحج لقوافل بغداد ومحاملها يمكثون قليلاً فى هذا المنزل انتظاراً للحجاج الذين سيينضمون للقافلة. والقافلة التى تقوم من هناك تتجه إلى ربوة (قراشر) وبعدها إلى (شط الفرات) ومنه إلى (الكوفة) ومن هناك إلى (مشهد على) الذى يقال له (سد بيداء النجف) ومن هناك إلى (معتب) ومن معتب إلى (فرع) ومنه إلى مسجد (سعد الفزارى) ومنه إلى (قاع الرمال) ومنه إلى (بارطان) الذى يسمى (قبة العبادى) أيضًا والذى تكثر فيه البرك. ومنه إلى (ثعلب) حيث تتلاقى مع قافلة واسط.

وتخرج قافلة (واسط) من (واسط) وتواصل السير إلى مرحلة (شعشع) ومنها إلى (عيص) ومنه إلى (ذات معين) ومن هناك إلى (شاهى) ومنه إلى (أحادى) ومنه إلى (عوج) ومنه إلى (سوى) ومنه إلى (ثعلبى) ومنه إلى برك (خريم) ومنها إلى (حقوقية فيد) وهى ذات مياه جارية. ومن هذا المنزل إلى برك (شور) ومنها إلى (شحر) ومن هناك يتفرع طريق إلى المدينة.

والقافلة التى تقوم من هنا تتجه إلى (معدن بن سليم) ومنه إلى (سلسل)

ومنه إلى (عمس) ومنه إلى (قعب) ومنه إلى (مسلح) ومن مسلح إلى (بستان بنى عصر) ومن هنا تنزل إلى مكة المفخمة.

بين بغداد ومكة المعظمة مبان وآثار كثيرة لزوجة هارون الرشيد العباسى (زبيدة) والسلطان ملكشاه السلجوقى حتى ليعجز القلم عن تعريفها ووصفها.

استطراد:

أسماء الذين تولوا إمارة الحج منذ فتح مكة المكرمة إلى ٣٣٥ الهجرية.

يقول المؤرخ المشهور المسعودى:

فتح النبى ﷺ سيد الغزاة فى رمضان السنة الثامنة من الهجرة مكة المكرمة وعين (**عتاب بن أسيد**) ابن أبى الفيض بن أمية (رضى الله عنه) واليًا وعاد، وبناء على أمر النبى ﷺ المطاع أخرج **عتاب** قوافل حجاج تلك السنة وألقى خطبة يوم عرفة.

وأمير حاج قافلة المدينة فى السنة التاسعة الهجرية كان **أبو بكر الصديق** (رضى الله عنه)، فخرج بموكب الحج الذى يتكون من ثلاثمائة شخص. وأخذ معه الهدى الذى أعده النبى ﷺ من عشرين بدنة.

وعقب تحرك القافلة أرسل النبى ﷺ زوج كريمته على بن أبى طالب أيضًا. ولحق على بن أبى طالب بالقافلة فى موقع (عرج) وكان قد أودع له سورة (براءة) الجليلة. وفى يوم النحر قرأ على بن أبى طالب هذه السورة مخاطبًا الحجاج فى مكان يسمى (العقبة)، كما ألقى الصديق الأعظم خطبة قبل يوم التروية بيوم فى مكة، وألقى خطبة أخرى فى يوم عرفة فى عرفات وخطبة ثالثة فى (منى) يوم النحر.

وكان أمير حج السنة العاشرة النبى ﷺ بذاته وألقى خطبة عرفة والخطب الأخرى.

وأمير حاج السنة الحادية عشرة (عمر) بن الخطاب رضى الله عنه.

والثانية عشرة أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقد قام كل منهما بإلقاء الخطب.

ومن السنة الثالثة عشر حتى الثالثة والعشرين حج بالناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وأمير حج السنة الثالثة عشرة (عبد الرحمن بن عوف).

وفى السنة الرابعة والعشرين (عبد الرحمن بن عوف) رضى الله عنه وقاموا هؤلاء بإلقاء الخطب المذكورة.

ومن السنة الخامسة والعشرين إلى السنة الرابعة والثلاثين قام بإمارة الحج عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وفى السنة الخامسة والثلاثين (عبد الله) بن عباس (رضى الله عنه.

إلى والسابعة والثلاثين.

وأرسل فى السنة السابعة والثلاثين معاوية بن أبى سفيان مع قافلة الشام شخصًا يدعى (سحرة الرهاوى)، وبناء على الخلاف الذى حدث قام بمهمة الخطابة (شيبة بن عثمان).

وفى السنة الثامنة والثلاثين حج بالناس قثم بن العباس رضى الله عنهما.

وفى السنة التاسعة والثلاثين حج بالناس شيبة بن عثمان رضى الله عنه.

وفى السنة الأربعين (مغيرة) بن شعبة.

والحادية والأربعين عتبة بن أبى سفيان.

وفى السنة الثانية والأربعين والثالثة والأربعين مروان بن الحكم.

وفى السنة الرابعة والأربعين معاوية بن أبى سفيان.

وفى السنة الخامسة والأربعين مروان بن الحكم.

وفى السنتين الستة والأربعين والسبعة والأربعين عتبة بن أبى سفيان.

ومن السنة الحادية والخمسين إلى السنة الثالثة والخمسين (سعيد) بن العاص.

والسنتين الرابعة والخامسة والخمسين مروان بن الحكم.

والسنة السادسة والخمسين عتبة بن أبى سفيان.

والسنة السابعة والثامنة والخمسين وليد بن عتبة بن أبى سفيان.

والسنة التاسعة والخمسين عثمان بن أبى سعيد.

وفى الستين عمرو بن سعيد بن العاص.

وفى السنة الواحدة والستين.

والسنة الثانية والستين وليد بن عتبة بن أبى سفيان.

ومن السنة الثالثة والستين إلى الثالثة والسبعين (عبد الله بن الزبير) رضى الله عنه.

وفى السنة الرابعة والسبعين حجاج بن يوسف الثقفى.

والسنة الخامسة والسبعين عبد الملك بن مروان.

ومن السنة السادسة والسبعين حتى الواحدة والثمانين سليمان بن عبد الملك.

والثانية والثمانين أبان بن عثمان.

وفى السنة الثالثة والثمانين إلى السنة الخامسة والثمانين هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى.

والسنة السادسة والثمانين عباس بن وليد بن عبد الملك.

والسنة السابعة والثمانين (عمر) بن عبد العزيز بن مروان.

والسنة الثامنة والثمانين الوليد بن عبد الملك.

والسنة التاسعة والثمانين والتسعين عمر بن عبد العزيز.

والسنة الحادية والتسعين الوليد بن عبد الملك.

والسنة الثانية والتسعين عمر بن عبد العزيز.

وفى السنة الثالثة والتسعين عثمان بن وليد بن عبد الملك.

وفى الرابعة والتسعين مسلمة بن عبد الملك.

والسنة الخامسة والتسعين وليد بن عبد الملك.

وفى السنة السادسة والتسعين أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

والسنة السابعة والتسعين سليمان بن عبد الملك.

وفى السنة الثامنة والتسعين عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

وفى السنة التاسعة والتسعين والمائة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

وفى السنة الأولى بعد المائة والى مكة عبد العزيز بن عبد الله.

والثانية بعد المائة عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى.

والسنة الثالثة والرابعة بعد المائة عبد الله بن كعب بن عمير بن سبع بن عوف بن نضر بن معاوية النضرى.

وفى السنة الخامسة بعد المائة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى.

وفى السنة السادسة بعد المائة هشام بن عبد الملك.

وفى السنة السابعة بعد المائة إلى السنة الثانية عشرة بعد المائة سليمان بن هشام بن عبد الملك.

وفى السنة الرابعة عشرة بعد المائة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن العاص بن أمية.

وفى السنة الخامسة عشرة بعد المائة محمد بن هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة.

وفى السنة السادسة عشرة بعد المائة وليد بن يزيد بن عبد الملك.

وفى السنة السابعة عشرة بعد المائة خالد بن عبد الملك.

وفى السنة الثامنة عشرة بعد المائة محمد بن هشام بن إسماعيل.

وفى السنة التاسعة عشرة بعد المائة مسلمة بن هشام بن عبد الملك.

وفى السنة العشرين بعد المائة إلى السنة الرابعة والعشرين بعد المائة محمد بن هشام بن إسماعيل.

وفى السنة الخامسة والعشرين بعد المائة يوسف بن حجاج الثقفى.

وفى السنة السادسة والعشرين بعد المائة عمر بن عبد الله بن عبد الملك.

وفى السنة السابعة والعشرين بعد المائة وفى السنة الثامنة والعشرين بعد المائة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز.

وفى السنة التاسعة والعشرين بعد المائة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك.

وفى السنة الثلاثين بعد المائة محمد بن عبد الملك.

وفى السنة الحادية والثلاثين بعد المائة عروة بن محمد بن عطية السعدى فأصبحوا أمراء الحج وألقوا الخطب الخاصة بموسم الحج.

وعروة بن عطية سالف الذكر هو خاتمة أمراء الحجاج الذين أرسلوا من قبل بنى أمية.

وانتقلت الخلافة فى السنة المذكورة إلى يد بنى عباس بن عبد المطلب.

وفى السنة الثانية والثلاثين بعد المائة عُين لإمارة قافلة الحجاج التى خرجت من بغداد داود بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب.

وفى السنة الثالثة والثلاثين ومائة زياد بن عبد الله الحارثى.

وفى السنة الرابعة والثلاثين ومائة عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن عباس.

وفى السنة الخامسة والثلاثين ومائة سليمان بن على بن عبد الله بن عباس.

وفى السنة السادسة والثلاثين ومائة أبو جعفر المنصور.

وفى السنة السابعة والثلاثين بعد المائة إسماعيل بن على بن عبد الله.

وفى السنة الثامنة والثلاثين بعد المائة فضل بن صالح بن على بن عبد الله.

وفى السنة التاسعة والثلاثين ومائة عباس بن محمد بن على.

وفى السنة الأربعين ومائة أبو جعفر المنصور.

وفى السنة الحادية والأربعين بعد المائة صالح بن على.

وفى السنة الثانية والأربعين ومائة إسماعيل بن على.

وفى السنة الثالثة والأربعين ومائة عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله.

وفى السنة الرابعة والأربعين أبو جعفر المنصور.

وفى السنة الخامسة والأربعين ومائة سرى بن عبد الله بن الحارث بن العباس.

وفى السنة السادسة والأربعين بعد المائة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

وفى السنة السابعة والأربعين بعد المائة أبو جعفر المنصور، وعلى رواية محمد بن إبراهيم الإمام.

وفى السنة الثامنة والأربعين ومائة محمد بن إبراهيم الإمام.

وفى السنة التاسعة والأربعين ومائة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن

إبراهيم.

وفى السنة الخمسين بعد المائة عبد الصمد بن على، وفى السنة الحادية والخمسين ومائة محمد بن إبراهيم بن محمد بن على.

وفى السنة الثانية والخمسين ومائة أبو جعفر المنصور.

وفى السنة الثالثة والخمسين ومائة مهدى بن عبد الله بن محمد بن على.

وفى السنة الرابعة والخمسين ومائة محمد بن إبراهيم.

وفى السنة الخامسة والخمسين ومائة عبد الصمد بن على.

وفى السنة السادسة والخمسين ومائة عباس بن محمد بن على.

وفى السنة السابعة والخمسين ومائة والثامنة والخمسين ومائة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على.

وفى السنة التاسعة والخمسين ومائة يزيد المنصور بن عبد الله بن شهر بن يزيد بن ثوب الحميرى.

وفى السنتين الستين والحادية والستين ومائة الهادى بن موسى بن المهدى.

وفى السنة الثانية والستين ومائة إبراهيم بن جعفر بن أبى جعفر.

وفى السنة الثالثة والستين بعد المائة على بن المهدى.

وفى السنة الرابعة والستين ومائة والسنة الخامسة والستين ومائة صالح بن أبى جعفر.

وفى السنة السادسة والستين ومائة محمد بن إبراهيم بن محمد بن على.

وفى السنة السابعة والستين إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على.

وفى السنة الثامنة والستين ومائة على بن محمد المهدى، وفى السنة التاسعة والستين ومائة سليمان بن أبى جعفر المنصور.

وفى السنة السبعين ومائة هارون الرشيد.

وفى السنة الحادية والسبعين ومائة عبد الصمد بن على.

وفى السنة الثانية والسبعين ومائة يعقوب بن المنصور.

وفى السنة الثالثة والسبعين ومائة إلى السنة التاسعة والسبعين بعد المائة هارون الرشيد.

وفى السنة الثمانين بعد المائة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على.

وفى السنة الحادية والثمانين بعد المائة هارون الرشيد.

وفى السنة الثانية والثمانين ومائة موسى بن موسى.

وفى السنة الثالثة والثمانين ومائة العباس بن محمد المهدى.

وفى السنة الرابعة والثمانين إبراهيم بن المهدى، وفى السنة الخامسة والثمانين ومائة منصور بن المهدى.

وفى السنة السادسة والثمانين هارون الرشيد.

وفى السنة السابعة والستين ومائة عبد الله بن العاص بن على وعلى رواية منصور بن المهدى.

وفى السنة الثامنة والثمانين هارون الرشيد.

وفى السنة التاسعة والثمانين ومائة عباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على.

وفى السنة التسعين ومائة على بن الرشيد.

وفى السنة الحادية والتسعين والسنة الثانية والتسعين بعد المائة عباس بن عبد الله بن جعفر بن أبى جعفر المنصور.

وفى السنة الثالثة والتسعين ومائة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن

على.

وفى السنة الرابعة والتسعين ومائة على بن الرشيد.

وفى السنة الخامسة والتسعين بعد المائة داود بن عيسى بن موسى.

وفى السنة السادسة والتسعين إلى السنة الثامنة والتسعين بعد المائة عباس بن موسى.

وفى السنة التاسعة والتسعين ومائة محمد بن داود بن عيسى بن يحيى. وكل هؤلاء قاموا بمهمة إمارة الحج وفى إمارة محمد بن داود خرج (ابن الأفطس العلوى) ثائرًا فلم يستطع محمد بن داود الطلوع إلى جبل عرفات، وبناء على ذلك وقف حجاج تلك السنة على عرفات دون إمام.

وفى السنة المائتين قام بإمارة الحج معتصم بن إسحاق.

وفى المائتين وواحد إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على.

وفى السنة الثانية بعد المائتين إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.

وفى السنة الثالثة ومائتين سليمان بن عبد الله بن جعفر بن سليمان بن على.

وفى السنة الرابعة ومائتين والخامسة ومائتين عبد الله بن الحسن بن عبد الله.

وفى السنتين السادسة والسابعة بعد المائتين أبو عيسى بن الرشيد.

وفى السنة الثامنة والتاسعة والعاشرة بعد المائتين صالح بن الرشيد.

وفى السنة الحادية عشرة بعد المائتين إسحاق بن إلياس بن محمد بن على.

وفى السنتين الثانية عشرة والثالثة عشرة بعد المائتين أحمد بن العباس، وفى السنتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة بعد المائتين عبد الله بن عبد الله، وفى السنتين السادسة عشرة والسابعة عشرة بعد المائتين سليمان بن عبد الله بن سليمان

بن على بن عبد الله بن عباس، وفى السنتين الثامنة عشرة حتى الحادية والعشرين بعد المائتين صالح بن العباس بن محمد.

وفى السنة الثانية والعشرين بعد المائتين محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وفى السنوات الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين والسادسة والعشرين والسابعة والعشرين بعد المائتين جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد.

ومن السنة الثامنة والعشرين بعد المائتين إلى السنة الخامسة والثلاثين بعد المائتين محمد بن داود بن عيسى.

وفى السنة السادسة والثلاثين والمائتين محمد المنتصر.

وفى السنة السابعة والثلاثين والمائتين على بن عيسى بن جعفر بن المنصور.

ومن السنة الثامنة والثلاثين إلى السنة الحادية والأربعين بعد المائتين عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس.

ومن السنة الثانية والأربعين إلى السنة الرابعة والأربعين عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس.

ومن الخامسة والأربعين إلى السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام.

وفى السنة التاسعة والأربعين بعد المائتين عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس.

وفى السنة الخمسين بعد المائتين جعفر بن فضل بن موسى بن عيسى بن موسى ساسان.

وفى السنة الحادية والخمسين والمائتين إسماعيل بن يوسف العلوى.

وفى السنة الثانية والخمسين والمائتين كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن

جعفر بن المنصور.

وفى السنة الثالثة والخمسين بعد المائتين عبد الله بن محمد بن سليمان بن عبد الله الرسى، وفى السنة الرابعة والخمسين والسنة الخامسة والخمسين بعد المائتين على بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن على.

وفى السنة السادسة والخمسين بعد المائتين كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر المنصور.

وفى السنتين السابعة والثامنة والخمسين فضل بن عباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن على.

وفى السنتين التاسعة والخمسين والستين بعد المائتين إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على بن بويه.

ومن السنة الحادية والستين إلى السنة الثالثة والستين بعد المائتين الفضل بن العباس بن الحسن.

ومن السنة الرابعة والستين إلى السنة الثامنة والسبعين بالتوالى هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس.

ومن السنة التاسعة والسبعين إلى السنة السابعة والثمانين بعد المائتين كذلك أبو عبد الله محمد بن داود بن عيسى بن موسى.

وفى السنة التاسعة والثمانين إلى السنة الخامسة وثلاثمائة بالتوالى فضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد بن على.

وفى السنتين السادسة والسابعة وثلاثمائة أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام.

ومن السنة الثامنة وثلاثمائة إلى السنة الحادية عشرة وثلاثمائة إسحاق بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد.

وفى السنة الثانية عشرة وثلاثمائة حسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

وفى السنة الثالثة عشرة وثلاثمائة أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبد الله بن العباس بن محمد.

وفى السنة الرابعة عشرة بعد الثلاثمائة عبد الله بن عبيد الله بن سليمان بن محمد الأكبر.

وفى السنة الخامسة عشرة وثلاثمائة والسادسة عشرة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد أبى أحمد الأزرق.

وفى السنة السابعة عشرة وثلاثمائة عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى. وكل هؤلاء تولوا إمارة الحج وخطبوا فى دائرة الأصول المسنونة.

وفى السنة السابعة عشرة بعد الثلاثمائة تسلط سليمان بن الحسن من القرامطة على مكة فى أثناء الحج وعلى أهاليها، وأخذ يقتل من يصادفه من الحجاج حاقدًا عليهم منتقمًا منهم؛ لذا لم تخرج قافلة حج تلك السنة إلى عرفات.

وفى السنة الثامنة عشرة وثلاثمائة من الهجرة أصبح أميرًا للحج عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى.

وفى السنة التاسعة عشرة وثلاثمائة جعفر بن على بن سليمان.

ومن السنة العشرين إلى السنة الخامسة والثلاثين وثلاثمائة تولى إمارة الحج قاضى مكة المكرمة عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى السالف الذكر. وقام بمهمته على أحسن وجه ولما حلت الأيام المخصوصة قام بإلقاء الخطب.

وبعده وجهت إمارة الحج إلى عهدة قضاة مكة المعظمة وأحيلت لهم واتخذ القرار من مقام الخلافة أن ينتخب القضاة الذين سيتولون مهمة إمارة الحج من الذين يتسمون بصفات فاضلة وأخلاق كريمة.

مهمة:

ولما كان الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم آنفًا قد عينوا لأداء وظائف سواء أكان أمناء الصرة أو مشايخ مكة، وبعثوا لهذا الغرض فإنهم كانوا يأتون بقوافل الحجاج إلى بلاد الحجاز، ويقومون بإلقاء الخطب يوم التروية وعرفة والمزدلفة ويوم النحر وبعد يوم عرفة، وكانوا يعودون إلى مراكز السلطنة آخذين القوافل معهم. ولما كانت مهمة الخطابة والإمامة المقدسة تُحال أحيانًا إلى ولاة مكة المكرمة والمدينة المنورة وإدارة قوافل الحجاج للشخص الذى عين أميرًا للحج؛ فكان ولاة مكة المكرمة والمدينة المنورة يقومون بالإمامة وإلقاء الخطب بأنفسهم.

وفى سنة ثلاثمائة وعشرين أحيلت خطب عرفة ويوم التروية ويوم النحر ـ كما سبق ذكره فيما تقدم ـ إلى قضاء مكة المعظمة، كما أن مشيخة مكة فوضت لعهدة عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى فريد عصره فى الكمال والفضل. وطول مدة قيام عمر بن الحسين بن عبد العزيز بمهمة قضاء مكة وهى تمتد خمسة عشر عامًا، لم يُرسل شخص آخر من مقام الخلافة وتُركت إدارة إمارة موكب الحج لموظف خاص بها، كما أن خدمة الإمامة والخطابة المقدسة أحيلت إلى قضاة مكة المعظمة، وقد جرت العادة بأن يختار قضاة مكة المعظمة من العلماء الفطاحل والمتبحرين فى العلوم.

وهذا النظام الجيد مازال مرعيًا إلى يومنا هذا. ويقوم بأداء مهام محامل الحج فى الذهاب والعودة أمناء الصرر وأمراء الحج المعينون من قبل السلطنة السنية. كما يقوم بإلقاء خطبة عرفة قضاة مكة والخطب الأخرى يقوم بإلقائها الأشخاص الذين لهم قدرة على ذلك مأذونين من قبل السلطات.

وقد أحيلت وظيفة إمارة الحج منذ وقت قريب لولاة الشام، وولاة الشام يسوقون المحامل التى وصلت إلى الشام إلى الحرمين وبعد عرفة يعودون مستصحبين موكب المحامل.

وإن كان الآن أمناء الصرة هم الذين يستصحبون المحمل الشريف، إلا أن إدارة قافلة الحج وحراستها منوطة بهيئة عسكرية.

الوجهة الخامسة

- بيان القبائل العربية الساكنة فى الأقطار الحجازية.
- فى بيان قبيلتى حويطات وجهينة.
- فى ذكر عربان قبائل نخاولة وبنى حرب.
- فى تعريف قبائل مطير وبنى سليم وبنى عتيبة وقريش وهذيل وثقيف وبنى عدوان.
- فى ذكر القبائل العربية التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفدة.
- وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءاً من تهامة الحجاز.
- فى تعريف اليمن وملحقاته والقبائل المستقرة فى هذه الأماكن.

فى بيان القبائل العربية الساكنة
فى الأقطار الحجازية

إخطار:

للقبائل العربية التى استوطنت فى جزيرة العرب شعب كثيرة. كما تسعى أفراد كل أمة من الأمم بكل قوتها للإبقاء على شرف أمتهم وعرضها ويحرصون بدافع وطنيتهم على المحافظة على قوة عصبيتها وكمالها ويبذلون فى سبيل ذلك كل غال ورخيص، كذلك تعمل القبائل العربية بكل جهدها لتعلو بحقوقها الوطنية والقومية.

ولما كانت لكل واحدة من القبائل العربانية منازل محدودة ومواقع معينة، لذلك سنذكر فى هذا الفصل وصوره وصور الفصول الأخرى أحوال القبائل العربية التى تستحق الذكر.

هذه القبائل التى تستوطن الأقاليم الستة لجزيرة العرب، كما سنذكر منازلها المحدودة والقوانين والعادات المرعية فى الأحكام بينها بإيجاز إن شاء الله.

بنو هاشم:

يطلق اسم بنو هاشم على الأشراف والسادات الذين تسلسلوا من أصلاب الإمامين الحسن والحسين «رضى الله عنهما» إن نفوذ أفراد القبائل التى تنتسب إليها الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام نافذ وجار على جماعات سائر القبائل، وإن حصر إمارة مكة المكرمة الجليلة عليهم لدليل يؤيد صحة هذا الادعاء.

توضيح:

يقال لأولاد وأحفاد سبطى الرسول المكرمين «رضى الله عنهما» أشراف وسادة.

وإن كان بعض المؤرخين قد ذهبوا إلى إطلاق لقب «شريف» على أولاد الإمام الحسن رضى الله عنه، وعلى أولاد الحسين رضى الله عنه «سادات»، إلا أن فى هذا التعريف والادعاء خطأ تاريخى.

وإن كان يطلق على أولاد الإمام الحسن «أشراف» فهذا التعبير حدث فى العصور الأخيرة، وبناء على ما فُصل فى بحث طبقات الأشراف أنه حدث فى عهد «قتادة بن إدريس» أن بعض أولاد الحسين بن على قاموا بالإمارة سواء أكانت فى المدينة المنورة أو مكة المكرمة، وأن الشرافة خاصة بأولاد الحسن بن على «رضى الله عنهما» الذين قاموا بتولى الإمارة، فلا يصح حصر «الشرافة» فى الحسن بن على رضى الله عنهما.

كانت الشرافة لعامة أبناء هاشم بن عبد مناف ولكن السيادة مع الشرافة كانت منحصرة فى أولاد السبطين المكرمين؛ حتى إن بعض كبار المحدثين وفحول المفسرين وأعلام مؤرخى الأسلاف كانوا يقولون عن ذكر نسب أحفاد السبطين «السيد الشريف الحسن والسيد الشريف الحسين»، ولكن عندما يريدون أن يعرفوا أحد من بنى هاشم كانوا يقولون «الشريف العباسى» والشريف الزينبى والشريف «العقيلى» حتى يميزوهم عن السادات، وليبينوا أن كل شريف ليس بسيد. ولما حصر الملك الأشرف من الملوك المصرية التعمم بالعمامة الخضراء على السادة فقط، فكأنه خص بالشرافة أحفاد السبطين، وذلك باتفاق رجال عصره.

وكان يطلق على أبناء السبطين سواء أكانوا فى الأقطار الحجازية أو الممالك الأخرى إلى زمن «الشريف أبو نمى» من أمراء الحجاز: «السيد الشريف» ولكن ومنذ زمن إمارة الشريف أبى نمى لوحظ أن أولاد الحسن رضى الله عنه فى الحجاز ينادون ويعرفون بأشراف، وأولاد الحسين رضى الله عنه بسادات، وبناء

على هذا أصبح إطلاق الأشراف الحسنية على أولاد الحسن رضى الله عنه والسادات الحسينية لأولاد سيدنا الحسين، عادة لدى سكان الحجاز.

ومع ذلك فأحفاد السبطين المقيمون فى الأقطار الأخرى كالعراق والشام ومصر، مازالوا يدعون كما فى السابق السيد الشريف.

ومازال بعض من أشراف الحسنية يقيمون فى مكة المكرمة وبعضهم فى وادى فاطمة ووادى الليمون، وبعضهم فى موقع يقال له الحسنية خلف جبل عرفات، وبعضهم فى المدينة المنورة، وبعضهم بين ينبع البحر وينبع النخل وفى السويق التى تعتبر أكبر مدينة فى ينبع النخيل.

ويقال لفريق منهم فى جهة ينبع البحر دوى هجاز، ولفريق آخر عيايشة، والذين يسكنون فى مدينة السويق هم الذين ينتسبون لفريق عيايشة، ويروى أن أصل ملك المغرب الحالى من الأشراف الذين يسكنون فى السويق.

كما أن السادات الحسينية تشعبوا لعدة شعب، فشعبة منهم تقيم فى مكة المكرمة، وشعبة منهم فى المدينة المنورة، والشعبة الثالثة فى ينبع البحر، وبعض منهم هاجروا إلى البلاد الأخرى.

يُسمى سادات الحسينية الذين يسكنون فى ينبع البحر زراعية، والذين تشعبوا منهم وسكنوا فى سوارقية يسمون سادات بنى الحسين.

وشعبتان من سادات الحسينية فى اليمن وشعبة منهم فى حضرموت، ويقال لأحد شعبهم فى اليمن سادات مراوعة والأخرى سادات المهادلة وعلى الشعبة التى فى جهات حضرموت سادات العلوية. كما أن فى إقليم الحسا فرقة من سادات الحسنية، ويبلغ عدد أشراف وسادات الحسنية والحسينية عامة فى جزيرة العرب كلها خمسين ألف نسمة.

قبيلة عنزة:

وقبيلة عنزة التى تستوطن فى شمال جزيرة العرب وخاصة الأقطار الحجازية وتعيش حياة بدوية تنقسم إلى أربع قبائل كبيرة تعرف بالأسماء الآتية:-

١- أولاد على.
٢- الحسنة.
٣- جلاس.
٤- بَشَر.

ويقيم أولاد على على طريق الحج الذى يمتد من قلعة الزرقاء إلى القرب من قلعة خيبر. وينقسم هؤلاء أيضًا إلى قبائل المشادقة، مشطا حمامدة جدالة طلوح وتتشعب من قبيلة مشادقة قبائل طيار، ومنزقان، لحوين، وتتشعب من قبيلة (مشطا) أيضًا قبائل العواض، والطيور، والعطفان، والمقيل.

وقبيلة حمامدة قبيلة واحدة، ويسكن أفراد هذه القبيلة فى أطراف معان.

وتتشعب من قبيلة جدالة قبيلتا القربنات والطوزشات.

وقبيلة طلوح قبيلة واحدة. وأغلب أفراد هذه القبيلة يسكنون على طريق الحج، وبما أنهم يحرسون أموال وأرواح الحجاج فلهم أجورهم وعطاياهم وخلعهم من الصرة السلطانية.

وقد انقسمت قبيلة الحسنة إلى قبائل متعددة، ولما كانت جميع هذه القبائل اختارت الإقامة فى الصحارى التى تقع بين الشام وحمص وحلب وبغداد فلا حاجة هنا للحديث عن أحوالهم وتفصيلها.

وتقسمت قبيلة جلاس إلى قبيلتى الروالة والمخلف، وتشعبت من قبيلة المخلف قبائل عبد الله وفرسة وبدور وسوالمة.

ومن الزوالة تشعبت قبائل قنعيسان، ودغمة، والفرلفة، ونصير.

وتنزل قبيلة جلاس عامة بين الصحراء التى فى جهة ناحورا، وفى جهة جوف من جبل شمر، وخاصة فى الأماكن الواقعة بين دجلة والفرات، وتنزل أحيانًا بجانب قلعة خيبر.

ولما نأتى إلى قبيلة بشر نجد أنها قد تفرعت منها قبيلتا جد، وسلقا، ومن قبيلة جد تفرعت قبيلتان فدعات وسبعة، وعربان قبيلة (سلقا) يقيمون فى منطقة الحسا.

ولقبيلة سلقا شعب وفيرة وأفرع متعددة، ولكن أهمها قبائل «حائط وحويط» المقيمتان بالقرب من جبل شمر، وقبيلة أولاد سليمان المقيمة بجوار خيبر.

وأفراد قبيلة عنزة كثيرة وشهرتها ذائعة. وأكثر أفراد هذه القبيلة يمضون الصيف بجوار ولاية سوريا، كما يمضون موسم الشتاء متنقلين فى شمال جزيرة العرب وفى الصحارى الواقعة بين الشام وحمص وحلب وبغداد، وفى الأراضى المتسعة الأخرى. ويبلغ عددهم من حيث المجموع ثلاثمائة وخمسين ألفًا.

فى بيان قبيلتى حويطات وجهينة

يقيم أفراد قبيلة حويطات فى سواحل البحر الأحمر الشرقية التى تمتد من قلعة عقبة وقلعة إزلم إلى السويس. فى حالة تنقل ولما كانوا يحصلون حاجاتهم من الملبوسات الضرورية من مصر فعلاقتهم مع مصر، والأماكن التى تسكنها قليلة الإنبات وأراضيها مجدبة، وعندما تقل الأمطار وتجوع حيواناتهم فى المراعى يذهبون إلى جهات عنزة.

وإن كانت قد تفرعت من القبيلة المذكورة اثنتا عشرة قبيلة ولكن أكثرها أفراد الجازاى، والرياضات.

وقبيلة بنى عطية المقيمة فى طريق موكب حج مصر الواقع فى طريق الحسما فرع من فروع قبيلة حويطات.

وقبيلة عمران قبيلة مهمة تفرعت من قبيلة (حويطات) وتسكن حيث تسكن حويطات. وبما أن قبيلتى دبور، وبدول متفقتان مع قبيلتى حويطات وعمران بجوار قلعة عقبة فهما مستقرتان وساكنتان فى مواقعهما.

وإن كانت قبيلة سبايحة أيضًا ساكنة فى هذه الأماكن إلا أن قبيلتى تباها وترابين مستوطنتان فى أماكن قريبة من غزة، كما أن قبيلة (ويلى) ساكنة ابتداء من المكان المعروف بـ (فقير) والأراضى التى تمتد إلى ميناء الوجة[1] وفى وادى حمص وأفراد قبيلة سبايحة يتنقلون من هذا الميناء وحوالى هذا الوادى وفى الأماكن القريبة من قلعة الإزلم.

(١) كان الحجر الصحى يقام فى هذا الميناء للحجاج المصريين.

ويبلغ عدد أفراد القبائل التى تسكن فى هذه المواقع أى فى الجهة الشمالية القريبة من الأقطار الحجازية وفى الأراضى التى تمتد من قلعة الأزلم، والعقبة وميناء الوجه إلى السويس مائة ألف نسمة.

وهناك قبيلة أخرى مقيمة فى جبل حساين الواقع على شاطئ البحر الأحمر، وعلى ثلاث مراحل من الطرف الشمالى لينبع البحر، ويشتغل أكثر أفراد هذه القبيلة بالملاحة وأمور خاصة بالسفن، ويروى أن تلك القبيلة متشعبة من قبيلة بنى عيسى المشهورة التى تسكن بلاد اليمن الواسعة.

قبيلة جهينة:

تسكن هذه القبيلة والجماعات المنسوبة لها فى شاطى البحر من جبل حساين إلى ينبع البحر، وفى المواقع التى من جبل حساين إلى ينبع هدية وبجوار قلعة شجرة، وبئر فقير وفى الوادى المسمى عباس وفى ينبع البحر وجبل رضوى الواقع على شرقه بخمس ساعات، ولما كانت كلها قبائل رحل فهى تسكن حيثما شاءت ووقتما تشاء.

وتنقسم تلك القبيلة إلى قسمين واللذين يعرفان بـ أولاد مالك، وأولاد موسى أشراف.

وقد تشعب من قبيلة البراهمة قبائل صبحة، عيايشة، وعروة، وكومة، وسنبنات، وحصينات، وأساورة، ومسادى، ورفاعة، وبنى كلب، وحيادلة، حمدة، ومواليد وقد تفرعت من كل واحدة من هذه البطون عدة خمسات وبطون أخر سواء أكانت تلك القبائل المذكورة أما تفرعت منها من البطون فى القسم الذى يسمى أولاد مالك.

إيضاح:

يقال خمسة لوالد الشخص وعمه وخاله ومن ولد من هذين من الذكور وكلهم خمسة أشخاص. إذا ما قتل أحد من العربان شخصًا آخر يقتل أحد من

خمسة المقتول القاتل، وبهذا يأخذ ثأره. وتعبير خمسة عبارة عما تم شرحه، وقد تفرعت الخمسة فى القبيلة واختلطت من جميع الجهات بالأولاد والأنسال، وأصبحت قبيلة مستقلة للفظ خمسة كناية عن ذلك.

والقسم الثانى الذى يتكون من قبيلة جهينة أولاد موسى:

وقد تفرعت أيضًا إلى قبائل عديدة، كالقبائل المشهورة التى تشعبت من قبيلة براهمة وهى موالى، ومراوين، علاوين، وزيبان، وعوامرة، ونزة، وسمايحة، وما تفرع من كل واحدة منها من الخمسات تشكل القسم الثانى من قبيلة جهينة.

وتبلغ قبيلة جهينة بكافة أفرعها من حيث المجموع خمسين ألف نسمة تقريبًا. ويشتغل بعض منهم بالملاحة وتسيير السفن وصيد السمك، وبعض منهم يعمل بالفلاحة والزراعة ويتعيش من ورائها وتسكن القرى والمدن، ولكن القسم الأعظم منهم يمضون حياتهم فى الترحل وتحت الخيم.

قبيلة هيتم فرع من قبيلة بنى عبس:

الحمية والسياسة العربانية:

الحمية والشجاعة الفطرية لا حد لها بين العربان. وحدث أن قامت حرب بين هذه القبيلة وقبيلة أخرى[1] مجاورة لهم منذ خمسمائة عام، وكانت حرب شديدة قاسية نتجت عنها خسائر كثيرة فى الأرواح والأموال، لذا اجتمع ثلاثة وثلاثون من شيوخ القبائل الأخرى حتى ينهوا هذه الحرب، ويضعوا حدًا لأوزارها بالصلح بين القبيلتين وفعلاً حسبوا ديات القتلى وفق القوانين القبلية، وأرضوا الطرفين وعقدوا الصلح بينهما. ولكن بعد فترة قام شجعان قبيلة هيتم بالإغارة على أعدائهم وقتلوا من وقع فى أيديهم من رجال ونساء وأطفال ولم يبقوا على أحد، وكانت هذه الجريمة فى غاية السوء منافية للصفات الإنسانية، ومناقضة للقوانين الجارية بين البدو، وبناء على ذلك أقسم الشيوخ الذين سبق ذكرهم على قتل أفراد القبيلة المعتدية كلهم بحيث لا يبقون لهم اسما ولا ذكرا، وتعاهدوا على ذلك.

(١) يقصد قبيلتى عبس وذبيان.

ولكن فيما بعد، لسبب ما تراجعوا عن عقابهم بهذه الصورة، وقرروا تأديبهم ومجازاتهم بصورة أخرى، وذلك بأن يكونوا مهانين ومحقرين من قبل القبائل الأخرى، وألا تضمهم أرض واحدة معها، وألا يختلطوا بالقبائل الأخرى بالزواج وغيره، وحتى إذا سكنوا فى أرض قبيلة من القبائل عليهم أن يدفعوا لهم مقداراً من المال باسم الزكاة، وأن يبدل اسم قبيلة عبس باسم هيتم الذى يعنى الذليل الحقير. ومن ذلك الوقت تراهم أذلاء ومهانين عند القبائل الأخرى وهم فعلاً فقراء.

وخلاصة القول أن القبائل الأخرى تنظر إليهم كنظرهم إلى الغجر.

والقبائل التى توجد فى الأقطار الحجازية من بطون بنى هيتم هى (مهيمزان، ذوو رشيد، ذوو براك، ونوامسة، شرارات، وهتمان.

وتسكن قبيلة مهيمزان بين الحناكية القريبة من المدينة المنورة وكريزية، وقبيلة ذوى رشيد فى قرى حائط وحويط، وأبو حبان، وصحراء وادى رُما وقبيلة ذوى براك فى الصحارى الممتدة من جبل سراة إلى جبل شمر، وقبيلتا النوامسة وشرارات تسكن حول قبائل عنزة وبعضها فى أراضى جهينة، والقبيلة الضخمة التى تسمى هتمان تسكن حوالى مكة المكرمة وفى داخل البلاد اليمنية.

فى ذكر عربان قبائل نخاولة وبنى حرب

قبيلة نخاولة وبنى حرب: قبيلة نخاولة قبيلة محتقرة فى غاية الاحتقار بين أهالى الحرمين.

فمن المعلوم أن العساكر الذين أرسلوا من قبل يزيد بن معاوية بنية ضبط المدينة المنورة والاستيلاء عليها نهبوا أموال أهالى المدينة المنورة الكرام وأمتعتهم وهتكوا أعراض نسائها وشرفهن، ثم انصرفوا ناحية الشام! عندئذ عُزلت النساء اللاتى حبلن من هؤلاء الملاعين والأولاد الذين ولدوا نتيجة السفاح وأسند إليهم لما كبروا وظائف العناية بالحدائق التى حول المدينة المنورة.

وتكونت قبيلة نخاولة من سلالة أولاد الزنا الذين اشتغلوا بمراعاة الحدائق التى حول المدينة وأطلق على أفراد تلك القبيلة فيما بعد نخاولة.

ومنذ ذلك الوقت لا يتزاوج أهالى المدينة بأفراد هذه القبيلة ولا يختلطوا بهم. ولما كان هؤلاء رافضة المذهب فإنه لا توجد بين أسماء رجالهم ونسائهم أسماء أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة. وحمقى الشام الذين ينتسبون لهذه القبيلة، يختلطون ويتزاورون دائمًا مع مَنْ هم على مذاهبهم. ويتزاوجون فيما بينهم بزواج المتعة.

وقد وصل عدد النخاولة الذين يسكنون فى الحدائق المذكورة وفى الغرف الأرضية التى تسمى حوض إلى الآن اثنى عشر ألفا.

وكل الشيعة والروافض الذين يزورون المدينة المنورة فى زماننا ينزلون فى

منازل النخاولة عامة. ويقيم أبناء النخاولة فى الحدائق التى خارج المدينة وفى الأماكن التى تسمى حوش النخاولة، وبناء عليه لا يوجد فى داخل المدينة المنورة فرد من جنس النخاولة.

قبيلة حرب:

انقسمت قبيلة حرب إلى قبيلتين كبيرتين وهما بنو سالم وبنو مسروح. كما أن بنى سالم قد انقسموا إلى شعبتين وهما ميمون، ومراوحة.

وتتفرع شعبة بنى سالم الأولى بنى ميمون إلى اثنتى عشرة بطنا واشتهر التسع من هذه البطون بين العرب بأسماء محمادى، ولوعى، رحيلى، حيدرى، عمرى، سريجى، يحيوى، مورعى، قايدى، كما تشعبت من كل واحدة منها الخمسات، والقبائل الثلاثة الباقية هى أحمدى، محمدى، صبحى، وكل واحدة منها انقسمت إلى أربعة أقسام هى حميدى، ضميرى، فضيلى، ذكيرى وتنتمى إلى قبيلة أحمدى، وتنتمى تمم، سعادين، لويلح، وسواعدة إلى قبيلة محمدى. وتنتمى عليانى، لبيدى، فخمى، ومرزوقى إلى قبيلة صبحى كما تفرع من هذه الأقسام خمسات متعددة.

كما أن مراوحة بنى سالم عرفت بأسماء نوامية، وقراف، وظواهرة، وجبول، وحنيطات، وذرعات، وحجلة، ومزينة، وردادة، وحناينه وهى قبائل صغيرة تكون جماعات ما تعرف بقبيلة حوازم.

وكافة هذه القبائل الصغيرة تتعايش بنقل الحجاج بجمالهم ونقل ذخائر وأمتعة أهل المدينة، وهم عامة أهل طاعة وانقياد.

ويسكن عربان القبائل التى سبق ذكرها محمدى فى طريق ملف ورولوعى فى قرب خيف الكسا ورحيلى حول بئر الروحاء.

وحيدرى فى ينبع النخل، وعمرى فى مضيق جديدة وأم ديان وسريجى ويحيوى ومورعى وقايدى فى ينبع النخل أيضًا، وأحمدى فى جبل فقرة المشهور لمضيق جديدة، وحواليه وفى الجبال الأخرى القريبة منها رحقان وجعفر تسكنان

القرى، ومحمدى بين المدينة المنورة وشجوة، وصبحى فى بدر والحسينية وما حولهما من جبال.

وفرقة مراوحة القسم الثانى من بنى سالم وهى نوامية، وقراف، وحنيطات، وجبول، وحجلة، ومزينة، ورداده، وحناينة. وهذه تنقسم إلى عشر خمسات، وكل خمسة تنقسم إلى خمسات متعددة، ويطلق على جملتها حوازم، وأفراد هذه الخمسات يسكنون عامة فى المواقع التى سيأتى ذكرها.

وتسكن قبيلة نوامية فى الجهة الجنوبية من الطريق السلطانى وخيف الكسا، وعربان قراف فى قرية حمرة والجبال التى حولها، وفريق من عربان الظواهرة فى حمرة، والفريق الآخر فى نجد، وقبائل حنيطات وجيول، وذرعات فى قرية صفراء وما حولها من الجبال، وعربان حجلة عند أسوار بئر الشريوفى، وعربان مزينة بين الجبال الواقعة بين نجد والمدينة المنورة فى الجهة الشرقية منها، وعربان رداده بين المدينة المنورة وبئر الشريوفى، وبعض من عربان حناينة حول المدينة المنورة وبعضهم فى إقليم نجد.

ولما كان عربان بنى سالم أكثرهم بين المدينة المنورة، وينبع البحر، أقام القسم الثانى من مسروح فى الأماكن التالية: فعربان جرم يسكنون فى قرية مضيق الواقعة على طريق فرعى وطريق غابر، وفرقة من عطور ومنَاش فى قرية مضيق الواقعة فى طريق الفُرع، والفرقة الأخرى تسكن فى بادية نجد، وعربان بشر يسكنون حول مكة المكرمة، وبجانب حارة عربان معبد بن عبد الله، وعربان بلدية وحُمْرَان حول مكة المكرمة، وبعضهم فى قرية تسمى بلدية والجبال التى حولها، وعربان بدارين وبنى جابر وشعب فى الأماكن التى على الجهة الشرقية من الحناكية وإقليم نجد.

لذا يطلق على الأراضى التى بين البلدتين المباركتين أراضى المسروحية.

وقبيلة بنى حرب قبيلة كبيرة بين القبائل العربية، وخاصة فى الأقطار الحجازية. وإذا ما أحصوا بكل فروعهم يبلغ عدد أفرادهم على أقل تقدير سبعين أو ثمانين ألفا.

فى تعريف قبائل مطير وبنى سليم وبنى عتيبة وقريش وهذيل وثقيف وبنى عدوان

قبيلة مطير:

تشعبت من قبيلة مطير قبائل دويس، وميمونة، وبنى عبد الله، وتفرعت من هذه الشعب خمسات متعددة تسير وتسكن أفراد تلك القبائل وشعبها ابتداء من مضيق حنق على مرحلة واحدة من المدينة المنورة وعلى جانبها الشرقى والأماكن الكائنة بين قرية حازة وقريتى سوارقية وصفينة.

ولما كان أكثر هؤلاء من أهل البداوة فهم يسكنون الخيم ويتجهون حيث يجدون العشب وحيثما ينزل المطر، ناقلين أثقالهم ومواشيهم، وهذه عادة قديمة عندهم. يبلغ عددهم نحو أربعين ألفا.

بنو سليم:

يسكن أفراد قبيلة بنى سليم بين قرية حازة الواقعة على الطريق الشرقى للمدينة المنورة الذى يمتد إلى مكة المكرمة والأماكن الواقعة بين مكة المكرمة، ويقدر عددهم بنحو ألفى نسمة.

وعربان أحمدى الذين يسكنون جبل فقرة على بعد ست ساعات من قرية جديدة التى تقع على يمين الطريق السلطانى، ومضيق جديدة عند الاتجاه إلى مكة المكرمة من المدينة المنورة فرع كبير انفصل عن قبيلة بنى سليم، . ويطلق على عربان أحمد أحامدة أيضًا.

قبيلة عتيبة:

وقبيلة عتيبة قسمان يسمى أحدهما برقا والآخر بريا وتتشعب من هذين القسمين قبائل متعددة وخمسات.

وأهم القبائل والخمسات المتفرعة من برقا وبريا قبائل روسان، وروفة، ومفطة، وشياين، ودعاجين، وعصمة، وجذعان، وحناتيس، وهى ثمانى قبائل ويبلغ عدد أفرادها عشرين ألفًا.

وهناك بعض أفراد القبائل الساكنة فى جوار الطائف والأماكن الواقعة على الطرف الشرقى من الطائف هؤلاء أيضًا من العربان الذين ينتمون إلى بنى سليم وبنى مطير.

قبيلة قريش:

ولا تحتاج قبيلة قريش للشرح والتوضيح والبيان وكانت تشتهر قبل البعثة النبوية بين القبائل العربية بكثرة عددها وقوتها وصولتها، كما هو مسطور فى كتب التواريخ القديمة.

وقد هاجر الجزء الأعظم من أفراد هذه القبيلة مع فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات، ومن بعده إلى المدينة المنورة كما أن بعضا منهم صحبوا الغزوات التى ساقها الخلفاء الراشدون إلى الأقطار الشامية والمصرية والعراقية، وبعد الفتح اختاروا الإقامة فى هذه الأماكن، وسكن بعض منهم فى مكة المكرمة وسائر المواقع، وذابوا فى سكان البلاد التى سكنوا فيها، والذين بقوا منهم الآن لا يتجاوز عددهم ألفى نسمة.

وأفراد تلك القبيلة يسكنون فى بعض المواقع الخاصة حوالى مكة المباركة ووادى الخيف وحواليه، وفى وادى عرفات، وأخشبان وحول هذين الواديين وبين مكة المكرمة وجبالها المتسلسلة.

أشرف القبائل:

وتفضل قبيلة قريش من حيث القوة والمجتمع القبائل الأخرى، كما أن أصالتها من حيث الحسب والنسب معترف به عند الجميع ومسلم بها وأشرف بطونها: بنو هاشم.

والقرشيون من أولاد فهر، وتفرقوا فى زمن كنانة، وقد جلبهم وجمعهم قصى بن كلاب فى ظواهر وبطاح مكة، لذا سموا بقريش وانقسموا إلى قسمين ويطلق على قبائل بنى عبد مناف، وبنى زهرة، وبنى عبد العزى بن قصى، وبنى عبد الدار بن قصى وبنى تيم بن مرة، وبنى سهم وبنى جمح ابنى عمرو بن هصيص بن كعب وبنى عدى بن كعب، وبنى هلال بن مالك بن حبنة بن الحارث بن فهر بن عامر بن لؤى قريش البطاح.

كما يطلق على أولاد بنى معمر بن غالب بن فهرَ وبنى بعيص بن عامر بن لؤى وبنى محارب بن فهر وبنى الحارث بن فهر يطلق عليها قريش الظواهر.

كما أن جماعة أسامه، حارث، سعد، وعوف، من أولاد لؤى بن غالب أيضًا، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يندرجوا فى عداد لا قريش البطاح ولا قريش الظواهر لهجرتهم إلى بلاد أخرى.

قبيلة هذيل:

تسكن قبيلة هذيل فى الجبال التى بين مكة المكرمة وبلدة الطائف الجبال التى تتسم بعلوها ووعورة طرقها ولا سيما حول جبل قرا.

والقبائل الثلاثة التى تدعى بعلويين، وتدوين، وبنى خالد أهم قبائل انفصلت عن قبيلة هذيل، ويبلغ مجموع عدد أفرادها إلى عشرة آلاف نسمة تخمينًا.

قبيلة ثقيف:

تسكن قبيلة ثقيف فى الطائف والقرى التى حواليها، وخاصة بين صحارى الطائف وجبالها وفى قرية بجيلة التى فى جنوب الطائف.

ونصف أهل الطائف ينتمون لهذه القبيلة، وينتمى إلى ثقيف الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اشتهر بظلمه وجبروته، ومختار الكذاب الذى ادعى النبوة فى الجاهلية، كما أن عربان بنى سفيان يتفرعون من قبيلة ثقيف.

وعربان قبائل بنى سعد، وناصرة، وربيعة، وعيلة، وإن كانوا ينتمون من

حيث النسب إلى قبائل أخرى ولكنهم يسكنون فى أماكن خاصة بثقيف ويعيشون متآلفين مع أفراد قبيلة ثقيف. ويصل عدد أفرادهم إلى ما يقرب من خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف نسمة.

ويقيم عربان قبيلة بقوم فى قرى رنية، وبركة العشيرة ويختلطون بأفراد قبيلة ثقيف، ويعيشون متآلفين معهم إلا أنهم لا يعدون من قبيلة بنى ثقيف.

قبيلة عدوان:

كانت قبيلة عدوان وأفرادها يتميزون من حيث الكرم والشجاعة على عربان القبائل الأخرى، واشتهروا بذلك وبهذا اكتسبوا شرف صداقة أشراف مكة المكرمة الكرام وسعدوا بها.

وعندما كانت قبيلة (عدوان) تحمل الشهرة والشرف الذين سبق الحديث عنهما كانت تسكن فى الأراضى الواسعة والجبال والأودية التى بين جدة والطائف، ولما قل عددهم ونقص شرفهم اختاروا السكنى فى الجهة الجنوبية من الطائف. ومجموع عدد أفرادهم يكاد يبلغ ألفى نسمة.

وكانت مرضعة النبى ﷺ حليمة ـ رضى الله عنها ـ تنتمى إلى هذه القبيلة، وبما أن قبيلة سعد كانت تحوى تاج المُخدّرات وعمدة الصالحات فقد كان أشراف مكة الكرام يودعون أولادهم إلى وقت قريب فى أحضان مرضعات هذه القبيلة، لإرضاعهم وتربيتهم.

قبيلتا ابن الحارث وبنى سعيد:

يسكن أفراد قبيلة ابن الحارث الذين يبلغ عددهم ألفى نسمة فى الجهة الشرقية من الطائف، كما أن بنى سعيد الذين يبلغ عدد نفوسهم ثلاثة آلاف فى الجهة الجنوبية من الطائف وأفراد هاتين القبيلتين أيضًا يختلطون مع بنى ثقيف متآلفين متآنسين.

فى ذكر القبائل العربية التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفذة وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءًا من تهامة الحجاز

بنو لحيان:

يقيم عربان قبيلة بنى لحيان فى الأماكن الواقعة بين مكة المكرمة وجدة وتقتصر معيشة بعض هؤلاء على ما يحصلون من المبالغ من المسافرين والحجاج الذين يسلكون هذا الطريق ويتعيش الآخرون كبقية البدو من تربية الحيوانات ويبلغ عددهم ألف وخمسمائة شخص.

بنو جحادلة:

يسكن عربان قبيلة جحادلة فى الجهة الجنوبية من مساكن قبيلة لحيان، وخاصة فى وادى لملم، ويتكسب هؤلاء بنقل المسافرين الذين يذهبون من مكة المكرمة إلى اليمن على ظهور جمالهم ونقل بضائعهم.

وهناك قبيلة بنى فهم غير القبائل المذكورة، وتقيم فى وادى خضر وقبيلة يزيد والتى تقيم فى وادى يزيد، وقبيلتا بجالة وبنو منعان وتسكنان فى وادى حسن، والأسود، والأعور، وبنو سليم فى وادى دوقة وأشراف قبائل ذوى زيد وبنى هلال وبنى عفيف فى عصم. وقبيلتا بنى ناشر وبنى عاصم فى وادى أجية وقبائل بنى عمر وبنى على وبنى زيدان فى وادى قنفذة.

ويبلغ عدد أفراد عامة هذه القبائل عشرة آلاف نسمة تقريبًا، ولما كانت أماكن إقامتهم غير منبتة، يزرع بعض سكانها فى السنين الممطرة الذرة ويجنون محاصيلها كما أن بعضهم يعيشون على صيد الأسماك على ساحل البحر الأحمر.

فى تعريف اليمن وملحقاته والقبائل المستقرة فى هذه الأماكن

اليمـن:

خطة اليمن منطقة كبيرة من جزيرة العرب، تقع فى الطول الشرقى من درجة ثلاث وأربعين إلى درجة خمسة وأربعين. وفى العرض الشمالى فى درجة اثنتى عشرة، وتقع على الطرف الجنوبى الغربى من الجزيرة المذكورة.

ويحيط بها من الجانب الغربى البحر الأحمر وفى الطرف الجنوبى خليج عدن، ويحدها من الشرق حضرموت ومن الشمال الحجاز. ومساحتها الطولية من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية سبعمائة وخمسة وخمسون كيلو متر، ومساحتها العرضية من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية ثلاثمائة وخمسون كيلو متر. ويبلغ عدد سكانها مليونين وخمسمائة ألف نسمة تخمينًا.

وتنقسم جغرافيًا بالإجمال إلى قسمين:

القسم الأول: من الخطة اليمانية الواسعة: الأراضى الواسعة المستوية على ساحل البحر، وتسمى تهامة وتمتد من شاطئ البحر إلى الداخل ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة وهى أراض سهلة مستوية.

والقسم الثانى: الأراضى المقابلة لتهامة وهى أراضى مرتفعة، ويطلق عليها نفس اليمن وهى فوق جبال متسلسلة تسمى جبال سروات وتمتد من الطائف إلى صنعاء.

ويسكن أغلب أهالى الممالك اليمانية فى القرى والمدن وقد تعودوا على أن يكتسبوا قوتهم بالزراعة والتجارة، لذا تجد أن العربان الرحل يقلون بالنسبة للأماكن الأخرى لجزيرة العرب.

التحقت البلاد اليمانية بالممالك العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى طاب ثراه، وقسمت إلى محافظتين تهامة واليمن. ومقر إدارة تهامة كان مدينة زبيد ومقر إدارة اليمن صنعاء.

ولما كانت مدينة زبيد على بعد ثلاث مراحل من البحر فقد تفرق سكانها وأشرفت على الخراب، وأخذت مدينة جديدة تزدهر لأنها على شاطئ البحر فاتخذت مركز إدارة لولاية تهامة.

والمدن التى من جدة إلى عدن وعلى شاطئ البحر من مدن تهامة هى:

ليـت:

بلدة ليت على الطرف الشرقى الجنوبى لجدة وعلى بعد تسعين ميلاً منها، وهى مدينة صغيرة قديمة، وإن كانت لها حدائق نخيل ومياه عذبة فى آبارها، إلا أن جوها وخيم بسبب كثرة رياحها التى تثير الغبار حتى يكاد الإنسان لا يفتح عينيه.

وفى نفس المدينة دائرة حكومية وجامع شريف وخمسمائة وخمسون منزلاً وخمسون دكانًا، وفى مرساها الذى يبعد عن المدينة نصف ساعة والتى تبعد عن مكة المكرمة أربع مراحل بسير الجمل حجر صحى ودائرة جمركية.

وسكانها الأصليون ألف نسمة تقريبًا، ولكن بما أنها أقرب مرساة لعربان القبائل التى حولها فكلّ فرد منهم يأتى بما يريد أن يبيعه من غنم أو سمن[1] والأشياء الأخرى لهذه المدينة، ويشترى ما يحتاج إليه من حاجياته الضرورية، ففى هذه المرساة تتم عمليات استيراد وتصدير لا بأس بها.

وميناء (ليت) مشهور بين موانى البحر الأحمر. فمرساته فى هذه المدينة التى تبعد عنه نصف ساعة فى الجهة الشمالية، كما أن له دائرة جمركية ودائرة الحجر الصحى أيضًا.

لم تكن هاتان الدائرتان ـ إلى وقت قريب ـ مبان من الحجر واللبن بل كانتا كوخين من الأعشاب. وبناء على الإرادة السنية التى صدرت فى خلال عام ألف

وثلاثمائة وخمسة الهجرية بنيت إدارة حكومية كاملة، وجامع ومخبز ومدرسة للصبيان فى شبه الجزيرة الملاصقة والمتاخمة لهذه المدينة، كما حفر خندق عميق يكون طرفاه الجزيرة المذكورة ومتصلان بالبحر من ناحيتين بُنى فوقه برج من الحجارة ذو أربعة أبواب للدفاع لحماية الميناء.

وكان الميناء المذكور قد حفظ وحدد بصخور مرجانية مستديرة الشكل كالقوس، وكان فى وسط هذا الخط مدخل للسفن يستوعب عشر قطع من السفن، وتستطيع الصخور المرجانية أن تحمى السفن من جميع أنواع العواصف التى قد تهب، وكان عمقه مناسبًا وكان هذا الميناء قريبا فى مكان تلتقى فيه منطقتا عسير والحجاز ويسمح بتوسيع دائرة تجارة سكنة هاتين المنطقتين.

لذلك وُزع قدر كبير من الأراضى التى فى جهة اليابسة من الميناء على الأهالى المستوطنين هناك، وكذلك على الذين يرغبون فى الحصول على الأرض من الخارج ولا سيما للموظفين المحليين، وبناء على ذلك بُنيت عشرة منازل وعدة دكاكين، كما أن السلطان أيضًا بنى من جانبه المنزل والدكاكين فأطلق على هذا البلد الجديد اسم معمورة الحميد.

وبما أن موظفى الحكومة نقلوا إلى معمورة الحميد، وأرسل إليها من جدة مدفعان ومجموعة من الجنود النظاميين وطاقم مدفعى وأسكنوا فى البرج المذكور ولا شك فى أن هاتين المدينتين ستنهضان وتشتهران.

قنفـذة:

تقع بلدة قنفذة فى الجنوب الشرقى من مدينة (ليت) المذكورة آنفا وعلى ساحل البحر. كان سكانها الأصليون يتكونون من ألف وخمسمائة نسمة، إلى أن أرسل فى سنة ١٢٨٠ الجيش السلطانى لدفع غائلة خروج أمير عسير محمد بن عائض من باب السعادة، وأخرجوا رأسًا إلى قنفذة واتخذت مركز حركة للجيش لقربها من جبال عسير فجاء إليها من الأطراف والأكناف كثير من الأشخاص، واستوطنوا فيها وبناء على ذلك استمر سكانها فى الزيادة يوما بعد يوم.

اللحيـة:

واللحية مدينة شهيرة على بعد مائة وثلاثين ميلاً فى الجنوب الشرقى من قنفذة وعلى شاطئ البحر الأحمر، وهى مدينة رائجة بالتجارة وميناء مزدحم، وإن كانت تشمل أربعة آلاف منزل ولكن أكثرها من نوع العشش المبنية بسعف النخيل، ويقدر سكانها ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف.

أبو عريش:

تقع مدينة (أبو عريش) على بعد تسعة وثمانين كيلو مترًا من اللحية على الجانب الشمالى منها، وبالقرب من البحر الأحمر ويبلغ سكانها خمسة آلاف نسمة تقريبًا.

الحديدة:

تقع مدينة الحديدة على بعد خمسين ميلاً تقريبًا وفى الطرف الجنوبى الشرقى من (اللحية) ومحصورة بسور فى غاية العمار ولها قلعة مستحكمة.

ولما كانت البلدة المذكورة أكثر مدن اليمن الساحلية رواجًا بالتجارة وازدحاما بالسكان وانتعاشًا، وميناء الشط فقد اتُخذت مقرًا لمتصرف اليمن.

وتمر بهذا الميناء البواخر والسفن الشراعية الآتية من الهند وزنجبار وخليج البصرة إلى جدة للتزود بالمياه والمؤن وإنزال المسافرين فى أكثر الوقت وخاصة فى مواسم الحج، وغير ذلك تحمل المحاصيل المحلية الكثيرة إلى السفن من هذا الميناء ولتجارها علاقات وروابط بأهالى جدة ومصر وحضرموت.

وتخلو بلدة الحديدة من المياه الجارية، لذا يدبر الأهالى أمورهم بمياه ست آبار على بعد نصف ساعة منها.

وإن كانت مياه هذه الآبار مالحة قليلاً مثل ماء البحر، إلا أنها لا تضر الجسم بل تساعد على هضم الطعام.

المخـآ:

تقع مدينة المخا على بعد تسعين ميلاً من الحديدة وعلى شاطئ البحر الأحمر، وقريبة من مضيق باب المندب والمسافة بينها وبين زبيد ثلاث مراحل.

وكانت هذه المدينة مشهورة قديمًا وكانت غاية فى العمار فى الأزمنة السابقة وكانت مدينة تجارية رائجة. وقد بلغ عدد سكانها قبل خمس وعشرين سنة إلى عشرين ألفا، إلا أنهم لم يتحملوا فيما بعد هجمات عربان عسير وغاراتهم وتعدياتهم المتوالية فتشتتوا هنا وهناك.

ولم يبق الآن داخل المدينة غير خمسمائة شخص وبناء على ذلك تحولت تلك المدينة الكبيرة إلى خرائب وأطلال. إلا أنه فى ظل السلطان أمكن القضاء على الأشقياء المذكورين، وأزيلت تعدياتهم وغاراتهم من هناك كليًا. ومن المأمول أن يعود للمدينة عمارها القديم وسكانها.

عـدن:

تقع مدينة عدن فى نهاية جزيرة العرب جنوبًا وبالقرب من مضيق باب المندب من خليج عدن، وعلى بعد مائتين وخمسة وعشرين كيلو متر من مدينة المُخا.

وكانت دولة إنجلترا قد اشترت هذا المكان فى سنة ألف وثمانمائة وتسع وثلاثين ميلادية من أحد مشايخ العربان، وأنشأت هناك قلعة على أنها مخزن. وكان أهالى عدن فى ذلك الوقت ألفى نسمة، ولكنهم ازدادوا قليلاً فقليلاً بالتدريج حتى بلغوا وتجاوزوا عشرين ألفا. وبما أن مضيق باب المندب يقع بين المخا وعدن، تعد مدينة عدن بمثابة مفتاح البحر الأحمر. والمسافة بين مدينة عدن وصنعاء ثلاث مراحل، وقد استوطن عربان (لحج) بين هاتين المدينتين.

وادى كنونة:

يقع وادى كنونة بالقرب من قنفذة عندما تقطع قطعة اليمن من طرفها الشمالى إلى جهتها الجنوبية رأسًا.

وتسكن قبائل بأيعر، وبنى زيد، وبنى حرب، وبنى عبس، وبنى سهيم، فى داخل وادى (كنونة). ويصل عدد أفراد هذه القبائل مجتمعة خمسة آلاف أو ستة آلاف نسمة.

وهناك وادى ويبة وهو ملاصق للوادى المذكور، وتسكن فيه قبيلتان معروفتان باسم بنى بجير، وبنى الروحة وعددهما ثلاثمائة نسمة.

وفى نهاية وادى (ويبة) محل يسمى حلى تسكن فيه قبائل بالمنتشر، وبالعريان، وعوامر، وبالكنانى ويصل عددها إلى أربعة آلاف نسمة تقريبًا.

وتسكن بجوار أبى العريش قبيلة مسارحة وجيزان بالقرب من نجران قبيلتا بنى سبيل وبنى شبيل. ويبلغ عدد كلها ستمائة نسمة.

وقد سكنت قبيلتا بنى مروان وحرض بين جيزان واللحية ولما كانتا عريتين عن الأخلاق والفضيلة، فضلتا التعيش عن طريق اللصوصية وقطع الطرق، ويكاد أن يبلغ عددهم ألف وخمسمائة فقط وتسكن القبائل: بنى قصير، بنى جامع، بنى شيبة، بنى شايع بجانب اللحية ويبلغ عددهم ألف نسمة تقريبًا.

ويبلغ عدد مجموع أفراد قبائل بنى زين، وبنى راجح، والفرانتة، وبنى طاهر، وبنى هيجان التى تسكن فى الوادى المشهور بالواعظات فى الجهة الشرقية من اللحية سبعة آلاف نسمة.

وتسكن قبيلتا بنى حسن، وبنى عبس وقبيلة أسلم فى القرى التى أمام وادى الواعظات، ويشتهر سكان كل قرية باسم القبيلة التى ينتسبون لها ويذكر العارفون أن عددهم يبلغ خمسمائة نسمة.

وفى الأماكن التى تمتد فى محاذاة اللحية إلى مضيق سندس جالية من القبائل البدوية الرحل، ولما كان سكان هذه المنطقة يسكنون فى القرى والمدن فإنهم يشتغلون بالزراعة والتجارة.

ولما كانت الحرارة شديدة فى تهامة لا تنبت بها شجرة البن، وينحصر نمو أشجار البن فى اليمن فى الأماكن الجبلية ووديانها.

نفس اليمن وصنعاء:

تقع نفس اليمن فوق الأراضي المرتفعة والجبال العالية. وتشمل قرى متعددة عامرة وأماكن قابلة للزراعة.

وأكثر جبالها ليست جرداء كالجبال الأخرى، بل هى تتكون من الوديان الصالحة لنمو الأشجار وقابلة للزراعة، ويدخل فى حكم هذا الإقليم جبل عسير أيضًا.

وأجل بلاد اليمن وأشهرها مدينة صنعاء التى تقع على بعد تسع وخمسين ساعة فى جهة اليابسة. تقع تلك المدينة فى الشمال الشرقى من بلدة مخا وعلى بعد مائتين وخمسة وأربعين كيلو متر منها، وفى درجة واحدة وتسع وثلاثين دقيقة من خط الطول الشرقى، وخمس عشر درجة وعشرين دقيقة من خط العرض الشمالى، وكانت قديمًا فى غاية من العمران، وإن كانت تخربت فيما بعد، ولكن لما أعيد لها أمنها بعون السلطان أخذت تزدهر عمرانيًا مرة أخرى. وهى مدينة لطيفة وتتزين أطرافها بالحدائق والبساتين.

ويبلغ عدد سكانها ثلاث وعشرين ألف نسمة وأربعمائة، تسعة عشر ألف وسبعمائة منهم مسلمون، والبقية يهود.

وهى كثيرة المياه والثمار وتشبه دمشق الشام من هذه الناحية، بقربها قصر غمدان من آثارها العتيقة المشهورة.

والمدينة على سفح جبل ويحيط بها سور ذو أربعة أبواب، وفى داخل السور أربعة وعشرون جامعًا كبيراً وما يقرب من عشرين مسجداً وكثير من القصور وأربعة حمامات وخانات.

وفى الأراضى الساحلية لليمن والتى يطلق عليها تهامة يمكن زراعتها أربع مرات فى السنة، إلا أن شدة الحرارة لا تسمح بنمو النباتات مثل القمح والشعير.

وتزرع فيها حبوب مثل الذرة والدخن كما تزرع فى جبالها الحنطة والشعير والسمسم مرتين فى السنة، وتنبت هنا جميع الفواكه والخضر التى تنبت فى البلاد الأخرى، ولكن محصولها الذى يجلب نفعًا كبيرًا هو البن.

وكانت شجرة البن قديمًا خاصة باليمن، ولكنها نُقلت فيما بعد إلى البلاد الأخرى حيث أُنبتت فيها.

وقد جربها أول مرة أهل اليمن وعرفوا بعد التجربة خاصيتها النافعة، وأخذوا يستعملونها ويشربونها فتبعهم بعد ذلك أهالى البلاد الأخرى.

والقهوة اليوم وسيلة رئيسية لإكرام الضيوف وتحيتهم وقد صدق الأطباء بعد التجربة على خاصية القهوة فى التنبيه والتنشيط وأثرها اللطيف على الأعصاب. وأجود أنواع البن التى تنبُت فى بلاد اليمن.

المانجو:

فاكهة المانجو خاصة بالهند وهى تشبه الخوخ. وتنبت فى مدينة صنعاء أيضًا، ولهذه الفاكهة رائحة فى غاية الجمال وطعمها فى غاية اللذة، ورائحتها الطيبة يمكن أن تعطر غرفة. وعندما تكون نيئة تصنع منها سلاطة ومخلل. وعندما تنضج تطرى مثل الليمون الحلو، ولما كانت قشرتها غير قابلة للتقشير تتقب ويمتص عصيرها. إنها فاكهة حلوة لذيذة.

والعربان الذين يكونون قبائل رفاعة، العبيدات، الهجاهجة، بنى كبير، أو كلوب، والعبادلة، والبيشة يسكنون فى الأراضى الواقعة فى الجنوب الشرقى من الطائف ويبلغ عددهم عشرين ألفًا.

وبما أن قبيلة البيشة فى حدود متصلة بأهل عسير فقد حدثت بينهما حروب شديدة لمدة طويلة، وفى نهاية الأمر تغلب أهل عسير على قبيلة بيشة.

وإن قيل إن قبيلة بنى سعد تقيم فى الجهة الجنوبية من الطائف، أى بين الطائف وعسير إلا أن قبائل: بنى ميمون، بنى مالك، ناصره، زهران، غامد،

شمران، بالقرن، بنى الأسمر، بنى الأحمر وشهران تسكن أيضًا داخل الأراضى المذكورة. وتتشعب من هذه القبائل قبائل أخرى بأسماء مختلفة. ويصل عدد مجموعها إلى مائة وستين ألفا.

ولما كان أكثرهم متحضرين ويسكنون فى الأراضى المنبسطة على سفوح سلسلة الجبال، أى يسكنون فى أراضى تهامة اليمن فإنهم يزرعون الذرة، والدخن والسمسم والقطن، كما يزرعون فوق الجبال الشعير والقمح والذرة والدخن وكلهم يتعايشون بالزراعة والفلاحة.

ومقر سكن قبيلة زهران من القبائل المذكورة جبل زهران وتهامة لما كانوا كلهم من أصحاب الزراعة والطاعة فإنهم يسكنون فى ثلاثمائة قرية خاصة بهم.

والعربان الذين يسكنون فى غرب جبل زهران وفى الأراضى المستوية المسماة بتهامة يزرعون الذرة والدخن والذين استقر بهم المقام فوق الجبل المذكور يزرعون الذرة والدخن كما يزرعون القمح والشعير ويحصدونهما ويزرعون من حين لآخر اللوز.

وفى الطرف الجنوبى من جبل زهران جبل آخر يسمى غامد، ويسمى عربان هذا الجبل غامد وهؤلاء أيضًا لهم ما يقرب من ثلاثمائة قرية خاصة بهم.

وفى خمسات القبائل المذكورة قبيلة بنى عمر، وفى أماكن إقامتهم تنمو شجرة البن غير الحبوب المذكورة.

ويطلق على العرب الذين يسكنون جبل غامد وسهوله بلدى وعلى هذه الأراضى الحجاز، وعلى سكنتها الحجازى ويطلق على قبائل بنى كبير، وهجاهجة، وعويضاضى، وزهران، ورفاعة التى تسكن فى الجهة الشرقية من جبل غامد «البدو» لأنهم مازالوا فى حالة البداوة.

وإن كانت الجبال التى يطلق عليها ميمون وشمران وبالقرن بين جبل غامد وجبل عسير إلا أنها فى داخل الخطة اليمانية وستذكر فى مواضعها.

عريان عسير:

وأهل عسير الأصليون من أفراد قبائل بنى علقم، رفيرة، وبنى ربيعة، ومقيد، التى تسكن بين الطرف الشمالى والطرف الجنوبى لعسير يكاد أن يبلغ عدد نفوسهم إلى عشرة آلاف.

وعندما اعتنق أمير عسير السابق محمد بن عائض سياسة السيف والقوة فأخضع أغلب القبائل العربية التى بجوار جبل عسير بالقوة وكون جماعة كبيرة، لذا أراد أن يثور ضد الدولة العلية إلا أن قوة السلطان القاهرة داسته بالأقدام وأتباعه، واستكمل سعادة رعاياه المتعطشين للعدل والرحمة.

قحطان:

تسكن فى الطرف الشمالى لجبل عسير والأراضى التى تمتد إلى جنوب ذلك الجبل قبائل رقيف اليمنى، عبيدة، شريف، سحان وداعة التى تسمى قحطان.

وتنمو أشجار البن ابتداء من الجبل الذى تسكنه قبيلة وداعة إلى محاذاة باب المندب والجبال الممتدة بينهما وما بين تلك الجبال، ويعيش الذين فضلوا الإقامة فى هذه الأماكن فى القرى والمدن وتذكر جماعة كل قبيلة باسم المحل الذى تسكن فيه.

وفى الجهة الشرقية من جبل عسير واد يسمى نجران، وتسكن فى هذا الوادى شعبة من قبيلة يام التى يبلغ عدد أفرادها ثلاثين ألفًا.

ويمتد وادى نجران ما يقرب من ثلاثة أيام وفى هذا الوادى ماءان جاريان كبيران كما أن فيه أشجار النخيل بوفرة. وتقيم شعبة من قبيلة (يام) فى جبل حراز.

كما أن قبيلتيهما المسميتان ذوى محمد وذى حسين كثيرتى العدد، وتستوطنان جبل برط فى الطرف الشرقى لوادى نجران. وكانت هاتان القبيلتان من القبائل العربية المتسلطة فى الأوائل، وكانتا تغيران على أكثر أنحاء البلاد اليمانية وتنهبان

أموال السكان وتسلبان أشياءهم، وتحرصان على فرض الإتاوة على أهالى المدن والقرى. حتى إن الأئمة الزيدية الذين يحكمون صنعاء كانوا عاجزين عن منع إغارتهما وتسلطهما.

وهناك ثلاث قبائل أخر والتى تعرف بأسماء آل مرة، والكرب، والصيعر مأواهم بين جبل برط وإقليم حضرموت. وإن كانت هذه القبائل ذوات أفراد كثيرة مثل قبيلتى ذوى محمد ذوى حسين، فكلهم يعيشون تحت الخيام وفى حالة الترحل دائما.

وتطلق على البلاد التى تقع فى الجهة الجنوبية من جبل برط بلاد حاشد، وتعيش فى هذه البلاد قبيلتا نهم، وأرحب ويصل مجموع عددهما إلى ألفين وخمسمائة نسمة، تعيش فى بلاد عمران أى بين حدود بلاد حاشد وهمدان قبائل يبلغ عددها خمسمائة أو ستمائة نسمة وكلها تشتغل بالزراعة والفلاحة. وتسكن قبيلة همدان ذات الألف نسمة بين أراضى بلاد عمران وبلدة صنعاء.

قبيلة بنى مطر:

يسكن أفراد هذه القبيلة بين الأراضى التى بين صنعاء وحجة. ويبلغ عدد سكانهم عشرة آلاف نسمة تخمينا ويعمل جلهم بالفلاحة ويتعيشون بها.

كما أن أفراد قبيلة البروية، والذين يبلغ عددهم عشرة آلاف، يشتغلون بزراعة أشجار البن والحنطة والشعير والذرة والفواكه وبيعها ويمضون حياتهم بين الجبال والأودية.

ويبلغ عدد أفراد قبيلة (حضور) الذين يعيشون فى الأراضى الملاصقة لأراضى قبيلة البروية أربعة آلاف نسمة، وهؤلاء أيضًا يعملون فى الزراعة والفلاحة.

تسكن فى الجهة الشرقية من أراضى صنعاء قبائل بنى شداد، خولان، بنى جبر، بنى عبس، بنى فلاح، ضبيان، بنى مجاهد وبنى قيس الأعماس التى يبلغ عددها أربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة تخمينًا.

بلاد حضرموت ومكلا وشحر وتريم.

من الأقسام العظيمة لجزيرة العرب حضرموت. وهذه القطعة تقع، كما سبق بيانه أعلاه، فى الجانب الجنوبى من الجزيرة العربية وبين اليمن والقطعة اليمانية، ومن درجة ثلاث عشرة إلى سبع عشرة درجة لخط العرض الشمالى، وثلاث وأربعين درجة إلى أربع وخمسين درجة فى الخط الطولى الشرقى، ويحدها من الجانب الغربى قطعة اليمن، ومن جانبها الشرقى قطعة عمان، ومن جانبها الشمالى (الأحقاف)، وجانبها الجنوبى بحر عمان، ومن مدنها الساحلية المشهورة مكلا، وشمر، وظفار، ومرباط، وحاسك.

وظلت قطعة حضرموت فترة فى يد الأئمة الزيدية المقيمين بصنعاء كما ظلت من سنة تسعمائة إلى سنة ألف ومائة فى يد أسرة كثيرى من أعيان حضرموت، وبعد ذلك استولى النواب الذين عينوا من قبل آل كثير من قبيلة يافع على البلد الذى يحكمه؛ وذلك لإصابة قوة إدارة آل كثير بالضعف والوهن. وفى فترة ما سافر شخص من آل كثير يسمى الأمير غالب إلى الهند ثم عاد وقد كسب كثيراً من الذهب، واشترى عددا كثيراً من العبيد ثم هجم مع من استطاع أن يجمع من أفراد قبيلته فى سنة ألف ومائتين وستين على بلده تريم، غرف، ومريمة، وسيوون، وتريس، واستولى عليها ومات سنة ألف ومائتين وسبع وثمانين.

وبعد موت الأمير غالب جلس مكان أبيه ابنه منصور، واستولى هذا أيضًا على أماكن كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يستولى على قطعة حضرموت كلها. فانقسمت قطعة حضرموت إلى الحكومات الآتية:

مكلا:

تقع مدينة مكلا ـ كما ذكر آنفًا ـ على شاطئ البحر فى قطعة حضرموت، وعلى بعد اثنتى عشرة مرحلة بالجانب الشرقى من مدينة عدن برًا وهى مدينة كبيرة جميلة. ويقدر سكان مكلا عامة بأربعين ألف نسمة تقريبًا.

ومكلا الآن مع المدن الآتية: بروم، الديس، الحض، وروكب تحت إدارة أمير يسمى النقيب صلاح، وهو يفتخر برفع الراية العثمانية.

وللمدن المذكورة دخل سنوى من دائرتها الجمركية أربعة أو خمسة آلاف كيس من النقود ما عدا محاصيلها الأخرى.

شحـر:

شحر مدينة على الطرف الشرقى وعلى بعد مرحلتين من مكلا، وعلى ساحل البحر لحضرموت وعدد سكانها يقترب من خمسة آلاف نسمة وهذه البلاد فوق جبل، وكان يعرب بن قحطان عين أخاه (عامر) واليًا على هذا الجبل. ولما كان عامر يحضر جميع الحروب التى تحدث وقته وكان شجاعًا قويًا شديدًا فى القتال فاستخدموا تركيب حضرموت الذى يعنى حيثما وجد عامر فالموت حاضر. فى حق عامر ثم أطلقوا على القطعة حضرموت بتسكين حرف (ض).

وتعد شحر الآن مع ناحيتى شيام، وقطن الواقعتين فى جهة الجبل تحت حكم أمير يسمى قعيطى ومقر إمارته وإقامته بلدة شحر وللمدينة المذكورة مياه جارية وحدائق النخيل ولها دخل كبير من زراعة التبغ.

تريـم:

وتريم فى داخل حضرموت وعلى بعد إحدى عشرة مرحلة من مكلا من جهتها الشمالية، وعلى بعد خمسة عشر ميلاً من (زمار) وهى بلدة خربة.

وهذه البلدة مع مدن غرف، مريمة، سيوون وتريس تحت حكم وإدارة شخص يسمى الأمير منصور.

وكانت هذه البلدة فى الأوائل فى غاية العمران واسعة الأنحاء كثيرة السكان ومقرًا للعلماء إلا أن غارات العربان المتسلطين المتكررة أجبرت سكانها على ترك ديارهم، فآلت إلى الخراب الآن. ولم يبق فيها غير ثلاثة آلاف من سكانها بعد أن كانت مدينة عامرة بثلاثمائة من المساجد والجوامع.

الوديـان:

ينقسم إقليم حضرموت إلى شعب متعددة وبعض الوديان، وأحد هذه الوديان الرئيسية وادى يبعث الذى يمتد من الجنوب الغربى لقطعة حضرموت إلى الشمال الشرقى منه، وإلى المحل المسمى نبى الله هود ويشمل الثمانى القرى التابعة لبلدة بروم، وتقيم قبائل آل عمودى، وآل بالعبيد، وكرب التى يبلغ عدد نفوسها ألف وخمسمائة نفر. ويروى سياح العرب أن لهذا الوادى قدر من أشجار النخيل ومياه جارية.

وادى حجـر:

من الوديان المشهورة وادى حجر الذى فى داخل بلدة بروم وعلى بعد مسافة ثلاثة أيام منها.

وفى هذا الوادى ما يقرب من مائة ألف نخلة، وعشرون نهرًا جاريًا. ويبلغ من أول هذا الوادى إلى آخره فى أربعة أيام، ويسكن فى داخله جماعات من قبيلة نوح.

ومن أحد وديان حضرموت المهمة وادى ريدة الديك الذى يقع أمام وادى حجر، والذى يشتهر بين العربان بكثرة نخليه.

دوغـن:

من الوديان المشهورة بعد وادى ريدة الديك وادى دوغن، وطول هذا الوادى أربع وعشرون ساعة وعرضه نصف ساعة.

وفى الأراضى التى يشتمل عليها وادى (دوغن) إحدى وعشرون قرية صغيرة وكبيرة. وتسكن فى هذه القرى قبائل آل العمودى، المراشدة، القشم، الخامعة ونوح وعدد أفرادها يبلغ ألفين وخمسمائة نسمة.

وإن لم تكن لوادى دوغن مياه جارية إلا أنه يُسقى بمياه الأمطار، وأحيانًا يروى بمياه الآبار. وله حدائق كثيرة تحوى أربعين ألف نخلة فهو موقع مبارك ومنبع زراعة وتجارة.

وادى ليسر:

ليسر شعبة من شعب وادى (دوغن) ويمتد طولاً اثنتى عشرة ساعة، وعرضًا نصف ساعة وهو واد مشهور.

ويحتوى هذا الوادى على عشر قرى وعلى خمسين ألفا من النخيل وجميع أنواع المغروسات والمزروعات والحدائق والبساتين.

وتسكن فى ذلك الوادى الذى يجمع ألف شخص تقريبًا، القبائل المعروفة باسم الحالكة، وآل محفوظ، وآل يزيد، وآل بطاطى، وآل كثير.

وادى العين:

ويشتمل وادى العين الذى يمتد طولاً أربعًا وعشرين ساعة على خمس قرى، وثلاثين ألف نخلة وكثيرًا من الحدائق، ويسكنه آل عوابسة الذين يبلغ عددهم خمسمائة نسمة.

وادى عمد:

يمتد وادى عمد اثنتى عشرة ساعة طولاً ونصف ساعة عرضًا. وفى داخله حدائق كثيرة تشمل مائتى ألف نخلة، ستًا وعشرين قرية صغيرة وكبيرة وتقيم فى هذه القرى قبائل باطليب، باتييس، بنو ماضى، الجعد، الصقر، نهد، كز وبنى مخاشن.

وتتحد نهاية وادى عمد و (دوغن) السابقى الذكر فى مدينة قفل، وموقع كز الذى يمتد من هذا المكان يتصل بمدينة حزير.

وادى رخية:

والوادى الذى يطلق عليه رخية يمتد طولاً ست ساعات وعرضًا نصف ساعة ويشتمل على عشر قرى ويشتمل على عشرة آلاف نخلة.

وتسكن فى هذا الوادى قبائل آل على، بنى حيدرة، بنى بالليث وشحا التى يتجاوز عددها ثلاثمائة نسمة.

وادى دهـر:

يمتد وادى (دهر) ثلاث ساعات طولاً ويشتمل على قرى كثيرة ذات نخيل. ويستوطن فى هذا الوادى قبائل آل بالعبيد، والصيعر، ويافع، وعددهم ألفان وخمسمائة نسمة.

وادى ابن راشد:

ينقسم وادى ابن راشد إلى جزءين ويبدأ الجزء الأول من مكان يطلق عليه شيام ويطلق على هذا الجزء وادى قيلى ووادى سر.

والجزء الثانى هو ما يقع أمام قرية ساه ويسمى وادى بحرى ووادى عدم.

ويتحد هذان الواديان فى محل يطلق عليه غرف، وينتهى عند قرية نبى الله هود الواقعة فى انتهاء وادى ابن راشد الذى يمتد نحو جهة الشمال ثلاثة أيام طولاً.

ويشمل وادى ابن راشد ست وستين قرية صغيرة وكبيرة، وحدائق متعددة تحتوى على مليون نخلة.

وتقيم فى هذه القرى قبائل آل كثيرى، العوامر، آل باجرى، آل جابر وآل تميم ويتجاوز عددهم ستة آلاف نسمة.

وإن كانت البلدة والقرى التى حكمها الأمير منصور بن غالب السالف الذكر داخل الوادى المذكور، إلا أن أهالى القرى المذكورة خارج أفراد القبائل الخمس التى تحدثنا عنها، فالقبائل العربية التى تسكن حول حضرموت هى القبائل الرئيسية التى سنتحدث عنها فيما يأتى.

تسكن قبيلة يافع فى الجبال الواقعة على الطرف الشرقى الشمالى لمدينة عدن وعددهم يبلغ عشرين ألفا تقريبًا.

عواليق والأخرى:

تستوطن قبائل عواليق، آل ديب، آل عبد الواحد، شيبان، عكابرة وبنى

حسن فى الأراضى التى بين مدينة مكلا، ومدينة عدن ويبلغ عدد مجموع أفرادها إلى خمسة آلاف نسمة تقريبًا.

آل حموم:

تسكن قبيلة الحموم التى يبلغ عدد سكانها ألف نسمة فى أطراف بلدة شحر وجوارها.

نبى الله هود، ومناهل، ومهرا:

تقيم قبائل بنى نبى الله هود، ومناهل، ومهرا فى الأماكن الواقعة بين قرية نبى الله هود التى ينتهى عندها وادى ابن راشد، وبلدة ظفار ويبلغ عدد سكانها إلى ألفين تقريبًا.

ويسكن فى داخل قطعة حضرموت ثلاثة آلاف من السادة الكرام الذين ينتمون إلى النبى ﷺ نسبًا ويجدون من السكان الآخرين احترامًا وافرًا. واليوم فالسادة الكرام الذين يُسمون السادة العلوية هم المعنيون بهذا الاسم والسادات العلوية الموجودون فى مكة المكرمة والمدينة المنورة متفرعون منهم.

وإن كانت الأراضى التى فى سفوح جبال قطعة حضرموت صالحة للزراعة، إلا أن خصوبتها ضعيفة وأكثر أماكنها خالية من المياه والأعشاب، لذا يتعايش سكانها بصيد السمك على شواطئ البحر، ويعلفون حيواناتهم بالسمك، ولما كان على شاطئ البلاد التى يعيشون فيها عنبر خام فهم يجمعونه ثم يبيعونه.

وكذلك الجوز الهندى، تنباكو، والعرر، والصمغ العربى والبخور والحنطة، البلح والنيلة من المحاصيل الخاصة بحضرموت، والنباتات التى تنبت فى الهند تنبت فى جبال حضرموت.

فى صحراء الأحقاف التى تقع بالجانب الشمالى من حضرموت توجد صحراء رملية متحركة والتى تسمى بحر الصاف، فكثيرون من المسافرين حينما يعبرون هذه الأماكن فى الأيام العاصفة يموتون وتغطيهم الرمال، ولما كانت غير قابلة للزراعة والفلاحة فهى غير مسكونة.

والمدينة التى ذكرت فى التواريخ بـ «الرس» و «بئر معطلة» و «قصر مشيد» كانت فى داخل قطعة حضرموت.

وكان سكان هذه المنطقة يعانون من قلة المياه، ويحملون المياه التى يشربونها من أماكن بعيدة، وفى النهاية وهبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ واهب الوجود بئرًا غزيرة المياه، ولما كانوا من عبدة الأصنام وقتلوا نبيهم حنظلة بن صفوان انقطعت مياه البئر وهلكوا بعذاب أليم.

والبئر التى يقال لها **البئر المعطلة** هى تلك البئر. أما **القصر المشيد** كان البرج الذى بناه صد بن عاد من رؤساء العرب البائدة بغرض مقاومة الرياح العاصفة الفاسدة.

وإن كان صد بن عاد قد بنى هذا القصر لمواجهة الغضب الإلهى، إلا أنه لم يمت بمفرده بل هلك أولاده وأحفاده أيضًا وانهار قصره وأصبح مأوى البوم والغربان، ويروى أن بعض أماكن خرائب القصر مازالت موجودة إلى الآن.

ظفار:

تقع بلدة ظفار بين حضرموت وعمان وعلى ساحل البحر، وطولها على ساحل البحر ست مراحل وعرضها تسع مدن.

ولما كانت أكثر قراها ومدنها على سواحل البحر، فسكانها يعملون فى الزراعة والفلاحة كما أنهم يصطادون السمك ويتاجرون فى اللؤلؤ والصدف.

إن قبيلة آل كثير التى يبلغ عدد سكانها خمسمائة نسمة تسكن الوادى المطل على القصبان التى سكنها قبيلة قرا وشحره ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة تقريبًا.

إن جو ظفار مثل جو الهند فتسقط الأمطار كل عام فى فصل الصيف ويهبط الماء الناتج عنها إلى الوادى باستمرار.

فينزل الماء الذى يسقى الأراضى فى فروع كأنها نهر جار وتكون عميقة لدرجة أن القوارب تسير فيها. انتهى.

ولأن الأمطار لا تنقطع فى فصل الخريف فقوة الإنبات تصل إلى حد الكمال وتنبت فيها كل الفواكه التى تنبت فى الهند، وليس بها حاكم مستقل فهى تابعة لشيخ المنطقة.

البلاد التى تشملها عمان:

إن عمان من الأجزاء الكبيرة للجزيرة العربية:

تقع عمان فى الجنوب الشرقى للجزيرة الكبيرة وطولها من خليج البصرة إلى ساحل بحر عمان ثلاثة وخمسين درجة، وسبعة وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من جهة الشرق وعرضها الشمالى من اثنين وعشرين درجة إلى سبعة، وعشرين درجة يحدها شرقًا المحيط الهندى وشمالا خليج البصرة وجنوبا جبل الأحقاف وغربا جبال اليمامة.

وبما أن طبيعة عمان وأرضها أخصب وذات قدرة على الإنبات أكثر من كل المناطق فهى تحتوى على كثير من القرى والقصبات، وأرضها تنبت كل المحاصيل والفواكه وطبيعة أهاليها متحضرة وليست بهم خشونة البدو.

ولأن أغلب قراها وقصباتها تقع على الساحل فسكانها يعملون بالفلاحة والزراعة وصيد الأسماك واللؤلؤ.

وكانت إدارة قطعة عمان قد أحيلت إلى عمان بن قحطان أخى يعرب، ثم استقل بعد فترة وبعد وفاته تولى إدارتها قضاعة بن مالك بن حمير وفى النهاية استولى عليها حاكم اليمن سكسك بالقوة من قضاعة. وإن كان مالك بن إلحاف حفيد قضاعة استردها من يد ابن سكسك فى زمن سلطنة يعفر، ولكن الحكومة اليمنية عندما قويت ألحقت إدارة عمان إليها وأديرت من قبل اليمن بواسطة الولاة، ثم انتقلت إدارة عمان إلى أئمة المشايخ بعد أن ضعفت حكومة اليمن.

وعندما نجت منطقة عمان من استيلاء القرامطة أديرت بواسطة الأئمة المحليين المنتخبين كما كان فى السابق. وفى سنة تسعمائة الهجرية طمع فيها البرتغاليون

والهولنديون والإيرانيون. وفى سنة تسعمائة وإحدى عشرة استولى على جميع سواحلها البرتغاليون وفى سنة ١٠٥٧ انتزع الأهالى الشواطئ من يد البرتغاليين بانتصارهم عليهم إلا أن بعض أماكنها استولى عليها الهولنديون وبينما كان الأهالى الشجعان يطردون الهولنديين تعرضت البلاد لتسلط الإيرانيين ولكن الأهالى استطاعوا أن يطردوهم أيضًا وذلك بمساعدة حاكم شحر وهمته وإقدامه.

وبناء على ذلك انتخبوا الحاكم المذكور أميرًا لهم وبايعوه سنة ١٢٦٧هـ.

ومات أحمد بن سعيد بعد حكم دار واحدًا وعشرين عامًا فى سنة ١١٨٨هـ وتولى الحكم بعده ابنه صمد وبعد أن حكم ما يقرب من عشرين عامًا أيضًا تولى الحكم سلطان بن صمد وبعد وفاته تولى الحكم أخو صمد سعيد بن أحمد بن سعيد.

وكان سعيد بن أحمد بن سعيد من بين هؤلاء الحكام أذكاهم وأعقلهم وبعد أن دبر شئون إدارة بلاده مال إلى الجهاد وتوسيع بلاده، فابتدر بإنشاء سفن حربية كافية وبعدما انتهى من بناء أسطوله استطاع أن يستولى على جزر زنجبار سوقطرة وبعض البلاد التى فى قارة أمريكا[1] كما استولى على بعض أجزاء السواحل التى كانت فى يد إيران وجزر هرمز وكشم و رج، والبحرين، وهكذا وسع دائرة حكومته ثم بدأ فى الإصلاحات الداخلية.

وقسم البلاد التى تحت حكمه ـ قبل الوفاة ـ إلى ثلاثة أقسام، وترك جزءًا منها لابنه الكبير توينى ويشمل الجزر التى فى خليج البصرة والأماكن الواقعة بين برقة والجبل الأخضر فى عمان وبعض سواحل أفريقيا وجزيرتى زنجبار وسوقطره لابنه الثانى ماجد، والأماكن التى تقع على الجانب الغربى من عمان لابنه الثالث تركى[2].

(١) كذا فى الأصل، ولعله من وهم الناسخ. والصواب أفريقيا.

(٢) اسم تركى الآخر (ماجد).

ولما كان هذا التقسيم منافيًا لقاعدة بناء الحكومة فكأنه وضع بين أبنائه نار الفتنة وكان هذا خطؤه الكبير.

ورغب توينى عقب وفاة والده فى أن يفرض سلطته على أخيه ماجد، وذلك بإجباره على دفع ضريبة معينة له وأدت هذه الفكرة الخاطئة إلى قيام الحرب بين الأخوين، وبعد هذا استمرت الحرب سنتين تدخلت دولة إنجلترا بينهما وأصلحت بين الأخوين وذلك بشرط أن يدفع ماجد لأخيه الكبير أربعين ألف ريال سنويًا وأن يستقل بجزيرة زنجبار والسواحل الإفريقية.

واستطاع توينى بواسطة إنجلترا أن يمتلك ثلثى عمان من أجود الأراضى وأشهرها وأن يكون حاكمًا على أهاليها.

ولكنه لم يكتف بذلك إذ جعل أقصى آماله أن يستولى على الأراضى التى تحت يد أخيه الصغير وبهذا ساءت العلاقات بينهما.

وإن كان توينى فى الظاهر أقوى من أخيه تركى إلا أن أغلب أهالى عمان كانوا أنصار تركى؛ لذلك لم يرضوا بأن تخرج البلاد من يده وحكمه، وفى أثناء الحرب تخلى جميع أتباع توينى عنه وعرضوا بيعتهم على تركى.

وتدخلت دولة إنجلترا مرة أخرى بين الأخوين لإصلاح ما بينهما واستدعت تركى إلى مسقط.

فانتهز توينى هذه الفرصة فقبض على تركى وحبسه، عندئذ زادت الثورة الداخلية اشتعالا، فخاف توينى على روحه وهرب، واستعان بأمير نجد الشيخ فيصل فى سنة ١٢٧٠ فقبل الشيخ المذكور طلبه وأرسل ابنه عبد الله بقوة عظيمة إلى القطعة العمانية.

واستولى عبد الله بن فيصل على أغلب الأراضى التى تحت حكم تركى، وأخضع أهاليها وأدخلهم تحت طاعة توينى وحصل على جميع النفقات الحربية من توينى كاملة، وأخذ منه عهدًا على أن يدفع لإمارة نجد عشرة آلاف ريال سنويًا ثم عاد عبد الله بن فيصل إلى قطعة نجد التى تحت حكم أبيه.

ودام تدخل أمير نجد إلى سنة ١٢٧١هـ وبعد ذلك أصبحت جميع أراضى عمان فى يد توينى مستقلاً كما بقيت إدارة زنجبار وسواحلها تحت تصرف أخيه ماجد.

ولما مات توينى سنة ١٢٨٥ الهجرية تولى الحكم ابنه سالم الذى أسرع فى القبض على عمه تركى وسجنه ولكنه نجا من السجن بتدخل الإنجليز وسافر إلى بومباى.

ولما رفع عزان أحد أقارب سالم راية العصيان وانتزع الملك من يد سالم فى السنة الثانية من حكمه سمع تركى الذى سافر إلى بومباى بالأمر فعاد إلى عمان، وقتل عزان فانتقلت البلاد التى كانت تحت حكم توينى إليه فى سنة ١٢٨٧هـ كما أن برقش أخا ماجد احتل مكانه بعد موته منذ خمس سنوات، وأصبح حاكم زنجبار وسواحلها، وهكذا لاقى توينى جزاء ما ارتكبه ضد أخويه.

مسقط:

وتقع مدينة **مسقط** على شاطئ بحر عمان وعلى بعد ألفى كيلو متر من مكة المكرمة فى الجانب الشرقى منها عند درجة ٥٩ وعشرين دقيقة على الخط الطولى الشرقى وعند درجة ٣٣ و ٣٨ دقيقة على الخط العرضى الشمالى وهى أعظم مدن عمان وأشهرها.

يمكن أن يصل عدد سكان مدينة مسقط إلى ستين ألف نسمة مرساها فى غاية الاتساع والسفن التى ترسو فى داخله مأمونة من جميع أنواع العواصف.

عمان:

وأحد مدن منطقة عمان المشهورة مدينة **عمان** التى تقع على الجانب الشمالى الغربى وعلى شاطئ البحر وعلى بعد مائتى كيلو متر وعشرين من مسقط.

ولما كانت بجوار بلدة عمان منابع ماء كثيرة تبع من جبل قريب منها فلها حدائق كثيرة ونخيل إلا أن محصولاتها الرئيسية القمح والذرة والشعير.

وقطر الذى بين حسا وعمان وجزيرتا فارستان وكرمان الواقعتان على الساحل الفارسى من خليج البصرة وجزيرتا زنجبار وسقطرة على الساحل الأفريقى

الشرقى، والأماكن التى تطلق عليها كرمد والتى تقع على رأس غار دافوى فى الجهة الشرقية من قارة أفريقية، كلها من ملحقات مسقط. وعندما يُضم أهالى هذه المناطق أيضًا لسكان قطعة عمان، يبلغ عدد سكانها إلى مليونين ومائتين وثمانين ألف نسمة.

زنجبار:

وزنجبار هذه الجزيرة من جزر المحيط الهندى، ومملكة زنجبار على سواحل هذه الجزيرة، وتقع على درجة ٣١ من الخط الطولى الشرقى وعلى ست درجات ودقيقتين للخط العرضى الجنوبى.

ويبلغ طول جزيرة زنجبار ثمانين كيلو مترًا، وعرضها خمس كيلو مترات ويبلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة.

وهواء الجزيرة المذكورة شهير ولها علاقات تجارية بجزيرة مورس وقارة أفريقيا وأراضيها صالحة للزراعة والفلاحة وفيها جميع أنواع المحصولات ويوجد على سواحلها عنبر أيضًا.

سُقُطْرة:

سقطرة إحدى جزر المحيط الهندى وتقع فى الجهة الشرقية من قارة أفريقيا وعلى بعد مائة وسبعين كيلو متر من رأس غار دافوى وعلى الجهة الشرقية منه أيضًا وعلى درجة ٥٠ و ٤٥ دقيقة وأيضًا على ٥٢ درجة وعشر دقائق من الخط الطولى الشرقى وإحدى عشرة درجة وخمسون دقيقة واثنتى عشرة وثلاثون دقيقة من الخط العرضى الشمالى.

وطول جزيرة سقطرة مائة وخمسة عشر كيلو متر وعرضها أربعون كيلو مترًا ويبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة تخمينًا ومن محاصيلها الصبر الأصفر، واللبان، وأجود أنواع الصمغ الأحمر، والمرجان، وحب الهال.

الحسا[1]:

إقليم الحسا من أقاليم الجزيرة العربية المتسعة، ويضم أكثر من مائتى قرية ومدينة.

(١) يطلق عليه الإحساء أيضا.

وكانت منطقة الحسا اسم دائرة ولما استولى عليها القرامطة أطلق على المدينة التى بناها أبو طاهر القرمطى وهى هجر الحسا، ويطلق على هذا الإقليم بلاد هجر وبلاد البحرين أيضًا.

ويقع هذا الإقليم المتسع على الجانب الشمالى الغربى لمنطقة عمان وعلى طول سواحل خليج البصرة وفى الدرجة من ٤٨ إلى ٥٢ درجة فى الخط الطولى الشرقى ومن ٢٠ درجة إلى ٢٩ درجة فى الخط للعرضى الشمالى.

ويبلغ عدد سكانها مائتى ألف وخمسين ألفا تقريبًا.

وبلاد خفوف ورأس الخيمة وقطيف العظيمة فى داخل إقليم حسا. وخصوبة أراضى الحسا شديدة ولها جزر كثيرة على ساحل البحر.

وأهم هذه الجزر جزيرة البحرين ومنها يستخرج أجود أنواع الصدف واللؤلؤ. ويتكسب أغلب أهاليها قوتهم من صيد السمك واستخراج اللؤلؤ والصدف وتجارتهما.

وكان قديمًا أكثر عمرانًا من الآن، وكان سكان قارة إفريقية فى الأوائل يأتون بأموال كثيرة وأشياء عديدة إلى قطيف بحرًا ويبادلون أموالهم باللآلئ.

وكان موسم استخراج اللآلئ يبدأ من شهر يونيو ويستمر إلى شهر سبتمبر وكانوا يربحون من بيع اللألئ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف جنيه إنجليزى. وكانوا يمتلكون ما يقرب من أربعة آلاف سفينة لصيد اللؤلؤ، وهذا دليل قاطع على ما كان عليه أهالى (القطيف) من ثروة وغنى.

ويروى أن فى قعر البحر منابع مياه حلوة، حتى إن الغواصين يحصلون على مياه شرب من فى السفينة من هذه المنابع.

وفى الحسا مياه معدنية كثيرة. إلا أنه ليس بين سكانها من يستطيع أن يحلل هذه المياه كيميائيًا ليعرفوا خصائصها الصحية، لذا فإنهم يستخدمونها فى الحمامات للاغتسال.

وتسقى الحدائق والبساتين والمحصولات الزراعية التى تحتاج إلى ماء بهذه المياه التى تتبقى من الحمامات والمياه الأخرى التى تنبع من الجهات الأخرى.

إن خصوبة أراضى قطعة الحسا وجودة مياهها تساعد كثيرا على نمو الأشجار والأغصان فالشجيرات الصغيرة التى تغرس تنمو فى ظرف أوقات قصيرة وتصبح أشجارا كبيرة. وتتضخم أشجار النخيل فيها بحيث لا يستطيع أن يحيط بجذعها عدة أشخاص حتى إن نباتات العدس والفلفل تصل إلى ضخامة أشجار الرّمان.

وتنبع أكثر أنهار الحسا من داخل الغدران فى اتساع مائة متر مربع وفى خمسة عشر باعًا فى العمق ثم تتفرع ويسقى الأهالى أراضيهم ومزروعاتهم بهذه المياه وهم يفتحون حولها قنوات قدر ما يريدون.

ولا يستطيع الإنسان أن يصف ما تضفى هذه المياه من جمال وزينة، وهى تمر من داخل البساتين والحدائق والحقول أو من حولها وهى تجرى براقة صافية فى صورة دائمة.

وعلى بعد بلدة (حفوف) بساعة منبع ماء يطلق عليه عين النجم، ولما كانت مياه هذا المنبع أكثر قوة وفى غاية العذوبة من جميع مياه المنابع الأخرى فأهلها يستغنون عن الحمامات.

والأشخاص الذين يشتكون من الأوجاع والآلام يشفون بإرادة الله بالاستدامة على الاستحمام بهذه المياه، وقد شاع هذا التداوى بين الأهالى.

وقد بُنى على هذا النبع قبة جميلة وأخذ تحت المبانى وجعلت على شكل الحمامات وذلك فى ظل الإرادة السلطانية السنية إذ أحسن إلى أهالى (حفوف).

والأراضى حول إقليم الحسا وسواحله منبسطة مستوية. ولما كان البحر لا يستطيع أن يجزر ويسحب المياه الفائضة فى حالة مد البحر وتظل مياه هنا وهناك فتتعفن المواد المختلطة بالمياه وتؤثر فى جودة الهواء وتغيره وتسبب علل الحمى والملاريا فتسوء صحة الأهالى فتذبل ألوان أهاليه وتصفر ويكثر فيهم من يصيبهم مرض الطحال.

وتقع **جزر البحرين** بين ٤٨ درجة وعشرين دقيقة فى الخط الطولى الشرقى وبين ٢٦ درجة وست دقائق فى خط العرضى الشمالى ومن هذه الجزر تستخرج أجود أنواع اللآلئ والدرر.

وعرض جزيرة البحرين فرسخان وطولها سبعة فراسخ جغرافية وفى وسطها وأطرافها أماكن مرتفعة.

ويوجد فى خليج البصرة وعلى سواحل الحسا غير جزيرة البحرين جزر آراد وتاروت والمنامة وتتبع إدارتها لقائم مقام نجد واسم جزيرة البحرين الآخر أوال.

ولما كانت أراضى إقليم الحسا منبتة، تنمو فى هذه القطعة المتسعة كل أنواع الفواكه والخضر والمزروعات المتنوعة الأخرى.

وأكثر مغروساته النخيل، كما ينبت فيه: القطن، والأرز، واللوز، والليمون، والرمان، والعنب، والتين، والقمح، والشعير، والذرة.

وإن كان يزرع فيه قصب السكر ولكنهم لا يعرفون طريقة زراعة هذا القصب ولا طريقة صنع السكر منه. وينسج فى تلك البلاد قماش صوفى يطلق عليه الكيلانى وتصنع منه أجَمل العباءات والمشالح.

وكان سكان جزيرة البحرين القدماء من العماليق. وكانت قبيلتا جديس، وطسم قد انتشرتا إلى هذه الأماكن ثم استولى على البحرين الأزديون، وقد طرأ ضعف على العرب بعد حروب بخت نصر ظلت جزيرة العرب فى يد بعض القبائل المتفرقة وانتقلت إلى يد الفرس فى عهد أردشير بن بابك، وإن كان العرب خرجوا عن طاعة الفرس بعد موت أردشير، إلا أن شابور ذا الأكتاف انتصر على العرب وألحق البحرين بالبلاد الفارسية، وفى النهاية انتقلت إلى إدارة المناذرة الذين كانوا يحكمون فى الحيرة، وفى السنة السادسة من الهجرة أسلم بعض أهاليها وطلب بعض منهم أن يبقوا على دينهم وأن يعطوا الجزية، فعين العلاء بن الحضرمى واليًا عليها من قبل النبى ﷺ.

إخطار- فى بيان القبائل العربية الساكنة فى إقليم الحسا.

ولما كان أهالى الحسا مائلين للتحضر فقد سكن بعضهم فى القرى وسكن الآخرون فى المدن. وقد ذكر فيما سبق عددهم وطريقة معيشتهم كل فى مكانه

وسيذكر فيما يأتى الذين يعيشون فى حالة البداوة قبائلهم وعدد أفرادها ومواقع إقامتهم.

المـرة:

تتكون قبيلة المرة، من ثلاثة آلاف نسمة، وتطوف هذه القبيلة دائما حول بلدة قطيف وجوارها.

بنو هاجر:

وإن كانت قبيلة بنى هاجر قبيلة مستقلة إلا أنها تشعبت من أصل قحطان. ويعيش هؤلاء أيضًا بجوار القطيف ويصل عدد أفرادها إلى أربعة آلاف.

بنو خالد:

يبلغ عدد أفراد قبيلة بنى خالد إلى عشرة آلاف ويقضى سبعة آلاف منهم حياتهم مرتحلين بين نجد وجبل (أيله) وفى الطعة المنسوبة للزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ فى الأطراف الغربية، كما يعيش الباقون جائلين فى أطراف بلدة الحسا.

استطراد:

تنقسم قبيلة بنى خالد إلى قسمين، ينتهى قسم منها إلى الصحابى الجليل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ والقسم الآخر ينتهى إلى أخى المشار إليه وأبناء عمه.

والقسمان من جماعة بنى مخزوم وبنو مخزوم من أعظم بطون قبيلة قريش.

وخالد ـ رضى الله عنه ـ ابن وليد بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، ويتصل نسبه هنا بنسب السلسلة الذهبية للنبى ﷺ.

وكان قائد الجيوش فى عهد أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهو قاتل مسيلمة الكذاب وممزق أهل الردة وفاتح بلاد نجد المتسعة.

وكان زمام إدارة بلاد نجد وإمارتها فى نهاية العصر الثانى فى يد أسرة تنتهى إلى أبناء عم خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ من قبيلة بنى مخزوم، ثم انتقلت إدارتها إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن منيع بن خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

وظلت فى يد هذه السلالة السليلة إلى ظهور سعود بن عبد العزيز نسلا بعد نسل وأظهرت هذه الأسرة الهمة والنشاط فى حسن إدارة هذه البلاد، وفق عقيدة أهل السنة والجماعة وكانوا عامة من مذهب أهل السنة والجماعة واشتهروا بين القبائل باسم آل عريعر وكانوا محترمين ومقدرين بين أهالى نجد وانتزع فيما بعد نجد سعود بن عبد العزيز.

آل عريعر:

بطن آل عريعر أبناء عم أمراء بنى خالد الذين يعيشون بين برية الشام وبلدة حماة، لأن أمراء بنى خالد الذين يستوطنون بين برية الشام وحماه ويشتهرون ويعرفون بـ آل عبد القادر. وعبد القادر هذا ناصر بن العاصى بن مهنا بن سليمان بن مهنا بن محمد بن فارس ابن عبد الكريم بن مهنا[1] بن فضل بن محمد بن عبد الرحمن وهنا اللقاء بسلالة آل عريعر. وأبو عبد الرحمن المذكور هو خالد بن الوليد رضى الله عنه.

وانقسمت أسرة ناصر إلى قسمين: أحدهما بطن مراد بن جابر بن ناصر.

وكريمة ابن جابر هى زوجة السيد حسين برهان الدين الصيادى الرفاعى زيانة الخالدية.

وزيانة الخالدية مدفونة مع ابنها السيد على الحزام بن سيد حسين برهان الدين فى قضاء معرة النعمان وفى قرية حسين وضريحها المشهور من مزارات الموحدين.

والقسم الذى انفصل عن ابن ناصر والذى ينحصر فى أسرتهم إمارة عشائر قطعة الشام انقطعت الإمارة عند مراد بن جابر السالف الذكر.

(١) مهنا هذا كان أميراً ورئيس القبائل العربية التى تستوطن فى الشام وأطرافه.

القسم الثانى لأسرة ناصر هو عبد القادر الشهير أخو جابر وأمير قبائل بنى خالد. وابن الأمير عبد القادر دندن وابنه محمد وأبناء محمد الحاج درويش وعبد الرازق، وأخلاف هؤلاء وأحفادهم مازالوا إلى اليوم يتولون رياسة قبائل بنى خالد وإمارتها.

وقبائل بنى خالد التى سكنت برية الشام تنقسم إلى سبعة أبطن أحد هذه البطون هم بنو خالد الذين فى قطعة زرقا بالقرب من دمشق وعدد أفرادهم أربعة آلاف نسمة، والبطون الستة الأخرى التى تستكن فى بوادى حمص وحماة ومعرة النعمان وجسر وثغور يبلغ عدد أفرادها ثمانية أو عشرة آلاف، وبعض أفراد هذه القبائل تسكن البادية ولكن أكثرها يسكنون فى القرى وهم من أصحاب الزراعة والفلاحة منذ قديم .

منطقة نجد وما تشتمل عليه من البلاد:

من أعظم أقسام جزيرة العرب قطعة نجد المتسعة.

وتصل حدود هذه القطعة الضخمة شمالاً إلى بر الشام وشرقًا إلى عراق العرب والحسا وجنوبًا إلى الأحقاف واليمامة وغربًا إلى حدود الحجاز.

ونجد من حيث الأراضى أشهر بلاد الجزيرة العربية وأجملها وتقع بين ٣٩ درجة إلى ٤٦ درجة من الخط الطولى الشرقى. وبين ١٩ درجة إلى ٣٠ درجة من الخط العرضى الشمالى وتنقسم إلى قسمين باسمى نجد الحجاز ونجد عارض.

ويقع نجد الحجاز فى الطرف الشرقى من البلاد الحجازية كما أن نجد عارض يقع الجهة الشمالية من البلاد الحجازية والبلاد الآتية أسماؤها من ضمن نواحى نجد الحجاز وهى: عارض، يمامة، شعرا، خرق، ضرية، أفلاج، هيلك، وادى الدواسير، رس، وادى السرا، سلايل، نيرين، مرثد، بلاد الوشم، كرموسة، بلاد الفصم، تمن، سدير، بشهر، درعية، ربطة وعيينة.

وللخطة المذكورة ثلاثمائة وأربعون قرية ومدينة، وبناء على حساب المدققين فإنها تشمل أكثر من مائة وأربعين ألف من البساتين والحدائق، وأن عدد سكانها

يتجاوز مليون نسمة، كما أن فى نجد عارض ثلاثة آلاف قرية، وأن هذه القرى ظلت تحت حكم شيوخها ولم تخضع لأية حكومة بناء على بعض الروايات.

شعـراء:

تقع ناحية شعراء على خمس مراحل من مكة المكرمة وناحية ضرية فى الجهة الشمالية لشعراء، وهيلك بالجانب الشرقى على بعد ثمانى مراحل من شعرا، وفى الجهة الغربية من اليمامة.

وتشمل ناحية شعرا بعض الآبار والمزارع وضرية على غدير كبير واليمامة على بعض حدائق النخيل وكثير من المزارع.

تمـن:

تقع تمن فى الجهة الجنوبية من كرموسة، وناحية كرموسة على الجهة الجنوبية من ضرية ولناحية تمن كثير من أشجار النخيل، ولكرموسة مياه جارية من الغرب إلى الشرق ولناحية الرس بئر مشهورة. ولسكان ناحية الرس آبار أكثر بالنسبة للنواحى الأخرى.

وتبدأ أراضى نجد العارض من مكان بعيد إلى الحجاز بمسافة ثلاث مراحل وتمتد إلى الجهة الشمالية وهو فى الأصل جبل يشتهر بجبل العارض ولهذا الجبل مدخلان باسمى الدرعية والعينية.

والجبل المشهور بسرين فى هذه الأراضى ونهر وادى بنى حنيفة فوق الجبل المذكور.

وفى وادى بنى حنيفة مياه جارية وحدائق نخيل وأشجار أخرى والدرعية منشأ كثير من الملحدين مثل القرامطة ومسيلمة الكذاب والدرعية فوق جبل سرين السالف الذكر كما أن مدينة الحسا على الطريق المشهور ممر القوافل والحجاج.

وينمو بجانب مدينة الحسا وحواليها أشجار الخوخ البرية وحدائق العنب والنخيل فى واد كثير التعرج.

ومدينة ملهم المشهورة بالعنب والخوخ والبلح وقصب السكر على بعد ست مراحل من الحسا، كما أن مدينة مقرن التى تحتوى على النخيل هنا وهناك والمزارع وحصنا ترابيا يقع على الجهة الجنوبية من اليمامة وهذه المدينة أقرب المدن إلى بلدة الدرعية.

والـ (رياض) التى أصبحت مقر إدارة وحكومة عبارة عن القرى الكثيرة والمدن وهى قريبة من الحسا.

وناحية مزج فى حدود اليمامة وبلاد القصيم فى آخر الصحراء الرملية التى تسمى وادى السرا ولا توجد سواء أكانت فى ناحية مزج أو القصيم النخيل أو الأشجار. وناحية مزج صحراء رملية مستوية تمتد خمس عشرة مرحلة وبما أنه ليس لها مياه جارية تروى مزروعاتها بالمياه التى تستخرج من الآبار بواسطة السواقى.

وفى قطعة نجد نواح كثيرة ومدن وقرى وجبال مثل جبل شمر وغيره ولما كانت أكثر أراضيها رملية مستوية وليس فى كل أراضيها مياه جارية. فإن مزروعات مثل هذه الأراضى تسقى بمياه الأمطار كما أن حدائقها تسقى من الماء المستخرج من الآبار.

والخيول العربية الأصيلة وأجود أنواع الهجين العمانى تربى فى هذه القطعة، كما أن الجمال العادية تتكاثر هناك بسرعة.

وبما أن أهالى البلاد المجاورة مضطرون لشراء ما يحتاجون إليه من الجمال من نجد لذا أطلق عليها العرب القدماء أم الإبل.

ومقاطعة نجد المرتبطة بالبصرة ليست القطعة الوسيعة التى تشمل المدن والقرى ولكن هذه المقاطعة بعض الأماكن التى فصلت عن بلاد البحرين.

فى بيان القبائل البدوية الساكنة فى منطقة نجد:

عنـزة:

وإن كان عربان قبيلة عنزة تتجول فى داخل القطعة الحجازية ولكن أكثرها تعيش فى الجهة الشمالية من قطعة نجد.

الذويبـى:

وقبائل العربان من أفرع قبيلة حرب الحجازية، الذويبى، الفرم، بنى سالم، بنى نخيض تسكن بين الأماكن الواقعة بين المدينة المنورة وبلاد القصيم، ويبلغ عددهم إلى أربعة عشر ألف شخص تقريبًا.

عجمـان:

وإن كان منازل قبيلة عجمان ومأواها الأصلى المكان المسمى بوادى نجران إلا أنها تمضى أوقاتها بين بلدة الرياض والرملة وأراضيها. وعربان هذه القبيلة فى منتهى الشجاعة ومحاربون من الطراز الأول ويقرب عددهم من ستة آلاف نسمة.

قحطـان:

انقسم أفراد قبيلة قحطان إلى قسمين: ويسكن قسم منهم فى الأماكن الممتدة من رياض إلى زنبة والقسم الآخر فى بلدة حوطة وجوارها. ويبلغ عدد أفراد هذه القبيلة ثلاثين ألف نسمة.

وأقدم القبائل المذكورة بنو قحطان وأكثر القبائل العربية التى ذكرت تتفرع من هذه القبيلة القديمة.

وإحدى شعب القبيلة المذكورة فى داخل حدود عسير وهذه الشعبة انقسمت إلى أربع قبائل كبيرة التى تعرف بأسماء قحطان الشام، قحطان اليمن، رجال الماء، المتصدقة بِنُفُوسِهَا.

الدواسـر:

بما أن قبيلة الدواسر تسكن فى محل يسمى وادى الدواسر فى الجهة الجنوبية من الرياض سموا بدواسر ويبلغ عدد أفرادها خمسة عشر ألفًا.

فى بيان القبائل الخاضعة لإدارة شيخ جبل شمر:

جبل شمـر:

جبل شمر مكان واقع على الشمال الشرقى من المدينة المنورة على بعد ثمانية مراحل.

وهذا المكان تحت إدارة أسرة ابن رشيد وابن رشيد تحت إمرة وإدارة أمير نجد وأكثر مدن شمر شهرة وعمرانًا مدينة حائل التى يبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة، وقد اتخذها حاكم جبل شمر مقرًا لإقامته.

وفى جبل شمر غير حائل أربعون قرية صغيرة وكبيرة. وإن كان عدد سكان هذه القرى يبلغ ثمانين ألفا إلا أن القبائل العربانية التى تحت إمرة شيخ جبل شمر تبلغ عشرين ألفًا وهى قبيلة شمر وما يزال بعض منها يسكن تحت الخيم.

ولما كان المقال الذى كتبه السيد فضل باشا عن الجزيرة العربية يحتوى على بعض المعلومات النافعة فرأينا أن ندرجه هنا بأمر الباشا المشار إليه.

مقال فضل باشا فى وصف جزيرة العرب:

مدن مكة المكرمة وصنعاء ودمشق والقاهرة عروش البلاد العربية. وبدخول هذه المدن تحت إدارة الدولة العلية دخلت تحت عداد الممالك العثمانية. ولما كانت الجزيرة العربية خالية من السلاطين والملوك فمشايخ العرب يدعون فى المنابر للسلطنة العثمانية السنية. وتعرف ذلك الدول الأخرى أيضًا.

وعُين هؤلاء المشايخ بأمر السلطان أو أوامر الولاة العظام. وهذه الأوامر محفوظة فى قلم الديوان العالى السلطانى ومن المعلوم لدى الواقفين على الأمور أن ما يحدث بين القبائل العربية من الحروب ومن الثورات والعلاقات مع الدول الأجنبية لا يخرجها من تحت تبعية الدولة العثمانية. ووسيلة معيشة أكثر العرب الذين يعيشون على السواحل هى التجارة بحرًا، وسيد السمك واللؤلؤ والمرجان والتجارة البحرية وسيلة معيشة ما يقرب من أربعين ألف سفينة، وحمولة أكبرها عشرة آلاف كيلو وأصغرها تستوعب ألف كيلو. والسفن الخاصة بغواصى اللؤلؤ والصدف والمرجان وصيادى السمك خارج هذا الحساب، وأعلام أكثر تلك السفن حمراء وسبب ذلك عدم معرفتهم صفة علم الدولة العلية، وطواقم تلك السفن من الربان، والدليل، والملاحين والغواصين والآخرين كلهم من العرب. ورجال السفن التى تبحر فى البحر بين السويس والبصرة يتجاوز عددهم خمسين ألف شخص. وتقطع هذه المسافة فى ظرف خمسة عشر يومًا.

ومن المؤكد أن إخضاع الممالك التى تحت إدارة الشيوخ للنظام وحسن إدارة مثل هذه البلاد تحت الحكومة السنية سيحقق فوائد معنوية ومادية كثيرة. وإذا تعرضت جزيرة العرب لأى تدخل أجنبى فمن الواجب حمايتها من قبل الدولة السنية. لأن اختيار السكوت يبطل حق التصرف. وسواحل البحر الأحمر وجزره تابعة للدولة العلية والسواحل المذكورة شرقا وغربا قسمان:

القسم الأول:

والجهة الشرقية لجزيرة العرب تمتد من السويس إلى باب المندب ومن باب المندب إلى نقطة قصير. ومن جهة أفريقيا الغربية كذلك من السويس إلى باب المندب ومن باب المندب إلى رأس عسير.

وموانى الجزيرة الشرقية هى: السويس، الوجه، ينبع البحر، جدة، الليث، قنفذة، اللحية، حديدة، المخا وموانيها الغربية السويس، قصير، سواكن، مصوع، عصاب.

القسم الثانى:

والموانى الموجودة من خارج باب المندب فى الجهة الشرقية من سواحل البحر الأحمر هى: عدن وباب المندب، وفى الجهة الشرقية من سواحل البحر الأحمر هى: عدن، حسن غراب، بروم، مكلا، شحر ورأس قصير وفى الجهة الغربية من البحر الأحمر هى: زيلع، بربرة، والموانى الأخرى إلى رأس عسير. وسواحل البحر الأحمر فى إفريقيا الغربية تحت إدارة الخديوية المصرية وكل سكانها مسلمون. وأجناسهم من السودانيين والدناقل والصوماليين. وفى الموانى سفن لا بأس بها. وما فى الداخل برًا أجناس مختلفة من الناس وأديانهم متعددة. ولكن بلاد الصومال مرتبطة بالدولة وتحت إدارة الخديوية المصرية وعدد سكانها أربعة ملايين ولها موانى فى المحيط الهندى وكلهم مسلمون وفيهم أمراء. وفى الصومال خيول كثيرة ويباع الحصان واحد بليرة والمسافة من باب المندب إلى عدن برًا أربعة أيام. ومن عدن إلى شحر أربعة عشر يومًا.

وفى السواحل موانى عديدة، وهى تحت إدارة بعض مشايخ العرب. والمدينة الواحدة التى تحت الإدارة الانجليزية هى عدن.

والمسافة من شحر إلى قصير ثلاثة أيام والجهة الساحلية تحت إدارة شيخ يسمى (قعيطى)، ومن البر إلى الداخل، ومن بلاد حضرموت تحت إدارة الشيخ منصور الكثيرى، ومن قصير إلى محل يسمى دمقوط مسافة عشرة أيام وفى الساحل العديد من الموانى وهى تحت إدارة بعض مشايخ العرب. ومن دمقوط إلى محل يسمى (حاسك) مسافة خمسة عشر يومًا ويقال لها ظفار، وهى تحت إدارة الأمير السيد فضل علوى باشا. والمسافة من حاسك إلى مسقط تقدر بخمسة وعشرين يومًا وفى الساحل عدة موانئ تحت إدارة بعض مشايخ العرب.

ومنطقة مسقط تحت إدارة أميرها ومساحتها المربعة مسافة خمسة أيام. ومن اليابسة إلى الداخل يتبع أمير نجد، والسواحل إلى الحسا فى يد بعض مشايخ العرب ومن الحسا إلى البصرة فى يد الدولة العلية مباشرة. والساحل الغربى لخليج البصرة من الجزيرة العربية فى يد الدولة العلية والساحل الشرقى يعرف ببر فارس وهو بين الدولتين. وإن كان هذا الخليج مشتركًا بين الدولتين ومن هنا يلزم أن تكون الجزر القريبة من الساحل الغربى للدولة العلية والقريبة من الساحل الشرقى لدولة الإيران إلا أن الخليج يتبع الدولة العلية دون اشتراك أحد ومن هنا يجب أن تتبع جميع الجزر الدولة العلية.

إخطار ـ إذا ما تأملنا بعض الخرائط الأوربية ففى الألوان والإشارات التى تبين شكل مربوطية بعض الملحقات ارتكبت أخطاء فاحشة. انتهى المقال.

عادات العرب وأيامهم

العادات والمذاهب القديمة لسكان جزيرة العرب:

أولا: العادات القديمة:

لم يكن فى عهد عمرو بن لحى ـ الذى أدخل إلى الجزيرة العربية عبادة الأصنام ـ للعقائد الباطلة والعادات الفاسدة حد ولا نهاية فى الجزيرة العربية.

إطلاق الحيوانات فى المراعى وتركها حرة عد ذلك ثوابا، وعد استخدام الحيوانات التى أطلق سراحها حراما، إسقاط ميراث العبد المعتق، وإطلاق الناقة التى تلد ذكرًا فى خامس مرة بعد قطع أذنيها فى الصحراء، وعدم استخدام النياق التى أطلقت مرة أخرى، وعدم أكل لحم ولبن وزبادى وزبدة مثل هذه الحيوانات، كل هذه العادات والبدع مما اخترعه عمرو بن لحى بالذات[1].

وكان الذين قبلوا رياسة هذا الرجل والذين أتوا من بعده من الجاهليين يطلقون سراح الناقة التى ولدت فى خامس مرة ذكرًا شاقين أذن الناقة كعلامة مميزة، ويتركونها فى المراعى ويسمونها (بحيرة)[2] ولا يركبونها ولا يشربون لبنها بعد الحلب.

وإذا ما مرض شخص، أو غاب، كانوا ينذرون بتحرير ناقة قائلين «إذا شفى مريض وأبل من مرضه فلتكن ناقتى هذه حرة».

وإذا ما تحققت رغبتهم يسمون الناقة التى نذروا إطلاقها سائبة[3] فيشقون أذنها

(١) من أراد الاستزادة فليرجع إلى تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة. من كتب التفسير.

(٢) من أولاد الناقة. السائبة فى الأنثى التى تلد فى المرة الخامسة ذكرا يسمونها «بحيرة».

(٣) سائبة اسم الناقة التى ولدت عشر مرات إناثًا.

مثل (بحيرة) ويتركونها فى المراعى. بحيث لا يجوز بعد ذلك لأى شخص أن ينتفع بهذه الناقة.

وإذا ولدت نعجة فى البطن السابع ذكرًا فيذبحون هذا الحمل تقربًا لأصنامهم التى يعبدونها ثم يأكلون لحمه أما إذا كانت أنثى يتركونها لحالها.

وإذا كانت هذه النعجة ولدت توأما ذكرًا وأنثى، يسمون الذكر وصيلة[1] فيهدونه لأخته الأنثى ولا يذبحونه. وكانوا يضربون مثلاً لهذه الحالة فيقولون: «وصلت الأنثى أخاها».

وإذا ما ولدت ناقة ما عشرة صغار يفقئون إحدى عينيها ويمنعون ركوبها ويسمونها حام[2] وكى يبينوا أنها قد اكتسبت صلاحية الرعى من أى حقل وأن تشرب من الماء الذى ترغب فيه، فينزعون لجامها ويتركونها ويعتقدون أن استخدامها فى الحمل أو الركوب حرام.

وكل هذه العادات الباطلة من اختراع عمرو بن لحى الذى بذل جهوده وعمل على ارتداد السبع قبائل الكبيرة عن دين واجب التبجيل سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه صلوات الجليل ـ وعلى اعتناق عبادة الأوثان الدين الجاهلى الباطل.

وقدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ صيحة هذه البدع التى أراد بها عمرو بن لحى أن يحمل القبائل العربية إلى عبادة الأوثان إذ قال الله تعالى:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة/ ١٠٣].

وكان فى زمن جاهلية العرب من العادات مثل «وأد البنات، الوسم، التعمية، التفقية، مداواة العسر، ضرب الثور على النقر، بكاء المقتولين، رمى السن، خضاب النحر، نصب الراية، جز النواصى، الالتفات، النهق، الاعتقاد، السلوان ويروى أن هذه العادات أيضًا من اختراعات عمرو بن لحى.

(١) يقال لحمل الذكر للنعجة التى ولدت فى المرة السابعة حملين أحدهما ذكر والآخر أنثى «وصيلة».
(٢) الناقة التى فقئت إحدى عينيها حتى لا تركب.

وأد البنـات:

عادة دفن المولودة الحديثة حية. إذا ما ولدت امرأة أى رجل بنتًا فى الوقت الجاهلى كان الرجل يأخذ هذه الطفلة من شدة خجله ويدفنها حية، ويغضب من الذين يخبرونه بولادة بنت له. ويغتاظ منهم.

وكان أهل مكة قد تعودوا على أن يدفنوا بناتهم فى جبل يقال له «أبو دلامة» فأقام جد الشاعر الشهير الفرزدق وهو «صعصعة» فوق هذا الجبل وحرص على أن يشترى البنات البريئات اللاتى يأتى بهن أهل مكة لدفنهن فى الجبل بأثمان باهظة.

الوسـم:

عادة ربط جمل الشخص الذى يموت بجانب قبره، فبناء على العقيدة الجاهلية كانوا يربطون جمل الذى توفى بجانب قبره معتقدين أنه سيركبه حينما يقوم من قبره، وكان الحيوان المُسكين يظل بجانب قبره إلى أن ينفق.

وكانت هذه العادة محصورة فى أغنياء القبائل. وكل من بلغ عدد جماله ألفا كان يختار من بينها جملا ويفقأ عينه وإذا ما بلغ عدد جماله ألفين يفقأ عينيه الاثنين. ويعميه وكانوا يعتقدون أن مثل هذا التصرف ينجى بقية الجمال من إصابة العين.

التعممية والتفقية: من فقأ عين الجمل احترازاً من الحسد.

مداواة العسر: عادة وسم جمل سليم.

وكان فى العصور الجاهلية مرض يشبه ممرض الجرب. عندما يظهر هذا المرض كانوا يَسمُون الجمال ويعتقدون بأن هذا الوسم ينقذ الجمال من الإصابة بالمرض المذكور وَيُسَمّون هذا مداواة العسر.

ضرب الثور على النفر: عادة ضرب الثور النافر.

وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن طائفة الجن تركب الثيران وتمنعها من شرب الماء، لذلك كانوا يضربون الثيران النافرة عند شرب الماء.

بكاء المقتولين: عادة البكاء لمن يقتلون.

كان من العادات الجاهلية امتناع زوجات المقتولين عن البكاء قبل أن يؤخذ بثأر أزواجهم. ويبكين وقتما يؤخذ ثأر أزواجهن.

رمى السن: وهى عادة جاهلية.

وكان الأطفال فى الجاهلية فى أوان تبديل أسنانهم يمسكون بالسن المخلوعة بين أصابع إبهامهم وسبابتهم ويرمونها نحو شعاع الشمس قائلين»: «بدلها بأجمل منها» وكانوا يعتقدون أنها إذا رميت كذلك فسوف تخرج السن مستوية وأن الأطفال لن يعانوا من وجع الأسنان طوال عمرهم.

خضاب النحر: عادة تلطيخ النحر بالدماء.

وإذا سبق أحد الخيول، الخيول الأخرى فى أثناء الصيد ووصل إلى الفريسة قبلها كان تلطيخ نحر ذلك الخيل بدماء الفريسة التى قبض عليها من جملة آداب عرب الجاهلية.

نصب الراية: عادة رفع الأعلام أمام المنازل:

كان أهل الجاهلية ينصبون أمام أبواب منازلهم راية حتى تعرف.

جز النواصى: عادة تخطيط الجباه.

عندما كانت القبائل العربية تحارب بعضها البعض وتؤخذ أسرى فإذا أرادوا أن يحسنوا للأسير كانوا يخطون خطًا على ناصيته ويخلون سبيله.

الالتفات: عادة ألا ينظر من يخرج للسفر خلفه وقت السفر.

كان العرب يزعممون فى الجاهلية أن أى واحد يخرج للسفر ويلتفت خلفه لن يعود من ذلك السفر.

النهق: عادة النهق مثل الحمير.

كان يعتقد عرب الجاهلية أنهم إذا ما نهقوا مثل الحمير عند مدخل قرية

مصابة بالمرض لن تصيبهم العلة، لذلك عندما يدخلون مثل هذه القرى يدخلون ناهقين.

السلوان: اسم نوع من الخرز.

فالمتبلون بمرض العشق إذا ما نثروا فوق الماء الخرز المسمى بسلوان وشربوا من هذا الماء يستطيعون أن يتحملوا المرض مهما كان شديداً.

إن سوء أحوال أهل الجاهلية ليدل على بطلان عقائدهم، وهناك حكايات غريبة وعجيبة ولكن حجم هذا الكتاب لا يكفى لاستيعابها؛ لذا اكتفينا بهذا القدر.

المذهب القديم:

كان جميع سكان الجزيرة العربية قاطبة قد اتبعوا دين وملة خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكن لشدة الأسف أصبحوا مع مرور الزمن أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولم يَبْقَ كتاب يصدق أركان ذلك الدين الحنيف وشرائطه. ولم يبق بينهم من يلجئون إليه عندما يختلفون فى مسألة ما لحل مشكلاتهم من أرباب الشريعة والاجتهاد، فاشتدت جهالتهم بالتدريج فانتهوا إلى الشرك والزندقة، واستولت عبادة الأصنام بناء على رأى عمرو بن لحى وتصويبه على مدينة مكة المعظمة قبل الهجرة النبوية بخمسمائة عام، أو على قول بثلاثمائة وخمس عشرة سنة، وأخذوا ينكبون على عبادة الأصنام التى صنعوها بأيديهم.

وقد ظهر بينهم بعض السحر والكهنة وأخذوا يخبرونهم عن الغيبيات رجمًا بالغيب ولما صادف أنه تحقق بعض ما أخبروه فانخدعوا بهم، وأخذوا يستعينون فى حل مسائل دينهم ومشكلات حياتهم بهاتين الطائفتين المضلتين وأخذوا يتلقون قبولاً حسنًا كل ما يقولون بل تسابقوا فى مضمار الضلال.

وأراد قصى بن كلاب بن مرة ـ وهو أحد أجداد النبى ﷺ ـ قبل الهجرة النبوية بمائتى سنة أن يعيد أهل مكة إلى دين خليل الله، وقد انتزع رياسة مكة المكرمة واستولى عليها، إلا أنه لم يوفق فى ذلك؛ لأن العقائد الباطلة التى

انتشرت فى عهد عمرو بن لحى، كانت قد سَرَتْ فى عروق أهل مكة كما تجرى الدماء الفاسدة وتمكنت من أعصابهم.

وكان أهل الجاهلية الذين عاشوا فى عهد قصى بن كلاب فى حالة بداوة كالقبائل العربانية، وكان أكثرهم يعتنقون عبادة الأصنام والأوثان، وكان لكل قبيلة صنمها الخاص بها إلا أنهم من حيث العقيدة منقسمين إلى عدة فرق.

١- الفرقة الأولى ـ كانت تنكر الخالق والبعث وتحاول أن تثبت أن الطبيعة تحيى والدهر يفنى.

٢- الفرقة الثانية ـ كانت تعترف بالخالق وابتداء الخلق ولكنها تنكر البعث.

٣- الفرقة الثالثة ـ كانت تعترف بالخالق وابتداء الخلق ونوعًا من البعث ثم أنكروا ذلك وعبدوا الأوثان ظانين أنها ستكون شفعاء لهم لدى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكانوا يحجون بالطواف حول الأصنام ويتقربون لها بذبح الذبائح كما أنهم يحرمون ويتحللون من الإحرام.

وكان بينهم من يعبد النجوم والكواكب مثل الآشوريين، ومن يعبدون الحيوانات مثل المصريين ومن يعبد الملائكة والجن، وكان منهم من انحرف لمذهب من يعتقد فى تناسخ الأرواح.

وكان الذين يعتقدون فى تناسخ الأرواح يظنون أن أجزاء أجسام الذين يتوفون تتحد وأنه يتكون من الأجزاء التى تجمعت فى كل مائة سنة طائر، والطائر الذى يتكون من كل جنازة سيأتى إلى رأس القبر الذى تدفن فيه تلك الجنازة وكان بينهم من اعتنقوا اليهودية والنصرانية.

إلا أنهم كانوا يجتنبون الزواج بأخواتهم وأمهاتهم واستفراشهن والجمع بين أختين فى الزواج.

وكانوا يستنكرون ويستقبحون من يتزوج من زوجات آبائهم، ويعيبون عليهم ارتكاب مثل هذه الأعمال الآثمة.

وكانوا يعدون المضمضة والاستنشاق والاستنجاء واستعمال المسواك وقص

الأظافر واستخدام الموسى من عاداتهم القديمة، وكانوا يعنون بإجراء هذه الأمور أعظم عناية.

كما كان مما يرغبون فيه من عاداتهم، الاغتسال من الجنابة، الصوم، الحج وزيارة بيت الله، ولبس الإحرام والذهاب للعمرة، وطواف كعبة الله والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف على المواقف ورمى الجمار، وقطع يد السارق، والختان، وشنق قطاع الطرق، وترك الجدال والحرب فى الأشهر الحرم، وترك الجدال والحرب فى الأشهر الحرم، وغسل الجنازات وتكفينها والصلاة عليها، والوفاء بالعهد، وقد رفضت الشريعة الغراء الإسلامية من هذه العادات مالا يتفق مع مبادئ الإسلام.

صلاة الجنازة:

صلاة جنازة العهد الجاهلى كانت صلاة غريبة. كانت الجنازة توضع على المصلى، ويتقدم وليها فيذكر محاسن الميت واحدة تلو الأخرى وما الحسنات التى قدمها الميت للآخرين يذكر ذلك بالتفصيل ويعدده ثم يسكت بعد ما يقول «عليك رحمة الله» هذه هى ما يطلق عليه أهل الجاهلية صلاة الجنازة.

وظلت هذه الضلالة إلى أن أشرقت الأنوار المحمدية وسطعت فوق الآفاق وانتشرت إلى أقطار العالم الأربعة فزال ظلام الكفر والجهالة من الجزيرة العربية واعترف الكل بوحدانية الله تعالى، وانتشرت أضواء شموس سموات الحقيقة الإسلامية فى جميع أنحاء العالم. وظلت الأرض والزمان فى داخل نور الوحدانية الإسلامية.

إخطار:

وحينما عممت القوانين والنظم المبسوطة على القبائل البدوية وطبقت أحكامها فى ذلك الوقت انقسمت القبائل العربية إلى القبائل الأخرى الصغيرة وعند اللزوم كان شيخ القبيلة الكبيرة يجمع بعض المسنين ليستشيرهم فى الأمور التى تحتاج للحل.

وقد جال بعض الراغبين فى الاطلاع على أحكام القوانين والنظم التى وضعها مشايخ العرب المحترمين قبل هذه السبعة أو الثمانية قرون، فى أكثر أجزاء الجزيرة العربية وابتدروا فى نشر ما كتبوه من الرسائل وكتب السياحة، ولكن فهم مما كتبوه أنهم لم يستطيعوا أن يطلعوا على القوانين العربية كما يجب ومن هنا وصلت معرفة أصول القوانين العربية تلك لدرجة الوجوب للذين يريدون أن يسيروا فى الجزيرة العربية سواء أكان بحكم وظائفهم أم لمحض المشاهدة والسياحة، لأجل ذلك كتب كاتب الدائرة الحكومية للمدينة المنورة على موسى أفندى رسالة باللغة العربية بتشويق من تشجيع الدكتور «رائف» أفندى من موظفى إدارة صحة الولاية الحجازية والذى أقام عدة سنوات فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد وصلتنى نسخة من تلك الرسالة بواسطة رائف أفندى المشار إليه ومن هنا رأيت إدراج بعض الفقرات منها فى هذا الفصل.

ولما كان على موسى أفندى منذ سنين كثيرة يتولى رياسة سكرتارية القسم العربى للدائرة الحكومية فى المدينة المنورة كما استخدم فى قسم الترجمة للعربان أصبح مُطَّلعا على العادات الجارية والأطوار والقوانين بين العربان وما أدرجه فى رسالته من المواد هى نفس القوانين والأنظمة التى بين العربان وقد صدق على ذلك من يعرفون القوانين العريانية وأهالى الحرمين الشريفين موقعين على ذلك.

النظم والقوانين الجديدة عند العرب كا
(الخمسة، والسمية، والعوانى، والمنن، والمجبودة)

الخمسة، والسمية:

يطلق على اتصال شخص بالآخر بنسب حتى الدرجة الخامسة والرابعة والثالثة خمسة، والطوائف التى يتصل نسبها بعد الجد الخامس يطلق عليهم «سمية».

إن أفراد طائفة السمية يوردون أسماءهم بإضافة اسم آخر مخلص «حتى يضيفوا لاسم جدهم السادس شهرة وليضيفوا لنسبهم شرفًا ومكانة.

مثلا إن أحدًا من العربان المسمى بـ «عويضة» يسمى ابنه باسم سمية وعويضة وذلك ليبين أن ابنه هذا وصل للبطن السادس، مثلاً إذا كان اسم ابن عويضة الرابع «حميد بن حمدان بن حمود بن حمد» فحميد يعد من «السمية».

ويمكن أن يكون تحت السمية سميات أخرى متعددة. أى يمكن أن يكون لجد إحدى السميات أولاد متعددة ولهؤلاء الأولاد أطفال كثيرون فيكون هؤلاء قد كونوا سميات كثيرة متعددة مشهورة بأسمائهم.

مثلاً إذا فرض أن لعويضة ابنان وهما «سالم، وحامد» وإذا كان كل من سالم وحامد كثير الأولاد فيعتبرون هؤلاء من سمية عويضة وينقسمون إلى سميتى سالم وحامد. ولكن بما أن سالم وحامد قد تفرعا من سمية عويضة يقال لهما سمية عويضة أيضًا.

واختراع القبائل العربانية مثل هذه الأشياء وعادات «خمسة، وسمية» وقبولهم ذلك بسبب الحصول على حقوقهم من أعدائهم بسهولة، مثلاً إذا ما قتل أحد من عربان القبائل أو ضرب أو نهبت أمواله وممتلكاته، وإذا لم يستطع المضروب

القبض على الفاعل الأصلى فإنه إذا قبض على خمسة متفرع من جده الخامس أى إذا قبض على أى واحد من أبناء الفاعل الأصلى يأخذ حقه منه ويستوفيه. والموظفون فى الحكومة يعملون وفقًا لهذا القانون فى زماننا.

ويعود سبب اتباع الحكومة للقوانين العربانية إغارة العربان على أبناء السبيل والحجاج والزوار ونهب أموالهم ولا سيما الغرباء، والتجار يتعرضون من جراء هجماتهم لخسائر عظيمة.

وإذا ما قتل أحد العربان واحدًا من أبناء السبيل فى أى وقت كان أو نهب وسلب أموال التجار والمسافرين يهرب إلى الصحارى والجبال حتى لا يقبض عليه ويختفى. وتحاول الحكومة أن تقبض على الجانى لتستوفى حقوق المجنى عليه وتتعرض لمشكلات كثيرة فى سبيل ذلك وفى النهاية تفشل. وبناء على ذلك لجأ عقلاء المدينة المنورة لاستيفاء حقوق الناس وفقًا للقوانين والنظم التى كانت مرعية بين العربان قبل هذا بثلاثة قرون أو خمسة وعملوا على تعديل وإصلاح ما كان صالحًا للقبول، وقبلت الحكومة أيضًا بعد إصلاح بعض أحكامها ليتسنَّى لها العمل بهذه القوانين.

وإحدى المسائل التى قبلت من قبل عقلاء أهل المدينة وعُدِّلت مسألة «الدم والمال فى الخمسة» التى يراعى حكمها بين القبائل البدوية.

وإن هيئة تعديل القوانين العربانية التى تكونت مقدمًا من سادة الأهالى صححت الفقرة القانونية التى تكفل البحث عن القاتل والسارق الأصلى أو عن خمستهما بفقرة «الدم فى الخمسة والمال فى السمية» أى تقرر أن تؤخذ دية دم المقتول من قبل الورثة من الذين تسلسلوا من جد القاتل الخامس مثل العم وأبناء العم كما أن المال المسروق يؤخذ من خمسة السارق ومن سميته أى من أعمامه الذين تشعبوا من جده الخامس والسادس وأبناء عمه، وعملت الهيئة على أن تجرى الأمور الخاصة بالحقوق على هذه الصورة وأخذت موافقة العربان على هذا التغيير وتصديقهم. وبهذا قدموا أعظم خدمة بالنسبة للذين سيأتون من بعدهم.

ويستعمل عربان القبائل قانونى الخمسة والسمية فى بعض الأحكام الأخرى. مثلاً، إذا ما فرض أن أحد من سمية قبيلة ما تسلط على شخص من عشيرة أخرى بالقتل أو النهب لأموال فحكم القانون الخاص بحالته يجرى فى حقه وحق خمسته.

إذا كانت الحالة متعلقة بقتل النفس وفر القاتل دون أن يقبض عليه فأقارب المقتول الذين لهم حق استيفاء القصاص وخمسته يقبضون على أى واحد من خمسة القاتل، ويجرون عليه نفس الحكم الذى كان يجرى على القاتل وإذا كانت الحالة خاصة بالدية يستوفون حقهم من خمسة القاتل بالكامل.

وإذا ما سرقت الأموال أو أشياء أخرى وعرف أن الناهب قد هرب ففى هذه الحالة لا يبحث عنه بتاتًا بل يتجهون رأسًا إلى خمسته ويحصلون منهم على ما سرق.

وإذا كانت الأشياء المسروقة خاصة بالحكومة أو التجار أو أبناء السبيل ويكون قد بحث عن السارق مدة طويلة ولم يقبض عليه فالحكومة أيضًا تلجأ إلى قوانين العربان وتحصل على الأموال المنهوبة من خمسة الفار أو سميته.

لما كانت القوانين الخاصة بالخمسات والسميات معترفا بها لدى القبائل العربية ومعتبرة فأفراد العربان يعنون أشد العناية بحفظ أنسابهم وليس بينهم من لا يعرف نسبه. وكان مَنْ سُئل منهم عن نسبه يستطيع أن يعد نسبه قائلاً» أنا فلان بن فلان..»، ويصل إلى عشرين بطنًا من أجداده.

وإذا ما قبض على أى شخص من هؤلاء العربان على أنه سمية قاتل من قبل خمسة المقتول وادعى هذا الشخص أنه ليس من خمسة القاتل وأخذ بيده عصا رفيعة وقبض عليها بأصابعه أمام بعض الناس وأخذ يعد قائلاً «أنا فلان بن فلان حتى يصل إلى جده الخامس وكل ما يذكر اسمًا يرفع أصبعًا من أصابعه وفى النهاية تقع العصا من يده ويذكر اسم جده السادس وأثبت أمام شاهدين صحة ادعائه وحلف على ذلك يمكنه أن ينقذ نفسه، وإلا فلا طريقة أخرى لذلك، وهذا يتوقف على حفظ النسب.

ويقدم ذلك الشخص الشاهدين الذين أحضرهما للموجودين ويحلف يمينا خاصًا بالعربان، لذا رأينا إدراج صورته الصحيحة هنا.

صيغة اليمين:

أحلف بمن رفع السموات العلية، قاطع المال والذرية، ومفرق الخمس قضابة الجنبية، أنّي ما عددت إلا الصدق وأني لست للضارب بخامس».

واليمين الخاص بالعربان قراءة هذه العبارة.

وعربان القبائل يهتمون فى عصرنا بحفظ أنسابهم، خمساتهم وسمياتهم، وكان الأمر كذلك فى الجاهلية لأن الافتخار بالآباء والأجداد كان مما يهتم به عرب الجاهلية أعظم اهتمام.

وكانت القبائل التى تتجمع فى مواسم الحج فى صحراء منى، تتفرق قبائل وقبائل وكان فصحاء القبيلة وبلغاؤها يصعدون فوق مكان مرتفع ويبدأ كل واحد منهم فى ذكر مفاخر قبيلته وخصالها الحميدة وسخاء أجدادهم وشجاعتهم فى ميدان القتال.

ولما كانت هذه العادة الجاهلية وإصرار العرب على ذلك ينافى المبادئ الإسلامية نزل قول الله تعالى:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ومن المصطلحات العربية، مثل خمسة وسمية؛ عوانى، منن، مجبودة من فروع تلك المصطلحات.

وكلمة عواني تعنى «المهلة» وهى جمع «عانى» ومنن تعنى النقود التى تعطى مقابل المهلة وجمع كلمة «منة».

والمجبودة:

أيضًا بمعنى المهلة إلا أن مدة المجبودة أكثر أو أقل عن مدة عانى بثلاثة أشهر.

سواء أكان «عوانى» أو «منن» أو مجبودة من القوانين البدوية المستقلة ومازال حكمها جار إلى اليوم بين العربان ومَرْعِيَّ الجانب.

عانى:

عبارة عن إعطاء مهلة مدة سنة وشهرين وأحد عشر يوما وثلث يوم والمثال على ذلك: إذا ضرب أى واحد من أفراد القبائل شخصًا آخر سواء أكان من قبيلته أو من القبائل الأخرى، وجرحه وكان هذا الجرح غير مهلك، وعرف هذا الضارب ذلك؛ فالواجب عليه أن يدخل فى دار أو خيمة أحد رؤساء العربان ويعرض ما حدث منه ويحكيه.

وإذا تلقى صاحب البيت الداخل قبولاً حسنًا وذبح غنمًا أو حملاً وأطعمه؛ كان هذا تأكيدا لحسن قبوله، وإيماء بأنه سيعمل على حل الموضوع الذى أتى من أجله. وفى اليوم الثانى يجتمع مع كبراء قبيلته ليبحثوا معًا موضوع الضارب وإيجاد حل لطلبه. وهذا الاجتماع لبحث ذلك الموضوع يقال له «جاهية».

وبعد أن يبحث صاحب البيت مع الهيئة الجاهية ويتشاور معهم فى خصوص هذا الموضوع يذهب مع الهيئة المذكورة إلى دار المضروب أو إلى بيت أحد أقاربه ذى الحيثية ويجلسون.

ويتقبل صاحب البيت الهيئة الجاهية بترحيب عظيم واحترام وفير ويحاول أن يقدم للهيئة وليمة عظيمة. إلا أن جماعة الجاهية ـ إذا كان الضرب الذى تعرض له المضروب خفيفًا ـ لا تشرب حتى القهوة التى يقدمها صاحب البيت قبل أن يضمنوا أنهم سيوفقون فى تحقيق الغاية التى أتوا لأجلها وأخذ تعهد بذلك.

ويقبل صاحب البيت رجاء جماعة الجاهية قائلا «فى وجهى» عندئذ يشرب أفراد جماعة الجاهية قهوة صاحب البيت ثم يطلبون مهلة سنة وشهرين وأحد عشر يومًا وثلث يوم حتى يسووا الموضوع وفق قانون «عانى».

ويطلق على تأجيل هذا الموضوع قدر هذه المدة «قانون عانى» وأقوى أنواع التعهد هو أن يمسح المتعهد بيده اليمنى وجهه بدءًا من جبهته إلى لحيته وتلفظ كلمة «فى وجهى» الذى يعنى أن رجاءكم مقبول وأتعهد بإلغائه.

المـنن:

هو قانون إعطاء الضارب للمضروب مقدار النقود الذى عينته جماعة الجاهية. وتأخذ جماعة الجاهية من المضروب شخصيًا أو من أقاربه تعهدًا بأن الضارب لن يصيبه أى أذى فى المدة التى اتفقوا عليها وبعد أن يقرروا حل الموضوع وفق قانون «عانى»، وفى ظرف هذه المدة يقرر أفراد جماعة الجاهية المبلغ الذى سيدفعه الضارب للمضروب، ويسمى تسديد الضارب للمضروب المبلغ الذى حدد دفعه «منن».

المجبـودة:

يطلق لفظ «المجبودة» على تعديل وتجديد حكم قانون عانى السالف الذكر بناء على وعد مقطوع. وإذا ادعى أعوان المضروب أنهم لن يستطيعوا أن ينتظروا انقضاء المدة التى حصل عليها أفراد جماعة الجاهلية، ففى هذه الحالة تعدل أو تنقض مدة «عانى» ويحكم على الضارب بأن يعطى مبلغًا آخر من المال للمدة التى سيعينها أطراف المضروب.

والمجبودة. هى المدة المعينة الجديدة التى من أجلها حكم على الضارب بإعطاء مال زائد للمرة الثانية، ويتعهد المضروب وأعوانه ثلاثة أشهر أو أقل أو تنقيص المدة أقل من المدة المعينة.

ولما كان بين البدو قضية السماحة فإذا كان أطراف المضروب من القبائل الكبيرة الشرفاء ذوات الحيثية فلا يقبل أفرادها النقود التى تقرر إعطاؤها فى المقابل سواء كان «عانى» أو «مجبودة».

وبعد أن يأخذ الضارب مهلة وفق القانون المذكور يستطيع أن يعيش حياته

العادية ويمارس أعماله إلى وشك انقضاء المدة سواء أكان بذاته أو بخمسته حتى يحصل على مدة جديدة وفق قانون «عانى» أو «مجبودة» ويضطر إلى أن يختفى ويستتر عن الأعين إلا أنه إذا استطاع أن يجد بعض المال لتجديد المدة وإطالتها وفق قانون عانى» أو «مجبودة» عندئذ يظهر ويسير حرًا فخوراً.

وإن كانت مدة «عانى» أو «مجبودة» تتجدد كل سنة إلا أنه ما لم يرض المضروب وأعوانه إن حددوا دية من الضارب ولم يأخذ المضروب من الضارب أو من أحد خمسته الثأر فإن له أن ينتقم منهم أى (الضارب أو أحد خمسته) بانتهاء المدة وعدم تجديدها.

وهذا بشرط أن يكون جرح المضروب غير قاتل، وإن كان الجرح مضراً وقاتلاً ففى هذه الحالة يدخل الضارب بيت رجل عظيم النفوذ ذا قدر كبير وإن كان هذا الشخص يرضى بدخول هذا الضارب فى بيته إلا أن هيئة الجاهية لا تتصل بالمضروب أو أعوانه ما لم يتبين أن المضروب لن يموت من أثر هذا الجرح. وعندما يعلمون أن جرح المضروب أخذ الطريق إلى الشفاء تلجأ هيئة الجاهية إلى أعوان المضروب ليعملوا على أخذ المدة كما سبق شرحه.

وبناء على قانون (عانى) أو (مجبودة) يحاول الشخص الذى استقبل هيئة الجاهية جاهداً أن يكرمهم، ويلح فى ذلك ولكن الجماعة المذكورة لا تمد يدها إلى الطعام، وإن ظل فوق المائدة أربعًا وعشرين ساعة ما لم تجد جماعة الجاهية صاحب البيت قد وافق على قبول مدة «عانى».

وإذا مات المضروب من أثر الضرب فلا يستطيع الضارب أو خمسته الإقامة فى منازلهم ويعيشون مختفين مستترين فى أماكن أخرى إلى أن يقبل أعوان المضروب الميت الدية، ومدة «عانى» وقد حدث أن كثيراً من الناس عاشوا فى ديار القرية خمسة عشر عامًا أو عشرين مساكين عرايا محتاجين نتيجة لمثل هذه الأحداث.

وإذا قتل أحد من جماعة المضروب الميت، بعد أن يقبلوا الدية، ومدة عانى القاتل أو واحداً من خمسته، قبل انقضاء مدة عانى؛ فإنه يقبض عليه أفراد

القبيلة التى ينتسب إليها لأنه لم يراع أحكام القوانين المعهودة وحفظًا للقانون، يسلمونه لجماعة القتيل الأخير فى ميدان خال. ويسمحون لهم أن يقتلوه بنفس الطريقة التى قتل بها المقتول. وسبب ذلك مسح أحد خمسة المقتول فى غاية الاحترام وجهه قائلاً «فى وجهى». لأن قانون عانى لا يكون سارى المفعول ما لم يسمح هذا الرجل الوقور المهم من خمسة المقتول يده على وجهه قائلاً «فى وجهى»، وفى الوقت الذى يتلفظ به هذا الرجل بهذه العبارة يمسح القاتل وخمسته بأياديهم فى وجوههم وكأنهم بهذا يدخلون تحت حماية هذا الرجل العظيم.

وإذا حدث قبل انقضاء مدة عانى، وتعرض الضارب لأذى خلاف المأمول فيوقف صاحب الحماية إنقاذًا لسمعته وحماية لشرفه الشخص الذى سبب الأذى ويعامله بالمثل.

لما كان مدة عانى دستورًا للعمل بين البدو وقانونًا مقبولا بينهم وبعد معاهدة المدة المذكورة، وبعد التعاقد فيعطى كل واحد من الطرفين للآخر سندا يحتوى على قرار مدة عانى ويشترط أن تكون الشهود الذين كتبت أسماؤهم فى هذه الوثيقة من هيئة الجاهية.

قتل الإنسان بالسيف أو الرصاص ليس له أثر كبير بين البدو ولا يجلب الشهرة إلا أن خنق الإنسان يعد من الجنايات العظيمة. وبناء على ذلك إذا ما قبض على مثل هذا القاتل من قبل خمسة المقتول المخنوق يقتلونه ومعه ثلاثة من خمسته، أما إذا لم يستطيعوا القبض على القاتل بالذات يقتلون أربعة أشخاص من خمسته.

وإذا عرض خمسة الخانق الدية على جماعة المخنوق الفضوا، وفى هذه الحالة يحكم من قبل جماعة الجاهية بإعطاء دية أربعة أشخاص.

والدية الكاملة لإنسان «ثمانمائة ريال» ومن عادة البدو أن يدفع هذا المبلغ على أقساط ثلاثة فى ظرف ثلاث سنوات، وتعطى الأقساط المذكورة وفقا للأصول الآتية.

صورة تأدية الدية:

تسدد فى السنة الأولى ثلث الدية نقدا بالريال فى السنة الأولى، والثلث الآخر الخاص بالسنة الثانية يدفع نصفه نقدا بالريالات ونصف النصف الآخر يسدد بالأشياء ونصفه الثانى نقدا بالريالات. والثلث الأخير الخاص بالسنة الثالثة يدفع بالكامل الأشياء والمواشى وتقدر هذه الأشياء والمواشى بضعف ثمنها وبعد أن يؤخذ من القاتل أقساط الدية بهذه الصورة يأخذ خمسة القاتل من قبل جماعة المقتول كفيلا لضمان أنه لن يحدث أى تعد من قبل المقتول بعد أخذ الدية.

وجـوه:

معنى «وجوه» حماية وهى قانون من القوانين البدوية المستقلة إن المسألة المهمة التى تتضمنها كلمة «وجوه» تجرى تحت بعض الأصول والقوانين، والمعاملات الخاصة بها تنبنى كليا على إيفاء القوانين والنظم التى سبق ذكرها.

ولما كان قانون «الوجوه» القديم يكفل استيفاء الناس حقوقهم، وقد تقرر قديمًا عدم الإخلال بهذه النظم بالاتفاق. والآن نبين أن هناك ثلاث قواعد مرعية بين العرب لأجل الوجوه».

١ - القاعدة الأولى:

إذا قتل بدوى بدويًا آخر أو أحد أبناء السبيل ولجأ إلى دار شخص ذى مكانة - حتى لا يُقبض عليه وفق قانون عانى الذى سبق شرحه، يرسل صاحب الدار إلى دار المضروب عدة أشخاص يكلفهم قبول أداء الدية، ويطلق على مجموع الأشخاص الذين أرسلوا ناحية المضروب «جاهية».

إذا لم تستطع هذه الجماعة أن تقنع المضروب بقبول الدية، ولم تستطع الحصول على عانى أو مجبودة أو منن، يراقب الضارب أحد من عظماء خمسة المضروب ويحدثه أن جماعة الجاهية التى أرسلت قد قبلت من جانب المضروب ويقول له «أنا داخل على الله وعليك عن سيئته».

فإذا ما وافق هذا الشخص على حماية الضارب المذكور فيرسل إلى جهة المضروب شخصًا يقول له «إننى أخذت فلان الفلانى مدة كذا إلى الوجه» يعنى للحماية فليكن فى معلومكم» فإذا ما بلغ هذا الشخص المضروب بهذه العبارة لا يستطيع المضروب ولا خمسته أن يتجرءوا على أذية الضارب.

وإذا ما حدث قبل انقضاء المدة المخصصة وقام المضروب لأخذ ثأره من الضارب يكون قد تعدى على حقوق الحامى وضمان حمايته. وبما أن هذا الحامى لن يستطيع أن يظهر بين العربان لشدة خجله فيحاول لحفظ شرفه أن يقتل هذا الشخص الذى تجرأ على التعدى على حق حمايته.

ولما كانت مادة «الوجه» والتدخل من القوانين والنظم المهمة ومرتبطة ومقيدة بتلك النظم. وعندما تحدث حالة ضرب كما سبق ذكره، يظل المضروب وخمسته مختفين متسترين من هذا القريب المحب ذى المكانة الذى لا يستطيعون رد كلمته حتى ينتقموا من الضارب حتى لا يسمعوا أن الضارب قد دخل فى وجه أحد الأشخاص العظام فلا يترك الحامى البحث عن المضروب وخمسته، وحيثما يقابلهم يرفع عقيرته قائلاً «إننى قد أخذت فلانًا وخمسته تحت حمايتى» فيسمعهم ويسمع الناس»، وإذا كانوا قد ذهبوا إلى مكان آخر يرسل الناس من خلفهم والذين يعلنون لهم قائلين: «إن فلانًا بن فلان أخذ الخبر قبل مجيء الحامى أو رسوله فقتل الحامى أو رسوله أو عمل على منعهما وزجرهما قبل تبليغ الحماية».

وإذا قتل فى هذه الفترة الحامى أو الشخص الذى جاء من طرفه فبناء على القانون الجارى بينهم يربطون هذا الحادث الجديد للدية أو إلى مدة عانى، ويتركون فصل القضية القديمة والنظر إليها إلى وقت آخر.

٢- القاعدة الثانية:

إذا كان شخصان يتجادلان مع بعضهما وأدرك شخص قريب منهما أن المناقشة ستؤدى إلى أنهما قد يقتلان بعضهما بعضا وكان هذا الشخص من عظماء العربان تدخل بينهما قائلاً: «إنى أقرعكم عن بعضكم بوجهى».

وإذا لم يكن هذا الشخص من عظماء العربان يذكر اسم أحد أكابر العرب ويعمل على إصلاح ما بين المتعارضين قائلاً: «إننى أفرق بينكما بوجه وحماية فلان بن فلان».

وإذا أراد المتعارضان أن يتركا النزاع بطاعة ذلك الشخص المتوسط وإذا لم يريدوا لا يهتمون بوساطة ذلك الشخص ويستمرون فى النزاع حتى نهاية المجادلة فيشتمون بعضهما وقد يضرب أحدهما الآخر ثم يحكمان أحد الأشخاص المعروفين بينهما، بالحق والعدل ليفصل فى هذه القضية. فإذا تبين بعد أن يحكم بينهما هذا الشخص ظلم أى واحد منهما فصاحب الوجه لا يترك هذا الشخص وحيثما يجده يضربه مرة إما بخنجر أو رمح أو عصا.

وإذا مات المضروب من أثر الضربة الواحدة فتجرى الأحكام المسرودة فى حق قتل النفس.

ويجرى هذا النظام فى حق من أخذوا الجانى تحت حمايتهم، وإذا أعطيت حمايته غيابيًا لأحد الأشخاص، وبما أن هذه الكيفية ستبلغ لهذا الشخص فإذا قبل ذلك الشخص الحماية فيجرى قانون حمايته حسب النظام المذكور. ولكنه إذا استنكف الحماية يخبر بذلك أحد الناس والشخص طالب الوجه يستفسر عن الموضوع من العارفين به بينما ينصرف الذى استنكف الحماية من جانبهم.

٣- القاعدة الثالثة:

إذا أراد أحد الوجهاء أن يتهم بعض الأشخاص وضيعى القدر والمكانة بالضرب والقتل ولكنه امتنع عن تأكيد كلامه باليمين فالشخص المتهم يدخل تحت حماية شخص من أمثال خصمه ومنزلته ويتخذ الأصول المرعية لجلب رحمته وإثارتها.

وذلك بأن يمسك كوفيته التى يتعمم بها من طرفيها ويجعلها فى رقبته ويقول له: «إن فلانا أسند إلى جنحة بطريقة ما فأقسمت له ولكننى لم أستطع أن أقنعه لأجل ذلك لجأت إلى حمايتك وهى دار الأمان عن شره، فأرجو أن تحمينى من شره».

ويقبل هذا الملجوء إليه ويبلغ للشخص الذى ضده حمايته بالذات أو بالواسطة، ويبين له إذا كان له حق الاستماع إلى الموضوع أن يعين حكما يثق فى كلامه.

وبناء على هذا القرار يستمع الشخص الذى تعين حكمًا إلى أقوال الطرفين، وإذا كان رأيه تبرئة ذمة الرجل فلا يتدخل لذلك الشخص بعد ذلك أبدا».

رفقة الطريق وما يتعلق بها:

لما كان منذ زمن بعيد قد حددت الأراضى التى تسكنها القبيلة من قبل رؤساء القبيلة وميزت بوضع علامات معينة ولكن نفوذ كل فرد من أفراد القبيلة يُعدُّ جاريًا فى داخل هذه الأراضى، لذا لا يأمن واحد من عربان القبائل الأخرى أو أحد أبناء السبيل الذى يمر من هذه الأراضى على نفسه ما لم يدخل تحت رفقة واحد من شجعان القبيلة والمشهور بها ولا ينعم بسلامة الوصول.

وإذا اتخذ شخصًا متصفًا بالصفات السابقة دليلاً له فهو يأمن على روحه وماله، ويسلم من كل خطر وبلاء ويصل إلى نهاية البلاد والأراضى التى ينتمى إليها الدليل. ولكن بعد الخروج من هذه الأراضى تسقط حماية ذلك الدليل عن الحكم فيضطر المسافر إلى أن يدخل تحت حماية شخص آخر من تلك البلاد التى يسير فى أراضيها حتى يسلم من الخطر. وبناء على هذا يكسب المسافرون والسياح فى الجزيرة العربية سلامتهم بمراضاة الأشخاص الذين يدخلون تحت حمايتهم وذلك بدفع النقود لهم.

ولو سافر أى سالك سبيل أو مسافر بمفرده دون أن يهتم بنظام الحماية لو قتل فى الطريق أو نهبت أمواله وتعرض للسلب أو أية مصيبة تهدر جميع حقوق هذا الرجل سواء أكانت بالنسبة لروحه وحياته أم بالنسبة لأمواله ولا يلزم نحوه أى شىء وفقًا للقوانين البدوية.

التبييضية:

وهى قانون تبييض وجه الحامى بين العربان. وإن كان تعرض البدو إلى

الشخص الذى وضع تحت الحماية غير ممكن إلا أنهم يدرون إن مثل هذه الأحداث قد تقع.

فإذا ما تعرض الرجل الذى وضع تحت الحماية للسلب والنهب فلا يسكت حامى المظلوم، فإذا كانت هذه الواقعة ليلا من قبل رجال قبيلته فيسترد الأموال المنهوبة منهم ويعطيها للمحمى.

وإذا ما كانت الحادثة قد وقعت من قبل قبيلة أخرى تعهدت بعدم التعرض للأشخاص الذين يحميهم فعندئذ يتبع الحامى أفراد هذه القبيلة ويطالبهم بالأموال المسلوبة. وإذا لم يرضوا برد الأموال يصطحب معه بعض سميته ويذهب ليطلب الأموال المنهوبة. فإذا رفضوا فى هذه المرة أيضًا فإن الحامى يمسك بندقيته ويطلق رصاصة واحدة لقتل واحد من السارقين.

وهذا التصرف من الحامى هو ما يعرف بين العربان بـ «تبييضية» وبهذا التصرف يكون الحامى قد أنقذ شرفه.

وإذا لم تصب الرصاصة التى أطلقها الحامى واحدًا من اللصوص أو أصابته ولكنها لم تؤثر فيه ففى هذه الحالة يكرر محاولته فيقتل واحدًا منهم أو يجرحه جرحًا بالغًا مميتًا وهكذا ينقذ عرضه ويعود مع سميته ويعيد الأموال المسروقة من أموال نفسه وسميته ويعطيها للشخص الذى تحت حمايته.

وإن كانت هذه الخدمة تؤدى بدون مقابل. ويحدث أحيانًا أن تُطلب النقود نظير الخدمة أو أن النقود لا تطلب ولكنها تعطى كنوع من المروءة.

رفيق الجنب:

هو قانون يحدد سلوك الرفقاء ورفاقة الطريق.

إن مسألة الحماية ليست من الضرورى أن تكون نظير أجر مادى مترجم إلى نفوذ، بل من الجائز أن تحدث الحماية بعد أن يتناول الطرفان الطعام سويًا أو يشرب أحدهما قهوة عند الآخر، وبهذا يحق لهما حماية بعضهما البعض.

فمثلا لو أن أحد الأعراب المقيمين على جانبى الطريق الذى ستسلكه القافلة، توجه إليها وأكل طعامها أو شرب قهوتها، فمن حق هذه القافلة عليه الحماية والرعاية طالما أنها تجتاز حدود منطقته. وإذا اعتدى أحد سميته على القافلة أو فرض أتاوة عليها، فالواجب يفرض عليه حماية القافلة من أى تعد، رعاية لأصول الحماية.

وإذا ما نظر الشخص المعنى إلى الأمر نظرة استخفاف أو لا مبالاة، فإنه بذلك يكون قد أظهر عدم اكتراثه، وقوض حيثيته وكرامته وشرفه بين العربان. ويعتبر بذلك حقيراً وضيعًا بين بنى قبيلته وعشيرته.

ولما كانت هذه العادات والأصول مرعية بدقة بين الأعراب، فقد كان يكفى عابر السبيل رشفة ماء من قربة أحد قطاع الطرق، حتى يكتسب حمايته ويسلم من مضاره وشروره.

وإذا لم يحترم أحدهم هذه الأصول والأعراف وأصاب بالأذى هذا الرجل الذى احتمى به، فإن صاحب الفوية التى شرب منها الماء، يكون ملزمًا بتخليصه من شره وأذاه، وإذا ما أصاب هذا المسافر نوع من الخوف أو الهلع من توقع اعتداء قاطع الطريق هذا عليه فى المراحل التالية، فإن صاحب القربة يرافقه الطريق حتى يوصله إلى بر الأمان والسلامة.

وكانت هذه الخدمات إذا ما قدمت بدافع الحمية والشهامة العربية، تتم لقاء أجر معين. وهذا كان نادر الحدوث.

وهكذا فإن هذا القانون المسمى (رفيق الجنب) والمعروف بين العشائر العربية كان ينظم رفاقة الطريق.

أما القانون الذى يطلق عليه بين العربان «**رفيق الجنب**»:

فهو عبارة عن قانون خاص بسلوك الرفقاء والصحبة فى الطريق.

طنيب الطنب:

هو قانون خاص للمحافظة على حق الجوار وذلك باتصال عدة خيام بخيام جماعة أو قبيلة ما.

وبما أن عربان القبائل يعيشون فى حالة ترحال فلا يتخذون مكانا ما مأوى ومسكنا بصفة دائمة، فينقسمون إلى عشرينات أو ثلاثينات أو أربعينات أو خمسينات أو ستينات من الخيم فينزلون حيث يعجبهم أو يقومون ويرتحلون حسبما يريدون، وإنهم لا يتركون أماكنهم ما لم تعد حيواناتهم جائعة من المراعى أو ما لم يكتشفوا مراعى أكثر عشبًا.

وعندما يعم الجفاف لا يسكنون فى مكان واحد أكثر من ثلاثة أيام وفجأة يتركون منازلهم، ويتفرقون بين عربان القبائل الأخرى ويحصلون على موافقة شيوخ القبائل الذين لجئوا إلى ديارهم بإعطائهم رأسًا من الغنم عن كل خيمة.

وهؤلاء الشيوخ يحمون الجماعات الواردة يصاحبونهم حيثما انتقلوا ويحسبونهم من جماعاتهم، وبناء على ذلك لا يتعرض لهم أحد بالأذية فإذا وجد من يتعرض لهم بالأذى فلا يستطيع أن ينجو من انتقام القبيلة كلها.

ويقولون لمثل هؤلاء الناس ـ أى الذين ينتقلون إلى أراضى غيرهم ويدخلون تحت حمايتهم ـ «طنيب الطنب» ومعناه الاصطلاحى الجيرة التى حدثت باتصال خيم هؤلاء بخيمهم.

المعاونة للدخيل: (إغاثة الملهوف):

من مقتضى القوانين القديمة بين العربان معاونة الدخيل، أى قبول الهاربين وإكرامهم قدر الإمكان وإعانتهم.

فإذا ما فر إنسان سواء أكان ذكرًا أم أنثى بعد ارتكاب ذنب أو جنحة أو جناية وأطلق المطاردون من خلفه رصاصا أو رمحًا قبل أن يدخل فى خيم أحد العربان سواء أصابه ما أطلق أولم يصبه فأصحاب الخيم ينظرون إلى جهة توجه الرجل الفار.

فإذا توجه الهارب نحو خيم الحريم، وقع الحادث المذكور قبل التقرب إلى الخيم بأربعين ذراعًا فبناء على القوانين العربانية لا يلزمهم شيء.

وإذا حدثت المطاردة السابقة فى داخل هذه الحدود أى أن المطاردين أطلقوا الرصاص أو الرمح فى مكان أقرب من أربعين ذراعًا وأقل منه وتبين ذلك فيكون المطاردون قد تعدوا على حقوق وحماية أصحاب الخيم وبناء على ذلك يتعقب أصحاب الخيم المطاردين ويقتلون من استطاعوا قتلهم بإطلاق الرصاص.

وإذا كان توجه الفار نحو خيم الرجال ووصلوا إلى جانب حبال الخيم التى تسمى طنب وخارجها فلا يدافع عن هؤلاء الفارين الهاربين وفق القوانين العربانية ولكن إذا حدث ما حدث فى داخل حبال الخيمة سواء أصابت الرصاصة التى أطلقها المتعقبون الفارين أو لم تصبهم، فبناء على القوانين العربانية فأصحاب الخيام يطاردونهم ولا يعودون إلا بعد قتل بعضهم.

ملاحظة:

فتعيين هذه المسافة الكبيرة والفرق الكبير بين خيم الرجال والنساء أى تحديد المسافة لحق حماية خيم النساء بأربعين ذراعًا يدل على مدى غيرة البدو على أعراضهم، وأنهم فى هذا السبيل يضحون بكل شىء.

وليس هناك بين البدو الخلص من يعرف ما هو الزنا، وإذا حدث مثل هذا الفحش فرضًا يقتلون الفاعل والمفعول، وفى هذا الموضوع لا يرحمون حتى أولادهم.

وبعد أن يراعى جانب الدخلاء من قبل أصحاب الخيم فجملة الجيران يستضيفون هؤلاء كل واحد منهم فى يوم خاص. ثم يعطى لهم الأغنام والحملان والجمال كمساعدة.

بعد ما يتم العون المقدم للدخيل يأخذ ما قدم له من العطايا، ويرجع إلى مقره الأصلى فيسوى أموره بدفع الدية وينهى الموضوع بالصلح.

وإذا كانت الإعانات المعطاة من تلك القبيلة كافية لتسوية أموره أو إذا لم يقدم له العون من قبل حماته ففى هذه الحالة فالأمر كله يحال لأفراد القبيلة الذين

يشمرون سيقانهم متفقين فيجمعون بينهم النقود الكافية لتسوية الأمر على أحسن وجه.

وهذا النظام من القوانين البدوية والعادات المرعية التى مازالت سائدة إلى يومنا هذا.

حفظ الأمانات والعادات الخاصة بها:

حفظ الأمانات أيضًا من القوانين العربية القديمة، وبناء على هذا إذا ما أعطى أحد العربان للآخر جملاً أو ناقة أو نعجة أو أشياء أخرى على أنها «أمانة الله» فالشخص الذى تسلم الأمانة إذا كانت حيوانًا مثلاً فإن المؤتمن يحرص على العناية بهذا الحيوان أكثر من حيواناته فيعلفه ويحرسه ويكثر نسله بالتوليد.

وإذا ما مات هذا الإنسان، فالحيوانات التى كانت أمانة فى يده تحفظ من قبل ورثته وتسلم لأصحابها وقت ما يريدون.

ومن الثابت المشهور أن عربان العرب إذا ما أخذوا ناقة أو ناقتين يكثرون عددهما بالتوليد دون أن يخونوا الأمانة وفرضًا أن الورثة لم يعرفوا صاحب الأمانة فإنهم يتحرون عنه حتى يجدوه ويردوا له أمانته.

والحملان التى تولد من النعاج والعنزات فإن الذكور يبيعونها ليشتروا بدلها النعاج حتى يزيدوا من عددها.

ولا يأخذون مقابل هذه العناية والإكثار شيئًا غير الانتفاع بلبنها.

ولما كان خلط الفساد فى أمور الأمانة يقلل من بركة أموالهم من الأمور المجربة لديهم لذا يبتعدون عن الغدر والخيانة فى هذا الموضوع.

وإذا ما نفق أحد الحيوانات التى تحت الأمانة فإنهم يقطعون جزءًا مميزًا منه ليروه لصاحب الأمانة.

وإذا ما نُهب هذا الحيوان من قبل قبيلة أخرى فيتتبعون هذه القبيلة ليخبروها أن المسلوب أمانة ويحاولون تخليصه من أيديهم ويبذلون الجهد لتخليص ما يمكن تخليصه.

والأمانات التى تعطى من قبل أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة مثل الهجن والحيوانات الأخرى للعربان تحفظ وفق النظام الذى ذكر أعلاه.

الملحس[1]: قانون خاص بلحس النار.

حدث منذ زمن أن أحد أهالى العرب المتدينين خرج ليزور قبر النبى ﷺ وبينما كان سائرًا بين عربان قبائل عوف اعتلت صحته فاضطر أن ينزل ضيفًا عند أحد أفراد القبيلة المذكورة. وقد أكرمه صاحب البيت أعظم إكرام ورعاه كأعظم رعاية، ووهب له جملاً لركوبه وقد سر الضيف من هذه العناية فى الاستضافة أعظم سرور ولما كان مضطرًا أن يقابل هذه المجاملة بمكافأة طلب من صاحب الدار سكينًا «على أن يظل حكمه وتأثيره باقيًا ما لم يبتعد عن الحق وأن ينتقل من بعده لأولاده وأحفاده» ثم أدخل هذا السكين فى داخل النار الموقدة فى مكان خال من الناس حتى احمر أشد الاحمرار ثم أخرجه من النار، وتلا عليه بعض الأوراد ولعقه بلسانه وجعل صاحب الدار أيضًا يلحسه. وبعد ما أثبت الضيف أن هذا السكين لن يضر لسان صاحب البيت بالفعل.

ثم أراد أن يبين أن هذا الفعل منحصر فى الصدق والاستقامة فقط، وقال لصاحب البيت «خذ هذا واحفظه فى مكان أمين وعندما أطلبه منك أنكر ذلك قائلاً: «لا ليس لى علم بمثل هذا الشىء».

فأعطى لصاحب البيت شيئًا ما، وبعد مدّة رجع وقال له «كنت أعطيت لك كتابًا بالحفظة إننى محتاج إليه الآن فأحضره لأننى أريد أن أطلع عليه» فرد عليه صاحب البيت مجيبا لا! إنك لم تعطنى كتابا ولا غيره لابد أن فى الموضوع خطأ. عندئذ أخرج الضيف ذلك السكين المحمر من أثر النار، وقال له إذا كنت لم تأخذ الكتاب الذى أعطيته لك العق هذا السكين! وعندما لعق الرجل السكين احترق لسانه إلا أن الضيف سقاه قطرة من الماء فانتفخ المكان المحروق والتئم مباشرة.

وقد تعجب صاحب البيت من حالة هذا الرجل واستعظم الخواص التى رأها

(١) مشهور بين أبناء المنطقة الشمالية الشرقية فى مصر باسم «البشعة».

فى الضيف ولم يكن يعرف أنه يريد أن يسدى له معروفا؛ لذا قال له «يا أيها الشيخ ما أعجب هذه الحالة» فرد عليه الشيخ قائلا: هذه خصلة جليلة تفرق وتميز بين الحق والباطل وغرضى أن أعلمك مقابل ما قدمته لى من معروف فلتعلم أننى قرأت على السكين عبارة كذا وبعد هذا كل من يراجعك لحل موضوع ما فسخن سكينًا حتى الاحمرار ثم اقرأ عليه العبارة التى علمتك إياها واجعل المدعى عليه يلحس هذا السكين! إذا كان الشيء الذى أسند إليه كذبًا وبهتانًا وافتراء فلا تؤثر سخونة السكين وشدة حرارته فيه، وإذا لم يكن بهتانًا يحترق لسان الرجل» وأعطى له إذنًا بأن يمارس هذا العمل كما رأى منه ليترافع عن الناس، ثم لقنه هذه التعليمات قائلاً «بعد هذا سيراجعك الناس من جميع الجهات يجب عليك ألا تنحرف عن طريق الحق فى إحقاق الحق والتمييز عن الباطل ويجب عليك أن تحقق وتستفسر عن المراجعين أولاً عن الموضوع الذى يراجعونك لأجله، إذا كان شيئًا مهما خذ المدعى عليه فى مكان خال وحاول بعبارات ملائمة أن ينهى الموضوع صلحًا وأن يسكت خصمه بإعطائه بعض الأشياء وبعد ما تأخذ منه وعدا بذلك الصلح بينهما حسب العهد الذى قرره على نفسه. وإذا ما امتنع المدعى عليه عن الإقرار بما هو واقع ففى هذه الحالة يقبل منه المدعى مقدارًا من المال مقابل الجناية التى ارتكبها واطلب كفيلاً يضمن ذلك وإذا ما أعطى كفيلا تباشر العملية وفصل الدعوى وفق قانون ما بشرط أن يعطى لك عشر المال أو الأشياء التى يدور عليها القضية، وهكذا علم الشيخ خواص هذه الحالة ثم فارقه مودعًا.

وأخذ صاحب البيت يمارس علمه وفق ما تلى من ضيفه من تعليمات ويفصل بين المتخاصمين ولما سر منها المتخاصمون اشتهر اسمه بين العربان وظل اسمه بعد ذلك ملحسا.

بعد هذه الواقعة اضطر الذين يعجزون عن إثبات شيء ينكره فاعله لمحاكمة الملحس للفصل بين الحق والباطل والتمييز بينهما، ويراعى الآن جميع القبائل وأهل العراق البدوى الملحس ليعرفوا أن المتهم بالقتل أو جنايات أخرى برئ

الذمة من ذلك، وإنهم يثقون تمامًا فى الحكم الذى سيصدره الملحس بعد أن يلحس المتهم السكين.

ولما كان سر هذه الخاصية انتقل إلى أحفاد وأولاد ذلك البدوى فالعربان يراجعون البدوى الملحس فى قضاياهم المعقدة الصعبة وبعد ما يستمع الملحس لادعاءات الطرفين يأخذ منهما عشر مادة الخلاف فإذا كانت الجناية قتلاً يأخذ عشر الدية قبل أن يُلحس السكين المدعى عليه.

وإذا ثبتت الحالة والتهمة على المتهم بالقتل يربط المدعى بكفيل قوى على أن يأخذ حقه من المتهم حيث يجده وألا يقتله بجانبه، ثم يجعل المتهم يلحس سكينة محمرة من شدة الحرارة فيأخذ حقه بناء على الحكم الذى ثبت من الجهة غير المحقة فى القضية ويرد نقود المحق، وإذا رضى المدعى بتسوية الموضوع فى القتل عن طريق دفع الدية، عندئذ يربط الموضوع على دفع الدية مقسطًا حسب قدرة المتهم المالية وما تظهر من قضايا بعد ذلك يحلها وفق ما سبق بيانه.

الجـرة:

الاسم الخاص لقانون تتبع الآثار. وفراسة العرب فى تتبع الآثار شىء مثير للتعجب.

وأكثر العربان يستطيعون أن يخبروا عن الوقت الذى مر فيه ومن أى مكان ما حيوان أو إنسان بالنظر للآثار التى تركتها قوائم الحيوان وأرجل الإنسان.

وقد جرب البدو الأحوال التى تحدثها الرياح على الأرض كما جربوا صلابة الأرض وليونتها، وجعلوها تحت ملاحظتهم. وبما تقرر بينهم من فن المقايسة والموازنة ودلالته الواضحة يدركون الوقت الذى مر فى هذا المكان صاحب الأثر وإن كان الوقت ليلاً.

وإنهم يدركون ما تقع تحت أبصارهم من الآثار وهم سائرون ليلاً، فيعرفون أن طائفة ما من العربان مرت من هناك قبل يوم أو يومين أو قبل ذلك كما يعرفون عدد جمالهم ومقر القبيلة التى تتجه إليه حتى إنهم يخبرون عن أفكار

تلك الطائفة قائلين بأنها كانت ذاهبة إلى القبيلة الفلانية للإغارة عليها والاستيلاء على أموالها، وإنهم يثبتون صدق مدعاهم بموافقة ما أخبروه للأحداث.

حتى إن قبيلة ما حينما تتجه إلى مقر قبيلة للإغارة عليها ليلاً فإذا رأت آثار أقدام كثيرة، فهم بدلالة فن تتبع آثار الأقدام أن هذه الجماعة لايمكنها أن تقاوم أعدادها لذلك تبدل طريقها وتغير جهة سيرها.

وإذا رأى العربان العائدون دون أن يوفقوا فى القبض على الجماعة التى كانوا يقصدونها آثار أقدام عربان أخرى فيتتبعونهم حتى يدركونها وينهبون أموالها، ويسلبونها ويطلق العربان على هذه المقاتلات بينهم للسلب والنهب اسم غزوة».

وبين العرب طائفة تعرف بـ «القصاصون» ولما كان شغلهم الشاغل الاهتمام بتتبع الآثار، لذا فهم يتفوقون على سائر العربان فى هذا الخصوص.

وإذا ما قتل أحد البدو الآخر أو سرق ماله، أو ارتكب منكرًا آخر فهرب من خوفه، فإذا لم يعرف أفراد القبيلة الهارب فإنهم يأتون برجل من طائفة القصاصين ليتتبع آثار الرجل، وهكذا يبدأ الرجل فى تتبع آثار الرجل بشم رائحة الحجارة ويتعقبه، وحس القصاص فى هذا الخصوص مصيب لأقصى درجة حتى إنه يستطيع أن يعرف إذا كان صاحب الأثر رجلاً أو امرأة، وإذا كانت امرأة هل هى بكر أو ثيب وإذا كانت ثيب، هل هى حامل؟ أم لا؟ كما يعرف من آثار الإبل هل هى محملة أو غير محملة وذلك من تأثير قوائمها على الأرض.

ولما كانت آثار أكثر الناس قد ثبتت فى أذهان القصاصين فإذا ما رأوا آثارهم يخبرون قائلين: «هذا أثر قدم فلان بن فلان. ويؤكدون صحة أقوالهم بمطابقتها بالواقع.

وقد حدث مرارًا وبعد التجارب أن قصاصًا قد تعقب آثار أقدام حيث اختفى صاحبها فى مكان ما أو فى منزله وقبض عليه. وعندما يُدَل أحد القصاصين على أثر قدم فالقصاص يخبر بهوية هذا الرجل وأين ذهب وما القصد من ذهابه وما

أمله، كل ذلك بالنظر لآثار أقدامه. وبناء على هذا لا يتتبع آثار ذلك الرجل ويصدق ما قاله القصاص. ويعاقب صاحب الآثار الذى ارتكب الجرائم وفق قانون الجزاء والمؤاخذة بعد إجراء التحقيقات.

وإذا وجد قصاص مشهور فى قرية ما أو فى قبيلة ما فلا يتجرأ أحد من تلك القرية أو القبيلة على السرقة.

لما كان أحد القصاصين قد برع فى فن تتبع آثار الأقدام واكتسب مهارة عظيمة فكان اللصوص لا يتجرءون على السرقة ليس فى قرية ذلك القصاص فقط بل حتى فى القرى المجاورة لقريته. وأراد أحد البدو أن يجرب مدى علم هذا الرجل فحاصره فى ليلة حالكة الظلام وضربه بعصا حتى أغمى عليه ووقع على الأرض، ولما أفاق المضروب بعد ساعة نظر إلى آثار أقدام الضارب ولكنه لم يستطع أن يتبينها لشدة ظلام الليل، وظل فى مكانه حتى الصباح وفى الصباح عاين الآثار بدقة فى ضوء النهار وعلم أن صاحب الآثار قد عاد إلى منزله، ولما كان صاحب دكان شغل بعمله. ولكنه كان يزن كل من يمر من أمام دكانه بميزان الملاحظة والمقايسة.

وبعد هذه الحادثة بثلاث سنوات بينما كان جالسًا فى دكانه وثب فجأة وضرب رأس أحد أبناء السبيل بعصا وأوقعه على الأرض. وقال للذين سألوا عن سبب ذلك: «كان هذا الرجل ضربنى قبل ثلاث سنوات فى المكان الفلانى على رأسى بعصا وأوقعنى على الأرض ليلاً وفر. وإننى كنت نقشت أثر الرجل فى ذاكرتى.

وكان أثر قدم هذا الرجل مطابقًا تمامًا للأثر الذى فى ذهنى لأجل ذلك ضربت الرجل بعصا مقتصا منه».

ولما سُئل المضروب قال: «نعم كنت قد تجرأت قبل هذا بثلاث سنوات على ارتكاب هذا الفعل لأجربه فى مدى مهارته فى فن تتبع الآثار». انتهى.

وفى الواقع أن فن تتبع الآثار قديم بين القبائل العربية، وقد ذكر فى كتب

السير أن النبى ﷺ حينما هاجر واختفى فى غار ثور قد أخبز به القرشيون من قبل القصاص الذى عينوه كما أن القصاص أخبرهم أن النبى ﷺ لم يتقدم خطوة إلى الأمام بعد هذا الغار. ولكن القرشيين وجدوا أمام ذلك الغار بيوت عنكبوت عديدة فوقه كما وجدوا أمامه عش حمامة وقالوا: «إن هذا المكان لم يدخله إنسان حتى قبل ولادة محمد عليه السلام» وبهذا الادعاء كذبوا القصاص، وكلما أصر الرجل على رأيه كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصرف أذهان هؤلاء عن تصديقه.

تتبع أخبار الأحداث واضطرارهم لذلك:

كان عربان القبائل يخافون من السيل والأمطار ومن الظلم والتعدى، كما يحترزون من التقلبات الجوية والرياح والعواصف وكانوا مهتمين أشد الاهتمام بأخبار الوقائع والحوادث، ويحصرون أفكارهم فيها حتى لا يصابوا بكارثة دهياء.

وأصبحت لديهم عادة الاطلاع على جميع أحداث الأماكن المختلفة، لذلك يسألون من يصادفونهم من أبناء السبيل عن المكان الذى يأتون منه وعن الجهات التى يتجهون إليها، وعمن رأوهم فى الطريق من قطاع الطرق، وعن العربان المغيرين، وعن مرض الحصبة والأمراض الأخرى، وعن الأماكن التى أمطرت السماء فيها، وعن السهول والوديان والمراعى.

وإذا كان آتيًا من بلاد ما يسألونه عن أثمان الأغذية والأوزان ولا يغادرونهم إلا بعد أن يستوفوا إجابة أسئلتهم.

ولكن مثل هؤلاء المسافرين يحترزون من إعطائهم الإجابات الصحيحة لأسئلتهم، ولا سيما عن الأماكن التى يتجهون إليها خوفًا أن يقطعوا طريقهم ويغيروا عليهم.

وإذا مر أحد المسافرين فى مجمع خيم البدو وأراد أن يستريح قليلاً فيأتى

واحد من جماعة البدو يبدأ أسئلته قائلاً «إيش علومك» ويتطلع إلى مدى علمه بالأخبار فيجيبه المسافر قائلا «خص وأنا أقص» أى عين وحدد سؤالك بالضبط وأنا أجيب عليك.

وعندما يقول المسافر «خص وأنا أقص» يبدأ السائل فى الاستفسار عن الأشياء التى سبق ذكرها، ويعود بعدما يتلقى الإجابة عنها. والمسافر مضطر للإجابة على أسئلة كل واحد منهم، فلا يستطيع أن يقول قد أجبت على أسئلة واحد منكم فاستفسروا منه».

وبما أن كل واحد من هؤلاء المستفسرين يبلغ قبيلته بما سمع وهؤلاء يبلغون الآخرين فحادثة ما إذا حدثت فى ركن من أركان الجزيرة العربية تنتشر على الألسنة وتذيع فى جميع أنحاء الجزيرة العربية.

سياسة الأمراء:

وسياسة أمراء العربان مرتبطة بقوانين معينة، إذ يستمع كل أمير إلى قضايا المدعين الذين يأتون لفض المشكلة. وكل من يخسر القضية يأخذ منه الأمير رأسًا ما يجب عليه دفعه، ويسلمه لصاحب الحق سريعًا ويأخذ ضعف ما يثبت عليه تنكيلاً به وبعد ما يدفع نصفه للمدعى يضع النصف الثانى فى صندوق بيت المال الذى تحت إدارته.

إذا ما تعدى أحد العربان على الآخر يتحرى سبب المشكلة من قبل الأمير أولاً فإذا كان هذا التعدى قد حدث قصاصًا مقابل جناية وقعت لأحد خمسة الجانى منذ زمن بعيد فيعفو عنه.

أما إذا تبين ظلمه فإنه يسجن فى مكان مكشوف أمام دائرة الأمير، ويعاقب بحرارة النهار وبرودة الليل إلى أن يصلح ما بينه وما بين خصومه.

ويعين الأمير جواسيس بين القرى والمنازل التى يحكمها ليطلعوا على الأحداث، وبالتالى يطلع الأمير على ما يحدث فى الأماكن التى يحكمها. وإذا

ما عرف بوجود جياد أصيلة أو إبل كريمة عند أحد الناس فيأخذ إناث هذه الحيوانات من أصحابها لزيادة نسلها فإذا ما قدم له طلبه كهدية فيعطيه فى مقابل خلقه بعض النقود أو يخلع عليه خلعة، وهكذا يراعى جانب المُهْدِى.

أما إذا تردد صاحب المال فى تقديمه فقد كان الأمير يجمع رجاله ويهاجم هذه القبيلة بغتة، وينهب كل ما لدى هذا الشخص من خيول وجمال وأغنام، بل كثيراً ما كان يصل الاعتداء على الأرواح أحياناً، وبعد السلب والغارة، كان الأمير ينتظر بعض الوقت للراحة فى مكان قريب من هذه القبيلة، فإذا وفد إليه بعض رجالها للاسترحام وعرض الولاء والطاعة والندم كان يرد إليها أموالها ومواشيها.

ولما كان الأعراب لا يسلمون من الغارة والهجوم، لذلك لم يكن أى منهم يهتم بالثروة الثابتة، بل كان كل ثرواتهم من الأشياء المنقولة، وكانوا لا يهتمون بالعمل بالزراعة والتجارة لأنها تتطلب الإقامة الدائمة، وهم يفضلون حياة التنقل والترحال، ولذلك استنوا لأنفسهم سنة فيما بينهم تقضى بأنه إذا تعرض البعض منهم إلى النهب والسلب وسلبت كل أمواله ومواشيه، كان كل منهم يقدم إلى المغبون عونًا يتمثل فى بعض الأغنام أو الإبل حتى يتلافى ما ضاع منه. وكان الجميع ملزمين بهذا القانون

ليس للحجاز مثل البلاد الأخرى أَنْهَارٌ ومياه جارية وآبار ولحكمة الله ينزل المطر هناك فى السنة عدة مرات. أو فى عدة سنين مرة واحدة، لذا لم يمل سكانها للمدنية والاستقرار وتنقلوا حيثما سمعوا أن هناك أمطاراً وحيثما تشبع حيواناتهم انتقلوا هناك مفضلين البداوة على المدنية. ورأوا فى التسكع هنا وهناك فخراً ولم يجدوا فيه عاراً، والغرابة تكمن فى هذه النقطة.

إذا أراد أمراء العربان فى غير الحجاز واليمن أن يحضر أحد الأشخاص للمنازعة والمناقشة أو أى مطلب كان فإنهم كانوا. يكتبون على ورقة صغيرة أمر استدعائهم له ويرسلونها إلى ذلك الشخص وعندما يصله هذا الاستدعاء فإنه كان لا يتأخرو يستعجل للحضور، وهذا من ضمن أحكام قوانينهم الموضوعة، وعندما

يحضر المدعوون يضرب الأمراء على العصيان التى فى أيديهم بخناجرهم ثلاث مرات، ويعود المدعوون ويظهرُونَ أثر ضربات الخناجر لخصومهم فيذهب هؤلاء بدورهم إلى حضور الأمراء والويل كل الويل لهم لو تأخروا.

والآثار والخطوط التى تحدث فوق العصيان يطلق عليها بين البدو «وَقَر».

إذا أراد أحد أمراء العربان أن يحارب أميرًا أو قبيلة فبما أنه ليس عنده جنود منظمة يبعث إلى شيوخ القبائل الذين يتبعونه مبينًا عدد الأفراد الذين يريد إحضارهم والمكان والوقت الذى سيتلاقون فيه. ويحضر هؤلاء إلى المكان المعين وقد أعدوا لوازمهم الحربية ومؤنهم الغذائية.

ولما كانت قيادة هؤلاء الأشخاص الذين حشدوا فى يد الأمير الذى استدعاهم فيتولى الأمير قيادتهم ويتوجه بهم إلى مقر إقامة القبيلة التى يريد أن يغير عليها. وقبل أن يتحرك يرسل عددًا من الجواسيس ليطلع على أحوال القبيلة التى يريد أن يحمل عليها.

ولما كان استخدام الجواسيس من عادات أمراء العرب فإنهم كانوا يستخدمون فى هذا الأمر أناسًا موثوقين فى كتمان الأسرار فالجواسيس الذين يذهبون لاستطلاع أحوال القبائل وكشفها لا يمدون أحدًا بالأخبار إلا الأمراء.

وبعد ما يتعرف الأمير الذى يريد أن يخوض الحرب على أحوال القبيلة الداخلية معرفة جيدة بواسطة الجواسيس يلقى للأفراد الذين تلقى قيادتهم أشعارًا مؤثرة وخطبًا حماسية فيملأهم حماسًا وشجاعة ويقطع المسافة التى تقطع فى يومين فى ليلة واحدة ويفاجئ القبيلة التى يريد أن يغير على مخيمها فجرًا بالهجوم.

وفى مثل هذه الحملات يرسل الأمراء الذين تولوا القيادة، البدو فى مقدمة الجيش كالقناصة ويسوقونهم بينما هم يظلون فى المؤخرة كقوة احتياطية فى جهة ما منتظرين النتيجة. فإذا ما أحسوا آثار ضعف أو انهزام فى القناصين يهاجمون عامة وهذا من عادات العربان الجارية وقوانينهم المرعية.

وإذا ما قدر لهذه الحملة أن تنكل بالعدو وتغنم منه أغنامًا كثيرة، فقد كان الفرسان يحتفظون ببعض الغنائم لأنفسهم ويقدمون الباقى لقائدهم.

وإذا أعلنت إحدى القبائل الخاضعة لأحد الأمراء العصيان عليه وخالفت أوامره، كانت القبائل الأخرى تنصرف عنها، ولا تتعاون معها فى أى أمر من الأمور مالم تعد إلى طاعة أميرها. بل إن الأمر كان يبلغ أكثر من ذلك، فقد كانت تمتنع عن المشاركة فى القتال معها، إذا ما تعرضت لعدوان من قبائل أخرى.. وكان سبب ذلك بالطبع هو قوة الأمراء وظلمهم وتعسفهم.

قضاة وفقهاء الحكومة

إن أمراء العربان يستخدمون نوعان من القضاة أولهما القاضى والآخر الفقيه.

وإذا ما رأوا بين الجماعة من طال شاربه يستوقفونه على باب المسجد، ويأمرون بأن يعاقب الذين لا يداومون على أداء الصلاة مع الجماعة والذين يستخدمون الدخان والتنباكو، والنشوق وفق القوانين المرعية. ووظائف هؤلاء فقهاء البدو لا يتعدى مثل هذه الأمور.

أما القضاة فكانت مهامهم تتلخص فى الفصل فى الدعاوى المخالفة للأحكام الشرعية، وكذلك الدعاوى القديمة. وكانوا لا ينظرون أية دعوى مالم يقم أصحابها بتسديد الرسم الذى يقرر حسب أهمية الدعوى، والذى كان يطلق عليه اصطلاحًا «خبذ».

ويطلق على أحد أنواع الأسلحة فى مصطلح البدو «خبذ» أيضًا. وبعدما يؤدى الرسم المذكور يعرض المدعى قضيته وبينته أمام مجلس يتكون من عدة أشخاص مسنين كما أن المدعى عليه، يعرض إجابته أمام تلك الجماعة.

وبعد ما يستمع القاضى لادعاءات الطرفين يسجلها مضبوطة فيترك حل القضية والفصل فيها لآراء الحضور.

ولكن قبل أن يحكم أعضاء المجلس بالإجماع فى القضية يأخذ أحد أعضاء المجلس المدعى والمدعى عليه خارج المجلس ويحاول أن يحل القضية بالصلح

ناصحًا لهما وذلك بأمر القاضى وتصويبه، وإذا لم يستطع أن يصلح بينهما يبعث شخص آخر من قبل المجلس وتستمر النصائح إلى غروب الشمس وفى هذه الفترة يذهب كل واحد من أعضاء المجلس لإصلاح ذات بين المتخاصمين واحدًا تلو الآخر ويسعون لتسوية الأمر.

وإذا لم تنجح مساعيهم. يسأل القاضى الحضور قائلين: «هل حدثت مثل هذه القضية من قبل؟» ويجيب كل واحد من الموجودين بإجابة ما، ثم يقبل القاضى أقرب الإجابات لتلك القضية وأنسبها، وبعد أن ينفذ الحكم يعطى القاضى مهلة لتسوية الدين ويطلق سراح كفيل المحكوم.

وإذا اقتضى أن يحلف أحد المتخاصمين يمينًا. فإن اليمين بين العربان نوعان: أحدهما يمين خاص بمواد عادية والآخر خاص بالمواد المهمة.

والمواد العادية عبارة عن «الأموال المسروقة وارتكاب المنكرات» أما المواد المهمة عبارة عن جنايات خطيرة مثل القتل والزنا.

اليمين الأول عبارة عن تلاوة العبارة الآتية».

«والله العظيم والله الكريم، والله الذى لا إله إلا هو خالق البرية، العالم بكل خفية، رافع السموات العلية، قاطع المال والذرية ومفرق الخمس قضا بة الجنبية».

واليمين الثانى هو تكرار لفظة والله والله أربعين مرة، وصورة اليمين الثانية هى صورة اليمين الأول يطلق العربان على مثل هذا الحلف «أيمان شديدة».

وقد انقسم تحليف اليمين عند العربان إلى ثلاث أقسام.

«يمين مخففة مفردة، يمين مخففة غير مفردة، ويمين مغلظة».

القسم الأول:

اليمين المخفف المفرد وهو عبارة عن قول «والله العظيم وبالله الكريم».

٢- القسم الثانى:

هو اليمين الذى سبق تعريفه وهو «والله الذى لا إله إلا هو خالق البرية،

العالم بكل خفية، رافع السموات العلية، قاطع المال والذرية، ومفرق الخمس قضا به الجنبية» ويقال لهذا اليمين المخفف غير مفرد.

٣- القسم الثالث:

هو الحلف بقول «والله والله» أربعين مرة ويقال له: «الأيمان المغلظة».

ويكلف العربان بحلف الأيمان المخففة فى حالة المال المسروق. والحقوق المالية المتكررة. ويحلف الأيمان المغلظة فى حالة الجنايات مثل القتل والزنا والجنايات العظيمة.

الطب العربى

بما أن أفراد القبائل البدوية لا يقتنعون بعلاج أطباء العرب وجراحيهم المتمدنين، لذا قرروا أن يعالجوا مرضاهم بالأدوية المجربة بينهم.

الصفراء:

ويحمل العربان كل من يصفر لونه قليلاً على أنه حدث له من التهاب الكبد، وعلى هذا يطلون عقب المريض بزيت زيتون ثم يكوونه بإبرة كبيرة أو سكينة[1] صغيرة ملتهبة من الحرارة على شكل صليب وبطريقة مؤثرة ثم يسقون المريض قدرا من الماء المختلط بالفلفل الأسود. فيزول مرض المعلول بحكمة الله تعالى بتأثير تلك العملية.

وإن كان الأطباء يعالجون هذه العلة بأدوية مركبة من بعض مياه معدنية وأحيانًا بسولفات، ولكن بما أن هذا المرض له أنواع مختلفة فلا يعالج إلا إذا عرف نوعه وشخص.

الإمساك:

فالذى يجد صعوبة فى التبرز يسقونه لبن النياق فيحدث هذا اللبن فى داخل جسمهم ليونة فيزول عنهم ما يعانون منه.

ويستعمل الأطباء الآن لإزالة الإمساك الزيت الهندى والملح الإنجليزى وأدوية مماثلة لهما.

الصداع:

ويداوون الصداع بكى أحد الأوردة التى فى الرأس برأس مسمار ملتهب كما أنهم يكوون أحد الأوردة التى فى الرأس لوجع العين.

(١) هذه الإبرة الكبيرة الملتهبة أو السكين تسميان (واقب).

ولما كانت العملية التى تجرى لوجع العين مجربة كذلك من أهالى المدينة المنورة، لذا قد حدث مرارًا أنهم قد عالجوا المرضى الذين تعرضوا لوجع العين بأخذهم إلى أحد العربان الذى اشتهر فى الكى وجعلوه يكويهم. وهذا جار حتى الآن.

والأطباء يعدون أدوية الصداع حسب نوعه، لذا يجب أن يستعمل فى مداواة مرض العين الدواء الذى يناسب نوع هذه العلة.

وقد تقدم فى زماننا معالجة أمراض العين تقدمًا عظيما حتى ظهر أطباء حُذَّاق ومشتهرون وتعالج علة العين بواسطة هؤلاء المتخصصين.

إذا ما شق بطن أحد الناس بالرمح، أو الخنجر، أو أية آلة حادة وخرجت أمعاؤه خارج البطن، عندئذ يقطعون من داخل المجروح شحمًا من داخل بطن الرجل كمية صغيرة، ثم يسخنونها على النار حتى توشك على الذوبان ثم يرتبون الأمعاء ويضعونها فى أماكنها ويطعم المجروح بهذا الشحم الساخن ثم يخيطون الأماكن التى قطعت من بطنه.

وبعد أن يخاط جرح المجروح يُكْوَى، وهذا من مقتضيات الطب البدوى. وبعد أن يخاط جرح المجروح يوضع عليه قطعة من القماش وعليها عسل مخلوط بكمون ويربط الجرح عدة أيام ويغير هذا القماش عدة مرات حتى يلتئم الجرح ويطعم المجروح بحساء العظم أو اللحم فقط.

وهذه العملية الخاصة بفن الجراحة قد تقدمت تقدمًا عظيمًا والأمعاء التى خرجت خارج البطن يدخلونها وفق فن الجراحة فى داخله، ثم يخاط بواسطة الإبر والأدوات الخاصة بهذه العملية، ويوضع عليه ما يلزم من الأدوية ويغطى بقطعة قماش ويلف ثم يعالج حسب ما تقتضى حالة الجرح علاجه.

ومن عادات البدو قبل إجراء العملية إطلاق رائحة المسك والبخور. وبناء على اعتقاد أفراد البدو إذا ما أطلق فى أثناء إجراء العملية عطور ذات رائحة طيبة وشمها المجروح فإنه لا يتأثر من تعفن جرحه.

وإن كان إشمام البدو للمريض روائح طيبة، حتى لا يصاب بإغماء ولكن الأطباء اليوم يسقون المريض بعض الأدوية مثل «فوردى يال» حتى لا يصاب بإغماء.

ويستخرج حكماء البدو وأطباؤهم الرصاصة من داخل الجسم بسكينة ملتهبة فى النار بمهارة فائقة من الجسم بعد أن يشقوا مدخلها.

وإذا كانت الرصاصة قد وصلت إلى العظام وهشمت العظم ولم ينتبه المداوى لتلك الحالة والتأم الجرح ثم انتكس الجرح عندئذ يفتح المداوى الجرح كالمرة السابقة بسكينة ملتهبة فى النار ويخرج قطع العظم المهشمة ثم يخيط المكان الذى فتحه ويعالجون الجرح بتركيبة من العسل والكمون إلى أن يتم الشفاء ويلتئم الجرح.

يستعمل الجراحون فى عمليات استخراج الرصاص أنواعًا من الآلات التى صنعت خصيصًا لذلك الغرض.

وإذا ما تورم عضو من أعضاء أحد الناس وأصيب بالغرغرينة فى الداخل ولم يظهر له فتحة أو رأس عندئذ يشيرون إلى محل التورم بتراب الفحم ثم يدخلون الإبرة الكبيرة التى التهبت فى النار من شدة الحرارة فى سرعة ساحرة فى المكان الذى أشير ويخرجونها وبعد أن تخرج من الداخل التقيحات يصنعون فتيلاً من قماش ويغمسونه بـ (خيليت). ويدخلونه فى داخل الجرح. ويستعملون هذا الفتيل ما يقرب من ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع يضغطون على الجرح إلى أن يخرج الدم الأسود والماء الأصفر. وبعد ذلك يتركون الفتيل ويضعون على الجرح بصلا مقطعًا ويستعملون هذا الضماد.

والأطباء فى زماننا يستعملون بعض الأدوية ليقضوا على هذا النوع من الأورام وإذا لم تأت الأدوية بنتيجة حاسمة فإنهم يتدخلون جراحيًا ليزيلوا التقيحات الداخلية.

والعرب يكوون رأس من وقع من مكان عالٍ ومن فوق الحصان أو الجمل فتأثرت ضلوعه أو انكسرت.

ولما كان تكسر العظم شديد الألم فالأطباء يعالجون ذلك حسب شكل وأهمية العظم المكسور.

ويطعم العربان من تعرض للفتق بذرة القطن المطحونة المخلوطة ببياض البيض.

أما بين الأطباء لا علاج للفتق إلا «رباط الفتق».

أما من تعرض لمرض (داهنه) يدلكون جسمه بالزيت المخلوط برماد الخشب المحروق ثم يمسحون الزيت ويدخلون فى المنافذ التى ظهرت فى الجسم ابرة ثلاث مرات ويخرجونها.

وإن كان المريض لا يحس بألم الإبرة التى تدخل ولما كان المكان سينزف عند إخراج الإبرة فالإبرة التى أدخلت مرة ثانية تؤلم أشد الألم وإدخال الإبرة للمرة الثالثة يسبب ألما لا يحتمل.

واشتداد الألم بناء على اعتقاد البدو دليل على برء الجرح وعندما يشتد ألم الإبر يتركون إدخالها وإخراجها.

الداهنة:

داء خاص بالقبائل البدوية ومن يصاب بهذا المرض يحدث فى أصل كل شعرة من جسمه ابتداء من صرته حتى قدميه ثقب صغير ونتيجة لهذه الثقوب يصيب المعلول ضعف ويشعر بألم شديد حتى يظن أن عظامه تتألم.

ومن يصاب بداء الرياح والغازات والقولون يجعلونه يأكل الخبز الساخن غامسًا فى مسحوق النعناع إلى أن يشفى ومن جهة أخرى يطلونه بزيت الزيتون وزيت النعامة.

كما أنهم يكوون من تلدغهم الحية أو الثعبان بعصًا مدببة محروقة وبما أن هذه العصا تمسك السم ولا تسمح بانتشاره وتجمعه فى فتحة الجرح فيداوونه بالعسل والكمون.

وإن كان هذا النوع من التداوى يوافق الطب الحديث إلا أنهم الآن يداوونه بطريقة أخرى.

والمريض الذى أصابته رياح السموم يسقونه قدراً من المسلى الطبيعى وينيمونه ويغطونه بأغطية كثيرة قدر تحمله ويجعلونه يعرق ويستفرغ ويمنعونه من شرب الماء قدر ساعتين.

والأطباء يعالجون مثل هذه الأمراض نتيجة لوخامة الهواء والجو بطريقة أخرى أيضًا.

أما الذى تعرض للرياح والبرد حتى لا يستطيع أن يتحرك يداوونه بحفر حفرة عميقة قدر طوله ويوقدون فى داخلها النار ويسخنون التراب ثم يبردونها قدر التحمل فينيمون المعلول داخل هذه الحفرة، ويغطون كل جسمه بالتراب ماعدا رأسه كما أنهم يغطون رأسه بقماش حتى لا يتعرض للتيارات الهوائية ويجعلونه يعرق ويتركونه حتى آخر قدره من التحمل ثم يخرجونه، ثم يزيتون جسمه بالزيت ويلفونه بأقمشة غليظة ويتركونه هكذا مدة ثلاث ساعات ثم يسقونه حساء اللحم.

ولما كان هذا المرض من نوع «رثية المفاصل» المشهورة فالأطباء يداوونه بالمياه الساخنة والمعدنية وهذا النوع من العلاج مرغوب لدى الأطباء الأوربيين.

كما أن المستشفى به يداوونه بهذه الصورة، إلا أن المستشفى به يخلعون عليه فرو الحيوان المذبوح ثم يرقدونه فى داخل الحفرة ويجعلونه يعرق.

وعندما يخرج من الحفرة تكون بطنه قد رجعت لحالتها القديمة أى أن التراب يكون قد امتص جميع ما فى بطنه من الماء الفاسد.

والمصاب بمرض الاستسقاء الذى يصل إلى هذه الدرجة يدهنون جسمه ويقومون بتكملة التداوى.

والأطباء يستخرجون هذا الماء بواسطة آلة خاصة، وكلما ساءت الحالة وتدهورت يخرجون الماء بالآلة المذكورة.

والمرضى الذين يتعرضون للقيء والإسهال يكوون أخمص أقدامهم بحديد ملتهب فى النار على شكل صليب.

وما زال هذا النوع من التداوى والعمليات الجراحية تجرى بين العربان حتى اليوم. وأفراد القبائل العربانية لا يعرفون شيئًا أكثر من ذلك. كما أنهم لا يقبلون تداوى إلا من يعرفونه.

الكرم العربى:

يشتهر قبائل العربان العربية عامة بالكرم والجود والسخاء حتى الفقراء منهم يجب أن يقدموا لضيوفهم ما يستطيعون تقديمه وإطعامهم على قدر إمكاناتهم.

وهم منذ القديم يشتهرون بالجود والمروءة والشهامة لأجل ذلك فالكرماء منهم ممدوحون والبخلاء مذمومون غير مقبولين بينهم.

ومهما كان البدوى فقيراً أو محتاجًا لنصف رغيف خبز فهو مجبر على استقبال الضيف حسب قوانينهم. لذا تجد فى خيمة كل واحد منهم مكانًا لإقامة الضيف وصنع القهوة.

ولما كان بعض العربان يفرحون غاية الفرح بظهور الضيف فإنهم ينتظرون كل صباح ورود الضيف ويناجون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبعث لهم ضيفًا.

وإذا ما جاء فى قرية بدوية ضيف، سواء أكان معروفًا أو نكرة، يحرص أهل تلك القرية على استقباله بل يتنافسون فى سبيل ذلك، والذين ظلوا فى الخلف يرمون عصياتهم من فوق من سبقوه ويدعون بهذا بأنهم سبقوهم فيأخذون الضيوف إلى منازلهم.

وإذا صادف أن لقى أحدهم ضيفًا وفى بيته ضيف ورأى هذا الضيف شخص آخر من القرية وشكى من عدم وجود ضيف فى منزله منذ عدة أيام ودعا الضيف الثانى إلى بيته فيوافق صاحب البيت الأول وضيفه على ذلك حتى لا يكسروا خاطر ذلك الرجل.

وأول تحية عربان العرب لضيفهم أن يقدموا لهم ثلاثة فناجين قهوة متتالية، ولكن بن هذه القهوة لا بد أن ينضج بعد ورود الضيف ويطحن فى المطحنة ويسوى فى إبريق من الفخار يطلق عليه «جبه نه» وألا تكون القهوة زائدة عن حاجة الضيف وأن يكون فى فم جبه نه ليف.

إضافة:

ومن عادات قرى الأناضول تسوية القهوة فى الفرن بهذه الصورة. فإذا سمع أحد القرويين فى الأناضول أن ضيفًا وصل إلى غرفة الضيافة يأخذ شيئًا من البن النيئ ويسرع بإعطاء البن لصاحب المقهى الذى يحمص البن ثم يسويه ويقدمه للضيف وبعد ذلك يخاطب صاحب القهوة الضيف ويطيب خاطره قائلاً: «مرحبًا».

إلا أن بعض القادرين يقدمون للضيف قبل القهوة تمرًا أو زبدة وبعد الماء اللبن الرائب وبعد ذلك يقدم قهوته ثم يسأل عن أحواله وصحته، وهكذا يقوم بمراسم الضيافة ثم يحضر ما جهزه من الطعام، ويبتدر راجيًا أن يأكل الطعام قائلاً: (حياك الله على موجودنا) وكأنه يعتذر عن قلة طعامه.

وليس من عادات العرب أن يتناول المضيف الطعام مع الضيف، لذا فهو ينسحب إلى ركن وإذا كان فى الحجرة بعض الأشخاص يتناولون الطعام مع الضيف.

وإذا كان الطعام الذى قدم خروفًا أو حملا، قسمه الضيف ثلاثة أرباع أمامه؛ وربعًا يرسله إلى أهل البيت عن طريق أحد الموجودين، ويأكل من كل أعضاء الخروف ما عدا رأسه وذلك لأهل صاحب البيت ويبدأ فى تناول الطعام مسميًا باسم الله.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام يخاطب أحد الحاضرين صاحب الطعام قائلاً: «يا مُضيفنا أنعم الله عليك» وعندئذ. يتقرب صاحب البيت من الضيف ويقول

له: «هنيئا وعافية، ولا علينا فيما قصرنا به قدركم عند الله أعظم». وهكذا يعامل الجميع.

ويأكل صاحب البيت ما بقى من الطعام مع جيرانه، والذين لا يقدرون على ذبح كبش يذبحون شاة أو نعجة أو يحلبون لبنها ويطعمون ضيفهم.

ولا يستقبل بعض العربان ضيوفهم هكذا من بعيد، وحيثما نزل الضيف يتلقاه صاحب البيت بالترحاب وإذا لم يكن موجودًا فحرم صاحب البيت تقوم بالواجب نحو الضيف.

والذين لا يملكون غير ناقة يحلبونها يقدمون لضيفهم لبن ناقتهم معتذرين، كما أن بعضهم يشترون من السوق أو من جارهم معزة أو نعجة ويطعمون ضيوفهم وإذا لم يجدوا وقتًا لذلك ففى هذه الحالة يمسكون بنعجة أو معزة جارهم ويذبحونها وبعد ذلك يقدم له ثمنها والجيران لا يقولون له شيئًا بل يستحسنون هذا الفعل.

والضيف الذين يردون عندما يشح لبن النياق، أو يندر فيه الحيوانات يكرمون ضيوفهم بالجبن الذى خزنوه فى الصيف.

إذا ما حضر ضيف بينما يتناول طعام فى خيمة ما فعلى الضيف أن يجلس على المائدة بدون تكليف. إذا لم يجلس الضيف على المائدة ينظرون إليه نظرتهم إلى الخائن، وإذا كانت المائدة قد رفعت بعد أكل الطعام فالخادمة تدعو الضيف.

وعندما يدخل الضيف فى الحجرة أو الخيمة يقوم الحاضرون على خدمته فيسقى الضيف ثلاثة فناجين قهوة ثم يجلسون ويستفسرون عن حاله وخاطره وعن العشيرة التى ينتمى إليها وعن سبب مجيئه.

وإذا نهب ضيف فى الطريق بعدما خرج من البيت الذى كان ضيفه ثم عاد لنفس المكان الذى كان فيه ضيفا فيحظى مثل هذا الضيف على قدر مكانته بصحابة صاحب الدار.

وإذا فرضنا أن الضيف قد شرب قهوة صاحب البيت فقط يسير معه مسافة أربع ساعات وإذا كان شرب لبن يسير معه اثنتى عشرة ساعة ويقوم بحمايته ويسترد ما سرق من الضيف ويسلمه للضيف وإذا كان الضيف قد تناول طعامه أيضًا فعليه أن يسير معه مسافة ٢٤ ساعة وأن يسترد من اللصوص ما سرق من ضيفه ويرده له وهذه الأمور من أحكام القوانين البدوية وعلى صاحب البيت أن يقوم بها على أكمل وجه.

وقد يضحى صاحب البيت فى سبيل حماية ضيفه ووقايته بنفسه أو أولاده وعياله وعشيرته، وعلى الضيف أن يعد نفسه واحدًا من أفراد صاحب البيت وأن يدافع عنهم إذا ما تعرضوا لهجمات الأعداد وأن يحل ما قد يظهر من المشكلات.

معجزة:

إذا كان بين البدو من لا يقبل الضيف ولا يحبه فعليه أن يستقبل ضيفه ويحتفظ بكرهه له فى قلبه.

يروى أنَّ النبى ﷺ كان قد شرف منزل بدوى من هذا القبيل ولما كان صاحب الخيمة غائبًا فقد قامت زوجته بمقتضيات الضيافة وأحضرت حساء العدس الذى أعدته لزوجها ورجت النبى ﷺ أن يتناوله. وفى هذه الفترة وصل زوجها ولما وجد حساء العدس الخاص به أمام النبى ﷺ غضب غضبًا شديدًا ولكنه حسب القانون اضطر أن يكتم غيظه فى نفسه. وفى نفس الوقت أصاب فرسه التى فى الخارج مرض فتحير البدوى ولم يدر ما يفعله فاستنجد بالنبى ﷺ، وأراد النبى ﷺ أنْ يظهر رضاه عن زوجة البدوى فقال: «امرأة بشوشة ورجل عبس، الضيف محمد، والطبيخ عدس أخرج أيها المفزعن هذه الفرس» ونفخ فى الفرس فطابت الفرس وفهم البدوى هوية ضيفه واعتذر مستغفرًا وطلب العفو.

والآن كل من يكتب هذا الحديث على بيضة ويكسرها ضاربًا على جبهة الحيوان المعلول ويمسح فم الحيوان بهذه البيضة يزول عن الحيوان بإذن الله أوجاعه.

تحمل الجوع والعطش:

أغنياء البدو وأصحاب الثروة منهم قليلون جدًا. والفقراء وأصحاب الحاجة فيهم كثيرون. وعربان القبائل من الأقوام التى تتحمل الشدائد وتصبر على الفقر والجوع وليس فى العالم قوم يتحملون ذلك مثلهم. والذى يشبع منهم مرة فى خلال أربعة وعشرين ساعة يُعد نفسه سعيدًا ولا يحصى عدد الذين يظلون جوعى عدة أيام متحملين ذلك وصابرين على الجوع.

والبدو الذين يخرجون إلى الطريق للذهاب إلى مكان ما يأخذون معهم زاد يوم واحد بدلاً من زاد أسبوع. وإذا صادفوا فى طريقهم بعض خيم البدو ينزلون عندهم ضيوفًا ويشبعون بطونهم. وإذا لم يصادفوا فى طريقهم مثل هذه الخيم أو لم يمروا بقرية ما، فإنهم يعيشون بهذا الزاد القليل مدة أسبوع. كما أنهم يعيشون بتناول الأعشاب التى تنمو بجانب الأغادير التى تكونت من أثر مياه الأمطار. وعندما يتجهون إلى مكان ما للإغارة على بعضهم بما أنهم لا يملكون القمح والأرز فإنهم يطحنون الدخن وأوراق الأشجار التى يطلقون عليها اسم «بروق» ويعودون بما يلزمهم قدر حاجاتهم من الدقيق وكلما يجوعون يضعون فى أفواههم قدرًا منه ويشربون ماء. ولا سيما عندما تقل الأمطار ويزيد القحط والغلاء يعيشون ببذور أشجار العرر.

ويصل قدر تحمل البدو للجوع إلى هذه الدرجة إلا أن تحملهم للعطش أكثر من ذلك إذ يطوون البوادى الخالية من المياه ومسافات طويلة، عندما تهب رياح السموم بكل قوة وفى المواسم التى لا يستطيع الإنسان أن يسير من شدة الحرارة، سائرين على أرجلهم أو راكبين.

وبما أنهم يعيشون هكذا جوعى دون مداواة يلزم أن تكون صحتهم أقل من

الأقوام الأخرى (من أهل الحضر) إلا أنه بالعكس فصحتهم جيدة وأجسامهم قوية إلا أن قوة أجسامهم لا تكتمل فبنية أجسامهم نحيفة وهم فى غاية خفة الدم.

وبينهم من تجاوز سنهم المائة ومع ذلك يحتفظ بصفى أسنانه كاملين.

ولما كانت هذه الطوائف تنتقل من بادية إلى بادية غير مستقرة فى مكان ما ولا ينهمكون فى تناول أطعمة مختلفة، ويعيشون فى أماكن ذات هواء نقى سليم فإنه ليس فيهم من أصابته الحصبة إلا قليلاً.

ولما كان العربان مقتنعين بأن الحصبة مرض معد مهلك جرت عادتهم إذا أصاب أى واحد منهم هذا المرض وإن كان ابنه الوحيد فإنه يتركه عند من أصابه المرض من قبل وإذا لم يجد مثل ذلك الرجل يترك وحيداً. هذه العقيدة خاصة بالبدو الذين يسكنون فى الصحارى، إلا أن سكان القرى والمدن فى الجزيرة العربية والأماكن الأخرى والمتمدنين منهم لا يهربون ممن يصاب فى صباه بالحصبة، بل يعدون الأدوية الخاصة بها ويعالجونه.

غزوات العرب وأيامهم، وما يتعلق بذلك من عاداتهم وتقاليدهم.

الغزوة:

تطلق الغزوة بين البدو على إغارة بعضهم على بعض ونهب أموالهم ومواشيهم وأغنامهم.

والغزوة مقبولة وممدوحة لدى البدو كما أن الاشتغال بالزراعة والتجارة مذموم ومقدوح لديهم.

وقد أحل هؤلاء ـ لجهلهم وقلة درايتهم بالأمور الدينية ـ (الغزوة) ظانين أنها مأخوذة من لفظة «غزاة» الإسلامية، ويتجرءون على أن يسلبوا أرواح الأقوياء إذا ما وجدوهم ضعفاء وأن ينهبوا أموالهم وممتلكاتهم، وبناء على ذلك تجد هؤلاء الذين يملكون أموالا كثيرة ومواشى وفيرة قد ضاعت منهم ثروتهم وغناهم فى لحظة واحدة بينما الذين كانوا لا يملكون حتى شاة يصبحون أصحاب الثروة والغنى.

والعربان الذين يخرجون للنهب والسلب يتخذون أحدهم رئيسًا وقائدًا ولا يخرجون عن طاعته ورأيه. ومن أحكام السلب والنهب أن يكون نصف الخارجين فرسانًا والنصف الآخر من المترجلين.

وفى أثناء قتالهم لا يستخدمون الأسلحة النارية ولكنهم يقاتلون بالأسلحة البيضاء مثل السيف والرماح وما يشبهها من الآلات الجارحة.

وبعد ما يهيئون مهماتهم الحربية ويتخذون تدابيرهم القتالية ويقتربون من مقر القبيلة التى يريدون أن يقتحموها، يختفون فى مكان ما.

ويبعثون اثنين منهم للتجسس، ويصعد الجاسوسان على قمة جبل ما ويرصدون إذا كان ليلاً عدد ثيران أعدائهم وإذا كان نهاراً يرصدون جمالهم

وأغنامهم والجهة التى ترعى فيها ومدى بعدها من الخيم فيخبران بهذا وإذا كان الوقت ليلاً واقتنع المغيرون بأنهم يستطيعون التغلب عليهم يقتحمون مقر القبيلة صباحًا، فينهبون أموالهم وحيواناتهم. وإذا كانت الغارة بالنهار يقيدون الرعاة فى جذوع الأشجار ويسوقون ما نهبوا من الحيوانات بسرعة شديدة حتى لا يلحقهم أفراد القبيلة المنهوبة، ويعودون إلى مأواهم.

ويستدل أصحاب الحيوانات من عدم رجوعها وقد حل الليل على أن حيواناتهم قد تعرضت للسلب والنهب فيركبون ما احتفظوا به من الجمال والخيول فى جانب الخيم ويتتبعون المغيرين بضعة أيام فإذا ما أدركوهم واستردوا أموالهم بالحرب عادوا إلى أماكنهم فرحين مسرورين، أما إذا أدركوهم ولكنهم لم يتجرءوا على حرب أعدائهم لكثرة عددهم وقوتهم يعودون يائسين متألمين.

أما إذا اعتمدوا على كثرة عددهم أو على بسالة وشجاعة أفراد جماعتهم فإنهم يتتبعون آثار ناهبيهم إلى مأواهم فيستردون أموالهمم بالحرب كما ينهبون أموال أعدائهم وحيواناتهم ويشتتون أفرادهم . ولا أهمية بين البدو لمن سقط ميتًا فى أثناء الحرب والدفاع.

ويتفق أحيانًا خمسة أو ستة من أصحاب الهجين مع خمسة وستة من الرجال ويخرجون إلى الطريق فيقطعونه ويسلبون أموال وأشياء من يصادفونهم فى الطريق من العربان والمسافرين ويتركون أصحابها يندبون حظهم العاثر.

وأحيانًا يتفق ما يقرب من خمسة عشر شخصًا أو عشرين من المترجلين ويصعدون إلى قمم الجبال حيث لا يمكن الوصول إليها بالحيوانات فينهبون ما يقدرون على نهبه من الأموال والمواشى ويتركون هؤلاء المساكين منتحبين عرايًا مثل الحجاج الذين نهبوا فى طريق الحج.

وإذا صادف مثل هؤلاء النهابين ـ قل عددهم أو كثر ـ الذين فارقوا مأواهم عصابات أخرى أقوى منهم يكونون كمن أضاعوا ما فى خيمهم من الأكل.

وهم يذهبون لشراء الأرز من دمياط، وأحيانًا قد يدفعون حياتهم ثمنًا له.

والذين يتعرضون لمثل هذه المصيبة ويعجزون عن المقاومة يختفون فى مكان ما فى الجبال لينجوا بأرواحهم وإذا اضطروا للحرب يهاجمون بعضهم بعضًا بتحريض رئيس كل واحد من الطرفين.

وإن كان عدد أفراد الفريق الذى شرع فى القتال أقل من عدد أفراد الفريق الآخر فالمعتقد بين البدو أن الذى بدأ الهجوم أولاً هو الذى يكسب المعركة. وإذا فرض أنهم قد انهزموا فلا يبالون به ويرمون بأنفسهم فى ميدان المعركة لأن الموت فى أثناء المعركة فخار لهم.

وقبل الهجوم يردف الركبان المشاة خلفهم ويسيرون وعندما يصلون إلى مكان فيه أشجار ينزلون من على جمالهم ويقاتلون مع مشاة الطرف الآخر متخذين الأشجار والأحجار متاريس لهم كما أن الركبان يحاربون مع ركبان الطرف الآخر إلى أن يتبين الغالب من المغلوب.

وإذا فهم أن المنتصرين سيقتلون المغلوبين ففى هذه الحالة يدخل أفراد القبيلة المغلوبة فى «وجه» وتحت حماية الطرف الغالب ويعرضون ذلك على الفرقة الغالبة وفى هذه الحالة تكتفى الفرقة الغالبة بالاستيلاء على أموال وأشياء الجهة المغلوبة.

والفارون سواء أكانوا راكبى الخيول أو الإبل فالذين يتتبعونهم يبلغونهم صائحين أنهم مؤتمنون على أرواحهم.

وفى النهاية يعطونهم الأمان لأرواحهم ونصف أموالهم.

وإذا اقتنع الفارون أنهم يستطيعون أن يهربوا بأموالهم استمروا فى الهروب، أما إذا تعبوا وعجزوا عن السير فيستسلمون وقت ما يعرفون بأنهم ائتمنوا على أرواحهم ونصف حيواناتهم ويسوون الموضوع بأن يسددوا النقود التى قدرت بها نصف حيواناتهم بما عندهم من النقود أو الأشياء.

ويؤخذ جمل الذى قتل فى الحرب وما عليه من الأشياء من قبل قاتله، وإذا لم يكن قاتله معلومًا فيكون جمله وما يمتلكه من نصيب الذى يمسكه أولاً وينهبه ويجرده من أشيائه.

مناخ:

مناخ هذا نوع من المعارك العربية التى تجرى بين البدو. وتتم صورته هكذا، إذا طالت المعركة والقتال بين قبيلتين وإذا كانت تلفيات كل من القبيلتين وخسائرهما بالنسبة لعدد القبيلة تمثل زيادة مفرطة واشتد غيظ وغضب كل من القبيلتين وقرر أطراف كل من القبيلتين الاستمرار فى الحرب حتى تختار كل قبيلة أجمل بناتها وتركبها فى محفات يطلق عليها الهوادج وتسوقها إلى ميدان المعركة.

وعندما يتلاقى الصفان تكشف هذه الفتيات عند اشتداد القتال ستائر هوادجهن وترفعن نقابهن وتأخذن فى تشجيع المقاتلين إلى انتهاء المعركة كل واحدة تشجع مقاتلى قبيلتها بصيحات عالية ببعض القصائد الحماسية وأناشيد الفخر الشعرية المنظومة، ويأخذ رجال القبيلتين فى القتال ببطولة نادرة ويهلكون بعضهم البعض.

ومن قواعد مقاتلة المناخ أن تستولى الفرقة الغالبة المنتصرة على خيم المغلوبين ومواشيهم وكل ما يملكونه.

وليس من عادة العرب أن يعتدوا على أرواح الفرقة المغلوبة ولا على عرضها وشرفها. إلا أن أشجع المقاتلين من الفرقة الغالبة وبطلهم له الحق أن يأسر أجمل فتيات الهوادج من الفرقة المغلوبة فتعرض عليه قبيلة الفتاة مالاً كثيرًا ونقودًا وفيرة، فإذا طمع فى هذا المال يأخذه ويترك الفتاة إلى قبيلتها ولكن إذا لم يطمع فى المال واستطاع أن يكسب ود الفتاة وقلبها فله أن يعقد عليها ويتخذها زوجة.

الجرود:

وإن كان الجرود يعنى جنود البدو والعربان فأفراد العربان ينقسمون إلى قسمين أو فرقتين.

فرقة منهما تظل تحت إمرة الأمير الذى تتبعه، والفرقة الأخرى تعيش مستقلة وعندما تظهر حادثة تستعد للدفاع مع القبيلة.

فجنود العربان الذين يطلق عليهم جرود عبارة عن هاتين الفرقتين اللتين تحتشدان فى نقطة واحدة للدفاع عن القبيلة ضد أعدائها.

ويهيئ الذين يتبعون أميرهم ويخضعون له الذخائر والأدوات اللازمة للحرب ويذهبون بناء على تنبيهه وأمره إلى المكان المعين للاجتماع ثم يفوض الأمير قيادة المحتشدين لأحد الشيوخ ويأمرهم بأن ينتظروا حتى يصدر لهم أمره الأخير ثم يسوقهم إلى محل ما أو ضد قبيلة عاصية.

ويتولى قيادة فرقة (جرود) عند غياب الأمير شيخ يعينه الأمير. ويذهب هذا الشيخ إلى المكان الذى عينه له أميره ويظل منتظراً بذاته أو ورود أوامر الأمير، إذا لم يذهب الأمير بذاته وأصدر أمر الإغارة على القبيلة العاصية، فيقسم شيخ فرقة الجرود قوته الموجودة إلى ثلاثة أقسام: «يكلف قسمًا منها بالاستيلاء على أموال ومواشى القبيلة العاصية وسوقها، والقسم الآخر يكلفه بحماية النقط الاستراتيجية التى قد يرد منها العدو والقسم الثالث يكلفه بأداء مهمة الشرطة. وبعد ذلك يهاجم مقر القبيلة التى قرر الإغارة عليها.

وإلى أن يطلب أفراد هذه القبيلة الأمان والحماية ينهب أموال ومواشى كل واحد منهم بل قد يقتلهم. وإذا ما انقادت القبيلة كلها ولم تدافع عن نفسها فلا يؤخذ شىء من أى واحد منهم.

وبعد أن يعطى أميرهم التابعين له الضمانات الكافية المناسبة للشيخ وبعد أن تتقرر الضرائب السنوية التى ستدفعها القبيلة المغلوبة يعود إلى موطنه.

ومن قوانينهم المرعية أن يحمل عظماء القبيلة المغلوبة ما جمعوه من النقود إلى الأمير الغالب بأنفسهم وأن يوصلوها ليده بالذات. وأن يرجوا من الأمير أن يخفف ما قرر من الضرائب ويحصلوا على موافقته.

وكل فرد من هؤلاء العربان الذين هيئوا للحرب عليه أن يدبر أمر طعامه وأكله وشربه ورصاصاته وباروده. أما الأمير فيشترى بعض الأشياء التى تكفى لأهل دائرته مثل: «الدقيق والأرز والبلح وذخائر حربية كافية وبعض المهمات فإذا ما امتدت الحرب واحتاجت جماعة لذلك وزعها عليهم.

وإذا ما اشترك الأمير فى الحرب. ولكنه لم يشترك فى القتال وظل منتظرًا فى جهة ما مع الفرقة الاحتياطية منتظرًا النتيجة يأخذ من الغنائم ربعها.

وأما إذا شارك هو والمغيرون فيأخذ ثلث الغنائم. ويوزع الباقى على العربان الذين يكونون فرقة الجرود، بالتساوى.

وإذا حصل أحد البدو على غنائم دون تعب فإنه يسلمها إلى شيخ القبيلة حتى يوزعها بناء على الأصول القبلية. أما إذا قتل عدوه وأخذ جمله أو حصانه وما معه فهذه الأشياء تخصه وحده قانونًا.

والعربان الذين يعيشون منفردين غير تابعين لأى أمير عندما تحدث حادثة يجتمعون حول الشخص الذى يستمد منهم العون.

يوم أبيض:

إذا ما اعتدى شخص على امرأة واغتصبها وإذا ما استغاثت المرأة فى أثناء محاولة اغتصابها وجاء الناس لاستغاثتها وأخذوا يتعقبون الجانى لأخذ الثأر، دوما كان موضوع العرض والشرف من أعاظم الجرائم عندهم، فلا يكذبون استغاثة المرأة التى تقول (أراد أن يغتصبنى) فحيثما أدركوا ذلك الشخص يمزقونه تمزيقًا بالخنجر المسمى عندهم جنبية.

وإذا كان الجانى من قبيلة أخرى فيجتمع أفراد قبيلة المرأة ويعلنون أنهم سيحملون على أعدائهم والقبيلة الأخرى تستعد أيضًا ويحرص الطرفان على القيام بحرب عظيمة.

ويطلق العربان على يوم حدوث هذه المعركة (يوم أبيض) وهذه العبارة تعنى أننا وإن لم نستطع القبض على الشخص الذى تسلط على عرضنا وأن نقتله ولكننا بيضنا وجوهنا إذ قاتلنا قبيلته قتالاً عظيمًا.

وعند وقوع مثل هذا الحادث يتعاون أفراد القبيلة مع بعضهم أشد التعاون حتى إن الذين بينهم قضية ثأر يتصالحون فيما بينهم حتى ينتصروا على أعدائهم. ولكن فى ختام الحادث يستأنفون مرة أخرى فكرة الثأر والانتقام.

التدابير والحيل الحربية:

يستخدم العربان الأسلحة ذات الفتائل، ومن عاداتهم المرعية عندما تقف الفرقتان متقابلتين أمام كل واحدة منهما الفرقة الأخرى يصيحون بصوت عال قائلين (الله أكبر) لترهيب العدو ويولولون ويملئون ميدان القتال بالصيحات إلا أنهم لا يحاربون فى ميادين وأماكن متسعة بل يحاربون فى الجبال والمضايق ومن خلف المتاريس الحجرية من حيث يتخذون أعداءهم أهدافًا لإطلاق الرصاص كما أنهم يمتنعون من إطلاق الرصاص متتابعًا حتى لا تذهب رصاصتهم التى أطلقوها عبثًا دون جدوى، وفعلاً ما يطلقونه من رصاصة لا تذهب عبثًا بل لابد أن تصيب إنسانا، أو حيوانًا.

وبما أنهم واثقون من رصاصاتهم فهم لا يحملون معهم أكثر من ثلاثين (طلقة) ويعدون حمل أكثر من ذلك من الذخائر عبثًا.

وأنهم عندما يحاربون العدو يتركون الكمائن خلفهم كقوة احتياطية وعندما تبدأ الحرب فهؤلاء الذين فى الكمائن يهاجمون العدو من الخلف مولين صائحين ليشتتوا أفكار العدو.

وفى أثناء الحرب يتخذون الشمس والرياح خلفهم حتى يجعلوا عدوهم مقابل الشمس والرياح ويعدون هذا التدبير من أسباب النصر. كما أنهم يبيتون عدوهم ليلاً إذا ما وجدوا فرصة بناء على قاعدة الحملات الليلية. وهذا ما يحرص عليه البدو.

ويحارب الفريقان بإطلاق الرصاص إلى أن يواجهوا بعضهم وجها لوجه إذ يمسكون قبضة سيوفهم فيحارب الفرسان الفرسان والمشاة المشاة فلا يسوق الفرسان خيولهم ضد المشاة المترجلين.

وبين فرسانهم شجعان يستطيع فارس أن يواجه مائة فارس إذ يقتحم صفوف الأعداء ويروى سيفه من دمائهم ويشتت أكثرهم.

وحتى يكسب هذه الشهرة فهو ينشد أناشيد الأبطال السابقين والشجعان فى

ميادين القتال من أسلافه ويذكر أسماء أجداده مفتخرًا متباهيا ثم يخوض ميدان القتال ويقتحم صفوف الأعداء.

وهؤلاء قسمان الصنف الأول منهم العربان الذين فى طريق الحرمين فحروبهم منحصرة على الجبال، وبما أن هؤلاء لا يستطيعون أن يواجهوا الناس لا يحاربون فى معارك الميادين المتسعة بل يحاربون مستترين خلف الحجارة كاللصوص.

والصنف الثانى هو أفراد القبائل التى تسكن فى نجد وجبل شمر وصحارى العراق والشام.

ويركب هؤلاء خيولهم ويكونون صفًا واحدًا متينا أمام أعدائهم ويتحركون وفق أمر واحد منهم وهكذا يشعلون وطيس الحرب وكل من اشتهر بين العربان بالشجاعة ينتمى لهذا الصنف.

لصوصية البدو:

يطلق على الجانب الشرقى للمدينة المنورة «نجد» وعلى الجانب الغربى منها «غور».

ويعمل عربان جهة نجد على ضرب بعضهم بعضًا والإغارة على أموال وحيوانات بعضهم. أما عربان الغور ومصر فهم مكبون على الإغارة على قوافل الحجاج والزوار وأبناء السبيل والقوافل التجارية، ولذلك فإن تعديات الغوريين أخطر وأكثر ضررًا من تعديات عربان نجد.

ويحمل الغوريون فى أيديهم دبوسًا وسكينًا حادًا، كما أن لبعضهم بندقية. ولما كان شغلهم الشاغل اللصوصية والنهب فهم سريعو الجرى حتى إن الفرسان لا يُدركونهم إلا بصعوبة. وإذا ما رأوا خُرْجًا أو صندوقًا أو أى شىء يحمل يستطيعون أن يحملوها حتى الجبل مهما كانت ثقيلة.

وما يضع إنسان تحته من أكياس وصرر وما يضعه تحت رأسه لحفظه من صرر وخرج يستطيعون أن يأخذوا ما فى داخلها من أشياء ثمينة بِخِفَّة كأنهم وضعوها بأيديهم.

ولما كانت السرقة فى نظرهم مباحة، فما يكسبونه من السرقة من النقود والأموال يكادون أن يحسبوها حلالاً.

وفيهم من ينفق أمواله التى اكتسبها من السرقة فى غرس الأشجار وحفر الآبار حتى يشرب منها المسافرون ويأكل من ثمارها المارون.

وإذا وجد أى إنسان أمتعته المسروقة فى يد أحد العربان وأثبت أنه ملكه يستطيع أن يستردها منه. وإذا قال هذا الشخص أن هذه الأمتعة قد اشتراها من شخص آخر وأرى هذا الشخص حلف يمينًا، عندئذ يدفع المال والنقود التى دفعها هذا الرجل من قبل صاحب المتاع.

إذا كان صاحب الأمتعة منهم فيبحث عن السارق حتى يجده ويسترد منه بقية أشيائه المسروقة كما يأخذ منه ما دفعه من النقود ويسترده تمامًا وهذا بعض أحكام قوانينهم.

وإذا ادعى العربى الذى فى يده الأموال المسروقة أنه اشتراها من عربان آخرين وحلف أنه لا يعرف الشخص الذى اشترى منه المتاع فيدفع له صاحب المال ما دفعه الثانى للشخص الذى اشترى منه المتاع ويسترده منه ثم يؤجر عيونًا وجواسيس ويبعثون إلى الأطراف للبحث عن السارق الأصلى فيستردون منه أمتعته الباقية المسروقة وما دفعه للشخص الذى استرد منه بعض بضاعته وما أنفقه من أموال للجواسيس تمامًا.

الأعراف والعادات المتبعة فى تربية الأطفال

والختان والولائم

تربية الأطفال:

يكلف العربان أطفالهم إلى أن يبلغوا السنوات الثلاث من عمرهم برعى الجدى والحملان حول قريتهم وعندما يبلغون السنة الرابعة من عمرهم يرعون الماعز والحملان فى أماكن أبعد من ذلك.

ولما يبلغون الخامسة من عمرهم يعلمونهم الجلوس على ظهر الجمال، ولما يبلغون السادسة يعلمونهم ركوب الجمال بمفردهم.

ويكتسب أطفال البدو مهارة عظيمة فى ركوب الخيول والجمال حتى أنهم يستطيعون أن يركبوا جملاً مهما جرى سريعًا ومهما كان الحصان العربى سريعًا. فركوبه والجرى به يعتبر بالنسبة للطفل العربى من قبيل اللهو وهم يعلمون الأطفال الذين تجاوزوا هذه السن إطلاق الرصاص من البندقية واستخدام (جنبية) الخنجر ويصاحبونهم فى الحروب ويتركونهم تحت الشمس نهارًا وتحت السماء ليلاً عرايا.

والأغنياء منهم يلبسون أطفالهم فى الشتاء قميصًا واحداً ويرافقون الذين يذهبون للحرب.

وخلاصة القول: إن أطفال البدو يتعلمون ركوب الحيوانات والنزول منها كما يعودون على احتمال مشقات السفر. وخاصة على الحرب والقتال قبل بلوغهم سن الرشد، لأجل ذلك ترى فتيان الحرب حينما يستدعون للحرب يذهبون إليها فرحين مسرورين كأنهم يذهبون إلى العرس متسابقين ولا يتأثرون من حرارة الشمس وبرودة الجو وحيثما يكونون يسيرون عرايًا.

وعندما تبلغ الصبية الصغيرة السنة الأولى من عمرها أو الثانية تستر مكان

عورتها بخزام مصنوع من فرو الغنم أو الماعز. وهذا الخزام شراشيب مختلفة فى طول ذراع أو نصف ذراع ويوضع فوق الجسم العارى.

وتظل الصبايا إلى أن يبلغن السنة العاشرة من عمرهن من الأطفال يرعون الغنم والماعز، ويعلموهن فى هذه الفترة حلب النعاج والماعز وصنع اللبن الرائب والجبن وعندما يقتربن من سن البلوغ تنزع من عليهن الأحزمة ويلبسن القمصان ويستخدمن فى نسج قماش الخيم من الصوف.

وعندما يبلغن يجدون لهن زوجًا مناسبًا ويزوجوهن، ولكنهم لا يزوجون بناتهن قبل أن يعرضوهن على أبناء أعمامهن أو أبناء خالاتهن ولو كانوا متزوجين بثلاث زوجات.

وهؤلاء إن أرادوا أن يتزوجوهن ويعقدون عليهن وإن لم يرغبوا فى ذلك لا يسمحون بالزواج لهن إلا بعد ما يأخذوا بعض الأموال من الذين يطلبون الزواج منهن وبذلك يزعجون الفتيات وطالبى أيديهن.

صورة التأهيل وأصول الزواج:

يعد أبناء العم وأبناء الأخوات أكفاء لبنات العربان إذا كان واحد من هؤلاء غير مقيد بالزواج أو متزوجًا غير راض بزواج البنت من طالب يدها فمثل هذه البنت لا تتزوج. وإذا لم تكن للبنات مثل هذه العلاقات أو هؤلاء قد رضوا بزواج هؤلاء البنات عندئذ يبحث الذين يريدون تزويج بناتهم عن أكفاء إذا كان الراغب فى الزواج كفؤًا لابد أن يكون الرجل الذى يتزوجها كريمًا، شجاعًا فى الحرب، مشهورًا من حيث النسب.

ورجال العربان الذين يريدون أن يتزوجوا لا يتحرون عن جمال البنت ومالها وممتلكاتها بل عن قوة القبيلة التى تنتمى إليها وعن سطوتها، وعن كثرة أقاربها وعصبيتها.

والشخص الذى يتصف بالصفات السابقة، يأخذ موافقة أبى البنت وأقاربها ويرسل هدية عدا المهر الذى اتفق على دفعه حسب منزلته.

والمهر بالنسبة لأغنيائهم عبارة عن «بساط كبير وسوارين للمعصم من الذهب وفستانين، وبعض الإبل والأغنام».

وأما بالنسبة للفقراء فالمهر يتكون من «سوارين من فضة وفستانًا من دمور أسود».

ويقدم فى وليمة العرس الأرز المطبوخ وعليه لحم شاة ذُبحت من قبل وأعدت للضيوف وهذا من العادات العربانية الجارية.

وإذا كان أبو البنت من الأغنياء فإنه يعطى البنت ما عدا المهر الذى بعثه زوجها عددًا من الجمال والغنم وجارية وكَلْبًا.

وإذا كان فى القرية أحد من طلبة العلوم أو المشايخ ويرجع إليهما فى عقد الزواج وإذا لم يوجد فيذهب الطالب فى زواج البنت إلى أبى البنت أو أخيها، ويقول: «إننى أريد أن أتزوج بنتك أو أختك». فيرد عليه قائلاً «أعطيتها لك». ويعدون هذه المقابلة دليلاً على صحة عقد الزواج ويبادرون فى إجراءات الزفاف.

ويحدث فى بعض الأماكن أن يمسك أبو البنت أو أخوها عصًا ويمسك بأحد طرفيها طالب البنت والطرف الآخر أبو البنت أو أخوها ثم يخاطب الشخص الذى يمسك أحد طرفى العصا قائلاً: «أعطيت فلانة لك» للشخص الذى يمسك الطرف الآخر وبعد ذلك يكسر العصا من وسطها ويلقيها على الأرض.

وإجراء هذه العملية يُعد بين العربان تزويج تلك البنت لذلك الرجل وعلامة على صحة العقد.

والعربان يشترون جارية سواء أكانت بيضاء أو سوداء ويستخدمونها فى منازلهم. وبما أن الجارية مجهول نسبها فهم لا يميلون لاستفراشها.

واستفراش الجارية يعد عند العربان من الأمور المذمومة. وإذا حدث أن أنجب واحد منهم من تلك الجارية ولدًا ينظر إليه بين العربان بحقارة وذلة على أنه «ابن جارية» حتى ولو كان أحد أبناء الأعيان، وعندما يكبر ويريد أن يتزوج فلا يرضى

أحد أن يزوجه بنته ولو كان وضيع القدر قائلين فأخوها خاله لذا فهو وضيع النسب.

والأشراف الذين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وحواليهما يحبون التسرى كلهم وكذلك بعض مشايخ العربان. إلا أن الأولاد الذين يولدون من جواريهم يظلون مثل العبيد بجانب أولادهم الذين ينجبونهم من زوجاتهم العربيات والناس ينظرون إليهم كذلك بنفس النظرة.

حفل الختان:

يختن العربان أولادهم الذكور فى صورة مسنونة[1] فى اليوم السابع من ولادتهم، وبعضهم فى يوم الأربعين وبعضهم فيما بعد.

وقد تعود عربان بنى هذيل الذين يسكنون بجانب مكة المكرمة ألا يختنوا أبناءهم إلا عند الزواج فعندما يقررون عقد زواجهم عندئذ يختنونهم. وعندما يقرر ختان ذلك الفتى فمن عادة القرى المجاورة وكل واحد من المدعوين أنهم يهدون لصاحب الحفل كل على حسب قدرته خروفًا واحدًا أو أكثر أو جملاً أو شاة أو ثورًا.

كما أن من عادتهم أن يسوق كل فرد ما يريد أن يهديه من الحيوانات أمامه وأن يذهب إلى القرية التى سيحتفل فيها قبل الختان بيوم أو يومين.

ولما كان الذهاب إلى محل الحفل منفردًا خلاف الأصول، فيتجمع المدعوون فى جماعات تتكون من خمسين شخصًا، أو ستين ويذهبون معًا، لذا كلما يحتفل بحفل ختان يتجمع سكان عدة قرى معًا ويخرجون إلى الطريق وهم يطلقون بنادقهم ومسدساتهم وعندما يقتربون من القرية التى فيها العرس يشرعون فى إلقاء القصائد الشعرية التى تمدح صاحب الحفل وتتغنى بأوصافه عن فهم واحد ويأخذ بعضهم يرقص أمام المدعوين ممسكًا بالبندقية وسنان الرماح والحراب.

وحينما يعرف صاحب الحفل أن المدعوين قد وصلوا إلى خارج القرية يستقبل

(١) يعنى أن الختان سنة من سنن الفطرة فى البيئة العربية.

أهالى القرية الضيوف مطلقين البنادق والمسدسات ويلقون أمامهم القصائد والأبيات ويمدحونهم ويوصلونهم إلى أماكنهم الخاصة بهم.

ولما يصل المدعوون إلى أماكنهم الخاصة بهم التى أعدت من قبل يعطى صاحب البيت لكل عشرة منهم خروفًا ومقدارًا كافيًا من الأرز وقدرًا كبيرةً ويرجوهم أن يتصرفوا كما يحلو لهم حيث يوجدون.

والأماكن التى يقيم فيها المدعوون ليست فى المنازل والبيوت وإنما فى واد خارج القرية أو على سفح الجبل.

ويذبح المدعوون فى هذا المكان ما أهدى لهم من الخرفان ويسلقونها فيقطعونها ويأكلونها ثم يضعون فى حسائها الأرز ويتناولونه.

ثم يجتمع كل أهالى الخيم والقرى فى المكان المعين لهم حيث يوقدون نارًا عظيمة وينقسمون إلى قسمين حول النار قائمين وواقفين ويلقون المدائح ويظهرون مهاراتهم الكلامية وهكذا يقضون أوقاتهم فى الفرح والسرور.

ويجتمع المدعوون فى اليوم الثانى فى المكان الذى سيختتن فيه الغلام سائرين من أماكن نزولهم وهم يرقصون الرقصة التى يطلقون عليها «آردا»[1] جاعلين الغلام الذى سيختتن أمامهم مع بعض أقاربه وتاركين النساء خلفهم فى موكب حافل حتى يصلوا إلى مكان الاحتفال بالختان، وبعد ذلك ينسحب اثنان من أقارب الغلام الذى ستجرى له عملية الختان وأقارب البنت.

ويفصل الغلام الذى سيختتن عن الجماعة وفى يديه خنجر جنبية ويقف أمام الشخص الذى سيجرى العملية قائمًا ويأخذ فى الفخر ملقيًا بعض الأشعار الحماسية وقائلاً «أنا ابن فلان بن فلان» ويأخذ فى تعداد آبائه وأجداده ويخرج من يقوم بإجراء الختان سكينا فى غاية الشحذ ويبدأ فى سلخ جلد الغلام ابتداء من منبت الشعر إلى مقعده ويخرج الجلد كاملاً فى ظرف دقيقتين مع جلد ذكره.

وبناء على ذلك فمهما شعر المختتن بالآلام والأوجاع فيجب عليه أن يصبر وأن

(١) نوع من الرقص الذى يؤدى بالبنادق وهو من رقصات الحرب.

يتحمل ويظهر ثباتًا وهو يلقى كلمات فخر وأشعار نظمت لأجل هذا الغرض دون أن يتوقف أو يتألم حتى انتهاء العملية.

والذى يتحملون آلام الختان بكل صبر وجلد دون أن يبالى بآلامه الرهيبة يقابل من جانب عشيرته بكل ثناء وتمجيد كما يستحسن من قبل الخطيبة وبمجرد أن يلتئم جرحه يتزوجان.

ولا تلتئم مثل هذه الجروح إلا بعد أربعة أشهر وبما أنه لا ينجو من هذه العملية أربعون فى المائة من المختتنين، إلا أن أفراد القبيلة المذكورة يعدون هذا النوع من الختان علامة الشجاعة والرجولة فإنهم لا يتخلون عن هذه العادة وإن تأكدوا أن المختتن سيموت.

وإن كان أفراد قبيلة هذيل محبين لهذا النوع من عملية الختان ومصرين على إجرائها متحدين قبليا إلا أن الأطفال لا يختنون قبل بلوغ خمس عشرة سنة أو عشرين. ويجرون عملية الختان هذه فى أيام العيد.

ويعد عربان تلك القبيلة إجراء العملية التى تخالف الشرع والإنسانية من المحسنات الدينية وفق مذهبهم.

وإذا وجد بينهم من لا يرضى بهذا النوع من الختان وفضل الختان وفقًا لأحكام الشريعة الغراء فلا يعد ابنه بين النساء رجلاً ولا ترضى أية فتاة بالزواج بمن اختتن على هذه الصورة.

وبعد أن يختتن الفتى على هذه الصورة وينجو بنفسه من يد المختن يتقدم عدة خطوات إلى الأمام ويأخذ فى الفخر قائلاً: «أنا فلان بن فلان» ويدعى الشجاعة ويجرى ما يقرب من مائة خطوة ليثبت شجاعته عمليًا، ثم يجعل المحتفلون الفتى أمامهم ويلفون به أطراف القرية الأربعة بينما الرجال يطلقون البنادق. والنساء تضربن على الدف وتنشدن المواويل ثم يؤتى به فى بيته حيث يرقد ثم يأكلون ما أعده صاحب البيت من طعام الحمير ويعودون إلى منازلهم.

وطعام الحمير هذا الدقيق المطبوخ وعليه زيت الزيتون. وبينما يرقد الفتى على السرير أو الفرش ينثر أقاربه على رأسه حفنة من الزبيب وبهذا يعلنون نهاية الحفل.

وبما أن الآلة التى يسلخ جلدها ستظل معوجه لذا يفردونها على خشبة ويشدونها شداً جيداً.

النخيـل:

تتحمل أشجار النخيل العطش وشدة حرارة الجو ويستفاد من أغصانها وفروعها وليفها غير بلحها وتعمر مائة سنة. وإنها الشجرة المباركة وهى لا تحتاج إلى الزراعة والحراسة والماء، كما أنها تتعرض فى الأراضى الحجازية لكثير من الآفات لذا يعنى بها العرب ويتحملون متاعبها، لأنها سبب من أسباب الثروة ويتعيش أصحابها بجزء من محاصيلها ويبيعون الباقى.

وبما أن هذه الأشجار المباركة لا تنمو فى كل أماكن الحجاز لذلك يحرص غارسوها أن يغرسوها على أطراف ممرات السيول وحيث يكون الماء قريبًا من سطح الأرض والأماكن الرطبة، وعندما يغرسونها يظلون يسقونها أربعين يومًا حتى تتمكن جذورها فى الأرض ثم يتركونها لحالها معتمدين على الأمطار.

والأشجار المغروسة منها فى أراض وفيرة المياه تثمر فى نهاية السنة الثالثة والرابعة والتى تغرس فى الأماكن الجافة تثمر بعد خمس أو ست سنوات.

ويقال للبلح أول ما يظهر «زهو» وعندما يحمر ويبدأ فى النضج يطلق عليه «رطب» كما سبق ذكره فى مجلد مرآة الحرمين.

والبلح فاكهة مغذية مقوية. فالبدو وأهل المدينة يفضلون أكل البلح الطازج منه ويبيعون الرطب.

ويحفظون البلح الخاص بالمدينة والذى يسمى «جلبى» وأنواعًا أخرى ويتاجرون ببيعها للزوار والحجاج.

وأما البدو فإنهم يجففون مثل هذا البلح ويأكلونه بدل الخبز إلى أن ينمو البلح الجديد. لأن البدوى عندما يجد التمر لا يفكر فى القمح أو غيره.

الخيـل:

يطلق فى بلاد العرب على ذكر الحصان «خيل» وعلى أنثاه فرس.

إنهم يربون الخيل ليأخذوا ذريته فقط، لذا لا يحتفظون بذكور المهر بل يبيعونها للبلاد المجاورة لهم. ولكنهم يحتفظون بأنثى المهور ليركبوها فى الحروب ويحرصون على الاحتفاظ بها، ولا يهتمون بفرس غير ثابت الأصل والجنس.

ويحدد صاحب الفرس الجنس الذى ينتمى إليه. ويكتب أجناس بعض الأفراس فى سجلات النسب وكلما تلد الفرس يضاف المهر لنسب أبيه وأمه.

ولا يستطيع أن يمتلك مثل هذه الأفراس الأصيلة أحد من فقراء الناس إذ يشترك عدة أشخاص فى ملكيتها. ويبيعون مثل هذه الأفراس فيما بينهم بستين أو سبعين ألف قرش.

وإذا ما باع أحدهم فرسًا يشترط أن يكون مهرها الأول الأنثى أو الثالث ملكا له. أو نسلها بعد المرة الثالثة يكون ملك المشترى.

وإذا كانت الفرس حاملاً فنتاجها سواء أكان ذكرًا أم أنثى ملك البائع، ويعطى له.

والذين يشترون الفرس الحامل مهما ولدت لا يكتمون ذلك ويصدقون القول فإذا ما ولدت أنثى وادعى الشارى كذبًا أنها ولدت ذكرًا «يعنى لو يكتم الحقيقة» فلا يعيش ذلك المهر المولود ويهلك، ولما كانت هذه المسألة من الأمور المجربة لدى العربان فلا يكتمون الحقيقة.

الوسم:

أكثر ما يملكه البدوى من الدواب الجمال. وبما أن هذه الدابة شديدة الشبه ببعضها فمن الصعب جدًا التعرف على ما سرق منها أو ضاع، لذا اتخذت كل قبيلة وسمًا خاصا بها.

وتطبع هذه الأوسمة على أذن الجمل الأيمن وفى وسط الجهة اليمنى من رقبته، وخلف أذنه وفى وسط الجهة اليسرى من رقبته، وعلى خدوده وجباهه وفوق أنفه. وعلى رجليه الخلفيتين اليمنى واليسرى وفى وسط عظمة فخذه وعلى ركبته. أى أنهم يكوون بالحديدة التى تحمل شكل الوسم المذكور والملتهب فى النار، والوسم هى تلك العلامة التى يعرفها الناس جميعًا.

وإذا بيع جمل أحد القبائل لقبيلة أخرى فالشارى يسم الجمل بالوسم الخاص بقبيلته، وعلى الجمل المباع من الأوسمة عدد القبائل التى اشترته، والجمل المسروق أو الضائع يعرف بوسمه الأخير وأينما وجده صاحبه يتعرف عليه من وسمه ويسترده، لذا ترده القبائل التى تعرف ذلك الجمل الذى أتى إلى محل قبيلتهم واختلط بجمالها.

علامات الأوسمة التى ذكرت من قبل تتنوع كالأشكال التى رسمت فى الشكل التالى(*) وكل واحد من هذه الأوسمة خاص بقبيلة معينة.

وقد تتفق عدة قبائل فى بعض الأوسمة إلا أنها تتميز وتفرق باختلاف الأماكن والمواقع.

ويدقق أفراد قبيلة نهابة قبل سرقة الجمال فى أوسمتها فإذا وجدوا أن تلك الجمال تخص قبيلة معروفة لا يمسونها، وإذا ما نهبوا الحيوانات ليلاً وكان بينها مثل هذه الجمال يتريثون حتى يأتى أصحابها فيسلمونها لهم.

ولا توجد علامات خاصة للأغنام والماعز، ولما كانت حيوانات كل جهة لا تشبه حيوانات جهة أخرى فإن كل واحد من أصحاب تلك الحيوانات يستطيع أن يميز حيواناته ويخرجها من بين قطيع من عدة مئات وكأنه قد وضعها بنفسه.

نماذج من أشكال وسم الحيوان عند القبائل العربية

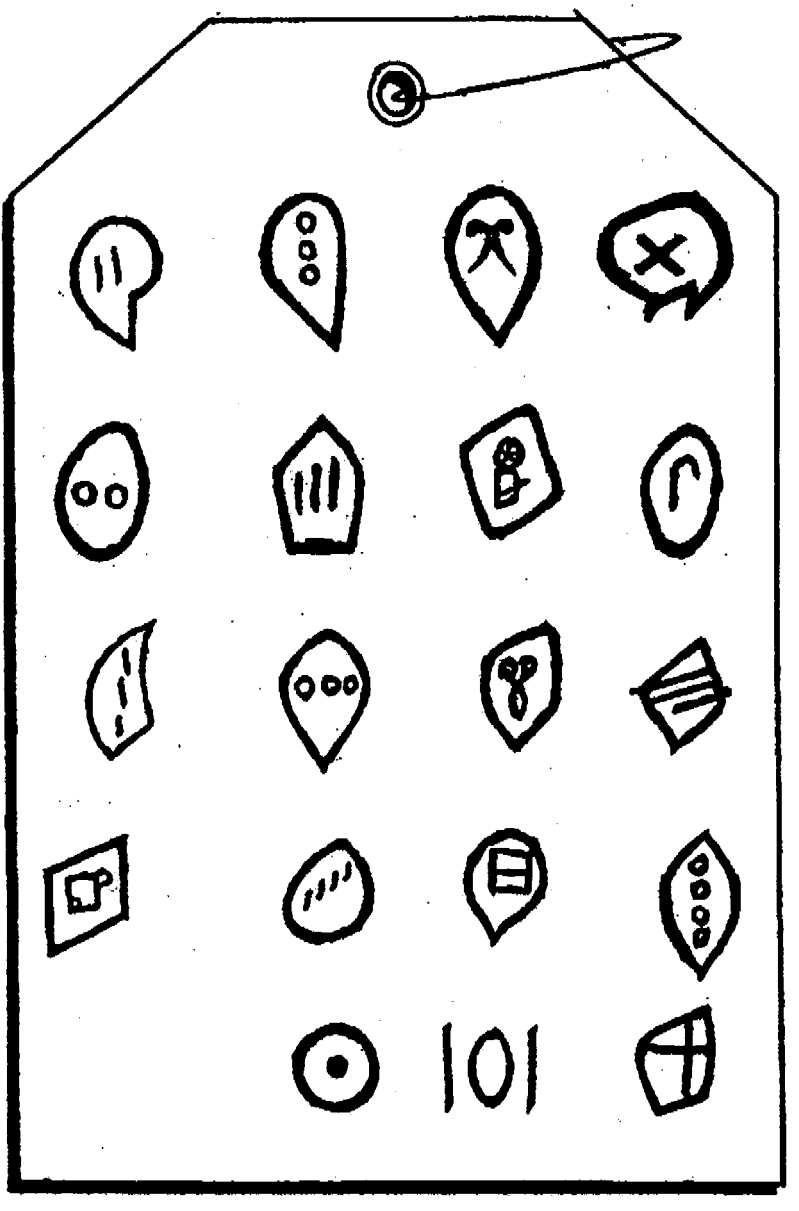

مع ملاحظة أنه إذا اشتركت بعض القبائل فى نفس العلامة فإن
موضع هذه العلامة من جسم الحيوان هو الذى يفرق بين القبائل

حماية الأراضى المنبتة:

إذا أحاط شخص ما بقطعة من الأرض تنبت فيها أعشاب بعد المطر بسور أو ببعض العلامات فى داخل أرض خاصة بقبيلة أخرى فلا يسوغ القانون للآخرين التدخل فى هذا الموضوع.

وإذا لم يراع أحد منهم هذا النظام ـ عمدًا أو جهلاً ـ فالشخص الذى أحاط المكان بالسور أو العلامات له أن يؤاخذ ذلك الرجل وفق أحكام القانون، وله الحق أن يصادر وأن يستولى على الحيوانات التى تركت فى داخلها لترعى.

وإذا دخل فى هذا المكان خيل أو حيوانات أخرى بدون علم أصحابها فيمسك صاحب هذه الأراضى هذه الحيوانات ويحتفظ بها وعندما يأتى صاحبها يسلمها له بعد ما يأخذ منه ما يستطيع عليه باسم «طراصه».

وإذا دخل إنسان من قبيلة أخرى فى مثل هذا المكان لرعى حيواناته عدة ساعات فلا يقال شىء لمثل هؤلاء الأشخاص من قبل صاحب المكان.

ولما كانت فى مواسم الصيف كل الأماكن معشوبة فالحيوانات ترعى خارج حدود مثل هذه الأماكن ولكن عندما تقل الأمطار فى أيام الصيف وتجوع الحيوانات فأصحاب الأماكن المسورة يدخلون حيواناتهم فى داخلها حيث ترعى وهكذا يدبرون أمور مواشيهم بهذه الطريقة.

حتى الناس الذين لا يملكون الحيوانات ولهم أراضى مسورة يحافظون على ما فى داخلها من أعشاب إلى أن تجف ثم يحصدونها ويقطعونها ويجعلونها أحزمة ثم يبيعونها لأهالى البلاد المجاورة. وطريقة معيشة مثل هؤلاء العربان الذين لا يملكون المواشى تتم عن طريق التجارة بمثل هذه الأشياء.

خاتمة

إفادة مخصوصة:

تم بحمد الله تأليف مجلد مكة المكرمة من أثرى «مرآة الحرمين» الذى شغلت بتأليفه منذ سنة ١٢٨٩ هـ وعرض للبيع فى السوق كما طبع عقب ذلك مجلد «مرآة المدينة» التى تحتوى على مفاخر مهجر رسول رب العالمين ونشر.

ووفقت كذلك فى عهد السلطان الذى سهل كل شىء فى إنهاء المجلد الثالث من التاريخ المذكور تحت عنوان «مرآة جزيرة العرب»، وطبعته وعرضته على أنظار الباحثين عن الحقائق وأهديته لهم والمنة لله.

وإننى لا أتردد فى ادعاء أن مرآة الحرمين من حيث إحاطته بواقع تواريخ الأقطار الحجازية أنه أكمل التواريخ وأكثرها تفصيلاً. وإن كان بعض المؤرخين من الأسلاف قد كتبوا عدة أجزاء من التواريخ عن أحوال الأقطار الحجازية إلا أن بعض هذه الكتب خاص «بمكة المكرمة» والآخر بالمدينة المنورة كما أنهم فضلوا فى طريقة التعبير وتحرير الوقائع الإيجاز والاختصار لذا لا تجمع هذه الكتب ما تجمعه «مرآه الحرمين» بين صفحاتها من الأسرار والحكم والأخبار الإسلامية والجاهلية.

والتوفيق فى تأليف مرآة الحرمين وطبعها يعود بدون شك لما اتسم به عهد سلطاننا خليفة رسول الله من آيات التوفيق والهداية. وهذا لطف لا ينكر للعبد العاجز.

وهذا مظهر من مظاهر لطف الله الذى سأتباهى وأفتخر به إلى يوم القيامة وقد أنهيت مرآة الحرمين بهذا المقال العربى.

التحدث بالنعمة:

قد أحسن واهب النعم ـ سبحانه وتعالى ـ بإتمام كتابى المنقسم إلى ثلاثة مجلدات والمسمى «مرآة الحرمين» وقرت به من أهل الإخلاص والصفا كل عين، وقد وفق الله فجاء أكمل من أكثر التواريخ التى صنفت بشأن البلدتين المباركتين على أنه نظم ما فى البلدتين من المآثر وذكر ما لها من المفاخر. وجمع ما يحتاج إليه القارئ من أخبار تلك الديار الزكية فى الإسلام والجاهلية، وأتى بفضل الله بغوامض وأسرار تاريخية جليلة حافلة بغرر الفوائد الجميلة ولم يجتمع كل ذلك فى كُتُبٍ أخر وما ذلك إلا بعناية روح سيد البشر وصاحب التاج والمغفور له عليه صلوات الله وأكمل تسليمات الله وبنفحة آله الطاهرين وأصحابه المرضيين وقد ساعد على جمعه وترتيبه وطبعه والانتهاء من تأليفه فى زمن سيدنا ومولانا الخليفة المعظم ظل الله فى العالم، حضرة أمير المؤمنين وناصر كلمة الحق والدين الملك المنصور المعان إمامنا الغازى السلطان عبد الحميد خان نصره الرحمن.

وإنه أيد الله شوكته وصان دولته، نشط الهمم بالتفاته للعلوم وأصحابها والمعارف وأربابها، وتباهت أيامه على الأيام السالفة بوجوده الكريم، وافتخرت على الأعصار الخالية بتموج بحر إحسانه العميم، فعلى هذه التوفيقات الصمدانية، منا فى كل آن، الشكر لله وعلى هذه النعم الجمة الربانية، فى كل طرفة عين الحمد لله.

اللهم إنى أسألك بحرمة القرآن القديم، والذكر الحكيم وبحبك لنبيك الكريم، أن تجعلنا من خاصة أهل التوحيد، واكتبنا فى ديوان عبيدك الذين أطلقتهم من وهدة التقييد، وأثبتنا فى دفاتر الصديقين، واحشرنا مع عبادك الصالحين، تحت لواء نبيك سيد المخلوقين وإمام المرسلين «عليه أفضل الصلوات وأشرف التسليمات» وألزمنا بسلك الفقراء والأولياء الأبطال، ووفقنا للتخلق بأخلاقهم الشريفة فى جميع الأفعال والأقوال، واختم لنا بالصالحات وأمتنا عند ختام الأجل على الإيمان الكامل يا مجيب الدعوات، وصل وسلم على نبيك وسيد رسلك وحبيبك سيدنا ونبينا وشفيعنا محمد ﷺ وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين والحمد لله رب العالمين.

يقول العبد الفقير مؤلفه كان الله له ولوالديه وللمسلمين.

تم تأليف وطبع هذا التاريخ الخصوصى المسمى «مرآة الحرمين» بفضل الله وعونه فى أوائل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثمائة وألف من هجرة النبى الأعظم صاحب العز والشرف.

التقريظ الذى كتبه الشيخ محمد ظافر يجامل به العبد العاجز جامع هذه الحروف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من العدم، وشمله بأنواع اللطف والنعم، والفضل والكرم، علمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، وبعد فقد أطلعت على الكتاب الذى جمع معاهد أرض الحجاز، والتزم فيه مؤلفه «رضى الله عنه» الحقيقة لا المجاز، ووسمه بمرآة الحرمين الشريفين ولا غرو فإنه اسم على مسمى من غير شك ولا تردد وكيف لا وجامعه الهمام الأوحد والأديب الفاضل المفرد، ذو السعادة أيوب صبرى باشا حفظه الله تعالى وبلغه من كل خير ما شاء ووفقه لجميع الخيرات بجاه سيد السادات ﷺ آمين.

كتبه خادم الفقراء محمد «ظافر المدنى» كان الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

مرآة الجزيرة العربية ٧

الوجهة الأولى

فى ذكر أنساب العرب وأحوال قبائلها وملوكها قبل الإسلام ٩

الصورة الأولى: فى ذكر أنساب الأمم السابقة من العرب وأحوالها ١١

- أقوام العرب ١١
* العرب البائدة ١١
- عاد الأولى بين إرم بن سام بن نوح ١١
- ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح ١١
- العمالقة ١٢
- طسم ١٢
- جديس ١٢
- أميم ١٢
- بنوجرهم الأول ١٢
- حضرموت ١٣
* العرب العاربة ١٣
* العرب المستعربة ١٤
* العرب المستعجمة ١٦

الصورة الثانية: فى التعريف بأحوال القبائل العربية فى الجاهلية والإسلام ... ١٨

- أهل المدر ١٩
- أهل الوبر ١٩

الصورة الثالثة: فى ذكر ملوك الجزيرة قبل الإسلام ٢٤

- ملوك عاد الأولى ٢٤
- قوم ثمود ٢٥

- ملوك اليمن ٢٦
- سد مأرب - العرم - سبل العرم ٢٨
- ملوك الغساسنة ٣٣
- المناذرة ٣٤
- بنوجرهم ٣٤

الوجهة الثانية

فى ذكر الخلفاء والملوك المسلمين الذين

ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام ٣٧

الصورة الأولى: فى أحوال رسول الله ﷺ وذكر الملوك المسلمين الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام ٣٩
- ذكر نبينا ﷺ ٣٩
- الخلفاء الراشدون ٣٩
- الملوك الأموية ٤٠
- العباسيون ٤٣
- الفاطميون ٤٣
- الدولة الأيوبية ٤٤
- العباسيون فى مصر والملوك التركمانية ٤٥
- الملوك التركمانية ٤٦
- الملوك الشراكسة ٤٦
- السادة الكرام ٤٦
- كيفية تأسيس ولاية مكة وصورة تشكيلها ٤٧
- جدول بأسماء الذين تولوا ولاية مكة المكرمة ٤٨
- تبعية المدينة المنورة لمكة المكرمة ٥١
- جدول بأسماء من تولى منصب الولاية بالمدينة المنورة فى العهود الإسلامية المختلفة ٥١

ـ أمراء الحرمين ٥٩
* أمراء مكة ٥٩
١- طبقة سادات بنى حسن ٥٩
٢- الطبقة الثانية من الأشراف الحسنية ٦١
٣- الطبقة الثالثة ٦٥
٤- الطبقة الرابعة ٦٧
الشريف حسن بن عجلان ٧٤
الشريف بركات بن حسن بن عجلان ٧٥
الشريف أبو نمى ٧٧
رؤيا حاجب السلطان سليم النبى ﷺ ٧٨
خلاصة واقعة جلالى ٨١
جدول بأسماء السادة الأشراف الذين سعدوا بتولى
إمارة مكة المكرمة ٨٤
الطبقة الأولى منهم ٨٤
الطبقة الثانية ٨٥
الطبقة الثالثة ٨٦
الطبقة الرابعة ٨٦
* أمراء المدينة ٩٢
جدول يشتمل على أسماء السادة الكرام الذين سعدوا
بتولى إمارة المدينة المنورة ٩٦
الصورة الثانية: فى ذكر الخارجين فى البلاد اليمنية ٩٨
جبلة بن الأيهم من ملوك الفساسنة ١٠٠
بنو طاهر ١٠٠
الأشراف الحسينية ١٠٢
الصوورة الثالثة: فى بيان ظهور طائفة القرامطة ١٠٤

الاختلافات التى حدثت فى الأذان ١٠٧
التسبيح على المآذن ١١٥

الوجهة الثالثة

الأحوال الجغرافية لجزيرة العرب ١١٩
الصورة الأولى: الموقع الجغرافى ١٢١
الصورة الثانية: فى ذكر البحار التى تحيط بالجزيرة العربية ١٢٣
البحر الأحمر ١٢٣
بحر عمان ١٢٤
خليج البصرة ١٢٤
بلاد الحجاز ١٢٥
جبل سيناء ١٢٥
جبل حوراء ١٢٥
الصورة الثالثة: فى بيان الطبيعة الجغرافية لبلدتى جدة والطائف ١٢٧
جدة ١٢٧
الطائف وآثارها ١٣٩
الصورة الرابعة: فى تعريف ينبع ورابغ وخيبر وحناكية ١٤٦
بعض أحوال الأراضى الحجازية ومحاصيلها الداخلية
وطريقة معيشة سكانها وصورة إدارتهم ١٥٠

الوجهة الرابعة

فى ذكر الطرق الرئيسية بالجزيرة العربية ١٥٣
الصورة الأولى: الطريق السلطانى ١٥٥
الصورة الثانية: طريق الفرع ١٥٩
الصورة الثالثة: طريق المدينة الذى يسمى «غاير» ١٦١
الصورة الرابعة: الطريق الشرقى بين المدينة ومكة ١٦٣
الصورة الخامسة: طريق ينبع البحر ١٦٥

الصورة السادسة: الطرق الأخرى التى تؤدى إلى مكة المعظمة ١٦٦
ـ أسماء الذين تولوا إمارة الحج منذ فتح مكة إلى سنة ٣٣٥ الهجرية ١٨٥

الوجهة الخامسة:

فى بيان القبائل العربية الساكنة فى الأقصار الحجازية ١٩٩

الصورة الأولى: فى بيان القبائل العربية الساكنة فى الأقطار الحجازية ٢٠١
ـ بنو هاشم (الأشراف والسادة) ٢٠١
ـ قبيلة عنزة ٢٠٣

الصورة الثانية: قبيلتى حويطات وجهينة ٢٠٦

الصورة الثالثة: عربان قبائل نخاولة وبنى حرب ٢١٠

الصورة الرابعة: قبائل مطير وبنى سليم وبنى عتيبة وقريش وهذيل وثقيف وبنى عدوان ٢١٣

الصورة الخامسة: القبائل العربية التى تسكن بين مكة وجدة وقنفذة وفى ساحل البحر الأحمر (وتهامة الحجاز) ٢١٧
بنو لحيان، وبنو جحادلة ٢١٧

الصورة السادسة: فى تعريف اليمن وملحقاته والقبائل المستقرة فيه ٢١٨
ليت ٢١٩
قنفذة ٢٢٠
اللحية ٢٢١
أبو عريش ٢٢١
الحديدة ٢٢١
المخا ٢٢٢
عدن ٢٢٢
وادى كننونه ٢٢٢
نفس اليمن وصنعاء ٢٢٤

زراعاتها وخيراتها ٢٢٥
عربان عسير ٢٢٧
قحطان ٢٢٧
بنى مطر ٢٢٨
بلاد حضرموت ومكلا وشحر وتريم ٢٢٩
الوديان (وادى حجر ـ دوغن ـ ليسر ـ العين ـ عمد ـ
رخية ـ دهر ـ ابن راشد) ٢٣١
قبائل يافع وعواليق ٢٣٣
آل حموم وبنى بنى الله هود ومناهل ومهرا ٢٣٤
ظفار ٢٣٥
بلاد عمان ٢٣٦
مسقط ٢٣٩
عمان ٢٣٩
زنجبار ٢٤٠
سقطرة ٢٤٠
الحسا ٢٤٠
القبائل العربية فى إقليم الحسا ٢٤٣
(المرة ـ بنوهاجر ـ بنو خالد ـ آل عريعر ٢٤٤
منطقة نجد ٢٤٦
شعرا ٢٤٧
تمن ٢٤٧
القبائل العربية التى تسكن نجد (عنزة ـ الذويبى ـ
عجمان ـ قحطان ـ الدواسر) ٢٤٨
بيان القبائل الخاضعة لإدارة شيخ جبل شمر ٢٤٩
مقال فضل باشا فى وصف جزيرة العرب ٢٥٠

عادات العرب وأيامهم ومذاهبهم القديمة ٢٥٣
أولاً: العادات القديمة ٢٥٣
ـ واد البنات ٢٥٥
ـ الوسم ٢٥٥
ـ التعميه والتفقية ٢٥٥
ـ مداواة العسر ٢٥٥
ـ ضرب الثور على النفر ٢٥٥
ـ بكاء المقتولين ٢٥٦
ـ رمى السن ٢٥٦
ـ خضاب النحر ٢٥٦
ـ نصب الراية ٢٥٦
ـ جزّ النواصى ٢٥٦
ـ الالتفات ٢٥٦
ـ النهق ٢٥٦
ـ السلوان ٢٥٧
المذهب القديم والعدول عن دين إبراهيم عليه السلام
إلى المذاهب الباطلة ٢٥٧
صلاة الجنازة فى الجاهلية ٢٥٩
النظم والقوانين الجديدة عند العرب ٢٦١
الخمسة، والسمية ٢٦١
صيغة اليمين ٢٦٤
المجيودة ٢٦٤
عاني ٢٦٥
المنن ٢٦٦
توضيح المجبودة ٢٦٦

صورة تأدية الدية ٢٦٩
وجوه (ومعناها) ٢٦٩
القواعد المرعية بين العرب لأجل الوجوه ٢٦٩
رفقة الطريق وما يتعلق بها ٢٧٢
التبييضية ٢٧٢
رفيق الجنب ٢٧٣
طنيب الطنب ٢٧٤
المعاونة للدخيل (إغاثة الملهوف) ٢٧٥
حفظ الأمانات ٢٧٧
الملحس ٢٧٨
الجُرّة (قص الأثر) ٢٨٠
تتبع أخبار الأحداث ٢٨٣
سياسة الأمراء ٢٨٤
* قضاة وفقهاء الحكومة العربانية ٢٨٨
الطب العربى ٢٩١
داء الداهنة ٢٩٤
الكرم العربى ٢٩٧
معجزة ٣٠٠
تحمل البدو للجوع والعطش ٣٠١
* غزوات العرب وأيامهم وما يتعلق بذلك من عاداتهم وتقاليدهم ٣٠٣
الغزوة ٣٠٣
مناخ ٣٠٦
الجرود ٣٠٦
يوم أبيض ٣٠٨

التدابير والحيل الحربية ٣٠٩
لصوصية البدو ٣١٠
* الأعراف والعادات المتبعة فى تربية الأطفال والختان
والولائم ٣١٢
تربية الأطفال ٣١٢
صورة التأهيل وأصول الزواج ٣١٣
حفل الختان ٣١٥
النخيل ٣١٨
الخيل ٣١٨
الوسم ٣١٩
حماية الأراضى المنبتة ٣٢٢
خاتمة ٣٢٣
لتحدث بالنعمة ٣٢٤
تقريظ ٣٢٥
المحتويات ٣٢٧